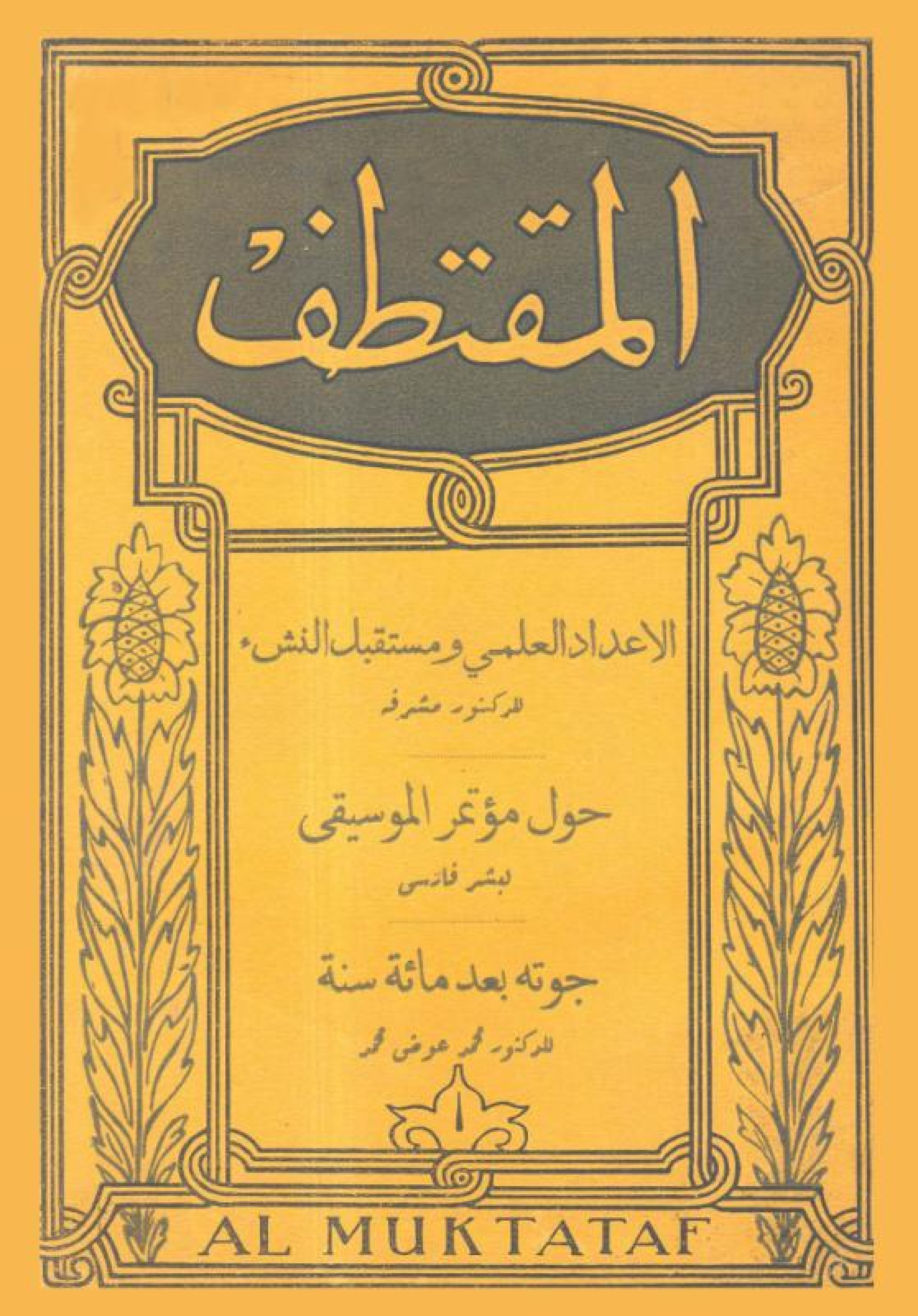
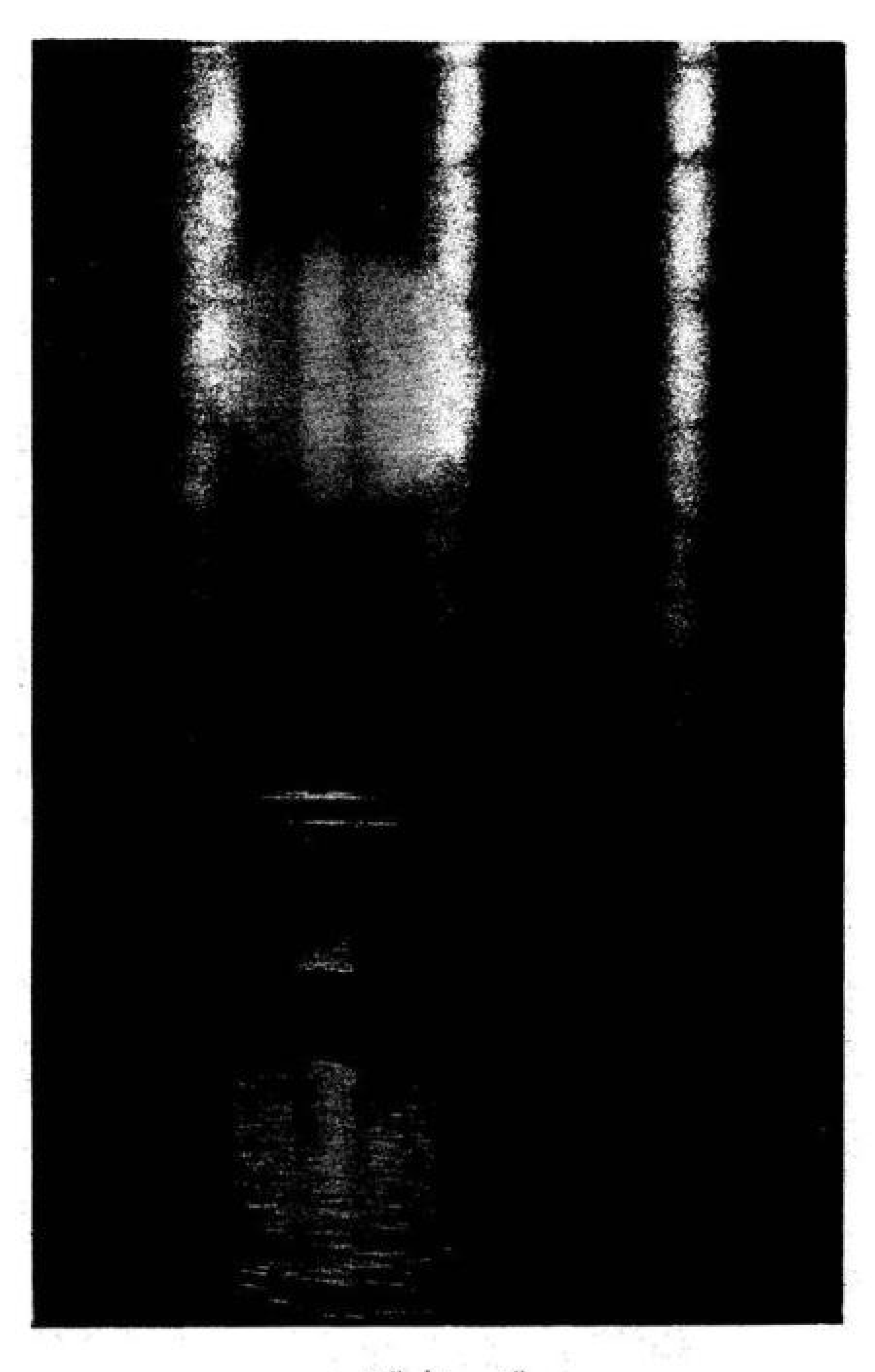

المقتطف
الاعداد العلمي ومستقبل النشء
للدكتور مشرفه
حول مؤتمر الموسيقى
لبشر فارس
جوته بعد مائة سنة
للدكتور محمد عوض محمد
AL MUKTATAF



الغروب على النيل

[تصوير الدكتور احمد موسى]



المقتطف

الجزء الاول من المجلد التسعين

١ يناير سنة ١٩٣٧ — ١٨ شوال سنة ١٣٥٥

العلم في خدمة الانسان

الغدد والحياة

مشاهد رائعة من المباحث الحديثة في علم المفرزات الداخلية

— ١ —

في سنة ١٤٧٤ باض ديك في مدينة بال فاستولى الهلع على قلب صاحبه فانبأ الحكام فحوكم الديك متهماً بالسحر فحكم عليه بالاعدام حرقاً . وفي سنة ١٩٢٣ أي بعد انقضاء اربعة قرون ونصف قرن على حادثة الديك ، اعلن العلامة كرو Crew احد اساتذة جامعة ادنبره ان دجاجة بيوضاً تحولت ديكاً يفرز نطفاً منوية . ولكن قوله هذا لم يحدث حدثاً ما ، لان اللثام كان قد اميط خلال نصف القرن الاخير عن طائفة من اسرار الشق Sex في الطيور والمواشي بل وفي الانسان كذلك ، بتقدم علم المفرزات الداخلية (اندوكرينولوجي : endocrinology)

وفي الولايات المتحدة الاميركية رجل ناهز الثمانين الآن ، يدعى آيبل John Jacob Abel عاش خلال هذا الانقلاب بل وكان احد زعمائه ، لانه اول من حضر خلاصة نقية لاحد هذه المفرزات

ولد آيبل في قرية على مقربة من مدينة كليفلند من والدين هاجرا الى الولايات المتحدة الاميركية من فرتمبرج بالمانيا . لم يكن بين اسلافه من ناحية ابيه او من ناحية امه من اشتهر بالعلم ، فنشأ فتى عادياً وتلقى العلوم كسائر الفتيان الاميركيين ، فلما كان مدركاً غادر الكلية

التي كان يتلقى العلم فيها ليرأس مدرسة انشئت في لابورت بولاية انديانا حيث درّس اللغة اللاتينية وعلمي الطبيعة والكيمياء . ولكنهُ لم يلبث طويلاً هناك ، فانتظم بعد ثلاث سنوات في جامعة مشيغن وتخرج منها وهو في السادسة والعشرين من العمر . وكان في خلال ذلك قد عني بتطبيق الطب على القانون الجنائي فعزم على دراسة الطب والقانون. ولكنهُ اتصل وهو في جامعة جونز هبكنز بالعالم الفسيولوجي نيول مارتن Newell Martin فاستهواه البحث في الكيمياء الفسيولوجية

ثم رحل الى اوربا فقضى سبع سنوات يتلقى العلوم من اساطينها—الطب السريري والجراحة والباثولوجية وعلم الاعصاب وعلم امراض العيون والكيمياء الحيوية — وفي سنة ١٨٨٨ أحرز رتبة دكتور في الطب .M. D من جامعة ستراسبورج

في خلال هذه السنوات ، تنبه الى بوادر الانقلاب في علوم الطب . فتذكر قول پراسلسس اذ قال : « ان في جسم الانسان صيدلية خفية وطبيباً متوارياً عن العيون يصنع الأدوية ويصفها ويستعملها بحسب ما تقتضي الحال . ولو لم يخلق الله تلك الصيدلية وهذا الطبيب لما أجدت مساعي جميع الأطباء ولعجز أي مخلوق على البسيطة عن الحياة » .كان پراسلسس قد أبعد بمباحثهِ علمَ الكيمياء عن السعي الى تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ،وعن البحث عن اكسير الحياة ، وبيَّن ان الكيمياء هي الطريق السويُّ الى تطبيق حقائق الطب على حاجة الانسان

فأحسَّ آيبل صدق هذه الكلمات ، واقتنع بأن معرفة الطبيعة والكيمياء معرفة صحيحة ، ولا سيما طبيعة السوائل المختلفة في الجسم والانساج والأعضاء ، وكيمياءَها ، تساعد على فهم وظائفها وان هذا الفهم يضيف أداة جديدة فعَّالة الى حقيبة الطبيب . أي ان آيبل ، رأى بعين بصيرتهِ في أواخر العقد التاسع من القرن الماضي ، كيف يمكن ان تحوَّل كيمياء الأعشاب والاملاح ، الى الكيمياء الفسيولوجية ، كيمياء الانساج والأعضاء في الجسم الحيّ

وكان آيبل لا يزال في ڤينا ، يتلقى ما يستطيع تلقيهِ من علوم الطب ، إذ هزَّ العالم الاستاذ برون سيكار بتجاربهِ العجيبة . كان برون سيكار خليطاً غريباً من العالم المدقق والخيالي المثاليّ . ولد في جزيرة على شاطىء افريقية من أم فرنسية وأب أميركي فنظم الشعر وألَّف المسرحيات ثم مارس الطب . وذهب الى نيويورك وهو يظن انهُ أخفق ، فتزوج فتاة تمتُّ الى دانيال وبستر الخطيب الأميركي المشهور بنسب ، وتقلد منصب أستاذ الامراض العصبية في جامعة هارڤرد ثم انتقل أستاذاً للفسيولوجيا في كوليج ده فرانس ، فلما بلغ السنة الثانية والسبعين من عمرهِ ، أحسَّ بدبيب الشيخوخة يدبُّ فيهِ ، وكان لهُ رأي بأن مفرزات الخصيتين تعبىء نشاط الجسم وتحول دون ما يصيب الانساج من الهرم ، فعزم ان يمتحن بنفسهِ صحة رأيهِ هذا

وفي ٣١ مايو سنة ١٨٨٩ قرَّر امام جمعية علماء الحياة انهُ حقن نفسهُ تحت الجلد بخلاصة

مائية من المفرزات التي تفرزها خصيتا كلب . وقال ان هذا العلاج قد صدَّ أثر الشيخوخة عنهُ فاستعاد نشاطهُ وتوردت وجنتاه وتحسنت ذاكرتهُ . أما بحَّاث اليوم فيرجحون ان ما شعر بهِ برون سيكار لم يكن الاَّ وهماً لان التجارب الدقيقة التي جربت في العهد الاخير بالحيوان والانسان لم تثبت ما قال ، ولكن تجربتهُ على كل حال ، كانت مستهل بحث جديد ، صاغ لهُ الاستاذ كلود برنار — وهو العالم الذي احتل منصب أستاذ الفسيولوجيا بعد برون سيكار — كلمةً تستهوي وكانت تلك الكلمة « المفرزات الداخلية internal secretions »

— ٢ —

لما عاد آبيل الى أميركا دعي الى جامعة مشيغن ليكون أستاذاً للصيدلة فيها ، على ان ينفق كلَّ وقتهِ اما في تعليم الموضوع وإما في البحث العلمي . فلما انشئت كلية الطب بجامعة جونز هبكنز سنة ١٨٩٣ انتقل اليها أستاذاً للصيدلة ورئيساً لقسم الكيمياء الفسيولوجية

بدأ آبيل بحثهُ الخاص بتحليل البول فكان أول من فصل الحامض الكربميك من جسم الانسان

واذ كان يبحث في تركيب المادة الملونة في بشرة الانسان قرأ تجربة طريفة قام بها عالمان من علماء الانكليز اوليفر وشايفر . فعلم من وصف تجربتهما ان خلاصة مائية من الكظرين (شرف) اي الغدتين الادرينالينين ، اذا حقنت في عروق حيوان رفعت ضغط دمهِ . ثم وردت الانباء بان عالمين بولونيين اثبتا الحقيقة نفسها على حدة . فعزم في الحال ان يواصل البحث حتى يفوز بتحضير المادة التي تفعل هذا الفعل ، نقية من الشوائب

والكظران فصَّان صغيران صفراوان قائمان فوق الكليتين ويبلغ وزن كل منهما في الانسان البالغ اربعة غرامات وكان اول من وصفهما عالم مشرّح ايطالي يدعى برطولوميو اوستاكي وذلك في سنة ١٥٦٣ وكان العلماء يعلمون بعد اكتشافهما ان مقداراً كبيراً من الدم يجوزهما ولكن وظيفتهما ظلت سرًّا مغلقاً

اقبل آبيل على عملهِ وهو يعلم انهُ لا بدَّ لهُ من كميات كبيرة من هذه الغدد للقيام بتجاربهِ فاختار غدد الغنم لسهولة الحصول على ما يحتاج اليهِ منها . فكان يتناول هذه الغدد ويصنع منها شرائح رقيقة ثم يجففها بتعريضها لحرارة درجتها ستون بالمقياس المئوي ثم يذيب المادة الدهنية التي فيها بالايثر فيحصل على مسحوق رمادي اللون يرفع محلولهُ المائي ضغط الدم في الحيوان

وفي سنة ١٨٩٧ تمكن آبيل بمساعدة البرت كروفورد من تحضير خلاصة نقية من الشوائب او تكاد تكون نقية في شكل مركب بلَّلفات المونوبنزويل . وهذا المركب هو اول مركب حضّر

لمفرزات احدى الغدد الصم". وأعلن آبل ذلك في ٦ مايو ١٨٩٧ لجمعية الاطباء الاميركية. الا ان المادة التي حضَّرها لم تكن المادة الصافية التي ترفع ضغط الدم بل كانت مركَّباً منها. واذ هو ماضٍ في البحث عن طريقه تمكنهُ من تحضير المادة الصافية زاره كيمياني ياباني يدعى جوكيشي تاكامين وذلك في خريف سنة ١٩٠٠ فطلب اليهِ ان يطلعهُ على طريقتهِ وان يريهُ المركَّب الذي يحضرهُ. فأصغى تاكامين بعناية الى شرح آبل ثم عاد الى معملهِ الخاص في نيوجرزي وبعد قليل تمكن من عزل المادة الصافية باحداث تعديل يسير في طريقة آبل فتسنى لهُ ان يحضر البلورات الاولى لهذه المادة ودعاها ادرينالين وشرع يبيعها. وقد تمكن ستولز Stolz بعد انقضاء خمس سنوات على عمل تاكامين من تحضير هذه المادة بالتركيب الصناعي في مصنع للاصباغ بالمانيا فكان عملهُ هذا نهاية تامة لمباحث الفسيولوجيين والصيدليين والكيميائيين الحيويين مدة خمسين سنة

هل ينشط آبل الى اثبات انهُ سابق لتاكامين؟ ذلك ما اجمع اصدقاؤهُ عليهِ. ولكنهُ أبى كان في وسعهِ حينئذٍ ان يصيب ثروة وافرة، لشدَّة إقبال الناس على ما كان يعرض في السوق من خلاصات الغدد المختلفة. ولكنهُ رفض أن يسخر المكتشفات العلمية للنفع الخاص. فقال في سنة ١٩١١ انهُ لقي احسن الجزاء عن عملهِ عند ما قبل الاسم الذي اختارهُ هو للمادة التي اشتهرت بالادرينالين. ذلك انهُ كان قد اختار لها اسم ابينفرين (اللفظ من اصل يوناني يعني فوق الكلية) فاعترف بهذا الاسم اعترافاً رسميًّا في قائمة المواد الطبية (فرماكوبيا) الاميركية

واهمُّ من هذا كلّه ان الطبَّ اصاب في هذه المادة، عقاراً يمكن القلب الضعيف من المضي في عملهِ بعد ان يبلغ حالة الاعياء. وحياة الوف من الناس تنقذ كلَّ سنة من الموت باستعمالهِ. ثم ان فعلهُ في قبض جدران الاوعية الدموية يحول دون النزف في الانف والاذن والحلق ويقف النزف الحادّ ويمنع التشنج في النزلة الشعبية

لم يقف العلماء في بحث الادرينالين عند هذا الحدّ فاكتشف كنُن (W. B. C. Cannon) سنة ١٩١٠ ان الكظرين تزيدان ما تفرزانهِ من هذه المادة عند ما يتعرَّض الجسم لانفعال عنيف. فهي مادة البطل والجبان. تؤثر في الاول فيقدم وفي الثاني فيحجم ويفرّ من النزال. وبهذا فسرت العادة القديمة في بعض الشعوب البدائية وهي عادة الجنود ان يأكلوا الكلى قبل القتال. ولكي يتأكد كنن من هذا الرأي امتحنهُ امتحاناً بديعاً في هرَّة. اخذ من عروق الهرة وهي ساكنة مطمئنة قليلاً من الدم وحقنهُ في قطعة من عضلة المعدة في ارنب فلم يلاحظ اي تأثير لهُ في قبض العضلة. ثم اتى بكلب شديد النباح وواجه الهرَّة بهِ فأخافها وأغضبها، فاخذ كنن من عروقها وهي منفعلة هذا الانفعال العنيف قليلاً من دمها واعاد تجربتهُ بعضلة الارنب، فوجد العضلة تنقبض انقباضاً ظاهراً. فثبت ان الادرينالين زاد افرازه في

الدم في حالة الانفعال عند ما دخل الكلب التابع الحجرة . ولكنهُ لم يكتف بهذا . بل احبَّ ان يرى بعينيه فعل الادرينالين في عضل الهرة نفسها . فقدم لها غذاء فيه املاح البزموت ، حتى يتمكن من رؤية حركة العضلة بالاشعة السينية . فلما دخل الكلب وهاجت الهرّة رأى انقباض العضلات بعينيه ثم حصل على النتيجة نفسها بحقن هرة بمحلول يحتوي على جزء من الادرينالين في ٢٠٠ مليون جزء من الماء

والمعروف الآن ان جزءاً من مليون جزء من الغرام من الادرينالين يرفع ضغط الانسان البالغ عشرة مليمترات

— ٣ —

واذ كان آبل مكباً على البحث في الادرينالين ، اعلن اكتشاف مفرز داخلي آخر . وقد كان هذا الاكتشاف نتيجة البحث عن الاسلوب الذي تعتمد عليه الغدة الحلوة (البنكرياس) في افراز عصارتها الهضمية . كان بافلوف الفسيولوجي الروسي المشهور احد العلماء الذين تصدَّوا لهذا البحث ،فاعتقد ان هناك اسلوباً عصبياً بالغاً من التعقيد درجة تدق معرفتها عن عقل الانسان. ولكن عالماً يدعى بايليس Bayliss كان في المعمل الفسيولوجي التابع لجامعة لندن وكان لهُ مساعد يدعى ستارلنغ Starling فشرعا في دراسة هذا الموضوع . وكان عملهما الاول ان يقطعا جميع الاعصاب الواصلة الى الغدة الحلوة ومراقبة افرازها ، فدهشا عند ماتبين لهما انها ماضية في الافراز بعد قطع الاعصاب . واذن فالاسلوب ليس عصبياً . قال ستارلنغ لبايليس : انهُ كيمياني

ولكن من يأخذ بالرأي اذا لم يستند الى تجربة ؟ فاعدَّا معدات التجربة وشرعا فيها في ١٦ يناير من سنة ١٩٠٢

فثبت لهما من الامتحان ان الخلايا التي تغطي جدار القسم الأول من المعى الصغير تفرز مادة كيميائية تدخل الدم من دون قناة معيَّنة تسير فيها وتتصل بالحلوة فتحملها على افراز عصارتها الخاصة بالهضم

فأطلق ستارلنغ على هذه المادة اسماً انكليزياً مركباً من كلمتين معناها « رسول كيمياني » chemical messenger وصاغ هاردي W. B. Hardy لها اسم Hormone من أصل يوناني معناهُ « أحرِّك » أو « أُثير » . وقد استعمل هذا اللفظ على وجوه شتى في اللغة العربية . فعرَّبهُ بعضهم فقيل « هرمون » و « هرمونات » وترجم بعضهم لفظي ستارلنغ واكتفى أحياناً باستعمال لفظ « رسول » و « رسل » . واقترح الدكتور محمد شرف بك تخصيص لفظ « نوْر » — والجمع « أنوار » ، ومعناهُ الرسول بين القوم . ولعلَّ لفظ نوْر والجمع أنوار خير ما يستعمل لكلمة

هرمون لان فيه معنى الرسول وعدم استعماله لهذا المعنى المألوف يمكننا من تخصيصه للمعنى العلمي

والتوّر يطلق الآن على كل مادة كيميائية تفرز في ناحية من نواحي الجسم وتتصل بالدم مباشرةً من دون قناة وتسير فيه الى مختلف اطراف الجسم فتؤثر في الجسم تأثيراً عامًّا . فاذا تكلمنا الآن عن الجهاز العصبي في الجسم وجب كذلك ان نتكلم عن الجهاز الكيميائي او التوّري لانهُ من أساليب الطبيعة في محاولتها ربط أعضاء الجسم وتنسيق افعالها

بعد ذلك حضرت خلاصة قوية من هذا التوّر دعيت « سكريتين » (من secrete اي يفرز » فاستعملها بايلس وغيره في تجربة تجارب أخرى ، فصبّ عليهِ معارضو تشريح الحيوانات للبحث الطبي جام غضبهم وسخريتهم حتى اضطرّ ان يرفع على سيدة قضية قذف ربحها ووهب المال الذي حُكم لهُ بهِ تعويضاً لاحدى الجمعيات الخيرية

ومما يذكر ان هذا التوّر لم يحضر نقيًّا بعد كما حضر الادرينالين ، مع ان بعضهم زعم في سنة ١٩٣٣ انهُ فاز بذلك

— ٤ —

وانقضت على اكتشاف السكريتين اثنتا عشرة سنة قبلما اكتشف توّر آخر . في يوم عيد الميلاد من سنة ١٩١٤ أعلن العالم كندل E. C. Kendall اكتشافه للتوّر المعروف باسم ثيروكسين وهو تور الغدة الدرقية

كان البحث عن هذا التوّر طريقاً وعراً مرصوفاً بحطام النظريات المهدّمة . ومع ان ما يوجد منهُ في الجسم في وقت ما لا يزيد على قدر يسير جدًّا ، الا انهُ كافٍ ليميز الذكيّ عن الابله . والحي النشيط عن الضعيف المتهدّل السائر الى القبر . بدأ كندل بحثهُ في معمل الباثولوجيا في مستشفى سانت لوقا بمدينة نيويورك سنة ١٩١٠ فبزّ وهو شابٌ علماء العالمين القديم والجديد ، ولكنهُ سار الى غرضهِ على اكتاف عشرات من الباحثين بل مئاتهم

وصف احد الاطباء الانكليز قبل مائة وخمسين سنة ثلاثة اعراض مرضية — جحوظ العينين وخفقان القلب وتضخم العنق — تقترن في الظاهر بتضخم الغدة الدرقية القائمة على جانبي الحنجرة والقصبة . ويبلغ متوسط وزن الغدة الدرقية في الانسان البالغ اوقية (ounce) ورؤيتها مستطاعة بمرآة . وكان يعرف المرض الذي يحدث هذه الاعراض باسم « مرض بيزدو » في المانيا وباسم « مرض غريف » في انكلترا . وحوالي سنة ١٨٥٠ درس طبيب انكليزي آخر طائفة من المصابين بالكرتينيسم ومن اعراضه البلادة العقلية فوجد هذه الحالة مقترنة بمرض غددهم الدرقية او حؤولها التام . والمصابون بهذا المرض كانوا معروفين في القرون السابقة

فعرف ان في بلدة بوزيل Bozil وسكانها لا يزيدون على ١٤١٢ نفساً ١٩٠ مصاباً به . بطونهم منتفخة منهدلة وعيونهم باردة جامدة ، وليس في اي عمل يعملونهُ دلالة نشاط او بارقة رجاء . خاب الطب في معالجتهم وماتوا على الغالب قبل بلوغ العاشرة من العمر . وفي سنة ١٨٥٨ بدأ الباحثون يجرّبون هذه التجارب في الحيونات ليعلموا حقيقة الصلة بين الداء وحالة الغدة الدرقية فوجدوا انهُ اذا سُلّت الغدة من حيوانٍ مات ، فثبت أن هذه الغدة لا ندحة عنها للحياة

ولكن العالِم حذر . والحكم بان ازالة الغدة الدرقية سبب الموت لا يمكن ان يصبح مبرماً حتى تعاد التجربة ، ويتأكد المجرّب ، انهُ لم يسلّ من جسم الحيوانِ اي عضوٍ حيوي غير الغدّة الدرقية ، فأعيدت التجارب بالقرود . وعني المجربون بان لا يسلّوا منها الا الغدة الدرقية ، فوجدوا أن القرود لم تمت ، ولكنها اصيبت باعراض كاعراض المصابين بضعف هذه الغدّة — وهي اعراض الخزج (شرف) اي «مكسيديما» وهو ينتج عن ضعف هذه الغدّة او نقص افرازها ومن اعراضه علاوة على البلادة العقلية كثافة البشرة وجفافها وانخفاض حرارة الجسم وضعف الفعل الجنسي . ثم جرّب طبيب سويسري تجربة من هذا القبيل برجل فوصل الى النتيجة نفسها ولكن الطبيب السويسري عوّض الذي سلّت غدتهُ الدرقية ، باعطائهِ قطعاً من درقيات الغنم وخلاصات منها ، فتحسنت حالتهُ قليلاً ثم توفي ويرجح ان الباعث على وفاتهِ اختلاط الخلاصة التي اعطيها بشوائب

فكانت هذه النتائج ، باعثاً على موالاة البحث والتجربة ، فصنع احد اطباء انكلترا خلاصة من الغدة الدرقية محلولة في الغليسرين وحقن بها امرأة مصابة « بالخزج » فنجت من الموت وعاشت حتى بلغت الرابعة والسبعين من العمر وعند ما توفيت سنة ١٩١٩ كانت قد استنفدت خلاصة الغدد الدرقية في ٨٧٠ خروفاً

ومع ذلك لم يكن احد يدري كيف نجت هذه السيدة من الموت

فكانت الخطوة التالية ان بومان Baumann تمكن من استخلاص مركب يوديّ Iodine من خلاصة الدرقية فأثبت بذلك ان اليود عنصر اساسي في مادة الدرقية الفعّالة . فاعاد اكتشافهُ هذا الى الذهن استعمال الحشائش البحرية في معالجة المجحوظ (الغواتر) من قرون متعدّدة . كان الناس في تلك الايام ، على شواطىء اميركا الجنوبية ، يجمعون حشائش البحار ويجففونها ويستعملونها في علاج الغواتر . ثم ان سكان كولومبيا بجنوب اميركا كانوا يستعملون مياه بعض الينابيع في هذا العلاج ايضاً . وقد ثبت الآن ان في الحشائش المذكورة وفي مياه تلك الينابيع يوداً

الا ان المركّب الذي حضرهُ بومان كان غير متقن الصنع . فتعيّن على الباحثين ان يسعوا الى تحضير المادة الفعالة في الغدة الدرقية نقية صافية . ومضت السنون والضالة لا تزال ضالةً . وكان

العلماء يعرفون ان هذا القدر الذي تفرزهُ الدرقية يزيد افعال الجسم الحيوية . فاستعملت هذه الحقيقة لقياس قوَّة الخلاصات التي تستخرج من الغدة . ولكن القياس لم يكن دقيقاً . واذن فالحاجة تقتضي قياساً ادقّ . وفي سنة ١٩١٢ اكتشف غودرناتش Gudernatsch ان الشراغيف (معلوف) وهي صغار الضفادع اذا غذيت بمقادير يسيرة من خلاصة الدرقية تحولت الى ضفادع تامة النمو تحولاً سريعاً بل بلغ من سرعة هذا التحوُّل انها اصبحت ضفادع تامة النمو وهي لا تزال في حجم الذُّبان . ولما كان اول تحوُّل في هذه الضفادع قصر ذيلها ، ولما كانت هذه الناحية من التحوُّل تتبع مقدار الخلاصة التي تغذَّى بها ، اتخذ العلماء من سرعة قصر الذيل في الشراغيف مقياساً لقوة خلاصات الدرقية وصفائها

على اكتاف هؤلاء العلماء وعشرات غيرهم سار كندل الى هدفهِ توًّا ، فاستخلص الثيروكسين نقيًّا صافياً . استعمل في تجاربهِ ثلاثة اطنان من غددٍ درقية غضة استُلَّت من المواشي الذبيحة فاستخلص منها ٣٥ غراماً من المركَّب الصافي . نعم اخطأ كندل اولاً في تقرير تركيب هذه المادة من الوجهة الكيميائية ، ولكن هرنغتن وبارجر توصلا في سنة ١٩٢٧ الى صنع بلوراتها بالتركيب الصناعي . وقد امتحن الثيروكسين الصناعي ، بكل اسلوب من اساليب الامتحان والتجربة بحقنهِ في المصابين بالخزج ومراقبة تأثيرهِ ، فثبت انهُ لا يختلف عن الثيروكسين النقي المستخلص من غدد الغنم والانسان

وكذلك افضى اكتشاف وظيفة الغدة الدرقية واستفراد مادتها الفعَّالة وتركيب تلك المادة بالتأليف الصناعي ، الى نصرٍ جديد في كفاح الانسان ضدَّ المرض فتغلَّب على الكرتينيسم والمكسيديما والغواتر وغيرها من الحالات المرضية التي ترتدُّ الى خلل في الغدة الدرقية . فبليد العقل (cretin) يصبح بالثيروكسين نشيطهُ ، والمصاب بالخزج يتحوَّل بهِ من تهدُّلٍ وتراخٍ وجفاف في البشرة شخصاً جديداً تتقد فيهِ شعلة الحياة ، والمصاب بنشاط الغدة الدرقية التي تفرز في دمهِ من مادتها اكثر مما يجب فتزيد سرعة افعاله الحيوية زيادة غير سوية ، يعود الى السواء بازالة الغدة كلها او بعضها . والمصاب بالغواتر البسيط فتنتفخ عنقهُ وتجحظ عيناه بعض الجحوظ ، تخف فيهِ هذه الاعراض باضافة املاح فيها يودٌ الى طعامهِ . ولقد استعملت خلاصة الدرقية في علاج الذبحة الفؤادية Angina Pectoris وضعف القلب الناشىء عن الاحتقان فأفادت . بل ان الطبيبين بلومغارت Blumgart وبرلين Berlin من اطباء بوسطن عالجا بعض هؤلاء المصابين بازالة الغدة الدرقية تماماً واعطاء من ازيلت غدتهُ هكذا خلاصتها بحقن ولكن بمقدار ، وفقاً لما يحتاج اليهِ منها

[في العدد القادم يتناول البحث سائر الغدد وأحدث ما يقال فيها]

للشاعر المهندس علي محمود طه

عودة المحارب

أنشودة أفريقية

« الى الذين قهروا الحياة بتقديس الموت . . . »

إمرحي يا وحوشُ في الغابِ حولي واهتفي للدمِ المكلّلِ نصلي

وارقصي يا نجومُ فوق شعاعاً واتبعي يا جبالُ في الارض ظِلّي

واصدحي يا جنادلَ النهرِ تحتي بأناشيــدِ مائكِ المنْهَلّ

واحملي يا رياحُ صوتي الى الــوادي وضجّي بكل حَزْنٍ وسهل

وارفعي يا رُبى إليَّ وأدني زهراتٍ من عُشْبكِ المخضلّ

ضمّخي من عبيرها ونداها قَدَماً لم تطأكِ يوماً بذلّ

هزأت بالجراح من مِخلب الليــث وأنيابِ كل أفعى وصلّ

وانسمي بالغرام يا نسمة الليــل وكوني إلى الأحبّةِ رسلي

إنّ في حومةِ القبيلةِ ناراً ضوّأتْ لي على مضاربِ أهلي

رقصتْ حولها العذارى وغنّتْ بأغاني شبابها المستهلّ

صوتُ إفريقيا ووحيُ صباها ونداءُ القرون بعدي وقبلي

باسمها الخالدِ امتشقتُ سناني بيدٍ تخفضُ الحظوظ وتُعلي

وشربتُ الجحيمَ من كلّ شمسٍ نارها تُنضجُ الصخورَ وتُبلي

وقهرتُ الحياةَ حتى كأني قَدَرٌ تكتبُ الحتوفُ ويُملي

يا عذارى القبيل انتنّ للمجــد على عِفّةٍ صواحبُ بذلِ

حسب روحي الظامي وحسب جراحي رشفةٌ من عيونكنّ النُّجْلِ

وابتساماتكنّ فوق شفاهٍ بمعاني الحياة كم أومأتْ لي

حين ألقى زوجي على باب كوخي وأناغي على ذراعيّ طفلي

وأنامُ الليل القصير لأجلو صارمي في سنى الصباح المطِلّ

المارستانات العربية

للدكتور سامي حداد
عضو الكلية الجراحية الاميركية وأحد
اساتذة العلوم الجراحية بجامعة بيروت الاميركية (١)

من تصفح تاريخ المارستانات العربية لا يسعهُ الاّ ان يعترف بانها مظهر باهر من مظاهر الثقافة العربية ومفخرة من مفاخرها . وكان اول ما اتصل العرب بهذا النوع من العمران قبل الاسلام. فان الحرث بن كلده الثقفي زوج خالة النبي العربي الكريم وابنهُ النضر قد رادا البلاد في طلب العلم . فوصلا في ايام كسرى أنو شروان الى جنديسابور من اعمال فارس وتعلما الطب في مارستانها الذي كان يديره نطس اطباء النساطرة[٢١] . ولا شك في ان الكثيرين من العرب الذين جاءوا بعد الحرث وابنه قد حذوا حذوهما. فألموا بادارة المارستانات وفهموا منافعها واغراضها في تخفيف آلام البشرية . فعادوا الى بلادهم واسسوا في اول فرصة سنحت لهم معاهد شبيهة بها

مما يؤسف له انهُ لم يصلنا الاّ القليل عن وصف هذه المعاهد واساليب ادارتها وغير ذلك من اخبارها التي نتشوق اليوم الى معرفتها . ولكن ما نعرفهُ عنها كاف لينبئنا بان الخلفاء والحكام واولي الامر قد ادركوا ما لهذه المعاهد من الشأن مما دفعهم الى بذل العناية في تشييدها والانفاق عليها بسخاء فائق والسعي في توفير ما يلزم لها لتؤدي الغرض المقصود منها . ففاقت اذ ذاك كل ما سبقها من المعاهد وصارت موضوع اعجاب الكثيرين من الرحالين الذين أفاضوا في مدحها في كتب اسفارهم . وشيّد اكثرها في المدن الكبيرة الآهلة العامرة كمكة والمدينة وبغداد ودمشق وطرابلس وحلب وانطاكية والقاهرة ومدن المغرب والاندلس

وبذلت العناية التامة في انتقاء المواقع الصحية الملائمة . فمن جميل ما ورد في هذا الصدد « أن عضد الدولة لما همَّ بانشاء المارستان العضدي ببغداد استشار الرازي في الموضع الذي يجب

---

(١) المقتطف : جرى المؤلف على الطريقة المتبعة بين علماء الغرب في الاسناد فوضع بياناً في آخر رسالته بالمراجع التي اعتمدها وفقاً لكل مرجع ، لكي يتحاشى التكرار في الحواشي ، فالرقم الذي يظهر في المتن يشير الى كتاب معين في بيان المراجع ، وهو بيان سننشره في خاتمة هذا البحث النفيس

ان يبنى فيه . فأمر الرازي بعض غلمانه ان يعلق في كل ناحية من نواحي بغداد شقة لحم ثم اعتبر الناحية التي لم يتغير ولم يسهك (يختر) فيها اللحم بسرعة فأشار بأن يبنى فيها المارستان وكان كذلك » اه [٣٢] . « ولما ملك صلاح الدين الايوبي الديار المصرية واستولى على القصر ، كان فيه قاعة بناها العزيز بن المعز في سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) فجعلها صلاح الدين مارستاناً لانهُ كان يقال ان فيها طلسماً يمنع دخول النمل اليها » اه [١٨]

اختلفت انواع المارستانات باختلاف الغاية التي وضعت لها . فان « الوليد بن عبد الملك كان اول من اتخذ مارستاناً في دمشق وذلك سنة ٨٨ هـ . (٧٠٦ م) حين كانت الحاجة ماسة الى انشاء ملاجيء لحبس المجذومين فيها ومنعهم أن يخرجوا على الناس . فأقام لهم هذا المأوى وأجرى عليهم الارزاق » . اه [١]

وكان للعرب عناية فائقة بالمجاذيب والزمنى والعجزة والعميان فخصصوا المعاهد بايوائهم . ففي فاس وقف سيدي ابي العباس السبتي للعميان والزمنى وفي مراكش وقف سيدي فرج لايواء المجاذيب والعناية بهم [٦] . فأين الفرق بين معاملة العرب لمن اخنى عليهم الدهر وأوقع بهم الرزايا والمصائب من معاملة الافرنج في القرون الوسطى لمثلهم . فانهم كانوا يحرقون المجذمين ويذيقون المجانين اصناف العذاب فيلاقون أجلاً عاجلاً

وقد اهتم اولو الامر بمن كانوا يعيشون بعيداً عن العمران والمدن الكبيرة لصعوبة السفر وتعذر وسائل النقل فهيأوا لهم مارستانات نقالة تصل اليهم وتقوم بحاجاتهم . « ففي ايام عضد الدولة كتب الوزير علي ابن عيسى الى سنان بن ثابت رئيس الاطباء توقيعاً يقول فيه : — « فكرت في من في السواد من اهله . فتقدم ، امدّ الله في عمرك ، بانفاذ متطببين وخزانة للادوية والاشربة يطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منهُ مدّة ما تدعو الحاجة اليه ويعالجون من فيه من المرضى ثم ينتقلون الى غيره » اه [٢٣]

ولم يحرم المسجونون والمجرمون حظ العناية بأجسادهم في ايام محنتهم . فان الوزير علي بن عيسى نفسه كتب الى طبيبه المار ذكره توقيعاً آخر يقول فيه : — « فكرت ، امدّ الله في عمرك ، في امر من في الحبوس وانهُ لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم ان تنالهم الامراض اوهم معوقون عن التصرُّف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم فينبغي أن تفرد لهم اطباء يدخلون اليهم في كل يوم ويحمل اليهم الأدوية والأشربة ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى ويزيحون عللهم» اه [٢٤] وكل ذلك جرى في القرن الثالث الهجري

وكان للجيش الحظ الوافر من هذه الوسائل الطبية . ذكر عن عزيز الدين ابو نصر احمد ابن حامد لما تولى منصب الاستفتاء في أيام مغيث الدنيا والدين محمد « انهُ من جملة مبتدعاته في

الخير جعل للعسكر السلطاني مارستاناً يحمل آلاته وخيمه وأدويته والأطباء والمرضى متنا بحتى » اه(١٥) وفي رواية أخرى أربعون جملاً . وقد جعل عزيز الدين الطبيب أبا الحكم المغربي طبيباً على هذا المارستان (٩)

وكانت توجد المستوصفات وخزانات الشرابات والأدوية للاسعافات الاولية والحوادث الفجائية : منها ما أسسه احمد بن طولون فانه أول من أنشأ مستوصفاً من هذا النوع أقامه في مؤخر الجامع الطولوني . « ووضع فيه خزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية وجعل عليها خادماً وأقام فيها طبيباً يجلس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة » اه (٨)

اما المارستانات العمومية فشيد بعضها خاصةً لهذا الفرض على أحسن هندسة وترتيب وأوفى اتقان . والبعض الآخر كان في بادىء الأمر قصوراً فخمة تحولت الى ما يوافق حاجات المارستان

ولم يكن يراعى في هذه المارستانات الفرق بين غني وفقير وكبير وصغير وحقير . اذ انها فتحت ابوابها للجميع على السواء ويعامل الجميع فيها أحسن معاملة وبكل ما يمكن من الاعتناء والدقة . ومن الادلة على ذلك ما ذكره الظاهري حيث قال : — « وفي دمشق مارستان لم يُرَ مثله في الدنيا قط . واتفقت نكتة أحببت ذكرها وهي اني دخلت دمشق في سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٧ م) وكان يصحبني شخص عجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة . وكان قاصداً الحج في تلك السنة فلما دخل المارستان المذكور ونظر ما فيه من المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصى قصد اختبار حاله . فتضاعف وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الطب يتردّد عليه ليختبر ضعفه فلما جسّ نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الاطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلو والاشربة والفواكه المتنوعة ثم بعد ثلاثة ايام كتب له ورقة معناها ان الضيف لا يقيم فوق ثلاثة ايام وهذا في غاية الحذاقة والظرافة . وقيل ان المارستان المذكور منذ عمر لم يطفأ فيه النار» . اه(١٤)

وكانت هذه المارستانات كاملة العدة والعدد فيها الاسرة الكاملة الكسى ، الفائقة النظافة . خصصت فيها ابهاء وحجرات بالرجال وغيرها بالنساء وبكلٍّ من الامراض على انواعها . وجرت فيها المياه بغزارة . وأفرد فيها مكان لطبخ الطعام وآخر لاعداد الادوية

ولكلٍّ منها اوقاف دارة ومنابع رزق ينفق منها عليها عن سعة . ووضعت تحت مراقبة شديدة لتأمين نفقاتها حتى لا يقع حيف على المرضى الذين يلجأون اليها . ذكر ثابت بن سنان في تاريخه عن والده سنان وكان رئيس المارستان العضدي ما يأتي : — «وكانت النفقة عن المارستان الذي لبدر المعتضدي بالمحرم من ريع وقف سجاع ام الخليفة المتوكل على الله وكان الوقف في يد ابي صقر وهب بن محمد الكلوزاني وكان قسط من ريع هذا الوقف يصرف الى بني هاشم وقسط منه ينفق على المارستان . وكان ابو الصقر يعجل على بني هاشم مالهم ويؤخر نفقة المارستان

ويضيقها فكتب والدي الى ابي الحسن علي بن عيسى يشكو اليه هذه الحال ويعرفه ما لحق المرضى من الضرر بذلك وقصور مايقام لهم من الفحم والمؤن والدثار وغير ذلك عن مقدار حاجاتهم . فوقع على ظهر رقعته الى ابي الصقر توقيعاً صورته : — أنت اكرمك الله تقف على ما ذكره وهو غليظ جداً والكلام فيه معك خاصة فيما يقع منك ويلزمك وما أحسبك تسلم من الاثم فيه وقد حكيت عني في الهاشميين قولاً لست اذكره . وكيف تصرفت الاحوال في زيادة المال او نقصانه ووفوره أوقصوره فلا بدّ من تعديل الحال فيه بين ان تأخذ منهُ وتجعل للمارستان قسطاً بل هو احق بالتقديم على غيره لضعف من يلجأ اليه وعظيم النفع به . فعرفني أكرمك الله ما النكتة في قصور المال ونقصانه في تخلف نفقة المارستان هذه الشهور المتتابعة وفي هذا الوقت خاصة مع الشتاء واشتداد البرد . فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم وبعجل حتى يدفأ من في المارستان من المرضى والممرورين بالدثار والكسوة والفحم ويقام لهم القوت ويتصل لهم العلاج والخدمة واجبني بما يكون منك في ذلك وأنفذ لي عملاً يدلني على حجتك وأعنَ بأمر المارستان فضل عناية ان شاء الله تعالى » . اه [٣٠] فتأمل

وكان منصب ناظر المارستان من أجل المناصب وأعلاها . « وكانت بالديار المصرية عادة النظر فيها من اصحاب السيوف لأكبر الامراء » . [١٩] اه « وبدمشق لنيابة السلطنة وهي من اجل نيابات المملكة وارفعها رتبةً » . اه [٢٠]

وتوفر عدد الخدمة والمشتغلين للمرضى بالمارستان فتأمنت بذلك راحتهم . ومن ادهش ما ذكر انهُ اقيم لبعضها المؤذنون الذين كانوا يحيون لياليهم بالنوبة بتسبيح الله نحو ساعة بصوت رخيم . وأطلق على هؤلاء لقب « مؤنس الغرباء أو المرضى » . فالمريض الذي لايقدر ان ينام ولا يجد في كل الاحيان من يحيي الليل لاجله كان يشجيه المؤذن بصوته الرخيم في تسبيح الباري تعالى في ساعات الليل الاخيرة [٧]

ومما هو جدير بالذكر ان أكثر هذه المعاهد كانت تشاد بالقرب من مسجد ويقام بجوارها حمام وتكية فكان اولي الامر ارادوا بذلك ان تكون جميع هذه المعاهد الخيرية متجاورة متلاصقة ليصير من مجموعها وحدة كاملة على مداواة الاجسام والنفوس وضامنة للرقي المدني والديني معاً

وكانت رتبة رئيس الاطباء في المارستان من الدرجة الاولى في مناصب الدولة . وكان لكلّ منها رئيس واطباء عديدون وجرّاح وكحال وفاصد وصيدلي . وكان عمل رئيس الاطباء الاشراف على اعمال المارستان وامتحان سائر الاطباء وسمح لكلٍّ منهم ان يعمل في دائرة اختصاصه متى نجح في امتحانه . والاجازات الطبية قديمة العهد في تاريخ الطب العربي . واول ما نجدها في ايام الخليفة المقتدر بالله « الذي جرى في مارستانه في بغداد غلط على رجل

من العامة من بعض الاطباء فمات الرجل . فامر المقتدر بالله وزيره ابراهيم بن محمد بن بطحا ان يمنع سائر المتطببين من التطبيب الا من امتحنهُ سنان بن ثابت واذن له بذلك وكتب له رقعة بخطه بما يطلق لهُ من الصناعة . فسار الاطباء الى سنان وامتحنهم واطلق لكلٍ منهم مايصلح ان يتصرف فيه وذلك في سنة ٣١٥ هـ « (٩٢٧ م) . اه(٢٦) . ولنا مثال آخر من هذا النوع في عهد الملك العادل نور الدين زنكي . فانهُ فوض الى ابن ابي خليفة « النظر في امر الكحالين واعتبارهم وان من يصلح منهم لمعالجة امراض العين ويرتضيه يكتب له خطهُ بما يعرفهُ عنهُ » . اه(٢٧)

اما معاينة المرضى ومعالجتهم فكانت تجري في المارستان على الصورة الآتية :—

كانت الاطباء تجلس على دكة وتعاين المرضى في ايام معينة من الاسبوع . فتكتب لمن يستوصف منهم اوراقاً يعتمدون عليها ويأخذون بها من المارستان الاشربة والادوية التي يصفونها لهم . اه(٢٨)

« ومن كان بحاجة الى الاستشفاء يسجل اسمهُ في سجل المارستان وتنزع ثيابه ويلبس ثياب المارستان ويوضع في سرير خاص وكل يوم يدور الاطباء على المرضى ويتفقدون احوالهم ويعتبرون أمورهم وبين يديهم المشارفون والقوام لخدمة المرضى فيكتبون لكلٍ منهم ما يلزمهُ من المداواة والتدبير فلا يؤخر عنهُ ولا يتوانى في شيء من ذلك » . اه(٢٩) وكان الدليل على شفاء المريض مقدرته على أكل فروج ورغيف خبز فيأمر له بالانصراف ويعطى بدلة ثياب ونفقة تكفيه مدة بعد خروجه من المارستان

وكانت في كثير من هذه المارستانات غرفة خاصة فيها مكتبة تحتوي على الكتب الطبية يجلس فيها الرئيس وسائر الاطباء بعد الفراغ من معالجة المرضى ويجلس التلامذة معهم فيتذاكرون في كيفية الاستدلال على الامراض وجملة ما وصف وكتب للمرضى ثم يبحثون في كثير من الامراض ومعالجتها . (٣٠) فكانت المارستانات بتوفر هذه الوسائل معاهد علم يتلقن فيها التلامذة العلوم الطبية علماً وعملاً

مارستانات دمشق

ذكر التاريخ انهُ كان بدمشق خمسة مارستانات وربما كان هناك اكثر منها لكن لم يذكر شيئاً عنها الاول مارستان الوليد بن عبد الملك . الثاني المارستان الدقاقي . الثالث المارستان النوري . الرابع المارستان القيمري . الخامس المارستان الركني

مارستان الوليد بن عبد الملك

اندثرت معالم هذا الاثر . وذهب البعض الى ان موقعه خارج أحد أبواب دمشق المعروف بباب شرقي قرب ما يدعى اليوم « الاعاطلة » ومعالمهُ عبارة عن بناية لبن متداعية ذات غرف

صغيرة جداً قليلة النوافذ معدومة كل الوسائل الصحية ظلَّ يحبس فيها المجذومون الى آخر شهر ايلول من سنة ١٩٣٦ م . وقد ادرك اولو الامر عدم ملائمة هذا الموقع لايواء المرضى فبنوا مؤسسة جديدة خارج دمشق نقلوهم اليها . والاعاطلة اليوم مهجورة . والى ناحيتها الشرقية الجنوبية آثار قديمة هي عبارة عن حائط يبلغ طوله نحواً من خمسة عشر متراً . مبني بحجارة ضخمة عريضة وفيه فتحة بابين كبيرين . وقد طمر التراب هذا الحائط الى منتصف فتحة الابواب . وفي جنوبيه طريق وشماليه ساحة واسعة تبلغ مساحتها نحواً من الف متر مربع فيها بقايا أعمدة رخامية ضخمة . والى الجهة الشمالية من هذه الساحة بستان فسيح الارجاء . فهل هي بقايا هيكل قديم حوّله الوليد الى مارستان . أم الامر غير ذلك ؟ ان البحث لم يصل بنا الى معرفة الحقيقة

المارستان الرقاقي

ذكر هذا المارستان بعدة اسماء هي العتيق والقديم وباب البريد والنوري الصغير . فهل يا ترى هذه الاسماء هي لمارستان واحد ام لاكثر من واحد ؟ فان دقاق بن تتش الذي يظن انهُ منشيء هذا المارستان عاش في القرن الخامس الهجري ولكن ورد ذكر هذا المارستان في حوادث القرن الرابع [١٠] ويذهب العلموي [٢] والعماد [١٦] الى انهُ من عمارة الامويين وان الذي عمره معاوية بن ابي سفيان او ابنهُ يزيد وهذا لا يتفق مع قول المؤرخون الذين سبقوا العماد واتفقوا على ان اول من أسس مارستاناً في دمشق هو الوليد بن عبد الملك [١] ولا يخفى ان الوليد اتى بعد معاوية

اما موقعه فكان غربي الجامع الاموي المشهور تحت المنارة الغربية . الى الجنوب من المراحيض في سوق المسكية ويفصل بينه وبين الجامع سوق القوافين . بقي عامراً الى اوائل القرن التاسع الهجري وقال العماد والعلموي ان اول من خرب معالمه وجعله بيتاً ابو الفضل الأخنائي ، ثم ملكه بعده اخوه برهان الأخنائي ، ثم سكنه الشيخ كمال العجمي ، ثم اتصل بالياس كتخدا عيسى باشا فعمره وغير معالمه . وقد ذكر ابن جبير في رحلته : « وبها (اي بدمشق) مارستان قديم وحديث والقديم هو غربي الجامع المكرم » . اه [١١] وقال ابن ابي اصيبعة في ترجمة رشيد الدين ابن خليفة : « وفي الخامس من المحرم سنة ٦١٥ هـ . استدعاه (اي رشيد الدين) الملك العادل ابو بكر ايوب لما سمع بتحصيله وسيرته وولاه طب المارستانين بدمشق اللذين وقفهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي » . اه [٣١] وفي ترجمة عز الدين السويدي قال : « وخدم ايضاً في المارستان بباب البريد » . اه [٣٢]

أقوى من الزمن

لفيكتور هوجو

منذ مسّت شفتاي كأسك المترع ياحبيبتي
وألقيت بوجهي الشاحب على راحتيك الرفيقتين
واستشفّت روحي أعماق نفسك ، وتفيأت
يانع أزهارها وتنسّمتُ نادر عطرها المسجّى
الآن تحت هذي الظلال

اومنذ تلك اللحظة السعيدة التي
تسمّعتُ فيها الى كلماتك الطافحة بأسرار قلبك
ومنذ رفت شفتاك على شفتيّ وحنت عيناك
على عينيّ بين دموعك وابتساماتك

ومنذ أحسستُ على جبهتي تحدُّر لمحة واحدة من شعاع
نجمك الخابي الآن ، واضطرب نهر حياتي لورقة واحدة
ساقطتها عليه ازهار أيامك

منذ ذلك ياحبيبتي تعاظمتُ الزمن وأنا الآن أهتف
بالساعات المتقلبة العابرة : سيري في طريقك
واسرعي خطاك فلن تدركني الشيخوخة ،
وهرولي الى الوحدة المظلمة بكل ما جمعت من أزهارك الذابلة
فانني احتفظ في قلبي بزهرة لن ينال قطافها أحد

ان اجنحتك الخافقة قد تصيب كأسيَ المفعم بالحب
ولكنها لن تكفأه ، فشفتاي نديتان بخمره !
ان في قلبي ناراً لا يستطيع بردك ان يطفئها
وفي نفسي حبّاً فلن تستطيعي قهري على نسيانه !



تلخيص رأي الفيلسوف هوايتهد

لاسماعيل مظهر

نظام الجامعات يكاد يكون نظاماً غربياً بحتاً ، اخذ الشرق ينتحله منذ زمان غير بعيد . واذا قضينا بأن نظام الجامعات غربي ، فليس من قصدنا ان نقضي بأن الشرق قد تجرد من فكرة اقامة البحث والدرس العلمي والادبي والفلسفي على معاهد تربي عقول النشء الحديث في امة من الامم . كذلك لست اريد ان أقول إنّ الشرق قد تجرد من المذاهب المدرسية التي قامت بين جدران معاهد خلال ازمان مديدة . بل اريد ان اقضي بأن فكرة « الجامعة » باعتبارها فكرة « حرة » أحدثت نظاماً جديداً من الدرس واسلوباً حديثاً في البحث الحرّ ، هي من مخترعات العصر الحديث

انحصرت المعرفة في العصور القديمة في التاريخ بين جدران المعابد والهياكل حيث تفرد الكهان ورؤساء الدين بالعلم دون بقية الناس ، وحرصوا على ان يكون العلم وقفاً عليهم ، فظلّ قاصراً على فئة من الفئات لم يتعدّها . وقد استنشق العلم شيئاً من ريح الحرية في المدنية اليونانية حيث قامت الأكاديميات من حول فلاسفة عظام كسقراط وأفلاطون وأرسطو ، فلم يفرقوا بين الناس في تلقي العلم ، بل اوسعوا في افق الدرس العلمي والفلسفي في حين ان ارسطو رغماً عن هذا قد اوصى بأن تكون الفلسفة العليا وقفاً على الخاصة ، وان العامة يكفي فيهم ان يكونوا ملمين ببعض مبادىء المعرفة الماماً اولياً

فلما انتشر الدين المسيحي اقتصرت المدارس على المعاهد التي أقامها آباء الكنيسة واقتصر العلم فيها على ما سمي حين ذاك « بالعلم السلفي » المحصور في التفاسير التي فسرت بها الكتب المقدسة وفي المبادىء الغراماطيقية واللغوية التي ساعدت على وضع تلك التفاسير وعلى منطق أرسطو كأساس لضبط العقل عن الخطأ . وعقب ذلك انتشار الدين الاسلامي فاقتصرت معاهده على تدريس

المبادىء التي وضعها الفقهاء في التفسير والحديث والأصول وبقية فروع العلم الثانوية التي كانت تتخذ أساساً للوصول الى التوسع في تلك الأسس العلمية ، كما عرفت في ذلك العهد . وكما تعرف الآن في كثير من معاهد العلم الاسلامي

اما فكرة « الجامعة » باعتبارها معهداً حرًّا قائماً على فكرة حرة ، فبدأت تتكوَّن في اوائل القرن السابع عشر ، عندما بدأ كوبرنيكوس وغاليليو يشآن مذهبهما العلمي في نظام الكون ، وعندما بدأ جيوردانو برونو يبشر بحرية الفكر

غير ان تحرير الفكر تحريراً حقيقيًّا لم يبدأ الاَّ بعد ان تحدّد الاسلوب العلمي الحديث في اواسط القرن التاسع عشر ، وبعد ان ظلَّ العراك بين الاوضاع والتقاليد القديمة وبين الفكرة الحديثة ، سجالاً اكثر من قرن ونصف قرن من الزمان . وهذا التمهيد التاريخي ضروري لمن يريد ان يستوعب هذا البحث استيعاباً يستعين به على تفهم حقيقة الفكرة من « الجامعة » ، وقد بدأنا نتخذها اساساً لتقدمنا العلمي

***

ان كثرة الجامعات والتوسع في اختصاصها من الاحداث الظاهرة في الحياة الاجتماعية في هذا العصر. ولقد اشتركت جميع الاقطار في نتيجة هذه الحركة ، وعلى الأخص اميركا التي تمتاز على غيرها من هذه الناحية امتيازاً يوليها الشرف . على ان نماء الجامعات العلمية في عدد الكليات والمعاهد التابعة لها وفي اتساع احجامها وتخالط نظاماتها الداخلية ينطوي على خطر قد يمكن ان يقضي على موارد النفع التي تنتظر منها اذا لم نفهم تمام الفهم حقيقة الوظائف الاولية التي يجب ان تؤديها الجامعات في خدمة الامة

ولا يجب علينا ان نبالغ في جدَّة هذه المدارس العملية . فانهُ لم يمرّ عهد من الزمان اقتصرت فيه الجامعات على درس المجرَّدات الصرفة . فان جامعة « سالرنو » في ايطاليا مثلاً ، وهي أقدم الجامعات الأوربية ، قد وجهت غالب همها الى درس الطب . كذلك نجد في انجلترا ان جامعة كمبردج قد أنشأت كلية سنة ١٣١٦ لغرض خاص ، هو تخريج « كتبة يعينون في خدمة الملك ». وقد خرَّجت الجامعات رجالاً درسوا اللاهوت والطب والمحاماة والهندسة . والحاجات العملية في هذا العصر من المهن التي تحتاج الى مقدرة عقلية فائقة ، ولهذا نقدر انها تستحق ان تشغل مكاناً في هذا السباق العملي . اما جدَّة هذه الفكرة فتنحصر في ان البرنامج الذي يتسق وحاجات معهد عملي ، واساليب العمل المختلفة فيه ، لا تزال في طور التجربة . من هنا أضطر الى الكلام تعميماً لا تخصيصاً ، في المبادىء التي يجب أن تقوم عليها هذه المعاهد

تكوّن الجامعات من معاهد للدرس ، ومعاهد للبحث . اما السبب الاول الذي يسوّغ وجود الجامعات فليست تجده في نقل المعرفة من رأس الاستاذ الى رؤوس الطلبة ، ولا في الفرص التي تهيأ لاعضاء الكليات المختلفة لكي يبحثوا وينقبوا عن الحقائق . ان هذين الفرضين من الممكن تحقيقهما في معاهد أقلّ من الجامعات نفقة . فالكتب رخيصة الأثمان ، وطريقة « التلمذة » والدرس معروفة ومنذ اخترعت الطباعة في القرن الخامس عشر ، لم يبق للجامعات ما يسوّغ وجودها ، اذا اقتصرت وظيفتها على مجرد التلقين واعطاء المعلومات . اما الدوافع التي حفزت الامم الى تكوين جامعاتها فقد جدّت بعد ذلك التاريخ ،وقد ازدادت في العصر الحديث قوة

اما المسوّغ الذي تقوم عليه «الجامعة» فينحصر في أنها تحتفظ بالصلة القائمة بين المعرفة وبين ما يتذوق الناس من طعم الحياة اذ تـوحّـد بين الصغار الذين يتعلمون والكبار الذين يعلمون باعتبار تصوري في الدرس والبحث . ان الجامعات تدلي بمعلومات للمتعلمين بين جدرانها ، ولكنها تدلي بها بطريق يذكي التصوُّر . وفي هذا تنحصر وظيفتها التي يجب ان تقوم بها للجماعة . اما جوّ القلق والاضطراب الذي يخلقهُ ذلك الاعتبار التصوري، فهو الذي يكيّف المعرفة . هنالك لا تصبح اية حقيقة ما ، مجرد حقيقة عارية عن المعنى . انها تكون حقيقة تلابسها جميع ممكناتها واحتمالاتها. انها لا تضحي عبئاً ثقيلاً على الذاكرة . بل تصبح مبدءاً باعثاً على القوة والنشاط ، مثيراً للخيال . تصبح الشاعر الذي يعبر عن احلامنا ، والمهندس الذي يرتب اغراضنا ويرسم غاياتنا . كذلك لا تفرق بين التصور وبين الحقيقة . لان التصور يكون طريقاً لتبيان الحقيقة . إنهُ يستخرج المبادىء العامة التي تنطبق على الحقائق كما هي موجودة ، ثم يلجأ الى استعراض عقلي لكل الاحتمالات المنوعة التي تساير تلك المبادىء

وهذا مما يساعد الباحثين على ان يكوّنوا تصوراً عقليًّا في دنيا جديدة عليهم ، فضلاً عن انهُ يحفظ لهم ما يتذوقون من طعم الحياة ، وما يرضون بهِ من ألوانها الكثيرة ، بما يحفزهم اليهِ من العمل على سد أغراضهم واشباع مطامعهم

ان الشباب قوّة متصورة . فاذا قوي التصوُّر بالتزام النظام ، أمكن في الغالب الاحتفاظ بنشاط التصوُّر مدى الحياة . اما مأساة الحياة الكبرى ، فتنحصر في ان الذين هم أقوياء التصوُّر يكونون قليلي الخبرة ، والذين هم كاملو الخبرة ، يكونون ضعاف التصوُّر . ان الحمقى انما يعتمدون على التصوُّر دون المعرفة . اما الادعياء فيعتمدون على المعرفة دون التصوُّر . لهذا تنحصر وظيفة « الجامعة » في ان ترأب الصدع القائم بين التصوُّر والخبرة

أما النتيجة التي تنتظر من هذا فهي ان يتزوّد الشباب منذ فتوتهم بالخبرة العملية التي يحرزها الشيوخ في شيخوختهم . وبهذا تكون الوظيفة التي تقوم من اجلها الجامعات محصورة في الحصول

على معرفة قائمة على التصور . فاذا لم تقم الجامعة على أساس « التصور » فهي اذن لا شيء ، أو على الاقل تكون معدومة النفع

« التصور » مرض معدٍ في حين انهُ لا يمكن ان يقاس بالبوصة والقدم ، ولا يمكن ان يوزن بميزان اداتهُ الرطل او الاقة ، حتى يستطيع ان يجرعهُ اساتذة الكليات لطلبة العلم جرعات سائلة او يفرضونهُ عليهم حقناً تحت الجلد . انهُ ليس شيئاً من هذا . انهُ صفة لا يمكن ان تنقل الى طلبة كلية نشأ اساتذتها بعيدين عن فكرة تشرب العلم من طريق التصور . واني ان قلت بهذا فانما اكرر القول بمشاهدة من اقدم المشاهدات . فمن اللي سنة مثّل الاقدمون للعلم بمشعل مضيء ينتقل من يد الى اخرى خلال الاجيال . وما هذا المشعل المضيء الاَّ « التصور » الذي اتكلم فيهِ الآن . إني لاعتقد ان كل ما في النظام الجامعي من فن ينحصر باشادة معاهد يضيئها نور التصور . وهذا لدى الحقيقة مشكلة المشاكل في التعليم الجامعي . فاذا لم نعتن بدرس هذه المشكلة ، واذا لم نقم التعليم في الجامعات على هذا الاساس ، فان الجامعات على كثرتها في هذا الزمان ، ستخفق حتماً في الوصول الى النتائج التي ننتظرها منها

إن اتحاد التصور والدرس يحتاج الى بعض التَّطرية والتحرر من القيود ومن متاعب الحياة ، مع قليل من الخبرة المنوعة ، ومعاونة عقول أخرى مشبعة الفكرات كثيرة المعارف . كذلك هو يحتاج الى استهواء التطلع والاعتماد على النفس القائم على الفخر والزهو بما احرزت الجمعية القائمة من تقدم في فروع المعرفة . كما ان التصوُّر لا يمكن ان يحاز دفعة واحدة اولاً وآخراً ثم يحتفظ بهِ في صندوق من الثلج يستولد منهُ كلما دعت الحاجة . فان حياة قائمة على الدرس وعلى التصور ، هي طريقة تعرف منها كيف تعيش ، وليست سلعة من السلع التجارية تباع ثم تشرى ، وتشرى ثم تباع

من الانتفاع بهذه الحالات ومن الاحتفاظ بها في كلية من الكليات التي استكملت كل المعدات الضرورية للتعليم ، تستخلص الوظيفة الحقيقية التي تنشأ من اجلها جامعة من الجامعات ، ونعني بها المعاونة على الدرس من ناحية والبحث من ناحية اخرى . فانك اذا اردت ان يكون اساتذتك اقوياء التصور ، شجعهم اذن على البحث ، وساعدهم على ان يكوّنوا احساس العطف العقلي على الصغار الذين يعلمونهم ، في ذلك العهد الذي يكون التصور فيهِ اشد ما يكون يقظةً وانتباهاً ، عصر الشباب والفتوّة ، عندما تكون قوى العقل قد اخذت تدلف الى نظام الاكتمال والنضج . دع الباحثين يعبرون عن آرائهم لعقول نشيطة مرنة مندمجة في الدنيا الحافة بهم ، واترك نشأتك في عهد التحصيل العقلي يتوج جهده بالاتصال بعقول ملأتها الخبرة العقلية . ذلك لان التعليم في الواقع ليس الاَّ نظاماً يواجه بهِ الانسان خطورة الحياة ، كما ان البحث مخاطرة عقلية ، لهذا وجب ان تكون الجامعات بيوتاً للمخاطرة والاقدام تعاوناً بين الشيب والشباب

١ — كلية الآداب

حديث الدكتور طه حسين بك

عميد كلية الآداب

✳

وجه مكتب تحرير المقتطف الى الاستاذ الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب السؤالين التالين

اولاً — ما هو القسط الذي قدمته كلية الآداب لنهضة الفكر في مصر خلال السنوات العشر الماضية ؟

ثانياً — ما هي الصورة المثالية التي تريدونها لكلية الآداب ؟ فتفضل بالجواب التالي

— ١ —

أثرت كلية الآداب في تطور الفكر المصري تأثيراً واضحاً جداً يبدو في ناحيتين هامتين : في طريقة تصور الأشياء والحكم عليها . وفي الحياة العملية ، ذاتها

وفي الانتاج . وعلى الرغم من غرابة هذه الكلمة ، فانها بالنسبة لنا حقيقة واقعة فالطلبة والمتخرجون انتجوا في ميدانهم كمترجين ومؤلفين وصحفيين ، وكذلك بالطبع انتج اساتذتهم

واريد ان اعرف مدرسة أخرى في الشرق كله ، وصلت في فترة قصيرة الى ما وصلنا اليه . . وقد نكون ، في فترة السنين العشرة الماضية امتصصنا — كما تقول — خير ما في المعاهد السابقة لنا من مقومات .. ولكن اليس «الامتصاص» في ذاته دليلاً على القوة والحياة . .

فان اردت بعض مثل ، على مانحن بسبيله ، فلتعلم أن اللغة العربية مدينة الآن لكلية الآداب باحسن تاريخ عمل حتى الآن للحياة العقلية في القرنين الاول والثاني للهجرة . ولولا ان احمد امين عمل في كلية الآداب ، لما انتج هذا الانتاج الذي عجزت عن تحقيقه القرون الماضية كلها

واوجدت كلية ، الآداب شيئاً اسمهُ التنقيب عن آثار مصرية ، خالصة ، وآثار اغريقية ،

ورومانية ، فهي وحدها التي اوجدت اشتراك المصريين العلمي في علوم الآثار والاجتيولجي وما قبل التاريخ

وكلية الآداب هي التي اوجدت أول التاليف العلميـة العربيـة في الجغرافيا ، فكتابا حوض النيـل ، وسكان هذا الكوكب من أحسن الآثار التي تجمع بين اللذة العلميـة والادبيـة . واني اتحدى اي مدرسة اشتغلت بالعلوم الجغرافية ووصلت إلى مثل ما وصل اليه قسم الجغرافيا عندنا

ويخيل إليّ ايضاً ان كلية الآداب هي اول معهد أظهر في العربية ترجمة ادبية لفوست وهرمان ودوروتيه لجيته عن الالمانية مباشرةً ، لا نقلاً عن لغة اخرى . ثم ان كليتنا هي التي انشأت معهد الآثار الاسلامية ، ولم يكن موجوداً قبل الآن ، ولاول مرة في تاريخ مصر أدخلت كلية الآداب الدراسات القديمة اللاتينية واليونانية لتساهم في الكشف والاستفادة من أعظم حضارتين فكريتين في العالم القديم

ولا يمكن أن ننسى أن كلية الآداب ساهمت مساهمة خطيرة في الحركات الادبية العامة لم تكن لمعهد آخر ، فقد احتفلنا بالعيد الالفي للمتنبي ، في اسبوع اقمناه لدراسته دراسة وافية. واكثر من هذا انتجنا كتابين احدهما للدكتور عبد الوهاب عزام ، والثاني لي سيظهر قريباً . ولولا كلية الآداب ما كنت افكر في دراسة المتنبي والكتابة عنهُ

وهناك في خارج الكلية يشترك الاساتذة اشتراكاً جديًّا في الحياة العلمية العامة . . واظنك تعلم أن الذي يقوم بتحقيق كتاب السلوك وطبعه هو الدكتور زيادة احد اساتذة التاريخ .كما ان لمعهدنا قسطاً وافراً في توجيه السياسة التعليمية العامة، بما نقدمه في لجان وزارة المعارف من آراء وما نشترك فيهِ من كتب ومقررات للدراسات الثانوية والخاصة

وكلية الآداب هي التي مثلت مصر في المؤتمرات العلمية المختلفة التي تمس الآداب . فقد مثلنا في مؤتمرات المستشرقين ثلاث مرات تمثيلاً رفع المكانة الأدبية للبلاد كلها . وكذلك اشترك الأستاذان مصطفى عبد الرازق والخولي في مؤتمرات تاريخ الاديان واشترك الاستاذان مصطفى عامر وعوض في مؤتمرات الجغرافيا والسكان

وكلية الآداب هي أول معهد أدخل في روع الحكومة والشبان فائدة الرحلات الى البلاد الشرقية ، فقامت من أساتذتنا وطلابنا رحلات الى الشام والعراق ، وأرسلنا من ينوب عن معهدنا في حفلات الفردوسي بطهران

وهناك أمر خطير جداً لا يعرفهُ الناس تماماً حتى الآن فبعثة الجامعة الى بلاد اليمن مشروع من مشاريع أحد المتخرجين من قسم الجغرافيا الدكتور حزين . وقد وصلت الى نتائج هامة جداً

أولها — الاكتشافات الجيولوجية ذات القيمة الخطيرة . وكذلك الاكتشافات المتعلقة بالحشرات وأنواع النباتات

ثانياً — أحضرت البعثة معها نحو مائة وخمسين نقشاً أثرياً جديداً سيتخذها أحد أعضاء البعثة موضوعاً لرسالة دكتوراه

ثالثاً — ملأت البعثة (اسطوانات) للهجات جنوب اليمن ، وهو العمل الأول من نوعه في هذه الناحية

وقبل هذا وذاك أظهر أعضاء البعثة انهم على استعداد تام لاقتحام الاخطار ، فقد أدركهم من المرض والآلام ما يدرك عادة المغامرين في سبيل الغايات الكريمة وشمروا جميعاً بلذة هذا الألم لتحقيق أغراضهم العلمية

هذا ما يتصل بالأساتذة . ويمكن ان تراجع في مكتبة الجامعة قائمة الكتب التي أنفقت عليها كلية الآداب وعاونت على ظهورها

وأما ما يتصل بالطلاب والمتخرجين بالنشاط الفكري ، فاترك المتحدث (وهو من خريجي الكلية) احصاءه ، فهو أعرف به [1] ولا تنسى رسالات الماجستير والدكتوراه ، ولعل كليتنا هي التي عرفت المصريين والشرقيين بالشهنامة ، وقدمتها لهم مطبوعة منقحة

وفي سنة ١٩٣٢ اشتركت كلية الآداب في الحركة العقلية الصرفة حين أخرج عميد كلية

(١) يشير الدكتور طه الى مجهودات الهيئات الجامعية التي تعمل على نشر الثقافة العامة مثل لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ولجنة الجامعيين لنشر العلم ولجنة البردي ومجهودات موفقة لكثير من الطلاب والمتخرجين في التأليف والترجمة والصحافة

الآداب من كليته فنهض الجامعيون نهضتهم الخطيرة للذود عن كرامة الجامعة واستقلالها وقاوموا الحكومة شهراً وضربوا في ذلك أمثالاً لن تنسى . وكان لهذه الثورة تأثير خطير في التفكير الجامعي للشبان

واما الرقي العام للأمة فقد شاركت فيه كليتنا مشاركة واضحة ، فهي التي فتحت ابواب التعليم العام للفتيات ، وفيها الآن ١٨٧ فتاة يشتغلن في جميع اقسام الكلية . كما أنها خطت خطوة أخرى بأن ادخلت ضمن هيئة تدريسها ثلاث سيدات هنَّ الآنسة سهير القلماوي (للغة العربية) والسيدة درية فهمي (للغة الفرنسية) والآنسة فاطمة سالم (للدراسات القديمة) وهن يدرّسن الطلاب والطالبات

والنتيجة ان لطلبة كلية الآداب واساتذتها ان يفاخروا بأثر كليتهم في هذه المدة القصيرة ، وان ينتظروا ان تعظم هذه الآثار كلما مضى الزمن ، ولا يحفلوا بما يقول الكاشحون ، فالقافلة تمضي موفقة على الرغم من المصاعب التي تلقاها ، وهي تعتمد على هذه المصاعب لان قيامها شرط اساسي لنجاحها . فهي الامتحان الذي يروّضها ، ويعلمها ، ويمحص رجالها تمحيصاً . وهي لا تريد النجاح السهل انما تريد النجاح العسير الذي يبعث الشجاعة والثقة ، بالنفس والامل في المستقبل ، وما يحقق الرجولة التي تحتاج اليها مصر في هذا العهد الجديد

***

— ٢ —

الذي أرجوه وأعمل لتحقيقه هو ان تؤدي كلية الآداب الى اغراض ثلاثة

الأول — احياء قديمنا المصري والعربي

الثاني — تحقيق الصلة الواضحة القوية ، بيننا وبين الحضارة الغربية

الثالث — اظهار أوربا على ما يجب ان تعرفهُ من استعدادنا الصحيح للحياة الخصبة والمساهمة في ترقية الحضارة الانسانية ومهما تبلغ كلية الآداب من تحقيق هذه الاغراض فلن ترضى ، ولن يرضى رجالها طلاباً ، واساتذة . . لان الرضى آية الخمول والخمود ، وهما أبغض الأشياء اليها

٢ — كلية الحقوق

حديث الدكتور السنهوري

عميد كلية الحقوق

— ١ —

س . اي شأن ينتظر لكلية الحقوق في تمصير القانون ؟

ج . أعتقد ان كلية الحقوق تستطيع ان يكون لها شأن كبير في تمصير القانون . فأساتذة القانون هم أكثر الناس اتصالاً بالفقه . واذا أريد تمصير القانون تمصيراً يقوم على اساس صحيح ، فلا بد ان يسبق هذا التمصير حركة فقهية ، يرفع لواءها أساتذة القانون ، لينيروا الطريق امام العاملين ، ويكونوا طلائع هذه النهضة المباركة

واول ما يجب ان نفكر فيه لتمصير القانون هو بحث الاساس الذي يقوم عليه هذا التمصير . وينبغي ان نتلمس هذا الاساس فيما يتصل بنا أوثق الاتصال ، في تقاليدنا الماضية وفي تاريخنا القديم . فنحن اذا كنا عيالاً على الفقه اللاتيني في الوقت الحاضر ، فقد كنا أمة فقه قوي الأركان ، أظل امبراطورية ، من أضخم الامبراطوريات التي عرفها العالم ، قروناً عديدة . ولا يزال الفقه الاسلامي حتى اليوم ثابتاً في وجه الزمن ، لم تبل جدته ، ولم تخلق أديمته . فما علينا الا أن نرجع الى تراث اجدادنا ، فننفض التراب من فوقه ، ونقدم الى عالم القانون شيئاً من صنع أيدينا ، يكون حجراً جديداً في البناء الذي تتضافر جهود الأمم على إقامته

وينبغي أن نعرف أن الفقه الاسلامي لا يقل ، في إحكام الصياغة ولا في متانة الاسلوب ، عن الفقه الروماني . وهو يشتمل على نظريات ومبادىء لا تقل في الرقي ولا في مجاراة التطور عن أحدث النظريات القانونية التي يعرفها الغرب في العصر الحاضر

على انهُ ينبغي ايضاً أن نعرف أن هذا الفقه في حاجة الى جهود كبيرة ، حتى نبرزه للناس في ثوبه الجديد . وحركة احياء الفقه الاسلامي يجب أن تمرَّ في نظري على مرحلتين : (المرحلة الاولى) مرحلة الدراسة والترتيب . وفي هذه المرحلة نتناول كتب الفقهاء في المذاهب المختلفة ، وندرسها دراسة عميقة ، ونرتبها على أسلوب يتفق مع طرائق البحث الفقهي التي اهتدى اليها فقهاء الغرب . (والمرحلة الثانية) مرحلة الاجتهاد والابتكار . وفي هذه المرحلة نخطو خطوة جريئة

بالفقه الاسلامي ، فنفتح باب الاجتهاد الذي أقفل منذ زمن طويل ، لغير ما سبب ، الاّ ركود الحركة الفكرية في الشرق ، والاّ هذا الخمول الذي سقط في وهدته العالم العربي

والفقه الاسلامي ، منذ وضعهُ مؤسسوه، مبني على فكرة الاجتهاد . فاقفال باب الاجتهاد في هذا الفقه انكار صريح للأُسس التي بني عليها . وما دام الاجماع مصدراً معترفاً بهِ، وما دام هذا الاجماع يختلف باختلاف الامة والجيل، فقد كفل الاجماع للفقه الاسلامي دوام التطور ومجاراة الزمن

ويجب ، قبل ان أنتهي من الاجابة على هذا السؤال ، أن أزيل وهماً قد يعلق بذهن القارىء . فليس في الرجوع الى الفقه الاسلامي شيء من الرجعية تحسب غير متفقة مع ما نحن في سبيله من الغاء الامتيازات الأجنبية . فقد يظن أن الرجوع الى هذا الفقه يقلق الاجانب ، إذ يعتقدون أننا نريد ان نأخذهم بأحكام تخالف أحكام قوانينهم الغربية . اذ الواقع كما قدمت أن الفقه الاسلامي اذا درس على النحو الذي أشرنا اليهِ أصبح نظاماً قانونياً لا يقل في الخصب وفي المتانة عن أحدث النظم الغربية المعروفة في الوقت الحاضر . ويكون دعامة من دعائم القانون المقارن . ولا أكون مبالغاً اذا قلت ان الدول الغربية نفسها تستمد منهُ أحكاماً قانونية تراها فيهِ أرقى منها في غيره من النظم الأخرى . ولما كان العلم لا وطن له ، والفقه علم ، فنحن لا نكون مغالين اذا توقعنا للفقه الاسلامي هذا المستقبل الزاهر

— ٢ —

س . هل جاء الوقت الذي يمكن فيهِ لمعهد العلوم القانونية في مصر أن يساهم في رقي الفقه العالمي اذا لم يكن قد ساهم في ذلك منذ الآن . وما هي المحتملات المنتظرة في هذه الناحية ؟

ج . أعتقد ان الوقت الحاضر صالح للمساهمة في رقي الفقه العالمي . وعلى كلية الحقوق ان تنشط لذلك ، وان تعدَّ لهُ ما استطاعت من عدة . وخير سبيل تسلكه هو الاشتراك في المؤتمرات العلمية ، والتقدم الى هذه المؤتمرات بأبحاث فقهية مبتكرة . وأفضل ان تتناول هذه الابحاث بنوع خاص مسائل من الفقه الاسلامي على النحو الذي قدمت في الاجابة على السؤال الاول

وعندي أنهُ ينبغي ان توثق كلية الحقوق صلاتها العلمية بكليات القانون في العالم العربي . ففي العواصم العربية ، كبغداد ودمشق ، معاهد للقانون تعيش منعزلة احداها عن الاخرى . وواجب على كلية الحقوق بمصر ان تتصل بهذه المعاهد اتصال تعاون ، وان تتبادل معها الاساتذة والطلبة على وجه يكفل للعالم العربي ان يسير في نهضته الفقهية متكاتفاً متساندا . وأرى ان كسبنا الادبي من التوجه ناحية الشرق العربي لا يقل عما نكسبه من الاتجاه صوب الغرب

٣ — كلية الهندسة

حديث الدكتور عبد الرحمن الساوي بك
وكيل كلية الهندسة

تلقيت بالترحيب أسئلة المقتطف الغراء وأشكر لمجلتكم العريقة في خدمة العلوم حرصها على تتبع تطوُّر التعليم الهندسي في مصر ويسرني أن أجيب بالآتي :

— ١ —

فمن السؤال الأول وهو « ما هي أهم الابحاث الهندسية التي يقوم بها معهدكم الآن وهل شارك هذا المعهد في التطوُّر الفني للأعمال المصرية خلال السنوات العشر الماضية وما هو مدى هذه المشاركة »

أقول — ان الغرض من كلية الهندسة هو أولاً ترقية العلوم الفنية في مصر وثانياً تكوين مهندسين ومعماريين للمصالح والصناعة فسؤالكم ينصبُّ على ما تمَّ من الأعمال في سبيل تحقيق غرض الكلية الاول . والحديث في ذلك يطول لذلك سأكتفي هذه المرة بذكر لمحة عن الابحاث التي قامت بها معامل الكلية وطبقت نتائجها فعلاً في مصر

(١) أبحاث معمل الري — الغرض منها الوصول الى أنسب شكل وأقصر طول لأعمال الري المختلفة من قناطر وخزانات وسحارات وهدارات الخ وذلك بعمل التجارب على نماذج لهذه الأعمال. وقد قام الاستاذ حسين حفني بسلسلة من هذه التجارب وازن فيها بين تصميمات مختلفة لفرش القناطر وقد أثبت انهُ بتعديل في تصميم قناطر نجع حمادي كان يمكن الاكتفاء بفرش طوله ٦٠ متراً بدلاً من ١٠٦ امتار فاجري ذلك التعديل ولا يخفى ان في ذلك وفراً لا يستهان بهِ (ما يربو على المائة الف جنيه) وقد نشرت هذه الأبحاث بجمعية المهندسين الملكية في ابريل سنة ١٩٣٤ وناقشها مهندسو مصلحة الري . ومن بواعث السرور أن نجد نتائجها قد طبقت على التصميمات الجديدة للقناطر ونفذت فعلاً في كثير من الأعمال بعد ذلك التاريخ مثال ذلك قناطر فم الرياح العباسي الجديدة وقنطرة حوض الدلجاوي وغيرها. كذلك قد عدل فرش سد جبل الأولياء بما يتفق ونتيجة هذه الأبحاث

وقد حقق الاستاذ حفني ظاهرة دخول الهواء بالسحارات اذا وجد أمامها هدار وكان مدخلها غير مغمور بالمياه وهذا الهواء قد يسبب ضغطاً ينتج منهُ كسر السحارات وخاصة اذا تسرب اليها الهواء في مقادير كبيرة وزاد ضغطه داخلها عما تتحمله جدرانها

ويقوم معمل الري من حين لآخر باجراء تجارب على نماذج لمختلف الأعمال ليتمكن الطلبة

من معرفة مدى تأثير المياه في قعر المجرى وجوانبه وتأثير منشآت الري في سير المياه وماينبع ذلك من تيارات مختلفة وفقدان للمنسوب الخ وتقريب تلك الحقائق الى أذهانهم بطريقة عملية

(٢) معمل ابحاث الأساسات وابحاث الخرسانة — الى عهد غير بعيد (منذ عشر سنوات تقريباً) لم يكن لعلم الأساسات ضوابط غير القواعد التجريبية ويرجع الفضل في تركيز هذا العلم على أسس علمية الى جهود الاستاذ ترزاكي الذي أنشأ أول معمل لاختبار تربة الاساسات بجامعة فينا. وقد كانت كلية الهندسة في طليعة الكليات التي أخذت عنهُ وعاونته في هذا السبيل باكتشاف قواعد علمية يمكن تطبيقها على أساسات التربة المصرية. فأنشأت منذ ثلاث سنوات معملاً لهذا الغرض. ولما كان هذا الموضوع لا يمكن حله باجراء أبحاث داخل المعمل فحسب بل لا بدَّ للوصول الى نتائج علمية مع القيام بتجارب على مختلف المباني كبيرها وصغيرها فالبحث يصطدم بعقبة كأداء، فلا المهندسون ولا المقاولون داخل الحكومة أو خارجها براغبين في عمل من شأنه اظهار عيوب هذه المباني بالرغم من التأكيد بأن نتائج هذه الابحاث تحفظ سرية ولا يجوز افشاؤها لغير أصحاب المباني أنفسهم، وبالرغم من ان نتائج هذه الابحاث ذات قيمة عظيمة للمهندس والمقاول

ومع ذلك فقد امكن مع الوقت تذليل تلك العقبات واصبح المعمل يقوم بتجارب على خمسة وعشرين مبنى من أكبر مباني القاهرة والاسكندرية وغيرها من مدن القطر المصري الكبرى

ففي داخل المعمل تجري تجارب على نماذج من التربة المقام عليها المبنى من شأنها توجيهنا الى حساب مقدار هبوط هذا المبنى وكيفيته كنتيجة لاجهاد التربة وبذلك يمكن التنبؤ بمقدار تأثر البناء بهذا الهبوط أو عدم تأثره كلية بذلك. ثم يراقب المبنى ويقاس تحركه اثناء البناء وبعده وبمقابلة النتائج النظرية بالنتائج الفعلية يتسنى لنا ايجاد قواعد عامة للاساسات في مصر. ويسرني ان أقرر ان هذا المعمل قد وفق في السنوات الثلاث الاخيرة الى ايجاد قواعد هامة في هذا الموضوع

وتعد مصر الآن من الممالك العشر الاولى التي عنيت بمثل تلك الابحاث وقد نال عمل الكلية تقدير هيئة المؤتمر الدولي الاول لميكانيكا التربة وهندسة الاساسات الذي عقد بأمريكا في الصيف الماضي ومثل الكلية فيه الدكتور سليم حنا رئيس هذا المعمل

(٣) معمل الحرارة — يقوم هذا المعمل بعدة أبحاث في الآلات ذات الاحتراق الداخلي وطرق اختبارها وقد عرضتُ على مؤتمر الميكانيكا الدولي المنعقد في كامبردج سنة ١٩٣٤ نتائج بحثي في هذا الموضوع (ص ١٤٤ من مجموعة أعمال المؤتمر)

وهناك كثير من الأبحاث العلمية التي وان كانت لم يتم تطبيقها بعد الا أن لها قيمتها والكلية حريصة على تشجيعها لأن البحوث العلمية البحتة وان ظهرت في اول عهدها بعيدة كل البعد عن التطبيق العملي لا تلبث ان تصير من اكبر الأسس التي تبنى عليها الاختراعات والأعمال الهندسية

الكبرى والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بذكر بحث مكسويل في نظرية الكهرباء المغناطيسية المرجية وقد ظل هذا البحث لا ينتفع بهِ عدة سنوات ولكنهُ أدى بعد ذلك الى اختراع الراديو وملحقاتهِ من الصناعات التي تعد الآن في مقدمة الأعمال الهندسية . ويدخل في نطاق هذا النوع أبحاث الدكتور رلتن والدكتور كونستابل الاستاذين بالكلية ولعلي أتمكن في فرصة اخرى من ايراد نبذ عن بعضها لقراء مجلتكم الغراء

— ٢ —

عن السؤال الثاني وهو: « يطالب الكثيرون بتمصير الدراسات الهندسية وصبغ بعض نواحيها بصبغة خاصة تلائم ماضينا العملي وحاضرنا الفني فما هو رأيكم في ذلك » ؟

اقول — لقد استقرت الطرق المتبعة في تكوين المهندسين بدليل ان المناهج والنظم المتبعة في جميع الممالك تكاد تكون واحدة ومع ذلك لا يفوت الكلية ان تكون الدراسة بها ملائمة لحاجات البلاد وذلك بتخصيص وقت اكبر وتوجيه عناية اعظم الى الدراسات التي تمت الى تلك الحاجات الخاصة بصلة

اما عن تدريس العلوم بلغة البلاد فهذا غرض سام لم تغفله الكلية وهي دائبة على تنفيذه تدريجيًا بقدر المستطاع دون طفرة ولا ابطاء

وقد تم ذلك في العلوم التي يسهل وجود مراجع عربية لها او التي لها مصطلحات عربية مثل علوم الري والمساحة والرياضة الابتدائية

وتعنى الكلية بالناحية العملية من الدراسة سواء أكان ذلك في معاملها أم عن طريق الرحلات والزيارات لأهم الأعمال الهندسية ولا يغرب عن البال انهُ ليس من الميسور أن يعنى بهذه الناحية عناية تامة مع عدم تضحية شطر عظيم من الجانب النظري منها الا اذا اطيلت مدة الدراسة اطالة كبيرة. وفي الكليات يجب ان توفى اولاً دراسة المبادىء النظرية الاساسية ثم يخصص ما يبقى بعد ذلك من الوقت لمتابعة التطبيقات العملية. وعندي ان الخبرة الهندسية تكتسب في ميدان العمل ولا تدرس في الكليات . فيجب الأ يتناول الجانب العملي في الجامعات والمدارس الفنية سوى ما كان منهُ مبيناً وموضحاً للمبادىء الأساسية السليمة

وأملي أن يطرد تقدم الكلية بعد انضمامها للجامعة ، فما من شك في فوائد التعارف والارتباط وتبادل الثقافة التي يسهل تحقيقها باختلاط طلاب الكليات المختلفة

واعتقد انهُ اذا اقتصر تعليم المهندس على الناحية الفنية فحسب فانهُ يشعر عند ما يمارس الحياة العملية بنقص من الوجهة الثقافية العامة لذلك قد حتمت بعض الجامعات على طلبة الهندسة ان يحصلوا على بكالوريوس في الآداب قبل منحهم درجتهم في الهندسة لأن التثقيف العام من اكبر العوامل التي تعد الانسان في حياته للاضطلاع بأوفر قسط من المسئوليات

٤ — كلية التجارة

حديث محمد حمدي بك

عميد كلية التجارة

أسئلة المقتطف

(١) ما هي أهم فروع الثقافة التي تقدمها كليتكم لطلابها
(٢) هل هناك صلة بين معهدكم وبين نظائره من المعاهد الغربية
(٣) ما هي مدى المساهمة التي قدمتها كلية التجارة لرفع مستوى الاقتصاد في الامة المصرية
(٤) ما هي الصورة المثالية التي ترجونها لكلية التجارة في عهدها الجامعي الجديد

الاجابة عن السؤال الاول

كان — ولا يزال — الغرض الاساسي من انشاء هذا المعهد اعداد فئة من الشبان تصلح في المستقبل لتحمل المسئوليات في تنظيم المشروعات التجارية والاقتصادية في المجتمع المصري وإدارتها . لذلك كانت الثقافة التي تقدمها كلية التجارة لطلابها هي ثقافة عالية عميقة في فرعين من الدراسات : دراسة العلوم التجارية ، ودراسة العلوم الاقتصادية

وقد أخذت الكلية منذ العام الماضي تجري على سنة التخصص في هذين الفرعين ابتداء من السنة الثالثة الدراسية ، وأصبح هناك : (١) قسم العلوم التجارية : وهذا قوامه علم المحاسبة والمراجعة وعلم ادارة الاعمال ، وتشوبه دراسة بعض العلوم الاقتصادية والمالية والقانونية (٢) قسم العلوم الاقتصادية : وهذا قوامه علم الاقتصاد وعلم المالية العامة . وتشوبه دراسة بعض العلوم التجارية والسياسية والقانونية

واليك على سبيل المثال بياناً لبعض المواد التي يشتمل عليها منهج الدراسة في الكلية : علم الاقتصاد من الوجهتين النظرية والتطبيقية — علم المحاسبة — علم الاحصاء — علم تنظيم الاعمال — رياضة تجارية ومالية — جغرافيا اقتصادية — تاريخ اقتصادي — قانون تجاري —

اقتصاد اجتماعي — اقتصاد زراعي — نظام الصناعة الحديثة — اعمال المصارف — بورصات البضائع والاوراق المالية — صناعة وتجارة القطن — التأمين — الاعلان — علم نظريات الحكومة . . . . . . الخ

ولئن كان علم الاقتصاد يدرس ايضاً في مصر في كلية الحقوق كما هي الحال في فرنسا الا ان دراسته في كلية التجارة أوسع وأعمق ، كما انها مدعمة فيها بمجموعة من علوم اخرى تجارية وجغرافية وتاريخية تمت الى علم الاقتصاد بصلات قوية لذلك كانت كلية التجارة هي التي تعتبر بحق المعهد الاقتصادي في مصر ، ومنها وحدها يتخرج الاخصائيون في العلوم الاقتصادية والتجارية

وتعنى كلية التجارة عناية خاصة باللغتين الانجليزية والفرنسية ، فتكثر من عدد حصصهما في سني الدراسة الاربع وتقالل من عدد الطلبة في فصولها الى أدنى حد وتجعل الامتحان فيهما اجبارياً في كافة السنين ، وفوق هذا فهناك طائفة كبيرة من المواد الفنية تدرس باللغتين الانجليزية والفرنسية

***

الاجابة عن السؤال الثاني

لا شكّ في ان هناك صلة وثيقة بين كلية التجارة في مصر وبعض المعاهد العلمية التي تناظرها في البلاد الغربية . وهذا ما تنمُّ عليه الحقائق الآتية :

(١) انهُ روعي في تنظيم كلية التجارة في مصر ان تكون على غرار مدرسة العلوم الاقتصادية في لندن ومدرسة العلوم السياسية في باريس ، وذلك مع ملاحظة احوال البيئة المصرية . وكثير من المواد التي تدرس في المعهدين الانجليزي والفرنسي لها مثيل في المعهد المصري

(٢) ان أعضاء هيئة التدريس في المعهد المصري تخرجوا جميعاً من الجامعات الاوربية وقضوا بين جدرانها سنين طويلة وتشبعوا بنظم المعاهد الغربية وطرائق التدريس فيها ونشروا رسائلهم وبحوثهم العلمية الاولى في ظل تلك المعاهد ، كما ان منهم من ظلّ محتفظاً بصلاته الشخصية ببعض أساتذته الأوربيين السابقين ، فيكاتبهم من وقت لآخر ويستطلع رأيهم في بعض بحوثه العلمية التي يعدها للحصول على درجة أعلى

(٣) ان جميع اعضاء هيئة التدريس في كلية التجارة ينتمون الى بعض الجمعيات الاوربية التي تعنى بشئون التعليم التجاري كالجمعية الدولية للتعليم التجاري ، وهم بوساطة الاجتماعات السنوية التي تعقدها هذه الجمعية والمجلات والنشرات الدورية التي تصدرها يقفون على حركة التعليم التجاري وتطورها في بلدان العالم المختلفة

ان كلية التجارة في مصر قد اخذت منذ العام الماضي توفد بعض مدرسيها في اثناء العطلة بعثات صيفية الى بعض البلاد الاوربية للوقوف على التطورات الاخيرة في بعض العلوم والفنون كفن الاعلان والبيع والتأمين ، وزيارة المعاهد والشركات الخاصة بذلك

***

الاجابة عن السؤال الثالث

تشعر الهيئة المشرفة على التعليم في كلية التجارة بأن في عنقها رسالة خطيرة يجب ان تؤديها على احسن وجه، هي ايجاد الكفاءة المصرية التي تستطيع ان تتغلغل في دوائر المال والاعمال والشركات فتمصرها بعد ان ظل العنصر المصري مقصيًّا عنها زمناً طويلاً والتي تستطيع ان تفتح للاقتصاد القومي ابواباً جديدة بما تؤسس من مشروعات وتنشيء من شركات . وان كلية التجارة لتفخر اليوم بأن عدداً كبيراً من خريجيها يشغلون مختلف الوظائف الفنية في بنك مصر وشركاته ، وان على عواتقهم يقوم صرح هذه المؤسسة القومية العظيمة . ومثل ذلك يقال عن بنك التسليف وعن المجالس الحسبية أخيراً

وقد كانت الوظائف الحكومية دائماً مغرية خريجي كلية التجارة شأنهم في ذلك شأن خريجي المعاهد الاخرى ، فتوظف منهم في وزارات الحكومة ومصالحها المختلفة عدد كبير ، ومنهم من يتولى الآن أرقى الوظائف والدرجات . ولكن لما ان تكاثر عددهم في العهد الاخير وضاقت بهم سبل التوظف في الحكومة اخذوا يطرقون ابواب الشركات الاجنبية كما كان منتظراً ويلحون في الطرق ، ومن ورائهم ادارة المعهد وبعض الرجال المسؤولين يؤيدونهم ويشدون ازرهم ويوجهون نظر مديري هذه الشركات الى واجبهم نحو ابناء البلد الذين يعملون فيه ، وقد استطاع فريق من الخريجين ان ينفذ الى بعض الوظائف في هذه الشركات ولكن عددهم في الجملة قليل . وهم هنا يرتطمون بعقبتين كبيرتين (الاولى) ان المرتبات التي تعرضها هذه الشركات على الخريجين قليلة لا تتناسب مع درجتهم الجامعية وثقافتهم العالية . (الثانية) ان هذه الشركات تفضل استخدام خريجي المدارس الاجنبية ولاسيما الفرنسية ، وذلك لان امساك الدفاتر في هذه الشركات وأعمالها المختلفة لا تزال باللغة الاجنبية . على انه ليس ثمة شك في ان محصول خريج كلية التجارة في بعض اللغات الاجنبية كبير ولكنهُ لا يضارع في ذلك خريج المدارس الفرنسية الذي يتلقى علومه كلها باللغة الفرنسية والذي تعلمها منذ نعومة اظفاره ويتحدث بها في بيئته الخاصة . وعنده ان الوقت قد حان لكي تعدل هذه الشركات عن مخاطبة المصريين والتعامل معهم بلغة غير لغتهم

القومية مما ليس له مثيل في اي بلد مستقل آخر ، وللحكومة في هذا الميدان مجال واسع للتدخل كما ان شيئاً من الاعلان عن قيمة الدراسة في معهدنا ورقي مستواه العلمي قد يكون كفيلاً باقناع هذه الشركات بأن تدفع الى الخريجين اجوراً مقابل ما سوف يؤدونه لها من خدمات جليلة

ونحن نعتقد اعتقاداً راسخاً أنهُ متى تقدَّمت السنون وا كتسب خريجو كلية التجارة من التجارب قسطاً كافياً — ومعظمهم لا يزال في مستهل حياته العلمية — فسوف يظهر منهم رجال أقوياء يقدمون على انشاء المشروعات الاقتصادية الخطيرة التي تفتقر اليها البلاد ، ويوجهون اقتصادياتها في الاتجاه الصحيح ، ويكونون هم قادة الحركة الاقتصادية في مصر

***

الاجابة عن السؤال الرابع

نرجو لكلية التجارة في عهدها الجامعي اطراد التقدُّم والرقي ، وان تكون بحق في الشرق كله أكبر معهد للدراسات التجارية والاقتصادية يرد مناهله من جميع الاقطار الشرقية الشبان الأقوياء الذين يريدون ان يزجوا بأنفسهم في ميادين الاعمال الاقتصادية المنتجة فينافسون ويزاحمون وينجحون

ونرجو من الناحية العلمية ان يخطو المعهد خطوات جديدة في البحث والتأليف واخراج أدق البحوث في الموضوعات التجارية والاقتصادية ، وتنظيم المحاضرات العامة لنشر الثقافة الاقتصادية بين الجمهور

ومن الناحية العملية نرجو ان يزيد الاتصال بين رجال التعليم في هذا المعهد وبين رجال الاعمال البارزين ، فيكون لهؤلاء ممثلون في مجلس الكلية يمدونه بآرائهم العملية فيما يعالج من مسائل وما يرسم من خطط دراسية ، ويوجهون نظره بالاخص الى انواع الدراسات التي تهم في الحياة العملية اكثر من سواها والى الصفات والملكات التي يجب بالاخص تنميتها في طالب التجارة ، وان يتفضلوا من وقت الى آخر بالقاء بعض المحاضرات على طلبة المعهد . ويقابل ذلك من الجهة الاخرى ان يكون من اساتذة المعهد اعضاء في اللجان الفنية التي تؤلف في مختلف الوزارات لمعالجة بعض شئون الاقتصاد القومي ، كما يكون منهم مستشارون فنيون لبعض الشركات ومراقبون لحساباتها واعضاء في مجالس ادارتها ، وبذلك يستطيعون ان يكونوا دائمي الاتصال بالحياة العملية ولكي يشرحوا آراءهم النظرية في ظل التجارب الشخصية والاحوال الاقتصادية المحلية ومن ثمَّ يرتفع مستوى دروسهم ويزيد نفعها لطلابهم

٥ — كلية الزراعة

حضرة محمد توفيق الحفناوي بك

عميد كلية الزراعة

— ١ —

كلية الزراعة معهد علمي بدأ صغيراً وساير قوانين النمو على مرور الزمن فتناولته يد الاصلاح والتعمير والتوسع وشملته روح التجديد ولا يزال هذا المعهد متابعاً نموه ولما يبلغ الغرض الذي نتوخاه له بعد

ذلك ان أي معهد علمي يبدأ حياته متواضعاً إثر فكرة طارئة أو إحساس عميق بضرورته. فان كان وليد الفكرة الطارئة أو البحث السطحي يغلب فيه أن يولد ميتاً. اما ان كان إنشاؤه نتيجة شعور صحيح بأن وجوده لا بد منه ليسد نقصاً في احدى نواحي النشاط العام للبلاد فانه لا يلبث أن يسوغ وجوده وأن يقوم كالبنيان الراسخ فوق أساس ثابت الدعائم وأن تدب فيه روح الحياة فيكبر بتوالي الايام ويزيد الاقبال عليه والانهال من مورده

وقد كان هذا شأن معهدنا إذ بدأ كمدرسة زراعية أنشأها المغفور له محمد علي باشا وجلب لها الاخصائيين من الأجانب بقصد إدخال الأساليب الحديثة في الزراعة فواجهت هذه المدرسة حملات قوية من دعاة الرجعية وقد إختفت من الوجود مدة وأخيراً غالبت هذه الحملات واستقرت بالجيزة متواضعة يقصدها كثيرون من الاجانب لدراسة الزراعة المصرية. على ان هذه المدرسة لم تلبث ان سوغت وجودها بما صادفت من النجاح في تجاربها الزراعية التي شاركت فيها الجمعية الزراعية وكانت تصدر باسم الهيئتين مجلة شهرية كما ان خريجي المدرسة المذكورة إنتشروا في مختلف الأوساط الزراعية فأفادوا فائدة كبرى

لهذا اتجهت أنظار أولي الامر الى العناية بهذه المدرسة والرقي بمستوى التعليم فيها فكان من ذلك أن أصبحت في سنة ١٩١١ مدرسة عالية

وتابع المعهد بعد ذلك سيره حثيثاً متلمساً وسائل النهوض ولكن لم يحاول خريجوه أن يوجهوا أنظارهم الى ما وراء أفق الوظائف والتوظف. ولم يكن في ذلك عيب أو غضاضة بل كان أمراً طبيعيًا في ذلك الوقت إذ تعددت المصالح الزراعية الحكومية كمصلحة الاملاك ووزارة

الاوقاف وديوان الخاصة الملكية فضلاً عن مصلحة الزراعة نفسها التي أصبحت وزارة منذ سنة ١٩١٣ لما للاعمال التي تقوم بها من الشأن الكبير في خدمة البلاد. وكانت الوظائف الزراعية شاغرة بهذه المصالح تستنفد خريجي المدرسة عاماً بعد عام، بل كثيراً ما كانت تزيد عن عـــددهم

على أنهُ عقب استقرار الامور بعد الحرب العالمية نشط معهدنا من عقاله ودبت فيه روح جديدة تمشياً مع النهضة التي سرت في شرايين الحياة في مصر. وكان من نواحي هذا النشاط إيفاد البعوث للخارج حتى يقوم بالتدريس فيما بعد إخصائيون في مختلف المواد التي تدرس بالمدرسة

وقد عاد كثير من أعضاء هذه البعوث وأخذوا بالتدريس وبالبحث في جميع الفروع الزراعية وقامت المدرسة في الوقت نفسه بالاستعدادات المناسبة لقبول عدد من الطلبة أكبر مما كانت تقبله من قبل فكان ذلك عهد تجديد في التعليم الزراعي العالي إقترن في نفس الوقت بشدة اقبال الاهالي على ادخال أبنائهم المدرسة اذ أحسوا بفائدة التعليم بها

وعلى الرغم من أنهُ لم تنقض عدة اعوام بعد على بعث روح البحث والاستقراء في المدرسة فان ما تمَّ في هذا الصدد يدعو الى الفخر والايمان برسالة هذا المعهد الكريم

وكان بعد ذلك أن خطت المدرسة خطوة أخرى إذ أُلحقت بالجامعة المصرية وأصبحت «كلية الزراعة» في العام الماضي. فكان هذا إقراراً بعظم نفع هذا المعهد وحافزاً لتنشيط البحث العلمي

***

— ٢ —

فرسالة الجامعة هي رسالة البحث عن الحقيقة المجردة من كل غرض أو قصد. والآن يقع على عاتق كلية الزراعة نصيبها من هذا البحث وذلك في حدود مهمتها وهي نشر الثقافة الزراعية في بلد أخذت فيه الزراعة المكان الأول منذ اقدم عصور التاريخ

على أن ما قامت به الكلية من الابحاث في الفترة الوجيزة التي ذكرناها لم تغفل فيها الناحية العلمية التطبيقية بل كانت مصلحة المزارع المصري رائدها وبغيتها. فقسم الزراعة بالكلية يقوم بعمل تجارب على المحاصيل المختلفة بغرض التوصل لمعرفة أصلح طرق الزراعة أو أنسب مقدار من التقاوي أو أوفق مسافة تزرع فيها النباتات للحصول على أكبر محصول من غلة الارض. كما أنهُ من آن لآخر يجرّب كثيراً من المحاصيل التي لم تدخل بعد في عداد المحاصيل المصرية وذلك لمعرفة درجة صلاحها في مصر

وبجاراةً للتوسع الحالي في غرس الحدائق وللرغبة البادية في الانتفاع بمركز مصر الجغرافي وإتصالها بالأسواق الاوربية كبلاد مُصدِّرة لأنواع الفواكه والخضروات المختلفة فأن قسم فلاحة البساتين التابع للكلية يقوم بتجارب عن إدخالها أصناف جديدة من الفاكهة. كما أنهُ يجرّب زراعة بعض النباتات الاقتصادية والطبية لدراسة أوفق الطرق وأحسن المواعيد للزراعة ومقدار صلاحها لمصر

ولما كانت البلاد تفقد سنويًّا جزءًا من محاصيلها لفتك الأمراض بها فان قسم النبات بالكلية يبحث كثيراً عن ظروف الاصابة التي تسببها بعض الفطريات وقد تمكن فعلاً من تسجيل كثير من الحقائق عن بعضها

وللعلاقة الوثيقة التي للبكتريا بمحاصيل الحقل والحيوانات الزراعية بل وصحة الانسان ايضاً فأن قسم البكتريا يقوم بفحص الالبان المعروضة للبيع في الاسواق ليعين مقدار نظافتها وعدد الميكروبات التي بها ونوع هذه الميكروبات. كما انهُ يبحث عن أنجع الوسائل التي تؤدي الى نظافة اللبن وقد جرّب فعلاً لهذا الغرض طريقة الحليب الميكانيكي

ومن المعروف أن للكيمياء تطبيق واسع في الزراعة ولذا تعددت نواحي دراستها في الكلية فهناك تجارب تقوم على بحث موضوع التسميد وعلاقته بالتربة المصرية . وهناك تجارب أخرى عن مادة النيكوتين التي اتضحت فائدتها في مقاومة الحشرات وامراض النباتات . وهناك تجارب ايضاً عن تحليل بعض المواد التي تستعمل في غذاء الحيوانات لمعرفة قيمتها الغذائية ومقدرة الحيوانات المصرية على تمثيلها

ولما كانت البلاد تستورد سنويًّا مقداراً كبيراً من الجبن وسائر منتجات الألبان رأت الكلية دراسة هذا الموضوع بغرض إدخال عناصر جديدة في صناعة الألبان بمصر ولذا قام قسم الالبان بتجارب عن صناعة بعض أنواع الجبن التي تستورد من الخارج بكثرة مثل الجبن الرومي وصادف نجاحاً في ذلك . على ان القسم المذكور يصنع أنواعاً أخرى من الجبن الاوربي منذ مدّة طويلة وذلك مثل النوع المسمى كوموبير أو القشدر وغيرها وقد صادف بعض هذه الاصناف إقبالاً في الأوساط المصرية

وهناك كثير من الظروف يصعب فيها تصريف الفواكه والخضروات وتلافياً لما ينشأ عن ذلك من خسائر إهتمت الكلية بدراسة الطرق المختلفة لايجاد منتجات متنوعة وفعلاً قام قسم الصناعات الزراعية يبحث طرق الحفظ والتعبئة وإستخراج الشراب وتقطير الزيوت العطرية

ونظراً لما عليه حالة الحيوانات المصرية من التأخر والخلط فأن قسم تربية الحيوان بالكلية يعمل بجدّ على تحسين هذه الحيوانات ورفع مستوى الانتاج فيها . ولذا وجه الأهتمام الى تكوين

سلالة خاصة بانتاج اللبن من الماشية الدمياطية والى تكوين سلالة نموذجية للعمل من الماشية البلدية والى رفع مستوى الادرار ونسبة الدهن في لبن الجاموس . ويعمل القسم أيضاً على تكوين سلالات ممتازة من الأغنام الاوسيمي ومن انواع الدواجن المختلفة . وقد صادف نجاحاً في ذلك.وسيأتي يوم قريب يمكن لهذا القسم ان يوزع حيوانات جيدة للتربية . كما انهُ وجه عناية خاصة لادخال بعض انواع الماشية الأجنبية المعروفة بجودتها في اللحم واللبن ولا زال يواصل تجاربه فيها حتى يصل الى نتائج ثابتة قد يكون لها أثر في الانتاج الحيواني في المستقبل

وتعمل الكلية على نشر الابحاث التي تتم دراستها في مختلف الأقسام وذلك في المجلات الزراعية او التي لها علاقة بالابحاث المنشورة. وقد نشرت مجلة الفلاحة التي تصدرها جمعية خريجي الكلية بعض هذه الأبحاث. منها بحث عن زراعة فول السويا . وبحث آخر عن فواكه مستوردة من الخارج. وبحث عن الماشية والعناية بانتاجها. وبحث عن البرسيم كغذاء لماشية اللبن في مصر. وآخر عن تأثير تربية الاقارب في الدجاج . وبحث عن تأثير الفيتامينات في درجة نمو « الكتاكيت » وغير ذلك من الموضوعات الاخرى

هذا ويسرني أن أنوه بالمجهود الذي يقوم به كثير من أساتذة الكلية فانهم لا يقصرون مهمتهم على التدريس ونشر الابحاث الجزئية فقط بل يقومون ايضاً بحركة تأليف في موضوعات اختصاصهم ولا شك أن هذا عمل له قيمته لانهُ ينقل الثقافة الزراعية من وسط الكلية المحدود الى وسط أوسع وأعم كثيراً وتتبين فائدة هذا العمل اذا عرفنا ان المؤلفات الزراعية التي وضعت باللغة العربية قليلة جداً تكاد تعد على الاصابع . وقد صدر فعلاً من هذه المؤلفات كتاب الخضروات، وكتاب الفواكه وانشاء مشاتلها وبساتينها ، وكتاب تاريخ فلاحة البساتين ، وكتاب حدائق الفاكهة ، وكتاب حدائق الازهار، وكتاب الزراعة المصرية، وكتاب النبات، وكتاب تقسيم النباتات، وكتاب علم النبات ، وكتاب الكيمياء الزراعية ، وكتاب المساحة، وكتاب علم الحشرات الاقتصادي، وهناك عدة مؤلفات أخرى على وشك الظهور منها كتاب الوراثة ، وكتاب اصلاح الاراضي الزراعية ، وكتاب الخواص الطبيعية للاراضي الزراعية ، وكتاب مساحة الاراضي المصرية

وكثير من أقسام الكلية التي تهم جمهور المزارعين يفتح أبوابه لهم ويرحب بهم ويتصل باستمرار لمن يرغب الاسترشاد به او زيارته او التمرين به وخصوصاً قسمي الألبان وتربية الحيوان وقد بدأ قسم الصناعات الزراعية يحذو حذوهما أيضاً

وتدعى الكلية للاشتراك في المعارض الزراعية سواء كانت خاصة او عامة وتلبي الدعوة بعرض ما تقدمهُ لهذه المعارض او بحضور التحكيم وتوزيع الجوائز وقد كان للكلية مكان بارز في المعرض الزراعي الصناعي العام سنة ١٩٣١ غير انها رأت ألا تتقدم بمعروضات في معرض سنة

١٩٣٦ رغبة منها في إفساح المجال امام المباريات الشخصية ولذا اقتصرت الكلية على الاشتراك في هيئات التحكيم في المعرض المذكور وقد أقيم في العام الماضي المؤتمر الزراعي المصري الأول فساهم فيه كثير من اساتذة الكلية . على أنهُ اذا نظرنا نظرة واسعة الى تنظيم هذا المؤتمر ومباحثه وأعماله نرى أنهُ قام على أكتاف رجال الكلية سواء في ذلك خريجها الذين يعملون خارجها ومدرسيها الحاليين

هذه هي اعمال الكلية في ماضيها . صفحات فخار ومجد يتلو بعضها البعض

***

— ٣ —

على ان امام الكلية الشيء الكثير قبل ان تتم رسالتها كاملة فليس للعلم حد يقف لديهِ وقد وضعنا نصب أعيننا تقدُّم الزراعة في هذا البلد وسنقوم بنصيبنا كاملاً . وربما قال قائل أن التوسع الحالي في كلية الزراعة أصله ومنشؤه إزدياد عدد الطلبة المتقدمين للدخول فيها ممن لا يجدون محلاً في الكليات الاخرى. وليس أبعد من هذا الفرض عن الحقيقة إذ الواقع أن البلاد تقدر فائدة التعليم الزراعي العالي حق قدره وتضعهُ في مركزه اللائق بهِ رغبة منها في حفظ ثروة البلاد وفي زيادة مواردها وتعدد محاصيلها وليس عندي دليل على صحة ما أقول أقطع وأقوى من ان الحكومة تفكر تفكيراً جديًّا في انشاء كلية ثانية للزراعة بل أنها وعدت فعلاً بذلك في خطاب العرش الاخير

ولقد إزداد عدد الطلبة الذين يتخرجون الآن عاماً بعد عام زيادة تفوق حاجة الوظائف بمراحل كبيرة وعندي أن هذه حركة مباركة لانها ستلقي بخريجي معهدنا الى العمل الحر والى معاركة الحياة العملية ولقد عنيت الحكومة بأمرهم فعلاً وفكرت في مستقبلهم وفي الانتفاع بتعليمهم فوضعت مشروعاً لاقطاعهم أراضيَ يستغلونها بمساعدتها المالية حتى تصبح ملكاً لهم بعد مدة من الزمن وهذا المشروع في حد ذاته محك كبير لقدرة خريجي الكلية على ابراز معلوماتهم وتبرير وجودهم وتستفيد منهُ الدولة فائدة كبرى بتعمير مناطق لم تكُ عامرة وجباية ضرائب نشعر جميعاً بشدة الحاجة اليها في عهدنا السياسي الجديد كما ان الخريجين سيفيدون منهُ مصدراً لحياتهم من خيرة المصادر المعروفة في البلاد ألا وهو ملكية الاراضي وسيفيدون منهُ أدبيًّا كثيراً من صفات الرجولة كالجلد على مكافحة الحياة حلوها ومرها ووضع الامور في وضعها الصحيح فشتان بين حياة الوظيفة وحياة العمل الحر كما ان الشعب سيفيد منهُ زيادة في ايراد كثير من أفراده وعائلاته وسيجد المزارعون امامهم في الاقطاعيات المشار اليها قدوة حسنة تجمع بين العلم والعمل وتقف امامهم مرآة لروح العصر الحديث روح الانتفاع بجميع عناصر الطبيعة في الزراعة

٦ — جامعة القاهرة الاميركية

حديث الدكتور رسل جولت

عميد كلية الآداب فيها

قد يستغرب القرّاء لاول وهلة ان يفسح المجال لكلمة معهد اهلي صغير ، بين اقوال عمداء كليات الجامعة المصرية العظيمة . ولكن وجه الغرابة يزول اذا تذكرنا ان عمل المعهد التعليمي الاهلي في جميع انحاء العالم ، ليس منافسة معاهد الحكومة بل تكميل عملها . فالمعاهد التعليمية الاهلية لا تستطيع ان تحلّ محل الحكومة في تربية الشعب لان التربية في المقام الاول من شأن الحكومة . حتى في الولايات المتحدة الاميركية ، حيث تكثر الجامعات والمدارس الاهلية نجد ان معاهد الحكومة هي اساس التربية العامة . الا ان المدرسة الاهلية في العالم قاطبةً ، تقوم بعمل حيوي ، تستمدُّ حيويتهُ من طبيعة تكوينها ، وهو عمل قد يتعذر القيام بهِ في مدارس الحكومات . ففي انكلترا والولايات المتحدة الاميركية نجد جامعات اكسفرد وكمبردج وهارفرد وبايل وكولومبيا تتحمل من تبعات الزعامة التعليمية قسطاً اكبر من كثير من جامعات الدولة

وقد اتجهت جامعة القاهرة الاميركية منذ انشائها الى تحديد خطتها حتى لا تنافس مدارس الحكومة من جهة ، وليكون نوع التربية التي ينالها طلابها ذا ميزة خاصة ، ولذلك وضعنا نصب عيوننا ثلاثة اهداف

اولاً — ان نجرب التجارب بأساليب جديدة من التربية ، رأينا فيها فائدة لمصر وللبلدان العربية اللغة في الشرق الادنى

ثانياً — طبع طلابها بطابع حرية الفكر وحرية البحث والنقد الانشائي

ثالثاً — طبع طلابها بطابع الشخصية الممتازة والخلق العالي

ضروب جديدة من التربية — عنيت المدارس الاهلية في مختلف الاقطار باستحداث اساليب جديدة من التربية وتجربة التجارب بها . والواقع ان مدارس الحكومة يصعب عليها هذا التجريب . لان الحكومة تفضل في الغالب ان تحافظ على الحالة الراهنة . واذا رأت ان تحدث تغييراً كان التغيير بطيئاً ، وهي بطبعها تنفر من التجربة ، ولعلَّ أبلغ الامثلة على ذلك ما تمَّ في المانيا قبيل الحرب الكبرى . فالمدارس الاهلية ، التي من مستوى المدارس الثانوية ، منحت حرية واسعة النطاق في تجربة اساليب جديدة من التعليم . فأسفرت التجربة عن المدارس اليومية في الريف

وقد عنيت جامعة القاهرة الاميركية بتجربة سلسلة من التجارب ، في كلية الآداب فيها ، تتعلق بمناهج الدراسة ، والتمرين الفردي في معامل البحث ، والدراسة القائمة على مراجعة المؤلفات في المكتبة ، وانشاء حلقات للبحث والمناقشة، وتعيين مستشار من مجلس ادارة الجامعة لكل فصل من الفصول ، والامتحان الرياضي الاجباري ، والتربية الرياضية الاجبارية ، والتعليم الجنسي وغيرها

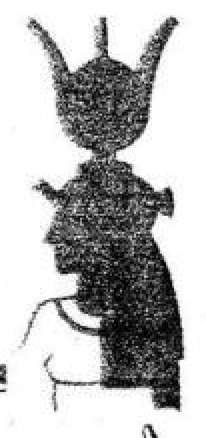
وقد أسفرت هذه التجارب ، عن نتيجة نفخر بها ، وهي على قول طلابنا القدماء ومتخرجينا ومفتشي الوزارة ، قد انشأت جوًّا خاصًّا بنا

ولم نكتف بتجربة التجارب بأساليب جديدة من التربية، بل سعينا الى انشاء فصول جديدة تدرس فيها موضوعات تهمُّ ابناء الشرق الادنى خاصة . فللطلاب الذين يتجهون الى الفوز برتبة بكلوريوس في الفنون والعلوم ، أعددنا برنامجاً في العلوم الاجتماعية ، يشتمل على علم النفس الحديث ، والحضارة المعاصرة ، وعلمي الاجتماع والاقتصاد ، وعلم السياسة ، والنظم السياسية المقابلة ، وتاريخ الشرق الأدنى ، ومشكلاته المعاصرة . بل لعلَّ أهمَّ ما عنيت جامعتنا باستحداثه في هذا الصدد ، قسم الصحافة ، الذي يعدُّ طلابهُ اعداداً نظريًّا وعمليًّا للاشتغال بالصحافة العربية ، وذلك لاننا نعتقد ان صحافة أية أمة قوّة من القوى العاملة على تثقيف البلاد ورفع مستواها العقلي . ولما كانت المعاهد العلمية في الولايات المتحدة الاميركية ، قد قطعت شوطاً بعيداً في تنظيم كليات الصحافة كان من الطبيعي ان تقدم جامعتنا على تجربة من هذا القبيل . فالطالب في قسم الصحافة ، يتلقى العلوم العامة في العلم والتاريخ والاجتماع والاقتصاد والنظم السياسية ، وعلاوة على ذلك يتلقى دروساً نظرية وعملية في تنظيم أعمال الصحف ، وقواعد تحريرها من جميع الوجوه ، ومن بواعث سرورنا أننا ننتظر حضور الدكتور ليل سپنسر عميد كلية الصحافة في جامعة سيراكيوس الاميركية ، في فبراير القادم ليلقي سلسلتين من المحاضرات في موضوعات صحفية ، وليشترك معنا بخبرته الواسعة كصحافي وعميد ، في تنظيم قسمنا الجديد

وقد جرَّبت جامعتنا كذلك تجربة جديدة في تربية المعلمين . فمدرسو المدارس التي في القاهرة يستطيعون ، ان يتلقوا في جامعتنا دروساً في فنون التربية والتعليم ، بعد الظهر ، وهذا يعدُّهم عند اتمام الدراسة واجتياز الامتحان للفوز برتبة بكلوريوس في التربية

وهذا القسم يديرهُ أساتذة متضلعون من علوم التربية الحديثة كفلسفة التربية ، وعلم النفس التربوي ، وادارة الفصول ، والاحصاءات التربوية ، والتربية المقابلة وغيرها

[البقيه في باب مكتبة المقتطف صفحه ١٢٧]



سميراميس

مسرحية

بقلم اديب فرنسا الكبير

بول فاليري

في ثلاثة فصول. موسيقى «ارتور هونجار» مثلت أولاً على مسرح «الاوبرا» في باريس ١١ مارس سنة ١٩٣٤

ومن يجهل اديب فرنسا الاكبر «بول فاليري» الشاعر الثائر الذي احدثت نظرياته الفنية تحولاً كبيراً في تيارات الادب . فهو عقل قبل كل شيء لا يرى في خضوع الشعر لهذا العقل غضاضة ، وهو مهندس يبني افكاره بناء هندسياً ، فلا تزداد الا روعة ، لا يرى ان عمل الشاعر مقتصر على التعبير عن خلجات فؤاده وخطرات نفسه وانما همه ان يعبر عن الافكار . . . . وترى في شعره عاطفة صافية تنزع الى ما وراء الطبيعة وهو لا يأخذ بيدنا ليقفنا ازاء عاطفة انسان ثانية ، وانما يرفعنا لنقف ازاء روح الوجود

والذين تلوا «المقبرة البحرية» والزورق الفني يلذ لهم تفكير هذا الشاعر الرمزي الذي يخلقه العقل للعقل . وقد آثرنا ترجمة هذه المسرحية للقراء ليروا لوناً جديداً من الادب الجديد تتعانق فيه الفنون الجميلة كلها من رسم وموسيقى وشعر وحلي تتضافر جميعاً وتتعاون على رفع الانسان الى عالم يخلقه التفكير العميق . وما سميراميس الا قوقعة سامية من فلسفة الشرق التي يلتقي فيها كل شيء متآلفاً حتى المتناقضات «خليل هنداوي»

الاشخاص

سميراميس — الأسير — اربعة منجمين

ملوك . اسرى . كهان دركتو . وصيفات الملكة . جنود . خدم

الزخرفة — زخرفة المكان وأردية من فيه تمثل روح الآثار القديمة ، يمازجها شيء من الروعة والزينة الفخمة

بابل

العجلة

زخرفة الفصل : هنالك بهوٌ واسع ، وأبواب صمّاء ، نرى عن الشمال صنماً ضخماً للربّة « ديكرتو » على الهيئة الوحشية . وجهها وجه امرأة وبدنها بدن سمكة . وترى عن اليمين — أزاء الصنم — عرشاً منصوباً على هيئة ديوان تتألف أجزاؤه من أسراب حمائم ذهبية ، وعلى جوانب الصنم منارات ومصابيح مختلفة تُنار في أوقاتها

يرتفع الستار فاذا المشهد مظلم رائع ، واذا بالموسيقى تعزف رويداً رويداً . وهنالك بعض اشخاص من عمال القصر يعملون وقد يتخلل هذا المشهد ضرب من الرقص الايقاعي مدى لحظات قصيرة

دخول الاسرى : تتعالى في خارج المشهد لجبة تمتزج بها اصوات الأبواق ، فيتحرك الاشخاص فجأة ، وتفتح الابواب بشدّة فيدخل الملوك الأسرى مصفدين بالأغلال في سبيل ضيق تحيط به الجنود ، يجثون ويركعون وترى سيماء الخزي عليهم ثم يشمل السكون ويطول الانتظار

دخول الملكة : ها هنا تخلق الموسيقى جوًّا جديداً محفوفاً بالقوة والكبرياء وتبدو الملكة على عجلة خفيفة عليها جثث المحاربين وهاماتهم المبتورة . يجر هذه العجلة ثمانية ملوك اسرى مصفدين بسلاسل من ذهب . تطل سميراميس من قلب عجلتها السوداء ، بيدها مجن ذهبي وعلى كتفيها نشرت حمائم من ذهب اجنحتها . وعلى وجهها خوذة تحجب جله . وهي مستوية على حامية طاجية مبسوطة على هيئة سمكة . تأخذ المُدُق بيد . وبالأخرى تتناول قوسها فتسكن كل حركة بدخولها وتصبح اللحظة لحظة احتفال

الملوك المقهورون : الويل لنا ، الويل لنا

والخزي لآلهتنا الضعفاء !

يا للمجد الخادع !

يا للضحايا المسفوح دمها باطلاً !

— ١ —

تحمل حزم الملوك ويُقدمونهم بغلظة ليتمرغوا على درجات العرش . ويقدم الجنود منقضين على بعض الأسرى حتى يكون من هذه الأجساد الذليلة بساط مفروش من اليمين الى الشمال والجواري منطرحات حول العرش

— ٢ —

تهبط الملكة من محملها في جلال وتتجه نحو عرشها واطئة أجساد الأسرى

— ٣ —

تجرد الجواري الملكة من سلاحها وتكسوها زينتها الملكية وعلى العرش تسطع الانوار ثم تنزل الجاليات الى العرش وهن يؤلفن حلقة دائرة فيقدمن المرآة والتاج وغيرهما ، وخلال ذلك توقع الموسيقى ألحاناً تلائم هذا المشهد . تنتهي سميراميس من زينتها وتقعد كالنائمة وبيدها صولجانها

— ٤ —

الكهان والجنود يرقصون والعبيد يدخلون حاملين أوثان المغلوبين على أمرهم ، على هيئة مسوخ مختلفة لها وجوه حيوانات ، فتلقى أمام الربّة « ديكرتو » فتعزف الموسيقى لحناً مفجعاً ، يمتزج ببعض حركات غريبة الشكل ، ثم تشير الملكة فتقطع هذه الأوثان وتحطم تحطيماً

— ٥ —

روّعت هذه اللجبة احد الملوك الأسرى فرفع رأسه ونظر الى هذا المشهد وجلاً . لمحته الملكة وخفت اليه رافعة صولجانها . حدقت في ملامحه فهمّ احد الجلاّدين بقطع عنقه ، لحنت برأسها على ذراعيه فسكن جاش الجنود وهي قد سباها جمال الاسير فدغدغت خصائل شعره ورفعت رأسه بها وتأملته طويلاً ثم ألقته يجثو على ركبتيه وهي لا تزال قابضة على ناصيته . وأعطت الحراس صولجانها فحملوه راكعين خاشعين . أمرت سميراميس الأسير بأن ينهض وغدائر شعره في يدها . وما زالت تشدّ به حتى انتحت به ناحية وتركته جامداً كالمعتوه لا يتحرّك . أخذت تمتحنه

بانتباه دقيق ، تجس ذراعيهِ وكتفيهِ وتأمرهُ بأن يدور حولها ذات اليمين وذات الشمال ، وينتهي امتحانها بابتسامة رضا فيها معاني الخشية . فتحل اذ ذاك قيود اسيرها فيقف مكتوف اليدين واجماً ساهماً ، لا يدري ما يُصنع بهِ . وهنا تخمد الانوار وتنطفىء المصابيح ، ويغشى غرفة الملكة ظلام لا يتبيَّن الناظر ما وراءه الاَّ بعناء بينما ساحة المشهد الاول تسطع بضوء خاص . تهوي الملكة برفق وحنان على قدمي أسيرها ، تمرغ وجهها على ركبتيهِ وترنو اليهِ بحب وغرام . وهو قد ذهب عنهُ الخوف وثاب اليهِ هدؤه وأخذ يمر بيده على رأسها وعلى فيهِ ترتسم ضحكة صامتة ، والستار آخذ في الهبوط

وهو ستار شفاف رقيق رسمت على ملاءتهِ المطرزة طيور مختلفة ، ترى عن يساره حراس القصر مدججين بالسلاح وهم يزجون امامهم الملوك المصفدين ، وترى حملة الطعام والشراب والثمار والعطور فوق المجامر يخفون الى حيث انتحى الحبيبان ، وخلال ذلك يقوم الهارجون بضروب من الرقص . ثم يرتعش الستار قليلاً قليلاً ثم ينهتك كأنما النسيم ازاحهُ فيهدأ الهارجون عن رقصهم ويتوارون وراء الاستار

الفصل الثاني

نحن في اعماق الفصل ، وعلى جوانبهِ ستور شفافة مزخرفة ، يرتفع الستار عن جناح من الحدائق المعلقة . . . فيهِ سرير واسع تتعالى مسانده على شكل هرم . . . والليل قد لف الكون ، وفي الجناح شمعدان ضخم يشتعل بالعطور والطيوب وحوله مائدة مشحونة طعاماً وثماراً معلقة بسلاسل غليظة يسهل تناولها

في قلب هذا الليل الطافح حبًّا العابق هوًى ترى الحبيبين على السرير وقد تشابكت منهما الأيدي ، وليس على بدن سميراميس الاَّ حليها . واسيرها يرتدي ثوباً ارجوانيًّا . . . يتعانقان طويلاً

الجوقة : سميراميس ، ايتها الحمامة الحيارة
ها انت ذاهلة في الحب
بدنك عذب بين يدي العقاب الخالد
ونفسك الكبيرة تتهاوى على الملذات

سولو : في قلب الليل
ان نحن الاّ أنت وأنا .
لا ملك ولا ملكة
في قلب الليل .

في قلب الليل
فمك هو فمي .
انما نحن شيء واحد
في قلب الليل .

انما نحن شيء واحد
لا ملك ولا ملكة
وفرح واحد
في قلب الليل . . .

— ١ —

يستيقظ الرجل ويتظاهر بالهرب من الملكة فتتبعهُ زحفاً على ركبتيها بين المساند. يسقط ويتظاهر بالنوم فترنو اليهِ بعطف وتلثم عينيهِ وتجعل تلمسهُ لمساً رفيقاً ، وتحنو عليهِ حنواً رقيقاً لتوقظهُ

— ٢ —

تتناول زجاجة عطر ترشها عليهِ وتدهن بدنه وتتملقهُ ، ثم تتناول ثماراً وكأساً ليأكل ويشرب . تخدمهُ كأمة ، وتلثم يديهِ وقدميهِ . وتبدو كأنها خاضعة لهُ متراخية عنده قد شلّ الحب كل قواها

— ٣ —

ينظر اليها ضاحكاً فرحاً بما ملك ، يبدي قوّة الرجل الذي انتصر . يحدثها ويراها كأنها من سقط المتاع . فيذكر كيف مستهُ أول عهدها بهِ فيعطيها رأسه . فتهزه وتضحك في وجههِ ضحكة وحشية بهيمية ثم تدفعهُ عنها وتشد عليهِ حتى تضعهُ تحت قدميها . وهي خلال ذلك مضطربة مختبطة فيرفع يده يريد أن يهوي عليها . وفجأة

يسود السكون . وسميراميس يتبدل وجهها وترجع الى الوراء وتجمع نفسها كأنها وحش ضارٍ ابدى براثنهُ للوثوب . ابتسم الرجل ابتسامة ازدراء وضحك . والانوار الذهبية استحالت انواراً لها لون الدماء . هزَّ كتفيها وقبض عليها بكلتا يديهِ محاولاً التغلب عليها . فاستجمعت قواها وانتفضت مغضبة وزلقت بين يديهِ كالأفعى وعادت الى وجهها سيماء الحرب فقذفت بهِ بعيداً وطرحتهُ على اسفل السرير حيث تدحرج ذليلاً . وصاحت صيحة اجابها عليها عواء وزئير ، وظهر على الأثر فريق من الحراس والحارسات كانوا يزحفون من احشاء السرير ، ويخرجون من اطواء الطنافس وثنايا الاستار ، فهووا على الرجل وكبلوهُ ، والرجل في حالة اضطراب

توارى الجمع وظهرت الملكة مرتدية غلالة سوداء حاملة بيدها حربة شرعتها نحو ضحيتها ، وغادرت سريرها وشمل الظلام ولا يزال النور يتألق على الستار المرتخي شيئاً فشيئاً ، ولا تزال العين تلمح طائفة من الحراس يحملون جثة الاسير وهم لحن يوحيه الظفر وخلال ذلك تبدو سميراميس وقد حملت مصباحاً مشتعلاً واخذت تتقدم

الفصل الثالث

يرتفع الستار عن مرصد مشيد على قمة برج أُقيم لرعي الكواكب وعبادتها . فيهِ أربعة وجوه ضخمة هي : « سيد » وهو ثور له وجه انسان . و« نيرجال » وهو اسد له وجه انسان . و« اوستور » وهو انسان . و« ناتيج » له رأس نسر . وكان الوقت قبيل الفجر والنجوم لا تزال تتألق . حتى اذا لمع لامع النهار وقع البصر سريعاً على مشهد فيهِ انهار وغابات ومدن ودخان

هنالك أربعة منجمين مختلفي الأزياء ، كأنهم في عيد الهي سحري يترنمون بأسماء الآلهة . . . يترنمون وينادون آلهتهم ، ويبدلون أوضاعهم

المنجم الاول : يا روح بعل ، يا ملك الاقطار

الجميع : اذكر

المنجم الثاني : ياروح « سان » يا فتاة الاقطار

الجميع : اذكر

المنجم الثالث : ياروح « ايستار » يا غادة الجحافل

الجميع : اذكر

المنجم الرابع: النهار يشرق . . . والنسر يعود . . . والحمامة تسرع مضرجة بدماء الحب . تعود تستنفد كنوز الحياة . . . ألا ان الحب يورث الموت

الجميع : سميراميس ! أيتها الألوهة ،
سميراميس ، أيتها القادرة ؟
يا قوة الآلهة ،
يا وردة السماوات ،
ترفقي بي يا سميراميس . . .

، وهنا ينطرحون ثم تدخل سميراميس في اعماق الهيكل ، وهي بردائها الاسود ،ورأسها محجوب بلفق ، وبينا هي تشد هذا اللفق على رأسها تنظر الى السماء نظرة عميقة وتحيي المنجمين ثم تدور على نفسها برفق وترقص رقصة النجوم ثم تقول

سميراميس : أيها الصرح ، يا صرحي ويا سمائي .
يا صرحي الذي رفعته وسمكته .
أيها البرج السامق ، يا صنع يدي
يا زهرة قدرتي المضرجة بدماء الذراري
يا هيكل السماء ، جئت أرتل مدائحي
ان الحمامة تحلق فوقك ، على علاء النسر
على قمتك أسكر بالكواكب
واستحم بالبرد السماوي الذي ينساب ليل نهار . . .

برد السماء الإلهي يبلل الروح كالسيف
ويخمد الحب في النفس وينقذها من السعادة .

ها هنا لا ذبول ولا حنان فاتر .
والورد ان هو الا ذكرى خالية المعاني
ولكن — هنا — تتجلى القدرة وحدها

أحييك ياسمائي ، يا هيكل الهياكل الذي من اجله آتي ومن اجله أعود

مغترفة من صدر الآلهة القوة — على ان أحيا وحدي —
ها انا ذا الآن الطاهرة الكاملة .
اني لن اكون — في الحب — شبيهة بالنساء .
اني حطمت الهياكل الغريبة ونثرت بقاياها على الحضيض .
ووطأت بقدمي اجساد الملوك الخافقة .
ومشيت على دماء الذكور الاشداء الضواري .
أنا ! . . .
وفي هذا المكان المهيمن على الأرضين التي يغمرها السبات ،
وعلى النعاس المتراكم ، وعلى اللجبة التي تتيقظ
وعلى حظائر البشرية ، حيث يُولد من يولد ويموت من يموت
اسأل نفسي واقف مرتابة...هل أنا أشدّ رعباً من الحياة اومن الموت ؟
انهما شيء واحد في نظر الكواكب

الجميع : في نظر الكواكب

سميراميس : بحكمتي وقوة ساعدي ، بحيلي وشجاعتي ، ومضاء عزمي ،
ورقة جسدي وظلال عيني ، بلغتُ — بقدرتي — القمة المرعبة .
وسلبتُ من الموتى هذا القليل الذي يصونونهُ من المعنى الإلهي
وصببتهُ في قلبي فوق الوجود
تاركة طبائعهم تفيض دناءة !
آه ! كم يلذني ان استروح ريح البغض من هذا المكان العالي.

الجميع : لكن « استار » معك فتاة الجحافل .

سميراميس : الحب ذاته خضع ليدي القاهرة وجعلتُ منهُ عبداً .

الجميع : هل يعطى الجمال سلاحاً يُصرَع بهِ ؟

سميراميس : أراني أرتجف اذ أريد ، وقلبي يتغير ويتحير .
جسدي هو شباك وحبائل ، واللذائذ التي يوزعها هي بنات شؤم وسوء .
لذتي هي وحش ضارٍ ، وفي سريري المطيّب أُحس حرارة الصيد الملكي

منجم : سميراميس جميلة

سميراميس : لقد سكر بلذتي ، وظنَّ الحبيب انهُ أصبح سيداً.
ولكن سميراميس المرأة كانت أدنى منهُ الى الرجال .
وهكذا قدَّمتهُ الحمامة مطعماً للنسور.

منجم : سميراميس طاهرة

الجميع : انها قتلت

منجم : سميراميس عظيمة

الجميع : انها قتلت

سميراميس : اعطيت كلاً طعامه ، وهبتُ ليلي للبدن ، وبدني للحب ، والحب للموت

الجميع : سميراميس عادلة . . . سميرا . . .

سميراميس : [بحدة] صه أيها الكاذبون ! اذهبوا وفرّوا وارتمشوا من عيني.
واعلموا ألاَّ احد سواي يقدر ان يعطيني مدائح .
[المنجمون ينكصون الى الوراء]
أيها الكاذبون المخادعون ، ان مجدي يقوم في نفسي وحدها .
وأنتم لا تستطيعون ان تشهدوا منهُ شيئاً
اذهبوا واهربوا
انكم لم تكونوا كهذا اليوم على أهبة الصلب
فروا من سميراميس التي تعرف ان تتلو في قلوبكم تلاوة أوضح مما تتلونهُ في النجوم ، وفي سميراميس ! . . .
[يزداد المنجمون خوفاً ويرجعون الى الوراء . . . وخلال ذلك يسطع الفجر ويكسو الأشياء بحرمتهِ المتوقدة ، ثم تتكشف الاشياء تحت نوره شيئاً فشيئاً]

سميراميس : [بتمهل وغضب]
ان هؤلاء الفلاسفة — من غير عقل —
يتركونني أشعر — عن حق — بأني أبذل لهم .
لقد كان أسيري — على الأقل —
مجبولاً من الصفاء الكامل

سميراميس : وهل أكثر صدقاً وطبيعةً من الاغواء والفتنة بأنهما من يثق بأنهُ جميل!
وهل أكثر صدقاً وطبيعةً من رجل يعلل نفسه « بأن ملكة تهب نفسها
وجسدها ان هي إلاّ امرأة مستعبدة ذليلة » .
لقد كان جميلاً حقاً ،
كم رقصت من أجله بلذة ، ومن أجلي أيضاً . . .
[تجلس على الافريز ، وصوت بعيد يحمل اليها صدى أغنية بسيطة
لا تدرك كلماتها ، تستغرق الملكة في حلم حزين ثم تأخذ ترقص بهوىً ،
ثم تكفُّ عن رقصها بغتة]
« سميراميس طاهرة . . . انها قتلت » .
يا قسمي بحقيقتها ، يا سميراميس وحدها !
ما ذا ؟ ان هذا الراعي الذي تتفاوح أغنيته بما لا أدري من روح الحب
هل ألّف اغنيته على الملكة ؟
وهل سم الكآبة الناعم المسكوب في هواء الفجر يقدر ان يقودني قسراً
الى الضعف الانساني ؟
لا يا سميراميس ... يا قادرة على الحياة وحدها معتزلة !
ليس لي شبيه ، ولا أريد حياة ولا موتاً .
[مزامير مبهمة تعلن اليقظة ، والشمس ترسل اشعتها ، تضيء المدينة ،
سقوفها ، ومجاري مياهها اللامعة . سميراميس تلمح نفسها وتقف موقفاً جليلاً]
ها أنت ...
ها قد بدا السيد يختال في مجده .
بدا من يعطي ومن يأخذ ، ومن يولّد ومن يبيد .
يظهر ويضرب ... ويضع كل شيء منسجماً في نظامه ...
يجمع الفضاء والارض والانظار والافكار
سلاماً يا سيد الزمان !
لا اريد سواك مرآةً لي ...
اني أقدم نفسي كاملة الى معرفتك الملتهبة

سميراميس : ولا ترى — في سميراميس لا سرًّا ولا ظلاً من اجلك .

[تكشف عن بدنها وتصبح عارية كما ظهرت في الفصل الثاني]

ايها الآله ... لا اعرف سواك !

يا آله الآلهة ، لا احد غيري وغيرك

أريده بكل قواي...

[ترقى على الافريز]

كم أروح !

كم أروح هنا ريح السلطة المطلقة الصافية .

أرى وأروح — في الاعالي — كل ما صنعت .

الرغبة تتركني والهوان يرفعني .

ان قلبي أوسع حدوداً من مملكتي

وليس هنالك صرح — مهما شمخ وتعالى — أستطيع ان أكتشف من علوه حدود نفسي

أريد ان أكون عظيمة حتى يأتي رجال العصور الآتية ويشكوا في وجودي .

أريد ان أكون قوية جميلة حتى يروا فيَّ خليقة رومانية سامية .

أليس المجد الأعظم هو نصيب الآلهة الذين لا يُبصَرون !

سيقولون عن سميراميس — ألاّ وجود لها — انها آلهية . . .

[تنزل وتمر بجنب الهيكل ، وبحركة من مشيها الفتان تابث لحظة كأنها في صلاة ثم ترقى درجات الهيكل]

والآن سأنام على حجارة هذا المعبد .

وسأصلي للشمس وهي في حدتها . حتى تُحيلني بخاراً ورماداً ، وحتى تنطلق — حرة من نفسي في هذه اللحظة — هذه الحمامة التي غذيتها بكثير من المجد والكبرياء

[وهنا تمددت سميراميس على حجر الهيكل واشتعلت بأفراحها وغدت مشعلاً من النور الباهر طوال لحظة . . . ضباب خفيف يحيط بها ثم يرتفع متوثباً ثم يتمزق . . . عن حمامة تطير ، ولا يزال المعبد الفارغ يسطع في الشمس]

الكيمياء الصناعية (١)

معجزات علمية أغرب من الخيال

بقلم عوض جندي

[عن مجلة العلم العام الاميركية]

﴿ الحرير الصناعي ﴾ ليتخيل القارىء كرة من الخيط ، تزن رطلاً واحداً فقط من نسيج رفيع جداً . فاذا ما نشرت تلك الكرة ، امتدت من المحيط الاطلنطي الى المحيط الهادي قاطعة أميركا من الشرق الى الغرب . فهذه احدى العجائب الكيميائية التي عرضت حديثاً في مدينة كنساس بولاية ميسوري بأميركا ، عند اجتماع الكيميائيين ، ليقابلوا أعمالهم بعضها ببعض . وهي أحدث ضروب الحرير الصناعي . اذ الثوب الذي يُصنع منهُ ، يتاح اخفاؤه في قبضة الكف

ولا شك في أن الذين صنعوا الكرة المشار اليها ، بالوسائل الكيميائية ، قد بزوا دودة الحرير . لأن رفع خيطها ، ثلث رفع الحرير الطبيعي . وكان تحسين وسائل تنقية عجينة الخشب ، التي تقوم مقام المادة الاولية في الحرير الصناعي ، ثم تحسين المحلولات الكيميائية والآلات المستعملة في صنع ذلك الحرير ، متحدة بعضها ببعض ، كفيلين بخلق تلك الكرة

فغدا المرء يعروه الدهش من مبتدعات الكيمياء الصناعية ، كما يؤخذ من مطالعة قصص كتاب الف ليلة وليلة ، العربي المشهور . وأصبحت الدار واللباس والمركبة ، بل كل ما يحيط بك من اللوازم يستفيد من صناعة الكيميائيين

﴿ السكر من نقيع الذرة ﴾ وتبين لهم أن الماء الذي ينقع فيهِ الذرة ، عند صنع نشاء الذرة ، يتولد فيهِ سكر ، ذو خاصيتين غريبتين . فيكون حلواً في حالة النقاوة . ولذا شرع بعضهم يجربونهُ في العيادات ليجعلوه بديلاً للسكر العادي في غذاء المصابين بالبول السكري . ويصير ذلك النقيع نفسه مادة مفرقعة اقوى من النيتروجليسرين اذا ما عولج بالحامض النيتريك . ولا

---

(١) كتبنا في عجائب الكيمياء الصناعية مقالا بعنوان «فحم حجري من الكربت» نشر في مقتطف مارس سنة ١٩٢٩ ومقالا آخر بعنوان « الفضلات الزراعية ومنافعها » في مقتطف مايو سنة ١٩٣٠

يحتاج الى أية مادة كيميائية هامدة عند تحضيره للاستعمال . فالنيتروجليسرين وهو سائل متفجر جدًّا يحيل بعض المواد الصلصالية ليصلح استعماله كديناميت . ولكنّ « ديناميت الذرة » صلب بذاته . ويتوقع الخبراء التذرع به الى تكسير الاحجار في محاجرها ، والى حفر الحفريات وشق الانفاق . ويقدر المطلعون انهُ يتسنى الحصول على مليون رطل من السكر كل سنة، كفضالة تتخلف عند صناعة النشاء . وذلك بالطريقة الكيميائية الجديدة التي ابتدعها الأستاذ ادوارد بارتو Bartow رئيس الجمعية الأميركية الكيميائية

﴿ بديل الهواء الطبيعي ﴾ وقد يمّن الدكتور ولرد هرشي الأستاذ بكلية مكفرسن في مكفرسن بولاية كنساس أن جراءة الكيميائيين، لا تحدّ إذ أذاع أنهُ وُفّق لبديل هوائي أصلح للرئات البشرية من الهواء الطبيعي ! !

ولا يخفى على القراء ان الهواء الذي نستنشقهُ يؤلف من النيتروجين والأوكسيجين ومقادير يسيرة من الهليوم وغيره من الغازات الجوية النادرة ، ولذلك رأى الدكتور هرشي أن يمتحن الغازات الأخرى ليقدر مبلغ صلاحيتها للحياة . فحبس طائفة من الجرذان والأرانب الرومية والسنانير والقردة في حجر زجاجية محكمة الاغلاق وجعل ينشقها غازاتٍ ومزيجات من غازات مختلفة بوساطة أنابيب ، فأدرك أن الهواء الطبيعي التي يأتي في المرتبة الثانية من مراتب الغازات الصالحة للتنفس ! ! إذ استطاعت الحيوانات المشار اليها ، الحياة ، واكتساب القوة ، في مزيج غازي مركب من الهليوم والاوكسيجين . فأثبت بذلك أن المرضى بالأمراض التي تسبب صعوبة التنفس هم الأولى يستفيدون من ذلك الاكتشاف قبل غيرهم

﴿ الصمغ المرن الصناعي ﴾ ولا بدَّ أن المشغوفين بركوب السيارات سيهتمون بمشكلتين خطيرتين ، وهما العجلات والوقود . وذلك من جراء المكتشفات الجديدة إذ وافتنا الأنباء من المانيا بأن علماء الكيمياء الصناعية قد تمكّنوا من صنع مطّاط صناعي، آخذين مأخذ الأميركيين الذين سبقوهم في ذلك الميدان . ففي مدينة « ديب ووتر بوينت » في ولاية نيوجرسي مصنع لصنع الصمغ المرن (المطّاط) ينتج مليون رطل في السنة . ويقول المحققون إنهُ ذو خصائص يتفوّق بها على المطّاط الطبيعي تفوقاً عظيماً ، وذلك من عدة وجوه ، وان ذلك المطّاط الصناعي سوف يحل في الحروب محل الطبيعي كله

ومخترع المادة الاساسية لتركيبه هو القس نيولند (الاستاذ بجامعة نوتردام) J. A. Nouwland وقد نال من أجله وسام Nichols نيكولس وهو من أسمى الجوائز الأميركية لعلم الكيمياء

وتؤلف المادة الأولية المشار اليها من الاسيتلين العادي وتسمى فينيلاسيتيلين Vinylacetylened

ومما قالهُ الكيمياوي الذي منح الجائزة الى ذلك الأب المخترع عند فوزه « ان ميدان البحث

العلمي لا أحوج الى شجاعة أكثر مما تقتضيها ساحة الوغى » وهذا قول لا مرية فيه اذ يعلم الخبراء علم اليقين مبلغ الخطر العظيم الذي يستهدف له كلُّ من مارس التجارب في مشتقات الاسيتيلين ، وهي مواد دقيقة شديدة التفجر

ومع علم الأب نيوولند بفداحة الخطب فقد خاطر بحياته مرات لا تحصى في قيامه بالتمحيص الذي أسفر عن ظفره ، ذلك الظفر المبين

﴿ البنزين الصناعي ﴾ ومن المواد الجديرة بالذكر في هذا الباب « استخراج البنزين من الفحم الحجري » وقد تمَّ في كل من انكلترا والمانيا، حيث أنشئت له مصانع ضخمة . أما في ولايات أميركا المتحدة فان مسألة مزج البنزين بالكحول ، واتخاذ ذلك المزيج وقوداً للسيارات ، فما برحت مثاراً لمناظرات عنيفة تدور رحاها بين علماء الكيمياء . اذ يقول انصارها انها ستفيد الزراع فوائد مالية عظيمة . وذلك من بيع مقادير كبيرة من محصولات الذرة التي تزيد على حاجتهم اذ يستطاع بالكيمياء ، تحويلها كحولاً . وان مزج الكحول الذي يستقطر من الذرة بتلك الطريقة ، بمقدار كبير من البنزين ، يجعله وقوداً صالحاً للسيارات مثل البنزين الصافي ، هذا اذا لم يفقهُ في الاقتصاد وتوليد القوة الدافعة

وعلى حين تتشعب آراء العلماء الكيميائيين في مبلغ الاستفادة من ذلك المزج المزمع تجربته ، يؤكد خبراء دائرة النماذج في حكومة الولايات الاميركية المتحدة ، ان المزيج نفسه وقود صالح جداً للسيارات ، بشرط واحد فقط وهو اختراع محركات خاصة تلائمهُ كل الملاءمة

وعلى كل حال ستتهيأ الفرصة لاصحاب السيارات وساقتها للحكم بأنفسهم على صلاحيته من عدمها، اذ أنشيء مصنع في مدينة اتشيسن في ولاية كنساس يستقطر كل يوم ١٠٠٠٠ جالون كحول من الذرة ، على ان تستعمل للمزج بالبنزين المعتاد وتصير وقوداً للسيارات يباع بالثمن عينه الذي يباع به البنزين المألوف

﴿ مستحلبات الفوتوغرافية ﴾ وسينتفع المشتغلون بالتصوير الضوئي بالحادث الاتفاقي الذي حدث من عهد قريب لأربعة شبان من الباحثين في الكيمياء كانوا يحضرون طائفة من المحلولات الفوتوغرافية فدهشوا إذ رأوا ان ورق الطبع المغشى بذلك المحلول ، ولد لوناً اسود في أجزاء الصورة التي يجب ان تكون بيضاء ، ولوناً ابيض حيث يتوقع ان يكون اسود . فبحثوا الموضوع جيداً ، فتبين لهم انهم قد عثروا على قاعدة لصنع نوع جديد من المواد يصلح للمصورين بالضوء، اذ يسهل التقاط الصور الضوئية التقاطاً مباشراً دون الاحتياج الى استخراج صورة سلبية ، بمثابة خطوة متوسطة . وان ذلك المحلول اللبني « المستحلب » الجديد يصلح ايضاً لاجل الفيلم واللوحات الفوتوغرافية والورق وتم تجليته بأساليب ومحلولات ثابتة

﴿ فلزات جديدة ﴾ وقد تكشفت لعلماء الكيمياء في مختبراتهم ، فلزات جديدة ، حيث استطاع الكيمائيون في معهد ملاون Mellon Institute للمباحث الصناعية في بتسبرج بولاية بنسلفانيا ، صنع شفرات فاخرة لموسى الحلاقة المأمونة . وذلك من مزيج فولاذي اخترع لذلك القصد . اذ خلطوا طائفة من المعادن، بعضها ببعض ، ثم استخرجوا منها خليطاً طنجستانياً يحل محل الرصاص في الوقاية من الاشعة القوية التي تنبعث من الراديوم . وهو خليط مؤلف من الحديد والالومنيوم والنيكل والكوبلت. ومنهُ تصنع الآن اقوى المغنطيسات الدائمة المغنطة، في العالم وكذلك يستعمل منهُ الفولاذ التي الذي يجمع بين الرونق والقوة لصنع مركبات السكك الحديدية

وبلغ من كثرة تنوع الاخلاط الفولاذية الجديدة المدهشة التي لا ينقطع سيل اختراعها ، ان علماء الكيمياء انفسهم ، يلاقون الصعاب في منافسة بعضهم بعضاً ، ابتغاء السبق في ذلك المضمار

ورغبت المؤسسة الهندسية في مدينة نيويورك ، في حصر الاخلاط الفولاذية والحديدية المشهورة ، الآن دون سواها ، حصراً سهل المنال ، فعينت ١٥٠ رجلاً ليفحصوا جميع الكتب الفنية في العالم ، وينقلوا منها ما يعثرون عليهِ من ذلك القبيل ، ليضعوا له فهرساً عامّاً

ويرى المحققون أن ذلك العمل الجليل لم يسبق له نظير في تاريخ العلم . ومن اغرب ما يروى في هذا الصدد أن معلومات علماء الكيمياء في الحديد نفسه ، يسيرة . اذ الحديد التي يكاد يكون حديث خرافة . وقد ثبت من عهد قريب أن الحديد الذي نعرفهُ ، انما يحمل شبهاً طفيفاً للحديد المحض. وذلك حينما استعمل الباحثون بالتجارب اتقى انواع الحديد بتسخينها بلهب الهيدروجين فتكشف لهم ان الحديد الذي حصلوا عليه ، لا يصدأ في الاوكسيجين والماء النقيين وان تعرضا لها شهوراً

﴿ الصبغات الطريفة ﴾ واسفرت مباحث العلماء وتجاربهم في الصبغات عن انواع منها غير مألوفة إذ أعلن الكيميائيون البريطانيون اكتشاف صبغة زرقاء جديدة لتستعمل دهاناً للحيطان والخشب ، ومداداً للطبع . والمعروف الآن ان الالترامارين Ultramarine الذي اكتشف في سنة ١٧٠٤ والازرق البروسي الذي اكتشف في سنة ١٨٢٦ هما الصبغتان اللتان تستعمل منهما الصبغة المشار اليها ، وهي لا تحتوي على الصفات المرغوب فيها اي اللمعان والقوة والثبات مهما تعرضت للضوء والحرارة والاحماض والقلويات وغيرها من المواد المذيبة

اما الصبغة الجديدة وهي المسماة «ازرق موناسترال الثابت noastral » فيقال انها تحتوي على المزايا التي يحتاج اليها كل امرىء . وعدا ذلك ، يقال انها افضل الالوان الزرقاء للطباعة الملونة ويستدل مما ذكرناه من الامثلة، على مبلغ فوز علماء الكيمياء وتأثيره في كل فرع من فروع المعيشة

﴿ الاثاثات المنزلية ﴾ ومما احدثهُ أولئك العلماء الكيميائيون من الانقلابات المدهشة ، في البيوت ، التدرج في صنع الاثاثات الخشبية إذ أن الاشياء التي مازالت تصنع دائماً من الخشب أو

المعادن ، ومنها خزائن الراديو واغطية القناني ، غدت تصنع من مواد صناعية تسمى بالعجائن وهذه يركبها الكيمياوي في مختبره . وهي في عرف الخبراء ، فاتحة لميدان رحب ، وسيعقبها صنع المنضدات والكراسي والاسرة ، من تلك العجائن المتلألئة التي يسهل الاحتفاظ بها نظيفة ، ويصعب تعرضها للخدش او التشويه . اما في وقتنا الحالي ، فلا يعوق ذيوع استعمال هاتيك المصنوعات العجينية ، غير ارتفاع اثمانها قليلاً عن أشباهها التي تؤخذ من المواد الطبيعية

ويرى وليم هاينز الخبير النيويوركي الكيمياوي انهُ اذا انخفض سعرها قليلاً ، انتشر استعمالها انتشاراً رائعاً

﴿ الزجاج اللين ﴾ والزجاج ايضاً مع شدة الحاجة اليهِ في صنع النوافذ ، وتفوقهُ في ذلك السبيل ، فلهُ منافس جديد ونعني بهِ المواد الشفافة التي من فصيلة العجائن . ومع ان منافعها في البيوت ما زالت موضعاً للجدل ، فقد تجلت بعض مزاياها المرغوب فيها ، ومنها المرونة التي تسمح بثنيها حتى تصير منحنيات تصلح لنوافذ الطائرات . وقد نشأ من التحسينات الكيمياوية الحديثة التي قام بها العلماء في الزجاج المستعمل في أواني الطبخ النموذجية التي توضع في الافران ، التمكن من صنع مقالٍ من الزجاج تقاوم الحرارة مقاومة فائقة لاجل الطبخ على رأس الموقد

﴿ الاستغناء عن حرارة البخار ﴾ وشرع الكيمياويون يخترعون طريقة لتحل محل البخار في اجهزة التسخين . واساسها مركب ابيض يعرف باسم ديفنيل diphenyl وهي مادة كيمياوية تمت الى عطر الخبيزة الافرنكية الصناعي ، تتحول بخاراً عند درجة ٥٠٠ فرنهيت . ولما كانت تلك المادة تحتفظ بالحرارة اكثر من البخار ويمكن رفع حرارتها الى درجة عظيمة ، دون احداث ضغط خطر ، فقد استعملت هذه المادة الجديدة في كثير من الصناعات

﴿ التبريد المنزلي ﴾ واتجهت عناية المهندسين الكيمياويين ايضاً الى مسألة التبريد المنزلي فاتخذوا مثالج « الثلج الجاف » أي الحامض الكربونيك المجمَّد ، للتبريد في الاقاليم الحارة ، حيث تكون مصانع الثلج نائية عن امكنة الاستهلاك وحيث لا توجد الكهربائية . ولذلك يوضع الثلج الصلب في صندوق داخلي معزول لكيلا يجتذب الحرارة جذباً حثيثاً جداً ، والاَّ فدرجة حرارته البالغة ١٠٩ فرنهيت تحت الصفر تجمد محتويات الصندوق جميعها . ثم أن تأثيره الجليدي الذي ينتقل بوساطة زعانف معدنية على الصندوق ، يتسنى تنظيمه ليبقي درجة حرارة المثلجة في الحدود المرغوبة . وللمثالج التي يستخدم فيها ذلك المبرد القابل للتبخر ، منفعة غريبة وهي تكوُّن غاز الحامض الكربونيك في باطن المثلجة الذي يقال انهُ يعيق نمو البكتيريا ويحول دون انتشار روائح الاطعمة



تمدد الكون

منشؤه ومصيره

لنقولا الحداد

المتناهي واللامتناهي

قبل ظهور نسبية اينشطين كان الفلاسفة اذا ساقهم التفكير الى سعة الكون لا يرون بدًّا من الاستسلام الى نظرية اللانهاية فيقولون : الكون مادةً ومساحةً (مكاناً) غير متناهٍ اي انهُ مكان لا نهاية له واجرام سابحة فيه لا نهاية لعددها . واذا خطر لواحد ان يذهب الى ان لهيولى الكون (مادته) قدراً معيناً قامت الاعتراضات في سبيل خاطره . واذا سئل صاحب هذه النظرية : اين موقع المادة المعينة القدر في فسحة الكون غير المتناهي ، لم يُحرْ جواباً . لانهُ لا يقدر ان يعين موضعاً في رحبة الكون التي لا نهاية لها ما دامت خالية من اي شيء آخر يعتبر كعلامة تقاس من عندها الابعاد . وبناء على هذا العجز عن الجواب حكم الفيلسوف « كنت » بانهُ لا يمكن ان توجد مادة معينة المقدار في رحبة الوجود غير المتناهية . واذن فالهيولى غير متناهية في رحبة الوجود غير المتناهية ايضاً

ولكن العقل البشري يحار في اللامتناهي ، كما انهُ لا يستطيع ان يتصور حدوداً للمتناهي ليس وراءها شيء . فهو بين المتناهي واللامتناهي حيران ما دام يعتمد على التصور فقط . وانما اذا لجأ الى العلم فقد يجد ما ينقذه من الحيرة ، ولا سيما اذا صرف ذهنه عن التصور واعتمد على منطق العلم فقط

بقيت مسألة اللانهاية لغز الوجود الى ان انجلت للعقل البشري « سنة الجاذبية » ودعمها « ناموس النسبية » فاتضح للعقل النير ان الكون ، وان كان غير متناهي المكان ، لا يمكن ان يكون غير متناهي المادة ، بل لا بد ان تكون المادة فيه قَدَراً معيناً يشغل فسحة معينة من المكان وبعد هذه الفسحة خلاء غير محدود يصح ان يكون ما يسمونهُ « العدم »

وفحوى برهان اينشطين صاحب نظرية النسبية على هذا القول هو ان الكون اذا كان

مكاناً غير متناهٍ تشغله سُدُمٌ واجرامٌ وشموسٌ وسياراتٌ لا نهاية لعدها وجب بمقتضى ناموس الجاذبية الذي لا مناص من فعله فيها جميعاً ان تتحرك هذه الاجرام في المكان اللامتناهي بسرعات أعظم جداً من سرعاتها التي نعرفها الآن بل بسرعات تفوق حد التصوُّر — تتجاوز سرعة النور . وهو امر مستحيل بحسب ناموس النسبية الذي كشف عن ان سرعة النور هي منتهى السرعة في الوجود ، ولا يمكن ان تفوقها سرعة . والجسم الذي يفوقها سرعةً يفنى

بحسب برهان اينشطين هذا (وقد شرحتهُ في كتابي النسبية) يستحيل ان تكون اجرام المادة غير متناهية العدد او المقدار ، بل هي قَدَر معين في رحبة معينة من رحاب المكان غير المتناهي . فالحيز الذي تشغله هذه الاجرام هو ما يسميه علماء اليوم « المكان » Space . واما ما وراءه فخلاء يسمى « العدم »

حيز الكون الهيولي

وهنا يبدر الى ذهن القارىء ان يسأل : اي شكل هندسي يتخذ هذا الحيز الماديّ ؟ أمكعَّبٌ هو ام كرة ام لوح مستطيل مستقيم ذو طول وعرض وسماكة ؟

والجواب بحسب برهان اينشطين انهُ ليس شيئاً من ذلك . وانما هو لوح سميك ولكنهُ غير مستقيم بل هو منحنٍ من جميع جهاته بحيث تلتحم حواشيه بعضها ببعض فيصبح بشكل كرة فارغة تامة الاستدارة (او الكروية) او بيضية الشكل (بشكل البيضة) واينشطين يرجح الشكل البيضي لاعتبارات لا محل لشرحها هنا . واذن فهو بشكل بيضة فارغة والاجرام في قشرتها

ولتسهيل التصور على القارىء فيما يلي من بحثنا نفرض هذا الحيز المادي كرة فارغة الجوف اي ان جوفها خلاء عدم كالخلاء الذي حولها . واجرام المادة سابحة في جلدة هذه الكرة من سُدُم او مجرات كمجرتنا — كلها سائرة متساوقة في اتجاه واحد في جلدة الكرة بقوة الجاذبية المتبادلة بينها

ولما اعلن اينشطين هذه النتائج من بحثه عن حجم الحيز المادي قال ان هذا الحجم بما فيه من هيولى (مادة) منذ الازل والى الابد لا يزيد ولا ينقص ولا يضيق ولا يتسع . اي انهُ وعاء (بالشكل الذي تقدم وصفه، جلدة كرة) تتوزع فيه المجرات وتتحرك دائرة على محاورها متدحرجة فيه باتجاه واحد . وقد حسب الحاسبون عدد ما فيه من كهارب وما يقابلها من بروتونات فاذا هي 10^{79} اي واحد الى يمينه ٧٩ صفراً فتأمَّل !

ولكن ما ظهر بحث اينشطين هذا حتى ظهر من ارصاد هَبل Hubble في مرصد جبل ويلسون في كاليفورنيا ان المجرّات والسُّدُم تتباعد باستمرار بعضها عن بعض كأنها تتشتَّت في الفضاء الخالي . ودرس دي ستر de Sitter ارصاد هَبل درساً دقيقاً وبرهن ان حجم الكون

الذي وصفهُ اينشطين بكونهِ ثابت المقدار اي لا يتسع ولا يضيق انما هو آخذ بالاتساع وغير ثابت على سعة واحدة ، وان كانت المادة التي تشغله لا تزيد ولا تنقص . اي ان الاجرام التي فيهِ تخرج عن حدودهِ التي قررها اينشطين . ولذلك يتضخم حجم الكون كل هنيهة من الزمن

لم يعين دي ستر de Sitter متى ابتدأ حجم الكون هذا يتضخم — لم يقل كم كان نصف قطره (الراديوس Radius) حين ابتدأ يتضخم. بل اقتصر على القول انهُ آخذ بالتضخم . وانما في ذلك الحين نشر العالم البلجيكي الاب لومتر Lemaitre رسالة بهذا البحث برهن فيها ان الكون شرع ينتفخ منذ نشأ . لان كوناً كهذا الذي وصفهُ اينشطين ثابت التوازن لا يمكن ان ينشأ متوازناً ويبقى متوازناً الى الابد. بل لا بد ان يبتدىء كبيراً متقلصاً رويداً او صغيراً متمدداً رويداً . وهذا يقتضي انهُ لم ينشأ كرة فارغة كما وصفهُ اينشطين على حاله الحاضرة بل كان كرة صغيرة جداً كثيفة ، ثم جعلت تنتفخ تدريجاً ، كأنَّ قوة فيها تدفع اجزاءها بعضها عن بعض الى خارج محيطها حتى فرغت من الداخل واصبحت كجلدة كرة مطاط كما هي الآن . ولا تزال تنتفخ كما قال دي ستر

فالكون ابتدأ كما برهن الاب لومتر

وهو الآن كما برهن اينشطين

ومستقبله كما وصف دي ستر

ولما علم اينشطين بارصاد هبل التي اثارت أفكار دي ستر وفريدمان ولومتر وغيرهم برح الى اميركا لكي يقف على ارصاد هبل بنفسهِ ويتأكد صحتها . فلما شاهد ما شاهد ودرس ما درس هناك عاد مقتنعاً وغيَّر رأيه في حجم الكون . وجعل يدرس حالة انتفاخهِ ويبحث عن قاعدة رياضية له وان كان قد عزَّ عليهِ وعلى سواه ان يتحقق اصل السبب في هذا الانتفاخ . وانما فرض لناموس جاذبية نيوتن سجية اخرى وهي ان قوة الدفع عن المركز Centrifugal force اقوى من قوة الجذب الى المركز Centripetal force فسمى الزايد في قوة الدفع «الدفع الكوني» Cosmical Repulsion وحسب مقداره فاذا هو قدر ثابت Constant بالنسبة الى نصف قطر الكون مهما تمدد

سرعة تشتت المجرات

كان هبل في مرصد ويلسون اول من اكتشف سنة ١٩٢٩ ان المجرات تبعد عنا بسرعات مختلفة وان ابعدها اسرعها (لسبب ستعلمهُ فيما بعد). وحتى سنة ١٩٣١ كان قد اكتشف سرعة ٩٠ مجرَّة منها ٨٥ تتباعد عنّا و٥ تقترب الينا. على ان اقتراب هذه المجرات الخمس يناقض

في الظاهر نظرية انتفاخ حجم الكون التي تقتضي ان جميع المجرات تتباعد بعضها عن بعض . ولكن اقترابها يمكن تعليلهُ بامرين معاً : الاول ان هذه المجرات الخمس اقرب المجرات التسعين الينا . ونحن نرصدها من نظامنا الشمسي ونراعي خط النور اليها من ارضنا لا من مجموع مجرتنا جملةً . فاذا راعينا سرعة نظامنا الشمسي (٢٠٠ الى ٣٠٠ كيلو متر بالثانية) في قرص المجرة كنا نحن نقرب الى تلك المجرات اكثر مما هي تبعد عنا . ولكن لو راعينا خط الرصد من مجرتنا عموماً لا من نظامنا الشمسي خصوصاً لرأينا انها كغيرها تبعد عنا . والثاني ان منطقة مجرتنا واقعة بين منطقة هذه المجرات ومركز الكون . وبحسب ناموس التسارع هي اسرع منها في مجرى العوالم الكونية . فاذا كانت المجرات الخمس الدانية الينا تجري امام مجرتنا فمجرتنا تجري وراءها اسرع منها . ولذلك تظهر لنا مقتربة الينا . والحقيقة ان مجرتنا مسرعة اليها . اذن اقتراب المجرات الخمس من بين التسعين لا ينقض نظرية ان جميع المجرات تتباعد متشتتة كما سنشرحهُ جليًّا فيما بعد

وكان سليفر Slipher من ناحية اخرى يرصد المجرات ايضاً ويستخرج سرعاتها فاستخرج سرعة ٤٠ مجرة ، منها ١٢ مجرة تتباعد بسرعة ٨٠٠ الى ١٨٠٠ كيلومتر بالثانية . وهوماسون Humason في مرصد ويلسون اكتشف سرعات هائلة ، منها سرعة مجرة في خط الجوزاء (جميني Jemini) تتراجع بسرعة ٢٥ الف كيلو متر بالثانية وهي تبعد عنّا ١٥٠ مليون سنة نور . ولا ريب ان هناك مجرات اقصى من هذه واعظم سرعةً

واذا جعلنا مجرتنا مركزاً ورسمنا حولها غلافاً كرويًّا على بعد مليون سنة نور عن هذا المركز كان ما اكتشفتهُ الارصاد وراء هذه الكرة ٨٠ مجرة تتباعد تاركةً وراءها خلاء لا تحتله مجرات اخرى غيرها بعدها

وقد استخرج هَبل من مجموعة ارصاده للمجرات قانوناً لسرعتها ، وهو ان معدل السرعة ٥٥٠ كيلومتراً في الثانية لكل مليون فرسخ (تعريب persec). والفرسخ ٣٫٢٦ سنة نور. اذن المجرة التي على بعد ٣٫٢٦٠٫٠٠٠ سنة نور عن مجرتنا تتباعد عنها بسرعة ٥٥٠ كيلو متراً بالثانية . هذا قانون تقريبي وقد يكون الخطاء فيهِ نحو ٢٠ في المائة . ويزعم آخرون ان معدل السرعة لكل مليون فرسخ يتراوح بين ٥٠٠ والف كيلو متر بالثانية

ثم حسبوا ان تباعد المجرات المستمر على هذا النحو يجعل ابعادها تتضاعف كل ١٣٠٠ مليون سنة نور

كيف ينفتح حجم الكون

والآن نشرح بقدر الامكان كيفية انتفاخ الكون الناشيء عن تشتت المجرات وتباعدها بعضها عن بعض

لنفرض ان في جلدة الكرة التي تسبح فيها المجرات ملازمة لها قوّة دافعة تمطها الى الخارج فبالطبع تبقى المجرات فيها ملازمة لها . فماذا نرى بعد امطاطها ؟

لتسهيل التفهم تصور الكرة الكونية بالوناً أبيض من المادة المطاطة كالبالون الذي يلعب به الاحداث وتصوَّر سطحه مرقطاً بنقط سود على ابعاد متساوية فيما بينها. ثم تصوَّر انك نفخت هذا البالون الى ان زاد حجمه أي زاد نصف قطره (الراديوس) نحو ربعه أو ثلثه . فماذا ترى ! ترى ان النقط السود قد تباعدت بعضها عن بعض نحو ثلث المسافة فيما بينها ايضاً . وانما تبقى نسبة التباعد بينها واحدة اي متساوية كما كانت قبلاً . ثم ماذا ترى ايضاً ؟

اذا كان بين كل نقطة وأخرى سنتمتر قبل المط فبعده تصبح المسافة بين النقطة الواحدة والنقطة المجاورة لها سنتيمتراً وثلث السنتيمتر فقط وبينها وبين الثالثة سنتيمترين وثلثين ، وبينها وبين الرابعة ٤ سنتيمترات بدل ٣ سنتيمترات وهلمّ جرًّا

على هذا النحو تصور الكرة الكونية قد انتفخت في مدة معينة ، وبه تفهم كيف ان المجرات كلما كانت بعيدة عنا تراءت لنا اسرع مع ان تباعدها بعضها عن بعض متماثل بالنسبة الى المركز الكوني . ولو كنا في اية مجرة من مجرات الكون لكنا نرى هذه الظاهرة بعينها اي ان المجرة القصوى عنا اسرع ابتعاداً من القربى الينا — بالنسبة لنا ولكن ليس بالنسبة الى مركز الكون

لا يقتصر هذا المط والانتفاخ على حجم الكرة فقط بل يلحق جلدتها ايضاً . اي انها فيما هي تنتفخ ، جلدتها نفسها تسمك على نسبة ثابتة . تبقى نسبة الراديوس الفراغي الداخلي الى الراديوس الخارجي واحدة. هذا ما اكتشفهُ اينشطين ومنهُ استخرج قيمة ثابت الدفع الكوني Cosmical repulsion constant واضاف هذا الثابت الى معادلة الجاذبية النيوتونية

سير الشعاع في محيط الكون

ولكن أحقيق ان شعاعة نور تصدر من اي جرم تطوف الكون هكذا ؟ ام انها تعبر الفراغ الداخلي من جنب الى جنب متخذة اقرب مسافة (اقليدوسية) ؟

والجواب انها لا تستطيع ان تعبر ذلك الفراغ (بحسب هندسة اقليدوس) لان الجو الجاذبي في جلدة الكرة الكونية التي نحن بصددها اقوى جدًّا منهُ في الفراغ الداخلي . فلا يدعها تعبر الى ذلك الفراغ بل يضطرها ان تسير في الحيز الكوني (الجلدة) متخذة خطًّا منحنياً كانحنائه . وقد برهن اينشطين انحناء خط النور في الجو الجاذبي وايدت الارصاد برهانه

وهنا قد يخطر في بال القارئ هذه الفكرة : وهي : ان اشعة النور التي تصدر من اي مكان تطوف حول الكون وتعود بعد ٣٢ الف مليون سنة الى حيث صدرت. فلو استطاع انسان ان يخترع مرصداً قويًّا جدًّا بحيث يمكنهُ ان يتبين بهِ الاشباح عن هذا البعد السحيق لامكنهُ

ان يرى برصده هذا بعد ٣٢ الف مليون سنة (عمر طويل) طيف ظهره . أحقيق هذا التصور ؟

نعم انهُ حقيق اذا كان حجم الكون ثابتاً لايتسع ولا يضيق كما حسبهُ اينشطين اولاً . ولكن اذا كان الكون ينتفخ كما قال دي ستر ولومتر فالشعاعة لا تعود الى حيث صدرت لان مصدرها انتقل من مكانهِ وابتعد كثيراً . هذا هو رأي العلاّمة السر ارثر أدينغتون . ولكن لهذا العاجز ملاحظة وضيعة على هذا الرأي ، مع الاحترام الكلي للسر ارثر أدينغتون، تؤيد الخاطر الاول لنفس السبب الذي يستعين بهِ ادينغتون : وهو: نعم ان الكون منتفخ ومصدر الشعاعة منتقل من مكانهِ في الفضاء المطلق ولكنهُ غير منتقل من مكانهِ في الحيز الكوني المتنفخ . نعم ان الطريق الدائري الذي سلك فيهِ النور استطال وابتعد عن مركز الكون . ولكن شعاع النور مازال ملازماً هذا الطريق بحكم الجو الجاذبي كما تقدم القول . فسيَّان عنده انتفخت دائرة هذا الطريق او تقلصت فهو سائر فيها ملازماً لها في حالة تمدُّدها

وانما يبقى علينا ان نحسب حساب مسير المجرة (التي صدرت منها الشعاعة) في مجرى السُّدُم الكوني المتتابع فهذا المسير لا يغير اتجاه مصدر الشعاعة وانما يبعده عن اقبالها من ورائهِ او يقربهُ الى اقبالها من امامهِ

كيف ابتدأ تمدد الكون وكيف ينتهي

نعود الآن الى كيفية ابتداء تمدد الكون بحسب نظرية لومتر . المفهوم من نظريتهِ التي ايدها بالمعادلات الرياضية المسندة الى المعلومات عن ظاهرات الطبيعة والى الارصاد الفلكية — ان الحيز الكوني ابتدأ تجمعاً كثيفاً جدًّا حيث تكونت الهيولى فيهِ كهارب وبروتونات وهي تدور دورات محورية ودورات مركزية . اي ان افرادها كانت تدور على محاورها . وجماعات منها تدور على محاور مجموعاتها . ثم لما صارت تتباعد عن المركز بقوة « الدفع الكوني » شرعت الجماعات تدور حول مركزها وكلها تدور حول المركز الاصلي . وما زالت تتباعد حتى اصبح ماحول المركز فراغاً وما زال الفراغ يتسع وقشرتهُ الهيولية تمط الى ان انفجر. فتمزقت جلدتهُ الى مجرات كما تنفجر فقاعة الصابون اذا تماديت في نفخها . ثم استقلت كلٌّ منها عن الاخرى واتسعت الرحاب بينها لتباعدها هي . وانما بقيت قوة الجاذبية بينها كافية لحفظها في غلاف الحيز الكوني. ولا يزال هذا الحيز ينتفخ على هذا النحو برأي لومتر وفريد مان ودي ستر الى ان ينفجر انفجاراً آخر يتضعضع فيهِ توازنه الحالي ، وتتشتت المجرات تشتتاً فوضويًّا وتتشرد في الفضاء اللامتناهي . في هذه الحالة يصبح التباعد بينها أسرع فأسرع الى ان يتجاوز سرعة النور . فلا تعود المجرة الواحدة ترى طيف المجرة الاخرى لان نور هذه لا يدركها

ثم ماذا ؟

في رأي بعضهم ومنهم السر جيمز جينز : حينئذٍ تكون اجرام الكون قد ذابت او قاربت الذوبان بفعل التشعع الذي تنطلق بهِ القوة وتتلاشى الذرات في فوتونات . وحينئذٍ قد تعود ذريرات الهيولى الى تجمع آخر كتجمعها القديم لكي تعيد عملية تكوين الكون ، اما طبق الاصل او على نمط آخر الله اعلم كيف يكون

هل التمدد عام ؟

بقيت نقطة جوهرية قد تلوح في خاطر القارىء المفكر وهي : اذا كان « الدفع الكوني » سنة الوجود كسنة الجاذبية افلا يعمل عمله في المجرات نفسها ثم في الكوكبات العنقودية ثم في النظم الشمسية (ان كان ثمت نظم اخرى غير نظامنا الشمسي) كما يعمل في كرة الكون بجملتها ؟ واذا كان يعمل عمله فيها فلابد اذن ان تنتفخ احجام المجرات بدورها وتنتفخ احجام الكوكبات وحجم النظام الشمسي ايضاً . وبالاجمال يكون هذا الانتفاخ عامّاً على نسبة واحدة لكل جماعة مادية على قدرها

اجل ان هذه الملاحظة وجيهة جدًّا . ولكن الواقع يناقضها . قد تقول : ارني كيف يناقضها . فاقول : ان هذه النظرية قاتلة نفسها بنفسها لانهُ لو كان الانتفاخ او التمدد عامًّا بنسبة واحدة لكل سديم وكل جرم في كل جماعة مادية على قدرها لما كنا ندركه بتاتاً ولا نحس بهِ ولا نميزه لانهُ حينئذٍ يتمدد المتر الذي نقيس بهِ والذراع والباع والكيلو متر والجزيء والذرة والكهرب والكرة الارضية والشمس والسيارات وبالتالي اجسامنا نفسها تتمدد وعيوننا تتمدد ونظرنا يتمدد الخ فكيف نستطيع ان نميز هذا التمدد اذا لم يبق شيء في الوجود لم يصبهُ هذا التمدد لكي نقيس عليهِ ؟

فكون ارصادنا تدلنا على ان الاجرام تتباعد بعضها عن بعض هو دليل واضح على ان الاجرام والمواد نفسها على اختلاف احجامها لم تتمدد بنسبة تمدد الحيز الذي تتحرك فيهِ . فالمجرات تتمدد اقل من تمدد الحيز الكوني . وكوكباتها Constellations تتمدد اقل منها . والانظمة الاخرى أقل فأقل كلما تجاوزنا الى الاحجام الصغيرة حتى انك تجد بعضها لا تزال في دور التقلص

حاشية — نلفت نظر القارىء الى ان هذا البحث وامثالهِ من المباحث التي يطمح فيها العقل البشري الى استكناه اسرار الوجود لا تعتبر في حكم المؤكد لان المعلومات العلمية والارصاد والاكتشافات التي بنيت عليها ليست حقائق راهنة بل هي تقريبية . وربما تيسر لاهل العلم ان يؤكدوها او ينقحوها او ينقضوها بنظريات اصح منها بما يستجد عندهم من معلومات اقرب الى الحقيقة . وفوق كل ذي علم عليم — شبرا — نقولا الحداد

الحضارة الحثية

أقدم آثار آسيا الصغرى وسوريا الشمالية

بقلم قيصر صادر

عضو جمعية العاديات السورية

[اشتمل الجانب الاول من هذا المقال التاريخي النفيس على بحث في البعوث الحفرية التي نقبت عن آثار الحضارة الحثية في آسيا الصغرى وشمال سوريا من ايام لاروك الفرنسي سنة ١٧٢٢ الى الآن ثم تلت ذلك كلمة في أصل الحثيين وحواضرهم الأربع في آسيا الصغرى وهي كوثر ونازا وزلپا وحاتوشا (راجع مقتطف ديسمبر ١٩٣٦ صفحة ٥٥٤ — ٥٥٩) وفي ما يلي نظرة في فتوحاتهم وفي عاصمتهم كركميش المشهورة : المحرّر]

عكف خلفاء الملك غينا على اتباع سياسة التوسع في بلاد اللوبين الذين دلّت الآثار على رسوخ قدمهم في آسيا الصغرى منذ ٢٥٠٠ سنة ق. م . فاجتاحها الحثيون القدماء في القرن التاسع عشر ق. م. ونخص منهم بالذكر الملك تورهاليا خليفة غينا الأول وأولاده پازايا وپافا حتلما وقد تبيَّن من حل رموز بعض الكتابات الحثية انهُ كان هنالك مملكة حصينة اسمها توريشا حندا دوخها ملك حثي يدعى تلاپارنا وأخذ فتن الشعوب التي استعبدها فيها فصار اسمهُ بمثابة لقب يطلق على جميع الملوك الحثيين الذين تعاقبوا على العرش من بعده كلقب الاغسطس والقيصر اللذين عند الرومان فتوسعت تخوم المملكة الحثية كثيراً على عهد هذا العاهل البطل ثم حذا حذوه كل من الملكين حاتوشيل الاول ومورسيل الاول فافتتحا سوريا الشمالية وتوغلا فيها وقد كانت حلب في ذلك العهد البعيد عاصمة مملكة مستقلة حصينة فرماها حاتوشيل الاول رماية واسعة وأغدق عليها النعم بالنظر الى مركزها الجغرافي ومطامعهِ الاستعمارية في البلاد المجاورة فزهت في أيامه وازدادت ازدهاراً ولكن خليفته مورسيل الاول ما لبث ان ندم على خطة

انتعاش هذه المملكة التي قويت شوكتها وأخذت تطمع في توسيع حدودها مناصبة جيرانها الحثيين العداء فزحف عليها بجيوشه الجرارة ودمرها تدميراً بعد ان أسر مليكها وبعثه سجيناً الى عاصمته حاتوشا ثم واصل زحفه على بابل في القرن الثامن عشر. ق.م . وكان ملكها يدعى سامصوديتانا من ملوك السلالة البابلية الاولى التي تحدّر منها حورابي الشهير فاكتسح الملك الحثي مدينة النور في تلك العصور وسلب مغانمها وعكف عنها راجعاً الى عاصمته بكنوز لا تحصى فازدادت حاتوشا منذ ذلك العهد غناء وعمراناً وأصبحت قاعدة الحثيين الكبرى حتى اضمحلال أثرهم من آسيا الصغرى . وقد عثر في مكتبتها العامرة على لائحة تضم أسماء أحد عشر ملكاً خلفوا الملوك المتقدمي الذكر بيد انهُ لم يتسنَّ لنا بعد ان نقف على أعمالهم الاَّ واحداً يدعى تلابينو عاش في القرن السابع عشر. ق م . فقد اضطرَّ هـذا الملك على ما تخبرنا المخطوطات القديمة ان يقضي معظم عهد ملكه جاداً وراء أقوام همجية انتشروا في شمالي مملكته انتشاراً مخيفاً فأبلى في محاربتهم بلاءً حسناً وقمع فتناً عديدة كانت تثيرها الشعوب المستعبدة طلباً لتحريرها من قيود الاستعمار الحثي . والخلاصة ان عهده كان عهد شؤم وشدَّة وهو يعزو ذلك في اعتراف لهُ الى المأساة التي أحاطت بظروف تسنمه العرش اذ لم يتوصل اليه الاَّ بعد ان أباد جميع منافسيهِ ومحى أثرهم ثم ندم على فعلهِ وخشي عقابها فعفا عن سائر خصومهِ الذين بقوا في قيد الحياة تكفيراً عن سيئاتهِ ونظم مجلساً عالياً للتأمين على خلافة الملك من بعده وفاقاً لقواعد الوراثة الشرعية . وهنا تنقطع عنا اخبار الحثيين ردحاً يقرب من ثلاثة احقاب فاصلة بين سنة ١٦٨٠ وسنة ١٤٥٠ ق.م اذ لم يعثر على أثر يدلنا على حوادثهم في هذا العهد الخالي بين كل المكتشفات المتواصلة الى يومنا فعسى ان تأتينا الحفريات القادمة بما يسد هذا الفراغ . على انهُ يلوح من قرائن الحال حدوث كسوفٍ للسلطة الحثية خلال هذه الفترة وانحدار في صفوفها مما سمح للميتانيين ان يبلغوا ضفاف العاصي وللمصريين ان يغزوا بلاد كنعان من غير ان يصدوا بمقاومة جديرة بالذكر

بيد انهُ ما عتمت تلك الدولة العظيمة ان استعادت صولتها على عهد تودهاليا الثاني الذي دشن عصور النهضة بفتوحاتهِ الموفقة في أواخر القرن الخامس عشر. ق.م. وكان لهُ في تاريخ المملكة الحثية شأن خطير . ومما ذكر لهُ انهُ استعاد في سنة ١٤٢٠ ق.م مملكة حلبا اي حلب الى حيازة الحثيين بعد ان خرجت عليهم زمناً طويلاً . ثم عقبهُ في الملك حاتوشيل الثاني الذي أحرز انتصارات باهرة في سائر مدن سوريا الشمالية

اما خليفته تودهاليا الثالث فقد مني بانكسارات شديدة حملت ابنه على قتله لانتشال المملكة من وهدة الخراب التي اشرفت عليها فصعد على العرش من بعده الدرغام سوبيلوليوما (١٣٤٧ ـ ١٣٨٧) ق.م وهو اكبر ملك في سلالة الملوك الحثيين وأعزهم شأناً. وقد وقفنا على معظم الحوادث

الخطيرة التي جرت على عهده بفضل المعاهدات التي عقدها مع الدول المجاورة ودوّنها على الواح خالدة والحروب التي نقش موقع انتصاراته فيها على الانصاب الحجرية، تلك التي عثر عليها البحاثة الاثري كافينياك واستدل منها على ان هذا الملك توغل في سوريا حتى بلغ اقصى حدودها منتهزاً وقوع الشقاق في صفوف محاربيه ثم استولى على مدينة عيسوى القائمة على ضفة الدجلة الشمالية شرقي ملاطية وتحالف مع مليك علشة الواقعة في شمالي عيسوى وطوق ممالك الحوريين والميتانيين ودانت له بلاد كثيرة نخص منها بالذكر كركميش ثم زحف على بلاد كنعان واجتاح بطريقه قطنا فدمرها وحارب جيوش مدينة قادش وامتد نفوذه حتى اوغاريت المعروفة برأس الشمراء قرب اللاذقية التي كانت مستعمرة مصرية في ذلك العهد

بين المصريين والحثيين

وقد جاءت رسائل تل العمارنة شاهدة صراحة على ما بلغ اليه هذا الملك العظيم وعلاوةً على ما تقدم ابانت تحريره مقاطعة غربي الفرات من حكم الدولة الميتانية بحنكةٍ ودهاء دون ان يلجأ الى سفك الدماء . وبينما كان يعد عدته للقيام بغارةٍ على مستعمرات مصر في سواحل سورية طرأت اضطرابات خطيرة في اسيا الصغرى بين سنة ١٣٧٨ وسنة ١٣٥٨ ق.م اضطرتهُ الى ان يشخص اليها وينثني عن تلك الحملة التي كان ناويها على انهُ ما لبث بعد اخماد تلك الاضطرابات ان عاد الى سورية وقمع حروباً اهلية كانت قائمة في بلاد الميتانيين وتوج على هذه المقاطعة صهره ما تيعوذا ثم اقام احد ابنائه المدعو ياسيل ملكاً على كركميش وآخر ملكاً على حلب فحصّن بذلك تخوم مملكته من غارات العدو وذاع صيته في مشارق الارض فبلغ مسامع ملكة مصر ارملة الفرعون آي خليفة توتنخ آمون آخر ملوك السلالة الثامنة الذي عاجلتهُ المنية في العام الثاني من ملكه فبعثت تتوسل اليه ان يوفد اليها احد ابنائه لتجعله قريناً لها وخاطبتهُ بهذا التعبير « مات زوجي ولم يخلف وارثاً للعرش وقد قيل لي ان اولادكم كثيرون فما ضركم لو بعثتم لي واحداً منهم لاقترن بهِ وآمن من خشية الاضطرار الى الزواج من احد عبيدي . » فلم يرتح سيبلوليوما الى طلبها واوفد احد عماله ليستوثق منها فاردفت تخاطبه برسالة ثانية قائلة : « لِمَ شككتم بحسن طويتنا وظننتم اننا اياكم خادعون . لو كان لي ابن لما تذللت الى الغريب . قلت لكم ان زوجي قد مات ولم يخلف وارثاً للملك فاعطوني واحد من اولادكم الكثيرين لاجعله زوجاً لي وأبوئهُ عرش مصر . ثقوا انني لم اكتب الى احدٍ غيركم . ألعله يحسن لديكم ان اتزوج من احد عبيدي » . فاختار عندئذٍ سيبلوليوما احد ابنائه واوفده اليها ليكون ملكاً على مصر ولكنهُ قبل ان يتسنم ذلك الشبل الحثي عرش الفراعنة حيكت حوله دسيسة اغتيل فيها بيد اثيمة ونادى

حورامحيب بنفسه ملكاً على وادي النيل فصدق عندئذٍ سوء ظن ملك الحثيين وكتب رسالة وصلت مبتورةً لأيدينا يشكو فيها من اغتيال ابنه مر الشكوى ويتوعد مصر بالانتقام وكلف ابنه ارنوفنتا الذي كان نائب ملكه ان يأخذ بثأر اخيه وقد تباهى الحثيون عقيب ذلك بأنهم انزلوا بالمصريين عقاباً اليماً على انهُ لم يدم ملك ارنوفنتا طويلاً فاعتلى العرش اخوه مورسيل الثاني سنة ١٣٤٧ ق.م وكانت الملكة ارملة سيبلوليوما على قيد الحياة تحمل لقب « ام الاله » كما سنراه في سياق الحديث عن انظمة الحثيين وعقائدهم الدينية فلم تمتزج مع كنتها التي ما عتمت ان ماتت مسمومة عام ١٣٤٠ ق. م . فأقصى الملك عندئذ امه عن العرش وعين لها محلاً للاقامة وفرّ لها فيه كل صنوف الرفاهية بيد انها لم تلبث ان ماتت هي ايضاً بعد كنتها بقليل فخامر الريب الظنون في ان تكون قتلت قتلاً اذ نرى حاتوشيل الثالث خليفة مورسيل الثاني يستغفر الآلهة عن هذا الإثم ويتنصل منه بزعم انهُ كان صغيراً لا يعي

ويتخلل هذه البرهة نشوب ثورات دموية في الممالك الحثية وقيام الشعوب المغلوبة على ملكها مما اقلق مضاجعه فناضلهم نضال جبارة وقوي في النتيجة على قمع ثوراتهم وفتنهم وارجعهم الى السكينة وولّى احد اولاده على كركميش وابن عمه على حلب ثم انهمك في مطاردة البرابرة الذين غشوا شمالي غربي اسيا الصغرى فدارت بين الطرفين رحى حرب عوان ابلى فيها الجيش الحثي بلاء مجيداً وبعد وفاة هذا الملك عام ١٣٢٠ ق.م اشتبك الحثيون بحروب عنيفة مع المصريين على عهد مواتلو بن مورسيل الثاني وستي الاول فرعون مصر مما تحوّلت معهُ سياسة الدولة الحثية تحولاً جديداً فاضطرت الى موالاة الدول المجاورة والتحالف معها بغية التغلب على هؤلاء الاعداء الالداء

وقد نشبت معظم المعارك بين الطرفين في قادش الواقعة جنوبي بحيرة حمص وقد كانت هذه المدينة في حيازة الحثيين بمثابة حصن يصد خطى العدو المصري عن التقدم شمالاً غير ان مواتلو اندحر عندها في سنة ١٣٠٨ ق.م كما تشير الى ذلك مسلة اقامها فرعون مصر قرب البحيرة تذكاراً لانتصاره عليه واكتشفها مسيو بيزار في اثناء حفرياته سنة ١٩٢١ في ذلك الموقع المسمى اليوم تل نبي مند. فترينا نقوش هذه المسلة الفرعون ستي يتقبل عكاز النصر من الآراميين وقد وقف خلفه الاله سوتخ الآسيوي وآلهة قادش الموالية لمصر . على ان قادش لم تلبث طويلاً في أيدي المصريين بل عادت الى الحثيين على الرغم من انهما كانا في تلك الآونة بالقضاء على الفوضى التي تفشت في سائر مستعمراتهم والخسائر التي منوا بها في شمال مملكتهم

ومما تخبرنا به الكتابات الهيروغليفية ونقوش مصر الخالدة ان رعمسيس الثاني الذي ملك من سنة ١٢٩٨ حتى سنة ١٢٣٢ ق.م خرج في اوائل عهده يتفقد ممتلكاته في سوريا فلما وصل الى

نهر الكلب عند مدخل بيروت التي كانت منتهى حدود البلاد الخاضعة لسلطته نقش ذكرى مروره على صخرة بارزة في الجبل ونظر الى الشمال فتاقت نفسه الى الاستيلاء على سائر السواحل العامرة كجبيل واوغاريت (رأس الشمراء) وغيرها مما كان تحت سطوة النفوذ الحثي فادرك مواتلو ما ربه الاستعمارية واستثار حمية مختلف الشعوب القاطنة في الانحاء السورية بما فيها البرابرة والعشائر الرحل الذين كان دأبهم الغزو والسلب وحشد منهم جيشاً لجباً ضمّ اليه ٣٥٠٠ عربة حربية وكمن لخصمه بالمرصاد وراء حصون قادش فتقدم رعمسيس الى الشمال فاتحاً في طليعة جيوشه السود في ربيع سنة ١٢٩٤ ق.م وبلغ ابواب قادش وبينما كان يتحفز لاقتحام هذه المدينة خرج عليه الجيش الحثي وباغته مباغتة لانه لم يكن يحسب ان يتلقاه الا عند ابواب حلب فالتحم الفريقان بحرب سجال ايدت فيها مقدمة الجيش المصري عن بكرة ابها وكادت تقضي على البقية الباقية لو لم ينصرف همّ البرابرة الى نهب الغنائم التي تركها المصريون وراءهم فانتهز رعمسيس هذه الفرصة الثمينة وجمع فلول جيشه ثم استنجد بالفينيقيين المقيمين في السواحل الموالية له واعاد الكرة على عدوه فانقض عليه كالصاعقة واحرز النصر ببسالة منقطعة النظير فسقطت اشلاء الحثيين بالالوف صرعى في السهول والذين ولوا الادبار غرقوا في مياه العاصي فخلد رعمسيس هذه الموقعة الكبرى بنقشها على جدران الكرنك واعمدة الاقصر حيث يشاهد حصن قادش في جزيرة تحيط بها مياه العاصي وحامية الحثيين على اسواره وبرى يمنةً فرق من الحرس خارجةً من الحصن تهاجم العدو ويسرةً رجال يعنون بانقاذ امير غريق هو مليك حلب ونقش في أسفل تلك المشاهد مواكب فرسان الحثيين واقفين يمنةً ومواكب فرسان المصريين يسرةً كأنهم متأهبون للنزال. ومع اندحار الحثيين ثانيةً بقيت قادش في حيازتهم

وبينما كان مواتلو يستجم قواه لخوض غمار حرب جديدة وافاه اجله سنة ١٢٩٢ ق.م فخلفهُ اورحي تحشوب الذي ملك من سنة ١٢٩٢ الى سنة ١٢٨٥ ق.م ثم حاتوشيل الثالث. وقد بدأ عاهل الاشوريين سلمنصر الاول (١٢٦٠ — ١٢٨٠) يملل نفسه على عهد هذا الملك بالبلاد الحثية العامرة بعد ان قويت شوكته وامتد نفوذه الى حدود الدول المجاورة فخشي الحثيون بأسه واتقوا شر الوقوع تحت رحى حرب طاحنة فراحوا يوطدون دعائم السلم ما بينهم وبين مصر ليتفرغوا لمناجزة عدوهم الجديد ففاوضوا رعمسيس بالصلح مفاوضة الند للند وعقدوا معهُ في سنة (١٢٧٨) ق.م معاهدة تحالف استوت فيها شروط الفريقين على قاعدة واحدة وصار فرعون مصر يلقب عدوه اللعين بالامس باحسن الالقاب مثل « يا اخا الشمس » وقد عثر على نسختي هذه المعاهدة المتبادلة بين الملكين الكبيرين فوجدت احداهما محفورةً بالخط الحثي على لوح من الفضة وممهورة بطابع الملك حاتوشيل الثالث والاخرى مكتوبة على الآجر باللغة

المصرية مقرونة بترجمتها الى البابلية بتوقيع فرعون مصر وتتلخص بنودها الطويلة في ان الفريقين يتبادلان في سنة ٢١ من ملك رعمسيس الاقرار بعهد السلام بينهما ويتواعدان بمواصلة العلائق الطيبة بين القطرين وبتعيين الحدود بينهما وعدم التنازع عليها وبتأييد منطوق المعاهدات الجارية بين الاسلاف ثم يلتزم كل منهما بضرورة التعاون المشترك لصد غارات العدو المداهمة وتأديب العصاة وطرد الملتجئين من العبيد الهاربين وبوجوب المحافظة المتبادلة على نظام الخلافة في الملك وينزلان في ختامها لعنة الف آله مصري والف آخر حثي على كل من يجسر ان يعبث بها ويستمطران الغبطة والبركة على من يتقيد بنصوصها وقد وجد في النسخة الفضية على كل من صفحتيها صورة الملك والملكة تحميهما الآلهة الحثية [1]. ومما مكن اواصر الصداقة بين الطرفين زواج رعمسيس الثاني من ابنة حاتوشيل البكر سنة ١٢٦٦ ق.م ودعوته حماه الى زيارة مصر واهدائه تحفاً ثمينة بمقابل ما حملته لعروسه معها ويلوح من رسائل الثناء والشكر التي كانت تبعث بها هذه العروس الى اختها التي كانت ملكة احدى المقاطعات الحثية انها قضت حياة سعيدة بجوار زوجها المصري وقد قال العالم الاثري الاستاذ موره ان مصر اكبرت نعمة هذا القران وأشادت بذكره ونقشت صور حفلاته على جدران معبد ابي سنبل لاتقائها بذلك غائلة حرب ضروس

العاصمة كركميش

اذا أخذنا بما اكتشف في اعماق اطلال كركميش من الماعون المنحوت من الصوان يرتقي بنا عهد هذه المدينة الى الأزمنة التي قبل التاريخ فيظهر ان شعباً لا يزال مجهولاً اختطها في ذلك العصر الصواني العريق في القدم ثم تنقلت الى ايدي شعوب عديدة حتى انتهت الى الحثيين في القرن الخامس عشر ق.م كما ألمعنا الى ذلك في سياق الحديث عن فتوحاتهم. وقد أخذت هذه المدينة منذ الاحتلال الحثي تتقدم سريعاً في معارج الحضارة بالنظر الى موقعها على ملتقى طرق القوافل التجارية حتى تفوقت على سائر الحواضر الحثية رقيًا وعمرانًا وأصبحت مع توالي الايام تعد من اكبر العواصم الحثية ومن أهم مراكزهم الحربية في مناجزة الأشوريين لانها كانت على ضفة الفرات بمثابة مفتاح سوريا من جهة المشرق ولذلك بالغ الحثيون في مناعة تحصينها وسموها كركميش بمعنى حصن الاله كميش

وما كاد يسطع نجم هذه العاصمة الجديدة حتى اخذت مملكة حاتوشا القديمة تنحط انحطاطاً عاجلاً الى ان ادركها الفناء في القرن الثاني عشر ق.م كما يؤخذ من بعض الاسانيد الاشورية وتعزى علة اضمحلالها الى الشأو الرفيع الذي بلغته من الرقي والعمران في ايام مجدها مما جعلها مطمح انظار ملوك اشور الاقوياء وقبلة مطامعهم فناصبوها العداء زمناً مديداً وحملوا عليها حملات

(١) راجع مقتطف اكتوبر ١٩٣٦ صفحة ٣٢٨ مقال الدكتور حسن كمال فيه تفصيلات هذه المعاهدة

شعواء لم تقو على مقاومتها طويلاً بسبب خيانة حاميتها التي كان معظمها من عناصر متنافرة تضمر لسادتها البغضاء فلما انتهزت فرصة ضعفهم نكلت بهم وولت الادبار فتفككت عندئذٍ روابط وحدة المملكة وتنازعتها عوامل الشقاق فتخاذلت قواها واستسلمت للغزاة الذين سلبوا كنوز قصورها وقوّضوا اركان معابدها وطمسوا معالمها تحت اطلال الردم

فلما مني الحثيون بهذه الخسائر الفادحة آنست الشعوب الرازحة تحت نير عبوديتهم ضعفاً في كيانهم فثارت عليهم ثورتها الكبرى محررة نفسها من نير استعمارهم فتمزق بذلك شمل المملكة الحثية في اسيا الصغرى وسرعان ما طغى عليها الاشوريون وساموا من بقي فيها من الحثيين صنوف الذل والعذاب فاضطر هؤلاء أن يهاجروا الى الجنوب ويتحصنوا في مملكتهم الجديدة فازدادت كركميش على اثر هذه الهجرة ازدهاراً

ولعل ذلك كان آخر لمعة لحضارتها الحثية المشرفة على الانطفاء اذ لحق الاشوريون باولئك المهاجرين وتغلغلوا تدريجاً في احشاء المملكة الجديدة قصد الاستيلاء عليها بالسياسة والدهاء بعد ان تغلبوا على معظم البلاد المنتشرة في سائر الانحاء السورية ودليلنا على ذلك ان مصر قد استعرفت في سنة ١١١٠ ق. م الملك الاشوري تغلا تغلا صار الاول سيداً على سوريا وفلسطين وما بين النهرين على ان كركميش ظلت ثابتة القدم في المقاومة شامخة الرأس في الحصار عدة اجيال حتى اذلها اشور ناصريال الثاني في سنة ٨٧٦ ق.م على عهد مليكها سنغارا فسقطت عندئذٍ الدولة الحثية من اعالي المجد الى هاوية الفناء ولم يبقَ من جيوشها الجرارة غير فلول تبعثرت بعد محاولات فاشلة وباد ذكرها من تاريخ الامم

وقد حفظت لنا اطلال كركميش في طياتها اثراً نفيساً من البرونز . يرينا سنغار آخر ملك حثي يقدم لنا ملك اشور القاهر ابنتهُ مع مغانم بلاده وهو منكوس الرأس خضوعاً وخجلاً

فيستنتج مما تقدم ان اولئك الحثيين المتحدرين من العرق الآري قد شغلوا دوراً خطيراً في حضارات الشرق وكانوا على غاية من القوة وحب الاستقلال فهاموا بالحروب ودوخوا شعوب آسيا الصغرى وسوريا الشمالية وشادوا في ديارها مملكة عظيمة ثم قاوموا اقوى دول الأرض على عهدهم وحملوها على خطب ودهم ومفاوضتهم بالسلم مفاوضة الند للند

وعند ما دالت دولتهم في الشمال جنحوا الى التحصن في جنوبي مملكتهم وناجزوا اعداءهم الاقوياء اجيالاً طويلة من غير ان يتطرق اليأس الى قلوبهم فذادوا عن كيانهم حتى الرمق الاخير ثم لما انهارت صروح مملكتهم تركوا وراءهم آثاراً خالدة منها كركميش ذات القلاع المنيعة والابراج الضخمة التي ظلت بعد اندثارهم بقرونٍ شاهداً صراحاً على ما بلغتهُ بفضلهم من الرقي والعمران

الكُرُنب العادي

وجاء في بعض المراجع انه (الكُرُنُب) و(الكَرَنْب) و(بقلة الانصار)[1] وفي الشام (الملفوف) عشب يعيش سنتين دائم الاخضرار أوراقه لحية على نوع ما ملتوية أو منحنية الى خلف أو اعلى أو ذات فصوص وتكون ملساء في صغرها تكسوها مادة كالغبار خضراء تضرب الى الزرقة وهذه الاوراق تجتمع في رأس يتفاوت في حجمه بين جوزة الهند العادية الى مايزيد عرضه عن ياردة وأزهاره صفراء

اسمه العلمي (Brassica oleracea, L. capitata) (براسيقا او لراسيا قبيتاتا)[2] وفصيلته الصليبية (Cruciferae) (كروسيفرية)

وبالانجليزية (garden cabbage; white cabbage; common or drumhead cabbage)

والفرنسية (chou cabus ; chou pommé a feuilles lisses; chou blanc)

وهو شائع في أنحاء المعمورة ومحبوب في مصر يزرعه أهلوها كثيراً لاستعماله في الطبخ أو في السلاطة أو في المخللات

وتجود زراعته في الأرض الطيبة الخصبة بكمية وافرة من السماد العضوي القوي كالقمامات المتخلفة في المجازر (السلخانات) ومن الدم المجفف الى غير ذلك

---

(١) وفي بعض المراجع انها القرنبيط او القنبيط

(٢) يرجع الفضل في البحث عن الأصل في اشتقاق كلمة براسيقا (Brassica) اسم جنس الكرنب الى العلماء التوابغ وسيوس (Vossius) وراي (Ray) ودالشان (Dalechamp) وغيرهم فهم الذين قالوا بأن ذاك الاسم من اصل (سلتي) هو كلمة برسيق (bresic) بمعنى كرنبة

أما أشهر أصنافه في مصر فثلاثة وهي (البلدي) و (الأحمر أو الفرنسي) [١] و (البطة) ومن هذا الأخير صنفان اسمهما بالفرنسية : (chou de Brunswick à pied court) و (chou Quintal d' Alsace)

وأما الكرنب البري واسمهُ العلمي (Brassica oleracea, L.) (براسيقا اولراسيا) وبالانجليزية (wild cabbage) والفرنسية (chou sauvage) وهو الذي ينبت بطبيعته على هضاب الشواطىء البحرية في جنوب انجلترا وجهات مختلفة في شمال أوربا فانهُ يندر وجود اشباه لهُ في عالم النبات لما قد تولد عنهُ من الاصناف الكثيرة التي تختلف عنهُ في أشكالها وخواصها اختلافاً شديداً لاننا اذا قارناه بالكرنب الأحمر والقرنبيط مثلاً وجدنا الاختلاف كبيراً فيما بينهُ وبينهما على الرغم من انهُ يعتبر الأصل الذي تولدا عنهُ هما وأصناف أخرى بطرق الفلاحة من قديم الزمن . وهو نبات يعيش سنتين أو يعمر ساقه تخينة قائمة ترتفع الى قدم أو قدمين أوراقه خضراء تضرب الى الزرقة السفلى منها كبيرة عريضة قلبية الشكل حافاتها ذوات فصوص والعليا أصغر منها عديمة الاعناق (جالسة) وليس لهُ رأس البتة وأزهاره صفراء فاقعة تشبه أزهار الخردل البري المعروف في مصر (بالقرلة) أو (بكبر العيفريت) المسمى علميًّا (Brassica Sinapis, Vis.) (براسيقا سينابيس) أو (Sinapis arvensis, L.) (سينابيس اروفسيس) وبالانجليزية (wild mustard or charlock) والفرنسية (moutarde sauvage; moutarde des champs; senevé des champs; sanve; sauve)

القَرْنَبِيط أو القُنَّبِيط

صنف تولد ايضاً عن الكرنب البري وأهم فارق بينهُ وبين الكرنب على الاطلاق أن نورتهُ تضخم وتصير رأساً يضرب الى البياض وهو الذي يؤكل منهُ فقط

اسمهُ العلمي (Brassica oleracea, L. botrytis cauliflora) (براسيقا أولراسيا بوتريتيس قوليفلورا) وبالانجليزية (cauliflower) والفرنسية (chou—fleur)

شائع كالكرنب في انحاء المعمورة وهو من الخضر المرغوب فيها كثيراً في مصر وأوربا يطهى أو يحفظ ضمن المخللات وتجود زراعته في الارض التي يزرع فيها الكرنب بحيث تخصب بالمقدار نفسه الذي يسمد بهِ الكرنب

(١) ويسمى علمياً في بعض المراجع (Brassica oleracea, L. rubra) (براسيقا او لراسيا روبرا) وبالانجليزية (red or pickling cabbage) والفرنسية (chou rouge) واكثر استعماله في المخللات ويطبخ أحياناً

البروكولي

صنف من القرنبيط تضخم نورته وتصير لحمية وهي التي تؤكل فقط كالقرنبيط
اسمهُ العلمي (Brassica oleracea, L. botrytis asparagoides) (براسيقا اولراسيا بوتريتيس اسپرغويديس) أو (Brassica oleracea, L. botrytis pompejana) (براسيقا اولراسيا بوتريتيس پومپيانا) أو (Brassica oleracea, L. botrytis cymosa) (براسيقا اولراسيا بوتريتيس سيموزا) وبالانجليزية (brocoli or broccoli)والفرنسية (chou - brocolis)
شائع كالكرنب العادى ويزرع في مصر احياناً ولكنهُ مرغوب فيهِ كثيراً باوربا يستعمل في الطبخ أو يحفظ في المخللات

الكرنب اللفتيّ أو الافرنجيّ

ويقال لهُ في مصر (ابو ركبة) صنف من الكرنب تضخم ساقه وتصير لحمية وهي التي تؤكل منهُ فقط
اسمهُ العلمي (Brassica oleracea, L. caulo -rapa) (براسيقا اولراسيا قولورابا) أو (Brassica oleracea, L. gongylodes) (براسيقا اولراسيا غونغيلودس) وبالانجليزية (knol--khol; kohl—rabi; turnip—rooted cabbage) والفرنسية (chou—rave)
شائع كالكرنب وكان لا يستعمل قديماً الاّ علفاً للغنم والبقر باوربا ولكنهُ الآن نظراً الى قيمته الغذائية يفضلونهُ عن اللفت في فرنسا ويعطونهُ علفاً لتسمين الماشية المجترة وبخاصة ماشية الحليب لانهُ يحسّن لبنها وزبدها اذا اكلت منهُ كما وأنهُ من الخضر المرغوبة يزرع في البساتين ويطهى عادةً في الحساء (الشوربة) وطعمه كاللفت تقريباً
وهو من جهة اوراقه صنفان ذو اوراق خضراء وذو اوراق ارجوانية والاول هو المفضل
أما اصنافه المنزرعة في مصر فثلاثة معروفة بالاسماء الفرنسية الآتية :
(chou — rave blanc ordinaire) و (chou — rave blanc hâtif de Vienne) و (chou- rave violet hâtif de Vienne)

الكرنب مجعّد الورق

ويقال لهُ في مصر (الكرنب الخرفش) وهو صنف من الكرنب الاّ أنهُ مجعّد الورق
اسمهُ العلمي (Brassica oleracea, L. bullata major) (براسيقا اولراسيا بولاّتا مايور) أو (Brassica oleracea, L. sabauda) (براسيقا اولراسيا سابودا) وبالانجليزية (Savoy cabbage) والفرنسية (chou pommé frisé و chou de Milan; chou de Savoie)
شائع كالكرنب العادي ويزرع كثيراً في اوربا ومصر لاستعماله في الطبخ الى غير ذلك

كُرُنب بروكسيل

صنف من الكرنب يمتاز بالكرنبات الصغيرة (البراعم) التي تنبت في آباط جميع الاوراق الموجودة على ساقهِ الاصلية وهذه الكرنبات هي التي تطهى وتؤكل

اسمه العلمي (Brassica oleracea, L. bullata gemmifera (براسيقا او لراسيا بولاّتا غمّيفرا) و (Brassica oleracea, L. sabauda gemmifera) (براسيقا اولراسيا سابودا غمّيفرا) وبالانجليزية (brussels—sprouts) والفرنسية (chou de Bruxelles)

شائع كالكرنب العاديّ ويزرع قليلاً في مصر ولكنهُ مرغوب فيه عند الافرنج

الكُرُنب الصيني

وهو في لغة الصينيين (پاكشوي) (Pak—choi) و (پيتساي) (Pe—tsai) ويكون أقرب شبهاً الى الهندباء والخس منهُ باصناف الكرنب مع أنهُ كرنب حقيقي أوراقه غير محددة القمة ذات فصوص ريشية مسننة الحافة وأزهاره صفراء

اسمهُ العلمي (Brassica campestris, L. var. chinensis) براسيقا قمپستريس شينِنسيس) او (Brassica chinensis, L.) (براسيقا شينِنسيس) او (Brassica sinensis) (براسيقا سينِنسيس) وبالانجليزية (Chinese cabbage) والفرنسية (chou de Shangton; chou de Chine)

يزرع في الصين موطنه واشتهر زمناً طويلاً في فرنسا وايطاليا وجنوب اوربا وانتشرت زراعته في غير هذه البلاد ما عدا مصر في اوائل القرن العشرين وأهل فرنسا يسلقون اوراقه ويأكلونها . أما في بلاد الانجليز فكثيراً ما تطهى عروق الاوراق فقط وتؤكل كما يؤكل الهليون وقد تصنع من الاوراق سلاطة جيدة بدلاً من الخس والهندباء

الكُرُنب الاخضر

ويقال لهُ في مصر (المشرشر) صنف تولّد ايضاً عن الكرنب البري

اسمـــهُ العلمي (Brassica oleracea, L. acephala) (براسيقا اولراسيا آسيفالا) او (Brassica oleracea, L. sabellica) (براسيقا او لراسيا سابلّيقا) او (Brassica olercea, L. fimbriata) (براسيقا او لراسيا فمبرياتا) وبالانجليزية (borecole; kale; curly greens) والفرنسية (chou vert)

شائع في اوربا ونادر في مصر واهل فرنسا يعطون اغصانهُ علفاً لماشيتهم

حيوانات مشهورة
وصحة اسمائها

للفريق الدكتور امين المعلوف

هي حيوانات مشهورة لكن ترجمتها أو التعبير عنها في غالب الأحيان خطأ وهي قليلة جداً تعد على أصابع اليد فرأيت ان أنشرها هنا مع صحة ترجمتها فانهُ لا يليق بالجرائد اليومية ذكرها على خطإِها فالجرائد جعلت لتعليم الناس لا لتضايلهم والآن ابدأ بالسباع وهي ستة فقط وأوردها مختصراً ثم تليها اربعة من سباع الطير

أسد وأسماؤه كثيرة — Lion

والعامة في مصر والشام تقول السبع وهو المفترس من الحيوان مطلقاً فالأفضل ان لا يقال السبع الا بمعناها الحقيقي كما في سورة المائدة « وما أكل السبُع » فمعناها هنا المفترس من الحيوان كالاسد والنمر والفهد والذئب وغيرها

بَبْر — Tiger

والبعض يقولون نمر هندي وفهد وكله خطأ فجماعة السنما يقولون فهد وهم ليسوا من علماء الحيوان في ما اعلم ويقول غيرهم نمر مخطط واللغة لا تجيزه لأن النمر لا يكون الا انمر اي مرقط ويكفي ان الببر وارد في كليلة ودمنة لابن المقفع والكلمة سنسكريتية معربة والمعرب كالعربي في حكمهِ فالمسيو كلمنصو كان لقبه الببر وبعض الجرائد تقول النمر خطأ والكلمة فصيحة فلماذا لا نستعملها

نَمِر ونِمر ونَمر — Leopard or Panther

سمي بذلك للنُمر التي فيهِ أي الرُقط والبعض يقولون نمر مرقط فان النمر لا يكون الا أنمر

فكلمة نمِر معناها مرقط أو أنمر . وهناك نمر أسود وهو نمر أسود والنمر التي فيهِ خفية جدًّا فيظهر كأنهُ أسود وفي حديقة الجيزة واحد منهُ

فهد Hunting leopard or Chita

وهو سبع بين الكلب والنمر مرقط كالنمر وانما رقطه متفرقة لا تجتمع كالحلق كما في النمر وليس لمخالبهِ أكمام كمخالب النمر فهو بذلك كالكلب

وَشَق Lynx

سبع أملح طويل القوائم قصير الذنب في أعلى أذنيهِ جمّة من الشعر الأسود وهو أكبر من عناق الارض وأصغر من النمر فتّاك سفّاك للدماء ولعلهُ الشيب وقد انقرض من الشام والعراق

عناق الأرض Caracal or Red Lynx

سبع بين القط والكلب أحمر اللون في أعلى أذنيهِ شعرات سود اسمهُ بالفارسية سياه كوش وبالتركية قره قولق ومنهُ اسمهُ الافرنجي ويقال لهُ في السودان أم ريشات لهذه الشعرات السود في أعلى أذنيهِ وهو جميل المنظر جدًّا يرى واحد منهُ أو أكثر في حديقة الجيزة . وعناق الارض ليس الغرير كما في بعض المؤلفات

سباع الطير أي الجوارح . ذكرت السباع المشهورة وصحة ترجمتها وأنا ذاكر الآن سباع الطير المشهورة وصحة ترجمتها وهي ما يأتي :

عُقاب . مؤنثة تقع على الذكر والأنثى جمعها أعقب وعِقبان وعقابين Eagle

طائر من سباع الطير لا تقع على الجيف الاَّ اذا عضها الجوع قوية المخالب مسرولة اي في ساقيها ريش لها منسر أعقف لتثبت بهِ بالشغواء واللقواء لتعقفه وزيادة اعلاه على أسفله

نَسْر Vulture or Griffon vulture

طائر من سباع الطير لكنهُ ليس من عتاقها يقع على الجيف وقلما يصيد وهو أعظم من العقاب شرهٌ نهم رغيب لهُ منسر منعقف في طرفهِ فقط ولا ريش في رأسه وعنقه بل فيهما زغب أبيض قصير وهو عاري الساقين بخلاف العقاب فانها مسرولة الساقين والرجلين . وهو المعروف بالنسر عند العرب من عهد جاهليتهم الى يومنا ويعرف بالنسر عند المتكلمين بالعربية من المغرب الأقصى الى العراق ومن سورية شمالاً الى اليمن جنوباً

ومن دواعي الأسف ان الطائر الاول مترجم في التوراة الانجليزية والفرنسية خطأ وحقه ان يترجم بالكلمة الثانية اي النسر وهو صواب في الترجمة العربية والأصل العبراني وقد جرى الكتاب على هذه الترجمة المغلوطة الى يومنا فقولهم النسور المصرية اي الطائرات خطأ اذا كانوا يريدون بها الكلمة الأولى وحقهم ان يقولوا العقبان المصرية وقولهم فرخ النسر لابن نابليون خطأ وصوابه فرخ العقاب كذلك راية قريش والفرس والرومان والفرنسيس في زمن الامبراطورية وغيرهم فجميع هذه الألفاظ حقها ان تترجم بالعقاب . ويقال وسام العقاب لا وسام النسر وهو وسام مشهور عند الالمان . ثم ان طائرة الملك غازي اسمها العقاب لا النسر، فالملك القرشي لا يمكن ان يسمي طائرته بالنسر. وان قيل ان هذين اللفظين قد ترجما بالنسر والعقاب من قبيل قولنا الخطأ المشهور خير من الصواب المهجور أقول ان هذا القول لا يقال عن العقاب والنسر لان هذا الطائر الذي نسميه في أيامنا بالعقاب وفي أيام الجاهلية وفي كتب اللغة والطائر الذي نسميه بالنسر وفي أيام الجاهلية وفي كتب اللغة يسميهما الانكليز كما تقدم ولا يجوز غير ذلك . هذا وقد أسهبت في في العقاب والنسر في ص ٩٣ و ص ٢٥٩ من معجم الحيوان ومنذ ٢٨ سنة في المقتطف المجلد ٣٤ : ٥٣٧ وما بعدها ويسرني ان بعض المعاجم أصلحت خطأها ولكن بعض معلمي المدارس والجرائد لم تعلم ان تصلحهُ فالعقاب والنسر صحة ترجمتهما كما تقدم ولا يجوز غير ذلك . ولعلَّ سبب خطأ هذه الترجمة هو انهُ ليس في اليونانية الا كلمة واحدة يعبر بها عن العقاب والنسر وهي أيتوس فجاءت في الترجمة السبعينية للتعبير عن النسر وجرت على ذلك الترجمة الانجليزية والفرنسية وقد أصلحوها حديثاً في الترجمة الانجليزية المنقحة فان كان الانجليز محافظين على ترجمتهم من زمن الملك جيمس فهل من شروط المعاهدة ان نكون محافظين مثلهم . ولا يخفى ان ابن البيطار لم يخف عليهِ ذلك فترجم الاكتمكت بحجر النسر وحجر العقاب وهو أيتوس باليونانية انظر مادة ١٣٠ و ٦٤١ و ٦٤٢ من الترجمة الفرنسية

كاسر العظام — Bearded vulture or Ossifrage or Lammergeier

ولهُ أسماء أخرى ذكرتها في المقتطف قبلاً وفي معجم الحيوان ص ١٤٣ و ص ٢٥٩

رَخمة — Egyptian vulture or Pharoah's hen

بالفتح طائر أبقع أصفر المنقار وهو في عرف علماء الحيوان نوع من النسور يعرف في المغرب ومصر والسودان وكتب اللغة بهذا الاسم ، أما في لبنان فيسمونهُ الشوحة وهي الحدأة على الأصح . هذا شيء يسير من سباع الطير وهي أربعة طيور ولا يعسر تعلم صحة ترجمتها

حديث اليمن

رحلة جغرافية عمرانية

لاحمد وصفي زكريا

ساقتني التقادير في مطلع عام ١٩٣٦ الى اليمن . وكان ذهابي اجابةً لطلب جلالة مليكه الامام كي اخدم زراعة بلاده وانظر الى ما يؤدي لصلاحها في ستة اشهر حددها . فذهبتُ وقمتُ في تلك المدة المتناهية في القصر بأقصى ما يمكن ان يؤتى في خدمة الزرع والغرس . منها اني فتحت مدرسةً زراعيةً علمتُ فيها بعض شبانهم اهم نظريات الزراعة الحديثة وعملياتها ، واستجلبت من مشاتل الشام ومصر وايطاليا ووزعت وغرست الوفاً من اشجار الفاكهة والحراج على اختلاف انواعها واصنافها . وكلها مما وجدته نافعاً ومناسباً لحاجة اودية اليمن الاعلى وجباله ومما لا عهد لليمانيين بهِ من قبل، وكتبت ونشرت عدة مقالات ورسائل في اجل الموضوعات الزراعية الحديثة التي تعوزهم وتفيدهم

وقد كنت خلال اعمالي الزراعية المذكورة في صنعاء والانحاء القليلة التي مكنوني من زيارتها اتنسم المعلومات الجغرافية والتاريخية والطبيعية والعمرانية وما اليها ، فحصلت على نبذ منها رأيت على قلتها ان انشرها في « المقتطف » . وقد حفزني الى ذلك كون اليمن لا يزال غير معروف في جملته ، لم يكتب عنهُ في الماضي والحاضر كتابات كافية . وما كتب في اللغة العربية خاصة قلما شمل الابحاث التي عنيت بها . لان اليمن كان وما برح كالموصد في وجوه الغرباء ولا سيما الباحثين منهم ، ولم يتسنَّ جوس دياره والتماس مجاهله الاّ للقليل من الشرقيين والغربيين . ولا يزال مجال البحث والكتابة فيهِ واسعاً يحتاج الى جهود جمة

نبذة جغرافية

﴿ الحدود ﴾ اليمن قطرٌ واسعٌ مستطيل الشكل في الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب . وحدوده الرسمية في يومنا من الشمال بلاد عسير العائدة للمملكة السعودية يفصله عنها

خط يمتد من ميناء ميدي على البحر الأحمر الى شمالي بلدة صعدة متبعاً وادي مخلاف الى حدود نجران ويام الجنوبية [١] وحدوده من الجنوب المحميات التسع المرتبطة بمستعمرة عدن [٢] يفصله عنها خط يمتد من الشيخ سعيد تجاه باب المندب الى جنوبي بلاد الحجرية ومادية وقعطبة . ومن الشرق بلاد حضرموت يفصله عنها وادي بيحان وبادية الجوف الممتدة الى الربع الخالي ، ومن الغرب البحر الأحمر

وقد سمى اليونان بلاد اليمن بالعربية السعيدة Arabia Felixa وسماها العرب بالخضراء [٣] ، وذلك لكثرة أشجارها وزروعها ووفرة خيرها وميرها بالقياس الى بقية اقطار الجزيرة العربية القاحلة في الغالب . واليمن في عرف العرب هو الجزء الجنوبي من جزيرتهم ، او هو كل ما كان جنوبي الحجاز كما ان الشام هو كل ما كان شمالي الحجاز . وكانوا يجعلون حدوده من البحر الاحمر غرباً الى خليج فارس شرقاً ، فيدخلون فيه حضرموت وعمان والربع الخالي ولواء عسير والمحميات التسع وعدن الا ان هذا التحديد كان اعتبارياً في اغلب العصور ولم يتحقق الا قليلاً . لان عمان وحضرموت ان تبعتا اليمن قبل الاسلام في عهد الحميريين لم تتبعاه بعد الاسلام . بل ساد فيهما ولاة مرتبطون بعاصمة الخلافة مباشرة ، او امراء محليون مستقلون . وبلاد عسير كانت بيد بعض الامراء ايضاً وآخر هؤلاء في القرن الماضي آل عايض . وكان اشراف مكة في الشمال وامراء نجد في الشرق وأئمة اليمن في الجنوب يدعون بامتداد نفوذهم الى بعض المناطق او القبائل من عسير ونجران المجاورة لهم . ولما استفحل امر محمد ابن عايض وهاجم تهامة وحاصر الحديدة جردت الدولة العثمانية عليه في سنة ١٢٨٨ هـ جيشاً بقيادة رديف باشا فشتت شمله وقضى على امارته وجعل عسير لواء مرتبطاً بولاية اليمن التي تألفت في السنة التالية على اثر استرداد صنعاء بيد احمد مختار باشا الغازي

وظل لواء عسير بأقضيته الستة (ابها ومحايل ورجال المع وقنفدة وبني شهر وغامد وصبيا) تابعاً لصنعاء اولاً ثم لمقر السلطنة في استانبول اخيراً ، حتى ثار فيه الادارسة عقيب اعلان الدستور العثماني وحاربوا الدولة ثم استقلوا قبيل الحرب العامة ووطدوا استقلالهم بعدها . ولما جلا العثمانيون عن اليمن سنة ١٣٣٧ واستتب الملك فيه للامام يحيى قاتل الادارسة الذين كانوا مدوا ايديهم الى تهامة اليمن واستولوا على الحديدة . وبعد ان اخرجهم في سنة ١٣٤٣ عزم على اخذ عسير — معتبراً اياه من اليمن . ولما شعر الادارسة بعجزهم عن مقاومته التجأوا

---

(١) قلب جزيرة العرب لحافظ وهبة (٢) هي الامارات والمشيخات الكائنة في جنوبي اليمن الاسفل التي دخلت تحت حماية الحكومة البريطانية منذ احتلال عدن سنة ١٨٣٩ (١٢٥٣ هـ) . وهي لحج والصبيحة ، والحواشب والقطيب والعواذل ويافع والضالع والواحدي والعوازل (٣) صفة جزيرة العرب للهمداني

سنة ١٣٤٥ الى عبد العزيز ابن السعود ملك الحجاز ونجد ووضعوا بلادهم تحت حمايته

وظل الامام يحيى يحاول الاستيلاء على عسير وعلى مخلاف نجران المحتمي بالحجاز ونجد من قبل وتفاقم الخلاف من جراء ذلك بينهُ وبين الملك عبد العزيز . ونشبت الحرب في سنة ١٣٥٢ وتقدمت الجيوش السعودية في تهامة اليمن حتى الحديدة وباجل . فاضطر الامام يحيى اذ ذاك للتسليم بالحدود التي ذكرناها في مقدمة مقالنا ، وقضى الامر باقلات عسير ونجران من اليمن نهائيًا

﴿ أقسام اليمن قديماً ﴾ كان اليمن قبل الاسلام يقسم الى مخاليف والمخلاف كما قال ياقوت في معجم البلدان بمنزلة الكور والرساتيق ولكل مخلاف اسم يعرف بهِ وهو قبيلة من قبائل اليمن اقامت بهِ وعمرتهُ فغلب عليهِ اسمها . فمن المخاليف التي ذكرها ياقوت ابين ولحج ويحان وشبوة والمعافر واليحصبيين والعود والسحول ورعين وجيشان ورداع ومآرب وريمة وذمار وغيرها . وكل مخلاف تحتهُ محافد ومدن وقرى

وفي صدر الاسلام قسمت اعمال اليمن على ثلاثة ولاة فوالٍ في الجَنَد [1] ومخاليفها وهو اعظمها ، ووالٍ في صنعاء ومخاليفها وهو اوسطها ، ووالٍ على حضرموت ومخاليفها وهو ادناها. وفي العصور الاسلامية المتوسطة قامت في اليمن وتداولت الحكم دول او الاصح دويلات عديدة كان اكثرها في تهامة وبعضها كائمة الزيدية في الجبال . ودولة الائمة كانت اطولها عمراً . ودخل العثمانيون اليمن في القرن العاشر ، ولكن لم يلبثوا الاّ قرناً حتى غادروه مرغمين ، وظلوا يتحينون الفرص لاسترداده ، اعتقاداً منهم بان اليمن دعامة الجزيرة العربية وحصن الحجاز الحصين وان بدون الحجاز واليمن من ورائهِ لايستتب البقاء لخلافتهم الاسلامية . ففي القرن الماضي سنة ١٢٨٨ فتحوا عسير على ما قدمنا ، وفي سنة ١٢٨٩ فتحوا صنعاء ومعظم جبال اليمن وكل تهامة ، فدانت لهم هذه البلاد واسسوا فيها (ولاية اليمن) وما زالوا حتى اخرجتهم نتائج الحرب العامة سنة ١٣٣٧ ، وسنأتي على تفصيل ذلك في النبذة التاريخية

***

﴿ اقسام اليمن في العهد العثماني والعهد الامامي الحاضر ﴾ كان اليمن في عهد العثمانيين يؤلف ولايةً واسعة تشتمل على لواء عسير الذي تقدم ذكره وألوية صنعاء والحديدة وتعز . وكان كل من هذه الالوية يشتمل على اقضية وهذه على نواحٍ عديدة ، في كل ناحية مئات من القرى والعُزَل (جمع عزلة) . فكان يحكم في الولاية الوالي وفي الالوية المتصرف وفي الاقضية قائم المقام وفي النواحي المدير . وكانت مساحة هذه الالوية والاقضية والنواحي عظيمة وابعادها

(١) الجند بليدة قرب تعز . ولعل ولايتها اذ ذاك كانت تشمل التهائم واليمن الاسفل كله

شاسعة تزيد عن امثالها — في بقية ولايات الدولة وتتطلب تقسيمها الى اصغر من ذلك وتكثير عدد الاقسام . وقد اقترح هذا سنة ١٣١٩ الوالي حسين حلمي باشا المشهور بحسن ادارته ولكن لم يلبَّ اقتراحه . ومما يجدر ذكره ان يد العثمانيين لم تصل الى شرقي اليمن الاعلى وشماليه ولا جنوبي اليمن الاسفل فظلت مأرب وصعدة ونجران وشهران وقفلة العذر وماحولها من القبائل العاتية كحاشد وبكيل وارحب وذو حسين وامثالها تحت سلطة الائمة او المشائخ المحليين . وكذلك كان الحال في اراضي المحميات التسع في اليمن الاسفل التابعة لمستعمرة عدن كما تقدم ذكره .

***

هذا وقد كان لواء صنعاء (قضاء صنعا) تتبعه نواح اسمها بلاد البستان ، بلاد الروس ، بني بهلول ، بني الحارث ، بني حشيش همدان ، سنحان ، ارحب ، نهم ، خولان ، الحدا . ثم (قضاء حراز) وقاعدته مناخه ونواحيه حراز وضحق وعرو وتوح وحجيلة . ثم (قضاء كوكبان) وقاعدته الطويلة ونواحيه كوكبان والحريث وشبام . ثم (قضاء آنس) وقاعدته ضوران ونواحيه آنس وعتمة وجبل شرق وجهران . ثم (قضاء حجة) وقاعدته حجة ونواحيه حجة وبني عزام وشقادرة ومسور وعضار . ثم (قضاء ذمار) وقاعدته ذمار ونواحيه ذمار ومغرب عنس . ثم (قضاء ريم) وليس فيه نواح . ثم (قضاء رداع) وقاعدته رداع ونواحيه رداع وسوادية وجبن . ثم (قضاء عمران) وقاعدته عمران وفيه ناحيـة عيال سريح . وكان في لواء الحديدة (قضاء الحديدة) ونواحيه الحديدة وجزيرة قمران وجبل برع وحفاش . ثم (قضاء زبيد) وقاعدته زبيد ونواحيه زبيد وحيس ووصاب العالي ووصاب السافل . ثم (قضاء اللحية) وقاعدته اللحية ونواحيه اللحية وزهرة . ثم (قضاء الزيدية) وفيه ناحيـة بني قيس . ثم (قضاء جبل ريمة) وقاعدته ريمة ونواحيه ريمة والجعفرية وكسمة وسلفية . ثم (قضاء حجور) ونواحيه محايشة وعاهم وخمس وقارة وحرض وعبش . ثم (قضاء بيت الفقيه) وفيه احياء متفرقة من قبيلة الزرانيق . ثم (قضاء باجل) ونواحيه باجل وملحان . وكان في لواء تعز (قضاء تعز) ونواحيه تعز وتربة الفحم وقاعرة ومقبنة وذي شراق . ثم (قضاء إب) ونواحيه إب وعخادر . ثم (قضاء عُدين) ونواحيه عـدين وحيش . ثم (قضاء قعطبة) ونواحيه جبل مريس ونادرة وحشا . ثم (قضاء الحجرية) ونواحيه الحجرية وقبيطة وحيش . ثم (قضاء مخا) وليس فيه نواح .

وقد ابقى الامام يحيى معظم هذه الاقسام على حالها وأقام عليها حكاماً سماهم (عمال) جمع كلمة «عامل» التي كانت مستعملة في العصور الاسلامية الغابرة . وهؤلاء العمال يمثلون الامام ويماثلونه

بنسبة مصغرة في سلطته ودواعي ابهته . وهم يسيرون على نهج جلالته وتهج تلك العصور في الحكم الاقطاعي المطلق

***

﴿ المساحة والسكان ﴾ لم يتسنَّ لولاة الترك وضباطهم ولا لجوَّالة الافرنج وبحاثهم — وعدد هؤلاء كان قليلاً — ان يضبطوا مساحة اليمن السطحية ويعرفوا عدد نفوسه ، ويضعوا خريطةً صحيحة لالويته واقضيته . ذلك لتعذر هذا العمل في الزمن الماضي الطافح بالفتن والحروب واستمرار هذا التعذر في الزمن الحاضر لرغبة الامام ببقاء بلاده في محجوة عن الكشف والبحث . وكل المساحات والاعداد التي وضعت والخرائط الانكليزية والتركية التي رسمت وطبعت انما هي اعتبارية سماعية لايصح الركون اليها الاَّ للاستئناس فحسب . فالترك كانوا [1] يعتبرون ولاية اليمن بألويتها الاربعة التي ذكرناها بين درجات ٢٠ و ٣٠،٢١ من العرض الشمالي و٣٣و٤٣ من الطول الشرقي . وكانوا يقدرون طولهُ من الشمال الى الجنوب ٧٧٥ كيلومتراً وعرضهُ من الغرب الى الشرق ٣٥٠ كيلومتراً . وان مساحة اليمن السطحية تبلغ على التقريب ٢٣٥٠٠٠ كيلو متر مربع

اما عدد نفوس اليمن فقد اختلفت فيه الاقوال . فالمعاجم ودوائر المعارف الفرنسية والانكليزية تقدره تارةً بمليون وتارةً بمليونين ونصف . وهذا قليل ، لان اليمن اكثر بلاد الجزيرة العربية عمراناً وسكاناً

والترك [2] يقدرونه تارةً باربعة ملايين وتارةً بثلاثة بما فيه لواء عسير . أما اليانيون [3] فيبالغون الى الخمسة عشر مليوناً . والتقدير التركي الثاني هو الاقرب الى الصحة حتى في يومنا . ذلك لان اليمن لم يحو ولا يمكن أن يحوي اكثر من ثلاثة ملايين ، لقلة أراضيه الزراعية ومرافقه الحيوية كما سوف نذكره ، ولانفصال لواء عسير عنهُ ، ولان الحروب والفتن الماضية أهلكت حرثهُ ونسله كثيراً فانقصت قطينه وهذه وان زالت في عهد الامام يحيي الاَّ انه قام مقامها كثرة وفيات الاطفال وتوالي الامراض العادية والسارية بحكم فقدان الاطباء وحرمان وسائل الاستشفاء ناهيك البؤس والشقاء الضاربين أطنابهما

دمشق : [للبحث بقية]

(١) قاموس الاعلام لشمس الدين سامي

(٢) شمس الدين سامي في قاموس الاعلام . وحسين حلمي باشا في لائحته الاصلاحية (٣) عبد الواسع الواسعي في تاريخ اليمن

لوبي ده فيجا

(١٥٦٢ — ١٦٣٥)

احتفلت اسبانيا في العام الماضي ، وشاركتها البلدان الاميركية الاسبانية الثقافة وجميع البلدان التي عرفت الادب الاسباني معرفة درس واطلاع فقط، بانقضاء ثلاثة قرون على وفاة الشاعر والمؤلف الدرامي الاسباني المشهور لوبي ده فيجا Lope de Vega فألقيت المحاضرات عنهُ وعن شعرهِ في اشهر جامعات العالم ومثلت طائفة مختارة من مسرحياته على غير مسرح واحد وفي غير بلاد واحدة

يتباين عدد الروايات المسرحية التي ألفها هذا الشاعر الفذُّ في خصبه ووفرة نتاجه، من ١٥٠٠ رواية الى ١٨٠٠ رواية يضاف اليها مئات من الفصول والمقطوعات . بل انك لتقرأ واحداً وعشرين مجلداً كبيراً من مجموعة آثاره الباقية قبل ان تصل الى المسرحيات . لذلك وصفهُ سرڤانتس مؤلف دون كيشوت بقولهِ « فلتة الطبيعة » ولم يكن من النادر ان يوصف بقولهم « لوبي العلوي » اشارة الى لبسهِ المسوح وانتظامهِ في سلك الكهنوت بعد وفاة زوجتهِ الثانية سنة ١٦١٢

كان ده ڤيجا حينئذٍ في أوج مجدهِ الأدبي . ونحن اذ ننظر اليهِ من خلال ثلاثة قرون نعرف ان مكانتهُ الأدبية مقرونة بكتاباتهِ المسرحية . ولكنهُ كان في نظر قومهِ طوداً من الادب تشبهُ مكانتهُ في أسبانيا مكانة ڤولتير في فرنسا في عصره . لقد طوى النسيان قصائده الفروسية والريفية وأناشيدهُ وأغانيهُ ، بعد ان أحاطت اسمهُ في حياتهِ وبعيد مماته بهالة من المجد ، مكّنتهُ في ذلك العصر الاقطاعي من ان يعامل أسيادهُ وأمراءهُ معاملة الندّ للندّ . فدوق سسّا — وكان يغدق عليهِ المال ويحميهِ من سنة ١٦٠٥ الى وقت وفاته — كان صديقه الحميم ، ورسائل لوبي اليهِ تدلُّ على رفع الكلفة بينهما لولا عبارات قليلة هنا وهناك ، كان من المألوف استعمالها في مخاطبة الاشراف

لما ولد لوبي ده ڤيجا كان قد انقضت سبعون سنة على اكتشاف العالم الجديد . وكانت المستعمرات الاسبانية ممتدَّة في شرق الارض وغربها فكانت امبراطوريتها كالامبراطورية البريطانية في هذا العصر ، لا تغيب عنها الشمس . وكان مقام اسبانيا الدولي في المرتبة العليا . حتى كان الناس من شتى البلدان يفاخرن بمعرفة اللغة الاسبانية والتحدُّث بها . وكذلك تمهَّدت الطريق لظهور شاعر عظيم يتغنى بامجاد هذه الدولة العظيمة وحضارتها ، وكان لوبي ذلك الشاعر

ولد في ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٦٢ وكان والده قد احترف تطريز الاثواب وزركشتها بعدما هبط مدريد من النجود الاسبانية في مقاطعة استوريا ، فكان من صغره فلتة من فلتات الذكاء الانساني . ففي الخامسة من عمره كان يستطيع ان يقرأ اللغة اللاتينية الايطالية ولما كان لا يستطيع الكتابة في هذا السن ، كان يملي اشعارهُ على رفاقه في المدرسة ويجزيهم عن تعبهم بجانب من فطوره . فلما اصبح قادراً على استعمال الريشة لرسم الكلمات ، انبجس نبع الشعر من صدره فكتب وهو في الحادية عشرة من عمره مسرحيتهُ الاولى وكانت رواية ريفية ثم تبعتها مسرحيتان اخريان وهو في الثانية عشرة من عمره . ثم تلت ذلك مسرحية ذات ثلاثة فصول ، فجرى على ذلك في سائر مسرحياته واصبح تأليف المسرحية من ثلاثة فصول تقليداً تبعهُ الادباء في اوربا حتى اواسط القرن الثامن عشر

ولعلَّ اول ما يخطر للقارىء ان يسأل : لماذا انحصرت عبقرية لوبي ده ڤيجا في حدود بلاده فلم ترسل اشعتها الى ما وراءها ولماذا انكرت الاجيال التالية عليه تلك الشهرة العالمية التي اسبغتها على مواطنه سرڤانتس

والواقع ان شهرتهُ لم تنحصر كل الانحصار في حدود بلاده . فقد كان زوَّار مدريد من كبار الاجانب يسعون اليه وكان القصَّاد الرسوليون يزورونهُ حاملين بتحيات سيّدهم الاعلى في روما . بل ان البابا اربان الثامن ارسل اليه شهادة تحمل لقب دكتور في اللاهوت في سنة ١٦٢٧ . ولكنهُ مع ذلك لم يصب نصيباً من الشهرة العالمية المتجددة الذكر مع كل جيل ، على نحو ما اصاب سرفانتس بكتابه دون كيشوت . وليس الباعث على ذلك في رأي النقاد ان ده ڤيجا كان ادنى مقاماً من سرڤانتس في عالم الادب . الا ان عبقريتهُ وان كانت من طبقة عبقرية ندّه كانت تختلف عنها .

فسرڤانتس كان فيلسوفاً واقعيًّا فكان النثر القالب الطبيعي الذي تفرغ فيهِ مآثر عبقريتهِ وأما ده فيجا فكان رجلاً تتقاذفهُ العاطفة العنيفة والانفعال الشديد. يغلي مرجل شعورهِ غلياناً دائماً وهو يطلب منفذاً فلا يجد منفذاً الاَّ في الشعر الطلق السمح القوي المتدفق. هنا بين سطور قصائدهِ وفي حوار مسرحياتهِ رسم الحب والاسف والحقد والغيرة والامل والطموح. فقد عاش طوال حياتهِ وكأنهُ مجنح محلق في سماءٍ لا تمتُّ الى الحقيقة الواقعة بصلة. فالشعر في كيانهِ والتنفس كانا توأمين. فمن الطبيعي ان تنحصر شهرة شاعر فذّ لهُ من بلاده وأدبها الممتاز سمات الايقاع والرجع الخاص. ذلك ان ترجمة الشعر أصعب بما لا يقاس من ترجمة النثر، وقراءة الشعر أصعب على النفس من قراءة النثر المتلألئ بدرر الحكمة العالية أو النقد اللاذع والنكتة البارعة

قال مريميه ما معناهُ: «أن لوبي هو المثل الاتمّ على روح عصرهِ تقاذفت نفسه ضروب من الشعور المتباين من الصوفية الى الفروسية، ومن الورع الى الغزل، ومن التهور الى الخفَّة. لقد احسَّ في قرارة نفسهِ، كلَّ ما احسّتهُ النفوس في عصرهِ، وعاش حياة متقلبة من الحرب الى البيت الى الكنيسة، لذلك استطاع ان يصور أتم تصوير مهزلة الحياة الانسانية المفجعة، ويفوق في تصويرها أيًّا آخر من الكتّاب»

مسرحياته وفنه

لم يبق من مآثر عبقريتهِ على مرّ الزمن غير ٤٧٠ مسرحية و٥٠ مقطعاً. فاذا حاول الباحث ان يصنفها عجز عن ذلك، لان تعريف المهازل والمآسي لا ينطبق عليها ولذلك يفضّل الاسبانيون ان يقسموها ثلاثة اقسام اولها قسم المسرحيات التي تعالج موضوعاً منتزعاً من الحياة اليومية واشخاصها من الناس الذين نراهم ونعاشرهم كلَّ يوم. وثانيها مسرحيات اشخاصها ملوك وامراء. وثالثها مسرحيات القديسين

ولكن هذا التقسيم لايشفي غليلاً، ولا هو يتناول اعمال ده فيجا من اساسها، ذلك ان الصفة الغالبة على مسرحياتهِ حوك الدسائس، ولا سيما ما كان منها خاصًّا بالحبّ. وفيها تبرز ملكاتهُ وبراعتهُ وخيالهُ لان هذا الصنف من مسرحياتهِ كان من بنات خيالهِ. وقد كان غرضهُ ان يبهج الناس ويحرّكهم لا ان يعلمهم ويعظهم. وقد بسط طريقتهُ في قصيدة نظمها سنة ١٦٠٩ عنوانها الفن الجديد لتأليف المهازل او الفن

المسرحي الجديد . ومما قالهُ فيها « تأمرني بان اضع قواعد الفن الدرامي . . . . . ولكنني لم أؤلف الاّ وانا منتهك قواعد هذا الفن . فعندما اريد ان أؤلف مهزلة (كوميديا) اضع جميع القواعد في خزانة واقفلها ثلاثاً واكتب وفقاً للقواعد التي اخترعها اولئك الذين يريدون ان يفوزوا بتصفيق الجماهير . ولما كان الجمهور هو الذي يدفع ثمن هذه السخافات فمن العدل ان نقدم لهُ ما يطلبهُ » . ولكنهُ مع ذلك ، اهتمَّ في فقرات تالية بعد اعرابهِ عن احترامهِ للقدماء واعتراضهِ على ذوق المحدثين (في عصرهِ) بوضع قواعد يراها اساسية في الفن المسرحي اهمها :

١ — مزج المضحك بالمحزن ٢ — وحدة العمل اي يجب ان يقلل المؤلف جهدهُ من الحوادث . ٣ — جعل الدرامة في اقصر وقت ممكن . ٤ — جعل الدرامة ثلاثة فصول على ان تكون حوادث كل فصل — اذا امكن — مما يقع في يوم اي جعل الوقت الذي تستغرقهُ حوادث الدرامة ثلاثة ايام . ٥ — ان لا تعرف نهاية الدرامة الاّ في المشهد الاخير. ومن اقوالهِ إخدع المشاهد بالاشارة الى نتائج محتملة هي غير النتيجة الحقيقية . ٦ — ليكن الاسلوب سهلاً على ان يرتفع عندما يتكلم البطل او من كان صاحب مقام في مواقف الارشاد او التحذير

ولو لم يكن لوبي مسرحيًّا مطبوعاً لما أجدتهُ جميع قواعد الدنيا . ففي مسرحيتهِ « الملك خير القضاة » يمزج بريشة ساحرة بين المضحك والمؤسي ، وفي مسرحيتهِ « المحبوب المجهول » يسير في تفصيل حبكة الرواية وكأنهُ من ابرع الكتاب المعاصرين في قصص الجرائم وكشفها . وفي مسرحيتهِ « اكتشاف العالم الجديد » يسيطر بفهمهِ وخيالهِ على موضوع متسع النواحي ، لا يمكن حصرهُ او حصر جزءٍ منهُ في حدود فصول ثلاثة

الملك خير القضاة

موضوع هذه الرواية منتزع من تاريخ اسبانيا . ولكنهُ حوّل القصة بسحر فنهِ من حكاية ريفية بسيطة يظهر فيها عدل الملوك ، الى مسرحية اخّاذة فيها حب وشهوة، وفيها توسلٌ وظلم ،ومجون وحكمة ، وفيها فوق كل هذا عدل الملك الفونسو السابع

كان سانشا فلاحاً ينتمي الى اسرة قديمة غنية . وكان يحبُّ الڤير ابنة سيدهِ

الفلاح نونو . فتبادله القير الحب وتسمح له ان يطلب يدها من ابيها . فيوافق هذا على الزواج ، لانه يحب الشاب ويعطف عليه ويرى فيه فضائل الاجتهاد وحب العمل. ولكنه يطلب اليه ان يذهب الى سيد المقاطعة دون تلو ده نيرا . وان يطلب اليه من باب الخضوع الاقطاعي ، ان يأذن له في زوج القير

فيذهب سانشا الى ده تلو على رغم منه . فاذا السيد شاب يقطن قصراً فخماً مع شقيقته فليسانا ولكنه غير محبوب ولا محترم من مزارعيه . فيوافق السيد على طلب الفلاح ويمنحه الاذن في الحال ، ويعده بانه يقدم اليه هدية زواج ، مؤلفة من عشرين بقرة ومائة رأس غنم . بل علاوة على ذلك تنازل ووعد بان يشرف حفلة الزواج في الليلة نفسها. وكان يصحبه في زيارته هذه رجل يدعى يلاج وهو ماجن ابدع المؤلف في تصويره اذ جعل حديثه خليطاً من الاقوال الحكيمة والمجون ، السخيف على نحو ما نجد في بعض مسرحيات شكسبير

تمت معدات الحفلة واقبل الدون تلو في عربته ولم يبق الا ان يصل القسيس لاتمام عقد الزواج . ولكن دون تلو يرى القير ، فتفتنه جمالها ، فيبتدع عذراً لتأجيل حفلة الزواج الى مساء الغد ، وبعد ما يأوي كلٌّ الى فراشه ، يختطف الفتاة القير بواسطة خدم منتمين له

فاذا كان الفصل الثاني، رأينا الدون تلو في قصره ، وشقيقته منهالة عليه باقذع النقد على ما فعل . ثم يقبل الفلاح نونو والفتى سانشا في طلب الفتاة ، فيتصنع دون تلو جهل مكانها . ولكن القير تظهر من وراء ستار، فيثور غضب السيد ، فيأمر خدمه بطرد الفلاحين ضرباً بالعصي . وعندئذ يعزم سانشا ، بعد اشارة حميه ، على ان يذهب الى الملك الفونسو السابع ، ويطلب منه ان يحميه من عسف دون تلو وتحكمه . فيذهب اليه يصحبه يلاج الماجن ، ويستأذن في الدخول عليه فيأذن ، فيعطيهما الملك كتاباً الى دون تلو فيه ما يلي :

عند ما تصل كتابي هذه اليك تعيد ، من دون مداورة ، الى هذا الفلاح المسكين المرأة التي سلبته إياها . واذكر ان الامراء الصالحين لا يعرفون الا وهم بعيدون عن عينيه ، وانه ليس ثمة أمير لا يناله عقاب الملك مهما يبعد عنه . أنا الملك

ولكن دون تلو ، ماكاد يرى هذا الكتاب ، حتى أرغى وأزبد ، ورفض

ان يطيع، فيعود سانشا الى الملك ويخبره بما كان فيعزم الملك ان يذهب بنفسه لتوقيع العقاب عليه بعد حمله على احترام أوامره

سانشا — انك يا سيدي تبالغ في اكرام حطتي . ارسل أحد قضاتك لكي يحكم بالعدل في رعاياك

الملك — ان الملك خير القضاة

ثمَّ الاتفاق على ان يمتنع سانشا وبيلاج عن الكشف عن شخصية هذا القاضي فيصل الملك الى مقاطعة دون تلّو متخفيًا . فيحط رحاله عند نونو والد الفيرا ، فيحسبهُ هذا قاضياً عاديًا . ويطالب الملك سرًّا الى احد ضباطهُ ان يحضر قسيساً وجلاداً . ثم يذهب بنفسه الى قصر دون تلّو ده نيرا فيقول لاحد خدمه

الملك المتكتم — اعلنوا دون تلّو بانني اريد ان اخاطبهُ

الخادم — واذا سألني عمن قال لي ذلك فماذا اجيب

الملك المتكتم — انا

الخادم — اليس لك اسم آخر

الملك المتكتم — كلا

فعند ما يرفض دون تلّو ان يستقبله يعلنهُ بانهُ احد قضاة القصر . فيستقبلهُ ويحدثهُ متشامخاً عليه ، محتقراً إياهُ

دون تلّو — يظهر انك لا تعرف من انا . ان احداً لا يجرؤ على القاء القبض عليَّ ، الاَّ اذا كان الملك نفسهُ

الملك المتكتم — اذن ايها البائس — انا الملك

فتصطك ركبتا دون تلّو ، ويتخاذل امام سيده ، ولكن الملك يريد العدل فيحتم على دون تلّو ان يمنح الفيرا لقب زوجته وان يترك لها نصف ماله ثم يأمر باعدامه

فيصيح بيلاج — هذا الملك

ويصيح سانشا — الملك خير القضاة



نضالٌ خفيٌ في اليابان

وتأثيره في توجيه سياستها

ان قوات الدفاع في اليابان اشبه ما يكون بدولة داخل دولة . لها اغراضها الخاصة في حلبة السياسة الداخلية والخارجية ، وليس في وسع اية وزارة ان تتجاهلها . ومما يعزّز هذا الموقف التقاليد التي جرى عليها اليابانيون ، والامتيازات الدستورية الممنوحة لقوات الدفاع ، وتوازن القوى السياسية في البلاد

فالضابط الياباني ، وريث الفارس الياباني في العصور الوسطى (الساموراي) محوطهُ احترام الجمهور وتقديرهُ . ولرؤساء اركان الحرب في الجيش والاسطول حق الاتصال اتصالاً مباشراً بالامبراطور ، وهذا في نظرهم اعتاقهم من الخضوع للسلطة البرلمانية . ثم إنَّ من القواعد المرعية الجانب عندهم أن وزير الحربية يجب أن يكون جنرالاً ووزير البحرية اميرالاً ، وهذا يقوي النفوذ العسكري في داخل الوزارة ، لانهُ من المتعذر اقناع ضابط كبير ، من ضباط الجيش أو الاسطول ، بالانتظام وزيراً في وزارة ما ، اذا كان يشم من طريقة تأليفها رائحة المعارضة ولو معارضة يسيرة لاغراض الجيش والاسطول . وقد تعزّز هذا الاتجاه منذ احتلت اليابان منشوريا سنة ١٩٣١ ومنذ حدثت حوادث الاغتيال في فبراير الماضي التي ذهب ضحيتها فريق من الوزراء هذه الحوادث كانت مظهراً بارزاً للنضال الدائم بين المتطرفين والمعتدلين في اليابان

بين المتطرفين والمعتدلين

في الناحية الواحدة نجد قوات الدفاع . فالجيش ولاسيما صفوفه المتوسطة وصغار ضباطه ، متأثر تأثراً غامضاً بشعور مناقض للرأسمالية ومشبع بروح التطرف الاجتماعي . اما الاسطول فأقل عناية بالمشكلات الاجتماعية ، ولكنهُ متفق مع الجيش على تأليف جبهة واحدة في ما يتعلق بالمناهج الصناعية ولا سيما ما كان منها متصلاً بالخطط العسكرية ، راغباً في تأكيد انفلاته من قيود السيطرة المدنية ، مشدّداً في وجوب زيادة الاموال التي تنفق عليه من الميزانية العامة . ويؤيد الاسطول والجيش طائفة من الجمعيات المطبوعة بطابع القومية المتطرفة

اما فريق المعتدلين فيشمل كبار ساسة اليابان ، من امثال البرنس سايونجي والكونت ماكينو . والغريب ان شيوخ ساسة اليابان أقرب الى التساهل والحرية والاعتدال من الكهول . والغالب ان الباعث على ذلك ان معظمهم قضى جانباً من حياته في اوربا واميركا ، اذ كانت اليابان دولة ناشئة واذ كانت فلسفة الاحرار غالبة في تلك البلدان سواء في السياسة او في الاقتصاد . ويمكن ان

يضاف الى هؤلاء معظم رجال المال والاعمال وشيوخ السياسة في البرلمان فهؤلاء جميعاً اميل الى الاعتدال في السياسة الخارجية ، والى الاحتفاظ بالحالة الراهنة في الشؤون الاقتصادية

في هذين الفريقين، نجد ممثلي الجيش والاسطول وممثلي فريق رجال المال والاعمال ، أعلاهم صوتاً واقواهم حجّة . في اليابان احرار ولكن ليس فيها حزب احرار . وهناك حزب اشتراكي معتدل ، وهو الحزب الذي زاد عدد مقاعده في الانتخابات التي سبقت حوادث الاغتيال في ٢٦ فبراير ، ويقال ان هذا الفوز كان احد البواعث عليها . ولكن نفوذه السياسي محدود . وليس هناك ما يدل على ان الشيوعية قوة يعتدّ بها في اليابان بل ان بعض متطرفي الشيوعية قد انقلبوا وطنيين متطرفين في العهد الاخير

مشكلة البترول

بين الجيش والاسطول من ناحية ، وفريق رجال المال والاعمال من جهة اخرى ، مواطن اختلاف . وفي مقدمتها مبلغ ما تستطيع اليابان ان تنفقهُ على تسلُّحها . فالمال الذي يخصص لقوى الدفاع اكثر مما يجب في رأي الماليين . ثم ان زعماء الجيش والاسطول ، يبغون تطبيق خطط صناعية معيَّنة ، مسوّغها في نظرهم عسكري لا اقتصادي . خذ مثلاً رغبة الاسطول في الحصول على مصادر ثابتة للبترول . فاستعمال البترول ومشتقاته في اليابان زاد بين ١٩٢٣ و ١٩٣٤ زيادة كبيرة حالة ان ما يستخرج من البترول في اليابان وممتلكاتها ظلَّ على ما كان . كانت نسبة المستخرج في اليابان الى المستهلك فيها سنة ١٩٢٣ اكثر من ٣٤ في المائة قليلاً ولكنهُ نقص في سنة ١٩٣٤ الى ٨٫٤ في المائة . فاذا نشبت حرب ، اضطرَّت اليابان الى استعمال البترول الخارج من ينابيعهِ في شمال سخالين التابعة لروسيا ، وهذا يقتضي اتفاقاً مع روسيا او اعتداء على تلك المنطقة . ومع ذلك تبقى اليابان في حاجة الى ٨٠ في المائة مما تستهلكهُ من البترول عادةً ، دع عنك زيادة ما يستهلك منهُ في الحرب

وقد عمدت الحكومة الى مشروعات مختلفة لتلافي هذا النقص . فحتمت اولاً على شركات البترول ان تحفظ في مستودعاتها مقداراً من البترول يعدل ما تبيعهُ في خلال ستة اشهر . وجربت تجارب في خلط البترول بالكحول المستخرج من الخشب ، والبحث عن كل بقعة ارض في الامبراطورية اليابانية يحتمل العثور على بترول فيها ، وتشييد مصانع لاستخراج البترول من الفحم على الطريقة الالمانية او الانكليزية او طريقة تشبهما

فمشكلة البترول هذه قد حملت اقطاب الاسطول على توجيه عنايتهم الى اتجاه اليابان جنوباً . ففي جزائر الهند الشرقية الهولندية اغنى منابع البترول في شرق آسيا ، وهي تابعة لمملكة صغيرة بعيدة ، فاذا امتدَّ سلطان اليابان الى جنوب المحيط الهادىء ، فمن المحتمل ان تتمكن اليابان من هذه المنابع اذا نشبت حربٌ

اصلاح حالة الفلاح

وهناك عامل آخر . فثمة طائفة غير يسيرة من ضباط الجيش والاسطول ، ولاسيما الشبان منهم تحسب نفسها سند الفلاح الفقير المرهق بالديون المستغَل من ارباب الصناعة والمال . والغالب ان الباعث على اهتمامهم هذا به ، انهُ يرونهُ صالحاً للجندية من ناحية ، ويجمع في شخصه من ناحية الفضائل المأثورة ، التي لم تفسدها مظاهر الحياة المدنية . ولذلك نجد في دوائر الجيش والاسطول، اتجاهاً خاصاً الى اصلاح حالة الفلاح بمال يؤخذ ضرائب من ساكن المدينة وصاحب المصنع .

اما فريق رجال المال والاعمال والاحرار من رجال السياسة ، فلا يعارضون في برنامج تعزيز قوى الدفاع واصلاح حال الفلاح ، ولكنهم يشيرون ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً من الصراحة، الى العقبات المالية الكبيرة التي تحول دون تحقيق هذه الاغراض

فالنضال بين المتطرفين والمعتدلين ، هو المحور الرئيسي الذي تدور من حوله حياة اليابان السياسية . يدور هذا النضال احياناً في الخفاء ومن وراء ستار ، ولكنهُ يعنف احياناً ويشتدُّ فيظهر في وضح النهار ، على نحو ما حدث من حوادث الارهاب في ١٥ مايو سنة ١٩٣٢ وفتنة فبراير سنة ١٩٣٦ اذ اغتيل نفر من اكبر رجالات اليابان . ولكن حسم النضال بينهما غير مستطاع ، اذ لا غنى لاحدٍ من الفريقين عن الآخر على الرغم مما بينهما من اختلاف في الرأي . فاذا وقعت ازمة في اليابان تراءى لمن لايعرف حقيقة احوالها انها مفضية ، ولا ريب الى انتصار حاسم لاحد الفريقين على الآخر ، ولكنها تفضي دائماً الى توازن جديد بينهما

المشكلة المالية

ذلك ان القوى المتناضلة في اليابان تستند بعضها الى بعض ، على الرغم من اختلافها . فبعض الصناعات ولا سيما صناعة الذخيرة والاسلحة وبناء السفن تجني ارباحاً طائلة في اعداد المعدّات التي يحتاج اليها الجيش والاسطول . ثم ان بعض البيوتات المالية الكبيرة في اليابان تصيب فائدة كبيرة من استغلال منشوكو . وعلاوة على هذا وذاك ان رجال المال والاعمال في اليابان يدركون قيمة الجيش والاسطول في حماية تجارتهم وتوسيع نطاقها ، على الرغم من تبرّمهم بنفقاتهما الفاحشة . يقابل هذا ان معظم ضباط الجيش والاسطول يسلمون بأن الرأسماليين ضرورة لاغنى عنها الآن وان اي اضطراب يصيب النظام الياباني الاقتصادي يضعف من مكانة البلاد الحربية

لذلك اتفق الفريقان، بعد فتنة فبراير سنة ١٩٣٦ على ان يسعى قوّاد الجيش والاسطول الى الحد من تطرف صغار الضباط بتطبيق النظام العسكري الدقيق عليهم ، حالة ان اقطاب السلطات

المدنية وممثلي رجال المال والاعمال تعهدوا بان يقيموا لاغراض الجيش والاسطول اكبر وزن في تعيين خططهم السياسية

وليس بالامر الجديد في اليابان ان يتدخَّل اقطاب الدفاع الوطني في تحديد النهج السياسي. لذلك اعترضوا على بعض الذين اختارهم رئيس الوزراء الجديد ، كوكي هيروتا ، ليكونوا وزراء في وزارته ، فتخلى عنهم مسلماً للجيش والاسطول بمطالبهما وفي رأس هذه المطالب تعزيز قوى الدفاع الوطني وتوجيه السياسة الخارجية توجيهاً فعَّالاً مستقلاً

اما تعزيز الدفاع الوطني ، فيعني زيادة ما يخصص لقوى الدفاع في ميزانية الدولة . بلغ ذلك في سنة ١٩٣٢ نحو ٢٢٨ مليون ين للجيش و٢٢٧ مليون ين للاسطول ، وقد اطردت الزيادة في مخصصاتهما حتى بلغت ٥٠٨ ملايين ين للجيش و ٥٥١ مليون ين للاسطول وهذا المبلغ اقل قليلاً من ٤٧ في المائة من دخل الحكومة

ومع ذلك نرى الجيش والاسطول يطلبان المزيد . وقد دفع وزير المالية السابق تاكاهشي ، بحياته ثمناً لمعارضته في هذه الزيادة (كان الوزير تاكاهشي احد الذين اغتيلوا في فتنة فبراير ١٩٣٦) . وقد اقترحت مقترحات متعددة للفوز بهذا المال . منها تحويل بعض القروض الداخلية على نحو ما فعلت انكلترا وفرنسا واميركا فيوفر الفرق بين الفائدة التي تدفع الآن والفائدة المخفضة في القروض المحوَّلة . ولكن ذلك لايكفي . ويرجّح الكتاب الماليون ، ان الدكتور ايشي بابا وزير المالية الحالي ، مضطرٌ الى فرض ضرائب جديدة من ناحية او عقد قروض لتغطية العجز في الميزانية . وكلاهما محفوف بالخطر. فالضرائب قد تفضي في الغالب الى رفع زيادة نفقات المعيشة فالى المطالبة بزيادة الاجور فالى زيادة نفقات الانتاج ، وهذا يسلب اليابان معظم ما كانت تمتاز به في تجارتها الخارجية ومنافسة الدول الأُخرى . اما اصدار قروض لتغطية عجز الميزانية فالمجمع عليه ان الوزير تاكاهاشي ذهب فيه الى ابعد حدٍ معقول

ولكن قوى الدفاع لا تني عن المطالبة بهذه الزيادة ولا بدَّ من ارضاء اقطابها بأية طريقة من الطرق . وهي تبغي خاصة تعزيز سلاح الطيران والقوى الميكانيكية في الجيش . وتستند في مطالبها هذه الى حشد السوفيت قوة كبيرة حديثة المعدات في الشرق الاقصى . اما الاسطول فيستند الى انتهاء المعاهدات البحرية في المحيط الهادىء وعدم التقيد بقيود بحرية جديدة في تأييد ما يطلبهُ من تعزيز الاسطول

اتجاه الجيش والاسطول

الجيش والاسطول متفقان على هذا . ولكنهما يختلفان من حيث الغرض المباشر الذي يجب أن تتجه اليه سياسة اليابان الآن . فالجيش يريد ان توجَّه عناية خاصة الى شرق اسيا على

محاذاة اليابان اي الى شمال الصين . واما الاسطول وزعماؤه فيؤثرون ان تلتفت اليابان الى الجنوب . فهم يوجهون انظار الماليين من اليابانيين الى ان المناطق الاستوائية غنية بمواد الغذاء ، وبالخامات اللازمة للصناعة ، كالبترول والقطن والحديد والقصدير والقنّب وغيرها . وقد صرّح قائد الاسطول الياباني الاميرال سانكيتي تاكاهاشي امام جماعة من ارباب الصناعات في اوساكا بان « تقدم اليابان الاقتصادي يجب ان يتجه الى الجنوب على ان تكون قاعدة هذا التقدم اما جزيرة فورموسا واما الجزائر المشمولة بالانتداب الياباني. فعند ذلك تصبح جزائر غينيا الجديدة وبورنيو وارخبيل سليب في دائرة الاسطول الياباني »

ولاريب في ان البواعث الاقتصادية على التوسع الياباني في الجنوب اقوى منها على التوسع الياباني في شرق اسيا الشمالي . فنصيب اليابان من تجارة الهند البريطانية وجزائر الهند الشرقية الهولندية واستراليا وزيلندا والفيلبين وملايا وسيام قد زاد من ١٨٫٧ في المائة سنة ١٩٢٩ الى ٢٨٫٤ في المائة سنة ١٩٣٤ وذلك لان سكان معظم هذه البلدان فقراء في الغالب ويفضلون بضائع اليابان الرخيصة على غيرها . ثم ان المهاجرين اليابانيين يفضلون الاقاليم الدافئة على الاقاليم الباردة تشهد بذلك احصاءات المهاجرين الى شمال منشوكو والمهاجرين الى الجزائر الاستوائية المشمولة بالانتداب الياباني

ولكن التوسع على برّ اسيا اقل خطراً من التوسع في الجنوب ، من الناحية السياسية. فمنشوكو حقيقة دولية ولو لم تعترف بها معظم الدول حتى الآن . وليس ثمة اي دليل ، على ان توسع اليابان في منغوليا ، يلقى مقاومة كبيرة ، ما زال هذا التوسع الى الشمال من نهر الاصفر. اما في الجانب الجنوبي من المحيط الهادىء ، فأي عمل يفضي الى الاعتداء العسكري يقابل ولا ريب بمقاومة عسكرية كبيرة من جانب الدول التي لها مصالح تجارية وسياسية هناك . نعم ان جزائر الهند الشرقية الهولندية لا تقوى على مقاومة اعتداء اليابان ، ولكن المجمع عليه بين الكتّاب السياسيين ، ان اعتداء اليابان على جاوى او بورنيو بمثابة اعتداء على الامبراطورية البريطانية

ولو أن اليابان عقدت ميثاق عدم اعتداء مع روسيا ، لاطلقت يداها في الجنوب . يقابل ذلك انها لو انها وقفت موقفاً مسالماً من انكلترا والولايات المتحدة الاميركية لاطلقت يداها في شرق اسيا الشمالي . ولكنها لم تفعل هذا ولا ذاك . والغالب ان الباعث الاكبر على اخفاق السياسة اليابانية في ذلك ، ان اختيار احد السبيلين يعني تفوق الجيش على الاسطول او الاسطول على الجيش ، وتغلب نفوذه على سياسة البلاد . ومع ان الجيش والاسطول في اليابان متفقان على مطالب معيّنة تهمهما جميعاً الا انهُ لا يسهل على زعماء احدهما على ان يسلّم لزعماء الآخر بالانفراد بالسيطرة على مقدّرات البلاد

الزواج المورغاني

أو غير المتكافىء

لامين الغريب

نحت الافرنج كلمة مخصوصة للزواج الذي يعقد بين شخصين غير متكافئين . كأن يكون الرجل نبيلاً عالي الاصل والمرأة حقيرة . فدعوه الزواج المورغاني . نسبةً الى مورغانا الحورية التي نزلت في عهد الخرافة الوثنية الى الاقتران بواحد من بني البشر . وقد عرفنا لهذه الكلمة مرادفاً مشتقاً عند الاتراك في لقب « داماد » . فقد اعطوه لكل رجل عادي غير « ازرق الدم » يتيسر له أن يصاهر الاسرة السلطانية . اما العرب فلم نجد بعد في كتبهم كلمة تدل على هذا النوع من الزواج . ولا ندري أكان سبب هذا الاهمال عندهم ان ملوكهم لم يزوجوا بناتهم لمن كان دونهم . ام بلغت المساواة عند العرب حداً لم يدع فرقاً بين الاسر . وعلى كل حال احتقر الافرنج هذا الزواج المورغاني أو الدامادي حتى وصفوه بالزواج الاعسر. ودعوه « شبه زواج » او زواجاً « تحت الورد » وأبى جمهور الشعب احترامهُ حتى عومل في الامور العامة غالباً معاملة زواج غير شرعي

مع ان الكنيسة المسيحية تباركهُ لانها وهي دولة روحية ، لا تفرق بين النفوس . ولا ترى للملك امامها اقل ميزة على الرعايا . فهي تعد الاولاد شرعيين لكل زواج تعقده . اما الاشراف انفسهم من الافرنج فلا يسمحون لهؤلاء الاولاد بان يحملوا اسم والدهم العائلي والقابهُ، او يرثوا عرشهُ وثروتهُ واملاكهُ، اللهم الا ما تم اتفاق خطي عليه بين الاب والام عند عقد الزواج

ومعلوم ان نطاق الزواج بين الاشراف والنبلاء يضيق احياناً حتى يضطر بعضهم الى الاقتران بأقرب الانسباء . والدم المتغذي من نفسه لا يلبث أن يضعف ويضنى ويفقد خواصهُ الحيوية . فلم يجدوا بداً من التساهل في امر هذه الزيجات . وعند وقوعها غضوا الطرف عنها تسامحاً مع الطباع البشرية . لكنهم حرموها كل اعتراف رسمي . وجعلوا من يلجأ من الاشراف اليها يخسر في الحال حقوقهُ الشرعية في العرش أو ما يماثلهُ من الميراث . ومنعوا الاولاد الناتجين منها من أن يُزَجّوا بينهم ويعدوا منهم او مثلهم . وكل ذلك لاجل حفظ الدم — في رأيهم — نقياً طاهراً في الاسر النبيلة غير مختلط بقطرة واحدة مريبة

مثال ذلك ان النبيل الصحيح في نظر ابناء بوربون وهبسبرج كان من يستطيع ان يعد ستة عشر جداً من جدوده على الوجهين ، كلهم من ذوي الشرف الصميم . ولما سلم النمسويون بزف الارشيدوقة

ماري لويز الى نبوليون الاول كان ذلك منهم تنزلاً وتضحيةً بتلك الفتاة على هيكل المصلحة السياسية

في عام ١٩١٤ اطلق بر نكيب الصربي في سراجيفو الرصاص على الارشيدوق فرنز فرديناند ولي عهد النمسا وزوجته . فقتلها واشعل الحرب العالمية التي التهمت في الدنيا كلها الاخضر واليابس ومع ان هذه الميتة المروعة ألبست جميع البشر ثوب الحداد في ما بعد ، لم يسمح النمسويون بدفن الارشيدوق القتيل بالحفاوة المعتادة لمثله ، لمحض ان زوجتهُ صوفيا المقتولة معهُ كانت شريكتهُ في الدفن . وهي لا تستحق في نظرهم المظاهر التكريمية التي خصها القوانين والتقاليد بمن هم في مكانته . فضنوا بذلك عليهِ كيلا تنال امرأته عن طريقهِ شيئاً لا تستحقهُ

ولم تكن زوجة الارشيدوق حقيرة بحد ذاتها . لكنها لم تكن من مرتبة سموهِ الامبراطوري . وقد توصلت بذكائها وحكمتها الى رفع مكانتها في اعين النبلاء النمسويين حتى رقاها صاحب العرش فرنسيس يوسف من رتبة كونتة الى دوقة . وسمح لها بحضور حفلات البلاط الرسمية على ان تتخذ لها مقاماً في صف التشريفات ، بعد كل سيدات الاسرة الهبسبرجية . مع ان مقام زوجها ولي العهد ، لو هي كانت من ذوات الدم المتناهي في الزرقة لخوّلها ، بسبب موت الامبراطورة ، مركز ربة القصر بلا منازع . وكان زوجها عند اقترانهِ بها قد تخلى عن حقوقه في وراثة العرش . لكن لطافتها وحسن سلوكها ما لبثا ان أعادا اليه ذلك الحق ، على ان يُحرمهُ اولادها في ما بعد

كانت صوفيا هذه كونتة بوهيمية فقيرة من اسرة شوتك ، ولكن متعلمة اديبة تعمل مربية لثمانية اولاد في قصر الارشيدوق فريدريك . فأحبها فرنز فرديناند الذي جعلهُ مصرع ابن عمهِ رودلف في مايرلنج وارثاً للعرش . وكان قبل رؤيتها يكره الزواج ويرفض الدعوات المتوالية عليهِ من قصور الملوك لهذا الغرض . واقترن بها متنزلاً بمحض ارادتهِ عن كل حق لهُ في العرش لكنها اجتهدت كثيراً في مراعاة الاصول المرتبة وانتهاز الفرص السانحة دون استعجال الحوادث ولا استبطاء الامور المرهونة باوقاتها . ولما استقبلها اخيراً الامبراطور غليوم الثاني الالماني زوجةً لولي عهد النمسا وصرف النظر عن كل الملحوظات المختصة بها ادرك الناس ان لها في الدوائر العليا معاونين كباراً يشدون ازرها . ويكفي ان بوهيميا باسرها وجدت بمحض الامل في ان تجلس فتاتها يوماً على العرش الامبراطوري عاملاً يستزيدها اخلاصاً لهذا العرش وتعلقاً بهِ

ومن المعلوم ان الامبراطور فرنسيس يوسف لم يسترح طول عمره من تأثير الصدمة الهائلة التي اصابتهُ : مصرع ابنه رودلف الذي كان انسان عينهِ . فلم يجسر احدٌ على مقاربتهِ في موضوع الخلافة بعد تصريحهِ مرةً بأن «موضوع الخلافة لا يُطرح للبحث الاَّ بعد موتي . ومن عادة الذين لا يجدون مطمعاً في العيش ان يعيشوا طويلاً » . وقد صدق في حدسهِ فعاش طويلاً

جداً . ولعله كان في قلبه يلوم نفسهُ على معارضته لرودلف في هواه ويتمنى لو عاش هذا الولد كما يشاء مقترناً بمحبوبته الوضيعة على ان يلقى هذه النهاية الرائعة ويضيف الى سلسلة بلايا الهبسبرجيين حلقة جديدة

كان رودلف قد اقترن دون محبة بالاميرة ستيفاني ابنة ليوبولد الثاني ملك بلجكا . ولم تستمل هذه العروس بمسلكها عواطف احد من سلالة هبسبرج . ولاسيما زوجها . فقد ضايقته بغيرتها (الصحيحة الاساس) وزادته نفوراً منها ، وابتعاداً عنها ، حتى تحول ميله عنها أخيراً الى بغض شديد لها . وصار يأنف محض رؤيتها ويشمئز من سماع صوتها . فلما رأى الكونتة فتسيرا ابنة احدى الاسر المقبولة في البلاط النمسوي طار لبهُ وعميت عيناه الا عنها ، وغرق في بحر حبها الى قمة رأسه . وفكر طويلاً في التخلص من امرأته والاقتران بها . وفاوض أباه الشيخ في التخلي عن حقوقه في العرش . وطلب من قداسة البابا اذناً خاصاً بالطلاق من ستيفاني فأبى عليه الحبر الاعظم ذلك طبعاً . كما وبخهُ أبوهُ على هذه الفكرة السقيمة توبيخاً صارماً . وبعد ذلك ذهبت الكونتة فتسيرا لزيارته في مقر الصيد والقنص في مايرلنج .فلم يخرج احدٌ منهما حيًّا

ومع ان الامبراطور عرف حالاً وقائع الفاجعة التي ظلت طول عهده مكتومة عن العالم لم يتخذ قراراً بحق احد ،مكتفياً بابعاد الاشخاص المطلعين على تفاصيلها الى اماكن نائية حيث ضمن العرش لهم معاشاً جيداً لقاء الصمت الابدي التام . فلعلّ الامبراطور المفجوع بابنه أراد معاونة ولي العهد الجديد في أسر أباه على وحيده وثكيلهُ بسببه . وكان بالطبع يستغرب يد القضاء والقدر التي جعلت بعد هذه الفاجعة الوارث الجديد لعرش النمسا من الصنف الذي فقد نجله الوحيد بسببه

وبالطبع لم يَبُح فرنسيس يوسف لاحد بتحوّل رأيه . لكنهُ على كل حالٍ لان بعد الفاجعة . واذا ذكرنا انهُ كان على صوفيا شوتك ان تتغلب على مطامح ستين ارشيدوقاً وارشيدوقة يتقدمونها مقاماً ، وعلى اصول تقتضي ارجاع ثلثمئة سنة من الجدود الى الوراء ، وعلى التنزل الرسمي العلني من زوجها عن كل حقوقه ، عرفنا اهمية المعمعة التي كان على هذه المرأة ان تخوضها . لكن برنكيب السربي وضع لكل هذه الامور حداً في صيف ١٩١٤

***

وفي عام ١٩٠٩ مات ليوبولد الثاني ملك بلجيكا جدّ الملك ليوبولد الثالث الحالي . فانكشف عند موته سر زيجته المورغانية بالبارونة دي فوغان . هذه المرأة المتناهية في الذكاء كانت حقيرة الاصل ابنة بواب فقير . اقترنت اولاً بضابط صغير فلم تسعد بزواجها . وعاشت مدة طويلة عيشة غير مرتبة . ومع ذلك تمكنت بدهائها وسحر عينيها من التسلط اخيراً على قلب ليوبولد بعد ما اخشوشن وتصلب .وكان من ادهى رجال عصره في الادارة والسياسة والتجارة .

ولم تقف معهُ عند حد الحب والغرام . بل اجبرتهُ على الاقتران بها بحسب نواميس الكنيسة . فصار اولادها منهُ شرعيين . واستولت بالتالي على جانب كبير من ثروته الواسعة ، مع ان ليوبولد الثاني كان من اشهر المتلاعبين بقلوب النساء في عصره ، وقد انشأ بعض من اجمل النساء واذكاهن علاقات سرية بهِ . وبالطبع طمحت كثيرات منهن الى المقام الذي تفردت البارونة دي فوغان بالاستيلاء عليهِ

والزواج المورغاني يحفظه النبلاء غالباً سريًّا ، تفادياً من الاقاويل الملازمة لهُ والصعوبات الممكن تكديسها في سبيلهِ . على ان هذا التكتم يثير دائماً في اذهان العامة ريباً واشتباهاً بما يخالف القوانين . مع انهُ في واقع الحال ليس خالياً من القداسة الكنسية كما رأيت . لكن الشعب لا يكتفي بذلك بل يتمشى في احترامهِ على التقاليد والعادات . ودونك دليلاً على ذلك:

عندما اقترن الغرندوق بولس الروسي بالسيدة بستلكور اسرع القيصر نقولا الثاني الى طرده من روسيا . فعاش مدة طويلة في باريس منفيًّا من بلاده . مع ان نافيهُ المبجَّل نفسهُ كاد في صباه يعقد لنفسهِ مثل هذا الزواج . فقد ولع جلالتهُ قبل ان صار ذا جلالة براقصة بولندية واستولدها صبيين تعلما على نفقتهِ في مدارس باريس ولم يسمح لهما بدخول روسيا . بينما والدتهما كانت حرة في الدخول والخروج . واخيراً شاد لها قصراً في بطرسبرج سنة ١٩٠٦ اما الكنيسة الارثوذكسية فلم تعترف بتاتاً بذينك الولدين . حال كونها اعترفت بزيجة الغرندوق بولس وعلى الرغم من ذلك ظل الغرندوق بولس مع زواجهِ المقدس مطروداً من الهيئة الاجتماعية بينما القيصر نقولا مع زواجهِ غير الشرعي بالراقصة البولندية ظل مبجلاً مطاعاً

ولا بدَّ ان القيصرة اليكس التي ولدت لنقولا الثاني اربع بنات قبلما اتحفتهُ بولد قضت اعواماً طوالاً تتحسر على كون زوجها قد ولد صبيين من سواها وهي لا تلد غير البنات

وقد انتبه القارىء طبعاً الى أن ما حدانا الى طرق موضوع الزواج المورغاني هو طلب ادوارد الثامن ملك انكلترا أن يعقد لهُ زواج كهذا على السيدة واليس ورفيلد مطلقة ارنست سمبسون وزوج آخر قبلهُ . وأن المستر بلدوين رئيس الوزارة قال في مجلس الامة لمؤيدي رأي الملك ان مثل هذا الزواج غير ميسور في القانون البريطاني

وهو ادرى طبعاً بما يوجد ولا يوجد في دائرة القانون . اما نحن فنعلم ان الملك جورج الرابع ، عم الملكة فكتوريا الشهيرة ، وكان يدعى « اول سيد في اوربا The First Gentleman in Europe » اقترن بالسيدة فتز هربرت ، وطلقها واقترن قبل ارتقائهِ الى العرش بالاميرة كارولين اوف برنسويك . ويؤثر عنها أنها هي ايضاً لم تطق معاشرتهُ فعادت الى منزلها في فرنسا ولم تعد الاَّ عند ما لاح لها بارق امل بان تصير ملكة . لكن زوجها كان يمقتها . وقد

حاول تطليقها عبثاً . ولما اقبلت يوم حفلة التتويج الى وستمنستر لتشترك واياه في الجلوس على العرش أُقفل الباب في وجهها ولم يسمح لها بالدخول. والملك جورج الاول اقترن بالدوقة اوف كندل وهي ذات دم غير ملكي . والملك وليم الثالث اقترن بالكونتة اوغسطا فون هوروك الالمانية

ثم ان جد الملكة ماري الوالدة الحالية البرنس تك ابن ملك ڤرتمبرج اقترن بكونتة هنغارية قراناً ظل عدة اعوام غير معترف بهِ . ثم قبلت بعد ذلك وجعلت دوقة تك وصار ابنها دوقاً واقترن بالاميرة ماري ادلائيد وابنتهما الاميرة ماري هي الملكة الوالدة في انكلترا اليوم

ومما يستحق الذكر في هذا المجال ان الاميرة فكتوريا ابنة شقيق الملك ادوارد السابع احبت السير الكسندر رمزي شقيق ارل دلهوزي الحالي . ولم يكن على الاطلاق كفأً لها . فتخلت عن ألقابها ومقامها واقترنت بهِ ، رافضة يد الفونسو الثالث عشر ملك اسبانيا الذي عاد فاقترن بابنة عمها الاميرة فكتوريا اينا

ثم ان جورج الخامس ملك انكلترا والد الملك الحالي كاد يقع لهُ في اوائل صباه حادث يقرب من الزيجات المورغانية . والمصدر الذي نستقي معلوماتنا منهُ لا يفصلها بصراحة بل يكتفي بالاشارة الى ان جدتهُ الملكة فكتوريا كانت وقتئذٍ في قيد الحياة . وللقلوب المتحدرة منها وثاق كان شديداً جدًّا في عهدها . فاستدعتهُ ولم تشدّد عليهِ النكير كما فعل فرنسيس يوسف النمسوي بوحيده . بل ذكرتهُ بلهجة حازمة بسمو مقامه والواجبات التي عليهِ لشخصيتهِ المحترمة اولاً في عيون الناس . ولاولئك الناس ثانياً . ولاجداده العظام وللتاريخ الانكليزي ثالثاً . وارتهُ السهولة في ان يختار لنفسهِ رفيقة حرية بان تجلس يوماً على عرش بريطانيا العظمى . وهكذا ثاب الى الفتى اليافع رشاده ، وسدَّ المنفذ المفتوح في قلبهِ للهيب الباكر المتقد حوله

وكان ايتل فريدريك ثاني ابناء الامبراطور الالماني غليوم الثاني ناوياً ان يقترن باحدى راقصات برلين لولم يتدارك الامر والده ويرسلهُ الى فرقة عسكرية مخيمة في زوبوت على شاطىء البلطيك . فمكث هناك ستة اشهر . ثم ابرق الى والده قائلاً انهُ يتوب عن حب الراقصات جميعاً. ويقترن باية اميرة يختارها جلالتهُ لهُ. وبعد اربعة اسابيع احتفل باكليلهِ سنة ١٩٠٦ على صوفيا شرلوت غرندوقة اولدنبرج . لكنهُ لم يكد يكمل شهر العسل حتى هبت في قرارة قلبهِ عادته الكامنة في البدن ، واحيا ليلة ساهرة لبعض الراقصات لم تحضرها الغرندوقة طبعاً لانها كانت في الطريق عائدة الى بيت ابيها

فاستدعاه غليوم اليهِ سرًّا ، ويقال انهُ ضربهُ ضرباً مبرحاً جعلهُ يهرب من امام ابيه احمر الوجه متهيجاً . وعلى كل اصلح الامبراطور بين الزوجين فتصالحا وعاشا كما يمكن الى ان نشبت الحرب العالمية فانتظم الامير مع اخوتهِ في صفوف الجيش وعملت صوفيا في الصليب الاحمر .

وبعد الحرب تغيرت الاحوال والمراكز فلم يكترث احدهما للآخر وتبادلا تهمة الخيانة الزوجية وانتهى بهما الامر الى الطلاق في ديسمبر ١٩٢٦ وكانت صوفيا هذه اشد الناس ابتهاجاً بسقوط حكم هوهنزولرن لانهُ جعل طلاقها ممكناً من دون اذن الامبراطور . لان غليوم الثاني كان صارماً جدًا في هذه الامور ، صرامةً لان فيهِ بعد سقوطه عن العرش الى حد انهُ أجاز لنفسهِ الزواج بعد قليل من وفاة الامبراطورة التي كان يحبها حبًا جمًا

ومن حوادث هذا النوع في المانيا ان الأمير يواكيم البرت البروسي ابن حاكم برنسويك أحبَّ الممثلة صلزر . فدرى أبوهُ بعزمهِ على الاقتران بها . فسجل في وصيتهِ الاخيرة مادة تشرط عليهِ في حالة زواجه بفتاة غير نبيلة ان يتخلى عن قسطهِ من ميراثهِ الكبير . فلكي يبطل الامير يواكيم فعل هذه الوصية أخذ الفتاة الى لندن حيث استأجر نبيلاً نمسويًا فقيراً يدعى البارون فكتور فون لينبرج فعقد لهُ عليها لقاء مبلغ معين من المال . وبعد الاكليل على الاثر افترق العروسان كلٌّ في سبيلهِ فعادت الصبية الى المانيا تطلب من محاكمها الطلاق من زوجها الشرعي النبيل النمسوي بحجة هجره اياها واهماله أمرها . لكن الامبراطور غليوم الثاني درى بالأمر . وكان رضاه بمقتضى قانون أسرة هوهنزولرن الخاص ضروريًا لجعل الزواج بين أفرادها شرعيًا — حتى ان كان الاكليل كنسيًا فرفضُ ذي الجلالة يجرحه ويلغيهِ — فأصدر الامبراطور أمرهُ قبل اصدار المحكمة حكمها بالطلاق ، بنفي البارونة النمسوية فون لينبرج من المانيا بحجة انها أجنبية غير مرغوب فيها. وأرسل في الوقت عينه الامير يواكيم الى احدى المستعمرات الالمانية القصية في افريقيا في مهمة عسكرية

فمضى الامير مكرهاً لكنهُ بعد اثني عشر شهراً من مكاتبات سرية بينهُ وبين حبيبتهِ التي يسمو رضاها في عينهِ على رضى كل الاباطرة ومن جرى مجراهم ، فرَّ من مقرّهِ من دون إذن ولحق بها في أوربا . فلم يسع الامبراطور عند ذلك الا طرده من الجيش الالماني ومن المانيا جملة مشيراً الى سفرائهِ بالايعاز الى الحكومات الأجنبية كي تمنع منهُ التكريم المعتاد للذين في منزلتهِ

ولم يكن هذا الأمر مهمًا لديهِ ، فقد تخلص من حرمان أبيهِ من الميراث العظيم . ونال قسطهُ الوافر من المال المتروك . وعاش مع زوجتهِ المحبوبة خارج المانيا بترف وسعادة ، الى ان خلع الشعب عن العرش الالماني ذلك الامبراطور المتحكم في حظهِ . فصار حرًّا مع زوجتهِ التي لا تحمل لقب اميرة بحسب اصول النبلاء المشروعة والمسجلة في تقويم غوتا

ولا شك ان الناس قد رحبت صدورهم اليوم عن ذي قبل واصبحوا لا يشاركون الاسر النبيلة في كل آرائها في الزيجات المورغانية ، وادركوا مع الشاعر العربي

ان الفتى من يقول ها انذا ليس الفتى من يقول كان ابي

قوى الدفاع الاوربية

أقسامها وقواتها وطرق تنظيمها

— ٢ —

فرنسا

يحق لفرنسا ان تفخر بين الدول الاوربية بأقوى جيش بري في اوربا الغربية وأعظم قوة جوية وا كبر مجموعة من الدبابات والمدافع وبأنها شيدت أقوى الاستحكامات على حدودها الشرقية وبنمو صناعة المؤونة والذخيرة عندها وبأنها تحتفظ بقدر كبير جداً من الذهب الاحتياطي وبمعاهدات ومواثيق ومحالفات تربطها بدول صديقة كروسيا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا ورومانيا وبريطانيا العظمى

ان الجيش الفرنسي في مقدمة الجيوش الاوربية عدداً وسلاحاً . ومنذ نشرت مجلة « ريفودى دوموند » مقالها الخطير الذي كتبهُ الماريشال بيتان عملت الحكومة الفرنسية بآرائهِ التي دوّنها في هذا المقال . وكان الماريشال قد دعا فيهِ الى مد أجل خدمة مجندي سنة ١٩٣٥ لان مجندي سنة ١٩٣٦ سيكونون اقل من المطلوب لنقص المواليد في فرنسا أثناء سنة ١٩١٥ وهو النقص الناشيء عن الحرب الكبرى . ويعتقد الماريشال بيتان « ان مجندي سنة ١٩٣٧ و١٩٣٨ و١٩٣٩ سيكونون أقل من المطلوب كذلك لان نقص المواليد في فرنسا استمر حتى نهاية الحرب العظمى . وكان من آرائهِ التي صرح بها ايضاً في مقالتهِ « ان هناك سبيلاً واحداً الى منع الحرب وهو ان نكون أقوياء . وقانون جعل الخدمة العسكرية سنتين هو الاجراء الوحيد الذي يستطيع ان يطمئن الفرنسويين وحلفاءهم ويضعف أماني الخصم ويعزز السلام الاوربي تعزيزاً عظيماً »

وفي منتصف شهر نوفمبر ١٩٣٦ نشرت المجلة المذكورة مقالاً للجنرال « ڤيجان » القائد العام للجيش الفرنسي سابقاً حذّر فيهِ فرنسا من جيش المانيا الذي اصبح الآن من القوة بحيث يستطيع القيام بهجوم فجائي يعقبهُ بحرب طاحنة . ثم قال ان الجيش الفرنسي يجب ان يكون متأهباً لمواجهة تهديدين متوالين ذلك ان فرنسا لا تستطيع حشد قواتها على الحدود لان هذا يشل حركة التعبئة الداخلية كما أنها لا تستطيع تحويل الخدمة الاجبارية الى خدمة تطوعية في الجيش

ورأى الجنرال « ديجاز » ان حل هذا الموقف يتم بالطرق الآتية :

اولاً : ان تكون جنود الحصون والقلاع مستعدة في كل وقت لتعبئة أقصى قوة لحماية الاستحكامات المشيدة

ثانياً : ابقاء وحدات متحركة كبيرة وان تكون ميكانيكية في المناطق الواقعة على الحدود
ثالثاً : ايجاد قوة متحركة من الجنود مكونة من وحدات كبيرة يمكن جمعها متأهبة للعمل في أسرع وقت

ولكي يمكن الوصول الى انشاء هذا النظام يقتضي ان يزاد عدد المجندين من ١٢٠ ألفاً الى ٢٠٠ الف وأن يخفض سن الاقتراع الى حد يسمح بزيادة خمسين الف جندي وتعديل مدة الخدمة حتى يتيسر تحسين التدريب العسكري

هذا هو رأي آخر لاحد قادة فرنسا المبرزين. ولا ندري الى اي حد انتفع بهاتين المشورتين الفنيتين من الناحية الفرنسية الوطنية لمقاومة الخطر

ومع ذلك فان فرنسا لا بد ان تكون مطمئنة ودليل ذلك ما صرح به المسيو دالادييه وزير الدفاع لما وقف يوم ٤ نوفمبر ١٩٣٦ أمام اللجنة الحربية في مجلس النواب يشرح مكانة فرنسا الحربية قائلاً أنه يدعو الى الاطمئنان وان موقف المانيا ومقامها الحربيين لا يدعوان الى ارتياح المانيا نفسها وصرح بأنها لن تتمكن قبل مرور عام من اتمام مشروعات التجنيد . ومع ذلك ففي نيته تجنيد الشباب الفرنسي في سن الثامنة عشرة كما ينوي في الوقت نفسه انشاء معهد للابحاث العلمية للدفاع عن فرنسا ولم يستطع ان يخفي تقدم ادخال الوسائل الميكانيكية الحديثة في الجيش الالماني والتطور السريع في انشاء الطرق والسكك الحديدية في منطقة حوض الرين وهذا مما يشجع الالمان على القيام بمفاجأة سريعة . وعقدت الحكومة الفرنسية النية على ان تنفق على زيادة وسائل الدفاع البري والجوي والبحري في السنوات الاربع المقبلة مبلغاً يقدر بـ ١٨٢٠٠٠٠٠٠ جنيه

وفي الوقت نفسه نرى المستر لويد جورج السياسي الانجليزي قد ألقى خطاباً سياسيًّا خطيراً قال فيه ان فرنسا أقوى الدول الاوربية في العالم اليوم وانها تنعم بجيش مدرب يبلغ عدده خمسة ملايين جندي وان المانيا لا يمكن ان تبلغ مبلغ فرنسا من حيث التدريب العسكري الا بعد سنوات لأن الجندي لا يكون جنديًّا بكل معنى الكلمة الا بعد تدريب متقن وعناية كبيرة

ولا ندري صحة هذا الرأي فقد قال بعضهم ان لويد جورج يحاول تسويغ موقف المانيا من سياسة التسليح باظهار فرنسا بمظهر الدولة القوية الخطرة !

والجمهورية الفرنسية لها أملاك واسعة تحتفظ فيها بقوات عديدة من جميع الاسلحة فان لها في الجزائر ومراكش وتونس وافريقيا الغربية الفرنسية وافريقيا الاستوائية الفرنسية ومدغشقر والصومال الفرنسي وريئيون والهند الفرنسية وخالدونيا الجديدة والهند الصينية وغيانا وغيرها من جزر المحيط الهادي . وكذلك لها في بلدان الانتداب سوريا ولبنان وكامرون قوات مؤلفة من جميع الأسلحة

وتبلغ مساحة فرنسا ٥٥١٫٠٠٠ كيلو متر مربع وعدد سكانها ٤٢ مليون نسمة وجيشها يبلغ عدده في وقت السلم ٦٤٢٫٨٧٥ من هؤلاء ٢١٣٫٠٠٠ من جنود المستعمرات . ومن السهل عليها ان تعبيء في وقت الحرب ما لا يقل عن أربعة ملايين جندي

والخدمة العسكرية اجبارية في فرنسا . وهي مقسمة الى ١٨ منطقة عسكرية على رأس كل منطقة ضابط برتبة جنرال يتولى قيادة القوات العسكرية للجيش والقوات الاقليمية وهو مسؤول عن الاقتراع والتدريب العسكري والتعبئة في منطقته بمساعدة هيئة قيادته ومكاتب تجنيد منطقته ومراكز التعبئة فيها . أما قوات المستعمرات فتتبع كلٌّ منها نظامها الخاص بها . وتتألف العناصر العسكرية العليا للقيادة والادارة الخاصتين بالجيش من الهيئات الآتية :

١ — المجلس الحربي الأعلى ويتألف من وزير الدفاع والحرب رئيساً لهُ ورئيس هيئة اركان الحرب العامة وكيلاً ومارشالات فرنسا وعدد من قواد الفرق الذين في الاستيداع لا يزيد عددهم على الاثني عشر وهؤلاء الاعضاء ينتخبون بقرار رسمي في أول كل عام

٢ — هيئة القيادة العليا برآسة رئيس هيئة اركان الحرب

٣ — هيئة التفتيش العام الدائمة لجميع الأسلحة كالسواري والمشاة والمدفعية والنقل والمهندسين وقوات المستعمرات

٤ — هيئة اركان حرب الجيش برآسة وكيل المجلس الحربي الأعلى

٥ — وزارة الدفاع الوطني والحرب

٦ — ادارة الجغرافيا العسكرية

٧ — عدة لجان ومجالس للبحث في أعمال السكك الحديدية العسكرية والمفرقعات وصناعة الذخائر . وما أشبه . والتعليم العسكري ليس مركزاً في باريس وحدها بل هو موزع كالجيش في جميع انحاء فرنسا وان كانت أهم معاهده في باريس مانذكره كالآتي :

مدرسة الدراسات العسكرية (Ecole militaire) . المدرسة الحربية العليا . المدرسة الحربية الخاصة بسان سير . مدرسة الفنون العسكرية . مدرسة المهندسين المتقدمين في ڤرساي . مدرسة الادارة الحربية في ڤنسان ومركز تدريب السيارات في فونتنبلو . مدرسة الرياضة البدنية في جوانڤيل . مدرسة الطب العسكري . مدرسة المدفعية في فونتنبلو . مدرسة الدبابات . والمدرسة العليا لصناعة الأسلحة في بوتو . مدرسة المواصلات والاشارة في ڤرساي

وبجانب هذه المعاهد الحربية فهناك في روان وتتر وتور وليون ومارسيليا ونانس والجزائر عدة مدارس فنية أخرى تمد الجيش بالضباط الفنيين وكذلك بعدد ضخم من ضباط الصف

ويمكن تلخيص عدد القوات العسكرية الفرنسية في البيان الآتي

المشاة وتتألف من ١٣٨ آلاياً و ٣٨ أورطة مستقلة

الدبابات وتتألف من ١٢ آلاياً و ٥ أورط مستقلة و ٤ بلوكات مستقلة وصنف

الخيالة وتشتمل على ٦٥ آلاياً و ٨ مجموعات مستقلة و ٥ أورط مستقلة و ١٢ بلوكاً

والمدفعية وتشتمل على ٧٩ آلاياً و ٥ مجموعات مستقلة و ١١ أورطة مستقلة وتسعة بلوكات وبطاريات. أما المهندسون فيكونون ١٢ آلاياً وأربع أورط مستقلة

وقوة الطيران الفرنسية من أقوى قوات الدفاع الجوية في أوربا إن لم تكن الدولة الثانية بعد روسيا فعدد الطائرات العسكرية البرية والبحرية في فرنسا ومستعمراتها لا يقل عن ٥٤٠٠ طائرة قتال وتدريب من عدة طرازات وتبلغ قوتها أربعين الف جندي وضابط . وهذه القوة العددية لا تشملها الزيادة الجديدة التي قررتها وزارة الطيران الفرنسية منذ شهرين بمعدل خمسين في المائة وبذلك يصل عدد الطائرات الحربية الى نحو عشرة آلاف طائرة وتحتاج هذه الزيادة الى الف ضابط جديد ولقد أقر مجلس الوزراء الفرنسي تلك الزيادة وصدق على الاعتماد اللازم لها ومقداره خمسون مليوناً من الجنيهات

روسيا

وهذه حليفتها روسيا نشرت فيها حركة التجنيد والتدريب العسكري من بحر البلطيق الى المحيط الهادي بنشاط مدهش ونظام دقيق . ومنذ أسبوعين سمح ستالين للجنرال كليمنت فوروشيلوف قائد الجيش الأحمر باستخدام كل ما يلزم من الوسائل لانشاء أعظم آلة حربية عرفها التاريخ الى اليوم. وصرح الاميرال « أورلوف » في بيان له انه في خلال ثلاث سنوات سيكون لها ٧١٥ غواصة و ٣٠٠ سفينة حربية و ١٧٥ سفينة حربية للسواحل و ٥١٠ طائرات للأسطول ومائة بطارية ضد الطائرات ومائة قاعدة بحرية وقد زادت ميزانية أعمال الدفاع الى ١٤٬٨١٥ مليون روبل ذهب

فنرى ان روسيا تستعد استعداداً مدهشاً للحرب المقبلة وبسيطر النفوذ العسكري على جميع المصانع والمعاهد الاقتصادية والمعامل الفنية بحيث تجعلها خاضعة لمصلحة البلاد الحربية في اي وقت. وقد فصل أخيراً مراسل جريدة « الديلي اكسبريس » في وارسوفيا مشروعاً حربياً واسع النطاق لأعداد الجيش البري والبحري والجوي في روسيا بغية ان يصبح أعظم آلة حربية كما قلنا . وقد ذكر المراسل ان أساس المشروع خمسة أمور جوهرية

اولاً : بناء سلسلة من الحصون طولها الف ميل على محاذاة حدود روسيا البولشفية من الشرق والغرب على مثال خط ماجينو الفرنسي

ثانياً : مضاعفة عدد قوة الجيش الحاضرة في سنتين حتى يصير ثلاثة ملايين رجل

ثالثاً : زيادة سلاح الجو حتى يصير ثلاثة اضعاف ما هو عليه الآن

رابعاً : انشاء ادارة حربية جديدة تحت اشراف فورشيلوف قومسير اعمال الدفاع

خامساً : نقل مصانع السلاح والذخيرة من اماكن تستهدف فيها الآن لغارات الاعداء الى مقاطعات في داخلية البلاد

ويجب ان لا ننسى ان روسيا تستطيع تعبئة ١٧ مليون جندي في وقت الحرب

ان الجندية في روسيا البولشفية شرف عظيم لا يناله الا الحائزون على قسط من التعليم والذين يبرهنون على صدق وطنيتهم واخلاصهم للنظام السوفيتي . وينص دستور الشعب على ان العمال والفلاحين فقط هم الذين لهم الحق في الدفاع عن اتحاد السوفيت بحمل السلاح اما ابناء الملاك السابقين وشباب الطبقات الثرية من الفلاحين فيعفون من الخدمة العسكرية الاجبارية لان الخدمة العسكرية والدفاع عن اتحاد السوفيت شرف لا يناله ولا يسمو اليه هؤلاء . ولكن اذا نشبت الحرب دعي هؤلاء اي ابناء الملاك والفلاحين الاغنياء الى الصفوف للقيام بالاعمال الثانوية وراء ميادين القتال . والجيش الاحمر ليس بسلاح دفاع فقط بل ان التدريب العسكري الذي يناله رجالهُ ليس هو الناحية الرئيسية فيه مع ما لها من الشأن . ذلك لان الجيش اصبح في نظرهم مدرسة واسعة النطاق تمكنهم من غرس المبادىء الشيوعية في اعماق النفوس وتربية الجيش الاحمر ترتكز على ثلاث نواحٍ هي :

١ — الناحية الحربية بتدريب الجنود على القواعد العسكرية وفهمها وتنفيذها

٢ — الناحية الثقافية بتعليم الاميين قواعد الكتابة والقراءة وتوسيع معارف المتعلمين منهم

٣ — الناحية السياسية بتعليمهم أساليب الحزب الشيوعي وقواعد خططه السياسية والاجتماعية ليكونوا عند عودتهم دعاة لها في المزارع والمصانع والقرى

وروسيا اكبر دول العالم مساحة فهي تبلغ ٢١٫١٧٦٫٠٠٠ كيلو متر مربع وعدد سكانها لا يقل عن ١٧٠ مليون نسمة وتحاذي حدودها حدود دول البلطيق وبولنده ورومانيا وتركيا وايران وأفغانستان والصين ومنشوكو ويبلغ عدد الجيش البولشفيكي ١٫٣٠٠٫٠٠٠ جندي بخلاف القوات الاقليمية ويشرف على الاعداد العسكري في الجمهورية قوميسيرية الدفاع عن الشعب وتتألف من اثنى عشر مصلحة وادارة حربية أهمها هيئة اركان الحرب العامة والقوات الروسية موزعة على احدى عشر منطقة عسكرية

وتشتمل كل منطقة عسكرية من المناطق المذكورة على العناصر الرئيسية الآتية :

هيئة اركان الحرب للمنطقة — الادارة السياسية — قيادة القوات الجوية — ضباط قيادة الاسلحة المختلفة — قائد خدمة التعيينات — قيادة القسم الطبي — قيادة الطب البيطري

وأهم المدارس العسكرية في روسيا هي :

١٥ مدرسة للمشاة مدة الدراسة فيها ثلاثة اعوام ونصف

٤ مدارس للخيالة ومدة الدراسة فيها كالمشاة

٤ مدارس للمدفعية ومدة الدراسة فيها أربع سنوات ونصف

مدرسنان للمهندسين ومدرستان للاشارة ومدرسة الاسلحة الفنية والمواصلات والطبوغرافيا العسكرية وفرقة الوحدات المدرعة ومدة الدراسة في جميع هذه المدارس اربع سنوات ونصف سنة وهناك ايضاً ١٣ اكادمية عسكرية للضباط العظام عدد طلبتها ١٦٫٠٠٠ طالب ومدة الدراسة فيها خمسة اعوام وتشتمل بعض الجامعات على كليات للدراسة الحربية كالحقوق والآداب . وعدد هذه الكليات كان ست كليات في عام ١٩٣٦

وبجانب المدارس الخاصة بالجيش مؤسسات أخرى تشرف عليها قوميسيرية الحرب وتقوم بالتدريب العسكري الاجباري للذكور والاناث وتعرف هذه المؤسسة باسم (Osoaviachim) رؤساؤها من الضباط العظام في الجيش الاحمر وهذه المؤسسة تقوم بالآتي :

١ — ترقية المعارف العسكرية بين طبقات العمال الذين أتموا الخدمة العسكرية في الجيش العامل ووحدات المقاطعات

٢ — التدريب العسكري والسياسي للشبان الذين يرغبون في الانتظام في الجيش قبل حلول ميعاد خدمتهم العسكرية والشبان الصالحين للخدمة العسكرية الذي لم يجندوا لسبب من الأسباب

٣ — تحسين المعارف العسكرية لتلاميذ المدرسة الحربية

٤ — التدريب العسكري الابتدائي والتمرين الرياضي في المدارس حيث التعليم العسكري غير اجباري

٥ — تعليم الفتيات العاملات المبادىء العسكرية والأعمال الحربية في مؤخرة وحدات الجيش وفي المقدمة

٦ — تدريب قوات الاحتياط السنوي

ولما كانت الحروب الغازية ذات شأن عظيم فقد عهد الى مدرسة الكيمياء العليا في موسكو في تدريب الكيماويين الحربيين من الوجهة الفنية وقسمت البلاد الى قيادات عسكرية للغازات وقد كان تدريب الجيش الاحمر في استعمال الأسلحة الغازية والوقاية منها يتم في مدارس حربية خاصة فتغير هذا النظام أخيراً واستبدل تدريب الجنود في ميادين خاصة على بتمرينات عملية موافقة لعقلية الجنود . والنقطة الجوهرية في الأمر هي ان التمرينات تتم بواسطة غازات سامة حقيقية كاطلاق غاز الكلوريد وغاز أدمسيت الأميركي وتسميم بقاع شاسعة « بغاز الخردل »

أما العناية بالدفاع ضد الغازات فقد وضع في أعلى مكان من الاستعداد الحربي ولم يقصر هذا

الدفاع على الدوائر الحربية بل مدَّ الى السكان فوزعت عليهم جهازات واقية من شر الهجمات الغازية وقد قال ڤورشيلوف « لقد توصل علماؤنا الى ايجاد قناع واقٍ من الغازات بلغ حد الكمال وتقرير استعماله في الجيش وسنحتاج الى عدد هائل من هذه القناعات اذ ليس علينا ان نمدَّ بها كل جندي فقط بل وكل عامل وكل فرد من السكان في المناطق الواقعة وراء خط القتال »

ولقد أدخل الروس أسلوباً جديداً في القتال شاهده الملحقون العسكريون للدول اثناء مناورات فريق من الجيش البولشفيكي في اوكرانيا منذ شهرين تقريباً وهو انزال الجنود بأسلحتهم الكاملة بواسطة المظلات الواقية وقد تمكنوا بهذه الوسيلة من إنزال جنود أورطة كاملة بمدافعهم وراء خطوط المدافعين . وليس من شك في أن إدخال هذا النوع من أساليب القتال سيكون له أثر واضح في الحروب المقبلة التي ستشاهدها القارة الاوربية

والطيران الروسي في طليعة القوات الجوية التي يعمل لها حساب كبير . فروسيا تملك خمسة آلاف طائرة وعدد رجالها لا يقل عن خمسين الفاً خلا قوات الجو الاحتياطية

بريطانيا العظمى

قد تكون انجلترا بين الدول الاوربية القليلة التي ما زالت الى اليوم تتبع التجنيد الاختياري في خدمة الجيش والبحرية والطيران . ولذلك يعاني الجيش الانجليزي اليوم مشكلة ينفرد بها بين قوات الدفاع الاوربية وهي مشكلة التجنيد. وقد اهتمَّ القوم ببحث هذه المسألة بحثاً جديًّا بين جدران وزارة الحربية وعلى صفحات الجرائد . واقترحت حلول كثيرة كان منها زيادة المرتبات للجنود وتعديل الزي العسكري وتحسين الحالة في الثكنات وتعليم الجنود بعض الحرف اثناء الخدمة العسكرية ووعدهم بتشغيلهم في صناعاتهم بعد انتهاء خدمتهم العاملة

ان مدة الخدمة العسكرية في الجيش النظامي اثنتا عشرة سنة منها مدة تتراوح بين الثلاثة والتسعة أعوام في الخدمة الفعلية بحسب نوع السلاح (مشاة او خيالة او مدفعية) وقد بلغ الجيش الانجليزي هذا العام العدد الآتي

١٤٧٬٠٣٠ من هؤلاء ١٤٤٬٣٨٣ جنود بريطانيون و٢٦٤٧ جنود المستعمرات والوطنيين وكان في الهند ٥٧٬٥٢٤ . وعلى هذا الاعتبار فان عدد الجيش الانجليزي النظامي هو

٢٠٤٬٥٥٤ ضابطاً وجنديًّا وهو يشتمل على خمس فرق ولواء مشاة ولواء دبابات ولوائين خيالة . وجيش التريتوريال (القوات الاقليمية) وهي اشبه بقوات المليشيا ويتلقى أفراده التدريب العسكري لمدد محدودة في السنة في معسكرات خاصة وعدده ١٨٤٬٢٦٥ وهو يشتمل على ١٤ فرقة مشاة ولوائين خيالة وجيش الاحتياط ويتألف من الجنود الذين انتهت مدة خدمتهم الفعلية

ويستدعون لحمل السلاح عند الحاجة وعددهم ١٢١٬٢٠٠

وجيش الاحتياط الملحق او المكمّل Supplementary وعدده ٢٥٬٢٩٧

وفي البيان التالي مجمل قوات الجيش الانجليزي :

الجيش الانجليزي النظامي	١٤٤٬٣٨٣	القوات الاقليمية	١٨٤٬٢٦٥
قوات الوطنيين في المستعمرات	٢٬٦٤٧	جيش الهند	٥٧٬٥٢٤
الاحتياط	١٢١٬٢٠٠	هيئة اركان الحرب	٩٦٥
الاحتياط الملحق	٢٥،٢٩٨	المجموع	٥٣٧٬٣٩٢
المليشيا	١٬١٠٠		

وكان عدده في العام الماضي ٥١٨٬١٧٤ أي ان الجيش الانجليزي زاد خلال العام ٢٠٬٠٠٠ تقريباً . وقد زادت الاعتمادات الخاصة بالجيش الانجليزي خلال عام ١٩٣٦ مبلغ ٤٬١٧٦٬٠٠٠ جنيه وهذا المبلغ لا يشتمل على ١٬٥٥٠٬٠٠٠ جنيه اقتضتها طوارىء النزاع الايطالي الحبشي فيكون مجموع الاعتمادات لميزانية الجيش الانجليزي قد وصلت اثناء العام المذكور الى ٤٩٬٢٨١٬٠٠٠ مقابل ٤٣٬٥٥٠٬٠٠٠ جنيه في العام السابق

وخلال العامين ١٩٣٧ و١٩٣٨ ستتحول معظم وحدات الجيش الانجليزي الى قوات ميكانيكية وقد تمت منشآت قضت بها ضرورة الدفاع عن الامبراطورية في مصر والصين ومالطه وقبرص علاوة على ماسيتم خلال الاعوام بعد عقد المعاهدة المصرية الانجليزية . وقد اعتمد مبلغ نصف مليون جنيه للاعمال التمهيدية في قاعدة سنغافورة التي ينتظر ان تكون أهم القواعد البحرية في الامبراطورية البريطانية وستزاد حاميتها ايضاً كما ستزداد في الصين وسيلان والسودان وفلسطين ومالطه وأعمال الدفاع في الجزر البريطانية في نشاط عجيب وأهمها في وولتش وشستر وتتم ثكنات جديدة في بيرهام وادنبرة ووارمنستر . وأعمال الدفاع الجوي في ليشفيلد ووارلى

ويشرف على جميع أعمال الدفاع في الامبراطورية البريطانية مجلس دائم للدفاع الامبراطوري وهو ذو صبغة استشارية محضة ويرأس جلساته رئيس مجلس الوزراء ومن يدعوهم من الوزراء والمستشارين الاخصائيين في المسائل التي سيجري البحث فيها وأهم الذين يدعون لهذا المجلس رئيس مجلس النواب ووزراء المالية والخارجية والمستعمرات وحكومات التاج والهند وأميرال البحرية ووزير الحربية والطيران ورئيس هيئة اركان حرب البحرية ورئيس هيئة اركان حرب الجيش والطيران والسكرتير الدائم لوزارة الخارجية

كما ان هناك ايضاً مجلساً للجيش يرأس أعماله وزير الحربية

والجيش الانجليزي موزع في انحاء بريطانيا وشمال ايرلنده ويبلغ عدد المناطق العسكرية فيها

ستًّا والمستعمرات البريطانية والدول المشمولة بالانتداب الانجليزي ومصر وفي البيان التالي توزيع القوات الانجليزية في العالم : —

جبل طارق	٢٬٦٦٩	عدن	٢١٦
مالطة	٣٬٤٧٩	جزر مورشوس	١١٩
برموده	٤٠٩	سيلان	٣٦٩
جامايكا	٦٦٩	الملايا	٤٬٣٨٦
قبرص	١٩٣	الصين	٧٬٦٢٤
فلسطين	١٬٩٧٠	الهند	٥٧٬٥٢٤
مصر	٩٬٥٩٦	الجزر البريطانية	١١٣٬٤٦٦
السودان	١٬٨٦٥	المجموع	٢٠٤٬٥٥٤

اما التعليم العسكري في بريطانيا العظمى فيقوم على المعاهد الآتية :

١ — اكادمية ساند هرست الملكية لتخريج ضباط المشاة والخيالة ومدة التعليم سنتان

٢ — اكادمية ووليتش الملكية لتخريج ضباط المدفعية والمهندسين

٣ — كلية اركان الحرب في كمبرلي وزميلتها في كويتا بالهند ومدة الدراسة عامان وعدد طلبتها لا يتجاوز المائتين والغرض منها تعليم الضباط المتقدمين لها للدراسات العالية في العلوم العسكرية

٤ — مدرسة الضباط العظام ومقرها الوقتي في «شيرنس» لتعليم البكباشية ومدتها ثلاثة أشهر وتعقد فرق الدراسة ثلاث مرات سنويًّا ويشمل برنامجها التدريب التكتيكي العالي للقوات الكبيرة والتعليم النظري والعملي الخاص بقيادة القوات من جميع الأسلحة

اما قوة الطيران الملكية فتشتمل على ما لا يقل الآن عن ٢٥٠٠ طائرة من جميع الانواع قاذفات القنابل والمحاربة والتمرين . والقوات الجوية الانجليزية موزعة بين داخلية انجلترا والسواحل البريطانية والشرق الادنى (شرق الاردن وفلسطين) والعراق والهند وعدن والبحر الابيض المتوسط ومصر والشرق الاقصى ويبلغ عدد رجال القوات الجوية ٣٥٠٠٠

ويجري العمل الآن بسرعة عجيبة في سبيل تعزيز السلاح الجوي الانجليزي ومضاعفة طائراته وعدد رجاله وانشاء احتياطي كبير من الضباط والجنود للانتفاع بهم وقت الحاجة

اما دولة ايرلندة الحرة فيزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين قليلاً ومساحتها ٦٩ الف كيلو متر مربع وجيشها من احدث الجيوش الاوربية يبلغ عدده اليوم ١١٤٥٣ ضابطاً وجنديًّا للجيش كلياته ومدارسه العسكرية ، ولكن قوة الطيران فيه صغيرة لا تزيد على ١٨ طائرة قوتها ٥٤١٠ أحصنة منها اربعة فقط صالحة للاعمال الحربية

[كولونل ا



العلامة فرويد

في الثمانين من عمره الحافل

كنا نقول ان لا كرامة لنبيٍّ في وطنه . ولكن امتداد الحياة البشرية بفضل تقدُّم العلوم وتطبيقها فسح المجال امام رواد الأفكار الى زيادة في حياتهم بوجهٍ عام تمهد لهم السبيل لاعتراف الناس بفضلهم . بل ان الشيخوخة في ميادين الفلسفة والعلم تقترن عادةً بسلطة عجيبة مع ان الفيلسوف او العالم يكون في الغالب قد تخطى السن التي يستطيع فيها ان يضيف شيئاً جديداً الى كنوز المعرفة

الاَّ ان فرويد وقد بلغ الثمانين يشذ عن عن ذلك . ان السنين لم تبل ما في بحثه من جدة ولا ما لا باسمه من سلطان . ان ذكره لا يزال يثير عواصف من النقد والاعجاب في آن . والناس ما برحوا منذ ظهرت نظرياته يوالون فيه ويعادون . وليس تعليل ذلك ببعيد المنال . فالطريق المفروش الممهَّد للباحث في العلوم الطبيعية والكيميائية محرم بعض التحريم على رواد العلوم النفسية والاجتماعية لان الاولين تفضي مكتشفاتهم ومخترعاتهم الى رفع مستوى الحياة ورخائها حالة ان الآخرين لا يستطيعون ان يضيفوا الى ارتقاء الانسان شيئاً يلمس وينظر ويسمع كالسيارة والمصباح الكهربائي ووسائل المخاطبات الكهربائية . وليس ثمة شيء يخشاه الناس ويتجنبونه كالبحث الصريح في شؤون الجنس والضمير . فالناس يقفون من هذه المباحث وكان معتقداتهم الخاصة بهذين الموضوعين اركان ينهض عليها صرح الحضارة، فاذا تبدلت او تحولت انهار ذلك الصرح على رؤوسهم . بل لقد يسري اليهم شيء من الريب اذا علموا ان اساتذة الطب و النفس اكبُّوا على دراسة فرويد وكتاباته ولا يعدان يستنكروا كل سعي من شأنه ان يفضي الى تأثر النظام الجنائي والتعليمي بتعاليمه

كان خصوم فرويد اسرع من اصدقائه الى ادراك ان سر مكانته العالمية في منطوي تعاليمه الخاصة بالاصلاح الاجتماعي والادبي . ان الكشف عن حقائق الطبيعة نتيجة العقول الحرة المدربة على البحث الساعية الى زيادة

سلطة الانسان على الطبيعة وعلى النفس . ولذلك لا يستطيع العلم ان يقف بمعزل عن المشكلات الاجتماعية والنفسية العامة بل ان علم كل عالم ينطوي على تبعة تحمل صاحبه على السعي الى استخدام علمه في سبيل الحرية والتعقل اللذين لا تقدم للعلم من دونهما . وقد كان هم فرويد واتباعه ان يستعملوا مكتشفاتهم في سبيل تحرير الانسان من الاستعباد للكبت والتقاليد والمحرمات . فنظريته النفسية تنطوي على آراء تهدم النزعات التي تقوم عليها النظم الفاشستية كالخضوع لزعيم واحد هو بمثابة شيخ القبيلة في العصور البدائية اذ كان كاهناً ومشرعاً وقائداً في آن . لذلك حظر في المانيا على اي كان ان يكون من اتباع فرويد

الا ان كل هذا لم يحل بين فرويد وحياة هادئة مطمئنة . فمن اقوال الفرنسويين التي صارت مثلاً ان الامة السعيدة لا تاريخ لها ولكن هذا القول اصدق اليوم على العالم المبدع منه على الامم . فقد ولد فرويد سنة ١٨٥٦ في ما يعرف الآن بتشكوسلوفاكيا من والدين يهوديين . ودرس الطب والفسيولوجية في فينا حيث أنشأ عيادة خاصة بالطب النفسي Psychiatry في سنة ١٨٨٦ بعد سنة قضاها في باريس تلميذاً لشاركو . واشترك مع جوزف برور Breuer في وضع اساليبه الخاص بمعالجة الحالات العصبية حوالي سنة ١٨٩٣ وشرع بعدها في نشر سلسلة من الكتب والرسائل تحتوي على بحوث في العلاج وقواعد لنظارية سيكولوجية جديدة . فلما نشر كتابه (تفسير الاحلام) سنة ١٩٠٠ طار صيته كل مطار واصبح مقدم علماء النفس على بر اوربا ومنذ نشر كتابه « وراء مبدأ اللذة » سنة ١٩٢٢ اتجه فكره الى النواحي البيولوجية والفلسفية التي تقتضيها نظريته

***

ليس في خلقه ما يستوقف النظر . فهو يرغب عن الجدال مع انهُ اشترك في وقت ما في جدال سيكولوجي عنيف مع العلامتين يونغ وادلر . ولكنهُ الآن وقد ناهز الثمانين يجتنب كل هذا . لقد انقضى الزمن الذي كان تلاميذه ومريدوه يعتبرونهُ معصوماً عن الخطأ وكل مايرجوله محبوه الآن ان لا يشهد وهو على قيد الحياة حريق كتبه في ميدان عام !

ان جانباً كبيراً من علم السيكولوجيا الحديث يرجع الى تعاليمه الخاصة بالدافع الجنسي وتأثيره في الحياة والامراض العصبية وشفائها بالتحليل النفسي . وقد تسربت تعاليمه الى الادب فأصبح غير قليل من القصص التي تكتب وتنشر الآن قائماً على قواعد التحليل النفسي وصلة الحالات النفسية والجسدية والاعمال العامة بالباعث الجنسي وكبته . بل ان طائفة من كتب السير الحديثة قامت على هذا المبدأ ونخص بالذكر منها كتاب « ماري انطوانيت » الذي كتبهُ الكاتب الالماني المبدع ستيفان زفيج

هل يستطيع العلم ان ينقذ الحضارة

رأي السر رتشرد غريغوري

اذا درس عالم من علماء الحشرات وكر نمل ووصف طبائعه دعي بحثه علماً ولكن اذا درس باحث آخر المجتمع الانساني درساً قائماً على النقد وبأسلوب البحث العلمي انكر عليه ان بحثه هذا علم

ان علماء الطبيعة والكيمياء طالما ترددوا في التسليم بأن الاقتصاد والسياسة نظراً وعملاً والتاريخ والاجتماع من العلم . الاّ ان الصوت أخذ يرتفع من دوائر العلم بأن على العلماء الذين مكّنوا الانسان من السيطرة على قوى الطبيعة يجب ان يوجهوه الى استعمال هذه القوى استعمالاً يتفق مع سلامة المجتمع وارتقائه

وقد كتب السر رتشرد غريغوري محرر مجلة نايتشر مقالاً قال فيه ان الواجب يقضي على رجل العلم بأن يبذل كل ما في وسعه لاستعمال القوى التي يمكن منها الناس، استعمالاً نافعاً والاّ فان العالم مصيره حتماً الى كومة من الرماد

ان تأثير العلم في المجتمع بلغ مرتبة يصح عندها ان نقول ان البحث في البيولوجيا الاجتماعية أهم كثيراً من البحث في موضوعات العلوم الطبيعية المحضة كتركيب الذرة وغيره

ومن بواعث السخرية في الحضارة الحديثة ان تأثر المجتمع بوسائل الانتاج الكثير لم يكن زيادة الرخاء والرفاهة بل زيادة الفاقة والشقاء والانحطاط بعض اساليب العلم والاختراع الى دركات القتل والتدمير

ولما كان العلم قد وسع من سيطرة الانسان على قوى الطبيعة فعليه ان يتحمل التبعة الناشئة عن ذلك . ولكن المهم ان الاسلوب العلمي الذي استعمل في كشف اسرار الطبيعة والسيطرة على قواها يجب ان يستعمل في دراسة المجتمع والسعي الى حل مشكلاته

ان نظام التوزيع الاقتصادي لا يزال قائماً على قواعد ترتد الى ما قبل العصر العلمي ولا يصلح لهذا العصر الذي اصبحت آيته الكثرة في الانتاج لا القلة

ان في مكنة العلم ان يجهز الامة بكل ما تحتاج اليه وفقاً لزيادة عدد الناس ولارتفاع مستوى معيشتهم . ولكن استعمال هذه القوى على خير وجه ليس امراً مقرراً ولا يعرف بداهةً بل يجب ان يكون نتيجة البحث والمعرفة والروح التي يقتضيها الاسلوب العلمي

أحدث انواع الفيتامين

يدعى « سترين » وفوائده

اذا خلا الطعام من فيتامين (C) أصيب آكل ذلك الطعام بمرض يدعى الاسكربوط .

وكانت السفن في قديم الزمان تنقل في مخازنها زجاجات تحتوي على عصير الليمون لان أياماً

وأسابيع كانت تنقضي قبلما ينزل البحارة الى مرفأ يأخذون منهُ طعاماً يحتوي على هذا الفيتامين فيعوضهم العصير مما يحتاجون وهم لا يدرون ما هو تماماً

والظاهر ان ثمار جميع اشجار الموالح تحتوي على هذا الفيتامين. ولكن الفلفل الاحمر المشهور في المجر باسم بابريكا اغنى النباتات بهِ. ولذلك عمد اليهِ الاستاذ سانت جورجي احد أساتذة جامعة سيفيد بالمجر فاستخرج منهُ فيتامين [C] نقياً صافياً

من اعراض الاسكربوط نزف الدم في اللثة والبشرة. وفي بعض الاحوال لا يقف النزف ولو استعمل حامض خاص بذلك او لو استعمل فيتامين [C] نفسه. ولكن استعمال عصير الليمون او عصير البابريكا لا يخيب في منع النزف. فقرر الاستاذ سانت جورجي انهُ لا بد من وجود شيء آخر في الليمون والبابريكا غير فيتامين [C] وعلى ذلك بدأ بحثهُ بمعاونة اربعة من الباحثين فأفضى البحث الى اكتشاف فيتامين جديد وسم بحرف P الفرنجي

استخرج الاستاذ سانت جورجي من مقدار من الليمون يزن ٢٠٠ كيلو غرام ما وزنهُ غرامان من المركب الجديد ولكنهُ خالٍ من اي اثر من فيتامين (C) ودعاهُ باسم « سترين »

وميل البشرة الى النزف مما يمكن قياسه بمضخة تفريغ اي « شفط » وبالتجربة ثبت ان فيتامين (C) لا يؤثر في الاوعية الشعرية من حيث مقاومتها للنزف. ولكن الفيتامين الجديد (اي سترين) يزيد مقاومتها. ولذلك لا ينحصر استعماله في الاسكربوط بل في حالة تصاب بها البشرة ببقع حمر ناشئة من ضعف الاوعية الشعرية التي يجري فيها الدم حيث تظهر هذه البقع فيحقن صاحبها بحقن يختلف مقدارها من ٢٠ مليغراما الى ٤٠ مليغراماً من السترين فتزول البقع

جائزة نوبل الكيميائية

الاستاذ دبي وبحث المحلولات

منحت جائزة نوبل الكيميائية عن سنة ١٩٣٦ للاستاذ بيتر دبي Debye مدير معهد القيصر ڤلهلم لعلم الطبيعة ببرلين وأستاذ الطبيعة في جامعة ليبسش. وهو صاحب نظرية مشهورة في علمي الكيمياء والطبيعة، تعرف باسمهِ واسم مر يكة فيها العالم هكل Huckle وبها يتمكن الكيميائيون من قياس قدرة الايصال الكهربائي في محلول موصل للكهربائية قياساً دقيقاً وبتطبيقها ظهر ان تركيب الماء الجزيئي اقرب الى تركيب الالماس منهُ الى تركيب البخار

ولهُ علاوة على ذلك مباحث دقيقة جداً في العوازل الكهربائية insulators قائمة على

فكرة طريفة في توزيع الشحنة الكهربائية في جزيء متعادل

فمعظم الجزيئات تحتوي على قدر متعادل من الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة . ولكن توزيعها في الجزيء ليس متعادلاً بل تميل الى التجمع على رأيه ، في طرفي الجزيء فتغلب السالبة في احدهما والموجبة في الآخر . فاذا عرّض سائل فيه جزيئات من هذا القبيل لفعل حقل كهربائي اتجهت الجزيئات الى جهة الطاقة الكهربائية التي تؤثر فيها ،وهذا يغيّر من خواص ذلك السائل الكهربائية . فالمهندسون من ناحيتهم يهمهم ما يصيب هذه الخواص الكهربائية من التغيُّر وكيف يتم وما بواعثهُ وعلماء الطبيعة المحضة يهمهم كل ما يتعلّق بتركيب الجزيء الأساسي

ومن مباحثه الاساسية ، طريقة ادق من طريقة اينشتين في معرفة قدرة الجوامد على امتصاص الحرارة . فالمادة الجامدة الواحدة تختلف قدرتها على امتصاص الحرارة باختلاف حرارتها . فاذا كانت باردة جداً ، اي اذا كانت حرارتها بضع مئات من الدرجات تحت الصفر ، قلّت قدرتها على امتصاص الحرارة حتى تكاد تكون معدومة . وطريقة دبي تمكن الباحثين من قياس هذه القدرة ، وهي علاوة على فائدتها العلمية المحضة لها فائدة صناعية ، لم تكن مقصودة بالذات اولاً

زلال البيض لوقف النزف

الهيموفيليا اسم مرض وراثي، اهم أعراضهِ الميل الى النزف عند ما يصاب صاحبهُ بجرح خارجي او داخلي ، فلا يستطاع وقف النزف ثم يفضي الى الموت . وقد قرأنا في التيمس والمورننغ بوست ان طريقة جديدة لوقف النزف في المصابين بالهيموفيليا قد اكتشفت قوامها استعمال زلال البيض على ما روت جريدة اللانست الطبية

كان احد الباحثين في شفيلد معنيًّا بالبحث في موضوع لا صلة لهُ بالنزف ولا بالهيموفيليا فوجد انهُ اذا اخذ زلال البيض وخلطهُ ببرومور البوتاسيوم ووضعهُ في مستنبت خاص على درجة ٣٧ مئوية مدة ثلاثة ايام ، اصبح في المستطاع استخلاص مادة من هذا الخليط ، اذا اضيفت الى الدم في انبوب من انابيب التجارب خثّرتهُ على طريقة معيّنة

فوجب بعد ذلك تجربة هذه المادة بالناس، فتطوّع لذلك طائفة منهم ، فجُرّبت التجارب بهم ، فأسفرت عن ان حقن هذه المادة تجعل تخثُّر دمهم أسرع مما هو عادة ، وعلاوة على ذلك ثبت ان الحقن بها لا يؤثر أي تأثير ضار

وكانت الخطوة التالية ، امتحان هذه المادة في المصابين بالهيموفيليا ، فظهر ان المدة التي تنقضي قبل التخثر تقصر بعد الحقن بهذه المادة . ولكن من المشهور عند الاطباء ان المدة التي تنقضي قبل التخثر في المصابين بالهيموفيليا

كثيرة التقلب والاختلاف فعمد الباحثون الى تجارب ادق ومنها تجربة باحد المصابين بعد قلع ضرسه . اذ المعروف ان قلع الاضراس في المصابين بالهيموفيليا عمل محفوف بالخطر ، لئلاً يفضي النزف الى الموت . فحقن بعضهم بهذه المادة ثم قلع ضرسه فثبت ان قلع اضراس هؤلاء بعد حقنهم بها ينجيهم من خطر محتم وموت محتمل

التغلب على ميكروب الستربتو كوكس

ميكروب الستربتو كوكس يغطي جسم الانسان وباطن انفه وحلقه وينفذ اليهِ عند ما يأنس ضعفاً في موقع منهُ فيحدث التهاب الحلق او «بنت الحمراء» او الحمى القرمزية او حمى النفاس وغيرها من الامراض المميتة

وقد قرأنا الآن في رسالة العلم الاسبوعية ان عالمين اميركيين من علماء جامعة جونز هبكنز استعملا مادة كيماوية في مكافحة هذا الميكروب فأصابت نجاحاً باهراً في ١٧ حادثة من ١٩ حادثة جرباها فيها علاوة على تجارب متعددة في الفئران

وهذه المادة توجد في شكلين اولهما محلول احمر قانٍ يستعمل حقناً تحت الجلد ويعرف باسم بروتوزيل (Prontosil) والآخر قرص من مسحوق ابيض لا طعم له يشبه قرص الاسبيرين ويؤخذ عن طريق الفم . ويدعى بروتيلين Prontylin اي انهما ليسا مادة واحدة ولكنهما مادتان متقاربتان جداً من ناحية التركيب الكيماوي وتصنعان في شركة الاصباغ الالمانية

هاتان المادتان لا تفتكان بميكروبات الستربتو كوكس ولكنهما تضعفان الميكروبات فتصبح لقمة سائغة لكريات الدم البيض فتتغلب عليها . لذلك قال احد مكتشفي هذا العلاج ان استعمال هذه المادة لا يفيد في المصابين الذين اشفوا لان مقدرتهم على مغالبة الميكروبات حتى بعد إضعافها لا تكون كافية للتغلب عليها

*

التربة وعنصر البور

اكتشف في سنة ١٩٣٢ مرض يصيب البنجر فيضعف ويهزل وحار البحاث في سببه الى ان وفقوا اخيراً الى اكتشاف سببه وهو نقص عنصر البور Boron من التربة التي يزرع فيها . فهو من هذا القبيل كمرض الجحوظ (اي الغواتر عند ما تجحظ العينان وتنتفخ الرقبة) الذي يرجع بعض سببه الى نقص عنصر اليود . وقد لوحظ ان المناطق التي يكثر فيها هذا المرض في سويسرا يقل في تربتها وهوائها عنصر اليود هذا . وان الذين يعيشون على شواطيء البحار قلما يصابون بهِ لان في ماء البحر وهوائه اثراً من هذا العنصر الحيوي

السمك والفلور في الماء

عنصر الفلور قريب من عنصر الكلور المستعمل في تعقيم الماء في المدن بعد تصفيته من الشوائب . وهو يستعمل في شركة مياه القاهرة لهذا الغرض ايضاً

وقد يتسرب عنصر الفلور الى الماء . فاذا شرب الاطفال ماء فيهِ قليل من عنصر الفلور اصيبت اسنانهم ببقع غريبة . واذاً فلا بد من امتحان الماء حتى يثبت ان ليس فيهِ اي اثر من آثار الفلور

وقد وجد الدكتور « تف » احد علماء معهد كاليفورنيا التكنولوجي ان السمك الذي يعيش في ماء فيهِ عنصر الفلور، يصاب اسنانه ببقع شبيهة بالبقع التي تصاب بها اسنان الاطفال. فاذا استطاع ان يربط بين مقدار الفلور الذي في الماء والبقع التي تصيب اسنان السمك فقد يستطاع بعد ذلك الاعتماد على السمك في كشف الفلور بدلاً من الاعتماد على الامتحان الكيمياوي المعقد

*

جدار خلايا النبات وشفوفه

يؤخذ من تجارب اجراها الدكتور لوبيه Lupet في احد المعاهد الاميركية العلمية بمدينة سانت لويس ان جدار خلية البصل يفقد عند انتقالهُ من الحياة الى الموت مقدرتهُ على عكس الاشعة التي فوق البنفسجي . فالخلايا الحية في صورة مصورة بهذه الاشعة تكون سوداً واما الخلايا الميتة فتكون بيضاً

فدرجة الشفوف لهذه الاشعة في الخلايا يستعمل الآن مقياساً او قاعدة لتشخيص الموت فيها وعليهِ يعتمد هذا الباحث في ناحية من دراسة تركيب المادة الحية من الناحية الطبيعية الكيمياوية

*

الدروع المغضنة

أثبت احد المخترعين الاميركيين ان الالواح الفلزية التي تصنع منها دروع الدبابات والبوارج والطائرات تكون امنع على رصاص البنادق اذ جعلت مغضنة . وقد جرب تجاربه في فيلادلفيا امام خبراء الحربية والبحرية فأطلق الرصاص من مسافة خمسين ذراعاً على لوح من مادة معينة وسمك معين فاخترق الرصاص اللوح . ثم اخذ لوحاً مغضناً من المادة نفسها وكان سمكه اقل قليلاً من اللوح المبسوط وأطلق عليهِ الرصاص من المسافة نفسها فلم يخترقه بل انحرف عن سطوح الغضون. وهذه الغضون ليست مستديرة بل حادة الزوايا وانحراف سطوحها بعضها على بعض ٤٥ درجة فاذا اصابها رصاصة لم تصبها عمودياً بل تصيبها منحرفة فتنزلق على السطح المنحرف ويضيع معظم فعلها

الضوء الازرق وانحناء النبات

للالوان المختلفة في الضوء تأثير مختلف في سرعة نمو النبات . وقد ظهر حديثاً من تجارب جربها الدكتور كارر من علماء المعهد السمثصوني الاميركي ان بعض هذه الالوان الضوئية اذا وجه الى بذور آخذة في الانتاش حملها على الميل بعضها الى بعض أو على الابتعاد بعضها عن بعض

فقد زرع الدكتور كارر بذوراً من نبات الشوفان ثم عرضها لاضواء مختلفة الالوان فوجد ان البذور المعرضة للضوء الازرق تميل بعضها الى بعض علاوة على ميلها الى جهة الضوء . اما الضوء الاحمر فكان تأثيره على عكس ما تقدم اي ان البذور ابتعدت بعضها عن بعض بتأثيره . ثم ان البذور التي عرضت للضوء البرتقالي فاقت خضرتها خضرة البذور المجاورة لها اي التي لم تعرض لهذا الضوء . والبذور المعرضة للضوء الازرق الخضر اشتدت صفرتها

وقد كانت جذور هذه النباتات على أطولها حيث عرضت البذور للنور الازرق وعلى أقصرها حيث عرضت للنور البرتقالي

*

أدق الانابيب للحقن

تصنع الآن انابيب دقيقة جداً من النيكل لتستعمل في حقن تحت الجلد . وقد بلغ من دقة هذه الانابيب انهُ يمكن ادخالها من سم الخياط (ثقوب الابر)

*

اسراع النمو في النبات وبذوره

في معهد فسيولوجية النبات التابعة لاكاديمية العلوم بمدينة كيف بروسيا عاصمة اوكرانيا عالم كبير يدعى شولودني

هذا العالم اكتشف طريقة تمكنهُ من تعجيل النمو في بذور النبات اذا صحَّت فليس ما يمنع تطبيقها في الزراعة

كان بعض الباحثين في نمو النبات يعلمون انه اذا اعيق انتاش البذور بعدم بلها بلاً كافياً او بتعريضها لحرارة اقل من الحرارة اللازمة ثم اذا وضعت هذه البذور في تربة سوية رطوبةً وحرارةً كان افراخها وازهارها واثمارها أسرع من العادة

فخطر للعالم شولودني ان يبحث في تفسير هذه الظاهرة فقال في نفسه لعلَّ جنين البذور وهو يستجمع القوة للانتاش من دون ان تتاح له ، يجمع مقداراً من هرمونات النمو اكبر من المقدار الذي يتاح للجنين الذي ينتش انتاشاً عاديًّا . فأخذ بذوراً جافة وبلَّها بسائل يحتوي على هرمون النمو فكانت النتيجة في الشوفان كما توقع على ما اذاعهُ في مجلة نايتشر الانكليزية فقد تأخر انتاش هذه البذور بعد بلها ثم اسرع نموها فأزهرت نحو اثني عشر يوماً قبل بذور اخرى لم تبلَّ الاَّ بالماء

الماء الثقيل والافعال الحيوية

يعلم القراء ان ذرات الايدروجين صنفان وان وزن أحدهما ضعف وزن الآخر . والماء الذي تدخل الذرات الثقيلة في تركيبه يعرف بالماء الثقيل . وقد نال الاستاذ يوري الاميركي جائزة نوبل الكيماوية جزاء لهُ على مكتشفاته في هذا الموضوع

هل الماء الثقيل كالماء العادي في تأثيره في الاحياء ؟ أخذ العالمان كري وتريليس من اساتذة جامعة كولومبيا طائفة من نبات ذي خلية واحدة وقسماها قسمين وضعا أحدهما في ماء ثقيل والآخر في ماء عادي فثبت لهما ان عمل التركيب الضوئي في الأولى (اي الطائفة التي في الماء الثقيل) أبطأ جداً منهُ في الثانية وان النسبة ٤٠ الى ١٠٠

*

قاذفة قنابل جبارة

صنعت في بريطانيا طائرة جبارة من قاذفات القنابل وضعت رسومها وبنيت وامتحنت في اقل من سنة وينتظر ان يصنع كثير على غرارها ولا تزال تفصيلات بنائها سراً مكتوماً ولكن مما يعرف عنها ان المسافة بين طرفي جناحيها ١٢٠ قدماً وهي مجهزة بمحركين من طراز برستول بغاسوس قوة كل منهما الف حصان وفيها طواب متحركة وفي الطوابي مدافع تستطيع بتحركها في كل جهة ان تقي كل جزء من اجزاء الطائرة. وفي باطنها رفوف صفت عليها قنابل متفاوتة في حجمها. ومما تمتاز به هذه الطائرة على غيرها من الطائرات انها ليست فضية اللون بل طليت طلاء يجعلها خافية عن البصر عندما تكون محلقة في الفضاء

*

البرد يؤثر في العقل أولاً

جرب السر جوزف باركروفت الاستاذ في جامعة كمبردج تجربة خطرة ولكن بنفسه . ذلك أنهُ دخل غرفة باردة شديدة البرد وخلع ملابسه ولبث فيها حتى كاد يموت برداً. وقد فعل ذلك لكي يراقب تأثير البرد في جسمه وعقله فوجد ان العقل يتأثر اولاً بالبرد فيفقد صفة الاقدام والاحساس بالحياء من تعرض الجسم لانظار الناس وهو مجرد من الملابس

*

مدفع رشاش لقنابل غاز الدمع

من الغازات الحربية غاز يستعمله رجال البوليس في تفريق المظاهرات اوتعقب بعض اللصوص يثير اغشية العين المخاطية فينهمر منها الدمع . وقد صنع من عهد قريب مدفع يطلق قنابل هذا الغاز متوالية اي انهُ على قاعدة المدفع الرشاش ولكن بدلاً من ان تكون قنابله مفرقعات قاتلة تكون محتوية على غاز الدمع الذي يعرقل اعمال الجناة والمجرمين والمتظاهرين من دون ان يضر العيون ضرراً باقي الاثر



كتابان في علم النفس

١ — الشخصية : تأليف محمد عطية الابراشي

٢ — خلاصة علم النفس : تأليف احمد فؤاد الاهواني

— ١ —

الاستاذ محمد عطية الابراشي ، خريج جامعتي اكستر ولندن واحد مفتشي وزارة المعارف المصرية ، من الشبان المصريين الذين جمعوا الى نشاط الشباب حكمة الكهول . فهو لا يني عن البحث والتنقيب وكتابة الرسائل وتأليف الكتب ، علاوة على عمله الفني بالوزارة ، لانهُ يحس ان لهُ في الحلبة التي تخصَّص فيها ، رسالة يؤديها . وهذا كتاب « الشخصية » أحدث ما اهداهُ الينا من آثاره

نعم انهُ افرد فصلاً خاصًّا بهذا الموضوع في كتاب « علم النفس » الذي ألَّفهُ بالاشتراك مع الاستاذ حامد عبد القادر . ولكنهُ رأى بعد ذلك ان « موضوعاً كالشخصية يحتاج الى كثير من التفصيل والتمثيل » فوضع هذا الكتاب

منهاج البحث بسط العناصر الخلقية والعقلية والاجتماعية والجسمية ، التي تتألف منها الشخصية وضرب الامثال على ذلك من سير العظماء والحكماء في الشرق والغرب . وهذا البسط يشتمل على نحو النصف الاول من الكتاب . اما النصف الثاني ، فبيان بانواع الشخصية ، كالشخصية العملية التي تتمثل في القوّاد ورجال الاعمال ، والشخصية الخلقية او الفكرية وهي التي تبرز في العلماء والفلاسفة ، واوصاف كلّ منهما او الفرق بين النوعين ، وبواعث تعززها واضعافهما . والفصل الاخير في اضطراب الشخصية وانقسامها

والكتاب من اولهِ الى آخرهِ ، ممتع لمن يريد مجرّد المطالعة ، ومفيد لمن يريد ان يلقي على شخصيتهِ ضوء العلم الكشاف . ولسنا نظن ان في وسع احدٍ ان يطالع فصلاً من فصولهِ ، الاّ ويرى نفسهُ منساقاً الى تحليل نفسهِ . وان من طالع كيف كان انتصار روزفلت الحاسم في الانتخابات الاخيرة ، مع ما تألب عليهِ من الخصوم ، وكيف عزي ذلك الى تفوق شخصيتهِ وأخذها بألباب الجماهير ، ليدرك ان موضوع الشخصية مما يجب ان تعنى بهِ في عهدنا الجديد ، وان هذا الكتاب اول كتاب طبع على حدة باللغة العربية في هذا الموضوع ، وهو من اجل الكتب فائدة عقلية وعملية

— ٢ —

اجاد الاستاذ احمد فؤاد الاهواني مؤلف «خلاصة علم النفس» في قوله في مفتتح الكتاب «... والحياة التي نقصدها هي حياة الانسان في صلته بالمجتمع الذي يعيش فيه، لانهُ لا يعيش منفرداً، ولا يمكن ان يعيش الا في مجتمع يتصل افرادهُ ويتباعدون، تتضارب مصالحهم، وتختلف غاياتهم ويخرجون من هذه المعركة الحامية بما ينشدونهُ من الحياة وهو حفظ الحياة اولاً، ثم السعادة ثانياً «واذاً لكي تصل الى الاحتفاظ بكيانك، وتوفير السعادة في الحياة يجب ان تدرس الميدان الذي تنزل فيه، لتحقق مطالبك، وتنجح في اغراضك، وهذا الميدان هو افراد المجتمع، الذين ستحتكُّ بهم في اعمالك، وتختلف وإياهم في اغراضك، وتحتاج اليهم لمعونتك والعطف عليك، وتسخرهم في تنفيذ غاياتك، ويستغلونك في تنفيذ غاياتهم. ولن تصل الى هذا كلهِ الاَّ بالضوء تلقيه على سلوك الناس، حتى تتعرَّف سبلهم، وتدرك اغراضهم ... وتلائم بين نفسك وبينهم، وتوفق الى الطموح الى المثل الاعلى الذي تنشدهُ في الحياة. والمصباح الذي ينير حجب النفوس، ويزيل ما يغشيها من ظلام كثيف هو علم النفس الحديث ...»

جميع النظريات السيكولوجية، من الاستبطان الى التحليل النفسي، الى الرأي النموذجي الى السلوكي، الى غيرها من الآراء والمذاهب، انما ترمي الى شق طريق تمكننا من الوصول الى غاية واحدة، هي معرفة نفوسنا ونفوس الناس الذين نتصل بهم كل يوم. وقديماً قال احد علماء اليونان «إعرف نفسك» ولا يزال قولهُ هذا من أبعد الغايات التي يتجهُ اليها الانسان في طلب الحكمة

الفصل الأول من الكتاب تلخيص موفق لموضوع علم النفس وميدانهِ ومناهج البحث فيه. واذا لاح للقارىء بعد مطالعة هذا الفصل، ان مناهج البحث مختلفة، ومتناقضة أحياناً، فلأن علم النفس لم يلقِ عنهُ تمائم الخرافات ويعلن استقلالهُ بفرض وأسلوب الاّ من عهد قريب. وكاتب هذه السطور يذكر الاستاذ وليم مكدوجال احد اعلام البحث النفسي الحديث، عندما وقف في منصة الرآسة في قسم علم النفس بمجمع تقدُّم العلوم البريطاني في تورنتو سنة ١٩٢٤ وأعلن «استقلال علم النفس». فتلمُّس الطريق أمرٌ لا بدَّ منهُ في علمٍ يتناول أعقد الموضوعات وما يزال في مهدهِ. وبعد ذلك تتوالى فصول الكتاب، متناولة نواحي مختلفة من الحياة العقلية، من الشعور وصلتهِ بالجهاز العصبي، الى الغرائز، الى العادة، الى الارادة، الى التخيل والتصوُّر الى .. الى ... وكل ذلك في تبويب واضح وأسلوب جزل واسناد دقيق

والى الذين طالعوا الطبعة الأولى من هذا الكتاب، نقول ان الطبعة الثانية التي بين أيدينا، أوفى وأتمّ من الأولى، لان المؤلف لم ين منذ ظهرت الطبعة الاولى، عن اتمام البحث ومتابعة التقدُّم المطرد في هذا العلم الحيّ السائر الى الامام بخطوات الجبابرة

قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة

تأليف توفيق الطويل — نشرتها لجنة الجامعيين لنشر العلم — طبعت في دار النشر الحديث
صفحاتها ٣٢٨ صفحة قطع وسط

في تاريخ البشر اخبار حروب ومعارك شبّت نيرانها بين عنصرين من عناصر البشر او بين حضارتين تقومان على فلسفتين متناقضتين من فلسفات الحكم والاجتماع، فكان الفوز النهائيُّ في تلك الحروب او المعارك حدًّا من حدود التاريخ، خذل عنده عنصر وتسوَّد آخر كما في معركة متوروس، او ضعفت مدنية وزهت أخرى كما في معركة ماراثون، او كبتت فكرة وانتصرت اخرى كما في معركتي سراتوغا وجتسبرج في الحرب الاهلية الاميركية

ويذكر كاتب هذه السطور انهُ لما درس التاريخ القديم وكان موضوع الدرس في احد الايام يدور من حول معركة ماراثون، التي فاز فيها اليونان على الفرس، وقف الاستاذ هنيهةً ليمكن في عقولنا نتائج تلك المعركة، التي تحسب من معارك التاريخ الفاصلة فذكر اهم نتائجها وفي مقدمتها اندحار نظام الحكم السائد في الشرق ممثَّلاً في فارس وخضوعها لعاهلٍ مطلق، امام قواعد الحكم الدمقراطيّ ممثلاً في دويلات اليونان. وقال انهُ لو فاز الفرس في ماراثون لسيطر حكامهم على اليونان، ولما كنا شهدنا في الغالب تلك النهضة الفنية الفكرية التي تحسب وليدة النشاط في الحياة اليونانية الحرّة

كذلك يقال في معركة متوروس التي هزم فيها هسدروبال اخو هنيبال فكان بدء فوز روما على قرطاجنة في الحروب البونية وسيطرتها على العالم المعروف حينئذٍ. فان الاستاذ برستد المؤرخ الاميركي المشهور يقول في احد كتبهِ التاريخيـة ونظنهُ « العصور القديمة » ان النزاع بين روما وقرطاجنة لم يكن نزاعاً بين مدينتين قويتين، تسعى كلٌّ منهما الى السيطرة على الاخرى والانفراد بالسيادة في البلدان المجاورة للبحر المتوسط، بل كان صراعاً كذلك بين عنصرين كبيرين من عناصر البشر، هما العنصر المعروف بالهندي الاوربي، والعنصر السامي، وما كانت روما وقرطاجنة سوى مقدمتي هذين الجيشين الكبيرين المصطفين للقتال على جانبي البحر المتوسط. وقد روي ان هنيبال صاح عندما رأى رأس اخيهِ هسدروبال يتدحرج امامهُ: قرطاجنة انني اشهد انخذالك

والظاهر ان المؤلف لم يأخذ بحذافير هذا الرأي. فالاستاذ محمد فريد ابو حديد يقول في تقدمتهِ للكتاب: « ويلوح لي ان المؤلف الفاضل لا يذهب مع اصحاب الرأي المتقدم فانهُ وان علم ان قرطاجنة لها رحمٌ بالساميين لم يجعلها ممثلة الشرق في نزاع الاجناس بل نظر نظرة اخرى . . . فهو لا يتعصب لها ولا يراها تمثل مثلاً من أمثلة الشرق العليا بل انهُ لينظر الى المثل العليا لروما على انها اقرب الى تمثيل مثل الانسانية عامة »

ثم يقول الاستاذ ابو حديد : « . . . وهو يتحدَّث عن حوادث نضال قرطاجنة وروما حديث من يريد ان يتغلغل دون السطح ليتخذ من بحثهِ عظة تنفعنا في حاضرنا ، فهو يريد أن يوجه انظارنا الى ان قرطاجنة قد فنيت لانها كانت جديرة بالفناء ، وان روما قد بقيت ونمت لانها كانت جديرة بالبقاء والنمو . ثم هو يشير لنا وهو يسير في حديثهِ الى الأسرار التي أهلت كلاً من المدينتين الى مصيرها وجعلتها جديرة بما نالها »

فالكتاب بحث يجمع بين التاريخ والاجتماع والادب على أوفى وجهٍ وجديرٌ بأن يكون من الكتب التي تقرّب التاريخ الى نفوس القرّاء

تاريخ المسألة المصرية

من سنة ١٨٧٥ الى سنة ١٩١٠

ترجم من الانكليزية الى العربية الاستاذان عبد الحميد العبادي ومحمد بدران . الطبعة الثانية في ٤٣٢ صفحة

عودتنا لجنة التأليف والترجمة والنشر المؤلفة من افضل اساتذتنا العاملين لنشر الثقافة وخير البلد باخلاص وهدوء ووفاء — اخراج الكتب الممتازة المفيدة. ومن أحدث ما أخرجتهُ هذا الكتاب والباب الاول منهُ وعنوانهُ — انتهاب مصر — يذكر الوسائل القاسية والاغراض الملتوية التي اخذت بها انكلترا وفرنسا في معاملة الخديوي اسماعيل اثر عجزه عن توفية اقساط الدين الذي استدانهُ من الماليين الاوربيين وكان هؤلاء الماليون من المساعدين لهُ على التورط في استدانتهِ والاسراف في انفاقهِ — وأدّت الى ارهاق المصريين واغتيال اسماعيل باشا صديق ناظر المالية حينذاك وعزل الخديوي — والباب الثاني منهُ وعنوانهُ احتلال مصر ذكر استمرار الوسائل التحكمية المؤلمة وما ادت اليه من استفزاز النفوس ونشر الدسائس وشبوب الثورة العرابية لمقاومة التدخل الاجنبي ولانصاف الوطنيين وتصدي الانكليز لاخمادها وتحقيق غرضهم منذ فتح قنال السويس باحتلال مصر . وفي الباب الثالث وعنوانه — ادارة مصر — ذكر الآثار المادية لسياسة كرومر الاقتصادية وضعف الآثار الادبية للادارة الانكليزية — وفي الفصل الرابع ما تلا عهد كرومر من الرجعية في ادارة مصر واخفاق السير الدن غورست المعتمد الانكليزي الذي حل محل اللورد كرومر في قتل الحركة الوطنية الذي كان يتزعمها حينذاك الشهيدان مصطفى كامل ومحمد فريد — ومحاولة مدّ امتياز قنال السويس ورفض الجمعية العمومية المصرية مشروع هذا المدّ

والكتاب مملوء بالحوادث والعبر التي يجب علينا نحن المصريين مداومة دراستها وتذكرها والاستفادة من العظات التي تنطوي عليها ونحتاج اليها في تسديد ادارة حكومتنا ومعاملتنا للاجانب لذلك اود ان يقتنيه كل مصري يعتني بشؤون حكومته ووطنهِ

الالفي

النتائج السياسية للحرب العظمى

ألفه الاستاذ المؤرخ رمزي ميور « Ramsay Muir » وترجمه الى العربية الاستاذ محمد بدران

رمزي ميور في طليعة المؤرخين المعاصرين . بدأ حياته كمحاضر عام ١٩٠٠ وعين استاذاً للتاريخ الحديث في جامعة ليفربول عام ١٩٠٦ ثم انتخب عام ١٩١٣ استاذاً في جامعة مانشستر. ولما انتخب عضواً في البرلمان الانجليزي عن الاحرار عام ١٩٢٣ استقال من الجامعة ثم انتخب رئيساً لاتحاد الاحرار الوطني . وقد اشتهر الاستاذ « رامزي ميور » بالتعمق في ابحاثه التاريخية والسياسية وله عدة مؤلفات نفيسة لا غنى عنها للمؤلف والمؤرخ أهمها « توسع أوربا » (١٩١٧) والتاريخ البريطاني (١٩٢٨) والنتائج السياسية للحرب العظمى . . . الخ الذي نقله اخيراً الاستاذ محمد بدران ناظر مدرسة بنبا قادن الابتدائية وعنيت بنشره لجنة التأليف والترجمة والنشر

والكتاب خلاصة تاريخ العالم في دور من ادوار الانتقال الذي يصفهُ المترجم بأنهُ لا يكاد يختلف عن الفوضى في شيء ثم اضاف اليه المترجم فصلاً من عنده شرح فيه النزاع الصيني والياباني والمسألة الحبشية والحركة النازية وما وقع في البلقان والشرق الادنى من احداث مشكلات ومعاهدات

فهو يصف الروح القومية . تلك الروح التي جعلت الشعوب تشعر بما بينها من روابط اللغة والجنس والتقاليد وأساليب الحياة وتحس « بوحدتها » وتعتز بقوميتها . ويصف المدنية الصناعية وأثرها والنزعة الاستعمارية التي تعد من العوامل القوية في تغيير شكل العالم . والروح العسكرية التي أملت على الشعوب اعتقادها ان القوة الحربية هي مصدر القوة والعظمة . ويصف قيام الديموقراطية قبل الحرب الكبرى واخيراً الدعوة الى الحركة الدولية

وعطف المؤلف على التسويات السياسية التي أعقبت الحرب الكبرى ورسمت خريطة جديدة لأوربا وأحدثت التغييرات المعروفة خارج القارة . وتكلم ايضاً عن التطورات الكبرى التي أحدثتها الحرب في شعوب العالم . فقد رأيناها تقضي على سيادة الطبقات الحاكمة القديمة بينما قامت نظم اجتماعية جديدة قللت الفروق الاجتماعية ومنحت الطبقات العاملة حظاً اكبر من الثروة والسلطة . وكانت من نتائج الحرب المحسوسة اقامة ديموقراطيات سياسية تامة في معظم الدول الأوربية . فتغيرت اساليب الحياة وأعيد توزيع الثروة بين الطبقات . كما انقلب النظام الاجتماعي في روسيا من أساسه

لكن هذه التغييرات أعقبت خيبة امل واضطراب مما ادى الى قيام فريق من الزعماء في وجهها كما حدث في ايطاليا وألمانيا والبرتغال وبعض دول البلقان وأقاموا حكومات ديكتاتورية

جديدة على أنقاض الحكومات الديموقراطية . وتكلم المؤلف عن العلاقة الجديدة ، بين اوربا والعالم الاسلامي عقب الحرب فقد وقف نهائيًّا سلطان الدول الاوربية الذي كان آخذاً في الاتساع وقامت دول جديدة على انقاض الحكومات القديمة كما حدث في تركيا وايران والعراق وبلاد العرب . بعضها تكوّن بالفعل وبعضها في دور التكوين . بعضها تام الاستقلال وبعضها تشرف عليه اوربا

وبحث المؤلف جداً حوادث الهند وقلاقلها وافكار اجناسها المتعددة التي تسود هذه القارة الواسعة وكذلك تكلم عن انقضاء السيادة السحرية القديمة التي كانت تتمتع بها اوربا في بلاد الصين مع نمو الفوضى في انحائها . تلك الفوضى المخربة التي نلقاها في كثير من البلاد خارج اوربا

***

وقد يكون الفصل السادس من هذا الكتاب أنفس ما بحث بعناية وهو الفصل الخاص بتبدل مركز بريطانيا كامبراطورية كبيرة . فليس في العالم كله مجتمع أثرت الحرب في مصائره كما أثرت في بريطانيا وماتجمع حولها ويرتبط بها من الشعوب المؤتلفة في انحاء العالم . وقد كان اهم ما انتجته الحرب ضعف الروابط التي تؤلف بين اعضاء الامبراطورية فأصبحت الاملاك المستقلة تطلب لنفسها حق تعيين سفراء من قبلها لدى الدول الاجنبية كما عينت كل من كندا وايرلندا سفيراً لها في واشنطون . وطالبت هذه الاملاك ايضاً بحق عقد معاهدات مستقلة مع الدول الاجنبية فرأينا حكومة جنوب أفريقية تعقد معاهدة مع المانيا اعترفت بها بريطانيا . ونص في معاهدات لوكارنو صراحةً على ان بريطانيا وحدها هي التي ترتبط بالتعهدات المدونة في هذه المعاهدات وان الأملاك المستقلة لا شأن لها بها . وبهذه الطريقة أصبحت الامبراطورية البريطانية بعد الحرب هيئة سياسية مفككة العرى والدول التي تؤلفها تكاد تكون مستقلة لا ترتبط بها الاّ في خضوعها اسميًّا لتاج واحد

ويرى الجنرال «سمطس» وهو من أعظم ساسة الامبراطورية كلها ان الحركة اللامركزية في الامبراطورية وصلت الى أبعد حد حتى أصبحت انحلالاً حقيقيًّا وهو يدعو الى تقوية الرابطة بين اجزاء الامبراطورية ويجب ان لا يسمح لها بهذا الانحلال التدريجي

والكتاب مكتوب بأسلوب مشوق يغري بمطالعته ومزود بالخرائط التوضيحية فنهنىء المترجم واللجنة ونرجو ان يكون الكتاب مقدمة لغيره ومشجعاً للمؤلفين الذين يكتبون في الشئون السياسية المعاصرة (......)

المآسي التاريخية الكبرى

تأليف حسن الشريف — مطبعة الهلال — صفحاته ٢٨٦ قطع المقتطف

ما اكثر ما يجده الباحث من المآسي والعبر بين جدران القصور وفي زوايا التاريخ ، فاذا انقاد لهُ في وصفها قلم رشيق وعلم واسع ، كان حديثها من أمتع الاحاديث وألذّها وأعظمها فائدة ، يقرأ كالروايات الموضوعة ، مع ان خيال الروائي قد لا يجرؤ على ابتداع مواقف تبلغ في غرابتها بعض ما تبلغهُ حقائق التاريخ . ثم انها تلقي ضوءا كشافاً على احوال القصور والملوك والملكات والمقرَّبين والمقرَّبات وعاداتهم الاجتماعية والخلقية ، فيكشف من الحقائق ما هو جدير بتدبّرنا في سبيل العبرة والعظة

وقد تمّ كلّ هذا للاستاذ حسن الشريف ، فجاءت فصول هذا الكتاب آيةً في بابها . فالفصل يملأ في الغالب نحو خمسة عشرة صفحة في المتوسط ، فيها من التفصيلات القدر الكافي لفهم الموضوع ، وقد اختارها المؤلف من مطوّلات كثيرة ليست في متناول كلّ قارىء ثم ساقها في اسلوب بارع ، كلّهُ تشويق وإغراء بمواصلة المطالعة . ففيها اندمج فن المؤرخ بفنّ الروائي

هنا قصة النضال بين ملك انكلترا شارل الاول ونواب شعبه ، وهو نضال بين الملكية المطلقة والملكية المقيّدة ، أفضى الى حرب اهلية فالى محاكمة الملك واعدامه . فاذا طالع القارىء هذا الفصل ، طابت لهُ المقابلة ، لما وقع حديثاً في انكلترا ، في سبيل الدفاع عن الحقوق التي اكتسبتها الامة من ملوكها ورسّخها بالممارسة وصانتها بالتقاليد وادرك كيف تتماثل الاغراض وتختلف الاساليب

وهنا قصة المركيزة ده برانفيليه ، وهي السيدة التي سمّمت والدها وشقيقيها وعائلتها في سبيل تحقيق شهواتها . وحبّذا الحال لو ان الاستاذ حسن الشريف اضاف الى ثنايا قصتها ، شيئاً عن نفسيتها الاجرامية كما يكشف عنها علم النفس الحديث ، فانهُ لو فعل لاضاف الى قصة الرواية التاريخية ، فائدة النفوذ الى ناحية من نفس « اكبر مجرمة في التاريخ »

هنا ريشيلو ولويس الرابع عشر وبوبرنات وفاي والملكة اورتانس والامبراطورة اوجيني — جميع هؤلاء وغيرهم يروحون ويجيئون في هذه الفصول ، تتقاذفهم الرغبات والشهوات ، في جوّ حافل بالدسائس تدبّر وتحاك خيوطها ، هذا ومقدّرات الامم في ايديهم ، وليس بالنادر ان يكون حادث يسير في امر خاص باعثاً على انقلاب عظيم او ثورة او حرب

ولا ريب عندنا — ونحن في عصر نحتاج فيه افراداً وامة الى دراسة التاريخ وتدبّر عبره — ان الاستاذ حسن الشريف قد ادّى خدمة الى الامة في هذه الناحية من حياتها العقلية ، باصداره هذا الكتاب الذي يحبب الجمهور بالمطالعات التاريخية

هدايا دار الهلال

١ — فاروق الاول

من بواعث الفأل والاستبشار ان نستقبل العهد الجديد ، وبين أيدينا كتاب في نشأة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ، ودمقراطيتهِ العالية ، وعطفهِ العظيم ، وذكائهِ المتوقد ، وتدينهِ العميق ، ووطنيتهِ الصادقة ، لان ملكاً متصفاً بهذه السجايا الخلقية والعقلية العالية ، خير قدوة لشعب ، ينظر الى المعاهدة التي عقدت وأبرمت أخيراً ، على انها مفتتح لا نهاية ، مفتتح عهدٍ جديدٍ من الكفاح لا من القناعة ، كفاح ضدّ الضعف والجهل والتواكل ، وفي سبيل الصحة والقوَّة ، والعلم والابتكار ، والاستقلال الاقتصادي نبنيهِ بمالنا ونشاطنا

ولقد أجاد المؤلف الاستاذ طاهر الطناحي ، في تصوير هذه النواحي العالية ، في حضرة صاحب الجلالة : مرتداً بها الى أصولها من الوراثة والتربية في كنف المغفور لهُ والدهِ العظيم . وأجادت دار الهلال كذلك في اخراج الكتاب ، زاهي الرونق طبعاً وتصويراً

٢ — كمال اتاتورك

لا يسع احداً زار تركيا الحديثة ، زيارة بحث ودرس الاَّ ان يعترف بان كمال اتاتورك صاحب الفضل الاول في تجديد معالمها ، واغتصاب استقلالها بحدّ السيف ، وتنظيم حكومتها الجمهورية ، ونافخ روح الحياة في شيبها وشبانها ، ورجالها ونسائها على السواء . ان طابعهُ الشخصيّ في كل مجمع ومدرسة وكل ملجأ ومستشفى . بل في كل مزرعة حديثة تربى فيها فسائل الاشجار ، ومصنع جديد تحاول ان تستغني بهِ تركيا عن ان تكون عيالاً على الغرب

فكيف اتيح لرجل فرد ان يتغلب على السوس ينخر في عظام « مريض اوربا » المشفي ، ويدحر ما تألب عليهِ من القوى داخل البلاد وخارجها ، وما هي الادوار التي تقلب فيها هذا الرجل من ضابط في الجيش التركي القديم ، الى مقام زعيم من اكبر الزعماء في العصر الحديث؟

انك تجد كلّ هذا مفصلاً تفصيلاً دقيقاً في كتاب كمال اتاتورك الذي ألّفهُ الاستاذ محمد محمد توفيق . ان الكتاب قصة رجل وتاريخ امة بعثت بعثاً جديداً . وفيهِ علاوة على ما في التاريخ الحيّ من اغراء وتشويق ، عبر وحكم لمن يعنون بالبناء والانشاء

٣ — هنري الخامس

نقلنا في عددٍ سابق (دسمبر صفحة ٥٤٤) جانباً من كلمة كتبها الاستاذ سامي الجريديني تقدمة لترجمة هنري الخامس وهي من امهات مسرحيات شكسبير ، فيها جميع المزايا التي اصبح بها امير مسرحيي العالم على الاطلاق — حكم في اقوال الحكماء والمجانين استخلصها بنفاذ نفذ الى اسرار الحياة ، وصور لطبائع الناس رسمها قلم ساحرٍ صادق استشف صاحبهُ ما وراء الظواهر من خفايا

وترجمة شكسبير لا تتاح الا لاصحاب الاحاطة والتعمق في فنون ادبه واسرار فنه والذين اسمح لهم البيان وانقاد القلم . والاستاذ سامي الجريديني ناقل هذه الرواية ، وغيرها من آثار هذا الشاعر الخالد ، في طليعة هؤلاء في لغتنا العربية

علم الآثار

تأليف الاستاذ جاردنر وترجمة الاستاذين محمود حمزة الامين بالمتحف المصري والدكتور زكي محمد حسن الامين بدار الآثار العربيه ١٨٠ صفحه من القطع المتوسط على سبعة وعشرون صورة

هذه هي الرسالة الرابعة من سلسلة المعارف العامة لخلاصة العلم الحديث التي تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، لنشر الثقافة الصحيحة بين جمهور القراء ، والمطالع للكتاب يرى انهُ على صغر حجمه بالقياس الى ما شمِلهُ من الدراسات قد جاء مستوفياً للفكرة التي وضع من اجلها . فعلم الآثار كما قال المترجمان في الرسالة التي نحن بصددها الآن «استعراض سريع لتاريخ علوم الآثار وللنتائج التي توصل اليها المنقبون والآثاريون»

واهم ماجاء في الكتاب وصف شامل لأعمال علم الآثار ، وايضاح دقيق لآثار ما قبل التاريخ ، ودراسة الآثار في بلاد اليونان وغيرها ، ودراسة الاحجار الكريمة ، والعملة ، وعلم الاساطير ، وأحدث المكتشفات الاثرية في القطر المصري ، وبلاد ما بين النهرين ، كما تناول البحث في الكتاب مستقبل علم الآثار وغير ذلك مما يراهُ القارىء مبسوطاً بين دفتيه

وانا نرى لزاماً علينا ، ان نشير هنا الى ضعف الصور الايضاحية الى حد ان بعضها مطموس لافائدة منه لمن يريد التعرف على علم الآثار ويعتمد في الغالب على وضوح الصور وحسن بيانها للتفاصيل والدقائق

كما اننا نشك في ان تكون الصورة رقم ٢٥ للملكة نفرتيتي بحسب ما كتب تحتها تعريفاً لها . وهذا كله نتيجة مباشرة للسرعة التي احاطت باخراج الكتاب . وكم كنا نود ان يضيف المترجمان شيئاً اكثر بياناً عن علم الآثار المصرية حتى يكون الكتاب مستوفياً للغرض الذي اخرج من اجله وهو تثقيف الناشىء الشرقي عموماً والمصري خصوصاً . نعم انهما يترجمان ، ولكن هذا — كما نرى — لا يمكن ان يقوم حائلاً دون تحقيق هذه الغاية حتى ولو كانت النية معقودة على وضع مؤلف خاص بالفن المصري . والا فلا معنى لتسمية الرسالة بعلم الآثار بينما هي تتناول بافاضة الآثار الاغريقية وحدها

واننا وان كنا قد لاحظنا بان الكتاب لم يلم الالمام العلمي الشامل في اختصار بمميزات الآثار بعضها عن بعض وطوابعها البارزة في كل منها ، الا اننا من ناحية اخرى لا يمكن ان ننكر هذا المجهود القيم الذي بذل في كتاب نود ان يكون حلقة في سلسلة طويلة من المعارف العامة التي تعمل اللجنة على نشرها

الدكتور احمد موسى

حديث الدكتور رسل جولت

[تابع صفحة ٤٠]

وقد أخرجت الجامعة من نحو ثماني سنوات أول مجلة عربية ربية في التربية وهي « مجلة التربية الحديثة » وخصصت صفحاتها للبحث العام في التربية الحديثة واقتباس المبادىء النيرة وتطبيقها على مشكلات التربية في الشرق الأدنى . فأصبحت هذه المجلة بادارة الدكتور امير بقطر مرجعاً يعترف بفضله في موضوعها في العالم العربي

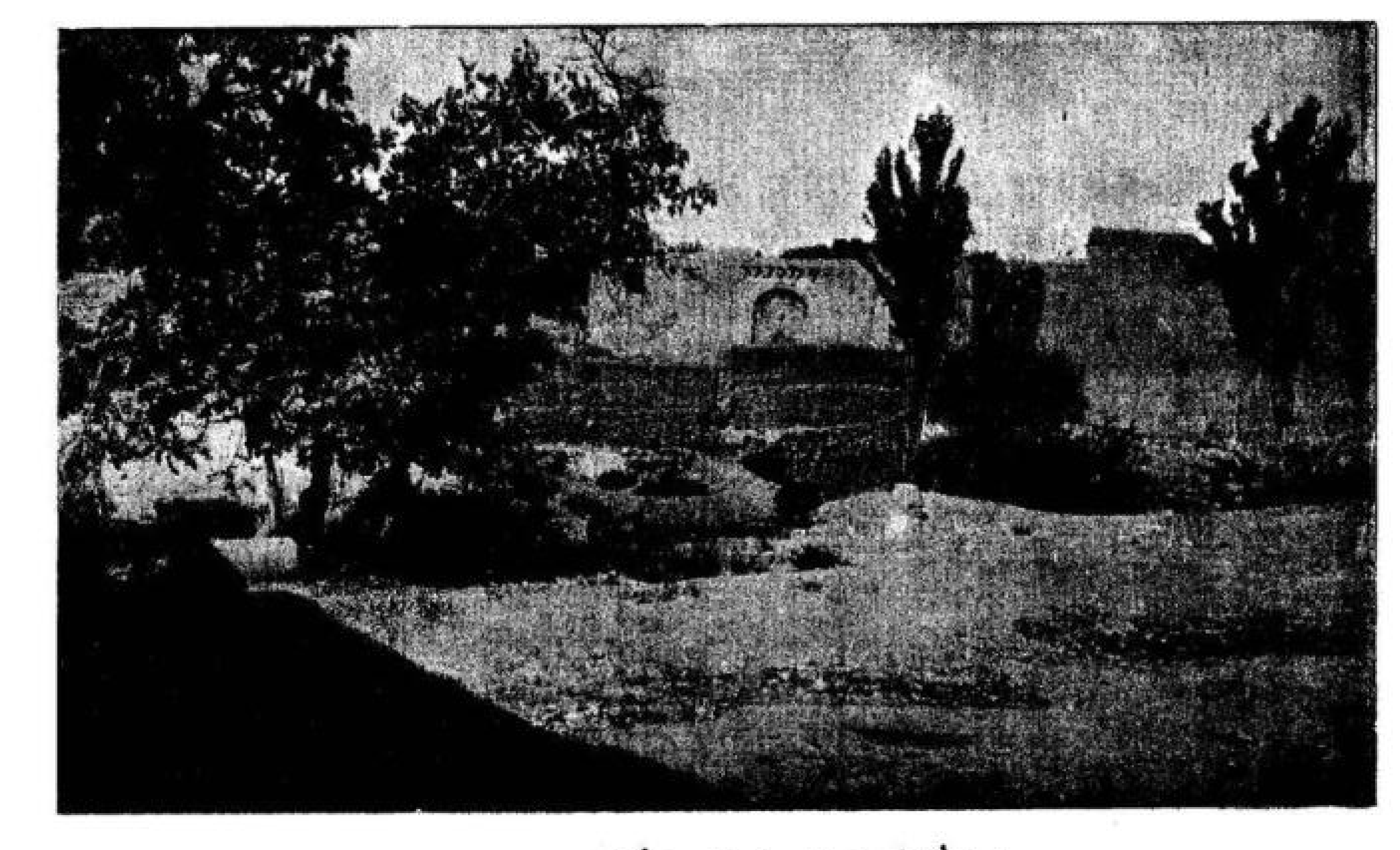
ولعل أشهر الاساليب التي جربناها في التربية العامة ، هي المحاضرات التي ينظمها قسم الخدمة العامة ، كل سنة ويشترك فيها عشرات من قادة الرأي والفكر ويحضرها الوف من محبي العلم والادب

ثانياً — ان المعهد الاهلي في جميع أنحاء العالم مشهور بطبعه طلابه بطابع حرية الفكر والبحث والنقد . والتقدم في البلدان الدمقراطية ، يستند الى هذه الحرية . حتى في الولايات المتحدة ، المشهورة بتقاليدها الحرة ، نجد الحرية على أوسعها في المعاهد الاهلية ، بل ان العراقيل التي اعترضت سبيل الحرية ، كانت اقوى في معاهد الدولة منها في المعاهد الخاصة

وقد عني اساتذة جامعتنا بانشاء تقليد الاستقلال الفكري في طلبتنا ولا سيما طلبة الفصول العالية وعلى وجه خاص في العلوم الاجتماعية والفلسفة وآداب النفس والدين ، معتمدين على اساليب تحفز الى البحث والنقد وتكوين الرأي السليم . وقد بلغ من عنايتنا بهذا الاسلوب ان بعض طلبتنا الذين تخرجوا وطلبوا العلوم الفنية في معاهد اخرى لا ينون عن الاعراب لنا عما جنوه من الفائدة في ميدان البحث الحر . والتقاليد الدمقراطية من أنبل القواعد في الاسلام ، ومصر الآن ، ديناً وسياسة بلاد دمقراطية . فتربية حرية الفكر والبحث والنقد في طلبتنا ، على ان تفضي هذه الحرية الى الحكم السليم ، من أهم ما يستطيع ان يقوم به معهدنا في هذه البلاد

ثالثاً — ان تربية الشخصية وانماء الملكات والصفات الخلقية العالية من اهم ماتؤديه المعاهد الاهلية لطلابها . فالفصول الصغيرة ، والاتصال اليومي بين المدرس والطالب ، في حجرة الدراسة وميدان اللعب وبهو الاجتماع ، يجعل من المعهد الاهلي قالباً يفرغ فيه خلق الطالب . اما المعاهد التي يبلغ فيها الطلاب بضعة آلاف فقد صرفت النظر عن السعي سعياً خاصاً الى التكوين الخلقي . وقد ظهر كتاب يدعى الانكليز وانكلترا ، اثبت فيه صاحبه ان الفساد والارتكاب الفاشيين في حياة انكلترا العامة قبل نحو مائتي سنة ، زالا بفعل التكوين الخلقي العالي في مدارس انكلترا الاهلية . وجامعة القاهرة الاميركية في جميع اقسامها ، تعلق شأناً عظيماً على ضرورة الاتصاف بالصفات الخلقية العالية . فالاجتماعات الروحية العامة ، والصلات الدمقراطية بين المدرسين والطلاب ، وتعيين مستشار خاص لكل فصل من الفصول ، ودروس الفلسفة وآداب النفس والديانة — جميع هذه تنشىء جواً يمكن ان تغرس فيه المبادىء الروحية والخلقية العالية في نفوس التلاميذ

هذه نواحٍ من الغرض العالي الذي تتطلع اليه وهذا بعض ما بذلناه حتى الآن في هذا السبيل



صورة ما يظنّ انهُ موقع المارستان الذي بناهُ الوليد بن عبد الملك بدمشق
[تصوير الدكتور سامي حداد]

التعليم الجامعي في مصر

بحوث آراء وآمال

— مدير الجامعة : [illegible] —

١ — كلية الآداب : الدكتور [illegible] باشا

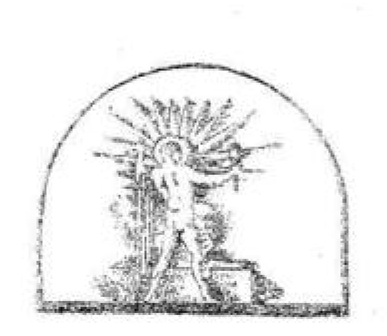
٢ — كلية الحقوق : الدكتور [illegible]

٣ — كلية الهندسة : الدكتور عبد الرحمن [illegible] باشا

٤ — كلية التجارة : محمد [illegible] باشا

٥ — كلية الزراعة : محمود توفيق الحفناوي باشا

٦ — جامعة القاهرة الأمريكية : الدكتور [illegible] واطسن





كواكب الادب الاسبانى

لوبى ده فيجا

(١٥٦٢—١٦٣٥)

سِيَرُ الزَّمانِ

نضالٌ خفيٌّ في اليابان

وتأثيره في توجيه سياستها

الزواج المورغاني

لامين الغريّب

قوى الدفاع الاوربية

اقسامها وقوتها وطرق تنظيمها

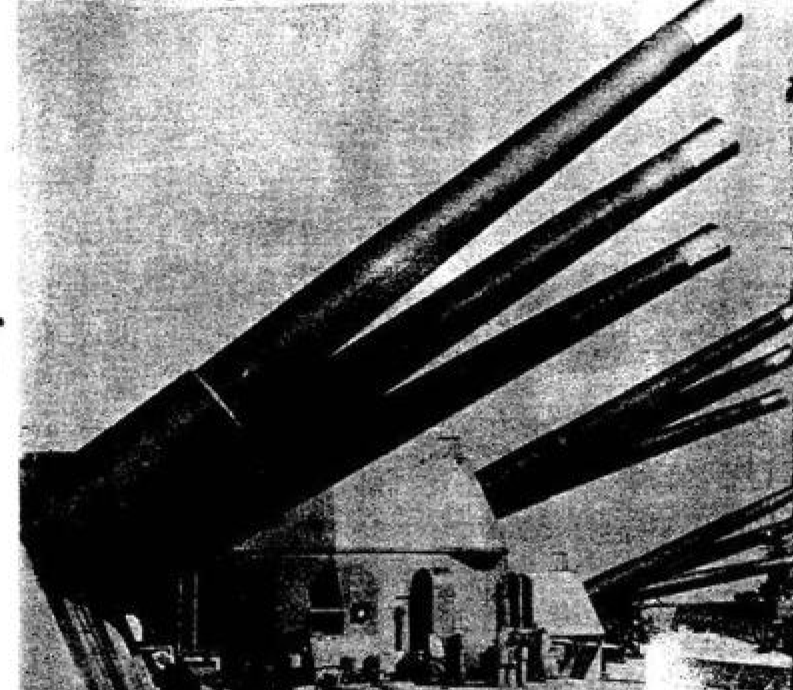
انزال الجنود من
الطائرات بالمظلات
الواقية في روسيا



الجنود في الميدان
يواجهون الغازات
الحربية بالكمامات
الواقية

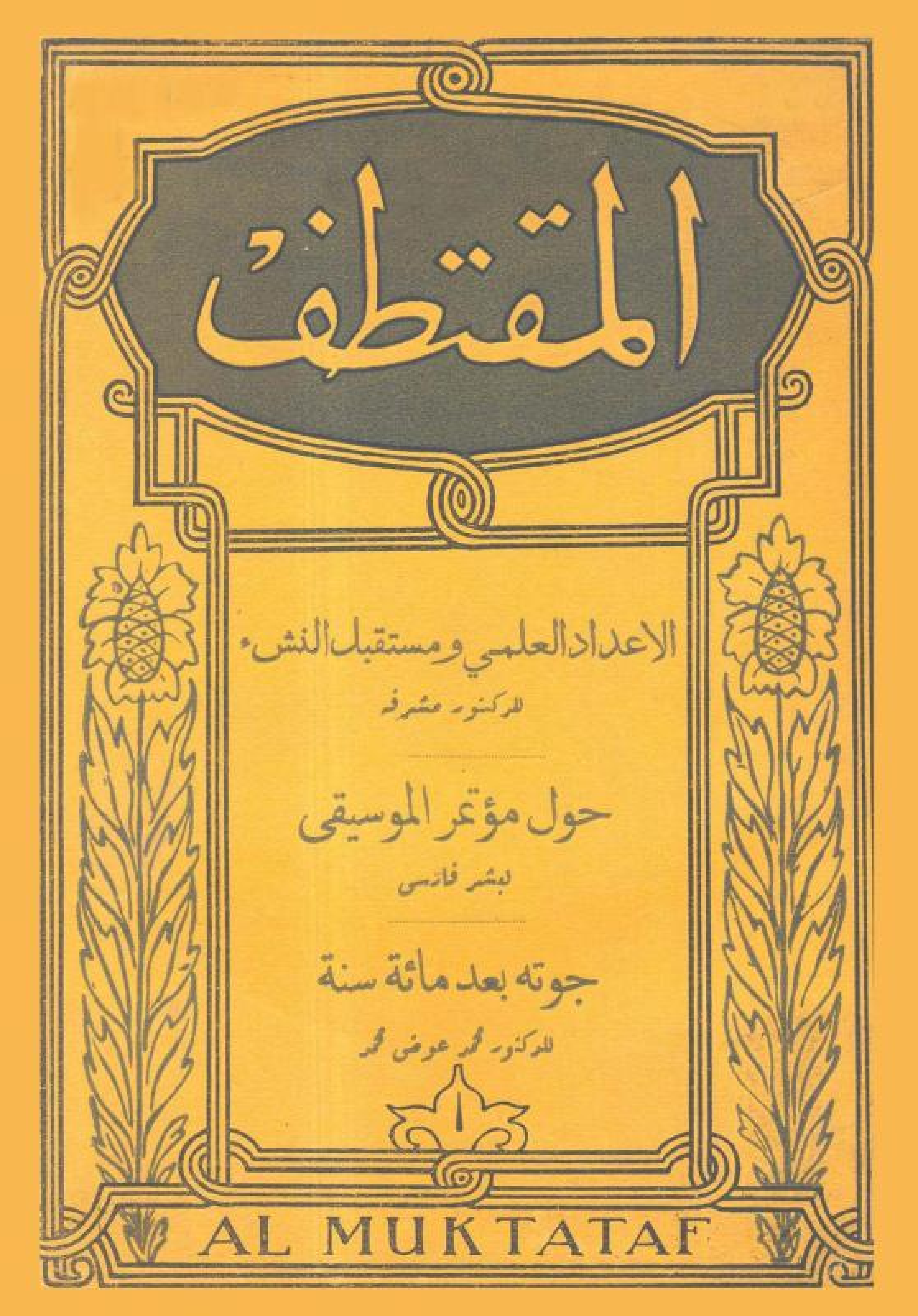


جندي يقيس المسافة بآلة
دقيقة قبل اطلاق المدفع



مدافع مشرعة من
احدى البوارج

فهرس الجزء الأول من المجلد التسعين


المقتطف
الاعداد العلمي ومستقبل النشء
للدكتور مشرفه
حول مؤتمر الموسيقى
لبشر فارس
جوته بعد مائة سنة
للدكتور محمد عوض محمد
١
AL MUKTATAF

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد التسعين

١ فبراير سنة ١٩٣٧ — ١٩ ذي القعدة سنة ١٣٥٥

السماء والارض

تجمعان في المطياف

المرقب والمطياف يسبران حقيقة الاجرام النائية

ان تاريخ الارض ومصيرها مرتبطان بتاريخ الشمس ومصيرها . هذه حقيقة أدركها الانسان ، إدراكاً عامّاً ، منذ أشرق في ذهنه نور الإدراك . ولكن ألوفاً من السنين انقضت قبلما خطر له انهُ قد يجد في ذلك الأتون المحتدم تفسيراً لبعض المشكلات العقلية التي تعضّهُ . كيف السبيل الى دراسة بناء الشمس ، وهي تبعد عنا ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، وقطرها أقل من مليون ميل قليلاً (٨٦٤٠٠٠ ميل) فحجمها يفوق حجم الارض الف الف مرّة ، وحرارتها تتباين من ٦٠٠٠ درجة مئوية على سطحها الى نحو ٤٠ مليون درجة مئوية في باطنها

ليس بالعجيب ، والمصاعب هي ما هي ، ان تظهر أمنية كهذه الامنية ، متعذرة على ذكاء الانسان وحيلته الواسعة . وكأن الفيلسوف أوغست كونت كان يفكر في هذا عند ما قال : « ثمة أمور لا بدَّ للانسان من أن يبقى جاهلاً لحقيقتها مثل معرفة تركيب الشمس والاجرام السموية من ناحيتها الكيمياوية » . ان ذلك الفيلسوف الكبير ، لم يدرك ، والعلم الحديث لم يزل

في مهده ، ان التنبؤ العلمي عمل محفوف بالخطر . ذلك ان الانسان بفضل المرقب والمطياف والمطياف الشمسي المصوّر وغيرها من وسائل البحث الحديث ، جاء بالكواكب الى سطح الارض وحلّل بناءها وعرف عناصرها وقاس درجات حرارتها وبردها

في تاريخ هذا البحث الفتّان ، يومان خالدان بينهما نحو قرنين من الزمان . أولهما يوم حلّ نيوتن الفيلسوف الطبيعي الأشهر ضوء الشمس الى ألوانه السبعة . وثانيهما يوم تمكّن كيرشوف الالماني ، من البحث في تركيب الشمس وكأنهُ يبحث في تركيب جسمٍ كيماويّ في المعمل

كان قد سبق الاكتشاف الذي تمّ للطبيعي الالماني ، مكتشفات كثيرة مهّدت لهُ السبيل . ففي سنة ١٨٠٢ ، تحوّل ولستن Wollaston أحد أعضاء الجمعية الملكية بلندن من ممارسة الطب الى البحث في الطبيعة والكيمياء وبدأ يدرس طيف ضوء الشمس جنباً الى جنب مع ضوء الشرارات الكهربائية والغازات المضيئة . وكان يمرّ الضوء المحترق لغاز من الغازات في شق ضيق ، فيفوز بطيفهِ ، أي بالألوان التي يتألف منها . فتبين لهُ ان الضوء الساطع من لهب غاز من الغازات ، يحدث طيفاً تقطعهُ خطوط لامعة . ثم ثبت لهُ ان لكل غاز خطوطاً يتميز بها وتختلف عن خطوط الآخر ، فبخار الصوديوم يحدث خطًّا لامعاً اصفر اللون ، وبخار البوتاسيوم يحدث خطًّا لامعاً بنفسجيّ اللون

في هذه الملاحظات ، بدء علمٍ من أشهر العلوم الحديثة وأعظمها فائدة في الفلك والطبيعة والكيمياء ونعني علم الحلّ الطيفي

وما انقضت عشر سنوات او اكثر قليلاً ، على مكتشفات ولستن حتى عني رجل الماني يدعى فرونهوفر Fraunhofer وكان صانع نظارات ولا علم لهُ بمكتشفات ولستن ، بمباحث من هذا القبيل ، فأفضت بهِ مباحثهُ الى اكتشاف ظاهرة جديدة لاحظها ولستن اولاً وهي رؤية مئات من الخطوط السود في طيف الشمس . فصنع خريطة لطيفِ الشمس ، ورسم في مناطقها الملونة المختلفة ، ثلاثمائة واربعاً وعشرين خطًّا اسود ، شاهدها فيها

هوذا اكتشاف ظاهرة كبيرة الشأن ، ولكن فرونهوفر صانع النظارات ، عجز عن فهمها . كان قد جال في خاطرهِ ، ان لهذه الخطوط صلة بطبيعة الضوء ، ولكنهُ لم يرَ سبيلاً الى تعليلها. وانقضت اربعون سنة ، وهذا الاكتشاف معلويّ . ثم جاء انكليزي يدعى ستوكس Stokes

فكشف عن مفتاح لفهم هذه الخطوط فهماً صحيحاً . ذلك انهُ وجد انهُ اذا اخترق ضوء الشمس بخار ملح يدخل الصوديوم في تركيبهِ ، ظهر في طيف ذلك الضوء خطان اسودان ، مكان الخطين اللامعين اللذين يظهران في الطيف المتولد من ضوء بخار الصوديوم . اي ان بخار الصوديوم امتص من ضوء الشمس اللون الذي يطلقهُ هو ، عند اشتعاله ، فترك محل الخطين الاصفرين ، خطين مظلمين . وبذلك فهمت خطوط فروnهوفر السود . واذن يمكن ان يقال ، ان الابخرة التي في الفضاء بين الشمس والباحث تمتص من ضوء الشمس الخطوط الملونة او اللامعة التي تحدثها في الطيف ، تاركةً في الطيف خطوطاً مظلمة

وفي السنة ١٨٥٩ وهي السنة التي نشر فيها كتاب داروين في « اصل الانواع » صنع كيرشوف وهو في معمل بنصن الكيمياوي في هيدلبرج ، آلة جديدة يتبين بها العناصر من مراقبة خطوطها ، وأطلق عليها اسم سبكترسكوب ، اي آلة الطيف وقد ترجمناها بلفظ «مطياف». يؤخذ الضوء — في هذا الجهاز — من اي مصدر متوهج ، فيمرّ في شقٍ ضيق ثم تجمعهُ عدسات خاصة في شعاعة واحدة قبل ان يخترق موشوراً يفرقهُ الى الالوان التي يتألف فيها ، وهذا هو الطيف . والطيف يظهر على لوحة خاصة في المطياف ، حيث دوّن طول الامواج الخاصة بكل لونٍ من الالوان . فيستطيع الباحث ان يقول ارى في طيف هذا الضوء كذا خطوطاً في منطقة اللون الاصفر ، وكذا خطوطاً في منطقة اللون البنفسجي . ثم عمد كيرشوف الى ضوء الشمس فجعلهُ يخترق بخارات عناصر ومواد مختلفة ، قبل حلّهِ حلاً طيفيًّا ومراقبة الخطوط السود التي تظهر في مناطق الالوان المختلفة ، فأفضى بهِ بحثهُ هذا الى اكتشاف ناموس عام هو الآتي : «ان غازاً متوهجاً يمتص من أشعة الضوء المنطلقة من مصدر حامٍ للضوء تلك الاشعة التي يطلقها هو» فالحديد مثلاً اذا احمي حتى يصبح في حالة بخارية ووضع بين الشمس والمطياف ، امتصَّ من ضوء الشمس الذي يخترقهُ الامواجَ التي يطلقها هو ، فاذا حلَّ ضوء الشمس بعد ذلك في المطياف ظهرت خطوط مظلمة ، في المنطقة التي تظهر فيهِ الخطوط اللامعة الخاصة بالحديد

وما كاد يذاع هذا الاكتشاف ، حتى أدرك العلماء مقتضياتهِ . هنا مفتاح ، يفتح لهم المغلق من اسرار السماء ، ويدلُّهم على تركيب الابخرة التي تحيط بالشمس . فالسماء والارض التقتا في

معمل كيرشوف بل في مطيافه . وقد بلغ من حماسة العلامة هلمهلتز ان قال : « ان هذا الاكتشاف قد أثار من اعجاب الناس ما لم يثره اكتشاف آخر لانه يمكننا من النفوذ الى عوالم كانت ابداً محجّبة عنا » . ولا ريب في ان فكر هلمهلتز كان متجهاً ، عندما فاه بهذا القول ، الى بناء الشمس والكواكب

وكذلك نقضت نبوءة الفيلسوف كونت . ان هذه الخطوط المظلمة في طيف الشمس ، تدلُّ على وجود أبخرة معدنية وغير معدنية فيها . ذلك اننا اذا عرفنا الخطوط الطيفية التي يمتاز بها عنصر من العناصر التي على الارض ، أمكننا بامرار ضوء الشمس في بخار ذلك العنصر ، ان نعرف ، هل هو داخل في تركيب الشمس او لا . ولولا الجدال الذي اثارتهُ نظرية التطوُّر العضوي التي بسطها داروين في كتابه ، لما انصرف اهتمام الناس حينئذٍ عن اكتشاف خطير ، كاكتشاف كيرشوف هذا

ومن ثمَّ اكبَّ كيرشوف على دراسة هذه الخطوط المظلمة عدداً وموقعاً . فبخر الحديد والكلسيوم والمغنيزيوم والباريوم والنحاس والسترنتيوم والزنك والصوديوم والنيكل والكروم والكادميوم والمنغنيس وفلزات اخرى في حرارة الضوء القوسي وصنع خرائط للخطوط اللامعة في طيفها . ثم قابل ذلك بمواقع الخطوط المظلمة في طيف ضوء الشمس ، متبيّناً المواقع التي تتوافق فيها الخطوط اللامعة بالخطوط المظلمة ، فاستدلَّ من الخطوط اللامعة الخاصة او المميزة لعنصر ما ، على وجود ذلك العنصر في الغلاف الغازي الذي يحيط بالشمس ، وهو متأكد مما يفعل تأكد استاذه بنسن من العناصر التي تدخل في تركيب مركّب على سطح الارض

وبذلك ولد علم الفلك الطبيعي والكيمياوي المعروف الآن باسم Astrophysics فخلب هذا البحث ألباب طائفة كبيرة من العلماء فأقبلوا على دراسة الشمس والنجوم لمعرفة العناصر التي تدخل في تركيبها بالمقابلة مع العناصر الداخلة في تركيب الارض . فلم يعثروا في خلال بحثهم الطويل على عنصر واحد فيها ليس لهُ على الارض ما يقابلهُ ، فأقاموا الدليل على الوحدة المادية الكونية . لأنَّ الانسان وسائر الاشكال الحية والجامدة ومادة الشمس والكواكب والسيارات والمذنبات والعوالم الجزرية في رحاب الكون النائية ، قوامها جميعاً العناصر الكيمياوية التي نعرفها

ولكن قبل انقضاء سنة ١٨٦٨ اعلن اكتشاف أثار الخواطر . ذلك ان باحثين ، لاحظنا

ظاهرة جديدة ولكنَّ كلاًّ منهما لاحظها على حدة . كان احدهما المسيو بيير جول سيزار جانسن نجل موسيقي فرنسي ، وكان معنيًّا برصد كسوف كليّ في غنتور في بلاد الهندستان . والآخر نورمن لكيَر احد كتاب وزارة الحربية البريطانية حينئذٍ . لاحظ كلٌّ منهما بضعة خطوط لامعة في طيف الشمس . وكان « لكير » أسبقهما الى القول بان هذه الخطوط اللامعة لا تقابل خطوط اي عنصر معروف على الارض . فكان ذلك غريباً ، لانهُ اذا صحَّ، عنى ان في الشمس او في اكليلها عناصر ليست على الارض . فأطلق على هذا العنصر اسم هليوم (وهو مشتقٌّ من هليوس وهو لفظ يوناني يعني الشمس) . وقد ظلَّ هذا العنصر مجهولاً على الارض الى منتصف العقد الاخير من القرن الماضي اذ اكتشفهُ رمزي الكيمياوي الانكليزي. ومن العجيب ان سبيلهُ الى اكتشافهِ كان اسلوب الحلّ الطيفي. فقد تبين في طيف مركّب كان يعالجهُ خطوطاً تقع من الطيف حيث الخطوط الخاصة بالهليوم — العنصر الشمسي — فأدرك ان الهليوم موجود على الارض وبالحلّ الكيمياوي تمكن من استفرادهِ وهو الآن من اهم المواد الغازية ولاسيما في البلونات، لانهُ خفيف وغير قابل للالتهاب

وقد كشف حتى الآن نحو ستين عنصراً في الشمس وكلٌّ منها لهُ ما يقابلهُ على الأرض

كانت سنة ١٨٦٨ التي كشف فيها عنصر الهليوم في الشمس ، تاريخاً ذا شأن في دراسة الشمس من ناحيتها الطبيعية لان العلامة جورج اليري هايل وُلد فيها ، وهو أحد نوابغ هذا العلم وباعث الحياة والنشاط فيهِ بمخترعاتهِ ومكتشفاتهِ الباهرة

كان من المتوقع لهذا الفتى ، ان يخلف أباهُ في عملهِ الصناعي الكبير — مدير شركة مصنع للرافعات — ولكنهُ نشأ راغباً في البحث العلمي ، وتبيَّن والدهُ فيهِ هذه الرغبة فأثنى عليهِ وشجعهُ . قيل ان أباهُ رآه يميل الى البحث الميكروسكوبي، في الحيوينات المائية، فقال لهُ انهُ اذا والى دراستهُ بطريقة منظَّمة فانهُ يبتاع لهُ مجهراً متقن الصنع قوي العدسات . وكذلك تقلَّب الفتى في اتجاههِ العلمي من الحيوينات المائية الى الحفريات القديمة الى التجارب الطبيعية والكيمياوية ، وكان والدهُ في كلٍّ منها مرشداً حكيماً ، يحثّهُ على الاجادة ويشحذ عزمهُ بما يهديهِ اليهِ من أدوات البحث والتجريب . وأخيراً خلب علم الفلك لبَّهُ، فأقبل عليهِ بكل ما في عقلهِ وجسمهِ من شغفٍ وقوة

وكان لا يزال في السادسة عشرة من عمره عند ما ابتنى لهُ والدهُ مرقباً -- تلسكوباً — على سطح الدار ، فقرّر الفتى بعيد ذلك ان ينفق حياتهُ في دراسة الاجرام السموية ، ولكنهُ أدرك من بدء حياتهِ العلمية ادراكاً واضحاً الهدف الذي يبغي ان يسير اليهِ . قال: ان رصد الاجرام واحصاءها وتدوينها في الخرائط عمل لهُ قيمة عظيمة ، ولكن ما ابغي، هو سلسلة من التجارب تسير بنا خطوة خطوة في ترقية العلم الجديد المعروف بعلم الفلك الطبيعي astrophysics وهو دراسة الاجرام الفلكية بالمطياف spectroscope والمطياف الرسَّام spectrograph . قرأ كتابيْ لكير في الحل الطيفي وطبيعة الشمس وكتاب يونغ في الشمس ، فاذكت مطالعتها حماستهُ فصنع مطيافاً بنفسهِ وجرّب بهِ تجاربهِ الاولى بطيف اللهب والشرر ثم بطيف الشمس

وكان في جامعة جونز هبكنز الاميركية عالم طبيعي من الطبقة الاولى يدعى رولند (Henry A. Rowland) وكان هذا العالم قد ابتدع طريقة تمكنهُ من تخطيط لوح من الزجاج او المعدن ، خطوطاً دقيقة متلازّة متوازية حتى تمكن من صنع ٢٤ الف خط متوازية متساوية البعد بعضها عن بعض في ما مساحته بوصة مربعة. فالزجاج المخطط بهذه الطريقة ، أفعل في حل ضوء الشمس الى الالوان المركب منها ، من الموشور الزجاجي . وبهِ استعان رولند على صنع خريطتهِ المشهورة لطيف الشمس ، واليهِ استند هايل في حل بعض ألغازها

كانت الشمس في نظر العلماء حينئذٍ محاطة بطبقات من الغازات الشفافة أعمقها طبقة تعرف باسم « فوتوسفير » اي الطبقة النيّرة وهي بيضاء الضوء وفوقها طبقة اخرى مضيئة قوامها ابخرة العناصر الثقيلة وتدعى « الطبقة العاكسة » فطبقة ثالثة قوامها ابخرة العناصر الخفيفة كالايدروجين والهليوم والكلسيوم عمقها ثمانية آلاف ميل وتدعى « الكروموسفير » اي الطبقة الملوّنة وخارج هذه طبقة تعرف بالاكليل قوامها غازات لطيفة تعكس الضوء وتفرقهُ وتمتد مسافة ملايين من الاميال . وكان تركيب هذه الطبقات حينئذٍ وكثافتها محجباً بحجب الخفاء

وكان في جامعة برنستن في ذلك الوقت استاذ للفلك يدعى يونغ ، انصرف عن التبشير الى علم الفلك ، فأصبح في طليعة الفلكيين الاميركيين الذين عنوا عناية خاصة بمباحث جانسن ولكير في الحل الطيفي . فحجَّ اليهِ هايل الشاب ، ورأى في مرصدهِ مشهداً من مشاهد الطبيعة الرائعة

امني الالسنة المندلعة من قرص الشمس ، لحزم امرهُ هناك وقرّر ان يصرف بقية حياته في البحث الفلكي

كانت هذهِ الالسنة تندلع من قرص الشمس بسرعة ٢٥٠ ميلاً في الثانية وتمتدُّ الى بعد ٤٠٠ الف ميل . فسأل نفسهُ كيف تتكون هذه الالسنة ومن اين تستمدُّ هذه النيران الهائلة الوقود وما تأثيرها في الارض . أسئلة كان العلم لا يملك حينئذٍ الاجوبة الشافية عنها . قال هايل في نفسه : « ان هذه البوتقة النارية قد تمهّد لنا السبيل لمشاهدات وتجارب ، لاقبل لنا بمثلها في معاملنا على سطح الارض » حيث يتعذّر علينا الفوز بدرجات عالية من الحرارة والضغط تقارب درجاتهما على سطح الشمس

كان ڤاسيانيوس قد ذكر في سنة ١٧٣٣ انهُ شاهد ألسنة الشمس وهو يرصد كسوفاً كليًّا . ثم وصفها بايلي الأنكليزي وصفاً دقيقاً بعد مشاهدتها في اثناء رصده لكسوف كلي وقع في ٨ يوليو سنة ١٨٤٢ . وكان بايلي هذا سمساراً وفلكيًّا هاوياً . ومع وصفه الدقيق لما شاهد عجز عن فهم سرها . فعزاها هو وغيرهُ من علماء ذلك العهد الى القمر ، الاَّ انَّ التدقيق في دراستها في اثناء كسوف وقع في سنة ١٨٦٠ أثبت انها تندلع من الشمس لا من القمر

ولكن اذا شاء العلماء ان يفهموا هذه الظاهرة العجيبة ، فلا يسعهم الاكتفاء برصدها ثواني معدودة عند وقوع كسوف كلي ، ولا بدَّ من ابتداع وسيلة تمكنهم من دراستها في كل ساعة من ساعات النهار ، وذلك بحجب الضوء الباهر المنبعث من قرص الشمس . هذه المسألة حيَّرت هايل وهو لا يزال طالباً في معهد ماستشوستس التكنولوجي . وكان جانسن قد بحث في الموضوع فتبين في طيفه خطوطاً لامعة عرف انها خاصة بأحد الألسنة المندلعة من قرص الشمس ، فصاح انني أستطيع ان ارى هذه الخطوط في غير وقت الكسوف ، وبتغيير موقع مطيافه تمكن من تخطيط صورة لسان منها وعرف انهُ في الغالب مكون من الايدروجين لان خط الايدروجين كان أبرزها في طيفه . ثم أقبل هجنز على الطريقة نفسها فوسع الشق الذي يدخل منهُ النور فتمكن من رؤية لسان كامل كأنهُ يراهُ من نافذة

ثم حاول يونغ بعد ذلك ان يصوّر احد هذه الالسنة بالمصوّرة الضوئية فكانت الصورة غير واضحة فأهمل التصوير كوسيلة من وسائل البحث في هذه الظاهرة الشمسية . ولكن هايل اكبّ على البحث

عن طريقة تمكنهُ من هذا التصوير. وكان هدفهُ الفوز بصورة لقرص الشمس والالسنة مندلعة منهُ، وان يتم لهُ ذلك في رابعة النهار. وكان في احد الايام راكباً مركبة نقل كهربائية في شيكاغو اذ خطرت لهُ طريقة لحل المعضلة التي تعضُّهُ، ولكنهُ لم يعلم حينئذٍ ان هذا الخاطر نفسهُ كان قد خطر لغيرهِ من الباحثين وان احداً منهم لم يفز بتحقيقهِ

كان الخاطر بسيطاً. قال هايل: اصنع شقاً سعتهُ جزءٌ من مائة جزء من البوصة في قطعة من الورق المقوَّى وامسك بهِ بين عينك ومصباح كهربائي فلا ترى الاَّ جانباً فقط من السلك المتوهّج. فاذا هززت الشق بان لك السلك المتوهج كلهُ. فما نحتاج اليهِ لتصوير الشمس، جهاز نضعهُ بين الشق المتذبذب والعين يحجب عنا كلَّ الضوء الاَّ الضوء المنطلق من عنصر واحد

وعلى أساس هذا الخاطر صنع هايل جهازهُ المشهور المعروف باسم مطياف الشمس المصوّر او مصوّرة الطيف الشمسي Spectroheliograph بعد ما لاقى مصاعب لا توصف في صنعهِ فتغلب عليها ببراعتهِ وذكائهِ ومثابرتهِ. وفي ٧ مايو سنة ١٨٩١ تمكن هايل من ان يصور صورة واضحة لاحد ألسنة الشمس في رابعة النهار بجهازهِ هذا

فلما ظهّر الواح التصوير الضوئي وثبتها غلب عليهِ الفرح فأراها لصديقيهِ واستاذيهِ المرتابين يونغ ورولند. فانتفى من ذهنيهما اي شك في دقة الطريقة الجديدة ونجاحها. وكذلك تمَّ على يدي هايل وهو في الثالثة والعشرين، آية من آيات الظفر العلمي في العصر الحديث

بل ان هذا الجهاز كان فاتحة عهد جديد في دراسة الشمس من ناحيتها الطبيعية. وما ذاع نبأهُ حتى دعاهُ السر وليم هجنس Huggins رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني لعرض صوره هذه على اعضاء المجمع. وكان بين الحاضرين العالم الفرنسي هنري الكسندر ديلاندر مدير مرصد الفلك الطبيعي في مودون على مقربة من باريس. وخرج ديلاندر من الاجتماع عائداً الى مرصدهِ حيث والى مباحثهُ فلم تنقض بضعة شهور حتى أيدت النتائج التي وصل اليها كل ما قالهُ هايل

هوذا الابواب قد تفتحت والشمس قد استسلمت للمطياف وللمصوّرة الطيفية، والعلماء ان يقفوا عند تصوير ألسنتها المندلعة من حواشيها مكتفين بما صنعوا، بل لا بد من مهاجمة وجهها لكشف ما يخفيهِ من اسرار وراء ذلك الضوء الباهر المنبعث منهُ. وغرائب ما كشفوهُ عليهِ وفيهِ موضوع بحثنا القادم



اذا ما بدأت القصة فنحن في بيت « ناريموث » الضابط في حرس القصر يجتمع وطائفة من اصدقائه في ليلة شتوية حيث يلعبون الورق ولقد ظلوا الى الخامسة صباحاً ولما يتناولوا بعد طعام العشاء. فأما الطعام فقد أعد واحتلف اللاعبون الى المائدة يلتهمونهُ التهاماً . فاذا ما بدأت « الشمبانيا » تصبُّ في الأقداح فقد حمي بينهم النقاش وطمى وانك لتسمع احدهم يسأل « سورين » عماه ربحه فيقول لهُ « انهُ خسر كالمعتاد . اذ ليس لهُ حظ وسوف يظل هادئاً لا يضطرب على انهُ كثيراً ما يخفق في لعبه » ويقول لهُ احد الضيوف « وما رأيك في هرمان » وهو يعني احد الضباط من فرقة المهندسين « انهُ لم يلمس في حياتهِ ورقة من ورق اللعب . بل لم يراهن . ولكنهُ شغوف بأن يجلس الينا حتى الساعة الخامسة في الصباح ونحن نلعب »

فاجابه هرمان : إن الورق ليشغلني كثيراً على انني لن أحتمل ضياع حاجة في سبيل متعة غير محققة وتحدث تومسكي قائلاً « ان هرمان رجل الماني دأبه الاقتصاد. وهو لا يحملني على شيء من العجب ولكن الشخص الذي لا استطيع ان افهمهُ أو اسبرغوره هو جدتي « الكونتيس حنه فيدورفينا »

فصاح بهِ الضيوف جميعاً « وكيف كان ذلك » ؟ فأجاب : « لستين عام مضت زارت جدتي وزوجها باريس ولقد أتاح لها جمالها الرائع ان تصبح حديث الناس . فلقد كان بعضهم يتسابقون وراء عربتها لكي يرنوا اليها وليروا « زهرة روسيا » تلك التي افتتن بحبها « الكردينال ريشيليو » ذلك الوزير العظيم الذي أوشك من فرط هيامهِ بها أن ينتحر . وكانت جدتي تشهد الموائد الخضراء . فخسرت مرة مبلغاً كبيراً لدوق أورليان . ولما عادت الى منزلها أخبرت جدي بذلك وطلبت اليهِ توفية المبلغ . وكان يخشاها ويفرق من سطوتها وبأسها وينزل منها منزلة العبد للسيد . غير انهُ لما سمع بخسارتها الفادحة تجاوز حده وأفهمها في شيء من الرفض أن ما يحمله من اوراق يثبت ان وجودهما في تلك الفترة في باريس كلفهما قرابة نصف مليون في مدى

ستة أشهر وان ذلك مما يحمله ايضاً على الرفض البات . فعند ذلك لطمته على صمام أذنه لطمة كادت تصمه . ونامت بمعزل عنه تلك الليلة . وفي الصباح أعادت عليه الطلب فوجدته على الرفض مصراً . ولما انقطع أملها من ناحيته أخذت تفكر في الخلاص من ذلك المأزق وتذكرت رجلاً نبيلاً كانت تروى عنهُ احاديث كثيرة هو الكونت سان جرمان وكان معروفاً بحدة الذكاء وكانوا يزعمون انهُ مكتشف « اكسير الحياة » و « حجر الفلاسفة » . ومهما يكن من أمر هذه المزاعم فلقد كان رجلاً خلاب الحديث فتان المؤانسة وجيهاً في كافة المجالس والمجتمعات . وكانت جدتي تعلم انهُ ثري . فأزمعت أن تلتجىء اليهِ واستدعته فأسرع اليها وحدثته عن قسوة زوجها ووحشيته بأفظع عبارة . وطرحت عليهِ اعباء حاجتها الفادحة فأطرق الرجل ملياً ثم قال : اني قادر على امدادك بالمال ولكن اعلم انك لن تستريحي بعد ذلك حتى ترديه اليّ فكأني سأخرجك من مأزق لأُوقعك في آخر وعلى ذلك فسأطلعك على وسيلة تستردين بها خسارتك عن طريق المقامرة

قالت جدتي : ولكن ياعزيزي الكونت انني لا املك من المال شيئاً . فكيف أقبل على اللعب وانا مفلسة ؟ . فقال سان جرمان « لا حاجة بك الى المال . تفضلي عليّ بالأصغاء »

ثم افضى اليها بسر غريب يتمنى لو يعرفه اي منا أو يشتريه بكل ما يملك من ثروة فذهل السامعون لهذا النبأ واشتدت بهم الرغبة في المعرفة وأشعل تومسكي سيجاراً وشرع يدخن ثم استأنف الحديث قائلاً : « في أمسية ذلك اليوم ذهبت جدتي الى قصر فرساي للمقامرة وافتتح الدوق اورليان اللعب . فاعتذرت جدتي عن توفية دينها له ألطف اعتذار ثم بدأت تلعب ضده فاختارت ثلاث ورقات فلعبتها واحدة تلو الاخرى فربحت الثلاث جميعاً وبذلك استردت جدتي ما كانت قد خسرتهُ في الليلة السابقة مشفوعاً بارباح طائلة »

قال أحد الضيوف « من عجب ان يكون لك جدة كهذه ثم يعييك ان تستخرج منها هذا السر العظيم » . « هذا ضربٌ من المحال . لقد كان لجدتي أربعة بنين أحدهم والدي . ما منهم الا مقامر مغامر ومع ذلك فقد أبت ان تبوح لأيهم بذلك السر على ما فيه لهم من نفع وجدوى . ولكن عمي الكونت ايفان اليتش حدثني الحديث الآتي : وهو ان المرحوم تشابلتسكي الذي مات فقيراً بعد أن خسر الملايين على المائدة الخضراء . فقد مرة ثلثمائة الف رويل فكاد يجن حزناً وغماً فرثت له عمتي فأعطتهُ ثلاث ورقات وأمرتهُ ان يلعبها على التوالي وأخذت عليهِ عهد الله وميثاقه ان لا يبوح بالسر وان لا يعاود اللعب بعد ذلك ما عاش . فمضى تشابلتسكي الى خصمه ولاعبه فأخطر على الورقة الأولى خمسين الف رويل فربحت ثم ضاعف المبلغ على الورقة الثانية فربحت وضاعف على الثالثة فربحت وبذلك استرد فوق ما كان قد خسره : والآن ايها السادة قد ان لنا ان تنصرف فقد آذن الفجر ان يلوح والديك ان يصيح . . . » فشرب الجميع سؤر أقداحهم وتوادعوا ثم افترقوا

— ٢ —

كانت الكونتيس العجوز عمة تومسكي جالسة في غرفة التواليت امام مرآتها ومن حولها ثلاث وصائف يقمن بخدمتها . وكانت الكونتيس قد فقدت كل أثر من آثار جمالها الغابر ولكنها لم تفقد عادات شبابها المندثر من التجمل والزينة . وكانت تجلس قرب النافذة وصيفة لها حسناء تشتغل على منسج التطريز . تلك هي « ليزا ڤيتا » التي كانت تسدد نظرها نحو النافذة من حين الى حين ثم ألقت نسيجها وأطلت من النافذة . ولم تكن الا برهة حتى ارتفع لها في اقصى الطريق شبح فتى في زي الضباط المهندسين . فاحمرَّ وجهها خجلاً وتناولت نسيجها واستأنفت عملها على المنسج وفي هذه اللحظة عادت الكونتيس العجوز مستكملة اللباس والزينة . وتحدثت الى ليزا ڤيتا في ان تأمر الخدم باعداد المركبة ليخرجا في نزهة : ولقد قامت الفتاة عن منسجها متثاقلة الخطا كمن به ذهول ووقفت حائرة . فلمحت الكونتيس هذا فقالت: « ليزا ڤيتا . ماذا بك وما خطبك؟ أبك صمم أم ذهول؟ . نادي الخدم ومُري باعداد المركبة في الحال»

انطلقت ليزا ڤيتا بسرعة وفي هذه الاثناء دخل أحد الخدم فقدم للكونتيس بضعة كتب هدية من الامير « بول الكسندروفتش » ودعت الكونتيس وصيفتها لقراءة ما بالكتاب فاذا بدأت ان تقرأ فقد شعرت الكونتيس بأن موضوع الكتاب لا يعنيها لانه سخف ومن سقط المتاع ولقد أنبت الكونتيس وصيفتها لتأخرها في ارتداء ملابسها وعابت عليها تكرارها التأخير عند خروجها

كانت الكونتيس متغيرة المزاج لم يهدأ لها بال . فما كادت « ليزا ڤيتا » تصل الى غرفتها حتى هبت الكونتيس الى جرس الغرفة تقرعه قرعاً مستمراً . فهجم ثلاث وصائف من باب وخادم من باب آخر . وصاحت الكونتيس قائلةً « لقد أصبحت في قصري لا أطاع أو يسمع لي قول أو يؤبهُ لي . أين ليزا ڤيتا ؟ ألا خبروها انني قد عيل صبري في انتظارها . . . » وهنا عادت ليزا ڤيتا تحمل معطفها وقبعتها فقالت الكونتيس . لقد طال غيابك يا ليزا ڤيتا . واراك تكثرين من امر الزينة والتجمل اكثر مما ينبغي ومن يا ترى تنوين اقتناصه . . ؟ ثم ما رأيك في جوّ اليوم . . ؟ ارى انهُ يوم عاصف فقالت ليزا ڤيتا . كلاً يا سيدتي انهُ ليوم هادىء ساكن الريح . وقال ذلك جميع الخدم ايضاً . وقالت الكونتيس : انهُ ليوم قمطرير عبوس. ألا تحسون الريح والبرد القارس. أعروا الخيل من السرج فلا سبيل الى الخروج اليوم . فتألمت الوصيفة ليزاڤيتا لهذه الحياة المليئة بالمتناقضات الأليمة

— ٣ —

قبل وقوع هذه الحوادث بأسبوع كانت ليزا ڤيتا جالسة الى نافذتها في صباح يوم جميل تطرز على منسجها فحانت منها التفاتة الى الطريق فوقع بصرها على فتى من فرقة الضباط

المهندسين . وكان واقفاً لا يبدي حراكاً يطيل النظر الى نافذتها . فنكست رأسها واقبلت على عملها . وبعد خمس دقائق أطلت ثانيةً من النافذة فاذا الفتى الضابط لم يبرح مكانهُ ولا يزال موكلاً طرفهُ بالنافذة . ولما لم يكن من شأنها مغازلة الضباط الناظرين الى نافذتها فقد شغلت بعملها في شيء من النشاط ومضت ساعتين كاملتين من دون ان ترفع رأسها . ثم دق جرس الغداء فنهضت وتركت نسيجها . ثم حانت منها التفاتة الى الطريق فاذا الضابط لم يغادر موقفهُ فاشتد عجبها من ذلك . وبعد الغداء عادت الى النافذة وهي تحمل شكّاً وقلقاً ونظرت ولكنها لم تجد للضابط أثراً فصرفت من ذهنها شبحهُ وتناستهُ

وبينا هي تهم بالركوب مع الكونتيس بعد ذلك بيومين أبصرت الضابط نفسهُ خلف باب المركبة متلثماً تتوقد عيناه السوداوان من خلال لثامه فأوجست منهُ خيفة لغير علة واضحة وأخذت محلها من المركبة والرعب يرجف أوصالها . ولما عادت الى المنزل اسرعت الى النافذة فاذا الضابط في موقفهِ القديم يديم اليها النظر . فارتدت منقبضة وتملكها نوع غريب من الشعور لم تدرك لهُ معنى . ومن ثمَّ فصاعداً لم يمض يوم الاَّ ظهر ذلك الضابط تحت النافذة في الساعة المعهودة فنشأ بين الفتاة وبينه نوع من التعارف الصامت والصحبة الخرساء . فكانت اثناء عملها على المنسج تحس ريحه وتشعر بروحه ثم ترفع رأسها لتنظر اليهِ وجعلت نظراتها تزداد على مرّ الايام وكان الفتى قد فطن الى هذا فارتاح اليه وكأنهُ يرسل من عينيه معاني الشكر والغبطة وكانت الفتاة تبصر احمرار وجهه كلما تلاقت الحاظهما . وبعد اسبوع بدأت تبتسم لهُ

ولعل هذا الحديث يفهمنا ان ذلك الفتى هو « هرمان » الذي ورد ذكره في أول هذه القصة وعُرِفَ بأنهُ من فرقة الضباط المهندسين

— ٤ —

كان هرمان ابن رجل الماني استوطن روسيا وتجنس بالجنسية الروسية وكان قد ورث عن أبيهِ ثروة لا بأس بها . وكان شديد الاقتصاد في النفقة يجتزىء من مرتبه ولا يمس ميراثه وكان جم الحشمة والوقار بعيد المطامح والمطامع لهُ من قوة عزيمته وحزمه اشد رادعٍ وقامعٍ لشهواته فكان من فرط ميله للمقامرة لم يمس ورق اللعب قط . وكانت قصة الورقات الثلاث قد أثرت في نفسه أشد تأثير وأشغلت خياله فجعل يسهر الليالي لا يفكر في غير ذلك ثم بحث عن قصر الكونتيس حتى عرف مكانهُ وأبصر الفتاة لِزا ڤيتا وهي تطرز على منسجها فأزمع ان يصل اليها مهما كلفه ذلك ليتخذها سلماً للوصول الى سيدتها الكونتيس لكي يعرف سر الورقات الثلاث منها طوعاً او كرهاً ثم كان من امر وقوفه ازاء النافذة ومخالسته النظرات للفتاة ومحديه اياها ما كان

تحدثنا في ان الكونتيس بعد ان امرت باعداد المركبة عادت وامرت ثانياً بفك الخيل

ولكنها ما لبثت ان امرت باعدادها ثانياً . وكذلك لم تكد ليزا ڤيتا تنزع معطفها وقبعتها حتى أمرت بلبسهما ثانياً وخرجت مع سيدتها للنزهة ولم تكد العربة تبدأ في السير حتى لمست يد ليزا ڤيتا يد أخرى والقت فيها ورقة فأخفتها في قفازها وظلت طول النزهة لا تسمع ولا ترى ولا تفقه . وكلما القت عليها الكونتيس سؤالاً — وما كان اكثر ما تسأل — اجابتها اما بالصمت وإما بما هو شر من الصمت من جواب سخيف خارج عن الموضوع حتى ضجت الكونتيس وانهالت عليها سباً وشتماً

ولما عادت ليزا ڤيتا من النزهة اسرعت الى فض تلك الرقعة التي وصلتها من هرمان . فاذا بها قطعة من عاطفته وهيامه سداها الحشمة ولحمتها الادب . فطربت لهذا الطرب كله على ان سرورها كان مشوباً بنوع من القلق والاضطراب لارتباطها لاول مرة بشاب غريب بعلائق سرية خصوصية وقد كان في شدة جرأة ذلك الشاب ما اخافها وأرهبها فأخذت تعنف نفسها على طيشها وتهورها . ولم تدر ماذا تصنع أتهجر النافذة والجلوس اليها ؟ فتقطع آمال الشاب بهذا الجفاء ؟ أم ترد اليه رسالته فتبئسه أم تجيبه عنها جواب رفض وإباء ؟ وبعد طول الحيرة والتردد حررت له الرقعة الآتية : « لاشك عندي ان غرضك شريف وانك لاتود ان تؤذيني بما يحرجني أو يسيء الى سمعتي غير اني لاأحب ان يكون بدء تعارفنا بهذه الطريقة التي تسلكها »

ولما ظهر هرمان في اليوم الثاني تحت النافذة ألقت بالرقعة على الطريق . فسرعان ما التقطها وذهب بها الى محل حلوى ففض غلافها فألفى داخلها رسالته مردودة والجواب عليها وكان قد توقع ذلك فانقلب الى داره وذهنه مشغول بما كان يدبره من الدسيسة . ولقد أرسل لها فتاة حائكة بعد ثلاثة أيام برسالة منهُ ففضتها وهي ترجو ألاّ تكون من غريم يطالب بدين . ولقد أحبت ان تنكر الرسالة متجاهلة صاحبها ولما كان هرمان يطلب لقاءها فقد ازعجها وقاحة هذا الطلب وصاحت قائلة ان تلك الرسالة لم تكن لها فقالت لها الفتاة . ولماذا مزقتها إذن ؟ لقد كان ينبغي ان تردبها الى صاحبها . . . فارتبكت ليزا ڤيتا امام هذه الملاحظة الدقيقة وقالت أرجوك ألاّ تأتيني بأية رسالة أخرى وخبري مرسلك ان هذا عار عليه . ولم يكن هرمان بالرجل الذي تصده مثل هذه الصدمة . فأضحت ليزا ڤيتا لا يمر يوم الا أتتها منهُ رسالة مشحونة بآيات الوله والصبابة والاستعطاف فكانت تنم على عزيمته وصلابة ارادته وطمحات خياله الجامح الشرود الذي لا ترده شكيمة أو يثنيه عنان . أما الفتاة فقد وهنت امام هذا السيل الجارف فأذعنت واستكانت ولم تعد تقوى على رد تلك الرسائل . بل جعلت ترتاح اليها وتجد لها حلاوة في سمعها وبدأت تجيبهُ على رسائله وكانت ردودها تزداد على الايام اطناباً واسهاباً ورقة وغزلاً الى ان القت اليه من نافذتها ذات صباح بالرسالة الآتية: « في هذه الليلة ستقام حفلة راقصة في دار السفارة وستشهد الكونتيس هذه الحفلة وسأظل معها هنالك الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وسيبقى المنزل خالياً الا من

البواب وهذا دأبه النعاس . فاطرق المنزل الساعة الثانية عشر . فاذا عثر بك أحد في الساحة فاجمل حجتك السؤال عن الكونتيسة وارجع بسلام ولكن من المنتظر ألا يمر بك أحد فاعمد الى غرفة الكونتيس تجد بها حاجزاً خافهُ بابان فافتح الباب الايسر يؤدي بك الى دهليز في اقصاه سلم يفضي الى غرفتي فانتظرني بها »

وفي الساعة الثانية عشر صعد هرمان سدة الباب ودخل الساحة المشرقة بالمصابيح الوضاءة ولم يجد أثراً للحارس فرقى السلم حتى بلغ حجرة الكونتيس التي بها مضجعها . فألفى في احدى زواياه شبه محراب مزداناً بصور القديسين وتماثيل القديسات ينيره مصباح من الذهب الابريز وحول الحجرة نمارق وأرائك عليها وثير الوسائد وقد نصلت اصباغها لتقادم العهد ورقمت عليها يد القدم سطور الوحشة والكآبة وكان على احد الجدران صورتان من صنع المصورة الباريسية المشهورة « ليدا » احداهما تمثل رجلاً ربعة بادناً أشقر يناهز الاربعين في حلة عسكرية، خضراء هو « زوج الكونتيس المتوفى » والصورة الاخرى تمثل الكونتيس في صباها. وفي جوانب الغرفة تماثيل شتى من الشبه والخزف والصيني وساعات وصناديق بها حلي وزخارف ومراوح وشتى أصناف من اللعب والتحف

وقف هرمان خلف الحاجز فألفى لدى ظهره سريراً من الحديد وعلى يمينه باب المقصورة الخاصة بالكونتيس وعلى يساره الباب المؤدي الى الدهليز ففتحه فأبصر السلم المفضي الى حجرة الوصيفة ليزا فيتا ولكنهُ أغلقهُ ولبث مكانه . مرّ الوقت بطيئاً وكان السكون سائداً وظل هرمان واقفاً مستنداً الى رف الموقد الخامد ودقت الساعة الواحدة ثم نصفاً ثم اثنتين واذ ذاك سمع وقع حوافر وصرير عجلات من أقصى مسافة فاعترته رجفة شديدة وهزة عنيفة وتقدمت المركبة ثم وقفت . وسمع حركات الوصائف بالقصر غاديات رائحات في هرج ومرج . وأشعلت المصابيح وتألقت أضواؤها ودخل حجرة الكونتيس ثلاث وصائف وعلى أثرهن الكونتيس وقد اعياها التعب . فتهالكت على كرسي وهي أشبه بالاموات منها بالاحياء . ونظر هرمان من خلال الحاجز فأبصر ليزافيتا عن كثب وقد ولجت الباب الأيسر وصعدت في السلم المؤدي الى حجرتها. فأحسَّ نوعاً من الالم والندم على خيانته اياها وغدره بها ولكنهُ ما لبث ان قسى قلبه وكتم صوت ضميره وعاد الى جموده

خلعت الكونتيس ثياب الزينة وارتدت جلباب النوم وجلست الى النافذة بعد ان صرفت الوصائف واطفأت المصابيح الاَّ قنديلاً ضئيلاً كامد الشعاع . وكانت الكونتيس مصابة كالعجائز بالارق فلبثت مكانها من النافذة صفراء الوجه والبشرة كانما غمست في حوض من الكركم تتحرك شفتاها وتترجح يمنة ويسرة . وكانت عيناها الكليلتان الثقيلتان تنمان على ذهول وتدله

وكأن اهتزاز جثتها رعدة كهربائية منبعثة من أحشائها . ولكن وجهها المتعب تحرك بغتة فوقف ارتعاش الشفتين وبدت أمارات الحياة في عينها . ماذا جرى ؟ لقد ظهر امامها جل غريب مجهول . . . وقال هرمان لها « لاتخافي لست بضارك . لقد جئت اسألك حاجة ». فنظرت اليه العجوز في صمت كأنها لم تفهم مقالته وظن هرمان انها مبتلاة بالصمم فأدنى فمه من أذنها وأعاد ما قاله فبادت العجوز في صمتها

وقال هرمان « ان في مقدورك اسعاد حياتي وترفيه عيشي . في استطاعتك ان تسمي لي ثلاث ورقات من ورق اللعب» . وهنا سكت هرمان اذ بدا له ان العجوز بدأت تفهم كلامه وكأنما كانت تعالج سكرة من سكرات الألم أو الموت ثم تعالج نفسها على ان تهيء له جواباً. فقالت له: « لم يكن ذلك الا من باب المزح والفكاهة »

فأجابها هرمان « كلا ان الامر جد لاهزل فيه . اذكري صاحبك تشابلتسكي الذي اقلت عثرته وفرجت غمه وأعنته على استرداد خسارته ألا تستطيعين تسمية هذه الورقات. » فبادت العجوز في سكونها وهنا خر هرمان راكعاً تحت قدميها وقال « لمن تدخرين هذا السر لذريتك واحفادك وقد أغناهم الله عنه بالثروة الطائلة والنعمة الفسيحة. رحماك ايتها الكريمة . واذا كنت تعرفين شعور الحب — حب العاشقة لعشيقها والام لرضيعها والشقيقة لشقيقها. فأني استحلفك بعواطف العاشقة والوالد والشقيقة وبكل ما هو مقدس في الحياة الأما أجبت دعائي وقضيت حاجتي »

كان ذلك والكونتيس صامتة لا تبس فعند ذلك ثار هرمان وصاح « تباً لك من عجوز شوهاء لأرغمنك على الكلام ارغاماً وأخرج مسدساً من جيبه . فبدت علامات القلق على العجوز فرفعت يديها كأنها تحاول القاء القذيفة واستلقت على ظهرها وبقيت مسلوبة النطق والحركة . فصاح هرمان وقبض على يدها أجيبي اني اسألك المرة الاخيرة . أجيبي ما هي الورقات الثلاث ؟ » فلم تحر جواباً وتأمل هرمان في وجهها فاذا هي جثة لا حراك بها

. . . .

كانت ليزافيتا جالسة في غرفتها وقد ضمت ذراعيها الحاسرتين على صدرها العاري وقد أرسلت الخادم ألا يعود بعد أن سألتها مراراً عما يمكنها أن تقضيه لها من حاجة وكانت تحمد الله كثيراً لان هرمان لم يحضر واستلقت على مقعد لتراجع ذكرى الحوادث الاخيرة . فلقد انقضت ثلاثة أسابيع عند ما لمحت هرمان من النافذة ثم شرعا يتراسلان . انها لاتذكر انها حدثته لساناً بلسان ولكنها عرفت اسمه من امضائه على الخطاب. وانها لتذكر المصادفة الغريبة ألا وهي ان في تلك الليلة الراقصة وتومسكي يرقص معها بعد ان تنحى عن الرقص مع البرنسيسة بولينا بدأ يذكرها بحبها لهرمان وهي تذكر هذا الحب فيقول تومسكي لها « ان هرمان شخص

رومانتيكي وله وجه كنابليون ونفس كيفستوفيلس ولعلَّ ضميره يحمل وزر ثلاث جرائم . .
ولماذا علت وجهك تلك الصفرة ؟ . . .

. . . .

بعد فترة دخلت الاميرة بولينا وسيدتان . وتحدثت الاميرة مع ليزافيتا عن تومسكي ثم خرجت ورفيقتاها وتركنَ الفتاة تستعيد كلمات تومسكي شاردة الفكر لا يستقر لها حال أو يهدأ لها شعور . وفيما هي على هذه الحال اذا بالباب يقرع ويدخل منهُ هرمان . فتسأله في شيء من العجب عن امره . فيجيبها انهُ كان في حجرة الكونتيس ولقد تركها وهي جثة بلا روح .. فتقول له . يا لله . ماذا تقول ؟ فجلس هرمان وقال انهُ يخشى ان يكون هو السبب. وأصغت الفتاة الى حديثهِ وفرائصها ترتعد وقص عليها ما كان من امره مع الكونتيس .فعرفت مرماه وتبينت هدفه وفهمت ان تلك الرسائل الغرامية وان هذا الحب لم يكن مصدرها الخير والحب لذاته ولكن مصدرها الجشع وانها لم تكن الاَّ آلة صماء في يد سارق أثيم . فذرفت دموع الندم مرة حارة وجعل هرمان ينظر اليها صامتاً وقلبه نهب الوساوس الأليمة

وقالت ليزافيتا . انك لوحش ضار . وبدأ الصبح يتنفس وقامت ليزافيتا فأرشدتهُ الى السلم السري وقد ضغط على يدها الباردة يودعها . ولما انكفأ هرمان في مساء اليوم التالي الى غرفته انطرح على مقعد بها منهوك القوى دون ان ينزع ثيابهُ فاستغرق في النوم ولما أفاق من هجعتهِ كان الليل قد خيَّم وألقى القمر اشعته على ارجاء الغرفة . وانهُ لكذلك اذ فتح عليهِ باب الحجرة ودخلت امرأة في ثوب ابيض فدنت منهُ واذا هي الكونتيس قائلة لهُ بصوت ثابت . « لقد جئتك على غير ارادة مني . ولكن امرت ان أجيء فجئت. ستربح اذا لعبت الورقات الثلاث الآتية على التوالي — كل واحدة في ليلة . ثم لا تعد للمقامرة والورقات هي ثلاثة وسبعة وآس . . . ولكن لا بد من ان تتزوج من ليزافيتا ايفانوفنا »

لما ماتت الكونتيس كان هرمان ممن ذهبوا لتأدية العزاء في الكنيسة فوقف يتلو الصلاة ويستغفر الله فيما فعلهُ من اثم وما ارتكبهُ من جرم . واخترق الصفوف وأقبل نحو النعش ونظر الى الجثة فاذا الكونتيسة يلوح عليها انها تنظر اليه في شيء من السخرية .. فاستولى عليهِ ذعر فارتدَّ فزعاً فوقع مغشيًا عليه . اما ليزافيتا فخرجت من الكنيسة وهي تحمل ألماً مبرحاً مرتجفة مهمومة

— ٥ —

. كانت هنالك جمعية في موسكو يرأسها شيكالنسكي وهي تضم جبابرة المقامرين وفي ذات ليلة قدم هرمان في صحبة تومسكي . وبدأ تومسكي يقدم هرمان الى شيكالنسكي وانضم هرمان الى جماعة المقامرين ودارت رحى الميسر وانتهى الدور الاول وبدأ شيكالنسكي بوزع الورق . فقال هرمان لهُ اتسمح لي ان آخذ ورقة . فانحنى شيكالنسكي راضياً . وقال هرمان . « اريد

الاشتراك » . وكتب ارقاماً بالطباشير على ظهر ورقة . فقال صاحب البنك « على اي مبلغ يا سيدي معذرة فأنني قصير النظر » . فقال هرمان « على سبعة واربعين الف روبل اعني كل ما ورثته عن ابي » . وعند سماع هذه الكلمة انتفض جميع المقامرين والمتفرجين ولم يصدقوا نبأه ولبثوا فترة في ذهول ودهشة . وقال تومسكي في نفسه : حقاً لقد تورط هرمان في تفكيره وخولط في عقله . وقال شيكالتسكي : « هذا مبلغ باهظ فلم يسبق ان جازف مقامر باكثر من مائتين وخمسين روبل دفعة واحدة » فقال هرمان . قد يكون قولك حقاً ولكن أيقبل الرهان على هذا المبلغ ام لا ؟ فانحنى شيكالتسكي قبولاً وقال « اسمح لي مع مزيد ثقتي بتصريح اصدقائي اني لا أقامر الا على النقد الحاضر ولكن محافظة على اللعب. اطلب اليك ان تضع المبلغ على ورقتك ». فأخرج هرمان بنكنوتاً اعطاه الى شيكالتسكي وألقى هذا بيده عليه وأرفقه بورقة هرمان وشرع ينثر الورق فظهر على اليمين « تسعة » وعلى اليسار « ثلاثة » فقال هرمان ان ورقته رابحة . فأظهر الجميع عجبهم ودهشتهم وعبس وجه شيكالتسكي غير ان ابتسامته لم تفارق ثغره ودفع له مبلغ ربحه . وفي اليوم الثاني اشترك هرمان في الدور الثاني وبدأ ينثر الورق على رأس ماله وأرباح الامس فظهر على اليمين « عشرة » وعلى اليسار « سبعة » وهي الرابحة فضج المقامرون وبدأ القلق يساور شيكالتسكي وتناول هرمان ارباحه الجديدة وغادر المكان . وفي اليوم الثالث ترك الجميع اماكنهم وأحاطوا بمائدة هرمان وقد وقف ليلعب مع شيكالتسكي وهو على شدة تأثره لم يزل يفتر ثغره عن ابتسامته الطبيعية فتناول كل منهما رزمة من الورق وشرع شيكالتسكي يوزع ورقه ويداه ترتجفان فصاح هرمان بملء فيه « هذا هو الآس ! لقد ربح » فأجابه شيكالتسكي في شيء من الهدوء والاحترام . لا يا سيدي . . ان الذي في يدك ليس الآس ولكنه « ملكة البستوني » وقد خسرت . فانتفض هرمان ونظر الى الورقة فوجدها « ملكة البستوني . . . . ولكن من الذي غير الورقة . . . تلك لا شك قوة شيطانية . . . وأعاد النظر الى الورقة فاذا بها صورة الكونتيس وهي تبتسم له وتغمز له بعينيها في هزء وسخرية . فصاح وقد ملكه الرعب « الكونتيس العجوز » « الكونتيس العجوز » وشرع شيكالتسكي يجمع ارباحه ولبث هرمان فاقد الحركة برهة من الزمن . . . واستأنف شيكالتسكي اللعب مع المقامرين . اما هرمان فقد جن وهو الآن نزيل احدى الملاجىء الخاصة بمرضى العقول لا يعي قولاً أو يفهم أمراً ولسانه دائم الترديد « ثلاثة سبعة . ثلاثة سبعة ... ملكة البستوني . . . . . . »

وزوجت ليزافيتا ايفانوفنا من فتى رشيق ممن كانوا في خدمة الكونتيس وعاشت معه في كنف السعادة ورغد العيش

قسم الطفيليات (١)

حديث الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

استاذ الطفيليات في كلية الطب

— متى انشىء قسم الطفيليات في كلية الطب ، وما هي دائرة نشاطه ؟

١ — منذ انشاء مدرسة الطب في سنة ١٨٢٧ ، كان موضوع البحث في الطفيليات من أهم ما اشتغل به أساتذتها ، ومن أهم البحوث التي قاموا بها ، والاكتشافات التي عثروا عليها . لان أمراض البلاد الحارة الكثيرة الانتشار في مصر يرجع سبب أغلبها الى الطفيليات . ولكن في السنوات الأولى من تاريخ المدرسة كان البحث في الطفيليات عملاً مشاعاً بين كثير من الاقسام ولم يكن لهُ قسم خاص بالذات . وأهم الاكتشافات في القرن الماضي كان حوالي سنة ١٨٥٠

ففي ذلك التاريخ ، وبالتحديد في سنة ١٨٥١ اكتشف الاستاذ تيودور بلهارس الاستاذ في مدرسة الطب المصرية في ذلك الوقت الديدان المشهورة باسمه والمسببة لمرض البلهارسيا الذي يصيب في الوقت الحاضر ٧٥ ٪ من المصريين . وكذلك اكتشف استاذه الاستاذ جريسنجر الذي كان ناظراً لمدرسة الطب في ذلك العهد اكتشافاً من أعظم ما تمَّ في تاريخ طب البلاد الحارة . اذ انهُ بين لاول مرة علاقة ديدان الانكلستوما بالمرض المعروف بالانيميا المصرية او الرهقان المصري ووجد فيما بعد ان هذا المرض يصيب نصف سكان الكرة الارضية . وكذلك اكتشف بلهارس عدداً كبيراً من الطفيليات لأول مرَّة . وفي السنين الاخيرة من القرن الماضي بدأت أعمال الطفيليات تتركز في قسم التاريخ الطبيعي بمدرسة الطب وكان الاستاذ فيها المرحوم عثمان باشا غالب ولهُ بحوث هامة واكتشافات تعدت دائرة الطب إلى دائرة الزراعة ، فاكتشف دودة القطن وغيرها . وبعد ان ترك عمله في المدرسة لأسباب لا داعي لذكرها أنشيء في مدرسة الطب لاول مرَّة كرسيًا لعلم الديدان الطفيلية وهو من أقدم الكراسي في العالم في هذا العلم ويرجع تاريخه الى سنة ١٨٩٦ وقد شغله اذ ذاك العالم العالمي المرحوم الاستاذ ارثر لوس الالماني . وإبان قيامه بالعمل اكتشف جملة اكتشافات تعد في الدرجة الأولى في أمراض البلاد الحارة وعلم الطفيليات فهو الذي اكتشف ان عدوى الانكلستوما تصل الى الانسان بطريق الجلد مما كان موضع الدهشة في العالم كله . ووجد فيما بعد ان هذا طريق تتبعهُ كثير من الطفيليات مثل البلهارسيا . وقد الغي هذا الكرسي التاريخي عند اعلان الحرب العالمية نظراً الى جنسية الاستاذ لوس وترك شاغراً يقوم بالتدريس

---

(١) تابع ما نشر في مقتطف يناير ١٩٣٧ عن « معاهد التعليم العالي » في مصر

فيه بين آونة واخرى اشخاص ينتدبون لمدد قصيرة من الجيش البريطاني، ومن وزارة الزراعة. وبعد الحرب ألحق قسم الطفيليات بقسم الباثولوجيا حيناً من الزمن . وبعدئذٍ انتدب لهُ الاستاذ الحالي (الدكتور خليل بك) من الخارج . وبعدئذٍ ضمّ عند تعين الدكتور خليل بك استاذاً لعلم الحياة، الى هذا القسم اي ان الحالة صارت الى ما كانت عليهِ ايام المرحوم عثمان باشا غالب . وظلّ الامر كذلك الى ان انشئت الجامعة وحوّل قسم الحياة الى كلية العلوم ، فصار قسم الطفيليات قسماً مستقلاً الى الوقت الحاضر

— ما هي اهم النتائج العلمية لقسم الطفيليات في عهده الجامعي ؟

كان من نتيجة انشاء قسم الطفيليات في العهد الجامعي ان ابتدىء بتدريب عدد من الشبان النابهين في الفروع المختلفة في علم الطفيليات وهي في الوقت الحالي ستة اقسام والسياسة الجامعية ترمي الآن الى وجوب ايجاد باحثين من الاخصائيين في كل قسم منها . وهذه الاقسام هي :

١ — علم الطفيليات ذات الخلية الواحدة (البروتزوى)

٢ — علم الحشرات الطبية

٣ — الديدان — التريماتودا

٤ — الديدان الشريطية

٥ — الديدان الخيطية

٦ — الفطريات التي تصيب الانسان

وقد قام كل واحد من الاخصائيين في هذه الاقسام المختلفة بعمل ابحاث والميدان واسع جداً في مصر لمجهوداتهم ومجهودات الآخرين . ومن الصعب حصر جميع المؤلفات والرسائل الفنية التي نشرت في العهد الاخير في عجالة مثل هذه فهي تزيد عن ١٦٠ رسالة . واعتقد ان اهم الاكتشافات من وجهة العلاج ومقاومة الامراض المتوطنة في مصر هي ما يلي

١ — علاج البلهارسيا بالمركب الجديد « الفؤادين » الذي كان نتيجة ابحاث مشتركة بين اطباء قسم الطفيليات بكلية الطب ومعهد الابحاث بوزارة الصحة الذي يشرف عليهِ استاذ الطفيليات ايضاً — والاخصائيين الكيميائيين في معامل باير بالمانيا . وقد استمرت هذه الابحاث عدة سنوات

٢ — ادخال سمك الجمبوزيا الى مصر لمقاومة انتشار الملاريا وهذا السمك موطنه الاصلي اميركا الوسطى . ونقل الى اسبانيا وايطاليا لهذا الغرض . وأمكن ادخاله وتربيته واكثاره في مصر من سنة ١٩٢٦ . ولا يزال مستعملاً وقد أصاب استعمالهُ قسطاً وافراً من النجاح

٣ — اكتشاف البعوض الناقل للملاريا وداء الفيل في مصر وتحديد نوعه واماكن توالده. وبذلك أمكن مقاومته

٤ — اكتشاف تاريخ حياة الدودة التي تصيب الانسان في الامعاء وتسبب نوعاً من الاسهال او الدوسنطاريا اسمها (هتروفيس — هتروفيس) . وقد كانت هذه نتيجة ابحاث مستمرة استغرقت عشر سنوات .

٥ — اكتشاف مناطق في القطر المصري موبوءة بالقرحة الشرقية ، (الليشمانيا) وتقرير الطريقة المجدية ، في العلاج

٦ — ادخال علاج الانكلستوما برابع كلورور الكربون في القطر المصري ووضع التعليمات وتقرير الجرعات اللازمة لذلك . .

— هل للعمل في قسم الطفيليات صلة بالمشروعات التي ترمي الى اصلاح حال الفلاح في القرى المصرية ؟

— قد روعي منذ بدء العمل في قسم الطفيليات بكلية الطب في مصر عدم الاقتصار على المسائل النظرية البحتة كما يعمل في بعض المعاهد في البلاد الاخرى . بل انتهزت الفرص في كل وقت للاستفادة من الابحاث العلمية البحتة، وتطبيقها والانتفاع بها، في المعالجة ومنع الامراض وسبب ذلك ان الابحاث وتطبيقها في جميع فروع الطب متيسرة وتدور بكفاءة ممتازة واستعداد عظيم في كثير من الامم الاوربية . والاعتماد في مثل بلادنا هو على الاستفادة من النتائج التي يتوصل الباحثون اليها في الخارج

ولكن الامراض المتوطنة في مصر ليست موضع اهتمام كبير في البلاد الاوربية . ولاينفق عليها من الاموال كل ما تحتاج اليه . ولا ينشيء لها من المعاهد ما يناسب اثرها في البلاد الحارة . والذي يقوم بمثل هذه الاعمال هي البلاد ذات المستعمرات التي تنتشر فيها بعض هذه الامراض. ولذلك كان من الواجب علينا في مصر أن نقوم بعمل الابحاث اللازمة للتخلص من الامراض المتوطنة في القطر المصري خصوصاً وان للعوامل المحلية تأثيراً عظيماً في انتشارها وتوطنها وأثرها في مقدرة السكان وكفاءتهم العقلية والبدنية . وهذا الواجب لايمكن ان يقوم به إلا مصريون يقفون كل حياتهم ومجهوداتهم على هذا العمل . وهو ما نرجو أن نكون قد وفقنا اليه بعض التوفيق في قسم الطفيليات بكلية الطب ومعهد الابحاث في وزارة الصحة

وهذه الابحاث تتطلب نظراً الى طبيعتها التغلغل في القرى ودراسة جميع العوامل المختلفة التي تساعد على انتشارها وتبين طرق الاصلاح . ولذلك ننشر بين وقت وآخر آراءنا في مقاومة هذه الامراض في القرى المصرية ووجه الاصلاح في نفس القرى خصوصاً من وجهة توفير المياه الصالحة للشرب والتخلص من الفضلات . . . الخ لأن هذه هي العوامل ذات الأثر الاول في انتشار امراض الطفيليات

دار الكتب المصرية

حديث الدكتور منصور فهمي بك

مدير دار الكتب

١ — ما هي أهم الاعمال التي تتوجه اليها دار الكتب العامة في مصر ؟

يبدو لي ان أول مهمة لدار الكتب المصرية ان تعمل جهدها لحفظ تاريخ البلاد ، بحفظ جميع الكتب والوثائق الخاصة به ، وكل ما يتصل بمصر وما يمتّ اليها ، وعلى الأخص ما يصلها بتاريخها العربي ، وبما يناسب مقامها الحاضر كزعيمة للعروبة بين اقطارها وباحياء الآداب العربية ونشر موسوعاتها

والمهمة الثانية للدار ان تهيء جوًّا للبحث العلمي الخاص بحياة البلاد الاجتماعية وتاريخها الأدبي لكي ينتسم منهُ شباب الباحثين المصريين

والمهمة الثالثة هي ان تنظم الصلات العلمية بين المحيط الفكري في مصر وبين المحيط الفكري في البلدان الاخرى . فتكون الدار طريق اتصال بين البحاث المصريين ، ونظرائهم من الاجانب

وقد بدأ هذا الاتصال يتحقق ، فان الكثيرين من علماء الغرب والمستشرقين يغشون دار الكتب للتزود بمعلومات شتى في التاريخ واللغة وغيرهما ، لانهم يرون في دار الكتب المصرية أغنى مكتبة من نوعها في الشرق كله

وقد شجعنا توالي اقبال هؤلاء العلماء على الدار على ايجاد الترابط الفكري المنشود بين البحاث المصريين ، والاوربيين

وزيادة على ذلك فان مصر تعدُّ من أغنى بلاد العالم بوجود الأجانب فيها ، من شتى الاجناس وشتى الطبقات . وهؤلاء الاجانب المحليون ، في حاجة الى تثقيف انفسهم بالاقبال على الكتب المختلفة المحفوظة في الدار . ولا شكَّ ، انهُ بتيسير سبيل التثقيف العام لهم في بلادنا تنشىء لهم نوعاً من الوطن الفكري فيشعرون نحونا بشيء من عرفان الجميل . وقد نستغل هذه الحالة ، فننشىء في بلدنا المضياف نوعاً من التآلف والتآخي بين المثقف الاجنبي المحلي ، وبين المثقف المصري ، وفي هذا ما يحقق لنا لوناً من ألوان الترابط الانساني المنشود

وكل ما قدمت يسار مهمة الدار العامة ، وهي نشر أنواع الثقافات بشتى المغريات والاساليب بين المصريين كافة ، وهم يعلمون الآن ، وسيتأكدون غداً ان القراءة الجدية الميسرة هي الجامعة العظمى الخالية من كل قيد الا قيد الرغبة ، وان الرغبة في القراءة الصالحة تخرج مجتمعاً ناضجاً موفور الاحساس بنفسه وبجماعته

ولست أشك ان هذا الاتجاه الذي تتوجه اليه دار الكتب ، يحتاج الى مزيد العناية بالدار نفسها ، فهي محتاجة ، الى بناء يتسق وهذه المهام المتعددة ، ويحتاج الى مال ينفق في سخاء للحصول على الوثائق والكتب وغير ذلك مما يصور حياتنا الفكرية والاجتماعية في ماضي مصر وحاضرها

وأملي وطيد في ان تقدر الامة والحكومة معاً ضرورة هذه العناية الواجبة

***

٢ — يقال ان المتعلمين المصريين اليوم اقل اقبالاً على القراءة الجدية من غيرهم في الامم الاخرى فما هو رأيكم في هذا القول . وما هي أهم الفوارق بين الشباب المثقف الآن ، والشباب المصري الذي كان يعيش قبل ربع قرن ؟

— دلت خبرتي على ان اكثر الشباب المحدثين في مصر ، وفي غيرها ، يميلون الى القراءات السهلة البسيطة ، ويغرمون بالمجلات والصحف الماجنة

ولعلّ بعض اصحاب الصحف انفسهم كانوا عاملاً كبيراً في ذلك لدأبهم على استغلال حب الفكاهة الغريزي في الانسان ومحاولة تحويل الآراء والافكار الى فكاهات . وعلى ذلك قد زاد الشباب الحاضر قلة الصبر عند القراآت العسيرة الجدية

اما في مصر فأظن ان علماءنا وكتابنا لم يوفقوا توفيقاً كبيراً في جذب الجمهور المثقف الى المستوى المنشود من التعمق ، وكم كنت أتمنى ان يكثر عدد الكتّاب الذين تتوفر فيهم الدقة في الكتابة ، والثروة في التفكير الشخصي ، وحسن البيان

واني ألاحظ ان كتّاب الجيل الماضي الذين قضوا وأذكر على سبيل التمثيل : قاسم امين ، ومحمد عبده ، وفرح انطون ، وشميل ، واليازجي ، وصرّوف ، والبستاني ، وزيدان ، والكواكبي ، واحمد فارس ، والخضري ، وحفني ناصف ، والسيد البكري ، وابراهيم المويلحي ، ومحمد المويلحي ، وحمزة فتح الله ، وحسن توفيق ، وغيرهم رحمهم الله ، كانوا اساتذة لجيل جادّ من الشبان ، لم يلههم زخرف الحياة الاجتماعية من سينما ورياضة وحياة سياسية موزعة ، عن التوفر

على القراءة والدرس الجدي ، فنتج عن استاذية هؤلاء الكتّاب جيل هو الذي يعيش اليوم متجاوزاً مرحلة الشباب وهذا الجيل يشرف على جيل جديد لم يستقر قراره الثقافي بعد ولم يتجه وجهة معقولة . ففريق منهُ يؤمن بالغرب ايماناً شديداً ، وينزع الى التجديد دون احتياط ، وفريق يؤمن بالقديم ويود ان يفنى فيهِ . .

واني أرى ان أولئك، وهؤلاء . . اي انصار الغرب بكل ما فيهِ ، وانصار القديم بكل ما فيهِ ، يسرفون على انفسهم وعلى من يتصل بهم . فمن العسير ، بل من المستحيل أن تتحول البيئة المصرية الى بيئه اوربية ، تتجاهل ماضيها الثقافي . ومن المستحيل ايضاً ان تعيش مصر في ثقافة القديم الذي طواه الزمن . .

اما ما هو الطريق الذي ينبغي ان يُسلك ، وان يكون قبلة للجيل الجديد ، فهذا ما لاسبيل الى وصفه او تحديده الآن تحديداً دقيقاً . لأن الحالة وحدها هي التي تشقهُ . . والحاجات الاجتماعية للأمة هي التي تعبّده . على اني ارجو ان يكون للجيل الناشيء من ابنائنا ثقافة تغذيها الطرافة والابتكار القائم على الشعور بالشخصية وعلى النقد الصادق والتقدير الصحيح لكل ما في الثقافتين القديمة والحديثة من شرّ او خير

ثم اني بعد ما قدمت أعود الى دار الكتب وأقول انهُ من حق الخدمات العلمية الخالصة التي تطمع الدار في تحقيقها ان توفر لها ولرجالها الادوات اللازمة ، والجوّ المهيأ باعداد الامكنة التي تصلح لايواء العلماء والباحثين ، وتيسير سبيل البحث لهم

ولا نريد ، اذا ما سرنا شوطاً بعيداً ، في تحقيق هذه الغايات ، ان تكون العاصمة وحدها هي مستقر هذه الجهود التثقيفية ، بل نطمع في ان يسري نشاط الدار الكبرى من القاهرة الى الاقاليم ، فتصل من حياتها حياة في المكتبات الاقليمية تخدم قضية الثقافة العامة ، وتحبب هؤلاء الساكنين بالمدن الصغيرة في القراءة . وقد ييسر هذا توحيد الاشراف على دور الكتب وربط بعضها ببعض

***

وانهُ ليروقني على ذكر نشر المكتبات وحسن الاشراف على مهامها ان أوجه النظر الى اتجاه التربية الحديثة في البلاد التي تقدمتنا يشعر بالعناية بأمر التثقيف والتعليم عن طريق المكتبات وأظن انهُ سيكون لهذا السبيل شأنه في المستقبل القريب. ولذلك لا أغالي اذا كنت ألح في طلب العناية بأمر المكتبات عناية تظهر في حسن الاشراف وحسن تخير الكتب وتيسير ما يحدث أثراً صالحاً في القراءة الراقية وهو ما نعمل لهُ الآن بدار الكتب بعناية الله تعالى ومعونة أولي الامر

دار العلوم

حديث صادق جوهر بك

ناظر مدرسة دار العلوم

الاسئلة

١ — نريد معرفة ملخص سريع عن تاريخ دار العلوم العليا منذ نشأتها حتى الآن ، مع بيان عدد طلابها ، ومتخرجيها

٢ — هل اتصل معهدكم بمعاهد الدراسات الشرقية في الشرق والغرب ، وما هو نوع هذا الاتصال

٣ — ما هو سر النضال بين الأزهر والجامعة المصرية ودار العلوم ، وإلامَ ينتهي ؟

٤ — ما هي النتائج العلمية والادبية التي وصل اليها معهدكم خلال دراساته الطويلة ؟

***

تلك هي الأسئلة التي وجهها الينا «المقتطف» ، ونحن نشكر لهُ في شخص محرره عنايته بتدوين تاريخ المعاهد العالية المصرية ، وما أشد حاجة الناس اليها في هذا الوقت ، وهي فكرة حميدة .

ولعلَّ أهم الأسئلة بعد السؤال الأول — هو السؤال الرابع ، وما كان أغنانا عن الخوض فيهِ لبداهتهِ ، لولا رغبة المحرر في انسجام المواد التي سبق نشرها عن المعاهد الأخرى بالمجلة وها نحن أولاء نذكر شيئاً عن الأسئلة الاربعة

— ١ —

« دار العلوم » اسم أطلقهُ المرحوم علي مبارك باشا مدير « ديوان المدارس » في عهد المغفور لهُ الخديو اسماعيل باشا سنة ١٨٧١ على المدرج « الانفيتاتر » بسراي درب الجماميز الذي كان يحتفل فيهِ بالامتحانات السنوية امام سمو الخديوي أو نائبه ترغيباً في طلب العلم وتنشيطاً للمتعلمين إذ ذاك

رأى — رحمهُ الله — أن يشغل هذا المدرج بقية أيام السنة بالقاء دروس عالية عامة على طلبة الفرق العالية بمدارس الهندسة والحقوق والمساحة

ونظراً لما تجدد من المكاتب الأهلية « المدارس » وحاجتها الى معلمين ذوي كفاية للقيام بوظائفهم — فكر في تأليف فرقة منتخبة من طلبة الأزهر الشريف يعيَّن لهم مدرسون للتدريس في هذا المكان المسمى « دار العلوم »

ويقال ان الغرض الذي رمى اليه المرحوم علي مبارك باشا من إنشاء دار العلوم والعناية بها، هو تقريب مسافة الخلف بين معلمي اللغة العربية في المدارس وهم من الازهر الشريف، وزملائهم من مدرسي الجغرافيا والكيمياء وغيرها

فأراد أن يتزوّد الفريق الأول من العلوم الكونية بما يبعده عن المغالاة والتحرج في العقائد، وبما يساعده على أداء مهمته ومزاولة عمله على الوجه المرضي، وقد تمّ له ما أراد

وصار العمل بذلك سنة ١٨٧٢ حيث انتخب من الطلبة اثنين وثلاثين طالباً شكلت المدرسة منهم ومن خمسة من المدرسين كان من بينهم ثلاثة من مشهوري علماء الازهر الشريف. ووضعت المدرسة تحت ملاحظة المرحوم حامد نازي افندي وكان معاوناً بدار الكتب المجاورة لدار العلوم

وبذلك تكون دار العلوم أول مدرسة مصرية أنشئت لتخريج المعلمين

لم يكن للمدرسة يوم انشائها مكان إلاّ تلك الردهة المدرّجة التي كانت تسمى « دار العلوم » وبقيت بها حتى انقسمت الى فصول دراسية سنة ١٨٧٤ فنقلت الى الجانب الجنوبي من سراي درب الجماميز ثم نقلت من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٨٣ الى درب الجنينة ثم عادت الى درب الجماميز حتى سنة ١٨٩٧

وفي أول اكتوبر سنة ١٨٩٧ نقلت الى بعض حجرات من الجانب الشمالي بمدرسة المبتديان « الناصرية » وكانت في المكان الذي به المدرسة السنية الآن

وفي سنة ١٩٠٠ شيد لها بناء مخصوص من طبقة واحدة في مكانها الحالي من حي المنيرة وكان تحيط به أراضٍ زراعية وبساتين. فنقلت اليه من أول اكتوبر سنة ١٩٠١ وفي سنة ١٩٠٤ بني عليها طبقة ثانية توسيعاً لنطاق أعمال المدرسة، ولما أنشئت تجهيزيتها سنة ١٩٢٠ احتاج الامر الى توسيع بنائها فأضيف اليه جزء عظيم حوى مطعماً ومطبخاً وثلاثة مدرجات في الجزء الشمالي الشرقي خلفها

وقد بقي اسم « دار العلوم » علماً على تلك المدرسة من وقت افتتاحها حتى اول مارس سنة ١٨٩٥ حيث سميت « مدرسة المعلمين الناصرية » وأسندت إدارتها الى حضرة امين بك « باشا » سامي واستمرت بهذا الاسم حتى سنة ١٩٢٠ وهي السنة التي أنشئت فيها التجهيزية فعاد اليها الاسم القديم « دار العلوم »

وقد أخذت المدرسة تسير في طريق الرقي الطبيعي حتى وصلت الى ما هي عليه الآن، إذ أصبحت تضم بين جدرانها من الطلاب ٤٥٧ طالباً ومن المدرسين ٣٨ مدرساً ولها ناظر ووكيل وضابطان وكاتبان

وقد بلغ عدد المتخرجين فيها حتى آخر العام الماضي ٢٤٣٥ منهم ١٤٣ تخرجوا في سنة ٣٥ — ٣٦

اما المواد الدراسية فكانت دعامتها العلوم الشرعية والعلوم العربية وفنون الأدب وعلوم التربية مع بعض المواد الضرورية لتثقيف المعلم كالعلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية مضافاً اليها لغة أجنبية « التركية او الفرنسية او الانجليزية » وكان تعليم اللغة الاجنبية أحياناً اختيارياً وآونة إجبارياً . وقدحذفت الرياضة منها بعد انشاء التجهيزية واضيفت اليها اللغات السامية

واما الاساتذة الذين تولوا تدريس المواد المختلفة فكانوا من أشهر اقطاب العلم والادب في مصر ، نذكر منهم الفيلسوف الكبير المغفور له الشيخ حسن الطويل والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده والاديب المعروف الشيخ حسين المرصفي واللغوي الشهير الشيخ حمزه فتح الله والاستاذ اسماعيل بك رأفت في التاريخ والجغرافيا . الخ الخ . وجمهرة أساتذتها الآن ممن تخرجوا فيها

وقد استمر اختيار طلابها من طلبة الأزهر الشريف بامتحان يعقد لهم عند الدخول ، حتى انشئت تجهيزية دار العلوم سنة ١٩٢٠ لتغذيتها ، وحصلت أول فرقة منها على شهادة الدراسة الثانوية « قسم ثان » سنة ١٩٢٤ فكونت القسم العالي من السنة المكتبية ١٩٢٤ — ١٩٢٥

واستمر العمل على ذلك حتى بدء السنة الدراسية الحاضرة ١٩٣٦ — ١٩٣٧ حيث أُتيح لحملة الشهادة الثانوية بالجامعة الازهرية ان يلحقوا بها . وذلك بعد الغاء التجهيزية للمرة الاخيرة سنة ١٩٣٥

ومما تجب الاشارة اليه ان فريقاً ممن أتموا الدراسة بمدرسة القضاء الشرعي طلبوا ان يدخلوا امتحان « دار العلوم » للحصول على « المعادلة » في العلوم التي لم يدرسوها فقبل طلبهم وادوا الامتحان سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٢٦ وما بعدها كما ان كثيراً من طلبة المدرسة المذكورة قد أُلحق بالدار بنظام خاص

وفي سنة ١٩٢٤ انشيء بالمدرسة قسم مؤقت من حاملي عالمية الازهر الشريف بجانب الاقسام الأُخرى بالمدرسة

ومما يجدر ذكره انهُ يوجد الآن بين طلاب المدرسة نحو ٥٠ طالباً من الاقطار الاسلامية المختلفة يعنى بالأشراف عليهم أستاذ من أساتذة الدار

وقد حصل على اجازة التدريس في السنوات الثلاث الأخيرة من هؤلاء الطلبة ٢٦ طالباً منهم عشرة فلسطينيون ، وسوري ، وأردني ، وحضرمي ، وسبعة عراقيون ، وسومطريان ، وملايوي ، وطرابلسي ، وتونسي ، ومراكشي

هذا وتزمع الدار ان تسن للدراسة خطة جديدة تساير النهضة القائمة الآن وترمي الى توسيع افق الطلبة في الثقافة العلمية وتوجيههم في الفرق النهائية الى التخصص في اللغة العربية

وعلوم التربية ، وسيكون أساس هذه الخطة جعل مدة الدراسة خمس سنوات بدلاً من اربع مع العناية بدراسة لغة أجنبية دراسة اجبارية

— ٢ —

قد كان لهذا المعهد اتصال بأشهر معاهد الدراسات الشرقية في اوربا بمن كان يختار من خريجيه لتدريس اللغة العربية في تلك المعاهد نذكر منها جامعات اكسفورد وكمبردج ومانشستر، ومدارس اللغات الشرقية ببرلين ولندن وباريس الخ الخ

وقد اتصل هؤلاء الاساتذة بالمستشرقين هناك وكان من نتائج ذلك ان نقلوا الينا بعض أساليب هؤلاء المستشرقين في مباحثهم ، وبخاصة تأليف الادب العربي وتدريسه

وأول من نقل الى العالم العربي بعض هذه الاساليب المغفور له حسن توفيق العدل افندي وكان منتدباً لتدريس اللغة العربية بجامعة برلين ، فنقل طريقة الاستاذ بروكلمان في تأليف الأدب العربي عصراً عصراً ، بالطريقة التي يدرس بها الآن ، وله الفضل الاول في سن هذه الطريقة على جميع أساتذة الادب العربي . وهو ايضاً أول من ألف في تاريخ الادب على هذا النحو . وقد درس كتابه في مدرسة دار العلوم ، وسار على سنته استاذ الادب العربي في الدار المرحوم الشيخ محمد المهدي والشيخ احمد علي الاسكندري ومن جاراهما

وكان لاتصال خريجي الدار بالمعاهد الاوربية ، وبكبار المربين في اوربا ، أثر آخر في فنون التربية ، من هؤلاء المرحومون محمد نصار بك ، والشيخ شاويش بك ، وحسن توفيق افندي وغيرهم ، ممن نقلوا الى اللغة العربية كتباً في فنون التربية المختلفة تعتبر أساساً لنهضة هذه العلوم الآن

— ٣ —

اما سر النضال القائم الآن بين دار العلوم والازهر وكلية الآداب بالجامعة المصرية ، فهو ما يظهر لنا في إبان هذه النهضة الحديثة ، من الرغبة في تفوق كل معهد من هذه المعاهد على غيره ، والمزاحمة في الحياة الفكرية والعملية ، مع ما هنالك من ضيق المجال في الحصول على وسائل العيش ، واحتلال المكان الاول في قيادة النهضة الادبية . وهذا النضال نضال شريف ، يبشر بحياة جدية علمية أدبية سيتولاها بلا شك النابغون من خريجي هذه المعاهد

وسينتهي هذا النضال بأن يثبت في الميدان المعهد الجدير بالبقاء ، لمآثره وإنتاجه العقلي ، ورسوخ قدمه ، وطول بلائه في اداء رسالته « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

— ٤ —

لا ينكر أحد ما لدار العلوم من الآثار والانتاج في مناحي الحياة الادبية والعلمية في مصر والشرق العربي ومن أهم ذلك ما يأتي : —

١ — قيام خريجي دار العلوم بأعباء تدريس اللغة العربية وآدابها والعلوم الدينية ونشر الثقافة العربية في معاهد التعليم على اختلاف طبقاتها زهاء ستين عاماً ، فهي التي نهضت بتعليم اللغة قواعدها وأدبها، وهذبت نواحي كثيرة من الكتابة ولغة التخاطب ، وقضت على اللهجات العامية والالفاظ الدخيلة التي كانت مسيطرة على ألسنة الكتّاب والخطباء في كل ناحية من نواحي الحياة العقلية ، وهيأت الكتاب في الصحف اليومية والمجلات الادبية والقضاة والمحامين ورجال السياسة وغيرهم لأن يعبروا عن أغراضهم بعبارات عربية فصيحة او قريبة من الفصيحة ، وثقفت عقول التلاميذ والطلاب حتى اصبحت أحاديثهم العامية معطرة بفصيح الكلام العربي . ولولا أساتذة اللغة العربية الذين بذلوا جهودهم وحياتهم في القيام بهذا الواجب لما وصل آدباؤنا وعلماؤنا وسائر المشتغلين بالعلوم والفنون منا الى ما وصلوا اليه من اجادة التأليف والترجمة

٢ — قد اشترك خريجو هذه المدرسة في القيام بنشر الثقافة الادبية وتدريس فنون اللغة في المعاهد الكبرى كالجامعة الازهرية والجامعة المصرية ولا يزالون إلى الآن عماد التدريس في هاتين الجامعتين واليهم يرجع في كل ما يحتاج اليه من مساعدة في نشر الثقافة العربية وبخاصة الأدب

٣ — شغل كثير من خريجي دار العلوم المراكز المختلفة في مصالح الحكومة وغيرها ، فكان منهم القضاة الاهليون والمحامون المبرزون في القضاء الاهلي والشرعي والمدرسون لعلوم الشريعة المبتكرون لأساليب التدريس الحديث في الفقه الاسلامي بمعهدي الحقوق والقضاء الشرعي ، ولا ينكر احد فضل المغفور له الشيخ محمد زيد بك استاذ القضاة في المحاكم الاهلية . وكتبه تعدُّ في مقدمة المؤلفات الحديثة التي سهلت طرق تدريس الشريعة الاسلامية . كما لا ينكر احد فضل الاساتذة الاجلاء محمد سلامه بك واحمد ابي الفتح بك والشيخ احمد ابراهيم بك في تدريس الشريعة ووضع المؤلفات النفيسة فيها

٤ — أما الانتاج العقلي في المؤلفات والمباحث العلمية والادبية عدا ما تقدم فكثير جداً ولهذا الانتاج إحدى خصائص ثلاث

الاولى : أنهُ أول انتاج في اللغة العربية في مواد لم تكن معروفة :

ومن أمثلته : كتب المرحوم حسن توفيق في الادب والتربية

وكتاب المرحوم محمد نصار بك في التربية وعلم النفس

وكتب المرحوم الشيخ شاويش بك في التربية

الثانية : تيسير تناول بعض انواع العلوم بوضعها في اسلوب حديث يلائم روح العصر والحاجة القائمة

ومن أمثلته :

كتب القواعد للمدارس الابتدائية والثانوية للاساتذة حفني بك ناصف ورفقائه . وتعتبر هذه الكتب أول خطوة نحو تيسير تناول القواعد واستساغتها لتلاميذ المدارس وطلابها . وقد تلتها كتب أخرى حديثة قوامها خريجو « دار العلوم »

وكتابا شذا العرف في علم الصرف وزهر الربيع في علوم البلاغة للمرحوم الشيخ احمد الحملاوي

وكتب المنطق والاصول للمرحوم سلطان بك محمد

وللاستاذ الشيخ طنطاوي جوهري أثر جليل في تفسير القرآن الكريم ، وكتاب في فلسفة الشريعة الاسلامية

وللخضري بك مؤلف قيم في تاريخ التشريع الاسلامي

وكتب الادب العربي للاستاذ الكبير الشيخ احمد الاسكندري وكتب فقه اللغة لهُ أيضاً

وفقه اللغة المصور للاستاذ محمد عبد الجواد من أساتذة الدار

ودار العلوم أول من وضع منهجاً لدراسة فقه اللغة في مصر

الثالثة : وصل النظريات الحديثة بالمذاهب القديمة في بعض العلوم كما فعل المرحوم الشيخ شريف بك في كتابهِ علم النفس ، وكما فعل الاستاذان احمد عبده خير الدين ومحمد حسنين عبد الرازق في كتب المنطق ، ولهما الفضل في وصل المنطق الحديث بالمنطق القديم

وللدكتور احمد ضيف كتاب « بلاغة العرب في الاندلس » وهو مثال للتفكير الادبي الحديث الناضج . وهو أول من قرن الادب العربي بالادب الغربي في تأليفهِ وتدريسهِ

***

أما إذا ذكر الشعر فان « دار العلوم » غنية فيهِ برجالها . وان من أبنائها من يعتبر في طليعة الشعراء وناشري فنون الشعر قديمها وحديثها ، من هؤلاء المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب شاعر البادية والاستاذ علي الجارم بك وكثير غيرهم من أساتذة الدار وطلابها

معهد التربية

حديث امين سامي حسونه بك
ناظر معهد التربية

في الصيف سافرت الى انجلترا للاشتراك في مؤتمر التربية الدولي ، ومشاهدة المباحث المتعددة التي تعمل فيها شعبه المختلفة. وقد عدت من انجلترا وانا مقتنع كل الاقتناع بأن معهد التربية المصري لا يقل في مستواه عن ارقى المعاهد المناظرة له في العالم . وسنرى، عند ما نبسط نظام معهدنا ، انهُ يسير في جل نظمه وفق آخر ما وصل اليه علماء التربية في مؤتمرهم الاخير

تنقسم الدراسات في معهدنا الى قسمين : ابتدائي ، وثانوي . ويلحق بالاول منهما الطلاب الحاصلون على شهادة الدراسة الثانوية ، ويلحق بالثاني الطلاب الحاصلون على درجة بكالوريوس في الآداب او العلوم . وليس الحصول على هذه الاجازات العلمية هو الشرط الوحيد للانتظام في المعهد ، بل هنا امتحانان يجتازهما الطالب اولهما الكشف على الصحة العامة كشفاً دقيقاً ، وثانيهما ما نسميه امتحان الهيئة ، تتولى فيه لجنة مكونة من ناظر المعهد ووكيله واستاذ التربية الطبية واستاذ التربية الاجتماعية واحد مدرسي العلوم واحد مدرسي الآداب ، اختبار المستوى الفكري العام للطلبة المتقدمين ، ومحاولة تقدير عنصر الشخصية في كل منهم . ويتسع معهدنا الآن لمائة وسبعين طالباً ، يقضي طلاب القسم الابتدائي ثلاث سنوات قبل تخرجهم ، ويقضي طلاب القسم الثاني سنتين. وقد وجدت في انجلترا ان حاملي شهادة البكالوريوس يقضون عاماً على الاقل في المعهد . اما طلاب القسم الابتدائي فان مرحلة دراستهم تستمر أربعة اعوام . ونحن نرجو ان نصل . اما في اسكتلندا ، فهم هناك يختارون المدرس الثانوي من حائزي اجازة الماجستير على الاقل ، ويمكثون في المعهد عاماً ونصف عام للدرس ويوضعون تحت التمرين مدة نصف سنة

يدخل الطلاب معهدنا ، لا لنحشو أذهانهم بالعلوم النظرية ، والدراسات المعقدة في الكتب، بل لنكوّن منهم رجال اجتماع قبل كل شيء ، يعتمد الفرد في معلوماته على تجاربه ومشاهداته الخاصة ، ليكمل بها ما يقرؤهُ في الكتب . . فهو يمارس الرياضة البدنية على أوسع نطاق ، يلعب كرة القدم والهوكي وكرة السلة والبادمنتون وألعاب القوى ويسبح ويجدف ويغرم بالألعاب السويدية . ولا تفرض هذه الألعاب على الطلاب فرضاً ، بل يأخذ منها كل طالب ما يوافق تكوينه الجسمي ، اذ الغاية منها القيام بتمرينات علاجية Corrective exercises ، تصلح عيوب البدن ، وتقوّم نواحيه الضعيفة . وبعد ظهر الاثنين من كل أسبوع ينقلب المعهد إلى ملعب كبير تجري فيه أنواع التمرينات والمباريات على أحدث الطرق

ثم اننا نعنى عناية كبيرة بالحياة الكشفية فلدينا ١٣٠ جوّالاً من ١٧٠ هو عدد طلاب المعهد

وإلى جانب الرياضة البدنية والعناية بها ، نمهد للطالب السبيل لتكوين ثقافته الاجتماعية ، ولا سيما ما يتعلق منها بالطفولة . فهو يزور مثلاً مستشفى المجاذيب ومراكز رعاية الطفل وإصلاحية الاحداث ، ويقف على نظمها ويدوّن مشاهداته وخواطره . . وهو يزور معالم البلاد الصناعية والتاريخية والعمرانية . لانا لا نجيز أن يقوم مدرس بالتحدث لطلابه عن قنال السويس ، وهو لم ير طول حياته قنال السويس ، او يشهد الموانىء والفنارات . ويمد الطلبة عقب كل رحلة من رحلاتهم إلى الاطلاع — بقدر استطاعتهم — على ما كتب في موضوع رحلتهم من كتب او تقارير ، ثم يدونون خلاصة دقيقة لما رأوا وما علموا ، وما لاحظوا . .

ومن هنا نرى أن « شخصية » المدرس هي أهم ما نعنى بابرازه في طلابنا . ونحن نقوم الآن — مثلاً — بدراسة قانون نظام المدارس الحالي وهو قانون قديم يرجع الى اول هذا القرن ، ونصنع دستور المدرسة الحديثة مسترشدين بتجاربنا ، وبآخر ما وصلت اليه النظم الاوربية في هذه الناحية . وبعد أن نظهر في طالبنا «شخصية المدرس» التي ذكرنا ، نوجه كل قوته إلى حب الطفولة لكي يطبق عليها دراساته في رضى واقبال. فالطفل عندنا مقدم على المادة . والطفل هو الذي يكيف نظرية التربية ، لا النظرية هي التي تكيف الطفل. ولهذا فنحن ندرس علم النفس التجريبي دراسة عميقة . ونضيف اليه مادة جديدة هي مقاييس الذكاء . وقد تمكنا خلال السنوات الخمس الماضية من اجراء مباحث ممهدة في هذه الناحية ، وطبقناها على آلاف التلاميذ في جميع مراحل الدراسة ، وحصلنا بعد مجهود متواصل على مقاييس دقيقة تصلح لكل سن

وكان توزيع التلاميذ في الفصول يجري قديماً بحسب ترتيب الحروف الابجدية فيجلس التلميذ الموهوب بجانب الشاذ ، ويجلس الشاذ بجانب الغبي ، ويؤدي هذا النظام الى الهبوط بمستوى الدرس الى درجة توافق الضعيف ، فتكون النتيجة ان يستهين التلميذ الموهوب اول الامر بدرسه ، فيهمل ، فيؤذى ويعاقب ، فيفقد الثقة بنفسه ، وبذا تنطفىء لمعة ذكائه

اما الآن ، وبعد ان اوجدنا النظم التي تمكن بها من تقسيم الاطفال بحسب استعدادهم العقلي ، فقد استطعنا ان نوزعهم طوائف متقاربة تفصل كل واحدة منها عن الأخرى ، وتلقن كل طائفة من العلم ما يوافقها

وقد تحدثوا في مصر طويلاً عن الشواذ . والحث الملحون في وجوب عمل شيء من اجلهم. والحقيقة ان الشذوذ في الاطفال يرجع الى ضعف في العقل ، او في الجسم . ومن حق الامة على الدولة ان تعنى بهؤلاء الشواذ . فنظام التعليم الاجباري يقضي بان يتعلم الجميع . ولذا ينبغي ان تكون لدينا مدارس للأعمى والكسيح والأبكم. وان يلقن هؤلاء من العلم ما يوافق حالاتهم ، مع العناية المبكرة بتقديم العلاج لهم ان كان في الاستطاعة علاجهم لان كثيراً من هذه الحالات

تستعصي على الطب لاهمالها . هؤلاء هم الشواذ جسماً . اما شواذ الذكاء فينبغي ان يكون لهم نظام خاص لكي يوجهوا توجيهاً نافعاً ، صوب الناحية العملية دون الحياة النظرية . وكثيراً ، بل غالباً ما تقوى في قليلي الذكاء المقدرة العملية . . فاذا اهمل هؤلاء ولم تستغل قواهم فان شذوذهم ينمو ، والشذوذ عادةً هو موطن الاجرام .

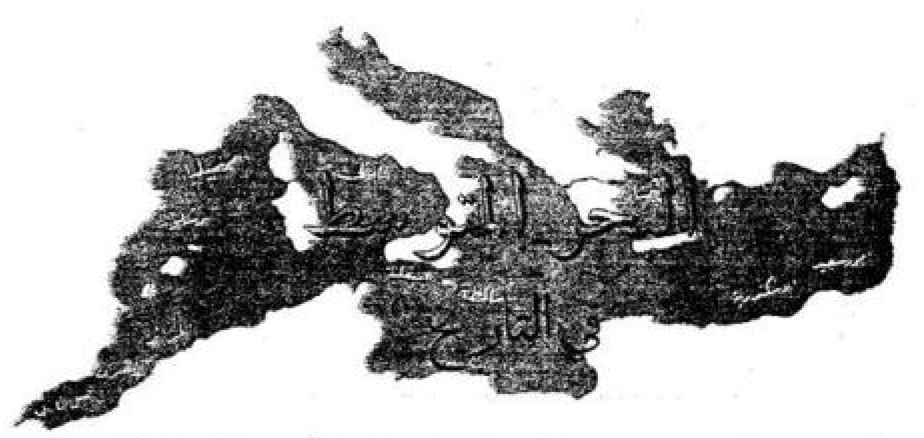
وقد دعانا هذا الاتجاه الى انشاء العيادة السيكولوجية في المعهد ، ومهمتها البحث في الطفل من جميع نواحيه ، ومعرفة نواحي شذوذه ، وهل هي راجعة الى العقل او الحس او الخلق ويبحث القائمون بهذه العيادة مثلاً في بيئة الطفل ، فقد تكون لحياته المنزلية تأثير فيه . فتسعى العيادة الى علاج المنزل نفسه . ولهذا أوجدنا في العيادة ثلاث سيدات يعملنَ في القسم الاجتماعي من العيادة . ويقوم القسم الطبي في العيادة بفحص الطفل فحصاً دقيقاً ، ومعرفة تاريخ امراضه ، وامراض أسرته ، فقد ترجع علتهُ الى وراثة من ابيه او امه ، ثم يقوم المدرس بتفقد نزعات الطفل الخلقية ، لمعرفة اتجاهه الفكري وتقدير استعداده . وكثيراً ما وجدنا ان شذوذ اطفال يرجع الى شجار منزلي بين الاب والام . او الى وفاة او طلاق أحد الابوين او الى معاملة الخدم ، او الى نوع الغذاء او ترتيب المنزل

وفي القسم التجريبي من معهدنا الذي يلحق بهِ الاطفال ، وتسمح لنا وزارة المعارف بأن نطبق نظرياتنا عليهم ، تتجلى فائدة هذه النظم بقوة ووضوح . وقد اكتملت تجارب العاملين في العيادة السيكولوجية ، حتى ليمكن ان نقول انها تشبهُ في مقدرة رجالها وسيداتها ارقى العيادات العالمية وان كان ينقصها الكثير من الاستعداد العملي

وسأذكر لك على سبيل المثال حالة من الحالات الكثيرة التي تمر علينا في هذا الباب . لأحد كبار المصريين ابن ، ظل يتقدم لامتحان الشهادة الابتدائية ثلاث سنوات متعاقبة وهو يرسب وقد فصل من مدرسته ، وأبت المدرسة قبوله بحسب قانون المدارس ، فأشير على الأب بارساله إلينا فجاءنا الولد ، وفحصناه في عيادتنا ، وبعد ان عرفنا السبب في تأخيره ، توليناه بالعلاج ، ثم تقدم الغلام للامتحان في العام الماضي ، فكان أول الناجحين من تلاميذ فصولنا التجريبية

وإذن فمعهدنا يقوم في عمله على الاسس الآتية :

اولاً — العناية بالجسم . ثانياً — العناية بالثقافة العامة . ثالثاً — الرحلات والمشاهدات . رابعاً — المكتبة . خامساً — علوم التربية واهمها علم النفس ، والتربية التجريبية ومنها مقاييس الذكاء . والتربية الطبية وتاريخ التربية . وستدخل مادة جديدة هامة في برامجنا وهي التربية المقارنة Comparative Education . وقد تخرَّج في معهدنا حتى الآن ٩٤ مدرساً ثانوياً ، و١٢٢ مدرساً ابتدائياً . ولكن مما يؤسف أن المجال في تطبيق دراساتهم لا يزال ضيقاً ، لان المدارس تتبع الطرق القديمة . ولكن تبدو قوة متخرجينا في جميع نواحي النشاط الاجتماعي اينما وجدوا



منذ نحو ثلاثين الى اربعين الف سنة كان البحر المتوسط بطائح شاسعة وحراجاً وبحيرات وبراري . وكانت حيوانات الفرس البرّي والمموث والجاموس تجوسها قطعاناً وارجالاً . وكان انسان الكهف في ذلك العصر — كروماغنون — طويل القامة كبير الدماغ يصيدها بحيلته البارعة ويذبحها بأدوات مصنوعة من الصوّان ، فيصنع من جلودها أردية ، ويتخذ من لحمها غذاء ، ويدوّن انتصاراته عليها في رسوم ينقشها على جدران كهوفه

ثم بعد عشرين الف سنة ، تركت قبائل الازيل وصف حياتها ومعيشتها منقوشة على جدران الكهف المعروف بكهف « ماس دازيل » . كان الجاموس والمموث قد ارتدّا الى الشمال ، فصرفت قبائل الازيل همها الى قنص قطعان الفرس البري المتناقصة وارجال الأيائل ، بالقوس والنشّاب . وكانوا يخيطون جلودها بابر من العظم ، ويصيدون السمك في البحيرات والانهار بصنارات من العظم ايضاً ، ويدخنون خلايا النحل لكي يفوزوا بعسلها . وكان انسان البحر المتوسط قد تعلم قبل هذا العهد الملاحة فجعل يطفو على بحيرات مملكته الواسعة ، في زوارق مصنوعة من القصب ومغطاة بالجلود، وكان قد تعلم اختلاف الفصول فجعل يقنص ويصيد ويبذر في الفصول الملائمة لذلك

ثم من نحو خمسة عشر الف سنة الى اثني عشر الف سنة انشقّ الحائل القائم عند اعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) والفاصل بين منطقة البحر المتوسط والمحيط الاطلنطي ، فتدفقت مياه المحيط شرقاً وغمرت البطائح التي كان المموث يجوسها ، والمراعي التي كان الفرس البرّي يعيش على عشبها . ومضت المياهُ في تدفقها وامتدادها ، حتى وقفت عند جبال الاطلس والسيرا نفادا واسناد الالب والبرينيه وسفوح الابنين وسلسلة طورس العظيمة . فنشأت عن ذلك شواطىء اليونان

(١) The Dangerous Sea صدر من نحو شهرين كتاب انكليزي عنوانه « البحر الخطر : او البحر المتوسط ومستقبله » للكاتب السياسي الانكليزي جورج سلوكومب ونشرته دار هتشنصن . وقد استخلصنا هذا المقال من فصله الاول

المسننة ، وقدم ايطاليا . غمرت المياه بلاداً تكثر فيها الآكام في منطقة بحر ايجه فلم يبق من الآكام الاّ قممها وهي جزائر الارخبيل وعجزت عن ان تغمر جبالاً اخرى ممتدة من الغرب الى الشرق فكانت كورسيكا وسردينيا وصقلية ومالطة وكريت وقبرص . وكذلك حدّدت هذه الامواه المتدفقة جانباً حدود القارات الثلاث اوربا وافريقية واسيا

وقدر لشواطىء هذا البحر المتوسط بين ثلاثة قارات ان تصبح ، منشأً ومقرًّا لطائفة من اشهر الحضارات في التاريخ المدوَّن ، زهت هنا وعظمت ثم دالت دولاتها ودرست معالمها ، ولم يبق منها الاّ بعض الآثار العجيبة . ان اقدمها متغلغل في جوف الزمان ، بدأت تسفر عنهُ الكتابات المسمارية في الواح اللبن في بلاد الرافدين وأحدثها كأنهُ من بنات الامس الغابر على الرغم من الفي سنة تفصلنا عنهُ

الى شواطىء هذا البحر المتوسط ، توافدت جماعات من الغزاة فأنشأت دولة أثر دولة في مصر ، وامبراطورية أثر امبراطورية في بابل ونينوى . فلما حكم حمورابي في بابل كان الفينيقيون الساميون ، قد رسخوا اقدامهم في صور وصيدا وغيرها من الثغور التجارية العظيمة على سواحل هذا البحر الشرقية . كانت سفنهم بأشرعتها القرمزية ، قد عبرتهُ طولاً وعرضاً . بل كان الفينيقيون قد انشأوا مستعمرات في اسبانيا وبلاد الغال وعلى شاطىء افريقيا الشمالي أسّسوا المدينة التي اصبحت فيما بعد عاصمة لامبراطورية قرطاجنة . ثم اجتازوا بأشرعتهم اعمدة هرقل واتجهوا شمالاً محاذين شواطىء اسبانيا وفرنسا الى سواحل بريطانيا . وقبل ان ينقل البحّارة اليونانيون والجنود الرومانيون اصول الحضارة الى سواحل هذا البحر الغربية ، كان الفينيقيون قد باعوا سكان تلك السواحل عطوراً وخموراً وأفاويه ، لقاء نحاس أسبانيا وقصدير كورنوال (مقاطعة بريطانيا الجنوبية)[1]

وليس في التاريخ ، أدلة أقوى على زوال الامبراطوريات ، وعدم استقرار الحضارة ، من الادلة التي يستخرجها الباحث في تاريخ البحر المتوسط . لقد شهدت مياهُ هذا البحر ، الحضارة الايجية العظيمة وقد بلغت ذروتها وأوج مجدها في ميسيني وطروادة وفي كنسوس عاصمة الدولة المينوية في كريت حوالي ٢٥٠٠ ق . م . ثم جاء اليونان الآريون فدمّروها . وشهدت كذلك مفاخر الحضارة المصرية ترتفع وتنخفض ثم ترتفع وتنخفض ثانية . هوذا طوائف الغزاة من قلب اسيا ، تؤسس في بلاد الرافدين حضارة عظيمة الشأن ثم لا تلبث ان تبلى بطائفة اخرى من الغزاة تغلبها على امرها ، فتدمّر ما بنت ثم تقيم على الانقاض حضارة جديدة . فالامبراطورية الاشورية العظيمة ، امتد سلطانها وعظمت شوكتها حتى استطاعت ان تطرد من مصر غزاتها الاثيوبيين ،

(١) حدثنا بعض من اتيحت لنا مباحثتهم في اثناء الصيف الماضي في انكلترا ، ان بعض النباتات الخاصة بمقاطعة كورنوال لا تزال تحمل في ثنايا اسمائها بعض الاصول الفينيقية

ولكن لم تلبث حتى سقطت امام جموع الماديين والفرس . هوذا فجر بركليس وعصره ينبلج على اثينا ولكن اسكندر ذي القرنين يشيد امبراطوريته على انقاض الجمهوريات اليونانية . لقد امتدَّت الامبراطوريات التي أُسست على شواطىء هذا البحر، الى المحيط الاطلنطي غرباً، والمحيط الهندي شرقاً . ان مرافئهُ كثيراً ما ازدحمت بالغنائم والاسلاب من افريقية وآسيا . ومن موانيهِ المحتشدة ، أقلعت السفن الاولى التي دارت حول رأس الرجاء الصالح ، وشقت الطريق الى العالم الجديد . ان تأثير احدث حضاراتهِ القديمة — اي الحضارة اليونانية والرومانية — لا يزال ماثلاً في علمنا وفننا وقانوننا الى يومنا هذا

ولا ننسى ان شواطىء هذا البحر شهدت قيام اعظم ديانتين في تاريخ العالم ، ديانة السيد المسيح ، وديانة النبي الكريم ، بل كثيراً ما كانت سواحلهُ ميداناً للنزاع بينهما ، وكأن الزمان نفسهُ وقف عن المسير، منتظراً ما يسفر عنهُ هذا النزاع

***

ان اعظم المعارك البحرية في التاريخ نشبت حتى اوائل القرن العشرين ، في مياه البحر المتوسط او في جوارها . ففي سنة ٤٨٠ ق . م . هزِم اسطول زركسيس في خليج سلاميس على ايدي اليونان . وفي السنة التالية أجهز هؤلاء على البقية الباقية منهُ في ميكالي ولم تنقضِ اربع سنوات حتى تغلب اسطول الاترسكيين على اليونان في صقلية . بل ان النزاع الطويل بين دويلات اليونان وهو المعروف باسم حرب البلوبونيس (٤٧١ — ٤٠٤ ق.م) كان في الغالب نزاعاً غرضهُ انتزاع السيادة البحرية من الاسطول الاثيني . وما اهلَّ نجم الاسكندر ذي القرنين ، وبدأ سيرهُ الظافر [illegible] خصماً [illegible] زحفهُ على جيش دارِيوس الفارسي . فلما بدأ النزاع بين قرطاجنة وروما، وقد كانتا دولتين بحريتين ، احتشد التاريخ البحري للبحر المتوسط ، بالحوادث الجسام والمعارك الكبيرة . ففي سنة ٣١ ق.م. نشبت اعظم معركة بحرية في العالم القديم هي معركة اكتيوم . وفي المياه نفسها ، عند خليج ليبانتو نشبت اعظم معركة بحرية في العصور المتوسطة (معركة ليبانتو سنة ١٥٧١) وقد ظلَّت هذه المعركة البحرية اعظم المعارك البحرية في الثمانية عشر قرناً من التاريخ المسيحي حتى كانت معركة الطرف الاغر في مستهلّ القرن التاسع عشر

فقد تبدَّد حلم نبوليون بانشاء امبراطورية شرقية عظيمة كسحابة صيف ، لانهُ لم يملك أعنة القوَّة البحرية في البحر المتوسط . ان انتصارات الاميرال نلسن الباهرة ، ختمت قرناً كانت فيهِ مياه هذا البحر، مسرحاً للقرصان. ولم تر مياه البحر المتوسط معركة بحرية بعد ان نشبت معركة نافارين التي غلبت فيها اساطيل تركيا ومصر، سنة ١٨٢٧ ، الى ان كانت سنة ١٩١٤ اذ افلت الطرادان الالمانيان

غوبين وبرسلو من اساطيل الحلفاء وحاولتا ان تتحدّى سيادتها عليه

ليس في العالم رقعة من الماء تشبه البحر المتوسط أو تقاربهُ في عدد الشعوب المتصلة بتاريخه. ان فجرهُ يتبلج اليوم، كما كان يتبلج في العصور الغوابر، على العربي واليوناني، اليهودي والمصري، الايطالي والصقلي، الاسباني والتركي والفرنسي. ان الرجال والنساء الذين يعيشون على سواحله يكادون يؤلفون طرازاً خاصاً من الناس، لاشتراكهم في بيئة واحدة وغذاء متماثل واعمال ومصالح متشابهة، ولاختلاط دمائهم بعضهم ببعض خلال عصور طويلة

***

جذب البحر المتوسط الغزاة اليه من فجر التاريخ، القوط والفاندال من الشمال، والهون من الشرق، والغاليين والفرنك والنورس من الغرب والشمال الاقصى. ولولا فترة قصيرة استولى فيها الاثيوبيون على وادي النيل، لقلنا ان الزنوج وحدهم دون سائر الشعوب امتنعوا عن الانقياد لسحره. منذ فجر التاريخ شقت مياههُ مجاذيفُ شعوب استقرّت في تركيبها وطبيعة بيئتها بواعث الهجرة وحب المغامرة كالفينيقيين واليونان والقرطاجنيين. وقد كان الاتجاهُ في التجارة والهجرة حتى القرن الماضي، الى الغرب، ولذلك كان مضيق جبل طارق، وهو باب البحار القديم الى المحيط الاطلنطي، هدفاً للمغامرين في ايام اليونان والرومان. فبلدان غال وايبيريا (اسبانيا) وسواحل افريقية من قرطاجنة الى المحيط، اغرت الشعوب المزدحمة في شرق البحر، بخصبها وغناها وسعتها

نعم ان مسالك التجارة والادارة والمواصلات الامبراطورية، اتجهت في امبراطوريتي الاسكندر واغسطس شرقاً وغرباً، ولكن في خلال القرون المظلمة التي تلت سقوط روما وبزنطة، اتجه مركز السيادة في البحر المتوسط الى سواحله الشرقية. فبعد أن اتخذت الامبراطورية العثمانية القسطنطينية (الاستانة: استانبول) عاصمة لها، جعلتها مركزاً، سيرت منهُ الجحافل فاكتسحت مصر وفارس والجزيرة وشمال افريقية الى المحيط الاطلنطي. فأصبحت تونس، وهي قرطاجنة القديمة، والجزائر وطنجة ولايات تابعة للسلاطين. وأصبح البحر بحر قرصان. وحاول الصليبيون بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ان يردّوا موجة التوسع العثماني المتجهة من الشرق الى الغرب ولكنهم عبثاً حاولوا. ولم ينحصر ضعف الدول المسيحية المفرقة المتعادية في البر، بل شمل البحر كذلك. ففرسان مار يوحنا الاورشليمي، خذلوا امام العثمانيين. واخلوا عكاء ثم رودس. ولم تبق قبرص في ايدي البندقيين الاّ بعد تسليم البندقية للعثمانيين بكثير مما يطلبون

وكذلك كانت الدولة العثمانية في ايام سليمان القانوني، قوة بحرية لا تبارى من سواحل

سوريا الى شواطىء اسبانيا . وحاول الامبراطور شارل الخامس ان يخرج القرصان من تونس والجزائر ، فارتدّ خائباً من الجزائر بعد ان اقام في تونس حامية استسلمت للخصم في ملك ابنه فيليب . اما جزيرة مالطة التي تراجع اليها فرسان ماريوحنا الاورشليمي ، فحوصرت حصاراً طويلاً . وكذلك ظلّت سيادة العثمانيين البحرية على البحر المتوسط ، الى أواسط القرن السادس عشر ، عند ما نشبت معركة ليبانتو ، ففازت فيها أساطيل أسبانيا

***

ولو شاءت أسبانيا حينئذٍ او لو عرفت ان تغتنم الفرصة ، لكانت السيادة في البحر المتوسط لها . ولكن امراء البحر الاسبانيين ، كانوا شديدي الانشغال ، بعد معركة ليبانتو ، بحماية السفن المحملة بكنوز جزائر الهند ، والسفن الناقلة للجنود الى هولندة الاسبانية ، والسفن التجارية الآتية من هولندا الى أسبانيا . وشغلهم علاوة على ذلك عزمهم على مناوأة بحارة الملكة اليزابت بعد ان وجدوا البحر مسرحاً لما في نفوسهم من حب المغامرة والتوسع . كذلك حال الاستعداد للحملة العظيمة التي رغب فيليب الثاني ملك أسبانيا في تجريدها على انكلترا ، دون التفاته الى البحر المتوسط . فاستغرقت كلّ تفكيره ، واستنفدت معظم ماله ، فكان البحر الذي يغسل شواطىء أسبانيا وايطاليا ، ويؤمن مواصلاته الى جنوى ونابولي وصقلية كان خارجاً عن نطاق تصوّره الحربي ، او نطاق مطامعه الواسعة . لم يكفه ما ورثهُ عن والده من سيطرة وألقاب وضحّى بثمار الانتصارات التي أحرزها اخوه «الدون جون» في البحر المتوسط ، لانهُ كان يطمح الى السيطرة سيطرة روحية وعسكرية على شمال اوربا

ولكن هزيمة اسطوله في تلك المعركة البحرية العظيمة عند شواطىء هولنده ، في سنة ١٥٨٨ عند ما اشتبك اسطولهُ بأسطول الملكة اليزابت الانكليزية في معركة الارمادا الاسبانية المشهورة ، بدّد هذا الحلم الجميل . ثم تلا ذلك تدمير البقية الباقية من اسطوله على شواطىء اسكتلندا وارلندا الجافية ، فأصبحت أعظم دولة بحرية في البحر المتوسط في ذلك العهد ، وهي لا تستطيع ان تشقّ عبابهُ بسفنها خشية القرصان ، مع ان ذلك البحر كان في قبضتها لو شاءت

ثم جاء قرنان على هذا البحر ، والسيادة فيه ليست لدولة من الدول . ذلك ان قوّة الدولة العثمانية كانت قد ضعفت ومعها قوّة البندقية ، وأصبح البحر مسرحاً للقرصان وظلّ كذلك الى خاتمة القرن الثامن عشر ، عند ما ظهر أثر القوّة البحرية الانكليزية في تأمين مواصلاته ، ولكن الاسطول الانكليزي لم تتمّ لهُ السيادة على هذا البحر ، الاّ بعد ما غلب نبوليون على أمره ، وقد ظلّت لهُ هذه السيادة الى عصرنا الحاضر ، ولولا تحدّي ايطاليا لهُ في أواخر سنة ١٩٣٥ لقلنا انها لا تزال لهُ الى يومنا هذا

الكهارب الموجبة

او البوزيترونات

وجائزة نوبل الطبيعية

منحت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٦ للاستاذين هس النمسوي واندرسن الاميركي . والسرّ في الجمع بينهما وتقسيم الجائزة عليهما ان مباحث الاول أفضت بالثاني الى الكشف عن دقيقة من الدقائق الكهربائية الأساسية في الطبيعة ونعني الكهرب الموجب أو البوزيترون . فالأستاذ هس رائد الباحثين في الأشعة الكونية عالجها قبل الحرب الكبرى ، ثم توفر عليها بعدها فريق من الباحثين في مقدمتهم العلامتان ملكن وكمتن الاميركيان . وكان اندرسن يساعد ملكن في أحد مباحثه فوقع على صورة تبيّن فيها شيئاً إدّاً ، فأدرك مغزاهُ في الحال وتابع البحث فيه الى ان أسفر ذلك الشيء الإدّ عن الكهرب الموجب

كان السائد حتى سنة ١٩٣٣ عندما اكتشف البوزيترون ان الدقائق الأساسية في المادة أو في تركيب المادة الكهربائي ، هي الكهارب وشحنتها سالبة والبروتونات وشحنتها موجبة . وكان الرأي ان شحنة الكهرب تعادل شحنة البروتون ولكن كتلة البروتون تفوق كتلة الكهرب نحو ١٨٠٠ ضعف . وعلى ذلك كانت الذرّة مركّبة من كهارب وبروتونات ، فنواة الذرّة قوامها مجموعة من الكهارب والبروتونات في كتلة مركّزة وحولها كهارب متحركة . ثم كشف عن دقيقة أخرى دعيت النترون أي المحايد Neutron وقيل انها مؤلفة من كهرب واحد وبروتون واحد ، فشحنة الواحد تبطل فعل الشحنة المقابلة في الآخر لان الاولى سالبة والثانية موجبة ، وكذلك يتاح لهذه الدقيقة ان تخترق المواد لانها لا تخضع لفعل المجال الكهربائي

في سنة ١٩٣٠ كان العالمان الالمانيان بوث Bothe وبكر Becker يطلقان دقائق الفا على لوحة من معدن البريليوم . فكانت الدقائق المسدّدة الى تلك اللوحة تصيب بعض نوى البريليوم فتطلق هذه من تلقاء نفسها اشعة غريبة شديدة النفوذ . فظنّ بوث وبكر ان هذا الاشعاع من

قبيل اشعة غمّا التي تخرج من الراديوم وانما تفوقها طاقة وقوة اختراق . وفي سنة ١٩٣١ قام الاستاذ جوليو الفرنسي وزوجته (كريمة مدام كوري) بتجارب من قبيل تجارب العالمين الالمانيين فوضعا حوائل من مواد مختلفة بين البريليوم الذي تنطلق منهُ هذه الاشعة وغرفة التأيين (Ionization Chamber وهي اداة تستعمل لقياس قوة الاشعة بعدد ما تحدثهُ في غاز معيَّن من الايونات او الشوارد كما دعيت) فوجدا انهُ اذا كان الحائل من مادة فيها غاز الايدروجين كمادة البرافين زاد عدد الايونات المتولد في غرفة التأيين وهو غير منتظر بل المنتظر أن يحجب هذا الحائل بعض الاشعة الصادرة من معدن البريليوم . ويعلَّل هذا الفعل بان الاشعة الصادرة من البريليوم تصيب بعض ذرَّات الايدروجين في البرافين فتطلق بروتوناتها بسرعة ١٨ الف ميل في الثانية . فحسبا انهُ اذا كانت اشعة البريليوم امواجاً فطاقتها يجب ان تكون ٥٠ مليون « الكترون فولط »

هنا ظاهرة عجيبة تثير الدهشة لان المواد المشعة لاتطلق دقائق لها طاقة تزيد على ستة ملايين « الكترون فولط » . اي ان البريليوم يطلق اشعة تفوق طاقتها عشرة اضعاف طاقة الاشعة المسدَّدة اليه . وهذا غريب ! ففرض جوليو وزوجتهُ ان هذه الاشعة المنطلقة من البريليوم امواج ، وانها في قصرها وشدة نفوذها تقع بين اشعة غمّا التي تخرج من الراديوم وبين الاشعة الكونية

وقرأ شدك الانكليزي عن هذه التجارب ، فعمد الى انابيب قديمة من الراديوم كانت قد اهديت اليه بعد ما فقد الراديوم فيها خواصهُ العجيبة ، فاستخرج منها عنصر البولونيوم وهو يختلف عن الراديوم في انهُ لا يطلق الاَّ دقائق الفا حالة ان الراديوم يطلق مع دقائق الفا دقائق بيتا واشعة غمّا . وكان يعلم ان طاقة دقائق الفا ٦ ملايين « الكترون فولط » . وليس معها دقائق اخرى تشوش الانتاج . فاذا كانت هذه الدقائق تستطيع ان تقذف من البريليوم اشعة طاقتها ٥٠ مليون « الكترون فولط » فهو امام ظاهرة عجيبة جديرة بالبحث حرية بالعناء في سبيل فهمها وتفسيرها

اطلق شدك دقائق الفا من عنصر البولونيوم على البريليوم ، ووضع وراء لوحة البريليوم حائلاً من النتروجين ، فكانت الاشعة المنطلقة من البريليوم على النتروجين عنيفة كل العنف ، قاسها في غرفة التأيين فوجدها تحدث ٣٠ الف ايون . هنا توقف شدك وقال : لو كانت مقذوفات البريليوم التي اصابت النتروجين اشعة من طاقة ٥٠ الف « الكترون فولط » لما استطاعت ان تحدث هذا العدد من الايونات بحسب القواعد المسلَّم بها . بل لما استطاعت ان تحدث اكثر من ١٠ آلاف ايون . ولكن اذا فرض ان مقذوفات البريليوم هي دقائق مادية كتلتها ككتلة

البروتون وتسير بسرعة تعدل عُشر سرعة الضوء فاحداثها ٣٠ الف ايون في غرفة التأيين يصبح امراً معقولاً . ثم اذا فرض ان هذه الدقائق متعادلة الكهربائية ولا تتأثر بالجذب فمندئذٍ يمكن تعليل قوة اختراقها للمواد على اوفى وجهٍ

وكذلك كشف النترون او « الحايد » وكان اللورد رذرفورد قد تنبأ بهِ قبل عشر سنوات

اما الكهرب الموجب فلهُ قصة اخرى . ذلك ان الاستاذ كارل د. اندرسن Anderson كان يبحث في الاشعة الكونية . والاشعة الكونية شديدة النفوذ تخترق لوحاً سمكهُ بضع اقدام من الرصاص . ولكنها تعيي الباحثين فلا يستطيعون درسها مباشرة . ولذلك يعمدون الى فعلها في دقائق الهواء . ذلك ان هذه الاشعة تصيب بعض دقائق الهواء فتؤيّنها (اي تزيل جانباً منها فيصبح الباقي ولهُ شحنة كهربائية) وفي سنة ١٩٢٩ حاول العالم الروسي سكوبلزن Skobelzyn ان يصوّر مسارات الاشعة في غرفة غائمة [١] وتبعهُ ملكن واندرسن فحسّنا الطريقة واتقناها وصوّرا بها مسارات الاشعة الكونية كما يدل عليها اصطدامها بدقائق الهواء في غرفة غائمة . في هذه الصور لاحظ اندرسن عدا مسارات الاشعة الكونية خطوطاً مزدوجة ومنحنية . فاسترعى نظرهُ اولاً ان هذه الخطوط المنحنية لا تكون الاّ ازواجاً . وثانياً ان احدها منحرف الى اليمين والآخر الى اليسار . اي ان احدها سالب والآخر موجب . وتبيّن عند البحث ان الخط السالب المنحني انما هو الكترون . ولكن لم يستطع احد ان يعلّل الخط الموجب . ذلك ان اصغر وحدة للكهربائية الموجبة عرفت حتى ذلك الوقت ، انما كانت البروتون . وكتلة البروتون تفوق كتلة الالكترون ١٨٥٠ ضعفاً . فاذا كان الخط الموجب يمثل البروتون فيجب ان يكون انحرافهُ اعظم جدًّا من هذا الخط البادي في الصورة

فقال اندرسن في نفسهِ ، ان البروتون ليس صنو الالكترون بل ان صنوه دقيقة أخرى أصغر من البروتون كتلتها مثل كتلة الالكترون وشحنتها موجبة بدلاً من ان تكون سالبة . ودعا هذه الدقيقة البوزيترون . ثم توالت التجارب فأيدت اكتشاف اندرسن واشهرها التجارب التي قام بها بلاكت واوكياليني في كمبردج

وقد اختلف العلماء في تسمية هذه الدقيقة فقال بعضهم ان لفظ بوزيترون قد يشوّش الذهن الاّ اذا تخلينا عن لفظ الكترون وسميناه نغاترون حتى يقابل بوزيترون تماماً . ونحن نستطيع ان نتغلب على هذه الصعوبة فنسميهما الكهرب الموجب (البوزيترون) والكهرب السالب (الالكترون)

---

(١) الغرفة الغائمة طريقة ابتدعها العالم الانكليزي ولسن تمكن الباحثين من تبين مسارات الدقائق التي لا يمكن ان ترى بما تكونه من نطيرات الماء في الطريق الذي تسلكه

مذاهب الفلسفة الرئيسية

لفليمون خوري

الفلسفة عبارة عن اسمى ما وصل اليه العقل البشري من الآراء والافكار في البحث عن حقائق الكون وازاحة الستار عن اسرار الوجود . وانا اذا التفتنا الى درجة المعارف والعلوم التي استطاع الانسان بلوغها الى اليوم نجد انهُ قد جاء حقاً بالغرائب المدهشات فما هي هذه الفترة اليسيرة من الزمن منذ فجر تاريخ العلم والفلسفة الى يومنا الحاضر بالقياس الى الادوار التي سوف يمرّ عليها في مستقبل الايام

وفي الفلسفة كما في ايّ من العلوم والفنون مذاهب متباينة ان لم تكن متناقضة وقد نشأت فيها المذاهب منذ اول عهد الفلسفة اليونانية وكان اولها ما يتعلق بمادة الكون الاصلية العامة التي ذهب اول فلاسفتهم طاليس الى انها الماء . واعتقدها غيره الهواء . وذهب هرقليط الى ان النار مصدر العناصر . أما امبدوكليس فزعم ان المادة الاصلية لا توجد الاّ مركبة من العناصر الاربعة معاً وهي التراب والماء والهواء والنار . ثم ما لبث ان أضاف اليها عنصراً آخر الاّ انهُ غير مادي زعم انهُ الحب وهو القوة المحركة الكامنة وراء العناصر المذكورة كلها . وان اضافة هذا العنصر الروحي الى العناصر الاخرى يعد خطوة كبيرة في عالم الفلسفة

ثم كان مذهب التغير والثبوت . وهما موضوع حوار عنيف قام بين المدرسة الايونية صاحبة مذهب التغير والمدرسة الايليائية القائلة بمبدأ الثبوت . وموضوع الحوار هو : هل مبدأ الوجود ثابت او متغير . وكان القول الفصل في ذلك للوسيبوس وديمقراط مؤسسي مذهب الذرات . وقام بعدهم اهل السفسطة والجدل يحاولون هدم حصون المعرفة وتقويض اركانها . وقد كان يخشى كثيراً على دعائم الفلسفة ان تهدّم لولا ان قام الفيلسوف سقراط يناضل عنها نضالاً شديداً حتى ردّ الخصوم على أعقابهم وشيد مبادىء الفلسفة وعلم الاخلاق على أسس ثابتة ودعائم متينة لا تزال تذكرها لهُ الاجيال بكل اعجاب واطراء . ثم كان مذهب افلاطون العقلي يقابلهُ من

الجهة الثانية مذهب ارسطاطاليس العقلي — المادي . وقد كان افلاطون يزعم ان الوجود الحقيقي هو لعالم العقل او الصور العقلية فقط وما عالم المادة الاَّ تابع لا شأن لهُ . فذهب ارسطاطاليس الى ان الصورة والمادة معاً هما شيئان متلازمان لا ينفصلان ولا يستقل احدهما عن الآخر . فعالم المحسوس اي الذي يتركب من الصورة والمادة هو العالم الحقيقي لا العالم العقلي وحده كما زعم افلاطون . هذا ولا يجهل انسان مادار من المناقشات الخطيرة بين الرواقيين والايقوريين مما لا يزال لهُ صدى كبير واثر بيّن الى يومنا هذا ولكل من هذين المذهبين انصارهُ ومؤيدوه في كل عصر

بيد أن هذه المذاهب جميعها لما كانت لا تستند الى حقائق علمية ثابتة اذ لم يكن حينذاك ما يسمى علماً بالمعنى الصحيح ظلت متقلقلة مضطربة لا يعول عليها . لذلك نرى ان مذاهب الفلسفة لم تتخذ صفة ثابتة راهنة الى ان كان العصر الذي توالت فيهِ الاكتشافات والحقائق العلمية الراسخة وذلك في اواسط القرن السابع عشر فما بعده ومن هذا العهد يبتدىء دور الفلسفة الحديثة او دور التجديد الفلسفي

اما مسائل الفلسفة التي أخذت تشغل عقول ارباب الفلسفة في الدور الحديث فعديدة اهمها مسألة الوجود المطلق . ومادة الكون الاصلية . والعالم الخارجي . ومنشأ العقل وماهيتهُ . ومصدر المعرفة . وحرية الارادة . والقوة الادبية او الضمير وما شاكل . والفلاسفة في هذه المسائل فرق وطوائف فنهم اصحاب المذهب العقلي (Rationalism) مثل دكارت وليبنتز وسبينوزا وكانت . وهم الذين يقولون ان مصدر المعرفة العقل . يقابلهم من الجانب الآخر اصحاب المذهب الحسي (Sensationalism) وهم الذين يزعمون ان الحس اساس كل معرفة ولا يمكن ان تحصل معرفة الاَّ عن طريق الحواس . وقد أدى هذا الاختلاف النظري في اصل المعرفة الى نظريات وآراء متباينة كل التباين في الادوار الفلسفية التالية . وهناك اصحاب المذهب التصوري (Idealism) اي الذين يقولون ان العالم الحقيقي هو غير العالم الذي تدركهُ الحواس فالحواس لا تدرك الاَّ بعض ظواهر المادة واوصافها فقط اما . المادة نفسها فلا سبيل مطلقاً الى معرفتها ومن هؤلاء كانت وهيوم وهملتن وسبنسر وميل وغيرهم . يقابلهم من الجهة الاخرى اصحاب مذهب الشعور او الحس المشترك (Common-sense School) ويذهب هؤلاء الى ان العالم الحقيقي هو ما شهدت بهِ الحواس واتفق عموم البشر عليهِ كما دلت عليهِ البديهة ولا سبيل الى نكرانهِ . وزعيم هذه المدرسة هو الفيلسوف الاسكتلندي توماس ريد وتابعهُ في ذلك الفلاسفة اسوالد وستيورت ومكوش . ومنهم من يرى في القوة سر الوجود بل غاية الوجود وزعيم هذا الرأي هو الفيلسوف نيتشه ولكن اتباعهُ من اهل الفلسفة قليلون . وهنالك من يعتقد ان حقيقة

الاشياء فائدتها العملية — (Pragmatsim) فالفكرة التي تقترن بالنجاح وتؤدي الى المنفعة والخير هي الفكرة الحقيقية ومن هؤلاء نيتشه ووليم جيمس وديوي الفيلسوفان الاميركيان . وديوي هو صاحب التأليف المشهور في « المدرسة والاجتماع » . وهناك مذاهب وآراء متنوعة غير ما ذكر . غير ان الغرض من هذا المقال هو الاشارة الى المذاهب الرئيسية في الفلسفة . على اني سأتناول البحث في اهم هذه المذاهب وأشهرها وهما اللذان يدوران حول هاتين المسألتين أصل المعرفة والعالم الخارجي

١ — مصدر المعرفة

اختلفت آراء الفلاسفة منذ القديم في مصدر المعرفة وهل هو العقل ام الحواس وقد انقسم الفلاسفة في ذلك الى فريقين كبيرين فريق يرى العقل مصدر المعرفة ومبدأها وهم اصحاب المذهب العقلي وفريق يزعم الحواس منبعث المعرفة وسبيل الادراك الوحيد ولا سبيل سواه وهؤلاء هم اصحاب المذهب الحسي . في مقدمة الفريق الاول الفلاسفة سبينوزا ودكارت وليبنتز وكانت . اما زعماء المذهب الحسي فهم لوك وهبس وهيوم . وانهُ وان كان هذا المذهب يرجع في اصل نشأته الى عهد فلاسفة اليونان فان مؤسسهُ بالفعل وفقاً للحقائق العلمية الراسخة هو الفيلسوف الانكليزي جون لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤) وذلك حين وضع كتابهُ المشهور « الادراك البشري » الذي أحدث حركة عظيمة في عالم الفلسفة . وقد أبان فيه لوك كيفية حصول الادراك بواسطة الحواس فقط . وهو يرد كل نوع من انواع المعرفة الى الحس البسيط المجرد مؤيداً ادلتهُ بالحقائق العلمية السيكولوجية . ولكن لم يكد ينتشر كتابهُ هذا حتى قام عدد من اصحاب المذهب العقلي يفندون آراءه وينقضون الأسس التي شيد عليها نظرياته ومقدماته

ماذا يقول لوك ؟ يقول ان عقل الانسان عند الولادة يكون عبارة عن صفحة نقية خالية من كل أثر الا انها قابلة التأثر بأي مؤثر خارجي كان او داخلي . وما العقل الا تلك القوة على المقابلة بين الاحساسات المتواردة على الذهن والموازنة بينها او حفظها من حين الى آخر (الذاكرة) ثم انهُ من هذه الخاصية او قابلية الموازنة والمقابلة يتولد الفكر وبواسطة الفكر يستطيع الانسان ان يركب او يحلل ما شاء من تلك الاحساسات المتوالية بغير انقطاع على صفحة الذهن . فكل انواع المعرفة بسيطة كانت ام مركبة تنشأ طبعاً من هذا الاحساس البسيط المجرد . اما ما يدعيه العقليون من وجود اصول اولية في العقل تمكنهُ من ادراك المدركات فانا اذا انعمنا النظر قليلاً نجد ان هذه التي يراها العقليون اصولاً يمكن ردها الى أوليات بسيطة مفردة . فلنأخذ مثلاً قوة التعليل وهي احدى اصول العقليين . كيف تنشأ هذه القوة فينا ؟ انا اذا دققنا النظر نجد

انها تعود في الاصل الى مشاهدتنا للحوادث والاشياء الطبيعية مراراً وتكراراً . ولكون هذه الحوادث تتبع سنناً ونواميس ثابتة لا تتغير فالعقل يجرد من تلك الحوادث الفردية قواعد ومبادىء عامة تتناول تلك الاشياء كلها وتصدق عليها جملة . وهذه القوة على تجريد القواعد العامة تخيلها فينا قوة على التعليل والاستنتاج وما هي في الحقيقة الا نتيجة مشاهدات فردية بسيطة في اول الامر . وعلى هذا النحو يحاول لوك هدم معتقد العقليين في الغرائز والاصول العقلية . فلنر ماذا يقول العقليون :

يقول العقليون انهُ لامر حقيقي ان مبادىء المعرفة تبتدىء باحساسات الحواس ولكن ما قيمة هذه الاحساسات والمؤثرات المتوالية على الحواس بغير قاعدة او نظام ان لم يكن هنالك ما يجمع او يفرق بينها ويرد كلاً منها الى الاصل التي وردت عنهُ . وبالجملة يقيم من تلك الاحساسات المضطربة المختلفة وحدة كاملة صحيحة متسقة . وما اشبه العقل واحساسات الحواس في ذلك بالبناء ومواد البناء . ما قيمة هذه المواد المتفرقة المنتثرة ان لم يكن هنالك بنّاء ماهر يتناولها واحدة واحدة ويجمعها بعضها الى بعض ويرصفها رصفاً منتظماً صحيحاً . ان العقل الانساني لا يمكن ان يكون تلك الاداة الجامدة التي لا وظيفة لها الا اقتبال المؤثرات وانطباعها عليها . بل ان العقل هو تلك القوة الحية الفعالة التي تتناول احساسات الحواس فتتبين ماهيتها وتضبط انواعها وتركبها او تحللها وفقاً لمبادىء واصول فطرية فيه غير مكتسبة من الخارج . وان من هذه الاصول او القوى قوة التعليل والتجريد والاستقراء وما شاكل وهذه هي وسائل العقل لحصول المعرفة حتى في أبسط انواعها وبغير ذلك لا يمكن حصول اي معرفة او ادراك . وان لكل من اصحاب الرأي الحسّي والعقلي أدلة وبراهين لا يتسع المجال لذكرها هنا فمن شاء الوقوف عليها فليراجع مقالنا في مجلة الكلية (المجلد ١٤ العدد ٦) تحت عنوان « المذهب الحسي ازاء المذهب العقلي » يجد تفصيلاً وافياً بالمراد

٢ — العالم الخارجي والمذهب التصوري

لم تشغل مسألة من المسائل عقول أهل الفلسفة كما شغلتهُ مسألة العالم الخارجي ومدار البحث فيها هو هل هذا الوجود الخارجي الذي تمثلهُ لنا الحواس هو عين الوجود في الخارج وهل الحقيقة التي يستخلصها العقل عن الاشياء بواسطة الحواس تنطبق تماماً على حقيقة هذه الاشياء كما هي في الخارج. ان الفلاسفة في ذلك فريقان فريق يرى ان الوجود هو ما شهدت بهِ الحواس وشاعت معرفتهُ بين عموم البشر وهؤلاء هم فلاسفة الشعور والحس المشترك على ما تقدم . وفريق يرى انهُ يستحيل ادراك الحقيقة بالذات بل بعض ظواهرها ومجاليها اما الحقيقة نفسها فمحجوبة

ابداً عنا وهؤلاء هم المعروفون باصحاب المذهب التصوري . اما رأي الفريق الاول فواضح لا يحتاج الى بيان خاص واما الثاني فلا بد من كلمة توضح وجهة النظر فيه

يعزى منشأ الرأي التصوري في الدور القديم للفيلسوف افلاطون. فقد كان من مبادئه اننا لا نستطيع ادراك الحقيقة بالذات او معرفتها تماماً كما هي في الخارج ولكننا ندرك ما يشبه منها ظلالها وخيالاتها . ولافلاطون في هذا الصدد تمثيل جميل يوضح المراد من المبدإ التصوري انما لا يتسع المجال لذكره هنا . بيد انهُ لما كان الرأي الافلاطوني هذا لا يستند الى اساس علمي او حقيقة سيكولوجية واضحة فان هذا المذهب لم يتخذ دوراً جدياً الاَّ في عهد الفلسفة الحديثة وقد نشأ بنشوء الرأي الحسي كما وضعهُ الفيلسوف لوك وبياناً لذلك نقول :

قد كان من مبادىء لوك انهُ قسم صفات الاشياء الى قسمين الاول الصفات الاصلية المختصة بالمادة والملازمة لها غير قابلة الانفصال عنها وقد سماها الصفات الاولية كالصلابة والامتداد والصورة والحركة والجمود وما شاكل . والثاني الصفات التي ليست مستقرة في الاشياء نفسها بل ما يغلب ان يكون قوى او خاصيات في الصفات الاولية من شأنها احداث هذه التأثيرات في الحواس كالالوان والاصوات واحساسات الذوق وما شاكل . وقد دعاها لوك الصفات الثانوية . فالصفات الاولية هي خاصيات ذاتية مستقرة في نفس الاشياء المادية . اما الثانية فليست سوى ادراكات حسية حاصلة داخل النفس لا اشياء خارجة عنها وبعبارة اخرى ان الاولى مادية خارجية والاخرى نفسية باطنية. وقد تناول هذا المبدأ الفيلسوف بركلي الانكليزي (١٦٨٥ — ١٧٥٣) فخطا فيه خطوة واسعة وفاجأ العالم بفكرته الغريبة المدهشة التي احدثت دوياً هائلاً في عالم الفلسفة وهي قوله : اذا كان الامر كما يقول لوك ان بعض خاصيات المادة التي يدعوها ثانوية كالالوان والاصوات وغيرها ليست الاَّ مجرد تأثرات عقلية وادراكات نفسية داخلية لا اشياء خارجية في الاشياء ذاتها فماذا يمنع ان تكون بقية الخاصيات كالاشكال والاثقال والحركة والامتداد وغيرها من الصفات الاولية ايضاً ادراكات وصوراً عقلية لا اشياء خارجية كما نتوهم بل نعتقد

ومحصل رأي الفيلسوف بركلي هذا هو ان غاية ما نستطيع ان نجزم به هو توالي الاحساسات على مشاعرنا والتأثيرات التي نعتقد انها ناشئة فينا عن امور واشياء خارجة عنا . اما اذا كان هنالك اشياء خارجية تنشأ عنها هذه الاحساسات فهذا ما لا يمكننا الجزم به اصلاً فقد يجوز ان يكون هنالك اشياء باعثة على الحس وقد لا يكون

وواضح ان رأي بركلي هذا هو نوع من التطرف في المذهب ولكن كان لهُ تأثير عظيم في تعزيز المبدأ الروحي كما هو ظاهر . اما المتعارف عند اصحاب هذا الرأي فهو غير ذلك. ولعل رأي الفيلسوف كانت هو أقربها الى حقيقة المذهب وخلاصتهُ انهُ لا مندوحة لنا من الاعتراف

بوجود الاشياء في الخارج ولكننا لا نستطيع ان ندرك منها سوى بعض ظواهرها فقط (Phenomena) اما حقيقة الاشياء وماهيتها فذلك ما لا نرجو الوصول الى معرفته البتة وذلك لسببين الاول لان القوى العقلية فينا محدودة لا تستطيع ادراك جميع أوصاف المادة وخاصياتها كما يغلب الظن . والثاني لان العقل باضافة بعض الاجزاء العقلية الخاصة فيه كما تقدم كقوة التعليل والتجريد وما شاكل قد يبعدنا عن الحقيقة ويجعلنا نتصور ما لا حقيقة له في الخارج او ما تختلف حقيقتهُ عن الحقيقة الماثلة لاذهاننا . لذلك فان كانت فصل بين الشيء كما يبدو للحواس وبين الشيء في ذاته او حقيقته وقد سمى هذا الاخير الشيء بالذات Thing-in-itself تمييزاً له عن الشيء كما يظهر للحواس . وقال ان غاية ما نستطيعهُ من حيث المعرفة هو ادراك ظواهر الاشياء فقط اما الحقيقة فستظل محجوبة عنا الى الابد

يتضح مما تقدَّم ان المذهب التصوري ليس ما يعتقده البعض من ان الوجود المادي ليس الاَّ مجرد تخيلات وتصورات عقلية كما يشير اليه لفظ هذه الكلمة Idealism او ظواهر لا تستند الى أشياء محسوسة وجودية . بل ان معرفتنا الاشياء تقتصر على هذه الظواهر فقط كما يصورها لنا العقل . اما حقيقة الاشياء وماهيتها فهي ما لا سبيل لنا الى معرفته بأي الوسائل والطرق وهذه الحقيقة قد أقرها معظم فلاسفة القرن التاسع عشر وفي مقدمتهم كونت وسبنسر ومل وغيرهم وقد سمى سبنسر هذه الحقيقة المحجوبة المجهول (Unknowable) اي الذي لا سبيل لمعرفته

وانا لندهش ويأخذنا العجب لدى اطلاعنا على هذه الأفكار والمبادىء الغريبة التي يقرها أساطين الفلسفة ويؤيدونها بالأدلة العقلية ولكننا اذا تأملنا قليلاً بالمصاعب والأسرار الغامضة التي تحيط بهذه الحقائق ذهب الكثير من عجبنا ودهشتنا . فنحن اذا أخذنا أبسط هذه الاشياء العقلية كالحس مثلاً أفلا نعجب من كيفية حصول ذلك فينا ؟ ان الباعث او المحرك للاحساس مثلاً مهما تقلب وتحوَّل في طريقه الى الدماغ فهو غير الاحساس الناشيء عن ذلك الباعث ولا يمكننا ان نكتشف اي علاقة او شبه علاقة بين المؤثر والاحساس . ففي عمل الإبصار مثلاً ان المؤثر هو حركة تموجية في الأثير اما النتيجة فهي رؤية شيء خارجي ذي لون وشكل واضح وفي مكان محدود . فأي علاقة او شبه علاقة بين المحرك والاحساس الذي قام في الدماغ . كذلك ان الفرق بين اللونين الاحمر والأخضر انما هو في عدد الموجات في الثانية اما النتيجة الحسية فهي الفرق الجسيم بين هذين اللونين فهل من يعلل لنا كيفية ذلك تعليلاً فلسفياً

لذلك فان منشأ حيرة أهل الفلسفة والعلم هو هذا البون العظيم الكائن منذ الأزل بين العقلي والمادي . بين البواعث او المؤثرات المادية والنتائج العقلية على نحو ما تقدَّم . ففي قضية العالم الخارجي مثلاً يهمنا ان نعلم العلم اليقين هل ادراكنا لهذا العالم والصورة الحاصلة في أذهاننا عنهُ

ينطبق تماماً على الحقيقة الخارجية . ألا يجوز ان تكون هذه الاشياء الخارجية والتي نحسبها أشياء محسوسة خارجية عنا هي في الحل الأخير صوراً عقلية لا حقيقة لها في الخارج او ان تكون الحقيقة الداخلية تختلف عن الخارجية

***

ثم ان مسألتي الزمان والمكان والأسباب والمسببات [١] ألا يمكن ان تكون هاتان من وضع العقل كما زعم الفيلسوف الالماني كانت يخلعهما العقل على أشياء وحوادث هذا الوجود ويستخدمهما كوسائل لربط الحوادث والاشياء الطبيعية بعضها ببعض . وفوق ذلك ما أدرانا ان هذا العالم الذي يبدو لحواسنا ووجداننا كعالم جمال وروعة ونظام تام ليس في الحقيقة الا عالم تشويش واضطراب كما تبدو كسر الزجاج الصغيرة المبعثرة في الكالدسكوب آية في الدقة والاحكام كأجمل ما نقش النقاش او رسم الرسام وما هي في الحقيقة الا كسر مبعثرة متفرقة هنا وهناك

ان هذه وأمثالها هي من عقد المسائل التي جعلت أهل الفلسفة يتفرقون طرقاً ومذاهب حتى يحار العقل في مدى ذلك الاختلاف ومبلغ ذلك التباين في الآراء والافكار . ولا يفوتنا في هذا الصدد اشارة الى المذهب المادي المشهور فهذا يدخل ضمناً تحت المذهب الحسي وأصحابه يعرفون بالفلاسفة الحسيين وقد كانت له السيادة التامة على كافة المذاهب الأخرى طيلة القرن الثامن عشر وهو عصر ڤولتير وديدرو وروسو وبايلي ولامتري وكافة الانسيكلوپيذيين الافرنسيين وجميعهم من أهل المذهب الحسي وبلغ منتهى الشهرة والسيادة في اواسط القرن التاسع عشر حين وضع بخنر الالماني كتابه في « المادة والقوّة » . الا انه لم يكتب له ان يعيش طويلاً بعد ذاك . ذلك لان الفكرة الاساسية في المذهب المادي هي الاعتقاد بناموس الضرورة الشامل . اي ان ما هو كائن لا بدَّ ان يكون . فهو كالمبدأ الفلسفي الروحي كلاهما ينافيان حرية الارادة ويجعلان الانسان حكمهُ حكم الاداة اي مجرداً من كل ارادة وحرية — الروحي يجعل الانسان خاضعاً لقوّة روحية فائقة خفية لا يستطيع ادراكها تديرهُ كما تشاء وتصرفهُ على ما تشاء . والمادي يجعله عبداً رقاً خاضعاً لأحكام الضرورة العمياء . ولما كان الانسان يكره ان يرى نفسهُ عبداً رقاً لاي قوّة كانت طبيعية او غير طبيعية فهو يرى ان هذين المذهبين لا ينطبقان على الحقيقة الواقعة ولهذا فلم يعد لهما في نظره تلك المكانة التي كانت لهما سابقاً

هذه إشارة وجيزة الى أشهر مذاهب الفلسفة بقدر ما استطعت استخلاصهُ من آراء أهل الفلسفة ونظرياتهم وربما عدت الى تفصيل بعضها في فرصة أخرى

---

(١) لهاتين المسألتين مباحث طويلة في كتب الفلسفة لا مجال لتفصيلها هنا

العلم في خدمة الانسانية

الغدد والحياة

— ٢ —

اسرار النموّ والشقّ

ثم جاء بانتنغ بالأنسولين، فرأى فيه ملايين من المصابين بالبول السكري، مسيحاً جديداً في رداء باحثٍ علمي . وصف داء « دايبطس مليتوس » (وهو الاسم العلمي لداء البول السكري) من نحو ألفي سنة بأنهُ « يذيب اللحم فيفرز في البول ». ثم من نحو قرنين ونصف قرن اكتشف أحد الباحثين الالمان انهُ مرتبط بالغدّة الحلوة (البنكرياس) . وانقضى قرنان من الزمان قبلما اكتشف لانغرهانس ان في الحلوة طائفة من الخلايا تختلف عن سائر الخلايا في تلك الغدّة . فدعيت هذه الخلايا باسمهِ اذ أطلق عليها « جزيّرات لانغرهانس » . ولكن عملها ظلّ سرّاً مكتوماً الى ما بعد الحرب الكبرى . وفي سنة ١٨٨٩ عمد منكوفسكي الى التجارب في الحيوانات، فسلّ حلوات الكلاب فأثبت انها تصاب بالداء السكري الذي يصيب الناس . أخذ مقداراً من بول الكلاب، التي سلّت غددها الحلوة، وتركه في وعاء في المعمل، ولما تبخر السائل كلهُ بقي في قعر الوعاء مادة جامدة بيضاء . فامتحنها أحد مساعديهِ فوجدها حلوة الطعم فثبت لاول مرّة وجود السكر في بول كلاب سلّت غددها الحلوة. ولكن بعضهم يسند الاكتشاف الى نونين Naunin أحد أساتذة الطب في ستراسبورج ورئيس منكوفسكي، ويروون انهُ لاحظ الذبان يغطُّ على بول كلاب سلّت غددها الحلوة، فحاول ان يعرف ما يجذبها، فذاق البول فوجدهُ حلواً

وفي خلال هذه السنين، كان تشريح جثث المتوفين بالسكري، قد أسفر عن اكتشاف خاص بجزيّرات لانغرهانس . اذ ثبت، انها أكثر أجزاء الغدة الحلوة تنكُّساً degeneration فخلص بعض الباحثين الى نتيجة منطيقية، وهي ان خلايا هذه الجزيرات، تصنع مادة كيميائية تمنع الداء السكري . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الرأي ان عمد الناس الى عمل خلاصة الغدّة الحلوة بأساليب مختلفة، لتعطى شرباً وحقناً للمصابين بالسكري، ولكن هذا الداء ظلّ يلقي يديهِ الثقيلتين على الناس ويسير بهم الى القبر

ولكن تقدم علم الكيمياء مكّن الباحثين من قياس مقادير يسيرة من السكر في الدم قبل ان يتصل عن طريق الكليتين بالبول ، وعلى أساس هذه المقاييس تمكنوا من امتحان الخلاصات التي استخرجت من الغدد الحلوة . ومعرفة قوّتها وفائدتها . واذ كان هذا البحث جارياً على قدم وساق ، عاد جرّاح كندي من ميدان الحرب العالمية في فرنسا ، الى بلاده — ذلك الجرّاح كان بانتنغ الذي اكتشف الانسولين [1]

ما كاد بانتنغ يتمّ بحثهُ الذي اسفر عن اكتشاف الانسولين ، حتى منح جائزة نوبل الطبية ومعاشاً سنويًّا من برلمان كندا قيمتهُ ١٥٠٠ جنيه وانعم عليهِ بلقب سر . الاّ انهُ لم يكن الوحيد الذي عني بهذا البحث ، لانّ غلاي Gley كان قد ترك في سنة ١٩٠٦ ظرفاً مختوماً في جمعية علوم الاحياء الفرنسية ، وفيهِ مذكرة وصف فيها خلاصة حضّرها من الغدة الحلوة ، كان من شأنها تخفيف اعراض الداء السكري ، في الكلاب . ولكنهُ لم يتابع بحثهُ . وفي سنة ١٩٠٨ صنع زولزر Zuelzer خلاصة كحولية من حلوات العجول وعالج بها ستة مصابين بالداء السكري ، ثم اهمل بحثهُ لما اصيب هؤلاء المرضى بحمّى كان من اعراضها الضعف والاعياء العصبي والجوع العظيم وضعف العقل . ونحن نعلم الآن ان الرجل جرّع مصابيه جرعاً من هذه الخلاصة اكبر مما يستطيعون أن يتحمّلوا . حتى الذين يحقنون بالانسولين يصابون بهذه الاعراض ، ان كان مقدار ما يحقنون بهِ منهُ اكبر مما يجب ان يكون . ولذلك قال مكلود قسيم بانتنغ في جائزة نوبل «ولو ان زولزر جرّب تجارب دقيقة بالحيوانات قبل اقدامهِ على معالجة المصابين من الناس لكان في الامكان الفوز بالانسولين سنة ١٩٠٨» . وفي سنة ١٩١١ عمد الباحث سكتّ في احد معامل شيكاغو الى ربط قنوات الغدد الحلوة في الكلاب ، واذ كاد غصن النصر يلتوي بين يديهِ ، أخفق في تفسير بعض النتائج التي فاز بها التفسير الصحيح

انها قصة البحث العلمي في جميع العصور — فرصة تتاح لعقل مهيإ لاغتنامها وفهم ما تنطوي عليهِ ، بما اتيح لهُ من حقائق مستجدّة واساليب مستحدثة للبحث والتدقيق

تتبع آبيل رواية الانسولين من معملهِ في جامعة جونز هبكنز بشغف عظيم ، ولا سيما لانهُ كان يعرف معرفة شخصية جميع الباحثين في هذا الموضوع من ايام لانغرهانس الى يومنا هذا فلما دعاهُ المستر نويز Noyes مدير معامل غايتس الكيميائية بكاليفورنيا ، الى دخول الميدان لبّى الطلب . وكان معهد كارنيجي قد تبرّع بالمال لهذا البحث . فاتجه آبيل من البدء الى غرض عظيم وهو تحضير المادة الفعّالة في الانسولين ، نقية من الشوائب . ولكنه لم ينفرد بالبحث حبًّا بالنصر ، اذا تمّ لهُ ، ان ينسب اليهِ . بل اختار طائفة من الباحثين الشبان ، بينهم الباحث

(١) وفينا قصة اكتشاف الانسولين في كتابنا «اساطير العلم الحديث» فلتراجع هناك

غيلنغ Geiling وكان لهم بمثابة القائد المرشد ، لا يستكثر على نفسهِ ، وهو الباحث المخضرم ، ان يأخذ بآرائهم حيث يجد الرأي على صواب . وكذلك بعد بحث دام سنوات ، تمكن في نوفمبر سنة ١٩٢٥ من ان يقول ، وقد رأى بلورات دقيقة في قعر إنائهِ ، « هذه البلورات هي بلورات توْر الانسولين » وكان وزنها اربعة اعشار الغرام . فامتحنت في الارانب وثبت انها نقية من كل شائبة . ولكنهُ لم يقف عند هذا ، بل مال الى حلها لمعرفة تركيبها الكيميائي فثبت لهُ ان جزيئها جزيءٌ معقد التركيب من البروتين وعبارتهُ الكيميائية كما يلي : C45 H69 O14 N11 S,3 H2O
(كربون ٤٥ ايدروجين ٦٩ اوكسجين ١٤ نتروجين ١١ كبريت.و٣ ايدروجين ٢ اكسجين)

ومن المعروف الآن ان الانسولين التي يمكن استخلاصه من الغدد الحلوة في البقر والثيران والعجول حتى وبعض الاسماك كذلك

ولكن آيبل لم يخطر لهُ ، مع ما تمَّ على يديهِ ، ان يلقي الانبوب ويطرح الاناء ، ذلك بان الانسولين ، لم يكن عقاراً هيّناً . فهو مركّب غير مستقرّ ، واذا اخذ شرباً فلقد تفعل فيهِ عصارات الجسم ، فتحلّهُ وتفوّت الغاية من أخذهِ . وآيبل يريد ان ينقذ المريض من وخز المحقن ، فقال لعلَّ المريض بالسكّري لا يحتاج الى كل جزيء الانسولين . فاذا عرفنا كيف تتركب الذرّات في الجزيء فلعلنا نستطيع ان نفصل منها مالا نحتاج اليهِ في علاج السكّري . وما خطر لهُ هذا الخاطر حتى اشرق وجههُ ، فلم يضيع دقيقة واحدة في تدبير وسائل البحث ، واعداد اساليب التجربة والامتحان ، على الرغم من نخذ مكسورة في حادث اصطدام — ولا يزال آيبل ومساعدوهُ وعشرات من الباحثين في مختبرات تورنتو ولندن وامستردام ووشنطن وهيدلبرج يجدّون في البحث وراء هذه الغاية !

— ٢ —

كان ممن انقذهم الانسولين من الموت ، اميركيٌّ يدعى ايفانز Evans وكان لهذا الاميركي ولدٌ يدعى هربرت مكلين ايفانز تخرّج برتبة دكتور في الطب من جامعة جونز هبكنز سنة ١٩٠٨ ورغب في ان ينصرف الى البحث العلمي . فلما علم والدهُ بنيتهِ قطّب حاجبيهِ ، لانهُ لم يدرك كيف يرتزق الانسان ويثري من البحث العلمي . ولكن لما حلت تحية الانسولين في عروقهِ ، وانقذتهُ من الموت ، آمن وقال « بان هذا الكلام الفارغ لا بأس بهِ » . وكان ايفانز الشاب قد سأل الاستاذ جاك لوب في ما يتوفر عليهِ من موضوعات البحث فقال لوب « لا أرضَ ان تكون كيميائيًّا عاديًّا . شُقّ طريقك ولا تخش ان ترود ميادين ليست من اختصاصك » . وكذلك اخذ ايفانز يتنقل من البحث في موضوع الى موضوع ، كالنحلة تتنقل في الروض من زهرة الى زهرة . بدأ بصرف عنايتهِ الى التشريح ثم عني بعلم الاجنة ، فلما اعياهُ تقطيع الانساج ، رغب في ان

يتبع كلَّ خطوة في نشوء الجسم ، فتلقفهُ البحث البيولوجي في دردوره وقذفهُ في ميدان الغدد

واذ كان بانتنغ يجرب تجاربهُ المشهورة في الكلاب رغبةً منهُ في امتحان الانسولين ، كان ايفانز مكبًّا على الغدة النخمية ، وهي من الغدد الصمّ العجيبة في الجسم . كتلة مستكنة في منخفض داخل الجمجمة عند قاعدتها . عرفها جالينوس وفساليوس وظنّا انها تجهز الجسم بالمخاط ، ثم ظنّ بعضهم ان بين نمو الجسم وعمل هذه الغدة صلة ما. فلما كانت سنة ١٧٨٣ اشترى الطبيب الجرّاح جون هنتر جثة عملاق ايرلندي يدعى تشارلز اوبريان بخمسمائة جنيه ، وكشف عن الغدة النخمية فوجدها في حجم البيضة ، مع ان وزنها في الرجل السويّ لايزيد على نصف غرام . وما انقضى قرن على هذه الحادثة حتى ظهر ان «المملقة» وهي تضخم اليدين والقدمين والانف والشفتين والفكين ، ترتدُّ الى تضخم في الغدة النخمية . وثبت كذلك ان هذه الغدة في الاقزام ، اما انها لم تنم نموًّا سويًّا واما انها متنكسة degenerated

وكذلك أقبل ايفانز على الغدّة النخمية وهمّهُ ان يعلم هل تفرز توراً (هرمونًا) يسيطر على النمو او لا ، فصنع خلاصات مائية من الغدد النخمية المستأصلة من الثيران . وفي سنة ١٩٢٠ جرّب خلاصاته باعطائها شرباً فلم تسفر عن اي نتيجة ، فعمد الى حقنها في صغار الجرذان. ولمّا تنقض عليه بضعة شهور حتى اصبحت هذه الجرذان ، عمالقة بالقياس الى الجرذان السويّة . فلما توقف ايفانز عن حقنها بعد فطامها توقف نموّها الشاذ . ثم اخذ طائفة من الجرذان ونزع غددها النخمية فلم تبلغ في نموّها الحجم السويّ ، فحقنها بهذه الخلاصة فعادت سوية ، وعمد باحث يدعى هوغبن في انكلترا الى استعمال خلاصة من هذا القبيل في السمندل المائي ، فوجد ان التحوُّل فيه اسرع جدًّا مما يقع في السمادل التي لم تحقن بها

اذا كانت هذه العجائب تتم في الحيوان فماذا يحول دون وقوعها في الانسان . أليس تركيب الانوار وفعلها الفسيولوجيّ واحداً بصرف النظر عن الحيوان الذي تستخلص منهُ ؟ أليس الانسولين المستخلص من الغنم كالانسولين المستخرج من الناس والبقر والسمك ؟

فلما حضّر ايفانز خلاصة من الغدة النخمية على جانب من النقاء عمد الى تجربتها في فتاة في التاسعة من عمرها . عهد في التجربة الى الدكتور وليم انغلباك احد اطباء نيويورك . كان قد انقضى على الفتاة اربع سنوات وجسمها لا ينمو . ولكن في سنة ١٩٣١ اعلن الدكتور انغلباك ان قامة الفتاة زادت بوصتين وسبعة اعشار البوصة طولاً بعد علاج بهذه الخلاصة دام ثمانية اشهر. وتبع اطباءُ كثيرون هذا الاسلوب من العلاج فاصابوا نجاحاً عظيماً . ومن حوادثهم ان فتىً دون الخامسة عشرة من العمر زادت قامتهُ ثماني بوصات ونصف بوصة في واحد وعشرين شهراً

وما كادت هذه الحقائق تذاع ، حتى اغرق الناس في التصوُّر ايما اغراق . فقالوا ان الناس

بفعل هذه الخلاصة يستطيعون ان يصبحوا مردة جبابرة . ولكن ايفانز عالم حذر . فلم يطلق لتصوّره العنان . قال : سمعت بعضهم يقول ان الميكادو يستطيع ان يمدّ قامات جنوده بها اذا شاء ، ولكن حتى الميكادو لا يستطيع ان يدفع ثمن الخلاصات اللازمة لذلك . وقد ينقضي عقد من السنين قبل ان نتمكن من معرفة تركيبها الكيميائي ، وعقد آخر قبل أن نتمكن من تركيبها بالتأليف الكيميائي من قطران الفحم . اننا لا نزال على عتبة الباب »

وحتى كتابة هذه السطور ، لم يستخرج هذا التوْر (الهرمون) — ويدعوهُ بعضهم فيون Phyone — نقيًّا من الخلاصة المستخرجة من الغدة النخمية

قبل ان شرع ايفانز في بحثهِ عن توْر النمو في مفرزات الغدة النخمية ، كان الدكتور كوشنغ Cushing احدجرّاحي جامعة هارفرد ، قد أزال اجزاءً من الغدد النخمية في مائتي كلب . فلاحظ وجوهاً مختلفة من التغير فيها ، غير توقف اجسامها عن النموّ . ذلك ان الكلاب سمنت وفترت حركتها وضمرت اعضاؤها التناسلية . ووجد ايفانز ان الخلاصة التي يحضرها تعيد نموّ الجرذان سيرتهُ السويّة ، ولكنها عاجزة عن تنبيه الغدة التناسلية فيها . فأناث الجرذان اذا نزعت غددها النخمية وتزاوجت لا تفرز البيض اللازم للتوالد . ولكن اذا ازيلت الغدة قبل التزاوج بساعة واحدة أفرزتها . ان هذه الحقائق تحمل على الظن ان الغدة النخمية تفرز توْراً آخر — غير الفيون توْر النمو — ينبه الأنثى الى افراز البيض

وأقبل على هذا البحث طائفة من الاعلام . فابتدع ستوكارد وتلميذهُ پاپانيقولاوس اسلوباً للبحث يقيسان بهِ مدى النشاط الجنسي في الحيوان ولا سيما الجرذ . وفي سنة ١٩٢٣ ابتكر فيليب سمث مساعد ايفانز في كاليفورنيا طريقة تمكنهُ باستعمال المكرسكوب المشرّح من الوصول الى الغدة النخمية وانتزاعها بشق في حلق الجرذ . فلما انتزع الغدد النخمية من عدة جرذان ثبت لهُ ان نشاطها الجنسي يضعف ، ولكي يثبت ذلك اخذ جرذاً سُلَّت منهُ غدتهُ النخمية وضعف نشاطهُ الجنسي ، وزرع فيهِ تحت الجلد غدة نخمية سُلَّت من جرذ آخر فعاد اليهِ نشاطهُ الجنسي . على ان زرع الغدة لم يكن ضروريًّا ، لان الحقن بخلاصتها كان لهُ نفس التأثير

الاّ ان اكتشاف هذا التوْر وفعلهُ لا يسند اليهِ لان الباحثين زوندك Zondek وأشليم Aschheim الالمانيين تقدماه اربعة اشهر في نشر النتائج التي وصلا اليها في هذا الصدد ، واطلقا لفظ برولان Prolan على هذا التور النخمي المنبه للنشاط الجنسي وعلاوة على ذلك اكتشف زوندك وأشليم ان حقن بول الحوامل في الفئران يؤثر تأثير الحقن بخلاصة الغدة النخمية . فأفضى ذلك بهما الى اكتشاف اول امتحان يصحّ الاعتماد عليهِ للنسأ اي بدء الحمل . ذلك ان المرأة التي تريد ان تتأكد من انها حامل اوغير حامل لا تستطيع هي ولا يستطيع طبيبها ان

يعرف ذلك الاّ بعد انقضاء شهر او اكثر . لان انقطاع الحيض لا يمكن ان يؤخذ دليلاً اكيداً على الحمل ، ولكن اذا اخذ بول حامل وحقن تحت الجلد في فأرة غير متزوجة ، او ارنبة ، ثم قتلت الفأرة او الارنبة بعد ثمان واربعين ساعة ، وفحصت خلاياها عرف ، من تطوُّر تلك الخلايا او عدم تطوُّرها هل المرأة صاحبة البول حاملٌ او لا . وبهذه الطريقة يمكن تبين النسأ حتى في الاسبوع الثالث ، والاصابة تبلغ ٩٩ في المائة . بل وفي مياه اليابان سمك اذا وضعت في ماء الاناء الذي يسبح فيه قدراً يسيراً من بول حامل ، استطال مسلك مبيضه عشرة اضعافه في خلال اربعة وعشرين ساعة ، فيدل ذلك على النسأ . واذا كانت المرأة غير حامل لم يحدث اي تغيير فيه . ويمكن استعمالهُ ثانية للغرض نفسه بعد بضعة اسابيع

وعلى أثر اكتشاف (البرولان) وهو توُّر الغدّة النخمية الذي لهُ صلة بالجنس ، اكتشف اوسكار ردل الاميركي توُّراً ثالثاً في مفرزات هذه الغدّة نفسها ذلك انهُ غذى طائفة من الحمام بخلاصة من الغدة النخمية فوجد ان قدرتها على افراز المادة اللبنية زادت زيادة كبيرة. فأطلق ردل على هذا التوُّر اسم « برولاكتين » Prolactin أي الملبّن بعد ما ثبت لهُ ان من شأنهِ توليد اللبن في اثداء حيوانات اخرى بما فيها ذكورها . وقد ذكر من عهد قريب ان هذا التوُّر قد يكون خليطاً من توُّرين احدهما يختلف عن الآخر في تأثيره الفسيولوجي ، وان الثاني ينبه غريزة الامومة . فدجاجة حقنت بهِ قاقت بعد يومين وبدأت تحتضن . ولما حقن انثى جرذ غير متزوجة بهِ ، امتنعت عن التهام فرخي حمام وضعا في جحرها بل عطفت بحنان عظيم عليها . ولذلك قال بعضهم انهُ لا يبعد ان نرى « حب الام » في زجاجة تباع بدريهمات في دكان عطّار

وفي سنة ١٩٣٣ زعم احد الباحثين الفرنسيين انهُ كشف توُّراً رابعاً في الغدة النخمية ينبه الغدة الدرقية

— ٣ —

وفي خلال ذلك قرأ باحث يدعى دوبزي في المدرسة الطبية بسانت لويس ما كتبهُ زوندك الالماني ، فحمله ذلك على النشاط الى البحث عن توُّر المبيض . كان قد سبق لهُ ان اشتغل بالسائل الحويصلي الذي يفرزه المبيضان في انثى الخنزير . فعمد الى المستشفيات التي تكثر فيها الحوامل وجعل يجمع مقادير كبيرة من بولهنّ ، وقضى ست سنوات يبحث بأساليب منوّعة عن طريقة لاستخلاص توُّر من هذا البول حتى فاز في نهايتها بالحصول على توُّر لا يوجد في بول الحوامل الاّ بمقدار واحد في اربعة ملايين وفي ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٩ أعلن دوبزي استفراده لتوُّر المبيض نقيًّا . فتقدم بضعة اشهر فقط في عمله هذا على عالمين اوربيين هما اودلف بوتناند Butenandt الالماني ولاكور الهولندي Laqueur وقد اختير لهذا التوُّر اسم ثيلين theelin وهو مشتق من اللفظ

اليوناني ثيلوس اي انثى . اما تركيبهُ الكيمياي فكما يلي : ك ١٨ يد ٢٢ او ٢ (C18 H22 O2) وبعد ذلك اتسع نطاق البحث فعثر باحثون متفرقون في المعاهد والمختبرات على الثيلين في مبايض القرد والفرس والغنم والبقر والخنازير والدجاج والسمك ، بل وفي برازها . واستعمل الثيلين في حالات مختلفة من امراض النساء الخاصة ، فأصاب مستعملوه قسطاً وافراً من النجاح

وكان من الطبيعي ان يكون الفوز باكتشاف توَر المبيض منبهاً للبحث عن توَر او اكثر في الخصيتين . بل قبل هذا الاكتشاف كان فريق من اساتذة جامعة شيكاغو بزعامة كوخ F. C. Koch ومعاونة لجنة البحث في شؤون الشق مهتمًا بالبحث عن هذا التور . فحصل لوموبل Lemuel وماكجي McGee على خصيتي ثور بعد انقضاء دقائق على ذبحه وصنعا منهما خلاصة امتحناها بطريقة طريفة . فقد كان القدماء يعلمون ان ازالة خصيتي الديك تجعل لحمهُ أطرى مما يكون لحم الديك عادة . وكان الديك الذي سلت خصيتاه يختلف عن الديك السويّ من وجوهٍ اخرى . فصفات الذكر فيهِ من حب المقارعة والقتال ، تتحوّل فيهِ الى جبن وتراخٍ وميل الى السلام والطمأنينة كأنهُ انثى — فكان قلما يصيح ولبس بالنادر ان يعنى بالفراخ عناية الام بها . ثم ان عرفه يضمر حجماً ويكمدُ لوناً وريشهُ يفقد لمعانه

اخذ ماكجي الخلاصة التي صنعها من خصيتي الثور وحقن بها ديكاً مخصيًّا في ابريل ١٩٢٧ ، فكبر عرفهُ الضامر وزها لونهُ المكمدّ وظهرت فيهِ جميع الخواص التي يتصف بها الديك السويّ . وعندئذٍ جعل كوخ وقرينتهُ يصفيان الخلاصة رغبة في الحصول على توَر الخصيتين نقيًّا في شكل بلّورات . واذ كانت هذه التجارب قائمة في شيكاغو ذاع من اوربا في سنة ١٩٣٢ ان تور الذكر قد حضر نقيًّا في شكل بلورات . وكان صاحب هذا السبق بوتنناد الالماني الذي سبقهُ دوزي قليلاً في اكتشاف توَر المبيض . ولكنهُ استخلص التور من سوائل الكليتين في رجل لا من خصيتهِ وحقق عبارتهُ الكيميائية فاذا هي ك ١٩ يد ٣٠ او ٢ (C19 H 30 O 2) . ومن اغرب ما ذهب اليهِ انهُ يمكن تحضير توَر الخصية من توَر المبيض بالكيمياء . وفي آخر سنة ١٩٣٤ فاز روزيكا Ruzicka في زوريخ بتركيبهِ بالتأليف الكيميائي من مادة الكوليسترول المستخرجة من دهن صوف الغنم

دعي هذا التوَر اندروستيرون Androsterone وهو ليس بتوَر الخصية . وتوَر الخصية دعي تستوستيرون Testosterone وقد حضَرهُ نقيًّا في شكل بلورات الباحث لا كور في امستردام في يونيو سنة ١٩٣٥ والتوَران لهما عبارة كيميائية واحدة ولكن ترتيب الذرّات في جزيء الواحد يختلف عنهُ في جزيء الآخر . وفي سبتمبر سنة ١٩٣٥ اذاع روزيكا انهُ ركب التوَر الثاني بالتأليف الكيميائي

نشر الخريطة

قصة الريادة

خلال خمس آلاف سنة

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها ..... » الآية

ان تاريخ الريادة ينطوي على قصة من أعجب القصص، قوامها إقدام لا ينثني ، ومغامرة لا ترتد أمام الخطر، وشوق الى كشف المجهول وسواء أكان الباعث على الريادة طلب المجد ام توسيع نطاق العلم ام البحث عن العطور والافاويه ام الرغبة في بقعة أرض يرفع عليها علم امة مستعمرة ، فالريادة ردُّ الانسان على ما تحيطهُ بهِ الطبيعة من الالغاز وتوجهه اليهِ من التحدي . ان استجلاء الاسرار التي تنطوي عليها الاشعة الكونية ، ونوى الذرات ، والتحليق في الجو بغية الوقوف على حقائق الطبقة العليا من الهواء ، ومقاساة السغب واللغب والقيظ والقر ، حوالي القطبين او في قلب افريقية وصحاري آسية — كلٌّ ذلك من الريادة بأوسع معانيها ، وغرض اقطابها واحد وهو ان ينشروا لحقيقة الارض التي نعيش عليها خريطتها المطوية

وهذا كتاب [1] وضعهُ باللغة الانكليزية المستر « لنرد اوثويت » وهو رحالة مجرّب وعالم راسخ في شؤون الجغرافية والانثروبولوجية . إن حماستهُ التي تتسم بها كل صفحة من كتابهِ مقيدة بقيود الحذر العلمي . ولكنهُ في حماستهِ يحوّل الجغرافية من علم جامد الى علم حي . فاذا نظرت الى سعة نطاق الكتاب زمناً ومكاناً — على الرغم مما افضت اليهِ هذه السعة من اهمال بعض الحقائق الاساسية كسعة الاراضي المكتشفة والمسافات التي قطعتها بعوث الريادة المختلفة — والى كثرة ما جمع من الحقائق المشتتة في فصول وابواب منظمة رأيت فيهِ قصة الريادة من فجر الحضارة الى الآن وكأنها منسابة امامك على شريط من الصور المتحركة

خذ فصلهُ عن البحر المتوسط . على سواحل هذا البحر وفي جوارها قامت الدول القديمة مصر وفينيقية واشور وشمر وعيلام وكريت واليونان . من مصر قامت اقدم بعثة في التاريخ بقصد الريادة وهي بعثة هانو سنة ٢٧٥٠ ق . م . باحثة عن الثروة وما يكفي حب المغامرة في نفوس اصحابها فوصلت الى ما يعرف الآن بالحبشة وعادت بكثير من الذهب والفضة والمر والاخشاب الثمينة . وبعد ما انقضى عليها الفا سنة ، اي نحو سنة ٦٠٠ ق . م . اوفد الفرعون نيخو

(١) Unrolling the Map : The Story of Exploration by Leonard Outhwaite

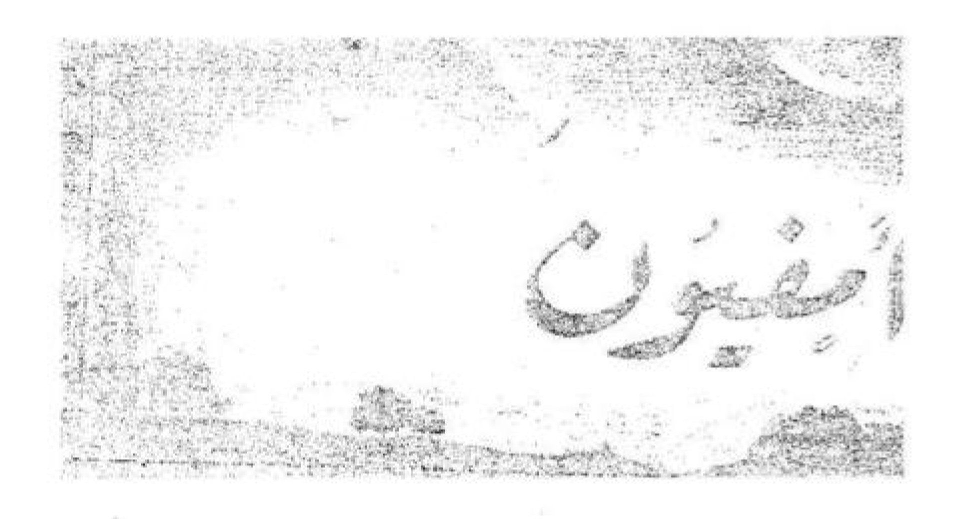
أعجب بعثة استكشافية في التاريخ فاستطاعت ان تسافر حول القارة الافريقية في ذلك العهد البعيد وكان هيرودوتوس لم يصدق ما بلغهُ عنها فاكتفى في ذكرها بفقرة قصيرة من تاريخهِ المشهور. وقد أثبت المستر اوثويت ان وصف الرحلة واتجاهها والثغور التي حدثت رحالها فيها تتفق كل الاتفاق وما يعرف الآن عن تيارات المحيطات والرياح السائدة على سواحل افريقية

وكانت الريادة في عهد الاسكندر ذي القرنين ، جزءاً من اعماله العسكرية . ولكننا مع ذلك مدينون لهُ بكثير من أقدم ما عرفهُ العالم عن البلقان والشرق الادنى وافغانستان وبعض المناطق في شمال الهند . ويقال انهُ كان يستعدُّ لريادة نهر الكنج عند ما اصيب جيشهُ بما حملهُ على النكوص

اما في العالم الجديد ، فينكر المؤلف الرأي الشائع ان كولمبوس او اميركوس فسبشيوس او مجلان كانوا اول من اكتشف اميركا . ذلك ان مستعمرات من رجال النورس أنشئت على برّ اميركا الشمالية في القرن الحادي عشر . قال المؤلف : وفي سنة ١٨٩٨ كان احد المهاجرين السويديين وهو يدعى « اولوف اوهمان » يعمل في حرج قرب بلدة كنستغتن بولاية منسوتا (احدى الولايات المتحدة الاميركية) فعثر بشجيرة معمّرة كانت جذورها قد التفت حول حجر وعلى هذا الحجر اثنا عشر سطراً من كتابة غريبة . وقضى باحث يدعى « يالمار هولند »عشرين سنة في البحث الدقيق مع خبراء الحراج واللغات وطبقات الارض والآثار حتى أثبت ان هذه الكتابة نقشت لذكرى انشاء مستعمرة من السويديين والنروجيين في منسوتا قبل سنة ١٣٦٢ والمرجح ان البعثة التي انشأت هذه المستعمرة كانت البعثة التي اوفدت من قبل الملك ماغنوس اريكسن في سنة ١٣٥٥ لانقاذ المستعمرين النورس الذين استقروا في جرينلندة من الوثنية . وكأنّ الدافع الديني حمل هؤلاء الرجال على التوغل غرباً في فيافي كندا الى ان استقروا في ولاية ، اصبحت بعد خمسة قرون ، عند كثرة هجرة الاوربيين الى اميركا ، مقرًّا لمعظم المهاجرين السكنديناويين ونعني منسوتا

في فصول هذا الكتاب ، تتعاقب الصور الاخاذة — ريادة القارات وفيافيها وصحاريها وقممها والنفوذ الى منابع انهارها والتوغل في حراجها وادغالها واقتحام جمد القطبين سيراً على الاقدام وبالمزالق وعلى أجنحة الطائرات والبلونات ، والتحليق في الجو الى عشرة أميال والغوص في الماء الى نصف ميل — هنا جميع الاسماء الباهرة في تاريخ الريادة من هانو المصري الى بيرد الاميركي

وكذلك تتوالى الصفحات كما توالت الاعوام والقرون وميامين الروَّاد يسيرون بعضهم في أثر بعض يحتقرون المشاق ويهزأون بالعواصف ، يخفقون آناً وينتصرون آونة فمنت لهم الارض ومشوا في مناكبها . ان صفحتهم لمن انصع الصفحات في تاريخ العمران ، بل ان حديث اقدامهم وثباتهم وشوقهم الى كشف المجهول قصيدة بليغة تثير في النفس تلك النزعات العالية التي بها يتمجد الانسان



مسرحية : للاديب الكبير : بول فاليرى

مثلت في اوبرا باريس عام ١٩٣١ : حقوق الترجمة والنشر باذن المؤلف

الاشخاص

امفيون ابولون شخص غير منظور الالاهات الاربع الاحلام الشعب

« نقلها : خليل هنداوي »

[يرتفع الستار عن نقب أو خرق واسع في صخرة على ذروة جبل يتهادى نحو السماء والفسحة الخارجة من يمين الصخور وشمالها تغطيها اشجار كثيفة من الكستنا والسنديان . وفي الاعلى تسطع القمة العارية ، وعلى يمين القمة صخور متبلورة وقليل من الثلج يلمع هنا وهناك في الاعالي . وفي وسط المشهد ينبوع يشف ماؤه القاتم ؛ وحوله تصعد شماريخ مختلفة تمتد بصورة غير منتظمة حتى تسد هذا النقب . وفي هذه النواحي فسحات فارغة . اما السماء فقد سطع منها جانب من المجرة . فيها ذرات مضيئة ونجوم مختلفة الحجم . والفناء المظلم يسيطر هنا وهناك . . . في هذا المشهد يقع البصر على اشباح ليلية ترقص زمراً زمراً في كل مكان . تختفي ثم تُرى حيث تتكاثف الظلمة المحيطة بها . ثم يدخل من اليمين والشمال رجال ونساء يفتش بعضهم عن بعض ، يتساءلون ويتفاهمون بالاشارة ، ويتوارون وراء الاشجار ، يجنحون الى الراحة ويدخلون في الظلام ، فتسمع الاذن في هذه الهدأة حفيف الكون ، ونغمة غير انسانية . وعلى هذه النغمة الواحدة تتعالى أنشودة الينابيع بصوت كصوت الاطفال]

الينابيع : نحن الينابيع ، لنبك الزمن الفاني
بالقطرات المتتالية !
من دموع الثلج تجري كل حياة
وبنا تبكي الارض باكية حتى البحر .

« يدخل امفيون وتعلن ألحان صادحة عند قدومه. يدخل حاني الظهر»
«وبيده حيوان على هيئة مسخ . يضغط على هذا الحيوان بقدميه ، ويسل»
«مديته ، وبينما يهم بذبحه يسمع :

صوت : لماذا ؟ لماذا ؟
دع الحياة تحيا
واترك الموت بأيدي الخالدين !

« يسمع امفيون هذا الصوت فيطرح مديته ويفر الحيوان سالماً . وبعد»
«تردد قليل يتجه الى مغارة عميقة ، فيخلع الجلد عن ذراعيه ، ويجلس»
«متأملاً في السماء المكوكبة ثم يغرق في الكرى . فتظلم السماء قليلاً قليلاً »
«وعلى بساط الظلام تبدو الاحلام وهي تزور النائم . وبينما حلمان غارقان»
«بالنجيع يريدان حربه ، فيلتقفها مسخ ، وتبدو اشخاص عليها خرق»
«غريبة . وامفيون غمره الرقاد ، وأخذ يظهر له «الحلم العاشق» بزي»
«راقصة عارية ترتدي رداء طويلاً ، تحنو عليه وتلمسه وتفرح به ، وكلما»
«تحرك منه عضو أجفلت منه طائرة»

وهنا تظهر الإلاهات . . .
إلاهة تخرج من الينبوع وتنادي
« إلاهة » !
وثانية تخرج من صخرة وتنادي
« إلاهة » !
وثالثة ورابعة تنزاح عنها الغصون وتناديان
« إلاهة » « إلاهة » !
تتعالى هذه الاصوات في زمن واحد ، وصواحب هذه الاصوات يخطرن

في الظل كأنما يضئن ، يجتمعن ويأخذن بعضهن بأيدي بعض

إلاهة ١ : اني لأرى ما لم يكن !

إلاهة ٢ : اعرف ما لا يكون !

إلاهة ٣ : أصنع ما سيكون

إلاهة ٤ : وانا لا شغل لي الا الحب

إلاهة ١ : يا رفيقاتي ! يا أسراب النحل الجميل

لنطع الله ولنقدم انفسنا لهذا الانسان !

« ٢ : ان روحه تختبط في جحيم النعاس

« ٣ : انهُ يتنهد

« ٤ : انهُ يتململ

« ٢ : انهُ يتمنى

« ١ : انهُ يظن بأنهُ يحيا ! . . .

ولكن لنحترز من ان ينجيه الافراط في الألم قبيل الفجر !

هيا الى العمل ، ولكن لنبدد قبل كل شيء هذه الصفوف المشوشة من الأحلام !

[يبدأ قتال بين الاحلام والالاهات ينتهي بطرد الاحلام ، وآخر القتال مع الحلم العاشق ،

[وها هنا يشمل الظلام قليلاً قليلاً ، ولا شعاع الا شعاع الإلاهات. يسطعن بالنور الازرق وامفيون بنور فضي . والإلاهات يعطفن على « امفيون » الذي لا يزال نائماً ، وهن يرقينهُ بحركات سحرية وكلمات مبهمة !

المهزهزة الساحرة : ايها الرجل النائم

ان الليل يضيء عليك

والسكون قد اوجدتهُ الإلاهات

[تجتمع الإلاهات حولهُ حلقة احتفالية ، واحدة على قدميه واخرى على رأسه ، واثنتان حول جسده وقد بسطتا ايديهما وشخصت عيونهما في السماء.

الجميع
ايتها الاخوات الامينات للعبقرية الآلهية
إن هذا الرقاد الذي مهدته أيدينا
يُسلم هذا الانسان لله

الاهة : يا لهُ من سلام قدسي يتألق على هذا الوجه الصافي !

الاهة : انهُ تنعكس عليهِ ابتسامة احملتها النجوم

الاهة : هذا الجسد الصافي ، هذا الجسد الساكن شبيه بالمعبد ! بالحجر المقدس .

الاهة : وروحه أضاعت سبل الحياة .

الاهة : انهُ نخالد يجهل نفسه .

الاهة : انهُ — الآن — ليس الاَّ ما سوف يكون ! يصغ الى الهاوية !

[رعد بعيد والالاهات يسجدنَ]

صوت ابولون: [كأنهُ يصعد من جوف المشهد]
امفيون !

الالاهات : ابولون !

الاصداء : ابولون !

الالاهات : نحييك في جنح الليل العميق يا آله النور !
كم يحلو في اعماق الظلمات الاصغاء الى الكلمة القوية . . .

الاهة : يا سبب الشمس ، ان الظلمات تعبدك ،
والضعفاء من الرجال يخفرن في رقادهم بفجر سني بطلع عليهم من يديك .

الاهة : ألا زر هذا الراقد ! وأيقظ فؤاده حتى يصغي شيطانه الخاضع الى صوت الحكمة القدسية
ابولون !

الاصداء : أ ، بو ، لون ! . . .

الجميع : اضرب يا الـهنا ، اضرب . . . أنر ، وأضيء ،
بصوتك الخالد اضرب هذا الراقد !

كما تسطع الشمس الصافية على ذروة الجبل وتنير القمة الشاهقة السامقة !
اضرب أيها الاله ! تعال أيها الآله . . .

الاصداء : أيها الآله !

[رعد بعيد]

[الإلاهات ساجدات ولمعة غريبة على وجه امفيون]

صوت ابولون: امفيون !
اني انتخبتك من بين البشر كما ينتخب الحب :
وكما تنتخب العاصفة القمة .
اني اصطفيتك . . .
فيا أيتها النفس العميقة اسمعي وتقبلي ابولون !

[يرتعش امفيون]

الالاهات : ابولون !

الاصداء : ابولون

صوت ابولون : اسمع اني سأكون بك مقرّباً للناس، للذرية الفانية .
سأعطيك منشأ النظام
سأنزل عليك في اللحظة النقية الصافية
إذ ذاك ينشأ على وجه الارض فصول معظمة تغمرها الحكمة السماوية
سأعنك على ما ابتكره « هرمس »
وسأهبك الآلة العجيبة المذهلة
العود . . . .
امفيون ، امفيون !
أيقظ النغمة البكر وانتصر بها .
ستفتش على اوتاره السبل التي تتبعها الآلهة وستجدها .
وعلى هذه السبل المقدسة تقتفي أثرك النفوس .
المادة الجامدة تغدو أسيرة عودك .
خذ العود سلاحاً وحرك الطبيعة

وليولد عودي معبدي !
ولبرتجف الصخر باسم الاسم الالهي . . .
واجذب من الضباب هذه الخرائب من القمم !
وقدم لي منذ الفجر معبداً منيراً
ولتكن حوله مدينة كبيرة تبتهل فيه بالصلاة .
ولترتفع يداك الي مقدماً لي ما خلقتُ وأبدعتُ
امفيون ! . . .

الإلاهات : ابولون

الاصداء : ابولون

[تتمزق الاصداء . . .]

صوت ابولون : وانتن أيتها الإلاهات الجميلات الأمينات !
ايتها العزيزات التقيات !
ايتها العاقلات !
احببنه واحرسنه !
ولكن اعلمن ألا سعادة له ، ولا سعادة تغمره — انهُ لا يحيا الا من أجلي !
اني انتخبته كقمة تنتخبها العاصفة !

[تنهض الالاهات وتقبل يديه وقدميه وجبينه

اصوات من جوق بعيد : امفيون ، كن معجزة
وكن ضحية المعجزة الكبيرة

[يشمل الليل ولا يسمع فيه الا اصوات الالاهات اللواتي يتنادين في الظلام]

الالاهات : الاهة ! الاهة ! الاهة

[يعود النور قليلاً قليلاً مصبوغاً بألوان الفجر وتتوارى الالاهات فيرى العود عند قدمي « امفيون » وحياة مبهمة من الطبيعة الحية التي تتيقظ . وهتاف عصافير وهدير مياه . وتكرار نشيد الينابيع]

[يستيقظ الرجال والنساء ، منهم الذاهب الى صيد ، ومنهم الرائح الى عمل . والنساء منهن الواردة منهل الماء ، والواقفة على الماء تتراءى ، والصغار يلعبون ويتخاصمون . فيضطرب امفيون]

[يتيقظ امفيون وفي خلال هذا المشهد ينسل الاشخاص ، والموسيقى توقع ممثلة حركات « امفيون » يستوي فجأة على مضجعه ويتأمل ثم ينتصب ويمشي بضع خطوات ، يتروح نسيم الفجر ثم يهبط الى الينبوع ويرشف منهُ طويلاً . يرقص كمن يحرك اعضاءه ، فيقع بصره فجأة على العود يتأمله امفيون مستغرباً ويمسكه]

[يضرب فجأة فيرن وتر من اوتاره رنيناً قوياً يجيب عليه هزيم الرعد وكتلة من الجبل تسقط ولها صوت عظيم ، ينهزم الناس مذعورين . منهم المقبل ومنهم المدبر ، فيرتاع امفيون ويترك العود ، ثم يعود اليه محاولاً القيام بتجربة ثانية .]

[رنة ثانية . تعطي نغمة رقيقة فتهوي اليه بعض الصخور هوياً لطيفاً لا صوت له ، ويطلع عليه عشاق وعاشقات مادين بأذرعهم اليه . وقد عقدوا الايدي وانسلوا رويداً رويداً ، فيضع العود ويتأمله ، وهو جالس على صخرة يكتنفها الماء فيرى وجهه . . . فيعود اليه حلمه قليلا قليلاً ، وتسمع تمتمة مهزهزة الالآهات بفم مطبق ، فينهض امفيون مذعوراً ويحدق في السماء مستنجداً مستغيثاً]

الالاهات من حيث لا تنظر : امفيون !

امفيون : من يناديني ؟

الالاهات : نفسك !

امفيون : لتذكر نفسك

١ : من يتكلم ؟ أذكر . . . ان صوتاً علوياً ، ان صوتاً لا وجه له يتكلم
في جنح الليل
الم اسمع كلمات القضاء ؟

هل اراني اجد سبيل غرائب الظلام ؟

٢ : ايها الصوت القدير !
لقد قيل . . . انهُ تكلم . . .
كما تتكلم الهاوية المنارة
هو الذي يخيل اليَّ ان في السكون وتحت النجوم يناجي ذرية الانسان
الشقية ذات الارواح الزائلة !

٣ : انهُ قال . . . السماء التي تتكلم
قالت :
« امفيون !
اني انتخبتك كما ينتخب الحب
اني اصطفيتك كقمة تنتخبها العاصفة . . .
اني اخترتك !
وحبوتك الآلة الغريبة
العود ! . . .
خذ عودك سلاحاً وايقظ النغمة البكر
وليولد عودي معبدي !

٤ : ايتها الآلة الخفية ما اعظم قدرتك !
ايتها الآلة التي تهب الحياة والموت
انت التي تنفذ ملامحها الالهية روح الوجود !
اني اكاد المس اوتارك الذهبية التي شدها الاله
السماء والارض ارتعشتا
واحسست ان الصخر يهتز كأنهُ بدن امرأة مأخوذة !
ورأيتُ
الغضب والحب يولدان في الناس
والغضب والحب يفيضان من بين اناملي ! . . .

٥ : هل جرحت او صدمت او جذبت

جسد الوجود الخفي ؟ وقد يكون ذلك

وهل أثرت — على غير علم مني — في مادة السماوات ؟

وهل لمست الكائن نفسه الذي يواري عنا أسرار الاشياء ؟

ها أنا الآن أقوى من نفسي .

ها أنا أجدني غريباً ومحترماً لنفسي

تائهاً في نفسي ، وسيداً حول نفسي !

ارتعش كالطفل ازاء ما اقدر عليه

٦ : ابولون ، ابولون ، انني سأطيعك

مؤلفاً رسومات على العود

أناملي هي آلهة ،

وقلبي سابق للناس

٧ : سأغير على الصخور المضطربة المشوشة

وفصولي الصافية ستسخر لأثر لا مثيل له ،

خرائب القمم والمسوخ المتدحرجة الهاوية من حنايا عالية !

٨ : مولاي ابولون معي . . .

[illegible]

ابولون [illegible]

سيأتي هو نفسه ليبني معبده .

والمدينة التي ينبغي ان تظهر لعيون الناس قد شوهدت تلمع وتسطع في مساكن الخالدين على الأبد .

[يأخذ امفيون عوده ويريد السماء ويتأهب للعزف وقد امتلأ صدره حمية ويقيناً ، يضرب على الاوتار ضرباً يسمو فيه الفن سمواً رفيعاً فتهتز الطبيعة وترجع الاصداء صوته ويطفح المشهد بالمذهولين . . . .

ثم يعزف ضرباً من الرقص المقدس ويستوي على قاعدة الصخور من الجهة اليمنى ويصيح :]

امفيون : بك يا ابولون !

[وهنا يبدو فن البناء وهو مما ينبغي فيه التلاؤم بينهُ وبين الموسيقى والاشارات والحركات . والموسيقى هي المعبرة عن حركة الاشخاص والآلات المتحركة . (١) الحان الحجارة — حجارة ترحل وترتفع لبناء المعبد ، والحان الحجارة تبدأ بايقاع ينتظم قليلاً قليلاً]

جوق غير منظور : يا للمعجزة ! يا للغرائب !

الصخر يمشي والارض تخضع لهذا الآله .

أية حياة مروعة تدب في الطبيعة !

كل شيء ينحني ! كل شيء يفتش عن النظام لينتظم

كل شيء يحس أنهُ خاضع لقدر

[البناء يكمل ، واجزاء من العمارات منثورة في احناء الجبال . رسم المعبد يتوطد . . . عمارة صغيرة مؤلفة من عدة راقصات كاسيات ، ثم تظهر الالاهات موشيات بالذهب ، ينتظمنَ في المعبد كأنهنَّ اعمدة . . . ويرتلن]

الالاهات : يابنات الذهب ! القويات بشرائع السماء . . .

يسقط علينا وينام آله لونه لون الشهد!

[يسطع النور وتشتد الموسيقى . وخلال ذلك يتبدل المشهد ، فالجبل ينتشر عليه البنايات ، وقد غطت الجدران ولمعت السقوف في الشمس والشعب منتشر زمراً زمراً]

جوق الشعب : ايتها الشمس المباركة طلعتها !

ايها اللهب الذي يحمل في السماوات المعرفة والحياة . . .

ايتها الشمس !

ليس ثمة من يقوى على تأمل مصدر قوتك !

ان لمعة الطلعة الالهية — اللمعة التي لا تطاق — تحجب عنا الآله !

اما انت فانظري ايتها الشمس عجائب الانسان :

ها هنا يبدو ما لم يصنعهُ احد منذ أشرق وجهك على الوجود !

جوق الشعب: ها هو امفيون ، امفيون الظافر يقدم لك هذه الحجارة الجنية لكي
يلتقط اشعتك الصافية .
اقام هذه المساكن المموهة بالذهب ، ونصب لك هذه الجدران العالية .
أيتها الشمس !
تأملي معبدك وأريحي شعاعك المتوقد على شكله البديع !
وليكن جميلاً عذباً بالشعاع المنحدر من الجبين الالهي !
[دعاء وتهليل ، يدعى امفيون الى المعبد]

جوق الشعب : امفيون الجليل تقبل مدائحنا !
كن قائدنا ، وملكنا .
اصعد الى العرش ، واصعد الى المعبد ، يا امفيون ! ...
(يدخل امفيون وقد احاطت به الجماهير وعليه الزينة المنمقة)
(وخلال هذا المهرجان تقدم الالآهات)

الاهة (١) : العمل انتهى ...
الاهة (٢) : سأتحرى عن معلم ثانٍ
الاهة (٣) : لا يهمنا امره مهما كان !
الاهة (٤) : انني لم اكن الا أملاً ... !

يغمرهن الظلام وفي اللحظة التي يهم فيها البطل بالصعود الى الهيكل يدنو منه خيال امرأة محجوبة ، يدخل انسلالاً ويسد عليه الطريق بذراعيه المفتوحين على شكل صليب . يهوي على الزينة حجاب . والنور يضعف والموسيقي يخف بأسها . يدور امفيون ولكن الخيال المحجوب يمسكه بحنان ويأخذ منه العود الذي انبثقت منه الحانه وتلقيه غير بعيد في الينبوع فيواري امفيون وجهه في حجر هذا الخيال الذي هو : الحب او الموت . وينجذب بها منقاداً مذهولاً ، بينما الموسيقى تعزف لحناً مظلماً عذباً قليلاً .)

« الستار »

الحضارة الحثية

نواحيها العقلية

والاجتماعية كما تبدو وتستخلص من آثارها

بقلم قيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

توطئة

بعد ان اتينا على ملخص تاريخ حروب الحثيين وفتوحاتهم يجمل بنا ان ننتقل الى تبيان سائر ما وقفنا عليه من فروع حضاراتهم وتطوراتها وهدفنا في ذلك ان نبين مكانة تلك المملكة العهيدة التي تفوقت على كثير من ممالك الشرق القديمة بمنتجاتها الصناعية والفنية ولغتها وآدابها وشرائعها ومعتقداتها وليس لنا من رائد في هذا الميدان غير مكتشفات العلم التي يصح الركون اليها

ولعل اجلى مظهر اطلعنا عليه من مظاهر تلك الحضارة العهيدة هو ما جاء في رواية استيلاء العاهل اشور ناصربال الثاني على كركميش المنقوشة على حجارة قصوره حيث قال: « في الثالث من شهر نيسان سنة ٨٧٦ ق.م غادرت كالح وعبرت نهر الدجلة قاصداً مدينة كركميش في بلاد الحثيين فاجتزت نهر الفرات على ارماث مكسوة بالجلود ولما اقتربت من كركميش فرضت على سنغارا ملك الحثيين عشرين وزنة من الفضة وحلّي عديدة من الذهب ومائة وزنة من النحاس ومائتي وزنة من الحديد والقصدير وآلات حديدية ونحاسية كفؤوس وحراب وسنن وماشا كلهامن المعدات الحربية واثاث بلاط الملك وغنائمه واشياء كثيرة لا مثيل لها في جودها وجمالها واثاثاً من ابنوس واعراشاً من خشب السنديان ومائتي امرأة رقيقة وانسجة من صوف ومركبات مرصعة بالعاج وتماثيل من ذهب » . فيدلنا ذلك كلهُ على الاوج الرفيع الذي بلغتهُ الحضارة الحثية في الثراء والعمران ورقي الصناعة مما خلب لب ذلك العاهل الاشوري وحملهُ على الاقرار رغم انفته وكبريائه بأنهُ لم يكن قد رأى مثيلاً لها في سائر ممالكه على ان ذلك ليس الا عبارة عن وصف

سوف نلمس حقائقه بدراسة ما اكتشف من آثار تلك الحضارة القديمة وباستقراء نقوشها البارزة في اساطير الاجيال التي اقامتها ونرى بصورها الراسخة في بطون الاحجار طراز معيشة تلك الاقوام في بيوتها ومصانعها ومعابدها ولعلنا نستطيع ان نتتبعها حتى اعماق قبورها

الكتابة

لا مرية ان معظم هذه المعلومات انبثقت من حل رموز الكتابات الحثية فينبغي اذاً ان نجعل هذه الكتابات قطب دراستنا ونوجه اليها اهتمامنا . فبينما نراها في اول طورها كناية عن اشارات مصورة تعرب عن الافكار على شاكلة سائر الكتابات القديمة لا نلبث ان نشاهد الرموز تحل مكان الصور فيدلنا هذا التطور على ازدياد معارف القوم على توالي الايام واتساع حلقة افكارهم. وقد عرفنا للغة الحثية نوعين من الحروف الكتابية الهيروغليفية والمسمارية ونعني بالاولى حروف الكتابة المقدسة التي كانت خاصة بالحفر والزينة فنقشت المسلات والانصاب وجدران المعابد والقصور وقد احتفظ الكهان باسرارها فكادت تبقى طلسماً لا يحل وحروفها مؤلفة من اعضاء الجسم كافة ورؤوس بعض الحيوانات والعصافير واشياء شتى على مثال الهيروغليفية المصرية بيد انها غير مقتبسة منها بدليل انها تمثل المتاع المختص بالحثيين كالنعال ذي الرأس المعكوف ورؤوس بعض الحيوانات المحلية وغيرها من العوامل التي تتضافر على اثبات استنباطها في آسيا الصغرى. وقد كانت تكتب طوراً من اليمين الى الشمال وتارة من الشمال الى اليمين فيعرف مبدأها من شكل اتجاه رؤوس الحيوانات المصورة وهي تقرأ غالباً من أعلى الى أسفل وفي بعض الاحيان من أسفل الى اعلى ويلوح انها تمتّ الى عهد ارقى من تاريخ استعمال الكتابة المسمارية لانها تكاد تصور الاشياء المراد بيانها تصويراً . اما الكتابة المسمارية فحروفها مؤلفة من رؤوس المسامير تشبه علامات الالحان الموسيقية ولكنها اكثر منها تلاصقاً . وقد تيسّر للعالم الأثري هروزني التشكوسلوفاكي ان يهتدي الى حل بعض الغازها الغامضة بالاستنتاج من بعض علامات فيها تدل على معانٍ معينة في سائر اللغات السامرية والبابلية من جهة وبمقابلة بعض نصوص مترجمة من ألواح بوغازكوي باصلها الاكادي وكانت اللغة الاكادية في ذلك العهد بمثابة لغة دولية تدون بها بنود المعاهدات ونصوص الطب والفلك وسائر العلوم

وقد وجدنا الخطوط القديمة كثيرة التعقيد ثم رأيناها تميل الى البساطة شيئاً فشيئاً مع تطور الحضارة وكانت تنقر على الآجر والاحجار الصم بارزة وتطرق على الصفائح المعدنية من الوراء فتنتأ من جهتها الاخرى وقد باتت الغازها المغلقة قريبة الحل بفضل جهود العلماء ومساعيهم المثمرة

أحوالهم الاجتماعية

لقد تسنى لنا الوقوف على أغلب تقاليد الحثيين وعاداتهم وطراز معيشتهم بالاقتباس من الصور المنقورة في الصخر وبقراءة تفسير النصوص الكتابية التي توافرت لدينا فتبيّن لنا انهم هاموا منذ فجر نهضتهم بالحروب والفتوحات وكانوا يعنون ايضاً بتربية الماشية ويميلون الى التوسع في الاراضي الخصبة بقصد استغلال ثروتها الزراعية ثم أخذوا يستخرجون المعادن ولا سيما الحديد من مناجم آسيا الصغرى وصار عندهم نقود يتبادلونها في قضاء حاجاتهم وكانوا على الأغلب يحلقون لحاهم أما الملوك وبعض الاعيان فكانوا يتأنقون بارخائها ويرسلون غدائر شعرهم على ظهورهم مضمخة بالطيب وكانوا يميزون عن سائر الشعوب بأنوف قنيء. أما ملابسهم فكانت بسيطة. كان الرجال يرتدون قمصاناً قصيرة يشدها زنار عريض الى وسطهم فتكشف عن الركب غير ان الملوك والكهان كانوا يرتدون في بعض الاحيان ألبسة خاصة طويلة الاهداب عريضة مثناة كثيرة الزخرفة وكانوا يحتذون نعالاً طويلة معكوفة الطرف وهي من أخص ميزات لباسهم. اما النساء فكنّ يتأنقن بارتداء أثواب منسوجة من أقمشة رقيقة شفافة تنم من خلال طياتها عن شكل أجسامهنّ وبروز نهودهنّ وكان التزين بالحلى مثل الأساور والعقود والاقراط والأحراز الثمينة شائعاً عندهنّ

وكان للمرأة الحثية شأن كبير في المجتمع فقد شاركت الرجل في أدق أعماله وخاضت الحروب الى جنبه واعتلت العرش وتقبّلت المغانم وأحرزت اسمى الالقاب وكان لها منزلة مكرمة وحقوق ممتازة تغبطها عليها أرقى نساء اليوم. على انهُ لم تكن الى ذلك كله سعيدةً في حياتها الخاصة اذ قلَّ بينهنّ من ليس لها شريكات من الرقيقات في بعلها حيث لم يكن أحب الى الحثيين ذوي الانوف الكبيرة من ان يتسرّوا ويعاشروا اكبر عدد ممكن من الرقيقات الجميلات الى جانب زوجاتهم الشرعيات حتى اشتهرت بلادهم بكونها مهد الهتك واللذات

وقد كان الملك سيدهم المطلق يستمد سلطانه من الآلهة التي كان يمثلها على الارض فكان مطاعاً لانهُ رأس الديانة والجيش والقضاء وكان يحمل مع التاج وشارات الملك لقب تلابارنا اي الملك الحثي الأعظم كما ألمعنا الى ذلك في سياق الحديث. وكان العرش وراثيًا ومن حق الابن البكر فاذا لم يكن ثمَّ ولد للزوجة الشرعية تبوأه الأدنى من ذوي القربى ويسري هذا الحق على النساء لا سيما اذا كان ولي العهد قاصراً فتنصب الملكة وصية عليه وتحمل التاج وتلقب بأم الاله وكان من حقوقها أن تشترك في عقد المعاهدات وقد رأيناها في بعض النقوش الى جانب الملك في الحفلات والطقوس الكبرى

وكان الشعب يغالي في احترام ملكه وينزله من نفسه منزلة الآلهة لاعتقاده يقيناً انهُ صائر

بعد الممات الهاً مثل آبائه وأجداده فيدفع لهُ ضريبة أرضهِ صاغراً كما ان سكان الاقليم كانوا مكلفين ان يدفعوا علاوةً على ضريبة أراضيهم العائدة الى مليك مقاطعتهم ضريبة سنوية للملك الاعظم وعند ما ينتقل هذا الملك الى حياة الخلود كانت تحد عليهِ رعيته حداداً عظيماً فتمزق ثيابها وتغلق المعابد وتكف عن الافراح والاعراس وتسكب عليهِ دموعاً سخينة اكباراً لمقامهِ وحزناً على فقدانهِ

الديانة

كانت معابد الحثيين تضم عدداً لا يحصى من الآلهة وقد تسنّى لنا ان نتعرّف الى بعضها من الاسماء والنعوت التي كانت تحفر غالباً على اكتاف اصنامها. فقد كان لكل عنصر من عناصر الطبيعة اله يمثله حيث اعتاد الحثيون ان يؤلهوا كل قوة يخشون بأسها على الأرض. فكان عندهم آلهة للنار والهواء والمطر والشمس والذرى والصواعق ولكثير غيرها من عناصر الطبيعة على مثال سائر الديانات الشرقية القديمة ولا سيما ديانات الهند التي تشرَّب الحثيون كثيراً من عقائدها الآرية والديانة الشمرية التي اقتبسوا منها معظم طقوس عبادتهم

زد على ذلك انهُ كان من تقاليدهم ان يبقوا على الممالك التي يفتحونها عقائد سكانها الدينية وعاداتهم المحلية ويضمون آلهتها الى هياكلهم ويراعون حرمة اعيادهم خلافاً لسائر الدول القديمة التي كانت تحمل المغلوبين على انتحال دياناتها. فتجمع لديهم من جراء ذلك مئات من الآلهة حيث كاد تكون لكل مدينة اله محلي يعبد فيها بجانب الآلهة الكبرى وكانت تختلف رتبة تلك الآلهة المحلية باختلاف مكانة المدينة التي تنتسب اليها فكانت مثلاً مدينة عارينا الكبرى تحت حماية الهة الشمس التي تأتي مع زوجها الاله الاكبر واهب الحياة في طليعة المعبودات ثم يليها سائر طوائف الآلهة بمراتب متتابعة بعضها تلو بعض وقد أرتنا الآثار لكل تلك الآلهة هيئات وصفات خاصة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً

قلنا في ما سبق ان الملك هو رأس الديانة لانهُ يمثل الآلهة على الأرض وهو كاهنها الاكبر يعاونهُ في وظائفهِ الدينية رهط من الكهان بمراتب متفاوتة تقتصر وظائفهم على خدمة الطقوس وقد اطلعنا في لوح على وصف طقوس الاعياد نسردها على علاتها تاركين للقراء ملاحظة وجوه التشابه بينها وبين اصل طقوس بعض الاديان المعاصرة

تؤم الجماعات المعبد يوم العيد فتقام الموائد المقدسة وتتلى الاناشيد وعندما يكتمل عدد المؤمنين يرتدي الملك ثياب العيد الخاصة ويتبرّج بالحلى الطقسية ثم ينتقل من قصره الى الهيكل باحتفال مهيب وعند اجتيازه عتبة فناء المعبد يغسل يديه في حوض الماء المقدس ويحرق البخور حوله وباج قدس الاقداس مطهراً فيسجد تخشعاً ثم يعتلي اريكته فتتقدم عندئذٍ قرابين اللحوم الذكية وتصف على الموائد المقدسة المغطاة بفوطة بيضاء وتراق فوقها الخمور. فيأخذ محله في صدر المائدة

الكبرى ومجلس الاعيان والكهنة عن يمينه وشماله بعد ان يغسلوا ايديهم ويضعون فوطاً على ركبهم ويأخذون معهُ في تناول الاطعمة المقدسة التي تتخللها بعض رموز دينية وتلاوة بعض التسابيح . فينطبق ذلك كلهُ على طقوس الاديان السامرية والاكادية ويجعلنا نتيقن ان جميع اديان العالم مقتبسة طقوسها بعضها من بعض

اما صلواتهم فقد كانت عبارة عن تضرعات الى الآلهة من اجل طلب التمتع بملاذ هذه الدنيا وشهواتها مع الاشادة بمديحها وهنالك صلاة أشبه بمزامير التوبة تتلى في حال الخطيئة . ويلوح ان السحر والشعوذة كان لهما شأن خطير في معتقدات الحثيين . فقد ثبت انهم كانوا يؤمنون بضروب السحر وتأثير الطلاسم وقد تبطنت عقائدهم الخرافات والاوهام السخيفة . ودليلنا على ذلك ما عثر عليهِ في حفريات بوغاز كوي من اكباد من خزف مغطاة بخطوط وشعوذات من شأنها ان تدفع الشرور والبلايا عن حامليها كما تبين من تفسير لوح وهو ان الوضع عندهم كان يجري على مقعد خاص يأتون بهِ من المعبد عند ما يبدأ المخاض . فاذا تخدش جسم المرأة بخشب ذلك المقعد في اثناء الوضع او كسر المقعد تحتها يفسر ذلك بان المرأة نجسة فيتحتم عليها ان تمر بسلسلة مراسيم شاقة لتطهير نفسها . قس على ذلك شتى انواع المعتقدات التي يستهجنها العقل . وقد أرتنا النقوش البارزة على جدران المعابد رسوم قصص خيالية لها علاقة بديانتهم مثل الرسم الذي يمثل عراك الاله الاكبر مع حية رقطاء ونقش آخر يجسّم لنا الغواية في رسم امرأة متصفة العري وغير ذلك من النقوش التي سنمر بها عند درس الآثار والفنون الحثية

ولعل اغرب ما في خرافاتهم قصة تتلخص باختفاء الاله تلابينو عن وجه اليابسة حنقاً وانتقاماً من البشر مما ادى الى اشراف الدنيا باسرها على الهلاك لمحل مزروعاتها والقحط الذي اصابها . فعقدت الآلهة اجتماعاً كبيراً قررت فيهِ ان توفد العقاب للبحث عن اخيهم تلابينو المختفي فجاب العقاب الفيافي والقفار ورجع صفر اليدين مما حمل الاله الاكبر على ان يتحراه بنفسهِ فخاب مسعاه كذلك وكانت النحلة اعرف المخلوقات بمخبئه فأمرتها آلهة الشمس ان تذهب اليهِ وتلذعهُ في يديه ورجليه ففعلت النحلة ما أمرت بهِ وتأثر تلابينو بلذعتها فارتدع عن غيهِ وعاد الى الارض فعادت معهُ الحياة الى مجاريها

ويجدر بنا قبل ان نختم موضوع الديانة ان نورد وصف لوقيانوس اليوناني لمعبد ادركه بجوار كركميش في القرن الثاني للميلاد مبني على طراز حثي يساعدنا على معرفة ما كانت عليهِ معابد الحثيين في قديم الزمان . فقد شبههُ بهيكل سليمان في اورشليم وقال انهُ كان مؤلفاً من دار خارجية وهيكل داخلي يحوي قدس الاقداس ويفصله عن باقي المعبد حجاب كثيف على جانبيه عمودان مخروطيان وفي الدار الخارجية مذبح كبير من النحاس وعلى شماله صورة آلهة ومن

ورائها حوض ماء فسيح كان يسبح فيه السمك المقدس وفي داخل الهيكل قرص للشمس وتماثيل آلهة شتى معظمها على مثال الآلهة المكتشفة في حفريات بوغاز كوى منتصبة على اسد او على ظهر ثيران

القوانين

عثر بين الواح بوغاز كوى على مجموعة قوانين ترتقي الى سنة ١٣٥٠ ق . م . مشربة من روح الديانة الحثية فعني بترجمتها العلماء هروزني وزيمرن وفريدرك ولما كانت تضم نحواً من مائتي مادة لم نر بدًّا من الاقتصار على تلخيص المهم منها

فقد قسمت بوجه العامة الى قسمين . قسم يبحث عن حقوق افراد الشعب وفروضه تجاه اوليائه والآخر يتعلق بملكية الاراضي والكروم وهي تعد من القوانين الشديدة ولاسيما ما يتعلق منها بالتأمين على واجبات الرعية تجاه مليكها وممثليه من رجال السلطة كما انها تحظر العبث بحقوق اصحاب الاراضي الزراعية وتعين بعدل العلائق بين ارباب الصناعات وعمالهم

واذا تبسطنا في الحقوق المدنية نرى في المجتمع طبقتين : الاحرار والعبيد ، اما طبقة الاحرار فقد شدد القانون في صيانة حقوقها بخلاف طبقة العبيد التي عبث بحقوقها حتى أبيح حرمة اعراضها . مثال ذلك اذا تزوج رجل من عبدة او ساكنها لايكلف دفع مال اما اذا عقد خطبته على فتاة حرة فيترتب عليه ان يدفع الى أهلها مهراً حتى اذا نكث بعهده يبقى لها حقًّا مكتسباً . وكانت طريقة الزواج عند الحثيين على نوعين ففي الاول تلتحق المرأة ببعلها وفي الثانية يساكنها وهي في حظيرة اهلها وكان منذ القديم الزواج من الاخوات وبنات العم وبنات الخالات ومن سائر الاقربين محظوراً وفي حال وفاة الزوج يتحتم على اخيه او ابيه ان يقترن بارملته وليس في ذلك القانون نص على الطلاق على انهُ ينهي الوالد عن طرد ولده او ابنته ما لم يتكرر منهما ذنب خطير حتى اذا اختلس الابن اباه لايعد سارقاً . اما الملكية فكانت مصونة بحماية الآلهة تتعهد مراقبتها الكهان وكانت تنقل بحكم الطبع الى الابناء بعد وفاة الآباء وفاقاً لمراسيم تجري في المعبد مقابل أجر زهيد . اما المبايعات وفراغ الملكية من الغير فكانت تستوجب نفقات باهظة وتستلزم تضحية نعاج في الحقل او في بقعة الملك المراد بيعها ولم يكن يستثنى من تكاليف هذه المعاملات غير الكهنة وبعض قيان المعابد . وكان نظام الاقطاعات شائعاً حيث نرى كثيراً من اراضي الخراج يقطعها الجنود وسائر الذين يؤدون خدمة جليلة الى الملك فتجعل لهم غلتها رزقاً يتوارثونهُ على اجيال متعاقبة . ومما يحث عنهُ القانون الحثي تعيين اجور العمال التي يفهم منها ان الحداد والخزفي والنجار وكل معلم صنعة كان يتقاضى اجرة قدرها عشرة مثاقيل من الفضة اذا كان حرًّا وستة اذا كان عبداً . وقس على ذلك بدل ايجار العقارات والاشياء المعينة وسعر الحاجيات الثمينة مما يضيق بحثنا عن استيعابه

اما فيما يتعلق بقانون الجزاء فقد كانت عقوبات الجرائم من اغرب ما سمعت به اذن فقد كان في القديم يحكم على القاتل ان يقدم لاهل القتيل اربعة رجال عوضاً عن المغدور به اذا كان حراً ورجلين فقط اذا كان عبداً ثم استعيض في بعض النصوص المعتدلة بدية من الفضة على انهُ في حال اختفاء الجاني تكون البلدة التي حدثت فيها الجناية مسؤولة بمراضاة اهل القتيل وكان عقاب الاختطاف والاعتداء على العفاف اشد من ذلك هولاً اذ ليس لهُ من جزاء غير القتل بيد ان الملك كان يمنح العفو في بعض الظروف. اما سارق المواشي فكان يحكم عليه بأن يعوض عن سرقته بثلاثين ضعف مثلها وسارق النحل يحبس في مباءة موثق اليدين

***

على ان هذه المواد ما لبثت ان تعدلت وخفت وطأة شدتها عما قبل مع تحوُّل الزمن . اما سائر المواد التي تتعلق بالسلطة والدين مباشرةً فقد حوفظ على شدتها تعزيزاً لهيبة الحكومة التي كانت تمثل السلطة والدين . مثال ذلك : أن سرقة رمح بسيط من باب قصر الملك او معصية امر من اوامره كانت تعرّض صاحبها للموت المحتم مع خراب بيته وكان يذبح سارق الحقول المقدسة التي تخص الكهنة والمعابد ويقدم قرباناً للآلهة تكفيراً عما جنت يداه وكان يحكم على بعض العصاة ببتر عضو من اعضائهم تأديباً لهم كجدع الانف وصلم الاذن وهلم جرًّا

وكان مسموحاً للرجل ان يقتص من زوجته العاهرة وعشيقها بالقتل اذا باغتهما بمخدعه في حالة مشينة. اما اذا ابطأ بالاقتصاص فلا يجوز لهُ أن يتعمد قتلهما . ويسلّم القانون الحثي في بعض الحالات بالأسباب المخففة كما ينص بتطبيق أقصى درجات العقوبة في حالات أُخر خلافاً لسائر القوانين القديمة التي لم تكن تراعي الدقة في ظروف الجرائم الى هذا الحد . مثال ذلك : يحكم بالقتل على الرجل الذي يعتدي على عرض امرأة في جبل منقطع . أما الامرأة فتبرأ ساحتها باعتبار الاعتداء واقعاً عليها عنوةً في محل بعيد عن الاستغاثة ولكنها تتعرض لنفس عقاب المعتدي باعتبارها شريكةً لهُ بالاثم اذا وقع الامر في عقر دارها

***

وصفوة القول ان الحثيين مع شدَّة ميلهم الى التهتك كانوا يغارون على عرضهم غيرة قوية ويغالون في احترام قوانيهم لاعتقادهم انها موحى بها اليهم من الآلهة ومن ميزات هذه القوانين انها كانت تأمر بالاحسان وتنهي عن المعاصي فيخال المرء عند تلاوتها ان بعض وصايا المسيح قد جاءت من اعماق القرون السحيقة

« في العدد التالي تتمة (الحضارة الحثية) وهي تتناول « الصناعة والتجارة والفنون »

الأُرْجُوَان

وبالفارسية (أرغوان) وفي الشام يقال له (الزِّنْزَرِيق) شجرته ترتفع من ٦ امتار الى ١٠ أوراقها تكون فرادى تتساقط الواحدة منها قلبية الشكل مستديرة كالأذن . أزهارها حمراء أرجوانية بهيجة مكتظة في عناقيد تنبثق حتى من الفروع القديمة قبل إنبثاق الأوراق فتبدو الشجرة في مجموعها كأنها إكليل أرجواني وكل زهرة منها على صورة الفراشة . وثمرتها قرن طولهُ من ١٣ سنتيمتراً الى ١٥

اسمها العلمي (Cercis siliquastrum, L.) (كِركيس سليكواستروم)[1] وفصيلتها البقلية أو القرنية (Leguminosae) (ليغومينوزية) وبالانجليزية (common Judas—tree; love—tree) والفرنسية (gainier ou abrre de Judée)

وهي شائعة في جنوب اوربا (الريفيرا) وفلسطين والشام تزرع للزينة ونظراً للحرافة المقبولة في طعم أزهارها ووفرة هذه الأزهار على الاغصان كثيراً ما تؤكل في اوربا ضمن « السلاطة » وخشب هذه الشجرة جميل تتخلله عروق سود وخضر وهو قابل للصقل الجيد

الإِفْسِنْتِين الكبير

عشب معمَّر متساقط الورق ورقته مضاعفة التقسيم الريشي الثلاثي يكسوها شعر حريري الملمس قصير ورؤوسه الزهرية (نوراته) متدلّية الواحدة منها شبيهة بنصف كرة وزهرته صفراء

---

(١) تيوفراسطوس هو الذي اطلق اسم كركيس (Kerkis) على هذه الشجرة . قيل انها كانت محبوبة في الازمان القديمة في حدائق بيت المقدس وأن يهوذا الاسخريوطي صلب نفسه عليها

اسمه العلمي (Artemisia Absinthium, L.) (آرتميزيا ابسنثيوم)[١] وفصيلته المركبة وبالانجليزية (common wormwood) والفرنسية (grande absinthe ou aluine)

وهو شائع في اوربا وشمال آسيا ووسطها وشمال افريقية وهو من نباتات الزينة ونافع في الطب مقوياً ومضاداً للتشنج والديدان ومتى استعمل من الظاهر كان حلالاً للاورام ومضاداً للعفن وقيل إن استعماله مفيد في امراض النقرس (داء الملوك) والاسقربوط (داء الحفر) والاستسقاء الى غير ذلك ومع ان الطب الحديث لا يعوّل على تأثيره في هذه الامراض الاّ نادراً فإن له بعض الفائدة في تقوية المعدة

أما العناصر الفعّالة فيه فهي الابسنثين (absinthin)ومادة زيتية قابلة للتبلور وزيت طيار خاص به . هذا وقد أوصى بعض الباحثين بالامتناع عن زرعه حيثما تربى النحل وقالوا بزرعه منعاً لتفشي الحشرات

الإفسنتين الصغير

عشب قد يرتفع عن الارض متراً متساقط الورق معمّر ورقه ذات شعيرات من وجهها السفلي ريشية مضاعفة وريقاتها على صورة خطوط ورؤوسه الزهرية (نوراته) كرية وزهرته صفراء

اسمهُ العلمي (Artemisia Pontica,L.) (آرتميزيا بونتيقا) من الفصيلة المركبة وبالانجليزية (true Roman wormwood) والفرنسية (petite absinthe ou absinthe pontique)

شائع في وسط أوربا وجنوبها وغرب آسيا وهو من نباتات الزينة أكثر عطرية وأقل مرارة من الإفسنتين الكبير المتقدم

أُذن الحمار الكبير

وباليونانية (سمفيتون)[٢] وقد جاء في بعض المعجمات (سنفيتون) وهو عشب معمر خشن أقرب شبهاً بالشجيرة جميل المنظر ولذا يعتبر من نباتات الزينة جذره درنيٌ وأوراقه بيضية الشكل الواحدة منها مستطيلة قاعدتها ممتدة الى أسفل وأزهاره بيض

اسمهُ العلمي (Symphytum officinale, L.) (سمفيتوم او فيشينالي) من فصيلة لسان الثور (الشنجارية) (Boraginaceae) (بوراجيناسية) وبالانجليزية (common comfrey or consound) والفرنسية (grande consoude; consoude officinale)

---

(١) قيل ان آرتميس (Artemis) هو من اسماء ديانا (Diana) ربة العفاف في اساطير اليونان وان هذا النبات سمي آرتميزيا نسبة لآرتميس المذكور لما كان ينجم عن استعماله من البلوغ الباكر عند الاناث اما ابسنثيوم (Absinthium) فمعناه غير سار اشتقاقاً من (A) التي تزاد في اول الكلمة اليونانية بمعنى النفي و (psinthos) اليونانية بمعنى سرور وذلك لما في هذا النبات من الطعم المرير

(٢) هذا الاسم مشتق من (سمفيتس) اليونانية المركبة من كلمتي (سن) حرف جر بمعنى معاً و (فيو) فعل بمعنى ينمو اي النمو معاً او الالتئام وهذا كناية عن اشتهار ذلك النبات زمناً طويلاً بأنه دواء شاف للجروح

شائع في أوربا وغرب آسيا وفيه مادة غروية (mucilage) ولذا قد يستعاض به في الاستعمال عن الخطمى (الخطمية) (Althaea officinalis) وجذره يستعمل في الطب البيطري على الخصوص كما يستعمل دواء دافعاً للإسهال والبواسير

آذَانُ الأَرْنَب

ويقال لهُ في مصر (الحَلَبْلُوب) و (الحِلْوان) كما جاء في معجم النبات لموشلر الالماني عشب سنوي جميل المنظر ورقه بسيطة كاملة الحافة قاعدتها مكتنفة لساقه وزهرته صفراء

اسمه العلمي (Bupleurum rotundifolium, L.) (بوپلوروم روتونديفوليوم) وفصيلته الصيوانية أو الخيمية (Umbelliferae) (اومبليفربة)

وبالانجليزية (throw-wax ; thorow-wax; rthoongh-wax; buplever; hare's ear)

والفرنسية (buplévre; perce—feuille) شائع في اوربا وشمال افريقة وغرب آسيا وشمال أمريقة وهو ليس مهمًّا اقتصاديًّا

الأُمْسُوخ

ويقال لهُ (ذَنَب الخَيْل) عشب معمّر ينمو بطبيعته في البقاع التي يوجد بها مستنقعات على الخصوص نذكر منهُ نوعين وهما :

(١) الهولنديّ : وهو دائم الاخضرار سوقه بسيطة قائمة خشنة جدًّا لتوفر مادة السليكا (الرمل) فيها وتحمل في اطرافها سنابل

اسمهُ العلمي (Equisetum hyemale, L.) (اكيستوم هايمالي) [1] وفصيلتهُ الأمسوخية (Equisetaceae) (اكيستاسية) وبالانجليزية (Dutch -- rush) والفرنسية (prêle des tourneurs) شائع في فرنسا وهولندا وبريطانيا ينتفع بسوقه في جلاء الخشب والمعدن وكثيراً ما يستعمله مبيضو النحاس وصانعو الامشاط وكان مرغوباً فيه قديماً لجلاء الأواني الزنكية والخشبية في المطابخ

(٢) الحقلي : وهو متساقط الاوراق سوقه غير المثمرة (العقيمة) تكون زاحفة على الارض ذات فروع بسيطة خشنة مربّعة الضلوع وسوقه المثمرة ذات اعماد اسطوانية الشكل ذات اسنان

اسمهُ العلمي (Equisetum arvense, L.) (اكيستوم اروِنسي) وبالانجليزية (corn — horse tail) والفرنسية (prêle des champs و prêle petite) شائع في اوربا ولا سيما بريطانيا ويكثر في الاراضي المزروعة وهو من الاعشاب الضارة في الاراضي الغِرْيَنِيَّة (المكونة من الطميّ) العميقة وهي التي تنشأ عن الأنهار والبحيرات

---

(١) اشتق اسم (Equisetum) اللاتيني ومعناه شعرة حصان اشتقاقاً لفظياً من كلمتي (equus) اي حصان و (seta) اي شعرة وذلك لوجود فروع دقاق كالشعر في جميع الانواع من هذا النبات

المارستان النوري
الكبير بدمشق

للدكتور سامي حداد
عضو الكلية الجراحية الاميركية وأحد
اساتذة العلوم الجراحية بجامعة بيروت الاميركية

يقع في جادة المارستان الى الجهة الشرقية من سوق الحميدية المشهور . ويبعد عن القلعة نحواً من خمسمائة متر تقريباً

انشأهُ السلطان العادل نور الدين محمود ابو الثنا بن زنكي اق سنقر سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) وهو من أشهر المارستانات العربية ولا تزال ابنيته قائمة . ونور الدين زنكي هو ثاني ملوك الدولة النورية كردي الاصل حكم في العجم والعراق والجزيرة وتسلم زمام الحكم في سوريا بعد قتل والده عماد الدين في سنة ٥٤١هـ(١١٤٦م) وامتد حكمه الى مصر وتوفاه الله سنة ٥٦٩هـ(١١٧٣م)

ندر ان خلد التاريخ لاحد من ملوك الارض ذكراً كالذي خلده لنور الدين . فاليك ما قال فيهِ ابن الاثير : — « وطبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا اكثر تحرياً منهُ للعدل واشتهر بزهده وعبادتهِ وعلمهِ وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الاَّ في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمهِ من الغنيمة . . . ولقد شكت اليهِ زوجته الضائقة فأعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت لهُ يحصل منها في السنة نحو عشرين ديناراً فلما استقلتها قال ليس لي الاَّ هذا وجميع ما بيدي انا فيهِ خازن للمسلمين لا أخونهم فيهِ ولا أخوض نار جهنم لاجلك. اه [٢]

اما سبب بنائهِ المارستان فيرجع الى انهُ « حارب الافرنج في حرب الصليبيين الثانية فوقع في اسره بعض اكابر ملوكهم فقطع على نفسهِ في فدائهِ مالاً عظيماً وشاور أمراءه بذلك فأشار كلٌ بعدم اطلاقهِ لما كان فيهِ من الضرر على المسلمين ، ومال نور الدين الى الفدية بعد ان استخار الله تعالى فأطلقهُ ليلاً . فلما بلغ الفرنجي مأمنهُ مات وبلغ نور الدين خبره فبنى بذلك المال

المارستان ومنعهُ الامراء لانهُ لم يكن عن ارادتهم » اه[٣][١٢] وتولى بناءه كمال الدين الشهرزوري وكان الحاكم المتحكم في الدولة النورية بدمشق . « وكان في ذلك الزمن طبيب يدعى مؤيد الدين ابو الفضل بن عبد الكريم المهندس بارعاً في علم الهندسة وفن النجارة . فصنع اكثر ابواب المارستان » اه[٣٣] ولا يبعد ان يكون بعض هذه الابواب باقياً لليوم ورمم هذا المارستان مراراً وأضيف الى بنائه واملاكه . ولكن لم تحدث هذه الترميمات تغييراً ذا شأن فيهِ

واول ترميم جرى في ايام الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين ممدود بن الملك العادل (احد الملوك الايوبيين) سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧م) . « وتولى الطبيب بدر الدين المظفر ابن القاضي مجد الدين الرآسة على جميع الاطباء والكحالين والجراحين بدمشق وكتب لهُ منشوراً بذلك . فاشترى بدر الدين دوراً كثيرة ملاصقة للمارستان واضافها اليهِ وكبر بها قاعات كانت صغيرة . وبناها احسن بناء وجعل الماء فيها جارياً فاكتمل بها المارستان » اه[٣٤]

والترميم الثاني جرى في ايام الملك المنصور سيف الدين قلاوون ملك مصر الذي اتى الشام اذكان اميراً سنة ٦٧٥ هـ (١٢٨٦م) فأصابهُ بها قولنج عظيم فعالجهُ الاطباء بادوية اخذت من المارستان النوري فخفظ ذلك ولما تملك على مصر امر ناظر المارستان بدمشق ان يعيد ترميمهُ . واقيمت في اثناء هذه الترميمات لوحة رخامية تذكارية فوق الباب الداخلي لا تزال الى الآن وهذا ما نقش عليها :

وضع سنة اثنين وثمانين وستمئة

« بسم الله الرحمن الرحيم . والذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منّاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون . وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجراً . وقال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث . علم ينتفع بهِ ، أو ولد صالح يدعو لهُ ، أو صدقة جارية . والمولى السلطان الغازي في سبيل الله نور الدين ابو الثنا محمود بن زنكي بن اق سنقر قدس الله روحه من جمع الله سبحانه وتعالى لذاته وصف العالمين . ومن شرط وقفه الذي اشهد بهِ على نفسه انهُ وقف على المارستان المعروف بانشائهِ وجعله مقراً لتداوي الفقراء والمنقطعين من ضعفة المسلمين الذين يرجا (يرجى) برؤهم . وهو يستعدي الى الله تعالى من يساعد في تغيير مصارف وقفه واخراجها عما شرطه ويخصا صمه بين يديهِ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء لو ان بينها وبينهُ أمداً بعيداً . وجدد ما كان تهدم من بنيانهِ وبناء أوقافهِ في الايام السلطانية العادلية الصالحية خلّد الله سلطانها بنظر الفقير الى الله تعالى عمر ابن ابي الطيب غفر الله لهُ ولمن أعان من المسلمين على عمارة هذا الوقف المبارك . وكان الفراغ منهُ فجر العشر الاول من ربيع الثاني سنة ٦٨٢ » . اه . والترميم الأخير جرى « في القرن الثامن عشر

على يد حسن باشا التركي المعروف بشوربزي حسن وبقي المارستان عامراً يستقبل المرضى الى سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن العشرين حتى قامت بلدية دمشق بانشاء مستشفى الغرباء وجعلت بناية المارستان النوري مدرسة أميرية للبنات » . (٩) اه

وقد ورد ذكر المارستان القديم والمارستان النوري في رحلة ابن جبير الذي زار دمشق سنة ٥٧٨ هـ وكتب عنهما مايلي : « وبها (اي بدمشق) مارستانان قديم وحديث والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قومه بأيديهم الازمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون اليها من الادوية والاغذية وغير ذلك والاطباء يبكرون اليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلح من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم . والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد أكثر . وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم » . (١٢) اه

واليك وصف المارستان النوري كما هو في حالته الحاضرة : — مدخله واقع في الجهة الجنوبية منه وبارز عن واجهة البناء وهو في غاية الفخامة والعظمة . ويعلو باب المدخل قبة نصفية مزينة بالنقش المقرنص وتحتها عتبة من الطرز اليوناني لعلها مستعارة من أثر يوناني قديم أضيفت الى البناء في أثناء احد الترميمات . ومصراعا الباب مصفحان من الجهة الامامية بالحديد المزين بالنقوش الهندسية الجميلة وفي وسط كل منها مقرعة حديد ضخمة تزيد هيئة الباب عظمة . (شكل ٢) والجهة الخلفية مزينة حشواتها الخشبية بنقوش نافرة متقنة الصنع (شكل ٣) والى الجهة الشرقية من هذا الباب من الخارج سبيل ماء جار أضيف في أثناء الترميمات التي جرت سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م)

ويفضي الباب الخارجي الى رواق مربع تعلوه قبة مرتكزة من كلٍّ من جانبها الايمن والايسر على قبة نصفية وكلها منقوشة نقشاً مقرنصاً . ويقابل الباب الخارجي باب داخلي بحجمه ولا يقل عنه جمالاً واتقاناً (شكل ٤) وفوقه اللوحة الرخامية التي سبق الكلام عنها (شكل ٥)

ويفضي هذا الباب الى مدخل صغير ومنه الى الباحة . والى جانبي هذا المدخل غرفتان كبيرتان من نوع العقد المصلب الشاهق البناء ومما يستوقف النظر صغر بابي هاتين الغرفتين بالقياس الى سعتهما وعلو سقفيهما . اما الباحة فساحتها نحو من ٤٠٠ متر مربع والى جانبيها الشرقي والغربي ايوان متوسط بين غرفتين فسيحتين . وقد ازدانت جدران الايوانين بنقوش هندسية جميلة وفي اثناء الترميم الاخير أقيم حائط أمام الايوانين فجعل كلاً منهما غرفة صغيرة . وفي صدر الباحة إيوان متسع قائم على كلٍّ من جداريه الشرقي والغربي لوحتان رخاميتان منقوش عليها الآيات القرآنية الآتية : —

(١) يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في

(٢) الصدور . يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه (فيه شفاء للناس)

(٣) فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين

(٤) واذا مرضت فهو يشفين والذي أطمع ان يغفر لي خطيئتي

أطباء المارستان النوري الكبير

ترجم لنا ابن ابي اصيبعة عدداً من الاطباء الذين خدموا المارستان النوري الكبير اليك خلاصة ترجمتهم

(١) اول طبيب عقد نور الدين عليه ادارة المارستان هو ابو علي ابو المجد بن ابي الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي واطلق له جامكية وجراية . وكان ابو الحكم من الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين والافاضل في صناعة الطب والاماثل في علم الهندسة والنجوم . كان يدور على المرضى في المارستان ويتفقد احوالهم كل يوم . وبعد الفراغ من ذلك يطلع الى القلعة ويتفقد المرضى من اعيان الدولة . ثم يرجع الى المارستان ويجلس في الديوان الكبير وجميعه مفروش وكان نور الدين قد وقف جملة كبيرة من الكتب الطبية وضعت في خزانتين في صدر الديوان الكبير . فيحضر جماعة الاطباء والتلامذة ويقعدون بين يدي ابي الحكم فتجري المباحث الطبية ويقرىء التلامذة وهو لا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب الى داره . وتوفي بدمشق سنة نيف وخمساية هجرية [٣٥]

(٢) الشيخ مهذب الدين ابو الحسن علي بن ابي عبد الله عيسى ابن هبة الله النقاش . مولده ومنشؤه ببغداد عالم بالعربية والادب يتكلم الفارسية . اشتغل بصناعة الطب على امين الدولة هبة الله صاعد بن التلميذ . ثم أتى الى دمشق وذهب الى مصر ثم رجع الى دمشق وخدم فيها الملك العادل نور الدين وخدم ايضاً في المارستان النوري . ولما مات الملك العادل خدم صلاح الدين الايوبي وتوفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨م) . وكان كثير الاحسان محبًّا للجميل [٣٦]

(٣) موفق الدين ابو نصر اسعد بن ابي الفتح الياس بن جرجس المطران . كان سيد الحكماء وافر الآلاء جزيل النعماء أميز اهل زمانه في علم صناعة الطب وعملها . خدم صلاح الدين الايوبي فغمره باحسانه ، واترفه بمننه ، وكان يحترمه ويجله لما قد تحققه من علمه . وكان يعاب على ابن المطران الزهو بنفسه والتكبر . وحدَّث بعض من يعرفه فيما يتعلق بعجبه وادلاله على صلاح الدين انهُ كان معهُ في بعض غزواته وكانت عادة صلاح الدين ان ينصب لهُ خيمة حمراء وكذلك دهليزها وشقتها . وكان صلاح الدين راكباً يوماً واذا به قد نظر الى خيمة حمراء اللون وكذلك شقتها ومستراحها فبقي متأملاً لها وسأل لمن هي فأُخبر انها لابن المطران الطبيب . فقال والله لقد عرفت ان هذا من حماقة ابن المطران وضحك ثم قال ما بنا ألاَّ يعبر احد من الرسل فيعتقد انها لاحد الملوك واذا كان لابد فيغير مستراحها وأمر به ان يرمى . ولما رُمي صعب ذلك على

ابن المطران وبقي يومين لم يقرب الخدمة فاسترضاه السلطان ووهب له مالاً . وكان موفق الدين كريماً محباً لعمل الخير يساعد تلاميذه على تحصيل رزقهم . وخدم المارستان اجلّ خدمة . وكان معهُ تلميذه مهذب الدين الدخوار الذي تولى رآسة المارستان بعد مدة . وعمران الاسرائيلي الطبيب وابن ابي اصيبعة الكحال وابن حمدان الجرائحي الذي كان يجري العمليات الجراحية على مرأى من التلامذة وابن المطران يتفقد نبض المريض في اثناء العملية . وكان لموفق الدين همة عالية في تحصيل الكتب ولما مات كان في خزائنه منها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخهُ . وكانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها . وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له ابداً ولهم منهُ الجامكية والجراية . ولهُ مؤلفات نفيسة في الطب منها المقالة الناصرية في حفظ الامور الصحية ، وكتاب آداب طب الملوك وغيرها . وقد ادركه الاجل قبل ان يتم كتابه بستان الاطباء وروضة الالباء . ومما يؤسف له جداً ان كل كتبه قد فقدت وتوفي سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) [٣٧]

(٤) مؤيد الدين ابو الفضل محمد بن عبد الكريم ابن عبد الرحمن الحارثي المعروف بالمهندس ولد ونشأ بدمشق . كان اول امره نجاراً ونحاتاً وهو الذي نجر ابواب المارستان النوري . وكان يصلح ساعات الجامع الاموي بدمشق وهي من صنع والده . وقد طب للمارستان وكان له منهُ جامكية الى ان توفاه الله سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢م) وله من العمر سبعون سنة [٣٣]

(٥) موفق الدين عبد العزيز بن عبد الجبار ابن ابي محمد السلمي . كان كثير الخير محبّاً له مؤثراً للجميل غزير المروءة شديد الشفقة على المرضى وخصوصاً من كان منهم ضعيف الحال يتفقدهم ويعالجهم ويوصل لهم النفقة وما يحتاجون اليهِ من الادوية والاغذية . خدم المارستان الكبير ثم الملك العادل ابا بكر بن ايوب . ويظهر انهُ كان رئيساً لاطباء المارستان الكبير لان مهذب الدين الدخوار خلفهُ في هذه الرياسة كما سنرى . وتوفي سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧م) [٣٨]

(٦) رضي الدين ابو الحجاج يوسف بن حيدره بن الحسن الرحبي تلميذ مهذب الدين النقاش . خدم صلاح الدين الايوبي واخاه الملك العادل ابا بكر بن ايوب وكان ملازماً للقلعة والمارستان ومن اغرب ماذكره عنهُ انهُ قال «السلّم منشار العمر» وحكي عنهُ انهُ قال انني منذ اشتريت هذه القاعة التي انا ساكن فيها اكثر من خمس وعشرين سنة لا اعرف انني طلعت الى الحجرة التي فوقها الا وقت استعرضت الدار واشتريتها وما عدت طلعت الى الحجرة بعد ذلك الى يومي هذا وكان في اثناء خدمته في المارستان اكبر الاطباء سنّاً واعظمهم قدراً واشهرهم ذكراً . وكان احد الاساتذة الذين ألقوا الدروس على الراغبين في علم الطب بالمارستان ومن معاونيهِ مهذب الدين الدخوار والحكيم عمران الاسرائيلي وعاش مائة سنة وتوفي سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦م) [٣٩]

(٧) كمال الدين ابو منصور المظفر بن علي بن ناصر القرشي . كان كثير الخير وافر المروءة

كريم النفس اشتغل في الطب على الشيخ رضي الدين الرحبي وبقي سنين يتردد على المارستان يعالج المرضى فيه احتساباً . ثم ألزم بعد ذلك بان قرر له جامكية وجراية وبقي كذلك الى ان توفي سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) [٤٠]

(٨) شمس الدين ابو عبد الله محمد بن عبدان بن عبد الواحد بن اللبودي . افضل اهل زمانه في العلوم الحكيمة وفي علم الطب سافر من الشام الى بلاد العجم واشتغل هناك بالحكمة على نجيب الدين اسعد الهمداني وقرأ صناعة الطب على رجل من اكابر العلماء واعيانهم في بلاد العجم كان قد اخذ الطب عن تلميذ لابن سهلان عن السيد الايلاقي محمد . وكان ذا همة عالية وفطرة سليمة وذكاء مفرط . له مجلس يدرّس فيه الطب . خدم الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن صلاح الدين واقام عنده بحلب وبعد وفاة غياث الدين اتى الى دمشق وخدم المارستان النوري الى ان توفي سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) وله من العمر احدى وخمسون سنة وله كتب كثيرة [٤١]

(٩) مهذب الدين احمد بن الحاجب . مولده بدمشق سافر الى الموصل وعاد الى دمشق واشتغل فيها بالطب فأتقنهُ واشتهر فيه واتقن العلوم الرياضية واعتنى بالادب . له تصانيف جليلة خدم صلاح الدين الايوبي والمارستان النوري الكبير . ثم توجه الى حماه حيث خدم الملك المنصور واقام عنده نحو سنتين وتوفي بالاستسقاء [٤٢]

(١٠) مهذب الدين ابو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد الدخوار . ولد ونشأ بدمشق واشتهر هو وابوه بالكحالة . واشتغل فيها في بدء امره وخدم المارستان النوري ككحال . واجتهد في تحصيل العلوم ونسخ الكتب وقرأ الطب على الشيخ رضي الدين الرحبي وموفق الدين المطران وفخر الدين المارديني . خدم الملك [illegible] بن ايوب بصناعة الطب [illegible] في خدمة العسكر في ايامه . ثم لما مات موفق الدين عبد العزيز عين رئيساً على الاطباء في المارستان الكبير وعين لهُ منهُ جامكية وجراية فخدم المارستان خير خدمة . وكان من معاصريه ممن خدموا في المارستان رشيد الدين الصوري وعمران الاسرائيلي وابن ابي اصيبعة ومهذب الدين ابن الحاجب والشيخ رضي الدين الرحبي

ولما توجه الملك العادل الى مصر اخذه معهُ وولاه رياسة اطباء الديار المصرية بأسرها واطباء الشام ولما استقر ملك الملك المعظم بالشام بعد موت ابيه استدعى مهذب الدين اليه ورسم لهُ ان يقيم فيها وان يخدم المارستان الكبير واطلق لهُ جامكية وجراية . فخدم المارستان خير خدمة . وأسس مدرسة لتعليم الطب في داره فاجتمع اليه خلق كثير من اعيان الاطباء وغيرهم يقرأون عليه الطب وهو يبحث معهم كل في درجة علمه . وكان اذا فرغ من ذلك يصرف بقية نهاره واكثر ليله في الحفظ والدرس والمطالعة . ووقف داره وجعلها مدرسة

يدرس فيها من بعده صناعة الطب ووقف لها ضياعاً وعدة اماكن يستغل منها ما يصرف في مصالحها وفي جامكية المدارس وجامكية المشتغلين بها ووصى ان يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين علي بن الرحبي وفي سنة ٦٢٨ حضر الحكيم سعد الدين ابراهيم ابن الحكيم موفق الدين عبد العزيز وجماعة من الفقهاء والحكماء وشرع الحكيم شرف الدين بن الرحبي في التدريس بها واستمر على ذلك سنين عدة . ولمهذب الدين كتب كثيرة في الطب واللغة وكان شاعراً رقيقاً (٤٣)

(١١) ابو الثناء محمود بن عمر بن محمد بن ابراهيم بن شجاع السيباني الحانوي ويعرف بابن رقيقة . كان صديقاً حمياً لابن ابي اصيبعة فترجم هذا له ترجمة فائضة . قال فيه ذو النفس الفاضلة ، والمروءة الكاملة ، تميز على سائر نظرائه واضرابه من الحكماء والمتطببين ، ذو الفطرة الفائقة ، والالفاظ الرائقة ، والنظم البليغ ، والشعر البديع . ولد بمدينة حيني سنة ٥٦٤ هـ ونشأ بها وكان طبيباً وكحالاً وجراحاً وتقلب في خدمة عدة ملوك وامراء وفي سنة ٦٣٢ وصل الى دمشق وكان بها الملك الاشراف فاكرمه واحترمه وامره بان يتردد الى الدور السلطانية بالقلعة وان يواظب على معالجة المرضى بالمارستان الكبير واطلق له جامكية وجراية وبقي يشتغل فيه الى ان توفاه الله سنة ٦٣٥ هـ . (١٢٣٧م) وله كتب كثيرة (٤٤)

(١٢) اوحد الدين عمران بن صدقة الاسرائيلي قد مرّ ذكره . ولد بدمشق سنة ٥٦١ وكان ابوه طبيباً واشتغل على الشيخ رضي الدين الرحبي بصناعة الطب وصار من اكابر المتعينين من اهلها وحظي عند الملوك واعتمدوا عليه وقد عين في خدمتهم وحصل من الكتب الطبية وغيرها مالا يكاد يوجد عند غيره . خدم المارستان الكبير في ايام الدخوار وابن ابي اصيبعة وتوفي سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩م) (٤٥)

(١٣) سعد الدين ابو اسحق ابراهيم ابن عبد العزيز بن عبد الجبار بن محمد السلمي . ابن عبد العزيز المارذكره سابقاً (٥) . ولد بدمشق سنة ٥٨٣ وخدم صناعة الطب في المارستان الكبير ودخل في خدمة جملة من الملوك والامراء وتوفى سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦م) (٤٦)

(١٤) رشيد الدين علي ابو الحسن بن خليفة بن يونس بن ابي القاسم بن خليفة مولده بحلب سنة ٥٧٩ هـ وهو عم ابن ابي اصيبعة . درس الطب مع اخيه بمصر فلازما الشيخ جمال الدين بن ابي الحوافر ، وكان رئيساً للاطباء بمصر ، والشيخ ابا الحجاج يوسف . ثم عاد رشيد الدين ودرس على موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي . ثم انتقل مع والده الى دمشق وله من العمر عشرون سنة فحضر مجلس الاستاذ رضي الدين الرحبي وباشر المرضى في المارستان الكبير في ايام الدخوار وموفق الدين المطران . وعلاوة على طبه كان لغوياً اديباً فقيهاً يجيد العربية والفارسية والتركية والموسيقى وفي سنة ٦١٥ ولاه الملك العادل ابو بكر ايوب طب المارستانين بدمشق اللذين وقفهما الملك العادل فكان يتردد اليهما والى القلعة وقرر له جامكية

وجراية وجعل له مجلس عام لتدريس صناعة الطب واجتمع بالسيد الامام العالم شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه والبسهُ خرقة التصوف وذلك في سنة ٦١٥ . ولهُ كتب كثيرة في الطب والادب والحساب وغير ذلك من الفنون[٣١]

(١٥) شرف الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي . ابن رضي الدين الرحبي الذي مرَّ ذكره (٦) . ولد بدمشق سنة ٥٨٣ هـ وحذا حذو أبيهِ واقتفى ماكان يقتفيهِ وهو أشبه بهِ خلقاً وخلقاً . خدم مدَّة في المارستان الكبير وتولى التدريس في المدرسة الدخوارية وكانت وفاته سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨م) [٤٧]

(١٦) جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبي . ابن رضي الدين (٦) واخو شرف الدين [١٥] . مولده دمشق ومنشده بدمشق خدم المارستان الكبير وكان يحب التجارة ويسافر بها في بعض الاوقات الى مصر وتوفي سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٨م) [٤٨]

(١٧) بدر الدين بن قاضي بعلبك . نشأ بدمشق وقرأ الطب على الشيخ مهذب الدين الدخوار سافر الى الرقة وخدم في المارستان هناك ثم أتى الى دمشق واستخدمه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين ممدود بن الملك العادل وكان حظيًّا عنده مكيناً في دولتهِ . ولاه الرياسة على جميع الاطباء والكحالين والجراحين وكتب لهُ منشوراً بذلك سنة ٦٣٧ هـ . فجدد في محاسن الطب ما درس واعاد من الفضائل ما دثر وكان محبًّا لفعل الخير . مرَّ بنا انه وسع المارستان النوري ورأسه بموجب منشور من الملك الصالح نجم الدين ايوب ابن الملك الكامل سنة ٦٤٥ هـ وقد قرأ الكتب الفقهية والفنون الادبية وحفظ القرآن حفظاً لا مزيد عليهِ ولهُ كتب كثيرة في الطب وسواه[٣٤]

(١٨) شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابراهيم ابن ابي المحاسن الكلي . والده اندلسي أتى الى دمشق فنشأ شمس الدين بها وقرأ الطب على الدخوار . وحفظ كليات قانون ابن سينا حفظاً متقناً حتى لقب لاجل ذلك بالكلي . خدم الملك الاشرف والمارستان الكبير[٤٩]

(١٩) عز الدين ابو اسحق ابراهيم بن محمود بن السويدي . ولد بدمشق سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣م) ونشأ بها . درس الطب على الدخوار وبرع بهِ وخدم المارستان النوري الكبير والمارستان الذي بباب الحديد . وتردد الى القلعة وكان يدرس في المدرسة الدخوارية وله جامكية من كل هذه الجهات . وكتب بخطهِ كتباً كثيرة وكان صديقاً لابن ابي اصيبعة [٣٢]

(٢٠) عماد الدين ابو عبد الله محمد بن القاضي الخطيب الدنيسري . ولد بمدينة دنيسر سنة ٦٠٥ هـ واشتغل فيها بالطب وأتى دمشق وخدم المارستان الكبير والاسرة الناصرية اليوسفية بالقلعة وكان شاعراً ولهُ كتب كثيرة [٥٠]

(٢١) ابن العبري (مختصر الدول) معجم سركيس[٤]

حيوانات مشهورة

وصحة اسمائها

للفريق الدكتور امين المعلوف

أوردت في الجزء الماضي بعض الحيوانات المشهورة وصحة ترجمتها وها أنا أذكر الآن غيرها مما قد يرد على الكتّاب والمؤلفين وأذكرها اعتباطاً بلا رابط بينها أو رابط قليل ولا أريد بذلك الأخدمة العلم واللغة وأصحاب المعاجم الافرنجية واني أرجو منهم ان يقللوا من الحذلقة ما أمكن لئلا يضللوا القارىء واني ذاكر الالفاظ الانجليزية دون الالفاظ العلمية أو الفرنسية فهذه لا يعسر العثور عليها لمن أراد

ظبي أو غزال — Gazelle

حيوان رشيق من ذوات الظلف مجوّف القرون وهو أنواع كثيرة ذكرت معظمها في معجم الحيوان ص ١١٢ منهُ نوع في جزيرة العرب ونوع آخر في الفيوم جنوباً يعرف كلاهما بالرئم في أيامنا ولم يذكر الظبي بهذا الاسم في التوراة الانجليزية بل باسم آخر على ان اسمهُ المشهور هو هذا وهو عربي . أما الظبي فقد ورد في التوراة العربية بهذا الاسم وترجمته صحيحة

إيّل جمعه أيايل وأيائل — Deer or Hart. Male called stag female doe

والأيايل فصيلة من ذوات الظلف لذكورها قرون متشعبة ومصمتة أي لا تجويف فيها كما في قرون الظباء وهي تنسلخ عنها كل عام وينبت غيرها اما أناثها فجمّ اي لا قرون لها . وفي كثير من المعاجم خلط كبير بين الظبي والايّل فيسمون الواحد منهما باسم الآخر والصواب ما ذكر . والظباء على الغالب في البلاد الحارة والأيايل في البلاد الباردة

يحمور — Roe, Roebuck, Roe deer

نوع من الايايل لكل من قرنيه ثلاث شعب قصير الذنب احمر اللون آزر أي ابيض العجز أغبر البطن مصفره ينصل قرنيه كالايّل

ولم تذكر المعاجم هذا الايل باسمهِ هذا ولا ذكرت صحة ترجمته وهو وارد في التوراة .

والظباء كثيرة في مصر وسورية وجزيرة العرب واليحمور كان في سورية الجنوبية اي فلسطين الى زمن قريب وهذه الحيوانات الثلاثة مذكورة في التوراة والايل كثير في اناطولية واوربة. واليحمور لا يزال معروفاً في اوربة ولا سيما في حدائقها العامة

جاموس (فارسية معربة) Buffalo

جاموس هندي او اهلي واصله من الهند Buffalo, Indian or Water buffalo

جاموس افريقي Buffalo, African

وهو من جنس آخر خلاف الهندي ومن اشد الحيوانات خطراً على الانسان

جَيهل (هندية معربة وتعريب بوست) Gayal

جُور (هندية معربة وتعريب بوست) Gaur

بَيْسِون (تعريب احمد فارس) Bison

بقر دربانية والواحدة بقرة Zebu

قوتاش وقطاس. خُشغاء. كلهُ تركي معرب وهو الذي كان الترك يعلقونهُ في اعلامهم Yak

فيقال للواحد منهم باشا ذو ذنب واحد وباشا ذو ذنبين وباشا ذو ثلاثة اذناب وقد بطلت هذه الاذناب الآن والا كانت جميع البقر لا تكفي واذكر اني قرأت في الانجليزية قصة اسمها الباشا ذو الاذناب العديدة وفي الانجليزية جناس في الاذناب فاذا هي ذو القصص العديدة

بيسون اوربي Aurochs or Wisent

بقر جاوة او ثور جاوة وان شئت الحذلقة فقل ازاج Banteng

نلجاي او بقر ازرق والواحدة بقرة Nilgai

بقرة وثور والبقرة تطلق على الذكر والانثى Cow and Ox

بقرة المسك Musk ox

هذه الحيوانات جميعاً من جنسي البقر وهي تلو الظباء ولا يخفى ان البقر مجوفة القرون كالظباء لا كالايائل وليس في المعاجم كلها من هذه الحيوانات مع صحة ترجمتها الا الجاموس

فُقّمة وفُقْمة Seal

حيوان من لواحم البحر شبيه بالسمك في الظاهر لكنهُ حيوان لبون ومن ذوات الرئتين والكلمة تعريب فوقي اليونانية وهي شائعة في بيروت فهل تعريب العامة هذا خيرٌ من تعريب الخاصة فالعامة قالوا فقمة والخاصة قالوا فوقي لكنهم صحفوها وكتبوها قوقي في بعض مؤلفاتهم منها مفردات ابن البيطار وغيرها واستعملوها لحيوان آخر كما صحفوا الدنانير القوقية وصوابها الفوقية من ضرب فوقا ملك الروم قبل هرقل . وأرى ان تعريب العامة افضل من تعريب الخاصة.

ومن اسماء هذا الحيوان شيخ البحر والشيخ اليهودي وابو مرينة وليس من هذا الجنس غيره في البحر المتوسط ولا بأس باطلاقه على جميع الانواع التي ذكرتها في ص ٢٢٢ من معجم الحيوان مع ان الفقمة هذه ليست الا في البحر المتوسط وليس فيه غيرها . قلت ولم يذكر أصحاب المعاجم هذا الحيوان على صحته

اطوم . مَلِيصة . زالخة . حَشَنفاء Dugong or Halicore

حيوان لبون من بنات الماء او الخَيلان يقال له في ساحل سوا كن ناقة البحر وفي الطور اللطوم اي الاطوم وكاد ينقرض اوردته في ص ٨٨ وص ١١٢ من معجم الحيوان . وكلمة أطوم فصيحة أوردها كعب بن زهير في « بانت سعاد » ولم ارَ معجماً كتب اسم هذا الحيوان على صحته ولا سيما في مادة Dugong واظن الاطوم افصحها لذلك قدمتها على الكلمات الاخرى

أما قولي الخيلان فعن الاب انستاس واظنه أخذها عن محيط البستاني وهذا أخذها على ما أظن عن فريتاغ ولم أعثر عليها الا في محيط المحيط فليدافع الاب انستاس عن هذه الكلمة وقد سمعتها منهُ في بغداد . اما بنات الماء فحقها ان تكون بنات البحر لانها ترجمة اسمها الثاني لكن بنات الماء في كتاب قديم ذكره شارح كتاب عجائب الهند . وأظن الذي اراده البستاني في قوله سرنس انها كلمة يونانية معروفة هي اسم امرأة جميلة سميت بها فصيلة هذا الحيوان ولعلها شيرين الحسناء الفارسية وكانت يونانية الاصل في ما أظن

ظَربان Ratel

حيوان من اللواحم اي آكلات اللحوم اصغر من السنور اصلم الاذنين مجتمع الرأس طويل الخطم قصير القوائم اسود الظهر ابيض البطن رائحتهُ كريهة جداً. اما احد انواعهِ في السودان فيسمى ابو دجاجة ولصلوص ذكرها فون هوغلن وابو كيم ذكره روبل وهو لا يعول عليهِ في اسماء الحيوان بالعربية وسمعت في حديقة الحيوان ابو كعب

هذا تقريباً وصف ابن سيده . ووصف غيره من اللغويين فراجع ما كتبوه

وكنت قد سميت هذا الحيوان الرتل وآكل العسل في معجم الحيوان ص ١٦٠ فالراتل اعجمية وآكل العسل ترجمة اسمهُ النوعي وابقيت الاسمين الاخيرين الى ان يهتدي احد الناس الى اسمه الحقيقي ولم أدرِ يومئذٍ اني سأهتدي اليهِ وهو الظربان المشهور عند العرب وقد اهتديت اليهِ من قول الميجر تشيزمان كما ذكرت في ص ١٣٣ وارى الآن ان الميجر مصيب في ما قالهُ ومن شاء مناقشتي في ذلك فاني اناقشهُ على شرط ان يرفع الحذلقة

ظَربان افريقي منهُ نوع اسمهُ ابو عَفَن وابو المنتن Zoril

ظَربان اميركي Skunk

بقي عليَّ ان اقول ان المعاجم لم تذكر هذه الحيوانات الاربعة فلتذكرها الآن ولكن بلا حذلقة فالظربان قد اتعبني كثيراً وان الميجر تشيزمان سماه باسم السر ارنولد ولسن عدو

العرب وخصم كل امة تطلب استقلالها فاسم هذا الحيوان ظربان ولسن Mellivora wilsoni فهل هذه مصادفة

الحمير وهي كثيرة وقد ذكرناها في الصفحة ٩٨ والصفحة ٢٧٠

حمار . عير . اخطب Domestic ass

يسمى الاهلي عيراً والاخطب لان لهُ جُدَّة على ظهره ويظن انهُ كان قبلاً في جزيرة العرب ثم انقرض . اما الآن فليس من الحُمُر هناك الاَّ الفراء الآتي ذكره

فراء Syrian wild ass

وهو الفراء المذكور في التوراة والفراء عند العرب وليس للفراء جُدَّة على ظهره

فراء التبت . قولان بالتركية سميتهُ بالفراء لانهُ لا جدة لهُ Kiang

اخدر واخدري Onager

وهو حمار وحشي سريع جداً اما سبب ذكر هذه الحمير بهذه الاسماء دون غيرها فلاسباب يطول شرحها

عتابي . حمار عتابي Zebra

سمي بذلك لهذه الخطوط السود التي فيهِ وقد بينت ذلك في ص ٢٧٠ وهو الذي يسمى عادةً بحمار الزرد وكلمة عتابي عربية الاصل

قط عتابي Tabby

اي فيهِ خطوط او توشيم وهذه عربية ومنهُ اسمه بالانجليزية وليس لهذه الحيوانات ذكر في المعاجم الاخرى وان ذكرت فذكرها غلط او تافس في الحذلقة

زباب والواحدة زبابة Shrew

حيوان من آكلات الحشرات شبيه بالفار في الظاهر ولكنهُ ليس من الفار ولا من رتبته بل يختلف عنهُ في الفصيلة والرتبة

ذكرت الزباب في ص ٧٥ و٢٢٧ من معجم الحيوان ولم يذكرها احد من اصحاب المعاجم على الاطلاق لانها جديدة . وقد سرني ان مجلة مجمع اللغة الملكي اوردتهُ في الجزء الثاني من المجلة ص ١٢٦ لكنها نسبته الى القاموس وصاحب القاموس لم يفعل شيئاً من هذا وكان حقها ان تنسبها لهذا الذي سهر الليالي في تأليف معجمه لا الى القاموس ولا ادري ما يقول المجمع في ذلك

حيّات والواحدة حية للذكر والانثى Serpents or Snakes

وفي سورة طه «فاذا هي حية تسعى» اي ان الحية بهذا المعنى افصح الكلام ولا أدري سبب غرام جرائد بيروت بالافعى ويريدون بها كل حية ضخمة طويلة فيقولون قتلت في القرية الفلانية أفعى طولها يزيد عن خمسة امتار او نحو ذلك فالافعى لا تكون خمسة امتار او ما يقرب من هذا

ولكن العامة تقول الحية كما جاء في القرآن الكريم فلماذا لا تقول الجرائد حية . وفي مصر تقول العامة وبعض الادباء كلمة ثعبان كانها مرادف للحية فغرام اهل مصر بالثعبان كغرام أهل بيروت بالافعى ولا أريد ان يكون جميع أدباء بيروت ومصر من علماء الحيوان بل أريد ان يكونوا كالعامة في استعمال هذه الحيات وبالامس أصلحت كتاباً في الحيات فبقي المؤلف يقول الثعبان بمعنى الحية كلما تغافلت عنه ولم اقدر ان احوله عن ذلك . كذلك في مجمع اللغة الملكي فانهم قالوا في سنة ١٩٣٤ الثعبان وهم يريدون الحية فأصلحت ذلك. اما في هذه السنة فقالوا الحية والحمد لله. فعسى ان جرائد بيروت تقول الحية وتترك الافعى وادباء مصر تقول الحية وتعدل عن الثعبان وسأذكر فيما يلي اسماء بعض الحيات بالانجليزية وما يقابلها بالعربية

افعى Viper or Adder

وقد وردت كثيراً في التوراة وهي حية قصيرة دقيقة العنق عريضة الرأس مفلطحته خبيثة جداً تقتل لساعتها وتعرف بالافعى في كتب اللغة وفي السودان وجزيرة العرب والعراق

حنش او حنش اسود Lacertine snake

حية طويلة سوداء سمها قليل ولكنني احذر القارئ من الصل الآتي ذكره فهو حية طويلة سوداء ومن اخبث الحيات

صل حية خبيثة جداً ربما اشد سماً من الافعى Asp or Cobra

والصل وارد في التوراة بهذا الاسم بالعربية والانجليزية ويظن انه الناشر المصرية ولا بأس بتسمية الناشر الهندية بهذا الاسم ايضاً (انظر معجم الحيوان ص ٢١ و٦٩ فقد ذكرت فيهما الصل والحية الناشر على انواعها) اما سبب تسمية الجاحظ هذه الحية بالافعى الهندية فلانها خبيثة سامة

ثعبان Culnber, Couleuvre

وفصيلة الثعابين حيات عظيمة سمها قليل وبعضها من أخبث الحيات

وقبل ان اترك البحث في الحيات احذر القارىء من التعرض لها مهما ظن ان سمها قليل لئلا يصيبهُ ما اصاب حاوي عاليه بلبنان منذ خمسين سنة فانهُ حاول القبض على حية سوداء ظنها حنشاً اسود فاذا هو يقبض على اسود آخر هو الذي قال عنه رؤبة

كنت كمن ادخل في جحر يدا فأخطأ الافعى ولاقى الاسودا

وهنا اخطأ الجاحظ على علو كعبه في العلم والادب واصاب رؤبة كما ذكرت في معجم الحيوان ص ٧٠ ولعل حاوي عاليه قبض على ناشر مصرية او على احد انواعها المعروف بالبرجيل وهو اشد الحيات سماً على ما يقول حواة مصر وهم اخبر الناس بالحيات وسمها. والبرجيل معروف في مصر والشام والعراق وكنت اهرب منه عشرة امتار او اكثر ولو كان الحاوي قابضاً عليه وان لم تصدق فجرب أي جربني انا عندما أهرب من البرجيل اوجرب القبض عليه. اما انا فلا افعل

أوجين أونيل

Eugene Gladstone O'Neill

أوجين أونيل الكاتب الاميركي الذي فاز بجائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٣٦ من نوابغ رجال الفن والادب المسرحي في أميركا . وهو طويل القامة قوي البنية ذو وجه كالح يدل على الشراسة والعناد . اشتهر بمؤلفاته الدالة على قوة فنية رائعة وذوق أدبي ممتاز ، ولكنهُ لا يزال تحت تأثير فهم غير تامّ لبعض نواحي الحياة وقساوة في تآليفهِ المسرحية يخضع لها من وقتٍ لآخر ، ولعلّ لذلك أسباباً تعود الى المغامرات الكثيرة والحياة الجامحة التي عاشها متنقلاً بين بلدٍ وآخر . ولما كان أونيل يفضل حياة الحشمة والتواضع منزوياً منكمشاً في شؤونهِ الخاصة وكانت حياته الأولى حافلة بالمغامرات والأهواء المضطربة فقد كانت شخصيته الغريبة الاطوار باعثاً على تواتر قصص وشوائع مختلفة جعلت اسمه شبه اسطورة في الادب الأميركي

***

كانت الدراما والآداب المسرحية في أميركا — قبل الثورة والاستقلال — ذات ميول واتجاهات استعمارية وصبغة ثورية متأثرة بالثقافة الانكليزية البحتة تتخللها مؤثرات تشف عن الروح التوتونية ، وكانت المؤلفات المسرحية والقصص التمثيلية تقليدية أكثر منها أصيلة

على أن أول من بدأ بتأليف القصص المسرحية في أميركا William Dunlap وهو المعدود أبا الدراما في الولايات المتحدة و Rayall Taylor مؤلف القصة الهزلية The Contrast التي مثلت عام ١٧٨٧ وهي أول قصة مسرحية أظهرت للعالم الشخصية الاميركية باسم Yankee . أما (دنلاب) فقد ألف واقتبس أكثر من ستين قصة مسرحية أهمها André وقد ظهرت عام ١٧٩٨ . وهذان المؤلفان (دنلاب وتايلر) هما اللذان سارا بالقصة المسرحية في أميركا سيراً حثيثاً في سبيل التقدّم والارتقاء ، حتى بدأت تتحرر تدريجيًّا من المؤثرات الاوربية . وما كاد يبزغ القرن

التاسع عشر حتى كانت الدراما قد افلتت من معظم القيود الاجنبية واصبحت تعتمد على نفسها وجاء William Gilette بمسرحيته (Held by the Enemy) و (Secret Service) فوضع أسس القصة المسرحية في الولايات المتحدة ، وجاء بعده غيره من الكتاب المسرحيين فألفوا القصص التمثيلية خالية من المؤثرات الاجنبية وظهرت القصة التمثيلية مستقلة الاستقلال كلهُ عن المسرحيات الاوروبية مبنىً ومعنىً . وكان هؤلاء المؤلفون الافذاذ الجذوع التي قامت عليها المسرحيات في اميركا ثم أينعت غصونها فاورقت الدراما في العالم الجديد ثم أثمرت بتأليف اونيل — اعظم كاتب مسرحي في اميركا — في الوقت الحاضر

وكما ان الادب الاميركي امتاز في عصرنا الحاضر بتأثيره في المذاهب الطبيعية والنفسية والفلسفية وبتحرره من القيود التي كانت تعرقل سيره فكذلك تأثر الادب المسرحي والدراما بمظاهر الحياة الاميركية الحرة وبالبواعث والمؤثرات نفسها بعد ان امتزجت بالميول والاهواء الخيالية فأبعدتها عن الحقيقة ولكنها القت عليها مسحة من الروعة والبهاء كما يتجلى لنا ذلك في مؤلفات اونيل ذات القوة الجذابة الرائعة

***

ولد اوجين اونيل في مدينة نيويورك في ١٦ اكتوبر ١٨٨٨ من اصل ارلندي وكان ابوه جيمس اونيل ممثلاً شهيراً اشترك في تمثيل دور في رواية « مونت كريستو » فربح في فصل واحد خمسين الف دولار . وقد درس اونيل في عدة مدارس داخلية معظمها كاثوليكي ثم دخل مؤسسة Botts وكان ينتقل من مدرسة الى اخرى الى ان دخل جامعة برنستون وظل فيها سنة واحدة ولكنهُ لم ينجح في الامتحان فغادر المدرسة لخوض معارك الحياة العاصفة . وقد تزوج في سنة ١٩٠٩ ولكنهُ عدّ زواجهُ هذا « خطأً فادحاً » . ثم اشتغل في نيويورك وعمل اعمالاً مختلفة فقضى سنتين بحاراً وسافر الى اميركا الوسطى للبحث عن الذهب ولكنهُ عاد بعد ستة اشهر وقد أصيب بالملاريا . ثم عاون والده في الشركة التي يعمل بها ولم يطل به الامر اكثر من ثلاثة اشهر حتى انسحب من العمل . وكان يطالع في اثناء ذلك مؤلفات جوزيف كونراد ورديرد كبلنغ وجاك لوندن . وقد ظهر اثر هؤلاء الكتاب في تآليفهِ الاولى . ثم عزم اونيل على ركوب البحر ومجابهة المخاطر والاهوال فسافر

في مركب نرويجي رحل بهِ الى (بونس ايرس) بعد ان قضى في البحر ٦٥ يوماً. وقد احترف حرفاً شتى كانت لهُ خير معين في تأليف مسرحياته فيما بعد وساعدتهُ على تفهم نواحي الحياة المختلفة وزودتهُ بمادة لا تنضب لقصصهِ وتآليفهِ. ثم عاد الى نيويورك وقد تطورت شخصيتهُ وطباعهُ فاذا بهِ ثائر على المجتمع محاربهُ بما اوتي من قوة وعزم. ولما عاد من رحلته الاخيرة الى سوثمبتون (في انكلترا) كان قد ربح من المقامرة ارباحاً طائلة ولكنه فطن الى امره وفكر في سوء العاقبة فركب القطار الى (نيو اورلينز) وهنا وجد نفسه فقيراً معدماً لا يملك شيئاً، بيد انهُ رأى اباه يمثل دوراً في رواية (مونت كريستو) فطلب منهُ اجرة قطار ليعود الى نيويورك ولكن أباهُ ارادهُ على تمثيل دور في الرواية ذاتها فقام بما عهد اليهِ خير قيام، وكان هذا بدء دخوله المسرح وباكورة اعماله الفنية التي خلدت اسمهُ كاعظم كاتب مسرحي معاصر في اميركا. وظل يمثل خلال هذه المدة أدواراً مختلفة مجيباً انتقادات أبيهِ بقوله «انهُ من العجيب أن يتمكن من القيام بتمثيل دور ما في رواية مشهورة هي «مونت كريستو». ثم اشتغل بعد ذلك مخبراً صحفيًّا مدة ستة اشهر وقد أعجب بهِ رئيسه «لتواضعه وأدبه ولطفه وعينيه الجذابتين وأسلوبه الادبي!...» وكان لرئيسه هذا فضل عظيم عليهِ في تشجيعه على الكتابة والتأليف

***

لم يبدأ اونيل بالكتابة الا بعد ان ساءت صحته واقعده المرض فظل مدة في المصح يشكو داء السل الوبيل وذلك سنة ١٩١٢ هناك تمثل اونيل ما بلاه في الحياة من ضروب المعاناة والتجريب. ويحدثنا انهُ في اثناء اقامته في المصح المذكور عرف هناك لاول مرة قيمة الحياة ووجد الفرصة سانحة امامه لوضع اسس ثابتة لحياته المستقبلة ولاسيما ان حياته كانت تزخر بالتجارب والاعمال وتتراكم في مخيلته بعضها فوق بعض دون اشباع ولاانبعاث. وهنا فكر بماضيه وحاضره وشعر بدافع قوي يحفزه الى كتابة القصص المسرحية وهو ذو الخبرة بالمسرح وحياة التمثيل والفن

دخل المصح وهو شاب عنيد شرس الاخلاق غريب الاطوار مقلقل الافكار لا غاية لهُ في الحياة الا كما تعيش الملايين الكثيرة من الناس حياة كلها تعب وشقاء..

وآخرها عدم وفناء . ولكنهُ خرج من المصح وهو شخص آخر — رجل ماضي العزيمة لهُ هدف في الحياة يسعى اليهِ . ومنذ ذلك الحين وهو يحيا حياة ملؤها النظام والعمل المجدي النافع . فأكبَّ على تأليف القصص المسرحية وأخرج خلال سنة واربعة اشهر احدى عشرة قطعة تمثيلية ذات فصل واحد وقطعتين طويلتين . وهو يعمل بجهد متواصل في تأليف القصص التمثيلية والروايات المسرحية . وكانت مسرحيته الظمأ (١٩١٤) ذات الفصل الواحد ، النبراسَ الذي أضاءَ سبيله في عالم الادب والفن

***

كانت الحرب الكبرى الضربة القاضية على المسرح والقصص التمثيلية. فلما استعرت نارها في شهر اغسطس ١٩١٤ أنزل الستار على المسرح وساد ظلام الوحشية على معالم الثقافة والفن . والحضارة لاتورق الا في ظلال السلم والطمأنينة ولا تزدهر الا حيث تمرح العقول والافكار في رياض الحرية وبين خمائل العلم والفن

ولكن الدراما نشطت في نيويورك بعد ذلك السبات العميق وأخذت تستعيد ما فقدت من قوة وأثر . ويعود سبب ذلك الى اهتمام سكان تلك المدينة العظيمة بالمسرحيات والتمثيل، بل تعد مدينة نيويورك الآن في الدرجة الاولى بين المدن التي يرتادها هواة الملاهي والمسارح لمشاهدة أروع القصص التمثيلية والقطع الفنية الراقية

وقد ظهر عقب انتهاء الحرب في المانيا مذهب جديد في الفن والتأليف المسرحية. نشأ هذا المذهب الفني من الخور واليأس اللذين استوليا على الشعب الالماني بعد اضمحلال الامبراطورية الالمانية وتهدم الآمال الجرمانية في السيطرة والتوسع ؛ فكاد يُقضَى آنئذ على آمال الشعب وأمانيه وشعر المفكرون وارباب الفن بهذه الكارثة الطارئة ، وهم يرون اكثر المؤلفات المسرحية تطغى عليها روح التشاؤم منبعثة مما يختلج في نفوس المؤلفين والكتَّاب من شعور واحساسات دفينة. تُظهر مايكنهُ المؤلف وابطال قصصه من آلام نفسية مبرحة وتأثرات عميقة متأججة — فنشأ من ذلك المذهب التعبيري Expressionism يصف نفسية الشعب المتألمة المرهقة بعار الذل والانكسار !

وكان لمسرحيات الكاتب القصصي الألماني Frank Wedekink (١٨٦٤—

١٩١٨) أثر عظيم في تطور المذهب الواقعي في الادب الألماني ، وقد مهدت تآليفه السبل وهيأت الافكار للدرامات الحديثة وكانت هي طليعة « للمذهب التعبيري » الذي كان اهم الداعين لهُ والقائمين بهِ Georg Kaiser (المولود في سنة ١٨٧٨) ، و Ernest Toller (المولود في سنة ١٨٩٤) ، على ان هذا المذهب الفني الذي تأثر بهِ « اونيل » غير ثابت الاوضاع ، فهو متقلقل في سيره ، وقد أصبح الآن ضئيل النفوذ خفيف الأثر ، ولا سيما ان كثيراً من مؤلفي المسرحيات (في المانيا) يفضلون العودة الى المذهب الواقعي . يقول المؤلف والنقادة المسرحي الانكليزي «سنت جون ارفن »: « ان الملهى (تياتر) سيبقى في حالة ضعف وانحطاط الى ان تستعيد الانسانية نشاطها وقوتها ، لان الدراما اكثر الفنون تعلقاً وصلةً بالمجتمع وسعادته ».

***

نعود الآن الى اونيل بعد هذا الاستطراد الوجيز عن المذهب التعبيري . فقد قضى سنة في جامعة (هارفرد) ١٩١٤ — ١٩١٥ يدرس الفن والتمثيل . ثم امضى صيف عام ١٩١٦ في مدينة (برنستون) وكان هنا على اتصال وثيق بالممثلين الشباب الذين قام اكثرهم فيما بعد بتمثيل قصصه القصيرة . وكان يطالع كثيراً من المؤلفات المسرحية ولا سيما كتب (ابسن) و (سترندبرغ) و (ودكند) و (نيتشه) . وكان لهؤلاء اثر ظاهر في مؤلفاته الاخيرة . وفي خلال ذلك ذاع صيته وانتشر اسمه على افواه الناس وفي الصحف والمجلات ، فاذا به اشهر مؤلف مسرحي في اميركا ، وفاز ثلاث مرات بجائزة (Pulitzer) . وصدر لهُ في عام ١٩١٨ (In the Zone)

ثم تزوج المرة الثانية (١٩١٩) فكان سعيداً بزواجهِ هذا اكثر منهُ بزواجه الأول، حتى اعتبره مواطنوه راجعاً الى حظيرة الانسانية، ووصفوهُ بانهُ «مواطن انساني تقريباً»!

وفي سنة ١٩١٩ اخرج مؤلَّفه The Moon of the Caribbees وست مسرحيات عن البحر و ١٩٢٠ « الذهب » و « ما وراء الافق » Beyond the Horizon ومنذ صدر كتابه هذا (ما وراء الافق) وهو يتمتع بلقب اعظم مؤلفي الدراما في اميركا ، بيد انهُ لم يفز بالشهرة العالمية الا بقصته « الامبراطور جونز » ١٩٢١ The Emperor Jones ثم بقصتهِ Anna Christie سنة ١٩٢٢

ولا شك ان سبب نجاحه الفني هو ثباته واخلاصه للغاية التي يعمل من اجلها ورغبته الصادقة في وصف الحياة وصفاً مطابقاً للواقع ، ولكن مما يؤخذ عليه تسرعه في الكتابة وقلة عنايته بموضوع مؤلفاته . وقد كان لحياته الأولى درس مفيد علمه ان ينظر الى طبائع الانسانية الخفية ونفسيتها المستترة والعوامل التي تطرأ على الحياة فتغير مجراها . وهو يصف الحياة كما تتراءى له معتمداً على ما يسيرها من العوامل والقوى النفسية الكامنة في اعماق الانسان. ثم ظهرت له قصص اخرى ذات صبغة صوفية رمزية، منها : The Hairy Ape اي «الفرد الاشعر» ١٩٢٢ ويدعي اصحاب المذهب التعبيري ان هذه القصة تمثل مذهبهم الفني وتعبر عن آرائهم ، ولكن ادعاءهم هذا لا يرتكز على اساس ثابت وفي سنة ١٩٢٤ صدرت له مجموعة في جزئين تتضمن Desire Under the Elms و Welded, All God's Chillun Wings وفي سنة ١٩٢٥ (ينبوع الحياة) The Fountain وفي سنة ١٩٢٦ The Great God Brown وهذه اكثر مسرحياته تأثراً بالنزعة الصوفية .وله غير ذلك Lazarus Laughed, Marco's millions ١٩٢٧ و Strange Interlude ١٩٢٨ ، وربما كانت هذه القصة اشهر مسرحياته . وفي سنة ١٩٣١ ظهرت له القصة المثلثة Mourning becomes Electra (trilogy)

ان الابداع الفني والصور الغريبة التي اكثر منها اونيل في تآليفه قد وضعت حداً للجاذبية الفنية في مسرحياته التي كان لها الاثر البين في تطور الدراما ولا سيما في اميركا . كما ان بعض مسرحياته مثل « الظمأ » و «القمر في بحر الكاريب » هي صور حقيقية لرحلاته البحرية وحياته الحافلة بالمغامرات

ويعمل « اونيل » الآن ، بعد ان فاز بجائزة نوبل ، على وضع قصة مسرحية عن حياة (نوبل) صاحب الجوائز العالمية المشهورة ، وستعرض فصولها على لوحة السينما ، وربما اختص اونيل نفسه بتمثيل دور نوبل

وما هذه القصص التمثيلية والقطع الفنية الرائعة ، إلاّ قلائد ثمينة في جيد الادب الاميركي وصفحات حية خالدة من حياة اونيل ذات الصور البراقة المتنوعة والمغامرات الجريئة التي تجعله في مصاف اعلام الادب المسرحي في العصور الادبية الزاهرة

حلب فؤاد عينتابي

[المقتطف] تفضل كاتب هذا المقال فوعد بتلخيص احدى مسرحيات اونيل لعدد تالٍ

منعطفات الجدول

السيدة آمي خير شاعرة ، رقيقة العواطف ، دقيقة الشعور ، ترسم بقلمها مشاعر النفس ، وخوالج الفؤاد ، فتعبر شعراً ، عما تكنّهُ جوانحها ، وتستلهمهُ روحها الفيّاضة . وقد اصدرت اخيراً ديوان شعر باللغة الفرنسية سمتهُ (Méandres) اي « مُنْعَرجات النهر » او « منعطفات الجدول » اودعتهُ ما فاضت بهِ عواطفها ، فرأينا ان تنقل منهُ قطعتين رائعتين من متين قصائدها ، ليتذوق ابناء اللغة العربية ، آيات قلمها وشاعريتها . وقد صدّر الديوان بالقصيدة التالية وهي من نظم خليل مطران

الحسن كل الحسن في الطبيعه   انظر الى آيتها البديعـــه

ماذا تقول الزهرة الوديعه ؟

« آماليَ العذبةُ والآلامُ   ويقظاتُ العيش والاحلامُ »

« من كلّ ما تداول الايامُ »

« أبثّها بنَفَحاتِ طِيبي   الى البعيد والى القريبِ »

« خالصةً من ريبة المُريبِ »

« وامنحُ الابصار من رُوائي   ما فيهِ قرّةٌ لعينِ الرّائي »

« بلا مداجاةٍ ولا رياءِ »

« صُنْتُ جمالي وبذلتُ عطري   وذاك للهِ الكريم شكري »

« فإن يكن شِعرٌ فهذا شعري »

إلهي

وهاك قصيدتها التي استهلّت بها ديوانها تحت عنوان : « إلهي »

إني لأشكرك ايها الفاطر ، انا الامرأة ، لكونك حبوتني ، بمنحة جليلة القدر ، وهي النفسُ ، الجديرة بان تؤمن بك ، والقلبُ القادرُ على محبتك

من بين الهيئات الالف ، التي صوّرتها لي طفولتي عنك ، ليس ثمة واحدة ، توازي ما في ذلك الانخطاف ، فائق الدهشة ، الذي يتلاشى فيهِ ذاتي ، من النشوة العمياء

إني لأعبدك ، ايها الخالق ، الذي أجدهُ ، حتى في جمال ، اقلّ الاوراق ، وابحث عنك خلال الكون المختلج الخفّاق

تحت جنح الظلام

أيها الحبيب ، تعال تحت ضياء النجوم ، الى روضة الحب ، فالسكوت الآن ، يعزلها بأستاره ، التي يزيدها الليل كثافة

فهنا الخضيلة ، حيث يسود ، الزنبق والقرنفل والبلبل ، الباعث على الاضطراب ، وهناك المسرج ، حيث الحوض محفور ، في المرمر الثمين

نذهب بالقرب من المقعد الخشبي العتيق ، ذلك المقعد ، الذي يكاد يكون أثريًا ، والذي تحيط به الادغال ، لتجد ، ونحن نسير بتمهل ، الياسمين العاطفي ، وزهرته المرتعشة

فتقطف لي ، الجلاجل الشاحبة الواهية ، التي تحركها أقل نسمة ، والتي يتضوع منها ، أريج مبهم مغر ، يسكر رويداً رويداً ...

وعند الفجر ، اصنع منها عقوداً واكاليل ودماليج نضرة ، فأتحلى بها ، من دون ان يرتاب احد ، لماذا أعجب بها

فاقطفها دون تأسف اذ عمّا قليل ، وغداً دون شك ، تهب نسمة هواء ، فتلقي ارضاً هذه الزهور ، التي تحسن الموت كلها ، من دون ان تنتثر اوراقها.

ومثلها ، واأسفاه ! الانخطاف والنشوة ، اذ كل شيء يدركه الموت ، فحين ينطفئان ، أود ان يكون ذلك ، مثل الياسمينة ، التي تسقط دفعة واحدة ، دون ان تنتثر

ايها الحبيب ، فلنبق ، لان ثمة ضياء النجوم ، في روضة الحب ، فالسكوت الآن يعزلها بأستاره ، التي يزيدها الليل كثافة

[نقلها جورجي نيقولاوس]

حبوط العقوبات

ان حبوط العقوبات التي فرضتها جامعة الامم على ايطاليا تثير في الناحية الواحدة مشكلة جامعة الامم نفسها من حيث قواعد تأليفها وحقيقة عملها . وفي الناحية الاخرى مسألة خطيرة تدور حول تأثير الضغط الاقتصادي في التغلب على القوة العسكرية واركان الخطة التي تفضي الى نجاحه

للقوة ثلاث نواحٍ اساسية ، احداها روحية كانت في الماضي في ايدي الرؤساء الروحيين وتحوَّلت في العصر الحديث منذ ضعفت العقائد وفصل في معظم البلدان بين الدين والدولة الى التربية و الدعاية المنظمة . وثانيتها اقتصادية استفحل مقامها في العصور الاخيرة بارتقاء الحضارة الصناعية . فالجيوش تمشي على بطونها والمال والبترول عصب الحرب وقوته المحرِّكة . والتاريخ ينبئنا ان الدول البحرية كانت دائماً تصحب عملها الحربي بالضغط الاقتصادي . الاَّ ان الضغط الاقتصادي كان حتى السنة الاخيرة ، فرعاً من الضغط العسكري . فلولا ابو قير والطرف الاغر لما تمكنت انكلترا من اغراض الحصر البحري الذي ضربته على نبوليون

إلاَّ ان ارتقاء الحضارة الاقتصادية ، أفضى الى توسيع نطاق الضغط الاقتصادي وإلى توجيه نقد عنيف إلى إستعماله . فالحرب كانت في نظر الاقتصاديين الاحرار في انكلترا العدو الاكبر للنظام الصناعي . ولذلك كانوا يرون أنهُ يجب أن تحصر في دائرة المحترفين وان لا تتعدَّاها الى التجارة . وكانوا يذهبون كذلك الى وجوب الغاء الحصر البحري وما يتبعهُ من حق الزيارة والتفتيش وحصر المواد الحربية الممنوعة ضمن حدود ضيقة . فالشرّ كلّ الشرّ — عندهم — أن تعاقب عمَّال في منطقة لانكشير بضرب نطاق على بلدان تصدّر اليها القطن او تستورد منها المنسوجات

فلما كانت الحرب الكبرى سار الضغط الاقتصادي جنباً الى جنب مع العمل الحربي ، ولم يغن الاول عن الثاني . ولكن كلّ هذا لم يصرف الناس عن التفكير في استعمال الضغط الاقتصادي بدلاً من الاعمال الحربية ، بل لمنع الاعمال الحربية . وحجتهم في ذلك ان الشلل الذي يصيب النظام الصناعي والاقتصادي في امة ما عندما يقع فيها اضراب عام ، دليل على قوة السلاح الاقتصادي . واذن فاذا هدَّدت دولة تنوي الاعتداء بتطبيق مقاطعة اقتصادية عامة لها ، كان ذلك التهديد والنية على تنفيذه كافيين لثنيها عن عزمها

ان الفقرة الاولى من المادة السادسة عشرة في عهد جامعة الامم تفصّل ما يتحتم على اعضاء الجامعة من تطبيقه حالاً على الدولة المعتدية كقطع جميع العلاقات التجارية والمالية فتطبيق هذه المادة على ايطاليا كان تجربة توفرت لها ظروف النجاح . فايطاليا من الناحية الاقتصادية ليست من مقام الولايات المتحدة الاميركية او بريطانيا او فرنسا او المانيا . ان مصادر ثروتها

الطبيعية ضئيلة ومتوسط سكانها في الميل المربع من ارضها عالٍ وثروتها يسيرة ومتوسط دخل الفرد من ابنائها لم يبلغ ربع متوسط دخل الانكليزي في سنة ١٩٢٩ . ثم انها معرَّضة كلَّ التعرض للخطر لانها تعتمد في معظم غذائها والمواد الخام اللازمة لصناعها على ما تستورده من الخارج . وكلُّ ما تحتاج اليهِ في صناعة الاسلحة الحربية كالفحم والنحاس والحديد والقطن والرصاص والصوف والزيت يردها من الخارج . وليس فيها مناجم للنيكل والكروم والبلاتين والتنفستن والقصدير ولا حراج يستخرج المطاط من اشجارها . وعلاوة على ذلك كان ميزانها التجاري في غير مصلحتها فزاد عجزهُ زيادة مطردة من ١٥٠٠ مليون ليرا في سنة ١٩٣١ الى ٢٤٠٠ مليون ليرا في سنة ١٩٣٣ وبلغ ١٤٠٠ مليون ليرا في الاشهر الستة الاولى من سنة ١٩٣٤ . ومعظم هذا العجز كان يغطى بما تجنيه ايطاليا من السيَّاح ومن مال يرسلهُ ابناؤها المهاجرون. فقد بلغ الاول ١٣٠٠ مليون ليرا سنة ١٩٣٣ والثاني ٩٠٠ مليون ليرا سنة ١٩٣٢

أضف الى ذلك موقعها الجغرافي وامتداد سواحلها حالة ان باب البحر المتوسط من المغرب في قبضة بريطانيا فالسفن التجارية القادمة بحراً من الغرب يجب ان تجتاز مضيق جبل طارق ، والبضائع الواردة من طريق البر يجب ان تجتاز دولاً هي اعضاء في الجامعة . نعم ان جارتيها الصغيرتين سويسرا والنمسا كانتا غير راغبتين في تكديرها ، ولكن هذه الدول لا تستطيع ان تصدر اليها كثيراً من منتجاتها الخاصة فاذا جاءتها بضائع في الخارج عن طريقهما فيجب ان تمرَّ هذه البضائع في فرنسا او المانيا ، والاولى عضو في الجامعة ، والثانية لم يكن في وسعها ان تغيظ بعض الدول الكبرى في سبيل دولة (ايطاليا) لم تربطها بها حينئذٍ اوثق أواصر الودّ

ثم ان الولايات المتحدة واليابان والبرازيل ليست اعضاء في الجامعة . ولكن اليابان لا تستطيع ان تصدر الى ايطاليا موادَّ هي في أشد الحاجة اليها . اما الولايات المتحدة فكان في وسعها ان تكفي جميع مطالب ايطاليا اذا اصرَّت على صون حقوقها التقليدية كدولة محايدة متأكدة ان بريطانيا لا تحاربها ولو عهدت اليها الجامعة في تنفيذ الحصر البحري على ايطاليا . ولكن الرئيس روزفلت ورجاله ابتكروا صورة جديدة للحياد أودعوها في قانون الحياد وقوامها أن الحكومة تحثُّ الاميركيين على الامتناع عن الاتجار مع الدول المتحاربة ، وتمنع على كل حال تصدير بعض المواد الحربية ، وتعلن التجار الاميركيين ان كل اتجار مع الدول المتحاربة انما يحملون تبعتهم ولا ينتظرون من الحكومة أن تصون مصالحهم إذا صودرت أو عطلت من قبل أحد الفريقين المتحاربين أو كليهما . وكلُّ ما كانت ايطاليا تستطيع أن تتوقعهُ من الولايات المتحدة أن لا ينقص ما تستوردهُ ايطاليا من اميركا عمَّا كانت تستورده قبل نشوب النزاع مع الجامعة . ولو أن دول الجامعة أظهرت رغبتها في التضحية في سبيل السلامة الاجماعية ، لما امتنعت اميركا عن مجاراتها في الغالب.

يقابل ذلك ، ان ايطاليا كانت تعلم ان الحرب ليست حرباً كبيرة ، وان خصمها لم يكن مسلحاً بادوات الحرب الحديثة ، فما تحتاج اليه ايطاليا من المواد التي قد تمنع عنها ليس كبيراً . فخزنت مقادير كبيرة كانت ترى انها وافية بغرضها اذا اقتصرت مقاومة الدول على مقاطعتها دون التدخل تدخلاً حربيًّا في خطتها . فايطاليا في اثناء الحرب الحبشية لم تشعر قط بالحاجة الملحة التي تشعر بها دولة كبيرة اذا كانت في حرب مع دولة كبيرة اخرى

يضاف الى هذا ان الكساد وتكدس البضائع في كثير من الاسواق ، حملا التجار على الرغبة في البيع ولو كانت توفية الثمن غير مؤكدة . اما الحكومات فأبت ان تزيد الكساد السائد بقيود تزيده تفاقماً على الرغم من قبولها ما تفرضهُ الجامعة على الاعضاءِ في مثل هذه الحالة

ان احد الاغراض التي يتجهُ الضغط الاقتصادي الى تحقيقها منع الحرب يبثّ الجزع في الامة التي تنوي الاعتداء، من مقاطعة دول الجامعة لها . ولكن هذا الغرض لم يمكن تحقيقهُ في ما يتعلق بايطاليا . ذلك ان الجزع لم يساور ايطاليا وقد اثبتت الحوادث صدق حدسها . قد تكون اعتمدت في موقفها الجريء على معالجة الجامعة الضعيفة لمشكلة منشوريا ، وقد تكون اقنعت نفسها بأن حربها في الحبشة ليست الاَّ حرباً استعمارية ولا تهديد فيها لنظام السلامة الاجماعية . على كلّ حال ان سكوت بريطانيا او عدم افصاحها عند ما عقد اجتماع ستريزا ، عمّا تكون خطتها اذا هوجمت الحبشة ، اعتبر في ايطاليا نوعاً من الموافقة الصامتة ، فلما سمع صوت بريطانيا القلقة ، في كلام حازم فاه بهِ وزير خارجيتها السر صموئيل هور يوم ١١ سبتمبر في جنيف ، كان السيف قد سبق العذل او كاد . لان ايطاليا كانت قد شرعت في اعداد حملتها وبلغت في اعدادها شأواً بعيداً . ففي مايو سنة ١٩٣٥ كانت الحملة قد كلفت موسوليني ٦٥٠ مليون ليرا . وكان في مكنتها ان تصنع أسلحتها اذا لم تمنع عنها المواد الخام حالة ان الحبشة كانت لا تملك نقداً تشتريها بهِ ولا معدات ميكانيكية تصنعها بها . فلما استعمل الضغط السياسي البريطاني على المستر ريكت لكي يعيد الى النجاشي امتياز الزيت اثباتاً لتنصُّل الحكومة من هذه الصفقة ، جاء العمل في مصلحة ايطاليا لانهُ منع عن النجاشي مالاً كان في اشد الحاجة اليهِ. وعلاوة على ذلك كانت ايطاليا مقتنعة بأن الحكومة الفرنسية مستعدة لتسلم بغرض حماية ايطاليا على الحبشة اذا وقفت ايطاليا في اوربا موقفاً معيناً

فالعقوبات الاقتصادية لم تحقق في منع الحرب لانها لم تجرّب في حرب بين دولتين متكافئتين. فالجامعة لم تهدد ايطاليا باخراجها من الجامعة اذا انتهكت العهد. وكان عند ايطاليا ما يحملها على الظن بان الدول المختلفة لن تقترح استعمال القوة العسكرية لصون العهد على نحو ما تنص المادة ١٦

في يوم ٩ اكتوبر سنة ١٩٣٥ قرّر مجلس الجامعة ان ايطاليا دولة معتدية وتلا ذلك قرار فرض العقوبات الاقتصادية عليها في ١٩ اكتوبر ولكن لم يشرع في تطبيق العقوبات الاَّ في ١٨

نوفمبر . فالتطبيق لم يكن حالاً ولم يشمل جميع العلاقات التجارية والمالية وهما شرطان تنص عليهما الفقرة الاولى من المادة السادسة عشرة من عهد الجامعة

وفي يوم ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٥ اقترحت لجنة التنسيق منع جميع الاعمال المالية التي تؤاتي ايطاليا كعقد القروض وفتح الاعتمادات واصدار السندات سواء أكانت الاعمال حكومية ام أهلية فالمقاطعة المالية كانت شديدة ، ولكن شأنها العملي كان يسيراً ، لان حالة ايطاليا المالية كانت قد ساءت قبل ذلك والميل الى عقد قروض لها في أسواق العالم كان ضعيفاً علاوة على ان تجار الصادرات الاجانب كانوا يعانون مصاعب شتى في استيفاء ما لهم عليها حتى بلغ ما لتجار الصادرات البريطانيين عليها في أغسطس سنة ١٩٣٥ مليوني جنيه . فالمقاطعة المالية لم تدخل عنصراً جديداً في حالة ايطاليا المالية ، بل كانت اجمالاً لحالتها المالية الدولية كما كانت عند اقتراحها

وفي يوم ١٩ اكتوبر اقترحت لجنة التنسيق منع الاستيراد من ايطاليا ، مستثنية البضائع التي اتفق على استيرادها منها بعقود حررت قبل ذلك التاريخ . فاتفقت خمسون دولة على قبول هذا الاقتراح ، وبعضها أبدى قليلاً من التحفظ في قبولها . كانت هذه الدول تستورد من ايطاليا معظم ما تصدره ايطاليا (٩٥ر٥./٠ — ٩٦ر٥./٠) . فقد بلغ متوسط الصادرات في كل من ديسمبر ١٩٣٤ ويناير وفبراير سنة ١٩٣٥ مبلغ اربعة ملايين من الجنيهات فنقص الى ٢ر٤٠٠ر٠٠٠ جنيه في الشهور المتوالية بين أواخر سنة ١٩٣٥ و ١٩٣٦ . اي ان قدرة ايطاليا الشرائية نقصت بذلك الى خُمسيها ونقصت الصادرات من ايطاليا الى انكلترا من ٤٠٠ الف جنيه في يناير سنة ١٩٣٥ الى ١٨٠٠ جنيه في مارس سنة ١٩٣٦ والى فرنسا من نحو ٤٠٠ الف جنيه الى نحو ٣٠ الف جنيه . أما الصادرات الى الولايات المتحدة الاميركية والمانيا والنمسا والمجر فظلّت على ما هي أو زادت قليلاً . والصادرات الى سويسرا نقصت بمقدار النصف

وليس في ايطاليا بضائع لا يمكن الحصول عليها في بلاد أخرى . فاذا حذفت كدولة منتجة من سفر الوجود لما خسر العالم شيئاً . ولكن هذه المقاطعة كانت شديدة على الذين يتعاملون معها وليس لهم سبيل الى استيفاء ما لهم عليها الاَّ باستيراد ما تصدره . فجاءت بحكم المقاطعة وكأنهُ « موراتوريوم » لا قبل لهم الاَّ بالاذعان لهُ

ولكن الحكومة الايطالية ، عمدت الى اخراج بعض الذهب المودع في بنكها لتشتري بهِ ما تحتاج اليهِ ، والى بيع ما يملكهُ الايطاليون من سندات في الخارج ، كانت قد صادرتها في سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٥ وعوضتهم منها بسندات ايطالية فائدتها ٥ في المائة . ففي يناير سنة ١٩٣٤ كانت قيمة الذهب في بنك ايطاليا ٧٢ مليون جنيه فهبط الى ٥٢ مليون جنيه في أغسطس من السنة نفسها . ولا يعلم بالضبط مبلغ ما كان منهُ في البنك عند الشروع في الحملة الحبشية ، ولكن

يقدر ما خرج من البلاد بين نوفمبر سنة ١٩٣٥ ومارس سنة ١٩٣٦ بمبلغ ١٧ مليون جنيه أو أكثر قليلاً . اما قيمة السندات الاجنبية التي صادرتها الحكومة كما تقدَّم فتقدر بأربعين مليون جنيه ولا يعلم مقدار ما بيع منها لشراء المواد اللازمة

هذا في ما يتعلق بالصادر من ايطاليا . اما الصادر اليها من الدول المشتركة في العقوبات ، فقسمان قسم يشمل الاسلحة والذخيرة والغاز الحربي والمتفجرات وهذا منع عنها حالاً (١١ اكتوبر) واما الباقي فتأخر منعهُ وبعضهُ لم يمنع مطلقاً. وما منع كان يشتمل على حيوانات النقل والمطاط والبوكسيت والالومنيوم والحديد الخام والنيكل والقصدير وبعض المعادن الخام اللازمة لصناعة الصلب . فكان هذا المنع باعثاً على نقص الوارد الى ايطاليا نقصاً كبيراً . فالواردات اليها من ٣٨ دولة كانت قد بلغت في المتوسط ٥٫١٢٠٫٠٠٠ جنيه كل شهر من نوفمبر ١٩٣٤ الى مارس ١٩٣٥ وبلغت اقصاها في الشهر السابق لفرض العقوبات اذ بلغت ٥٦٠٠٠٠٠ جنيه . فنقص الوارد بعد المنع الى ٢٫٧٨٠٫٠٠٠ جنيه في يناير سنة ١٩٣٦ ثم عادت فزادت الى ٥١٢٠٠٠٠ في مارس سنة ١٩٣٦ . ومن الواردات التي نقصت نقصاً كبيراً الحديد والاخلاط الحديدية فقد بلغ ما استوردتهُ منها في شهر دسمبر سنة ١٩٣٤ نحو ٧٨ الف طن فنقص الى ١٨ الف طن في يناير سنة ١٩٣٦ ثم عاد فارتفع الى ٣٦ الف طن في مارس سنة ١٩٣٦ . ونقص الوارد من بضائع مصنوعة من الحديد والصلب من ٧٣ الف طن في يناير ١٩٣٦ الى ١٥ الف طن في يناير سنة ١٩٣٦ . وقد جاءها معظم البضائع الحديدية الممنوعة من المانيا والنمسا والولايات المتحدة وهي دول لم تشترك في فرض العقوبات

ولم يكن الفحم والبترول والنحاس من المواد الممنوعة . الاَّ ان ايطاليا نقصت ما كانت تستوردهُ من الفحم من ١١٠٠٠٠٠ طن في ديسمبر سنة ١٩٣٤ الى ٦١٧٠٠٠ طن في مارس ١٩٣٦ وقد وقع معظم الخسارة في هذا النقص على انكلترا اذ هبط ما كانت تصدرهُ من الفحم الى ايطاليا من ٤٢٠ الف طن الى صفر . وتليها في الخسارة بولونيا . حالة ان ما كانت تصدرهُ المانيا والبلجيك والولايات المتحدة زاد قليلاً

ومع ان النفط وما يشتقّ منهُ من الزيوت المختلفة لم يكن محظوراً الاَّ ان الصادر منهُ من دول العقوبات الى ايطاليا نقص نقصاً كبيراً . ولكن ايطاليا كانت قد خزنت مقادير كبيرة منها قبل ان تصبح العقوبات نافذة . وتحوَّلت الى الولايات المتحدة في استيراد بعض ما كانت تستوردهُ من رومانيا وروسيا في الغالب . فالولايات المتحدة كانت تصدر الى ايطاليا نحو ٦½ في المائة مما تحتاج اليه ايطاليا بين سنة ١٩٣١ و١٩٣٤ فزاد ما تصدر الى ١٢½ في المائة في سنة ١٩٣٥ وارتفع في الاشهر الثلاثة الاخيرة من تلك السنة (وهي شهور الحرب والعقوبات) الى ١٧٫٨ في

المائة . اما النحاس فقد كان جلّ اعتماد ايطاليا على ما تستطيع استيراده من الولايات المتحدة الاميركية اذا امتنعت دول العقوبات عن تصديره اليها

وقد كان وجود هذه الاسواق الحرة واستطاعة ايطاليا ان تبتاع منها ما يمنعهُ عنها الباقون ، اكبر باعث على عدم كتابة هذه المواد في قائمة المواد الممنوعة . كان في الامكان ان تتبع دول العقوبات الحظر الاقتصادي برقابة فعّالة على جميع السفن القادمة الى ايطاليا عند مدخلي البحر المتوسط ، ولكن خطر الالتجاء الى الحرب اذا امتنعت بعض الدول عن الرضوخ لذلك ، علاوة على استفزاز ايطاليا نفسها ، حال دون امتحان هذا الاسلوب من تطبيق العقوبات

وكذلك ترى ان خطة الجامعة في فرض العقوبات الاقتصادية لم تتوافر لها الاحوال المؤاتية . فبعض المواد اللازمة للحرب لم يحظر تصديرها الى ايطاليا كالنفط والفحم والنحاس وعلاوة على ذلك لم تعرقل اعمال الملاحة ولا السياحة ولا ارسال الاموال من المهاجرين الايطاليين . وقد كان موقف ايطاليا من العقوبات لا يحتمل التأويل اذ قالت انها تتحمل العقوبات ما زالت لا تعرقل عملها عرقلة عظيمة الشأن . فاذا فعلت فانها تحارب . فكان على الجامعة ان تختار ، اما ان تاجز ايطاليا تحديها بفرض الحظر على المواد التي لا ندحة عنها لايطاليا في مواصلة الحرب ، واما ان تعترف بان استقلال الحبشة غير جدير بحرب عالمية في سبيله . وليس في امكان احد ان يعلم الآن ، هل كانت الحرب العالمية تنشب لو ان الجامعة أقدمت . فالعقوبات لم تحبط بمعنى انها لم تفرض فرضاً تامًّا حتى يمكن ان يقال انها جرّبت ولم تسفر عن الاثر المرتقب . وليس ثمة دليل على ان فرضها يفضي حتماً الى حرب في جميع الاحوال . بل يمكن ان يقال انهُ لو فرضت وكانت سياسة ايطاليا عملية لما كان اقدامها على محاربة دول الجامعة خير سبيل لها للفوز في حرب الحبشة

يضاف الى هذا ان [illegible]كم على دولة بانها معتدية ثم التوسُّل اليها بالبقاء في الجامعة . كان لا بد ان يفضي الى خذلان أدبي ولو نجح الضغط المادي . ولذلك يعتقد بعض الكتّاب — ومنهم كاتب هذا المقال وهو الاستاذ بون المحاضر في مدرسة العلوم الاقتصادية بلندن وكان قبلاً استاذاً للاقتصاد السياسي في جامعة برلين وقد نشرهُ في مجلة الشؤون الخارجية الربعية — ان بقاء ايطاليا عضواً في مجلس الجامعة متمتعة بجميع مزايا العضوية حالة كانت تدوس دستور الجامعة ، كان مهزلة لم ترَ فيها ايطاليا الا باعثاً من بواعث التشجيع

والنتيجة التي يخلص اليها الاستاذ بون ان العقوبات الاقتصادية لم تطبَّق تطبيقاً فعالاً كما كان يجب او يمكن ان تطبَّق ، وانها مع ذلك كانت السلاح الوحيد في يد الجامعة ضدّ ايطاليا فرفعها قبل عقد السلام بين الجامعة والدولة التي انتهكت دستور الجامعة يدلُّ على ان الذين بأيديهم الحلّ والربط ، اما انهم لم يحسنوا استعمال هذا السلاح واما لم يجرؤا على حسن استعماله او كليهما

روسيا وخصومها

تسعة عشر عاماً تمر والحقيقة ضائعة

بقلم حنا خباز

لم يستحكم المراء في موضوع استحكامه في امر النظام السوفياتي وحالة الشعوب الروسية في الوقت الحاضر . فان العلم الحديث ليكاد يحصي عدد الذرّيرات في المجرّة ، ويزن اكبر الاجرام ويبين بعدها ، ويصف ما في عالم الجوهر الفرد من الوحدات والفسحات ، فيريك في الدقيقة المادية مجرّة ، وفي الجوهر الفرد نظاماً شمسيًّا . مع ذلك قد عجز العلم والعلماء عن تعيين موقف روسيا ولم يمكن الاتفاق على حقيقة ما هو جارٍ فيها اليوم

امّة معاصرة ، تعد ما يزيد عن مائة وخمسين مليوناً ، يشغلون نحو سدس اليابسة ، وهي ألصق بلدان الدنيا بالعالم المتمدّن (لانها قسم من اوربا) ، مع ذلك ، قد تضاربت الاقوال في ما هي عليهِ من يسر او عسر ، وشدّة او رخاء ، وصعود او هبوط . فنقرأ المتناقضات عن روسيا ويعسر علينا ان ندرك الموقف الذي ليس فيهِ مراء

فقد كنت اقرأ في صحف الولايات المتحدة في اميركا المقالات الضافية عن سوء الحال في روسيا ،وأن أهاليها في حال فقر أسود ،والمجاعة ضاربة اطنابها في انحائها . واذكر جيداً ان احدى المقالات أكدت ان روسيا لا يمكنها البقاء على هذي الحال الى ما بعد مارس سنة ١٩١٩ وانها مهدّدة بالفناء والدمار. وليست الغرابة في ذلك تعيين سنة ١٩١٩ . ولكن الغرابة كل الغرابة ، انهُ بعد مرور ١٧ سنة وبعد ذهاب مئات من الكتّاب والمحققين الى روسيا ، بل بعثات مدرسية جمعت عشرات من طلاب المدارس الانكليزية وغيرها، عدا القناصل والصحافيين والتجار والسياح ومن اليهم وقد كتبوا ونشروا وتكلموا عما هو جارٍ تحت سماء روسيا — بعد كل ذلك لا نزال نسمع تضارب الاقوال والآراء في حوادثها اليوم كما كنا قبل ثمانية عشرة سنة

لست اشتراكيًّا بالمعنى الرسمي ، ولا شيوعيًّا . ولا اقدر ان اقول هل تحتمل مبادىء الشيوعية النقد او لا ، وهل هي على هدى او على ضلال . كل ذلك خارج دائرة موضوعي . فلست محامياً عن الشيوعية ولا خصماً لها . بل انا ناشد الحقيقة ، محايد ، نزيه ، مخلص اريد ان اقرر الواقع كواقع ، لا كما يريد المتحيزون أن يلونوه . بناء على ذلك اروم ان اثبت في ما يلي بعض

ما عثرت عليه في كتاب ظهر حديثاً موضوعه نتائج الحرب العظمى السياسية بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٣٦ ، وللقارىء الحكم بنفسه هل تستحق هذي الاقوال الاحلال محل القبول او النبذ قصيًا . واليك بعض ما في ذلك الكتاب بالحرف او بالمعنى . قال :—

صرح ڤيكونت جراي في مجلس اللوردات الانكليزي في ٣ مارس سنة ١٩٢٧ ان حكومة السوڤيات الروسيَّة هي غير قوميَّة . فليست هي روسيَّة بالمعنى الذي فيه حكومة فرنسا فرنسية وحكومة المانيا المانية . ذلك ان تينك الحكومتين والحكومة الانكليزية معهما ، انما ترمي الى ترقية مصالح قومها ، ولا تكترث لمصالح غيرها الا بمقياس تأثيرها في مصالح قومها الخاصة

انقسم العالم منذ سنة ١٩١٧ الى رأسماليين واشتراكيين . واخذ الانشعاب بينهما يتزايد كل عام . وبينما نرى الشقاق والحروب والازمات مخيمة في اجواء الامم الرأسمالية ، حتى ان ملايين من عمالها هم بدون عمل ، نجد في الوقت نفسه عالم الاشتراكيين في روسيا متمتعاً بالسلام والقوة والنجاح . فالتباين عظيم بين سواد ليل اولئك وبياض نهار هؤلاء

هذا الانقسام العالمي ، الى رأسمالي واشتراكي ، هو من احداث العصر . فقد نجحت الثورة الاشتراكية في روسيا ، وخابت في غيرها من البلدان كالمانيا وايطاليا مثلاً ، فبرزت بهذا التطوُّر مسائل جمة في علاقات الفريقين ، اعربت عن ميول كثيرين في البلدان الرأسمالية نحو الاشتراكية واعربت بالحري عن تحقيق النظام الاشتراكي ، في امة كبيرة ، ذات استقلال تام ، وعلاقات كونية ، وهو امر لم يسبق له نظير في الدنيا ، الاَّ في حالات وقتية استثنائية كما في وقت الثورة الفرنسية مثلاً

ساء الرأسماليين نجاح النظام الاشتراكي في روسيا ، فعمدوا الى صد تياره بشتى الوسائل فصمد السوفياتيُّون لهم ، وصدُّوا هجماتهم ، ثم اخذوا يسعون لتأسيس علاقات سلمية ودية مع تلك الامم التي كانت تحاربهم . والسوفيات يرغبون في السلم ، لان كل سنة سلم وراحة ، تزيدهم قوة وتأصلاً . والروسية حصن الاشتراكيين في الدنيا . فمن مصلحة الانسانية ان تستريح من المشاكل العالمية وتتفرغ لترقية شؤونها ، ونشر مبادئها . فقد حل عندها قانون الجماعات بزعامة العمال ، محل قانون الاقلية من الماليين التي كانت تسود الاكثرية فتستعبدها وتذلها وتسحقها

وقد تسنى للعمال ذلك سنة ١٩١٧ في روسيا . فأحرزوا ذلك الفوز الحاسم بهمة العمال والفلاحين والجنود الحمر . وقبضوا على مقاليد الاحكام ، والفوا قوة لم يسبق لها نظير في تاريخ الاجتماع الانساني . انضوى تحت لوائها جماعات الاتحاد السوفياتي وهم يزيدون عن مائة وسبعين مليوناً (١٧٠،٠٠٠،٠٠٠) في شرقي اوربا . فهبَّ الرأسماليون في المانيا وايطاليا واليابان وانجلترا واميركا يهاجمونهم ، وبذلوا الجهد في قمع الحركة الشيوعية في روسيا . فقاطعوها ، وحاصروها ، وحاربوها سنة ١٩١٨ بقيادة كولشاك ودنكين ويودينتش قوَّاد القيصر المعروفين . وقد صرَّح

لويد جورج ان انكلترا انفقت في هذا السبيل مائة مليون جنيه ولكنها ومن معها قد آبت بالخيبة واشار لينين الى ذلك سنة ١٩٢١ قال : —

لقد عجز البورجوازيون عن سحقنا ، مع ان قواتهم تبلغ مائة ضعف ما لنا ، وسبب عجزهم هو نشوب الثورة الاشتراكية في كل اصقاع الدنيا . فوضع ذلك حداً لاطماع الرأسماليين فينا على ان الحرب الاقتصادية ما زالت . وهي لا تقل عن الحرب المادية خطورة وتأثيراً . يضاف الى ذلك تراث الحكم القيصري الغاشم ، وجهل الامة ، وفقرها المدقع ، وقلة المواد الخام والآلات ، واضطرارنا الى الاعتماد على الموارد الخارجية زد على كل ذلك ويلات الحروب سبع سنين متواصلة ، منها اربع سنين في الحرب الخارجية ، وثلاث في الحرب الاهلية . وفوق الكل نطاق الحصر الذي ضربته علينا دول الغرب . فكان امام النظام الاشتراكي عمل شاق ، هو مجابهة كل ما ذكر من الصعاب ، وهو لا يزال في مهده . ولكنه تغلب على الكل وفاز بالبقاء .كل ما ذكر انما كان الخطوة الاولى في حياة الاشتراكية في روسيا . والخطوة الثانية هي التنظيم الاقتصادي الجديد الذي وضع اساسه سنة ١٩١٨ ، وحالت الحرب الاهلية دون تطبيقه الى سنة ١٩٢١ ، ولم يدرك الرأسماليون فضل ذلك النظام حتى تجلّى لهم في مشروع الاعوام الخمسة. فكان اول ما نزعت به حكومة السوفيت هو أنها حصرت قواتها الاقتصادية في ايدي العمال . والمراد بتلك القوات البنوك والصناعة والتجارة الخارجية والمصانع ووسائل النقل وتركت للافراد التجارة الصغيرة لتتضاءل امام تيار التجارة القومية العظيم . فتمكنت بذلك من صون جمعيات الزراعة والتجارة ، وحفظت مكانتها في الخافقين

ولما كان غرض الماليين قهر الاشتراكية باستخدام الذرائع المالية وجدت حكومة السوفيات نفسها مضطرة للقيام لصد ذلك التيار الجارف . فأبت اعطاء امتيازات، لاية شركة اجنبية في اصقاع روسيا. جاء في تقارير السر روبرت هورن الوزير الانكليزي سنة ١٩٢٤ : ان افضل الذرائع لسحق البلشفية هي اختراق بلادها بالانظمة الاقتصادية .وجاء في مذكرات سفير انكلترا في برلين بتاريخ مايو سنة ١٩٢٢ : روسيا في حال الدمار التام .ولا يمكن انشاء تجارة رابحة فيها الا بعد مرور سنين

واشار مستر بلدون بشغل اسواق روسيا بالتجار الالمان على المانيا تتمكن بذلك من وفاء ما عليها من اقساط الحرب . وظلت الآمال معلقة بسقوط روسيا اقتصاديًا ، وخضوعها لشوكة الرأسماليين ، الى سنة ١٩٢٤ . جاء في الاوبزرفر بتاريخ ٢٨ دسمبر سنة ١٩٢٤

لا يمكن استمرار النظام الحالي في روسيا زمناً طويلاً . ومهما يكن من امر الاسم السوفياتي فلا بد من تحوله رأسماليًا في خلال بضع سنوات . على ان هذي الآمال قد خابت كما اثبتت ذلك مجلة ايكونومست ، قالت : بعد مضي تسع سنوات لايزال النظام السوفياتي في روسيا غير ممسوس

لم يبدُ اي دليل على ضعف التجارة القومية في روسيا. وقد تضاءلت التجارة الفردية امامها. فكان عدد العمال في ورش الحكومة سنة ١٩٢٦ نحو ٢٧٠٠٠٠٠ عامل بازاء ٣٦٠٠٠ عامل في ورش الافراد. وكانت وسائل النقل جميعها — خطوط المواصلات من شركات بحرية وقطارات حديدية وطائرات — في يد الحكومة

بدأ مشروع الاعوام الخمسة سنة ١٩٢٨. وانتهى سنة ١٩٣٢ بفوز باهر. فاستفزّ فوز الشيوعية هذا ام الرأسماليين في كل الدنيا. لأنهم رأوا ان روسيا قد بلغت ذروة الصناعة. قال ستالين سنة ١٩٣٣: ان منتجات روسيا بلغت ثلاثة اضعاف ما كانت عليه قبل الحرب، وضعفي ما كانت عليه سنة ١٩٢٨. مع ان منتجات انكلترا بلغت في الوقت الحاضر ٧٥ ./. ما كانت عليه قبل الحرب (سنة ١٩١٣) و ٨٠ ./. ما كانت عليه سنة ١٩٢٨ ومثلها تقريباً المانيا والولايات المتحدة الامريكية. وقد أُنشئت مصانع كبيرة في مكنسوجورسك في اورال. ومحطة للكهربائية في دنيبرستروي. ومعامل للعربات في لينجراد وخاركوف. ومعامل للسيارات في غوركي. ومعامل للكيمياء في موبرسك ابرسينكي. فزاد عدد المعامل عشرة اضعاف ما كانت عليه سنة ١٩١٣. وبلغت معامل الاشتراكيين وحدها ٩٩ ./. من مجموع المعامل في روسيا. كذلك الانشاءات الزراعية. فقد انشئت ٥٠٠٠ مزرعة، و ٢٠٠٠٠٠ حقل. وزادت الاطيان الزراعية على ٢١ مليون هكتار. وارتفعت اطيان الاشتراكيين من — ٣ — سنة ١٩٢٨ الى — ٧٥ — سنة ١٩٣٢ وارتفع دخلها من ٤٤ الى ٩٣ وزادت الاجور ٦٧ ./. . وبلغت الاموال في شركات التأمين ثلاثة اضعاف ما كانت

وفي الوقت نفسه يزعم خصوم روسيا ان العمال مسخرون وان الحكومة عاجزة! امّا عن التقدّم في المعارف فحدث ولا حرج. فقد بلغ التلامذة في المدارس البدائية ٢١٠٠٠٠٠٠ من الجنسين وارتفعت منتجات الصحافة من ٣ الى ٣٦. ومراكز الاسعاف الطبية من ٨٥٨ سنة ١٩٢٨ الى ٥٤٣٠ سنة ١٩٣٣، وارتفع عدد اطبائها من ١٩٠٠٠ الى ٧٦٠٠٠

واليك جدول الانتاج في الممالك العظمى في سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٣

سنة ١٩٢٨	الدول	سنة ١٩٣٣
٧ ر ٠	فرنسا	٧ ر ٠
٢ ر ٤	اليابان	٤ ر ٧
١١ ر ٦	المانيا	١١ ر ٢
٩ ر ٣	الممالك الانكليزية	١٤ ر ٩
٤٤ ر ٨	الولايات المتحدة	٣٤ ر ٥
٠٤ ر ٧	روسيا	٣٤ ر ٥

فأين زعم من يزعم شح الموارد في روسيا ، وانتشار الفاقة والمجاعات وتخييم شبح الموت ? فأنت ترى انها على ضد ما يزعمون

أمام هذا البيان الواضح تغيرت لهجة الرأسماليين . وزالت من عالم الوجود الآمال التي عقدوها بفناء روسيا . وحلّت محلها دعاية اخرى ترمي الى اثارة امم الارض ، على « الخطر الروسي » وليس هنالك من خطر ، ليس الاّ فتح العيون واثارة الاذهان . فان روسيا غير طامعة في احد ، وليس لها مطامع استعمارية [1] ، فهي مسالمة نزيهة انسانية . جاء في التيمس الانكليزية بتاريخ سنة ١٩٣١ من مقالة افتتاحية بقلم رئيس تحريرها يقول : اذا اراد العالم التخلّص من الشيوعية فعليه بمقاطعة روسيا مقاطعة تامة . لانها متى تمت انشاءاتها الصناعية ، ووراءها مائة وخمسون مليون نفس ، فحينئذ ستغمر منتجاتها اسواق الدنيا : ليتأمل القارىء ما هو سبب تخوّفهم منها . وقد أقر مستر بلدون سنة ١٩٣١ ان الصناعة الروسية « خطر على العالم الصناعي »

هذا هو كلام خصوم روسيا . فأين الهلاك والموت الزؤام الذي كان يهددها قبل بضعة اعوام . فترى انهُ ليس عجز روسيا هو الذي أثقل كاهل الرأسماليين ، بل جدارتها ومقدرتها ومزاحمتها الرأسماليين مزاحمة شديدة هي التي تقضّ مضاجعهم ووفرة منتجاتها لا قلتها هي التي تفتّ في عضدهم لذلك أجمعوا على ابادتها ليصفو لهم الجو في التحكّم بأمم الارض فقد ملأوا المشارق والمغارب صياحاً بأن الأمة التي توحد اقتصادياتها أمة عقيمة عاجزة لا تصلح للبقاء . وواقع الحال انها أصلح للبقاء . والاّ فلماذا يخشونها وهي لا تخشاهم ويحاربونها وهي لا تحاربهم ? هوذا الدول الصغرى حولها ، لم تطمع بأحدٍ منها ، بل صافتها وعقدت معها عهود عدم الاعتداء [2]

وقالوا ان التسخير ، وعدم دفع الاجور وزيادة ساعات العمل اليومية ، هو السرّ في رخص البضائع الروسيّة ، فالظاهر ان الماليين لم يريدوا ان يميزوا بين استبداد طبقة من الامة قليلة العدد لطوائف العمال جمعاء ، وبين تدريب الأمة عموماً ، دون ما طبقات ، لتعمل في ما هو ملكها الخاص . فالعامل الروسي يعمل في بيته ورزقه ، يعمل ليزيد الثروة القومية التي هو مساهم فيها ، لا ليقوّي عضد ارباب المطامع والجشع الذين يستأثرون بالأموال والعقار . وهب ان روسيا بنت مسعاها على استبداد العامل فما هي النتيجة ? . لقد برهنت تواريخ كل الاجيال على ان التسخير شرّ الامور على شؤون الامم الاقتصادية . فليس الحافز للماليين على القيام على روسيا رأفتهم بعمالها ، بل نقمتهم على الذين يحولون دون تمكين مخالبهم من خناقها . فأساس الدعاية ضدها هو حسن ادارتها لا سوء ادارتها ، ونجاح مساعيها الاقتصادية لا حبوطها

---

(١) المقتطف : أليست الدعاية للثورة العالمية أشد خطراً من المطامع الاستعمارية أو مثلها على الاقل ?
(٢) المقتطف : ان عهود عدم الاعتداء لا تنفي ان الثورة العالمية ركن خطة الدولة الثالثة

بناء على ذلك هب أولئك السادة ، يحملون على الشيوعية حملة شعواء . يسيئون سمعتها ويسلقونها بألسنة حداد ، وهم يحرّقون الأُرّم على الذين حالوا دون افتراسهم الحملان . وقد وقع اولئك القطارسة بين شقي المقص . فاما ان يعرجوا عن مزاعمهم ان الشيوعية في حال الافلاس . وإما ان يعدلوا عن التظلم من مزاحمتها إياهم في أسواق الدنيا . على ان وراء النقيضين ما هو أعمق من ذلك وهو ذعر الرأسماليين من سقوطهم امام الشيوعية لان اساسها اصحّ علمياً، وأثبت نفعاً . وبالامس كان النطاق الصحي مضروباً على الشيوعية خوفاً من افسادها الاخلاق ! واليوم ضرب حولها نطاق الحصر الصناعي يكتنفها . والخلاصة ان المبدأ الرأسمالي أخذ يطأطىء الرأس امام المبدأ الشيوعي . وهو يحاول دفعه بما اوتي من حيلة . بالامس كان الماليون ينادون بجوع الامة الروسية وفقرها ودنوها من الفناء . واليوم الازمة المالية ضاربة في البلاد الرأسمالية في اوربا واميركا . اما الروسيون فلا خوف عليهم فليس فيهم جائع واحد . ولا عامل ليس لهُ عمل ولا ارملة او مطلقة تبيع عرضها لتعيش

جاء في تقرير مدير بنك انكلترا السنوي سنة ١٩٣١ ما نصه : —

اذا لم يقم هنالك من تدبير في عالم المالية فليس امام انكلترا الا الانحدار تدريجاً الى دركات الفقر والهلاك . وليس انكلترا وحدها بل اوربا بأسرها منحدرة في ذلك المنحدر بسبب مزاحمة روسيا وزيادة منتجاتها يدل على ذلك ملايين العمال بدون عمل في فرنسا والمانيا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية . هنا سرّ المسألة وبيان فلسفتها . هذي هي السنة الرابعة من السنين الخمس الثانية ، وهي تبشر بالحياة السعيدة والفوز التام ، فليس ثمة مجال لاتهام الشيوعية بالمجاعة والفناء والاضمحلال

﴿ حاشية ﴾ : يقول مقتبس هذي الاقوال ، اذا كانت الاقوال الآتية كاذبة ، وكانت دعوى خصوم البلشفية صادقة في انها على شفا جرف هار فلماذا يتحد الالمان واليابان ضدها . فان الاقوياء لا يتحدون على الضعيف بل اتحاد الجميع على فرد اعترافاً منهم بقوته . ثم لو صح قولهم سنة ١٩١٩ ان روسيا على شفا الهلاك فلماذا لم تهلك الى اليوم بعد ١٨ سنة ؟ ولو انها شريرة فلماذا لم تغز جيرانها الضعفاء بل عاهدتهم معاهدة المسالمة والحب ؟ ولماذا قبلها كل الدول في عصبة الامم ؟ واذا كانت ضعيفة فلماذا يخشونها ؟ [1]

والمعلوم عندنا ان روسيا اليوم من إقوى دول العالم . والعلم فيها يبلغ الذروة العليا ، وكذا الادب والفلسفة ، وهذي المزايا لا تكون في امة تتضوّر جوعاً وقد اشرفت على الهلاك ، وهبني قلت هذا الصبح ليل اَلخ

خزان جبل الاولياء حنا خباز

(١) المقتطف : ثمة فرق بين نجاحها الاقتصادي والصناعي وهذا لا ريب فيه وبين دعايتها الثورية الدولية وهو ما يتصدون له . فاذا لم تغز جيرانها بالسيف فانها تسعى الى غزوهم بألسنة الدعاة . وبواعث قبولها في عصبة الامم سياسية ولها حديث طويل

قوى الدفاع الاوربية

اقسامها وقواتها وطرق تنظيمها

— ٣ —

الريخ

فاذا انتقلنا الى الكلام عن الجيش الألماني وجدنا قصةً طويلة يمكن ان نبدأ بها في ١٥ مارس من سنة ١٩٣٥ لما صرّح المسيو فلندان رئيس الوزارة الفرنسية في ذلك الحين في مجلسي النواب والشيوخ الفرنسي قائلاً :

« ان الحكومة قررت ان يخدم المجندون سنتين بدلاً من سنة واحدة وأن يستمر ذلك أربع سنوات » وقد علل الوزير الفرنسي هذا القرار بموازنة رقمية بين قوّة فرنسا وقوّة المانيا العسكرية فقال « ان قوّة فرنسا في سنتي ١٩٣٥و١٩٣٦ تكون ٢٠٨ر٣٧٢ في حين ان قوّة المانيا فيهما تكون ٦٠٠و٤٨٠ »

وكان الماريشال بتان وهو أكبر الخبراء العسكريين في فرنسا اليوم أول من نبه الى هذا الامر في مقالة كتبها في « مجلة العالمين » قال فيها ان الوسيلة الوحيدة لدرء الخطر الذي يهدد فرنسا من ناحية التجنيد هي جعل مدّة الخدمة العسكرية سنتين بدلاً من سنة واحدة

بعد صدور القرار الفرنسي كان الرّد الطبيعي لحكومة الريخ ان قررت من ناحيتها إعادة الخدمة العسكرية الالزامية وزيادة قوات الريخ الحربية الى نصف مليون جندي . ومعنى هذا القرار رفض المانيا رفضاً رسمياً البقية الباقية من المواد الحربية في معاهدة فرساي وهي التي نصت على ان لا يتجاوز عدد الجيش الالماني المائة الف . وكان الهر هتلر قبل اعلان الخدمة الالزامية قد اجتمع بسفراء فرنسا وبريطانيا وبولندة وأطلعهم على عزمه وتضمن القرار الخطير الذي أذيع على الأمة الألمانية يوم ١٦ مارس ١٩٣٥ بخصوص العودة الى نظام الخدمة الالزامية كلمة تمهيدية عن البطولة العظيمة التي أبداها الشعب الألماني خلال أربع سنوات ونصف سنة وهي المدّة التي استغرقتها الحرب الكبرى وكيف ان المانيا ألقت سلاحها في نوفمبر من سنة ١٩١٨ ثقة منها بتأكيدات الرئيس ولسون وقد قابل الشعب الالماني قرار حكومته بأشد مظاهر الحماسة والابتهاج

وأطلق على القانون الجديد اسم « قانون تنظيم الدفاع » واشتمل على ثلاث مواد . فالمادة الأولى نصّت على ان الخدمة في قوى الدفاع تكون على أساس الخدمة العسكرية العامة وجاء في

المادة الثانية ان الجيش في وقت السلم بما في ذلك قوى البوليس التي ستنضم الى الجيش يتألف من ١٢ فيلقاً مكوناً من ٣٦ فرقة . وتقول المادة الثالثة ان وزير الحربية سيتقدم فيما بعد الى مجلس الوزراء القوانين التكميلية التي تنظم الخدمة العسكرية العامة ويتكوَّن الجيش الالماني بعد تقرير إطالة مدَّة الخدمة العسكرية من ٥٥٠٫٠٠٠ جندي وفي استطاعة المانيا زيادة هذا العدد في حالة الحرب الى ستة ملايين محارب بسهولة . ولولا إسراع المصانع الالمانية خلال العام الأخير لكان الجيش الالماني تعوزهُ الاسلحة الحديثة ولكن توجيه العناية التامة الى هذه الناحية مكّنت المانيا من سدّ هذا النقص وسوف لا تنقضي مدة طويلة حتى ينتهي برنامج التسلح الالماني

وزادت قوة الجيش الالماني العام فيلقين جديدين في ٦ اكتوبر ١٩٣٦ وهما الفيلق الحادي عشر في هانوفر والثاني عشر في كوبلنز . وعلى ذلك تحقق تكوين الاثني عشر فيلقاً التي نص عليها قانون تنظيم الدفاع السابق ذكره وينقسم كل فيلق من هذه الفيالق الى ثلاث فرق فيكون الجيش الالماني مكوناً من ٣٦ فرقة . وتتوزع الفيالق العشرة الاصلية على النحو الآتي :

كونجزبرج — ستيتن — برلين — درسدن — ستوتجارت — مونستر في ويستفاليا — ميونيخ — برسلو — كاسيل — هامبورج

وقبل أن نفصل تكوين الجيش الالماني نقول ان الجمهورية الالمانية بعد ان سلخت منها عدة مقاطعات بعد الحرب ضمت الى الدنمارك وبلجيكا وفرنسا وبولندة وبعض دويلات البلطيق وتشكوسلوفاكيا تقدر مساحتها بـ ٤٨٠٫٠٠٠ كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها نحو ٦٦٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة وتتصل حدودها بعدة دول اكثرها ليست دولاً صديقة وهذه الدول تشتمل على فرنسا ولوكسمبرج وبلجيكا وهولندة والدنمارك وبولندة ومدينة دنزج الحرة وليتوانيا (ميمل) وتشكوسلوفاكيا والنمسا وسويسرة

وتعتمد الدولة الالمانية على الجيش في تحقيق كل آمالها التي تعجز السياسة عنها ولذلك نرى أن كل مرافق الدولة متصلة اتصالاً وثيقاً بأعمال الجيش والطيران والبحرية والجيش الالماني الحديث ما يزال شعاره Über alles اي «فوق الجميع» وهو عنوان المجد القديم ومحط آمال المستقبل .

قلنا ان الخدمة العسكرية في المانيا اجبارية لكل الماني والمانية من اصل آري ولغير الآريين قوانين اخرى خاصة بتجنيدهم وتبدأ الخدمة العسكرية من سن الثامنة عشرة الى الرابعة والخمسين لجميع الذين ادوا الخدمة في فرق العمل الاجبارية وهي بمثابة مراكز للاعداد العسكري للشباب الالماني حيث يتدربون على الاعمال والتمرينات الحربية في معسكرات يسع الواحد منها مائة وثمانين جندياً تقريباً وكل ثمانية معسكرات تؤلف مجموعة وكل ثمانية مجموعات تكون (Gau) وهنالك في المانيا ما لا يقل عن اربعين من هذه التشكيلات التي يبلغ عدد افرادها اليوم

٠٠٠ر٤٥٠ على الاقل . كما ان فرق الهجوم وفرق الوقاية تمد الجيش الالماني باحتياطي عظيم كاحتياطي القوات المنظمة نفسها تماماً . وفرق الهجوم هذه مقسمة الى ثلاثة أقسام بقيادة الهرهتلر ومساعدة رئيس هيئة اركان حربه

افراد الفرق العاملة وتتفاوت اعمارهم من ١٨ — ٢٥

الاحتياطي الاول وتتفاوت اعمار افرادهم من ٢٥—٤٥

اللاند ستورم لمن يزيد على الخامسة والاربعين

وتبلغ قوات الفرق المذكورة ٦٢٧ اورطة

اما فرق الوقاية فمؤلفة من ٠٠٠ر٢٠٠ شاب موزعين على عشرة فرق اي ٨٥ اورطة

واذا انتقلنا الى قوات الطيران الالمانية وجدنا مرتبتها الثالثة بين الدول الاوربية وان كانت لم تبدأ في تكوينها الحربي الآ بعد الانقلاب النازي منذ اربع سنوات ويكاد يكون من اسرار الدولة ان تبقى الكفاءة الجوية الحديثة في حكومة الريخ مكتومة وان كانت جمعيات الطيران التي تقوم بتعليم الشبان منتشرة في جميع انحاء البلاد ولا يقل عدد الطيارين الذين يمكن الانتفاع بهم وقت الحرب عن خمسين الف فضلاً عن مدارس الطيران في برنسويك وشلايس هيم ودارتموند وستتن وكوبتس — الخ التي تخرج عدداً وافراً من الطيارين كل عام ينتظم كثيرون منهم في الشركات الجوية في اوربا والقارات الاخرى

وفي ألمانيا جمعية للدفاع ضد الغازات الجوية يبلغ عدد أفرادها ستة ملايين عضو واسمها (Deutsche Luftschutzbund) ويبلغ عدد موظفيها ٠٠٠ر٢٨٠ وعدد متطوعيها ٠٠٠ر١٠٠ر١ وهناك ما لا يقل عن ٢٠٠ر٢ مدرسة للدفاع الجوي فيها ٠٠٠ر١٠٣ معلم وقد شيدت هذه الجمعية ٥٠٠ر٢١ ملجأ للوقاية من الغازات . وقد توقعت الجريدة التي نقلنا عنها هذه النبذة ان يبلغ عدد الافراد الذين يتقنون التعليم الفني في هذه المدارس مليونين قريباً

ويبلغ عدد المطارات في انحاء البلاد الالمانية مائتين على الاقل فيما عدا القواعد البحرية المعدة لنزول الطائرات البحرية . اما عدد الطائرات التي تمتلكها الدولة فلا يقل عن ثلاثة آلاف طائرة مختلفة الاطرزة والاغراض موزعة بين الاقسام الستة الجوية في الدولة في كونجزبرج وبرلين ودرسدن ومونستر وميونيخ وكيل

ايطاليا

وهذه ايطاليا حيث بلغ التطور الحربي شأواً كبيراً صارت اليوم نموذجاً للأمة المسلحة (Nation in Arms) . فالسائح القادم الى ايطاليا اليوم بطرق الشمال تعروه الدهشة من الجو العسكري الذي يسود ايطاليا الآن . فالشبان الاشداء بين سن الثانية والعشرين والخامسة

والعشرين اما يجندون في الخدمة العاملة وإما انهم دعوا الى حمل السلاح والانضمام الى آلايآتهم

والواقع ان هؤلاء الشبان تراهم بالملابس العسكرية العادية او القمصان السود او سراويل الميدان الرمادية او ملابس الكتان ذاهبين او عائدين الى معسكرات التمرين او الثكنات او ميدان المناورات

ونظراً الى الحاجة المتواصلة الى معدات القتال في جميع الاسلحة تقرر الحكومة الايطالية من وقت لآخر زيادة ساعات العمل في مصانع الاسلحة والذخيرة الى متوسط تسعين ساعة في الاسبوع. وقد صرَّح السنيور موسوليني في احدى جلسات مجلس الوزراء منذ شهرين بأن القوميسيرية العامة للمصانع الحربية تراقب ١٢٠٠ مصنع حربي وان تسلح الجيش الايطالي لا يزال سائراً بانتظام وسيبلغ تمامه في المدة المحددة لهُ. اما فيما يختص بالطيران فقد صودق على مبلغ ١٥ مليوناً من الجنيهات خصصت لانشاء حظائر حربية ومدفعية جديدة في وادي نهر بو وعلى طول سواحل البحر الادرياتيكي وتيرانا وفي سردينية وصقلية

وقد كان أهم قانون صدر في عهد حكم الفاشست «قانون إعداد الامة العسكري» الذي أريد به جعل الشعب الايطالي عن بكرة أبيه شعباً عسكريا. وأهم مواد هذا القانون:

١ — الرعوية الايطالية والجندية صفتان متلازمتان في ظل النظام الفاشيستي

٢ — التدريب العسكري جزء من برنامج التعليم القومي ويبدأ بمجرد بلوغ الطفل سن الادراك ويستمر بحيث يكون الايطالي على استعداد دائم لحمل السلاح والدفاع عن وطنه

٣ — هذا التدريب العسكري ينقسم الى ثلاثة أقسام:

فالطور الاول التدريب العسكري التمهيدي والغرض منهُ اعداد الايطاليين روحيًّا وجسمانيًّا وعسكريًّا اثناء المدة السابقة لتجنيدهم في الجيش. والطور الثاني تلقين الايطاليين الفنون العسكرية واستكمال التدريب التمهيدي. والطور الثالث تدريب الايطاليين بعد قضاء مدة الخدمة العاملة ليكون احتياطي الدولة على أتم استعداد عند اعلان الحرب. وهذا التدريب اجباري لمدة عشرة أعوام بعد التسريح من الجيش العامل وايطاليا يبلغ عدد سكانها اليوم ٠٠٠ ر ٠٠٩ ر ٤٣ نفس ومساحتها ٠٠٠ ر ٣١٠ كيلو متر مربع واصبحت لها اليوم امبراطورية واسعة الأرجاء تمدها بآلاف المجندين الاقوياء

والجيش الايطالي من قوات الدفاع الاوربية الاولى ويبلغ عدده اليوم ٠٠٠ ر ٥٢٨ جندي على الأقل ويصل هذا العدد في وقت الحرب الى أربعة ملايين بكل سهولة ويشرف على أعمال الجيش الايطالي مجلس الجيش وهو هيئة استشارية لوزير الحربية في كل ما يختص بأعمال الدفاع وهذا المجلس مؤلف من وزير الحربية ورئيس هيئة اركان الحرب وجميع قواد

الجيش العاملين وقواد الجيوش وثلاثة من قواد الفيالق او الفرق ينتخبون كل سنة بقرار وزاري وتجدد مدة انتخابهم عند انتهائها

وهناك هيئات ولجان ومجالس يقوم بعضها بتنظيم اعداد الامة إعداداً عسكريًّا وبعضها لتنظيم الانتفاع بمرافق الدولة الاقتصادية كلجنة الدفاع المدنية التابعة لوزارة الزراعة والغابات. والجيش الايطالي مقسم الى ٢٣ فيلقاً موزعة في تورين واسكندية وميلان وفيرونه وتريست وبولونيا وفلورنسة ورومه وباري ونابولي وأودين وجزيرتي صقليه وسردينية

وأهم الاسلحة التي يشتمل عليها الجيش الايطالي هي المشاة (١١٤ آلايا) والخيالة (١٢ آلاياً) والمدفعية (٦٥ آلاياً) والمهندسين (١٧ آلايا) وسلاح الدبابات وأهم الخدمات الاخرى والمصالح العسكرية هي سلاح الكيمياء الحربي والقسم الطبي وادارة المهمات والثكنات ومصلحة الادارة العسكرية والقسم البيطري وخدمة النقل الميكانيكية وقسم الطبوغرافيا والجغرافيا ومصلحة المحاكم العسكرية والمصانع العسكرية للاسلحة والذخيرة وأهم مؤسساته في « تيرني » وروما وكابوا وغيرها

والقوات غير العسكرية التي يتكون منها قوات تمد الجيش عند الحاجة هي قوات البوليس وعددها تقريباً ١٥٫٠٠٠ وفرق الكارابينري الملكية وعددها ٥٠٠٠٠ والميليشيا الوطنية وهي منضمة كوحدات الجيش تماماً

ومن المعاهد العسكرية في ايطاليا نذكر :

كليتان حربيتان — أكاديمية للمشاة والخيالة — أكاديمية للمدفعية والمهندسين — مدرسة تدريب المشاة — مدرسة تدريب الخيالة — مدرسة تدريب المهندسين والمدفعية — تسع مدارس لضباط الاحتياط — ثلاث مدارس لضباط صف الاحتياط — اربع مدارس مركزية للاسلحة — كلية اركان الحرب — مدرسة المدفعية — مدرسة الطب العسكري وغير ذلك من المدارس الفنية كاللاسلكي والكيمياء والميكانيكا

وقوة ايطاليا الجوية لا يستهان بها والطيارون الايطاليون مشهورون بشجاعتهم وتدريبهم ويعتمد على السلاح الجوي لتحقيق أكثر العمليات الحربية وهو من أكثر القوات الجوية انتظاماً في العالم وضباط الطيران ينقسمون الى ثلاثة اقسام : ضباط الملاحة الجوية وضباط الخدمة وضباط الاخصاء وقد بلغ عدد الفريق الاول خلال العام ١٩٣٥ — ١٫٣٨٨ والفريق الثاني — ٤٠١ والفريق الثالث ١١١ وهناك ايضاً فيلق جوي للمهندسين عدد ضباطه مائتان ضابط.

ولا يقل عدد الطائرات الايطالية عن ٢٥٠٠ طائرة قوتها مليون ونصف مليون حصان وعدد رجالها ٣٠٫٠٠٠ رجل تقريباً (كولونيل)



العلم فى العام الماضى

مختارات من أجل آثار العلماء في سنة ١٩٣٦

العلم والاجتماع

اشتد في العام الماضي اتجاه العلماء الى البحث في تأثير العلم من ناحيته الاجتماعية وكان هذا الاتجاه قد ظهر على أثر الازمة الاقتصادية التي انتابت العالم في العهد الاخير ثم بلغ ذروته في اجتماع مجمع تقدم العلوم البريطاني الذي عقد في مدينة بلاكبول بانكلترا في الاسبوع الثاني من شهر سبتمبر الماضي . وقد نقلنا للقراء في حينه ملخصاً من خطبة الرئيس السر يوشيا ستامب وقد دارت من أولها الى آخرها على هذا الموضوع الخطير ومن اقواله فيها : « أن العالم قلما يعنى بنتائج كشفه واستنباطه مع ان ثمارهما من أقوى العوامل على احداث التحول الاجتماعي . واذا عني بها فعنايته تحصر في الغالب في تعديد الفوائد التي تغدقها مكتشفاته ومخترعاته على الناس . ولا تتعداها الى تبيين ما تحدثه من الهزات الاجتماعية يسيرة كانت او قوية . فكأن المنطقة التي تحصل فيها الهزات وكيفية اتقائها كانت منطقة حراماً على الباحثين . فالعالم كان يحسبها خارجة عن نطاقه الخاص . والاقتصادي قلما اعترف بأن الواجب عليه يقضي بدراسة هذه الناحية من موضوعه . والحكومات كانت تقف بمعزل عما هو حادث من هذا القبيل الى ان تستفحل النتائج. فتربية العالم كانت لا تشتمل على تبصيره بنتائج عمله من الناحية الاجتماعية . وتربية السياسي والاداري كان يعوزها تدريبهما على فهم تقدم العلم وما يقتضيه من ملاءمة للكيان الاجتماعي له . فلما وقع الاصطدام أنكر كل من يهمهُ الامر ان الامر من شأنه »

هبة علمية كبيرة

ومن الحوادث العظيمة الشأن في تاريخ البحث العلمي الهبة السخية التي جاد بها لورد نفيلد صاحب معامل سيارات موريس على جامعة اكسفرد لتشجيع البحث في الطب السريري والهبة بلغت مليونين من الجنيهات او أقل قليلاً . وقد تلقت الجمعية الملكية في لندن هبات كبيرة كذلك لتشجيع البحث العلمي ومن مشروعاتها البحث بحثاً وافياً في علاقة الملاريا بالتغذية في الهند

وبما يتصل بالبحث العلمي وعلاقته بالمجتمع عناية العلماء بموضوع التغذية وتعيين لجنة له ونشر كتب فيه لاعلام مثل السر جون اور والدكتور ماكونجل والاستاذ جوليان هكسلي

تطبيق العلم الطبيعي

ولعل اظهر مظهر لتطبيق العلم الطبيعي في السنة الماضية اتساع نطاق التلفزة حتى اصبح في طاقة من يملك جهازاً لاقطاً ان يلتقط مما يذاع من محطة مركزية اذاعة منتظمة . والغالب في تاريخ المخترعات التي من هذا القبيل انها عندما تبلغ مرتبة الاستغلال التجاري يطرد فيها التقدم بسرعة عظيمة على نحو ما تم في الاذاعة اللاسلكية من سنة ۱۹۲۲ الى الآن

زرع النبات في الماء

ومن هذا القبيل تقدم الاسلوب الجديد في زرع النباتات في الماء . فقد تمكن الاستاذ جريك احد علماء كاليفورنيا من زرع نباتات في ماء لم يضف اليه الا المركبات غير العضوية التي يتركب منها جسم النبات فنما النبات وأورق وأثمر . وقد كان النمو في هذه التجارب سريعاً والمحصول كثيراً ولا سيما في ما يخص الطماطم. وقد ابتكر الالمان طريقة مماثلة لهذه الطريقة تمكنوا بواسطتها من بذر بذور علف الماشية والحصول على العلف نفسهُ منها في عشرة ايام. ولاريب أن هذه المبتكرات قد تسفر عن انقلاب عظيم الشأن في الزراعة

بلورات الفيروس

ومن المكتشفات الاساسية في علوم الاحياء ما اثبتهُ بعض الباحثين من أن عوامل المرض الخفية المعروفة باسم فيروس يمكن الحصول عليها في شكل بلورات . والفيروس الخاص الذي أفضى بهم الى هذا الاكتشاف هو الفيروس الذي يسبب في ورق التبغ (الدخان) داء التبقع . وعليه فقد يحسب الفيروس في مرتبة متوسطة بين المادة الحية والجامدة

مائة مليون مجرَّة

وقد حسب الدكتور هبل احد علماء مرصد جبل ولسن باميركا أن في الكون مائة مليون مجرَّة في نطاق قطره ٥٠٠ مليون سنة ضوئية . والسنة الضوئية هي المسافة التي يجتازها الضوء في سنة سائراً بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية . وينتظر ان يتسع هذا النطاق ويزيد عدد المجرات متى تمَّ صنع التلسكوب الكبير الجديد ونصبه

الفيتامين الجديد

ومما أسفر عنهُ العام الماضي في ميدان الكيمياء الحيوية اكتشاف فيتامين جديد رسم بحرف P الفرنجي ودعي سترين وهو يؤثر في مقدرة جدران الاوعية الشعرية على منع الدم من تخللها وهو لذلك يؤثر في النزف ويفيد في منعه وكذلك في مرض تبقع الجلد الناشىء

عن ضعف جدران الاوعية الشعرية في مناطق معينة من الجسم تحت الجلد

وهناك اكتشاف آخر ذو شأن كبير وهو ان الحقن المتوالي بالانوار اي الهرمونات (مفرزات الغدد الصم) ينشيء اجساماً مضادة لها تقاوم فعلها

النجوم المنفجرة

ان الذين يرصدون السماء يرون احياناً وعلى حين فجأة نجماً مشرقاً حيث تعودوا أن يروا نجماً خفيًّا . وبذلك يزعم بعض العلماء انهُ يمكننا أن نفسر النجم المتألق الذي ظهر فجأة في السماء ليلة ميلاد السيد المسيح

وقد أطلق علماء الفلك على هذا الضرب من النجوم اسم النجوم الجديدة (نوفي) والواقع ان هذه النجوم ليست جديدة وانما هي نجوم قديمة انفجرت فاشتد اشراقها

وقد كانت سنة ١٩٣٦ من السنين التي امتازت بكثرة النجوم الجديدة فيها . فقد ظهر ما لا يقل عن خمسة نجوم جديدة من الطبقة الاولى احدها اكتشفهُ باحث في مرصد جبل ولسن في كوكبة العذراء وقيل انهُ بعيد جداً عن النظام الشمسي حتى ليستغرق نورهُ سبعة ملايين سنة في الوصول الينا مع ان سرعته تبلغ ١٨٦ الف ميل في الثانية

وجميع هذه النجوم حدثت فيها انفجارات كبيرة فأطلقت مقادير عظيمة من الغاز بسرعة ٢٠٠٠ الى ٢٥٠٠ كيلو متر في الثانية .

ولو أن شمسنا تصرفت على هذا النحو لكفى انفجار واحد فيها ان يمحق الحياة على وجه الارض . وقد لوحظ أن النجم الجديد المعروف باسم « نوفا لاسترتي » وبعده ٢٦٠٠ سنة ضوئية حصل فيه اربعة انفجارات من هذا القبيل

سديم أحمر

السدم لطخ سحابية من المادة الكونية داخل المجرة وخارجها . والسدم اللولبية او الحلزونية هي خارج المجرة وترى سدماً لبعدها مع أن فيها قدراً كبيراً من النجوم

وقد تم في السنة الماضية اكتشاف أول سديم أحمر اللون في مرصد مكدونالد بجامعة تكساس الاميركية

« طيب » ! وما قيمة اكتشاف سديم أحمر ؟

للعلماء نظرية في اشراق السدم وهي أنها تشرق بانعكاس الضوء الذي يشعه ما فيها من النجوم . والنجوم باعتبار حرارتها طائفتان عامتان طائفة حمراء وطائفة زرقاء . فالاولى باردة بالقياس الى حرارة النجوم والثانية شديدة الحرارة

فاذا كانت السدم تضيء بالنور المنعكس من النجوم وجب أن تكون هناك سدم زرق وسدم حمر . وقد اكتشف العلماء سدماً زرقاً ولكنهم لم يعثروا قبل السنة الماضية على سدم حمر فالعثور على سديم احمر يؤيد النظرية المتقدمة . ومن هنا قيمته العلمية

أُزُرُ النجوم

تختلف درجة الحرارة على سطوح النجوم من ٣٠٠٠ درجة بميزان سنتغراد الى ٣٥ الفاً واعلاها ٥٠ الف درجة. ولكن الدكتور هتزلر مدير مرصد يركيز بأميركا اكتشف نجوماً لا تزيد حرارتها على الف درجة بميزان سنتغراد. وقد اكتشفها بالتصوير بأشعة الحرارة لا بأشعة الضوء لان هذه النجوم لا تبلغ من الحرارة درجة تجعلها مضيئة

وعلى ذلك فلا يستبعد ان يكون على مقربة من النظام الشمسي نجوم من هذا القبيل لا نراها بالعين او بالمرقب لانها لا تشع الا أشعة حرارة وهي مما لا تراه العين ولكن يحس به بعض الالواح الفوتغرافية

التغلب على الستربتوكوكس

الستربتوكوكس اسم يطلق على طائفة من الميكروبات تشاهد مجتمعة في سلاسل ومن العلل التي تحدثها هذه الميكروبات التهاب الحلق وبنت الحرا وحمى النفاس وغيرها . وقد اكتشف في السنة الماضية ان مادة كيماوية تصنع في احد مصانع الاصباغ بالمانيا تدعى بروتتولين تمكن الجسم من مغالبة هذه الميكروبات والتغلب عليها . ويمكن ان يؤخذ البروتتولين اقراصاً كما تؤخذ أقراص الاسبيرين

نعم ان اكتشاف هذه المادة واستعمالها لم يتما في السنة الماضية. ولكن التسليم العام بنجاحها وفائدتها حدث في السنة الماضية

ومن قبيل البروتتولين مادة أخرى تدعى البروتوزيل . ويدعى مكتشفهما دوماك والرأي العام ان اكتشافهما من اهم مآثر البحث العلمي الحديث في مقاومة الامراض المعدية

توليد الارانب في الانابيب

في الاجتماع الذي عقدته الجمعيات الاميركية للبيولوجيا التجريبية في ربيع سنة ١٩٣٦ أذاع الدكتور بنكس احد اساتذة جامعة هارفرد انهُ لا حاجة بهِ الى ذكور الارانب في توليد الارانب . ذلك ان الدكتور بنكس أخذ بيضة أرنب ووضعها في أنبوب ولقحها بمحلول مالح لا أكثر ولا أقل . فنمت البيضة وتحولت جنيناً كامل التركيب ثم زرع هذا الجنين في أرنب أنثى وبعد اسبوع قتلت هذه الارنب لدراسة الجنين المزروع فيها. وفي تجربة أخرى تمكن الدكتور بنكس من تلقيح البيضة بمجرد تعريضها للحرارة

نقل الاعضاء وزرعها

وتجارب الدكتور بنكس تعيد الى الذهن ما تمَّ على أيدي نفر من العلماء في نقلهم أعضاء كاملة وزرعها في حيوانات أخرى وحفظها حية نامية. فالدكتوران ربط وكولتز من أساتذة جامعة بتسبرج نقلا قلباً حيًّا من سمندل وزرعاه في آخر . والدكتور شوند أحد أساتذة مدرسة لويولا الطبيـة بشيكاغو بتر فخذ جرذ أبيض وزرعها لحماً وعظماً في جرذ آخر . والدكتور وليس أحد أطباء مستشفى الفرد بملبورن باستراليا نقل عظام القوائم الامامية من جرذ وزرعها في دماغ حيوان آخر . والدكتوران افروسي

ويدل نزعا عيوناً ومبايض وغيرها من عيون الحشرات وزرعاها في حشرات أخرى غير التي نزعت منها وقد جرى فريق آخر على خطة الدكتور كارل وهي نزع قلب فرخ ووضعه في سائل خاص ومراقبة عمله الحيوي . فأخذ الدكتور أوسجود والدكتور سكوتيش نخاع العظم ووضعاه في انبوب من هذا القبيل وراقباه في نموه حتى هاجمهُ الانحلال

تحويل المادة

ان عنصر الراديوم يطلق ثلاثة انواع من الاشعة هي اشعة الفا وبيتا وغما وعندما ينفد اشعاعه يتحول الى رصاص . وهذا الفعل يستغرق الوفاً من السنين . ومن المراتب التي يمر بها الراديوم في هذا التحول مرتبة يعرف فيها براديوم E ولكن العالم ليفنغود احد اساتذة جامعة كاليفورنيا تمكن من صنع راديوم E من عنصر البزموت . ذلك انهُ اطلق على عنصر البزموت قنابل ومقذوفات هي نوى الايدروجين الثقيل بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية وبمعدل ١٠٠ الف قذيفة في الثانية فأصابت بعض هذه المقذوفات نوى ذرات البزموت فحولتها الى ذرات راديوم E . وعند امتحان هذه الذرات وجد انها كراديوم E الطبيعي في جميع خصائصها

وبالطريقة نفسها حوّل لورنس وكورك البلاتين الى ذهب . ولورنس حوّل الليثيوم الى ريليوم . وبنرام حوّل الصوديوم الى مغنسيوم

وفيات الاعلام

وقد فقد العلم في خلال السنة الماضية طائفة من اكبر اعلامه في مقدمتهم الاستاذ بافلوف وهو الفسيولوجي الروسي الذي قضى ما يزيد على ثلاثين سنة يجرب التجارب في ما يعرف الآن بالافعال العكسية المحولة وبحثه فيها أساس لمذهب سيكولوجي كبير الشأن يعرف باسم المذهب السلوكي . ومنهم الاستاذ لويد مورغن الانكليزي صاحب الفلسفة العلمية المعروفة باسم « فلسفة البزوغ » ومن اكبر انصارها هويتهد الانكليزي الاميركي والكسندر الانكليزي والجنرال سمطس . ثم توفي لويس بليريو الفرنسي وهو اول من عبر بحر المانش بطائرة سنة ١٩٠٩ والدكتور كانتي وقد كان في مقدمة العاملين على استعمال الفلم السينمائي في البحث العلمي

أما في ميدان الادب العالي فقد مني العالم بوفاة كبلنغ وهوسمن وتشسترتون الانكليز ومكسيم جوركي الروسي وبيراندللو الايطالي

جوائز نوبل

وقد منحت جائزة نوبل الطبية للسر هنري ديل الانكليزي والاستاذ لوفي النمسوي جزاء لهما على ما قاما بهِ من المباحث الطريفة الدقيقة في فهم انتقال الرسائل العصبية في الاعصاب من ناحيتها الكيمياوية . ومنحت جائزة نوبل الطبيعية للاستاذين هس واندرسن لما لأولهما من فضل التقدم في دراسة الاشعة الكونية ولأن دراسة هذه الاشعة أفضت بالثاني الى اكتشاف دقيقة من دقائق المادة الكهربائية الاساسية ونعني الكهرب الموجب « البوزيترون » . ومنحت جائزة نوبل الكيمياوية للاستاذ دبي الهولندي الالماني لما قام بهِ من المباحث الاساسية في المحلولات

الماء وعدوى الفيلاريا برشيد

بحث الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك استاذ الطفيليات في كلية الطب ومدير معهد الامراض المتوطنة بحثاً علمياً طبياً دقيقاً في موضوع عدوى الفيلاريا برشيد خلص منهُ الى النتائج التالية:

بما أن عدوى الفيلاريا متوطنة في رشيد ولا أثر لها في القرى والبلدان المجاورة وبما ان آبار المياه المالحة كثيرة في رشيد ولا وجود لها في القرى المجاورة وبما ان بعوضة الكولكس يبيض كثيرة جداً في هذه الآبار فالنتيجة المحتمة هي ان مصدر البعوضة الناقلة للفيلاريا في رشيد هو تلك الآبار ذات المياه المالحة التي في المنازل

ومن حسن الحظ ان في رشيد الآن مورداً للمياه العذبة المرشحة مما يجعل هذه الآبار لا لزوم لها. والبلدية لها مصلحة ظاهرة في توريد المياه المرشحة الى اكبر عدد ممكن من السكان فضلاً عن أنهُ يؤدي الى تقدم كبير في حفظ الصحة من الامراض المعدية وفي نفس الوقت يجعل من الممكن تخفيض ثمن المياه المرشحة تخفيضاً يساعد على الاقبال على استعمالها

وقد تبين ان مياه الآبار ملوثة جداً حيث اظهرت نتائج الفحص الكيماوي وجود مقادير كبيرة من تحت النترات والنشادر

وخزانات المياه على الرغم من انها ليست ذات أثر يذكر في توالد البعوض فانها لو أهملت او تركت مكشوفة لتوالد فيها البعوض. وعلاوة على ذلك فان المياه المستعملة بها والتي تؤخذ من النهر مباشرةً ملوثة من المجاري العامة التي تصب في النهر امام رشيد

وعلى ذلك يتبين بجلاء ان الآبار وخزانات المياه في رشيد هي مصدر الخطر وفي الوقت نفسه يمكن الاستغناء عنها. وعليهِ يوصي الدكتور عبد الخالق بك باتخاذ اشد مايلزم من الوسائل لردم جميع الآبار والخزانات في رشيد ومد انابيب المياه المرشحة الى اكثر المنازل فاذا تمَّ ذلك فالمنتظر ان عدوى الفيلاريا تنقطع تماماً

ومدينة رشيد تتيح فرصة نادرة لمقاومة مرض فظيع باجراء صحي بسيط وهذا الاجراء الصحي نفسه له أثر عظيم جداً في تخفيض الاصابة بالامراض المعدية الاخرى ولا سيما حمى التيفود والدوسنطاريا

اكتشاف عنصر جديد

في الفضاء بين النجوم

جاء من مرصد جبل ولسن في كاليفورنيا انهُ تمَّ للعلماء فيهِ اكتشاف عنصر جديد في الفضاء الذي يكاد يكون فراغاً، وهذا العنصر الجديد هو عنصر التيتانيوم ولكنهُ في حالة مؤينة أي ان ذراتهُ ليست كاملة كلها ولكن كهاربها مفصولة عن نواها

يسند هذا الاكتشاف الى الدكتور ولتر ادمز مدير المرصد ومساعده الدكتور ثيودور دنهام وقد فازا بهِ اذ كانا يبحثان في الجانب الذي وراء اللون البنفسجي من طيف

نجمة كبيرة تعرف باسم (شي ٢ اوريو نيس)
ويقول علماء مرصد جامعة هارفرد انهُ اذا تأيد اكتشاف هذا العنصر في الفضاء الذي بين النجوم فانهُ يكون دليلاً الى معرفة طبيعة هذا الفضاء أتم مما يستخلص من اكتشاف الصوديوم والكلسيوم فيهِ . ويظهر من طيف النجمة المذكورة ان فيها خطوطاً جديدة من عنصر التيتانيوم ومن المرجح ان موالاة البحث في النجوم شديدة الحماوة تسفر عن كشف هذه المادة في الخلاء المحيط بالارض في جميع الجهات

أونامونو فيلسوف سلامنكا

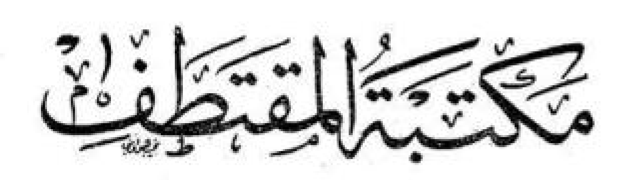
توفي الفيلسوف الاسباني اونامونو مدير جامعة سلامنكا وصاحب الكتب العديدة في الفلسفة والادب العالي . كان في بدء حياته فيلسوفاً ينزع الى الصوفية ولكن حالة بلاده السياسية حملتهُ على النزول الى ميدان الاجتماع فأصبح الصوفي اجتماعيًا وتحول الفيلسوف سياسيًا نفي وعزل من منصبه في سبيل الحملات العنيفة التي حملها على الظلم والاستبداد والمفاسد في عهد الملك الفونسو والديكتاتور بريمو ده ريفيرا

في ابريل سنة ١٩٢٥ أصدر الكاتب الاسباني بلاسكو إيبانز كتابه في الجمهورية الاسبانية المرتقبة فأحدث هزة في دوائر الأدب والسياسة وقد ختمهُ بالعبارة التالية : اني انظر الى المستقبل بلا وجل لانه سيقول عني : كان في وسعه ان يظل على الهامش ولكنهُ خاض المعركة على الرغم من اقتناعه بأنهُ لن يربح شيئاً بل يخسر كثيراً . انضم غير متردد الى ميخويل دي اونامونو وادوارد اورتيجا المجاهدين ببسالة في سبيل الكرامة الاسبانية قبل تحقيقها ومن دون تبصر في هل كان صحبه في الجهاد قليلين او كثيرين

ان مجرد ذكر اونامونو في مستند خطير كهذا يلخص تاريخ نشاطه في سياسة اسبانيا من سنة ١٩٢٤ او قبلها الى حين وفاته

كان اونامونو اعواماً طويلة مديراً لجامعة سلامنكا الشهيرة يدرس فيها اللغة اليونانية القديمة وعلم المقابلة بين اصول اللغتين اللاتينية والاسبانية ويصدر الى جانب ذلك الكتب والرسائل في شتى الموضوعات الا انهُ انبرى من عزلته العلمية يعارض ديكتاتورية بريمو ده ريفيرا وتزعم حركة سياسية عنيفة ضد ذلك النظام فتعرض لغضب اولي الشأن فأخرج من وطنه الى المنفى فثار الرأي العام على نفيه وضغط حتى على حكومة دكتاتورية فاخلي سبيله وسمح له بأن يعود الى اسبانيا ولكنهُ رفض ان يعود اليها فذهب الى فرنسا وظل فيها الى ان اعلنت الجمهورية سنة ١٩٣١ فعاد الى وطنه حيث استقبل بأعظم مظاهر الحفاوة

وكان قبيل وفاته قد انضمَّ الى فريق الجنرال فرانكو لما خشيهُ من الفوضى الشيوعية في البلاد ثم اعرض عنهُ لما رآه يدخل الى البلاد طوائف من الاجانب لتمكينه من النصر وقد ادركتهُ الوفاة والحيرة تدمي فيه قلبهُ الهائم باسبانيا



وحي القلم

لمصطفى صادق الرافعي: جزءان : ٨٠٨ صفحة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٥ — سنة ١٩٣٦

الرافعي كاتب حبيب الى القلب ، تتنازعهُ اليه اسباب كثيرة من اخوة في الله ، ومن صداقة في الحب ، ومن مذهب متفق في الروح ، ومن نية معروفة في الفن ، ومن اعجاب قائم في البيان ومن هنا ومن ثَمّ لا أدري من أين تبدأ ولا أين تنتهي . فأنا حين أريد القول في صداقته او في إيمانه او في حبه اوفي بيانه اوفي فنه أجدني كالمهموم اذا ابتدأ لهُ همٌّ تداعت اليه الهموم من كل جانب ، فأضع القلم وارفعهُ وأديره وأتلوى به لأن المعاني تتلوى بي في سبيل مَضَلَّة ، فأراني أتحاشى القول خشية الغلوّ او خوف التقصير . وقد تكلفت شططاً وحملت نفسي على ما لا تطيق وأنا أكتب عن « وحي القلم » ، لئلاً اغلو في الرافعيّ فيقال : معجب غلا به اعجابهُ ، او اقصر فيه فيقال : صديق شقيت به أصحابه

كانت سنة ١٣٤١ — سنة ١٩٢٣ — فقرأت للرافعيّ كتابهُ «المساكين» فنازعتني نفسي الى مراسلته لأصل مابيني وبينه ، فكتب اليّ كتاباً رقيقاً كنور الفجر ، ثم مضت الايام ولقيت رجلاً كهلاً قد اشتعل الشيب في رأسه ، خفيفاً قد اخذت منهُ الايام، صامتاً قد اسكتهُ الفكر ، ثم قيل هذا الرافعي . فيوم ذاك عرفتهُ ، فاذا هذا الكهل شباب مشتعل يتوهج ، واذا هذا الخفيف قوة مستصعبة مستمرة لا تلين، واذا هذا الصامت لسانٌ عربي مبين . ثم هو بعد صديق أنت من صداقته في مثل الروضة تفيء الى ظلها ، وتستنشي شذاها ، وتصاحبها وتصاحبك فتمسح عن قلبك الحزن بالرضى والفرح ، ما لا تمسح صداقة الناس ممن ترى وتعرف

وهنا سر الرافعي كلهُ ، سره في فكره ، وسره في علمه ، وسره في بيانه ، وسره في فنه . وذاك هو سر المؤمن إذا ارتفعت عن قلبه الحجب، وسقطت عن عينه الغشاوة، وارتفع به الايمان عن أشياء الأرض الى أسرار السماء ، فلا تجد الدنيا منهُ ما تجده أو يطغيه أو يلفتهُ ، فهو بصيرة تنفذ ، وقوة تعمل ، واخلاص يجلو ، وجمال يحب . هذا هو سر الاسلوب الذي انفرد به الرافعي

والرافعي كاتب قد استولى على الامد في مادة الكتابة ، فاللغة عنده مادة للتعبير لا مادة للحفظ والاستعمال ، فهو قد قرأها قراءة البصير ليرى الفروق الخفية بين اللفظ ومرادفه

وليعلم حق اللفظ من العبارة ، وحق العبارة من الالفاظ،فيظن بعض من لا قدرة لهُ أن الرافعي يريد الاغراب على الناس في كلامهِ،واستجلاب الغريب من اللغة للتفاصح ، وما بهِ ذلك ، وإنما هي المعاني . . . المعاني عند الرافعي هي التي لها حق اختيار الالفاظ من لغتهِ . وهو لا يأخذ ألفاظهُ من المعاجم وإنما يأخذها من سليقته التي صقلتها المعاجم . وقد أكثر الناس من نقد الرافعي زمناً ووضعوا عليهِ من أوهامهم غشاء آذانهم ولم ينفعهم ، وحجتهم في ذلك هذه اللغة التي أحيا الرافعي مواتها ببيانهِ . وما اللغة ؟ أهي الألفاظ قائمة بالمعاني التي وضعتها لها المعاجم ووقفت عندها ؟ ان هذه ليست بشيءٍ ، وما هي الا أداة كالسيف . فالسيف على جودتهِ لا يعمل الا اضعف العمل ، فاذا أخذتهُ أنت وجعلت تتدرب بهِ وتمرّن ساعدك عليهِ ، وعرفت كيف تجيد الضربة وتصيب المقطع،كان لهُ أقوى العمل ، لأن السر في ساعد منتضيهِ وبصره وحيلتهِ لا في حده وعارضيهِ

واللغة لا تقوم بغير فكرة ، والرافعي قد استولى على أصولها ، بقوة الادراك وشموله وتراميه، وبالقدرة على الابانة عنها باللفظ المتصل الماضي الذي لا ينقطع دونها ، وبسمو الخيال وتراحبه واستطالته . فالرافعي يدمن على الفكرة الواحدة إدمان الفيلسوف الصابر الثابت بين ادارتها وتطبيقها وبسيطها وردها الى أصول مقررة في الحياة ، ثم لا يزال يجمع بينها وبين قرائنها،ويحدد فرق ما بين القرينين ما ظهر من ذلك وما استتر ، ثم يصحح النظر في الاصل الذي يردُّ اليهِ أفكاره تصحيح الحكيم المقرر حتى لا يقع بينها التدابر والاختلاط والفساد . ولايزال على ذلك يقيد ويطلق ويأخذ ويدع بقانون طبيعي في نفسه ، فلا يترك الفكرة الا وقد ولدت لهُ صغاراً من الأفكار فيها من الجمال والسحر والقوة الكامنة ما للطفل الصغير الوديع الجميل ، واذا الفكرة الأولى التي أدمن عليها أمٌّ فيها هيبة الأمومة العاملة المخلصة وحنانها وروعتها ووقارها

وهناك أسرار الفن في بيان الرافعي فمنها ادراك الجمال السامي غير المبتذل ، فهو يدرك الجمال في الجميل لانه يعرف أسرار جمالهِ ، ويدرك الجمال في القبيح لانهُ يعرف أسرار قبحهِ . فالجمال عندهُ في السر والجوهر وأصل البناء لا في العرض ، وكذلك الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة وما الى ذلك ، هي كلها عند الرافعي موضوع للاسرار فهو لا يقف عليها وقفة المتثبت بل يهزها من أصولها ليخرج أسرارها ، فاذا فعل كتب صفة الشيء الحي بكلام حي فيهِ قوة المقاومة والقدرة على البقاء ، وكل الاسباب التي تضمن لهُ الحياة الفنية والبيانية

ثم لا يقف الرافعي عند ذلك بل لكل هذا مكان آخر يصل اليهِ فيصهره ويذيبهُ ثم يرده في صورة فذة ، ذلك هو الاحساس القوي المشبوب . فهو يأخذ الفكرة بلفتها وعقلها وسرها من احساسهِ هو لا من احساس الناس،حتى اذا آمن بها إيماناً لا مطمن فيهِ استعان بايمانه القوي على

انشائها إنشاء مبتدعاً خاصاً موسوماً بسمة صاحبه ، تلك السمة التي تسمى « أسلوب الرافعي »

كلُّ ذلك بعض العمل البيانيّ الذي يتدفق من لسان هذا الرجل . وان لهُ خاصة عجيبة إذا تكلم في الاجتماع العربيّ الاسلاميّ في هذا العصر ما بين خلق وعلم وعمل ودين ، هي هذه الروعة المستعلنة المنصبّة على معانيها كنور الشمس . وسرُّ هذه انهُ يحسُّ ويفكر وينقد ويبيّن بقوة ثلاثة عشر قرناً من التاريخ الاسلامي ، ويحسُّ باحساسها ، ويدرك أفكارها ، ويعرف أسرار فضائلها ورذائلها ، وأسباب قوتها وضعفها ، وقد أحاط بكثير من أصول القانون الطبيعيّ الذي يجمع ويفرّق ويضبط وينشر ، ويزيد وينقص في هذه الامة الرابضة في قلب الشرق

اما الرافعيّ المحب فهو رجلٌ وحدهُ سام عن الاسفاف، مشرق كالنجم ، صافٍ كانهُ مرآة مجلوّة ، ثم فرحٌ كأنهُ أملٌ يتحقق ، باكٍ كانهُ عضوٌ يقطع ، متألم كأنهُ محارب باسلٌ ينهزم، ثم لايزال على ذلك — الرجلَ الجلد القويّ الذي لاينكسر ولا يتحطم، ولا تتدنّى به القوة الغالبة ، قوّة اللذّة الانسانية القرمة المتشهّية . لذلك يخلو حبّ الرافعيّ من الفجور الفني ، وانما يصف الرافعيُّ المحبُّ فجور الرجل والمرأة ليسمو بالرجل الفاجر ويخرجهُ من سلطان لذته ، ويصف فجور المرأة ليهديها ويطهرها وينزهها وينصفها من ظلم الرجل الفاجر . ولهُ على ذلك قدرة قل ان ينالها كاتب ممن نعرف

وأما الرافعي ربيبُ الشعب، فهو الواصف البليغ الذي يستطيع ان يجمع آلام أمة مظلومة في ألفاظٍ تتألم ، ويؤلف آلام المساكين في كلماتٍ تبكي ، ويحصر سخط المستعبدين من الفقراء في حروفٍ تبكي وتتألم وتتسخط وتتشفى وتبغض وتسخر من هذا الاجتماع الذي استعبدهم وقد ولدتهم امهاتهم احراراً . فهو في هذه « ترجمان القلوب المتحطمة »

وأما الرافعي الساخر ، فهو الكلمة القصيرة التي تبلغ ما لا تبلغهُ الثورات المسلحة . . . .

وأما الرافعي فهو الرافعي الذي لاتعرفه حتى تقرأه وتصبر على ملازمته ، وتمطيه من نفسك لتأخذ من بيانه ومن فنه ومن بلاغته ومن فكره ومن حكمته . فهو كاتب حكيم قوي فلا يجدر بك ان تأخذ كلامه على النظرة الطائرة كما تقرأ مقالة في صحيفة يومية لتستفيد، بل أقرأه لتحس وتنفذ اليه وتهتز معهُ ثم تستفيد

اقرأ « وحي القلم » تجد الرجل الذي حدثناك به ، وتجد البيان الغضّ القوي المتدفق الذي يثير في نفسك التاريخ اللغوي المكتوب في دمك بالوراثة ، وفي قلبك بالحب ، وفي احساسك بالاهوال النفسية التي تمر بك . فان بيان الرافعي اذا تدبرتهُ وتدبرتهُ أيقظ فيك البيان لأنه بيان حر غير مقلد ، وأوحى اليك بالفكرة المستحكمة والعبارة المجوّدة لأنه بيان سام غير مقيد ، ثم يلهمك القدرة على التفكير والابانة لأنه « وحيُ القلم »

محمود محمد شاكر

فلسفة اللذة والألم

تأليف اسماعيل مظهر — مكتبة النهضة المصرية — صفحاته ٢٥٨ قطع المقتطف

الشقة طويلة بين أرسطبس في القرن الرابع قبل الميلاد وبنتام ومل وأترابهما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبافلوف ووطسن في القرن العشرين . والفرق بعيد بين اللذة والمنفعة. ولكن الفيلسوف القوريني كان رأس سلسلة من المفكرين أحدثهم في هذا العصر وطسن السلوكي. واللذة وهي اساس السعادة في نظره تحوَّلت بتوالي القرون الى المنفعة في مذاهب المتأخرين

هذا التطوُّر التاريخي ، من ناحية الاشخاص ومن ناحية الموضوع ، هو محور هذا الكتاب النفيس

في سيل الكتب العربية المتدفق على ادارات الصحف والمجلاَّت ، يجد المنقب طائفة ممتازة من الكتب هي من خير ما أنتجت عقول الغربيين وهي على الغالب اما مترجمة « كسلسلة المعارف الحديثة » و « تراث الاسلام » واما مقتبسة من غير كاتب واحد « كقصة الفلسفة الحديثة » . فاذا وجد كتاباً يمكن ان يقال انهُ أُلف ، وان مؤلفهُ قصرهُ على موضوع بعينهِ من موضوعات العلم او الفلسفة او الادب، تبسط فيهِ ولمَّ ما تفرق من دقائقهِ ، كان ذلك من بواعث غبطتهِ لانهُ دليلٌ على الحيوية والاستقلال الفكري

وقد عرف كاتبُ هذه السطور ، كتابَ اللذة والالم ، عندما كان رسالة صغيرة لا تعدو عشرات الصفحات وتتبع تقدُّم البحث فيهِ ، وما كان لكل خطوة خطاها مؤلفهُ من أثر عميق في نفسهِ ، فهو حين ربط بين قواعد فلسفة اللذة ، فالمنفعة ، وقواعد المذهب السلوكي في علم النفس الحديث، كان أسعد الناس طرًّا . فاذا هو قال انهُ قضى اربعة اعوام في تأليفهِ فصدقوهُ . واذا قال انهُ طوى ما كتب في درجهِ ثلاثة اعوام اخرى فصدقوه كذلك ولكن بتحفظ لانهُ في خلال هذه الاعوام كان يخرج صحائفهُ وينقحها ويضيف اليهِ ويحذف منها ما يبدو لهُ بعد تمحيص دقيق وتأمل عميق

وارسطبس هذا فيلسوف يوناني (٤٣٥ — ٣٥٦ ق . م) منشيء المدرسة الفلسفية المعروفة بالمدرسة القورينية ، زار اثينا في حداثتهِ وأغرتهُ شهرة سقراط بالبقاء فيها فتتلمذ لهُ ثم تجوَّل في مدن اليونان وأخيراً استقرَّ في قورينة على ساحل شمال افريقية المتاوح لليونان . وقد كانت فلسفتهُ واقعية عملية . فانهُ بناها على مبدأي سقراط في الفضيلة والسعادة وقدم الثاني على الاول وجعلهُ مقياس الحياة ومحكّها . فالخير في رأيه مايفضي الى أعظم نصيب من اللذة . والغريب في هذا الرجل انهُ ، مع تقديسهِ اللذة كمبدإٍ فلسفي . امتنع عن الانغماس فيها. بينما دعا اليهِ ارسطبس في القرن الرابع قبل الميلاد وما دعا اليهِ هيوم وبنتام ومل في القرون

الحديثة بون شاسع. فأرسطبس طلب السعادة للفرد وجعل اللذة أساسها. اما الفلاسفة الانكليز فقالوا ان السعادة الحقيقية هي سعادة الجماعة او سعادة اكثرها وجعلوا أساسها المنفعة . ولذلك قيل ان شعارهم هو « الخير الاعظم للعدد الاعظم » . وفي ذلك يتم الانتقال الفلسفي والاجتماعي من اللذة الخاصة الانانية ، الى اللذة العامة فالمنفعة العامة او الخير الاعظم للعدد الاعظم

فلما ظهرت نظرية التطور العضوي اتجه الرأي الى ان هدف التطور هو انشاء جسم اجتماعي حيّ نشيط صحيح، فالقياس لا يمكن ان يكون « الخير الاعظم » او اكبر قسط من المنفعة العامة بل يجب ان يكون « صحة الجسم الاجتماعي »

جميع هذه المسائل وعشرات غيرها مبسوطة في هذا الكتاب أوفى بسط ، في ملابساتها التاريخية والعلمية والفلسفية . ومن يراجع الفصل الذي نقلناهُ عن هذا الكتاب في مقتطف دسمبر الماضي ، يعلم انهُ تحفة فلسفية ثمينة

موسى بن ميمون — حياته ومصنفاته

يحق للاسرائيليين في العالم أجمع وفي الشرق خصوصاً ان يفتخروا بالفيلسوف العلامة والطبيب الشهير موسى بن ميمون الذي نبغ في اوائل القرن الثاني عشر فانهُ كان من اعظم علمائهم وفلاسفتهم في تلك العصور واعترافاً بغزارة علمه ومقامه الادبي أقامت جمعية التاريخ الاسرائيلية في القاهرة حفلة شائقة تذكاراً لمرور ٨٠٠ سنة على وفاته في العام المنصرم في دار الاوبرا الملكية اشترك فيها رجال العلم والادب من جميع الملل والنحل . وقد حذت حذوها جميع الاندية الاسرائيلية في جميع اقطار المسكونة لاحياء ذكرى هذا العالم الجليل لما كان لهُ من المكانة والاحترام والاجلال في قلوبهم وما زالت الطائفة الاسرائيلية في القاهرة الى يومنا هذا تقيم حفلة تذكارية كل عام في يوم وفاته في معبده الخاص في حي اليهود المعروف بكنيس يهود المغرب ويزورون ضريحه في طبريا في مثل هذا الوقت من جميع نواحي المعمورة

فصار من حكم الضرورة على كل من يعنى بتاريخ الفلسفة الاسلامية والآداب العربية والعبرية ولا سيما على كل اسرائيلي ان يطلع على تاريخ حياته ونشأته وما عانى من المصائب والنوائب وعلى مؤلفاته في الفلسفة والعلم والدين والطب وقد كان بمصنفاته من علماء اليهود الذين نقلوا مذاهب العرب الفلسفية الى الغربيين بالعبرية ثم الى اللاتينية ومن الذين ساهموا بقسط وافر في عالم العلم عموماً مثل سعديا الفيومي وابن جبيرول وابن عزرا وغيرهم من ابناء جلدته في الاندلس وكان في مقدمة الائمة والاحبار الاسرائيليين الذين وضعوا الشروح الضافية على التوراة والتلمود في عقائد الديانة الاسرائيلية مثل « راشي ومليين » . فأصبحت

مصنفاته قاعدة واساساً في التشريع الاسرائيلي ونبراساً بمعنى الكلمة يستنيرون بها « كالسراج» احد مؤلفاته وكان في آخر حياته رئيساً على الطائفة الاسرائيلية في مصر أفادها بارشادات دينية هامة واصلاحات لازمة في شؤونها

ولما كانت مكاتبنا العربية تكاد تكون خالية من المعلومات والبيانات الوافية التي تليق بمقام هذا الرجل الجليل وتآليفه وبحوثه الفلسفية كما يجب جاء الدكتور اسرائيل ولفنسون ابو ذؤيب استاذ اللغات السامية بدار العلوم واتحفنا بكتابه « موسى بن ميمون — حياته ومصنفاته » بعد بحوث دقيقة ومجهودات عظيمة وهو الكتاب الثالث من يراعته من سلسلة كتب في تاريخ اليهود والعرب

تصفحت هذا الكتاب النفيس فوجدته منتهى الارب للبحث في موضوعات كهذه وكنت حائراً في خير الطرق لاستقاء المعلومات اللازمة لي في مباشرتي نشر تاريخ اليهود في مصر وسيرة حياة عظام رجالها ومصادر مراجعها فجاء كتابه لي « دلالة الحائرين » بمعنى الكلمة كاسم احد مؤلفات الميموني الشهير . وسد النقص الذي نحن في حاجة اليه

يقع الكتاب في اربعة ابواب في حياة موسى بن ميمون . في مؤلفاته الدينية . والفلسفية . والطبية . وقد أفاض في الباب الاول عن نشأته واوطانه وسيرة حياته .وأثبت انهُ لم يرتد عن عقيدته يوماً ما . وذكر في الباب الثاني كتبه الدينية في حسبان الميقات وشرح النسيء ورسالة تمهيدية لدرس الفلسفة والمنطق . ثم كتاب الفرائض بالعربية ثم « السراج وتثنية التوراة » المعروف باليد القوية يبحث في التشريع ثم اجابات موسى ووصية موسى وغيرها . ثم لخص في الباب الثالث بحوثاً فلسفية في كتابه الشهير « دلالة الحائرين » الذي كان له شأن هام وراج رواجاً عظيماً في تلك العصور وهو أشهر من نار على علم ثم استطرد كلامه في الرابع في قيمته الطبية ومصنفاته في الطب بالعربية وتبلغ نحو العشرة منها « فصول موسى » في الطب. وقد قمت بترجمته الى الانكليزية تلبيةً لرغبة الجمعية الميمونية في نيويورك . ثم رسائل في السموم والبواسير وتدبير الصحة وغيرها

ومن طالع هذا الكتاب النفيس بلغته الفصيحة واسلوبه الرائع الآخذ وما ورد فيه من النصوص والادلة يتحقق من المجهود العظيم الذي بذله المؤلف في استقاء بحوثه وجمعها من مصنفات ومراجع متعددة في لغات مختلفة وقد ذكرها جميعاً باسهاب مما يثبت المامه التام بالفلسفة الاسلامية وسعة اطلاعه في الفرنسية والالمانية والانكليزية والعبرية وذكاء ونشاطاً وهمة توجب الاعجاب

الدكتور هلال فارحي

تراث الاسلام

لجنة الجامعيين لنشر العلم — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

أخرجت مطبعة اكسفورد من نحو خمس سنوات كتاباً نفيساً النفاسة كلها في «تراث الاسلام» تولى الاشراف على طبعه العلامتان السر توماس ارنولد رحمهُ الله والاستاذ الفرد غيّوم، وعهد في كتابة فصولهِ الى طائفة من اكبر المتوفرين على الدراسات الاسلامية في نواحيها المختلفة فكتب جب في الادب ونيكولسن في التصوف وغيّوم في الفلسفة والفقه وماكس مايرهوف في العلم والطب وكارادهڤو في الفلك والرياضة وارنولد في الفن الاسلامي وأثره في التصوير في اوربا وكرامرز في الجغرافية والتجارة وغيرهم في غيرها

وقد اقتنينا هذا الكتاب منذ صدر باللغة الانكليزية ، وعوّلنا عليهِ في غير بحث واحدٍ ، وكان من بواعث حيرتنا احجام كتابنا ومترجمينا عن نقلهِ الى العربية لا لان ما فيهِ جديد ، ولكن لانهُ يدلُّ على ما لمآثر الحضارة الاسلامية من المكانة في نفوس الذين توغلوا في دراستها في الغرب ولانهُ يجمع في فصول منظمة زبدة ما عرف عن تلك المآثر

من أول صفحة فيهِ الى آخر صفحة ، اسماء اعلامٍ في الطبقة الاولى بين اقطاب الفكر والفن في العالم. واذا اقتصرتَ على العلوم دون غيرها ، وهي ارث مشاع للامم، طالعتك اسماء باهرة مثل الخوارزمي والبتاني والبيروني والكندي والرازي وابن الهيثم والزهراوي وابن البيطار والغافقي. ان كوكبة كهذه الكوكبة من الرجال ، مما تباهي بهِ كلُّ امة في كل عصر . اما في الفن والادب والفلسفة والفقه والتجارة والجغرافية، فآثار الحضارة الاسلامية ماثلة امامنا في الخشب والرخام والنحاس والمساجد والقصور والشعر والمصطلحات الباقية واعلام الأماكن المشهورة

لذلك تلقينا نبأ العزم على نقل هذا الكتاب الى اللغة العربيـة فرحين مستبشرين . وكان لا بدَّ في الاقدام عليهِ من صدور فتية عامرة بالثقة والعزم لان ترجمة هذه الفصول من ادق ما يتعرَّض لهُ ناقل من اللغات الاعجمية الى العربية ولا سيما حيث يعرض المؤلفون لشرح المعاني الدقيقة في الادب والفلسفة. لذلك كانت لجنة الجامعيين لنشر العلم من خيرة الجماعات التي تتولى هذا العمل

وقد صدر حتى الآن جزآن من الترجمة العربية ، يحتوي اولها على المقدمة واربعة فصول تتناول اسبانيا والبرتغال . الحروب الصليبية . الادب . الفلسفة والالهيات . ويحتوي ثانيهما على ثلاثة فصول في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة . وقد تولى نقلهُ الدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية . والجزآن مطبوعان طبعاً متقناً في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

بحوث دستورية

١ — الأنظمة الدستورية والادارية والقضائية المقارنة : تأليف الدكتور عبد السلام ذهني بك والدكتور وايت ابراهيم — مطبعة الاعتماد

٢ — نظرات تاريخية دستورية : تأليف حسن صادق : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الدكتور عبد السلام ذهني بك المستشار والدكتور وايت ابرهيم الأستاذ بكلية الحقوق ، أشهر من أن يعرَّفا . فهما في كل ما يتعلّق بالشؤون القانونية من المراجع التي يعتمد عليها في مصر . وقد صحَّت نيتهما على اصدار مجموعة من الرسائل في الأنظمة الدستورية والادارية والقضائية المقارنة . وهذه رسالتهما الأولى وعنوانها « التطوُّرات الدستورية العالمية »

ان نظرة واحدة نلقيها على خريطة اوربا كما كانت قبل الحرب وكما هي الآن تبين لنا مدى التحوُّل الدستوري في ارجائها . فامبراطورية النمسا والمجر ، قامت على انقاضها جمهورية جديدة هي تشكوسلوفاكيا . اما النمسا فجمهورية اسماً ولكنها شبيهة بالدكتاتورية فعلاً . واما المجر فلا تزال مملكة بلا ملك ، ودستورية لا يحترم دستورها كلَّ الاحترام

والامبراطورية الالمانية انشئت جمهورية تعرف بجمهورية ڤيمار ثم تحوَّلت الى دولة يغلب عليها مبدأ الزعامة وهي دكتاتورية يمكن ان توضع وايطاليا في الفريق المعروف بدكتاتوريات اليمين ، حالة ان روسيا توضع في فريق دكتاتوريات اليسار

اما بولونيا التي انشئت بضم ما فرّق منها على المانيا وروسيا والنمسا قبلاً فقد انشئت جمهورية ، بسط عليها قبلاً المارشال بلسودسكي يد الدكتاتور ، وقد خلفهُ الآن الى حدّ ما المارشال سمجلي ردز

من النادر ان تجد في اوربا بلاداً لم يمسَّها هذا التحول في اساليب الحكم ونظمه . فاسبانيا الملكية تحولت جمهورية سنة ١٩٣١ وتداولتها ايدي احزاب اليسار المعتدلة ثم احزاب الوسط واليمين فأحزاب الجبهة الشعبية الى ان نشبت الحرب الاهلية . واليونان تقلبت من ملكية الى جمهورية الى دكتاتورية الى ملكية مراراً لا يمكن التثبت منها الاَّ بالرجوع الى المؤلفات الخاصة بذلك . والامبراطورية البريطانية اصبحت بقانون وستمنستر جامعة امم ، مقام المملكة المتحدة فيها في ظل التاج لا يختلف عن مقام كندا او استراليا او جنوب افريقية

هذا من حيث نظام الحكم ، اما من حيث قواعد الحكم الدستوري كتمثيل النساء ، والتمثيل النسبي ، والانتخاب المباشر وغير المباشر والاستفتاء وحق حلّ البرلمان وصلة السلطات المختلفة بعضها ببعض وغيرها من الاصول الدستورية ، فقد مسّتها التحوّل قليلاً او كثيراً بعد الحرب وقد عني المؤلفان الفاضلان بتفصيل هذه الشؤون تفصيلاً مقابلاً فأسديا بذلك مأثرة جديدة الى مآثرهما السابقة في تربيتنا السياسية

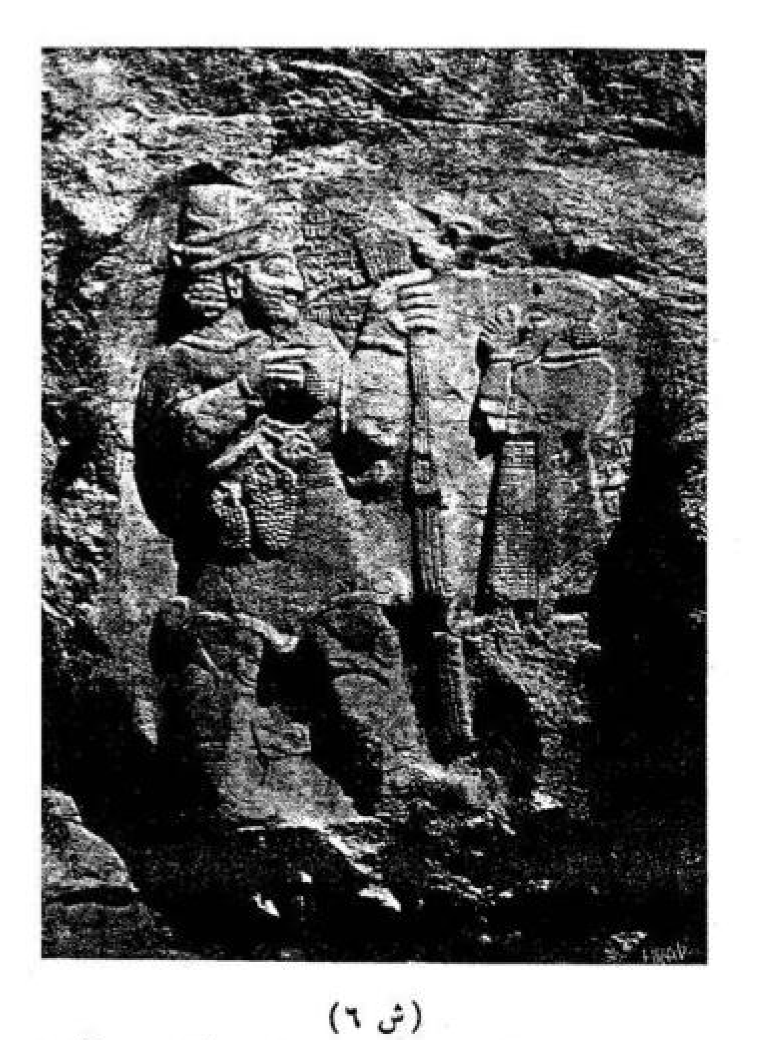
أما كتاب « نظرات تاريخية دستورية » فيشتمل على بحث في دساتير المانيا والنمسا وتشكوسلوفاكيا . والبحث في دستور المانيا يستغرق نحو نصف الكتاب . ففي أوله ملخص جيد للدستور الالماني الذي ظلّ نافذاً الى ثورة ١٩١٨ ويليه بحث في الحوادث التي سبقت دستور جمهورية فيمار الجديد ثم بحث في خصائص هذا الدستور وقواعده . وحبذا الحال لو أضاف المؤلف فصلاً ولو موجزاً عن خصائص نظام الحكم القائم في المانيا الآن حتى يستتبّ للقارىء فهم التحوّل من جمهورية فيمار الى الريخ الثالث

وما يقال عن المانيا يقال عن النمسا ، فبحث المؤلف وافر في قواعد دستور جمهورية النمسا ولكن منذ وضع هذا الدستور على الرفّ واصبح دلفوس بمثابة الحاكم بأمره ، ونكّل بالاشتراكيين — مع أن « من يتصفح الدستور النمسوي يشعر خلاله بالأثر الاشتراكي لان الاشتراكيين في النمسا كما في غيرها من البلدان كانوا يميلون الى اضعاف السلطة التنفيذية ووضع السلطان في يد مجلس نيابي يمثل ارادة الشعب عام التمثيل » — واقام الدولة على اساس نقابي اوفاشستي ثم بعد مصرعه حذا خلفهُ الدكتور شوشنج حذوهُ

اما دستور تشكوسلوفاكيا فيختلف عن دستور جمهورية المانيا وجمهورية النمسا ، في انهُ لا يزال نافذاً وقد احاطتهُ رآسة ماساريك بسياج من التقاليد العالية ، وتشكوسلوفاكيا لا تزال جمهورية حقيقية على الرغم من قيامها عند ملتقى التيارات الاوربية المتناقضة . وامل الاحرار ان تبقى رافعة علم الديمقراطية في اوربا الوسطى والشرقية

***

وليس ثمة ريب في ان الحياة الدستورية النيابية تقتضي من جميع المشتغلين بالشؤون العامة عندنا الاطلاع على خصائص النظم الدستورية والنيابية في البلدان المختلفة . وفي هذين الكتابين مرشد لمن يبغي الاطلاع وتمهيد لمن يريد التوسّع والتوفر



(ش ٦)

نقش حثي نافر على الصخر يمثل اله النباتات القروي كما فهم من الكتابة المحفورة قبال وجهه وهو يحمل بعناقيد العنب . وقد أمسك بيده اليمنى سنابل الحنطة ووقف امامهُ ملك كبير وقفة التضرع والابتهال



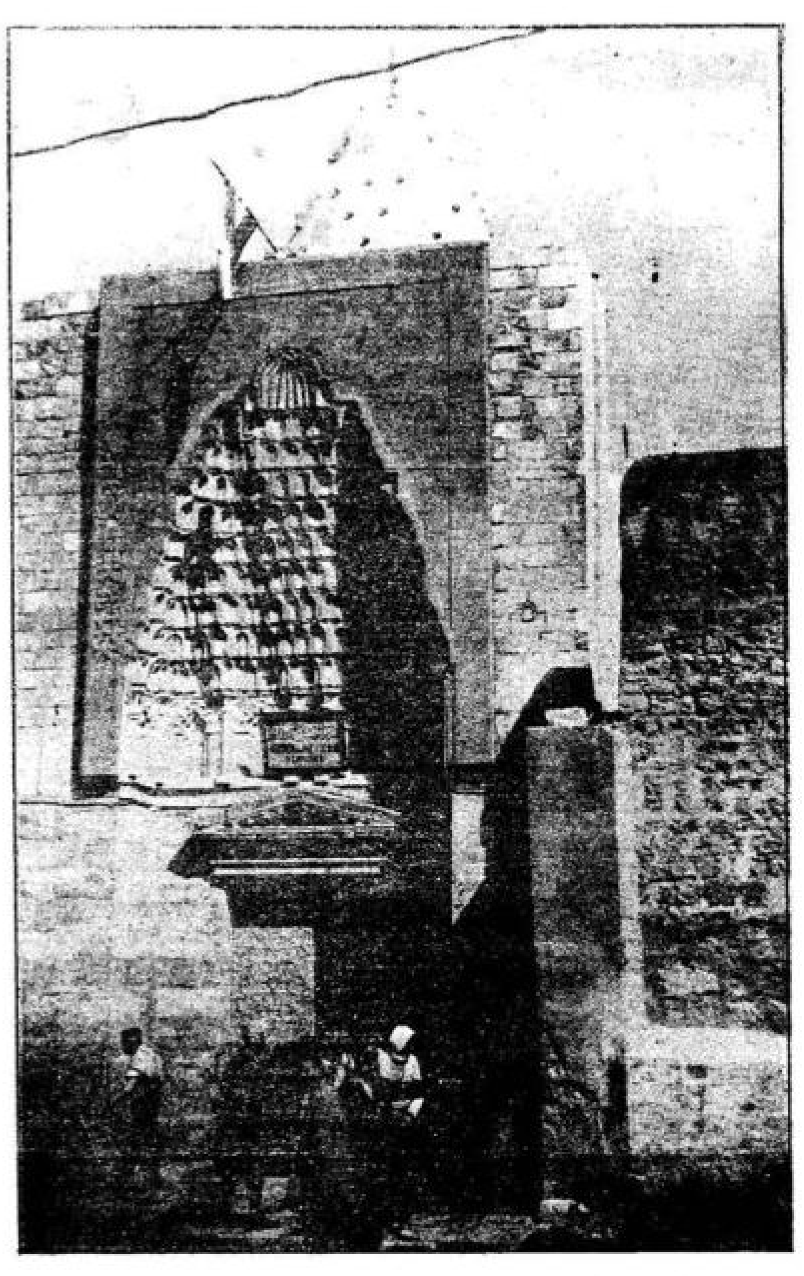
(ش ٤)

الكتابة الهيروغليفية الكبيرة المكتشفة في كركميش وهي تعد من ارقى انواع الكتابات الحثية وترتقي الى القرن العاشر ق. م. وهي اليوم في المتحف البريطاني



(ش ٨)

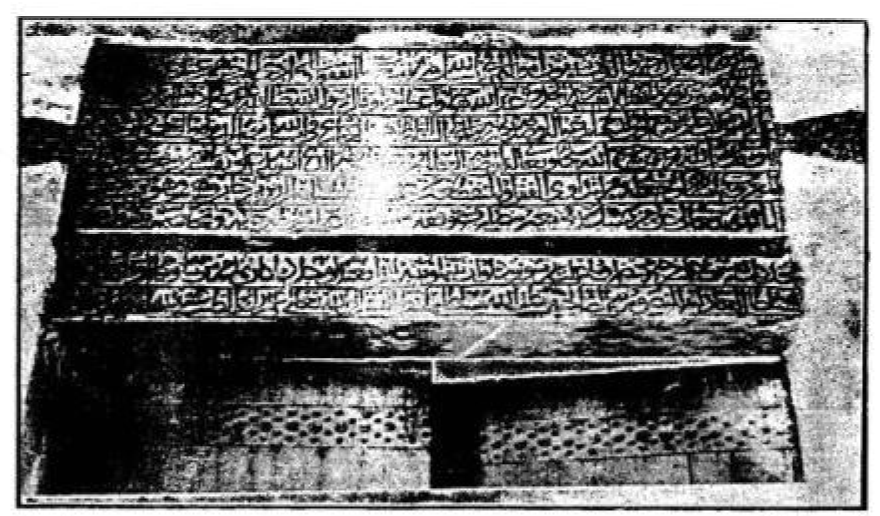
حجر بارز النقش الحجم (٩٤ر. × ٢٧ر١ × ٩٣ر. × ٢٧ر١ × متر) اكتشف في قلعة حلب عام ١٩٣٠ ونقل الى متحفها عليه معبودان مجنحان يرفعان على قبضتيهما قرص الشمس داخل هلال وتدلّ هيأتهما على انهما يحلقان به في اجواز الفضاء وهو من الآثار الحثية التي تغلّب عليها تأثير الفن الميتاني



تصوير الدكتور سامي حداد

مدخل المارستان النوري الكبير في دمشق

(انظر مقال المارستان النوري الكبير صفحة ٢٠٦)



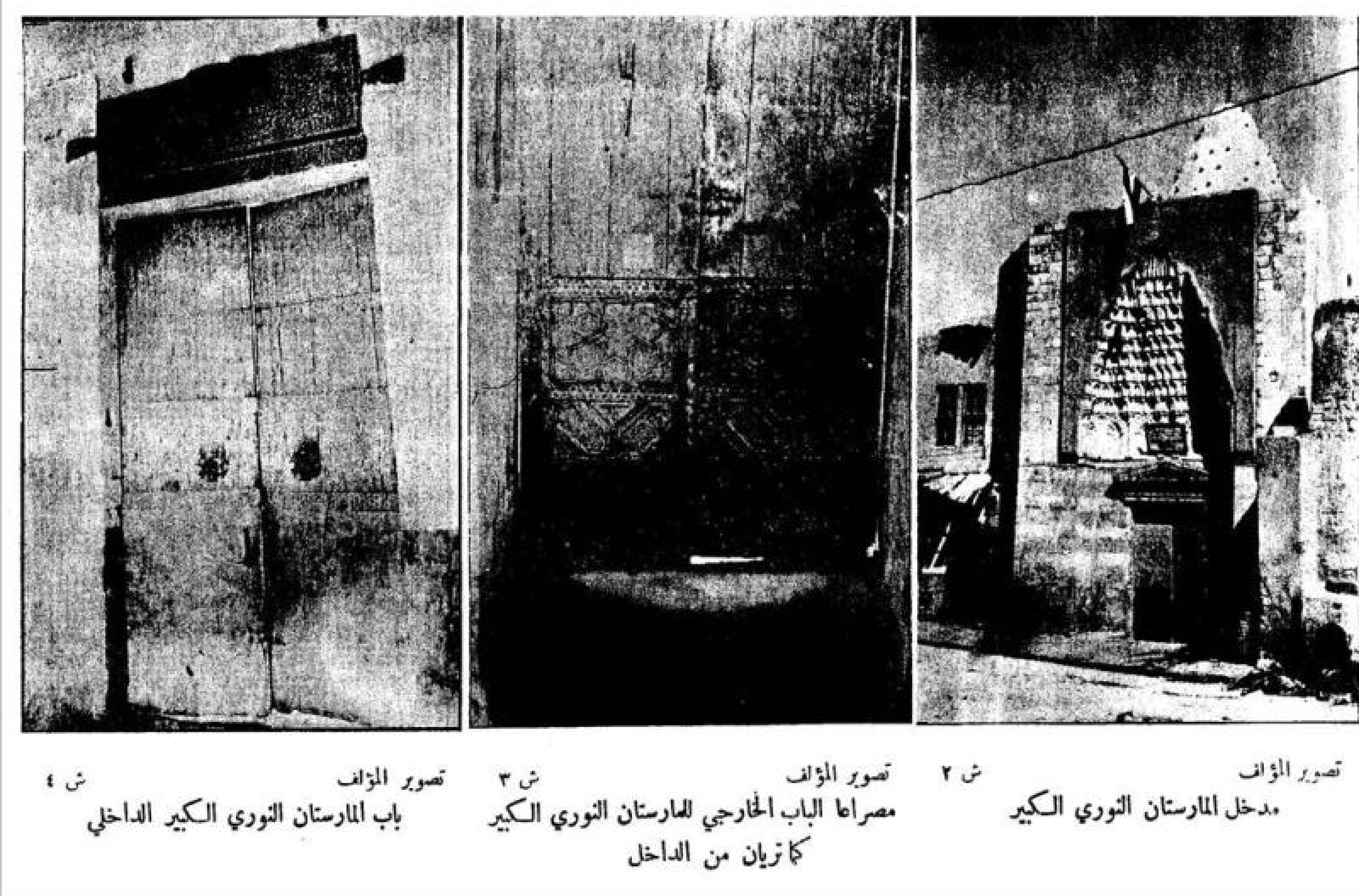
تصوير المؤلف — ش ٥

اللوحة الرخامية فوق الباب الداخلي للمارستان النوري الكبير



تصوير المؤلف — ش ٦

زاوية الديوان الشرقي في المارستان النوري الكبير



تصوير المؤلف — ش ٢
مدخل المارستان النوري الكبير

تصوير المؤلف — ش ٣
مصراعا الباب الخارجي للمارستان النوري الكبير
كما تريان من الداخل

تصوير المؤلف — ش ٤
باب المارستان النوري الكبير الداخلي



اوجين اونيل

(حائز جائزة نوبل الادبية ١٩٣٦)

منتطفات الجدول

إلهي — تحت جنح الظلام

نقلها جورج نيقولاوس



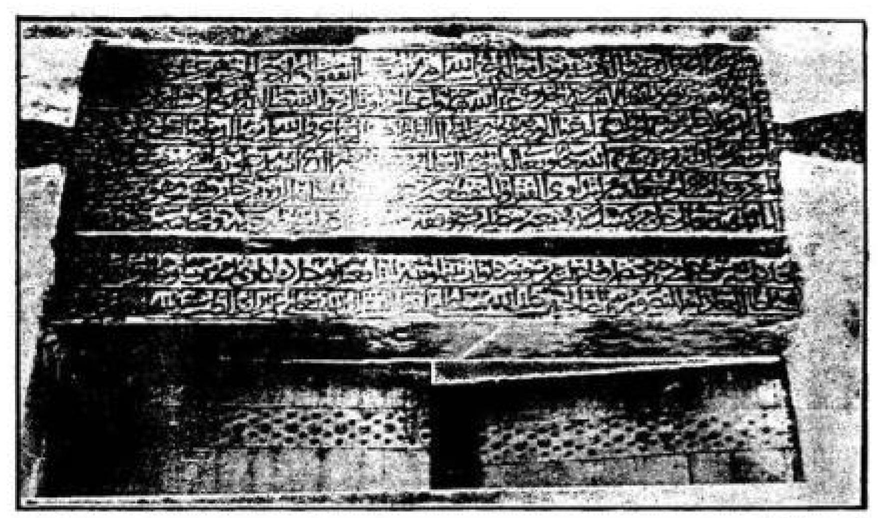
هبوط العقوبات

روسيا وخصومها

لحنا خباز

قوى الدفاع الاوربية

اقسامها وقوتها وطرق تنظيمها



تصوير المؤلف — ش ٥

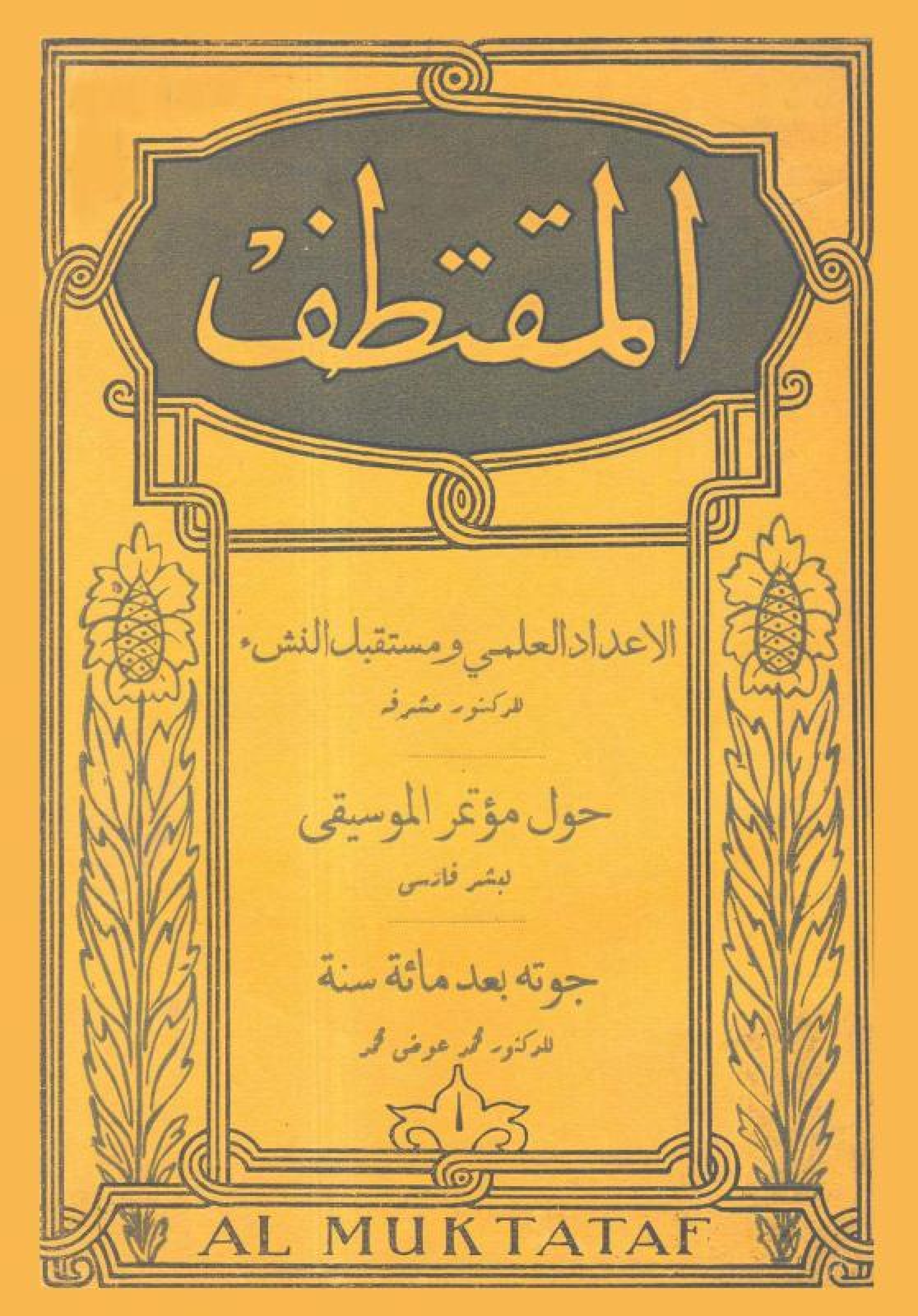
اللوحة الرخامية فوق الباب الداخلي للمارستان النوري الكبير



تصوير المؤلف — ش ٦

زاوية الديوان الشرقي في المارستان النوري الكبير

فهرس الجزء الثاني من المجلد التسعين


المقتطف
الاعداد العلمي ومستقبل النشء
للدكتور مشرفة
حول مؤتمر الموسيقى
لبشر فارس
جوته بعد مائة سنة
للدكتور محمد عوض محمد
AL MUKTATAF





الجزء الثالث من المجلد التسعين

١ مارس سنة ١٩٣٧ ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٥٥

على ذكر فتوى

تحديد النسل

وآثاره الصحية والاجتماعية والدولية

أصدر حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية في يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٣٧ فتوى في هذا الموضوع لخصتها جريدة « المصري » في عددها الصادر في ٢ فبراير في ما يلي : —

« من أرباب العائلات الكبيرة بين المسلمين وغير المسلمين أفراد كثيرون يشعرون بوطأة الازمة الاقتصادية ويخشون المستقبل ونفقات الأبناء من طعام وشراب وتعليم وقد دفعهم هذا الشعور الى التفكير الطويل في الحذر والحيطة ومن الأمور الجوهرية التي فكّر فيها هؤلاء مسألة تحديد النسل فمن كان عنده ثلاثة من الأولاد مثلاً يلاقي الويل لكي يجعل منهم شباناً صالحين في بناء الوطن ولكن أغلبية هؤلاء جميعاً يعرفون ان لهم ديناً قيماً يريدون التوفيق بين نصوصه وتعاليمه وبين هذه المبادىء القاسية

«والى الآن لم يخط أحد من رجال الاسلام في السنين الأخيرة خطوة تشفي غليل هؤلاء جميعاً وتحدد الموضوع تحديداً واضحاً للأهالي والأطباء . وقد اتصل بنا ان حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية أصدر في يوم ٢٩ يناير الماضي فتوى خطيرة في هذا الموضوع يفهم منها :

" أولاً — يجوز لكل من الزوجين أن يتخذ من الوسائل ما يحول دون حمل زوجته

« ثانياً — يجوز لكل من الزوجين قبل نفخ الروح في الجنين ، وهذا يحتاج الى عدة أسابيع كما قرر الاطباء أن يتخذ من وسائل الادوية (من غير اضرار بصحة الزوجة طبعاً) ما يمنع الحمل عند وجود عذر مقبول كما مثل لهُ وهذا على راي بعض الفقهاء

« ثالثاً — باجماع الفقهاء لا يجوز عمل او تصرف من شأنهِ اسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيهِ

***

ونحن لا نعرض للموضوع من حيث علاقتهُ بدين من الاديان السموية لان المقتطف مجلة غير دينية ، ولا من حيث تطبيقهُ في هذه البلاد أو غيرها من البلدان ، لان مشكلة السكان والحث على زيادتهم كما في المانيا وايطاليا او ترك حبلهم على الغارب كما في فرنسا وانكلترا وغيرهما، من الخطط التي تقرّرها بعض الحكومات متى رأت الحاجة تلجئها الى ذلك . ولكن للموضوع نواحيهُ الصحية والاجتماعية والدولية ، وهي النواحي التي نبغي ان نعالجها بإيجاز في هذا المقال ، وليس لنا فيهِ الا جمع شتات الموضوع من مختلف الكتب والمجلات ، جمعاً حاولنا ان نحفظ فيهِ التوازن بين اصحاب الآراء المختلفة والمذاهب المتناقضة

ان الحركات الاجتماعية الخطيرة في تاريخ ارتقاء العمران تنبعث في الغالب عن دافع نفسي يملك مشاعر الانسان فيأخذ على العقل سبيل التفكير المجرّد . فهي آناً حركات يولدها ويمنها في سبيل التنفيذ حمية دينية كالصهيونية او شعور بحق مهضوم كالثورة الفرنسية اوتصوّر رفيع للمثل الأعلى ينبثُّ في جوانب النفس يدفعها في سبيل تحقيقهِ غير ملتفتة الى ما ينالها من أذى واضطهاد كالاشتراكية وما اليها . على ان حركة تحديد النسل تختلف عن هذه الحركات الاجتماعية في انها تنبع من معرفة علمية بوجود مخاطر صحية وسياسية واقتصادية تنجم عن كثرة النسل وتواليهِ يجب اجتنابها ، مع انها في دورها الأخير تحوّلت تحوّلاً كبيراً لما نالهُ اصحابها من مقاومة واضطهاد وسجن وغرامة ولكن اساسها العلمي يجب ان لا يغفل حين بسط مبادئها والالمام بسير اقطابها

وفكرة تحديد النسل ، ترتدُّ كفكرة اجتماعية الى مفكري اليونان الاقدمين بل والى ما قبل اليونان! اذ من المعروف ان القبائل التي لا تزال الى عصرنا الحاضر تعيش على البداوة تميل احياناً الى تحديد النسل بوسائل وأساليب فظة همجية اشهرها قتل الجنين او الطفل الوليد . وقد ذكر پرسي سمث في مقال لهُ عن سكان جزيرة هورن في غرب المحيط الهادىء نشر في جورنال الجمعية البولينيزية انهُ ليس من بواعث خجل المرأة هناك ان تقتل وليدها وان هناك غير امرأة واحدة قتلت من ولدها ستة . ومن وسائلهم سحق الجنين بضغط جسم المرأة حيث الرحم بحجارة ثقيلة. وقد اشار الاستاذ كار صوندرز في مؤلفه « مشكلة السكان » الى ان قبائل بدائية مختلفة تعلم كيف تمنع الحمل وان ولدها قليل ، ولكنهُ لم يبسط الكلام في هذه

الوسائل . والكتب التي تعالج هذا الموضوع وتفصل التقاليد المتبعة في القبائل الهمجية كثيرة . اما في عهد اليونان فقد ذكر فلوطرخس مؤرخ العظماء الأقدمين ان ليكرغوس مشترع سبارطة قضى بقتل جميع الأطفال الضعاف البنية رغبة منهُ في تنشئة شعب قويّ . وأدرك افلاطون وارسطوطاليس الخطر الناجم عن كثرة الولد ، وخصوصاً من كان منهم في الأسرة الضعيفة فاقترحا اساليب متطرفة مختلفة لاجتنابه . ولكن طائف النسيان طاف بهذه الفكرة في القرون الوسطى كما طاف باكثر الآراء التي ابتدعتها عقول اليونان وخيالاتهم . حتى بعد نهضة العلم والفن في العصور الحديثة ظلّت «كثرة النسل» شعاراً لأمم اوربا لان المفكرين حينئذٍ كانوا يرون عظمة كل امة وتفوقها مرتبطين اوثق ارتباطٍ بعدد سكانها ، ولم يشذَّ منهم الا اللورد باكون الفيلسوف الانكليزي الذي اشار اشارات متفرقة في مؤلفاته الى خطر النسل الكثير في اضعاف الشعب وافقاره . وظلّ القول بأن قوة الأمة الحربية وتفوقها القومي مرتبطان بكثرة سكانها حتى القرن التاسع عشر ، لما قام مونتسكيو في فرنسا وبنيامين فرنكلن في اميركا وغيرهما في بلدان اخرى محاولين ان يبعثوا آراء افلاطون وأرسطوطاليس من مدفنها مبينين ان في سرعة ازدياد النسل في أية أمة خطراً على رفاهيتها

ذلك انهُ اذا زاد عدد السكان في بلد من البلدان زاد عمرانهُ ولكن الى حدٍ ما . لان كثرة الناس في البلاد تؤدي الى اتساع نطاق العمل والعناية باستنباط ثروة الارض ورفع مستوى المعيشة . لذلك تعنى الحكومات التي تحكم بلداناً مترامية الاطراف قليلة السكان بدعوة الناس الى الهجرة اليها وترغيبهم في ذلك . ولكن لا يلبث ازدحام السكان ان يبلغ حدًّا تصبح الزيادة بعدهُ خطراً على البلاد لانها تخفض مستوى المعيشة بدلاً من ان ترفعهُ . ويكثر طلاب العمل حتى يزيدوا على ما تتسع لهُ المعامل والمتاجر . فتروج بينهم مبادىء الشيوعيين والفوضويين ويكون المرتع خصباً او يتجهون الى التوسع والتبسط بالقوة فتكون الحروب واهوالها . وقد يتعذر تعيين هذا الحدّ الفاصل بين الحالين . لانهُ يختلف باختلاف البلدان وما بلغتهُ من الرقي الصناعي والتجاري والزراعي . فبلاد في عرف الكنديين تحسب غاصة بالسكان يحسبها الصينيون قليلتهم لان هؤلاء تعودوا ان يروا ٤٠٠ نفس او اكثر مزدحمين في بقعة من الارض مساحتها ميل مربع او اقل

وعلى الرغم من ذلك اجمع علماء الاجتماع والاقتصاد على وجود هذا الحد في احوال معينة فيبلغ عدد السكان عنده مبلغاً يمكنهم من التمتع بأرقى وسائل العمران وأعلى مستوًى اقتصادي في معايشهم . وهذا العدد يتغير في كل بلاد بتقدم الحضارة فيها . فلو ان سكان الولايات المتحدة الاميركية كانوا منذ مائة سنة ١٣٠ مليوناً — كما هم الآن — لما كان ملاك الثروة والرخاء مرفرفاً فوقهم كما هو مرفرف الآن وما نسمع عنهُ من كثرة العمال المتعطلين عن العمل بينهم يرتدُّ الى سوء توزيع الثروة لا الى

شدة ازدحام البلاد بابنائها . وبلجيكا التي تكاد تغص بسكانها اكثر رخاءً من بلاد فارس . مع ان ٦٥٩ نفساً من سكان الاولى يقطنون في ما مساحته ميل مربع واحد من الارض يقابلهم ١٦ في الثانية

فاذا كانت البلدان المزدحمة بالسكان غير منتظمة انتظاماً اقتصاديًّا دقيقاً وعرضة في كل آن لانقلابات سياسية خطيرة لم يشعر الشعب شعوراً عامًّا بازدحامه ووجوب توسعهِ . لانهُ لا يجد متسعاً كافياً من الوقت للانصراف الى العمل وادراك ان نطاق العمل في بلادهِ لا يتسع لجميع افراد الامة لكثرتهم . فاذا انتظمت هذه البلدان وامتدَّ فوق ربوعها رواق السلام والطمأنينة أدرك أفراد الشعب ان الارض لا تتسع لهم ليجنوا من عملهم فيها ما يؤهلهم لمكانة بين الشعوب كمكانة جيرانهم فينظروا نظرة الطمع الى البلدان التي يمكن ان تكون منفذاً لهم

فايطاليا مثلاً لما وجدت نفسها تكاد تنفجر من كثرة السكان بالقياس الى موارد العيش فيها طلبت أرضاً تجعلها منفذاً للملايين من أبنائها وقد قال السنيور موسوليني في ذلك «يجب على ايطاليا ان تتوسع والاَّ انفجرت» ولعل هذه الفكرة هي أقوى العوامل التي كيفت سياسة ايطاليا الخارجية في السنوات الاخيرة . وما يصدق على ايطاليا من هذا القبيل يصدق على المانيا واليابان

وقد كتب أحد الفلاسفة الاجتماعيين المحدثين كتاباً قال فيهِ ان الاتجاه من البلدان المزدحمة بالسكان الى البلدان قليلة السكان وما ينشأ عن ذلك من التصادم اكبر باعث على الحرب

ولكن القول بتحديد النسل في العصور السابقة ظلَّ يتراوح بين الموت والحياة حتى جاء الأب «ملثوس» في آخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨) مبيّناً ان السكان يزدادون زيادة هندسية . وأما المواد الغذائية فلا تزداد الاَّ زيادة حسابية . ولذلك لا بدَّ ان يجيء يوم يبلغ فيه سكان الأرض عدداً لا تكفي مواردها لتغذيتهِ . وأودع رأيهُ هذا كتابهُ الذي موضوعهُ «رسالة في مبادىء السكان» . ولما كان نشر هذا الكتاب موافقاً لذيوع المبادىء التي قامت عليها الثورة الفرنسية عني بهِ المفكرون والكتّاب فراج في فرنسا وأخذ بمبادئهِ اشرافها وعامتها ، وذلك لأن وسائل مختلفة كانت قد استنبطت فيها لمنع الحمل وذاعت بين طبقة الأشراف ، ولان عامة الأمة الفرنسية اقتنعت بوجوب الاكتفاء بالاسرة الصغيرة منعاً لتقسيم الارض التي يملكها الأب على أبنائهِ ، وهذا يعلل تناقص متوسط المواليد في فرنسا من ذلك الحين . على ان وسائل منع الحمل لم تكن معروفة خارج فرنسا ولذلك أشار الاب ملثوس «بالامتناع عن الزواج» أو «تأخير الزواج» لمنع ازدياد النسل ازدياداً سريعاً . وجاء بعدهُ فريق النفعيين الذين جعلوا شعارهم «الخير الاكبر للعدد الاكبر» فدعوا الى تحديد النسل . ومع ان مذهب ملثوس في ازدياد النسل وازدياد الغذاء قد قلب رأساً على عقب بعد الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر ، ظلت النتائج التي وصل اليها عن الخطر الاجتماعي الناجم عن كثرة النسل سليمة على قدَمها وتقلب الاحوال عليها

ولا يخفى ان آراءنا في الفضائل الاجتماعية تتغير بتغير العصور . فالمرأة التي كانت في فجر التاريخ، تعترض على قتل ولدها ،في قبيلة جرت على ذلك، كانت امرأة غير فاضلة في عرف أقاربها وجيرانها . كذلك كانت كل امرأة اسبرطية تحاول ان تقي ابنها الضعيف من الشدائد التي كان يعرض لها لاثبات قوته وحقه في الحياة كاسبرطي . فالفضيلة كانت ، عمل ما يصدر عنهُ الخير للمجتمع ، ولم يكن من خير سكان جزيرة ، او ابناء قبيلة رحالة ان يكثر نسلهم ، كما انهُ لم يكن من خير إسبارطة ان يكون بين أبنائها ضعاف او هذا كان رأي أقطابها حينئذٍ

ولما ارتقى العمران حل محل قتل الاطفال وسائل مختلفة للاجهاض كان لها مكانها في الفضيلة الاجتماعية في تلك العصور . فلما ذاعت تعاليم المسيحية التي تقول بأن كل نفس قابلة للخلاص صار من الاجرام قتل النفس ، ولذلك أصبح الاجهاض كقتل الأطفال جريمة لا تغتفر . أما دعاة تحديد النسل فيعترفون بوجوب الامتناع عن قتل الاطفال او اجهاض الأمهات ، لان الاول في عرفهم اجرامٌ صريح والثاني علاوة على ما فيهِ من اجرام يعرض الأم للالم المبرح وخطر الموت . ولذلك ينادون بوجوب منع الحمل بطرائق ثبت خلوها من اي اعتراض طبي او صحي او اجتماعي عليها . أما البراهين التي يوردونها لتأييد دعوتهم فكثيرة نلخص منها ما يلي :

يرى بعض الثقات في موضوع الولادة وأمراض النساء وجوب انقضاء سنتين الى ثلاث سنوات بين ولادة وأخرى حتى لا تتعرض صحة الأم للخطر . واليك ما تقولهُ سيدة حالتها تمثل ألوف الحالات : « لا أزال في الثانية والعشرين من عمري ولكنني أم خمسة أولاد فقد ولدت ولداً كل سنة من حين زواجي الى الآن . لن أستريح قط وأشعر ان صحتي آخذة في الانحطاط يوماً بعد يوم » . وكتبت أخرى : « أنا اليوم أم ستة أولاد وقد أجهضت مرتين . عمر ابني الكبير اثنتا عشرة سنة ولكنهُ مصاب بعاهة منذ ولادته اما أولادي الخمسة الباقون فضعاف صفر الوجوه وعلي أن آخذهم للطبيب كثيراً واحدى ابنتيَّ عوراء . لقد حاولت أن أبتعد عن زوجي قدر المستطاع منذ ولادة ابني الأصغر ولكن ذلك يؤدي الى ما لا تحمد عقباهُ في سلام البيت وهناءته» . وهذان المثلان نقلناهما عن مجلة هاربرز الاميركية . وقد أثبت الدكتور ادلفوس نُف من أطباء مدينة نيويورك ان آخر المواليد في الأسر الكبيرة يكونون أضعف المواليد بنية واكثرهم تعرضاً للاصابة بالسل . وعندهُ ان الام تكون قد أجهدت صحتها في الولادات الاولى فتورث ولدها الأخير — أو أولادها — ارثاً فسيولوجيًّا ضعيفاً لا يمكنهم من مقاومة الآفات الصحية . أضف الى ذلك ان ازدياد الاولاد يقلل نصيب كلٍّ منهم من دخل رب الاسرة. فتضطر الأسرة ان تسكن في احياء قذرة مزدحمة لا تدخل الشمس بيوتها وان تكتفي بالطعام الرخيص وبالكساء الذي لا يقي البرد . ومن رأي الرئيس هوفر ان كل طفل أميركي لهُ الحق في ان يتلقى من والديه

جسماً سليماً وعقلاً سليماً وان يولد في وسط صحي تتوافر فيه أسباب العناية » . ويضيف الى ذلك احد رجال الكنيسة في اميركا « ان الاسرة الكبيرة في الطبقات الفقيرة ليست من ارادة الله ولكنها من خرق الاجتماع ». ويقول الحاخام ستيفن وز اكبر رجال الدين اليهودي في اميركا : « ان الموقف الديني ازاء الحياة لايقضي باكثار النسل اذا لم يكن في وسع الوالدين ان يعطوا كل ولد من العناية الصحية والتهذيبية مايجعل للحياة قيمة في عينيه »

اذاً تحديد النسل يفيد الامّ ، لانهُ يمكنها من ان تحتفظ بصحتها ونضارتها ، وهذا يمكنها من العناية بشؤون دارها وزوجها وأولادها والقيام على تربيتهم وتهذيبهم بما يقتضيه ذلك من العناية الدقيقة المستمرة والنصب الدائم. وهو كذلك يفيد الاولاد ، صحيًّا واجتماعيًّا ، اما صحيًّا فلانَّ الطفل الذي يولد من امّ قوية ليس كالطفل الذي تلدهُ امٌّ أنهكتها آلام الحمل والطلق والولادة . واما اجتماعيًّا فبتوافر وسائل الغذاء والكساء والتعليم والتهذيب

وهو كذلك يفيد الاجتماع اذ يستطيع المصاب بمرض وراثي ان يكفي ميولهُ في نطاق الزواج الشرعي من غير ان يكون سبباً في ولادة اولاد مشوهين او مصابين بامراض يقولون قول المعرّي

هذا جناهُ ابي عليّ وما جنيت على احد

وهو يفيد الاجتماع من ناحية اخرى هي الناحية السياسية فيساعد على منع الحروب بين الامم الكثيرة الولد التي تطلب التوسع لتجد لسكانها ميداناً يعملون فيه ويرتزقون منهُ وهذا التوسع يؤدي في الغالب الى اصطدام المصالح الدولية ويفضي الى الحرب او يهدد بوقوعها . وقد قال الواعظ الاميركي الشهير الدكتور فزدك « لاتستطيع ان تضع ثقتك بالرب وتنام خالي البال اذا سمحت لسكان الارض ان يتضاعفوا كل ستين سنة »

اما نقاد هذه الحركة فيرون رأي اصحابها في الشرور الصحية الكثيرة التي تنجم عن كثرة الولادة ، ولكنهم يرون « ضبط النفس » لا « تحديد النسل » خير سبيل لمعالجة الحال . على ان هذا ، في رأي الفريق الاول متعذر ، حتى ولو اتفق الزوجان على تحقيقه لان العلم لم يكشف حتى الآن عن وقت معين لايحدث فيه الحمل الا في اثناء الحمل . فاذا شاء الزوجان ان لايلد لهما ولد الا مرة كلّ ثلاث سنوات أفيعقل ان يكون « ضبط النفس » حينئذٍ وسيلة لمنع هذه الشرور ! ويرى طبيب من مقام الدكتور وليم الن بيوزي رئيس الجمعية الطبية الاميركية ان محاولة تقليل عدد الاولاد « بضبط النفس » يعرض السعادة الزوجية للاصطدام على صخرة ناشزة الانياب. ومما يقال في نقد هذه الحركة ان وسائل تحديد النسل تؤذي الانسان وتسبب العقم . ولكن الاطباء الذين بحثوا هذا الموضوع بحثاً استقرائيًّا يؤكدون ان استعمال الوسائل التي اقرَّها الاطباء لا تحدث شيئاً من الاضرار المشار اليها . الاّ ان هذا الرأي الاخير مختلف فيه بوجه عام

ويعترض فريق آخر من النقاد بقولهم ان شيوع وسائلها يكون مقدمة لفساد الآداب الجنسية وانحلالها . ولكن الدكتور بيوزي يرى ان الحالة الحاضرة أبعث على فساد الآداب الجنسية لانهُ يعتقد ان الجهل بوسائل تحديد النسل يفضي الى كثير من الاضطرابات العائلية فيبحث الرجال عن طريقة غير مشروعة لاكفاء ميولهم

على ان اقوى حجج المقاومين هي اثر شيوع هذه التعاليم في الشبان والشابات . وهذه الحجة تمنع طائفة كبيرة من المتعلمين عن تأييد هذه الحركة ان لم نقل انها تحملهم على مقاومتها . فيرد انصارها عليهم بقولهم ان علماء السيكولوجيا قد أثبتوا ان النواهي لا تحمي حمى الفضيلة والآداب . ويجب ان نبحث عن طريقة اخرى كالتربية الصالحة نعلّم بها الاحداث الاعتصام بالفضيلة الجنسية غير النهي والمنع . أضف الى ذلك ان دعاة هذه الحركة يريدون ان يشجعوا الشبان والشابات على الزواج الباكر بازالة اكبر موانعه وهو الخوف من كثرة الاولاد التي تضعف المرأة وترهق جيب الرجل . ويرون ان الزواج الباكر أفضل الطرق لمحاربة هذه الشرور الاجتماعية

اما دعاة هذه الحركة فقد نالوا من المقاومة والاضطهاد ما ينتظر لكل حركة تناقض اغراضها ما تواضع عليه الناس قروناً متوالية واحلوه في نفوسهم وعقائدهم في المحل الاقدس. واشهر هؤلاء رتشرد كارليل (١٨٣٠) وفرنسيس پلايس (١٨٣١) وروبرت وايل اون (١٨٣٢) والدكتور نولتن وجميعهم من المؤلفين الذين عنوا بوضع كتب في الموضوع من وجوهه الفسيولوجية والاجتماعية والفلسفية . وفي سنة ١٨٥٤ نشر الدكتور جورج درسديل كتاباً عنوانهُ اصول العلم الاجتماعي بسط فيه الملتوسية (نسبة الى الاب ملتوس) الجديدة ثم انشأ بالاشتراك مع اخيه وحنة بزانت رائدة الفلسفة الثيوصوفية عصبة لبث هذه التعاليم . وفي سنة ١٨٧٦ قبض البوليس على بائع كتب لبيعه نسخاً من كتاب الدكتور نولتن المدعو ثمار الفلسفة . فأعاد الدكتور برادلو وحنة بزانت نشر الكتاب وتقدما للمحاكمة سنة ١٨٧٧ فحكم المحلفون عليهم على الرغم من ميل القاضي للاخذ بأدلتهم فكانت هذه الحادثة وسيلة لاذاعة التعاليم الملتوسية الجديدة ومن ثم اخذت « العصبة الملتوسية الجديدة » تقوى وتمدُّ آثار دعوتها الى انحاء الكرة الارضية وأنشئت لذلك جريدتان في انجلترا . واسست فروع للعصبة في مختلف البلدان . وقد عقد اتحاد هذه الفروع مؤتمرات دولية اولها في باريس سنة ١٩٠٠ ثم في لياج سنة ١٩٠٥ ثم في الهاي سنة ١٩١٠ ثم في درسدن سنة ١٩١١ ثم في لندن سنة ١٩٢٢ ثم في نيويورك سنة ١٩٢٥ . اما تاريخ هذه الحركة في اميركا فيختلف قليلاً عن تاريخها في انكلترا لان الاميركيين كانوا اشد وطأة في مقاومتها وقد سنوا لذلك قانوناً يقضي على كل من يرسل رسالة بالبريد تحتوي على وصف وسائل تحديد النسل بغرامة الف جنيه وسجن خمس سنين . وأشهر القائمات بهذا العمل في اميركا السيدة مرغريت سانجر التي استنبطت لفظتي « تحديد النسل » لوصف اغراض الحركة سنة ١٩١٤

من الشعر الثائري

في جبال بافارية

مَنْ لِقلبي المُشْتاقْ
ما دَرى ما يَشْتاقْ
نازعَتْهُ الأهواءْ
وَهْوَ مسلوبُ الرَّجاءْ

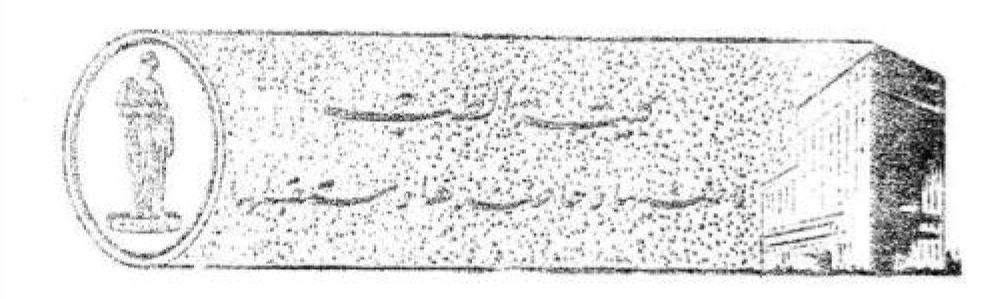
مَن لِهزّاتِ الجَناحْ
جاذبَتْهُ الأرواحْ
ذَكَرَ العصْفَ فَناءْ
بتهاويلِ الفناءْ

يا لَشوقٍ خفّاقْ
أعْوَزَتْهُ الآفاقْ
شفَّ جَنْبي المِسماحْ
مستبدًّا واستراحْ

يا حنينَ العذراءْ
صدَّهُ زُورُ الحياءْ
فروى غُلَّ العناقْ
من ضلوع تُهراقْ

مَن لِقلبي المشتاق

اغسطس ١٩٣٥ بشر فارس



للدكتور علي ابراهيم باشا
عميد كلية الطب ووكيل الجامعة المصرية ومدير مستشفياتها

١ — الماضي

لعله لا يوجد في كثير من البلدان والجامعات معهد ككلية الطب في مصر مرّت عليه صروف الزمان ما بين رفع وخفض وتردّدت فيه لغات مختلفات ما بين ضاد وغير ضاد . ولا كمثله معهد صمد للحوادث فأدى للوطن والانسانية رسالة صيغت من جوهر العلم في اطار من الاخلاص بل ولا كمثله في مصر معهد توطدت بفضل الله الآن أركانه وثبت بنيانه وقد عمت به على كرّ العشي ومرّ السنين خير التعاليم والتقاليد

كلوت بك ومحمد علي الكبير

من مائة عام وأثنى عشر عاماً هبط مصر طبيب شاب من أبناء بلدة مونبيليه بفرنسا شاءت المقادير أن يجيب دعوة محمد علي جد فاروق الأكبر في أوائل سني حكمه وأن يغامر بمستقبله في مصر بلد الآثار والعجائب التي كانت ذكراها لا تزال حية في قلوب الفرنسيين وأفكارهم بما حمله نابليون وعلماؤه من أوصافها وجمالها

هذا الطبيب الشاب — أنطوان برتلمي كلوت — الذي اشتهر باسم كلوت بك يقف في التاريخ بجانب سيده — على الرغم من قصر هامتيهما — كعملاقين بين الرجال أمكنهما تغيير صفحة الطب في هذه البلاد تغييراً عظيماً بعد أن بلغ الحضيض في عهد المماليك حتى كأنما لم تكن معابدها مصر ومعاهدها المهد الذي فيه نشأ ونما وترعرع أيام طيبة ومنفيس وهليوبوليس واسكندرية والقاهرة في عهد الفراعنة والبطالسة والعرب

جاء كلوت بك مصر والكوليرا تفتك بالألوف في كل عام والطاعون قد سكن الدور من أكواخ وقصور بل وأقام في الثكنات العسكرية التي كانت تعج بجنود الوالي المجيشة لتأسيس ملكه وتوطيد دعائم عرشه . وليس في البلاد غير رهط جاهل من الحلاقين الذين نرى الى اليوم

بقاياهم . وغير نفر قليل من رجال الطب الاجانب . فكانت مهمة قاسية تلك التي جابهت كلوت بك ان ينظم الخدمة الطبية والصحية في بلاد هذه حالتها وان يحمي الاهلين كما يحمي الفيالق من عدو غير منظور ليس لحرابهم او مدافعهم به قبل او سبيل

ولكن سرعان ما بدا لكلوت بك انهُ وان استطاع جلب جهابذة الاطباء من فرنسا وايطاليا لخدمة الوالي وامته وجيشه فان قلة عددهم وجهلهم لغة البلاد واختلاف معتقدهم الديني عن اهلها عوامل تقف حائلاً دون الغرض الذي يبتغيه من تعميم وسائل التطبيب والتصحيح. وان اولئك الاطباء من ابناء الغرب محتاجون الى مساعدين من الاطباء والصيادلة ابناء مصر بل الى ممرضات ومولدات من بناتها

وهكذا وعلى الرغم من دسائس الحاقدين وانتقاد اليائسين وقلة ثقة البعض في استعداد المصريين وبفضل تشجيع سيده العبقري العظيم وبعد سنتين اثنتين من حلوله الديار أنشأ في سنة ١٨٢٧ مدرسة لتعليم الطب وألحقها أول الامر بالمستشفى العسكري في أبي زعبل . ومن ثمَّ نقلها بعد ذلك بعشر سنين الى مقرها الباقي الى الآن بجوار قصر العيني . وهو الآخر كان في الزمان السابق خارج المدينة قصراً للولاة الاتراك ثم اختاره اطباء حملة نابليون زماناً داراً لعلاج جرحاهم ومرضاهم

وبفضل مثابرة كلوت بك واخلاصه لوطنه الثاني تمكن من احداث ما كان يعد الاعجوبة في ذلك الزمان فجند الطلبة من بين الازهريين يطعمون ويكسون وينامون ويؤجرون من جيب الدولة الجديدة . وتترجم لهم المحاضرات من الفرنسية الى الايطالية فالعربية على لسان عنحوري المترجم السوري الوحيد في ذلك الزمان الذي كان يعرف الايطالية . والشيخ محمد الهراوي الازهري الذي أختير لتهذيب لغة المحاضرات والمؤلفات بل للتدريس أيضاً الى ان أدخل تعليم اللغة الفرنسية لتسهيل مهمة الاساتذة

وما ان مرت خمس سنوات على انشاء مدرسة الطب حتى صار يخرج منها عدد من الاطباء يكفي المستشفيات والجيش . وفي عشر سنوات بلغ عدد المتخرجين ٤٢ طالباً جازوا بجدارة الامتحانات التي كانت تعقد علنية في ذلك الزمان . حتى لقد شاء كلوت أن يدل على مبلغ نجابتهم فسافر في عام ١٨٣٢ بفرقة من المتخرجين الى باريس حيث نجحوا بتفوق أدهش ممتحنيهم الذين كانوا صفوة اساتذة ذلك العصر كدجنيت ولارى طبيبي نابليون الشهيرين ودوبوترن وبروشيه وسواهم . وظلوا بعد ذلك زماناً في باريس يزيدون من خبرتهم ومعلوماتهم وصاروا طليعة لسواهم من اطباء مصر في القرن الماضي

والى ان مضى محمد علي الى رحمة مولاه بعد ١٨ سنة من تأسيس مدرسة الطب كان قد بلغ عدد الجيل الجديد من الاطباء المصريين نيف و ١٥٠٠ . وكانت قد تمت ترجمة ٥٢ مؤلفاً

طبيًا من الفرنسية الى العربية تولت اخراجها دار الطباعة في بولاق بالآلاف وانتشرت نسخها في تركيا والجزائر وتونس ومراكش وسوريا وايران . وصارت تعبيراتها اساساً للمؤلفات التي يقرؤها الاطباء الآن في مدارس الطب في استانبول ودمشق وسواها

ولكنهُ ما ان تولى ابراهيم عرش ابيه سنة ١٨٤٨ ففقدته البلاد بعد قليل ثم تولى بعده عباس الأول حتى دخلت مدرسة الطب في عهد جديد كان عهد تقلقل واضطراب اذ كان عباس يمقت الاجانب ولا سيما الفرنسيين وكل ما كان لهم بهِ صلة فاعتزل كاوت بك منصبه في ابريل سنة ١٨٤٩ بعد ربع قرن انشأ خلالهُ غير المدرسة الطبية مدرسة للصيدلة وللمولدات كما أسس المستشفيات في انحاء القطر وأوجد نواة مصلحة الصحة العمومية ومصلحة الكورنتينات وأدخل التطعيم ضد الجدري وتشريح الجثث لتعليم الطلبة وأوجد نظام الحلاقين الصحيين الذي بدأ يختفي الآن

وما ان رحل مؤسس مدرسة الطب العتيد حتى استخدم عباس الاساتذة الالمان ومن حسن الحظ انهُ استقدم اولهم جريزنجر سنة ١٨٥٠ وتيودور بلهارس اللذين كانا من خيار العلماء وللأول منهما فضل اكتشاف دودة الانكلستوما كما ان للاخير خاصة اكتشاف الدودة التي تسبب البول الدموي الشهير بين المصريين واطلق عليها اسم (البلهارسيا)

وجاء في النهاية دور جريزنجر فسافر مكبوداً سنة ١٨٥٢ وخلفهُ الكسندر ريير الالماني زمناً ولكن سرعان ما ضاق صدر عباس بالالمان فجرب الايطاليين واستخدم راتش ورازي من فلورنسا سنة ١٨٥٤ . ولكنهُ ما عتم ان مات في نفس ذلك العام وخلفهُ سعيد الذي وجد المدرسة على أسوأ حال من الفوضى فأغلقها وشرد طلبتها ايدي سبا [illegible] وتفرقه

وظلت مدرسة الطب زائلة عن الوجود بعد ذلك طوال [illegible] اسرع كاوت بك الى مصر لانقاذها ونجح بمساعدة رازي في حمل الوالي على اعادة افتتاحها في سبتمبر سنة ١٨٥٦ تحت ادارته مرة اخرى . ولكن سوء صحته أبعده ثانياً عن المعهد الذي احبه أكثر من اولاده

وتولى من بعده ادارة المدرسة ثلاثة من بني وطنه واحد الاطباء المصريين الى ان تولى اسماعيل عرش جده سنة ١٨٦٣ فوجدها مرة اخرى على شيء غير قليل من الانحطاط والتقهقر

محمد علي البقلي والخديو اسماعيل

وهنا برز في الميدان محمد علي البقلي باشا الطبيب المصري الشهير فتولى ادارة المدرسة سنة عشر عاماً سويًا كانت درة في جبين الادارة الوطنية اذ رفع من شأن المدرسة وأصلح أمورها وكان الاساتذة جميعاً من ابناء البلاد ماعدا جاستنل المعروف وكانت لغة التدريس العربية

وفي زمانه ترجمت أنفس المؤلفات الفرنسية الحديثة وصدرت مجلة البحوث الطبية الأسبوعية عدة سنين وأرسلت البعثات بانتظام الى الخارج وبرز الأطباء المصريون الى البحث والتحقيق العلمي وبالجملة بلغت المدرسة شأواً عظيماً الى ان شاء سوء حظها للمرة الثالثة أن تصاب بالطمة ألمة بتقاعد محمد علي البقلي سنة ١٨٧٩ أثر خصام شخصي بينهُ وبين علي باشا مبارك الشهير فتولى الادارة بعده جليلاردو بك وسرعان ما حدثت الثورة العرابية بعد ثلاث سنوات

عيسى حمدي والخديوي توفيق

وفي سنة ١٨٨٣ تولى ادارة المدرسة مصري قدير آخر هو عيسى حمدي باشا الذي يمكن اعتباره المؤسس الثاني لها بعد كلوت بك، ففي عهده سادها النظام واستتب العمل على خير الوجوه . وكان من اساتذتها نفرٌ من كبار الاطباء المصريين مثل عثمان باشا غالب الذي كانت لهُ شهرة عالمية واكتشف دودة القطن ووصف دور حياتها . ودري باشا سيد الجراحين في زمانه . وبفضل عيسى حمدي ونفوذه صار انشاء المباني الجديدة في المدرسة سنة ١٨٨٧ وأنشئت بها غرف للمحاضرات ومعامل للبحث وأُخرج الطلبة من المدرسة للمبيت في الخارج . وفي تلك السنة صارت البكالوريا شرطاً للدخول في سلك المدرسة وفرضت المصاريف على الطلبة للتعليم ١٥ جنيهاً في السنة وحُتّم عليهم ان يقدموا رسالة قبل حصولهم على الدرجة الطبية وجعلت مدة الدراسة ست سنوات للطب وأربع للصيدلة وثلاثاً للمولدات وبالجملة دخلت المدرسة تحت يده الحكيمة في عهد جديد من التقدم والارتقاء لاتزال آثاره باقية الى اليوم وعاونهُ من الاطباء الانجليز بعض اكابرهم كساندويث وملتون الجراح الشهير . ولكن عيسى حمدي اضطرّ بدوره للاستقالة سنة ١٨٨٩ أثر خلاف بينهُ وبين رئيس الادارة الطبية بعد ست سنوات مجيدة الذكر والأثر

وللمرة الرابعة عادت المدرسة الى الانحطاط في عهد خلفه بباعث المحسوبية في وظائفها الى ان تولى شأنها ابراهيم باشا حسن سنة ١٨٩٣ وقد كان رجلاً فاضلاً ولكن حدث في عهده تنظيم المدرسة على الطرق الانجليزية وزيادة الاساتذة الانجليز وتحويل لغة التعليم الى الانجليزية حتى انفرد بادارتها الدكتور كيتنج من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٩

عهد الاحتلال الانجليزي

وكان كيتنج رجلاً حديديًّا في ادارة المدرسة ولكن قساوته الظاهرة ما كانت تحجب شديد اهتمامه بسمعتها وسمعة خريجيها في كل مقام ومقال . وقد بلغت المدرسة في عهده وعهد

مساعديه من الاساتذة البريطانيين شأواً غير قليل من النظام والدقة ولايزال الكثيرون من خريجي ذلك العهد يذكرون بالخير ملنون ومادن وفرجوسن وفيليبس وسواهم كما يذكرون شمت ولوس من كبار الاساتذة الالمان الذين كان وجودهم في هذا العهد أثراً للصلة القديمة بين هذا المعهد وبلادهم

وفي هذا العهد توثقت الصلة بين مدرسة الطب في مصر والكليات الطبية الملكية في انجلترا ووضع النظام الذي لا يزال قائماً من بعث تلك الكليات لاستاذ زائر في كل عام

وقد اقتصرت المدرسة في هذا العهد على الدراسة الطبية الأولى فلم تدخل عليها درجات الاختصاص العليا التي كان المصريون يلجأون للحصول عليها الى خارج بلادهم

سعد زغلول ومدرسة الطب

وقد حدث في اثناء ذلك العهد تولي زعيم البلاد المغفور له سعد زغلول وزارة المعارف في سنة ١٩٠٨ فرأى بثاقب بصره زيادة ارسال بعثات التخصص الى الخارج لادخال العنصر المصري في التدريس وبالتالي لادخال العربية لغة للتعليم في مدرسة الطب اسوةً بزميلاتها في المدارس العالية . واليه يرجع أول الفضل في اعادة مدرسة الطب سيرتها المصرية الاولى في عهدنا الحديث كما نراه الآن في شخص أغلب اساتذتها ومساعديهم

الحرب العظمى وما بعدها

وساعد على ذلك أنهُ حينما اندلعت ألسنة الحرب العالمية العظمى وانتظم أغلب الاساتذة الاجانب في جيوش بلادهم وقع عبء التدريس على اكتاف المصريين فقاموا بالعمل خير قيام حتى رضي كيتنج ان يجعل منهم رؤساء غير مرؤوسين

وسافر كيتنج سنة ١٩١٩ وعقبهُ رتشاردز الى سنة ١٩٢٤ في سني الثورة المصرية الحرجة وفي ذلك العهد خرج التفكير في انشاء الجامعة المصرية الى حيز العمل وصار اختيار موقع مستشفى فؤاد الأول الجديد في جزيرة الروضة ووضعت سياسة تولي المصريين مناصب الاساتذة نهائيًّا في كلية الطب

وجاء من بعده ولسون ثم مادن سنة ١٩٢٦ وفي عهده أعيد تنظيم الكلية على الطرق الحديثة وأدخل في برامجها الدراسات العليا وانشئت مدرسة لطب الاسنان ووضع الاساس الذي نهضت به الكلية النهضة العظيمة الحالية . ومات مادن سنة ١٩٢٩ ،أسوفاً على خلاله وخصاله . وفي مايو من تلك السنة شاء مجلس ادارة الكلية أن يلقي على كاتب هذه السطور حمل ذلك

الصب، الخابر الجليل مترسماً في ذلك خطوات زملائه السالفين مستلهماً السداد من ارواحهم في عهد تاريخي كبير الأثر في حياة هذه البلاد

٢ — الحاضر

مضى القرن الاول من حياة مدرسة الطب وهي كما وصفت تبدو احياناً مشرقة وضاحة الجبين ثم يسترها الغمام ولكن الى حين . ولعمري انه اذا قيست حياة المعاهد بحياة الانسان واذا شبهنا تلك المائة عام بعهد الطفولة ما كان لنا ان نعجب لما ذاقت تلك المدرسة من مرّ وحلو لأن للطفولة امراضها وعللها كما لها نشاطها ومرحها وانما لنا ان نقرّ عيناً ونستريح خاطراً انها أمضت ذلك العهد على ما يرام وصار لنا ان ننتظر لها عمراً مديداً وعيشاً رغيداً في ظل النهضة المصرية الحديثة

ولقد كتب الله لمدرسة الطب بالفعل دخول عهد الشباب مذ صارت في عام ١٩٢٤ كلية بل دعامة هي اقوى دعامات الجامعة المصرية . وكما ينتظر من دم الشباب قد اندفعت فيها روح جديدة ووصلت سراعاً الى آفاق أعلى وأسمى

فهي الآن كلية تضم تحت جناحيها اربعة معاهد كبيرة لدراسة فنون الطب وعلومه . فللطب واحدة ، وللصيدلة اخرى ، وللاسنان مدرسة ، وللتمريض والتوليد رابعة

وصار لا يكتفى بالبكالوريا بل على الطالب ان يتزود من كلية العلوم بقسط علمي ثمين لمدة عام وان يبرز بين اخوانه حتى يصل الى ساحتها الفناء

واستكملت كل مدرسة منهن أهبتها وجمالها . ففي مدرسة الطب تغير الانكماش القديم الى انبساط قضى به تقدم المعارف الطبية فانقسم علم التشريح الى فروع منها علم الاجنة وعلم تقويم الانسان وانقسم علم وظائف الاعضاء الى الكيمياء الحيوية والتشريح المجهري وبرز علم الامصال كفرع قوي من فروع البكتريولوجيا وانقسم علم الطفيليات الى علم الطفيليات ذات الخلية الواحدة وعلم الديدان وعلم الحشرات وعلم الفطريات . وأدخلت دراسة جديدة لعلم الباثولوجيا الاكلينيكية التي تنير الطريق امام الطبيب بفحص افرازات المريض ودمائه . وظهرت في الجراحة أقسام للعظام وللجهاز البولي وانشىء قسم جديد للصحة العامة شرع هو الآخر يتفرع الى اقسام التغذية والصحة الصناعية والاوبئة وما اليها . هذا فضلاً عما بلغته المدرسة من الشأو في تدريس الامراض الباطنة وامراض العيون

وارسلت الكلية البعثات تلو البعثات بما لم يكن له من قبل مثيل من بين ابنائها النجباء للتخصص في تلك الفروع وسواها فبزّوا رفقاءهم في عقر دارهم وعاد ولا يزال يعود الكثيرون ممتلئين حماسة وملتهبين غيرةً ونشاطاً

وبلغ الحال مثل تلك الحال في مدرسة الصيدلة التي انشىء فيها علم تشخيص العقاقير واتسع نطاق التحليل الكيميائي للادوية والاغذية . واما مدرسة الاسنان فقد سدت فراغاً عظيماً كان محسوساً في هذه البلاد وقضت على عهد كان بالدجاجلة مذموماً

واما مدرسة التمريض والتوليد فصارت طالباتها من ذوات الشهادات المدرسية كالابتدائية والدراسة الثانوية في قسمها الاول وراسبات القسم الثاني وبعدان كانت تضيع سنة كاملة في تعليمهن اللغات والحساب تمهيداً لدخولهن معمعان التعليم الطبي صرن يتلقين فنون التمريض ثلاث سنوات كاملات ثم فن الولادة عاماً آخر والزائرات الصحيات كذلك عاماً آخر والتدليك والكهرباء الطبية سنة ونصف

وصار للكلية غير درجة الطب والجراحة او الصيدلة او الاسنان العادية درجات عليا ودبلومات للاختصاص . فهناك درجة ماجستير في الجراحة بفروعها وهي : —

١ — الجراحة العامة ٢ — جراحة الاعضاء التناسلية والمجاري البولية ٣ — جراحة العظام ٤ — التوليد وامراض النساء ٥ — جراحة الحنجرة والانف والاذن ٦ — الرمد وجراحة العيون

ودرجة دكتوراه في الطب بأقسامها وهي : ١ — الطب الباطني العام ٢ — امراض الطفولة الاولى وامراض الاطفال — ٣ — طب المناطق الحارة ٤ — الصحة العامة

ودرجة ماجستير في جراحة الاسنان ودرجة ماجستير في الصيدلة ودبلومات خاصة هي : —

١ — دبلوم الصحة العامة ٢ — دبلوم طب المناطق الحارة وصحتها ٣ — دبلوم الرمد ٤ — دبلوم الطب الشرعي ٥ — دبلوم علم الاشعة الطبية

وستنشأ دبلومتان خاصتان للكيمياء التحليلية والكيمياء الحيوية

بل أن هذه السنة نفسها قد رأت انشاء قسمين جديدين كبيرين للتخصص احدهما في الجراحة والآخر في الامراض الباطنة وصارت الفرصة بذلك متاحة لكل طبيب مصري او غير مصري ان يستزيد من علمه ويستكمل من فنه على احدث طراز ونظام وأن يحصل على تلك الدرجات العالية في نفس وطنه وبلاده

وصار لكل قسم من اقسام الطب من المعامل والمتاحف ما تبز به الكلية سواها من كليات الخارج وهي ثروة عظيمة لا تقوّم بمال ولا عتاد ولا يقاس بها غير المتحف المصري ان كان يقاس معهد احياء بمعهد اموات

اما مستشفى قصر العيني فقد تحول الى دار علاج نظيفة كاملة الادوات والمعدات حتى لتخفى هويته الآن على كلوت بك ذاته وهو الذي ذرعه نيفاً وعشرين سنة جيئة وذهاباً في القرن الماضي ولم يغير قصر العيني من إهابه فحسب بل تغيرت معالمه ومعداته الداخلية لراحة المترددين عليه من طلبة واطباء ومرضى . وفتحت به اقسام جديدة لفروع الطب الجديدة

وتضاعفت به حجر العمليات وأنشئت مساكن جديدة للنواب وغرف محاضرات غير ما زاد منها في مباني كلية الطب جارته

بل ان الطلبة ذاتهم قد اصابهم التغيير والتبديل فظهرت بينهم الطالبات لدراسة الطب أسوةً بدراسة التمريض والتوليد وأنشىء لهم نادٍ يضم شتاتهم ويقيمون به حفلاتهم وزاد عددهم وتوثقت صلاتهم باساتذتهم

بل ان ذلك التجديد العظيم لم يكن ليشفي سغب النفوس المتعطشة الى التقدم والارتقاء . فصحَّ العزم على انشاء مستشفى جديد ومدرسة جديدة في جزيرة الروضة يشدَّان أزر المعهدين القديمين المجاورين وقد تمَّ بالفعل انشاء جانب كبير من مستشفى فؤاد الاول التعليمي ونقلت اليه العيادة الخارجية التي يؤمها نيف واربعة آلاف مريض كل يوم كما نقل اليها منذ بضعة اسابيع ٤٥٠ سريراً للامراض الباطنة . فاذا استكمل صار به الفان من الاسرة غير الالف الباقية في قصر العيني وغير مائتي سرير في مستشفى الاطفال الذي اشترتهُ الحكومة لحساب التعليم ومائتي سرير في مستشفى كتشنر اي ٣٤٠٠ سرير مما ليس له مثال ولا صنو في عالم الشرق وكثير من جهات الغرب جميعاً

على ان عظمة المعاهد العلمية لا يجب ان تقاس بفخامة مبانيها وكثرة اسرتها ونفقاتها وانما هي في الحقيقة بكفاءة رجالها . وإذا كنا قد أعددنا للعلم الطبي في مصر داراً شامخة الذرى فيحاء واسعة فأننا لم نكن لننسى أن العلم والبلاد يتطلبان من ذلك الغرس محصولاً يانع الثمرات

ولذا فان تلك المعاهد لم تبنَ للتطبيب والتعليم فحسب، بل كذلك لاجراء المباحث العلمية التي هي مناط التفاخر اذا سوقه قامت . وقد بدىء بالطلاب فجهزت جوائزُ ثمينة ذهبية ومالية للمبرزين منهم . فهناك مادليات ذهبية بأسم عيسى حمدي باشا للامراض الباطنية وعلم وظائف الاعضاء وأخرى باسم مادن للجراحة الاكلينيكية وباسم فيليبس للطب الباطني الاكلينيكي وجائزة مالية باسم محمد شاهين باشا للتخصص في الصحة العامة ومثلها باسم مظلوم للصيدلة وباسم بحري كذلك. وصندوق آلات جراحية يهديه محل كلان الفرندي في كل عام الى أول الطلاب المتخرجين ومدالية ذهبية في الجراحة باسم علي ابراهيم

وثنينا بالمتخرجين فصار لا يدخل الطالب عداد المدرسين حتى تمضي عليه سنوات في الاستزادة من الدرس والتمحيص وحتى ينال أرقى الشهادات كالدكتوراه في الفن الذي ينتفيه وحتى تشهد له اساتذته بالاستعداد والكفاءة وصار لا مطمع لناشىء أن ينال رتبة الاستاذ اذا أوتي في يمينه عدداً غير قليل من الابحاث الفنية الطريفة التي تنشرها له الجامعة أو المجلات المصرية والاجنبية يشق بها طريقه الى الامام

وجعلت الكلية لا تضن بالاجازات العلمية في الخارج كما لا تضن بارسال البعوث وجعلت تدعو كبار الاساتذة الاجانب في كل شتاء ليحاضروا الاطباء والطلاب في اطرف المواضيع. بل اخذت اخيراً في ارسال بعوث من الطلبة ليحضروا اسبوعاً او اسبوعين في احدى الجامعات الخارجية وبدأت بجامعة باريس في الصيف الماضي ليتعارفوا وتتفتح اذهانهم وتخيلاتهم وليعرفوا ان العلم لا دين له ولا وطن ولا لغة وان الذين يقفون حياتهم عليه هم المفلحون

كذلك زادت الصلة بالكليات الطبية الملكية بكثرة وفود الطلاب المصريين للحصول على شهاداتها العالية القيمة . بل لقد تم اتفاقنا مع الكليات الالمانية ان توفد الينا طلاباً للتعلم في بلادنا وان نوفد اليهم مقابل ذلك من اطبائنا من يكونون من طلبة الدراسات العالية ويعرفون اللغة الالمانية

وقد وصلت الامور من التقدم ان كثر في البلاد عدد الاختصاصيين وانقضى العهد الذي كان تطبيب العائلات فيه وقفاً على الاجانب يتباهون به ويتفاخرون . وصار الاطباء المصريون علماً على نهضة بلادهم يشرفونها في اي مؤتمر حلوا واي حفل نزلوا

ويعييني العد اذا شئت ذكر النابغين منهم في فروع الطب ونواحيه . اما الابحاث العلمية التي وصل اليها هذا المعهد الجليل في دراساته المتعاقبة الى الآن فما يفخر به اي معهد في اي مكان. واذا كان قد اشترك في بعضها الاساتذة الاجانب في العهود الماضية كاكتشاف الانكلستوما والبلهارسيا ودورة حياتهما فأن الجيل الجديد والحمد لله قد كذب الخطأ الذي طالما اشاعه المغرضون من ان العقل الشرقي قد اصابه الخمول والكسل . وهذه ابحاث علمائنا في امراض بلادهم تكشف المكنون وتهتك المستور . فهذا باحث عن اسباب حصرات الحالب وآخر عن داء الفيل وثالث عن مقاومة الطفيليات وآخر عن تضخم الطحال وأمراض القلب وآخر يفحص الاعشاب المصرية والاغذية المصرية والحشرات المصرية وغيره يبحث عن امراض الكبد والشرايين والرمد . وسواهم يفحص دم المصريين وغير ذلك مما لا نحيط به بمثل هذه العجالة . ومما يقوم دليلاً على ان المعهد القديم قد انجب ابناء يسيرون في الطريق مع سواهم من علماء العالمين ولا تضيرهم وعثاء السفر بل يسعدون ويهنأون اذا زادوا حرفاً في قاموس الفن الشريف الذي جعلوا منه قوت يومهم وقوت نفوسهم معاً

٣ — المستقبل

قد مضى على كاتب هذه السطور الثماني السنوات الاخيرة وقد امتزجت فيها حياته امتزاجاً شديداً بالمعهد الذي فيه ربي ومنه خرج واليه عاد ليقضي بقية حياته العاملة جندياً ثم قائداً . واكبر أمله الآن ان يرى بعينيه تنفيذ الخطة التي ترسمها اسلافه الاكرمون والتي اقتضاها

تقدم العلوم الطبية يوماً بعد يوم تقدماً لم يخطر ببال جرّاح ولا جرى على ذهن طبيب

ولكن هناك غير هذا العامل الشخصي اموراً اجل خطراً واكبر قيمة تجعل من الواجب جعل هذا المعهد في صورة مثالية تشرف البلاد

فمصر هي قائدة الشرق تتطلع اليها اعين الاقطار العربية الشقيقة وهي في الوقت نفسه ملتقى القارات القديمة الثلاث يعبر ارضها ومياهها وهواءها المسافرون والتجارة من جانب العالم الى جانبه الآخر . وفيها تمثلت حضارة الفراعنة وحضارة العرب وحضارة اوروبا معاً . وما أحرى وطننا وهذا شأنه أن يكون بلداً نموذجيًّا في اهله ومعاهده ونظمه جميعها

ولقد استيقظت البلاد وحكامها وعلى رأسهم المليك العظيم الراحل فؤاد الأول الى هذه الحقيقة كل التيقظ ، فلم تضن بالمال على دراسة الطب حتى لقد قررت نيفاً ومليونين من الجنيهات لانشاء مستشفى فؤاد الاول وكلية الطب الجديدة وتحسين قصر العيني وكلية الطب القديمة وشراء مستشفى رعاية الاطفال بالمنيرة وقد صرف من ذلك الى الآن مبلغ مليون ومائتي الف من الجنيهات

اما الخطة التي رسمناها للمستقبل فستفضي الى تخصيص قصر العيني لذوي الامراض المستعصية ولأقسام التخصص والى تخصيص مستشفى فؤاد الاول للامراض المعتادة من جراحية وباطنية ونسائية وعيون . وان تقسم كلية الطب الى جزئين احدهما ينقل الى المباني الجديدة ويشمل أقسام البكتريولوجيا والطفيليات وعلم التشريح المرضي وعلم الاقرباذين وهي علوم ذات صلة وثيقة بالمستشفى

اما القسم الباقي فيوزع على مباني الكلية الحالية فيخصص المبنى الشمالي لانشاء معهد للصحة العامة مستكمل لمعامل فحص المياه والاغذية والمتخلفات واجراء التجارب البكتريولوجية والكيميائية ذات الصلة بذلك الفرع الهام من العلوم الطبية

ويخصص المبنى المواجه له في الجنوب الذي يليه لعلم وظائف الاعضاء بفروعه الثلاثة والمبنى الجنوبي الذي يشيد الآن لمدرسة الصيدلة . اما المبنيان الغربيّان فيخصص احدهما للطب الشرعي في دورين فوق نادي الطلبة ويخصص الآخر بأدواره الثلاثة لعلم التشريح بمتاحفه ومشرحته ومعامله . وسيضاف اليها مبنىً سابع يُؤوي ادارة الكلية وبهواً للاجتماعات والاحتفالات

وهكذا ستجد الاقسام المختلفة جميعاً سبيلاً الى الاتساع بما يؤمل ان يكفيها حقبة طويلة اخرى من السنين وييسر لها سبيل البحث العلمي في هذا المعهد الحديث . وتقضي خطتنا المرسومة ان يتسع مستشفى رعاية الاطفال الذي ضمتهُ الجامعة اخيراً الى مستشفياتها التعليمية فيبلغ مائتي سرير . وان نعد مستشفى كتشنر بعد اتفاقنا الاخير مع مجلس ادارته لتعليم طالبات الطب فنون ذلك العلم وان ننشيء في مدرسة الطب الجديدة معهداً كاملاً ينقطع علماؤه للابحاث انقطاعاً ليحلوا الكثير من المعضلات الطبية والصحية التي تجابه الاطباء والبلاد الآن وفي المستقبل

بل انا لن يستريح لنا خاطر او تطمئن نفوسنا حتى ننشيء بجوار هذه المعاهد كلها معهداً لطب المناطق الحارة . فمن عجب ان طالباً مصرياً يود التخصص في هذا العلم لايجد مندوحة عن السفر الى اوربا بينما بلاده ذاتها هي في المناطق الحارة . بل انه لمن العجب ان طالباً انجليزياً او فرنسياً او المانياً او ايطالياً يرغب في تلك الدراسة فلا يجد في مصر المدرسة التي تشفي غليله فيحج اليها كما يحج طلابنا الى اوربا للدراسة في الفنون الطبية الراقية بها

ولا شك ان موقع مصر الجغرافي يتيح فرصة نادرة لتلك الدراسة فأنه فضلاً عن المرضى من بحارة السفن القادمة من الشرق الاقصى وركابها وهم الذين يغذون مدارس طب المناطق الحارة في ليفربول وهامبورج ومرسيليا ولندن والجزائر بمادة التعليم توجد امراضنا المتوطنة ذاتها من بلهارسيا وانكلستوما وملاريا وداء الفيل والديدان المعوية وتضخم الطحال والبلاجرا وهي من اهم امراض المناطق الحارة

وقد شرعنا بالفعل في الاتصال بأولي الامر في هذا الشأن مؤملين قريباً انشاء معهد لطب المناطق الحارة يحمل اسم الزعيم الراحل الذي كان له فضل تقوية العنصر الوطني في مدرسة الطب من ثلاثين عاماً . ونود ان نرى فيه الطالب المصري بجانب الطالب الانجليزي او السوري او الفرنسي او الالماني او الايطالي في مدرج واحد ومعمل واحد ويحاضرهم الاساتذة المصريون فيما هم فيه ثقة ومرجع

ان هذه الصورة التي ذكرتها لكلية الطب وفروعها كانت في الواقع صورة مثالية خيالية من عدة سنوات ولكنها قد تحققت في كثير من نواحيها . ويبدو المستقبل واضحاً بساماً لاتمام نواحيها الاخرى

فكلية الطب قد دخلت الآن في عهد تاريخي آخر يشبه في علو شأنه العهد الذي خلقها فيه كلوت بك خالد الذكر الذي يقف تمثاله في ساحتها الى اليوم وفي باب مستشفاها امام تمثال سيده العظيم وعلى وجههما دلائل البشر لما يشاهدون

وصار العالم جميعاً ينتظر منها ومن اساتذتها ومساعديها وطلابها شيئاً آخر غير مجرد اتقان حرفة التطبيب . انه يتطلب منهم البحث والاستقصاء وشحذ الفكر في اكتشاف اسرار الجسم السليم والجسم العليل

ان الصورة المثالية التي ارجوها لهذا المعهد الجليل في مستقبل ايامه هي ان يصل فيه التخصص الى أرقى نواحيه وان يكون اكبر معهد في الشرق للعلوم الطبية وان تكتظ مراجع المؤلفات والرسائل الطبية باسماء علمائه المصريين وان يخفف آلام الانسانية بفضل اكتشافاته وابحاثه وانه بذلك لجدير وعليه لأمين ان شاء الله

مصلحة الآثار

للدكتور سليم بك حسن

وكيل مصلحة الآثار المصرية

١ — ما هو تاريخ اشتغال المصريين بدراسة الآثار في مصر ؟

— بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية ، واتجاه الأنظار الى دراسة الآثار المصرية دراسة جدية أنشىء المتحف المصري سنة ١٨٥٧ بجهود أحد العلماء الفرنسيين «ماريت باشا». وقد كان من الطبيعي ان يكون من ضمن رجال المتحف والمصلحة في الاقاليم بعض المصريين . وقد نبغ من هؤلاء اكثر من واحد ، في مقدمتهم المرحوم احمد باشا كمال ، اذ انهُ قام بعمل كثير من الحفائر العلمية ، ووضع عدة مؤلفات نفيسة بالنسبة لذلك العهد . كما كان لهُ مقامهُ المحترم بين معاصريهِ من العلماء الأجانب

وكان للمرحوم احمد كمال باشا طلبة يدرسون عليه ، وقد نجح في آخر سنة من حياتهِ في حمل الحكومة على انشاء مدرسة عالية لدراسة الآثار المصرية . افتتحت هذه المدرسة فعلاً في أوائل عام ١٩٢٤ ، ولكن القدر وافاه قبل افتتاحها بقليل . وعند انشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ ألحق بها قسم للآثار تابع لكلية الآداب ، ضمت اليهِ المدرسة القديمة ، واختير الاساتذة من بعض المصريين الذين اشتغلوا بهذا الفن ، وعاونهم بعض الاجانب من علماء الآثار

٢ — من هم الأساتذة الأحياء الذين أسسوا دراسة الآثار في مصر ؟

— كان طلبة المرحوم احمد باشا كمال عديدين ، ولكن الذين استمروا جديًّا في الدراسة واتخذوها عملاً لهم هما اثنان الاستاذ محمود حمزة الأمين المساعد للمتحف وأنا . ومن بين زملائنا في ذلك العهد صاحب السعادة احمد باشا عبد الوهاب وزير المالية السابق ، والاستاذ رمسيس شافعي مدير مصنع طرابيش القرش والاستاذ احمد البدري ناظر مدرسة الفيوم الثانوية

٣ — ما هي جهود قسم الآثار والنتائج العلمية التي وصل اليها مدة اشرافكم عليه

— عندما عينت للتدريس في كلية الآداب ، وجدت أن رفع مستوى الدراسات الاثرية لا يتم الآ بعمل حفائر علمية لكي تساهم الجامعة بنصيبها بين الجامعات الكبرى ، ولتكون هذا الحفائر مدرسة عملية لتمرين الطلاب فيها . وفي نفس الوقت كان لي مساعدون يعاونونني في الاشراف على هذه الحفائر . وهؤلاء لم يمرنوا التمرين الكافي ، وكثيرون منهم يمكنهم القيام الآن

بأي حفائر علمية ، لا تقل في قيمتها عن قيمة اية حفائر يقوم بها أجنبي . وقد أتمت هنا هذه الحفائر موسمها الثامن وظهرت المؤلفات الخاصة ببعضها

اما هذه الحفائر التي نقوم بها فهي في منطقة اهرام الجيزة ، ولست اريد الاطالة في الحديث عما لهذه المنطقة من الشأن، ولا عن الآثار القيمة التي عثرنا عليها ، او الفوائد العلمية التي اضافتها هذه الحفائر الى العلم . ولكن يكفي ان نذكر ان نتيجة هذه الحفائر قد كشفت كشفاً تامًّا عن عصر ملوك الاسرة الرابعة ، وقد وجدنا مقابر الكثيرين من الاسرة المالكة في ذلك العهد ، مع ما احتوته من آثار هامة ، كما ان الحفائر في الموسم الاخير حول ابي الهول ، اتاحت الفرصة لحل كثير من رموزه ، واصبحنا لاول مرة نعرف حقيقته وتاريخه والملوك الذين كانوا يقدمون له احتراماً خاصًّا ، ويقيمون المنشآت تمجيداً له

٤ — هل تتفضلون بذكر شيء موجز عن حقيقة أبي الهول ؟

من المحقق ان تمثال أبي الهول يمثل أحد الآلهة وقد صنع في الاسرة الرابعة ، ولم تصل الى اسمه في ذلك العهد ، ولكن الحفائر الاخيرة اماطت اللثام عن الكثير مما يختص به ، فنحن نعرف الآن انه كان يعتبر الهاً من آلهة الشمس ، اسمه « حور محيس » اي « حورس في الافق » .. ولاول مرة علمنا انه كان له اسم آخر هو الاصل الذي اخذت منه كلمة « ابي الهول » محرفة عن الاصل القديم بارهون

كما كشفنا حوله عن لوحات كثيرة أهمها اللوحة العظيمة التي أقامها الملك امينوفيس الثاني من الاسرة الثامنة عشرة ، جاء فيها انه تولى الملك وهو « في سن الثامنة عشرة وأنه كان قويًّا محبًّا للجياد ، وليس في العالم من يناظره » كما ذكر أيضاً انه قام برحلة من سقارة الى الهرم وأعجب بتمثال ابي الهول وأمر بانشاء هذه اللوحة مع معبد صغير لتكون بجوار آثار اجداده وقد وجدنا هذه اللوحة مقامة في مكانها كما وجدنا المعبد الذي اشار اليه

٥ — ما هو صدى هذه المكتشفات في الدوائر العلمية الاوربية ؟

— ذكرت لكم ان هذه الحفائر اضافت كثيراً من المعلومات الهامة الى التاريخ المصري ، وعلم الآثار المصرية . ومن الطبيعي أن تكون النتائج التي وصلنا اليها موضع اهتمام علماء الآثار في كل مكان وجميع الذين يفدون منهم يزورونها كما ان المؤلفات العلمية الخاصة بها تعنى بالحصول عليها جميع الهيئات العلمية ، ويسرنا ان نذكر انها كانت موضع تقديرهم ، كما ان اكثر المجلات الخاصة بالآثار أشادت بهذه الحفائر ورحبت بالنتائج التي وصلنا اليها

٦ — ما هي الاسباب التي تحول دون نشر مؤلفات الآثار التي يكتبها مصريون باللغة العربية .. لغة البلاد ؟

— الحقيقة انهُ ليس هناك صعوبة في التأليف باللغة العربية ، ولكن هناك عامل هام لا يمكن اغفاله وهو اننا في مستهل حياتنا العلمية الاثرية واكثر علماء العالم لا يجيدون اللغة العربية ، فأصبح من الخير ان ننقل لهم أبحاثنا ونتائج مجهوداتنا الى لغاتهم لكي يتحققوا من ان المصريين لا يقلون عنهم في شيء ، وان لهم أبحاثاً تفيدهم ، كما استفدنا نحن وما زلنا نستفيد من ابحاثهم . وهناك امم كثيرة مثل اليابان وروسيا وبولندا يكتب علماؤها بحوثهم العلمية الصميمة باحدى اللغات الثلاث الانكليزية او الفرنسية او الالمانية . . وهذا لا يحول دون وضع هذه المؤلفات باللغة العربية متى توافرت الوسائل اللازمة والظرف المناسب

٧ — ماهي الصورة المثالية التي ترجونها لدراسة الآثار في مصر ؟

— ان ما ارمي اليه هو تعميم دراسة الآثار في كل ناحية من نواحي الحياة المصرية ، وان ارى المصريين يقومون بالبحث عن تاريخ اجدادهم على صورة تماثل الصورة التي وصل اليها العلماء الاجانب . والتفكير في هذا الموضوع يؤدي الى ان ندرك اننا يعوزنا شيء كثير للوصول الى هذه الغاية . واني اقدم بعض أمثلة أتمنى تحقيقها في القريب العاجل

اولاً — قيام بعض الشبان المصريين الذين درسوا الآثار بحفائر علمية واسعة النطاق ، واني اذكر مع السرور ان بعض هؤلاء الشبان قد بدأ فعلاً بمثل هذه الاعمال

ثانياً — انشاء متاحف محلية في عواصم المديريات ، واذا كانت البلدان المتوسطة في اوربا لها متاحف بها اقسام مصرية تحوي مكتشفات هامة فمن واجب مصر ، وهي مهد هذه الحضارة القديمة ، ان تنشأ فيها متاحف في مختلف الاقاليم تبين اولاً الآثار المكتشفة في هذه الجهة ، كما تحوي ايضاً بعض الآثار المكتشفة في جهات أخرى والتي تزيد عن حاجة المتحف المصري ، ولا يخفى ما في انشاء مثل هذه المتاحف من فوائد ، اذ انها على الاقل توجه نظر سكان كل مديرية الى تاريخها القديم وتبعث نشاطاً وتنافساً في الاقبال على الحفائر

ثالثاً — ان تهتم وزارة المعارف بتسهيل دراسة التاريخ والآثار في مدارسها بان تعهد الى فنيين بالقاء محاضرات ودروس ، وتنظيم الرحلات ، وحفظ مجموعات كاملة من الصور للآثار المصرية حتى يشاهدها التلاميذ والتلميذات بالفانوس السحري

رابعاً — ان تشجع وزارة المعارف المؤلفين المصريين من الاثريين بنشر ابحاث تهم الشعب المصري ، وتنمي فيه حبه لآثار أجداده بطبع هذه المؤلفات ومنح المكافآت اللازمة . واني أؤكد انهُ في اليوم الذي تقدم فيهِ وزارة المعارف على ذلك سيتقدم لها اكثر من فرد من المصريين بمؤلفات نفيسة تشرفهم كمصريين ، وتأتي بالفائدة المرجوة للوزارة وللهيئات العلمية وللمصريين جميعاً



والاحياء الدنيا

تجارب جديدة طريفة

منذ عهدٍ قريب أقام المهندس الاميركي « هبن » المختصّ بالاضاءة ، مأدبة أعدَّ لها كل ما لذَّ وطاب من الاكل والحلوى. ولكنهُ أعدَّ كذلك أساليب خاصة لاضاءة بهو المأدبة ، فبدلاً من الاكتفاء بالمصابيح الكهربائية المألوفة ، أعدَّ مصابيح خاصة لها مصافٍ لونية تحجب من ضوءِ المصابيح جميع الألوان الاَّ اللونين الأخضر والاحمر على اختلاف درجاتهما . وأقبل المدعوون الى المائدة وهم مرحون جذلون ، ولكنهم ما لبثوا ان فركوا عيونهم ليعلموا أفي يقظة هم أم في منام . فاللحم المشويُّ رماديُّ اللون والكرفس ورديُّهُ واللبن أحمر كالدم والليمون كالبرتقال والقهوة صفراء باهتة والبسلة الخضراء سوداء قاتمة والفول السوداني أرجواني . وكان الطهي على أجود ما يمكن ان يكون ، ولكن هذه الألوان الغريبة أثرت في حواسّ المدعوين ، فمعظمهم لم يقبل على الطعام [illegible] نهاية المأدبة وأصيب [illegible] بقيء عنيف

وقد كانت هذه المأدبة دليلاً على ان تأثير الضوء لا ينحصر في حاسة البصر بل يشمل الحواسّ الأخرى كحواس الذوق والشم واللمس . وليس الغرض من هذا المقال الآن بيان بعض ما كشفهُ البحث الحديث عن تأثير الأضواء المختلفة في بعض الحيوانات الدنيا كالميكروبات والهوام والحشرات

تقاس أمواج الضوءِ بوحدة تعرف باسم « انغستروم Augstrom » . فما هو الانغستروم ؟ خذ قلم رصاص ، وخُطَّ بهِ خطًا على ورقة بيضاء . هذا الخط عرضهُ في الغالب مليمتر . فالانغستروم جزء من عشرة ملايين جزء من عرض ذلك الخط — أي من المليمتر . والعين البشرية لا ترى من أمواج الضوء الاَّ ما كانت سعتهُ تتفاوت من ٤٠٠٠ انغستروم الى ٨٠٠٠ انغستروم . فالأمواج التي طولها اكثر ٨٠٠٠ انغستروم لا تحسّ بها عيوننا لطولها ولكن تحسّ بها بعض أعصابنا لأنها أمواج حرارة . اما الأمواج التي يقل طولها عن ٣٣٠٠ انغستروم فلا تحسّ بها عيوننا لقصرها وهي تختلف بحسب قصرها من الأشعة التي وراء البنفسجي الى الأشعة السينية بين الأشعة التي وراء البنفسجي والأشعة السينية منطقة من الأمواج يتفاوت طولها من ٣٠٠٠

انسترم الى ألفين هي موضوع بحث دقيق الآن في غير دائرة واحدة من دوائر البحث العلمي

قد يصح أن توصف هذه الأمواج بأنها أمواج أشعة مميتة . ولكن قدرتها على النفوذ من الأجسام يسيرة فهي لا تخترق الجلد ولكنها قد تقرحه . الا أنها تميت الميكروبات وقتل الميكروبات من ضرورات الجراحة والعلاج . ولذلك عمد « هبن » صاحب المأدبة وصحبه من مهندسي الاضاءة الى استنباط مصباح صنعت « شركة وستنهوس للمصابيح » مائة نموذج منه وبعثت بها الى مائة طبيب ليجربوها في بعض نواحي العلاج . ومما تستعمل له هذه الاشعة قتل الاحياء الدقيقة التي تكون في مواد الغذاء المعدة للخزن او للحفظ . ويتوقع هؤلاء المهندسون ان تصبح هذه المصابيح في متناول العامة بعد خمس سنوات

هذا في ما يتعلق بالاشعة التي تقتل الحيوينات المجهرية . ولكن هناك طائفة اخرى من الامواج تستعمل لمكافحة بعض الهوام والحشرات التي تفتك بالمزروعات ليلاً . فينصب لهذه الحشرات شرك أساسهُ مصباح قائم فوق صفيحة من النفط او بقرب ورقة عليها صمغ طريّ ، فيجتذب الضوء الحشرات اليها ، فتقع في الصفيحة او تلصق بالورقة

بعض الحشرات يجذبها ضوء نستطيع ان نراهُ ، وبعضها ينفرها هذا الضوء . وبعضها كالجنادب يبصر بضوء لا يراهُ الانسان . ولكن معظم الحشرات والهوام التي تطير في الليل وتبصر بامواج من الضوء الذي نراهُ ، تهفو في الغالب الى الضوء المزراق . اما اللون الاحمر فلا يجذبها لان عيون الحشرات على ما يظهر لا ترى الاحمر ولا الاخضر . فالمصباح الاحمر يجذب من الحشرات اقلّ مما يجذبهُ المصباح الابيض اللون ، حالة ان الاصفر والذهبيّ ينفرانها . وهناك ما يبعث على الظن بان الاشعة التي وراء البنفسجي أشدُّ الاضواء جذباً للحشرات

ثم هنالك ناحية اخرى . فالعلاقة بين الحياة وورق النبات الاخضر أوثق وأشهر من ان تحتاج الى تعريف . تتخذ الورقة من الارض والهواء موادَّ تصنع منها بفعل مادتها الخضراء (الكلوروفل) وضوء الشمس أصول غذائنا ووقودنا . وكان الظن أولاً ان البزور لا تنتش والاوراق لا تنمو الاّ بفعل ضوء الشمس . ولكن التجارب الحديثة اثبتت غير ذلك . فقد ظهر ان تعريض اي نبات زهري لضوء كهربائي قوي ساعتين كلّ يوم يفضي الى ازهار ذلك النبات . وقد اثبت باحث يدعى « فلنت » ان الاصفر والبرتقالي والاحمر هي الالوان الحيوية في حياة النبات ، واما الازرق والبنفسجي وما اليها فألوان الاستكنان او الموت

ثم أن فلنت وجنصن وجدا ان منطقة ضيقة من اللون الاحمر تفعل فعل السمّ في النبات

ان ضيق النطاق يحول دون الاسترسال في هذا الموضوع الفتان ولكن ما تقدّم دليل على ان ميدان البحث الذي تمهده هذه المباحث ميدان لا حدود له

اقفل تلك النافذة

كيف عارضت الدول اولاً في
انشاء المحاكم المختلطة

لو شاء الباحث لمضى في بيان هـذا الجشع العثماني الى مدى لا حدَّ لهُ . ففي المحفوظات المصرية الملكية من الحقائق ما يكفي لـكتابة فصل أثر فصل على هذا النمط . ولـكننا بلغنا نهاية سنة ١٨٧١ وهذا التاريخ يصلح كغيره من التواريخ لازال الستار على هذا الباب

إلاّ أن القارىء قد يستغرب لماذا شدَّدنا في الفصول السابقة على « الناحية الادبية » من ميزانية أعمال اسماعيل ، وأصررنا على أنهُ إذا بدا للباحث ان طائفة من النفقات التي انفقها لم يكن لها قيمة يقيم لها الماليُّ وزناً خاصّاً، فانها راجحة في ميزان « القواعد الأدبية »، ثم عمدنا بعد كلّ ذلك إلى تخصيص صفحة بعد صفحة رسمنا فيها صورة يغلب عليها حديث الارتكاب وبيَّنا أنْ الخديو أنفق عشرات الألوف من الجنيهات على سبيل الرشوة . فهذا التناقض الظاهر يحتاج الى شيء من التفسير

ان المفتاح إلى سرّ هذه المشكلة هو القول الصريح بأنّا لا نحاول أن نجعل من اسماعيل قديساً . لأنهُ لم يكن كذلك . بل كان ابن بيئتهِ، وكان متصفاً بمساوىء فضائلهِ وفضائل مساويهِ. فكان يوزع المال على السلطان والصدر الأعظم والباشا وصبي المكتب لانهُ كان في حربٍ مع تركيا ، وكانت هذه وسيلتهُ في اقامة الحرب

سبق لنا أن قلنا أن الجنرال ستون ونحو أربعين من الضباط الاميركيين الذين انتظموا في خدمة الخديو بعيد انتهاء الحرب الاهلية الاميركية قيل لهم أنهم انما ينتظمون في خدمته للكفاح في سبيل استقلال مصر . وقد كانت الدعوة الى انتضاء سيوفهم في سبيل الدفاع عن الحرية ، هي المغناطيس الذي جذب هؤلاءِ المحاربين القدماء الى الشرق بعد تسريحهم من الحرب الاهلية . وكان الاختيار قد وقع عليهم لأن اسماعيل أدرك أنهُ اذا اختار اوربيين ، فكأنهُ منح اوربا رهناً اول على استقلال بلادهِ . قيل انهُ كان قد اعدَّ معداتهِ ليعلن تحديهُ لتركيا اثناء الاحتفال بافتتاح ترعة السويس . وكان قد اتفق مع الملك فكتور عمانوئيل على ان تفهم تركيا من ملك ايطاليا

انها اذا تدخلت في اعلان استقلال مصر فجيش بيدمونت واسطولها يهاجمان بعض البلدان العثمانية الثانية . وترامى الى سمع نبوليون الثالث هذا النبأ فعارض اشد معارضة . فاضطر اسماعيل ان يتخلّى عن خطته لما تبين مقاومة فرنسا . فاباه اوربا على اسماعيل ان يحارب تركيا حمله على الالتجاء الى حرب يقوم فيها المال مقام المدفع

ولا يمكن اقامة الدليل على اقوال قاطعة كهذه اذ ليس ثمة كتاب ازرق في صفحاته مايؤيدها ولكنها قائمة على تأكيدات صادرة من مقام عالٍ لا يمكن ان تقتبس اقواله . ولكن كل شيء يؤيد دقة الحقائق الاساسية التي تستخلص منها . فطموح اسماعيل الى تحرير مصر مما لا يتطرق الريب اليه . بل ان اتجاه سياسته كلها يؤيد ذلك . وليس ثمة باعث على الشك في قول الكولونيل شاييه لونغ . وقد كانت خبرة الخديو بالجشع العثماني ، مما أثبت له قدرته على اخذ الاستقلال بالسيف اذا سمح له أن يتحدّى السلطان . وكذلك نستطيع أن نفهم وجهة نظره . وهي كما يلي :

« أن أوربا تأبى عليَّ باعلان استقلال مصر ومحاربة تركيا اذا اقتضى الامر في سبيل الحصول عليه . وإذن فلا فوز بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي بالسلاح الوحيد الذي يتاح لي . انني سأشتري ضمائرهم . ان هذه الغاية جديرة بهذا البذل »

ولكن الراجح أن التاريخ الذي ذكر لمهاجمة تركيا كان خاطئاً . فهو لا يتفق مع انتظام الضباط الاميركيين في خدمته . فالتواريخ في عقود خدمتهم أما سابقة قليلاً لتاريخ افتتاح الترعة وأما بعيده . ثم أنه لا يتفق مع الحقائق التي بسطها نوبار باشا في الرسالة التالية التي كتبها من باريس في ١٢ مايو سنة ١٨٧٠ : —

« في الحفلة الساهرة التي أقامها السفير الاسباني قال لي لورد ليونز أن لورد كلارندون كان قد علم من نواحٍ مختلفة ما أوصى به الخديو في أميركا من السلاح وأنه أمره (لورد ليونز) بأن يحدثني في الموضوع ويحذرني من أن الطريق التي يسلكها سموه طريق وعر ولا يفضي الى شيء طيب

« ودعيت الى زيارة لورد ليونز في اليوم التالي فذهبت فأعاد عليَّ ما كان قد قاله وأضاف اليه أن ستانتن (القنصل الجنرال البريطاني في القاهرة) قد تلقى أوامر بأن يقابل الخديو . فقلت أنني لا أعلم شيئاً مما يزعم من أمر شراء الاسلحة . فأجاب لورد ليونز بأنه يعلم كل العلم أنني غير مطلع على ذلك ، ولكن ما وصله من الحقائق صريح وقاطع ولا سبيل إلى الشك فيه . ثم قال انه اذا لم تحل المسألة فقد تسفر عن متاعب وعقد جديدة لا ترغب فيها أوربا . وقال أنه من الطبيعي أن الخديو يرغب في أن يكون مستقلاً ، ولكن لما كان سموه ذكيًّا وحكيماً فانه يدرك ان هذا التسلح يثير ريبة الباب العالي ومخاوف الدول[1]

(١) محفوظات عابدين . وثائق الاصلاح القضائي ١٨٧٠ — ١٨٧٥

وفي مذكرة مؤرخة في ١٠ مايو سنة ١٨٧٠ بعث بها نوبار الى القاهرة ولكنها من من إملاء فردينان ديلسبس نقرأ ما يلي :

« قابلت الآن دوق ده جرامون فسألني هل اعلم ما يفعله الخديو الآن . فقلت لا . فبيَّن لي ان حكومة الامبراطور تلقت معلومات عن معاهدة عقدها الخديو مع الولايات المتحدة ارتبط فيها سموُّه باستخدام نحو خمسين ضابطاً اميركيًّا ، واوصى بسفن حربية ومواد حربية وطربيدات وانهُ عزم على ان يرفع علم الثورة على السلطان . قال الوزير : انك تفهم الحالة . فان فرنسا على الرغم من صداقتها لخديو مصر ، لا يسعها ان تؤيد هذه الخطة ، وستضطر ان تنحاز الى انكلترا وبقية اوربا . فاذا وقع ما يخشى فان اميركا بعيدة ، والخسارة لا تقع على مصر ولا على الترعة بل على الخديو » [1]

وفي كتاب آخر مؤرخ في ١٨ مايو سنة ١٨٧٠ نجد ما قالهُ اميل اوليڤيه رئيس وزراء فرنسا لنوبار : —

« قل لسموّهِ باسمي ، كصديقٍ ، ان هذه الاسلحة تثير القلق ، وان الحكومة ولاسيما الامبراطور لا ترغب في عقد عُقد ، وان هذه الاسلحة بدلاً من ان تعزز مكانة الخديو توهنها » [2]

في أوائل مارس ١٩٣٧ يخرج رئيس تحرير « المقتطف » ترجمة لكتاب بيير كرابيتس القاضي الاميركي في المحاكم المختلطة سابقاً وهو الكتاب الذي وضعه في الخديو « اسماعيل » وردّ فيه ما وجه الى اسمه من تهم وفرى ، مستنداً الى اقوال المؤرخين والساسة ، محللا الارقام والجداول ، معتمداً على وثائق رسمية لم تنشر ، محفوظة في قسم المحفوظات بسراي عابدين . وقد استأذن المترجم مؤلف الكتاب وناشريه في نقله الى العربية ففاز منهم بالرخصة .

وهذا المقال الجانب الاداري من أحد الفصول

لو عمد الكاتب الى كتابة رسالة في ادب النفس لكان يلوم اسماعيل لانهُ عمد الى السلاح الوحيد المتاح لهُ عندما وقفت اوربا هذا الموقف . فقد كان لا بد لهُ من ان يلين لهذا الضغط السياسي لكنهُ حقن انهراً من الدماء ووفر اكياساً من الذهب بما فعل . فجنت مصر من عمله فائدة عظيمة ، [illegible] الظفر على الناحية الادبية من عمله لا يعترف بها . فلو سمح لهُ بان يحارب ، وأحرز الظفر في تلك الحرب ، لكانت النفقة اعظم جدًّا من الاموال التي فرَّقها ابراهام بك على رجال لم يغوهم بماله ، بل كانوا جزءا من اداة حكومية فاسدة

واذا كانت مصر اليوم من اكثر الامم

(١ و ٢) محفوظات عابدين : وثائق الاصلاح القضائي

رخاء ، فانها مدينة في ذلك لعبقرية كرومر وبعد نظر اسماعيل . انني لن احاول هنا ان اسوغ التأكيد الاول بل اسوقهُ على انهُ قول نهض عليهِ الدليل . اما العامل الاساسي في القول الثاني فهو الاستقرار الذي تتمتع بهِ مصر نتيجة للاصلاح القضائي الذي بذل ابراهام في سبيله جهداً عظيماً ، مشبعاً جشع الوزراء في الاستانة بينما كان نوبار في العواصم الاخرى يحاول اقناع رجال السياسة المجرَّبين

ولا بد من كلمة في طبيعة هذا الاصلاح القضائي . انهُ وليد ما توصف بهِ مصر في القانون الدولي من انها دولة تتمتع الدول الاجنبية فيها بامتيازات خاصة . وهذا يعني ان الاجانب فيها لا يحاكمون بمقتضى القانون المصري فقانونها يشمل المصريين لا الارض المصرية . فالانكليزي كان قبل هذا الاصلاح ، اذا باع بضاعة لبرتغالي فيها ، اوالاسباني اذا باع بضاعة لهولندي ، لا يقيم احدهما قضية في محكمة مصرية استصداراً لحكم يؤيد حقه في استيفاء ماله ، بل كان على الاول ان يقيمها في القنصلية البرتغالية فيرضى بتفسير القنصل للقانون البرتغالي ، والثاني في القنصلية الهولندية فيقبل تفسير القنصل للقانون الهولندي ، وقد لا يفوز باكثر من ذلك

وكلُّ هذا كان من شأنهِ ان يبث الاضطراب في المعاملات التجارية ويحول دون ورود رؤوس الاموال الاجنبية لاستغلالها في البلاد . فالاصلاح القضائي الذي كافح اسماعيل في سبيلهِ كفاح متشبثٍ مُصِرّ ، نصَّ على انشاء قضاء مختلط او دولي وعلى اصدار قانون متناسق يطبق في البلاد كأنهُ دولة داخل دولةٍ . وقد لخص لورد كرومر في احدى رسائلهِ اختصاص هذه المحاكم قال :

« ان تفصل في القضايا المدنية والتجارية والنزاعات الناشئة من تلك الارض . بين الاوربيين (يريد الاجانب) والمصريين او بين الاوربيين (يريد الاجانب) من جنسيات مختلفة او بين الاوربيين (يريد الاجانب) والحكومة المصرية » (١)

لما بدأ احتلال انجلترا مصر كان قد انقضى ست سنوات على انشاء المحاكم المختلطة . وكان من اثرها بث روح الاستقرار والضمان في الاعمال حتى اصبحت مصر لا تحتاج الآ الى استقامة السر اڤلنغ بارنغ — كما كان يعرف لورد كرومر حينئذٍ — وصدق قصدهِ وبارع خياله ، لكي تقام خزينتها على اساس سليم . ولولا ذلك السيد (برو قنصل) العظيم لضاعت الثمار الطيبة التي جنيت من الاصلاح القضائي ، ولكن لولا انشاء المحاكم المختلطة وما نبثهُ من روح الثقة ، لانهار الى الارض الهيكل الذي اقامتهُ انكلترا بسعيها الصادق

ثم هنالك عنصر آخر لا يجب الاغضاء عنهُ عند ما يلام اسماعيل على انفاقه مبلغ ٢٨٩ر٤٢١

(١) مصر بعد كرومر : تأليف اللورد لويد : هامش صفحة ١٧ المجلد الاول

جنبياً على الاقل ، للفوز من تركيا بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . وهو منطوٍ في القول المأثور «خيرٌ للذين يسكنون بيوتاً من الزجاج ان لا يقذفوا حجارة». واللورد ملنر الذي وصف الخديو بقوله انهُ « غشاش اصيل » يقيم لنا الدليل على صحة هذا القول المأثور . فهو يقول في كتابهِ « انجلترا في مصر » : « ولا يمكن ان نصور تصوراً صادقاً مبلغ الفساد الذي كان الوكلاء الدبلوماسيون الاجانب — ولاسيما في عهد اسماعيل — يعمدون اليه في استعمال نفوذهم لينتزعوا من مصر المسكينة الضعيفة مالاً توفية لأوقح المطالب

« لم يكن الغرض الاساسي من الفوز بامتياز ما في تلك الايام استغلال ذلك الامتياز استغلالاً نافعاً ، بل اختراع سبب لاهمالهِ ثم مطالبة الحكومة بتعويض . وعلاوة على ذلك كانت كل خسارة تصيب اي اجنبي ، او اي ضرر يلحق بهِ حتى ولو كان ناشئاً عن حادث هو المسؤول عنهُ ، فرصة تغتنم للمطالبة بتعويض . فاذا سرق ماله وقع اللوم على الحكومة لانها لم تقم الحراس الاكفاء. واذا جنح زورقهُ الى الشاطئ لام الحكومة لانها لم تنظف قعر النهر مما تراكم فيه . ويقال ان اسماعيل قال لاحد حشمهِ في خلال مقابلة مع احد الاجانب : اقفل تلك النافذة لانهُ اذا اصيب هذا الكريم بزكام كلفني ذلك ١٠ آلاف جنيه ، وليس في هذا القول اي مبالغة

« فلما انشئت المحاكم المختلطة ، كانت المبالغ المطلوبة من الحكومة تعدل ٤٠ مليون جنيه . اما ما تمثله هذه المبالغ من الضرر الذي لحق بالمطالبين بها ، فيمكن ان يتبيَّن من ان احدهم كان يطالب بمبلغ ٣٠ مليون فرنك فحكمت لهُ المحاكم المختلطة بالف جنيه »[1]

ان العبرة التي تستخلص من هذه الفقرة المقتبسة واضحة . فاسماعيل كان واقفاً وظهرهُ الى الجدار . وقد كانت بعض الوزارات الاوربية تؤيد هؤلاء المبتزّين وتحرّضهم على ابتزاز المال من الخديو . وهذا قول فيهِ معنى التحدّي ، ولكنهُ يستنتج من كلمات اللورد ملنر التي تقدمت . ان الدول لم تأذن لاسماعيل في محاربة تركيا لكي ينتزع منها بسيفهِ الاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . فكان عليهِ ان يختار، فإما ان يدفع مبلغ ٣٠ مليون فرنك توفية لطلب قدّرتهُ المحاكم المختلطة بالف جنيه واما ان يشتري الخلاص من هذه الحالة باشباع جشع الموظفين العثمانيين. فهل من الانصاف ان يلام على سعيهِ الى حماية نفسهِ بوسائل مخالفة للتعاليم الادبية حالة ان قبولهُ المحافظة على اساليب الضغط الدبلوماسي الاوربي يعني انتحاراً قومياً . اذا كان ذلك من الانصاف فالمثل اللاتيني السائر « Salus populi suprema lex » اي « سلامة الشعب هي القانون الاعلى » خطأ في خطأ

اما أوربا فتأنت في التخلي عن امتيازاتها ولم تقف من الاصلاح القضائي موقف عطفٍ

(١) كتاب اللورد ملنر «انكلترا في مصر» : الصفحة ٤٤

ورضى . إلاَّ أن معالجة انكلترا للموضوع كان مما يشرّفها . وقد استغرق سعي نوبار شهوراً تحولت الى سنين قبلما فاز من الوزارات الاوربية بالموافقة على انشاء المحاكم المختلطة . وظلت فرنسا تمانع في انشائها بعد موافقة الدول الاخرى ولما أعربت عن رضاها كانت المحاكم قد بدأت عملها فعلا . ان قصة المساعي التي بذلها نوبار من أقصى أوربا الى أقصاها فصل خطير في ملك اسماعيل

كانت القاهرة قد أنبئت في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٧ ان وزارة الخارجية البريطانية «تعترف بضرورة الاصلاح القضائي وتكرهُ مساوىء النظام القائم وتعهدت ببذل معونتها مع الدول على شريطة تعهد الحكومة المصرية بموافقة الدول»(١) . وفي ٨ نوفمبر ١٨٦٧ جاء من المانيا أن المانيا وافقت على مبدإ الاصلاح القضائي على شريطة حلّ مشكلة الضمانات التي تمنح للاجانب حلاً يبعث على الرضى وعلى شريطة تدبير فترة الانتقال وانشاء مدرسة للحقوق لتدريب قضاة المستقبل . ولكن الامور لم تسر هذا السير الحسن في فرنسا فكتب نوبار الى القاهرة في ٥ مارس سنة ١٨٦٩ ما يلي :

« أشار عليَّ الجنرال فلوري بأنني اذا كنت أرغب في الوصول بالمفاوضات الى خاتمة سريعة تبعث على الرضاء فعليَّ أن أطلب مقابلة الامبراطورة وأن أقول لها أن مولاي الجليل قد أمرني بأن أُنبئه هل جلالتها تنوي زيارة مصر لحضور الاحتفال بافتتاح ترعة السويس لانهُ اذا كانت تنوي ذلك فهو يرغب في اعداد الاحتفاء بها احتفاء يليق بمقام امبراطورة عظيمة وفاتنة . وقد قال الجنرال ان هذا العمل يبعث على أغتباطها ، وانها هي المسيطرة على لاقاليت (المركيز ده لاقاليت كان وزير الخارجية حينئذٍ : المؤلف) وانهُ اذا لم تفعل فقد تطول المفاوضات

« أما لورد ليونز الذي قابلتهُ بعد ظهر اليوم فقال لي أن المركيز ده لاقاليت حسن الاتجاه ولكنه غير مستعجل لأن مشكلة البلجيك تستغرق معظم وقته . وأنني لمتردد في الاتجاه الى الامبراطورة على نحو ما أشار الجنرال فلوري من دون أن أتلقى تعليمات أولاً من سموكم»(٢)

ان حرق البخور على مذبح زهو امرأة ، يلقي ضوءاً على ناحية من خلق اسماعيل . فقد زُعم انهُ انفق عشرات الالوف من الجنيهات في الاحتفاء باصحاب التيجان الذين حضروا حفلة افتتاح الترعة . والراجح ان هذا الزعم صحيح . ولكن كتاب نوبار المؤرخ في ٥ مارس ١٨٦٩ يدل على ان ذلك الانفاق لم يكن جزافاً وان الابهة التي قابلهم بها كانت اسلوباً من اساليب حمله في سبيل الاصلاح القضائي

وعلى كل حال يظهر ان الامبراطورة اعجبت باطراء نوبار عندما اذنت لهُ في مقابلتها . فسارت الامور على ما يرام وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٦٩ ارسلت البرقية التالية الى القاهرة : —

«عندي من الوزارة ما يثبت لي ان قبول الحكومة الفرنسية اصبح مؤكداً . فلي ان اهنىء سموكم . ولا ريب في ان وفاة مدام لاقاليت قد يؤخر صدور البيان الرسمي بضعة ايام»(٣)

(١) محفوظات عابدين : ملف الاصلاح القضائي ١٨٦٧ (٢ و ٣) محفوظات عابدين : ملف الاصلاح القضائي ١٨٦٩

واذ كان نوبار يبذل مساعيهُ في اوربا، راجع اسماعيل محفوظاتهِ فلاحظ ان احداً لم يفاتح الولايات المتحدة الاميركية في الموضوع فكتب الى نوبار ما يلي :

«عزيزي نوبار : في موضوع الاصلاح القضائي، لم نفاتح الولايات المتحدة بعد . فيجدر بنا ان نفعل ذلك الآن »[١]

وكذلك كان . والظاهر ان وشنطن كانت قد تلقت انباء رسمية عما يدور في هذا الصدد . ويقول القاضي برنتن : ولكن من سخرية القدر أن اول نبأ اتصل بحكومة وشنطن عن مشروع الاصلاح ، كان مفرغاً في قالب نداء الى الولايات المتحدة لتستعمل نفوذها لمنع تحقيقهِ . وكان هذا النداء باسم أمةٍ احد أبنائها اليوم ، عميد المحاكم المختلطة ومقدَّم رجال القانون في مصر . ففي رسالة مؤرخة في ٢٢ دسمبر سنة ١٨٦٧ وموجهة الى وزير خارجية اميركا اعربت حكومة اليونان عن رأيها بأنهُ يبدو لها ان تعديلاً خطيراً كهذا ولا سيما لأنهُ يمسُّ جميع حقوق الأجانب تقريباً في مصر، يُعدُّ سابقاً لأوانهِ وان الجهل والتعصب والمفاسد المتأصلة في العناصر الوطنية تحول دون دعوتها لممارسة أعلى وظائف القضاء »[٢]

ان المعارضة الناشئة عن وقوف حكومة اليونان هـذا الموقف وضعت عراقيل كثيرة في طريق نوبار . ولـكنهُ كان قادراً على النهوض بالتبعة الملقاة عليهِ . فقد كان متصفاً بالتفاؤل وحسن الحيلة والصراحة ، فلم يقنط من طرق أبواب الوزارات في أوربا . ولـكن روسيا القياصرة لم تكن جزءاً من أوربا حينئذٍ أكثر من روسيا السوفيت الآن . وكان نظرها الى الواجب يختلف عن نظر لندن . فالذهب كان في نظرها مفتاحاً من مفاتيح التعقل . واذن كان لا بدَّ من الاعتماد على مساعي ابراهام في مفاوضتها . فأرسلت اليهِ برقية في ١٣ يناير سنة ١٨٧٣ وكان لا يزال في الاستانة فاذا البرقية تنطوي على ما يلي :

« يجدر بك أن تأخذ مبلغ ٨ آلاف جنيه في سندات (القنصليد) وضعها في ظرف واكتب عليهِ عنوان الجنرال إيجناتيف . ثم اختمهُ بالشمع الأحمر ولـكن لا تستعمل ختمك . ثم سلمهُ الظرف وقل لهُ انك تلقيت هذا الظرف بالسفينة الخاصة التي جاءت لتنقل جهاز ابنتي . فاذا سأل عما فيهِ فقل انك لا تعلم . واجتنب ان يفتح الظرف أمامك حتى يظنَّ انك لا تعلم شيئاً عما فيهِ »[٣]

كانت روسيا في تلك الايام نصير الروم الارثوذكس من المسيحيين . وكانت ذا سلطان عظيم في الاستانة . وكانت تطمح الى مدّ نطاق امبراطوريتها الى البوسفور . وكان سفيرها من أعظم السفراء الموفدين الى الباب العالي مقاماً ونفوذاً . فلو عارض في الاصلاح القضائي لتعذر على اسماعيل تحقيق ما يصبو اليهِ . وقد كان الجنرال إيجناتيف سفير القيصر ولذلك كانت خطة اسماعيل تنطوي

(١) اشتراك اميركا في المحاكم المختلطة تاليف جاسبر برنتن القاضي بالمحاكم المختلطة بالاسكندرية ص ٧٣
(٢) محفوظات عابدين : ملف ابراهام : سنة ١٨٧٣

على كسب عطف هذا السفير . فاقبل ابراهام على عمله بما عرف به من الدقة والنظام . وفي يوم ١٥ يناير انبأ اسماعيل بانه سيعالج مسألة الظرف وفقاً لتعليماته ثم بمساعدة للجنرال إيجناتيف (١)

الا ان سير الامور كان بطيئاً . ولم يستطع « مراقب » الخديو ان ينبيء مولاه باي تقدم نحو الغرض الا في ١١ فبراير . قال في رسالة :

« قال لي « البنكير » كامارا انه اذا شئنا ان تنتهي مسألة الاصلاح القضائي فعلينا ان نعطيه المال الذي وعد به ، لان التدبير قد تم تقريباً بفضل إيجناتيف الذي يطلب عشرين الفاً من الجنيهات . فقلت له : انني وعدتك حقيقة بمبلغ من المال ولكنني فعلت ذلك على شرطين اولهما : ان تأتيني بكتاب من إيجناتيف بان روسيا توافق على جميع الشروط . وثانيهما : أن تنتهي المسألة في خلال شهرين . فذهب كامارا ثم عاد وهو يقول ثق بي عندما أقول لك ان إيجناتيف قد بذل جهده . ولكن المسألة لم تنته بعد . وقد تطول اذا لم يتسلم المبلغ الذي وعد به » (١)

وتلقى ابراهام رداً من القاهرة في اليوم نفسه ومؤداه انه قد خوله دفع مبلغ ٨ آلاف جنيه وان الباقي وهو ١٢ الف جنيه يرسل عندما يسلمه إيجناتيف كتاباً ينص على أن حكومته خولته حق الموافقة على الاصلاح القضائي . فكان رد ابراهام على هذا مؤرخاً في ١٣ فبراير وقد اكد فيه انه سلم إيجناتيف مبلغ ٨ آلاف جنيه على اساس القواعد التي وصفها الخديو فلما كان اول مارس جعل كامارا يشدد على ابراهام بوجوب دفع الباقي من المبلغ وهو ١٢ الف جنيه للسفير وأنبأه بأن الرسالة الخطيرة التي تنص على الموافقة ستسلم في ذلك المساء . وقد سلمت فعلاً ولكنها كانت كما يصفها المحامون « مبهمة وعامة وغير محدودة » . فلما أبلغت محتوياتها الى الخديو بالبرق أبرق سموه الى ابراهام بتاريخ ٣ مارس :

« لا معنى لهذا الكتاب . ومن بواعث الأسف ان يكون قد تسلم مبلغ ١٢ الف جنيه لانه لن يعطينا كتاباً آخر الا لقاء مبلغ آخر من المال » (١)

وقد كان ابراهام عارفاً بمداخل هذه المعاملات ومخارجها فلم يخدع فأبرق الى مولاه بذلك وقد طال الاخذ والرد بين ابراهام ووكيل السفير الروسي حتى منتصف شهر مارس اذ فاز ابراهام بكتاب من السفير وافٍ بالغرض فأبرق الى الخديو :

« مولاي الجليل . دفعت مبلغ ١٢ الف جنيه لايجناتيف فكان شديد الاغتباط »

ان سرد هذا القصة الاليمة من قصص الجشع الروسي يبين كيف تغلب الخديو على احدى العقبات التي هددت مشروع الاصلاح القضائي بالحبوط . وقد كان هناك عقبات اخرى ولكن نوبار تخطاها بمنطق السياسي المحنك ولباقة الدبلوماسي البارع

(١) محفوظات عابدين ملف ابراهام ١٨٧٣



بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ١٧ —

إبرة آدم الفاخرة

ويقال لها يوقا (Yuca) عند أهل سنت دومنغو وهي شجيرة دائمة الاخضرار ساقها بسيطة أو متفرعة ترتفع مترين . اوراقها كبيرة عديدة متضامة صلبة قائمة لونها أخضر يضرب الى الزرقة كاملة الحافة تماماً طول الواحدة منها متر وعرضها ٨ سنتيمترات مقعرة من وجهها العلوي ولها رأس شائك . وأزهارها مجتمعة في عنقود طوله متران يخرج من وسط الاوراق الواحدة منها بيضاء تضرب الى الخضرة من الداخل ومبقعة باللون الارجواني من الخارج وشكلها كالجرس المتدلى

اسمها العلمي (Yucca Gloriosa, L.) (يوقاغلوريوزا) وفصيلتها الزنبقية (Liliaceae) (ليلياسية) وبالانجليزية (superb Adam's needle; mound lily) والفرنسية (yucca glorieux)

موطنها امريقة الحارة (فرجينيا) وهي ضرب من الزنبق الأبيض مرغوب فيه للزينة جداً في البساتين المصطنعة من الصخور (الجبليات) لشبهها بشجر النخل والاناناس والصبار ولدوام اخضرارها وهي بطيئة النمو والإزهار ولذا تناسبها البيوت الزجاجية (الصوبات) في غير موطنها الاصلي أما اذا زرعت في العراء فلا تنجح

ابرة الراعي المنسوبة لروبرت (١)

هي عشب سنوي يرتفع من ١٥ سنتيمتراً الى ٣٠ ورقته ذات ثلاثة فصوص أو خمسة مقسومة تقسيماً ريشياً ثلاثياً وأزهاره حمراء قرمزية أوراق تويجاتها كاملة الحافة طول الواحدة منها ضعف طول ورقة الكأس التي تكون مضلعة ولها سفاة كالابرة

اسمهُ العلمي (Geranium Robertianum, L.) (جرانيوم روبرتيانوم)(٢) وفصيلته الجرانية أو فصيلة ابرة الراعي (Geraniaceae) (جرانياسية) وبالانجليزية (herb robert; Scotch geranium)
والفرنسية (gèranium robertin; bec de grue; herbe à Robert;)

شائع في اوربا (فرنسا وانجلترا) وآسيا وافريقة الجنوبية ويكثر في الأراضي الزراعية نامياً بطبيعته وقد يزرع احياناً في المواضع التي تظللها الاشجار وعصارته تستعمل دواء قابضاً وعطراً كماء الورد

إبرة الراعي المُخَطَّطة

هي عشب معمر ساقهُ مستديرة غير قائمة ترتفع الى قدم ورقته السفلى ذات خمسة فصوص وكل فص بيضي الشكل محدد الرأس مسنن الحافة جداً وأزهاره جميلة وردية تتخللها خطوط أرجوانية

أسمه العلمي (Geranium striatum, L.) (جرانيوم استرياتوم) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (queen Ann's needle work; striped crane's bill)
والفرنسية (geranium strié; bec de grue strié) شائع في شمال اوربا وايطاليا وغيرها يزرع للزينة ويبدأ في الإزهار من شهر مايو

إبرة الراعي اللانكشيرية

هي عشب معمر متساقط الأوراق ساقه مفرشة على الارض ذات عقد يرتفع من ١٠

---

(١) في الشام يطلقون على ما عندهم من انواع هذا النبات اسم (جرنة) و(عتر) و (منقار الكركي)
(٢) اشتق اسم جرانيوم من جرنيون (géranion) عند قدماء اليونانيين اخذاً من جرانوس (géranos) بمعنى كركي وذلك لشبه ثمرة هذا النبات برأس الكركي ومنقاره

سنتيمترات الى ١٥ أوراقه متقابلة الوضع في كل واحدة منها خمسة فصوص غائرة وأزهاره كبيرة قرنفلية اللون تتخللها خطوط أرجوانية

اسمهُ العلمي (Geranium Lancastriense, With.) (جرانيوم لانقاستريئسي) أو (Geranium sanguineum lancastriense, Mill.) (جرانيوم سانغوينيوم لانقاستريئسي) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (Lancashire crane's bill) شائع في انجلترا وفرنسا وغيرهما يزرع للزينة

إبْرَة الراعي القرمزية

هي عشب متساقط الاوراق جميل المنظر ساقه قائمة كثيرة الفروع ترتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ أوراقه متقابلة الوضع في الواحدة منها خمسة فصوص وكل فص مقسوم الى ثلاثة فصوص صغيرة على هيئة خطوط وأزهاره كبيرة قرمزية تضرب الى اللون الارجوانى اي حمراء كالدم

اسمهُ العلمي (Geranium sanguineum, L.) (جرانيوم سانغوينيوم) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (bloody crane's bill) والفرنسية (géranium sanguin)

شائعٌ في أوربا (فرنسا وانجلترا) وغرب آسيا يزرع للزينة وهو اجمل الانواع يزهر من مايو الى سبتمبر وعصارته تشتمل على حامض العفص واسمها الفرنسي (rouge de géranium) تستعمل في الطب قابضاً

إبْرَة الراعي ذات أوراق شقائق النعمان

هي عشب ساقه كساق الشجيرة يرتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ أوراقه السفلى كفيّة ملساء الواحدة منها مقسومة الى خمسة فصوص وكل فص مضاعف التقسيم الريشي والأوراق العليا مقسّمة تقسيماً ثلاثيًّا وأزهاره كبيرة قرنفلية اللون أو حمراء أرجوانية

اسمـــهُ العلمي (Geranium anemonaefolium, L.) (جـرانيوم أنيمونيفوليـوم) أو (Geranium Lowii) (جرانيوم لوياي) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (anemone-leaved crane's bill) شائع في جزيرة مَديْرَة يزرع للزينة ويزهر في الصيف

إبرة الراعي المُبَقَّعة

هي عشب متساقط الأوراق معمر جميل المنظر ساقه الأرضية غليظة والهوائية قائمة ذات ضلوع على نوع ما ثنائية الشعب مغطاة بشعر قصير ناعم أوراقه مقسومة الى ثلاثة فصوص أو خمسة مسننة الحافة الجذرية منها ذات عنق طويل جداً والعليا متقابلة الوضع عديمة العنق وأزهاره أرجوانية اللون فاتحة تتفاوت في الحجم

اسمه العلمي (Geranium maculatum, L.) (جرانيوم ماكولاتوم) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (spotted crane's bill)

والفرنسية (géraine maculatum)

شائع في امريقة الشمالية وعصارة ساقه الارضية تستعمل في الطب مقوياً للمعدة وقابضاً في حالات النزيف الباطني والخارجي والاسهال

أذن الحمار المتوسط

عشب متساقط الأوراق ترتفع ساقه الى ٢٠ سنتيمتراً أو ٢٥ وله سوق كثيرة الامتداد على سطح الارض أوراقه بيضية الشكل ملساء تقريباً الجذرية منها ذات عنق والعليا تكاد تكون عديمة العنق (جالسة) وأزهاره زرقاء او بيضاء

اسمهُ العلمي (Ajuga reptans, L.) (آجوغا ربتانس)[١] وفصيلته الشفوية وبالانجليزية (bugle) والفرنسية (bugle rampante; consoude petite)[٢] وهو شائع في اوربا يزرع للزينة ومشتهر عند العامة هناك دواء لالتئام الجروح ومبرد وقابض لطيف

---

(١) يؤثر عن اللاتينيين أنهم عزوا الى النبات المسمى (ajuga) خاصية ادرار الطمث ولكن الراجح ان هذه الخاصية انما هي للنبات المعروف الآن (بالمرصف) وهو (الكمافيطوس) واسمه العلمي (Ajuga Chamaepitys, Schreb.) وبالانجليزية (yellow bugle or ground pine) والفرنسية (germandrée ivette ou chamaepitys)

(٢) ولتشابه الخواص الطبية بين نباتي اذن الحمار المتوسط وابو خلسا او لسان الثور قد اطلق على الاول منهما اسم (bugle) مصحفا عن (bugula) باللاتينية الذي هو مرادف (ajuga) أما (bugula) فهو مختصر (bugiossum) مرادف (anchusa) اسم الجنس لابي خلسا او لسان الثور واسمه العلمي (Anchusa officinalis, L.) وبالانجليزية (common bugloss)
والفرنسية (buglose ou buglosse des boutiques)

مدارس الصحافة

وبواعث انشائها

للدكتور ليل سبنسر
عميد كلية الصحافة بجامعة سيراكوس الاميركية
والاستاذ الزائر بقسم الصحافة بجامعة القاهرة الاميركية

ان الجامعات الاميركية في طليعة جامعات العالم اهتماماً بالصحافة وتدريسها كفن من الفنون الهامة. وقد دعاها الى ذلك سببان رئيسان هما: (١) قوة الصحافة ومنزلتها الاجتماعية. (٢) حاجة الصحافة والنشر في العصر الآلي الحديث الى دراية فنية ودربة عملية

منذ سنوات قليلة أخرج الاستاذ اوجبرن (Ogburn) بجامعة شيكاغو كتاباً عنوانهُ «التطور الاجتماعي» نبه فيهِ الافكار الى حقيقة جديرة بالتأمل هي ان المعلومات المدخرة عند اي فرد من الناس ترجع في اصلها الى عنصر اجتماعي. اي ان ما لدينا من المعلومات مأخوذ في الأصل عن غيرنا. وان قدراً ضئيلاً من تلك المعلومات مكتسبٌ بالملاحظة الفردية والاستنباط الشخصي المبتكر. وقدرة الرجل العادي على استنباط النتائج الجديدة بنفسهِ من غير الاستعانة بغيره قليلة لا تكاد تذكر. أو بعبارة أخرى ان الأمور الفكرية التي ينتفع بها المرء في هذه الحياة قد اشترك في تكوينها واعدادها افراد عدَّة مجتمعة فنحن نعرف ما نعرفهُ لأنَّا تعلمناهُ عن الآخرين، لا لأنَّا فكرنا فيهِ مستقلين. لقد درس الاستاذ اوجبرن مائة وثمانية واربعين مخترعاً من اعظم المخترعات في العصور الحديثة فلم يجد في واحد منها ابتكاراً مستقلاً تمام الاستقلال بمعنى ان صاحبه انفرد بهِ وحده ولم يعتمد في تكوينهِ على افكار غيره، بل رأى في كل حالة أن المخترع أو الكاشف كان يستعين بالمعلومات التي كان لغيره الفضل في اعدادها

وهذه الحقيقة نفسها هي التي دعت الاستاذ روس فني Ross Finney بجامعة (منسوتا) الى القول بان التفوق العقلي في المرء ليس نتيجة لمجهوده الفردي ولكنهُ أثر من آثار التفكير الجمعي. ثم قال بعد ذلك أن كشف حقائق جديدة تضاف الى الحقائق القديمة عمل شريف جدير بالتقدير ولكنهُ عمل نادر الحدوث. وان الاستقلال الفكري الذي نفخر بهِ احياناً ليس الأ سراباً خداعاً لا حقيقة له

والواقع أن الآراء التي لدينا وهي التي ننسبها كثيراً الى انفسنا وصلتنا أولاً عن افراد الاسرة والمتصلين بنا. ثم جاءت بعد ذلك عن طريق الصحف والكتب والمجلات. وما نأخذه عن الصحف أوفر وأكثر مما نأخذه عن الكتب والمجلات. ولا شك ان ما ننقله عن الزملاء والاصدقاء وغيرهم مقتبس معظمه من الصحف

فما تعلمونهُ عن الفيضان في اميركا وإضراب العمال هنالك قد جاءكم نبؤه في الصحف. وما تعرفونهُ عن هتلر وموسوليني وستالين نقل جميعه من الصحف. كذلك ما تسمعونه عن الحرب في اسبانيا وأعمال ايطاليا في الحبشة والازمة الوزارية في اليابان كل ذلك جاءكم عن طريق الصحف. والاخبار التي تذاع كل يوم بالمذياع جمعتها الصحف ونقلتها الى محطات الاذاعة فقامت بنقلها اليكم. وغاية القول ان الصحافة اصبحت أقوى وسيلة لنشر الانباء والمعلومات المتداولة بين الناس. وهذه المنزلة السامية للصحف في الحياة العصرية هي التي حدت بجامعات اميركا ودفعتها الى العناية بدراسة الصحافة بانشاء مدارس خاصة لتلقين الناشئين من الطلاب والطالبات فنونها والتخصص فيها كسائر المهن الاخرى

ولا يفوتني ان اذكر ان الصحف في اميركا قوية وان الجامعات هنالك قد انشأت مدارس لها اعترافاً بفضلها على المجتمع. وقد سررت كثيراً حين علمت ان الصحف في مصر تتمتع بحريتها ولا أعتبر ذلك امتيازاً لها بل أعده حقاً من حقوقها. وأهنئكم لانكم تنشرون صحفكم هنا في احوال تختلف عن نظائرها في بعض البلاد الاخرى كايطاليا والمانيا وروسيا. اذ لا يستطيع شعب ان يتمتع بالحكم المستقل ما لم تكن صحافته حرة تعبر عن آرائه وطرائقه التي يريدها لحكم نفسه. وتمتعكم في مصر بالحرية الصحفية تراث ثمين يجب عليكم المحافظة عليه. هذا هو السبب الاول الذي اردت ان احدثكم عنه

اما السبب الثاني الذي دعانا الى انشاء مدارس للصحافة في اميركا فراجع الى تعقد الحياة الاجتماعية العصرية وازدياد الوسائل الفنية للنشر والاعلان. فالحياة الفطرية الاولى لم تكن في حاجة الى تعليم رسمي منظم إذ كان الاب والام يتوليان تربية الابناء في المنزل وتعليمهم ما يلزمهم للحياة في مجتمعهم الساذج الصغير. كما هو الحال الآن في القبائل المتوحشة التي يقتصر التعليم فيها على تدريب الابناء على صيد الاسماك والحيوان والدفاع عن النفس وتعليم الفتاة شيئاً يسيراً من الطهي وطحن الحبوب وحياكة الملابس وأمثال ذلك. ولكن لما اتسعت الحياة وتقدم المجتمع اصبحت النظم اكثر تعقيداً وصار التعليم الرسمي ضرورة من ضروريات المعيشة. فالاب والأم لا يستطيعان الآن اعداد ابنائهم وبناتهم لعصرنا هذا. ولعل الكثير منا يذكر ان معرفة المواد الثلاث القديمة وهي القراءة والكتابة والحساب كانت كافية لأعداد الطالب للحياة وعَدّه مهيأً للزعامة

لقد انقضى ذلك الزمان واصبحنا في عصر تشابكت فيه المصالح وتعددت اساليب المعيشة واختلفت وسائل العمل والارتزاق . ولا نبالغ اذا قلنا اننا في عصر لا يستطيع فيه الشاب ان يحصل على القدر اللازم لسعادته من التربية الا بعد ان يصل الى سن الثلاثين. ولقد كان هذا التزاحم على الحياة والميل الى النجاح فيها داعياً الى الاجادة والمهارة في الوسائل التي تكفل الفوز ومن اجل ذلك قال الناس بالتخصص والانقطاع الى بعض فروع العمل والتوفر عليها ليضمن الانسان الاتقان . فبدأ التخصص اولاً في الدين ثم في الطب ثم في الحقوق والهندسة وتبعها غيرها وجاء الآن دور التخصص في الصحافة . ومن الصعب ان نذكر تعليلاً صحيحاً لتأخر التخصص في الصحافة عن غيرها من المهن الاخرى وربما كان سبب ذلك الظن بأن كل فرد يحسن الكتابة وتحريك القلم وصوغ العبارات واعداد الآلات يصلح ان يكون محرراً لصحيفة او مديراً لها

ولكن الحقيقة ان التحرير والنشر يتطلبان تعلما فنيًا وثقافة حرة واسعة النواحي

فالصحفي الحديث لا بد له من الالمام التام بالتاريخ والاجتماع والاقتصاد والسياسة واللغات. ولقد رأيت بنفسي خطباً جليلة لقادة عظماء قد نقلها بعض الصحفيين ونشرها في جرائده فنالت السخط والاستهزاء من القراء لا لأن تلك الخطب معيبة او بها نقص او سوء اختيار ولكن لان أولئك الصحفيين لم يكونوا ذوي المام تام بشئون الحياة وعلم واسع يمكنهم من فهم اغراض الخطباء وصوغها بالروح السامي والعبارات اللائقة التي تحدد المعاني وتوضحها وتنقلها الى القارئين كما يريدها أولئك الخطباء . وهذا هو السبب عينه الذي يدعو الى رفع شأن بعض الصحف واسقاط غيرها فمديرو الصحيفة والمشرفون عليها هم الذين بيدهم ان يكتبوا لها الحياة والذيوع او يسوقوا اليها الموت والافلاس

ولا يغيب عنا أن مهمة الصحيفة ليست مقتصرة على الاخبار والمسائل العلمية والادبية التي تتطلب منا نحن معشر الصحفيين خبرة وفهماً ولكن هناك باباً هامًا من الابواب التي تعتمد عليها الصحف وتستعين بها على الحياة والبقاء ذلك هو باب « الاعلانات » وهو باب ليس اقل شأناً واحتياجاً الى العناية والدراية من سائر الابواب الاخرى فلهُ من الوسائل والاساليب الخاصة ما يدعو القراء الى الالتفات اليه. ولولا تلك الوسائل والاساليب ما اهتم به احد من الناس فيصيب الصحيفة بسبب هذا الاهمال ضرر جسيم — وهذا هو الباعث على ان بعض الناس يقرءون تلك « الاعلانات » في بعض الصحف ولا يجدون باعثاً على قراءتها في صحف اخرى

مما تقدم يتضح لنا ان تحرير الصحيفة والاشراف عليها واظهارها للناس في ثوب لائق يتطلب منا في عصرنا الحديث تخصصاً في فنون الصحافة وانقطاعاً لدراسة وسائلها كما ينقطع بعض الطلاب لدراسة الطب او الحقوق او الهندسة او غير ذلك

العلم في خدمة الانسانية

الغدد والحياة

— ٣ —

الغدد وتجديد الشباب وتعيين الشق

لما اتيح للعلماء توَرا الشق نقيين استطاعوا أن يمتحنوا بهما اقوال الداعين الى تجديد الشباب بالعمليات الشقية sex operations فاستبدل شتيناخ النمسوي بعملية زرع الغدد حقن الثيلين (توَر الانثى) او الاندروستيرون (توَر الذكر) ولكن التبديل لم يسفر حتى الآن عن اي دليل على انهما يعيدان النشاط للعجائز والشيوخ. وفي ذلك قال ستوكراد: « ظنّ شتيناخ وفورونوف خطأ ان تكّس الغدة الشقية degeneration هو الباعث على الشيخوخة. وهذا رأي قائم على وهم. لان تكّسها عرض وليس بسبب. فالثور الخصيُّ والجواد الخصيُّ والديك الخصيُّ لا تفوق في سرعة شيخوختها او بطئها الثيران والجياد والديوك السوية». ولا يزال فورونوف يبحث في كل قطر من اقطار الدنيا عن أسرار التعمير ولا يزال كثير من الشيوخ يعلّقون بمباحثه أوهى الآمال

ان عزل الثيلين والاندروستيرون والتستوستيرون مكن العلماء من ان يوغلوا في بحث اسرار الشق التي امضّت عقول الناس قروناً طوالاً. بهذه الانوار تمكنوا من تفسير بعض التجارب الغريبة التي تمت في القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن. ففي سنة ١٨٤٩ عمد باحث يدعى برتولد الى تجارب جربت قبل قرن من الزمان ونوّعها قليلاً واعاد تجربتها وذلك بسلّه خصى الديوك من موضعها الطبيعي وزرعها في الديوك نفسها ولكن تحت جلدها. فلم يظهر على الديوك اي أثر من آثار الخصي. وذلك لان الخصى ظلّت تفرز من موقعها الجديد مفرزاتها الداخلية في الدم وهي المفرزات التي ترتدّ اليها صفات الذكر الشقية. ثم جاء باحث آخر سنة ١٩٠٠ وجرب تجارب من قبيلها بغدد الاناث الشقية. وفي سنة ١٩١٦ أخذ غوديل Goodale المبيض من دجاجة وزرعه في ديك خصيٍ فتحوّل الديك دجاجةً في مظهره الخارجي وسلوكه. ذلك أن تور المبيض أفرز في دم الديك فأنشأ فيه الخصائص الانثوية المتصلة به

ثم كشف الدكتور فرانك للي Lillie كشفاً كبير الشأن في هذا الموضوع عند ما شرع في دراسة الخناث . وقد تمَّ لهُ ذلك وهو لا يعلم أن عالمين نمسويين كانا قد سبقاهُ اليه قبل ست سنوات .

تلد بعض المواشي توائم ويكون أحد التوأمين في بعض الاحيان ذكراً والآخر أنثى تتصف بصفات الشقين اي الذكر والانثى وهو ما يعرف عندنا بالخنثى . والخنثى عقيم وأعضاؤها الجنسية غير سوية التركيب. فتناول الدكتور للي في دراسته عشرات من هذه الخناث فوجد ان جهاز الدورة الدموية في كلٍّ من التوأمين ، لا يكون متصلاً قبل الولادة اتصالاً مباشراً بدورة الام ، بل يكون أحدهما متصلاً بالآخر . وكذلك يدخل توُر الخصية من الذكر دم الانثى وهي في أدوار نموّها الاولى فيحدث فيها تغيراً في تكوينها يجعلها شبيهة بعض الشبه بالذكر . وما انقضى على ذلك بضع سنوات حتى تمكّن ساند Sand أحد علماء كوبنهاغن عاصمة الدنمارك من انجاز عملية طريفة . ذلك انهُ أخذ ديكاً وزرع فيهِ مبيضاً ، وانتزع ريش الجانب الأيسر من جسمهِ عند اتمام عملية الزرع ، فلما نما ريش جديد مكان الريش المنتزع كان ريش الانثى وذلك من تأثير مفرزات المبيض . وكذلك أصبح هذا الديك نصف ريشه ريش ذكر والنصف الآخر ريش انثى . وفي سنة ١٩٣٠ أخذت ماري جوهن Juhn الباحثة في جامعة شيكاغو ذكر طائر أحمر الريش وحقنتهُ بالتوُر الشقي من امرأة ، فتحوَّل ريشهُ وأصبح كأنهُ أنثى ذلك الطائر

هذه البحوث والتجارب تفسر لنا ما كان يقع للخصيان في قصور السلاطين ، او للفتيان الذين كانوا يخصون للاحتفاظ بصوتهم رفيعاً كصوت النساء (سوپرانو) للترتيل في الكنائس . ثمَّ أن دراسة أتوار الشق كشفت عن بعض الحوادث الغريبة التي وصفها الطبيب النفسي كارل مينجر . فمن الحوادث التي حدثت حادث رجل أُصيب بعد الحرب بمرض النوم . فلما شفي من مرضهِ لاحظ ان شعر عارضيهِ توقف عن النمو . وان صوتهُ اصبح عالي النغمة ، وكبرت ثندوتاهُ حتى اضطرَّ ان يستأصلهما بعملية جراحية وأصبح كالنساء في ما يستوقف عنايتهُ ويسترعي اهتمامهُ . وكان لما رآهُ هذا الطبيب جالساً في سريره في احد المشافي وهو يطرّز . وتفسير ذلك ان مرضهُ أحدث اضطراباً في غددهِ الشقية فأصبح خنثى . وهذه الظاهرة ظاهرة الخناث كثيرة في النباتات ولكنها مشاهدة في الرجال كذلك . ولعلَّ أشهر حوادثها حادث رجل ثندوتاهُ كثندي المرأة وسلوكهُ كسلوكها ولكن أعضاءهُ التناسلية اعضاء رجل تام الرجولة ، فالخناث والتجارب المتصلة بهذا الموضوع هي الدليل القائم على تأثير أتوار الشق في تغيير خصائص الاحياء

***

إلاَّ ان تفسير الشق بأتوار الغدد الشقية ليس بالتفسير العلمي الوحيد . بل هناك التفسير

الآخر الذي تقدَّم بهِ العلاَّمة توماس هنت مورغان وهو القائم على عوامل الوراثة المنطوية في الكروموسومات . ثم لما نشأ علم المفرزات الداخلية بيَّن اقطابهُ ان هذه المفرزات ولا سيما مفرزات الغدد التناسلية هي العوامل المسيطرة على تعيين شق الوليد (Sex) وهل يكون ذكراً او انثى .

كان رأي ارسطوطاليس انهُ اذا كانت نطفة الذكر غير قوية ، نشأ وليد ناقص وهو الانثى . وظلَّ الناس قروناً متوالية يعتقدون ان مفرزات الخصية اليمنى تولد الذكر حالة ان مفرزات الخصية اليسرى تولد الانثى . واضيفت الى هذه العوامل عوامل اخرى ذكر بينها سن الوالد وغذاء الوالدة والحرارة عند الحمل بل واتجاه الرياح ايضاً . وفي أواخر سنة ١٩٣٣ حاول احد العلماء ان يثبت ان زيادة المادة القلوية مثل مادة بكربونات الصودا تفضي الى ولادة الذكور حالة ان زيادة المادة الحامضة كالحامض اللبنيك تفضي الى ولادة الاناث

ولا يزال العلماء الى يومنا هذا غير مجمعين على رأي واحد يفسرون بهِ تعيين الشق في المواليد . ولكنهم يقرّرون أن الكروموسومات ومفرزات الغدد الصم المختلفة هي العوامل الرئيسية

ثم هناك تفسير آخر . فالاستاذ لِلي Lillie يعتقد ان كل خلية تنشأ من تلقيح بيضة بنطفة ذكر تشتمل على خصائص الخنثى وان اضطراباً في الغدد واحوال البيئة التي تتكاثر فيها هذه الخلية ، قد تفضي الى تغلب الذكر على الانثى او الانثى على الذكر

ولهذا الرأي خطرهُ من ناحيتيهِ النظرية والعملية . اما الناحية العملية فيبدو خطرها في ان مربي الحيوانات يهمهم تكثير الابقار والدجاج دون الثيران والديوك . وقد حاول بعضهم ان يسيطر على شق الحيوان فاصاب قسطاً من النجاح . ففي مختبر علم الحيوان بجامعة انديانا تمكن الباحثون من زيادة نسبة الدجاج الى الديوك من ٥٠ : ٥٠ الى ٢٢ ، ٣٥ : ٧٨ ، ٦٤ وذلك بحقن الثيلين في الفراغ الهوائي الذي في اعقاب البيض . ثم وردت انباء من موسكو بانهم تمكنوا من السيطرة على شق الارانب ولكن بطريقة أخرى . وذلك بفصل النطف الذكرية التي تدل كروموسوماتها انها تفضي الى ولادة الاناث . وهذا الفصل تمَّ بطريقة كهربائية . ثم لقّح بها بويضات تلقيحاً صناعيًّا . وكان عدد البويضات الملقحة ٢٠٠ بيضة فكانت النتيجة ١٠٨ اناث . ولكن هذه التجربة وما تلاها لم تسفر عن شيءٍ يصحُّ الاعتماد عليهِ مع ان كولستوف وهو الباحث الروسي الذي قام بهذه التجارب يزعم انهُ في الامكان تطبيقها على المواشي

***

واذ كان ايفانس وزوندك وردل وغيرهم يبحثون في خلاصة الفص الامامي من الغدة النخامية ، اتجه آبيل الى دراسة الفص الخلفي ، وكان قد نفذ الى حصنهِ اولاً في سنة ١٩١٧ وفي سنة ١٩٢٢ استخلص منهُ مادة ترفع ضغط الدم في العروق رفعاً سريعاً . ثم ظهر ان لها

وظائف اخرى . فهي تحدث قبض العضلات في رحم الخنزير . حتى ان جزءاً منها في ١٥ الف مليون جزء من الماء يحدث أقصى ما يمكن حدوثه من هذا الانقباض . ففوائده السريرية عظيمة جداً في الطلق والولادة وفي منع النزف

ثم اقبل على البحث في خلاصة الفص الخلفي من الغدة النخامية طائفة من الباحثين . فاثبت اوليفر كام ان الخلاصة التي استخلصها آيبل يمكن ان تفصل الى مادتين دعا الاول « بترسين » Pitressin والثانية پيتوسين Pitocin فالاولى ترفع ضغط الدم . والثانية تحدث الانقباض . وقد استخلص حتى الآن ما لا يقل عن اثنتين وعشرين مادة مختلفة من الفص الخلفي من الغدة النخامية . ولكن آيبل يأبى ان يصوغ لها اسماء لان مباحثه حملته على الاعتقاد بان هذا الفص يفرز مادة واحدة اصلية وان جزيء هذه المادة ينحل في خلال انحلاله تتولد المواد المختلفة وكل منها له خواص فسيولوجية يتميز بها . هذا هو رأيه ولكن المباحث الجديدة لا تؤيده

ومن الذين بحثوا في الغدة النخامية رجل يدعى فيليب سمث وقد اثبت انه اذا نزعت النخامية من الجسم افضى نزعها الى ضمور الاعضاء التناسلية وضعف الغدة الدرقية واضطراب افراز الكظرين (الغدتين اللتين فوق الكليتين) . ثم وجد ايفانس ان هناك صلة بين الغدة النخامية واستهلاك السكر في الجسم . فقد تمكن مثلاً من احداث حالة البول السكري في جسم كلب بتغذيته بخلاصتها . ثم ان آخرين بينوا ان الحقن بخلاصة النخامية يهيج فعل الغدة الدرقية وان نزع الغدد التناسلية يحدث تغيراً في أنوار النخامية . فهذه الاوصاف العجيبة التي تتصف بها الغدة النخامية حملت العلماء على تسميتها « سيدة غدد الجسم » وذهبوا الى انها تسيطر على سائر الغدد وتقيم الميزان بينها

ولما ظهر ان للغدة النخامية اكثر من نور واحد ، ارتد العلماء الى الغدد الاخرى يبحثون لعلهم يجدون بينها غدداً تفرز غير نور واحد كذلك . فثبت ان الكظرين وهما الغدتان اللتان تستخلص منهما مادة الادرنالين يفرزان ايضاً نوراً آخر اذا منع عن سيره في الجسم أحدث المنع نتائج خطيرة . ففي سنة ١٨٥٥ وصف الطبيب الانكليزي أدسن Addison حالات متعددة من مرض معين انتهت جميعها بالوفاة . وكان اهم اعراضه ضعفاً في الجهازين العضلي والعصبي والدورة الدموية . ولاح لأدسن من تشريح جثث الموتى ان هذا المرض مرتبط ببعض التصاقات في الكظرين . فلما نشأ علم المفرزات الداخلية حاول بعضهم ان يعالج هذا المرض بخلاصة الغدد فحضرت خلاصة من الكظرين ولكنها عجزت عن شفاء المرضى

وكان رجل يدعى هارتمان يدرس في جامعة بفالو الاميركية وكان قد عرف بانتفع قبل اشتهاره ، فلما بلغه نبأ الانسولين ، عمد الى البحث في علاقة الكظرين بهذا المرض المنسوب الى

أدسين الانكليزي ولكنهُ قصر بحثهُ على قشرة الكظرين Cortex لانه بدا لهُ ان القشرة دون سائر الغدتين لها صلة بهذا المرض . فاذا اخذ كمية من كظور الابقار وفصل القشرة عن بقية الغدد واستخلص منها مادة فعَّالة ، ازال منها كل اثر من آثار الادرينالين وجرَّبها في حقن تحت الجلد في هررة نزعت كظورها فظلَّت حية نشيطة ، تقبل على اللعب والأكل والتزاوج ، بل ان بعضها حمل

وفي شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٧ اعلن هارتمان اكتشافهُ لمادة «الكورتين» (نسبة الى كورتكس اي القشرة) وهي خلاصة فعالة لتوّر تفرزه قشرة الكظرين . واثبت ان نقص هذه المادة في الجسم يفضي الى مرض أدسين . فهل يفضي استعمال هذه المادة الى انقاذ المصابين به ؟ جربت التجربة الاولى في ٨ يوليو سنة ١٩٣٠ في شاب في الرابعة والعشرين من العمر فأطيلت حياتهُ قليلاً ولكن المرض كان قد تمكن منهُ فتوفي بعد ذلك . وسعى هارتمان وغيره من الباحثين الى الحصول على مادة «الكورتين» نقية من كل شائبة فلما جربت في المصابين بمرض ادسن كان تأثيرها عجيباً اذ انقذتهم من موت محتوم . وفي اوائل سنة ١٩٣٤ حضَّر كندل (المشهور بتحضير الثيروكسين : (راجع الكلام على الغدة الدرقية في هذه السلسلة) مادة الكورتين بلورات نقية كلَّ النقاوة

ومما استعمل له الكورتين تصلُّب الحدقة (غلوكوما) الذي يفضي الى العمى في الشيوخ

وكان من اثر نجاح بانتنغ في موضوع الانسولين ، ان عمد احد مساعديه ويدعى كولب Collip الى البحث في اربع غدد قائمة على جنب الغدة الدرقية (Parathyroid) وكانت قد اكتشفت في سنة ١٨٥٥ شكل كل منها كحبة الفاصوليا وحجمها حجم حبة الحمص وهي زوجان كل زوج منها على جانب الدرقية . الاَّ ان وظيفتها كانت سرًّا مغلقاً . ولكن ظهر بعد البحث انها اذا اصيبت بمرض افضت اصابتها الى اصابة صاحبها بمرض يعرف باسم «تيتاني» واعراضهُ حركات عصبية في اليدين والقدمين والوجه والقصبة ، تفضي في الغالب الى الموت . ثم اثبت مكّلم احد علماء جامعة جونز هبكنز ان نزع الغدد المجاورة للدرقية لاتفضي الى مرض «التيتاني» فقط بل الى نقص في مقدار الكلسيوم في الدم . وكذلك تمكن من تحسين حال المصابين بالتيتاني بجرع وافية من املاح الكلسيوم . ثم لاحظ كولب ان التنفس الثقيل اذا استمر افضى الى التيتاني فقرأ هولدين (J. B. S.) عن هذه المشاهدة وحاول ان يمتحنها فامتحنها بنفسه فأصيب بالتيتاني بعد تنفس ثقيل دام مدة طويلة ، ولكنهُ أثبت كذلك في تجاربه بنفسه انهُ اذا سبق هذا التنفس تناول مقدار من ملح كلوريد الامونيوم لم يصب بسوء بعدهُ

الاَّ ان العلماء لم يكتفوا بمعالجة التيتاني باملاح الكلسيوم على طريقة مكلم بل عمدوا الى

استخلاص المادة الفعالة من الغدد المجاورة للدرقية المنتزعة من الماشية وكان اول من فعل ذلك طبيب ممارس في بلدة فريمولت بولاية منسوتا الاميركية واستخرج إجازة رسمية بصنعها وبيعها ومنحها للمعهد السنصوني . اي انهُ لم يربح من اكتشافهِ هذا مليماً واحداً

وكما ان املاح الكلسيوم استعملت اولاً في معالجة التيناني ، فخلاصة الغدد المجاورة للدرقية تستعمل الآن في معالجة الاحداث المصابين باعراض ناشئة عن نقص الكلسيوم في دمهم

***

ثم هناك سرُّ غدة اخرى اخذ العلم الحديث يميط اللثام عنهُ رويداً رويداً . ففي سنة ١٨٥٥ ظهرت رسالة موجزة في موضوع الغدة التكفية Thymus ولكن مؤلفها كان يجهل وظيفتها . وكان بعضهم يظن انها عضوٌ اثريٌّ لا عمل لهُ الآن . الاّ انها قد تتضخم احياناً فتسدُّ قصبة الطفل فيموت اختناقاً . وهي جسم رخو ورديُّ اللون قائم فوق القلب يكون وزنهُ عند الولادة نحو ربع اوقية ounce ثم يكبر حتى يبلغ وزنهُ عند البلوغ اوقية كاملة ثم يضمر رويداً رويداً فلا يبقى منهُ الاّ اثر يسير . وقد ظلَّ عمل هذا الجسم غامضاً حتى اخذ جودرناتش Gudernatsch قطعاً من الغدة التكفية وغذى بها الشراغيف (صغار الضفادع) فنمت نموًّا هائلاً من دون ان تتحوّل الى ضفادع . وصنع « ردل » خلاصة من تكفية الثور وحقن بها حماماً مصاباً بضعف في غدتهِ التكفية فبدت في هذا الحمام آثار عجيبة اذ جعل يبيض بيضاً سويًّا بعد ان كان يبيض صفار البيض فقط

وفي سنة ١٩٣٤ تمكن رونتري — وقد كان من اعوان آبيل قبلاً — من صنع خلاصة هذه الغدة وغذى بها الجرذان ففاز بنتائج تبعث على الدهشة . ذلك ان الاجيال المتتالية من الجرذان كانت تفوق بعضها بعضاً في سرعة نموّها وتبكير نشاطها الجنسي . فلما كان الجيل الرابع والخامس برزت اسنان الجرذان بعد انقضاء ٢٤ ساعة على ولادتها والمدة التي تنقضي بين الولادة وبروز الاسنان في الجرذان السوية Normal ثمانية ايام . وتفتحت عيون الصغار في هذين الجيلين بعد انقضاء يومين وكان هذا لا يتمّ الاّ بعد انقضاء اربعة عشر يوماً . كذلك فطمها بعد ثلاثة ايام من ولادتها وبعد ثلاثة ايام اخرى استطاعت ان تسبح . كذلك أسرع نموّ غرائزها الجنسية فجيلها العاشر استطاع ان يخلف نسلاً بعد انقضاء ٤٣ يوماً على ولادتهِ مع ان السويَّ منها لا يخلف نسلاً قبل انقضاء مدة على ولادتهِ تتفاوت من ٨٠ يوماً الى اربعة اشهر ، فاذا اسرع نموّ الغرائز الجنسية في الصبيان والبنات بهذا المعدّل بلغوا سن النضج التناسلي في الثامنة الى العاشرة من العمر

ان الباب الجديد الذي يفتحهُ كشف هذا النور التكفي ، ولاسيما في تربية المواشي ، لباب سحريٌّ يحفل الانسان عندما يتأمل في ما قد يفضي اليهِ

والغدّة الأخيرة من هذه الغدد العجيبة التي أُطلق عليها ضوء العلم الحديث الغدّة الصنوبرية Pineal وهي مخفية بين ثنايا الدماغ ولكن بعد مناظرها لم يحل بينها وبين العلماء فقد صنعوا منها خلاصة مائية فثبت انها تؤثر في انشطار البراميسيوم فتزيد تكاثره سرعة. ولما حقنت بها الشراغيف زادت سرعة تحوُّلها الى ضفادع . ثم جرَّبها الدكتور غودرد بالاطفال الذين تأخر نموُّهم الجسماني والعقلي ولكن النتائج التي اسفرت عنها تجاربهُ لا تعدُّ حاسمة حتى الآن . ومن غريب ما يروى عن الفيلسوف ديكارت انهُ حسب الغدّة الصنوبرية مقرَّ النفس ولكن العلماء لا يزالون في ريب من وظيفتها الحقيقية ولا يدرون هل تفرز نوراً خاصًّا بها أو لا

***

لقد أثبت العلم ان الكظرين والغدد الدرقية والمجاورة للدرقية والحلوة والنخامية والتناسلية والنكفية والصنوبرية غدد صمٌّ اي انها تفرز مفرزاتها في الدم رأساً بلا قنوات خاصة . وقد أسفر البحث العلمي فيها خلال نصف قرن عن أنوار الاينفرين (الادرينالين) والثيروكسين والانسولين والثيلين والاندروستيرون والكورتين وغيرها مما لا يزال يحضر في خلاصات مختلفة ولم يستفرد بعد او يحضر نقيًّا في شكل بلورات

ان دراسة الغدد الصمّ فتحت الباب الى علمين جديدين لا يزالان في مهدهما وهما الطب القائم على مفرزات الغدد الصمّ والطب النفساني القائم على تأثير هذه المفرزات في حياة المرء الذهنية والعاطفية

فقد أقام ستوكارد الدليل على صلة وثيقة بين الغدد والشخصية ذلك ان الذهن والشعور في الانسان من أهم العوامل في خلق الانسان وشخصيته فعلى ذهنه يتوقف الرأي في هل هو أبله او ذكيٌّ او متوسط ، والذكاء يتوقف على الدماغ الذي يرثهُ الانسان من أسلافه . ولكن نمو الدماغ يتوقف الى مدى بعيد على انوار الغدد الصم . واهم من العقل في تكوين الشخصية انفعال الانسان ومداهُ وكبتهُ لانفعاله او استسلامه لهُ . فنحن نحب من الرفاق من كان مرحاً لعوباً وقد نعرض عمن كان مقطباً يغلب فيه القتام على النور . والانفعال متصل اوثق الاتصال بالغرائز والغرائز تعتمد أعظم الاعتماد على مفرزات الغدد الصم في طبيعتها وقوتها (راجع مقال « الغدد والشخصية » في مقتطف اكتوبر ١٩٣٥ ص ٢٦٥)

***

اما في علاج الامراض فالصفحات المتقدمة سلسلة متصلة الحلقات من الادلة على ان صحة الغدد أساس لصحة الجسد

من « تاريخ الاسلام السياسي »

السفاح

للدكتور حسن ابراهيم حسن
استاذ التاريخ الاسلامي في كلية الآداب

بيعة السفاح

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢ وقد أقام الخطبة في يوم الجمعة فخطب على المنبر قائماً وكان بنو امية يخطبون قعوداً في الناس وقالوا: أحييت السنة يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد نوه في أولى خطبه بفضل آل محمد ، وندد بالامويين لاغتصابهم الخلافة ولما اقترفوه من آثام وذنوب ضد آل النبي ، وأنحى باللائمة على جند الشام ، وأطنب في مدح أهل الكوفة ، وزاد في أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس ، وختم خطبته بقوله « أنا السفاح المبيح » ، مما يشعر في بادىء الرأي بأنه عوّل على سفك د[illegible]

[illegible] كان [illegible]

أنه « كان كريماً حليماً وقوراً ، عاقلاً كاملاً كثير الحياء [illegible] الأخلاق » . [illegible]

ما يتبادر إلى الذهن من ان اسم السفاح مرتبط بسفك الدماء ، لافراطه في التمثيل ببني أمية

وقد ناقش الاستاذ نيكلسن[2] لفظ السفاح في كتابه « تاريخ العرب الأدبي » فقال : « لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المنّاح . ومع كل فانه مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية . ويقال إن سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في موقعة بني كلاب الاولى سمي السفاح لانه أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة . والذي أميل اليه أنه إنما سمي بهذا الاسم لقوله في أول خطبة له : فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح »

ونحن نميل الى الاخذ بأن لفظ السفاح انما اطلق وشاع عن أبي العباس بعد هذه الخطبة

(١) ج ٢ ص ٢١٥ (٢) Literary History of the Arabs. p. 253.

لما قام بهِ من سفك دماء الامويين وغيرهم من الخارجين على الدولة . ولا يبعد أن يكون قصده من عبارة السفاح المتاح أن يتوعد أهل الكوفة لما اظهروه في ماضي أيامهم من تغير في الاهواء والميول وغيرهم من أعدائهِ ولا سيما الامويين الذين عوّل على التنكيل بهم لما اقترفوه من آثام وذنوب ، وتبشيره من يقوم بنصرته باغداق العطايا والاموال عليهم

ولما تمت لهُ البيعة تحول السفاح إلى الأنبار غربي نهر الفرات ، وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، وقد أسسها سابق بن هرمز احد ملوك الفرس فجاء السفاح فجددها وأقام بها القصور ثم بنى المنصور في جوارها قصراً فخماً اتخذه دار ملكه ، فسميت هذه المدينة الهاشمية نسبة الى هاشم جد هذه الاسرة

وقد قضى السفاح معظم عهده في محاربة قواد العرب الذين ناصروا بني امية وقضى على أعقاب الامويين حتى انهُ لم يفلت منهم أحد الا عبد الرحمن الداخل الذي أسس الدولة الاموية بلاد الاندلس ، كذلك وجه السفاح همه الى الفتك بمن والوهُ وساعدوه على تأسيس دولته فقتل أبا سلمة الخلال وأعقبهُ بسليمان بن كثير الذي أوصى ابرهيم الامام أبا مسلم بهِ خيراً ، وهمَّ بقتل أبي مسلم لولا أن عاجلته منيته

محاربة قواد الامويين

أقام ابن هبيرة أحد قواد مروان بن محمد بواسط ، فأرسل اليهِ أبو سلمة ، الجيوش فحاصرته هناك ، ولما طال الأمر أرسل السفاح أخاه أبا جعفر فحاصره أحد عشر شهراً بلغه في نهايتها خبر مقتل مروان بن محمد فرأى التسليم وفاوض أبا جعفر في الصلح ، وانتهى الأمر باعطائهِ الأمان ، وتسلم ابن هبيرة كتاباً يحمل امضاء الخليفة العباسي ، ولكن هذه الدولة قد قامت على المكر والحيلة ، فانهُ لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة وهذا أول غدر في الدولة العباسية ، وقد أخذ على عبد الملك بن مروان عدم وفائهِ لعمرو بن سعيد بعد ان ولاه عهده لان هذا مناف لأخلاق العرب ، فجاء أول خلفاء بني العباس ، واستهل خلافته بوضع هذه القاعدة التي سار عليها الخلفاء من بعده

القضاء على أعقاب الامويين

ولقد تتبع السفاح البقية الباقية من بني أمية وأنصارهم ولم يُبق عليهم . ويخيل الينا أنهُ انما لجأ الى هذه السياسة لما كان من عداء العباسيين لبني أمية منذ أيام الجاهلية . والعداء بين بني أمية وبني هاشم باقي الأثر لم يزده الاسلام الاّ تفاقماً وازدياداً . يضاف الى ذلك ما كان من

تأثير الشعراء ورجال البلاط في اذكاء نيران هذا العداء . وما قام به بنو أمية من سفك دماء أهل البيت حين كان لهم السلطان

يقول المسعودي [١] : ولما أُتي العباس برأس مروان ووُضع بين يديه سجد فأطال ثم رفع رأسهُ فقال : الحمد لله الذي لم يُبق ثاري قبلك وقبل رهطك ؟ الحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك ! ثم قال : ما أبالي متى طرقني الموت ، قد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين ، وأحرقت شِلْو [٢] هشام بابن عمي زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخي ابراهيم وتمثل :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ثم حول وجههُ الى القبلة فأطال السجود ثم جلس وقد أسفر وجههُ وتمثل بقول العباس ابن عبد المطلب من أبيات لهُ :

أبى قومُنا ان يُنصفونا فأنصفت قواطع في أيماننا تقطر الدما
تُوورثن من أشياخ صدق تقربوا بهنَّ الى يوم الوغى فتقدما
إذا خالطت هامَ الرجال تركنها كبَيْض نعام في الوغى متحطِّما

كان السفاح جالساً في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي . وقد أكرمهُ السفاح ، فدخل عليه سَديف الشاعر فأنشده :

لا يغرنَّك ما ترى من رجالٍ ان تحت الضلوع داءً دويًّا
فضع السيف وارفعِ السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أُمويًّا

فالتفت سليمان وقال : قتلتني يا شيخ . ودخل السفاح وأُخذ سليمان فقتل . ودخل عليه شاعر آخر وقد قُدم الطعام وعند السفاح نحو السبعين رجلاً من بني أمية ، فأنشده الشاعر :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وِتر هاشم فشفوها بعد ميلٍ من الزمان وياس
لا تقيلنَّ عبد شمس عثاراً واقطعنْ كل رَقْلةٍ [٣] وغِراس [٤]
ذُلُّها أظهر التودُّدَ منها وبها منكم كحز المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيدٍ وقتيلاً بجانب المهراس [٥]
والقتيلَ الذي بحرانَ [٦] أضحى ثاوياً بين غُربةٍ وتناسي

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢١٣ (٢) مفرد أشلاء وهي البقايا (٣) الرقل جمع رقلة وهي النخلة فاتت اليد (٤) فسيل النخل . والفسيلة التي تقطع من الام أو تقلع من الارض فتغرس (٥) ماء بجبل أحد ، قتل عنده حمزة بن عبد المطلب ودفن (٦) هو ابرهيم الامام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

أجل ! لقد اعاد إنشاد هذين الشاعرين ذكرى الماضي وما جرّه الامويون على أنفسهم من سخط الناس لتنكيلهم بأهل البيت . ولا زالت مأساة ابرهيم الامام عالقة ببال الخليفة العباسي . فماذا كان من امر هؤلاء الامويين بعد هذه الذكريات المؤلمة التي اعادها الى السفاح شعراء دولته ؟ امر السفاح بسليمان بن هشام فقُتل ، ثم امر بمن كان في داره من امية فضُربوا بالسياط وبُسط النطوع (١) عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً

ولقد بالغ العباسيون في التنكيل ببني امية فعولوا على استئصال شأفتهم ، فتعقّبهم اخوه واعمامه في البصرة والكوفة والشام ، ونبشوا قبر معاوية بن ابي سفيان ، فلم يجدوا فيه الاّ خيطاً مثل الهُباء ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حُطاماً كأنهُ الرّماد . ولما قتل ابو العباس رجال بني امية ، واستصفى اموالهم قال :

بني أُميَّةَ قد افنَيْتُ جَمْعَكُمُ فكيف لي منكم بالأوّلِ الماضي
يُطيِّبُ النفس ان النار تجمعكم عُوِّضتُموا من لظاها شرَّ مُعتَاضِ
مُنيتموا لا أقالَ اللهُ عثرتَكم بِلَيْثِ غابٍ الى الأعداء نَهَّاضِ
ان كان غَيْظي لِفَوْتٍ منكمو فلقد رَضيتُ منكم بما ربي بهِ راضي (٢)

ولم يقف العباسيون عند التمثيل بالموتى . فقد قتلوا الأحياء واستصفوا اموالهم . فليس من عجب اذا انصرف العرب عن العباسيين ودبّ في نفوسهم دبيب الكراهة لهم وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم لممالأة العباسيين لهم ، واعتمادهم على ولائهم ، فقامت الفتن والثورات في البلاد الأسلامية

قتل أعوانه

وان في قتل ابي سلمة الخلال وزير السفاح الذي كان من اهم العوامل التي ساعدت على تأسيس الدولة العباسية لمثلاً حيًّا على ما قضت بهِ سياسة هذا الخليفة بالخلاص ممن ساعدوه و ناصروه اذ رأى في وجودهم خطراً يهدد كيان دولته الناشئة . وقد يكون من الحسن ان نأتي هنا بترجمة ابي سلمة لنقف على حقيقة الأسباب التي ادت الى اغتياله للتخلص منهُ لما اتهم بهِ من العمل على تحويل الخلافة الى العلويين

كان حفص بن سليمان ، ويكنى ابا سلمة الخلال ، مولى لبني الحارث بن كعب ، وكان من اهل اليسار في الكوفة ، اشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية ، كما كان فصيحاً عالماً بالاشعار والسير والجدل والتفسير . وقد اتصل بالعباسيين عن طريق صهره بُكَيْر بن ماهان كاتب ابرهيم الأمام . فلما حانت وفاة بُكَير اوصى الامام بان يعهد الى ابي سلمة بالقيام بامر

(١) النطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك بسط من الاديم (الجلد) (٢) الفخري ص ١٣٥

الدعوة مكانه ، فكتب اليه الامام بذلك ، فأخلص ابو سلمة للدعوة العباسية وبذل جهده في القيام بنصرتها . ولقد اتفق المؤرخون على انه لما سبر احوال بني العباس عزم على العدول عنهم الى اولاد علي بن ابي طالب . ولما عزم على تنفيذ رغبته في نقل الخلافة الى العلويين ارسل مع رجل من شيعة العلويين كتاباً وامره ان يقصد جعفراً الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ، فان اجاب ابطل الكتابين الآخرين وان لم يجب لقي عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي ، فان اجاب ابطل كتاب عمر الاشرف بن علي زين العابدين ، وان لم يجب قصد عمر . فذهب الرسول الى جعفر الصادق ودفع اليه كتاب ابي سلمة فلم يُقم له وزناً ولم يحتفل بما قدمه رجل الشيعة بخراسان للعلويين حيث قال « مالي ولابي سلمة وهو شيعة لغيري ؟ » ثم وضع الكتاب على السراج فاحترق . فسأله الرسول عن رد كتاب ابي سلمة فقال له : قد رأيتَ الجواب ! مضى الرسول بعد ذلك الى عبد الله المحض فسُرَّ بالكتاب وركب غداة هذا اليوم الى جعفر الصادق وقال له :

« هذا كتاب ابي سلمة يدعوني فيه الى الخلافة ، وقد وصل على يد بعض شيعتنا من اهل خراسان » فقال له جعفر الصادق كلاماً يؤيد ما ذهبنا اليه من ان الفرس او الكثيرين منهم على الأقل لم يكونوا في ذلك الوقت شيعة للعلويين خاصة »: ومتى صار اهل خراسان شيعتك؟ أأنت وجهتَ إليهم أبا مسلم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ! وهذا كلام رجل من كبار العلويين وأعيانهم في ذلك الزمان وقف على مبلغ الثقة من رجال الشيعة وإن لم يكن عبد الله المحض قد وثق منه ، بل شك في نصحه ، بل ، ولم يحفل بما سمع عن الكتاب الذي جاءه قبله . وأما عمر بن علي زين العابدين فلم يكن منه الا ان رد الكتاب وقال : « أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه » ، ومن هذا كله نرى أن العلويين لم يكن لهم من القوة وكثرة الأنصار ما يعبد لهم سبيل الوصول الى الخلافة ، فلم يروا بداً من الاستكانة حتى تتهيأ لهم الاحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطالبهم . ومن هذا لا نعجب اذا فتّ رفض هؤلاء العلويين في عضد أبي سلمة وأدى الى قتله على يد السفاح بعد ان وقف على ما دبره له ولأسرته

ويحكي لنا التاريخ ان السفاح لما بويع بالخلافة استوزر أبا سلمة على كرهٍ منه لمكانته من الخراسانيين وهم عصب الدولة ومصدر قوتها ولقبه وزير آل محمد الا ان هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح ، اذ خاف على نفسه ان هو قتله قام أهل خراسان يثأرون له ، فعمل على أن يتم هذا الامر على يد أبي مسلم وكتب اليه مع اخيه المنصور كتاباً يخبره فيه ان ابا سلمة يعمل على تحويل الخلافة الى العلويين وعهد له بمعاقبته ، وباطن الكتاب يشعر بتصويب

قتله ، فأرسل ابو مسلم رجالاً من اهل خراسان فقتلوه وتخلص منهُ السفاح وابو مسلم الذي كان يكرهه ويحقد عليه مقامهُ ، وبذلك هيأ ابومسلم سبيل قتله بنفسه ، فقد عوّل السفاح على التخلص منهُ اذ كان شجىً في جسم دولته الاَّ ان منيته حالت دون ذلك حيث مات سنة ١٣٦ بعد ان قضى في الخلافة اربع سنين وستة اشهر

اخلاق السفاح وصفاته

قال الطبري [١] : كان السفاح جعد الشعر طويلاً ابيض أقنى الانف حسن الوجه واللحية

وقال المسعودي [٢] : ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل ابي العباس السفاح وكان كثيراً ما يقول : انما العجب ممن يترك ان يزداد علماً ويختار ان يزداد جهلاً . فقال لهُ ابو بكر الهُذَلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل الى امرأة او جارية فلا يزال يسمع سَخَفاً ويروي نَقْصاً . فقال له الهُذَلي : لذلك فَضَّلكم الله على العالمين وجعل منكم خاتَم النَّبيين

كان السفاح يشجع الادب والغناء ؟ وكان يُجزل العطاء على الشعراء والمغنين . فقد دخل عليه ابو بجيلة الشاعر فسلم عليه . وقال عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك ، افتأذن لي في إنشادك . فقال له السفاح لعنك الله ؟ ألست القائل في مسلمة بن عبد الملك بن مروان

أمُسْلِمَ اني يا ابنَ كل خليفة ويا فارسَ الهيجا ويا جَبَلَ الارض
شكرتك ان الشكر حبلٌ من التقى وما كلُّ من اوليته نعمة يقضي
واحييتَ لي ذكري وما كان خاملاً ولكنَّ بعضَ الذكر أنبه من بعض

فقال الشاعر : أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول

لما رأينا استمسكت يداكا كنا أناسا نرهب الملاكا
ونركبُ الاعجاز والاوراكا من كل شيء ما خلا الاشراكا
فكلما قد قلتُ في سواكا زورٌ وقد كفر هذا ذاكا
إنا انتظرنا قبلها أباكا ثم انتظرنا بعدها اخاكا
ثم انتظرناك لها إياكا فكنت انت للرجاء ذاكا

فرضي السفاح عنه واجزل له العطاء

---

(١) ج ٩ ص ١٥٤ (٢) ج ٢ ص ٢١٧

وكان السفاح يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين : احسنت والله ، فأعد هذا الصوت . وكان لاينصرف عنه احد من ندمائه ولا مطربيه الا بصلة من مال او كسوة ويقول : لايكون سرورُنا مُعجَّلاً ، ومكافأةُ من سرّنا واطربنا مؤجَّلاً . على انه سرعان ما احتجب السفاح عن ندمائه

وكان السفاح اذا احضر طعامهُ أبْسَطَ ما يكون وجهاً فكان ابراهيم بن مخرمة الكندي اذا أراد ان يسألهُ حاجةً أخَّرها حتى يحضرَ طعامهُ ثم يسألهُ . فقال لهُ السفاح يوماً :

يا ابراهيم ! مادعاك الى ان تَشْغَلني عن طعامي بحوائجك ؟ قال يدعوني الى ذلك التماسُ النُّجح لِمَا اسأل . قال ابو العباس : إنك لَحقيقٌ بالسُّؤدد لحسن هذه الفطنة

ويحدثنا المسعودي [1] في كتابه مروج الذهب عن زواج السفاح قبل توليته الخلافة من أم سلمة ، وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، فمات فتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات فبينا هي ذات يوم ، اذ مر بها ابو العباس السفاح ، وكان جميلاً وسيماً فسألت عنهُ وأرسلت لهُ مولاةً لها تعرض عليهِ ان يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قولي لهُ : هذه سبعمائة دينار أوجه بها اليك — وكانت تملك كثيراً من المال والحشم والجوهر ، فأتته المولاة وعرضت عليهِ ذلك ، فقال السفاح : انا مملق لا مال عندي ، فدفعت اليهِ المال ، وأقبل الى اخيها وطلب اليهِ ان يزوجه منها ، فزوجه اياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، واهدى من يلوذ بها مائتي دينار وزفت اليه في ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى أصبح

فلما كان ذات يوم في خلافته ، خلا بهِ خالد بن صفوان فقال : يا أمير المؤمنين ! إني فكَّرت في أمرك وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة . فان مرضت مرضت ، وان غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجواري ومعرفة أخبار حالتهنّ والتمتع بما تشتهي منهنّ فان منهنّ يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وان منهنّ الغضَّة البيضاء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء تفتن بمحادثتها . وجعل خالد يجيد في الوصف ويجد في الاطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فلما فرغ كلامه ، قال له ابو العباس : ويحك يا خالد ، ما صك مسامعي والله كلام احسن مما سمعته منك . فأعد عليَّ كلامك ، فقد وقع مني موقعاً . فأعاد عليهِ خالد أحسن مما ابتداه ثم انصرف وبقي السفاح مفكراً فيما سمع منهُ ، فدخلت عليهِ زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكراً مغموماً ، قالت إني لانكركَ يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرههُ ، أو أتاك خبر فارتعت

(١) ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٧

له؟ قال: لم يكن من ذلك شيء، قالت: فما قصتك؟ فجعل ينزوي عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد، فقالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال لها: سبحان الله ينصحني وتشتمينه، وخرجت من عنده مغضبة، وأرسلت الى خالد من النجارية وأمرتهم ألا يتركوا منه عضواً صحيحاً. قال خالد: فانصرفت الى منزلي وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما ألقيته اليه، ولم أشك ان صلته ستأتيني، فلم ألبث حتى سار إليّ أولئك النجارية وأنا قاعد على باب داري، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي، أيقنت بالجائزة واصلة حتى وقفوا عليّ، وسألوا عني، فقلت ها أنذا خالد، فسبق إليّ احدهم بهراوة كانت معه، فلما أهوى بها عليّ وثبت، فدخلت منزلي وأغلقت الباب عليّ واستترت ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلي ووقع في خلدي اني أوتيت من قبل أم سلمة وطلبني السفاح طلباً شديداً، فلم أشعر ذات يوم الا بقوم هجموا عليّ وقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأيقنت بالموت، فركبت وليس عليّ لحم ولا دم فلما وصلت الى الدار اومأ اليّ بالجلوس، ونظرت فاذا خلف ظهري باب عليه ستور قد ارخيت، وحركة خلفها، فقال: يا خالد لم أرك منذ ثلاث؟ قلت كنت عليلاً يا أمير المؤمنين. قال: ويحك إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه، فأعده عليّ. قلت: نعم يا امير المؤمنين. أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضَرَّة من الضر، وأن احدهم ما تزوج من النساء اكثر من واحدة الا كان في جهد، فقال: ويحك لم يكن هذا في الحديث. قلت: بلى والله يا امير المؤمنين، واخبرتك ان الثلاثة من النساء كأنهن القدر يغلي عليهن. قال أبو العباس برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت سمعت هذا منك في حديثك قال وأخبرتك ان الاربعة من النساء شر صحيح لصاحبهن، يشبنه ويهرمنه ويسقمنه. قال ويلك ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت

قال خالد: بلى والله. قال: ويلك وتكذبني. قال وتريد ان تقتلني يا أمير المؤمنين؟ قال مر في حديثك. قال: وأخبرتك ان أبكار الجواري رجال، ولكن لا خصي لهن، قال خالد، فسمعت الضحك من وراء الستر، قلت. نعم وأخبرتك ايضاً ان بني مخزوم ريحانة قريش، وانت عندك ريحانة من الرياحين وانت تطمح بعينك الى حرائر النساء وغيرها من الاماء. قال خالد: فقيل لي من وراء الستر: صدقت والله يا عماه وبررت بهذا ما حدثت امير المؤمنين، ولكنه بدّل وغيّر، ونطق عن لسانك فقال له ابو العباس مالك قاتلك الله واخزاك، وفعل بك وفعل فتركته وخرجت وقد ايقنت بالحياة. قال خالد فما شعرت الا برسل ام سلمة قد ساروا اليّ ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام

قطرات ندى

لراجي الراعي

قيل لي : أنت بين سم الأفعى ووثبة الأسد فأي الموتين تؤثر ؟ فقلت لهم : هاتوا لي براثن الاسد فان فيها الرجولة والصراحة لا غدر الرقطاء الكامن في نابها الحقير

جمعت بين الكتاب والطفل في سرير واحد وجئت بالنفس اسألها أيهما تؤثر فأجابت لساعتها مشيرة الى الكتاب : هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت، اما الطفل فهو رمية القلب الطائش ، هو قطرة دم كثيفة علقت بسهم حاد من سهام «كوبيد» في احدى سكراته ، هو ثمرة الشهوة الزائلة واثر من آثار الجنون

خيّل الي ذات مساء ان قريحتي نضبت فهرولت الى الجبل وسجدت امامه قائلاً : أنا من ابنائك المعجبين بك ، وهذه قريحتي بين يديك اظنها كبت فأقلها من عثرتها . . فالتفت الجبل الى عقبانه وينابيعه وأمرها ان ترافق روحي ثم نظر الي نظرة الاب الرحيم وقال : امشي في طريقك ولا تخف فجنودي حرّاسك وعظمتي وغزارتي تخفرانك حيثما حللت فشكرت للجبل وعدت الى القلم والقرطاس فرحاً قرير العين غير خائف من الغد ومن النضوب...

كأني بغصن هذه الشجرة يمتد فوق رأسي ليقف بيني وبين الشمس اللاذعة فلله ما اكرم هذا الغصن ! ما اشد جرأته واوفر مروءته !!..

هذه الشجرة صورة أخذت عني فهذه هي البذور التي تألبت وكوّنتني في

بذورها . . . وهذه هي قوتي في جذعها . . وهذه هي مواليدي في أغصانها . . وهذا هو أملي في اخضرارها . . . وهذا هو يأسي في ذبولها . . . وهذه هي مطامعي في قمتها . . . وهذه هي أعصابي في أليافها . . . وهذا هو هدري في أعاصيرها . . . هذه حياتي في مائها . . وهذا موتي في فأسها . . . نعم نعم انا هي وهي انا فاذا شئت ان ترحمني فارحمني في ظلها واذا شئت ان تميتني فالق عليَّ حفنة من ترابها . .

هل انا جنة ربوتها القلب ونهرها دمي ، ام انا ما تقول : جسد عبد يخضع لروح قاهر . .

انزع هذه الغيوم الباكية من الافق لانزع مني كآبتي ودموعها . .

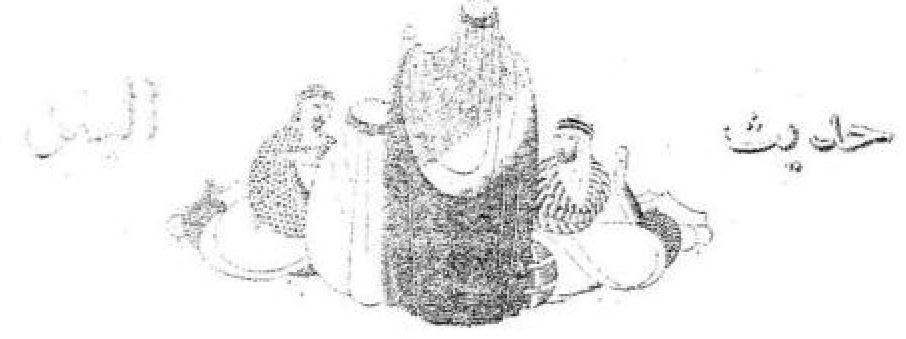
الفلسفة حبل طويل يتجاذبه الكفر والايمان . .

هذه الشمس التي يحجبها وشاح واحد من اوشحة الليل وظلٌّ واحد من ظلال الشجرة ليست بالجبارة التي تخيلها . .

في نفسي آلهة وشياطين — في نفسي ابراج بابلية وصراع مستديم — في نفسي الجمال كل الجمال والقبح كل القبح يتنازعان السيادة في وجهي فلا تنظر اليَّ فترى أثراً من السماء حتى ترى لساناً مندلعاً من افواه الجحيم ...

لا اريد ان اقيس هذه المسافات والابعاد المعروفة ، وانما أريد أن اعرف أين ينتهي عقلي وأين يبدأ جنوني ... أريد ان أقيس المسافة الروحية الفاصلة بين عربدتي ووقاري

بيروت



رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

﴿ الوضع الطبغرافي ﴾ يتألف القطر اليماني من ثلاثة أقسام : الاول المنخفض ذو البراري والسباسب المنبسطة والاقليم الحار والهواء الرطب ويدعى « تهامة » ويجمع على تهائم ، والثاني المرتفع ذو الاطواد والهضاب الشامخة والاقليم البارد والهواء الجيد ويدعى « قسم النجود » او « قسم الجبال » وهي تتمة جبال السرا ، والثالث المنخفض ايضاً شرقي قسم الجبال ، وهو ذو برار وسباسب كانت في عهد ملوك سبأ عامرة غناء فاصبحت بعدهم غامرة قفراء ، ويدعى هذا القسم « الجوف » وهو بمثابة تهامة في الغرب ، واقليمه حار لكن هواءه جاف وجيد

﴿ وصف تهامة ﴾ تهامة برية عظيمة مستطيلة الشكل تمتد من الشمال الى الجنوب من جدة على ساحل البحر الاحمر الى عدن في ساحل المحيط الهندي ، على طول يقدر بالفي كيلو متر ، وهي تنحصر بين قسم الجبال والبحرين المذكورين على عرض يتفاوت بين ٦٠ و ١٢٠ كيلو متراً وهي تنقسم الى تهامة الحجاز وتهامة عسير وتهامة اليمن . وتهامة اليمن اما غربية وهي التي على البحر الاحمر واما جنوبية وهي التي على المحيط الهندي . وحديثنا عن الاخيرتين في الاكثر

كانت تهامة في الاصل قعراً للبحر الذي انحسر عنها في الطور الجيولوجي الاخير . يستدل على ذلك بطبيعة ارضها ووفرة رمالها وكثرة الاحافير والاصداف البحرية التي تظهر في تربتها السفلى . ولا يزال انحسار البحر الاحمر وارتفاع سواحله متوالياً على كر الدهور . فالرمال مابرحت تطمر مرافئه وتمنع السفن الكبيرة من الوقوف الا على بعد شاسع . حدث هذا الطمر قبل اربعة او خمسة قرون في مرفأ غلافقة وقد كانت كما قال ياقوت في معجم البلدان مرسى زبيد ، وكانت زبيد عاصمة تهامة واكبر مدنها فيما مضى ، فلما اندثرت غلافقة انحط شأن زبيد . وحدث الطمر ايضاً الى حد كبير في ميناء مخا ، فكان ذلك من دواعي انحطاطها وانتقال عمرانها الى الحديدة الحديثة العهد . ويحدث هذا الطمر والاندثار الآن في اللحية وامثالها من المواني الصغيرة فيتجدد غيرها على توالي العصور وهكذا دواليك

وبسيط تهامة يتموج تموجاً خفيفاً ويحدث قلعات متواضعة وتعترضه اودية حصبية منحدرة

من انحاء الجبال ، اكثرها جاف في اغلب ايام السنة وبعضها حار ، وتعترضهُ ايضاً كثبان رمال تزداد في بعض الاماكن وتمتد الى مسافات شاسعة وتتحرك سطوحها بفعل الرياح كما هو الحال بين الحديدة وباجل وحول ميناء غلافقة المندثر . وفي بعض شطوط تهامة مرتفعات صخرية تؤلف آكاماً تظهر في سواحل الشيخ سعيد ولاسيما حول مرفأ عدن

ومعظم بسيط تهامة قابل للحرث والزرع وذو خصب يقوى في بعض الاماكن لاسيما اذا جادتها الامطار وفاضت الاودية المنحدرة من الجبال بالسيول وسقى الزراع حقولهم منها — حينئذٍ ينمو الزرع والغرس نمواً عظيماً وتغزر محاصيل الدخن والذرة والسمسم والتبغ والنيلة والقطن والبطيخ ، والاشجار المثمرة وهي النخيل والموز والعمبا والليمون وغيرها . وفي تهامة نباتات وانجم برية شائكة وغير شائكة تنتسب الى فصائل مختلفة منها العصل الذي يعملون منهُ فحماً والبكار والثمام اللذان يستعملان في بناء العشش والاكواخ . وفيها من الاشجار غير المثمرة السمر والسلم والدوم والعشر والشورى والخروع الهندي وغيرها . وتؤلف هذه الاشجار في بعض اماكن تهامة ادغالاً ملتفة كان يعتصم بها ثوار القبائل في حروبهم مع الدولة العثمانية

قال ياقوت : وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها وهو من التهم . اه . لا جرم ان تهامة شديدة الحرارة تتفاوت درجتها في الحديدة في الصيف بين ٣٠ـ٣٥ ليلاً و ٤٠ نهاراً ولا تقل في الشتاء عن ٢٤ـ٢٥ وانها شديدة الرطوبة تبلغ احياناً درجة الازهاق (٨٠ — ٩٠) وذلك لقربها من خط الاستواء ومجاورتها البحر . لهذا لا يمكن سفر القوافل والمشاة والركبان في تهامة الاّ ليلاً خوفاً من الرعن ولا يمكن النوم في ليالي الصيف الاّ على السطوح وفي العراء . وتهب فيها احياناً ريح السموم فتسفي الرمال وتحدث اعاصير ، ولا يلطف الحر الاّ هبوب الريح الجبلي الشرقي او البحري الغربي

واهل تهامة شافعية المذهب ، نحاف الابدان ، ربعات القامة او اطول ، سمر الوجوه لحر بلادهم ولاختلاطهم بالدم الصومالي او الحبشي من قديم الزمان . وهم في الجملة أدمث خلقاً وألين جانباً وأرفد للغريب واقرى للضيف من اهل الجبال . لكن الامية اكثر انتشاراً في اهل تهامة منها في أهل الجبال ، وكذلك الشقاق والتناحر . ويعزى ذلك الى ان الشافعية ليسوا كالزيدية ذوي أئمة وسادة يعنون بشؤونهم الروحية والزمنية الى حدٍّ ما . والنفرة بين الشافعية والزيدية ما برحت ملحوظة . وهذه النفرة سياسية وادارية اكثر منها مذهبية ، لو عني بشأنها لزالت

وسكان السواحل في تهامة يعملون في البحر بالنوتية وصيد الاسماك وبناء الزوارق وبعضهم بالغوص واستخراج الصدف واللؤلؤ ، وهذه الحرفة تجارة رابحة ، ويعمل اهل الحديدة وعدن بتجارة الصادر والوارد من اليمن واليهِ . وسكان السهول والقرى الداخلية يعملون في تربية الزرع والضرع ، ويعمل امثال أهل زبيد وبيت الفقيه بالصبغ والنسج مما سوف نذكره

وفي تهامة قبائل شتى أشهرها الصيحة والزرانيق والقحرى وبني صليل والعبسية والجرابحة

وبنو مروان ودوغان وبنو قيس وغيرهم . وليست هذه القبائل رحالة بل مستقرة في قراها وضمن حدودها ، تعمل في الزرع والضرع، وتسكن بيوتاً من الاعشاش . والزرانيق أشد هذه القبائل بأساً وخبثاً وأطولها يداً في قطع طريق البر وقرصنة البحر وفي تهريب السلاح والرقيق قبل منهما . مواطنهم حول بلدة بيت الفقيه بين الحديدة وزبيد ، حاربوا الترك العثمانيين مراراً ولم يزالوا مشاقين لهم لما في مواطنهم من الحر الشديد والادغال الملتفة التي يختبأون بينها . وارادوا ان يعيدوا الكرة هذه مع جلالة الامام الحالي بقيادة بعض الدسائس الاجنبية فساق عليهم جيشاً قبل بضع سنوات ، قمع فتنتهم وأسكت نأمتهم . والقحري ايضاً من القبائل القوية تسكن بين وادي سردود ووادي باجل ، لكنها ليست من الشر في ما يماثل الزرانيق

وكانت تهامة في اكثر عصور تاريخ اليمن ولاسيما في العصور الاسلامية منفصلة عن قسم الجبال . قامت فيها دول عديدة مستقلة ، كدولة بني زياد وبني نجاح وبني الصليحي وبني ايوب وبني الرسول وبني طاهر ، وسيأتي ذكر ذلك في بحث التاريخ . ويظهر ان هذه — الدول ما استطابت النشأة والمقام في تهامة رغم حرها ووباء هوائها الاّ لكثرة محاصيلها ووفرة ريع المكوس التي كانت تتقاضاها من قوافل البر وسفن البحر الواردة من الهند وافريقية الشرقية ومصر والحجاز والشام . فكانت تهامة مركز التوزيع بين هذه الاقطار قبل فتح قناة السويس ، وكانت ميناء عدن ومخا مركز التصدير والتوريد . الاّ ان الدول المذكورة لم تكن لتقنع بتهامة ، بل كانت كلما اشتد ساعدها ورأت ضعف ائمة الزيدية بسطت ايديها نحو الجبال فملكتها مدة ، ثم أخلتها اذا عجزت عن حفظها . وهكذا كان شأن أئمة الزيدية ، كلما قووا ورأوا خلو التهائم من الحفظة استولوا عليها ، واذا ضعفوا اضاعوها وحكمها كبراؤها . وظل هذا الاخذ والرد حتى تم جمع المنطقتين نهائيًا في عهد الترك الاخير سنة ١٢٨٩ هـ وفي عهد جلالة الامام الحالي سنة ١٣٤٣ بعد ان نازعهُ عليها الادارسة الذين كانوا اصحاب عسير

وثمة في سواحل تهامة على البحر الاحمر عدة جزر بعضها صغير غير مأهول لا يزوره الاّ الصيادون والغواصون . ولكن أكبرها حجماً وأجلها قدراً قمران وبريم . فقمران في شمالي الحديدة، كان الترك انشأوا فيها قبل نصف قرن محجراً صحيًّا لحفلت بالسكان منذ ذلك الحين، ثم احتلها الانكليز عقيب الحرب العامة. وبريم وتدعى ايضاً ميون في مضيق باب المندب، لها مرفأ عميق صالح للبواخر. ورغم حرمان هذه الجزيرة الصغيرة القاحلة من اي اثر للماء و الخضرة فقد أوجد فيها الانكليز منذ ان احتلوها في الربع الاخير من القرن الماضي الماء المقطر وكل ما تحتاج اليه البواخر الداخلة والخارجة من البحر الاحمر من فحم ومؤونة . وتجاه هذه الجزيرة في ساحل اليمن موقع غير مأهول لهُ مكانة عسكرية كبرى يدعى الشيخ سعيد فيه لحكومة اليمن مخفر للجنود ومركز للبرق وفي ساحل تهامة وداخلها مدن وقرى عديدة . منها في الساحل ميدي واللحية والصليف

وابن عباس والحديدة والطائف وغلافقة والخوخة ومخا وعدن . وفي الداخل عبال وباجل والزيدية والقطيع والدريهمي والمنيرة والزهرة والضحي والمراوعة وحيس وبيت الفقيه وزبيد ، وفي تهامة الجنوبية وراء عدن الشيخ عثمان والحوطة والراحة وبير احمد والحسوة وغيرها

واكبر مدن تهامة وأشهر موانيها على البحر الأحمر في عهدنا (الحديدة) . ويظهر من عدم ذكرها في كتب جغرافيي العرب انها لم تكن لمضي ثلاثة قرون او أربعة سوى قرية حقيرة يقطنها الصيادون . الا انهُ بعد ان طمرت الرمال مينائي مخا وغلافقة وتعذر على السفن ان ترفأ اليهما سعدت الحديدة بالعمران . وهي الآن مدينة كبيرة يقدر عدد سكانها بثلاثين الفاً ، جميعهم عرب شافعية المذهب ، بينهم خلاسيون أمهاتهم من رقيق الحبش او الصومال وفيها قليل من الهنود البانيان والبهرة ومن اليونان والطليان المشتغلين بالتجارة . والحديدة محاطة بسور بني سنة ١٢١٥ هـ لهُ خمسة ابواب وعدَّة ابراج ، وفي داخل السور دور حجرية جميلة بيضاء وبعضها ذو طبقتين وثلاث وثمة عدة أسواق تغص بحوانيت الباعة والتجار ومستودعاتهم . وفيها حركة بيع وشراء واصدار واستيراد ، كانت أقوى من الآن كثيراً في عهد الترك . وفيها عدة مبانٍ حكومية ومساجد ، غير ان ساحلها مكشوف ومعرض للانواء ، تلجأ السفن عند اشتدادها الى خليج الحيانة في جنوبها . وحر الحديدة شديد ووباء تزداد وطأته بحكم شدَّة الرطوبة ايضاً . وفي خارج سورها احياء ودور كثيرة كلها عشش وأكواخ . وليس في الحديدة الاَّ قليلٌ من البساتين لفقدان المياه الجارية وملوحة التربة ، ولذا تأتيها البقول والثمار من القرى والجبال القريبة منها . وماء الشرب يجلب اليها من آبار تبعد نحو أقل من ساعة ينقل في براميل محمولة على عجلات تجرها الجمال . وفي شمالي الحديدة على بعد ٢٤ ساعة عنها (اللحية) ، وهي بليدة وفرضة على البحر محاطة بسور وفيها ثلاثة مساجد ، وفي خارج سورها حصن ، ويجلب اليها ماء الشرب من آبار تبعد ساعتين او ثلاث . و (الزيدية) بليدة تبعد عن الحديدة ١٢ ساعة بيوتها عرائش ، ينسج فيها حصر من ورق شجر اسمه الدوم يشبه النخل . و «باجل» بليدة تهامية على طريق صنعاء تبعد عن الحديدة عشر ساعات لها قلعة قديمة ومسجدان ودار حكومة. وفي جنوبي الحديدة بليدة (المراوعة) ذات مساجد وحوانيت ومصانع لنسج الفوط والبزوز المتنوعة ومعاصر لعصر السمسم ويسمون زيته في اليمن سليطاً ويزرع حولها النيلة والقطن والبطيخ . و (بيت الفقيه) في جنوبي الحديدة وعلى بعد اثنتي عشرة ساعة. وهي مبنية على تل مرتفع ، وهواؤها وماؤها أجود ما في مدن تهامة ، دورها من الاجر ، ومن العريش ، وفيها حوانيت كثيرة وخمسة مساجد ، أحدها جامع كبير ، وفيها حصن ، وقد اشتهرت بمنسوجاتها الجميلة المتينة المنسوجة من الحرير والقطن ، وعدد سكانها خمسة عشر الفاً ، وحولها نخيل كثير . وفي جنوبي بيت الفقيه وعلى بعد ست ساعات تقع مدينة (زبيد) بنيت في فم وادي زبيد ووسط سهل خصب كثير النخيل ، وأحيطت بسور

مربع الشكل شيد من الاجر ، وفيه أبراج كثيرة وأربعة أبواب وفي داخلها قلعة بني فيها دار للحكومة وجامع باسم بانيه اسكندر باشا ، وفي البلدة جامع آخر كبير لمصطفى باشا النشار أحد ولاة الترك في اليمن . وفي زبيد من السكان عشرون الفاً ، ودورها من الاجر أو العريش . وفيها جوامع ومساجد ومدارس عديدة . قال القلقشندي في صبح الاعشى: زبيد مدينة مبنية في مستوٍ من الارض ، عن البحر على أقل من يوم وماؤها من الآبار وبها نخيل كثير ، وبها مجتمع التجار من الحجاز ومصر والحبشة وهي شديدة الحر لا يبرد ماؤها ولا هواؤها . وقد كانت مشتى ملوك اليمن بني الرسول كما ان تعز كانت مصيفهم . اه . وبعد ان كانت زبيد قاعدة تهائم اليمن حافلة بالملوك والامراء الذين سيأتي ذكرهم في بحث التاريخ وبالتجار والسفار وبدور العلم والعلماء واللغويين حسبك منهم الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط الذي حط رحاله في شيخوخته فيها ومات سنة ٨١٧ هـ ، وحسبك بعض ملوك بني الرسول مؤلفي الكتب العديدة في التاريخ والادب والطب . . . انحطّ شأنها بعد زوال دولة بني الرسول ، ولا سيما بعد خراب ميناء غلافقة ثم مخا وانتقال السفن والتجار والحكام الى الحديدة ، فلم يبق من مجد زبيد وعمرانها ولا سيما من دور علمها وعلمائها الا أثر ضئيل . وفي جنوبي زبيد بليدة (حيس) فيها عدة مساجد ومطاحن ومصانع للنيلة ومصانع للاواني الخزفية . وفي اقصى الجنوب فرضة (مخا) التي كانت في العصور المتوسطة مدينة كبيرة تعد اكبر موانئ اليمن بل كل جزيرة العرب ، ويدخل مرفأها الامين سفن الهند والحبشة والزنج وتصل اليها قوافل مصر والحجاز وغيرها ، فتبادل العطور والطيوب والاصباغ والمنسوجات والمصنوعات والرقيق . وكان فيها ٧ — ٨ آلاف دار ، وعشرات من الخانات والمستودعات ، لا تزال اطلالها ماثلة . وكان البن اليماني الناجح في لواء تعز واقضيته يصدر منها ويعرفه الافرنج باسم (بن مخا : Moka) . وظل هذا العز والعمران في مخا حتى طمر البحر مرفأها بالرمال فاضطرت السفن الى التحول الى الحديدة وعدن ، ثم دهمها القضاء المبرم في سنة ١٢٥٠ هـ حينما هاجمها العسيريون ونهبوها وخربوها ، فأصبحت قرية حقيرة تندب مجدها الغابر

ومثل ذلك يقال عن مدن تهامة الجنوبية والغربية التي كانت قديماً فدرس اكثرها وخلفها غيرها . ذكر منها الهمداني وابن خلدون والمقدسي والعمري وغيرهم من جغرافيي العرب، عدن ولحج وأمين والرواغ والشقاق والمندب والحصيب وهي قرية زبيد والفحمة والكدراء والمهجم وعطينة والشرجة والحردة وغيرها . وصف المقدسي في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) عدن فقال : بلد جليل عامر آهل حصين دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب معدن التجارات كثير القصور مبارك على من دخله مثر لمن سكنهُ مساجد حسان ومعايش واسعة ، قد أحاط به جبل مما يدور الى البحر ودار خلف الجبل لسان من البحر فلا يدخل اليه الا ان يخاض ذلك اللسان فيصل الى الجبل وقد شق فيه طريق في الصخر عجيب وعليه

باب حديد ومدوا من نحو البحر حائطاً من الجبل الى الجبل فيه خمسة ابواب ، الاّ انها يابسة عابسة لا زرع ولا ضرع ولا شجر ولا ثمر ولا ماء ولا كلأ كثيرة الحريق والوكف . وقال ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار : لم تزل عدن بلد تجارة من زمن التابعة والى زماننا ، عليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة ويمتار اهل كل اقليم منها ما يحتاج اليه اقليمهم من البضائع . الاّ ان المقيم بها يحتاج الى ما يتبرد به في اليوم مرات من قوة الحر . ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الاموال النامية اه .

قلت : ما برحت هذه الاوصاف جاريةً في عدن على ما رأيت . الاّ ان حالها قد حسن في الجملة منذ ان احتلها الانكليز في سنة ١٢٥٤ هـ فحفلت بالشوارع المستقيمة والمباني الجميلة والمتاجر الحافلة، والحدائق المغروسة ، والحصون والمنائر الظاهرة فوق الجبال السود المحيطة بها ، والماء المشروب الذي استجلبوه بعد الحرب العالمية من قرية الشيخ عثمان ، وهي اليوم من اهم نقط المواصلة بين الشرق والغرب ومن أحصن حصون البريطانيين ومركز أساطيلهم البحرية والجوية ومحطة عظيمة تموّن منها البواخر بالفحم والنفط وما يلزم ، وبندر كبير تستمد منهُ بلاد العرب وافريقية الشرقية عامة واليمن خاصة كل ما يلزمها من السلع ، وفيها وكالات البواخر التي تغشاها بكثرة في غدوها ورواحها بين الغرب والشرق . ويقدر سكانها بخمسين الفاً اكثرهم عرب مسلمون وبينهم الصومالي والهندي والفارسي والافرنجي . وعجيبة عدن (الصهاريج) او اسداد الماء وهي من أجمل الاعمال الهندسية في العالم تسع ثمانين مليون جالون ماء . وتاريخ انشائها مجهول ، يرجع الى قبل الميلاد بخمسة قرون او عشرة . وكانت هذه الاسداد مردومة عند احتلال الانكليز لعدن ثم كشفت ورممت في سنة ١٢٧٢هـ . وعدن في شبه جزيرة على ساحل البحر في دلتا وادي لحج وعندها ينتهي مخلاف لحج ، كما ان هذا المخلاف منتهى اليمن في الجنوب . ويقيم سلطان هذا المخلاف في بليدة اسمها « الحوطة » تبعد عن عدن نحو عشرين كيلومتراً ، وفيها من السكان نحو عشرة آلاف ، وفيها قصور السلطان واخوته ومساجد كثيرة . وسلطان لحج عبد الكريم فضل العبدلي واخوه الامير احمد قد اخذا بحظ وافر من الثقافة والحضارة المفقودتين عند سلاطين وامراء بقية المحميات ، ولهما عناية بالعلم والادب والزرع والغرس . زرت بستاناً كبيراً للسلطان في شمالي الحوطة فوجدتهُ يحتوي على كثير مما لم اسمع الاّ باسمه من اثمار البلاد الحارة التي جلبت اشجارها من الهند ، كالجوافة والعاط والسيتافل والرامفل والنارجيل والتمر الهندي والشيكو والبيذان والعنباء والجيالي والمانجو وغيرها ناهيك بأثمار البلاد المعتدلة . وللامير احمد مؤلف مطبوع في مصر سنة ١٣٥١هـ دعاه « هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن » فيه بحث وتحقيق جديران بالثناء والاعجاب ، خاصةً وقد انقطع التحبير والتحرير بين امراء اليمن منذ عهد بني الرسول اصحاب زبيد (٦٢٠ـ٨٥٨هـ)

الى الثلاثين . . .

لسيد قطب

إلى الثلاثين نُعِّني الركاب　　حثيثـــة يا ليال
مضى من العمر أغلى اللباب　　فلست آسي لغال
مضى من العمر ما يستطاب　　من بهجة أو جمال
مضى كما جاء — عهدُ الشباب　　عهدِ المنى والخيال
وضاع في غمرة واضطراب　　ومرّ دون احتفال
فأسرعي يا ليال

علام من بعده تمهلين ؟　　وأيّ غيب نهاب ؟
وما احتفالي بمرّ السنين ؟　　من بعد مرّ الشباب ؟
وما الذي يا ليالي يكون　　بمد اكتهال الرغاب ؟
يكون — واحسرتاه — السكون　　على ضفاف اليباب ؟
يكون — كالقيد — عقل رزين !　　يمطو لشط الصواب!
فيا لسوء المآب

فذلك العقل رمز القيود　　ونحن شرُّ العُناه
يذودنا عن مراقي الخلود　　وخير ما في الحياه
والطيش رمز الشباب المريد　　يسمو بنا عن مداه
فنحن نرنو لهذا الوجود　　بفتنة وانتبـــاه
فلا نبالي بصرف الجدود　　ولا نخاف الغداه
فكلّ يوم حياه

يضاعف اليوم مني المصاب　　أن لم أعش بالخيالِ
قضيت — واحسرتاه — الشباب　　كالكهل في كل حال
يحيش بالنفس سيل الرغاب　　فلا يمس اعتدالي
ووجهتي في الحياة الصواب　　ونظرتي للمآل !
عصيت أمر الحياة المجاب　　فكان رشدي ضلالي!
فاسرعي يا ليال

الحضارة الحثية

نواحيها الصناعية والتجارية

بقلم قيصر صادر

عضو جمعية العاديات السورية

التجارة

يؤخذ من مخطوطات الكاپادوك ان الحثيين كانوا منذ اقدم عهودهم تجاراً من الطبقة الاولى وعلى اتصال وثيق بسائر امم الشرق يتاجرون معها بشتى الاصناف اهمها الأصواف والماشية والمعادن وكان عندهم شبه مصارف تجارية لترويج معاملاتهم ونقود يتقاضون بها حاجاتهم وكانت تزن قطعة نقدهم الكبرى ستين مثقالاً من الفضة [illegible] على عقود [illegible] وتسليف على بضائع وقروض مقابل حوالات [illegible] بعض النصوص على وجود محل في الحواضر الكبرى يدعى كاروم اشبه بالغرف التجارية المعروفة في ايامنا يهتم بتعيين معدل فوائد القروض بين التجار ويعد المرجع الأعلى لحسم الخلافات التجارية وكانت معظم قيودهم تختم بالرصاص وتطبع بطابع الغرفة المذكورة بجانب مهر التاجر المصدّر عنهُ وكانت وعداتهم معينة بخمسة ايام عوض اسابيعنا الحالية فنقرأ مثلاً في عقودهم انهُ اتفق على ايفاء القرض الفلاني بعد مرور تسع خمسات اي بعد خمسة واربعين يوماً

وعندما تقدموا في مضمار الحضارة مهروا في تنقية المعادن وصياغتها فصارت تجارتها تدر عليهم ارباحاً طائلة وقد اهتموا بها حتى ملوكهم فأخذوا يطلبون الى فراعنة مصر ارسال سبائك ذهبية ليصوغوا لهم منها حلياً في معاملهم الملكية مقابل اجر يحسمونهُ من اصل البضاعة . ثم اتقنوا في القرن الحادي عشر صنع الاسلحة وسائر مستلزمات الحضارة من معدن الحديد الذي كانوا يستخرجونه بكثرة من مناجم اسيا الصغرى وجعلوا معامل هذه الصناعات ومحال الصاغة الكبرى ملكاً للدولة واخذوا يتاجرون بمصنوعاتها مع سائر امم الشرق وقد عثر العالم الاثري

المسيو تورو دانجان في حفريات تل برسيب على رسالة لملك حثي جواباً الى ملك غير معروف يقول لهُ فيها : « لقد اوعزت الى معاملي بأن تصنع ما اوصيتم بهِ من اصلح انواع الحديد فعندما يتم عمله سوف ارسله اليكم » وأصحب رسالته خنجراً من الحديد كنموذج وقد كشف التنقيب عن اشياء كثيرة من تلك المصنوعات كاطواق وآلات واسلحة واصنام وتماثيل وتمائم مرصعة بالذهب

وقد كان الامن مستتباً على طرق مواصلاتهم التجارية والثقة موطدة فتقطع قوافلهم المسافات الشاسعة وتقضي فيها اياماً وليالي من غير ان تخشى بأساً ولم تكن طرقهم مستقيمة على شاكلة الطرق الرومانية بل كثيرة الالتواء كشبكة تربط كل البلاد الحثية بعضها ببعض وتدلنا الآثار التي شادوها على قارعة هذه الطرق على اتساع حلقة تجارتهم وبعد مداها في غربي مملكتهم كما انهُ في الجهة الشرقية كانت كركميش منفذهم على الفرات وعقدة مواصلاتهم مع بلاد ما بين النهرين

الصناعات والفنون

لا غرو انهُ لا يمكن ان يبلغ شعب من الشعوب مستواهُ الراقي في الفنون والصناعات ما لم يجتز سلسلة من المراحل الابتدائية . لذلك نشاهد في آثار الحثيين تفاوتاً في درجات رقي فنونهم وصناعاتهم يختلف باختلاف العهود التي ترتدُّ اليها . فيجدر بنا والحالة هذه ان نقسم هذه الفنون والصناعات الى قسمين نطلق على الاول اسم الفن الحثي الأسيوي وعلى الآخر الفن الحثي السوري نظراً الى ما لكل من هذين القسمين من عهود متفاوتة وميزات خاصة . فبينما يكاد يكون الاول مشتقاً من الفن السومري لكثرة وجوه التشابه بينهما نرى على الثاني مسحة من الفن الاشوري تزداد بروزاً مع تقدّم عهود التاريخ حتى تنفذ منهُ الى الصميم . على أن هذه التأثيرات لم تحل دون تكيّف الفنون والصناعات الحثية وتطبع بطابع خاص جعلناه موضوع بحثنا في خطوطه العامة

﴿ فن العمارة ﴾ فاذا أخذنا بفن العمارة وهو من أهم العوامل في درس مدنية الشعوب دلتنا الآثار الحثية الباقية على عبقرية الشعب الذي شيدها . فقد امتازت عمائر الحثيين باستقامة خطوطها الساذجة وضخامة قواعدها وتوسط ارتفاعها وتناسبه مع امتدادها وتجلت هذه الأوصاف خاصة في الآثار التي اكتشفت في بوغاز كوي وهويوك كما بدت على انقاض قلعة كركميش

ومن أروع تلك الأدلة على قولنا حصون حاتوشا وأبوابها الحجرية التي تنم بضخامتها وصلابة بنائها على ما كانت عليه تلك العاصمة القديمة من القوّة والمناعة وقد قامت في وسطها قلعتان على ذرى رابيتين تحيط بهما أسوار غليظة يبلغ سمك جدرانها اربعة أمتار ونصف متر وهي مبنية بأحجار كبيرة الحجم متراصة تتخللها دعائم على مسافات متوازية تزيدها متانةً ينفذ منها بباب حجري مستطيل الى قباب طويلة مزخرفة الجدران برؤوس اسود بارزة كأنها قائمة على

حراسة الابواب ويخرج من هذه القباب الى فناء داخلي تتفرّع منهُ سائر المشتملات من أبهاء وغرف وهياكل

ومما اكتشف ايضاً في حفريات بوغاز كوي بقايا قصور تيسر معرفة شكلها الهندسي بفضل بقاء جدران طبقتها الاولى فوجدت مبنية بأحجار جسيمة الحجم يتألف داخلها من رواق طويل ينتهي الى فسحة مكسوة بالبلاط تتوسطها بناية كبيرة يلوح من زخارف انقاضها انها كانت معبداً في قلب القصر وتقوم في غرب هذه البناية غرف كثيرة تشرف على الفسحة المذكورة وتمتاز هذه الابنية الحثية بأسسها العميقة خلافاً للابنية الاشورية التي كانت تقوم على سطح الارض

فيستنتج مما تقدَّم ان الحثيين بالغوا في صلابة بناء عماراتهم الكبيرة التي كانت من الصخر الصلد وحاطوها بكل ضروب التحصين وجهدوا في أن تكون غاية في المناعة ويظهر انهم بذلوا معظم جهدهم في تشييد قصور الملوك ومعابد الآلهة توخياً لرضاء أربابها

﴿ الحفر والنقش ﴾ وقد اغرق الحثيون في الاستكثار من الحفر والنقش على آثارهم حتى انتشرت نقوشهم في جميع أنحاء الاناضول وسوريا الشمالية على ان فنها لم يكن متجانساً في كل الامكنة على السواء . ففي يازيلي قايه وبوغاز كوي القديمتين تراه أقل رقيًّا مما هو عليهِ في كركميش وزنجيرلي . فبينما كان الحفار الحثي يقصر همه في البدء على اخراج نقوش ناتئة اخذ يعنى على مرور الايام بنحت الاصنام والتقرُّب من تصوير الحقيقة ويجهد في محاكاتها فمهر في ضبط اعضاء الجسم وصار لهُ ميزة خاصة بأسلوبهِ ومبتكراته ثم نحا آخر نحو الرقة وكاد يضاهي في بعض الآثار نقوش المصريين الرائعة

وربما كان من اشهر خصائصه تصوير الحيوانات حيث توصل بها الى محاكاة الشبه بامانة تكاد لا تصدق نخص منها نقوش الأسود التي برع في تمثيلها واكثر من صفوفها على ابواب قلاعه وقصوره ومعابده . فمنها تبدو لك جالسة وقد بطحت ايديها الى الامام كأنها تعبة من طول السهر وقد بانت اعضاء جسمها كافة فتكاد تعد اضلعها ومنها تراها منتصبة كأنها تتحفز للوثوب وقد فتحت اشداقها لتزأر فترتاع من هول مشهدها . وهنالك نقوش كثيرة على جانب عظيم من المهارة تمثل كلاباً تطارد سرب غزلانٍ ومشاهد قنص وصيد قلَّ مثيلها في محاكاة الطبيعة مثل نقش هويوك الذي ظهر فيهِ وعلٌ يعدو هرباً من نشابة الصياد . وقد اقام الحثيون تمثالاً لابي الهول المصري في عاصمتهم الاسيوية ونقله المكتشفون الى متحف استامبول حيث يشاهد مرمماً من الكسر ذا جسم عتيّ ووجهٍ بشري بفم كبير يحاول الابتسام

اما سائر النقوش فقد تنوعت موضوعاتها الى حدٍّ لا يحصر وأُتيح لنا ان نتتبع مبدعيها في حفلاتهم وطقوسهم واعمالهم وفي كل امرٍ من امورهم . ففي بوغاز كوي عثر على قاعدتي تمثال من حجر

الجص مزينتين بنقوش تمثل في احداهما رجلاً ملتفاً برداء وفي الاخرى فاتحاً الرداء وهو واقف وقفة تعبد وابتهال امام هيكل يشبه مقعداً كثير الثقوب اكتشف له مثال من الفخار في معابد اشور وتبين ان كثرة ثقوبه تساعد في عرف الاشوريين على ظهور ارواح الاجداد من نوافذها

وقد تعرفنا بفضل نقوش أُخر تغطي صدوغ احد ابواب مدينة حاتوشا الى ملك محارب حليق الذقن يكسوه قميص حريري مشدود تكاد تبرز من تحته عضلات صدره الواسع. اما رأسه فمغطى بخوذة بيضوية الشكل يحتذي موقاً معكوف الانف ويحمل في طيات حزامه العريض خنجراً معوجاً بقبضة مزخرفة وقد امسك بيده اليمنى المقربة من صدره فأساً ذا حدين اما يده اليسرى فتراها مطبقة القبضة دلالة على شدة بأسه وهو في وقفة تخاله فيها يتأهب للمشي

وهنالك نقش آخر يرينا آله النباتات القروي محملاً بعناقيد العنب وقد امسك بيد عنقوداً كبيراً وفي الاخرى حزمة من سنابل الحنطة كأنهُ يشير بها الى ملك واقف امامه وقفة الخشوع والاحترام

وفي يازيلي قايه صور اشكال من الطقوس نقشت على سلسلة من صخور جبلية يسترعيك بينها مشهد يمثل مواكب من الآلهة والملوك والملكات وقد وقفوا في صفين متقابلين يتقدمهما اله عظيم على رأسه تاج عال وقد امسك بيده اليمنى قبضة من الاسلحة وأشاح باليسرى الى الهة الشمس الواقفة قباله مما فسره العلماء بحفلة زواج احد الملوك وارتقائه الى مصاف الآلهة

وفي محلٍ آخر نرى الهاً شاباً ممسكاً بيده اليمنى شارة الملك وقد لفَّ الاخرى حول عنق اله اصغر رمزاً الى حمايته ويجدر بنا ان نشير ايضاً الى بعض آثار هويوك التي تمثل مشهد تطواف كهنة بألبستهم الرسمية حول ذبيحة مقدمة على هيكل بحضور الملك والملكة . وان ننوّه بمشهد آخر يمثل الآلهة قاعدة في مجلس طرب وقد التف حولها نافخو الابواق وسائر المطربين ولا يفوتنا الى ان نلمح في الختام الى المشاهد الطقسية العديدة التي وجدت في ارسلانانيه وكركميش وفي غيرها مما لا يعد ولا يحصى

﴿ صناعة المعادن ﴾ عرف الحثيون صناعة المعادن من اقدم عصورهم فصاغوا من سبائك التبر حليًّا وأصناماً صغيرة كما جلوا الحديد وصنعوا منهُ الرقائق المصورة والتماثيل وخلطوا الخارصيني بالنحاس وركبوا من مزيجهما الشبه وسكبوا منهُ آنية وكؤوساً ودمى طلوها بالذهب والفضة واذابوا القصدير واستعملوه لبصم اختامهم وصهروا سائر المعادن واستخدموها في صناعاتهم . يشهد لنا بذلك ماخلفوه من شتى الآثار التي وسموها بميسمهم الخاص وقد كثرت فيها تماثيل الآلهة المتطية ظهور حيوانات ومعظمها سليم الذوق ودقيق الصنع

﴿ صناعة الفخار والخزف ﴾ وقد اتقنوا كذلك صناعة الفخار والخزف وتفننوا في منتجاتها

فامتازت مصنوعاتهم باناقة اشكالها وزخرفتها وجمال تلوينها ولاسيما الآنية المكتشفة منها في انحاء سوريا الشمالية حيث تطورت اشكالها العتيقة المبتذلة واخذت تقرب من اشكال الآنية المعدنية فتبسطت اعقابها وصار بعضها بطيناً والبعض الآخر معنقاً وكان الاحمر لونها الغالب الاّ انهم وسموا معظمها بتعاريج هندسية وغصون اشجار ملونة كادت تضيع لونها الاصلي ثم اخذوا يكيفونها باشكال بعض حيوانات مثل السمك والبط والسلاحف وما شاكلها ويطلونها بالميناء اللامعة فصارت في منتهى الزخرفة كما دلت على ذلك مجموعة آنية تل برسيب المحفوظة في متحف حلب وقد شبه العالم الاثري بوتيه بعضها بالخزف العيلامي الجميل المكتشف في ايران

﴿ الحفر على الاسطوانات ﴾ ومما برع الحثيون في صناعته الحفر على الاسطوانات . فقد عثر لهم على اختام ترتد الى القرن الخامس عشر ق . م على جانب عظيم من دقة الصنع كثيرة الزخرف وقد حفر على بعضها صور آلهة حثية عارية مثل آلهة الخصب وقد نقشت حولها احرف هيروغليفية حثية كما اكتشف في قبور كركميش اسطوانات حثية الفن ولكنها مشبعة بروح اجنبية حيث ترى بعضها مزداناً بنقوش آشورية واخرى بتعاويذ مصرية وتصاوير آلهة وادي النيل، وقد برهنت هذه الآثار على مدى تأثر الحثيين في الامم التي اتصلوا بها

وقد يبقى بحثنا ناقصاً اذا تغاضينا عن ذكر مدى انتشار الفنون الحثية في سائر الاقطار الشرقية وتأثيرها في الحضارات التي ازدهرت من بعدها . فتأييداً لانتشارها نذكر الصنم الحثي الذي عثر عليه في حفريات بابل بين آثار القرن الثاني عشر ق. م وهو يمثل الاله تحشوب بقميصه القصير وسيفه المعوج في خصره وحذائه المعكوف الطرف ولحيته الكثيفة وشعره المسرّح وقد لبس على رأسه تاجاً يعلوه قرنان وأمسك بيده فأساً مهدداً بالبطش والانتقام

كما ان تأثير الفنون الحثية في سائر الفنون القديمة تبدو في كثير من الامور أخصها قواعد الاعمدة اليونانية المزدانة بنقوش وتماثيل حيوانات معروفة بكونها من مبتكرات آسيا الصغرى . وفي خوذة الجندي اليوناني وسائر لباسه الذي يماثل ألبسة الجنود المنقوشة على آثار زنجيرلي وفي تماثيل الآلهة المنتصبة على ظهر حيوانات وفي غيرها من الاساطير الدينية وبعض الصناعات التي تسرّبت من الحثيين الى بحر إيجه فاليونان

وصفوة القول ان اكتشاف الحضارة الحثية قد أبان مصادر كثير من الفنون القديمة وأظهر الأواصر العديدة المتوثقة بين الاقطار الشرقية منذ أقدم الازمنة وأوضح فضل هذه الدولة العريقة التي اذكت شعلة المدنية قبل اربعة آلاف سنة وحملت نبراسها احقاباً طويلة في أحلك ظلمات القرون السحيقة

نفسية الجماهير

بقلم نظمي خليل

اذا اجتمع نفرٌ من الناس لسماع محاضرة أو مشاهدة قصة تمثيلية فاننا نتبين نوعاً من الشعور قد سرى الى عقول هؤلاء الناس جميعهم وان لم يكن على درجة واحدة في كل واحد منهم . ومصدر هذا الشعور هو الممثل أو الخطيب ومنهُ ينتقل الى جمهور الحاضرين ولكن هذا الشعور ليس بالعميق الراسخ فسرعان ما يتبدَّد ويتلاشى في مشاغل الانسان الكثيرة . وكلما كان الأفراد مهيئين لمثل هذه الإيحاءات كان الامتزاج في عاطفة الجمهور أقوى وأكمل وكان تأثيرها أشد وأبرز . والواقع ان الاستعداد لقبول هذه الإيحاءات يختلف باختلاف الأفراد . وهو في الاطفال والنساء أظهر منهُ في الرجال وفي بعض الشعوب أقوى منهُ في غيرها . وعلى هذا نجد عقل الجماعة مسرحاً لشتى الايحاءات لا تكاد تظهر سلسلة حتى تعقبها سلسلة أخرى تجرفها في طريقها وتنتزع منها مكانها . ولا يتوقف دوام أثر هذه الايحاءات على كيفية انتشارها بأسهل الطرق ولكن على مقدار ما فيها من صلابة وحدة في العاطفة . لأن هذه الحدة في العاطفة التي تصحب الآراء عادة هي التي تعمل على تثبيتها وتغلغلها في عقول الأفراد . وبهذه الطريقة يسعى كل حزب الى كسب أنصاره بواسطة الخطب الساحرة والكلمات الخلابة التي يتوهمها هؤلاء الأنصار أنها تتفق ورغباتهم . لان الأفراد يسعون دائماً وراء امتيازات خاصة مشتركة بين الجميع ومن أجل ذلك يجتمعون لاعتقادهم أنهم يصيبون مجتمعين أكثر مما يصيبون متفرقين . وعلى هذا يقوى بينهم شعور الزمالة كلما استهدفوا لخطر فيتكاتفون جميعاً على درئهِ . فالخوف شعور وجداني لهُ فوائده العظيمة في الجمع بين الأفراد وفي تكوين الجماعات وبمقدار بقاء هذا الخوف تكون مدة اتحاد هذه الجماعات والتئام صفوفها

ولم يغفل قادة الشعوب عن هذه الظاهرة السيكولوجية في الجماهير فعملوا جهدهم على استغلالها والانتفاع بها . فاذا نجح القائد مرَّة في ادخال الخوف في قلب الجمهور من أجل خطر — وهمي أو حقيقي — لم يصعب عليهِ بعد ذلك ان يقبض على زمام هذا الجمهور وأن يوجههُ كيفما يشاء . هذا ما نراهُ في جميع الشعوب فقبل ان تندلع نيران الحرب يكون الرأي العام قد تهيأ لها عن

طريق الصحف والخطباء الذين لا يفتأون يدخلون الرعب في قلوب الناس بما يذيعونهُ عن زيادة تسلح احدى الدول المعادية. لذلك كان أول واجبات الزعيم الشعبي أن يبث الخوف والكراهية وعدم الثقة في نفوس الناس. لقد كشف جوستاف لوبون عن تلك العاطفة -- الخوف -- التي تحتل المكان الاول في أعمال الانسان فقال « ان روح الجماعة عاجزة عن أي نشاط ذهني فهي بين الاقدام والاحجام وبين هذين القطبين تتذبذب روح الجمهور فهي قد تدنو وتنأى تبعاً لشعور العطف أو الكراهية »

فاذا أدرك الزعيم رغبات شعبه وعمل على تحقيقها استطاع أن يبث فيهِ روحاً قوية قد تدفعهُ الى التضحية. ويكفي ان يذكره بهذه الكلمات الشرف — الدين — الوطن فيثير فيهِ أهواءه الدفينة وميوله القوية وسلوك الجماعة يعتمد قبل كل شيء على سلوك الافراد الذين تتألف منهم هذه الجماعة. وتصرف الفرد يخضع للجنس والسن والبيئة ولكنهُ يعتمد في النهاية على السلالة أو بوجه عام على العوامل الوراثية. وما دام الأمر كذلك فقد كان المنتظر ان يختلف سلوك الجماعات الفردية النزعة Individualistic Masses عن سلوك الجماعات الاجتماعية النزعة Collectivistic masses وسنرى هل هذا صحيح أو غير صحيح. واذا شبهنا المجتمع الانساني بجهاز عضوي ونظرنا اليهِ من الوجهة البيولوجية أمكننا أن نتعرف على طبيعة الجماعة ونفسيتها وما ينتج عنها من تصرفات. وكما يختلف الافراد في التكوين الجسمي كذلك الحال في الجماعات ففي الانسان نجد كل خلية تكتسب عناصر الوراثة من كلا الوالدين، ونشاط الخلية يتأثر دائماً بالعناصر التي ورثتها. كذلك الحال في الجماعة فان تكوين الكتلة البشرية يخضع دائماً لتصرفات الفرد وعلى ذلك نجد أن هناك شبهاً قويًّا بل تطابقاً محكماً بين خلايا الانسان الواحد وبين الناس في المجتمع

هذا من الناحية البيولوجية أما اذا نظرنا الى المجتمع من الناحية [illegible] — [illegible] — فاننا لا نجد اختلافاً كبيراً بين الانسان والجماعة الا ان الخلايا في الانسان أسرع اتصالاً بعضها ببعض من اندماج الافراد في الجماعة ففي الاول رباط مادي لا نجد مثيله في الاخير ولكن هذا الرباط يستبدل في الكتلة البشرية بما يسمى انتقال المشاعر أو الايحاء

ولست أميل هنا الى الدخول في موضوع عويص بالبحث في طبيعة انتقال هذا الشعور فقد تكون الحركات المتوافقة للخلايا ناتجة من انتقال نوع من أنواع الشعور. ومهما يكن فان في الجماعات البشرية دوافع قوية متصلة تنتقل من فرد الى آخر كتلك التي نجدها في خلايا الجسم البشري. وكما يحدث ان الخلايا التي في الانسان تؤثر في حركات غيرها كذلك الحال في الكتل البشرية فاننا نجد صدى التأثير هو الذي ينتقل من شخص الى آخر. ويمكننا أن نستنتج من هذا ان حالة التأثير في الجماعة هي مجموع تأثير الافراد غير أن السلالة والسن والجنس والنمو في الافراد وغيرها من مؤثرات البيئة تجعل « التفاعل » في الجماعة غيره في الافراد إذ أننا نجد في الجماعة كما في حياة الافراد العقلية دوافع شتى تتصارع وتتناضل. هذه الدوافع هي التي تتسلط

على حركات الجماعات كما تتسلط على حركات الافراد وهي دوافع غريزية خالصة

ولكن هذه الدوافع وحدها لا تكفي لتكوين كتلة نفسية متماسكة تحيا حياة اجتماعية متماثلة اذ لا بد أن يكون بين الافراد شيء من التجانس العقلي . دع رجلاً يقوم بين مائة من الناس ينعى على الامة ضعفها وتفككها فسرعان ما يلتف حوله هؤلاء المائة ولكن اذا كان هؤلاء المائة من أجناس وشعوب مختلفة فانهم سرعان ما ينصرفون عن الخطيب لان كلامه لا يعنيهم في قليل أو كثير

وعلى ذلك يجب أن يكون هناك بعض التشابه في التكوين العقلي أو ما يسمى بالتجانس العقلي في الجماعة . وكلما زادت درجة التجانس في الكتلة البشرية كان التكوين النفسي للجماعة أيسر وكانت مظاهر الحياة الاجتماعية فيها أظهر وأوضح

فاذا أتيح لجماعة متجانسة شخص يثير فيها الحماسة والعمل فان شعور هذه الجماعة لا يلبث ان يتحد وقد يمر بعقل كل واحد منهم في تلك اللحظة كل العمليات العقلية التي شاعت في ذلك الجو الجديد ويصبح من السهل اقناعهم وتوجيههم الى حيث يريد الزعيم بل قد يكون اقناعهم أسهل من اقناع الفرد لأن أعمال كل عضو في الجماعة غير أعمال الشخص الذي يواجه الموقف كفرد مستقل . فالفرد في الجماعة لاهمَّ له إلا أن يمجد قوة الجماعة ولكن الجماعة لن تحاول أن تبقي على كيانه أو أن تحافظ على حريته فهو في هذه الحالة يصبح فرداً في الجماعة يفقد فيها شعوره الشخصي وادراكه لذاته كشخصية تميزه . وعلاوة على ذلك فانهُ باندماجه في الجماعة يفقد كثيراً من المسئولية الشخصية إذ يشعر أن مشاعر غريبة قد غمرتهُ وقوى أخرى خارجية قد جرفتهُ في هذا الطريق الجديد وهو عاجز عن أن يقف أمام تيارها . لذلك يكون من اليسير جدًّا على الزعيم أن يتلاعب بتلك الجماهير التي أسلمتهُ قيادها يوجهها كيفما يشاء . فهي تسير وراءه بعاطفتها لا بعقلها تسمع كلماته فتتفتح لها قلوبها وترى اشاراته فتسارع الى الاستجابة لها فتندفع في فورة العاطفة وحرارة التأثر فترتكب من أعمال الطيش والتدمير ما يثير عجب جميع الناس الذين لم تمسهم نيران الثورة ولم تستجب قلوبهم لنداء العصيان . ولكن ليس لنا أن نعجب لأمر هذه الجماهير التي طاشت أو لتلك العقول التي ضلت فان هذه الظاهرة النفسية وان بدت لنا غريبة شاذة هي نتيجة طبيعية لتلك الثورة الجامحة . فاذا وقفنا على الصفات النفسية للجمهور ما هالنا أمره . فالجمهور ساذج عاطفي الى حدٍّ كبير ، كثير الاندفاع قليل الثبات ، متطرف في كل شيء . قابل للايحاء ، مستهتر في تحكمه ، متسرع في حكمه فهو شبيه بالطفل المتروك أو الهمجي غير المكبوح وقد يكون في بعض الحالات أقرب الى الوحش الضاري منهُ الى الانسان العادي . اذا فهمنا هذه الحقائق الاولية في نظريات نفسية الجماعات ما رمينا الجماهير الساذجة التي تفقد عقلها في الازمات النفسية العنيفة بالانحطاط الخلقي والثقافي ووقفنا على تلك الحقيقة المهمة وهي ان الجمهور لا يصحبه اي شيء من الشعور الخلقي والعقلي الذي يصحب أعمال الافراد الذين يكونونها

وقد يخطىء كثير من الناس فيعزون أعمال التلف والتخريب الى الرعاع المستهترين والواقع أن جميع الافراد سواء المهذب المثقف أو السوقي الأمي يكونون في حالة عقلية واحدة في تلك الثورات النفسية الشاذة . اذ الكل يتبع نداء الغريزة ، ويندفع بتأثير الايحاء

لقد فهم شكسبير عقلية الجماهير فهماً دقيقاً فلا تخلو قصة من قصصه التمثيلية الكثيرة من الاشارة اليها والتعرض لها . وأقوى مثال على هذا ما جاء في مسرحيته الرائعة « يوليوس قيصر » من موقف الشعب الروماني بعد قتل قيصر . فقد نجح بروتس زعيم المتآمرين في اقناع الشعب بضرورة قتل قيصر لانقاذ روما حتى أن الشعب اعتبر القتلة أبطالاً جديرين بالخلود . فلما جاء « مارك انتوني » وجد نفوساً حانقة على قيصر وأتباعه فلم يشأ أن يهاجم القتلة أو أن يسيء الى قصدهم بل عمد الى استمالة الجمهور اليه بأن حدثهُ عن أعمال قيصر وكيف ان قيصر قد بنى لهم مجداً خالداً وشاد لهم امبراطورية عظيمة دون أن يكسب لنفسه شيئاً

فسرعان ما انقلب ذلك الجمهور الحانق الساخط على قيصر واتباعه الى جمهور ثائر على القتلة المجرمين فاندفع في فورة العاطفة يطالب بدم قيصر البريء . وهنا يورد شكسبير حادثة طريفة قد تكون حقيقة تاريخية ثابتة وقد لا تكون ولكنها على اي الحالات حادثة يمكن ان يقدم عليها جمهور في مثل تلك الثورة الجامحة والهياج العاطفي العنيف . خرج الشعب الروماني جموعاً متدفقة يبحث عن القتلة فصادف في طريقه رجلاً فسأله عن اسمه فأجاب الرجل « سنا » فلم يكد الجمهور الثائر يسمع هذا الاسم حتى انقض على الرجل يريد الفتك به لانه كان يبحث عن أحد الاشخاص المتآمرين يدعى « سنا » وعبثاً حاول ذلك المسكين ان يقنع الجمهور انهُ « سنا » الشاعر لا سنا « المتآمر » . هذه الحادثة البسيطة وان لم تكن حقيقة تاريخية ترسم صورة واضحة لنفسية الشعب الثائر الذي لا يعرف الا الانتقام والتدمير سواء كان هذا التدمير يتصل بالسبب الحقيقي الذي من أجله يثور أو لا يتصل . وتعليل هذا أمر يسير فالجمهور في حالة هياجه كالفرد في ثورة غضبه فكما ان الفرد يخرج به الغضب أحياناً عن دائرة التعقل فيتلف ويدمر كل ما يلقاه أمامه وقد يبكي او يضرب نفسه ان أعوزه ذلك. كذلك الجمهور يدفعه حنقه وجنونه الى قلب كل ما يراهُ أمامه وهذه ظاهرة نفسية طبيعية فهو في تلك الحالة ثائر مضطرب فيريد ان يرى كل شيء حولهُ ثائراً مضطرباً أي انهُ يريد أن ينفّس عن نفسه بخلق الجو الملائم لطبيعته الثائرة . ومن الخطل ان تأخذ مثل هذا الجمهور بالشدة والعنف فاننا ان فعلنا ذلك تزيد النار اشتعالاً . فكم من شخصيات عظيمة ذهبت ضحية الثورات الجامحة لأنها لم تفهم نفسيات الجماهير. وما أكثر الذين كان يرجى منهم مستقبل عظيم فجرفهم الجمهور في طريقه لانهم تصدوا لهُ

والواقف على تاريخ قادة الشعوب يدرك تماماً أن هؤلاء القادة لم يكونوا اذكى الناس أو اكفأهم ولكنهم كانوا أجرأهم وأكثرهم صبراً وأعرفهم بنفسية شعوبهم



في مصر والعراق

للفريق امين المعلوف

كثر البحث في هذه الأيام في توحيد الرتب العسكرية في اللغة العربية فرأيت ان اكتب شيئاً مما أعرفهُ عن الرتب العسكرية في العراق. وقد كانت في أيامي كما يأتي من أدناها الى أعلاها وسأذكر الاسماء المصرية ثم العراقية ثم الانجليزية والفرنسية

الرتبة المصرية	الرتبة العراقية	الرتبة الانجليزية	الرتبة الفرنسية
نفر	جندي	Private	Simple soldat
وكيل أونباشي	جندي اول	Lance corporal	—
أونباشي	نائب عريف	Corporal	Caporal
جاويش	عريف	Sergeant	Serjent
باشجاويش	رأس العرفاء	Sergeant major	—
صول	نائب ضابط	Warrant officer	—

هؤلاء الاربعة يقال لهم في مصر صف الضباط وفي العراق ضباط الصف. ثم الضباط وهم من ملازم ثانٍ الى مشير فجميعهم ضباط

الرتبة المصرية	الرتبة العراقية	الرتبة الانجليزية	الرتبة الفرنسية
ملازم ثانٍ	ملازم ثان	Second Lieutenant	Lieutenant
ملازم اول	ملازم اول	First Lieutenant	—
يوزباشي	رئيس	Captain	Capitain
صاغ	رئيس اول	Second captain	—

هؤلاء الاربعة يقال لهم ضباط اعوان والواحد عون

الرتبة المصرية	الرتبة العراقية	الرتبة الانجليزية	الرتبة الفرنسية
بكباشي	مقدم	Major	Commandant
قائمقام	عقيد	Lieut. Colonel	—
ميرالاي	زعيم	Colonel	Colonel

هؤلاء الثلاثة يقال لهم في مصر ضباط عظام وفي العراق قادة والواحد قائد

لواء	امير لواء	Brigadier general	Général de brigade
فريق	فريق	Major General	Général de Division
—	عميد	Full General	Général d'une armée
مشير	مشير	Field Marshal	Maréchal

وأحياناً يسمى المشير في العراق العميد . هؤلاء الاربعة يسمون في مصر ضباط كرام وفي العراق أمراء فيقال تحية الامراء اذا كان لهم تحية خاصة

ثم ان الرتب العسكرية العراقية وضعت اولاً في الحجاز . ثم عدّلت في دمشق ثم في العراق عدلها الفريق جعفر باشا العسكري وكان وزيراً للدفاع وعاونته في بعضها . وكان رحمه الله يتقن لغات كثيرة فمن اللغات الشرقية العربية والتركية والكردية والفارسية والافغانية وقليلاً من الروسية ومن اللغات الأوربية الفرنسية والالمانية وتعلم أخيراً الانكليزية وأتقنها . قلت انهُ عدل الرتب العسكرية في العراق وقد اقترحت عليه يوماً كلمة عميد للكلونل لان كلمة كلونل أصلها من كلمة عمود فلما عرضها على جلالة الملك قال العميد كثيرة للكلونل أي الزعيم فاجعلها لأكبر رتبة في الجيش وهكذا كان . أما العقيد فكلمة شائعة في الشام والعراق يقولونها لزعيم القوم في يوم القتال وأظن أصلها من «عقد لهُ لواء» . وأما المقدّم فرتبة كبيرة كانت في زمن المماليك ثم في لبنان وهم يطلقونها على من هو دون الامير . ولعلّ بعض اخواننا المصريين لا تروقهم لان المقدّم عندهم هو رئيس الفعلة او العمال ولكن المقدّم كانت ولا تزال عند العرب رتبة كبيرة . ولعلّ بعضهم يفضلون ترجمة الكلمة الفرنسية وهي القائد ولكن القائد لا تصلح لها فقد يكون القائد ملازماً او يوزباشياً او أمير لواء . بقيت مسألة أخرى وهي الخوف من استعمال الافرنج للرتب العسكرية بلفظها العربي وكتابتها بحروف لاتينية كما يستعملون في أيامنا الكلمات الآتية وهي

Ferik, Lewa, Miralai, Bimbashi, Yousbashi

كأن هذه الرتب خصصت لنا نحن المشارقة . قلت لو عرفنا كيف نحفظ كرامتنا وترجمنا هذه الكلمات لما وقع ذلك . او لو اننا امتنعنا نحن انفسنا عن كتابتها بحروف لاتينية ولو ان البكباشي او الميرالاي او اللواء عند ما يكتب اسمه بالافرنجية على بطاقته يكتب General أو Colonel أو Major لما حصل ذلك . او لو سألني واحد ما هي رتبتك في الجيش وكان كلامهُ معي بالانكليزية فقلت مثلاً أنا Captain فقال هذه الرتبة ليست عندكم بل عند الانجليز والفرنسيين لقلت لهُ ماذا كانت رتبة ابراهيم باشا الكبير وماذا رأيك في قيادته لأجاب He was a great General وهل الرتب العسكرية مكاً لكم . وعندي ان أحسن وسيلة لاتقاء ذلك ان يصدر البرلمان قراراً ويترجم هذه الرتب بالانجليزية والفرنسية وينشر قراره بصفة رسمية فلا تعود الجرائد الفرنسية والانكليزية تكتب اسم الفريق فلان باشا Ferik so & so ولكن General so & so والمسألة بسيطة جداً . اني لا أحب التعرض للسياسة ولن أفعل ولكن لا أرى وسيلة لحفظ كرامتنا في هذا الصدد الا هذه

ملخص رأيين في

المستعمرات

من الناحية الاقتصادية

١ — للدكتور شاخت

في مجلة « الشؤون الخارجية »

ان بلدان اوربا الشرقية بلدان زراعية على الغالب ، فالسوق الالمانية في نظرها لها المقام الاول . ذلك ان المانيا تستورد الآن ١٤ في المائة من صادرات بولونيا ، و١٦ في المائة من صادرات تشكوسلوفاكيا و١٧ في المائة من صادرات النمسا و٣٠ في المائة من صادرات المجر و٢٩ في المائة من صادرات بلغاريا و٢٠ في المائة من صادرات رومانيا و٣٦ في المائة من صادرات يوغوسلافيا و٤٥ في المائة من صادرات اليونان و٦٤ في المائة من صادرات تركيا . فزوال السوق الالمانية يفضي الى أسوإ الآثار في حياة هذه البلدان الاقتصادية والاجتماعية . ثم ان السوق الالمانية لاتقل شأناً عما تقدم في نظر البلدان السكندنافية . فالرخاء في اوربا لايمكن ان يقوم الا على أساس من الرخاء في المانيا

في عصر الإقبال الذي كان يسود الامم قبيل الحرب الكبرى . لم يكن لموضوع المستعمرات والمواد الخام من الشأن ما له الآن . وهذا القول يصدق على المانيا صدقه على غيرها . فقد بلغت أموال المانيا المثمرة في الخارج قبل الحرب ٢٤٠٠ مليون جنيه فكانت تستعمل الفوائد التي تجنيها من هذا المال في شراء المواد الخام التي تحتاج اليها حيث تشاء . وكانت الاسواق التي تباع فيها هذه المواد حرّة مطلقة من القيود . وكان من النادر ان نرى موارد المواد الخام خاضعة لاحتكار فعلي تمارسه شركات دولية ضخمة قوية . وكانت المعاهدات التجارية البعيدة الآجال تضمن حرية التجارة الدولية . وكان نقد جميع الامم الكبيرة على اساس الذهب فكان الذهب قاعدة صالحة للتبادل وكانت المهاجرة الى البلدان الجديدة ومنها مطلقة من القيود ، وينظر اليها بعين العطف والتشجيع

جميع هذه القواعد الاولية والاساسية في التجارة الدولية والمعاملة بين الامم قد زالت . فالقيود الدقيقة مفروضة على الهجرة ، والذهب قد حذف من سفر النقد في معظم البلدان ، والمعاهدات التجارية تعقد لمدى قصير ، والحواجز والحصص وما اليها تثقل التجارة الدولية وتقف سدوداً في وجه تياراتها . وعلاوة على ذلك لقد اخذ من المانيا المال الذي كان مثمراً لها في الخارج

والبلدان التي فيها موارد المواد الخام خاضعة كالتجارة لقيود دقيقة . وقد رأينا نتيجة هذه الخطة في السنوات الاخيرة . فقد نقصت تجارة العالم الى نحو ثلث ما كانت عليه وضعفت الثقة الدولية حتى كادت تزول ، وتحطم نظام الاعتماد المالي الدولي لانهُ قائم على الثقة

فلما ضعفت التجارة الدولية ونقص مقدارها ، عمدت البلدان الكبيرة الى استغلال موارد الثروة التي فيها ، وكثيراً ما ترمى المانيا من هذه الناحية بالانطواء على نفسها ولكن الذين يرمون المانيا بذلك ينسون ان فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية وروسيا سبقتها الى ذلك . فالاكتفاء الذاتي (autarchy) في ميدان الاقتصاد يتمُّ من تلقاء نفسهِ ، في البلدان التي تحتوي على مصادر لمعظم المواد الخام التي تحتاج اليها الصناعة ، والتي تتمتع بنظام نقدي واحد يسهل التعامل والتبادل بين اجزائها . فخفض قيمة الجنيه ما كان ليسفر عن النجاح الذي أسفر عنهُ ، لو لم تقتف بلدان الدومنيون في ذلك اثر انكلترا . وفرنسا لولا تطبيق نظام نقدي واحد عليها وعلى مستعمراتها ، لما استطاعت ان تجني من هذه المستعمرات اكبر قدرٍ من الفائدة

ولئلاَّ يتهم الدكتور شاخت بالقاء الكلام على عواهنهِ بقولهِ ان الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية سارتا في طريق الاكتفاء الذاتي (اوتاركي) أورد أرقاماً أثبت بها ان نصيب بلدان الدومنيون والمستعمرات والمحميَّات من صادرات بريطانيا العظمى في الاثنتي عشرة السنة الاخيرة زاد من ٤١ في المائة الى ٤٩ في المائة وزاد نصيب بريطانيا مما تستوردهُ منها من ٣١ الى ٤٢ في المائة . وزاد ما تستوردهُ فرنسا من مستعمراتها في العشر السنوات الاخيرة من ١٠ في المائة الى ٢٦ في المائة وزادت صادرات فرنسا الى مستعمراتها من ١٤ في المائة الى ٣٢ في المائة . اما الولايات المتحدة الاميركية وروسيا فاتساع مساحتيهما وغنى اراضيهما بالموارد الاقتصادية المختلفة يجعلانهما في غنى تقريباً عن التجارة الدولية

يقابل هـذه الدول الاربع ، دول كثيرة السكان محدودة الاراضي . ولما كانت اراضيها لا تنطوي الاَّ على موارد يسيرة المواد التي تحتاج اليها ، فهي شديدة الاعتماد على التبادل الدولي في الحصول على معظم ما تحتاج اليهِ

وكأَن رجال السياسة اكتشفوا مؤخراً فقط ان الامبراطورية البريطانية تشمل ربع اليابسة على سطح الكرة الارضية ، وتنتج نصف محصول العالم من الصوف والمطاط ، وربع محصولهِ من الفحم ، وثلث محصولهِ من النحاس وكلَّ محصولهِ تقريباً من القصدير . وقد القي بيان في مجلس اللوردات من عهد قريب ظهر منهُ ان الامبراطورية البريطانية ، غنية الموارد بثماني عشرة مادة من خمس وعشرين مادة لازمة للامم الصناعية الكبيرة ، وان محصولها من مادتين أخريين لا بأس بهِ ، وانها في حاجة الى استيراد ما تستهلكهُ من خمس مواد اخرى فقط

يقابل هذا ان المانيا غنية الموارد بأربع من هذه المواد فقط ، ومحصولها من مادتين أخريين لا بأس به وانها تعتمد على الاستيراد في ما تحتاج اليه من بقية المواد وهي تسع عشرة مادة . قال الخطيب في مجلس اللوردات : ولسنا نعجب والحالة هي ما هي ان في المانيا واليابان وايطاليا قلقاً. نعم ان بريطانيا من اكثر الامم تعلقاً باهداب السلام ولكن الباعث على ذلك انها تملك كل ما تحتاج اليه . ومما يستوقف النظر بوجهٍ خاص في كلام هذا الخطيب ما بين حب السلام والسيطرة على موارد المواد الخام من صلة . وقد كان على حقٍ عندما قال ان الامة المبتوتة الصلة بموارد المواد الضرورية مصدر من مصادر القلق في العالم

الاّ ان حالة المانيا تختلف عن حالة اليابان او حالة ايطاليا . فعلى الرغم من جامعة الامم ، اكتسحت اليابان منشوريا وضمت ايطاليا بلاد الحبشة اليها . وصار في الامكان ان نقول ان اليابان وايطاليا انتقلتا من صف الامم القلقة لقلة مواردها الى صف الامم الراضية بما تملك . اما المانيا ، فهي الدولة الكبيرة الوحيدة التي لا تزال غير راضية عن حالها . ولذلك ستبقى المانيا ، على الرغم من حبّها للسلام ، مصدراً من مصادر القلق العالمي ، ما زال موضوع المستعمرات وموارد المواد الخام من دون حلٍّ يرضيها

ففي سنة ١٩٢٩ عند ما كانت الدول لا تزال سخية في فتح الاعتمادات المالية لالمانيا وعقد القروض ، وعند ما كان الذهب لا يزال قاعدة للمعاملات التجارية الدولية ، انفقت المانيا في استيراد ما تحتاج اليه ١٬١٤٦٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه منها ٨٨٠ مليون جنيه انفقت في استيراد مواد الغذاء والمواد الخام وبضائع غير تامة الصنع . ولكن مبلغ وارداتها هبط في سنة ١٩٣٥ الى ٣٣٦ مليون جنيه منها ٢٨٠ مليون جنيه في استيراد مواد الغذاء والمواد الخام وبضائع غير تامة الصنع . وهذا يدل على ثقل القيود التي تربط انتاج المانيا الصناعي . فقد انفقت المانيا في سنة ١٩٣٥ مبلغ ١٦٠ مليون جنيه على شراء المواد الخام وبضائع غير تامة الصنع ، وهو اقل جداً مما تحتاج اليه صناعتها للمحافظة على مستوى معيشة شعبها . فالفجر الوردي الذي انبلج على اثر تقرير مشروع دوز عندما انهالت الاموال على المانيا من الخارج ، قد تحوّل الى قتام الواقع عند ما امسك المتمولون ايديهم دونها. فمن السخرية اذاً قول من يقول ان المانيا تستطيع ان تبتاع كل ما تحتاج اليه من دون ان يكون لها مستعمرات . انها لا تستطيع ذلك لانها لا تملك من المال خارج بلادها ما يكفيها لذلك وهي لا تملك هذا المال لان الدول الاخرى لا تستهلك من مصنوعاتها الاّ قدراً يسيراً

ففي هذه الحالة ، يزول العجب الذي يستولي على الكتّاب ورجال السياسة ، عند ما يقرأون ان المانيا تحاول ان تصنع المواد الخام التي تحتاج اليها في بلادها بوسائل صناعية . اننا نعلم انهُ اذا اصبنا النجاح في صنع بعض المواد التي نستعيض بها المواد التي كنا نستوردها ، فذلك يكلفنا كثيراً .

واذن لابدَّ من ان الانصراف عن مبدإ الاكتفاء الذاتي لانهُ يفضي الى انخفاض في مستوى المعيشة في بلادنا . ولكننا لسنا مخيَّرين في ذلك ، ما زالت الاحوال السياسية تحول دون نشاطنا الاستعماري. ولن يستتبَّ السلام في اوربا حتى تحل هذه المشكلة

ولا يسعني في هذا المقام الآن اقول ان مبدأ الاكتفاء الذاتي لا يصحُّ ان يكون هدفاً تحدى اليهِ الركائب . انهُ مناقض لقواعد الحضارة . فالاكتفاء الذاتي يعني العزلة . والنقص في التعامل الاقتصادي يفضي الى نقص في التعامل الذهني . وكذلك تندثر وسائل التبادل العلمي والفني والثقافي . فالحياة الاقتصادية القائمة على مبدإ الاكتفاء الذاتي تفضي الى اكتفاء ذاتي في الحياة العقلية . والعالم لا يرتقي الا بالتبادل

***

وهناك فريق من الكتاب والمفكرين يذهب الى ان العودة الى التبادل الاقتصادي الحر تزيد حصة المانيا منهُ وتصبح كذلك قادرة على شراء ما تحتاج اليهِ من المواد الخام . وسبيلهم الى هذه العودة خفض الحواجز الجمركية والغاء نظام الحصص وتشجيع التجارة الدولية الحرّة . وكل مفكّر يوافق على هذا الرأي ، ولكن العبرة في التنفيذ . والحائل الاكبر دون التنفيذ ، ان قوة البلاد الاقتصادية ، اصبحت في هذا العصر العامل الاساسي في تقرير ما لها من مقام سياسي . فامتلاك موارد المواد الخام اصبح في عهدنا مسألة سياسية ، بعد ان كان قبلاً مسألة اقتصادية

وكذلك اصبح تغيير قاعدة النقد وسيلة تستعمل للضغط السياسي . فالناس تظن ان منع المواد الخام او اباحتها يفضي الى التأثير في حالة خصم او صديق على التوالي . وقد رأينا تطبيق هذا الرأي في فرض العقوبات على ايطاليا . ورأينا كذلك ان كل امة شريفة لا تخضع مختارة لذلك إذ يستحيل عليها ان تسلّم بالعيش وهي رهن رحمة الدول الاخرى

ومما يقال في هذا الصدد ان المستعمرات بوجهٍ عام ، ومستعمرات المانيا السابقة بوجهٍ خاص لا قيمة لها من الناحية الاقتصادية . فاذا صحَّ ذلك فلماذا تحتفظ بها الامم الاخرى ؟ ومن الخطاء ان يشير الباحث الى ان مستعمرات المانيا السابقة لم تكن ذات شأن في حياة المانيا الاقتصادية قبل الحرب ، لان التجارة الحرة كانت واسعة النطاق حينئذٍ والمانيا كانت تستطيع ان تفوز بمعظم ما تحتاج اليهِ من اسواق العالم المختلفة . فلم تكن في حاجة في استغلال مستعمراتها استغلالاً تامًّا . ومع ان مستعمرات المانيا كانت وليدة العصر الحديث ، من العقد التاسع في القرن الماضي الى مطلع الحرب الكبرى ، الا انها انجزت فيها من الاعمال والمنشآت ، اكثر مما أُنجز على ايدي امم اخرى خلال قرنين من الزمان في بعض مستعمراتها

٢ — للمستر كيلنغ
في مجلة « الكونتمبورري »

اذا صرفنا النظر عن البواعث السياسية وجدنا ان البلدان التي تطالب بمستعمرات تبني مطالبتها على حاجتها اليها من الناحية الاقتصادية لانها تجد فيها موارد للمواد الخام واسواقاً للمصنوعات ومنافذ لازدحام السكان . وهي حجة تبدو مقنعة ولكن هل تؤيدها الحقائق ؟

اما في ما يتعلق بالمواد الخام ، فكلمة المستعمرات بوجه عام تعني المناطق المباحة للاستعمار اي المناطق التي ليست دولاً ذات سيادة او مستقلة استقلالاً ذاتياً كبلدان الدومنيون والهند في الامبراطورية البريطانية . فالمستعمرات بهذا التحديد مصدر ضئيل جداً من مصادر المواد الخام. ولعل المواد المهمة الضرورية للصناعة ، الصادرة من مستعمرات هي المطاط (وهو يكاد يكون احتكاراً استعمارياً) والقصدير . حتى اذا اضفنا الى ما تقدم المواد التي لا تصدر المستعمرات منها اكثر من ٢٠ في المائة من محصولها العالمي لما اضفنا الا النحاس والفصفات والفناديوم والشاي وجوز النارجيل. اي ان المستعمرات لا تصدر الا اربع مواد او خمساً ليست كلها في مقدمة ما تحتاج اليه الامم الصناعية. وهذا القول يصدق بوجه خاص على المستعمرات الافريقية. فما يصدر من افريقية كلها من المواد الخام الصناعية والغذائية اقل من ٤ في المائة من محصولها العالمي. فمستعمرات المانيا السابقة كانت لا تصدر الى المانيا الا مقداراً يقل عن واحد في المائة مما تستورده المانيا من المواد الخام

أما المواد الخام الاساسية في الصناعة والغذاء كالفحم والحديد والنفط والقطن والنحاس والقمح واللحم والالبان فتصدر جميعها من بلدان مستقلة ذات سيادة لا من المستعمرات . ويمكن ان يقال بوجه عام ان المصادر الرئيسية لمواد الصناعة والغذاء الاساسية هي الولايات المتحدة الاميركية واتحاد روسيا السوفيتية والامبراطورية البريطانية . فمن الخطأ القول بان اعادة توزيع المستعمرات يسد النقص في ما تحتاج اليه البلدان المطالبة بها من المواد الخام للصناعة والغذاء

ولكن اذا سلمنا جدلاً بانه يسد هذا النقص فهل للسيادة السياسية فائدة اقتصادية ؟ ان الرد المألوف على هذا السؤال هو ان السيادة السياسية ، ذات شأن بلا شك في اثناء الحرب . ولكن المستعمرات لا تجدي نفعاً اذا كانت الدولة صاحبة السيادة لا تملك من القوة البحرية ما يمكنها من ابقاء مسالك البحار مفتوحة لسفنها . فلننظر في اثر السيادة السياسية من الناحية الاقتصادية في ابان السلم ، فهل للدولة المستعمرة امتياز اقتصادي على سائر الدول في البلدان الخاضعة لها ؟

ليس ثمة ريب في ان هناك بعض امتيازات . واولها قائم على الرسوم الجمركية التفضيلية التي تفرض على الصادر من المستعمرة . فهذه الرسوم تفرض في بعض البلدان التي لم تبلغ شأواً اقتصادياً بعيداً كوسيلة لزيادة ايرادها . ولا يجوز توجيه النقد اليها من هذه الناحية . ولكن

بعض المستعمرات تفرض « ضرائب التصدير » لا بقصد زيادة ايراد البلاد ، بل بقصد تفضيل بلاد على اخرى من البلدان التي تستورد محصولاتها . وفي مقدمة البلدان التي تمد الى هذه الوسيلة في مستعمراتها فرنسا والبرتوغال . الا ان رسوم التصدير التفضيلية في مستعمرات البرتوغال معتدلة في الغالب حالة انها في المستعمرات الفرنسية عالية جداً الا اذا كانت المواد المصدرة ذاهبة الى فرنسا نفسها . اما في الامبراطورية البريطانية فليس ثمة رسوم تفضيلية الا على ركاز القصدير . فما يفرض عليه عند تصديره من ملايا او نيجيريا عالٍ جداً الا اذا كان مرسلاً الى انكلترا او احد اجزاء الامبراطورية

ولا ريب في ان « التفضيل » على هذا المنوال غير مرغوب فيه من الناحية العالمية وخطره حيث يكون الاحتكار . ولكنهُ لا يعرقل قدرة اي امة من الامم على شراء ما تريده في اسواق العالم الاخرى ، اذ لا تعرف مادة واحدة ، في البلدان التي تعتمد على هذه الوسيلة محتكرة فيها احتكاراً تاماً . حتى ركاز القصدير المشار اليه لا يستخرج منهُ من مناجم ملايا ونيجيريا الا ٤٠ في المائة من المحصول العالمي . والباقي يستخرج من مناجم في بلدان اخرى لا تفرض رسوم التصدير التفضيلية

وهناك نوع آخر من التفضيل ينجم عن شركات المنتجين الكبيرة التي تنشىء ما يشبه احتكاراً ثم تتحكم في الاسعار على نحو ما فعلت في المطاط والنحاس ، فكانت النتيجة ، ان تحكمها ورفع الاسعار افضيا الى زراعة اشجار المطاط في بلدان اخرى ، واستغلال مناجم نحاس كانت مهملة . ويظهر ان الشركات والحكومات قد افادت عبرة من حوادث الماضي فخُتمت (فيما يتعلق بالقصدير والمطاط) تمثيل البلدان المستهلكة الرئيسية في المجالس الاستشارية للشركات او الحكومات . وينتظر ان يشمل هذا النظام مواد اخرى منعاً للتحكُّم . وعلاوة على ذلك ان الشركات التي تتحكم بالاسعار لا تفرق بين دولة وأخرى تفضيلاً وتمييزاً فجميع الدول المستهلكة في نظرها سواء

الآن ما تقدم يؤثر فقط في ما تشتريه الدول من المواد الخام الصادرة من المستعمرات . ولكن الدول المطالبة بالمستعمرات تطالب بها لانها تريد ان تستغلها . والردُّ الغالب على هذا الطلب ان الدول المطالبة لا تملك من رؤوس الاموال ما يكفي لهذا الاستغلال . وهذا يصدق بوجه خاص على المانيا . لان اليابان وايطاليا صدَّرتا قدراً من المال لاستغلاله . فلليابان مال مثمرٌ في الصين ومنشوكو وجزائر الهند الشرقية الهولندية وملايا البريطانية . ولايطاليا مصالح مالية في نفط رومانيا والعراق وفي بعض بلدان اميركا الجنوبية

ولكن لنسلم جدلاً هنا ايضاً بأن البلدان المطالبة بالمستعمرات تملك قدراً كافياً من المال لتصديره وتثميره . فهل ثمة عقبة ما تحول دون تثميره في المستعمرات الخاضعة لدول أخرى ؟ ليس في مستعمرات بريطانيا وهولندة على الاقل ما يبعث على الشكوى . ففي ملايا البريطانية مناجم حديد ومنغنيس تملكها اليابان ، ومزارع مطاط يملكها الايطاليون ، واليابانيون ، وغيرهم .

وللشركات الاميركية نصيب كبير من السيطرة على مناجم المنغنيس في الشاطىء الذهبي ومناجم البوكسيت في غانة البريطانية . والمادة الوحيدة في الامبراطورية البريطانية التي يقصر استغلالها على البريطانيين هي النفط . ولكن النفط في المستعمرات الهولندية ليس محصوراً في أحد بوجه خاص . والاميركيون يسيطرون على قسط وافر من منتجات النفط في جزائر الهند الشرقية الهولندية . والامثلة على ذلك متعددة

الاَّ ان مشكلة المواد الخام ، هي في المقام الاول مشكلة توفية الثمن ولا سيما عندما يوفى الثمن بنقد اجنبي . اذ لاريب في الفائدة التي تجنى ، عند ما تكون المواد الخام في منطقة تستعمل نفس النقد الذي تستعمله الامة التي تستوردها ولذلك رميت الدول المستعمرة بسيطرة غير مباشرة على المواد الخام بواسطة اقامة الحواجز الجمركية حول المستعمرات . فيمنع ذلك ابتياع هذه المستعمرات لبضائع أمم أخرى ، فتعجز هذه الامم عن توفية ثمن ما تشتريه منها بثمن ما تصدره اليها . وكذلك يقع التفضيل من طريقة عرقلة أساليب التسديد

وهذه عقبة كبيرة اذا ثبت ان المستعمرات أسواق كبيرة ، وان هذا التفضيل واقع حقاً . والواقع ان سياسة الباب المفتوح في نصف مستعمرات العالم مضمونة بمعاهدات دولية أي ان المستعمرات التي تشملها هذه المعاهدات لا يسعها ان تقيم حواجز جمركية تفضل بها دولة على اخرى من دول الخامسة . ولم تستثن اليابان ولا المانيا من ذلك . وهذه المعاهدات تشمل جميع بلدان الانتداب من طبقة A و B وكل حوض الكنغو بما فيه شرق افريقية البريطاني وافريقية الاستوائية الفرنسية ، وغرب افريقية البرتوغالية والسودان وروديزيا الشمالية . اما في مراكش فسياسة الباب المفتوح كانت جزءاً من التسوية الدولية التي عقدت بعد أزمة ١٩٠٦ في مؤتمر الجزيرة . الاّ ان سياسة الباب المفتوح ألغيت خارج هذه المناطق . حتى هولندا وبلجيكا المشهورتين بنفورهما من سياسة الحواجز والتفضيل التجاري ، عمدتا اليها خارج المناطق التي لا تشملها معاهدات الباب المفتوح . ومع ذلك فان جميع المستعمرات في العالم لا تبتاع اكثر من ١٠ في المائة من مجموع الصادرات العالمية

فمشكلة «النقد الاجنبي» الذي لا بدَّ منه للدول المتبرمة في شرائها ما تحتاج اليه من المواد الخام ليست مسألة استعمارية ، تحلّ بتوزيع المستعمرات من جديد . انها مسألة تمتّ الى انتعاش التجارة العالمية ، اولاً ، والى بعض العوامل السياسية ثانياً . حتى انتعاش التجارة العالمية وحده لا يكفي ، ما زالت الصين تقاطع اليابان ، واليهود في مختلف بلدان العالم يقاطعون صادرات المانيا ، ومصانع السلاح والذخيرة تلح في الحصول على مقادير كبيرة بل استثنائية من المواد اللازمة لها . اما موضوع المستعمرات من حيث هي منافذ للسكان فله بحث آخر

لواء الاسكندرونة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

«خليج الاسكندرونة» هو الخليج الوحيد على الساحل السوري ذو القيمة الاقتصادية والحربية البارزة ، ويبلغ طوله نحو ستين كيلومتراً وعرضه دون الاربعين وعمقه ٣٧ متراً ، والمسافة بينه من مدينة الاسكندرونة وبين مدينة جرابلس على نهر الفرات لا تتجاوز مائة ميل في حين ان المسافة بين بيروت وبين مدينة (ابو كمال) على الفرات ايضاً تربي على ثلاثمائة وخمسين ميلاً وهذا يدلنا على ما لهذا الخليج من الشأن الاقتصادي في مستقبل الايام بالنظر الى انهُ يحوي الميناء الطبيعي على البحر المتوسط الابيض ليس لشمال سورية فقط بل له وللقسم الشمالي من العراق ايضاً . وان نظرة واحدة على المصور الجغرافي تقنع المرء بان هذا الخليج هو الملجأ الطبيعي للاساطيل يحميها من عواصف البحر واخطار الغواصات ويزوّدها بمعظم ما تحتاج اليه

«لواء الاسكندرونة» يتألف لواء الاسكندرونة من الاقضية الثلاثة الآتية (١) الاسكندرونة (٢) قرق خان (٣) انطاكية . ويهمني ان اوجه نظركم الى ان الكتب والاحصائيات التي وضعت قبل هذه الازمة وما فيها من اغراض في التحريف والتبديل ومخالفة الواقع نصت على ان الترك في اللواء هم اقلية. فقد جاء « في الجولة الاثرية » للاستاذ وصفي زكريا ص ٥٦ وقد طبعت سنة ١٩٣٤ ان الترك مع التركمان يؤلفون من خمسة وثلاثين الى اربعين في المائة من مجموع السكان، وفي الاحصاء الرسمي الذي صدر في حلب سنة ١٩٣٢ كان عدد السكان في اللواء كما يأتي بالتقريب ٢٠٠٠٠ من العرب السنيين و ٥٥٠٠٠ من العرب النصيرية و ٢٥٠٠٠ من العرب المسيحيين و ٤٤٠ من اليهود و ١٣٥٥٠ من الارمن و ٢٠٠٠ من الكرد و ١٠٠٠ من الشركس و ٧٠٠٠٠ من الترك. وجاء في الملحق رقم ٣ من البيان الذي اصدرتهُ اخيراً لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان مجموع عدد السكان في اللواء ٢١٩٠٨٠ منهم ٨٥٢٤٢ من الترك و ١٠٣١١٠ من العرب و ٢٤٩١١ من الارمن و ٥٨١٧ من سائر العناصر فيكون الترك بنسبة ٣٨،٩٠ في المائة والعرب ٥٧،٠٧ والارمن ١١،٣٧ وسائر العناصر ٢،٦٦

وقد طبقت السلطة الفرنسية على هذا اللواء المعاهدة التي عقدتها مع الترك في اليوم العشرين

---

(١) نص المحاضرة التي القاها في جمعية الشبان المسلمين في القاهرة في مساء يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧

من اكتوبر — تشرين الاول — سنة ١٩٢١ وهي معاهدة انقره فكان مستقلاً في معارفه وزراعته واشغاله العامة وكان المتصرف فيه مربوطاً بمندوب المفوض السامي وكانت اللغات الرسمية فيه العربية والتركية والفرنسية . ومما هو حري بالتدوين ان الدولة المنتدبة غيرت في حدوده الجغرافية وتقاسيمه السياسية بالنسبة الى منطقة حلب تغيراً يضم اليه اكبر عدد من الترك ممكن ويخرج منهُ اكبر عدد من العرب ومع ذلك فقد أتت النسبة المئوية كما تقدم ، وفي (الجولة الاثرية) ان النصيرية يقطنون في الاسكندرونة والساحل الممتد منها الى بليدة عرسوس وفي نفس انطاكية والجبال الممتدة منها غرباً نحو ميناء السويدية ، ويقطن الارمن في جبل موسى واعضاده الممتدة حتى ساحل البحر وفي ناحية كسب وفي بليدة قرق خان ، ويقطن الشركس في قرى حران والريحانية وهم من سهل العمق ويقطن الترك وكذلك التركمان — وهم الذين نزلوا تلك الانحاء في زمن الدولتين النورية والصلاحية — في جبل اللكام واعضاده الممتدة شمال الاسكندرونة وشرقها وفي بعض سهل العمق وفي الجبل الاحمر واعضاده الممتدة الى جنوب عرسوس وكسريك ويقطن الكرد في حرة اللجة شمال السهل المذكور

ووجد ان الامية في لواء الاسكندرونة ٥١ في المائة بينما هي في لبنان ٤٢ وفي دمشق ٥٥ وفي حلب ٦٣ وربما استفادت هذه المنطقة من نهر العاصي فائدة كلية من مائهِ لاجل الري ومن قوته لاجل تحريك الآلات وتوليد الكهربائية . فقد وجد أن تفريغه الادنى بالقرب من انطاكية في سنة ١٩٣٢ ثلاثين متراً مكعباً في الثانية في حين لا يتجاوز هذا التفريغ في نهر بردى اكثر من اربعة امتار ، ووجد انهُ ينحدر انحداراً كلياً بالقرب من انطاكية قد يزود البلاد بقوة تبلغ الوف الأحصنة ، ويوجد معدن الكروم في الاسكندرونة والذهب بمقادير ضئيلة في مسيل نهر بالقرب من انطاكية ، والنحاس بمقادير قليلة وفلز المنغنيز الجيد في جبل اللكام او امانوس

الشهادة بسوريَّة هذا اللواء قبل ان تخلق قضية الاختلاف عليه بين الترك والعرب : قال نابليون ان الصخور التي تفصل الشام من الشمال عن اسيا الصغرى ليس لها مثيل في التخوم الطبيعية ، وقال شيخ الربوة وهو من علماء القرون الوسطى حد الشام من ملطية الى العريش وعرضه الاعرض من منبج الى طرسوس . وعدَّ ياقوت الحموي من الشام الثغور وهي المصيصة وطرسوس وآذنه (اضنه) وجميع العواصم من مرعش والحدث وغير ذلك ، وقال ابن حوقل المتوفى في القرن الرابع للهجرة في كتابه (المسالك والممالك) « ان انطاكية أنزه بلد الشام بعد دمشق » وجاء في المعلمة البريطانية في طبعتها التاسعة « ان الاسكندرونة تقع على اقصى الساحل السوري الشمالي حيث يؤلف هذا الساحل مع ساحل آسيا الصغرى او الاناضول زاوية . . . . . وهذه المدينة هي ميناء حلب وتكون بطبيعة الحال ميناء سكة حديد تمتد على نهر الفرات » ، وجاء في دائرة

المعارف الاسلامية « ان الاسكندرونة او اسكندرونة العرب — كما جاء في مخطوطات الاصطخري وابن حوقل — هي ميناء حلب على البحر الابيض المتوسط وانها كانت في عهد العرب تابعة لجند قنسرين — حلب (اي منطقتهما الحربية بحسب تقاسيم تلك الايام العسكرية) وانها هجرت في زمن ابي الفداء ولكنها استعادت بعد ذلك شأنها باعتبارها ميناء لمدينة حلب التي كانت آخذة في الانتعاش » . وقال استاذنا المرحوم مارتي بورتر ان سورية يحدها شمالاً آسيا الصغرى . وقال (يدكر) ان حد الشام من طورس الى مصر . وجعل (اليزه ركلو) العالم الفرنسي الجغرافي المشهور حد الشام من جبال الاكام الى طورسينا . وقال (فيتال غيته) ان الفرمانات السلطانية والوثائق الرسمية على عهد الدولة العثمانية كانت تسمى البلاد التي تحدها جبال طورس شمالاً وصحراء سينا جنوباً « عربستان » او بلاد العرب . وجاء في بيان لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان صديقنا العلامة المرحوم الاستاذ هوجارث عميد جامعة اكسفورد قال « اذا اخذنا سورية كقطر يحده البحر وصحراء الحماد وجبال طورس وصحراء سينا تكوّن لدينا منبسط جغرافي متناسق بحدود طبيعية صريحة وهي وحدة في مظهرها الخارجي . . . . وان مكانة الاسكندرونة ناشئة عن علاقتها مع ممر بيلان ، وهو باب سورية في عهد التواريخ — الذي هو عبارة عن مدخل عين الى سهول سورية الشمالية التي كانت انطاكية وحلب عاصمة لها منذ القدم وكذلك فان الاسكندرونة هي المرفأ المهم لسورية الشمالية . . . . وان الخصائص الجغرافية التي تتمتع بها انطاكية تجعل منها عاصمة سورية فالبها يتجه الطريقان المباشران من البحر الابيض المتوسط الى الداخل الخ »

﴿الشعوب السامية ولواء الاسكندرونة﴾ ذكر المؤرخان اليونانيان (هيرودتس) و(زينوفون) ان (ميرياندروس) وهي مدينة كانت قريبة من الاسكندرونة كان يقطنها فريق من الفينيقيين ابناء عم العرب ، وجاء في كتاب «مجمل التاريخ» للاستاذ (كرك) ان السلالة السامية — وهي تشمل الآرمن والبابليين والاشوريين والعرب والفينيقيين والعبرانيين والموآبيين تسكن المنطقة التي تحدها فيما يحدها من الشمال جبال طوروس . وفي بيان لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان مباحث علم اصل البشر التي قامت بها مخابر الجامعة الاميركية في بيروت والتي اجريت في امستردام واكسفورد دلّت على ان سكان الجبال في مناطق الاسكندرونة وانطاكية لا يختلفون في شيء عن سكان جبال سورية ولبنان وبلاد العرب الجنوبية ، ولدينا نص تاريخي على ان الملكة زنوبيا التدمرية (الزباء) دخلت انطاكية فاتحة في سنة ٢٦٦ للمسيح وان صورتها نقشت على سكة هذه المدينة ولدينا نصوص اخرى على اتصال العرب بتلك الانحاء منذ القدم . فقد جاء في التاريخ ان عربان البادية هاجموا ضاحية انطاكية في سنة ٤٩٤ للمسيح ، وفي مدينة (الرها) في الشمال كان بيت

(الاغبر) يسيطر على القبائل العربية في شمال سورية ، وبعد ان فتح ابو عبيدة حمص امر خالد بن الوليد الى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف عليه الروم بقيادة ميناس أعظم رجالهم بعد هرقل فالتقى الجيشان في الحاضر فقتل ميناس ومن معه فاما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم احد. واما اهل الحاضر فارسلوا الى خالد انهم « عرب » وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم

ومما هو حري بالتدوين ويدل على نوع الشعوب التي كانت تقطن تلك الانحاء وأنها سلالات سامية أن ابا عبيدة ابن الجراح لما وصل الى جبل اللكام (امنوس) وهو الجبل الذي يبتدىء من البحر في منطقة الاسكندرونة صالح سكانه (الجراجمة) وهم اصل الموارنة في لبنان —وكانوا يومئذ بين بياس وبوقا— على ان يكونوا اعواناً المسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام— والمسالح جمع مسلحة وهي الحامية المسلحة

ومن النصوص الدالة على ارتباط هذه المنطقة بسورية ارتباطاً وثيقاً خاصاً ان السلوقيين كانوا يسمون انطاكية (انطاكية سورية) ليفرقوا بينها وبين المدن اليونانية الاخرى التي تشاطرها هذا الاسم ، ودُعي ممر (بيلان) او ممر (ايسوس) في الوثائق التاريخية (باب سورية)

ولهذه المنطقة شأن عظيم في تاريخ النصرانية فقد دخل هذا الدين انطاكية في سنة ٢٣ للميلاد ومن هذه المدينة انتشر التبشير به في الانحاء وفيها نشأت الخلافات الدينية المذهبية. وفي العهد الروماني ظهر فيها رجل من رجال النصرانية كان له شأن كبير وهو يوحنا فم الذهب الذي اشتهر بفصاحة وطلاقة لسانه ومواعظه التي كان يلقيها على اهل انطاكية الى ان نفي ومات في طريقه الى المنفى ، وكانت انطاكية في سالف العصور مقراً لجميع البطاركة وهي لا تزال الى الآن مقراً لبطارك الشرقيين ويطلق عليهم اسم بطارق انطاكية وسائر المشرق والنصرانية هي ابنة سورية والنصارى فيها من صميم السوريين

﴿الوجهة الاقتصادية﴾ تتجلى الوحدة الاقتصادية بين هذا اللواء وحلب بان عاصمة الحمدانيين هي السوق الطبيعية لمنتجات هذا اللواء من خضر واثمار وحرير وفحم نباتي واسماك ، وقرى هذا اللواء وما لها من مناظر خلابة ومياه عذبة وهواء نقي هي المصطاف الطبيعي للحلبيين ، والقسم الاعظم من التجارة الخارجية التي تمر بالاسكندرونة هي اما ان تكون واردة من حلب او صادرة اليها. ودلت الاحصائيات بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٣ على أن ٢١ في المائة من مجموع ما دخل مرافىء سورية الاربعة — وهي بيروت وطرابلس واللاذقية والاسكندرونة — من صادرات وواردات (وبضائع النقل « ترانزيت » داخل في ذلك) هو من اسكلة الاسكندرونة

﴿النصيرية﴾ هي طائفة العلويين المنتشرة في هذا الاواء وفي الجهات المجاورة له وتسمى النصيرية نسبة لنصير غلام امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، وقد انتشر في الكتب التي كتبت عنهم قديماً انهم يؤلهون علي بن ابي طالب ويعتقدون ان مسكنه السحاب حتى اذا مرت بهم سحب قالوا السلام عليك يا ابا الحسن. ويقولون ان الرعد صوته والبرق ضحكه، وان سلمان الفارسي رسوله ويحبون ابن ملجم قاتله ويقولون انه خلص اللاهوت من الناسوت . وفي بعض الكتب ان كلمة « عمس » المختزلة من علي ومحمد وسلمان هي كلمة المرور بينهم ، وهم يخفون عقائدهم عن غيرهم ويعظمون الخمر ويرون انها من النور. لاجرم انهم يعظمون شجرة العنب ويتجنبون قلعها، ولكن جاء في المجلد السادس من خطط الشام للاستاذ كرد علي أن صاحب « تاريخ العلويين » قال انهم ليس لهم ديانة خاصة بل هم مسلمون شيعيون جعفريون يعتقدون ان الائمة الاثني عشر معصومون من الخطأ وأن قول الامام دلالة قطعية وهو لا يمكنه ان يخالف القرآن او الحديث ولا يحق لاحد أن يؤول القرآن سوى أهل البيت ، وهم ينتسبون الى طريقة تدعى الجنبلانية وهذه الطريقة هي التي ادت الى افتراقهم عن بقية الاثنى عشرية . وهم فيما بينهم قد تفرقوا الى عشائر وأفخاذ ترجع كلها الى اربعة أصول كبيرة هي الخياطون والحدادون والكلبية والمتاورة

وقد افتى غير واحد من رجال الدين المتأخرين بصحة اسلامهم استناداً الى ما جاء في الحديث « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو منا » والى آيات واحاديث اخرى وفتاوى وردت في كتب الفقهاء المتقدمين

﴿الاسكندرونة﴾ وتقع الاسكندرونة على الطرف الشرقي من الساحل الجنوبي وعلى القرب منها والى الشمال تقع (بياس) حيث تبتدىء الحدود بين تركيا وسورية ، وقدر لي أن زرت الاسكندرونة في سنة ١٩١٢ لما كنت ذاهباً في الجيش العثماني الى حرب البلقان فألفيتها مدينة ذات مناظر خلابة تحيط بها روابٍ زمردية من جبال الاكام وهي واقعة في منبسط من الارض ويبلغ عدد سكانها في الاحصاء الحديث زهاء خمسة عشر الفاً فيهم العرب والترك والارمن ، وهؤلاء لجأوا اليها بعد الاضطهادات التي ذاقوها في بلاد الترك ، والعرب سنيون وعلويون ومسيحيون من الروم الارثوذكس غالباً . وذكر الذين زاروها في الآونة الاخيرة أن مبانيها مثل سائر مباني المدن الشرقية الناهضة المصطدمة بالمدنية الحديثة منها القديم المرقع والمتداعي والاكواخ التي يقطنها الفلاحون في الجهة الغربية. ومنها الجديد الذي لا يختلف عن مباني بيروت لا بحجره ولا بالآجر الاحمر — القرميد — الذي يكسو سطوحه . وكذلك الحال في طرقاتها وشوارعها فمنها الضيق المعوج ومنها المستقيم المعبد العريض ولها مرفأ صغير في جهتها الشرقية وبالقرب منه المكس والمعامل والمستودعات التي بنتها شركتا النفط وعرق السوس

ولما زرتها لم يكن قد تمّ بعد فرع سكة الحديد الذي يربطها بحلب وهو فرع يمتد منها الى قلعة عجيبة على رأس هضبة تدعى (طوراق قلعة)

أطللنا على المدينة من ممر (بيلان) او ممر ايسوس وهو الذي دعاه الاقدمون (باب سورية) ومشينا في طريق منحدرة فوجدنا المستنقعات تحيط بهذه المدينة وهذا سر وباء الملاريا او البرداء التي تفتك بأهليها في أيام القيظ والخريف، ويبلغ الحر فيها مع الرطوبة في الصيف درجة الاشباع لوقوف جبل اللكام سدّاً من ورائها حتى اذا اصطدم هواء البحر بهذه الجبال تجمعت فيه الابخرة وتكثفت بحيث تحجب قرص الشمس

وأذكر أني أكلت فيها سمكاً من المرجان مقلوّاً لم أستطب سمكاً مثله وقد اشتريته من طاهٍ يحمل مقلاته ويبيعهُ في الشوارع

بنا هذه المدينة (انتيغون) أحد خلفاء الاسكندر في سنة ٣٣٣ قبل المسيح تخليداً للنصر العظيم الذي أحرزه هذا الملك الجبار على دارا ملك الفرس في معركة (ايسوس)، ولما فتحها المسلمون في زمن ابي عبيدة بن الجراح وجدوها خراباً يباباً فلم يرد لها ذكر في فتوحاتهم لكنها استعادت سؤددها بالتدريج حتى ان السيدة زبيدة زوج هرون الرشيد بنت فيها حصناً او صرحاً ربما كان نفس الصرح الذي رممهُ ووسعهُ احمد بن ابي داوود الايادي في زمن الخليفة الواثق وظلت هذه المدينة ممرّاً للغزاة من المسلمين والروم الى أن استولى عليها الصليبيون فعادت الى الخراب وأصبحت ملجأ للصوص من البر والبحر الى ان طلب التجار الافرنج المقيمون في حلب من الدولة العثمانية في القرن العاشر للهجرة ان تجعلها فرضة حلب فأجابتهم الى طلبهم، وكان لها شأن قبل فتح قنال السويس لان الانكليز اتخذوها اقرب محطة للهند بطريق البحر المتوسط وقد تستعيد هذا الشأن اذا كثرت وتنوعت الطرق التي توصلها بالداخل وفي سنة ١٢٤٨ جاءها ابرهيم باشا المصري بجيوشه وانشأ فيها [illegible] وفي سنة ١٢٩٥ جعلتها الدولة العثمانية قضاء تابعاً لولاية حلب

***

﴿انطاكية﴾: شادها سلوقوس نيكاتور احد خلفاء الاسكندر الثلاثة في سنة ثلاثمائة قبل المسيح ودعاها باسم والده. ثم استولى عليها الرومانيون فابتدأ حكمهم فيها في سنة ٦٤ ق. م. وتربع على كرسي الولاية فيها اكابرهم «الجولة الاثرية ص ٥٢» امثال بومبيوس ويوليوس قيصر وانطونيوس: جاء هذا اليها في سنة ٣٨ ق. م. ومعهُ زوجه كليوباترة، وفي التاريخ ان جوليا دومنا السيدة السورية الحمصية زوجة الامبراطور سيتيموس سفيروس كان لها فضل عظيم على

مدينة انطاكية حين اجبرت ابنها زكاكلا المولود في حمص على ان يرد الى هذه المدينة ما سلخه والده الامبراطور عنها من الامتيازات . وفي أواخر القرن الرابع للمسيح دخلت انطاكية في قبضة البزنطيين. وفي سنة ٦٣٨ فتحها المسلمون على يد ابي عبيدة بن الجراح ،

وفي كتاب « الاعلام » للاستاذ خيرالدين الزركلي «ان حبيباً الفهري وهو ابو عبد الرحمن حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي دخل دمشق مع أبي عبيدة فولاهُ ابو عبيدة انطاكية وقد توفى سنة ٤٢ هـ » . ورأت انطاكية الرخاء وتقدمت تقدماً كبيراً في زمن الامويين

وفي اواخر القرن الخامس للهجرة فتحها الصليبيون . ولكن في سنة ٦٦٦ هـ افتتحها عنوة الملك الظاهر بيبرس بعد معركة من اشد المعارك هولاً على السكان ، ثم جاء الفتح العثماني فبقيت في قبضة العثمانيين الى اواخر الحرب العالمية ، ومن المهم ان يذكر القراء ان الاهلين فيها وفي سائر أنحاء اللواء استقبلوا الجيش العربي استقبال الفاتح المنقذ وايدوهُ في اعماله . وانطاكية مذكورة في التاريخ دائماً بالزلازل التي كانت تنتابها كالزلزلة العظيمة التي اصابتها سنة ١٨٢٢ . وكان عدد سكانها في زمن ثيودوسيوس مائتي الف ولكنهم كانوا في سنة ١٨٣٥ خمسة آلاف وستمائة يضاف اليهم ستة آلاف جندي مصري بقيادة ابراهيم باشا ويبلغ عددهم اليوم خمسة وثلاثين الفاً . وقد جلب الى هذه المدينة ماء (دفنة) في انابيب حديدية وانيرت بالكهرباء وفيها اربعة وعشرون مسجداً واربع كنائس وكنيس واحد لليهود . وصادراتها الصابون وفيالج الحرير والصوف والحبوب وزيت الزيتون والسمك والقطن والقطران. وفيها صناعات متنوعة للغزل والدباغة والنسج والخشب وفاكهتها من اجود فاكهة. وذكر لي صديق من اهلها أن اربع خوخات — دراقنات — من خوخها تزن اقة كاملة ، وهذه المحصولات لا تباع في اسواق حلب فقط بل ان فاكهة انطاكية تزاحم فاكهة الشام في أسواق بيروت ايضاً. واذا صحت الاخبار التي تناقلها البرق اخيراً وأفاضت في ذكرها الصحف من ان في هذا اللواء ينابيع للنفط بالقرب من الاسكندرونة متصلة في جوف الارض بينابيع الموصل فسيكون لهذه الينابيع شأن خطير في مصير هذا الجزء من بلادنا العزيزة

***

لقد آمنت بالحق قبل ان أؤمن بالوطن ولو لم اعلم ان هذا اللواء جزء من سورية العربية لا يتجزأ ما تنزلت للوقوف هنا أرهق أسماعكم الحساسة وأضيع أوقاتكم الثمينة بالدفاع عنهُ فالحق اولاً ، والوطن ثانياً ، ومن لا يؤمن بالحق لا يؤمن بالوطن



« أمير شعراء روسيا »

لحليم سترى

عصر الشاعر

غزا نابليون روسيا عام ١٨١٢ واعتبر المؤرخون غزوته اكبر ظاهرة في تاريخ روسيا الحديث الى ان وقع الانقلاب الشيوعي . ولقد أثار توغل الجيش الفرنسي في روسيا الشعور القومي بل كان سبباً مباشراً للثورة النفسية الفكرية بل لتلك الزوبعة السياسية الخطيرة التي غامت فيها سحائب الخصومة واتقدت في نفس الشعب السلافي المجيد الحمية الوطنية . فاشترك الفرد والجماعة في غاية واحدة نبيلة هي دفع المعتدي للاحتفاظ باستقلال الوطن . ولقد أتيح لقادة الجيش كما أتيح لقادة الجماهير ان يضطروا العاهل العظيم « نابليون » الى الارتداد عن روسيا بعدما عانت جيوشه شتى المصاعب وبعد ان احتمل الجندي الفرنسي ألم الجوع في شتاء قارص البرد شديد الزوابع الثلجية . أما « موسكو » فقد أحرقها أهلها وأما نابليون فقد رجع الى باريس لا يلوي على شيء . .

ولقد كان الشباب في روسيا يتطلع الى « باريس » حيث انبثق فجر الفلسفة الحديثة والافكار الاجتماعية الجديدة . ولقد كان الشباب يميل بحكم مظهره آنئذ الى تلك الاريستوقراطية المحافظة بل الى تلك المظاهر الخاصة بالبلاط الروسي

استطاع الأدب ان يكون مظهراً عظيماً من مظاهر الحياة الاجتماعية بل كان الأدب خصباً منتجاً ووديعة مقدسة بين أيدي الشباب . ولقد نشأت في هذا العصر تلك الخصومة الخالدة بين المحافظين على آداب القرون الوسطى ونزعاتها المختلفة وبين اصحاب الجديد ممن يرون الحياة كما هي لا يعيشون على الماضي ولا يتخذون من القديم معبوداً . ولعل الشاعر «جريبوميروف» يتحدث في شيء من السخرية في قصته الرائعة التي عنوانها « ألم من الذكاء» « Woe from Wit » عن هذه الخصومة الادبية

ولقد تألفت جماعة من شباب روسيا وبعضهم من الحرس القيصري ينادون بحرية الفلاح والدستور . على انهُ لم يمض ديسمبر سنة ١٨٢٥ حتى شنق منهم خمسة من بينهم الشاعر المعروف « ريليف » وعرفوا بالديسمبريين فكان ذلك صدمة قوية هزت الادب والادباء في الصميم سددها الى الديمقراطية القيصر « نيقولا الاول »

كان الأدب في اوربا إبان تلك الثورة الاجتماعية في روسيا بالغاً شأواً عظيماً بل كان نبراساً يضيء ظلمات ذلك العهد الذي تمثل فيهِ الطغيان بصورة من هذه السرد « الاقطاعية » البالية . وطبيعي ان تنتقل الفلسفة في شتى مناحيها والادب في مختلف صوره الى روسيا حيث هذا الروح الأدبي الناشيء في ساحة الجهاد. وهنالك نشطت الدعاية للتفكير الحديث وللأخذ بأسباب الرقي العقلي . وبلغ الشعر في هذا العهد مكانة رفيعة بل قد بلغ كماله المرموق في امير شعراء روسيا الشاعر العبقري « الكسندر سيرجفتش بوشكين » الموصوف بالمتنبي

وُلد « بوشكين » في موسكو في ٧ يونيو وفي رواية اخرى في ٢٥ مايو سنة ١٧٩٩ وكان أبوه نبيلاً وأمهُ تمت الى ابراهام هانيبال الزنجي الأفريقي الذي قرّبهُ بطرس الاكبر فورث منهُ شعرهُ الجعد ومزاجه الحادّ . تلقى علومه في مدرسة تسارسكو سيلو على مقربة من بطرسبرج وكان يكثر من الاطلاع في مكتبة أبيهِ الزاخرة بالمؤلفات الفرنسية . كان يجيد عدة لغات يطلع على آثارها ويكتب بما اخترتهُ من آثار علمية وأدبية . وعرف عن اخلاقه الاستهتار والسخرية والأسراف . ولقد حوى شعره كثيراً من هذه السخرية التي تتميز بها طبيعة بعض الشعراء

نشرت قصائده الأولى عند ما بلغ الخامسة عشرة من عمره . وفي عام ١٨٢٠ نشرت قصتهُ الشعرية البليغة « رسلان ولودميلا » وفي السنة نفسها عين في منصب في « بيسرابيا » بجنوب روسيا انقاذاً لهُ من النفي الى سيبيريا وكان الباعث على نفيهِ قصيدة في « الحرية » اذاعها مخطوطة. ولقد أتيح لهُ وهو في القوقاز ان يستوحي روعة تلك البلاد . فكتب « سجين القوقاز » وهي قصة شعرية تصف غرام فتاة شركسية بضابط روسي. وفي عام ١٨٢٤ عاد الى قرية أبيهِ في « بوسكوف » بعد ان نظم قصيدة رائعة في البحر عند مغادرته اودسا . وهنالك قضى سنتين كتب فيهما أدعى مخلفاته الادبية للخلود ومن بينها ذكريات حياته التي أودعها الشعر كما كتب قصته الطريفة « أوجين

أونيجين » وانك لتلمس في بداءة هذه القصة الروح الشعري الذي تأثره بوشكين كما تستطيع ان تلمس في يسر وسهولة « روح » الشاعر الانجليزي بيرون. ولقد كان « بيرون » عنوذجاً رفيعاً تمثله الشاعر في مناحي شعره بل كان الصخرة البارزة التي قام عليها نبوغ الشاعر « بوشكين » . لم يتأثر بوشكين في بيرون نزعته الرومانطيقية بل كانت « الواقعية » هدفه الاسمى . ولعلك واجد أثر هـذا في « كونت نولين » بل في « أوجين أونيجين » فهي وحي روسيا في نفس الشاعر وما استطاع ان يعثر عليه فيها من مثل صادقة هي الحياة الواقعة نفسها . بل انها لتشبه في كثير تلك الحياة التي كان الشاعر نفسه يحياها والتي يصور فيها الاجتماع الروسي بأجلى بيان . ولقد كتب مأساته الكبيرة « بوريس جودينوف » عام ١٨٢٥ وبعدها بعام واحد انعم عليه القيصر بالعفو التام . وعين مؤرخاً للقيصر عقب ان تزوج « نتاليا جونشاروفا » عام ١٨٣١. ولقد كتب يومئذ تاريخاً لثورة « بوكاشيف » . كما كتب قصة « ملكة البستوني » عام ١٨٣٣ وقد نشرنا ملخصها في مقتطف فبراير الماضي . وكذلك كتب « ابنة القبطان عام ١٨٣٦ » . ثم بارز « هيكرن دانتيس » في ٢٧ فبراير سنة ١٨٣٧ وكان هذا الرجل عديله ولكنه أثار غيرة بوشكين بما وجهه الى زوجته من النكاية . الا ان دائرة المعارف البريطانية تنكر ان بواعث هذه الغيرة كان لها ما يؤيدها . وأسفرت المبارزة عن جرح بوشكين جرحاً بالغاً فتوفي بعد يومين متأثراً به

الشاعر

كان بوشكين محبًا للجماعة لا ينقطع عن المجالس الأدبية يكلف كلفاً شديداً بالمرأة وقصص حبه قبل زواجه اشبه ما تكون بالاساطير الآن . والمرأة ما برحت صورة من صور تفكيره وخيالاً لا يبرح مخيلة الشاعر . بل هي ما برحت مصدراً من مصادر الوحي الفني الذي لا ينضب له معين

جهد بوشكين في ان يجعل شعره مثلاً رفيعاً لطبيعة التأليف بين الحقائق . كان رجلاً بعيد النظر تتصل شاعريته بهذه المعاني العميقة التي يوحي بها الأدب ولا عجب فقد قال عنه « جوجول » « ان بوشكين لظاهرة غريبة بل انه تلك الظاهرة الفريدة للروح الروسي » . وقال عنه دستويفسكي « ان النبوة لتتمثل في شاعريته » . وحقـاً لقد

عرف ، ان ينفذ الى الوجدان الانساني . وان كان قد استلهم الفن الاوروبي الشعري الاّ ان طابعه الروسي لم يفارق خواطره التي تتصل بقلبه الكبير . كل شيء في حياة الشاعر لهُ منحاه الشعري ولعل الشاعر نفسه وحدة تلك القصيدة الكبيرة . قصيدة الكون والحياة . وشعر بوشكين نسيجه العاطفة الانسانية بل العاطفة الالهية والخيال والذوق . ان بطرس الاكبر قد اضطلع بجهود مضنية في سبيل الاصلاح الاجتماعي واما بوشكين فقد وصل الينا في هذا الجيل لتقرير الوجدان واثبات الروح الانساني . وان قصائده لمصباح قوي ينير ظلمات النفس ويحمل للحياة الاجتماعية والعقلية رسالة الفكر الموهوب وإذن بوشكين نبي مكرم . . . »

استمد بوشكين شاعريته من معينين . الاول اقطاب الادب الاوروبي لا سيما الكتّاب الفرنسيين الذين هيمنوا على الحياة العقلية في القرن الثامن عشر . والثاني الثقافة الانجليزية التي قامت على « بيرون » « وشاكسبير » «وسكوت» . واما وحي « شاكسبير » فأنت تستطيع أن تجده في قصة « بوريس جودينوف » تلك الدرة الثمينة في الشعر المرسل . ولعل ما فيها يشبه من وجوه كثيرة قصة شاكسبير « الاوقات العسيرة » . ففي « بوريس جودينوف » نحس تهديد دمتريوس لموسكو وعلى رأسها بوريس المظنون انهُ قاتل « تسارتتش » . ولقد عالج بوشكين تلك القصة لتطابق تاريخ « كارامزن » وهي تبين مدى العذاب النفسي الذي يثقل حياة المغتصب الظالم وخطر يوم الدينونة الذي يقترب منهُ . أما قصته « الغجر » « The Gipsies » فيتمثل في بطلها اليكو « Aleko » جماع النظرة الاجتماعية في النفوس الانسانية المسكينة التي يضمها الشعب الروسي . وان هؤلاء الفقراء الذين ينتقلون من بلد ليرتحلوا الى آخر نشأوا أحراراً لا يتقيدون بهذه القيود المدنية ولا يعرفون شيئاً عن اوضاع الحياة التي تفرض على المجموع . انهم بعيدون عن كل تهذيب أو تعليم الا تلك الثقافة البدائية التي يتوارثونها . وهذا بوشكين بلسان «اليكو» ينادي الكبرياء ليسخر منها فيقول ألا فلتشيحي وجهك عنا ايتها المتغطرسة . فقد خلقنا ابطالاً لا نحفل بقانون . وانما لا نبتغي أن نعذب أو نعاقب انساناً . ولعل المعنى المقصود انهم كالنهر السيال يصادف السهل الدهاس فيجري ويجيء على المكان الصخري ليرتطم به وانهم اصحاب دماثة خلق وعزة نفس لا ينزعون الى مهانة

أو يقبلون ضيماً . ولقد رمى « پوشكين » طبقة الاشراف بهذا التنديد الذي نطق به « اليكو » ويقول پوشكين عنهم « ما أسخف هذه النفوس التي تخرج الى هذا الوجود لتقضي بضعة اعوام فتضيع نصفها في تقدير منازلهم من نفوس الغير . انها لخسة الرياء » . وليس « اليكو » الا فتى ترك حياة المدن ونزح الى طائفة من هؤلاء « الغجر » فكان ضيف الشؤم عليهم — وهو على حد تعبير « دوستويوفسكي » ممن تزيد بهم الحاجة واختتمت حياتهم بالاخفاق واستوعبهم الادب الروسي الحديث

كان پوشكين من دعاة الاشتراكية وهذه خواطره تنساب فيها صوفيته الانسانية وعطفه الكريم بل تلك هي هواتفه الخالدة التي تنادي بتحقيق « النفسية الروسية » التي تضمن للفرد حريته ومتعته امام ما يمكنهُ ان يأتيه من خير للجماعة . والنفسية الروسية قائمة على التجديد في أساليب الاجتماع حتى تمهّد الحياة للانسان فرصة من السعادة المنشودة . هي تسعى جهدها نحو الحرية في اقصى حدودها واعمق معانيها . لايجب ان يحتمل الشعب « الكبرياء المزيفة » التي يتصف بها رجال الدين أو اصحاب السلطة انما يجب ان يأخذ بلباب الدين وهو التسامح والتقوى وان يعمل الحكام لخير الشعوب . ولقد كان پوشكين قطباً من اقطاب الشعر الغنائي وقد اعترف ملحق التيمس الادبي ان ترجمتهُ متعذرة لان الوحدة بين معانيهِ وشعوره وأسلوبهِ لاتنفصم الا ويضيع سرُّ الجو الذي تخلقهُ نيرانهُ المتناسقة

وهاك مقطوعته الصغيرة « احببتك » ففيها يقول

« اني أغرمت بك وهاك اعترافي القيه بين يديك الآن . ان ذكريات حبك لما تزل تلهبني ولست احب ان تنتهي بك الى شيء من الألم . فانا لن أرجو لك مفاجأة أخرى . لقد انطفأ سراج املي وعقد لساني ولكن قلبي يفيض بهذا الحب الذي تعتز بهِ نفسي . فيه استوى رأي الحسود والطيب . اني لاستمد حبك من فيض القلب فياحبذا لو تسعدين بعاطفة كعاطفتي »

ولقد اكبر العالم شاعرية پوشكين لما فيها من روعة وروح . انها عيون ثرة للقلوب المتعطشة للجمال والحق ، بل هي انجيل الرحمة . وان خواطره لتصدر عن قلبه الغني الى المجتمع الروسي كالورد النضير يجلو الندى في بهجة الصباح او كالنرجس الغض اذ يبكي في ظلال المساء

فصل معترض

Strange Interlude

« اما الانسان فضعيف بائس ، وألعوبة في ايدي القدر ، ولكنه يشقى ويتألم بمهابة وجلال ! »

سدني دارك

يقول « تشارلزلام » : « الملهى ألذ تسلية » ، ولا بأس ان يضحك الانسان ويسر ويمتع نفسه بمسرات الحياة ولهوها ، على أن يكون في ذلك معتدلاً حكيماً . ويرى « برنارد شو » أن الملهى يجب ان يكون « معملاً للتفكير وحافزاً ومنبهاً للوجدان ، ومظهراً للسلوك الاجتماعي ودرعاً واقية من البلاهة واليأس ، ومعبداً لارتقاء الانسان » ويقول في موضع آخر : « إن الملهى مكان لا يرتاده الانسان إلاّ ليفنى نفسه ، حيث يكون قد جُذِبَ اهتمامه وأُثيرَت عواطفه الى أقصى درجات الاستعداد والنشاط ، وتلاشى وعيه »

ولقد كانت المسرحيات عند قدماء الاغريق من اسمى انواع الادب وفنونه ، تعنى بالمسائل الاساسية الهامة التي تشغل حياة الانسان ، فكانت صوراً لفلسفتهم ومظهراً لآرائهم في الحياة ، وهي التراث الخالد الذي أبقوه اثراً حيًّا في الادب العالمي ، كمسرحيات صفوقلس واسكيلس ويوريبيدبس . وما تبقى منه ليس الاّ جزءاً ضئيلاً من تفكير ذلك الشعب العريق وأثراً نفيساً من عبقريته التي بقيت على مرّ العصور ، فكانت أساساً لمدنية اوربا وثقافتها العقلية

ولعلّ اروع مظهر من مظاهر الدراما الحديثة ان المؤلفين المسرحيين يعملون ما في استطاعتهم للتعبيرعن خفايا النفس الانسانية ومراميها ، واظهار الافكار على ملامح الوجه قبل النطق بها . وهم يسمون بواسطة « الملهى » — المسرح — ليس للتعبير عن حقائق الحياة الظاهرية فحسب ، بل ولبيان المشاعر والافكار الخفية التي هي العامل القوي في حياتنا

العملية . وهم يعنون بذلك النفوذ الى ما وراء هذه الحياة العادية التي نحياها للوصول الى اعماق النفس الانسانية والارتشاف من مصادر الفكر الصافي والينابيع المجهولة المتدفقة نوراً وفكراً سامياً . وبعد فهذه رسالة « اونيل » التي يعمل من اجلها — بواسطة شخصيات مسرحياته — لاظهار العالَمَيْن المختلفين اللذين يحيا بهما الانسان — العالم الظاهر ، عالم الحقيقة والواقع ، و — العالم الخفي — الذي يتستر وراءه الانسان، عالم الاحلام والافكار المنبعثة كما يبدو ذلك في مسرحيته Strange Interlude

فكيف اذن حاز « اونيل » هذه الشهرة العالمية وامتاز على اقرانه وزملائه بمسرحياته الرائعة ؟

أَلمْ يكن — كما قال (كلود برتون) :— « فريداً ممتازاً بقصصه حين رسم لمعاصريه صوراً حقيقية متنوعة لحياة الشعب الاميركي ، وصفحات ملونة من آماله وامانيه ، واذواقه وعاداته ، وآلامه وشقائه ، مما لم يتسنَّ لمؤلف مسرحي قبله عرض هذه الصور المختلفة على المسرح بقوة وصدق وجاذبية ؟ ! »

***

نصل الآن الى نقطة هامة في تطور شخصية اونيل الادبية ، بعد تنقله بين المذاهب الفنية المختلفة ، فاذا بنا عند مسرحيته الفريدة (فصل معترض) Strange Interlude . وهي قصة «امرأة واربعة رجال» وتطورها في نواحي الحياة المتقلبة ، وهي مسرحية طويلة ذات تسعة فصول ويستغرق تمثيلها خمس ساعات . جرت وقائعها في اميركا وتمتد خمساً وعشرين سنة . وتظهر هذه المسرحية مُعَبِّرَةً بالاحاديث النفسية الداخلية لكل شخص من اشخاص القصة على حدة ، وذلك بعد ان يقول كل شخص دوره في القصة بصوت عال ، يلتفت جانباً ويقول وكأنهُ يناجي نفسهُ ما يدور في نفسه . ومن ميزاتها انها تزخر بالقوة والحياة ، فنشعر بها كأننا امام امر واقع . فهي تؤثر في المشاهدين والمستمعين تأثيراً قوياً ، حتى ليشعر هؤلاء حين انتهائها انهم امام قصة حقيقية تمثل وتجري وقائعها في الحياة وليس على المسرح

تحلل لنا هذه المسرحية ، وهي مأساة متشابكة الحلقات ، نفسية امرأة معذبة بائسة . فهي قصة حياتها وحبها ومغامراتها . وخلاصتها : ان (نينا) Nina وهي ابنة

أستاذ من (نيو انكلند) في اميركا ، خُطِبَتْ الى طيار اميركي اسمه (غوردون) Gordon قتِل في الحرب الكبرى . وكان قد نصحهُ ابوها ان لا يتزوج من (نينا) قبل عودته سالماً من ساحة الحرب ، خوفاً على ابنته ان تبقى ارملة فيما اذا لم يعد زوجها . وكذلك ذهب (غوردون) وحارب في فرنسا ، ولكنه لم يعد كالوف مثله ، فحنقت الفتاة على ابيها حنقاً عظيماً ، لانهُ مانع من زواجها بمن تحب ، وقضى على آمالها وهي تحلم بحبيبها وخطيبها المفقود !

يرفع الستار في الفصل الاول عن بيت الاستاذ حيث نجد (تشارلز مارسدن) Charles Marsden وهو قصصي مشهور وصديق للعائلة من زمن طويل . عاد من اوربا ، وهو أعزب متعلق بأمهِ ومخلص لها الاخلاص كله ، وهو يحب (نينا) ويتودد اليها بيد انهُ لأسباب نفسية ، لم يصرّح لها بحبه ، فهو حييٌّ خجول ، ذو شخصية عجيبة ، نكاد نراه في كل فصل من فصول المسرحية ، يحوم حول المأساة ، وكأنهُ يشعر بها ، ولكنهُ يحجم عن الولوج في هذا المأزق . فهو في بيئة مشبعة بالمؤامرات والحقد والشحناء

ثم ان(نينا) تصاب بحالات عصبية شديدةوعلى وشك ان تفقدها عقلها . وهي تعلن حنقها الشديد وتنفر من أبيها الذي قضى على احلامها فتقرر الانتظام ممرضةً في احد المستشفيات لمواساة الجنود العائدين من ساحات القتال ، وتوقف نفسها على خدمة الجرحى ذكرى لحبيبها المفقود (غوردون) !

وأما في (الفصل الثاني) فاننا لا نزال في بيت الاستاذ ، وهو الآن مريض ينازع سكرات الموت ، وحولهُ (تشارلز مارسدن) صديق العائلة يعتني به بانتظار (نينا) . تدخل (نينا) بيت أبيها ومعها الدكتور (ند دارل) Ned Darrell احد أطباء المستشفى ، و (سام ايفنز) Sam Evans ، وهو شاب معجب بها ويحوم حولها اما الدكتور (دارل) فهو بعيد عن تأثير العاطفة الجنسية ، ولا يهتم بالنساء كثيراً ، ولكنهُ شديد الكراهية لتشارلز مارسدن ويبغضهُ بغضاً شديداً . فهل تكون (نينا) سبباً لذلك ؟ ! . . .

(نينا) مريضة النفس واهنة ، منهوكة القوى ، حزينة بائسة . تنتابها أوجاع مقلقة ، فيشير عليها الدكتور (دارل) بالزواج لتضع حداً لآلامها النفسية المبرحة .

وحينما تسأله (نينا) ممن تتزوج ، يوصيها بصديقها الشاب (سام ايفنز) فتقبل نصيحته ويتزوجا

تمر على هذه الحادثة سنة ، تزور بعدها (نينا) وزوجها بيت حماتها (ام سام ايفنز) ، فتفشي هذه لها سراً عائلياً ، وهو ان في العائلة مرضاً وراثياً عضالاً ، قضى على ابي سام وجده وأبيه بالموت في مستشفى المجانين ، وتطلب الى نينا ان لا يكون لها أولاد . ولكن هذا الانذار يأتي متأخراً ، وأم (سام) قاسية القلب وتريد ان لا يكون لابنها أولاد ! وأما نينا فهي على العكس من ذلك ، تحب ان تكون سعيدة وان يكون زوجها مغتبطاً بها ، فاذن يجب ان يكون لها ولد ولو كان من شخص آخر ! ؟

يمضي الزمن ، والوقت يمر بسرعة . خرجت (نينا) من المستشفى والولد لم يولد بعد ، وزوجها (سام) قلق الخاطر مضطرب البال ، يشعر بالكآبة واليأس ، فقد تغيرت طباعه واضطربت حياته ، وخبت من نفسه جذوة النشاط ، فلم يعد قادراً على العمل وكتابة الاعلانات (في المحل الذي يعمل فيه) فينذره اصحاب المحل ويهددونه بالطرد اذا لم يعُد الى الاهتمام بعمله . ومع ان (نينا) بدأت تشعر الآن بنفور من زوجها (سام) ، الا انهُ لا يزال له في قلبها بعض الحب ، فهي تريده (ان يكون سعيداً) ، وتشعر انها بعملها هذا انها ترضي روح خطيبها الاول (غوردون) وهي ما زالت عالقة بحبه ، وان كان هو قد صار رميماً تحت التراب ! . . .

فكيف العمل اذن ؟ .. واخيراً تفتق لها الحيلة مخرجاً صعباً من هذا المأزق . فهي تصرح بكل شيء للدكتور (دارل) وتقنعهُ ان يكون هو اباً لولدها الذي تريده وتحلم به ! اما الدكتور فيقبل اقتراحها بطيبة خاطر — ولكن كعالم فقط ، لا تهمهُ الا حقائق العلم المجردة ! — اما انهُ يشعر حقيقةً بحب وجاذبية نحو (نينا) فهذا مما لا شك فيه ! !

ثم ترجوه (نينا) ان يطلع سام على القصة كما هي وان يشدد عليه بطلب الطلاق منها ، بيد ان (دارل) وهو على وشك ان يعمل بما طلبت منهُ (نينا) يتريث قليلاً ، اذ تتراءى له عقبة هذا الامر وما سيؤول اليه حال سام فيما اذا عرف الحقيقة ، ولذا يغتنم فرصة غياب (نينا) وخروجها من الغرفة فيخبر سام انهُ سيكون اباً عن قريب ،

ويترك رسالة (لنينا) يعلمها بعزمه على السفر الى اوربا

تمر سنة على هذه الحادثة ، فيجد سام عملاً ويصبح رجلاً نشيطاً مجداً عاملاً ولا سيما بعد ان رزق ولداً ، فأصبح يفخر بحياته العائلية وعمله النافع ، قليل الاهتمام بالحوادث العامة . ولكن (دارل) يعود فجأة ، فيخبرها (تشارلز) عن (دارل) ويعلمها بشؤونه واعماله ، و(نينا) لا تزال تحبهُ ، واما هو فقد خمدت عاطفته نحوها

ويلي ذلك مشهد رائع مؤثر ، ربما كان اجمل ما في القصة ، حيث تجتمع (نينا) واصدقاؤها الثلاثة ، يتحدثون بصراحة والطفل (غوردون) في الطبقة العليا من المنزل يشرف عليهم . ويتحتم على (دارل) أن لا يعترف بأن (غوردون) ابنه ، لذلك نراه يبتعد عن هؤلاء ويذهب في مهمة الى (پورتوريكو) للاشتغال ببعض المسائل العلمية هناك

وتمضي عشر سنوات يتقدم خلالها (سام) ويتخذ له مقراً في (بارك افنيو) وهو لا يتميز عن غيره من رجال الاعمال في اميركا ، بوجهه الاحمر المورد ، واعتداده بنفسه وشموخ انفه !

ثم يعود دارل ويجتمع بنينا والولد (غوردون) الذي يكره عمه (!) الدكتور (ند دارل) كرهاً شديداً ، ولكنهُ لا يعرف سبب ذلك البغض والنفور ، وفي الوقت نفسه يحب أباه (!) سام . . . وأما (نينا) الشقية البائسة ، المعذبة المتألمة ، فتعيش في جوٍّ حافل بالأكاذيب والدسائس والخداع ، وتسعى لاستكتساب ود (دارل) ليعود اليها . وفي خلال ذلك يرى (غوردون) الصغير أمهُ تعانق (دارل) فتثور العواطف في نفسه ويأتي بالسفينة الصغيرة التي أهداها اليه دارل ويلقيها على قدميه فتتحطم ، ويعلم الاثنين انهُ سيخبر اباه (!) سام بما شاهد منهما

نصل الآن الى الفصل الذي قبل الاخير وقد جرت حوادثه بعد بضع سنوات ، على اليخت الذي يخص (سام) فنرى (غوردون) وهو يقوم بدور في المسابقات المائية مختاراً من قبل (الجامعة) التي يدرس فيها ، وهو خطيب الآنسة (مادلين) وهي الآن في اليخت مع (سام) و (نينا) و (دارل) و (تشارلز) يشاهدون المسابقات التي يشترك فيها (غوردون) . (دارل) و (تشارلز) يلاحظان بدقة كل حركة تصدر من (نينا) . انها تفكر في (مادلين) — خطيبة ابنها غوردون —

لانها ستتزوج منه وتحرمها من ابنها ، وهو رمز لحبها واخلاصها لحبيبها الاول الطيار (غوردون). ولذلك فهي تعزم على ان تُعَلِّمَ الفتاة (مادلين) بالمرض الوراثي المتأصل في اسرة (ايفنز) لتحول بينها وبين الزواج من ابنها ، بيد ان (تشارلز) وقد لاحظ عليها ذلك ، وفهم ماعزمت على عمله وقوله ، يتدخل في الوقت اللازم ويمنعها من الكلام

انتهى السباق ، واذا بغوردون هو السابق ، فتستولى عندئذ على سام غمرة شديدة من الهياج والفرح فيقع مغشياً عليه ، وتنسى (نينا) في تلك اللحظة نفسها وهمومها ، فتبكي منتحبة فوق سام

واخيراً فنحن في حديقة منزل (ايفنز) في (لونغ ايلند) ، واذا بسام قد مات وجاءت (مادلين) وخطيبها (غوردون) بالطيارة لمشاهدة (نينا) . ويشاء القدر ان يعود (دارل) فجأة من مقرّ عمله في (پورتو ريكو) ، و (تشارلز) موجود كالمعتاد (في هيجة الزحام !)

نشاهد الآن منظراً مؤثراً حيث يعلن (غوردون) كل ما بنفسه من حقد وضغينة نحو (دارل) — ايه — ثم يهجم عليه فيلطمهُ . عندئذ تصرخ (نينا) وتقول

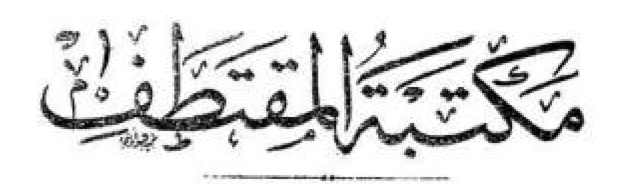
— غوردون ! . . . ماذا فعلت ؟ انك تضرب اباك . . .

فيلتفت غوردون الى امهِ متعجباً ويقول

— هذا ما كان يشعر به ابي لو كان حيًّا . أو ليس العم دارل خير اصدقائه ؟ ! اما السر فلا يزال خفيًّا مكتوماً . . . .

ويسافر بعد ذلك بالطيارة (غوردون) وخطيبتُهُ (مادلين) . وتمر الطيارة محلقة فوق الحديقة فتتذكر (نينا) حبيبها الأول (غوردون) الطيار . الذي كان لهُ في نفسها اعمق الأثر ، وكانت لهُ دائماً مخلصةً وفيةً ، فيصرخ (دارل) ويمتزج صراخه بهدير الطيارة قائلاً : « إنَّكَ ابني يا غوردون! » ثم يتوارى عن الانظار وتبقى (نينا) مع (تشارلز) وقدماتت عاطفتها وخبت الى الابد جذوة حبها ! اما تشارلز فلم يخفق قلبه يوماً للحب . وتتمنى (نينا) من (تشارلز) وهو الوحيد الذي بامكانه الآن ، ان يُسبغَ عليها نعمة الحياة الهنية والعيشة الرضية !

تلخيص وتعليق : فؤاد عنتابي



مع المتنبي

بحث للدكتور طه حسين بك في جزئين عدد صفحاتهما ٧١٦ من القطع المتوسط
نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

كانت الذكرى الألفية لوفاة المتنبي حافزاً قوياً لدراسة هذا الشاعر دراسات جديدة تتفق وروح هذا العصر فهبَّ أبناء العربية في مختلف البقاع والامصار يحيون هذه الذكرى ويميطون اللثام عن سر عظمة المتنبي . وكان ان أرصدت هذه المجلة لأول مرَّة في تاريخها عدداً خاصًّا تولى اخراجه كاتب واحد هو الاستاذ محمود شاكر . وقام على أثره كتّاب آخرون يحللون هذه الشخصية الفذة . وكان آخر ما صدر كتاب الدكتور طه حسين بك . وقد قسم بحثه الى خمسة كتب . فأما الكتاب الأول فقد تناول فيه حداثة المتنبي وشبابه وبدأه بالكلام في نسب الشاعر غير أنهُ لم ينتهِ الى قرار في هذا الموضوع كما خلص الأستاذ شاكر من بحثهِ الى قرار في صلة نسب المتنبي بالعلويين . ثم تكلم الدكتور عن الحياة الاسلامية عند مولد الشاعر فلخص ذلك البحث النفيس الذي عقدهُ عن هذا العصر في كتابهِ « ذكرى أبي العلاء » ثم انتهى منهُ الى الكلام في طفولة المتنبي فخالف فيهِ مفسري دخول المتنبي مدرسة من مدارس العلويين في ما فسروا بهِ ذلك . وعنده «ان الارستقراطيين الممتازين من الشيعة العلوية ومن أهل السنة لم يكونوا يرسلون ابناءهم في طور الصبا الى المدارس العامة وانما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين فاذا شبوا خلوا بينهم وبين الاختلاف الى مجالس العلم في الاندية والمساجد الجامعة . انما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم الى هذه المكاتب والمدارس » . وان اختلاف المتنبي الى مدرسة من هذه المدارس لا يدل عنده على امتياز خاص وانما يدل على الاتجاه الديني الذي وجه اليهِ الصبي . وقد تناول بالتحقيق الخصال الثلاث التي ظهرت في شعر المتنبي الذي قالهُ في صباه وهو يختلف الى المكتب كما تناول بالدرس والتحليل شعر المتنبي في طرابلس وفي اللاذقية واستعرض ما قالهُ من الشعر الحاد العنيف الذي انتهى بهِ الى السجن في حمص وما قالهُ بعد خروجه منهُ

واما الكتاب الثاني فتناول فيهِ حياة المتنبي من خلال شعره في ظل الأمراء من الاوراجي حتى ابي العشائر كما تناول في الكتاب الثالث حياة هذا الشاعر في ظل سيف الدولة . وهذه الفترة من حياة المتنبي هي « خير أعوامه وأخصبها وأغناها وأكثرها حظًّا من الانتاج المختلف المتنوع » وقد وجد الشاعر في سيف الدولة وملكه تأييداً لنزعته القومية وما كان يشتهي من نهوض عربي قوي وصادف عنده بيئة خصبة مثقفة ذكية ناقدة فلاءم بين نفسه وبين هذه البيئة وقد حلل الدكتور شعر المتنبي في سيف الدولة ومرثياته لاقاربه وخاصته ووصف حروبه

نخالف صديقنا شاكراً فيما استنبطه من غرام الشاعر بخولة اخت سيف الدولة من خلال مرثيته فيها ورد الدكتور قوة هذه القصيدة الى الحنين المتصل بين الشاعر وسيف الدولة بعد ان فارقهُ وانهُ لا يفهم من هذه القصيدة الا ان القصيدة كانت تبر بالشاعر وتحسن اليه عن بعد كما كانت تحسن الى غيره من القصاد وأهل الادب . وقد انتهى في هذا الكتاب الى آخر حياة المتنبي في ظل أميره فصور لنا مالاقاه الشاعر أخيراً في هذه البيئة من مكائد ودسائس فرحل عنها ليبدأ حياة جديدة في ظل كافور ولم يكن الشاعر يقدر خدعة كافور حين استدعاه اليهِ فاستجاب دعوته تحته اطماع واماني مالبثت أن ذهبت مع الرياح وكان لما لقيه من خيبة الأمل أثر قوي في شعره ظهر فيما تناول بهِ كافوراً وبيئتهُ المصرية بلاذع القول ومر السخرية . وقد تناول المؤلف كل ذلك بالبحث والتحقيق في كتابه الرابع

اما الكتاب الخامس فقد مثل فيه حياة المتنبي الاخيرة بعد فراره من كافور حتى لقي حتفه وقد انتهى فيه المؤلف الى رأي خاص او خاطرٍ ألحَّ عليه — كما يقول — هو ان المتنبي لم يذهب ضحية القصيدة البائية الفاحشة ولا ضحية جشع في ماله او متاعه وانما أدى موته الى القرامطة والى العرب ثمن خياناته التي اقترفها في الكوفة وسجلها في نفسهِ في شيراز وعاد وفي نفسهِ ان يمن فيها ويباهي بها ويملأ الارض اذا انتهى الى بغداد

هذه نظرة سريعة في هذا الكتاب النفيس ولولا علمنا انهُ ألِّف والدكتور مصطاف في اوربا وهو بعيد عن المراجع لكنا طالبناهُ بذكر المؤلفين المحدثين والمتقدمين عند نقد آرائهم بدلاً من اسنادها اليهم اجمالاً وتعمياً ولعله يفعل ذلك في طبعة تالية ان شاء الله . . .

مجلة الشرق

الشرق تبدأ عامها العاشر فما أجمل هذه الذكرى !

قبل عشرة أعوام كانت الشعلة الادبية المتقدة في اميركا الشمالية توشك ان تخمد ولم تكن لتجد لازهارها طاقة تجمعها ولا لانفاسها نافخ يردها الى التوهج. ولكن مشيئة الله التي أبت الأ ان تتم نور هذه الشعلة قيضت لها الاستاذ موسى كريم صاحب « مجلة الشرق » نحملها بيديه الى اميركا الجنوبية والتف حوله ادباء العربية هناك — في البرازيل — ففتح وإياهم افقاً جديداً تطلع اليهِ العالم العربي وما لبثنا ان سمعنا في حديقتهِ هذه الانغام القدسية التي ما تزال ترنح الشرق بعذب غنائها وخرجت لنا من آثار الشرق ملحمة فوزي ، وأعاصير القروي ، وعبقر شفيق ، ونفثات فرحات ، واغاريد العصبة التي تنشر لواء العربية هناك

وانا ننتهز هذه الفرصة السعيدة فنهنيء هذه المجلة الراقية الحانية على الأدب بعامها العاشر الذي درجت اليهِ في ثوبها القشيب المتجدد ، وأنا لنرجو أن نعود الى درس أثر هذه المجلة في الصحافة العربية التي انشئت بعد ذلك في ربوع المهجر الصيرفي

شعراء مصر

وبيئاتهم في الجيل الماضي

تأليف الاستاذ العقاد — صفحاته ٢٠٢ قطع وسط — يطلب من مكتبة النهضة المصرية

من أظهر سمات أدبنا الحديث تلك الدراسات الحافلة المستفيضة التي تتناول الشعر والنثر في العصور المختلفة والرجوع بفنونها الى البيئات التي نبتت فيها وتفرعت عنها واستمدت ألوانها وصورها من ثقافاتها الموروثة والمكتسبة

ولم تعد الكتابة مقتصرة على ترجمات متضاربة لحياة هؤلاء الشعراء والكتاب ولم يعد النقد الأدبي محصوراً في عرض شامل لا تتاجهم الفني ومقابلته بمن سبقوهم والرجوع بالمعاني والأخيلة إلى معاني القدماء وأخيلة المعاصرين لهم بالطريقة التي سلكوها في شعر المتنبي رأبي العلاء والبحتري. ولكن النقد الأدبي قد سما الى أُفق آخر من التحليل الدقيق والاستقراء العميق وفيما أخرجت المطابع أخيراً من الدراسات الادبية شواهد على الاحاطة الواسعة بكل مايتصل بالادب من الزمان والمكان وما يحيط بحياته من احوال اجتماعية وملابسات سياسية وأثر انعكاس كل عصر في نفس شاعره او انعكاس حياة الشاعر في العصر الذي عاش فيه . ومن أجل ذلك قرأنا عن ابن الرومي والمتنبي وغيرهما شيئاً جديداً لم يعن القدماء به ولم يشغلوا بالاشارة اليه او التحدث عنهُ على بعد أثره في تكوين مذاهبهم الادبية وتحديد اتجاهاتهم وخلق صورهم واستلهام معانيهم

على أنك لا تقع في الدراسات الجديدة على ما يتناول شعراء عصر واحد كما تقرأ في الأدب الانكليزي مثلاً عن العصر الفكتوري أو شعراء القرن التاسع في فرنسا . لهذا كان كتاب الاستاذ العقاد عن شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي عملاً أدبيًّا لا بدَّ منهُ ولا غنى عنهُ لأدبنا الجديد ، ومن الواضح أن أديباً كبيراً كالأستاذ العقاد توفر على دراسة الأدب العربيّ في عصوره المختلفة وأحاط بمذاهب النقد الغربية لا بدَّ وان يكون لهُ رأي ناضج في الشعر مستمدة نتائجهُ من مقدمات صحيحة ، محصها التأمل الطويل وصقلها الدرس العميق ، وهذبها الذوق العالي ، وأملاها الحس المرهف، وهي صفات احلت الاستاذ العقاد مكانة مرموقة في ادبنا الحديث كشاعر وكاتب وناقد . على ان هذه الخصائص وان اجتمعت لأديب فأنها لا تصرفهُ عن النظرة من خلال مزاجه الخاص الى كل لون من ألوان الفنّ والادب وان هيأت له ما لا يتاح لغيره من نفاذ النظرة وعمقها واتساعها .وانك لتقرأ في كتابه عن شوقي فتلمس شواهد ذلك كله. ولعلَّ فصولهُ في حافظ ابراهيم والبكري وعبد المطلب واسماعيل صبري وعبد الله فكري وعلي الليثي وعثمان جلال والبارودي والتيمورية من أعلى الفصول الأدبية قيمة واقومها بحثاً واسلوباً

المحفوظات الملكية في مصر

وأسباب الحملة المصرية في سوريا (١٨٣١ — ١٨٤١) للدكتور أسد رستم

عصر محمد علي زاخر بالفتوح والحوادث والانقلابات والمؤامرات التي لا يخلو منها عصر زاهر في تاريخ أية أمة . وليس هناك شك في ان يكون المرجع الوحيد لكل هذه الامور الى تلك الشخصية النادرة العبقرية العظيمة — شخصية محمد علي

في النصف الثاني من القرن الماضي عنى الكتاب والمؤرخون الاوربيون بدراسة التاريخ المصري والعثماني المعاصر ، لكن في معظم الاحوال كانت كتاباتهم لا تخلو من روح التحيز التي تتعاون مع مآرب الدول التي ينتمون اليها لتحقيق اغراضها السياسية . ويخيل اليَّ انهُ باستثناء كتاب « الامبراطورية المصرية تحت حكم محمد علي » للاستاذ المؤرخ محمد صبري وكتاب « المسألة المصرية منذ حكم محمد علي » للاستاذ شفيق غربال فاننا لا نجد ابحاثاً اخرى في هذا الموضوع الهام للمؤلفين المصريين او السوريين

أخيراً كان الدكتور أسد رستم « استاذ التاريخ الشرقي في الجامعة الاميركية ببيروت » موفقاً كل التوفيق في دراساته العميقة التي بدأها منذ أعوام باحثاً منقباً عن كل ما يتعلق بالحكم المصري في سوريا (١٨٣١ — ١٨٤١) وذلك بعد انتهائه من مؤلفاته النفيسة « فتوح ابراهيم باشا في سوريا وآسيا الصغرى » وعمله الفاخر « مجموعة الوثائق العربية الخاصة بتاريخ الشام تحت حكم محمد علي » . وكان طبيعيًّا للاستاذ ان يعتمد في تحقيق ابحاثه التاريخية على مجموعة المحفوظات المصرية في قصر عابدين التي تمَّ تنسيقها وتنظيمها بعناية الراحل العظيم المغفور لهُ الملك فؤاد الاول . وأصبحت اليوم أهم مرجع يأخذ عنهُ مؤرخ العصر الحديث لان هذه الذخيرة التاريخية الثمينة كانت الى عهد غير بعيد مبعثرة او مكدسة في زكائب ملقاة بين جدران الدفترخانة

والغرض الرئيسي الذي من أجله وضع الدكتور أسد رستم رسالتهُ النفيسة عن « المحفوظات الملكية لمصر وأسباب الحملة المصرية في سوريا (١٨٣١—١٨٤١) » هو ان يجعل في متناول من يدرس التاريخ المصري المعاصر فكرة وقتية عن وجهة النظر المصرية لاهم الحوادث فيما بين العامين ١٨٣١ و ١٨٣٣ في الشرق الادنى ومن المحتمل ان يكون من نتائجها ان تثير بعض النقد العلمي والجدل المفيد فيكشف الستار عن الحقيقة وبذلك تكون هذه الرسالة قد أدت واجبها

تناول المؤلف الفاضل في رسالته وبعبارة أوفى في كتابهِ النفيس الكلام على المحفوظات الملكية ومختلف مشتملاتها في الشؤون العسكرية والبحرية والادارية وأوامر الجيش وخطط المعارك والتقارير السياسية وأعمال الجاسوسية واوراق الاعداء المصادرة وأهم الحوادث اليومية

ثم يلي البحث الاصلي للمؤلف وهو الحملة المصرية في سوريا وأسبابها « الرسمية » كموقف عبد الله باشا والي عكا وتجديد الامبراطورية العثمانية واسبابها غير الرئيسية (غير المباشرة) التي لخصها المؤلف في المقاصد غير الطيبة للباب العالي واستقلال مصر ونقص موارد (عدم كفايتها) وادي النيل وطبيعة مصر وسوريا كوحدة جغرافية مستقلة النواحي الوطنية للنزاع

وقد تناول المؤلف ايضاً تحليل جميع هذه الأسباب على ضوء الوثائق الرسمية فوصل الى عدة نتائج منها ان محمد علي في نزاعه مع السلطان محمود كان يحارب للمحافظة على ثروته ومنصبه ومقامه كما حاربهُ ايضاً للمحافظة على حياته

وذكر الدكتور رستم انهُ كان من اسباب النزاع بين مصر وتركيا عوامل جغرافية ومثلها اقتصادية تلك العوامل التي جعلت سوريا ميداناً للخصومة بين محمد علي والسلطان محمود . فان مصر على الرغم من خصبها لم تسد حاجة محمد علي الى الخشب فكان عليه ان يستورد معظم ما يحتاج اليهِ من الوقود والاخشاب التي يحتاج اليها في اعمال الحرب والسلم فاضطر ان يحذو حذو تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني في العصور القديمة وابن طولون في العصور المتوسطة اي ان يبحث عن الاخشاب التي يحتاج اليها في سوريا وبلاد القرم . وخير مقياس نقيس بهِ ما كان لخشب سوريا وكيليكيا من المقام لدى محمد علي هو مقدار ما قطعه الجنود من أشجار الحراج المختلفة بين ١٨٣١ و ١٨٤٠ فما كاد ابراهيم باشا يصل الى اطنة حتى أصدر اوامر مشددة لبناء طرق تصل بين الحراج والبحر حتى يسهل نقل الاشجار منها الى مصر . كذلك قطعت اشجار اخرى من غابة ارز لبنان وارسلت الى معامل الذخيرة والسلاح في مصر . اما المعادن فلم يكن رجال محمد علي موفقين في البحث عنها

كذلك كان محمد علي في حاجة شديدة الى الرجال الذين يعتمد عليهم في حروبهِ . فان مصر التي لم يزد عدد سكانها عن الأربعة الملايين حينئذٍ لم تستطع ان تقدم لهُ الجند الأشداء وهو في حاجة الى جحافلهم سواء لزرع الارض او لخوض غمار المعارك . فان الجيوش العديدة التي جندها من رجال مصر وخسارته في حروبهِ في بلاد العرب والسودان والمورة قلل من اليد العاملة في مختلف اعماله الزراعية والصناعية كذلك عدم فلاحه في التجنيد السوداني جعله يتطلع الى سوريا وسكانها الشديدي المراس الكثيري العدد . ونحن لا ندهش اذا رأينا محمد علي يعتمد عليهم في جيوشه وهو القائل:

« من جبال لبنان أجند جنودي فأدرب منهم جيشاً كبيراً ولا أقف بهِ إلاَّ على ضفاف دجلة والفرات »

الواقع ان المؤرخ العالم الدكتور رستم يستحق منا كل شكر ونرجو لهُ التوفيق المتواصل وحبذا الحال لو ظهرت هذه الرسالة النفيسة باللغة العربية

عبد الرحمن زكي

قواعد النقد الادبي

تأليف لاسل آبركرومي أستاذ الادب الانكليزي بجامعة لندن وتعريب الدكتور محمد عوض محمد الاستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية . نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

لهذا الكتاب مكانة خاصة يحتلها في تاريخ أدبنا الحديث فهو أول حجر في أساس نقده، وما أحوج أدبنا الى قواعد جديدة في النقد

وقد بدأ المؤلف مقدمته بالحديث عن الخطوة الأولى في تاريخ النقد وهي التي بدأها سقراط عند ما دعا الشعراء أن يخبروه عما عنوه بشعرهم، ثم بيّن ان دولة الأدب تحتلها ملكات ثلاث : الانتاج، والتذوّق، والنقد . وان من فوائد هذه الملكة الأخيرة تمكين من رزق القدرة على الانتاج الأدبي من استخدام مقدرته بذكاء واستغلالها على أحسن وجه وأكمله . وكذلك من رزق المقدرة على تذوّق الأدب فان استمتاعه يصبح مبنيًا على أساس من الفهم وحسن التخير

أما الفصل الثاني فقد تناول فيه المؤلف بشيء من البحث العقلي فن الأدب انتهى به الى سرد أهم قواعد نظرية الأدب، وانه فن يرمي بواسطة اللغة الى إيصال التجارب التي لها قيمة في ذاتها والتي يمكن تذوقها لذاتها وان وظيفته هي ان يكسبنا قوة الخيال التي نتصور بها التجارب ذات المغزى العميق

وأما الفصل الثالث فقد أفرده المؤلف لكتاب أرسطو في الشعر شارحاً فيه نظريته في الشعر عامة لأن أرسطو كاد يلم فيها بجميع المسائل التي تولدت منها القواعد التي لا بدَّ للنقد منها مع تبيان أوجه [illegible] . ثم تكلم في الفصل الرابع عن اصحاب النظريات الذين ثبت أن قضاياهم ذات فائدة في النقد بادئاً بهوراس الذي يعتبره أكبر اسم في تاريخ النقد بعد أرسطو وقد كانت قصيدته « فن الشعر » سبباً في نشر آراء أرسطو في كل أدب أوربي . وانتهى من ذلك بعد عرض لبعض رجال النقد ولبعض المذاهب المختلفة في الادب الى رأي « منزوني » المعبِّر بأقواله عن المثل العليا للنقد الحر والهادي الى الطريق القويم للنقد الصحيح بكافة أنواعه . ثم ختم المؤلف كتابه بالنظر في رأي منزوني

هذه نظرة سريعة ألقيناها على هذا الأثر الطيب الذي أتحف به الدكتور عوض لغته وأبناءها وهو دائماً لا يضنُّ عليها بنقل نفائس الآثار اليها . ففاوست وهرمن ودوروثيه درّتان في تاج الأدب العربي الحديث . ولعله يتحفنا بعد ذلك بنقل كتاب الاستاذ لاسل « الشعر : موسيقاه ومعناه » بعد تطبيق نظرياته على الشعر العربي وهو خير من يستطيع ذلك

حسن كامل الصيرفي

دياطاسرون طيطيانوس

لحضرة الاب ا . س . مرمرجي الدومنكاني

Diatessaron de Tatien

ان كل من عني بدرس كتب الاناجيل المقدسة ، وبنقد ترجماتها واوضاعها ، وبجمع الاناجيل الاربعة لتكمل بعضها بعضاً ويتكوَّن منها انجيل واحد يبين سياق الحوادث بأجلى مظاهرها ، يعرف ما هو « الدياطاسرون » ومن هو طيطيانوس

فالدياطاسرون هي كلمة يونانية معناها « اخذاً عن الاناجيل الاربعة » اعني مجموعة الاناجيل الاربعة . وهذه المجموعة اصلها يوناني — سرياني كتبها طيطيانوس اولاً باللغة اليونانية التي كان يجيدها ثم ترجمها الى السريانية وذلك في اواسط الجيل الثاني للمسيح . ومن بعده نقلها الى العربية ابو الفرج عبد الله ابن الطيب في الجيل الحادي عشر

اما طيطيانوس فهو رجل اشوري من شمالي العراق ومن اصل رفيع ، درس الآداب اليونانية والرومانية وطاف في بلاد اليونان وايطاليا ، وساعد القديس يوستينوس الفيلسوف السوري في عمله ، وخلفهُ في تعليمه ، ثم عاد الى بلاد اشور حيث كانت اللغة السريانية هي السائدة فجمع الاناجيل الاربعة في واحد وكتبها باللغة اليونانية اولاً ثم ترجم ذلك الى السريانية خدمةً لاهل وطنه . فان البلاد العراقية لم تكن تعرف اللغة اليونانية ولم يكن لدى المسيحيين فيها اناجيل مترجمة الى السريانية . فيكون طيطيانوس قد خدم بلاده ومواطنيه خدمة جليلة

وانتشر كتاب طيطيانوس في بلاد الاشوريين وكان المسيحيون السريانيون يقرأُونهُ في الكنائس وقت الصلاة ويستعملونهُ للقراءة في بيوتهم كما يشهد بذلك المؤرخ الشهير اوسابيوس

وانجيل طيطيانوس الرباعي هذا هو عظيم الاهمية من الوجهة التاريخية والكتابية لانهُ مأْخوذ عن الاصل اليوناني وهكذا يثبت الترجمات اليونانية اللاحقة التي بين ايدينا واقدمها يعود الى الجيل الرابع فقط . فماذا عمل حضرة الاب مرمرجي الدومنكاني يا ترى

ان حضرة الاب مرمرجي هو « احد اساتذة المدرسة الكتابية والآثارية الفرنسية في القدس » ، وهو من تلك الرهبنة الدومنكانية الجليلة الشهيرة بمباحثها العلمية ولاسيما بكل ما يختص بالكتاب المقدس ومتفرعاته ، من المباحث التاريخية والجغرافية والاثرية والتفسيرية . ويظهر من كتابه الضخم الذي يقع في ٧٥٠ صفحة من القطع الكبير بما فيه المقدمة والذيل ، انهُ رجل ضليع في العلوم الكتابية . فانهُ اخذ انجيل طيطيانوس الرباعي السرياني ، وقابله مع الترجمة العربية ، وصحح النص العربي من الاغلاط النحوية الكثيرة التي تشوههُ ، وعاد فترجمهُ الى اللغة

الفرنسية ، وهي الترجمة الفرنسية الاولى للدياطاسرون الجليل الاثر ، وعارض تلك الترجمة بالترجمات السريانية القديمة، وذيله في حواشيه بانجيلية رباعية سريانية ، وأضاف الى ذلك كله اربعة روامیز خارج النص . فجاء سفراً نفيساً وحلقة كريمة في سلسلة المؤلفات الكتابية العلمية

ونجح حضرة الاب مرمرجي في مقدمته نجاحاً كبيراً اذ شرح لنا من هو طيطيانوس وما هو انجيله الرباعي . ثم اكبَّ على درس النص العربي وأخذ يبحث فيه وينتقده ويُصحّحهُ ويظهر معايب الترجمة العربية بمقابلتها مع النص الاصلي السرياني ويعطي لذلك امثلة عديدة جداً . وكل هذا بترتيب محكمٍ ورجوعٍ الى الآيات وارقامها واصل الانجيل الذي اخذت عنهُ

فجاء كتابهُ تحفة ثمينة خدم بها العلوم الكتابية واللغتين العربية والفرنسية معاً خدمةً جلى

الارشمندريت مشيل عساف

هتلر وستالين

أسس الأستاذان محمد صبيح عبد القادر ومحمد عبد الرحيم عنبر داراً للثقافة العامة ، والغرض من هذا المشروع هو رفع المستوى الثقافي العام للمتعلمين المصريين وغيرهم من قراء العربية في اقطارها ، فتقرب لهم ما ابتعد عنهم من صور التفكير العقلي العام في شتى شؤون المعرفة ، وتقدم لهم مبسطات العلوم والآداب في اسلوب مقبول

وكانت باكورة هذه الدار ان اخرج أحد مؤسسيها الاستاذ محمد صبيح عبد القادر كتابين أحدهما عن هتلر والآخر عن ستالين فشرح في الأول الحركة النازية وكيف بدأت وتكلم عن حياة مؤسسها وما لاقاه اعضاؤها من اضطهاد وسجن ومحاربة اعداء الفكرة لهم بشتى الطرق والوسائل واخيراً تغلب على كل الصعوبات واصبح زعيم الامة ورئيس الحكومة وقضى على الماركسية في بلاده وانقذ المانيا وعمل على احيائها وانهاضها

وشرح في الكتاب الثاني الشيوعية والاشتراكية وذكر فصلاً مطولاً عن حياة نبي الشيوعيين وهو كارل ماركس واقتبس بعض فقرات من خطبة خطبها صديقه انجلس على قبره « وهو ان ماركس اكتشف قانون التطور في تاريخ البشرية ويعني بهذا القانون ان الدوافع المادية للانسان هي التي تكيف عقائده ونوع حكومته واسلوب تفكيره واما النظرة المادية من جانب ماركس فهي ابغض ما يصدمك في فلسفته لانهُ يحارب الشر بالشر ويحارب المادية بالمادية » . ثم لخص حياة ستالين ومولده وثقافته وتمشقه لمبادىء كارل ماركس وجهاده الكبير واصدار جريدته «برافدا» وسجنه ونفيه اكثر من مرة الى اصقاع سيبريا وتكلم عن لينين وخوفه في آخر ايامه من ستالين وبغضه له حتى كان يعمل على اخراجه من سلطته وكره ستالين لتروتسكي ونفيه من البلاد وختم كتابه بفصل ممتع عن الحياة في روسيا

فهرس الجزء الثالث من المجلد التسعين

تقدمة

هذه مجموعة المحاضرات التي أُلقيت في الجلسات الثلاث لمؤتمر الطفل الذي عقدته « رابطة الاصلاح الاجتماعي » وقد استمع اليها من وسعتهم دار « الاتحاد النسائي » من صفوة الجمهور ، بين طلبة ناهضين ، وشباب مثقف ، وسيدات فضليات ، وشيوخ يؤمنون بفكرة الاصلاح — فرغب الينا الكثيرون منهم أن نعمل على نشرها ، تيسيراً لقراءتها وتعميماً لفائدتها

وها نحن أولاء نلبي تلك الرغبة الكريمة ، في نشر المحاضرات ، شاكرين « للمقتطف » الاغر ترحيبه بها ، وافساح صدره لها

وأكبر ما نأمل ان تلقى من عناية القارىء بالاستفادة منها ، قدر ما لقيت من عناية أصحابها باعدادها ؟

السكرتير العام

سيد مصطفى

مكانة الطفل فى المجتمع

كلمة سعادة الاستاذ الكبير احمد نجيب الهلالى بك

الوزير الأسبق لوزارتي المعارف ، والتجارة والصناعة ،
ورئيس رابطة الإصلاح الاجتماعي ، ومؤتمر الطفل

سيداتي — سادتي : أحييكم أزكى وأطيب تحية وأشكر لكم ما أوليتموني من شرف كبير بافتتاح هذا المؤتمر . فكل مؤتمر للاصلاح الاجتماعي عيد أشهده بفرح مجدد . لقد نهضت البلاد لمصالح شتى ومضت قدماً في السياسة والاقتصاد والعمران . ولكن حالتنا الاجتماعية بقيت ضعيفة متقلبة ، كما بقيت جميع المشروعات والتدابير الاجتماعية مجرد آمال وأحلام كسراب الضياء فوق رمال الصحراء .

والمتأمل في أحوال الأمم الاخرى يرى أن البرامج الاجتماعية هي التي خلقت البرامج السياسية وأن الاحزاب السياسية إنما قامت على أساس الاصلاحات الاجتماعية . ولكن الوضع السياسي في مصر عكس ترتيب الوجود . فانصرفنا الى القضية السياسية وتفرغنا لها حتى كدنا نتخلى عن كل قضية سواها . لم جرينا في السياسة شوطاً بعيداً ، أما في الميدان الاجتماعي فقد بقيت أقدامنا حيث كانت . ولئن كان لنا في الماضي عذر نحتج به فلا عذر لنا بعد اليوم

***

أيها السادة :

أساس الاصلاح الاجتماعي التعاون والتكافل . فالجهود الفردية في هذا الميدان قليلة البركة بطيئة الحركة ، تكاد لا تجدي نفعاً ولا ترد على البلاد خيراً

والمشاهد أن العصر الحاضر هو عصر الجماعات في الماديات وفي الروحانيات . فالأعمال المادية العظيمة في حاجة إلى الشركات . ومصالح المهن والايدي العاملة في حاجة الى النقابات . وأعمال الخير والاصلاح في حاجة الى الجماعات . وإذا كنا نرتاح لتأليف الشركات والنقابات ونجد فيها دليلاً على حياة البلاد فما لا شك فيه أن جماعات الاصلاح أدعى للغبطة والارتياح لتجردها عن كل نزعة فردية او غاية شخصية . وهذه المؤتمرات التي تعقدونها ان كانت اليوم مؤتمرات صغيرة تؤمها فئة قليلة فستكون غداً باذن الله مؤتمرات كبيرة تمثل طوائف البلاد كلها . وسيكتب الله لكم في سجل الحسنات أنكم كنتم طلائع الاصلاح وحوارييه . وأنتم إذ تعقدون مؤتمر الطفل تعالجون موضوعاً خطيراً ذا أثر كبير في حياة البلاد الصحية والاقتصادية والسياسية والحربية ، فضلاً عن نواحيه الانسانية والاجتماعية . ومن المسلم به عند رجال الحرب والسياسة والاجتماع أن قوة كل أمة تتوقف على زيادة عدد السكان وزيادة موارد المعيشة ، أو كما يقول العرب كثرة العيال وسعة الحال . ونمو السكان لا يكون إلا من طريق العناية بالطفل

وإذا كان كثير من علماء النبات والحيوان يؤكدون أن بعض النباتات تخصب وتزدهر بالهواء والنور والشمس ، فاذا زادت العناية بها رقيت في الحياة درجة درجة حتى تدب فيها الروح الحيوانية فما أولى نابتة الوطن بمثل هذه العناية ، وما أعظم الفرق بين جيل ضعيف مهمل جامد الحال على اول درج الحياة ، وجيل شديد قوي نام بلغ أعلى الدرج وورد ماء الشباب والحياة فحظي منه بكأس روية

وها أنتم أولاء ترون حالة الأطفال في بلادنا ، فسواد الأمة يجهلون تمام الجهل كيفية تدبير الطفل وطرق تمريضه وتغذيته وتنميته وتقويته ووقايته عوامل العلل والضعف . والأطفال الذين يسلمون من الموت يحيون حياة ناقصة من حيث الجسم والحيوية ومن حيث العقل والروح . وكل أمة تهمل شأن الاطفال الى هذا الحد تنتحر انتحاراً قومياً وتكون عرضة للضعف والإقواء

وأما الأغنياء فيعتقدون أنهم يحلون قضية الأطفال بمجرد الحاقهم بالمدارس وأنهم إذ يكلون أبناءهم الى المربين الرسميين يتحللون من كل تبعة . وهم في ذلك مخطئون . فصحة الأطفال

وتربية الاطفال لاتكون إلاّ في البيت وصفاء الطبع وجمال الأدب وطيب الخلق لا تكتسب إلاّ في البيت ذلك لأن الابوين أقدر على الالتفات للجزئيات وعلى معرفة أحوال الطفل وطبعه ومزاجه . ولأن البيت وإن كان مجتمعاً خاصًا هو أصل المجتمعات كلها . والعادات والأخلاق التي تكتسب فيه أصل العادات والاخلاق كلها . وأثر المنزل في الطفل أشد وأبقى من جميع المؤثرات الأخرى . أما التربية المدرسية فهي تربية تابعة أو تربية تكميلية تكمل ما يستمده الطفل من حياته المنزلية وإن كان لها أثر في تشكيل الاخلاق وتكوين العقول والطباع

وتربية الاطفال في حاجة الى تعاون العلم والطب والاخلاق والقانون ، وهيهات أن يتيسر للسواد الاعظم تدبير الأطفال من غير معونة الحكومة وجماعات الاصلاح من طريق التشريع والبذل والدعاية

فالدعاية والإرشاد فريضة على كل مصري قادر . ذلك لان الطفل ليس ملكاً خالصاً لأبيه حتى يصحّ أن يقع كل العبء عليه . هو يغذيه ويربيه حتى إذا كبر انفصل عن أبيه . وأصبح ملكاً للوطن بحكم الواقع وبحكم القانون . فمن حق الوالد على الوطن أن يعينه بالرأي والتدبير . ومن المسلم به في أصول الشرائع أن الآباء كلما كانوا غير قادرين على تربية أبنائهم اشتد واجب الحكومة في أن تقوم مقامهم

***

فاذا أراد الوطن أن يخرج من اطفاله رجالاً ونساء صالحين للكفاح الفردي وللكفاح القومي وجب على الحكومة وعلى الطبقات المستنيرة أن توفر للآباء والامهات جميع العوامل والمؤثرات التي تجعل من الأطفال رجالاً كاملين صالحين للنهوض بالتكاليف الخاصة والعامة . وما من أمة عظيمة الآ سلكت هذا السبيل، وتمكنت من التغلب على الفقر والجهل من طريق العناية بالأطفال وتربيتهم التربية الحقة التي تضمن لهم أجساماً سليمة وأخلاقاً متينة وأنفساً قويمة

***

ومن دواعي الغبطة أن يتطوع فريق من كبار العلماء والإخصائيين والمفكرين ليبسطوا لنا آراءهم في قضية الطفل، ويؤدوا بذلك ديناً وطنيًا وحقًا إنسانيًا . فالله أسأل أن يمنحهم من حسن الجزاء على قدر مايبذلون لبلادهم من غيرة وإخلاص ووفاء

لمحة تاريخية في تنشئة الطفل

لمحمد فهمي العمروسي بك

ناظر مدرسة المعلمين العليا ومعهد التربية سابقاً

سيداتي سادتي :

خلق الله الكائنات الحية وأودعها غرائز تكفل لها الحياة والبقاء. وهذه الغرائز على تعدد مظاهرها لا تخرج عن ثلاثة أنواع. الأول غرائز غايتها حفظ الشخص. والثاني غرائز غايتها حفظ النوع. والثالث غرائز اجتماعية مثل التعاون على العمل في فصائل النمل وتجمع الطيور الرحالة وطيرانها أسراباً في اشكال منظمة

والذي يعنينا منها الليلة غريزة حفظ النوع في الانسان وهي التي تبعثه على حب ولده وتحفزه الى العمل على حفظ حياته وإسعاده جهد الطاقة ولا يكون ذلك الا بتعهده وتنشئته أرقى تنشئة وأخذه من الحداثة بأهدى أساليب التربية والتهذيب

يحدثنا التاريخ أن الفرس والمصريين واليهود كانوا يعنون بتربية الاطفال مسترشدين في ذلك بتعاليم مذاهبهم الدينية . اما في أثينا وروما فكان الأمر على الضدّ من ذلك اذ كانت حياة الطفل محتقرة وحريته ممتهنة فان الطفل المهمل كان لقاطة من اللقاطات يتملكه من يأخذه من المارة . وكانت الكنائس تأخذ منهم عدداً وافراً لاستخدامهم في شئونها المختلفة . وظلّ استعباد الاطفال المهملين جائزاً الى أواخر عهد الدولة الرومانية

على انهُ منذ القرن الرابع الميلادي أنشأ الغربيون ملاجىء للأطفال ولكنهم للأسف خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيء فحشدوا الاطفال والمرضى والفقراء في صعيد واحد . وقد نشأ بلاشك عن اختلاط هذه العناصر المتباينة من الاضرار بالطفل مالا يتصوره العقل لذلك فصلوا بعضها عن بعض واختص كل منها بعناية عنصراً من تلك العناصر وها نحن أولاء نرى بين ظهرانينا ملاجىء « فان سان دي پول » مثلاً قد وقفت جهودها على تربية اللقطاء

اما حماية الاطفال حماية قانونية فلم تظهر في اوروبا الا في النصف الثاني من القرن التاسع

عشر ، واول قانون فرنسي نص على وجوب حماية الاطفال وتقسيمهم الى مهملين وذوي عاهات وأيتام ولقطاء ومجرمين احداث وعمال قصر يعملون في المصانع والمعامل لم يصدر الا حوالي سنة ١٨٧٤

ينبئنا تاريخ الادب انهُ لم يخل عصر من تلك العصور الغابرة مع ذلك من كتاب وشعراء دفعهم الحنان الأبوي الى الاهتمام بالاطفال ومراقبة أطوارهم وأحوالهم عن كثب فدرسوا طباعهم وترجموا عن عواطفهم. نذكر من أقدمهم الكاتب اليوناني « فلوطرخس » الذي عاش في منتصف القرن الأول الميلادي ، فانهُ بعث الى صديق له بكتاب ذائع الصيت في عالم الأدب — عقب موت ابنته الوحيدة — يصف فيهِ رقة شعورها وصفاً مؤثراً اذ يقول :

« انها كانت تتوسل الى مرضعتها ان تمنح ثديها لا للأطفال الذين كانوا يلعبون معها فحسب ، بل للدمى التي كانت تلهو بها وتهش لرؤيتها وتجلسها على مائدتها وتغدق عليها أرق عبارات الملاطفة وأعذبها، كأن فطرتها السليمة تحس وجوب مقابلة الاحسان بالاحسان »

اما في الشرق فتكتفي بذكر أبيات شهيرة لحطان بن المعلى يصف فيها عطفه على بناته وهي :

« لولا بنيات كزغب القطا بقربنَ من بعض الى بعض
لكان لي مُضطرب واسع في الارض ذات الطول والعرض
وانما اولادنا بيننا اكبادنا تمشي على الارض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض »

ولا بد أن يكون عدد هؤلاء الكتّاب والشعراء قد ازداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ حدًّا لا يستهان بهِ في القرن الثامن عشر عندما ذاعت تعاليم « روسو » وفلسفته في تربية الطفل

ولم يكد ينبلج القرن التاسع عشر حتى توجهت افكار الناس جميعاً الى الطفل وأصبحت كل أسرة في السهر على أبنائها كالزارع اليقظ النشيط الذي يتعهد غرسه بالحرث والسقي ليأتي في الغد بأوفر نتاج وأجود حصاد

وقد صدَّر الكاتب الفرنسي « فيليكس توما » كتابهُ « التربية في الأسرة وجنايات الآباء على الابناء » بديباجة استهلها بقوله « بينما ممالك كثيرة تنحطُّ وتدول إذ بالقرن التاسع

عشر يرى دولة جديدة نشأت بين أحضانه وأخذت قدمها تترسخ فيه يوماً فيوماً تلك هي دولة الطفل

من هذا نرى أن القرن التاسع عشر امتاز على ماتقدمه من القرون بأنه عصر الطفل فالشعراء في فرنسا من عهد « فيكتور هيجو » الى اليوم اهتموا جد الاهتمام وعنوا أيما عناية بدراسة نفسية الطفل الغامضة وميوله المتغيرة وراقبوا نشأته تدريجيًا من عالم الظلمة والخفاء الى عالم النور والجلاء ، وقد حذا حذوهم في ذلك الكتاب والفلاسفة والعلماء والاطباء فالتفوا جميعاً حول مهد الطفل يراقبون حركاته وإشاراته وابتساماته ويدوّنون تجاربهم حتى أخرجوا للناس صورة حقيقية للطفل تختلف كلّ الاختلاف عن الصورة التي صورها له علماء القرون السابقة والتي كان للخيال والمبالغة فيها أثرٌ كبير

ولكننا مع ذلك ما زلنا مقصرين في واجب الطفل غامطين حقوقه الطبيعية. أليس من حق الطفل ان يولد صحيح البدن سليم العقل. نعم ولكن أيان له ذلك ومعظم الناس لا يقدمون على الزواج إلاّ بعد أن يسرفوا في الملاهي والملذات حتى تختل بناهم وتفسد عقولهم فينسلوا ذرية ضعافاً تشكو مدى الحياة الآلام والامراض التي ورثوها عن آبائهم دون أن يكون لهم أي ذنب فيها

« وذنب جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العقاب »

لذلك اهتمت بعض الأمم الراقية بالامر اهتماماً عظيماً وحرمت عقد قران رجل بامرأة إلاّ إذا أثبت كلاهما طبيًا أنه معافى من الامراض الفتاكة المزمنة حرصاً على سلامة النسل وحفظه من الامراض العقلية والعاهات الخلقية

يقول أفلاطون : « إنك اذا محضت الناس النصح في هذا الصدد فكأنك تخاطب صمًا لا يسمعون لانهم ينقادون الى الميول والاهواء دون الاصغاء الى نداء العقل وهدى التفكير »

أليس من حق الطفل على أمه أن تتجنب — في أثناء الحمل — كل ما من شأنه أن يضر بصحته حسًا ومعنىً ؟ إذ ما من عمل تأتيه او فكر يمر بخاطرها الا وله اثره في حياة الجنين

لقد كان توماس جوبز أحد زعماء الحركة الفكرية في انجلترا في القرن السابع عشر يشكو ميله الى العزلة عن الناس والخوف منهم ويعزوهما الى انزعاج امه عند اقتراب الاسطول الاسباني من شواطىء انجلترا وكان ذاك جنيناً في بطنها

ألا يجب على الام في هذا الظرف العجيب الذي تغرس فيه بذور الغرائز والاستعدادات والميول في نفس الطفل أن تعتزل الحياة الاجتماعية العامة شيئاً ، فلا تتقيد بتلك الزيارات الطويلة المملة للاقارب والأباعد ولا تسرف في غشيان دور السينما والتمثيل ولا تبالغ في التأنق والتجمل إذا كان فيهما ما يضيق على الجنين في مضجعه ؟

أليس من حقوق الطفل ان يعنى الوالدان بتربيته في المنزل تربية بدنية خلقية ؟

وانما قلت تربية بدنية خلقية لأن التربية العقلية تجيء بعدها فالعقل لا يظهر الآ في سن متقدمة

لذلك كان توماس ارنولد مربي انجلترا الحديثة يقول ان التعجيل بالاطفال الى طلب العلم وحشد قرائحهم بمسائل علمية لا يفهمونها قد يودي بغضاضتهم ونضارتهم ويخمد فيهم غريزة البديهة وملكة الابتكار . ولن يلاقي الاطفال في حياتهم الأولى وبالاً شراً عليهم من سبق عقولهم لأبدانهم

وفي هذا قال عروة بن الزبير منذ ثلاثة عشر قرناً لولده : « يا بنيّ العبوا فان المروءة لا تكون الا بعد اللعب »

والمروءة هي القيام بما فوق الواجب كنصرة العدل ونجدة المستغيث وحماية الضعيف

ولا يقصد الانجليز من الرياضة البدنية ، التي بلغت عندهم شأواً بعيداً وجعلت منهم أمة عظيمة ، الى تقوية الاجسام فحسب ، بل تقوية الأخلاق وتقويم الطباع كما قصد اليه عروة بن الزبير

ولقد خطت فرنسا خطوة جديدة في سبيل العناية بالأطفال وتوسيع نطاق حقوقهم فأصدرت في سنة ١٩١٢ قانوناً يقضي تشكيل محاكم خاصة لمحاكمة الاطفال على قواعد جديدة ونمط حديث أرشدهم اليها العلم بعقليات الاطفال والالمام بنفسياتهم

ولا بدَّ أن نسمع قريباً أنهم أنشأوا وزارة للطفل منفصلة عن وزارة المعارف دون أن تتعارض معها وتفرغ لشئون الاطفال خاصة وتعاون الاسرة والمدارس والمصانع والمعامل والسجون على القيام بهذه المهمة الشاقة وتمدهم بما قد يستجد من افكار . ويستنبط من آراء وأساليب من علم النفس الحديث . ولا عجب فالاطفال هم رأس مال الدولة والدعامة التي يقوم عليها مستقبلها

اجرام الاحداث في مصر

للدكتور محمد عبد المنعم رياض

مسائل الاحداث من أهم ما يجب ان يشتغل به الباحثون في اصلاح المجتمع المصري ، بل قد تكون أهم هذه المسائل ، لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بكيان الأسرة ، وهي الدعامة الأولى في بناء الوطن ، لذلك يجب ان لا يقصر اهتمامنا على رجال الجيل الحاضر بل يجب ان نضع نصب عيننا رعاية الجيل المستقبل ، واني لا أكون مغالياً اذا قلت أن البلاد التي تنشد التقدم يجب ان تهتم برجال الغد أكثر من اهتمامها برجال اليوم، وما رجال الغد الا الاحداث الصغار، فكل حياة تنقذ من الردى انما هي حياة فرد تحتاج الأمة الى سواعده وعقله فيما تبذله من جهد لتتبوء مركزها اللائق بين الأمم. وما التزاحم بين الدول الا تزاحم بين الأفراد، فكلما كانت أفراد الأمة أقوى صحة وأقوم خلقاً وأغزر علماً، كلما استطاعت ان تخوض غمار التزاحم وتخرج فائزة مهوبة الجانب. والأمم الكبيرة التي وصلت الى ذروة المجد ما أقامت مجدها الا على اكتاف بنيها، ولم يصل بنوها الى الدرجة التي تؤهلهم ليساهموا في تشييد البناء الا لأن طفولتهم قد حفظت ، فخرجوا منها رجالا يقدسون وطنهم ويقومون بواجبهم نحوها ، ولا أقصد بني الوطن الذكور فحسب بل ان للاناث نصيباً كبيراً في خدمة البلاد قد يفوق نصيب الذكور أحياناً ، فالمرأة تستطيع ان تساهم في اقامة صرح الوطن كما يساهم الرجل حتى لو بقيت في دائرتها الطبيعية دائرة الزوجية المخلصة والأمومة الحقة ، بل قد يكون بقاؤها في هذه الدائرة أدعى لتفرغها لمهمة من أخطر المهمات هي ان تبث في ولدها وزوجها وأهل بيتها روح الوطنية والاقدام وتكيفهم بما يتفق وحاجات البلاد ، وعلى الأقل تخفف عنهم الكثير من متاعب الحياة فيستطيعون التفرغ لأداء ما عليهم على أكمل وجه — لم يكذب بسمارك وجلادستون عند ما قالا ان كل ما وصلا اليه من مجد كان يرجع لزوجتيهما، ولم يبالغ لامارتين عند ما قال ان كل عمل مجيد أساسه المرأة ، بل ان روزفلت رئيس الولايات المتحدة الاسبق اعتبرها حلقة عظيمة في سلسلة الحياة الوطنية وقال انها أعظم شأناً وأهم عملاً من الرجل

فالعناية بالاحداث بنين وبنات هي اذن اول ما يجب ان يبدأ به كل اصلاح اجتماعي، وبلادنا احوج ما تكون لهذه العناية، اذ يكفي ان نلقي نظرة على شوارع المدن الكبرى لنجد حالة محزنة تدل على اننا نهتم بارض الطرق وحجارتها اكثر مما نهتم بتلك الارواح البريئة التي تجول في ارجائها وتفترش اديمها، فصغار المتسولين والمتشردين وباعة الاشياء التافهة وجامعو اعقاب السجائر يملأون الشوارع والطرقات بملابس قذرة مهلهلة لا تكاد تقيهم قر الشتاء او لفح الشمس، وهناك عصابات تستغل هؤلاء الاطفال اسوأ استغلال فتحرضهم على التسول بل على الاجرام. واني لا اذكر انهُ قد اكتشف من مدة قريبة امر عصابة منظمة تقذف بهؤلاء الصغار في الشوارع لجمع اعقاب السجائر ثم تتولى بيع تبغها، وقد وجد البوليس ان لهذه العصابة سجلات تبين ما يجمعهُ كل طفل وترصد حساب العصابة من ايراد ونفقة كأنها شركة منظمة من شركات الاستغلال ولكنهُ للاسف استغلال للطفولة ولنفوس بريئة كان يمكن ان تدرب على العمل الشريف المجدي — هذه حالة يجب ان لا نُغمض العين عنها بل يجب ان تنادي باصلاحها اسوةً بالبلاد الاخرى التي سارت شوطاً بعيداً في سبيل هذا الاصلاح

***

قد يكون من المدهش ان نعلم ان مصر كانت في طليعة البلدان التي اهتمت بانقاذ الاحداث من وهدة الاجرام والتشرد — فقد بدأ الاهتمام بهم في سنة ١٨٨٣ عند وضع اول قانون للعقوبات فنص على معاملة الاحداث المجرمين معاملة خاصة، وفي سنة ١٩٠٤ عند تعديل قانون العقوبات أفرد باب للاحداث المجرمين تقرر فيه امكان ارسالهم الى مدرسة اصلاحية بدلاً من السجون العادية، وهذا الباب وان كان صغيراً لا يزيد عن بضعة مواد الاَّ انهُ يظهر بدء العناية بامر الاحداث وباصلاحهم. ثم انشئت في سنة ١٩٠٥ محكمة خاصة لمحاكمة الاحداث في القاهرة والاسكندرية حتى لا يختلطوا بالكبار من المجرمين، وكان اول قاضٍ لمحكمة الاحداث بالقاهرة عبد الخالق ثروت باشا رحمة الله عليه، فكان يبحث قضاياهم بعناية خاصة ويضع تقارير وافية بما يراه. وقد ذكر ضمن ما لاحظهُ ان قانون سنة ١٩٠٤ قد اقتصر على معالجة الاحداث المجرمين ولكنهُ لم يتناول نوعاً آخر شديد الخطر وهو تشرد الاحداث، واقترح انشاء مدارس صناعية لايواء المتشردين من الاحداث ووضع قانون بشأنهم. وفعلاً صدر قانون في سنة ١٩٠٨ لمعالجة الاحداث المتشردين وامكان ارسالهم الى مدرسة اصلاحية لتقويمهم وابعادهم عن وسط التشرد الذين يعيشون فيه — كل هذا تمَّ في اوائل القرن الحالي وهو بدء طيب كان يجب ان يتبع باهتمام مطرد، ولكن على الضد لم تلبث تلك العناية ان فترت بعد ذلك، فالتشريع القديم الذي سبقت به مصر طائفة من البلدان منها فرنسا

-- لان هذه لم تنظم محاكم خاصة بالاحداث الا في سنة ١٩١٢ — هو التشريع الذي لا يزال قائماً الى الآن . والمحكمتان اللتان انشئتا في سنة ١٩٠٥ لمحاكمة الاحداث بالقاهرة والاسكندرية هما المحكمتان الوحيدتان في القطر المصري. بل قد يلوح لي ان نظامهما بدأ يعود الى نظام المحاكم العادي مع انهُ قصد بانشاء محكمة خاصة للاحداث ان تكون هيئة شبه عائلية بعيدة عن نظم المحاكم فلا رجال بوليس ولا منصة عالية ولا جمهور نظارة ، حتى لا يتعود الطفل مثل هذه المناظر . وقد يجد فيها لذة تحبب له التردد على دور القضاء ويخيل لهُ عقله الناشىء انهُ اتى عملاً عظيماً أقام له رجال الحكومة واجتمع لهُ بسببهِ جمهور كبير. فمحاكمة الاحداث في البلاد الاجنبية تتم امام قاضٍ واحد يجلس في حجرة بسيطة ومعهُ مساعد او مساعدة ويبحث مع الطفل كأنهُ والده . بل ان بعض ولايات اميركا عينت للقضاء في مسائل الاحداث سيدات لأنهن أعلم بطرق معالجة الطفل وادعى لطمأنينته وتعرف مواضع الضعف او النقص التي تحتاج الى العلاج من الرجال، بل اكثر من هذا تشترط بعض الدول في قضاء الاحداث التخصص في دراسة طباع الاطفال وتضم اليهم اخصائيين في هذا النوع من الدراسة، ففي ايطاليا صدر تشريع في سنة ١٩٣٣ يقضي بأن يعاون قاضي الاحداث عددٌ من الرجال والسيدات يجمعون له معلومات وافية عن نشأة الطفل وبيئته حتى يستطيع ان يقرر جميع الظروف المحيطة بهِ وتجري المحاكمة في جلسة خاصة لا يدخلها الجمهور ولا أثر فيها لمظاهر السلطة. بل ذهب التشريع الايطالي الى أبعد من ذلك فاشترط تخصيص هيئة من المحامين للدفاع عن الاحداث فلا يتولى الدفاع عنهم الا من كان اخصائيًا في امور معالجتهم وهناك في دائرة كل محكمة قائمة باسماء هؤلاء الاخصائيين يختارون من بين الاشخاص الذين اعدتهم دراستهم او مجهوداتهم الاجتماعية لاداء هذه الرسالة الخطيرة الخاصة باصلاح الاحداث

***

هذا في الخارج اما في مصر فلم نخط حتى الآن خطوة جدية في هذا السبيل فنظام الاحداث عندنا لا يزال في حاجة الى عناية كبيرة سواء من الوجهة القضائية او الاجتماعية. فمن الوجهة القضائية يحاكم الاحداث في مصر والاسكندرية امام المحاكم العادية. بل ان في مصر والاسكندرية اللتين فيهما محكمتان خاصتان تستأنف قضايا الاحداث امام محاكم الجنح المستأنفة فيقف الحدث في قفص واحد مع المجرمين العتاة او المزورين او المتجرين بالمخدرات . ثم ليس في بلادنا اصلاحيات كافية، اذ ليس عندنا الا اصلاحية الجيزة وقد اصبحت خاصة بالمتشردين واصلاحية اخرى زراعية في المرج للمجرمين واصلاحية صغيرة للبنات مجرمات ومتشردات بجوار اصلاحية الجيزة وهذه الاصلاحيات قليلة جداً لا تفي بحاجة البلاد وكثيراً ما يوقف ارسال الاحداث

اليها لازدحامها بمن فيها. وليس هناك محل للمقابلة بيننا وبين البلاد الاخرى في هذا الشأن فاكثر هذه البلاد ملأى بالاصلاحيات وهي في الواقع مدارس صناعية او زراعية مهمتها اصلاح المجرمين او المتشردين الاحداث وابعادهم عن طريق الاجرام وترغيبهم في الدروس وسلوك سبيل قويم بوسائل حديثة مشوقة تجعلهم يقبلون على هذه المدارس بمحض ارادتهم

كذلك من الوجهة الاجتماعية امامنا مجال واسع للاصلاح فالعدد الاكبر من الاحداث يدفعون الى الاجرام او التشرد بتحريض اشخاص لا يلحقهم اي عقاب مع انهم هم المجرمون الحقيقيون. واكثر التشريعات الحديثة تقضي بعقابهم باشد العقوبات. ومن المدهش ان اكثر هؤلاء المحرضين هم من اقرب الناس للاحداث كآبائهم او اولياء امورهم. وكثيرون منهم لا يستحقون تلك النعمة الجليلة نعمة الابوة فيسيئون استعمال سلطتهم على الاطفال ويشجعونهم على الاجرام او التشرد او على الاقل يكونون اسوأ قدوة لهم او يهملونهم ويتركونهم بلا ملجأ يتجولون في الشوارع ويتضورون جوعاً. واني لاذكر عندما كنت في وقت ما وكيلاً لنيابة الاحداث ان جاءتني ام حكم عليها بالحبس مراراً لسرقات وطلبت مني ان انزع ابنتها وهي طفلة في السابعة، من حضانتها لانها تخشى ان تشب البنت على سلوك امها، ولم اجد في التشريع ما يساعد على نزع هذه البنت فلجأت الى الطريق الاداري حيث استطعت الحاق البنت بأحد الملاجيء

لهذا يجب ان نتلافى نقص التشريع المصري في هذه الناحية بوضع نظام يكفل انقاذ الطفل من اسرته اذا كانت الاسرة هي سبب فساده، ومثل هذا النظام متبع في كثير من البلاد الاخرى بل قد وصلت العناية بالاحداث في تلك البلاد ان اصبح القوم هناك يهتمون بتقصي اسباب الشذوذ في الاطفال الذين يتضح انهم غير عاديين في سلوكهم او تفكيرهم باعتبار ان هذا الشذوذ قد يؤدي الى الاجرام او يجعلهم غير صالحين لخدمة المجتمع. وهناك دور خاصة تقوم بفحص هذه الحالات طبيًّا ونفسيًّا وتتابع كل حالة بما تستحق من عناية. وقد قرأت لاحد الاطباء القائمين بادارة مستشفى من هذا النوع في نيويورك اسمه الدكتور وليام لا نجفورد انهُ وجد حالات كثيرة ظهر فيها من الضروري معالجة حالة والدي الطفل قبل الطفل ذاته او معالجة ما تحفل به حياة الاسرة ذاتها من اشكالات هي السبب الاصلي لشذوذ الطفل او انحرافه عن الطريق السوي

***

بقيت مسألة تدل على انهُ حتى في وسيلة الاصلاح الوحيدة التي نلتجيء اليها في مصر وهي وجود اصلاحية للاحداث لا نزال بعيدين عن الغاية المنشودة. فالاحداث الذين يتخرجون من الاصلاحية يتركون وشأنهم في هذا البحر الخضم من دون اية عناية. بل قد لا يجدون عملاً يرتزقون

منهُ من نوع العمل الذي دربوا عليهِ في الاصلاحية ، فلا تبقى أمامهم الاَّ العودة الى الاجرام او التشرُّد مرّة أخرى، كأنَّ الأمر ساقية تدور في مكان واحد . حتى انهُ لو روجعت سوابق كثير من المجرمين المعتادي الاجرام الذين في اصلاحية الرجال لثبت انهم دخلوا في حداثتهم إصلاحية الاحداث. ولا علاج لهذه الحالة الاَّ بانشاء نظام لرعاية الاطفال بعد خروجهم من الاصلاحية ، واعتقد انهُ قد بدىء في وضع مثل هـذا النظام بانشاء مؤسسة صناعية يشتغل فيها الاحداث المتخرجون من الاصلاحية ويا حبذا لو قرن ذلك بانشاء جمعية تتولى رعايتهم في هذه المؤسسة او خارجها

***

هذه بعض المسائل التي يجدها الباحث في مشكلات الاحداث — وغيرها كثير لا يمكن الالمام بهِ في مثل هذا المقام. على انه يكفي ان نشير الى ما لمسائل الاطفال من شأنٍ كبير فأثرها يمس المجتمع في ادق نواحيه. ولهذا نجد ان مشكلات الاحداث لاقت ولا تزال تلاقي عناية تامة في اكثر البلاد المتمدنة بل ان كثيراً من المؤتمرات الدولية تعقد دوريًّا لبحثها وتقرير أوفى وسائل الاصلاح والمعالجة التي يجب اتباعها وأقرب مؤتمر دولي عقد في هذا الشأن هو الذي عقد في بروكسل سنة ١٩٣٥ وكان أهم ما تعرض له المسائل الآتية

١ — تخويل السلطة لقاضي الاحداث او لهيئة خاصة لتشرف على استعمال الوالدين لسلطتهم بحيث تستطيع الحد منها عند اللزوم

٢ — العناية بالاطفـال في القرى (وهذا موضوع يهم مصر جدًّا للحالة السـائدة في القرى المصرية والعمل على تعضيد حركة عودة الاطفال الى الاقامة في قراهم مع العمل على جعلها وافية بما يحتاج اليه الطفل من عناية)

٣ — معاملة المجرمين الاحداث معاملة خاصة أساسها وضع الحدث تحت ملاحظة طبية ونفسية وبيولوجية ، وتعاون المدرس والمربي النفساني والطبيب على معالجة الحدث المجرم ، على ان يكون العلاج فرديًّا اي يعامل كل طفل بما يتفق وحالته. وقد يكون من الطريف ان نعلم ان هذا المؤتمر قرر أن يستعان في تدبير المال اللازم لتنفيذ مقترحاته بضرائب تفرض على غير المتزوجين او على الذين لم تنجب زواجهم اطفالاً ، أي ان يشترك العزاب والمحرومون من الاطفال في تربية اطفال الامة الذين تعوزهم العناية الابوية الاصلية

فاذا كان من فوائد هذا المؤتمر الحالي ان يوجه النظر الى مشكلات الطفولة ويرشد الى حلها او ينبه الى بعض وجوه الاصلاح في هذه الناحية الهامة لأدى بذلك اكبر رسالة اجتماعية لبلادنا في الوقت الحاضر

الاطفال الشواذ

لامين سامي حسونه بك
ناظر معهد التربية

١ — التربية الحديثة تعتبر الطفل من المادة الدراسية وهي في ذلك تخالف ما درجنا عليه من العناية بالدروس المدرسية وحشو أدمغة التلاميذ بشتى المعارف دون نظر الى الطفل نفسه . فقد كان همنا ولا يزال مناهج الدراسة وشغل اليوم المدرسي بالدرس والتحصيل . اما المدرسة الحديثة فتجعل الطفل نفسه مادة الدراسة فتتناول وظيفتها نمو الطفل جسميًّا وعقليًّا وروحيًّا ولذلك اشترك في اعداد وسائل التربية للطفل اخصائيين في هذه النواحي منهم الطبيب والسيكولوجي والمعلم وخبير الشؤون الاجتماعية وهؤلاء جميعاً يتعاونون في هذه الوظيفة السامية ومن ذلك نشأت العيادات الطبية السيكولوجية واتسع عملها واصبحت جزءاً متمماً لعمل المدرسة للعلاج والارشاد

٢ — ولما كان التعليم قد صار الزاميًّا في جميع الدول المتمدينة ومجانيًّا في مرحلة التعليم الاولي أو الابتدائي وفي المرحلة التالية ايضاً في كثير منها بحكم ان الانفاق على التعليم قد صار من خير الوسائل لاستثمار مال الدولة. ولما كان الاطفال لم يولدوا جميعاً كاملين ذوي استعداد واحد فقد تعاون هؤلاء الاخصائيون في ايجاد التعليم الملائم لكل فئة وبرز السيكولوجي في الميدان واخذ يعمل مع الطبيب والمعلم والخبير الاجتماعي وقسموا الاطفال الى فئات ثلاث الموهوبين والعاديين والشواذ. فالموهوبون هم الاذكياء وهؤلاء تعليم يلائم ذكاءهم ويكون منهم القادة والزعماء والبارزون في جميع الاعمال . والعاديون وهم الاغلبية ولهم تعليمهم الخاص ايضاً . واما الشواذ فهم المرضى والبائسون . وشذوذ هؤلاء اما جسمي واما حسي أو عقلي ويتفرع منه الشذوذ الخلقي . وذوو الشذوذ الجسمي يجب ان تكون لهم مدارس خاصة وتعليم خاص يعدهم للحياة العملية ويجب ان تهيأ لهم اسباب السعادة في مرحلة التعليم وان يعالجوا علاجاً يحسّن حالتهم بقدر الامكان . والسبب في عزلهم في مدارس خاصة ان لا يشعروا بالنقص والعزلة اذا وجد في مدارس العاديين ولان اساليب تعليمهم وعلاجهم تختلف عن اساليب وتعليم العاديين وعلاجهم . ومن هؤلاء الصم والبكم والعميان والمصابون بقصر البصر والابترون والمقعدون والبرص والمرهفون ذوو العلل الصدرية والقلبية وهؤلاء الاخيرين مدارس تسمى مدارس الهواء الطلق

وهنا اقف قليلاً لازيل سوء الفهم الشائع بمصر عن مدارس الهواء الطلق فمنذ حين طلبت الوزارة للمدارس ان تعنى بالتعليم في الهواء الطلق واخذ كل مدرس ينتقل بتلاميذه الى حوش المدرسة يعلمهم

في الهواء الطلق سواء أكان الجو صافياً نظيفاً ام شديد الحرارة ام ذا رياح محملة بالأتربة . ومرت الايام ونام المشروع وخبت الحماسة له. وفي الايام الاخيرة قرأنا في احدى جرائد الصباح اليومية ان بعضهم تقدم لوزير المعارف بمشروع يقضي بانشاء مائة مدرسة من مدارس الهواء الطلق في الارياف تقوم كل مدرسة على قطعة ارض مساحتها فدان ويحيط بسور من الاسلاك الشائكة ويبنى الاساس بالحجر ويكمل البناء باستعمال الطوب النيء للاقتصاد طبعاً — وكل هذا للاسف خلط في خلط ولا يقوم على دراسة او معرفة الحاجة الى هذه المدارس . فمدارس الهواء الطلق لا يقصد منها مجرد التعليم في الهواء الطلق ولا يقصد منها ان تكون لجميع التلاميذ وان كان من المسلم انها تكون خيراً من المنازل المستأجرة لمدارسنا . وانما المقصود ان تكون للمرهفين وهؤلاء يحتاجون لتعليم خاص ليس فيه ارهاق و علاج جسمي خاص والعاب رياضية خاصة وغذاء خاص وراحة في أسرة اثناء النهار وخصوصاً بعد الغداء ويقوم بالاشراف عليهم مدرسات وممرضات يكونون تحت اشراف الطبيب باستمرار ويحسن ان تكون مدارسهم داخلية لضمان العلاج والاشراف على التمريض ومن ينقه من الاطفال ينقل الى المدارس الاخرى العادية على ان يلاحظ في ذلك ان الاطفال المسلولين فعلاً يجب فصلهم في مدارس خاصة بهم حذر العدوى وتسمى المصحات. والعجيب في الاقتراح انهُ سيجعل المائة المدرسة في الريف مع ان المدن هي المحتاجة الى هذه المدارس حيث يكثر المرهفون واطفالنا في الريف والحمد لله يمرحون في الشمس والهواء الطلق طول النهار

٣ — نأتي الآن للشذوذ العقلي . وقبل ان نتكلم عنهُ يحسن ان نقول ان علم النفس التجريبي قد تقدم تقدماً كبيراً في العشرين السنة الاخيرة فاصبح من الميسور قياس الذكاء والقدرات العقلية ومعرفة الموهوبين والعاديين وناقصي الذكاء بواسطة مقاييس متقنة يعتمد عليها كل الاعتماد . وقد صار لهذه المقاييس شأن هام لا في تدبير اساليب التعليم فحسب بل في حل كثير من المسائل التعليمية . ومن بينها مشكلة الامتحانات فعلى اساس هذه المقاييس يوزع التلاميذ في الفصول المختلفة بالمدرسة وتهيأ الدراسة المناسبة لكل فئة. ومن نقص ذكاؤهم عن مستوى خاص (٧٥ ٪ من الذكاء العادي) عادةً تنشأ لهم مدارس خاصة تسمى مدارس الشواذ عقليًّا وتكون الدراسة فيها عمليًّا وفردية لكل طفل بحسب استعداده وقدرته وتؤهل للعيش الهنيء والرضا بالحياة

٤ — والنقص في الذكاء والتأخر في الدراسة قد يكون ناشئاً عن امراض جسمية كالزوائد الانفية واضطراب افرازات بعض الغدد الصم او الامراض المتوطنة او الامراض الوراثية او اصابة مخية او مرض قديم من امراض الطفولة كدوسنتاريا حادة او حمى التيفود وكل هذه يعالجها الطبيب. وهنا تبرز فائدة تعاون الطبيب مع المدرسة وفائدة العناية بصحة الطفل. وقد يكون السبب ناشئاً من اضطراب البيئة او فقر الاسرة وسوء المسكن او التغذية او ادمان احد

الابوين او سوء معاملة المدرس . وهنا تبرز فائدة الخبير بالشئون الاجتماعية واتصال المدرسة بالمنزل . وقد تدهشون لو علمتم ان كثيراً من الأطفال الأذكياء يذهبون ضحية الاضطراب العائلي او ضحية نظامنا المدرسي

ويتصل بالشذوذ العقلي شذوذ آخر يمكن ان نسميهُ بالشذوذ الخلقي واقول يتصل بهِ لأن الشذوذ الخلقي يؤثر في العقل وفي قدرة التحصيل. وأسوأ انواع هذا الشذوذ ما يصل الى درجة الاجرام عند الاحداث ولذلك أنشئت لهم اصلاحيات الاحداث لا ليسجنوا فيها بل لاصلاحهم وعلاجهم وعلى هذا يجب ان تكون الاصلاحيات في يد مربين مصلحين وتحت اشراف عيادة سيكولوجية. وقد صار من الميسور علاج الشذوذ البسيط عند الاطفال كالكذب والسرقة والشراسة والخوف وما شاكل ذلك بارشاد العيادات السيكولوجية وباتصال المدرسة بالبيت وازالة أسباب هـذا الشذوذ

والآن يجب ان اقول كلمة عن الشواذ بمصر وأين هم وواجب وزارة المعارف نحوهم . لا جدال ان الشذوذ بأنواعهِ موجود بمصر ويجب ان تنشأ للشذوذ الجسمي مدارس على ميزانية التعليم العام وان يعد المدرسون بهذه المدارس اعداداً خاصًا

أما الشذوذ العقلي فيكفي فيهِ ان نوزع التلاميذ في جميع المدارس على حسب مقاييس الذكاء ثم نسير في تعليم كل فئة على قدر استعدادها وان نفصل من يقل ذكاؤهم عن ٧٥ ٪ في مدارس خاصة تقوم فيها الدراسة على أساس الحس والمشاهدة والتوجيه المهني

ان نظام توزيع التلاميذ في الفصول بمدارسنا نظام عتيق قائم على اعتبار جميع التلاميذ سواء في قدرتهم العقلية وذكائهم . ومن أجل ذلك لا تدهشكم كثرة الرسوب والاخفاق في الامتحانات وكثرة المطرودين من المدارس الاميرية وقلة نسبة النجاح في المدارس الحرة . فالتلميذ الذي يتكرر رسوبه يطرد وينتظم بمدرسة اهليـة ويخفق فيهـا ايضاً لاننا لم نعطه التعليم الملائم لذكائهِ . بل استعجلناه فزل وفقدناه . لا تتهموا المدارس الحرة بتهمة انحطاط التعليم فيها بل لوموا النظام والاساليب

٦ — لقد خرَّج المعهد عدداً لا بأس بهِ من الشبان ذوي الاستعداد الحسن لمجاراة نزعات التربية الحديثة وكل واحد منهم قادر على اجراء مقاييس الذكاء وتوزيع التلاميذ على مقتضاها ويجب الانتفاع بهم في هذا الامر وفي توجيه التعليم توجيهاً يلائم كل فئة ويجب ان يمنحوا شيئاً من حرية التصرف وان يقوم العمل بالمدرسة على المرونة وحل المشكلات كلاً منها على حدة لا التقيد باللوائح والمنشورات والعمل من اجل النتائج والامتحانات

٧ — اذا آمنا وصدقنا ان الطفل هو مادة الدراسة الحقيقية وان المواد الدراسية يجب ان

تصاغ على قدر استعداد الاطفال. واذا آمنا بأن التعليم هو اعداد للحياة السعيدة وان مرحلة التعليم هي جزء من الحياة ولذلك يجب ان نعمل على جعلها سعيدة ايضاً لا مرهقة منفرة ، اذا آمنا بكل ذلك فقد آن الاوان ونحن في مستهل عهد يتطلب التجديد والنهوض ان نحاسب انفسنا بانفسنا وان نسأل مثل هذه الاسئلة

١ — هل المدرسة المصرية بيئة صالحة لنمو الطفل جسميًّا وعقليًّا وروحيًّا

٢ — هل التلميذ في نظر المدرسة المصرية اهم من المواد الدراسية ام همنا الاول هو الدرس والتحصيل والنجاح في الامتحانات

٣ — هل هناك تعاون بين المدرسة والبيت

٤ — هل نحن مدركون ان انفاق المال على التعليم من احسن وسائل الاستثمار في الدولة

٥ — اذا كانت الميزانية لا تسمح بالتوسع وانشاء مدارس خاصة للشواذ فهل فكرنا في التجديد والتنويع في المدارس الحالية بدلاً من انشاء مدارس جديدة على غرار المدارس الحالية وهلا فكرنا في انشاء بعض المدارس الحديثة في حدود الميزانية بالغاء بعض المدارس الحالية

٦ — هل تعليم البنت بحالتها الراهنة تعليم مستقيم يعد المرأة حقًّا لرسالتها المقدسة وهي الامومة

٧ — هل التعليم عامة بحالته الراهنة يهيء جوًّا من السعادة في المدرسة ويعد للحياة السعيدة المستقبل بتوجيه كل طفل توجيهاً يلائم استعداده وقدرته

٨ — هل المباني المدرسية الحالية صالحة لنمو اطفالنا وهل اجورها الباهظة تدفع لصالح الاطفال ام لصالح الملاك . وهل هذه الاجور تعادل الارباح المعقولة لجانب من المال اذا وظف في بناء مدارس على الطراز الصحي الحديث واقول الطراز الصحي الحديث ولا اقول الطراز ذي الابهة والفخامة لان المدرسة الحديثة هي المدرسة الصحية البسيطة التنسيق الواسعة الساحات والملاعب

٩ — ثم هلا ترون معي بعد هذا البيان ان المدرسة المصرية بحالتها الراهنة لا تعالج الشذوذ فحسب بل تخلقهُ خلقاً من غير قصد

لقد اضطلعت وزارة المعارف وحدها بأمر التعليم والتربية وقيدتنا بأغلال من القوانين واللوائح والمنشورات ومن الكتب والادوات المدرسية ايضاً ولم تترك لنا نحن المعلمين شيئاً من الحرية والتصرف والابتكار فمن حقنا ان نسأل هذه الاسئلة وامثالها لانّا أدرى بحاجات الطفل في مراحل نموه المختلفة

ان مصر استقلت وهذا أوان النهوض والتجديد ! !

الاطفال ذوو العاهات

للسيدة زاهية مرزوق

المفتشة بوزارة المعارف العمومية

إن موضوعي اليوم لمن أهم الموضوعات الاجتماعية وأخطرها ولا سيما في مصر ، حيث تقع العين في كل مكان وزمان على عشرات من الاطفال ذوي العاهات ، منتشرين في الشوارع والطرقات يستدرون عطف الجمهور على ما اصابهم من ظلم الحياة

***

سادتي : إن ما شجعني على الوقوف امامكم اليوم هو شعوري بامكان استثارة شعوركم ،نحو تلك الطفولة البريئة المعذبة التي نبذها المجتمع واشمأز منها وهضم حقها وانقلب حرباً عليها ، لا لذنب جنت ولا لجريمة ارتكبت ، إلاّ إذعانها لحكم الطبيعة القاسية ، ووجودها في تلك الحياة لتذوق صنوف الذل والبؤس والشقاء

ان مشكلة العاهات في مصر تخطو خطوات واسعة في سبيل الخطورة والتعقيد ، فقد أثبت التعداد الاخير ان في مصر ما يقرب من نصف مليون شخص ذي عاهة . منهم ١٠٩ آلاف أعمى ، و ٢٦٦ الف أعور ومحدود البصر، و ٢١ الف أصم وأبكم. والباقون ذوو عاهات اخرى لم أتمكن من حصرها ، تشمل ضعيف العقل ، والمقعد ، والأبتر ، والأعرج ، والأشل وغير أولئك . وعلى العموم فان إحصاء العاهات جميعها يسفر عما يقرب من ٣ ٪ من سكان القطر المصري

ولقد أحسنت الحكومة المصرية صنعاً عندما سنت قانون منع التسول ، ولكن هيهات لها أن تمنع ذلك التيار الجارف ، اذ ليست العبرة بالقوانين وانما العبرة بالعمل

وفي رأيي ان ما يقوم به الافراد والجماعات من تفهم أسباب التشرد والعمل على تلافيه لهو أجدى من الف قانون

ويجب ألاّ نأخذ على هؤلاء الشواذ تسولهم، فطبيعة حب البقاء تدفعهم الى طلب الرزق والعيش، وانما يجب أن نأخذ على أنفسنا تركهم يتسولون لاعتقادهم أنهم اجسام بشرية مهملة عديمة النفع لا سبيل لها في الحياة الاّ أن تعيش متطفلة على الغير، ويجب ان نعتني بتعليمهم وتثقيفهم حتى تنير لهم طرق الحياة، فيخفّ عن المجتمع هذا الحمل الثقيل ، ومن يدري فربما ظهر منهم النوابغ والقادة والمفكرون

ولا يمكن أن تعد الامة عادلة إلاّ اذا اعطت كل فرد من أفرادها من دون استثناء حقه كاملاً في التمتع بالثقافة والتعليم. فكما ان للاطفال الشاذ الحق في أن يأكل ويشرب وينام فكذلك له الحق في ان يتعلم ويتثقف ويساهم في بناء حضارة أمته ومستقبلها

وللطفل الحق في ان يخرج الى تلك الحياة صحيح الجسم قوي البنية متمتعاً بحقوق الطفولة. فيجب ان نعطيه العناية الصحية والتعليمية والخلقية من يوم ولادته الى يوم ولوجه حياة الكفاح. وإن تعذر ذلك او كانت الوراثة حائلة دون تنفيذه فيجب ان نرحم الطفل ونرحم أنفسنا ونمنع تكوينه. وإن ما سنته المانيا من منع هذا النسل المشوه لخطوة جريئة تستحق الشكر والثناء

وربما يدهشكم أيها السادة اذا علمتم ان ٩٥٪ من العمى في مصر كان يمكن تلافيه والوقاية منهُ. فكم من أطفال أصابهم العمى دون ذنب، وكم منهم على وشك اللحاق باخوانهم، وما ذلك الاّ لاهمال الأم وجهلها أو لعدم ملاءمة البيئة او عدم الاعتناء بطرق التعليم الخاصة وغير ذلك. وفي مصر نجد ان في كل الف شخص ٨ عميان و١٨ من ضعاف البصر او على وشك العمى، وبعبارة أخرى فان عدد اصابات العين ٢٦ اصابة لكل الف شخص، وهذه نسبة لا يستهان بها

وأما من جهة الصمم والبكم فهما أخف وطأة وأقل خطراً. ومن الغريب أننا لا نجد بين المتسولين ومحترفي الشحاذة من هو مصاب بالصمم او البكم الاّ نادراً جداً. وربما كان ذلك ناجماً من عدم ظهور تلك العاهة أمام عين الجمهور فلا يتمكن المصاب بها من استثارة العطف عليه

وأما ضعف العقل فهذا على ما أظن لا يمكن إحصاؤه حتى الآن لعدم استعمال اختبارات الذكاء على الاطفال عامة. فما نجده في الاحصاء العام انما هو تعداد الاطفال البلهاء فقط، وأنتم تعلمون أن ضعف العقل درجات. ولا ننتظر من ضعاف العقول ان يدركوا جميع القوانين والأصول الاجتماعية فتركهم كذلك في المجتمع انما يزيد مشكلة الاجرام وهدم القوانين الاجتماعية خطورة وتعقيداً. وكثيراً ما تستعمل هذه الفئة كآلة في أيدي المجرمين الأذكياء لقضاء مآربهم الدنيئة

***

وهنالك طائفة أخرى من ذوي العاهات هي نتيجة المدنية والحضارة، فلا يمر يوم الاّ ونسمع بحوادث الترام والسيارات فيذهب الأطفال والرجال ضحيتها، اما الى الموت وإما الى عالم العاهات. وكم من أطفال حرموا لذة الجري واللعب فأصبحوا مقعدين، وكم منهم أصبحوا بتراً وكم منهم فقدوا حاسة أو عضواً من أعضائهم

ولو أمكن عمل تعداد صحيح لهذه الفئة لهالكم أيها السادة تضخم النسبة. ان هذه الحال يجب الاّ تستمر. فكم منكم لديه أولاد يخاف عليهم ويخشى غائلة تلك الحوادث. فيجب علينا إزاء

ذلك ان نهب لنحافظ على نشء المستقبل الذي نحن أحوج ما نكون الى صحة بدنه وخلوه من العاهات . ويجب ان نحافظ على الغني والفقير منهُ ونصد عنهُ مكاره المدنية وآلامها

وليس من بلد الاَّ وفيه الآن حركة واسعة النطاق لحفظ النشء ضد الحوادث والأهوال وفي سبيل ذلك يتضامن الشعب مع الحكومة لسلامة الاطفال . ولقد سمعت بانجلترا في الصيف الماضي وزير المواصلات يتحدث بنفسه الى الاطفال خاصة في هذا الموضوع ويذيع عليهم راجياً ان يسمعوا نصيحتهُ الأبوية ويتبعوا التعليمات والارشادات المعطاة لهم في المدرسة عن كيفية عبور الشوارع وإرشادات البوليس وغير ذلك مما يضمن لهم السلامة العامة

***

وكثيراً مانجد الاطفال في مصر يتخذون الترام وسيلتهم الوحيدة للهو والتسلية ، أو يلعبون في الشوارع العامة معرضين انفسهم للاخطار . وما ذلك الاَّ لمجرد حبهم الطبيعي للعب والتسلية . وهم في الحقيقة يجب ألاَّ يلاموا على ذلك وإنما يجب ان نلوم انفسنا على عدم انشاء المحلات اللائقة والكافية لأشباع ميلهم الطبيعي للعب . اذاً فيجب على الحكومة ان تضع نصب عينها انشاء ملاعب الاطفال وتزويدها بما يجب من الألعاب المسلية البريئة التي تلذ للاطفال وتجدد نشاطهم . وكثيراً ما نجد في البلاد الاوربية والاميركية هذه الملاعب مزودة بجميع اللعب ، منظمة أحسن تنظيم وبها اخصائيون لادارة الالعاب وارشاد الاطفال

يجب علينا ان نفكر جديًّا في مشكلة الاطفال ذوي العاهات ، ويجب علينا ألاَّ نتركهم في الشوارع يهيمون . بل يجب أن ننشيء لهم المعاهد العلمية الصحيحة التي فيها يجد الطفل ما يحتاج اليه من التربية والتعليم والتوجيه الخلقي والعملي الصحيح الذي يمده ويمكنهُ من تذوق لذة الكفاح في الحياة. ولو اتسع الوقت لذكرت لكم المدهشات التي يراها الانسان عند زيارة هذه المعاهد في اوروبا واميركا ، فنجد الشخص الذي يقرأ بلسانه ، او يكتب ويرسم برجليه ، وغير ذلك مما يدلنا على قوة استغلال كل ما يمكن استغلاله من أعضاء المرء ليعوض نفسهُ جانباً مما فقده بفقدان الأعضاء الاصلية

ولا أطيل الحديث ايها السادة، ولكني متأكدة أن في وسع كل فرد منا رفع مستوى أمته في ناحية من النواحي ، وهذا ليس بالمساعدة في إعطاء الشحاذين والمتسولين القروش والملاليم ، ولكن بنشر الدعاية او بمطالبة الحكومة بإنشاء ملاعب للاطفال في كل قسم او بجمع التبرعات للجمعيات الخيرية، او تفهم الاطفال تفهماً صحيحاً يخفف عبء المشاكل الاجتماعية التي نجدها في المنازل المصرية

الطفل وأوقات الفراغ

ليعقوب فام

يقصد بأوقات الفراغ تلك الفترة الزمنية التي تعقب النشاط المدرسي ، فالطفل يذهب الى المدرسة في الساعة الثامنة مثلاً ويخرج منها في الساعة الرابعة بعد الظهر ، ثم يستذكر دروسه ساعتين او ثلاثاً ، وينام بعض الوقت وينفق البعض الآخر في الاكل ولوازم الحياة الضرورية وما تبقى بعد هذا يعتبر وقت فراغ في حياة الطفل

واول شيء نلاحظهُ في مصر انهُ ليس للطفل فراغ بالمعنى الذي نفهمهُ لان معظم ساعات النهار تنفق في الدروس والمدرسة ومايتصل بهما عن قرب او بعد ، ومجموع ما يصرفهُ في هذا يقرب من ستين ساعة في الاسبوع وهذا بالطبع كثير على صبي ما بين العاشرة والسادسة عشرة، وقد حرّم على المصانع في الغرب ان تشغل العمال البالغين اكثر من ٤٨ ساعة في الاسبوع وبعض الامم جعلها اربعين ساعة فما بالك وهؤلاء اطفال يَفَعة يحتاجون الى الحرية لينموا نمواً يتعذر من دونها

لقد غالينا في مسألة التعلم مغالاة جعلتهُ عبئاً ثقيلاً على الناشئة ، ولا سيما والتعلم في مصر من الاعمال الشاقة المرهقة التي تنوء بها قوى الاطفال البدنية والعقلية ، وعوضاً عن ان تكون المدرسة امتيازاً للاطفال اصبحت تكليفاً لهم، وحرام ان ينوء اطفالنا بتكاليف الحياة وهم في مستهل حياتهم

الواقع ان التعليم عملية تتم في نطاق النشاط العادي ومن غير حاجة الى هذا الارهاق . يستطيع الطفل ان يتعلم ما يشاء وما يراد لهُ عن طريق اللعب والنشاط الحر الذي ينبعث عن دوافعه النفسية ، ولست اعرف طفلاً واحداً خرج من اسرة حديثة راقية من دون ان يكون قد تعلم مبادىء القراءة واللغة او بعض اللغات ، والحساب والجغرافيا وما اشبه . وذلك عن طريق اللعب والنشاط الحر دون ارهاق او تكليف ثقيل ، فاذا كان هذا مستطاعاً في بعض الحالات فلماذا لا يكون مستطاعاً في جميع الحالات ؟ لا بل لماذا لا يتعلم الاطفال عن هذا الطريق — طريق اللعب والنشاط الحر — كل ما يزعمون ان يتعلموه ؟ ولماذا لا تستنبط المدرسة طرقاً متعددة متباينة تجعل التعلم في حكم اللعب عوضاً عن ان يكون في حكم الاشغال الشاقة ؟

يخطىء من يظن ان الحياة مؤسسة على المعارف والمعلومات او الحقائق المستقلة التي تتعلمها في المدرسة او في غير المدرسة . اننا بالطبع لا ننكر ان الحقائق نافعة للحياة ، بل خير لي ان اعرف

الجهات الاربع الاصلية ، ويمنعني ان اعرف الشرق والغرب والشمال والجنوب ، حتى لا اضل الطريق الى هذا المكان او ذاك ، وحتى استطيع التفاهم مع الناس فيدلوني على مكان حديقة الحيوانات دون ان يكلفوا أنفسهم الذهاب معي ، وخيرٌ لي ولك ان يكون في استطاعتنا تميز الالوان حتى نستطيع ان نتفاهم مع الناس ، هذا حق ، ولكنهُ حق من الجهة الاخرى ان هذه المعارف والحقائق ليست اساسية للحياة ، فالفرد يستطيع ان يعيش وينشط دون ان تكون له هذه الحقائق . والدليل على ذلك ان الجالسين في هذا البهو قد يختلفون فيما بينهم على تحديد هذه الجهات . وهذا يحدث عادةً عند ما ينتقل المرء الى بلد غريب ، أما الألوان فأمرها مشهور معروف لأن اختلاط الالوان مرض منتشر الى حدٍّ ما وهو ما يسمونه Colour Blindness وهو مرض يصعب اكتشافه في الفرد المصاب بهِ ، وعلى كل حال ماذا يفيد الأعمى من الالوان !

الغاية من هذا الكلام ان الحياة لا تتوقف على معلومات مفردة متباينة يجمعها الفرد في المدرسة او في غير المدرسة عن طريق التلقين ، وانما ما ينفع الحياة هو الاختبار ، الحياة والعيش من يوم الى يوم ، الأخذ والعطاء بين أفراد الناس ، الاحساس المباشر بمؤثرات الحياة حولنا ، وهذه جميعاً لا يحصل عليها الطفل من الجلوس في حجرة الدرس ، وانما ينالها من ممارسة الكون الطبيعي حوله ، ومن اتصاله اتصالاً مباشراً بالاحياء وبالنظم الاجتماعية

في المدرسة يحصل الطفل على معلومات وحقائق قد تنفعهُ في حياتهِ العادية وقد لا تنفعهُ ، وانما يجمعها على كل حال ، وفي خارج جدران حجرة الدرس يخضع لمؤثرات الحياة ، ويستجيب لهذه المؤثرات بنشاط ينبعث عن دوافعه النفسية ، ونشاطه هذا هو في الواقع الأساس الذي تقوم عليهِ حياته في مجموعها . في المدرسة نعرف ، وفي خارج المدرسة نعيش ، ونحن هنا نطلب العيش للطفل لأن غرامنا في هذا البلد بجمع المعلومات المجزأة المتناثرة قد طغى على تقديرنا للحياة والعيش . لقد اصبحنا نرغم أطفالنا على اهمال الحياة والعيش من أجل فتات الحياة ، من أجل بعض المعلومات والمعارف التي لا تسمن ولا تغني من جوع

اذا كان الأمر كذلك فحياة الطفل تتوقف الى حدٍّ كبير على نشاطه خارج حجرة التدريس ، او على أوقات فراغه ، ونوع النشاط الذي يقوم بهِ من تلقاء نفسه من دون ارغام أو ضرورة خارجية ، هذه الفترة هي التي تكوّن الطفل وتكيف حياتهِ من جميع جهاتها ، وتنمي ملكاته النفسية والبدنية ! وماذا نطلب نحن الا هذا ؟ ماذا نريد غير تكييف حياة الطفل وتنمية ملكاته ؟

لا نقصد من كلمة « الفراغ » الوقت الضائع لغير غاية أو قصد ، الذي نراه يتناثر من بين أصابع الناس بالدقائق والساعات ، فهذا وقت لا ينفع الحياة بحال من الاحول ، وانما يقتطع منها

لغير سبب الا الكسل والاهمال ، وهذا هو الحال مع كثير من الشبان والرجال الذين ينفقون ما يقرب من خمس أعمارهم في شرب عدد من فناجين القهوة على قوارع الطرقات. انما نقصد بأوقات الفراغ تلك التي يقضيها الصبي في نشاط حر من تلقاء نفسه منبعث عن الدوافع الطبيعية للحياة كاللعب مثلاً

اللعب ميدان فسيح من ميادين الحياة تنشط فيه لأغراض تتوخاها الحياة بنفسها ، انهُ ضرورة من ضرورات الحياة كالغذاء والتنفس سواء بسواء مع فارق بسيط بينهما ، وهو ان الضرر الناشيء عن حرمان الطفل من اللعب ضرر مؤجل تظهر آثاره بعد سنين كثيرة ، بينما الضرر الذي ينتج عن حرمانه من الغذاء حرماناً باتّاً ضرر عاجل تظهر آثاره في أيام معدودات

نريد ان نثبت هذه الحقيقة في ذهن الجمهور المصري وهي ان الحياة تتوقف على نوع النشاط الذي تقوم به ، فلا ينفع الحياة شيء سوى ما تقوم بهِ هذه الحياة في مجموعها وفي تفاصيلها ، الحياة كوحدة كاملة والحياة في اعضائها المتعددة، وبعبارة اخرى لا ينفع الرئة مثلاً الا ما تقوم بهِ هي نفسها ، اذا ما انتفخت وتقلصت في هواء نقي ، فالرئة لا تصبح قوية بحال الا اذا نشطت ، والا اذا كان نشاطها منظماً مستمراً ، وعندما يضعف نشاطها تضعف هي ، ثم اذا انقطع نشاطها انقطعت بها سبل الحياة

هذا هو شأن الحياة في مجموعها وفي تفاصيلها ، تريد ان يكون طفلك عداء ، مهد السبل لقدميهِ لتنشط ، دعهُ يجري ويعدو ، ولا نستطيع ان نرى سبيلاً غير هذه لمثل هذه الغاية ، فأرجو ان تسمحوا لي ان اكرر هذه الحقيقة مرة اخرى وهي ان الحياة لا تقوم بحال من الاحوال الا على ضروب النشاط الذي تضطلع بهِ الحياة

١ — اذا كان الامر كذلك دعونا نعود الى موضوع اللعب، لنرى مقدار صلاحيه كميدان لنشاط الفرد، ولا اظن احداً هنا ينازعنا في ان اللعب بانواعهِ ميدان صالح لتنمية الجسم في مجموعه ، ولتقوية اعضائه كل على حدة . هذه حقيقة مفروغ منها ، اذا كنا نريد اطفالنا على ان يكونوا اصحاء البدن اقوياء البنية معتدلي القامة على جانب وافر من النشاط ، فما علينا الا ان نمكنهم من أخذ حاجتهم من اللعب

٢ — ولكن الناحية المادية من اللعب ليست هي كل ما يناله الفرد من هذا الضرب من النشاط ، فقد استقرَّ في ذهن البعض من قديم الزمان انه نشاط مادي بدني صرف ، والحقيقة على خلاف ذلك ، لان علماء التربية مجمعون على انهُ نشاط عقلي اجتماعي ايضاً ، فالارتباط بين البدن والعقل امرٌ مفروغ منهُ ، هذه المادة التي تنطوي عليها جمجمة الرأس والتي يتم فيها النشاط العقلي هي مادة بلا شك، شأنها كشأن جميع المواد تتغذى وتتكيف وتنمو وتنشط كباقي الاعضاء، سواء بسواء وحظ هذه المادة من النشاط الذي ينبعث من اللعب حظٌ وافر غزير ، فهي بحكم مركزها

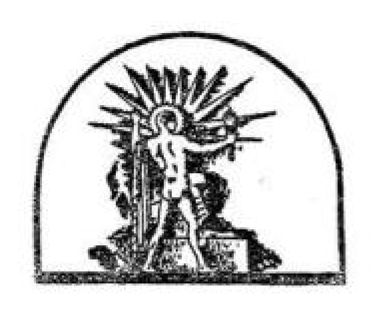
تهيمن على كل انواع النشاط، ولا يمكن ان يتمّ نشاطٌ ما في أي جزء من اجزاء الجسم دون ان يمر هذا النشاط اولاً بتلافيف المخ او ما يتصل به كالحبل الشوكي ذهاباً واياباً فكل حركة يأتيها الانسان طوعاً لا بد وان تمر به

٣ — قلنا ان اللعب ليس نشاطاً ماديًا صرفاً، والآن نقول انهُ نشاط يشمل جميع مناحي الحياة من عقلية واجتماعية وبدنية والفرق بين اللعب والعمل في رأْينا هو ان الاول منهما ينبعث من دوافع نفسية، بينما العمل منشأه الدوافع الخارجية، فالنجار الذي يفضل شيئاً آخر على النجارة ومع ذلك يشتغل بها لإقامة اود حياته وحياة عياله انما هو يشتغل، ولكن الطالب الذي يمارس النجارة للتسلية فهو يلعب، وهذا الضرب من النشاط لهُ اثره في اخلاقه وتكوينه، وهكذا الحال في جميع مرافق الحياة، فقد يكون الامر الواحد لعباً وعملاً شاقًا في نفس الوقت

والناس قد اصطلحت على ان تترك اللعب لاوقات الفراغ، او بمعنى آخر يلعب الانسان اذا لم يكن مكلفاً من جهة ما القيام بعمل معين، وفي آخر الامر يصبح اللعب نوعاً من العمل يهواه الفرد ويضطلع به اجابة لميوله الخاصة ومشاعره النفسية

ونحن ندعو في التربية الى الاكثار من هذا الضرب من النشاط فان عليه يتوقف مصير الفرد، نريد من الامة المصرية ان تراعي ميول الاطفال عندما تسنّ لهم مناهج التعليم حتى لا يصبح العلم اشغالاً شاقة يدفع اليها الاطفال قسراً وهم صاغرون

تحاول وزارة المعارف ان تدخل هذه الروح — روح اللعب — الى حجرات الدرس، فان نجحت في هذا خدمت اطفال هذا البلد، وان عجزت دونهُ، ستبقى مشكلة التعليم قائمة في مصر



حديقة المقتطف

بوشكين

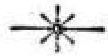
أمير شعراء روسيا

لحليم متري

اوجين اونيل

من مسرحياته « فصل معترض »

لفؤاد عيتاني





قيصر صادر

صاحب الرسالة النفيسة في «الحضارة الحثية» التي نشرنا خاتمتها في هذا الجزء



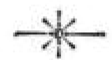
سعادة الاستاذ الكبير احمد نجيب الهلالى بك
الوزير الأسبق لوزارتي المعارف ، والتجارة والصناعة
ورئيس رابطة الاصلاح الاجتماعي ، ومؤتمر الطفل

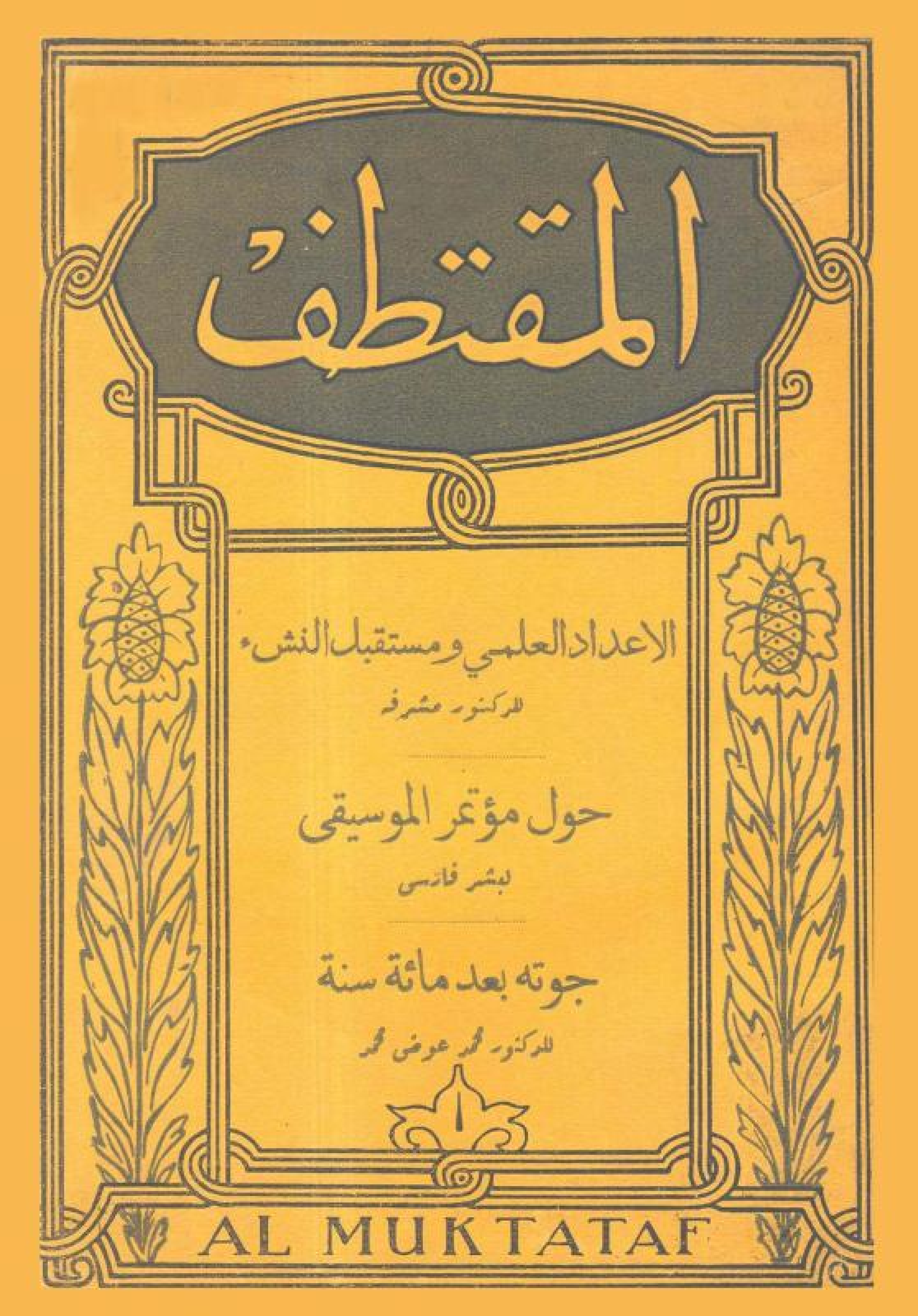


المستعمرات
من الناحية الاقتصادية

لواء الاسكندرونة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر




المقتطف
الاعداد العلمي ومستقبل النشء
للدكتور مشرفه
حول مؤتمر الموسيقى
لبشر فارس
جوته بعد مائة سنة
للدكتور محمد عوض محمد
AL MUKTATAF



الجزء الرابع من المجلد التسعين

١ ابريل سنة ١٩٣٧ — ١٨ محرم سنة ١٣٥٦

اين تبدأ الحياة

بحث في دقائقها الصغرى

في مقدمة المعضلات التي يواجهها العلماء ، معضلة طبيعة الحياة

لهذه المعضلة نواح كثيرة تستوقف انظار الباحثين وتستحث هممهم ، كالامراض المستعصية وربما ، وتحسين النسل ، ووسائل تجديد الشباب والتعمير ، وغيرها ، ولكنها جميعاً مما لا يمكن ان يحل على الوجه الاتم الا اذا حلت تلك المعضلة الاساسية ، معضلة طبيعة الحياة

قد يكشف العلماء حقائق جديدة تميط اللثام قليلاً عن هذه الطبيعة ، ككشفهم ان القطران يسبب انواعاً خاصة من السرطان ، او ان الاشعاع يفتك بالنوامي السرطانية ، ولكن النفوذ الى اعماق السر متعذر الا اذا فهمت الحياة من حيث علاقتها بدقائق المادة وما ينطوي فيها من النظام والطاقة

قال الانسكلوبيذيون الفرنسيون في القرن التاسع عشر ، ان الحياة هي ما يقاوم الموت. ولكن ما هو الموت ؟

ليس ثمة صفة واحدة من الصفات التي يسندها العلماء الى الاجسام الحية ، لا يمكن ان تسند كذلك الى الجوامد . فالجسم الحي يتكاثر وكذلك بلورة الملح والشب . والشرغوف الذي جم ذنبه ينمي ذنباً آخر ، وكذلك الذرة التي اقتطع جزء منها تستكمل نفسها بالجذب . والاميبا تستجيب لحوافز خارجية ، وكذلك جزيئات الغاز المؤين ، تستجيب لحوافز خارجية عند ما

يكون النار في مجال مغنطيسي او كهربائي. الانسان والبراميسيوم يتنفسان. ولكن من الميكروبات ما يعيش من دون تنفس ، ومن الجوامد ما يتناول الاكسجين ويطلق ثاني اكسيد الكربون

فليس ثمة مقياس واحد يمكن ان نقيس به الحياة في جميع الاجسام. جز ذنب جرذ، الجرذ يبقى حياً . او سل قلبه وضعه في محلول خاص ، يبق ذلك القلب حياً شهوراً ، وقد يبقى حياً سنين لا نعرف مداها . بل خذ قطعة من نسيج القلب ، كما فعل العلامة كارل بقطعة من نسيج قلب الفرخ وهو جنين ، وضعه في المحلول المغذي الموافق ، تبق تلك القطعة حية وهي مفصولة عن القلب

واذا فحص هذا النسيج بالمجهر ظهر انه مؤلف من وحدات كل وحدة منها تشبه كتلة صغيرة من الهلام وهي الخلايا . كل خلية من هذه الخلايا ، حية ، وثمة ما يحث على الاعتقاد ، بانه في الامكان ، ان نبقي الخلية منها حية على حدة ، كما ابقينا قطعة من نسيج القلب ، اذا كان لنا من الوسائل الدقيقة ما يمكننا من تناول خلية واحدة على حدة . وليس ثمة ريب في ان الخلايا تستطيع ان تعيش مفردة ، لان هناك انواعاً عديدة من النبات والحيوان قوام الفرد منها خلية واحدة ، تقوم بجميع ما يحتاج اليه الجسم ليبقى حياً . وخلايا النسج المختلفة ليست الا خلايا تخصصت في عمل معين

واذن نستطيع ان نقول ان الاجسام الحية المركبة ، يمكن ان تجزأ الى اعضاء فتحيا الاعضاء كل منها على حدة ، وان الاعضاء يمكن ان تجزأ الى الانساج التي تتألف منها، فتحيا الانساج كل منها على حدة ، وان الانساج يمكن ان تجزأ الى الخلايا فتحيا كل خلية منها على حدة . فهل الخلية هي الحد الادنى للحياة ؟ هل يمكن ان نجزىء الخلية ، وان تحيي هذه الاجزاء كل منها على حدة ؟ اما هل يفضي بنا تشريح الخلايا ، الى جزء فيها ، فيه ترتكز الحياة ومنه تنبثق شعلتها ؟

***

راقب خلية حية على شريحة مجهر قوي ، فترى امامك عالما آيته التحول الدائم . تجد داخل الغشاء الذي يحيط بالخلية ويعرف بجدارها ، الجبلة (البروتوبلاسمة) دائمة الحركة . ومع ذلك تجد فيها مناطق واجزاء ، يختلف بعضها عن بعض وتختلف جميعاً عن سائر الجبلة في تركيبها المستقر ، فنقول ان الخلية قوامها هذه الاجزاء المختصة من المادة الحية الاساسية

في مركز هذه الكتلة الهلامية ، او على مقربة من المركز ، نجد جسماً كروياً ، يبدو كأنه اكثف قواماً من المادة التي تحيط به . هذا الجسم الكروي المركزي يعرف باسم « النواة » والمادة التي تحيط به داخل الجدار تعرف باسم « سيتوبلاسمة »

في امكانك ان تخز جدار الخلية ، من دون ان تقتلها . بل وفي امكانك ان تزيل جانباً كبيراً من السيتوبلاسمة من دون ان تسلب الخلية شعلة الحياة . واغرب من هذا ان ما تنتزعه من السيتوبلاسمة يعوض. ذلك ان الخلية قادرة كالشرغوف الذي ينمي ذيله المجموم ،ان تصنع ما تسلبه من السيتوبلاسمة. ولكن اذا آذيت النواة ، كانت النتيجة غير ما تقدم . فهذه الكتلة

المركزية شديدة الاحساس ، بادية المقتل ، لا تستطيع ان تزيل جزءاً منها ، وان تبقيها حية
وتستطيع ان تكشف عما للنواة من الشأن الخطير في حياة الخلية، بتجربة بعض التجارب بالخلايا المختصة بالتناسل . وهي على ما تعلم نوعان خلايا الانثى وخلايا الذكر . وقد اثبت بعض الباحثين من سنوات ، انه اذا اخذت بيضة (اي خلية الانثى التناسلية) الرتسا او التوتياء وعالجتها بمحلول مالح ، او وخزتها بابرة ، تحركت كأنها لقحت بخلية الذكر وولدت رتسا جديدة . وفي امكانك ان تأخذ هذه البيضة وتشطرها شطرين بحيث تكون النواة كاملة في احد الشطرين ، ثم تعالج الشطر الذي يحتوي على النواة كما تقدم فيلد ، واما الثاني فيبقى عقيماً . وفي بيض اناث بعض الحيوانات تكون النواة صغيرة جداً بالقياس الى كتلة البيضة فاذا نزعت النواة ، بقيت البيضة وهي تكاد تكون كاملة ولكنها عاجزة عن التوليد
والتلقيح يتم عادة باختراق خلية الذكر لخلية الانثى ، ومن ثم تتصل خلية الذكر بنواة خلية الانثى، فتتحدان او تندمجان، وخلية الذكر صغيرة جداً لا تزيد على بضعة اجزاء من مئات الاجزاء من البيضة ، والفحص يثبت انها تكاد تكون كلها نواة لها رأس هو النواة ، وذيل دقيق جداً هو مادة السيتوبلازمة
ولكن خلية الذكر على صغرها تحمل مزايا الوالد التي يرثها الولد . افلا تستطيع ان تحمل كذلك شعلة الحياة الى احدى تلك البويضات التي نزعت منها النواة ، واصبحت عقيماً على ما تقدم

***

لقد جربت هذه التجربة ، واسفرت عن نتيجة عجيبة . فقد اخذت قطعة من سيتوبلازمة بيضة لا أثر فيها للنواة، ثم جيء بخلية ذكر من نوعها ، فدخلت خلية الذكر تلك السيتوبلازمة فاندمجت فيها ، وكأنها نقلت اليها مادة النواة المفقودة ، لانها بعد ذلك الاندماج ، تحركت فيها الحياة ، فانقسمت وتكاثرت وتولد من تكاثرها فرد جديد من افراد نوعها
فالنواة اذن هي الربان في سفينة الحياة . اما حجم النواة ، وما حشك فيها من عوامل الحياة ، فقد وصفه الدكتور ملر (احد اساتذ جامعة تكساس وهو من كشف تأثير اشعة اكس في احداث التحولات الفجائية التي يقوم عليها التطور) قال : اذا جمعت الخلايا الذكرية التي تولد الجيل المقبل من الناس شغلت حيزاً بقدر نصف قرص من الاسبرين . ولكن العدد المقابل من البويضات (خلايا الانثى التناسلية) يشغل علبة او ابريقاً يتسع لعشرين كوبة من الماء . ولما كانت النواة هي العنصر الفعال في البيضة ، فلنا ان نقول ان نوى البويضات لا تشغل حيزاً اكبر من الحيز الذي تشغله الخلايا الذكرية . واذن فالمادة التي تنبثق منها الحياة في الفي مليون نفس ، يمكن ان تحشد في مدى قرص واحد من الاسبرين
والواقع انه من أشق الامور ان يصدق الانسان ان في هذا الحيز الضيق تجتمع العوامل الوراثية التي تبدو في الفي مليون من الناس في خصائص اجسامهم وعقولهم . ان هذه الخلايا الدقيقة من أعقد الاجسام بناء في الكون ، وللباحث ان يطلع على بعض هذا التعقيد ، بعرضها على شريحة المجهر ، واستعمال بعض الاصباغ المؤاتية . بهذه الاصباغ نستطيع ان

تبين في النواة اجساماً عصوية الشكل او هي كسلسلةٍ حلقاتها من المقانق (السجق) . هذه الاجسام تعرف باسم « كروموسومات » وقد ترجمت بلفظ الصبغيات في المجمع الملكي للغة العربية . وهي توجد في الخلايا التناسلية وجودها في سائر خلايا الجسم . وهي في جميع الخلايا في نوع واحد من الحيوان على مثال واحد ونمط واحد في شكلها وعددها

فخلايا نبات الذرة تجد في نواتها عشرين صبغياً . وخلايا الزنبق اربعة وعشرين . وخلايا الضفدع ستة وعشرين . وخلايا الانسان ثمانية وأربعين . وخلايا الفرس ستين

وقد حاول أحد الكتاب المبسطين للعلم — جورج غراي وعن فصل له في هاربرز لخصنا هذا المقال — ان يبحث عن عدد الصبغيات في خلايا الفيل والبال ، وهما اكبر الحيوانات المعروفة الآن جرماً ، فلم يعثر عليها كأن احداً لم يتناولها بالبحث من هذا القبيل

ومما يدلك على قرابة الانسان لبعض القردة ان عدد الصبغيات في خلايا قردة آسية وافريقية كعددها في خلايا الانسان . وأما قردة اميركا الجنوبية فأبعد صلة بالانسان وعدد الصبغيات في خلاياها يبلغ أربعة وخمسين

***

ولعل البحث الذي أثبت علاقة هذه الاجسام العضوية بالوراثة ، من أجل البحوث العلمية التي تمت في عصرنا وأدقها . وقد كان رائدها الاستاذ توماس هنت مورغن الاميركي

حصرت هذه البحوث في ذباب الفاكهة (درسوفيلا ميلانوغاستر) لانها سريعة التناسل ويمكن تربيتها وتتبع نسلها في احوال مؤاتية لدقة التجارب العلمية . وكانت الطريقة ، ان يفحص الاستاذ مورغن ومعاونوه ، هذا الذباب جيلاً بعد جيل ، لعله يرى فيه صفة جسمية جديدة من قبيل التحول الفجائي mutation ، ثم يحاول ان يربط بين هذه الصفة ، وبين ما يحدث في صبغيات الخلية التناسلية من تغير

فعينا ذبابة الدروسوفيلا ، حمراوان في الاحوال السوية . ولكن قد تولد ذبابة بيضاء العينين احياناً . فلما ولدت ذبابة بيضاء العينين في اقفاص البحث الخاصة ، راقب الباحثون الصبغيات التي في خلاياها التناسلية فظهر لهم فيها تغيير خاص في منطقة معينة . وعلى مثال ذلك بحثوا تسع صفات جديدة حدثت في الاجنحة ، وربطوا بينها وبين ما يحدث في الصبغيات من تغيير .

وقد تأيدت هذه المباحث ، من نحو عشر سنوات ، عندما اكتشف الاستاذ ملر ، ان الاشعة السينية تؤثر في الخلايا الوراثية ، فتزيد عدد التحولات الفجائية (Mutations) التي تصاب بها ذبابة الدروسوفيلا . فثبت بهذا الاسلوب من البحث ، انه حيث تصيب الاشعة السينية عقدة من عقد الصبغي ، يحدث تحول في الصفة المرتبطة بها بحسب بحث مورغن

الا ان بحث الاستاذ ملر اثبت ، ان اصابة الصبغي بالاشعة السينية ، قد تسفر عن تأثير ضار او تأثير مفيد . في بعض الحالات ، نسف جزء من الصبغي نسفاً . وفي حالات اخرى ، لصق جانب من هذا الجزء المنسوف بصبغي آخر . وفي حالات اخرى انشطر الصبغي شطرين فلصق احدها بصبغي والآخر بآخر . وكذلك نشأت في نواة

الخلايا ، تركيبات صبغية جديدة ، ظهر اثرها في صفات الذباب وتركيبها

هذه التجارب تؤيد ما كان ظنّاً حتى الآن . وهو ان الصبغيات مؤلفة من حبيبات تدعى عوامل الوراثة genes اي ان الصبغيات ليست أجساماً لا تتجزأ بل هي تشبه سبحة التسبيح لم يتمكن احد حتى الآن من رؤية احد هذه العوامل . حتى اقوى المجاهر لا تستطيع تبينها . ولكن فرضها ، واتساق هذا الفرض مع الحقائق التجريبية المختلفة ، لا يقل قيمة عن فرض الذرات لتفسير تفاعل المادة الكيميائي

فعوامل الوراثة genes هي ذرات الوراثة كما ان المقادير او «الكونتات» هي ذرات الطاقة

واحدث التجارب تدل على ان اصابة بعض العوامل الوراثية بأذى قد يسفر عن اضرار جسيمة بل قد يفضي الى الموت . وهذا يحملنا على الظن ان عملها في نواة الخلية ليس السيطرة على الوراثة فقط ، بل والسيطرة على الحياة نفسها كذلك . اما وقد ظهرت صلتها بالحياة فصار ترجمة genes بعوامل الوراثة لا تفي فرأينا ان نسميها جريثيمة تصغير جرثومة وجريثيمات للجمع

***

يعود الفخر في كشف هذه الحقيقة الى المستر دميريك Demeree احد علماء الوراثة والتناسل في معهد كارنيجي بوشنطن . فقد انقضت عليه سنوات وهو يراقب تأثير التحولات الفجائية mutations في قدرة ذباب الفاكهة على اخلاف النسل . واستوقف نظره بوجه خاص تجارب قام بها الباحث باترسن في جامعة تكساس . ذلك ان هذا الباحث بحث تسعة وخمسين تحولا فجائياً تقع في ثلاث مناطق معينة في الصبغيات ، فوجد ان واحداً وخمسين منها مميتة . اي ان البيضة الملقحة التي اصيبت صبغياتها بهذه التحولات ، تتدرج قليلا في سبيل النمو ثم تموت

فالجريثيمات genes التي اصيبت بأشعة اكس كانت اصابتها مميتة

واتبع دميريك هذا البحث ، بدراسة دقيقة في خلايا اجسام الذباب ، اي انه لم يحصر بحثه في خلاياها التناسلية . فوجد ان خلايا الجسم ، اسوة بالخلايا التناسلية تعجز عن المضي في النمو اذا اصيبت تلك المناطق في صبغياتها التي أصيبت في تجارب باترسن . وكذلك ثبت ان هذه الخلايات تموت ، حالة ان الخلايا التي حولها ظلت حية نامية متكاثرة

وبعد بحث طويل اشترك فيها التجريب البارع ، والاستنتاج المنطقي ، وصل دميريك الى نتيجة خطيرة ، وهي ان الوفاة يمكن اسنادها الى اصابة بعض الجريثيمات فقط ولا يبعد ان تكون ناشئة عن اصابة جريثيمة واحدة

فما هو حجم هذه الجريثيمة ؟ من يدري ؟ ولا سبيل الآن الى معرفة حجمها الا بالبحث عن عدد الجريثيمات في الصبغي ، ثم قسمة المادة التي يتألف منها الصبغي على عدد الجريثيمات ، لمعرفة وزن الجريثيمة الواحدة

اما عدد الجريثيمات في الصبغي الواحد فيظن انه يقابل عدد العقد التي في الصبغي .

وبالمقابلة بين عدد العقد في الصبغي الواحد و عدد التحولات الفجائية التي عرف ما يقابلها من التغير في عقده ، ظهر ان عدد الجريثيمات في خلية ذباب الفاكهة يبلغ ثلاثة آلاف

وقد استنبط المستر باينتر Painter احد الباحثين في جامعة تكساس ، طريقة جديدة لتقدير عدد الجريثيمات ، ذلك ان ذبابة الفاكهة لها غدد لعابية قرب شدقها ، وهذه الغدد قوامها خلايا كبيرة الحجم ، بل ان حجم هذه الخلايا يفوق أضعافاً حجم خلايا الجسم السوية والصبغيات فيها تفوق في حجمها مائة وخمسين ضعفاً حجم الصبغيات في الخلايا السوية

وقد كانت هذه الحقيقة معروفة من سنوات ، ولكن يظهر ان أحداً من علماء الوراثة لم يخطر له ان يبحث في هذه الخلايا عن طريقة الى سر الصبغي وما يحدث فيه من التحول . ولكن الدكتور باينتر فطن الى ذلك سنة ١٩٣٢ فوجد ، انه اذا لونت هذه الخلايا بطريقة خاصة وأضيئت بأسلوب خاص ، ظهرت الصبغيات الضخمة ، وكأنها سلاسل ، مؤلفة من مناطق مستعرضة ، متفاوتة الحجم ، ولكل منطقة نموذج خاص

فالمنطقة في الصبغي ليست بالجريثيمة ولكنها خاصة بها فكانها منزلها . واذن نستطيع معرفة عدد الجريثيمات باحصاء عدد هذه المناطق في الصبغي الواحد

هذه المناطق من اصغر الاشياء التي وقع عليها البصر باقوى المجاهر . ولذلك فالخطأ في احصائها محتمل بل مرجح . فقد احصيت هذه المناطق في سنة ١٩٣٢ فبلغ عددها ٢٧٠٠ ولكن من عهد قريب استنبط الباحث كلفن بردجز أسلوباً للتلوين والاضاءة فقال ان عددها يبلغ ٥٠٠٠ وقد يظهر انها اكثر من ذلك بتقدم أساليب تبينها . وقد قال باينتر قريباً انها لا يبعد ان تبلغ عشرة آلاف ، ولكنه قال ذلك على سبيل التخمين والحزر . اما ملر فيقول انه ليس هناك ما يمنع ان تكون اكثر من ذلك

ولكن نلتزم خطة الحذر والتحفظ ولنقل انها خمسة آلاف بحسب احصاء بردجز . فاذا كان في خلية ذبابة الفاكهة خمسة آلاف جريثيمة . فكتلة الواحدة تبلغ جزءاً من خمسة آلاف جزء من مجموع كتلة الصبغيات في الخلية . وكتلة الصبغيات لا تزيد على ...... من كتلة الخلية المتوسطة . فالجريثيمة لا تزيد على .... من الخلية . وكذلك يبدو لنا اننا امام تركيب صغير دقيق معقد ، لا يبلغ في كتلته اكثر من خمسة اجزاء من مائة مليون جزء من الخلية ، ومع ذلك فان ازالته تفضي حتماً الى الموت

فما هو تركيب ، هذه الكتلة الصغيرة ، التي لا تنحة عنها للحياة ؟

يرد دمريك على ذلك بتصوير الجريثيمة في صورة دقيقة عضوية . ولعلها جزيء عضوي كبير . والمشاهدة تؤيد هذا التصوير . فبعض الجريثيمات كبعض الجزيئات العضوية الكبيرة غير مستقر التركيب فيتغير من شكل وتركيب يحدثان الاجنحة السوية ، الى شكل وتركيب آخرين ، يسببان اجنحة قصيرة او مشوهة . وهذا التغير يمكن ان يفسر اذا فرضنا ان الجريثيمة جزيء عضوي فقد بعض ذراته المتصلة به اتصالا واهناً ، ثم يعود بعد هنيهة ليسترد الجزء المفقود . وثمة دليل آخر مستمد من دراسة انشطار الخلايا فعندما تنشطر الخلية شطرين ،

لا تنشطر الجريثيات بل تتضاعف عدداً بنمو جريثيات جديدة محاذية للقديمة فتبقى الطائفة القديمة في شطر وتنتقل الطائفة الجديدة الى الشطر الثاني

وهذا الاسلوب ، متسق ، في رأي العلماء ، مع القول بان الجريثيمة جزيء عضوي كبير

واذا كانت الجريثيمة جزيئاً فرداً فيجب أن يكون جزيئاً ضخماً وليست الجزيئات العضوية الضخمة بالشيء الغريب بل ان علماء الكيمياء يعرفون عشرات منها . فجزيء بعض المواد البروتينية ، قوامه الوف من ذرات — ولعل اشهر مثل على ذلك جزيء زلال البيض . ولكن هذه الجزيئات معقدة التركيب الى ابعد حد ومن المتعذر تمثيل تركيبها في صفحة من هذه الصفحات

وقد اقترح الدكتور دميرك على سبيل التمثيل جزيئاً عضوياً صغيراً مما تتسع صفحة مجلة له ، ودل على تركيبه ، وقال ان الجريثيمة ، اذا كانت جزيئاً عضوياً ، فهي على مثال هذا الجزيء ولكنه اكبر واشد تعقيداً

اما المادة التي اختار جزيئها لضربه مثلا فتعرف باسم « الحامض التيمونوكلايك » (thymo-nucleic) وهي احدى المواد التي تتولد من انحلال بروتين النواة

ان جزيء هذا الحامض يشتمل على ٥٩ ذرة ايدروجين و ٤٣ ذرة كربون و ٣٢ ذرة اكسجين و ١٥ ذرة نتروجين و ٤ ذرات فصفور — ومجموعها ١٥٣ ذرة

وهذه الذرات مرتبة في مجموعات مختلفة والمجموعات منظومة في صورة متسقة. والمركب غير مستقر فيفقد احدى هذه المجموعات كاملة ثم يستردها او يفقد ذرة من احدى المجموعات نفسها ، وهذا الفقد يغيره ويغير تأثيره الكيمائي والحيوي كذلك

***

قلنا ان جزيء هذا الحامض يشتمل على ٥٩ ذرة ايدروجين واربع ذرات فصفور . فاذا اصيب هذا الجزيء بفوتون من الاشعة السينية ، وكان من تأثير الاصابة اتلاف ذرة ايدروجين ، يكون الجزيء قد فقد في مجموعه جزءا من ٥٩ من مقدار الايدروجين الذي فيه. ولكن اذا افضت الاصابة بفوتون الاشعة السينية الى اطلاق ذرة فصفور كان ما يخسره الجزيء ربع ما فيه من الفصفور . وقد تكون هذه الخسارة مما لا يعوض لجسامتها . وعلى ذلك فازالة ذرة واحدة من الجزيء قد تكون بحيث يتعذر تعويضها ، واذا تعذر ذلك وقفت الخلية عن النمو اي يدركها الموت

وكذلك ترتسم صورة المادة الحية في ضوء هذه الحقائق الجديدة ، صورة تجعل اعظم الشأن لذرة واحدة من ذرات المادة . اساب من الجريثيمة تلك الذرة تفقد الجريثيمة استقرارها وتنحل. وانزع الجريثيمة من الصبغي يقف نمو الخلية . فاذا وقف نمو الخلايا وقف التناسل واشرفت الحياة على ختامها

منطقة السدود

ومستقبل الري في مصر (1)

لحسين سري باشا
وكيل وزارة الاشغال

لعلي لا أجد غرابة اذا ما تحدثت اليكم ، أن أتناول دائماً موضوع نهر النيل (2) ومياهه التي تجري بين جانبيه . فانها تخترق واديه ، فتغدق في طريقها الحياة كاملة على ارض مصر ، وتجري الخير فياضاً على من يستظلون بسمائها ، حتى أصبح هذا النهر العظيم علماً على بلدنا السعيد ، بل ورمزاً لوجوده فقلنا، وكان ذلك منا عرفاناً بجميله وشعوراً بخيراته « إن مصر هبة النيل ونعمته »

مصادر النيل

يستمد نهر النيل مياهه من المصادر الاربعة الآتية : (١) النيل الابيض .(٢) نهر السوباط . (٣) النيل الازرق . (٤) نهر العطبرة

ويستقل النيل الازرق ونهر العطبره بامداد النيل الرئيسي بالجانب الاعظم من مياهه مدة الفيضان . وهما بما يحملانه من المواد ، سر خصوبة أرض مصر ، والعامل في تجديد قوتها بما يرسب فيها من الطمي كل عام. إلا انه على الرغم مما لهذين النهرين من الأثر الواضح في خصب الاراضي المصرية ، فان فائدة نهر العطبرة تقتصر على مدة الفيضان فقط ، وذلك لانقطاع أمداده للنيل في شهر ديسمبر من كل عام ، حيث يصبح بعد هذا التاريخ عبارة عن سلسلة من المستنقعات لا اتصال بينها . ويستمر على هذه الحال حتى موسم الفيضان التالي . كذلك يقل إيراد النيل الازرق في مدة الصيف كثيراً ، فلا يزيد مقدار ما يمد به النيل عن ٢٠ ./· من الايراد الصيفي ، وقد يصل في بعض شهور الصيف الى ٥ ./· من مجموع الايراد . اي ان إمداد النيل الازرق يكاد يكون منعدماً في هذه الشهور

(١) ملخص محاضرة نشرت في الكتاب السابع الذي اصدره المجمع المصري للثقافة العلمية
(٢) يجدر ان تقرن مطالعتها بمطالعة الري في مقتطف يونيو سنة ١٩٣٤ ص ٦٦٦ — ٦٧٧

وتنطبق هذه الظاهرة الطبيعية ايضاً على نهر السوباط ، إذ انهُ يمد النيل بمقادير وفيرة من المياه مدة الفيضان ، ثم يتناقص إيراده بعد ذلك حتى يقل كثيراً في شهور الصيف ، بل انهُ يكاد يجف طول هذه الفترة في بعض السنين

أما النيل الابيض فانهُ يمد النهر بالجانب الاكبر من مياهه مدة الصيف . لذلك كان العامل الاول في الري المستديم بمصر ، وعليه يتوقف نمو الزراعة الصيفية ، وهي الحجر الاول في أساس ثروة البلاد ورخائها . ولذلك بقي ذلك النهر متجه انظار رجال الري في كل عهد ، فضوا يتعرفون مقدار مياهه ، ويزنونها بالقياس الى حاجة الارض في موسم الزراعة الصيفية

ويستمد النيل الابيض مياهه من بحر الجبل وبحر الغزال . والاخير منهما قليل الفائدة ، ولا يزيد مقدار أمداده للنهر على ١٠ ٪ من مجموع الايراد ، بل انهُ قد يكون مصدر خسارة في بعض السنين ولذلك فإن إيراد النيل الابيض مدة الصيف ، يتوقف على مقدار المياه التي تأتي اليهِ من بحر الجبل

فمن الطبيعي — وهذا ما لمياه بحر الجبل من الشأن — أن نوجه جانباً كبيراً من اهتمامنا الى تعرف مقاديرها والعوامل التي تؤثر فيها وهي في طريقها الينا . وكان مظهر هذا الاهتمام ان قامت وزارة الأشغال منذ زمن طويل بدراسة مجرى النهر في تلك الانحاء . ولما تبين لها ان مقادير كبيرة من المياه تضيع سدى في جزء من بحر الجبل معروف « بمنطقة السدود » بدأت تفكر فيما يمكن لها عمله ، لتتلافى به ضياعها ، وتعمل على توفيرها لتنتفع بها مصر في التوسع المنتظر في ارضها الزراعية

ولقد أسفرت الدراسة المستمرة حتى وقتنا هذا عن عدة حلول ، ورأيت من جانبي ان اقوم برحلة الى هذه الجهات لأتمكن من دراسة هذه الحلول ، في مواطنها وتقرير أيها أنسب لتحقيق الغاية التي نرمي اليها وهذه هي الرحلة التي اخترت ان اصفها

بدء الرحلة

في الساعة السادسة من صباح يوم ٢١ ديسمبر الماضي بارحت القاهرة على متن احدى طيارات شركة المواصلات الامبراطورية ميمماً الخرطوم

وكانت الطيارة التي اقلتنا تسير خلال رحلتنا بسرعة متوسطها حوالي ١٦٠ كيلو متراً وعلى ارتفاع من سطح الارض يتفاوت بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ متر وتتبع في طريقها خطوطاً مستقيمة في معظم الاوقات ، وتبعد عن مجرى النيل بضعة كيلو مترات . وقد هبطت بنا للتزود بالبنزين ثلاث مرات . الأولى في الاقصر والثانية في حلفا والثالثة في كريمة ، احدى مدن مديرية حلفا . وبعد رحلة استغرقت ثلاث عشرة ساعة ، وصلنا الخرطوم في الساعة السابعة من مساء اليوم نفسه

وحوالي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، وعلى نفس الطائرة ، بارحت الخرطوم بعد ان قضيت ليلي بها قاصداً — وبصحبتي مدير مكتبي — مدينة الملاكال ، وهي مركز تفتيش اعالي النيل التابع لمصلحة الري المصرية . فوصلناها الساعة الحادية عشرة صباحاً ، اي بعد ان تركنا الخرطوم بأربع ساعات فقط . على أن تلك الساعات القلائل التي قطعنا فيها هذه المسافة الطويلة ، وهي حوالي ٨٥٠ كيلو متراً ، لتجعلني اذكر بالحمد ما اكتسبناه من الطيران . فمن توفير في الوقت الى راحة في السفر وبعد عن مشقاته . ويكفي ان اذكر ان المرحلة بين الخرطوم والملاكال تقطع عادة في النيل — وهو الطريق الوحيد بين هذين البلدين — فيما لا يقل عن ثلاثة ايام وثلاث ليال ، تسير فيها الباخرة بلا انقطاع . هذا الى بضعة ايام أخرى ، يضطر المسافر الى قضائها في الخرطوم بعد وصوله اليها ، انتظاراً لميعاد قيام الباخرة منها

ولما ان وصلت مدينة الملاكال توجهت ومعي رجال الري الى مستعمرة مصلحة الري المصرية هناك ، وهي تضم مكاتب الموظفين ومساكنهم ، وتكون الجزء الأكبر من المدينة . وهذه المساكن مقامة على شكل هندسي أنيق وسط حدائق منسقة ، وهي مزودة بالمياه المرشحة وتضاء ليلاً بالكهرباء ولم تعنَ مصلحة الري بجعل المستعمرة على هذا الشكل ، الا اعداد سبل الراحة لموظفيها في تلك الأنحاء ، حتى تعوض عليهم بعضاً من متاعبهم التي يتحملونها في القيام بأعمالهم المضنية . ونظراً الى كثرة هطول الامطار ، رصفت طرقات المستعمرة وحفرت على جوانبها قنوات لحمل مياه المطر الى النيل . وهذه القنوات مكسوة بالأحجار عند تقاطع كل منها بغيره

ومن وراء مستعمرة الرى ، قرية الاهالي ، وهي مجموعة من أكواخ مستديرة الشكل ، تسمى « تُكُل » وتشاد من جدائل القش ، ثم تطلى بالطين ، ولها سقوف من القش ايضاً مخروطية الشكل تمنع تجمع مياه المطر فوق هذه الاكواخ

وبين ضفتي النيل أمام المستعمرة ، يرسو جانب من البواخر والمهمات العائمة ، التي أعدتها مصلحة الرى لانتقال مهندسيها من جهة الى أخرى للقيام بأعمالهم . وكذلك عدد آخر من بواخر حكومة السودان . والبواخر هي سبيل النقل الوحيدة في تلك الأنحاء ، اذ ليست هناك طرق زراعية أو خطوط حديدية تصل بين الاماكن المختلفة . ولهذا السبب اتجهت الانظار نحو العناية بشؤون الملاحة ، وقامت مصلحة الرى المصرية من جانبها بتضييق مجرى النهر أمام الملاكال بانشاء جسر عمودي على الضفة الغربية للنيل ، لتضمن بذلك وجود مجرى ملاحي صالح تجاه المدينة ، يمكن لبواخرها ان تمخر عبابه في اي وقت من غير صعوبة او مشقة . وصيانة لهذا الجسر من تأثير العوامل الطبيعية ، غرست على جوانبه أشجار « السيسبان » فنجحت نجاحاً كبيراً ، اذ عملت على تماسك أجزائه وابقائه في مأمن من فعل الامطار ومياه الفيضانات المتعاقبة

طبائع القبائل

وعند وصولي الى مدينة الملاكال ، كان اخص ما استرقب نظري اهل هذا القسم الجنوبي من السودان . أولئك أبناء الطبيعة ، يعيشون في كنفها على فطرتهم فلم يتقدموا خطوة واحدة نحو أبسط مبادىء المدنية ، بل تراهم يسيرون عراة الاجسام تماماً ، ولا يرتبطون في معاملاتهم بتلك النظم التي نعرفها ، وانما بقواعد أملتها عليهم بساطة طبيعتهم . ويتكون الاهالي في هذه المنطقة من قبائل مختلفة أخصها بالذكر « الشيلوك » و « الدنكا » و « النوير »

فقبائل « الشيلوك » تعيش في الجزء الاوسط من مديرية اعالي النيل ، وهم نحالة ضخام الاجسام ، لكنهم ضعاف وجلودهم لامعة براقة وشعورهم مرسلة تنمو ثم يعقصونها ويضفرونها في اشكال مختلفة غريبة . ولقد شاهدت عليهم أمارات الكسل أتام في مظهرهم وحركاتهم . وعلمت أن لهم أميراً يحكمهم ، ويقدمون له أتم الخضوع

وهم يعيشون في قرى متمددة السكان داخل أكواخ من القش والطين . ولا عمل لهم سوى رعي الاغنام وصيد السمك والحيوانات وماشيتهم هي أداة التعامل ، فلا يذبحون مطلقاً . ومما بلغني عن معتقداتهم وعاداتهم ان لهم ديناً هو خليط من الوثنية وعبادة الاجداد والارواح . وانهم يكثرون من اقامة حفلات الرقص ، كل منها لغاية خاصة . فبعضها تقرباً من الآلهة لاستنزال المطر ، وبعضها للحرب او الموت او الدين او غير ذلك

اما قبائل « الدنكا » فيقطنون الجزء القبلي من مديرية أعالي النيل ، وهم طوال الاجسام ويسيرون عراة ، الا المتزوجات من النساء ، فانهن يسترن عوراتهن بجلدين : أحدهما من الامام والآخر من الخلف . والجميع ، رجالاً ونساء ، يتزينون بالخرز والودع . وضخامة العقد الذي يلبسهُ الرجل — كما علمت — دليل على جاهه وثروته . وقد بلغني عن حياتهم ان رعي القطعان هو كل شيء لديهم ، وأهمها البقر الذي يتعاملون به ويقدسونه ، فيظل الرجال في حراسته يغنون له ، ويرقصون أمامه ، حتى لا يمرض او يقل نسله

ومما يتعرض له صغارهم قسوة تجريح جباههم ، ليحملوا بذلك شعار قبيلتهم . كما انهم يدفعون وهم في مقتبل العمر الى الغابة ليقتتلوا مع الوحوش الضارية والافاعي ، حتى اذا ما نالوا شرف قتلها وهم فرادى ، أهلهم ذلك للدخول في عداد الرجال

ولهم في معاملاتهم واحوالهم الاجتماعية قواعد عرفية يخضعون لها . وتطبق هذه القواعد مجالس تجمع أكبر الاشخاص سناً في كل قرية او عشيرة . والى هذه المجالس يحتكم الافراد في جميع مسائلهم ، حتى ماكان منها مختصاً بأمورهم العائلية

واما قبائل « النوير » فيشبهون « الدنكا » في اجسامهم ولهجتهم ، ولو انهم أضعف بنية

وأفتح لوناً وهم منتشرون جماعات صغيرة في بحر الغزال وبحر الجبل . وتراهم يلطخون أجسامهم ووجوههم بالرماد ليتقوا بذلك لدغ الناموس ، ويتركون شعورهم منفوشة إلا النساء فانهن يكوّرنها على أشكال مختلفة

وقبائل «النوير» معروفة بالغدر والقسوة وبميلها الشديد الى الغارات . وقد كانوا وقت زيارتي لهذه الانحاء ، يقتتلون مع قبائل الدنكا غربي بحر الجبل بالقرب من بلدة « تومبي » الواقعة شمال مدينة منجلا . كذلك فهمت من بعض من قابلتهم من رجال الحكومة المحلية هناك ، ان هذه القبائل تعتقد في روح عليا خلقت الدنيا وسيطرت عليها ، ولهم في الحياة الآخرة فكرة مبهمة . وان من عاداتهم في الموت رش المقابر بعد دفن الموتى باللبن ، كما انهم يضعون بجوار الجثة بعض ما كان يشتهيه الفقيد في حياته . كغليون التدخين أو غيره ، ليتسلى به حتى يصل الى عالم الأرواح

طبيعة البلاد

وبعد ان أقمنا في الملاكال يوماً وبعض يوم ، غادرناها على ظهر باخرة من بواخر مصلحة الري فأخذت تشق بنا عباب النيل الأبيض متجهة نحو الجنوب . وهو نهر متسع المجرى تنحدر مياهه بين جانبيه في سرعة قليلة ، لذلك كان أقرب الى البحيرات منهُ الى الانهر ، وكنا نرى على جانبيه أرضاً منبسطة يكسوها العشب في غزارة تبدو بها كأنها بساط أخضر لا يعترضه الا أشجار منثورة طوراً ، ومجموعة طوراً آخر . ويفصل هذه السهول عن مجرى النهر أخاديد تملأها المياه في بعض فصول السنة . وبقي هذا المنظر ثابتاً حتى بلغنا بلدة التوفيقية على الجانب الأيسر للنيل ، وهي التي كانت مقرًّا للمكتشف المعروف السير « صموئيل بيكر » فأصبحت خراباً واطلالاً بالية . ثم واصلنا المسير فمررنا بمصب نهر السوباط ، ومن هناك انحرف مجرى النهر بزاوية قائمة نحو الغرب ، لكنهُ بقي باتساع مجراه وقلة انحدار مياهه ، وبالسهول المترامية على جانبيه ، والتي كنا نرى فوقها تلول النمل تقيمها بنفسها من التراب بارتفاع قد يصل الى مترين او ثلاثة أمتار لتتخذ منها مأوى يقيها شر عادية الطوارىء الجوية . وعلى جانبي النيل الابيض ، جنوبي مصب نهر السوباط عدة مجار للمياه تعرف « بالخيران » وأهمها خور « لولي » وهو يقع الى يسار النهر ويسير موازياً لهُ في مسافة تبلغ حوالي ٥٠ كيلو متراً ، ويتصل به في بعض المواقع

وبعد رحلة في النيل الابيض استغرقت ست ساعات من ملاكال ، وصلنا الى مصب بحر الزراف وهناك اتخذنا طريقنا وسط هذا المجرى وهو في مبدئه خفيف المنحنيات محدد الجوانب ،

يبلغ عرضه حوالي ثلاثين متراً . وعلى جانبيه تنمو حشائش كثيفة تعرف « بأم الصوف » .
ويرى الداخل اليه ، على الضفة الغربية ، أشجاراً كثيفة تمتد مسافات كبيرة على طول المجرى .
اما الضفة الشرقية فخالية من الاشجار ، ولا يوجد غير الوادي وهو مكسو بالحشائش وقد برز في
وسطها ، وعلى بعد نحو عشرة كيلو مترات من المصب ، عدة تلال حجرية تعرف بجبل الزراف .
وما ان توغلنا جنوباً ، حتى رأينا على الجانبين غابات كثيفة من اشجار متوسطة الارتفاع . تسكنها
كثير من الحيوانات الضارية

وبعد ان قطعنا وسط بحر الزراف مسافة ٣٢ كيلو متراً من مصبه ، رسونا بباخرتنا ،
وسلكنا طريقاً بالبر انشأته فرقة من مهندسينا المصريين خلال الغابة القائمة على الجانب الشرقي
للنهر . وقد بلغنا المكان الذي يعمل فيه هؤلاء المهندسون بعد ان سرنا حوالي ٧٥ كيلو متراً ،
وهناك شاهدنا اعمالهم التي يقومون بها من مسح المنطقة الواقعة الى الشرق من بحر الزراف ،
وفحص طبيعة تربتها بواسطة اعمال الجس ، ليجمعوا بذلك البيانات اللازمة لبحث احد المشروعات التي
يتناولها تفكيرنا للقيام بتنفيذه في منطقة السدود . وتعترض اعمال المهندسين في هذه الغابات
صعوبات متعددة ، اهمها طرق المواصلات . ولذلك كان اول ما يعنون به شق الطرق خلالها .
ولما كان هطول الأمطار وكثرة المستنقعات يجعلان استخدام العمال صعباً فانهم يعمدون الى
استعمال آلات ميكانيكية من النوع الحديث تعرف بالجرارات ، يمكن بواسطتها تمهيد طريق طوله
كيلو متران في اليوم الواحد . وانه ليسرني في هذا المقام ان أسجل لمهندسينا المصريين تأديتهم
لأعمالهم في دقة بالغة ، متحملين مشاق وصعوبات مضنية في هذه الأماكن التي تنعدم فيها
وسائل المعيشة ، والتي يندر فيها الانسان وتكثر الحيوانات المفترسة

عدنا بعد مشاهدتنا لاعمال المهندسين الى النهر ثانية ، فواصلنا السير فيه ، وقد بقي مجراه على
حالته السابقة . الا اننا بعد ان توغلنا حوالي عشرين كيلو متراً اخرى ، اخذ النهر يلتوي في
منحنيات حادة . وكلما امعنا في السير ازدادت المنحنيات حدة . كذلك كان اتساعه يزيد آونة
ويقل اخرى ، وعلى جانبيه بدأنا نرى نبات البردي ينمو بكثرة وسط حشائش ام الصوف .
ومن بعده بدت غابة خلابة المنظر من اشجار الدوم على البر الايسر ، وبقي البر الايمن مغطى
بالحشائش دون الشجر ، حتى اذا ماسرنا مسافة أخرى ، اخذت غابات الدوم تبدو لنا على الجانبين
وسط المستنقعات التي بدأت في الظهور . ثم عادت هذه الأشجار فاختفت ، ورأينا الوادي يغطيه
نبات البردي ثانية ، حتى اذ ماوصلنا عند كيلو ١٧٥ ، بدأت المستنقعات تنتشر على جانبي النهر ،
وكانت تزداد كلما اتجهنا جنوباً . كذلك بدأت الخيران من هذا الموقع تتعدد على الجانبين ،
بعضها يأخذ من مياه النهر ، والبعض الآخر يصب فيه

ولقد واصلنا المسير في بحر الزراف حتى شاهدنا الجسرين اللذين اقامتهما مصلحة الري ، احدهما في سنة ١٩١٠ بالبر الايمن عند الكيلو ١٨٦ ، والآخر في سنة ١٩١٣ بالبر الايمن عند الكيلو ٢٦٦ كتجربة لمعرفة صلاح التربة في هذه المناطق لاقامة الجسور . وقد لاحظت انهُ لم يكن للعوامل الطبيعية أثر يذكر فيهما على الرغم من انقضاء هذه المدة الطويلة على بدء انشائهما ، مما يجعلني أميل الى الاعتقاد بأنهُ اذا ما اتجهت النية الى اقامة جسور للنهر في هذه المناطق ، لتمنع طغيان المياه على الجانبين ، فربما أمكن صيانة هذه الجسور بتكاليف معقولة

وعند الكيلو ٢٧٠ من بحر الزراف ، رأينا هذا النهر قد اقترب كثيراً من بحر الجبل بحيث أصبحت المسافة بينهما لاتتجاوز الاربعة كيلو مترات ، وفي هذا الموقع أنشأت وزارة الاشغال في سنتي ١٩١٠ و ١٩١٣ قطعين يصلان بين مجرى النهرين ، ابتغاء تحويل جزء من مياه بحر الجبل الى بحر الزراف ، حتى يتفادى مرورها وسط منطقة السدود الواقعة شمالي القطعين ، فيقل بذلك الضائع منها في الطريق . وقد مررنا بمصب القطع الشمالي منهما ، ثم اتجهنا الى القطع الجنوبي فاخترقناه الى بحر الجبل ، حيث سرنا فيه قليلاً الى ان بلغنا المكان الذي تقوم فيه مصلحة الري ببعض بحوثها على جوانب احدى البرك التي يخترقها النهر ، لمعرفة مدى مقاومة تربة هذه المناطق لتسرب المياه من خلالها ، وبالتالي مقدار الاعتماد عليها في اقامة الجسور ، اذا ما استقر الرأي على انشاء جسور للنهر وسط منطقة السدود . وتتلخص هذه البحوث في اقامة احواض من الطين الذي يؤخذ من هذه المنطقة كما هو ، مشوباً بالأعشاب والبردي وذلك بوساطة الكراكات الميكانيكية ، ويفرغ ما بداخلها من الماء ثم تترك على هذه الحالة مدة من الزمن يرصد بعدها مقدار ارتفاع المياه التي تسربت الى الحوض ، وكذلك مقدار ما يتبخر منها ، فيمكن بهذه المعلومات تقدير مقدار المياه التي رشحت من النهر الى داخل الحوض . وقد شاهدنا بعض هذه الأحواض التي اقيمت من قبل ، وبعضاً آخر مما يقام في الوقت الحاضر استكمالاً لهذا البحث

ولمعرفة حركة المياه ، وهي تفيض على جانبي النهر وسط منطقة السدود ، أقامت مصلحة الري ممرات من الخشب على شكل جسور تخترق البردي ، وتمتد الى مسافة نحو كيلو متر . وعلى مسافات مختلفة من امتدادها وضعت مقاييس يمكن بها معرفة اتجاه حركة المياه . وكذلك حوض من الصاج يملأ بالماء لتقدير درجة التبخر في هذه المواقع . وبعد أن زرنا ممراً من هذه الممرات ، اتجهنا في بحر الجبل جنوباً فمررنا ببركة غابة « شامبي » عند كيلو ٤٠٦ من مصب بحر الجبل ، وتقع في الجهة الغربية منها المدينة المعروفة بهذا الاسم

وجنوبي بلدة « شامبي » أخذ مجرى بحر الجبل يقل في اتساعه احياناً ويزيد أخرى ،

كذلك كان يسير في منحنيات حادة جداً تخترقها الباخرة وتسير عدة كيلو مترات ، فلا تكون بعد هذه الرحلة قد قطعت سوى أمتار معدودة على خط مستقيم من طول المجرى . وعلى سبيل المثال أقول انهُ بعد ان سرنا في أحد هذه المنحنيات نحو اربعة كيلو مترات وجدنا أننا قد عدنا الى المكان الذي بدأنا المسير منهُ فلم نبعد عنه الاَّ نحو ثلاثين متراً فقط

وبعد ما فصَّل المحاضر دقائق الرحلة بحراً وبراً وهو وصف حافل بالحقائق الجغرافية والطبوغرافية والبيولوجية انتقل الى بحث منطقة السدود فقال : عند بلدة « بور » حيث تأخذ الأراضي الجافة في التضاؤل والابتعاد عن مجرى النهر بالجهة الشرقية منهُ ، كما تأخذ البرك والمستنقعات في الظهور والانتشار كلما سرنا نحو الشمال . ونستمر كذلك نحو ١٢٥ كيلو متراً ، تبدأ بعدها المستنقعات في الانتشار على الجانبين حتى مدينة « شامبي » وعندها تبتديء منطقة السدود الحقيقية ، بعرض يختلف من ١٠ كيلومترات الى ٥٠ كيلو متراً ، ومساحة تتفاوت بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ كيلومتر مربع ، تبعاً لمقادير المياه الواردة اليها ، فتزداد بزيادتها ، وتنقص بنقصانها . ويسير النهر في هذه المنطقة متعرجاً بعرض يتراوح بين ٦٠ و ١٢٠ متراً . وعلى طول مسافة تبلغ نحو ٤٠٠ كيلومتر ، لا يرى المار بها غير صفحة واسعة من الماء ، كستها مساحات مترامية الأطراف من الحشائش والاعشاب ، فيخيل اليه انهُ يسير وسط زراعات خضراء بشكل منتظم ولون واحد تتخللها بين آونة وأخرى برك متباينة الحجم ، تبدو كأنها قطع الفضة قد نثرت على بساط من سندس ، وتربطها سلاسل عاجية ، هي الخيران التي لم تجد الحشائش سبيلاً الى النمو فيها . هنا يروقه هذا المنظر لغرابتهِ واتساعهِ وضخامتهِ ، لكنهُ اذا استمر في طريقه فانه يظل يشق المنطقة يوماً بعد يوم من دون ان يقع بصره الا على منظر متجانس لا يتغير ، فلا يلبث ان ينقلب اعجابه بهِ الى شعور بالسآمة والملل

وفي منطقة السدود تنبت الحشائش بكثرة وسط المستنقعات ، وأظهرها نبات البردي الذي ينمو في عمق من الماء يتفاوت بين ثلث متر ومتر ، وارتفاعه بين أربعة أمتار وستة . كذلك تنبت في بعض المواقع حشائش اخرى تعرف « بأمّ الصُّوف » ونوع آخر يسمى « غاب الفيل » وهو قريب الشبه من الغاب البلدي المعروف بمصر . وهذه الاعشاب جميعها لم تدرس دراسة فنية في هذه المنطقة لمعرفة طبيعتها وخواصها والعوامل التي تدعو الى كثرة نموها في هذه المنطقة

تلك هي منطقة السدود . يسير بحر الجبل خلالها في مجرى يكاد يكون محدداً في بعض مواقعه مدَّة الصيف ، وتجاوره على مسافات متباعدة من طوله . برك يصلها بمجراه خيران متعدِّدة تختلف سعتها من عشرة أمتار الى مائة متر فأكثر ، وتشاهد المياه منبثة خلالها ، وهي تتسرَّب من النهر او اليهِ وفقاً لانخفاض المياه او ارتفاعها في المواقع المختلفة . واذا ما انقضت

فترة الصيف ، وبدأت مياه النهر في الارتفاع ، فانها تفيض على جانبيه حين تمر هذا الوادي الفسيح ، وعند ذلك يتسع سطحها ، فتفقد جانباً كبيراً من مقاديرها لما يضيع منها في ملء البرك وفي تسرب الارض والتبخر . وهذا التبخر ، يساعد على زيادته وجود البردي والنباتات الاخرى حيث دلت البحوث التي أجريت هناك ، على ان مقادير المياه التي تضيع بالتبخر من سطح مغطى بالحشائش ، أعظم قدراً مما يضيع لو كان سطح الماء مكشوفاً وخالياً من الاعشاب

ولقد قامت مصلحة الري منذ سنة ١٩٠٦ حتى الآن برصد مقادير المياه التي يأتي بها بحر الجبل الى هذه المناطق ، والمقادير الاخرى التي تصل منها الى النيل الابيض ، ثم استخرجت من ذلك مقدار ما يضيع منها في منطقة السدود ، فظهر انها مقادير كبيرة ، إذ بلغ متوسطها السنوي نحو ١٤٠٠٠ مليون من الامتار المكعبة . وقد بلغ اقصى ما يضيع في هذه المنطقة حوالي ٤٠٠٠٠ مليون من الامتار المكعبة ، ولم يحدث ان قل هذا القدر في اي من السنين المنحطة الايراد عن ٧٥٠٠ مليون متر مكعب

ومن ذلك تتبين فداحة الخسارة في هذه المياه ، وهي التي ستكون مصر في اشد الحاجة اليها في المستقبل ، ولذلك لا بد من التفكير في العمل على تلافي ضياعها وتوفيرها ، كي ينتفع بها في موسم الزراعة الصيفية

وقد يقال ان مصر في حاضرها لاتعوزها الحاجة الى هذه المقادير الضائعة ، بعد أن قامت وزارة الاشغال بتعلية خزان اسوان للمرة الثانية ، وأوشكت ان تتم انشاء خزان جبل الاولياء . الا انه امام ما نشاهده من الزيادة المستمرة في عدد السكان ، وما يتطلبه ذلك من زيادة التوسع في المساحات الزراعية ، نعتقد ان مصر لاتلبث بعد تمام الانتفاع بمياه الخزانين ان تصير في اشد الحاجة الى مقادير أضافية من المياه لتستخدمها في كل خطوة من خطوات التوسع في المستقبل البعيد . ولذلك وجب ان يمتد تفكيرها من الآن الى المشروعات التي من شأنها توفير المياه لتكون معدة للتنفيذ والانتفاع بها في الوقت المناسب

الري والبحيرات الاستوائية

تبلغ احتياجات مصر من المياه الصيفية ، بعد استكمال نموها الزراعي ، نحو ٢٥ ملياراً من الأمتار المكعبة ، لديها الآن من هذا القدر ما يأتي :

٥	مليارات :	سعة خزان اسوان بعد تعليته الثانية
٢	«	مقدار ما يمكن الانتفاع به بالحجز في خزان جبل الاولياء
٩	«	متوسط ايراد النهر الطبيعي في فترة الصيف
١٦	ملياراً :	المجموع

فاذا اضيف الى ذلك ١٫٢٥ مليار مقدار نصيب مصر في مياه خزان بحيرة تسانا بعد اتمامه ، كان مقدار المياه التي يمكن الحصول عليها ١٧٫٢٥ ملياراً فقط ، ويبقى بعد ذلك حوالي ثمانية مليارات لا بد من تدبيرها للوفاء بجميع الاحتياجات في المستقبل . وليس للبلاد أن تطمع في تحقيق هذه الغاية الا الى البحيرات الاستوائية ، حيث يمكن ان يجعل منها مستودعاً فسيحاً تخزن فيه مقادير وافرة من المياه لتنتفع بها في استكمال حاجات الزراعة ، كلما ازداد التوسع في الأراضي الزراعية .

ولقد كانت بحيرة « البرت » أولى البحيرات التي اتجهت اليها انظار رجال الري لتحقيق هذه الفكرة ، ولذلك تناولوها بالبحث والدراسة وانتهوا الى امكان تحويلها الى خزان يدخر فيه في متوسط السنين ما يربي على ١٢٫٥ مليار من الامتار المكعبة ، اي ما يعادل مرتين ونصف ما يمكن خزان اسوان ان يحجزه بعد تعليته الثانية . ولا شك انه مهما بذلنا من الجهود لزيادة ايراد هذه البحيرة مدة الصيف ، فان مقادير وافرة من مياهها سوف تتبدد عند اجتيازها منطقة السدود اذا بقي النهر على حالته الحاضرة ، ولم نقم باجراء تعديلات فيه ، من شأنها ان تمنع ضياع المياه في هذه المنطقة

ولهذه الاسباب قامت وزارة الاشغال منذ زمن بعيد بالتفكير فيما يمكن لها عمله من المشروعات لتحقيق هذه الغاية ، وأسفرت دراستها عن اقتراح مشروعين يمكن الاخذ بأحدهما بعد أن يتم بحثهما لمعرفة مدى صلاحية كل منهما من الناحية الفنية ، ومقدار تكاليفه حتى يمكن المفاضلة بينهما

ويقضي الاول من هذين المشروعين باقامة جسور لبحر الجبل وسط منطقة السدود ابتداء من مدينة « بور » لتمنع طغيان مياهه على شاطئيه . وقد دلت البحوث التي قامت بها مصلحة الري حتى الآن بصدد هذا المشروع ، على انه يمكن اعتبار تربة هذه المناطق مانعة لتسرب المياه من خلالها ، مما يحملني أميل الى الاعتقاد بأنه يمكن الاعتماد عليها في إقامة الجسور

***

أما المشروع الثاني فيقضي بانشاء تحويلة للنهر إلى الشرق من بحر الزراف خارج منطقة السدود لتصل بين مجرى بحر الجبل والنيل الأبيض فتمر بها مقادير المياه اللازمة لمصر في حاضرها ومستقبلها ، بعد اقامة خزانات أعالي النيل ، وذلك مع ترك مجرى بحر الجبل الحالي ليمر فيه ذلك المقدار من المياه الذي يكفي للملاحة النهرية ، والقليل الذي يفيض الى الجانب اليسير منها ، على جانبي النهر ويدخل منطقة السدود الحقيقية

ولقد تمت دراسة مشروع آخر يقضي بتحويل بحر الجبل عند بلدة « الجميزة » جنوبي

مدينة « بور » الى مجرى جديد يسير الى الشرق يصله بمجرى يسمى « فيفنو » ومنهُ يسير في نهر بيبور أحد فروع نهر السوباط ثم في نهر السوباط فني النيل الابيض . ولكن لما ظهر ان نفقات هذا المشروع قد تبلغ نحو الثمانية ملايين من الجنيهات ، بينما لا تزيد مقادير المياه التي يوفرها على مليار ونصف مليار من الامتار المكعبة فقط ، اتجه الرأي الى دراسة مشروع آخر يقضي بانشاء هذه التحويلة بحيث تمر في الأرض المرتفعة شرقي منطقة السدود مباشرة وعلى مقربة الى ان تتصل ببحر « الزراف » عند كيلو ١٩٠ تقريباً ، وتسير فيهِ حتى مصبه في النيل الابيض

***

هذه هي المشروعات التي اقترحت لمنع ضياع المياه في منطقة السدود . ولاشك أن تنفيذ مشروع منها ، سوف يترتب عليهِ زيادة مقادير المياه التي ترد الى مصر من المناطق الاستوائية ، لا في فترة الصيف وحدها ، وانما في جميع فصول السنة بما فيها مدة الفيضان . فاذا ما جاء فيضان عال ، فان توفير المياه التي كانت تضيع في منطقة السدود ، سيكون مبعث خطر على سلامة مصر ، إذ لا بد أن تعمل هذه المقادير على زيادة ارتفاع مياه الفيضان في حدود الاراضي المصرية عند ما يبلغ اقصى ارتفاعه . وهذه هي الصعوبة التي تتعرض لها المشروعات التي نبغي القيام بها في منطقة السدود

ولما كانت هذه المنطقة تعتبر في الوقت الحاضر كمصرف تتسرب اليهِ مقادير وافرة من مياه الفيضان وتتبدد فيه ، فكل مشروع يقترح لزيادة مقادير المياه الصيفية لمصر ، يجب ان تتوفر فيهِ في الوقت نفسه من الوسائل ما يسمح باستمرار منطقة السدود في أداء وظيفتها المشار اليها وقت الفيضانات العالية . وذلك بانشاء قنطرة في قناة السدود يمكن بواسطتها اطلاق ما يزيد عن الحاجة من مياه بحر الجبل مدة الفيضان الى المستنقعات الممتدة على جانبيه

فاذا ما تم مشروع منطقة السدود ، فانه يمكن لنا القيام بعد ذلك بانشاء خزان بحيرة «البرت» ونكون بتنفيذ هذين المشروعين قد عملنا على منع ضياع المياه في تلك المناطق ، ثم تخزين مقادير اضافية من المياه في بحيرة « البرت » لتنتفع بها مصر في زيادة التوسع في اراضيها الزراعية ، كما نكون قد قمنا بتنفيذ مشروعين من أهم المشروعات التي تتطلع اليها مصر للوفاء بحاجة أهلها في كل وقت ، بل والعمل على زيادة ثروتها وتوفير أسباب الرفاهية لها

تأثير الشمس

في شؤون الناس

هل تؤثر الشمس في العدد والاخلاق ؟

من المقابلات التي تستوقف النظر ، موافقة فترات الرخاء والاقبال في اعمال الناس ، لكثرة ظهور الكلف على وجه الشمس . ففي سنة ١٩٢٨ عندما كان الاقبال على أعظمه ، كانت الكلف على اكثرها عدداً واشدها نشاطاً . وفي السنة الماضية اي سنة ١٩٣٦ اذ لاحت تباشير الانتعاش بعد سنوات الازمة العالمية القائمة ، كان عدد الكلف الشمسية آخذاً في الاقتراب من ذروته العليا . يقابل هذا ان الازمة بلغت اشدها في سنتي ١٩٣٢ و١٩٣٣ عندما كانت كلف الشمس على اقلها

وليست هذه المقابلة بفريدة في بابها . بل ان الدكتور هارلن ستتسن Stetson الاستاذ بمعهد ماستشوستس التكنولوجي ، يقول على ما جاء في مجلة « خلاصة العلم » ان البحث في التاريخ الحديث من هذه الناحية يسفر عن ان خمساً من الازمات السبع العظيمة التي ابتلي بها العالم في الخمسين السنة الاخيرة وافقت في تطورها كثرة الكلف وقلتها على النحو المتقدم فهل هذه الموافقة مجرد اتفاق ام في جعبة العلم ما يفسر هذه الظاهرة الغريبة ؟

الجو والحالة النفسية

هل خطر لك ان تسأل نفسك لماذا تحس في بعض الايام بأنك نشيط طموح مغتبط لانك حي ثم لماذا تحس في أيام اخرى بتعب وفتور وتراخ وهبوط في الهمة ؟ أيمكن ان يسند ذلك الى حالة الجو ؟ أيمكن ان نلوم الهواء ؟

عرف العلماء من عهد بعيد ان كل قدم مكعبة من الهواء الذي نتنفسه تحتوي على دقائق مكهربة — وتعرف باسم ايونات او شوارد — بعضها مكهرب كهربائية موجبة وبعضها مكهرب كهربائية سالبة وهذه الدقائق محمولة في الغبار وقطيرات الماء وما اشبه . ولكننا ما نزال في مفتتح عهد جديد في فهم ما لهذه الدقائق من التأثير في الشؤون الحيوية لأن العلماء لم يتمكنوا الا من عهد قريب ، من السيطرة على حالة الجو الكهربائية سيطرة خاضعة لقواعد التجربة العلمية

فالايونات يمكن توليدها في الهواء باطلاق شرارات كهربائية فيه او اشعة اكس او مقذوفات الراديوم . حتى شعلة من النار في موقد متأجج تؤين الهواء الى حد ما اي تولد فيه هذه الدقائق المكهربة أي الايونات

ثم هنالك اجهزة خاصة تمكن العلماء من ان يخرجوا من قدر معين من الهواء في معمل البحث الدقائق المكهربة الموجبة أو الدقائق المكهربة السالبة ثم يدرس تأثير الباقي

على هذا النمط وجد الاستاذ دسور Dessauer في جامعة فرنكفورت ان المرضى الذين يتعرضون للدقائق المكهربة الموجبة يشعرون بالتعب والاعياء والدوار والصداع . فلما ازيلت الدقائق المكهربة الموجبة من الهواء الذي يتنفسونه وتعرضوا للدقائق المكهربة السالبة زال الصداع وحل محله شعور الانشراح والنشاط

وقد جرت التجارب في ضغط الدم وتأثرها بحالة الهواء من حيث وجود الدقائق الموجبة او الدقائق السالبة فيه فظهر ان وجود الاولى يزيد ضغط الدم فينشأ عن ذلك انزعاج عام وان وجود الثانية يخفف ضغط الدم ويحدث شعور الراحة والطمأنينة . بل هنالك ما هو اعجب مما تقدم ذلك ان استنشاق مقادير من الدقائق المكهربة السالبة مدى اسابيع انتهى الى تحسين الحال في ثمانين في المائة من اصابات ضغط الدم . ولاريب انك ايها القارىء قد سمعت المصابين بالروماتزم يتحدثون بما يشعرون به من تقلب حالة الجو قبل حدوثه . فهل لهذا الشعور وهو اشبه ما يكون بالتنبؤ بالطقس اساس علمي ؟

لقد اثبت الاستاذ دسور ان الناس المعرضين للروماتزم زادت آلامهم وتضخمت مفاصلهم وارتفعت حرارتهم قليلا عند استنشاقهم هواء كثرت فيه الدقائق المكهربة (الايونات) ومعروف عند علماء احوال الجو ان العاصفة قبل حدوثها يسبقها هبوط في ضغط الهواء فيصعد الى سطح الارض هواء كان محفوظاً بين دقائق التراب . وقد ثبت ان الهواء الذي يكون بين دقائق التراب تكثر فيه الدقائق المكهربة الموجبة. ولعل وجود هذه الايونات يزيد آلام المصابين بالروماتزم قبل انفجار العاصفة

ثم ان الهواء يحتوي على ايونات كبيرة وايونات صغيرة وقد اكتشف الباحثون في معهد كارنيجي بوشنطن ان الايونات الكبيرة تكثر بعد الغروب والايونات الصغيرة تكثر قبل الشروق . ولعل هذا الفرق بين الليل والنهار اهم من الفرق في الرطوبة بينهما . بل لعلنا نجد في هذا الفرق تفسيراً لتأثيرهما الفسيولوجي في جسم الانسان

الكلف اعاصير مغنطيسية

فلننظر الآن في الادلة التي يسوقها العلماء لتأييد القول بان الكلف يصحبها تغير مغنطيسي وكهربائي في جو الارض، وفي مقدار ضوء الشمس ونوع ذلك الضوء، اي في ما يقال عن تأثير الكلف في حياة الانسان على سطح هذه الكرة الارضية . ولنذكر ان اشعة الشمس قد تؤثر تأثيراً مباشراً في نمو غذائنا ونوعه وعن طريقه تؤثره في غددنا واخلاقنا

يعرف قراء المقتطف ان الكلف الشمسية تبلغ اكثرها ثم تتدرج تقمساً فتبلغ اقلها في فترات متعاقبة طول الفترة منها احدى عشرة سنة وربع سنة . فعندما تكون الكلف على اكثرها، يكون جو الشمس اشد ما يكون اضطراباً ، وصفة هذا الاضطراب عواصف عظيمة اذا قيست بها العواصف التي تقع في المناطق الاستوائية على سطح الارض صح على العواصف الارضية ذلك الوصف الأعجمي « عاصفة في فنجان ». والعواصف التي تحدث في جو الشمس عندما تكون الكلف على اكثرها ، مؤلفة من غاز الايدروجين وبخار الكلسيوم وغيره من العناصر وتدور دوراناً رحوياً عنيفاً في اتجاه عقارب الساعة او ضده اي انها زوابع او اعاصير تصحبها تيارات قوية في جو الشمس .

في مركز هذه المناطق المضطربة من سطح الشمس ، تنخفض الحرارة انخفاضاً يكفي لنقص اشراقها فتبدو قاتمة عند رصدها بالمرقب ، فسميت كلفاً لانها تشوب وجه الشمس كما تشوب الكلف وجه الحسناء وقد عرفت منذ صنع المرقب في القرن السابع عشر

والكلف من الظاهرات الشمسية التي استرعت انتباه الانسان قديماً وأعنت عقله في فهمها وتفسيرها . فقد جاء في بعض كتب الصين ان كلفاً رؤيت بالعين المجردة سنة ٣٠١ ب . م وفي القرن السابع عشر عني بها غليليو فرصدها ورسمها وقد قادته رؤيتها الى القول بان الشمس جسم متغير منكراً بذلك القول السائد حينئذ وهو ان الشمس جسم منزه عن التغير والتحول . وقد كتب غليليو حينئذ الى احد اصدقائه : « يلوح لي ان هذا الكشف سيكون جنازة القول بثبوت السماوات »

وقد كان غليليو حالماً حقاً فرصد هذه الكلف وراقب حركتها وانتقالها على وجه الشمس ولكنه لم يتمكن من فهم طبيعتها وأسبابها . الا ان بعض الباحثين ذهب الى ان الكلف أجسام جامدة مظلمة تدور حول الشمس فتحجب ضياءها الباهر عند ما تتوسط بين الشمس والراصد . أي انها من قبيل كسوف الشمس بتوسط القمر بيننا وبينها . وتصورها فريق آخر سحباً من الدخان الكثيف منطلقة من براكين على سطح الشمس . وقال فريق ثالث انها غيوم في جو الشمس . ومن أغرب ماقاله بعضهم في هذا الصدد ان الكلف ليست الا قنن جبال على سطح الشمس تنكشف حيناً فنراها ثم تغمرها مادة الشمس المصهورة فتحجب عن الانظار. حتى ان السر وليم هرشل الفلكي العظيم ذهب مذهباً غريباً في تعليلها اذ قال ان الكلف ما نراه من جسم الشمس البارد عندما ينفرج الجو المحيط به قليلا في بعض الاحوال الخاصة . وقد كان يعتقد ان الشمس جسم بارد مخفي وراء غلاف من الغازات فكتب انه يحق له اعتماداً على المبادىء الفلكية أن يقول أن الشمس عالم صالح للسكنى

وقد كان هايل الاميركي احد علماء العصر الحديث الذين استهواهم البحث في هذه الكلف مع انها تبدو في ظاهرها خارجة عن نطاق العلم . ولكن كارل بيرسن قال : حيث تجد اقل امل في الوصول الى معرفة فثمة مجال للعلم . وكان هايل على هذا الرأي . فعمد

الى جهازه الجديد — المصوّرة الطيفية الشمسية — والى باحث شاب كان قد انضم اليه يدعى « فرديناند اليرمن » فصور الشمس به الوف الصور وكان ذلك في مرصد يركيس حيث كان هايل مديراً له

كان هايل قد صور وجه الشمس في ١٢ يناير سنة ١٨٩٢ فتبين في الصورة ألسنة مندلعة من غاز الايدروجين وبقعاً شحاً لامعة من بخار الكلسيوم . ولكن هذه البقع بدت وكأنها تحت السطح لا عليه اي انها كانت اقرب الى الطبقة الاولى التي يتألف منها غلاف الشمس ندعاها « فلوكيولي » وهو لفظ لاتيني يعني بقعاً مشعثة ككتلة من الزغب او الندف ثم انه رأى في الصورة نفسها بقعاً قاتمة هي البقع التي يطلق عليها اسم « الكلف » فسأل هايل نفسه : « هل بين البقع الشحّ اللامعة والكلف علاقة ما ؟ »

اخذ الصور المتعددة التي صورت في مرصد يركيس فرأى فيها تفصيلات لم يرها قبلا ثم صور طائفة أخرى من الصور بمرصد جبل ولسن فتبين ان الكلف والندف وجهان لأعاصير او زوابع كهربائية مغنطيسية تثور في الغازات التي في طبقات الشمس العالية . وقد رصدت هذه الكلف رصداً منتظماً خلال الثلاثة القرون المنقضية ، وعينت مواعيد كثرتها وقلتها ، فكشف طول دورها ، وقد دونت الدورات العشرون الاخيرة منها تدويناً علمياً

ان اشد العلماء تحفظاً متفقون على ان اخص وجوه التغير في نطاق الارض المغنطيسي ، توافق موافقة مرتبة دورة الكلف الشمسية . والارصاد المدونة في خلال القرنين الماضيين تؤيد ذلك . ولكن العلماء لم يعثروا على تعليل هذه الظاهرة الا في مستهل القرن العشرين

مغنطيسية الشمس والارض

ففي سنة ١٩٠٨ ثبت للعلامة هايل ان كلف الشمس مراكز لمناطق مغنطيسية عظيمة مغنطيسيتها اقوى جداً من مجال الارض المغنطيسي . وظل المفتاح الثاني الى حل هذا اللغز مطوياً الى ان تقدمت الاذاعة اللاسلكية . ففي بدء العهد اللاسلكي كان الرأي ان الامواج اللاسلكية تسير في خطوط مستقيمة فلا يمكن ان تلتقط على مسافات بعيدة عن محطات الاذاعة لان تحدب سطح الارض يحول دون ذلك . ولكن مركوني أثبت بتجربته البديعة التي قام بها سنة ١٩٠١ ان تحدب الارض لا يحول دون التقاط الامواج اللاسلكية المذاعة من اوربا بأجهزة قائمة على سواحل اميركا

وعندئذ عمد العلماء الى محاولة تفسير ذلك . فقال العالم كنيلي الاستاذ بجامعة هارفرد انه يعتقد ان في مناطق الجو العالية طبقة من الهواء مؤينة اي تكثر فيها الايونات او الشوارد بفعل اشعاع الشمس ، وانها لذلك تصلح ان تكون بمثابة عاكس يرد الى سطح الارض الامواج اللاسلكية المنطلقة في الفضاء . والظاهر ان العالم الانكليزي هيفيسيد خطر له الخاطر نفسه على حدة واعلن رأيه بعيد ما اعلنه الاستاذ كنيلي . ولذلك تدعى هذه الطبقة في عرف المهندسين اللاسلكيين باسم طبقة كنيلي هيفسيد

وقد اكتشفت طبقة ثانية وثالثة من هذا القبيل فوق طبقة كنيلي هيفيسيد وبها تفسر الاصداء اللاسلكية . فاذا جمعنا بين ما يعرف عن الناحية المغنطيسية من طبيعة كلف الشمس ، وما يعرف عن كهربة جو الارض في طبقاته العالية ، تمهد لنا السبيل لفهم الاضطرابات المغنطيسية في جو الأرض وكيف تتبع في سيرها اضطراب جو الشمس . وقد اثبت العالم النرويجي الدكتور ستورمر ان الاضواء الباهرة الملونة التي تظهر في المناطق الشمالية من الارض وتعرف باسم الشفق القطبي الشمالي يمكن تفسيرها بدخول كثير من الدقائق المكهربة جو الارض عند حدوث الشفق

ثم عني الدكتور أبت Abbot احد علماء المعهد السمثصوني الاميركي بقياس قوة اشعاع الشمس سنين متوالية ، في اميركا وغيرها من البلدان كشيلي وجنوب افريقية معتمداً على اجهزة دقيقة كل الدقة فتبين له ان مقدار الحرارة الذي يتصل بالارض من اشعاع الشمس يقل قلة ظاهرة عندما تكون كلف الشمس على اقلها . وان هذه القلة لا تلاحظ في مكان دون آخر بل في جميع الامكنة التي انشئت فيها محطات لهذا الغرض . ويقابل هذا ان مقدار الحرارة المتصل بالارض من اشعاع الشمس يزيد عند ما تكون الكلف على اكثرها وأشدها نشاطاً ، ويتفاوت مقدار الحرارة بين القلة والزيادة من ٣ الى ٤ في المائة

ومن أعجب ما يتصل بهذا الموضوع مبيناً علاقة كلف الشمس بالفصول الجافة والماطرة على سطح الارض بحث قام به الدكتور دوغلاس في جامعة اريزونا الاميركية . لقد قضى الدكتور دوغلاس حياته في دراسة الحلقات البادية في قطوع جذوع الاشجار . ولا يخفى ان كل حلقة منها تمثل مدى نمو الشجرة خلال سنة واحدة . فوجد ان هذه الحلقات غير متساوية في ثخانتها فصنع جدولاً بها وقابل بينها وبين الجداول التي دونت فيها الظواهر الجوية فوجد من دراسة ألوف الاشجار بهذه الطريقة ان سنوات الجفاف والمطر في الجانب الجنوبي الغربي من الولايات المتحدة الاميركية ، تسير وفقاً لدورة الكلف الشمسية . فكأن تلك الاشجار النابتة في اميركا كانت صفحة من صفحات الطبيعة دونت فيها دورة الكلف قبل ان يستنبط المرقب

وقد كانت الموافقة بين ثخانة الحلقات ورقتها من ناحية وكثرة الكلف وقلتها من ناحية أخرى ، تامة من عصرنا الى أواخر القرن السابع عشر . ولكن التوافق زال في السنين السابقة لذلك مدى قرن تقريباً اي ان توالي الحلقات واختلاف ثخانتها لم يوافق موافقة دقيقة ما هو معروف عن دورة الكلف الشمسية ومدتها المعروفة بوجه عام . فمال دوغلاس الى الظن بان نظريته غير صحيحة . ولكن في سنة ١٩٢٢ كتب اليه الاستاذ موندر الى بانه كشفت مدونات فلكية ثبت منها ان الكلف كانت قليلة جداً في الفترة الواقعة بين ١٦٤٥ و ١٧١٥ فعاد دوغلاس الى تطبيق نظريته على حلقات الاشجار فوجد فيها ما يؤيدها

ومع ان الاستاذ دوغلاس يربط بين ثخانة الحلقات وجفاف الجو او رطوبته فلا يستبعد ان تكون هنالك عوامل اخرى تؤثر في نمو الاشجار او قلة نموها تتسق مع الجفاف او الرطوبة

كالتفاوت في مقدار اشعاع الشمس ونسبة ما فيه من الحرارة والاشعة التي فوق البنفسجي وغيرها من عوامل الجو

فالشجرة يمكن ان تحسب نموذجاً عضوياً لتأثير الشمس في الاحياء على سطح الارض

تجارب طريفة

هذا الموضوع ، اي تأثير الاشعة المختلفة في نمو النباتات ، من الموضوعات التي يعنى بها الآن عشرات من العلماء في معاهد مختلفة كالمعهد السمثسوني بوشنطن ، ومؤسسة مايو في مدينة روتشستر (ولاية مينسوتا) ومعهد بويس طمسن للبحث النباتي في ضاحية يونكرز بنيويورك ، وقد جربت تجارب منوعة غرضها ان يكشف كيف تستجيب النباتات في اثناء نموها لامواج مختلفة من الاشعاع . فقد ظهر مثلاً ان تعريض بزور الخس لضوء الشمس قبل بذرها ضروري لانباتها اما التفاح فيمكن انضاجه بزيادة قوة ما يوجه اليه من الاشعة التي فوق البنفسجي ، وعلاوة على تبكير نضجه تكتسب ثمرته بريقاً ورديا جميلاً

اما تأثير الاشعة التي فوق البنفسجي في الوقاية من الكساح وعلاجه ، فاشهر من ان نبسط فيه في هذا المقام . ولا يبعد ان يكشف البحث لنا عن صلة وثيقة بين قوام ضوء الشمس المتصل بالارض والفيتامين (د) المقاوم للكساح في بعض النباتات . ومما يرجح هذا الرأي ان النباتات التي لا قيمة لها في مكافحة الكساح تكتسب هذه الصفة بتعريضها للاشعة التي فوق البنفسجي . ثم ان تعريض بعض النباتات للاشعة التي فوق البنفسجي مدة لا تزيد على دقيقتين ينشأ عنها زيادة في مقدار الرماد والكلسيوم والفصفور في اوراقها

ولكن طائفة كبيرة من النباتات لا تتأثر بالاشعة على المنوال المتقدم . فالكرنب وهو نبات لا فائدة منه في مقاومة الكساح لا يتولد فيه الفيتامين المقاوم للكساح بتعريضه للاشعة التي فوق البنفسجي . يقابل هذا ان نوعاً من البرسيم الاميركي الذي ينمو في الحقول يتصف بهذه الصفة ولكنه اذا نما في حظائر مظلمة كان خالياً منها

ولا يستبعد ان يكون للاشعة التي فوق البنفسجي — وقد قيست قياساً دقيقاً وظهر انها تختلف باختلاف الكلف على وجه الشمس — تأثير يسير في المحاصيل . فهل يتاح لنا في المستقبل ان نعرف القيمة الغذائية والصحية في المحاصيل التي نزرعها ونجنيها ، وكيف تختلف باختلاف العوامل الطبيعية ؟ ثم اننا لا نعلم شيئاً الآن عن العلاقة بين قوام ضوء الشمس من الاشعة المختلفة ، والفيتامينات المنوعة اللازمة لصحتنا وهنائنا

ومما يمكن ان يقال الآن ان علماء الطب قد بدأوا يستشفون صلة بين الفيتامينات التي نتناولها وسلوكنا الفسيولوجي . ولا يبعد ان يكشف في المستقبل القريب او البعيد ان الغدد الصم ، وهي الغدد التي يرتبط بها جانب كبير من حالاتنا النفسية ، تتأثر بالفيتامين الذي في غذائنا ، او الاشعة الشديدة النفوذ التي تصيب الجسم . ومن يدري ، فقد نكتشف في يوم مقبل ، ان نفسية الناس ، بتناوبها التفاؤل والتشاؤم ، والاشراق والقتام ، والفترة والطور ، وفقاً لوجوه من التحول في جونا ، ترجع في اصلها الى حالة الشمس



التعليم المختلط

للدكتور رسل جولت
عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة الاميركية

موضوع التعليم المختلط من افضل الموضوعات للمناظرات العامة . ان سعة نطاقه وكثرة ما يمكن ان يقال فيه تأييداً لوجهيه ، تجعلانه كذلك . حتى في بلدان الغرب ، حيث احرزت النساء أعظم انتصاراتهن ، لا يزال موضوع التعليم المختلط ، مثاراً للجدل والنقاش . وفي الولايات المتحدة الاميركية التي فاقت غيرها من الأمم في الاخذ بهذا النظام ، ما زلنا نرى جماعات كبيرة ، تسلم بمساواة النساء للرجال مساواة كاملة ، ولكنها مع ذلك لا تزال متمسكة بوجوب تعليم الجنسين كل على حدة

ويمكن أن يقال بوجه عام ان التعليم المختلط في الغرب ، بلغ اوسعه نطاقاً في البلدان الشمالية او الانجلوسكسونية ، وأضيقه نطاقاً في بلدان الجنوب او البلدان اللاتينية . ولعل للاقليم اثراً في انتشار التعليم المختلط . حتى في البلدان الانجلوسكسونية ، لم تأخذ انكلترا بالتعليم المختلط في مرحلة التعليم الثانوي ، مدى ما اخذت به الولايات المتحدة الاميركية . اما ايطاليا وفرنسا فغير راضيتين عنه . واما روسيا ففي غمار نظام تعليمي جديد وقد جعلت التعلم مختلطاً في جميع مراتبه

ان في وسع الباحث ان يخرج من تجريب الغرب لهذا الضرب من التعليم بحقائق وقواعد ، قد تكون اذاعتها مجدية في معالجة هذه المشكلة التي تعنى بها مصر الآن

اعدت المرأة من فجر التاريخ الانساني ، لتكون والدة الجنس . فكان لهذه المهمة التي القيت اليها ، اثراً لامفر منه في حياتها . فقد كانت مرتبطة ببيتها وجيرته المباشرة حالة ان الرجل وقع عليه عبء الصيد والقنص والكفاح لتدبير القوت وحفظ الكيان . وبارتقاء الاجتماع الانساني ، زادت مهامها داخل البيت ، كاعداد الطعام واللباس علاوة على حمل الاطفال وتربيتهم . وكذلك حددت وظيفة المرأة البيولوجية نوع عملها في البيت . ولكن كر الاعوام والقرون ، وتأصل العادة والتقليد ، اسبغا على عمل المرأة هذا ، سمة القانون المنزل ، بدلا من ان يحسب نتيجة للاحوال الاجتماعية التي نشأ فيها ومنها . وقد روي عن زوج

برناني في ايام سقراط القول التالي وجهه الى زوجته : ان الآلهة قد سوت طبيعة المرأة بحيث تقوم بعملها وتنهض بتبعاتها داخل البيت وسوت طبيعة الرجل ليقوم بعمله وينهض بتبعاته خارجه

فليس بالمستغرب اذاً ان يهمل تعليم الفتيات ، حتى بعد ان نظم تعليم الصبيان في المجتمع . بل كان من الطبيعي ان يظن ان الفتاة في الاجتماع البشري البدائي تستطيع ان تتعلم كل ما هي في حاجة اليه ، وهي في دارها

فمن الناحية التاريخية ، نظم نصيب الدولة في شؤون التعليم لاجل الصبيان اولا . اما تنظيم نصيب الدولة في تعليم البنات ، فقد جاء متأخراً ، بعد ان ظل زمناً من شأن البيت والكنيسة . فكان النتيجة ، ان انشئت اولا مدارس وكليات للصبيان والشبان فقط . ففي الولايات المتحدة الاميركية ظل تعليم البنات في بعض المدارس ، غير مسلم به ، حتى العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر . وفي المانيا لم يسمح لهن بالانتظام في الجامعات حتى سنة ١٨٩٥ وعندئذ اذن لهن في سماع المحاضرات فقط اذا سمح بذلك الاساتذة . ولم تنشأ كليات للبنات في جامعة كمبردج الا سنة ١٨٧٢ وظلت جامعة اكسفرد تأبى منح الرتب العلمية لهن حتى سنة ١٩٢٠

فلما اعترف للبنات في بعض البلدان ، بأنه يحق لهن ان يكون نصيباً من التعليم الذي تهيمن عليه الحكومة ، ظهر ان المعاهد الوحيدة القائمة هي معاهد لتعليم الصبيان والشبان ، فكانت المطالبة باتاحة فرص التعليم للبنت ، وكأنها مطالبة بالتعليم المختلط . فاما ان تنتظم الفتاة في احدى مدارس الذكور واما ان تسد في وجهها سبل التعليم . وكانت نتيجة المطالبة ، بتعليم الفتاة ، ان فتيات كثيرات ، انتظمن في النظام المدرسي الحكومي ، في مراتبه المختلفة

والادوار التي اجتازتها مشكلة تعليم الفتاة في الغرب ، تجتازها مشكلة تعليم الفتاة المصرية الآن

ولما كانت معظم البلدان التي أخذت بجانب من التعليم المختلط ، او به كاملا ، قد فصل بين الدين والدولة ، في النظم السياسية ، فالتعليم المختلط في هذه البلدان ليس خاضعاً بوجه من الوجوه ، لمقتضيات التعاليم الدينية ونواهيها . فليس في أوربا او اميركا ، مرب واحد يحاول ان يقيم الحجة ، على وجوب فصل الاناث عن الذكور في التعليم ، لان النواهي الدينية تقضي بذلك . ولكن يقابل هذا ان فريقاً من المربين في الغرب ، يعترض على التعليم المختلط ويقيم أدلته على ما يلاقيه من المصاعب الادارية والعملية . ويواجه هؤلاء فريق آخر يؤيد نظم التعليم المختلط لما يجنى منه من الفوائد الاجتماعية والاقتصادية

ليس ثمة ريب في ان الولايات المتحدة الاميركية ، أكثر الامم أخذاً بنظام التعليم المختلط . فالاميركيون يؤمنون به كل الايمان ، ولذلك تجدهم اخذوا به في جميع مراتب التعليم الاولي والابتدائي والثانوي والعالي بما فيه تعليم الحرف والصناعات والفنون . ومع ذلك لا تزال بعض الجامعات الاميركية العظيمة ، كجامعات يايل وهارفرد وبرنستن مقتصرة على الشبان فقط ، حالة ان طائفة من أهم الكليات الاميركية ككليات فسار وبرن مور وسمث مقتصرة على الشابات فقط . الا ان جميع جامعات الدولة ، في الولايات الثماني والاربعين اخذت بنظام التعليم المختلط ما عدا واحدة منها

وفي مقدمة الادلة التي يوردها المعترضون على التعليم المختلط في اميركا (١) ان تعليم البنات والشبان معاً يجعل من المتعذر على القائمين بشؤون التعليم ، ان يفرقوا تفريقاً طبيعياً بين دروس الجنسين ، وفقاً لاستعداد كل منهما وحاجاته . فهذا الدليل قائم على ان التعليم ليس مجرد تدريب عقلي يصلح للفتيان كما يصلح للفتيات بقدر واحد ، ولكن التعليم في نظرهم اعداد الافراد بما يلزم لهم من الآراء ووجوه التمرين والدربة للقيام بما يطلب منهم في المجتمع . فهذا الرأي يفرض ان ما تحتاج اليه الفتيات من الناحية الاجتماعية ، غير ما يحتاج اليه الفتيان . (٢) ويقول المعترضون في اميركا على التعليم المختلط ، ان الجنسين يجب ان ينفصلا في دور المراهقة حتى يستطيع كل جنس ان ينمي على حدة الصفات التي يتميز بها والتي ركبتها الطبيعة فيه . فالتعليم المختلط في مرتبة التعليم الثانوي قد يحول بوجه عام دون اكتمال الخصائص الانثوية في الفتاة وصفات الرجولة في الشاب . ولما كانت الفتيات اسرع الى البلوغ من الصبيان فمن الواضح ان الصبيان في اميركا لا يرغبون ان ينافسوا البنات في مرتبة التعليم الثانوي ، لان البنات يفقنهم نشاطاً عقلياً وثقة بالنفس . ومما يزيد في هذا الشعور ان البحث الاستقرائي اثبت بعض الشيء ان البنات في هذه المرحلة من مراحل التعليم ، يقبلن على اعمالهن المدرسية بهمة تفوق همة الصبيان ، ولعل ذلك ناشىء عن رغبتهن في اثبات جدارتهن بمساواة الجنسين ، فيبذلن من الجهد في دروسهن ما يجعل الامتياز المدرسي معقوداً بلوائهن على الغالب . وهذا بحكم الطبع يعزز في الصبيان شعورهم بتفوق البنات عليهم وقد يفضي الى تأثير نفسي يصعب استئصاله في ما بعد

اما حجج المؤيدين للتعليم المختلط في اميركا ، فاهمها (أولا) ان التعليم المختلط في جميع مراحله — الا في المدن الكبيرة — أدعى الى الوفر والاقتصاد . (ثانياً) من شأنه بث الروح الدمقراطية والمساواة بين الجنسين (ثالثاً) انه يعزز روح المنافسة الشريفة والتعاون بين الجنسين ، وهي روح لا بد من تعزيزها لمواجهة مشكلات الحياة بعد عهد الدراسة . (رابعاً) انه يبدد في رفق الاوهام التي تحيط علاقة الجنسين احدهما بالآخر ، وتقيم هذه العلاقة على اساس خال من الكلفة وهو ما تقتضيه احوال المجتمع الحديث في الاعمال والحياة الاجتماعية . هذا ما يمكن ان يقال بوجه عام عن آراء المؤيدين للتعليم المختلط والمعارضين فيه

ولكن التعليم المختلط في معاهد التعليم العالي ، لا يحتمل جدلا في نظر الفريقين . ذلك انه من المتعذر انشاء جامعات خاصة بالشبان واخرى خاصة بالشابات ، لان مهمة انشاء الجامعة والانفاق على اعدادها وجمع طائفة من الاساتذة الممتازين ليس بالعمل السهل ، علاوة على كثرة نفقاته . فقد جاء في دائرة معارف التربية ما يلي : « واما في ما يتعلق بالتعليم الجامعي ، فمن الواضح ان ابواب المعاهد العالية تفتح للنساء عند ما تشتد مطالبتهن بذلك لأن التعليم المختلط هو السبيل الوحيد لاتاحة هذه الفرص للنساء . ان نفقات التعليم الجامعي تجعل انشاء جامعات خاصة بالنساء امراً متعذراً تقريباً »

الصحافة وأثرها

في النهضات القومية

محاضرة الدكتور سبنسر

عميد كلية الصحافة بجامعة سيراكوز بأمريكا والاستاذ
الزائر بقسم الصحافة بجامعة القاهرة الاميركية

سيداتي سادتي : تشيد الامم الحديثة مجدها على دعائم خمس هي — زعامة دينية رشيدة وقادة محنكون في شئون التربية واساطين في فنون المال وقضاء عادل وصحافة نزيهة . لقد ذكرت الدين في مقدمتها لانه اساس الخلق المتين ومن بغير الخلق المتين يتسنى له ان يحكم الشعب واية امة كسرت شوكة الاخلاق فيها تستطيع ان تحافظ على كرامتها ومجدها بين الامم الاخرى . يحدثنا التاريخ القديم ان مصر بذت امم العالم يوم كان الدين فيها قوياً ثم تدهورت من سماء عليائها حين انهارت اركانه وتهدمت دعائمه . اما قادة التربية فلا غنى عنهم لنقل تراث امتهم العقلي من السلف الى الخلف وهم اذا قصروا في مهمتهم اسرعت شعوب اخرى فنشرت في بلادهم مدارسها واساليب التربية فيها وفرضت عليهم ثقافتها ومدنيتها فتنقطع حينئذ الصلة بين حاضر الامة وماضيها

ولرجال المال المحنكين والمصارف الثابتة اعظم شأن في ازدهار التجارة وانماء الصناعة والقيام بالمشروعات الاقتصادية التي تقف على نجاحها سعادة الامة المادية والامة التي لا تستطيع تثمير اموالها وتدعيم سياستها الاقتصادية هي امة ضعيفة يعاني اهلها شظف العيش ومذلة الفقر والهوان

وما احوجنا الى قضاء عادل يفقه التشريع ويطبق القوانين تطبيقاً يضمن العدالة لجميع افراد الشعب على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم فلا يرهب رجاله القوة ولا يعمي المال بصائرهم وانما يضعون القانون فوق نزعاتهم الشخصية بل فوق كل اعتبار آخر وبذلك تتضاعف ثقة الشعب في نزاهة حكومته والخطر كل الخطر في ضعف ثقة امة بحكومتها . اما الصحافة النزيهة فمهمتها عظيمة ومسئوليتها خطيرة فهي تضع امام الوطنيين صورة جلية من حقائق الحكم وما ينبغي ان يكون عليه اتجاههم نحو هذه الحقائق وتوضح المسائل القومية العامة ومدى اتفاقها او تعارضها مع الرغبات الخاصة للشعب افراداً او جماعات وتبين مدى تأثر المشكلات الداخلية وارتباطها بالحركات العالمية

ان مكانة الصحافة في بناء النهضة القومية لاي بلد ترتكز على مسؤولية مزدوجة : مسؤولية

الامة ومسؤولية الصحافة نفسها. فمسؤولية الامة نحو الصحافة هي ضمان الحرية لها لنشر جميع الاخبار من كل نوع يهم المجتمع الوقوف عليه سواء في ذلك الاخبار المحلية او القومية او الدولية تنشرها دون قيد ولا شرط وما من شك في ان اي تحديد حرية النشر يضعف من ثقة الامة في الصحافة والحكومة معاً — الصحافة الناشرة والحكومة المقيدة . وقد لا يظهر الاثر في هذه الثقة بعد عام او جيل ولكنها اخيراً لابد ان تنهار وتتهدم . اقول اخيراً لاني اتحدث هذا المساء عن النهضات القومية وهي لا تمتد الى شهور وسنين فقط بل الى قرون. فالامم العظيمة تضع خططها وترسم سياستها مقدماً لعدة اجيال . اما ما يسرنه اليوم بمشروع الخمس السنوات فهو خيط واه في نسيج تقدم الامة

وقد قال ابراهام لنكلن قولاً مأثوراً أصبح مثلاً في الولايات المتحدة الامريكية وهو « قد تستطيع ان تخدع بعض افراد الشعب طول الزمن وتستطيع ان تخدع جميع الشعب ردحاً من الزمن ولكنك لن تستطيع ان تخدع كل الشعب طول الزمن » . فانه لا بد ان يأتي وقت يعرف فيه الشعب ان الصحافة لا تنشر من الاخبار الا ما يرضي الحكومة او ما تخدم به طبقة خاصة من طبقات الشعب او حزباً معيناً او مذهباً خاصاً وعندئذ تنهار قوة هذه الصحيفة كعامل في بناء النهضة القومية . واني اكرر قولي واحذر من ان تقف الصحيفة جهودها على خدمة طبقة خاصة او حزب معين او مذهب خاص لان حرية الصحافة قد تبيحها الحكومة ولكن يقيدها الشعب . فان الصحافة التي يتعرض محرروها لسخط العامة وتتعرض دورها لمهاجمتهم لانها تنشر مقالات او اخباراً قد تتعارض مع رغبات ذلك الحزب او هذا المذهب فانها لا تعد من الصحافة الحرة ولكنها تعد مغلولة مقيدة

قال الرئيس ولسن ان اخبار اليوم هي غذاء الرأي العام وهذا الغذاء ضروري لجميع طبقات المجتمع لنماء عقولهم واعداد مكانهم فوق صرح النهضة القومية ومصدر هذا الغذاء هو الصحافة الاسبوعية واليومية فان الاخبار التي ينشرها المذياع هي بعض ما تنشرها تلك الصحافة. فمن الواجب ان يقدم الغذاء كاملاً نقياً . ان الصحافة التي تعتمد على هيئات خاصة وتتقيد برغباتها لا تستطيع آداء مهمتها في النهضات القومية . واذا ما منحت الصحافة حريتها كاملة وجب عليها ان تبذل كل جهودها في سبيل خدمة الهيئة الاجتماعية والامة خدمة حقة تكافىء ما هيء لها من مسالك ممهدة . واخص واجباتها هي خدمة الجمهور الذي يقرأ اخبارها وموالاة جهودها لمصلحته

وكما ان اخص واجبات رجال القضاء خدمة العدالة وعلى اساسها يفصلون في جميع القضايا فاهم واجبات الصحافة اسعاد المجتمع وعلى قدر ما تبذله من جهود في هذا الشأن تقدر منزلتها وقيمتها وعلى هذا يجب ان تعتبر الصحافة نفسها معهداً للخدمة العامة

وغير خاف ان كثيراً من المحررين قد لايتهيأ لهم الوصول الى المثل الاعلى الذي تتطلبه الصحافة ولكن ذلك لن يقلل من مسؤولياتهم نحو المجتمع فان في كل مهنة رجالاً قد لا تفخر بهم حرفتهم وليس ذلك في صناعة دون الاخرى بل في كل طبقة حتى في رجال الدين انفسهم وفي رجال القضاء والتربية . ولا أتردد ان اقول ان في خدمة الحكومة رجالاً لا يهمهم شيء اكثر من تناول مرتباتهم . وهنالك فرق بين المحرر وبين غيره من الناس . لان خطأ المحرر مشهور ظاهر للعيان . وقد قيل ان رجال الدين اذا اخطأوا يستغفرون الله فيغفر لهم والمحامي قد يستعين بمنطقه وجداله للتخلص من خطأ وقع فيه . وكذلك المدرس والطبيب ففي قدرة كل منهم ان يعمل من الحيل ما يستر به خطأه. ولكن المحرر اذا اخطأ ظهر خطاؤه واضحاً امام الناس وثبت في نفوسهم. فالمحرر مهما اوتي من اللباقة وحاول ان يستر خطأه او رأب صدعه يستحيل عليه ان يخدع القارئين

ومهمة الصحافة في النهضة القومية ان تتناول توضيح شؤون الامة لنفسها كي تتخذ خطة قومية حيالها ثم هي تقوم باظهار حقيقة امتها امام الامم الاخرى ثم تظهر حقيقة الامم الاخرى امام الشعب الذي تقوم على خدمته . وقد يكون التوضيح بطريقة مباشرة فتسجل الحوادث الهامة يوميًا وان تقف جهود الصحفي على هذا التسجيل فحسب بل يجب ان يوضح بقلمه علاقة الحوادث بعضها ببعض . اكثر صحفنا يؤدي خدمة جليلة بتسجيل الحوادث المحلية وتوضيحها للشعب فبفضل الصحافة والمذياع الذي يستقي اخباره من الصحافة يوقف الشعب على كل ما يحدث في امته . وها هي مصر اليوم في نهضتها القومية مدينة بشعلة حماستها الوطنية التي تبهر بصر كل زائر لبلادكم مدينة للصحافة التي لم تأل جهداً في اذاعة الاخبار لاثارة الرأي العام واثارة الحماسة الوطنية الى درجة لم تعرف من قبل . ويقلل من فضل الصحافة التي تنعكس على مرآتها صفحة الشعب للحكومة والحكومة للشعب عيب واحد وهو ان من يريد الوقوف على دقائق الأمور لا تكفيه صحيفة واحدة ولكنهُ في حاجة الى قراءة صحف عدة وهذا كما نعلم يحتاج الى تعديل في الصحافة ليكتفي القارىء بصحيفة واحدة . والصحافة متهمة اليوم بكثير من العيوب منها اثارة الرأي العام وعدم الدقة في كشف الحقائق والمغالاة في نشر حوادث الاجرام غير ان النقد الذي يوجه اليها بحق ناشيء عن حزبية أكثرها وما تفرضه هذه الحزبية من أثر في رواية الاخبار وكتابة المقالات وكل ما تنشره من الشؤون السياسية . من المشاهد ان الصحف التي توالي الحكومة لا تظهر أي خطأ في أعمالها فجميع أخبارها تحبيذ لسياستها وكل مقالاتها مدح واطراء لها . ومن جهة أخرى نجد الصحف المعارضة للحكومة لا ترى شيئاً حسناً في كل ما تقوم به الحكومة فجميع اخبارها السياسية موجهة ضدها وكل مقالاتها حملات منظمة عليها. لهذه الحملات العدائية وما تنطوي عليه من تجريح غير عادل للزعماء السياسيين نتيجتان : —

الأولى انهُ قد يأنف كثير من ذوي العقول الفذة والمقدرة النادرة عن الاشتغال بالمسائل العامة وخدمتها فان هؤلاء السادة لا يتحملون الهجوم اليومي على أشخاصهم والتدخل في كل كبيرة وصغيرة من شئون حياتهم بل والخوض في أخص حياة أسرهم والتعريض بها أمام جمهور قد يكون مريضاً . نحن نعرف رجالاً ممتازين كانوا يودون أن يقفوا حياتهم على خدمة وطنهم ولكن مغالاة الجرائد في مناصبتهم العداء حالت دون تحقيق أمنيتهم . وهنالك عيب أكثر خطراً وهو محاولة هدم ثقة الشعب التي يوليها زعامته الوطنية وحكومته النيابية . فكم من حرب ضروس شنتها الصحافة المعارضة على رجال الحكم وكان من نتائجها اضعاف ثقة الشعب في زعمائه حتى ليعتقد رجل الشارع أن كل هم رجال الحكم انما هو الاستيلاء على مرتباتهم في آخر كل شهر واستغلال مناصبهم لكسب شخصي لا يقره القانون

لقد أنشأتُ عدة جرائد صغيرة في أوقات مختلفة وكان مبدئي في تحريرها أن تكون مستقلة عن جميع الاحزاب فكنت امتدح الرجال وأشد أزرهم لمجرد نزاهتهم وقويم مبدئهم وليس لانتمائهم لاي حزب مهما كان لونه . وأني حين كنت أخوض معركة انتخابية اخفق فيها من أعاضده — ومن الحق ان اقرر اني طالما خسرت في هذا السبيل — فاني كنت أحذر جرائدي من مهاجمة ذلك الموظف المنتخب الذي كنت أعارض في انتخابه ما لم يأت عملاً لا يقره القانون وتتوافر لديَّ أدلة لا تقبل الشك في انهُ اذا قدم للمحاكمة تثبت ادانته . هذه الخطة تؤلف بين ابناء الامة وتوحد صفوفهم واذا ما تحدثت امة حول رجال الحكم فيها فانه لن يسهل على احد أن ينال منها او يتعجل الحوادث او يدعي النبوءة بنتائج ما قد تقوم به السلطة الادارية او التنفيذية من اعمال

ان الصحافة في مجموعها تحسن اداء واجبها عند توضيح علاقة المسائل الدولية بالمسائل الوطنية وما يتصل منها باعمال جمهور قارئيها غير انهُ كثيراً ما تنشر الجرائد اخباراً لا قيمة لها مما يحدث في الممالك الاخرى فياحبذا لو وجهت جهودها الى الاتجاهات والعوامل الاساسية الوثيقة الاتصال والشديدة التأثير في احوال الامة او المجتمع . اما عمل الصحافة باظهار حقيقة امتها امام الامم الاخرى فما يزال يفتقر الى كثير من العناية ولست اقصد بذلك صحافة بلد خاص بل صحافة العالم اجمع — وهنا يجمل بي أن اقرر أن صحافة بريطانيا العظمى قد تقدمت مثيلاتها في العالم في توضيح حقيقة شعبها لشعوب الممالك الاخرى . نعم نعتوا الجرائد الانكليزية بانها « جرائد دعاية » فحسب ولكن هذه تسمية لا تنطبق على الواقع فانها صحافة وطنية سامية استطاعت أن تنشر للعالم اسمى ما في البلاد البريطانية من مثل عليا وافكار ناضجة

لو سئلت عن الخدمات الجليلة التي تستطيع الصحافة المصرية ان تؤديها في بناء مجدها القومي لقلت بلا تردد ان اعظم مجهود ذا يؤتي اطيب الثمر يجب ان يوجه الى جعل مصر الحديثة

معروفة للعالم بحقيقتها . واني لا أستطيع ان احكم على مدى معرفة الدول الاجنبية غير الولايات المتحدة الاميركية للبلاد المصرية لاني لم اعش طويلا خارج بلادي اما عن الشعب الاميركي فان مصر الغابرة او مصر كما كانت ، معروفة حق المعرفة ، غير ان مصر الحديثة او مصر كما هي اليوم ، فمعرفة القوم بها ضئيلة . امس شهرة عظيمة لمجدها الغابر اما مجدها الحاضر فاني اخشى ألا يكون كذلك. لقد جعلت مصر اليوم نفسها مسرحاً ومرآة لامسها، اما يومها فاصبح مجهولاً لم تعره العناية حتى يضح للعالم رونقه الجديد

فالرجل العادي والمرأة العادية في اميركا لا يعرفان عن مصر سوى انها بلاد الاهرام وابي الهول وقبور الفراعنة ينحدر فيها نهر نحو الشمال فيغمر الارض سنويًّا بمائه متجهاً الى البحر

وعلى هذا فمصر مملكة تستهوي السائح بضعة ايام يجول في ربوعها ويطوف في ارجائها ليعود وجيوبه عامرة بالجعارين والتمائم وعلى حقيبة سفره بطاقة النزل دليلاً على انهُ زار الارض التي هرب منها بنو اسرائيل. فالاميركي العادي لا يعلم أن مصر بلاد لا مطر بها في بعض المناطق يسودها الجو المعتدل جل العام — وهو يجهل انها تنتج اجود انواع القطن ذي الشعرة الطويلة الممتاز في العالم — وهو لا يعرف فواكهكم وخضركم التي لا مثيل لها والتي تبدو لكم شيئاً عاديًّا — وهو لا يدرك ان مصر خير منتجع لقضاء العطلات وانها انسب مكان لاقامة ملعب عالمي في الشتاء. فالاميركي الذي لا يعرف هذه المحاسن لا يزور مصر في الشتاء ويؤثر ان يذهب الى انجلترا او جنوب فرنسا وايطاليا او اسبانيا. واني شخصيًّا لآسف على اني عشت نصف قرن قبل أن ازور مصر لاول مرة . فاذا استطاعت صحافة البلاد ان تجعل من اهم اغراضها تبيان المكانة الممتازة التي تتبوأها مصر الآن وما لها من مجد وحضارة رائعة واذا استطاعت ان تصور كل ذلك امام العالم تصويراً بارعاً فانها اذن تساهم باوفر نصيب في النهوض بهذه البلاد

واخيراً اود ان ابين لكم ان مقام الصحافة السامي انما يرتكز على ثلاثة اركان

اولاً — توجيه الرأي العام وذلك بالتعبير عن رغباته . ثانياً — عرض التطورات العالمية على الشعب خصوصاً كان له اثر مباشر في الاحوال المحلية قد يستفحل بمرور السنين . ثالثاً — عرض صورة لافراد الامة وشعبها وحاصلاتها امام العالم

فاذا اردتم ان يكون في الامة شعب مستنير فلا بد ان يلم افراد هذا الشعب بالمشكلات الهامة واغراض السياسة . واذا كان لا بد من زعامة رشيدة فواجب السلطات التنفيذية ان تعرف حاجيات الجماهير وتأثيرات التطورات الدولية في المملكة. واذا كان للمملكة ان تنعم بالرفاهية والرخاء فيجب أن يصور شعبها بالمظهر اللائق به امام اعين العالم لتتجه اليها الانظار وهذا المسلك يتيح الفرصة للصحافة لتأدية رسالتها في النهوض بالامة



عمر بن عبد الله

ابن ابي ربيعة

— ١ —

لجبرائيل جبور
احد اساتذة الادب العربي
بجامعة بيروت الاميركية

دنا موسم الحج عام ٢٣ للهجرة وكان موسماً حافلاً ، فقد كانت خلافة عمر بن الخطاب وكان العرب قد اخضعوا الفرس والروم وغلبوهم على ممتلكاتهم في العراق وفارس وفي الشام ومصر . وكان قد تحدر الى الحجاز سيل كبير من سبي هذه الاقطار فرِّق في أهليه وأخذ يقوم لهم في مختلف الاعمال وشرعت وفود الحجاج تؤم بيت الله الحرام قادمة من بلدانها المختلفة يتقدمهم عمال عمر عليها . وكان من سنته فيما يروون ان يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة فيحاسبهم ويناقشهم في سياستهم ويفسح لرعاياهم مجالاً لشكايتهم

وانسلخت ايام الحج بهدوء وسلام فنفر الناس الى اوطانهم وغادروا مكة الا من آثر البقاء فيها للتبرك بمشاهدها او العيش في حماها ، وعاد عمر الى المدينة مقر خلافته مع من يممها من عماله واتباعه وغيرهم من ذوي الحاجات وشهر ذي الحجة لم ينسلخ بعد

وكانت ليلة السادس والعشرين من الشهر نفسه . القمر في اواخره ولم يبق له الا ايام اربعة حتى يولد من جديد وقد وافقت ليلة الرابع من تشرين الثاني فكانت ليلة من ليالي قلب الخريف الثقيلة المظلمة ، وقد رقدت يثرب مدينة النبي في هدوء ذلك الظلام واجمة ساكنة غير عالمة بما خبأه لها من الامر صبح ذلك الليل

هو ذا الفجر يتنفس فينعش طيب انفاسه ما حول المدينة من ربى واودية ثم هو ذا هو يتحرك فيبرز أُحُد ويظهر العقيق وتدب الحياة في ساحات طيبة فينتفض المصلى والبلاط والبقيع ، وقد نهض الخليفة عمر باكراً الى الصلاة كعادته وأخذ الناس يتهافتون متزاحمين الى مسجد النبي فوكل بالصفوف رجالاً حتى اذا استوت تقدم هو فكبر

ودخل في هؤلاء الناس رجل فارسي ، مولى المغيرة بن شعبة ، لعله لم ينم تلك الليلة ، او لعله كان يرقب مثل تلك الليلة المظلمة لينفذ في فجرها جريمته النكراء ، فاستوى في الصف الاول ، ملفع الرأس ، متنكراً ، وقد اتخذ خنجراً طويلاً له رأسان مقبضه في وسطه ، وهو ذا هو يبدر من صفه ، والخنجر بيده ، حتى يصل الى الخليفة عمر ، فيطعنه ، فيقع عمر وينادي وهو يعالج الموت بابن عوف ان يتقدم الناس بالصلاة

مات الفاروق وذاع النبأ في المدينة فاستسلمت الى حزن عميق ، وانها لفي حزنها وصوت النعي بمقتل شيخ قريش يتردد في كل بيت من بيوتها لينقله الركبان الى سائر انحاء الجزيرة والعالم العربي ، اذا بصوت البشير في بيت صحابي اسمهُ عبد الله ابن ابي ربيعة يؤذن بولادة صبي لهُ . قالوا فسمي الصبي باسم الخليفة المقتول وكُني كنيته . وذكر هذا الاتفاق لبعضهم فيما بعد فقال : « أي حق رُفع وأي باطل وُضع »

واذا عيت هذا الصبي الى قبيل فالعرق كريم هو من قريش وما أدراك ما قريش . قريش فخر العرب ، واذا نسبتهُ الى عشيرة فالنسب شريف ، مخزوم ريحانة قريش ، بل هو من أشرف فروع مخزوم — بني المغيرة — واليهم كان يحب أن ينتسب

بني فانظري أسماءه هل تعرفينهُ أهذا المغيري الذي كان يذكرُ

وعزّ المغيرة في قريش كلها فكان سيدها وأنجب أولاداً نبغ منهم ثلاثة : هشام والوليد وأبو ربيعة . اما هشام فقد عزّ كأبيه حتى لقب برب مكة وضرب بأسه المثل وتغنى بمجده الشعراء حتى اذا مات أخذت قريش تؤرخ بوفاته وفيه قيل :

وأصبح بطن مكة مقشعراً كأن الأرض ليس بها هشامُ

وأما الوليد فقد ساد حتى لقب بالوحيد وزعموا انهُ أمّر وهو صغير على الأكابر من رجال قريش وحكم في عكاظ وأدرك محمداً نبيًّا فأنكر عليهِ رسالته وقال : أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها . فأنزل فيهِ : « وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم » وأنزل فيهِ مرة أخرى : « ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت لهُ مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت لهُ تمهيداً ثم يطمع أن أزيدَ كلاّ انهُ كان لآياتنا عنيداً » . وأما ابو ربيعة فكان فارس بني المغيرة قاتل يوم عكاظ برمحين فيما يزعمون فسمي ذا الرمحين وقد قال في هؤلاء الثلاثة الشاعر متغنياً بمجدهم :

وبلّغ ان بلغت بنا هشاما وذا الرمحين بلّغ والوليدا
أولئك ان يكن في الناس جودٌ فان لديهم حسباً وجودا
هم خير المعاشر من قريشٍ وأوراها اذا قدحوا زنودا

وخلف هشامٌ أبا جهل فكان من اشد خصوم النبي هو وابنه عكرمة . فلما وفد الأخير على النبي بعد فتح مكة داخلاً في الاسلام استبشر محمد بقدومه ووثب فيما قال الطبري قائماً على رجليه فرحاً بعكرمة وقال : مرحباً بالراكب المهاجر . وقال ابن ابي الحديد : « لم يقم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله لرجل داخل عليه من الناس شريفاً ولا مشروف الا عكرمة وهو بعد مشرك ولم يسلم »

وكان من ابناء الوليد عمارة وخالد ، والاخير معروفٌ في جاهليته مشهورٌ في اسلامه. وكان من ابناء ابي ربيعة عبد الله والد هذا الصبي الذي تركناه يتقلب في مهده على فراش وثير في بيت عز وشرف ومنعة وجاه وجود

وبلغ عبدالله من الغنى في جاهليته بحيث زعم الرواة انه كان يكسو الكعبة من ماله سنة وتكسوها قريش كلها سنة اخرى

وكان هؤلاء المخزوميين قد عز عليهم ان يقوم النبي من غير مخزوم فناهضه الكثير واستمر عبد الله في خصومته النبي حتى فتح مكة فاسلم. ومنه استسلف النبي ليلة حنين مالاً اعاده اليه بعد رجوعه. ثم عينهُ على الجند ومخاليفها في اليمن وبقي عاملاً عليها خلافة ابي بكر وعمر ، وقد كان وافداً مع الحجيج عام قتل عمر، وكان من الذين استشيروا — غير الستة — في امر الذي يخلف عمر، وبقي فيما يظهر عاملاً لعثمان طول خلافته ، حتى اذا حوصر عثمان يوم الدار وفد عبد الله من اليمن لنصرته ، فسقط عن راحلته ومات وصبينا عمر لم يتم الثانية عشرة من عمره. ولهذا فلا نرى في كل المصادر التي بين ايدينا خبراً عن اتصال عمر بوالده. ويظهر ان اخا عمر الحارث وكل في امر عمر بعد موت ابيهما

اما ام عمر واسمها مجد فقد كانت يمنية من مخنج زعموا انها سبية ولعلهم اخطأوا في هذا. وهناك ما يدعو الى ان يخطئ الرواة في مثل هذا الامر . ولقد اتصل عمر بأخواله في مخنج وزارهم اكثر من مرة. ويخيل الي ان والد عمر قد زوج بن مجد اثناء ولايته على الجند ومهما يكن من الامر فقد زعم الرواة أن الغزل انحدر من اليمن من ناحية أمه حيث يقال «غزل يماني ودل حجازي»

وكان لعمر اخوة احدهم الحارث الذي ذكرنا. وكان من ام حبشية وقد ساهم في سياسة ذلك العصر فكان عاملاً لعبد الله بن الزبير على العراق او بعض مدنه لبضع سنوات. وقد قال فيه عبد الملك بن مروان خصمه : ان أمنا ولدته لمنجبة . وكان لعمر اخ آخر اسمهُ عبد الرحمن زوّج من بنت ابي بكر ام كلثوم بعد موت زوجها طلحة وهي اخت عائشة ام المؤمنين واخت أسماء ذات النطاقين والدة عبد الله بن الزبير وهذا يفسر لنا اتصال عمر بآل الزبير ، وبعائشة بنت طلحة ابنة امرأة اخيه

ولقد زوّج عمر من غير واحدة ورزق اولاداً ذكرت الاخبار منهم اثنين صبياً وبنتاً. اما الصبي فهو جوان وقد نشأ رجلاً صالحاً ضرب بصدقه المثل. واما البنت فقد زوجت من محمد ابن مصعب بن الزبير

﴿ نشأته ﴾: كم يكابد الباحث في تاريخ رجال القرون الاولى من العناء اذا حاول درس نشأة هؤلاء الناس وحياتهم ايام صباهم. ويظهر ان القدماء قلما كانوا يعنون في الالتفات الى هذه الامور فلم يكن من همهم شان الصبي حتى يبلغ او يشتهر بفن او حرب او شعر او حتى يلي او يملك وقلما عنوا ايضاً كما يعنى مؤرخونا اليوم بتدوين سير الرجال في كتب خاصة . فاكثر اخبار رجال التاريخ العربي قد انتثرت بين طيات شتى الكتب. فترى اخباراً عن شعراء في كتب الحيوان وأخرى عن رجال الحرب والسياسة في كتب الأدب . غير أن عمر نال من عناية هؤلاء القدماء شيئاً ليس باليسير. فقد كتبت عنهُ فيما يظهر كتب خاصة قصرت على اخباره . قال ابن النديم : إن عمر كان من الذين عشقوا وألف في اخبارهم وروى ان لابن بسام الشاعر من الكتب كتاب اخبار عمر بن ابي ربيعة . وقال : ولم ارق معناه ابلغ منهُ. وروى ايضاً أن للزبير بن بكار كتاباً في أخبار ابن ابي ربيعة ، وذكر ابن خلكان ايضاً ان لابن بسام المذكور في التصانيف اخبار عمر ابن ابي ربيعة. وزعم انهُ لم يستقص احدٌ في بابهِ ابلغ منهُ . ولكن مع الاسف قد ضاعت كل هذه الكتب. ولولا ان ابا الفرج الاصبهاني قد التفت الى عمر فأفرد له في « أغانيه » قدراً لم يفرده لشاعر آخر او ملك او امير لكانت حياة ابن ابي ربيعة وبعض اخبار حبه في عالم الخفاء ، ويجب ان لا ننسى ان عمر قد خلف لنا ديواناً من الشعر غير ان هذا الديوان على كبره غير تام. ويظهر لي ان اكثر شعر عمر قد ضاع . ولهذا كله فانا لانزال نجهل اخبار نشأة عمر الاولى فكيف قضى صباه ? واين ? ومن أين اتاه الشعر ? وكيف نهج هذا المنهج ? كلها امور يصعب درسها

واري ان كثيراً من نواحي حياته في طفولته وصباه سيظل غامضاً مبهماً حتى يقيض الله لاحد العثور على بعض هذه الكتب التي ذكرنا — أن كان فيها ما ينقع غلة — او على الاقل على ما ضاع من شعره .

﴿ أين نشأ ﴾: والراجح انهُ نشأ في المدينة عاصمة الحجاز يومئذاك ومقر الخلافة ، دون ان يفوتهُ التردد إلى مكة موطن آبائه ، وكانت المدينة آنذاك في عصرها الذهبي تنعم في لين العيش ، مالٌ عظيم وغنى وافر وشباب انقطعوا عن السياسة وانصرفوا الى اللهو وجوار بالالوف وزّعن في بيوت سراة القوم فنشرنَ فيها كثيراً من حضارة اقوامهنّ ذوي المدنية من فرس وروم مع ما يتبع هذه الحضارة من ضروب اللهو والوان العبث . ففشا الغناء وعقدت له حفلات عامة

وخاصة ، وكان عمر من أسبق المترددين اليها . وينتشر اختلاط الشباب بالجواري وغيرهن فنشأ العبث . وكان في المدينة وادٍ بهيج هو العقيق متنزه أهل اللهو في ذلك العصر ، فكانوا اذا سال يهرعون اليه رجالاً ونساء ويقعدون حول ضفافه حلقات الانس والطرب ويلتمس بعضهم المغنين فيسمعونهم من عذب اصواتهم وينزوي آخرون تحت نخيله يلهون ويبثون

***

تلك نسمة تفردت بها المدينة بين سائر مدن الحجاز ولم تكن لتحظى بها الا اذا سال العقيق ولهذا لم يفت هؤلاء الناس الذين كاد يخلو قطرهم من الماء والخضرة ان ينعموا بهذا الحظ النادر ، فكان العقيق يجذب اليه الجماهير فينتشرون على ارضه يتمتعون بهذا الجمال الذي يحيط بهم كل في لهوه توحد بينهم البهجة والسرور والدعة وهم في صعيد واحد لا تسمع منه سوى أصوات المغنين وأنات المحبين ونجوى العاشقين فيبدو العقيق في روعته ليلتذاك كبقعة من الجنان خلت من الآلام ونامت على أطيب الانغام وعنت بأحلى الاحلام . وتفتش عن عمر فتراه في كل مكان ، فهو تارة في حلقة غناء يستمع الى بعض المغنين والمغنيات وطوراً في مجلس أنس يحدث الغانيات الفاتنات وحيناً آخر في موكب صديقه عبد الله بن جعفر يتنقل بين تلك الحلقات وتسمع مع خرير المياه في ذلك الوادي وهمسات النخيل وهبوب النسيم أحاديث وأدباً وظرفاً تنبئك عن كل العقيق . وتبحث عن عمر فتراه واسطة عقد هذه المحادثات وظريف هذه المجتمعات وشاعر هذه الحلقات

ويدنو موسم الصيف وترتحل عائلات السراة من المدينة ومكة الى الطائف فيرتحل عمر الى الطائف يصيف مع المصيفات . إنهُ امرؤ قد وكل بالجمال فهو يتبعهُ أنى وجده . ويدنو موسم الحج فترى عمر أسبق الناس اليه وهو يرى الحج — على تعبير الدكتور طه حسين — معرضاً اسلامياً للجمال ، وهو ذا هو يقدم فيعتمر في ذي القعدة ويحل ويلبس تلك الحلل والوشي وركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمته ويلتقي المراقبات فيما بينهُ وبين ذات عرق محرمات ويلتقي المدنيات والشاميات الى الكديد . ويقسم قلب عمر بين اليمنيات والشاميات والعراقيات فلا يترك هذه حتى يتعلق باخرى ولا يعود من تشييع تلك حتى يودع اخرى يتحدث مع هذه ويتودد الى تلك ويتحسر لفراق هاتيك ويمر الوقت سراعاً فيتلهف عمر على كل لحظة تفرت لم يتمتع بها بهذا الجمال ولم يهنأ بها بهذا الحب فيصرخ من اعماق قلبه :

ليت ذا الدهرَ كان حتماً علينا كلَّ يومين حجةً واعتمارا

ثم يعود الى نفسه وقد غمرتها تلك الروعة ، واذا بها تذوب شعراً جيداً ينثره عمر وراء

الغانيات فينتشر في مواكبهن وركبانهن ويصل قبلهن الى ديارهن . وهو في بعض هذا الشعر يحاول ان يتعزى ويتأسى فلا يرى ما يعبر بهِ عن عزائهِ ويرد اللوم على عاذله سوى لقاء الحبيب في الموسم القادم :

فقلت له ما من عزاءٍ ولا أسى بمسلٍ فؤادي عن هواها فأقصرِ
وما من لقاءٍ يُرتجى بعد هذه لنا ولهم دون التفاف المجمرِ
فهاتِ دواءً للذي بي من الجوى والاَّ فدعني من ملامك واعذرِ

***

﴿ هيئته ﴾ : ليس من شك في أن عمر كان جميلاً . ولعل هذا الجمال كان من العوامل التي دفعت النساء الى حبهِ فجعلتهُ معجباً بنفسهِ حتى زعم البغدادي ان عمر كان يتغزل بنفسه لحسنهِ وجماله . ولكن هذا الحسن لم يوصف لنا كما وصف هو حسن اللواتي تغزل بهن فقد كان يكتفي بالافتخار بهِ . ويذكر أن النساء كن يطربنَ لجماله ويلهجنَ بهِ ويتشوقن الى صاحبه حتى نعته بعضهن — فيما زعم — بالقمر

وكان عمر — فيما يظهر — طويلاً رأتهُ احدى أميرات بني أمية في نفرٍ من قومهِ وهم جلوس يتحدثون وذكرت أنهُ فرعهم طولاً وجهرهم جمالاً

وكان أسمر اللون شاحبه ناحل الجسم في اكثر الاحيان ولعل مصدر هذا هو السهر والسمر والتعرُّض لبرد الليل وحر الهاجرة في سراه وتهجيره . يلتفت الى هندامه وهيئته فيلبس أبهى الحلل ويتزين بأحسن الوشي ويتطيب بأعطر الطيب حتى قيل فيهِ انهُ كان من أعطر الناس وأحسنهم هيئةً ، وربما بلغ بهِ حبه للزينة أن خضب نجائبه التي يركبها بالحناء وكساها القطوع والديباج . وكان لهُ جواد وضع في عنقه طوق ذهب له غلام خاص يسوسهُ

وكانت له مشية خاصة فضحتهُ ذات يوم وقد تنكر فعرفتهُ فتاته الثريا فيها . وكان في وجهه أو بالاحرى في فمه علامة فارقة لا ندري تماماً الوقت الذي ظهرت فيه وهي اسوداد الثنيتين العُليَيَيْن ويزعم بعضهم أن الثريا إحدى حبيباته ضربتهُ في مداعبة بظاهر كفها وكانت النساء تختم في أصابعهن العشر فاصابت الخواتم ثنيته وكادت أن تقلعهما وخاف أن تسقطا فقدم البصرة في العراق فعولجتا له وثبتتا وسردتا . وكانتا في فمه من أعمق الذكريات

﴿ بعض نواحي خلقه ﴾ : لقد اتفق اكثر القدماء والمحدثين ان عمر شاعر تملكه الدل والتيه . ولعل مصدر ذلك هو الاصل الكريم الذي تحدر منهُ والجمال الذي منحهُ والشعر الذي أوتيه . أو لعل النساء كما يزعم البعض هن اللواتي افتتن بهِ وتنافسن فيهِ واستبقنَ الى مودتهِ

وتهالكهنَّ عليهِ فاضطرهُ هذا الى شيء من الدل والغرور. ولقد حدث عن نفسهِ فقال: لقد كنت وانا شاب أُعشق ولا أعشق. وقال من شعر يصف فيهِ مجلساً لصاحباتهِ ويذكر انه موضوع حديثهن أوله:

« هيج القلب مغان وصير »

لتي قالت لأتراب لها قطف فيهن انس وخفر
قد خلونا فتمنين بنا اذ خلونا اليوم نبدي ما نسر
فعرفنَ الشوق في مقلتها وحباب الشوق يبديهِ النظر
قلن يسترضينها مُنيتنا لو اتانا اليوم في سر عمر
بينما يذكرنني أبصرنني دون قيد الميل يعدو بي الاغر
قلنَ تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

روي ان ابن ابي عتيق لما سمع أبيات عمر هذه قال انت لم تنسب بها انما نسبت بنفسك انما كان ينبغي أن تقول قلت لها فقالت لي فوضعت خدي فوطئت عليهِ

وقد تصدت لهُ فتاة جريئة فقالت لهُ: لا اكون من نسائك اللاتي تزعم ان حبك تيمهن.

ولهُ يصف حب صاحبة لهُ:

وانها حلفت بالله جاهدة وما اهل لهُ الحجاج واعتمروا
ما وافق النفس من شيء تسر به واعجب العين الا فوقهُ عمرُ

ولهُ يدل بجماله ويذكر صبابة حبيبته، وخوفها عليهِ من العين:

اخشى عليهِ العين أن بصرت بهِ وترى صبابتنا بهِ فتبابه

بل قد غلا في دله وتيهه وتشوفه حتى زعم ان بعض الفتيات كن يكابدن عناء السفر ليلاقينه في الحج

اومت بعينها من الهودج لولاك هذا العام لم احجج
انت الى مكة اخرجتني ولو تركت الحج لم اخرج

ارأيت الى اي حد كان تيهه ودله وغروره. أرأيت كيف انهُ يرى ان النساء كن يشتهنهُ فهو مناهن وحديثهن وغايتهن في الحج: ماذا اقول، ان له بيتاً من الشعر غلا فيهِ حتى جعل نفسه موضع الانبياء عند حبيبته:

واذا ما عثرت في مرطها نهضت باسمي وقالت يا عمر

ولعل اظهر ميزة في خلقه بعد تيهه ودله الحاحه والحافه في كثير من الامور التي كان يحاولها أو يسعى لنيلها فهو يجدّ وراء غرضه حتى يناله ويلح في طلب حاجته حتى يدركها . ولقد يبدو لاول وهلة ان هذه الظاهرة من خلقه لا تتفق مع تيهه ودله والواقع انها اقرب ما يكون الى هذا الدل. بل لعلها أثر من آثاره، فهو اذ طلب حبيباً فامتنع عليه ابت عليه نفسه التائهة ان يخذل في سعيه فلا يزال وراء حبيبه ملحفاً ملحًا حتى يوقعها في شرك حبه ، وهناك يعاوده تيهه فيفخر في أنهُ أخضع هذه المتمنعة لسلطان حبه وقد جاء دوره ليدل ويتيه

***

ويندر ان نرى قصة من قصص حبه خلت من هذا الالحاح وراء التي أحبها . ذلك كان شأنهُ مع امرأة ابي الاسود الدؤلي وغيرها من النساء اللواتي كان يصادفهن في الحج . وقد رأى مرة كلثم بنت سعد المخزومية فهواها وراسلها فلم تجبهُ فأخذ يرسل لها الرسل ويلح عليها في الحب فتنكرت لرسله واخذت تضربهم وتأخذ عليهم العهود ألاَّ يعودوا وظل يبعث الرسل وظلت تكيد لهم حتى تحاموها . ولم يمل عمر ولم يتحامَ ولم يرجع عن طلبه بل ابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقة وأتى بها منزله فأحسن اليها وكساها وآنسها وعرفها خبره وقال إن اوصلت لي رقعة الى كلثم فقرأتها فأنت حرة ولك معيشتك ما بقيت . ووفقت هذه الجارية في رسالتها وكان جواب كلثم « ما زال عمر حتى ظفر ببغيته » . وكان يعترض مواكب الحجاج ليسأل عن هذه وتلك وما زال يلح ويحرص على التقرب منهن حتى تعقد بينهُ وبينهن روابط الحب

وهناك ناحية أخرى في ميوله غلبت صبغتها في اخبار حبه وشعره وهي ميله للتحدث والسمر مع السيدات ولطفه وحسن معشره . ولا أظن الادب العربي عرف صديقاً للمرأة سميراً لها اعظم من عمر . وكانت النساء جد معجبات بظرفه وحديثه يتشوقن اليه ويتمنينَ لقياه ويذكرنَ حلو سمره وأنس مجلسه

ومع ان عمر عرف عند البعض بالشاعر الفاسق فاني ارى في كثير من قصص حبه عفة لم يخالطها إثم . وقد انحصرت وقائعه مع الكثيرات على مجلس أنس وطيب سمر ولذة حديث وهو القائل :

فاجتنينا من الحديث ثماراً ما جنى مثلها لعمرك جاني

النشوء الخالق

قطعة من فلسفة برغسن

لحنا خباز

ولد هنري برغسن في باريس سنة ١٨٥٩ . فهو اليوم مناهز للثمانين من عمره وكان في صباه دارساً مجيداً بدا عليه من مخايل النجابة والذكاء ما أهّله للفوز بجميع جوائز المدرسة . ولكنهُ تخصص في درس الطبيعيات والرياضيات . فأوقفتهُ مواهبهُ الخارقة ، وجهاً لوجه ، امام الميتافيزيكا الكامنة وراء كل العلوم . فعرج على درس الفلسفة . ولذلك دخل « ايكول نورمال سوبريير » او مدرسة المعلمين العليا سنة ١٨٧٨ . وتخرَّج منها سنة ١٨٨١ فتعيَّن للحال معلماً للفلسفة في كوليج رولان . وانتقل سنة ١٨٩٨ الى كرسي الفلسفة في « كوليج دي فرنس » . وظلَّ في ذلك المنصب حتى استقال منهُ مؤخراً

مؤلفاته

اصدر برغسن سنة ١٨٨١ اوَّل مؤلفاته وهو كتاب « الزمان وحرية الارادة » . وسنة ١٨٩٦ أعقد مؤلفاته ، وهو كتاب « المادّة والذاكرة » . وسنة ١٩٠٧ آية فنّهِ ، وهو كتاب « النشوء الخالق » . وقد جعله هذا الكتاب بين عشيّةٍ وضحاها نبراس الفلسفة وزعيم اساطينها فهو الفيلسوف الاوحد في فرنسا بعد « ديكارت » ، وفي كل اوربا بعد « كنت » . واصدر في سنة ١٩٣٥ آخر مؤلفاته . وهو كتاب « اصلا الديانة والاخلاق »

كان برغسن في اول نشأته سبنسريًّا صمياً . يقبل نظرية النشوء وهي محور الفلسفة المركّبة ، التي بسطها سبنسر في مؤلفاته الضخمة . على انهُ كان كلما اعاد قراءة تلك المؤلفات يفقد حماسةً وحدّةً في قضايا ثلاث

الاولى : في المادة والحياة . الثانية : في الجسد والعقل . الثالثة : في الحتمية والحرية

كانت تجارب « بستور » البكتريولوجية قد قضت على نظرية التولّد الذاتي . وبعد مرور مائة سنة ، أجريت في غضونها الوف من التجارب ، لم يتقدّم الماديون خطوة واحدة في حلّ معضلة « أصل الحياة » . ومع ان الدماغ والعقل مترابطان لم يزل نوع الترابط بينهما سرًّا غامضاً

فبرز هنري برغسن في وسط العجاج المنعقد في جو اوربا بين الآراء المتناحرة . وكان ثائراً على الآراء الحتمية المادّية . وخلاصة فلسفته : « ليس هذا الكون نظام يقينية كاملاً » بمعرفتنا إياه ناقصة ، بل هو صيرورة او استمرار ، ومهمّة الفلسفة الرئيسية ان تمثل ما يقصر عنهُ العلم، وهو ادراك معنى الحياة » . فبدأ الحياة ، ذلك النبع الفياض الذي يدفع ويُغْري ويطور حركة الحياة بلا انقطاع ، ذلك المبدأ — elan vital — قد انشأ العقل ليتعرف عالم المادة العديمة الحياة

لست اجهل ان فلسفة برغسن اوسع من ان تجمع شواردها مقالة واحدة . ولا سيما بقلم رجل لم يدخل الفلسفة من أبوابها . على اني أورد في ما يلي ملخص قطعة من كتابهِ « النشوء الخالق » ، عنوانها « معنى النشوء » The meaning of evolution وردت في ص ٢٦٤—٢٨٦ من ذلك الكتاب . ولو ترجمت بحروفها الى اللغة العربية لشغلت ما لا يقل عن عشرين صفحة من مجلة المقتطف . واليك خلاصتها مع التبسيط والتوضيح تقريباً لمتناول غير الاختصاصيين

***

ان محرّك الحياة الاصلي في حاجة الى الخلق او الابداع . تعترضهُ في سبيلهِ المادّة . لكنهُ يتحكم بها ، ويبثّ فيها اعظم قدر ممكن من الحرية . وكيف ذلك ؟

الجواب : يمكن وصف الحيوان الراقي وصفاً عامًّا ، بأنهُ حاصل على الأعصاب المحرّكة المتكفلة بأفعال الهضم والدوران والتنفس والتمثيل . ووظيفة هذي الأجهزة تنقية الجسم العضوي وترميم ما تهدّم من خلاياهُ ، ووقاية المجموع العصبي ، وإمدادهُ بالنشاط الذي ينفقهُ الجسم في الحركة . وتتوقف زيادة تركيب الاجسام العضوية على ضرورة تركيب المجموع العصبي . والترابط بين أقسام الجسم العضوي ، يجعل العضو الواحد متأثراً بما يحدث للعضو الآخر . فيستمر التركيب فيهِ الى ما لا نهاية لهُ . وحفظ الجسم منوط بالمجموع العصبي فهو القوة الوازعة في مملكة الحيوان

ويقوم تقدُّم المجموع العصبي بارتقاء العملية الاوتوماتيقية ، والعملية الاختيارية . تعدّ أولاهما الثانية بآلة ملائمة . ففي الجسم العضوي محركات جمة ، في النخاعين الشوكي والفقاري ، تتوقع الاشارة للانطلاق في العمل الملائم . وهي تستخدم الارادة في بعض الاحيان لتعين وقت الانطلاق ، واختيار منهج الميكانيكا . وكلما زاد عدد الميكانيكات في الجسم العضوي زاد الدماغ ارتقاء . وذلك الارتقاء هو زيادة الضبط والتنوّع والفاعلية والاستقلال . فالجسم العضوي بهذا الاعتبار كآلة تعدّل ذاتها في كل فعل جديد ، كأنها مصنوعة من المطّاط . وقد وجدت هذي الصفة في « الاميبا » (أدنى طوائف الحيوان) قبل نشوء المجموع العصبي . وعملها حينذاك كعمل الجنين ، مستغنية عن التركيب الذي في أعلى طوائف الاحياء . اذ لا حاجة هنالك الى عناصر مساعدة ، تتحوّل محركات ، عملها توزيع النشاط

تتألف اعمال الحياة في أدنى طوائف الحيوان وفي أرقاها، من نوعين من الافعال رئيسين ،وهما
١ — احراز مدد الطاقة ٢ — انفاق ذلك المدد بواسطة مادة لدنة في جهات لا تُرى
ومصدر تلك الطاقة الطعام الذي تمَّ هضمه . والطعام المهضوم نوع من المتفجرات ، التي تنتظر الشرارة لاطلاق ما فيها من النشاط . وأصل الطاقة الاول هو الشمس ، تناولها منها النبات وذخرها في أجزائه . ثم تناولها الحيوان من النبات . تخزَّن تلك الطاقة في الاجسام العضوية كما تُخزَّن المياه في الاحواض ، والكهربائية في البطاريات . وكل ذرَّة من الكربون تمثل قدراً من الماء ، او حبلاً من المطاط ، بربطهِ بالاوكسجين الذي في الحامض الكربونيك . وهذا النشاط المخزون مستعد للانطلاق لدى كل سانحة . فكل حياة ، نباتيَّة او حيوانيَّة ، هي كناية عن جهد يراد بهِ جمع النشاط ثم اطلاقه . ذلك ما يرغب المحرك في المادة في اتمامه . ولا ريب في فوزه لو ان قوَّته غير محدودة، او أن وافاه المدد من الخارج. على أن ذلك المحرّك محدود القوَّة ، فيستحيل ان يتغلّب على جميع العقبات . وان قوَّته عرضة للمقاومة والتمزّق والتقهقر . ونشوء العضويات هو عبارة عن صدّ ذلك النزاع . واوّل مشاهد ذلك الحادث ،هو عالما النبات والحيوان ، المتبادلا التعاون دون سابق اتفاق بينهما (خلافاً للنظرية الحتمية) . لان النبات يجمع الطاقة لا لاجل الحيوان ، بل لاجل ذاته . ولكنهُ في واقع الامر، ينفق القليل مما ذخره على ذاته . ويحتفظ بالكثير الذي يتناوله الحيوان . ولا تمكن موازنة قوَّتي الخزن والانفاق في الجسم العضوي فيرجح الخزن في بعضها ، والانفاق في البعض الآخر ، دون تدخل قوة خارجية . بل يتم ذلك الفعل بالميل المزدوج الموروث من المحرك الاصلي

من هنا كان انشعاب النشوء في فرعين اصيلين ، هما النبات والحيوان وكلٌّ من هذين الفرعين يتصرّف كأنّ حركة الحياة تنتهي عنده ، لا انها مجتازة فيه ، فبذاته يُعنى لا بغيره ، ولاجلها يحيا ويعمل لا لكائن آخر. لذلك اصطدم التنازع في عالم البيولوجيا (على ما هو مرسوم في تفكير شوبنهور ونظرية دارون) . وليس المحرك الاصلي المسؤول عن ذلك التنازع

ليس من الضرروري توقف الحياة على الكربون . انما الضروري خزن الطاقة الواردة من الشمس .ومن الممكن ان يتم ذلك بغير ما ألفناهُ من الصور. وعليهِ فقد تكون الحياة في الكواكب في غير مجراها في سيّارنا هذا . ومن الخطأ الفاضح حصر الحياة في الكرة الارضية . وليس من الضروري حصر الحياة في الاجسام العضويّة . فان جمع الطاقة وانفاقها غير محصور في اختبارنا. فان الحياة سيكولوجية في جوهرها ونظامها .فهي غير فضائية كالمادة (اي انها لا تشغل حيّزاً) فان المادة والفعل مسبوكان في قالب الفضاء . ففي الفضاء وحدة وجمع . فالوحدة هي النقطة الهندسية ، والجمع هو النقط متجاورة (وخلاصة تفكير دمقريطوس ان المادة والفضاء هما كل ما في

الوجود) . اما طبيعة النفس فليست كذلك . « فأنا » — سيكولوجيًّا — وحدة في جمع ، وجمع في وحدة . فالجمعية والفردية مظهرا شخصيتي . هذي هي الحياة عامةً نهي كالشعر واحداً في معناه ، متعدداً في اباته وكلماته وحروفه . وهنالك توازن بين الفردية والجمعية . فاذا برز ميل في الحياة الى الفردية قابله ميل الى الجمعية . واذا برز ميل الى الجمعية ، قابلهُ ميل الى الفردية . أعني انهُ متى نشأت في الحياة جمعية مالت الى الانشعاب فينقسم الواحد الى فروع ، كما في النبات ، وفي الهيئة الاجتماعية حيث نرى الحزب الواحد ، او المذهب الواحد ، قد انشعب الى أحزاب او فروع . فتنشىء الهيئة الاجتماعية فرديات تحت جمعيها ، وجمعيات فوق فرديها . فالمديرية مثلاً جمعية بالمقابلة مع المراكز ، وفردية بالقياس الى الدولة . وهذي في دورها فردية بالقياس الى البشرية وجمعية بالمقابلة مع المديريات

والفرع في الشجرة جمعية باعتبار الاوراق ، وفردية باعتبار الاصل . وفي الخلايا الجسم العضوي جمعية بالنسبة الى الذرات التي تؤلفها ، وفردية بالنسبة الى الجسم الذي تؤلفهُ

في اصل الحياة شعور خافٍ ، تؤلف شذراته المتراجعة المادَّة . اما الشذرات المستمرة في وجهتها دون تراجع فتؤلف العقل . فالحياة صاروخ ، ينام ويستيقظ . ينام حيث تقضي على الحياة بالاوتوماتيقية . ويستيقظ حيث يمكن الاختيار والعمل الحر . ويتناسب ذلك الاختيار في الحيوانات الدنيا مع المحرك الاصلي . اما في الانسان فيتناسب مع المجموع العصبي ، الذي فيه المحرّك والحساس . فالكائن الحي مركز عمل فيه قدر من الامكان داخل الى الدنيا . يتفاوت ذلك القدر في الافراد وفي الانواع . وهو يبدو في حركات الاعصاب كأنهُ صادر من الدماغ . وهنالك نسبة بين درجة التعقد والتركيب في المجموع العصبي وبين درجة الاختيار والمقدرة على الادراك والعمل . والحقيقة ان الشعور الكوني المتصل بالنفس هو غير صادر من الدماغ (اراد بالشعور الكوني هنا غير الشعور الشخصي الذي ينحصر في الفرد الواحد من العضويات . فني فلسفة برغسن يشبه الشعور الكوني سحابة تملأ الفضاء . وقد تقسَّم ذلك الشعور ، كما تتقسم السحابة فكانت اقسامه نقطاً هي الشعور الشخصي)

ولكن ذلك الشعور الشخصي ، المفصول من الشعور الكوني يطابق الدماغ مطابقة ماء النهر مجراه . مع ان الماء ليس من المجرى . ولا هذا من ذاك . فلا يجوز الحكم على الانسان والحيوان بوحدة العقل . لان الفرق بينهما هو بالكيف لا بالكم فقط . والمشابهة الدماغيّة بينهما هي دون ما تتوهَّم كثيراً . (هنا معارضة صريحة للمذهب المادي ، والفكرة الموحدة عالم الحيوان والانسان) . الانسان ابداعي ، والشعور فيه غير محدود . اما الحيوان فهو عبد الميكانيكا ولكن الانسان سيد الميكانيكا . ومرجع ذلك في الانسان اللغة والهيئة الاجتماعية . تذخر الافكار

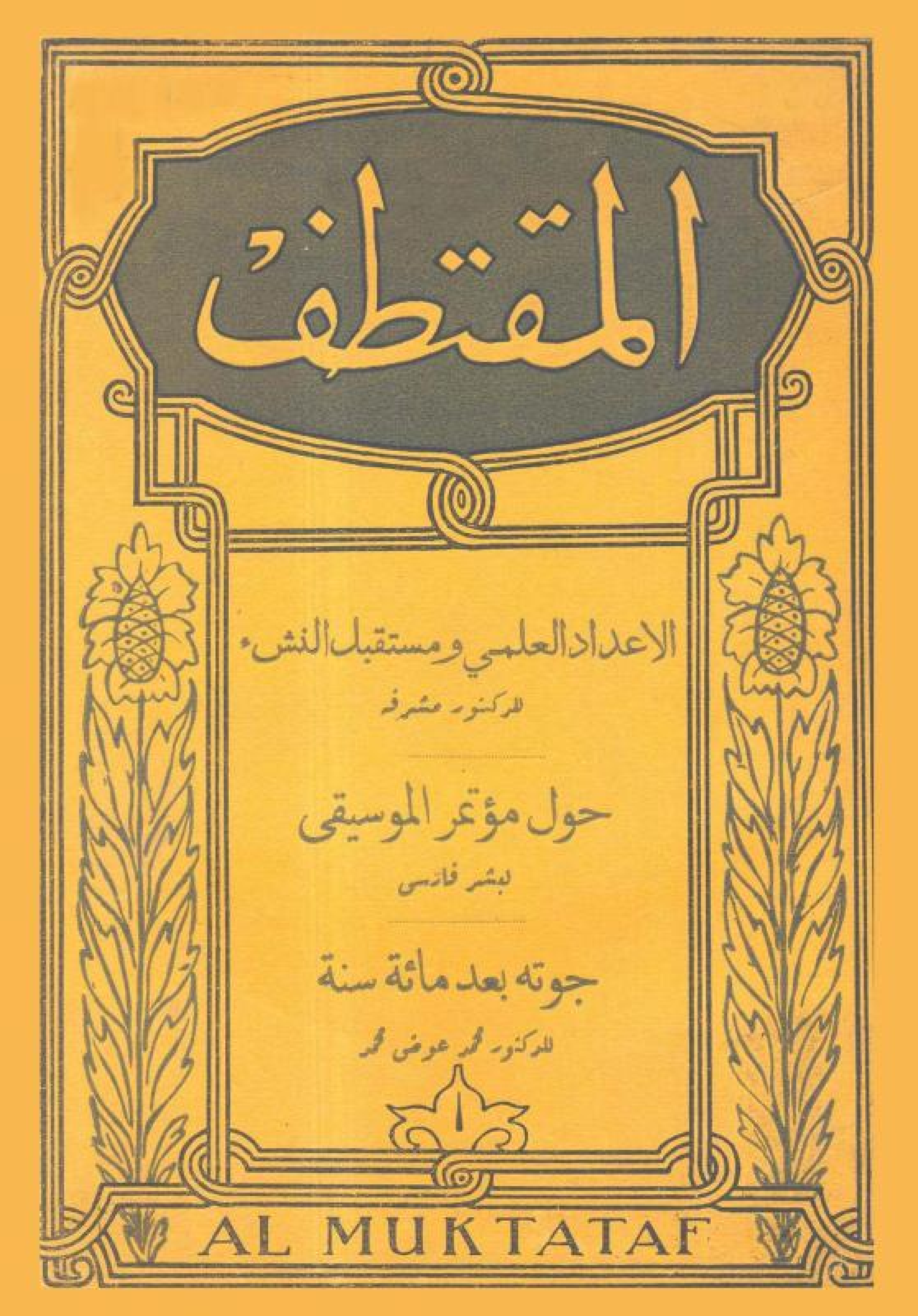
والجمود فيهما قُبِضان بهما الانسان من نوم النبات . فتركيب الدماغ والهيئة الاجتماعية علاقات خارجية لسموّ الانسان عن الحيوان . بهذا الاعتبار يكون الانسان غرض النشوء . والحياة تيّار في المادة ينزع منها ما امكنهُ . وواضح ان الطبيعة ليست لاجل الانسان . وهو مشتبك في التنازع ضمن دائرة الطبيعة ، كغيره من الاحياء . فليس الانسان ميزان النشوء ، بل هو نهاية احد خطوطه . (لا يرى برغسن ان النشوء سار في خطوط لا حصر لها ، وليس في خط واحد صاعد من المادة الى الانسان . لا . بل ان المبدأ الاصلي ، او المحرك الاصلي انشعب الى شعاب ، وشعابه الى شعاب . وقد انقرض بعض تلك الخطوط وظلّ في استمراره البعض الآخر . ومن تلك الخطوط في العالم الحيواني خط الفقاريات وخط الحشرات . فرأس الخط الفقاري هو الانسان ورأس الحشرات طوائف النحل والنمل . فاحفظ ذلك)

***

الحياة امواج متراكزة فاذا صدها صاد صادمته كموجة . فما عجز من تلك الموجة ، وقف او تقهقر . وما تغلب على الحاجز فاز بالحرية . من الاول النبات والحيوان . ومن الثاني الانسان . وفيه وحده وَاصَلَ الشعور الكوني تقدمه . هذا هو معنى النشوء . (اي النشوء الخالق)

وقد جمع الانسان العقل الى البديهة . وهما طرفا الشعور المنشعبان عنهُ . فالبديهة في شعبة الحياة — او في قالب الحياة . والعقل في شعبة المادة او في قالبها . والانسان السامي (السبرمان) هو ما تساوى فيه العقل والبديهة ، وبلغا اسمى ارتفاع . تلك الانسانية فرقنا بمراحل . وقد يوصلنا اليها نشوء آخر (غير نشوئنا الحالي الذي شغل مليون سنة في نقل الانسان من الحيوانية الى منزلته الحاضرة) . اما في حالتنا الحاضرة فالبديهة ضحية على مذبح العقل . وقد ضحى بها الشعور ليتمكن من الفوز على المادة ، وعلى ذاته . فتشكل هو بشكل عقل . وظلت البديهة حولهُ كسحابة حول بؤرة منيرة . تلك السحابة قاتمة ، لكنها تنير حين تكون الانسانية مهددة والبديهة ضالة الفيلسوف المنشودة . وكلما تقدمت الفلسفة ادركت ان البديهة عند العقل فهي من العقل كالعقل من الغريزة . فهي حياة الحياة . وقد فصل العقل عنها على نحو تكوين المادة على هذي الصورة تدخلنا الفلسفة دائرة الحياة الروحية وترينا علاقة النفس بالجسد

لقد اصاب اصحاب النفس باصغائهم الى صوت الضمير . ولكن هنالك العقل ينادي بالعلة والمعلول واصابوا بايمانهم بالبقية . ولكن هنالك العلم يريهم اتحاد العقل والدماغ المتبادل ، كلٌّ اخاه واصابوا في تمييزهم الانسان عن الحيوان . ولكن هنالك البيولوجيا تريهم تاريخ نشوء الانواع نشوءا تدريجيًا . ولكن اذا كان ثمة نفوس فمن اين اتت ! وكيف اتصلت بالجسد تلك مسألة لاتجاب « ويسئلونك عن الروح ، قل الروح من امر ربي ... »


المقتطف
الاعداد العلمي ومستقبل النشء
للدكتور مشرفة
حول مؤتمر الموسيقى
لبشر فارس
جوته بعد مائة سنة
للدكتور محمد عوض محمد
AL MUKTATAF

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد التسعين

١ مايو سنة ١٩٣٧ — ٢٠ صفر سنة ١٣٥٦

العلم في خدمة الانسانية

الفيتامينات واثرها

في الصحة والمرض والنمو

يقال — والعهدة على الراوي — ان ادمند كين الممثل الانكليزي المشهور كان يتناول طعاماً خاصًّا لكل دورٍ يمثلهُ ، فكان يتناول لحم الخنزير قبلما يمثل دور طاغٍ ولحم البقر قبل تمثيلهِ دور سفاك ولحم الضأن قبل تمثيلهِ دور عاشق ولهان . ومن الاقوال المأثورة في هذا الصدد : قل لي ما تأكل أُنبئك من انت

فما الصلة بين خمسين طنًّا من الطعام يتناولها المرء خلال حياتهِ ، وبين صحتهِ من ناحية وطباعهِ وخُلقهِ من ناحية اخرى ؟ لقد كشف العلم عن بعض الحقائق المتصلة بهذا الموضوع في حياة الحيوان وحياة الانسان حتى ان الاستاذ هنري شرمن احد علماء جامعة كولومبيا صرَّح بعد تجارب دقيقة جربها في هذا الصدد في الجرذان انهُ في استطاعة الباحث ان يطيل متوسط عمرها ويجعلها اكبر واقوى بالاشراف على تغذيتها على نحو معيَّن

فكيف وصل العلم الى هذه النتائج ؟

في سنة ١٨٩٧ تفشى في جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندة مرضٌ قديم عرف في الشرق الاقصى من نحو الفي سنة ويدعى بريبري او «كاك — كي» وهو مرضٌ غريب تأثر في المصاب

بهِ اعصاب الحركة والحس تأثراً عظيماً . فيصاب صاحبهُ باعياء عام وانحطاط في قواه العقلية ، وبالاستسقاء وفقر في الدم يصحبهُ شلل زاحف ، يبدأ عادةً في الساقين وينتشر صعوداً حتى يصل الى القلب فتحدث الوفاة

فعينت حكومة هولندة لجنة لبحث الموضوع عسى ان توفق الى معرفة سببهِ واستنباط علاج شافٍ لهُ

الرز المقشور وغير المقشور

وكان بين الرجال الذين عهد اليهم في مكافحة هذا المرض رجل يدعى كرستيان أيكمان Eijkman . كانت «البكتيريولوجيا» في اوج شهرتها حينئذٍ بعد مكتشفات باستور وكوخ وغيرهما ، فعمد ايكمان منساقاً بروح البحث العلمي السائدة حينئذٍ الى البحث عن ميكروب يحدث هذا المرض . ولكنهُ شاهد مشاهدة استرعت عنايتهُ فانصرف بعض الانصراف عن البحث عن الميكروب الى النظر في تعليل ما رأى . ذلك انهُ شاهد طائفة من الدجاج كانت تعيش على مقربة من معمله ، وقد اصيبت بشلل يشبه الشلل الذي يحسب من اعراض البريبري . فلم يستغرب ذلك لانهُ كان يعلم ان بعض الحيوانات معرض للاصابة بامراض يصاب بها الناس . فقال لعل هذا الدجاج عدى بالمرض من اتصالهِ بمن يرعاهُ . واذ هو ماض في البحث عن الميكروب ، كان يقضي بعض الوقت في مراقبة الدجاج ليعلم كيف اتصلت بهِ العدوى

فلاحظ بعد قليل ان الدجاجات التي يسمح لها بأن تسرح في الحقل ، تنكث منهُ بمنقارها ما تتغذى بهِ ، وتقيل في الشمس ، لا تصاب بالبريبري (يعرف الضرب الخاص من البريبري الذي يصاب بهِ الدجاج باسم « پولينيوريتس »). أما الدجاجات او أفراخها التي أصيبت بأعراض هذا المرض فكانت قد حفظت في حظائرها وغذيت ببقايا الرز الذي كان السجناء يغذون بهِ . فبحث في الغذاء الذي يغذى بهِ السجناء فلم يجد فيهِ ما يسترعي الانتباه الاَّ أن الرز وهو عماد غذائهم ، كان قد قشر بالآلات الحديثة لازالة قشرتهِ الصفراء . وكانت القشور تطرح جانباً لاعتقادهم أنها لا تصلح للغذاء . فخطر لأيكمان ان يقابل بين انتشار مرض البريبري في السجون المختلفة بالمقابلة بين أنواع الرز الذي يغذى بهِ السجناء . فتجلت لهُ حقائق غريبة

وجد ان ١٥٠ ألفاً من السجناء كانوا يتغذون بالرز المقشر وان واحداً في كل ٣٩ منهم يصاب بالبريبري . وان ٣٥ الف مسجون غيرهم كانوا يتغذون برز غير تام التقشير وان واحداً منهم في كل ٤٠٠ كان يصاب بهذا المرض . وان مائة ألف كانوا يتغذون بالرز غير المقشور فلم يصب منهم بالبريبري الاَّ واحد في كل ١٠٧٢٥ مسجوناً . فحدوث الاصابة بالبريبري بين

الذين يتغذون بالرز المقشور ٣٠٠ ضعف حدوثها بين الذين يتغذون بالرز الكامل اي غير المقشور

فلما تبين له ذلك اتضحت امامه الخطوة التالية في البحث : اخذ طائفة من الافراخ (جمع فرخ وهو صغير الطير) وغذاها بالرز المقشور دون اي شيء آخر. فأصيبت جميعها «بالپولينيوريتس» (بريبري الدجاج) وماتت . واخذ طائفة اخرى وغذاها بالرز غير المقشور دون اي شيء آخر فلم يصب احدها بالمرض . ثم اخذ طائفة من الافراخ المصابة ، واضاف الى رزها المقشور قشور الرز التي كانت تطرح جانباً فلم تلبث حتى شفيت مما الم بها . وكذلك تمكن أيكمان من اكتشاف سبب « بريبرى الدجاج » في غذاء ناقص لا في ميكروب . واثبت بتجاربه انه يستطيع ان يحدث المرض بازالة العناصر اللازمة من الغذاء ثم يستطيع شفاءه باعادة هذه العناصر الى الغذاء الناقص . وبعد ذلك دعي الى هولندة وتقلد منصب استاذ في جامعة اوترخت

الآ ان شيئاً من الخطإ كان قد تطرَّق الى تعليل أيكمان لما رأى وكشف . كان قد أشار بوجوب اكل الرز كاملاً ولكنهُ لم يستطع ان يعلم سرَّ الفائدة المنطوية في قشرة الرز الخارجية . ولم توجه عناية ما الى بحثه ، فظل مرض البريبري متفشياً وظلَّ ألوف من الناس يموتون به . فلما نشبت الحرب الروسية اليابانية في مطلع هذا القرن عُطِّل سدس القوات اليابانية عن العمل لتفشي البريبري فيها

وبعد انقضاء ثلاث عشرة سنة على تجاربه ، ذهب شاب بولوني يدعى كازيمير فونك Funk الى معهد لستر بلندن فكشف عن رسالة الطبيب الهولندي وبعد ما طالعها وتمعن في معانيها قال ان قشور الرز تحتوي على مادة كيماوية لا ندحة عنها للصحة ، وحاول ان يستخلص تلك المادة مستعملاً الحمام لامتحان فعل ما يستخلص . وبعد عمليات لا عداد لها من الحل والترسيب والتصفية فاز بمقدار يسير من مسحوق ابيض وزنه ١/٥٠ من الاوقية كان قد استخلصهُ من رطل من قشور الرز. ولما امتحنهُ وجد انهُ اذا اضيفت بضعة مليغرامات منهُ الى غذاء حمام مصاب اصابةً قوية «بالبولينيوريتس» شفاه منها فتشتد سيقانهُ وتستقيم عنقهُ الذابلة ويتحول حماماً سوياً

اسم الفيتامين

ولما كان هذا المركب لازماً للحياة (Vita) ويحتوي على طائفة المركبات الامينية (Amine) دعا فونك هذه المادة المقاومة لمرض البريبري فيتامين Vit-amine الآ ان فونك كان على خطإ في ظنه انهُ استخلص الفيتامين النقي من كل شائبة . والاسم الذي اطلقهُ عليه كان في غير محله لانهُ ثبت بعد ذلك أن هذه المادة الحيوية لا تحتوي على المركبات الامينية . ولكن الاسم الذي اختاره استهوى الناس ، فذاع في الخافقين وابقي عليه في الكتب العلمية بعد حذف الحرف

الاخير منهُ سنة ١٩٢٠ فصار Vitamin . غير ان فونك كان اكثر توفيقاً في قوله ان المستقبل سيكشف عن امراض اخرى ترجع الى نقص هذه المواد الحيوية في الطعام او خلوّه منها

وكان العلماء في ذلك العهد شغفين بدراسة ما تحتوي عليه الاطعمة المختلفة من مقادير الحرارة وقياس ما يحتاج اليه الرجل والمرأة والطفل والحيوان من الحرارة في حالي اليقظة والمنام . واستنبطوا لذلك اساليب متنوعة واجهزة بسيطة ومعقدة . لكن الكيمياء كانت قد اصابت من الارتقاء ما مكن اصحابها من تحضير المواد المغذية في الاطعمة نقية من الشوائب ، فعمد اليها الباحثون في الطعام والحرارة عساهم يستطيعون ان يتوصلوا عن طريق تجاربهم الى تركيب الغذاء الامثل لمختلف انواع الاحياء . ذلك ان جسم الانسان كان في نظرهم اكثر من اتون جلُّ ما يحتاج اليه مواد تكون بمثابة الوقود . فقالوا : لعل في مواد الطعام اشياء يحتاج اليها الجسم ولا يستغني عنها بصرف النظر عما تولده من الحرارة

وكان قد سبق الى هذا الضرب من البحث رجل يدعى لونين Lunin بدأ يجرب تجاربهُ في مدينة بال السويسرية سنة ١٨٨١ بستة فئران . فوجد انهُ اذا غذاها باللبن عاشت وهي على أتم ما يكون صحة ونشاطاً . ولكنهُ اذا احل محل اللبن سائلاً يحتوي على جميع مركبات اللبن المنقاة اي بروتين اللبن (كاسين) ودهنهُ وسكره (لاكتوس) واملاحه المعدنية محلولة في الماء ماتت بعد انقضاء شهر عليها وهي تتناول هذا الغذاء . نخلص لونين الى النتيجة التالية وهي ان اللبن يحتوي على مادة او مواد غير البروتين والدهن والسكر والاملاح وان هذه المادة لا غنى عنها للصحة . وانقضى عقد من السنين فاذا استاذ لونين يسأل نفسهُ : افي اللبن حقيقة مواد اخرى غير البروتين والدهن والسكر والاملاح المعدنية لا ندحة عنها للحياة . ام اخطأ لونين في تجاربه؟ وعلى كل حال قرَّر الاستاذ بكلهارنغ Pekelharing في جامعة اوترخت ان يمضي في المباحث التي بدأها لونين فاعاد تجاربهُ نخلص الى نفس نتيجته وهي ان في اللبن مقادير يسيرة من مادة غير معروفة لها اكبر الشأن في التغذية

تجربة هبكنز الحاسمة

وفي سنة ١٩٠٦ شرع هبكنز (فردريك جولند هبكنز وهو رئيس الجمعية الملكية الآن) احد علماء جامعة لندن وهو لا يدري شيئاً عن مباحث لونين وبكلهارنغ وأيكمان في مباحث كانت حاسمة في هذا الموضوع . اخذ طائفتين من صغار ذكور الفئران كل منهما ثمانون فأراً وغذى احداها بغذاء مؤلف من كاسين ونشاء وسكر القصب وشحم واملاح معدنية وكانت جميعها نقية من الناحية الكيمياوية . وغذى الطائفة الاخرى بالغذاء نفسه ولكنهُ اضاف اليه مقدار ملعقة شاي

من اللبن الطازج كلّ يوم . فكانت النتيجة ان فئران الطائفة الاولى لم تنمُ .وان فئران الثانية نمت نموًّا سويًّا . ثم قلب الغذاء . فأضاف اللبن الى غذاء الطائفة الاولى وحرم الثانية منهُ فانعكست آية النمو . اذ اخذت الاولى في النماء وتوقفت الثانية عنهُ . وفي سنة ١٩١٢ اذاع رأيهُ النهائي اذ قال ، ليس في وسع اي حيوان ان يبقى حيًّا وهو يتغذى بمركب من بروتينات وادهان وكربوهدرات نقية من الناحية الكيمياوية . وقد منح هبكنز بالاشتراك مع أيكمان جائزة نوبل الطبية سنة ١٩٢٩ جزاء لهما على مباحثهما

في صيف السنة التي شرع فيها هبكنز يجرب تجاربهُ المشهورة ، كان شاب اميركي يدعى المر فرنز ماكولُم McCollum قد اتمّ بحثاً معيناً في الكيمياء العضوية بجامعة يايل . كان قبل عشر سنوات قد غادر حقول كنساس متلكئاً ليؤمّ جامعة طالباً للعلم . ولولا حث امهِ لهُ لكان على الاكثر فلاحاً الآن يغالب الرياح والسيول والآفات

كان في حداثتهِ فتىً خجولاً ضعيف البنية يكره دراسة القواعد اللغوية ويمقت الحساب وأخفق في اجتياز الامتحان لدخول المدرسة العالية ولكن سمح لهُ بدخولها تحت التجربة . هنا فقد ماكولم شيئاً من خجله فنبغ في دروسهِ وكان يكسب ما يوفي بهِ نفقات المدرسة باضاءة مصابيح الغاز في شوارع البلدة التي كان فيها وبنقل رزم الصحف من مكان الى مكان وبمساعدة مدرس الكيمياء التجريبية في معمل الكيمياء

وفاز بجائزة مكنتهُ من متابعة دروسهِ في جامعة يايل . ولم يكد يمضي فيها حتى أدرك ان البحث الكيمياوي يستهويهِ دون الطب وكان قد وطن النفس عليهِ . قال : « ولو عرض عليَّ سنة ١٩٠٦ أن أكون مدرّساً للكيمياء لقبلت » ولكن أحد لم يعرض عليهِ ذلك فقضى سنة أخرى يشتغل باشراف باحث يدعى مندل في الكيمياء الفسيولوجية والفسيولوجيا التجريبية وهو ينتظر ان يتاح لهُ عمل يرتزق منهُ

وفي نهاية السنة وجّهت اليه دعوة من ثلاث محطات للتجارب الزراعية، فأشار عليه مندل بالذهاب الى محطة التجارب الزراعية التابعة لجامعة وسكنصن حيث كانوا يجربون تجربة كبيرة الشأن في تغذية الحيوانات

وكانت المسألة التي تدور عليها التجربة هي هي ، تلك المسألة التي بحثها لونين وبكلهارنج وهبكنز — : هل ثمة فرق بين قيمة غذاء عند ما يعطى كما هو في الطبيعة وعند ما تعطى المركبات التي يحتوي عليها وقد جعلت نقية كل النقاء بأساليب الكيمياء ؟

من المجهول الى المشرق

ولذلك قرَّر الباحث بابكوك Babcock ان يجرّب عدّة تجارب ليمتحن النظريات المختلفة فقد كان يرى أن مقدار الحرارة في الطعام ليس كلّ شيء فيهِ . والمسألة لم تكن علمية مجرّدة في

نظر بابكوك ، لأن جامعة وسكنصن في بلاد تكثر فيها المراعي والقطعان ، وأصحاب القطعان كثيراً ما يلجأون الى الجامعة يسألون أساطين العلم فيها عما يجب ان يغذوا بهِ قطعانهم . وفي أول مايو سنة ١٩٠٧ بدىء في هذه التجربة العظيمة الشأن ، وعهد الى رجل يدعى هارت Hart في الاشراف عليها

أخذت أربع طوائف من العجول وغُذيت أغذيةً مختلفة . فواحدة منها غذيت بالحنطة ، وأخرى بالذرة ، وثالثة بالشوفان (الزمّير) ، والرابعة بغذاء خليط من الحنطة والذرة والشوفان. وكان الباحثون يقيسون ما تأكلهُ العجول وما تتغوطهُ ويحللون هذا وذاك وكان من عمل ما كولم ان يحلل البراز . ولكنهُ كان غير راضٍ عن أسلوب التجربة لانهُ رأى انها لا يمكن ان تخضع لقواعد البحث العلمي الدقيقة ، وان الذين يجربون تجاربهم في الحيوانات الصغيرة كالفئران والحمام والارانب الرومية على الطريق القويم . فعزم ان يعيد تجربة هبكنز على ان يحدث فيها تعديلاً واحداً وهو ان لا يدخل في غذاء الحيوانات التي يجرب التجارب فيها اي مركب كيماوي الاّ اذا كان نقيًّا كلَّ النقاء وتركيبهُ معروفاً حق معرفة

وبدلاً من ان يغذي الحيوانات بحنطة ، كما فعل الباحثون في تجربة وسكنصن ، وهي حبوب فيها مركبات معقدة التركيب ، عزم ان يغذيها بنشاءٍ نقي اي مركب من (ك٦ يد ١٠ او ٥ — C16 H10 O5) وبدل اللبن يستعمل بروتين اللبن بعد تنقيتهِ ، وسكر اللبن بعد تنقيتهِ وهكذا

ولم تنقض عليهِ بضعة اشهر في وسكنصن حتى شرع في جمع الفئران ليجرب تجاربهُ فيها . فلقي معارضة من مدير المحطة وعميد الكلية ومنع عنهُ المال لشراء غذاء للجرذان . اما غذاء العجول فقد كانت الجامعة مثالاً للسخاء في شرائهِ

ولكن بابكوك ذهب الى معمل ما كولم وجلس على كرسي فيهِ يبحث في الخطة التي ينوي الشاب ان يسير عليها ، وما خرج من هناك الاّ وهو يؤيدها . وكذلك استطاع ما كولم ان يمضي فيها

كان يعرف الفئران والجرذان من حداثتهِ وكثيراً ما نصب الشراك لها مع شقيقهِ في الحقول . ثم تعلم انها من خير الحيوانات لتجربة التجارب . فمدى حياتها نحو ثلاث سنوات ومدة حملها ثلاثة اسابيع . والانثى تستطيع ان تلد «بطنها الاول» وهي في نهاية الشهر الثالث من عمرها . ولا تبلغ الشهر الرابع عشر حتى تكون قد ولدت ستة بطون . ونفقات طائفة كبيرة من الجرذان يسيرة جداً

اكبَّ ما كولم على تجربتهِ الخاصة في اويقات فراغهِ من تجربة العجول ومن التدريس في الجامعة فاقام الفئران في صناديق صنعها بيديهِ من خشب وكانت نشأتهُ في مزرعة قد عودتهُ

الصبر على العمل الشاق ، فكان يشتغل ثماني عشرة ساعة كل يوم ولا يملّ . وكان يجيد تفسير النتائج التي يصل اليها ، وفرض الفروض التي يقتضيها البحث ثم امتحانها . وتملكهُ من البدء طموح عجيب ، واقتناع بانهُ على الطريق الصواب . وراجع في ذهنهِ التجارب التي اشترك فيها في بايل ، لمعرفة مافي بعض الاغذية من القيمة والطاقة فضحك في نفسهِ ، لانهُ ادرك انها كانت بعيدة كل البعد عن قواعد التدقيق العلمي . اما هنا فتجاربهُ دقيقة . وكل عامل فيها خاضع للقياس . فالجرذ في الصندوق هو انبوب اختبارهِ ، والاغذية التي يغذيه بها هي مواد كيمياوية معروفة مركباتها ومقاديرها

ألغاز النمو

كان ما كولم يغذي جرذانه بالمقادير الصحيحة من مركب فصفات الكلسيوم غير العضوي وبروتينين نقيين احدهما مستخلص من بزر القنب والآخر من الذرة وبنشائين احدهما من القمح والآخر من الذرة وبسكرين سكر اللبن وسكر القصب وبمقدارٍ كافٍ من الادهان وجميعها نقية من الناحية الكيمياوية . ولكن ظهر لهُ ان الجرذان لا تستطيع ان تحتفظ بصحتها وحيويتها معتمدة على هذا الغذاء فقط فكانت تموت قبل اوان موتها . فظنَّ اولاً ان هذا الغذاء يعوزهُ شيء ليصبح سائغاً لا تتقزَّز منهُ الشهية فحكم بان ما يجعل الطعام سائغاً عامل لا يستغنى عنهُ في أي غذاء . ولكنهُ كان على خطإٍ في هذا الرأي إلاَّ انهُ لم يدرك ذلك حينئذٍ . فاضاف الى طعام الجرذان ما جعلهُ مقبولاً ومضى يبدّل في مقادير العناصر المختلفة الداخلة فيهِ فلما ثبت لهُ ان بعض الجرذان عاش وبلغ الوزن السويّ حسب انهُ اتمَّ اولى التجارب في التغذية بمواد نقية من الناحية الكيمياوية وانهُ ادرك النجاح المرتقب

وفي خلال ذلك كان هناك باحثان آخران احدهما يدعى اوسبورن Osborne والآخر مندل Mendel يجريان التجارب بقصد معرفة القيمة الغذائية والفسيولوجية في اصناف مختلفة من البروتين النقي . وكانا يعلمان ان في البروتينات المختلفة احماضاً « أمينية » مختلفة Amino-acids وكان همهما ان يعلما اي هذه الاحماض يجب ان يكون في البروتين الصالح للتغذية . وكانا يستعملان في تجاربهما مواد غذائية نقية كالمواد التي استعملها ما كولم إلاَّ أنها لم تفض الى النتائج التي افضت اليها تجاربه من حيث الجرذان التي نمت وبلغت الوزن السويّ . ولكنهما وجدا انهُ اذا اضافا الى هذه المواد لبناً خالياً من البروتين — وهو عادة في شكل مسحوق اصفر يحضر باستخراج البروتين والدهن من اللبن ثم يجفف — كانت الجرذان تنمو نمواً طبيعيًّا . فحكم مندل بان الباعث على النمو ما بقي في اللبن من المواد المعدنية . وكان ايضاً على خطإٍ

وكذلك يتبين القارىء التيه الذي يسير فيه العلماء وهم يحاولون فهم سرّ من الاسرار، ولولا الشغف والمثابرة وغيرهما من الصفات التي يتصفون بها، لما قادهم الخطأ الى الصواب

قرأ ما كولم ما كتبهُ مندل فكان باعثاً لهُ على المبالغة في التدقيق، فوالى التجارب واضطر ان يتوقف عنها سنة كاملة لان وباً اكتسح جرذانهُ فاماتها جميعاً، وفي سنة ١٩١٤ نشر في مجلة الكيمياء البيولوجية رسالة فتحت عهداً جديداً في بحث الغذاء. وكان موضوع الرسالة، « استفراد مادة في الزبدة تؤثر تأثيراً قويًّا في النمو »

كشف فيتامين A

احتوت هذه الرسالة وصف تجربة كان موضوعها الجرذ رقم ١٤١ ومدتها ثمانون يوماً. ففي خلال هذه الايام الثمانين كان هذا الجرذ يغذى بطعامٍ مؤلفٍ من كاسين (بروتين اللبن) ونشاء وسكر اللبن (لاكتوس) وأجار اجار (وهو المادة التي تستنبت فيها الميكروبات احياناً) ومزيج ملح وشحم. وكانت جميعها نقية من الناحية الكيمياوية. فنما الجرذ نمواً طبيعيًّا ثم اخذ يهزل. فاضيف الى غذائهِ مقدار يسير من خلاصة الزبدة، فاخذ وزنهُ يزيد زيادة سريعة. وبلغت الزيادة ٥٠ غراماً في ٣٥ يوماً. ثم ابدل ما كولم خلاصة الزبدة بخلاصة محّ (صفار) البيض فظلت الزيادة مستمرة. فلما استعمل زيت الزيتون محل الزبدة وصفار البيض توقف النمو. فخلص ما كولم من ذلك الى النتيجة التالية، وهي ان الادهان (fats) والزيوت (oils) تختلف في قدرتها على الإنماء مع انها لا تختلف الاَّ يسيراً في تركيبها الكيمياوي وذلك لان في الادهان عاملاً غذائيًّا لم يعرف بعد يذوب في الدهن ودعاهُ فيتامين A

وكذلك توصَّل ما كولم الى معرفة ذلك العامل الغذائي الذي ظن بكلهارنج وهبكنز انهُ في اللبن

واعاد مندل تجارب ما كولم مستوفياً في كل مرحلة منها اشدّ قواعد التحري، فاسفرت عما يؤيد ما كولم كل التأييد

ولكن مندل ظل لا يفهم السبب في ان اللبن الخالي من البروتين يؤاتي النمو. ولا استطاع ان يحكم هل النقص في الغذاء الذي ركبهُ من مواد كيميائية يعود الى خطإٍ في مقادير عناصره المختلفة بقياس بعضها الى بعض او الى نقص عنصر اساسي غير معروف. ثم إنَّ ما كولم نفسهُ كان محيراً. فخلاصة الزبدة او محّ البيض، تجعل بعض الاغذية مؤاتية للنمو، ولا تجعل اغذية اخرى كذلك. وقرأ فونك ما كتب ما كولم ومندل فقال ان العنصر الفعَّال في خلاصة الزبدة التي استعملها الاول. انما هو هو الفيتامين الذي يمنع البريبري

ومن الواضح ان جميع الباحثين كانوا لا يزالون حتى تلك الساعة يتلمسون الطريق في التيه

كشف فيتامين B

عاد ماكولم الى جرذانه عازماً على ان يجرب تجربة واسعة النطاق ، مع انهُ كان عليلاً توالت عليه الاصابة بالزكام والصداع والتهاب الحلق والشمب وهبط وزنهُ الى ١٢٢ رطلاً . ولكن هذا البحث كان قد استهواه وملك عليه لُبّهُ . فجرب سلسلة من التجارب منوعاً فيها مواد الغذاء ومراقباً نتيجة ذلك في نموّ الجرذان فخلص الى ان الحنطة كغذاء يعوزها الاملاح وفيتامين A وبعض البروتين . والى ان الغذاء الوافي يجب ان يحتوي مقادير كافية من البروتين والكربوهدرات والاملاح وفيتامين A . وكان الرز من الحبوب التي استعملها في تجاربه فوجد ان الرز غير المقشور يوائي النمو . ولكن اذا كان الرز مقشوراً واضيف اليه قليل من الزبدة اي فيتامين A والاملاح لم يسد النقص فيه اي لم تعوضهُ الزبدة مما فقد بفقد قشوره . فاضاف الى الرز المقشور قليلاً من سكر اللبن (لاكتوس) علاوة على المواد الاخرى فكان نموّ الجرذان طبيعيًّا . فقال ان في سكر اللبن عاملاً آخر خفيًّا من عوامل النموّ لا غنى منهُ . فخطر لهُ ان يمتحن نقاء السكر الذي استعملهُ فوجد انهُ لم يكن نقيًّا كل النقاء وان في السائل الذي يستخرج السكر منهُ مادة خفية تؤثر في النمو . ذلك انهُ عندما اضاف هذا المحلول الى غذاء حمام مصاب بمرض (البولينيوريتس) شفي من المرض فشأنهُ في ذلك نفس شأنه لو تغذى بالرز غير المقشور . فقال ماكولم ان هذا العامل الحيوي يدعى فيتامين B وانهُ يختلف عن فيتامين A في ان فيتامين A يذوب في الدهن وأما فيتامين B فيذوب في الماء وان كليهما لا غنى عنهُ للغذاء الكامل

وكان هذا الفيتامين اي فيتامين B هو هو فيتامين فونك الذي يشفي من مرض البريبري

أفضى اعلان ماكولم اكتشافهُ فيتامين B الذي يقي من «البولينيوريتس» الى فهم كثير من الالغاز . فكلا الفيتامينين لازم للنمو السوي . وهذا يفسر عدم نمو الجرذان التي اضيف الى غذائها الزبدة النقية دون سكر اللبن . ذلك ان سكر اللبن كان يحتوي على فيتامين B . وهو يفسر كذلك لماذا نمت الجرذان نموًّا طبيعيًّا في تجارب اوسبرن ومندل عند ما اضافا الى الغذاء لبناً اخرجت منهُ مادتهُ البروتينية . لان هذا اللبن يحتوي على فيتامين B . وهو يفسر تجارب هبكنز الانكليزي وما اصابهُ من نمو في الجرذان عند ما اضاف الى غذائها قليلاً من اللبن الكامل

***

لقد اتضحت مشكلة الفيتامين وقاعدتها الاساسية ان هناك مواد لا غنى عنها للصحة والنموّ توجد منها مقادير يسيرة جدًّا في بعض الاطعمة ، وقد كشف ماكولم مادتين منها ، فهل ثمة اخرى؟ (وهذا موضوع البحث القادم)



الجباية في الاسلام (١)

لفارس بك الخوري
رئيس مجلس النواب السوري

في عصر الامويين

كانت دولة العرب على عهد بني أمية في أوج عزها وعنفوان مجدها فكان العرب يمتهنون الشعوب الاخرى ويستضعفونهم ويسمون غيرهم « الموالي » او « العلوج » ويحسبون ديارهم بستان قريش « ما شئنا اخذنا منهُ وما شئنا تركنا » فخزينة الدولة العربية هي جيوب الرعية يتناولون منها ما شاؤا فكان العمال يقولون للناس « انما انتم خزانة لنا ان كثر علينا كثر عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم » وبهذه العقيدة ابتزوا اموال الناس بحق وبغير حق وكان الخراج مفروضاً على الاراضي بمقدار ما تزيد من غلتها عن حاجة الزراع فقط بحيث لا يترك للعامل الا ما يسد بهِ عوزه الضروري ومع ذلك فان بعض العمال سولت لهم نفوسهم ان يستولوا على الغلة برمتها فكانت الشكاوى ترفع الى الخلفاء من جور العمال ونهمهم في الجباية فاذا كان الخليفة منصفاً أنصفهم والا بقي الظلم سائداً والعسف مستفيضاً . من ذلك ما كتبهُ عبد الملك بن مروان الى الحجاج في امر اهل العراق ان « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً »

وكان للحجاج امثال كثيرون بين عمال الامويين في الظلم والجور وابتزاز الاموال بغير حق فزادوا في الجزية عن الحد الذي اقره الخلفاء الراشدون وخرجوا في الخراج عن النصاب المشروع وفرضوا على الناس الهدايا في الاعياد والافراح وتناولوا النقود بأقل من سعرها الرائج وكانوا يخرصون الحاصلات اي يحزرون مقدارها ويخمنونها باكثر مما هي ويقوّمونها بالسعر الذي ينالون بهِ ربحاً جزيلاً . وكثيراً ما كان الخلفاء يغمضون العين عن امثال هذه الافاعيل لحاجتهم الى المال ليبذلوه في كمّ الافواه وغل الايدي وارضاء الناقمين والانفاق في وجوه التبذير والبذخ

(١) من فصل في كتاب « علم المالية » يقوم بطبعه ونشره « مكتب النشر العربي بدمشق »

واتصلت هذه الاعمال بالدور العباسي ايضاً حتى كتب ابو يوسف الى الرشيد يستنفره على العمال والجباة ويحرضه على الاقتصاص منهم لانهم « لا يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه وانما مذهبهم اخذ شيء من الخراج او من اموال الرعية. ثم انهم يأخذون ذلك كله بالعسف والظلم والتعدي . ويقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام » . كان من اسلم توضع عنه الجزية وينضم الى فريق المجاهدين يتناول الاعطية والافياء فيتحول ما في يده من الارض الى الباقين من اهل قريته يحرثونه ويؤدون خراجه فرغب الناس في الاسلام ليخلصوا من عسف العمال والجباة حتى قل مكلفو الضرائب ولم يعد في حولهم تأدية الاموال المضروبة على قراهم فصار العمال يجبرون من أسلم ايضاً على العمل في الارض وتأدية خراجها ولم يعد الاسلام يعصم احداً فقلب الرغبة فيه وشكا الناس امرهم الى عمر بن عبد العزيز الذي استن بسنة عمر بن الخطاب فكتب الى عماله « ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » وأعاد الامور الى مجراها السابق من جهة اعفاء المسلمين

ليس لدينا ارقام يوثق بها عما كان يرد الى خزينة الخلافة في عصر الامويين وانما يؤخذ من اقوال المؤرخين ان متوسط ارتفاع جباية الشام نحو مليوني دينار وجباية مصر ثلاثة ملايين وجباية العراق عشرة ملايين وجباية البلاد الاخرى اكثر من خمسة ملايين فيكون المجموع اكثر من عشرين مليون دينار اي نحو عشرة ملايين جنيه انكليزي وهو المبلغ الذي يدخل في خزينة الخلافة فقط ما عدا الاموال التي يحتفظ بها العمال والجباة لانفسهم او ينفقونها في الامور المحلية وهي اضعاف مضاعفة عن الارتفاع الذي يبعثون به الى مقر الخلافة . وقد كان اكثر العمال يحشدون الملايين من الدراهم والدنانير بعد ما يبذخون به ويبذرونه من الاموال الطائلة حتى يهيجوا بسعة ثروتهم حسد الخلفاء ويغروهم بمحاسبتهم واستخراج المال المكنوز منهم جرياً على سنة عمر بن الخطاب الذي كان يمنع عماله من الحشد والتوفير واذا وجد عند أحدهم مالاً قاسمه إياه او استخلصه منه وشاعت هذه الطريقة في عهد الأمويين والعباسيين شيوعاً عظيماً

في العصر العباسي

ازدادت الجباية في عصر العباسيين بتوسع الفتوح وانتظام حال الدولة واشتراك الموالي في الحكم والادارة فان العرب لم يكونوا أهل جباية ودراية في الأصول المالية وتنظيم التكاليف والنفقات وانما كان الموالي من الفرس والروم أعرق منهم وأطول باعاً في هذه الامور فمنذ ما بلغ بنو العباس مبلغهم من تقويض الدولة الأموية وولاية الأمر بنجدة الاعاجم من أهل خراسان

امتدت أيدي هؤلاء الاعاجم الى السلطة والاشتراك في الاعمال العامة حتى كادت تقضي على سيادة العرب وكانت أمور المال في جملة ما عني بهِ هؤلاء الموالي لتكثير موارد الخزينة وتشديد شكيمة الدولة على النحو الذي كان جارياً في عهد كسرى

الخليفة العباسي الاول لم يتيسر لهُ جمع كثير من المال لقصر مدته وجدّة دولته ولكن المنصور بعده ضاقت خزائنه بالأموال الوافرة التي كانت تتسرب اليهِ من الأداني والأقاصي فأنفق منها ما أنفق في سبل الصلاح والحاجة وترك بعد موته خزينة احتياطية فيها ما يربي على خمسين مليون دينار وأوصى ابنه قائلاً « قد جمعت لك من الاموال ما أن كسر عليك الخراج عشر سنين يكفيك لأرزاق الجند وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً ». غير ان ابنه المهدي لم يأتمر بهذا الامر بل أسرف وبذخ فبدد ما جباه في زمانهِ وما خزنهُ لهُ أبوه ولم يخلف شيئاً للهادي الذي تولى الأمر بعده كما ان هذا ايضاً لم يخلف شيئاً للرشيد الذي بذل المال بسخاء عظيم وفضل عنهُ عند موته أكثر مما فضل عن المنصور وقد جرى ملوك الاسلام على اختزان الاموال خلافاً للسنة التي استنها عمر بن الخطاب وبالغ المؤرخون في تعداد ما اجتمع في خزائن الخلفاء والملوك في الشرق والغرب فقيل انهُ وجد في خزانة عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس المتوفى سنة ٣٥٠ هـ نحو عشرين مليون دينار مع ان جبايته السنوية لم تتجاوز ستة ملايين

منابع الجباية في العصر العباسي لم تختلف كثيراً عن منابعها في العصر الأموي وسنذكر شيئاً عن تفصيلها عند البحث في كتاب الخراج لابي يوسف . اما مقاديرها فقد حفظ التاريخ ثلاث قوائم في تواريخ مختلفة جاء فيها مقدار الجباية في كل اقليم من أقاليم الدولة العباسية بحسب الارتفاع الذي كان يقدم لخزينة الخلافة

القائمة الأولى نقلها ابن خلدون في تاريخه وزعم انهُ استحوذ على أوراق رسمية من أيام المأمون اعتمد عليها في تدوين الدخل والخرج في عهد المأمون وليس ثمة مرجع رسمي لما قبل ذلك لاحتراق الديوان في عهد الأمين وضياع الوثائق وهذه القائمة تتضمن جباية احدى السنين بين سنة ٢٠٤ وسنة ٢١٠

والثانية قائمة قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ للهجرة ويظهر انهُ كتب هذه القائمة في كتابهِ (الخراج) معتمداً فيها على ما وصلت يده اليهِ من الوثائق الرسمية عن جباية سنة ٢٢٥ في أيام المعتصم

والثالثة قائمة ابن خرداذبه صاحب كتاب المسالك والممالك الذي أدخل فيه هذه القائمة حوالى سنة ٢٥٠

ولا يخفى ان الدولة العباسية اشتملت على جزيرة العرب بكاملها وبلاد الشام ومصر وافريقيا الشمالية كلها الى بحر الاتلانتيك والعراق وبلاد فارس وما وراءها الى حدود الهند وأواسط آسيا الى الحدود الروسية وقسماً كبيراً من بلاد آسيا الصغرى فكانت الجباية في عهد المأمون من

هذه الدولة الواسعة على رواية ابن خلدون تناهز أربعمائة مليون درهم سنوياً وذلك يقارب ثلاثين مليون دينار ماعدا الحيوانات والعروض والسلع التي كانت تستوفى عيناً من الحلل التجرانية والسكر وماء الورد والزيت والعود الهندي والبراذين والارقاء والاهليلج والعسل والبزاة والمناديل والاكسية والفرش وغيرها .اما مجموع الجباية في عهد المعتصم حوالي سنة ٢٢٥ بحسب قائمة قدامة بن جعفر فلم ينقص كثيراً عما كان في عهد المأمون واما القائمة الثالثة التي احصت الارتفاعات حوالي سنة ٢٥٠ فقد نقص منها نحو ربعها ولم تبلغ ثلثمائة مليون درهم . وليس لدينا بعد هذا التاريخ احصاء موثوق به عن ارتفاعات الجباية في الدولة العباسية وانما جرت على هبوط مستمر مع ضعف الدولة واقتسام بلادها بين امراء التتر والديلم والاتراك وسائر المتغلبين من الغزاة

اذا قابلنا هذه الارقام بمعظم الجباية عند الدول الاخرى القديمة وجدنا ان خزائن الخلفاء من العباسيين بلغت شأواً من الثروة تحسدها عليه اعظم الدول قدراً وأوسعها جاهاً فان ارتفاعات الدولة الرومية في عنفوان مجدها لم تتجاوز اربعمائة مليون درهم . ومجموع جباية الفرس في ايام كسرى برويز تجاوزت سبعمائة مليون درهم غير ان هذا الرقم يشمل ماكان يجبيه العمال وينفقونهُ في اعمالهم مع ما يرفعونهُ لخزينة الملك على قاعدة شمول الموازنة ولو تيسر لنا احصاء ذلك عند العرب لبلغت جبايتهم اضعاف جباية الفرس

في عهد الراشدين لم تكن قاعدة تقبيل الجباية (تلزيمها) جارية في دولة العرب بل كان العامل يجبي الخراج والجزية وينفق من حصائلها ما يلزم لادارة عمله ويرفع الفضلة الى خزينة الخليفة واذا لم تكفه جبايته طلب ما يلزمهُ من الخليفة .ثم بدأ التقبيل في عهد بني امية وازداد انتشاراً فكان وسيلة لاطلاق ايدي العمال بالعسف والارهاق وزادهم انبعاثاً في هذا الجور فقدان القوانين المالية الواجبة الاتباع في اصول الجباية فكان كل منهم مختاراً في استنباط الطرق ووضع التعاليم التي تضمن له جباية اوفر وحصيلة اكثر . ولم يكن هذا العنف والظلم الاَّ معجلاً في تخريب البلاد وتقليل خراجها. خذ مثالاً على ذلك خراج مصر الذي جباه عمرو بن العاص على عهد ابن الخطاب اثنى عشر مليون دينار وجباه عبد الله بن سعد في زمن عثمان اربعة عشر مليوناً فتدنى حتى وصل الى مليونين ونصف مليون في عهد المعتصم العباسي

ان اسماء الولايات التي اوردها قدامة بن جعفر في تقويمه لا تتفق تماماً مع الاسماء التي جاءت في تقويم ابن خلدون وتقويم ابن خرداذبه وذلك لانهُ لم يكن للولايات حدود ثابتة وعواصم مقررة بل كان يكثر اندماج عملين او اكثر لعامل واحد وانتقال العاصمة من مدينة الى اخرى فيسمى العمل باسم عاصمته ويتبدل اسمه بتبدلها فبينما نرى في التقويم الاول اسمين لعملين مختلفين نراهما في التقويم الثاني اندغما في عمل واحد وظهرا باسم مدينة اخرى اتخذت

قاعدة للعمل الموحد . ومما يجدر بالذكر ان جدول قدامة خلا من ذكر برقة وافريقية مع ان ارتفاعهما في جدول ابن خلدون ورد باربعة عشر مليون درهم وكانت في عصر المعتصم باقية في طاعة العباسيين فاذا اضفنا هذا الرقم الى جدول قدامة تجاوز اربعمائة مليون درهم . وهذا يعدل بنقود هذه الايام ما يقرب من ثلاثة عشر مليون جنيه انكليزي . واذا اتخذنا قوة النقود الاشترائية مقياساً لقيمتها وعلمنا ان اجور العمال واسعار الغذاء كانت في عهد المنصور نحو ثلث ما وصلت اليه قبل الحرب العامة تكون هذه الواردات معادلة لـ ٣٩ مليون جنيه انكليزي . اما وقد تضاعفت ايضاً هذه الاسعار منذ قبل الحرب الى الزمن الحاضر فتكون واردات خزينة المأمون او المعتصم معادلة لمبلغ ٧٨ مليون جنيه انكليزي في هذا الزمان وهي جباية عظيمة جداً كانت تَرد الى الخزينة العامة من صوافي الخراج والجزية والمشور على انها في هذا الزمان قد تناولت مطارح لا تحصى وصارت التكاليف الاميرية تجبى عن عروض وسلع واعمال مثل رسوم المسكرات والتمتع والطوابع على امور كثيرة مما لم يكن لهُ اثر في عهد العباسيين . كما ان واردات الدول الحاضرة تنفق جميعها في مصالح الدولة العامة فلا يبقى شيء منها والواردات المذكورة في زمن العباسيين هي فضلات الجباية المرفوعة لخزينة الخليفة الخاصة

وجوه الانفاق

بقي علينا ان ننظر في وجوه إنفاق هذه الاموال والاساليب التي يخرج فيها المال من بيت المال بعد دخوله اليهِ . في الدول الحاضرة لا ينفق قليل او كثير من الاموال العامة من دون معاملة قانونية تبي امر الاعطاء من التبعة . اما عند العرب وغيرهم من دول الاقدمين فلم يكن شيء من ذلك بل كان امر الاعطاء منحصراً بالخليفة في اموال خزينة الخلافة وبالعامل في اموال ولايته بغير ان يكون هذا الامر مقيداً بقانون او موازنة . فيبذل ويمنح ويكافىء ويجيز ويشتري ويبيع بحسب ما يملي عليهِ عقله وتقتضيهِ احواله ورغائبه . اللهم الاَّ ما كان من قبيل الرواتب المقررة لاعوانهِ وحاشيتهِ والنفقات المقدرة لجنده والاعطيات المعينة لعسكره . وهذا الشطر من النفقات لم يكن في ايام السلم يستغرق الا جانباً من الواردات . ولدينا جدول عن الرواتب والاعطية اليومية عن سنة ٢٧٩ في خلافة المعتضد العباسي عندما تولى الانفاق احمد ابن محمد الطائي فبلغ الخرج اليومي نحو سبعة آلاف دينار يدخل فيها ارزاق القواد وعلوفة الجند واجور الخدم والحشم ورواتب موظفي الدواوين وغيرها من النفقات المقررة فيكون الانفاق السنوي في هذا الباب نحو مليونين ونصف مليون دينار وتبقى اموال الجباية الاخرى مرصدة في بيت المال على اجتهاد الخليفة ورأيه . ولم تكن هذه الارقام والوظائف جارية على شيء مما

نعرفهُ في العصر الحاضر تابعةً لموازنة ثابتة وتشكيلات راسخة وانما كانت تتبدل بين سنة وسنة وبين خليفة وآخر بالغاء الوظائف واحداث غيرها وتخصيص رواتب وإبطال غيرها بلا قيد ولا شرط . فبينا نرى واحداً ينفق في هذه الوجوه عشرة ملايين دينار في السنة يجيء من بعده فلا ينفق مليوناً واحداً . وقد تقهقرت الجباية مع تقهقر الدولة العباسية فلم يعد الخلفاء يتمكنون من الانفاق بالسخاء الكثير. ولدينا قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر العباسي وضعها عن جباية الدولة ونفقاتها سنة ٣٠٦ ولم يكن وضعه اياها لاجل انشاء موازنة لمالية الدولة وانما جاء بها ليدفع عن نفسه التهمة التي ألصقها بهِ مزاحمه ابن الفرات بسبب العجز الذي ألمَّ بيت المال في وزارته فبلغ الدخل في السنة المذكورة ١٤٫٥٠١٫٩٠٤ دنانير

ومن ذلك نرى ان الجباية نزلت في هذا العصر الى اقل من نصف ما كانت عليهِ في عصر المأمون والمعتصم وظهرت ابواب جديدة للانفاق وردت في جدول النفقات الذي اثبتهُ علي بن عيسى مثل نفقات الحرمين وطريقهما ورواتب القضاة في الممالك ورواتب ولاة الحسبة والمظالم ورواتب اصحاب البريد وزيادة رواتب الجند وعدده بحيث بلغ العجز في ميزانية تلك السنة اكثر من مليوني دينار . ومن جملة اسباب هذا العجز ترقي الرواتب من عصر الى عصر . فالخلفاء وأهل بيوتهم والعمال والوزراء والقضاة والقواد والجنود كانوا في بادىء الامر يتناولون رواتب صغيرة جداً فازدادت مع الايام حتى صارت أرقاماً عالية . من ذلك رواتب الخلفاء التي بدأ أبو بكر بفرضها على مقدار الكفاية مع الاقتصاد التام وبلغ جميع ما تناوله عُمر في مدة خلافته كلها لنفقات بيته وقسه الضرورية ثمانين الف درهم حسبها سلفةً وأوصى بوفائها من أموال آل الخطاب . ثم صارت هذه الرواتب تنمو حتى بلغت حداً فاحشاً وصار الخلفاء يقتنون الاموال والضياع لانفسهم ولاعضاء اسرهم واقربائهم من الرجال والنساء من الاسرة المالكة التي بلغت في عهد المأمون نحو ثلاثة وثلاثين الف نفس يملكون الضياع والدساكر والاقطاعات والنقود والرياش ويجري عليهم الارزاق من بيت المال بسخاء لا مزيد عليهِ . ومن ذلك رواتب القضاة فقد كان راتب القاضي في عهد الراشدين مائة درهم في الشهر ثم ارتقى حتى صار راتب قاضي مصر في عهد الامويين الفاً ومائتي درهم . وجاء في جريدة المعتضد العباسي ان راتب القاضي خمسمائة دينار في الشهر ، وكانت دخول جبريل بن بختيشوع رئيس الاطباء في عهد الرشيد تناهز خمسة ملايين درهم في السنة يتناول منها من بيت مال العامة (١٨٠٫٠٠٠) ومن جيب الرشيد الخاصة (٤٢٠٫٠٠٠) ومن اصحاب الرشيد واهل بيته (٤٠٠٫٠٠٠) ومن البرامكة (٢٫٤٠٠٫٠٠٠) ومن غلة ضياعهِ (١٫٥٠٠٫٠٠٠) وعلى هذا المنوال ازدادت الرواتب والمخصصات وثقل عبؤها على بيت المال



الجغرافيا الحديثة

رسالتها وأغراضها

لمصطفى عامر
استاذ الجغرافيا في الجامعة المصرية

﴿ رسالة الجغرافية الحديثة وأغراضها ﴾ للجغرافيا كما لكل علم من العلوم رسالة تؤديها ، وربما كانت رسالتها هذه اكثر اتصالاً بالانسان من رسالة اي علم آخر . فهي لا تدرس، كما يحسب الكثيرون، الظاهرات الطبيعية على سطح الارض فحسب، بل هي تتناول كذلك دراسة الانسان ومظاهر نشاطه، وتبحث في أثر البيئة في حياته ، وأثره هو في البيئة التي ينشأ فيها. ومن هاتين الناحيتين، الناحية الطبيعية والناحية البشرية ، اي دراسة المكان ودراسة الانسان، يتكوّن علم الجغرافيا الحديث

ولا يقتصر شأن دراسة الظاهرات الطبيعية على تفسير بعض أسرار هذا الكوكب الذي نعيش فيه ، بل هي تتعدّى ذلك الى شرح طرق المعيشة وأساليب الحياة عند شعوب الارض وجماعاتها ، كل منها في بيئته الخاصة ، وتوضح لنا كيف ان المسائل التي تواجه كلاً منها ، سواء اقتصادية كانت أم سياسية ، هي الى حد كبير متصلة بالاحوال الطبيعية المحيطة بها . فاذا عرفت الامم المختلفة كل هذا ، امكنها ان تنظر بعين العطف الى مشكلات جيرانها ، وأن تتفاهم وتتعاون معهم على حل تلك المشكلات بما يلائم مصلحة الجميع . فيقل الاحتكاك بين الشعوب ويحل التفاهم محل الخصام ، وتتغلب المصلحة المشتركة على المصلحة الخاصة ، وتصبح الحياة على سطح الارض اسعد حالاً مما هي عليه الآن

هذه هي الروح التي تبعثها الجغرافيا الحديثة في نفس كل من يتعلمها . فهي تؤمن بالوطنية المعتدلة لا بالوطنية الطائشة ، وتدعو الى التعاون بين شعوب الارض لأنها اجزاء من الوحدة الارضية الكبرى التي لا تقبل تجزئة ، إذ لا يمكن لجزء منها ان يعيش عيشة مستقلة عن بقية أجزائها . وقد ساعد تطور وسائل النقل في العهد الاخير ، كما ساعد التقدم الاقتصادي ، على توثيق الرابطة بين الامم ، واصبح كل ما يمس عضواً من اعضاء الجماعة البشرية يمس العضو الآخر ، كما صار لكل حادث يحدث في ركن من اركان المعمورة صدًى في بقية أركانها . فمسائل الانتاج والاستغلال ، ومسائل الاسواق والتوزيع ومسائل الهجرة والاستعمار ،

كلها اصبحت مسائل عالمية، ولا يمكن حلها إلاّ بتفاهم امم الارض اجمع والتوفيق بين مصالحها المشتبكة

من اجل هذا كانت دراسة الجغرافيا ضرورية لكل شخص مثقف يرغب في فهم ما يجري حوله من حوادث ووزن الامور بميزانها الصحيح ، ولا سيما من يتصدّى لمعالجة المسائل القومية والدولية . فاتجاهات الجغرافيا الحديثة ، كما يرى القارىء ، تختلف تماماً عن روح الجغرافيا القديمة ببياناتها المطوّلة عن الرؤوس والخلجان ، والبحار والأنهار ، والسهول والوديان ، والمسافات والأبعاد . على انهُ من الغريب ان تبقى تلك الصورة البالية لعلم الجغرافيا شائعة بين أغلب المثقفين، ومنهم من يُعد من قادة الرأي وأساطين المعرفة . ولطالما سألني كثيرون ، ومنهم بعض الزملاء الافاضل في الجامعة نفسها ، هل للجغرافيا شخصية مستقلة ، تسوّغ وجودها كعلم خاص . فالجغرافيا عندهم مزيج من علوم مختلفة ، اذ هي كما يقولون ، تستمد بعض الحقائق من علوم الجيولوجيا والمتيورولوجيا والنبات والحيوان ، كما أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بعلمي الأنثروبولوجيا والاجتماع . وليس هناك زعم أبعد عن الحقيقة من تلك الآراء . أولاً لان اتصال العلوم بعضها ببعض واعتماد كل منها على الآخر هو من الأمور المعترف بها في كل عصر وفي كل دراسة ، وثانياً لان الجغرافيا الحديثة وان كانت تعتمد على بعض النتائج التي وصل اليها الباحثون في شتى العلوم ، فان اعتمادها هذا لا يتعدّى الاستعانة بتلك النتائج في شرح وجهات النظر الجغرافية

ولقد سبق أن حدّدنا أغراض الجغرافيا في أنها تدرس الظاهرات المختلفة المتصلة بالبيئة التي يعيش فيها الانسان ، كما أنها تدرس مظاهر نشاط الانسان كنتيجة لتلك الظاهرات . وهذا البحث لا يُعنى بهِ علم آخر غير علم الجغرافيا . فالانسان في هذا الكوكب يعيش في اقاليم متباينة أو متشابهة ، يتميز بعضها عن بعض في أحوال سطحها ومناخها ونباتها ، وهو موزع على سطح الارض توزيعاً يتبع قواعد خاصة ، وهو في بعض الجهات يزرع الارض ويعيش على نتاجها ، وفي جهات أخرى يعيش على الصيد او الرعي ، أو يشتغل بالصناعة أو التجارة . والانسان عامل على تغيير وجه المعمورة بشتى الوسائل فهو يقطع الاحجار من محاجرها ويستخرج المعادن من باطنها ، وهو يحفر الترع والآبار ويسوق ماء الري الى جهات لم تكن تعرف غير الجفاف والجدب ، وهو يشق الطرق ويخرق الجبال ، ويقطع الاشجار من الغابات ، ويردم البرك والمستنقعات ، وهو يقوم بانشاء المدن والموانىء ، وإيجاد المواصلات السهلة السريعة بين بلاد الارض وساكنيها . كل هذا يمثل بعض نواحي نشاط الانسان على سطح الارض ، والجغرافيا تدرس كل تلك النواحي وتبحث في أسبابها ونتائجها ، وجميعها يدخل في ميدانها وضمن دائرة نفوذها ، ويسوّغ قيامها كعلم مستقل عن بقية العلوم

﴿ الدراسات الجغرافية في الجامعة المصرية ﴾ : أما وقد حددنا أغراض الجغرافيا وبيّنا رسالتها ، فيجب علينا ان ننتقل الى بحث مقام هذا العلم بين الدراسات المختلفة في الجامعة المصرية . نشأت الجغرافيا نشأة محدودة ، فكانت عند قيام الجامعة في عام ١٩٢٥ تكوّن هي والتاريخ قسماً واحداً من أقسام كلية الآداب . وكانت الدراسة في هذا القسم واحدة في السنتين الاوليين ، ثم تتفرع بعد ذلك الى فرعين ، أحدهما للتخصص في الجغرافيا والآخر في التاريخ . ولم يكن للجغرافيا في ذلك الوقت مكان خاص بها ، كما لم تكن لديها الادوات المختلفة التي يستعان بها عادةً في تدريسها . وكانت الدروس تلقن باللغة الفرنسية ، مما حوّل جهود الطلبة من التحصيل العلمي الى العناية باللغة . غير أن هذه الحال لم تدم طويلاً ، ففي سنة ١٩٢٧ صارت اللغة العربية لغة التدريس ، وان كان قد بقي النظام السابق دون أن يلحقهُ تغيير أو تبديل . وفي سنة ١٩٣٠ نال قسم الجغرافيا استقلاله ، وأصبح قسماً قائماً بذاته ، وأخذ ينمو نموًّا سريعاً ويزداد نشاطه وتتسع دائرة اعماله ، واتخذ له مكاناً فسيحاً يسمح بانشاء مكتبة جغرافية تحوي عدداً كبيراً من الكتب والمراجع الحديثة ، كما يسمح بانشاء متحف دراسي صغير ، وأبهاء للمحاضرات والدراسة العملية . ويدرس الآن في هذا القسم سبعون طالباً ، منهم طالب يستعد لدرجة دكتور في الآداب ، وستة ينتسبون الى قسم «الماجستير» والباقون في دراسة «الليسانس» . وقد زاد عدد اعضاء هيئة التدريس فأصبح ستة اساتذة ومدرسين ، ثم مساعد يقوم بالاشراف على الناحية العملية من الدراسة كالمساحة والخرائط . اما التدريس فيتناول جميع فروع الجغرافيا الطبيعية والبشرية (وتشمل الناحية البشرية ، الجغرافيا الجنسية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والاقليمية) ، ويعنى القسم عناية خاصة بالدراسات الجغرافية الخاصة بمصر وحوض النيل ، وذلك من جميع النواحي التي ذكرناها . ويقوم القسم بتعويد طلابه البحث والدراسة الشخصية ، فهو يختار في بدء كل عام موضوعاً جغرافيًّا ، توزع اجزاؤه على الطلبة ، وهم يحاضرون فيه زملاءهم واساتذتهم بعد اعداده ، ويناقشون فيه بعد الانتهاء من القائه . ودروس البحث هذه ولو أنها مقتصرة على طلبة الليسانس الممتازين ، الاّ أن الكثيرين من الطلبة العاديين يأتون اليها بمحض رغبتهم مستمعين ، وهي ظاهرة تدل على ميل واضح للتحصيل دون نظر الى اي اعتبار آخر . هذه كلمة موجزة عن النظام الحالي لقسم الجغرافيا ، وهو نظام لا نعتقد انهُ يقل شأناً عن نظم اقسام الجغرافيا ومعاهدها التي نعرفها في الكثير من الجامعات الاجنبية ، وانهُ ليحق لنا فعلا ان نفخر بذلك كل الفخر . وللقسم صلات طيبة ببعض الجامعات الاوربية ، وقد نشأت تلك الصلات من العلاقات الشخصية بين الاساتذة المصريين واساتذة الجغرافية بتلك الجامعات . وقد ساعد هذا الجو في كثير من الاحيان على تسهيل مهمة بعثاتنا الجغرافية الى الخارج

وعلى الخصوص الى بريطانيا العظمى وفرنسا . وقد سمحت جامعة لڤربول كما سمحت جامعة مانشستر لخريجي قسم الجغرافيا بالتحضير للدرجات العالية مباشرة، وذلك بعد أن تحققوا من أن المستوى الذي بلغتهُ دراسة الجغرافيا في الجامعة المصرية لايقل عن المستوى المعترف به في معاهدهم. وقدكانت النية عند ما نبتت فكرة ارسال بعثة جغرافية الى بلاد اليمن ان تشترك جامعة مانشستر مع الجامعة المصرية في هذا العمل العلمي الجليل ، ولكن حال دون تنفيذ هذا المشروع على الوجه السابق قيام ظروف سياسية خاصة نشأت عن الحرب الايطالية الحبشية . على اننا قد ذكرنا هذا المثل ليكون دليلاً آخر على ثقة الجامعات الاوربية بمعهدنا ورجاله

﴿ دائرة نشاط قسم الجغرافيا ﴾ : أما دائرة قسم الجغرافيا فتظهر في نواحٍ شتى . فهناك أولاً ناحية تعريف النشء بلادهم ، وهي تتمثل في الرحلات التي ينظمها القسم بين حين وآخر لأغراض جغرافية بحتة . وقد قام الطلبة والاساتذة برحلات مختلفة الى منخفض الفيوم وخليج السويس وشبه جزيرة سيناء والواحات الخارجة ، وهذا فضلاً عن الزيارات القصيرة لبعض الجهات في منطقة القاهرة وهي زيارات لا تستغرق في العادة أكثر من يوم واحد . ويكاد يكون من المسلم بهِ أن من لا يعرف جغرافية بلاده ولا يعي تاريخها ، لا يمكن ان يكون وطنيًا نافعاً لوطنهِ مفيداً لقومهِ ، كما أن من يجهل الحقائق الاولية لجغرافية العالم يكون محدود المعرفة والثقافة . ويكون حكمه على الحوادث والشؤون العالمية حكماً ناقصاً

ثم هناك ناحية النشاط التي تظهر في المحاضرات العامة ونشر المقالات العلمية والكتب الجغرافية ، ومحصول القسم من تلك الناحية محصول طيب اذا قيس بمحصول غيره من الاقسام . وقد ظهرت بعض ابحاث اساتذة القسم في المجلات المصرية كمجلة الجمعية الجغرافية الملكية ومجلة كلية الآداب ، وفي بعض المجلات الانجليزية والفرنسية كمجلة « الجغرافيا » التي تصدر بمانشستر ومجلة المعهد الانثروبولوجي الملكي بلوندرة ،ومجلة « الانثروبولوجيا » الفرنسية . وقد طبعت الجامعة المصرية على نفقتها مجلدين هامين يحويان نتائج البحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ وهو البحث الذي يقوم بهِ قسم الجغرافيا في جهة المعادي

كذلك اشترك القسم في المؤتمرات الجغرافية الدولية المختلفة منذ عام ١٩٢٨ ، وقد ألقى ممثلوه في كل مؤتمر من تلك المؤتمرات ابحاثاً جغرافية عن مصر . وقد اشترك القسم كذلك في عدة مؤتمرات اخرى منها المؤتمر الدولي للسكان والمؤتمر الدولي لعلوم ما قبل التاريخ والمؤتمر الدولي للعلوم الانثروبولوجية . ونجح قسم الجغرافيا في العام الماضي في تنظيم بعثة جغرافية لارتياد بلاد اليمن وحضرموت ودراسة أحوالها الفزيوغرافية والبحث عن ادلة تثبت سكنى الانسان فيها في عصر ما قبل التاريخ . وقد اشترك في تلك البعثة قسم اللغة العربية لدراسة اللهجات والنقوش القديمة،

وقسما الجيولوجية والحشرات بكلية العلوم ، وكان المشرف على البعثة أحد أعضاء هيئة التدريس بقسم الجغرافية ممن عرفوا بالجد والنشاط ، وقوة الملاحظة والولع بالبحث والدرس . وقد قضت البعثة في تلك البلاد زهاء ثمانية شهور ، جمعت في خلالها كثيراً من المعلومات القيمة ، وهي تشتغل الآن بدرسها وفحصها تمهيداً لنشر نتائج بحوثها في الاوساط العلمية . هذا ولا يخفى ما لموقع إقليم اليمن من شأن كبير في دراسة الكثير من مسائل الجغرافيا الطبيعية والبشرية ، ولا سيما هجرات الشعوب القديمة وانتقالها ، إذ اليمن حلقة اتصال هامة بين شرق افريقية وشبه جزيرة العرب

وفي الناحية التعليمية ، يعنى قسم الجغرافيا عناية كبيرة بالسعي لتحسين تعليم الجغرافيا في المدارس المصرية . وقد اشركت وزارة المعارف بعض رجاله في وضع مناهج الجغرافيا الجديدة في مراحل التعليم المختلفة ، واتصل القسم في السنتين الاخيرتين بمدرسي الجغرافيا في مدارس القاهرة الثانوية ، ونظم لهم محاضرات خاصة في تلك المادة يحضرونها في أوقات فراغهم . والقسم على اتصال دائم بخريجيه الذين يشتغلون بالتدريس والذين أصبحوا منتشرين في كل ناحية من نواحي القطر المصري حتى الجهات النائية أمثال مرسى مطروح والواحات الخارجة. ونحن نرجو من وراء هذا الاتصال أن نصل بتدريس الجغرافيا إلى المستوى اللائق به ، وإن نشجع بعض المدرسين الممتازين على مواصلة ابحاثهم الشخصية في الجهات التي يقومون فيها بأعمالهم الرسمية

﴿ حفائر قسم الجغرافيا في المعادي ﴾ : أما الحفائر التي يقوم بها قسم الجغرافيا للبحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ في المعادي فيرجع عهدها الى عام ١٩٣٠ حينما بدأ أول موسم للحفر وأسفر عن نتائج علمية خطيرة لم تكن في الحسبان . ولربما كان من الجدير بنا هنا ان نشرح الظروف التي حدت بالقسم الى القيام بتلك الابحاث علاوة على ما لديه من اعمال . فمن الدراسات الجغرافية التي نعنى بها دراسة الجغرافيا التاريخية ، وهي دراسة جديدة لم تكن معروفة عندنا من قبل ، والغرض منها تتبع الادوار المختلفة التي مرت فيها الحضارة المصرية منذ أن ظهر الانسان اول مرة في مصر ، وبحث الجنس او الاجناس البشرية التي تنتمي اليها ، والاحوال الجغرافية التي سادت في خلال كل دور من تلك الأدوار . فكما اننا ندرس الجغرافيا البشرية لمعرفة مظاهر نشاط الانسان الحالي وعلاقة ذلك بالبيئة الطبيعية التي يسكن فيها ، فاننا ندرس الجغرافيا التاريخية لمعرفة حياة الانسان واعماله منذ العصور الحجرية . وعلاقة ذلك بالظروف الفزيوغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية في تلك العصور . من أجل هذا كانت دراسة عصر ما قبل التاريخ ، وان كانت متصلة بالناحية الاركيولوجية ، الا انها متصلة كذلك ، والى حد بعيد ، بالناحية الجغرافية . ومن هنا نشأ اهتمام الجغرافيين في كلية الآداب بدراسة عصر ما قبل التاريخ ، وبدأت رغبتهم تتجه الى فحص الجهات الأثرية القريبة من القاهرة والتي يرجع عهدها الى ذلك العصر حتى تسير الدراسة النظرية جنباً الى جنب مع التطبيق العملي

وقد وقع الاختيار فعلاً على الأكوام القائمة في الصحراء شرقي المعادي ، وحفرت الجامعة في تلك الجهة في خلال المواسم الستة السابقة (سنة ١٩٣٠ — سنة ١٩٣٦) ، وبلغت المساحة التي تمَّ حفرها حوالي ثمانية أفدنة . وقد أدى هذا البحث الى الكشف عن حضارة جديدة من حضارات مصر في العصر السابق للتاريخ ، وهي حضارة لم يكن يعرف عنها شيء من قبل ، سكن أصحابها اقليم المعادي قبل قيام الأسرات ببضعة قرون ، وعاشوا بالزراعة وتربية الحيوان . وقد حذقوا صناعة الاسلحة الصوانية والآنية الفخارية والحجرية ، وعرفوا النحاس وصناعة الغزل والنساجة ، وشيدوا أغلب مساكنهم من أغصان الاشجار والطين . وان كان البعض قد حفر كهوفاً عميقة في التربة الرملية ، واستخدم البعض الآخر الحجر والطوب في البناء ، وربما كان ذلك لاول مرة في شمال مصر . وقد جلبوا معدن النحاس والمانجنيز من سيناء ومادة القار (الاسفلت) وبعض السلع من فلسطين ، واتصلوا بالصعيد بوساطة النيل كما يتبين ذلك من دراسة بعض آثارهم .

هذه هي اهم مظاهر الحضارة الجديدة التي كشف عنها قسم الجغرافيا في المعادي ، والتي أدّى كشفها الى القاء ضوء كثير على حياة الانسان في الدلتا في عصر ما قبل التاريخ ، وعلى علاقاته بجيرانه سواء أكان ذلك في مصر أم في خارجها . وقد كانت كل معلوماتنا عن ذلك العصر تأتي من الصعيد ، ونسب الكثير من العلماء نشأة الحضارة المصرية الى الوجه القبلي . والمباحث الجديدة في المعادي وفي غرب الدلتا (حيث تعمل بعثة نمسوية) أظهرت ان الدلتا كانت دون شك أعرق حضارة وأعظم تقدماً وأكثر عمراناً من الصعيد . وقد ساعد على تقدمها هذا ثروتها الزراعية ومراعيها الغنية وموقعها الجغرافي الذي سهل اتصالها بالاقاليم المحيطة بها . ونحن اليوم نؤمن بان الحضارة المصرية هي وليدة البيئة المصرية وليست حضارة غريبة وصلت مصر من الخارج ، كما نؤمن ان تطور تلك الحضارة استمر منذ العصور الحجرية الى اليوم ، وقد حافظت تلك الحضارة على صبغتها المصرية على الرغم من الغزوات التي انتابت هذا البلد في اوقات مختلفة

وقد كان من نتائج تلك الاعمال الموفقة في المعادي ان اخذت تتصل بقسم الجغرافيا بعض الهيئات الاوربية التي تعنى بدراسة عصر ما قبل التاريخ في مصر ، وتستعين به في بحوثها . فقد قام احد اعضاء هيئة التدريس فيها بدراسة مجموعة الآلات الصوانية التي جمعتها البعثة البريطانية التي تقوم بالحفر في جهة أرمنت ، وكان لهُ شرف كتابة جزء كبير من تقرير هذه البعثة ، كما اشترك في الابحاث التي تقوم بها بعثة بريطانية اخرى في اقليم الفيوم . وقد قدّمت تلك البعثات الى متحف القسم بعض ما وجدتهُ من آثار ، وفي هذا مكسب كبير للمجموعة الدراسية النفيسة لعصر ما قبل التاريخ في مصر ، وهي المجموعة التي يعمل القسم على إعدادها وتنظيمها لتضاف الى متحف كلية الآداب في المستقبل

اهذا دمٌ بشري

اسلوب بديع في تفريق دم عن دم
يعتمد عليه في المحاكم

ذهب رجلان الى الصيد معاً ثم عاد احدهما ولقي الآخر حتفه في اثناء الصيد . فلما سئل رفيق الصيد في ذلك قال انه لقي جثة صديقه في حالة تدل على انه اصيب خطأً بقذف ناري. ودلت حوادث الفاجعة على ان روايته صحيحة . ولكن ارملة القتيل لم تقتنع بما قيل فطلبت اجراء البحث . وفي اثناء التحقيق سئل الرجل المشبوه ، عن بقع قائمة على السترة التي كان يرتديها وهو في الصيد ، فقال انها بقع من دم إيَّل اصطاده وجره الى المضرب الذي اقامه. فدعا وكيل النيابة كيمياوياً حيوياً وطلب اليه ان يفحص هذه البقع وهل هي حقيقة بقايا من دم الايل

اخذ الكيمياوي السترة وعاد بها الى المعمل واقتطع منها القطع التي عليها بقع الدم وغمسها في محلول مالح . ذلك ان التحقيق المطلوب منه كان يقتضي منه معرفة امرين : اولهما هل هذه البقع بقع دم وثانياً هل هي بقع دم ايل ؟

فللاجابة عن السؤال الاول ، اي لمعرفة هل هذه البقع بقع دم اطلاقاً ، عمد الباحث الى المجهر باحثاً في النقيع عن كريات الدم الحمر ، ولكن البقع كانت قديمة ، فانحلت الكريات وتلاشت ، اذا كان ثمة كريات . ثم نظر في المحلول بوساطة المطياف فتبين الخطوط السود التي يمتاز بها طيف الدم فاستوثق من ان هذه البقع بقع دم حقيقة

بعد ذلك تقدم الى البحث في هل هذا الدم دم إيل كما يقول صاحب السترة ام هو دم آخر . فكيف يفعل ذلك ؟

يعرف قراء المقتطف ما يراد بلفظي « الاجسام المضادة » فهي اجسام دقيقة يولدها الجسم عندما تدخله مادة غريبة نتتهيج انساجه فتفرز مواد كيمياوية اطلق عليها اسم « اجسام مضادة » . فيصبح الجسم منيعاً لا تؤثر فيه تلك المادة زمناً يطول او يقصر. فالطبيب اذا شاء ان يحصن رجلاً ضد مرض الجدري حقنه بميكروبات المرض بعد اضعافها

فيثير وجودها انساجه فتنشط الى افراز المواد الكيمياوية المعروفة باسم الاجسام المضادة وبذلك يصبح هذا الرجل منيعاً او محصناً ضد هذا المرض

وعماد الباحث في دم هذا المشبوه ، أجسام مضادة كذلك ، بل أنواع مختلفة منها . ولكنها يجب ان تكون رهن اشارته في القناني والانابيب ليتمكن من تجربة التجارب بها . فعليه ان يصنعها أولاً في دم بعض الحيوانات ، ثم يستخلصها منها ويعدها للتجريب بها متى شاء

وهو يتوسل الى غرضه هذا بالارانب فيأخذ منها طائفة مؤلفة من ٢٥ الى خمسين أرنباً ويقيم كلاً منها في قفص ويرقم كل قفص برقم ، ثم يحقن كلاً منها بقدر يسير من دم حيوان آخر ، فيثير وجود هذا الدم في دم الارنب انساج الجسم فتفرز المواد الكيمياوية المعروفة باسم « أجسام مضادة » . فيحقن الارنب الاول بدم الفرس والثاني بدم الغزال والثالث بدم الحمار والرابع بدم الدجاج والخامس بدم الهر وهكذا

ثم عليه ان يستخرج هذه الاجسام المضادة المنوعة من دم الارنب ليحفظها في أنابيب خاصة فيستعملها حين يشاء . فيخز شرياناً في أذن كل أرنب عولج بالطريقة المتقدمة ، ويجمع مقداراً من الدم السائل منه ، فيتركه في وعاء نظيف حتى يتخثر ، فينفصل مصل الدم عن المواد الجامدة التي كانت معلقة فيه ، وتكون الاجسام المضادة في هذا المصل ، فيوضع كل مصل في زجاجة وترقم الزجاجة برقم الارنب الذي استخرج المصل من دمه . فاذا كان الارنب رقم ١ هو الارنب المحصن ضد دم الفرس كانت الاجسام المضادة التي في زجاجة رقم ١ هي الاجسام التي تستعمل في امتحان بقعة دم قيل فيها انها بقعة دم فرس

وعلى ذلك تكون هذه المصول معدة للعمل ، ولكن قبل استعمالها يجب ان يستوثق من انها تحتوي على الاجسام المضادة. وليس ثمة فارق ظاهر بين مصل يحتوي على أجسام مضادة وآخر لا يحتوي عليها . وللاستيثاق من ذلك أسلوب بديع

* * *

تؤخذ عشرة حمالات للانابيب وتوضع متوازية ويوضع في كل حمالة منها عشرة أنابيب ويوضع في أنابيب الحمالة الاول مصل دم أرنب محصن ضد دم الكلب . وفي أنابيب الثانية مصل دم أرنب محصن ضد دم الدجاج وهكذا . والغرض ان نعرف هل كل مصل من هذه المصول العشرة يحتوي على الاجسام المضادة الخاصة

ثم يأخذ قليلاً من دم الكلب ، فيضع قطرة منه في الانبوب الاول من كل حمالة . وقليلاً من دم الدجاج ويضع منه قليلاً في الانبوب الثاني من كل حمالة . وهكذا . ثم يهز كل انبوب هزاً عنيفاً حتى تختلط محتوياتها بعضها ببعض ، ثم يغطسه مدى بضع دقائق في ماء حرارته ٣٧ درجة مئوية وهي الحرارة السوية في اجسام الحيوانات الدافئة الدم

وبعد ذلك يشرع الباحث في فحص هذه الانابيب . والفحص غاية في الدقة ، لان اقل

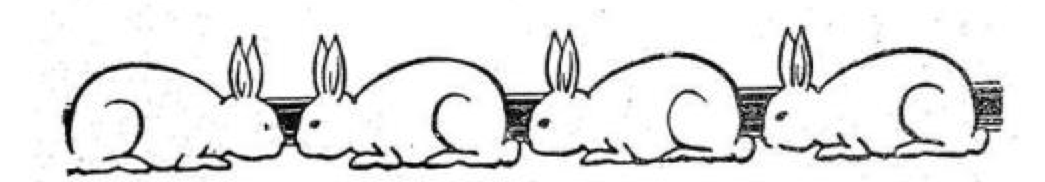
خطأ يرتكبه قد يفضي الى اعدام بريء . ولكن الكيمياويين المدربين لايخطئون ، ولذلك لا تعتمد المحاكم في مثل هذه الشؤون الا على من استوثقت من كمال دربته ودقته فعندما يخرج الانابيب من المغطس الساخن ، يرى في بعضها تغيراً اذ يشاهد راسب ابيض في الانبوب الاول من الصف الاول والثاني من الثاني والثالث من الثالث

فعلى ما يدل ذلك ؟ قلنا ان المصل في الصف الاول كان مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب . وقلنا اننا اضفنا الى الانابيب الاولى من الصفوف العشرة قطرات من دم الكلب . فلم يحدث الراسب الا في الانبوب الاول من الصف الاول

اي ان في مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب مواد اذا اجتمعت بدم الكلب احدثت راسباً . وهذه المواد هي الاجسام المضادة . فاذا لم يحدث ترسيب دل ذلك على ان الاجسام المضادة التي تحدث ترسيب مادة معينة غير موجودة وهذا يعني ان مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب لايحدث راسباً الا اذا اجتمع بدم الكلب . وان مصل دم ارنب محصن ضد دم بشري لايحدث راسباً الا اذا اجتمع بدم بشري . وجميع هذه المعدات تعد مقدماً وليس على الكيمياوي الا القيام بمراتب الامتحان الاخيرة عندما تطلب اليه المحكمة ذلك

***

لنعد الآن الى قصتنا وقضيتنا . عاد الكيمياوي الى معمله وقطع قطع النسيج الملطخة ببقع الدم وأثبت انها دم اولاً ثم حاول ان يعرف هل هي دم إيل كما يدعي صاحب السترة او لا . فأعد انبوباً وضع فيه مصل دم ارنب محصن ضد دم الايل واضاف اليه قليلا من المحلول المالح الذي يحتوي على نقيع الدم الذي على السترة ، فلم يحدث اي ترسيب فكان ذلك قاطعاً بان الدم الذي على السترة ليس دم إيل . ولعله دم ديك . فأخذ انبوباً ووضع فيه مصل دم ارنب محصن ضد دم الديك واضاف اليه قليلا من المحلول المالح المحتوي على نقيع دم السترة فلم يحدث ترسيب فكان ذلك قاطعاً بأن الدم على السترة ليس دم ديك . فلما وضع في انبوبة قليلا من مصل دم ارنب محصن ضد دم بشري وأضاف اليه قليلا من المحلول المالح المحتوي على نقيع الدم الذي على السترة حصل الترسيب فثبت ان الدم على السترة كان دماً بشرياً



للحقيقة والتاريخ

الزهاوي

في ديوانه الاخير — تحية ذكراه الاولى

لاحمد محمد عبشي[1]

— ١ —

« الأوشال » هو أحدث دواوين الزهاوي وأوضحها مقصداً وأصدقها اتجاهاً وأفتنها وأكثرها معنىً وأظهرها على الاطلاق . أبان عن شخصيته أيما ابانة وكشف ما استتر منها بوضوح وجلاء ، تغلب عليه لغة العلم الجافة التي لا تصلح كثيراً للشعر والتي فيها من التداني والتدلي ما يقربها من الارض — ووالله ما عرفت الشعر يوماً الا في السماء !!

وهو — الأوشال — كأخوته دواوين الزهاوي فيه من الايمان آيات بينات ومن التحرر ضلالات وترهات ومن اليقين حسنات طيبات ومن الشك شبهات ونزغات ومن الفرح نغمات وصدحات ومن البكاء عبرات وزفرات ومن الربيع ورود وباقات ومن الخريف زوابع ونسمات ومن المنطق غدوات وأمسيات ومن التمرد صرخات ووثبات . فيه من البحر أواذيّ مصطخبات ومن الأوشال حفنات قليلات ومن اللذة سرور ونشوات ومن الألم إعوال وحسرات . فيه من الشباب صبوات وجهالات ومن الشيخوخة كبوات وشهقات ، فيه من الفجر أنوار وانبلاجات ومن الليل غشيات وظلمات . فيه ما يمتع الفنان وما يتعشقه من سحر وروعة وما ينشده العالم من قياس ومنطق وما يتطلبه الفيلسوف من استشفاف للغيب وارتياد لمجاهل قضايا الكون المجهول منها والمعلوم

— ٢ —

ليس لك يا صاحبي أن تقرأ ديواناً من دواوين الزهاوي الا بعد أن تقرأ رسائله العلمية التي أودعها خلاصة آرائه ومذاهبه في الكون والحياة . ذلك لأنها بمنزلة الشرح والتفسير لشعره في مختلف أطواره وجدير بك ان تتحرر كثيراً وتحصن وراء ثقافة علمية ومعلومات رياضية عالية قبل البدء في قراءة ذلك الرجل ومذهبه في الشعر ذلك المذهب العجيب ، حتى

(١) — أحد فصول كتابنا « جيل صدق الزهاوي » الذي لم يطبع بعد

لا تغرَّنك سهولة ذلك الشعر وسذاجة ألفاظهِ ووداعتها فان وراء الأكمة ما وراءها ووراء تلك الالفاظ السهلة معانٍ بعيدة الغور وفلسفة للكونِ من العجب بمكان مبنية على استنتاجات منطقية وقوانين رياضية محتومة لا مفرَّ منها، حتى لا تُظلم ولا تظلم وتكون في حكمك على هذا الرجل من الصائبين

افتتح الديوان بمقدمة أجمل فيها رأيه في الشعر وأبان عن وجهة نظره وأنهُ ذلك الطائر الفرد الذي يستوحي الطبيعة وجمالها ويغرد غير آبه بالقيود والاصفاد حاملاً رسالة التجديد والانشاء لابناء الرافدين . ولا يعترف في مقدمتهِ بالعاطفة التي هي قوام الشعر الصحيح، وقد جرَّه ذلك الى مشاكل جمة مع نقاده — وسنبينهُ كله في موضعه من الكتاب — ولا يحسب الشعر شعراً الاَّ اذا كان لحمته وسداه مسائل العلم كشعراء الغرب في هذه الايام على حد قولهِ، واروع الشعر عنده ما كان علميًّا فلسفيًّا «ولم يشتهر الخيام والمتنبي والمعري الاَّ بشعرهم الفلسفي وهو الذي يجري على الالسنة كالامثال» . ولنا ردٌّ على ذلك في حينهِ لاننا من مخالفي هذا المذهب، وقد عرَّف الشاعر وقال انهُ لايكون شاعراً الاَّ اذا توفرت فيهِ ثلاث «الاول ان يكون لهُ استعداد ذاتي للشعر والثاني ان تغزر مادته في اللغة والعلم والثالث ان يكون قد مارسهُ طويلاً» الخ . . . .

وهذا كلام لا غبار عليهِ غير انهُ ينقصهُ شيء من التحديد والتعريف . فكل شعرور يقسم لك اغلظ الايمان انهُ اوتي ملكة الشعر وانهُ يرى في نفسهِ القدرة على صوغ قلائده الجميلة بله على ارتجال عيونهِ ! !... ولكن العبرة بروح الشعر روح الجمال والحب والحقيقة ذلك الروح المنطلق في الآفاق العالية والاغوار البعيدة النائية والاجواء العاطرة الساحرة المجهولة البقاع

لنترك هذا التعريف — تعريف الشعر والشاعر — فله مكانه من الكتاب، ونعود الى المقدمة هذه فنجد انها لا تنقع غلة ولا تشفي علة ويا ليتها شرحت لنا معميات شعره وأبانت عن مذاهبه الفلسفية بعض الشيء واوضحتها كبلج الصبح، كما يجب ان يكون الوضوح والبيان

— ٣ —

شعر هذا الديوان من الشعر الجديد لامشاحة غير انهُ يشوبهُ بعض قصائد من المديح والرثاء ولولا انها بريئة ولشخصيات تستحق التقدير لشننت الغارة عليهِ

وعلى ذكر هذا الشعر شعر المناسبات — نذكر حسناته — ان كانت لهُ حسنات — احقاقاً للحق رغم تحاملنا عليهِ وازدرائنا لهُ، فمن حسناتهِ عند القدامى تلك الحكم العامرة والاوصاف الباهرة التي زفها أمثال المتنبي والنواسي والبحتري بين ثنايا قصائدهم الى ممدوحيهم ووالله لاأدري متى تجرؤ مدارسنا الشعرية الحديثة على حذف المدح من تلك القصائد وهاته

المقطوعات كي نُقبل على هذا الشعر بشغف لايقل عن اقبالنا وشغفنا بالشعر الغربي او الشعر الحديث في العالم العربي

ومن حسنات شعر الزهاوي — رثاء ومديحاً في ذلك الديوان وفي غيره ، رسمه صوراً مختلفة لصورته وشخصيته ونفسيته وأمانيه وآماله بجانب شخصياته ، وانها لحسنة فضلى نسطرها لهُ بمداد الاعجاب. وحسنة اخرى كبرى نسطرها لهُ بمداد الفخر والاشادة بذلك الشاعر الفحل، الذي لم يمتهن كرامة الشعر والشاعر ويتجر بشعره ويتزلف به الى اولي الامر او الملوك والامراء على الاقل ، الذي حقق ان الشاعر بمثابة ملك غير متوج وحقق أيضاً — عملياً — نظريتنا المتضمنة عدم الاعتراف بشعر الرثاء والمديح لعدم صدقه وروعته وانسانيته في معظم الاحايين. فقد آثر المغفور لهُ الملك فيصل عقب تتويجه ان يجعل من المرحوم الزهاوي شاعره الخاص مقابل مكافآت مالية لامقطوعة ولا ممنوعة لفقره وعوزه يومئذٍ. فرفض بأباء وشمم ان يكون — طيلة حياته — «العصفور السجين الذي تلقى اليه الحبات في قفصه الصغير ليعيش ويغرّد مكرهاً وينوح مكرهاً» فألحّ عليه المغفور لهُ الملك فيصل ان لايخالفهُ في مسألة كهذي — وما اراد جلالته بهذا غير سد عوزه وفقره يومئذٍ لما يعلمهُ عن صلابته ومبلغ اعتداده بنفسه — فلم يتزحزح عن رأيه قيد أنملة قائلاً لهُ « ان مدحك يا مولاي فرضٌ عليّ اذا ما ومضت بارقة امل للوطن العزيز في عهدك السعيد . اما الذهب يامولاي فلا حاجة للشعر به لانهُ لن يجمّل تاجه الجميل » !! . .

— ٤ —

يطالعك هذا الديوان بقصيدة فلسفية عنوانها « منك انا » ومطلعها

يا روح هـذه الدنى	شرارة منك أنـا
قد استطارت تبتغي	لنفسها ان تعلنا
إن بصيصي كلـهُ	من بعض ذلك السنا
انك انت الكون	والذي لهُ قد كوّنا

فيغرنك هذا المطلع وتحسب ان ذلك كلام لا شية فيه واذا بك تنحدر الى فلسفة غريبة فيها منطق واضطراب وشك وايمان وتحرر من الايمان — الايمان الذي لا يسلم به العقل ويقف حجر عثرة في سبيل تحقيقه — وفيها تتراءى فلسفة الرجل وعقيدتهُ ، فهو هنا يؤمن بمذهب الدور — التغير — ذلك المذهب القديم الذي انفرد به هو في العصر الحديث وكاد يضع اصوله والذي يقول فيه اننا سنموت هنا ونحيا هناك ، نموت هنا بصورة ونحيا هناك بصورة اخرى فلا فناء ولا عدم ونظل هكذا دواليك الى ما شاء الله ابد الآبدين . وهذا المذهب لا يقرب من

مذهب الحلول كما يفهم بعضهم اذ الاول مبني على قوانين علمية اما الثاني فمسائله افتراضية محضة قاله بعض المتصوفين في حالات غيبية بحتة شاهدوا في خلالها بصفاء ارواحهم كثيراً من غوامض الكون واسراره العجيبة فانطلقوا غير واعين لما يقولون . وقد فصل الزهاوي مذهب « الدور » هذا في رسالته العلمية الصغيرة « المجمل مما أرى » وسنفصلهُ ونرد عليهِ بدورنا في مكانه من الكتاب . انظر اليهِ يخاطب هذه الروح التي مثلها في قصيدته مسيطرة آمرة

منك انبثقت بعدما فيك كنت ازمنا
فكنت طوراً خافياً وكنت طوراً بيّنا
وسوف ابقى بك من بعد الردى مرتهنا
وليس موتي غير تغيير يَ فيك السكنا
وليس في انتقالتي منك اليك من عنا
فلا انفصال عنك لي هناك كنت ام هنا

يقول ذلك في الوقت الذي لا يصدق فيهِ الاساطير والمعتقدات باسلوب تهكمي لاذع وبعقل متشكك جبار متحرر لا يعبأ الا بالمنطق والمادة وما يتبعها من قوانين واحكام

فهو لا يؤمن الا بتلك الومضات الكهربائية التي تنبثق من تفاعل المادة تلك التي يعزو اليها تنسيق الكون بما بعثتهُ من حياة في هذه الاحياء وانها ذلك الينبوع الذي يثرُّ عليهِ السحاب ماء فلا ينضب وسيظل باقياً ما بقي ذلك السحاب عند قوله

ان الحياة ومضة منك ابت ان تكمنا

الى ان يقول

الكون قد بنيته وانت خير من بنا
بك الوجود واجب فليس يقبل الفنا
وليس كون ماله من اول مكونا

وهو هنا على ما يلوح لي يخاطب المادة او بعبارة اخرى يخاطب الأثير وهذا هو الصحيح . فالاثير عنده هو كل شيء ، وهو هنا يفترض الاثير كأداة خالقة مسيطرة وان كان الاثير كما نعتقد ليست له تلك القوة الفعالة القادرة التي ينسب اليها الزهاوي كل شيء في حين أنها هي بعض الشيء وعلى حد قول العلماء المعاصرين « ليس الأثير غير افتراض علمي لتفسير بعض مظاهر الكون العجيبة » وانه — اي الاثير — بعد تجربة ميكلصن — مورلي وأضرابهما من العلماء المعاصرين فقد سحره القديم ومكانته التي كان عليها . . . . . ولنا كلام طويل عن الاثير للحيز الكبير الذي شغله في حياة الزهاوي العلمية سنثبتهُ في مكانهِ من الكتاب . ولنعود نحدثك عن ذلك الروح الذي عناه في ذلك القصيد فما هو الا الاثير وما الاثير عنده غير ما اثبتهُ

احدى مقطوعات ملحمتهِ الخالدة « ثورة في الجحيم » التي سيأتيك ذكرها في هذه الابيات الاربعة عندما سأله الملك عن الذات الالهية

ما لكل الاكوان الا إلـه واحد لايزول وهو (الاثير)
منهُ هذا الوجود فاض عمياً واليهِ بعد البوار يصير
ليس بين « الاثير » « والله » فرق في سوى اللفظان هداك الشعور
وبحسبي أني صدعت بما اد ري على علمي انهُ سيضير

ومن تحقيقاتي العلمية مع المرحوم الزهاوي تجد انهُ في تعليلاتهِ لمظاهر الكون لا يخرج عن دائرة المذهب المادي الذي يؤمن بهِ ويتعصب لهُ ولا ضير عليهِ في ذلك لولا انهُ تبعاً لذلك يثير في هذا الموضع. وفي غيره قضية من اكبر القضايا الفلسفية « أصل الحياة » و « غاية الحياة » ويعزو الى المادة كل شيء في حين ان الماديين انفسهم بعد النشاط العجيب الذي ابدوه طوال قرون عديدة قد تقهقر دعاتهم في مستهل هذا القرن واعترفوا بعجزهم المطلق عن تفسير بعض عجائب الكون ومظاهره وفي هذا ما يخذلهُ — ان لم يهدمهُ — غير أنهم لم ينسحبوا من الميدان بعد ولم يكفوا ايديهم الا ان دعواهم أصابها الفتور والعياء الى حد كبير . .

وسنرد عليهم ونبين هذا المذهب ومدى تأثيره عند الزهاوي فيما سأطالعك بهِ من فصول أثبتها في كتابٍ عنهُ ولا استطيع قولاً في هذا المجال اليوم، الا ان الفلاسفة والعلماء طوال هاتهِ القرون من عهد الانسانية الى اليوم سعاة في اماطة اللثام عن هاته الحقيقة الكبرى ولم تعلن الفاصلة بعد

كنا نريد ان نمر كراماً على هذه القصيدة وما يشابهها فان للرجل تفكيره ومنطقه الخاص وقد أودع خلاصة آرائهِ في رسائله العلمية وناقشناه فيها وفي معتقداتهِ واتهمنا من ذلك كله الا ان للحقيقة حرمة وللتاريخ حكماً، ونرى ان تلك الآراء رغم طابعها العلمي لم تحقق علمياً ولذا ناقشها في مكانها ونرد عليها رداً هادئاً يدحضها —في رأينا — من أساسها

ويجب أن لا يختلط عليك الأمر يا صاحبي فتعتقد أننا نرفض الشعر الفلسفي او الشعر العلمي كلا بل بالعكس لنعتقد أننا في حاجة ماسة الى شعراء علماء فلاسفة !!. علماء يسبحون في أجواء الكون ويقصون علينا رحلاتهم ويخلقون لنا جواً عطراً عبق الشذى فواح العبير لا يقصون مشاهد العلم فحسب ، بل يقصون مشاهد الطبيعة ومشاهد الجمال ومشاهد الحب بعاطفة من الشعر الجميل

ويغوصون الى الاعماق باحثين عن الدر والذهب غير متناسين جمال البحر وسحره الرائع العجيب ، ثم يعرجون الى معارج الأفلاك المتناثرة فيضعوا أصابعهم فوق الحقيقة المطلقة ويعلموا الناس معنى الحياة ومعنى الخلود . . . وعندي أن الشاعر الفحل هو الذي لا ينسى الحب والجمال والعاطفة في قصائده العلمية والفلسفية ، حتى اذا فقده العلم أو أغفلتهُ الفلسفة يوماً ما لا يضيع

هباء ، وكذلك الشاعر الناشد الحب والخير والجمال يعوزه العلم الغزير والمعرفة الشاملة والثقافة الدسمة حتى لا تقف أفكاره وأخيلته بجانب أفكار السوقة وخيالاتهم

أما الشاعر الفرد فهو ذلك العالم الفيلسوف المتغني دائماً بأناشيد الحب وأهازيج الجمال

— ٥ —

ايمان الرجل بالمذهب المادي مما لا ريب فيه ، وهذا المذهب من اعرق المذاهب الفلسفية القديمة ـ وسنرد عليه في حينه كما اسلفنا ـ غير اننا لا نرى مندوحة عن مناقشة بعض قصائده التي أودعها ناحية من ايمانه ونكتفي بمناقشة القصائد وتحليلها تاركين نقد معظم التراكيب والالفاظ لفرصة اخرى . ففي قصيدته (الشاكية) التي مطلعها

بعد ان اردى فأهبط رمسي يتساوى غدي ويومي وأمسي
جدث فيه كل دهري ليل ما لاضواء فجره من مجس
ظلمة فوق ظلمة انا فيها ابداً مصبح كما انا ممسي

تشم رائحة ايمان الرجل وسخره بالمعتقدات الفاشية في منطق عجيب ينكر ما اجتمع عليه الناس ويهدم آمال العامة جمعاء — ولا غرو فهذا هو لباب المذهب المادي — داعياً في الوقت نفسه الى الاستمتاع باطايب الحياة ومباهجها قبل ان تأزف ساعة الرحيل الذي ليس لهُ من بعده من نشور

انما الدنيا جنة لسعيد وجحيم لذي شقاء وبؤس
لك فيها الحياة ما طبت عيشاً كل شيء فلا تبعها ببخس

وكلها على هذا النسق الايقوري وليس فيها من جديد غير قوله

ما نظمت القريض الا" بإلها م جديد من السماء لنفسي
قبسوه من قول من سبقوهم ومن الشمس والكواكب قبسي

وقصيدته (لفظرات ونزغات) التي مطلعها

نأى بي عن الاصحاب في سيره العمر ويرجع أحياناً اليهم بي الذكر

كشقيقتها — الشاكية — تبين ما استتر من عقيدة الرجل

ألا انما الارض التي نحن فوقها هي المهد للابناء ثم هي القبر
وان شئت فاحمدها وان شئت فاهجها فليس بذي بال عقوقك والبر

الى ان يقول : يقولون في الايمان كل نجاتنا ويا رب ايمانٍ قويٍ هو الكفر
وينتظرون الفجر في ليل قبرهم ولكن ليالِ القبر ليس لها فجر

وثالثة الاثافي قصيدته (الموت) التي لولا الاستشهاد بها لما ذكرتها ذلك لانها فوق حملها الموت في طياتها مهلهلة الاسلوب مفككة الاوصال سقيمة المعنى ومطلعها

زاغت نزول الحياة فتنتهي الحركات
اهوى الحياة ولـكن ما للحياة ثبات

وانها حقـا زاغت منها الحياة فقضت نحبها من غير دمعة رثاء او كلمة عزاء ، انظر اليها في الديوان تجده فيها قد وصف الموت والاموات وخاف الموت خوف الشاة الذئب وقطع اننا بالموت نودع الآمال ونتهي وينتهي معنا كل شيء وفي القبور يتساوى الجميع لافرق بين احد

وهذا كلام لا غبار عليه ... ولـكن ... وما اقسى ولكن هذه... تلك الـكلمة التي يرد بها الناقد النزيه الحق الى نصابه ... اين منهُ قول المعري « غير مجد في ملتي واعتقادي »

فالمعري قد تصوّف وتأمل وفكر .. ونظر الى الـكون نظرة الفيلسوف الشاعر فأبدع في تصوير الحقائق الشعرية وفي تصوير الحقائق المادية وكانت قصيدته فتحاً جديداً في الشعر الفلسفي الممزوج بالعاطفة ذلك الذي نتوق اليه وننشده وكأننا ننشد العنقاء واخويها

اما (الموت) عند الرجل فخال من كل شيء خال من العاطفة التي حيكت حوله من ملايين السنين اي من مهد الانسانية الى اليوم ، خال من الروح التي ليس لنا أن نتخلى عنها قيد شعرة مهما تخلت عنا ، خالٍ من الحلم الجميل الحلم الذي يحبب لنا الحياة

ولا هم له غير تمجيد الحياة تمجيد عبادة في الوقت الذي ينكر فيه البقاء بعد الموت — الخلود — والبقاء بعد الموت حلم من احلام الانسانية العذاب، ونحن نتشبث به لان الانسانية لو افتقدتهُ لشقيت طويلاً واختل التوازن الاجتماعي وعمت الفوضى ارجاء الارض قاطبة وما اغنت القوانين الوضعية فتيلاً في كبح جماح الغرائز البشرية التي تعتمد — في جميع اطوارها — على الهدم قبل البناء . وهذه في الواقع — انكار البقاء بعد الموت — اهم شعب المذهب المادي ، ولنا كلام طويل للرد عليها سنثبتهُ في حينه وليس لنا في هذا المقام من عزاء نتعزى به غير قول الشاعر « ماضيق العيش لولا فسحة الامل »

— ٦ —

أهم ظاهرة في شعر الرجل وفلسفته — بل خير ظاهرة في فلسفته وشعره — التمرد والثورة ، التمرد على الطغاة والظالمين والمنافقين والمتعسفين والجهلاء والمتـكبرين ، الثورة على الجمود والجهل ، والضعف ، ضعف الشرق واستكانته لما تحيفهُ من ظلم وينزل به من بلاء ، الثورة التي تنشلنا من وهدتنا هذه الى الحق والحرية والنور . وخير شيء عند الرجل يمثل فلسفته ويطبعها بطابعهـا الخـاص « القوة » التي لا تعبأ بالسدود ولا بالقوى مجتمعة ، القوة التي تريد التحرر والانطلاق الى رحاب الارض بما وسعت وآفاق السماء بما اتسعت ، فبقدر بساطة أسلوبه ووداعته تجد قوته في معانيه هذه المعتدة بنفسها الشامخة بأنفها تروعك بكبريائها وتحملك على أجنحتها الى طريق المجد الذي عبّدهُ لنا الاجداد

« البقية في مكتبة المقتطف »

أتدرى ؟ !

أتَدْري الطير هَيْمانا ؟ أتدري القلبَ ولهَانا ؟
أتدري الغصن دَاعَبَهُ نسيمٌ عابثٌ آنـــا ؟
أتدري الورد مختـــالاً وبين الزهر نشـــوانا ؟
أتدري الحُسْن مؤتلِقاً بثوب السّحرُ مزدانـــا ؟
أتدري البدر غفـــلانا ؟ أتدري البدر يقظانـــا ؟
وعين النجم ســـاهرةً لتشكو منهُ هجرانـــا !
اتدري الكون في ليلٍ عليهِ الصَّمْتُ قد رانا ؟
وتهمس فيهِ ارواحٌ فما تَسْطِيعُ تِبيانا
اتدري الفجر اذ يسري بجَفن الروض وسنانا ؟
اتدري الفجر بَسَّاما ؟ اتدري الفـــجر فتانا ؟
اتدري ؟ كيف لم تدرِ ؟ ! وصفتُ الآن...«فنَّانا»...

القاهرة محمد فهمي

أين تبدأ الحياة ؟

سر « الفيروس »

وصلته بسر الحياة

تطلق كلمة « الفيروس » Virus في اللغات الاعجمية على كائن خفي تسند اليه بعض الامراض ولكن لا يعرف له قوام معيّن لانهُ من المواد الراشحة التي تجتاز أدق المرشحات مسامّ ، وقد انقضت أربعون سنة منذ عرف ،فاتجه النظر اليه لأ نهُ في رأي بعضهم من أبسط المواد الحية تركيباً

الدكتور وندل ستانلي ، كيمياوي حيوي . تخرّج من جامعة ايلينوي وندب من قبل مجلس البحث القومي لدراسة المركبات الجذامية في المانيا . ثم عاد الى معهد ركفلر سنة ١٩٣١ وفي السنة التي تليها أنشأ المعهد فرعاً في نيوجرسي فذهب اليه ستانلي وجل همه متجه الى «الفيروس»

وطبيعة الفيروس من المشكلات الاساسية في علم الباتولوجية . فشلل الاطفال والانفلونزا وحمى البيغان والسعار والحمى الصفراء وبعض النوامي الخبيثة تحدثها على ما يظهر مواد ليست بالجراثيم اي الميكروبات هي ما يطلق عليه اسم فيروس .فالبحث في طبيعة هذه المواد ، ناحية كبيرة الشأن من نواحي البحث الطبي . وقد عني الباتولوجيون والبيولوجيون بدراسة الفيروس من وجوهه الباتولوجية والبيولوجية . ولكن عُهد الى ستانلي في دراسته من الناحية الكيمياوية ، اي عهد اليه في استطلاع طلع الفيروس وما هو بالقياس الى الجزيئات العضوية ، وما هي هذه الجزيئات وما خواصها وما الذرات التي تتألف منها

وقد اختار لبحثه اقدم المواد الفيروسية المعروفة وهي فيروس آفة تصيب ورق التبغ وتعرف باسم «آفة الفسيفساء» . ان زرّاع التبغ يخشون هذه الآفة ، لانهُ اذا اصيبت نبتة واحدة بها ، امتدت العدوى على الغالب الى جميع النباتات في الارض المزروعة ،فتذويها وتضعفها وتجعد اوراقها بعد ان تتبقع الاوراق تبقعاً يشبه الفسيفساء ومن هنا اسم الآفة

لما وصفت هذه الآفة اولاً في سنة ١٨٥٧ خلط بينها وبين آفة اخرى تشبهها في بعض مظاهرها بعض الشبه ، ولم يفرق الباتيون بين الآفتين الا سنة ١٨٩٢ ، ويعزى هذا التفريق

الى باحث رومي يدعى ايفانوفسكي ، ادهش بكتريولوجيي ذلك العهد بقوله ان العصارة المستخلصة من نبات التبغ المصاب بآفة الفسيفساء تبقى قادرة على احداث المرض حتى بعد ترشيحها بمرشح تشمبرلند ، وهو جهاز من خزف دقيق المسام جداً ، بحيث اذا وضعت فيه كوبتين من الماء المقطر ، يستغرق مرور هذا الماء من مسام المرشح اياماً . ولم يكن ثمة ميكروب واحد معروف للعلماء يستطيع ان يجتاز هذه المسام . ومع ذلك فالمادة الفعّالة التي تحدث «آفة الفسيفساء» تجتازها . فوالى العلماء التجارب فأسفرت عن تأييد النتائج التي خلص اليها ايفانوفسكي . وفي سنة ١٨٩٩ اكتشفت اولى المواد الفعّالة الراشحة التي تحدث مرضاً في الحيوان ، وكان ذلك المرض الحمى القلاعية وقد تبين حتى الآن ان عشرات من الامراض التي تصيب الحيوان والنبات ترتد في نشأتها وسببها الى مواد (فيروسية) راشحة وفيروس آفة الفسيفساء التي تصيب التبغ هو من خيرها للبحث علاوة على انهُ يمثل هذه الطائفة من المواد خير تمثيل

فزرع الدكتور وندل ستانلي ، التبغ في مساحات واسعة قرب برنستن ، ونفث فيها المرض ثم جمع النبات المصاب ومرسّهُ حتى صار بمثابة الرُّبّ ، ثم استخلص منهُ عصارته . ان الفيروس في هذه العصارة ، ليس في وسعك ان تراهُ ، ولا ان تفصلهُ عن سائر العصارة بمرشح ، لانهُ يخترق مسام المرشح ، ولا ان تستنبتهُ في المستنبتات المألوفة التي تستنبت فيها الميكروبات ، ولا سبيل الى معرفة وجوده هناك الاَّ بأثره في احداث آفة الفسيفساء في تبغ سليم منها . خذ قطرة واحدة من هذه العصارة ومُسّ بها ورقة نبتة من نبات التبغ ، تبدُ خلال بضعة ايام اعراض الآفة عليها لا غشَّ فيها ولا ريب . ان الفيروس هنا فما السبيل الى دراسته من الناحية الكيميائية

تقسم المواد التي تدخل في تركيب الجبلة الحية (البروتوبلاسمة) الى خمسة أقسام هي الاملاح المعدنية ، والكربوهيدرات ، والهيدروكربونات ، والادهان ، والبروتينات . والبروتينات هي أعقد هذه المواد تركيباً . وثمة مواد يطلق عليها اسم انزيمات وهي نوع من خمائر تحل المواد البروتينية ، فتوصف بانها هاضمة البروتينات . والبيسين يفعل ذلك في المعدة في اثناء عملية الهضم . فاذا وضع البيسين في انبوب من انابيب التجارب ، ومعهُ مادة بروتينية ، حلها او هضمها

فسأل ستانلي نفسهُ : وما يفعل البيسين بمادة الفيروس هذه ؟ اخذ قليلاً من العصير المستخرج من نبات التبغ المصاب بالآفة المذكورة ، ووضعهُ في انبوب التجارب وصب عليهِ البيسين ، وحفظ الخليط على درجة من الحرارة توائي عمل البيسين الهاضم . ثم بعد مدة معينة امتحن العصارة ، فلم يجد فيها اثراً للمادة المرضية . فمسح بقطرات منها اوراق التبغ السليم فلم تصب بالآفة . اذن يمكن القول ان البيسين قد اتى على فيروس الفسيفساء . ولكن البيسين لا يهضم الاَّ المواد البروتينية ، وليس يؤثر تأثيراً ما في الادهان او النشويات او الاملاح فيصح القول بان الفيروس مادة بروتينية

في الكيمياء الحيوية تعرف مواد معينة ، ترسّب البروتينات . فلتجرب على عصارة نبات التبغ المصاب بآفة الفسيفساء . فما كادت تضاف هذه الموادالمرسّبة الى العصارة حتى بدأت كتل صغيرة في الرسوب في قعر الاناء . فأخرجت منهُ وامتحن الباقي من العصارة فظهر انهُ لا يحوي المادة التي تحدث المرض . فلما اضيف قليل من الكتل الراسبة الى العصارة السليمة ، عادت اليها قدرتها على احداث العدوى . واذن يمكن القول ان عامل الآفة مستقرّ في هذا الراسب البروتيني

***

هنا توقف ستانلي قليلاً ، واعدّ عدّتهُ لتعقب عامل الداء الى عقر داره

حلّ الراسب البروتيني في سائل متعادل واضاف احد مركبات النشادر — ومن خواصّه ترسيب مادة بروتينية من دون تغيير تركيبها — فتكوّنت بلورات دقيقة في قعر الانبوب. الاّ ان ستانلي خشي ان لا تكون هذه البلورات تلك المادة البروتينية نقية من الشوائب ، فاخذ يكررها ، باذابتها ثانية وثالثة الى العاشرة في مقدار كبير جدًّا من المحلول المتعادل وكان في كل مرة يبلورها باضافة مركب الامونيا الى المحلول ففاز في آخرها ببلورات يمكن ان يقال فيها انها خالية من اي الشوائب النباتية او الحيوانية. بعد ذلك أخذ ستانلي حفنة صغيرة من هذه البلورات بعد تنقيتها وحلّها في مقدار كبير جدًّا من سائل متعادل يبلغ مائة مليون مرة حجم البلورة نفسها ، ثم اخذ قطرات منهُ ومسح بها ورق تبغ سليم ، ولبث ينتظر النتيجة ، وفي الميعاد المتوقع ظهرت على النبات اعراض اصابة حادة بآفة الفسيفساء. اذن يمكن القول بأن هذه البلورات تحتوي على الفيروس . ولما كانت البلورات قد نقيت من كل شائبة على قدر ما يستطيع علم الكيمياء ان ينقيها ، فمن المعقول ان يقال ان هذه البلورات هي الفيروس نفسهُ

ان بلورة السكر مؤلفة من عدّة جزيئات من السكر . وكذلك يظن ان هذه البلورات الدقيقة كالابر مؤلفة من عدة جزيئات من البروتين وان كل جزيء « فيروس » واحد

ويؤخذ من تحليل ستانلي الكيمياوي ان جزيء هذا الفيروس مؤلف من كربون وايدروجين ونتروجين وكلور . وهو يختلف عن البروتينات الفعالة من الناحية الفسيولوجية في انهُ لا يحتوي على الكبريت ولا الفصفور . أما عدد الذرّات في الجزيء ، وطريقة ترتيبها فيه ، فلا يزالان من الأغراض التي يتجه اليها البحث . وانما هناك ما يدلُّ على ان الجزيئات ضخمة جدًّا

فقد عني حديثاً العلامة سفدبرج بجامعة أبسالا السويدية والدكتور ويكوف أحد علماء معهد ركفلر الطبي ، باستعمال طراز جديد من الآلات الطاردة عن المركز . وقد بلغ من قوة هذه الآلات وسرعتها ، انهُ اذا وضع داخلها قطعة نقد من ذوات القرشين ودارت الآلة بسرعة عظيمة ليست بأقصى سرعتها ، بلغ ضغط قطعة النقد على جدار الآلة الداخلي نصف طن .

ولكن الغرض من هذه الآلة ليس تجربة التجارب المستوقفة للانظار وانما فصل الدقائق الجامدة التي تكون في المحلولات الغروية (Colloidal) . وقد بلغ من دقة سفدبرج وسيطرته على جهازه انهُ يستطيع ان يضع فيه محلولاً غروياً فيفصل منهُ الدقائق المختلفة المعلقة فيه عند حدود معيَّنة من سرعة دوران الآلة ، وبحسبان السرعة والوقت الذي ينقضي قبل انفصال الدقائق يتمكن من تعيين اوزانها الجزيئية

وقد بعث الدكتور ستانلي الى سفد برج وويكوف بنماذج من بلوراته ليمتحناها بآلتهما هذه

لم تنشر تفصيلات التجارب التي قام بها سفد برج وويكوف ، ولكن يمكن أن يقال ان اكبر الجزيئات البروتينية المعروفة هو جزيء « هيموسيانين » (المادة الملونة في دم الخراطين اي دود الارض) ووزنهُ الجزيئي خمسة ملايين . ولكن ظهر ان جزيء البروتين الذي يحسبهُ ستانلي فيروس الفسيفساء اكبر من ذلك

هل هذا الجزيء حيٌّ ؟ يقول ستانلي انهُ يمكن بلورتهُ . وهذه صفة كيماوية بحتة . ثم انهُ زرع في مستنبت بكتيريولوجي كما تزرع البكتيريا فلم ينمُ ولم يتكاثر . ولكن العجيب ما يقع لهُ عندما يتصل بنبات التبغ . فانهُ لا يكاد يتصل به حتى يبدأ جزيئهُ يتكاثر . ان كسرة صغيرة جداً تكاد لا ترى لصغرها من بلورات هذه المادة كافية لبث العدوى في حقل خلال ايام معدودة ، اي انها تتصف في هذه الاحوال بقدرة عجيبة على التكاثر والانتشار . أوليست هذه الصفة من اخصّ صفات الاجسام الحيّة ؟ او لعلّ الفيروس ، كبعض الناس ، مزدوج الشخصية ، حيٌّ احياناً وغير حيٍّ احياناً اخرى فهو حيٌّ في نوعٍ معيَّن من الوسط ، وغير حيّ في سائر الاوساط

بين جزيء بروتين الفسيفساء وجريثيمة[1] (gene) الخلية وجوه شبه كثيرة . فانهما يكادان يكونان من رتبة واحدة في الحجم . وكلاهما يتوقف مدداً متفاوتة عن التكاثر من دون ان يخسر القدرة عليه . فالجريثيمات تكمن في البويضات غير الملقحة او في البزور المخزونة ، وفيروس الفسيفساء يكمن كذلك في انبوب الباحث ، ثم يفيق كلاهما عندما تؤاتيهما الاحوال فيأخذان في التكاثر . ثم هناك وجه شبه آخر بينهما وهو انهما كلاهما غير مستقر التركيب . وقد اثبتنا ذلك في ما يخص الجريثيمة ، في مقتطف ابريل الماضي وبينا ان التغير في تركيب الجريثيمة ، يحدث التحوُّلات الفجائية mutations . وقد لاحظ ستانلي ان فيروس الفسيفساء يصيبهُ التغير كذلك فيحدث ضروباً من آفة الفسيفساء تختلف في بعض مظاهرها وخواصها عن الآفة الاصلية

ويذهب الدكتور اوسكار ردل رئيس قسم الوراثة في معهد كارنيجي بوشنطن ان الجريثيمة اعلى مرتبة في عالم التنظيم العضوي من فيروس الفسيفساء . ويلحظ بين الاهتمام ان الجريثيمة

(١) راجع مقال « اين تبدأ الحياة » في مقتطف ابريل الماضي (١٩٣٧)

يجب ان تكون مقترنة بجريئيات أخرى لتقوم بعملها ويرتاب اشد الريب في قدرة الجريئيمة ان تقوم بعملها وهي وحدها . بل يشك في امكان اطلاق صفة « الحيّ » على الجريئيمة الفردة وهو ما يقوله ستانلي في صدد جزيء الفيروس الذي يسبب آفة الفسيفساء

من البكتيريا ما يعرف باسم « ازوتو باكتر » azotobacter وهو كائن في حجم خلية الخميرة تقريباً . يعيش في التربة ويتنفس ويتناول الطعام من وسطهِ وينمو ويتكاثر — اي ان هذا الكائن حيّ في نظر جميع الثقات . بل انهُ يتصف بصفة يندر ما يتصف بها من الاحياء وهي صفة تثبيت النتروجين . فهو يتناول النتروجين الصرف من الهواء ويركّب منهُ ومن بعض المواد التي يأخذها من الارض الامونيا ومن الامونيا يصنع الاحماض الامينية ، ومن الاحماض يصنع بروتينات . وهذه القدرة لا مندحة عنها للحياة كما نعرفها لان الحياة (البروتوبلاسمة) مستحيلة من دون بروتين ، حتى لنكاد نغرى بالقول بان القدرة على صنع البروتين مقياس من اهم مقاييس الحياة . ومن عهد قريب جرّبت طائفة من علماء الروس تجارب طريفة « بالازوتوباكتر » فانهم زرعوا طائفة نقية منهُ في وعاء زجاجي ، وغذوها بالسكر فتولد قليلٌ من الامونيا . ثم اخذوا البكتيريا ومرثوها مرثاً واستخلصوا عصارتها منها . ثم رشحوا هذه العصارة حتى لا يبقى فيها بقية من مادة الخلايا وامرّوا في هذه العصارة المرشحة فقاعات من غاز الاكسجين وغاز النتروجين فتولد غاز الامونيا . اي انهم وجدوا في هذه العصارة ما يصنع الامونيا كما كانت تصنعهُ البكتيريا الحية

ويفسّر هؤلاء العلماء ما شاهدوه بان تثبيت النتروجين في هذه البكتيريا يتمّ بواسطة « انزيم » (نوع من الخمائر) وان مرث خلايا البكتيريا يطلق هذا الانزيم او يحرّره ، فيبقى في العصارة يقوم بعمله ، بل هو في رأيهم يقوم بعمله في انبوب التجارب على وجه اتمّ من قيامهِ بهِ في جسم البكتيريا ، ولهم في ذلك جداول واحصاءات . ويعللون هذا الفرق بأن الاجسام الحية تستهلك جانباً كبيراً من السكر الذي تتناولهُ في أفعالها لا في توليد الامونيا فقط

وقد زار دين برك احد علماء وزارة الزراعة الاميركية روسيا في الشتاء الماضي وقضى ثلاثة اسابيع يحادث هؤلاء العلماء وهو الآن يعيد تجاربهم ليرى هل تسفر عن النتيجة نفسها

***

ولعل النتيجة التي يخرج بها الباحث من هذه التجارب هي ان الحياة مرتبةٌ من مراتب تنسيق المادة ، فالكهارب والبروتونات تنتظم ذرات والذرات تنتظم جزيئات ومن الجزيئات ما هو كبيرٌ معقد التركيب ، وفي كل مرتبة من مراتب الانتظام والتنسيق تبزغ صفة جديدة ، فالكهارب والبروتونات اذا انتظمت على نحو معين كانت حديداً وعلى نحو آخر كانت ذهباً والذرات تنتظم فتكون ماء او ملحاً او بروتيناً من نوع معين يدبّ فيهِ دبيب الحياة

تبادل الاحساس

Reciprocal Feeling

لابرهيم مطر

ورث الانسان المتمدن عن الجماعة الانسانية الاولى احساساً نبيلاً وشعوراً سامياً حمله قديماً على مشاطرة الانسان في شتى مناحي الحياة فشعر بشعور غيره واشترك معهُ في احساسهِ سواء في الالم والفرح في الشدة والرخاء ، فساهمهُ اتعابه ومصاعبه وافراحه ومسراته . وقد نما هذا الاحساس في الاسرة الانسانية نماء تمشى مع سنن التطور والارتقاء حتى تشبعت بهِ النفس البشرية فأهابت بصاحبها لزيادة افراح الحياة وجلب الهناء للبائس ، وتخفيف آلام المنكوب

وتكاد تنحصر هذه الحالة في الانسان فهي تقوى فيهِ على مقياس رقي دماغه وانتظامه وهي من اسمى خصائص الدماغ واشرفها تزيد في صاحبها روح الشفقة والرحمة وتملأه بعناصر العدل والتعاون.

وقد نشأ هذا الاحساس في احضان المجتمع ودرج في مهاد الحياة الاليفة الوادعة في حين انهُ تلاشى وانعدم عند الانسان المتوحش الذي آثر العزلة ولازم الانفراد واستسلم لغرائزه الحيوانية الاصلية . وظلَّ هذا الاحساس في قرارة المجتمع البشري طيلة الاجيال الغابرة يعمل عمله الصامت المستمر في صقل شخصيات جبارة هدفها الاعلى توثيق عرى المحبة وتوطيد اركان السلام وتمهيد سبل الخير والسعادة لابناء هذا العالم

والثابت ان هذا الاحساس مغروس في النفوس ، وهو من اقوى ما فطر عليهِ الانسان الاجتماعي ، واكثره تلويناً لسلوك الافراد والجماعات لانهُ يولد فينا انحيازاً في الشعور ورغبة في ادغام ذواتنا في الاشياء والاشخاص ، غير شاعرين بهذا الاشتراك حتى يفيق شعورنا من غفوتهِ وخيالنا من سباتهِ ، فندرك معنى ذلك الاندفاع الشديد ونركز ذواتنا بعد ذلك الانحياز الجلي . ومصداق قولي ارتياحنا الى الخطيب الذي يندفع في كلامهِ ، واندماج نفوسنا في سحر بيانهِ وعذوبة الفاظهِ . ولن نصحو من سحرنا واندفاعنا الاَّ عندما تعتور الخطيب عقبة

لفظية أو معنوية تقف سيل اندفاعه الخطابي عندئذ نشعر بالاخفاق ونغمض العين حياء وخجلاً ونخفض الرأس حزناً وغماً مشاطرينه حيرته وارتباكه ، ومبادلينه عوامل الخيبة . وكذلك تظل نفوسنا تلوّن شعورها بحسب اندفاعه متشبعة بحالاته النفسانية فتسمو معه ساعات توهنج بحالات من التجلي والوحي ، وتنخفض عند ما توقفه عقبات الحصر والارتباك

والظاهر ان هذا الاساس نوعان واقعي وتصوري وينشأ النوع الاول عن مشاهدة الحوادث والاحساس بالوقائع وهو اكثر شيوعاً بين طبقات البشر المؤتلفة في حين ان النوع الثاني ينشأ عن تصور الحالات التي لا تقع تحت الاحساس المباشر بل تقتصر على قوة التبصر وامتداد المخيلة الى الامور غير المنظورة ، كأن تهب الجماعات الى جمع الاعانات لقوم اصيبوا بقحط او مدينة دمرت بزلزال او مؤسسة التهمتها النيران . وقد تجلت نتائج هذا الاحساس المتبادل في أعمال الرسل الكرام والانبياء العظام الذين أناروا سبيل البشرية بنورهم الساطع وأقوالهم الصائبة وأقالوها من كبوتها بتعاليمهم وبذلهم وشرائعهم المقدسة

نقف في حلبة السباق أو أمام فرقتين متباريتين فينحاز شعورنا تجاه فريق دون الآخر ونمضي في مشاطرة ذلك الفريق الاحساس عن طريق التشجيع والهتاف والاستفزاز كأننا مأجورون لذلك ونشعر عند انتصاره بالغبطة والارتياح ، وتنكمش عند الانكسار وتبقى نفوسنا تتلوّن تبعاً لدرجات الانتصار والانكسار حتى ينتهي اللعب ، فنشعر ان لا علاقة لنا بالمنتصر سوى هذا الاحساس المتبادل الذي أشرك نفوسنا قهراً وقسراً في اللعب

واذا أشخنا بنظرنا الى العلاء وشاهدنا الطيور تسبح في الفضاء بعضها ينشد والآخر يشقشق ، وفريق يطارد فرائسه وآخر يعتني بصغاره نشعر في جميع هذه الحالات مع سابحات الجو ، فنفرح لدى سماعنا الأغاريد الجميلة ، ويتحرك فينا العطف وتتمثل أمامنا غرائز الأمومة لدى رؤيتنا الطير يعتني بصغاره ، وتنفر من ذلك الجارح الذي يطارد العصفور الصغير ، ونشعر مع ذلك المخلوق الذي يطلب النجاة وينشدها بكل ما أوتي من قوة اشتقها من حبه للبقاء والحياة. لست أشك يا صاح انك تحمل الى الفضاء وتشاطر العصفور الشفقة والرحمة وتتمنى لو أوتيت أجنحة توصلك اليه لتخلصه من مخالب عقاب الجو الفتاك . ولم يحرك مجال العطف في عروقك سوى هذا الاحساس المتبادل الذي استفزك لحماية صغير الطير وحقير الحيوان

وتندلع نيران في بلدتك تحرق الاخضر واليابس وتروع الكهل واليافع فتندفع من تلقاء نفسك الى تبادل الاحساس والتضحية السامية في تخفيف نتائج تلك الكوارث والمصائب والمآسي ويصيب فيضان احدى القرى المجاورة لمدينتك فتهرع بدافع الانسانية النبيل لتبادل الاحساس قوماً اكتسح السيل مأواهم وهدم مساكنهم وجرف ماشيتهم . وفي الاعياد العامة والمهرجانات

الشعبية تأخذك نشوة الفرح فتشاطر ابناء قومك مسرات العيد وافراح الوطن . ولا تعرف لهذا تعليلاً سوى هذا الاحساس المشترك للجماعة البشرية تعكسه في شتى ضروب الحياة

وقد يتعدى هذا الاحساس عالم الحياة الى الشعور مع الجماد وسرعان ما فطن لذلك رواد الفن وكبار الادباء فأودعوه قطعهم الخالدة اذ اشركوا الطبيعة حوادث قصصهم وتآ ليفهم فرسموها مشرقة زاهية عندما يجلي البطل ظافراً منصوراً وقرنوها بالاضطراب والظلمة ساعات الشدة والعنف . فالقمر يتلألأ بأشعته الفضية ساعة يناجي الحبيب معبودته ، والرعد يقصف والعاصفة تهب ساعة يتوقع البطل المغوار فاجعة أليمة او مأساة مفزعة

وقابلية تبادل الاحساس والانحياز بالشعور لا تقف عند حد العلائق الانسانية بل تتعداها الى الجماد ، وها نفوسنا تنكمش لدى مشاهدة صخرة شاهقة تنحدر على حصاة صغيرة او لدى رؤية عمود صغير يحمل عمارة كبيرة وقد نعجب بالبحر الواسع الذي يوحي الينا الاتساع والجبل العالي الذي يلهمنا العظمة والنهر الجاري الذي يدعونا الى الحركة فنحن في كل هذه الحالات نبادل الجماد الاحساس فنرثي للحصاة المتفتتة ونشفق على العمود الرازح تحت ثقل البناية وندهش لسعة البحر ونعجب بعظمة الجبل ونطفر مع حركة النهر وانسيابه البديع وتكون الطبيعة قد أنستنا ذواتنا فتقربنا من مظاهرها وارتبطنا بأوصافها ودغمنا نفوسنا فيها

ويختلف هذا الاحساس في الناس قوة وضعفاً فهو أظهر في الانبياء والمشترعين منهُ في السوقة والعامة وهو عامل اساسي في بناء الشخصية وعنصر فعال في نمائها . فهذه شخصية عاجزة لا تتبين احساسها وتلك اخرى تشع نبلاً وتشيع عاطفة بدفعها الى المثال الاعلى والكمال المنشود

اما الاحساس التصوري فقد شاع في نفوس هداة البشرية ومصلحيها فاستقروا آلامها في الماضي السحيق وتصوروا مصاعبها في المستقبل الغامض البعيد فعملوا على اصلاح اوضاعها واسكان اوجاعها وتجديد نظمها وسرعان ما سنوا الشرائع الحكيمة ليحولوا دون عسف الجماعات القوية وثراء اقليات معدودة . ومن ثمار هذا الاحساس ماراه بين الآونة والاخرى من تحفز الجماعات النائية لطلب المساعدة وجمع التبرعات لقوم نكبوا في زلزال مدمر او فيض عميم او حريق شامل . وقد تبين ان لا رابطة تربطهم باولئك الاقوام عبر البحار الشاسعة والصحاري الواسعة سوى رباط الاحساس المشترك والشعور المتبادل الذي وقع على اوتار قلوبهم نغمات العطف والحنان وهزَّ اغشية نفوسهم بقدس المحبة والاخاء . وانا على مثل اليقين ان البشرية تصل مصاف الانبياء الاطهار وان ارضنا تصبح فردوس النعيم وجنة عدن ، حالما تنظم البشرية علاقاتها وتسوّي مشكلاتها على ضوء هذا الاحساس المتبادل السامي وذاك الشعور المشترك الرفيع فنشعر اننا نعمل كافراد وجماعات لخير بلادنا واقوامنا ولاعادة امجاد اسلافنا ومرسلينا



الخزف الفاطمي

للدكتور كارل جوهان لام
استاذ الفنون الاسلامية بمعهد الآثار

ترجمة وتعليق عبد الرحمن زكي

وجدت نماذج مختلفة من الخزف الفاطمي في الفسطاط معظمها قطع مكسورة . والظاهر أنه ليس في الاستطاعة ان نصل الى معلومات أثرية تاريخية تعين على دراستها وتحديد تاريخها . أما الخزف الذي وجد في حفريات قلعة بني حماد فيمكن ان ينسب الى القرن الحادي عشر. ولم يعرف غير القليل عن الخزف السوري لذلك العصر وسنقصر دراستنا هنا على أهم أنواع الخزف المصري

١ — الفخار غير المطلي (Unglazed Pottery)

تتألف أهم مجموعات الفخار غير اللامع من شبابيك القلل المصنوعة من الصلصال (الطين) ذي المسام. وأقدمها على ما يظهر من صناعة العصر الطولوني. وأما القطع المصنوعة منها في العصر الفاطمي فكثير عددها . وأهم النماذج الخزفية تلك القطعة المحفوظة بدار الآثار العربية والمغطى سطحها الخارجي بطبقة مزخرفة ذات بريق معدني على أرض بيضاء من طراز القرن الحادي عشر . أما شباك القطعة فغير لامع

٢ — الفخار المطلي (Glazed Pottery)

ا — القسم الاول من هذا النوع عبارة عن فخار لامع عليه خطوط ظاهرة مفصولة بعضها عن بعض بمسافات من الطين المحروق

الطريقة الفنية لهذا الفخار على مثال الصناعة المراكشية المتأخرة Cuerda saca وفكرة الألوان التي تتألف من الابيض والاخضر والبنفسجي ذات شبه قريب بصناعة بعض القطع الخزفية الملونة البيزنطية التي عثر عليها في استانبول وباتلينا في بلغاريا. ويمكن مقابلتها بآنية من

صناعة القرن الثامن او التاسع وجدت في سوس [١] . وبالخزف الذي يطلق عليه اسم (خزف جابري) [٢] . وببعض الخزف المصنوع في الغرب الاسلامي . وعلى الرغم من ان هذا الفخار المطلي لا نعرفه الا بواسطة قطع وجدت في مصر فليس من المؤكد انه صنع على ضفات النيل . ويمكن ان ينسب هذا الفخار المطلي الى القرن العاشر الذي يشمل العصر الاخشيدي . وفي دار الآثار العربية نموذج رائع يتكون موضوعه الزخرفي من طيور على حافتي شجرة الحياة [٣]

ب — القسم الثاني : فخار مطلي في بعض أجزائه

أكثر هذا النوع من الفخار مستمد من الصناعة العراقية التي سارت على منوال النماذج الصينية وقد وجدت نماذج منه في سامرا [٤] . ومن هذا الفخار المصري لم نكن نعرف حتى الايام الاخيرة سوى أمثلة غير متقنة الصنع ولا عناية كبيرة بألوانها ثم اكتشفت حديثاً نماذج أدق صنعاً معظمها الآن معروض في دار الآثار العربية وفي متحف بناكي بأثينا . وأغلب النماذج المذكورة من صناعة القرن الحادي عشر والنصف الثاني من القرن العاشر وفي هذه المجموعة نجد من الصعب التمييز بين قطع العصرين الفاطمي والسابق له

جـ — القسم الثالث : فخار ذو زخارف محزوزة او محفورة (Champlivé) تحت طلاء ذي لون واحد

هذا النوع من الفخار المطلي مع النوع الآخر من الفخار ذي البريق المعدني يؤلفان أهم أمثلة صناعة الخزف الفاطمي . ومعظم تلك المجموعة ان لم يكن كلها من عمل فخاري الفسطاط . وقد عثر في سوريا على بعض نماذج من هذا الفخار قد تكون من أصل مصري

---

(١) مدينة قديمة في اقليم خوزستان بايران تبعد عن بغداد نحو ٢٥٠ ميلا الى الجنوب الشرقي . وقد ظلت زمناً طويلا مقر ملوك الفرس او دولة عيلام . وكان اول خراب اصاب المدينة عند ما تغفى آشور بانيبال بين عامي ٦٤٢ و ٦٣٩ ق . م على دولة العيلاميين (تراث الاسلام — الجزء الثاني من الترجمة العربية للدكتور زكي محمد حسن . ص ٣٨)

(٢) خزف جابري هو نوع خزفي يظن انه من صنع عبدة الشمس الذين ظلوا في بعض جهات فارس وفي بعض جهات ايران متمسكين تمسكاً شديداً بديانتهم القديمة حتى بعد الفتح العربي بمدة طويلة . وقد وجدت أمثلة من هذا الخزف عليها حروف كوفية من طراز القرنين الحادي عشر والثاني عشر (تراث الاسلام — الجزء الثاني ص ٤٢ و ٤٣)

(٣) شجرة الحياة (Hom) — هذا الموضوع الزخرفي الذي نشاهده كثيراً في آثار الفنين الاشوري والفارسي عبارة عن حيوانين متقابلين او مولي أحدهما ظهره للآخر وقد تطرق من المنسوجات الشرقية الى فن النحت الروماني

(٤) أسست سامرا (سر من رأى) على يد اشناس أحد قواد الاتراك بأمر الخليفة المعتصم سنة ٨٣٦ م . وتقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة على بعد مائة كيلو متر شمالي بغداد وترجع شهرتها في تاريخ الفنون الاسلامية الى القصور التي شيدها المعتصم وخلفاؤه قبل ان يهجرها المعتمد ويرجع مقر الحكومة الى بغداد سنة ٨٨٣ م

ثم عثر حديثاً في حفريات انطاكية (٥) على نوع من الفخار المحفور من صناعة ذلك العصر ولكن طرازه يختلف جدًا عن ذلك . وهناك نماذج بطلاء ذي لون او لونين او ثلاثة من الخزف السوري المنقوش عليه بالحفر بالطريقة المعروفة باسم (graffiato) (٦) . وهذه النماذج تنسب في الغالب الى العصرين الأيوبي ، والمملوكي ، المتقدم . وتتصل تلك الصناعة بطبقات مختلفة من الفخار البيزنطي والقبرصي وبنوع من الفخار المملوكي . وكل هذه المجموعات التي ذكرناها أخيراً لها طلاء أصفر خفيف فاتح (buff) أو أخضر وبنفسجي

ونلاحظ في الصناعة الفاطمية وفي الاساليب المتأخرة في العصر الايوبي تنوعاً كبيراً في التلوين فان بعض انواع الطلاء ذات ألوان غاية في النقاوة . ونذكر من الالوان التي شاع استعمالها اللون الأخضر البحري (celadon) (٧) ذا الدرجات اللونية المختلفة على منوال الخزف والحجر الصيني . والالوان الخضراء والزرقاء والصفراء والبنفسجية والصفراء الفاتحة والبيضاء (وكان اللون الأبيض مظلماً غير شفاف بينما كانت أكثرية الالوان الاخرى المستعملة شفافة الى حد ما) . ونحن نعرف نموذجاً واحداً منها او نموذجين عليهما توقيع . كما ان الكتابات المنقوشة التي نقابلها عليها اما ذات صبغة زخرفية خالصة وإما تشتمل على بعض التمنيات الطيبة

ولكي نصطلح على وضع تاريخ نسبي لهذه الصناعة الخزفية والتي يندر ان نجد منها قطعاً كاملة يجب ان نقابل موضوعاتها الزخرفية بقطع من الفخار ذي البريق المعدني . فنجد على قليل من القطع التي تهمنا جداً في هذه المقابلة ان الزخارف المحفورة مختلطة ببريق معدني ذهبي منقوش على الطلاء

ويمكننا القول بطريقة عامة ان الامثلة ذات الزخارف المحفورة أقدم عهداً من تلك الامثلة ذات الموضوعات الزخرفية المكونة من خطوط محفورة حفراً بسيطاً . ونحن نلاحظ ان الاجزاء المحفورة أقتم لوناً من السطوح التي تجاورها ويرجع ذلك الى تجمع الطلاء فيها

وتظهر رسوم آدمية محلاة بموضوعات زخرفية نباتية جميلة على قطع كثيرة من الفخار يمكن ان تنسب الى أوائل العصر الفاطمي . ويشاهد على نوع من هذا الخزف اوراق نباتية

---

(٥) انطاكية احدى مدن سوريا وتقع على الضفة اليسرى من نهر العاصي وعلى بعد ستين ميلا غربي حلب . وقد أسسها سيليوس نيقاتور في عام (٣٠٠ ق . م) احد ملوك سوريا لذكرى أبيه أنطيوخوس ولقد نافست انطاكية مدينة رومة في عظمتها ووصل عدد سكانها في عهد ما الى نصف مليون .

(٦) Graffito كلمة ايطالية تستعمل غالباً في صيغة الجمع Graffite والمقصود بها رسوم ترسم باليد على الحجر او الجص ثم تحفر بالحك او المكشط . وكانت هذه الطريقة شائعة في الصين وليس من الضروري ان تكون قد نشأت هناك اذ أنها وجدت في مصر قبل الفتح الاسلامي ثم نجح صناع الخزف الايطاليون ابان القرن الخامس عشر نجاحاً كبيراً في إستخدام هذه الطريقة (تراث الاسلام — ج ٢ ص ٤٣ و ٤٤)

(٧) أطلق هذا الاصطلاح celadon في بادىء الامر على اللون الاخضر البحري الذي امتاز به الخزف الشرقي وصارت القطع الملونة بهذا اللون نادرة جداً وذات قيمة أثرية عظيمة وتم اخيراً استعمال الاصطلاح

تختلط بخطوط مضرسة وعلى فرع آخر نرى أزهاراً صغيرة مخروطية ذات رؤوس مستديرة متجهة في استدارتها الى فوق

وكثيراً ما نرى على بعض نماذج الفخار من صناعة القرن الحادي عشر رسوم الحيوانات والطيور المنقوشة عليها قريبة الشبه جداً ببعض الرسوم التي تصادفنا على الخزف ذي البريق من صناعة الصانع الماهر « سعد » . وفي هذا النوع نشاهد ان الزخارف تكون داخل رسوم هندسية على شكل نجوم تتألف من عصابة مفردة او مزدوجة اما مستقيمة وإما منحنية ويمكن تمييز النماذج المتأخرة من هذا النوع بما نلاحظه في صناعتها من الاهمال أو بمشابهتها القريبة للخزف الصيني الذي كانت له منزلة سامية في الاسلام

د — الخزف ذا البريق المعدني Lustered Pottery [٨]

نرى ان البريق المعدني اختراع صناع الزجاج المصريين . ففي العراق كان هذا البريق المعدني اللامع يوضع على فخار مغطى بطبقة كثيفة من الطلاء الابيض غير الشفاف المحتوي على القصدير وكانت ترد الى مصر اثناء العصر الطولوني نماذج كثيرة من هذا الخزف ذي بريق متعدد الالوان : وأقدم الامثلة التي لا شك انها صنعت في مصر انما ترجع الى القرن العاشر وبعضها ينسب الى العصر الاخشيدي[٩]

وفي مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم بالقاهرة جام عليه رسم فيل وكتابة منقوشة يستدل منها انه من صناعة ابراهيم المصري . ومن المؤكد ان تكون هذه القطعة من صناعة القرن العاشر مع ان هناك صانع آخر يعرف بهذا الاسم ايضاً ترك بعض القطع الخزفية في القرن الحادي عشر . وقد سبقهما صانعان آخران هما طبيب علي و «ساجي» شوهد اسماهما على قطعة من الخزف محفوظة في دار الآثار العربية مشغولة على الطراز القديم العهد الذي يذكر بالفخار العباسي . وهناك قطعة في نفس المجموعة ذات زخرفة نباتية من الطراز الاخشيدي تحمل اسم الحاكم بأمر الله . ويمكن ان نقابل هذه الزخرفة بزميلتها المنقوشة على الباب الخشبي الذي امر بصناعته الخليفة الحاكم للجامع الازهر . وقد أشار الرحالة

---

(٨) يقصد بكلمة Lustre طبقة الميناء الرقيقة اللامعة التي يكسى بها الخزف فتكسبه سطحاً لامعاً براقاً والعلماء غير متفقين في تعيين التاريخ والاقليم اللذين نشأت فيهما صناعة الخزف ذي البريق المعدني في الاسلام وفي هذا الخزف ترسم الزخرفة بملح معدني على سطح لامع ثم تثبت بتعريضها للنار بطريقة تكسبها بريقاً معدنياً (تراث الاسلام — الجزء الثاني ص ٤٤)

(٩) لاشك ان الدكتور الفاضل الاستاذ لام يقصد الفترة القصيرة بين عامي ٩٣٥ و ٩٦٨ التي تتوسط العهدين الطولوني والفاطمي اذ من الصعب ان نوافق استاذنا على انه كانت هناك مميزات او مظاهر فنية لعصر لم يدم اكثر من ٣٣ عاماً . وكل ما يمكن ان ينسب الى هذه الاسرة الاسلامية في الواقع يتصل بالعهد الطولوني او ممهداً للعهد الفاطمي

ناصري خسرو [١٠] في سفره المشهور عن رحلته الى صناعة الخزف ذي البريق التي شاهدها زاهرة في مصر

كان مسلم وسعد أمهر صناع الخزف ذي البريق المعدني . وفي متحف بناكي بأثينا قطعة زجاجية ملونة بنفس الطريقة من صناعة سعد . ويرى الاستاذ المرحوم علي بك بهجت مدير دار الاثار العربية الاسبق ان « سعد » عاش في عصر سابق لعصر زميله مسلم ولكننا لا نتفق معه في رأيه . ومن المعقول ان نخمن بان مسلم اشتغل في عصر الحاكم بينما عم نشاط سعد في عهد الحكم الطويل الذي تمتع به الخليفة المستنصر بالله (أواسط العصر الفاطمي) . ولا نعلم تماماً لماذا كانت بعض قطعهما ممهورة بأسميهما وأغلبها لم تكن ممهورة . ومن هذه الاخيرة أمثلة كثيرة ذات قيمة فنية عالية لا مجال للشك في انها من صناعة الصانعين المجيدين . ومع ذلك يجب ان لا نأخذ بسهولة بكل القطع الخزفية التي يظهر فيها اسلوبهما الصناعي على انها من عملهما او من اخراج مصنعيهما . ولكي نأمن الخطأ يجب ان نعتبرهما ممثلين لمدرستين ويجب ان نتكلم عن طراز سعد او مدرسة سعد وعن طراز مسلم او مدرسة مسلم وليس عن صناعة سعد او مسلم نفسيهما

وسنصف الآن بعض الميزات التي اتصفت بها كلتا المدرستين

مدرسة مسلم

في صناعة هذه المدرسة يغطي الطلاء أجزاء الآنية كلها بما فيها قاعدتها المحدودة بحرف قليل الارتفاع ويكون الطلاء دائماً ابيض اللون لكنه يندر ان يكون في نقاوة الطلاء الذي نجده على الخزف الأخشيدي . أما البريق المعدني فذو لون واحد غالباً هو اللون الذهبي الا في احوال نادرة جداً يميل الى الاحمر النحاسي . وفي هذا النوع من الخزف لا نرى الزخارف محفورة دائماً . أما توقيع مسلم فنجده منقوشاً بحروف كوفية بسيطة تقرب احياناً من الخط النسخ ونرى في الغالب على قاعدة الآنية . وفي بعض الاحيان نرى الامضاء بالقرب من الحافة موضوعاً بطريقة زخرفية بديعة وكانت معظم الزخارف المفضلة رسوم الحيوانات والطيور المختلفة والموضوعات الزخرفية النباتية والحروف الكوفية كما تظهر ايضاً بعض الصور الآدمية على قطع الخزف من صناعة مسلم (كالتي نشاهدها على خزف الصانعين ابراهيم وساجي)

---

(١٠) ناصري خسرو هو رحالة وشاعر فارسي ولد في مقاطعة خراسان ببلاد فارس سنة ٣٩٤ هـ وانتظم في شبابه بعمل في الديوان بمدينة مرو ثم تركها وحج الى مكة واخذ يطوف ببلاد العالم الاسلامي في منتصف القرن الخامس واعجب بما وجده في مصر من رخاء عظيم واسواق عامرة (١٠٤٧ — ١٠٤٩ م) ووصفه للقاهرة المستنصرية يعد من اهم المراجع التي تساعد على معرفة احوال القاهرة وصناعاتها وحفلاتها السلطانية والشعبية . وقد ترجم رحلته الى الافرنسية ونشرها المستشرق شارل شيفر في باريس سنة ١٨١١

Sefer Nameh : Relation du Voyage de Nassiri Khosraw

مدرسة سعد

وفي هذه الصناعة نجد الجزء الاسفل للاواني محتوياً على حلقة للقاعدة تشبه الشريط الا في احوال نادرة جداً عند ما تكون الاواني يغطيها الطلاء . وهذا قلما يكون أبيض اللون فهو اما أزرق وإما أحمر . وفي نوع خاص يصادف الانسان بريقاً أنيقاً ذالون رمادي لامع محلاة به القاعدة على مثال الخزف الذي تقابله في الخزف القبطي والقاعدة لولبية الشكل أفقية صنعت بالأصابع أثناء عمل الآنية وادارتها على عجلة الخزاف

وقد عم استخدام اللون الازرق في تلك الصناعة كما أننا في كثير من الاحوال نجد البريق المعدني الاكثر استعمالا هو الزيتوني المائل الى الاصفرار

وفي مجموعة منسوبة الى مدرسة سعد وجدت نماذج ذات ألوان متعددة وبريقها المعدني مطبوع على زخارف بارزة في قوالب مصبوبة . والنقش الداخلي مكون في الغالب بواسطة الحفر في طبقة المادة ذات البريق بدون ان ينفذ الى المادة الطينية . وتقابل مثل هذه «الخزوز» في أعمال الخزف المنسوبة الى « ساجي » . اما توقيع سعد فنجده منقوشاً بالحروف الكوفية المزخرفة على جزء واضح من الآنية وفي الغالب على الوجه الخارجي للاناء . وهناك قطعة زخرفية في القسم الاسلامي من متحف برلين تحمل توقيع سعد والى جانبه توقيع لمصور (صانع) آخر اسمه (حسن) وهذا مما يدلنا على انه كان لسعد مساعدون في مصنعه . وفي متحف فكتوريا وألبرت بلندن آنية عليها توقيع سعد وعلى سطحها الداخلي نقش يمثل قسيساً في يده مبخرة تترجح . وبين الزخارف التي تملأ ارضية الآنية علامة الحياة المصرية او الصليب القبطي الذي كان يستعمله الاقباط كثيراً في اعمالهم الزخرفية

وفي دار الآثار العربية قطعة خزفية ليس عليها توقيع ولكن عليها صورة المسيح منسوبة الى مدرسة سعد . وهذا مما يجعلنا نعتقد انه من المحتمل ان سعد كان من سلالة الاقباط

وقد اقتبس سعد بعض موضوعاته الزخرفية من موضوعات قديمة . وفي كاتدرائية Sens قطعة قماش من الحرير تشبه القطعة التي عثر عليها في انطينو Antinoe [11] عليها رسوم طيور متقابلة واشجار وسلال تحتوي على فواكه كثيرة الشبه بالرسوم التي تقابلها وننسبها بدون عناء الى مدرسة سعد . ومن الصعب تفسير وجوه الشبه لاشياء يرجع تاريخها الى عصور متفاوتة

(١١) انطينو بوليس او ادريانو بوليس مدينة مصرية قديمة على الحدود الجنوبية لمصر الوسطى التي عرفت قديماً باسم هيتونوميد ثم انضمت بعد ذلك الى اقليم طيبة . وكانت على الشاطىء الايمن للنيل على بعد ٩ كيلو مترات من هرمو بوليس — وقد شيدها الامبراطور ادريانوس على انقاض مدينة بيزا القديمة وذلك تخليداً لذكرى صديقه الشاب الجميل انطونيوس الذي مات غرقاً في النيل بالمكان الذي شيد عليه المدينة . وقد اطلق الاقباط على انقاض هذه المدينة الجميلة اسم Euseneh وهي اليوم بالقرب من قرية الشيخ عبادة انظر Description D'Egypte (t. IV p. 197)

ومن الرسوم التي نشاهدها على فخار هذه المجموعة الاسماك التي نراها على آنية مشهورة في مجموعة كيليكيان المعروضة في متحف فكتوريا والبرت وكانت فيما قبل للدكتور فوكيه وطلاء هذه الآنية رمادي اللون ومشقق . وإنا لنرى على السطح الداخلي لبعض الاواني الخزفية التي تنسب بسهولة الى صناعة سعد زخرفة لاسماك ثلاثة تماس رؤوسها في هيئة رائعة كما نرى بعض الرسوم الآدمية ايضاً . وليس في طراز صناعة سعد تلك القوة والحرية التي نلاحظها في صناعة مسلم ومدرسته لكنها اكثر رشاقة وانسجاماً

ومن اراد الدرس استطاع ان يقابل اوجه الشبه والخلاف بين النقوش التي على لوح كنيسة سنت بربارا بمصر القديمة والنقوش التي خلفتها قصور الفاطميين الغربية

ولاشك ان بعضاً من الامثلة المتأخرة من هذه الطبقة صنع بعد وفاة سعد ونجدها غير متقنة وتندر فيها الرسوم . كما انا نلاحظ ان حروف قاعدة الاواني مثلثة القطاع وليست مستديرة

***

ومن مجموعات الخزف ذي البريق المعدني الذي ينسب الى العصر الفاطمي الأخير ما نرى زخرفته ذات لون بنفسجي تحت سطح مصقول وشفاف . ولا بد ان تكون هذه الطبقة والسابقة لها من عمل مصنع واحد

ومن بين الموضوعات الزخرفية التي استعملت جامات (medaillons) تحتوي على رؤوس من المحتمل انها تمثل الشمس . وموضوعات مثلثة ومستطيلة ذات جوانب منحنية وفروع اشجار مزهرة . . . الخ ونشاهد امثلة اخرى عليها رسم الصليب ومن المحقق ان تكون من صناعة القبط

وقد وجدت قطع كثيرة من الاواني وترابيع الحيطان ذات البريق المعدني في حفريات قلعة بني حماد . ومن المحتمل ان تكون في الاصل وردة من مصر . لكن مما يجعلنا نعارض هذه النظرية اننا لم نعثر على مثل تلك الترابيع في حفريات الفسطاط . ونعتقد انه كان لخراب الفسطاط الشامل عقب حريقها الكبير عام ١٠٦٩ ثم سقوط الدولة الفاطمية بعد ذلك باعوام قلائل — القضاء الاخير على صناعة الخزف ذي البريق في مصر . وفي ذلك العصر نجد ان هذه الصناعة بدأت في الظهور في سوريا واسبانيا (وكان ورد اليهما الخزف ذو البريق في القرن العاشر) . ووجود بعض الأواني اللامعة في سوريا التي ترجع الى زمن لا يتجاوز عصر سقوط الدولة الفاطمية لا يمكن ان يتخذ حجة نستعين بها ضد النظرية القائلة بأن صناعة الخزف قد ادخلت الى سوريا على يد الصناع المصريين . والفخار السوري ذو البريق يكون احياناً مطلياً على سطح مصقول وشفاف يحتوي على مادة القصدير . وهذه الطريقة في الطلاء ادخلت الى سوريا عن طريق مصر حيث تقدمت

لقد ذكر لنا المؤرخون في مناسبات شتى اهمال صلاح الدين للفن والترف . وهذا ما

يفسر لنا الى حد ما الانحطاط الوقتي الذي أصاب الفنون المصرية فيما عدا فن صناعة الخشب الذي تبع سقوط الدولة الفاطمية

كلمة عامة في دراسة الخزف الاسلامي

الآن وقد انتهينا من عرض آراء الدكتور لام في الخزف الفاطمي يجمل بنا ان نلخص بعض الآراء الأخرى . فقد تناول دراسة الخزف الاسلامي كثيرون من مؤرخي الفنون . وما زالت امامهم نقط كثيرة غامضة . وكان من الذين بحثوا موضوع الخزف الأسلامي العالم (Hobson) [١٢] فقال ان ليس ثمة اي دليل على وجود خزف ذي بريق معدني في الفسطاط قبل القرن التاسع ولاسيما قبل العصر الطولوني في نهاية هذا القرن وليست هناك أية قطعة اثرية تثبت يقيناً ان ذلك البريق المعدني كان معروفاً قبل الاسلام

وكان من الباحثين الفنيين في الخزف الاسلامي المرحوم العالم علي بك بهجت والاستاذ فليكس ماسول[١٣] فقد نسبا الى العهد الطولوني نوعاً من الخزف ارق طينة من النوع الذي ينسبانه الى ما قبل العصر الطولوني يمتاز بزخارفه ذات البريق المعدني ذي اللون الاصفر او الزيتوني على ارضية بيضاء او عاجية

وبعض العلماء ومنهم ميجو Migeon ومرسيه Marcais وفييت Wiet وغيرهم اتفقوا على ان تلك المميزات نفسها هي مميزات خزف عثر عليه في سامرا وفي الري [١٤] وفي سوس وفي قلعة بني حماد وفي مدينة الزهراء (فرساي قرطبة) ولكن الدكتور Dr. Sarre وزميله الدكتور كونيل Dr. Kühnel امين القسم الاسلامي بمتحف برلين يريان ان صناعة الخزف ذي البريق المعدني نشأت في العراق . ويثبت كونيل ذلك بأن المنقبين لم يعثروا في اطلال سامرا على بقايا افران لصناعة الخزف او قطعاً اصابها التلف في الافران اثناء العمل . ولذلك ذهب الى ان بغداد كانت موطن هذه الصناعة ولاسيما ان المصادر التاريخية كثيراً ما تتحدث عن مدينة المنصور كمركز هام لصناعة الخزف والفخار [١٥] . وهذا هو الرأي السائد

ومن المحتمل جداً ان نقل هذه الصناعة من العراق الى مصر جاء على يد ابن طولون . وليس بعيداً ان يكون قد اتى معه من العراق بنماذج من الخزف العراقي او بصناع عملوا على احياء صناعتهم في مصر [١٦]

---

(١٢) انظر كتاب Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East.

(١٣) انظر Ali Bahgat et Felix Massoul : La Céramique Musulmane de l'Egypte

(١٤) مدينة الري : Rhages or Ray وهي مدينة فارسية تقع على بعد بضعة اميال الى جنوبي طهران . وقد كانت في صدر الاسلام مدينة مشهورة ومركزاً كبيراً لصناعة الخزف وفيها نشأت نماذج عديدة خاصة بها وقد دمرها المغول سنة ١٢٢٠

(١٥) انظر كتاب « الفن الاسلامي في مصر » لمؤلفه الدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية

(١٦) المصدر السابق



عمر بن عبد الله

— ٢ —

ابن ابي ربيعة

لجبرائيل جبور
احد اساتذة الادب العربي
بجامعة بيروت الاميركية

﴿ الناحية الجدية في حياة عمر ﴾ : لعلَّ اخبار حب عمر للنساء وتغزله بهنَّ ولهوه وعبثه طغت على سائر اخباره الاخرى بحيث كادت تستأثر بانتباه المؤرخين . ولهذا فالمشهور عند الادباء اليوم ان احداً من الناس لايستطيع ان يذكر شيئاً عن الناحية الجدية في حياة عمر

ولعل بعضهم يزعم ان عمر لم يجدّ في حياته وانما قضى عمره في عبث ومجون ، ولكن الاقدمين ذكروا ان عمر فتك نصف حياته ونسك نصفها الآخر ، ومهما يكن من شأن هذه الرواية المضطربة فهي تدل على ان حياة عمر في زعم هؤلاء الرواة القدماء لم تنقض كلها في اللهو . ولقد حاولت ان التمس هذه الجوانب الجدية من حياة عمر فلم ار في ما بقي من كتب القدماء ما ينقع غلة ، والذي يؤيد امر ضياع بعض اخباره رواية اوردها السيوطي وهو من المؤرخين المتأخرين من رجال القرن العاشر للهجرة فيها نبأ ان صح فهو يفيد ان عمر جد كل الجد في بعض ظروف حياته . ولعلك تستغرب اذا سمعت ان هذا النبأ هو ان عمر نقل الحديث النبوي عن امام مشهور هو سعيد بن المسيب ، وقد عرف اتصال عمر به وبعبد الله بن عباس وهما من اعظم ائمة ذلك العصر ، وان هناك محدثين نقلا عنهُ الحديث هما مصعب بن شيبه وعطاف بن خالد . ولعلك لا تستغرب ان تسمع انهُ كان يعرف القراءة والكتابة فهذا يبين من شعره وقد كان بالمدينة زمنئذٍ كتاتيب يتعلم بها الصبيان . وقد اتصل مع كثير من حبيباته بواسطة الكتب التي كان يبردها اليهن وكنَّ يكتبنَ اليه ايضاً وقد قال:

ابنئت انك اذ اتاك كتابنا   اعرضت عند قرائك العنوانا

ومن الممتع ان تعلم انهم كانوا يختمون كتبهم بالوف السلامات كما تفعل العامة في هذا العصر

سلم الله الف ضعف عليكم   مثل ما قلتم لنا في الكتاب

وقد ألمّ بالقرآن واستعان بمعانيه في شعره الغزلي

وقد قال : والله قد انزل في وحيه مبيناً في آيه المحكم
من يقتل النفس كذا ظالماً ولم يقدها نفسه يظلم

وله : ان الوشاة كثير ان أطعتهم لا يرقبون بنا الاً ولا ذمما

وله : حدثونا انها لي نفثت عقداً يا حبذا تلك العقد
كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

وليس غريباً على عمر وقد ولد في جيل كانت الحجاز فيه موسماً لحركة دينية كبرى هزت اقطار العالم وكان العرب فيه قد اخذوا بدهشة هذا الدين الجديد ، اقول ليس غريباً عليه ان يتصل باسباب هذه الحركة وان يلم بامورها . وقد كان اخوه الحارث رجلاً صالحاً نقل الحديث عن الامام علي

وكانت المدينة كما ذكرنا مركزاً عظيماً لهذه الحركة ولهذه النهضة الجديدة بما استتبعته من امور الاجتماع والتجارة . وكانت جيوش النبي تعمل لهؤلاء العرب في سائر اعمالهم ، وكان عمر احد الورثة لبيت تجارة وثروة كما رأينا فلم يكن غريباً ان يقع عليه ، وقد مات والده وهو صبي ، عبء مسؤولية بعض الاعمال التجارية والصناعية . والرواة يذكرون لنا ان كان له عبيد يتصرفون في بعض المهن منهم سبعون في الحوك وان أم والده كانت تتاجر في العطر . ولم تقتصر اعماله التجارية على الحجاز فقد سار (فيما يظهر من شعره) في رحلة تجارية الى اليمن طمس الرواة أخبارها فذكروا ان أخاه أرسله الى اليمن ليمنعه من قول الشعر ، وزعم آخرون ان رجلاً باسم مسعدة بن عمرو ارسله في أمر عرض له ، والراجح انه ذهب في تجارته وقد ندم على عمله حين عاقته هذه الرحلة عن حضور موسم الحج فقال قصيدته المشهورة :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا اذا حللنا بسيف البحر من عدن

وفيها يقول بلسان حبيبة تخاطب رفيقتها :

بالله قولي له في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في يمن
ان كنت حاولت دنيا أو رضيت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن

ويظهر من شعره أن له اكثر من رحلة الى اليمن عاقه في احداها مرض ثلاث سنوات وقام برحلة الى البصرة لمعالجة أسنانه كما ذكرنا وقال في لهوه فيها شعراً لم يحفظ لنا منه سوى :

حبذا البصرة داراً في ليال مقمرات

وزار الكوفة ولا نعلم متى ولا لأي غرض . فقد يجوز انه قصدها وراء احدى الغانيات العائدات من الحج : وهناك اخبار تشير الى تتبعه عراقية الى العراق . وقد يجوز انه كان يزور

أخاه الحارث والي الكوفة مدة لعبد الله بن الزبير وقد مكث فيها وأحب ليلها البارد وماءها وغناء مغنيتين فيها ، وقد قال في ذاك :

يا أهل بابل ما نفست عليكم من عيشكم الآ ثلاث خلالِ
ماء الفرات وطيب ليل بارد وغناء مُسْمِعتين لابن هلالِ

ولهُ زيارة او اكثر لسوريا لم يذكر الرواة شيئاً عنها ولكنهُ ذكرها في شعره في غير قصيدة وبثّ في هذا الشعر شوقه لمحبوبة حجازية كان قد شق عليها فراقه ، وتراه يستحث ناقه ليصل الى حبيبتهِ ولسنا نعلم غرضه في هذه الرحلة ولعله أحد امرين . إما في تجارة وإما في غزوة ولا سيما وهو يذكر في شعره ان فتاته حين ودعته دعت الى الله ان يعيده سالماً مأجوراً ونحن نستبعد جهاد عمر في غير الحب ولكننا لا ننكر انهُ قال :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وقد نشأ في المدينة نشأة أدبية وكان أولاد بعض الاشراف يتأدبون على أيدي معلمين يروونهم الشعر ، فألم بشعر الكثيرين من سابقين ومعاصرين وتأثر ببعضهم . والذي يدرس شعره يرى انهُ قد أخذ عن امرىء القيس وحسان بن ثابت والاعشى وعنترة وزهير والنابغة وعلقمة وأبي القيس بن الصلت والخنساء والحطيئة والاسود بن يعفر والمثقب العبدي وعدي بن زيد وغيرهم وهذا يدل على سعة اطلاعه ولعله كان أميل الى تأثر امرىء القيس منهُ الى تأثر اي شاعر آخر . ومن يقرأ قصيدة عمر :

خليلي مرّا بي على رسم منزل

يتخيل انهُ يقرأ شعر امرىء القيس . وكان لعمر أثر كبير في الحياة الادبية في ذلك العصر فكان يعارض بعض الشعراء من معاصريهِ ، وكان يعارضه آخرون وكان يعنيه من هذه الخصومة قيمتها الادبية . والرواة يحدثوننا ان الحزين الكناني الشاعر لقي عمر وعارضه وهجاه وعيره باسوداد ثنيتيهِ او كسرهما وقال :

ما بال سنيك أم ما بال كسرهما أهكذا كسرا في غير ما بأس
أنفحة من فتاة كنت تألفها أم نالها وسط شرب صدمة الكاس

ولكن عمر لم يرد عليهِ باكثر من اذهب ! اذهب ! ويلك ! فانك لا تحسن ان تقول

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحـــدة انما العاجز من لا يستبد

ولسنا نعلم تماماً متى كان اول عهده بالشعر . وليس هناك أثر من الصحة للروايات التي تذهب الى ان اول قصيدة نظمها كانت :

أمن آل نعم انت غادٍ فبكر غداة غد ام رائح فمهجر

وانهُ انشدها لاول مرة امام ابن عباس عندما وفد عليهِ ابن الازرق . فقد كان وفود ابن الازرق حوالي عام ٦٠ هـ . وكان عمر عامئذٍ في السابعة والثلاثين من عمره . وقد نسب اليهِ شعر قيل في واقعة الجمل التي وقعت وهو في الثالثة عشرة من عمره ولم يكن هذا بغريب على شاعر مطبوع مثل عمر . ويظهر انهُ نظم في صباه وشبابهِ شعراً كثيراً غثاً حتى اذا قويت ملكة الشعر فيهِ ونظم الشعر الجيد قال جرير ما زال يهذي هذا الشاب حتى قال شعراً

وهناك شطر من حياتهِ قضاه بغير هذا اللهو الذي عرف بهِ وقد غالى بعض الرواة فجعلوه نصف حياته بل اكثر من النصف ، ذلك ان عمر لم يجاوز السبعين من عمره . ولكن هؤلاء الرواة اطالوا عمره فجعلوه ثمانين ثم اشفقوا ان تنقضي هذه السنوات كلها في الاثم والمنكر فأتابوه بعد الاربعين وقالوا فتك (٤٠) ونسك (٤٠) وهو لذلك قد فاز بالدنيا والآخرة . والواقع انهُ لم يتب بعد الاربعين ولم يكن لهوه في سنواتهِ الاخيرة كلهو الشباب . وكل ما في الامر ان عمر لها ما امكنهُ ان يلهو حتى اذ فترت سورة اللهو بهِ بكى شبابه ثم كبر فاخذ ينصرف الى ما يقتضيه وقار الشيوخ من هدوءِ وسكون . ولعلهُ مال الى امور الدين فأثر ما اثرعنهُ من حديث

ولعل اخفى ما في تاريخ عمر موته . وهو شيء غريب فالرواة والمؤرخون قد عودونا ان يختلفوا في امر ولادة من يترجمون حياته لان احداً من الناس لم يؤت النبوة ليعلم ان هذا الصغير الذي يوضع سيكون له شأن . اما ان يختلفوا في ظروف موت شاعر طبق العالم العربي صيته فهو امر ذو بال . ولست ارى مجالاً لاسرد روايات موته المختلفة بالتفصيل فالبعض قد اماتهُ مجاهداً في دهلك (جزيرة في البحر الاحمر) وزعم ان عمر غزا في البحر مجاهداً فاحترقت سفينة وغرق شهيداً . ولعل صاحب هذه الرواية هو من هؤلاء الذين اشفقوا على عمر فاتابوه نصف حياته ودفعوه الى البحر غازياً ليستشهد وليفوز بالدنيا والآخرة

وزعم البعض الآخر ان عمر نظر الى امرأة جميلة شريفة في الطواف فذهب عقله فكلمها فلم تجبهُ فذكرها بشعره وقال فيها :

الريح تسحب اذيالاً وتنشرها يا ليتني كنت ممن تسحب الريح

فبلغها شعره وجزعت منهُ وقيل لها اذكريه لزوجك فانه سينكر عليهِ قوله فيك فقالت : كلاَّ والله لا اشكوه الا الى الله ثم قالت اللهم ان كان نوّه باسمي ظالماً فاجعله طعاماً للريح فضرب الدهر من ضرباته ، ثم ان عمر غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل فاستتر بسلمة فعصفت الريح فخدشه غصن منها فدمي وورم به ومات من ذلك . ولعل اصحاب هذه الرواية هم من الذين شاؤوا ان ينتقم الله من عمر فاماتوه بدعاء امرأة شريفة حاول التعرض لها . ولو شئت ان اعدد اخبار من

ماتوا في التاريخ العربي بدعاء احد الناس عليهم لطال بي المقام

وهناك رواية لا تشير الى شيء صريح مفصل عن أمر موته ولعلها أقرب الروايات الى الصواب . قالوا لما مرض عمر مرضهُ الذي مات فيهِ جزع اخوه الحارث الخ . . . . . وهذه الرواية ان صحت تشير الى ان عمر قد مات على البعيد في خلافة الوليد بن عبد الملك ويجب ان يكون قد مات من مرض لا من حادث مما ذكرنا . وهناك اخبار تشير الى انهُ كان آخر حياتهِ كالمقعد يتوكأ على مولى لهُ ولست ادري كيف يمكن لمثل هذا ان يغدو على فرسه او ان يغزو في البحر . ومهما يكن في الأمر فان عمر مات قبل السبعين

ولعلَّ للبرداء « الملاريا » أثراً في تهديم جسم هذا الشاعر الجميل ، فقد كانت تنتابهُ من حين الى حين وكانت أقوى نوباتها لهُ في رحلة ارتحلها الى اليمن بعيداً عن اهله فلم تفارقه ثلاث سنوات

ولعلهُ مات غريباً عن وطنهِ فاني لا أرى أعظم من هذا سبباً يدفع الرواة الى الاختلاف في أمر موتهِ . ذلك أهم ما في حياة عمر من جد الأمر وما كنت أظن ان الناس يلتفتون الى عمر لو اقتصرت حياته على هذا بل انا أعلم ان بعضهم لا يهمه من امر عمر سوى ما اشتهر بهِ عمر ألا وهو حبه وشعره

﴿ حبه ﴾ : يزعم البعض ان عمر لم يحب بقلبه وانما أحب بعقله ولسانهِ . ويدللون على هذا بتعدد محبوباتهِ ويصرحون ان من أحب غير واحدة فقلبهُ لم يحب . وكنت اود لو كان المقام يتسع لي لأظهر فساد هذا المذهب ، ولكني أعلم ان كثيراً من الناس قد خفقت قلوبهم لأكثر من شخص . واذا كانت العوامل التي توقظ الحب وتحرك القلب وتوقد الحس وتلهب العاطفة قد وجدت في شخص فلست أرى ما يمنع ان يحب الواحد اكثر من شخص . ويتهمون عمر في حبه لأنهُ حضري لا بدوي ويدللون على ذلك في انهُ قلما صدق للحضريين حب او تبقى لهم صبابة وكل حضري يعلم فساد هذا القول

واذاً فرأيي انهُ ليس هناك من سبب يحملنا على اتهام عمر في حبه . فليس الحضريون مكذبين في عشقهم ولا المعددون خائنين في حبهم ولم يكن عمر كاذباً في حبه حينما ترك الحجاز وراء فتاة احبها الى العراق يشيعها ، ينزل بنزولها ويرحل برحيلها حتى يردا العراق فترجعه بالتي هي احسن ويعود وقلبه معها بعد ان وعدته الموسم القادم . ولم يكن عمر كاذباً في حبه حينما تزوجت الثريا وانتقلت الى بلد بعيد فانهُ لم يهجر حبها ولاسلا ذكرها بل سار وراءها يتلمس خطاها على اديم البيداء الفاصلة بين الشام والحجاز وكتب لها وقد بلغه فراقها متوجعاً :

كتبت اليك من بلدي	كتاب موله كمد
كئيب وا كف العينين	بالحسرات منفرد

يؤرقه لهيب الشوق بين السحر والكبد
فيمسك قلبه بيدٍ ويمسح عينه بيد

وارادت الثريا اختبار حبه فدست له من الطائف وهو بمكة من خدعه وانبأه أنها ماتت فاعتلى صهوة جواده لساعته واستحثهُ الى الطائف وقد اقلقه النبأ وازعجهُ فرآها تنتظره وادركت انهُ المحب الامين

اما هذه العوامل التي كانت تدفع عمر الى الحب فتعددة شأنها اليوم وأهمها الجمال فقد كان مغرىً بهِ او على تعبيره الخاص موكلاً بهِ يتبعه انى رآه . وكان قلبه طوع هذا الشعور بالجمال فكان يخفق لهُ . ويظهر انهُ كان دقيق الحس في ادراك الجمال فلا يكاد يلمسه في وجه فتاة حتى يضطرب قلبه لهذا الشعور الذي غمره ولهذا النور الذي سطع لعينيه فيحاول في فنه ان يجلوه للناس كانما هو خاف عن اعينهم فهو والحالة هذه قد احب بعينهِ ثم بقلبهِ

ولم ار في كل اخبار عمر ذكراً لفتاة احبها الاَّ وقد ذكر الرواة معه انها كانت من اجمل نساء دهرها . واذا كنت تريد معرفة عدد محبوبات عمر فليس عليك الاَّ ان تعدد الجميلات في ذلك العصر ممن كان يمكن ان تقع عينه عليهنَّ او يتصل به علمهنَّ . واذا كنت تريد ان تعرف الجميلات في ذلك العصر فليس عليك الاَّ ان ترجع الى شعر عمر فقد خلد ذكرهنَّ بل لقد كان بعضهنَّ يرينَ دليلاً على الجمال ان يذكرن في شعر عمر . ولقد اعترضت الثريا ذات يوم على شعر بلغها قاله عمر في امرأة يظهر انها لم تكن جميلة الوجه او الثريا كانت تغار منها فقالت : افٍّ لهُ ما أكذبهُ او ترتفع حسناء بصفته لها بعد اليوم !

ولقد شهر في تقديره للجمال الى درجة ان احتكمت اليهِ ذات يوم سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في أيهما اجمل فقال لعائشة أنتِ أجمل وقال لسكينة أنتِ أملح وأرضى كلتيهما

ويطول بي المقام لو فصلت لكم حوادث عمر مع من زعم ان لهُ علاقة بهنَّ، فهنَّ كثر. وقد ذكر في شعره اسماء صريحة لاكثر من عشرين امرأة بعضهنَّ من اشهر نساء الاسلام على الاطلاق . ويكفي ان اذكر منهنَّ الثريا بنت علي بن عبد الله وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكنى باكثر من خمسين اسماً عن فتيات حيل بيننا وبين معرفتهنَّ ولعل اصدق حب عرف عن عمر واقواه قد قسم بين ثلاث هنَّ الثريا وعائشة وزينب بنت موسى الجمحية ، وقد افلتنَ من يده جميعاً فزوجنَ واعقبهُ زواجهنَّ لوعة وحسرة . وقد كنى عن فتاة باسم نعم وكنى عن اخرى باسم هند وهما ان لم تكونا من النساء الثلاث اللواتي ذكرنا فقد شاطرتاهنَّ قلب عمر . وقصص عمر مع حبيباتهِ من اجمل القصص وقد انتشرت في اكثر كتب الادب العربي وارجو ان يكون في كلمتي هذه حافز للقارىء الكريم ان يطالع هذه القصص الشيقة الممتعة

العقل والمادي

في الفلسفة الحديثة

لفليمون موسى

من اهم القضايا التي اشتغل بها اهل الفلسفة منذ القديم ولعلها اهم تلك المسائل وأبعدها تأثيراً مسألة العقل والمادة . وان الفلسفة لا تزعم انها توصلت فيها الى حقيقة راهنة او رأي حاسم . الآن الفلاسفة في غضون معالجتهم هذه المشكلة الفلسفية تمكنوا من كشف النقاب عن حقائق هامة جدير بكل مثقف الاطلاع عليها والاستنارة بها اذ انهُ على معرفتها يترتب كثير من شؤون المرء ومعتقداته الخاصة

ان كثيرين ممن خاضوا عباب هذا البحث حتى من فريق الفلاسفة انفسهم توصلوا للاسف الى نتائج خبيثة كان لها الاثر السيء في حياة الذين أخذوا بتلك الآراء واعتصموا بتلك المبادىء ويعلم الكثيرون من اهل الاطلاع انهُ طغت على العالم الغربي في اواسط القرن الماضي موجة عظيمة من امواج المادية فاكتسحت ممالك الغرب من اقصاها الى اقصاها واغرقت كثيرين في عبابها واتصلت اطرافها بعد ذلك بقليل بالبلدان الشرقية فهوى كثيرون ايضاً في لججها ومن يعلم ما يكون من اخطارها المقبلة وعواقبها الوخيمة في مستقبل الايام

ولا غرو ان يكون الامر كذلك فان البشر كما يقول العلامة الفيلسوف الاميركي رِهبْن « لايزالون تحت تأثير المنظور اكثر من غير المنظور وانهم ليأخذون بالمحسوس اكثر بما لا يقاس مما يأخذون بالمعقول »

لذلك لا يلام البعض من غير طلاب الحقائق اذا اقتصروا على القدر اليسير من المعرفة . ولكن يلام فريق المتنورين وطلاب الحقائق الكلية اذا وقفوا عند حد المادة ولم يتجاوزوه الى الالمام بما اقرهُ اقطاب الفلسفة ورجال العلم بهذا الصدد بعد جهود القرون وتفكير الدهور .

وان المراد بهذا البحث الاشارة الى كيفية تطور هذه الفكرة فكرة المادة والعقل والأدوار التي مرّت عليها منذ القديم الى يومنا هذا

معلوم ان فلاسفة اليونان وبنوع خاص الفيلسوف أريسطاطاليس كانوا قد قسموا عناصر الوجود الى قسمين عظيمين المادة والعقل . وهذا هو مذهب التثنية الذي لا يزال يقول بهِ الفريق الاكبر من الفلاسفة الى يومنا هذا . وهو يناقض مبدأ ديمقريطوس في الوحدة المادية . وديمقريطوس هو أبو الماديين وزعيم الفكرة التي لايزال عليها الماديون حتى اليوم . الاَّ ان فلاسفة اليونان لم يحددوا المادة والعقل تحديداً جليًّا ولا فصلوا بينهما على النحو الذي قام بهِ الفيلسوف الفرنسي ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ولهذا بقي الرأي القديم في المادة والعقل على شيء من الابهام الى ان قام ديكارت فحدَّد كلاًّ منهما وميَّز بينهما تمييزاً تامًّا اذ قال ان العقل يختلف اختلافاً كليًّا عن المادة بل هو نقيض المادة وليس ثمة اي مماثلة او تشابه بينهما — ان خاصة الجسم المادي الامتداد وخاصة العقل التفكير وكلاهما مستقل بدائرتهِ الخاصة ولا يمكن ان يكون بينهما شيء من التفاعل او العلاقة السببية . هذا هو رأي ديكارت على سبيل الايجاز الاَّ انهُ لا ينطبق في بعض وجوههِ على الحقيقة الواقعة فالانسان اذا أراد تحريك يده مثلاً فانهُ يحركها في الوقت الذي يشاء وعلى الصورة التي يريدها . فهنا واضح ان شيئاً عقليًّا هو الارادة يفعل او يؤثر في جسم مادي هو اليد . اذاً كيف يمكن وقوع مثل هذا الامر والعقلي والمادي شيئان متناقضان حتماً وليس من علاقة سببية بينهما بوجه من الوجوه . ان هذا الامر أوقع ديكارت في حيرة عظيمة وكان مشكلة فلسفية زمناً طويلاً . وهي الحيرة التي جعلت فولتير يلقب نفسهُ احياناً بالفيلسوف الجاهل وكان يطربهُ ان يلقب نفسهُ كذلك . وكثيراً ما كان يردد هذه العبارة ويراسل بها بعض اصدقائهِ من اهل الفلسفة مثل ديدرو وغيره وهي « ما قيمة هذه الفلسفة التي لا تستطيع ان تعلمني كيف او لماذا احرك يدي »

***

وقد علل الفلاسفة من اتباع ديكارت مثل مالبرانش وغالنكس وغيرهما هذا الامر بطرق مختلفة أشهرها الطريقة المعروفة بنظرية التقابل Parallelism ومؤدَّى هذه النظرية ان المادي والعقلي كلاًّ منهما في دائرتهِ الخاصة مستقلٌ عن الآخر . غير انهُ عند حدوث اي حركة في الدائرة الواحدة يحدث التأثير الذي يشاكلها في الدائرة الاخرى على سبيل التقابل . ولكن لا على سبيل ان حركات الواحدة هي علة الاحساس او التأثير في الاخرى بل ان كليهما يحصلان معاً باتفاق لا نستطيع ادراكهُ

ويمكن تمثيل ذلك بايقاع عدد من الاصوات المتتابعة والمتوافقة معاً فانهُ يقوم لكل صوت عند الايقاع معنى خاص في الذهن . فلا يعلل ذلك بان الاصوات هي التي احدثت المعاني اذ

لا يوجد اي شبه بين الحركة الصوتية والمعاني العقلية . بل ان الاصوات والمعاني قامت في ذهن السامع معاً وذلك باتفاق غريب لا ندرك كنهه وهذا هو المراد بنظرية التقابل هذه

بيد ان اهل الفلسفة لم يستطيعوا الوقوف عند حدود هذه النظرية اذ انهُ مع الاعتراف والتسليم بنظرية ديكارت من انهُ لا يمكن وجود اي تشابه في الماهية او في العمل بين المحرك او المؤثر المادي والعمل العقلي الاّ ان الصلة بينهما اكيدة وتأثير احدهما في الآخر لا يمكن نكرانهُ فالفكر يؤثر في حالة الجسم واحوال الجسم تؤثر كثيراً في الحالات الفكرية . اذاً لا بد ان يكون هنالك علاقة متينة لا مندوحة من التسليم بها او مخرج مشترك بين الاثنين يفسر هذا التفاعل بينهما وهذه الصلة القوية التي تربط احدهما بالآخر . وهذا ما ادى الى نظرية سبينوزا[1] الفيلسوف الهولندي صاحب المذهب الحلولي (Pantheism) وهي ان المادي والعقلي هما وجهان او مظهران للمادة الواحدة الاصلية العامة والتي ليست في ذاتها لا مادة ولا عقلاً . ومؤدى نظرية سبينوزا هذه ان العقلي والمادي شيئان متلازمان ملتحمان . حيث توجد مادة فهناك عقل ايضاً فلا مادة بلا عقل ولا عقل بلا مادة . وان هذه النظرية هي ذات شأن خطير في عالم الفلسفة . وكثير من فلاسفة هذا العصر يرجعون اليها في معظم ابحاثهم . وكانت هذه النظرية في العصر الاخير بنوع خاص مذهب الفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر والفيلسوف الالماني فخنر

اما الفيلسوف ليبنتز (١٦٤٦ — ١٧١٦) فيرى أن جواهر المادة ليست الاّ مراكز قوة او مجموع قوًى متعددة انما اذا اردنا تعريف هذه القوى فيقال انها روحية اكثر منها مادية لهذا فان ليبنتز يغلب العنصر الروحي كثيراً على المادي وقد كانت نظريتهُ هذه دعامة قوية لاصحاب المبدأ الروحي في الفلسفة

***

ويطول بنا المقام اذا اردنا ان نعدد آراء كل من اهل الفلسفة بهذا الصدد ولكن نقول بوجه الاجمال ان الاتجاه الفلسفي بعد عصر ديكارت وليبنتز وسبينوزا قد كان في جهة المبدأ الروحي وكان قد اخذ هذا المبدأ بالتقدم على المادي منذ وضعت نظرية التقابل المذكورة آنفاً فلم يعد ممكناً اعتبار القوة العقلية نتيجة من نتائج الحركة المادية او اثراً من آثارها كما يزعم اصحاب

---

(١) هو الفيلسوف الهولندي الشهير (١٦٣٢—١٦٧٧) صاحب مذهب الحلول المعروف باسم Spinonizm

الرأي المادي . واستمرت هذه الفكرة في نمو وازدياد الى ان بلغ المذهب اوج سيادته في النصف الاول من القرن الماضي في فلسفة الفلاسفة الالمان من كانت الى هيجل وفختي وشوبنهور . وكانت فلسفة هيجل وشلنغ بنوع خاص فلسفة عقلية محضة (Absolute Idealism) أي القول بوجود العنصر الروحي فقط دون المادي في الوجود

***

واذ نثبت هنا نظرية الفيلسوف الفرنسي فوييه (A. Fouillée) ١٨٣٨ — ١٩١٢ وهو يريد بها التوفيق او الجمع بين الرأيين المادي والعقلي فانما نعبر عن رأي الكثيرين من اهل الفلسفة في هذا العصر الاخير

يقول فوييه ان الماديين يخطئون بزعمهم ان كل السرّ في الحركة المادية بصرف النظر عن العوامل الاخرى . كما يخطىء العقليون بجعلهم العقل الكل في الكل بقطع النظر عن العنصر المادي . ان العقل والمادة او الحياة والوجدان يعملان معاً في الطبيعة كمبدإ واحد شامل وما هما الاّ وجهان او طريقتان لادراك الشيء الواحد كالمعنى المفرد يدل عليه لفظان مترادفان . وما التأثيرات او الانفعالات العقلية الاّ مظاهر او تابع لعوامل حسية مادية فنيًّا . اما الوجود العقلي فهو الحقيقة الواحدة التي اعطي لنا أن ندركها مباشرة . لهذا يحق لنا ان نفسر هذا الوجود على هذا النحو اي انهُ مظهر الحركة او النشاط العقلي او بانهُ قوًى فكرية فقط — Idées-forces

اما فريق الماديين فاذ كانوا لا يستطيعون التحول عن وحدتهم المادية لئلاّ ينتقض مذهبهم من اساسهِ فقد زعموا ان العقل ليس سوى نتيجة الحركة المادية في الدماغ وهي اهتزاز دقائقه وما الفكر الاّ وظيفة الدماغ كما ان الهضم وظيفة المعدة . بيد ان جمهور الفلاسفة لا يعيرون هذا القول التفاتاً ولا يحسبون لهُ قيمة فلسفية لانهم يرون ان زعماء هذا الرأي يعكسون الآية فيجعلون العقلي تابعاً للمادي بينا الامر على العكس من ذلك تماماً

***

أقول وليت أدباء هذه البلاد وأعني منهم الغارقين في لجج المادية يقتدون على الاقل بفلاسفة العالم فلا يحتمون ويجزمون بأمور هي فوق طاقة العقل البشري ان يبتّ فيها حكماً جازماً . ولا أخالهم ينكرون ان هذا الاغراق في المادية لهُ عواقبهُ السيئة في الآداب والمبادىء والاخلاق ولعلهم يدّكرون

أثر نيتشه

في العصر الحاضر

لابراهيم ابراهيم يوسف

ما كاد يبلغ نيتشه سن الرابعة والأربعين عام ١٨٨٩ حتى انتابهُ خبل عجز الطب عن علاجه ولم يمهلهُ الله بعد ذلك الا قليلاً ليتوفاه . وهكذا لم يتيسر لنيتشه ان يرى بنفسه مبلغ ما أحدثتهُ كتاباته من أثر شامل في التفكير الانساني ، الا انهُ ما كان ليشك لحظة مدى حياته الخصبة في ان اليوم الذي تروج فيه تعاليمه آتٍ لا شكَّ فيه ، على الرغم من ان معاصريه أساءوا فهمه ونفروا منهُ ، فضنى لذلك . وقد عبر في مقطوعة من الشعر عن مرهف احساسه قال فيها :

« انقضى عشرون عاماً — »

« ولما تصلني نقطة ماء ، »

« أو نسيم بليل، أو ندى حب، »

« — بلد لا مطر فيها . . . »

وكتب في شهر فبراير ١٨٨٨ : «على الرغم من أني بلغت الخامسة والاربعين من العمر ولي نحو خمسة عشر مؤلفاً ، بينها كتاب لامثيل لهُ هو «زرادشت» (Zarathustra) لم يتقدم شخص في المانيا لنقدها نقداً لهُ أي اعتبار ، بل ولا لنقد كتاب واحد من كتبي »

وكابد نيتشه صعوبات جمة ليجد ناشراً يطبع لهُ الجزئين الثاني والثالث من كتاب «زرادشت» واضطرَّ لان يطبع أعداداً محدودة من الجزء الرابع على نفقته الخاصة ، بعد ان أحجم الناشرون عن قبوله . اما اليوم فالمطابع في المانيا تخرج مئات آلاف النسخ من مؤلفاته في كل عام ، علاوة عن خطاباته التي نشرتها في ستة اجزاء . وكتبت شقيقته تاريخ حياته مفصلاً أروع تفصيل . وظهرت مئات الكتب تبحث في شخصيته وماهية تعاليمه ، ونشرت الجرائد والمجلات مئات آلاف المقالات عنهُ — ذلك في المانيا وحدها التي تنكرت لهُ من قبل

هذا ما لقيهُ نيتشه من بعد وفاته عن طريق الكتابة والكتب ، اما عن طريق الخطابة فقد كان جورج براندس (Georg Brandes) الناقد الدنياركي العظيم ومؤرخ الادب العالي اول من حاضر عن نيتشه محاضرات عامة ، وكان ذلك سنة ١٨٨٨ . وما اقبل عام ١٨٩٥ حتى بدأت المحاضرات العامة عنهُ تتعدد في مختلف البلاد . الاَّ ان المحاضرات الجامعية عنهُ لم تلق في المدارس العالية في المانيا الاَّ سنة ١٨٩٥ ، حيث بدأها الاستاذ اليوس ريل (Aloys Riehl) في جامعة فرايبورج (Freiburg) . وسرعان ما نحت الجامعات الالمانية هذا النحو ، حتى اصبحت المحاضرات عن نيتشه من المقررات الجامعية منذ ثلاثين سنة او يزيد . ولم يقف تيار هذه المحاضرات عند هذا الحد بل سرى في المانيا الى المدارس الشعبية العليا (Volkshochshule) والمدارس الاهلية العليا (Freien Hochschulen)

كذلك ترجمت جميع اعماله لعدة سنين خلت بمختلف لغات فرنسا وانكلترا وبولونيا وايطاليا واسبانيا واليونان والسويد والدنيارك وهولاندا وروسيا وتشكوسلافيا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليابان وغيرها. كما ظهرت في تلك البلاد كتب ومقالات لا حصر لها عن نيتشه .كذلك اصبحت المحاضرات الجامعية عنهُ في تلك البلاد امراً مألوفاً

***

اما مدى تطور الحركة التي اوجدها نيتشه فالرأي فيها منقسم الى وجهتين .فاصحاب المذهب الاول يرون ان الحركة قد بلغت عنفوانها في حياة نيتشه وهؤلاء ينظرون الى الحركة في شخص زعيمها . واصحاب المذهب الآخر يؤمنون بان الحركة لم تبلغ بعد منتهاها، اذ الاثر العميق لتعاليم نيتشه الصحيحة لم يبدأ بالظهور في التفكير الانساني الاَّ حديثاً . وما من احد توفر على درس ومتابعة اثر نيتشه في الاتجاهات الروحانية والفنية والثقافية والاجتماعية لعصرنا الحاضر الاَّ ويقر بان الحركة النيتشية ما زالت سائرة في طريق التقدم المضطرد . ونظرة واحدة الى عدد الدراسات العلمية الخاصة بابحاث في تعاليم نيتشه ، تلك الدراسات التي تتزايد عاماً بعد عام في كل بلد من البلدان المتحضرة ، لدليل على تغلغل آرائهِ في المجتمع الانساني. ولحسن الحظ اخذ في النقصان على توالي الزمن عدد الذين اساءوا فهم نيتشه فشوهوا تعاليمه ورموه بالغلظة والفظاظة . ومن ثم تجلى الفيلسوف نيتشه كافضل مدافع ضد الاستهتار وجموح النفس التي لا تعرف لها رابطاً ولهذا كانت حملته ضد الانانية والذاتية والاثرة شديدة قاسية قسوة لاهوادة فيها — الى حد انهُ كان صارماً مريراً في نذيره ،اذ يقول :

« اتمنى للذين يرتاحون لدعوتي ان تنتابهم الآلام والامراض والمحن ويصابون بسوء المعاملة

والتحقير والانتباذ من الناس — اتمنى لهم احتقاراً يصيبهم في انفسهم ، وعذاباً يتولاهم لعدم الثقة بهم ، وان لايحرموا من بؤس حالات طور الانتقال : لهؤلاء لا أحمل عطفاً ، لاني اريد لهم شيئاً واحداً يثبت ان كان للشخص منهم قيمة او لا — هنا تتبين القوة . قوة الصمد »

ولمثل هذا أسيء فهم نيتشه ، بل وانتهى سوء الفهم الى دوائر العلماء انفسهم فلم يفقهوا اذ ذاك نيتشه كناقد اخلاقي ، وداعية لمكارم الاخلاق ، اصيل في نبل تفكيره الا ان افراداً قلائل ملكت دعوات نيتشه الروحية الحارة عليهم كل مشاعرهم ، فراحوا يعملون لها

***

وكان نيتشه قد رأى ان الاسس الروحية للمجتمع قد اصابها التشقق وحل بها الانهيار وطرأ عليها التعفن ، فتنافت هذه الاسس البالية وطبيعة الحياة ومن ثم بدأ بالاستعداد لبناء ثقافة انسانية شامخة ، جديدة في كل نواحيها ، اساسها الاول كبح النفس دون هوادة ، وترويضها على اقسى حالات الحياة ، والخروج بها من ذاتيتها الى التسامي . واساسها الثاني الاستعداد المطلق للتضحية من دون شرط لبلوغ الغاية — اي البطولة في أقوى مظاهرها . وبقي ذلك كله شعار الذين يعتقدون فيما بينهم وبين انفسهم انهم المطالبون باقامة هذا البناء الجديد ، مقتدين في ذلك بامامهم نيتشه ، الذي تمكن بحياة البطولة الفذة التي عاشها ، ان يشق طريقه الى صفوف القلائل الذين أتوا للعالم بديانات جديدة . ومهما يكن مركزنا من تعاليم نيتشه فهي على اي حال تحوي عوامل غاية في القوة لتربية خلقية جديدة

وليس هنا مجال التحدث عن كل ما انتجهُ سوء الفهم لتعاليم نيتشه من افكار تختلف بين الخطورة وعدمها . الا ان تفسير « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » (Der Wille zur Macht) تفسيراً خاطئاً جرَّ كثيراً من الويلات على الناس . فقد فسرها مثلاً اعداء المانيا خلال الحرب العالمية بانها دعوة صريحة الى الحرب وغزو العالم . واشركوا الفيلسوف نيتشه مع المستعمر السياسي تريتشكه (Treitschke) والقائد العسكري فون برناردي (von Bernard) كدليل على ان الالمان بفلاسفتهم وساستهم وقوادهم الحربيين يبغون الحرب لامتلاك العالم . والغريب ان المانيا الهتلرية اخذت اليوم بما اخذ به اعداء المانيا خلال الحرب العالمية ولم تتورع في الاساءة الى نيتشه باظهار تعاليمه على غير حقيقتها . ولعل نيتشه لم يوصم بما هو اخطر من هذه الدعوى . واذاً « فالحاجة حقاً ماسة » — كما يقول الدكتور ماكس بران Dr. Max Brahn في مقدمة وضعها لكتاب « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » لمؤلفه نيتشه — « لكي نشير الى انهُ ليس من المقصود هنا القوة الظاهرية التي تتجلى في ادوات الحرب ، بل هي القوة الباطنية للنفس

البشرية ، تلك القوة الهائلة التي تأبى الاّ ان تتزايد ، ومن ثم توسع في سيطرتها ولا تملّ في تنحية شجاعتها التي تتشعب قوية ثم تدفع بعظمة فتجد قوتها في سيطرتها على نفسها وفي اداء واجباتها نحو الآخرين »

ولنطرح تلك الدعاوى السخيفة التي ارادوا ان يلصقوها بنيتشه جانباً لتفقد اثره في التفكير الانساني ، سواء كانت ميادين هذا التفكير تشمل المسائل الفلسفية او الثقافية او الفنية او المسائل العلمية العامة . وسواء كانت المشكلة هي مشكلة التعليم او التربية او الحركة النسائية او قانون الاقتصاص او المشكلة الاشتراكية — فكل هذه وغيرها من الامور يجدها العاكفون على دراسة نيتشه واضحة في كتاباته . ولعل الاستاذ دكتور فرنر ييجر (Prof. Dr. Werner Jaeger) قد افصح غاية الافصاح عن معالم تفكير نيتشه في محاضرة له تكلم فيها عن « عمل الجامعة وموقفها من العصر الحاضر » فذكر فيها : « اما فيما يختص بنشأة تاريخ العلوم العقلية وتطورها اللغوي فان شأنها يزداد على توالي الايام » .

ولا حاجة لمعالجة كل مسألة على حدة ، اذ يكفي ذكر اسم نيتشه الذي لم يكن فيلسوفاً بالمعنى المدرسي القديم ، بل كان يفيض بالحكمة لما كان عليه من قوة التنبؤ ، نظراً لالمامه بكل نواحي التفكير العقلي لتاريخ العالم ، وخاصة المامه بكنوز الثقافات الاوروبية

ومع ان نيتشه نشأ خلال العصر اللغوي الكلاسيكي ، فانهُ ارجع اول تهدم عظيم اصيب به العصر اللغوي والعصر التاريخي الى الفلسفة المدرسية ، التي كانت لا تعرف قيم الاشياء الاّ عن طريق التعاريف الصماء ، لا عن طريق التفسير والايضاح لاساليب الحياة الواقعية اثناء تطورها التاريخي وقواها . فلما ان تبدل الرأي وتبدلت طريقة النظر الى الامور قضى الحال بتغيير مقاييس الاشياء وموازينها ، فتبدل تبعاً لذلك الحكم على الاشياء وتقدير قيمتها . ومن ثم بدىء بالنظر الى حوادث التاريخ والى الفن والادب من زاوية جديدة . ويكفي ذكر اسم الفيلسوف « اسفالد اشبنجلر (Oswald Spengler) صاحب كتاب « سقوط الغرب » (Uutergang des Abendlandes) لتعرف مبلغ أثر نيتشه في العصر الحاضر . وما كان التفكير ليقود اشبنجلر الى مؤلفه الذي اثار به ضجيجاً في عالم الفكر لو لم يحرص على اقتفاء خطوات استاذه وامامه نيتشه

ولعل احصاء ما لنيتشه من آثار في مختلف نواحي الفكر الانساني يستلزم استيفاءها في مجلد ضخم . ولهذا يجمل بنا ان نكتفي هنا بالاشارة الى بعضها . فمن المشاهد ان العالم اليوم يتجه رأساً نحو المسائل الاجتماعية ، حتى اصبحت « مشكلة حياة الجماعة » لدى كل الشعوب المتحضرة رأس المسائل . ولا عجب ان تكون هذه اكثر المسائل تناولاً بالبحث ، واغناها بوفرة الفن

يتنافسون في دراستها ويتهافتون على استيعابها ، كيما يتمكنوا من تفسيرها ، وحلها ، والادلاء برأي في تكوينها ، وتصويب منهجها او تخطيئه ، وحصر عوامل نشأتها ، وشروط تطورها . وبالاختصار تحديد اصول الحياة الاجتماعية والتطورات الاجتماعية عامة واغراضها . ولقد نجد فيما اصدره ناشر اعمال نيتشه تحت عنوان « كلمات نيتشه عن الدول والشعوب » (Wietzsche-Woerten ueber Staaten und) كل الآراء التي بسطها نيتشه في مؤلفاته في هذا الموضوع الخطير . ويرجع فضل جمعها الى شقيقة الفيلسوف التي بقيت زهاء ثلاثين عاماً توالي درس نيتشه من جميع نواحيه . ولم يعد الامر مقتصراً اليوم على الاختصاصيين في معرفتهم ان الفضل في تقدم علم النفس (البسيكولوجيا Psycolohgie) وعلى الاخص « علم التحليل » النفساني على طريقة فرويد Freud Psychoanalyse راجع الى نيتشه ، الذي تمكن من العثور على نقائص هذا العلم اثناء بحثه عن الروح دون ملل ، وأثناء ارتياده « العالم السفلي للارواح . وانصافاً للعلم لا بدَّ من القول بأن فرويد (Freud) يعد وريث نيتشه الأوحد ، وان الفرد آدلر (Alfred Adler) ، وهو صاحب مذهب في علم النفس احد تلاميذه النجباء . فقد رأى نيتشه في كتابه « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » صوراً خالدة في عالم الارواح

والى جانب هذا يزداد في كل يوم الدليل قوَّة على ان حركات الشباب بما فيها من طموح الى تكوين الشخصية العملية ، أخذت تعترف بنيتشه كداعية لهذه الحركات ان لم يكن بطلها وقائدها . فهو الذي وجه من انتقاده منذ نصف قرن أو يزيد الى طرق التربية . ورأى ان الحاجة تدعو الى ضم الشباب وحشدهم في أتون واحد بدلاً من تشتتهم في هيئات مختلفة . ولقد أخذ بهذا الرأي اخيراً في بلاد مختلفة ذات نزعات فكرية متباينة . ولسنا هنا في صدد بحث اختلاف اتجاه الشباب في مختلف الشعوب فذلك موضوع آخر

***

واخيراً يصح لنا ان نتساءل كيف تمكن عقل شخص فرد من الاحاطة بكل هذه الافكار الخصبة خلال وقت قصير ؟

قد يكون هذا السؤال من صميم علم النفس في فصل التحدث عن العبقرية والعباقرة ، الاَّ انهُ لا يضيرنا الاجمال في الاجابة بانهُ ليس كل الفضل في انتاجه هذا بقاصر على قوة التفكير الحاد الذي يسر لنيتشه الانتاج القيم في نواحي عدة من التفكير ، بل تعدو هذه القوة قوة اخرى هي قوة حيويته الروحانية الباطنية ، التي جعلتهُ يتشبث بالحياة ليطوي في ثنايا نفسه كل احتمالات الفكر والاحساس البشري ، ليبعث بها من جديد في حرارة وقوة ايمان تأخذ بالعقول والابصار

من الادب الروسي

المعطف ...!

للكاتب الشهير ن . ف جوجل
١٨٠٩ — ١٨٥٢

نقلها كامل محمود حبيب

هو كاتب مغمور في احد دواوين الحكومة لم يحبُهُ الله بميزة خاصة ، فهو قصير ، احمر الشعر ، ضعيف البصر ، أصلع ، مغضن الوجنات ، ممتقع اللون . . . ذلك هو أكاكي أكاكيڤتش الذي لا يعلم أحد متى عيّن في وظيفتهِ ولا كيف كان ذلك . لقد كان ذلك منذ زمان حتى ليخيّل الى الناس ان هذا الرجل قد خلق — منذ ان كان — في هيئتهِ وجلستهِ وعمله . وكان الحُجّاب والخدم ينظرون اليهِ كما ينظرون الى ذبابة تتخبط في الهواء فلا يعبأون بهِ ، وكان الرؤساء يصبون عليه كثيراً من الظلم الهادىء في غير رفق وهو راضٍ ، والمساعدون يلقون أمامهُ حزم الاوراق قائلين « حبّر هذه من فضلك ! » أو « هاك عملاً مسلياً ! » او . . . فينشر هو هذه الاوراق أمامهُ صامتاً لا يرفع عنها بصره ، ثم يندفع في عمله . وكان الشبان من زملائهِ يهزأون بهِ ويتندّرون عليهِ ، ثم هم يتناولونه بالأقاصيص المضحكة ، يقصونها أمامه ومن خلفه في تبجّح ، فيقولون « ان صاحبة الدار العجوز تضربهُ ، وهو يحبها وسيتزوج منها . . . » ثم يسألونهُ عن يوم الزفاف ، ويقذفونهُ بقطع من الورق أو ببعض حبات الأرز وهو في مكانهِ صامت لا يتألم ولا يتململ ولا يغضب كأن الحديث لا يمسهُ . لم يكن هذا ولا غير هذا ليحول بين أكاكي وبين أن يندفع في عمله لا يتبلّد ولا يخطىء . وحين يجذبهُ أحد الماجنين من ذراعهِ لا يزيد على ان يقول « دعني وحيداً ! لماذا تريد ان تزعجني ؟ » يقولها في رنات تبعث في النفس الالم والشفقة ، والعطف في وقت معاً

لم يكن أكاكي أكاكيڤتش مثلاً أعلى من أمثلة الجد في العمل والدأب والنشاط فحسب ، بل كان عاشقاً لما يعمل . فهذه الأوراق التي تنفث في روح الكاتب السأم والملل كانت تفتح أمام عينيهِ دنيا . . . دنيا جميلة مفعمة باللذاذات . وكان حين يجلس الى عمله ، يرتسم على وجههِ أثر السرور والغبطة ، فهو يبسم حيناً ، وحيناً يغمض عينيهِ ويحرّك شفتيهِ حتى يستطيع الناظر اليهِ أن ينبىء بعض

ما يكتب . . . وقضى أكاكي عمره مغموراً بين أوراقه لا يتحول ولا يترقى ولا يكافأ وأراد أحد رؤسائه — ذات مرة — ان يرفعهُ فوق مرتبته ، فبعث اليه بوثائق يحيل فيها قلمه ، فارتبك وأجهده العمل ، فردّها قائلاً « ألا تعطني بعض الوثائق لأحبرها . . . ؟ » فما كان له ان يحسن عملاً غير هذا . وهكذا كُتب عليه ان يظل في عمله الاول ما عاش

وسيطر على أكاكي حبهُ لما يعمل فشغله عما عداه . فأهمل ملابسه : فلقد حال لون بذلته الخضراء الى آخر أربد زريّ ، و (زيقهُ) الضيق المنخفض تبدو خلالهُ رقبته طويلة رفيعة مضحكة ، وسترته قد تناثرت عليها أعواد القش وقطع الخيط هنا وهنا ، ثم هو لكثرة ما يضرب في الارض على غير هدى تسقط عليه الفضلات الملقاة من النوافذ فلا يزيلها،فتلصق بقبعته وملابسه . وكان هو على غير ما انطبع عليه زملاؤه ، فهم كانوا يحدّقون فيما يرون يلتمسون فيه لذة ومتعة ، أما هو فكان شارد البصر لا يثبتهُ على شيء . وأمام عينيه — وهو في طريقه — ورقة من اوراقه ما تبرح منشورة يريد ان يحبّرها فلا يحس انهُ في عرض الطريق الا حين يشعر بأنفاس حصان قوية تداعب وجههُ . وحين يخلو الى نفسه في حجرته ، يجلس الى طعامه فيلتهم الحساء وقطعة اللحم واخرى من البصل لا يذب عنها الذباب او البعوض او .. مما يتهافت على مثل هذا الطعام القذر ، ثم هو لا يشغله نوع الطعام ولا جودة الطهي ، ثم يقوم الى بعض وثائق يكتبها ، فان لم يجد فهو يكتب لنفسه وثيقة من نوع ما كتب في نهاره

وحين تنقشع غيوم سانت بطرسبرج وتبدو السماء زرقاء جميلة ، يخرج كل موظف يتناول عشاءه كلٌّ ينفق من سَعته ، ويطالب كل عامل الاستجمام ، فينطلق الجميع ينهبون اللذات يزجون بها فراغهم : فهذا الى ملهى ،وهذا الى الطرقات ، وهذا الى جماعة من صحابه يغازلون الفتيات أو يلعبون الورق او يملأون الدنيا ضجيجاً ، حين ينطلق كل هؤلاء الى التسلية والمرح تجد اكاكي اكاكيفتش جالساً في حجرته يحبّر ورقة ثم... ثم يذهب الى فراشه وهو يقول « ترى ماذا اكتب غداً ؟ » . تلك حياة رجل قنع بدريهمات ضئيلة تسد رمقه ثم هو لا يملك غيرها

***

وفي سانت بطرسبرج عدوٌّ لدود لكل رجل لا يبلغ دخله اربعمائة روبل في السنة ، ذلك هو الجليد المتساقط من الشمال . هذا ولو ان كثيراً من الشبان يقولون انهُ صحّي . وفي الساعة الثامنة صباحاً حين يهرع كل موظف الى عمله يكون البرد قارساً فينطلقون الى دواوينهم مهرولين وقد تلففوا في معاطفهم ، ثم هم يدفئون أرجلهم في حجرة البواب . أحسّ اكاكي اكاكيفتش — هذا الصباح — ان البرد ينصب انصباباً على كتفيه وظهره وهو يسرع الى عمله، فتراءى لهُ ان يد البلى قد عملت في معطفه، فراح يتفحصه فوجد به ثقوباً عند الكتفين والظهر . لقد كان معطفه

هذا مادة سخرية وهزء بين رفاقه، فهذه ازيقهُ ينقص رويداً رويداً الا انه يجزىء منهُ ليرقع ثقوباً هنا وهنا ترقيعاً مهملاً وفي غير دقة . وحين رأى اكاكي من معطفه ما رأى بدا له ان يعطيه الى يتروفتش الخياط وهو أعور ذميم الخلق يدر عليه عمله ارباحاً ضئيلة لانهُ يصلح سراويل كثير من فقراء الموظفين وصغارهم ، وهو سكير عربيد، يفرط في السكر في ايام الآحاد والاعياد حتى يذهل عن نفسهِ

وانطلق اكاكي الى يتروفتش وهو يحدث نفسه « ترى كم يريد مني يتروفتش ؟ لن ادفع اكثر من روبلين . . . ! » لقد كان الباب مفتوحاً وزوجة يتروفتش تطهي سمكاً وقد انبعث الدخان فانعقد سحباً كثيفة في نواحي المطبخ،فأظلم المكان ، ومرَّ اكاكي في صمت فما شعرت بهِ المرأة ، وأزعج الرجل ان يرى يتروفتش مضطرباً حزيناً وهو كان يأمل ان يراه هادئاً منتشياً لينال منهُ مأرباً . انهُ حين يكون كذلك يمعن في السهولة والتسامح فلا يطلب ثمناً ، ثم هو ينحني امام زبائنهِ ثم يشكرهم رغم ما يبدو على وجه زوجتهِ من غضب ، ان كانت هناك . وأراد اكاكي ان ينكص على عقبيهِ غير ان يتروفتش كان قد سدد اليهِ نظره ، فقال « عم مساءً يا يتروفتش؟» قال « عم مساءً، سيدي ! » قال « لقد أتيتُ . . . » واضطرب لسانه فما استطاع ان يتم حديثه ، فقال يتروفتش « لنرى . . . » وأخذ يقلب المعطف بين يديه في امعان وأكاكي يقول « لقد أتيتُ ، يايتروفتش . . . المعطف . . . القماش — كما ترى — متين . . . ان الاقذار التي تراكمت عليهِ تركتهُ يبدو بالياً . . . ولكنهُ متين . . . هو ممزق عند الكتفين والظهر . . . » ما زال يتروفتش يفحص المعطف ويهزّ رأسه ، ثم تناول حقة السعوط ينشق بعض ما فيها وقد ألقى المعطف جانباً . ونشر الخياط المعطف على عينيه مرة اخرى ثم القاه لينشق ثانية قليلاً من السعوط وهو يقول « لقد بلي القماش تماماً . . . » واستشعر أكاكي شدة الصفعة في قلبه « يترفتش ، لماذا ؟ . . . انه ثقب صغير عند الكتف . . . لا إخالك تعجز عن ان تجد قطعة » . . . قال الآخر في هدوء « عندي قطع كثيرة غير ان القماش لا يحتمل الترقيع » قال « ولكنك تستطيع . . . ! » وأصرّ يتروفتش « ان هذا القماش تعصف بهِ الريح الضعيفة اذا هبت عليهِ »

واستعطفهُ أكاكي « انك تستطيع ، يايتروفتش . . . » قال « مستحيل ، لا يمكن . . . واذا جاء الشتاء فزّقهُ قطعاً تغطي بها رجليك فأن الجوارب التي جاء بها الالمان الى بلادنا ليستلبونا من كثير من مالنا لا تدفيء ، اما المعطف فلا بد ان تشتري آخر جديداً »

وظلت الكلمة الاخيرة « جديداً » تضطرب في عيني أكاكي وقد امحى كل ما أمامهُ سوى حق السعوط وقد رسمت على غطائهِ صورة قائد عظيم ، الصقت الى جانبها قطعة من الورق . . . وانطلق يهذي « جديد ؟ انا لا أملك شيئاً ، واذا كان لا بد ، فكم . . . » قال يتروفتش « مائة وخمسون . . . » ثم ضغط على شفتهِ وحدد الى الرجل الذاهل امامهُ بصره ليستشف

اثر هذه الكلمات في نفسه . فصاح اكاكي في فزع « مائة روبل وخمسون ثمناً لمعطف ! » لقد صاح . . . صاح اكاكي المسكين لاول مرة في حياته، لقد خرج عن هدوئه حين افزعتهُ الصدمة . فأجاب بيتروفتش « نعم ، ولا اقل من ذلك ، ونوع أرقى يكلفك مائتي روبل » قال الرجل « بيتروفتش ، ارجو ان تبذل جهدك فأعيش بمعطفي هذا زمناً . . . » قال « لافائدة اعمل وادخر ! » خرج اكاكي حزيناً وبيتروفتش جالس يبتسم لانه استطاع ان لاينزل عن رأيه

***

سار اكاكي مأخوذ اللب ، مشترك الخاطر ، ممتلخ العقل ، يحدث نفسه « هذا جميل ، حقاً ، انا لم افكر في انهُ يكلفني . . . كيف ? أهذه هي النهاية ? عجباً ! » ثم صمت برهة واندفع « عجباً ! من يستطيع ان يفكر . . . ? اي حادث هذا ? » واختلط عليهِ الامر فما سار الى داره . وبينا هو يضرب في الارض ذاهلاً انحط عليهِ دخان مدخنة ، ثم قذف عليهِ مكتل من الجص من منزل يتهدم ، وماكان هو ليشعر بهذا لولا ان الشرطي تهجم عليهِ بالفاظ قاسية ردت اليهِ بعض عقله ، فرأى ما حل بهِ، فانطلق مسرعاً الى داره .هنا . . . هنا في هذه الحجرة المظلمة استطاع ان ينشر على عينيه جملة حاله في هدوء ومنطق، فراح يحدث نفسه « انا لااستطيع ان اقنع بيتروفتش اليوم بما يجب ان يكون . انهُ . . . . لعل زوجته قد قست عليهِ . وسأذهب اليهِ يوم الاحد ، بعد مساء السبت العابث ، سيكون ثملاً ، لا هو بالنائم ولا هو بالمستيقظ ، ثم هو يكون في حاجة الى دريهمات يشتري بها قدحاً من خمر ، وزوجتهُ تأبى عليهِ ذلك ... » وفي يوم الاحد التالي انطلق اكاكي يرقب دار بيتروفتش عن كثب، وحين رأى زوجتهُ تغادر الدار، دلف هو الى بيتروفتش ليراه ثملاً غير انهُ استطاع ان يذكر ما يريد صاحبهُ « ألا تستطيع ? يجب ان تشتري آخر جديداً . . . » فوضع اكاكي في يد صاحبه بعض دريهمات ، فقال هذا « شكراً لك ياسيدي سأشرب نخب صحتك ، لا يزعجك امر المعطف . سأصنع لك معطفاً جديداً ، انت تستطيع ان تطمئن الى ذلك ، سأبذل جهدي . سيكون معطفك الجديد من أحدث طراز . . . »

وطرب أكاكي لما سمع ، ولكن أنّى له المال ? لقد ادخر اربعين روبلاً في سنوات ، فكيف يدفع ثمن المعطف وهو يحتاج الى سراويل جديدة وثلاثة قمصان ، والحذاء من ورائهِ يتبعهُ يريد منه ديناً قديماً . ماذا تفيد الدريهمات القليلة التي ادخرها ? وانتهى بعد حين الى امر : سيخفض من نفقاتهِ مدى سنة . فألغى شاي المساء ، واستغنى عن الشمع ، فاذا اضطر الى عمل في الليل انطلق الى صاحبة الدار يعمل ما يريد على ضوء مصباحها ، وهو يسير على أطراف اصابعه خشية ان يبلى الحذاء ? ثم هو يخلع ملابسهُ الداخلية عند النوم لتظل نظيفة فيدخر ماكان ينفقهُ في غسيلها وشق هذا على نفس الرجل — بادىء الامر — ثم خف رويداً رويداً ، واستطاع ان

يقضي بعض الليالي طاوياً ، ثم هو يبدو ميسراً طروباً كأن صديقاً يرافقهُ يسرّي عنهُ بعض ما يؤلمهُ ... ذلك هو خيال المعطف الجديد . وترقرق ماء الحياة في وجهه لأنهُ اصبح يرمي الى غرض جميل في الحياة . . . ذلك هو المعطف الجديد وتوارى الشك والاضطراب من دنياه لتطوف برأسهِ الافكار السارة ، تبعث في نفسهِ النشوة والطرب ، وتلمع بهما عيناه . وشغلتهُ الفكرة فأخطأ بعض مرة فيما يكتب، ولكنهُ كان يرتدالى خطئهِ يصلحهُ وهو يقول « اوه ...! » ثم هو يختلف الى بيتروفتش كل شهرمرة يحدثهُ حديث المعطف ... ومرت الايام سراعاً تحمل له على جناحيها بشرى . . . بشرى جميلة : لقد زاد راتبهُ عشرين روبلاً . أكان ما عمل الرئيس عن علم بما هو فيه ، أم هي المصادفة الجميلة ? ومهما يكن الامر من شيء ، فهو الآن يستطيع ان يستحث الخياط حين يدفع له شيئاً . . . وبعد اسبوعين احضر بيتروفيتش المعطف الجديد . ما أجمل ذلك الصباح الذي رأى فيهِ أكاكي معطفهُ الجديد ! لقد كان البرد لاذعاً ، والسحب تتكاثف تنبيء بانقلاب عظيم . وأثبت بيتروفتش — بما صنع — انهُ خياط ماهر يستطيع ان يحيك فيجيد كما انهُ يستطيع ان يرتق فيحسن ، ثم ألقى المعطف على كتفي أكاكي وهو يبسم ابتسام الظافر ويقول « ما أجمل ، ما أجمل ! » وحين استقر المعطف على كتفي أكاكي دفع عشرين روبلاً وانطلق الى عمله يردد بصره في المعطف بين كل خطوتين وهو يبسم في قناعة ورضا لانهُ احس بالدفء والغبطة في وقت معاً ، اما بيتروفتش فقد تبعهُ عن كثب يستمتع بلذة النظر الى صنعتهِ التي رفعتهُ من راتق مهين الى حائك ماهر . وبلغ أكاكي ديوانه فخلع المعطف وأعطاه للبواب وهو يوصيه ويحذره . وما لبث الخبر ان دوى بين زملائه فاندفعوا يهنئونهُ وهو يشكرهم ويبسم لما يقولون ، وتقاطروا عليهِ فبدت عليهِ الحيرة فما استطاع ان يقول شيئاً . وانتشلهُ زميل قائلاً لا بأس ، انني ادعوكم الليلة الى منزلي احتفاء بمعطف أكاكي الجديد ، وعجيب ان يكون هذا اليوم هو عيد ميلادي

***

وحاول أكاكي الامتناع فأراده اصحابه على ان يذعن ، وسُرّ هو حين وجد الفرصة تسنح فيستطيع ان يرفل في معطفهِ الجديد هذا المساء بين زملائهِ . وحين احتوتهُ حجرته أخذ يلتهم طعامه وهو يقلب بصره بين معطفه الجديد ومعطفه القديم ويبسم . . . لم يجلس — بعدهذا — الى اوراقه يحبرها ، ولكنهُ استلقى على فراشه ينتظر المساء . . . وحان الموعد فانطلق يقطع طرق الناحية التي يسكن فيها وهي ضيقة مظلمة قذرة ، وحين اقترب من دار صاحبهِ رأى الحياة تدب في العالم : فالطرقات واسعة تسطع في نواحيها الانوار ، والناس يجيئون ويذهبون في نشاط ، والعربات تنطلق هنا وهنا ، فراح يحدّق في كل شيء في دهشة ، فهو لم يرَ شيئاً من

هذا منذ سنوات . والفى دار صاحبه جميلة تنبعث منها الاضواء ، وولج الردهة الواسعة المزدانة فاختلطت الاصوات في مسمعيه ، ورأى الخادم ينطلق من الحجرة المجاورة يحمل الاقداح الفارغة ، فعلم أن رفاقه قد تناولوا اول اقداح الشاي . واستطاع اكاكي — وقد اذهله ما رأى — ان يخلع معطفه ويضعه بهدوء على المشجب ، ثم هو يدلف الى الحجرة ليرى صحابه في ضجيجهم ومرحهم ، وليرى الشموع متناثرة حول نضدلعب الورق فيقف مضطرباً ... وأحس صاحب الدار بالزائر يدلف الى الحجرة فانطلق اليه يحييه ويلتمس له مكاناً فالتفت الجميع يرحبون به ، ثم ما لبثوا ان عكفوا على ورقهم وهو يتأمل فيما يصنعون . ومرت الساعات فسرى التعب في مفاصله ليتركه نائماً او كالنائم . وأراد ان يخرج فاضطره رفاقه ان ينتظر ليتناول قدحاً او قدحين من (الشمبانيا) فأذعن والزمن يمر . . . وخشى ان تغلظ عليه صاحبة الدار في اللوم فانسلّ من بين صحابه يطلب المعطف ، ثم انطلق . . .

لقد ابتدأت الحياة تغمض اجفانها في هذا الحي الصاخب وهو يسير وئيد الخطو نشوان ثم ما لبث ان هبط ناحية ماتت فيها الحياة فلا هو يرى ضوءاً ، ولا هو يرى انساناً . وبدا الظلام في عينيه اسود مظلماً وقد نشر الضباب جناحيه ليزيد الظلام حلوكة . ورأى — وهو يعبر ميداناً هناك — بصيص نور مصباح الشرطي كأنهُ في اقصى الارض وهو على بضع خطوات منهُ . ورأى له — وقد اضطربت اعصابه وزلزلهُ الرعب — ان يغمض عينيه وهو يعبر الميدان ، وحين فتحهما ليرى مكانه من نهاية الميدان وجد امامه رجالاً مقنعين يقتربون منهُ ففزع ، غير ان واحداً منهم انقضَّ عليه وهو يقول « هذا معطفي ! » واراد ان يستصرخ الشرطي فكممه آخر باحدى يديه وهو يقول « أفتستطيع ان تفعل ؟ » وأحس اكاكي بالمعطف يستلب منهُ ، وشعر بركلة تدحرجهُ على الثلج في قسوة فتفقده صوابه وحين افاق استشعر لذع البرد في جسمه فأيقن انهُ قد فقد معطفهُ الى الابد فصاح ولكن صوتهُ المبحوح ما كان ليصل الى اذني الشرطي الواقف هناك ، فانطلق هو اليه مغيظاً يغلظ لهُ في القول على ان يسلب معطفه وهو نائم على بضع خطوات منهُ . واجابهُ الشرطي في هدوء « انا لم ارَ غير اثنين يمران قريباً منك ظننتهما بعض اصدقائك . وانا لا استطيع ان اساعدك فلتذهب في صباح الغد الى الضابط لعلهُ يستطيع ان يجد لك معطفك ! »

وبلغ اكاكي منزله مهموماً يضطرب وقد تشعث واغبرّ . ووقع نظر صاحبة الدار عليه ففزعت مما رأت ثم راحت تسألهُ فانطلق هو يحدثها حديث المعطف المفقود ، فنصحتهُ بأن يلجأ الى مفتش عرفتهُ نشيطاً يقظاً وهو يستطيع ما لا يستطيعه الشرطي والضابط معاً ، ووجد هو فيما قالت حلاً لما اضطرب في خياله ، ولكنهُ قضى ليله قلقاً يتقلب في فراشه ما يهدأ ولا يستقر . . . ثم يكر الى المفتش فألفاه ما يزال نائماً ، وعند الحادية عشرة وجده قد غادر المنزل ، وعند الغداء

اراد ان يرى المفتش فمنع ، وكان صبره قد نفذ فاندفع هائجاً يقول انهُ قد جاء من لدن أحد الدواوين الاميرية في امر خاص ولا بد ان يرى المفتش . . . هناك جلس يقص قصة المعطف المسلوب . وبدل ان يعنى المفتش بأمره راح يسألهُ « لماذا تأخرت في الرجوع الى دارك ؟ هل كان المنزل الذي قضيت فيهِ ليلتك سيء السمعة ؟ . . . » واضطرب اكاكي لما رأى من اهمال امره تخرج من لدن المفتش لايدري ماذا . . . ؟ لقد غاب عن عمله لأول مرة في حياتهِ . وفي اليوم التالي بدا في معطفهِ القديم حزيناً ممتقع اللون ، زريّ الهيئة

ولمست قصة المعطف المسلوب قلب كل زميل له في شدة وعنف ، وان كان بعضهم قد خرج عن انسانيته حيناً فتندر عليهِ ثم اجمعوا امرهم على ان يخرجوا جميعاً لاكاكي عن بعض مالهم وهزّت الشفقة واحداً منهم فراح ينصح له ألاَّ يركن الى الشرطة والاّ يطمئن الى وعودهم فهم لا يستطيعون شيئاً ، غير انهُ يستطيع أن يلتمس المعونة عند رجل عظيم سماه له ... عظيم من عظماء المدينة لا نستطيع أن نقول باسمه او ان نشير الى مركزه ، وكل ما نستطيع ان نقوله إنهُ عظيم درج في مناصب الدولة . إنهُ يستطيع ان يساعد المسكين غير ان منصبه ...

قد يظن الرجل ان مظهر العظمة هو العظمة ، فيريد الناس على احترامه ويضطر مرؤوسيه ان يحيوه في خضوع وذلة ثم هو لا يسمح لمظلوم ان يلج حجرته او ان يرفع اليهِ شكاته دون واسطة ليبدو في الاعين عظيماً وتسري العدوى فيمن هو اقل منهُ فيقلده فيصبح العمل صورة من عمل ، ويذهب الضعيف ضحية العظمة الكاذبة ... وهكذا اراد صاحبنا ان يبدو عظيماً فقسا وقسا ... القسوة الجامحة العمياء ، فساد عمله جوٌ من القسوة لتلد النفاق والخداع في رؤوس مرؤوسيه وعمالهم حين سكن الرعب في قلوبهم ، فهم اذا رأوه يدلف اليهم قاموا اليهِ في ذلة وخضوع يحيونهُ ويتملقونهُ ، فاذا غادرهم سلقوه بالسنة حداد . وهو . . . هو العظيم ما كان ليبدأ محدثه الاّ بالفاظ جافة نابية « كيف تجرؤ ؟ أتعلم من هو الذي يحدثك ؟ أتعرف تماماً من هو الرجل الذي تقف انت امامه ؟ » لقد كان طيب القلب رقيقاً يعطف على اصحابه ويحسن اليهم غير ان منصبه (العظيم) قد عصف بانسانيتهِ وأريحيتهِ . وهو بين زملائهِ رجل لا يعدو عن ان يكون رجلاً ، وهو بين رؤسائهِ ومن يرتفعون عنهُ درجة واحدة ذليل خاضع لا يستطيع ان ينطق حرفاً . هنا وهنا فقط هو رجل ضعيف خامل يستثير الشفقة . والرحمة في القلوب الصلبة . لقد كانت نفسهُ تحدثه بأن يندفع في الحديث وان يغشى المجتمعات يرفهُ عنها بعض ما يناها من عناء العمل ، ولـكنهُ كان يخشى ان يغض من هيبته فيصمت ويستكين وينزوي في داره . لهذا ولهـذا وحده بدا فيهِ الرجل الصعب الشديد

هذا هو الرجل العظيم في بلادنا ، ولمثل هذا الرجل انطلق اكاكي يطلب الانصاف والعدل.

لقد وجده في حجرته يجلس الى صديق قديم يحدثهُ ، فطلب الاذن بالمثول بين يديهِ لينفض امامه جملة حاله ، وحين علم العظيم طرفاً من امره، قال « من يكون هذا ؟ » قال الحاجب « هو موظف في احد دواوين الحكومة يا سيدي . » قال القائد العظيم « فلينتظر ، فانا لا أقابل احداً الآن » لقد كذب الرجل العظيم . فهذه هي الساعة التي يستطيع ان يقابل فيها هذا الرجل المسكين وغيره . ولبث المسكين طويلاً ينتظر . ودخل كاتم سر القائد العظيم يتأبط حزماً من الورق ، فقال لهُ « ان كاتباً ينتظر هناك ، فدعهُ يدخل » وحين وقع بصره على أكاكي قال له في قسوة « ماذا تريد ؟ » وبدا اكاكي الجبان ، جباناً يرتعد فما استطاع ان ينشر القصة الاّ في صعوبة . . . وتمثلت الاهانة والاستهتار في عيني القائد العظيم تحملان اليهِ على لسان رجل ضيف جاء يحمل شكاته ويستعينهُ على امر اهمهُ ، فقال في غلظة وجفاء « سيدي ، ألا تعلم الطريق الذي يجب ان تسلكهُ لتبلغ ما تريد ؟ لماذا جئت تنشر قصتك امامي مباشرة ؟ الا تعلم ان شكايتك لا بد ان تقدم اولاً الى رئيس الكتبة ، ومنهُ الى رئيس العمل ، ومنهُ الى كاتم سري ، وفي النهاية تصل اليّ ؟ » واستطاع اكاكي ان يتماسك « لقد آثرت ياسيدي — ان اعرض عليك امري دونهم لأنك وحدك تستطيع ان تعطف عليَّ ، اما هؤلاء جميعاً فهم . . . هم اناس لا غناء فيهم . . . ! » قال العظيم في غيظ وحدة « ما ذا ؟ ما ذا تقول ؟ ألمثل هذا أتيت؟ أنى لك هذه الخواطر ؟ أبهذه ، العين تنظرون ، انتم صغار الناس ، الى رؤسائكم » واستمر في ثورته « أتعلم من هو الذي يحدثك ؟ أتعرف تماماً الرجل الذي تقف أنت أمامه ؟ » ثم دق الارض برجله في شدة وكانت كلمات الرجل كأنما تصفعهُ هنا وهنا فذهل فترنح يكاد يهوي الى الارض لولا ان حملهُ البواب في ذهوله الى خارج الحجرة . وابتسم القائد العظيم لما احدثتهُ كلماته القاسية من أثر في نفس المسكين ، وابتسم مرة اخرى حين رأى سمات الرعب تبدو على وجه صاحبه الجالس الى جانبهِ . . . هذه هي العظمة في رأس العظيم الأحمق . . .

لقد سقطت كلمات العظيم على اكاكي المسكين رجوماً رجوماً تفقده رشده ، ولكنهُ استطاع ، بعد لأي ، ان يتكفؤ في طريقه الى الدار مستنداً الى جدار والرياح تتناوحهُ . . . رياح سانت بطرسبرج الباردة ، فما بلغ الدار الاّ وقد اصابهُ النصب وآذاه البرد فانطرح على فراشهِ لا يعي . . . واشتدت وطأة المرض فانقلب حمى راجفة تحرك الرجل حركاً ، وجوّ سانت بطرسبرج القارس المتقلب يقويها ، والذين الى جانبهِ يفقدون الأمل رويداً رويداً . وأسرع المريض المسكين الى نهايتهِ وهو يهذي « المعطف . . . سيدي القائد . . . بتروفتش . . . المعطف . . . ! » ثم تنفس النفس الاخير . مات الرجل لا يملك شيئاً ولا يجد من يحنو عليهِ سوى صاحبة الدار العجوز . . .

لقد انطوت صفحة أكاكي أكاكيفتش دون ان يشعر بهِ انسان في سانت بطرسبرج

ومضت اربعة ايام وجاء الحاجب يريد أكاكي لأن الرئيس قد أصرّ على عودته، ولكنهُ ارتد الى رئيسه يحمل خبر موت الرجل . . . هكذا علم زملاؤه إن واحداً منهم قد مات . . .

***

من ذا يستطيع ان يصدق أن هذه لم تكن نهاية أكاكي أكاكيفتش، وانهُ قد قدّر لهُ ان يبلغ أوج الشهرة بعد موته؟ لقد برزت روحه الوادعة هائجة تريد ان تنتقم، وطار الخبر: ان شبحاً يتربص بالناس عند قنطرة كالنكن، ينتزع منهم معاطفهم، لا يفرق بين كبير وصغير. لقد رأى احد زملاء أكاكي في هذا الشبح أكاكي نفسه، فاضطرب وذعر وفرّ هارباً والشبح يتهدده. واضطربت المدينة جميعاً، فأصر الشرطة على أن يقبضوا على الشبح ويعاقبوه ليكون مُثلة وعظة و . . . واستطاع شرطي أن يلبّب الشبح وهو يستلب معطفاً من صاحبه، وهو حين فعل صاح ينادي بعض رفاقه، فأدركه شرطيان ليعاونانه، وحين أمسكا به أطلقهُ الاول لينشق بعض السعوط. ولكن الشبح استطاع ان ينثر ما في حق السعوط، في أعين الثلاثة وانطلق هو .. . انطلق ليبعث الرعب في قلوب الناس ...

أما الرجل العظيم . . العظيم الذي قسا على أكاكي فقد أحسّ بالشفقة تستيقظ في قلبه بعد ان خرج أكاكي من لدنه، ولكن منصبه أراده على ان يكتم بعض ما يختلج في فؤاده ثم شعر بالندم يحز في قلبه فأرسل الى أكاكي، وارتد الرسول ينبئهُ بموت الرجل فساورته الافكار السوداء وأراد هو ان يدفعها عن نفسه فانطلق الى دار صديق ليخرج عن رزانته عمراً من عمره. لقد كانت ليلة جميلة وأصدقاء ظرفاء، ذاق فيها حلاوة السمر، ونعم بلذة الشراب والطعام . . . ثم خرج في نشوته يريد صديقته ايفان ايفانوفنا ليستمتع منها بلذة اخرى، وليتذوق حلاوة ثانية، فهو كان يحبوها بكثير من فراغه ومن قلبه رغم انهُ كان أباً وزوجاً كأحسن ما يكون الاب والزوج. وحين اطمأن العظيم في مركبته تدثر بمعطفه الثمين وجلس منتشياً طروباً والمركبة تسير . . . ومضت فترة احسّ بعدها الرجل ان يداً تجذبهُ في عنف، فنظر فرأى الكاتب المسكين في معطفه البالي ... انهُ هو، هو اكاكي اكاكيفتش ... ! فزلزل الرجل العظيم وامتقع لونه، ورنّ في اذنيه صوت مرعب «هاها، لقد استطعت ان اعثر عليك في النهاية، انه معطفك الذي اريد! لقد ابيت ان تساعدني، فالآن تخرج لي عن معطفك عن يد» لقد كان القائد صعباً قاسياً يعتز بقوته وصلابة عضلاته، اما الآن فقد ارتجف وسيطر عليه العجز والخور فخلع معطفه وهو يقول للسائق، «الى الدار، الى الدار، اسرع!». وذهل القائد العظيم عن نفسه فراح يهذي «كيف تجرؤ؟ أتعلم من هو الذي يحدثك؟ أتعرف تماماً الرجل الذي تقف انت امامه؟» واهله يعجبون مما يسمعون. اما الشبح فقد اختفى فما عاد يستلب الناس من معاطفهم

فوست العصرية

او يوم في صحبة الشيطان

لرسلان عبد الغني البغي

شخصية فوست من الشخصيات الخصبة التي عالجها المفكرون في غير عصر واحد فالشاعر الانجليزي مارلو Marlowe منافس شكسبير كتب في القرن السادس عشر مأساة فوست فلبثت حيناً من الدهر تتلى على الناس حتى أنشأ الشاعر الالماني العظيم (جيتى) مأساتهُ فجرّت عليها ذيل النسيان. وليست شخصية فوست وليدة الخيال من خلق شاعر بذاته ولكنها شخصية انسان ولد وعاش في القرن السادس عشر وما هو الا جان فوست الذي تلقى دروسهُ في جامعة هيدلبرج ثم ولع بعلوم السحر فتعلمها وعمل بها (ومع اعترافي بأن المأساة التي وضعها جيتى الفيلسوف قد كفل لها الخلود وان اليد التي اسداها المترجم الفاضل الدكتور محمد عوض محمد للناطقين بالضاد تذكر فتشكر وتغبط ولا تغمط الا ان فيها تعقيداً وابهاماً وتفككاً وانقساماً وأدباً جافاً ينفر القارىء ولا يستهويه) ولكن الصورة الجديدة التي يقدمها في لباقة الكاتب الفرنسي المعاصر جان بتيتجنان في ثوب قصصي أخاذ مع تصوير قوي خلاب وأدب عذب مساغ يجعل في القصة — بله ما حوت من موضوع فلسفي جدير بالدرس قصصاً عذباً محبباً الى النفس وجمالا فنياً يستهوي الحس ويكفل للقارىء لذة ليس وراءها لذة ومتاعاً ليس يشبهه متاع

وليس فوست الا الانسان الذي يجد ويبحث في ظلمات هذا الكون يؤمهُ الشك ويغشى في أثره القلق لانهُ عاجز عن ان يكشف الغطاء عن سرّ حظهِ المقسوم ، والذي ان حاولتْ ان تضله الانانية أو يضنيه الكبرياء عصمهُ الحب وحماه الايمان

يوم في صحبة الشيطان (١)

— ١ —

انتصف الليل او كاد . والفيلسوف (فاوست) لم يزل يتلو في اسفاره على نور مصباح ضئيل وكان من دأبهِ ألاَّ يجنح الى النوم قبلما ينصرم من عمر الليل نصفهُ . وبغتة طرق الباب طارق . فكف الفيلسوف عن القراءة ولبث برهة ينظر ناحية الباب .... ثم نهض واقفاً ، ومشى متثاقلاً ولما فتح الباب صاح صيحة دَهَش (اليزابت ! ماذا حدث يا ابنتي حتى طرقت مسكني في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟)

أجابت الفتاة بصوت منطفىء (آه أيها السيد . أمي . ملاذي الوحيد تحتضر . ليس لنا أمل الاَّ فيك . اذهب معي بربك ورد اليها الحياة) . وبكت الفتاة في حرقة فأخذت الشيخ عليها رقة ورحمة ... لقد حصد الطاعون الانفس كما تحصد المناجل سنابل القمح أسر الفيلسوف الى نفسه (مسكينة اليزابت . انها كبيرة الايمان بعلمي . فأنى لي ان اصارحها بأن رأس مالي العلمي وهمي مزعوم وانني كأجهل مخلوق لفظتهُ الغابة

(عاجز وابن عاجز وذو نسب في العاجزين عريق)

وألحت الفتاة على الشيخ وقد باطاً وهوت على يديهِ فقبلتهما .. (لسنا ذوي سعة أيها السيد ولكننا نستطيع أن ندفع لك ثمن الدواء)

ومدت اليهِ يدها بدراهم معدودات كانت الصبابة الباقية من مال أمها النزر

فقال لها الشيخ (بل احفظي عليها دراهمك فليس لدوائي ثمن وما أنا بمتخذ عليهِ أجراً)

وعاد فاوست المريضة في كوخها وقد حمل معهُ قنينة دواء ... وتقدم منها فرفع رأسها بيد ترعشها الشيخوخة والخوف . وأدنى من شفتيها كأس الدواء ، وفتحت المسكينة عينيها في شق ولما أبصرت الفيلسوف تجرعت الكأس التي قدمها اليها في ثقة وأمل

ومضت دقائق . وفاوست يرمق المرأة في صمت وقلب اليزابت يعلو ويهبط وبغتة استوت الام في فراشها الاَّ قليلاً وارسلت أنة عالية تمزق لها قلب ابنتها ودل اتساع عينها والتواء ثغرها على ما كانت تعانيه من ألم . ومشت الرعدة في جسمها فسكنت لحظة . ثم هوت رأسها على وسادتها في عنف . وأسلمت الروح ! . وطفقت الفتاة اليتيمة تصرخ كأن أفعى لدغتها . وتراجع فاوست في ذعر . ورمى بالقنينة وانسلَّ من المكان عجلاً ، كمن أتى أمراً إدّاً !

ولما آب الى كنه ارتمى على مقعده يلهث من التعب .. وتمتم قائلاً

(لو رد دوائي اليها الحياة لما استطعت أن اقول لماذا .. وقد قضى عليها وما أدري السبب .

---

(١) مقتبسة عن رواية فاوست التي وضعها الكاتب الفرنسي المعاصر جان بتيتجنان Petithuguenin

وهكذا ظهر لي أن ما كُنتُ ادعيه من علم باطل لا محالة. فيالي من أحمق! لقد أضعت شبابي بين دفات هذه الكتب وكان في مقدوري ان أتذوّق لذائذ الحياة ومتعها. وضحك الفيلسوف ضحكة مرة

(أهذه دنياي ؟ تل من ورق ! وحزمة من أقلام ! وقنان من حبر ! وقنان من سم !

بدلاً من ان انشد الحقيقة في الطبيعة نفسها . في مروج خضراء الجلباب ، ورياض مزدهرات رحاب ، وجنات من نخيل واعناب ، وأشهد الجبال في الشتاء مشتملات الرؤوس ، وأنعم بالشموس وليدات يدللهنّ الفجر ، وعذراوات يغازلهنّ الضحى ، وبالاطيار غريدات على افنان الشجر ، واخطر في هدأة الليل على شطآن النهر ، أشهدها راقصات على انغام القمر ، وأنعم في طلاقة ورُحب بنسائم الربيع العلائل ، محملات بأريج متضوّع ، انفاساً زكية تصاعدت من القلوب الشاعرة العاشقة فامتصتها الأزاهير واختزنتها زماناً ، حتى اذا تفتحت أكمامها نشرتها في الربى عِطراً . . . . وبدلاً من أن أنشدها في الانسان . في صداقة الرجل . في حب المرأة . أخدع نفسي فأضلها بين هذه الأسفار التي كتبها أناس حمقى ليقرأها أناس أشد حمقاً

فإلى النار ! إلى النار ! قد كنتُ أبحث في سطورك لعلي أكشف سرًّا وها هو ذا السر

(لا يدفىء المقرور الاّ نار مستعرة ولا يطفىء غلة القلب الا كأس حب)

— ٢ —

ملأ الطاعون المقابر بضحاياه . وفي الليل الغامض كنتَ ترى شيئاً غامضاً كالليل . يروح ويغدو . ويقبل ويدبر . كان طويلاً أقرب شيء الى النحول . محدودباً قليلاً . ولكن أكان هذا طيفاً ؟ أم كان هذا بشراً ؟ . سمع وقتئذٍ يقول :

(إليّ . إليّ أيتها الأنفس المتمردة التي لم يخامرك الندم ولا استهواك المتاب ، قبل أن تجنح شمس الحياة الى الإياب . . سيكون الليلة عيد في الجحيم) . ومال الى جدث مفتوح وقال :

(هو تنذا ياهانز أيها الشيخ البخيل . لقد عشت حريصاً على درهمك حرص الجبان على دمه . فهل عصمتك كنوزك من الفناء . ألم تمت كأحقر شحاذ ؟) أجابتهُ صيحة وسمع أنيناً يتصاعد من قبل الجدث . واتجه الشيطان شطر قبر آخر

(وأنت أيها العالم (شويلز) ما الذي جنيتهُ من خدمة الحق والفضيلة والنور ؟ حاولت نصف قرن أن تنجو من الخطيئة وان تعيش وفق نصوص الكتاب ولكنني باغتك على حين غرة منك فلحقك الأثم فعند ما فتك الطاعون بامرأتك وفلذات كبدك شككت في عدل الله . ها . . ها . . ها ! فرصة ذهبية لم أدعها تفلت مني . خدعتك . أثرتك وملأتك غيظاً ويأساً . لا تجادل . . . والى الجحيم ! »

وتسمّع الشيطان فلم يسمع شيئاً ولكنهُ رفع رأسه قلقاً إذ خيّل اليه أنهُ يرى طاووس

الملائكة يصوّب اليهِ سهماً من نور وان الريح تحمل اليهِ صوتاً يقول (ليست هذه النفس لك يا إبليس ولا أنفس كثيرة مثلها وليس في طوقك يا غرور ان تحكم عليها فلقد قضى الله بينها بالقسط فنجت من السعير) . قال إبليس :(إنك تحاول إساءة سلطتك ،وتحاول مغالبتي ببلاغتك لقد مات الاستاذ (شويلز) دون توبة فهو لي)

— لا . بل لك الارواح التي ترامى أصحابها في احضانك ، واستمرأوا ضلالك رضاة غير مقتسرين وليست تلك التي باغتها سكرى من اليأس فأسقطتها في حبائلك —

— لا تنذ عمن أغويت من البشر . فما كانوا بناجين لولا فضولك

— كلاّ . فما لك من حق على رجل لم تلوث روحه أدران الشرك ، ولا شابت ايمانه ذبذبة الافك لئن استحوذت على نفسه الامارة بالسوء . فلقد ظل قلبه في اعتصامه بالله يسبح لهُ

— ذرني أفعل وسترى

— لك هذا ما دمت حيًا . هل تعرف الدكتور فاوست ؟

— الشيخ المتهدم الذي أضاع زهرة شبابه بين القرطاس والقلم ، باحثاً عن الحقيقة ؟ أكبر ظني أنهُ قد هيأ نفسه لطاعتي ! لكن اسمع فعند ما يستمرىء فاوست الحياة التي اصطفيها لهُ تكون روحه ملكاً لي

— ليكن . اذهب وغاص !

— ٣ —

لقي إبليس فاوست فحياه وتحدث اليهِ حديثاً كلهُ منطق وكلهُ إغراء وفاوست بين هازىء مرّة وغاضب أخرى . ولما رأى إعراض الفيلسوف عنهُ وتبرمه بحديثهِ لجأ الى وسيلة اخرى فأخرج من جيبه مرآة سحرية وقدمها لهُ وهو يقول انظر ! وانحنى فاوست وكم كانت دهشته حين رأى نفسه شابًا في سن العشرين يفيض صحة وجمالاً ورأى خلف المرآة فتاة شقراء تبتسم لهُ في سذاجة وطُهر فرفع بصره عن المرآة وصاح ساخطاً

— كفى أخيلة وأباطيل . اما ان تريني حقائق ملموسة واما ان تدعني استريح

— اتدعوني رجل اخيلة واباطيل . اني امنحك كل ما في الحياة من لذة ومتاع

— حذار ! فأنا لا أنشد اللذة وحدها . اريد ان اشعر بكل شيء وان اجمع العالم كله في صدري مسراته وأحزانهُ ، اريد اللذة يمازجها العمل ، والالم يصاحبهُ الامل ، ولكنني لا اطيق الضجر والملل !

— فلسفة خاطئة . تزعم انك تمقت الخيال وها انت تنشده . فأينا رجل اخيلة ؟ مالك والعالم . فكّر في نفسك . الشباب . الجمال . الغنى . المجد . اني أهبك هذا كله

— يخيّـل اليّ انك تبيعني هذا كسلعة فكم تبغي ثمناً لها ؟

— تعويض عادل لا أغبنك فيه ولا تغبنني . اكون خادمك وعذيرك في الحياة الأولى وتكون انت خادمي وعذيري في الحياة الاخرى

وأخرج ابليس عقداً مسطوراً ودعا فاوست لإمضائه وتردد الفيلسوف اول الامر فقال لهُ الشيطان وهو باسم

— لاشيء . سأرد اليك شبابك النفيس دون شرط ولتكون هذه تجربة تبدأ الساعة وتنتهي في مثل هذه الساعة من غدٍ فاذا انقضت فترة العقد عُدْت كما انت

واذا راقتك التجربة ورغبت في شباب مقيم حق عليك ان تمضي هنا بدمك

وسقاه شراباً سرى في جسمه مشتعلاً كالنار وفي لمحة انمحت من حياة الفيلسوف اربعون حجة فعاد ابن عشرين ربيعاً

— ٤ —

رأى فاوست وهو عن كثب من الكنيسة فتاة عذراء في جمال البدر . وسذاجة الطفل فأحبها . كانت تشبه المرغريت وكانت تشبه في الوقت نفسه ذلك الطيف الذي رآه خلف مرآة الشيطان غير ان الفتاة الحيية لم تأبه لهُ ولم تكترث وكانت تمشي في طريقها على استحياء . لاتكلم الناس ولا ترنو اليهم . وشكا فاوست امره الى ابليس فاصطنع لهُ امرأة عجوزاً تعبث بعقل الفتاة فالتقت بها عن قصد . وتملقتها وتحدثت اليها عن آمال الشباب واحلامه . وعن فاوست الفاتن الجميل . ووصفت لها قامته ، ورشاقته ، ورخامة صوته ، وصفاء ابتسامته ، ودعتها لصداقته وهيأت لهما لقاء في مكان شاغرٍ خلف الحيل . واستسلمت مرغريت لفتانا روحاً وجسداً فعبث بها ، وحضرهما الشيطان في ليلة مقمرة فاستشهد عفافها . . .

وارتاب ڤالنتين في سلوك اخته فبات يحرسها بعين لاتغمض ، وخشيت مرغريت مغبة عملها فلبثت في الدار ثمانية ايام وسبع ليال . وتحرّق فاوست شوقاً اليها وكاشف الشيطان بشوقه فاصطحبهُ الى دارها . ومرا بالدار فتواريا خلف دوحة مورقة وطفق الشيطان يغني في نغمة مغرية مسموعة . وسمعهُ ڤالنتين فلم يطق صبراً فخرج الى الخلاء شاهراً سيفه يلعن ويسب ويهدد ويتوعد ولمحهُ ابليس فاختفى ووجد فاوست نفسه امام خصيم لاقبل لهُ على اتقائه ولاطوق لهُ على الفرار منهُ . فصمد لهُ وأخذ يذود عن نفسه . وباغت الشيطان ڤالنتين بطعنة في ظهره سقط على أثرها يتخبط في دمه وذعر فاوست وجمد في مكانه جمود الصنم في هيكله وابليس يصيح في السُبُل . القاتل ! القاتل ! وافاق فاوست من ذهوله فأطلق لساقيه الريح واستتر في بُرْدة الليل ! . وقضت مرغريت ليلة مشئومة لم يشاركها في حزنها احد

لقد ماتت امها وقتل اخوها وعائلها واختفى عشيقها ولا أمل لها في مآبه وتبرأت منها عمتها

لانها عدتها مسئولة عن مقتل اخيها . وخبا نور الحب في قلبها فهوت به في ظلمة النوم ولم يبق لها بعد نجوى الليل ، وقبلات الحب ، سوى الاثم والفزع ، والزراية

وكانت الفتاة قد حملت من عاشقها سفاحاً وليس لها بعد موت فالنتين عائل . فاضطرت ان تترك البيت الذي تربت فيه ، ونعمت بالحياة في ظلال الشرف ، وراحت تلتمس قوتها من عرق الجبين ، ولكن الناس كانوا في مرية منها فلم يمدوا اليها يد برّ ، ولا مسحوا عن عينها دمعة ذل

وليلة باتت طاوية وطفلها ، خوت احشاؤها وجف ثدياها . والليل مقرور ، والسماء مكفهرة وليس لها مأوى تلوذ به ، ولا غطاء . حاولت ان تلج الدور فأوصدت دونها الابواب التي لم توصد في وجوه الهررة والكلاب ، ولم يقبل احد منها متاباً . . . حتى الكنيسة طردتها منها ولم تجد فيها عاصماً . . . . !

حملت طفلها وانتبذت به حقل قمح حسباناً منها ان سنابله قد تعصمها من القرة . . ولكن الرياح عصفت بشدة فلم تجد بدًّا من التحول الى المدينة وما كادت تبعد بضع خطى عن الحقل حتى شعرت بيد تضغط على كتفها في عنف فرفعت طرفها في فرق فاذا بعض العسس ينظرون اليها في شزر وحنق ولما قلبوا الطفل الذي تحمله ذاهلة صاحوا بها يا قاتلة !

صرخت رباه ! لقد قتله البرد

واخذت تبكي وتصيح والعسس ممسكون بخناقها يجذبونها الى المخفر

ووجهت اليها تهمة قتل طفلها بتعريضه للبرد القارس . فلم تشأ دفاعاً عن نفسها لانها كانت زاهدة في الحياة وثبتت ادانتها فحكم عليها بالموت حرقاً

وتجمعت أمة من الناس يشهدون مصرع هذه الام المنبوذة التي قتلت طفلها بلا رحمة وأخذوا يهددونها ويلعنونها ويودون لو تعجلوا الحكم فزقوها بأيديهم قبل ان تأكلها النار

وكان فاوست قد هبط المدينة بعد ان اختفى زماناً ونما اليه ان مرغريت ستحرق . فطار لبه واقسم ان ينقذها او يكون معها من الهالكين — وأسرع فاوست فألفى الناس قد خطوا الارض كأن اليوم يوم حشر ، ورأى النار تحدق بعشيقته فاندفع يشق طريقه اليها غير عابىء ولا وجل وصاح (مرغريت !) ونظر اليه الناس ساخرين (شيخ مجنون !) وصاحت به مرغريت (مكانك يا أبتاه !) وردد فاوست قولها في عجب (مكانك يا ابتاه ؟) كيف ألم تعرفيني ؟

ونظر الى نفسه فراعتهُ لحيته البيضاء المتدلية ويداه اللتان تواري منهما الدم

فصرخ كالمجنون وقد فضحهُ الجزع

— إبليس ! إبليس ! أين ذهبت بشبابي ؟ وابتسم اللعين في خبث وكان منهُ عن امم

— كانت مدة العقد يوماً وقد انتهى

على ذكر التعداد الاخير :

سكان مصر

من أقدم العصور الى ما بعد الفتح الاسلامي[1]

لعلَّ المصريين أقدم الشعوب عهداً بالاحصاء أو التعداد . ففي فجر التاريخ ، كان الملك مينا يقوم باحصاء السكان في مملكته مرة كل سنتين ثم مرة كلَّ سنة (برستد) وهو عمل كان يقتضيه تنظيم مصر السياسي الدقيق حينئذٍ . وفي ايام امنمحت الاول في سنة ٢٠٠٠ ق . م نجد اشارات الى الاحصاء وكذلك في القرن السادس قبل الميلاد . وكان الرومان يقومون بعمل التعداد مرة كل اربع عشرة سنة في اثناء حكمهم . وفي ايام الرومان ثم العرب ثم العثمانيين كانت هناك قوائم للمكلفين يمكن ان تعتبر بمثابة احصاء

ولكن من المتعذر معرفة عدد السكان في مصر في تلك العصور لان ما وصل الينا من وثائق التعداد لا ينقع غلة ، ولكننا نجد في آثار بعض الكتاب الفراعنة واليونان والرومان والعرب ، ارقاماً يمكن ان تحسب قريبة من الحقيقة

كان عدد المصريين في سنة ١٥٠٠ ق . م يقدر بثلاثة ملايين . ولكن الاستاذ مصطفى عامر يذهب في رسالة لهُ عن مشكلة السكان في مصر الى ان القطر المصري كان يقيم اود ١٨ مليوناً من السكان في الالف الاولى ق . م وقد بنى رأيهُ هذا على زيادة خصب الارض حينئذٍ في الدلتا ، التي كانت مساحتها الصالحة للزراعة اكبر جداً مما هي الآن قبل تكوُّن البحيرات المالحة والبطائح والصحاري فيها

ولكن ليس عندنا في الاسانيد القديمة ما يؤيد هذا الرقم . وقد كتب المؤرخ ديودورس سيكولوس في القرن الاول قبل المسيح فقال ان سكان مصر في عهد الفراعنة كانوا سبعة ملايين وفي العصر البطلميوسي (وهو عصره) ثلاثة ملايين

وفي سنة ١٨٨٦ ظهر كتاب ليوليوس بيلوخ Beloch وذهب فيه الى ان عدد سكان

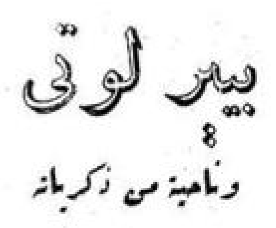
---

(١) ملخص عن كتاب الدكتور وندل كليلند "The Population Problem in Egypt" راجع وصفه في مكتبة المقتطف

مصر عند وفاة اغسطس قيصر في سنة ١٤ ب . م. كان خمسة ملايين وان مساحتها كانت ٢٨ الف كيلو متر مربع ومتوسط عدد السكان في الكيلو متر المربع ١٧٩ نفساً او ٤٦٥ في الميل المربع . وقدر المؤرخ بدج عدد سكان مصر في عهد فسبسيانوس (٦٩ ب.م .) بثمانية ملايين وذلك اعتماداً على قوائم المكلفين (اي دافعي الضرائب) واورد المؤرخ يوسيفوس قولاً للملك اجريبا في القرن الاول الميلادي يستفاد منهُ ان سكان مصر كانوا سبعة ملايين ونصف مليون ماعدا سكان الاسكندرية وان حدود مصر كانت تمتدُّ الى الاحباش وبلاد العرب السعيدة ومتاخمة للهند

وفي القرن السابع الميلادي فتح العرب مصر وقد ذكر المؤرخ لاين پول في كتابهِ « تاريخ مصر في القرون المتوسطة » ان مؤرخي العرب اوردوا ان عمرو بن العاص جمع في سنة ٦٤٤م مال جزية قدرهُ ثمانية ملايين دينار من الذكور البالغين من اهل الذمة . فاذا حسبنا انهُ جمع دينارين من كل ذكر وهو المبلغ المألوف في تلك الايام كان عدد الذكور الذين يزيد عمرهم على ١٠ سنوات اربعة ملايين واذا فرضنا ان هذا العدد كان ٣٠ في المائة من عدد السكان — وهذه هي النسبة التي تستخلص من تعداد سنة ١٩٢٧ — كان عدد سكان مصر غير المسلمين في سنة ٦٤٤م ثلاثة عشر مليوناً وثلاثمائة الف وهو قريب من عدد السكان في هذا العصر . ولكن شيئاً من الريب يتطرق الى هذا التقدير . لان المؤرخ الذي أورد ما تقدَّم أورد كذلك ان مال الخراج كان ثلاثة ملايين دينار ، بواقع دينارين للفدان الواحد . اي ان عدد الفدادين المزروعة ما عدا المدن الكبيرة والاراضي التي يملكها عدد يسير من المسلمين كان ١٥٠٠٠٠٠ فدان. واذا قطن عدد كبير من الناس يزيد على ١٣ مليوناً مساحة من الارض لا تزيد على ١٥٠٠٠٠٠ فدان كان ازدحامهم أربعة أضعاف او خمسة أضعاف ما هو الآن في مصر وهو ما لا يعقل

وفي القرن التاسع الميلادي جاء في كتابات بعض المؤرخين العرب ذكر خراج يبلغ ٤،٨٥٧،٠٠٠ دينار أي ان عدد الافدنة التي كانت مزروعة بلغ ٢،٤٢٨،٠٠٠ فدان . فاذا فرضنا ان ازدحام السكان في هذه الاراضي كان كمتوسط ازدحامهم الآن في المناطق الزراعية كان عدد سكان مصر غير المسلمين في القرن التاسع الميلادي ٥،٣٩٠،٠٠٠ ويجب ان يضاف الى هذا الرقم عدد سكان الاسكندرية والفسطاط وكان معظم السكان المسلمين يقطنونهما حينئذٍ . أما الاسكندرية فكان عدد سكانها في القرن الثامن خمسمائة الف على ما روي وأما الفسطاط التي أسست في القرن السابع فأصبحت بحسب قول المؤرخ ملن في مقدمة المدن الاسلامية . واذن يصحُّ القول بأن سكان مصر في القرن التاسع كانوا يتفاوتون بين خمسة ملايين وستة ملايين وهو رقم يتفق مع تقدير يلوح لعدد السكان فيها في القرن الاول الميلادي . ومما يرتاب فيهِ الباحثون المعاصرون ان سكان مصر أربوا في العصور القديمة والمتوسطة على سبعة ملايين او ثمانية



في أوائلِ الجيل الماضي نشطت في فرنسا نزعةٌ الى الاصلاح والتجديد ، فكان لها أثرٌ متين لا يمحوهُ الدهر ولا يأتي عليهِ النسيان . ومن نتائج ذلك الأثرِ البليغ ظهورُ المذهب الوجداني الذي طوَّقَ جيدَ الادبِ العالمي بقلائدِ الفنِّ والنبوغ والعبقرية

ولم تكدْ شمسُ ذاك الجيل تدرجُ من خدرها الأزلي وتغمرُ الحياة والأنظمة والقوانين بفيضٍ من التطوّر والتجديد ، حتى استيقظ نفرٌ من هؤلاءِ المجدّدين واتجه نحو الشرق منقّباً عن الجمال الكامن وراء أكمهِ وجبالهِ ، والسحرِ المهوّم بين أوديتهِ ووهادهِ

وكان بين هؤلاءِ المجدّدين رجلٌ حسّاس تغلّبت عليهِ سآمته وإحساساته ، فجاء الشرق ليعالج تحتَ ظلالهِ الظليلة تلك السآمة الخرساء . . هذا الرجل هو — بيير لوتي — الكاتبُ الفرنسي الأنيق الذي عشق الشرق وأفسح لهُ مجالاً رحباً في كتاباتهِ وأقوالهِ

وقف — لوتي — في ظلال الشرق فكشف له خيالهُ النامي الخصيب عن ذلك الجمال المتجسّم في كلّ مرتبة من مراتب الطبيعة . ولذلك أكثر من وصف السماء الزرقاء ، ومطلعِ الفجر ، ومغيبِ الشمس ، ومن البلابل الشاردة بين الحقول والبطاح ، والجداول الهائمة في الأودية والوهاد ، والانهر الجارية الى أعماق البحار ، والأنين الشجيّ الموجع الموقّع على أوتار الرياح والعواصف

إنّ في الشرقِ جمالاً علويًّا كجمال المآسي الخالدة . . ومن الروعة والجلال ان يتمشّى ذلك الجمال في روح — لوتي — فيجعلهُ يتمتم اسم الشرق في الحياة وعند الممات !!

***

وبعد . . . لقد عرفَ الشرق نفرٌ من أدباء الغرب وكتّابه ، ولكن هؤلاء

الكتّاب ما عنموا ان صوّروا أخلاقهُ وعاداته ومشاربهُ صورةً متعاظلة لا أثر للفن والحقيقة فيها . فسخوا من جماله ما استطاعوا إما عن تعصُّبٍ شائن ، وإما عن تجاهل لهم منهُ فائدة معنويّة . أما — بير لوتي — فقد خالف هؤلاء جميعهم اذ تغلغل في روح الشرق ودرس شعوره وعواطفه ثم تحدّث عنهُ حديثاً مترعاً بخمرة الحبّ والصدق والاخلاص

ولأجل ذلك أعدّوا لوتي صديقاً مخلصاً للشرق . .

والذي نعجب لهُ كثيراً هو درسهُ للحياة الشرقية . حتى لقد يُخيّل إلينا ان الرجل أمعن في الاستيلاء على عناصر تلك الحياة بما في هذا من جهدٍ وعناء قبل أن يُقدم على تصويرها ذاك التصوير الساحر الذي يخلبُ القلوب

فان من يقرأ كتابه (موت أنس الوجود) يشعر بحقيقة ما أكتب قال في فصلٍ من فصول الكتاب :

« بين الفتيان المصريين من يفتُنكَ بذكائهِ ونبوغهِ ، عرفت ذلك بعد ما وطأت قدمايَ تربة مصر الفوّاحة بالشذا والعبير . ولأجل هذا أريدُ أن أخاطب هؤلاء الفتيان بعطفٍ متناهٍ فاهتف بهم قائلاً : أيها الفتيان ، ان المدنيّة ستتمشى في عاداتكم عمّا قريب ولكنّ حذارِ أن يعبث بأخلاقكم عابثٌ ، تلك الاخلاق التي اذكرها بتهيب وافتخار »

على إنّ السرّ المعنوي في عبقريةِ هذا الكاتب العليل المفلّي قلبهُ بأنامل اليأس العميق والألم المحرق المذيب ، هو حبّهُ لتركيا حبّاً قارب العبادة والتأليه

لقد تساءل نفرٌ من الكتّاب الغربيين هل كان هذا الكاتب الرسام قد وقف على اسرار الحياة التركية التي لم يقف عليها اديبٌ من الادباء . اما الحقيقة فهي انهُ توفّق الى رسم تلك الحياة التي تجري في القصور التركية رسماً لا شكّ حياله بتدخله في شؤونَ هذه القصور المسربلة بضباب الاحلام

في تركيا ، عشيقة البوسفور وموحية اسرار الحبّ والغرام للقلوب التوّاقة الى نور الخلود ، جمال يترك في النفوس نشوةً علوية كنشوة الوردة الحمراء الغافية على سرير من ضياء الفجر . والفرنسيون بارعون في الاستيلاء على كلّ ما يمتُّ الى الفنّ بقرابة جميلة . ولكن الاجمل من هذا ومن ذاك هو تلك الذكريات التي تركها —

لوتي — لتبقى مثالاً صادقاً للحياة التركية بما فيها من آلام ومسرات ، وسعادة وكآبة ، وابتسامات ودموع !!

لقد نثر — بيير لوتي — عقوداً جمة من حياته على شواطىء البوسفور التركي ، ومتّع عينيه بمنظر الخليج الجميل ، وبمرأى البدر يصبُّ انواره الفضية فوق موجهِ الثمل الريان ، وأمرع كثيراً بغمرة تلك الليالي البيضاء التي تنبّهُ في النفوس رواقد الخشوع والروعة والتعبد . . . فلا عجب اذا اغرق — لوتي — بحبِّ المرأة التركية وبوصف اخلاقها وعاداتها وبكيفية معيشتها بين جدران القصور التركية ، واذا اكبرت عليهِ جمال فنهِ وأنيق الوانه ، فاعلم انهُ طلى فنهُ بكل ما في الحياة من أدهنة سحرية ورموز واسرار ... وما اعظم الاديب الذي يجمع بين الفن والجمال !

***

وهنا يلوح لي ان فريقاً من القراء يطالبني بذكر ناحية من ذكرياته ... اما ذلك فحسبي ان اتناول روايته (اليائسات) واقرأ فيها هذه الجمل الحزينة اللابسة ثوب الحداد على ماضٍ حنون توطّن بمقبرة الذكرى وترك في قلب الكاتب اللطيف هذه الغمغمة المؤثرة الموجعة

« . . . في ناحية منفردة على شواطىء البوسفور ، وعلى نحو فرسخين من استانبول المدينة الشعرية المتعالية مآذنها في الفضاء معلنة لروع اللانهاية كل ما للدين الاسلامي من روعة واسرار ، كنت اصرف اكثر اوقاتي مع « جنان » فلا يعلم بنا احد ، ولا يسمع نبضات قلبينا غير الامواج والطيور

« أنا لم يؤثر فيّ مشهد من مشاهد الشرق الغريب مثل ان اتأمل البوسفور في ساعة المغيب وقد تلوّنت شواطئهُ بأشعة شمس الخريف الواهية ...فكانت تبدو لعينيّ كأنها وجنات العاشقين ممتقعةً بصفرة الفراق !

«وما — البوسفور — يعثر امواجه على صخور الشاطىء غير مشهد يروعك فيهِ انين المياه وحفيف تثيرها البلبل يداعبهُ نسيم المساء ثم يرخيهِ فوق الحصى والاعشاب ، ولكنهُ مشهد خفاق تمشى في روحهِ الروح والحياة ، فهو جميعهُ خفقات ألينة تعرب عما تعاني من صبابة . . . وكل موجةٍ لها للفؤاد إشارات خفية مجهولة ، هي اشبه بيد العاشقة تمتدّ مودّعةً بعد ان تقاصرتْ عن عناقِ الحبيب !

« اما الطيور المتهادية ثملة ريّانة في تلك الامكنة اللطيفة الساحرة ، فكنتُ اخصّها بكثيرٍ من تأملاتي واحلامي . وكانت — جنان — تحسبها ارواح اليائسات التركيات اللواتي أفلتنَ من قصور ازواجهنَّ البشوات الظالمين

« وفي اواخر — جمادى الاول — عند حلول الخريف ، كان يحزنني ان ارى تلك الاماكن الشاهدة عليَّ وعلى « جنان » بما بيننا من احايين شيقة خيّمتْ فوقها اشباحُ الغرام . . . نعم كان يمضّني ان اراها عارية جرداء فينبثي منظرها الشاحب بنكبة قريبة تتمكّن من نياط فؤادي فتسحقها بالالم سحقاً ، وتقصدها بنزوات دامية تمازجُ فيها نبرات الحزن واصداءُ الموت

« وأحستْ — جنان — ذات يوم بما يخالجني من ألم مبرح يُسّمم عواطفي فأخبرتها ان طيفاً خفيًا ينصب في اعماق نفسي منذراً بمجيء ساعة الفراق ، فارتمت — جنان — يتكّدبُ الانين فؤادها ، وتستشفُ عينيها الدموع ! !

«وشئتُ ان أساعدها على احتمال هذه الصدمة العنيفة فوعدتها ان اعود اليها وامضي باقي الحياة قريباً منها . ولكني عندما شاهدتُ ارتعاشها المفجع لم أتمالك عن ذرف دموعي فعانقت جنان وبكينا معاً امام الامواج المخضرة والبلابل المرتحلة الى الجنوب هرباً من عواصف الشتاء المتأهبة للخروج من سجن الابدية

«وعدنا الى اسطنبول مساء . . . ولأول مرة رأيتُ — جنان — تتأملُ القمر بعينين منهوكتين ، فعلمتُ انها تريد التعبير عما في نظرات القمر من سهدٍ ووجوم، فضممتها الى صدري المعذّب وأشبعتها بقبلات الوداع !!

* * *

بعد ان مضى زمنٌ طويل على هذا الافتراق جمع — بير لوتي — تذكاراته الماضية و دوّنها كلها في روايته المسماة (اليائسات) والغريب انهُ اعلن موتَ جنان في آخر الرواية بصورة شعرية مؤثرة . ولكن الحقيقة — كما تقول مجلة الايستراسيون — ان جنان ظلتْ حيّة ومقيمة طول ايامها على غرام الكاتب العبقري الجميل

وقد وجدوا بين اوراقه بعد موته تذكاراتٍ جمة عن — البوسفور — مرسومة بدم قلبه ودموع عينيه ، وكلها تعبر عن نواحي حياتهِ : فاليك هذه الكلمة المختصرة:

« لست أنسى ما حييت تلك الليالي البيضاء التي صرفتها على ضفاف بحر مرمرا » والبدر يحدّق بالامواج كأنهُ بينها سرًّا من الاسرار او لاعجة من لواعج الهوى .

وكثيراً ما حركت هذه المناظر بواعث الحزن والكآبة في اطواء نفسي ، فكنتُ اسمع انغام الماضي توقعها الذكرى على أوتار الليل

«آه ما أعذب الذكرى تعاودني من خلال خمائل الماضي . . . ولكن وا أسفاه انّ عينيّ يكاد يغشاها ظلامُ الموت . اني اراك يا — فروق — تموجين بثوبك الخفاق كانك في ساعة عرسك . فسلامٌ عليك من رجل أحبك حتى العبادة والتأليه »

يقول — كلود فارير — الكاتب العبقري الكبير ان — بير لوتي — ارسل هذه الالفاظ النارية وهو ممدد على سريره في باريس يعالج برحاء الألم ويتلمس مهاوي الابدية . وكأنّ الاقدار شاءتْ ان تضرم لوعته وتشمله بالكآبة التي لازمتهُ طول حياته ، فقد أطفأت حياة حبيبته (جنان) في ليلةٍ من تلك الليالي السوداء التي كانتْ تمرّ بالكاتب الملول الحزين

ولكن جنان المسكينة لم تكن تحلم وهي تنثر احلامها في ظلام أجنحة المنيّة الاّ بذلك الفرنسي الجميل الذي أحبتهُ كما احبّها حبّاً وفيّاً . فتناولت القلم ورسمت هذه الرسالة

«ايها الحبيب — ها انذا في مخدعي مسهّدة تولولُ اشباح الماضي في اودية الفؤاد وبينما الناس نيامٌ يرتشفون خمرة الرقاد ، أبيتُ باكيةً تلك الاوقات الحبيبة التي مضتْ وتركتْ في مقبرة قلبي تذكاراً حنوناً مندّى بالدموع ! نعم . . . لقد تلاشتْ تلك الاوقات وتوارت وراء نقابِ الموت لتُبلى على مهلٍ تحت اقدام الدهور . . . ولكن نور النجوم ، وحفيف الاوراق ، وخرير الجداول . . . وكلّ ما في الطبيعة من حسن وجمال . . . لا يزالُ ينغّمُ على اوتار صدري توجيعة الصمت والسكينة

«انّ ضباب المنيّة يكفنني الآن بردائهِ الناعم الشفاف . وعندما تخمدُ فيّ شعلةُ الحياة ويسبلُ الموت اجفانهِ فوق نعشي ، ثم يدنو حفار القبور ليهيل على صدري التراب . . . ستحومُ حولك روحي ايها الحبيب وتتلو على مسامعك كلّ نزعات القلب وأمانيه .

«زهرة البنفسج التي كنا نستنشق عبيرها ونضفر اوراقها على ضفة — البوسفور — أغرسها ايها الحبيب فوق قبري لتعطر جسدي الناضر في سكينة الليل . . وعلى اضواء النجوم ! !

— جنان —

مسكينة جنان . . . كانت أمنيتها الوحيدة ان ترى — بير لوتي — وتعانقهُ العناق الاخير في تلك الساعات الاليمة التي تكابد حزازتها في ظلام ليل تذكاراتها . وفيما هي

تستشف كأس المنية تركت هذه الرسالة المخددة بالدموع (وهي مترجمة عن اليائسات)

« أندري ! : الآن وقد مر الهزيع الثاني من الليل ، اصغي الى حفيف اجنحة الموت فلا اسمع سوى زفرات متقطعة ترسلها روحي المفارقة في فضاء مخدعي . فليتك كنتَ هنا يا أندري ! لأهمس في اذنك كلمة الوداع فلماذا لا تقترب مني ايها الحبيب لابوحَ لك بسرٍّ من اسراري الدفينة ... اريد ان اعترف لك بحبي الذي لاشائبة بهِ . إنّ منْ تفارقُ الحياة لأجل حبيبها تستطيع الاعتراف بخفاياها

« آهٍ يا أندري . . اتذكرُ يومَ كنتَ في هذا المكان حيث أنا الآن ؟ يومَ ذاك خفق قلبي بحبك ، الا اني أطبقت عينيْ لأحلم وهكذا مرتْ احلامٌ لذيذة ... وكانت يدي تمسح عن عينيك تلك العبرات المتناسلة . حبذا لو قضيتُ في تلك الساعة اذاً ما كنتُ تنكبتُ اشباحَ الحزنِ الظالمة ، وكأسَ الغرام المريرة !

« كل شيء يتغير في نظري ... قالوا لي ان انام ، ولكني لا اشعر بالنعاس يراود أجفاني . . . غير اني اشاهد كل ما في مخدعي يهتز ويرتعش مثلَ شمعةِ روحي الذائبة ... إن الزهور البيضاء التي تنثرها حول رأسي أتخيلها تنمو وتتكاثر متحولة الى مرجةٍ كبرى مكتسية بالورود والبراعم

« والآنَ اراك تلهو بين الورود والبراعم فلماذا لا تقترب مني ايها الحبيب ؟ ألا تعلم انّ شفتي تحبان ان تلثما شفتيك ؟ وهنا حيث احتضر اودُّ كثيراً لو شاهدتك لاقرأ في عينيك دمعةً تذيبُها لاجلي ... تعالَ يا ملكَ الجمال وموقظ الحبِّ والغرام لأسند رأسي الى ذراعك واعترف لك بحبي قبل ان يطفىء الموت شمعة حياتي

« آهٍ يا أندري ! ! إن الاموات يجذبونني نحوهم بعنف وقسوة . فاعطني يدك لأتساند عليها في المصرع الاخير !

ومثل الزهرة الرطيبة التي تنتعش صباحاً ثم تذوى في المساء بعد ان تلفحها الشمس بنورها الكاوي هكذا ذوت مباهجُ الحياة في قلب (أندري) وهو بيير لوتي نفسه . وظلت هذه الذكرى حائمةً حول الكاتب الحسّاس حتى لفظ أنفاسه الاخيرة

فالى بيير لوتي والى روحه العذبة التي ابتسمت في ثناياها كواكبُ الفن والنبوغ سلامُ الشرق العظيم الذي ضمّهُ اليهِ وسكب في عروقهِ كل ما في الحياة من تشوّق وحرارة وايمان

البرازيل يوسف البعيني

لمن ؟

« مهداة من الشاعر الى الاستاذ
ميشال ابو شهلا صاحب مجلة الجمهور »

لمن تعصر الروحَ يا شاعرُ   أما لضلال المنى زاجرُ ؟ !

ألِلحب ؟ أين أكفُّ الفنو   ن لتبدع ما يرتجي الخاطرُ ؟

ألِلهو ؟ كم دميةٍ صُغْتَها   ومزّقها ظفرك الكاسرُ

ألِلمجد ؟ هلاّ لمحت الذئا   ب، وقد عضّها جوعها الكافرُ

ألِلخلد ؟ ماذا يفيد القتيل   إذا ناح أو هلل العابرُ

***

رويدك لا تسفحنّ الخيال   ببيـداء ليس لها آخرُ

سيرقصك الكون في صمتهِ   كما يرقص الحية الساحرُ

دع الحلم يخفق في ناظريك   فموعده غدك الساخرُ !

عمر ابو ريشة

عن « الجمهور : بيروت »

العرس الاسود

الله ...! مات الحلم في البرعم
وكان حلم الليل والانجم
حكاية الورد لجاراته ...
حكاية المغرم للمغرم
تقصّها الانسام في سكرة
في الغاب للغريدة الحوّم
فترقص الضحكة في مبسم
وتجمد الضحكة في مبسم
ويصبح الحلم حديث الربى
فاهمة تروى لمستفهم
الله ..! لم يطلع عليه الضحى
الا صريع الناب والمنسم

***

يا حلمي الاشقر ، يا رفة
طافت بقلب أخرس معتم
يا ضحكة في خاطر المنحنى
يا نغمة في الوتر الملهم
لم يبق من عرسك الا الرؤى
مخضوبة بالدمع في مرقمي
تموت في قلبي وفي مقلتي
على صراخ مفزع مؤلم
يضج ماضيها على نعشها
بجرح الذكرى دمي الفم

***

يا قلب ما تبغي وما ترتجي
من مأتم تمشي الى مأتم
يا جائعاً اطعمته مهجتي
يا ظامئاً رويته من دمي
يا أحمقاً يمشي الى قبره
هدمت أضلاعي ولم ترحم
اسكت ! احس الموت في مضجعي
وفي زوايا المخدع المظلم
احس في صدري دبيب الردى
ينسل في صدري كالارقم
ليتك لم تخفق على ساعد
ليتك لم ترقد على معصم
يا كافراً ضيّع احلامه
ليتك لم تعشق ولم تحلم

***

يا قلب ! مات الحلم في موسم
فاغنمه يا قلبي في موسم

عن « الجمهور »
فؤاد سليمان

الامتيازات الاجنبية

ومؤتمر مونترو

الامتيازات اسم يطلق على معاهدات تمنح بها دولة من الدول حقوقاً خاصة لرعايا دولة أخرى مقيمين في بلادها . ففي القرن التاسع عقد هارون الرشيد معاهدة من هذا القبيل مع «الفرنك» منحهم بها ضمانات معيّنة وسهّل عليهم سبل الاتجار . ثم منحت امتيازات من هذا القبيل لابناء بعض من المدن الايطالية. فأمير انطاكية منح أبناء جنوى مثل هذه الحقوق في سنة ١٠٩٨ وجاراهُ ملك أورشليم في منح أبناء البندقية سنة ١١٢٣ وأبناء مرسيليا سنة ١١٣٦ وتبعهُ صلاح الدين فنحها أبناء مدينة بيزا سنة ١١٧٣ . وقد جرى امبراطرة بيزنطة على هذه القاعدة فنحوا جنوى وبيزا والبندقية هذه الامتيازات . وفُسّر هذا العمل أولاً بأن سيادة الدولة تشمل أبناءها فقطوان ميزة الانتماء الى حكومة معيّنة كانت أثمن من أن يوسع نطاقها حتى تشمل الأجانب . فلما كثر عدد الاجانب القاطنين بعض البلدان ، قيل انهُ من الفطنة أن يخضعوا لقانون من القوانين ، وان خير قانون يخضعون لهُ هو قانون بلادهم الأصلية

فلما قامت الدولة العثمانية ، كان نظام الامتيازات قد رسخ فحافظت عليهِ . فعقدت الحكومة العثمانية معاهدة الامتيازات الأولى سنة ١٥٣٦ مع الفرنسيين . فكانت معاهدة تجارية ومعاهدة إقامة تخول الفرنسيين الاقامة في تركيا وتعين نوع القضاء الذي يخضعون لهُ . وضمنت المعاهدة لهم الحرية الفردية والدينية ، وخوّلت حكومة فرنسا حق تعيين قناصل لها في تركيا يكون من اختصاصهم الحكم في القضايا المدنية والجنائية الخاصة بالفرنسيين المقيمين في تركيا وذلك وفقاً للقانون الفرنسي ، وأن يطلبوا من رجال السلطان مساعدتهم في تنفيذ الاحكام

وقد جرت جميع معاهدات الامتيازات التالية على هذه الوتيرة . ففي سنة ١٥٦٩ جدّد السلطان سليم الثاني الامتيازات الفرنسية التي منحها سلفهُ . وفي سنة ١٥٨٣ فازت انكلترا بامتيازاتها الاولى وقد كانت فرنسا حتى تلك السنة حامية جميع الاوربيين المقيمين في تركيا . ثم حاولت بريطانيا بعد ذلك أن تدعي لنفسها حق حماية الاجانب في تركيا فأُبي ذلك عليها في الامتيازات الفرنسية المجددة سنة ١٥٩٧ و ١٦٠٤ و ١٦٠٧ اذ نصت نصًّا واضحاً على ان فرنسا هي حامية جميع الاوربيين الذين ليس لدولتهم سفير في الاستانة

وفازت هولندا بامتيازاتها في سنة ١٦١٣ والنمسا سنة ١٧١٨ وروسيا سنة ١٧٨٤ واقتفت آثارها أكثر الدول الاوربية في خلال القرن الثامن عشر وتبعتها الولايات المتحدة الاميركية والبلجيك واليونان في القرن التاسع عشر

وكان من شأن نظام الامتيازات الاجنبية ان اصبحت كل جالية أجنبية في تركيا بمنزلة «دولة داخل دولة» يتمتع افرادها بحرية الاقامة وحصانة المنزل وحرية السفر في بلاد الدولة العثمانية وحرية التجارة وحرية الدين والخضوع لقانون دولتهم لا لقانون تركيا

الامتيازات في مصر

طبق نظام الامتيازات على القطر المصري عند ما كان ولاية من ولايات السلطنة العثمانية، ولكنهُ عُدّل قليلاً في عهد الخديو اسماعيل عند ما أنشئت المحاكم المختلطة. وبمقتضى هذا النظام كان للاجنبي المقيم في هذه البلاد حقوق تميزه عن اهلها يمكن ان تلخص في ما يلي:

اولاً — لا يحق للحكومة المصرية ان تفرض على الاجانب المقيمين في مصر ضريبة على الدخل من دون موافقة الدول صاحبة الامتيازات. ثانياً — جميع القضايا المدنية والتجارية بين الاجانب والمصريين او بين الاجانب من رعايا مختلفة تعرض على المحاكم المختلطة. ثالثاً — جميع القضايا الجنائية التي يتهم فيها اجانب تعرض على المحاكم القنصلية الخاصة بالدول التي ينتمي اليها المتهمون. رابعاً — لا يحق للحكومة المصرية ان تفتش مقرّ اجنبي الاّ بسماح من قنصله، ولا يجوز لرجال البوليس المصري ان يدخلوا دارهُ او مكان عمله من دون هذا السماح الاّ في احوال استثنائية وهي حالة التلبُّس بالجريمة

ولا يخفى ان هذه الامتيازات واسعة النطاق تفضي الى عقد كثيرة في اقامة العدل وكثيراً ما كانت باعثاً على الجور علاوة على ما تقيد بهِ سيادة مصر في نواحٍ مختلفة من حياتها القومية

ففي المقام الاول لا يسع الحكومة المصرية ان تبسط نظام الضرائب الذي لا قيام من دونهِ لأية حكومة عصرية، ما زالت الدول صاحبة الامتيازات تستطيع ان تأبى فرض ضريبة جديدة على دخل رعاياها، ورعاياها قابضون في الغالب على ازمة التجارة والصناعة في البلاد. واذا خطر للحكومة المصرية ان تفرض ضريبة من هذا القبيل وجب ان تفاوض كل دولة من هذه الدول — وعددها اربع عشرة دولة — على حدة، وهو سبيل وعر طويل يعرف لهُ اول ولا يعرف لهُ آخر. وقد يُظن ان المسألة شكلية فقط وما على الحكومة المصرية الاّ اعداد مذكرة تطلب فيها من الدول صاحبة الامتيازات الموافقة على الضريبة المقترحة فيأتيها الردُّ بالقبول برجوع البريد. ولكن الواقع ان المذكرة المصرية تفضي الى ردود عليها فيها مقترحات معدّلة ومناقشات في امور لها صلة بالموضوع الاصلي وقد لا يكون لها بهِ صلة، وقد لا تفضي المفاوضات الى نتيجة مقبولة الاّ بعد اشهر او بعد سنين اذا افضت اليها على الاطلاق

وفي المقام الثاني، لا ينكر منكر ان المحاكم المختلطة قد رفعت عن كاهل مصر جانباً كبيراً من

عبء مفاسد الامتيازات كما كانت تمارس فيها قديماً او في السلطنة العثمانية بوجه عام ، ولكنها أصبحت وسيلة فعّالة تستعملها الحكومات صاحبة الامتيازات للضغط السياسي على الحكومة المصرية ، وللتدخل في التشريع المصري ، لان هذه المحاكم غير ملزمة بتطبيق اي تشريع جديد تصدره الحكومة المصرية ،الاّ اذا وافقت عليه الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة . فكأن هذه الجمعية اصبحت في مصر وفي عصر الدستور خاصة ، مجلساً تشريعيًّا ثالثاً في دائرة معيّنة

ومما قالهُ لورد كرومر في هذا الصدد في كتابهِ مصر الحديثة انهُ من المفارقات ان تطلب موافقة رئيس الولايات المتحدة الاميركية وملك السويد على قانون يطبق على رعايا امبراطور النمسا او ملك البلجيك . ثم انها علاوة على ما تقدم قيد من قيود السيادة المصرية لأنها تعني ان الحكومة المصرية لا حق لها في تعيين جميع قضاتها

ونتيجة التشريع بالمفاوضة الدبلوماسية قيام عقبات في سبيل التقدم وفتح الباب للمساومة

وفي المقام الثالث ، ان نظر القضايا الجنائية التي توجه فيها التهمة الى الاجانب ، في المحاكم القنصلية المختلفة ، افضى الى اختلاف بيّن في اقامة ميزان العدل في مصر . ذلك ان كل محكمة قنصلية تطبق في نظر هذه القضايا القوانين المتبعة في بلادها ، والاساليب المقبولة في اقامة الدليل، فكان من اثر ذلك ، ان اجنبيين تابعين لدولتين مختلفتين ولكن متهمين بتهمة واحدة يقدّمان كل الى محكمة بلادهِ القنصلية ، فتثبت التهمة عليهما فيعاقبان عقابين مختلفين . او قد تكفي الادلة نفسها لادانة الواحد وعدم ادانة الآخر، واذا كان لهما شريك ثالث وكان مصريًّا فقد يكون الحكم عليهِ ، من حيث الادانة ومدى العقاب ، مختلفاً عن حكم القنصليتين

وفي المقام الرابع ان المفاسد التي نشأت عن حصانة الاجنبي من تفتيش البوليس المصري ، من دون سماح السلطات القنصلية ، كثرت وتعددت وجوهها ، بحيث اسبغت على الامتيازات الاجنبية صورة بشعة يخجل منها الاجانب ويتبرّم بها اهل البلاد

ففي الجاليات الاجنبية في الاسكندرية والقاهرة وغيرها ، عناصر من هذه الجاليات اصلاً او تنتمي اليها بالتجنّس وهو الاكثر ، تحسب من اشدّ العناصر اقلاقاً للأمن وارتكاباً للمفاسد وكثيراً ما تعمد الى التحصّن وراء هذا الحقّ — اي الحصانة من تفتيش البوليس المصري — للتفلّت من العقاب الذي تستحقّهُ . ثم ان هؤلاء كثيراً ما يشتركون مع بعض المصريين ليسبغوا على الاعمال المشتركة حقوق الامتيازات ، ويغلب ان تكون هذه الاعمال المشتركة اماكن للميسر او تعاطي المخدرات او الاتجار بالرقيق الابيض . فاذا قرّر البوليس المصري ان يفتش هذه الاماكن اضطرتهُ المعاملات الرسمية التي لا مدحة عنها بحسب نظام الامتيازات الى التأخر فتتاح للمتهمين فرصة التهرُّب والنجاة . والامثلة على ذلك كثيرة

خطبة رفعة النحاس باشا
في مؤتمر الامتيازات

[وجهت الحكومة المصرية دعوة الى الدول صاحبات الامتيازات في مصر لتوفد مندوبيها الى مؤتمر يعقد للبحث في الغائها . وقد بدأ المؤتمر عمله يوم ١٢ ابريل في بلدة مونترو بسويسرا فانتخب صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة المصرية ورئيس الوفد الرسمي المصري رئيساً للمؤتمر فألقى رفعته خطبة جامعة بين فيها حقوق مصر وموقفها أبلغ بيان فنشرنا نص الخطبة كما نشرت في جريدة « المصري » مترجمة عن النصوص الفرنسية التي تلقتها بالتلغراف، وقد اضطرنا ضيق المقام الى الاستغناء عن كلمة الشكر التي وجهها النحاس باشا في مستهل الكلام الى حكومة سويسرا ورئيس اتحادها وسكرتير عصبة الامم]

ايها السادة : اني واثق كل الثقة وأنا القي هذه الكلمة في مستهل المفاوضات التي نبدأها اليوم انهُ من المتجلي لكم ان حسن نية الحكومة المصرية متوفر لكم جميعاً كما اني واثق بان هذه النية الحسنة من جانبنا تقابلها نية حسنة ايضاً من لدن الدول ذات الامتيازات

وانا ونحن اقوياء بحقنا واقوياء باعتدال المقترحات التي نقدمها واقوياء كذلك بروح التفاهم الذي يخالجكم قد دعوناكم الى هذا المؤتمر الذي سيوثق على قاعدة اكثر مرونة وانسجاماً العلاقات بين مصر والاجانب ويسم صلاتنا المقبلة بروح حيوية جديدة

ان المشكلة التي سنبحث حلها معاً هي بالاختصار من أبسط المشكلات ومن اكثرها وضوحاً ونحن نعرضها للبحث بصراحة تامة اذ نطلب الغاء الامتيازات حالاً وانا اذ نفعل ذلك لا نطالب بشيء من شأنه ان يثير المخاوف او الظنون وحسبنا لاقامة الدليل على عدالة قضيتنا ان نذكر ان جميع الدول تعمل على تحقيق المساواة في المعاملة لرعاياها وكل ما تطلبهُ مصر هو ان تعيد مساواة ابنائها الوطنيين بالاجانب المقيمين في أرضها

ايها السادة : ان الامتيازات تؤلف نظاماً يتعارض تعارضاً استثنائياً مع روح العصر ولا ينسجم مع حالة مصر الحاضرة ومع حياتنا الوطنية بل هي اعتداء فاضح على كرامة البلاد وعلى تطبيق مبدأ سيادتها فضلاً عن انها تشل حركتها بين الدول المتحضرة

ثم ان هذا النظام قد زال تقريباً من جميع البلدان التي كان قائماً فيها ولاسيما في تركيا حيث كان منشأه وقد ورثناه عنها ، افلا يكون من العجيب ان يظل قائماً في مصر في هذه الساعة .

ولا يسع المرء ان يتصور ذلك عندما يذكر التقدم الذي تقدمتهُ مصر في جميع الميادين وفيه دليل على نموها وتطورها الى اعظم درجة . وفي الواقع ان مصر قد بنت على احدث القواعد نظم التشريع وادارة القضاء وتنظيم المالية في الداخل وفي ادارتها وفي البوليس . وعلاوة على ذلك فان مصر

محكومة بدستور مستمد من اكثر المبادىء الدستورية تحولاً وتقدماً وحياتها البرلمانية حرة وثابتة ومصر بلاد مسالمة الى اقصى حد وهي تحترم المصالح الشرعية وحسن ضيافتها مضرب المثل . فنحن اذن نتقدم الى هنا ولنا ثقة بان دوام الامتيازات سيبدو لكم امراً لا يمكن التسليم به كما يبدو لنا تماماً

لقد قلت ان الامتيازات اعتداء صارخ على سيادة مصر واقول هنا انها انشئت في الاصل لضمان الاجانب من كل حيف او غلو في المعاملة في الضرائب والرسوم وقد تحولت شروط اقامتهم في مصر على مرّ الزمان وتباعاً تحولاً اضاف الى هذا الضمان ما سمي ضمانات مالية جعلت الاجنبي غير خاضع لدفع ضريبة الا اذا وافقت الدولة التي ينتمي اليها على ذلك

وسيكون من رأي حضراتكم حتماً ان حالة كهذه لا يمكن السماح بها وستقدرون ما لقيود كهذه من نتائج في عالم اقتصادي معقد وازاء مقتضيات مالية تزداد زيادة مطردة فانها — اي تلك القيود — لا تمكن من تحقيق اي تقدم مستمر كما انها تحول دون تحقيق اي عمل اجتماعي واسع النطاق بعيد الاثر . وبين المساوىء التي ولدتها الامتيازات بتفسيرها تفسيراً خاطئاً وبتطبيقها تطبيقاً سيئاً فاسداً يجيء في الطليعة الامتياز المالي فهو من أثقل تلك الامتيازات وطأة على حرية العمل في الدولة المصرية اذ لا يسع الدولة ان تفرض ضرائب على الوطنيين بدون ان تفرض الضرائب ذاتها على الاجانب وذلك تطبيقاً لمبادىء الانصاف الاولية ولتجنب المداورات والهرب من الضرائب

ويقال مثل ذلك عن الضمانات التشريعية والقضائية التي نشأت عن الاغلاط عينها وعن التفسيرات ذاتها فقد نشأت سلطة القناصل القضائية في بادىء الامر نشأة متواضعة جداً في مستهل عهدها وكانت مقتصرة على الخلافات والمنازعات التي تقع بين اجانب من جنسية واحدة فانتهى الامر بواسطة سلسلة من الافتئاتات الفاسدة الى خلق حالة شبيهة بالفوضى وكان يكفي ان تمنح احدى الدول نفسها امتيازاً ما لا حق لها فيه لكي تسلك الدول الاخرى مسلكها مع اعترافها بعدم شرعية ذلك الامتياز ، وقد صحب هذا التوسع في الامتيازات تعمق في تطبيقها ، فانهُ منذ سنة ١٨٥٠ لم تزدد الامتيازات فقط بل انها اصبحت تطبق على عدد اكبر من الناس ، ومن هنا غدت العلاقات بين المصريين والاجانب اكثر تعقيداً مما اوجد حالات جديدة للنزاع كانت تسويتها ذريعة جديدة لافتئات جديد

وافضى تراكم المخالفات والاساءات الى ان اصبح الامر سيئاً الى الاجانب انفسهم وهذا ما أدى في الواقع الى انشاء المحاكم المختلطة وبينما خطر للدول ان تكون هذه المحاكم بمثابة هيئة تحت التجربة قررت حكومة الخديو ان تكون المحاكم المختلطة نظاماً مؤقتاً ريثما تؤلف هيئة من القضاة المصريين مدربين على النظم الاوربية وتنظم السلطات القضائية الاهلية ، وفي تحديد مدة المحاكم المختلطة بخمس سنوات في بادىء الامر ثم ادخال نص حق الغائها بعد اعلان الدول

بسنة من الزمان — حقق في نظر هؤلاء واولئك هذه الصفة الوقتية بوجه خاص

ان الغرض الذي اتجه اليه الخديو اسماعيل ونوبار باشا رئيس وزرائه اي انشاء قضاء يطابق روح العصر والعمل على انشاء هيئة قضائية وطنية منسجمة قد تحقق من زمان طويل . فأنشئت قوانين مستوحاة من الارتقاء الحديث في التشريع لـكي تطبقها المحاكم الاهلية

وقد بدا في هذه القوانين وتنظيم المحاكم الجديدة تحسينات جمة بالقياس الى القوانين التي وضعت قبلاً . فالمحاكم الاهلية التي انشئت منذ نصف قرن قد اجتازت دور التجربة ودلّت على كفايتها .والحكومة المصرية لم تكفّ مطلقاً من ناحيتها عن ادخال جميع وجوه الاصلاح التي دلت التجارب على وجوبها

واذن يحق لنا ان نقول ان مدة المحاكم المختلطة قد انتهت

ولـكن لما كانت مصر ترغب في ان تقيم الدليل على اعتدالها وعلى محافظتها في نطاق امكانها على مصالح الافراد المرتبطين بطبيعة اعمالهم بهذه المحاكم لم تشأ ان تفكر في الغائها الغاء عاجلاً وقبلت الاحتفاظ بها خلال مدة معقولة على ان لا تطول اكثر مما يجب

ولـكن ذلك لايمكن ان يطبق على وظيفتها التشريعية . ولا يسع المرء الا ان يدهش من ان محكمة للعدل مكلفة تطبيق القوانين يكون لها اختصاص تشريعي . والواقع ان من نتائج الامتيازات غير المتوقعة والتي لايمكن تفسيرها انهُ بينما كانت الدول غير معنية الاّ بالضمانات القضائية حملت مصر على طلب موافقة الدول على كل تعديل في القضاء المختلط . وقد قبلت هذه الدول بعدئذٍ ان تعهد في سلطتها الى الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة . ولـكن في ذلك حالة لا تتفق مع مقتضيات حكومة عصرية

ان هذه الحالة حالة القاضي المشرع مناقضة بداهة لمبدأ فصل السلطات . ومن ناحية أخرى لا يسمح الوقت للقاضي ولا مؤهلاته ولا عدم حمله المسؤولية التشريعية بالنهوض بهذا العمل

وعلاوة على ذلك وبوجه خاص ان هذا تحديد خطر للسيادة ليس أقل نتائجه انهُ يجعل من المتعذر التفسير التشريعي للقوانين وهذا مخالف لروح التشريع اذ كيف يستطيع البرلمان وهو الاداة الطبيعية للتشريع أن يوفق بين عمله وبين حالة كهذه تنتقص من حقهِ العام

وان مصر التي في وسعها ان تضمن لسكانها الاجانب والوطنيين قوانين هي من أرقى القوانين ولها مجلسان تشريعيان ودستور هو من اكثر الدساتير حرية لا تستطيع ان تقبل الاحتفاظ بامتياز مرهق كهذا الامتياز . فن الطبيعي أن يشتمل برنامجنا على الغاء الامتيازات من جميع وجوهها ومنها الغاء عاجل لـكل حصانة تشريعية بما فيها الحصانة المالية

أما المحاكم المختلطة فلا يمكن ان تبقى كما هي خلال فترة الانتقال لان هذه الفترة لم تفترح

الا لتفضي الى الغاء المحاكم المختلطة بتحولها تحولاً تدريجيًا . ولولا ذلك لم يكن ثمة مانع من ان تلغى حالاً . ولكن الرغبة في ان تجعل هذه الفترة فترة انتقال حقيقية ولكي نصل تدريجاً الى الغرض المقصود نبغي ان نسير بطريقة تجعل هذا الانتقال يتم من غير رجة

وهذه الطريقة تشتمل على اجراءين : أولاً — نقل اختصاص المحاكم القنصلية الى المحاكم المختلطة . ثانياً — انشاء نظام للمحاكم المختلطة تقل فيه العناصر الاجنبية تدريجاً فتمهد السبيل لقيام المحاكم الاهلية بعملها

أما ما يتعلق بنقل اختصاص المحاكم القنصلية الى المحاكم المختلطة فيفسر بضرورة توحيد ادارة القضاء . وليس ثمة ما هو أعظم خطراً من تعدد القضاء الجنائي في بلاد واحدة لان القانون الجنائي يجب ان يكون وحدة متماسكة تبين الاجراءات الضرورية لحفظ الامن والنظام في بلاد ما في وقت معين واذن لا يمكن للعقل ان يتصور الاعتماد على قوانين أجنبية ومحاكم أجنبية لحفظ النظام بمصر

وعندنا في هذا الصدد أمثلة تبعث على القلق تدل على عدم المساواة في الاحكام في قضايا حكم على أصحابها او المشتركين معهم أحكاماً مختلفة في جرائم واحدة او جنح واحدة

أما في ما يتعلق بنقل قانون الاحوال الشخصية الى المحاكم المختلطة فليس هناك أي صعوبة فعدا كون هذه المحاكم كانت تنظر الخلافات التي من نوع شخصي علاوة على غيرها من الخلافات المدنية التي من اختصاصها فانها لن تكون أقل قدرة على تطبيق القوانين الاجنبية من تطبيق القوانين المختلطة . ثم ان مجموعة قواعد القانون الدولي الخاص تكفي لطمأنة الجميع وتبديد كل المخاوف

أما الاجراء الثاني اي انشاء فترة انتقال فغني عن البيان ان الخطوة الاولى هي الغاء مبدأ اكثرية القضاة الاجانب . ان هذا المبدأ لا يمكن ان يتفق وفكرة الانتقال نفسها . فاذا بدأنا بفكرة ابقاء القضاة الاجانب القائمين بالعمل الآن كان القول بالغاء مبدأ الاكثرية الاجنبية هو الصيغة الوحيدة التي تضمن الانتقال الحقيقي . فالقوانين الخاصة بالقضاة في ما يتعلق بعدم نقلهم او عزلهم والضمانات الضرورية لصون استقلالها تبقى من دون تغيير تقريباً . ولكن أهم التعديلات تتعلق بمادة الاختصاص وهي من نوعين مختلفين

فتعديلات النوع الاول تقصد الى توسيع نطاق القضاء والاخرى الى تحديده في بعض النقاط وهذه الاخيرة مرتبطة بمستحدثات قضائية في المحاكم المختلطة وهي تحديد معنى « الاجنبي » ومعنى « المصلحة المختلطة » وغيرها وان القاعدة الجديدة في التنظيم القضائي انما تعود الى الفكرة الاصلية التي توخاها واضعو لائحة ١٨٧٥ بابقائهم المساواة التامة بين القضاء الاهلي والقضاء المختلط وبالنص على انهُ من حق الاجنبي اذا شاء ان يخضع للمحاكم الاهلية

اما في القانون الجنائي فسيحتفظ بالقوانين القائمة في المحاكم الاهلية ويضاف اليها الاختصاص في الجرائم والجنح التي يرتكبها الاجانب

أيها السادة: هذه هي القواعد الاساسية للمشروع الذي سيتشرف الوفد المصري بابداعه مكتب المؤتمر فليطمئن الأجانب الذين لا يعرفوننا . ففي أي بلاد من بلدان العالم يرون انسجاماً بين الاجانب والوطنيين أتم مما يرونه في بلادنا ؟ أين يجدون حسن ضيافة وتساهلاً ولطفاً في العلاقات وظرفاً في المعاملات ومودة حقيقية بلغ من تغلغلها في القلوب من زمن بعيد ان أصبحت تقليدية وكأنها طبيعية . والى شعور الصداقة هذا ينضم عامل آخر هو عامل مصلحتنا في المحافظة على تعاون يؤذن في المستقبل بخير الثمار . ومن الواجب عليّ في هذا المقام ان اذكر بالاحترام العلماء والمعلمين والماليين والتجار وجميع اجيال الاجانب من اصحاب المواهب العالية والنية الحسنة الذين ما زالوا منذ قرن من الزمان ينقلون الى بلادنا كنوز معرفتهم وخبرتهم ونشاطهم. ان ذكراهم ستهيمن دائماً على العلاقات الودية المتوثقة لحسن الحظ بين جميع سكان بلادنا وتبدو خاصة في الاحتفاء الطيب الذي تعده مصر لضيوفها الاجانب . ان تقاليد التساهل والتسامح التي اقامت مصر عليها الدليل دائماً في الماضي تسمح للمصالح الاجنبية المادية بل للمصالح الذهنية والمعنوية كذلك بأن تنمو نمواً حراً في ظل القانون

ايها السادة : بعد معاهدة الصداقة والتحالف التي عقدناها مع بريطانيا العظمى تنوي مصر ان تنتظم قريباً في جامعة الامم لكي تنهض بحرية بنصيبها من التبعات الدولية في خدمة السلام والانسانية على اساس من المساواة مع الدول الاخرى. وان مصر لتشعر بتبعاتها الحقيقية ولكنها لا تكون خليقة بمكانتها الا اذا عنيت دائماً بالعمل والتعاون مع الجميع لتضمن العدل والسلام

وعلى كل حال فان مواطنيكم الذين يقطنون بلادنا قد ادركوا ذلك من زمن بعيد ولذلك اشتركوا بنصيب فعال في افراحنا القومية التي صحبت توقيع المعاهدة البريطانية المصرية

واذا كانوا وقد عاشوا في وادي النيل المطمئن ورأوا حتى في أشد الساعات حرجاً أشخاصهم وممتلكاتهم مصونة فكيف لا يستطيعون الاستيثاق من ان هذا الصون سيكون أتم في المستقبل في ظل حكم طبيعي سوي ؟

ومن بواعث سرورنا العظيم ان نرى مواطنيكم محتفظين بصلاتهم العاطفية والعقلية بأوطانهم لا يترددون مطلقاً في الدخول في نطاق الوطن المصري الذي ينوي ان يبسط من دون تمييز على جميع دوائر النشاط نعمة القوانين العادلة المعتدلة الحرة . اننا نريد ان نصل الى نتيجة ولا بد ان نصل

ومهما تكن المصالح التي يتناولها هذا المؤتمر كبيرة فان نجاح المؤتمر مصلحة اكبر لانهُ يفسر في مصر بانهُ البرهان القاطع على روابط الصداقة القديمة التي تربط المصريين والاجانب

امتيازات الملوك

بقلم امين الغريب

مما يستحق الذكر ان الملوك لا يدفعون رسوماً ولا ضرائب لمحض ان هذه الفرائض قد ضربت على الناس لاجل تأييد العرش وتأمين معاشٍ كافٍ وافٍ للجالس عليهِ سعيداً . فلا يعقل ان يؤخذ من جيب الملك نفسهِ بعض المال ليوضع في الجيب الآخر

على أن هذا المبدأ قد تغير الآن . وصار الملك يتناول مرتباً مخصصاً لهُ من الخزانة . اما باقي الواردات فبدلاً من ان يكون اليوم كما كان في الماضي مطلق التصرف بها يأخذ منها ما يشاء ويعطي ما يشاء — صارت الآن محرمة عليهِ تنفق بمعرفة المجالس النيابية على مصالح الامة او — كما هي الحالة في بعض الاماكن البائسة — على مصالح الموظفين دون سواهم من الامة

فاليوم جورج السادس ملك الانكليز لا يستطيع ان يكافىء شاعراً مدحهُ بقصيدة مثلاً — بعشرة آلاف دينار كما كان الملوك يفعلون في صدر الدولة العربية . او عند ما يسمع نكتةً لطيفة من زائر غريب أن يصيح بأعوانهِ : « زهْ . زه . املأوا فمهُ ذهباً » كما كان يفعل كسرى انوشروان. ولئن اعطى احد ملوك اليوم شيئاً زهيداً فذلك من مخصصاته المعينة المسجلة

على ان ملك الانكليز الاسبق جورج الخامس لما تبوأ العرش البريطاني سنة ١٩١٠ سئل هل يريد ان يقتفي أثر والده ادوارد السابع وجدتهِ فكتوريا في عدم التمتع بحقهِ القانوني الذي يعفيه من دفع الضرائب فأجاب : « كلاَّ . بل اريد ان اتمتع بهذا الحق واعفى من جميع الضرائب والرسوم »

وقد قال ذلك بناء على رأي مستشاريهِ طبعاً . اما الملكة فكتوريا فكانت قد تنزلت عن ذلك الحق ودفعت الضرائب لان الاحوال في بداية عهدها (سنة ١٨٤٢) اقتضت انشاء (بل اعادة) الضريبة على الدخل . وهي ضريبة عادلة اشدّ انطباقاً على العقل والمنطق من سائر الضرائب المفروضة على الشعوب . فالذي يربح مالاً من اي وجهٍ كان يدفع الى الحكومة رسماً على ما يربح . والذي لا يربح يعفى بطبيعة الحال . وهكذا لا يبقى الفقير مظلوماً والغني غير ممسوس بشيء كما هي الحال في البلدان المتأخرة . لكن الانكليز ولا سيما اغنياءهم لم يرتاحوا طبعاً الى القانون الجديد . وكانت فكتوريا العاقلة الرصينة مقتنعة بصوابه. فأعلنت انها تتنزل عن حقها في عدم دفع الضرائب وتخضع من تلقاء نفسها له قاصدة بذلك ان يخجل المتذمرون وتزول العقبات كلها من امام الجباة

ولما خلفها ادوارد السابع تابع العمل العظيم الذي بدأتهُ والدتهُ العظيمة . وزاد على ذلك بعد عامين من جلوسهِ على العرش انهُ تنزل عن حقهِ في اعفاء ما يرد باسمهِ من الخمور والمشروبات الروحية والدخان من المكوس الجمركية. وكان هذا المبلغ جسيماً لان هذه المكوس باهظة وما يرد من تلك الاصناف على البلاط الملكي مقادير كبيرة . وقد استحسن الملك ادورد السابع ان يخسر من مخصصاتهِ ذلك المبلغ وهو نحو خمسين الف جنيه في السنة لكي يربحهُ صندوق واردات الحكومة

فلما جاء الملك جورج الخامس ودرس حسابات القصر ودقق في سجلات النفقات والواردات رأى الامور بغير العين التي كانت لوالده . لان جورج كان يتناول في عهده الراتب عينه الذي قرره القانون لجدتهِ فكتوريا عام ١٨٣٧ ووالده ادوارد السابع سنة ١٩٠١ ومعلوم ان الجنيه في عهد فكتوريا كان يشتري أكثر كثيراً من الجنيه في عهد جورج . ولهذا أبى الحفيد ان يتابع الخطة التي درجت عليها جدتهُ . وأقرته الحكومة على عمله بكل طيبة خاطر

على ان الملك جورج الخامس تخلص في هذه الخطوة من كل ملامة وعتب من جانب رعاياه باتفاقهِ مع الحكومة على ان تدير هي الاملاك المخصوصة بهِ من أراضٍ زراعية ومسقفات كثيرة لحسابها لقاء ثلثمائة الف جنيه تدفعها لهُ نقداً كل سنة . وهي ما زالت تدير هذه الاملاك وتربح لخزانة الدولة مبلغاً جسيماً بعد حسم المال المتفق على تخصيصه لهُ

وقد سببت هذه الأعمال في البلاط البريطاني مشكلات عديدة لملوك آخرين . لأن صحافة ايطاليا وبلجيكا وهولندا وأسوج ونروج والدانمارك وفي العهد السابق المانيا والنمسا حملت حملات صادقة على ملوكها كي يقتدوا بملك الانكليز ويتنزلوا عن حقهم القديم في عدم دفع الضرائب . لكن ملوكهم لم يقتنعوا . ولما جاء الملك جورج الخامس الانكليزي أيدهم هو أيضاً في عدم الاقتناع على ان الشعوب أحياناً اذا أطعمت الكراع طمعت بالذراع . فان الملكة فكتوريا الانكليزية نوقشت في صحف بلادها حسابات مرةً ، مرةً بعد مرة ، لانها لما تنزلت عن حقها في عدم دفع الضرائب استثنت الرسوم البلدية خصوصاً وتمنعت عن دفعها . وقد بلغ الحقد من بعض المجالس البلدية انها أقامت قضيةً على فكتوريا لدى المحاكم بطلب تلك الرسوم منها أسوةً بسواها. لكن المحاكم أسرعت الى رد هذه القضية ضاربةً بها عرض الحائط

وهذه الامتيازات الملكية في انكلترا تتجاوز شخص الملك وتشمل أبعد أنسبائهِ . من ذلك ان والدة ماري الملكة الوالدة الحالية، وهي الدوقة تك، استطاعت قبيل موتها بقليل تعطيل قضية مقامة على زوجها الالماني في محكمة رتشموند البريطانية بطلب رسم بلدي على كلابهِ . وقد سقطت هذه القضية بمحض ان الدوق تك حمو جلالة الملك ، وبالتالي من السلالة المالكة . أما ادوارد السابع فكان ، وهو ولي عهد، يدفع للمجالس البلدية التي لهُ أملاك في مناطقها تقدمة مالية سنوية.

لكنهُ امتنع بعد تبوإ العرش عن ذلك لكثرة ما آل الى عهدتهِ من الاملاك في مناطق عديدة

أما في ألمانيا فكان الامبراطور والملوك والصغار جميعهم يدفعون المكوس على وارداتهم الاجنبية عند وصولها الى الحدود الخارجة عن حدود ممالكهم الخاصة . فالامبراطور لم يكن يدفع شيئاً لجمرك برلين لأنها في أملاكه . لكنهُ كان يدفع مثل رعاياه لجمارك البلدان الخارجة عن نطاق روسيا . وقد مازحتهُ الجرائد الالمانية كثيراً عند ما سنت حكومتهُ سنة ١٩١٠ قانوناً يرفع كثيراً المكوس المفروضة على الخمور الفرنسية . فأمر الامبراطور بالتعجيل في استجلاب ملء شاحنات حديدية ثلاث من اجود أنواع الخمور الفرنسية وأطيبها حتى تقطع افريكور بعد ظهر ٣٠ يونيه من تلك السنة . وذلك لانقاذها من دفع الزيادة على المكوس التي كان مقرراً تنفيذها في الغد ، اي من أول يوليه فصاعداً

وقد اهتمت صحف المانيا بذلك لما كان الامبراطور غليوم الثاني يتبجح بهِ من الكره لكل خمر غير الماني ولا سيما الشمبانيا الفرنسية . وهو كرهٌ لفظي لم يصدقه في وقتهِ احد . وما كان بسمرك عالماً باحتيال مولاه في ابدال الورق الملصق على القناني الفرنسية بورق الماني تمويهاً وتضليلاً للجالسين على مائدتهِ الامبراطورية . لان ذلك السياسي الداهية كان يؤكد ان الشمبانيا الالمانية تفسد لهُ معدته . وانهُ مع استعداده الدائم للتضحية بنفسهِ كلها في في سبيل وطنهِ لم يكن مستعداً على الاطلاق للتضحية بمعدتهِ وحدها

والشيء بالشيء يذكر . فنقول ان تمنع الملوك الالمانيين عن دفع الرسوم في بلدانهم كان مع قانونيتهِ يثير عليهم صخب الرأي العام احياناً . فان دوق سكس ماتنجن كان واسع الثروة جداً وقد ادى اعفاء أملاكه من الضرائب الى فقر الخزانة غالباً حتى اخذت الحكومة تبث روح المقت لهُ ، وصار كل موظف يتأخر عنهُ مرتبهُ يضع الحق في ذلك على الدوق ويدعو لهُ باشياء كثيرة غير طول العمر

ومعلوم ان بعض الملوك كانوا ولا يزالون يتاجرون نظير رعاياهم لا رأساً وصراحةً بل بالواسطة وفي الخفاء. فليوبولد الثاني جد ملك بلجيكا الحالي كان يدير اشغالاً عظيمة في ولاية الكونغو الحرة . والامبراطور غليوم الثاني الالماني وملوك اسوج وبافاريا وورتمبرج وهس كانت لهم علاقات مالية كبيرة ببعض الفنادق الكبرى وسكك الحديد والمصارف . فلا غرو في أن ينكر الناس عليهم حق التمادي في التمنع عن تأدية الضرائب نظير سواهم من العباد

ولا بدَّ من الاشارة الى أن ليس بين ملوك الارض الذين تقوضت اراتكهم اوسلمت في هذا العصر من يساوي ملك الانكليز في التخفيف عن عواتق رعاياهُ لاجل القيام بأوده . ولا نستثني ملك مونا كو وملك لتشنشتين الصغيرتين

ان جمهوريات فرنسا والولايات المتحدة حتى سويسرا نفسها التي رتبت لرئيسها خمسين جنيهاً في الشهر فقط تنفق على رؤسائها اكثر من انكلترا على ملكها واسرته. اما المستعمرات البريطانية والدومنيون فلا تدفع فلساً قط لاعاشة الملك. بينما املاكهُ الخاصة التي تديرها الحكومة لقاء ثلثمئة الف جنيه في السنة تدرُّ لها فوق ذلك نصف مليون جنيه. والملك يعلم ذلك كما كان والده وجده وجدة ابيهِ يعلمون من قبله. لكنهم رأوا ما يصيبهم من هذه الصفقة كافياً فلم يشاءوا الزيادة. وبدلاً من ان تكون الاسرة المالكة في انكلترا عبئاً ثقيلاً على عاتق الامة بلغ الربح الذي اصاب الامة من ادارة الاملاك الملكية من بدءِ هذه الصفقة اي منذ مائة سنة نحو سبعة وسبعين مليون جنيه. وهذا طبعاً في عداد الاسباب التي لاجلها يحب الانكليز ملكهم كثيراً ويدعون في نشيدهم الوطني: « الله يحفظ الملك »

ومعلوم ان ملك انكلترا لا يزال بمقتضى القانون مطلق السلطة كما كان سلفهُ القديم وليم الفاتح. فهو رئيس الاشتراع في البلاد. وما المجلس النيابي الاَّ من اعوانهِ. ولا يصير القانون قانوناً بدون تصديقه. ومفروضٌ حضوره في كل محكمة. وهو قادر على العفو عن جميع المجرمين. ولا سبيل الى مقاضاتهِ او محاكمتهِ على ذنب. لكن هذه الامتيازات كلها صورية فقط لم يسبق لملك أن استعان بها او أمر بامتحان قوتها. لان الملوك في كل مكان رضوا بالتخلي عن كثير من امتيازاتهم الداخلية، ورضوا بالتجويف التام لمركزهم العالي كي يحتفظوا بالسلطة الظاهرة والضمان الخارجي

على ان الملك الانكليزي مع افتراض حضوره قانوناً في كل محكمة لا يستطيع طبعاً ان يحضر بنفسهِ. وقد امتنع الملوك من عهد فكتوريا عن حضور المناقشات في مجلس النواب. وهم لا يشهدون المجلس الاَّ يوم افتتاحه فقط عند تلاوة خطاب العرش. وفي نهايتهِ ينصرفون

ولكن لا يجوز لاحد الوزراء والنواب ان يشير ولو من طرف خفي اثناء المناقشات الى ما هي رغبة الملك او رأيه في موضوع البحث. ففي اجتماع ١٧ ديسمبر ١٧٨٣ قرر مجلس الامة البريطاني: « ان اذاعة رأي حقيقي او مزعوم لجلالة الملك في اية مناقشة كانت من مناقشات المجلسين الاعلى والادنى بقصد التأثير في الاقتراع يعد جرماً كبيراً مضراً بشرف التاج ومخالفاً لاساس الامتيازات النيابية ومزعزعاً للقانون الاساسي »

ولما قال النائب تيرني في احدى الجلسات سنة ١٨٠٨ ان احد زملائهِ كان « قد خالف رأي البلاد في خطابه ورأي المجلس وفي اعتقادي رأي الملك » انتهره الرئيس ونبههُ الى ان لا حق لهُ في ادخال رأي الملك الشخصي في المناقشة

في عهد الملك جورج الثالث كان مفروضاً رسم خاص على كل من يعبر جسر همتن. وكان

الملك يصطاد الغزلان مع رفاقٍ لهُ . فانقسموا شطرين وطارد احدهما غزالاً الى ضفة النهر . فسبح الغزال الى الضفة الثانية . واسرع مطاردوه الى الجسر . ولما خشوا من التوقف لدفع رسم المرور ان ينجو الغزال بنفسهِ في الجهة الاخرى صاحوا بحارس الجسر : « الملك . الملك » . ففتح الحارس الباب على مصراعيه . ودخلوا كلهم بدون رسم . ولكن بعد هنيهةٍ جاء الملك نفسهُ ورهطهُ وقالوا للحارس : « افتح للملك » . فرفض الرجل قائلاً ان الملك سبقهم ومن وبعد اللتيا والتي أفهموه انهُ مخدوع ففتح الباب متكدراً وقال : « ان مرَّ من هنا ملك فرنسا فلن أفتح لهُ » . على ان الغزال الذي كان الملك ورهطهُ يطاردونهُ نجا بحياتهِ اثناء الجدال . فغضب الملك واستدعى حارس الجسر ليوبخهُ . لكنهُ عاد فاقتنع بصحة كلامهِ ودفع لهُ الرسم المعين عن اربعين من رفاقهِ

وبعد يومين مرَّ جورج الثالث من هناك وعبر الجسر صائحاً من مركبتهِ بالحارس « ان ملك فرنسا لن يمرَّ اليوم من هنا »

وملك انكلترا يعد صاحب مهود الانهر كلها . وصاحب الجزر التي تكون على شواطىءِ بلاده . ولهُ الحق الخاص دون غيره في طبع التوراة وكتاب الصلوات الانكليكانية . وكل سمكة « سلطان ابرهيم » (بوربوني) يصطادها الصيادون تكون لهُ . وكل حوت يكون رأسهُ لهُ وذنبهُ للملكة بمقتضى القانون البريطاني

ثم ان الملك ادوارد السابع وحده كان كاهناً بحسب طقس الكنيسة التابع لها . يأخذ جنيهاً واحداً في السنة من كنيسة القديس داود في وايلس لقاء حقهِ في القاء عظة واحدة كل سنة من فوق منبرها . وكان محامياً قانونيًّا . ودكتوراً في الطب . على انهُ لم يرافع بتاتاً في قضية لعجزه بمقتضى القانون عن الحضور الذاتي في المحاكم . ولم يطبب احداً لان احدى الجامعات اهدت أليهِ لقب دكتور طب ، وهو املس من هذا العلم

ومما يستحق الذكر ايضاً ان لملك انكلترا حقًّا قانونيًّا في ان يمنع ايًّا كان من رعاياه من مغادرة البلاد . وان يستدعي ايًّا كان منهم اليها . لان الدفاع عن الملك حقٌّ له على جميع رعاياه ولكن ليس له ان يخرج انكليزيًّا من انكلترا رغم انفه لهذا الغرض . فحق الدفاع عن ملك انكلترا يتناول انكلترا وحدها لا خارجها

وبالتالي كل انكليزي يخرج من بلاده للدفاع عن حقوق العرش والتاج يفعل ذلك من لطفه وكرم اخلاقهِ بمقتضى القانون الاساسي اذ لا حق في ذلك للملك عليهِ

ويعلم الله ان الانكليز قد تلطفوا كثيراً مع ملكهم بخروجهم المتواتر حتى جعلوا الشمس لا تغيب عن املاكه

باب المراسلة والمناظرة

نظرات لغوية في

مختار الصحاح

للأب أنستاس ماري الكرملي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

١ — تمهيد

ألف الجوهري معجمه (الصحاح) ، فذاع بين الناس ذيوعاً عجيباً وأصبح حجة ، يستشهد به كل من أراد ان يدعم كلامه بدعامة متينة ، او يصحح ، او ينزّه قوله عن كل شائبة أو شائنة . ولما شاع في أندية الأدب ، ومجالس العلم ، حسده عليه جماعة ، وحاولوا ان يحطوا من منزلة صاحبه ، لكن ذلك التنقص زاده علاء وسلطة على من ساوره وعاداه . فكان كل ما أخذوه عليه : « قذيفة شيطان رجيم رمى بها »

وأخذت طائفة أخرى تصنف المعاجم ، ومن وقت الى وقت تشير فيها الى ما في الصحاح من المغامز والاوهام ، فلم يؤثر ذلكم النقد الى ما في بحار الجوهري من الدرر واللآلىء ، بل الفرائد الغوالي ، وبقي تصنيفه عالي المقام ، كما ان القمر ، لا يناله الضرر ، اذا ما عابه الاطفال ، أو شتمه الانذال

هذه هي منزلة ابي نصر اسماعيل من البصراء وفقهاء اللغة . ثم جاء الامام زين الدين بن محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي في المائة السابعة للهجرة ، (وهي المائة الثالثة عشرة للميلاد) واختصره اختصاراً حسناً سماه : (مختار الصحاح) ، فاتخذه كل متفقه أو أديب يجتزىء بالوشل عن الفيض ، وبالقل عن الكثر ، فتخلل الطلبة والمنتمين الى المدارس ، وتناولته أيدي الكبار والصغار ، لأن صاحبه وضعه على طرف الثمام

وقد نسخ هذا السفر مراراً لا تحصى ، وترى منه أمثلة في البلدان العربية اللسان ، لا بل في الديار الاعجمية ، كايران والهند وربوع الترك ، وارجاء الافرنج ، ومطارحهم . وكذا يقال عن طبعه ، فانه نشر في اصقاع شتى ، وأفاد مطالعيه الفوائد الجلى . وأحسن طبعاته ما برز بحلة قشيبة في المطبعة الاميرية العامرة من وادي النيل المبارك ، على ما رتبه صاحب العزة محمود خاطر بك ، وقيده بالشكل الكامل صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية سابقاً ، وعني بتصحيحه وتنقيحه وتعليق بعض حواشيه حضرة الزميل الصديق صاحب العزة الشيخ احمد بك العوامري ، من أعضاء

مجمع اللغة العربية الملكي . ولهذا السبب قررت وزارة المعارف العمومية المصرية طبعه على نفقتها ، واستعماله في المدارس الاميرية ، فجاء تحفة من التحف يتفاخر بها أرباب فن الطباعة ، وأبناء المدارس

ولما كان هذا المعجم في منتهى النفاسة ، مع ما عليه من صغر الحجم ، كان من الحق ان يخلو من كل شائبة ، او وصمة ، او عيب أيًّا كان . وقد رأينا في طبعته هذه ، بعض المغامز نود ان لا تكون فيها في الطبعة الجديدة الآتية ، ونفضل نشرها في المقتطف لما نالت هذه المجلة من الانتشار في الآفاق ، والذيوع بين ظهراني المنتمين الى الأدب الصحيح وعشاق اللغة المضرية

ونحن لا نتكلم هنا الآن عن اخلاص نية ، بغية الانتفاع بهذه الفريدة الخريدة صادق الانتفاع ، وسعياً لان يكون آية من آيات التحقيق والامعان في التدقيق

٢ — ملاحظات عامة

قال مرتب الديوان في المقدمة التي صدره بها ماهذا بعضه بحروفه : « هذا وقد أتى على (المختار) من تحريف النسخ والطبع ، ما تنكرت معه صورته ، ورثى له من أجله صاحب العطوفة الهمام ، « حسين فخري باشا » ، ناظر المعارف العمومية ، وصاحب السعادة « يعقوب ارتين باشا » وكيلها المفضال ، فاستقر رأيهما على اعادة طبعه بنفقة المعارف ، وعهدا في تصحيحه وضبطه الى حضرة فضيلة الاستاذ الثقة اللغوي « الشيخ حمزة فتح الله » المفتش الاول للغة العربية في النظارة ، ورغب سعادة الوكيل المشار اليه ان يستتم الفائدة من الكتاب ، وان يسهل على الطلبة تناوله ، فرأى ان يكون على اعتبار الحرف الاول والثاني كما هو ترتيب المصباح ، للامام الفيومي ، وان ترد الى كل مادة مشتقاتها التي يصعب على الطالب ردها اليها ، مع حذف ما لا ينبغي ان يطرق مسامع النشء ، بشرط المحافظة على أصل الكتاب وقد تمّ بحمد الله تعالى وفق المرام » اه

فهذا كلام يدل على ان في (المختار) تحريفاً كثيراً ، منه ما وقع من قلم النساخ ، ومنه ما جاء من الطبع . ولهذا عني العلماء المذكورون فويق هذا بتصحيحه ، واعادة نصه الى نصابه بما في الامكان — الا ان هذا العمل او هذا المسعى الحميد لا يقفنا على ان التهذيب موافق للاصل ، او مقارب له ، اذ لم يذكر لنا ان المصلحين عثروا على نسخة الاصل ، او على نسخة منقولة عن الأم . وكان يحسن بالناشرين او الطابعين ، ان يبحثوا عن مخطوط ، تكون احدى مزاياه ، هذه الحلة الكبرى ، اي ان يكون من نسخة هي ابنة الأم

وقد حصلنا نحن على مخطوط محلى بهذه المزية . ولهذا نرى من المستحسن ان ننشر بعض فصول تفيد متولي بثه بين الأدباء ليستفيدوا منها اذا ما حاولوا اعادة طبعه . وقبل ان نشرع في الكلام ونتصدى للغاية التي نرمي اليها ، يحسن بنا ان نقول كلمات ، توطئة للبحث فنقول :

كان يجدر بالناشر او الناشرين ، ان يقولوا كلمة على النسخة التي اعتمدوها لطبع الكتاب ، ويذكروا اسم ناسخه والسنة التي كتبه فيها . وإلاَّ فمجرد اخراجه للقوم بهذه الصورة ، لا يوحي الثقة في صدر المطالع فيه

وكان يستحسن ايضاً ان يصدر السفر بترجمة المؤلف ، ترجمة مختصرة ، يذكر فيها ايضاً ولادته ومسقط رأسه ويوم وفاته ومنزلته من اللغة وبعد هذا انتقل الى تدوين بعض النظرات

٣ — نظرة عامة في النسخة المطبوعة

ا — نظرة اولى في رسم الحروف

حروف المطبعة الاميرية المصرية « الحالية » مشهورة بانها من ابدع الحروف ، ومن اجمل الخط فهي لآلىء تزري بدر البحار — ان صغارها وان كبارها — الاّ ان فيها عيباً ، هو انها لا تنقط الياء التي تختم بعض الكلم ، وهي تفعل ذلك « قصداً وعن عمد » لا عن محض اتفاق . وكذلك تفعل اغلب مطابع الديار المصرية ، واغلب طلبة المدارس والعلماء في ربوع وادي النيل ، زاعمين ان سبب اهمال النقط شهرة الالفاظ ولاسيما لان التنقيط وضع للذين لايحسنون القراءة او انه يهين القارىء كأن الكاتب يحاول ان يبين جهل القارىء. فلو كان الامر كما يدعون فليهملوا تنقيط جميع احرف الكلمة، او لا اقل من ان تهمل الكلمة التي فيها ياء في رأس اللفظة او في قلبها او حشوها

وقد كتبنا مرة في (المقتطف) الاغر ، وفي رسالة خاصة ، ان اعظم علماء العربية وأمعنهم في اسرارها لا يتمكن من قراءة بعض العبارات ، ان لم يقرأها مرتين او ثلاثاً ، بل ربما لا يمكنه ان يقرأها البتة ، ان لم ينقط آخرها ، ان كان فيها ياءات . وقد عرضنا عبارة واحدة على عدة متبحرين في احكام اللغة واصولها فما اهتدوا اليها ولن يهتدوا ، ان لم يؤخذ بالاصلاح الذي نشير اليه ، ولا بد منه يوماً ، ولو طال الامد

زد على ذلك ان هذا الاهمال سبب اغلاطاً جمة في اللغة ، ووسع مدى التصحيف والتحريف فلا نعود الى هذا الموضوع ، وقد قتلناه بحثاً في ما كتبناه سابقاً ونتمنى ان تجاري مطابع ربوع ديار الفراعنة ، مطابع سائر البلاد العربية اللسان ، كسورية ، ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ، الى غيرها ، فيسهل على المطالعين ، قراءة تلك الكلمات ، من غير ان ينعموا النظر فيها ثناء وثلاث ورباع ، ليهتدوا الى القراءة الصحيحة التي ارادها الكاتب

وليأذن لنا ناشروا هذه النسخة ايراد مثل واحد من هذا المعجم المفيد . فقد جاء في مادة (دم ا) ما هذا نصا به : « ... وتصغير الدم (دمى) وجمعه (دماء) » وضبطت (دمى) بضم الدال وفتح الميم . والذي يعهده القارىء ان (دمىً) جمع دمية وزان غرفة وغرف . وتصغير دم : دمي ، بضم الدال وفتح الميم وتشديد الياء المنقوطة فلو كانت الياء الخاتمة الكلمة منقوطة، لكانت تقرأ (دُمَيّ) ولو لم تضبط اللفظة باي حركة كانت، لكن اهمل تنقيطها،

لحار النظر في امرها . وكذلك الفكر . فانظر بعد هذا الى ضرورة وضع التنقيط
وقائل يقول : لو كانت الكلمة تقرأ (دمى) جمع دمية ، لوضع التنوين على الميم ، فوضع الفتحة وحدها عليها ، يدل دلالة صريحة على ان الياء التي تليها تقرأ (دميّ) اي بضم الدال وفتح الميم وتشديد الياء . — قلنا : ولماذا ضبط الكلمة بالضم والفتح « ورش الكلمة بابازير الكزبرة والحبة السوداء » في حين انا نختصر كل ذلك ، بتنقيط الياء فقط ، فنخفف على الطابع تشكيل حرفين ، ونقتصد في الوقت ، وندفع عن منقح مسودة الطبع (كما يقول العراقيون او التجربة كما يقول المترجمون في مصر ، اوالبروفة ، كما ينطق بها عمال المطابع) اذ كثيراً ما يقع المنضد في الوهم حين يكثر بين يديه تقييد الالفاظ . افليس الاحسن ان نختصر كل ذلك بتنقيط الياء — هذا الحرف المسكين المظلوم الذي يبخس حقه بعض الادباء على غير اثم اجترحه — زد على ذلك ان تشكيل اللفظة بالصورة المعهودة ينشىء سطراً جديداً هو سطر الحركات والضبط ، فوق السطر الاصلي الذي هو سطر الاحرف . اوليس الاحسن ان تنقط الياء — وتكون هذه الياء المنقوطة متيسرة لنا في منازل سائر الحروف التي في صندوق الطبع — فنخفف على القارىء ايضاً عناء اشغال النظر والفكر ونحن في مندوحة عنه

هذا مثال واحد لا غير من آلاف امثلة لا تحصى . ونحن نشفق من الاسترسال في هذا البحث ، حرصاً على الوقت وامتناعا من ان نعل ماء مشرعة كنا نهلناه في ما تقدم من العهد

ب — نظرة ثانية في رؤوس مواد المعجم

وامنيتنا الثانية او نظرتنا الثانية ان يكون اصل الكلمة ، او رأس ترجمتها بحرف ممتاز ريان ، او ضخم ، حتى يسقط طائر الناظر او الباحث عن المادة ، سقوطاً قاصداً ، من غير ان يتصيدها في مطاويها او مثانيها . انظر الى المطبعة الاميركية في بيروت ، فانها جارت المطابع الافرنجية جميعها التي تتخذ الحرف الضخم الممتاز في رأس كل مادة من مواد المعاجم التي تتولى نشرها . (فالبستان) مطبوع على هذا الغرار ، وهو آية في الطبع ، لا في التحقيق . وما يتلو اصل المادة مطبوع بحرف ادق . وهكذا يفعل جميع اهل الغرب في طبع معاجمهم من صغيرة او كبيرة ، فاذا راجعتها على اختلاف قوميات اصحابها ، فانك تلفيها جميعها على هذا الاسلوب البديع الذي اصبح ضرورياً في هذا العصر الذي يرمي دائماً الى التسهيلات والمرجحات وحسن الذوق وجمال المرئيات ، بل اصبح مثل هذا الطبع من اهم ضرائر المطبوعات في عهدنا هذا . والمعجم المنشور بهذة الحلة البديعة يرغب الناس في شرائه ولو لم يكن الشاري من القراء ولا من المحققين وقد تنفق سوقه — ولو كان الكتاب مشحوناً اغلاطاً — وتكسد سوق الكتاب الصحيح التأليف ، او القليل الاوهام لانه لم يحل بهذه الحلية العصرية . والاختبار احسن دليل على ذلك ، او احسن داع لنشره . فعسى ان لا نبقى في آخر الرعيل في هذا الامر ، وان نجاري الافرنج فيه كما جاريناهم في شؤون لا تحصى

ج — النظرة الثالثة في الحروف المكسرة

يشوه بعض المطبوعات — ولا سيما المصرية منها ، كأن هذه المزية لحقتها دون سواها — الحروف المكسورة . وهذا امر يجب ان نتلافاه ولا نبقي له اثراً . خذ اي معجم كان من معاجم اللغة الانكليزية او الفرنسية او الايطالية او الالمانية ، وفيها مئات الصفحات ، بل الوفها ، ولا تصيب فيها حرفاً واحداً مكسوراً او ممحواً او مقلوباً رأساً على عقب ، او معيباً باي صورة كانت ، بل ترى العكس ، اذ تجد جميع السطور كثغور الحسان ، بينة التناسق صحيحة ، سالمة من كل علة ولو طفيفة ، بل لا عوج فيها ولا امت . زد على ذلك ان حروف دواوينهم اللغوية ادق بكثير من حروف اسفارنا . وكنا نتوقع ان نشهد هذا العيب في مطبوعاتهم لا في منشوراتنا ، والسبب واضح لان حروفهم دقيقة وتختل مما يكاد يسمى « لاشيء » ومع ذلك فالامر بخلاف المنتظر

هذا (مختار الصحاح) فليس فيه إلا ٧٤٥ صفحة ، وقد وقعنا فيه على حروف مسحوقة او مهشمة تنيف على المائة . افليس هـذا مما يعاب عليه ويشين محاسنه . ومصداقاً لقولنا نذكر هنا بعض هذه المشوهات ، مشيرين هنا الى صحته ويبقى على القارىء مراجعة الاصل لاصلاحه ونشير بالرقم الاول الى الصفحة وبالثاني الى السطر ، ولا نعنى بذكر العمود لان السطور متوازية بعضها لبعض . وكل املنا ان لا يعود الى هذا السفر الجليل مثل هـذا التشويه . ودونك شيئاً من تلك الامثلة :

شُعَنّي الاسير ١٦ : ٣ — وسمي البدر بدراً ٤٣ : ١ — عليها ٦٤ : ٩ — تأخرت ٧٣ : ٢٠ — استطرادي ٩٠ : ٢٠ — ام زوجها ١٥٨ : ١١ — سمي ١٦٥ : ١٤ — تضربان ١٧٩ : ١ والخلفة ١٨٥ : ١٧ — والجنة ٢٠٣ : ١٩ — الموالاة ٢٤١ : ١٠ — فرضي ٢٤٦ : ٢ — الجدي — ٣١٣ : ١٩ — مازلنا ٣١٦ : ٢ — عذاب ٣٢١ : ١٣ — الهروي ٣٢٤ : ١٩ — وترنم ٣٣٢ : ١٧ — والمصوبة ٣٧٢ : ١٥ فقل ٣٧٢ : ١٦ — الحطب ٣٨٠ : ٧ — نبياً ٤١٠ : ٥ — تشبه ٤٢١ : ١٠ — بنات ٤٢٣ : ١٩ — الشيء ٤٢٥ : ١٧ الظلام ٤٤٨ : ١٣ — زيداً (مكررة في) ٤٥٣ — الشيء ٤٥٩ : ٧ — عيال ٤٦٦ : ١١ — معي ٤٦٧ : ٨ — وقضي ٤٨٤ : ١٣ — كناية ٥١٢ : ١٩ — يمين ٥١٣ : ١٢ — والجهلة ٥١٣ : ١٥ — مفيص ٥١٦ : ١٥ — وزيد ٥١٧ : ١٥ — الشيء ٥٢٤ : ٥ والاذلة ٥٤٩ : ٥ — قوام ٥٥١ : ٧ — انجمع ٥٨٥ : ١٧ — زيداً ٦١٠ : ١١ — ثمن ٦٣٠ : ٢٠ — التؤدة ٦٣٨ : ١٥ — والمحدثون ٦٤٤ : ٧ ونذ ٦٥٢ : ٥ — وهجيتها ٦٩١ : ٤ — معناه ٤٠٢ : ١١ — من ادیم ٧٢٣ : ٧ الكسائي ٧٣٩ : ١٩ — وايقظه ٧٤٣ : ٥ — تحالفوا ٧٤٥ : ٣

فهذه خمسون كلمة مكسورة الحرف فنجتزىء بهذا القدر عن ايراد الكل ، اذ به ما يؤيد ملاحظتنا . وكفى

د — النظرة الرابعة في رسم الهمزة

لم نر كتاباً اختلف كاتبه في رسم همزة كلمه مثلما الفيناه في هذا السفر الجليل ، فان طابعه صور الهمزات بخلاف القواعد المتعارفة عند الاقدمين من البصراء بالكتابة وتجويد الرسم . والغريب في هذا الامر ان الناشر لم يخالف السلف وحسب في هذا الاسلوب ، بل ناقض نفسه بنفسه ، ولم يجر ابداً على اصول متبعة ، وربما انحاز الى مذهب طائفة لم يتفق عليه اغلب الصرفيين ، بل سار وراء بعض المتفردين في آرائهم ليشار اليهم بالبنان ، لمخالفتهم « اغلب » ارباب رسم الهمزة

فاما ما اختلف الناشر في تصويرها مع نفسه فكرسمه لاسرائيل واسرائين (في اسر) وجبرائيل (في مادة روح) بالوجه الذي ذكرناه هنا وهو الوجه الشائع عند اغلب الصرفيين وقد خالفه في تصوير ميكاءيل وميكاءين في مادة (م ك ا) بهذا الرسم الغريب المنقول عنه . وكذلك فعل في اسرائيل فانه من بعد ان صوره بهذا الشكل خالفه في ص ١٦ : ٤ — وص ٢٨٣ : ١ — و٢٩٨ — و٢٩٨ : ٣ — و٦٣١ : ٢ و٣/ — الى غيرها ولم نفهم سبب هذا الاختلاف في الكلمة الواحدة — والمشهور ماذكرناه اي ان الهمزة ترسم على صورة الياء وهكذا وجدناها في النسخة المنقولة عن الام

واما رسم الهمزة الذي خالف به القاعدة المطردة عند ارباب اصول اللغة فيرى في كثير من الالفاظ ونحن نذكر بعضها مشيرين الى ان الناشر رسم الهمزة الواردة في حشو الكلمة « على خط صغير مستقيم كالسين غير المسننة بل المبسوطة بسطاً . هذا اذا كان ما قبلها مفتوحاً . اما اذا كان ما قبلها ساكناً او مضموماً فيخالف طريقته هذه فمرة يكتبها بلا قائمة تقوم عليها بل وحدها بين حرفي الكلمة ومرة يرسمها على خُطَيط مستقيم واحياناً على صورة الياء . فالقارىء يحارفي هذه التيه الذي دونه تيه بني اسرائيل . ونحن نسرد هنا بعض هذه الحروف على ما جاءت بالصورة الواردة في هذا الكتاب :

مئود (ص ٣٢) — يئول . مئوف (٣٣) — توءمان (٧٤) كئوداً (وردت مراراً بهذه الصورة كما في ص١٨٢، ٣٦٣، ٥٦٠ — رءوسهم في١٨٣ و٢٦٨ و٢٩٢، و٦٠٩، و٦٨٠ الى غيرها — تئول ١٩٨ — مذءوم ٢١٨ — مراءون ٢٢٧ — ظؤور ٤٠٣ — أظآر ٤٠٣ — ملجؤه ٤٦١ — كئوس ٥٦٠ — مئونته ٥٧٥ كتبت مرتين اخريين في ص ٦١٢ ومرتين في ٦٤٠ و ٦٣٧ — الامئاق ٦١٢ — ابئار ٦١٢ — مرئياً ٢٦٠ — تمائوا ٦٣١ — المشئوم ٦٧٩ — تشئوم ٦٨٦ ومن الغريب انه كتب هؤوراً في ص ٧٠١ ولم يكتبها على مألوف عادته هئوراً . وكتب

موءودة ٧٠٥ — النئور ٧٢٣ — تواطئوا . وطئاً ٧٢٧ — ومئاً ومرفؤها ٧٣٧ — يئوس ٧٣٠ الى غيرها مما يطول تمداده

***

اما القاعدة العامة التي قررها الواقفون على احكام العربية وأصولها المتينة فتستخلص في ما يأتي . قبل ان ترسم الهمزة حاول ان تلينها — اذا كانت في الوسط ، الى أحد احرف العلة ثم اكتبها على صورة الحرف العليل الذي أملتها اليه . وان لم تمل أكتبها بلا عماد ، اي وحدها بلا حرف علة . اما اذا كانت في الاول فارسمها على الالف بلا شاذ. واما اذا كانت في الآخر ، فان سبقها حرف متحرك فاكتبها على صورة حرف علة يجانس حركة ماقبلها . واما اذا كان ماقبلها ساكناً ، فارسمها قائمة بنفسها اي بلا حرف عليل . ودونك الشواهد على ذلك

(الهمزة في الأول) : أَخْذ وأُخِذ وإِخاذة

(الهمزة في الوسط) — الساكنة مثل يُؤْمِن ويأْمَنُ ، وبِئْر

(الهمزة المتحركة وهي في الوسط) : موءود ، ومؤونة وفِئة — وتوأَمٌ وتَيْأَس وتأْمن . وأظآر — سؤول مِئين ، مِئات . سُؤال وذِئاب . وسآمة — جبرائيل ، روائم ، راؤول

الهمزة في الآخر : شنُؤ وبرِيء وأبرأ — شيء وسُوء وراءٍ وخبء

فرسم هذه الهمزات بالرسوم التي خططناها هنا منقولة عن مختار الصحاح وعن الصحاح نفسه . ونسخة هذا الكتاب ايضاً منقولة عن الأم للجوهري

ولهذا لا تكتب شؤون الآ بواوين وعلى الاولى همزة.ومن صورها على الياء فقد اخطأ وابتعد عن رسم الاقدمين لها وهو الرسم الصحيح الذي لا غبار عليه

***

ولا ننس ان تصوير الهمز على ما بيناه هنا هو الذي انشأ لنا كثيراً من الالفاظ التي نقلت الينا بحروفها العليلة اي غير مهموزة بسبب تليينها مثل الخطيئة فانها تركت لنا الخطية غير مهموزة،والذؤنون : الذونون بواو ممدودة ساكنة ، والقانىء : القاني ، والدؤلي : الدولي ، ومساوئه : مساويه . ومن مضارع يؤكد ويؤرخ ونحوهما جاءتنا التواريخ والتواكيد . الى آخر ماجاء من هذه الاشياء المسهلة الكثيرة العدد

(الباقي للآتي) الاب انستاس ماري الكرملي

باب الأخبار العلمية

السيلوتكس

Celotex

خشب يصنع من مصاصة القصب وخواصهُ العجيبة

ما انتشر مقتطف ابريل الماضي بين مشتركيه وقرائه حتى جاءتنا استيضاحات شتى بشأن مقال السيلوتكس اي الخشب الصناعي الذي نشرناهُ فيهِ بقلم عوض جندي الكاتب المعروف لقرائنا فرأينا لزاماً علينا استجابةً لاستعلاماتهم أن نتقصى الموضوع من سائر نواحيه فنقول : —

قد شاهدنا الواح السيلوتكس فاذا بها مختلفة طولاً وعرضاً وثخانة ولا يزيد ثمن المتر المربع منها على ١٢ قرشاً صاغاً ومقاييسها كالآتي : — العرض ٣ و ٤ اقدام والطول ٧ و ٨ و ½٨ و٩ و١٠ و١٢ قدماً والثخانة نصف بوصة وكل ١٠٠ قدم مربعة منهُ تزن نحو ٦٠ رطلاً انكليزيًّا . ودرجة توصيل السيلوتكس للحرارة تكاد تساويها في الفلين الصرف . والسيلوتكس لا يحتوي على غراء . ويكتسب السيلوتكس قوته من تماسك اليافه . وفي أثناء صنعه تجعل تلك الالياف مسيكة لكي يصير اللوح كله المصنوع منها مقاوماً للمياه في جميع ثخانته . فاذا مادهن اول (وجه) دهنة من البوية، صلح جدًّا لواجهات المباني . ويمكن تبييض السيلوتكس بالجبس والمصيص او بتغشيتهِ بطبقة تؤلف من جزء واحد من المصيص وجزءين من الجير . وعلمنا ان مصنوعات السيلوتكس عرضت نماذج منها وبعض صورها الفوتوغرافية في المعرض الزراعي الصناعي الذي اقيم في شهري فبراير ومارس سنة ١٩٣١ بالجزيرة بضواحي القاهرة حيث نصب كشك كلهُ من السيلوتكس وزخرف زخرفة انيقة أُعجب بها زائروه أجمعون ولا سيما حينما علموا انهُ يقاوم الحريق اكثر من الخشب الطبيعي مائة مرة لخلوه من المواد الراتينجية التي تساعد على سرعة التهاب الخشب الطبيعي وانهُ لا يتعرض للتسوس ولا لغيره من عوامل الفناء ، فضلاً عن رخص ثمنه . والواح السيلوتكس الكبيرة تلصق بالقار أو الزفت على مباني الخرسانة المسلحة لوقاية السقف من أُوار الشمس والطريقة المثلى المستعملة الآن لذلك :

ان ينظف السقف المراد وقايته من الحرارة الشديدة ومياه الامطار الغزيرة ، تنظيفاً جيداً من التراب وغيره من الانقاض ، وتبسط فوقه طبقة من الزفت السائل

الساخن وتلصق بها الواح السيلوتكس بحيث يترك بين كل لوح والآخر فراغ دقيق لا يجاوز اربعة مليمترات ،على ان يملأ هذا الفراغ أيضاً بالزفت ويلصق فوقهُ شرطٌ من البفتة السمراء المعروفة باسم الدمُّور او من الكتان عرضها عشرة سنتيمترات . ثم تغطى الواح السيلوتكس بطبقة من الزفت ايضاً يلصق فوقها نوع من الورق المشمع يسمى سيزالكرافت Sisalcraft وهو ورق متين جدًّا لا يمكن تمزيقه ولا يخترقهُ الماء ولا الهواء ومعالج بطريقة كيميائية تحول دون استهدافه للتسوس والتعفن والفطر ويساوي المتر المربع منهُ ٢٥ مليماً . وهو مؤلف من طبقتين ملصقتين بالقار . ويغطى السيزالكرافت بطبقة من الرمل يوضع فوقها بلاط السقف المعتاد. وبهذه الوسيلة تصبح درجة حرارة البيوت المسقفة بالسيلوتكس أقل من غيرها نحو ست درجات سنتيغراد . وقد استعمل السيلوتكس في الاسكندرية لوقاية سقوف عدّة مباني ومنها عمارة المؤاساة وفندق سيسل وكلية فكتوريا والمستشفى الايطالي وثكنات مصطفى باشا وغيرها واستعمل في القاهرة في كابينات التليفونات وقايةً لها من ضجة الشوارع وفي مستشفى رعاية الاطفال والولادة وعمارات وسينماتوغرافات جمة ومنها أوليمبيا ورويال ودوللي بلاس . وذلك إما للتسقيف وإما للزخرفة وإما للحشو وإما لاخفات الضوضاء الخارجية وتحسين سمع الاصوات الداخلية . وقد بني بالسيلوتكس بيت في الصحراء للمهندسين المقيمين بمنجم السكري لاستخراج الذهب، فوقاهم وهج الشمس المحرقة هنالك . فعسى ان تهتم الحكومة المصرية او يعنى كبار رجال المال والاعمال في هذه البلاد باقامة مصنع للسيلوتكس من مصاصة القصب وعيدانهِ المعصورة ، فنستغنى عن استيراده من الخواجه يوسف أبرام وكيل الشركة الاميركية بشارع الكنيسة الجديدة رقم ٦ بالقاهرة والخواجه مكس ريبو ٣٨ شارع سعد زغلول بالاسكندرية

البصاصة الكهربائية
تحرس السجون بدلاً من حراسها

جاء في احدث الانباء من اميركا ان البصاصة الكهربائية قد جربت لتحل محل الحراس الذين يغدون ويروحون تجاه اسوار السجون . وذلك انهُ متى حاول مجرم الهرب بتسلق حائط السجن تطلق البصاصة عليهِ نوّاً مدفعاً فيجدلهُ في مكانهِ . وفي الوقت عينه تعلن البصاصة الكهربائية ضباط السجن بالحادث . وذلك بان تسلط عليها شعاعة من الضوء تمتد فوق سور السجن فاذا اعترض ظل السجين الفار تلك الشعاعة تأثرت نوًّا البصاصة الكهربائية فتتم الدائرة الكهربائية في باطنها ومنها ينبعث التيار الكهربائي المتصل بالمدفع فيسدده على قمة السور ويدق جرس التنبيه في الحال والبصّاصة هي البطرية الكهرنورية

هل تفعل الاعصاب فعل الغدد

الجهاز العصبي يفعل فعل الغدد كذلك والخلايا العصبية تفرز مواد لها فعل فسيولوجي قوي كما تفرز الخلايا التي في الغدد النخامية والدرقية والكظرين وغيرها

هذه حقائق كانت معروفة عند العلماء في حياة الحيوانات الفقرية ولكن بحث الدكتورة برتا شارر وهي عالمة المانية يدل على انها تنطبق كذلك على الحيوانات غير الفقرية

كان العالم الالماني كرول في مقدمة من وجه النظر الى وجود مفرزات شبيهة بالمفرزات الغددية في داخل الدماغ ثم جاء العالم الاميركي الدكتور باركر احد علماء جامعة هارفرد فأثبت وجود مفرزات في اطراف الاعصاب دعاها المائيات العصبية (نوروهومر)

وتلا ذلك بحث واسع النطاق عن الخلايا والانساج المفرزة في المراكز العصبية نفسها . وقد امتد نطاق هذه البحوث حتى شمل بلداناً كاسبانيا واليابان

وكان في مقدمة الباحثين هذه العالمة الالمانية الدكتورة شارر . فكشفت عن خلايا اطلق عليها اسم الخلايا العصبية الغددية وثبت انها كثيرة الانتشار في الجهاز العصبي في الحيوانات الفقرية

وفي السنوات الثلاث الاخيرة عنيت الدكتورة شارر ببحث هذا الموضوع من حيث علاقته بالحيوانات غير الفقرية كالديدان والحشرات والمحار وغيرها وكانت هذه الحيوانات تلتقط من اماكن متباعدة على سطح الكرة الارضية

وقد وجدت الخلايا العصبية المفرزة في الانساج العصبية في جميع هذه الحيوانات

هذه الخلايا لا تختلف على شريحة المكرسكوب عن سائر الخلايا العصبية ولكن عندما تعالج بالمواد الكيمياوية يظهر حول نواها ما اطلقت عليه الدكتورة شارر «قطيرات الافراز»

وهذا باب جديد في تركيب المادة الحية لا نعلم مدى ما يفضي اليه في المستقبل

البصاصة الكهربائية
معوان لدرس الخمائر

توسل عالم من علماء جامعة يايل بطائفة من الآلات الكهربائية الى اثبات نظرية كون المواد العضوية المعروفة باسم الخمائر ذات تأثير كيماوي مباشر في حل المواد التي تستعمل غذاء ، وفي احداث تخميرها . وكانت البصاصة الكهربائية من هاتيك الآلات فبينت التفاعلات الكيميائية الناشئة من ذلك التضخيم ويقوم بتسجيلها من تلقاء نفسه جهاز الالكتروكارديوغراف ، وهو الرسام الكهربائي الذي يرسم حركات القلب البشري

اكتشاف قعر اليم بالراديو المبصر

اخترع عالم في ولاية آيوى بأميركا عيناً لاسلكية تكشف مكنونات قعر البحر، من سفن محطمة وكنوز غريقة ثم تُنقل صورها الى آلة لاقطة توضع على ظهر باخرة الاستكشاف فتسهل أعمال مستكشفي أعماق البحار حيث يقوم المركب الرائد بسبر اللجج . وتركب العين اللاسلكية في وعاء كشاف لا يدخله الماء وهو شبيه بشكل الناقوس « الجرس » ويتسنى توجيهه الى اية جهة وذلك بتحريك الاسلاك الاربعة الحاملة له . ويضاء قعر البحر بفوانيس كهربائية قوية ذات نوافذ كثيفة من البلور الصخري ينبعث نورها فيبين الاشياء جيداً بوساطة طائفتي العدسات الكشافة المثبتة في الوعاء الحديدي الشبيه بالناقوس، ومن ثم تستحيل صور الاشياء التي في قعر اليم الملتقطة بالآلات الكشافة، نبضات كهربائية فتضخم وتجدد بسلك موصل الى جهاز من اجهزة الراديو المبصر المستقبل يوضع في حجرة « قمرة » من الحجر التي على ظهر المركب حيث تؤلف الصور تأليفاً جديداً وتعرض من عدسة على ستار نصف شفاف للمشاهدة . وذلك بمساعدة مجموعة من المرايا المائلة . ثم يطبع من المشاهد المنقولة بالراديو المبصر شريط ثابت مسجل وذلك بتصوير ستار المشاهدة بآلة تصوير السينما

ويتوقع الخبيرون بأن هذا الجهاز سيمنع اخطار الغوص ويقلل نفقات استكشاف الاعماق

كيف اخترعت شبكيات المصابيح الغازية

كان الحظ والمصادفة حليفين عظيمين ومعوانين كبيرين في اختراع شبكيات مصابيح غاز الاستصباح . وذلك ان الغاز كان اولاً يشعل من طرف انبوبهِ المفتوح على ان تسد الفتحة متى اريد اطفاء ضوئهِ بسدادة خاصة فاتفق ذات يوم ان ضاعت السدادة حينما وجب اطفاء الضياء فجاء امرؤ بمدعس مخرم فسد بهِ فتحة انبوب الغاز المشار اليهِ . فكان ذلك الحدث منشأ اختراع الترمسة القديمة التي كانت تسبب انبساط لهيب الغاز عند اشتعاله . ثم نبغ العالم بنسن فاخترع مشعله المشهور الذي يجمع بين الغاز والهواء ليولد لهيباً ساخناً يكاد يكون عديم اللون وهو في حد ذاتهِ غير صالح للاضاءة. ثم عقبهُ كارل فون فلزباخ فكان ذات مرة يجرب بعض التجارب الكيميائية في معمله فترك محلولاً من التوريوم والسيريوم وهما معدنان نادران يغليان بنار مشعلة بنسن على خشبة من حجر الفتيلة (اسبستوس او الكتان الحجري) فشاهد اطرافها البالية تبيض بياضاً ناصعاً . فضم فلزباخ مبدأ مشعلة بنسن الى تلك المعلومات التي اقتبسها اتفاقاً فكانت مصدراً لاختراعهِ رتائن المصابيح الغازية التي انتشر استعمالها في الآفاق من ذينك الفلزين النادري الوجود

الغذاء وصحة الاسنان

انذار طبيب

ان مكافحة حفر الاسنان عمل يستغرق الحياة كلها . ولا يقصد بالحياة مداها من ساعة الولادة الى ساعة الوفاة بل يمتد هذا المدى الى ماقبل الولادة عندما يكون الجنين في رحم الام

وقد القى الدكتور كوجلماس — وهو متخصص في امراض الاطفال — محاضرة في أكاديمية نيويورك الطبية قال فيها ان الغذاء الموافق الذي يقي من حفر الاسنان يجب اولاً ان يعطى للحامل . ثم يجب ان توجه عناية عظيمة الى الجانب الاول من حياة الوليد اي من ساعة ولادته الى سن البلوغ لتعزيز قوته على مقاومة حفر الاسنان

ومما قاله ان نحو ٨ في المائة من الاطفال يرثون اسناناً جيدة أو ضعيفة او فيها ميل الى هذا او ذاك . وان ٨ في المائة ايضاً لايتملون العناية الوافية بالاسنان

وان ٩ في المائة تنخر اسنانهم او تبقى سليمة لان غددهم سوية او مضطربة وان ١٠ في المائة تؤثر حالة التمثيل الغذائي في اسنانهم

ولكن الأكثرية الكبرى وهي نحو ٦٤ في المائة من الذين يصابون بضعف الاسنان ونخرها ترجع اصابتهم الى سوء التغذية

الصفير يبدد الضباب

تجربة عجيبة

رأينا على لوحة الصور المتحركة من اسابيع صورة عالم اميركي يدعى سانت كلير وقد صنع في انبوب ضخم من انابيب التجارب ضباباً ثم جعل صفارة تصفر في زاوية بعيدة من الحجرة التي جربت فيها التجربة فاذا بالضباب في الانبوب يتبدد رويداً رويداً بتكون كتل صغيرة تهبط الى قعره ثم يصفو فضاؤه مما يشوبه

وهذه التجربة على اقتصارها الآن على انبوب البحث العلمي قد تكون سبيلاً في المستقبل الى تطبيقها تطبيقاً واسع النطاق في المدن الصناعية التي يكثر الضباب في جوها

وتفسيرها العلمي يرجع الى اكتشاف تم من عهد غير قريب وهو انه اذا رشت برادة الحديد على لوح مسطح وأحدث في جوارها صوت من نغم معين اهتزت دقائق البرادة وتجمعت اشكالاً وانماطاً معينة على سطح اللوح والغالب ان يكون تجمعها حول نقط تصطدم فيها امواج الصوت بعضها ببعض فيلاشي بعضها بعضاً فتكون تلك النقط خالية من تأثير الامواج الذي يهز الدقائق

وعلى مثال ذلك تهتز الدقائق التي يتألف منها الضباب فتتجمع كما تتجمع دقائق البرادة ولكنها لاتجد سطحاً تستقر عليها فتسقط الى قعر الاناء

عصير الباباز في القوارير
وشيوع هذا الثمر في مصر

الباباز شجر شبيه بالنخل ، ينمو في امريكا الجنوبية . وهو ذو ثمر وسيقان واوراق تحتوي على عصارة لبنية تُلَيِّن اللحوم النارزة اذا ما دُهنت بها قبيل طهوها

وقد جاءنا في احدث الانباء من امريكا أنهُ سيعمُّ استعمال تلك العصارة في الولايات المتحدة وغيرها . وذلك ان احدى الشركات في مدينة سينسيناتي بولاية أوهيو قد شرعت في خزن عصير الباباز في زجاجات معتدلة الاحجام لتوزيعها على ربات البيوت ليستعملنها في تحضير شرائح اللحوم القاسية تسهيلاً لنضجها ومضغها وهضمها

والمشهور عن عصارة الباباز أن أهالي جزائر المحيط الهادي مابرحوا من قدم يتوسلون بها لتليين اللحم القصيد قبل طبخه وهم لا يفقهون خصائص تلك العصارة المدهشة اذ تحتوي على مادة البابائين وهي عنصر نباتي معادل للبيسين pepsin الهاضم للبروتين . والبابائين معروف عند الصيادلة بأنهُ من العناصر الاصلية لتركيب الادوية الشافية للتخمة

وقد زرعت أشجار الباباز في ولايتي فلوريدا وكليفورنيا منذ بضع سنين من اجل ثمارها اللذيذة ، وهي رائجة في اسواق الولايات الشمالية

ويزرع الباباز في مملكتنا المصرية وقد بحثنا في شؤونهِ ثم نشرنا نتيجة بحثنا في المقطم (وذلك بمناسبة عطلة المقتطف الصيفية في السنة الماضية) فآثرنا اعادة نشر المقال المشار اليهِ اتماماً لفائدة قراء المقتطف واليك البيان : —

ما كنت ادري حينما كتبت مقالي على الباباز في مقتطف يونيه سنة ١٩٣٥ ان ذلك الشجر العجيب يزرع في بعض بلادنا المصرية العريقة في الزراعة . بيد ان زارعي الباباز وآكليه قلما يعرفون جميع مزاياه الرائعة التي افضنا في سردها في ذلك الجزء من المقتطف حتى اقيم معرضنا الزراعي الصناعي الحديث في الجزيرة بأرباض القاهرة ، فرأيت لزاماً عليَّ أن اطوف بأرجائهِ باحثاً في معروضات بلادنا الزراعية لعلي اعثر على ثمر الباباز ، وهو ضالتي المنشودة ، اذ تذكرت اني كنت قد شاهدت الثمر نفسهُ في المعرض السابق ، بين معروضات السودان التي عرضها حينئذٍ المرحوم الشاهد باشا

فتحقق ظني اذ وجدت الفاكهة المبتغاة بين معروضات مدرسة دمنهور الزراعية المتوسطة فقط ، حيث رأيت ثلاث ثمرات من الباباز معروضة في طبق . فكانت مفاجأة لطيفة قوَّت عزيمتي على مواصلة البحث والاستقراء افادة لقرائي الاعزاء . فسألت مندوب المدرسة الزراعية المذكورة آنفاً ، وهو احد المستخدمين في حقولها : ما اسم هذا الثمر ؟ فقال « باباز » وهو يؤكل ناضجاً كالقاوون

والشمام . فاستدركت عليه قائلاً « بل هو قاوون الشجر » ثم استزدته ايضاحاً فأجاب « عليك يا سيدي بزيارة مشتل المدرسة في دمنهور فتظفر ببغيتك »

فاكتفيت بذلك وانصرفت ، عاقداً النية على السفر الى دمنهور متى حانت الفرصة . ومضت اسابيع بعد ذلك قصدت في خلالها ، بحراً ، ذات يوم ، الى متنزهات القناطر الخيرية ، فالفيت في اثناء الرحلة بالدرجة الاولى باخرة سكة الحديد ، التي أقلتنا الى تلك الضاحية الجميلة ، راكباً فلسطينياً كهلاً ، توسمت فيه الفضل والنبل فتعرفت به ، فاذا هو (علي افندي المستقيم) من كبار اصحاب البساتين وتجار الفاكهة بثغر يافا . وساقنا الحديث ، وهو ذو شجون ، الى ذكر الباباز ، فسألته رأيه فيه ، فقال : زرعته في بستاني بيافا ولم أجنِ منهُ ربحاً يذكر لان اهل فلسطين لا يقدرونهُ حق قدره . وهو يزرع بكثرة في (ريحا) فلاحظت عليه قائلاً — لعلك تقصد مدينة أريحا المشهورة . فقال: نعم — لان أريحا بلد رملي حارٌّ يصلح لزرع الباباز ، فشجعته على الاكثار من زراعته ذاكراً لهُ منافعه التي اسهبت في ايضاحها في المقتطف ، فأثنى على مجهودات هذا الكاتب الضعيف واستبشر خيراً

***

وأتيحت لي فرصة فاغتنمتها وسافرت الى دمنهور ابتغاء زيارة مشتل مدرستها الزراعية ، حيث تشرفت بلقاء بعض حضرات الاساتذة وكاشفتهم بأمنيتي ، فاحتفوا بي وتفضلوا فسمحوا لي بزيارة مشتل مدرستهم الذي يزرع فيه الباباز فيممت شطره مع مندوب من قبل حضرة الفاضل ضابط المدرسة

ولقيت في المشتل حضرة ابرهيم افندي صالح ، رئيسه ، فصارحتهُ بمهمتي ، فأحسن استقبالي وزودني بالمعلومات الآتية فاذكرها اتماماً لفائدة القراء : —

يثمر الباباز على مدار السنة متى بلغت شجرته ثلاث سنين من عمرها . وتنبت أشجاره من البذور الناضجة الفضة وهي سوداء ، وتكون ملتصقة بلب الثمر وتكاد تشبه حب الفلفل الاسود ، غير انها ذات غشاء زلالي . وتبذر البذور في مكان ظليل بذراً خفيفاً في الاصص أو في مواجير البذرة . وذلك في تربة مؤلفة من رمل أبيض ناعم بمقدار الثلث ، ويجعل ثلثاها الباقيان من طمي النيل ، مخلوطاً بقليل من روث الخيل ، المتعفن (السبلة القديمة) وتغطى البذور بالمخلوط السمادي نفسه بطبقة توازي حجم البذور أي بثخانة نصف سنتيمتر . وتتعهد بالريّ طبقاً للاحوال الجوية . وتزرع البذور ابتداء من شهر مارس الى آخر شهر اكتوبر ويمكن استفراد النباتات بعد بلوغ طولها من ١٠ سنتيمترات الى ١٥ سنتيمتراً . ومتى نمت في الاصص ، وضاقت بها ، تنقل الى مكانها الدائم . وتصلح لها الاراضي الرملية فتزكو فيها . وينجم من البذور ذكور وإناث

من الاشجار . ويمكن تمييز بعضها من بعض عند بدء الاثمار . ومنفعة الذكور انها تقوم بتلقيح إناثها ، على ان تكون قريبة منها بحيث لا تبعد ، عنها أكثر من ثلاثة أمتار

***

والباباز يحمل ثماره تحت آباط الاوراق . وبعضها يحمل ثمرة واحدة في حامل زهري ومنها ما يحمل ثمرتين او ثلاث ثمرات . وهذه الحوامل لا يزيد طولها في الاناث على خمسة سنتيمترات . اما في الذكور فتبلغ احياناً متراً او متراً ونصف متر . واعناق الاوراق جوفاء . ومتى نضجت الثمرة جفت الاوراق التي تحتها ، فتذبل وتسقط بنفسها . والذكور لا تحمل ثماراً الا نادراً . وتكون ثمارها خالية من البذور . وطعم لبها شحمي ، وهو أقل جودة من ثمر الاناث وأصغر منها حجماً

ويزرع الباباز بكثرة في بلدة فاقوس بمديرية الشرقية « واول من زرعهُ هناك المرحوم امام بك محمد اسماعيل ، جد حضرة الاستاذ ابرهيم افندي صالح » الذي اقتبسنا منهُ هذه المعلومات

***

ويباع الباباز في تلك البلدة بسعر نصف قرش للثمرة الواحدة . واذا قطفت البابازة من شجرتها خضراء قبيل نضجها وجب عليك حفظها في النخالة اسبوعاً حتى يتم نضجها . واما اذا تركت على شجرتها حتى تستوي ، اصفرّ لونها وصارت الذّ طعماً . ويوجد الباباز في قسم البساتين التابع لوزارة الزراعة . وقد اخبرني حضرة مرشدي ايضاً انهُ هو اول من زرع الباباز في مشتل دمنهور فزرع منه ثلاث شجرات فأثمرت وهي التي شاهدتها انا وتناولت منها ثمرة

والاشجار التي رأيتها في مشتل دمنهور لا تزيد طولها على ثلاثة امتار . واذا خدشتها هي او ثمارها سال لبنها وهو كلبن الجميز اللزج ، النافع لعلاج الاكزيما ، كما ذكرنا في مقالنا السابق بالمقتطف

وعلمت ان الباباز يزرع في جزيرة المتانية ببستان السيدة الفاضلة هدى هانم شعراوي ، وفي جهات أخرى من المملكة المصرية . ويزرع أيضاً في بستان المنشاوي باشا في القرشية

وقد اشرت على حضرة محمد افندي امين فؤاد (الفلاح المصري) تاجر البذور المعروف (بشارع طاهر بميدان ابراهيم باشا بالقاهرة) بزراعة الباباز فزرعه في بستانهِ في نوى بمركز قليوب

***

ولا يسعني قبل ختم هذه العجالة الاَّ الثناء المستطاب على حضرات معلمي مدرسة دمنهور الزراعية المتوسطة الذين تشرفت بلقائهم في المشتل ولاسيما حضرة ابرهيم افندي صالح الذي رحَّب بي كثيراً واسدى اليَّ المساعدة الواجبة خدمة للعلم

عوض جندي



فى عالم السدود والقيود

تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد — ٢١٩ صفحة من ورق مصقول حجم وسط
ملتزمة نشره مكتبة النهضة بمصر

أصدر هذا المؤلف النفيس الكاتب الشاعر الاستاذ العقاد فأتحف العربية بذخر من انفس الذخائر الأدبية الحديثة ، كما اظهرنا على ناحية جديدة من أدبه الرائع وصورة من تفكيره العالي المتسم بنفاذ النظرة وصدق التعبير ، وقد تناول العقاد في كتابه هذا فترة شاجية من الفترات الخالدة في الحياة التي مر أشباهها قديماً ببعض الفلاسفة والعلماء والشعراء فأنطقتهم بالنغمات الفريدة ، وأطلعتهم على أبعد أسرار النفس وأطلقت خواطرهم بأسمى المعاني واجرت ألسنتهم بآيات الحكمة . وانك لتلمس في سطور الكتاب روحاً مبدعاً من التهكم الرفيق وتقرأ في فصوله تحليلاً عميقاً للنفس البشرية ، ونوازعها ، واستقراء واسع الاحاطة بالجريمة ودوافعها ، كل هذا في استطراد بديع ممتع واسلوب رائق شائق تشيع فيه الطلاقة والعذوبة والجمال والبساطة . وتلك خصائص يمتاز بها أدب العقاد ، ولكنها في كتابه هذا ممثلة أجمل تمثيل من بدئه الى منتهاه . وأحب ان أقول انه قلما يتاح لمن عبر عالم السدود والقيود من الكتاب والشعراء ان يوفقوا توفيق المؤلف في استكناه اسراره وطلاسمه وأعاجيبه ، في فترة مداها أيام او شهور ، من مرض غير رفيق ، وضيق نفس شاعرة تضيق بنظرتها آفاق الدنيا الرحبة المترامية . ولكن الومضات الخاطفة التي تنطلق من العقول المتألقة تغني عن إدمان النظر في الضحوة الساطعة ، للوصول الى حقائق الحياة وطبائع النفوس . والاستاذ العقاد هو القائل

أنا المفرد الزاري على الكون كله   تبسم حال أو تجهم كالح

فهو على ما وصف به نفسه ، وما هو منبث في تضاعيف كتبه واشعاره ، رجل متمرد متوفز الشعور مرهف الحس ، لا يطيق الحدود ولا يأبه للقيود ، فاذا اضطربت روحه بالألم والنقمة على هذا العالم الذي قدر له ان يعبره فلا غرابة في ذلك ولا عجب ، والمفكرون الجدرون بهذا الاسم متمردون بطبائعهم على الحياة يرون النقص والفساد شائعاً في أشكالها وأوضاعها حيث لا يرى الآخرون غير الصواب والتمام فيها . ولكن الجانب الانساني المركب في نفس العقاد كشاعر قضى على هذه الحواجز ، التي تقوم دائماً بين البيئات البعيدة التنافر والتناقض ووصل ما بينه وبين هؤلاء الذين يعيشون في عالم القيود والسدود فآنس فيهم مراداً لتأملاته وأفقاً جديداً لخطرات نفسه ، فعاد المتمرد الزاري على الاشباح الهائمة في عالم الحرية والطلاقة ، حانياً عطوفاً على هذه المخلوقات الجاثمة في عالم القيود والسدود ، يستروح متعة العقل والنفس في أحاديثهم وسمرهم وغنائهم ومجونهم وطيبتهم وخبثهم . وفي الكتاب شواهد على ما اسلفنا تطالعك في كل فصل بل في كل صفحة من صفحات الكتاب

علي محمود طه

اسماعيل المفترى عليه

لا شك في ان الخديو اسماعيل هو أول بان لمصر الحديثة ، مصر الاوربية في مظاهرها . فلقد كان طموحاً كل الطموح الى ان يجعل مقر سلطانه بعيداً البعد كله عن أن يعتبر جزءاً من القارة المظلمة افريقيا ، ولم يقصر في هذا السبيل ، ولم يضن على اخراج فكرته بالثمين

ولقد اجتمعت في هذا الرجل العظيم صفات بارزة من الشخصية القوية والعزم المتين والفكر السديد مما ضمن له السير بحكمة بين تيارات مختلفة من رغبات متباينة تثيرها فرنسا من ناحية وانجلترا من ناحية ثانية وتركيا من ناحية ثالثة

مني اسماعيل عند توليه العرش بتركة ثقيلة أورثها اياه سلفه فوجد من الحكمة أن يقف حيال اطماع فرنسا التي رسمتها لنفسها عند التفكير في حفر قناة السويس فيحولها عن وجهتها وبذلك حفظ لمصر سيادتها على أراضيها وأبعد عنها الاستعمار الاجنبي — وقتذاك — وحافظ لها على مرافقها العامة بحرمانه شركة ترعة السويس امتيازاً يعتبر الآن من حق الدولة وهو ترعة المياه العذبة

ولقد كانت بصيرته النافذة الى صميم السياسة الاستعمارية سبباً فيما لقي من عنت أوربا ومحاولتها الاساءة اليه والتشهير به فاندفع كثير من رجال السياسة الى تشويه وجه التاريخ في صفحات هذا الرجل ، ولصقوا به تهمة الاسراف والتبذير على ملاذه وتحميل بلاده الدين الفادح في هذا السبيل

ارتدت مصر بعد اليقظة الاولى التي تنبهت فيها في عهد محمد علي الى رقدة طويلة وخمول عميق حتى آخر عهد سعيد فأراد اسماعيل أن يوقظها على فجر جديد . وطبيعي ان مثل هذه اليقظة تحتاج الى البذل في نواح شتى لبعث الحركة والنهوض في كيان هـذا البلد . ونحن الآن في الوقت الذي اتصلت مصر بالعالم الأوربي أوثق اتصال لا نزال نبذل آلاف الجنيهات في الدعاية كل عام بين طبع النشرات واستضافة الصحفيين الاجانب وعقد المؤتمرات الى غير ذلك من ضروب الاعلان عن مكانة مصر الادبية والاجتماعية ورفعها الى المستوى اللائق بها بين أمم العالم . اذا كانت هذه حالنا الآن فما بالنا بمصر منذ سبعين عاماً ، ألم تكن وقتذاك بأشد حاجة منها في وقتنا الحاضر الى الدعاية الطويلة والعريضة معاً وهي في دور التكوين والخلق في كل نواحيها ؟! لقد أراد اسماعيل إيقاظ مصر ولـكن تلك اليقظة غالية الثمن فهل يضن عليها بذلك ؟ ان نفسه العظيمة الفياضة بالطموح لتستصغر كل شيء وتسترخص كل غال . غير ان الحاجة الى المال ألجأته الى معاملة شر المرابين الدوليين فكانت النتيجة القاسية ، ولـكنها اذا قيست بما أسدى للبلد من ضروب الاصلاح في مرافقها العامة مع مقابلة ذلك بما تفعله دول العالم في هذا السبيل لهانت تلك النتيجة شيئاً ما

تاريخ اسماعيل صفحة شوهتها الاغاليط حتى أصبح صاحبها في نظر المصريين قبل الاجانب المبذر المتلاف الشهواني ذا الرغبات الذاتية . وأصبح كل مؤرخ لعصره يستجمع أقوال كرومر وملنر وكولفن واضرابهم ويستعرضها في بحثه ويرجع اليها كقضايا مسلم بها على فساد التدبير في حكم هذا العاهل

ولـكن الحق هو الحق ، وان طال على جحوده الزمن ، فلقد أتيح بعد نصف قرن لهذا الرجل

العظيم مؤرخ قانوني نافذ البصيرة نقادها ، يتبع الحجة بالحجة حتى تتكشف له من بين ثنايا السطور التي خطها هؤلاء الساسة عن حجج قوية في مصلحة قضية اسماعيل المفترى عليه

ذلك هو القاضي الاميركي بيير كرابيتيس الذي تصدى لانقاذ سمعة الحاكم المصري فاستطاع ان يخرج لنا صفحة نقية بدّلت وجه التاريخ المصري في ذلك العهد . من ذلك انه اضعف الدعوى الشائعة عن اسماعيل الشهواني الغارق في لذاته فأثبت ان اللذة والاستمتاع وليدتا الكسل ، وكان الكسل أبعد الصفات عن هذا الرجل الذي كان يقضي كل يوم من اثنتي عشرة الى اربع عشرة ساعة في القيام بأعمال الدولة ، ولو فرض انه استطاع ان يترك العنان لنفسه في الملذات لأثر ذلك بمرور الأيام على ذاكرته التي شهد موبرلي بل بقوتها

ومن ذلك ايضاً انه رفع عن عاتق اسماعيل تبعة عدم ملكية مصر اليوم حصتها في أسهم القناة بفقرة من دائرة المعارف البريطانية تثبت ان حصته في ارباح الشركة التي بيعت بعد نزول اسماعيل عن عرشه تمت صفقتها حين كان لورد كرومر صاحب السلطان المطلق في الرقابة الثنائية ، وكان في وسعه ان يعقد بكل سهولة قرضاً بضمان تلك الحصة لو انه ادرك ما في بيعها من الخطر العظيم . وعرض المؤلف امامنا بعضاً من محامد اسماعيل في مقدمتها استنقاذه من الشركة الفرنسية ستين الف هكتار من الارض تساوي الآن اضعاف قيمتها التي قدرها نبوليون الثالث في سنة ١٨٦٤ بمليون ومائتي الف من الجنيهات وكذلك استعادته لامتياز ترعة المياه العذبة

وأطلعنا بالبيانات والارقام الثابتة ما لاقته مصر من ضروب الاصلاح في المرافق العامة في عصر اسماعيل كحفر الترع ومد السكك الحديدية والاكثار من دور التعليم الى غير ذلك مع مقابلتها بمثيلاتها حتى آخر عهد سعيد . وهذا غير ما قام به من مساعدات جمّة لبيكر وامثاله من رجال الاستكشاف العلمي في مجاهل افريقيا ومحاربته للنخاسة في السودان وبذله في هذه السبل ما اثقل ديونه فأسدى الى العلم يداً جليلة

وصوّر لنا المؤلف في فصول مختلفة كتبها بروح قصصية جذابة ما كان يتبعه رسل السلطان العثماني مع اسماعيل مما دعاه الى تقديم هدايا ورشاو كلفته اموالا طائلة ، كانت سبباً في اتهامه بالتبذير فيما لا يجدي . وقد دلل المؤلف على ان هذه الهدايا والرشاوى وان بلغت قيمتها ما بلغت يومذاك فانها لا تساوي ما كان يصرفه اسماعيل لو انه حارب تركيا ، فكانت هذه الهدايا والرشاوى سبباً في خطب ود السلطان وحقن الدماء وايقاف خطر مالي جسيم والفوز بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . وقد أورد المؤلف ما كان يعمد اليه بعض الوكلاء الديلوماسيين الاجانب في استعمال نفوذهم لينتزعوا مالاً لتوفية اوقح المطالب واستشهد على ذلك بما ورد في كتاب لورد ملنر « انجلترا في مصر » من حوادث هؤلاء الوكلاء مما يبعث الدهشة ويدعو الى الضحك والسخرية . وهذا قليل بالقياس الى ما انفق على اشياع السلطان

هذه لمحة سريعة الى هذا الكتاب النفيس الذي غير صفحات التاريخ المصري الحديث لحياة عاهل مصر المفترى عليه وكشف عن نواح خفية جديرة بالاطلاع وجديرة بالدرس على ضوء الحجج التي اثار بها كرابيتيس السبل على الباحثين ومهّدها لهم حسن كامل الصيرفي

مشكلة السكان في مصر

The Population Problem in Egypt, by Wendell Cleland, 1936

يجد القارىء في مكان آخر من هذا الجزء من المقتطف مقالاً في عدد سكان مصر من العصور القديمة الى ما بعد الفتح العربي في القرن السابع الميلادي . وهذا المقال ملخص عن كتاب الدكتور وندل كليلند « مشكلة السكان في مصر ».ولا يظننَّ القارىء ان هذا الكتاب يعنى بالموضوع من ناحيته التاريخية فقط ، لأن جميع فصوله ماعدا الفصل الأول وقف على دراسة مشكلة السكان من نواحيها المختلفة في مصر الحديثة . فهو يعالج مسائل حيوية ، بدأنا ندرك شيئاً من خطرها منذ شرعنا نعالج بشيء من الصراحة موضوع تحديد النسل في الشهور الأخيرة . ومن محاسن الصدف ان يصدر هذا الكتاب والعقول متنبهة للموضوع الذي يعالجهُ بوقوع الاحصاء العام في بدء هذه السنة واهتمام الصحف والجمعية الطبية وعلماء الاجتماع ببحث مشكلة تحديد النسل التي صدر في صددها فتوى شرعية

والدكتور كليلند ، أهلٌ لمعالجة الموضوع . فقد تدرّب على اساليب هذا البحث الاجتماعي البيولوجي الاحصائي ، في خيرة معاهد اميركا . وهو يقيم في مصر من عشرين سنة استاذاً في جامعة القاهرة الاميركية ةمديراً لقسم الخدمة العامة فيها وقد اتصل في خلالها بممثلي جميع طبقات الشعب المصري من كبار رجال الحكومة والتربية الى صغار الفلاحين واولاد الفقراء والمعوزين في مراكز رعاية الطفل . فاتجهت عنايتهُ الى دراسة موضوع السكان دراسة علمية عملية منظمة ، كان حاديهُ عليها ما شعر بهِ من العطف على الفقراء واولادهم وما يعانونهُ من الفاقة والمرض ، وغرضهُ فهم هذه المشكلات الاجتماعية الخطيرة بغية الوصول الى ما قد ينير الطريق الى حلها

ان عدد سكان مصر قد زاد زيادة سريعة في نصف القرن الماضي حتى بلغت الزيادة بين سنتي ١٨٩٧ و١٩٢٧—٤٧ في المائة والازدحام في سنة ١٩٢٧ بلغ ١٠٤٥ في الميل المربع من الاراضي المزروعة ، ومع ان مساحة الاراضي المزروعة لم تزد في المدة عينها الا ٨ في المائة فان تحسين وسائل الريّ جعلت الزيادة في مقدار المحاصيل ٢٨ في المائة . ولذلك زاد ازدحام السكان في ١٦٩ في سنة ١٨٩٧ الى ٢٦٦ في سنة ١٩٢٧ اي ان زيادة الازدحام بلغت ٣٧ في المائة .فمن الواضح ان الزيادة في مقدار الحاصلات الزراعية كان اقلّ من الزيادة في نموّ السكان وازدحامهم

ولما كان ثمانون في المائة من اهل البلاد يشتغلون بالزراعة ، والحاصلات الزراعية هي مورد الثروة الاول ،فمن الواضح ان زيادة نموّ السكان على نموّ ما يجنى من الارض ، لا بدَّ ان تفضي الى خفض مستوى المعيشة ، وهو ليس بالمستوى العالي على كل حال. ثم ان توسيع نطاق الاساليب الحديثة في الري ، افضى الى زيادة انتشار البلهارسيا والانكلستوما فأضعف انتشارها من حيوية

الفلاحين . ونشاطهم . فالزيادة في عدد السكان قد قابلها هبوط في مستوى المعيشة من الناحيتين الاقتصادية والصحية

هذا هو قلب مشكلة السكان التي تعانيها مصر ، ولما يبتكر لها حلٌّ . وغرض هذا الكتاب توجيه النظر اليها ، وبحث العوامل الاساسية فيها

لخصنا في غير هذا المكان بعض ما جاء في الفصل الاول وهو عرض تاريخيٌّ . ولكن الفصول الباقية وهي ثمانية تقسم بوجه عام الى قسمين . فالقسم الاول يعالج مشكلة السكان من الناحية العددية او الاحصائية ، وهو يشتمل على الفصل الثاني وفيه بحث في المصادر التي يصحُّ الاعتماد عليها ونقدها والفصل الثالث وهو يتناول ازدحام السكان والرابع وهو يتناول المواليد والخامس وهو يتناول الوفيات . اما القسم الثاني فيعالج مستوى المعيشة من حيث الملبس والمأوى والغذاء والثقافة العامة (الفصل ٦) والصحة العامة وصلتها بنظام الري (الفصل ٧) وهل سكان مصر اكثر مما تتسع لهم اراضيها (الفصل ٨)

وقد وقف الفصل التاسع على الاحكام العامة التي خلص اليها من بحثه

مصطفى النحاس أو الزعامة والزعيم

درس بحث وتحليل

صفحاته ٥٤٣ من القطع الكبير طبع في مطبعة مصر

هذا كتاب نفيس أصدره الاستاذ عباس حافظ من اشهر كتاب العربية واطولهم باعاً في ضروب البلاغة والفصاحة تناول فيه زعامة حضرة صاحب المقام الرفيع دولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ذي الرآسات الكثيرة بالتحليل والشرح فوضع بكتابه دروساً في الوطنية اقتبست من سيرة زعيم البلاد الكبير وأوحت بها فعاله الغر الميامين . ولقد اتى المؤلف الفاضل على تاريخ نهضة مصر في عهدها الاخيرة باسهاب وشرح ما استلزمهُ البحث من سير النهضات المجاورة لمصر فتكلم عن نهضة ايطاليا بزعامة السنيور موسوليني ونهضة الهند بزعامة مهاتما غاندي وغيرها

شرح المؤلف كثيراً من خصائص صاحب المقام الرفيع عند ما كان جنديًّا في ميدان الجهاد الوطني وهو قاضٍ وكيف كان يحمل المنشورات الوطنية ويوزعها على نقابة المحامين ويزوّد المحامين بالاوامر واسهب في فضل نشأته الدينية وطهارته الخلقية والنفسية وقوة ارادته وعمله الجليل في رفعة شأن البلاد وظفره بمحاربة خصمه القوي الشديد وحسب القارىء الكريم أن يطلع على بعض الموضوعات التي درسها الكتاب ليعلم ما وراءها وها نحن نذكر منها شيئاً : —

«سر الزعامة والعوامل والمؤثرات في نشأتها والصفات والخواص المشاهدة في الزعامة والزعماء والشخصية البارزة وصفاتها ومختلف مظاهرها وقوّة الارادة وضبط النفس واللباقة والروح المرحة والأسلوب والتنظيم وحاجة الزعامة اليهما واخطار الزعامة والعوامل السيئة التي تتأثر بها والزعامة والزعماء في النظام الديموقراطي والمروءة والزعامة في الشرق وظهور غاندي والثورة المصرية في أدوارها الاولى وسعد زغلول في دور التكوين وزعامة سعد وظهور مصطفى النحاس ونشأته وتكوينه وحياته العملية وفي عهد الثورة وسعد ومصطفى يبنيان الديمقراطية والدستور ومصطفى النحاس زعيم الامة وقائد الشعب وفي الكفاح للدستور والاستقلال وتوافر صفات الزعامة فيه» . فمن هذه الموضوعات يتبين القارىء النواحي التي درسها المؤلف الفاضل بأسلوبه الشامل وعقله المفكر وسعة معلوماته ودقيق اطلاعه فجاء كتابه درساً مفيداً للجيل الحاضر والاجيال القادمة

وقد حلل المؤلف نفسية دولة الرئيس الجليل فبين ما فطرت عليه من فضائل وحب الخير وبين قوتها وعزتها وصلتها بالله العلي العظيم واثر الزعيم الديني وفوزه في معترك الحياة لانهُ يستمد ايمانه وثقته من الله وطهارة ذمته وقوة ارادته وحصافة رأيه وكيف اذعن الجميع لزعامته ونختم كلمتنا بهذه الجملة نقتبسها من قول المؤلف قال حضرته في صفحة ٥٤٠ مايلي : —

« ولقد اتاح الله لنا في مصطفى النحاس زعيماً مؤمناً ورئيساً وطنيًّا به داتنا . وفي ذلك قوة اخرى بجانب قوات جهادنا ومناعة من اليأس والوهن تجتمع الى مناعتنا كامنة شابة مستبسلة وحصانتنا . . . وبفضل ايمان زعيمنا نجونا من تجربة اعدائنا وظللنا نكافح الى الآن بثباتنا وثقتنا بالله وقوة صبرنا ومراسنا . وما دمنا مع مصطفى النحاس ، ومادام هو المستلهم السماء من اجله ومن اجلنا فلن يقهرنا خصومنا ، ولن تغلب على امرنا مهما تألبت علينا جموع الاعداء والمحاربين

« ولقد تقدم بنا في الجهاد على لحن ايمانه ، وساق بنا الى النصر على حداء وجدانه ففاز في كل خطوة خطاها بمعنى جديد من معانيه ، كلما اشتدت الحلكة على طريقه لتغريهُ بالعدول عن مسيره والرجوع عن وجهه ، انبثق الضياء فبدد الظلام ودياجيه ، وكشف عن جديد من فضائح خصمه ومخازيه وكلما وسوس الامل في صدر اعدائه انهم قد تمكنوا منهُ او كادوا يتغلبون عليه ، دهمتهم داهمة من القدر ، وفاجأتهم مفاجأة جديدة من السماء فانقلبوا من بعد الامل يائسين »

***

والكتاب مطبوع طبعاً متقناً في مطبعة مصر ومزدان بصور الزعماء فهو درس مفيد في باب الوطنية العصرية

شوقي او صداقة اربعين سنة

تأليف الامير شكيب ارسلان — صفحاته ٣٠٤ قطع المقتطف — مطبعة عيسى البابي الحلبي

كلُّ ما يكتبهُ الامير شكيب ارسلان جدير بالاهتمام وانعام النظر لان فيه متعة للخاطر وغذاء للذهن ، ولا بدع في ذلك فالامير شكيب سريٌّ النسب سريُّ الفكر سريُّ القلم وقد اتصل برجالات الشرق العربي وسائر العالم الاسلامي بصلات ودّ واحترام متبادلة ، واشترك في اعمال النهضة الادبية والحركة السياسية خلال الاربعين السنة الماضية اشتراكاً فعّالاً ، هيأ لهُ معرفة كثير مما انطوى بانطواء صحف الاقطاب الذين لازمهم وصاحبهم وراسلهم . ففي جعبته سواء اعتمد على الذاكرة ام رجع الى اوراقه ، حوادث ونوادر هي في الطبقة الاولى متعةً ومقاماً عند ما يحين الوقت لكتابة تاريخ هذه النهضة

وحبذا الحال لو اتيح للامير ان يتفرغ لكتابة ذكرياته الادبية والسياسية ، فان اقطاب الغرب جروا على كتابتها في مجلّدات هي من انفس ما ينشر على الناس

وهذا الكتاب الذي نحن في صدده اليوم خاص في قسمه الاول بما لايزال عالقاً بذهنه عن صداقته لشوقي ، وقد بدأت من نحو اربعين سنة ، واتصلت خلالها اوثق اتصال ، ويحتوي في قسمه الثاني ، على دراسات ادبية بيانية في امهات قصائد شوقي وميزاتها

***

يروي الامير انهُ جاء مصر اولاً سنة ١٨٩٠ وكان حينئذٍ بين العشرين والواحدة والعشرين فمكث شهراً في الاسكندرية ثم جاء القاهرة وانضمَّ الى الرهط الملتفّ حول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ولم يكن احد قد سمع حينئذٍ « بشخصٍ يقال لهُ شوقي ولا احسسنا لهُ ركزاً »

ثم غادر مصر في تلك السنة ولم يسمع بشوقي ، وكان حينئذٍ يراسل الاهرام ، فكانت تصلهُ اعدادها فوقع في احد الايام على ابيات لامية في مدح الخديو توفيق من نظم « احمد افندي شوقي » . قال الامير « ولما كان الناظم مجهولاً عندي لم اشأ ان اضيع وقتي بقراءة الابيات » ولكنهُ لم يطل الامر حتى رأى ابياتاً اخرى لاحمد افندي شوقي فجرّب ان يطالعها فلم يمجها ووضعهُ حينئذٍ في طبقة الشعراء الذين يقال فيهم « من حقهِ ان تسمعهُ » . وبعد قليل قرأ لهُ قصيدة ثالثة وهي التي مطلعها

ان الوشاة وان لم أحصهم عدداً   تعلموا الكيد من عينيك والفندا

فطرب لها وأعاد قراءتها وعلم ان هناك شاعراً مطبوعاً وأصبح كلما رأى شعراً لأحمد شوقي

يتهافت عليه «تهافت الظمآن على نمير الماء لاني رأيت الشاعرية بجميع شروطها : النسج الرقيق المتين والأسلوب الرشيق الرصين ، اللغة العربية الفصحى التي لا تؤتى من جهة ، والمعنى المتناهي في الدقة اللابس من اللفظ أجمل حلة والانسجام المطرد من الأول الى الآخر في سكب واحد وسبك متوارد »

ولكن الأمير وشوقي لم يجتمعا الآ سنة ١٨٩٢ في باريس وكان الامير قد ذهب اليها مستشفياً ، وشوقي جاءها من مونبلييه حيث كان يتلقى علم الحقوق . وتمّ الاجتماع في الحي اللاتيني ولكن الامير نسي كيف تعارفا «ولكن لم نجتمع حتى صرنا كأخوين» وكان مثابتهما مقهى داركور « وفي أثناء لقائنا الاول كنا تتذاكر حول أمور كثيرة ولكن أهم حديث كنا نخوض فيه هو حديث الشعر وكان مع شوقي ديوان المتنبي . . . » ويروي الامير أنهُ الذي أشار على شوقي حينئذٍ بأن يجمع قصائدهُ ويجعل منها ديواناً فلما سألهُ وأي اسم أعطيه قال الامير : سمهِ الشوقيات فنسبة هذا الشعر اليك هي عندي كافية . وقد ذكر شوقي هذه القصة في ديوانهِ الطبعة الأولى سنة ١٨٩٨

***

ومن النوادر اللطيفة التي جرت لهما ان شوقي ذهب الى لبنان ووصل عاليه وكان الامير مصطافاً في صوفر فقيل لهُ ان شوقي في عاليه وانهُ يريد مشاهدتهُ . وكان الامير متوعكاً فبعث الى شوقي ان ينتظرهُ وانهُ يكون في الغد عنده . وبكر اليهِ في اليوم الثاني وذكر لهُ سبب تأخرهِ فقال شوقي على الفور : رجوت ان تكون كاذباً ولا تكون مريضاً . فقال الامير : المرض احب اليّ من الكذب

وكان آخر اجتماع لهما عند عودة الامير شكيب من الحج ، سنة ١٣٤٧ هـ ، فذهب شوقي الى مقابلتهِ فيها ، وكانت قصيدة شوقي في دمشق ذاعت على الالسن ومن ابياتها في بني معروف واليهم ينسب الامير

لكل لبوءة ولكل شبل نضال دون غابتهِ ورشق

قال الامير وقد جرّنا الحديث الى هذه القرينة فقلت لهُ : عندما بدأت بقولك (لكل لبوءة ولكل شبل) خفت ان يكون جواب هذه الجملة (نضال عن مغارتهِ ورشق) فقال لي (وهي ايه) قلت لهُ هي : (نضال دون غابتهِ ورشق) والغابة هي والمغارة كلتاهما مأوى للاسد ولكن الغابة اخف وقعاً على السمع واقرب الى الالسن

رحم الله شوقي ومدّ في عمر الامير ونفعنا بعلمهِ وفضلهِ

تاريخ الفلسفة اليونانية

تأليف يوسف كرم — مدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية — صفحاته ٣٠١ قطع المقتطف
اصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر وقد طبع بمطبعتها

هذا كتاب مدرسي متقن في تاريخ الفلسفة اليونانية. ومقام الفلسفة اليونانية في تاريخ الفكر لا يحتاج الى شرح او بيان. ويكفي ان يذكر القراء اسماء اعلام كهرقليطس وفيثاغوراس وانكساغوراس ولوقيبوس وزينون الايلي وسقراط وانبادقليس وديموقريطس وأفلاطون وأرسطوطاليس وأرسطبس القوريني وديوجنوس وزينون الكلي ليعلم اي ذرى بلغتها الفلسفة اليونانية، في تعاليم هؤلاء الرجال وأحكامهم. والفلسفة اليونانية هي على ما قال المؤلف «فلسفة الشرق الادنى منذ فتوح الاسكندر، وفلسفة الغرب منذ استولى الرومان على بلاد اليونان في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد . . . . اصطنع المفكرون المسيحيون هذه الفلسفة ثم اصطنعها المفكرون المسلمون، ودخلت المدارس في الشرق والغرب فكونت العقول وهيمنت على وضع العلوم»

ليس ثمة مسألة من مسائل الفلسفة لم يعالجها اليونان، ولم يتحدّر أثر ما قالوه فيها الى العصر الحديث. «فقد نظروا في اسمى المسائل مثل الوجود والتغيّر والخير والشر والاصل والمصير» فكانوا «اساتذة الانسانية»

«وقد اجتازت الفلسفة اليونانية ثلاثة أدوار هي دور النشوء ودور النضوج ودور الذبول

«والدور الاول فيه وقتان: الوقت المسمى بما قبل سقراط وهو يمتاز بإتحاد وثيق بين العلم الطبيعي والفلسفة. ووقت السوفسطائيين وسقراط يمتاز بتوجه الفكر الى مسائل المعرفة والاخلاق

« والدور الثاني يملأهُ افلاطون وارسطو. اشتغل افلاطون بالمسائل الفلسفية كلها وجهد نفسهُ في تمحيصها ولكنهُ مزج الحقيقة بالخيال والبرهان بالقصة، حتى اذا ما جاء ارسطو عالجها بالعقل الصرف ووفق الى وضعها الوضع النهائي

« الدور الثالث يمتاز بتجديد المذاهب القديمة وبالعود الى الاخلاق والتأثر بالشرق والميل الى التصوف مع العناية بالعلوم الواقعية »

وهذا الكتاب من أوّله الى آخره شرح لهذا الايجاز

هنا اقطاب الفلسفة اليونانية، في ابواب وفصول وفقرات مرتبة منسّقة على خير ما تروم من ترتيب وتنسيق، نبذ موجزة في سيرهم متى ولدوا واين نشأوا وعلى من تلقوا العلم والفلسفة

هنا آراؤهم الفلسفية مبسوطة في دقة، يسيغها قارئ لم يدخل صروح الفلسفة من أبوابها، ويرضى عنها الاستاذ، وهذا عمل شاقٌ لا يتاح النجاح فيه الاَّ لمن كان كمؤلف هذا الكتاب

أخذ الفلسفة عن أساطينها ثم قضى العمر بعد الاجازة في درسها وتدريسها

معظم الفلاسفة مجتمع طوائف في هذا الكتاب وفقاً للرأي الفلسفي الذي يؤلف بينهم . فالطبيعيون الاولون هم طاليس وانكسيمندريس وانكسيمانس وهرقليطس . الاول يقول ان الماء اصل الاشياء والثاني يفسر تكوين الاشياء تكويناً آلياً اي بمجرد اجتماع عناصر مادية وافتراقها بتأثير الحركة والثالث ان الهواء اصل الاشياء والرابع ان النار اصل الاشياء وكذلك فعل المؤلف بسائر الفلاسفة . اما افلاطون وارسطوطاليس فقد أفرد لكل منهما باباً خاصاً به وفصّل آراءهما الفلسفية وحلل اشهر مؤلفاتهما

ولعل القارئ يطلب من بعد وصف الكتاب وتبويبه مثالاً على اسلوب المؤلف وهو اسلوب جمع بين القصد والابانة ، فاليه نسوق الفقرة التالية وقد فتحنا الكتاب اتفاقاً لنقل شيء منه فاذا هي امامنا، وموضوعها «الفضيلة» وهي في سياق الكلام على افلاطون صفحة ١١٨

ا — الفضائل ثلاث تدبر قوى النفس الثلاث : الحكمة فضيلة العقل تكمله بالحق — والعفة فضيلة القوة الشهوانية تلطف الأهواء فتترك النفس هادئة والعقل حراً — ويتوسط هذين الطرفين الشجاعة وهي فضيلة القوة الغضبية تساعد العقل على الشهوانية فتقاوم إغراء اللذة ومخافة الألم . والحكمة أولى الفضائل ومبدؤها فلولا الحكمة لجرت الشهوانية على خلقتها وانقادت لها الغضبية ولو لم تكن العفة والشجاعة شرطين للحكمة تمهدان لها السبيل وتتشرفان بخدمتها لما خرجتا من دائرة المنفعة الى دائرة الفضيلة اذ « ما الهرب من لذة لنيل لذة اعظم سوى عفة مصدرها الشره ، وما خوض الخطر لاجتناب خطر آخر سوى شجاعة مصدرها الخوف . ليست الفضيلة هذه الحسبة النفعية التي تستبدل لذات بلذات وأحزاناً بأحزان ومخاوف بمخاوف كما تستبدل قطعة من النقد بأخرى فان النقد الجيد الوحيد الذي يجب ان يستبدل بسائر الأشياء هو الحكمة بها نشتري كل شيء ونحصل على كل الفضائل ، اما الفضيلة الخالية من الحكمة والناشئة عن التوفيق بين الشهوات فهي فضيلة عبدة » . فالفضيلة اذن من جنس العقل والنفس ولا يسوغ ان نذكرها الاّ بالإضافة اليهما ، والحياة الفاضلة لا تستمد قيمتها من لذتها او منفعتها بل من هذه الاضافة ، ويستحيل على من ينكر النفس والعقل ان يبلغ الى معنى الفضيلة

ب — واذا ما حصلت هذه الفضائل الثلاث للنفس خضعت الشهوانية للغضبية والغضبية للعقل تحقق في النفس النظام والتناسب . ويسمي افلاطون حالة التناسب هذه بالعدالة باعتبار ان العدالة بوجه عام اعطاء كل شيء حقه . فليست العدالة عنده فضيلة خاصة ولكنها حال الصلاح والبر الناشئة عن اجتماع الحكمة والشجاعة والعفة . اما العدالة الاجتماعية فهي تحقيق مثل هذا النظام في علاقات الافراد .....

الزهاوي

[تابع المنشور على الصفحة ٥٠٧]

وهو في الشرق بحق — في هذا العصر — كنيتشه في الغرب تماماً الا ان الثاني أي نيتشه رام المجد عن طريق الهجوم فحض على الحرب والكفاح والقوة فكان من مفاخر شعره الحرب الكبرى بالامس ، واليوم نظرية الاجناس الشائعة في المانيا ودعوة النازية المتعصبة وطرد اليهود واضطهادهم والقوة السارية في شرايين الامة كالكهربائية والتحفز للوثوب بغية المجد والامل والنضال . أما الاول — اي الزهاوي — فقد رام المجد عن طريق الدفاع . الدفاع عن الشرق المهيض الجناح ، الشرق الذي يترصد له الغرب ويسد عليه السبل ويبغي أن يجعله لقمة سائغة في جوفه الوسيع الذي لا يشبع . ولم يغفل الزهاوي في يوم ما احياء الهمم الراكدة واذكاء روح القوة في النفوس الخامدة وتذكيرنا بماضينا المجيد غير ان ضعف اسلوبه لم يجعل لاناشيده تلك العذوبة التي يستسيغها كل لسان وتشيع بين الناس كالامثال . اما تمرده فقد كان في بعض الاحايين ينصبُّ على رجال الدين ، وذلك يرجع لتأثره بتعاليم استاذه المعري ولان كلا الرجلين لاقى الامرين من تعصب رجال الدين الذين لا يتبعون خطوات العلم ويوفقون بينه وبين الدين

وعلى الرغم من ان بعض المدارس الادبية تظن تمرده هذا انما هو تمرد على الدين نفسه ، فان اناشيده الثورية التي نادى بها يستفز الهمم ويوقد نار الوطنية في الصدور ويشعرنا بكرامتنا المهدورة وحقنا المضاع ووحدتنا المتفرقة مستبسلاً في دعواته الاصلاحية التجديدية قمينة بترددها ألسنة الشباب ، شباب الشرق العربي اولئك الدعاة الجدد الذين يحملون اليوم عبء المجد الثقيل

انظر الى قصيدته «حتى على الاقدار» التي وجهها الى الطلبة الشرقيين والتي بدأها بقوله :

بثوا بألسنة لكم من نار ... ما في جماجمكم من الافكار

سيروا الى غاياتكم في جرأةٍ ... كالسيل هداراً وكالإعصار

ثوروا على العادات ثورة حانق ... وتمردوا حتى على الاقدار !

كونوا جميعاً سادة لنفوسكم ... فالعصر هذا سيد الاعصار

الى ان يقول وهذا ما لا نقره عليه بعض الشيء :

لا تقبلوا في الدين ما يروونهُ ... الا اذا ما صح في الانظار

الى ان يقول : وتحرروا من قيد كل عقيدة ... سوداء ما فيها هدى للساري

أمن اكتفى بخرافة هو مؤمن ... ومن امترى فيها من الكفار ؟

وهذا دستورنا نحن الشباب ، لكنهُ عند قوله :

انضوا القديم وبالجديد توشحوا ... حتام تختالون في الاطمار

حكم خاطىء ، وان كان يهتدي بهدى المنطق العلمي المتطلق من عقاله — على حد زعمه — فما كل جديد بصحيح وما كل قديم بزائف كما أسلفنا القول من قبل

« للحديث بقية »



فوق الى اليمين — قطعة من الخزف ذي البريق الذهبي تمثل صورة السيد المسيح يحيط برأسه
هالة من النور — فوق الى اليسار — قطعة من خزف فاطمي عليها أمضاء صانعها مسلم
تحت الى اليمين — شباك اناء من الفخار به زخارف هندسية ونباتية دقيقة
تحت الى اليسار — قطعة من خزف فاطمي عليها أمضاء صانعها سعد

جزء من طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني عليه زخرفة من نباتات وأوراق شجر ورسم انسان وفي الجزء الأيمن كلمة قد تكون (جعفر) ومما يستوقف النظر ان غطاء الرأس يشبه ما كان معروفاً عن بعض الفرسان الأوربيين في القرون الوسطى





جزء من طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني عليه زخرفة من رسم فارس يقصد الصيد كما يظن من صورة البازي الجاثم على يده اليسرى وعلى الفارس رداء من نسيج مزين بدوائر فيها صور طيور . ومما تجدر ملاحظته شكل العمامة التي يلبسها والذؤابتان المتدليتان على خديه



شباك « خارة » للماء
عليه زخرفة تمثل طاووساً
رافعاً ذيله



طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني الذهبي وفي قعره
دائرة رسم عليها طائر في منقاره غصن وحول
الدائرة شريط من زخارف نباتية

حديقة المقتطف

بيير لوتي
وناحية من ذكرياته
ليوسف البعيني

لحن
لعمر ابو ريشة

العرس الاسود
لفؤاد سليمان



الامتيازات الاجنبية

في مؤتمر مونترو

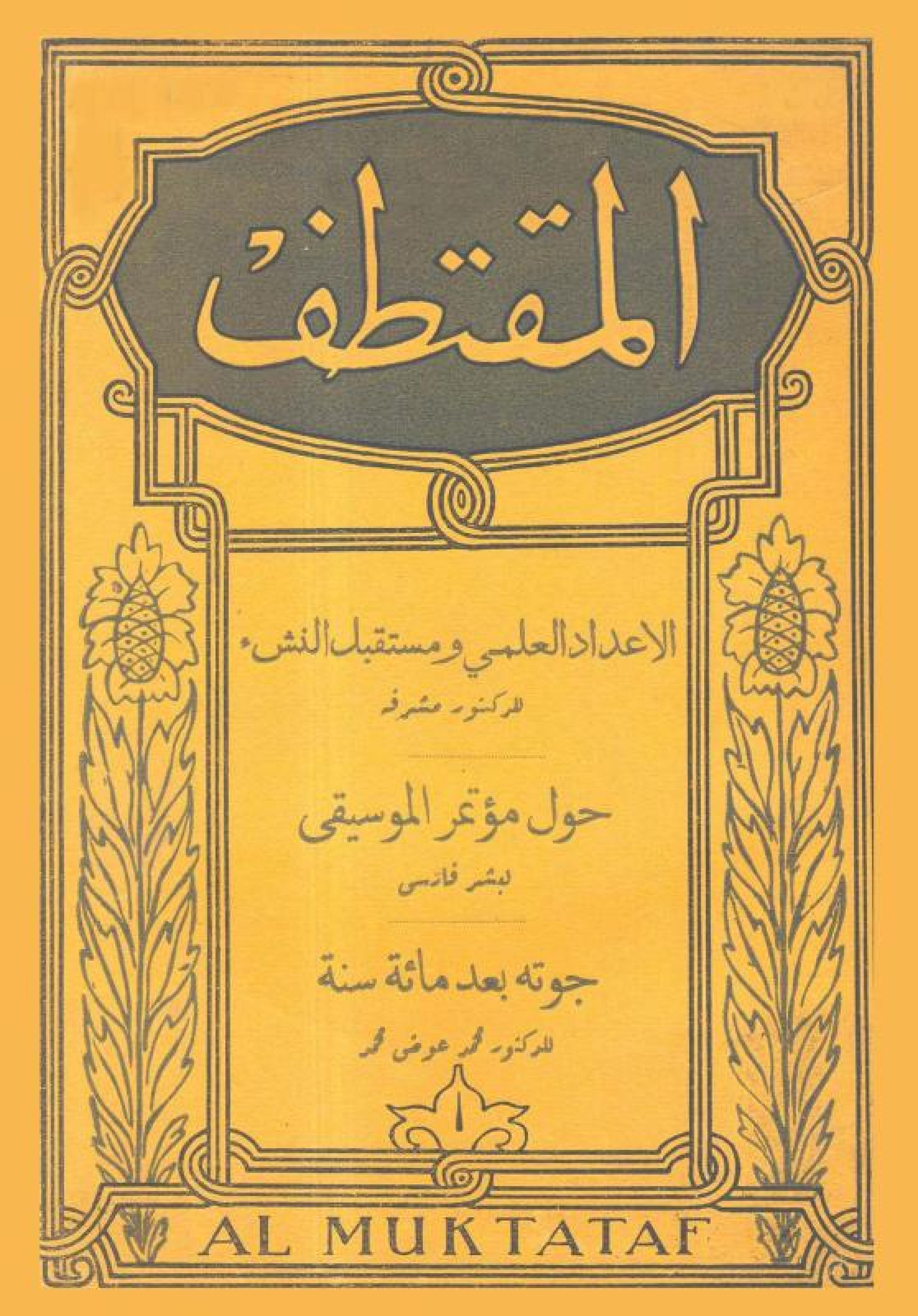
خطبة النحاس باشا

في مؤتمر مونترو

امتيازات الملوك

لامين الغريب

فهرس الجزء الخامس من المجلد التسعين


المقتطف
الاعداد العلمي ومستقبل النشء
للدكتور مشرفة
حول مؤتمر الموسيقى
لبشر فارس
جوته بعد مائة سنة
للدكتور محمد عوض محمد
AL MUKTATAF

جائزة اسعد باسيلي باشا

لذكرى

الدكتور يعقوب صروف

مائة جنيه مصري

يقدمها اسعد باسيلي باشا عن طريق

المقتطف

لافضل ثلاث رسائل

في الموضوع التالي وهو :

« العشرة المقدمون »

« في تاريخ الفكر العربي »

الجائزة الاولى — خمسون جنيهاً

الجائزة الثانية — ثلاثون جنيهاً

الجائزة الثالثة — عشرون جنيهاً

يجد القارىء بياناً عن موضوع الجائزة في الصفحة الرابعة

الدكتور يعقوب صروف

في شهر يونيو القادم يحتفل بازاحة الستار عن تمثال الدكتور يعقوب صروف في بهو المطالعة بمكتبة جامعة بيروت الاميركية

وانا ننتهز هذه الفرصة لتقديم وافر شكرنا الى حضرة صاحب السعادة أسعد باسيلي باشا والدكتور شخاشيري لما بذلا من همة وعناية في سبيل اخراج هذا التمثال من صورة جالت في أذهان اصدقاء الدكتور صرّوف وتلاميذه الى حقيقة واقعة ، وسيقف قريباً تمثالهُ في بهو المطالعة المذكور جنباً الى جنب مع تماثيل رئيس جامعة بيروت الاميركية الاول الدكتور دانيال بلس ، واستاذي الدكتور صروف الكبيرين نعني العلامتين الدكتور كرنيليوس فانديك والدكتور يوحنا ورتبات

ونقدم شكرنا كذلك الى حضرة السيدة الفاضلة والمثالة البارعة مدام توفيق بحري ، فقد افرغت التمثال في قالب تعهدتهُ بأناملها المفتنة وذوقها العالي وقدمتهُ الى لجنة التمثال هدية منها ومع هذا الكلام صورة التمثال .

وقد تولى عملية سباكته الاستاذ محمد حسن ناظر مدرسة الفنون التطبيقية في مسبكه الخاص



ووضع تصميم القاعدة فصنعها الاستاذ حسن رضوان ونرفع شكرنا أيضاً الى الدكتور بيارد ضدج رئيس جامعة بيروت وأعضاء مجلس ادارتها لتقبلهم هذا التمثال وتعيينهم موعد الاحتفاء بازاحة الستار عنهُ في خلال الحفلات السنوية التي توزع فيها الشهادات والرتب العلمية على المستحقين

وليس يخالجنا ريب في ان اصدقاء الدكتور صرّوف وتلاميذه وقراء المقتطف جميعاً يغتبطون بتجديد ذكراه بعد انقضاء عشر سنوات على وفاته، وذلك بنصب تمثاله في المعهد العلمي الكبير الذي تلقى فيه العلم ولقنهُ وحيث انشأ مع صديقه وأخيه الروحي الدكتور فارس نمر باشا ، مجلة « المقتطف » سنة ١٨٧٦

أسعد باسيلي باشا

جمع حضرة صاحب السعادة أسعد باسيلي باشا سراوة الأدب والفكر الى سراوة المال. فقد كان معلماً وكاتباً وأديباً قبل أن يخوض معمعة الحياة العملية ويسير فيها الى المقدمة.

«كان أسعد باسيلي أول ظهوره في الحياة العملية أديباً سليم التفكير، وللأدب تأثير قوي في النفس حتى لا يستطيع المشتغل بهِ أن يتخلى عنهُ الى حرفة أخرى ولعلّ اشتغالهُ بالأدب كان نتيجة شعورهِ القوي بأنهُ خلق لرآسة عمل واسع وان من حقهِ أن يعرب عن آرائهِ وأن يرشد وأن يتولى توضيح النقاط الغامضة فيما يلحظهُ ويسمعهُ من أحوال الناس وأحاديثهم، فلم يكن الأدب سبيله الى الحياة، وانما كانت ارادتهُ وشخصيتهُ وذكاؤه رأس نجاحه»

وأسعد باشا رجلٌ عصاميٌّ فيهِ من سجايا العصاميّ أجلّها، مشيئة صلبة، وقدرة على الدأب، وذهن مرتب، واستقامة وايمان.

وهذه كلها من اسباب النجاح ولكنها لا تكفي ان لم تؤاتها بداهة هي بمنزلة الالهام لرجل الاعمال تدلهُ على مواطن الاقدام والاحجام وتنير لهُ سبيل التوفيق سواء أأحجم ام أقدم

وُلد أسعد باشا في طرابلس الشام من نحو ستين سنةً او اكثر قليلاً، ولكنهُ منذ أقام في مصر شارك وطنهُ الثاني سرّاءهُ وضرّاءهُ، وما كاد يعود من أوربا في الحرب الماضي ويعلم بالاكتتاب لمشروع الدفاع الوطني، حتى أسرع الى القاهرة وقابل رفعة النحاس باشا وسلمهُ تحويلاً بمبلغ خمسة آلاف جنيه، فقابلت الحكومة المصرية هذه العاطفة النبيلة وما احرزهُ صاحبها من مقام في حياة البلاد الاقتصادية بالانعام عليهِ برتبة الباشوية السامية

***

ونحن اذ نشكر لاسعد باسيلي باشا أريحيتهُ وتبرعهُ بهذه الجائزة لذكرى الدكتور صرّوف نهنئهُ بما احرز من محبة واحترام بين جميع عارفيهِ

العشرة المقدمون

في تاريخ الفكر العربي

إذا وهب واهب سخي مبلغاً كبيراً من المال لتشييد به صرحاً فخماً يضم بين جدرانه كل ما خلفه عشرة من الرجال، كانوا مقدمي رجال الفكر العربي في تاريخه المجيد، وتتصل به مدرسة لدراسة آثارهم خاصة، فمن تضع فيه ؟

١ — الموضوع يقتصر على الادباء والفلاسفة والعلماء

٢ — لا يجوز ادخال رجال الدين ولا رجال السياسة والحرب

٣ — لا يجوز الاختيار من الذين على قيد الحياة

لقد اجمع كل من عني بدراسة الحضارة العربية على انها حفظت مصباح المعرفة منيراً في اشد العصور ظلمة، واضاف اقطابها الى كنوز المعرفة كنوزاً جديدة لا تقوم بمال، وقد ظل اثر بعضهم حياً في معاهد اوربا الى مطلع العصر الحديث تدرس مؤلفاتهم فيها بعد نقلها الى لغات الافرنج، ولا يزال اثرهم موضوع مباحث مستفيضة يقف عليها اقطاب العلماء في الشرق والغرب جل وقتهم وجهدهم

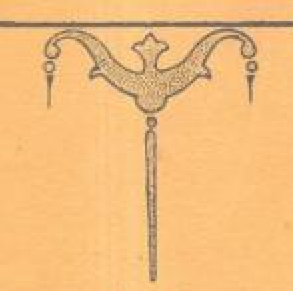
فمن هم مقدموهم إبداعاً واثراً ؟ سواء منهم المسلمون والمسيحيون، والنساطرة واليهود، والفرس والعرب والمغاربة. فكل فيلسوف وكل عالم كتب باللغة العربية يجوز اختياره لهذا الصرح، وطبعاً كل اديب ؟

والحكم يكون على إحسان الاختيار من جهة، وإحسان اقامة الدليل على وجوب هذا الاختيار من جهة اخرى. فاختيار عشرة من الرجال وسرد تاريخهم لا يكفي بل يكون الاعتماد على تبين الميزة في الرجل المختار، واثره في ناحية من نواحي ارتقاء الفكر العربي

وسننشر في العدد القادم من المقتطف مقالاً لكاتب اميركي، في « اعظم المفكرين في التاريخ » نحسبه نموذجاً صالحاً لما نقصد.

وفي الجزء القادم بيان وافٍ عن سائر الشروط





مستقبل العمران

الحب : لادلر

العلم : لهكسلي

التعليم : لولز

الاسرة : لرسل

الاقتصاد : لتشايس

رجال الشهر

غازورذي ، غاندي ، سايس ، صديق بك

الازمة الاقتصادية

واشتباك المصالح الدولية



الجزء الاول من المجلد الحادي والتسعين

١ يونيو سنة ١٩٣٧ — ٢٣ ربيع الاول سنة ١٣٥٦

قبل البردى ... بعد الحرير

نلبسهُ ونقيم في بيوت مصنوعة منهُ وندوّن انباءنا عليه وادبنا كذلك سجل انا نزدرده طعاماً وتستقدهُ مطايا وندهن به سياراتنا ونقذف به قنابلنا؟ فما هو ؟ ان الجواب عن هذا السؤال اسم مادة طالما احدثت وجوهاً من الانقلاب في شؤون الانسان خلال ارتقائه الطويل من الهمجية الى الحضارة. وهي مادة ليس ثمة ما يفوقها كثرة في عالم النبات بل ليس ثمة ما يفوقها اثراً وفائدة بين المواد التي استندت اليها الانسانية خلال ارتقائها . هي آناً قطن وآناً كتان ، آناً خشب وآناً ورق ، بل هي ايضاً حرير صناعي متين برّاق

ومع ذلك فان كلمة السلولوس ، وهي المادة الاساسية في القطن والكتان والخشب والورق والحرير الصناعي وغيرها ، ليست من الكلمات المألوفة ، ولكنها لا بدّ ان تذيع بين المثقفين لانها مادة اساسية في العمران . كانت كذلك في الماضي ، ولا بدّ ان يزداد شأنها في المستقبل ، لانها الآن عماد طائفة من الصناعات العظيمة

ولما كانت مادة السلولوس قوام كل نبات وشجر ، فالحصول عليها ميسور حيث يكون النبات ، وهي تتصف علاوة على ذلك بصفة النمو والتكاثر ، فلا يمكن ان تنفد ، ومن المعقول ان تميل الصناعات الحديثة الى الاعتماد عليها ما كان ذلك في وسعها

اما وهذا مبلغ انتشار السلولوس في الطبيعة ، فقد كان من الطبيعي ان يكون لهُ شأن عظيم في تاريخ البشر من فجر التاريخ الى عصرنا هذا

فالحضارة في عرف علماء الآثار والتاريخ بدأت حقيقة ، عندما اخترعت بعض الشعوب اساليب للكتابة من نحو عشرة آلاف سنة . ولكن الكتابة كانت على الصلصال المجفف والحجر، لا على الورق بل ولا على البردي . ولكن لما صنع الانسان الورق ، اصبحت مادة السلولوس، ناقلة للكلمات المكتوبة اولاً فللكلمات المطبوعة ثانياً ، فكانت من القوى التي وجّهت العمران، لانها مكنت الناس من تدوين المعارف وحفظها ونشرها

وحوالي العهد الذي انتقلت فيه صناعة الورق الى اوربا ، شرع بعضهم يجرب استعمال السلولوس في وجوه شتى كان لها اعظم تأثير في الحضارة . ففي القرن الثالث عشر وصف روجر بايكون « البارود الاسود » . فلما استعمل هذا البارود في البندقيات والمدافع في القرن الرابع عشر ، أتاح للعامة قوةً ، كانت من العوامل الاساسية ، في تغيير النظام الاجتماعي . واحدى المواد الاساسية في البارود الاسود ، مادة السلولوس المحروق ، حتى في عصرنا هذا يفضل صانعو البارود ، استعمال الفحم المصنوع من الصفصاف والشربين بالحرق

وقد أجمع المؤرخون الفلاسفة ، على ان البارود من ناحية ، والورق من ناحية أخرى ، كانا من عوامل المساواة في الحضارة الحديثة ، فالبارود أرغم امراء الاقطاعات في القرون الوسطى، على منح العامة بعض الحقوق، لان البارود في أيدي هؤلاء ، جعل المعاقل والحصون غير منيعة الجانب على الجموع المهاجمة . والورق رفع من شأن العامة الذهني بنشر ما ينطوي عليه من المعارف المدوّنة فيه . واذا كان استعمال الورق في تلك العصور قد اقتصر على التدوين ، فانهُ أصبح شائع الاستعمال في عصرنا حتى بتنا لا نستطيع ان نتصوّر حياتنا اليوم ، من دون ورق نقرأ فيه أنباءنا ونعلم به أبناءنا ونلف به أشياءنا . فقد نلف به حذاء قديماً او ندون فيه رسالة تحدث انقلاباً . وقد نطويه على كتاب هيام وشكوى ، او اعلان حرية واستقلال . وقد يكون قطعة من الورق نشعل بها النار في الموقد ، او معاهدة نمزقها فنشعل بها نار حرب

عرف الورق في الصين بضعة قرون قبل التاريخ الميلادي ، ولكن استعماله لم يشع في اوربا الا في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر . وقد كان للعرب اكبر شأن في ذلك . فقد قيل ان الصينيين هاجموا العرب في سمرقند في اواسط القرن الثامن فردّ العرب أعداءهم على اعقابهم ولكنهم أسروا في من أسروا بعض الصينيين الذين يجيدون صناعة الورق فأخذوا عنهم سرّها . فانتشرت الوراقة في بلاد العرب اي انتشار ، يدل على ذلك المخطوطات العربية المحفوظة الى عهدنا هذا وأقدمها يرتدُّ الى سنة ٨٦٦ ميلادية . ويلوح لبعض المؤرخين ان أساليب صناعة الورق اتصلت باليونان عن طريق الاتجار مع آسيا . ولكن العرب أنشأوا صناعته في اسبانيا في اواسط القرن الثاني عشر . ومنها انتشرت الى ايطاليا والمانيا وفرنسا فما انتصف القرن

الرابع عشر ، حتى كانت صناعة الورق قد رسخت في غرب اوربا وشاع استعمالهُ محل محل الرقوق

ان انواع الورق المستعملة الآن لاتحصى ولكنها جميعها مصنوعة من سلولوس على درجات متفاوتة من النقاء . وكان الورق يصنع اولاً من القطن وخرق الكتان ولكن الخشب حل محلها في القرن الاخير ، وذلك بعد استنباط الوسائل الكيميائية لفصل السلولوس عن سائر المواد الداخلة في تركيب الخشب . ففي سنة ١٩٣٢ استهلكت الولايات المتحدة الاميركية وحدها اربعة ملايين طن من رب الخشب المستخرجة من تسعة ملايين طن من الخشب

وليس ثمة ريب في ان استهلاك هذا القدر الكبير ، من مادة توجد في الطبيعة ، حملت البعض على التفكير في نفاد مصدرها الطبيعي . والرأي عند بعضهم ان الحكومات والشركات الكبيرة يجب أن تعنى بالتحريج ، وعند البعض الآخر بالامتناع عن قطع الاشجار لاستعمال خشبها الا اذا كانت فوق ارتفاع معين . وقد ثبت بالبحث والاحصاء انهُ اذا حقق الرأيان معاً امكن الاعتماد على كفاية الشجر لصناعة الورق اذا جعلت مدى الدورة بين الغرس والقطع عشرين سنةً

وهناك فريق ثالث يعتقد انهُ اذا عجزت اشجار المناطق المعتدلة عن كفاية ما تتطلبهُ صناعة الورق ، امكن الاعتماد على اشجار المناطق الاستوائية ، فالخيزران في الهند ، يستعمل لصناعة الورق الآن ، والتجارب تجرب في اصناف مختلفة من الاشجار الافريقية وينتظر ان يكون ما يستخرج من السلولوس من فدان منها في السنة مثل مايستخرج في المناطق المعتدلة او اكثر قليلاً

***

ولما كان السلولوس قوام النبات اطلاقاً والحاجة اليهِ تتزايد ، بتنوع وجوه استعماله ، فقد اتجهت الانظار الى المحاصيل الزراعية المنوعة لاستخراج مايمكن استخراجهُ منها من السلولوس . فقد اقترح بعضهم استعمال جذوع الذرة لصناعة الورق من نحو مائة سنة ، وحققت الاساليب الكيمياوية لذلك من عهد غير قريب . ولكن حل المشكلة من الناحية الاقتصادية ، لم يتم الا في السنوات الاخيرة . ثم ان قصب السكر كان موضوع بحث وافر في هذا الصدد ، وقد صنعت من سلولوسه اصناف مختلفة من الورق

ومما يدلك على الثروة الكامنة في هذه النفايات الزراعية ، ان وزن جذوع الذرة مجردة من الورق والقوالح يبلغ في الولايات المتحدة كلَّ سنة نحو ٣١ مليوناً من الاطنان ، ويمكن ان يستخرج منها ما يكفي لصنع مقدارٍ من الورق والواح الورق وزنهُ ٩ ملايين من الاطنان ، وهو اكثر قليلاً مما استعمل من الورق والواح الورق في الولايات المتحدة سنة ١٩٣٢

فمقدار السلولوس الذي يمكن استخراجهُ من جذوع الذرة وقصب السكر كبير جداً ، واذا فرضنا ان استخراج السلولوس منها حُلَّ على اوفى وجه من الناحيتين العلمية والاقتصادية ،

فالمصلحة المالية تقتضي ان تستنبط ابواب لاستعمال هذا السلولوس ، حتى يصبح جمع جذوع الذرة وقصب السكر عملاً مجدياً

وقد كان للسلولوس شأن كبير في وسائل الانتقال من اقدم العصور . ان الزوارق الاولى التي صنعها الانسان ، صنعها من جذوع الاشجار ، وكذلك مجاذيفها . ثم ان المراكب الشراعية صنعت ولا تزال تصنع من الخشب ، ولم يعدل عنه الى المعدن الا حديثاً في بعض المراكب الخاصة بالسباق ، حتى سفن البحار الفخمة ، لا تستغني عن السلولوس ، في قدد من الخشب تغطى بهِ ضهورها ، وفي ما تحتاج اليهِ من ملاءات ومناشف واغطية الموائد وعشرات من الاغراض الاخرى

ولا تقل وسائل الانتقال والنقل في البر حاجة الى السلولوس عن وسائل الانتقال في البحر. فالعربات الاولى صنعت من الخشب ولا يزال جانب كبير من القطارات الحديثة يصنع منهُ . مع انها في بعض البلدان تصنع من الصلب على الاكثر . بل ان الخطوط التي تسير عليها القطارات كانت خشباً من نحو مائة سنة في بعض البلدان . اما السيارات فقلما يدخل الخشب في صنعها ، ولكن اطارات عجلاتها لا تستغني عن السلولوس ، فيستعمل فيها قطناً طويل الشعرة

ومن غريب امر الانسان انهُ وقد اعتمد على السلولوس في اشكاله المتباينة من الوف السنين ظل يستعملهُ كما يجده في الطبيعة ، من دون ان يعمد الى صنع مواد جديدة منهُ الا في العهد الاخير ، اذا استثنينا فحم الخشب والورق . ولكن ارتقاء الصناعات الكيمياوية كان كفيلاً بتوجيه العناية الى استنباط مواد جديدة من السلولوس . الا ان تقدمه في هذا الميدان كان بطيئاً والغالب ان ذلك يرتدُّ لعجز الانسان عن معرفة تركيبه معرفة دقيقة . ومع ما كشفهُ العلماء من الحقائق عن تركيب جزيء السلولوس ووزنهِ وترتيب الذرات فيهِ ، لا يزال الموضوع في حاجة كبيرة الى الايضاح

كانت المادة الاولى المصنوعة من السلولوس التي فازت بشأن كبير في العالم الحديث مادة النترات . فانك اذا اخذت سلولوساً نقياً وعالجتهُ بمزيج من الحمض النتريك ، والحمض الكبريتيك ، تولدت مركبات جديدة . فما كان منها محتوياً على ١١ في المائة من النتروجين يستعمل لصنع المعجونات الملتهبة (بيروكسيلين : هذا هو اسمها العلمي وهو مركب من لفظين معناها نار وخشب) كالسلولويد الذي تصنع منهُ شرائط الصور المتحركة . وما كان منها محتوياً على ١٢ في المائة من النتروجين يستعمل لصنع الادهان الزجاجية اللامعة (الورنيش) التي تدهن بها السيارات والجلود وغيرها . وما كان منها محتوياً على اكثر من ١٢ في المائة من النتروجين يستعمل لصنع البارود الذي لا دخان لهُ . وغني عن البيان ما لهذه المواد جميعاً من الشأن في الحضارة

ومما تستعمل له المعجونات الملتهبة التي تصنع منها شرائط الصور المتحركة ، الزجاج الذي لا يتشظى وهو من حسنات الصناعة الحديثة التي فتحت به صناعة السيارات خاصة . فاذا أخذ لوحان من الزجاج ولصقا معاً بطبقة من هذا المعجون ، امكن استعماله لصنع واجهات الزجاج التي توضع في السيارات امام السائق فاذا حدث اصطدام تشقق هذا الزجاج ولكنه لا يتشظى ولا تتطاير كسره ، وليس ثمة ريب في ان هذا يحول دون اصابات كثيرة في حوادث السيارات منشؤها الشظايا المتطايرة . ثم ان بعضهم صنع زجاجاً من هذا القبيل لا يخترقه رصاص البندقيات ، بوضع لوح زجاجي كثافته ثلاثة ارباع البوصة في الوسط ، ثم لصق اربعة الواح به ، لوحين من كل جانب بواسطة طبقات من هذه المعجونات . ومن اهم وجوه استعماله الآن السيارات المصفحة وواجهات الصرّافين في البنوك

وللسلولوس خواص غريبة ومتناقضة احياناً . فقد استعمل قديماً في بناء الدور والأكواخ لما يتصف به من قدرة على مقاومة تقلب الجو . ولكنه يتحد بالاكسجين وينحل اذا ارتفعت حرارته الى ما دون حرارة الغليان قليلاً . ثم انه يستعمل قطناً في نسج الملابس لانه يقاوم عملية الغسيل وفعل بعض المواد الكيمياوية ، ولكن اذا غلي في الماء المقطر ساعتين ثم جفف تغيرت خواصه الكيمياوية ولذلك نشأت صناعات جديدة اساسها هذه الخواص الكيمياوية المتغيرة في السلولوس . فانك اذا اخذت خيطاً من القطن وعالجته بمحلول من الصودا الكاوية (١٨ في المائة) في مكان بارد ثم جففته وهو مشدود اصبح لامعاً فيستعمل في نسج الاقمشة الحريرية المظهر المعروفة باسم القطن « المصقول »

واذا عولج الورق بالحمض الكبريتيك (٧٠ في المائة) ثم غسل الحمض اصبح الورق شبيهاً بالرق ويعرف باسم «الرق النباتي». ولما كان الماء يبله ولا يبليه اصبح يستعمل بدلاً من المناشف في تجفيف الاطباق المغسولة . فاذا عولجت اصناف خاصة من الورق بالطريقة المتقدمة امكن استعمال الرق لعزل الادوات الكهربائية . واذا عولج بمحلولات مركزة من كلوريد الزنك اصبح شبيهاً بالالياف المعالجة بالمطاط المقسّى

***

ولا يخفى ان السلولوس استعمل من قديم الزمان ، قطناً وكتاناً ، لنسج الملابس . وفي دار الآثار المصرية بالقاهرة بقايا من نسيج كتاني دقيق يرتدّ الى اقدم العصور . ولكن الحرير كان مفضلاً على الكتان لنعومة ملمسه ولمعانه ، فأقبل عليه النبلاء وخصّوه بإيثارهم

وكأن الانسان ناجى نفسه فقال ان السلولوس تأكله الغنم فتحوله صوفاً ، وتأكل دودة الحرير سلولوس التوت فتحوله حريراً ، فلماذا لا اسعى، وللحرير ما له من المقام، الى كشف سر الدودة

ومع ان الانسان لم يكشف سر الدودة بعد الاّ ان العلماء توصلوا بعد بحث طويل الى صنع ألياف دقيقة من السلولوس تماثل الحرير في منظره وملمسهِ

كان غرض الباحثين الاول في هذا الميدان ان يصنعوا الحرير الطبيعي بأساليب صناعية . بل قيل ان اطلاق اسم « الحرير الصناعي » على هذه المادة الجديدة المصنوعة من السلولوس بالوسائل الكيمياوية ، انما كان بقصد التمييز بين حريرين احدهما تصنعهُ الطبيعة والآخر يصنعهُ الانسان . ولكن من المعروف الآن ان اصناف الريون Rayon (وهو اسم «الحرير الصناعي») لا تشبه الحرير شبهاً ما من الناحية الكيمياوية . و« الريون » اربعة اصناف منها ثلاثة سلولوس اصيل وهي متشابهة مع ان اساليب صنعها من السلولوس متباينة . ولكن الصنف الرابع وهو أحدثها مركب كيمياوي من السلولوس والحمض الخليك ويعرف باسم « خلات السلولوس » وهو يختلف في خواصهِ عن السلولوس وعن اصناف الريون الاخرى

وتقسم الاساليب التي يعتمد عليها في صناعة «الحرير الصناعي» طائفتين ، وأساس الاختلاف بينهما ان الخيط في الواحدة سلولوس عولج معالجة كيمياوية خاصة ، والخيط في الثانية مركب من مركبات السلولوس كخلات السلولوس

وللطائفتين قواعد معينة مشتركة خلاصتها تحويل السلولوس الى محلول ، ثم دفع ذلك المحلول في ثقوب دقيقة الى وسط تتجمد فيهِ . وقد يكون هذا الوسط غازيًّا او سائلاً وذلك يختلف باختلاف المادة التي حلّ فيها السلولوس

ففي العهد الاول من صناعة «الحرير الصناعي» كان يحوَّل السلولوس الى نترات السلولوس ثم يحل هذا المركب في مزيج الكحول والايثر ثم يصفى ويدفع في الثقوب الدقيقة الى حجرة فيها هواء حار فيتجمد الخيط فيها بتبخير المادتين التي استعملتا لحلّ النترات . وتستردُّ هاتان المادتان لتستعملا ثانية . اما الخيط فيعالج بطريقة خاصة لنقص قابليتهِ للالتهاب . ولكن هذه الطريقة لا تستعمل الآن الاّ في مصنع واحد في الولايات المتحدة الاميركية . فاذا حل السلولوس في مركب من النحاس والنشادر جمّد الخيط في محلول حامض او محلول قلوي

ولكن الاسلوب المستعمل في ٨٠ في المائة من مصانع « الحرير الصناعي » يقوم على معالجة السلولوس النقي بالصودا الكاوية ثم بعد فترة معينة يعالج بثاني سلفور الكربون فيتحول الى مركب سلولوسي يمكن حلّهُ في الحمض الكبريتيك المخفّف

في هذه الاساليب الثلاثة نجد ان المادة المعالجة هي السلولوس نفسهُ . ولكن الاسلوب الصناعي الجديد الآخذ في الانتشار الآن قوامهُ تحويل السلولوس الى خلاّت السلولوس ، والخيط الناتج عن هذه العملية هو خلاّت السلولوس نفسها وليس بسلولوس صرف . ومن مميزات

هذه الطريقة ان الخيط بعد تجميده لا يحتاج الى معالجة جديدة باي مركب كيماوي ، بل يكون جاهزاً لعملية « الفتل » التي تسبق الاستعمال

لما ظهر الحرير الصناعي في السوق اولاً كان خشن الملمس ولكن اتقان الاساليب الصناعية زاد الخيط متانة ونعومة ونقص ثخانته . ومن اغرب ما ظهر في صناعة الحرير الصناعي زيادة الطلب على نقص لمعانه مع ان الاقبال عليه اولاً كان باعث هذا اللمعان . واغرب من ذلك انهُ لما ظهر الحرير الصناعي في السوق أُلفت لجنة في الولايات المتحدة الاميركية لدراسته فكتبت في بيانها انها لا تتوقع لهُ نجاحاً . ومع ذلك فقد استهلكت الولايات المتحدة الاميركية من «الريون» (الحرير الصناعي) مقداراً يفوق ستين في المائة مقدار ما استهلكتهُ من الحرير الطبيعي وقد زاد مقدار المصنوع منهُ في خلال ١٨ سنة (١٩١٠ — ١٩٢٨) من ١٠ ملايين رطل الى ١٠٠ مليون رطل وبلغ هذا المقدار ١٤٢ مليون رطل سنة ١٩٣١

ولا يخفى ان من حسنات الحرير الصناعي امكان نسجهِ مع القطن او الصوف فتصنع كذلك منسوجات منوعة غاية في المتانة والجمال . وقد صنع من عهد قريب نوع من الريون ينافس الحرير مظهراً ومتانة حتى عند ما يكون الخيط مبلولاً ولكن استعماله لم يشع بعد لاسباب صناعية

***

وكما استعمل السلولوس قديماً في وسائل المواصلات استعمل حديثاً في احدث هذه الوسائل. ففي الطيارات الاولى كانت هياكل الطيارات ومراوحها Propellors تصنع من الخشب والاجنحة تغطّى بنسيج من القطن او الكتان يدهن بنترات السلولوس او بخلاته حتى يصبح مشدوداً ومهما يكن من مستقبل الطيارات المصنوعة من المعدن فان السلولوس كان ولا ريب ذا شأن في ارتقائها حتى الآن

وقد صنع من السلولوس ورق صفيق مقوّى تصنع منهُ علبٌ تستعمل في التجارة ، وورق رقيق شفاف يدعى « السلوفان » . وصناعة هذا الورق الاخير من الناحية الكيميائية لا تختلف عن صناعة الحرير الصناعي ولكن بدلاً من ان يدفع المحلول السلولوسي في ثقوب يدفع في شق ضيق جدًّا فيتحول ورقاً بدلاً من ان يتحول خيطاً

وقد استغني في صناعة الاحذية عن المسامير والخيط في صنع « الكعب » وخصف النعال باستعمال مادة سلولوسية شديدة اللصق فاذا بسطت بين « النعل » واسفل الحذاء التصقا في ٥٠ ثانية فيصبحان وكأنهما قطعة واحدة والآلة التي تستخدم لهذا الغرض تمكن العامل البارع من انجاز ١٥٨٠ حذاء في ثماني ساعات وربع ساعة من العمل

هذا والعلم لا يزال على عتبة عصر السلولوس :

العشرة المقدمون

في تاريخ الفكر الانساني

للكاتب ول دورانت

مؤلف «قصة الفلسفة» و «صروح الفلسفة»

أذعنا في مقتطف مايو الماضي نبأ الجائزة المالية التي جادت بها اريحية صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا احتفاء بذكرى الدكتور يعقوب صروف العاشرة . واقترحنا على الكتّاب موضوعاً هو : «العشرة المقدمون في تاريخ الفكر العربي» . اقترحناه ونحن نعلم ان البحث في سيرة كل من هؤلاء الذين يقع عليهم الاختيار ، وتحليل اثره الباقي ، يقتضي مجلداً او اكثر ، ولكننا اقترحناه ونحن نعلم كذلك ان المتغلغل في تاريخ الفكر العربي ، المتعمق في فهم تياراته القوية ، يستطيع ان يستشرفها فيلم بمن يحسبهم اعلامها وبما ابدعوا وخلفوا من اثر وكيف وجهوا معاصريهم ومن اتى بعدهم في صفحات معدودات . ووعدنا ان ننشر في مقتطف يونيو مقالاً للكاتب الفلسفي الاميركي ول دورانت ، نحسبهُ نموذجاً صالحاً لما نقصده، مع انهُ قصر اختياره على الفلاسفة والعلماء ونحن أضفنا اليهم رجال الادب . ولكنهُ حصر ميدان البحث في اصحاب الأثر الباقي منهم ناظراً الى ما استحدثوه من الآراء والمذاهب وما مدى تأثيرها في عصرها والعصور التي تلتها ، وهل كانت مبتكرة او منقولة ، وشاملة او منحصرة في فرع واحدٍ من فروع الفكر ، وعويصة تنفذ بها صاحبها الى جواهر الاشياء او سطحية رقراقة لم تمس الا سطحها

ومقال المستر دورانت ردٌّ على سؤال وجه اليهِ من قبل مجلة اميركية نصهُ : « من هم اعظم عشرة مفكرين في التاريخ » . قال بعد التوطئة : — « المحرر »

كنفوشيوس

ارى القارىء يهمّ بالاعتراض قائلاً — كيف نختار كنفوشيوس ونغفل المسيح او بوذا ؟ ان السبب في ذلك ان كنفوشيوس كان فيلسوفاً ادبيًّا لا واعظاً يدعو الناس الى عقيدة دينية جديدة . وان دعوتهُ الناس الى الاخذ باسباب الحياة النبيلة كانت مبنية على بواعث زمنية لا على اعتبارات فوق الطبيعة . انهُ اقرب من المسيح الى سقراط وفلسفتهِ . ولد سنة ٥٥٢ قبل المسيح في عصر حلَّت فيهِ الفوضى في الصين محلّ مجدها القديم فتمزقت تلك البلاد دويلات دويلات يسودها النزاع والحرب فاخذ على عاتقهِ ان يعيد اليها النظام والوئام . وهاك فقرة من كتاباتهِ توضح لك آراءهُ قال :

« ان الاقدمين الامجاد كانوا اذا ارادوا ان يوضحوا الفضائل السامية وينشروها في الناس ينظمون احوال ممالكهم . وقبل ان ينظموا احوال ممالكهم كانوا ينظمون احوال اسرهم . وقبل ان ينظموا احوال اسرهم كانوا يهذبون اخلاقهم . وقبل ان يهذبوا اخلاقهم كانوا ينقوا نفوسهم وقبل ان ينقوا نفوسهم كانوا يحاولون ان يكونوا صادقين ومخلصين في افكارهم وقبلما كانوا يحاولون ان يكونوا صادقين ومخلصين في افكارهم كانوا يوسعون معارفهم . وتوسيع المعرفة كان يجيء عن طريق البحث والمشاهدة . شاهدوا الاشياء فاكتملت معارفهم وحين اكتملت معارفهم خلصت افكارهم وحين خلصت افكارهم تهذبت اخلاقهم وحين تهذبت اخلاقهم تنقت نفوسهم وانتظمت اسرهم . وحين انتظمت اسرهم انتظمت دولهم ، وحين انتظمت دولهم اصبحت الارض كلها تمرح في السعادة والوئام »

هذه فلسفة ادبية سياسية صحيحة في بضعة اسطر . نعم انها فلسفة محافظة ، تعلي كثيراً من شأن العادات الاجتماعية وتستخف بالدمقراطية ولكنها رغماً عما فيها من اقوال شبيهة بمبادىء المسيحية ، تراها اقرب الى فلسفة الرواقيين منها الى المعتقدات بالمسيحية . ويقال ان تلميذاً وجه سؤالاً الى كنفوشيوس قال فيهِ « انجازي الشر بالخير » فقال « كيف نجازي اللطف اذاً ؟ جازِ الخير بالخير ، وجازِ الشرّ بالعدل » . ولم يكن يعتقد ان الناس متساوون وان الذكاء هبة عامة لجميع الناس بل كان يعتقد ان اكبر حظ يصيبهُ شعب من الشعوب هو اقصاء الجهّال عن المناصب العامة واحلال الحكماء محلهم . فاختارتهُ مدينة كبيرة من مدن الصين تدعى شنغ تو حاكماً عليها « فحدث اصلاح عجيب على اثر توليتهِ ، في عادات الشعب واخلاقهِ . فوضع حدًّا للجرائم ولم يجرؤ الخبث والخداع ان يرفعا رأسيهما واصبحت الامانة وحسن النية من مميزات الرجال ، والعفة واللطف من صفات النساء » . اني لا اكاد اصدق ما يقال انهُ حدث لبعدهِ عن طبائع الناس والراجح انهُ لم يدم زمناً طويلاً . ولكن اتباع كنفوشيوس ادركوا عظمة معلمهم حتى في حياتهِ

فدفنوه في احتفال مهوب وبنى جمهور كبير منهم اكواخاً قرب قبره واقاموا فيها ينوحون على فقده ثلاث سنوات وبقي احدهم واسمهُ تسي كنغ بعد ذلك ثلاث سنوات اخرى

نجيل الطرف في الحضارات المتعددة التي نشأت ودالت بعد زمن كنفوشيوس فلا نجد في احداها رجلاً ينهض بفكره فوق بقية الرجال كما ينهض الجبل فوق الآكام التي حولهُ ، اننا لا نجد رجلاً نسمع في صوته صوت الشعب الذي ينتمي اليهِ ، ولا في تعليمه ما اصلح حالهم او احدث فيهم انقلاباً ما . نحن نطوي الهند والعراق والشام وآسيا الصغرى ، فنقع فيها على بعض المشترعين الدينيين ، ولكننا لا نقع على عالم عالمي ولا على فيلسوف عالمي . ثم نستعرض الدول المصرية فينبؤنا التاريخ عن مئات من الفراعنة وآثار خالدة من الفن ، ولكننا لا نجد اسم رجل جمع في عقله حكمة الماضي وطبع شعبهُ بطابعهِ الفكري الخاص . فنصرف النظر عن كل هؤلاء الشعوب ونتجهُ الى بلاد اليونان في عصرها الذهبي — عصر بركليس

افلاطون

اتصوّر القارئ يهمُّ بالاعتراض ثانية ولسان حاله يقول كيف نختار افلاطون ونصرف النظر عن معلمهِ سقراط اب الفلسفة واعظم شهدائها . عسى ان لا يضطرب القارئ اذا قلت لهُ ان نصف ما يذكر عن سقراط حديث خرافة . فقد اثبت المسيو دوبريل احد كتاب فرنسا في كتاب دعاهُ « الخرافة السقراطية » ان سقراط من طبقة اخلس وأُديبوس ورومولس وغيرهم من الاشخاص الذين تحجب حقيقتهم الخرافات والاساطير . ولا ريب في ان جانباً كبيراً من شهرة سقراط عائد الى ذكاء تلميذه افلاطون وألمعيته . ولا نعلم ما في كتابات افلاطون من آراء سقراط حقيقة وما فيها مما ابتكره افلاطون نفسه فليكن اسم افلاطون رمزاً لكليهما

من يداخلهُ اقل ريبة في اثر افلاطون . انظر الى الاكادمية التي انشأها ، اولى الجامعات في التاريخ واطولها عمراً . انظر الى الاهتمام العام بفلسفتهِ ، والتجديد الذي تم غير مرّة فيها كما ظهر اولاً في اصحاب الفلسفة الافلاطونية الجديدة في الاسكندرية ثم في اتباع افلاطون بكمبردج . انظر الى المقام الذي احرزه افلاطون في حضارة القرون الوسطى وما لفكره من الاثر في المباحث اللاهوتية الحديثة . واذكر ان مائة الف تلميذ او اكثر في جميع انحاء العالم المتمدن مكبون اليوم على « جمهوريتهِ » « ومحاوراته » يتلقون منها الحكمة . هذا هو خلود النفس يتلاشى امامهُ فناء الجسد . ان « محاوراته » لمن اثمن الآثار التي يقتنيها البشر ففيها اتخذت الفلسفة اولاً شكلاً معيناً ولما افاض عليها افلاطون من عواطف شبابه الزاخرة المتنوعة وصل بها الى قمة عليا من كمال الابداع

اذا شئت ان تصغي الى حديث سامٍ عن الحب والصداقة والبحث عن الجمال فاقرأ ليسس

وكارميدس وفيدرس . واذا شئت ان تعرف ما يناجي نفساً شريفة مما يتعلق بالحياة الاخرى فاقرأ «فيدو» . ان صفحاتها الاخيرة لمن اعلى القمم التي بلغها النثر في كل عصور التاريخ . واذا كانت تلك تلك مشاغل العقل واسرار المعرفة فاقرأ بارمنيدس وثيتيتس . واذا كانت تلك تلك كل المباحث على اختلافها بوجه عام فاقرأ « الجمهورية » ففيها تجد مباحث في ما وراء الطبيعة والآداب وفلسفة النفس واللاهوت والسياسة والفن . فيها تجد المبادىء التي تنشدها طالبات التحرّر من النساء ، وفيها تجد القواعد التي يدعو اليها علماء الحياة اليوم لتحديد النسل . فيها تقع على مبادىء الاشتراكية والبوجنية والارستقراطية والدمقراطية والتحليل النفسي والمذهب القائل بان الحياة مظهر من مظاهر التفاعل الكيماوي . فلا عجب ان يقول امرسن في هذا الكتاب « احرقوا كل الكتب ففي هذا الكتاب غنى عنها »

ارسطوطاليس

لا شك في ان جميع الباحثين يجمعون على اختيار ارسطوطاليس وضمه الى المجلس الذي نؤلفه من اعظم المفكرين . فأبناء القرون الوسطى دعوه « بالفيلسوف » (ودعاه العرب بالمعلم الاول) يريدون بهذه التسمية انهُ جمع في شخصه وفكره اسمى ما بلغتهُ الفلسفة من الغايات . على اننا لا نرى انفسنا مسوقين الى اختياره بدافع الاعجاب الذي يسوقنا الى اختيار افلاطون . لاننا حين نقبل على كتب ارسطوطاليس نحس بجفاف ما فيها من حقائق مجردة يمليها عقل خاضع لقوانين البحث المنطقي . ولكن يجب ألاّ نحكم عليه من مطالعة كتبه لانهُ قد ثبت ان معظمها كان خلاصات دوّنها هو او دونها تلاميذهُ لتذكر الخطب التي كان يلقيها عليهم ، وعليه فليس من الانصاف ان نقابل هذه الكتب بمحاورات افلاطون التي كانت ولا تزال اقوى ما يدفع الناس الى الاعجاب به اعجاباً يقرب من الحب

فاذا صرفنا النظر عما تقدم وجدنا ان عقل ارسطوطاليس كان من اعجب العقول في تاريخ الفكر مضاء سواء أنظرنا اليه من حيث سعة المباحث التي اشتغل بها ام من حيث تعمقهُ في كل منها . انهُ يطوّق الكرة بفكره فيبحث في كل موضوع من موضوعات العلم والفلسفة فيزيدهُ وضوحاً ويرى لكل مشكلة من مشكلاتها حلاً وتعليلاً معقولاً فكأنهُ بث العيون والارصاد تجمع لهُ شتيت الحقائق والمعارف ثم تناولها بعقله فوحد بينها . انك تجد في كتبه التعاريف والالفاظ الفلسفية التي لا تزال تستعمل الى الآن . كذلك تقع فيها على حكمة تكاد تكون كاملة تشمل الحياة بأسرها . لقد كان ينشئ علوماً جديدة بسهولة تامة ففي مؤلفاته تقع على اول ذكر لعلم الحياة وعلم الاجنة والمنطق . لم يكن اول من فكر في هذه الموضوعات ولكنهُ كان اول من فكر فيها مقيداً تفكيرهُ بالملاحظة والبحث والاستقراء والامتحان واستنتاج النتائج من مقدماتها .

فاذا صرفنا النظر عن علم الهيئة وعلوم الطب فتاريخ العلم يبدأ من مباحث هذا الفيلسوف العظيم. فامن فيلسوف او عالم آخر كان له من الاثر الواسع النطاق كاثر ارسطوطاليس الا كنفوشيوس. ان جميع دارسي التاريخ يعرفون ان علماء مدرسة الاسكندرية والباحثين في رومية في عهد الامبراطورية اتخذوا مؤلفات ارسطوطاليس قاعدة لمباحثهم العلمية وان فلسفته التي نقلها العرب الى اوربا اصبحت القاعدة التي بنيت عليها الفلسفة المدرسية في عصور النهضة وان دانتي وضعه في المقام الاول بين رجال المعرفة فدعاه « معلم المعلمين » وان المعلمين البزنطيين بعد ما افتتح الاتراك القسطنطينية عنوة هجروا شرق اوربا الى اواسطها وغربها فنقلوا معهم بزور فلسفته فكانت من اكبر العوامل في النهضة الاوربية بعد القرون المظلمة. وبقي ارسطوطاليس مسيطراً على سير الفكر البشري نحو الف سنة لم تنقض الا امام البحث العلمي الذي قال به روجر باكون والفلسفة التي ابتكرها فرنسس باكون

***

تمر بنا اليونان ونستقبل رومية فنسأل من هم اعظم المفكرين فيها. ان لقريطيوس اولهم واعلاهم كعباً. على ان فلسفته لم تكن من مبتكراته، بل اسندها بكل صراحة الى ابيقوروس، ولم يكن اثره الا اثراً متفرقاً. وعليه فلا نستطيع ان نختاره ليدخل بجمعنا. واما سنكا وابكتيتوس واوريليوس فلم يكونوا سوى اصداء تردد اقوال بعض فلاسفة اليونان كزينون وغيره يطبقونها على احوال رومية المتضعضعة. كانت الحضارة الرومانية في اواخر ايامها حين كتب هؤلاء الكتاب، قد هانت بعد العز، ودالت بعد القوة وحل الارقاء محل الاحرار وخضعت المدن العامرة القديمة لفرائض الجزية والطاعة. وانقسمت الطبقات السائدة طرائق طرائق، واذا الحضارة القديمة قد دكت الى الحضيض وباتت الاطلال تنعى من بناها

ثم ما لبثت ان قامت الكنيسة المسيحية فوق الاطلال تجمع الاحزاب وتزيل الضغائن بفعل الكتب المقدسة. زال الامبراطرة وبقي البابوات. ورجعت كتائب الجيوش من ساحات الحروب وانطلقت مكانها فرق الرهبان، جيوش المعتقد الجديد تنشىء نظاماً جديداً يستطيع الفكر ان ينمو فيه ويعيش. ما اطول ذلك العهد الذي اخذ العقل الاوربي فيه يتلمس طريقه الى النور

واتسعت المتاجر، واصبحت القرى الصغيرة مدناً كبيرة، والمدارس جامعات فتمكن بعض الافراد ان يتحرروا من مطالب الحياة الشديدة لينعموا في ظلال التفكير والدرس والبحث فهز ابلار نصف قارة اوربا ببلاغته وادمج بونافنتوري واكوينس خلاصة الافكار الشائعة في فلسفة لاهوتية مجيدة ولما انقضى زمن الاستعداد انجبت اوربا ارسطوطاليساً آخر في شخص هو :

توما الاكويني

رجل كان يهتم بشتى مظاهر الكون والحياة ووصل باسلاك دقيقة من الفكر بين ضفتي الهوة القائمة بين العلم والاعتقاد . جمع معارف عصره وفسرها ووحدها ثم سددها الى مسائل الحياة والموت وعليهِ فيجب ان نختاره وان كان بعضنا لا يرتاح الى ذلك

ان قلبي لينفطر اذ أُجبر على اختيار توماس الاكويني ليشغل بين أعظم المفكرين محلاً كنت اود ان اشاهد فيهِ سبينوزا او ليوناردو دافنشي ، ولكن جرياً على الخطة التي رسمتها وهي التجرُّد عن الهوى في اختيار من نختار ، يجب ان نخضع اهواءنا لعقولنا . ان تفوق توما الاكويني في قرن حافل بالعظائم واثره البعيد المدى في ملايين من الناس ، وآراءه التي لا تزال في عرف كثيرين اقوى دعامة من مبادىء العلوم الحديثة ، وفلسفته التي لا تزال الركن الذي يقوم عليهِ اعظم مذهب مسيحي ، كل ذلك يحكم علينا باختياره

وفي القرن الخامس عشر ارتفع صوت من بولونيا يقول ان الارض وهي موطىء قدمي الله في عرف الاقدمين ليست سوى سيار صغير يدور حول شمس صغيرة . قول لا يثير فينا الآن دهشة ولا استغراباً لاننا تعلمناه في مدارسنا ونقرأه في الكتب والصحف ، ولكنهُ كان كفراً والحاداً في عصر كانت فلسفة ابنائهِ تقوم على قرب الناس من السماء لانهُ جاء ضربة قوية حطمت السلم الذي يصل بين البشر والملائكة

كوبرنيكس

ان كتاب « كوبرنيكس » الذي عنوانهُ « دوران الاجرام السموية » احدث ثورة فكرية بعيدة المدى . لما جلس يراقب الكواكب اللامعة الاخاذة لم يكن يدور في خلده ما قد يكون لقولهِ من الاثر في المعتقدات ، لانهُ كان قد اخذ بالبحث عن الحقيقة والحقيقة في عرفهِ محرر الناس ، فقلب بسحر معارفهِ الرياضية رأيهم في الكون فبعد ما كانوا يعتقدون ان الكون وما فيهِ يدور حول الارض والانسان اضحوا يرون ان الكون نجوم وعوالم منتثرة في هذا الفضاء غير المحدود

لا نعلم مبلغ تقصي كوبرنيكس من العلوم الرياضية والفلكية على اننا نقيس مكانتهُ باثرهِ الذي لا يقاس . فبهِ بدأ العقل يثور على الخرافات والاقوال التي تقبل بالتسليم ومن ثم مضى في ثورتهِ عصراً بعد عصر ، يكشف حقائق الطبيعة ويسيطر على عناصرها حتى بلغ ما بلغهُ الآن

فالثورة التي اثارها كوبرنيكس اثبتت ان الفكر البشري بلغ اشده حينئذٍ ومنها سار في معارج النضوج والاكتمال

بلغ الفكر البشري اشدهُ في عصر كوبرنيكس ومن ثم اخذ يتقدم بخطوات ثابتة في كشف اسرار الطبيعة والسيطرة على عناصرها . فكان العصر الذي تلا عهد كوبرنيكس حافلاً بروّاد الفكر الشجعان الذين لم يقعدهم خوف او انتقاد عن الخوض في مختلف المباحث

من نختار مثلاً لهذا العصر — عصر الاخيار ؟ أنختار ليوناردو دافنشي المصوّر الموسيقي النحات البناء المستنبط المهندس الفيلسوف العالم بالتشريح والفسيولوجيا والطبيعيات والكيميا والجيولوجيا والزوولوجيا والنبات والجغرافيا والرياضيات؟ كلاّ ان التعريف الذي اطلقناهُ على رجال الفكر لا يشملهُ لانهُ كان رجل فنٍ اكثر منهُ مفكراً او عالماً واثرهُ الباقي في الناس هو اثرهُ الفنيّ فاذا ذكرناهُ الآن نذكر صورتيهِ « الجيوكوندا » « والعشاء الاخير » لا رأيهُ في الآثار المتحجرة او دورة الدم

فرنسيس باكون

أنختار جيوردانو برونو صاحب النفس الباحثة وراء الغيوم عن الوحدة الالهية غير راضية عن المذاهب والطوائف واختلاف المعتقدات ؟ كلاّ لاننا نجد في هذا العصر رجلاً اوسع فكراً وأبعد اثراً من برونو الذي أحرق في سبيل الفلسفة . نجد رجلاً دعا جميع الباحثين عن الحقيقة الى الترابط والتعاون في خدمة العلم واثبت ان الغاية من الفكر ليست المناقشة المدرسية والتكهن بالغيب بل الغاية منهُ السيطرة على الطبيعة سيطرة تمكن الانسان من القبض على ناصية الاحوال الطبيعية التي يعيش فيها . انهُ رجل بلغ من سعة نظره ان رسم خريطة لمجاهل العلم ودل الباحثين الى اصول العلوم التي انشأوها بعدُ ودربهم على كشف حقائقها وترتيب اصولها . هو الرجل الذي نفخ روح الحياة في الجمعية الملكية الانكليزية وجماعة الانسكلوبيذيين الفرنسيين وعلّم الناس ان المعرفة للقوة والسيطرة . لا للتأمل والتخيل . هو الرجل الذي قضى على منطق ارسطوطاليس واقام الملاحظة والامتحان اساساً للفكر واتصف بكل الصفات التي يمتاز بها الفكر الحديث — هذا هو فرنسيس باكون

وحديث التقدم الفكري منذ ايام باكون الى الآن هو حديث الفلسفة الباكونية والاساليب الباكونية وانتصارها على الفلسفة والاساليب القديمة

***

ما اكثر الروّاد على هذه الطريق . ففي يدي ديكارت يتصارع النظام القديم مع النظام الجديد من غير ان يتم الفوز الاكمل للجديد . وفي عقل ليبنتز نشاهد ما للتقاليد القديمة المرعية الجانب من قوة ونفوذ لانها تحول الرياضي الممتاز الى لاهوتي متردد . وفي صوت عمانوئيل كانت

نسمع صوت المعتقدات القديمة يرتفع وسط اهازيج الريبة والشك التي اثارتها المباحث الجديدة والآراء الجديدة

على ان سبينوزا وفق توفيقاً غريباً في الجمع بين هذين المذهبين المذهب العلمي والمذهب اللاهوتي في النظر الى الطبيعة والكون . ومن هو سبينوزا ؟ رجل جعل التأمل في الله والطبيعة والحياة عمله ، فسار به عقله المتفوق اشواطاً بعيدة في كشف الكثير من اسرارها . انظره يصنع بلوراته ، او يدوّن آراءه في ما وراء الطبيعة او يدرس الهندسة والميكانيكيات او يستشهد للفلسفة ترى في كل عمل من اعماله عظمة وجلالاً جعلت كل مفكر بعده يتأثر بفكره السامي وشخصيته القوية . ولكننا لا نستطيع ان ننتخبه واحداً من العشرة الذي نحاول اختيارهم . لان اثره كان محدوداً ومحصوراً في افراد قلائل ولو كانوا من قادة الفكر في العصور التي تلت عهده

نيوتن

ولكن من يشك في مقام نيوتن ؟ ان تلاميذ المدارس يعرفون كثيراً من القصص التي تروى عنه وتدل على انصرافه عن سفاسف الحياة الى التأمل في اسرار الكون . ان قصتي التفاحة الساقطة والكلب الذي احرق له كتاباً ثميناً اشهر من ان تذكر ولكن هل يعلم كثيرون ان كتابه « المبادىء » كان فاتحة عصر جديد تمت فيه سيطرة العلم على سير الفكر الحديث . وان نواميس الحركة التي كشفها اصبحت اساساً لعلم الميكانيكيات الحديث الذي بُني عليه كل تقدم عملي في عمراننا الحاضر وان اكتشافه لناموس الجاذبية حول الكون الى نظام دقيق تعرف ابعاد اجرامه واجرامها وحركاتها . قال فولتير « كنا نتحدث فسأل سائل اي الرجال التالية اسماؤهم يفوق الباقين عظمة — الاسكندر او قيصر او تيمورلنك — فاجاب احد الحضور لاشك ان نيوتن اعظم الجميع . فكان كلامه فصل الخطاب لان نيوتن يسيطر علينا بقوة العقل لا بالعنف البدني وعليه فنحن نحترمه » . فيظهر مما تقدم ان معاصري نيوتن ادركوا مقامه الفريد بين رجال الفكر ، وقد جاء الاحتفال بانقضاء مائتي عام على وفاته اقوى دليل على ذلك

فولتير

والى فولتير يعود الفخر والفضل في نقل مبادىء نيوتن الميكانيكية وفلسفة هبس الى فرنسا فكان عمله مبدأ عصر النهضة والنور فيها وكان هو حامل مصباحه ورافع لوائه . قد يدهش بعض القراء ويحنق بعضهم حينما يرون فولتير قد زُج بين اعظم المفكرين في التاريخ ويعترضون بانه لم يكن مبتكراً في آرائه وانه كان فوق ذلك هداماً اكثر منه بناء ولكن من منا مبتكر لدى التحقيق واي رأي تصوره الآن لم يذكر منذ القدم في صور مختلفة ؟ ان ابتكار الخطإ اسهل على الناس من

ابتكار الصواب. ألم يتناول سبينوزا — وهو من اكثر المفكرين تقصياً وتعمقاً — مبادىء آرائه وفلسفته من برونو وابن ميمون وديكارت ؟ ألم يتخذ احد العلماء موضوعاً لبحثه حين نال لقب الدكتوراه « ان كل ما كتبهُ ارسطوطاليس باطل لا يستثنى منهُ سوى ما نقله عن افلاطون » ألم ينقل افلاطون قديماً وشكسبير حديثاً كثيراً من مرويات الناس فحولاها بسحر خيالهما وبلاغتهما الى آيات خالدة من الفن والجمال ؟ فاذا سلمنا بأن فولتير وباكون انارا مصباحيهما من مصابيح الغير افلا يكفيهما فخراً وعظمة انهما اضاءا بهما العالم . اخذ فولتير من غيره آراء كانت مطموسة مطمورة في زوايا النسيان لصعوبة تناولها ، فبسطها وألبسها من سحر بلاغته ثوباً خلاباً فاقبل عليها الناس اي اقبال

وهل كان فولتير هداماً كما يقال ؟ أنرفض الاعتراف بمقامه وقوة فكره لان آراءه تختلف عن آرائنا ؟ الم تخل عن سبينوزا لان أثره كان محصوراً في نفر قليل من المفكرين مع ان بعضنا يقدس فلسفتهُ حتى يكاد يقسم بها ؟ وعليه فيجب ألا نسأل هل تتفق آراء فولتير مع آرائنا بل هل قبلها الناس وهل كان لها اثر فعال في تلوين آرائهم وتوجيهها في عصره والعصور التالية ؟

لا ريب في ذلك ! يقال ان الملك لويس السادس عشر التفت في سجنهِ فرأى مؤلفات فولتير وروسو فقال « هذان الرجلان قوضا دعائم فرنسا » . ولو وضع كلمة « الاستبداد » بدل فرنسا لكان اصاب كبد الحقيقة

على ان الملك لويس اسبغ على الفلسفة شرفاً لا تستحقهُ كلهُ . اذ لا شك ان الحالة الاقتصادية في فرنسا في العصر الذي سبق الثورة مهدت السبيل الى الثورة الفكرية التي كان فولتير زعيمها ورافع لوائها . لكن الالم في عضو من اعضاء الجسم لا يدفع الانسان الى معالجتهِ ان لم يشعر بهِ اولاً بما تنقلهُ الاعصاب من الاحساس بالالم الى الدماغ . وعلى ذلك قس حالة فرنسا . ان جهل العامة بفساد الحكم في ايام البوربون جعل استمرار الحالة مما لا مندوحة عنهُ الى ان يفضي على البلاد بتمزق شملها وهبوطها الى هوة سحيقة من الانحطاط والخذلان . لكن أقلام عشرات من الكتاب انطلقت من عقالها تصور للشعب فساد الحال فكان صريرها أوقع من صليل السيوف لانها دلت الشعب على مكامن الداء الفتاك فهبّ يبحث عن الدواء . وفي هذا العمل العظيم كان فولتير القائد الاعلى انضمّ تحت لوائهِ عشرات من الكتاب كلهم يعترف بقيادتهِ وينقاد الى اشارتهِ حتى فردريك الكبير حياهُ بقولهِ « انهُ أكبر نابغة أنجبتهُ العصور »

وكما ان قادة الفكر في ذلك العصر كانوا ينحنون امام فولتير احتراماً كذلك نراهم في العصور التالية يعتبرونهُ امام الحرية الفكرية ويلقبونهُ بصاحب الجلالة . فنيتشه الفيلسوف الالماني استقى كثيراً من نبعهِ وقدّم اليهِ احد مؤلفاتهِ وأناتول فرانس تلمذ لهُ ودرس عليهِ في مؤلفاتهِ التسعة

والتسعين وكيّف بها أسلوبهُ وفكره . وبراندس كبير الجنود في كثير من معارك الحرية الفكرية وقف ايامهُ الاخيرة على وضع سيرة لهُ كاد يرفعهُ فيها الى مصاف الآلهة . فاذا اغفلنا أكرام فولتير كنا غير جديرين بالحرية التي رفع منارها

على ان هناك وجهاً آخر للنزاع بين الايمان والشك ، بين الفلسفة القديمة والاساليب العلمية الحديثة . ذلك ان كثيراً من المعتقدات التي انهارت امام النزعة العلمية الحديثة كان لها كثير مما يشفع بها وفولتير نفسه بقي موحداً مؤمناً حتى انهُ اقام في بلدتهِ كنيسة للصلاة . على ان أتباعه تعدوا الحد الذي بلغهُ زعيمهم ولما مات كانت الفلسفة المادية قد طغت بتيارها وتغلبت على كل فلسفة أخرى تنازعها البقاء حينئذٍ

***

في أواخر القرن السابع عشر ظهر في انكلترا الفيلسوف الانكليزي جون لوك فكان الرأي الاساسي في فلسفتهِ ان الاختبار مصدر المعرفة وان الحواس سبيل الاختبار وان العقل لا يحتوي على أمر لم يصلهُ عن طريق الحواس . فكان قولهُ هذا سبيلاً الى الاستنتاج بأن الاجسام المادية تؤثر في العقل عن طريق الحواس دون غيرها . واننا لا نستطيع ان نعرف شيئاً الا اذا كان جسماً ماديًّا وعليهِ فالفلسفة المادية هي لباب الحق

فرد عليهِ المطران باركلي بقولهِ ان قولَ لوك يثبت من نفسهِ ان لا وجود مستقل للمادة وانما هي توجد لاننا نشعر بها بحواسنا فاذا انعدمت الحواس انعدمت المادة فقضى برده هذا على المادة والفلسفة المادية . ولم يلبث ان انبرى لهما دافيد هيوم فكتب رسالته التي عنوانها « الطبيعة البشرية » جارى فيها باركلي في نفي وجود المادة المستقل وتعداهُ فأثبت بالطريقة نفسها ان العقل ليس لهُ وجود مستقل

كانت

تصور الحالة الفكرية في ذلك العصر وما أصيبت به من الاضطراب . استل باركلي سيفاً طعن بهِ المادية فجاء هيوم واستلَّ السيف نفسهُ وطعن بهِ العقل غير المادي والروح الخالدة وفي المعركتين فقد العلم كثيراً من مقامهِ وهيبتهِ . في ذلك الحين تناهت الى عمانوئيل الالماني ترجمة مؤلفات هيوم فقرأها ولما اتمها ناجى نفسهُ قائلاً « أنتخلى عن العلم والايمان لهذا النقادة الهدّام ? ماذا يجب ان نفعل لانقاذهما ? »

وماذا فعل ? وضع كتابهُ « نقد العقل المحض » ووضع فلسفتهُ الكمالية التي رفع فيها

شأن التأمل كمصدر من مصادر المعرفة لانهُ قضى بان الاختبار لا يمكن ان يكون وحدهُ مصدر المعرفة فأصغى الناس الى صوتهِ فرحين لانهم سمعوا فيهِ صوت التقاليد والمعتقدات القديمة التي كانت مرعية الجانب لدى آبائهم واجدادهم ، ولانهم رأوا فيهِ منصرفاً عن العلم اليقيني المادي الذي اخذ ينتشر حينئذٍ

***

ومن يشك اقل الشك في اثر كانت ? انهُ انقذ العقل والنفس من قبضة المادة . ودفع بالمانيا كلها الى الاهتمام بالمباحث التي ما وراء الطبيعة فأقبل عليهِ شلر وغوته يتلقيان الحكمة والحق ونقل عنهُ بتهوفن قولهُ « ان عجيبتي الحياة هما القبة الزرقاء ترصعها الكواكب والناموس الادبي في نفس الانسان » وتابعهُ فيخت وشلنغ وهيجل وشوبنهور فوضع كل منهم نظاماً فلسفيًّا جديداً يقوم على نزعتهِ الكمالية . وكأن كتابهُ « نقد العقل المحض » كان تمهيداً لآراء شوبنهور ونيتشه وبرغسن ولِيم جيمس . وحتى الآن لايزال نظامهُ الفلسفي قائماً لان العلم الحديث في اشخاص بيرسون وماخ وبوانكاري اثبت ان « الحقيقة » و « المادة » و « الطبيعة » و « نواميسها » كلها مما يستنبطهُ العقل ولا وجود لها الاَّ بوجوده فكأن اكليل النصر عقد لكانت وفلسفتهِ فقازاً على المادية والالحاد

ثم جاء دارون فثارت الحرب ثانية

دارون

انَّا لا نعلم ما قد يكون اثر دارون النهائي في تاريخ البشر ولكن لا ريب في انهُ فاتحة عصر جديد في التقدم الفكري . فاذا ثبت انهُ على خطإٍ فيما ذهب اليهِ اغفله الناس كما كادوا يغفلون ديموقريطس وانكساغورس . واذا ثبت انهُ على صواب تقدمت الاجيال المقبلة اليهِ بالتجلة والاعظام وجعلوا سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي نشر فيها كتابهُ « اصل الانواع » حدًّا يبدأ عندهُ الفكر الحديث

وماذا فعل دارون ? رسم صورة للارض والحياة تختلف عن كل صورة قبلها ، واشار فيها اشارة دقيقة الى كل ما رآه من غير ان يتهجم على معتقد ما . واذا الطبيعة في هذه الصورة معركة حامية الوطيس ، فيها الولادة عَرَض والموت حقيقة ازلية . والحياة سداها ولحمتها الانتخاب الطبيعي القائم على تنازع البقاء وبقاء الاصلح . وسطح الارض مرتع للاحياء من منظورة وغير منظورة يأكل قويها ضعيفها ويفتكُ داهيتها بساذجها، وصار للافعال الطبيعية

على اختلافها من زمهرير وزلزال واعصار وطوفان ووباء وحريق وحرب شأن كبير في هذا الانتخاب ، تبيد بها أجيال وتبقى اجيال اخرى تعيش وتتكاثر الى ان يُقضى عليها او يحل محلها ما هو اصلح منها للبقاء .هذا هو النشوء وهذه هي الطبيعة وهذه هي الحقيقة وهذه هي الارض — بحسب صورة دارون

جاء كوبرنيكس فأثبت ان الارض ذرة سابحة في الفضاء فقضى على المعتقد القديم القائل بانها مركز الكون وموطئ قدمي الله . وجاء دارون فأثبت ان الانسان حيوان يتنازع مع سائر الحيوانات السيطرة على الكرة الارضية فقضى ايضاً على المعتقد القديم القائل ان الانسان خلق خلقاً مستقلاً وانهُ سيد كل المخلوقات

تصور تأثير هذه الفلسفة الجديدة في العقول التي نشأت على الفلسفة الكمالية والمعتقدات الدينية . افتعجب اذاً حين ترى رجال المعتقد القديم يثيرون حرباً ضروساً على الرأي الجديد حتى يبلغ العداء بين العلم والدين مبلغاً من الحدة والشدة لم يبلغهُ بعد غاليلو وبرونو ؟ ولكن ألا يقف المنتصرون في هذا المعترك على جثث ضحاياهم يأسفون لنصرهم المبين توافين الى النظام القديم والمعتقد القديم الذي قوضوا أركانهُ !؟

***

اماءك اذن الرجال العشرة الذين انتخبناهم

كنفوشيوس — افلاطون — ارسطوطاليس — توما اكيناس — كوبرنيكس — باكون — نيوتن — فولتير — كانت — دارون . والى جانبهم انداد لم يسعنا ان ندخلهم جمعنا مع ان لهم مقاماً لا يقل عن مقام هؤلاء — ديمقريطس — ابيقوروس — مرقس اوريليوس — ابيلارد — غليليو — سبينوزا — ليبنتز — شوبنهور — سبنسر — ونيتشه

***

وقد حكم علينا ان لا نذكر احداً من المخترعين لان كثيراً من العقول اشتركت في اخراج مستنبط واحد من حيز الخيال الى حيز العمل والاتقان . واذا ذكرنا الحركات الاجتماعية الكبيرة في التاريخ وجدنا أننا ضربنا صفحاً عن كثيرين من زعماء الفكر البشري . اين الحركة النسائية وزعيماتها من ماري ولستونكرافت الى سوزان انتوني . واين الحركة الاشتراكية من ديوجينس وزينون الى لاسال وماركس ؟ وهذا النقص لا سبيل الى تلافيه اذ اية قائمة تستطيع ان تستنفد كنوز الفكر البشري على اختلافها ؟ آه

ارتحال الصديق

مصطفى صادق الرافعي

لاسماعيل مظهر

لئن لم يكن في موت الرافعي من أثر الا أن تكون فجيعتنا فيه فجيعة العربية والعروبة ، وفجيعة اللغة والادب والفن الاسلوبي الاسمى ، بل وفجيعة الاسلام ، لكفى بموته واعظاً يعظنا ، وذكرى تساورنا عن تلك القرون الماضيات التي ارتحل فيها من امثاله أقلون امتازوا بما امتاز به من انصقال الطبع وحمية الروح وصفاء القلب ونقاء النفس . ثم أقلون هم اولئك الذين اتصفوا بما أضفت الطبيعة على الرافعي من صفات اليقظة الحقيقية . فقد كان رحمهُ الله يقظ النفس ، يقظ الروح ، يقظ الفؤاد . فأكسبتهُ يقظة نفسه قوة الايمان . وأكسبتهُ يقظة روحه قوة العمل . وأكسبتهُ يقظة فؤاده قوة الحرية والصراحة . فقد عاش رحمهُ الله مؤمناً عاملاً حراً مستقلاً ما اضناه حب الجاه الكاذب يوماً فأرغمهُ على أن يلوذ بأذيال عظيم او يداجي ابتغاء مرضاة انسان . بل عاش لنفسه ولايمانه ولحريته ، فكان المثل الاعلى في زمان قلت فيه المُثُل وكثرت المثلات

لا يعنينا من أمر الرافعي وقد ارتحل عن هذا العالم الفاني، ان نصفهُ فنخرج منهُ صور نحاول ان نطبعها في عقول اهل هذا الزمان، فان ما بين الرافعي وبين الكثيرين من اهل هذا الزمان من فروق تجعل طبع صورة صحيحة من شخصيته في عقول الناس امراً عسيراً . فلا أحاول هذا اذن الآن بل أحاول أن أقضي حق صديق رحل ، فأقول فيه ما اعتقد انهُ الحق ، وان ألم بمجمل ما تركت صداقته في نفسي من آثار لعلي لا أخطىء اذا قلت انها آثار باقية ، على قدر ما أشعر في قرارة نفسي من ثقة بأن للرافعي في نفسي آثاراً تتناول نواحي شتيتة . فلقد كان لذلك الراحل الكريم شخاصة تشيع آثارها في نفسك شيوع الكهرباء في المادة الجامدة فتكسبها معنىً جديداً هو معنى القوة تغمرك ، ثم لا تتبدد

كنت أشعر بأني الى جانب الرافعي في رحابة صديق خالص الود زكي القلب ، نقي السريرة ، بعيد عن ان يفكر في ان يستغل صداقتك الا للصداقة ، فان غضب فللصداقة وان عتب فللصداقة وان قطعك فللصداقة ايضاً . فكانت الصداقة عنده معنى يتمثله في شخصك راجياً ان يصدق حدسه فيك ، فتكون الجدير بتمثيل هذا المعنى السامي الذي تحيّز في خياله حتى كاد يتجسّم ،

وأكنّهُ في قلبه حتى كاد يضيق به ، فان تنفس عن شيء فمن كل ما يزيدك ثقة بأنهُ صديق

كنت أستشم ريح الايمان الطاهر منبعثاً عن نفسه الطاهرة . ما كان يعنيني من أمر إيمانه من شيء الا أنهُ ايمان . ايمان ثابت حتى في الاشياء التي كانت تخالف مذهبه في الادب أو مذهبه في الدين ، طالما اعتقد انك ان خالفته في شيء فانما تخالفه فيه عن ايمان يشبه ايمانه فيما يعتقد به . ولعمري ان هذا لاسمى صور الايمان وأرقى مراتب الحرية الصحيحة

أهدى اليّ رحمهُ الله يوماً كتابه « اعجاز القرآن » وكنت أصدر « المصور » ، فعقدت فصلاً في معنى الاعجاز تعليقاً على رأيه فيه ذهبت فيه مذهباً لا يتفق في شيء مع رأيه ، بل ولا يلتقي به في ناحية من النواحي ، بل اني لاذكر أني تشددت بعض الشيء ، وهاجمتهُ في مواطن . وكنت اذ ذاك حديث العلاقة بالرافعي ، وقد تبادر اليّ ان ما انشر انما يفقدني علاقتي برجل اعتقد انهُ عظيم . ولكن الصديق الراحل رحمهُ الله، تلقى ما كتبت رحب الصدر راضي النفس، وتلقاني بذلك البشر الطافح من أساريره الواضحة المعاني قائلاً : ان البئر التي انتزحت منها أفكارك في الاعجاز لن اشرب منها . ولكن حسبك انك انتزحت منها مؤمناً بصلاحية مائها . ومرّت الايام فلا القاه الاّ استعجلني ترجمة كتاب عن عَـلَم من اعلام اوربا ، مختاراً في الاكثر الكتب التي تدعو الى حرية الفكر والى نشر المبادىء العلمية الحديثة كأنهُ كان يعتقد ان الايمان الصحيح لاينبغي ان يقف عثرة في سبيل الفكر ايًّا كان متجهه ومرماه

كان للرافعي لون من الادب ، لا اختار ان احلل الصورة التي انطبعت منهُ في نفسي قبل ان أمهد لذلك بشهادة علم من اعلام زماننا هذا . فقد كتب استاذنا الكبير احمد لطفي السيد باشا فصلاً في الجريدة ، عندما اصدر الرافعي كتابهُ « تاريخ آداب العرب » سنة ١٩١٢ جاء فيه :

« قرأنا هذا الجزء . فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه . يدل على ان المؤلف قد مَلَك موضوعهُ ملكاً تامًّا، واخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً . وليس من السهل ان تجتمع لهُ الاغراض التي بسطها في هذا الجزء الاول، الاّ بعد درس طويل وتعب ممضّ، لم يتأخر هو عن وصفه في مقدمة كتابه . واما اسلوب الرافعي في كتابته فانهُ سليم من الشوائب الاعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين . فكأني وانا أقرؤه أقرأ من قلم المبرّد في استعماله المساواة والباس المعاني الفاظاً سابغة مفصلة عليها لاطويلة تتعثر فيها، ولا قصيرة عن مداها تودي ببعض اجزائها . وان هذا الجزء بل هذه المقدمة ، تدل على انّ المؤلف سيخرج لنا من تاريخ آداب العرب ما يجمع شملها بعد التشتت في كتب متعددة ، ويكون بذلك قد أدّى للأمة أعظم خدمة يؤديها اشد الادباء غيرة على الادب » . . . . اذن فقد لمح استاذنا الكبير في الرافعي ما لمح فيه كل عارفيه . لمح فيه سلامة الاسلوب من الشوائب الاعجمية ، ولمح فيه

إيمانه بآداب العرب، تلك التي ارصد نفسه لخدمتها، خدمة لن يؤديها الا أشد الادباء غيرة على الأدب
كان ذلك في عصر لم تغزنا فيه بعد الاساليب التي شابتها شوائب الأعجمية (لارحمها الله) ولم يضعف إيماننا بآداب العرب ، ولم تتبدل من ثقافتنا التقليدية ثقافة دخيلة مترجرجة كالزئبق مرتجة كالجدار الذي يريد ان ينقضّ ، وكان الرافعي يحاول ان يقيمهُ
كان ذلك في عصر اعتقد فيه الادباء أن العربية وآدابها اصل تقليدي ، ما ينبغي الا ان يكون اساس الادب الحديث، وان الادب الغربي ليس الا لقاحاً يغذي ذلك الاصل . لم نكن قد اعتقدنا بعد ، عن خطإٍ واسراف ، ان أدب الغرب ينبغي ان يتخذ اساساً وان اللغة العربية ليست الا اداة التعبير عنه . ولم نكن قد اسمينا هذا الاسراف تجديداً ، ولم نكن أضفينا على الذين يحافظون على الاسلوب العربي الصميم ويحاذرون ان يشوب هذا الاسلوب شيء من شوائب الاعجمية ، لقب المقلدين (الكلاسيك) لا لنكرم فيهم هذه النزعة ، وانما لنتخذها سبباً للسخرية منهم والاستهزاء بهم ، ولم تكن نابتة الأدباء اذ ذاك قد ترددوا في «الاستغراب» حتى انبتّت بهم الصلة او كادت ، بأدب أوائلهم وأساليبهم ، ولم نكن قد فتنّا بعد ، وكفى بالفتنة صدعاً نخشى ان نعجز عن رأبه . كان ذلك في زمان قاد الادب فيه عقول رشيدة متزنة ، وكان الادب بمعزل عن السياسة وعن حب التظاهر الكاذب وعن حب المادة حُبًّا أفقد الادب في عصرنا صفة الاستقلال عن الارضيات السُّفلى . كان ذلك في عصر مجّد الرافعي لان الرافعي حاول ان يحيي موات الاساليب المنتقاة وان يجمع ما تشتت من آداب العرب . كان ذلك في عصر لم يرَ ادباؤه في احياء لفظة عربية غريبة الا انتصاراً للادب وللعربية . كان ذلك في عصر قال فيه استاذنا احمد لطفي السيد باشا ما معناه : لئن مجد الانجليز شكسبير لانه احيى من موات اللغة الانجليزية آلافاً من الالفاظ المهجورة فالأجدر بنا ونحن في مستهل حياة جديدة الا نكون أقل منهم تمجيداً لمن يحيي من موات لغتنا ما أمات الاغفال. هنالك في ذلك العهد عرف أدب الرافعي ومجّد . فلما أظلنا عصر الانتحال ، انتحال الاساليب الغربية وانتحال الآداب الغربية ، وطغت الفتنة ، كافح أدب الرافعي مدّ الفتنة الجديدة كفاحاً سوف نجد أثره في تاريخ عصرنا هذا . لهذا كان الرافعي صاحب مذهب في الادب هو من حيث الاسلوب والبيان المذهب الذي ينبغي ان يسترشد به نابتة الادباء في هذا العصر ، ليكون أداتهم السليمة في التعبير عن أدبهم الجديد . ولا شك عندي في ان الادب الجديد ان اتخذ من الاساليب السليمة اداة للتعبير ، لاستطاع ان يؤدي رسالة جديدة للعربية ، ما يحول دون اداتها الآن الا عجمة الاساليب وقد خلت من جمال السبك وقوة البيان فشوهت من جمال ما نقلنا عن الغرب ، وصدت نفس الاديب عن تذوق ما فيها من جمال الفكر
أجدّد للرافعي وقد ارتحل ، بهذه الكلمات عهد الوفاء ، جزاء ما غمرنا به في حياته من صداقة خالصة وايمان ثابت وحب ما تزول ذكراه

كلمات للرافعي

— ١ —

« ولا يذهبنّ عنك الفرق بين رجل حافظ والكتاب احفظ منهُ وهو من الكتاب خرج والى الكتاب يرجع ، وبين رجل يكون ترجماناً من تراجمة العقل الانساني المعني بتأويل الكون وتفسيره والطائر بالالفاظ الانسانية على اجنحة العلوم والفنون والمخترعات والمعاني، فان ذاك ينقل عن الواضع ثم لا يتعدى هذه المنزلة ولا يتجاوز متون الالفاظ وأما هذا فلا يزال يضطرب مع الالفاظ ومعانيها يجاذبها ويدافعها ثم لا يزال يضع يده في النسيج اللغوي يسدي ويلحم فهو مدفوع الى المسالك الدقيقة من مذاهب الوضع وطرقه وأساليب الاخذ والانتزاع ، وهو مقيد أبداً بخاص المعنى وخاص اللفظ على التعين والتحديد لا يجد فسحة من ضيقين ، فان لم يكن مثل هذا في منزلة الواضع فهو في المنزلة بعدهُ ولا ريب »

[من مقالة «صروف اللغوي» في مقتطف يناير ١٩٢٨]

— ٢ —

« فتحنا القبر وانزلنا الميت العزيز الذي شفي من مرض الحياة، ووقفتُ هناك بل وقف الترابُ المتكلم يعقل عن التراب الصامت ويعرف منهُ ان العمر على ما يمتد محدود بلحظة ، وإن القوة على ما تبلغ محدودة بخمود ، وان الغايات على ما تتسع محدودة بانقطاع ، وحتى القارات الخمس محدودة بقبر . . . . . يا عجباً ! القبور مأهولة بملء الدنيا وليس فيها أحد . أية ذرة من التراب هي التي كانت نعمةً ورغداً وايتها كانت بؤساً وشقاء وأيتها التي كانت حبًّا ورحمة وأيتها كانت بغضاً وموجدة ؟

« سألت القبر اين المال والمتاع واين الجمال والسحر واين الصحة والقوة واين المرض والضعف واين القدرة والجبروت واين الخنوع والذلة ؟ قال كل هذه صور فكرية لا تجيء الى هنا لأنها لا تؤخذ من هنا . فلو انهم اخذوا هدوء القبر لدنياهم وسلامهُ لنزاعهم وسكونهُ لتعبهم لسخروا الموت فيما سخروه من نواميس الكون

« ان هؤلاء الاحياء يحملون في ذواتهم معانيهم الميتة وكان يجب أن تُدفن وتطهر

انفسهم منها فمعنى ما في الانسانية من شر هو معنى ما في الناس من تعفن الطباع والاخلاق
« يكذب بعضهم على اخيه فيعطيه جيفة حقيقة ميتة ، ويكيد بعضهم لبعض فيتطاعمون من جيف الحوادث المسمومة ، ويمكر الخائن فاذا جيفة عمل صالح قد مات ، فكل مضغة تبتلعها من حق اخيك الحي كمضغة تفتلذها من لحمه وهو ميت لا تعطيك الا جيفة ، ثم انت من بعدُ لست بها انساناً ولكنك وحش.... بل وحش دنيء ليست لهُ فضيلة الوحشية التي من قوة تأبى أن تمس لحوم الموتى »

[من مقالة : « في وحي الروح » مقتطف ديسمبر سنة ١٩٢٩]

— ٣ —

« سلاماً يا فاتح الجو المصري . لقد اجالت الايام قداحها فخرجت القرعة عليك وأوحى اليك الواجب آية : بسم الله مصعدها ومجراها

« وطرت فاذا انت عابر فوق الحاضر لتجيئنا من جانب المستقبل

« وهبطت علينا كانك في بريد السماء كتاب مجد حي للوطنية الظافرة

« بل كتاب قصة رائعة الفها العواصف من فنين ثورة الجو وثورة نفسك المصرية . وحكتها من صوتين زفيف الطيارة وصرخة ضميرك الوطني . وجعلتها فصلين : انت والمجهول

« ألا حسبك مجداً ان يحيا الشعب كله بضعة ايام في قصتك . . . .

« لقد انفلت من رذيلة الخوف وتركتها في التراب موطىء القدم . وقلت لها ويحك لقد آن للشباب المصري فهو مغامس في ماء الصواعق (كناية عن السحاب) متطوح في اللجة الازلية التي تغوص فيها الكواكب . يطير بروح الشرارة ، ويهبط بروح الغيث ، ويلجم الجو ويسرجهُ ، ويتعلم كيف يشوي عدوهُ في عين الشمس

« وكنت بطلاً مغامراً لخطوت في طريق الملائكة بهذه الفضيلة ، وحملك الجو ولو انك خفت وكنت على جناحي جبريل لا على طيارة ، لخاف جبريل على جناحيه من حطمة هذا المعنى الترابي . . . .

« ولعلك رسول الغيم العابس لهذا الجو المصري الذي يضحك دائماً ضحكة الفيلسوف الساخر في حين اصبحت الحياة قوة لا فلسفة

« ولعلك تفسير مصحح لعقيدتنا المغلوطة في القضاء والقدر ، ان القضاء ان تقدم بلا خوف ، وان القدر ان تثق بلا مبالاة

[من مقالة « فاتح الجو المصري » في مقتطف مارس ١٩٣٠]

المرأة في مصر

على ممر العصور

من محاضرة للسيدة إمي خير

نقلها عادل الغضبان



يخيل اليّ ان تاريخ المرأة المصرية هو من أجمل التواريخ التي وصلت الينا تفيض بشتى أسباب الشجاعة والثقة . ففي مصر لم تكن المرأة موضع استعباد منظم على نقيض ماكانت عليه في بعض بلاد هذا الشرق الجميل الذي كثيراً ما أتُّهم انهُ يسيم المرأة العبودية ولئن اضطهدت المرأة احياناً في مصر إنّ ذلك كان عرضاً بعثت عليه بواعث أجنبية

ليس تاريخ الامم الاّ مجموعة اخلاق كل أمة وعاداتها فالمصري ذكي بطبعه شريف في معاملته نشيط في عمله لا يحفل بما بين الرجل والمرأة من فوارق جسمانية ولا يتخذها ذريعة لاحتقار شريكة حياته وانهُ لعلى حق . ونحن ان شئنا معرفة هذه الفوارق فهاك ما تنص عليه الموسوعة العلمية قالت : الرجل عادة اطول قامة من المرأة وهيكله العظمي أثقل وزناً وقلبه أكبر حجماً ورئتاه أقدر عملاً ودماغه اغنى تلافيف ودمه يختلف عن دمها في مقداره وتركيبه وعلى الجملة فالرجل اقوى من المرأة . ونحن على اتفاق في هذا مع القواعد العلمية ولا اخالكنّ يا حضرات الآنسات الاّ موافقات على ان ما تصبو اليه المرأة والنادر لا يقاس عليه ليس التشبه بالرجل في ساحات النزال أو حلقات الملاكمة او ميادين الفروسية وعلى ان الفوارق بينها وبين الرجل قد توجد بين الرجل والرجل دون ان يكون لها دلالة معلومة فكم رأينا من رجال ضعاف البنية مشوّهي الخلق هم في طليعة النوابغ العظام

لما سنّ الله شريعة هذا الكون لم يجعل هذه الفوارق بين الرجل والمرأة أداة فوضى بل أداة توازن طبيعي واجتماعي ولما كان الرجل والمرأة قد خلقا ليتم الواحد الآخر فقد وجب ان يتوافرا على كل تعاون بينهما

اذا عرض الباحث لجميع حلقات التاريخ المصري وجد المرأة دائماً ابداً الى جانب زوجها تشاركه في حياته الى اوسع حدود هذه المشاركة ولقد كان المرأة المصرية في الزمن القديم

شأن كبير كامل اجتماعي حتى ان اولادها كانوا ينتسبون اليها وحتى كان لها في الاسر المالكة سلطة التحريم والتحليل وهل من شهادة اعظم أثراً وأقوى دلالة على مجد المرأة من تلك الصور البديعة التي نقشت على نواويس الفراعنة والتي تدل بجلاء ووضوح على الشرف الذي كانت تحف به . ففي معظم هذه النقوش مثلت المرأة جالسة الى جانب زوجها وقد زادتها جمالاً مجالي الزينة وأنواع الحلي وجلال الاكاليل وبريق الجواهر وضمائم الورد وهي تتقبل من اولادها ورعاياها شعائر الولاء وتشترك في تقديم الذبائح والقرابين للآلهة وتقوم بالطقوس الدينية التي ترفع للآلهات حتى اذا كانت الأسرة الرابعة قامت المرأة بالشعائر الدينية التي ترفع للآلهة . من منا ايتها الآنسات لم تسحرها صورة الملكة نفرتيتي فان سحرها في قسماتها وزينتها الاكفاء له وليست زوجة أمنيوفيس الرابع هي الوحيدة في ذلك السحر والتأثير فحوالي سنة ٢٤٧٠ قبل المسيح كانت تيزوريس هي المالكة على مصر ثم ملكت في سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح سكيميوفريس مخلفة أخاها امنمحت الرابع ومنذ سنة ١٤٩٣ الى سنة ١٤٨٠ قبل المسيح كانت الحاكمة على مصر هتشبسوت يشاركها في الحكم تحوتميس الثالث زوجها وأخوها ومما يؤثر عن هذه الفرعونة الجميلة الزكية انها كانت تميل الى تشجيع المتفننين والعلماء فضلاً عما اخذت به نفسها من تحسين معايش رعاياها ويقال ان ملوكة بنت زبك هي التي ملكت مصر بعد تلك الحادثة المشهورة من غرق المصريين في البحر الاحمر وأعتقد انكنّ تذكرن جميعاً فصول التوراة التي تخبرنا بان فرعون مصر ووزراءه وجيشه هلكوا في البحر وهم يطاردون العبرانيين .وقيل ان النساء اجتمعنّ وملكنّ عليهن من بلغت سنها ١٦٠ سنة فكانت ملوكة . واول عمل أتت به هذه العجوز انها أمرت بتشييد سور يمتد من شمال البلاد الى جنوبها اي من العريش الى اصوان تماشيه الأقنية وتقوم به مصانع للذخيرة وقد علقت أجراس الخطر تدق عند اول إشارة وماتت ملوكة بنت زبك بعد عشرين سنة من ملكها وقد اخذ الحزن على موتها من رعاياها كل مأخذ فبكوها مرّ البكاء

اما من تشرّفها الاساطير باسم بدور المصرية فيغلب على ظني انها لم تكن الا ساحرة اكتسبت نفوذها من صداقة المجوس لها . واما زوجة فوطيفار التي شغفت بيوسف فيعرفها مؤرخو العرب باسم زليخة وهي بنت ملك من ملوك الرعاة تزوجها كنفير جليس فرعون حتى كانت رميتوفريت زوجة الكاهن الاكبر ببلوزيريس وهو أعظم كهنة طود الخمسة شأناً وكلهم راقدون في مدافن هرموبوليس وهو الذي وصف زوجته فقال : « حبيبته هي ملكة السحر عذبة اللفظ نافعة المشورة كل ما عرض على شفتيها يشبه اعمال « مات » هي المرأة الكاملة الوافرة النعم على بلدها المبسوطة اليد القائلة الخير المرددة ما يستحبّ الجامحة شفتاها عن المنكر الكبيرة في حبها ».

اما كليوبطرة فاذا لم يخني المقال فانها اول طبعة المرأة المشئومة في التاريخ ، المرأة التي تمثلها خير تمثيل

على لوحة الخيالة جريتا جاربو ومارلين ديتريش وهي التي لا تترك لمن أحبها مخرجاً سوى الموت

على انهُ يجب أن لا نبخس الناس أشياءهم فلكة مصر اليونانية الرومانية كان يشغل قلبها حب وطنها وهو الحب الذي لم يعله أي حب آخر وليس أحق من الأب دريوتون أو سليم بك حسن أو سامي جبرة أولئك العلماء الاعلام في الآثار المصرية ان تدعونهم الى محاضر تكنّ عن أولئك النساء المجيبات اللواتي زخر بهنَّ تاريخ مصر القديم ووصل الينا محبّباً عزيزاً ولقد هيأت الى ازدهار حرية المرأة وشخصيتها قرون عدةٌ من الحضارة وأي حضارة فهي الآن منتبهة الخاطر ترغب في حياة روحية كاملة تنتظرها وتستحقها وهي التي عبر عنها يسوع الناصري ونضلها على مشاغل الدنيا يوم زار مرتا ومريم زيارة حفتها البساطة ووسمت احتفال أعظم هيئة قدسية كانت فيها أخت مرتا المثل الحيّ على الحياة الروحية وتبعها في ذلك خليفات نفرتيتي وهتشبسوت وكليوبطرة فأجبنَ دعاء المسيح وملأن قفر الحياة قداسةً. وحسبنا أن نشير الى بعضهنَّ من مثل القديسة كاترين الجميلة العالمة التي استشهدت حبًّا للدين الجديد والقديسة سانكليتيك الشهيدة والقديسة تليد رئيسة دير ينضم على ٦٠ راهبة في انطيوه والقديسة بازيليس زوجة القديس جوليان والقديسة دوروثي العذراء بالاسكندرية والقديسة كومتا الشهيدة والقديسة أبولوني والقديسة افروزين والقديسة أنسطاسي والقديسة افرازي والقديسة مريم المصرية والقديسة توماثيد الشهيدة والقديسة تيودورا والقديسة تيودوزي والقديسة مور زوجة القديس تيموتاؤس والقديسة دميانة التي دفنت مع الاربعين عذراء اللواتي حكم عليهنَّ معها وضربت أعناقهنَّ في ضواحي بلقاس وحيثما وجد الهدوء والسكينة شيدت الأديرة للرجال والنساء على السواء فازدهرت المسيحية في أرض الفراعنة وكان ازدهار الكنيسة فيها من أسباب مجدها حتى جاء الاسلام واعتنقهُ العرب ونقلوه الى مصر مشفوعاً بعاداتهم وتقاليدهم ومنها هذا الحجاب الذي أصبح للمرأة رمزاً على حياة منفردة منبتة عن حياة الرجل فأخذ المصريون عنهم لأول وهلة كل ما جاؤوا به شأنهم في ذلك شأن جميع البلاد التي فتحها المسلمون الا انهم كلما ازدادوا تعلقاً بروح الدين نبذوا التقاليد الاجنبية ورجعوا الى تقاليدهم التي ورثوها عن الاجداد

وهنا أيضاً تمتاز المرأة المصرية فهذه السيدة نفيسة التي حجّت الى مكة ثلاثين مرة ونيف وعاشت في تقشف وزهد كان مدعاة معجب معاصريها الأُلى عرفوا قداستها فجاؤوا اليها من كل حدب وصوب يلتمسون بركتها حتى ان الامام الشافعي نفسه زارها وطلب اليها وهو منصرف أن تصلي من أجله ولما أدركتهُ الوفاة دعيت السيدة نفيسة الى الصلاة على جثمانه والسيدة نفيسة دفنت في منزلها في درب السباع سنة ٢٠٨ هجرية أما ابنة أختها سكينة فقد طبعت على غرارها فضيلةً وهدًى حتى ان جماعة المؤمنين لما توفاها الله صمموا على أن يدفنوها بالقرب من خالتها وقد فعلوا

وهذه سُكينة المشغفة بالأدب المتلئة دارها بالادباء والمتفننين في عصرها وهم الالى سحرهم دلالها وعفتها ونفخت فيهم روح الوحي والالهام فتسابقوا في مضمار البلاغة وكانت هي تستمع اليهم من وراء ستار

كذلك كانت عائشة النبوية بنت جعفر الصادق التي توفيت سنة ١٤٥ هجرية من قديسات الاسلام يحج الى قبرها في الجامع الذي شيد على اسمها في سفح القلعة كثير من الناس

وكانت ست الملك بنت العزيز بالله مشهورة بالذكاء والحكمة حتى ان الشعب المصري لما ثار في وجه اخيها الحاكم بأمر الله توجه اليها لانتخاب ملك آخر فأشارت بالملك الشاب علي ابن الحاكم وكان عمره اذ ذاك اربعة عشر عاماً فملّكته وحكمت باسمه مدة اربع سنوات استطاعت في خلالها ان تجري العدل في مجراه وان تكتسب بذلك حب مواطنيها وماتت سنة ٧١٥ هجرية

من هؤلاء النساء نعدّ كذلك حدقة الجارية في قصر الملك الناصر ابن قلاوون وكانت على جانب كبير من الذكاء وحب الخير فقد بنت عدداً كبيراً من التكايا والسبل والمدارس فضلاً عن جامع فم الخليج الذي دفنت فيه سنة ٧٣٧ هجرية. وبركة خاوند ام السلطان الاشرف وكانت تقية سخية يلجأ اليها كل بائس ويعتمد عليها كل عليل وقد بنت في سنة ٧٧٠ هجرية عند عودتها من الحج باب زويلة في سفح القلعة وهي المدرسة الكبيرة التي يزار فيها قبرها

اما شجرة الدر زوجة السلطان صلاح الدين فقد يلزمني محاضرة برأسها للتحدث عنها وعن ملكها على مصر الاسلامية مدة ثمانين يوماً فقد كانت سيدة جميلة الملامح ذكية الفؤاد سياسية ثاقبة النظر وطنية تقدح مجالي حسنها في القلوب الشرر الذي تقدحهُ في السماء الشهب الثاقبة

على اننا اذا وجهنا النظر الى القريب من العصور رأينا زينب هانم افندي أصغر بنات محمد علي تبني اكثر من ١٤ جامعاً وتنشىء للفقراء ولراقصي الذكر الأوقاف والتكايا وها هي عائشة التيمورية ابنة اسمعيل باشا تيمور الكاتبة الشاعرة التي عني والدها بان يهيء لها ثقافة عالية وتربية رفيعة فنشأت شاعرة مجيدة لها آثار حسان في العربية والفارسية والتركية وبينما كان العالم الادبي يترقب منها المزيد اذا بالقدر القاسي يخطفها في ابنتها توحيدة ولما تبلغ الثامنة عشرة من عمرها فحزنت عليها امها حزناً شديداً مدة سبع سنوات تجردت في خلالها من كل شيء الا من بكائها ونواحها حتى قرحت اجفانها ودميت عيناها ولولا لطف الله والطب لذهب بصرها واول من قرظ ديوان عائشة شاعرة اخرى هي وردة اليازجي الشاعرة الرقيقة سليلة الاسرة اليازجية التي تعهدت اللغة العربية وعملت على نشرها وازدهارها

لئن ذكرت لكنّ طائفة من الاسماء يستحق كل واحد منها درساً مستفيضاً اني لم اقصد الآن اقنعكنّ ان مصر في كل عصر وفي كل حالة لم تخل من نساء شرفنّ بلادهن ولولا كثرتهن لسردت لكن اسماءهن فانهن ينشئن سلسلة بطلات متصلة الحلقات منذ فجر التاريخ قد جددت

فيها الحماسة القديمة التي نراها اليوم قد انبعثت في الالعاب الاولمبية الحديثة في اولئك العدائين الذين نقلوا اللهب الرمزي من آثينة الى برلين كما تناقلت المرأة في مختلف العصور رسالتها العالمية التي تتلقاها نحن اليوم متتبعات مبادئها القديمة وعمليات شأن أنوثتها الكاملة

المعروف أن الروح تتغلب دائماً على المادة فالقوة الوحشية ان تغلبت على القوى الادبية والفكرية فلوقت قصير والمرأة في هذا الميدان كفء للرجل فهل عليها ان تحذو حذو الرجل في توسيع مداركها والاهتمام بالثقافة والعمل ؟ قد يخشى في اوربا وامريكا ان يبعث نشاط المرأة الى تنافس الجنسين. اما علماء الاجتماع في مصر فلا نخالهم يعبأون بهذا الامر فان مناخ مصر مدعاة الى الكسل والى تجنب كل مجازفة أو جهد وهذا ما على المرأة العصرية ان تحاربه وتتغلب عليه

النفس مخلوق حي يحتاج كالجسم الى التغذية والتمرين والنمو وليس الواجب مقتصراً على لزوم حالة راهنة بل على الترفع والتقدم. فعلى المرأة ان ترهف احساسها وتقوي ارادتها وتربي ذكاءها وتتعود المثابرة دون اخلال بأنوثتها. ان هذا العصر كثير المطالب فيجب ان تتفق مطامح المرأة وهذه المطالب وكل من لا تستسلم الا الى الدلال والكسل فبشرها بفشل ذريع فالمرأة العصرية يجب ان تأنف من ان تكون حيواناً او اداة عبث وهي التي تدعي بمساواتها بالرجل بل عليها ان تكون شريكة الرجل تشاركه في السراء والضراء وتطمح الى نفس الواجبات والحقوق المخولة له وهذا ما يشيد صرح سعادتها وليست سعادتها الا ان تعيش صحيحة الفكر والجسم ساعية قدماً في ميدان الحياة العقلية مدخرة ما استطاعت اليه من ثروة فكرية وأدبية

ليس بخاف عليكن يا حضرات الآنسات أثر السيادة التركية في مصر الحديثة وما كان للعلائق الودية بين كبار البلدين من توطيد ذلك الأثر حتى كانت العادة عند امرائنا واميراتنا ان يقضوا فصلاً طويلاً من السنة في بلاط الخليفة السلطان وهذا ما يفسر لنا لماذا قضت الاميرة نازلي فاضل عهد شبابها الاول في القسطنطينية فتألق جمالها وسطع ذكاؤها حتى شغف بها الامير مراد ابن اخي السلطان عبد العزيز وود لو يتزوج منها لولا ان هذا الزواج كان مخالفاً لارادة الباب العالي فزوجها من خليل باشا شريف وارسله في بعثة خاصة الى اوربا فلفتت الاميرة اليها الانظار واختلف الى مجلسها كبار القوم المعجبين بها وكان من رواد بهوها بسمارك ودزرائيلي ونابليون. ولما عادت الى مصر لتسكن بها سبقتها اليها شهرتها فأحاطها الخديو عباس حلمي ووزراؤه وممثلو الدول الاجنبية في مصر وكل عظيم في عالم الفكر والفن والسياسة بشتى مظاهر الاعجاب والاحترام. اما هي فكانت تغتبط بجماعة خاصة من اصدقائها الحميمين الذين وهبتهم ثقتها وقدروا فيها المرأة الوطنية وكان من بين هؤلاء المصلح الكبير الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وفتحي باشا زغلول الرجل القانوني والشيخ عبد الكريم سلمان وعلي

فخري بك المستشار بالاستئناف المختلط وفارس نمر باشا الذي أدلى اليّ باخبار الاميرة ناظلي وحسن حازم باشا كبير التشريفات في البلاط ولا سيما قاسم أمين وسعد زغلول ففي هذه الدائرة من الاصدقاء الذين احاطوا تلك السيدة العظيمة بشتى معارفهم نمت الفكرة النسوية وما عتمت ان آتت ثمارها فنشر قاسم امين كتابين «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» وهما الكتابان اللذان عالج فيهما ترقي المرأة المصرية فلم يستقبلا بحماسة والغريب ان النساء انفسهن لم يكنّ اقلّ عداء للمؤلف من غيرهن ولكن امثال هؤلاء يجب ألا يُحفل بهن على أن هذين الكتابين ما لبثا أن عني بهما نخبة رجال مصر حتى ممن كان بادئاً اشد العداء من مثل طلعت حرب باشا

اما الاميرة ناظلي فقد استطاعت ان تذوق قبل وفاتها ثمر ما ساعدت على غرسه من انصاف المرأة في تلك الطبقة العالية التي بسطت فيها ظلال تلك الشجرة في تلك الطبقة التي كثيراً ما عنفت الأميرة واطلقت عليها لقب الاميرة الغريبة الاطوار ومع ذلك فقد كانت حريتها مثالاً يؤثر فطرحت بنات مصطفى باشا فهمي الحجاب وحاولت ان تتأثرهن زوجة سرهنك باشا وزوجة الدكتور محمود صدقي باشا ولكن الذي بث على اعتاق هذه الحرية الحديثة هو سعد زغلول باشا لما دعا زوجته الى مشاطرته حياته السياسية فحصل ما كان في الحسبان وحف سعداً جماعة الاعوان والانصار فنفخوا في بوقه وافتتحت أبهاء الاسر ولا سيما بهو حرم محمود بك رياض وبهو حرم سلطان باشا وفيه شوهدت تلك الفتاة الجميلة ذات العينين السوداوين هدى سلطان التي كتب لها ان تضطلع بالارث الذي تركتهُ لها الاميرة ناظلي

ولعل السيدة هدى هانم شعراوي تنشر يوماً مذكراتها عن ذلك العهد عهد الشباب الذي هيأها لهذه المهمة العظيمة التي تضطلع بها اليوم والمعروف انها زفت في الثالثة عشرة من عمرها الى ذلك الرجل العظيم والوطني الهمام محمد شعراوي باشا. ومما لاشك فيه ان الحياة مع رجل ذكي حكيم قد صقلت نفسها فما لبثت ان ظهرت مواهبها دون الجنوح الى الزهو والخيلاء والانانية وهي السرية الثرية بل تطلعت دائماً الى المثال الاعلى الى المتع الفكرية فدرست وتثقفت وشغفت بالادب والفن ولسنا ندري اتعذبت هدى هانم من محيطها النسوي ام ان حنانها وعطفها على قضية المرأة لايقدح شرره الأ عند رؤيتها كآبة غيرها من النساء . فبعد موت زوجها تخصصت بتحرير المرأة فألفت لذلك لجنة اصلية هي الاتحاد النسائي وتفرع منهُ في السنوات الاخيرة لجنة فرعية باسم فتيات الاتحاد النسائي ثم شيدت مدرسة وافتتحت مشغلاً ومستوصفاً ومصنعاً للخزف واهتمت ان تزيد يوماً فيوماً عدد جيشها السلمي الذي يسعى جنوده الى ذلك المثال الاعلى ولسنا الآن أهلاً لان نحكم على ما قامت به حرم شعراوي باشا في تاريخ المرأة المصرية فما يزال العهد حديثاً والدوائر التي أحاطت بأعمالها خفية عنا على ان المعروف المشهور هو فضل هذه السيدة الجليلة الذي يجل عن التعداد والحصر

ها هي المرأة في المعترك تمتشق كل ما تحدوها عليه أنوثتها فالمدارس قد غصت بالطالبات المتعطشات الى العلم والعمل وسنسمع يوماً صدى نجاح بعضهن يدوي في أذن الفضاء فحذار أن ننسى الاخريات اللواتي وان كان الدهر لم يسعفهن بنباهة الصيت الا انهن جديرات بالشكر لانهن الضحايا التي قدمت على مذبح سعادة اخواتهن . لقد اشتهرت المرأة المصرية بميلها الى الفنون وعدد من زاول صناعة الادب كبير جداً كالنجوم اللامعات في الافق وها نحن نذكر اشهرهن :

ملك ناصف كانت في طليعة العدد القليل من الفتيات اللاتي قبلن في مدارس الحكومة فلمعت بين زميلاتها وتوسمت فيها آمال جسام ولكن الموت اختطفها زهرة نضرة بعد ان تزوجها عبد الستار بك الباسل ونشرت كتابها الذي وضعته باسم باحثة البادية . وأما اشهر من كتب باللغة العربية فهي النابغة مي زيادة التي خطت وكتبت بخمس لغات او ست ولكنها اجادت باللغة العربية وأشغلت ذكاءها النادر بالعلم والادب فأخرجت ثمانية كتب في موضوعات مختلفة واحد منها تناولت البحث فيه عن « ملك ناصف » فضلاً عما دبجته من مقالات في الجرائد السيارة وعما القته من محاضرات في الفلسفة والتاريخ والادب في اسلوب خاص بها هو الشعر المنثور. ومما لاشك فيه ان مي زيادة تعد في طليعة شهيرات الشرق فلقد جملها الله بذكاء متوقد استخدمته في مسائل مختلفة معاً وهي المتعطشة الى العلم والمعرفة الى ترفيع فكرها وعاطفتها وهي المعروفة كذلك بطيبة القلب وثقافتها النادرة. وهي وان كانت من اصل لبناني الا انها عاشت كل حياتها في مصر فهي تنسب الى مصر ولبنان على السواء . ولقد بهرت وهي في ريعان الصبا كل من حف حولها وما شرعت تكتب حتى اتتها الشهرة منقادة اليها فكثر زوارها وغص مجلسها الادبي الذي كان الحديث يتناول فيه بعدة لغات ولا ننسى ان مركز مصر الجغرافي يجعل منها بلداً مختلط السكان فلا عجب اذا رأينا كثيراً من المصريين والمصريات يجدن في التعبير بغير العربية او الفرنسية لغة السياسة التي هي اداة الرقة والاناقة[1]

ارجو اني توصلت الى اقناعكن ان المرأة المصرية بين نساء الشرق هي التي امتازت بالحكمة حتى في اشد ايامها حلكة وشقاء. ليس المقصود بالحلكة هذه التي اظهرتها بسماع هذه المحاضرة لم يخنكن الصبر فيها بل المقصود بها مناحي الحكمة الباصرة التي تولدها مداركنا مجتمعة فيقودها او يكبح جماحها العقل القوي الذي يجنبنا كل تفريط وافراط والذي يحدونا على ان لا نحتقر شرائط الطبيعة التي جعلت من المرأة شريكة للرجل تفيض بالدعة والايناس . وفي الختام نتقدم لكل من بطلات التاريخ القديم والحديث فرائض اعجابنا واحترامنا فانهن جميعاً اشتركن في تحقيق سعادة المرأة المصرية في هذا العصر . انا بعثنا اليهن اعجاباً صادراً من اعماق القلب ولئن تحول الى شكر واعتراف بالجميل فما احقهن به

(١) المقتطف : بعد ذكر باحثة البادية ومي تبسطت مدام خير في ذكر طائفة كبيرة من المشتغلات بالآداب والفنون فاجتزأنا بما تقدم لضيق المقام

شاعر المنى !! ...

مَلَكْتَ دنيا المُنى والحسنَ يا شاعرْ !

كلُّ المفاتن تبغي الهائم الشاعرْ

فهو الوحيد لروح الحُسن بالسّابرْ (١)

يُبدي المفاتن لحناً للنُّهى آسِرْ

يصوّر الحسنَ حسٌّ ملهَمٌ ماهرْ

صدّاح للحُسن يُذكي نفحةُ العاطرْ

وأنت بالحسن تحيا أيُّها الشاعرْ

تقضي الليالي من فرط الجوى ساهرْ

تُنَسِّق القلبَ عِقداً دُرُّه باهرْ

وتُسمع الروض لحن البلبل الساحرْ !

يهفو لك الزهر يشكو جبّهُ الثائرْ

مُستجَدياً قبلةً من ثغرك الفاترْ !

وأنت تحنو برفق المُدنف الآسِرْ

مُقَبِّلاً منهُ خداً في اللظى سادرْ

فأنتَ أنت المُنى للحُسن يا قادرْ

والحُسن منك مُناك المُلهم الخاطرْ

مَلَكْتَ دنيا المُنى والحسنَ يا شاعرْ !

القاهرة

محمد فهمي

---

(١) سبر غور الشيء اي عرف قراره والمراد هنا نفذ الى سره

العلم في خدمة الانسانية

الفيتامينات وأثرها

في الصحة والمرض والنمو

أمراض يمنعها الفيتامين ويشفيها

بعد مكتشفات ماكولم التي تقدم ذكرها، فتح باب مشكلة الفيتامينات على مصراعيه. وكانت اساليب البحث التي ابتدعها هذا الباحث الاميركي وأتقنها تبشر بمكتشفات جديدة في هذا الموضوع الخطير

وقاية العيون والبصر

فيتامين A

وقد كان الموضوع خطيراً حقّاً. ففي سنة ١٩٠٤ عني بحاثة ياباني بدراسة داء يصيب عيون الاطفال ببلادهِ (اسم هذا المرض كسيروفثلميا Xorophtalmia) فاتجه رأيهُ الى ان الباعث على هذا المرض نقص في الغذاء. وليس هذا المرض بجديد في علم الطب. بل كان معروفاً من قديم الزمان وكانت العمدة في علاجهِ من ايام ابقراط اضافة قليل من كبد الدجاج ودهن الانكليس الى الغذاء. وفي سنة ١٩١٣ لاحظ الباحثان اوسبورن ومندل ان الحيوانات التي يجربان فيها تجاربهما تصاب في عيونها بحالة تشبه مرض «السكيروفثلميا» فشفياها منها باضافة قليل من الزبدة الى غذائها. وجاراهما ماكولم في هذا البحث الآنهُ عكسهُ اولاً اي انهُ ازال من غذاءِ هذه الحيوانات المواد التي تحتوي على فيتامين A فاصيبت بالمرض فأضاف الى هذا الغذاء الناقص مواد يكثر فيها هذا الفيتامين فشفيت منهُ. وشاهد رجل يدعى ولز وكان من رجال الصليب الاحمر الاميركي الوفاً من اطفال رومانيا مصابين بهِ فطلب مقادير كبيرة من «زيت السمك» وفيتامين A كثير فيهِ فشفاهم مما ألمَّ بهم. وفي اثناء الحرب كانت بلاد الدنمارك تبيع كلّ ما يستخرج فيها من الزبدة لالمانيا، وكان شعبها قد استبدل بالزبدة في غذائهِ زيت جوز النارجيل فأصيب اطفاله بهذا المرض في عيونهم فلما اعيدت الزبدة الى غذائهم تغلبوا عليهِ

وليس مرض « الكسيروفتلميا » بالمرض الوحيد الذي يصيب العيون لنقص في فيتامين A بل هناك العشو كذلك اي ضعف البصر في الليل. وهو حالة يصاب بها طوائف من الفلاحين الروس الذين لا يتناولون غذاء كافياً ولاسيما في ايام الصوم الكبير عند ما يكتفون بغذاءٍ نباتي بحت. وقد اثبت البحث ان تناول « زيت السمك » يشفيهم منهُ

وعلاوة على ذلك ان نقص هذه المادة من الطعام يحدث اضطراباً في غدد اللعاب والدمع والهضم والتناسل، ويميل بعض الباحثين الى القول بان نقصهُ يضعف قدرة الجسم على مقاومة بعض الامراض المعدية ولاسيما الزكام والدرن

***

كان ماكولم في السابعة والثلاثين من عمرهِ عندما أخذ العلماء يحلّون الرسائل التي نشرها في الفيتامين المحلّ الجدير بها من الاجلال . فدعتهُ جامعة جونز هبكنز الشهيرة الى تقلّد منصب استاذ الكيمياء الحيوية فيها فقبل باشارة من صديقهِ مندل . فلما دخلت الولايات المتحدة الاميركية غمار الحرب سنة ١٩١٧ دعي الى وشنطن ليشترك مع غيره من العلماء في وضع برنامج غذائي للجيش الاميركي المسافر الى فرنسا ولبقية الامة الاميركية

مرض الكساح

فيتامين D

ما كاد يتقلد منصبهُ الجديد في جامعة جونز هبكنز حتى لاحظ ان طائفة من الجرذان التي يجرب تجاربهُ فيها ، تصاب بما يجعل عظمها ضعيفاً وصدورها مقوَّسة . فعرضها على استاذ امراض الاطفال في الجامعة فأيد لهُ ظنَّهُ بان هذه الاصابات هي كساح (rickets) فاشترك ماكولم مع قسم امراض الاطفال في الجامعة في دراسة الموضوع فكان هو ينوّع الطعام الذي تغذى بهِ الجرذان وغيرهُ يقوم بالفحص المجهري الدقيق . فتوصل بعد البحث الطويل الى تركيب غذاءٍ يحدث في الجرذان التي تتغذى بهِ حالة كساحٍ تامة الاعراض

وكان في الوقت نفسهِ رجل يدعى ملانبي Mellanby يشتغل في قسم الصيدلة بجامعة شفيلد بانكلترا ، وكان قد اتجه نظرهُ الى البحث في ما تصاب بهِ بعض الحيوانات من لين العظام عندما تغذّى بغذاءٍ ينقصهُ فيتامين A فقال ان الكساح مرض آخر من امراض التغذية الناقصة وان سببهُ نقص فيتامين A . وزعم انهُ يستطيع ان يشفي المصابين بالكساح باعطائهم غذاء يحتوي على هذا الفيتامين

ولا يخفى ان الكساح داء خطير عرف قديماً ولايزال حتى الآن متفشياً في كثيرٍ من البلدان

والاطفال المصابون بهِ تتقوّس سيقانهم ، ويعجز جسمهم عن ترسيب املاح الكلسيوم في عظامهم فتضعف عظام صدورهم ويصبحون بمرضين لامراض الصدر تفتك بهم غالباً وكثيراً ما يكون سوء تغذية الام وهي حامل ، ثم سوء تغذية الوليد ، من البواعث على عجز اي غذاء كامل عن شفاء المصاب

ولكن ملاني اخطأ في معرفة سبب المرض لانهُ لم يكن ناشئاً عن نقص في فيتامين A فأجرى ماكولم تجارب اثبتت اثباتاً قاطعاً ان فيتامين A لا يفيد مطلقاً في منع الكساح مع ان زيت السمك ، من أفعل العقاقير في منعهِ . ولكن زيت السمك يحتوي على فيتامين A فهل يحتوي ايضاً على فيتامين آخر لهُ الفعل الحاسم في منع الكساح ؟ ولكن ما السبيل الى ازالة فيتامين A من زيت السمك لاجراء التجربة بهِ والبحث عن فيتامين آخر فيهِ ؟

كان هبكنز الانكليزي قد اكتشف انهُ من السهل « اكسدة » فيتامين A فيفقد فعلهُ الحيوي فاخذ ماكولم قدراً من زيت السمك وغلاهُ على درجة مائة بميزان سنتغراد ونفخ فيه غاز الاكسجين بوساطة جهاز خاص مدة اربع عشرة ساعة ، فاتحد الاكسجين بفيتامين A اي « تأكسد » الفيتامين وفقد فعلهُ واخذ زيت السمك بعد ذلك وامتحنهُ بجرذان مصابة بمرض العيون المعروف باسم « كسيروفتلميا » فلم يشفها فثبت ان فيتامين A قد أزيل منهُ ، لانهُ لو بقيت من هذا الفيتامين بقية يسيرة في الزيت لظهر اثرها في الجرذان المصابة

ولكنهُ لما اضاف هذا الزيت الى غذاء جرذان مصابة بالكساح شفيت مما ألمَّ بها . فثبت ان في زيت السمك فيتاميناً غير فيتامين A مقاوماً للكساح ، فدعاه ماكولم في شهر اغسطس من سنة ١٩٢٢ « فيتامين D الذي يذوب في الدهن »

الفيتامين والتناسل

فيتامين E

وفي ٨ ديسمبر من السنة نفسها اذيع اكتشاف فيتامين آخر . ولاكتشافه قصة طريفة . ففي سنة ١٩١٥ لاحظ ماكولم ان الجرذان التي يجرب تجاربه فيها لا تتناسل في مواعيدها السوية فعزا ذلك الى سبب مجهول . وحالت المسائل التي كان يشتغل بها حينئذٍ دون متابعة البحث ولم يفطن احد من العلماء الى مشاهدتهِ هذه فطويت

ولكن باحثاً يدعى هربرت افانس Evans كان يبحث في دورة التناسل في الجرذان من حيث علاقتها بأتوار الغدد . الاَّ انهُ لم يكن كيمياويًّا يعنى بالكيمياء من ناحيتها الزراعية او الحيوية وانما كان فسيولوجيًّا يهتم بالعوامل التي تؤثر في التناسل . وكان غذاء الجرذان من هذه العوامل . فغذى جرذانهُ بغذاء يكثر فيه فيتامين A وفيتامين B . فلاحظ هو ومساعدتهُ ان

الجرذان تتزاوج وتحمل في مواعيدها السوية ، ولكنها لا تلد بل تسقط حملها . وفي كل حادثة من الحوادث التي شاهداها ، كان الجنين يموت قبل ميعاد الولادة . وعجز الفيتامينان اللذان تقدم ذكرهما عن منع هذه الحالة الشاذة

فشرعا يبحثان عن مواد غذائية تحتوي على عنصر غذائي مجهول ، من شأنه ان يساعد الجرذان على الحمل والولادة السويين . فوجدا ان ورق الخس فعّال وكذلك جنين الحنطة بل وجدا انهما اذا استقطرا زيتاً من أجنة الحنطة واضافا منهُ مقادير يسيرة جداً الى غذاء هذه الجرذان تمكنت الاناث من حمل الجنين مدة الحمل السوية ثم ولادته حيًّا . فلما استوثق افانس من ان نقص هذا العامل الغذائي المجهول يفضي الى عقم ذكور الجرذان والى موت الاجنة في أرحام الاناث اعلن اكتشافهُ فيتاميناً جديداً وسمّاهُ بالحرف X ولكن الباحث بارنت شور Sure وسمهُ بالحرف E بعد ما حقق في السنة التالية النتائج التي وصل اليها افانس

وقد طبق اكتشاف افانس هذا على البقر اولاً ثم على النساء فأسفر التطبيق عن نجاح يفوق ما كان متوقعاً لهُ . ذلك ان افانس لم يزعم شأن الباحث العلمي الحذر ، ان ما يصحّ على الجرذان يصح على البشر . ولكن الدكتور فوخت مولر الطبيب بمستشفى اورانس ببلاد الدنمارك عالج طائفة من البقر كان مشهوراً عنها اسقاط أجنتها فاضاف الى غذائها مواد تحتوي على فيتامين E فنجحت تجربتهُ نجاحاً طيباً . وفي ٢٥ يوليو سنة ١٩٣١ اذاع عن طريق مجلة « اللانست » الطبية نتائج هذا الاسلوب من العلاج في النساء المجهضات . ففي الحادثة الاولى كانت المرأة في الرابعة والعشرين من عمرها وكانت قد حملت اربع مرات وأسقطت الجنين في كل منها فناولها الزيت المستخرج من أجنة الحنطة عن طريق الفم . فكان حملها التالي سويًّا وولدت في الميعاد السوي طفلاً سليماً . وفي الحادثة الثانية كانت المرأة في التاسعة والعشرين من عمرها وكانت بعد وليدها الاول قد حملت اربع مرات واسقطت الجنين في كل منها . فأعطيت مقدار ملعقة شاي كل اسبوع من زيت أجنة الحنطة فكانت النتيجة كنتيجة الحادثة الاولى

ومن الباحثين من يعتقد اعتقاد الدكتور فوخت مولر ان فيتامين E لاغنى عنهُ للبشر ولكن جماعة الاطباء بوجهٍ عام لاتزال تنتظر الحكم الفاصل في الموضوع . حتى افانس نفسهُ أذاع بياناً في سنة ١٩٣٥ حذّر فيهِ من عواقب استعمال هذا الفيتامين من دون تمييز لشفاء العقم في البشر لان العقم قد يكون ناشئاً عن اسباب اخرى

ثم وجد الاستاذ شرمن ان نقص فيتامين E يضعف الوظيفة التناسلية ، وأكد افانس ان هناك اربع مواد اخرى على الاقل لها فعل فيتامين E

ففيتامين E ليس فيتامين العقم ، ولكنهُ احدى المواد الكيمياوية التي لاغنى عنها للتناسل السوي

فهم مرض الاسكربوط

فيتامين C

لعل اول مرض ادرك الانسان انهُ مرض ناشىء عن نقص في الغذاء هو مرض الاسكربوط. وقد كان المصابون بهِ يجيئون الى ابقراط وفي مفاصل سيقانهم أوجاع وآلام ، وفي لثاتهم تقيّح وغنغرين . فكان لا يعرف كيف يعالجهم . ويروي مؤرخو الطب ان ألوفاً من الاوربيين الذين اشتركوا في الحروب الصليبية عانوا مرضاً بطيء الفعل كان يبدأ بتعب وشحوب اللون ونقص الوزن وضعف الشهية وتوتر الاعصاب . ثم كانت جدران الاوعية الشعرية تتلف فيحدث النزف ويصحب ذلك تضخم في الركب والمفاصل واعياء عام ينتهي بتشنج وهذيان فبالوفاة

وكان مرض الاسكربوط يعرف ايضاً باسم « مصيبة الملاح » لان كثيرين من الملاحين ، ولاسيما الذين كانوا يرحلون رحلات بحرية طويلة كانوا يموتون بهِ

ففي سنة ١٥٣٥ استعمل رجل يدعى كارتييه خلاصة حبوب الصنوبر لوقاية ملاحيهِ من هذا المرض . ويقال ان الكابتن كوك اضاف بعض الخضراوات الى طعام ملاحيه المؤلف من اللحم المملح فلم يصب احد من ملاحيه بالاسكربوط . وفي سنة ١٧٥٠ اشار رجل يدعى كولبانش باستعمال عصير البرتقال والليمون الحامض في علاج هذا المرض ، وفي اوائل القرن التاسع عشر اصدرت الاميرالية البريطانية امراً بجعل عصير « الليم » Lime جزءاً من ارزاق البحارة على جميع سفنها

ولكن سبب الاسكربوط الصحيح ظل غامضاً حتى انقضت عشر سنوات على بحث ايكمان في علاقة مرض البريبري بالرز المقشور . فشرع هولست وفروبلخ في تجربة التجارب في الارانب الهندية لمعرفة سبب الاسكربوط . ومن حسن طالعهما انهما اختارا الحيوان الصالح لهذه التجارب ، لان هذا المرض لا يصيب الجرذان ولا السنانير ولا الكلاب ولا الطيور

فغذيا الارانب الهندية بغذاء مؤلف من خبز وحبوب فأصيبت باعراض المرض . فأضافا الى غذائها ثماراً وخضراوات مختلفة ، وبعد بحث دام خمس سنوات أثبتا ان العنصر الخفي الذي يشفي من الاسكربوط ويمنعهُ ، كثير في الليمون الحامض والبرتقال واوراق الكرنب (الملفوف) والبزور المنتشة (النابتة) . اما الحبوب والبزور الجافة فلا تحتوي عليهِ

وقد اعتمد الاميرال برد الاميركي على هذا الاكتشاف في رحلته الى المنطقة المتجمدة الجنوبية ، اذ اخذ معهُ حبوباً جافة ، يمكن بلها حتى تنتش فتستعمل في حالة الاصابة بالاسكربوط

ومن الغريب ان هولست صنع خلاصات يكثر فيها هذا العامل الغذائي المانع للاسكربوط والشافي منهُ ووصفهُ بانهُ مادة كيمياوية تذوب في الماء ، قبل ان يكشف ما كولم فيتامين A

وفيتامين B ، ولكن العلماء لم يصدقوا حينئذٍ أن الاسكربوط يرجع الى نقص في الغذاء . وكان الغالب عليهم حينئذ الأخذ بان سبب الاسكربوط زيادة الحموضة في الطعام ، او نوع من السم كالسم الذي يعثر عليهِ احياناً في الاطعمة المحفوظة ، او زيادة الملح في الاطعمة المملحة وهي الاطعمة التي يعتمد عليها الملاحون . وظل الخلاف على الموضوع الى سنة ١٩١٨ عند ما اثبت بالتجربة الدقيقة ان الاسكربوط سببهُ نقص فيتامين معين دعي فيتامين C

البلاجرا : مرض الفاقة

فيتامين G

ثم أضيف فيتامين آخر ، وكان مرجع الفضل فيهِ الى طبيب مقدام لا يخشى الموت حقيقة لا مجازاً ، يدعى الدكتور جولد برجر ، وكان من نصيبهِ ان يتناول بالبحث مرضاً يصيب الناس دون الحيوان على ما يعلم ، فلم يتخذ جولد برجر جرذاً ولا أرنباً ولا سنوراً يجري عليهِ التجارب ، بل جعل نفسهُ وامرأتهُ وبعض السجناء مرد تجاربهِ

كان قد قضى اربع عشرة سنة في مصلحة الصحة العامة بالولايات المتحدة الاميركية ، أصيب في خلالها بحميات ثلاث التيفوس والصفراء والدنج . فلما أهلت سنة ١٩١٤ عهد اليهِ في مهمة جديدة — مهمة مكافحة البلاجرا

والبلاجرا مرض حاصد ، كان قد انقضى عليهِ نحو قرنين من الزمان منذ عرفهُ الاطباء . فلما عهد الى جولد برجر في مكافحتهِ ، كان متفشياً اي تفشٍ في المناطق الجنوبية من الولايات المتحدة الاميركية ، وكان الشعب يتوسل الى الحكومة بأساليب مختلفة بان تسعى الى قهرهِ لشدة ما عانى منهُ . فقد كان الصغار والكبار في المناطق الجنوبية الفقيرة ، يعانون التهاباً في اللسان والفم ، وقروحاً في الجلد تبدو صغيرة خفيفة ثم تكلح وتكثف وتتشقق ، وكان اكثرها على ظهر الكفين والقدمين والساعدين ، ويصحب ذلك سوء هضم وإسهال ودوار واضطراب عصبي ، وكثيراً ما كانت تفضي هذه الاصابات بصاحبها الى القبر

وكان الاطباء حينئذٍ يميلون الى الاعتقاد ان للبلاجرا سبباً ميكروبيًّا ، وأقوى سند استندوا اليهِ في رأيهم هذا أن البلاجرا بدت مرضاً معدياً يتفشى خاصة في السجون وملاجيء الايتام والمناطق الفقيرة في البلاد التي يكثر فيها زرع الذرة . وعينت لجنة من قبل الحكومة لبحث الموضوع فقالت في بيانها أن المرض معدٍ وان ناقلة العدوى حشرة ماصة للدم . ومما عزز الثقة برأي اللجنة ، ما اصابهُ الطب من النجاح في مكافحة الملاريا والحمى الصفراء على هذا الاساس . ولكن جولد برجر داخلهُ الريب في رأي اللجنة . ولم يتأثر بنجاح الكفاح ضد الملاريا والحمى الصفراء ، وكان يميل في قرارة نفسهِ الى الظن ان البلاجرا مرض من امراض العوز والفاقة

ذهب جولدبرجر في زيارة الى مستشفى الحكومة في ولاية كارولينا الجنوبية . فلاحظ ان احداً من الاطباء والممرضات والمعاونين في المستشفى لم يصب بذلك المرض ، مع ان اكثر مرضاه أصيبوا به . وبعد ما جرب بعض التجارب بالاغذية التي يتناولونها ذهب الى ولاية جورجيا وفي مصحة الحكومة وجد كثيرين من المصابين به فجرَّب ان ينوّع غذاءهم علَّهُ يقع على ما ينير السبيل . ثم زار بضعة ملاجئ للاطفال في ولاية مسيسبي فوجد فيها اطفالاً مصابين به تتفاوت أعمارهم من ست سنوات الى اثنتي عشرة سنة ، ولاحظ انهم يتناولون قليلاً من اللبن في طعامهم . فبدا لهُ حينئذٍ ان طريقهُ أصبح واضحاً . فذهب الى حاكم ولاية مسيسبي وطلب اليه أن يعاونهُ في الفوز بمتطوعين لتجربة التجارب فيهم . فاختير لذلك اثنا عشر رجلاً من سجناء سجن رانكين المحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة وهو سجن لم يصب أحد من رجاله ولا من سجنائهِ بالبلاجرا وقطع لهم عهد بأنهُ اذا نجوا من الموت بعد اجراء التجربة عليهم أطلق سراحهم . فغذاهم جولدبرجر بغذاء قوامهُ دقيق أبيض ورز مقشور ودقيق الذرة الخشن ودهن الخنزير وشراب قصب السكر . وكان لهم أن يأكلوا من هذا الغذاء أي قدر شاءوا ولكن ليس لهم أن يأكلوا شيئاً غيره . وبعد انقضاء عدة أسابيع بدأ احدهم يشكو من التهاب في لسانهِ وقروح مشققة في طرفي فمهِ ، وبعد انقضاء ستة أشهر أُصيب أحدهم بطفح البلاجرا ثم أُصيب خمسة آخرون . ولكن احداً غيرهم في ذلك السجن لم يصب بأي عرض من أعراض البلاجرا

عند ذلك أضاف جولدبرجر الى غذائهم اللبن واللحم والخضراوات والثمار فاستعادوا صحتهم كاملة وأطلق سراحهم

وظنَّ جولدبرجر حينئذٍ انهُ أقام الدليل التجريبي على ان البلاجرا مرض من أمراض التغذية او سوئها ، ولكن غيره من الاطباء ظلوا مقتنعين بأن سبب المرض نوع من انواع الميكروبات

فلم يبق امام جولدبرجر في هذه الحالة الاّ خطوة واحدة . ومن بواعث مناقبهِ أنهُ لم يحجم . وفي يوم ٢٥ ابريل سنة ١٩١٦ حقن في عروقهِ دماً من دم امرأة مصابة اصابة حادة بالبلاجرا ، وفي اليوم التالي تناول عن طريق الفم براز مصاب آخر ، ثم كحت بعض الطفح عن جلد مصاب ثالث وجففهُ وسحنهُ وتناولهُ هو وزوجه ولبث اسابيع ينتظر ان يصاب بالبلاجرا اذا كانت البلاجرا حقيقة مرضاً مكروبيًّا . ولكنهُ لم يصب لان هذا المرض لم يكن مرضاً مكروبيًّا

الاّ ان سرطان الكليتين قضى عليهِ سنة ١٩٢٩

ولكن جمعية الكيمياويين الحيويين الاميركيين قررت ان تبدل اسم الفيتامين المانع للبلاجرا وكان قد وسم بحرفي (P. P.) فتجعله فيتامين G وهو الحرف الاول من اسم جولدبرجر باللغة الانكليزية

جدول موجز

لانواع الفيتامين وخواصها

اسم الفيتامين	مكتشفه	الامراض التي يقي منها	بعض خواصه	المواد التي يكثر فيها
A	ماكولم 1912—1914	كسيروفتلميا (مرض يصيب العين) . العشو . تأخر النمو . ضعف المقاومة للعدوى (؟)	يذوب في الدهن يفقد قوته عند التعرض للهواء لا تتلفه حرارة الطبخ العادي	زيت السمك ، الزبدة ، اللبن ، صفار البيض ، الجبن ، الجزر ، الخس ، الطماطم ، الكبد ، الاسبانخ
B	ماكولم 1915—1916	البريبري ، اصابة انساج الاعصاب وأعمال الهضم الهزال والضعف وفقد الشهية	يذوب في الماء يمكن احتواؤه قليلا يتلف عند الدرجة ١٢٠ سنتغراد	الخميرة ، الرز ، صفار البيض ، الحمص ، قلب حبة الحنطة ، ردة الحنطة ، الشوفان ، الذرة ، عصير البرتقال ، الطماطم
C	هولست 1912	الاسكربوط تخلخل الاسنان وحفرها الهزال . انتفاخ المفاصل . ضعف المقاومة البدنية	يذوب في الماء يتأثر بالحرارة . يتأكسد بسرعة يذوب على الدرجة ١٨٩ سنتغراد	عصير البرتقال ، عصير الليمون ، الكرنب ، الكرفس ، الخس ، الليم ، الطماطم ، البصل ، الاسبانخ ، البزور المنتشة
D	ماكولم 1921	الكساح ، ضعف العضلات العام ضعف تمثيل الكلسيوم والصوديوم . حفر الاسنان وما إليه	يذوب في الدهن لا يتأثر بالحرارة ولا يتأكسد يذوب عند الدرجة ١١٤ سنتغراد	زيوت أكباد السمك ، صفار البيض ، سمك السلمون ، الاطعمة التي عرضت للاشعة التي فوق البنفسجي ، البطارخ
E	ايفانس 1922	العقم في ذكور الجرذان ، الاسقاط في اناث الجرذان	يذوب في الدهن ثابت على الحرارة يتحمل التعرض للاكسجين يذوب على الدرجة ١٥٨ سنتغراد	زيت أجنة الحنطة ، الخس ، الاسبانخ ، الحبوب ، زيت بزر القطن ، فول صويا ، الذرة الصفراء ، زيت الزيتون
G	جولد برجر 1916	بلاجرا الضعف العام اضطرابات الهضم	يذوب في الماء . لا يتلف بالطبخ او الاحماء .	الخميرة ، البيض ، الكبد ، الكليتان ، الطحال ، اللبن ، اللحم الاحمر ، الاسبانخ ، سمك السلمون ، اللفت ، البطاطس



عمر بن عبد الله

ابن ابي ربيعة

—٢—

لجبرائيل جبور
احد أساتذة الادب العربي
بجامعة بيروت الاميركية

« شعره » انقلاب كبير هز الجزيرة هزاً ، وفتح عظيم حمل اليها مدنيات الفرس والروم ، وتطور خطير في الخلق والنظم والعادات ، وانتقال من شظف العيش الى سعته ومن فقره الى غناه ، وأبواب للهو تفتح امام مدن الحجاز وشباب اغنياء حيل بينهم وبين السياسة وحرموا ادارة الاعمال في دولة بني امية فعكفوا على لهوهم وفرغوا له ، وكان بينهم شعراء صوروا بأشعارهم هذه الحياة اللينة في تلك المدن اصطلح الادباء على ان يسموهم بالشعراء الإباحيين . وشباب في البادية ، حالتهم غير حالة أهل المدن ، حُرموا السياسة وحُرموا المال ، ولم يكونوا من القوة او الجاه والمكانة بحيث يحدثون الفتن او يُحسب لهم حساب فانقطعوا الى شيء من اليأس والانكسار وكان بينهم شعراء اصطلح الادباء على تسميتهم بالعذريين . وكانوا كأنما ضرب عليهم ان ينشدوا ألحان الحزن ويرجّعوا صدى اليأس والعفة في الحب وكان شعرهم بحق من ارق ما ترك العرب من الشعر الغزلي

وشعراء آخرون لم يتقيدوا في قطر واحد او فن واحد ، لم يعرفوا العبث ، ولم يعرفوا العفة ولم يعرفوا الحب نفسه ، ولكنهم لم يخرجوا عن انهم شعراء يحسنون التصوير فصوروا وأسميهم بالشعراء الفنيين او الصناعيين او التقليديين تمييزاً لهم عن الاباحيين والعذريين . ولم يجعل هؤلاء الغزل غرضاً يقصد اليه بل استعانوا به كوسيلة الى غيره من الاغراض

واريد أن تلاحظوا شيئاً وهو ان الغزل الاباحي والعذري لم يعرفا بوجه عام عند غير شعراء الحجاز . اما الغزل الفني فقد عرفته شعراء الاقطار الاخرى وأجاد بعضهم فيه وكلكم يعلم ابيات جرير التي فيها

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن اضعف خلق الله انسانا

واريد ان اقيد ملاحظاتي هذه في انهُ ليس من اللازم ان يكون كل شاعر اوتي الغنى وحرم السياسة وعاش في المدن اباحيًّا، ولا كل شاعر حرم المال والسياسة وبدا كان عذريًّا، ولا كل شاعر غير حجازي كان تقليديًّا. فقد كانت هناك احوال خاصة دفعت بعض الشعراء الى ان يشذوا عن هذه القاعدة . واذا سألني سائل ومن اي فريق كان عمر أجبته على الفور من كل من هؤلاء . ولكنهُ كان اباحيًّا قبل كل شيء وعذريًّا بعده وفنيًّا في الموضع الثالث . فقد احب وصدق وفتك حيناً واحب وصدق وعف حيناً آخر ولم يصدق ولم يحب ، بل لعله لم يعرف هذا المحبوب الذي وضع فيه شعره الفني حيناً ثالثاً . وشعره خير شاهد على ما اقول . ففيه قصائد اباحية يصرح فيها بفتكه وعبثه واخرى عذرية تمثل الحب البريء الصادق وان تكن رنة الشكوى والعذاب والحزن والاستسلام الى اليأس غير قوية كما هي في سائر الشعر العذري . وله قصائد لم ينظمها فيما أرى الاَّ لان المغنين او غيرهم قد ألحوا عليه في ان ينظم لهم فنظم

ولكن عمر كان يختلف عن غيره من الشعراء الذين عاصروه في انهُ الشاعر الوحيد الذي صور لنا حياة المدن الاجتماعية البهجة ولا سيما ذلك الجانب منها الذي يتعلق بالمرأة وصلة عمر بها فكان شعره من هذه الناحية سجلاً للحياة التي عاشها وصورة للعواطف التي اضطربت في نفسه. ونحن وان كنا نعلم انهُ ليس من اللازم ان تكون كل الحوادث التي ذكرها في شعره قد وقعت لهُ حقا فانا نرى ان تعبيره عن احساسه قد استمده من حياته الخاصة . ونرى اشخاص شعره مخلوقات حساسة محبوبة بارزة تتكلم وتتحرك وتلعب دورها في الحياة

هو ذا الحديث قد طال ولم اصل بالقارىء الى درس شعر عمر ودرس اثره في نفوس معاصريه وتابعيه . فلقد كان حقًّا يفتن شعر هذا الشاعر الذي استطاع ان ينال اعجاب اعظم فقهاء الحجاز فيصرفهم في كثير من الاحيان عن جد الحياة الى بهرجها . وليس لديَّ متسع لاسرد خبر عمر ينشد رائيته طلحة بن عبدالله بن عوف الزهري فما يزال هذا واقفاً شانقاً ناقته حتى تكتب لهُ القصيدة او خبر عمر مع عبد الله بن عباس وقد وفد على هذا رئيس الازارقة يسألهُ في الدين فينصرف عنهُ ويميل الى عمر يستمع الى شعره . فيقول ابن الازرق : الله يا ابن عباس انا نضرب اليك اكباد الابل من اقاصي البلاد ونسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك سفهاً وتستمع اليه ! فينكر ابن عباس ان في هذه القصيدة سفهاً ويقول انها من آل نعم وانا نستجيدها . أو أسرد خبر الامام سعيد بن المسيب يفاخر الناس بشعر عمر

وأي اثر قد ترك في نفوس النساء ذلك الشعر حتى صار الرجال يرون حرجاً عليهن ان يعرفن

شعر عمر فقالوا ما دخل على العواتق في خدورهن شيء أضر من شعر ابن ابي ربيعة . ورأى بعضهم جارية تدخل على اهله حاملة دفتراً فيه شعر عمر فقال لها . ويحك تدخلين على النساء بشعر ابن أبي ربيعة ! ان لشعره لموقعاً من القلوب . ومدخلاً لطيفاً ولو كان شعر يسحر لكان هو فارجعي. وقال بعض الرواة أدركتُ مشيخة من قريش لا يزنون بعمر ابن أبي ربيعة شاعراً من أهل دهره في النسيب . وكانوا يستحبون منهُ ما يستقبحونهُ من غيره وكأني أراه الآن قد غلب على قلوب القرشيين فالت أهواؤهم اليه وملك عليهم نفوسهم فخضعوا لسحره حتى صار يقال اذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه بشعر ابن أبي ربيعة ولحن ابن سريج فانك ترقصهُ ترقيصاً

أما أثره في نفوس الشعراء من معاصريه فلم يكن قليلاً ولقد اجتمع اليه الفرزدق واستنشده من شعره فأنشده احدى قصائده فصاح الفرزدق : أنت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس ، لا تحسن والله الشعراء ان يقولوا مثل هذا النسيب ولا أن يرقوا مثل هذه الرقية . وسمع جرير بعض شعر عمر فقال : ان هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشي . أما جميل بن معمر زعيم العذريين فقد تعارض وعمر فلما أنشده عمر لاميتهُ قال جميل : هيهات يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا سجيس الليالي ، والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد قط

ولم يفت النقاد أن يلتفتوا الى شعر عمر فأنى أكثرهم عليه ولقد حفظ عن مصعب الزبيري نقد لشعر عمر تكاد كتب الادب لا تحفظ نقداً أطول منه لشعر شاعر

ولكن أحقاً كان عمر كل هذا ، أم ان هؤلاء القدماء قد عودونا أن يقولوا في كل شاعر مثل هذا ؟ الواقع هو أن للقدماء آراء في النقد هي في كثير من الاحيان قليلة القيمة بعيدة كل البعد عن شروط النقد الصحيح ، ولكن هذا الاجماع على الاعجاب بعمر نكاد لا نراه عندهم لغير عمر . ويفرض عمر نفسه على كثير من الادباء والنقاد والشعراء المتأخرين ويبقى أثره في الاجيال التي تلته بحيث لا نكاد نرى الآن كتاباً لأديب أو مؤرخ أو معجماً واسماً الا وقد ضمن شيئاً من شعر عمر . حتى اذا جاز الادب العربي عصر الظلمات وانبثق فجر النهضة الحديثة لم يفت العلماء من عرب ومستعربين أن يلتفتوا الى عمر

ولعلَّ أول من تنبه اليه مستشرق انكليزي باسم بلكريف فكتب رسالة عنهُ وترجم شيئاً من شعره قبل سنة ١٨٧٢ . وكان روكرت الالماني معجباً بعمر وقال عنهُ انهُ أعظم شاعر في الغزل عند العرب . وقد حاول جمع شعره ليترجمه الى الالمانية فمات قبل ان يتم لهُ ذلك فنهض ببعض هذا الامر بعده بول شفارز الالماني وترجم خمس قصائد ونشرها سنة ١٨٩١ . ثم نشر كل ديوانه بين ١٩٠١ و ١٩٠٩ ولست مبالغاً اذا قلت انهُ قد نال شعر عمر من العناية على يديه ما لم ينله ديوان شاعر عربي حتى الآن

وانبرى المستشرقون يثنون على عمر فدحه بركلن ونكلسن. ومما قاله الاخير: انا اذا استعرضنا شعراء الحجاز في عصر بني أمية فالزعامة لعمر وهو حامل لواء الشعر الغزلي . وقال عنهُ « جب » في بحثهِ عن نشأة الغزل : وان أعظم عامل بين هؤلاء الشعراء الغزلين وأرلاهم ذكراً لعمر ابن أبي ربيعة دون جوان مكة وأوفيد العرب والشرق

واذا تركنا هؤلاء المستشرقين وانتقلنا الى أدبائنا العرب ترون عناية جلى والتفاتاً عظيماً وثناء كبيراً فقد كتب الدكتور ضيف رسالة باللغة الفرنسية قدمها الى السربون وقابل فيها بين عمر والفرد دي موسيه . ووضع الدكتور زكي مبارك رسالة في حب ابن أبي ربيعة وخصص الدكتور طه حسين جانباً من أحاديثه الادبية لدرس عمر. وأكتفي بنقل عبارة كتبها الدكتور طه في عمر تقديراً لهُ: « فعمر اذن زعيم الغزلين الامويين لا نستثني منهم احداً ولا نفرق بين اهل البادية واهل الحاضرة بل نحن نذهب الى أبعد من هذا فنزعم ان عمر ابن ابي ربيعة زعيم الغزلين في الادب العربي كله على اختلاف ظروفه وتباين اطواره منذ كان الشعر العربي الى الآن »

وتقول بعد هذا : وما هو هذا الشعر الذي سحر القدماء وخلب ألباب المحدثين ؟ فارجو ان تمنحني شيئاً من الوقت احاول فيه درس بعض الظواهر في هذا السبيل

لعلك لاحظت من حديثنا عن عمر انه قصر شعره على وصف المرأة فهو من هذه الناحية شاعر كان من أسبق الناس الى التخصص — هذه الظاهرة القوية في نهضة العلم العلمية اليوم — وكان موضوع دراسته المرأة فهو لا يصف الا المرأة ولا يلتفت الى شيء اذا لم تكن فيه المرأة حتى الحج ومشاعره فانها لم تكن لتستوقف نظره اذا تغيبت عنها المرأة

ولقد لقيهُ سليمان بن عبد الملك فقال : ما يمنعك يا عمر من مدحنا ؟

قال : انا لا امدح الرجال انما امدح النساء . فكان كالطبيب المتخصص تسألهُ ان يعالجك من امر ليس من اختصاصه فيقول لك : ليس لي يد بهذا اذهب الى فلان انما اعنى انا بكذا وكذا من الامر

وبعد أوليس من الطبيعي ان يعنى الناس بقول هذا الذي تخصص في حب النساء ؟ نعم ! ومن هنا كان بعض تشوق الناس الى استماع شعره فيهن . وقد كان الامام ابن عباس يقول هل حدث هذا المغيري شيئاً بعدنا . وقد ادرك القدماء هذا في عمر فقال جرير وقد سأله بعض المدنيين ان ينشدهم من شعره : انكم يا اهل المدينة يعجبكم النسيب وان انسب الناس المخزومي. وقال آخر : ان عمر لزم مذهباً واحداً لم يجاوزه فأكثر فيه وأحسن . وفي تخصصه توصل الى استعراض امور دقيقة في الحب وحياة النساء لم يعرفها او لم يذكرها أسلافه ومعاصروه وشهر في هذا الامر بحيث صار اماماً لشعراء الغزل . وقد كان الغزل قبله وسيلة لغاية واستمر عند

بعض الشعراء هكذا حتى اليوم . اما عمر فقد جعله غاية تقصد وسن بذلك طريقاً للغزلين. وشعر عمر من هذه الناحية — في نظري — خير مصدر تاريخي لدرس المرأة الحجازية في ذلك العصر من حيث عاداتها واخلاقها ولبسها وحريتها ومكانتها وتفكيرها وربما بعض تعابيرها. ولقد يدهش بعض نساء هذا العصر اذا عرفنَ ان النساء زمن عمر كنَّ يتجملنَ مثلهنَّ فيرققنَ حواجبهنَّ ويقوسنها ويصففنَ شعورهنَّ على طريقة خاصة ويلبسنَ الرقيق الحريري من الثياب يشف عما تحته من ناعم الاجسام

شفَّ عنها مرتق جندي فهي كالشمس من خلال السحاب

والظاهرة الثانية هي قصةُ القصص في شعره ويتفرع عن هذا أمران — المحاورة بين اشخاص قصة ووحدة المعنى واللفظ في القصيد

ينعى بعض النقاد المحدثين على الشعر العربي القديم خلوه من القصة ولعلهم مخطئون اذ يجب ألاّ يتبادر الى اذهان الناس ان كل الشعر القديم قد خلا من القصة فقد حاول امرؤ القيس وغير امرىء القيس ان يسردوا اخبار حبهم في شعر قصصي ، وهم وان لم يوفقوا فقد طرقوا باب القصة . اما عمر فقد ابرز القصة في شعره للعيان بحيث لم يترك للشراح والمفسرين مجالاً للتعليق

وقد سرد عمر في هذا الشعر القصصي اكثر وقائع حبه ولعله وضع واختلق وقائع لم تجر له . وفي هذه المحاولة لسرد اخباره مع صاحباته انطق اشخاص قصته فبدت ذوات حية وتعرض لذكر الاحاديث والمحاورات التي كانت تدور بينه وبين بعض صواحبه او بين احداهن واخرى من آرابها وهي صعوبة في نظم الشعر لا يستطيع التغلب عليها الا المطبوعون على سرد القصص . وقد وفق عمر في هذا فادهشت هذه الظاهرة جميل بن معمر فقال لعمر والله ما خاطب النساء مخاطبتك احد قط . وقال بعض النقاد مقابلاً بين لامية لعمر واخرى لجميل « لو ان جميلاً خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لاربى عليه وعثر كلامه به »

وقد اضطر عمر بحكم هذه المحاورة والقصص الى جعل القصيدة وحدة كاملة والى وصل البيت الواحد بالبيت الآخر في بعض الاحيان بحيث تصبح الرابطة محكمة وبحيث يصبح من العسير ان تقدم او ان تحذف بيتاً من القصيد . لقد سمعنا من كثيرين ان الشعر العربي قبل ابن الرومي خلا من هذه الوحدة . وان الوحدة في الشعر العربي هي البيت . بينما هي في الشعر الافرنجي القصيد كله فليسمح لي القارئ ان انبه الى ان شعر عمر يخالف هذا الزعم ولعل عمر قد تعمد هذا الامر تعمداً ويطول بي المقام اذا جئت استعرض قصائد عمر المرتبطة الابيات معنى ولفظاً ولكني لا ارى بدّاً من ذكر قصيدة صغيرة هي في نظري من اضعف شعره ولكنها خير ما تمثل هذه الوحدة . واود اولاً ان استشهد بقطعة نثرية في موضوع الحب نفسه لاحدهم اقابلها

فيها : « قال : اما تعلم ان الحب داء ؟ أما والله لو حملت منه كما حملت من حب رخيم ، لما لمت على الحب ! فدعني وما اطلب ، اني لست ادري بما قتلت ، الا انني بينما انا بباب القصر في بعض ما اطلب من قصرهم اذ رمى شبه غزال بسهام فما اخطأ سهماه ولكنما عيناه سهمان له كلما أراد قتلي بهما سلم »

هذه قطعة نثرية كما يرى تامة السبك ملتحمة النسج لا بأس بمتانتها لولا موضع او موضعان وقد يُريد القارىء ان اسرد له قصيدة لعمر في هذا الموضوع اقابلها بها ولعله يُدهش اذا زعمت له ان هذه القطعة من قصيدة لعمر . وسأسردها شعراً دون تغيير حرف واحد :

يا ذا الذي في الحب يلحى أما	تخشى عقاب الله فينا أما
تعلم ان الحب داء أما	والله لو حملت منهُ كما
حملت من حب رخيم لما	لمت على الحب ! فدعني وما
اطلب اني لست ادري بما	قتلت الا انني بينما
انا بباب القصر في بعض ما	اطلب من قصرهم اذ رمى
شبه غزال بسهام فما	اخطأ سهماه ولكنما
عيناه سهمان كلما	اراد قتلي بهما سلما

واريد ان تلاحظ ان عمر قد قيد نفسهُ فيها بالقافية الواحدة في صدور الابيات واعجازها ويكاد هذا وحده يشير الى ان عمر قد تعمد الامر تعمداً ليضع فنّاً جديداً . . . . .

ثم هناك امر آخر دعا الناس في نظري الى حب شعر عمر هو روح عمر وانا ادري ان لنفس الشاعر قبل كل شيء اثراً كبيراً في تقريبه الى الناس ، فكلما كانت هذه النفس محببة الى الناس كان الشعر موضع اعجابهم وحبهم ولعل الادباء يسلمون معي ان حافظاً لم يكن بمنزلة شوقي في الشعر ولكنهُ نال من حب الناس واعجاب النقاد مثل ما نال شوقي ان لم يكن اكثر وذلك لان نفس حافظ كانت اقرب الى هؤلاء الناس من نفس شوقي . وكانت نفس عمر رضية هنيئة وادعة على دلها مرحة جذابة حلوة فراق الناس اصطحاب هذه النفس وحبها حتى ان ابن عتيق قال لعمر: افٍّ على الدنيا بعدك يا أبا الخطاب

وكان عمر مع صاحباته خفيف الظل لطيف الروح حسن المعشر فكنَّ يتشوقنَ الى لقياه وكان يطلعهنَّ احياناً على اشعاره التي قالها فيهنَّ . ولم يكن عمر من هؤلاء الاباحيين الذين اذا تم لهم عبثهم لم يعنهم من شأن صاحبتهم شيء بل تركوها مضغة في افواه الناس . كلا فقد اصطنع ألوان الكلام ليكني عن اسم حبيبته باسم آخر وكان يذكر في اكثر قصائده ان لهوه مع حبيبته لم ينقض بغير السمر البريء والحديث اللذيذ وهو حتى في مواقفه الاباحية الصريحة ، وهي قليلة

في الديوان لم يسمَّ اسم واحدة بعينها ونحن الآن لا نعلم من هي نعم هذه التي شغلت قسماً كبيراً من ديوانه (والتي يقال انها نزلت على غدير وارتحلت فنزله عمر وظل يرد منهُ حتى نشف) وعمر عفيف في لفظهِ وفي تعابيره وليس هناك في كل الديوان كلمة واحدة بذيئة وعصره عصر الاحوص والعرجي والفرزدق وجرير

ولا اذكر هذه الناحية في عمر الا وتبدو امامي صورة تعاكسها في بشار الذي كان اعجاب بعض الناس بشعره عن رهبة وتملق . فله موقف في قصيدة يظهر فيها بشكل لم ار اقبح منهُ في محب بعد عبثه مع صاحبتهِ التي أغواها وأغراها فقبلها وجرح شفتها يقول بلسانها :

كيف بأمي اذا رأت شفتي   أم كيف ان شاع عنك ذا الخبر

فيجيب : قولي لها بقة لها ظفر   ان كان في البق ما له ظفر

ارأيت سخرية بالحب وازدراء بالحبيب مثل هذا القول : قولي لامك ما تشائين فبشار السمج لا يعنيه أمرك بل هو يسخر بك ويزدري حبك ويعبر عن هذا بقوله :

قولي لها بقة لها ظفر   ان كان في البق ما له ظفر

وأين هذا من روح عمر وقول عمر الذي يحق له ان يدل :

لو كنى اليمنى ساءتك قطعتها   ولذقت بعدرضاك عيش الاجذم

أو هنيئاً لاهل العامرية نشرها اللـــذيذ ورياها الذي اتذكر

او ان اهوى العباد شخصاً الينا   والذ العباد نغماً ودلا

للتي بالبلاط امست تشكي   رمداً ليتهُ بعيني حلا

يقول وهل هذا كل ما في شعر عمر وأنا اقول لا وأنت تعلم ان في الشعر شيئاً لا يقاس بمقاييس مادية او روحية يعرفها الناس فأنتَ تعجب بشعر وتعجزُ عن ان تصلَ الى هذه المواطن فيهِ التي استثارت اعجابك او طربك . فليست العاطفة ولا الخيال ولا حسن التصوير ولا الابداع في الديباجة ولا رقة الشعر وموسيقاه ولطف روح صاحبه هي كل ما في الشعر ، بل هناك ما هو أعمق من هذا وأكثر تعقداً منهُ وأرجو ان يقنعك اذا سميت ذلك سحر الشعر

وأنت فوق هذا كله ترتاح الى شعر عمر لما فيهِ من تمثيل صحيح لنفس صاحبهِ ولنفس فتيات صاحبه ولروح هذه الجماعة التي عاش بينها وتطمئن الى شعر عمر لما فيهِ من صدق اللهجة وطيب القلب وجمال هذا الطبع الذي جمع بين سذاجة الحياة العربية الاولى ولينها وظرف الحضارة الجديدة وطلاوتها . ويكفي ان اقول ان عمر شعر وأحسَّ فجرى لسانهُ بما احسَّ وشعر

أنا وابني

لايليا ابو ماضي

قال لي ابني وهو حيـــران بما يحكي ويقرا
كيف كان الله ؟ اني قد وجدت الله سرًّا
اسمع الناس يقولو ن بهِ خيراً وشرًّا
فافدني . قلت : يا ابني انا مثل الناس طرًّا
لي في الصحة آراء وفي العلة اخرى
كلما زحزحت ستراً خلتني أُسدل سترا
لست ادرى منك بالامر ولا غيري ادرى

* * *

احسب الله الذي صاغ من الذرات صخرا
والذي شاء فصارت قطرات الماء بحرا
والذي شاء فضم البحر اصدافاً ودرا
وأراد الضوء اجراماً فصار الضوء زهرا
ان هذا الله لما شاء هذا كان ـ فكرا ـ

* * *

ثم لما نظم الالــوان في الارض زهورا
ورأى ان يملأ الــحب غناء وحبورا
فتمشى في حواشي ال ارض سحراً وعطورا
وتهادى في حواشي الافق أطيافاً ونورا
وترامى في الربى والماء صمتاً وخريرا
عند ما أوجد هذا كان ـ حسًّا وشعورا ـ

* * *

من أحب الله جباراً وفتاكاً وقاهــر
فأنا أهواه رساماً وفنــاناً وساحر
وأراه في الندى والزهر والشهب السوافر
فاذا الانجم غارت وانطوت كل الازاهر
وتلاشى كل ما انشا وسوى من مناظر
لاح لي في حسنه الاكمل في ديوان شاعر



خزان جبل اوليا

لحنا نمباز

استخدام الانسان قوى الطبيعة في مصلحته عمل من أفضل ضروب النضال البشري على سطح هذا السيار . فأول ثمار الفلسفة استغلال الماء والهواء والتراب والنار ، والاستعانة بهذي الاشياء لتوفير القوة وتخفيف العناء . كان ذلك ديدن الانسان منذ العصور الخالية ، وسيظل كذلك وقد بلغ ذرى المدنية والعمران . بل ان الانسان ليزداد في ذلك ما زاد اغراقاً في مناحي المدنية والارتقاء . فان تقدم العلوم ، وتزايد الاختبار ، يزيدان الانسان حولا في ميدان الطبيعة ، فيتمكن من كشف استارها ، وسبر اغوارها ، وحل رموزها ، واستخراج كنوزها . كان ذلك شأن المصريين في عهد الفراعين العظام ، فلا غرو اذا أعاد أحفادهم الكرة على مناهج السلف الكريم يوم كانت المدنية في مهدها ، يوم ترعرع في وادي النيل فنون الزراعة والري والمساحة والهندسة والبناء والارصاد الفلكية

تجلت لي هذه الحقيقة يوم جئت خزان جبل أولياء قبل سنتين ونصف من الزمان ، فوقعت العين على أبدع حركة ، وأقدس حركة ، رأيتها في الحياة ، ورأيت ما كان يجري تحت سماء النيل الابيض من آثار الهمة القعساء ، حركة انشائية لم يسبق لها نظير في هاتيك الديار منذ ذرّ فجر العمران . فكان في ميدان جبل أولياء ، على النيل الابيض خليط من انكليز والمان وايطاليان ويونان وأرمن وحبشان وسودان ومصريين وسوريين ، وغيرهؤلاء من طوائف البشر وأسباطها ، وقد تسلحوا بأحدث مستنبطات العلم والفن والصناعة ، من محركات ، وناقلات ، ورافعات ، وماخرات ، وحافرات ، وحاطمات ، فحولوا بها البحر يبساً واليبس بحراً ، والغور جبلاً والجبل غوراً . وكانت المئات والالوف تعمل في حوض النهر تحت سطح الماء أمتاراً ، والمياه من حولهم كالجبال الشامخة تمسكها الحواجز والسدود الوقتية ، وقد هبطوا الى قاع النيل يحفرون ويبنون ويشيدون ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فبدت لي حينذاك سلطة الانسان على الطبيعة محسوسة ملموسة ، يستغل مقدراتها ناعم البال . مبلغ كهذا لم يدركه الفراعين العظام ، ولم يشهده وادي النيل في ما سلف من العصور . هذا هو خزان جبل أولياء وصحته « اولي » ولكنه كتب « اوليا » في البيانات الرسمية الاولى ولم يغير

للخزانات غرضان ، ثانوي وجوهري . فالغرض الثانوي هو وقاية البلاد من غوائل الفيضان ، ولا سيما في أوقات تجاوزه الحدود العادية وتهديده البلاد بالدمار . ومصلحة الري العمومية تنظر الى هـذا الغرض بعين العناية كجزء جوهري من التزاماتها ، والغرض الجوهري هو تخزين مقدار وافر من المياه ، وحبسه أمام السد لاستخدامه في ري الاطيان الزراعية في أوقات انخفاض مستوى النهر وعجزه عن امداد المزروعات بالقدر الكافي من المياه

أنشىء أول عمل من هذا النوع على النيل في عهد محمد علي الكبير ، رأس الاسرة المالكة في مصر . أريد بذلك القناطر الخيرية ، في النصف الاول من القرن الماضي . وكانت القناطر الحلقة الاولى في سلسلة انشاءات الري . تلتها الحلقة الثانية في خزان أسوان في أوائل القرن الحالي ، ثم قناطر اسيوط ونجع حمادى وخزان مكوار . وأخيراً في خزان جبل أولياء هذا ، الواقع على النيل الابيض جنوبي مدينة الخرطوم نحو خمسين كيلو متراً أو أقل قليلاً

وأقسم الكلام فيه الى أربعة أقسام هي تاريخ هذا المسعى : الاعمال التمهيدية : أوصاف الخزان : مغازيه الروحية

١ — تاريخ هذا المسعى

قام السر وليم غارستن الشهير ، المستشار الفني في وزارة الاشغال المصرية العمومية ، برحلة كبيرة في وادي النيل ، في مستهل القرن العشرين ، وعلى اثر استرداد السودان واستقرار الحال فيه . فجاب من تلك الاصقاع ما دنا وما نأى . ورافق فروعه الى مصادرها في جبال الحبشة وبحيرة طانا مصدر النيل الازرق ، وفي البحيرات الاستوائية مصدر النيل الابيض . وصعد في بحر الجبل ، وبحر سوباط . وجاء الجزيرة جنوبي الخرطوم . وتخطاها شمالاً الى حدود اسوان . ووضع تقريراً مطولاً ضمنه آراءه في هذا الشأن ، وقد اسماه « الدليل في موارد اعالي النيل » . بسط فيه الكلام في انماء الثروة ، وتوافر دواعي طمأنينة الانسان وتأمين حياته . تلك اول احلام الانسان العاقل وهي اول حوافز ارتقائه . واشار غارستن في ما اشار الى انشاء خزان على النيل الابيض عند جبل اولياء . ذلك اول فجر سطع على هذ المسعى في التاريخ . تلا ذلك انشاء الحكومة المصرية مصلحة الري في الخرطوم سنة ١٩٠٥ ، فجاء ذلك باعثاً على الاستزادة من المعلومات المختصة بالري وتخزين المياه ، واكتشاف كثير من الاقاليم المجهولة . فثبت لمصلحة الري ان خزان اسوان لا يسد حاجة القطر المصري ، فيلزم انشاء خزان على النيل الابيض عند جبل اولياء . وهذي كانت الخطوة الثانية في تاريخ هذا المسعى الجليل الشأن . وقد كان الباعث عليها نقص الفيضان سنة ١٩١٣ وانخفاض النيل سنة ١٩١٤ الى أوطأ ما عرف في القرنين الاخيرين ، فعجز النيل سنة ١٩١٤ عن سد مطالب الري الضرورية فحرج ذلك بهمم رجال الري الى التفكر

في انشاء هذا الخزان تداركاً للخطر قبل وقوعه . وعلى هذا الاساس عرض اسمعيل سري باشا ، وزير الاشغال على مجلس الوزراء « مشروع خزان جبل اولياء » وذلك في شهر مايو سنة ١٩١٤

﴿ المعارضة ﴾ لم يلق مسعى في الارض ما لقيه هذا المسعى من المعارضة والمضادة . وكانت تلك المعارضة سياسية في أساسها ، فنية في مستندها . وليس من اغراضي الدخول في الموضوع من ناحيته السياسية . فقد قال اسمعيل سري باشا رحمة الله عليه : « ان من سوء الحظ ادخال السياسة في مسعى كهذا » . ولما كانت المعارضة قد استندت الى تصريحات فاه بها السر وليم ولكوكس ، ومعلوم مالهذا الرجل من عظيم الشأن والمكانة العالمية في هذا الباب ، بناء عليه الفت الحكومة البريطانية لجنة خاصة من بارزي المهندسين للنظر في تصريحاته . واعضاء تلك اللجنة هم : —

١ : السر موريس فتز موريس رئيس معهد المهندسين سابقاً
٢ : السر ر . بنتون مفتش عام الري في هندستان سابقاً
٣ : السر وليم غارستن مستشار وزارة الاشغال العمومية المصرية سابقاً
٤ : السر ارثر وب مستشار وزارة الاشغال العمومية المصرية سابقاً
٥ : الاستاذ كوثرن رئيس معهد المهندسين الملكيين ، وصاحب تأليف في الهيدروليكا والحياة
٦ : الكولونيل نيوتن المدير العام لمصلحة المساحة المصرية ، ونائب مدير مصلحة الارصاد الجوية سابقاً . واضافت الى هذه الهيئة القاضي بوث للنظر في الاتهامات من وجهة قضائية . فكانت نتيجة بحث هذي اللجنة في مصلحة المسعى ودفع الاتهامات . ولما برزت المعارضة في وجه الحكومة المصرية عينت هي ايضاً لجنة دولية لدرس الموضوع وتقديم تقرير عنه ، واعضاؤها هم :

١ : المستر جي رئيساً — رشحته حكومة الهند
٢ : المستر كوري عضواً — رشحته حكومة الولايات المتحدة
٣ : الدكتور سمبسن عضواً — رشحته جامعة كمبريدج
٤ : السكرتير كابس — استاذ في مدرسة الهندسة الملكية

قامت هذي اللجنة برحلة في اعالي النيل الابيض . ودرست الموضوع من كل جهاته . وقدمت عنه تقريراً ضافياً أسمته « تقرير لجنة مشروعات النيل » لخصه المستر داوسن مساعد المستشار المالي ، لتسهيل مراجعته . وذلك في دسمبر سنة ١٩٢٠ . وقد ايد ذلك التقرير انشاء خزان جبل اولياء

فشرعت الحكومة المصرية في العمل وشادت البيوت والمنابر في منطقة جبل اولياء لسكن المهندسين والمقاولين . وانفقت على تلك المباني ما يقرب من مليون جنيه . الا ان العمل توقف في وزارة عدلي يكن باشا في ٢٥ مايو سنة ١٩٢١ لاسباب مالية . وفي آخر ذلك العام ندبت الحكومة المصرية المستر ديبوى . مستشار وزارة الاشغال يومذاك ، مع جماعة من المهندسين ، في عدادهم عبد الحميد باشا سليمان والمستر برسي ، فقدمت تقريراً باسم « تقرير ديبوى »

طبع سنة ١٩٢٥ وزار المستر فتزموريس موقع جبل اولياء سنة ١٩٢٤ يصحبه مستر نوتنهام وكيل وزارة الاشغال . وهو ايضاً نظم تقريراً في ٢٦ مارس سنة ١٩٢٤

وتألفت لجنة دولية للنظر في توزيع مياه النيل بين مصر والسودان . واعضاؤها هم : —
١ : المستر كنتر كريمر رئيساً — هولندي — ٢ : المستر ماكجريجور — عن الحكومة البريطانية ٣ : عبد الحميد باشا سليمان عن الحكومة المصرية

وأضافت الحكومة المصرية الى هذي اللجنة لجنة مساعدة مؤلفة من عبد المجيد باشا عمر وعبدالقوي بك احمد . وكانت هذي اللجنة خطوة كبيرة الى الامام في أمر هذا الخزان

وشكل اسمعيل سري باشا سنة ١٩٢٦ لجنة مؤلفة من أحد عشر عضواً برآسة صالح عنان باشا لفحص تقرير لجنة النيل ، وكان سكرتير هذي اللجنة عبد القوي بك أحمد

وبعد مراجعة هذه اللجنة التقرير رفع رئيسها بيانه الى عثمان محرم باشا خلف اسمعيل سري باشا في وزارة الاشغال . وقدم الوزير عثمان محرم باشا سنة ١٩٢٦ ، ثم خلفه ابرهيم فهمي باشا سنة ١٩٢٨ ذلك التقرير لمجلس الوزراء . وهو يرمي الى اعتبار تقرير لجنة النيل مرعيًّا في جميع مبادئه ، ثم طلب الى مجلس الري الأعلى سنة ١٩٢٩ ان يبدي رأيه في الامر فقرر ذلك المجلس « ان انشاء خزان عند جبل أولياء مسألة أساسية للتوسع الزراعي في مصر » . ومجلس الري الأعلى مؤلف من غالب عثمان بك رئيساً ، وهو مفتش عمومي الري في الوجه القبلي ، ومعه تسعة أعضاء ، خمسة منهم مصريون وأربعة انكليز

وفي ٧ مايو سنة ١٩٢٩ عقد اتفاق تقسيم مياه النيل بين مصر والسودان . وجاء في رد المفوض السامي اللورد جورج لويد على رئيس الوزارة المصرية ما نصه : —

« ان حكومة جلالة الملك سبق لها الاعتراف بحق مصر الطبيعي والتاريخي في مياه النيل واني أقرر انها تعتبر المحافظة على الحقوق مبدءاً اساسياً للسياسة البريطانية في الشرق »

وصدر قرار وزارة الاشغال سنة ١٩٢٩ مختوماً بهذي العبارة: «رأى المجلس ضرورة اقامة خزان جبل أولياء ، واتفق الجميع في وجوب التعجيل في انشائه» وفي ٣٠ يناير سنة ١٩٣٢ أحالت وزارة اسمعيل صدقي باشا الى مجلس النواب مرسوماً ملكيًّا بمشروع قانون باعتماد خزان جبل أولياء ، فألف المجلس لجنة خاصة لدرس الموضوع وتمحيصه ، واعطاء قرار بهذا الشأن . وكان اعضاء اللجنة البرلمانية سبعة عشر عضواً . فعقدت تلك اللجنة ١٧ جلسة لمناقشة الموضوع ، من أول مارس ١٩٣٢ الى ٩ مايو ، وكان مندوب الحكومة لدى اللجنة في كل تلك الجلسات عبد القوي بك احمد . فتلقى الاسئلة والاعتراضات في كل جلسة ، فأجاب عن هذي ، ورد تلك ، وقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . وأخيراً استدعت اللجنة وزير الاشغال ورئيس الوزراء فحضرا جلسة ٢٤ مارس يصحبهما وزير المالية

وفي الختام رفعت اللجنة لمجلس النواب تقريراً بهذا الشأن يشغل ١٤ صفحة كبيرة فتناقش النواب في التقرير ثلاثة ايام . وختمت مناقشاتهم بخطبة مشجعة من رئيس الوزارة في ٢٣ مايو ، قال فيها « لا دخل للسياسة في انشاء هذا الخزان ولا خطر على مالية

الدولة بسبب النفقات المرصودة له » . وحينذاك اعلن رئيس البرلمان محمد توفيق رفعت باشا ان المناقشات قد ختمت وطلب التصويت ففاز المشروع باغلبية ١١٣ صوتاً ضد ١٦ صوتاً . عندئذ رفع الرئيس كتاباً بهذا الشأن الى مجلس الشيوخ بحسب الاصول البرلمانية . فحوّل مجلس الشيوخ الموضوع الى لجنة الاشغال في مجلس الشيوخ برآسة اسمعيل سري باشا ، واضاف المجلس الى تلك اللجنة الذوات الآتية اسماؤهم

(١) قليني باشا (٢) حبيب دوس بك (٣) محمود بك ابو النصر (٤) اللواء عبد المجيد فريد باشا (٥) عبد الرحمن رضا باشا (٦) اللواء محمود عزمي باشا (٧) اللواء صادق يحيي باشا (٨) ادوار قصيري بك (٩) اللواء علي احمد باشا (١٠) محمد احمد عبود باشا

فبحثت اللجنة المزدوجة الموضوع بحثاً كافياً . ونظرت في كل نقاطه وفروعه من وجهاته العديدة ، وشغلت جلساتها اسبوعين من ٢٦ مايو الى ١١ يونيو سنة ١٩٣٢ ، حضر بعضها رئيس الوزراء مع وزير الاشغال العمومية . وختمت اعمالها باقرار القانون ، ورفعت تقريرها الى المجلس . فتناقش المجلس فيه من ١٤ يونيه الى ١٧ منه ، وأقره باكثرية ٧٤ صوتاً ضد ٤ اصوات فتكون اكثرية الاصوات في مجلس النواب بنسبة ٩ الى ١ وفي مجلس الشيوخ بنسبة ١٨ الى ١

واری من واجبي كمؤرخ صادق ، يحرص على الحقيقة ، وعلى كرامة الدولة ونزاهة رجالها ، ارى ان اثبت هنا « ان خزان جبل اولياء مسعى مصري ، ايدته فكرة مصرية غير مسخرة ، ولا مستهواة ، ولا واهمة ، وقد سارت أبحاثه سيراً برلمانيًّا حراً قانونيًّا ، بنور العلم والفن ، وصدق بالتصويت الحر حائزاً الاكثرية الساحقة وكانت للمعارضة الحرية التامة لايراد كل ما يمكن ايراده ضده . وقد ردت عليها الوزارة رداً علميًّا صحيحاً فلم يبق ثمة مجال للمراء » . هذا هو خزان جبل اولياء وصدر القانون باعتماده في ١٩ يونيو ونشر في «الوقائع المصرية» الصادرة في يونية سنة ١٩٣٢ وهذي صورته

القانون رقم ١٩ سنة ١٩٣٢ باعتماد انشاء خزان جبل الاولياء

نحن فؤاد الاول ملك مصر

قرر مجلس الشيوخ ومجلس النواب القانون الآتي نصه وقد صدقنا عليه

مادة ١ : يعتمد انشاء خزان جبل الأولياء في السودان على الوجه المبين بمذكرة وزارة الاشغال العمومية الى مجلس الوزراء في ٣ يناير سنة ١٩٣٢

مادة ٢ : على وزير الاشغال العمومية تنفيذ هذا القانون . نأمر ببصم هذا القانون بخاتم الدولة وان ينشر في الجريدة الرسمية

صدر في سراي القبة في ١٥ صفر سنة ١٣٥١ (١٩ يونيه سنة ١٩٣٢) وتنفذ كقانون من قوانين الدولة

فؤاد

بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك
رئيس مجلس الوزراء — اسمعيل صدقي

وزير الاشغال العمومية
ابرهيم فهمي كريم

بعد ذلك طرحت الوزارة انشاء الخزان للعطاءات . ولدى فحص ما تقدم اليها من تلك العطاءات — بحسب الاصول المرعية — قبلت عطاء المستر جبسن الانكليزي ، مشترطة عليه ان يعقد شركة مالية قديرة ، تضمن تحمل اعباء العمل . فعقدت شركة جبسن وبولن مساهمة وشرعت الشركة في انشاء الخزان في خريف سنة ١٩٣٣ على ان تتمه في خلال ٤ سنوات وتسلمه للدولة المصرية في يوليه سنة ١٩٣٧ . والمبلغ الذي تدفعه الدولة المصرية له هو ٢١٠٠٠٠٠ جنيه مصري

٢ — الاعمال التمهيدية

ان الاعمال التمهيدية التي يستلزمها انشاء خزان كهذا هي كبيرة متفرعة . ومن لم يرها قد لا يصدق ما يسمعه عنها . واليك لمحة مختصرة تكشف عن خطورة تلك الاعمال

﴿ ١ : المساكن للمتعهدين والموظفين وخلافهم ﴾ سلمت حكومة السودان للدولة المصرية شقة من الارض ، على ضفاف النيل الابيض ، حول جبل اولياء ، فسوَّرتها الحكومة المصرية بالاسلاك ، ودعتها بالمستعمرة المصرية ، وللمستعمرة المصرية اربعة ابواب ، يقيم الخفر في كل باب ، ولا يؤذن بالدخول اليها الا لمن تجيزه الادارة من موظف وعامل وزائر ومقاول الخ

وقد شيدت ضمن السور مبانٍ عديدة ، من بيوت وعنابر وقطيات (حجر مستقلة) ومخازن للري ومكاتب ومستشفى ونحو ذلك ، لسكن موظفي الري ، ومهندسي الخزان من مصريين وغير مصريين ، ولسكن المتعهدين والمقاولين والملتزمين والملاحظين وغيرهم . فكان هنالك بلدة واسعة الجناب ، تفصل بين أبنيتها ساحات فسيحة ، وشوارع عريضة ، تنيرها الكهربائية ليلاً . وقد سوِّرت بيوتها بأشجار التمر الهندي ، أو أشجار السيسبان بحيث لا يرى المارة ما ضمن تلك الاسوار الخضراء . وزينت البيوت بالحدائق والمروج ، والشوارع بالاشجار على الجانبين . وأقيمت على خدمة البيوت جماعات الفراشين والبستانيين . دام ذلك كل المدة منذ سنة ١٩٢٠ الى انتهاء بناء الخزان ، وقد أنفقت الدولة المصرية على ذلك ما لا يقل عن مليون جنيه . وقد شملت تلك المباني بالعناية الصحية التامة منعاً للامراض ، ولتولد البعوض الضار في الاقاليم الحارة

﴿ ٢ : المياه ﴾ وقد أمدت تلك المباني بجهازين من الماء . الاول لحمل ماء النيل كما هو الى البيوت لسقيا الحدائق وأعمال التنظيف . والثاني لأجل ماء الشرب ، بعد تصفيته وتطهيره بحسب القواعد الصحية ، وتحت المراقبة الطبية . وقد مدت أنابيب الماء الى كل بيت في المستعمرة وجهزت بالحنفيات والمصارف لحمل المياه القذرة الى الخارج ، بحيث لا يحتاج ساكنوها الى أي نفقة او عناء

﴿ ٣ : الكهربائية ﴾ وهي تراد لأمرين ، التنوير والمحركات لادارة الآلات . فأنشىء معمل كبير لتوليد الكهربائية ، فيه مكنات كبيرة ، يقوم على ادارتها واصلاحها خبراء اخصائيون وكان على القوة الكهربائية المعول في بناء الخزان علاوة على تنوير الشوارع والبيوت ، وكانت أعمال الكهربائية مستمرة بلا انقطاع ليلا ونهاراً كل مدة بناء الخزان

﴿ ٤ : الثلج ﴾ وكان من الضروري ، في وسط سوداني حار ، توفير الثلج للتبريد ، وللاعمال الصحية ، ولذا أنشيء أيضاً معمل للثلج ، بقوة الكهربائية ، كان يصدر يومياً ما لا يقل عن ٤٠٠ كيلو جرام من الجليد عدا ذلك كان عند كثيرين من كبار الموظفين ثلاجات كهربائية في البيوت

﴿ ٥ : المستشفى ﴾ والمستشفى الى يسار مدخل المستعمرة الرئيسي هو بلدة على حدة ، لا تقل مساحة أراضيه عن ٢٠٠٠٠ متر مربع . شيدت فيه الابنية لسكن الاطباء والممرضين وغرف للعمليات وحجر عديدة وكبيرة فيها مئات من الاسرة لحلول المرضى وقد قسمت تلك الاسرة الى ثلاث درجات ، درجة اولى ، ودرجة ثانية ، ودرجة ثالثة . وكان على المتعهد جبسن ان يدفع عن كل مريض في تلك الدرجات . فعمن في الدرجة الثالثة عشرة غروش في اليوم . وعمن في الدرجة الثانية ثلاثين غرشاً . وعمن في الدرجة الاولى خمسةوسبعين غرشا . ولكن الحكومةالمصريةهيالمسؤولة بنفقات المستشفى وقد قررت له في الميزانية اربعين الف جنيه للسنوات الاربع وكان في المستشفى ثلاثة اطباء ، وممرضتان ، عدا التمرجية والخدم . وكانت خدمة المستشفى من أجلّ وأقدس الاعمال الانسانية في ذلك المحيط . لانه لم يقتصر على خدمة الموظفين والعمال ، بل مد احسانه الى سكان المحيط ، فكانت تجري فيه معاينة مئات كل يوم ، عدا عمليات التوليد ، وعمليات الحوادث والآفات التي لاحصر لها . وقد جهزته الحكومة المصرية بكل ما يلزم من العلاجات والاجهزة اللازمة

﴿ ٦ : النقل ﴾ بحسب شروط التعهد بين جبسن والحكومة المصرية وجب ان يبنى السد المكون للخزان بحجارة من النوع المعروف بالجرانيت . وكان يلزم ان تؤخذ تلك الحجارة من محاجر جبل السليتات الواقع شمالي الخرطوم نحو اربعين كيلو متراً . وجبل اولياء جنوبي الخرطوم نحو خمسين كيلو متراً . فالمسافة بين محجر السليتات وبين الخزان نحو تسعين كيلو متراً . لذا مد خط حديدي من جبل اولياء الى الخرطوم يتصل بالخط المؤدي الى السليتات . وقد مدت هذا الخط الحكومة السودانية فانفقت عليه ١٢٠٠٠٠ جنيه وكانت تتقاضى متعهدي الخزان قدراً معيناً من المال عن كل طن ينقلونه على الخط من حجارة وحدائد ورمال وادوات

وبعد وصول الخط الى محطة جبل اولياء تفرعت منه خطوط عديدة الىموقع الخزان بعضها على جسر (كبري) موقت فوق الماء ، وبعضها على الضفة الشرقية ، والضفة الغربية ، وبعضها في حوض النهر حيث اعمال البناء . وهذا الفرع من الاعمال له خطورته وقد اقيم اخصائيون على خدمته وملاحظته وادارة شؤونه

﴿ ٧ : الجسر ﴾ هو جسر موقت ، مد فوق مياه النهر من الشرق الى الغرب ، على دعائم خشبية هائلة من امتن انواع الخشب ، مدت فوقها جسور خشبية وخطوط حديدية فكانت طريقاً مزدوجاً للبشر والنقل فالماشي الى الجانبين والخط الحديدي في الوسط . وهذا الجسر لا بد منه لانشاء الخزان . وكان العمل يجري عليه نهاراً وليلا بلا انقطاع

كل المدة من سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٣٧ . وعدا الجسر كان في النيل « معديات » للمهندسين والمتعهدين . ولنقل الاشياء الخاصة التي لا يمكن تسييرها على الكبري . فكانت المعديات تمخر عباب الماء في كل ساعات النهار من الصباح الى المساء

﴿ ٨ : مركز حكومة ﴾ وكان لا بد لضبط النظام والفصل في القضايا بين عشرات الالوف من الناس — كان لا بد — من انشاء مركز حكومة فيه مفتش قضائي ومأمور وحكمدار وهيئة بوليسية وسجون وكان البوليس على قدم العمل في الخزان وفي السوق وفي المستعمرة وكانت القضايا الجنائية التي تنشأ بين العمال ترد الى ذلك المركز

﴿ ٩ : البريد والبرق ﴾ كذلك كان من اللازم انشاء فرع للبريد والبرق ، لقضاء حاجات تلك الالوف . وقد قسمت تلك الادارة الى ثلاثة فروع : البريد : والتلغراف : والتلفون : فكان البريد يحمل الجرائد والمجلات بأكثر من خمس لغات — العربية والانكليزية والايطالية واليونانية والالمانية والفرنسية وغيرها . ويقوم بواجب ألوف من التحاويل المالية كل شهر . وكانت ادارة التلفون قائمة على العمل ليل نهار ، وكذلك ادارة التلغراف . وكان توزيع البريد والبرقيات بالدقة في وقته حذراً من تعطيل المصالح ، لان هنالك ادارة الري وادارة الخزان وكلتاهما من الخطر بمكان

﴿ ١٠ : السلك (Wire) ﴾ وهو من أهم الاعمال التمهيدية التي أذكرها هنا . وفي ظني انه أغربها وأعظمها وأبدعها . بل هو من أبدع آي الفن الميكانيكي والعلوم الطبيعية . يمتد السلك على أربع قوائم اثنتين على كل ضفة من ضفتي النيل علو القائمة الواحدة ستون متراً ، مؤلفة من جسور « وشرحات » من الحديد وبين القائمتين تماماً كان السد المؤلف الخزان فكان السلك فوق السد تماماً . والغرض منه نقل الحجارة من الضفة الشرقية الى موضع البناء في حوض النهر او على الضفة الغربية وهناك محرك كهربائي (دينامو) كان يدير آلة متصلة باسلاك حديدية ، نيطت بها جرادل كبيرة . يسع الجردل الواحد من الحجارة ما يزن ثلاثة اطنان . فكان العمال يملأون هذي الجرادل بالحجارة الضخمة ، فيحملها السلك محركاً بالكهربائية الى فوق حتى تصل الى السلك العالي . وحينذاك تسير على بكرات بقوة الكهربائية الى حيث يلزم . وهنالك تهبط الجرادل بقوة الكهربائية الى الارض ، فيفرغها العمال ، ثم تعود فترتفع بقوة الكهربائية وتعود الى الضفة الشرقية لاعادة ملئها بالحجارة . كان هذا العمل مستمراً كل زمان البناء . ولولاه لكان نقل الحجارة من الضفة الى حوض النهر من اشق الاعمال . وهذا الجهاز اعظم وأثمن آلة استخدمت في بناء الخزان

عدا ما ذكرت من الاعمال التمهيدية كان هنالك «الكراكات» ، العاملة في نقل الركام في وسط النهر من جانب الى جانب . وهنالك سيارات عديدة للركوب والنقل . ومعمل للتحليل الكيميائي . وآلات لطحن الحجارة وصنع الخراسانة والاسمنت ، ولكل من تلك الفروع ادارات واقلام واخصائيون فاكتفي بالاشارة لتصوير الحال

٣ — السد الذي يكوّن الخزان

هنا نقطة دائرة المسعى ، وملتقى خطوطه ، ومتجه حركاته . كان العاملون في الخزان نحو عشرة الآف منهم الفان يعملون في تقطيع الحجارة واعدادها في السليتات يتبع هذي الالوف اكثر من عشرة آلاف آخرين من نساء الموظفين والعمال ، واولادهم ، وخدمهم ، والتجار والبقالين والخياطين والغسالين والخبازين والصباغين والمقاولين الصغار وغير هؤلاء من المتعلقين بالهيئة العاملة . يسكن هؤلاء في ثلاث حلل (قرى) عدا الخيام ، فهنالك مجموع من البشر لايقل عن عشرين الف نفس ، محور جميعهم الخزان . تنظر الى السد من عل ، فتحت نظرك مشهد روائي غريب واني اراه اغرب من حكايات الف ليلة وليلة . فهنالك اولا اربعمائة وثلاثون معماريًا أحنوا ظهورهم يبنون كل النهار ولكل من هؤلاء عمال ومناولون يقدمون له ما يلزمه من المواد . يلي هؤلاء «الحمالون» والحفارون والسقاؤون والملاحظون والمتعهدون والباعة المتجولون وكل هؤلاء تحت شمس السودان المحرقة بعضهم بالملابس الاوربية التامة وبعضهم نصف عراة او شبه عراة او عراة تقريباً ، حفاة الاقدام ، حاسرو الرؤوس والسواعد والصدور . هؤلاء يحملون على مناكبهم الحجارة الضخمة التي قد يعجز الحمار عن حملها . وهؤلاء يحملون «جرادل» الطين ، او صفائح الماء ، او أكياس الرمال ، وآخرون يعملون في تفريغ العربات مما تحمل من المواد وآخرون يعملون في هندسة الحجارة بالمطارق الحاطمة ، وفي الوقت نفسه صفير القطار يصم الآذان ، وقعقعة السلك يحمل الجرادل ، واصوات «الكراكات» والادقال والحدائد والمطاحن والمطارق والكهربائية والسيارات . وترى العمال الوفاً يحيطون باربعمائة بناء يشيدون في بقعة واحدة ، وواعجباً مما ارى ان اولئك الالوف ، وقد احنوا للحمل مناكبهم ، وهم يسيرون صعوداً او نزولاً على سطح مائل في وسط الجلبة والضوضاء . مع ذلك لا يخطىء واحد منهم هدفه بل يسير الى المعمار الذي يتبعه هو ويناوله ما يحمل ولا يخطىء مع ان المعمارين متشابهون وهم مئات متجاورة — مع ذلك — يسير العمل بانتظام وهدوء وسكينة كأن معماراً واحداً في المكان

وترى الوفاً منهم مستريحين في فترة العمل يشربون الشاي . احصيت مرة على الهويس تحت نظري نحو عشرين جماعة منهم ، كل جماعة حول ابريق شاي وكل هؤلاء في بقعة صغيرة . فقس على ذلك سائر المحيط . اما حبلهم الجرار صباحاً حين يأتون الى العمل ، ومساء حين يعودون من العمل ، فحدث عنه ولا حرج . هنالك يوم الحشر والنشور ترى السيل الجارف من البشر من كل طبقات الخليقة وكل الوانها ، الصدر الى الظهر ، يدفع اللاحق السابق ، وقد اكتظت الاقدام على ذلك الجسر الغريب الاوصاف حتى انه يتعذر على المرء الانسحاب من وسط ذلك التيار البشري ويخيل اليك انه لو رفع قدميه عن الجسر لظل سائراً في وسط الحشد لان الضغط الى الجانبين يضمن بقاءه سائراً محمولا

تنصرف تلك الالوف مساء الى مآويها بعضهم للطبخ والنفخ وبعضهم للتدخين وقراءة الجرائد والروايات وبعضهم للمقاهي والملاهي وبعضهم لسمع الراديو والفونغراف وينتشر مئات منهم في عرض الفلاة تحت سماء السودان بمتعون النفس بلطيف نسماته وبعضهم يغط غطيطاً عالياً تسمعه من بعيد وبعضهم يعاقر الدنان او يقامر وبعضهم يصلي ويرسل التسابيح . على هذي الحال يبيتون الى الصباح حتى اذا كانت الساعة الخامسة صباحاً وقد صفر الصافر تنبعث تلك الالوف من لحودها وتسير مواكبها متراصة الى الخزان كأنها سائرة الى المغانم . على هذي الحال استمر القوم أربع سنين

والآن أمامنا الخزان وقد تم بناؤه. فلننحدر عن الجبل، حيث بناية الري على ضفة النهر الشرقية . فأمامنا السد العظيم الفخم المتين مشيداً بحجارة الجرانيت، ممتداً في عرض النهر من الشرق الى الغرب نرى أوله ولا نرى آخره في أراضي غربي النهر . طوله ٥٠٠٠ متر وعلوه ١٨ متراً وعرضه ٥ ½ متر وسطحه ٣٧٩ متراً فوق سطح البحر وأعلى منسوب مائه ٣٧٧ متراً وأوطأه ٣٧٠ متراً وأعظم عرض المياه حين امتلائه ٧٢٥٠ متراً وأضيقه ٢٠٠٠ متر حين انخفاض المياه ومتوسطه ٤٠٠٠ متر وهي تغمر ٣١٤٠٠٠ فدان مربع من الارض أو نحو ١٣١٨ ميلا مربعاً . وفي السد ١٧٨٠٠٠ متر مكعب من الحجارة الرملية و٩٩١٠٠ متر مكعب من حجارة الجرانيت منها ١٧٨٠٠ متر مكعب منحوتة و ١١٥٠٠٠ متر مكعب من الاسمنت وزنها ٨٠٠٠٠ طن و ٣٠٠٠٠٠ متر مكعب من التراب ومجسم البناء ١٠٠٠٠٠٠ متر مكعب والركام ٢٨٤٥٠٠ متر مكعب وستائر الحديد ٨٠٠٠ طن . ونسير الآن على السد ٤٥٣ متراً على الضفة الشرقية وبعدها ٤٦٤ متراً هي السد الصامت الى الهويس ثم الهويس وعرضه ٦٠ متراً فعيون الماء وهي ٦٠ عيناً منها ١٠ مقفلة و ٥٠ مفتوحة ومداها كلها ٦٦٢ متراً بعدها السد الصامت الغربي ٢٤٤٥ متراً بالستائر الحديدية و ٨٦٧ متراً بدون الستائر

والستائر الحديدية جسور طويلة متداخلة طولها ٩ أمتار تغرز الى جانبي السد في الارض فتكوّن سورين بينهما بناء السد . وقد رأيتهم يدقونها في الارض بالمطارق الكهربائية وهي من أدق وأضبط صنوف البناء. والهويس طويل عريض بديع في وسطه مجاز السفن طوله بين البوابتين الحديديتين ٨٠ متراً وعرض الماء فيه ٢٢ متراً ومساحته كله ٣٦٨٠ متراً مربعاً ويحجز الخزان من مياه النيل ٣١٠٠٠٠٠٠٠٠ متر مكعب ويتبخر منها قبلما تصل اسوان ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ متر مكعب ويصل اسوان ٢٢٠٠٠٠٠٠٠٠ متر مكعب وهي تكفي ري ٥٥٠٠٠٠ فدان

***

وقد كمل بناء السد في اول ابريل الماضي يوم الخميس الساعة ١٢ ظهراً ولم يبق الا أعمال تكميلية جزئية تنتهي بوقت قصير . وقد انصرف جميع المعمارين وأكثر العمال ولم يبق الا عدد يسير منهم لانجاز ما تبقى وهو قليل

٤ — مغازي الخزان

رأينا ما هو الخزان . وعرفنا لماذا كان . وكم هي نفقاته . وعدد عماله . وأوصاف أقسامه فماذا يستفاد من كل ذلك ؟ ماذا ترى البصيرة وراء مارأت الباصرة ؟ هذا هو البحث الجدير بشيخ مجلات العالم العربي . وأراني في الموقف القانوني اللائق بمؤرخ أقدس الجهود الانسانية . وأرى أمامي حقائق هي أجدر بالخلود من السدود والاهرام . ولا أراني أقوى على سردها كلها ، فأقتصر على الاشارة الى بعضها

أولا : ان هذا الخزان ظاهرة ارتقاء من الناحيتين العمرانية والاقتصادية . فلا تقوى أمة منحطة على ابرازه . وهو مجلى المبلغ السامي الذي أدركه الانسان في تطوره وارتقائه ومما يتجلى لنا فيه

(١) فن المعمار (٢) فن الهندسة (٣) فن الميكانيكا (٤) الفنون الطبيعية (٥) نواميس السائلات (٦) نواميس الكهربائية (٧) الري والمساحة وقواعد الاقتصاد (٨) الشركات التجارية (٩) المبادىء السياسية (١٠) الائتلاف الانساني والتعاون الاجتماعي

كل هذي المجالي على جلالة قدرها انما تصور لنا فرعاً واحداً من شجرة الروح الباسقة. تلك الشجرة المباركة اصلها ثابت وفرعها

***

ثانياً : ارى في هذا المسعى المعظم « حرص الانسان على كيانه » . يجول النشاط الانساني في المحيط الكوني الى أبعد الآفاق محاولا ايجاد وسيلة ، او استنباط حيلة لضمان كيانه . والحرص على الكيان اول الغرائز الانسانية واولاها بالاهتمام . ومن هذا الاصل الاول تتفرع نوازع جمة كالتمدين والعمران والاقتصاد والنظام والاجتماع والشرع والتدين والشرف والوفاء والتآلف والتحالف والنجدة والايثار الخ .

فاذا اعترض الجهد الانساني عقبة في سبيله ، تحول دون فوزه بالكيان مباشرة او مداورة ، عمد الى التغلب عليها ، اما بشقها شقاً كما فعل بنفق سمبلون ، او بزحزحتها من السبيل ، او بالتفافه حولها والدوران بها بحيث يتسنى له استئناف سيره الاصلي كما تفعل الأنهار في مجاريها . والحاجة ام الاختراع . وان حيلة الانسان احتفاظاً بكيانه تؤلف تسعة اعشار مساعيه العمرانية . وهذا الخزان احدى المحاولات الانسانية لضمان الكيان . هو استغلال الماء لاجل الحياة

وما استلزمه انشاء الخزان من علم وفن وصناعة وسياسة انما هو مقياس ما بلغ الانسان من المستوى العمراني والمدني

ثالثاً : يتجلى لنا في مسعى كالخزان « التضامن الانساني » والترابط الوثيق بين افراد

النوع ، ولاسيا بين السلف والخلف . مات بعض الذين كانوا يعملون في انشاء الخزان قبل انجازه . وسيموت اكثر الذين عملوا به دون ان يتناولوا شيئاً من ثمراته . والذين سيستغلونه ممن سيولدون هم اكثر جداً ممن يستفيدون منه الآن . فسيستغله مئات الملايين ممن سيولدون في وادي النيل في عشرات القرون . فسعي الالوف ، وبذل الملايين ، على عمل يستفيد منه الحفدة وحفدة الحفدة هو ما اسميه « التضامن الانساني » . فانا نبني ونغرس لمن بعدنا ، كما بنى وغرس لنا من كان قبلنا . هذا هو خط الارتقاء الصاعد ، مجلى النشوء البديع ، هو استمرار الطبيعة في مجراها لحفظ النوع وسلامة افراده من غوائل الفناء

سيغص وادي النيل بالذراري ، فتضيق بهم الارض على رحبها ، وتنضب الموارد على وفرتها ، فنرانا ملزمين باعداد المعدات وتوفير الوسائل الواقية والضامنة لمئات والوف السنين وهذي الجهود التعاونية لغز لا يفسر ، الا بانه « تضامن » . هذا هو الحل الصحيح لالغاز التعاون البشري ، منشؤه الفطرة ، ومندغمه المدنية والارتقاء

***

رابعاً : الخزان في جبل اولياء حجة تثبت حق مصر في السودان هو حجة عملية راهنة لا يقوى مراء على انكارها . هو صورة اعتراف انكلترا والحكومة السودانية بحق مصر في النيل وفي حوض النيل . والا استحال ان يؤذن لمصر ان تنشىء خزاناً كهذا في غير بلدها ، وهو خزان تنحصر فوائده في القطر المصري دون سواه من الاقطار . تحجز فيه المياه لمصر كما تحجز عربات السكة الحديدية لاصحابها . ولكن حجز المياه في خزان جبل اولياء ليس استئجاراً بل امتلاكا . فلم تستأجر مصر مياه النيل والمحيط حول جبل اولياء ، لاجل مسمى . بل هي صاحبة الماء وصاحبة المحيط حول ذلك الخزان . وقد أثبتت ملكيتها ذلك الموضع لاجل غير مسمى . وقد برهنت ببنائها الخزان على انها صاحبة السودان ، او انها والسودان قطر واحد وبعبارة الجرائد ان السودان جزء لا يتجزأ من وادي النيل . فالذين عارضوا في بناء هذا الخزان على اساس سياسي كانوا يكونون مصيبين لو كان السودان بلداً اجنبيًا . اما وقد أعترف الداني والقاصي بحقوق مصر « التاريخية والطبيعية » في السودان وفي النيل فقد فات اولئك المعارضين ان انشاء هذا الخزان هو كبصم الختم على الحجة من الطرفين . فلا يبقى ثمة مجال للمرء في ان السودان لمصر ومصر للسودان ، او انهما بلد واحد وهو افضل التعابير وأصدقها فليحرص على ذلك المصريون

***

خامساً : واخيراً : بقي ان هذا الخزان مجلى ما بلغ المصري من الارتقاء . الجرائد مجلى نفسية الامة وخلقها . ولكن الجرائد قد تكون مجلى غير طبيعي ، وقد تكون مجلى زائفاً او ملتبساً فلا يتمكن غير ثاقب النظر من ادراك الشأو الذي بلغته الامة بدليل جرائدها . اما الخزان فمجلى طبيعي لا زيف فيه ولا التباس . فقد بناه اربعمائة وثلاثون معماراً لم يكن

فيهم واحد غير مصري . وقد شيد باموال المصريين وادارتهم وحكمهم : فلم يبق ثمة ريب في علو كعب المصري . وكان المهندس المصري صاحب الكلمة في الخزان . فماذا تقول اذا عرفت ان هذا الخزان هو أمتن الخزانات بناء واقلها نفقة ؟ أولا ترى ان ذلك بينة ارتقاء المصري في اكثر من فرع واحد في شجرة العمران ؟

كان في جبل اولياء مئات من المصريين من مهندسين وملاحظين وكتاب وارباب ادارة وكان هؤلاء في احتكاك دائم بعضهم بالبعض الآخر وبالانكليز . والاحتكاك المستديم في دائرة العمل لا يترك مجالا للتصنع والزيف . فماذا كان من المصري ومن الادارة المصرية؟ هل حدث بين المصري والانكليزي خصام او جفاء؟ وهل كان المصري دون اخيه الاوربي خلقاً ورجولة ؟ وهل كان في ادارة المصري شيء من التشويش والترطم ؟ لا وابيك . سل عنها خبيراً . فقد لاصقتهم سنين : ووقفت على امرهم في حالي رضاهم وبطشهم . فلم ار الا « ما يزين » . لم تكن هنالك ثغرة في سور الادارة المصرية . ولا نقص في خلقه ، ولا خال في علاقاته . اربعة اعوام مرت ولم يحصل مشكل في الادارة او العلاقات ، لا بين المصري والمصري . ولا بينه وبين اخيه الاوربي . زد على ذلك اننا لم نسمع ان احداً من اولئك المئات اتى امراً اداً . بل كانوا جميعاً مثلا في المحامد والاخلاق، من اكبر موظف الى اصغر تابع . وأتموا عملا من اجل الاعمال وأوفرها خطراً ، ولم يتركوا الا ما يستوجب الثناء والاعتبار ، من الاجنبي قبل الوطني

***

لقد طفت حول الكرة الارضية نحو خمسة اعوام ، ورأيت الشيء الكثير من بدائع المشاهد ومفاخر الامم ، في كل قطر وتحت كل سماء، على اني لا اذكر مشهداً ابدع منظراً وأشرف مخبراً من رؤيتي حلقة المهندسين في جبل اولياء حول زعيمهم المهندس المقيم عبد القوي بك احمد . وسمعت اشياء كثيرة ترفع الرأس ولكني لم اسمع افضل من اجماعهم على حبه واحترامه وتأييده في كل اجراءاته . فهذا التفاهم بين الرئيس والمرؤوس ، وهذا الاجماع بين التابعين في شأن متبوعهم ، مجلى ارتقاء وتسام لا يمكن الزيف محاكاته

اما النزاهة التي تجلت في بناء هذا الخزان من جانب المهندس المصري مما يرفع الرأس كثيراً . هنا لا معارضة ولا اعتراض . ملايين من الجنيهات أنفقتها مصلحة الري في بناء هذا الخزان، وكل جنيه ذهب في محله . ولم يتسرب منها شيء الى الجيوب . ولو ان المجال يأذن لي بأكثر من ذلك لما تلكأت . ولكن اللبيب تكفيه الاشارة . فقد ضرب المصري الرقم الاعلى في النزاهة والاتقان في بناء هذا الخزان فلم يبق للمنصف الا احناء الهامة امام هذا المجلى البديع الذي لسان حاله يقول :

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

جبل اولياء

فيلسوف عربي يسبق سبينوزا

بين سبينوزا

وابن جبرول

لفلمون خوري

الفيلسوف الهولندي بنديكت سبينوزا عَلَم من اعلام الفلسفة الحديثة له المذهب الخاص في الفلسفة والآراء والنظريات الثاقبة التي لا تزال مرجعاً سامياً في الكثير من مباحث الفلسفة الى يومنا هذا حتى لا يكاد يخلو مقال فلسفي من الاشارة الى مذهبه او احدى نظرياته

ولد سبينوزا في امستردام من اعمال هولنده عام ١٦٣٢ وهو ابن احد التجار اليهود المثرين برتوغالي الاصل وكان قد قصد والده بتخريجه ان يكون يوماً مدرساً في اللاهوت بيد انهُ اذ لم يجد في تقاليد الآباء ومعتقداتهم الدينية ما يروي اوام نفسه الظامئة الى المباحث الحرة الواسعة ترك دين الاجداد وعكف على درس الفلسفة وخصوصاً فلسفة ديكارت فاضطهدهُ لذلك رؤساء الدين وطردوهُ من مجامعهم فاضطر اخيراً الى هجر امستردام واخذ يتنقل في بعض مدن هولنده حتى استقر اخيراً في الهاي حيث جعل يتعاطى بعض الاعمال لكسب معاشه ولبث فيها الى آخر ايام حياته

اما مذهبهُ الفلسفي فهو المعروف بالحلول Pantheism اي ان الكون هو الله والله هو الكون. والذي يهمنا من مذهبه في هذا المقال هو اعتبارهُ العقل والمادة واحداً او انهما وجهان او صورتان لمادة اصلية واحدة عامة . فالعقل والمادة متلازمان ابداً فلا عقل بلا مادة ولا مادة بلا عقل . اما المادة في ذاتها ليست عقلاً ولا مادة . وعندهُ ان جميع الاشياء والمخلوقات فيها شيء من العنصر العقلي او الروحي وهذا ما ذهب اليه اريسطو قديماً من وجود عنصر روحي في سائر الكائنات الحية وغير الحية انما يختلف وجود هذا العنصر قوةً وضعفاً في الموجودات فهو في الجماد غيرهُ في النبات وفي هذا غيرهُ في الحيوان والانسان

ان نظرية سبينوزا هذه مبنية على نظرية التقابل التي مرّ تفصيلها في المقال السابق الذي

نشر في العدد الاخير من المقتطف تحت عنوان « العقلي والمادي في الفلسفة الحديثة » وقد وضعت هذه النظرية على اثر نظرية الفيلسوف الفرنسي ديكارت من ان العقل والمادة شيئان مختلفان اختلافاً كليًّا وليس بينهما شيء مشترك البتة ولا يوجد اي علاقة سببية او تفاعل بينهما. ومؤدى نظرية التقابل هو ان المادي والعقلي كل في دائرته الخاصة على ان كل حركة او حادث يحدث في الدائرة الواحدة يحدث ما يقابله في الدائرة الاخرى وذلك على تمام الدقة والوفاق . وقد تناول سبينوزا هاتين النظريتين وتوصل منهما الى هذه النتيجة البينة وهي انهُ اذا لم يكن من تفاعل بين العقلي والمادي وليس من علاقة سببية بينهما واذا كان ما يحصل في احدهما يحصل ما يقابله في الآخر على ادق نظام واحكام اذاً لا بد من ان يكونا شيئاً واحداً او انهما خاصتان متقارنتان او صورتان متباينتان ظاهراً لا باطناً لمادة واحدة اصلية مطلقة عامة . ويؤخذ من ذلك انهُ حيث تكون المادة فهناك العقل ايضاً وحيث يكون العقل فهناك المادة لا محالة فهما اثنان في الظاهر واحد في الحقيقة . وهذه هي الفكرة الرئيسية في فلسفة سبينوزا وهي اساس مذهبه الذي جعل له هذه الشهرة الطائرة في عالم الفلسفة

وقد اتفق لي ان عثرت مؤخراً في بعض تراجم الاعـلام على مختصر سيرة الفيلسوف العربي ابن جبرول وفيها خلاصة وجيزة لمذهبهِ وآرائهِ الفلسفية نقلاً عن كتابهِ « ينبوع الحياة » الذي يتضمن حقيقة مذهبهِ وكم كان اعجابي بالفيلسوف العربي حين وقفت في تلك الخلاصة على نفس هذه الفكرة في العقل والمادة التي تعزى الى سبينوزا فقط . فعجبت ان لا يكون للفيلسوف العربي ذكر بهذا المعنى وان ينسب الفضل فيها كلهُ الى الفيلسوف الهولندي بينا ان ابن جبرول سبقهُ اليها بما ينيف عن ستماية سنة . وابن جبرول كما ورد في ملخص سيرتهِ هو المعروف عند الافرنج باسم اويسبرون Avicebron العالم الفيلسوف اشتهر عند اهل القرون المتوسطة بكتاب سمّاه « ينبوع الحياة » ووثق بهِ بعضهم فأتوا من كلامه بشواهد وعدهُ آخرون كافراً وكانوا يجهلون حقيقة حالهِ ودينهِ فلا يعرفون هل كان يهوديًّا او نصرانيًّا او مسلماً وما برح مجهول الحال حتى عثر بعض الباحثين على نسخة عبرانية من كتاب « ينبوع الحياة » مترجمة من اصله العربي فعرف ان اويسبرون المذكور هو سليمان بن يهوذا بن جبرول المعروف عند العرب بأبي ايوب سليمان بن يحيى . وكان مولد ابن جبرول بمالقة في حدود سنة ١٠٢١ للميلاد وتوفي في سنة ١٠٧٠

وهذا هو نص العبارة التي تشف عن حقيقة مذهبهِ نقلاً عن ملخص الترجمة المشار اليها —

ان الجنسين الروحاني والجسداني ليسا سوى نوعين من جنس ارفع منهما وهو المادة الموجودة في كل منهما وان المادة الهيولية والمادة الروحانية ليستا سوى جزئين من المادة العامة والمراد

هنا بالمادة على مذهب الحكماء المشاة احدى علل الوجود وعنده ان مادة واحدة او جوهراً واحداً يكون قياماً للعالم الارضي والعالم العقلي وقد استند في ذلك الى دليل قاطع فقال « انهُ مما اجمعوا عليهِ (يريد فلاسفة اليونان وبالاخص زعماء الافلاطونية الجديدة) ان العالم العقلي هو علة العالم الحسي وكل معلول لا بد لهُ من بعض المشاركة لعلتهِ في الطبيعة ولو لم تكن هذه المشاركة لامتنع حصول الفعل فان كان في كل شيء من هذا العالم مادة وصورة ولم تكن تلك المادة في العالم العلوي فكيف امكن تولدها وكيف يصح ان يقال ان علتها في العالم العلوي ولا يصح الاعتراض بأن الجواهر الروحانية بسيطة وما سواها مركب لان بساطتها انما هي بالنسبة الى ما كان من دونها من الجواهر ولكنها مركبة حقيقة بالنسبة الى وحدة الخالق المطلقة » . وبالجملة انهُ اعتبر وجود مادة واحدة عامة في كل موجود حاشا الخالق وان هذه المادة هي قيام عالم الارواح والاجساد . يتضح من هذه العبارة ان ابن جبرول كان يعتقد بوجود مادة واحدة عامة لا نوعين من المادة كما كان يظن فلاسفة عصره والذين تقدموهُ وهو عين ما ذهب اليهِ سبينوزا على انهُ وان يكن ابن جبرول قد توصل الى هذه النتيجة من غير الطريق والدليل الذي توصل منهُ سبينوزا فالنتيجة واحدة كما لا يخفى ولا عبرة بالطريقة الاستقرائية فلكل طريقتهُ الخاصة . ولقد رجعت بعد اطلاعي على مذهب ابن جبرول هذا في المادة الى مشهوري فلاسفة اليونان مثل افلاطون واريسطو وزعماء الافلاطونية الجديدة الذين اعلم ان فلاسفة العرب نقلوا عنهم الشيء الكثير علي اقف على أثر لهذه الفكرة في مذاهبهم وآرائهم فلم اقف على شيء من ذلك فأيقنت ان الفكرة هي من بنات افكار فيلسوفنا العربي الكبير وقلت انهُ من الظلم ان لا يذكر بالفضل ذووهُ . وليس من قصدي الحط من مأثرة الفيلسوف الهولندي الكبير ولكن ارى من الواجب انهُ اذا ذكر اسم سبينوزا بهذا الصدد ان يقرن الى ذكره اسم ابن جبرول . وليس اسم ابن جبرول بالمجهول عند فلاسفة الغرب فقد كان لهُ مناظرات ذات شأن مع اكبر فلاسفة الاجيال الوسطى اعني القديس توما والبرت الكبير (١) وغيرهم فليس بالمعقول ان يكون الغرب يجهل آراء ابن جبرول

***

اما خطر هذه الفكرة وقيمتها الفلسفية فهي انها جعلت المبدأ العقلي والمادي في مستوى واحد بعد ان كان العالم لا يفكر الا بالاشياء الحسية فأفسحت الفكرة مجالاً للمبدإ العقلي وأصبح بها حقيقة

(١) القديس توما هو الفيلسوف توما الاكويني الشهير وقد كان هو واستاذه البرت الكبير من اشد خصوم ابن جبرول غير ان روجر باكون الفيلسوف الانكليزي كان من انصاره وقد قبل آراء ابن جبرول بجملتها بعد ان عدل فيها قليلا ورد بحماسة على من ناقضه

ملموسة بعد أن كان يغشاها الشيء الكثير من الغموض والابهام . ولم يقف الامر عند هذا الحد فان متتبع الآراء الفلسفية في ادوارها المتسلسلة لا يلبث ان يلحظ أن المبدأ العقلي اخذ بالتغلب رويداً رويداً على المبدأ المادي حتى كاد يتلاشى من عالم الوجود كما يظهر من فلسفة شلنغ وهيجل وفيخته وجميعهم من اعاظم الفلاسفة المحدثين . وقد تبين معنا في مقال « العقلي والمادي » ان الفيلسوف ليبنتز قال باجتماع العنصرين في الجوهر الفرد الا انهُ حكم بتغليب العنصر العقلي على المادي وتقدمهِ عليهِ . ثم ان الفيلسوف الالماني كانت جعل القوة الادبية او الضمير الانساني لباب الوجود . كما جعل نيتشه القوة . وشوبنهور الارادة . وسبنسر القوة المجهولة . وكل هذه من الامور المعنوية العقلية كما لا يخفى . اوليس ان في الرأي العلمي الحديث تنازع البقاء ما يشف عن معنى ارادة البقاء وحبهِ ؟ أليس هذا ايضاً من الامور المعنوية العقلية ؟

وللفيلسوف العربي ابن جبرول آراء وافكار غير هذه جديرة بكل اعجاب ولها قيمتها الفلسفية الخاصة . فقد ورد مثلاً في خلاصة مذهبهِ هذه العبارة : « ان المادة الطبيعية اي الجوهر المنتشر يتحرك ليتخذ صورة العناصر الاربعة (اي الهواء والماء الخ) ثم يرغب في اتخاذ صورة الجماد ثم النبات ثم الحيوان ثم يطمح الى الامتزاج بالعقل والارتقاء الى ذلك العقل العام الذي هو منتهى كل الارتقاء واليهِ تنتهي كل حركة » . أليس في عبارتهِ هذه دلالة واضحة على مذهب الارتقاء من المادة الترابية الى جوهر العقل الانساني . أوليست هذه هي الفكرة الرئيسية في مذهب هيجل في مادة الكون والارتقاء الدائم ذلك المذهب الذي كانت لهُ السيادة التامة حتى أواخر القرن الماضي ولا يزال لهُ شأنهُ الكبير الى يومنا الحاضر ؟ ولا سيما ان ابن جبرول يذهب الى ان « المادة هي قوى روحانية عقلية الطبيعة غير حسية لا يتيسر ادراك كنهها بالتصور » فكانهُ وضع بقولهِ هذا جرثومة المذهب الروحي الذي كان جوهر فلسفة الفلاسفة الالمان من عصر كانت الى هيجل وهارتمان وشوبنهور

***

هذا ما أردت بيانهُ اقراراً بفضل هذا الفيلسوف العربي الكبير ورغبةً في تعريفهِ الى أبناء العربية في مختلف الانحاء . وانهُ لمن دواعي الاسف الاّ يكون أبناء الضاد يعرفون من أمر نوابغهم أكثر مما يعرفون ولكن لا أقل من أن يحيا ذكر أولئك النوابغ العظام في أذهان أدباء العربية وأبنائها المثقفين . أليس لارباب الفلسفة والحكمة المشرقية إسوةٌ بأرباب الشعر الذين نروي أشعارهم ونجلّ آثارهم

من الادب التركي

وكانت الذئاب تعوي

للكاتب التركي حسين جاهد

نقلها نقولا شكري

جرى ذلك في الغابة ، عند المربع الاخير من احدى ليالي الخريف اذ كانت الذئاب تعوي

وكانت الاوراق الذاوية تنفصل عن الاشجار بتؤدة كما تتبدد احلام المرء اذا صحا من نشوته ، وتسقط على رؤوسنا بحفيف يشبه الزفرات القصيرة . فما أتعس نهاية احلامنا ؟

وكان ذلك الخريف حزيناً ، يبكي وينتحب في الظلام خلال الاغصان مع الحشرات الاخيرة التي كانت تأوي الى بعض الشقوق والثقوب فتموت هناك او تقضي تحت قشرة جافة نتأت من جذع الشجرة قليلاً

وكانت الذئاب تعوي

اما عواؤها فهو طوراً تهديد كأنهُ دوي عاصفة بعيدة ، وتارة شكوى الغضوب العاجز فينتشر فوق الاشجار الساجية هنيهة ، ثم تعود تلك الظلمات الى سكونها ، وينقطع دوي الحشرات، ويملك الليل نسماته فتتنفس بهدوء تنفس الخائف الحذر

النار تضطرم ولها زفير ، ولهبها المترجرج لم يكن لينير جذوع الاشجار المجاورة ، واضواؤها المضطربة تتفرس في الظلام الدامس المقنط كأنها عينا طفل مروع يحدق في السواد البعيد ليسبر غوره ، وليس لهُ جرأة على التقدم خوفاً من الظلام ورهبة للمجهول . والى جانب النار يضطجع احد رفيقي في ردائهِ الواسع وينام نوماً هادئاً ، وهو رجل جميل قوي لايظهر منهُ في ذلك الرداء غير وجهه . والآخر شاب هزيل عصبي جلس ازائي واخذ يلقي في النار قطعاً من الخشب بدون انقطاع . وكان قد فرَّ من سجنه حديثاً وعدنا الى حياة المغامرات في الحراج والوديان والجبال ، فنحن احياء ابداً وهاربون ابداً

طوق صديقي الشاب ركبتيهِ بذراعيهِ واخذ يلقي على النار نظرات حزينة من مقلة جامدة

كأنهُ يقرأ لغة اللهيب . وكان يتابع حركات النار حتى اذا تحول الوقود رماداً تناول غيرهُ والقاهُ في النار ، وعاد الى تطويق فخذيه بيديه وتأمل بعيني مفكر وبتنا صامتين . عوت الذئاب ايضاً عواء شديداً محزناً حتى اعتقدنا ان ضوء نارنا يزعجها فهم حولنا مضطربة مضيقة حلقاتها

قال رفيقي : ما أقبح هذه الوحوش فأجبته : لقد خافت النار

قال : كلاّ . ولكن العالم ضيق حتى على الحيوانات فليكن ملعوناً

فشعرت ان الماً عميقاً يهيج في صدره ، وكان وجهه مصفرّاً تقع عليه اضواء النار فيصبح كأنهُ شبح من الاشباح . ولاح لنا ان الكلام متعذر فاستولى السكوت ثانية . ثم عاد صديقي الى الكلام بعد هنيهة فقال وهيئته تدل على انفعاله : أتعلم انني تعب اود ان انام نوماً طويلاً عميقاً

فقلت لهُ : نم انت وانا اقوم على الحراسة

فتمتم قائلاً بلهجة التوبيخ : ايها الخبيث . انك لم تفهم مرامي . اريد ان اقول لك نوماً طويلاً بدون يقظة . نوماً ابدياً

— ماذا أصابك ؟ — اني تعب . تعب جداً من الحياة . بعد السجن ؟ وفي الحرية ؟ نعم بعد السجن وفي الحرية . افّ لهذه الحرية !

— هل تعلم كيف فررت ؟ — اعلم انك حر وحسبي ذلك فلا اكترث للبقية

— ولكن البقية هي التي تهم ايها الرجل الساذج . انها هائلة . وهذه الحرية على ما ترى أضيق من السجن . أصغ اليّ نسأقص عليك كيف نجوت من السجن ومتى وعيت كلامي فأصدر حكمك العادل وقل لي هل انا مجرم ام لا

وعوت الذئاب من جديد

هل سمعتها؟ هذه الوحوش الضارية تقوم بجنازة حريتي وشكواها لا تتغير ابداً: العالم ضيق، ضيق، ضيق!

انك تعرف ان ولادتي كانت شؤماً على والدتي وان اللعنة لحقتني من المهد . أوقفت مرة لفراري من الجندية وكان عليهم ان يسوقوني بعد بضعة ايام مغلولاً الى مقرّ الحكومة لمحاكمتي . فيجب عليّ ان افر اثناء الطريق واتخلص من الحراس الذين يرافقونني . وليس لي من سبيل آخر . ولكن كيف انجح ؟ هذا هو الفكر الذي ضعضع حواسي وجاشت لهُ نفسي كأنها عصفور في قفص يضطرب ويختلج . اما الحارس الذي كان معهوداً اليه في حراستي فهو صديقي وكان يبدي لي رقة وعطفاً فسألني بصوت منخفض : ألست نائماً ؟ — كلا

انك تفكر في والدتك دون شك . مسكينة تلك العجوز . ثم ابتعد عني وبعد برهة عاد اليّ وكلمني عن والدته التي تعيش في بلاد نائية وما زالت منذ سنوات تتوقع عودته

قال : ولنكد الطالع أن اخي الاكبر في الجندية وقد دعي الى الخدمة هو اليوم في ساحة

القتال . اظن ان هذه الحرب المشؤومة لن تنتهي . كم قتل فيها حتى الآن ؟ وما هي الانباء التي تأتينا عنها ؟ ومن يعلم ماذا يحدث ؟ ثم ان لاخي زوجة هي أم مسكينة . امرأتان بدون رجال وبدون معونة ، فقيرتان لا تملكان ارضاً . الجميع عندنا فقراء . آه . ان فقرهم مدقع وليس لهم ارض زراعية . وهكذا كان يحدثني عن احواله وأحدثهُ عن والدي وكآبة سجني وقيودي ، ويحدثني عن خدمته العسكرية واخيه واسرته البعيدة . وختم حديثه قائلاً : الحياة قاسية يا اخي

فأجبته : نعم قاسية جداً . ثم عاد الى تمشيه وعدت أعد خطواته ريثما يدركني النعاس . ولكن الفكر الوحيد الذي كان يدور في خلدي هو : أيطلق علي النار اذا هربت ام لا ؟ وكنت اتشوق لمعرفة الحقيقة فحدثت عندئذٍ حادثة غير منتظرة اتت كجواب على سؤآلي المتقدم . ففي احدى الليالي استولت الرهبة على السجن اذ اطلق الحراس طلقات عديدة فاجابهم الجنود في سائر الانحاء باطلاق قذائفهم بشدة وعنف وسمعنا عقب هذا الدوي ضجة ومحادثات وايماءات واوامر مخيفة وقعقعة سلاح وصرير ابواب وعويلاً . وفي اليوم التالي كبلوا بالحديد ارجل معظم الموقوفين وكنت انا من جملتهم وعلمت ان اثنين من السجناء حاولا الفرار بعد ان نقبا سقف غرفتهما ولكن مشروعهما حبط

ولكن على الرغم من ذلك كنت افكر في الفرار . ولا مندوحة عنه للخلاص . ولكن كيف ؟ هذا السؤال استغرق افكاري وبلبل خاطري وتمثل لي في الف شكل يباين بعضها بعضاً

وبينما انا افكر في كل هذا اقترب الحارس ثانية من بابي وسألني . ألم تنم ؟

كلاً — لم أستطع ذلك فالحر شديد وقد أقلقتني هذه الاحلام المشؤومة . فتمتم الحارس قائلاً بصوت متلجلج : الاحلام المشؤومة ... نعم يا اخي نعم ... آه . فلتكن الحياة ملعونة .. أفٍّ !

قال ذلك وفي صوته رنة ألم غير عادية فعرفت انه حزين باك يشرق بدموعه فسألته : هل جاءتك انباء مشؤومة من اسرتك

— لقد قتل اخي .. كتبت اليَّ امي بذلك .. ما اشد بؤسك ايتها العجوز ! نعم يا اخي نعم ... ان الحياة مرة . . . . ولم يستطع ان يتم حديثه لانه أجهش بالبكاء فابتعد عن بابي في الرواق بخطاه المنتظمة ذات الوقع الحاد . وكان يحمل على منكبيه مع سلاحه حزناً لا يوصف فنسيت ألمي وشرعت افكر في حزن صديقي . انه يبكي ولكنني اذا هربت قتلني قبل ان يجفف دموعه لان حراستي موكولة اليه وعليه ان يسهر كي لا يشتد صريف سلاسلي ، وليبقى السجن ضريح التأثرات والعواطف والآمال . وقطع الحديث على صديقي سقوط أوراق من الشجرة كان لها حفيف شديد . وفي تلك اللحظة مرَّ بنا ذئبان يتقاتلان ويثبان فأمسك صديقي بندقيته وسددها وأطلق النار . فعوى الوحش المصاب عواء أليماً وصرخ صراخاً مزعجاً ثم صمت فاستيقظ رفيقنا

النائم ووضع يده على بندقيته فقال له رفيقه : ثم لا تجزع فاني قتلت ذئباً . فقلت : لقد قتل الذئب فان عواءه كان حشرجة الاحتضار وذلك خير له . ألم أقل لك ان العالم ضيق على الجميع

ثم ضحك ضحكاً غريباً وزج في النار وقوداً وأتم حديثه قائلاً : لم أستطع أن أجد وسيلة للفرار فتركت ذلك للاتفاق وفوضت الأمر للأقدار وما أخطأت في ذلك ففي ذات يوم سلمني صديقي الجندي كتاباً ففضضته واذا هو مكتوب فيه : سيقودونك غداً فحاول ان تجلس لتستريح على ضفة النهر في الحرج

مزقت الورقة ولكن الكلمات رسخت في دماغي كأنما طبعت بحديد محمى ولم انقطع عن ترديدها. ولكن من كتبها ؟ كنت أجهله . لم يتضح لي سوى شيء واحد وهو ان رفاقي في الخارج يفكرون في انقاذي وان جلوسي الى ضفة النهر في الحرج قد يكون له في خلاصي شأن خطير

وأخيراً قادوني من سجني الى الموت او الى الحياة يخفرني جنديان وخواطري المظلمة لا تفارقني . وكنت أسحب سلاسلي بخطى ثقيلة واتفق أن احد حارسيّ كان صديقي ذلك الرجل الاصهب الشعر الحزين الطلعة والآخر رجل طويل القامة مكفهرّ الوجه تبرهن كل حركة من حركاته ولا سيما نظراته القاسية على نفس ماعرفت الحنان فلم أحفل به واكتفيت بمقته دون ان أبدي له ما أحس به نحوه . وكان صديقي يشغل خاطري وبدلاً من أن أسرّ باصطحابه إياي شعرت عند نظري اليه بقشعريرة خفية عرتني . ولو أمكنني لناديته قائلاً : لا تصحبني يا صديقي . أضرع اليك ألا تصحبني . وكنت آنئذٍ اشبه جواداً أجفلته كتلة مشعثة سدت الطريق فهو يقفز ليجتاز من جانبها ولكن فارسه يرغمه ان يجتاز عليها . لقد روعني حضور ذلك الصديق لكن ربما كان لي في صحبته فوائد جلى . فهو يعطف عليّ ولا يهوي على منكبي بحديد بندقيته اذا تعبت وقصرت في السير . على انه أيّاً كان فهو حارسي ويطلق عليّ النار اذا حاولت الفرار . . . لقد خطر لي كل هذا ولكنني برغمي وددت لو انه لم يكن من حفاظي وأن يحل محله رجل مجهول لا أعرفه ولا بادلته حديثاً

وبعد ان سرنا كثيراً عدمت القوة فلم أستطع السير . وعندها سألني صديقي الجندي : هل تعبت ؟ فتمتمت بعسر قولي : نعم ان السير قد أنهك قواي وسكت لأني خشيت ان يفضحني صوتي المرتجف فقال وقد عرج عن الطريق الى احدى الاشجار الباسقة الضخمة : فلنسترح قليلاً

ومما لا ريب فيه ان صديقي كان تعباً جداً فجثا بجانبي بينما كان الآخر يتمشى امامي طولاً وعرضاً وبندقيته على منكبه فألقيت الى ماحولي نظراً خفيّاً وحاولت ان اخرق بنظراتي الاعشاب الملتفة لعلي اقع على امارة اهتدي بها فلم ابصر شيئاً . ثم أرهفت سمعي لعلي اسمع حساً او ركزاً فلم اسمع شيئاً فقلت : لم يكن الكتاب الا خدعة او ان المشروع حبط

وكان الجندي القائم بالحراسة يتطلع تارة الى ما حوله ويحدق بي طوراً ويصيخ بسمعهِ هنيهة ثم يعود الى مشيتهِ وبعد لحظة قال : فلنسر ، حسبنا راحة وعلينا ان نبذل الجهد لنصل في الموعد المعين . فقال الآخر : ايه فلنسترح . واضطجع على العشب آمناً . وفي تلك اللحظة ومض برق من الغابة ودوى الرصاص فأبصرت الجندي الواقف يختلج ثم صرخ صرخة ورمى البندقية التي كان يمسكها بيده وانقلب كجذع خاوٍ فارتجف المضطجع بجانبي وأمسك بندقيته وحاول ان ينهض فاندفعت عليهِ بعامل لا اعرفه وقبضت على عنقه بيدي . انا فوقه وهو تحتي والتففنا كانا أرقمان ساممان يحاول كل منا ان يهلك الآخر . وعدت لا ابصر شيئاً . ولم اشعر في تلك اللحظة الا بشيء واحد وهو انهُ من الواجب عليّ ان اقتل الرجل الذي يختبط تحتي ففي حياته الموت والمشنقة والقضاء المشؤوم . وقد ضعف ساعدي عند سماع أنينه وحشرجته غير انني كنت اعود الى نفسي فأزيد في الضغط وانشب غاضباً في عنقه مخالب حديدية

قارب النزاع الهائل نهايته وضعفت حشرجة خصمي . ثم فقدت ساعداه القوة فألقاهما بجانبه وتدفق من فمه وانفه دم غزير لزج وجمدت عيناه وظللت اضغط على عنقه حتى شعرت برجل يجذبني من يدي فنهضت مرتعداً وسمعت صوتاً يقول لي : دعهُ فانهُ قد مات . وتطلعت فرأيت رجلاً واقفاً فوقي وهو الذي ترصد حراسي خلف جذع شجرة وقتل الاول بقذيفة من بندقيته فتأملته دون ان اعرفه فان ظلمات تراكمت في نفسي واظلمت عيناي فكنت ألهث ولا أفقه ما يجري ولم أبصر سوى الجثة الممتدة امام عيني . ولم أفهم كيف حدث كل ذلك . فقال منقذي : هلمّ بنا . مالك واقف متحجر وليس لنا وقت نضيعهُ . انهض لننطلق الى الغابة وعلينا ان نزيح الجثتين من الطريق . فلبثت منهوك القوى غارقاً في الاحلام وشعرت كانني عدمت الحياة وانه ليس لي وجود بل تلاشيت وشاهدت منقذي يجر احدى الجثتين على التراب والاخرى من بعدها الى اعماق الحرج ثم عاد اليَّ وقال : هيا بنا ايها الوحش الخامل ما ابلدك !

فأجبته : اقتلني فلست اقوى على الحياة . وعندئذٍ أدخل يديه القويتين تحت ابطي ورفعني . وبعد قليل كنا في الغابة قريبين من الموضع الذي دفنا فيه الجثتين . فركمت بجانب جثة صديقي الجندي . لماذا ؟ هذا ما لا اعرفه . وحسبت في تلك الحال انني لا استطيع مبارحتها

وطرق سمعنا صوت جريء بعيد ثم استطعنا ان نرى من خلال الاشجار عربة يجرها اربعة من الجياد وفيها فتىً وفتاة ضاحكان سعيدان يتجاذبان اطراف الحديث والفتاة تمس وجه الفتى بغصن اخضر فيقهقهان . وكان الحوذي ايضاً متهللاً يستحث جياده ويقرع بسوطه . ولم يهج بي مرأى الحياة وافراحها قبلاً ما هاج بي من السخط والحنق آنئذٍ وشعرت انني قادر ان اخرج من مكمني وانقضَّ عليهم فأهلكهم جميعاً وجيادهم المطهمة

ابتعدت العربة بسرعة واستولى الصمت على الغابة فتركتنا وحيدين ازاء ضحايانا وجريمتنا . وكان صديقي قد كسر قيودي قبيل ذلك ولكنني لم افكر في نزعها وأحسست كأنني مرتبط بالجثتين — ولاسيما باحداهما — فلن استطيع الفرار . وكنت احدق فيه وأفكر في تلك العجوز المسكينة التي تبكي ابنها الوحيد في بلدها النائي حيث الجميع اشقياء مكتئبون . انها تنتحب على ميت واحد وعليها الآن ان تضاعف عبراتها ولكنها لا تعلم شيئاً ولا تزال تجهل حادثته.وهذه العبرات..! وهذه الدماء كلها سفكت لأكون حراً ... ! لاشك في ان امي ستبتهج بفراري اما الام الاخرى المجهولة فعليها ان تبكي . وقد وجب ان يقتل ابنها تحت سماء غريبة لكي احي انا، ويسر قلب والدتي . فما هذا التناقض في الحياة ! عند ما ينبغي هلاك واحد فهل تهمنا معرفته وعندما ينبغي لأم ان تذرف الدموع فلماذا يسألون من هي . . . هذه الارض ضيقة ،ضيقة جداً على الحرية... .وقد انقذتني الظلمات في الليل حيث حجبت عن عيني الجثتين . واستمر النهر في نحيبه جائشاً مزبداً منحدراً في المهواة ملاطماً الصخور بدون فترة لكي يكتسب شيئاً من الفسحة وشيئاً من الحرية التي لايستطيع نيلها إلا بتدمير ضفتيه وطغيانه على الارض يحمل الدمار والموت.وكنت حينما التفت أجد مشهداً واحداً ،مشؤوماً في الطبيعة : لابد من التدمير والقتل لاحراز الحرية.وذكرني رفيقي انهُ يجب علينا الرحيل وعند ما تخلصت من سلاسلي شعرت ان حملي أثقل وأوجع مما كان وأنا مقيد مغلول

وكانت الذئاب تعوي كما تعوي اليوم

كنت حراً ولكنني لا اعلم ماذا اصنع بتلك الحرية المشؤومة وتراءى لي كأنني ضللت في الغابة زمناً طويلاً وسدرت في ظلمات الليل . الغابة والليل كلاهما ليس لهُ ابتداء ولا انتهاء كلاهما اسود كالحياة ، مملوء بالجنايات كالحياة

خشخش العشب الجاف ومرّ امامنا ارنب منهزم امام وحش ضار فتضجرت وقلت : المشهد ذاته.كل خليقة في العالم تنازع وتفترس خليقة اخرى

ثم سرت مترنحاً في الظلام فاصطدمت بالاشجار وكنت أسقط على الارض فأنهض لأسقط ثانية وما انفك النهر يدوي كهزيم الرعد ، والظلمات تستقر على منكبي كاعباء باهظة ، والذئاب وراءنا ما برحت تعوي.والآن يجب أن أسير وأتقدم في طريق الوجود الوعرة الشاقة فاني أصبحت حراً..

وصمت الرجل عندئذ وشرع يقلب الرماد بقطعة من الخشب ثم قطع الدمع عليه الكلام فشهق بالبكاء . خمدت النار ولم يبق منها غير الرماد ، وخيمت الظلمات فوق رؤوسنا ، وكانت الاشجار تتناجى هامسة فبقيت صامتاً لانني لم اجد كلمات أعزي بها رفيقي

وكانت الذئاب تعوي ...

مهمة الحكومة

في التربية

لعلي حسن الهاكع

— ٢ —

في الجزء الثاني من المحاضرة [١] عالج المحاضر مشكلة المركزية واثرها في التربية والتعليم علاجاً مفصلاً بعض التفصيل ورأيهُ في هذا الصدد ان عمل المدارس المصرية لم يكن تربية بالمعنى الصحيح بل كان اعداد الشبان اعداداً آليًا للنهوض بمهام الوظائف الحكومية فنشأ عن ذلك حصر الجهد في حشو الذاكرة والاستظهار وسيطر على المدرسة ذلك المنهج العسكري الذي يحدّد كلّ ما يقال وكلّ ما يكتب وكلُّ ما يحفظ علاوة على توحيده في جميع انحاء القطر على اختلاف الاحوال وتباين البيئات. ثم بيّن اثر ذلك في الطالب والمدرّس والناظر والمفتش

فالمدرسة اصبحت ديواناً لاحياة، وضاعت شخصية المعلم والمدرسة في الهائل الآلي المفروض واصبح الناظر القدوة من يحفظ المنشورات والنشرات بالرقم والتاريخ وينفذ الاوامر الصادرة اليه مهما تتنافر مع احوال المدرسة التي يشرف عليها. قال: « ولن أنسى صديقاً وزميلاً حظي بتقدير الهيئة الرئيسية كان لايصرف المدرس نصف فرخ من الورق الا اذا كتب الطلب على نصف فرخ من الورق نفسه! . واعرف مفتشاً كان يهدر النهار كله في عدّ ورق النشاف واسنان الريش » . وغدا الطالب اشبه ما يكون بقارورة يصب فيها كل معلم ما أعدّهُ في جعبته من غير ارتباط بين الحقائق المختلفة والاساليب المتنافرة حتى رياض الاطفال. وبدلاً من ان تكون مدرسة القرية مزرعة فيها حقلها وحظيرة مواشيها فاذا هي على ماشاهد بنفسه طائفة من التلاميذ اجتمع الذباب على اعينهم وهم يتلون عن ظهر قلب أحدث ما عرف من قواعد الصحة في النظافة واعراض الرمد ووسائل الوقاية منهُ واذا طائفة اخرى من الطلاب في فصل آخر يصغون الى محاضرة للمدرس في نبوليون!

(١) راجع الجانب الاول من هذه المحاضرة في مقتطف ابريل ١٩٣٧ صفحة ٤٣٨

والشأن الاول في التربية احكام الاتصال بالحياة ومن هنا وجوب العناية باعداد المربي للقرية ، فهو في القرية ليس مربيًّا للنشء فحسب بل ينبغي ان يمكن لهُ الاشتراك في انهاضها بتحسين حالتها الصحية والاجتماعية لانهُ ومدرستهُ مصباح الثقافة والرقي الذي يشع في القرية

وختم المحاضر محاضرته بما يلي : —

الخطة العملية للاصلاح

الآن وقد فرغت من بيان المشكلات ووجهات الاصلاح عامة اختم المحاضرة ببيان عملي للاصلاح يضم ما تناثر من البحث . وقد سبق ان بينت التردد والترقيع الذي اخذت به الوزارة في حركات الاصلاح الماضية . ولا زلت أخشى على النزعات الشريفة التي برزت اخيراً على لسان معالي الوزير ورجاله ان تنحدر بفعل الروح المتسلطة . وفعلاً لا ارى في آخر تصريح عن اللامركزية نشرتهُ الصحف الآن اصلاحاً محدوداً في سلطات الرؤساء لا يتصل باللامركزية في الامور الحيوية . فالمناهج المقدسة والخطط والمقررات هي هي بصولتها وقدسيتها

اما عن المؤتمر المنشود فأخشى ان يتمخض عن مجموعة طريفة من المحاضرات التي تعلن عن ملقيها وتنفس عن سامعيها ، تطبع في كتاب جميل تتصدره السلسلة المألوفة من الصور للشخصيات البارزة

واظنني في غنى بعد ما افضت فيه ، عن بيان خطر المشكلة وهي تشمل بناء الامة المقبلة وما يتطلبهُ من انقلاب اساسي . ان الامر لا يقتصر على وزارة المعارف واختصاصها ، بل ولا على الهيئات التربيبة المحلية التي سأذكرها وعلى رأسها المدرسة نفسها ، بل يجب ان يمتد العلاج بحكم ما الموضوع من الشأن الى خارج حدود وزارة المعارف كوزارة الصحة والادارة ونواحي الحياة الحرفية من زراعة وصناعة وتجارة ومال . واذا قال المستر مان في تقريره أن كل ما ينفق على التعليم الاولي انما ينفق في تحسين الصحة العامة فأني ازيد على ذلك بأن كل قرش ينفق على التربية الحقة انما ينفق على زيادة ثروة الامة . كما يجب نشر الوحدات الرياضية ومنتدياتها . وحبذا لو اخذت الحكومة بنظام ال Dopolavoro الايطالي

لذلك ارى ان يعقد مؤتمر بمرسوم . ويكون برآسة وزير المعارف ، وقوامه بعض الوزراء ولاسيما وزراء المعارف السابقين ثم كبار رجال الأعمال ورجال التربية على ان تشكل لجان فرعية تقبل على البحث الفرعي ثم تعرض النتائج العامة على المؤتمر لتأخذ دورتها التشريعية .

وتكون مهمته وضع السياسة الجديدة للتربية بعد ان تمتد الى آفاقها الجديدة . بل ان شئت

فقل وضع دستور جديد للتربية المصرية غير مقيد بنواحي الاصلاح الصغيرة التي شغلت الوزارة والتي تعالج الاعراض دون العلة الاساسية

وأرى ان توضع المبادىء الآتية أمامه كقواعد مبدئية للبحث . وهي أمور طالما ناديت بها عبثاً :

أولاً — تسمى وزارة المعارف « وزارة التربية »

ثانياً — ارجاع مجلس المعارف الأعلى ليحكم الاتصال بين الحياة وسياسة التربية على ان يسمى « مجلس التربية الأعلى » ايضاً . وقد كان هذا المجلس قائماً من قبل لانهُ من مقتضيات النظام الفرنسي نفسه

ثالثاً — توحيد التعليم العام بالقضاء على تصدعه بين الأولي والابتدائي ووصل مراحله بعضها ببعض ، وذلك بأن يبدأ التعليم العام لجميع الطبقات بالأولي بعد تعديله ، ومنهُ الى الثانوي الذي ينبغي ان يمتد في أوله حتى يتغذى هو والفني العادي والحرفي والديني من الأولي مباشرة. اما الخاصة الذين يرغبون لأولادهم في تعليم ممتاز ، فالى ان يحين الوقت الذي يرقى فيه التعليم الحر الى القيام بهذه المهمة على نفقة الخاصة انفسهم ، لا بأس في تخصيص مدارس لهم تغطى معظم نفقاتها بما يوفيه الطلاب

رابعاً — تقسيم التعليم العالي الى قسمين الثقافي المحض الذي لا يرمي الى حرفة معينة ويجب تيسيره تمكيناً للمساواة وتيسيراً للنبوغ الأدبي مع تفهيم الرأي العام حقيقته من حيث بعده عن الاكتساب الحرفي المضمون . والقسم الآخر الحرفي ويجب ان يقيد انتاجه بما يزيد قليلاً عن الحاجة على ان يكون انتاجه الكامن أهلاً للزيادة الكبيرة عند الطوارىء ، على ان يضمن لمتخرجيه العمل بصفة عامة

خامساً — تنفيذ اللامركزية والاقليمية على الوجه الآتي الذي يقرب في كثير منهُ من النظام الانجليزي وهو متوسط بين تطرف الولايات المتحدة في اللامركزية وفرنسا في المركزية

توضع غاية بعيدة تتدرج في الوصول اليها . هي نزع ادارة المعاهد كلها وبألوانها من وزارة التربية . وبذلك تتفرغ الوزارة الى توجيه التربية القومية والاشراف على الهيئات التربيبية المحلية وتغذيتها بالارشادات الفنية والاحصاءات والمعلومات . ويقسم القطر الى مناطق تربيية تشمل كل منطقة وحدة او اكثر من الوحدات الادارية بعد ان تدخل القاهرة وسائر المحافظات بينها . وعلى رأس كل وحدة رئيس عام بادارة محلية في نفس الاقليم . على ان يشرف على التعليم العام المحلي بجميع انواعه من ثانوي وحرفي وأولي وعلى ان يترك للمعاهد المحلية اكبر قسط ممكن من الحرية في وضع خططها ومنهجها ومقرراتها والتصرف في ميزانيتها وتوزيع

العمل فيها على ان يحكم اتصالها بالبيئة المحلية ، ويتحول التفتيش الى ارشاد وتعاون

سادساً — يخفف عبء القيود المالية عن الطلبة . واذا ادركنا ان التعليم العام بأنواعه في اميركا واليابان ومعظم بلاد اوربا اصبح مجانياً كان من التواضع ان يقصر في مصر على الاولي الجديد . وتقصر المجانية عامة على التفوق على ان يخصص للاحسان هيئات خاصة . ويؤخذ نظام ال Scholarships أي تسهيل سبيل التعلم من الناحية المالية للمتفوقين في امتحانات معينة

سابعاً — انشاء صلة تعاونية صريحة بنص القانون الجديد بين الصحة والادارة من جهة والوحدات التربيبة المحلية — ولا سيما في القرية — من جهة أخرى

ثامناً — انصاف التربية في مجموع الموارد المخصصة لها في ميزانية الدولة عامة

تاسعاً — العدول عن محاباة التعليم الثقافي النظري والاخذ بتشجيع العملي وخاصة فيما يتصل بالقضاء على الامية وسوء الحالة الصحية ومستوى الحياة المنخفضة للدهماء

عاشراً — العناية باعداد المعلمين وتوحيد انواع معاهد التربية ثم السماح بالتخصص بعد العام منه على ان يعنى بتوزيعه على الاقاليم واخذه بالناحية العملية

حادي عشر — انصاف طائفة المعلمين مادياً وادبياً

اثنا عشر — تشكيل نقابة للمعلمين تمثل الطائفة بصفة رسمية شأن المهن الراقية الاخرى

***

والآن سيداتي وسادتي ها قد فرغت بعد ما اثقلت عليكم في الاطالة . ولكن لي العذر والمشكلة لقدمها وتأصلها وتشعبها في الحياة بألوانها اصبحت تتطلب ثورة تكتسح هذا النظام البالي لتقيم بناء جديداً لمصر في شخص نشأتها المقبلة . فهبنا قد بلغنا أعلى مكانة في الثروة ، وأقوى منعة في السلاح بأنواعه وأرفع منزلة في الثقافة والفن . بينما النفوس كلها خور وطراوة ، والقلوب ضحلة في الثبات والايمان ، والشباب عاجز عن خوض معمعان الحياة . فماذا نجني من القوة والثروة والامة مقبلة على هذا الفقر المعنوي ؟ ألا يكون ذلك اشبه شيء بالغني يخلف لابنه قناطير الاموال ، ولكن مع فقر في الخلق ، فلا يلبث الابن ان يمعن اسرافاً واتلافاً حتى يقضي على كل شيء

فالتربية هي كل شيء . بل هي اهم سلاح لا يتقى به العدو الخارجي فحسب ، بل العدو الداخلي وخاصة في اعماق النفس وشهواتها . فالى رجال الحكومة والمشرعين وقادة الرأي ألجأ وكلهم ينبض غيرة وحمية . والى المليك العظيم افزع وقد بدأ عصر حكمه الميمون مردد الآية الكريمة «ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب »

تدريس الكيمياء

في المدارس الثانوية

لمحمود خليل راشد
المدرس الاول للرياضة والعلوم بمدرسة حلوان الثانوية للبنات

يرمي علماء التربية من اقرار الكيمياء في مناهج الدراسة الثانوية الى تربية ملكة الملاحظة الدقيقة في الطالب ، وتعويده دقة العمل وسداد الاستنباط . هذا فضلاً عن فائدة الكيمياء لذاتها ، واستخدامها في صناعة المنتجات التي تفيض بها الحياة اليومية

فالكيمياء في المدارس يقصد بها اولاً تحقيق مثل علمي سام ، ولهذا لا يكون للنفقات التي تقتضيها التجارب كبير اعتبار في نظر المعلم والطالب . ولنضرب مثلاً لذلك تحضير نموذج نقي من كلورور الصوديوم ، فان هذه العملية التي تستغرق نحو ثلاث ساعات تنتج بضعة جرامات من الملح يكفي ما انفق على انتاجها من وقت ومال لشراء مائة الف جرام من ملح الطعام

أما في الصناعة فان الاعتبار الاقتصادي مقدم على كل اعتبار آخر

لذا يكون من دواعي الدهشة والعجب ان ترى من بين رجال الكيمياء من لا يعنيه الا الجانب المالي فيما يقوم به الطلبة من التجارب، جاهلاً او متجاهلاً ان السعي الى اقتصاد بضعة مليمات قد يدعو الى اضاعة وقت ثمين أو تحول دون الحصول على نتيجة مرضية ، وفي هذا من زعزعة عقيدة الطالب فيما يتلقاه من المبادىء والنظريات، واضاعة ثقته بنفسه مايكون له أسوأ الآثار وأخطرها في التعليم

واسوق مثلاً على هذا ان احدى التجارب تتطلب تعيين النسبة المئوية للمواد الغريبة في « عينة » من ملح النوشادر (كلورور الامونيوم) . والطريقة التي أوثرها لما تؤدي اليه من نتائج صحيحة في أقصر زمن ممكن ، هي أخذ مقدار صغير لا يتجاوز جراماً وثلث جرام من ملح النوشادر واجراء التجارب عليه . وتستلزم هذه التجارب استخدام نحو ثلث لتر من محلول الصودا الكاوية العشر العياري . ولما كان اللتر من المحلول العياري يحتوي على اربعين جراماً من الصودا الكاوية الجافة فان ثلث اللتر من المحلول العشر العياري يحتوي على جرام وثلث جرام من الصودا الكاوية ثمنها (اذا كانت من أنقى نوع) لا يزيد عن ثلث مليم

ومن العجيب أني اعرف من المشتغلين بتدريس الكيمياء من لا ترضيه هذه الطريقة لان فيها ، على ما يعتقد ، تبذيراً ! وهو يرى ان يذاب ملح النوشادر في ربع لتر من الماء ويؤخذ عشر المحلول الناتج ، وتجري عليه التجارب اللازمة لاستخراج النسبة المئوية للمواد الغريبة . وأنا اقر صاحب هذا الرأي ومن على شاكلته على ان هذه الطريقة أدعى الى الاقتصاد وكيف لا تكون كذلك وفيها نستخدم خمسين سنتيمتراً مكعباً فقط من محلول الصودا ، ومعنى هذا ان هذه الطريقة تتيح لنا فرصة اقتصاد مبلغ يربي قليلاً على ربع المليم ! ! !

ونحن نرى ان يكون الاقتصاد رائدنا في كل شيء لا من الوجهة المالية فقط . فالوقت كذلك له قيمته لا يعد المال بجانبها شيئاً مذكوراً . وليس من حسن التدبير اتلاف التجربة وتبديد الوقت في نظير اقتصاد بضعة مليمات . ونحن في التجربة السابقة نضمن بتضحيتنا ثلث مليم الوصول الى نتيجة مرضية في زمن وجيز لا يتعدى نصف ساعة . أما في الطريقة التي يسوغ تفضيلها بالعامل الاقتصادي فان احتمال الخطأ فيها عشرة أمثاله في طريقتنا. واذا أضفنا الى هذا ان الطريقة الاخرى تستدعي اجراء التجربة اربع مرات تستغرق نحو ساعتين ونصف ساعة اذا اريد الوصول الى نتيجة معقولة (أو شبه معقولة) فان ثلث المليم الذي ضحينا من أجله بكل هذا يضيع كما ضاع الوقت الثمين نتيجة لرأى فطير . ولست بمحدثك عن خيبة الامل وسوء الاثر في نفس الطالب اذا كان الاخفاق حليفه بعد كل هذا العناء. وأني أرى ان هذا كلهُ نتيجة حتمية لعبوديتنا العلمية وأعني بهذا إعتمادنا الأعمى على المصادر الاجنبية دون أن يكون لنا رأي حر في كل ما يصل الينا عن طريقها . فالطالب او غير الطالب اذا قرأ في كتاب وصفاً لطريقة اجراء تجربة من التجارب فانهُ لا يرى مندوحة عن نقلها بنصها وفصها دون أن يبحث الاحوال التي أجراها المؤلف فيها ، من حيث فسحة الزمن ودقة الاجهزة ونقاء المواد الخ . ففي استنباط التجارب التي نكلف التلاميذ إجراءها يجب علينا حتماً ان نراعي أموراً عدة من بينها :

(١) الوقت — فالتجربة الواردة في كتاب اجنبي قد يتطلب اجراؤها ثلاث ساعات أو أكثر ، فمن العبث أن نفكر في تدريس مثل هذه التجربة بالمدارس الثانوية

(٢) الاجهزة — يجب في تقرير التجارب العملية للمدارس الثانوية مراعاة الأجهزة التي بها أو التي تسمح الميزانية بشرائها . فليس من الصواب ان نكلف الطالب إيجاد الوزن المكافىء للمغنسيوم بطريقة التسخين باستخدام خمس جرام من المغنسيوم لان الزيادة في الوزن ضئيلة لا يمكن تقديرها بالدقة بوساطة الموازين التي في المدارس لاسباب كثيرة لامحل لسردها هنا

(٣) نقاء المواد — وهذه نقطة هامة جديرة بالعناية فمثلاً لا تستحسن محاولة اثبات ذوبان الراسب الذي يتكون باضافة كلورور الباريوم الى كبريت الصوديوم في الحمض الكلوريدريك اذا

لم نكن واثقين تماماً من نقائها ومن عدم احتوائها على كبريتات . وليس من المستحب كذلك ان نحاول ان نثبت عمليًا ان الماء النقي لا يبيح مرور التيار الكهربائي فيه ، لان الماء ولو كان مقطراً يسمح بمرور التيار . فالماء « النقي » الذي يذكر في الكتب انهُ لا سبيل للتيار الى المرور فيه لا وجود له في مدارسنا الثانوية ولا في كليات الجامعة المصرية . ومن رأيي ان القاعدة التي مؤداها : «ان الماء لا يبيح مرور التيار الكهربائي الا اذا كان محتوياً على ملح او حمض» يجب ان تقلب رأساً على عقب وان توضع بالصورة الآتية «الماء يبيح مرور التيار الكهربائي الا اذا كان نقيًا جدًّا » وهذه الصورة اقرب الى الواقع المحسوس اضف الى هذا ان القاعدة يجب ان تنطبق على الشائع لا على الشاذ

نحن في عصر تطور بليغ ، فواجب علينا ان نطلق عقولنا من عقالها ، وان نفكر دون ان نقنع بأن نلبث عالة على غيرنا في تفكيره . والا ففيم خلق الله لنا هذه العقول ؟ وما قيمتها اذا كنا لا نحسن استخدامها ؟ ان كرامة العلم الحق توجب علينا ان لا نحول ثقتنا بالعلماء والمؤلفين دون تمحيص ما نتلقاه عنهم . لهذا انظر نظر العجب الى كثير من التجارب التي تعطى في المدارس الثانوية على نهج واحد بغير تعديل او تنقيح . فاذا كان المدرس يرى ان للوقت قيمة لا تقل عن قيمة المال ، واذا كان يقدر لاثر التجربة في نفسية الطالب مالهُ من خطر ، فانهُ لا يجد بدًّا من تغيير عقيدته في التجارب التي ألف تدريسها

ومن التجارب التي تخطر ببالنا شاهداً على هذا تجربة ايجاد قابلية ذوبان ملح الطعام في الماء في درجة الحرارة المعتادة . والطريقة المألوفة ان يشبع مقدار من الماء بالملح ويرشح ثم يقدر وزن الملح المذاب فيه وطريقة تعيين وزن الملح ان يقدر حجم الراشح ثم يؤخذ مقدار صغير منهُ معلوم الحجم ويبخر ويعين وزن الملح الناتج ويعلم منهُ وزن الملح الذي ذاب في المحلول كله . وهذه الطريقة تتطلب ساعة وبعض ساعة ومن عيوبها صغر مقدار الملح الناتج بحيث ان الخطأ الصغير في وزنه (خطأ مطلق) يكون كبيراً بالقياس الى وزن هذا المقدار . أضف الى هذا ان هذا الخطأ يتضاعف تبعاً للنسبة بين حجم المحلول الكلي والحجم الذي بخر . ويمكن تلافي هذا العيب بتبخير مقدار كبير من المحلول ، ولكن يعترض على هذا وهو اعتراض حق بأن التبخير في هذه الحالة يستغرق وقتاً طويلاً . ولعل هذا يبين لنا ضرورة التفكير العميق المستقل في التجارب التي انتشر الاعتماد عليها في التدريس . هذا واني اقترح اجراء هذه التجربة بالطريقة الآتية :

تؤخذ مائة جرام من الماء ويوضع فيها مقدار من الملح يزيد على ما يلزم لاشباعها . ويرج المحلول بضع دقائق ثم يرشح خلال ورقة ترشيح معلومة الوزن ويغسل الملح المتخلف عليها بقليل من الكحول ويجفف بالحرارة ثم يوزن . وبطرح وزنه من وزن الملح الكلي ينتج وزن الملح الذي شبع المائة جرام من الماء

أولاً — انها تستغرق أقل من نصف الوقت الذي تستغرقه الطريقة السابقة
ثانياً — ان احتمال الخطأ فيها أقل جداً من احتماله في الطريقة الاخرى
ثالثاً — في الطريقة الاخرى يفقد جزء لا يستهان به من الملح اثناء التبخير ، وهو كبير بالقياس الى وزن الملح
رابعاً — هذه الطريقة يفهمها حتى الاطفال لبساطتها وسهولة اجرائها

ومن النقط الجديرة بالاهتمام ان بعض الطلبة يعنون بدراسة اجزاء الاجهزة والاحتياطات الواجب اتخاذها في التجارب دون فهم الغرض منها فهماً صحيحاً . ومما أذكره بهذا الصدد ان احد المفتشين سأل طالبة بأحدى المدارس عن طريقة تحضير كبريتات النحاس . فشرحت جهاز تحضير ثاني اكسيد الكبريت بتأثير الحمض الكبريتيك المركز في النحاس ذاكرة انبوبة التوصيل والمخبار المعد لجمع الغاز، مع ان هذا الجزء من الجهاز لا فائدة فيه اذا كان غرضنا تحضير كبريتات النحاس دون الاهتمام بجمع ثاني اكسيد الكبريت الناتج في ذات التفاعل . ولكن الطالبة أبت الا ان تسرد ما حفظته عن ظهر قلب

وشاهدت استاذاً يشرف على تجربة لتعيين وزن كربونات الكلسيوم (Iceland Spar) الذي يذيبه مقدار معين من الحمض الكلوريدريك ، وكان يحتم تغطية الكاس المحتوية على الحمض والكربونات ، مع ان الغرض تقدير وزن الكربونات التي تبقى بدون ذوبان . ولعل الامر اختلط عليه فان هناك تجربة اخرى يقصد منها تعيين وزن ثاني اكسيد الكربون ، ويهم فيها الحيلولة دون انطلاق الرذاذ الناشىء عن التفاعل في الهواء حتى يمكن تقدير وزن ثاني اكسيد الكربون الصاعد تقديراً دقيقاً . اما في التجربة التي نتكلم عنها فان تغطية الكاس ليست فقط عديمة الجدوى بل انها فوق ذلك تعرقل التفاعل لانها تؤدي الى حجز الغاز المتكون فيحدث تركيز في المنطقة التي تعلو السائل . ومن التقاليد الحبيبة الى رجال الكيمياء ان الملح الذي يخرج من زجاجة لايعود اليها ، لاحتمال تلوثه بأملاح اخرى. وهذا حق ، ولكني اقترح جمع متخلفات التجارب في زجاجات خاصة يكتب على كل منها اسم الملح الذي تحتويه وكلمة «متخلفات» . والاملاح التي هذا شأنها تصلح للتجارب التي لا تتطلب املاحاً نقية كتجارب قابلية الذوبان والتبلور والتبلور الجزئي وايجاد نسبة الملح الى الرمل في خليط منهما وما جرى مجراها

ومن اظرف وسائل الاقتصاد في بعض المعامل أن تشعل المواقد الغازية جميعها معاً في اول الدرس العملي ، ولو كانت الحاجة لا تدعو الى استخدامها الا في الشطر الاخير من الدرس . والغرض من هذا اقتصاد الكبريت اذ يكفي ثقاب واحد وقطعة صغيرة من الخشب او الشمع لاشعال المواقد جميعها. وبهذا الاقتصاد المعكوس تستنفد المدرسة في اليوم الواحد من غاز الاستصباح

ما يربي ثمنه على ثمن الكبريت الذي يكفي المدرسة شهراً . فاذا كانت المدارس تخشى الاسراف في استخدام الكبريت لغير الاغراض التعليمية أو تبغي اتقاء عبث الخدم به فلتطلب تزويد معاملها «بالولاعات» الكهربائية او الميكانيكية. ومما يجدر ايراده على ذكر الاقتصاد ان كتب الكيمياء تنص في شرح توليد الاكسجين من كلورات البوتاسيوم على استخدام ثاني اكسيد المنجنيز عاملاً وسيطاً. ولكن الثابت علمياً ان هذا التفاعل تحدثه أكاسيد اخرى عديدة غير ثاني اكسيد المنجنيز. وقد جربت انا لهذا الغرض بنجاح اكسيد النحاس ومسحوق الطوب الاحمر (وهو يحتوي على اكسيد الحديد) وجرب احد الاساتذة الرمل (اكسيد السليكون). وليس استخدام هذه العوامل من وسائل الاقتصاد فحسب ، بل انهُ يوسع افق التفكير عند المتعلمين ويحدوهم الى فهم طبيعة مثل هذا التفاعل فهماً صحيحاً

واذا ما تحققنا ان الوقت لا يقل قيمة عن المال وجب ان نعنى بارشاد الطلبة الى الظروف المؤدية الى نجاح التجارب منعاً لاضاعة الوقت هباء . ففي تحضير غاز النوشادر مثلاً تنص الكتب على تسخين خليط من احد املاح الامونيوم والجير (المطفأ او الحي) . ولما كان النوشادر شديد القابلية للذوبان في الماء فانهُ يجمع فوق الزئبق أو بالازاحة العليا بعد تجفيفه بامراره في انبوبة محشوة بالجير الحي او الصودا الكاوية . وهذا التجفيف يوحي الى الذهن ضرورة استخدام خليط ملح الأمونيوم والجير جافاً . ولا ضير في هذا اذا خلط خلطاً جيداً ، ولكنهُ من البديهي ان الخلط مهما اجيد لا يبلغ مبلغ الاذابة ، فما ضر المؤلف او المدرس لو انهُ اشار باضافة قليل من الماء الى المخلوط ، فبذا نحصل على مقدار وافر من الغاز في وقت وجيز . ويستنبط من هذا طبعاً فضل الجير المطفأ على الجير الحي في هذه الحال

وتستخدم معامل الكيمياء في الصيدليات والمدارس للتمييز بين الاحماض والقلويات محلولاً اسمهُ صبغة عباد الشمس . وهذه التسمية خاطئة اذ لا علاقة بين هذه الصبغة والزهر المعروف بعباد الشمس على الاطلاق. وتستهلك المدارس والصيدليات من هذه الصبغة مقداراً لا يستهان بهِ. وهذه الصبغة بنفسجية اللون فاذا اضيف اليها حمض احمرت واذا اضيف اليها قلوي تحولت زرقاء كما هو معلوم. وتأثير الاحماض في الصبغات النباتية يكاد يكون عاماً ، الاَّ انهُ يكون بدرجات متفاوتة ، ومثل ذلك الشاي اذ يشحب لونهُ باضافة عصير الليمون (الحمض الليمونيك) اليهِ . وقد اهتديت الى صبغة رخيصة يسهل الحصول عليها تقوم مقام عباد الشمس ، وتفتح امام الفلاح باباً جديداً من ابواب الرزق . وهذه الصبغة هي صبغة الجزر . ولاستخلاصها يقطع الجزر البنفسجي اللون قطعاً صغيرة تغلى في الماء طويلاً ثم تنزع ويغمس في المحلول مع استمرار غليانه ورق ترشيح قطع قطعاً صغيرة مستطيلة حتى يتم اصطباغه . او يغلى المحلول على حمام رملي حتى يجف تماماً وتتحول الصبغة الى مسحوق يسهل ادخاره واذابته في الماء عند الحاجة اليهِ

حيوانات مشهورة

وصحة أسمائها

للفريق الدكتور امين المعلوف

ولنذكر الآن حيوانات اخرى وصحة ترجمتها فابدأ بفصيلة السنانير

فصيلة السنانير — Felidae. The cats

وهي من اللواحم اي آكلات اللحوم سريعة الحركة مجدولة العضل . منها السنور وعناق الارض والوشق والاسد والنمر والببر وقد تقدم ذكر هذه الحيوانات في جزء مضى . وقد قلت السنانير ولم اقل الهررة او القطاط لان الهر والقط هو الاهلي فقط فالسنور اكثر شمولاً

سِنَّور . ذكرتهُ في ص ٥٢ وذكرت مرادفاته الكثيرة فلتراجع — Cat.

قِط . بَس . هِرّ . وهو السنور الاهلي ولا اعرف لهُ غيرهذه الاسماء — Cat. domestic

قط انقرة . قط شيرازي . قط حلبي — Cat. Augora or Persian

نسبة الى حلب لانهُ يأتي منها . اما في بغداد فيسمونهُ شيراز او شيرازي نسبة الى شيراز . ولا يقال عجمي فالعجمي خلاف العربي والاحسن اجتناب هذه الكلمة

تُفَه وتُفَّة — Cat, jungle

سنور وحشي عظيم وعامة اهل مصر يقولون تِفاوة بكسر اوله . والتفة ايضاً عناق الارض وقد ذكر

ضَيْوَن . سنور البر . وهو اصل السنور الاهلي — Cat, wild

وجميع هذه السنانير من جنس واحد ولكنها مختلفة في النوع وبعض الاحيان في الصنف . قلت ولم اجد معجماً فرّق بين هذه السنانير او كتب اسماءها على صحتها

زباد وزبادة . سنور الزباد — Cat, Civet

حيوان لاحم ليس من فصيلة السنانير بل من فصيلة اخرى سميتها فصيلة الرَّبَّاح

رَبَاح . زُرَيقاء Genet

حيوان لاحم من فصيلة الرباح يشبه الزبادة يقال لهُ في المغرب « جَرْنيط » ومنهُ اسمهُ الافرنجي والافضل اهماله لانهُ عامي او الاشارة الى عاميته

وقد سميت هذه الفصيلة بفصيلة الرباح لانها عشيرتان عشيرة النموس وعشيرة الزباد ولا بأس بتسميتها بفصيلة الزباديات كما قال السيد اسمعيل مظهر في الاهرام لان الزباد واحد منها لكنني فضلت الرباح لاسباب لا تخفى على الناقد البصير منها اننا نريد فصيلة تشمل النموس فالفصيلة والعشيرة مذكورتان في مطول وبستر وهما كما ذكرت . اما تسمية هذه الفصيلة بالسنانير او الهررة او الفيري عن احمد فارس فلا تصلح بتاتاً لان احمد فارس اراد بالفيرى الوحوش وقد ذكرتها في فصيلة السنانير وما فيرى الا تعريب كلمة لاتينية معناها الوحوش وهي واردة في تصنيف كوفيه الذي جرى عليه احمد فارس

ولننتقل الآن الى الخُلد وهو معروف عند العرب وفي بلادهم وهو من رتبة القضّام التي منها الفار ونحوه ومن فصيلة سميتها فصيلة المناجذ وهو جمع خلد من غير لفظه ذكرتها في ص ٢٣٢ فلما انتقل العرب الى اوربة رأوا خلداً آخر اعمى كالخلد الذي عندهم ولكنهُ من رتبة آكلات الحشرات ومن فصيلة الطوابين فلم يخف عليهم انهُ من رتبة تختلف تمام الاختلاف عن الرتبة التي منها خلدهم فاضطروا ان يعربوه بالطوبين كما يلي

طَوْبين جمعها طوابين . تلبا . خلد اوربي Mole. Talpa europaea

حيوان من آكلات الحشرات لا وجود لهُ في البلاد العربية

كنت سميت هذا الحيوان بالتلبا اي باسمه اللاتيني لانهُ خلاف الخلد المعروف عند العرب . ثم عثرت اخيراً في معجم دوزي عن بطرس القلعي ان اسمهُ طوبين وهو تعريب اسمه بالاسبانية ففضلت التعريب القديم على ما ذكرتهُ سابقاً لانهُ لا بد من استعمال اسم لهذا الحيوان للتفريق بينهُ وبين الخلد المعروف بهذا الاسم في البلاد العربية . فالطوبين من آكلات الحشرات والخلد من القضّام

خلد Mole rat. Syn. Blind rat. Spalax typhlus

حيوان من القضّام يعيش تحت الارض ليس له اذنان ولا عينان في الظاهر اسمه عند العامة في مصر ابو اعمى اما في الشام فيعرف بالخلد . وجمع الخلد خلدان ومناجذ من غير لفظه ومن اسمائه الفارة العمياء

غرير وغُرَيراء وغرَيرة . زَبْزب . زبزب القبور Badger.

حيوان لاحم من فصيلة السراعيب بين الكلب والسنور اغبر اللون اسود القوائم قصيرها

ابيض الوجه وعلى جانبي وجهه جُدَّتان سوداوان . موطنهُ اوربة وجنوب آسية من الاناضول وسواحل الشام الى غرب ايران ولا وجود لهُ في افريقية وجزيرة العرب وهو الحيوان الذي يصنع من شعره شعريات للحلاقة من اجود الاصناف . وليس هذا الحيوان عناق الارض فعناق الارض حيوان آخر من فصيلة السنور

قلت ولم تذكر المعاجم هذا الحيوان على صحته وهو حيوان معروف في الشام والعراق فالاحسن ان تحذف عناق الارض وغيره من الاسماء التي ذكرت . وقد اوردت هذا الحيوان في ص ٢٣ وما يليها

ولنأت الآن الى الغربان وقد قلت في فصيلتها انها طيور من الجواثم تشمل الغربان على انواعها كالغراب الاسحم والغراب الاعصم والزاغ والغداف والعقعق. ذكرت هذه الفصيلة في ص ٧٤ وما يأتي انواعها

غراب . زاغ . قاق وغاق Crow

وهو انواع ذكرتها في ص ٧٤و٧٦ ولا ذكر لهذه الغربان على صحتها الا في معجم الياس انطون الياس وقد اورد انواعها اما سائر المعاجم فتخبطت فيها

غُراب . غراب حاتم . غراب اسحم. غراب نوحي نسبة الى النبي نوح Raven
ذكرته وذكرت انواعهُ في ص ٢٠١

غداف . غراب القيْظ Rook

وهو غراب اسود يلمع بخضرة وحمرة اسود المنقار . ذكرته في ص ٢٠٢

غراب اعصم . زُمّت Chough. Syn. Red--legged crow

غراب صغير احمر الرجلين والذي في لبنان وجبل الشيخ احمر الرجلين وأصفر المنقار والذي في اوربا واليمن والهند والحبشة احمر الرجلين والمنقار . قلت ولا ذكر للغراب الاعصم على صحته الآ في معجم الياس انطون الياس وانما فاته الزمّت

غراب الزرع . غراب الزيتون Jackdaw

غراب صغير اسود المنقار والساقين سنجابي الرأس والعنق وسائره اسود يخالطهُ لمان ارجواني اما عنقه في البلاد العربية فله لطخة بيضاء على كل من جانبيه . ذكرتهُ في ص ١٣٥

عَقْعَق . قُعْقُع. كُنْدُش . شَجَوجَى Magpie

غراب ابقع طويل الذنب سمّي بحكاية صوته . وزاد بعض المعاجم الفاظاً اخرى منها الشقراق وهو في هذا الجزء، ومنها القرّاع الاخضر ذكرتهُ في هذا الجزء ومنها العَقاق وقد ذكرتهُ في مادة قيق الآتي ذكرها وهو الذي اراده جاياكار في حاشيته على هذا الطائر وهو الشقراق

الاخضر على ما جاء في معجم الياس انطون الياس وليس القراع الاخضر على ما جاء في غيره فالقراع الاخضر ليس في البلاد العربية وهو خطأ وقع فيه لاين صاحب المعجم المشهور كما سيجيء في مادة قرّاع

قيق . زِرْياب (فارسية معربة) ابو زُرَيق Jay. Garrulus

طائر كالغراب اصدأ اللون اسود الذنب مخطط الجناحين بزرقة وسواد وبياض كثير التصويت ومنهُ اسمه العلمي

ذكرتهُ في ص ١٣٥ وذكرتهُ بعض المعاجم على صحته وأخطأت في اسمهِ العلمي هذا . ثم ان هذا الطائر اورده جاياكار في حاشية لهُ على العقعق كما تقدم

شـقرّاق وفيه لغات . آخيل . ضُوْضُوْ Roller

طائر اصغر من الحمامة واعظم من القارية اي الوروار بين خضرة وحمرة وزرقة وسواد وعلى ان الخضرة غالبة فيه اسمه في الشام شُقْرُق وشقرّاق وفي مصر غراب زيتوني وفي العراق خُضّار على انهم يطلقون الخُضّار ايضاً على القارية اي الوروار . ذكرت هذا الطائر في ص ٢١٠ واسهبت فيه وقد اصابت المعاجم التي وقفت عليها بعض الاصابة وفاتها الضوْضوْ

قرّاع . نقّار Woodpecker

طائر في عظم القارية اي الوروار يتسلق جذوع الاشجار وينقرها فيستخرج الدود منها اسمه في الشام والسودان نقار الخشب ونقار الشجر وفي الشام الناقوبة لانه ينقب الخشب . وقد اخطأ لاين صاحب المعجم المشهور في قوله انه يطلق ايضاً على الشقراق وتبعه في هذا الخطأ بادجر وجاياكار وغيرهما فالنقّار الاخضر موطنه اوربة وليس في البلاد العربية . هذه صفة هذا الطائر على ما ذكره ابن سيده وصاحب التاج ولكن هذا منقاره اعقف اما القراع او النقار على ما نعرفه في الشام فمنقاره مستقيم ولعل القراع الذي في جزيرة العرب اعقف المنقار . راجع معجم الحيوان ص ٣٦٥ ففيه نص ابن سيده في القراع . ولم يذكر اصحاب المعاجم هذا الطائر على صحته

قارية . خُضَيراء وخضّار . وَروار Bee eater

طائر قصير الرجلين طويل المنقار اسوده في قمة رأسه وتحت حنكه طوق الى الصفرة وسائره اخضر وفي وسط ذنبه ريشتان اطول من سائر ريش الذنب . اسمه في الشام والموصل وروار وهو حكاية صوته وفي بغداد خضّار وفي عُمان خضيراء وفي مصر تارة خُضَيْر وتارة وروار . ثم ان الخُضّار في بغداد اسم للشقراق ايضاً كما تقدم في الشقراق . ذكرت هذا الطائر في ص ٣٢ واسهبت فيه وقد اعدت القارية الآن وكنت قد حذفتها مما كتبتهُ قبلاً في المقتطف لان الاب انستاس اعترض عليها لمشابهتها الكلمة يونانية واعدتها الآن لان العرب لا بد انهم

وضعوا كلمة خاصة لهذا الطائر لشهرته فالخضيراء والخُضّار لونه والورروار حكاية صوته وانا واثق الآن انهُ القارية ولا اظن الاب المحترم يقول الآن انها يونانية بل عربية قحطانية عدنانية ولانها واردة في الحديث الشريف فايام اليونانية واللاتينية قد مضت ولم يبق الآن لغتنا الضادية كما يقول واني اشكر لهُ اعتراضه عليّ وردّي الضعيف يومئذٍ والآن كانت القارية اصيبت بما اصيب بهِ غيرها او جعلت لها حاصرة كما وقع للضُوَع المسكين وقد تقدم ذكره في شهر ابريل فاذا راجعت الصفحة ٣٢ من معجم الحيوان يتضح لك كل شيء وأن القارية هي الورروار بلا اقل شبهة

وَقْوَاق طائر على قدر الحمامة يشبه الباشق كثير الصوت وقواق Cuckoo

وهو لا يحضن بيضه بل يلقيه خلسة في عش طائر آخر فاذا خرجت فراخهُ من البيض زقها الطائر الآخر صاحب العش اي انهُ يسرق تعب غيره

ومن اسماء هذا الطائر وَقْوَق ووقُوق في مصر وقيقب وقيقوبة في الشام وحمام قوّال في حلب وهذه عن الدكتور رسل . وطكوك وهذه بربرية عن بقطر وطاطوى عن بقطر وكوكو وهي حكاية صوته . وكَكَم عن الدميري وكَنْكَر عن ياقوت الحموي وأسماء اخرى غيرها . والوقواق اوردها ابن سيده وقال طائر وليس بثبت ١٤٤:٨ فهو يشبه احد اسمائهِ المعروفة في مصر وفيهِ شبه من الفصاحة

اوردت هذا الطائر في ص ٧٧ وما يليها ولعل الوقواق خيرهذه الاسماء لانهُ فصيح ويشبه احد الاسماء المعروفة في مصر

فصيلة الزرازير او السُودانيّات Sturnidae

طيور من رتبة الجواثم يغلب فيها السواد وفي البلاد العربية ثلاثة اجناس منها الزُرزور والسَمِرمِر والسّوادِيّة [See Starling, & Grackle]

زُرْزور . وزرزر Starling

طائر من فصيلة السُودانيّات اكبر من البلبل طويل الذنب اسود اللون مرقط يتلون الواناً

سمرمر . طائر من السودانيات يأكل الجراد اكلاً ذريعاً Starling, rose coloured

سواديّة Grackle, Tristram's

طائر من السودانيات اسود اللون لارقط فيهِ كالزرزور وهو يلمع بزرقة ولون ارجواني . موطنه شبه جزيرة سيناء وفلسطين من اريحا الى العقبة جنوباً والبادية الى الشرق من وادي موسى وهو آبد في الاماكن التي يألفها وليس من القواطع كالزرزور او السمرمر والكلمة فصيحة ذكرتها في ص ١١٨ ولم يذكرها احد من اصحاب المعاجم

الإِسْفِنْدَان[1] السُّكَّرِيّ

ترتفع الشجرة منهُ في المناطق الباردة الى ٨٠ قدماً في الغالب والى ١٢٠ قدماً في النادر ويتفاوت محيط ساقها بين ثلاث اقدام وأربع . أوراقها غير دائمة الواحدة منها شبيهة بالقلب ذات خمسة فصوص كل منهـا حاد القمة وعلى وجهه السفليّ شعيرات بيض كامل الحافة تقريباً وأزهارها صفر مجتمعة في نورات مشطية متدلية تنبثق قبل الاوراق

اسمهُ العلمي (Acer saccharinum, Wangenh.) (آسر سكارينوم) أو (Acer saccharum, Marshali) (آسرسكاروم)[2] وفصيلته الإِسْفِنْدَانية أو القَيْقَبِيَّة (Aceraceae) (آسراسية) وبالانجليزية (sugar-maple; rock-maple)

والفرنسية (érable á sucre ou du Canada; érable sucrier) وهو شعار بلاد كندا وشائع في امريقة الشمالية الى ولاية اريزونا كثير الشبه بالاسفندان الجبليّ أو الجُمَّيْز الكاذب الذي سيأتي الكلام عليهِ ولاسيما في حال صغره والخشب منهُ قويٌّ متين صُلْب صفيق لونهُورديّ يدخل في صنع محاور العجلات وبَرَانِقها وعريش العربات والمِدان والاثاث وغُلُف آلات البيانو واخشاب السروج والقِصاع والنماذج وارضية الغرف وهو ليس عرضة للالتواء ولذا تصنع منهُ قوالب الاحذية . ومن شجره يتخذ اهل امريقة الشمالية نوعاً جيداً من السكر

---

(١) ويقال للاسفندان في عمومه (القيقب)

(٢) آسر (acer) كلمة لاتينية معناها قوي او حاد وسبب هذه التسمية ان خشب الاسفندان كان يستعمل قديماً في صنع رؤوس الحراب وغيرها من الاسلحة

يبزل الاشجار من أواخر فبراير الى أوائل ابريل حين يكون النهار دافئاً والليل شديد البرودة وذلك انهم يحزون في الشجرة حزًّا بواسطة فأس أو مثقاب ثم يولجون فيه ميزاباً من خشب السماق أو البيلسان فيسيل منهُ اولاً سائل سكريّ مدة اربعة اسابيع أو ستة فيجتمع هذا السائل في حوض وينقلونهُ كل يوم الى حوض اكبر ومنهُ ينقل بعد تصفيته الى دسوت الغليان وعلى الاجمال يتبع فيه ماهو متبع في استخراج السكر من القصب في جزائر الهند الغربية

وينتج من كل شجرة في الموسم من ١٢ جالوناً الى ٢٤ من ذلك السائل فيحصل على رطل من السكر من كل ٣ جالونات الى ٦ من السائل المذكور وفيما ندر من الاحوال تنتج الشجرة ١٠٠ جالوناً أو اكثر

أما بزل الشجرة لاستخراج ذلك السائل فلا يبدأ به الا اذا بلغت الشجرة ٢٠ سنة وربما استمر البزل ٤٠ سنة أو اكثر دون أن يلحق بالشجرة اي ضرر

وروى انهم قد حصلوا من الشجرة الواحدة على ٣٣ رطلاً من السكر في الموسم الواحد وسكر الاسفندان غزير في البوتاسة ولذا يحصل منهُ في الولايات المتحدة الامريقية على كثير من مادة البوتاسة وقلف الشجرة مهم في عمل اصباغ امريقية عديدة وفي الولايات الشرقية من امريقة الشمالية تعتبر شجرة الاسفندان السكري افضل شجرة للاستظلال بها في الشوارع

الإسفندان الأسود

ترتفع الشجرة منهُ الى ٤٠ قدماً أوراقها غير دائمة الواحدة منها شبيهة بالقاب ذات خمسة فصوص على وجهها السفليّ شعيرات بيض . أزهارها خضر مجتمعة في نورات مشطية منحنية عديمة الاعناق (جالسة) وثمرتها ملساء

اسمهُ العلمي (Acer nigrum, Mich.) (آسر نيغروم)

أو (Acer saccharinum, var. nigrum, Mich.) (آسر سكارينوم نيغروم) من فصيلة سابقه وبالانجليزية (black maple) والفرنسية (érable noir)

وهو شائع في امريقة الشمالية ينتفع بخشبه

الإسفندان الأبيض

الشجرة منهُ جميلة المنظر جدًّا ساقها غليظة قد يبلغ محيطها تسع أقدام احياناً وترتفع الى ٥٠ قدماً وتجتمع اغصانها فتكون كتاج فاخر أوراقها غير دائمة الواحدة منها قلبية الشكل ملساء تضرب من وجهها السفليّ الى البياض ذات خمسة فصوص كلٌّ منها حاد القمة مقطّع الحافة مسنن وأزهارها خضر تضرب الى الصفرة مجتمعة في نورات كرية

اسمهُ العلمي (Acer dasycarpum, Ehrh.) (آسر داسيكاربوم)
أو (Acer Eriocarpum, Mich.) (آسر اريوكاربوم) من فصيلة سابقه
وبالانجليزية (Sir Charles Wager's maple; silver-leaved maple; white maple)
والفرنسية (érable blanc; érable à fruits cotonneux ; érable de Charles Wager)

وهو شائع في أميركة الشمالية محبوب للغرس في الشوارع سريع النمو يجود على ضفاف الأنهار صافية الماء خصوبة القاع فلا ينمو في أرض المستنقعات وهي التي ينمو مكانه فيها الاسفندان الأحمر الآتي ذكره . والخشب منهُ أصفر ليّن يكون أقل قوَّة ومقاومة من خشب أنواعه الأخرى الكثيرة ولكنهُ ينفع في صنع الفحم وقد يشق صفائح رقيقة جداً تستعمل في بطانة الجدران من الغرف وقد يحصل من هذا الشجر على سكر بمقدار اقل مما يحصل عليهِ من الاسفندان السكري السابق . واذا أكلت النحل منهُ ومن بعض انواعهِ الأخرى كان ذلك مما يؤدي الى التبكير في جني عسلها

الإِسْفِنْدَان الأحمر

ترتفع الشجرة منهُ الى ١٠٠ قدم ويبلغ محيط ساقها خمس أقدام . أوراقها غير دائمة الواحدة منها شبيهة بالقلب تقريباً ملساء تضرب الى الزرقة من وجهها السفليّ ذات خمسة فصوص كلٌّ منها حاد القمة متقطع الحافة مسنن ولها عنق طويل . وأزهارها حمر مجتمعة في نورات صيوانية كرية تنبثق في الربيع قبل الاوراق

اسمهُ العلمي (Acer rubrum , L.) (آسر روبروم) من فصيلة سابقه
وبالانجليزية (red or swamp maple) والفرنسية (érable rouge ou érable de Virginie)

وهو شائع في أميركة الشمالية يجود نموه في ارض المستنقعات ولاسيما في بنسلفانيا اذ يستعمل اهلوها خشبه الجميل في جميع اصناف النجارة من اخشاب السروج و نير الجر (النَّاف) وفي الخراطة ومختلف الاثاث كما يستعملون قلف شجره في الصباغة للحصول على لون أزرق قاتم أو يصنعون منهُ مداداً أسود جيداً

ومن شجره يستخرج أهل كندا سكراً أو عسلاً كالاسفندان الأبيض بمقدار أقل مما يحصل عليهِ من الاسفندان السكري وقد يغرسونه في الشوارع

الإسفندان الجبلي

ويقال لهُ (الجميز الكاذب) ترتفع الشجرة منهُ الى ٨٠ قدماً ويبلغ محيط ساقها ٢/١٣ قدماً أوراقها كبار كأوراق الجميز أو اكبر منها غير دائمة الواحدة منها قلبية الشكل ملساء لامعة ذات خمسة فصوص كل منها حاد القمة مسنن الحافة على نوع ما وأزهارها خضر مجتمعة في نورات مشطيَّة قائمة تقريباً

اسمهُ العلمي (Acer Platanoïdes, L.) (آسر پلاتانويدس) من فصيلة سابقه وبالانجليزية (Norway-maple) والفرنسية (érable plane ou faux sycomore; érable de Norwége) وهو كثير الشيوع في جبال المقاطعات الشمالية من اوربا منتشراً في بعض الامكنة بالترويج الى شاطىء البحر وفي شمال بولندا وليتوانيا والمانيا وسويسرا وساڤوى وتبلغ الشجرة منهُ حجماً كبيراً في تربة الارض الخصبة فتكون من أحسن الاشجار لايواء السكان وخشبه أبيض أملس تصنع منهُ (كرانيف) البنادق ويستعمل في الخراطة والتجارة الدقيقة ويمكن الحصول على سكر منهُ في الشتاء وعلى العموم فان استعمالهُ كاستعمال شجر الجميز

الإسفندان الجميزي

ويقال لهُ (الدُّلْبُ الكاذب) و (الصَّنَّار الكاذب) ترتفع الشجرة منهُ الى ٥٠ قدماً ساقها معتدلة . أوراقها غير دائمة الواحدة منها قلبية الشكل ملساء تضرب الى الزرقة من وجهها السفليّ ذات خمسة فصوص كل منها مسنن الحافة بغير انتظام . أزهارها خضر مجتمعة في عناقيد متدلية وثمرتها ملساء

اسمه العلمي (Acer Pseudo-Platanus, L.) (آسر پسودوپلاتانوس) من فصيلة سابقه وبالانجليزية (sycamore - maple ; spurious plane)

والفرنسية (sycomore; érable sycomore; érable faux platane) وهو شائع في بريطانيا وينمو بريًّا في سويسرا والمانيا والنمسا وايطاليا يورق في ابريل وأوراقه عند انبثاقها تبدو خضراء نضرة جميلة وخشبه كان كثير الاستعمال في الخراطة قديماً وما زال يصنع منهُ اخشاب السروج والطواحين وبالحزّ في سوقه في الربيع أو الخريف يسيل منهُ عصير وافر يصنع منهُ نبيذ جيد أو يحصل منهُ بالتبخير على سكر

الإسفندان الملوّن

ترتفع الشجرة منه الى ٢٠ قدماً ساقها رفيعة ذات قلف أملس مخطط بخطوط جميلة خضر وبيض وفروعها كذلك . أوراقها غير دائمة الواحدة منها قلبية الشكل ملساء ذات ثلاثة فصوص

كل منها حاد القمة مسنن الحافة وأزهارها خضر مجتمعة في عناقيد بسيطة طويلة متدلية

اسمهُ العلمي (Acer pensylvanicum, L.) (آسر بنسلڤانيكوم)

أو (Acer striatum, Lamk.) (آسر استرياتوم) من فصيلة سابقه

وبالانجليزية (striped-barked maple; moosewood)

والفرنسية (érable jaspé ou strié; érable de Pensylvanie)

وهو شائع في امريقة الشمالية . في الشتاء تحمر اغصان الشجرة منه وتكون لامعة ويعتبر من اشجار الزينة نظراً لظل شجرته الوافر وجمال قلفها ومناعتها دون فتك الحشرات

الإِسْفِنْدان العاديّ

ترتفع الشجرة منه الى ٢٥ قدماً وتكون جميلة المنظر جداً في الخريف أوراقها غير دائمة ملساء لامعة من وجهها السفليّ الواحدة منها قلبية الشكل ذات خمسة فصوص كل منها غير حاد القمة كامل الحافة تقريباً . وأزهارها خضر مجتمعة في نورات مشطية قائمة وثمرتها ذات جناحين

اسمهُ العلمي (Acer campestre, L.) (آسر قامبستري) من فصيلة سابقه

وبالانجليزية (common maple) والفرنسية (èrable champêtre ou commun)

وهو شائع في بريطانيا والنرويج وجنوب اوربا ووسطها حتى شمال افريقة وانحاء كثيرة من آسيا قد يزرع سياجاً ويقال إن الخشب منه في الخراطة ارقى كثيراً من خشب الزان والجميز لكونه مندمجاً دقيقاً وهو مرغوب فيه لصنع الاثاث الفاخر والآلات الموسيقية ويستعيض به صانعو ادوات الحساب والهندسة في الغالب عن خشب شُمْرابة الراعي والبَقْس

الإِسْفِنْدان الشبيه بالدَّرْدار في الأوراق

قد ترتفع الشجرة منه الى ٥٠ قدماً . أوراقها غير دائمة الواحدة منها ثلاثية الفصوص أو ريشية فتتميز بذلك عن ورقة الانواع السابقة وكل فص مقطّع الحافة منشاريّ . وأزهارها خضر نوعان الذكرية منها مجتمعة في نورات مشطية والأنثوية في نورات عنقودية

اسمهُ العلمي (Negundium americanum, Dec.) (نيغونديوم امريقانوم)

أو (Negundo fraxinifolium, Nutt.) (نيغوندو فراكسينيفوليوم) أو (Acer Negundo, L.) (آسر نيغوندو) أو (Negundo aceroides, Moench) (نيغوندو آسرويدس) من فصيلة سابقه وبالانجليزية (box-elder; ash-leaved maple)

والفرنسية (érable à feuilles de frêne) وهو شائع في امريقة الشمالية جميل المنظر يغرس للزينة ويشتمل على عصير سكري وافر كالاسفندان السكري تقريباً وكثيراً ما يغرس في كليفورنيا للاستظلال به والخشب منه أصفر تتخلله عروق بنفسجية وأخرى وردية

ممنون الفيلسوف

عن فولتير

[نقلها اسماعيل مظهر]

ذات مرة تخيل « ممنون » ان في مقدوره ان يصبح فيلسوفاً عظيماً . فقال في نفسه : « من اجل ان اكون كامل السعادة تام الحظ ، ينبغي عليّ ان لا افعل من شيء اكثر من ان اجرد نفسي من كل الشهوات . وما من شيء في هذه الحياة اهون من هذا مطلباً ، او ايسر نوالاً ، على ما يعرف الناس جميعاً . وأول ما يجب عليّ ان انشد ، انما هو ان اظلّ بغير حُبّ . فاذا رأيت حسناء فاتنة ، كان اول ما احدث به نفسي في شأنها ان احمس الى وجداني بأن هذين الخدين الاثيلين سوف يحولان فيما بعد تومين صفراوين تكسوهما التجاعيد وتشيع فيهما الاخاديد ، وهاتان العينان سوف يحيط بهما سواد الهرم ، وهذا الصدر البارز الجميل سوف يخسف ويزول جماله ، وهذه الرأس التي يزينها الشعر الجميل سوف يصيبها الصلع ، فتصبح اشبه بكرة من النحاس . ينبغي لي ان اتخيل الفاتنة التي يقع عليها نظري في حاضرها ، على ما سوف تكون في مقبل ايامها . وبذلك لن يستطيع وجه جميل او قوام رشيق ، ان يملك عليّ نفسي او يأخذ بعنان قلبي »

« ثم يجب عليّ بعد هذا ان الزم الاعتدال ، فلا يغويني المديح ، ولا يستهويني الكأس بلذائذه ، ولا اتطلع الى لهو المجتمع ، وما عليّ الا ان اصور لنفسي عواقب الافراط — من رأس مصدع ، ومعدة متخومة ، وامعاء مسدودة ، وصدر ضيق ، وتنفس يعلو ويهبط . عليّ ان اتخيل ما في الافراط من ضياع العقل والصحة والوقت. وبذلك تكون صحتي على وتيرة واحدة فلا تتغير ، وتكون افكاري نقية كالغدير الساكن ، مضيئة كالنجم الثاقب . وكل هذا سهل هين، لا يتطلب تنفيذه اعناتاً او ارهاقاً»

قال ممنون محدثاً نفسه — « غير انهُ ينبغي عليّ ان افكر قليلاً كيف ادبر امر مالي . ولكن لِمَ التفكير في هذا وأنا رجل محدود الحاجات، وثروتي في حصانة رئيس

الحزينة في مدينة « نينوى » ؟ ما عليّ الا ان اعيش مستقلاً . وهذا أكبر النعم ونهاية الارب . سوف لا أكون في حاجة الى ذرع الارض رواحاً وجيئة على ابواب اهل البلاط والحاكم . سوف لا احسد احداً ، وسوف لا يحسدني احد . وكل هذا سهل هين . سيكون لي اصدقاء ، ولسوف احافظ على صداقتهم ، بأن لا اجعل سبباً للاختلاف معهم على شيء . سوف لااوجه انتقاداً الى شيء يفعلونه او كلام يقولونه . وكذلك هم سوف يعاملونني . اية صعوبة في ان يلزم الانسان هذه الخطة ، وان ينهج هذا النهج » ؟

ولم يكد « ممنون » يرسم هذه الخريطة الجميلة في مخيلته ، حتى أطل من النافذة فرأى امرأتين تمشيان تحت أشجار الشارع بمقربة من بيته . وكانت احداهما عجوزاً تسير الهوينا بغير اكتراث ، أما الاخرى فكانت شابة في عنفوانها ، وعلى مظهرها ما ينم على كثير من الانفعال . فكانت ترسل التنهدات . وتجود بالدمع الهتون ، فكانت في حالها تلك ، في تنهدها ودموعها ، أكثر جمالاً منها في سكونها وهدوئها . غير ان الفيلسوف مُسّ مسيساً ، لا بالمرأة ، فانهُ كان قد عاهد نفسه على ان لا يكون فريسة لمثل هذه الخيالات ، ولكن بحالة القنوط والهم التي بدت عليها . فانحدر من السلم وتقدم الى « النينوية » الجميلة ، على أمل ان يهدىء روعها بالحكمة ويكبح جماح انفعالها بالفلسفة . فقصت عليه ، بكل ما تتخيل من سذاجة وطيبة قلب ، ما أصابها من المصائب على يد عمٍ تخيلته تخيلاً ، وكيف حرمها من ثروة طائلة ما حلمت بها يوماً ، وروت لهُ ما كان من قسوته وما لقيت من جبروته وهماً وكذباً ، وما كان لها من عم ، وما كان لها من ثروة ، وانما كان لها خيال خصب يصور الحوادث ، فيرويها لسان كان تحته هاروت ينفث فيه السحر الحلال

قالت « أتخيل أنك رجلاً أصاب من الحكمة وأفاد من الفلسفة . فلو أنك تفضلت وقدمت الى منزلي ، اذن تستطيع أن تنقذني من الورطة التي أجد نفسي فيها وتخلصني من المأزق الذي ترديت فيه »

فلم يتردد ممنون في ان يتبعها ، ليبحث أمرها من وجهة فلسفية صرفة ، وان ينصح لها بأقوم سبيل يمكن ان تخطه الفلسفة

وهنالك في منزلها اقتادتهُ تلك الفاتنة الى حجرة ينبعث منها الطيب ويشيع في

جنباتها المطر ، وطلبت اليه في ادب واحتشام ان يجلس بجانبها على اريكة مقتبلة اياه بوجهها ، كما لو يكون قد تأهبا لمعركة سلاحها الكلام والنقاش . فهي في شوق لان تقص قصتها ، وهو في شوق لان يسمع منها تلك القصة . ومضت السيدة تتكلم غاضَّة من بصرها ، مشيحة بوجهها نحو الارض ، مرسلة بين آونة وأخرى بالدمعة في إثر الدمعة ، زافرة بالتنهدة في إثر التنهدة ، وكانت ترفع عينها الى من تكلم حيناً بعد حين ، فلا تقعان الا على عيني « ممنون » الفيلسوف مركوزتين في عينيها . وكان حديثهما حديث الصديقين ملأ كل منهما الإشفاق والحب لصاحبه ، اما هذه الصداقة وذلك الحب فأخذا يزيدان شيئاً بعد شيء ، كلما التقى الناظران ، وتخاطبت العينان . ولقد اهتم « ممنون » بحديثها كل اهتمام ، وبدأ يشعر بأنه اكثر ميلاً الى الاخذ بيد هذه المخلوقة التي جمعت بين العفة والبؤس ، كلما مرّ الوقت على مجلسه واياها ، كان دقائق الزمن تدور في قلبه ، لا مع الأجرام

من ذا الذي يمكن ان يدخل الى الحجرة التي جلسا فيها يتباثان : هي بالشكوى وهو بالنصيحة ؟ من تتخيل ان يقتحم باب ذلك المنسك المقدس ؟ من تتصور سوى العمّ الذي كانت منه الشكوى . العمّ الذي هو سبب البلوى وأصل المصيبة . وكان مدججاً بالسلاح من فوق رأسه الى اخمص قدميه ، وقال اول ما قال انّ من حقه الآن ان يضحي بكليهما ، بالفيلسوف ممنون ، وبابنة اخيه . اما هي ففرت هاربة ، ملقية في روع الفيلسوف ان عمّها من شأنه العفو ، ومن خلائقه الغفران ، تلقاء بدرة من المال يعمر بها جيبه . فاضطر « ممنون » ان يشتري نفسهُ بكل ما كان بين يديه . وكان من حسنات تلك الأيام ان الناس كان في مقدورهم ، بمثل هذه الوسائل ان ينجوا بأنفسهم من المعاطب . ولم تكن اميركا في زمن هذا الفيلسوف قد اكتشفت بعد ، ولم يكن النساء المعطوبات ببلايا الزمن قد أصبحنَ مبعث خطر على الرجال كما هنّ الآن

وعاد « ممنون » إلى منزله خجلاً ، مكسور الجناح ، منكس الرأس . وهنالك وَجَد دَعوَة يدعوه بها مرسلها إلى مأدبة تضم بعض اصدقائه

قال : « اما اذا ظللت في البيت منفرداً بنفسي ، فسوف تساورني ذكريات هذا الحادث المشين ، فلا استطيع أن آكل كسرة ، وما يدريني ، فلعلي أمرض ، فمن حسن

التبصرة أن امضي الى اصدقائي الاعزاء ، فعلّني أقضي في صحبتهم بعضاً من وقت الفراغ . سوف أنسى في عشرتهم الجميلة البريئة ، تلك الغواية التي وقعت فيها صبيحة اليوم »

وعلى هذه الفكرة ذهب ليحضر الوليمة . وسرعان ما بان لاصدقائه انهُ مهموم ، يريد ان يستقوي بالشرب على طرد هموم تساوره ، وذكريات لا تذهب الا لتعاوده

« ان قليلاً من الخمر يُحتَسَى بهوادة وتؤدة ، لَقَمِين بأن يذهب الهم من قلوب الآلهة ومن قلوب البشر » — ذلك ما قام في نفس ممنون الفيلسوف . واحتسى الخمر ، وامعن في احتسائها ، حتى سكر وغَلاَ في السكر . وبعد ذلك جاء دور اللعب

— « ان قليلاً من اللعب مع اصدقاء اوفياء مخلصين ، لمن اجمل الهيّات وقت الفراغ » — ولعب فخسر ، وخسر كل ما كان في كيسه ، وخسر اربعة اضعاف ما كان معهُ ، مقسماً بشرفه أغلظ الايمان انهُ سيدفع ما يخسر . وهنالك يقوم جدل على خطأ لا تجيزه شريعة القمار ، ويحمى وطيس الجدل ، وتقوم قيامة الكلام والأخذ والرد والجذب والدفع ، فيرميه احد اصدقائه الاوفياء المخلصين بعلبة من علب النرد فتصيب رأسه ، وتفقأ إحدى عينيه . ويحمل « ممنون الفيلسوف » الى بيته سكران معدماً ، لا عقل في راسه ، ولا درهم في جيبه ، وبعين واحدة

حتى اذا قضى وقت خُمَارِه نائماً يغط غطيط البَكْر شد خناقه ، وبدأت سورة الخمر تتبخر من رأسه الحكيمة وذكر ما كان منه ، اسرع بخادمه فارسل به الى رئيس الخزينة في مدينة « نينوى » ليسعفهُ ببعض المال ، عساه يقضي دينه ، دين الشرف ، الى اصدقائه الاوفياء المخلصين . فاذا عاد الخادم اخبره ان رئيس الخزينة قد اعلن إفلاسه صبيحة ذلك اليوم وانه وضح لاهل الحكم أنه مختلس محتال ، وانه بذلك اصبحت مائة اسرة في اشد حالات الفقر والعوز . فما وسع «ممنون» الفيلسوف الاَّ ان يحجب عينه المفقوءة بلفافة ، ويأخذ في جيبه عريضة دعوى ليتقدم بها الى الملك ، طالباً منه ان يقيم العدل بينه وبين المختلس المحتال . وما ان يدلف الى دار العدل في البلاط الملكي حتى يلقى عدداً من السيدات ، وقد ملكتهن هزة الفرح والسّرور ، فرحن يدرنَ ممسكات بعضهن بأيدي بعض في حلقة ، وبأسرع ما يتصور العقل قفزاً ووثباً . وهنالك تتقدم اليه احداهنّ وكان له بها علاقة وتصيح في وجهه — « ما أبشع هذا المسخ المخيف » ! ثم تتلوها اخرى وكانت به اكثر

معرفة من صاحبتها الاولى فتقول له — « يالله — أيها الفيلسوف ممنون ! ارجو ان تكون بخير . وأسفاه ! كيف فقدت عينك يا ممنون » — ثم تلتفت برشاقة وتوليه ظهرها ، وتبتعد عنه في غير اكتراث

هنالك لم يسع ممنون الا ان ينتبذ بنفسه ركناً من الاركان ، بعيداً عن ان تأخذه فيه الاعين ، ويظل منتظراً ، حتى تتاح له فرصة يترامى فيها على قدمي الملك ولقد أزف الوقت واتيحت الفرصة : فقبل الارض ثلاث مرات ، وتقدم بكتابه في يده ، فتقبله الملك بقبول حسن ، وامر احد رجال حاشيته ان يتسلم منه الكتاب ، فما كان من ذلك الرجل الا ان انتحى بممنون ناحية وقال له بخشونة وبذاءة :

« اسمع يا هذا ! أنت يا اعور ! يا من لا يملك الا عيناً واحدة ! لاشك في أنك كلب نبّاح مُزرٍ . ذلك بأنك تتقدّم الى الملك بكتابك ، في حين كان الواجب ان تتقدّم بهِ اليّ . أضف الى ذلك انك تطلب القصاص من مفلس امين شريف ، أحوطه بعنايتي وأظلله بحمايتي ، وهو فوق ذلك من اقرباء الوصيفة التي تقوم بخدمة حظيّتي . عليك ان لا تتقدم خطوة اخرى في هذا الامر ، ايها الصديق الطيب ، هذا اذا اردت ان تفوز بالعين الاخرى التي بقيت في وجهك »

هذا ممنون الفيلسوف . ممنون الذي تخيل بين جدران حجرته الاربعة ان في مستطاعه ان يهجر النساء ، وان يقلع عن المائدة الخضراء وعن الشرب وعن الجدل والشجار ، واقسم فوق كل هذا ان لا يطرق للمحاكم باباً . ممنون هذا وفي رأسه كل هذه الاخيلة ، وفي فترة وجيزة ، لا تعدو اربع وعشرين ساعة استغوتهُ امرأة ، ثم سرقتهُ ، ومن بعد ذلك سكر ولعب القمار وتشاجر ، وفقئت عينه ودخل المحكمة ، حيث امتهن ، واهينت كرامته

ولقد اخذ ممنون العجب ، وملأ قلبه الهم والحزن ، فقفل الى بيته غضبان اسفاً . وما ان تأهب لدخول البيت ، حتى دوهم بعدد من رجال الشرطة شرعوا ينقلون اثاث بيته ليباع وفاء لمطلوبات دائنيه . وتأخذ بتلابيبه الهموم ، فيسقط إعياء تحت شجرة على رصيف الشارع ، وهنالك يقع بصره على تلك المرأة التي لقيها في صبيحة الامس ، تمشي الهوينا مع عمها العزيز . وما ان رأياه حتى اغربا في الضحك ، واصبع العم مشيرة الى الضمادة التي تحجب عينه المفقوءة

واقبل الليل بويلاته ، فهيأ ممنون لنفسه فراشاً من القش والبوص بجوار جدار من جدار بيته ، وهوّم برأسه النعاس ، فأخذ يغط غطيطاً . وبينما هو في غفوته ، اذ تجلى لهُ ملكٌ من ملائكة السماء ، مجلل بالضياء محفوف بالبهاء ، مهيأ بأجنحة ستةٍ ، ولكنهُ بلا رجلين وبلا رأس ، وما يشبههُ من شيء : — « من أنت » ؟

فاجابه الملك — « انا شيطانك الطيب »

— « اذن فردّ اليّ عيني وصحتي ومالي وعقلي »

ثم قصّ عليهِ ممنون كيف انهُ فقد كل هذه الاشياء بين صبيحة يوم ومسائه . !

فاجابهُ الملك : « هذه احداث لن يقع مثلها في عالمنا الذي نعيش فيهِ »

— « وايّ العوالم تسكن » ؟

— « ان مأهلي يبعد عن الشمس خمسمائة مليون ميل ، في نجم صغير الى جانب الشعرى ، على انهُ يمكنك ان تراه من مكانك الذي انت فيهِ »

قال ممنون — « انهُ لموطن جميل ! اخاذ ! فتان . ومما لاشك فيهِ انكم لاتعرفون فاتنات يأسرنَ المفتونين امثالي ، ولا اصدقاء اوفياء يسلبون ما في جيبهِ من المال ، ويفقأون احدى عينيهِ ، ولا مفلسين محتالين ، ولارجال حاشية يهزؤون بهِ عندما يتقدم اليهم طالباً العدل والانصاف »

فاجابهُ ساكن النجم — « كلاّ . لا نألف شيئاً من ذلك فاننا لن نفتن بالنساء ، لأنهنّ لايوجدن حيث نسكن . ولن نتشاجر على الموائد الخضراء ، لاننا لا نأكل ولا نشرب ، وليس عندنا مفلسون محتالون ، اذ ليس عندنا ذهب او فضة . وأعيننا لن تفقأ ، ذلك بان اجسامنا ليست كاجسامكم ورجال الحاشية لن يستطيعوا ان يسوموا نا خسفاً . ذلك بأنّا جميعاً متساوون في عالمنا القصي البعيد »

قال ممنون — « اتوسل اليك يا سيدي ان تخبرني : كيف تقطعون الوقت وتقتلون الزمن ، بغير نساء وبغير اكل او شرب » ؟

— « أما نقطع الوقت في مراقبة العوالم الأخرى التي يعهد الينا في تدبير امورها وما اتيت الى عالمك هذا الآ لاهدىء من روعك واسليك عما انت فيهِ من الغم »

فتأوّه ممنون وقال — « وأسفاه ! ولِمَ لم تأت يوم امس لتكفيني الوقوع في الكثير مما وقعت فيهِ من المخازي ، وتمنع عني ما ترديت فيهِ من الاخطاء » ؟

فاجابهُ الكائن السماوي — « كنت مع اخيك حسن ، فانهُ لاُحقَ بالشفقة منك . فان صاحب الجلالة ملك جزر الهند ، الذي كان لاخيك حظوة الخدمة في بلاطه ، قد امر بان تفقأ عيناه الاثنتان ، جزاء هنة هينة . وهو الآن في اعماق السجن ، وقد اثقلت يديهِ ورجليه الاصفاد »

— « انهُ لمن الصدف الحسنة ان يكون في اسرة من الاسر شيطان طيب مثلك . فيكون من اثره فيها ان يصبح احد الاخوين اعور ، والآخر اعمى . احدهما يتمطى على فراش من البوص والقش بجوار جدار ، والآخر يتلظى في غيابات السجن ! »

فاجابه الملك — « ان حظك سوف يتغير سريعاً . من الحق انك سوف لاتحظى بعينك مرة اخرى ، ولكنك سوف تكون سعيداً محظوظاً ، اذا لم يدر في رأسك مرة اخرى انهُ من الممكن ان تكون فيلسوفاً تام الفلسفة » . — « امستحيل ذلك إذن » ؟

— « نعم مستحيل . كما يستحيل عليك ان تكون تام العقل . تام القوة . تام القدرة . تام السعادة . انا نحن بأنفسنا بعيدين عن ان نفكر في ان نكون كما اردت أنت ان تكون . ولكن هنالك عالم يمكن ان تتحقق فيهِ كل هذه الاشياء . ففي تلك العوالم العديدة التي يبلغ عددها مائة الف مليون عالم تخضع كل الاشياء لسنة التدرج . ففي العالم الثاني تجد ان الفلسفة والمتعة معاً ، اقل منهما في العالم الذي يسبقه في ترتيب التدرج . وهي اقل في الثالث منها في الثاني ، وهكذا ، حتى اذا بلغت العالم الاخير ، وجدت ان اهله جميعاً حمقى اغبياء »

قال ممنون — « اخشى ان تكون ارضنا هذه المكونة من طين وماء ، هي بذاتها مباءة المائة الف مليون من العوالم التي تشرفني فخامتك بالكلام عنها »

— « ليس الامر كما تقول تماماً ، وانما قولك قريب من الحق . ان كل شيء يجب ان يوضع حيث يجب ان يكون »

— « ولكني أسألك أمخطئون اولئك الشعراء والفلاسفة الذين يلقون في روعنا دائماً ان كل شيء حسن ، وعلى اتم ما يكون في النظام » ؟

قال الملك « — لا . ليسوا على حق تماماً ، وانما يكونون على حق اذا ما نظروا في الاشياء من ناحية صلتها بنظام التدرج الذي يشمل قانون الكون كلهُ »

قال ممنون — « كلا . لن أؤمن لك ، حتى استرد عيني المفقودة »

انا المشعال

لآرثر سيمنز

انا المشعال وليس يعنيني ان الفراش يموت في ضوئي .
انا اللهب ، لهب الجمال ، احترق لكي يرى الجمالَ جميعُ الناس
لست اغتبط ولا اخجل ، بل اعيش بالضوء الباهر
ضوء النار المتأججة التي يرى فيها الرجال موت رغائبهم .

انا ايزولت وهيلانة ، لقد رأيت طروادة تحترق
وشاهدت أشد الفرسان حبًّا وهو مجندل . كانت الدنيا
مرآتي ، وكان الزمان نَفَسي على المرآة . وطالما همس الرجال
عصراً بعد عصر بكلمات الحب المسكينة امام شبحي فيها !

انا احيا لانني خالد ، في عينيّ آلام العالم
وعلى شفتيّ مباهج الحياة ، تمتزج فتمنحني الحكمة .
ولكن الكسوف حوّل يومي قتاماً . اين من يحيا للجمال ؟
ما زلت ذلك المشعال القديم ، ولكن أين الفراش الذي يجرؤ على الموت ؟

من ديوان اغاني الصعاليك

الرحيل الاول

للشاعر الفرنسي جان ريشبين

[نقلها احمد ابو الخضر منسي]

١ اذا عيون زهور اللؤلؤ البيض تَفقّحت (١)
واذا البرعوم المتزلزل اهتزّ في اطراف الغصون
واذا الارانب التي لا طاقة لها بالبرد همّت في البُكَر (٢)
تخرج من مَكْوِها (٣) ترتع بين نَبت السعتر
واذا طلائع الطير غنت اغانيها وشدت
فأطلقت اصواتها في كبد السماء احلى شجواً وأصفى رنينا
واذا الدنيا اخذت زينتها من أُنُف (٤) وجددت السنين
غادر السائلون الصغار مأواهم صاغرين

٢ يخرجون من خُصّهم الذي فيه ثووا طول الشتاء
كالمراميط (٥) لدى نار اوقدوها بالمَدَر
بينما امهم تؤجج وقود النار ،
وتَضْفِر وهي تغني سلالاً من خلاف (٦)

---

(١) تفقح تفتح واخرج زهره (٢) جمع بكرة الصباح الباكر (٣) جحر الارنب (٤) من جديد (٥) جمع مرموط تعريب العلامة احمد فارس الشدياق وهو حيوان قارض من جبال الالب ينام الشتاء. اجمع (٦) غصون عدة انواع من شجر الصفصاف صغر لينة تصنع منها السلال

انما يكسب هؤلاء الصغار المساكين ذوو الطُهْر

قوتهم من بيع هذه « الشخاشيخ » ذوات المُعيّنات[١] الخضر

٣ مات ابوهم منذ شهور اربعة

فاليت مرتفع الايجار وامهم

لذلك ستشتغل لدى الناس خادمة

فلا لقاء بينهم الاَّ في الفصل المقبل

متى ربحوا هذا الصيف بعض الدراهم

٤ والى ان يحل ذلك الاجل كل له وجهة هو موليها

فالصغار يحملون كاراتهم[٢] فوق اكتافهم

ويحتذون قباقيبهم تغشى رؤوسها قطع الصاج

وإذ قبّلت الام في شهقات عويلها

آخر بنيها لآخر مرة

انطلقوا وايديهم بأيدي بعض في وقار

يُنغّم الاكبر لحناً ليبدو أربطهم جأشاً

ولكنهُ شعر بالدمع الغزير من مآقيه ينهمر

بيد أنهُ لا يبكي لانهُ هو أعلاهم سنًّا

ولانهم ها هم يضربون في الارض ويسعون

وابن الاثنى عشر حولاً قد صار رب بيت ورب هموم

(١) جمع معين الشكل الهندسي المعروف الذي تصنع على هيئته قطع « البقلاوة » (٢) جمع كارة اضمامة من ثياب تحمل ، كالصرة او « البقجة »

حفلة تتويج الملك

جورج السادس

وما فيها من المغازي الدينية والروحية

لبس التيجان عادة قديمة جداً عرفت قبل زمن التاريخ كما يستدل من النقوش القديمة في مصر وبابل وبلاد اليونان . وقد تنوعت الآن فأبطل الملوك لبس تيجانهم الا نادراً وقد يقلعون عن لبسها بتاتاً في مستقبل الازمان اذا بقي للناس ملوك يملكون عليهم . والانكليز سبقوا غيرهم من امم هذا العصر الى الحكم الدستوري ونزع السلطة من ملوكهم واعطائها لنواب الامة ، ولكنهم لا يزالون متمسكين بكثير من عاداتهم القديمة كتتويج ملوكهم والباس قضاتهم الشعور العارية وحراسهم الثياب المقصبة التي كانت تلبس منذ مئات من السنين ونحو ذلك مما اقلعت عنهُ امم كثيرة تأخرت عنهم في اقتباس الحكم النيابي

الا ان احتفال البريطانيين بتتويج ملوكهم ، ينطوي على شعائر دينية من شأنها ان توجه النفس والعقل الى الفضائل السامية التي يجب ان يتصف بها الملوك كالايمان وحماية الدين وخدمة الشعب واجراء العدل والحكم بالرحمة . فالاحتفال يقام في كنيسة ويرأسهُ رئيس اساقفة كنتربري وتتخللهُ صلوات وابتهالات وترانيم روحية وتقرأ فصول من الانجيل . وحفلة التتويج تسير في فصول متسقة مترابطة المعنى والمغزى من المبايعة الى حلف اليمين الى مسح الملك بالزيت المقدس الى تسليم الملك ادوات الملك الى وضع التاج على رأسهِ فاجلاسهِ على العرش فتقبلهِ خضوع شعبه وولاءه

وفي كل هذا يشترك رجال الكنيسة مع اقطاب الشعب ، فليس للملك ان يقيم احد هذه الشعائر وحده ، فالتاج يلبسهُ اياه رئيس اساقفة كنتربري ، والعرش يصعد اليهِ وحده ولكنهُ عند ما يصل الى الدرجة العليا يرفعهُ اربعة من مقدمي اعيان المملكة الزمنيين والروحيين ويجلسونهُ عليهِ ، فالحفلة اعتراف من الناحية الدينية بما للدين من مقام في حياة الدولة ، ومن الناحية المدنية تجديد للتقاليد التي جرى عليها الامراء والاعيان في عهود الاقطاع في مبايعتهم الملك الجديد وتسليمهم اياهُ رموز السلطة والحكم

***

يتوج ملك الانكليز في الكنيسة القديمة المعروفة بكنيسة دير وستمنستر القائمة الى جانب دار البرلمان وهي كنيسة شيدها ادورد المعترف في القرن الحادي عشر ، ولا يعلم هل توّج فيها ولكن من الثابت ان وليم الفاتح توج فيها يوم عيد الميلاد سنة ١٠٦٦م

بدأت حفلة تتويج الملك جورج السادس بالمبايعة، فوقف رئيس اساقفة كنتربري وحوله اربعة من كبار اعيان المملكة، ونادى الجمع المحتشد في الكنيسة قائلاً: ايها السادة اقدم اليكم الملك جورج ملككم الذي لا شبهة فيه وقد جئتم جميعاً لتقدموا له الطاعة والخدمة فهل انتم راغبون في ذلك فهتف الجمهور «احفظ اللهمّ الملك جورج» وقد اعاد رئيس الاساقفة هذا النداء اربع مرات متجهاً كل مرة الى فريق من الجمهور المحتشد حول منبر الكنيسة، فواجه الواقفين جنوبهُ أولاً ثم الواقفين غربهُ فشمالهُ فشرقهُ، وفي كلّ مرّة كان الجمهور يجيب احفظ اللهمّ الملك جورج. هذا والملك واقف قرب وسط المنبر بحيث يراهُ الجمهور. ثم نفخت الابواق

وهذا الجانب من حفلة التتويج يرتدّ الى العصور القديمة، لأن للشعب الحق في معاينة الملك والموافقة عليهِ، على الرغم من ان الملك وراثيٌّ، وبنداء الشعب «اللهمّ احفظ الملك جورج» يعرب عن موافقتهِ ورغبتهِ في ان تمضي الكنيسة في حفلة التكريس الدينية

وبعد ذلك جلس الملك على كرسيه، وقدمت أدوات الحكم أداة أداة الى رئيس الاساقفة دليلاً على ان الدولة قد تنازلت عن رموز الملك الزمني لوضعها في حفظ الكنيسة، فيسلمها رئيس الكهنة للملك واحدة واحدة دليلاً على انها معطاة لهُ على سبيل الوديعة من قبل الرب. ولا يبقى في أيدي ممثلي الدولة الاَّ السيوف الاربعة وهذه تسلم للملك بعده

وعقب ذلك تلاوة قانون الايمان فتقدم رئيس الاساقفة الى الملك وقال لهُ هل أنت مستعدٌّ يا مولاي ان تقسم اليمين فقال الملك نعم واقسم ان يحكم البلدان التي تتألف منها الامبراطورية البريطانية وفقاً لعاداتها وتقاليدها وان يجري العدل. ولاول مرة في تاريخ بريطانيا ذكرت البلدان التي تتألف منها الامبراطورية ذكر كلٌّ منها على حدة لانها أصبحت منذ حفلة تتويج جورج الخامس في سنة ١٩١١ مستقلة ومتساوية وهي المملكة المتحدة وارلندة وكندا واستراليا وزيلندا الجديدة واتحاد جنوب افريقية وامبراطورية الهند. وتلا ذلك أسئلة وجهها رئيس الإساقفة الى الملك تدور حول احترام القانون واقامة العدل والحكم بالرحمة وحماية الدين وكلها مفرغة في قالب «هل تمد» و «هل تفعل» فأجاب الملك «كل هذا أعد بهِ». ثم قبل الملك التوراة ووقع اليمين

ان المبايعة عمل دنيوي، واليمين عمل ديني، وبهما يرتبط الشعب بالكنيسة بقبول الملك وعند ذلك ترفع الحفلة من مستوى التعاقد بين الملك والشعب من جهة، والكنيسة والملك من جهة، الى مستوى التقديس. فابتهل رئيس الاساقفة الى الله ان يمنح «خادمهُ جورج ملكنا الحكمة» ثم قرأ أسقف لندن فصلاً من رسالة القديس بطرس ومن آياتها «أكرموا الجميع. أحبوا الاخوة. خافوا الله. أكرموا الملك»

ثم قرأ رئيس اساقفة يورك فصلاً من انجيل القديس متى ومن اقواله: «فقال لهم اعطوا

اذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . وهذا الجزء من الحفلة لا يزال كما كان سنة ٩٧٣ عندما توج الملك ادجار المسالم لم ينله اي تغيير.

ثم وقف الجمع المحتشد وكذلك الملك والملكة وانشد الجميع قانون الايمان . ثم رنمت ترنيمة اخرى ركع الملك في خلالها

ثم نهض الملك وتقدم اليه كبير الامناء ونزع عنهُ ثوب المخمل القرمزي وجرّدهُ من جميع شارات المجد الارضي لـكي يتقدّم بخضوع ووداعة الى المسح بالزيت المقدس، وهو مرتد قميصاً قرمزيًا بسيطاً . ثم تقدم اربعة من كبار الاعيان ورفعوا فوق رأس الملك سرادقاً من النسيج المذهب . وقد كانت العادة ان يحجب هذا السرادق الملك عن الجمهور اثناء المسح بالزيت المقدّس لان هذا العمل سرٌّ من اسرار الكنيسة ، ولـكنهم لم يفعلوا ذلك في هذه الحفلة فشاهد الجمع كيف مسح رئيس اساقفة كنتربري راحتي الملك وصدرهُ وقمة رأسهِ بالزيت وهو يقول لتمسح راحتاك بالزيت المقدس . او ليمسح صدرك . ثم لما مسح رأسهُ قال ليمسح رأسك بالزيت المقدس كما مسح الملوك والكهنة والانبياء

وتلا ذلك تقديم المهماز والسيف وصلى رئيس الاساقفة ضارعاً الى الله ان لا يتقلد سيفهُ عبثاً بل يستعمله لخدمة الله بارهاب الاشرار وحماية الاخيار . ثم ناولهُ اياهُ قائلاً اجر بهذا السيف العدل واوقف نمو الشر واحم كنيسة الله وأعن الارامل والايتام وجدد ما عتق واحفظ ما تجدد واصلح الاثيم وايد الصالح حتى تسمو كل فضيلة . ثم ناول رئيس الاساقفة رداء الملك والكرة والصليب قائلاً تقبل هذا الرداء الامبراطوري والكرة وليحبك الله مع المعرفة والحكمة بالمجد والقوة من لدنهِ وليحطك بنعمتهِ من كل جانب وليلبسك الرب رداء الصلاح وثوب الخلاص . واذا رأيت هذه الكرة موضوعة تحت الصليب فتذكر ان العالم كلهُ خاضع لقوة المسيح فادينا

وبعد ذلك دفع الملك بالكرة الى « دين » دير وستمنستر ليضعهُ على المذبح

ثم ألبسهُ خاتم الملك وناوله الصولجان قائلاً تناول صولجان العدل والرحمة وليمنك الله في اجراء كل ما وهبك من السلطة وكن رحيماً ولـكن لا تتناهَ في الحلم وعادلاً ولـكن لا تنس الرحمة وعاقب الشرير واحم الصالح وقد شعبك في السبيل الذي يجب ان يسير فيهِ

ثم رفع رئيس الاساقفة التاج وهو واقف أمام المذبح وتضرع الى الله ليبارك الملك ويتوّجهُ بكل فضيلة ووضع التاج على رأسهِ قائلاً يتوجك الله بتاج المجد آمين . وللحال رفع الاعيان تيجانهم من تحت مقاعدهم ووضعوها على رؤوسهم وهتفوا للملك

ثم رفع « دين » وستمنستر الكتاب المقدّس عن المذبح ودفع بهِ الى رئيس الاساقفة فقدمهُ للملك

قائلاً نقدم لك هذا الكتاب أثمن ما في العالم . هنا الحكمة . هذا هو القانون الملكي . هنا ألسنة الله . فأخذهُ الملك من رئيس الاساقفة ثم اعادهُ اليهِ فاعطاهُ الى «دين» وستمنستر فيضعهُ على المذبح

وكما ان المسح بالزيت المقدَّس ذروة ما تبلغهُ حفلة التتويج من الناحية الدينية ، كذلك وضع التاج فرفع الملك الى العرش ذروة ما تبلغهُ الحفلة من الناحية الدنيوية . لقد وضع التاج ، وها هو هذا الملك يتقدم الى العرش ، القائم على منبر مرتفع قليلاً فيرتقي درجاتهِ الخمس فعندما بلغ اعلاها اتجه الى المذبح فتقدَّم رئيس الاساقفة وبعض كبار الاعيان ووضعوا ايديهم تحت ذراعيهِ ورفعوهُ الى العرش رامزين بذلك الى ان سلطتي الكنيسة والشعب اشتركت في رفعهِ اليهِ فجلس الملك عليهِ وجعل رجال المملكة يمرون امامهُ يسجدون لهُ واولهم رئيس أساقفة كنتربري فسجد امامهُ وسجد الاساقفة الآخرون حيثهم واقفون ثم امراء البيت المالك فرفع كلٌّ منهم تاجهُ عن رأسهِ وركع امامهُ وقال اخدمك بحياتي وأكون اميناً لك حتى الموت فليساعدني الله ثم لمس تاج الملك بيدهِ وقبله على خده الايسر . وفعل مثلهم رؤساء فرق الاعيان ، اما اعضاء تلك الفرق فكانوا يركعون في مجالسهم وهم حاسرو الرؤوس عند ما يركع مقدمهم امام الملك

ثم احتفل بتتويج الملكة

ولهذا التتويج في نظر الانكليز وجهان وجه ديني ووجه سياسي فالاحتفال بهِ من الوجه الديني هو كما قال فيهِ بعض واصفيهِ اعظم احتفال ديني لهم . ولو أنعم الانسان نظرهُ في الصلوات والاقوال التي تقال فيهِ لوجد جوهرها التضرع من المخلوق الى الخالق والتقدُّم اليهِ بروح البساطة التي يتقدَّم بها الولد الى أبيهِ ليطلب منهُ لهُ وللملكة ما يريدهُ ويشتهيهِ

والاحتفال بهِ من الوجه السياسي اعظم احتفال دنيوي لهم . ولو انعم الانسان نظرهُ في الاقوال التي تقال فيهِ ايضاً لوجد انها تعظم قدر الملك وتعلي شأن وظيفتهِ الى اسمى الغايات وتذكرهُ في كل حركة وسكنة بما هو واجب عليهِ لشعبهِ وبالعهود التي يعاهد شعبهُ عليها وبكونهِ خادماً للقانون مؤيداً ومنفذاً لهُ

***

وقد يعترض البعض ان الملك لا يكون بعد التتويج اكثر صلاحاً وعدلاً منهُ قبل التتويج وانهُ اذا أجاب الله دعاء رئيس الاساقفة في حفلة مثل هذه فعلى مَ لا يجيب دعاءهُ من غير احتفال ولا اتفاق اموال . ولكن تاريخ الانسان يدلُّ على ان الحفلات الدينية الوقورة تؤثر في نفسهِ تأثيراً شديداً حتى لقد تحملهُ على اصلاح سيرتهِ والتفاني في عمل ما يجب عليهِ اما فائدتها السياسية فما لا شبهة فيهِ

العرش في التاريخ

والعروش المصرية الثلاثة

العرش قديم في نظام الاجتماع البشري قِدَم الملوك . والظاهر انهُ كان في أول عهدهِ دكة يقف الملك أو يجلس عليها لكي يكون فوق شعبهِ يراهم ويرونهُ فيشعرون بتفوقهِ عليهم بدليل ما في العربية وغيرها من اللغات من ألفاظ الصعود والارتقاء الى العرش . وشيء لا يختص بالملوك ويرتبط بهِ مقامهم وجاههم لا بد من ان يعنوا بتنميقهِ وتعظيمهِ أو يعنى بذلك المزلفون اليهم من رعاياهم . ولا مشاحة في ان المشارقة سبقوا أمم الارض في مبادىء الحضارة واتقان الفنون فلا عجب اذا سبقوهم ايضاً في صنع العروش لملوكهم والبلوغ بها الى أسمى ما بلغت اليهِ فنونهم كما ثبت من العرشين او الكرسيين الذين وجدا في قبر الملك توت عنخ أمون فان احدهما وهو المرسوم في صدر هذا العدد مصنوع من الخشب على شكل بديع أفرغ الصناع فيهِ مهارتهم وجمعوا بين الدقة في تمثيل الطبيعة والابداع في التعبير عن العقائد الدينية . فرأسا الاسدين اللذان تنتهي بهما ذراعا الكرسي والاخفاف الاربعة التي تنتهي بها قوائمهُ من أدق ما يكون . وعلى الظهر واليدين أمثلة وكتابات مما تنطوي عليهِ ديانة المصريين . ثم ان نوع الخشب وصفائح الذهب والمسامير الذهبية التي تربط اجزاء الكرسي والاصباغ التي طلي الخشب بها كل ذلك جامع بين الابهة والبهاء وشاهد بتفوق الصناعة المصرية في ذلك العصر

وقد جاء في التوراة وصف عرش سليمان حيث قيل « وعمل الملك (سليمان) كرسيًّا عظيماً من عاج وغشاهُ بذهب ابريز . وللكرسي ست درجات ورأس مستدير من ورائهِ ويدان من هنا ومن هناك على مكان الجلوس وأسدان واقفان بجانب اليدين . واثنا عشر أسداً واقفة هناك على الدرجات الست من هنا ومن هناك لم يعمل مثله في جميع الممالك » (ملوك الاول ١٠ : ١٨) . وقد عثر المنقبون على بقايا عرش من صخر متبلور في انقاض قصر سنحاريب الملك الاشوري . وكان العرش الذي بناهُ شاه عباس ملك الفرس من الرخام . والظاهر ان هذا الملك كان مولعاً بالعروش الفخمة فأهدى الى قيصر روسيا سنة ١٦٠٥ عرشاً مصفحاً برقائق الذهب ومرصعاً باللآلىء والاحجار الكريمة . وصنع القيصر فيودوروفتش جد بطرس الاكبر عرشاً من الذهب مرصعاً بثمانية آلاف حجر من الفيروز والف وخمسمائة حجر من الياقوت واربعة احجار كبيرة من الجمشت وحجرين كبيرين من الياقوت الاصفر . ومن مفاخر دهلي قبل ان افتتحها نادر شاه عرش الطاووس الذي قُدر ثمنهُ باثني عشر مليوناً من الجنيهات وكانت درجاتهُ من الفضة وقوائمهُ من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة . وسمي بعرش الطاووس لان فيهِ ذيلي طاووس منتشرين

ومرصعين بالالماس والياقوت ونحوهما من الحجارة الكريمة . والظاهر انهُ صنع لشاه جاهان صنعهُ المهندس الفرنسي الذي رسم المدفن الشهير المعروف باسم تاج محال

ويقول المؤرخ المدقق السر يوحنا موندفيل ان الملك برستر يوحنا كان له عرش يُصعَد اليه بسبع درجات اولاها من الجزع والثانية من البلور والثالثة من اليصب الاخضر والرابعة من الجمشت والخامسة من الجزع العقيقي والسادسة من العقيق والسابعة من نوع من الزبرجد. وكانت هذه الدرجات مطوقة بالذهب ومرصعة بالجواهر والعرش نفسهُ كان من الذهب المرصع بالاحجار الكريمة . وكان لاحد امراء الهند المعروف برانجت سنج عرش من الخشب مصفح بالذهب وهو الآن عند الحكومة الانكليزية

أما العروش الاوربية فلم تبلغ من الابهة والفخامة ما بلغتهُ العروش الشرقية القديمة . على ان امبراطرة الروم كانوا قد أخذوا شيئاً من أبهة الشرق وحبهِ للبهارج فبنوا عرشهم المشهور الذي قيل انهُ يماثل عرش سليمان وعلى جانبيهِ أسدان صنعت لهما آلة اذا تحركت وقف الاسدان وجملا يزأران . ومن العروش المشهورة عرش داجوبير أحد ملوك فرنسا في أواخر القرن السادس للميلاد وأوائل القرن السابع . وأول ما يذكر عن هذا العرش ان نبوليون جلس فيهِ حين وزع أوسمة الشرف في معسكره ببولون . اما العرش الذي صنعهُ نبوليون فكان كرسيًّا مغشّى بالذهب وتكثر عليهِ الرسوم المصرية ورؤوس الاسود والنسور

وحينما يتوفى البابا وتجتمع الكرادلة لانتخاب خلف لهُ يجلس كل منهم في عرش والعروش كلها على مستوى واحد حتى اذا تم الانتخاب تخفض كل العروش الا عرش الكردينال المنتخب وعرش البابا كرسي من البرونز القديم قائم في كنيسة القديس بطرس وليس لملك الانكليز عرش خاص والكرسي الذي في دير وستمنستر ليس عرشاً لانهُ لايجلس عليهِ الا في جانب من حفلات التتويج والحقيقة ان العرش الانكليزي هو الكرسي الذي في مجلس اللوردات ويجلس عليهِ الملك حين افتتاح البرلمان وهو مصنوع من خشب السنديان

وصفنا في صدر هذه المقالة اقدم العروش المصرية التي وصلت الينا ونصف الآن أحدثها وهما عرش محمد علي رأس البيت المالك والعرش الذي صنع المغفور لهُ الملك فؤاد الاول

اما عرش محمد علي فقد صنع في باريس من خشب رزين وطلي بالذهب وأفرغ الصناع الفرنسيون مهارتهم في صنعهِ ويظهر من وطوء الاسدين اللذين على جانبيهِ انهُ صنع لتوضع فيهِ مرتبة يجلس عليها عزيز مصر كما كانت عادتهُ في جلوسهِ وهذا العرش محفوظ الآن في دار الفنون والصنائع المصرية . ولا ندري لماذا لاتبتاعهُ الحكومة وتحفظهُ في دار آثارها . والعرش المرسوم هنا أقيم في دار البرلمان وكان الملك فؤاد الاول يجلس عليهِ عند افتتاحهِ البرلمان

باب الأخبار العلمية

الكيمياء الصناعية

ما تم تركيبه وما يتوقعه العلماء من ثمارها

الباكليت

في العالم مواد شتى، مألوفة، مركبة تركيباً صناعياً. وهي ثمرة مزج مواد كيمائية --- محللة او مذيبة لغيرها --- بعضها مع بعض مزجاً مدققاً فيه. وسنفصل فيما يلي بعض ما تم تركيبه منها نقلاً عن كتاب «مائة السنة المقبلة» لمؤلفه الاستاذ فرناس، الذي اشرنا اليه في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٦، وذلك تمهيداً للكلام على ما يرجى تركيبه في المستقبل: ---

تبين لنا ان الخليقة قد قصرت بعض التقصير في خلق العجائن الكيمياوية. وثبت من قِدَم لعلماء الكيمياء ان هذه البلاد «يقصد المؤلف الولايات المتحدة، وطنه» انما تعوزها مادة عجينية، يتاح افراغها في كل قالب، بحرارة غير مرتفعة. ثم تجميدها تجميداً حثيثاً، على اشكال مختلفة تبقى الى الابد. على ان تكون العجينة المنشودة، متينة ذات رواء، تقاوم عوامل الصدإ والاحتكاك والذوبان والحرارة. ويفضل ان تكون رخيصة ولكن ما من شجرة من الاشجار تثمر ثمرة تتسم بتلك الصفات كافة. ولما توجد على وجه الغبراء مادة تحوي هذه الخصائص جماء. فلا يبعد ان يبتدعها في وقت ما احد السحّار او بالاحرى يولدها عالم كيمياوي في المختبر

ولقد نبغ فعلاً عالم كيمياوي ألماني وهو باير Baeyer، وهذا كان مجهول الاسم في في جُبل تراجم علماء الكيمياء اذ شرع في سنة ١٨٧٢ يعالج، غيرعابئ، المواد التي تتولد من تكثيف الحامض الكاربوليك والفورمالدهيد. فاذا ما سُخّنت تانك المادتان المبتذلتان، بعضهما مع بعض، كونتا مادة عجينية راتينجية يتسنى صوغها. ومتى سلطت عليها الحرارة والضغط، تصلبت فصارت كتلة برّاقة. فلم يسع باير الا بذل قصارى جهده في درس ذلك التفاعل الكيميائي ولكنه لم يحسّنه الى درجة صنع راتينج تجاري منه. وحذا حذوه بعض العلماء فجرّب تجارب شتى غير انه لم يتيسر لاحدهم صنع مادة جيدة تشبه كل الشبه الراتينج الطبيعي أي الكهرباء «الكهرمان» أو أرخص منه ثمناً. ولعل علماء الكيمياء العضوية الاقحاح(١) لم يرغبوا في قدح قرائحهم في مسألة تنحصر

(١) القح — وجمعه أقحاح — الخالص من كل شيء — يقال فلان كريم قح — واعرابي قح

فوائدها في التجارة. فوقفت أبحاثهم عند ذلك الحدّ

وظلت أنواع الراتينج الصناعية غير موثوق بها، غالية ملأى بالعيوب

وكان اضطلاع باير بعمله ذلك، في السنة التالية لوقوف بسمارك في ردهة المرايا الفرنسية عملياً على فرنسا المقهورة وقتئذٍ، شروط الصلح المذلة مشفوعة بطلب غرامة حربية فادحة

ولم يتقدم الراتينج الصناعي تقدماً محسوساً حتى ظهر في أوربا جيل جديد من «غذاء المدافع» وأوشك ذلك الجيل الذي لم ينس الخصام القديم، يتأهب للانفجار، وحينئذٍ جعل علمنا الوضعي والتطبيقي يتقدم تقدماً وئيداً فلما حلت سنة ١٩٠٩ حتى نبغ كيماوي أمريكي اسمهُ بايكلند Baekland وهو عالم فاضل جداً (أصبح فيما بعد رئيساً للجمعية الاميركية الكيميائية) فتمم طريقة باير وسمى المادة باكليت Bakelite فاشتهرت شهرة واسعة اذ تكاد تستعمل في كل تركيب يقتضي عزل الكهربائية. وتصنع من الباكليت الصواني والالواح والاقلام الخازنة للمداد «اقلام الحبر» وأغطية المناضد الاميركية، ومقابض المظلات وعلب الجواهر والسجائر. ويدخل في صنع ادوات الطائرات وفي المناجم. ولا يبعد ان يكون مستعملاً في ادغال افريقية. وفي البلاد الاميركية في هذا الزمن مئات من انواع الراتينج الصناعي المختلفة. وقد بلغ عددها بحسب احدث الاحصاءات ١٢٠٠ نوع وكثير منها من نوع الدهيد فينول (phenol-aldehyde) حاصل من انحلال الالدهيد بفعل القلويات والمواد المشابه للباكليت، وغيرها من جوامد اليوريا. وبعضها مركب من الفرفرال الذي يستخرج من قوالح الذرة وقشور الزمير. واخرى مركبة من الجبنين الذي يربح الفلاحين من اللبن الزائد عندهم فينتفعون بهِ بهذه الوسيلة. ومنها راتينج الفنيل vinyl الذي يدخل في تركيبه الفاز الخلّي كمادة أولية. وبعضها يصنع من النفط. وغيرها من الجليسرين. والآخر قوامه الصمغ المرن (الكاوتشوك الطبيعي) فيتولد منهُ مادة اكثر رواجاً من كاوتشوك العصر الحالي الصلب

ومع ذلك فما من عجينة قد بلغت أوج الكمال، اذ جميعها أغلى مما يجب. لان المواد الاولية الداخلة في تركيبها ليست رخيصة. ونحن انما نحتاج الى مادة رخيصة يتسنى لنا بها تغطية حيطان الحمامات والمطابخ المتوسطة

***

وقد ذكرنا الباكليت في كتابنا (الصناعات والصناع) المطبوع في القاهرة في مارس ١٩٢٧ فقلنا في باب (منتجات الفحم الحجري) ما يأتي:

«ومن الفينول والكريزول والنفتالين وغيرها من منتجات قطران الفحم الحجري يحضر الكيميائيون في هذا العصر مواد كثيرة عجينية نافعة واعظمها الباكليت الذي سمّي باسم مستحدثهِ الاستاذ ل. ﻫ. بيكلاند L. H. Baekland الاستاذ السابق بجامعة غنت. والباكليت يستحضر من الحامض الكربوليك والفورمالدهيد. وباتحاد الباكليت

مع هاتيك المواد الراتينجية يسهل صوغه واحماؤه حتى يتصلب جداً بحيث يحتمل تأثير الحرارة والماء والغازات والاحماض والكهربائية . ولهذا السبب كثيراً ما يستعمل في صنع الآلات الكهربائية . ومن وجهة اخرى يتيسر تحويل الباكليت الى مادة شفافة تضارع الكهرباء الطبيعي (الكهرمان) . وقد تفضله متانة وطلاوة ولما كانت هذه المادة عديمة الرائحة والطعم غير قابلة للاشتعال ، استعملت بديلاً للكهرمان في صنع مباسم التدخين والخرز وما اليها من اشياء شتى ». وكثير من المركبات التي ركبت حديثاً ومنها ما ذكرناه آنفاً ، هي تحسينات للباكليت من جهة الثمن وقد جربت في صنع اطر النوافذ والابواب، فتبين انها لا تحتمل شدة الحرارة، اذ تلتوي في فصل الصيف . اذن لا توجد عجينة من عجائن الراتينج الصناعي بلغت المتانة التي نبغيها . فبعضها شفاف شفوفاً يذكر ، غير انهُ لا يصلح بديلاً للزجاج . وربما يحل احدها محله في مستقبل الزمن فتكون هي الزجاج المرن الذي تحدّث بشأنهِ الملأ منذ عهد حديث ولم يتمكنوا من اختراعه[1] وربما لا يوجد البتة عجينة راتينجية مركبة مستوفاة الشروط المبتغاة ولكن لا بدّ من ايجاد عجائن ، تكاد تستوعب مطالبنا . ومتى هبط الثمن وجاد الصنف ، دنونا خطوة من بيئة التركيب الكيميائي الكاملة التي تشمل كل شيء من شعارنا[2] الى السقوف التي نسقف بها بيوتنا . وهذا قد يصحبهُ بعض الانقلاب ، بيد انهُ ليس الانقلاب المنشود . ولا نستطيع معرفة مبلغهُ الآنَ اذا جربناه

عوض جندي

مادة عجيبة

تحتم على متناولها الاقامة في الظلام

أن البحث عن طريقة لصنع مادة تشبه اليخضور (وهو اللفظ العربي المقترح لترجمة كلوروفل اسم المادة الخضراء التي في النبات) في تركيبها وفعلها افضى بالعلماء الى تركيب نحو سبعين مادة مختلفة لا تحقق الغرض ولكنها على كل حال متصفة بخواص غريبة جداً ومنها مادة حقن مقدار عشرة مليغرامات منها في حيوانات مختلفة فقضت على تلك الحيوانات ما زالت هذه المادة في دمها ان تلتزم الظلام وتبتعد عن الضوء فاذا اخرجت من الظلام وعرضت للضوء الباهر قضي عليها في بضع ساعات

ومن اغرب ما يذكر عن هذه المادة ان كيماوياً المانياً لم يحجم عن تجربتها في نفسه فأصيب بما اصيبت به الحيوانات التي جربت فيها من حيث اضطراره الى التزام الظلام فظل عشرة اشهر على هذه الحال اذا تعرض قليلاً للضوء تورم وجهه واصيب بألم شديد وسقط شعره ثم ضعف أثرها وأصبحت حياتهُ سوية

---

(١) صدر مؤلف الاستاذ فرناس (مائة السنة القادمة) قبل ظهور الزجاج المرن — أو الاين وقد وصفناه في مقالنا على الكيمياء الصناعية في مقتطف يناير سنة ١٩٣٧ (٢) الشعار — ما يمس الجسد من اللباس

علاقة عنصر البوتاسيوم بالحياة والنمو

أزل البوتاسيوم من مجرى الدم يقف القلب عن الخفقان

النظائر في علم الطبيعة لفظ يطلق على اشكال مختلفة من عنصر واحد تتشابه في خواصها وتختلف في وزنها الذري واذن تختلف في تركيب نواتها وهي ترجمة اللفظ الاعجمي Isotopes فالرصاص المألوف يشبه الرصاص الذي ينتهي اليه تحول الراديوم بالاشعاع ولكنهما يختلفان في وزنهما الذري فرصاص الراديوم يعرف بأنه « نظير الرصاص اى ايسوتوبه »

ولعنصر البوتاسيوم غير نظير واحد . وأحد هذه النظائر يعرف باسم بوتاسيوم ٤١ له على ما يظهر من المباحث الكيمياوية والحيوية الجديدة صلة أية صلة بالحياة والنمو حتى لقد اثبت أحدهم انه اذا ازيل البوتاسيوم من مجرى الدم توقف القلب عن الخفقان

***

وعنصر البوتاسيوم من اعجب العناصر المعدنية التي لها صلة بالحياة ولا سيما بنمو انساج الاجنة الا ان البوتاسيوم العضوي الذي يوجد في الجسم قوامه ثلاثة نظائر البوتاسيوم الموسومة بالارقام ٣٩ و ٤٠ و ٤١ . ومن المؤكد ان النظير ٤٠ ومن المرجح ان النظير ٤١ يقذفان « الكترونات » وهي اشعة بيتا و « جمات » او اشعة اكس

ثم ان الاشعاع الذي تقذفه ذرات هذين النظيرين يسير جداً ولكن ثبت ان في كل جرام من البوتاسيوم الذي في جسم الانسان يوجد ٢٢٥ ذرة تنحل بقذفها الاشعاعات المتقدمة الذكر

وهذا يعني انه لو حول ما يقذف من ذرات البوتاسيوم الذي في اوقية من لحم الجسم الى ضوء اخضر لكان اقوى خمسمائة ضعف من اضأل ضوء تستطيع ان تتبينه العين البشرية اي انه لو تحول ما يطلق من بوتاسيوم الجسم من الاشعاعات الى ضوء أخضر لكنا نرى جسم الانسان وهو اشبه ما يكون بالهيكل المضيء . والذي لا يعلم حتى الآن هل لهذه الاشعاعات اية صلة بتأثير البوتاسيوم الحيوي

***

ففي الاجتماع الذي عقدته الجمعية الكيمياوية الاميركية التي الدكتور كيث برور Breuer احد علماء مكتب الكيمياء والتربة بوشنطن محاضرة في بحث جديد قام به هو واعوانه وغرضه معرفة وزن البوتاسيوم الذري في انساج الحيوانات لعل ذلك يفضي الى فهم صلة هذا العنصر بالحياة

كان العالم الالماني « زوارد ماكر » قد كشف انه اذا ازيل البوتاسيوم من مجرى الدم توقف القلب عن الخفقان . ثم وجد انه اذا وضع محل البوتاسيوم المزال من الدم مادة مشعة عاد القلب الى الخفقان . ثم وجد علاوة

على ذلك انه اذا عرض القلب لاشعاع مادة مشعة عاد الى الخفقان. ثم ايد الدكتور جالك لوب في معهد ركفلر الطبي هذه النتائج. ووجد في خلال بحثه ان وضع قدر من عنصر الكلزيوم في الدم بدل البوتاسيوم يعيد القلب الى الخفقان

***

بعد هذا اتجه التفكير الى التكهن. فقال الباحثون اذا كان للاشعاع هذا الشأن الكبير في خفقان القلب فامل الشأن الاول فيما يخص البوتاسيوم انما هو لنظيره المشع اي للنظير ٤١

ومما عزز هذا الاتجاه تجارب جربت في مدينة براج عاصمة تشكوسلوفاكيا. فقد ثبت من هذه التجارب ان انتاش البزور يزداد باضافة نظير البوتاسيوم ٤١ الى المحلول الذي تروى به. وانهُ اذا أخذت مائة بذرة وظهر ان متوسط ما ينتش منها هو ٢٠ بذرة ثم أضيف النظير ٤١ من البوتاسيوم او ذلك العدد زيادة كبيرة لا يسوغها الاحتمال الرياضي

ويؤخذ من مباحث الدكتور برور نفسه انهُ يلوح لهُ ان الجانب الاكبر من مقدار النظير ٤١ الذي في جسم مجتمع في انساج الجنين. وهو في نخاع العظم اكثر منهُ في سائر انساج الجسم ويقل بتقدم سن الحيوان

ومما يستوقف النظر ان الحيوان اذا أصيب بتوام سرطانية ظهر فيه مقدار من هذا النظير يزيد على المقدار السوي المألوف

سفن الهواء في المستقبل

رأي سيكورسكي

ايجر سيكورسكي روسي الاصل فرَّ من روسيا عند وقوع الانقلاب البلشفي ورحل الى اميركا. وكان منذ صغره معنيًّا بصناعة الطيارات وصنع طائفة منها لحكومة روسيا القيصرية في اثناء الحرب الكبرى. ولكنهُ بعد كفاح عنيف في اميركا اصبح في مقدمة صانعي الطيارات في العالم وهو على ما نذكر اول من صنع الطيارة «الامفيبية» اي التي تستطيع ان تحط على الماء او اليابسة وقد دعيت بالامفيبية تشبيهاً لها بالحيوانات الامفيبية (البرمئية كما ترجمت في بيروت والقوازب كما يقترح الاب انستاس تسميتها) وهي التي تعيش جانباً من حياتها في الماء والجانب الآخر على اليابسة كالضفادع

وقد اعرب سيكورسكي عن رأيه حديثاً في مجلة مهندسي الطيران فقال انهُ يتوقع ان تكون طيارات الركاب سنة ١٩٥٠ ضخمة الحجم تزن الطيارة منها مليون رطل وتتسع لالف راكب. اما في السنوات الخمس المقبلة فينتظر ان تبلغ طيارات الركاب خمس الحجم الذي يتوقعهُ لها سنة ١٩٥٠ اي يبلغ وزن الطيارات نحو ٢٠٠ الف رطل وتبلغ سرعتها ٢٥٠ ميلاً في الساعة وهي تطير طيراناً متواصلاً على علو ٢٥ الف قدم فوق سطح الارض

العناصر في الشمس

بعد ما اكتشف العلماء المطياف تمكنوا بواسطته ان يعرفوا ما في الشمس من العناصر التي كشفت على الارض . وعدد العناصر الارضية كما هو معلوم اثنان وتسعون عنصراً . وقد كشف منها في مادة الشمس حتى الآن واحد وستون عنصراً هي كما يلي :

ايدروجين	منجنيس	انتيمون
هليوم	حديد	باريوم
ليثيوم	كوبلت	لانتالوم
بريليوم	نيكل	ساماريوم
بور	نحاس	برازيديليوم
كربون	خارصيني	نيوديليوم
نتروجين	جاليوم	سيريوم
اوكسجين	جرمانيوم	اوربيوم
فلور	روبيديوم	جادلولينيوم
صوديوم	سترنتيوم	دسبروزيوم
مغنيزيوم	كولومبيوم	اربيوم
الومنيوم	مولبدنيوم	توليوم
سليكون	روثينيوم	اتربيوم
فصفور	اتريوم	لوتيسيوم
كبريت	زركونيوم	هفنيوم
بوتاسيوم	روديوم	تنجستن
كلسيوم	بالاديوم	اوسميوم
سكانديوم	فضة	اريديوم
تيتانيوم	كدميوم	بلاتين
فناديوم	انديوم	رصاص
كروم		

طائرة « الريح الالهي »

من عجائب الطيران في العهد الأخير فوز الطائرة اليابانية المعروفة باسم « الريح الالهي » بالطيران من طوكيو الى لندن في ٩٥ ساعة والمسافة نحو عشرة آلاف ميل وهو من معجزات الطيران البعيد المدى . لانه يعني ان متوسط السرعة خلال أربعة أيام بلياليها بما فيها ساعات الوقوف زاد على مائة ميل في الساعة

*

هل تعلم

ان الفيلسوف أرسطوطاليس وصف مائة وسبعين طائراً في كتاباته العلمية

ان في جسم الطفل احدى عشرة عظمة أكثر مما تجده في جسم البالغ وذلك لان بعض العظام في الجمجمة والسلسلة الفقارية تكون منفصلة فيه ثم تلتحم

ان في جبال الالب نحو الفي نهر جليدي (ثلاجات)

ان ازدحام السكان في مصر كان في تعداد سنة ١٩٢٧ ألفاً وخمسة وأربعين نسمة في الميل المربع

ان على سواحل البحار المختلفة ٢٧٩ منارة لاسلكية ترشد السفن

ان الانسولين جرب في تخفيف حالة المصابين بالأزما فأفاد

ان الرومان القدماء كانوا يعتقدون ان الاكثار من أكل الكرنب يطرد المرض على نحو ما يعتقد الانكليز وغيرهم في هذا العصر من ان أكل تفاحة كل يوم يقصي الطبيب

الالوان واقبال الامم عليها

أو نفورها منها

جاء من مقال نشر في مجلة هاربرز الاميركية ان الامم تختلف في ميلها الى مختلف الالوان . فمن العبث ان يسعى البائع الى بيع سيارة في اليابان مدهونة باللون الاحمر لان ذلك مناف للذوق الياباني . وقلما نرى في انكلترا سيارة مدهونة باللون الاخضر لان العامة تتوهم ان سيارة بهذا اللون شؤم على صاحبها ومن يركبها . وفي الصين يعتبر اللون الابيض لون الحداد . وتروى رواية عن شركة لبيع البنزين في الصين جعلت لون محطاتها ابيض فأفلست

*

تسمم الدم

بعد حرق شديد

يؤخذ من بحث القاه الدكتور هدل روي روزنتال في مؤتمر جمعية علماء المناعة الاميركيين ان تسمم الدم الذي يحدث على اثر حرق شديد، يحدث في بعض الاحيان صدمة قوية قد تفضي الى الوفاة . وان هذا التسمم سببه تولد مادة سامة في الجسم على اثر الحرق وقد تمكن من عزلها في اجسام المحروقين ووجد كذلك في اجسام المصابين الذين شفوا مواد مضادة للتسمم بها

وفعل المادة السامة يأتي عن طريق تأثيرها في جدران الاوعية الدموية فتجعلها قابلة لاختراق سائل الدم لها فيتسرب من الاوعية الى خارجها فيبطئ انسياب الدم في الاوعية الدموية الدقيقة

غرائب الحمام الزاجل

٧٢٠٠ ميل في ٢٤ يوماً

في ١٥ اغسطس سنة ١٩٣١ اطلقت في أراس بشمال فرنسا حمامة من الحمام الزاجل وكان الغرض من اطلاقها امتحان قدرتها على الرجوع الى بلدة سايجون في بلاد الهند الصينية والمسافة بين أراس وسايجون ٧٢٠٠ ميل . فوصلت هذه الحمامة الى سايجون في ٩ سبتمبر سنة ١٩٣١ اي بعد انقضاء اربعة وعشرين يوماً على اطلاقها في آراس ففاقت بذلك كل ما عرف عن الحمام الزاجل من هذا القبيل . ذلك ان قصب السبق في هذا المضمار كان لحمامة اطلقت في بلدة كاراكاس بفنزويلا فعادت الى بروكلين بنيويورك والمسافة بينهما ٢٢٠٠ ميل . واطلقت حمامة اخرى من فالنسيبورو بولاية مان الاميركية فعادت الى عشها في بلدة سانت انطونيو بولاية تكساس والمسافة بينهما ٢١٠٠ ميل

*

اختلاف مقاومة الجسم

للميكروبات بين الشتاء والصيف

قرىء تقرير في اجتماع جمعية الباثولوجيين والبكتريولوجيين الاميركيين وضعه الدكاترة للي درابر وارمسترونغ وباسترناك من اطباء المعهد القومي الصحي الاميركي جاء فيه إنهُ ثبت لهم من تجارب جربوها في الفئران أن الجسم أنشط في مقاومة الميكروبات في فصل الشتاء منهُ في فصل الصيف

مصل للنزلة الرئوية

أفعل من المصل المستعمل الآن وأرخص

وصف الدكتور روفوس كول احد اطباء المستشفى في معهد روكفلر الطبي بنيويورك في مؤتمر عقده القائمون على شؤون الصحة العامة في اميركا الشمالية طريقة جديدة لصنع مصل للنزلة الرئوية (النومونيا) أفعل من المصل المستعمل الآن وأرخص

ولباب هذه الطريقة استعمال الارانب بدلاً من الخيل لتوليد المصل في دمها

وعنده ان المصل الجديد المولد في دماء الارانب أفعل من المصل المولد في دماء الخيل لان جزيئات المواد الكيماوية المعروفة باسم الاجسام المضادة أصغر في مصل الارانب منها في مصل الخيل. وهي بذلك اقدر على التغلغل في انساج الجسم ومكافحة ميكروبات النزلة الرئوية

ولا يخفى ان القدرة على مكافحة ميكروب النزلة الرئوية (نوموكوكوس) يتوقف على وصول مقدار كاف من هذه «الاجسام المضادة» الى الجسم ليمد بالمعونة «الاجسام المضادة» المتولدة في الجسم نفسه

*

تثليث الزوايا

اكد الرياضيون من اقدم الازمان ان تثليث الزوايا مستحيل. ومع ذلك عرضت طريقة على احد اساتذة الرياضيات بجامعة كولومبيا لتثليث الزاوية، وكان عارض هذا الحل فتىً في الحادية عشرة من العمر فاضطر الاستاذ ان يشتغل ثلاثة اسابيع قبل ان يتبين موقع الخطأ في الحل المعروض عليه

*

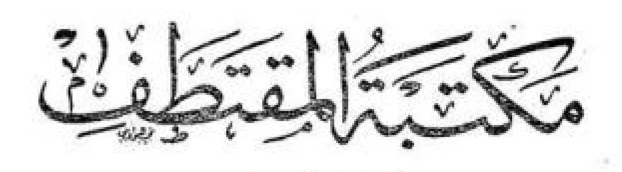
قياس سيل اللعاب

جربت تجارب من عهد قريب غرضها فهم البواعث التي تحمل غدد اللعاب على افراز لعابها. فصنع جهاز لقياس مقدار اللعاب الذي يفرز في احوال مختلفة، وتقدم احد المتطوعين لتجربة التجارب فيه. فلفظت امامه اولاً كلمة «كعكة» فسجل الجهاز افراز مقدار يسير من اللعاب. ثم عرضت عليه صورة فوتوغرافية سوداء وبيضاء لكعكة فزاد مقدار ما افرز من اللعاب. ثم عرضت عليه صورة فوتوغرافية ملونة لكعكة فزاد مقدار ما افرز من اللعاب على ما تقدم. ثم عرضت عليه كعكة حقيقية، فاذا الجهاز يسجل سيل مقدار كبير جداً من اللعاب في الفم

*

تعليم الزراعة بالقدوة

تجري الهند الآن على خطة رشيدة في تعليم الزراعة لجماهير الشعب وذلك باقطاع اراض لخريجي الكليات الزراعية بها يحرثونها ويستغلونها فينشروا بالقدوة القواعد الزراعية العصرية بين طبقات الزراع الهنود



الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي

تاليف الاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك

مطبعة النهضة : سنة ١٣٥٥ وسنة ١٩٣٧ : عدد الصفحات ٥٨٣

لعلني احد الافراد القلائل الذين أتيح لهم استيعاب أغلب ما كتب عن الثورة العرابية . حتى لقد بلغ من فرط شغفي بذلك وشدة حرصي عليه أنني مرضت من بضع سنين مرضاً — ظُنَّ انهُ مرض الموت — فكان آخر ما فكرت في أن أتزود بهِ بعد كتاب الله الكريم ، هو قراءة محاضر التحقيق مع الثوار للمرة الثانية قراءة تحقيق وتدقيق كأنها ستكون بعض سؤال الملكين

لقد كانت الثورة العرابية حركة قومية ونهضة وطنية — ما في ذلك أقل شك ولا أدنى ريب — ولعل قلب مصر لم يخفق في القرن التاسع عشر من عهد محمد علي الا عند ما بلغت تلك الثورة أشدها، واستوت على سوقها، وأوشكت ان تؤتي أكلها . فقد تنبهت الخواطر ، وازدهر الشعور الوطني . ونمت الحركة الفكرية . وسادت الحمية المصرية ، واستثيرت الهمم الفاترة ، واستحثت العزائم الخائرة . فتحركت النخوة في النفوس ، وذكت الحماسة في الصدور ، وعلم من لم يعلم أن مصر قد عرفت ما لها من الحقوق الى جانب ما عليها من الواجبات . وانها كادت تتبوأ مكانها اللائق بها بعد ان سلبتهُ مراراً بغياً وظلماً . فبعد ان كان السبب المباشر للثورة تذمر الضباط الوطنيين من سوء معاملة رؤسائهم من الشراكسة والاتراك ، وعدم مساواتهم بهم في الترقي الى المناصب الرئيسية تطورت الى المطالبة بتحسين حالة الجيش، وزيادة عدده، وتأليف مجلس نيابي على أحدث النظم، ثم انقلبت الى شعور مرير من التدخل الاجنبي في شؤون البلاد، وضرورة وضع حد لذلك . ومن يدري ما كان يكون لو تحققت هذه الآمال ولم تقف انكلترا — بمؤازرة فرنسا وتردد تركيا وضعف الخديوي — حجر عثرة في سبيلها . فأغلب الظن انهم كانوا يطالبون بالانفصال عن تركيا وتحقيق الاستقلال التام لمصر والسودان

ولو قيضت الاقدار النجاح لتلك الثورة ولم تتألب عليها جميع العوامل الداخلية والخارجية لبقي عرابي زعيم الزعماء الى أبد الآبدين — ولكننا اليوم بصدد الاحتفال بالعيد الذهبي لاقامة تماثيله في مختلف الانحاء — ولكنهُ أخفق ويا للاسف وأخفقت معهُ امانيه

والناسُ ، من يلقَ خيراً ، قائلون له   مايشتهي ، ولأُمِّ المخطئ الهبلُ

ومن ثمَّ اصبحت الثورة وبالاً على مصر وعلى السودان ، وعلى القومية والوطنية والاخلاق جميعاً . وكان وما يزال المؤرخ المصري يتحرج من الكتابة عنها بشجاعة وحرية وصراحة لمدة اسباب ، ليس اقلها شأناً كونها تتعلق بأسلاف الكثيرين من كرام المواطنين — جعلهم أعزة على المصريين — على ما سلف من آبائهم ، فحسبهم انهم في موقفهم يتشبهون الى حد ما بالخيرة من الصحابة الذين انحدروا من اصلاب أئمة الكفر

ولكن المؤرخ المحقق والوطني العامل الاستاذ الجليل عبد الرحمن بك الرافعي ، فرع الدوحة الرافعية النبيلة ورث فيما ورث عن جده الاكبر — عمر الفاروق — أنهُ لا يخشى في الحق لومة لائم — فوفق الى أبعد حدود التوفيق في تاريخ الحركة القومية بعد ان درسها درس العالم الخبير وألمَّ بموضوعاتها الماماً ما انبغى لاحد من قبله — وبلغ الغاية في كتابه الاخير (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي) حيث ابرزه في مجلد ضخم بلغت صفحاته نحو الستمائة وضمنهُ مقدمة وتسعة عشر فصلاً هي خير ما أخرج للناس في موضوعها، فقد احاط بمقدمات الثورة واسبابها واشخاصها ووقائعها ونتائجها ، بحيث اصبح سفره سجلاً تاريخياً وافياً لجميع الحوادث والاحداث التي نزلت بمصر من ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ الى يوم ٢ يناير سنة ١٨٨٣ ، وبعبارة أخرى من أول عهد الخديوي توفيق الى أن صدر آخر حكم على آخر من حوكم من الثوار

ولقد عني الاستاذ الكبير بترتيب الحوادث وتسلسل التواريخ وتنسيق الوقائع ، عناية من شأنها أن تيسر لاقل الناس ادراكاً تفهم هذا الدور الدقيق من تاريخ البلاد . فذكر أن عوامل الثورة ترجع الى اسباب خاصة وأخرى عامة . وقسم هذه الاخيرة الى سياسية واقتصادية واجتماعية — وهذه وتلك أصدق ما كتب في هذا الصدد — وأسهب في التكلم عن ميلاد الثورة وطفولتها وشبابها وشيخوختها ، ومختلف الوزارات التي عاصرتها، وما قامت به كل منها من ضروب الاصلاح والافساد . مبيناً في انصاف المؤرخ ما لها وما عليها دون أن يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها . وتناول الكلام — اثناء ذلك — على دستور سنة ١٨٨٢ ، وتدخل الدولتين الانجليزية والفرنسية في شأنه وما ترتب على هذا التدخل . وشرح ما قام به مجلس النواب في دورته القصيرة — الاولى والاخيرة — من جلائل الاعمال . ثم ما تلا انفضاضه من ظهور الفتن ، وتتابع الاحداث من اغراء العداوة والبغضاء بين الخديوي والثوار ، الى (مذبحة ١١ يونيه) ، وعقد مؤتمر الاستانة ، وضرب الاسكندرية ، وانضمام الخديوي الى الانجليز ، وعزل عرابي ، واعلان هذا الاخير بدوره عزل الخديوي وعدم طاعة أوامره . والمعارك الحربية التي دارت من ذلك التاريخ حتى انهزام الجيش المصري في موقعة التل الكبير ،

وما كان من موقف الأمة من كل ذلك التاريخ بالتفصيل والايضاح . وتسليم العرابيين ومحاكمتهم والحكم عليهم وما عقب ذلك من الاحتلال الخانق الشائن المروع ، حيث ساد البلاد جو قاتم من الدس والسعاية والوشاية مما يعف القلم عن الخوض فيه . ثم تناول في أدب العظماء ودقة العلماء ولباقة الزعماء تحليل شخصيات زعماء الثورة ، وأنصفهم غاية الانصاف ، فلم يستشهد على رأيه فيهم الا بأقوال أصدقائهم . وهذا هو منتهى العدالة . وأخيراً تكلم عن اسباب اخفاق الثورة كلاماً أوتي فيه الحكمة وفصل الخطاب

والخلاصة ان الاستاذ المؤرخ قد افتنّ في بسط الاسباب ، واستخلاص النتائج ، وتحليل الشخصيات ، والتعليق على الحوادث ، وايراد أصدق الشواهد ، وأعدل المصادر وأنضج الآراء . كل هذا بأسلس عبارة وأبلغ بيان وأصدق برهان بحيث لم يدع محلاً لنقد الناقد أو زيادة لمستزيد

ومن عجب أني حاولت أن أقتبس بعض ما أعجبت به من آرائه القيمة كتعليقه على موقف تركيا (ص ١٦٦ و ٣٢٤) ، ومؤامرة الضباط الشراكسة (ص ٦٦٢) ، وموقف الخديو (ص ٢٧٠) ، ومذبحة الاسكندرية (ص ٢٩٨) والوطنية المصرية (ص ٣٦٢) ، وجهل عرابي (ص ٤٣٢) ، وشرعت في ذلك بالفعل ولكن لم أجدها خيراً من باقي الكتاب والفيئني بعد مضطراً أن أنقل الكتاب كله للقراء ، والا فلن أستطيع أن أوفيه حقه ولا بعض حقه

وبعد فقد أحسن عبد الرحمن بك الرافعي الى الأمة والى التاريخ بتلك السلسلة الرائعة عن الحركة القومية وأخصها كتاب الثورة العرابية . ولا أدري هل يجدر بالمصري الذي لا يقتنيها باعتبارها أدق المواقف في ماضي بلاده القريب ، وأكثرها خطورة وحساسية ، أن يفاخر بمصريته ! ! ففي الحق انهُ من العار ان يعيش مصري مثقف في هذا العصر وهو يجهل المآسي التي مثلت على مسرح البلاد في القرن الماضي

وفي الحق ايضاً ان اطالب الاستاذ الجليل بأن يتفضل باعادة طبع تلك السلسلة الثمينة طبعة متواضعة لتكون في متناول ايدي المتوسطين والفقراء الذين يريدون ان يطلعوا على كل شيء وهم لا يكادون يملكون شيئاً

بقي انني لم اعرف الا من هذا الكتاب ان رفات شهدائنا في موقعة التل الكبير لم تضمها مقبرة ظاهرة حتى اليوم ، في حين ان الانجليز قد كرموا قتلاهم بها . وذكرني ذلك بما علمته وأنا بكردفان بالسودان ان رفات شهدائنا في مذبحة هكس باشا لا تزال اكداساً مكدسة في شبه تلول لم يعنَ بدفنها احد للآن . وأظن انهُ قد آن الاوان لان تعنى الامة في عهدها الجديد بهؤلاء وأولئك

حامد القرضاوي
مؤلف (ضحايا مصر في السودان)

الفن في مصر في عصر البطالسة

للدكتور ابراهيم نصحي

The Arts in Ptolemaic Egypt. by Dr. Ibrahim Noshy.

كتاب جديد ، ولكنهُ ليس كغيره من الكتب . فموضوعه طريف لم يؤلف فيهِ مصري قبل اليوم . وطبعهُ أنيق يشعر بما للقائمين على مطبعة جامعة اكسفورد Oxford University Press من ذوق جميل وخبرة واسعة . اما المؤلف الدكتور ابراهيم نصحي فمن خيرة شبابنا المثقف ومن هيئة التدريس في كلية الآداب . وقد كان كتابهُ الذي نحن بصدده الآن الرسالة التي تقدم بها للحصول على شهادة الدكتوراه من جامعة لندن . وحسبك تزكية لهذا المؤلف ان رحب به ناشرو جامعة اكسفورد وبأخذوا على عاتقهم اصداره في هذه الحلة القشيبة

ولا ريب في ان الدكتور نصحي كان موفقاً كل التوفيق في اختيار هذا الموضوع ، لاتصاله بثقافتنا الفنية اولاً ، ولان علماء الآثار ومؤرخي الفنون اقبلوا على دراسة الفن الفرعوني او الفن الاغريقي ، ولكن ندر من بينهم من وقف جهوده على بحث نتائج الجوار بين اساليب هذين الفنين على يد البطالسة في وادي النيل

فكلنا نعرف ان تقسيم امبراطورية الاسكندر بعد وفاته كان من نتائجهِ ان آلت مصر الى بطليموس احد قواده يحكمها معترفاً بوريثي الاسكندر وهما اخوه غير الشقيق وابنهُ الصغير . وتولى بطليموس حكم مصر سنة ٣٢٣ ق . م فعمل على الاستقلال بامرها حتى استطاع ان يتخذ لقب الملك سنة ٣٠٥ ق م فأسس بذلك أسرة البطالسة المقدونية الاصل وهي التي ظلت تحكم مصر حتى هزم الرومان كليوبطرة في واقعة اكتيوم سنة ٣١ ق . م فأصبح وادي النيل جزءاً من الامبراطورية الرومانية

ومع ان البطالسة كانوا اغريقاً في حياتهم الخاصة ، وظلت الصبغة الاغريقية تسود بلاطهم في الاسكندرية ، فقد عملوا على التقرب الى المصريين بتقليد فراعنتهم القدماء والاخلاص لآلهتهم الوطنية وتشييد ما هدمهُ الفرس او تطرق اليهِ الدمار من المعابد القديمة ، مقلدين في اصلاحاتهم او عمائرهم اساليب الطراز المصري القديم في العمارة والنحت والزخرفة كما تشهد بذلك معابد فيلة وادفو ودندرة واسنا وكوم امبو . وقصارى القول ان حضارة البطالسة كانت اغريقية الاصل ولكن سياستهم الدينية كانت تتطلب احياء الفن الفرعوني القديم بوصف كونه اداة الديانة القديمة واكبر ممثل لها . ومن ثمّ فان الجمع بين اساليب الفنين الاغريقي والفرعوني جمعاً يعتبر صدى للاتحاد السياسي الذي كادت تحققه احلام الاسكندر وامبراطوريته ، نقول ان هذا الجمع لم يسع

اليه البطالسة دائماً بل انهم كانوا لا يرحبون به ، رغبة منهم في ان يثبتوا بأساليب الفن الفرعوني القديم انهم ملوك شرعيون لدولة عريقة في القدم والحضارة وليسوا حكام اقليم يخضع لبلاد الاغريق ويتخذها قدوةً واماماً . وهكذا نرى ان سياسة البطالسة الخارجية وسياستهم الدينية تآزرتا في نهج مناهج المصريين القدماء واحياء الاساليب الفنية التي كانت سائدة في عصر النهضة المصرية قبل أن يغزو الفرس وادي النيل

ولكن على الرغم من ارادة البطالسة أنفسهم فان تيار الثقافة الاغريقية غمر مصر كما غمر سائر اقطار الشرق الأدنى فأصبح الفن في عصر البطالسة مزيجاً من الاساليب الفرعونية والاساليب الاغريقية ، وأثر فيه كل التأثير ما عرف عن الفن الاغريقي في النحت من حرص على دقة تصوير أجزاء الجسم وعناية بأظهارها على حقيقتها

والدكتور نصحي يبسط لنا في كتابه التأثيرات الاغريقية والتأثيرات الفرعونية في عمارة البطالسة وفي نحتهم . فيبدأ بمقدمة عامة يدرس فيها حالة سكان مصر في عصر البطالسة وهم الذين يعتبر الفن في هذا العصر مرآة لهم ومعبراً عن حضارتهم . ويبين المؤلف ان تغير الظروف السياسية منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد أضعف الروح الاغريقية في مصر الى درجة محدودة ويرى ان هذا لم يكن نتيجة امتزاجهم بمصر او تأثرهم بشيء منها بل نتيجة تحول الروح الاغريقية في وسط جديد وتحت ظروف جديدة (ص ١٤) ويستخدم المؤلف في التعبير عن هذا القول عبارة للاستاذ روستوفتزف Rostovtzeff . ونحن لا نرى رأيهما في هذا الميدان لاننا نقول بأن ذلك الوسط الجديد وتلك الظروف الجديدة ترادف تماماً امتزاج الاغريق بمصر وتأثرهم بها . وعلى كل حال فان الدكتور نصحي يشرح من ناحية أخرى تأثير الاغريق في المصريين ويبين ان بعض المصريين تعلم الاغريقية واتخذ اسماء الاغريق وملابسهم وغير هذا من المظاهر ولكن ظلت الاكثرية الساحقة من الشعب مصرية حتى الصميم

***

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى الكلام عن العمارة بادئاً بالقبور عند الاغريق وعند الفراعنة وعند البطالسة فنراهُ يدرس خصائص كل منها في دقة علمية كبيرة ثم يقارن بينها ليصل الى النتائج التي يثبتها في آخر هذا القسم من كتابه وهي ان قبور المصريين في عصر البطالسة كانت مصرية الطراز غير متأثرة بالفن الاغريقي ولكنها كانت فقيرة يندر وجود المعابد فيها ولا يعنى ببنائها ولا تزخرف منها الا الاضرحة والتوابيت ويكثر فيها دفن عدد من الموتى في مقبرة واحدة . غير انهُ من الصعب ان تقابل هذه القبور بمدافن المصريين القدماء الذين كانوا اكثر مالاً واعظم قوة وكانوا السادة الحقيقيين في بلادهم

ويتبع الاستاذ نصحي نفس الطريقة العلمية السديدة في درس المساكن عند الاغريق وعند الفراعنة وعند البطالسة فيظهر اطلاعه الواسع والمامه الوافي بأطراف الموضوع ويصل الى ان البيوت في عصر البطالسة ظلت اما اغريقية وإما فرعونية ، فأهل الاسكندرية كانت لهم بيوت من طرازين : الاول يشبه البيوت التي عرفت في القرن الثالث قبل الميلاد بمدينة بريين Priene والثاني يشبه البيوت التي عرفت في القرن الثاني قبل الميلاد بجزيرة ديلوس . ويظهر انهُ كانت هناك بيوت اغريقية في مدينة بطولمايس بمصر العليا وفي بعض مدن الفيوم وفي نقراطيس . بينما كان المصريون والاغريق يتخذون في سائر المدن المصرية بيوتاً مصرية تشبه التي عثر على انقاضها في تل العمارنة

***

ثم يأتي دور المعابد فيذكر الدكتور نصحي ان البطالسة شيدوا بعضها لآلهة الاغريق كما شيدوا لآلهة المصريين القدماء ، ولكن لسوء الحظ لم تصل الينا اي آثار خطيرة لمعبد اغريقي الطراز وان تكن قد وصلتنا بقايا معبد من الطراز الدوري Doric ويظهر انهُ كان اغريقيًّا بحتاً كما وصلتنا ايضاً بقايا عناصر معمارية عليها طابع مدينة الاسكندرية المحلي ولكنها رغم ذلك من شق الطرز اليونانية

ويبيّن المؤلف أن المعابد المصرية في عصر البطالسة كانت مصرية التصميم والعمارة والزخرفة وانها تمتاز بظاهرتين : الاولى نوع الاعمدة ذو الطراز المركب ويرى الدكتور نصحي انهُ طراز قديم اهتدى اليه المصريون انفسهم في عصر سايس اي في عصر النهضة التي تلت سقوط الدولة الحديثة . والظاهرة الثانية هي الجدران التي يسمونها الحاجزة او الساترة screen-walls or curtain walls وقد اظهر المؤلف انها ليست من اختراع البطالسة بل عرفتها قبلهم الدولة الحديثة في الكرنك ومدينة حابو كما عرفتها الاسرة الثلاثون في مدينة حابو وفيلة . ويمكن تفسير استخدام هذه الجدران الحاجزة ذات النوافذ بالرغبة في ادخال قدر كبير من الضوء والهواء الى داخل المعبد

ويصل المؤلف في هذا الفصل الى نتيجة هامة جدًّا . وهي ان العمارة الدينية في عصر البطالسة كانت في الغالب اما اغريقية بحتة وإما مصرية بحتة وان المزج بين الطرازين لم يتجاوز بعض تفاصيل الزخرفة . وهذا يخالف المعروف حتى الآن . وعلى الرغم من الادلة القوية التي يسوقها الدكتور نصحي فاننا لا يسعنا ان نسلم بها على طول الخط قبل ان يتاح لنا درس الكتاب كله درساً وافياً والاطلاع على الأثر الذي يحدثه في اوساط علماء الآثار ومؤرخي الفن ممن هم أوثق منا اتصالاً بهذا العصر من تاريخ الفن المصري

أما عن النحت فقد ضمن المؤلف كتابه دراسة ممتعة أظهر فيها الصبغة الاغريقية التي سادت اكثر منتجات المثالين في الاسكندرية كما سادت نقوش العملة في عصر البطالسة بينما كانت التماثيل المصرية في سائر انحاء البلاد مصرية الطراز . وان تكن هناك حالات يلاحظ فيها محاولة المزج بين الطرازين الاغريقي والفرعوني . ثم أظهر الزميل الفاضل ما أصاب النحت في الاسكندرية منذ ابتداء القرن الثاني قبل الميلاد حين انقطع سيل المهاجرين الاغريق وحين تعصب البطالسة للمصريين وازدادوا في التقرب منهم بل وذهبوا الى حد اضطهاد الاغريق فقلّ طلب التماثيل الاغريقية وانحطت صناعها

وهكذا نرى ان الدكتور نصحي يبشر في كتابه الجديد بآراء لها خطرها ويمكن تلخيصها في ان الفنين الاغريقي والفرعوني احتفظ كلاهما بذاتيته في عصر البطالسة وان محاولات المزج بين هذين الطرازين كانت قليلة وغير موفقة حتى ليمكننا اعتبارها انعكاس اهواء فردية او ذوقاً فنيًّا غير ناضج . ولسنا اليوم بصدد مناقشة هذه الآراء فاننا — وان كنا نهتم بكل ما يمس تاريخ الفنون المصرية — لا نملك حق الحكم على ابحاث احد الاختصاصيين في عصر من العصور قبل ان نلمّ بأطراف الموضوع ونستنير باقوال غيره من الاختصاصيين

ولكن الدكتور نصحي يستحق على هذا المؤلف الثمين وعلى صوره البديعة وآرائه الخطيرة وطريقته في البحث والتدليل كل الحمد والثناء وحسبنا انهُ مصري يساجل علماء الآثار الحجة بالحجة ويدفع ما نتهم بهِ من اننا قوم لا تقاليد فنية لنا ولا يمكن ان تجذبنا دراسة الفنون والآثار

زكي محمد حسن
أمين دار الآثار العربية

كتاب الوراثة

تأليف الدكتور احمد فاضل الخشن — مدرس الوراثة وتربية الحيوان بكلية الزراعة
٣٥٠ صفحة قطع المقتطف — دار النشر الحديث

من الامور المسلم بصحتها ان الأولاد يشبهون والديهم ، ولكن هذا الشبه لا يتناول جميع الخواص والصفات ، بل هناك تباين كبير ، يصدق هذا القول على النبات والحيوان صدقهُ على الانسان . والعلماء الذين انقطعوا لدراسة الوراثة غرضهم الوقوف على الأسلوب الذي تجري عليهِ الطبيعة في احداث هذا التشابه العام وهذا التباين الخاص ، وهو موضوع يستهوي العقل من ناحيتهِ النظرية ، لان العقل الانساني يتطلع أبداً الى كشف المجهول . وكل كائنٍ حيٍّ اذا

نظرنا اليهِ من حيث مشابهتهِ لوالديهِ او تباينهِ عنهما لغز يعضّ العقل ويستفزهُ الى البحث والفهم . ثم انهُ موضوع لهُ نواحيهِ العملية في تحسين النبات والحيوان . اذ ليس هناك ما يحول دون تجربة التجارب وتطبيق المكتشفات عليهما . وأما في ما يخص الانسان فسيبقى هذا التطبيق متعذراً الى ان تبيحهُ طبيعة الاجتماع البشري

حاول الباحثون في القرون السابقة محاولات عديدة غرضها ازاحة الستار قليلاً عن أسرار الوراثة ، ولا سيما وراثة بعض الصفات الظاهرة ، كلون العين ، والنزف الوراثي ، وما يعرف « بشفة هبسبرج » . وبعد ما قضى داروِن سنين في دراسة ناحية واحدة من الموضوع قال : « ان جهلنا بقوانين الوراثة وأصل الانواع جهل بالغ » ومات وأسرار الوراثة لا تزال محجبة عنهُ

ولسنا نقول ان اسرارها قد أُبيحت جميعاً لعلماء اليوم. ولكننا بدأنا نفهم الاساليب التي تجري عليها الطبيعة في احداث التشابه والتباين بعض الفهم ، وذلك بفضل البحوث التي قام بها عشرات بل مئات من العلماء . يتبادر الى الذهن منهم مندل وڤيسمن ودِه فريز ومورغن

كان الرأي الغالب الى مطلع القرن العشرين ان البيئة مردُّ التحول البطيء المتدرج في الاجسام الحية ، الذي يفضي على مرّ الزمن الى خلق أنواع جديدة من الكائنات الحية . ولكن هذا التفسير لم يكن مقنعاً كل الاقناع . فقد عرف من أقدم عصور التاريخ ان الصينيين كانوا يضعون اقدام اناثهم في قوالب لابقائها صغيرة . ولكن ذلك لم يفض بعد إبطال هذه العادة الى توريث الاجيال الجديدة من الصينيين اقداماً صغيرة

ثم عثر العلامة الهولندي ده فريز على نوع جديد من زهر الربيع نامياً نمواً بريًّا في حقل خارج امستردام . فأخذه وجرب تجاربهُ فيه فوجدهُ يتناسل تناسلاً صريحاً . فقال هو دليل على ان النوع الواحد من نبات يستطيع ان يخلف فجأة نوعاً جديداً قائماً بذاتهِ فدعا ذلك بالتحول الفجائي mutation

فكان القول بالتحول الفجائي الحافز الى اسلوب جديد من البحث في الوراثة . وهو اسلوب مناسلة الاحياء ومراقبة ما يحدث فيها من التحولات الفجائية . فانتقل التطور والوراثة ، بهذا الاكتشاف الى ميدان البحث التجريبي الخاضع للقياس والاحصاء والمراقبة

فلما اقبل توماس هنت مورغان الاميركي ، على هذا الاسلوب سنة ١٩٠٩ وكان في الثالثة والاربعين من عمره ، انفتح امام علم الوراثة باب واسع ، دخل منهُ الى باحة النظرية « الصبغية » (الصبغيات جمع صبغيّ هي الكلمة العربية التي وضعها مجمع اللغة العربية الملكي للفظ كروموسوم الاعجمي) ، والنظرية الجريثمية (جريثمة وجمعها جريثمات كلمة مقترحة لتأدية معنى genes وهي

عوامل الوراثة التي تتألف منها الصبغيات بحسب نظرية مورغن) والنظريتان معاً هما الاساس الذي يقوم عليهِ علم الوراثة في حالتهِ الحاضرة

وليست النظريتان مما يسهل وصفه او تلخيصه في كلمات ، وقد نشرنا في مقتطف ١٩٣٢ سلسلة من المقالات للدكتور شريف عسيران بسّط قواعدها ونواحي تطبيقها . ومع ذلك لم يكن البحث بسيطاً الاَّ في نظر من كان ملمًّا بعلوم الاحياء الاساسية

ومن بضع سنوات ، دخل بحثَ الوراثة اسلوبٌ جديد ، لسنا نعلم ما يكون اثرهُ ، ولكننا نعلم ان الأمر لن يكون يسيراً . وهذا الاسلوب ، هو الكشف عن ان اشعة اكس تكثر حدوث التحوُّلات الفجائية ، فيتاح كذلك للباحث اخضاع البحث في التحوُّلات الفجائية لسيطرتهِ ، وهي التي كانت لا يؤثر فيها لا ضغط ولا بردٌ ولا حرٌّ

هذه المباحث العلمية الدقيقة الطريفة ، هي مدار هذا الكتاب العلمي النفيس الذي عني بوضعهِ عالم مصري طلب علم الوراثة على احد اساطينهِ المعاصرين ونعني الاستاذ كرو واليهِ اهدي الكتاب . وقد بدأه بمقدمة تاريخية اجمل فيها اهم التعاريف في علم الوراثة وأساليب دراسة الموضوع وما لهُ من الشأن العلمي . ثم وقف الابواب الثلاثة التالية على مباحث مندل في الوراثة وملابساتها ، ومندل هو الراهب التشكوسلوفاكي الذي اكتشف قانوناً من قوانين انتقال الصفات الوراثية في العقد السابع من القرن الماضي وطواه في رسالة ، لم ينتبه لها الاَّ في مطلع القرن العشرين . ثم شرع المؤلف بعد ذلك في بحث الاساس المادي للوراثة ، اي الصبغيات والجريثيات وكيف تجتمع وكيف تفترق . وكيف تحدث في اجتماعها وافتراقها الصفات الوراثية المختلفة او التحولات الفجائية التي تحدث التباين

والموضوع من اولهِ الى آخرهِ علميٌّ دقيق ، ولذلك عني المؤلف باكثار الرسوم والصور والجداول مبالغة في ايضاح المعاني ، ومع ذلك لا يمكن أن يقال ان هذا الكتاب في متناول كل احد يريد ان يفهم ما الوراثة وما اساليبها وما تفسيرها ، ولكنهُ وضع خاصة على ما يظهر لطلاَّب هذا العلم

الاَّ ان فيهِ بعض فصول اقرب الى تناول الجمهور من غيرها كوراثة الصفات المكتسبة (١٢) ووراثة الامراض والعيوب الجسمية (١٣) والفصل الاخير الخاص بموضوع العلاقة بين الآباء وتأثيرها في الابناء ... الخ

ولسنا ندري لماذا استعمل المؤلف لفظ « التصنيف » ترجمة للفظ Variation الانكليزي ، وقد سبق استعمال تباين وتغاير وهما أدلُّ على المعنى . واما تصنيف فقد استعمل في اللغة العربية ترجمة للفظ Classification

المختار

للاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري

ليس بين قراء الصحف والمجلات وطلاب الادب العربي وعشاق الفصحى من يجهل اسم الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري أو من لم يقرأ له مقالاً أو فصلاً من الفصول المعروفة « بأمالي رمضان » و « اليوميات » او من لم يسمعهُ محاضراً في المحافل او في محطة الاذاعة . وليس بينهم الا كل معجب به كاتباً مجيداً طويل الباع ومداعباً ظريفاً خفيف الروح فكه الحديث بارع النكتة في عبارة مهذبة كريمة . وقد قلنا في مقتطف دسمبر ١٩٣٥ عند صدور الجزء الاول من المختار « فالفصول التي يحتوي عليها هذا الكتاب من الآيات الادبية . فهي تمتُّ من ناحية الى أعرق الاصول في ادبنا العربي المجيد ، ومن ناحية اخرى الى حياة الذهن المصري الحافل في هذا العصر بضروب المعاني المستحدثة والآراء الطريفة »

وهذا الجزء الثاني من المختار الذي اتحف به الاستاذ البشري عشاق البلاغة يضم بين دفتيه طائفة حسنة من البحوث في الفنون وعلوم البلاغة والموسيقى والاغاني المصرية والمغنين المصريين واذا كانت الفنون الجميلة ترقق العاطفة وتصقل الذوق وتسمو بالخيال وتلطف الحس فان في تخصيصه هذه الفصول بالموضوعات المتصلة بالفن لدليلاً بيناً على رقة هذا الكاتب ومافي أدبه من حلاوة وقد أعجبنا منه عرفانه لجميل كبار رجال الفن الموسيقي كعبده الحمولي وسلامة حجازي وسيد درويش كما اكبرنا فيه حملته على « الطقاطيق » الحديثة الفاجرة وما فيها من مباينة للوقار والحشمة

ولكن هذا الجزء ينطوي على طائفة أخرى من النقدات اللطيفة التي تشيع في خلالها النكتة المرحة وقد تناول بها كثيراً من الاخلاق كالتطفل والبخل والغرور والغباوة وغرابة الطباع والمباهاة الفارغة كما انهُ قرع بها ظهور بعض من فئات البشر كالشحاذين والشعراء ومساحي الاحذية والحمالين وعشاق الوظائف وسواهم . « فسلخ جلودهم » جميعاً بأسلوبه الطريف الذي اختص به وداعبهم بعبارته الرقيقة الحلوة التي يلتذها حتى الذين انتقدهم وأشار الى عيوبهم مع ما فيها من طعم حرّيف لاذع

ومزية أدب الاستاذ البشري انه ثمرة خبرة شخصية بهذه الاخلاق والجماعات التي وضعها على المشرحة وساعده على وضعها لغة طيعة وقلم مسعف وبيان ناصع وفكر عميق واحساس رقيق ومما زاد هذا البيان حلاوة ما تخلله من الكلمات العامية الشائعة وما عرفهُ من الاسماء والنعوت . وحسب القارىء ان يقرأ فصول « التطفل والمتطفلين » و « شعراؤنا والندابات » وغيرها ليضحك ملء شدقيه ولكنهُ ضحك كالبكاء على هذه الاخلاق التي قصد الكاتب بالاشارة اليها ونقدها مداواتها

صور من الحياة في جبل القلمون (سوريا)

تأليف يوسف موسى خنشت — هدية مجلة المسرة

لعل من أهم ما تحتاج اليه الدراسات الاجتماعية في الشرق العربي هو تلك المجموعة التي يسميها علماء الاتنوغرافيا (فوكلور) والتي تتألف من وصف عادات ابناء كل قطر من الاقطار واخلاقهم وتقاليدهم وطراز حياتهم في مختلف اشكالها وانماطها ، لانهُ لا يمكن درس الاوضاع الاجتماعية في جماعة من الجماعات واصلاحها الاّ بعد معرفة هذه الاوضاع ووصفها وصفاً علمياً يتفق مع الواقع ، وهي حقيقة اقرّها علماء الاجتماع وأجمعوا عليها ، وانهُ من المؤلم ما اعتاده اكثر الكتاب والادباء في انحاء الشرق العربي من حرصهم على وصف ما هو بعيد عن الحس وألصق ما يكون بالخيال وترفعهم عن الاهتمام بالواقع ووصف مشاهده ومظاهره حتى كان من جراء ذلك ان توارى في طيّات العدم كثير من صور حياتنا الاجتماعية دون أن يعمد أحد من الكتّاب الى وصفه وتسجيله لتحتفظ به الامة كتالد ثمين يذكرها بالماضي ويفسر لها الحاضر ويعينها على تفهم الطريقة التي يجب اتباعها في الاصلاح الاجتماعي الذي هي أحوج ما تكون اليه

لقد بسطنا ذلك لنبين مقدار ما يستحقهُ من الثناء مؤلف كتاب صور من الحياة في جبل القلمون على عمله ، فلقد جمع في مؤلفه نماذج كثيرة من صور الواقع في هذه البقعة الواسعة من بقاع سورية على الطريقة العلمية الاتنوغرافية بعد أن استشار الكثيرين ممن خبروا هذه الطريقة ودرسوها

ابتدأ المؤلف بوصف منطقة القلمون ثم تطرق الى وصف عادات أهلها وتقاليدهم وطراز معاشهم وأنواع أغذيتهم والمراسم المتبعة في زياراتهم وولائمهم وأعيادهم ومراسم الزواج لديهم والتقاليد التي ما برحت متبعة في أفراح الولادة والختان وما يتبع ذلك من ألعاب ومهرجانات وحفلات راقصة ثم مراسم المآتم وتقاليدها ، وقد ختم المؤلف كتابه بفصل خصصهُ لمجموعة من الأناشيد الشعبية التي ما برح يرددها سكان تلك المنطقة ويتغنون بها رجالاً ونساء ويتخلل مباحث الكتاب كلها رسوم شمسية كثيرة تمثل جبال القلمون وسكانها في مختلف حالتهم وأوضاعهم ولقد قدم الكتاب للقراء كلٌّ من الاستاذين عيسى اسكندر المعلوف ورشيد مخلة كما قدمهُ للمستشرقين من الأوربيين الاستاذ جان لوسيرف أحد أعضاء المعهد الفرنسي في دمشق بعد ان درج خلاصة ما جاء فيه من أبحاث باللغة الفرنسية . ورغم ما في هذا من بعض النواقص التي يبررها انهُ من الكتب الاولى من نوعه التي نشرت باللغة العربية في سورية فهو كتاب نفيس حبذا لو عمد كثير من الكتاب في مناطق الشرق العربي الى النسج على منواله في جمع عادات مناطقهم وتقاليدها وتدوين تلك الصور المحلية الثمينة قبل ان تذهب بها الايام وتطويها مراحل التطور فلا يبقى منها ما يمثلها او يعيد ذكراها للخاطر

دمشق الدكتور كاظم الداغستاني

قصص من مصر ولبنان

« الوثبة الاولى » لمحمود تيمور — « عشر قصص » لخليل تقيّ الدين —
« الصبي الاعرج وقصص أخرى » لتوفيق ي . عوّاد

القصة ، فنٌّ جديد في الادب العربي ، وجد من الاقبال عليه والعناية به ما يستحقهُ ، فاحتلّ مكانتهُ سريعاً ، وبرز من رجاله كتّاب بارعون استطاعوا ان يكشفوا عن العلل الاجتماعية المتفشية في الشرق ويضعوا للمصلحين اصابعهم على موضع الداء بأسلوب قصصي بديع ، وليس كالقصة او الرواية بأمثلتها وحوادثها المجسمة سبيل الى كشف المساوىء ومعرفة المحاسن .

وقد أخرج ثلاثة من رجال هذا الفن في مصر والشام ثلاث مجموعات ضمت روائعهم . ويظهر تأثر بعض كتّاب هذه القصص بالادب الروسي بعض التأثر ، وقد اتخذوا من الحياة المستسلمة للقدرية ، والغارقة في المعتقدات الدينية والاجتماعية الساذجة ومن الاشباح التي تضفر لنفسها اكاليل من القداسة الزائفة على مسرح هذه المعتقدات مادةً لقصصهم فجاءت تنبض فيها الحياة وتشيع في جنباتها

فأما الكتاب الاول منها فهو مجموعة اطلق عليها الاستاذ محمود تيمور « الوثبة الاولى » لانها جمعت اولى قصصه التي اصدرها منذ سنوات ثم عاد اليها كما يعود الفنان القدير الى مثالهِ المحبوب مغيراً ومجملاً حتى يجلوه صورة فاتنة خالدة . وأسلوب تيمور محبب الى النفس ، مصور للواقع ، رسام قدير للبيئة المصرية . ألفاظهُ تأتي على قدر الفكرة مجلوة المعنى فلا زيادة مملة ولا قصر مخلّ . وانك لتحسُّ الحياة وهي تدب في قصصه وعلى الاخص « عم متولي » و « ضريح الاربعين » و « الشيخ جمعة » و « مهزلة الموت »

وأما الكتاب الثاني وهو « عشر قصص » فهو مجموعة طيبة للاستاذ تقي الدين ، ويمتاز هذا القصاص بروح عذبة مشرقة وأسلوب شعري هادىء جميل ، ولهُ سخرية ظريفة ناعمة تتجلى في قصته التي أسماها « في مهبّ الغرام » . على ان أروع قصة في مجموعته هي « نداء الارض » وأشهد انها ستخلد في عالم الادب القصصي . وقد ختم مجموعته بقصة مترجمة هي « السجين » لمكسيم غوركي

اما الكتاب الثالث فمجموعة للاستاذ توفيق عواد اسماها « الصبي الاعرج وقصص اخرى » . وهذا الكاتب تتوافر لديهِ المادة القصصية التي يستمدها من محيطهِ الذي يعيش فيهِ « فمنها ما يغلب عليها التوجيه ، ومنها ما يغلب عليها التحليل ، ومنها ما يغلب عليها وصف الاخلاق والتقاليد ، ومنها ما لا يحتوي الا على العبث ولذة الفن المجردة » وهو قادر على تناول ذلك كقاص بارع الا انهُ لا يعنى في كثير من الاحوال بالاسلوب كما في قوله : « وكان خليل يخاف منهم كثيراً ما يكاد

يراهم عن بعد حتى يأخذ في الركض يا لهامن وكفة على رجليه العوجاء . رأسه يخلع على صدره . وصندوقته ترقص على خصره . وتصمد وتهبط ، والحلويات يختلط بعضها ببعض وتتحطم وتسيل تصير أشبه ما يكون بالوحل »

ولو عني الاستاذ توفيق بأسلوبه في جميع قصصه كما عني به في قصتيه «الشاعر» و «الرسائل المحروقة» لخلق لقصصه روحاً آخر يبعث على النشوة ، فان للاسلوب يداً في اجتذاب القارىء وفي سكب شعاع رائق من الروح الشعرية الحالمة التي يأنس اليها المطالع ويتابع القاص في حديثه

« ص »

صاحب مجلة « العالم الاسلامي »

توفي جورج كامفاير Georg Kampffmeyer في ٥ سبتمبر ١٩٣٦ وكان عالماً مستشرقاً المانيًّا من الطبقة الاولى . ولد في ٨ يوليه ١٨٦٤ في برلين ودرس في المانيا اللغات الشرقية ثم طلبها في باريس ولندن. واهتم باللغة العربية ولهجاتها خاصة . وانشأ الجمعية الالمانية لمعرفة الاسلام الحاضر وأسس مجلة لها اسمها «العالم الاسلامي» Die Welt des Islams وقد اشرنا اليها في مقتطف اكتوبر ١٩٣٥ وكان هذا المستشرق من الميالين للشرق العربي القادرين جهوده في العصر الحاضر

تموز وبعلة

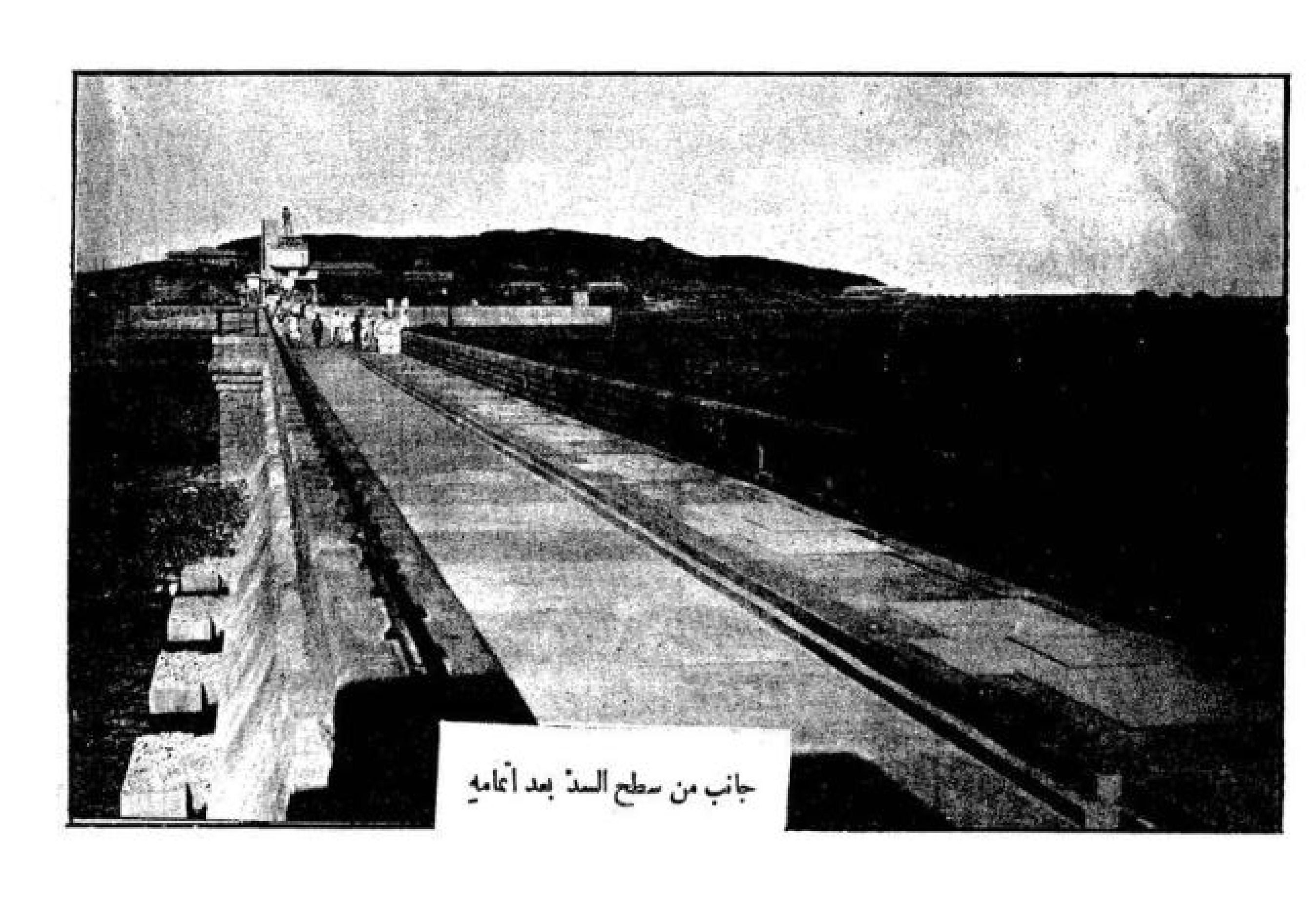
تموز وبعلة . أو « أدونيس وعشتروت » رواية شعرية تمثيلية نظمها الاستاذ وديع ابو فاضل وجعل من هذه الاسطورة التاريخية القديمة درساً في الوطنية والاخلاص والسعي الى الاتحاد والتضحية في سبيل القومية مما يجدر أن يكون مثالاً للشاب الكامل وللرجل الحر العامل في سبيل أعلاء وطنه ورفعة شأنه وجمع الكلمة وضم الصفوف

وقد صوّر فيها حب تموز ابن ملك جبيل لبعلة ابنة ملك صيدا التي شبت معهُ صغيرة فأحبتهُ وأحبها حتى تولى ابن عمها « بعلون » الملك بعد وفاة ابيها ورغب في الزواج منها حتى حدث ان زار «تموز» صديقه « بعلون » فلقيتهُ بعلة وبُعث في قلبها حبها القديم فتواعدت واياه على اللقاء عند عودته من الصيد ولكن بعلون علم بذلك فأمر احد اخصائه بالتربص لتموز وإطلاق خنزير من شعب الشباب عليه ليفترسهُ الاّ ان هذا الرسول رأى فيها قصد اليه كل الهول فعمل على نجاة تموز اشفاقاً على بعلة ثم اخبر الملك بذلك فعفا عنهُ وتمّ لبعلة ما كانت تتوق اليه وزوّجها ابن عمها من حبيبها تموز

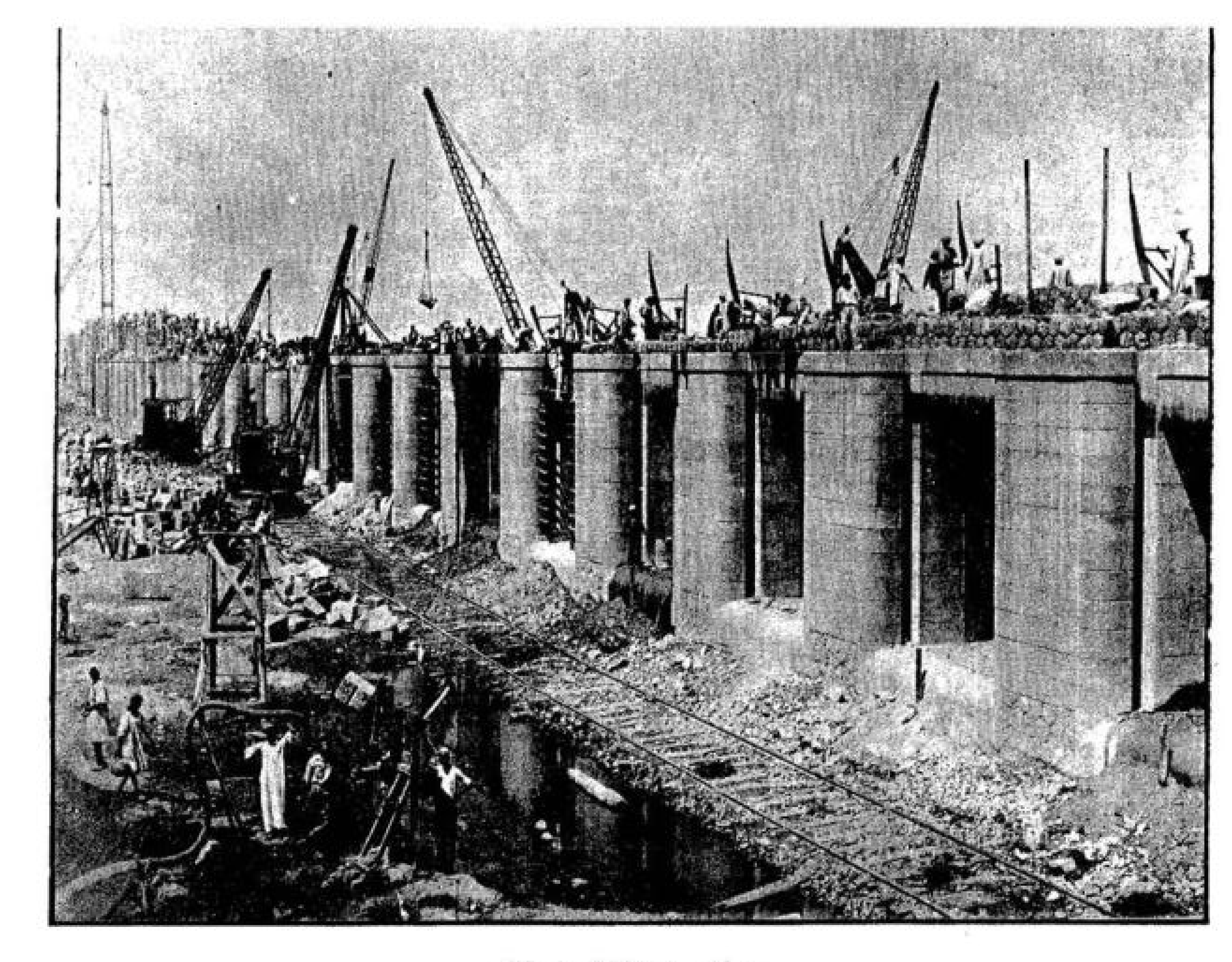
وقد وضع المؤلف هذه القصة في اسلوب من النظم رقيق عذب فيا حبذا لو قامت فرقة من الفرق التمثيلية باخراج هذه الرواية لبث الروح الوطنية في نفوس الشباب واعلاء كلمة الوطن



منظر عام للخزان من
مكتب الري



جانب من سطح السدّ بعد اتمامه



خزان جبل اوليا في دور البناء



حفلة تتويج
الملك جورج السادس

وما فيها من المغازي الدينية والروحية

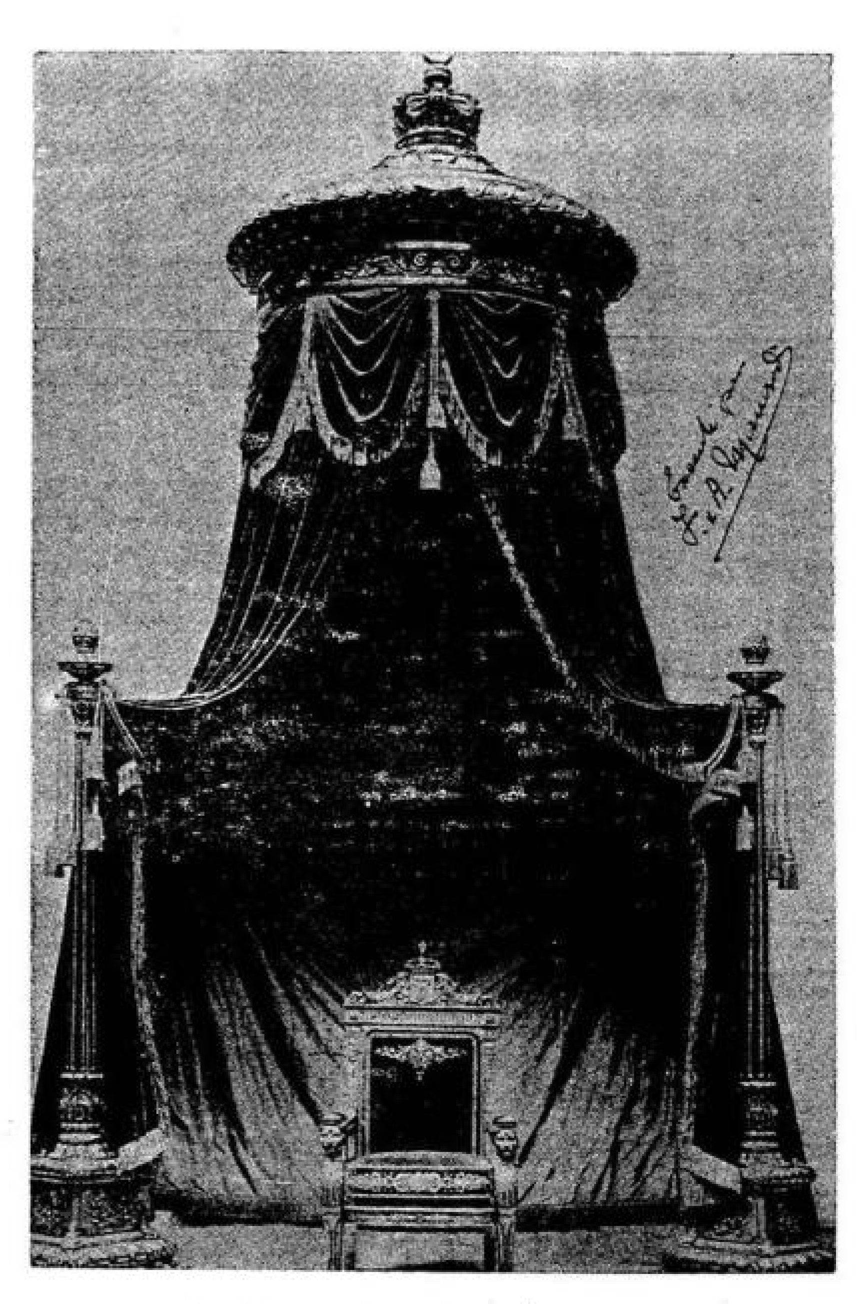
العروش فى التاريخ

والعروش المصرية الثلاثة

*



عرش محمد علي رأس البيت المالك



عرش المغفور لهُ جلالة الملك فؤاد الاول في البرلمان



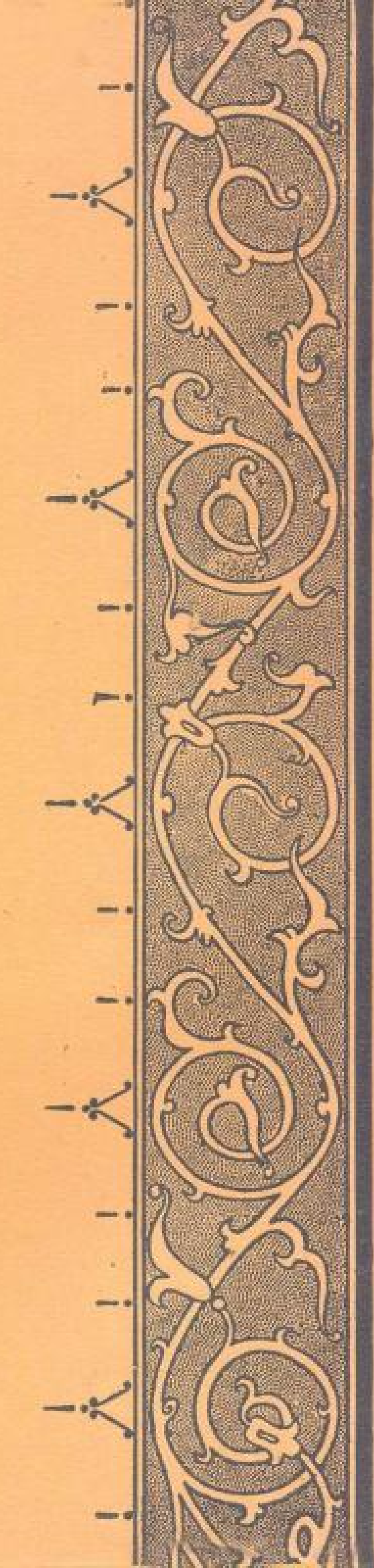
عرش توت عنخ امون

[انظر مقالة « العرش في التاريخ » ص ١٠٥]

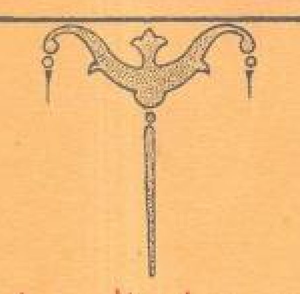


فهرس الجزء الاول

من المجلد الحادي والتسعين







مستقبل العمران

الحب : لادلر

العلم : لهكسلي

التعليم : لولز

الاسرة : لرسل

الاقتصاد : لتشايس

رجال الشهر

غازوردي ، غاندي ، سايس ، صديق بك

الازمة الاقتصادية

واشتباك المصالح الدولية



الجزء الثاني من المجلد الحادي والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٣٧ — ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٦

عقل الانسان

بين الكيمياء والكهرباء

— ١ —

لا بدَّ للجسم الحيّ من انفاق الطاقة ، في حالتي نومهِ ويقظتهِ ، وراحتهِ وعملهِ ، لا يغنيهِ عنها غنى . فهو بهذا الوصف آلة لا بد لها من الوقود

نعم ان حدود هذا الانفاق متباينة فالمرء اذا استيقظ في الصباح ، بعد نوم دام سبع ساعات او ثماني ساعات ، وظل مستلقياً على سريره جسمهُ وعضلاتهُ في حالة راحة تامة ، وعقلهُ غير مضطرب ولاقلق ، ومعدتهُ خالية لم يدخلها الطعام بعد عشاء الليلة السابقة ، كان اقل ما يكون حاجة الى الطاقة وأقل ما يكون انفاقاً لها ، ولكن لابد لهُ من يسير منها على كل حال . ومقدار الطاقة التي يحتاج اليها في هذا الوضع يعدل في المتوسط وحدة حرارية واحدة (Calorie) في الدقيقة وستين وحدة حرارية في الساعة ، وهذه الطاقة تعدل الطاقة المستخرجة من احتراق قطعتين صغيرتين من السكر في ساعة

هذا المقدار من الطاقة ، هو اقل ما يحتاج اليهِ منها . فهو يكفي لبقاء اعضاء الجسم قائمة بوظائفها ، اذا لم يحملها عبئاً خاصاً بالنهوض والمشي والتمرن الرياضي وغير ذلك من مختلف ضروب الحركة . فمجرد الجلوس في السرير يقتضي زيادة هذا المقدار من الطاقة المستعملة ، خمسة في المائة ، والوقوف عشرة في المائة ، والمشي الحثيث مائتين في المائة

هذا الموضوع اي موضوع ما يحتاج اليه الجسم من الطاقة ، في حالي الراحة والحركة ، كان مداراً لبحوث مستفيضة ، في معمل التغذية التابع لمعهد كارنيجي الاميركي ، وقد عمد الدكتور بنديكت وأعوانهُ ، الى قياس ما يحتاج اليه الانسان وبعض الحيوانات كذلك ، من الطاقة وهم في احوال وأوضاع مختلفة ، وغرضهم ان يتبينوا العلاقة بين مظاهر النشاط التي يمكن ان تقاس — كمقدار ما يستهلك من الاوكسجين او يزفر من ثاني اكسيد الكربون — ونشاط الجسم نفسه. وصنعوا لذلك حجراً محكمة الاقفال لا يدخلها شيءٌ ولا يخرج منها شيءٌ ، ولكنها تصلح مع ذلك لمعيشة بضعة افراد اياماً متوالية ، يأكلون وينامون ويعملون ويلعبون فيها ، والآلات تقيس ما يستنشقونهُ وما يزفرونهُ والحرارة التي تشع من ابدانهم . فوجد الدكتور بنديكت ان ما يستهلكه الجسم من الاوكسجين ، دليل تامٌّ على سائر العوامل ، فقصر بحثهُ عليهِ ، واستنبط لذلك خوذة محكمة ، وأجهزة اخرى يسهل تنقيلها ، لقياس ما يستهلكهُ الشيوخ من الاوكسجين في دورهم ، والعمال في معاملهم ، والنساء امام لوح الكيّ او موقد الطهي

وقد خرج الدكتور بنديكت من هذه المباحث ، بأن الرجل المعنيّ بعمل كتابي يحتاج الى ٢٥٠٠ وحدة حرارية في النهار، لتجهزه بالطاقة اللازمة لاعمال جسمهِ الاساسية بحيث يستطيع ان يمضي في عملهِ ، اما حاجة العمال اليدويين فاكبر . فالفلاح يحتاج الى ٣٥٠٠ وحدة حرارية على المتوسط ، والحطاب الى ٧٠٠٠ ومحترف السباق بالعجلة (الدرّاجة) الى ١٠٠٠٠ في يوم سباق

واذا كانت افعال الجسم تحتاج الى الطاقة هذا الاحتياج الظاهر ، فماذا يقال في افعال العقل ؟ ان العالم الذي يشتغل بحل معضلة رياضية معقدة ، او الطالب الذي يقضي ثلاث ساعات في الاجابة عن اسئلة امتحان صعب ، او السياسي الذي يقضي ساعات في مؤتمر يعالج مشكلات دقيقة تقتضي العناية بالمبدأ ويلازم الحكم فيها تبعة كبيرة — من من هؤلاء لا يخرج من عملهِ وهو يحس انهُ منهوك القوى ، خابي النشاط ؟ ليس ثمة ريب في ان افعال العقل ، تورث صاحبه تعباً كأفعال العضلات

فاذا صحّ ذلك ، فما مقادير الطاقة المختلفة التي يحتاج اليها المرء ، في اعمالهِ العقلية المختلفة ؟ واذا كان الموظف في مكتب هذه المجلة يحتاج الى ٢٥٠٠ وحدة حرارية ، ليتمكن من القيام بالاعمال العادية المطلوبة منهُ فما المقدار الاضافي من الطاقة الذي يحتاج اليهِ ، اذا عهد اليهِ في معالجة مشكلة معقدة مع احد الوكلاءِ ؟ هذه هي المسألة التي عرض لها الاستاذ بنديكت في التجربة التالية

اختار الباحث — وكانت زوجهُ تساعدهُ — سيدة وستة رجال لتجربة التجارب فيهم . كانت السيدة قد احترفت مراجعة الحسابات . وكان خمسة من الرجال من خريجي الجامعات وكان اثنان منهم من اصحاب المناصب العالية في معاهد التعليم . فالمفروض فيهم انهم جميعاً مدربون على الاشغال العقلية . وكانوا جميعاً ممتعين بالصحة الكاملة

جرى البحث خلال ايام متوالية في الصباح . ففي الساعة ٣٠ : ٨ كانوا يفدون على مقر التجربة من دون ان يتناولوا طعام الفطور ذلك لانهُ عندما يدخل الطعام المعدة ينشأ التفاعل الكيماوي في الجسم من تلقاء نفسه ، لان عملية الهضم تحتاج الى طاقة . فاجتناباً لذلك قبلوا جميعاً ان يصوموا كلَّ يوم حتى الظهر اي حتى تنتهي تجربة ذلك اليوم

عند وصولهم كان كلٌّ منهم يلبس تلك الخوذة الخاصة بقياس النشاط الجسماني ، عن طريق الاوكسجين الذي يستهلك وثاني أكسيد الكربون الذي يزفر والحرارة التي تشعُّ . وتبقى الخوذة على رأس كلٍّ منهم من ثلاث ساعات الى اربع ساعات متوالية ، ولكن الفترات التي يطلب اليهم فيها بذل نشاط عقلي كانت لا تزيد على ربع ساعة كل مرة بينها فترات للراحة

اما التجربة فكانت كما يلي : يجلس الرجل — او السيدة — في وضع يقتضي من جسمهِ اقل جهد عضليّ ، ويحتفظ بهذا الوضع في اثناء التجربة . والغرض من ذلك اجتناب كل ما يتطلب من الجسم انفاق طاقة خاصة لغرض جسماني . واذ يكون الرجل في هذا الوضع المريح ، ولا شيء يشغل عقلهُ ، يقاس ما يستهلكه من الطاقة . ثم يطلب اليه ان يحلّ مسألة رياضية . وفي اثناء اشتغاله بحلّها يقاس كذلك ما يستهلكهُ من الطاقة . والمسألة الحسابية الغالبة كانت ضرب عدد مؤلف من رقمين في آخر مؤلف من رقمين ، كضرب ٣٧ في ٢٩

ولم يسمح لاحد باستعمال ورقٍ وقلمٍ ، لان استعمالها يقتضي استعمال عضلات الاصابع والذراع ، فيختلط النشاط العضلي الناشيء عن الكتابة بالنشاط العقلي الناشيء عن التفكير في حل المسألة ، وتضطرب النتيجة . فاذا حلّت المسألة واراد صاحبها ان يعلنها كلاماً ، اضطرّ الى تحريك الشفتين وعضلات الفكين ، وهذا يقتضي انفاق الطاقة العضلية كذلك ، ولذلك اتفق المجرّب بان مع السيدة والرجال الستة على انهُ اذا انتهى احدهم من حلّ المسألة لمس زرّاً كهربائيًّا دقيق الاحساس في متناول سبابتهِ بحيث يكون اللمس نتيجة لاقل حركة ممكنة من حركات السبابة ، فيعلم المجرّب أن المسألة قد حلّت ولا حاجة الى اعلان النتيجة فيكتفى باشارة كلٍّ منهم انهُ حلّها وكلهم ممن يعتمد عليهِ ويوثق بهِ

فاذا انقضت تجربة الصباح ، شعر كلٌّ من هؤلاء أنهُ متعب معيٍّ ، معتقداً ان التحطيب او كنس الشوارع أهون على الجسم من بضع ساعات من النشاط العقلي

ولكن مع ذلك ، لم تدل الاجهزة على ان أجسام هؤلاء القوم أنفقت من الطاقة في حالة النشاط العقلي أكثر مما كانت تنفقهُ في حالة الراحة العقلية الاَّ يسيراً جدًّا . اذ لم تبلغ الزيادة في استهلاك الأوكسجين الاَّ ثلاثة أو أربعة في المائة . يقابل هذا انهُ في أثناء الاشتغال بالمسألة الحسابية ، زاد نشاط القلب والرئتين ، والاستاذ بنديكت يعتقد ان هذه الزيادة تفسر الزيادة في

المستهلك من الاوكسجين . فانهُ يقول ، ان تجربتهُ لم تدل على ان النشاط العقلي يقتضي انفاق طاقة جسمانية ، كما تقتضيه كل حركة من حركات الجسم ، حتى اختلاج الجفن

حتى اذا سلمنا بان هذه الزيادة في ما استهلك من الاوكسجين نشأت عن النشاط العقلي ، كانت زيادة لا تذكر لانها تمثل أربع وحدات حرارية في الساعة ، وهو مقدار من الطاقة يستخرجهُ الجسم من اكل فلقة حبة من الفول السوداني

ولكن اذا حسبنا حساباً لعدد الخلايا التي يشملها الشغل العقلي الخاص بحل هذه المسألة الحسابية بالقياس الى خلايا الجسم ، كانت الطاقة المستخرجة من فلقة حبة من الفول السوداني شيئاً كبيراً . فقد كتب الفسيولوجي النمسوي الدكتور ارنولد دوريج Durig الى الاستاذ بنديكت ، ان عدد الخلايا الدماغية التي شملها النشاط العقلي في حل هذه المسألة الحسابية لا تزيد وزنها على سبعة جرامات وهو جزء من عشرة آلاف جزء من وزن جسم الانسان اذ حسبنا ان وزنهُ يبلغ سبعين كيلوغراماً . فاذا كان هذا الجزء الصغير من جسم الانسان يسبب زيادة قدرها ٣—٤ في المائة في نشاطه الحيوي ، فيجب ان يكون نشاط خلايا الدماغ أشدّ وأعظم من نشاط سائر خلايا الجسم

بل يصحُّ ان نقول ونحن واثقين ان النشاط العقلي يقتضي تمثيلاً جسمانياً لان كلَّ ما يمنع وصول مقادير كافية من الدم الى الدماغ وما يحمله من أوكسجين وسكر وغيرهما ، يظهر اثرهُ في اضطراب العقل . وقد جرب السر جوزف باركروفت الانكليزي تجربة بنفسه تدور حول هذا الموضوع فأقام في حجرة محكمة الاقفال عشرين دقيقة بعد ان جعل مقدار ثاني أكسيد الكربون في هوائها اكثر من ٧ في المائة قليلاً اي انهُ كان في خلال التجربة يستنشق هواء فيه من هذا الغاز اكثر من المقدار السويّ ، فما لبث حتى ظهرت عليه أعراض الاعياء العقلي اذ أصبح عاجزاً عن حصر فكره او الاصغاء الى حديث ما بغير جهد . واذا تناول صحيفة لمطالعتها عجز عن قراءة أكثر من أربعة أسطر او خمسة ، من خبر تافه ، ثم ينتقل الى غيره من دون ان يتم مطالعة خبرٍ ما . وقد لازمهُ هذا العجز يومين بعد التجربة . وهو على حدّ قوله ، ضعف يصيب قوى الدماغ العليا . وجرب تجربة أخرى جعل فيها مقدار ثاني أكسيد الكربون في الهواء اكثر من عشرة في المائة ، ولم يلبث في الحجرة أكثر من خمس دقائق وخرج وهو يكاد لا يعي . والنتيجة التي خلص اليها باركروفت ان الافكار والقدرة على حلّ المعادلات الرياضية العالية او تقدير الموسيقى الممتازة جميعها مرتبطة بنموذج طبيعي كيمياوي يتشوش اذا كان في محيط تنتابهُ اضطرابات عنيفة

هذا النموذج الطبيعي الكيمياوي يتصف بخواص كهربائية . ففي الدماغ مناطق معرضة تعرضاً مستمراً لتغير مستواها الكهربائي . فاذا اختلف المستوى الكهربائي بين مناطق مختلفة من الدماغ

افضى ذلك الى تيارات كهربائية. وقد تمكن العلماء من عهد قريب أن يتبينوا طبيعة هذه التيارات فأسفر ما تبينوه عن ان طاقة الدماغ دائمة التغير

اكتشفت ظاهرة النشاط الكهربائي في أدمغة الحيوانات سنة ١٨٧٥ ولكن دراستها دراسة منتظمة ترتدُّ الى سنة ١٩٢٩. في تلك السنة أخذ العالم الالماني هانس برجر—وهو من المتوفرين على دراسة الاعصاب في جامعة ينا — سلكين ووضعهما على صدغي رجل ووصلهما بأنبوب مفرغ يقوي التيارات الكهربائية الضعيفة ويضخمها ، فوجد ان التيارات المنطلقة من الجمجمة بعد تضخيمها يمكن ان تدوَّن بريشة على لوحة مناسبة ، فتبدو لها حركة موجية منتظمة معقدة ، فيها أمواج متشابهة ارتفاعاً وسعة تتوالى عشراً في كل ثانية فدعاها برجر « أمواج ألفا » وثمة أمواج أسرع توالياً وأقل اتساقاً دعاها « امواج بيتا » ووجد غيره نبضات أخرى ، غير منتظمة الطول والاتساق

الموضوع لا يزال جديداً ، واذا كان هناك نموذج منتظم لحركة الدماغ الكهربائية ، فهذا النموذج معقد جدًّا . ولكن اكتشاف جهاز يمكن الباحثين من قياس الاستجابة لحركة الدماغ في حالي الراحة والنشاط شجع على البحث ، ولذلك قلما تفتح مجلة علمية الآن وترى فيها نبأ خطوة جديدة او تحقيق جديد في هذا الموضوع من أدريان في جامعة كمبردج او من فيشر وكورنوملر في جامعة برلين ، او من جامعات برون وهارفرد في اميركا . وهذا على سبيل التمثيل فقط

والراجح عند الباحثين ان هذه التيارات التي تضخم وتدوَّن صورة أمواجها ، تنشأ في قشرة الدماغ ، وهي المادة السنجابية ، التي تتركز فيها اعمال التفكير المبدع . هذه المادة السنجابية قوامها اجسام الخلايا العصبيــة ، وقد استغرق نشوؤها من الاجهزة العصبية البسيطة في الحيوانات الدنيَّة عشرين مليوناً من السنين على رأي جدسن هريك الاستاذ بجامعة شيكاغو . ان مراتب تطورها معروفة بوجه عام . ولكن كيف تمَّ فيها عجائب التفكير المبدع ، في العلوم والفلسفة وغيرهما ، لا يزال محجباً بستائر الجهل . الآن ان الأجهزة الجديدة — ولا سيما جهاز برجر — قد تفضي الى تقدم خطير في فسيولوجية الجهاز العصبي ، على نحو ما تمَّ من التقدم في دراسة التشريح بعد إكتشاف المجهر (الميكرسكوب)

على ان بين هذا الجهاز (واسمهُ العلمي « الكترو انسيفالوجراف » اي صورة الدماغ الكهربائية) يختلف اختلافاً اساسيًّا عن المجهر . فالمجهر لا يمكن الباحث الآ من دراسة مجموعة صغيرة من الخلايا منتزعة من النسيج ومصبوغة بصبغ قد يطفىء شرارة الحياة فيها ، ولكن صورة الدماغ الكهربائية تمكن الباحث من تناول العضو او الكائن الحيّ جملة واحدة من دون ان تعرقل عمله المألوف واساليب حياته السوية . بل لا يلزم في استعمالها ثقب الجلد . وقد اصبحت الاجهزة

الحديثة دقيقة الاحساس ، بحيث اذا وضعت قطبها الكهربائيين على منطقتين مختلفتين من فروة الرأس استطعت ان تتبين تياراً كهربائيًّا جارياً في الدماغ من منطقة مستواها الكهربائي عالٍ الى اخرى مستواها الكهربائي منخفض . والتجربة تتم من دون ازعاج مَن تجرب فيهِ . بل انهُ اذا ازعج ظهرت آثار ازعاجهِ في صورة التيار الكهربائي الذي يتبينهُ هذا الجهاز ويصوره

وقد صنعت حجرة خاصة في احد معامل جامعة هارفرد لذلك. وضع فيها مقعد وثير، يستلقي عليهِ المرء؛ ولا تجرب التجربة فيهِ الاّ بعد ان يستلقي مرة او مرتين على هذا المقعد ويتعرف ما حواليهِ حتى اذا جربت التجربة كان مستريح الجسم والبال من كل ناحية . وهذا ضروري ، لان صورة التيار الكهربائي الصادر من دماغهِ والملتقط من فروتهِ ، يختلف في النوم عنهُ في اليقظة ، وفي الاضطراب او انشغال البال عنهُ في الراحة . فاذا استلقى المرء على هذا المقعد وضع القطبان الكهربائيان ملامسين لفروتهِ ، ويمتدّ منهما سلكان الى سلسلة من مضخمات التيار ، ثم يحرك التيار المضخم ابرةً في جهاز خاص ترسم على شريط منساب ، امواجاً

في بدء التجربة يؤمر بأن يستلقي ويغمض عينيهِ وان لا يشغل عقله بشيء معين فترسم الريشة على الشريط ، امواجاً من انتظام معين ، ثم يؤمر بان يضرب رقم ١٨ في ١٢ مثلاً فلا يكاد يشرع في ذلك حتى يتغير انتظام الامواج ، هنا الامواج اقصر واسرع توالياً ،فكأن حشد الدماغ لقدرته الواعية عند التفكير في معضلة معروضة عليهِ أثرت في التيار الصادر منهُ وقد دامت هذه الحالة بضع ثوان ، ثم اخذت صورة الامواج تعود الى ما كانت عليهِ في حالة الراحة .وبعد قليل اضطربت الابرة ثانية فقصرت الامواج واسرع توالبها كأن الدماغ عاد الى نشاطهِ. والواقع انهُ عاد الى نشاطه . ذلك ان الرجل الذي اجريت عليهِ هذه التجربة سئل في ذلك فقال انهُ بعد ان ضرب العددين ، استراح الى اتمام العمل ، ثم عاد فاضطرب اذ خطر لهُ ان الجواب قد يكون خاطئاً فأعاد الكرّة على عملية الضرب

وقد استعمل هذا الاسلوب للبحث في حالات مختلفة من حالات الوعي ، والنتائج العامة التي خلص اليها الباحثون ، ان انتظام « امواج الفا » ينقطع عند ما يشتغل الدماغ بحل مسألة معينة وعندما يؤمر المرء بان يتنبه وعند ما يفتح عينيه او تكون الحجرة مضاءة

وقد جربت تجارب اخرى ظهر منها ان « امواج الفا » تكون اشد وضوحاً عند ما يكون احد القطبين على القذال امام المركز الخاص من الدماغ الذي يتأثر برسائل عصب البصر، فكأن « امواج الفا » هذه متصلة اتصالاً لم يفهم بعد بالبصر

[للبحث تتمة نتناول فيها ما يتعلق بظاهرات الدماغ الكهربائية خلال النوم وتأثير الغدد الصم ومفرزاتها]

أنصبر من أجل الرقي غبارا ؟

خطرة شعرية فلسفية للمرحوم

الدكتور يعقوب صروف

ما الحياة ؟ اين كان الاحياء قبلما ولدوا والى اين يمضون بعد ما يموتون ؟ وما الحكمة في هذا الخلق ؟ لماذا يولد مائة طفل فلا يبلغ العشرين ثلاثون منهم ولا يبلغ الخمسين عشرة ولماذا تبيض السمكة مليون بيضة فلا يبلغ الا اثنان من اولادها أشدهما وتثمر الشجرة الوفاً من الاثمار قبلما يتفق لاحدى بزورها ان تنبت وتخلف نسلاً . وعلى م تظهر الازهار والرياحين في الغابات والادغال حيث لا تراها عين انسان ولا يتمتع بها ذوق حيوان

يجيبك العالم الطبيعي بسلسلة من العلل والمعلولات مفادها ان كل حلقة من حلقات الوجود متصلة بغيرها وان الغرض منها ترقية الاحياء بنوع عام . يقول لك ان قوى الطبيعة وميكروباتها تجتمع على عناصر الجماد فتحلها وتركبها وتجعلها غذاء للنبات فينمو بها ويصير غذاء للحيوان . وكلما سقطت ورقة او نبتت شجرة اقبلت عليها الميكروبات تحللها وأعادتها الى التراب غذاء لما تخلفها . وكلما مات حيوان انحل جسمهُ وعاد الى الارض والهواء غذاء للنبات وان لم يمت أكلهُ غيرهُ من الحيوان غذاء له . وانواع النبات والحيوان ترتقي جيلاً بعد جيل وقرناً بعد آخر بحسب النواميس الطبيعية القاضية ببقاء الأصلح للبقاء . والانسان غير مستثنى من ذلك بل تجري عليه نواميس الطبيعة كما تجري على غيره . يولد معرَّضاً للآفات الطبيعية فتتغلب عليه أو يتغلب عليها ويموت من غير نسل او يخلف نسلاً وتتوالى الاعقاب والاحقاب والارتقاء مستمرٌ وما الفرد سوى دقيقة في جسم هذا الوجود يقوم به جزء من أجزاء هذا الرقي . هذه خلاصة أقوال العلماء الطبيعيين. فهل كشفت الغطاء عن سر الوجود وازاحة الستار عن معنى الحياة ؟

وقف كاتب هذه السطور عند هذا الحد وأطلق للخيال العنان فلم يرَ أمامهُ الاَّ ظلاماً دامساً فارتدَّ على نفسه وهو يقول

عفت اليراع سآمةً وفرارا	من بادرات تلجم الأفكارا
وخرجت في ليل كأن نجومهُ	احداق عصفور أصابت نارا
جبتُ الجزيرة لا أرى لي مؤنساً	والنيل حولي لا يزيل أوارا
حتى بدا نور الصباح فشمتهُ	نور الهدى فأتيتهُ محضارا
وطلبت عن هذا الوجود وسره	كشفاً يزيح عن الوجود ستارا
فأجابني سرُّ الوجود صحيفة	طويت فقلت انشر امنت عثارا

فتشت عن سر الوجود وقصدهِ وسألت عنهُ النطس والاحبارا
طالعت ما كتبوا فما من مقنع وكتبت ما قالوا فلست اماري
اسماك هذا النيل لا تحصى وفي تاريخها قد جازت الادهارا
عاشت وماتت بين حب او قلى تحنو وتقسو لاهوى لا ثارا
حرباً وسلماً واعتداء واحتكا ما لا ترى منها لها انصارا
وطوائف الاحياء يعي وصفها قس البيان وعدها المقدارا
من مثل مكروب حقير لا يرى او مثل تمساح طوى الانهارا
والنيل قل ما شئت في تعظيمهِ نهر جرى كي يدرك الابحارا
لو الف نيل جمعت ما ماثلت من اوقيانوس واحد معشارا
بحر خضم والخلائق ملئهُ تبغي البقا والى الفنا تتبارى
كانت كذلك في العصور الغابرات المبقيات على الصفا آثارا
منها تولدت الصخور وطالما قلب غدا صخراً وملا غارا
والطير في انواعها وضروبها سامت ذكاء تحلقاً ومطارا
اسرابها تغدو وتقطع رحلاً خوف الردى والى الردى تتجارى
ونبات هذي الارض من ارز الى زوفا يبيد وان يعش اعصارا
فعلى م هذا الخلق ان كان الفناء مصيره والناس فيهِ تواری ؟

فأجابني ركز خفي قائلاً اسمع وقل قولي «امنت عثارا»
هذي الخلائق كلهن دقائق والكون من مجموعها قد صارا
والفرد فيها ليس من مجموعها الا هباء او قذى منهارا
ورقي هذا الكون يستدعي — اندثار دقائق ونفاية وبوارا
هذي تعاليم الفلاسفة الاولى جعلوا دجى الليل البهيم نهارا

أنموت في سبل الرقي ضحية ؟ ونصير من اجل الرقي غبارا ؟
نور الخلائق مصدر النور الذي يهدي الكواكب في السماء مدارا
ان لم تنر عقل ابن آدم لم يجد نور الهدى بل زاد عنك نفارا
فاهدِ ايا نور البصائر معشراً تخذوا الحقيقة خلة وشعارا
انضوا عوامل عقلهم فتثلمت واستوقفوا المبغى فزاد فرارا
ظلموا ونور العقل قصر عن هدى وبغير نورك لا نشيم منارا

المنسوجات الاثرية

في مصر الاسلامية

ملخص بحث بالفرنسية للاستاذ جاستون فييت
مدير دار الآثار العربية بالقاهرة
نقله محمد عبد العزيز خريج معهد الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية

لم يحاول العرب ، منذ ان استقر بهم المقام في مصر ، تغيير مجرى الحياة في البلاد الا قليلا ولم يكن ما اجروه فيها من التغيير الا وليد الظروف التي احاطت بهم ، بل ولم يأت هذا التغيير دفعة واحدة وانما كان تدريجيًا طبقاً لما اقتضته طبيعة الاشياء من ضرورة اجراء بعض التغييرات التي كان لا بد لهم من ادخالها

ولقد رأوا بثاقب نظرهم، وحسن تقديرهم للامور انه اجدى عليهم ان يتبنوا اركان النظم البيزنطية التي كانت سائدة في جميع نواحي الحياة تقريباً وقت الفتح من ان يكدوا اذهانهم في استنباط نظام جديد

ولهذا فالفتح العربي لمصر لم يقطع في الواقع ، سلسلة التقدم في حياتها الاقتصادية او نهضتها الصناعية، بل لقد احتفظت مصر تحت ظل العرب بتلك المكانة التي احرزتها من وراء موقعها الجغرافي الفذ ومما كان لها من منتجات خاصة اكسبتها شهرة عالمية وكفلت لها مقاماً ممتازاً بين الامم القديمة

وقديماً ازدهرت صناعة النسيج في مصر ، وعرف العرب المنسوجات المصرية واعجبوا بها ، وكانت لها في آدابهم شهرة واسعة ، بل واتخذوها رمزاً لدقة الصنع ونقاء البياض

ويحدثنا المقريزي ، فيما يحدثنا به ، عن تلك الهدية الثمينة التي بعث بها المقوقس الى النبي صلى الله عليه وسلم فاذا من بينها قماش منسوج في مصر وقد استعمل فيما بعد في تكفين جثته الطاهرة

وعلى الرغم من ان صناعة النسيج من أهم الصناعات التي يتجلى فيها الترف بكل معناه ، فلم يحاول الاسلام قط العمل على الحط من شأنها او الرجوع بها الى حالتها الاولى من البداوة ، بل ان التقاليد الاسلامية نفسها كانت في الواقع اكبر معين على بلوغ تلك الصناعة تحت ظل المسلمين درجة من الكمال قلما تجدها ممثلة في ناحية اخرى من نواحي الفن الاسلامي . اذ كاد الخلفاء جميعاً ان يضمنوا لمصر احتكار نسيج كسوة الكعبة الشريفة مما عاون على تطور هذه الصناعة ، وكان من شأنه ان يكفل لها اضطراد التقدم والرقي

ولقد استمر صناع النسيج المصريون في العصر الاسلامي على ما كانوا عليه من قبل من استلهام المدنيات القديمة في هذا الفن شأنهم . في ذلك كشأنهم في جميع الفنون الاخرى . ذلك لأن العرب لم تكن لهم تقاليد فنية في هذا المجال ، وكان كل ما عرفوه في فارس والشام من تلك التقاليد معروفاً فعلاً لدى المصريين ، اذ كان الفن القبطي — والاسلام لم يغير فيه من شيء — متشرباً بالكثير من تلك التأثيرات الفنية ولا سيما الساسانية منها

على ان مصر وان كانت قد استعارت من فنون الامم الاخرى الشيء الكثير ، فان هذا ما منعها قط من ان تهضم ما استعارته ، وتتمثله جيداً ، ثم تخرجه لنا فناً مصرياً خالصاً يبهرك بروائه ويستحوذ عليك بجماله ويرغمك على ان تقر له بمصريته . فللاقمشة الأثرية المنسوجة في مصر مميزات عامة ولها طابع خاص بها ناطق بانتمائها الى اصل واحد. حتى انه ليكاد يصبح من اليسير علينا بعد خبرة قصيرة أن نتعرف عليها بسهولة وان لا نخلط بينها وبين الاقمشة الفارسية او اليمنية او الاندلسية

ولكن اذا التبس علينا الامر ، وعجزنا عن التمييز فثمة ملجأ أمين لنا يهدينا سواء السبيل هو تلك الكتابات التقليدية ذات الصيغ التي لا تكاد تختلف في قطعة عن الاخرى ، والتي تفشي لنا سر اصلها ، وتهدينا الى مكان صنعها ، ثم استقصاء تلك الاشكال الزخرفية المختلفة التي كانت شائعة في عصر دون سواه . فالكتابة من ناحية والزخارف من ناحية اخرى هما في الواقع الهاديان لنا في دراسة هذه الاقمشة التاريخية

ولعل اول ما يصادفنا من الصعوبات في بحثنا هذا هو التعرف بسهولة على الاقمشة التي ترجع في تاريخها الى القرنين الاولين من الهجرة ، وترتيبها ترتيباً علمياً صحيحاً . وليس هناك من شك في ان ذلك راجع الى ما تميز به الشرق منذ القدم من حبه للترف والابهة ، والى ما عرف عن الاسلام من التسامح في كل ما يتصل بمباهج الحياة ومتعها ما دامت لا تتعارض مع احكام الدين في شيء ، فهو عند ما اشرق بنوره على الوجود ، لم يحاول اضعاف حب الترف في النفوس أو القضاء عليه بل لقد احتضن الفنون وشجعها وبعث فيها من لدنه روحاً جديدة تجلت لنا فيما بعد في أبهى الصور وأجملها . على اننا يجب ان لا ننسى أن للدين الجديد — مهما بلغ من تسامحه — تقاليده الخاصة ، ولمعتنقيه اذواقهم ، وان التطور من الذوق القديم الى الذوق الجديد امر يفتقر الى زمن ليس بالقصير ، ومن هنا نشأت صعوبة التمييز بين الاقمشة القبطية التي نسجت قبل الفتح الاسلامي وبين تلك التي اخرجتها لنا المصانع في القرنين الاولين بعد الفتح

وكثيراً ما تقع بين ايدينا قطع ليس لها في الواقع قيمة فنية حقيقية وانما يكاد ينحصر شأنها فيما تحتويه من كتابة ليس من اليسير قراءتها واليها تتجه جميع مجهوداتنا

حقاً ان هذه الكتابات لتجمع بين النقيضين : لها مساوىء لاتنكر ، ولها مزايا لا يستهان بها .

فلطالما استعصت علينا وقاومت كل محاولة لقراءتها بسرعة ، ودفعتنا الى تلمس المعنى الذي تخفيه وراء حروفها المعقدة تلمساً ، ولكنها بعد ان تستنزف من مجهودنا قدراً ليس بالقليل ، تأخذها الشفقة علينا ، فتكشف لنا عن مكنون سرها ، وتميط اللثام عن احاجيها ، فاذا هي تقدم لنا من المعلومات القيمة ما يثلج صدورنا ، وينسينا ما لاقيناه في سبيل قراءتها من صعاب . قد تكشف لنا عن اسم خليفة او وزير أو أمير او مصنع او تاريخ او عن هذه مجتمعة . ولا اخالك تنكر ما لهذه الامور الجوهرية من القيمة التاريخية العظيمة ، او تستصغر شأن تلك السجلات الصادقة التي تطلعنا على الكثير من اسرار صناعة النسيج في مصر ،في العصور الوسطى ، والتي تحقق لنا الى حد كبير ، ما نقله الينا مؤرخو المسلمين من صناعة النسيج ومراكزها ، و[illegible]اية الامراء بها

ولقد كان لتلك الكتابات في بادىء الامر معنى اقتصادي ، اذ [illegible] الغرض الاول منها ضبط ما تخرجه المصانع المختلفة ، وتحقيق رقابة الحكومة على تلك الصناعة ، ثم صار لها فيما بعد معنى سياسي ، اذ اصبحت كتابة الاسم على الاقمشة ، من شعائر الخلافة كذكر الاسم في الخطبة وكتابته على السكة . على ان هذه الكتابات أيًّا كان مبناها ومغزاها ، قد تطورت في شكلها بمضي الزمن تطوراً مدهشاً ، ففقدت معانيها الاقتصادية ، والسياسية ، وصارت ترسم بدافع التجميل ، أي أنها اصبحت عاملاً هامًّا من عوامل الجمال الفني فحسب ، تعامل معاملة الزخارف المختلفة ، شأنها في ذلك شأن الزخارف الحيوانية الساسانية ، التي كانت ترمز في أول امرها الى معان خاصة ، ثم فقدت هذه المعاني عندما صار الصناع من الفرس يشتغلون للامراء المسلمين ، وأخذوا يختارون من بين تلك الزخارف الحيوانية ، ما نال رضاء هؤلاء الامراء ، وصاروا يكررونها دون نظر الى ما كانت تؤديه من معنى سابق . وشأن الكتابة الكوفية ، عندما اعتبرها فنانو الغرب عنصراً من عناصر الزخرفة ، وأخذوا يستعملونها دون ادراك لمعناها

ولقد عظم شأنها من هذه الناحية شيئاً فشيئاً ، حتى وصلت الى درجة عظيمة من الاتقان ، وصارت تجلي على الناظر صوراً من الفخامة والبهاء ما كانت لها من قبل ، مما يدل دلالة واضحة على مدى تلك القدرة الفنية العظيمة ، التي بلغها العرب في هذا المجال . فكم من قطع قد سحرتنا بجمال كتابتها ، وبهرتنا بتناسق حروفها ،حتى انه ليخيل الينا ، ونحن نجيل النظر فيها ، كأنما حروفها تسير، مختالة فخورة عليها سيماء الوقار والجلال ، في موكب حافل يبعث الروعة في النفوس، وكأنما سيقانها، وأقواسها، قد رسمتها يد فنان ماهر أطلقت له الحرية ليبتكر ويتفنن

وما كان المعاصرون انفسهم أقل تأثراً بجمالها منا نحن الآن ، فالفواطم — ويعتبر عهدهم بحق العصر الذهبي للفن الاسلامي في مصر — قد أعجبوا بهذه الكتابات أيما اعجاب ، وقد كانت لها في أعينهم مكانة سامية لا تنكر ، الأمر الذي جعلهم ينسجونها على أقمشتهم ، على نفس

النسيج الذي كان متبعاً في عهد العباسيين من قبلهم . ولقد كانت تنسج الكتابات التاريخية في أول الأمر بحروف صغيرة جداً ، بحرير أحمر أو أزرق أو اسود ، حتى اذا جاء الربع الثالث من القرن التاسع الميلادي ، كبر حجم الحروف قليلاً ، وازدادت سيقانها طولاً ، وبدت الكتابة أشد وضوحاً عما كانت عليه قبلاً . واستمرت الكتابة تكبر حتى بدت في الربع الاول من القرن العاشر في أكبر حجم لها ، وصار لها مظهر فخم عظيم ، يكاد يخرجها عن دائرة الكتابة ليدخلها في دائرة الزخرفة . وامتازت بميزة جديدة هي وجود سطرين من الكتابة أحدهما عكس الآخر

وتعتبر دار الآثار العربية في الوقت الحاضر أغنى متاحف العالم في المنسوجات ، ومجموعاتها القيمة تكوّن سلسلة تاريخية متماسكة الحلقات تمكن الباحث من دراسة الاقمشة الاسلامية ، وتطلعهُ على مدى التطور فيها ، وتحدد لهُ التوجيه الفني للذوق الاسلامي في تلك الصناعة ، ولعل أول ما يستوقف النظر من هذه المجموعة ، هو تلك القطعة التي تعتبر أقدم المنسوجات الاسلامية المؤرخة جميعاً ، اذ منسوج عليها بالخط الكوفي البسيط بحرير احمر : « هذه العامة لسمويل ابن موسى عملت في شهر رجب من الشهور المحمدية من سنة ثمان وثمانين » (٧٠٧ م) وتحت هذه الكتابة شريط من زخارف ، به جامات داخلها طيور تقليدية

فاذا تجاوز الدولة الاموية الى العصر الاول من الدولة العباسية ، وجد تلك القطعة المنسوجة بفسطاط مصر برسم الخليفة العباسي الامين بن هارون الرشيد ، الذي تولى الخلافة بين سنة ١٩٣ — ١٩٨ هـ (٨٠٩ — ٨١٣ م) والتي جمعت بين الزخرفة الهندسية الدقيقة ، ذات اللون الرمادي ، الناشئة عن تقاطع خطوط مستقيمة ، تخلف عنها جامات مرتبة بانسجام غاية في الدقة والمهارة ، وبين الكتابة التاريخية الهامة التي نصها : « بسم الله بركة من الله لعبد الله الامين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعته في طراز العامة بمصر على يد الفضل ابن الربيع مولى أمير المؤمنين » . فاذا انتهى بعد ذلك الى منتصف القرن الثالث ، شاهد ميلاد فن جديد ، مخالف كل المخالفة للفنون التي تقدمت عليه ، ذلك هو الفن الطولوني ، الذي هو في الحقيقة فن عراقي الاصل ، زرعهُ أحمد بن طولون في هذه البلاد عند ما ولي أمرها

ولئن كانت الزخرفة تعين حقاً على تأريخ الآثار الفنية ، وارجاعها الى عصر من العصور ، فانما ذلك يتجلى لك بوضوح في الاقمشة الطولونية ، اذ الكثير من تلك الاقمشة يحوي زخارف تشبه تمام الشبه الزخارف التي نشاهدها على الآثار الجصية والخشبية للعصر الطولوني

وانهُ ليدهشك حقاً ، ان ترى العناصر الزخرفية التي على الجص أو الخشب من جدائل أو زخارف حلزونية او غيرها ، ممثلة على الاقمشة أدق تمثيل وأحسنهُ ، بل ان مهارة النساج في

استعمال الالوان المتعددة ، ليجعل تلك الزخارف تبدو لك كأنها مخرمة او محفورة !

والواقع ان تلك الاقمشة الطولونية ، أو بعبارة أخرى جميع آثار الفن الطولوني ، لتحدثك بنفسها عما كان عليه الفن في ذلك الوقت من القوة والفخامة ، وتدلك على أن فناني هذا العصر لم يتحروا الدقة والاناقة في آثارهم بقدر ما تحروا القوة في التعبير

واذا كان العصر الطولوني قد شاهد المحاولة الاولى لايجاد فن أسلامي خالص في البلاد ، فان العصر الفاطمي قد امتاز عليه بظهور ذلك الفن فعلاً في ايامه ، ووضوح شخصيته ، وليس هناك من شك في ان الفن الفاطمي قد تفرد بأشكال زخرفية تبدو كأنها قد اخترعت لاول مرة أو على الاقل قد رتبت ترتيباً جديداً ، أو نسقت تنسيقاً لم يسبقها اليه فن من الفنون السابقة عليه ، والواقع ان هذا العصر هو العصر الذي ارتفع بالفن المصري الاسلامي الى الاوج ، وبلغت فيه البلاد من سمو الذوق ، ورقي الفن ، مبلغاً يعد بحق موضع الفخار

والاقمشة الفاطمية بزخارفها المدهشة ، والوانها الساحرة ، تدلنا دلالة واضحة على مدى ما بلغه فنانو العصر الفاطمي من الخبرة الواسعة بالاوضاع الزخرفية المختلفة ، والمقدرة الفائقة على تكوين الالوان ، وتركيبها ، ومزجها ، حتى انك لا تدري — وانت تتأمل هذه الاقمشة — أموضع السحر فيها جمال الزخرفة البالغ حد الاتقان أم الائتلاف والتناسق المدهش بين الالوان؟

ولقد يخيل للانسان ، وهو يجيل النظر بين تلك القطع الفنية الرائعة ، كأنما هو يقرأ قصيدة من روائع الشعر العربي ، يجلو عليه فيها الشاعر صوراً من الحياة شتى ، بعضها آخذ برقاب بعض ، جاشت بها نفس الشاعر ، وبعثتها قريحته الوقادة . هذه الصور التي تجعلك تهيم في بيداء الخيال ، وتذوق لذة روحية محببة الى النفس ، والتي لا تكاد تتبين فيها أثر العلاقة بينها وبين موضوع القصيدة ، لا تلبث أن تراها تتداعى ، واحدة بعد اخرى ، عندما يقطع الشاعر هذه السلسلة من المناظر الجميلة ، ليدخل بك على موضوعه . كذلك الحال في تلك الاقمشة ذات الزخارف الرائعة فهي تجذبك لاول وهلة بجمالها ، وتسحرك بالوانها ، فاذا حللتها بدت لك أقل روعة من ذي قبل ، وأكثر تقليداً مما تظن . على ان ذلك كله لا يطعن في جمالها ، ولا ينقص من قيمتها كأثر فني خالد ، إذ هي قوية التأثير فينا ، لا قبل لنا بدفع ما تبعثه في نفوسنا من تلك اللذة العجيبة

ولقد بلغ نساجو هذا العصر في رسم الحيوانات درجة من الاتقان لم يبلغها الحفارون على الخشب او البرنز ولم يصل اليها مزخرفو الخزف . اذ كانت تنسج تلك الحيوانات بخفة ورشاقة غاية في الدهشة ، وكما فقدت الحروف الهجائية شخصيتها بتوالي الزمن ، واصبحت خطاً متعرجاً لايمت بأي صلة الى الاصل الذي اشتقت منه ، كذلك هذه الحيوانات ، أخذت تفقد منذ منتصف القرن العاشر صورتها الاصلية ، وأصبحت زخرفة لا هيئة لها ولا اسلوب . وللاقمشة الفاطمية ،

على الرغم من اختلاف مظهرها العام، مميزات خاصة، تجعلنا لا نخطىء في التعرف عليها

فالكتابات التي عليها، كانت في بادىء الامر بحروف كوفية ذات سيقان طويلة، ثم اصبحنا نرى الجمع بين هذه الحروف والحروف الصغيرة. ثم صرنا نرى سطرين من الكتابة، احدهما عكس الآخر، او كتابة صغيرة، تزينها فروع نباتية. ومن ثم فقد وُجد للكوفي المشجر ميدان جديد، يبدي فيه جماله ورونقه، وهو هنا يختلف عن الكوفي المشجر الذي نراه على الابنية

اما الزخارف، فقد كانت تتحول من حسن الى أحسن، حتى بلغت من الاتقان درجة لا تبارى. وقد كانت تبدو في اشرطة موازية للكتابات، بها معينات او جامات من اشكال مختلفة داخلها حيوان واحد، او حيوانان متقابلان، او مول احدهما ظهره للآخر. ويلاحظ انهُ منذ القرن العاشر، ازدادت هذه الاشرطة اتساعاً، وكثر عددها عن ذي قبل

والواقع ان الاقمشة الفاطمية قد اشتهرت شهرة عظيمة، وذاع صيتها، وهي لا ريب تستحق هذه الشهرة عن جدارة واستحقاق، فالنساج المصريون، قد تفننوا في نسجها وزخرفتها مما يترك الانسان في حيرة من أمره لا يدري اي الاشياء أحق بالثناء والاعجاب، أهو نسيجها الدقيق، ومهارة النساج في ذلك؟ أم عبقرية الرسام فيما ابدعهُ، أم هذه الاشياء كلها مجتمعة؟

ولعل أجمل الاقمشة الفاطمية وأهمها هي ما ترجع في تاريخها الى القرن الحادي عشر، لان تلك الفترة، هي الفترة التي برهنت مصر فيها فعلاً، على ان فنانيها كانوا عباقرة حقاً، بما انتجوه من تلك القطع الرائعة، ذات السحر الحلال. اما في نهاية هذا القرن، في الفترة التي وقعت فيها مصر تحت سيطرة الوزير الارمني بدر الجمالي وابنه الأفضل شاهنشاه، فقد بدأ اتجاه جديد في الزخرفة، بلغ اقصى ارتقائه في النصف الاول من القرن الثاني عشر، ذلك انهُ حل محل الجامات التي كانت سائدة من قبل، شبكة من الاشرطة، متداخلة بعضها في بعض، تبدو كأنها مرصعة بحشوات صغيرة، على هيئة معينات. ومن بواعث الدهش في هذه الزخرفة أنها تلوح كأنها بارزة وما هي ببارزة، انما هو اللعب بالالوان، والمقدرة الفائقة على مزجها، وتوزيع الضوء بينها

ترى كيف قدر لهذا الفن الذي اكتمل نموه، وبلغ اوجه، أن يضمحل؟ وهل ذلك راجع الى انهُ أخذ يرقى في سلم التطور والرقي حتى غرق في بحر لجي من الافراط والتكلف؟ أم هو راجع الى ان الفنانين أنفسهم قد ركبتهم روح من التقشف فهجروا تلك الطراوة المدهشة في الفن؟ أم ان هناك عوامل اخرى غير هذه قد عجلت باضمحلاله؟

الواقع أن وقوف تقدم هذا الفن فجأة، يحمل على الكثير من التفكير، ويدعو الى البحث وراء الاسباب المعقدة التي كان من أثرها ان وصلت به الى ذلك الدرك

أيكون ذلك راجعاً الى الفوضى التي سادت في مصر في أواخر عهد الفاطميين، والتي كانت

نتيجة للنزاع المتواصل بين الوزراء المتنافسين ، والصراع الدائم بين فرق الجند المختلفة ؟ لقد كانت مصر في حالة من الضعف أطمعت فيها الاجانب ، فتدخل نور الدين والفرنجة تدخلاً فعليًّا في شؤونها ، وانتهى الأمر اخيراً بسقوط الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية . وكان من أثر ذلك كله ان تأخرت البلاد ، فمدينة تينيس مثلاً قد نهبت بين سنتي ١١٥٠ — ١١٩٠ م وهجرت سنة ١١٩٤م ثم اضمحلت سنة ١٢٢٧ م ، ودمياط قد احتلت مرتين وقضي على ما فيها من المصانع ، وكلتا المدينتين — كما تعلم — من المراكز الرئيسية لصناعة النسيج في مصر في العصور الوسطى . أم هو ناشيء عما كان بين الدولة المغلوبة والدولة الغالبة من الفروق التي لاسبيل الى انكارها ؟

لقد كان هم صلاح الدين الايوبي موزعاً بين الحروب وما يتصل بها من بناء القلاع والحصون ، وبين انشاء المدارس الدينية لاعلاء شأن المذهب السني ، ورفعه الى المكانة السامية التي كانت له من قبل ، والقضاء على المذهب الشيعي وتطهير البلاد من اتباعه . ثم هو الى جانب هذا ، من غلاة السنيين ، عرف بالتمسك الشديد بأهداب الدين ، والوقوف عند حدوده ، زاهد في الحياة ونعيمها ، كاره للترف وأسبابه ، ما أثر عنه انه لبس الحرير قط ، بل كان يتخذ ملابسه من الكتان او القطن او الصوف ، وتلك حالة تناقض من غير شك ، ما كان عليه الخلفاء الفاطميون من الاقبال على الحياة ، والتمتع بكل أنواع الملذات فيها

أم هو بسبب تلك النهضة الفنية في صناعة النسيج ، التي قامت في المدن الايطالية ، والتي تجلت في ذلك الفيض العظيم من المنسوجات الفاخرة — التي لا تقل جمالاً واتقاناً عما كانت تخرجه المصانع المصرية من قبل — الذي غمرت به اسواق الشرق ، فجعل حكومة الايوبيين ترى انه من العبث العمل على انهاض مصانع النسيج التي شاخت واضمحلت لكي تنافس بها تلك المصانع الفتية

ولا يجب ان نغفل هنا ، ما كان لمصر من الفضل الاكبر في نهوض صناعة النسيج ، وتقدمها في تلك المدن الايطالية . ففي مصر وصلت تلك الصناعة الى ذروة الرقي — كما رأيت — ومنها انبعثت تلك النهضة الى صقلية ، حيث كان النساج المصريون يديرون المصانع في عاصمة تلك الجزيرة ، وما زلنا نذكر مهارتهم ، وحذقهم ، كلما رأينا ، او تذكرنا ، عباءة التتويج التي صنعت هناك خصيصاً للملك روجر الثاني ، والتي توارثها من بعده ، اباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وكانوا يلبسونها في حفلات التتويج ، والتي عليها كتابة كوفية منسوجة بخطوط ذهبية نصها : « مما عمل بالخزانة الملكية المعمورة بالسعد والاجلال والكمال والطول والافضال والقبول والاقبال والسماحة والجلال والفخر والجمال وبلوغ الاماني والآمال وطيب الايام والليال بلا زوال ولا انتقال بالعز والدعاية والحماية والحفظ والسعد والسلامة والنصر والكفاية

بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة»[1] . ومهما بالغنا في وصف دقة صنع هذه العباءة وقوة تعبير زخرفتها وتناسق ألوانها، فان الالفاظ عاجزة عن ان تعطيك فكرة واضحة عن جمالها وبهائها

ومن صقلية سرت تلك النهضة الى لوكا ، وفلورنسة ، والبندقية . فأخرجت مصانع تلك البلاد ، في اول الامر ، اقمشة قريبة الشبه جداً من المنسوجات المصرية لا تكاد تختلف عنها

أم هو ناتج عما عرف عن الخلفاء الفاطميين من التسامح ازاء المسيحية — ومعظم الصناع كانوا مسيحيين — فازدهر فن النسيج ، وارتقى حتى بلغ أوجه ، في القرن الحادي عشر الميلادي ، ثم اضمحل عندما ضعف هؤلاء الخلفاء ، ومات عندما زال سلطانهم ؟

هذه العوامل المختلفة ، قد يكون واحد منها ، او تكون جميعها او بعضها سبباً فيما اصاب صناعة النسيج في مصر من الانحلال . ولا يجب ان يتبادر الى الذهن أن المقصود هنا هو صناعة النسيج بصفة عامة بل المراد هو النسيج الذي يتجلى فيه الفن بجماله

ولئن كان الايوبيون لم يبذلوا جهدهم ، لكي يمنعوا تدهور هذا الفن ، فان الذنب في الحقيقة واقع على الظروف التي احاطت بهم . وليس من العدل في شيء ان نتهمهم بعدائهم للفن ، لأن عمائرهم المنبثة في سوريا ، واخشابهم الاثرية ذات الزخارف الباهرة ، واوانيهم النحاسية ذات النقوش الرائعة ، تشهد بما كان لهم من فن راق وذوق سام

على ان هذا لا يمنعنا من ان نأسف على اضمحلال صناعة النسيج في هذه البلاد ، ذلك لان الاقمشة هي ، في الحقيقة ، المادة التي استطعنا أن نكتشف فيها بهاء الزخرفة الاسلامية ورونقها وأمكننا الوقوف منها على ناحية العبقرية في الفن الاسلامي ، فلقد كان محذوراً على الفنان المسلم أن يرسم لنا بريشته الصور المجسمة ، ذات الابعاد الثلاثة ، ولكنهُ ، بفضل حذقه ومهارته ، وقدرته على اللعب بالالوان ، أمكنهُ أن يخرج لنا صوراً على الاقمشة ، تكاد لا تشك قط في أنها مجسمة . ثم أن قوة هذه الالوان والاصباغ ودقة الزخارف ، وجمال الاشكال ، التي تشيع في نفس المتأمل لها نوعاً من الغبطة والانشراح ، لا يكاد يحسهُ وهو يشاهد تحفاً فنية اسلامية من مادة اخرى ، خير شاهد على عبقرية الفن الاسلامي وسموه ، وأقوى حجة دامغة ، ضد اولئك الذين يرمونهُ بالجمود والكآبة

وأخيراً اذا علمت انهُ من اخص خصائص الفنان المصري المسلم « الهرب من الفراغ » أي أنهُ لا يسعى لاظهار جمال زخارفه بايجاد فراغ بينها ، بل يلجأ غالباً الى زيادة هذه الزخارف والتكثير منها ، حتى لا يترك مكاناً خالياً ، وان هذا المبدأ لا يلقى اعجاباً من رجال الفن الغربيين لعدم اتفاقه مع المبادىء العامة لفن الزخرفة ، وانا لا نجد هذا المبدأ ممثلاً في الكثير من هذه الاقمشة الاثرية ، استطعت ان تدرك في يسر السر في مقام هذه الاقمشة من الناحية الفنية

---

(١) انظر الجزء الثامن من Répertoire Chronologique d'epigraphie Arabe

ثماني عشرة صورة من حياة

فولتير

للكاتب اميل لدفج

نقلها : كامل محمود حبيب

« انا متقلّبٌ كالصلّ ، نشيطٌ كالعضرفوت ، دؤوبٌ كالسنجاب »

في حجرة جميلة الاثاث ، فاخرة الرياش ، في دار في ناحية من باريس ، جلست سيدة قد دبت اليها الشيخوخة فبدت غضوناً في وجهها ، غير أنها ما زالت في قوة الشباب ونشاطه ، جلست تنظر الى الشمس وتبسم لها وتصطلي بدفئها . . . . وجاء الظهر ، ميعاد زيارة القس اليومية ، وهو شاعر على علم بفن الموسيقى ثم هو يفقه النساء . دخل وإلى جانبه صبي عليه سمات الفطنة والذكاء كان قد نشر القس بعض شعره على عيني السيدة بالأمس . وراح القس يتحدث : إن أول ما بدا من عبقرية هذا الطفل حين جاء احد رجال القصر يطلب إلى الاستاذ ان يكتب لهُ قصيدة يقدمها هو الى ولي العهد ، وكان الاستاذ غائباً فجلس التلميذ الى نفسه حيناً ثم قدم لهُ قصيدة في عشرين بيتاً . ثم تناولها القس لينشرها أمام السيدة

ووقف الصبي بازاء السيدة متردداً ، ثم نُزع عنهُ اضطرابهُ ، فقبل يدها في احترام . لقد قبلها موليير ، وهي ما تزال تحمل نسمات فينوس ، منذ نصف قرن . وابتسمت السيدة في رضا وبشاشة . وتصرم عام ، وفُضّت الوصية ، فاذا السيدة توصي بألفي فرنك للصبي يشتري بها كتباً . هذه هي نينون دي لانكلو ، سيدة في الرابعة والثمانين وهذا الصبي هو فولتير في العاشرة من عمره

جلس الاديب وهو في الحادية والعشرين في نديٍّ وهو في غيظ وسخط على كل ما يجيء به الملك والحاشية ولاسيما دوق اورليان الوصي ، وجلس اليه ضابط من عيون اورليان يستدرجهُ في خداع ومكر ، فاندفع الاديب يتهدم ويتهدم ، وراح يفيض في ثورة وحماسة يصف بعض ما نشره بالفرنسية حيناً وباللاتينية حيناً آخر ، غفلاً من الامضاء . وأبلغ الجاسوس ما سمع ، وترامى الى الوصي الخبر ، ومضت أيام فاذا ڤولتير في سجن الباستيل وحيداً لا يرافقهُ سوى كتابين لهوميروس ، ومنديلين وغطاء وياقتين وزجاجة عطر . ولبث في سجنه احد عشر شهراً لا يرى المداد ولا الورق ، فكان يكتب اشعاره بين أسطر الكتاب بقطعة من رصاص

ازدحمت الكوميدي فرنسيز بالناس، وقد انقسم رجال الدولة والشعب الى حزبين يتفاخران وفيهم الأمل والحقد . إن « أوديبس » [١] التي ألفها فولتير الصغير ستبدو أمام الناس ، ودوقة ماين واتباعها يأملون ان يروا الوصي وابنته ، اللذين يعيشان كما يعيش الرجل وزوجه ، يستشعران قوة الصدمة فيما يرون فيهويان وقد جللتهما الفضيحة وآذاهما العار ، مثلما هبط الزوجان الملوكيان في هملت . ولكن أورليان لم يرَ فيما أمامه ما يؤلمهُ فابتسم في رقة والى جانبهِ ابنته في كبريائها وصلفها، وقد حفت بها وصيفاتها الثلاثون، ما تستطيع ان تخفي بعض ما بدا عليها من جدّ واهتمام. وحين بدا نجاح الرواية اندفعا يصفقان مع الناس ، وفولتير ينظر من خلف السجف وفي نفسه الطرب والنشوة لما لاقى من انتصار ثم انطلق ليرى . . .

وهدأت العاصفة ، وظهر هو في مقصورة المارشال ، فعلى هتاف من جوانب المسرح ينادي زوجة المارشال الجميلة أن « قبليه . . . قبليه » فما استطاعت هي الآن تنزل عند رأي الجمهور المائج

* * *

تلاقى فولتير وشاب من النبلاء في مقصورة أدريان ليكوفرور في ليلة من ليالي الشتاء ، ولشد ما آلم الشاب ان يرى هذا الاديب الوضيع يرافق السيدة ، فراح يتندر عليهِ أمامها « ما اسمك الحقيقي ؟ أهو مسيو دي فولتير أم مسيو آرويه فقط » فأجابهُ فولتير « وماذا يمسك ؟ ان اسمي يبتدىء معي ثم يطير عني الى غيري أما أنت فاسمك ينتهي عندك ! » فثار بهِ النبيل ورفع عصاه، غير ان فولتير سلّ سيفه . ومضت أيام ، وبينا فولتير يدلف من قصر مضيفه الدوق الذي حباه بفضله وكرمهِ سنوات عدة ، وجد نفسه بين جماعة من سفلة القوم وأراذلهم ، ينهالون عليهِ ضرباً ولطماً ، والنبيل الشاب على خطوات ينظر ويبسم . ووجد هو مهرباً فطار الى الدوق يطلب اليهِ المعونة فأبى

وتراءى لفولتير أن ذكاءه وعبقريته قد رفعاه الى أن أصبح صديق العظماء والنبلاء ، ثم هو في رعاية المرأة التي كانت الحاكم الحقيقي لفرنسا ، وقد اندفع في حياة سياسية عالية خلق لها ، فعزّ عليهِ ان يكون هو هو ثم يجرح فلا ينتقم . والآن ، وهو يعمل طول يومهِ محصناً ، راح يدعو النبيل الشاب الى المبارزة ، وينال من كرامتهِ تحت سمع الناس وبصرهم ، ويثلم شرفه كلما وقع عليه نظره ، غير ان أقارب الشاب من الكرادلة والأمراء أرادوا ان يقفوا سداً في وجه هذه المبارزة ، فقبضوا على الأديب السفيه ونفوه فانطلق الى انكلترا

* * *

ظلّ فولتير في باريس زماناً يتوارى عن الانظار ، ثم ضاق بهذه الحياة المقيدة فانطلق من مكمنه يطير ويقع أنى شاء ثم استقرّ بهِ المقام في دار تاجر قمح ، وهنا . . . في هذه الدار كان يلتقي كل من يهفو نحوه. وجاءت اليهِ دوقة سانت بير وصديقها ترافقهما سيدة عليها مسحة من جمال

(١) اوديبس : أحد ملوك طيبة اليونانية قيل انه قتل والده وتزوج أمه

غير أنها جذّابة آسرة ! لها أنف كبير ، وفم صغير جميل ، وذقن لطيف ، وعينان خضراوان صافيتان ، وجبهة بيضاء ناصعة تتدلى عليها خصل من الشعر الاسود الفاحم فتزيدها رونقاً وجمالاً ! ثم هي على جانب كبير من التربية والتعليم والتجربة . ورأى الشاعر كل ذلك — لاول مرة — فراعهُ ما رأى ! وهي ... هي المركيزة دي شاتيلي تمتز بما هي عليه من علم وذكاء . وحين جلسوا للغداء راح الشاعر يقرأ هذه الانشودة :

يا للسماء ! إنني أسمعها تردد هتاف الترحيب ،

وكذلك ماريان الطاهية ،

لأن دوقة سانت بيير ،

ودوقة دي شاتيلي ، وفور كاليبه ،

هنا يتناولون الغداء في كوخي الصغير ،

وظلت إميلي المقدسة — منذ الليلة — صديقة الشاعر سبع عشرة سنة . لقد كانت خليلته أولاً ثم صديقته ومحاميته . وقضى هو هذه السنين الطوال إلى جانبها على حدود اللورين ليستطيع في عهد اضطهاده — أن يفر متى حزب الامر

* * *

في حجرة مقفرة في قلعة في كليف شاب ضعيف في الثامنة والعشرين ، تلفف في ملابس الصيد البروسية واستلقى على فراشه تمركهُ الحمى وهو ينتظر وصول استاذهِ منذ سنوات اربع . لقد ارسل اليه سيلاً من الخطابات بعضها نثراً وبعضها شعراً ، تحمل نفثات صدره وآلامه وآماله وتحمل إعجابه وحبه ، فهو يقارن بينهُ وبين أبولو وسقراط وشيشرون وبلينيوس وأجريبا . غير ان هذا الفرنسي لم يأن له ان يأتي . ولعل كلمات التملق هي التي حالت بينهُ وبين أن يحضر ! لطالما أراد ان يكشف له عن بعض ما في قلبه فدعاه تراجان وفرجيل وطيطس واغسطس . وحين تلاقيا كانت الحمى تريد ان تصرع الفتى الألماني

وثبت به نزوات العاطفة الجامحة حين رأى أستاذه فراح ينفض عن نفسه آثار الحمى ، لقد سخرا معاً مما كانا يزعمانه من اختلافات بينهما ، ووجدا لذة عقلية في تلاقيهما . هذان هما فردريك وفولتير

* * *

على مائدة ريشيليو ، صديق شاعرنا وشبيههِ في التهكم والذكاء والدهاء ، جلسوا يتحدثون في شجاعة وصراحة ما بلغت إليه فتاة اورليان من مجد . واطمأن الجميع إلى ان فولتير وحده هو الذي يستطيع أن يتناول هذا الامر بقلمه ، فأجاب وهو يبسم « ان فتاة الحان التي تفر من حانها لتموت حرقاً لجديرة بلاذع الهجو ! » ولكنهم مضوا يقنعونهُ ، وبعد لأي ، انسحب هو وكتب المقاطع الاربعة الاولى ، ثم نشرها على اعين الجميع فهتفوا له هتاف الاستحسان والإعجاب

وكانت هذه فاتحة «لابوسيل» احدى رواياته الجريئة التي عالج فيها التاريخ والدين كأنما يعالج طلسماً ، وظلت على السنين تحمل أفكاره الحرة وتهكماته المرة ، ثم أخفى اسمه ، غير أنها طارت في نواحي باريس موسومة باسم فولتير

* * *

في قصر فرساي وفولتير في الخمسين يهتم بما يشغل الناس، وعلى مسرح القصر الصغير تحت عيني الملك والملكة وولي العهد والامراء والنبلاء والكرادلة، راح فولتير — وقد ألقي اليه قياد المسرح — يثبت هنا وهناك بين الموسيقيين ومحترفي الرقص والرسامين ينثر الكلمات والاوامر في نشاط ويقظة. لقد رفعته سيدة وضيعة المولد الى هذا المنصب حين شغفها مؤلفاته حبًّا : هي السيدة ده بومبادور . وأصبح هو شاعر الدولة في ربوع القصر . وصدر الامر الملكي

« فرساي في اول ابريل سنة ١٧٤٣

إن الرغبة السامية ... رغبة جلالة الملك قد رأت أن تمن على السيد أرويه دي فولتير بلقب «السيد»، حين لم تجد من يستحق هذا اللقب سواه ، لما بدا لها من ذكائه ونشاطه وقدرته على العمل، ولما رأت من عبقريته في العلوم والآداب التي انكبَّ على دراستها فبثَّ فيها من روحه العالية وفاق غيره »

وابتسم فولتير وهو يدس في جيبه الفي جنيه ، راتبهُ السنوي ، ثم انطلق يترنم :

سيدي هنري الرابع ، وسيدتي زايير ،
وسيدتي ألزير الاميركية ،
كل اولئك لا يساوون عندي نظرة ملكية واحدة :
إن لي الف عدوّ يحسدونني على مجدي الضئيل
وبرغمهم هطلت عليَّ ألقاب الشرف والثروة كالمطر
كل هذا جزاء أضحوكة (لافوار)

* * *

على مائدة الملكة الخضراء في فونتينبلو جلست صديقة فولتير المركيزة دي شاتيلي تلعب ، فخسرت اربعمائة جنيه ، ثم امدَّها هو بمائتين خسرتها هي الاخرى ، واستطاع خادم ان يقترض لها مائتين أخر بأرباح مضاعفة فخسرتها ايضاً و ... لقد خسرت في هذه الجلسة اربعة وثمانين الف فرنك وفولتير الى جانبها يحذّرها ، ثم نادى شجاعته وصراحته فقال لها : انهم يخدعونها ويغشونها ... أفيكون ذلك حقًّا وهي تلعب على المائدة الملكية . وفي هذه الليلة ارغما على ان يطيرا بعيداً خشية الفضيحة

واسكنتهُ دوقة عجوز من صديقاته قلعة على بضعة اميال من باريس ، وأمضتهُ الوحدة وهو يعيش في حجرة نائية منفردة ، قضى فيها ثلاثة اشهر لا يرى الخلاء ولا يخرج الاَّ عند الثانية

بعد الظهر ليتناول الغداء في حجرة نوم الدوقة ثم ليقرأ لها ما كتبهُ في يومهِ . في هذه العزلة استطاع ان يكتب خمساً من رواياته القصيرة

* * *

في حديقة قلعة كوميرسي حيث ضيوف ملك بولانده الذين شغلوا بعض مناصب الدولة حيناً من الزمان ، جلست المركيزة في كبريائها وجمالها وقد بلغت الاربعين وقد نفضت يدها من حب فولتير منذ سنوات عشر لانهُ خطا الى الشيخوخة خطى فساحاً غير انها ما برحت صديقته الوفية. لقد جذبها فتىً في الثلاثين فراحت تتزين لهُ وتتبرج تريد ان توقعهُ في حبالها . انهُ هو المسيو دي سانت لامبير الذي احبتهُ خليلة الملك

في الرابعة والخمسين من عمر فولتير ، وفي امسية هادئة انطلق من حجرتهِ قبيل العشاء، ودخل على غير ميعاد حجرة صاحبته ، فوجدها الى هذا الشاب في حالة تبعث في النفس الشك والريبة ، فاضطرب واستشعر لذع الخيانة في قلبهِ ، وأصرّ على ان يبرح الليلة ، غير أن خادم فولتير —وقد اوحت اليهِ السيدة بأمر— ارتد يقول لسيدهِ ان العربة لا تستطيع السير . وتحدثت هي الى فولتير — والليل ساج — حديثاً ظلّ في طيّ الكتمان حيناً من الدهر ، والمركيزة تخفي صاحبها في قصرها . قال فولتير « افتريدين ان اصدقك بعد الذي رأيت ؟ لقد بذلت صحتي وسعادتي في سبيل رفاهيتك ثم تخونين عهدي ! » قالت « انني احبك حبًّا شديداً ، غير انني قد سمعتك تشكو تهدم قوتك ثم قلتَ انك لا تستطيع ان تفيدني دون ان يكون في ذلك مضرتك، فلماذا تثور حين اريد ان ارفع عنك بعض ما يثقلك ؟ » قال « هذا حق ، ولكن حذار ان يحدث هذا مرة اخرى تحت عيني ! »

وفي الليلة التالية بدا خصمه امامهُ يعتذر ويسأله الصفح ، فقال لهُ « يا بنيّ ، لقد بلغتُ من الكبر عتيًّا، وأنت ما تزال في سن السعادة والمرح ، تستطيع ان تعشق وان تستميل قلوب النساء ! انتهز هذه الفترة الذهبية من العمر. أما انا فرجل حطمتهُ الأيام، لاحول لي ولا قوة ، فما اصلح لما تصلح انت له » ! . وعلى مائدة خليلة الملك تناولوا جميعاً طعام العشاء ، في الليلة الثالثة

وانقضت اشهر بدت ، بعدها ، سمات الحمل على المركيزة ، وجلسوا جميعاً يتشاورون في امر الطفل وهل تستطيع هي ان تعلن امر زواجها من هذا الشاب ليكون اب الطفل الجديد ؟ فأجاب فولتير في غيظ « لا بأس . فسنضم هذا الطفل الى مؤلفات السيدة العديدة ! »

* * *

لازمت المركيزة فراشها وفولتير الى جانبها يمرضها ، ورفض دعوة ملك بروسيا الملحة ليكون في جوار صاحبته يسهر عليها ويعنى بأمرها وهي تضع ابن غريمه ، وحين وضعتهُ تألق البشر في وجوه من في القصر. وبعد اسبوع هاجتها الحمى فعصفت بحياتها . وظل الزوج الحبيب واقفاً بإزائها،

أما فولتير فأنطلق ذاهلاً في هدوءه الى الطبق الاسفل . وفي نهاية السلم سقط فشجّ رأسه ، واندفع غريمه يمينهُ ، وحين افاق نظر الى الشاب في سكون وقال « لقد قتلتها ! »

* * *

استمار الرجل الفرنسي وهو في بوتسدام من آخر من برلين قطعتين من الماس يزين بهما وهو يمثل دور شيشرون في احدي رواياته امام الملك فردريك ! وبعد ان صاحب فولتير الملك ثلاثة أشهر قلّده منصباً في البلاط الملكي البروسي براتب سنوي قدره عشرون الف فرنك . ولما كان فولتير لا يطمئن الى ما يربحهُ من كتبه العديدة التي تنشر كثيراً منها لا يحمل اسماً ، كما يطمئن إلى ما يملك هو، ثم هو يريد ان يكون دائماً في بحبوحة من العيش ، فقد ارسل يهوديًّا الى درسدن يشتري لهُ اوراقاً مالية سكسونية بمبلغ اربعين الف فرنك ، وكانت هذه الصفقات حراماً على البروسيين فحنق الملك على فولتير حين ترامى اليه الخبر

وقدّم للمحاكمة ، وراح فولتير يدفع عن شرفهِ ونبالته التهمة ببراهين وأدلة بدت فيها عبقرية الرجل ثائرة لا تهدأ ، قوية لا تضعف . وانتهى الامر بوساطة ذوي الرأي والجاه، غير ان الحادثة كشفت امام الملك ناحية من نواحي الرجل السامية

ثم ... ثم اندفع يهاجم موبرتيس مواطنه وزميله في «سان سوسي» دون ان يصرح باسمه فيما يكتب، فغضب عليهِ الملك غضباً شديداً ، وأمره ان يحرّق هذه الرسالة في الطرق على اعين الناس ، فأبى فولتير وقدم استعفاءه من وظيفتهِ ورد كل ما حباه بهِ الملك مع ابيات من الشعر:

لقد تقبلتها في سرور وطرب ،
والآن أردها في اسى وحزن ،
كعاشق أناني ، سلّطت عليهِ الخواطر السود ،
فرد الى الفتاة التي أحب رسمها

غير أن الملك لم يتركهُ يفلت ، فردّ اليهِ ما أرسله في نفس الليلة ، ومضت أسابيع تخللتها مخاصمات ومصالحات ، ثم جرى الحديث بين الملك وفولتير أثناء احتفال باهر ، قال الملك: « مسيو دي فولتير ، انني أرى رغبتك في السفر مُلحة ! » قال « سيدي ، بالرغم مني ما أريد ، لانها صحتي . . . » قال الملك اذن أتمنى لك سفراً سعيداً ! »

وغادر فولتير فما رأى أحدهما الآخر بعد ، وجاءته الخطابات تترى تحمل في ثناياها شتى ألوان التقدير والاعجاب ، فما انقطع سيلها الا بعد أربع وعشرين سنة ، حين مات الشاعر

* * *

لقد جاوز الستين وهو يعيش الى جانب جنيف عيشة أغنياء النبلاء ، وقصره الصغير يعج بالضيوف من مختلف الأمصار ليروهُ وليسمعوا منهُ . وأصبح يملك عربة ، ولهُ خدم وطهاة من باريس وسكرتير ولقد نجحت رواياته على مسرحه الخاص نجاحاً باهراً ، أثار حقد مواطنيه من النبلاء

هنا على حدود وطنه ، الذي اضطهده وشتت شمله لأنهُ عرف كيف يفكر بعقل الفيلسوف عاش أكثر من عشرين عاماً ، يتنقل في هذه الناحية في حذاء وجوارب سود ، وسترة فضفاضة من الحرير ، وقبعة من المخمل او في شعر مستعار ، ثم هو يعمل في نشاط ، ويطالع في نشاط ، ويستقبل ضيوفه من العظماء والعظيمات . واتخذ الحيطة فاشترى ضيعة في سويسرا وأخرى في فرنسا ليستطيع ان يفر من واحدة الى أخرى متى حمل على ذلك

وحين كبرت سنه لم يستطع ان يشبع نهم ضيوفه من المفكرين والفلاسفة ، فبذل قصارى جهده في العناية بأمر الفلاح ، وأصاخ الى صيحاته الحزينة المكفوفة ، فاستطاع أن يحصل من مجلس المدينة في جنيف على تصريح يخوّل لهُ نزح المستنقعات التي تحيط بضيعته ليحفظ على الناس صحتهم ، واستطاع ايضاً ان يرفع نير استعباد المزارعين عن صغار الفلاحين

وهو الآن يعمل ما يعمل الفلاح الصغير فهو يحرث ويبذر في حقله المسمى حقل دي فولتير وظلَّ يقوم عليه بنفسه حتى جاوز الثمانين وانطفأت منّته ، وكان فولتير ايضاً كريم النفس ، سخيّ اليد ، يساعد المعوزين والفقراء من أبناء مقاطعته ، ولقد شجع صناعة الساعات الدقاقة ، وهو اول من أدخل صناعة نسج الحرير ، فحوّل مسرحه الى بيت لدود القز

في هذه الآونة ايضاً دأب اشهراً ليطلق سراح اسرة في تولوز كان قد اتهمها القضاة المتعصبون باطلاً ، فهاجم ما فشا في القضاء الفرنسي من فساد ، وما ساد من استعباد

لقد كان العدل هدف فولتير الاعلى

* * *

وفي عصر يوم من ايام فبراير وقفت عربة على باب باريس الغربي ، وسأل ضابط : او يكون على ظهر هذه العربة ما يحرم دخوله ؟ فأجاب رجل هم في صوت يضطرب « لا اعتقد ، ليس هنا سواي ! » وحدق فيه ضابط ثم أقسم « والله انهُ لهو فولتير ! »

لقد جاء يزور باريس للمرة الاولى والاخيرة منذ عشرات من السنين . وتوارى وراء المسرح والروايات واعماله العديدة يتخذ من كل ذلك سبباً يفتح امامه ما استغلق ، ولكنهُ كان يريد أن يجد فرصة يزور فيها باريس ، وكانت باريس تتمنى لو اتيح لها ان تراه . وكان هو قد هاجم كلاً من البلاط والكنيسة فأمضها ، فالاول يريد أن يبعده عن باريس والثانية تريد ان تستدرجهُ علهُ يؤمن ، ولكنهُ وجد ترحيباً من الاكاديمية ومن الزعماء السياسيين ومن زعماء المسرح ، فكان يزوره نيفٌ وثلثمائة شخص في اليوم الواحد. ولقد ابتدأ هو فزار المرأة التي كانت أولى من أحب ، والتي لم يرها منذ ستين عاماً . ولقد اثرت في نفسه هذه الزيارة وأثرت في نفسها هي ايضاً ، حتى انها ردّت اليه في اليوم الثاني صورتهُ حين كان شابّا

* * *

لاول مرة في مدى سبعين سنة ، وفولتير تتناهبه الاسقام وانحطاط القوة ، وقع مع قس

في نقاش ديني ، غير ان واحداً لم يعرف ما استقر عليه رأي فولتير . وجعلت الكنيسة تتملقهُ حتى اقر بأنهُ يريد أن يموت على المذهب الكاثوليكي ثم قال « ... وإني لارجو ان يغفر لي الله وأن تسامحني الكنيسة فيما فرط مني نحوها » لقد انتهى فولتير الى هذه الخاطرة حين أدخل في روعه أن جثته — إن لم يفعل — ستلقى في العراء . ولكنهُ حين جاء القس يلقنهُ بعض الطقوس الدينية أوقفهُ قائلاً « تذكر ان دمي لا يزال ملوثاً ، ويجب علينا الاَّ نخلط به دم الله ! »

وراح يصد هجمات الكهان وهو يقول في غضب : انهُ لن يذعن كما اذعن اولاً . وعلى حين فجأة ارتدت اليه صحته . لقد كانت خطواته في الأكاديمية موفقة ، وعلى المسرح الباريسي لاقى احتفاء لم يفز به من قبل شاعر . وحين اضطره اصدقاؤه ان يبدو امام الناس ، أطلَّ من مقصورة في المسرح ثم انحنى يحيي الجمهور ، ثم رفع رأسه وقد اغرورقت عيناه بالعبرات وقد ظلت طول عمره قوية صافية . وحين ارتد الى داره جلس يحدث نفسه وهو يبتسم (انك لم تخبر الفرنسيين ، لقد رحبوا بروسو في مثل هذه الحماسة والاندفاع في يوم ، وفي اليوم التالي أمر فقبض عليه !) ثم اشترى داراً في باريس وعزم على ألاَّ يبرحها حتى يحين حينه

ولكنهُ اسرع نحو النهاية فانحطت قوته على حين بغتة ووافتهُ المنية بعد اسبوعين

* * *

وأبت عليه الكنيسة قبراً ، وأخذ الطبيب ، وهو يشرحهُ ، رأسهُ الشاذ القوي ، وأخذ صديق قلبه . وفي المساء كانت جثتهُ في ملابسها وقبعتها وقد لُفت في رفق ، تبدو كرجل نائم ، وأبعدت على مركب . وحرمت الكنيسة الموتورة على الاكاديمية ان تقرأ شيئاً مما كتب الميت الجاحد ، وحرمت على الصحف ان تنشر كلمة عنهُ ، وأبعد رئيس دير لانهُ لم يستطع ان يمنع نقل الجثة ، ودفن الميت سراً الى جانب احد ذوي قرباه

وفي سنة ١٧٩٠ اي بعد اثنتي عشرة سنة احضر رفات فولتير ، مع اول نسمات الثورة ، الى باريس في حفل حاشد ودفن في البانثيون . وملئت الحجرة التي لبث فيها زماناً سجيناً في الباستيل ، بالزهر والنقوش ودوت بالاغاني والموسيقى . وفي وسط المشاعل والموسيقى بين مئات الآلاف من الناس مرت العربة تحمل رفات الرجل العظيم ونثرت عليه آخر كلمات التقدير « لقد نفث هذا الشاعر المفكر والمؤرخ في الانسانية من روحه السامية فتأهبت للحرية »

* * *

وتحطم التابوت الرصاصي في البانثيون ، حطّمهُ جماعة من الشبان المعارضين في احدى ليالي مايو بعد أربع وعشرين سنة ، وجمعوا عظامه وأودعوها حقيبة ، وحفروا لها حفرة في دار مهجورة على حدود العاصمة ، وهكذا ضاع رفات هذا الرجل العظيم في التراب

* * *

وليس يعرف احد الآن اين وقعت عظام فولتير

الفكر واللغة

لجورجي شاهين عطيه[1]

سمعنا منذ مدة لحضرة مدير هذا المعهد العلميّ الزاهر المسيو غرانجوان محاضرة نفيسة بالفرنسية موضوعها « الفكر واللغة » تناول فيها بالبحث المشبَع قضية العلاقة بين ما لكل امة من الطرق في التفكير ، وما في لغتها من أساليب خاصة في التعبير ، مورداً على ذلك الامثلة العديدة من كثير لغات الشرق والغرب . وقد رأيت الآن ، وقد أُتيحت لي فرصة التحدث اليكم ان اطرق هذا الموضوع نفسه ، مقتصراً في البحث فيه على ما يتعلق بلغتنا العربية خاصةً ، فأُبيّن ما بين أوضاع هذه اللغة وتعابيرها وطرق التفكير عند العرب الاقدمين من العلاقة ، ثم انطرق الى ايضاح ما يجب التقيد به من العلاقة بين طرق تفكيرنا في هذا العصر وما يراد صوغه من الاوضاع والتراكيب الحديثة

﴿ لغة كل قوم تصوّر افكارهم ﴾ معلومٌ ان لغة كل امة هي ما تتخذه للتعبير عن افكارها ، فلا يرتسم بها الا صُوَر ما يجري في اذهانها ، ويجول في خواطرها . والذي يؤثر في تكوين عقلية الامة وطرق تفكيرها عاملان : البيئة الطبيعية ، ونريد بها ما يحيط بتلك الامة من جبال وبحار وانهار وصحارى وما اشبه ، والبيئة الاجتماعية ، ونريد بها ما لها من نظام أُسرة ودين وطرق معيشة ونحو ذلك . على اننا اذا حاولنا تطبيق هذه القاعدة على لغتنا العربية بالنسبة الينا وجدناها تنطبق عليها في بعض الشيء ولا تنطبق في البعض الآخر . فلغتنا تصوّر ما في افكارنا في ما نتعمّده من ذلك تعمّداً ، واما في ما نستعمله كل حين من التراكيب المجازية فانها لا تبسط الا صُوراً تمثل احوالاً غير احوالنا ، وتشير الى عصور غير العصر الذي نعيش فيه . وسنرى الآن ما في بعض تلك التعابير من تصوير لاحوال قدماء العرب الطبيعية ، ثم لاحوالهم الاجتماعية

﴿ تصوير احوال القدماء الطبيعية ﴾ يقول الواحد منا اذا سُرّ : « وقد قرّت عيني، وثلج

[1] نص المحاضرة التي القاها على جمهور من الادباء بالكلية العلمانية في بيروت

صدري » ومعنى قرّت بردت ومعنى ثلج صار بارداً كالثلج ، واذا بحثنا في سبب اختيار البرد للتمبير عن السرور نجده في حالة العرب ومعيشتهم في بلاد حارّة يؤذيهم هجيرها ، وتؤلمهم رمضاؤها ، مما جعلهم يتصوّرون البرد أفضل وسيلة من وسائل النعيم . وبديهي أنهم لو كانوا عائشين في بلاد باردة لما كان للبرد عندهم هذا المعنى المستحب ، ولا كانوا يدعون على من يريدون له السوء بقولهم : « أسخن الله عينهُ »

ونقول في الدعاء بالخير : « سقياً لفلان ، وسقى الله ايام الصبا » وما كان هذا الدعاء بالسقي الا لقلة المطر وندرة الانهار والينابيع في شبه جزيرة العرب بحيث كان السقي اهم ما يمكن تمنيه من الخير . وهذا ما جعلهم يدعون المطر بالغيث لانهُ يغيثهم اي يعينهم في الضيق ، وبالرحمة من باب المجاز المرسل لانهم يعدونهُ رحمةً من الله

ومن هذا القبيل قولنا : « رعاكم الله ، وسقياً لكم ورعياً » فضرورة الرعي لمواشيهم لم تكن تقل عندهم عن ضرورة السقي . فالماء والكلأ اشدُّ العناصر ضرورةً لحياتهم وحياة أنعامهم ، ولم يكن همهم التنقل من مكان الى آخر الا للبحث عنها وعن المواضع التي يكثران فيها

ويدخل في هذا الباب قولنا مثلاً : من اهم واجبات الشبان الذّود عن حياض الوطن . فالحياض هي مجتمعات الماء ، وقد كان لكل قبيلة حياض خاصة تستقي منها وتوردها مواشيها ، ولما كانت تلك الحياض من اهم الاشياء كلها اذ عليها تتوقف صيانة حياتها وحياة سائمتها كان من الطبيعي ان يستميت جميع افراد القبيلة في الذود عنها ، وان يبذلوا دماءهم لمنع كل اعتداء عليها

ونقول : « ان هذه القصيدة من عفو الساعة » اي مما قاله الشاعر ارتجالاً بدون أن يجهد قريحته . واصل هذا من عفو الماء وهو ما فضل عن الشاربة وأُخذ من غير كلفة ولا مزاحمة

وكثيراً ما نقرأ في الصحف العبارة الآتية : « يمموا البلدة الفلانية في الجبل انتجاعاً للصحة » والانتجاع هو طلب الكلإ والبحث عنهُ في مواضعهِ

ومثل هذا قولنا : « ان فلاناً من روّاد اللهو » والروّاد جمع رائد وهو الذي يسير امام القوم يبحث لهم عن مواضع الكلإ والماء

ونقول في قوم ضعف أمرهم : « قد ذهبت ريح القوم » وفي من ابتدأ امرهُ في الظهور : « قد هبت ريح فلان » وما كان دخول الريح في مثل هذه المواضع الا لما لها من الاثر في إقامة البدوي وتنقلاته في الصحراء

ونقول في الامر الصعب المنال : « هذا امرٌ دونه خرط القتاد » والقتاد شجر ينمو في الصحراء لهُ شوكٌ كالابر ، والخرْط من خرط الغصن اذا نزع ورقهُ اجتذاباً بان يقبض على أعلاه ويُمِرّ يده عليهِ الى اسفلهِ

ونقول في من يطعن على قوم: «هو ينحت أثلتهم» والأثل شجر عظيم من الطرفاء و«هو يقرع مروتهم» والمرو حجارة بيض تقتدح منها النار

ونقول في من نشاوره في امر: «استورينا زند فلان» والزند هو حجر تقتدح منه النار، واستيراء الزند استخراج النار منه

ففي كل ما تقدم تذكير بأحوال للعرب في شبه جزيرتهم ليست مما نألفه ولا مما يعرفه أهل زماننا «تصور أحوال القدماء الاجتماعية» أما ما يمثل أحوالهم الاجتماعية في كلامنا فهو كثير من ذلك قولنا: «إن الازمة ضاربة أطنابها في هذه الايام» والاطناب ما تشد به الخيمة من الحبال، والمراد بضرب الأطناب نصب الخيام للإقامة

ومنه قولنا «ان الكسل سبب الفقر» والسبب هو الحبل الذي توصل به أطناب الخيمة بأوتادها

ومنه قولنا في العزم على الأمر: «ضرب فلان أطنابه على هذا الأمر، وألقى له جرانه» والجران مقدم عنق البعير، يقال ألقى البعير جرانه اذا برك ومد عنقه على الارض كناية عن تمكنه في البروك

وكثيراً ما نرد في كلامنا هذه الجملة او ما شاكلها: «قرأت هذا الفصل برمته» أي كله. ومعنى الرمة الحبل البالي. قيل ان رجلاً دفع الى آخر بعيراً بحبل في عنقه، فصار يقال لكل من دفع شيئاً الى آخر بجملته: أعطاه إياه برمته

ونقول: «حدا بي الى فعل هذا الامر أو حداني اليه كذا» أي دفعني اليه، وأصله من حدا الناقة أو حدا بها اي غنى لها وساقها

ونقول في من يسير في أمره على غير هدى: «هو يخبط خبط عشواء» أي ناقة عشواء وهي التي في بصرها عشاً لا تبصر ما أمامها، فهي تخبط بيديها كل شيء اذا مشت لا تتوقى شيئاً

ونقول: «العجلة تنتج الندامة» وهذا من نتجت الناقة أي وضعت

ونقول في من يقصده الناس للاستفادة من علمه او جدواه: «إن دار فلان محط الرحال» والرحل ما يوضع على البعير ليركب عليه مثل السرج للفرس

ونقول في من لا يكتم سره: «هو لا يكظم على جرة» والجرة ما يفيض به البعير من كرشه فيمضغه ثانية

ونقول في من هو خبير بالامور: «هو جذلها المحكك» والجذل أصل الشجرة ينصب للإبل لتحتك به الجربى

وكثيراً ما نقرأ هذه الجملة: «بات القوم كأن على رؤوسهم الطير» اي ساكنين هيبة. وأصل المعنى في هذا ان الغراب يقع على رأس البعير فيلتقط منه القراد فلا يتحرك البعير لئلا ينفر عنه الغراب

ونقول : « قبض فلانٌ على أزمّة الأمور » و « انقادت اليهِ الامور بأعنّها » والازمة جمع زمام وهو الخيط الذي يُشدُّ الى طرفهِ مقود البعير وقد يسمى بهِ المقود نفسهُ ، والأعنة جمع عنان وهو سير اللجام الذي يمسك بهِ الدابة

ونقول في من يطمح في غير مطمع : « هو يكدمُ في غير مكدَم » والكدم العض بأدنى الفم ، وأصله في الدابة تكدم الحشيش

ونقول في من كثر رزقهُ : درّت عليهِ اخلاف الرزق » والخلف للناقة كالضرع للشاة

ونقول : « فعل فلانٌ هذا الأمر اعتباطاً » اي بدون موجب . وهذا من اعتباط الذبيحة اي نحرها لغير علة

ونقول : « ورّطت فلاناً في الامر » اي اوقعتهُ فيهِ ، وهذا من الورطة وهي الوحل ترتطم فيهِ الدواب

هذا نزرٌ يسير من التعابير التي ليست في الواقع الا صوراً لحياة الاعرابي بين إبله وشائه . ولا يقل عنها ما نستعمله من التعابير التي تتمثل بها سائر مظاهر حياته

فمن ذلك قولنا : « أحرز فلانٌ القِدح المعلّى » أي سبق أقرانهُ . والقِدح أحد قداح الميسر وهي سهام لا نصل لها ولا ريش ، والميسر قمار العرب بهذه القداح ، كانوا يشترون جزوراً ناقةً أو بعيراً ، فينحرونها ويقسمونها ثمانية وعشرين قسماً ويتساهمون عليها بعشرة قداح يفرضون في أحدها فُرضاً واحداً ، وفي الثاني فرضين ، وهلمّ جرّاً الى السابع فيفرضون فيهِ سبعة فروض ومجموع ذلك ثمانية وعشرون ، ويضيفون اليها ثلاثة قداح لا حزّ فيها ، ويجعلون الكل في خريطة وهي وعاء من جلد ويضعونها في يد رجل عدلٍ يسمونه المجيل أو المفيض ليجيل يده في الخريطة ويخرج منها قدحاً للرجل منهم . فان خرج لهُ قدحٌ من ذوات الفروض أخذ نصيبه من الاقسام بعدد الفروض التي فيهِ ، وان خرج لهُ قدح من الثلاثة التي لا فُرض فيها غرم ثمن الجزور . والقدح المعلّى هو ذو الانصبة السبعة

ومن هذا قولنا في من فاز في أمر . « قد فلج سهمهُ » أي غلب واستظهر

ومنهُ قولنا : « أجال القوم قداح الرأي » أي تشاوروا وهو من إجالة القداح في الخريطة على ما تقدم بيانه

ونقول : « أعطِ القوس باريها » أي سلّم الأمر الى من هو أهلهُ

ونقول : « رميتُ عن قوس فلانٍ ونزعتُ عن قوسهِ » أي شاورتهُ وعملت برأيهِ « ورمى القوم عن قوس واحد » اي اتفقوا في الرأي والعمل

ونقول : « إن هذا الامر على قاب قوسين مني » دلالةً على شدة قربهِ وقاب القوس ما بين

المقبض والسّية فلكل قوس قابان ، والسّية ما عُطف من طرفيها ، وفي القول قاب قوسين قلب فالمراد قابا قوس

ونقول في نفاد الصبر : لم يبقَ في قوس الاصطبار منزع ، وقد نفدت السهام حتى الاهزع والمنزع سهمٌ في الكنانة ، والاهزع آخر سهم من سهامها

ورد في كلامنا كثيراً « سنوح الفرصة » وهذا من سُنوح الصّيد وهو ان يمرّ عن يمين الصّياد الى يساره فهو السانح ، فان مرّ عن اليسار الى اليمين فهو البارح . وكانت العرب تتيمن بالسانح وتتشاءم بالبارح

ونقول في اختلاط الامر : « اختلط الحابل بالنابل » والحابل صاحب الحبالة وهي شبكة الصائد ، والنابل صاحب النبل ، وذلك ان يجتمع القناصون فيختلط اصحاب النبالة باصحاب الحبائل فلا يصاد شيء

ونقول في من وقع الخلاف بينهم وتفرقت وحدتهم : تصدعت عصا القوم ، وانشقت العصا بينهم ، والعصا آلة الدفاع عن النفس عند الاعراب فهي رمز القوة عندهم

ونقول « قشرت لفلان العصا » اي أطلعتهُ على ما في سريّ من محبة او عداوة

ونقول : « جاءت هذه المصيبة على فلان ثالثة الاثافيّ » اي كمل بها الشر كله فلم يبق منه غاية . وهذا من الاثفيّة وهي الحجر من حجارة الموقد ، كان يوضع حجر في كل من الجانبين فاذا وُضع الثالث كمل الموقد الذي توضع عليه القدر

ونقول في تهدئة اضغان القوم : « فثأنا ما جاش من قدرهم » اي سكّناه وكسرنا حدته

ونقول في من يوقد نار الفتنة : « إن فلاناً يوقد في الحظر الرطب » والحظر شجر شائك تعمل منهُ الحظائر ، والحظر الرطب اذا أوقد انتشر منه دخان كثير حتى ينال أذاهُ كل أحد

ونقول في من يحسن التصرف بالأمور : انه يعرف من اين تؤكل الكتف . قالوا تؤكل الكتف من أسفلها لأن المرقة تجري بين لحم الكتف والعظم ، فاذا أخذت من اعلى جرت المرقة على الآكل وانصبت ، واذا أخذت من أسفلها انقشرت عن عظمها وبقيت المرقة مكانها

﴿ كيف رسخت هذه التعابير في صلب اللغة ﴾ كل هذه التعابير يستعملها الادباء ويستعملون اكثر منها في منظومهم ومنثورهم وقلّ منهم من يفطن لما فيها من تصوير احوال العرب الاقدمين في مختلف ضروب معيشتهم ولعمري ان هذا مظهر غريب في هذه اللغة لا نظن ان له مثيلاً في غيرها من لغات العالم . ولا مجال للعجب من رسوخ هذه التراكيب وامثالها في صلب اللغة بحيث صارت جزءاً متمماً لها لا يستغني عنه كاتب ولا شاعر في التعبير عن افكاره فان الادب في هذه اللغة بعد دخول الامة في عهد الحضارة ظل كما كان وهي في عهد البداوة ، وظلّ الشعراء في

دمشق وبغداد والاندلس يفتتحون قصائدهم بالبكاء على الاطلال ووصف النوق والخيام كما كان يفعل اسلافهم من سكان البادية في حين هم عائشون بين القصور والحدائق لا نوق لديهم ولا اطلال ، وقد بلغ من تشدّدهم في المحافظة على هذه الاساليب انهم كانوا يحظرون على الشاعر ان يركب في طريقه الى محبوبته فرساً او برذوناً لمجرّد ان الجاهليين لم يركبوا اليها الاّ الناقة. وان كان قد قام من عاب عليهم هذه الخطة ودعاهم الى نبذها كما فعل في اوائل العصر العباسي الشاعر ابو نواس القائل

عاج الشقيُّ على رسم اسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد

يبكي على طَلَلِ الماضين من أسدٍ لا درَّ درك قل لي من بنو اسدِ

لا جف دمع الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلبُ من يصبو الى وتدِ

فان هذه الدعوة لم تصادف آذاناً صاغية وظلّ الشعراء يقفون على الاطلال ويصفون النياق حتى اننا نقرأ في اواخر القرن الماضي لعلامتنا المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي اي بعد مرور اكثر من الف سنة على عهد ابي نواس قوله في مستهل احدى قصائده :

لِمن طللٌ بوادي الرمل بادِ تخطُّ به الرياح بلا مدادِ

وقفت بناقتي فيهِ فكنا ثلاثة أرسم ، في ظلّ وادِ

فهل نعجب بعد هذا من رسوخ هذه التراكيب في صلب اللغة وهذه حال الادب والادباء. أما في هذا العصر عصر السيارة والطيارة فقد تغيرت الحالة ولم يعد شعراؤنا يتحدثون الاّ عن الزمان الذي يعيشون فيهِ ولا يصفون من الاشياء الاّ ما يقع تحت حسهم بدلاً عما كان يألفهُ اهل القرون الخوالي . وهذا ما يبشر بنهضة جدية في ادبنا الحديث يتحفز بها لمجاراة آداب الشعوب الراقية . بيد انهُ اذا امكن تحرير الادب من قيود الاساليب القديمة فليس من الممكن ولا من الضروري تنقية اللغة من التراكيب التي في معانيها الاصلية دلالة على احوال القدماء ، ذلك بأن هذه التراكيب قد رسخت في الاستعمال وتداولتها الالسن والاقلام بمعانيها المجازية أما معانيها الاصلية فقد غابت عن الاذهان بتاتاً ولم يبق لها عند الناس الاّ هذه المعاني الاصطلاحية

***

﴿التجديد في اللغة﴾ على اننا قد اخذنا نشعر بمظهر من مظاهر التجديد في اللغة في ما نقرأه على صفحات بعض الصحف من تراكيب مجازية مبنية على صُور من حياتنا اليومية ، وهذه التراكيب تشيع تدريجاً في الاستعمال بحيث لا تلبث ان تجري مجرى المثل . من ذلك قولهم في

من يثير فتنة ليجرّ لنفسه مغنماً : « هو يصطاد في الماء العكر » وقولهم في العزم على ازالة التباس: « اننا نريد وضع النقاط على الحروف » . فهذه استعارات لا بأس بها ومزيتها فائقة في ان المشبه به فيها معروف ومألوف لدى القارىء . ومعلوم أن الاستعارة مبنية على التشبيه ، والاصل في التشبيه ان يكون المشبه به معروفاً عند المخاطب ليقيس عليه المشبه الذي يجهله او يجهل شيئاً من صفاته

بيد ان اهم مظهر للتجديد هو في ما نراه من الاهتمام بوضع ألفاظ للدلالة على ما أوجدته الحضارة الحديثة من ادوات وما تستلزمهُ من معان . وهذه مهمة قد تألفت لها في السنوات الاخيرة مجامع لغوية في عدد من الاقطار العربية تضم فريقاً من علماء اللغة الذين يشار اليهم بالبنان وفي مقدمتها المجمع اللغوي المصري . ولا اريد الآن البحث في ما قامت به هذه المجامع من اعمال وما اتخذتهُ من قرارات ولكني اريد توجيه الانتباه الى قضية هي بمنزلة الاساس من العمل الذي اتخذتهُ على عاتقها واغفالها يؤدي الى ضياع الفائدة المتوخاة منهُ . تلك هي قضية العلاقة بين الفكر واللفظ في ما يراد الاتيان به من الاوضاع . وأعني بذلك ان يكون المعنى المراد اتخاذ الاسم منهُ عن اقرب ما يخطر بالبال عند تصور المسمى اذا كان المقصود الوضع بطريق الاشتقاق ، او ان تكون العلاقة بين المعنى الموضوع له اللفظ والمعنى المراد استعماله فيهِ قريبة لطيفة ، اذا كان المقصود الوضع بطريق المجاز . ونرى العرب قد راعوا بالبداهة هذه القاعدة في ما وضعوه من الالفاظ تمام المراعاة . ففي ما اشتقوه من الاسماء للسيف مثلاً قد وضعوا له المخذم والباتر والبتار والصارم والقاضب والقضيب والعضب والحسام والجراز من خذم وبتر وصرم وقضب وعضب وحسم وجرز وكلها بمعنى قطع والقطع هو اول معنى يتبادر الى الذهن عند رؤية السيف او تناوله . وكذلك ما وضعوه بطريق المجاز فقد راعوا فيهِ قرب العلاقة ولطفها كما في تسمية اللحمتين المتدليتين في جانبي الحلق باللوزتين ، وتسمية داخل الفم بالغار اي الكهف وما اشبه . اما اوضاع المجمع اللغوي المصري فاننا لم نرَ في كثير منها هذه المراعاة ، كما في تسمية قطار الركاب مثلاً «بالوقّاف» عللوا ذلك بحجة بطئه وكثرة وقوفه في المحطات . فان هذا المعنى ليس مما يتبادر الى الذهن عند رؤية هذا القطار منطلقاً وما من احد يركبهُ بقصد كثرة الوقوف في المحطات

ومثل ذلك اقتراح تسمية المعكرونة «بالدُّويداء» فانه اذا صح وجود جامع بين هذين الشيئين من جهة الهيئة فان هذه التسمية مستنكرة من جهة انها مبنية على تشبيه طعام مستطاب يستمرئه الناس بحشرات قذرة تنفز النفس عند تصورها وهي مما تأكلهُ الخنازير . اولا يرى المجمع ان استعمال لفظة « الإطرية » في هذا المعنى وافٍ بالغرض . قال في القاموس : « الاطرية طعام كالخيوط من الدقيق » فان قيل ان هذا الاستعمال يحتاج فيهِ الى شيء من التوسع قلنا ان التوسع

لا بد منهُ في مثل هذا المقام كما نفعل في استعمالنا لفظة الحساء فان ما نعرفهُ الآن بهذا الاسم يختلف كثيراً عما كان معروفاً منهُ عند العرب. فالمهم ايجاد الفاظ يرضى عن استعمالها الذوق السليم

وكما يجب مراعاة الذوق من جهة المعنى تجب مراعاته من جهة اللفظ ايضاً . فمن المحال ارغام جمهور الكتاب والمتأدبين على استعمال ألفاظ غير مأنوسة او كريهة في السمع كما هي الحال في الارزيز والطرطران والطزر . والغريب في اللفظة الاخيرة ان ارباب المعجمات قد اختلفوا في تفسيرها . قال صاحب القاموس الطزر النبت الصيفي بلغة بعضهم ، ومثله قال صاحب اللسان . اما في المخصص فقد جاء ان الطزر البيت الصيفي واتفق الجميع على ان اللفظة فارسية معربة . ولكن مع عجمة هذه اللفظة والاختلاف في تفسيرها لم يرَ المجمع بأساً من تقريرها لمدلول كلمة « ڤيلا » . ولا أعلم ما الذي أحرج المجمع فأحوجهُ الى ركوب هذا المركب الذي اقل ما فيه ابدال كلمة اعجمية بكلمة اعجمية وقد كان له غنًى عن ذلك في لفظة « دارة » . قال في القاموس: « الدارة المحل يجمع البناء والعرصة وهي أخصّ من الدار . ولم يذكر صاحب القاموس ما تتميز به الدارة عن الدار . ولكن دارات العرب مشهورة ، وقد كانت مواقعها خارج المدن . وتغزل الشعراء بها دليل على انها كانت على جانب من الاناقة . وكل هذا ينطبق على تحديد كلمة « ڤيلا » جاء في تفسير هذه اللفظة في معجم لاروس une maison de campagne élégante فهل من حرج بعد هذا في تخصيص لفظة دارة لهذا المعنى لا سيما وفيها ما فيها من اللطف والرشاقة

ان اهم شرط في حياة ما يوضع من الالفاظ الحديثة هو ان يراعى فيه ذوق العصر الذي نحن عائشون فيه . وإن قريشاً لم تتغلب لغتها على سائر اللغات في شبه الجزيرة لكونها أفصح العرب فالنبيّ انما استرضع في بني سعد ، بل ان لغتها تغلبت لانها كانت أعلم العرب باختيار الفصيح من الالفاظ اي انها كانت اصحهم ذوقاً فكانت تنتقي من الفاظ العرب عند اجتماعهم في مكة ألطفها وقعاً على الآذان . وبهذا استظهرت لغتها على غيرها من لغات القبائل وتمت بها الوحدة المنشودة . فالواجب السير على هذه الخطة عند وضع الالفاظ الحديثة ليكون العمل مثمراً

***

وأختم كلامي الآن بشكركم أيها الحضور الكرام على ما أوليتموني من فضل اصغائكم ، والدعاء للعاملين في سد حاجات هذه اللغة بالتوفيق في مسعاهم ، لتظل هذه اللغة الشريفة متابعة سيرتها الاولى في خدمة الحضارة والعمران ، قائمة بالغرض الذي يطلب منها على تقلبات العصور والازمان

التحذير من خطر زراعي جديد!



حشرة سان يوزى

وصولها الى مصر في ابريل الماضي

للدكتور محمد منير بهجت
وكيل المحجر الزراعي الجمركي بوزارة الزراعة

﴿تمهيد﴾ ترتد تسمية هذه الحشرات بالقشرية الى الغلف التي تغطي معظمها . وقد تكون هذه الغلف قطنية او قرنية او جلدية او دقيقية او شمعية وتختلف شكلاً وحجماً ولوناً

والحشرات القشرية انواع كثيرة تنقسم تبعاً لتركيب غلفها الى حشرات ذات قشور صلبة وحشرات قطنية وبق دقيقي وحشرات رخوة او جلدية

لا تلبث هذه الحشرات عقب تولدها بالتفريخ بأيام قلائل حتى تكون مغطاة دائماً بالقشرة المميزة لنوعها ويختلف عدد سلالاتها السنوية ووقت تفريخها وخواص اطوارها الاخرى باختلاف نوعها وموسم ظهورها وموطنها . فبعض الحشرات القشرية يقتصر في تغذيه على نبات واحد في حين ان البعض الآخر يتغذى باصناف من النباتات عديدة . والحشرات القشرية تصيب جذور النباتات وسوقها الاصلية وفروعها واغصانها وأوراقها وثمارها . وتمتص العصارة من انساج النبات بأجزاء الفم وهي شبيهة بالابر وبعضها يفرز مادة عسلية كالندى تجتذب النمل والنحل والزنابير وغيرها وقد ينمو بعض الفطر على هذه المادة العسلية فيبدو الجزء المصاب من النبات مغطى بمسحوق اسود يشبه « الهباب »

﴿توزيعها الجغرافي﴾ موطن حشرة سان يوزى (Aspidiotus perniciosus comst.) الصين. وهي تفتك بالخوخ الصيني المعروف بالمزهر في منطقة التلال الفاصلة الصين الاصلية عن منوغوليا ومنشوريا . وقد استورد المستر م . لك الذي كان قاطناً في سان يوزى بولاية كاليفورنيا في سنة ١٨٧٠ بعضاً من الشجر المصاب من هذا الخوخ فأدخل تلك الآفة الخطيرة في الولايات المتحدة الاميركية . وفي سنة ١٨٨٠ عثر كومستك على تلك الآفة ووصفها وما لبثت طويلاً حتى عم

انتشارها في تلك المنطقة من كاليفورنيا ثم تفشت في جميع الولايات المتحدة الاميركية . وبعد سنين قلائل من استقرارها وشيوعها تعذّر استئصالها لتأخر القيام به . ثم نقلت على بعض شجيرات الفاكهة من الولايات المتحدة الى جزائر هاواي وشيلي واستراليا . وبعدئذٍ تسربت الى بلاد المكسيك والارجنتين . وهي الآن منتشرة في جهات عديدة من اليابان وزيلندة الجديدة وتسمانيا وجنوب افريقيا واوربا الوسطى ورومانيا واسبانيا والبرتغال علاوة على ما ذكر . وفي اوائل سنة ١٩٣٢ عثر عليها باسواق الفاكهة في باريس على تفاح اميركي . وفي ٨ مارس من تلك السنة نفسها صدر قرار وزاري فرنسي بمنع دخول جميع الثمار المصابة بهذه الحشرة فلم يعثر عليها بعدئذٍ في فرنسا . وفي اوائل ابريل سنة ١٩٣٧ عثر عليها لاول مرّة على تفاح استرالي وصل الى جمرك بور سعيد لبيعه في مصر . وفي أواخر ابريل من السنة نفسها عثر عليها ايضاً على شحنة كبيرة من التفاح الاميركي بجمرك الاسكندرية . أما الشحنات المشار اليها فقد حجزتا في جمرك بور سعيد والاسكندرية

هذا وحشرة سان يوزي ليست من حشرات مصر ولم توجد بها مطلقاً

﴿ أطوارها ﴾ ان هذه الحشرة بغض الطرف عن غرابة أطوارها التي هي أشبه شيء بقصة خيالية تتوالد فتكثر بسرعة مدهشة . فقد أحصي النسل الناشيء عن أنثاها الواحدة فاذا هو زهاء ٣٫٢١٦٫٠٨٠٫٤٠٠ حشرة في الموسم الواحد اذا ما صادفها أحوال جوية ملائمة ولم تهلك أية حشرة منها

وصغار الحشرات تولد احياء . وقد يصل العدد المتولد من الحشرة الواحدة الى ٤٠٠ احياناً . أما عدد أجيالها فأربعة في السنة غالباً . وهذه الحشرة وان كانت تشاهد بجميع أطوارها المختلفة على النباتات في فصل الخريف الا ان معظمها ينعدم في الشتاء سوى القليل من صغارها التي تمضي الشتاء وهي مستكنَّة . فاذا ما جاء الربيع شرعت في امتصاص العصارة وكبرت في حجمها حتى يتكامل نموها وعندئذٍ تبدأ أناثها في وضع صغارها بمعدل ٩ او ١٠ كل يوم مدى ستة أسابيع . وقبل توقف الامهات عن الولادة بأسبوع تشرع صغارها التي ولدت في الاسبوع الاول وتكامل نموها في الولادة وهكذا . هذا والصغار بعد ولادتها بساعات تبدأ في امتصاص العصارة ثم تشرع في افراز كتلة من الالياف القطنية أو الشمعية لا تلبث حتى يتدخل بعضها في بعض فينشأ عنها الغلف القشرية للحشرات

والغطاء في أول الأمر أبيض مستدير في وسطه نتوء صغير ثم يسودّ خلال أسبوعين أو ثلاثة وأخيراً يصير ذا لون سنجابي . والاناث وحدها تفقد أعينها أثناء الانسلاخ الاول في حين أنها والذكور معاً تفقد فيه أرجلها وقرون استشعارها . وهذه الذكور ذات أعين أرجوانية

اللون كبيرة وهي تتحول بالتدريج بعد انسلاخين آخرين الى حشرات كاملة لها أجنحة رقاق لونها برتقالي . أما الاناث فتظل كل واحدة منها مستديرة الشكل منبسطة وتتزاوج مع الذكور بعد انسلاخها الثاني

﴿ وصفها ﴾ الحشرة الانثوية البالغة تكون مستديرة تقريباً ومحدبة قليلاً وفي حجم رأس الدبوس قاتمة اللون في صغرها سنجابية عند بلوغها ذات حلمة سوداء في وسطها تحيط بها قناة سنجابية فاتحة اللون . اما الحشرة الذكرية فقاتمة اللون سنجابية تضرب الى السواد وأصغر من الانثى كثيراً وطولها ضعف عرضها

وحشرة سان يوزي ويقال لها ايضاً حشرة الصين القشرية عبارة عن قشرة وحشرة حقيقة . فالقشرة ضئيلة الحجم غير ظاهرة ولكن يسهل تمييزها على انساج النبات الطرية بوجود بقع حمر حول قواعدها . اما الحشرة نفسها فقد توجد تحت هذه القشرة الواقية لها وقد لا توجد وهي رخوة الجسم صفراء كالليمون. واناثها مستديرة تقريباً بينما الذكر اكثر استطالة منها واطوار هذه الحشرة تسترعي النظر لان الذكر منها وهو في طور الشرنقة يختلف كثيراً بعد الانسلاخ الاول عنه في الانثى . فالذكور لها اعين ارجوانية كبيرة في حين ان الاناث ليس لها اعين مطلقاً وهذا ما قد اصطلح عليه ريلي « بالطور السابق الشرنقة » الذي توجد فيه وسائد للاجنحة بينما تكون الافخاذ قصيرة غليظة . اما الطور التالي المعروف بالشرنقة الحقيقية فتستطيل فيه قرون الاستشعار والارجل. اما الحشرات الكاملة فتخرج من تحت قشورها متراجعة الى الخلف وفي حالة الاصابة الشديدة تكون الاجزاء المصابة مغلفة تماماً بقشور متضامة تعيش تحتها الحشرات

﴿ النباتات التي تعولها ﴾ جميع الحشرات القشرية تلحق الضرر بالنباتات على نمط واحد هو امتصاص العصارة وتجريد انساج النبات من الغذاء . وهناك تأثير فسيولوجي ينشأ عن مواد تفرزها الحشرات القشرية في النباتات لكنهُ قليل الشأن لان الشجرة التي لم تضعف جداً لفقدان الغذاء تنتعش ثانية متى ابيدت الحشرات . وقد تغطي القشور الشجرة المصابة اذا تركت وشأنها بغير علاج سنة او سنتين فاذا ما مضى عليها سنتان آخريان ماتت او صارت عديمة الفائدة

وتوجد حشرة سان يوزى على اي جزء من النبات وفي حالة اصابة الثمار بها تشاهد عادة مجتمعة حول عنق كل ثمرة وتسبب عليها بقعاً حمراً صغيرة وكذلك الحال في اللحاء الداخلي للشجرة المصابة حيث يكون في الغالب مصطبغاً باللون الارجواني في مواضع تجمع هذه الحشرات

وسرعة توالد هذه الحشرة مع سهولة « تأقلمها » تجعلانها شديدة الخطر وهي تعيش في مختلف الاجواء حارة وباردة رطبة وجافة وغذاؤها يختلف باختلاف مواطنها ولكنهُ ينحصر في شجر الفاكهة والزينة وفي الاعشاب

كانت حشرة سان يوزي في اول الامر آفة شجر الفاكهة ولا سيما الخوخ الذي ما زال عرضة للاصابة الشديدة بها . وكذلك صنف الكمثرى المعروف بالدوشس Duchess والصنف الآخر المعروف بالبارتلت Bartlett تشتد اصابتهما بها بينما صنف الكمثرى المسمى كيفر Kieffer يظل منيعاً . اما البرقوق المعروف بالبلو دامسون Blue Damson فاكثر قابلية للاصابة بها من اصنافه الاخرى . والسفرجل والتفاح عرضة للاصابة بها ولكن صنفي التفاح المعروفين ببين ديفس ويلو ترانسبيرانت Ben Davis & Yellow Transparent اكثر عرضة للاصابة من اصنافه الاخرى العادية . اما شجيرات الريبس Current bushes فاذا ما اصابتها هذه الحشرة تلفت او ماتت . وقد يصاب بها الكرز الحلو . اما اصنافه الحمضة فنيعة تقريباً . وكروم العنب لا تصاب عادة لكنها قد تصاب اذا ما غرست بجوار اشجار اصابتها شديدة . وتوت امريكا المعروف باسم ماك لورا اورانتيا كا Maclura aurantiaca واسمه الانجليزي اوسج اورنج Osage orange اذا ما غرس كسياج نباتي اصيب اصابة شديدة واتخذته الحشرات القشرية مكاناً اميناً لا يضارع لتوالدها — واصناف الورد المديدة عرضة للاصابة عادة اما الاشجار الآتية وهي الاجاس المسمى (Fraxinus alba or F. americana) White Ash وشجر لسان العصفور الابيض المسمى (Pyrus aucuparia Mountain Ash) وشجر الليلاق المسمى Lilac (Syringa vulgaris) وزهاء مائة نوع آخر من اشجار الغابات عرضة للاصابة بها

﴿ وسائل انتشارها ﴾ (١) مجرد زحفها على الفروع المتعانقة (٢) بواسطة الرياح الشديدة (٣) بحملها على اقدام الحيوانات واجسامها ولاسيما الطيور والحشرات التي تفوقها حجماً (٤) على شجيرات الغرس المصابة (٥) بالشحنات الزراعية المصابة المستوردة من الخارج

﴿ طرق مقاومتها ﴾ من المعلوم ان ابادة بويضات الحشرات بالرش اصعب من ابادة الحشرات نفسها التي لا بد لها من استنشاق الهواء حتى ولو كانت الاخيرة في حالة كمون جزئي

وقد اشرت الى ان حشرة سان يوزي لا تقضي فصل الشتاء في طور البيضة فالحشرات الصغيرة تكمن في فصل الشتاء تحت قشورها . ولما كانت حشرة سان يوزي القشرية لم يعثر عليها مطلقاً في مصر فانهُ اذا اتفق وتسربت الى داخلية القطر من النطاق الجركي بسبب ما فلا بد من اتخاذ الوسائل الفعالة الآتية لمقاومتها :—

١ — ان يكون رجال الحجر الزراعي بالجمارك على حذر من ان تتسرب حشرات اخرى الى داخلية القطر

٢ — الامتناع عن شراء شجيرات الفاكهة من المشاتل المصابة

٣ — علاج شجيرات الغرس المصابة بالمشاتل في كل سنة حتى تستأصل الحشرات القشرية

٤ — تقليم النباتات المصابة التي يمكن انقاذها في البساتين وحرق مخلفات التقليم

٥ — قلع جميع الاشجار المصابة التي لا يرجى نفعها وحرقها

٦ — احكام رش الاشجار المصابة في فصل الشتاء بمحلول الجير والكبريت او ببعض المستحلبات الزيتية

٧ — الاستمرار في الرش سنة فسنة طالما عثر على اي اثر للحشرة القشرية

٨ — عمل الترتيب اللازم لمكافحة هذه الحشرة بالوسائل البيولوجية

﴿ الرش ﴾ الطريقة الشائعة المعول عليها لمقاومة الحشرات القشرية هي الرش . وقد وجد ان الرش بالمواد المناسبة في الوقت اللازم اذا أجري كما يجب مرّة في السنة كان كفيلاً بقمع الحشرة ومنع ضررها . اما المواد المجربة والمعتبرة خير المواد لرش حشرة سان يوزي القشرية فهي مخلوط الجير والكبريت وكذا بعض المستحلبات الزيتية . اما المواد الأخرى كالصودا الكاوية وزيت السمك والصابون والكيروسين النقي ومستحلباته ومنتجات البترول المتنوعة والمستحضرات المعروفة بمبيدات الحشرات القشرية فهي أقل تأثيراً مما تقدم

﴿ العلاج بالغمس ﴾ تستعمل هذه الطريقة فقط في علاج شتلات الغرس . فالغمس في المواد الموافقة اذا توافرت فيه جميع الشروط اللازمة يقتل أية حشرة قشرية قد تكون على الشتلات وقت العلاج من دون ان يلحق بها أي ضرب . والمحلول الذي يستعمل هنا هو بوجه عام المحلول المستعمل في الرش الا انهُ يكون عادة اكثر تركيزاً والشائع هو استعمال محلول الجير والكبريت والزيوت القابلة للذوبان ومستحلب الكيروسين والارجح منها هو الاول فهو أقل خطراً وفعله يضارع فعل أي واحد منها . ولا بدّ من تخفيف المستحضرات التجارية لمحلول الجير والكبريت بنسبة جزء واحد منهُ الى كل سبعة أجزاء من الماء . ومدة الغمس هي دقيقة واحدة وبعدئذٍ توضع الشتلات المعالجة على مسطح منحدر بحيث تكون قمتها الى اسفل ليصفى عنها السائل . وينبغي ان لا تغمس الجذور لكيلا يلحقها تلف ولا ضرر اذا تصادف وقوع بعض السائل على الجذور الكبيرة ويراعى ان تكون الشتلات المعالجة في حالة كمون تام . ويلزم عند استعمال الزيوت القابلة للذوبان ان تخفف كما لو اريد استعمالها في عملية الرش — اي تخفف بنسبة جزء واحد من الزيت لكل خمسة عشر جزء من الماء. اما عند استعمال مستحلب الكيروسين فيجب تخفيفه بنسبة جزء واحد من المستحلب لكل سبعة اجزاء من الماء

﴿ التدخين ﴾ يحسن تدخين شجيرات الفاكهة قبل نقلها من المشتل الى محلها الدائم بالبستان . والعادة ان يستعمل غاز الحامض الهيدروسيانيك بالنسبة الآتية لكل مائة قدم مكعبة من الفراغ

سيانيد الصوديوم (٩٥ ٪ نقاوة) اوقية
حامض الكبريتيك النقي اوقية
ماء اوقيتان

ولا بد من استمرار عملية التدخين مدة تتباين من نصف ساعة الى ثلاثة ارباع ساعة ويجب ملاحظة عدم التدخين وشجيرات الفاكهة مبتلة لان وجود الرطوبة يجعلها عرضة للتلف — كذلك يتحتم اجراء التدخين في صناديق او غرف محكمة الاغلاق — هذا وقد دلت التجارب على ان التدخين اذا جرى بدقة واتبعت فيه الشروط السابقة لا بد من ان يقتل الحشرات القشرية التي على شجيرات الفاكهة المعالجة بدون احداث اي ضرر بها

***

﴿ الوسائل البيولوجية ﴾ تظل حشرة سان يوزى القشرية مغلوبة على امرها في موطنها الاصلي (الصين) بواسطة الحشرة الاسيوية المسماة Chilocorus simulis Rossi وكثير من الخنافس التي بالولايات المتحدة الاميركية تغتذي بحشرة سان يوزى القشرية واكثرها نشاطاً الخنفساء المعروفة باسم Chilocorus bivulnerus Mulds والنوع الصغير جداً الاسود اللون المسمى Microweisea misella Lec. وكل من الحشرات الكاملة واليرقات للخنافس المشار اليها تغتذي بحشرة سان يوزى القشرية . وفي ولاية ماستشوستس من الولايات المتحدة الاميركية قامت حشرة Prospaltella perniciosi Tower بالتغذي متطفلة على حشرة سان يوزى القشرية فكان له من اعظم الاثر في تلاشيها . هذا وقد ربى الدكتور هاورد الحشرات الطفيلية الآتية اخذاً من حشرة سان يوزى القشرية وهي : —

١ — Aphelinus fuscipennis How.,
٢ — Aphelinus mytiiaspidis Le B.,
٣ — Aspidiophagus citrinus How.,
٤ — Anaphes gracilis How,
٥ — Physcus varicornius How.,
٦ — Prospalta suraatii How.,
٧ — Alberus clisiocampae Ashm.,
٨ — Rhopoideus citrinus How.,

هذا وبعض الطيور الصغيرة قد تغتذي بحشرة سان يوزي من وقت الى آخر

ثم ان حشرة سان يوزي القشرية وكثيراً من الحشرات القشرية الاخرى عرضة للاصابه بأنواع الفطر . وقد قام الفطر المعروف باسم Sphaerostilbe coccophila بما كان له الاثر الجليل في عرقلة انتشار حشرة سان يوزي القشرية بولايات فلوريدا وجورجيا والولايات الاخرى التي تحيط بخليج المكسيك

ولا يخفى ان الرطوبة من اهم ضروريات نشأة هذا الفطر وتطفله

كيمياء الفيتامينات

التمهيد لصنعها بالتركيب الكيمياوي
ومكانة الضوء والاشعة التي فوق البنفسجي في ذلك

هذه العوامل الخفية في مواد الغذاء، التي تحول دون بعض الامراض، وتشفي بعضها، وتحصن الجسم فلا تناله العدوى من دون كفاح، لقد عرفناها بتأثيرها، وتبيناها في الاغذية التي تكثر فيها، فما هي على حقيقتها، والى اي المركبات الكيمياوية تمتُّ بصلة، وهل من المتعذر عزلها ومعرفة قوامها ثم تركيبها بحيث تؤخذ في كل بلاد مهما تباين الاقليم واختلف الغذاء وتطيب لكل حلق سواءٌ أفي زيت السمك كانت ام في غيره من مواد الغذاء النيئة والمطهية؟

من اوقع المشاهد في النفس في تاريخ العلم الحديث تسابق العلماء وتنافس المعامل في حل مشكلة علمية عند ما تتضح لهم عناصر تلك المشكلة، بل وقبل أن تتضح. لذلك قضى العلماء نحو عشرين سنة من ١٩٠٨ الى ١٩٣٠ وكأنهم يتلمسون في شكل الفيتامين طريقهم في الظلام. فعجزوا عن عزل الفيتامين وصنعه بالتركيب الكيمياوي. ثم اعلن خلال بضعة اسابيع في سنة ١٩٣١ ان فيتامين D قد استحضر بلورات نقية في لندن وجوتنجن وهولنده وايفانسفيل بأميركا

كان الطريق الى النجاح طريقاً وعراً. اتيحت الفرصة في غير منعطف واحد من منعطفاته لكشف السر، ولكن ما كان معروفاً عن الفيتامين، لم يكن وافياً، فضيعت الفرصة، وظلت المشكلة قائمة. ففي سنة ١٩٠٨ وضع احد الباحثين ثمانية جراء كلاب في حجرة مظلمة فأصيبت بالكساح، حالة ان جراء اخرى تركت طليقة فلم تصب بها، مع ان الطائفتين كانتا تتغذيان بغذاء واحد. وأثبت باحث آخر سنة ١٩١٢ ان جراء الكلاب تصاب بالكساح اذا حرمت من ضوء الشمس. ولاحظ هري ستينبوك احد مساعدي ماكولم الأول عند ما كان في وسكنص[1] ماعزاً يمثل الجير ويبنيه في عظامه مدى اسابيع وهو يمرح في ضوء الشمس، ثم جعل يفقد هذا الجير عند ما حبس في حجرة مظلمة مع ان غذاءه كان واحداً في الحالين. ولكنهُ لم يمض في البحث لان الكلاب التي جرب فيها امتحان هذه المشاهدة لم تسفر عن نتيجة فانصرف عن

(١) راجع مقتطف مايو ١٩٣٧ صفحة ٥٣١ — ٥٣٢

هذا الموضوع الى آخر . وفي سنة ١٩٠٨، لاحظ هولدتشنسكي احد اطباء برلين ان الكساح اقلّ في الفصول المشمسة منهُ في الفصول القاتمة الماطرة

فقال هولد تشنسكي : لعل ضوء الشمس هو العامل الفعال في توليد الفيتامين ، وقد تمكن فعلاً من شفاء اطفال المان مصابين بالكساح ، بتمريضهم لاشعة منبعثة من مصباح بخار الزئبق

ثم ثبت لباحثة تشتغل بمعهد لستر بلندن ، ان المادة المقاومة للكساح في زيت السمك هي نفس المادة التي تولَّد بفعل الضوء . ونشرت بحثها في سنة ١٩٢٢ فاذا فيهِ وصف تجارب جرَّبتها فشفت جرذاناً مصابة بالكساح ، بتغذيتها باكباد الجرذان بعد تمريضها للاشعة المنبعثة من مصباح بخار الزئبق . ولكنها لم تتابع البحث فوقفت عند هذا الحدّ . وفي السنة التالية (١٩٢٣) تمكن ثلاثة من الاطباء الداعين الى عبادة ضوء الشمس من الناحية الصحية ، من كشف فعل ضوء الشمس الفسيولوجي، كلٌّ على حدة ، وهم الفرد هس بنيويورك وغولدبلات بلندن وستينبوك بماديسن وسكنصن . فقد وجَّه ثلاثتهم الاشعة التي فوق البنفسجي الى مواد غذائية لا تحتوي الاَّ على يسير من فيتامين D فكثر هذا الفيتامين فيها

وكانت طريقة ستينبوك غاية في البساطة . فقد ربَّى هو ومعاونهُ بلاك جرذاناً في حجرة مظلمة، وغذاها بطعام يسبب الكساح وكان طعاماً مركَّباً وفقاً لوصفة وضعها ماكولم الخبير العالمي في هذا الموضوع ، فظهرت اعراض الداء على الجرذان . فعرَّض ستينبوك عندئذٍ عناصر الغذاء للضوء، ثم غذَّى بها الجرذان المسجونة في الحجرة المظلمة والمصابة بالكساح ، فشفيت منهُ . فجرَّب هذا الاسلوب في اطعمة اخرى ، ليس فيها فيتامين (د) او هو يسير جدًّا فيها ، فصحَّ . فسجَّل طريقتهُ هذه في سجل «البانتنه» الاميركي واستخرج امتيازاً باستعمالها ، وغرضهُ على ما قال وقاية الجمهور من استعمال الشركات المختلفة لهذه الطريقة استعمالاً قد لا يكون صحيحاً ولا سليماً . وكان رقم هذا الامتياز ١٬٦٦٨٠٬٨١٨ فحوّله عند الفوز بهِ الى جامعة وسكنصن ، مبيحاً لاحدى هيئاتها الرسمية الاتفاق مع الشركات التي تبغي استعمالها ، اتفاقاً يضمن استعمالها الصحيح . وما يجنى من هذا الاتفاق ينفق على تشجيع المباحث العلمية في الجامعة نفسها

وعلى الرغم من كلّ هذا ، وجه اعتراض شديد لحصر ثمار البحث العلمي المجرَّد ، وتكبيلها بامتيازات خاصة ، لان هذه الثمار يجب أن تباح للناس

واذن فالضوء قد ركب في هذه المواد شيئاً جديداً فيها . فظنَّ ستينبوك ان «الكولوستيرول» Cholesterol هو موطن هذا التركيب . والكولستيرول مادة توجد في جميع الخلايا الحية . فلما أُخذ الكولستيرول وعرّض للاشعة التي فوق البنفسجي ظهر انهُ لا يشفي الحيوانات المصابة بالكساح . فانصرف ستينبوك عن هذا البحث الى آخر وهو سبب فقر الدم في الجرذان وشفائهِ

ولكن غيره والى البحث . وفي سنة ١٩٢٦ أذيع من ثلاثة معامل في انكلترا والمانيا وأميركا ان المادة التي يحوّلها الضوء الى فيتامين هي المادة المعروفة باسم ارجستيرول « Ergosterol » وكان من المتداول بين العلماء ان مادة « الارجستيرول » هذه توجد في انساج النبات والحيوان في مقادير يسيرة جدًّا هي أقل من واحد في المائة . وهذه المادة ليست دهناً كما ظنّ أولاً بل من طائفة من المواد العضوية تعرف باسم « ستيرول » وقد وصفت بأنها « جذر شجرة الحياة ومن فروعها الفيتامينات والاتوار (الهرمونات) والانزيمات (الانزيم مادة كيمياوية معقدة يولدها الجسم العضوي كخلية الخميرة فتستطيع ان تحدث تحوّلاً كيمياويًّا كتخمير السكر)

فلما وجد العلماء أمامهم مادة كيمياوية معيّنة أكبوا على البحث . وفي ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣١ أذيع أول نبإٍ من أنباء النجاح . ذلك أن أدولف فندوس Windaus الاستاذ بجامعة غوتنجن وحائز جائزة نوبل الكيمياوية ، تمكن من تحضير فيتامين D في بلورات خالصة من الشوائب بتعريضه « الارجستيرول » للاشعة التي فوق البنفسجي ثم استخلاص الفيتامين D منهُ . وقد وجد فندوس انهُ اذا عرّض « الارجستيرول » لأمواج معيّنة من الاشعة التي فوق البنفسجي تمكن من الحصول على بلورات تكفي ثلاثة أجزاءٍ من بليون جزءٍ من الجرام منها لشفاء الكساح حالة أنّ جزءاً من خمسة آلاف جزء من الجرام منها يفعل فعل السم . ولم ينقض شهر على ذلك حتى أذاع المعهد القومي للبحث الطبي بلندن استحضاره بلورات فيتامين D ودعاها « كالسيفيرول » Calciferol وجرى مستقلاً في تحضيرها على نفس الطريقة التي جرى عليها فندوس أي بتعريض الارجستيرول للاشعة

ثم اعلن باحث اميركي يدعى تشارلز بلز Bills — وقد كان أحد تلاميذ ماكولم — انهُ تمكن من تحضير فيتامين D بالتركيب الكيمياوي وذلك بمعالجة الارجستيرول بغاز أكسيد النتروجين (نتريك أوكسيد) لا بتعريضهِ للضوء . الاّ ان الفيتامين الذي حضره لم يكن نقيًّا ، ولكن وجه الخطر في اذاعتهِ ، اذا صحّت ، انهُ اول من صنع الفيتامين بالتركيب الكيمياوي لا بالاشعاع . ولا يزال الباحثون يجدون وراء التركيب الكيمياوي لفيتامين D من حيث ترتيب الذرات المختلفة في جزيئهِ

وما كاد فندوس يعلن استفراده لفيتامين D التي حتى اذاع باحث في جامعة بتسبرج يدعى كنغ King فوزهُ بفيتامين C في بلورات نقية . فسبق في ذلك طائفة من اشهر المعامل الكيمياوية المعنية بالموضوع في انحاء العالم

اقبل كنغ على هذا البحث سنة ١٩٢٥ وكان من المسلم بهِ ان الليمون الحامض غني بفيتامين C المقاوم للاسكربوط . ولذلك عني بهِ جماعة من العلماء يحاولون ان يستخرجوا منهُ هذا الكنز الصحي . ولكن البحث اعياهم فانصرفوا عنهُ . اما كنغ فلم يتطارق القنوط اليهِ . فأخذ عصير عشرات من « فصوص » الليمون وجرّب بكل وسيلة من وسائل الكيمياء أن يستخرج منها الفيتامين

النقي . وكانت كلُّ مرتبة من مراتب تجربتهِ خاضعة لقواعد الضبط العلمي . وكان قد خطر لهُ ان الاوكسجين يتحد بفيتامين C فيتلفهُ فصنع اجهزة تمكنهُ من عزل العصير عن الاوكسجين باحلال النتروجين محل الهواء في أجواء الآنية التي كان يشتغل بها . واستعمل الارانب الهندية لامتحان فعل العصير في مراتبهِ المختلفة . وكان كلما قلَّ العصير باستبعاد الاجزاء السائلة منهُ ، يمتحنهُ بحقن هذه الارانب بهِ ، فرأى فعلهُ في مقاومة الاسكربوط يزداد فاعتقد أنهُ اصبح قريباً من الفوز بالمادة النقية

وفي ٤ ابريل سنة ١٩٣٣ بعد سبع سنوات من البحث المضني المستمر ، استفرد كنغ من لتر كامل من عصير الليمون خمسين مليغراماً من بلورات اثبت انها بلورات فيتامين C النقي

وبعد ذلك أكبَّ كنغ على حلِّ هذه المادة النقية لمعرفة تركيبها الكيمياوي فثبت لهُ انهُ (ك٦ يد ٨ ا ك ٦) C6 H8 O6 وهذه المادة تباع الآن باسم سيبيون Cebione وتؤخذ عن طريق الفم في حبوب كل حبة منها سنتغرام (جزء من مائة من الغرام) ويقال انها تحتوي على مقدار من فيتامين C يعدل مقداره في ملء قدح من عصير البرتقال (٣٠ سنتمتراً مكعباً). ثم تناول بول كارر احد علماء زوريخ البحث في ترتيب الذرات في جزيء من هذا الفيتامين ويقال ان كيماوياً انكليزياً صنعهُ بالتركيب الكيمياوي بعيد ذلك

وبعد ذلك توالى استفراد انواع الفيتامين الاخرى فولد فيتامين A بتعريض الكاروتين (المادة التي تسبب اللون الاصفر في الجزر وهي مادة عضوية) لامواج الضوء من طول معين على نحو ما ولد فيتامين D بتعريض الارجستيرول للاشعة التي فوق البنفسجي ثم استخلص الفيتامين نقياً منها . وصاحب هذا البحث يدعى درمند Drummond وهو احد كيماويي لندن

اما صورة فيتامين A الكيمياوية فهي كما يلي : ك ٢٠ يد ٢٩ ا ك يد C 20 H 29 OH ولكن ترتيب الذرات في الجزيء لم تستوف معرفتهُ بعد . ومن الغرائب ان فيتامين A في حالته النقية زيت كثيف ثقيل الوزن وقد وجد في الدم والكبد والطحال والكظرين (الغدتين اللتين فوق الكليتين) وبعض اعضاء اخرى . والرأي ان هذه الاعضاء تتناول الكاروتين من الطعام فيتحوَّل الى فيتامين A بفعل انزيم خاص ويخزن

وتلا ذلك تحضير فيتامين B لخضَّبر فندوس الالماني مادة ظن انها بلوراتهُ النقية وذلك في سنة ١٩٣٢ ولكن روبرت وليمز الاميركي ، فاز في يناير سنة ١٩٣٥ بلورات فيتامين B النقية من قشور الرز . ويمتاز وليمز على غيره من الباحثين بانهُ حقق ترتيب الذرَّات في جزيء الفيتامين الذي استفرده وصورتهُ الكيمياوية C12 H16 N4OS

وفي شهر أغسطس من السنة نفسها (١٩٣٥) أعلن افانز استفرادهُ لفيتامين E واستخلاصهُ في بلوراتهِ النقية . ولا يخفى ان لهذا الفيتامين صلة بالتناسل من جهة (راجع مقتطف يونيو

١٩٣٧ ص ٣٥) وبالسرطان من جهة أخرى. ذلك ان باحثاً كندياً تبين في سنة ١٩٣٤ ان الفئران التي تتغذى بغذاء يكثر فيه فيتامين E تصبح أشد مناعة من غيرها وأقل تعرضاً للاصابة بالنوامي السرطانية. ويؤيد هذا ان باحثاً في جامعة ايلينوي لاحظ ان الفراخ التي تتغذى بغذاء يعوزه هذا الفيتامين تبدو فيها نوام شبيهة بالنوامي السرطانية. فاستفراد هذا الفيتامين وتحضيره بلورات نقية سيسهل ولا ريب البحث العلمي المضبوط في هذين الموضوعين الخطيرين، التناسل والسرطان

أما فيتامين G فلم يستحضر بعد نقياً من الشوائب وتركيبه غير معروف. فقد ظن اولاً ان فيتامين B و G واحد وظل الرأي كذلك حتى أثبت جولد برجر وغيره من رجال مصلحة الصحة الاميركية ان هناك فيتامينين في فيتامين B الذي يذوب في الماء ومايعرف الآن بفيتامين G مؤلف في عرف بعض الباحثين من مادتين كيماويتين لا بدّ من تلازمهما لمنع البلاجرا

اما فعل فيتامين G في منع البلاجرا فلا يزال فيه مجال للبحث، ورأي جولد برجر لم يقبل بحذافيره. ومن هنا بعض العقبة دون التوصل الى استفراد هذا الفيتامين ومعرفة تركيبه الكيماوي

ان البحث في الفيتامين على النمط المتقدم ليس فوزاً لعلم الكيمياء البيولوجية فحسب، بل هو فوز كذلك للعلم المطبق في الصناعة. فمادة الارجستيرول المعالجة بالاشعاع لتحويلها الى فيتامين D تدخل الآن في غذاء ألوف الألوف من الصغار وكذلك الخبز المشبع به وهو يصنع باشراف معهدين علميين بالولايات المتحدة وكندا. ثم ان الناس يستهلكون كل سنة مقادير كبيرة من الخميرة واللبن الجاف والبسكويت وغيرها من الاطعمة بعد اضافة الفيتامين D اليها أو توليده فيها. وتغذى الابقار بالخميرة التي وُلّد فيها الفيتامين بالاشعاع ليزيد مقدار الفيتامين في لبنها وقد عمدت طائفة من صانع الالبان الى تعقيم اللبن بأسلوب كهربائي خاص بحيث يحتفظ بما فيه من الفيتامين

هذه بعض الحقائق المتصلة بموضوع الفيتامين، وهي على ما يرى القارىء كثيرة ومنوعة، وليس يهمنا منها بوجه خاص الا ما كان له علاقة بغذائه. وللعالم ما كولم كلمة مأثورة في هذا الصدد قال: «كُلْ ما تشتهي بعد أن تأكل ما يجب». فما الأطعمة التي يجب أن تأكلها؟ اللبن والخضراوات الورقاء والفواكه والبيض ومقادير معتدلة جداً من اللحم. هذه هي الاطعمة التي تقيك من الأمراض الناشئة عن نقص الغذاء. ويجب ان يضاف اليها في حالة تغذية الاطفال والحوامل والمراضع زيت السمك وكل ما يحتوي على فيتامين D لأن مقدار هذا الفيتامين في الاغذية المختلفة التي يوجد فيها ليس كبيراً

قال الحكيم الفرنسي قديماً « ان الموت يدخل من الفم ». وأثبت العلم الحديث ان طائفة كبيرة من الأمراض التي نصاب بها صغاراً وكباراً سببها نقص التغذية. هنا حكمة القدماء وعلم المحدثين مجتمعين!

المدرسة والطالب

والوطن

للدكتور تشارلس وطسن
رئيس الجامعة الاميركية بالقاهرة

سيداتي ، سادتي : تحت هذا العنوان ، وفي هذا الموضوع المتسع الجوانب ، اريد ان ابحث في ايجاز المرحلة الدقيقة التي تجتازها الامة المصرية اليوم ، ونصيب التربية من هذه المرحلة ، ولا سيما ما قد تستطيع الجامعة الاميركية ان تسديه من الخدمات الجليلة ، المشبعة بروح الصداقة والوداد في هذا السبيل ، وان تك هذه الخدمات متواضعة في نوعها ، محصورة في مداها

ولنستهل البحث اولاً بقياس الحياة القومية الجديدة التي تمخضت عنها سيادة البلاد واستقلالها ، ولنتساءل عن الفروق الناجمة عن هذه الحياة الاستقلالية ، وما اصبح الآن بفضلها مستطاعاً مما كان قبلها وبغيرها مستحيلاً . ان واضع هذا السؤال يمكن ان يكون احد اثنين : اولهما ذلكم الذي لا يعنيه من هذه الحالة سوى اشباع مآربه الذاتية وما يجنيه هو في هذا الموقف من النفع المادي . ذلكم الذي لا يجول بخاطره سوى الوظائف التي تفتح ابوابها امامه ، وما ينجم عنها من زيادة في المرتب ونقص في ساعات العمل . هذا هو الاناني الذي يدور محور تفكيره حول هذا الهدف : ترى ما الذي يعود عليَّ انا من هذا الاستقلال ؟ واذا اتخذنا البلدان الاخرى مقياساً، بما في ذلك بلادنا — ولايات اميركا المتحدة — فان عدد الذين يقتحمون ابواب الحكومة لغنم ما يستطيعون من المغانم ليس بالقليل ، وليس ثمة ما يصدهم عن اشباع مطامعهم الاشعبية سوى سخط الرأي العام . بيد ان هناك والحمد لله ذلك النوع الثاني من ابناء الامة ، الغيور على وطنه ، الذي يتجه تفكيره شطر طريق مباين للنوع الاول . ذلك هو الرجل الذي يسائل نفسه : ما هي التبعات الجديدة التي تترتب على هذا الاستقلال ، فاتحمل نتائجها ؟ وأنى لي ان اقوم بنصيبي منها ؟ وللاجابة عن هذا السؤال بروح الاخلاص المنزه عن الغرض ، خليق بنا أن نحلل الموقف وان نبدي ما عنَّ لنا من الملاحظات الآتية :

يلوح لي بادىء ذي بدء أن فوز مصر باستقلالها التام لن يحدث في نظام حكومتها تغيراً يذكر ، وهذا امر يظهر في غاية الغرابة ، اذا قابلنا بين مصر اليوم وولايات اميركا المتحدة في بدء

عهدها بالاستقلال . كانت تلك البلاد في ذلك الحين تتألف من ثلاث عشرة ولاية مستقلة بعضها عن بعض ، وكان عليها انشاء حكومة مركزية تضمها جميعاً تحت لواء واحد . وكان عليها ان تضع دستوراً ، وتنشيء مجلساً نيابياً ، وتنتخب رئيساً للجمهورية ، وتشيد قاعدة في واشنطون ، وتؤلف وزارة ، وتنظم غير ذلك من المصالح المتشابكة التي تسير دفة الاعمال في الحكومة الاتحادية الجديدة . بيد ان مصر لحسن الحظ أسعد حالاً ، وحالتها من هذه الناحية اقل تعقداً ، ومهمتها اخف عبئاً . فهي تتمتع بدستور راسخ البنيان ، ولها مليك شاب يبشر يمن طالعه بعصر مديد ، ولها مجلس نيابي قائم باعباء وظيفته خير قيام ، ولها وزارات حنكتها الايام واكسبتها دراية وخبرة منذ عهد بعيد . وليس ثمة ما تحتاج البلاد اليه من الانظمة الجديدة مما يستحق الذكر ، وليس هناك ما يدعو لاعادة التنسيق في اي مرفق من هذه المرافق . وبلاد بلغت نظمها هذه المنزلة السامية ، تبشر بنجاح أكيد في حياتها المستقلة الجديدة

وعلى الرغم من ذلك فليس هناك من يستطيع اغفال الحقيقة الواقعة ، وهي ان هذا الاستقلال حادث تاريخي مشهود ، له أسمى منزلة في حياة الامة المصرية . ويظهر شأن هذه الصفحة الجديدة في تاريخ وادي النيل الخالد جلياً للعيان ، اذا ما شبهنا مصر بشاب يغادر لاول مرة منزله وأسرته ، وينزل في ساحة العمل مغامراً طلباً للرزق ، وامامه شبح المسئولية ماثل ، فلا يفتأ مناجياً نفسه : هل ترى يكون نصيبي الخيبة ام النجاح ؟ غير ان ابتهاجه بحياته الجديدة وحماسته المتقدة لا تقللان عن خشيته من أعباء المسؤلية ، ذلك لانه بدأ يشعر حقاً بأنه هو المسيطر على نفسه ، المالك لزمامه . ولا يبرح هذا الشعور أن يقوي في نفسه العزيمة الصادقة فيتقبل التضحية بصدر رحيب أملاً في النجاح مغامراً في لجة هذه الحياة الجديدة التي أخذ يخوض غمارها

لقد عدت الى مصر منذ شهرين بعد غيبة قصيرة في أميركا ، فأذهلني ما رأيت من دلائل الروح الجديدة منبثة في طول البلاد وعرضها ، وعلى الاخص في الناشئة . وأول ما شاهدته من هذه الروح كان في طلبة هذا المعهد حيث سمعت جمعهم ينشد في حماسة وقوة النشيد الوطني ، وشهدت بعد ذلك في دور السينما تصفيقاً حاداً كلما خفق العلم المصري على ساريات المباني والقصور . هذه المظاهر وأمثالها تنبيء بالشعور القومي الذي يمكن تسخيره للعمل والخدمة

ولا ندحة عن أن تفتقر هذه الروح الجديدة التي تبلغ فيها الحماسة والوطنية مبلغهما الى التوجيه والارشاد . لقد سبقت الاشارة الى ذلك الشعور الاناني الذي يتخذ الاستقلال سلماً يصعد به الى مآربه الذاتية . ولا يفوتنا أن ننوه كذلك بأن الوطني الملتهب حماسة مع بعده عن الانانية ، وبراءة مقصده ، في حاجة ملحة الى هذا التوجيه وذاك الارشاد ، وإلا استحالت وطنيته هتافات وخطباً جوفاء ومظاهرات بغير عمل ، وبدت في ثوب قومي قشيب يبهر ظاهره

الأبصار ، وتجلت فيه مظاهر الأبهة والعظمة والادعاء ، وقد تتخذ الروح العسكرية لوائح الفخامة لمجرد الزينة لا أداة للذود عن حياض الوطن

على أن هذه الروح الجديدة يمكن توجيهها الى القيام بأجل الخدمات نحو الأمة كمكافحة الامراض الفتاكة التي حدت برجال القرعة العسكرية في سنة ١٩٣٤ — ٣٥ أن رفضوا ٨٢٪ من الذين تقدموا للفرز العسكري ، وكتوفير الماء النقي في كل قرية مصرية ، وانشاء المدارس القروية الكافية للقضاء على الامية في المناطق الزراعية ، وتأسيس المصانع إنقاذاً للبلاد من خطر الشبان العاطلين الذين لا يستطيعون الكسب من الزراعة ، وتطهير المدن من مهاوي الرذيلة ، وازدحام المنازل الحقيرة بساكنيها ، مع خلوها من الوسائل الصحية ، وانشاء الملاعب الفسيحة للاطفال والناشئين حتى يشب رجال الغد أصحاء بدنيًّا وخلقيًّا ، واخلاء الشوارع من المتسولين والاحداث الهمل وغرس المبادىء التي تعمل على تنمية روح التعاون والتفاهم وحسن النية بين الامم ، ولا يخفى ما ينبغي أن يكون لمصر في هذا من النصيب الوافر لوقوعها على مفترق الطرق العالمية

كل هذا يحتاج إلى توجيه وإرشاد وزعامة من الطراز الاول ، في جميع مرافق الحياة القومية من اجتماعية ، واقتصادية وقضائية ، وتعليمية ، وسياسية . ونظراً لاهمية هذه المرحلة الجديدة التي تقطعها مصر في تاريخها الحديث ، فانها على استعداد تام ان توجه الهدف الى اسمى الاغراض وأعلى المثل ، طالما كان زعماؤها في كافة المرافق الحيوية يتصفون بالنزاهة ، والبعد عن الغرض. وهنا يبدو ما للمدرسة من الشأن العظيم . وكيف يتسنى لنا ان نبحث عن زعماء الغد خارج دور التعليم ؟ اسمحوا لي أولاً أن أشدد النبرة على الصفات التي يجب توافرها في الزعامة ، ومنها تحكمون بأنفسكم على الاغراض التي نحاول بلوغها بما نزاوله من الاعمال في هذه الجامعة

الصفة الاولى التي يجب توافرها في الزعامة هي التماسك القومي وامتزاج الزعيم بالكتلة الوطنية لحماً ودماً . لان الزعيم على النقيض من «الدكتاتور» الذي لا يحتاج الى التعرف الى هذه الكتلة أو العطف عليها ، إذ انه لا يعير التفاته الى شعورها ، ولان همه منصب على إملاء إرادته على الشعب بغير إشفاق او رحمة . وليس الزعيم الحق كذلك ، لانه يستوي مع الشعب إن لم يكن بحكم النسب فبالعاطفة والاماني . أضرب لذلك مثلاً بصموئيل غومبرز الذي أصبح من اكبر زعماء العمال في أميركا . كان ذلك الزعيم في الاصل شغوفاً بالموسيقى ، وكان يمكن أن يكون كوكباً لامعاً من كواكب الأوبرا ، ولكنهُ رأى بعينيه العمال العاطلين يتضورون جوعاً بسبب إنشاء الآلات ، وسمع أحد عمال النسيج يهتف صارخاً : «رباه خذ حياتي بيدك ، زوجي واولادي في حاجة الى الخبز وأنا عاطل عن العمل» فألقى الغناء والموسيقى جانباً ، ووقف نفسه على خدمة العمال والعمل بهم وهذا غاندي ، أتم دروسه الجامعية ، وكان من كبار رجال القانون ضليعاً من مهنته ، ولكنه

آثر ان يزج بنفسه بين أفقر طبقات الهنود وبذلك مهد لذاته السبيل الى الزعامة الحقة للملايين من شعبه . ومما يؤسف له ان المدرسة كثيراً ما تعجز عن بث هذا النوع من الزعامة في نفوس طلبتها ، وكثيراً ما تجد الطلبة يساورهم الغرور والزهو وغيرهما من الصفات التي تفقدهم شروط الزعامة ، وتعمي ابصارهم عن رؤية حاجات المجتمع ، ومطالب ابناء جلدتهم

اننا في هذا المعهد نعنى كل العناية بهذه الناحية ، ونحاول أن نخلق في نفوس الطلبة روح العطف على الانسانية بفضل الرحلات والزيارات التي يقومون بها الى المستشفيات والملاجيء والقرى والأحياء المتواضعة في المدينة والسجون والمصانع ، ومن أهم أغراض هذه الزيارات العطف على السواد الأعظم من أبناء الأمة ، وهو من أجل صفات الزعامة

ومن الصفات التي لا ريب في وجوب توافرها في الزعيم الذكاء . ولسنا نعني بهذه الصفة الالمام بما في بطون الكتب من المعارف ، انما نعني بها مجموعة الصفات اللازمة لحل المسائل العامة وتحليل المواقف وتقدير عواملها . فاذا ما خلت هذه الصفة من زعيم كان مثله مثل جاهل يقوده جاهل مثله . وهذا النوع من الذكاء يتضمن ضرباً من حب الاستطلاع الصحيح . قيل عن المخترع الشهير توماس اديسون انهُ ولد وعلامة الاستفهام تختلج على شفتيهِ . فقد كان منذ نعومة اظفاره يمطر والده وابلاً من الاسئلة ، وكلما قال والده لا أدري اجابهُ الطفل اديسون ، ولم لا تدري ؟ وقد بلغت هذه الصفة فيه مبلغاً حملهُ على الاختلاف الى أحواض السفن فيتدفق من فمه سيل الاسئلة ، حتى اقترح اولو الامر هناك ان يعين له موظف خاص للاجابة عن اسئلته انقاذاً للموقف ، وتوفيراً لاوقات المهندسين والصناع

وكان العالم الطبيعي « أجسي » في حب الاستطلاع مضرب الامثال ، حتى أن حديقته ومنزله وحجرته الخاصة وجيوبه ، كانت على الدوام مكدسة بالنماذج التي يراد فحصها . وحدث مرة انهُ كان يتناول العشاء مع ضيوفه ، فأثيرت مناقشة حادة حول الفرق بين نوعين من الضفادع ، فما كان منهُ الا ان مد يده الى جيبه وأخرج منه ضفدعاً تعزيزاً لرأيه ، فأدهش الحاضرين . ولا نعد حضرات والدي الطلبة وأولياء امورهم اننا نستطيع ان نبث في الناشئين في هذه الجامعة هذه الدرجة من حب الاستطلاع ، انما نعد اننا نستطيع ان نوقظ فيهم شديد الرغبة والشغف بالعلم حتى تدفعهم هذه الرغبة الى تجاوز الكتب المدرسية ، وتغريهم بحب البحث والتنقيب في بطون الاسفار في المكتبات العامة ، والتغلغل بعد ذلك في عالم الحقيقة

والزعامة والطاقة صنوان لا يفترقان . ومن الخطأ المشاع ان الناس يفكرون في القوى الجثمانية كلما ذكروا كلمة طاقة ، في حين ان هذا التعبير لا قيمة له ، اذا لم يكن منصبًا على صفة من صفات العقل ، وكانت هذه من ابرز الصفات التي اشتهر بها ابراهام لنكولن من رؤساء

ولايات اميركا المتحدة . وقد قيل عنهُ وهو شاب انه اشتغل مساعداً لمهندس مساحة ، فسار على قدميه عشرين ميلاً لدرس ما يتطلبهُ هذا العمل . ولما أن وجد انهُ لم يدرّ في عمله الجديد بعد هذا الجهد ، لم يثنِ ذلك من عزمه ، بل وصل ليله بنهاره ستة اسابيع حتى اشفق عليهِ جيرانه ، وحذروه من نتيجة هذا الاجهاد ، الذي ينذر حياته بالخطر . غير ان ذلك لم يردعهُ بل ظل مجاهداً حتى ملك ناصية عمله . وكذلك عند ما عقد النية على الاشتغال بالمحاماة ، فانهُ اخذ ينقب في أكداس من الاوراق عن نسخة قديمة الاثر ، مبعثرة الاوراق ، كانت تحوي مذكرات قانونية ذات شأن ، حتى عثر عليها ولمّ شعثها وانكب على قراءتها واستيعابها حتى ألمّ بما فيها مع أنهُ كان في ذلك الحين يستعين على تكاليف الحياة من متجر يستغرق كثيراً من وقتهِ الذهبي

على ان السؤال الذي تتطلب جوابه — هل في استطاعة المدرسة ان تربي هذه الصفة في نفوس طلبتها ؟ واجابة عن هذا السؤال نعتقد ان هذا من المستطاع ، ان لم يكن في كل الاحوال ففي اكثرها . ولا نعتقد ان ذلك يتأتى عن طريق حشو الذهن وكثرة الاستذكار ، وتكديس المعلومات ، ولكنهُ يأتي عن طريق المناقشة ، وبخلق جو مدرسي تسود فيهِ اليقظة ، ويتوافر فيهِ النشاط العقلي . ومصر المستقلة في حاجة الى هذا النوع من الزعامة الذي يتوافر فيهِ معين لا ينضب من هذه الطاقة ، التي يتطلبها هذا المنهاج من مرافق الاصلاح في شتى النواحي

ومن أسمى صفات الزعامة سمو الخلق . وهنا ننتقل من الكلام عن الصور الذهنية الى الصور الخلقية . فالزعيم يجب ان يكون موضعاً لثقة الناس بهِ ، لما جبل عليهِ من الاستقامة ورصانة الخلق . وهذه الصفة تفسر لنا النجاح الذي يصيبهُ الزعماء المتواضعون في كفاياتهم ، المتوسطون في مواهبهم العقلية . فهؤلاء لو لم يتخلقوا بكريم الصفات لما كانوا موضع ثقة الناس فيهم ولما وفقوا الى ذلك النجاح

كان هربرت هوفر من رؤساء الولايات المتحدة باميركا ، في خلال الحرب العظمى . وقبل ان يتقلد الرآسة ، مضطلعاً بادارة التموين فكان يسيل بين أنامله ملايين الريالات ، حتى انهُ كان يكفي ان تكتب التحاويل المالية الى هربرت هوفر وكفى . وقد بلغت هذه التحاويل زهاء مليونين واربعمائة ريال في الشهر الواحد ومع ذلك فانهُ لم يخامر احداً خلجة من الشك في طهر ذمتهِ . فهل تدهش بعد ذلك اذا فاز برآسة الجمهورية ؟ اليست هذه الصفة المحمودة وهذا الاخلاص الصافي وتلك الامانة النقية هي التي جعلت لغاندي في الهند هذه السلطة التي لاحد لها بين الملايين من شعبهِ ؟

هناك بين الاسماء التي يتألق نجمها في سماء الاحسان ، وعمل الخير في انكلترا اسم « جورج مولر » فقد انشأ خمسة ملاجيء كبيرة للايتام بلغ مجموع من دخلها عشرين الف نفس . وقد بلغ من شهرة هذه الملاجيء ان تدفقت سيول التبرعات والهبات والوصايا على خزينتها ، ومع ذلك فقد كانت تضحيته واستقامته وأمانته ابعد من ان يمس درهماً منها . وقد بلغت هذه الاموال مليوناً

ونصف مليون من الجنيهات ومع ذلك فقد مات ووراءه ثروة ضئيلة لا تتجاوز المائة والسبعين جنيهاً . فهل تدهشون اذا اتسم بين الانجليز بزعيم المحسنين ! ؟

ان مصر المستقلة تطمح الى مكافحة الفقر والمرض والجهل بفضل زعمائها الاجتماعيين . وهؤلاء لا بد أن تتوافر فيهم صفة استقامة الخلق . وكثيراً ما يوجه الناس الى معهدنا بعض الانتقادات بدعوى اننا نفسح في مناهجنا مجالاً واسعاً لدرس الاخلاق والاكثار من الاندية والجماعات والرحلات ، غير ان لدينا ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه كلها في مقدمة ما ينبغي ان تعنى به معاهد التعليم اذا شاءت مصر المستقلة ان تبلغ أمانيها القومية

وأخيراً اذكر تلك الصفة العظيمة التي تتطلبها الزعامة ألا وهي سعة الاطلاع واتزان الحكم. فمن السهل جداً ان يكون المرء متصفاً بالتعصب ، اي انه يركز رأيه في نقطة ضيقة محدودة ، غير ان الزعيم الحق هو ذلكم الرجل الذي يحيط بالمسئلة من جميع نواحيها وينظر الى الموقف نظرة فاحصة عامة في مجموعه . ولو ان موقع مصر الجغرافي في مكان الافغانستان او في منطقة بحيرة شاد في افريقيا بعيداً عن الامم الاخرى ، لما احتاجت الى اتساع الافق فيما يتعلق باتصالها بالامم الاخرى . ولكن مصر لا يتسنى لها ان تعيش في منأى عن غيرها من الامم ولا يمكن ان يرضى شعبها لها ان تكون كذلك. واذاً فلا بد لها من الاتصال بغيرها من الدول وهذه العلاقات الدولية من شأنها ان تزيد الحياة رغداً وغنىً ورفاهية اذا حسن وضعها في الموضع اللائق بها .ولا يتاح لها هذا الا بسعة الاطلاع ومرانة التفكير وهنا نلقي سؤلاً . كيف يتسنى تربية هذه الخلق في الناشئة ؟

في هذه الكلية سبع عشرة جنسية يتلقى طلبتها العلم معاً متعاونين ويتعلم الواحد منهم كيف يحترم جنسية أخيه . غير ان السواد الاعظم من الطلبة هم من المصريين إذ تبلغ نسبتهم اربعة وسبعين ٪ في المائة من المجموع . ومن ذلك يتبين أن المجال هنا فسيح للقومية والاممية على السواء ، استعداداً للزعامة التي ننشدها في مصر . ونقول في الختام ان الاستقلال الصحيح لا يتم بالاتفاقات السياسية ، كالمعاهدة مع بريطانيا ، او اتفاق مونترو ، او دخول مصر في جمعية الامم . وهل يمكن ان يكون الاستقلال الصحيح منحة لشعب من الشعوب ؟ أليس الاستقلال هدفاً تبلغه الامة بالنصب والكد ؟ ألا يكون تدعيم هذا الاستقلال في كل ناحية من مرافق الحياة؟ اذا كان هذا صحيحاً فان تحقيق استقلال مصر التام لا يأتي بحوادث سنة ١٩٣٧ السياسية وحدها ، ولكن بجهود الجبابرة التي تتوالى بعد هذا التاريخ ، تلك الجهود التي ترفع مصر الى ذروة المجد القومي في حياتها الاقتصادية ، حياتها الاجتماعية ، وحياتها العقلية والثقافية ، كما في حياتها السياسية . والى هذا المرمى نسعى جاهدين ، وفي سبيل تحقيق هذه الصفات في الناشئة نوجه جهودنا جادين

ازاحة الستار عن تمثال

الدكتور صروف

في جامعة بيروت الاميركية

وصف الحفلة وملخص ما قيل فيها

في الساعة السادسة من مساء الاحد ٢٠ يونيو الماضي احتفلت جامعة بيروت الأميركية بازاحة الستار عن تمثال الدكتور يعقوب صرُّوف ، وهو التمثال الذي أهدي اليها من قبل جماعة من أصدقاء الدكتور صرُّوف ومتخرجي الجامعة في مصر ، فشهد الاحتفال جمع حافل من الأعيان والوجهاء والنواب وقد وضع التمثال مؤقتاً في الساحة الكبرى التي تتوسط بعض بنايات الجامعة على دكة عالية للخطابة جلس عليها سعادة الدكتور عبد الرحمن الكيالي وزير المعارف السورية والاستاذ يوسف أفتيموس رئيس جماعة متخرجي الجامعة الاميركية والدكتور عبد القادر المظم مدير الجامعة السورية بدمشق والاديب زكي شخاشيري نيابة عن والده سكرتير لجنة التمثال بمصر الدكتور شخاشيري والدكتور بيارد ضودج رئيس جامعة بيروت الاميركية وفي الوسط جلس العلامة الدكتور فارس نمر باشا رفيق الدكتور صرُّوف وشريكه في عمله وجهاده العلمي . وينتظر ان ينصب التمثال نهائيًّا في حجرة المطالعة الكبيرة في مكتبة الجامعة

وكان في مقدمة الحضور صاحبا الدولة والسعادة عبد الفتاح يحيى باشا وتوفيق دوس باشا وحضرة الدكتور مصطفى شوقي وسواهم من الضيوف المصريين الكرام وقد دعوا خصيصاً بناء على رغبة منهم في حضور هذا الاحتفال بشخص نفع الاقطار العربية بعلمه وأدبه وخدم النهضة فيه ، وحضر كذلك نجيب بك صروف نجل الدكتور صرُّوف وقد جاء من مصر خاصة لهذا الغرض

وعند الساعة السادسة افتتح الدكتور ضودج الحفلة بخطبة بالانكليزية قال فيها : منذ ٧٠ سنة قامت هنا كلية صغيرة كانت مؤلفة من ١٦ تلميذاً . فكانوا البذرة الاولى التي تزرع في الارض وبين هؤلاء فتىً يدعى يعقوب صرُّوف جاء ليعد نفسه لعمل عظيم يعمله في المستقبل فتعلم هذا التلميذ وأخذت معارفه تنمو وتزداد حتى أخذ في عمل عظيم وجعل بعمله هذا يوقظ الأقوام العربية ويدعوها الى رفع الغشاء عن عيونها . والآن نكرم هذا الرجل ونحن نرجو ان يأتي

في السبعين سنة القادمة سواه ينسجون على منواله ويبذرون مثل البذر التي بذر

ثم طلب من سعادة الدكتور عبد الرحمن الكيالي ان يتفضل بازاحة الستار عن تمثال هذا الرجل العظيم

خطاب الدكتور كيالي

سيداتي سادتي : أنتم وأنا من هذا المعهد ركن الثقافة ومنار الفضيلة تخرجنا فيه وحمدنا الله تعالى وشكرناه وخرجنا الى ساحة العمل

انا عشنا نرى من تقدمنا ونتطلع اليهم لنرى أعمالهم وآثارهم في هذا المعهد وكان من أهم ما رأيناه فكان نبراساً لنا ، مجلة خدمت العلم والادب والنهضة العربية هي مجلة «المقتطف» الزاهرة أقرأها أنا وأنتم بل يقرأها العرب في جميع بلدانهم وأقطارهم ومثلي من كان يتعلم من صفحاتها ما نقصهُ العلم به وما هذا الا من فضل هذا الرجل الذي نحتفي به اليوم ونطلب إلى اخوانه أن يتمموا الرسالة التي بدأ بها تحقيقاً لآمال كل من نطق بالضاد . ان المرء اذا مات انقطع عمله الا من ثلاث : علم وصدقه وولد يدعو لهُ ، وخير الناس من انتفع بعلمه على ممر الايام

ان الحكومة الجمهورية السورية التي شرفتني بهذا اليوم يسرها ان أقف أمامكم لارفع هذا الستار عن تمثال رجل لا هو حيٌّ خالدٌ بالتمثال بل بالقلوب وان أبناء أمة الضاد الذين يعيشون تحت سماء هذه الاقطار أحراراً سيعلمون كيف يخلدونهُ في قلوبهم . واني بهذا الشرف العظيم أزيل الستار عن وجهه الكريم (تصفيق حاد عند ما أزال الستار)

من كلمة سكرتير لجنة التمثال

لما نعى الناعي الدكتور يعقوب صرّوف في التاسع من يوليو سنة ١٩٢٧ ادرك تلاميذه واصدقاؤه هول المصاب فيه والخسارة العظيمة التي نزلت بالعلم والادب والصحافة بفقده فقد كان رحمة الله عليه رجلاً فذًّا في علمه الواسع وقلمه البليغ وخلقه العالي . ولست في مقام المؤرخ فاذكر ما كان له من نصيب وافر وسهم نافذ في النهضة الفكرية في الشرق العربي طول سبع وخمسين سنة اي من يوم ان تلقى الشهادة العلمية من رئيس هذا المعهد الجليل سنة ١٨٧٠ في اول فرقة تخرجت فيه الى يوم وفاته فانهُ رحمهُ الله خدم تلك النهضة في حجرات التدريس اولاً فكان مثالاً للعلم الصالح والمربي الفاضل يقرن العلم بالعمل ويهذب النفس والعقل جامعاً بين التدريب العملي والمثل المحتذى في اسمى وجوه التربية متوخياً في ذلك المنفعة والخدمة الصادقة لبث روح العلم الصحيح للعلم ذاته . ثم انشأ «المقتطف» مع زميله وشقيقه الروحي الدكتور فارس نمر باشا (مدّ الله في عمره) في حضن هذه الجامعة فقضيا نحو عشر سنوات ونصف سنة يدرسان فيها ويصدران المقتطف عنها وليس لهما بغية سوى نشر العلم لمن لم تتح له اسباب التعليم . ولما خرج المقتطف من

نطاق الجامعة ورأى صاحباه ان يقفا وقتهما عليه اصبح العالم العربي بأسره حجرة تدريس للدكتور صرّوف يطوف عليه في كل شهر بمقتطف جامع لزبدة العلوم المختلفة وثمار الآداب المنوعة والمعارف الطريفة مقارناً بين النظري والعملي من الآراء وبين القديم والحديث والشرقي والغربي في اسلوب حلي لا يضارع وبلاغة لا تداني سمتها الوضوح وجودة السبك وسهولة السياق الى المعنى المقصود . ولما بلغ « المقتطف » الخمسين من عمره الحافل اعترف العالم العربي له بالخدمات الجليلة التي اسداها الى الناطقين بالضاد في الحفلة الكبرى التي اقيمت في دار الاوبرا الملكية بمصر برعاية جلالة مليكها وفي الحفلة الكبيرة التي اقيمت في وست هول بيروت في مساء اليوم نفسه

ولما انطفأت شعلة ذلك العقل الناضج وسكن القلم الذي كان ينشر العلم الصحيح والادب الرفيع والاخلاق العالية في ربوع الشرق فيغذي النفوس ويثقف العقول بشتات العلوم والمعارف اجتمع نفر كبير من عارفي فضله في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٨ في النادي الشرقي بمصر وتألفت منهم لجنة لاحياء ذكراه باقامة اثر له في وطنه مكونة من ميشال بك لطف الله رئيساً وامين مرشاق اميناً للصندوق وكاتب هذه السطور سكرتيراً وجورج زنانيري باشا ونجيب غناجه والمغفور لهم نجيب شكور باشا والدكتور نعمة الله طحان بك ويوسف خلاط بك ورشيد ثابت اعضاء وانضم اليهم فيما بعد الاستاذ خليل مطران والآنسة مي والاستاذ سامي الجريديني ويوسف دبانة بك . وفي ٨ ابريل سنة ١٩٣١ قبلت اللجنة استقالة امين مرشاق من امانة الصندوق وطلبت من حضرة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا ان يتولى امانة الصندوق فقبل ونشرت اللجنة خبر انضمام سعادته الى اللجنة مع خبر قبول جامعة بيروت الاميركية اقامة التمثال فيها في مقطم ٢٥ ابريل سنة ١٩٣١ ومن ذلك التاريخ خطت اللجنة بالمشروع خطوات سديدة تكللت بفضل من تقدم ذكرهم وبفضل حضرات المتبرعين الآتية اسماؤهم بالنجاح الذي فازت به ووصلت اليه . وهذه اسماء المتبرعين أصرح بها الآن اعترافاً بفضلهم وشكراً على نجدتهم وكرمهم وهم : —

الدكتور سليم آل دباغ الموصلي . احمد افندي الالفي . جورج بك انطونيوس . احمد حسن . محمود ابو حسين بمنفلوط . رشيد ثابت . محمد خليل الديب . الدكتور كامل هلال . ظاهر الريس . الدكتور يوسف غبريل . بركس ميخائيل انطون مطران السريان الارثوذكس بالقدس . خويلد حسن وشركاه . ابراهيم ديمتري بك . لجنة مشروعات مجلة الكلمة بحلب . ليا بركات . ثابت ثابت . الدكتور عبدالله منصور . معهد الموسيقى الشرقي . جورج اشقر في بيروت . ديمتري بك خلاط . الدكتور نجيب يونس . القس طانيوس سعد . الدكتور اسعد عطيه . ويحسن بي ألاّ يفوتني التنويه بفضل صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا الذي كان له في احياء ذكرى الدكتور صرّوف اليد الطولى والاثر البارز ولا سيما الجائزة السنية التي تبرع بها ونشرت تفاصيلها في مقتطف مايو الماضي وقدرها ١٠٠ جنيه مصري

كلمة الاستاذ يوسف افتيموس

ثم وقف الاستاذ يوسف افتيموس رئيس جماعة متخرجي الجامعة وألقى خطبة استهلها بقوله مخاطباً صاحب التمثال وقد كان من تلاميذه في الجامعة : —

سيدي الاستاذ في هذا الحمى كم علينا لك من فضل ودين
أسفي تبدو على منبره صامتاً بل اثراً من بعد عين
هالني والله ما أشهده عوض الله بثاني الفرقدين

وجال الاستاذ افتيموس جولة في الكلام عن التمثال وصاحبه الحكيم الكريم الباحث المنقب العالم الجليل وعن النهضة التي ايقظ روحها في بلاد العرب وتكلم عن معاصريه الاحدب والبستاني والاسير واليازجي وعن زهرة الآداب وعن العازار والنقاش وغيرهم . وطفق يتكلم في كل هذه الصفحات الى ان قال ان التاريخ سطر فيها اسمي صرّوف ونمر بين ألمع اسماء الرجال الذين تفانوا في خدمة هذه البلاد وبلاد مصر الشقيقة

صرّوف ونمر الاسمان المتقاربان المتلازمان صرّوف ونمر الفرقدان اللذان مشيا جنباً الى جنب مجاهدين متضافرين في سبيل الوطن واللغة والعلم والسياسة صرّوف ونمر ضربا للشرق مثلاً في الجد والنشاط والاستقامة والوطنية والتجلد في تنظيم الامور

ثم عاد الى الكلام عن التمثال وحده وعن صاحبه الذي له في كل خزانة مجلدات ضخمة من آثاره ومما قاله : لم ينصب التمثال في مكتبة الجامعة ولصاحبه فيها أكثر من تسعين تمثالاً هي مجلدات صرف عليها ليالي السنين الطوال وختم كلامه محيياً صاحب التمثال ورفيقه في جهاده سعادة العلامة الدكتور فارس نمر باشا

كلمة الدكتور عبد القادر العظم

سيداتي . سادتي : أشكر لحضرة الرئيس الكريم — الدكتور ضودج — ما أولاني من شرف عظيم اتاح لي فرصة المثول بين أيديكم لالقاء كلمة وجيزة باسم الجامعة السورية في هذه الحفلة العلمية التذكارية . ان الجامعة السورية لسعيدة جداً باشتراكها في هذه الحفلة لانها جد حريصة على توثيق عرى الصلات الثقافية بينها وبين شقيقتها الكبرى الجامعة الاميركية

ان فقيد العلم والادب المحتفى بذكراه هو ابن الجامعة الاميركية هو ابن العروبة وفوق ذلك هو ابن العلم والثقافة اللذين لا وطن لهما . ابن الانسانية الحرة السامية التي لا تعرف الحدود الجغرافية ولا الفوارق الجنسية بل تقدر النبوغ والفضيلة اينما وجدا . أليست هذه الحفلة التي يقيمها رسل الثقافة الاميركية المشبعون بهذه الروح العالية وهذا التمثال التي أقاموه تقديراً لشخصية

صاحبه الفذة شاهدين على ما أقول؟ ان كلمة الحق لا يليق بها أن تبقى مختبئة كامنة في النفس بل يجب على اللسان ان ينطق بها وعلى الآذان السامعة ان تتلقفها لتدخل أعماق القلوب. هذه الكلمة التي لا ينكرها أحد من سكان البلاد العربية قاطبة ولا سيما البلد الذي تظللنا سماؤه والبلد الذي قدمنا منهُ هي كلمة الجهر بفضل الجامعة الاميركية وأثرها البعيد في نهضة هذه البلاد العلمية والثقافية

ان هذه البلاد ساحلها وداخلها ثغورها وعواصمها تنطق بالجميل وتذكر دوماً بيض الايادي لهذه الجامعة — الشيخة الفتية — لانها كانت وما زالت منهلاً فياضاً للعلوم والفنون يرتادها أبناء هذه البلاد فيرشفون من معينه العذب ما يروي ظمأهم وينقع اوارهم

أجل سادتي ان الجامعة الاميركية — شيخة وفتية — في آن واحد انها شيخة الجامعات في بلادنا بقدمها واختبارها وحكمتها. فتية بحيويتها وتجدد برامجها ونشاطها. واذا اقترنت الحكمة بالنشاط كان النجاح محققاً والارتقاء مضموناً. اننا كيف وجهنا انظارنا نرى اثر الجامعة الاميركية في نهضة بلاد العرب الاجتماعية وفي تكوين الفئة المختارة من رجالاتها وشبابها. نراها في مصر حيث بعثت برسلها ينشرون المبادىء الحرة التي اقتبسوها. نراها في العراق حيث يتقلد تلاميذها المناصب ويديرون شؤون الامة نراها في فلسطين وفي الشرق العربي حيث يرفع خريجوها ألوية الفخار لها

واخيراً نراها في سورية ولبنان حيث عمّ فضلها وانتظم عقد ابنائها كاللآلي تزدان بهم جيد هاتين الجمهوريتين الفتيتين فيرئسون المجالس ويتولون الوزارات ويتزعمون الامة فهم كنوزها ومفاخرها عدتها في الحوادث وسندها في الملمات والكوارث

فاذا كانت الامم تعتز بجامعاتها لانها عنوان نهضتها ورمز اعتلائها ورفعتها فاحر بأبناء هذه البلاد ان يعتزوا بهذه الجامعة لانها انجبت لهم رجالاً كباراً يهتدون بهديهم ويسترشدون بوحيهم فيفوقونهم في مراقي التقدم والنجاح واذا كان الفضل يعرفهُ ذووهُ حق علينا ان نقر بفضل جامعة هذا شأنها وان نطلب لها اطراد الرقي في ظل رئيسها الهمام واساتذتها الجهابذة الاعلام والسلام عليكم

***

وبعد هذا وقف الدكتور ضودج وقال لا يمكن ان نكرم المرحوم الدكتور صرُّوف من دون ان نكرم الدكتور فارس نمر الحاضر بيننا فقد عاد بعد سنين طويلة الى المدرسة التي ربتهُ

كلمة الدكتور فارس نمر باشا

سيداتي سادتي: منذ اكثر من ٥٣ سنة في مثل هذا الاسبوع من سنة ١٨٨٤ وضعت يدي بيدي صاحب هذا التمثال وفارقنا هذا المعهد الذي تعلمنا فيه اربع سنوات وعلمنا عشر سنوات وولينا وجهنا شطر مصر العزيزة وقال لي رفيقي نحن نفارق سوريا ونقابل مصر فان كنا رجالاً اظهرنا مقدرتنا ورجعنا ممدوحين

هذه الكلمة ترن بأذني الآن بعد ٥٣ سنة وها أنا الآن بعد هذه السنين الثلاث والخمسين اعود الى هذا المنبر فكم كنت اود لو كان رفيقي واقفاً الى جانبي الآن وواضعاً يده بيدي

قالوا تغيير العادات صعب. حقيقة ان في هذا القول صحة. انني اعتدت ان اعد رفيقي صديقاً وأخاً حقيقيًا وقضيت العمر والناس يظنون اننا اخوان بيننا قرابة. نعم ان الصداقة اذا تمكنت تحل محل النسب وأؤكد لكم ان هذا الرجل اخي الذي سبقني بعشر سنوات كان لي أخ غيره ولكن صرّوف هو بالفعل اخي ولو وجد في اللغة كلمة اشد من كلمة أخ لكنت استعملها

قلت تغيير العادات صعب وكلما كنت اسمع احد الناس يمدحهُ لم ارد الكلام بمثله نظراً لما كان الناس يرونهُ من النسب بيني وبينهُ خوفاً من ان يقال عني مادح نفسه يقرؤك السلام، بل كل ما قيل له كنت اراه يقال لي. وهكذا امتزجت حياتنا حتى كاننا افرغنا في قالب واحد

وشاهدي على ما اقول ياسادتي انني منذ بضعة اشهر نلت رتبة الباشوية التي انعمت بها عليّ مصر وتلقيت اكثر من ٣٠٠ الى ٤٠٠ رسالة تهنئة واكثر هذه الرسائل معنونة بصاحب السعادة صرّوف نمر باشا (ضحك من الجمهور) انا اقبل ذلك نعم نحن واحد ولسنا اثنين

وأبلغ من ذلك تزوجت بالأمس كريمة المرحوم سعيد باشا شقير ابنة ابنة المرحوم الدكتور صرّوف فكان عرسها هادئاً ما طنطنت به الصحف. وما قولكم برسول مجلس الوصاية جاء يهنئني بزواج هذه الابنة التي هي ابنة ابنة الدكتور صرّوف باعتبار انها ابنة فارس نمر

انا واقف هنا واخاف ان تغلبني عواطفي ويظهر ضعفي امامكم ايها السادة فكيفما التفت يميناً ويساراً تتوارد امام عيني الصور والحوادث التي اتحدنا بها فاخشى ان تغلبني

ان الرابطة بيننا وبين الجامعة الاميركية هي «المقتطف». وقفنا مرة في بناء لم اعد اعرف اين هو من هذه الابنية التي تنير بعضها وتجدد البعض الآخر وجعلنا نقلب مجلات وصحفاً انكليزية فالتفت اليّ رفيقي وقال ما قولك لو انشأنا مثل هذه الصحيفة قلت ولكن ليس لدينا علم ولا مال فصحيفة مثل هذه تحتاج الى الامرين. فقال لا بأس اننا نجعلها من ٢٤ صفحة

قررنا انشاء الجريدة وذهبنا الى استاذنا الدكتور كرنيليوس فانديك رحمة الله عليه فقلت «خطر لنا خاطر وهو ان ننشيء جريدة عربية فقال ولكنكم تحتاجون في هذا الى المال قلنا ان الله يسر وعولنا على انشائها وقلنا ماذا تعطينا اسماً لهذه الجريدة ففكر قليلاً وقال «المقتطف» فاسم «المقتطف» واضعهُ بالاصل فانديك. ذكر الاستاذ يوسف افتيموس الرجال الذين عاصروا نشأة تلك الجريدة وهم: الاحدب واليازجي والبستاني والاسير وقد كانت كتاباتهم واقوالهم ولاسيما البستاني منهم تذاع شرقاً وغرباً. وصدر «المقتطف» ولكنهُ كان صغيراً وبعد مدة صدر «لسان الحال» وهو من عمر «المقتطف» الا بضعة أشهر فكنا كعائلة واحدة واخذنا نشتغل معاً

قلت ان عملنا كان يحتاج الى مادة علمية ومادية ولا يمكن لعالم ان يذيع مؤلفاته الا اذا كان عنده مال وقد وجدنا ان «المقتطف» لا يمكن ان يثبت الا اذا وجدنا له المال فتشاورنا في هذا وهذا وحده هو الذي جعلنا ننشيء «المقطم» لا لقصد ان نقلب ممالك وحكومات بل لكي نساعده المقتطف» ماليًّا. ولكن الرياح يا سادتي تجري بما لا تشتهي السفن ولقد جعلنا السياسة في المقطم راسخة على الاساس الذي كنا نعمل به في هذا المعهد وهو خدمة الحقائق . وهكذا جعلنا نعمل للحقائق ولكننا نسينا ان العالم غير ذلك ، نسينا ان هناك احزاباً وميولاً وأخذنا نتخبط في ذاك الخضم ونصطدم بأمواجه حتى ادى بنا الحال الى غضب سلطاننا السلطان عبد الحميد فمنعني ومنع رفيقي من الدخول الى هذه البلاد ومنعنا من ان نرسل اولادنا الى التعلم في مدارسها

وأخيراً غير الناس افكارهم بنا والفضل بذلك لاخي هذا الذي كان يعامل الناس كأنهُ طفل صغير . نعم الفضل بذلك لاخي الذي كان مثال الدعة والامانة والاستقامة

ولو اردت تعرف حقيقة صرّوف قد تظنني مبالغاً اذا قلت انهُ عند ما كان يقال امامهُ شيء لا يريد ان يبوح بحقيقته كنت تقرأ هذا على وجهه لانهُ كان يحمر وأنت تحدثهُ

كان في معاملته صادقاً وكان زهده غريباً فالذي يهم الناس لا يهمهُ ابداً واذا كنت تريد ان تعرف صرّوف ففتش عنهُ في غرفة تره جالساً وأمامهُ كتاب يقرأه بهدوء ثم بعد بحث طويل يأتيني ويقول وماذا بعد هذا ؟ وماذا بعد هذا ؟ يأتي حائراً ويقول لا اعلم ماذا بعد هذا ؟

انهُ الآن يعلم !! . قالوا ان الارواح تتخاطب بعد الموت فليلة وفاته جلست في سريري انتظر ان يأتي ويكلمني ولكنهُ لم يجيء . وفي الليلة الثانية جلست على سريري انتظر ان يكلمني ولكنهُ لم يكلمني كذلك. ولكن الانسان لكي يعلم يجب ان يؤمن لان كثيراً من الاسرار مغلق لا يمكن فهمه

يا اخي انت الآن تعلم. انت سبقتني من عشر سنوات ولما توفيت لم احزن كثيراً لانني قلت انني سألحق بك بنفس السنة . اما وقد مضت عشر سنوات ولم الحق به اشعر بأنني وحدي في هذا العالم . شقيق ذهب عني . ذهب وتركني في مكان مفتوح

كلما سمعتم من المدح به حقيقة بل دونها . فلو مد الله بعمره لاستفاد هذا الشرق كثيراً منهُ اخي صرّوف يجلس الآن بين اساتذته فانديك وبلس وورتبات وبوست وهو الخامس بينهم . ان هذا قليل جدًّا عليك يا اخي . فاشكركم يا سيداتي وسادتي على حفاوتكم هذه

***

وهنا ارتقى المنبر نجيب صرّوف بك نجل الفقيد الكبير وألقى كلمة باسم امرته وجّه فيها الشكر الى اللجنة التي تولّت الاشراف على صنع التمثال والذين تبرعوا بالمال لهُ والسيدة التي صنعتهُ والجامعة الاميركية التي رحّبت به وجميع الخطباء والسيدات والسادة الذين حضروا الحفلة

حول « العامية »

الفعل الرباعي

أصله ونشوءه ومعانيه

لانيس فريحة

دكتور في الفلسفة من جامعة شيكاغو

درس « العامية » درساً علمياً غريب عنا ، وذلك لان نظرنا الى العامية يختلف تماماً عن نظر الغرب ولذا بقي درس اللهجات العربية العامية من اختصاص المستشرقين على الغالب . واظن ان السبب في ذلك هو اختلاف في وجهة النظر . فالعربي ، حتى من اقدم العصور الاسلامية ، يعتقد ان اللغة العربية الفصحى كانت يوماً لغة التخاطب كما أنها كانت لغة الشعر والادب . ثم ان العرب عند خروجهم من الجزيرة واختلاطهم بمن جاورهم من الفرس وباقي الامم « فسدت ملكتهم » وداخلت لغتهم العجمة [1] وانت ترى هذا الاعتقاد سائداً جميع الذين كتبوا قديماً وحديثاً في اللغة العربية وتاريخها . ولكن علماء الغرب المستشرقين يعتقدون ، وهم في اعتقادهم على صواب ، ان اللهجات العربية كانت عديدة وان الفصحى كانت لغة الشعر والادب ، وربما كانت لغة بعض الخاصة في المجتمعات الادبية ، واما عامة الناس فكانت تتكلم لهجات تختلف باختلاف الامصار والاحوال الشخصية . ويعتقدون ايضاً ان كثيراً من ظواهر العامية تعود بتاريخها الى اعصر قديمة حتى قبل ظهور الاسلام ، ثم انهم يعتبرون ان اللغة المحكية هي اللغة الحية الحقيقية . ولذا تراهم ابداً ينقّبون عن خفايا العامية لعلهم يتوصلون الى حلّ كثير من المشكلات التي تعترضهم في درس الفصحى

ان الغرض من هذه العجالة البحث في ظاهرة لغوية لا اعتقد انها استرعت نظر الباحثين اللغويين ، اعني كثرة الافعال الرباعية العامية في اللهجات العربية المحكية . وسأحاول ان أبين كيف يلقي درس العامية كثيراً من النور على طائفة من المسائل اللغوية الغامضة . وقبل التعمق في

---

(١) عند ما يراجع الباحث ما قيل في مسألة وضع النحو ، او عند ما يراجع تاريخ النحو والنحويين يرى هذا الاعتقاد مكرراً معاداً . يقولون ان اللغة فسدت في زمن علي وعلماء اللغة لا يرتاحون الى مثل هذه النظريات التي تقول بنشوء لهجات في بضعة سنوات . فوراء الظواهر اللغوية اجيال واجيال

البحث لا بد ان نعتذر الى القارىء اذا اكتفينا باليسير من الامثلة خوفاً من ان يكون بعض الامثلة مجهولاً عنده ، ولكننا نقصد توجيه نظر القارىء الى كثرة الاوزان الرباعية في لهجته الخاصة اذ لا شك عندنا انهُ بعد قراءة هذه المقالة يتبادر الى ذهنه عشرات من الامثلة التي لم يفطن اليها قبلاً

﴿ الجذور ﴾ الكلمات في جميع اللغات السامية ترد الى جذور . ويمكن تقسيم هذه الجذور الى قسمين ، الاول ، وهو القسم الاكبر ، يشمل الكلمات التي جذورها تتضمن فكرة اصلية لا تتعدَّاها ، وهذه الفكرة صفة ملازمة لمجموعة الحروف التي تؤلف ذلك الجذر . خذ مثلاً قتال ، قتيل ، اقتتل ، استقتل ، فانها جميعها ترد الى جذر يتضمن فكرة اصلية هي القتل وهذه الفكرة صفة ملازمة لهذه الحروف في هذا الترتيب الخاص . والقسم الثاني يشمل الكلمات التي لا يمكن ان تردّ الى جذر يتضمن فكرة اصلية محدَّدة معينة ، بل تتألف من عناصر اولية من شأنها الدلالة والاشارة ، وهذه عريقة في القدم ، ويقع تحت القسم الثاني الضمائر والموصولات والاشارة وبعض الادوات[1] الروابط . مثال ذلك الضمير « أنتَ » فانها تتألف من عنصرين الأول « أن » وهو عنصر إشاري كما هو في كثير من اللغات السامية والثاني « تَ » وهي الاصل في الكلمة وفكرة الضمير المخاطب متضمن فيها فتقول ضربتَ وتضرب فان التاء في آخر الماضي وأول المضارع هي الضمير . ومن الغريب ان التاء تفيد معنى ضمير المخاطب في كثير من اللغات الآرية ايضاً . فالالماني يقول du والفرنسي tu والانكليزي thou . خذ مثلاً آخر « هذا » . فالكلمة هذه لا تَرُدُّ الى جذر معين بل تتألف ايضاً من عنصرين ، الهاء للتنبيه ، وذا للاشارة . وقلنا ان هذه العناصر الاولية الاشارية هي ربما كانت من أقدم المقاطع التي استخدمها الانسان للاشارة والدلالة والتنبيه

من مميزات اللغات السامية ان كثرة الجذور فيها ثلاثية . وهذه الميزة شغلت بال المستشرقين كثيراً ولهم في أصلها نظريات عديدة . وهذه الوتيرة الواحدة كانت الباعث على استنتاجات كثيرة عن عقلية السامي ونفسيته ، بعضها يقبلها المنطق وكثير منها نتيجة تخيُّل وتخمين . ولكن هنالك فئة لا يستهان بها من الكلمات في العربية كما في باقي اللغات السامية ترد الى جذور ثنائية مثل يد أخ أب شفة الخ فان هذه وان ظهر فيها حرف ثالث احياناً كما في شفهي او شفوي يدوي اخوان الخ فهي ثنائية في الاصل وهذا الحرف الثالث ليس الاَّ محاولة لجعلها ثلاثية لتتلاءم وباقي الكلمات فكان الثلاثية هي المثل في عدد الحروف[2]

---

(١) قلنا بعض الحروف لان بعضها لا يقع تحت هذا القسم فان حرف الجر على يرد الى الجذر « علا » اومع يرجع الى الجذر « عم » وهي في السريانية والعبرانية « عم » وليس مع . والجذر عم يفسر لنا معنى مع

(٢) راجع Th. Nöldeke, Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, p. 109 -178; ibid. Beiträge p. 69—72.

والمسألة التي يهمنا امرها الآن هي هل الثلاثية (Triliteralism) اصلية ام تمثل طوراً حديثاً ؟ يظهر من درس الجذور السامية ان الثلاثية نتيجة تطور من الثنائية وزيادة الحرف الثالث كان لزيادة في المعنى . فان كثيراً من الافعال الثلاثية يمكن جمعها الى طوائف يكون المعنى في كل منها واحداً وهذا المعنى مضمن في اول حرفين مثلاً قطع قطف قطم قطّ والعامي قطش فانها كلها تفيد معنىً واحداً هو معنى قطّ . وقل هذا في فلّ فلح فلج فلع فلق فلا ، وهكذا في حمّ وحمي وحما وحمر وحمس وحمق فالجذر فيها « حم » وهو مشترك في جميع اللغات السامية ويفيد معنى الحرارة

ولكن لا يجب ان نعتقد ان الشعوب السامية كانت يوماً ما تتكلم بكلمات جميعها ثنائية ثم انتقلت الى طور آخر اصبحت فيه تتكلم بكلمات ثلاثية ، كلا ، ان النشوء اللغوي بعيد جداً عن المنطق والوجدان ؛ والانتقال يتمّ ببطء كلي وعن غير قصد او تعمد . الافضل ان نقول ان الثلاثية على ممر الزمن اصبحت المثل لجميع الكلمات والنزعة كانت انهُ من المستحب والشهي على السمع ان تكون جميع الكلمات على مقياس واحد وشكل لغوي واحد . واما انه كان هنالك ثلاثيات ورباعيات وخماسيات حتى في اقدم العصور فأمر لا شك فيه

﴿ الجذور الرباعية ﴾ هل هناك جذور رباعية اصلية ام الرباعية مشتقة من جذور ثنائية وثلاثية ؟ علماء اللغة العربية صرفوا النظر عن هذه المسألة واكتفوا بقولهم ان هنالك افعالاً رباعية على وزن فعلل وملحق بالرباعي واظنهم كانوا يقصدون به الفئة التي تمكنوا فيها من ملاحظة الحرف الزائد وملاحظاتهم متفرقة في المعاجم وكتب اللغة ولا تفي بحاجة

وقبل الامعان في البحث نجد انفسنا مضطرين لنبذ اتخاذ فعلل كوزن للرباعي لما في ذلك من الاضطراب . لانهُ اذا كانت حروف فعل تمثل حروف فقع فوزن فرقع يجب ان تمثله صيغة فَرْعَل وليس فَعْلل ، لبيان الحرف الزائد . اما فَعْلل فيجب ان تمثل تكرار الحرف الثالث من الجذر كما في «بهرر» العامية من بهر . واما اذا قلنا ان حوقل ، بذعر ، دهمس ، حصرم الخ هي على وزن فعلل فلا نكون قد أبنا الحرف الزائد ، فان حوقل تكون حفعل من وقل وبذعر بفعل من ذعر ودهمس دفعل من همس الخ وعليه سنتبع استعمال وزن فعلَ للجذر الاصلي ثم نمثل الحرف الزائد باضافته الى (فعَل) حيث يقع بالنسبة الى ترتيب الحروف . فسنتكلم عن فرْعل وفنعل الخ اي الرباعي الذي تزاد فيه الراء بعد فاء الفعل وفنعل الرباعي الذي تزاد فيه النون بعد فاء الفعل الخ

﴿ الجذور الرباعية في العامية ﴾ كثيرة جداً وتقسم قسمين . الاول : يشمل الافعال التي لا ترد الى جذر سامي بل اكثرها مقتبس عن لغات اجنبية مثل سوكر من الايطالية securta وقونن من القانون[1] وفونس من الفانوس وكرنن من الكرنتينا وكرك او جمرك من

(١) لفظ قانون في العربية مأخوذ عن اليونانية ، ولكن يظن ان الكلمة اليونانية ماخوذة من السامية من كلمة تفيد معنى القصبة ، ومن ثم معنى القياس

السكرك وفودس من الفادوس ، وامثال هذه كثير نتركها جانباً لانها عارضة في اللغة . اما الذي يهمنا فهو القسم الثاني ، اي الافعال الرباعية التي تُردّ الى جذر ثلاثي إما عربي اصيل او بقية باقية من لغة سامية كانت محكية في القطر الذي بقيت فيه امثال كثير من الافعال الرباعية في لبنان التي لا اصل لجذرها في العربية بل يمكن بسهولة ردها الى جذر سرياني ارامي [١]

« كيف يصبح الجذر الثلاثي رباعيًا » او بكلام آخر كيف تنشأ الافعال الرباعية ؟ يتم ذلك عن احدى طريقتين (١) التضعيف (٢) الزيادة

١ — « التضعيف » يظهر بأشكال مختلفة : ا — بتكرار الجذر الثنائي جملة فيحدث وزن فَعْفَعَ وهذا كثير في العامية مثل دَقْدق ، بَعْبم ، حَفْحَف ، فتفت ، بَزْبَزَ ، مرمَر

ب — بتكرار الحرف الاول من الجذر فيحدث فَعْفَل مثل فرفك من فرك ، فرفح من فرح ، فَلْفَش من فلش وأمثالها كثير

ج — بتكرار الحرف الثاني من الجذر فيحدث فَعْلَع وهو نادر [٢]

د — بتكرار الحرف الثالث من الجذر فيحدث فَعْلَل مثل بَحْصص من البحص وفصيحها الحصب وبَهْرَر من بهر

ويدخل في باب التضعيف اوزان اخرى شائعة في العامية يظهر فيها التضعيف مع الزيادة وهي اربعة اوزان ، فَعْفَى ، فرفع ، فوفع ، فَيْفَعَ [٢]

« ٢ — الزيادة » والزيادة تكون ا — سابقة (Prefix) ب — وسطية (infix) ج — لاحقة (suffix)

ا — السابقة تكون بزيادة الباء والتاء والحاء والدال والسين والشين والطاء والعين والقاف والميم والنون في اول الفعل الثلاثي فيحصل الاوزان التالية : (١) بَفْعَل (٢) تفعل (٣) حَفْعَل (٤) دفعل (٥) سَفْعَل (٦) شَفْعَل (٧) طَفْعل (٨) عَفْعَل (٩) قفعل (١٠) مَفْعَل وغالباً تمفعل (١١) نَفْعَل

« ب — الزيادة الوسطية » وتكون بزيادة الباء والحاء والراء والعين واللام والميم والنون والواو والياء في وسط الجذر بعد الحرف الاول فيحصل الاوزان التالية : (١) فَبْعَل

---

(١) تمكن صاحب المقال من جمع اكثر من الف فعل رباعي من لغة قرية من قرى لبنان وبعد درسها والتنقيب عن اصلها وجد ان كثيراً منها يرد الى السريانية الارامية ، وقليلا يرد الى جذر سامي له كيان اما في العبرية او الفينيقية

(٢) لا يمكن الاكثار من ذكر أمثلة على هذه الاوزان خوفاً من ان تكون غريبة على الاسماع لان الامثلة التي لدينا محلية ، مجموعة من لبنان ، ولكن لا شك عندنا في ان القارىء يمكن ان يجد في عاميته أمثلة على الرباعي ينطبق عليها هذا الوصف ، وربما بعد برهة قصيرة ستصدر قاموساً للعامية المحكية في لبنان يجد فيها الباحث أمثلة كثيرة على هذه الاوزان

(٢) فيعفعل (٣) فرعل وهذا شائع جداً (٤) فعفل (٥) فلعل (٦) فمعل (٧) فنعل (٨) فوعل (٩) فيعل والاخيران شائعان جداً مثل نوخر، روكب، قوشع، طيلع، تيزل، ليعب، فيلت. ويجب ان تلاحظ ان الزيادة الوسطية هذه قد تأتي بعد الحرف الثاني لاسباب صوتية لمجانسة او ملاءمة فيصبح معنا بدل فيعل مثلاً فعيل مثل غلبط اي اوقعهُ في غلط

﴿ج — اللاحقة﴾ وتكون بزيادة الباء والتاء والراء والسين والشين واللام والميم والنون والالف المقصورة في آخر الفعل فيحصل الاوزان التالية: (١) فعلب (٢) فعلت (٣) فعلر (٤) فعلس (٥) فعلش (٦) فعلل (٧) فعلم (٨) فعلن (٩) فعلى

﴿احرف الزيادة﴾ وأنت اذا جمعت العناصر التي تضاف الى الجذر الثلاثي لوجدتها ب ت ح د ر س ش ط ع ق ل م ن ه و ي، وعلى الباحث اللغوي ان يجابه مشكلتين. المشكلة الاولى: «ما الدافع في اللغة الى بناء افعال رباعية؟». والمشكلة الثانية: «ما اصل هذه الزيادات وما معناها؟»

﴿الدافع الى بناء افعال رباعية﴾ قد تلمس بعض الحقيقة اذا قابلنا بين الفروق في معنى الجذر الثلاثي والوزن الرباعي المشتق منه، واذا ما تثبتنا من هذا الامر حقّ لنا ان نستنتج ما يمكن ان نسميه دافعاً

إنك اذا درست عدداً كبيراً من الرباعيات المشتقة من الثلاثيات وقابلت بين الفروق الناجمة وجدت ان هنالك دوافع ثلاثة هامة تظهر في معاني الرباعي وهي (١) الحدة في الفعل او الشدّة (٢) فكرة التكرار (٣) فكرة التعدية

مثلاً فرفح أحدّ من فرح، و قلفش الامتعة تفيد الشدّة والحدة في الفعل، ودقدق تفيد تكرار العمل اكثر من دقّ، وطيلع ونيزل للتعدية. والسؤال المنطقي الذي يتلو هذا هو: هل هذه الميزات المكتسبة في الرباعي راجعة الى الحرف او بكلام آخر، هل هذا المعنى الجديد مُضمَّن في الحرف؟ يصعب الجواب عن هذا السؤال حتى انهُ وان سلمنا جدلاً ان للحرف معنىً مستقلاً بنفسه لا يمكن التحقق من هذا المعنى الآن لتقادم العهد لان مبادىء اللغة تعود الى ازمان بعيدة جداً وقد حاول بعض لغوي العرب (وبعضهم فرس) ان يثبتوا معانيَ للحروف[1] ولكن النتائج

---

(١) مراجع الفهرست لابن النديم طبعة (Flügel) ص ٣٩—٨٨ تجد ذكراً لكتب عدة كتبت في هذا الموضوع. ثم راجع ابن جني في Oscar Rescher ص ١٥ حيث يقول: وليس غرضنا في هذا الكتاب ذكر هذه الحروف مؤلفة لان ذلك يقود الى استيعاب جميع اللغة وهذا مما يطول جداً وليس عليه عاقدنا هذا الكتاب، وانما الغرض فيه ذكر احوال هذه الحروف منفردة او منتزعة من أبنية الكلم التي هي مصوغة فيه لما يخصها من القول في انفسها ... الخ

كانت محدودة . اذ يصعب جداً ان نتخيل ان اللغة بدأت بأصوات قليلة العدد . لكل صوت معنى . فاللغات في كل العالم تتألف من اصوات ابتدائية (Phonemes) لايزيد عددها على ٤٥ ولا يقل عن ١٥ ولغة كاليونانية او العربية لا يمكن ان تكون قد نشأت وتطورت عن هذه الاصوات القليلة المحدودة ، فالحرف الواحد أو قل الصوت الواحد لا يمكن ان يكون لهُ معنى خاص يستثنى من هذا جزء قليل اتخذ معنى خاصًا في اثناء تطور اللغة

فاذا كان من الصعب اثبات معنى لاحرف الزيادة فما هي اذاً هذه الحروف ؟ هل هي بقايا كلمات مستقلة لم يبق منها الاّ بعض اجزائها بعد ان اندمجت في الجذر الثلاثي لتؤلف الجذر الرباعي الجديد ؟ هذا مستبعد ايضاً ، لان العربية كباقي اللغات السامية لا يعرف فيها امتزاج جذرين في كلمة واحدة كما هو الحال في اللغات الآرية ولا يغرنك بعض مظاهر النحت التي هي حقًا اختصارات اكثر مما هي ألفاظ منحوتة مثل بَسْمَلَ وحوقل أي قال بسم الله ولا حول ولا . . . [1] فان اللغات السامية لا تعرف النحت فما هي اذاً ؟

ان هذه الزيادات يمكن اعتبارها عناصر اشارية deictic كالتي تتألف منها الضمائر واسماء الاشارة والموصول . مما لا شك فيه ان الضمائر في السامية كما هي في باقي اللغات ، كلمات لا ترد الى جذور تتضمن فكرة اصلية كما في قتل بل تتألف من عناصر اشارية كما في انت ، هو ، الذي ، وقد مرّت الاشارة الى هذا في اول المقال . ولا غرابة في ان اصل اقدم الكلمات في اللغة يردّ الى عناصر اشارية تنبيهية ، فالاشارة الى الشيء والتنبيه له ، والتعجب والاستغاثة والمناداة كل هذه من اقدم مظاهر اللغة على الاطلاق ولا نرى ضرورة للاسهاب في هذا الموضوع لان اصل الضمائر في اللغات السامية امر معلوم عند الاخصائيين . ولهذا الموضوع مراجع مستفيضة في اللغات الاعجمية

انا اذا حللنا الضمائر في العربية الى العناصر التي تتألف منها وجدناها : أ ت ذ ك ل م ن ه و ي . اما احرف الزيادة التي تضاف لبناء الرباعي فهي ب ت ح د ر س ش ط ع ق ل م ن ه و ي وانت تجد ان جانباً من احرف الزيادة لا وجود لهُ في بناء الضمير مثل الطاء والعين والقاف . اما الشين وان لم نجدها في الضمير العربي فهي واحدة في ضمائر لغات اخرى سامية . انا لا انكر ان هنالك مصاعب تاريخية وصوتية (Phonetic) يصعب تعليلها . ولكن بوجه عام يمكننا ان نقول ان القصد من هذه الزيادة هو . اولاً — لتأدية معنى المبالغة . ثانياً — لتأدية معنى الحدة والشدة . ثالثاً — لتأدية معنى التعدية . رابعاً — لاسباب صوتية محضة

(١) راجع مقالا للاب لويس شيخو في المشرق المجلد الاول ص ١٠٢٧ حيث ينفي وجود هذه الظاهرة في العربية

ولكن درس مسألة الاصوات في اللغة السامية لا تزال في مهده ولا نعرف عن النواميس التي تتقيد بها الا النزر القليل. خذ مثلاً وزن فرعل، فنعل، فمعل، التي هي ربما كانت عوضاً عن وزن فعّل الفصيح فبدلاً من مضاعفة الحرف الوسط يستعاض عنها بزيادة حرف كان اللسان يستسيغ او يستسهل لفظ فرقع على قمقم وفنجر على فجّر. ولكن السؤال الهام هو متى تزاد الراء او النون او اللام للاستعاضة عن التضعيف؟ هذه اسئلة لا يمكن الجواب عنها لقلة الادلة وربما عند ما تتوافر لدينا الاستنتاجات يمكن ان نقرر النواميس التي تتبع في هذه الناحية

﴿ الافعال الرباعية في الفصحى ﴾ اذا راجعنا المعاجم وجدناها طافحة بالافعال والاسماء الرباعية والخماسية والسداسية واكثرها ممات ومعانيها غريبة عنا حتى ان الذين جمعوها ودونوها لم يكونوا على ثقة مما يدونون، بل كتبوا ما كتبوا على ذمة الراوي او على استنتاجهم من معنى بيت ورد في شعر احدهم، يدلك على ذلك المعاني القليلة التي تفيدها هذه المجموعة الكبيرة فانها لا تتعدى معنى «صلب، ضخم، شديد، سيء الخلق، غليظ، طويل» الى ما هنالك من المعاني غير المحدّدة. وعدم معرفتنا معانيها بالضبط يحول دون درسها لانه اذا فقد المعنى صعب التعليل

اما في كتب الادب وفي الشعر فورودها قليل بالنسبة الى كثرتها في المعاجم. فهذا القرآن الكريم لا يحتوي على اكثر من ٥٠ كلمة رباعية. ويحق للباحث في تطور اللغة ان يسأل عن السبب في ذلك. ولنا رأي نبديه بتحفظ وقد لا نكون على صواب فانا نعتقد ان الاوزان الرباعية لا بل النزعة في اللغة السامية الى اشتقاق اوزان رباعية من جذور ثلاثية كانت في عصور قديمة شائعة جداً كما هي شائعة في بعض اللهجات العربية المحكية [1] غير انه عند ما بدأ عصر التدوين والكتابة فعل قانون الانتخاب اللغوي فعله. فالناس عند ما يتكلمون يستعملون لغة ولكن عند ما يكتبون يستعملون لغة اخرى وهذا يصدق على جميع لغات الارض. والكاتب ميال الى الابتعاد عن العامي فكل شائع معروف في نظره قريب للابتذال، وإلاّ ماذا يفرق الكاتب عن بقية الناس؟ وما الذي يفرق يوئيل النبي العبراني في كتابته عن باقي الانبياء؟ ولما كانت الافعال الرباعية واشتقاقها شائعاً عامياً، نظراً الى ضخامتها وكثرة حروفها اخذ الكتّاب في الاقلال من استعمالها

---

(١) تكثر الافعال الرباعية في لهجة لبنان وسوريا، فان كاتب المقال تمكن من جمع اكثر من الف فعل رباعي في بلدة صغيرة في لبنان واكثرها غير مذكور في معجم Dozy والف فعل في لغة مجتمع يعيش على الزراعة في الجبل عدد لا يستهان به، وعندما يذكر الانسان ان مجموع الكلمات التي نستعملها في كلامنا العادي لا يزيد عن ٣٠٠٠ او ٤٠٠٠ يدرك معنى هذه الكثرة



رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

— ٣ —

الجبال — لا نبالغ اذا قلنا ان القطر اليماني قطر جبلي بحت . لان جباله تشمل ما يزيد عن ثلاثة ارباع مساحته العامة . وجبال اليمن تتمة سلسلة « السراة » او سلسلة الحجاز الآتية من الشمال والمبتدئة من بين الطائف ومكة والمنتهية في جنوب اليمن عند الاعضاد المشرفة على تهائم لحج وعدن . قال ياقوت في معجم البلدان : السراة جبل مشرف على عرفة قرب مكة ينقاد الى صنعاء ، وانما سمي بذلك لعلوه ، وسراة كل شيء ظهره . وقال ايضاً : السراة الجبال او الارض الحاجزة بين تهامة واليمن ولها سعة وهي باليمن اخص . وقال الهمداني في صفة جزيرة العرب السراة اعظم جبال العرب واذكرها اقبل من ثغرة اليمن حتى بلغ اطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازاً لانهُ حجز بين الغور « تهامة » وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه الى اسياف البحر غور تهامة ، وصار ما دون ذلك الجبل من شرقيه نجداً ، وصار الجبل نفسه سراته وهو الحجاز . وقال ايضاً : اما جبل السراة الذي يصل ما بين اقصى اليمن والشام فانهُ ليس بجبل واحد وانما هي جبال متصلة على نسق واحد من اقصى اليمن الى الشام في عرض اربعة ايام في جميع طول السراة يزيد كسر يوم في بعض هذه المواضع وقد ينقص مثله في بعضها . وفي (الرحلة اليمانية) للشريف عبد المحسن البركاتي : ان اول جبل السراة يبدأ في عقبة كرى بين الطائف ومكة ويسمى بجبل الحجاز لانهُ الحاجز بين تهامة ونجد وانهُ عظيم الارتفاع عن سطح البحر واسع المساحة كثير الطول طوله من الشمال الى الجنوب احدى واربعون مرحلة ، وكل مرحلة مسير يوم بالابل المحملة وهي اربعين كيلومتراً . فمن الطائف الى

ابها عاصمة عسير خمس عشرة مرحلة ومن ابها الى صعدة سبع مراحل ومن صعدة الى شهارة ثماني مراحل ومن شهارة الى صنعاء عاصمة اليمن سبع مراحل ومن صنعاء الى نهاية هذا الجبل اربع مراحل . وهذا الجبل آهل بالسكان وقراه متصلة بعضها ، واذا سافر مسافر من الشمال الى الجنوب في تلك المراحل فانهُ يكون دائماً بين مزروعات واودية واشجار كثيرة المياه والمراعي وكافة قراه مبنية بالحجر المنحوت ودورها من طبقتين الى ثلاث ولا يوجد فيه اكواخ مثل تهامة . اه

قلت : وظهر هذه السلسلة المرتفعة ارتفاعاً عظيماً ينقسم قسمين ، فما كان منهُ في الشمال في علو نحو ٢٠٠٠ متر وما فوق حتى جاوز ٣٠٠٠ متر سمي باليمن الاعلى ، وما انحط في الجنوب عن ٢٠٠٠ متر حتى اقترب من مستوى التهائم سمي باليمن الاسفل . والحد بين اليمنين فيما قيل قرية المنزل في نقيل سمارة في جنوب مدينة يريم ، على طريق تعز وعدن

واليمن الاعلى حول مدن يريم وذمار وصنعاء وعمران وما بعدها نحو الشمال يؤلف نجداً مستوياً واسعاً مستطيل الشكل يمتد من الشمال الى الجنوب من قرب جبال نجران الى نقيل سمارة المتقدم الذكر ، فيتباين العلو فيه من ٢٠٠٠ الى ٢٦٠٠ متر ويختلف علو قننه الشامخة من ٣٠٠٠ الى ٣٥٠٠ متر . ويمكن تشبيه هذا النجد بسنام الجمل . لان سفحيه الغربي والجنوبي يتدرجان في الانخفاض نحو التهائم الغربية والجنوبية ، وسفحه الشرقي نحو فيافي الجوف المنحطة ، وهذه تدرج بالانخفاض من ١١٠٠ متر فما بعد ويمتد في وسط هذا النجد (خط تقسيم المياه) الذي يدفع بعض مياه ينابيعه وسيوله الى الاودية المنحدرة نحو فيافي الجوف في الشرق وبعضها الى الاودية المنحدرة نحو التهائم في الغرب والجنوب . وسيأتي ذكر هذه الاودية

على ان النجد اليماني ليس في مجموعه بسيطاً خالياً من التلعات والتضاريس . بل ان في معظم ارجائه جبالاً واطواداً عديدة منفردة او مجتمعة مخروطية او مستطيلة الشكل . وهذه الجبال تفصل بين الرقاع التي يدعونها « قيعان » جمع « قاع » ويتخذون ارضها الشاسعة للحرث والاستغلال . اشهر منها قاع البون وقاع سنحان وفيه مدينة صنعاء وقاع جهران وقاع حواس وقاع الحقل وغيرها

اما اطراف السلسلة وسفوحها المنحدرة نحو الغرب والجنوب والشرق فهي تتألف من جبال شاهقة هائلة تدرج في الهبوط نحو التهائم او الجوف ، وبعض اعضادها يدنو من البحر كتلك التي بين عدن وباب المندب ومخا

وجبال اليمن كلها — سواء أكانت في النجود أم في السفوح — من أروع جبال العالم مرأى واعسرها مرقى وا كثرها تضرساً وتلماً واشدها محلاً وتصدعاً وافقرها بالماء والكلأ .

وجبال طوروس وآمانوس في شمالي الشام وجبال لبنان الغربي والشرقي واطوادها وعقباتها تحسب متواضعة ذليلةً اذا قيست بما في اليمن. لا جرم ان من لم يرَ جبال اليمن المكفهرة وشناخيبه المشمخرة واوديته السحيقة وصخوره العظيمة النافرة، ومعظمها جاف متجرد عن البهجة والخضرة، اسود اللون، متجهم المنظر، ومن لم يتسلق نقائله[1] وعقباته الوعثاء او يتدحرج في منحدراته الكأداء ذات الميل الشديد — لا يعدُّ رأى جبالاً واودية ولا قاسى تعباً ولا ردد لهثاً ولا ارتعدت فرائصه فرقاً من خشية تدهور السيارة اوكبو الراحلة او زلق القدم. وهذا التدهور او الكبو او الزلق مع التيه في مهامه تهامة من الامور غير النادرة في اليمن. ومبلغ الروعة في هذه الجبال والاودية يدركه المسافرون في احدى الطريقين القديمة (طريق القوافل) او الحديثة (طريق السيارات) بين الحديدة وصنعاء، او بين صنعاء وحجة، او بين صنعاء وتعز، بل في اي طريق شئت، اذكر ولا تستثن. ففي طرق اليمن الجبلية عدد لا يحصى من القمم الناطحة للسحب والوهاد والمهاوي الممعنة في التقعر والتمعج. والارتفاع والانخفاض في هذه الطرق يختلفان اختلافاً فجائيًّا لا هوادة فيه ولا رفق فبينما ترى نفسك قد صعدت في ٤—٥ ساعات الى علو شاهق قدره ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ متر تهبط فوراً في ساعة او ساعتين الى ثلث او نصف او ثلثي ذلك العلو، ثم تعود للصعود، ثم للهبوط وهكذا بمعنى ان منكب هذه السلسلة مؤلف من مرتفعات ومنخفضات تتموج تموجاً رهيباً ويأخذ بعضها برقاب بعض كامواج البحر المتعالية المتلاطمة على مسافة بضع مئات من الكيلو مترات مما يبعث الرعب والتعب الزائدين للغريب القادم حديثاً.

ورغم اكفهرار هذه السلسلة وكئودة معارجها ومهابطها فأن في مشاهدها عظمةً وروعةً تأخذان بمجامع القلوب، ولاسيما حينما تتراكم امواج الضباب وتتكاثف قطع السحاب وترتج الآفاق من الرعود القواصف والبروق الخواطف، وهي ظواهر جوية كثيرة الحدوث في اغلب الايام بعد الزوال، فحدث اذ ذاك ولا حرج عن طلعتها التي لا تمل وروًيتها التي لا تجتوى، مما يحتاج وصفه وتبيين الوانه ووقعه الى قريحة شاعر مفلق او ريشة رسام مبدع

البراكين والسيول

ولاقسام هذه السلسلة اسماء عديدة تدعى سروات جمع سراة. وفي كل من هذه السروات جبال متعددة معروفة باسماء واوصاف خاصة لا تتسع هذه العجالة لذكرها من وفرتها وكلها من الجبال البركانية الاندفاعية وجل صخورها من جنس البازلت الاسود او الازرق القاتم وهو لا يمتص الماء ولا يخزنه ناهيك جهومة منظره وبشاعة مكسره مما جعل جبال اليمن في الاكفهرار

---

(١) جمع نقيل وهو اصطلاح يماني يطلق على الطرق في الجبل. ويقابله عند اهل جبل لبنان كلمة «قادومية» من تعذر التسلق الا على الاقدام

الذي وصفناه . وبعض تلك الصخور من جنس الجير calcaire او الغرة grès او التراخيت او الميكاشيت ذات الالوان الدكن او الصفر . وتختلط هذه الصخور القلية بصخور البازلت السود او تتراصف معها في غير انتظام في كثير من الاماكن . وتربة قيعان النجد اليماني تتألف من الطيفال الجيري والرملي الناشيء من تفتت الصخور المذكورة ، وتكون هذه التربة صفراء اللون في الغالب . وتتألف اتربة الاودية من الرواسب الرملية والطينية الناعمة التي جرفتها السيول ، وتكون غبراء او رمادية اللون

ويظهر ان ثوران البراكين وفتكات الزلازل في الاطوار الجولوجية الغابرة كانت في اليمن على اشد مايتصوره علماء الجولوجيا في التصديع والتحطيم وان افعال العوامل الطبيعية من حر وقر وهزاهز وسيول ما برحت حتى يومنا هذا في غاية العنف والقسوة. فالمسافر في طول اليمن وعرضه كيفما التفت يقع بصره على اهاضيب هرمية او مخروطية الشكل قممها فوهات براكين منطفئة وعلى شناخيب مسنمة مرتفعة كالمآذن والابراج وعلى اطواد وآكام متمددة منعزلة او مكتظة وكلها مثخن بالخروق والشقوق المفجعة من هول تلك العوامل الطبيعية واخصها الزلازل والسيول . وفي مناكب تلك الشناخيب والاهاضيب والاطواد والآكام او في سفوحها وفجاجها جلاميد هائلة الحجم والشكل (مثل او اعظم من حجر الحبلى في بعلبك) حطتها الزلازل او السيول من عل ، وصخور عظيمة مكدسة (مثل او اعظم من صخور الاهرام في مصر) ورضام مضرسة تتدحرج كسورها وفتاتها تحت الارجل فتزيد تعب الصاعد في عقباتها ومنحدراتها الكأداء وتجعله يقاسي لهاث المحتضر

وفعل السيول في اليمن عظيم. وتاريخ اليمن طافح بفجائع هذه السيول التي تحدث الفترة بعد الفترة . واخصها ما يحدث في صنعاء يأتيها من انحاء سنحان وسعوان وجبل اللوز ويخرب قسماً غير يسير من صنعاء وشعوب والروضة ويذهب بعد للانصباب في وادي خارد أحد أودية الشرق

واذا استثنينا القيعان المنبسطة في انجاد سلسلة السراة والرقاع الصالحة في بعض ذرواتها واسنادها[1] والمنحدرات الخفيفة التي وطدها اليمانيون بمتاعب زائدة وعملوا فيها حقولاً صناعية متدرجة اسموها جُرباً جمع جربة[2] فان اكثر أقسام هذه السلسلة عاطل غير قابل للحرث والزرع ، وتكاد نسبة القابل منها لا تزيد عن الاربعين في المائة ، وما بقي فمتون او حرار[3] اومنحدرات هي مسارح للقرود وأوكار للنسور ومنابت لما لا خير في اكثره من الاعشاب الغثة والانجم والاشجار الشائكة مما سوف نذكره في بحث الزراعة

---

(١) السند ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح

(٢) يقابلها لدى أهل جبل لبنان كلمة جلول جمع جل (٣) المتون جمع متن وهي الارض التي تجمع الارتفاع والصلابة والغلظة والحرار جمع حرة وهي الارض ذات الحجارة الكثيرة السود النخرة

وغني عن القول ان هذه الجبال لا تتساوى في العظمة والروعة وامكان الصعود والنزول ووجود رقاع للحرث والزرع فيها او عدمه . فمنها ما هو واسع الذروة ، صالح التربة ، قابل الصعود على البغال والحمير . ومنها ما نقائله شديدة الكؤودة نزل الوبر[1] والقرد ، بل ان بينها ما ليس له غير نقيل « لا يطلعهُ سوى المشاة ولا يطلعهُ دابة . فاذا — ارادوا دابة يستنفعون بها في ذروته مثل البقر للحرث والحمير للحمل حملها الرجال محجلة او عضوة صغاراً » [2] . على ان اليمانيين لم يغادروا قيد شبر يمكن الاستفادة منهُ في ذروات هذه الجبال او منحدراتها . لا سيما من تلك التي تنفجر فيها عيون وغيول[3] . فهم قد تعلقوا باذيالها وتسلقوا ادراجها ووطدوا ما امكنهم التوطيد من انجادها واسنادها فزرعوا وغرسوا وشادوا الحصون والقرى بهمم قعساء جديرة بالاعجاب

الطرق ووسائل النقل

اما وسائط النقل فأحدثها السيارات . فهي قد دخلت اليمن منذ خمس سنوات وصارت تجري الآن بين اكثر المدن والقرى التهامية وبعض النجدية التي لا يصعب وصولها اليها . اما في الصعبة الوصول فقد عبدوا لها حتى الآن طريقين طريق الحديدة — صنعاء ، وطريق صنعاء — حجة . الا ان هذه الطرق التي يخططها موظفون غير مهندسين وقرويون غير مأجورين وتلك السيارات البالية التي يديرها سواقون غير ذوي كفاءة تجعل الراكب يسأل الله السلامة في كل لحظة

فني طريق الحديدة — صنعاء تطوي السيارة بادىء ذي بدء سهول تهامة فتتعسف بين كثبانها وتغوص احياناً في رمالها ويتحمل الراكب حرارة شمسها اللاهبة ، فاذا انتهى منها بعد مسير نحو ستين كيلو متراً يصل الى بليدة اسمها (باجل) تقدم وصفها . واذا غادرها ظهرت امامهُ طلائع الجبال التي تقدم ذكرها . وبعد ان يجتاز محطة البحيح وقرية عبال التهاميتين ايضاً تنحرف السيارة نحو الجنوب الشرقي وتشرع بالتوقل ، فتسلك الطريق التي فتحت للسيارات حديثاً على النحو الذي وصفنا نقصه وخطره . وهي تتغلغل وتتمعج وتصعد وتهبط في اودية طويلة قليلة العمران والسكان اسماؤها سيحان وسهام تجري في بلاد ريمة . وهذه الاودية منحصرة بين جبال شاهقة من فروع جبال ريمة منها — والعهدة على السائق الذي اسماها — على يمين الطريق جبل ضام وجبل عبس وجبل برع وجبل عساكر وعلى يساره جبل الجي وجبل شرق . وهذه الاودية تتصل تارةً وتبتعد اخرى ، ويكثر في عدواتها اشجار العضاه الشائكة والنباتات المتعرشة على اختلاف فصائلها وحقول الذرة على اختلاف اعمارها واطوالها ، وقد يصادف السائر ايضاً فيها قطعان القرود على اختلاف وفرتها وضخامة بعض افرادها وغرابة

---

(١) الوبر Hyrax دويبة كالسنور لكنها أصغر منه (٢) الهمداني في صفة جزيرة العرب ص ١٩٢
(٣) غيول جمع غيل ، اصطلاح يماني يطلق على الينابيع الجارية

وثباتها وصيحاتها المضحكة . واذ كانت السيارات لا تستطيع الاسراع اكثر من ١٠ — ١٥ كيلومتراً في الساعة بحكم شعث الطريق وكثرة المعارج والمنعطفات فلا بد من قضاء الليلة الاولى في هذه الاودية المقفرة . والمحطة الوحيدة التي يجوز المبيت فيها هي قرية حقيرة وبيئة اسمها «مدينة العبيد» — سكانها جالية من السودان . وبعد مسير مسافات شاسعة وسط وادي حمام علي في بلاد آنس يصادف السائر قرب منتهاه الشرقي حماماً معدنياً كبريتياً يأتيه المرضى في شهري مارس وابريل . وبعد هذا الحمام ببضعة كيلو مترات تشرع السيارة باقتحام عقبة طويلة كؤودة اسمها عقبة المصنع ، اذا بلغت اعلاها أفضت الى ظهر النجد اليماني الذي تقدم ذكره وتصل الى احد قيعانه المنبسطة المسمى « قاع جهران » فيتنفس المسافر هنا الصعداء لخلاصه من الصعود والدوران المتواليين المدورين للرأس ومن ضيق الاودية وحشرها وحرها ، ويلاقي بعد الآن فضاء فسيحاً وهواء سجسجاً . وبعد الاستراحة برهة في قرية « معبر » ينحرف السائر نحو الشمال الشرقي ، فاذا انتهى من قاع جهران يصعد في نقيل كؤود يفضي بعده الى اودية لا تخلو من منعرجات ومنبسطات فيها عدة قرى منتثرة اسماؤها بيت زيادي ووعلان والدوب وحزيز وغيرها حتى يصل الى قاع فسيح في وسطه مدينة صنعاء

هذا وما عدا السيارات، ليس في اليمن ولم يكن من وسائط النقل، سوى البغال والحمير والابل. اما الخيل فقليلة الوجود والاستعمال شأن كل البلاد الجبلية. والطرق عبارة عن شعب ومسالك وعثاء حفرتها الاقدام بمرور الايام . وقد صادفت في طلوعي من وادي الاهجر الى حصن كوكبان في عقبة تقطع النياط توقلنا اكثرها مشياً ، ان قسماً من هذه العقبة قد بلط تبليطاً حسناً لم اعرف رغم سؤالي اي صاحب خير من القدماء صنعه وفي اي عصر صنعه . ومثل هذا البلاط موجود في نقيل سمارة الصاعد من إب الى يريم وهو على ما قيل من صنع الملك العزيز طغتكين اخي صلاح الدين الايوبي الذي حكم اليمن في سني (٥٧٧ — ٥٩٣هـ) ، ولعل الاول ايضاً من صنعه ، كما ان السور المحيط بصنعاء بدأ به اخوه توران شاه وأكمله هو

طريق القوافل القديمة

﴿ وصف طريق القوافل القديمة بين الحديدة وصنعاء ﴾ كانت الجيوش التركية والقوافل التجارية قبلاً تسلك طريقاً أقصر منالاً وأكثر عمراناً وسكاناً منها في طريق السيارات الحديثة . عبد الترك بعض أقسامها في زمانهم وبنوا الجسور على بعض أوديتها فجعلوها صالحة لسير عجلات المدافع وغيرها . الا ان هذه الاقسام المعبدة قد أشرفت على الخراب من الاهمال الحاضر . فالمسافر في هذه الطريق [1] بعد مغادرة قرية باجل ومحطة البجيح اللتين تقدم ذكرهما ينحرف

(١) وصف هذه الطريق مراسل جريدة التيمس الانكليزية المستر هرس سنة ١٨٩٢ ، ونشر ترجمته جبر ضومط في المقتطف م ٣٨ ج ١

نحو الشمال الشرقي ويمر بقرية اسمها حجيلة . ومن ثمَّ يشرع بالصعود في واد طويل ، هائل المنظر ، على جانبيهِ جلاميد عظيمة مدهشة ، واسم الوادي حجام يمتد نحو ساعتين على سير البغال وفي قرب حجيلة قرية الاكمة من قرى جبل مشار ، وتحتها العريف ووراءها جبل صفان وفيهِ حصن متوَّح . ويزداد الصعود بل التوقل بعد حجيلة كلما أوغل المسافر نحو الشرق وتزداد معهُ مناظر الجبال العظيمة ووعوثها الرهيبة ، وتزداد ايضاً رقة الهواء وبرودته المنعشتان على خلاف ماكان في هواء تهامة ذي الثقل والحر المضنيين وبعد وادي حجام يبلغ المسافر سفح جبل وصل ويلمح على يساره في الافق الشمالي جبل الطويلة ، ويلمح أمامه في الافق الشرقي جبل شبام المعدود من قمم اليمن الشاخة ووراءه في الافق الغربي جبل برع وجبل ريمة المماثل لهُ ويلمح في طريقهِ ايضاً اويمر بقرية محصنة اسمها « المتارة » أهلها اسماعيلية مكرميون . وبعد اقتحام عقبة طويلة تقطع نياط القلب طولها خمس ساعات يصل الى بليدة اسمها مناخة مبنية قرب قمة جبل حراز المشابه لصهوة الفرس . وهي كما قيل مسرح للبوم وموطىء للعقبان والنسور

ومناخة في موقعها وعلوها وشكل دورها الشبيهة بالحصون والآكام من أمنع أماكن اليمن وأعزها منالاً ، تشرف من أنحائها الاربعة على أودية ووهاد هائلة السحق والانحدار . واذا سرح المسافر نظره في آفاق مناخة البعيدة يرى وادي موسنة ينبسط أمامهُ شمالاً بغرب ودونه جبلا ملحان وحفاش ، وفي الشرق جبل شعيب حضور أعلى قمم اليمن طرًّا وتحته بوعان . وثمة قنن عديدة شيدت فوقها قرى حصينة وما منها الآ وحولها الاراضي المحروثة والحقول الصناعية المتدرجة ومغارس البن والقات . وبعد مناخة يعود المسافر الى الهبوط والتدحرج في نقيل عمودي شاق اسمه نقيل مناخة فاذا بلغ وادي الشجة في اسفله يعود الى التوقل تارةً والهبوط أخرى ، والهبوط أكثر، والطريق مملوء بالاشجار الشائكة ، حتى يبلغ أسفل واد سحيق بعد أوطأ قسم الجبال في اليمن وأحرها فيه قرية اسمها مفحق بنيت فوق قمة . ثم يعود المسافر للتوقل في درجات عسيرة لا تحصى حولها وهاد لا قعر لها ولا حد حتى يبلغ قرية اسمها سوق الخميس ، ثم قرية أعلى منها اسمها بوعان فيها قلعة شاهقة ، وفي بوعان مشهد للجبال والاودية الهائلة . واذا تراكمت امواج الضباب او قطع السحاب وهي كثيرة النشوء والتراكم في هذه الاماكن الجبلية المتجهة الى الغرب نحو سواحل البحر الاحمر ، تحدث مسارح النظر ومباهج الفكر التي أطربنا روعها وبدائعها . وبعد بوعان يستمر التوقل الى متنة اومخفر سنان باشا وهي آخر مرحلة للقادم من الحديدة . وبعدها نزول متدرج الى مساجد ، ثم صعود الى عقبة عصر ثم نزول الى سهل أفيح فيهِ مدينة صنعاء خاتمة المسير

قلنا ان الترك في عهدهم الأخير عبدوا أقساماً كثيرة من هذه الطريق وذللوا صعابها . وكانوا يريدون ان يسيروا بها من مفحق الى وادي ضفور الى عبال ، تاركين مناخة لصعوبة

عقباتها وعلوها . ثم قرروا مد سكة حديدية من رأس الكثيب في شمالي الحديدة الى باجل فوادي ضفور فقحق فسوق الخميس فصنعاء، وعهدوا في مد هذه السكة الى ادارة الخط الحجازي ، فقامت هذه الادارة بالعمل وجلبت آلات وعوارض وقضبان حديدية ، وتقدم التمديد من الساحل الى الداخل نحو ١٥ كيلو متراً. ولكن مفاجأة الطليان بحرب طرابلس الغرب ومن بعدها الحرب البلقانية والحرب العامة ، حالت دون انجاز ذلك

الارتفاعات في قسم الجبال

صعدة ٢٢١٦ عمران ٢٣٠٢ كوكبان ٣٠٠١ الروضة ٢٣٠٦ رداع ١٤٠١ ثلا ٢٨٦١ ذي مرمر ٢٦٩٨ شبام ٢٦٣٥ ذمار ٢٤٣١ يريم ٢٦٨٥ تعز ١٣٧٤ مارب ١١٠٠ الطويلة ٢٩٠٠ مسور ٣١٦٠ معبر ٢٥١٦ جبل شعيب حضور «اعلى قم اليمن» ٣٥٠٠ جبل ظفير في قضاء حجة ٣٤٠٠ جبل شهارة في بلاد حاشد ٢٣٧٠ . وفي بلاد عسير ، ابها ٢٢٧٥ سوغا ٢٣٦٠ محائل ١٦١٠ غامد ٢١١٠ . وفي قسم تهامة اليمن زهرة ٣٥٧ حيس ٢٩٥ بيت الفقيه ١٦٥ زبيد ١٤٠ وجميعها بالامتار

الاودية والسرود

ليس في اليمن انهار تشبه على الاقل العاصي او بردى في بلاد الشام من حيث غزارة الماء ودوام الجريان . بل ان بين جباله اودية تحصل من خطوط اجتماع المياه الهابطة من ذروات جبال اليمن والمنحدرة نحو التهائم في الغرب والجنوب او نحو الجوف في الشرق . وتحصل مياه هذه الاودية اما من الينابيع المتفجرة عند خطوط اجتماع المياه المذكورة واسمها في اليمن (غول) جمع (غيل) ، وإما من السيول المجتمعة من مياه الامطار . ومياه هذه الاودية اما ان تغور في رمال تهامة والجوف وتضيع سدى، وإما أن ينتفع بها في ري بعض الارضين كما يعمل أهل زبيد ولحج . وهذه الاودية كثيرة ، لا طائل في ذكر اسمائها وتعداد روافدها في مجالتنا هذه. وجلها جاف في غير موسم الامطار . وليس بينها ذو ماء غزير يسيل في ايام السنة وينتهي في البحر الا وادي بنا ومصبه شرقي عدن ، ووادي لحج ومصبه في عدن ، وأودية تهامة العربية كوادي مخا ووادي زبيد ووادي رمع ووادي سهام ووادي سردود ووادي مور . ويعد طول كل منها ٤ — ٥ ايام على الماشي ويحصل في مجاري بعضها غدران عميقة وواسعة يجدون فيها سمكاً بوزن الكيلو غرام أو الكيلو غرامين . ويذكر من أودية الشرق التي تذهب نحو فيافي الجوف وادي الخارد ووادي أذنة وغيرها . الا ان اعظم هذه الاودية وأقواها هو وادي مور الذي لا ينقطع في كل السنة وهو ميزاب تهامة الاعظم ، ومثله بكثرة الروافد وبعد المأتى في الشرق وادي آذنة الذي كانت تخزن مياهه بسد مأرب الشهير ويلقب بميزاب الشرق

والاودية في اليمن اجل اماكنه قدراً واعظمها شأناً ونفعاً . وهي انزهها منظراً وازكاها تربة واوفرها خيراً وميراً . ففيها المواقع الرغيدة والينابيع والغيول الدافقة والاشجار الظليلة والمحاصيل المغلالة والقرى والمزارع العامرة المنثورة على عدوتيها انتثاراً متقارباً جميلاً . واذ ارتفعت هذه الاودية عن مستوى تهامة وحرها وتطامنت عن علو النجود وبردها فهي معتدلة الاقليم في الجملة على ان بعضها يشذ عما ذكرناه لضيق رقعته وانحباس هوائها وكثرة مناقعه فيحدث فيه الحر اللاهب والبعوض اللاسع ويصبح وبيئاً تفتك فيه حمى البرداء (الملاريا) . لا جرم ان اليمن لولا اوديته هذه لما اختلف بجباله وتهائمه عن الهيكل العظمي الاّ قليلاً . فأجل مغارس اليمن ومزارعه واجود وابرك اشجاره وثماره تكون في هذه الاودية وفي كل منها كما قال الهمداني « ما لا يوقف عليه من القرى الصغار والابيات ، وكل واد منها مخلاف يكون فيه سلطان يقوم به عوائده »

وكان قدماء اليمانيين يعرفون قيمة مياه هذه الاودية الفائضة ويحسنون خزنها والانتفاع منها فيعمدون الى بناء الاسداد وهي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الاودية المذكورة لحجز السيول ورفع المياه لري الارضين المرتفعة كما يفعل اهل التمدن الحديث في بناء الخزانات . فتكاثرت الاسداد بتكاثر الاودية حتى جاوزت المئات . وذكر الهمداني في يحصب العلو من مخاليف اليمن (قضاء يريم الحالي على ما يظن) وحده ثمانين سدًّا . والى ذلك أشار شاعرهم بقوله :

وبالربوة الخضراء من ارض يحصب ثمانون سدًّا تقلس الماء سائلا

واشهر اسداد اليمن « العرم » وهو سد مأرب الشهير وسد الخانق بصعدة وسد ريعان وسد سيان واسداد بلاد عنس وغيرها . وكلّهُ مندثر ، لو امكن ترميم بعضه ان لم يكن جله لعاد قسم من عمران اليمن وزهوه اللذين أدمجهما الرومان في كلمة (العربية السعيدة)

المعادن

يستعمل اهل الجبال في اليمن الملح الصخري الذي يجلب من جبل الملح في مأرب . قال الهمداني في هذا الجبل ، هو ليس بجبل منتصب ولكنهُ جبل في الارض يحفر عليه ويمعن في الارض وهو يبقى منهُ اساطين تحمل ما استقل من تلك المحافر وربما انهدم على الجماعه فذهبوا . وهي ارض لا نبات فيها فيحمل اليها الماء والزاد والحطب والعلف ويتحفظ على الماء — من أجل الغراب ان ينسر السقاء فيذهب ماؤه وهو من مأرب على ثلاث مراحل خفاف . ومأرب بحذاء صنعاء شرقاً . اه . وفي سواحل تهامة الغربية عدة ملاحات اخصها الصليف شمال الحديدة ، وهي عظيمة ملحها صخري فريد في نقائه وجودته وغزارته وقد كانت هذه المملحة تستغل في عهد العثمانيين وتدر وارداً قيل انه كان يبلغ المائتي الف ذهب عثماني ، الى ان خربتها الدوارع الانكليزية خلال الحرب العامة وحطمت مبانيها وآلاتها فلم تعد تقم لها

قائمة ، وقد طلب بعض الاجانب من جلالة الامام امتيازاً باصلاحها واستغلالها فلم يلب طلبهم خشية امتداد ايدي الاجانب الى اليمن بجرائها . . . وقد اوجب خراب مملحة الصليف عمران مملحة عدن التي يستخرج ملحها من البحر وفي اليمن احجار بازلتية سود واحجار كلسية وجبسية بيض صالحة للبناء وأحجار كالرخام تقطع الواحاً رقيقة فتخرج شديدة الشفوف واللين والمتانة كأنها الزجاج او الميكا يستعملونها لسد النوافذ ويأتون بها من حوالي صنعاء . ولا تخلو بلاد اليمن البركانية من ينابيع مياه حارة كبريتية عليها حمامات يقصدها الاعلاء ، اشهرها حمام علي في قضاء آنس وحمام بيت الفقيه وحمام ناحية عر وحمام قعطبة وحمام رداع

وقد ردد الهمداني وغيره من مؤلفي العرب وأطنبوا في معادن اليمن وأحجاره الكريمة فذكروا وجود الذهب والفضة والحديد والنحاس . وقيل ان بعض الخبراء من الافرنج اخبروا ايضاً عن وجود معادن الحديد والكروم والنحاس والفحم الحجري والكبريت والنفط ، وذلك في النماذج التي جلبت لهم للفحص او في الاماكن التي توصلوا اليها . لكن احداً لم يحقق حتى الآن صفاء هذه المعادن وغنى مناجمها ان كانت لها مناجم دارة ، ولا يزال اليمن بحاجة الى خبراء في الجيولوجيا والمعادن يرودونه روداً علمياً ويحققون الصفاء والغنى المذكورين اللذين يشك في كفايتهما ووفائهما بنفقات الاستخراج . وكذلك لا يعرف سبب اهمال المعادن القديمة التي ذكرها الهمداني وغيره ألنفاد مناجمها أم لصعوبة استخراجها . وجل ما قيل[1] ان منجم الفضة في الرضراض بين بلاد همدان وخولان كان يستثمر قبل الهجرة الى ان هبط احد كهوفه وسد منافذه فترك . ومثله منجم الرصاص في بلادهم ومنجم الفضة في مسارع ، قيل انهما كانا يستثمران في عهد الامام شرف الدين وابنه المطهر (٩٢٣ — ٩٨٠ هـ) الى ان هبطت كهوفهما ايضاً وسدت منافذهما فتركا وقيل انه كان في جبل نقم (قرب صنعاء) في عهد الحميريين منجم للحديد ظلوا يستثمرونه قروناً وكانت الاسلحة المصنوعة من هذا الحديد ذات قيمة باهظة لجودته ، وقيل ايضاً انه كان في جبل صبر (قرب تعز) منجم للذهب استثمر طوال قرون . ولم يبق من المناجم القديمة التي تستثمر سوى منجم الحديد في جوار صعدة . ويذكر ان الحديد القليل الذي يستخرج منه يؤتى به الى صنعاء وغيرها ويباع بضعفي ثمن الحديد الاوربي المجلوب الى اليمن ويعمل منه الجنبيات (جمع جنبية وهي السكين التي لا بد لكل يماني ان يعلقها في وسطه) والجرد (جمع جردة وهي ضرب من السيوف العريضة) . اما الجزع الموشى والمسير والمقبق الاحمر والاصفر اللذان يستعملان في صناعة الخواتم والشذب الذي يعمل منه ألواح وصفائح ونصب سكاكين وأمثالها من الاحجار الجميلة التي ذكرها الهمداني فانها لا تزال موجودة في اليمن يرتزق من نحتها ونقشها أرباب صناعتها في صنعاء وغيرها

(١) سالنامة ولاية اليمن لسنة ١٣٠٤ هـ ، مطبعة صنعاء

صفحات من تاريخ الجيش



لعبد الرحمن زكي

في الفصل السادس من كتاب القاضي كرابيتس « اسماعيل المفترى عليه » تقف على شيء كثير من مطامح الخديو اسماعيل باشا وآماله التي سعى في تحقيقها الى تحرير مصر من نير السيادة التركية . ولما كان يخشى أن يضطر الى امتشاق الحسام لتحقيق هذه الغاية اتجه بأبصاره شطر الولايات المتحدة الاميركية ليستعير منها ضباطاً لتنظيم جيشه وتدريبه

ولسنا نعلم ما الاجراءات الاولية التي اتبعها الخديو اسماعيل . والارجح انهُ في اواخر سنة ١٨٦٨ أو اوائل سنة ١٨٦٩ اتصل الخديو اسماعيل بالكولونيل « هنري موط Henry Mott » من ضباط الجيش الاميركي الاتحادي . وكان قد ادخل اولاً في خدمته كضابط بسيط لكنهُ بعد ان اختاره اسماعيل كلفهُ انتقاء ضباط اميركيين للخدمة في الجيش المصري فأخذ يستخدم ضباطاً من كلا الفريقين المتحاربين في الحرب الاهلية الاميركية وقد وقع اختياره على الضباط الآتي بيانهم :

الجنرالات لورنج وسبلي وستون . والكولونيلات شاييه لونج . كولستون . ديريك . داي. فيلد — جنيفر — كنون — لوكيت — مكيفور — ماسون — بردي — بروت - الكسندر رينولدز — فرنك رينولدز — ريد — ريت — روجرس — سافيدج — آلين — وارد

ثلاثة ضباط برتبة لفتننت كولونيل . وثمانية برتبة ماجور. وثلاثة برتبة كابتن. وثلاثة جراحين

وقبل قدوم هؤلاء الضباط الى مصر وقعوا عقوداً مع الحكومة المصرية التي كان يمثلها « موط » (ان يشهروا الحرب على اي عدو للفريق الاول — كائناً من كان — وان يواصلوا تلك الحرب بكل شدة) ما عدا حمل السلاح في وجه الولايات المتحدة . وقد ذكر الكولونيل شاييه لونج انهُ قيل له ولرفقائه سراً ان الغرض الحقيقي لمهمتهم كان تنظيم الجيش المصري للقيام

بعمل حاسم يضمن لمصر استقلالها ويزيل عنها النير التركي [١] واليك ما جاء في مذكراته عن اول مقابلة كانت بينهُ وبين اسماعيل باشا . قال له هذا :

« اني اعتمد على حبكم واخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتمان لتعينوني على تحقيق استقلال مصر . ومتى تم ذلك وسيتم باذن الله — فسأكافئكم أعظم مكافأة » [٢]

﴿ هيئة اركان حرب الجيش المصري ﴾ ولعل اهم يوم في تاريخ خدمة الضباط الاميركين في الجيش المصري هو يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٧٠ ففي ذلك اليوم عين الجنرال ستون رئيساً لاركان حرب الجيش المصري . وكان هذا التعيين نذيراً بانتهاء السيادة الفرنسية في الجيش بعد ان كانت هيئة اركان حربه معظمها ان لم يكن كلها من الضباط الفرنسيين . فانا نعلم جيداً ان عقب حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٥) وبموت القائد سليمان باشا الفرنسي [٣] رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري في ايام محمد علي الكبير والبطل ابراهيم وعباس باشا الاول وسعيد اندثرت هذه الهيئة او ظلت اسماً على غير مسمى حتى بعثها اسماعيل باشا

لما بدأ الجنرال ستون عمله في ربيع عام ١٨٧٠ وقصد نظارة الحربية لتقلد منصبه الجديد لم يجد فيها « هيئة » كالتي توقعها وعثر على اسم كولونيل فرنسي كان مسافراً الى انكلترا لمشترى ذخائر واسلحة ولكنهُ لم يعد من مهمته الآ حوالي عام ١٨٨٠ . ولم يجد الجنرال ستون في نظارة الحربية خرائط او كتباً عسكرية او ملفات هامة للابحاث الحربية كما كان ينتظر ولم يكن للجيش المصري رئيس لهيئة أركان الحرب بعد وفاة قائده القديم سليمان باشا الفرنسي الذي كان قد أوصى بارسال بعض نجباء الطلبة الى فرنسا لتلقي الدروس العسكرية العالية . فلما عادوا ضمّهم تحت رآسته الى هيئة اركان الحرب التي ألفها على الاسلوب الفرنسي وبوفاته لم يخلفهُ أحد في منصبه حتى ١٨٧٠ . ولم يكن من افراد تلك البعثة العسكرية غير شريف باشا الذي كان يشغل منصب رئيس النظار وقائمقام الخديو اثناء غيابه في الاستانة — ومراد باشا حلمي الذي وصل الى رتبة اللواء وصار فيما بعد ناظراً للحقانية في عهد المغفور له توفيق باشا . وعلي باشا ابراهيم ناظر المعارف فيما بعد وغيرهم من اعضاء البعثة الرابعة (١٨٤٤) [٤] فكان من الطبيعي ان يؤلف الجنرال ستون

---

(١) كتاب «حياتي في القارات الاربع» لمؤلفه الكولونيل شاييه لونج ج ١ ص ١٧

(٢) راجع كتاب شاييه لونج ج ١ ص ٣٢ الذي سبق ذكره

(٣) هو الكولونيل سيف Sève الفرنسي الجد الاكبر لاسرة جلالة الملكة الوالدة وكانت وفاته في ١٢ مارس عام ١٨٦٠ بمرض الروماتزم وضريحه اليوم بجانب قصره في مصر القديمة — انظر كتاب Soliman Pacha لمؤلفه Aimé Vingtrinier ص ٥٨٣

(٤) راجع كتاب البعثات العلمية في عهد محمد علي وعباس الاول وسعيد لسمو الامير الجليل عمر طوسون باشا ص ١٧٢ — ٣٧٤

هيئة جديدة وبدأ عمله بعد ان اكتسب ثقة الخديو واستأنف مساعيه واعداد ضباط اكفاء يدوبهم لتبعاتهم الجديدة وتنظيم الجيش للخدمة بارشادات هيئة أركان الحرب وكان أول ما أوصى به الجنرال ستون تعليم صفوف الجيش

﴿ تعليم ضباط الصف والجنود ﴾ واستصدر أمراً من الخديو بان لا يرقى أحد أفراد الجيش الى درجة الأومباشي الا اذا كان ملماً بالقراءة والكتابة ولكي يمكن ترقية جميع الجنود صدر أمر عالٍ بانشاء مدرسة في كل أورطة لتعليم ضباط الصف والجنود مدة ساعة ونصف ساعة على الأقل يومياً — ونظمت مدرسة لتعليم ضباط الصف لكي تمد الجيش بما يلزمه واستطاع بعد مدة قصيرة تعليم ١٥٠٠ من الجاويشية والأومباشية القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ومبادىء أعمال مسك الدفاتر . وألف بمعونة هؤلاء الرجال أورطتين نموذجيتين للجيش ولما انتهى تعليمهم أعيدوا الى بلوكاتهم الاصلية لتلقين ما تدربوا عليه ثم كان يستبدلهم بغيرهم لتدريبهم وهكذا . وكانت تلك المدرسة ملحقة بالثكنات المخصصة لنظارة الحربية بالقلعة ليتردد عليها « ستون باشا » لمراقبتها باستمرار

ظهرت نتائج تلك النظم وأينعت ثمارها في وقت قصير فلقد كان ثلث عدد ضباط الجيش حتى عام ١٨٧٠ لا يعرفون القراءة والكتابة ولم يكن عدد الصف والجنود الملمين بالقراءة والكتابة ليزيد عن العُشر . فلما كانت سنة ١٨٧٣ أصبح أكثر من سبعين في المائة من رجال الصف قد تعلموا القراءة والكتابة واصبحوا قادرين على التعبير عن أفكارهم كتابة . ولم يقتصر أمر تعليم الجيش على الجند فقط فان « ستون باشا » اقترح على اسماعيل باشا فتح مدرسة أخرى لتعليم أبناء الجند كحق لمن يدافع عن وطنه بحياته وكواجب على الامة تؤديه نحو أبنائها الجند . فلقي هذا الاقتراح رعاية الخديو وتشجيعه وأمر بانشاء مدرسة في كل مركز فرقة من فرق الجيش وأمر بالعناية بالأطفال وتوزيع الملابس والاغذية عليهم على ان يعودوا الى أمهاتهم في كل مساء . أما الجنود الذين استبقوا أسرهم في بلدانهم بعيدين عن المحطات العسكرية فكانت تخصص لابنائهم أمكنة للمبيت فيها وتصرف لهم الاطعمة في تلك المدارس بدون مقابل

وقد أثمرت تلك المدارس في سنين قلائل فنال اكثر من ٢٨٠٠ طفل قسطاً متوسطاً من التعليم بدلاً من اهمالهم في قراهم . وكان اكثر معلمي تلك المدارس من ضباط الجيش الذين انتخبوا من وحداتهم للقيام بهذا العمل الجديد وانتخب معهم بعض الجنود لاعمال الخدمة في المعسكرات فلم تتحمل ميزانية الجيش اعتمادات كبيرة لحفظ تلك المنشآت الجديدة التي لم تكلفها أكثر من ٢٥،٠٠٠ جنيه في العام مقابل الخدمة الهامة التي أسدتها الى أبناء الجنود . وكان مما يؤسف له كثيراً ان أغلقت هذه المدارس في عام ١٨٧٨ بتوصية لجنة مراقبة المالية بحجة

الاقتصاد في أبواب الميزانية وذلك لفائدة حملة الاسهم من الاجانب

﴿مدرسة أركان الحرب﴾ وكان من تعليمات ستون باشا انشاء مدرسة لاركان الحرب . انتخب لها عشرين طالباً من نابهي طلبة المدارس العالية . وكان لتلك المدرسة الفضل الاول في اخراج طائفة مختارة من شبان الضباط المتعلمين بين الاعوام ١٨٧٣—١٨٧٨ فوزعهم على الاقسام العسكرية المختلفة ومكاتب القواد ورؤساء الضباط الذين استقدمهم للعمل معه من أميركا أمثال الجنرال لورنج وكولونيل داي والماجور لونج وجريفز وغيرهم . كما انه انتخب فريقاً من نجباء الضباط في سلاحي المدفعية والخيالة ممن يجيدون احدى اللغتين الانجليزية او الفرنسية للعمل مع هيئة اركان حرب الرآسة بأشراف الجنرال لورنج[1] صاحب الفضل في تدريبهم على الاعمال العسكرية الفنية العالية

﴿تنظيم هيئة أركان الحرب﴾ وبالتدريج أنشئت الأقسام المختلفة لهيئة أركان الحرب العامة في نظارة الجهادية ووضع كل قسم تحت رآسة ضابط أميركي . وكان كلما تخرج عدد من الضباط المصريين من مدرسة أركان الحرب عينوا للعمل في تلك الاقسام برتبة الملازم الاول. وبتقلدهم المناصب الجديدة بدأوا التمرين على الاعمال الفنية الخاصة . وأنشئت مكتبة عسكرية ضمت مختلف المؤلفات العسكرية المشهورة في اشهر اللغات واشترك في عدد كبير من المجلات الحربية الاميركية والانجليزية والفرنسية والالمانية والروسية.وكانت هذه المكتبة تحتوي على أربعة آلاف مجلد على الاقل لما أنشئت . وفي السنة الاولى من انشاء تلك الهيئة قام عدد كبير من الضباط المصريين باستكشاف المناطق الافريقية المجهولة ومنابع النيل ورسموا الخرائط التفصيلية لها.وتقدمت أعمالهم عاماً بعد عام نحو خط الاستواء . وفي الاعوام ١٨٧٤ و ١٨٧٥ و١٨٧٦ امتدت تلك الاستكشافات الى كوردفان ودارفور والى بحيرات خط الاستواء كما أمتدت الى الجنوب الشرقي نحو بربره وهرر وجردفون ونهر جوبا (بلاد الصومال) ومما لاجدال فيه ان ضباط هيئة اركان الحرب المصريين استكشفوا فيما بين عامي ١٨٧١ و ١٨٧٨ وبينوا على خرائطهم مساحات شاسعة من المناطق الافريقية التي ظلت مجهولة حتى أواسط القرن التاسع عشر وفاق مجهودهم ما قام به المستكشفون الاجانب في القارة السوداء ومعظم ابحاث هؤلاء الضباط لا تزال من أهم المراجع الجغرافية[2] وليس معنى ذلك ان نتجاهل مستكشفات ستانلي وصموبل بيكر وجرانت وسبيك ولفنجستون وغيرهم من رجال الاستكشافات الافريقية الخاصة بنهر النيل ومنطقة البحيرات والانهر الاخرى

﴿المستكشفون العسكريون﴾ ولقد برهن الضباط المصريون الذين تخرجوا من مدرسة اركان

---

(١) هو الفريق لورنج باشا الذي عرف بأبي ذراع فقد كانت ذراعه مقطوعة واستدعى للخدمة في الجيش المصري في أوائل ديسمبر عام ١٨٧٥ لرآسة هيئة اركان حرب الحملة المصرية في بلاد الحبشة

(٢) نشر جانب كبير من الابحاث الجغرافية للضباط المصريين في جيش اسماعيل باشا بمجلات اركان الحرب العسكرية والمجلة الجغرافية الخاصة بالجمعية الجغرافية الملكي ومؤلفات الضباط الاميركيين أفراد هذه البعثة رأسها Loring—A. Confederate Soldier in Egypt—1884

الحرب على كفاءتهم الممتازة في الحملة المصرية بالحبشة وفي حروب الدولة العثمانية ضد بلغاريا والصرب . وقد استشهد ستة في المائة من عددهم في ميادين القتال وسقط اثنان في المائة في الاستكشافات الجغرافية السودانية من الامراض الفاتكة ومعظم من تبقى منهم انتفع بمواهبهم واجتذبتهم المناصب الكبيرة اليها كالمصانع الفنية والمديريات واقاليم السودان . وكانت جهودهم في استكشاف البقاع الاستوائية والسودان ورسم الخرائط وتحديد الحدود مثالاً يقتدى به . فانه لما تم فتح دارفور (١٨٤٧ م) اصدر الخديو امراً الى الجنرال ستون بتجهيز حملة عظيمة لاكتشاف اراضيها واراضي كوردفان فعين الجنرال فرقتين من الضباط جعل الاولى تحت رآسة الكولونيل كولستون (Colston) ومعه الصاغ أحمد حمدي والملازمون عمر رشدي ومحمد ماهر ويوسف حلمي وخليل فوزي والدكتور الطبيعي العالم بفوند Pfund [1] ثم تقلد الماجور بروت Prout قيادة الحملة بسبب مرض الكولونيل المذكور وقام اعضاؤها بالعمل ثلاث سنوات في الاستكشاف ورسم خريطة كوردفان بالتفصيل وخريطة جبل مرّه بدارفور والطرق الواصلة اليها وخريطة الجهات مكركة ونيام نيام وملحقاتها وجهات خط الاستواء . وقد عثرنا على صورة للتقرير الذي رفعه الجنرال ستون الى الخديو اسماعيل باشا في ١٦ اكتوبر ١٨٧٦ مبيناً فيه خلاصة النتائج الجغرافية والعلمية التي تمت بمعرفة ضباط حملات الاستكشاف في أواسط افريقيا خلال الاعوام ١٨٧٤ و ١٨٧٥ و ١٨٧٦ فاذا هي تشتمل على ما لا يقل عن سبعة وعشرين كشفاً جديداً أهمها [2] :

١ — استكشاف دقيق للنيل الابيض من غندوكرو الى بحيرة البرت

٢ — استكشاف النيل الابيض من الخرطوم الى غندوكرو وتعيين خمسة مواقع بالارصاد الفلكية

٣ — استكشاف بحيرة ألبرت عام ١٨٧٦ بمعونة جيسي الايطالي

٤ — تحقيق مجرى نهر النيل بين بحيرة فكتوريا ومرولي واستكشاف بحيرة ابراهيم

٥ — استكشاف واتمام خريطة الطريق بين الدبة وماطول وبين الدبة وأوبيال

٦ — استكشاف مديرية كوردفان وبلغت اطوال خطوط الاستكشاف ستة آلاف كيلو متر وقد وضع الماجور بروت تقريراً ضافياً لهذا العمل

٧ — استكشاف الطريق بين دنقلة على النيل والفاشر عاصمة دارفور برآسة الكولونيل بوردي واللفتننت كولونيل ماسون وخمسة ضباط مصريين

٨ — استكشاف مديرية دارفور وجزء من منطقة دار فرتيت الى حفرة دير النحاس وشكا الى الجنوب وعمل خريطة لها وتقرير ضاف

(١) راجع كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار — لاسماعيل سرهنك باشا — الجزء الثاني ص ٣٣٨

(٢) راجع كتاب The Khedive's Egypt لمؤلفه Edwin de Leon الطبعة الثالثة عام ١٨٧٧ ص ٤٢٩ و ٤٣٠ و ٤٣١ و ٤٣٢

٩ — استكشافات جيولوجية ومعدنية للمنطقة الواقعة بين الرودسية وقنا على النيل والمنطقة الساحلية للبحر الاحمر بالقرب من القصير ورسم خريطة جيولوجية بالتفصيلات وقام بالجزء الاكبر من هذا العمل المستر ميشيل بمساعدة ضابط مصري من هيئة اركان الحرب والمسيو اميليانو الايطالي والاخصائي في المعادن

١٠ — استكشاف المنطقة الواقعة جنوبي غرب زيلع بالقرب من تاجورا طبوغرافيًّا وجيولوجيًّا ورسم خريطة تفصيلية لها

١١ — استكشاف ومسح المنطقة بين بربرة وجبل دوبار ورسم خريطة لها وقد قام بهذا العمل اليوزباشي عبد الرزاق نظمي وبعض الضباط المصريين

١٢ — استكشاف واتمام الخريطة للطريق الصحراوي بين اسيوط وعين الاجية . وقام بهذا العمل الماجور ديوهولي Diuholy يعاونهُ ضابط مصري من هيئة اركان الحرب

وغير ذلك من الاعمال الفنية التي تسجل لهذا الجيل من العسكريين التابعين . وكان الضباط اثناء قيامهم بتلك المهام النبيلة يعتمدون على مرتباتهم العسكرية الضئيلة بينما تمتع غيرهم من المستكشفين الاجانب بما اثرائهم طول حياتهم . لكن كان من وراء اعمال هؤلاء الضباط البواسل ان رفع العلم المصري على المناطق الاستوائية الى ما وراء بحيرة فكتوريا نيانزا والصومال ومناطق البحيرات وغيرها من المناطق الساحلية التي كانت تابعة للدولة المصرية في وقت من الاوقات

﴿ الثقافة العسكرية ﴾ وفي سنة ١٨٧٣ وافق سمو الخديو اسماعيل على اقتراح ستون باشا بانشاء مطبعة عسكرية يكون مقرها في نظارة الحربية فقامت في بادىء الامر بطبع المنشورات والتقارير ثم تقدم عملها واتجه الى اخراج الخرائط المتقنة الملونة والكتب . ومما يؤسف لهُ ان هذه المطبعة كانت في مقدمة ما اتجهت اليه لجنة مراقبة المالية عام ١٨٧٨ فأوصت بالقضاء على آلة الطباعة ناشرة العلم والحضارة . ومع نتيجة هذا الحكم القاسي ظلت آلة الطباعة تقوم بمصروفاتها معتمدة على ايرادها مما كانت تخرجهُ من المؤلفات وبيعها حتى أُلغيت نهائيًّا عام ١٨٨٢ وتحولت آلاتها الى المطبعة الاهلية . وبجانب المطبعة العسكرية التي كانت تخرج صحيفتين حربيتين هما « جريدة اركان حرب الجيش المصري » والاخرى « الجريدة العسكرية المصرية » انشئت مكتبة نفيسة تحوي كتباً قيمة في الفنون الحربية وأُلحق بها متحف حربي للاسلحة والتحف والتذكارات الخاصة بالجيش [1] وكانت المجلة الاولى تنشر مباحث قيمة للجنرال ستون باشا ومحمد مختار افندي (باشا فيما بعد) وحماد بك عبد العاطي المدرس بالمدارس الحربية وعبد الرزاق نظمي (بك) وعبد الله بك فوزي من ضباط اركان الحرب

(١) راجع كتاب عصر اسماعيل للاستاذ المؤرخ عبد الرحمن بك الرافعي الجزء الاول صحيفة ١٨٩ و ١٩٠

﴿ جيش اسماعيل ﴾ والآن وقد انتهينا من رسم صورة عامة لأهم عناصر الجيش المصري في ايام اسماعيل وهيئة اركان حربه فلنذكر اهم الوحدات التي كان يتكون منها الجيش نقلاً عن حقائق الاخبار

الوحدات العسكرية	قواتها
١ — فرقة حرس مركبة من ٤ آلايات مشاة بقيادة الفريق راشد باشا حسني	١٦٠٠٠ جندي و ٤٢٧ ضابطاً
٢ — الفرقة الاولى مركبة من ٤ آلايات مشاة بقيادة الفريق عثمان باشا رفقي	١٦٠٠٠ جندي و ٤٢٧ ضابطاً
٣ — الفرقة الثانية بقيادة اسماعيل باشا كامل	١٦٠٠٠ جندي و ٤٢٧ ضابطاً
٤ — الفرقة الثالثة بقيادة محمد باشا خسرو	١٦٠٠٠ جندي و ٤٢٧ ضابطاً
٥ — اربعة آلايات خيالة بقيادة ابراهيم باشا الفريق	٤٠٠٠ جندي و ١٧٩ ضابطاً
٦ — اربعة آلايات مدفعية برية بقيادة علي باشا رضا	٦٠٠٠ جندي و ٢٣٣ ضابطاً
٧ — ثلاثة آلايات سواحل بقيادة خورشيد باشا	٣٤٠٠ جندي و ١٥٩ ضابطاً
٨ — اورطتان من المهندسين بقيادة الاميرالاي احمد ثابت	١٨٠٠ جندي و ٥٣ ضابطاً
٩ — هيئة اركان الحرب بقيادة الجنرال ستون باشا	٣٠٠ جندي و ٦٩ ضابطاً
١٠ — قلم مهندسي الحربية بقيادة المرعشلي باشا	٨٠ جندياً و ٤٠ ضابطاً
١١ — بلوك الصنايعية : نينو باشا	٤٥٠ جندياً و ١٤ ضابطاً
١٢ — ورشة الترزية : ابراهيم بك شوقي	٦٠٠ جندي و ٢٩ ضابطاً
١٣ — ورشة الذخيرة : حسين باشا الطوبجي	٣٥٠ جندياً و ٢٦ ضابطاً
١٤ — مستحفظين بيادة وسواري	٣٠٠٠ جندي و ٧٧ ضابطاً
١٥ — بوليس حربي	٥٠٠ جندي و ٢٠ ضابطاً
١٦ — مدرسة اركان الحرب	١٠٠ طالب و ٦ ضباط
١٧ — مدرسة المهندسين الطوبجية	٢٥ طالباً و ٢ ضباط
١٨ — مدرسة الخيالة	١٢٥ طالباً و ٥ ضباط
١٩ — مدرسة المدفعية	١٠٠ طالب و ٤ ضباط
٢٠ — مدرسة الطب البيطري	٤٠ طالباً و ١ ضابط
٢١ — مدرسة المشاة	٤٠٠ طالب و ٨ ضباط
٢٢ — مدرسة الخطرية	٣٠٠ طالب و ١٤ ضابطاً
٢٣ — مدرسة اولاد الجنود	٨٠٠ طالب و ٢٠ ضابطاً

خواطر حول نزول

الملك ادوارد الثامن عن العرش[1]

ان الاجانب الذين يزورون انكلترا ، قلما يفهمون ما ينطوي عليه النظام الملكي البريطاني من المفارقات ، ولا سيما اذا كانوا من بلدان جمهورية . فالملك الانكليزي مجرّد من السلطة بحيث لا يستطيع ان يختار زوجتهُ الا بموافقة رئيس الوزراء ، ولكنهُ في الوقت نفسه لهُ من المكانة في نفوس فريق كبير من الشعب وحياته الاجتماعية ، لا تدانيها مكانة اي حاكم بأمره في اوربا . وليس من المبالغة في شيء ان نقول ان الملك وامراء البيت المالك في انكلترا يحتلون في حياة شعبهم العامة والخاصة مقاماً لا مثيل له في سائر البلدان الملكية . بل ليس في بلدان اوربا الملكية ما في انكلترا من ولاء للاسرة المالكة وتدلُّه بها ومانطيق بها . ولكن الانكليز انفسهم لا يرون هذا التناقض ، فيثيرهم مثلاً ما يرونهُ من تعلّق الالمان بهتلر ، كانهُ سيد وكانهم اتباع ، او ما يقال عن سعي بعض الروسيين لتأليه ستالين ، جاهلين ان موقفهم من الملك والملكة والاميرتين الصغيرتين والدوقات ، لا يختلف عن موقف الالمان والروس ، الا في انعدام المسوّغ لهُ

ثم ان الاسرة المالكة في انكلترا ، على الرغم من زيارة المناجم والمدارس والمستشفيات ، ابعد عن الدمقراطية الصحيحة من كثير من الاسر المالكة الاخرى . فليس بالنادر في ستوكهولم ان ترى في الحديقة العامة رجلاً مديد القامة نحيف البنية ، يحيّيك وقد يقف ليتحدث معك . ثم تعلم اذا كنت لم تعرف من هو انهُ الملك جوستاف الخامس ملك السويد . والمشهور عن الملك كرستيان العاشر ملك الدنمارك انهُ كان في حداثته كثير الاختلاط بالشعب ولا يزال . وكذلك كان الملك البرت الاول ملك البلجيك السابق ، والملك ليوبولد الثالث قبل مصرع زوجه . حتى في النمسا التي كانت قبل الحرب من اشدّ الامم تمسكاً بالتقاليد وقواعد السلوك الرسمي ، لا يزال الناس يذكرون الامبراطور فرنسوى جوزيف متنزهاً في الحدائق ، متحدثاً فيها مع اقل الناس ، ويذهب بعضهم الى ان هذه الذكرى من اقوى البواعث على نشاط الحركة الملكية في النمسا

ولكن هذا لا يقع في انكلترا . نعم ان اعضاء البيت المالك ، يبذلون ما في وسعهم للاتصال بالشعب من طريق الحفلات العامة كوضع الحجر الاساسي في كلية او متحف ، او زيارة المناجم والمناطق المنكوبة ، او عيادة المرضى في المستشفيات او افتتاح الاسواق الخيرية ، ولكن الشعب قلما ينسى ان حضرة صاحب السمو الدوق او حضرة صاحبة السمو الدوقة هناك . فالصلة بين البيت المالك في

---

(١) ملخصة عن الكاتب الاميركي وليم زوكرمن في مجلة هاربرز

هذه الحفلات موسومة بسمة من التكلف . وكأن آيتها : « هو ذا الملك أو من ينوب عنهُ ، يقوم بها عليه ! » . ومن غرائب المفارقات ، ان الملك الانكليزي الوحيد ، الذي كان ديمقراطيًّا حقاً ، واستطاع ان يتجرَّد من هذا التكلف عند اتصاله بشعبه ، كان كأنهُ ظاهرة شاذة في حياة بريطانيا الاجتماعية ، فاضطرَّ الى النزول عن العرش بعد حكم دام أقلّ من أحد عشر شهراً

ان الصورة القائمة للنظام الملكي البريطاني ، ليست وليدة التقاليد المرعية في القرون الوسطى ، كما يظن ، بل هي وليدة أواسط القرن التاسع عشر على الاكثر ، ومطبوعة بطابع الملكة فكتوريا على الغالب . ان خلق هذه السيدة النشيطة العنيدة التي حكمت انكلترا أكثر من ستين سنة كان أبعدَ أثراً في تطوُّر النظام الملكي البريطاني ومقامهِ ووظيفتهِ ، من أسرة كاملة من الملوك الانكليز الاقحاح . كانت ألمانية النشأة والتربية والطبع ، تميل الى التحكُّم ، فلما لم تجد منفذاً لهذا الميل في ميدان السياسة ، عمدت باندفاع المهووسين الى البحث عن منفذ فوجدتهُ في وظيفة البيت المالك الاجتماعية . نعم ان للملوك والملكات والامراء والاميرات وظيفة اجتماعية حيث يوجد بيت مالك ولكن هذه الوظيفة تقتصر في الراجح على الازياء وتمتدُّ الى الحاشية ومن يلوذ بها

اما الملكة فكتوريا فلما ادركت حدود تحكُّمها السياسيّ ، اغتصبت سلطة مطلقة على افكار الشعب وعاداته ، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بالحياة الخلقية . ولم تحصر سيطرتها في حدود أسرتها وحاشيتها ، بل شملت بها فريقاً كبيراً من الشعب . ولو ان الشعب البريطاني ، منحها شيئاً من السلطان السياسي ، لكي ينقذ من هذا الاستبداد الخلقي الاجتماعي لكان ذلك خيراً لهُ

ان خلق الملكة فكتوريا وحكمها الطويل ، رفع آراءها في وظيفة البيت المالك من الناحية الاجتماعية ، الى مستوى التقاليد المرعية الجانب او القواعد الاساسية . فالملك بحسب رأيها ليس رمزاً سياسيًّا فقط ، بل هو صورة مثالية لما يجب ان يكون عليه سلوك شعبه

فالأسرة المالكة ، بهذا التحديد الجديد ، ليست أسرة كسائر الأسر ، لها نقائصها ومواطن المؤاخذة عليها . بل هي رمز اجتماعي سامٍ ، لا يرتقي اليه النقد . والملك الانكليزي ليس رجلاً بل مثالاً متصفاً بجميع الفضائل التي اتصف بها البرت زوج الملكة فكتوريا ، وقد نزهت عن كل ضعف . فهو زوج كامل وابن بار ووالد حكيم ومثال تام للانسان الكامل — أو هكذا يجب ان يكون في ما يبدو من حياته للعيان . لهُ ان ينحرف عن هذا الصراط المستقيم ، ولكن ذلك يجب ان يكون بمعزل عن الناس . فالمقياس ليس ما يفعله الملك ، بل ما يفعله جهراً

اما الملكة فالقلب النابض في هذا النظام ، وعليها يقع الجانب الاكبر من عبء الوظيفة الاجتماعية التي اسندتها الملكة فكتوريا الى البيت المالك . وعلى ذلك يجب ان تكون الملكة ، مثالاً للمرأة الكاملة كما تصوَّرتها فكتوريا ، عفة وولاء ومحبة وطاعة وعلاوة على ذلك يجب ان يكون دم الملوك جارياً

في عروقها وان يكون دماً المانيا اذا أمكن والا فليكن دنماركيًا او يونانيًا او من دم آل رومانوف

وانصافاً لرجال المال والاعمال الانكليز وهم حكام بريطانيا الحقيقيون الآن، يجب ان نقول انهم لم يتقيدوا بقيد الدم الملكي ، فانهم اذا وجدوا فتاة من الارستقراطية الانكليزية او غيرها من الارستقراطيات الاوربية ، قد ملكت قلب مليكهم او ولي عهدهم ، قبلوها ملكة او أميرة عليهم ، ولكن على شريطة ان تكون متصفة ، بالفضائل الاخرى ، لان الصورة الملكية الراسخة في اذهانهم ، تنهار او تمحي من دونها

ولعل اقوى البواعث على رسوخ هذه الصورة ، ان رجال المال والاعمال في انكلترا يحسبون الاسرة المالكة صورة مثالية لاسرهم كما يبغونها. فالطبقة المتوسطة الانكليزية اتجهت الى قصر بكنهام قبل قيام هوليوود وذيوع الصور المتحركة . لانها رأت في بكنهام لوحة تشاهد عليها حياتها كما تودها ان تكون . الآن التاجر الاميركي يتجه بعد كدهِ وكدحهِ ، الى ما تخرجهُ هوليوود ليرى فيه ما يتوق اليه من مثل الجمال والحب والتسلية ، حالة ان ندهُ الانكليزي يتجه الى بكنهام ليرى فيه ما يبغيهِ من الفضيلة . فالانكليزي يحس عندما يمجد الاسرة المالكة ويسند اليها جميع الفضائل انهُ يمجد نفسهُ وزوجهُ . وعندما يهتف حتى يبح للاميرتين الصغيرتين، انما يهتف لبناته ممثلات فيهما على نحو ما يفعل روّاد السينما عند ما يرون رونلد كولمان او جريتا جاربو او شرلي تمبل . هنا فتاة ترى في كولمان مثالاً لحبيبها ، وهناك رجل يرى في جاربو صورة للمرأة التي يتمناها ، وهنالك اب وام يريان في شرلي تمبل ابنتهما الصغيرة

كان ادورد دوق وندزر، اقل اعضاء الاسرة المالكة الانكليزية ،استعداداً للاندماج في هذه الحياة الملكية الرسمية المتكلفة ، التي وضعت لها الملكة فكتوريا الحدود والقيود . الا ان هذا التنافر كان مقتصراً على الناحية الاجتماعية دون السياسية . اذ ليس ثمة ما يحمل على الظن بان الملك ادورد كان يتطلع الى تخطي حقوقهِ الدستورية او التعدي على حقوق الوزارة والمجلس النيابي. وقد ثبت الآن ، فساد القول بان نزولهُ عن العرش كان نتيجة نضال بين التاج والبرلمان . وذلك لسبب بسيط وهو ان الملك ادورد لم يكن يولي السياسة عناية كافية تحمله على خوض النضال في ميدانها

فالتنافر الذي قام بين خلق الملك ادورد وحياة الملك كما رسمتها جدة ابيه فكتوريا ، كان محصوراً في وظيفة النظام الملكي من الناحية الاجتماعية

كان الملك ادورد الثامن، طبعاً وخلقاً اقرب الى جدهِ الملك ادورد السابع منهُ الى ابيه الملك جورج الخامس . حتى مراسم حياة القصر التي خضع لها ونهض بها على اوفى وجه ، لم تكن تخفي نزعة مستقلة فيه الى معيشة مطلقة من هذه القيود . فقد ركبت في طبيعتهِ وخلقهِ عناصر ، من شأنها ان ترفع صاحبها الى مقام الزعامة في ناحية من نواحي السياسة او الفن او الاجتماع ،لو لم يكن ابن ابيهِ

ولـكن ادورد ولد في قصر ، فـكانت هذه القيود ثقيلة عليه ، وزاد الطين بلة ، ان النضال الدائر في نفسهِ ، بين نزعته المستقلة والقيود الملكية المفروضة عليه ، كان معروضاً على الجمهور . وقد اقتضت مكانتهُ الملكية ، ان يتحرك دائماً والعيون متجهة اليهِ ، فـكان لهُ في شبابه وحسن سلوكه ما حببهُ اليهم . فاذا اضفت الى ذلك حاشية ، هي من ضرورات الحياة في القصور ، تطري في اخلاص وغير اخلاص وتمنى بالسخيف والجليل من الامور ، وتداهن وتتملق ادركت ان فتىً مرهف الاحساس كالبرنس ادورد لايمكن ان ينجو من التضعضع والتحول الى آلة رسمية ، يزور وينحني ويبسم للمصورين ، الاَّ بأعجوبة

وجاءت الحرب الكبرى فكانت تلك الاعجوبة. والواقع ان ادورد وزير وليد تلك الفترة من تاريخ العالم ، التي يعرف ابناؤها باسم « جيل الحرب » . فهو مثال حيّ لتلك الشخصية التي وضعها نويل كاورد في احدى مسرحياته — شاب مرهف الاعصاب ، تأخذه اطوار مختلفة من البشاشة والعبوسة ، والتأمل والتعقل والاندفاع ، ولـكنهُ مع ذلك محبب الى الناس. هذا الجيل من الشباب ليس بالجيل الضائع كما يوصف لان افرادهُ على الرغم مما اصابهم لا يزالون يرنون الى مثل عليا ، من السلام والمساواة والعدل الاجتماعي ولا سيما العدل الاجتماعي . وعلاوة على كل ذلك ، انهم مخلصون ، ويمقتون الرياء والنفاق ، فاذا استحكمت ازمة لم يجبنوا عن تأييد معتقداتهم والتضحية في سبيلها

ونزول الملك ادورد عن العرش ، عمل من هذا القبيل. فاننا اذا جردنا حديث هذا النزول عن ملابساتهِ السياسية الثانوية ، تبين لنا انهُ كان عملاً روحيًّا قام بهِ رجل ثائر على بيئةٍ اجتماعية ، قدعتهُ منذ حداثتهِ . ومن بواعث الاسف ان تكون النواحي السياسية والغرامية قد حجبت في هذه القصة مغزاها الحقيقي

ان نزول الملك ادورد عن العرش ، لم يكن ثورة ملك على وزرائهِ او برلمانهِ ، بل كان ثورة أعظم شأناً وأبعد مدى ، لأنهُ كان ثورة ملك على نظام الملكية كما هو في انكلترا من الناحية الاجتماعية . انها ثورة الرجل في ادورد الثامن على الملك فيهِ ، على الرمز المتمثل في شخصهِ . ولو لم يكن الشعب الانكليزي محافظاً الى أبعد حدود المحافظة ، حتى حزب عمالهِ ، لـكان أفضى عمل من هذا القبيل الى تحوُّل روحي واجتماعي كبير الشأن فيهِ

والغريب ، ان النزاع الدستوري كما قيل ، كان ذا شأن ثانويّ في هذه الدرامة الروحية . وكذلك كانت المسز سمبسن. لم يكن شأن المسز سمبسن في هذه المسألة الاَّ شأن كثيرات من النساء، بعثنَ الجرأة في قلب الرجل ، فأقدم على ذلك العمل الخطير، على التحرُّر . والراجح ان ادورد لولاها ، لعجز عن الاقدام ، ولـكن هذا لا يعني ان المسز سمبسن كانت الباعث على نزولهِ عن

العرش ، اذ لولا هذه الثورة المضطربة في نفسه، لتخلى عن المسز سمبسن كما أراده وزراؤه وأهله ان يفعل . فقد قضى حياته شأن كثيرين من الشبان الذين خاضوا غمار الحرب الكبرى يبحث عن القوة التي تعينه على فك القيود ، الى ان اتفقت له المسز سمبسن فكنته بتأثيرها مما يبغي . وكل من يعرف شيئاً عن هذه الانقلابات الروحية ، يدرك ان العوامل الخارجية قد تتيح لها فرصة الظهور ولكنها لا تحدثها . فالبرلمان والمسز سمبسن كان عرضين في تطور شخصية تبحث عن حقيقتها

الا ان هذا لا ينفي ان هذا العمل الشخصي ، له مغزى اجتماعي . وليست هذه الثورة بالظاهرة الجديدة في انكلترا . بل ان جانباً كبيراً من أدب انكلترا ، اعراب عن ثورة دائمة في نفوس فريق من الشبان ، ولعل كارليل وبطلر وشو وولز ولورنس وهفلوك اليس في مقدمة الكتاب والادباء الذين أجادوا الاعراب عنها . وقد بدت هذه الثورة في الحياة الاجتماعية ، في اشتراكية شو والنهضة النسوية وحركة العمال . وما حدث في البرلمان الانكليزي يوم ١٢ دسمبر شبيه بما حدث في كثير من البيوت الانكليزية في خلال الجيلين الماضيين . ان ادورد وندزر ليس اول الذين تحدوا صورة الحياة الاجتماعية الانكليزية كما رسمتها الملكة فكتوريا ، بل هو اقرب الى آخرهم. انه ليس ملكاً ذهب الى المنفى ، بل هو ملك انضم الى جيش الثوار

كانت انكلترا أسبق الامم الى تحقيق الدمقراطية السياسية . وقد سلكت الطريق المفضي الى الدمقراطية الاقتصادية منذ وضع لويد جورج ميزانيته المشهورة سنة ١٩٠٩ على وعورته والتوائه . ولكن الصورة التي رسمتها الملكة فكتوريا للملك الجالس على العرش وللملكة ، تخرجهما عن كونهما رجلاً وامرأة ، الى جعلهما في نظر عامة الشعب أقرب الى الآلهة منهم الى الناس . هذه الصورة تجعل الهوة بين الملك وسواد الشعب هوة كبيرة ، واليها يرتد كثير من النفاق والتعالي في حياة الانكليز الاجتماعية ولا سيما في الصلة بين ما يعرف بطبقة الاعيان من جهة والطبقة المتوسطة وما دونها من جهة اخرى، واليهما كليهما يرد القول بأن هذه الدمقراطية السياسية الكبيرة أبعد ما يكون من ان تكون دمقراطية اجتماعية

فاذا كان نزول ادورد الثامن عن العرش باعثاً على تنبه الانكليز الى هذه المفارقات في حياتهم العامة ، واذا تمكن الملك جورج السادس بما أثر عنه من الدعة الحقيقية ، والرغبة الصادقة في خدمة الامة ولا سيما في نواحي حياتها الاقتصادية والاجتماعية ، وتقرب هو ومن حوله، من الشعب بحيث يحس الشعب انه منهم كما يحس الدنماركيون والسويديون — اذا حدث هذا فان أثر نزول ادورد الثامن عن العرش يكون اعظم من أثر بقائه عليه، ولا يستبعد حينئذ ان يقول المؤرخون في المستقبل ان يوم ١٢ دسمبر سنة ١٩٣٦ (يوم النزول عن العرش) كان أكبر شأناً في تاريخ انكلترا من يوم ١٦ مايو ١٩٣٧ (يوم التتويج)

نظرات ومقابلات

في العصر

لسليم ضباط

الشرق والغرب

أراهما واحداً لا ينقسمان . وفي الواقع ، ليس هناك لا شرق ولا غرب منفصل أحدهما عن الآخر. هما في تلاق دائم . في كل نقطة على الارض يمتزجان، وكل نقطة على الارض غرب بالقياس الى الشرق وشرق بالقياس الى الغرب . وليس هذا في الاتجاه الموقعي على الكرة فحسب ، بل هذا يجري حكمه على الانسان الساكن عليها ايضاً . من العبث والخرافة قولنا أن الشرق شرق والغرب غرب ، قولنا أنهما مفترقان لا تجمع بينهما صلة

ليس ثمة شيئان اثنان يتشابهان شبهاً تاماً كأن كلاً منهما هو الآخر . ولكن بين كل شيء وشيء صلة مهما اختلفا ، تضعف وتقوى تبعاً لتقارب المميزات والظروف الاصلية الجامعة. حتى بين الانسان والحجر توجد صلة ، هي صفة الوجود . غير ان بين الانسان والانسان قرابة وثقى لا تنفصم . فتجعله واحداً في نوعه بأهم ما فيه وما يمتاز به — وذلك مهما تباين وأينما كان ، أفي اواسط آسيا أم في معالم ام في مجاهل القارتين الجديدتين . وان بين الشرق والغرب المصطنعين ، المشطورين كالبطيخة المعدة للالتهام ، المحدودين بحسب ما كان من تعريف الجغرافية الرسمية ، جغرافية « المدارس »[1] الاستعمارية وشعرائها الفقهاء — إن بين هذا الشرق والغرب بأهلها ومدنيتهما من الصلات الانسانية والاجتماعية ، من التقارب في الظروف الاصلية والكيان ، من وحدة الاصول وامتزاج الفروع ، ما يجعلهما قريبين متشابهين ، صلات احدهما بالآخر تكاد تكون من القوة كصلة اية دولة او شعب غربيين بأية دولة أو شعب غربيين آخرين . بل ان الرجعي الانكليزي و «البطاش» الياباني ربما كانا احدهما أقرب الى الآخر من الاول الى مفكر انكليزي حر ، او من الثاني الى عامل ياباني راق

***

تربط الشرق والغرب ، على اعتبارهما الاصطناعي الراهن ، كل عروة قوية تجعل الشبه بينهما

---

(١) اي : الفرق وأهل المذاهب والنظريات

جوهريًا وأوثق من أوجه الاختلاف . أول هذه العُرى الانسان نفسه ، وهو الذي قسّم الارض الى شرق وغرب بالاستناد الى التفريق الحاصل بينه او لاجل التفريق بينهُ . فالانسانية كلها حلقة واحدة قائمة بذاتها ، مضروبة حول الارض ، وتقيّد كل بقعة تقع غربي الاخرى بكل بقعة تقع شرقيها . ثم بعد الانسان ، شبكة مكينة من الروابط الطبيعية والاجتماعية والوقائع العالمية المستمرة . هي شبكة تضيع معها التحديدات المكانية الحديثة والقديمة ، ويبقى فيها المكان مطلقاً من اي تخطيط او تفريق كان يتوهمهُ ويدعو اليهِ أي رهط

ما الفرق بين الصيني والالماني ؟ الفرق في لون البشرة فقط . لكن هل للصيني بشرة وليس للالماني شيء منها ؟ كلاّ ! وما الفرق الجوهري بين اسكتلنديٍّ يعبد او يستغل إلهاً ثلاثيًا وبين مسلم هندي يعبد إلهاً واحداً وعدة اولياء ؟ لافرق ! كلاهما يعبد أو يستغل حقيقةً أو وهماً ، وهذا التباين بينهما سطحيٌّ يقتصر على الشكل وعدد رموز الحقيقة أو الوهم الضمني . والغربي الذي يريد البعض ان يفرقوا بينهُ وبين الشرقي على أنهُ أسمى أخلاقاً وخيالاً ، فيمَ نرى لهُ الزيادة الحقيقية في السمو ؟ فهل من فرق يُؤبه لهُ بين غارات جنكيز وتيمور وهولاكو التي نذكرها باقشعرار لما ضحّت بهِ من مدنية ومن ملايين البشر ، وبين ما ضحّى بهِ فراعنة الغرب الماضون من مدنية ومن ملايين في جحيم الحرب الكبرى ، هذا الجحيم الحقيقي الذي كنا نرى كثيرين من الغربيين الغربيي العقول والاطوار يناغونهُ بألوان ملوّنة من الكلام والتلفيق ؟ هل بين أفظع ما رُوي عن تيمور من الحوادث وبين مئات الالوف من الذين قُبروا في « فردون » ما يجعل أقل تمايز بين أعمال الأولين والآخرين في الهمجية المنظمة على مقياس واسع — اللهم الاّ الاختلاف في شكل وسائل الابادة التي استعملت في كلا العصرين ؟ لقد كان رجال الاستعمار الانكليزي ينشرون بين أولاد بلادهم قصة « بؤرة كلكوتا السوداء » ، فينغرس فيهم أن أولاد الهنود أبناء أناس برابرة ، فهم أحط منهم ، وهم من جبلّة أخرى . وطبعاً لم يكن هؤلاء السادة يعلّمون أطفالهم شيئاً عن مذبحة « آمريتسار » ، حيث قتل ثمانمائة رجل وامرأة وطفل من الهنود بالبنادق والرشاشات في حوالي خمس دقائق على ما يروى . كما وانهم كانوا لا يذكرون خبر بؤرة سوداء حقيقية ، وذلك يوم حشدت أسراب من فلاحي « مبلاه » في جنوبي الهند داخل قطار أغلقت جميع منافذه ، فماتوا اختناقاً

في رأيي ، أن ابن نانكينغ وابن نيويورك لا يفترقان فيما هو جوهري أصلي من طبع الانسان وأحواله وتركيبه . وأرى أنهُ يكاد يكون للإنسان في كل بلد نفس العواطف والمطالب والاهواء والقابليات العقلية الأساسية ، تتراوح ما بين حدّ أدنى وحدّ أعلى في درجة عامة جامعة لا تشمل ، طبعاً ، التطورات الفرعية ولا إنحراف المميزات الخاصة او ترقيها . وتكاد تحيط بهِ

في أغلب العالم نفس الصفات العامة في ظروف البيئة الطبيعية وفي خصائص المدنية والحضارة ونفس القواعد والخطوط والتطورات الرئيسية الواسعة في أنظمة الحكم والأنظمة الاقتصادية، ثم في التركيب الاجتماعي، وفي الافكار والتحركات والمبادئ والمعتقدات الاجتماعية

إن لم يختلف النظام الاقتصادي قلّ الاختلاف الهام بين مجموع الناس الذين يعيشون فيه وبه. لكن حتى ولو اختلف هذا النظام بقي الانسان، فيما نلاحظ ونعرف من حياته في شتى الحقب التاريخية والاوضاع الاجتماعية، متشابهاً في اصوله، في مطالبه الحيوية، في أحكام ضرورات البقاء عليه، وفي جماع غرائزه وعواطفه من تأثر بالحب والبغض والجوع والالم والغضب والغيرة والامومة والجمال والموت وما شاكل، وذلك وإن اختلفت مظاهر التعبير عن هذه الأحاسيس وأشكاله، أو تباين الاتجاه التهذيب فيها ومقداره ونوعه

غير أننا نجد في هذه المظاهر والاشكال وتباين الاتجاه ومقدار التهذيب في الغرائز والعواطف الانسانية ونوعه: مقياس ترقي الانسان وتأخره أو انحطاطه

فان رجلاً يدفعهُ طلب الحياة إلى العمل من مثمر وإبداعيّ أرقى طبعاً من ساكن الكهف الذي كان يقتات بالنبوت، ومن المهرب وقاطع الطريق، ومن الذي يتنعم بأرباح الحرب. وأمٌّ تعبر عن حبها لطفلها بالاعتناء به على اصول علمية اكثر تهذيباً في عاطفتها من أمٍّ تعبر عن حبها بتصرف خرافي خشن قد تمرضه أو تقتله، وامٌّ لا تفرّق في حنوّها بين الذكر من اطفالها والانثى اسمى جدًّا من ام تضطهد اناثها. وإن حبًّا مشتركاً متبادلاً بين رجل وامرأة أرفع من حب الاول لامة جاهلة او لامرأة كالقينة، ومن حب الثانية لسيد يتمتع بها او لعاشق محترف تمتع به فحسب. وإن التأثر بجمال رسوم ميخائيل انجلو ارقى كثيراً من التأثر بأيقونة بيزنطية. وظهور غريزة القتال في قالب مهذب من مباراة رياضية او تنافس في اي ميدان من ميادين التفكير والعمل اسمى من ظهورها في ميدان حرب وحشية او سلوك إجرامي. ورجل حر يجادلك بالمنطق والبرهان وأصول الاحتكام يختلف جداً عن فاشيستي يمد ممك الى المؤامرات الحيدية والدسائس الدامية ولغة المسدسات

إن في هذا التهذيب واختلاف الشكل والاتجاه في تظاهرات العواطف والغرائز سر أفضلية شخص على شخص وتقدم جيل ومدنية على جيل ومدنية. ومن يفتشون عن «الانسان الجديد» ومن يطلبونهُ فلا يجدونهُ، ومن ينكرونهُ ويشتمونهُ أو يعشقونهُ خيالاً ويتغزلون به ومن يضربون بقبضتهم على الطاولة بتشاؤم عنيف وفلسفة عتيقة عن «حقارة الحيلة الانسانية وأبدية الطبيعة الانسانية التي لا تتبدّل» (مثل الاديب الفرنسي «آندره روسو» في سلسلة مقالاته التي نشرها في «الفيغارو» سنة ١٩٣٢ — ٣٣) كل هؤلاء لن يجدوا «الانسان

الجديد » . ولكنهم يجدون حتماً « الانسان المتجدد » في هذا الارتقاء التهذيبي والاتجاهي المستمر على سُلم التكامل

***

وعلى هذا ، فالانسان في كل مكان وزمان واحد ، وهو في كل زمان ومكان مع ذلك مختلف. هو أبداً قديم وأبداً جديد . هناك جذور عميقة تجمع كل الناس ، وهناك اغصان تختلف عن الجذور ، ويختلف بعضها عن بعض ايضاً . وهناك كذلك اشجار تتنوع . ولكنها كلها من تربة واحدة ، وكلها في حديقة الانسانية جميلة ، او طيبة الثمر ، او مفيدة بأي شكل من الاشكال . كلها يستحق أحسن الاعتناء الممكن بها ، لتصير أحسن ما يمكن ان تكون ! كذلك أمر البشر ، حسبما يبدو لي

كل انسان أخو الآخر احب ام كره . أي رجل لو تعرّى عن مكتسباته وبان على اصله او طفولته يختلف كثيراً ، بأعضائه وتركيبه وكيانه من هيكل وعقل ونفس ، عن ايٍّ آخر . الناس مهما اختلفوا مؤتلفون . وربما كان الامبراطور شارل الخامس اكثر رقاعة من درويش افغاني ، كما ان قول الشاعر كيبلنغ بأن « الشرق شرق والغرب غرب » لا يعدو ان يعني احد أمرين : فإما هو قول مبتذل وسقطة هراء للَّوك (ويبدو لي ان هذه هي الحقيقة) ، وإما هو سكين وهمي يحاول تقطيع العالم وتفريقه الى اجناس وطبقات لا يؤلف بينها شيء الا القطيعة والشحناء ، وهي محاولة (صحّت من الشاعر ام لم تصح) لا تنتهي الى شيء ، لمناقضتها طبيعة الاتجاه البشري ، سوى اللوك المبتذل ! هذا ، مع عظيم احترامنا لهذا الاديب العبقري ، وخصوصاً لقصيدته الشهيرة : « إذا » ، التي تلائم كل انسان في اي زمان أو مكان ...

بيد أنني ، عند ما اقول أن الشرق والغرب واحد ، لا اقصد أن الفروق لا توجد بينهما . بل اقصد أنها موجودة . لكنها لا تقوم بينهما كسور الصين ، ولا كشيء اصلي ، ولا كقانون أزلي منزل لا يتبدّل ، ولا كطابع تناقض مميت في محل اختلاف طبيعي عادي يقبل الالتئام والتبادل والتناسق ، طابع يحكم على الشرق في انفصاله وانحطاطه عن الغرب بأن يكون أمةً له

الغرب والشرق مختلفان لان ظروفهما الفرعية والثانوية (ولا اعني بالثانوية التقليل من شأن هذه الظروف ، بل وضعها في مرتبة واقعية وصنف معين فحسب) قد تنوعت . قد كانت ظروف[1] الشرق في يومٍ ما مؤاتية له أن يسود الغرب ، كما عادت فآتت هذا فيما بعد ليسود

(١) لست أعني « بالظروف » هنا حالات مطلقة لاوضاع عمياء فحسب . بل المقصود هو ذلك ، ولكن فوق ذلك أيضاً ، نتيجة عمل ارادة الانسان فيها ، وجهوده وفكره بحيث تتحول من ظروف « خام » معينة الى ظروف أخرى « مشغولة »

الشرق . غير ان هذا التبدل إن هو الاّ تبدل في ظروف وأوضاع اجتماعية وتاريخية يقع في المقدور البشري والممكنات الحادثة تغييرها ايضاً ، بحيث يتحوّل الشرق والغرب (مع وجود وبقاء وتطورٍ نحو الاحسن في الاختلافات الظرفية الفرعية) الى كلّ متآلف ، بمعنى انهما يرتبطان ويتوحدان من حيث يتعاونان على الحياة ويخدمان بعضهما بعضاً ، عوضاً عن أن يقوم بينهما حرب وتفريق عدائي انقطاعي باسم قاعدة مصطنعة الازلية ، قاعدة (أوحتها إلى الشاعر حالات سطحية موقوتة بحقبة تاريخية معينة ، فظنها وضعاً أبديًّا الى يوم القيامة) لا تؤدي إلاّ إلى تسويغ ترتيب استعماري ساد عززاً

وهكذا نرمي من القول بأن الغرب والشرق واحد كون الشرقين والغربيين لا يختلفون اختلافاً أصليًّا أساسيًّا يجعل من المستحيل تآلفهم ضد عداوة مشتركة ، عداوة الطبيعة وبذور الشر الاجتماعي ، او يجعل الفوارق بين البشر مختلة مفقودة النسب حتى تصبح بين الغربي والشرقي ، مثلاً ، في مرتبة الفارق بين الحيوان والانسان أو بين الحجر والنبات. والحق أنا لو أنعمنا النظر في اختلاف الجزئيات من اقليمية وغير اقليمية لوجدنا أن التباعد بين الجنوب والشمال أظهر منهُ بين الشرق والغرب . فالصقلي يفرق عن السكاندينافيّ في نظري أكثر مما يبين المصري عن الألماني . لكن كل هذا في التفريق خلط لا يؤبه لهُ . فهو قد يكون سيأ ، مثلاً ، لأن يتخذ ابن جاري الاسمر الطويل القامة قِصَر قامة شقيقه الأشقر ، أخيهِ من أمهِ وأبيهِ ، حجة لهُ على جعله عنده خادماً مرهقاً « ببلاش » . وهذه هي النتيجة المنطقية لبعض نواحي « النيتشية » ، ولآراء الكونت « دي جوبينو » السلالية ، وللسياسة « الجنسية » الرجعية الهدامة التي تستند الى قواعد نظرية لها في تلك النواحي وتلك الآراء

***

الخلاصة ، الانسانية كلها واحدة متحدة في طلب حياة أرقى وأسعد . وكل فارق في هذه الحالة يصبح : أما ميزة وطنية وشعبية جميلة ، وإما مجرد علامة واسم

حاشية على « الشرق والغرب »

لما رأى ابن الرومي خبازاً « يدحو الرقاقة » ، أخذ يتأمل كشاعر ذكي في كيف يتسع الرغيف من كل أطرافه حلقةً بعد حلقة ، وقارن ذلك بحجر يقع في الماء ويرسل الدوائر واحدة تلو الأخرى . وقد يكون من ذكائهِ أيضاً بأنهُ فكر وقتذاك بأن الحياة أيضاً دوائر تتفرج

الواحدة فيها عن الأخرى ، بل كُرَات مجسمة تبطن بعضها بعضاً حتى اللانهاية من جهتي الداخل والخارج لدائرة كل كرة . قد يكون خطر بباله بعد ذلك أن كل انسان ، بل كل شيء على الاطلاق ، حلقة بذاته ينطوي على حلقات حلقات وتنطوي عليه حلقات حلقات ، وأن كل بضعة أناس ، في عائلة او شركة أو جمعية أو قرية او غير ذلك ، يؤلفون حلقة تشتمل على الانسان الواحد ، كما ان حول كل وحدة من « بضعة أناس » حلقة أوسع : كالدولة مثلاً حولها العالم ، وحول هذا الكون ، وحول الكون ما لم نكتشفه بعد أو يمكننا الجزم به من دون أن نكون مضحكة العلم !

***

ثم لعل شاعرنا الفيلسوفي الطبع قد عرف ، وهو يجاري هذا التأمل البسيط ، أن كل شيء منفصل ، كل شيء حلقة محدودة بحلقات ، فأدركتهُ بعد ذلك خاطرة عبقرية على سذاجتها ، خاطرة دوّنها ابن خلدون على ما اذكر في قول معناه : « كل شيء مهما اختلف مع غيره فهو مؤتلف ومهما ائتلف فهو مختلف ! » وأخيراً عساه لو ادرك زماننا وسمع زميلاً له « بربريًّا » من اقاليم الظلمات الغربية يصيح : « الغرب غرب والشرق شرق . . . لا يجتمعان ! » — عساه كان يقول له : « خسيء شيطانك البليد ! الشرق والغرب في كل نقطة على الارض . وساكنها في كل بقعة انسان يستطيع أن يتحول ويتغير ويتقرب ، وهو بهذه الاستطاعة واحد ونسيبٌ بعضه لبعض ، فكيف بها وبما تتناوله عندكم من هذه السيارات والطيارات والقاطرات والباخرات وجميع جنياتكم التي قدتموها من ميّت الجماد ؟ عجباً من فكرك القاصر ، أو تجهل الشطرنج !.. »

ولكان كل الحق مع شاعرنا فيما يقرع به صاحبه . ذلك لانهُ ، وهو المنشد الملهم ، والعربي الشرقي ، يدرك أن العواطف والغرائز (الممتدة مع الانسان من زمن الكهف والتبوت) وقد اختبرها جيداً ، هي عروة واحدة تجمع بين الشرق والغرب ، وأن المجتمعات والمدنيات المتوزعة بينهما قامت على أساس واحد من نشوء ووظيفة وحكومة وتشكل ، وأن أظهر مظاهرها الجامعة ، وهي أديانها ، كانت دائماً ، ورغم تلوُّن صورها وطقوسها ، واحدة في اسباب النشوء ودوافع التعبير وفي الوظيفة . واحدة في ذلك ، فلا تجمع حتى بين ما تمّ نموه من مدنيات الغرب والشرق فحسب ، بل أيضاً بينها وبين حضارات المجتمعات الابتدائية عند قبائل افريقيا وجزر الباسفيكي مثلاً

فلسفة المعارضة

في نظام الحكم الدمقراطي

لا تدرك الامم الفائدة من نظام الحكم القائم على المناقشة الاّ اذا توافرت لها الاساليب التي تمهد الطريق لتطبيق النتائج التي تسفر عنها المناقشة . لذلك كان النظام الحزبي اساس الحكم النيابي . فحيث يكون الخلاف بين الاحزاب صحيحاً يتناول الشؤون الحيوية ، فاصطدام الرأي بالرأي لا بدّ ان يقدح شرراً يضيء . فالحاجة الى اقناع الغير ، تقتضي نوعاً من الريادة العقلية . والاقطاب الذين يسعون الى تعزيز آرائهم بالحجة ، يفعلون ذلك لانهم يبغون اولاً ان يستوضحوا هذا الرأي وثانياً ان يفوزوا بتأييد غيرهم لهُ . فاذا كانت الدولة قائمة على فلسفة سياسية واجتماعية متسقة الجوانب ، فليس ثمة غير التحليل ، سبيلاً الى وزن الآراء والمفاضلة بينها

هذه هي الحجة الاساسية التي يسوّغ بها نظام الحكم الدمقراطي . فالحكومات الدكتاتورية لا يسعها ان تعرض قواعدها الاساسية ، لمحك التحليل والنقد ، لان اساسها ان هذه القواعد فوق كل نقاش . فهي مضطرة بالمنطق المستوحى من طبيعة كيانها ان تحسب كل نقد موجه الى أسسها ضرباً من ضروب السعي الى تدميرها . فللروسي ان ينتقد انتاج مصنع من مصانع السيارات الضخمة التي انشئت في روسيا حديثاً ، ولكن ليس لهُ ان يهاجم الاشتراكية الماركسية وهو آمن مطمئن . وللالماني ان يتمسك بأن اوربا لا يسعها ان تخوض غمار حرب اخرى ، ولكن ليس لهُ ان يحسب اضطهاد اليهود ، عملاً شديد القسوة ، او النزعة الدولية ميلاً طبياً الى التفاهم . وللايطالي ان يبدي ما يعنّ لهُ من الآراء في المكتشفات الاثرية ولكن ليس لهُ ان يؤيد من منبر عام القول بأن الدولة النقابية ، ستار يخفي وراءه الرأسمالية الفارّة من وجه الدمقراطية الاقتصادية . فالدكتاتورية ، بطبيعتها لا تسمع الاّ الصوت الذي تحب ، واسلوبها في ذلك سهل كل السهولة ، ذلك انها تخفت كل صوت آخر

الاّ ان الانسان في جهاده الطويل ، تعلّم ان الراي اذا قمعتهُ هنيهةً فلن يدوم القمع . ولولا ذلك لما فازت المسيحية على ما منيت به من الاضطهاد الوثني في عهدها الاول . ولا الافكار الحرة على المسيحية المتزمتة في العصور الوسطى . فكل راي جديد في التاريخ ، يعرب عن حاجة صحيحة بعيدة الغور واسعة المدى في الطبيعة البشرية ، لا بد من ان يفوز على كل سعي ، لحصره وقمعه . وليس ثمة ريب في ان ظهور الحق ، عمل بطيء وطريقه طريق وعر ، ولكن الازدراء به ، والتحامل عليه ، افضيا في ما نعرفهُ من شؤون التاريخ ، الى انقلاب الذين ابوا ان يروه

فالأمة المنظمة تنظيماً ديمقراطيًّا صحيحاً تستطيع ان تصون كيانها من مساوىء الحكم

الدكتاتوري ، وانما يجب ان تبيح حرية المناقشة ، وان تسهل انتقال اداة الحكم من يد حزب الى يد حزب آخر . فكلُّ دليل تقيمهُ على وجوب النظام الدمقراطي ، هو دليل تقيمهُ كذلك على وجوب المعارضة

والأساس النفسي لهذا الرأي ليس بعيد التناول . فالناس يختلفون في معيشتهم ونشأتهم ورغباتهم . فإما ان تقدع الحكومة رغبات الناس المخالفة لرغباتها ، وإما ان تسلم بها . والنموُّ الاجتماعي غرضهُ تنظيم الاجتماع على اساس الرغبات التي تساور الناس . فالرأي يفرض على الجماعة بقدر ما ينطوي عليهِ من احساس الجماعة بحاجتها اليهِ . والزعماء الذين يؤمنون بآرائهم لا يسعهم ان يقفوا مكتوفي الايدي دون الدعاية لها والسعي الى فرضها وتحقيقها

فالمناقشة في الحكومة الدمقراطية ، هي السبيل الذي يسير عليهِ الناس الى تحقيق رغباتهم . وليس الحزب السياسي في النظام الاجتماعي الدمقراطي ، الأ بمنزلة « سمسار » آراء ، تنبثق في اذهان اقطابهِ ونفوسهم ، فيسعى ان « يبيعها » للجمهور اي ان يقنع الجماعة بصحتها وضرورتها . فهو لذلك يختار من الآراء والمذاهب ، ما يستميل الجماعة الى تأييده ، اذ ما الفائدة من آراء لا تحسُّ الجماعة انها لازمة لحياتها كما تريدها ، وعند ذلك يعمد الحزب الى بسط هذه الآراء في ثوب خلاّب معتمداً في ذلك على فنون الاقناع والاستهواء ، وهدفهُ اقناع الجماعة بأن حق هذا الحزب في تسلّم مقاليد الحكم ، اكبر من حقّ الحزب المقابل

هذا الاسلوب ينطوي بطبعهِ على نقائص . فهو بطيءٌ . ولم يعرف في تاريخ الحكم النيابي ، ان حزباً بسط آراءه مجرّدة عن الزخرف معتمداً على عقل الجماعة دون شعورها في الموازنة بينها وبين آراء الحزب المقابل والاختيار بين آراء الفريقين . والغالب ان الحزب يبالغ في تصوير الفوائد التي تنجم عن تطبيق آرائهِ ، وقلما يتورّع عن افراغها في قالب يزعم انهُ جزءٌ من نظام الكون الذي لا يتبدل . وهذه نقائص حقيقية . ولكن مع ذلك لم يعرف البشر نظاماً آخر خيراً من النظام الحزبي في الحكم النيابي ، لاجراء التحوُّل السلمي في حياة الجماعة

الأ ان نجاح هذا النظام يقتضي شيئاً اساسيًّا وهو ان لا تكون الهوّة بين رأيي الحزبين كبيرة ، بحيث يمتنع الفهم المشبع بروح التساهل ، لانهُ اذا كان الاختلاف كبيراً بحيث يمتنع الفهم والتساهل كالفرق بين الشيوعيين وخصومهم في روسيا فالنظام الحزبي مستحيل

ثم ان فائدتهُ تقلُّ الى ادنى حدٍ اذا تعددت الاحزاب ، لأن هذا التعدُّد يحول دون وضوح القصد الذي تتجهُ اليهِ الخطط السياسية . فكثرة الاحزاب في فرنسا الآن — وفي المانيا وايطاليا قبل قيام النظام الفاشستي فيهما — من شأنها ان تحل السياسة القائمة على المناورة الحزبية ، محل السياسة القائمة على نضال الافكار والمذاهب الاساسية . والنتيجة اللازمة لذلك ، اجتناب الخوض

في المسائل الاساسية اذ من المتعذر جمع طائفة واحدة من الاحزاب على صعيد واحد منها. وهذا يفضي الى المساومة وقلة الانسجام والضعف. ذلك ان تعدد الاحزاب يقتضي انشاء وزارات مؤتلفة، والوزارات المؤتلفة، قلما تعنى بالآراء الاساسية، التي تبنى عليها خطة سياسية منسجمة، عنايتها باجتناب الاخطار التي قد تفضي الى سقوطها. وكل حزب في كل وزارة مؤتلفة، يصرف جانباً كبيراً من تفكيره، الى تأثير مسلكه في جمهرة الناخبين، وعلى قدر ما يفكر الحزب في مصلحته الانتخابية، يضعف ولاؤهُ للوزارة المؤتلفة، فيضيق دونهُ الوقت، وتعوزهُ الجرأة في معالجة المشكلات الاساسية

فالنظام الدمقراطي يقوم على قواعد واضحة كلّ الوضوح او جليّة. فالامة يجب ان تكون متفقة على الاهداف العليا لحياتها القومية. وليس بين طوائفها من اختلاف في الرأي يبلغ مبلغ الاشياء التي يفضل المرء ان يموت في سبيلها بدلاً من خسرانها. على هذا الاساس يختلف الرأي في سبل التحقيق فقط وما هو من قبيلها. وهنا يجب ان يكون الاختيار واضحاً كلّ الوضوح للجمهور. فيعلم انهُ اذا اختار هذا الحزب فقد اختار معهُ طريقة معيّنة. فالمبادىء تقترن بأسماء الرجال وتبديل الرجال الذين في مناصب الحكم يعني تبديلاً في المبادىء. فاذا توافرت هذه القواعد، استطاع النظام الدمقراطي ان يسدي للجماعة خدمة كبيرة الشأن

فاذا كانت الفروق بين ابناء الامة في ما يخصُّ التنظيم الاجتماعي، فروق كمّ لا نوع، فهذه الفروق يمكن حلّها حلاً سلمياً بالاتفاق بعد البحث والنقاش

في هذه الحالة تكون الدمقراطية النيابية خير نظم الحكم التي تنطوي على امل الاستقرار. ولكن نجاحها مرهون بقيام حزبين متكافئين، بينهما فرق كاف يجعل الاختيار المطروح على الجمهور واضحاً، على ان لا يكون الفرق بعيد الهوّة، بحيث يتنكر كل حزب للآخر تنكر الغريم لغريمه، فيراه غير أهل لتقلد الحكم ويسعى الى منعه بالقوة

اذا صحّ ذلك فالحكومة والمعارضة، سدى النظام الدمقراطي ولحمتهُ. كلٌّ منهما لازم للآخر. فقيام المعارضة على اساس انها جديرة بالاحترام جدارة الحكومة به، لانها قد تصبح هي الحكومة بين آن وآخر، هي الصفة الاساسية التي تميز الدمقراطيات من الدكتاتوريات

فما وظيفة المعارضة ؟

قيل ان دزرائيلي وصفها بقوله المشهور: «وظيفة المعارضة ان تعارض». وهو قول يكاد يكون جامعاً مانعاً ولكن في حدود فهم كلمتي « ان تعارض » على وجههما الصحيح

فمن الثابت في تاريخ الامم واخلاق الشعوب، ان هيئة منظمة من الناس، لا تستكين الى اقصائها عن مقعد الحكم، وانها تندفع بطبيعة الحال الى احصاء الاخطاء والهفوات على الهيئة

المنافسة لها المتربعة فيه . ولكن من الثابت ايضاً في تاريخ نظم الحكم ، ان النقد السلبي لا يستميل الناخبين والحزب الناقد لا يفوز بمقاعد الحكم لمجرد انه هاجم الحكومة القائمة

فوظيفة المعارضة الصحيحة في الحكم النيابي ، نقد اعمال الحكومة القائمة ، على اساس برنامج سياسي اجتماعي تقوم المعارضة بتطبيقه اذا وليت الحكم ، ويستطيع اقطابها اقناع الشعب بانه خير من برنامج الهيئة المتربعة في دسته . فعلى المعارضة أن تقنع الناخبين من خلال نقدها ان تقلدها الحكم ، يفضي الى نتائج متعذرة على الهيئة المنافسة لها ، لان الفلسفة السياسية والاجتماعية التي تستند اليها الحكومة مقصرة عن فلسفة المعارضة ، ولان الحكومة ارتكبت اخطاء في تطبيقها

فحزب العمال فاز في انتخابات سنة ١٩٢٩ في انكلترا لان الناخبين كانوا مقتنعين ، ان حكومة المحافظين ، كانت عاجزة عن فهم مشكلات السلام الدولي والمشكلات الاجتماعية الناشئة عن الحضارة الصناعية ، وان حزباً يستند الى نقابات العمال ويستمد أقطابه من رجالها اقدر على فهم هذه المشكلات من حزب الاسياد . والفوز العظيم الذي أحرزه المحافظون سنة ١٩٣١ نشأ عن خيبة امل الناخبين في ما رجوه من حكومة العمال من ناحية وعن اقتناعهم بأن حكومة تفهم الرأسمالية تستطيع ان تنقذ البلاد من الازمة التي اخذت البلاد الانكليزية بخناقها حينئذٍ من ناحية اخرى

ولعلّ ابلغ مثل على المبادىء التي اوجزناها في ما تقدّم تاريخ انكلترا السياسي منذ سنة ١٩٣١ الى الآن . ان المعارضة الرسمية ، عارضت ما وجدت الى ذلك سبيلاً ، ولكن معارضتها لم تكن انشائية ، اي لم تكن مستندة الى مبادىء تنبع من فلسفة سياسية اجتماعية متسقة الجوانب يمكن أن تشعر الناخبين بأن تطبيقها يفضي الى حالة خير من الحالة القائمة . وذلك لتضعضع أحزاب اليسار في انكلترا في السنوات الاخيرة وتفرق كلمتها واضطراب مبادئها . والانتخابات الفرعية تؤيد ذلك . فان المؤيدين لممثلي الحكومة القومية قلوا قلةً تذكر الا ان الناخبين مع تبرمهم بالحكومة القائمة لم يبلغوا بعد درجة من الاقتناع بأن المعارضة تستطيع ان تنهض بأعباء حكم قائم على مبادىء وقواعد خير من مبادىء الحكومة القائمة وقواعدها

فالمعارضة الانكليزية في الست السنوات الاخيرة قد « عارضت » ولكن معارضتها لم تكن دليلاً على أنها تملك فلسفة سياسية اجتماعية ، تجعل ولايتها للحكم خيراً يتطلع اليه في بضع السنوات القادمة . والمعارضة للرئيس روزفلت ، من اليمين ومن اليسار تجري هذا المجرى عند تشريحها

ولا يمكن ان يكون ايّ نقد لاية حكومة نقداً فعالاً الاّ اذا اتصف بصفتين . اولاهما : ان يكون نقداً للخطط العامة ، نابعاً من شعور عام سائدٍ في جمهور الناخبين . وثانيهما : ان يكون ممثلاً في المجلس النيابي بقوة تقسر الحكومة القائمة على أخذ ما تقوله المعارضة بعين الاعتبار

اما في ما يتعلق بالصفة الاولى ، فمن الواضح ان حكومة من الحكومات لن تبلغ مبلغاً من الاجادة

بعصمها عن النقد . بل ان الشعور بان الحكومة ادركت هذه المرتبة، يفضي الى التراخي وعدم الاهتمام بشؤون الجماعة الحكومة . ولكن يقابل هذا ان الحكومة تستطيع ان تتجاهل نقد ناقديها اذا كان ذلك النقد اعراباً عن رأي او خطة لا يدركها الجمهور ولا يعطف عليها. فمن العبث ان يهاجم الاشتراكيون الاميركيون الرئيس روزفلت لان مشروعاته لم تبلغ الدرجة التي يبغونها هم من التطرف . لان هذا الرأي لا يعطف عليه جمهور الناخبين الاميركيين . ومن العبث كذلك ان يزعم المحافظون الاميركيون ان مشروعات الرئيس روزفلت بلغت مبلغاً خطراً من التطرُّف، لان الشعب الاميركي في الغالب، مقتنع بوجوب تبديل موسوم بسمة العدل الاجتماعي. فهجوم ارباب المال والصناعة على الرئيس، من دون ان يصحب هذا الهجوم برنامج انشائي لاصلاح بعض ادواء الاجتماع الاميركي، عبث في عبث الآن، ولاسيما لان الحوادث الاخيرة في اميركا اثبتت إفلاس مهاجمي روزفلت هؤلاء في معالجة هذه الادواء

اما في ما يتعلّق بالصفة الثانية، فمن الواضح ايضاً ان النقد لا يؤدي الغرض المقصود منهُ، الا اذا كان وراءهُ في المجلس النيابي قوة يعتدُّ بها . فكل مناقشة تعقبها اكثرية حاسمة للحكومة القائمة تضعف من عناية الجمهور بالشؤون المطروحة على بساط البحث . وتصبح الحكومة ترى المعارضة، مرتبة لا بدّ من اجتيازها بدلاً من ان تحسبها تشريحاً لخططها لا بدّ لها من اقامة وزن له . فالجمهور قلما يعنى بحفلة ملاكمة، اذا ادرك ان احد المتلاكمين لا بدّ متفوق على خصمه

ثم ان الجمهور يودُّ، غير واعٍ، ان يدرك ان هذه الانتقادات التي توجهها المعارضة الى الحكومة، هي خطوة تخطوها المعارضة نحو مقاعد الحكم . وليس ثمة معارضة تستطيع ان تنشيء جوًّا من الاحترام لاقوالها الاّ اذا ثبت انها تكسب رويداً رويداً تأييد الرأي لها . فاذا كانت قوتها ضئيلة بحيث لا يعتد بها تعذر عليها ذلك، واكبر ما تصاب به معارضة ان لا يعتد بها . لانهُ اذا فقد حزب قدرته على الهجوم هجوماً فعالاً ضيّع سرّ وجوده في اذهان الناخبين، على نحو ما وقع لحزب الاحرار الانكليزي

وهذا لا يعني ان الحكومة التي لا تجد امامها معارضة ممثلة في قوة فعالة في المجلس، يحق لها ان تدير الاذن الصماء الى اقوال المعارضين . لان هذه الحالة قد تفضي، وهي لا تدري، الى اتساع الهوّة بينها وبين الشعب . فوزارة لويد جورج سنة ١٩١٨ ووزارة مكدونلد القومية سنة ١٩٣١، من احدث الامثلة على ذلك . فكلتا الوزارتين انقذت انكلترا من ازمة عصيبة، فحسبتا ان تفوقهما الانتخابي سيدوم لان الامة ولاريب ستؤيد مرشحيها، اعترافاً بما كان للوزارة من فضل في اجتياز الازمة . وهذا فيه خطأ في فهم الجماعات، لان احكام الجماعات تستند على الاكثر الى ما يحركها الآن دون ما حركها في الماضي البعيد او القريب

الشاعر والألم

للشاعر الفرنسي الفحل الفريد دو موسيه

[نقلها : احمد أبو الخضر منسي]

١ — مهما يكن أساك الذي في صباك تكابده

فَـذَرْ تلك الجروح الكريمة تتسع

تلك الجروح التي ملائكة الشر أدمت بها فؤادك :

فلا شيء يسمو بنا مثل الآلام الفادحة .

ولكن لا تظنّن أيهذا الشاعر إن مسّك الألم

ان صوتك في الناس يبقى كظيماً ويُكْتَم ،

انما احلى الاناشيد ادناها الى القنوط ،

وان منها لخالدة ، وهي زفراتٌ حارةٌ صادقة

٢ — اذا البَجَع (1) وقد أضناه السير الطويل

انقلب في غَبَش الاصيل الى قصبه ،

تسارعت اطفاله الجائعة على الشاطىء ،

تظن اذ تراه على بعد يهبط الماء ،

أنها قد ظفرت بالفريسة وتناهشتها ،

فعَدَت الى ابيها تصايح من طرب ،

تهز مناقيرها فوق حواصلها المستبشعة .

أما هو فقد أمّ في خطوٍ وئيد صخرة عالية ،

فوارى تحت جناحه المُسْدل صغاره ،

ذو صيد عبوس يجيل في السماء انظارَه .

ودماؤه تسيل من صَدْع صدره متدفقة ،

فقد فتش اعماق البحار بلا طائل :

ان المحيط كان خالياً والساحل اجردَ ،

(1) طائر مائي كبير له حوصلة كبيرة ومنقار طويل منتصب عريض ويقال انه يخرج طعامه الذي اكله من جوفه ليطعم به صغاره ، بل يزعمون انه يمزق جنبه ليسقي اولاده دمه . لهذا كان البجع رمزاً لحب الامهات والتضحية والبذل

فلم يحضر لهم من القوت سوى مهجته ،
كئيباً صموتاً على الصخرة مستلقياً ،
مُقسّماً بين صغاره احشاء أب ،
يتشاغل بحبه الاسمى عن اوجاعه
وينظر الى دمه من صدره الدامي يتدفق ،
فيتخاذل ويصرع فوق سماط[1] احتضاره[2]
ثملاً من سكرات اللذة والحنان والفزع .
ولكنهُ أحياناً وسط التضحية السامية ،
وقد سئم ان يموت في عذاب لا آخر له ،
قد هالهُ ان يتركهُ اولادهُ بالحياة عالقاً ،
فينهض ويبسط في الهواء جناحه ،
ويضرب قلبه في صرخة وحشية ،
فيشهق بالليل شهقة الوداع المحزن حتى ان
طيور الماء تجلي عن الشاطىء ،
وابن السبيل على الساحل المتسكع ،
اذ يشعر بالموت مجتازاً يسلم الى الله[3] ويسترجع[4]
٣ — ايها الشاعر كذلك يفعل فحول الشعراء »
فانهم يبهجون أهل الارض حيناً ،
ولكن المآدب التي يعدونها في افراحهم للناس
تشبه معظمها مآدب البجع .
فهم اذ يتحدثون عن الآمال الخائبة ،
وعن الاحزان ، والنسيان ، والحب ، والشقاء ،
فما تلك باغانٍ تطرب قلوب الناس .
انما انشادهم شبيه بسيوف ،
ترسم في الهواء دوائر تبهر العيون :
ولكنها لا تنفك عن قطرة دم بها ناشبة .

---

(١) السماط ماءمد من الطعام او المائدة (٢) الاحتضار نزع الموت (٣) اي يسلم الى الله امره او يفوض امره الى الله (٤) اي يقول انا لله وانا اليه راجعون

امين تقي الدين

بقلم الياس ابو شبكة

[نقلا عن مجلة « الجمهور » البيروتية]

ما أشبه امين تقي الدين بولي الدين يكن ، ما اشبه حياة هذا بحياة ذاك ، وما اشبه شعر الاول بشعر الاخير . درج ولي الدين مع الرفاهية والترف ، ومات في خصاصة وشرف ، ودرج امين في بسطة من العيش ، على حرير الحياة ومات على حسكها كالوردة تنمو في يبنها الاخضر وتتناثر على اشواكها ، ولكنهُ مات عزيز النفس عالي الجبين كما عاش

كان امين تقي الدين يحب لبنان كما كان ولي الدين يحب مصر ، ولكم تغنى بهذه البقعة من الارض ، فأول شعره كان اغنية بلبنان وآخر شعره اغنية بهِ

واديك والسهل كسرّ المنى   يدرك بالروح ولا يمتلك
سبحان من خبأ فيك الصفا   وسلّ من قلب الصفا جدولك

وكان امين تقي الدين اشد اللبنانيين تفاخراً بهذا الجبل وبنيه !

اذا وطنية باهت بقوم   ارى لبنان ارفعهم جبينا
اشد الحب ما يدعى هياماً   فما يدعى اذا بلغ الجنونا
سلي ام اللغات فكل قطر   فتحناه لها الفتح المبينا
اقمنا مجدها أنى اقمنا   وكنا دونهُ الحصن الحصينا

ولقد امتزج حبه بسماء هذا البلد ومائهِ فجاء شعره صافياً كهذه السماء عذباً كهذا الماء ، فشعر امين شعر النفس المرسلة على سجيتها . لا تعنت ولا إعمال ولا كلفة

دعوتهم فلبينا كأنا   رجعنا للصبا لما دعينا
احب من الكهولة وهي حق   خيال للطفولة زار حينا
وأشهى من ليالي الحب عيد   نظمت به بنيك المخلصينا

صباك ، وانت في الخمسين ، غض ... وشاب بنوك دون الاربعينا
اذا اعددت نفسك للمعالي ... فأعدد في الصبا الخلق المتينا
اجل العلم تربية المبادي ... كذا علمتنا وكذا ربينا

فهذا الشعر الصافي لا يصدر الاّ عن نفس صافية ، وايمان حي ووجدان امين وهذه الديباجة النقية كهذا المرج الصريع ، لا تشتق العين في بسيطهِ الممتد ولا الاذن في سكونهِ الجليل

ولكانت صروف الدهر جهمت بيانه كما جهمت حياتهُ ، لو لم يكن جباراً في روحه ، وهو القائل :

ليس من عدة الفتى للمعالي ... خلق في الخطوب غير جليد

كان ذلك اذ الامين على قمة الشباب يغالب الخطوب بصبر الرجل وجلد الطموح فاذا رافقهُ الهم ركن اليهِ ثابت العزم قوي اليقين بنفسهِ :

ويك يا هم قد ابحتك نفسي ... فاتو منها الى مراس شديد

على ان هذا الهم بقي يحز في نفسه عشر سنوات ولم يطلق هذه النفس التي استباحها كما استباح الشيطان خيرات ايوب حتى لين مراسها الشديد وسلخ منها صرخة المغلوب :

لهفي على العمر والاماني ... ولت كما اقبلت ملاحا
خبأت ياليل فيك همي ... ياليل من خبر الصباحا

فبين هذه الصرخة المغلوبة وتلك الصرخة الغالبة عشر سنوات ، ومن عشر سنوات الى اليوم بقي امين تقي الدين يخبيء «همه» عن الاعين شمماً واباء. قال بالامس :

أنا والهم صاحبان كلانا ... صادق الود حافظ للعهود
ماافترقنا حيناً من الدهر حتى ... جمع الدهر بيننا من جديد
نسهر الدهر صامتين لئلاّ ... يكشف الليل سرنا لحسود
قال لي صاحبي ، وقد لمح الفجر ... مطلاً يرنو لنا من بعيد
وارني في النهار عن اعين الناس ... فاني خدن الليالي السود

وقال اليوم :

خبأتُ ياليل فيك همي ياليل من خبر الصباحا

قف قليلاً تأمل هذا البيت . فمنذ عهد طويل وهذا الشاعر يحجب همه عن الناس لانه قوي جبّار يربأ بنفسه ان تكشف ضعفها لاعين الشامتين فمن خبّر الناس ، من خبر هؤلاء الشامتين عن هذا الضعف؟ ان نفساً أبية وخلقاً أنوفاً لا يبذلان كما تبذل النفس المتسكعة والخلق الدنيء وان يكن الصبح للناس فالليل للشاعر ، فمن سير هذا الاخير في طرق هؤلاء ؟ ومن وضع سؤدد الشاعر موضع الرق من الدهماء؟ أحطمة من حطام الحياة البائسة تحدر الكرامة الى موطيء الاذلاء فتكشف عن عناصر ليست منها لتنشي في مساخر الناس مطعونة دامية ؟ أتكون هذه الكرامة رهناً لهذه الحطمة وهي في صناديق الارقاء وخزائن المتسولين ؟

قال ولي الدين يكن :

مكانك الافق ، فما انزلك بدلت عنهُ الارض ام بدلك

يا ملك الله ، ارضى الملك ملك الثرى من بعد ملك الفلك

ان تؤت خيراً بينهم يحسدوك وان تجد بالفضل لا يحمدوك

دانيتهم لكنهم ابعدوك

وشعر امين كشعر ولي الدين فيهِ جرسهُ وانسجامهُ وطبعهُ وتلك الكآبة الطافية عليهِ ، كآبة الحنين الى الماضي والالم من الحاضر . فيهِ شجو البيان المرسل وترف اللغة في ايقاع عذب شجي كهذا الذي يصدر عن غور النفس الشاعرة إبان انسلاخها عن قيود المادة الثقيلة الى اجواء الحلم الجميل

وقد يتعبك شعر ولي الدين بمسحة بديعية تشيع في معظمهِ ، اما شعر امين فقد يطربك حيث يتعبك غيره ، فالقافية ليس مؤطأ لها بكلام من جنسها كما في شعر ولي الدين ، على انها في مكانها ، دائماً في مكانها ، فلاهي دخيلة ولا مزهوة تبشر بقدومها وتزهى بنسبها ولا تجيء الاّ في زفة

ليس في شعر امين تقي الدين فكرة غريبة او صورة لم تألفها عيناك ، ولكن فيهِ احسن من ذلك ، فيهِ عاطفة صادقة مسكوبة في بيان سائغ مصقول كغدير صاف لا تتعب العين في رؤية الحصيات الآمنة في قعره . والصدق اجمل مزايا الشاعر

اغنية الليل

مترجمة عن كتاب نيتشه : هكذا قال زرادشت

[نقلها محمد فهمي]

ها هو الليل مرخٍ سدوله . وها هي الينابيع الفوّارة قد علت أصواتها وما روحي غير ينبوعٍ فوّار ! !

ها هو الليل مرخٍ سدوله . وفي هذا السكون تستيقظ أناشيد الحب وما روحي غير أنشودة محبّ ! !

شيء لا يستقر . بل شيء غير قابل للاستقرار . هو كامنٌ في نفسي يبحث عن مُتَنفَّسٍ لهُ في القول . انهُ شوق الحب المستعر في جوانحي وهو الذي يتكلم بلغة الحب ! !

أنا النور : آه . ليتني كنت الليل . لكن هذه هي وحدتي يحيط بها النور !

آه ليتني كنت حالكاً كالليل . اذن كنت أرتشف النور بنهمٍ من منابعه !

وكنتُ أباركك ، حتى أنت أيتها الأنجم المتلألئة . أيتها الحباحب المشعة في الذرى فانعم بلمحاتٍ من ضيائك .

ولكنني أعيش في النور المنبعث من حناياي وأرتشف ثانية اللهب المندلع من كياني

أنا لا أتذوق سعادة الآخذ قط . ما أكثر ما أوحت اليَّ أحلامي انهُ لخيرٌ وأحلى أن أكون سارقاً من أن أكون آخذاً !

ان فقري لأن يدي لا تستريح أبداً من الإعطاء وان عيي أنني أعرف السؤال في العيون وأتبيّن ليالي الرغبة بنجومها .

آه . ما أشقى هؤلاء الذين يمنحون ! أوه . يا لكسوف شمسي ! آه .

أيتها الرغبة من أجل الرغبة ! أوه . أيها الجوع المزمجر وسط فيض من الشبع !
انهم يأخذون مني ولكن هل أنا أمس صميم نفوسهم ؟ ! ان بين الأخذ
والعطاء هوّة سحيقة وأضيق مكان فيها هو آخر ما يمكن عبوره ! !
لقد نبت الجوع من بهاء جمالي . حتى ليسرني الآن ان أوقع بمن أنيرهم
بل يسرني أن أسرق من أمنحهم عطاياي . وهكذا صرت جوعاناً الى الشر !
ها أنا أقبض يدي في الوقت الذي تمتدُّ فيه يدٌ تلتمس العطاء !
متريثاً كما يفعل ماء الشلال هنيهة قبل ان ينحدر
هكذا أشعر بالجوع الى الشر ! !
ان ثرائي ليفكر في هذا النوع من الانتقام . وهذا البغض
قد نبع من حالك وحدتي
لقد أمات المنح نشوةَ المنح في نفسي وأصبحت فضيلتي وقد أنهكها فرط السخاء !
ان من يعطي لهو في خطر يهدده بفقدان مياه حياته !
ومن يجعل دأبه توزيع الاحسان لا بد ان يصاب قلبه بالقسوة ويده بالغلظ
ليس من شيء الاّ من دوام توزيع الاحسان .
ان عيني لم تعد تفيض بالعطف على السائلين . ويدي أصبحت جامدة
لا تحسّ ارتعاش الايدي المفعمة بالعطايا .
أين ذهبت دموع عينيّ ؟ ! بل أين رقة قلبي ؟ ! آه
ما أشد وحشة من يمنحون . وما أقسى صمت من ينيرون !
ان كثيراً من الشموس تدور في الفلك
وانها لتخاطب كل صقعٍ مظلم بلغةٍ من النور
ولكنها عندي ليست الاّ صامتة ! !

آه ان هذه عداوة النور لكل شيء ينير

يسير في طريقه مجرداً من كل شفقة

جائراً على كل شيء يضيء ! غير مكترث للشموس .

وكذلك تسير كل شمس !

الشموس تسير في أفلاكها كالعاصفة — تلك مساراتها

انها تتبع مشيئتها الجامحة — لا ينبض فيها شعور !

آه . أنتِ أيتها الكائنات المظلمة ! أنت وحدك يا كائنات الليل

تمتصّين الحرارة من الكائنات المضيئة

وانكِ وحدك التي تشربين اللبن فتنعشين نفسك من ضرع الضياء ! !

كفى ! ها هو الجليد قد أحاطني . وان يدي لتحترق وهي تلمسه .

كفى ! ان ظمأ أحسّه في صميمي وما هو الآ تشوّق الى ظمائك

انهُ الليل . كفى . فوجب ان أكون النور والظمأ لكل ما في الظلام .
وان أكون الوحدة!

انهُ الليل . والآن قد انبثقت رغبتي كينبوع متدفق . انني أرغب في الكلام !

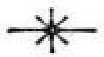
انهُ الليل وها هي الينابيع الفوّارة قد علت أصواتها

وما روحي غير ينبوع فوّار !

انهُ الليل وفي هذا السكون تستيقظ أناشيد المحبين

وما روحي غير أنشودة محب ! !

هكذا قال زرادشت





باب الأخبار العلمية

«صدمة الانسولين» قد تشفي من الجنون

اصبح اسم «الانسولين» اشهر من ان يعرف . فهو خلاصة الغدة الحلوة (البنكرياس) التي تخفف اعراض البول السكري وتطيل حياة المصابين به . وقد أحرز بانتنغ مكتشفه جائزة نوبل الطبية جزاء له على اكتشافه ومنحهُ ملك الانكليز رتبة فارس ولقب «سر»

وقد اثبتت المباحث الطبية الحديثة ان «الانسولين» قد يكون سبيلاً الى انقاذ المصابين بضرب من الجنون او الخبل (شيزوفرينيا) من خبلهم وجنونهم علاوة على فائدته العظيمة في حالات البول السكري

وفق الدكتور مانفرد ساكل احد اطباء فينا الى هذا الاكتشاف اتفاقاً على ما روى لجمعية الطب النفسي الاميركية . ذلك ان احد مدمني المورفين كان يعالج في احد مستشفيات فينا وكان مصاباً بالبول السكري فأعطي الانسولين لتخفيف اعراض هذه الاصابة فأصيب بما يعرف عند الاطباء بصدمة الانسولين وهي حالة مناقضة لحالة الديابيطس (البول السكري) . ففي حالة الديابيطس يتجمع السكر في الدم والجسم عاجز عن استهلاك ما يحتاج اليه منهُ . اما في حالة «صدمة الانسولين» فيكثر ما يستهلكهُ الجسم من السكر الذي في الدم حتى يقل مقداره عن المقدار السوي اللازم

فلما عولج المصاب باضافة السكر الى دمه من «صدمة الانسولين» ظهرت عليه دلائل التحسن في حالته العقلية

وهذا طبعاً يذكرنا بما تم لفاجنر يورج في فينا ايضاً عندما اكتشف فعل الملاريا في شفاء الشلل العام أو الشلل الجنوني الناشيء عن الاصابة بالحلق (السفليس)

فلما تبين الدكتور ساكل ذلك في هذا المريض عالج المصابين بالاضطراب العقلي من جراء ادمانهم المخدرات بالانسولين مع انهم لم يكونوا مصابين بالبول السكري فأعطاهم جرعات كبيرة منهُ ليصابوا بحالة «الصدمة» فتحسنت حالتهم العقلية تحسناً يظهر الآن انه ليس بالوقتي

وقد أيد فريق من اطباء اميركا رواية الدكتور ساكل . فقد تحسنت احوال ٣٠ في المائة الى ٥٠ في المائة من المصابين الذين عالجهم الاطباء الاميركيون تحسناً يظن انه دائم وانما لايمكن القطع الآن في هذه الناحية لان حداثة العهد بهذا العلاج لم تتح للاطباء مدة كافية لتتبع احوال الذين ظهرت عليهم اعراض التحسن وانما يعرف ان هذا التحسن دام في بعض الذين عولجوا ثلاث سنوات حتى الآن

ووجه الخطر في هذا العلاج ان استعمال جرع كبيرة من الانسولين لاحداث «الصدمة»

قد يفضي الى اصابة الذي يتجرعها بحالة خطرة تعرف باسم «هيبوجليسيميا» أي هبوط مستوى السكر في الدم وقد تفضي هذه الحالة بسرعة الى الوفاة الا اذا عولجت حالاً بحقن محلول سكري مناسب في العروق على الغالب او باعطاء محلول السكر شرباً والاول اسرع فعلاً بحكم الطبع

غاز الهليوم لا يلتهب
كشف أولاً في الشمس وتكاد أميركا الشمالية تحتكره

ذكرتنا فاجعة المنطاد هندنبرج ان غاز الهليوم الذي يقول الدكتور اكنر انه لا يستغنى عنه في المواصلات الجوية بالبلونات لم يكشف اولاً على الارض بل كشف اولاً في جو الشمس. والشمس كما لا يخفى تبعد عنه ٩٣ مليوناً من الاميال أو نحوها

ففي سنة ١٨٦٨ لاحظ باحثان انكليزيان كان احدهما لوكير محرر مجلة نايتشر المشهور وهو من اشتهر بعد ذلك باسم السر نورمن لوكير ان طيف الضوء الواصل الى الارض من اكليل الشمس يبدو فيه خط لامع لا نظير له في خطوط الطيف المعروفة على الارض ثم ثبت ان هذا الخط يظهر في طيوف الاضواء الواصلة الينا من نجوم كثيرة فقال لوكير حينئذ — وكان علم الحل الطيفي لا يزال في مهده — ان منشأ هذه الخطوط الطيفية عنصر لم يكشف على الارض بعد واقترح اطلاق اسم هليوم عليه واصل هليوم هليوس أي الشمس. وظل هذا العنصر غير معروف على الارض حتى اواخر القرن التاسع عشر وكشفهُ السر وليم رمزي الكيمياوي البريطاني في غازات الهواء النادرة اذ كان يبحث عن غاز يدعى كربتون

ومقدار الهليوم في الهواء قليل جدًّا فهو لا يزيد على جزء من ١٨٥ الف جزء وكان معظم المستعمل منهُ للبحث العلمي يستخرج من بعض المعادن المشعة باحمائها. ثم ظهر ان هناك مقادير غير يسيرة منهُ في الغازات المنطلقة من ينابيع المياه الحارة وفي الغاز الخلقي أو الطبيعي الخارج من بعض الاماكن في قشرة الارض

ولم يجر ذكر استعماله للبلونات الا سنة ١٩١٤ عند ما اقترح السر رتشرد ترلفول ذلك على مجلس المخترعات في وزارة البحرية البريطانية بانياً اقتراحه على ما هو معروف عن الهليوم من خفة الوزن وعدم القابلية للالتهاب وعهد حينئذٍ للاستاذ مكلنن الكندي على ما تذكر في البحث في وضع طريقة لاستخراجه من الغازات الطبيعية

ومعظم ما يعرف عن مصادر هذا الغاز الغني بالهليوم موجود في الولايات المتحدة الاميركية وكندا وكانت طريقة استخراجه عسيرة كبيرة النفقة فكان ثمنهُ غالياً ولما كان ذا قيمة كبيرة في المواصلات الجوية وفي الشؤون الحربية التي تستعمل لها البلونات حظرت اميركا اولاً تصدير الهليوم من بلادها حتى للجامعات اولاً ثم لما اتقنت وسائل استخراجه واكتشف مصادر كثيرة للغاز الذي يحتويه رخص ثمنه وقيل حديثاً انها قد تبيع منهُ لالمانيا ما تحتاج اليه لملء البلون الجديد الذي يحل محل الهندنبرج

البرونتيلين يشفي مرضاً اجتماعياً

من أعجب المكتشفات الطبية الحديثة ان ست عشرة حبة من دواء جديد يعرف باسم برونتيلين تشفي المرض الزهري الذي سببهُ ميكروب « الجونوكوك » وهو مرض كثير الانتشار في معظم البلدان ويصاب بهِ في الولايات المتحدة الاميركية نحو مليوني مصاب بين رجل وسيدة كل سنة ويفضي الى اضطرابات واصابات أخرى منوعة في النساء والرجال والاطفال

فقد عرف قراء المقتطف ان « البرونتوزيل » و « البرونتيلين » مادتان متقاربتان جدًّا في التركيب الكيماوي أولاهما صبغ أحمر والثاني مسحوق أبيض . والاول يمكن الجسم من التغلب على ميكروبات « الستربتوكوكس » التي تسبب تسمم الدم وحمى النفاس وغيرها . ولكن الدكتور جون كولستون المتوفر على دراسة أمراض المسالك البولية في جامعة جونز هبكنز الاميركية المشهورة في العالم أجمع بكليتها الطبية جرب الثاني بالاشتراك مع فريق من علماء تلك الكلية في معالجة « السيلان » باعطاء المصابين أربع حبات كل يوم مدى أربعة أيام فشفي ٨٥ في المائة من الذين عولجوا كذلك

***

وثمن هذه الحبات يبلغ ثمانية قروش صاغ والبرونتيلين هذا اسم تجاري لصبغ يعرف عند الاطباء باسم « سلفانياميد » واسمهُ الكيميائي (بارا — أمينو — بنزين — سلفوناميد)

فمن بضعة أشهر سمع الدكتور پرين لونج أحد علماء جامعة جونز هبكنز بتجارب تجرب في لندن بهذه المادة فذهب اليها ليطلع بنفسهِ عليها وعند عودته شرع في تجربتها في المصابين بتسمم الدم . وكان يساعده في تجاربهِ هذه الدكتورة اليانور بلس . ثم اتجها الى تجربة تأثير البرونتيلين في « المننجوكوكوس » وهو الميكروب الذي يسبب التهاب الدماغ السحائي . ولما كان « الجونوكوكس » مسبب السيلان قريباً من « المننجوكوكس » سبب التهاب الدماغ السحائي ولما كان الدكتور لونج مشغولاً بتجربة تأثير « البرونتيلين » في هذا الميكروب الاخير اقترح على الدكتور كولستون تجربة « البرونتيلين » في المصابين بالسيلان فاشترك كولستون مع طبيبين آخرين في هذه التجارب فتوصلوا الى النتيجة المتقدمة . اِنما يخشى الدكتور كولستون ومساعداه ان تباع حبوب البرونتيلين من دون ضابط لانها قد تغري المصاب بأخذ جرعة منها اكبر مما يجب مدفوعاً الى ذلك برغبتهِ في الشفاء ورخص ثمنها . فاذا كانت الجرعة أكبر مما يجب أفضى تجمع البنزين والكبريت — وهما قوامها — في الدم الى فقر الدم (الانيميا) فالوفاة ولا يعلم حتى الآن ما تأثير هذه المادة في منع السيلان . وهذا الكلام ملخص عن مجلة « تيم » ولم نر حتى كتابة هذه السطور بسطاً للاكتشاف في مجلة علمية او طبية

معالجة النزلة الرئوية (النومونيا)
بأحد مركبات الكينا

صرح الدكتور ماكلاكان ساعور اطباء مستشفى الرحمة بمدينة بتسبرج الاميركية بان مركباً جديداً من المركبات المستخرجة من الكينا صنع بالتركيب الكيمياوي في معهد ملون وجرب في معالجة حالات النزلة الرئوية الحادة فظهرت فائدتهُ

هذا المركب يدعى «هيدروكسي اثلابوكوبرين» وقد جرب اولاً في الفيران والارانب والكلاب قبل تجربته في البشر

وقد انقضت سنتان والدكتور ماكلاكان يجرب هذا المركب الكيمياوي الجديد في حالات النزلة الرئوية الحادة فكان معدل الوفيات في مائة حالة عالجها في الشتاء الماضي ٢٧ في المائة مع ان المعدل المألوف في مثل هذه الحالات في مستشفيات بتسبرج ٤٥ في المائة

ولكن الدكتور ماكلاكان حذر في حكمه شأن العالم المحقق فقال ان هذه المادة مركب من مستخرج من الكينا وقد ظهرت فائدته في النزلة الرئوية ولكن استعماله السريري لا يمكن ان يحقق قبل ان يدرس الاطباء في مختلف الارجاء فعله في طائفة كبيرة من الحالات

وتناول هذه المادة سهل جداً فانها تؤخذ حبوباً كأنها كينا وقد يتناول المريض جرعات كبيرة منها تبلغ ٤٠٠ الى ٨٠٠ قمحة او اكثر من ذلك في اسبوع وتبلغ الجرعة العادية للبالغين ١٢٠ قمحة في اليوم

يعود البحث عن مركب من مركبات الكينا لمعالجة النزلة الرئوية الى مشاهدات احد العلماء الالمان سنة ١٩١١ ذلك انهُ لاحظ أن احد مركبات الكينا المعروف باسم (اثيل هيدروكوبرين) او (أوبتوكين) فعال في قتل مكروب النزلة فلما جرب في بعض المصابين بها اصيب بعض الذين عولجوا بعمى وقتي

فشرع الباحثون في المانيا واليابان واميركا ولاسيما في معهد ملون الاميركي في البحث عن مركب من مركبات الكينا يكون له هذا الفعل ولكنهُ لا يسبب حالة العمى الوقتي وقد جربت المركبات التي استنبطت في معهد ملون الاميركي وعددها ستة وسبعون مركباً في ٢٠ الف فأرة خلال اربع سنوات قبل الفوز بهذا المركب وقد ثبت من تجربته في البشر انهُ لا يحدث اي اضطراب بصري

ولم يظهر حتى الآن اي دليل على ان هذا الدواء يتنافر مع المصول المستعملة في بعض حالات النزلة الرئوية وسهولة تناوله تمكن الطبيب الممارس من استعماله في المراتب الاولى من اصابة الرئتين بالميكروب (النوموكوكس)

ومن الملاحظات الجديرة بالذكر ان فائدة هذا المركب تكون على أتمها اذا شرع في استعماله في اليوم الثالث من الاصابة لا في اليوم الاول ولا في اليوم الثاني ولم يعرف سبب ذلك بعد

ضرب جديد من دقائق المادة
في الاشعة الكونية

في أنباء اميركا العلمية ان ضرباً جديداً من دقائق المادة قد كشفهُ العالمان فدرماير واندرسن وثانيهما حائز جائزة نوبل الطبيعية لسنة ١٩٣٦

هذا النوع الجديد من المادة لم يطلق عليه أي اسم بعد ولا هو يتفق مع سائر ما يعرف عن دقائق المادة المختلفة كالبروتون والالكترون والنوترون

ففي اثناء تجارب كان هذان العالمان يجربانها ظهرت لهما ظاهرات لا يمكن تفسيرها بأي دقيقة من دقائق المادة المعروفة . وكان لا بد من فرض وجود دقائق اخرى لتفسيرها . ولكن الصفات العجيبة التي يجب ان تتصف بها هذه الدقائق لتفسر ما رأياه حملتهما على التريث قبل اعلان النتيجة . ويقال على لسان الدكتور اندرسن ان هذا البحث كان أعقد وأصعب بحث طبيعي تولاه حتى الآن

هذه الدقائق الجديدة تحمل شحنة كهربائية من رتبة الشحنة الكهربائية التي على الالكترون والبروتون . فمنها ما هو موجب ومنها ما هو سالب وكل دقيقة منها اثقل وزناً من الالكترون ولكنها اخف من البروتون . والراجح ان مدى كيانها على الارض قصير لانها لا توجد الا في الاشعة الكونية

وقد استنتجت جميع هذه الخواص استنتاجاً من دراسة الاشعة الكونية

ومن غرائبها انها تخترق الواح البلاتين من دون ان تفقد طاقتها وكثافة البلاتين تفوق كثافة الماء عشرين ضعفاً وكثافة الرصاص ضعفين

انسولين جديد باضافة الزنك اليه

قال السر فردريك بانتنغ مكتشف الانسولين ان التجارب تجرب الآن بأنسولين جديد قد تفضي الى اثبات تفوقه على الانسولين المستعمل في علاج البول السكري . فقد اضيف الى الانسولين المألوف قليل من الزنك وجربت بهِ التجارب فظهر ان فعله بعد اضافة الزنك اليه في تقليل مقدار السكر في الدم اطول كثيراً من فعل الانسولين الذي لا زنك فيه

ولكن هذا الانسولين الجديد لم يجرب بعد تجارب وافية واسعة النطاق في المصابين بالبول السكري حتى يستطاع الحكم النهائي عليهِ

***

وقد نشأت فكرة اضافة الزنك الى الانسولين من اكتشاف دنماركي وهو ان اضافة مادة « بروتامين » من سبرمات بعض السمك تطيل مدى فعل الانسولين وقد وصف السر فردريك بانتنغ هذا الاكتشاف الدنماركي بقولهِ انهُ اكبر خطوة في معالجة البول السكري بعد اكتشاف الانسولين

بين العقل والجنون

مشاهدات غريبة

ذكر الدكتور محمد حسين ولاية الطبيب بصحة بلدية الاسكندرية وعضو جماعة نشر الثقافة في كتاب صدر لهُ من عهد قريب بالعنوان المتقدم بعض مشاهدات في الاصابات العقلية والعصبية اخترنا منها ما يلي :

أين مركز الكون ؟

لا ريب أنك ستحار في الاجابة عن هذا السؤال ولكن امرأة من نزيلات احدى مستشفيات الامراض العقلية تؤكد ان الشامة التي على خدها الجميل هي مركز الكون . فما رأي علماء الفلك ؟

يقرأ سابحاً

يشرف منزلي على شاطئ البحر في محطة سبورتنج . . . . وقد استوقف نظري مراراً رجل بدين يقضي الساعات الطويلة في الصباح والمساء في زمهرير الشتاء سابحاً في البحر كأنما خلق ليعيش في الماء وقد رأيت في حركاتهِ وسكناتهِ ما رابني في أمر عقله فكنت أراقبهُ باهتمام ولشد ما كانت دهشتي عند ما رأيتهُ يوماً وسط الماء رافعاً بيده كتاباً الى أعلى خوفاً من ان تبللهُ الامواج وقضى مدة في قراءة هذا الكتاب وقد ثنى رقبته الى الخلف ليتسنى لهُ ذلك ولما خرج من البحر استلقى على بطنهِ فوق الرمال وهو يلعب برجليهِ ويديهِ كالطفل

حديث الطفل

أصيب طفل بالحمى التيفودية وهو في السابعة من عمره فأثرت في قواه العقلية وأخذت تنتابهُ نوبات صرع . وأغرب ما حدث لهُ انهُ أصبح يكرر ما يريد ان يقولهُ مرتين . فاذا أمرتهُ ان يأكل الطعام أجابك مثلاً « أنا شبعان . أنا شبعان » وهكذا

تصيد البراغيث

انها سيدة تصيد البراغيث بشغف وتوثق ارجلها بخيط واحد على بعد سنتمتر بين البرغوث والبرغوث واخيراً تحمل الخيط رأسياً وتشعل النار من طرف الخيط الاسفل وتتلذذ برؤية ضحاياها وهي تحترق

عينان وأذنان وفم

في ذيل ضفدع

وصف الدكتور اوسكار شوتيه احد اساتذة كلية امهرست الاميركية تجربة عجيبة جربها بصغار الضفادع اذ قطع ذيل احداها فلما شرع الذيل ينمو ثانية زرع فيه الخلايا التي تؤلف اصول العينين في صغار الضفادع فنما نسيج العين في الذيل نموًّا سريعاً وكأنهُ أثر في نسيج الذيل النامي فصنع للعين عدسة بل كان نسيج العين الاصلي يحمل في طياته حوافز تحفز النسيج الذي حوله الى تكوين اذنين وفم فتكوّن في الذيل فعلاً بداءة اذنين وفم

الصوف الصناعي

من كاسين اللبن

في خطبة القاها الدكتور هارولد يوري حائز جائزة نوبل الكيماوية لكشفه الايدروجين الثقيل والماء الثقيل قال ان استخراج صوف صناعي من كاسين اللبن «وهو المادة الجبنية فيه» مستطاع وان علماء ايطاليا قد صنعوا هذا الصوف وان رجال فرقتين من الجيش الايطالي يرتدون ملابس مصنوعة منهُ

وقال الدكتور يوري ان منسوجات من هذا القبيل يمكن ان تصنع من قطع اللحم التي لا يسهل مضغها فيحول بعض ما فيها من المواد الى نسيج يرتديه الغواني في الربيع او الرجال في السهرات

ثعبان في المثانة

نشر الدكتور جيارمن في المجلة الطبية الاميركية كلمة عن حالة غريبة قال: حضر لعيادته في ٧ يوليو سنة ١٩٣١ مريض اعزب عمره ٤٠ سنة يشكو منذ خمس عشرة سنة ألماً في المثانة وتعسراً في التبول مع تكراره وقلة البول فيه وأنهُ ادخل من يومين ثعباناً صغيراً الى المثانة على امل ان يشفيه من العلة المزمنة فيها

وقد دل بحث البول على وجود كريات حديدية بكثرة فيهِ وأظهر فحص الاشعة والمنظار وجود الثعبان في المثانة وبعد محاولات عديدة تمكن من القبض عليهِ بكلاليب المنظار واخراجه منها

وبلغ طول الثعبان نحو ١٨ بوصة و٤٥،٧ السنتمتر وشفي المريض

احصاء غريب

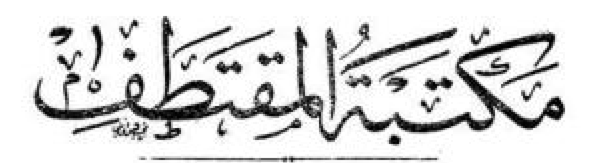
يزيد عدد سكان الولايات المتحدة الاميركية واحداً كل ٣٥ ثانية ذلك ان ولادة تقع كل ١٤ ثانية ووفاة كل ٢٢ ثانية ويدخل اميركا من الخارج مهاجر اليها كل ١٤ دقيقة ويغادرها مغادر كل ١٤ دقيقة ونصف دقيقة

غاز النيون في بعض السدم

غاز النيون مشهور في عصرنا لانهُ يستعمل في الاعلانات التجارية على المخازن اذا يتألق بضوءٍ أحمر عند ما يوضع في أنابيب معينة ثم يخترقها تيار كهربائي . ولكنهُ نادر على الارض . الاَّ ان الدكتور «منزل» أحد علماء مرصد جامعة هارفرد أثبت انهُ كثير في عالم النجم وان مقدار في ما بعض السدم الغازية التي داخل مجرتنا يساوي مقدار الأوكسجين فيها

انقلاب الجنس في الضفادع

شوهد انقلاب الجنس في كثير من الحيوانات المائية الارضية (البرمئية أو القوازب) كالضفادع وغيرها . وقد جمع كرو سنة ١٩٢١ عدداً كبيراً من الضفادع انقلبت من اناث الى ذكور وعلل ذلك بحصول انحلال في نسيج المبيض فيما نسيج مولد للسبرمات بدلاً منه وروى العالم المشار اليهِ ان بعض هذه الضفادع عملت فعلاً عمل الذكور وامكنها ان تلقح وتخصب الاناث وكان النسل الناتج كله اناثاً وهو بالضبط ما يتوقع (لسبب علمي يتعلق بأساليب الوراثة لا محل لبسطهِ هنا)



بحث نفسي اجتماعي في

عالم السدود والقيود

تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد

سواء أكان السجن معهداً للعقاب او الانتقام، ام داراً للاستشفاء، ام مدرسة للتهذيب والاصلاح، وسواء أزعم الحكام والمتشرعون انه خلوة يختلي به المذنب ليحاسب ضميره عما اقترف، ام وسيلة توقظ العوامل الانسانية الكامنة في النفس عن طريق الحجر، ام مطهراً يتطهر به الضمير بنار التبكيت، سواء اجعل السجن لهذه الاغراض ام لسواها، فانهُ يبقى جحيم عذاب يتقلب على جمرها مخلوق فرضت عليه القوانين الوضعية القصاص ولا يسلم من حروقها الأ رجل سمت بهِ ثقافتهُ وارتفت بهِ روحهُ الى مصاف الكمال

روّاد السجون واحد من ثلاثة، شرير مفطور على الاجرام لا يصلحهُ التعذيب ولا الانتقام، ومدفوع اليد زلت بهِ القدم فهوى فان قدّرت له النجاة فانما ينجو بنفس محطمة واعصاب متخاذلة، ورجل جارت عليه الاحكام فكان الجور مدعاة الى استفزاز همته واثارة نخوته وتصلبه في عقيدته

كنت احسب السجون تسم روّادها بوشم الحقد الذي يتمدد مع تمادي السنين ويبرز اثره كلما اوغل المرء في الاندماج بالاوساط الاجتماعية، حسبت ذلك حقيقة ثابتة في النفس البشرية وقد قدر لي ان استهل حياتي السياسية بالايواء الى السجن ثم الافلات من حبل المشنقة، وكنت كلما جال السجن بخاطري او عرضت حالات المسجونين امامي، اشعر بالوجع من ذلك العذاب القديم وأحس بالغصة الدافعة الى الانتقام من اولئك الاشرار الذين سعوا الى الزج بي في هاتيك الغيابات، وكنت اتناسى ما افادتني حياة السجن من تعلم الالتفات الى حياة المسجونين، ومراقبة احوالهم، ودرس نفسياتهم، والاعتبار بأدوائهم ونوازعهم وما علمتني ايضاً من الثقة بالنفس والاعتماد عليها وحدها، ومن إباء الانقياد لارادة الفرد او السخرة للجماعة المتحزبة.

فاعتماداً على هذا الحسبان، قرأت كتاب «عالم السدود والقيود» وفي نفسي توق ملحّ الى دغدغة اجدها فيه تسكن في نفسي ألماً مزمناً وجيعة من اناس ضللوا شباناً كثيرين غيري لم ينج اكثرهم من اعواد المشانق، غير اني لم الق في الكتاب شيئاً مريراً من ذلك، ولم يشعرنا مؤلفهُ الفاضل بوطأة الالم على نفسهِ وجثوم كابوسهِ على صدره، ولا تحفزه الى الانتقام والتشفي من الحكام او السجّان أو القادة او غيرهم، فما سبب ذلك يا ترى والاستاذ العقاد كما يعرفهُ كل الناس، أبي النفس، مرهف الحس، دقيق الشعور الى أبعد الحدود ؟

قد أقترب من الحقيقة اذا أعدت ذلك الى ثلاثة أسباب :

الاول : أن مقام الاستاذ العقاد في السياسة مقام الملهم لا المستلهم ، والقائد لا المقود ، وشتان بين رجلٍ صاحب رسالة وعقيدة في الحرية والاستقلال يبثهما في الناس ، وبين آخر يستوحي أصحاب العقائد ليساعدهم في اذاعة رسالتهم سواء في الحرية والاستقلال او في سواهما

والثاني : هو تسامي روح العقاد عن هنات المجتمع ووضاعته ، وترفعه عن أخذه بنجيرته ، ودأبه في تسديد خطاه وتوجيهه صوب قبلة الحياة

والثالث: هو المقدرة على التحول من جهة الى جهة معاكسة مع المعرفة ما بين الجهتين من تقارب وتباعد

هوذا ما أحسبها أسباباً لتنحي المؤلف عن النقر على الاوتار الانينة في حياة السجن ، وقد يكون هناك أسباب دافعة لم يذكرها المؤلف او تحاشى ذكرها ، وقد تكون كبرياء منهُ على الالم واحتقاراً لهُ ، وقد تكون معاملة طيبة من السجانين خصّوه بها فأنسته وطأة القيود وثقل الحجْر ، وسواء أكان هذا ام ذاك ، فان الذي لا شكّ فيهِ ان لتسامي الروح المقام المقدم في هذا الكتاب . ويجدر بي قبل استعراض أبرز خصائص هذا المؤلف الثمين أن أروي الحادثة التالية

حدثني أحد المزورين من سياسة الاستاذ العقاد قال : ان تعجبت من تحير هذا الرجل المخوف الذي لا يعرف الملاينة ولا الانحراف حتى عن سبيل العاصفة الهوجاء ، والذي تنم قسمات وجهه ونظرات عينيه على العنجهية والكبرياء ، والذي تسمعك كل كلمة من كلماته رجع صدى القوة الصارمة والحق الصريح ، فاني أعجب لروح الانسانية يشيع في فصول كتابه كلها ، وروح النكتة اللطيفة ، والفكاهة الظريفة ، والسخرية اللاذعة يفيض بهِ ، وسألني تعليل ذلك ، فابتسمت وأجبت : ان هذا الذي ذكرت يا صاح ليس سوى مظهر بسيط من مظاهر العبقرية التي تجمع بين طرفي الأمر الواحد بسهولة وعدم تكلف . فالعقاد العنيف الجبار هو بعينهِ العقاد اللين السلس ، والعقاد الانوف المتكبر هو هو الحنون المتواضع ، وحسبهُ رفعة وسمواً احدبهُ على المجتمع المريض فيواسيه تارةً برفق ولين وتارةً أخرى بالمبضع والمنشار تحدوهُ في الحالين نفس مفطورة على الحب . وحسبهُ انهُ دخل السجن وخرج منهُ بروح واحد لم يتقلقل او يتبدد انما أضاف الى ذخيرة معرفته بالحياة معرفة طائفة من الناس بعيدة عن الناس تأوي بقعة في الارض جدباء قاحلة من الرحمة والرأفة

تكفل للقارىء صفحات كتاب « عالم السدود والقيود » بان يستعرض عالم السجن كما استعرضهُ المؤلف دون ان يقيم مثله فيهِ تسعة شهور ، ويقرأ فيها خلاصة ما رأى السجين واحسّ وفكر ، كما يقرأ قصة الذهاب بهِ الى سجن « قره ميدان » ورحلته الى هذا المكان الواحد الذي « كأنهُ العالم باسره بارضهِ وسمائهِ ، والذي كأن العالم الخارجي جزء لاحق مضاف اليهِ »

« والذي هو شط والدنيا كلها شط آخر يتقابلان ويتناظران » يقرأ فصولاً مستقلاً احدها عن الآخر استقلالاً تامًّا ومرتبطاً في الوقت ذاته باخوته ارتباطاً فنيًّا عجيباً ، وهي بين هذا الاستقلال والارتباط كاعضاء الجسد الانساني الذي يشيع فيها الروح الالهي

قلت ابرز خصائص الكتاب « الروح الانساني » وهو شائع في فصول يربطها بعضها ببعض كما تربط نغمات الموسيقى الوترية الحادثة وذبذباتها الناعمة ، نغمات الموسيقى النحاسية او تجعل من تعدد اصوات الآلات وحدة كاملة ، وقد احدث شيوع هذا الروح في فصول الكتاب قصة منسجمة متلاحمة محبوكة معقودة ببراعة المؤلف القصصي ، لذلك اقر بالعجز عن التدليل المادي عن خصائص الروح بالذات لأنها تدرك بالزكانة والفطانة . اما الدلالات على روح النكتة والفكاهة والسخرية فمركزة في كل فصل ، اسمع ملخص الواقعة التالية

ضبط السجان سجينين زيفا ثماني عشرة قطعة من ذات القرشين في معمل السجن واتقنا صنعها جداً الاتقان ، مع السرعة وقلة الادوات وشدة الحذر من الرقباء ، فتوهما ان جزاء التزييف خمس سنوات ، فالتفت احدهما الى زميلها العقاد السجين سائلاً « اصحيح ان الحكاية فيها خمس سنوات » قال الاستاذ : « طاب لي ان اداعب مهارة هذين الشيطانين ، واخذت اشرح لها ما اعتقد الفارق بين التزييف في الخارج والتزييف في داخل السجن وقلت لها أن المزيف في الخارج يختلس حق الحكومة وحق الناس ولكن المزيف هنا يختلس ما هو مختلس بطبيعته ومستحق للمصادرة عند ضبطه وليس على هذا عقوبة اكثر من عشرين او ثلاثين جلدة فانطلق احدهما يدعو لي بالطمأنينة وارتقاء المراتب والصحة والعافية وكل شيء . . . . « قلت هداك الله يا صاح ، ولكن هذه الدعوات الصالحات هل تراها « عملة صحيحة » عند صيارفة السماء ؟! »

قصة ثانية « . . . . ان الاطباء قرروا بعد ايام من دخولي السجن وجوب وضعي في مستشفاه ومعاملتي في اختيار الطعام والفراش واوقات الرياضة معاملة المرضى « ولكن ماذا حدث بعد هذا القرار ؟ هل نقلت الى المستشفى كما يقضي العقل والنظام ؟ كلاً ! انما الذي حدث انهم اعتبروا الحجرة التي انا فيها ملحقة بالمستشفى وانقضى الاشكال ! ! ! »

قصة ثالثة « . . . . . . واحتلنا على صاحبنا . . . . حتى باح لنا بذلك القسم ، فاذا هو آيات يكررها القائل ثلاث مرات وهو متوضىء فتحصل المعجزة . . . . . وقد رأيناه فعلاً يخط للنمل خطاً على الحائط ويتلو القسم فيرجع النمل عن الخط او يسقط دونه ، وجربنا نحن القسم فصحت التجربة وايقنا برهة اننا نملك سرًّا من اسرار السحر المتصرف في خلق من خلائق الله حتى خطر لنا يوماً ان نرسم الخط ولا نتلو القسم . فما راعنا الا ان تصح التجربة بغير تلاوة كما صحت بالوضوء والتلاوة ، فعرفنا السر ولكنا اسفنا على السحر الذي فقدناه »

السائد في اذهان بعض الناس ان الذكاء طبيعة في طوائف النمل ، فجرياً على هذا التخمين وامتحاناً لتجربة النمل السالفة طاب للاستاذ العقاد ان يمتحن هذا الذكاء ولكن بغير وضوء وآيات لقد ساعدته اسراب النمل وطوائفها القاطنة في شقوق غرفته في السجن على اتيان التجربة التي اسفرت ، على ان هذه المخلوقات الموصوفة بالذكاء انما تعمل بغير « تفكير » كانها من الآدميين

قصة رابعة : حضر الواعظ ليعظ السجناء المسيحيين ، وكان يروق الاستاذ العقاد ان يشهد هذه الحلقات ويسمع الوعظ ، « فيطيب لي ان ارى التوراة منقولة الى عالم الخيال الفطري ، والتصور الشعري ، والتمثيل الفني الذي لا تكلف فيه » « وكان من عادة الواعظ اذا فرغ من شرحه ووعظه ان يطلب الى احد السجناء ان ينهض للصلاة والدعاء ويجهر بما يجيش في نفسه ونفوس زملائه » « ولا احسب احداً منهم — اي السجناء — كان يجيد الكلام في دعائه وصلاته كما كان يجيده رجل من اضراهم بالشر واولاهم بالعقاب واسوئهم سيرة بين السجناء ، وان شهدوا له بالبراعة والذكاء وهو تاجر مخدرات مشهور » « سمعته مرة يصلي ويذكر خطايا الخاطئين وآثام بني الانسان . . . فسألت عنه فقيل لي هذا فلان صاحب الحيل المعروفة في ترويج المخدرات وكنت سمعت عنه وعن قضاياه واحابيله في ايقاع صرعاه ، واغرائهم بتناول السموم وادمانها ، فقلت لو كان هذا المصلي الخاشع يدعو الله ليستجاب دعاؤه لما دخل السجن ولا قام مقامه هذا للصلاة فيه! ولكنها حيلة جديدة من حيله الكثيرة، ولعلها ايضاً من حيل التخدير »!!

وقس على ذلك في التهكم والسخرية والنكتة وما اليها الشيء الكثير ، اما دقة الملاحظة ، وقوة الاستنباط والبراعة في الاستقراء ، والحصافة في الحكم فاكثر من ان تحصى اقتصر على اقتباس بعضها

« في معظم السجناء عاطفة مصرية لاحظناها في جميع المصريين على تباعد الطبقات والاقاليم ونعني بها « عاطفة العائلة » وما يتفرع عليها من رعاية الارحام والاسنان »

مرّ سجين من العائدين في جريمة السرقة بطفل واقف في فناء السجن ينتظر ترحيله الى سجن الاحداث « فرفع الطفل رأسه وناداه بلهجة المسكنة التي يستشعرها الصغير في غيبة أهله وقال له « جوعان » فتمهل اللص العائد هنيهة ثم قال له « ماذا أصنع لك يا ابني وانصرف . . . . . . ثم عاد بعد دقائق ومعهُ رغيف سرقهُ من الخبز فقسمهُ نصفين وأعطى الطفل نصفه . . . . »

مثل ثان : تلاحى شيخ فانٍ وفتى عارم مشهور بالشر والعربدة ... فسبهُ الشيخ سباً لا يطيقه فتىً من سنهِ ... فما صنع الفتى المسبوب الا ان بدا عليهِ الدهش والتردد ثم هزَّ رأسهِ وقال لمن معهُ « انظروا الى الرجل الشايب يعيب ولا يخجل » وقال للرجل الشايب « لو غيرك قالها لقتلته »

« وهذه على التحقيق ظاهرة اجتماعية ملحوظة في اخلاق الامة المصرية بأسرها ، سببها فيما أرى قدم العهد في هذه الأمة بحياة الأسرة والحياة الاجتماعية والبيتية على اجمالها »

على هذا الضرب البارع من الاستقراء والاستنتاج يقيم الحجة على ان السجون تبلد الاذهان وتعمي البصائر ولا تنال النفوس بتهذيب او اصلاح ، ويقص قصة فتى قتل اخته استدرجهُ رفاقه الى شرح الواقعة فيسردها بالتفصيل فيقول الاستاذ العقاد عنهُ « فلو انه كان يتكلم عن ذبح شاة او دجاجة لما اختلف الامر ولا تباينت اللهجة ، ولا كان أقل من ذلك مبالاة بما يقول واسترسالاً في النكات والمزاح كلما عبث به اصحابه وتعمدوا احراجه واستفزاز طبعه وليس هذا كله من الغيرة على العرض والنخوة للكرامة ، فان الغيرة على العرض تثير الغضب والنقمة ولا تخلق البلادة ولا تعمي الانسان عما صنع بعد فوات الثورة وسكون الهياج ويقظة النفس للذكرى والاستعبار والاسف على ما كان من سبب القتل والاضطرار اليه »

يستدل الاستاذ مؤلف كتاب «عالم السدود والقيود» على طبيعة المسجونين من الفكاهات التي يتفكهون بها والغناء الذي يغنونهُ فيتخذها مقياساً لمعرفة الخير والمحبة الانسانية في نفوسهم ، فيأتي بالبينات على ان اهل الخير فيهم قليل « وهذا القليل الموجود ينشف — في أغلبه واعمه — عن معدن وضيع او معدن مشوب ، وان لم يجز لنا ان نقول ان الخير فيهم معدوم ، وان صلاحهم ميئوس منهُ »

يضيق بي المجال اذا تناولت فصول الكتاب جميعها ، ففصول « الطعام ومطالب الجسد » و « بعض الشخصيات » و « الجريمة والعقاب » و « بعض الاصلاح » خليقة بالدرس العميق ، جدير بالرجال المتصدرين للاصلاح الاجتماعي سواء أكانوا كتّاباً ام نواباً ، قضاة أم حاكمين ان يمعنوا نظرهم ويطيلوا تبصرهم فيها لانها خير منارة يهتدون بنورها الى انقاذ عشرات الآلاف من المسجونين تضيف السجون ونظمها الى امراضهم الطبيعية ادواء خلقية لا خلاص لهم منها ولا رجاء من شفائهم من عللها الطبيعية والاكتسابية

بودي ان لا اهيب فقط بكل اديب وأديبة قراءة كتاب «عالم السدود والقيود» بل كنت اتمنى — لو في وسعي — فرضه على طلاب الادب فرضاً فيتطعمون بالروح الانساني المحض ويتذوقون الادب العالي الرفيع . ولا يفوتني هنا ان انوه بالكتاب العظيم الذي وضعه الاستاذ العقاد في « سعد زغلول » لاني اعتقد ان فصوله الاولى من أبرع وأمتع وأسمى ما كتب كاتب في الدروس الوطنية وفي تحليل الشخصية المصرية ، وانهُ في مجموعه ككتاب في ترجمة الزعيم سعد زغلول يبز اكثر الكتب من نوعه التي وضعها اميل لدويج وأندريه موروى واوكتاف ابري ويساوي كتب استفان سفايج عميد كتاب التراجم في هذا العصر في عمق الدرس ودقة التحليل

التنويه وحده بقيمة كتاب « سعد زغلول » أتم ، والاشادة باقداره الادبية والاجتماعية فرض على كل كاتب ، وعندي ان الانصاب والتماثيل مع روعتها لا تمثل عظمة زغلول الرجل كما يصورها على حقيقتها الطبيعية الحية كتاب « سعد زغلول »

حبيب زحلاوي

المتنبي أيضاً !

كتاب المعهد الفرنسي بدمشق

انها لسنة المتنبي . سنة ظفر فيها الشعر بفضل أمير من أمرائه بالمكانة اللائقة به في هذا العالم، تلك المكانة الآخذة بالانحلال لسطوة المادة على الأنفس

وقد عرض المقتطف بالنقد لجل ما ألف في المتنبي أخيراً سواء في اللغة العربية أو اللغات الافرنجية . وهذا مؤلف جديد باللغة الفرنسية يخرجهُ المعهد الفرنسي في دمشق [١] رغبة منهُ في ان يشارك أبناء العربية في احيائهم لذكرى المتنبي واشادتهم بفضلهِ

ينطوي المؤلف على ست مقالات لطائفة من المستشرقين نسوق زبدتها لقراء العربية :

يطلع علينا الاستاذ ماسينيون Massignon في المقال الأول بآراء عجيبة أول الأمر مستقيمة النواحي في الحقيقة ، ومجمل قوله ان المتنبي المولود في البيئة اليمانية في الكوفة نشأ في هذه المدينة وفي البادية في جو قرمطي محض وان هذا القرمطي نزعة لم يرعو كل الارعواء وان غلب على أمره . ثم انهُ لم يرض كل الرضا بشيعة أمراء الشام الحمدانية فاضطر ان يتجر بمنظوماته في انفة وقحة خاصتين بمذهب الاسماعيلية

ذلك الرأي الذي أتى بهِ المؤلف وانطلق يؤيده بالشواهد المختلفة فدل على قرمطية المتنبي بألفاظهِ وصورهِ واعتقاداتهِ وتهكمه حتى بيانه . وهنا نرى ان الاستاذ ماسينيون ذهب في الاستشهاد ببيان المتنبي مذهباً فيهِ شيء من الغلو ، فاستشهاده مثلاً بهذا المصراع

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

على ان المتنبي كان يعمد الى الطباق المعنوي على الطريقة القرمطية، مسئلة فيها نظر . ذلك ان قرّاء الشعر العربي القديم انما يرون في هذا المصراع تركيباً لفظيًّا اتباعيًّا متعارفاً

وصفوة القول أن مقالة الاستاذ ماسينيون غاية في اللباقة ، ولا يفوتنا ان نذكر ان الدكتور طه حسين بك انتفع بها في تأليف كتابه الاخير « مع المتنبي » (مصر ١٩٣٦ ، راجع ص ٥٣ ، ٦٤ ، ١٥٤ ، ١٦٩)

وفي المقال الثاني يصف لنا الاستاذ سوفاجيه Sauvaget مدينة حلب ايام سيف الدولة . فيخبرنا أنها لم تكن على جانب عظيم من الاتساع ولا المدنية لتمزق نواحي الشام وعدم

---

(١) Al Mutanabbi. Mémoires de l'Institut Français de Damas. Beyrouth 1936.

استقرارها وقلة اطمئنان اهلها . ولم تكن التجارة لترفع من شأن تلك النواحي لانها كانت في ذلك العهد محتضرة بسبب النضال الذي بين المسلمين والنصارى . فحلب المحبوسة بين التخوم البيزنطية والممتلكات الاخشيدية ومسالك البدو لم تقو على صرف منتجاتها الاّ الى جانب من الشام الشمالية . واما المدينة نفسها فكانت على الحال التي كانت عليها قبل الفتح الاسلامي ايام ملك الروم . ولم يضف اليها سوى الجامع وقصر سيف الدولة

والمقال الثالث موقوف على عروبة المتنبي . وفيه يدل الاستاذ ليسرف Lecerf على ان المتنبي وقف للشعوبية وقفة الحازم الفاتك واعلن ان الارومة العربية ولا سيما اليمانية لا تعدلها ارومة . وان الامم انما يضخم شأنها بنبلها الوراثي وكرمها الطبيعي وشجاعتها وفتوتها ، والامة العربية تجمع هذه الخلال الى حد بعيد جداً . ثم اعلن ان هذه الامة يفسدها ويسقط همتها عبيد من العجم يتحكمون فيها . فالمتنبي بهذا وضع الحجر الاساسي للعروبة الفعالة التي تعتمد على الماضي الزاهر لتشد من ازرها في الحاضر . وهي حال نلمسها اليوم في البلاد العربية

واما المقال الرابع فقد اجمل فيه صاحبه الاستاذ بلاشير Blachère الكتاب الذي الفهُ في المتنبي في اللغة الفرنسية وهو الذي أشرنا اليهِ في فصل مؤلفات المستشرقين بهذا الباب في مقتطف ابريل من هذه السنة

وفي المقال الخامس سرد الاستاذ جودفروى دومامبين Gaudefroy-Demombynes اسباب مجد المتنبي . ففي رأيهِ ان شاعرنا بلغ القمة بثلاثة اشياء . اما الأول فعربيته وعروبته إذ ارتد الى المقدمين من الشعراء الاولين في اسلوبهِ ولغتهِ وغلوهِ في النضال عن القوم والارومة وفي « حماسته » وفي مدحهِ للشجاعة والبسالة وفي انتصاره للعرب ووقوعهِ في الاعاجم . وأما الثاني فخياله المضطربة « الرومانتيكية » التي كثر فيها الطعن والضرب فردته بطلاً من ابطال الشعر العربي كأجداده وفي مقدمتهم عنترة وعمرو بن كلثوم . وأما الشيء الثالث فبلاغته اذ في شعره من الجزالة والروعة ما لا يصيبه الناس الاّ عند الفحول من الشعراء الاقدمين . فضلاً عن ان المتنبي عرف كيف يضمن هذا الشعر القديم الاخاذ افكاراً جسيمة فجاءت طائفة من ابياتهِ آيات الشعر المحكم الرصين

بقي المقال السادس . ويبحث صاحبهُ الاستاذ كانار Canard في اتصال شعر المتنبي بالحرب التي كانت قائمة بين بيزنطة والعرب . وخلاصة البحث أن ما قاله المتنبي في حوادث تلك الحرب بعيد عن ان يكون مستنداً تاريخياً للغلو الذي فيهِ ارضاء لسيف الدولة . وانما على المؤرخ ان يراجع هذا الشعر ليفهم الزمن الذي وقعت فيهِ الحرب وليجعل للحوادث الواقعة حقاً اطاراً فنياً جذاباً

ب . ف

القانون الدولي الخاص المصري

تأليف حامد زكي — الطبعة الاولى ١٩٣٦ — ٧٥٢ ص من قطع المقتطف

« آفة التأليف الاسراع فيه ، وخير التآليف ما جاء ثمرة بحث وتفكير طويلين . تلك حقيقة ناصعة لا يجحدها الا المكابرون . . . . ويؤلمني ان أقرر هنا ان جانباً كبيراً من المؤلفين المصريين قد أهمل المبادىء السليمة السابقة . فمنهم من حاول القفز الى القمة مباشرة متعامياً عن جميع العقبات الماثلة في طريقه... » . بهذه الكلمات صدر الاستاذ حامد زكي مؤلفه. وكم أصاب في تصديره إذ ان في مصر طائفة من الكتبة يظنون التأليف سواء اكان أدباً او علماً واقفاً بالباب منقاداً للقلم

ودلالة على ما صدر به مؤلفه اخرج الاستاذ حامد زكي الدكتور في العلوم القانونية والاقتصادية والسياسية من جامعة باريس وأستاذ القانون المدني والقانون الدولي الخاص بكلية الحقوق في مصر كتاباً جمع بين البحث والدقة وبين الروية والتقصي . والكتاب ينطوي على خمسة فصول مطولة : الاول في موضوع القانون الدولي الخاص وتعريفه ، والثاني في تنازع القوانين ، والثالث في تنازع الاختصاص ، والرابع في الجنسية المصرية والموطن والدين ، والخامس في حالة الاجانب (المقيمين بمصر) . وتحت كل فصل من هذه الفصول تندرج ابواب عدَّة لكل منها مكانته ، ولا يسعنا هنا ان نعرض لها بالجملة . والتحقيق ان كتاباً مثل هذا خليق بأن يقرأ من ألفه الى يائه اذ فوائده جمة ومناحيه غفيرة

الا انهُ لا بدَّ من ان نشير الى ميزات ثلاث يختص بها كتاب الدكتور حامد زكي . اما الميزة الاولى فتجلي الروح المصرية فيه ، اذ ترى المؤلف ينتصر للقضاء المصري والعدالة المصرية ويندد بسطو الاجانب ويدفع اقوالهم الواهمة ثم ينظر الى القانون الدولي الخاص على انهُ قانون وطني مصري لا على انهُ قانون دولي عام او مقارن . واما الميزة الثانية فسهولة مطالب الكتاب من حيث وضوح مسائله واستقامة مناهجه وتلاحق فقره ، وفي هذا لطلبة كلية الحقوق خير عظيم. واما الميزة الثالثة فاستقلال ذهن المؤلف وجرأته على قول ما يبدو له حقاً وصحيحاً . ولكن مثلنا على هذا ما ذهب اليه المؤلف عند الكلام على قانون الاحوال الشخصية للمصريين عامة (ص ٦١١) من « ان الاصوب هو الاخذ جملة واحدة باحكام تشريع وضعي حديث كالتشريع السويسري مثلاً منقحاً بما يلائم عادات اهل البلاد والغالب المتعارف على معتقداتهم ، وذلك اسوة بما حصل في تركيا الحديثة حتى بشأن الاحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين » [1]

ب . ف .

---

(١) جل ما يؤخذ على هذا الكتاب النفيس مادة اغلاط مطبعية معدودة وامت في الالفاظ الاعجمية (مثلا ص ١٤٦ ، ١٨٨ حاشية ، ٤٨٣ ، ٤٩٧ حاشية ، واخرى لغوية (مثلا ص ٥ آخر سطر ، ص ٩٩ س ٤١٧ ، ص ٤٨٨ س ١١ ، ص ٤٨٤ س ٧ ، ص ٤٩٩ س ٢)

ديوان حافظ ابراهيم

ضبطه وصححه وشرحه ورتبه الاساتذة أحمد أمين واحمد الزين وابراهيم الابياري طبع في جزأين : الاول في ٣١٨ صفحة والثاني في ٣٦٢ صفحة قطع المقتطف — طبعة دار الكتب المصرية

حافظ شاعر عبقري دوّت نغمات نايه في آفاق الأقطار العربية ، ورنّ صدى ألحان قيثاره في العالم الاسلامي ، نيفاً وثلث قرن ، في حلاوة جرس ، وطلاوة لفظ ، وحسن تأليف ، وجمال تنسيق ، بزّ في ذلك جميع شعراء عصره سوى شوقي كما يقول هو :

لم أخشَ من أحد في الشعر يسبقني الاّ فتىً ماله في السبق إلاّهُ
ذاك الذي حكمت فينا يراعتهُ وأكرم الله والعباس مثواهُ

ولست بسبيل التعريف بحافظ الشاعر وقد عرفهُ الناس وأنا ما ازال في المهد صبيًا ، غير اني لا اجد مندوحة عن ان ألم بأطراف حياته في اسطر : فلقد قضى شطر حياته الاول فقيراً معدماً ، يضطرب في نواحي الحياة فلا يصحبهُ سوى الفشل والملل ، متصعلكاً لا يجد ما يقوم بأوده فيستشعر الالم والحسرة في نفسهِ ، ويطلب العلا فيخفق مرة بعد مرة . . . وفي الشطر الثاني يجد الرزق والاطمئنان في وظيفة في دار الكتب . وحريٌّ بهِ ، وقد ذاق مرارة العيش ولذع الفقر ، ألاّ يفرط فيها فيهوي الى قرارة البؤس مرة اخرى . وحالت الوظيفة — كما هي دائماً — بينهُ وبين ان ينفث عن نفسهِ بعض ما يتأجج فيها من آلامه وآلام وطنهِ وآمالها ، فانطوى على ألم يتغلغل في صميم فؤاده ، فكفّ كثيراً عما كنا نصبو اليه من حماسة مشتعلة ووطنية متسعرة . ولقد وجد لهُ الاستاذ احمد امين عذراً نقره نحن عليهِ...وحافظ لم يتخرج في مدرسة سوى تلك التي خلقها لنفسهِ من عباقرة الجيل وأفذاذه من العلماء والادباء والسياسيين ، فلم يدرس دراسة منظمة ، ولم يقرأ قراءة مرتبة ، ولم يبحث بحثاً فيهِ الاستقراء والاستنتاج ولكنهُ كان كالنحلة تمتص رحيق الزهرة التي تقع عليها لتتمثله . وكان حافظ يقول الشعر في مناسبات — شأنهُ في ذلك شأن سلفهِ — ينشره حيناً او يدسهُ على هون إن خشي كيد الكائدين ، حرصاً منهُ على رزقهِ ، وإشفاقاً على نفسهِ ان تذوق الهوان والذلة . وكان رحمهُ الله — متهاوناً مهملاً ، لا يأخذ نفسهُ بنظام ولا يعني بترتيب ، فانتثر شعره وتمزق ، ولفتهُ الايام في ملاءة النسيان ، الاّ مانشرتهُ الصحف او ما حفظهُ أصدقاؤه ، ولو اننا ندبنا حافظاً نفسهُ ليجمع ما تبعثر من شعره للقي عناء وجهداً دونهُ كل عناء وكل جهد ، ولأصابهُ الكلال والملل ، فما بال الذين قاموا عليه !

وها هو ديوان حافظ في طبعتهِ الجديدة الانيقة المرتبة يجذب النفس ويستهوي القلب ويغري بالمطالعة والامعان فيها ، ثم هو في ضبطهِ وترقيمهِ يفيد الطالب والمتأدب معاً كما يعين الاديب على بغيته ويوفّر عليهِ مشقة البحث والتقصي ، وهذه منة اخرى للاساتذة . ولقد نظرتُ في الديوان نظرة عجلى فراعني ان يفلت من بين ايدي الاساتذة بعض اخطاء أضرب مثلاً منها : ففي صفحة

٩ من المقدمة في الجزء الاول ذكر البيت الآتي ضمن ابيات كان حافظ يندب فيها سوء حظه وضيعة أمله وهو ما يزال صبيًّا لم يطرّ شاربهُ بعد ، وهو : —

وللموتِ ، مالي قد أراه مُباعداً وحُلّ مرادي أن أُوَسَّد حالاَ

ولعل صحة المصراع الاخير هو « وجلّ مرادي أن أوسد جالاَ » (بالجيم لا بالحاء المهملة) والجال جانب القبر والبئر وما جرى مجراهما وفي هذا المعنى يقول النمر بن تولب

غدتْ وغدا ربٌّ سواه يقودها وبُدّل أحجاراً وجالَ قليبِ

والمعنى بهذا أدق وأرق وأفصح وأقرب للمعنى المراد من الابيات ، وهذه التفاتة سريعة نرجو من الاساتذة ألاّ يغفلوها . وليست هذه الاخطاء ، وان كنت لا اظنها الاّ بعض سهو الانسان ، مما يضع من قيمة المجهود الفذّ او مما يحط من قدره

ولقد ظهر ديوان حافظ في ثوبهِ القشيب وديباجته الرقيقة ليشعرنا ويشعر العالم العربي أن كرم وزارة المعارف العمومية المصرية لم ينقطع فيضه عن حافظ في مماتهِ ولا هو انقطع عنهُ في حياتهِ ، فلقد عطف عليهِ المرحوم احمد حشمت باشا وهو ناظر للمعارف فعينهُ في دار الكتب في سنة ١٩١١ فاستقرّ بعد اضطراب وهدأ بعد تقلقل ثم . . . ثم خلفهُ صاحب المعالي علي زكي العرابي باشا فأمر — وهو وزير المعارف أيضاً — بجمع شعرهِ في سنة ١٩٣٦ ليكون ديواناً كاملاً أنيقاً يغني الادباء عن التخبط وينزع عنهم الشك ، فكأن وزارة المعارف قد طوقت جيد شاعر النيل بمنن لن ينساها الجيل الحاضر ولا الاجيال من بعده ما دامت العربية السمحاء . ولا يسعنا — نحن أسرة المقتطف جميعاً — الاّ ان نشكر لوزير المعارف فضله على الناطقين بالضاد في هذه الباكورة الأدبية وللاساتذة الذين اشرفوا على اخراج الديوان . وانا لنتوجه الى الوزارة طالبين ملحين ألاّ تقطع سيلها الفياض في هذه الناحية ولها من الله حسن الجزاء. كامل محمود حبيب

الفارابي

تأليف الخوري الياس فرح . جونيه (لبنان ١٩٣٧) ١١٤ ص من قطع المقتطف

اذا تلمست في هذه الرسالة رأياً طريفاً او بحثاً مستفيضاً عميقاً خرجت من قراءته قليل الحظ مما تلمست . ذلك انها رسالة تبذل اشياء عن الفارابي دون ان تذهب في العرض والاستدلال والاستخلاص مذهباً اتسعت نواحيه وعلت طرقه . فميزة هذه الرسالة — على تواضعها — انها تسوق الى القارىء العربي جانباً فاخراً من جوانب الفلسفة الاسلامية العربية . إذ فيها معالجة استقصاء لشؤون المعلم الثاني بطريقة سهلة وافية . ويغلب على المؤلف طريقة المدرس فترى قلمه يجري مجرى المعلم الذي لا يخطو خطوة الاّ وقد احكم الأولى . وعسى ان يواصل الخوري الياس فرح استاذ الفلسفة العربية في معهد القرير بجونيه التصنيف في الفلسفة العربية فيخرج مثل هذه الرسائل المفيدة التي بها يستطيع القارىء العربي العادي ان يفطن الى تراث اجداده في عالم الفكر والتأمل ب .

من حديث الشرق والغرب

تأليف الدكتور محمد عوض محمد طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

لقيت الدكتور محمد عوض أول ما لقيت في عالم الفكر قبل أن ألقاه في عالم الحس. وكان ذلك من زمن بعيد عرفته فيه قوي البناء في أسلوبه العربي. ثم تتابعت الأعوام واذا بي في النادي المصري في لندن منذ ثلاثة أعوام أقدم الى مصري طويل القامة أسمر اللون اسمه الدكتور محمد عوض . . .

ومنذ شهرين وقع في يدي كتاب اسمه (من حديث الشرق والغرب) لصاحبنا الدكتور عوض فقرأت منه ما مكنتني الظروف أن أقرأ . . وطويته على ان أعود اليه في فرصة مواتية وظرف قريب . واليوم اذا برئيس تحرير المقتطف الفاضل يكلفني الكتابة عن هذا الكتاب فأراني لا أجد سبيلاً الى عصيان أمره مع ان الكتابة عن الكتب من أشق الاشياء على الكاتب الذي يتحرى الصدق في كتابته لأنها قد تغضب الناس منه وتثيرهم عليه. الاَّ ان الأدب الحق لا يعنى بمثل هذا الغضب ما دام ذلك في سبيل الأدب

اما من ناحية أسلوب الكتاب الفني فالدكتور غني عن أن أزكيه بكلمة . فقد عرف عنه نقاء الاسلوب واشراقه حتى فيما يتعرض له من مباحث العلم ومسالك البحث . وكتابه « سكان هذا الكوكب » شاهد على ما أقول . أما الفكرة في الكتاب فقد كنت أتوقع من الدكتور الفاضل أن يكون أعمق بحثاً في بعضها مما كان . ويخيل اليَّ أن المؤلف راعى في كتابه جانب العبارة اكثر مما راعى جانب المعنى فلم يصل بنا الى أعماق من الفكر وكان كما حدثنا هو صادقاً عن الناس في موضوع «في طريق البغال »حيث يقول (ونحن ذوو أحلام ضحلة . لا نجد في البحث العميق الأعناء ونصباً وسنبقى مدى الدهر قانعين بالظواهر تخدعنا وتقنعنا)

خذ مثلاً مقالته (مناظرة بين بحر ونهر) فهي لم تعد أن تكون موضوعاً انشائيًّا يفرح طلبة المدارس باستظهاره . وكأن المؤلف الفاضل أحسَّ أن المقال ماهو الاَّ نوع من المناظرات التافهة التي كان يكتبها الحلبي في كتابه (نسيم الصبا) والتي زخرت بها كتب الانشاء حيناً فكتب على هامش المقال كلمة لا تخليه من عذر . . . .

والكتاب مزيج من قصص ومشاهدات وخطرات . أما القصة فقد كان المؤلف الفاضل بعيداً عن التوفيق فيها . و (عبث القضاء) شاهدنا على ذلك فهي لم تعد أن تكون حكاية عن شاب هندي تعلم في انجلترا وأحبَّ فتاة روسية في فرنسا ومات قبل أن تزف اليه من أحبَّ . أما ما تستلزمه القصة من درس أو مفاجأة طريفة أو تحليل نفسي أو تصوير خلقي فلم يكن (لعبث القضاء) من ذلك نصيب

اما مشاهدات الكتاب ففيها كثير من صدق النظر واتساع المرئيات ولعلّ ذلك راجع الى ولع الدكتور بالسفر واهتمامهِ بالرحلة . فهو يتخذ من صغير المشاهدات عظيم الحكم وكبير المواعظ . وموضوع (في طريق البغال) يؤيد ما نقول . فقد خطر لي خاطرة وأنا اصعّد في جبال الالب او اتسلق جبال منطقة البحيرات في شمال انجلترا وجنوب اسكتلندة وذكرت حينذاك قول الشاعر

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها تنال الاَّ على جسر من التعب

بقي عليَّ أن أقول كلمة في تشبيهات المؤلف فقد أغرم بها غراماً . وأصبح مألوفاً أن ترى في كتابهِ مثل هذا (وأضحت كأمل البائس لا تزداد على المدى الاَّ بعداً) والبحيرة (تشبه الحسناء حين تستيقظ من النعاس) .والمصابيح (كأنها أشباح اليقين وسط دياجير الشك) .وقديماً أغرم ابن المعتز الشاعر الخليفة بالتشبيهات فأبدع فيها . فاذا كان الدكتور عوض اغرم بالتشبيهات فهل لنا أن ننتظر منهُ الابداع ؟

اما وصفه للبحر فهو ما لم يتعرض له كاتب عربي بهذا البيان الجميل ولعله اذا سار على الضرب كان لنا منهُ كاتب عربي وصّاف للبحر يعادل « كونراد » الانكليزي مؤلف رواية Youth وغيرها من قصص البحر الرائعة محمد عبد الغني حسن

الحكيم وليلى

تأليف توفيق حسن الشرتوني — مطبعة صادر ببيروت — صفحاته ١٥٩ قطع المقتطف بنط ٢٤ ابيض

هذا كتاب اجتماعي يبحث في أسلوب قصصي — ولا نقول انهُ قصة بالمعنى الفني المتواضع عليه بين نقاد الأدب— المعضلات الزوجية وما يلابسها من مشكلات الاجتماع الحديث كالخروج الى المراقص والملاهي والحفلات والمغالاة في معاقرة المشروبات الروحية فيها والتبذل في الرقص والتنزه والفسق وما الى ذلك من النواحي الادبية في الاجتماع المصري كالتربية وتنشئة الاولاد وغيرها

والبحث مسوق في قالب حوادث تدور حول سيدة تدعى ليلى تتمثل في حياتها وحياة من تعاشرهم المشكلات التي تقدم ذكرها . أما تأمل المؤلف فيها فأجراهُ على لسان الحكيم ، وهو على الغالب تأمل سمتهُ الحكمة وقالبهُ الارشاد الروحي ، ولولا نزعة قوية في المؤلف الى الوقوف موقف الواعظ او الخطيب على المنبر والى التعميم في معظم الاوصاف التي يوردها لكان الكتاب من حيث هو عرض قصصي لموضوع اجتماعي أقرب الى الاصول الفنية المتبعة في مثل هذه الاحوال . ثم اننا لا ندري ما الباعث القاهر على رسم صورة لمصابة في عقلها اقل ما يقال فيها انها تنطوي على تلميح في غير محلهِ ولو حذفت من الكتاب لما سقط معناه ولا اضطرب سياقهُ

كتابان نفيسان في التربية

١ — طرق التدريس المثلى ٢ — التربية على طريقة دالتن

التربية في معناها الاسمى ، ثقافة واختبار . لاغنى لاحدهما عن الآخر . فاذا قصرتها على الثقافة ، فقد تخرج من المدرسة الى ميدان الحياة شباناً وشابات ، اصلح لصوامع النسّاك وأديرة الراهبات . والاختبار اذا لم يقم على فهم صحيح لحقائق الطبيعة والحياة والنفس والاجتماع ، فقد تلتوي نتائجهُ . ذلك ان التربية عملٌ اجتماعيٌّ ، وليس بعمل ذهنيٍّ صرف . والهدف الذي تنفق في سبيله مئات الملايين من الجنيهات في مختلف الامم ليس صقل الذهن فحسب ، بل تنشئة «الرجل» كما نبغيه و «المرأة» كما نريدها . ولا بدّ لتحقيق هذا الغرض العالي ، من تدريب الملكات العقلية والخلقية معاً ، وهو التدريب الذي يؤهل الرجل والمرأة للفهم والتعاون

فالتربية بهذا المعنى ، اقلّ ما تكون اتصالاً ببرنامج التعليم وحده . واشدّ ما تكون اتصالاً بشخصية المعلم . «واذا صدق على القضاء ما قيل من ان القانون الناقص اذا طبقهُ قضاة ذوو كفاية كان اصلح للامة من قانونٍ كامل يطبقهُ قضاة غير جديرين بالثقة ، فتلك هذا الحكم على التعليم اصدق ، لان التعليم ليس مجرد تطبيق قواعد ونصوص ، وانما هو قبل كل شيء تفاعل حيوي بين شخصية المعلم وشخصية المتعلم» (مقدمة التربية على طريقة دالتن للاستاذ القباني صفحة ز)

فاذا استقرّت في الذهن هذه الفلسفة «الكلية» للتربية ، أدركنا الفائدة العظيمة التي يجنيها المشتغلون بها والمهيمنون على مقدّراتها من كتب وضعها أعلام المربين في هذا الموضوع وتولى نشرها فريق من أعلام المربين عندنا

ان «كتاب طرق التدريس المثلى» من تأليف البروفسور بجلي وقد تولى نقلهُ وشرحهُ الاستاذ احمد سامح الخالدي مدير الكلية العربية بالقدس وأستاذ التربية فيها . والمؤلف ليس مجهولاً عند عامة المعلمين فهو أستاذ مشهور بآرائهِ العلمية ومن مؤلفاتهِ (ادارة الصفوف «الفصول») الذي أخرجهُ الاستاذ الخالدي من بضع سنوات فلاقى رواجاً كبيراً في الاوساط التهذيبية في الشرق العربي ولا يزال مرجعاً هامّاً في هذا البحث

أما الكتاب الحالي فمختصر وهو يحتوي على ارشادات وأوامر ونواهٍ لفائدة المعلمين والمتعلمين ولكن اختصاره لا يعيبهُ فقد اشتملت بحوثهُ على مقاييس عامة شاملة في جميع نواحي التدريس يجدر بالمعلمين والمعلمات ان يعوها وينفذوها ولكن بعد تأمل عميق واختبار وتجريب . وفي الكتاب اشارة الى الطرق الاصولية المعروفة في التربية وبعض الطرق الحديثة ، كطريقة المشروع ومنهاج الحركة ، ونظام دالتن ونظام وونتكا ، وتسميع الجماعة وتوجيه الدراسة

كلُّ فقرة من فقرات هذا الكتاب ، تنطوي على درّة غالية من درر الارشاد العملي والتوجيه النفسي للمعلمين في مختلف الاحوال والحالات

واذا كان كتاب «طرق التدريس المثلى» كتاباً عاماً شاملاً لنواحٍ مختلفة ، من دون أن يخل شمولهُ واختصارهُ بدقتهِ وحصيف ارشاده ، فان كتاب « التربية على طريقة دالتن » ، يتناول بالبحث المفصل طريقة من طرق التعليم الحديثة ، استحدثتها هيلين باركهرست وقاعدتها ان اجتماع الطلاب فصولاً كبيرة ، لا يقيم وزناً للفروق الذهنية والنفسية بينهم ، واذن فيجب ان يأخذ المعلم بعين الاعتبار قدرة كل طالب على حدة ، وتعيين عمل لهُ خاص بهِ ، يتفق ومقدرتهُ الذهنية وجلده على العمل ، لان هذه الطريقة تمكن الطالب من النمو نمواً صحيحاً ، لا يعيقهُ سبقهُ سائر الطلاب فيسبقهن ، ولا تخلفهُ عنهم فيتطرق الى نفسهِ الهم والخوف

واضعة هذا الكتاب هيلين باركهرست مبتكرة الطريقة ، وناقلهُ الى العربية زكريا ميخائيل خريج معهد التربية والمشرف على اصداره الاستاذ اسماعيل القباني احد اساتذة معهد التربية بمصر. قال الاستاذ اسماعيل في مقدمتهِ « وقد اخترنا البدء بهذه الطريقة لاسباب عدة . فاما السبب الاول فهو ان مبتكرة الطريقة ومؤلفة الكتاب كانت عندما شرعت تفكر فيها معلمة عادية في مدرسة ريفية باميركا . وقد واجهتها ظروف خاصة فأعملت الفكر لتنظيم مدرستها على وجهٍ يلائم تلك الظروف ، مسترشدة في ذلك بنتائج اطلاعها ومشاهداتها ، فتوصلت الى طريقتها هذه ووجدت من تشجيع السلطات المشرفة على مدرستها ما مكنها من تطبيقها . وما زالت تعدلها وتكملها في ضوء التجارب ، وتستقصي نتائجها العملية ، وتوضح اسسها البيداجوجية حتى اقنعت بفائدتها رجال التربية كافة . واصبحت هذه الطريقة الآن في طليعة طرق التربية المعدودة في العالم . . . .

ولسنا في حاجة الى القول بان مكتبة المعلم في مصر وسائر بلدان الشرق العربي لا تستغني عن هذين الكتابين النفيسين

حول العالم

بقلم نزيه مسعد — صفحاته ٢٨٥ صفحة كبيرة

سلسلة مقالات نشرها كاتبها في « المقطم » يصف بها رحلته في سنة ١٩٣٦ الى اميركا بلاد العجائب وايطاليا الفاشستية فوصف بدقة وأمانة كل ما شاهده في البلاد الاميركية من معالمها وولاياتها ومتاحفها ودورها وصحافتها وخص الجزء الاكبر بالولايات المتحدة ومحادثته مع رئيس جمهوريتها ووزرائها كما افرد فصلاً خاصاً بعاصمة الصور المتحركة هوليوود وقال ان في هوليوود وضواحيها نحو ٥٣ شركة للصور المتحركة لكل منها «ستوديواتها» وافرد عدة صفحات لوصف ايطاليا الفاشستية وما شاهده فيها والنظام التعاوني الحكومي ولخص العقيدة الفاشستية من عدة وجوه وتكلم عن التربية الفاشستية ومقابلته لقداسة البابا وعن عظمة مدينة الفاتيكان

فالكتاب وصف صحفيٌ مشوّق لما تحويه هذه البلدان من طرائف وعجائب وغرائب

محسنة مصرية كبيرة

مذكرة بحياتها ومبراتها — ليعقوب عبد الوهاب بك — دار المطبوعات الراقية

تعوّدنا ان نمجد اعمال الغرب والغربيين في مجال التحدث بالمبرات والهبات التي تنفق على الاعمال الخيرية وتشجيع العلم واغاثة البائسين لان أثرياء اميركا وأوربا ضربوا المثل في هذا الباب الخيري العظيم على مقدار ثروتهم وما تدره اموالهم من خير عميم

ولقد أعتاد عظماء الشرق ولا سيما كرام المسلمين منهم على وقف الاوقاف ورصد ريعها للاعمال الخيرية وخصص بعضهم اوقافه لاستمرار الاقبال على العلم في الازهر الشريف ومساجد مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف وجامع الزيتونة في المغرب مما جعل سير العلم متواصلاً في تلك المساجد وسيظل ما دامت الاوقاف تدرّ خيراتها متضوّعة بمسك احاديث واقفيها

وفي يوم ٢٣ من ربيع الاول سنة ١٣٥٥ توفيت الى رحمة الله سيدة بارة تقية محسنة هي السيدة حفيظة هانم رستم حلمي الالفي حرم المرحوم يوسف بك نجيب فتحدثت الصحف بأعمالها الخيرية ومبراتها العظيمة وانتهزت الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم بالقاهرة فرصة هذه الذكرى فأقامت لها حفلة حافلة في دار جمعية الشبان المسلمين في يوم الاربعاء ٢٣ من ربيع الاول سنة ١٣٥٦ الموافق ٢ من شهر يونيه سنة ١٩٣٧ حضرها جمع حافل من اهل العلم والفضل

ومما يصح ذكره والتنويه به هنا ليكون أحدوثة طيبة للفقيدة العظيمة انها انفقت في حياتها جميع ما تملك من مال ومجوهرات وعقار في القاهرة والاسكندرية على الجمعيات الخيرية ويقدر ذلك بنحو مائة الف جنيه مقسمة على النسبة الآتية: — ١٦ قيراطاً للجمعية الخيرية الاسلامية ينفق ريعها على مستشفى الجمعية المنشأ بجهة العجوزة بالجيزة بمصر واشترطت ان يكون انفاقه على المعالجة بالراديوم وجعلت هذه الجمعية ناظرة على املاكها . وخصصت ٤ قراريط لجمعية المحافظة على القرآن الكريم وقيراطين للانفاق على الطلبة الغرباء الذين يفدون على الازهر الشريف من الصين واليابان والحبشة وقيراطين لجمعية الاسعاف العمومية بالقاهرة

وهذا علاوة على انشائها مسجداً فخماً في مصر الجديدة بلغت نفقاته نحو تسعة آلاف جنيه وألحقت به مكتبة دينية وخصصت فيه مكاناً للسيدات ووقفت عليه اوقافاً خاصة لاستمرار الانفاق عليه

وأهدت الى جمعية الاسعاف بالقاهرة سيارة فخمة صنعت خصيصاً في مصانع رينو المشهورة كاملة المعدات وهي بحجوب القاهرة وعليها قطعة نحاس سجل اليها اسم المحسنة الكريمة

ووقفت منزلين كبيرين بشارع الهرم ثمنهما عشرة آلاف جنيه على الاعمال الخيرية وأهدت الى دار الكتب المصرية خزانة من صناعة شرقية قديمة وفيها مختارات من الكتب والتحف وأوصت بأثاث غرفتي نوم واستقبال كبيرتين من الصناعة الشرقية النادرة المثال من صنع المدرسة

الالهامية لوضعهما في معرض النماذج التابع لوزارة الصناعة والتجارة ليستفيد منها الصناع في الاعمال الدقيقة استفادة عملية وتاريخية وقد وضعت فعلاً في المعرض الدائم

هذا عدا مبراتها على الجمعيات الخيرية الاخرى والعائلات والافراد وعدا تبرعاتها في الحجاز في كل عام حجت فيهِ وكانت تتفقد المحتاجين وتغدق عليهم خيراتها ومبراتها

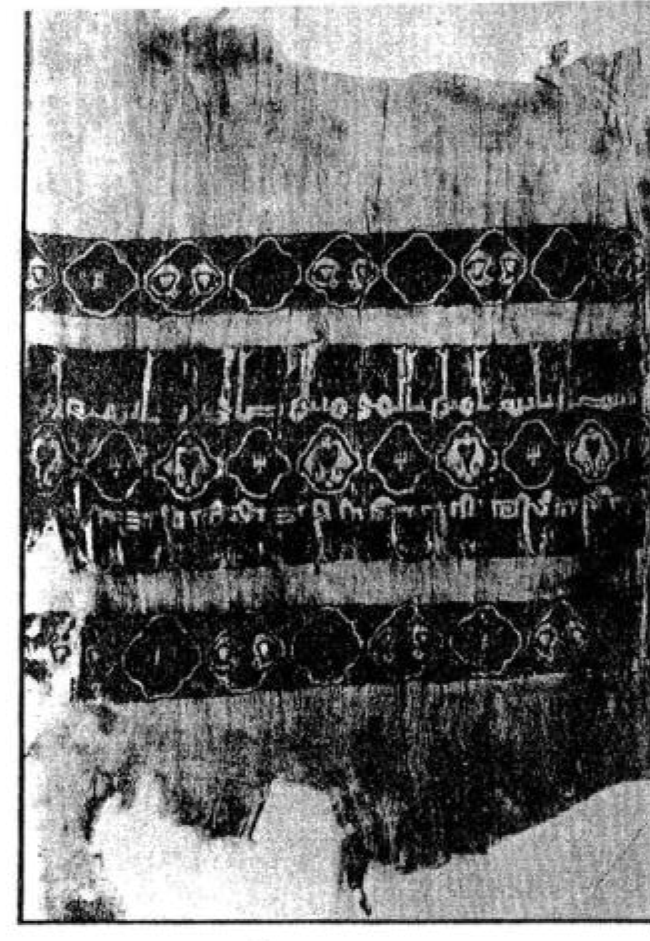
وان نظرة سريعة على توزيع أملاكها تبين لنا مقدار الحكمة في رصد اموالها فمن علاج للمرضى بأحدث وسائل العلاج الراديوم الذي لا يتيسر العلاج بهِ الاَّ للاغنياء الى المساعدة على استمرار مدارس المحافظة على القرآن الى التوسيع على الطلاب الشرقيين في اثناء مكثهم في مصر واغترافهم من مناهل العلم بالازهر الشريف الى مساعدة وسائل الاسعاف بتزويد جمعية الاسعاف بسيارة فخمة ورصد حظ من المال عليها كل ذلك يدل على حكمة وبعد نظر في عمل الخير وهذا الامر يعود النصيب الوافر فيه الى مشورة مستشارها الامين وشقيق قرينها الحاج يعقوب عبد الوهاب بك ومن رجع اليهم في الرأي كمعالي جعفر ولي باشا. واذ نحن ذكرنا في هذه الكلمة مختصراً عما قامت بهِ المغفور لها من الاعمال الخيرية نجد واجباً علينا ان نشير الى ما قام بهِ المغفور لهُ قرينها المرحوم يوسف بك نجيب عبد الوهاب المتوفي في ٢٠ شوال سنة ١٣٥١ — ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٢ فقد خصص رحمهُ الله وقفيتهُ على الجمعيات الآتية: ا — جمعية العروة الوثقى ب — جمعية ملجأ ابناء السبيل ج — جمعية المؤاساة الاسلامية بالقاهرة د — جمعية المؤاساة الاسلامية بالاسكندرية هـ — جمعية المؤاساة الاسلامية بالسويس و — جمعية الاسعاف العمومية بالقاهرة ز — جمعية الاسعاف العمومية بالاسكندرية

فنستمطر شآبيب الرحمة على جدث هذه المحسنة الكبيرة وزوجها الكريم ونرجو ان يكونا قدوة طيبة للقادرين من الاغنياء في الشرق عامة ومصر خاصة م. ر.

اليابان — بلاد الشمس المشرقة

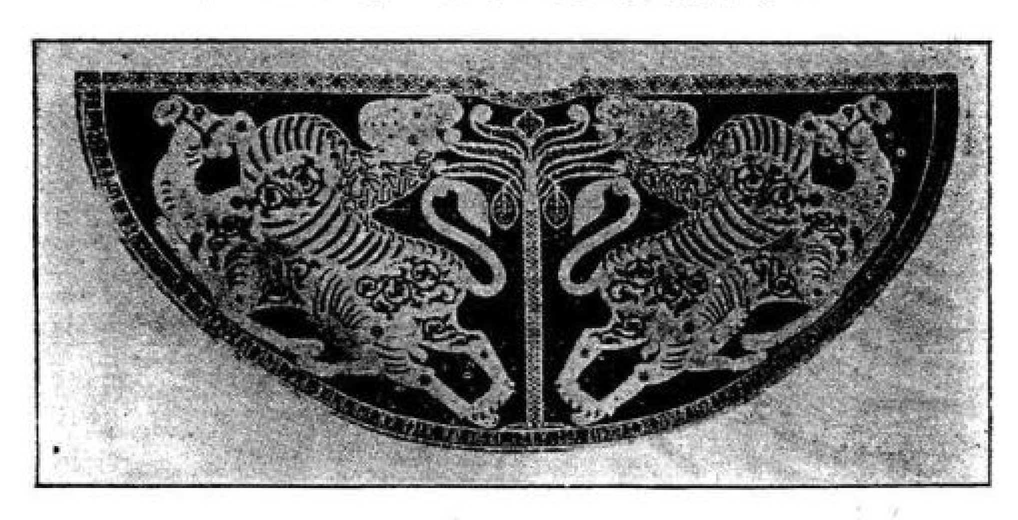
وطد الاستاذ محمد عبد القادر صبيح العزم على اصدار كتاب في كل شهر يسميه كتاب الشهر والكتاب الذي بين ايدينا هو ثالث مؤلف يضعهُ المؤلف وصف بهِ اليابان او بلاد الشمس المشرقة وقال ان كلمة اليابان غريبة عن مسامع من تطلق عليهم لان لهم عند انفسهم اسماً آخر هو داي نيبون وهو مشتق من لفظة صينية تنطق جي بن ومعناها ارض الشمس المشرقة. ثم ذكر كيف جاءت كلمة اليابان وان امبراطور اليابان يسمى الآن تنو بدلاً من ميكادو ونفوذه مستمد من قوة الحب الذى نشأ بينهُ وبين شعبهِ وان القوم يقدسون امبراطورهم حتى لا يجوز لياباني ان يحدّق فيهِ واذا مرَّ في الطريق انحنى القوم سراعاً واغلقت النوافذ والابواب. وجميع ابواب الكتاب مكتوبة بقالب ممتع يلذ القارىء مطالعتها فوصف عادات اهاليها والزلزال المخيف الذي حدث سنة ١٩٣٢ ودمر العاصمة وكيف جدّدت واستبدلت معالم القدم بآيات الفن الهندسي في البناء. وتكلم عن الحكومة والتعليم والصحافة وخص المرأة اليابانية ونهضتها

قطعة من نسيج غليظ أبيض عليها بالاسود رسم نباتي من عهد احمد بن طولون (٢٥٤هـ — ٨٦٨ م)

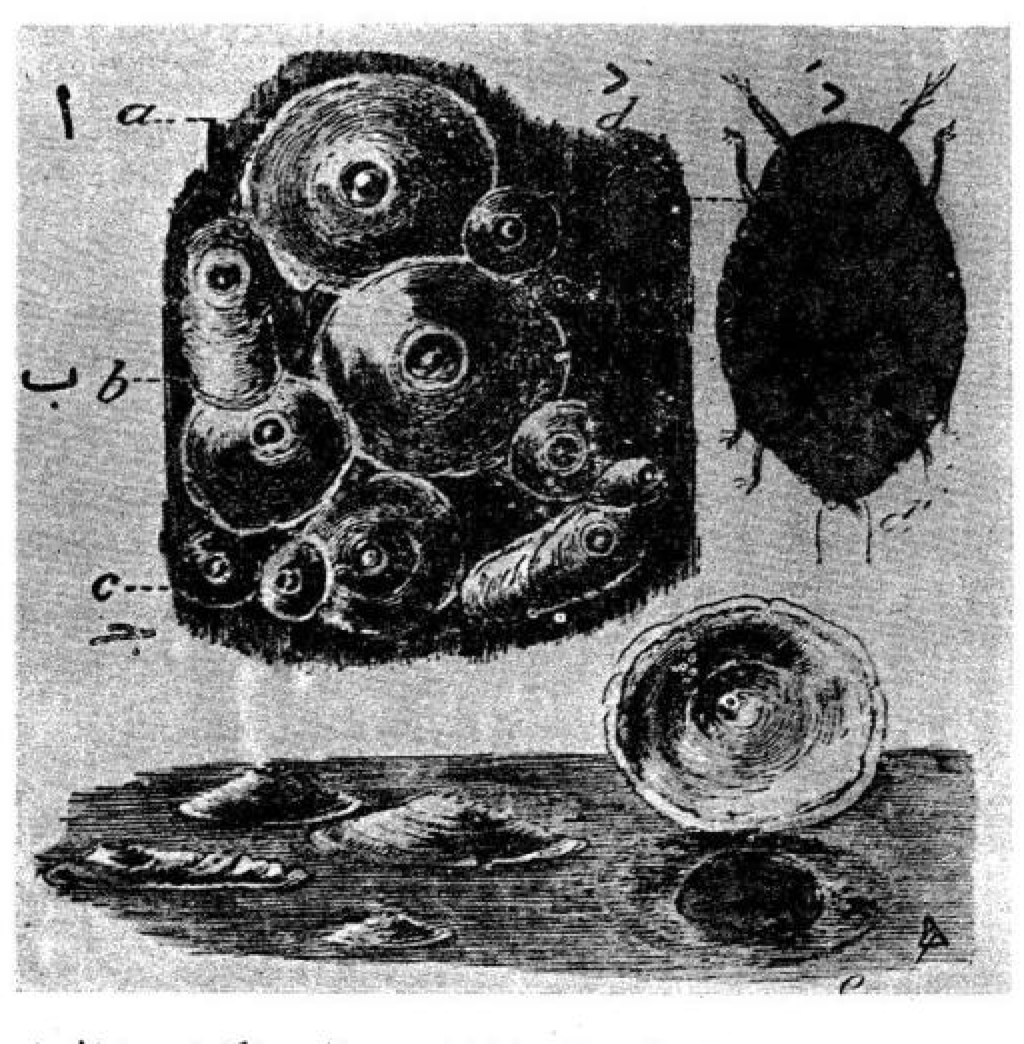


قطعة من الكتان باسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ٤٢٧ — ٤٨٧هـ (١٠٣٥ — ١٠٥٤م) بها جامات معينة الشكل — بكل جامة طائران متقابلان بألوان مختلفة من أحمر وأصفر وأزرق وأسود وفي الوسط سطران من الكتابة الكوفية

قطعة نسيج ابيض قائم منسوج عليها بالخط الكوفي البسيط بحرير احمر (هذه العمامة لسمويل بن موسى عملت في شهر رجب من الشهور المحمدية من سنة ثماني وثمانين » ٧٠٧ م



عباءة تتويج صنعت في صقلية في سنة ٥٢٨ ﻫ (١١٢٣م) للملك روجر الثاني وترى عليها في الوسط رسم نخلة يكتنفها من كل جانب صورة أسد يصرع جملا ويتهيأ للفتك به وهي مطرزة بخيوط ذهبية ومحلاة باللآلىء.



حشرة سان يوزي القشرية « ا » الحشرة الانثوية البالغة « ب » الحشرة الذكرية « ج » الحشرات الصغار « د » اليرقة عقب تولدها « دَ » اليرقة نفسها مكبرة كثيراً « ه » قشرة مرفوعة ليشاهد جسم الحشرة الانثوية تحتها . وهي جميعاً مكبرة كثيراً أخذا عن (كوينتانس)

الدكتور عبدالقادر المظم مدير الجامعة السورية يخطب في حفلة ازاحة الستار عن تمثال الدكتور صرّوف

الدكتور فارس نمر باشا يخطب في حفلة ازاحة الستار عن تمثال الدكتور صرّوف



خواطر حول نزول

الملك ادورد الثامن

عن العرش

نظرات ومقابلات في العصر

الشرق والغرب

لسليم خياطة

فلسفة المعارضة

في نظام الحكم الدمقراطي

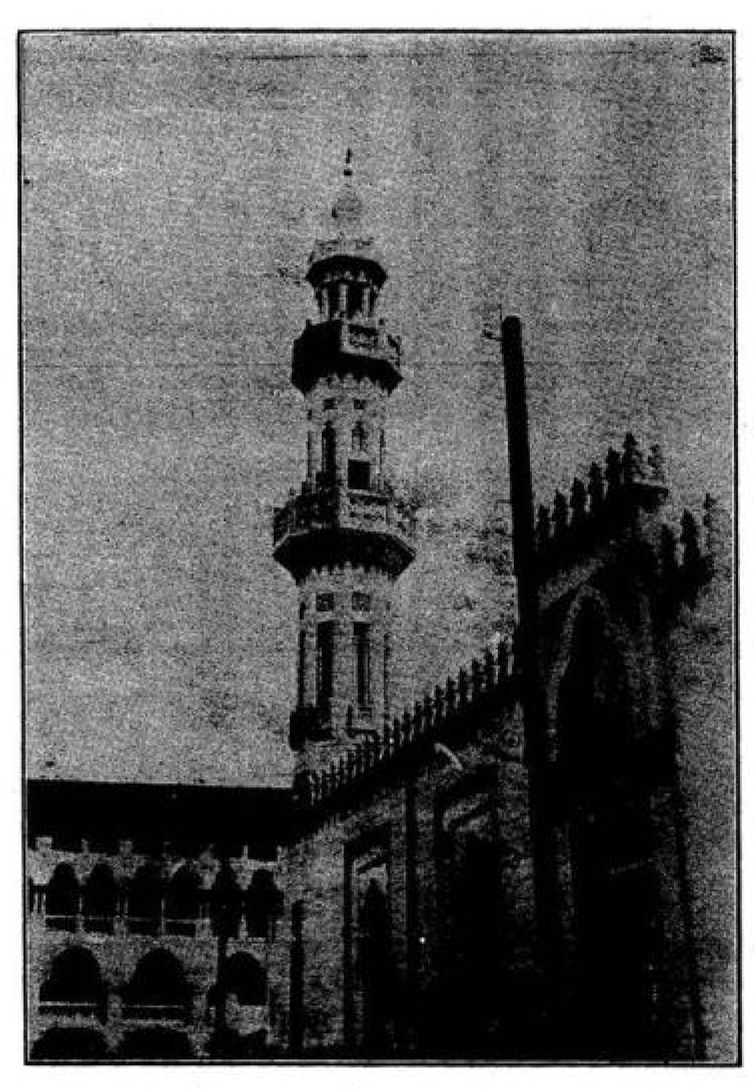


الدكتور بيارد ضودج رئيس جامعة بيروت الاميركية ، فالاستاذ يوسف افتيموس رئيس جامعة متخرجيها ، فالدكتور فارس نمر باشا ، فالدكتور عبد القادر العظم مدير الجامعة السورية بدمشق ، فتمثال الدكتور صروف

[صور الاهرام]



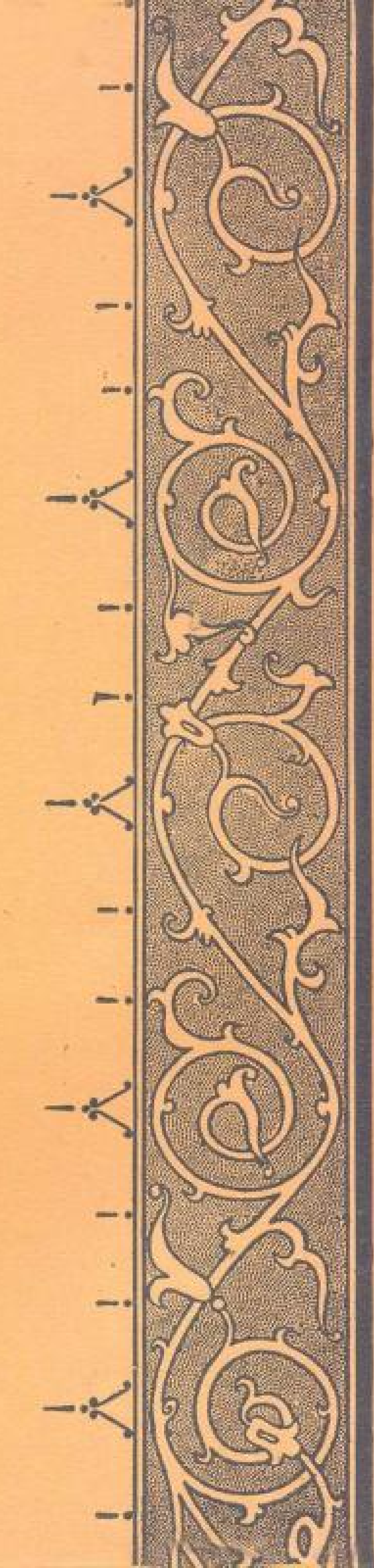
المحسنة الكبيرة المرحومة الحاجة حفيظة هانم رستم حلمي الالفي
حرم المرحوم يوسف بك نجيب المتوفاة في يوم السبت
٢٣ ربيع الاول سنة ١٣٥٥ — ١٣ يونيو سنة ١٩٣٦



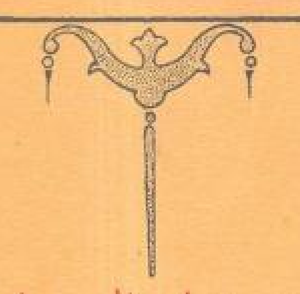
واجهة جامع حضرة صاحبة العصمة الحاجة حفيظة هانم رستم الالفي
على شارعي سعيد ونجع حمادي بمصر الجديدة أنشأته سنة ١٣٤٩
هجرية الموافق سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ميلادية

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الحادي والتسعين







مستقبل العمران

الحب : لادلر

العلم : لهكسلي

التعليم : لولز

الاسرة : لرسل

الاقتصاد : لتشايس

رجال الشهر

غازورذي ، غاندي ، سايس ، صديق بك

الازمة الاقتصادية

واشتباك المصالح الدولية

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الحادي والتسعين

١ اكتوبر سنة ١٩٣٧ — ٢٥ رجب سنة ١٣٥٦

حضرة صاحب الجلالة

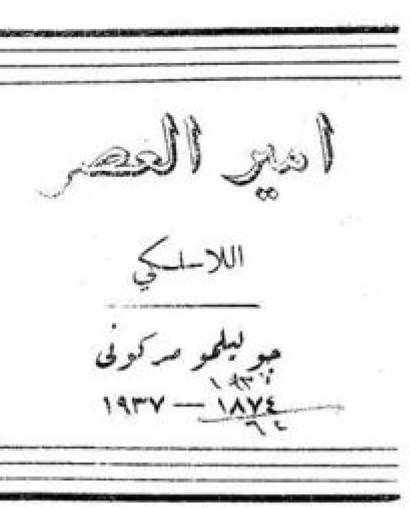
الملك فاروق الأول

وُلد في سراي عابدين في ١١ فبراير سنة ١٩٢٠ — ٢١ جماد أول سنة ١٣٣٨

نودي بهِ ملكاً في ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦ — ٧ صفر سنة ١٣٥٥

تولى شؤون الملك في ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧ — ٢١ جماد أول سنة ١٣٥٦

هذا أول عددٍ من « المقتطف » يصدر بعد أن تولى حضرة صاحب الجلالة « فاروق الاول » شؤون الملك في ٢٩ يوليو ١٩٣٧ . لذلك يغتنم أصحاب مجلة « المقتطف » وكتّابها هذه الفرصة لرفع فروض الولاء الى مقامهِ السامي ، والدعاء لهُ بالعزّ وطول العمر ، وللديار المصرية في عهدهِ بالرخاء والارتقاء ، مجدّدين العهد على خدمة العلم في ملكهِ الزاهر كما خدموهُ في ملك والدهِ العظيم وأسلافهِ الكرام



موجز سيرته

انطوت بوفاة مركوني في ٢٠ يوليو سنة ١٩٣٧ صفحة من اعجب الصفحات العلمية واخلدها على الدهر . فهو واديصن يذكران بأله الاساطير اليونانية الذي أخذ النار من الآلهة ووهبها للبشر . فاديصن وهبنا النور الكهربائي ومركوني اصبح اسمهُ مرادفاً لهذه الامواج السحرية التي يحفل بها الفضاء حاملة في ثناياها ما شاء الانسان ان يحملها بهِ من علم وفضل أو من جهل وشحناء . فالرواد في مجاهل الارض يستغيثون باللاسلكي والسفن في عرض البحر تستنجد بهِ إذا حزب الامر، والدعاية السياسية والاجتماعية تذاع باللاسلكي والموسيقى الفخمة والحركة تطوق الارض على اجنحة الامواج اللاسلكية وكذلك الانباء والاحاديث والمواعظ والاعلانات . ثم ان الطائرات الخالية من السواقين تطار وتدار في الجو وتلقي القنابل وكذلك السفن والطائرات ترشد إلى الموانىء والمطارات المكتنفة بالضباب بالامواج اللاسلكية العجيبة

والرجل الذي حول بسحر فكره وابداعه الاقوال النظرية في هذا الموضوع الى حقائق تسمع وتلمس هو هذا الرجل الذي فقده العالم : جوليلمو مركوني أمير العصر اللاسلكي !

ولد مركوني من والد إيطالي وأم ارلندية في بولونا بايطاليا في ٢٥ ابريل سنة ١٨٧٤ وما شب حتى بدت عليه مخايل النجابة والتفوق ومال من حداثته الى العناية بالأمور الكيمياوية وكانت أمهُ ذكية فشجعتهُ على توسيع نطاق معارفه بشراء الكتب اللازمة وأذنت له بعمل بل وبنت لهُ كذلك معملاً صغيراً ليجرب التجارب العلمية فيه

فلما بلغ سن الدراسة انتظم في مدرسة بليجورن ومنها انتقل الى جامعة بولونا وهي من أقدم الجامعات في أوربا ان لم تكن اقدمها على الاطلاق . وهناك تلقى العلم على الاستاذ ريغي واتجه

ميله العلمي الى الكهربائية . ولما كان في السادسة عشرة من عمره عني بمبادىء المخاطبات اللاسلكية وكان قد تعلم في تاريخ علم الطبيعة ما فعله لندسي الاسكتلندي والسر وليم بريس من ارسال اشارات فوق نهري التاي والسولنت والتقاطها

وكذلك شرع مركوني يجرب التجارب في أراضي والده وثابر على التجربة فاصبحت البوصات أذرعاً والأذرع اميالاً وكذلك استطاع رويداً رويداً أن يثبت ان الامواج الكهربائية التي يولدها تسير في الفضاء مسافات طويلة غير متأثرة بالآكام والمباني وغيرها من العقبات والحوائل الطبيعية التي تعترض سيرها . فلما كان في السنة الثانية والعشرين من عمره كان قد أحرز نصراً باهراً في الميدان الذي آثره لنفسه . وفي سنة ١٨٩٦ أخرج « البراءة » الاولى للتلغراف اللاسلكي فتحداه كثيرون ولكنه لم يعبأ بأحد بل مضى في طريقه في هدوء وسكينة وثقة بالمستقبل . وسافر الى انكلترا حيث جرب تجارب تثبت ما يدعيه وبحضور كبار موظفي ادارة البريد البريطانية أرسل الرسائل اللاسلكية عبر برزخ برستول والتقطها . ثم جعل يزيد المساحة بين محطة الارسال ومحطة الالتقاط في بضع السنوات التي تلت . ومما يؤثر في هذا الصدد ان لورد كلفن أمير علماء الانكليز في أواخر القرن التاسع عشر كان أول من أرسل رسالة لاسلكية ودفع أجرتها

عند ذلك انتبه الناس الى هذه الطريقة العجيبة الجديدة في المخاطبات وكان أشد الناس انتباهاً لها أقطاب وزارة البحرية البريطانية لانهم رأوا فائدة استعمالها في السفن الحربية وكان مركوني لا يني عن التصريح بثقته بأنه سوف يرسل الاشارات اللاسلكية عبر المحيط الاطلنطي فسخر منه بعض علماء الطبيعة قائلين ان الامواج اللاسلكية من قبيل أمواج الضوء تسير في خطوط مستقيمة ولا تنحني مع انحناء الارض الكروية فنقل الرسائل بها بين شاطئي المحيط الاطلنطي متعذر تعذر ارسال شعاعة من الضوء بينهما

ولكن مركوني لم يحفل بالقول النظري فأعد التجربة العملية لامتحان ذلك القول ولعل إقدامه على ذلك من أخلد المآثر التي كتبها في سفر العلم الحديث لان التجربة التي جربها أثبتت أمرين أحدهما عملي وهو امكان ارسال الرسائل اللاسلكية على مسافة بعيدة والثاني نظري وهو ان الامواج اللاسلكية تنحني بانحناء الارض ولا تعترض كروية الارض سبيل هذه الامواج . ولسيرها على هذا النمط تعليل طبيعي استنبطه علماء كبار مثل هيفسيد وكنلي وابلتون وغيرهم

أما حديث ارتقاء المخاطبات اللاسلكية بعد تجربة مركوني الحاسمة فحديث زيادة القوة المولدة في الاجهزة المرسلة واتقان الاجهزة اللاقطة حتى يدق شعورها بالامواج وبعد المسافات التي تطويها الرسائل اللاسلكية بين المذيع واللاقط . فلما استنبط دي فرست الانبوب المفرغ أصبحت المخاطبات التليفونية اللاسلكية والتلفزة ونقل الصور السلكي واللاسلكي من الامور العادية التي نسمع

بها كل يوم فلا ندهش لاننا ألفناها مع انها لو عرضت على عالم من علماء سنة ١٩٠٠ فقط لما صدق حسه فيما يرى ويسمع

وبعد ما بلغت المخاطبات اللاسلكية والتلغرافية والتليفونية الشأو العظيم الذي بلغتهُ بعيد الحرب الكبرى قال مركوني في نفسهِ ليس من الطبيعي ان تنفق هذه الطاقة الكهربائية الهائلة في توليد الامواج اللاسلكية التي تسير المخبطات . ان الطبيعة في صميمها تميل الى الاقتصاد في الجهد أفلا نستطيع ان نستعمل أمواجاً لاسلكية أقصر من الامواج اللاسلكية المستعملة الآن . فاذا كان ذلك ممكناً فعندئذٍ نستغني عن المولدات والاجهزة الكهربائية الضخمة التي لا بدَّ منها لتوليد الامواج الطويلة وارسالها في الفضاء ونكتفي بمولدات صغيرة تولد الامواج القصيرة . وما خطر له هذا الخاطر حتى عاودته حماسته الاولى فشرع يجرب التجارب من جديد ومعمله الرئيسي يخته « اليترا » يجوب عليه البحار ويتلقى الرسائل بالامواج القصيرة ترسل اليهِ من محطات مذيعة معينة لجمع الحقائق قبل الاقدام على الحكم. فلما استتب لهُ الأمر اخرج نظام « البيم » الذي تعتمد عليهِ الامبراطورية في مواصلاتها . والرسائل التي ترسل بهذه الطريقة أقل نفقة لأن الطاقة المولدة للامواج القصيرة أقل من الطاقة المولدة للامواج الطويلة ، واوضح لأنها لا تتفرق في كل الجهات بسبب العواكس التي تعكسها وهي لذلك يمكن كتمانها بعض الكتمان لأن المحطات اللاسلكية لا تستطيع التقاط الرسالة الاَّ اذا كانت في ممر الشعاعة

وبعدما جرب تجاربه بالامواج القصيرة وبعد انشاء نظام عملي للمخاطبة بها عمد الى الامواج المتناهية في القِصَر وهو ما يعرف بالانكليزية ultra-short waves) ومن احدث نتائجها هذه الطريقة التي استنبطها لارشاد السفن والطائرات في جو ملبد بالضباب الى الموانىء والمطارات

وقد منح مركوني جائزة نوبل العلمية سنة ١٩١٩ وطائفة كبيرة من المداليات والاوسمة العلمية ومنحتهُ حكومة ايطاليا لقب مركيز وعينتهُ رئيساً لاكادمية العلوم ولكن هذا قليل ازاء ارتباط اسمهِ بعجائب العصر اللاسلكي

التجربة الحاسمة

كان مستقبل المخاطبات اللاسلكية في سنة ١٩٠١ معلقاً في الميزان . وكان بعض الكتَّاب من أصحاب الخيال الوثَّاب ، قد تنبأوا بحلول يوم يستطيع فيهِ رجل مقيم في ضيعة من ضياع جبال الاندس أن يتكلم بصوت كهربائي مغناطيسي فيسمعهُ في اية بقعة من بقاع الارض ، كلُّ مَن يملك أذناً كهربائية مغناطيسية . اما المهندسون وعلماء الطبيعة الذين كانوا يتناولون حقائق الاذاعة والالتقاط تناولاً عمليًّا ، فكانوا أضعف إيماناً بتحقيق هذا من الكتَّاب الخياليين . كان علماء

الطبيعة قد قالوا ان الامواج اللاسلكية هي امواج ضوئية لا ترى . وانها كامواج الضوء تسير في خطوط مستقيمة ، وان نقل الرسائل . بها بين شاطئ المحيط الاتلنتيكي متعذر تعذر ارسال شعاعة من الضوء بينهما . وذلك لشدة تحدّب الارض فيرتفع حاجز علوه نحو مائة ميل بين اوربا واميركا لا تستطيع الاشعة أن تتحني حوله

على ان العالم يسلم بالنظرية — مهما تكن معقولة — بشيء من التحفظ . لانها قد تمكنه من تعليل ظاهرات غريبة تعليلاً مقنعاً ، ولكنها يجب ان تخضع للامتحان العملي . هذا هو مصير جميع النظريات العلمية من نظرية نيوتن الى هذا القول الخاص بالامواج اللاسلكية . فاذا صحَّ ما يقال عن الامواج اللاسلكية وانها تنبعث من مصدرها في خطوط مستقيمة ، لا تتحني ، فهذه نهاية حلم جميل قوامهُ المخاطبات اللاسلكية الدولية العامة ! وقد كان من نصيب مركوني أن يبدع التجربة العملية لامتحان هذا القول النظري

المشهد في جزيرة نيوفوندلند والتاريخ يوم ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١ . هوذا مركوني جالس في غرفة قاتمة جافية ، على أكمة تدعى أكمة سِغنَنَل ، وعلى اذنيهِ سماعة تلفونية شديدة الاحساس ، ووجههُ يفيض بشراً وبشاشة على مساعديهِ . وكان احدهما — كمب — متقلداً سماعة تلفونية كرئيسهِ

تك . تك . تك

فقال مركوني لكمب — هل سمعتَ ؟

فقال كمب — نعم سمعتُ

ما أروع وقع هذه النبضات في أذنيهما ! ثلاث نبضات لا أكثر ولا أقل ! ..

وماذا تعني هذه النبضات ؟ انها تمثل حرف « S » المتفق عليهِ مع رجال محطة الارسال في انكلترا ليبعثوا بهِ فوق ١٨٠٠ ميل من المحيط الاتلنتيكي . هنا رغماً عن تحدُّب الارض ، سمع مركوني ومساعدهُ ، النبضات الثلاث ، المتفق عليها ، المرسلة من انكلترا ، فثبت لهم ان الامواج اللاسلكية تتحني فتجاري بانحنائها تحدُّب الارض

كان مركوني قد ارهق نفسهُ قبل هذا ، سنين طوالاً ، للوصول الى هذه النتيجة . فيوم ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١ ، يوم خالد في تاريخه ، لانهُ يوم النصر . اعطهِ الطاقة اللازمة بعد الآن ، وثق ان لاشيء يصدُّهُ عن ان يرسل رسائل مفهومة فوق القارات والمحيطات ، الى اقصى البلدان ! امواج تسير حول الارض بسرعة الضوء ، تحمل في طيَّاتها ، او تنقل على اجنحتها ، ما تشاء ، وتمرُّ خلال التلال والمباني كما تخترق اشعة الشمس ألواح الزجاج — ما هذه الرؤيا العجيبة !

ولا يفوز في مثل هذه الاحوال المثبطة للهمم ، الاّ من كان مدفوعاً بشعلة القديسين المستشهدين . فالفصل فصل الشتاء . وبولدهو — المحطة الانكليزية — تكتسحها عاصفة ، لا تقلّ عنها العاصفة التي تكتسح « سغنَنَل هِل » — المحطة في نيوفوندلند . والامواج يجب ان تذيعها وتلتقطها اسلاك قائمة على اعمدة مرتفعة . فأقام مركوني في بولدهو اعمدة علوها ١٣٠ قدماً . فبلغت نفقة كل منها ٢٤٠ جنيهاً وهو في حاجة الى نحو عشرين عموداً منها . ولكن الرياح العاتية تهدم ما يبني . فمن العبث بذل الجهد والمال . على أن ماركوني مضى في عمله ، فبنى أعمدة نقّالة في بولدهو وأقام عليها الاسلاك الهوائية وامتحنها في التقاط رسائل مرسلة من مكان قريب ، ففاز بالتقاط اشارات شديدة الوضوح فأسرع في سفره الى نيوفوندلند

ان اقامة الاعمدة هنا متعذر ، لقلة المال والصعوبات الفنية التي لا بدّ من تذليلها . ولكن الذكاء يفتق الحيلة ، ولا بدّ من رفع الاسلاك في الجو . فاستعمل مركوني الطيارات والبلونات التي يطيرها الاولاد . ولكن الرياح كانت عنيدة في مقاومته ، فكانت تمزق الطيارات او تقطع أوصالها ، فظلّ يطير واحدة اثر أخرى ، حتى ثبتت احداها لمحة في الجوّ تمكنت في اثنائها من التقاط النبضات الثلاث ، وفي اللمحة التالية مزقتها الريح وقطعت حبلها . ولكن مركوني احسّ بشيء من الفتور والكآبة في ساعة انتصاره . اي دليل عنده يقدمهُ على نجاح تجربته . فليس ثمة اية وثيقة تبرهن عليه . ليس هناك الاّ ثلاث نبضات اثيرية طرقت سمعهُ وسمع صديقه . ايصدقهُ العالم ? فتردّد قبل ان اذاع النبأ ولكن لما صدرت صحف الصباح ، حاملة في صفحاتها المقدمة انباء التقاط الاشارات اللاسلكية الاولى ، المرسلة من اوربا الى اميركا ، سرت هزة كهربائية في شعوب اوربا وأميركا . ويقال ان اديصن بلغهُ هذا النبأ فلم يصدقهُ ، فلما رأى بياناً مذيلاً بتوقيع مركوني قال : اصدق الآن فان مركوني مجرب ذكي ألمعي ، وجدير بالثقة والاحترام

لم يكن مركوني ، قد فاز ، قبل ذلك بارسال الاشارات اللاسلكية مسافة تزيد على اربعمائة ميل ، ومع ذلك بعث نجاحه في ارسالها هذه المسافة (٤٠٠ ميل) الدهشة في نفوس الناس. على ان نجاحه في ارسال الاشارة اللاسلكية فوق المحيط الاتلنتيكي لا يرجع الى اقدامه وثقته بنفسه الفنية فقط ، بل يرجع الى نظرية كانت عنده بمثابة العقيدة . فقد كان يعتقد اعتقاداً راسخاً ان الامواج اللاسلكية تنحدب حول الارض ، ولو خطّأه في ذلك جمهور العلماء . وهذه تجربة نيوفوندلند ، تثبت انهُ على صواب . فهي من اعظم التجارب في تاريخ العلم ، دع عنك مقامها وأثرها في المخاطبات الكهربائية ، ولعلها الباعث على منحه جائزة نوبل الطبيعية ولم يبطىء العلماء في استخراج النتائج من النبضات الكهربائية الثلاث التي تلقاها مركوني

في نيوفوندلند ، فمني بها لورد راليه ثم أكمل هيفيسيد النظرية العلمية الخاصة بتعليل سيرها من الوجهة الرياضية . فقال ان فوق سطح الارض ، على ارتفاع معين، طبقة من الهواء المكهرب. تبعث الشمس بأشعتها ، فتنزع بعض الالكترونات من ذرات الغازات في الهواء — فتتكهرب الذرات وتصبح إيونات . وهذه الطبقة المؤينة (ionized) تفعل كعاكس . فبدلاً من ان تنطلق الامواج اللاسلكية وتتبعثر في الفضاء تردّها هذه الطبقة الى سطح البحر وهذا يردها الى طبقة هيفيسيد وهكذا تروح وتجيء الامواج اللاسلكية بين طبقة هيفيسيد وسطح البحر وهي تتقدم دائماً الى الامام حتى تصل الى حيث تلتقطها سماعة حسّاسة . وعليه فطبقة هيفيسيد — وقد اصبحت الآن حقيقة علمية مسلماً بها وتلتها طبقات أخرى — نتيجة مباشرة لتجربة مركوني المذكورة

مقدمات الاختراع

أما ما سبق ذلك فتلمس النور في دياجي الجهل،وهو سبيل الاكتشاف والاختراع الطبيعي

كان جوزف هنري العالم الطبيعي الاميركي قد لاحظ سنة ١٨٤٢ أن شرارة كهربائية صغيرة تبعث شيئاً في الفضاء ، ثم جاء العالم المجرّب الالمي داڤد هيوز ، مستنبط الميكروفون فجرّب بعض تجاربه بالشرارات الكهربائية . فتمكن من استعمال ميكروفونه لالتقاط بعضها . ثم وجد اديصن انهُ يستطيع ان يقدح شراراً كهربائيًّا في مادة معزولة اذا كان على مقربة منها مادة تنطلق منها كهربائية

على ان العقل الانساني ، وعلى الاخص العقل العلمي ، لا يلبث أن يقيم العراقيل . ويبدع الاعتراضات على كل فكر جديد . وهكذا نجد ان السر جبرائيل ستوكس ، وهو من اكبر علماء الطبيعة الرياضية في عصره يقول ، ان ما لاحظه هيوز سبَّبهُ ارتشاح الكهربائية . واجرى سلفانوس طمسن تجربة فعل اديصن وعلّلهُ بمبادىء معروفة . وذلك لان العلماء كانوا ينفرون من القول بأن الكهربائية تقفز من نقطة الى نقطة من غير موصل بين النقطتين . وكذلك ظلت مباحث هنري وهيوز واديصن في زوايا الاهمال . وليس ثمة سبب فني كان يمنع استنباط التلغراف اللاسلكي حينئذٍ — اي في العقد السابع من القرن الماضي . ولكن العالم ، لم يكن مستعداً ، من الوجهة النفسية ، لاستنباط طريف كهذا . فقد كانت تعاليم فراداي الكهربائية لا تزال موضوع عناية محصورة في أفراد قلائل ، وتلغراف مورس نفسهُ كان لا يزال ضيق النطاق

والرجل الذي كان لهُ أجلّ أثر في تهيئة الذهن العالمي للنظرية اللاسلكية هو جيمز كلارك

مكسول — خالق الاثير الحديث . كان بعض العلماء قبله قد فرضوا الاثير لتعليل انتقال الضوء من كوكب ما الى عين الرائي مثلاً . ولكن أثير مكسول كان وسطاً لانتقال أشعة كهربائية مغنطيسية ، بعضها قصير الامواج كأشعة النور فنراه ، وبعضها أطول قليلاً كأشعة الحرارة فنحسهُ ولا نراه وبعضها أطول جدًّا يتباين طولهُ من بوصة الى ميل أو اكثر ، فلا نراه ولا نحسهُ ، وهو الاشعة اللاسلكية

وكانت أشعة النور والحرارة معروفة . ولكن ماذا يقال في الاشعة طويلة الامواج التي لا ترى ولا تحسّ . كان اكتشافها المشكلة الكبرى التي اعترضت علماء الطبيعة في العقد الثامن من القرن الماضي . وجاء هرتز Hertz سنة ١٨٨٦ بكشافهِ الكهربائي وهو حلقة من معدن غير متصلة الطرفين بل لها طرفان يكادان يتماسان . فاستعملها في معمله بعد تعتيمهِ ، فلاحظ ان شرارة كهربائية صغيرة تمرّ بين طرفي الحلقة اذا أطلقت شرارة أكبر في طرف المعمل الاقصى فبعثت في الفضاء امواجاً كهربائية . فهذا دليل لا يمارَى فيهِ على وجود تلك الامواج الطويلة التي لا ترى — وهي الامواج التي تنبأ بها مكسول . واجرى هرتز امتحانهُ في هذه الامواج فعكسها ، وأمرّها في موشورٍ — اي كسّرها — وجرّب بها كل تجربة ليتأكد من مشابهتها او قرابتها لامواج الضوء . واذن فهذا شكل جديد من اشكال الطاقة لم يكن معروفاً قبل مكسول . اكتشفهُ مكسول نظريًّا وأثبت هرتز وجوده بالدليل التجريبي

إذن نستطيع أن نرى الآن ، لماذا ظلّت مباحث هنري وهيوز واديصن عقيمة لم تسفر عن استنباط التلغراف اللاسلكي في حينها . ذلك لانهم كانوا يجهلون طبيعة القوى التي يتناولونها . ولم يتمكن أحد منهم ان يوحد بينها وبين معادلات مكسول الرياضية . ولكن لما بدأ هرتز تجاربهُ بدأها من ناحية جديدة ولا يبعد أنهُ كان عارفاً بمباحث هنري وهيوز واديصن . فهم كانوا باحثين عمليين . ولكنهُ كان قد وعى مباحث مكسول النظرية ، ففهم الشيء الذي يبحث عنهُ ووجده

مركوني يدخل الميدان

هنا دخل مركوني الميدان . ها هو ذا تلميذ فتيّ في مدينة بولونا والاستاذ ريغي Righi احد الاساتذة الذين يتلقى عليهم ، يحاضر الطلاب متحمساً عن هرتز ومباحثهِ ويشهدهم كيف تطلق الامواج وكيف تلتقط فيفتن البحث لب مركوني . ان خياله المتصل من ناحية ابيهِ بخيال الايطاليين ومن ناحية امهِ بخيال الكلتيين Celts حفزتهُ الرؤى والاحلام . فعزم على أن يتعلم كل ما يعرف عن الامواج . وأكب على البحث والتجربة في حديقة ابيهِ وفي العشرين من العمر اصبح ثقة في موضوع الامواج ، لا يفوقهُ فيه احد . ثم انهُ يفوق كل

الثقاة الآخرين بخاطر لم يخطر لمكسويل ولا لهرتزل ولا لريغي. انهُ يستطيع ان يطلق الامواج ويوقفها بحسب رغبته وهو الى ذلك يستطيع ان يرسل سلسلة طويلة من الامواج او سلسلة قصيرة . فالسلسلة الطويلة تمثل خطًا والسلسلة القصيرة تمثل نقطة — وهذا هو اساس شفرة التلغراف السلكي ! إلاَّ ان تنفيذ فكرة مركوني لا يقتضي سلكاً بين المرسل واللاقط

وكان مركوني متصلاً من ناحيتي أمهِ وأبيهِ بكبار القوم في ايطاليا وانكلترا فأخذ كتاب توصية الى السر وليم بريس أحد زعماء المهندسين التلغرافيين حينئذٍ والرئيس الفني لمصلحة البريد البريطانية . ثم ان بريس كان قد اشتهر بتجاربه في محاولة اختراع تلغراف تقوم فيه الارض مقام السلك . فلما وصل مركوني الى لندن سنة ١٨٩٦ أحسن بريس وفادته وأصغى اليهِ فأقنعهُ مركوني — وهو في الثانية والعشرين — بأن التلغراف القائم على أمواج هرتز أفضل من التلغراف الأرضي

ولم تكن آلة مركوني التي عرضها في انكلترا حينئذ آلة طريفة كل الطرافة . ففي الجهاز المرسل مفتاح مورس المعروف . وفي الجهاز اللاقط كشاف أو روابط استنبطهُ برانلي الفرنسي وحسَّنهُ لودج الانكليزي . والامواج ترسل من سلك مرتفع — وهو جهاز يعيد الى الذهن تجارب تسلا Tesla — ولكن السلك مغروس في الارض وهو من ابتداع مركوني

ومع ذلك فهو اختراع عظيم ! انهُ تنظيم لاجزاء قديمة معروفة على منوال جديد، كذلك كان تلغراف مورس وحاصدة مكورمك وطيارة ريط ! يمضي الباحثون يتلمسون الطريق عشرات السنين ، ثم تنجب امٌّ عقلاً جباراً يميل الى نظم الحقائق في سمط جديد فيختار حقيقة من هنا وعنصراً من هناك ثم يركبها معاً — واذا نحن امام اكتشاف جديد او اختراع طريف او فن مستحدث ! فك الآلة الجديدة الى اجزائها فلا ترى فيها سوى اجزاء معروفة مشهورة . ولكن ركبها معاً كما ركبها المخترع واذا أنت امام آلة جديدة تنتج لك نتائج جديدة — وهذا هو سر الاختراع ! كل هذا ينطبق على الجهاز الذي عرضهُ مركوني على بريس

وفي نهاية سنة ١٨٩٧ كان مركوني قد فاز بارسال اشارات لاسلكية مسافة عشرة أميال والتقاطها . مع أن ارسالها مسافة نصف ميل كان من وراء تصور المهندسين الكهربائيين كما قال بريس بعدئذٍ في حديث لهُ عن نشأة اللاسلكي . ولا ريب في أن بريس جدير بالذكر في تنشيط اللاسلكي وهو في مهده ، لانهُ حمل مصلحة البريد البريطانية على تمهيد سبيل التجارب لمركوني وأعوانهِ . فأقبل الماليون على الاختراع الجديد فتألفت شركة جعل خبيرها العلمي السر امبروز فلمنغ وابتاعت من السر الفرلودج امتيازاته في ضبط « دوزنة » الآلات اللاسلكية وهكذا مهدت الطريق للتجربة الفاصلة في ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١

دير سانت كاترين

بطورسينا (١)

للمستر رابينو

قنصل انكلترا الجنرال في مصر

١ — تاريخ الدير — الرهبان

لشبه جزيرة طورسينا شأن كبير في تاريخ العالم الديني . وسنستثني من بحثنا هذا عبادة القمر ونشر لوحات الوصايا العشر ، فان هذين الموضوعين كانا محل دراسات عدة

كان الطريق الذي يربط فلسطين بمصر يخترق الجزء الشمالي من شبه الجزيرة . اما الجزء الجنوبي فقد كان مشهوراً بمناجم الفيروز على الخصوص . وهو اقليم مجدب جبلي ولاسيما في الجنوب حيث توجد قمم سربال Serbal (٢٠٥٧ م) وجبل موسى (٢٢٤٢ م) وجبل اكاتريني Ekaterini (٢٥٩٧ م) ورأس صفصاف (١٩٩٢ م) . وفي الجزء الجنوبي جبل تبت Thebet (٢٤٠١م) وجبل ام شومر (٢٥٧٤م) وجبل ام اسود (٢٥٠٨م) . وجميعها من اشد البقاع وعورة

اما جبل موسى فيقال انهُ المكان الذي اصدر الله فيهِ الى موسى الوصايا العشر وان كان بعض الكتاب يرى ان هذا المكان هو رأس صفصاف . واما جبل اكاتريني فهو اكثر الجبال ارتفاعاً في شبه الجزيرة ويقال انهُ هو الذي حملت اليهِ الملائكة جثمان العذراء الشهيدة القديسة كاترين . وقد تلاشت منذ حقبة طويلة من الزمن اشجار الأثل tamaris وحراج النخيل التي كانت تكسو جانباً من وديان طورسينا

اما معابد وادي مغارة وسرابيت Serapit فقد اسهب الكتاب في وصفها . ثم ان في الجبل كتابات كثيرة فرعونية وعلى ذلك فلن نعرض في هذا البحث لاقامة بني اسرائيل في طورسينا ولا لإقامة الاقباط ، فكتابات هؤلاء تكاد تكون موجودة في الوديان في كل مكان ولاسيما في وادي مقطب

والنساك هم الذين أكسبوا هذا الاقليم شهرة طوال العصور المسيحية ، فقد لجأوا اليهِ على أثر اضطهاد الحكام الرومان اياهم ، لما يمتاز بهِ من العزلة والوحشة فأقاموا في جبال شبه الجزيرة

(١) نقلها الى العربية محمد وهبي افندي أحد خريجي معهد الآثار الاسلامية

الجنوبية حيث كانت عيون الماء ومجاريها وكان في الامكان زراعة الحبوب والخضر وأشجار الفواكه

وكان أول ناسك هو القديس اونوفريوس Onophrins الذي التجأ الى مغارة في وادي ليان Leyan جنوبي جبل موسى في بداية القرن الرابع ثم جاء بعده كثير من النساك الذين خلفوا آثاراً في كل مكان وسرعان ما تكونت مراكز في كل منها برج يلجأ اليه النساك ساعة الخطر . ومن هذه الابراج برج بالقرب من ريثو Raithou وقد اندمج فيما بعد في دير القديس يوحنا ، وبرج مهدم في اربعين Arbain وكان هناك برج آخر في موضع العليقة المتوقدة[1] Buisson-Ardent على مقربة من المكان الذي قام فيه دير سانت كاترين الحالي ويقال ان الامبراطورة سانت هيلين بنت هذا البرج حوالي سنة ٣٣٧

وان طورسينا لغنية جداً في تاريخ القديسين والشهداء فقد قتل عبيد البجة[2] والعرب كثيراً من النساك وكان الرهبان عرضة دائماً لغارات الاعراب فتوسلوا الى الامبراطور يوستنيانوس ان يبني لهم ديراً يجدون فيه مأمناً فأجاب سؤلهم وحقق رجاءهم واخذ الدير على مدى الزمن يكتسب الشهرة فلما نقل اليه جثمان القديسة كاترين علت شهرته فأمّهُ الحجاج والفرسان المسيحيون منذ البداية حتى القرن الخامس عشر الذي انفصل فيه الرهبان عن روما فصار الدير من ذلك الوقت مقصد بعض الحجاج اللاتين وكثير من الحجاج الارثوذكس وبعض السياح والعلماء . وسيكون هذا الدير موضوع حديثنا في الصفحات الآتية :

لما توسل رجال الدين المشتتون على جبال طورسيناء وفي وديانه الى الامبراطور يوستنيانوس أمر ببناء دير محصن كما قدمنا على قمة الجبل الذي يوجد في سفحه المكان المعروف باسم العليقة المتوقدة أو المشتعلة غير ان مندوب الامبراطور آثر أن يبنيه عند سفح الجبل بالنظر الى الجو وضيق المساحة وانعدام الماء ، ويقال إنهُ قتل بسبب هذه المخالفة

وأرسل الامبراطور في الوقت عينه الى طورسينا مائة من عبيد اقليم ولاخيا Wallacine

---

(١) Buisson-Ardent وأصل هذه التسمية ظهور الله عز وجل لموسى وسط نبات من الشوك المتوقد جاء عنه في الاصحاح الثالث من سفر الخروج : « وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان . فساق الغنم الى وراء البرية وجاء الى جبل الله حوريب . وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة . فنظر واذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق فقال موسى أميل الآن لانظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة . فلما رأى الرب انه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى! موسى! فقال هاءنذا . فقال لا تقترب الى ههنا . اخلع حذاءك من رجليك لان الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة » وقد جاء في القرآن الكريم في سورة طه « وهل أتاك حديث موسى ، اذ رأى ناراً فقال لاهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتيها نودي يا موسى اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى » (٢) ذكر شفيق باشا في كتابه « مذكرات عن زيارة الى دير طور-سينا » ص ١١ أن من سلالة عبيد البجة البشاريين سكان شرقي أسوان وبلاد النوبة في أيامنا هذه ، وكان عبيد البجة يعبرون الى سينا للغزو من صحراء مصر الشرقية

ومائة أخرى من مصر مع نسائهم وأولادهم للقيام بحماية الرهبان وخدمة الدير. ولا يزال خلف أولئك العبيد يخدمون الدير وهم مسلمون ويقوم الرهبان باطعامهم

وقد كان البابا غوريغوريوس الكبير (٥٩٢ — ٦٠٤) أحد الذين أحسنوا الى الدير. وروى حاج إلى الدير سنة ١٣٤١ أن الرهبان كانوا يحتفلون بذكرى ذلك البابا احتفالاً فخماً

وقد اعترف الرهبان بسيادة البابا حتى أواسط القرن الخامس عشر ثم اعتنقوا عقيدة فوتيوس Photius الذي انشق على الكنيسة ومع ذلك فقد ظلوا يبعثون منهم من يجمع لهم التبرعات من البلاد الكاثوليكية والتبرعات السنوية التي كان يجود بها لويس الحادي عشر ملك فرنسا وإزابلا ملكة أسبانيا (١٤٨١ — ١٥٠٤) والامبراطور مكسيمليان الأول (١٤٩٣ — ١٥١٧)

وقد قاسى الدير كثيراً على أيدي العرب الذين لم تردعهم الفرمانات السلطانية العديدة التي أوجبت عدم التعرض للأرواح والاموال بسوء، فاضطر الرهبان مرات عديدة الى أن يهجروه ويلتجئوا الى الطور Tor أو إلى مصر. ولذا كان الدير خالياً عند زيارة جان توخر Jean Tucher من مدينة نورمبرج سنة ١٤٧٩. وطرد العرب الرهبان من الدير سنة ١٥١٦ اثناء الحرب بين الاتراك والمماليك. وكان الدير مغلقاً مدة أربع سنوات أو خمس في منتصف القرن السادس عشر ثم كان مغلقاً ايضاً في سنة ١٥٦٥ وفي سنة ١٦٠٠، كما كان مغلقاً كذلك في سنة ١٦١٨ وهي السنة التي انتخب فيها ايوزاف Ioasaph مطراناً في طورسينا وأمر بفتحه، غير أنهُ اغلق ثانية بعد اربع عشرة سنة وكذلك كان بين سنتي ١٦٥٦ و ١٦٦٠ وبين سنتي ١٧٣١ و ١٧٣٣ وأثناء الحملة الفرنسية على مصر حتى أمر كليبر ببناء السور. واختلف عدد الرهبان كثيراً باختلاف الازمنة ففي سنة ١٠٠٠ كان ثلثمائة وفي سنة ١٣٣٦ وجد فيه بيتر رودلف Peter-Rudolf وأصله من مدينة زوخن نيفاً واربعمائة، مع مطرانهم وعدداً من الاحبار. وروى فريسكوبالدي Frescobaldi ورفقاؤه أنهُ كان بالدير سنة ١٣٨٤ مائتا راهب منهم ١٥٠ بالدير الكبير والبقية موزعون على كنائس الجبل الصغيرة. وكانوا ٢٨٠ سنة ١٣٩٣ وفي سنة ١٣٩٥ وجد نيقولا دي مارتون Nicolas de Marton ٢٤٠ راهباً، غير ان پيرو طافور Pero Tafur لم يجد سنة ١٤٣٥ الاّ ٥٠ او ٦٠ راهباً وكان الدير يجتاز حينئذ ازمة شديدة. اما فيليكس فابر Félix Faber الذي زار الدير ١٤٩٤ فلم ير الاّ ثلاثين راهباً ويظهر انهُ كان بالدير في القرن السابع عشر بين الستين والثمانين راهباً

وربما كان لتأسيس اديرة عدة بالقسطنطينية وقبرص وكريت وبلغراد وبوخارست وجاسي واثينا تأثير كبير في عدد رجال الدين المقيمين بسانت كاترين فلم يعد هناك مئات من الرهبان كما كان يجد زوار العصر الوسيط. ففي سنة ١٧٠٠ لم يجد بونسيه Poncet غير خمسين ومثله فولني Volney عند زيارته للدير سنة ١٧٩٣. ثم كان العدد ٢٨ سنة ١٨٠٠ منهم ستة من رجال الدين

واثنان وعشرون من الرهبان. ثم كان ٢٣ سنة ١٨١٦ عند زيارة بوركهاردت Burchardt ولم يزدد الرهبان حتى يومنا هذا فقد احصى ولستد Wellsted ٢١ راهباً وفون شوبرت Von Schubert ٢٦، ولم يجد روبنسن Robinson غير ٢٠ . ووجد لبسوس Lepsus سنة ١٨٤٥ خمسة وعشرين منهم اربعة قسس وواحد وعشرون راهباً . وأحصى ايبرس Ebers سنة ١٨٧١ ثمانية وعشرين . وكانوا عشرين سنة ١٩٠٥ ولم يزد عددهم من ذلك الحين الا قليلاً وفي دير سانت كاترين عدا المطران خمسة قسوس وشماس واحد وأربعة رهبان مبتدئين وثمانية من خدام الرهبنة غير مترهبين . ومجموع الرهبان المنتمين الى الدير ٤٩ والى القارىء بياناً مفصلاً :

محل الاقامة		رؤساء الاساقفة	قسوس	شمامسة	رهبان جدد	خدام من غير المترهبين	الجملة
سنت كاترين بطورسينا		١	٥	١	٤	٨	١٩
فاران	Faran					١	١
الطور			١	١	١	٢	٥
السويس				١			١
القاهرة			٤		١	١	٦
اسمره			١				١
طرابلس الشام			١				١
قبرص — كيرينيا	Kirinia		٢				٢
— بافوس	Paphos		١				١
ريتزو كارباسو	Rizo Karpasso		١				١
كريت — قندية	Candie		٢				٢
— لاكانيه	La Canée		٢				٢
مساره	Messara			١			١
سبليوتسيا	Spileotissa		١				١
زانته	Zante		١				١
خيو	Chio		١				١
يانينا	Janina		١				١
القسطنطينية			١				١
اثينا				١			١
الجملة		١	٢٥	٥	٦	١٢	٤٩

ويقيم المطران بالدير الا اذا كان وجوده بالقاهرة ضرورياً فيما يتعلق بأعمال الطائفة وهو يدير الدير يساعده المجمع المقدس Saint Synaxis الذي يتكون من النائب وأمين الصندوق وأمين المخازن

واذا تغيب المطران حل محله النائب وللرهبان اجمعين — ماعدا المبتدئين — حق انتخاب الرئيس ويجري الانتخاب بدير سانت كاترين بطورسينا ويقوم الغائبون بتوكيل من ينوب عنهم في الانتخاب . ونقل الرهبان من وظيفة الى اخرى او من دير الى آخر من اختصاص المطران والمجمع المقدس . وتستطيع الطائفة ان تقرر عزل المطران غير انه يمكنه ان يستأنف قرارها امام بطريرك بيت المقدس

***

واسقفية طورسينا كنيسة مستقلة استقلالاً ذاتياً وفي مرتبة اسقفيات كريت وتشكوسلوفكيا واستونيا وفنلندا . المطران يرسمهُ بطريرك بيت المقدس . وهذا دليل على أن دير طورسينا تابع لكنيسة بيت المقدس . وكانت الطائفة قبل الحرب على جانب كبير من الغنى فكانت تملك ريعاً قدره ثمانية آلاف من الجنيهات المصرية غير ان ممتلكاتها في رومانيا قد صودرت وكان ضمنها سينايا Sinaia وهو قصر المصيف الملكي في وقتنا الحاضر . وكذلك صادرت رومانيا املاكها في بسارابيا عند ماضم هذا الاقليم الى رومانيا . وبيعت املاكها في الصرب اثناء الحرب . كما ان العمارة ذات الايراد التي انشأتها في خيف Chiv بثمن بعض ممتلكاتها الزراعية بالقرب من هذه البلدة صودرت قبل ان يتمكن الدير من استغلالها اي استغلال مع أنها كلفتهُ ستين الفاً من الجنيهات . وكذلك ممتلكاتها في تفليس . ثم ان الحكومة التركية وضعت يدها على دير ازمير ولم يستطع الدير حتى اليوم ان يسترده فلم يبق للدير بعد ذلك من ممتلكات الا في قبرص وكريت وايرادها ضئيل . ثم ممتلكاتها في القاهرة وحدائقها وصوامعها في شبه جزيرة طورسينا

والتبرعات التي كان الدير يجمعها في البلاد المسيحية ذات المذهب الارثوذكسي تضاءلت فلم تعد تجدي واضطر الدير الى اهمالها

***

والرهبان يتبعون القواعد التي وضعها القديس بازيل ويحيون حياة الزهد والتقشف فلا يأكلون اللحم الا نادراً ولا يتناولونه في غرفة الطعام بتاتاً ولوكان اليوم عيد الفصح فأنهم فيه يتغدون سمكاً ثم يخرجون مساء الى الحديقة وهناك فقط يأكلون اللحم

ويتقاضى الراهب كل شهر لتراً من الشراب وجنيهين مصريين . ويستيقظ الرهبان جميعاً في الساعة الثانية والنصف صباحاً إذ يدق جرس صغير ثلاثاً وثلاثين دقة (سن المسيح) ثم يدق ناقوس كبير بعد خمس دقائق ٣٣ دقة مثلها ويرتل الرهبان في الكنيسة صلاة السحر في الساعة الرابعة ويدعون الى هذه الصلاة بالسياندر [١]

ثم في الفترة بين عيد الفصح وعيد العنصرة يقام القداس الكبير كل يوم في البازيليكا (الكاتدرائية) او في الكنائس الصغرى والقداس يقام في البازليكا لمناسبة الاعياد الكبيرة وهي عيد الفصح وعيد سانت كاترين وعيد التجلي . اما في غير هذه الاعياد فيقام القداس الخافت ايام الآحاد والاربعاء والسبت . وفي الاعياد الصغرى يقام القداس الصغرى . ويقام القداس ايام الاربعاء في كنيسة العذراء المقدسة الواقعة اسفل المكتبة . وأيام السبت يقام في كنيسة العليقة المشتعلة ، الموهوبة الى العذراء .

اما يوم الاموات وايام السبت الخاصة بالصيام الكبير فيقوم قسيس بالقداس في المقبرة في كنيسة سان تريفون Saint Tryphon

ويتناول الرهبان بعد انتهاء القداس فنجاناً من القهوة التركية ثم يتوجهون الى أعمالهم . ويدعون جميعاً بالسياندر السالف الذكر الى الفطور معاً في الساعة العاشرة والنصف وفي الساعة الثالثة بعد الظهر يدق الناقوس ثلاث دقات إيذاناً بصلاة المغرب ، ثم بعد الصلاة يقرع السياندر ثلاث مرات ان قد حان موعد تناول العشاء فيتناوله الرهبان في خلواتهم

ويقرع السياندر الحديدي بدل الخشبي في ايام السبت . اما ايام الاعياد فتدق ثمانية اجراس صغيرة إيذاناً ببدء القداس ، وهي الاجراس التي كانت روسيا قد اهدتها الى الدير منذ خمسين سنة تقريباً

***

ويحدثنا الشماس افريم Epharem (١٦٥٠ ؟) عن بلاطة من الجرانيت تخرج اصواتاً معدنية مؤثرة جداً وكانت تقرع ايام الحداد [٢] ، واليوم يقرع الناقوس في هذه الاحوال . وحساب الزمن عند الرهبان يبدأ من غروب الشمس

[للمقال تتمة تتناول وصف الطريق من القاهرة الى الدير ثم وصف الدير ورسومه ومناظره وسوره وتخطيطه]

---

(١) السياندر Symandre لوح من الخشب الصلب معلق من جانبيه وتصدر عنه اصوات منسجمة متلائمة حين يقرع بالمدق

(٢) B.Meistermann. Guide du Nil au Jourdain par le Sinai et Pétra طبعة باريس ١٩٠٩ ص ١٣٧

من قبل طارق

فتحنا احد مجلدات المقتطف من دون تخيُّر فاذا هو المجلد الثاني والثلاثون الصادر سنة ١٩٠٧ فقلَّبنا صفحاتهِ فاستوقفتنا صورة جبل طارق لكثرة ما يدور حواليه من شؤون سياسية وحربية دولية في هذه الايام فراجعنا ما كتب عنهُ فاذا هو فصل من رحلة للمرحوم الدكتور صرُّوف واذا مرأى الحصن واقترانهِ باسم طارق بن زياد قد حرَّك الخاطر الشعري فقال القصيدة التالية. ومن غرائب الاتفاق انها منشورة في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٠٧ اي من ثلاثين سنة تماماً

ربةَ الشعر هل أتاكِ حديثٌ	عن كماة الاعراب من قبل طارقْ
عن غزاة في القفر شبُّوا زمانَ الروم	والفرس يملكون المشارقْ
عرشَ كسرى ومصر والشام نالوا	وجروا في الفتوح جريَ السوابقْ
حاول الروم صدَّهم فتصدى	كل من في ولائهم غير صادقْ
من يهودٍ وصابئين وقبط	والنصارى (١) وكل خصمٍ مشاققْ
نصروا العرْب خفيةً وجهاراً	لم يحارب للروم غير الاصادقْ

* * *

شمخ الروم قبل ذاك وجاروا	هل أتاهم أن ليس للخلق خالقْ
واناخ الفساد والفرس جاسوا	بحرهُ خائضين حتى المخانقْ
وإذا الظلم والفساد اقاما	نضب الحوض من حماة الحقائقْ

* * *

نصر الله أمةً إذ تولى	امرها العادلون بين الخلائقْ
قام صدّيقها باصدق أمر	وتلاهُ الفاروق بالعدل فارقْ
وكماة في المكرمات تباروا	وهم الاسد في صدور الفيالقْ
دوَّخوا الارض وطدوا الملك قاموا	بفروض الكتاب تحت البيارقْ
ثم عزُّوا والمُلك صار عضوضاً	فاستكنُّوا كأنهم في حدائقْ
وتباروا في البذخ فالظلم فالابقــال في ما بعد للملك ماحقْ	
شمس عدلٍ ضمَّت شعوباً فلما	كسفت فرَّق الشعوب طرائقْ

(١) اي النساطرة



١٥٩٦ — ١٦٥٠

ليوسف كرم

أحد مدرّسي الفلسفة بالجامعة المصرية

تحتفل فرنسا هذا العام، وتحتفل معها المعاهد العلمية في انحاء العالم، بانقضاء ثلاثة قرون على نشر ديكارت كتابه الشهير «مقال في المنهج». ومنذ مفتتح العام وديكارت حديث العلماء والمثقفين في محاضرات عامة، ودروس خاصة، وبحوث تظهر في المجلات والجرائد. وقد بلغ الاحتفال اوجه بمؤتمر جامع عقد بباريس في غرة اغسطس الماضي أمّهُ العلماء والمثقفون من كل صوب ودام اسبوعاً كاملاً. ولا عجب إن تصيب هذه الذكرى مثل هذه العناية فان ديكارت عالم وفيلسوف من الطبقة الاولى لا ينتهي النظر في آثاره العلمية والفلسفية ولا يفرغ الكلام عنهُ

ويزيد في مكانتهِ أثره البالغ في الفكر الحديث. فقد كان العصر الحديث منذ «النهضة» يضطرب بميول جديدة ويستكشف علماً جديداً. كان ينفر من كل سلطان في العلم والفلسفة والدين، ويطالب للعقل استقلاله التام، ويحاول اقامة علم طريف قاعدتهُ الملاحظة والاختبار ليس غير، يريد بهِ انتزاع اسرار الطبيعة للسيطرة عليها وتوجيه قواها، او قوانينها، لزيادة رفاهية الانسان وتحقيق سعادتهِ على وجه الارض. وكان يلتمس طريقه الى توضيح تلك الميول وتسويغها ليعارض المذهب القديم بمذهبهِ الجديد، والى تهذيب ذلك العلم وتوطيده ليقيم الدليل على صدق نزعته. فلما جاء ديكارت احسّ تلك الميول احساساً قويّاً، وفهم ذلك العلم فهماً تامّاً، وساهم فيهِ مساهمة خصبة، ثم وضع فلسفة تؤيّده وتحميه وترفع الميول الناشئة من مستوى العاطفة والارادة الغامضة الى مستوى العقل والحق والقانون، واعلن كل ذلك في الكتاب الذي احتفل بهِ القوم هذا العام فكان الكتاب دستور العصر واستحق صاحبهُ ان يدعى «ابا الفلسفة الحديثة»

١ — حياته ومصنفاته

ولد رينيه ديكارت سنة ١٥٩٦ في لاهاي من اعمال مقاطعة تورين بفرنسا . ولما بلغ الثامنة ادخل مدرسة « لافليش » للآباء اليسوعيين وكانت من أشهر المدارس في أوربا ، فمكث بها ثماني سنين حتى أتمّ برنامج الدراسة فيها . وكانت الفلسفة تحتل في هذا البرنامج مكاناً فسيحاً فتمتد على الثلاث سنوات الاخيره من سنيه ، وكان تدريسها عبارة عن شرح كتب ارسطو موزعة الى مجموعات ثلاث ، لكل سنة مجموعة . كتب المنطق، فكتب العلم الطبيعي (والى جانبها الرياضيات) فكتاب النفس وكتاب مابعد الطبيعة. وأعجب ديكارت بوضوح الرياضيات ودقتها وإحكام براهينها، اما الفلسفة فتركت في نفسه أثراً سيئاً لكثرة ما فيها من أخذ ورد، واعتقد ان اختلاف الفلاسفة مدعاة للشك في الفلسفة وللشك في باقي العلوم . فان هذه العلوم قائمة على الفلسفة تستمد مبادئها منها . هـذا ما نقرأ في « المقال » ولعل ديكارت يضيف الى عهد الشباب حكماً نضج عنده في الكهولة . على ان من المحقق انه تعلّق بالرياضيات وانصرف عن الفلسفة ، ولم يعد اليها ، الاّ بعد مضي زمن طويل . فكان يخصص لها « ساعات في العام »

غادر اذن المدرسة وهو في السادسة عشرة . وبعد ذلك باربع سنين (١٦١٦) تقدم لامتحان القانون في بوانيه ونال الشهادة . وسنة (١٦١٨) تطوّع للخدمة في جيش الامير موريس دي ناسو بهولاندا، وكانت حينذاك حليفة فرنسا على الاسبان. وعرف هناك طبيباً شاباً اسمهُ اسحق بكمان وكانا يشتغلان بمسائل رياضية وطبيعية رياضية وهـذه مرحلة هامة في حياة ديكارت فان فكره تكوّن في الوقت الذي كان العلم الطبيعي الحديث يتكون فيه بتطبيق المنهج التجريبي والاستدلال الرياضي على الظواهر الطبيعية

وفي السنة التالية (١٦١٩) ترك جيش الامير الى جيش آخر فآخر من جيوش الأمراء الالمان . وحلّ الشتاء وخلا بنفسه في حجرة دافئة في قرية مجاورة لمدينة أولم ، وبينما هو في ذلك عملاه نشوة علمية غريبة بلغت أقصاها في العاشر من نوفمبر اذا به يستكشف في حلم « أسس علم عجيب » . هذا الحلم يدلنا على شدة استغراق ديكارت في تفكيره ؟ أما العلم العجيب فقد تضاربت فيه الآراء، وأغلب الظن ان المقصود «منهج كلي» يردُّ به العلوم جميعاً الى الوحدة ، ذلك المنهج الذي سيعلنهُ في « المقال »

وعدل عن المهنة العسكرية وراح يطوف انحاء اوربا تسع سنين حتى جاء باريس سنة ١٦٢٨ . تسع سنين لم ينقطع في أثنائها عن معالجة المسائل الطبيعية بالطريقة الرياضية، أي بتجريدها من المبادىء الفلسفية التي كانت لاصقة بها عند أرسطو والمدرسيين ، وردها الى مسائل رياضية .

والى هذا الدور يرجع استكشافه للهندسة التحليلية اي تطبيق الجبر على الهندسة . فقد كان الجبر كثير الصيغ معقدها ، وكانت الهندسة مقتصرة على النظر في الاشكال ، ولم يكن بين العلمين صلة فبدا لديكارت ان الهندسة والحساب يقومان بالترتيب والقياس ، وان المطلوب من الجبر التعبير عن أعم قوانين الترتيب والقياس ، وان من الممكن وضع علم تكون صيغه أبسط من صيغ الحساب وأكثر تجريداً من أشكال الهندسة، فتنطبق على الاعداد والاشكال جميعاً اي على كل ما هو مرتب وقابل للقياس . فرمز بأحرف لخطوط الشكل الهندسي ، وعلاقات هذه الخطوط ، ومثل الشكل بمعادلة جبرية تعبر عن خصائصه الاساسية ، حتى اذا ما وضعت هذه المعادلة فيكفي استخراج نتائجها بالجبر لاستكشاف جميع الخصائص — والى ذلك الدور ايضاً يرجع كتابه « القواعد لتدبير العقل » وهو بمثابة منطق جديد مستمد من مناهج الرياضيين ، ولكن ديكارت لم يتمه فبقي مطوياً الى ان طبع بعد وفاته بنصف قرن (١٧٠١) . وفي باريس ظهر اهتمامه بالمسائل الفلسفية ولكن على نحو مبتكر أعجب به الكردينال دي بيريل فشجعهُ تشجيعاً حاراً على مواصلة بحثه وتكميل مذهبه ، خدمة للدين وصداً لهجمات الزنادقة

ولم ترقه الحياة في باريس فقصد الى هولاندا في أواخر سنة ١٦٢٨ يطلب العزلة . وكتب رسالة قصيرة في « وجود الله ووجود النفس » يرمي بها الى وضع أسس علمهِ الطبيعي — وسنرى فيها بعد السبب في محاولتهِ ربط العلم الطبيعي بالفلسفة ، وفي السنة التالية عاد للاشتغال بالطبيعيات وشرع في تحرير كتابه « العالم » وواصل العمل فيهِ الى سنة ١٦٣٣ . وفي تلك السنة أدان المجمع الكنسي غليليو لقوله بدوران الارض ، وكان ديكارت قد وصل من جهتهِ الى مثل هذا القول فطوى كتابه — وكان شديد الحرص على هدوئهِ ، فلم يُنشر الكتاب الاّ بعد وفاتهِ بسبع وعشرين سنة (١٦٧٧)

على انهُ رأى ان يمهد الطريق لمذهبهِ ويجس النبض ، فأذاع سنة ١٦٣٧ شيئاً من علمهِ الطبيعي في ثلاث رسائل قدّم لها برسالة يقص فيها تطوُّر فكره ، ويجمل مذهبه في الفلسفة والعلم . وكان العنوان الاصلي للكتاب برمتهِ « مشروع علم كلي ، يرفع طبيعتنا الى أعلى كمالها ، يليهِ البصريات والآثار العلوية والهندسة ، حيث يفسر المؤلف اغرب ما استطاع اختياره من موضوعات تفسيراً يسهل فهمه حتى على الذين لم يتعلموا » . فاستبدل بهِ هذا العنوان « مقال في المنهج لاجادة قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم ، يليهِ البصريات والآثار العلوية والهندسة ، وهي تطبيقات لهذا المنهج » ويبين لنا من ذلك ان الوحدة قد تمت في فكر ديكارت بين الفلسفة والعلم الطبيعي الرياضي والغاية المرجوة منهُ وهي « رفع طبيعتنا الى اعلى كمالها »

وأراد ان يعرض مذهبه على اللاهوتيين باللاتينية بعد ان عرضهُ على عامة المثقفين بالفرنسية فعاد الى ما في « المقال » من آراء فلسفية فتوسع في شرحها وتأييدها فكان لهُ من ذلك كتاب اسماه « التأملات في الفلسفة الاولى ، وفيها البرهان على وجود الله وخلود النفس » . وقبل تقديمها للطبع استطلع فيها رأي نفر من هؤلاء اللاهوتيين ليستدرك ما قد يأخذونهُ عليه فيهيء للكتاب قبولاً حسناً وينال رضى لاهوتيي السوربون ، فوضعوا عليها اعتراضات كثيرة ألحقها بالتأملات وعقب عليها بردوده ونشر الكل سنة ١٦٤١ . وفي الطبعة الثانية (١٦٤٢) قال في العنوان « تمايز النفس من الجسم » بدل « خلود النفس » على اعتبار ان النفس اذا كانت متمايزة من الجسم كانت خالدة . ونشرت للكتاب ترجمة فرنسية سنة ١٦٤٧ بقلم الدوق دي لوين

وخطر لديكارت ان انجع وسيلة لاذاعة فلسفته وعلمه الطبيعي ربما كانت تلخيصها في كتاب مدرسي سهل التناول ، فنشر سنة ١٦٤٤ باللاتينية (وكانت لغة العلم والتعليم في اوربا) كتاب « مبادىء الفلسفة » وحاول ان يحمل معلميه السابقين على تقريره في مدارسهم فيحل محل ارسطو فلم يجيبوه الى رغبته . ونشرت للكتاب ترجمة فرنسية سنة ١٦٤٧ قدم لها المؤلف برسالة الى المترجم عرض فيها فلسفته عرضاً عامًّا

ومن ذلك الحين مال الى الاخلاق، وكتب فيها رسائل الى الاميرة اليصابات ابنة فريدريك ملك بوهيميا المعزول واللاجىء الى هولاندا . ثم وضع « رسالة في انفعالات النفس » وهي آخر مؤلفاته نشرت سنة ١٦٤٩

هذه الاقامة الطويلة في هولاندا تخللتها ثلاث رحلات قصيرة الى فرنسا (١٦٤٤ و١٦٤٧ و١٦٤٨) ومناقشات حادة بينهُ وبين بعض العلماء واللاهوتيين ونزاع عنيف بين انصاره ومؤيديه

وفي سنة ١٦٤٩ قصد الى استكهولم تلبيةً لدعوة كرستين ملكة السويد فتأثر بالبرد، وساءت صحته ، وقضى في ١١ فبراير ١٦٥٠

***

٢ — الشك واليقين

لكل علم مبدأ ، فأين نلتمس المبدأ الذي تقيم عليه العلم ؟ ان عقلنا مشحون باحكام ألفناها في عهد الطفولة ، او قبلناها من المعلمين قبل تمام النضوج والرشد . واذا نظرنا في العلوم ألفيناها تكونت وتضخمت شيئاً فشيئاً بمعاونة رجال مختلفين فجاءت كالثوب الملفق او البناء المرمم . فمن الضروري اذا اردنا ان نقرر شيئاً محققاً في العلوم ، ان نبدأ العمل من جديد فنطرح كل ما دخل

عقلنا من معارف ونشك في جميع طرق العلم واساليبه ، مثلنا مثل البنّاء يزيل الانقاض ، ويحفر الارض حتى يصل الى الصخر الذي يقيم عليه بناءه . والاساس الذي نريد الوصول اليه هو العقل مجرداً خالصاً ، فان العقل واحد في جميع الناس اذ انهُ الشيء الوحيد الذي يجعلنا اناسي ويميزنا من العجماوات ، فهو متحقق بتمامه في كل انسان . وما منشأ تباين الآراء سوى تباين الطرق في استخدام العقل . ولسنا بحاجة الى التدليل على كذب آرائنا السابقة ليسوغ لنا اطراحها على هذا النحو ، بل يكفي ان نجد فيها ايّ سبب للشك اذ ليس الشك مقصوداً هنا لنفسه بل لامتحان معارفنا وقوانا العاملة . ولسنا في حاجة كذلك الى استعراض تلك الآراء رأياً رأياً ، بل يكفي ان نستعرض المبادىء ، فان هدم الاساس يجرُّ وراءه هدم البناء

يقول ديكارت : اذن فانا اشك في الحواس لانها خدعتني احياناً ، ولعلها تخدعني دائماً ، وليس من الحكمة الاطمئنان الى من خدعنا ولو مرة واحدة — وانا اشك في استدلال العقل لان الناس يخطئون في استدلالاتهم ومنهم من يخطىء في ابسط موضوعات الهندسة ، فلعلي اخطىء دائماً في الاستدلال . ومن دواعي الشك ايضاً ان نفس الافكار تخطر لي في النوم واليقظة على السواء ، ولست اجد علامة محققة للتمييز بين الحالتين ، فلعل حياتي حلم متصل — ومما يزيد في ميلي الى الشك اني اجد في نفسي فكرة اله قدير يقال انهُ كلي الجودة وهو مع ذلك يسمح ان اخطىء احياناً ، فاذا كان سماحه هذا لا يتعارض مع جودته فقد لا يتعارض معها ان اخطىء دائماً . ولكن مالي ولله . فقد يكون هناك روح خبيث قدير يبذل قدرته ومهارته في خداعي فاخطىء في كل شيء حتى في ابسط الامور وأبينها مثل ان اضلاع المربع اربعة وان اثنين وثلاثة تساوي خمسة

ولكني في هذه الحالة من الشك المطلق اجد شيئاً يقاوم الشك . ذلك اني اشك . فانا استطيع الشك في كل شيء ماخلا شكي . ولما كان الشك تفكيراً فأنا أفكر ، ولما كان التفكير وجوداً فأنا موجود : «أنا افكر إذن فأنا موجود» . تلك حقيقة مؤكدة واضحة جلية خرجت لي من ذات الفكر ، لها ميزة نادرة هي إني أدرك فيها الوجود والفكر متحدين اتحاداً لا ينفصم . ومهما يفعل الروح الخبيث فلن يستطيع أن يخدعني فيها ، لأنهُ لا يستطيع أن يخدعني إلاّ ان يدعني أفكر . واذن فأنا اتخذها مبدأ أولاً للفلسفة . الفكر مبدأ لأنهُ وجود معلوم قبل أي وجود ، وعلمه أوضح من علم اي وجود . هو معلوم بداهة ، ومهما نعلم فنحن بفكرنا أعلم ، فمثله لو اعتقدت ان هناك أرضاً بسبب إني المسها وأبصرها فيجب أن اعتقد من باب أولى أن فكري موجود اذ قد « افكر » اني المس الارض دون أن يكون هناك أرض ، ولكن ليس من الممكن ألاّ أكون

في الوقت الذي افكر فيه — ثم أنا أتخذ هذه الحقيقة الاولى معياراً لكل حقيقة ، فكل فكرة تعرض لي بمثل هذا الوضوح ومثل هذا الجلاء اعتبرها صادقة

على أن اطمئناني الى الجلاء والوضوح ما يزال مفتقراً الى التثبيت ، فقد يكون خالقي صنعني بحيث اخطىء في كل ما يبدو لي بيناً ، او قد يكون سمح للروح الخبيث ان يخدعني دائماً . الحق انهُ بدون معرفة وجود الله وصدقه فلست ارى ان باستطاعتي التحقق من شيء البتة . أعود إذن الى فكرة الله ، التي كانت سبباً من اسباب الشك ، فأجد انها فكرة موجود كامل والكامل صادق لا يخدع ، فان الخداع نقص لا يتفق مع الكمال . وعلى ذلك فأنا واثق بأن الله صنع عقلي كفؤاً لادراك الحق، وما عليّ إلاّ ان اتبين الأفكار الواضحة وصدق الله ضامن لوضوحها

سنعرض بعد هنيهة الأدلة على وجود الله ونقدر قيمتها ، ونقف الآن عند هذه المراحل الثلاث الاولى من مراحل المنهج الديكارتي : الشك المطلق ، فوضوح الفكر، فالضمان الالهي ، ونسأل : هل هذا المنهج سائغ؟ أما الشك الديكارتي فلسنا نوافق على انهُ فرضي منهجي. ولكي يكون الشك فرضيًا منهجيًا يجب ان يكون صوريًا وجزئيًا ، وديكارت يشك حقيقة وفي كل شيء ، أو هو يشك في كل شيء فيصبح شكه حقيقيًا بالضرورة . انهُ يصرح ان « ليس هناك شيء إلاّ ويستطيع أن يشك فيهِ على نحو ما » ، فهو يشك في وجود الاجسام الخارجية وفي وجود جسمه وفي البراهين الرياضية والمبادىء العقلية ، فاذا ما أحس أن مثل هذا الشك الكلي معارض لطبيعة العقل استعان بالارادة وقال : « أريد ان اعتبر كل ما في فكري وهماً وكذباً » وألحّ على فكره الحاحاً عنيفاً ليحقق فيهِ حالة الشك الصحيح . فلو أنهُ قصر الشك على الامور غير البينة المفتقرة إلى برهان، واستثنى المبادىء الاولية البينة في نفسها ، لامكنهُ الاستناد الى هذه المبادىء للخروج الى اليقين ، ولكنهُ يشك في العقل ذاته فشكهُ كلي حقيقي يمتنع الخروج منهُ . أما مبدؤه « أنا أفكر إذن فأنا موجود » فليس بمجديه شيئاً للخلاص من مأزقهِ ، فأنا قد نستوثق من فكرنا — وأي شاك شك في فكره ؟ — ثم لا نستوثق من شيء آخر على الاطلاق . لأن الروح الخبيث ما يزال ظله محلقاً فوق رؤوسنا ينشر الظلام على الافكار الواضحة الجلية ويشككنا فيها ، فلئن فاتهُ خداعنا في وجود الفكر فان سلطانهُ باقٍ بتمامه على « موضوعات » الفكر فيمتنع التقدّم خطوة واحدة . وليس صدق الله بمغنٍ شيئاً في طرد الروح الخبيث لأن فرض هذا الروح سابق معرفتنا الله فيجب الشك في هذه المعرفة ذاتها ، وديكارت لا يخرج من شكه الاّ بدور واضح : فمن جهة يجب للبرهنة على وجود الله الاستناد الى العقل والافكار الواضحة كوسائل لا تخدع ، ومن جهة أخرى لاجل التحقق من أن العقل والافكار الواضحة لا تخدع

يجب العلم أولاً بوجود الله . فالواقع أن المنطق كان يقضي على ديكارت أن يظل على شكه يردد طول حياته : « أنا أفكر وانا موجود » ، مثله مثل ذلك الشاك اليوناني الذي عدل عن الكلام مخافة الاضطراب للايجاب والسلب فكان يكتفي بتحريك أصبعه . ولكن ديكارت لا يرضى بهذا الموقف ، وكما « أراد » الشك كليًا فهو « يريد » الوصول إلى اليقين وضمان العلم مهما يكن من امر المنطق

***

٣ — التصور والوجود

والمسألة بعد اكثر تعقيداً ، فان الشك المطلق ينطوي على تصورية مطلقة هي روح المذهب ونقطته المركزية . ذلك ان التصور عند ديكارت تصور بحت لا ادراك شيء واقعي ، والفكر عنده لا يدرك ادراكاً مباشراً غير نفسه ، والا لما امكن الشك في العالم الخارجي . فديكارت اذ يأبى ان يقبل شيئاً دون الفكر ، واذ يشك في موضوعات الفكر فيؤمن بتفكيره في السماء والارض ويشك في وجودهما ، يفصل بين ما لافكارنا من وجه ذاتي وما لها من وجه موضوعي ، ومن ثم يفصل بين الفكر والوجود فصلاً تامًا . ومتى كان الفصل تامًا لزم انه نهائي واستحال ادراك اي وجود خارجي كما سنرى

واذا سألت ديكارت عن علة الافكار اجاب : قد اكون انا تلك العلة ، اذ ليس من الضروري ان تصدر الافكار عن اشياء شبيهة بها ، بل قد تصدر عن علة حاصلة بالذات على الكمال الممثل فيها ، او حاصلة عليه على نحو اسمى ، وأنا حاصل على الفكر بالذات وعلى حقائق الاجسام على نحو اسمى لان الجسم دون الفكر ، فالافكار صادرة عني

ومع ذلك سيطلب لها ديكارت اصولاً خارجية يجعلها موضوع العلم الطبيعي ، وسيتخذ سبيلاً الى ذلك وجود الله وصدقه ايضاً

اذن فأمامنا مسألتان : هل افكارنا صادقة ؟ وهل لها موضوع في الخارج ؟ وديكارت يقدم الاولى على الثانية ، كما يقتضي مبدؤه التصوري . يقول : « قبل ان افحص عما اذا كان هناك اشياء خارجية يجب ان انظر في افكاري من حيث هي كذلك ، وان اتبين ايها واضح وايها غامض » . فالفكرة الصادقة ، اي الواضحة ، هي التي يقابلها موضوع ، اما الفكرة الغامضة فانفعال ذاتي وهذا يعني ان العالم الخارجي لا يُعلم الا بعد افكاري وعلى مثالها ، وان الحقيقة (اي الوضوح) سابقة في علمي على الوجود ، وانها جسر بين الفكر المعلوم اولاً والاشياء المعلومة

بعده وتبعاً له — وهذا هو المذهب التصوري (ايديالزم) ابتدعهُ ديكارت وتابعهُ فيهِ الفلاسفة المحدثون فوقعوا في اشكالات لاتحصى. وظن ديكارت ان صدق الله يحل المسألتين،ويرد للمعرفة الانسانية قيمتها ، والواقع انهُ يهدمها هدماً . اذ لو كان لدينا وسيلة « طبيعية » للمعرفة الحقة لما افتقرنا لضمان خارجي،ولو كانت قوانا العالمية تؤدي وظيفتها كالواجب،وتمضي بالطبع الى الحقيقة، لحملت في نفسها علامة صدقها ، ولعلمنا ذلك قبل الالتجاء الى الضمان الالهي

اما افتقارنا الى ضمان خارج عن العقل والحواس فأدعى الى الشك في الله وحكمته وجودته منهُ الى القول بوجود الله

***

وللتمييز بين الصادق والكاذب من الافكار ، تمهيداً للخروج من التصور الى الوجود ، يصنف ديكارت الافكار في طوائف ثلاث : افكار حادثة او اتفاقية ، هي التي يلوح لنا انها آتية من خارج ، اي التي تقوم في الفكر بمناسبة الحركات الواردة على الحواس من الخارج ، كاللون والصوت والطعم والرائحة والحرارة ، وهي غامضة مختلطة . وافكار مصطنعة ، هي التي نركبها من افكار الطائفة الاولى ، كصورة فرس ذي جناحين،او صورة حيوان نصفهُ انسان ونصفهُ فرس وما شاكل ذلك. واخيراً افكار فطرية ليست مستفادة من الاشياء ولا مركبة بالارادة ، ولكن النفس تستنبطها من ذاتها ، تمتاز بأنها واضحة جلية بسيطة اولية ، وهي التي تؤلف الحياة العقلية بمعناها الصحيح ، كفكرة الله والنفس والامتداد واشكاله والحركة وانواعها والعدد والزمان وغيرها . وقد سئل ديكارت في هذه الافكار فقال انهُ يقصد بكونها فطرية ان فينا قوة تحدثها ، وبكونها طبيعية انها في النفس على نحو ما نقول إن السخاء او ان مرضاً ماطبيعيٌ في بعض الاسر. وقال انها ليست مرتسمة في العقل كأبيات الشعر في الديوان ولكنها بالقوة فيهِ كالاشكال في الشمع ، وانها في عقل الطفل على نحو ما هي في عقل الراشد حين لا يفكر فيها

ويعود الى علة الافكار فيقول ان افكار الطائفة الاولى والثانية لاتتطلب علة غير النفس فانها عبارة عن انفعال النفس بالمؤثرات الخارجية وتركيب الانفعالات بعضها مع بعض اما الافكار الفطرية فانها تمثل « طبائع بسيطة وحقائق موضوعية » فمن الخطأ الظن ان العقل علتها الكافية. العقل علة كافية للفكرة من حيث هي فعل نفسي، لامن حيث هي تتضمن كذا او كذا من الحقيقة الموضوعية . وعلى ذلك يجب استعراض الافكار الفطرية والنظر في هل تفسر بالفكر وحده او تقتضي علة خارجية . ذلك سبيلنا للتخطي من التصور الى الوجود

[تتمة البحث تتناول : الله والحقيقة — الانسان والعالم — تفسير المذهب]

القفر المورق

او نواحٍ عجيبة من تطبيق المباحث الطبيعية
على الزراعة الحديثة

الحقل معمل تستعمل فيهِ طاقة الشمس لتوليد جزيئات معقدة التركيب من جزيئات رخيصة الثمن بسيطة التركيب . اي انهُ مكان تخزن فيهِ طاقة الشمس لاستعمالها عند ما تدعو الحاجة اليها في المستقبل . فالزراعة عمل كيماوي وطبيعي في آن . وليس ينكر احد ما اسداه علماء الكيمياء من الخدمة الى الزراعة . اما علم الطبيعة فقد أزف الوقت الذي يستعان بهِ على حلّ مشكلات الزرّاع

ان الزراعة وهي اكبر أعمال الانسان واوسعها نطاقاً واهمها شأناً لا تزال عند المقابلة بغيرها من شؤون العمران ، في الدور الذي كانت فيهِ المواصلات البحرية تعتمد على السفن الشراعية . ان معيشة الفي مليون من الناس رهن نتاج الارض ورزق ثلثيهم يعود الى العمل فيها ، ولكن الزراعة ما تزال متقهقرة بالقياس الى ما اصاب الصناعات المختلفة ، فدخلها غير مستقرّ وربحها يسير غير مضمون . وقد كتب العالم الاميركي جورج هريسن في مجلة اتلنتك الشهرية وعليهِ نعتمد ، ان فداناً يدرّ ستة عشر جنيهاً في السنة يحسب كنزاً من الذهب واما الدخل المتوسط فلا يتعدى ثلاثة جنيهات الاّ قليلاً . وادهى من ذلك ، أن الفلاح بعد ما يقضي ساعات متعددة كل يوم هو وافراد اسرته في عمل شاق تبقى له غلة — اذا لم تأكلهُ العصافير وتجرفهُ السيول وتسفيه الرياح او يذويه الجفاف — يقال لهُ ان سوقها انهارت لشدة الاقبال !

ولعلّ تأخر الزراعة في الاعتماد على الاساليب العلمية في ترقيتها ان الحاصلات الزراعية لا تزال تحسب هبة من هبات الطبيعة للانسان . ولكن اقل الاساليب نفقة ليس افضلها . فالرياح تهبُّ حرّة فوق البحار وليس على المرء ان يؤدي اتاوة لاستعمالها في دفع سفينة ما . الاّ انهُ خيرٌ للتاجر ان ينفق الفي جنيه في تجهيز سفينتهِ بمحرك يديره النفط فتسير بهِ من ليفربول الى نيويورك من ان ينفق ٣٠٠ جنيه فقط في تجهيزها بشراع وتركها لرحمة الرياح

إن الفلاح البدائي أخذ الثمر حيث وجده ، ربما كما أن الملاح الاول ترك نفسهُ لرحمة التيار ينقلهُ على جذعهِ الطافي حيث يشاء . فلما حفر الانسان الارض وبذر فيها البزر تعلم الملاّح أن يجدّف بلوح او عصاً . فلما استنبط الملاّح الشراع جاراهُ الفلاح بحفر خندق للري . ثم استدعى الملاّح العلم او اعتمد على ما استنبطهُ العلم فارتقى من الزورق البدائي الى « النورماندي » و « الملكة ماري » . اما الفلاح فلا يزال على الرغم من تقدم البحث العلمي الزراعي في العهد الاخير ، حيث كان زميلهُ الملاّح عندما استنبطت السفن البخارية في عهدها الاول

إن نموّ النبات يحتاج الى اربعة امور اساسية : الى الضوء والهواء والماء ومقدار يسير من بعض العناصر الكيماوية كالمغنزيوم والفصفور والكبريت والسليكون وغيرها . يأخذ النبات من الهواء اهم المواد التي يحتاج اليها في نموهِ . ولما كانت التفاعلات الكيماوية في خلاياه لا تتم الاّ والمواد محلولة ، فهو يحتاج الى الماء فيتناولهُ من الارض . ثم الى الضوء يجهزه بالطاقة لفصل ذرات الكربون من حامضهِ . ومن ذرات الكربون والايدروجين والاكسجين يصنع المواد النشوية والسكرية وهي تجهز الانسان بأعظم مصادر الطاقة التي يستعملها . وعلاوة على المواد النشوية والسكرية يصنع النبات مادة السلولوس فيحرقها الانسان وقوداً ويقطعها الواحاً من الخشب ويلبسها قطناً أو حريراً طبيعيًّا او صناعيًّا

والكيماوي لا يتدخل في هذا العمل الخطير الاّ عندما يجهز النبات ببعض العناصر التي يحتاج اليها باضافتها الى الارض سماداً طبيعيًّا أو صناعيًّا . ولكن مشكلات الزراعة الخطيرة إذا صرفنا النظر عن مشكلة خصب التربة ، هي مشكلات تمتّ الى علم الطبيعة وفروعهِ بأوثق صلة وفي مقدمتها السيطرة على الحرارة والضوء وتقليب التربة وغيرها وتأثيرها في النماء والإثمار

وقد فطنت بعض الجامعات والمعاهد الاميركية الى ذلك فعهدت الى بعض علماء الطبيعة في تخصيص وقتهم للبحث في هذه المسائل دون غيرها . بل ان الحاجة تقتضي اكثر من ذلك . فدخل الولايات المتحدة الزراعي بلغ الف مليون جنيه سنة ١٩٣٥ وبحث الوسائل التي تحسن أساليب الزراعة وتزيد غلالها يساوي على الأقل البحث في زيادة مدى المخاطبات التليفونية مثلاً من حيث خطر الشأن

اذا شئتَ ان تفوز بكرز غضّ في بلدٍ ما في غير أوانهِ كشهر فبراير فعليك ان تعتمد على احدى وسائل ثلاث . اما أن تنقلهُ اليك من بلاد يكون فيها الكرز ناضجاً في فبراير كاستراليا والارجنتين . وهذا يقتضي تحسيناً في اسباب المواصلات لكي تقصر المسافة بين اوستراليا أو الارجنتين والبلد الذي تقطنهُ، واتقاناً في وسائل حفظه حتى يتم نقله . واما ان يجنى الكرز حيث يجود شجرهُ ويحفظ بطريقة من طرق حفظ الفاكهة حتى شهر فبراير . واما ان تعالج شجر

الكرز بطريقة علمية تجعل ثمره ينضج في فبراير لان الجو الذي يحيط به في فبراير وما قبله كالجو الذي يحيط به عند أوان نضجه المألوف . وهذه الوسائل الثلاث في دور التقدم الفعّال ويعتمد عليها مجتمعة أحياناً . وانما تحل الحاجة في تحقيقها الى طاقة رخيصة تمكن الفلاح من انتاج محصول يستطيع ان يبيعه بسعر واف وربح معقول

وقد ادركت بعض البلدان هذه الحقيقة فوفرت الطاقة الكهربائية للفلاح . ففي سويسرا ٩٨ في المائة من مزارعها مجهزة بالطاقة الكهربائية وفي السويد ٥٠ في المائة منها وفي انكلترا تستعمل الطاقة الكهربائية في المزارع في ستين غرضاً منوعاً . اما هولاندة فقد أخذت تتصرف عن استعمال الطاقة التي تولدها الطواحين الهوائية الى استعمال المحركات الكهربائية وباستعمال هذه الطاقة تمكن الزرّاع الهولنديون من ان يستغنوا عن تقلب الريح والطقس فاخذوا ينتجون الخضروات والازهار المطلوبة في السوق الانكليزية في المواعيد المبكرة التي تطلب فيها . فكادوا يحتكرون هذه السوق الآن لقربهم اليها . بعد ما كانت لايطاليا من قبلهم

اما استعمال الضوء الصناعي لاستعجال النضوج في الازهار والاثمار أو لتأخيره ، فمن أفعل الاساليب الزراعية التي أسفر عنها البحث الحديث . وانما يجب ان يرسخ في الذهن ان الضوء الصناعي لا يغني عن ضوء الشمس وانما هو يكمله وينوّع تأثيره . وذلك لسبب واضح وهو ان الاستعاضة عن ضوء الشمس يكلف نفقة كبيرة لا قِبَل بالزراع ان يتحملوا عبئها . فاذا شئنا ان نولد ضوءاً كهربائيًّا يحل محل ما يقع من ضوء الشمس على ذراع مربعة في الحقل كلفنا ذلك الضوء الكهربائي ستة مليمات في الساعة . وهذا يعني أننا اذا شئنا ان نعتاض من ضوء الشمس بمصباح كهربائي في حديقة مساحتها فدان كلفنا ذلك عشرين جنيهاً في اليوم . ولذلك يكون جل الاعتماد على الضوء الصناعي في أحوال معيّنة من الايام القاتمة والليالي ولاغراض خاصّة

واول الاغراض التي يستعمل لها الضوء الصناعي الآن هو استعجال نضوج الازهار . فاذا كان زهر من الازهار لا يبلغ أوج إزدهاره الا في أواخر يناير وكان الناس يرغبون فيه خاصة لتزيين الدور به في حفلات عيد الميلاد او رأس السنة، فاستعمال الضوء الصناعي استعمالاً صحيحاً يجعل تبكيره في حيز المستطاع . فالزنبق يمكن تبكيره شهراً كاملاً وزهر البسلة الحلوة خمسة اسابيع

وأغرب من ذلك ان ضرباً من ضروب البرسيم لا يشرع في الازهار قبل سنتين ولكن علماء معهد بويس طمسن تمكنوا من ابلاغه مرتبة الازهار في نحو ثلاثة اشهر وذلك باستعمال الضوء الصناعي . والظاهر ان تبكير الازهار بالضوء خير من تبكيره باساليب اخرى لان التبكير باستعمال الضوء الصناعي لا يصحبه اي تغيُّر في اللون او الشذا في الازهار ولا في اللون والطعم في الاثمار

من النباتات ما يزكو اذا طالت مدَّة تعرضهِ للشمس في يوم واحد ومنها ما يزكو اذا قصرت مدّة التعرض . فالبستان « الكريزانتيم » الذي يتفتح قبل ميعاد الطلب عليهِ في سوق الازهار يمكن تأخير نموهِ وإبطاء إزهاره بتعريضهِ مدة طويلة للضوء فاذا كان ضوء الشمس محجوباً عرض لضوء المصباح الكهربائي . ويمكن ان يقال بوجه عام ان النباتات التي تزهر في الصيف تؤْثر طول التعرُّض للضوء والتي تزهر في الربيع والخريف تفضل الاعتدال والتي تزهر على مدار السنة تفضل قليلاً من الظل يتخلل التعرض للضوء

واستعمال الضوء بحكمة وإحكام يجعل الازهار والأثمار أزهى مما تكون عادة . ولكن هذا العمل يقتضي استعمال قدر كبير من الضوء ذلك لان المصابيح الكهربائية التي نستعملها في الدور لا تعدُّ شيئاً مذكوراً إذا وضعت جنباً الى جنب مع ضوء الشمس الباهر

وقد يستعمل الضوء المصفى ، اي الضوء الذي حجبت بعض أشعتهِ . فمن النبات ما تؤذيهِ أمواج الحرارة في الطيف . وهذا الاكتشاف قد يفضي في المستقبل الى انشاء مستنبتات لها كوًى خاصة من الزجاج أو أي مادة شفافة فيحجب بها البستاني من الطيف الشمسي ما يشاء وفقاً لحاجة النبات الذي في الداخل

وكأن الطبيعة عرفت ان الألوان المختلفة في ضوء الشمس لا تؤثر تأثيراً متساوياً في انماء النبات فجعلت ورق النبات أخضر الى الزرقة . وقد عني العلماء بدراسة امتصاص الخضير Chlorophyl لاشعة الضوء وقابلوا بين امتصاص الاوراق الحية والاوراق الذاوية مستعينين على ذلك بالمطياف Spectroscope فوجدوا ان أكثر الاشعة التي يمتصها النبات ويستخدمها هي الاشعة الحمراء

فقد أخذوا فسائل نبات واحد وغرسوها في أحوال متماثلة كلّ التماثل الاّ في لون الاشعة التي تتعرّض لها فواحدة غمرت بضوء أزرق وأخرى بضوء أحمر وأخرى بأشعة ما تحت الاحمر وأخرى بأشعة ما فوق البنفسجي فوجدوا أولاً ان نباتات مختلفة متباينة في سلم الارتقاء العضوي تستجيب جميعاً لتأثير اختلاف الضوء فيها . ووجدوا كذلك ان الضوء الاصفر من مصباح متوهج incandescent يفوق تأثيره في نمو النبات تأثير الضوء الازرق من المصباح نفسه خمسين في المائة . وان تأثير الضوء الاصفر من مصباح بخار الصوديوم في النمو يفوق تأثير الضوء الازرق من مصباح القوس الزئبقي مرتين

بل يبدو للباحثين ان الضوء الازرق الصافي يعيق النمو حالة ان الاشعة التي فوق البنفسجي تؤذي خلايا النبات . ومن المشاهدات التي لم يفهم لها تفسير قبل اكتشاف هذه الحقيقة ان نباتاً واحداً يزكو في الاودية ولكنهُ يوجد ضعيفاً على منحدرات الجبال العالية . وتفسير ذلك ان

الاشعة التي فوق البنفسجي اكثر على منحدرات الجبال العالية لان الهواء أنقى وأصفى فلا يمتصها كثيراً حالة انها اقل في الاودية لامتصاص الهواء لها . وقد اخذ نبات ايدلفيس edelweiss الذي ينمو ضعيفاً في جبال الالب السويسرية وزرع في الاودية بين الجبال فزكا زكاء عجيباً. ثم نقل الى مستنبت وغمر بضوء مزيج من الازرق والاشعة التي فوق البنفسجي فعاد ضعيفاً ممسوخاً كما هو على قنن الجبال

***

من الامور التي نظنها بديهية ان التربة اهم جانب في الحقل . ولكن التجارب الحديثة اثبتت ان التربة ليست مما لا يستغنى عنهُ في الزراعة . فقد تمكن فريق كبير من العلماء من بذر البزور في نشارة لا حياة فيها على ان تغمس الآنية التي فيها النشارة في احواض تحتوي على ماء حلت فيهِ مواد كيمياوية معينة . والغريب في هذا الضرب من الزراعة ان زكاء الغرس يفوق عشرة اضعاف الى عشرين ضعفاً زكاء النبات نفسه في اخصب التراب. وقد اشرنا الى هذا الضرب المستحدث من الزراعة في مقتطف فبراير الماضي ص ٢٤٥ اذ عددناهُ من اهم ما اسفر عنهُ ارتقاء « العلم في العام الماضي » اي سنة ١٩٣٦ وفي مقتطف ابريل ص ٥٨٢ ومما قلناهُ حينئذٍ ان نبات الطماطم بلغ عند زرعهِ في الماء اضعاف ما يبلغهُ من العلو عند زرعهِ في التراب حتى لقد اضطر قاطفو الثمر ان يستعملوا السلالم لقطف الثمر من اعاليه . وبلغ متوسط الحاصل من نبات زرع في حوض من الماء مساحة سطحهِ فدان مائتين وسبعة عشر طناً ويقابل ذلك ان حاصل النبات نفسه المزروع في ما مساحته فدان من الارض خمسة اطنان فقط . اما حاصل البطاطس في الاحوال عينها تقريباً فبلغ ٢٤٦٥ جرياً (بشلاً) في ما مساحتهُ فدان من الماء مقابل ١١٦ جرياً في ما مساحتهُ فدان من الارض . وقد بلغ نبات التبغ ٢٢ قدماً من الارتفاع ومن هذا القبيل الغلال التي جنيت من البنجر والجزر وغيرهما

وقد ابتدع هذه الطريقة وقواعدها الدكتور جريك الاستاذ المساعد لفسيولوجية النبات في جامعة كاليفورنيا بعد مباحث استغرقت السنوات السبع الاخيرة : واساسها كما تقدم استعمال الماء واضافة العناصر اللازمة لنمو النبات اليهِ وحفظ بحرارتهِ بسلك كهربائي وهو الغالب او بطرق أخرى

هذا الاتجاه الجديد ، قائم على ما عرف بالاختبار وهو ان التربة اذا نفد خصبها وجب ان تضاف اليها عناصر الخصب أما سماداً طبيعيًّا واما سماداً كيمياويًّا وهذا يعني ان عمل التربة في الاصل حفظ جذر النبات قائماً في مكانٍ معيَّن فلا تجرفهُ السيول ولا تذروه الرياح . الآ ان

المواد الكيماوية اللازمة للنمو التي تجهز بها التربة من قِبَل الطبيعة أثمن من ان يهمل شأنها وعلى ذلك فلا بدّ ان تبقى الزراعة في الحقول ذات مكانة عظيمة في حياة الناس

ولعلّ القارىء يستغرب اذا قلنا لهُ ان المطياف (السبكترسكوب) سيكون لهُ شأن كبير في تطبيق علم الطبيعة على الزراعة . ولكننا لسنا مغالين في ما نقول . ففي بعض انواع التربة تتجمع احياناً مقادير يسيرة من عناصر معينة لازمة لنمو النبات نمواً سويًّا . فيصاب بعض النبات بأمراض معينة اذا اعوزه عنصر البور في التربة مع ان ما يستنفده منهُ يسير جدًّا لا يقاس الاّ بأجزاء من الغرام . ثم انك تقع في بعض الحقول بغرب اميركا مثلاً ، على نبات قاس يؤثر في الحيوانات التي ترعاه فيسممها ، وقد ثبت بالبحث ان تربة هذه الحقول يعوزها الكبريت ويكثر فيها السلينيوم . وذرات العنصرين متشابهة من الناحية الكيماوية . ومع ان النبات يستطيع ان يفرق بين ذرات العنصرين الاّ انهُ لا يملك نفسه عن امتصاص ذرات السلينيوم عند ما لا يجد كفايتهُ من ذرات الكبريت . الاّ ان السلينيوم ضار بالحيوانات وهذا تفسير تسممها عندما تأكل النبات الذي يكثر فيهِ

فاذا شئت ان تعرف مثلاً المقدار النسبي من هذين العنصرين في تربة حقلك ، واعتمدت على اساليب الحل الكيماوي العادية استغرق ذلك وقتاً طويلاً ونفقة كبيرة . ولكن ذرتي الكبريت والسلينيوم تحدثان خطين مختلفين في المطياف فاستعماله في محطات زراعية تقام في مواقع معينة لا بدّ ان يصبح ضروريًّا ومألوفاً في المستقبل

ومن هذا القبيل قوام التربة نفسها ، هل هي صلصالية متماسكة ، او رملية متخلخلة او غير ذلك لان الفلاحين يعلمون بالتجريب ان بعض النبات يزكو في نوع من التربة دون غيرها . ولكن قد يملك الفلاح حقلاً فيهِ نوعان من التربة او ثلاثة انواع ، ويرمي بنظره فوق السياج الى حقل فيرى ان نبات البسلة زاكٍ فيهِ فيزرع البسلة فلا تزكو عنده فيلمن سوء الطالع ولو انهُ عرف قوام التربة في حقله لعرف ان البسلة لا تزكو حيث زرعها ، وان مجرّد زكائها في حقل جاره لا يعني انها تزكو في حقله. فاذا استطلع العلم هذه المشكلة ووضع لها القواعد وابتدع لها الاساليب العملية استطاع الفلاح الذكيّ المتعلم الذي يعتمد عليها ان يفوز بحاصل من البسلة يفوق الحاصل العاديّ اضعافاً مضاعفة اذا زرعها في خير تربة تصلح لها وتجود فيها

ان عجائب العلم لا تنتهي ، وآيتهُ التجدد والتجديد ، ولما كان موضوع الزراعة حيويًّا للناس عامة وفي مصر خاصة فلنا في العدد المقبل فصل آخر عن نواحٍ جديدة من تطبيق العلم الطبيعي على الزراعة

ساعات في هياكل الشعراء — ١

ايليا ابو ماضي

لبوسف البعيني

مسحةٌ صافية من التفكير، وتأمُّلٌ عميق بعيد القرار، ورباب شجي عذب الأنغام، وخيالٌ مزهزه يشدُّ أطنابه الى النجوم ويبسط ظلاله على مدى الأفق . . . كلُّ هذا تلمسهُ الروح وهي تتهادى مع — أبي ماضي — في ذرى الشعر، وفوق متونِ سحابه

إنما للشاعر العبقري — ايليا أبو ماضي — لونٌ زاهٍ نضير لا يتمازج مع غيره من الألوان، ومزيَّةٌ غريبة تختلف عن جميع المزايا . . . وهي تلك النغمة المبتكرة التي نسمع في قراراتها أعذبَ ما تشتاقهُ النفس، وأطربَ ما تحلمُ بهِ القلوب والأرواح!

ما من مرَّةٍ قرأتُ بها — أبا ماضي — الا حملتني أبياتهُ المسكرةِ الى عالمٍ بعيد كلهُ رؤى وأحلام . . . عالم حافل بالصور يفتح للمخيلة مغالقَ الالهام، ويسكبُ في مراشفها الظامئة خمرة الشوق والحنين والتذكار

وحسبكَ أن تقرأ قصيدةً واحدة لهذا الشاعر المبتكر المجدّد حتى تنسى يأسك ان كنت يائساً، ودموعك إن كنت باكياً، وكآبتك الخرساء ان كنت كئيباً . . . أقول هذا لأن صاحب « الجداول » تجثم في صدره أسرارٌ علوية مروّاة بندى الحكمة ومهفهفة بفهم الحياة ومعانيها فانَّ من تتفتق أكمام شاعريتهِ عن مقاطعَ ساحرة كهذه المقاطع

مات النهار ابنُ الصباحِ
فلا تقولي كيفَ ماتَ
إن التأملَ في الحياةِ
يزيدُ أوجاع الحياة

لبينَ جوانحِ روحهِ موحية سموية تستقطر الوحي من أجواء مجهولة ثم تسيله في كأس

معطرة اذا لامستها شفاهُ الصوفي المتأمل غمرتهُ نشوةٌ من الاحلام شبيهةٌ بضباب الفجر قبل أن يمسهُ شعاع الشمس ، أو وهجُ الضحى ! !

***

كان من محاسن التجديد ومن نعمهِ ، بعد انبثاق فجر جمالهِ وتأرُّج أزاهير ربيعهِ ... كان من بعد كل ذلك ان تيقظ الشعراء وتنبه الملهمون الى ابتداع ناحية جديدة في الأدب ترضي الذوق الانساني الشامل وتؤجج في العاطفة الضافرة المتوثبة شعلها الزافرة . وقد فعل الشعراء مرتادين جميع أودية الفن . . . فنهم من توغل في سراديب القلب المظلمة مستخرجاً منهُ ميوله وأحلامه ، ومنهم من جلس على شاطىء بحرِ الحياة مصغياً الى همسِ أمواجهِ المزبدة . ولكن قلما أبدع شاعرٌ من شعراء العربية ، على كثرتهم ، بتصوير موقف المغرم المدنف في آخر ساعة من ساعات حياتهِ . . . ثم قلما أبدع شاعرٌ برسم نفس موحشة ، كئيبة ، متألمة غابت نظراتها المتعبة في لجج الموت كما أبدع — ايليا أبو ماضي — بتشخيص كوامن قلبه في قصيدتهِ الخالدة — ابنة الفجر — ولو لم يكن لأبي ماضي من شعر سوى هذه القصيدة لكفى بها حتى تسنّمهُ أسمى المراتب في دولة الوحي والالهام . قال :

أنا ان أغمضَ الحمام جفوني	ودوى صوت مصرعي في المدينه
لا تصيحي وا حسرتاه لئلاَّ	يدركَ السامعونَ ما تضمرينه
واذا زرتِني وأبصرتِ وجهي	قد محا الموتُ شكهُ ويقينه
غالبي اليأس واجلسي عند نعشي	بسكونٍ اني أحبُّ السكينه
واذا خفت أن يثور بك الوجدُ	فتبدو أسرارنا المكنونه
فارجعي واسكبي دموعك سرًّا	وامسحي باليدين ما تسكبينه

***

واذا ما وقفتِ عند السواقي	وذكرتِ وقوفَهُ وسكونه
حيثُ حاكَ الربيع للروض ثوباً	كان أحلى لديهِ لو ترتدينه
فالثمي كلَّ زهرةٍ فيهِ اني	كنت أهوى أزهاره وغصونه
ثم قولي للطيرِ مات حبيبي	فلماذا يا طيرُ لا تبكينه ؟

***

أنا لا أعرف بين شعراء العربية في مختلف أدوارهم من انتحى هذه الناحية الوجدانية في تصوير العواطف ، وتقطير الشعور والاحساس قادراً ان يعطي الناس صورة مؤثرة كهذه الصورة

الساحرة بخطوطها وألوانها وبما يُفعمها من حرقة ومرارة . . . وكنت أعتقد قبل اليوم ان الشاعر الخالد — الفريد دي موسّه — في قصيدته الجميلة « تذكري » لم يترك لغيره مجالاً لكي يكتب أشعاره بدم فؤاده . ولا أغالي اذا قلتُ ان (ابنةَ الفجر) تقع من النفس موقعاً مؤثراً أكثر من قصيدة الشاعر الفرنسي الكبير . واني لأذكر الآن كلمةً كتبها اليَّ أديبٌ غربيٌّ متفنن بعد ان أطلعته على الأبيات التالية ، وهذا الأديب هو الشاعر المشهور — جان دي لا هير — الذي أحبَّ الشرق حبًّا لا شائبة فيه :

واذا ما جلستِ وحدكِ في الليلِ	وهاجت بكِ الشجون الدفينه
ورأيتِ النجومَ تركضُ نحو الغر	ب ركضاً كأنّها مجنونه . . .
ولحظتِ من الكواكبِ صدًّا	ونفاراً ، وفي النسيمِ خشونه
فغضبتِ على الليالي البواقي	وحننتِ الى الليالي الثمينه
فاهجري المخدعَ الجميلَ وزوري	ذلك القبرَ ثَمَّ حيي قطينه
وانثري الوردَ حولهُ وعليهِ	واغرسي عندَ قلبهِ ياسمينه

***

أما كلمة الشاعر الغربي فهي هذه :

« إنّهُ لتثملني ، بل لتحملني على اجنحة الهيولى ، هذه النغمةُ الشجيّة المغلفة بأسرار الشرق وأحلامه ... وكلُّ ما في الروح الشاعرة من هوى ، وخشوع ، وتعبُّد تبخرتْ بهِ ريشة (أبي ماضي) المعطرة في هذا المقطع الساحر الذي أطلعتني عليهِ . فهل في الشرق ، بين خرائبهِ الرهيبة ، وفي ظلال اعمدتهِ الدهرية ، شعراء آخرون يشاركون — ايليا أبي ماضي — في تنغيم موحياتهِ وانشاد روائعهِ المبطّنة برغائبِ النفس السامية وبأمانيها ؟ »

***

وعندي انّ هذه القصيدة الخالبة هي من أجود ما جاءت بهِ مخيلات الشعراء ، القدماء منهم والمحدّثين . وانّ مافيها من أسى مذيب ، ويأسٍ أبكم ، ومرارة سوداء ، وقنوط جارح ... ان كلّ ما فيها من هذه الالوان والميول ليشبهُ مأتماً من مآتم الارواح ، او مناحة من مناحات القلوب . ولكن — أبا ماضي — على الرغم من كل ذلك أمسى اليوم لايميل الى هذه الطريقة الوجدانيّة المؤثرة إلاّ إلماماً مخيّراً عليها التوغلَ في كهوف الفلسفة الصوفيّة بما فيها من فكر عميق واشكال متعددة الأدهنة والأصباغ . وأنا اقدّر ان الاعوام،الاعوام السارّة وراء اشباح

الموت هي التي جنحت بالشاعر العبقري الى اعتناق جوهر الحياة وتأدية رسالتها العلويّة

إن الشاعر المبدع ، لا الشاعر الزائف المقلد ، عند ما يتجنح شعوره ، ويختمر احساسه ، يتغير لون أحلامهِ وتتخذ انغام ربابهِ اصداء مختلفة فتمسي اشجار صدره كشجرة الحقل وقد قاربت زمن القطاف ، او كالسنبلة وقد تهيأت للحصاد ... وعلى هذا المثال يحدث للشاعر الملهم الموهوب . وايليا ابو ماضي في قصيدتهِ — الطلاسم — يشبهُ اغراس الطبيعة المثقلة بالجنى والاثمار . ومثل الجدول المنساب الذي يوقع خريره الحنون على الحصى والاعشاب وهو تساؤلهُ الغامض المبهم عن اسرار إنسيابهِ ... هكذا يتساءل ابو ماضي عن معاني حياتهِ : حياتهِ المسيّجة بأشواك التأمل والمحجوبة بضباب الاماني فهو يقول :

جئت ، لا أعلمُ من أينَ ، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرت قدا مي طريقاً فمشيت ...
وسأبقى سائراً ان شئت هذا ام أبيت
كيف جئت ، كيف أبصرت طريقي ؟
لست أدري ...

***

ان في صدري يا بحر لاسراراً عجابا
نزلَ السترُ عليها وأنا كنتُ الحجابا..
ولذا ازداد بُعداً كلما ازددتُ اقترابا
وأراني كلّما اوشكتُ ادري
لست ادري . . . .

***

ان هذا التساؤل عن غوامض الحياة لهو الحياة ذاتها . وقد سبق للشاعر الانجليزي الساخر المتهكم — توماس هاردي — ان نظم قصيدة رائعة تتناسب مع طلاسم الشاعر اللبناني . ولكن — هاردي — ختم ملحمته بهذا المعنى . انّ لذة الحياة في جهل اسرار الحياة ومكنوناتها — وهذا المعنى على ما فيهِ من شاسع النظر ومن تقليد لعمر الخيّام ومحاكاة أبيقوريّة محضة يدلُّ على قصور الفكر ووهنهِ امام فلسفة الوجود . اما ابو ماضي فقد اقترب من كنه الموضوع بهذه الايات وهو يعبّر بها عن حقيقة الحياة

هيَ في رأسي فكرٌ ، وهي في عينيَّ نور
وهيَ في صدري آمـــالٌ،وفي قلبي شعور
وهي في جسمي دمٌ يسرب فيهِ ويمور

***

ولايليا ابي ماضي ناحية بعثها في الشعر العربي مع اخوانهِ اعضاء — الرابطة القلمية —وهي تلك الناحية التي نصبت مضاربها في الغرب عصبة ادبية راقية تألفت في الجيل الماضي تحت رعاية الشاعر الثائر — تيوفيل غوتيبه — ومن يقلب صفحات « الجداول » يرى بين ابياتها ما يؤكد صحة قولي !

لقد طالعت اخيراً مقالاً طويلاً لاديب عربيّ مشهور ينتقدُ فيهِ الكاتب البلجيكي الكبير — موريس مترلنك — وفنّهُ الرمزي الذي يوشّح صفحات كتابهِ (حياة النحل) حتى لكأنهُ يريد ان يحذّر الناشئة الجديدة في الشرق العربي من شرّ هذا الفن الغريب عنا بميولهِ ومقاصده وقد غاب عن هذا الاديب ان الشرق عرف الفن الرمزي في كتب انبيائهِ الاولين.. وهو على ما فيهِ من جمال يعبّر عن الحياة تعبيراً صادقاً ويأتي بالمعاني السهلةِ المنال.فلنقرأ معاً هذا المقطع الصغيرَ بحجمهِ، الكبيرَ بمغزاه.وقدتوّجهُ صاحبُ الجداول بعنوان—الغدير الطموح —

قالَ الغـــديرُ لنفسهِ ياليتني نهرٌ كبيرْ
مثلَ الفراتِ العذب او كالنيلِ ذي الفيض الغزير
تجري السفائن موقراتٍ فيــهِ بالرزق الوفــير
هيهات يرضى بالحقــيرِ من المنى إلاّ الحقــير
وانسابُ نحوَ النهر لا يلوي على المرج النضير
حتى اذا ما جاءه غلب الهدير على الخرير

***

إن صاحب الجداول شاعر كبير يخترق شعوره سجف الليالي والايام ومفكر ذو فكر محسوس بكهراب التيقظ والاستجداد . ولا شك عندي ان منظومات هذا الشاعر الخالد سوف تهدم أسوار التقيد والجمود ناحتةً من حجارتها تمثالاً لربة الوحي والالهام.واني لأختم هذه العجالة بعاطفة صادقة يمازجها التقدير والاعجاب بشعره العذب المخضب بنضرة الروح ، والمخضل بلون الحياة !

ثمرات الراديو

في هذا العصر

للاستاذ لو العالم الانكليزي (1)

[نقلها عوض جندي]

يُعدُّ جهاز الراديو في هذا العصر أثاثة من أثاث الدار الضرورية. ومن المرجح انهُ متى يكتب تاريخ النصف الاول من القرن العشرين ، ستتجلّى فيهِ فوائد الراديو العظيمة أكثر من تجليها الآن . ويحسبهُ كثير من الخلق ، ارقى قليلاً من أداة صالحة من ادوات الطرب الرخيص . بيد انهُ يجدر بنا اعتبار اذاعة الاخبار والموسيقى والخطب فائدة واحدة من فوائد الراديو العميمة . ومن الميسور أن تقوم الاذاعة جيداً ، على المنابع الكهربائية المنزلية فتكون في هذه الحالة ، افضل كثيراً من اعتمادها على الجو ، وما ينطوي عليهِ من العوائق الطبيعية ، فيبقى الاثير حرًّا لتلقي الأنباء والحوادث الخطيرة عند وقوعها

والواقع ان الموجات اللاسلكية ليست كهربائية ، ولكنها تتولد من الكهربائية وتلتقط بالكهربائية . وهي على ذلك الاساس تعتبر على الدوام ، اختراعاً كهربائيًّا . ويخيل الينا أن ادارة الجهازين ، المذيع واللاقط اللاسلكيين ، عويصة اذا ما تأملنا مقوّماتها . فالموجات اللاسلكية ، تنطلق في الاثير اسوة بموجات الضوء ، ويتعذر على فريق من الملأ ، تشبيه الموجات اللاسلكية بموجات الضوء لانهم لا يتسنى لهم رؤيتها متحركة . ومما لاشك فيهِ ايضاً أن الموجات الضوئية لا ترى . وانما كل ما تيسر رؤيته ، هو تأثير الضوء في بعض المواد . والضوء الذي تبصر بصيصه صادراً من شقٍ في غرفة مظلمة ، انما هو شعاعة من غبار منور

واذا ما سقط حجر في وسط بركة ماءٍ ، تولدت من سقوطهِ دوائر تتسع رويداً رويداً في

---

(1) هو ارشيبالد مونتغمري لو — ولد سنة ١٨٨٨ عالم انكليزي درس الهندسة الكهربائية ، واشتهر بتجاربه الباهرة في اللاسلكي ، والاذاعة المصورة وتسجيل الاصوات بالضوء ، وتحسين قاطرات الفحم والبنزين فأصبحت فوتوغرافية الصوت وقاطرات البنزين واجهزة اللاسلكي تدين لمخترعاته ديناً كبيراً . وله مؤلفات عديدة في الصوت والموسيقى . وكان استاذاً مساعداً للطبيعيات في كلية المدفعية الانكليزية الملكية بتغر وولتش من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٢٢

كل جهة من جهات البركة . وتنطبق هذه الظاهرة عينها على الموجات اللاسلكية ، اذ الموجات التي تتولد من الجهاز المذيع تنطلق في الاثير ولكن انطلاقها يكون اسرع كثيراً من انطلاق الموجات المائية التي وصفناها اذ سرعة اللاسلكية ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية . ولما كانت الموجات الصوتية تقطع في الثانية "١١٠٠ قدم" فقط ، ترتب على ذلك ان كل من عنده جهاز راديو في مدينة سنغافورة مثلاً يسمع جرس ساعة برج البرلمان الانكليزي وهو يدق ، قبل ان يسمعهُ الانكليزي القاطن تجاه الجانب المقابل من جسر وستمنستر

وكان من المشاكل التي اعترضت مخترعي اللاسلكي حالما أدركوا طريقة ارسال البرقيات اللاسلكية وتلقيها ضياع قدر كبير من الطاقة الكهربائية التي تستعمل لنقلها. فمن أراد في لندن مثلا محادثة امرئٍ في اميركا بالطريقة اللاسلكية ، كان لا مندوحة له عن احداث اضطراب في الاثير الذي يحف بكل مملكة من ممالك العالم . وكان لا بدَّ له من استخدام قوة اكبر كثيراً مما تقتضيه تلك المحادثة لو تمت بالطريقة السلكية

وليس ذلك فحسب، بل كان في مقدور كل من عنده جهاز لاسلكي للاستقبال ، استراق ذلك الحديث بينما انهُ لو اتيح اطلاق الموجات اللاسلكية في الجهة المرغوبة ايًا كانت لتيسر وصولها الى اماكن اقصى من الاماكن التي تصل اليها عادة، بغير استهلاك قوة كهربائية اضافية أسوة بحشد اشعة الضوء في بقعة واحدة لتؤلف شعاعة واحدة وذلك بالعدسات والعاكسات فتنطلق تلك الشعاعة بلا عائق في جهة معيَّنة . وهذا ما نُفِّذ فعلاً في الراديو غير ان العاكسات المستعملة لعكس الموجات اللاسلكية تختلف اختلافاً كليًا عن عاكسات النور وهي اضعف منها قوة

نظام « البيم »

ولذلك اخترع المركيز ماركوني في سنة ١٩٢٤ طريقة « البيم » للتليفون اللاسلكي وواصل تحسينها بعدئذ حتى أصبحت الوسيلة الثابتة المستعملة في محادثة اقصى البلدان

ونظام البيم هو الاختراع الذي جعل كل بلد من بلدان العالم في متناول بعضها بعضاً ، فسهل نقل برنامج الاذاعة اللاسلكية من انكلترا الى اوستراليا وجنوب افريقية وكندا والهند ، إما بالذات ، الى أرباب الاجهزة ذات الموجات القصيرة واما بالواسطة، من محطة الاذاعة اللاسلكية المحلية التي تتلقى البرنامج الانكليزي ثم تعيد اذاعتهُ الى الجهات المطلوبة

وفي بدء اختراع الراديو ، كان يظن أن الموجات الطويلة ضرورية للنقل الى الاماكن النائية لان الطاقة الكهربائية الكبيرة ، كانت اسهل استعمالاً من غيرها . ولكن حالما امكن حشد الموجات المزمع اطلاقها، وجعلها بمنزلة شعاعة واحدة ، أصبحت الموجات القصيرة ، وسيلة لنقل المحادثات التليفونية اللاسلكية الى جميع البلدان القاصية

والوجه ان لفظة Beam اليم المقصود بها حشد الموجات في شعاعة واحدة وعكسها ، ليست صائبة كل الصواب اذ ما زال مستحيلاً تركيز موجة الراديو كما تركز موجة الضوء . وما برحت القوة التي تبذر جسيمة . وقد جربت تجارب شتى بشأن الطريقة التي تنعكس بها هاتيك الموجات من طبقات الكهيربات التي تتأثر بضوء الشمس في الطبقة الطخرورية . على ان النقل اللاسلكي من أية نقطة على سطح الكرة الارضية الى نقطة اخرى يقتضي اطلاق مقدار من الطاقة اعظم جداً من المقدار الواصل الى المحطة التي تلتقطها

والعاكس المستعمل لتوجيه الموجات اللاسلكية ليس مرآة مفضضة ، كالمستعملة في توجيه النور ، بل سلسلة من الاسلاك . فاذا وضعنا مصدراً من مصادر النور في نقطة ما من مرآة ذات شكل قطع مخروطي ، امكننا عكس اشعة النور على شكل شعاعة مستقيمة ، واطلاقها الى بعد شاسع وهذا عين ما يحدث في الفانوس الامامي للسيارات . وهو يبين لنا كيف يرسل المصباح الصغير في السيارة ضوءه على شكل قلم مبريّ ، الى بعد مئات من الاقدام . وهذه الطريقة نفسها هي المستعملة في اللاسلكي

وقد اتضح لنا من عهد قريب عدم ضرورة وضع الاسلاك العاكسة على شكل قطع مخروطي . والقطع المخروطي هو شكل الخط المنحني الذي يرسمه حجر يقذف في الهواء

والموصلات الجوية اللاسلكية اي الاسلاك الهوائية aerials هي سلسلة من الاسلاك تشرع رأسيًّا ، ويوضع الجهاز العاكس خلفها مباشرة على بعد يختلف باختلاف طول الموجة . ولما يبلغ التراسل بطريقة اليم حدّ الكمال ، فقد يحدث نقص تدريجي في درجة ارتفاع الصوت الذي يولده اللاسلكي او نقص في المدى الذي تصل اليه الاشارات اللاسلكية . ومع ان هناك اجهزة اوتوماتيكية تتحكم في رفع وخفض اصوات البوق في الجهازين المذيع والمستقبل ولكنها لا تتغلب تغلباً تامًّا على تلك العقبة الكأداء

والموجات اللاسلكية لا تنطلق بعيداً جدًّا عن سطح الارض ، ولا يزيد ارتفاعها في النهار على ٧٥ ميلاً . اما استقبالها في الاماكن النائية فالمعوَّل فيه على الموجات التي تنطلق في الاثير انطلاقاً بعيد المدى حتى تنعكس بالطبقة المكونة من الكهيربات . وهي الطبقة المسماة طبقة هيفيسيد نسبة الى مكتشفها . وربما تصادف الموجات ثغرة في تلك الطبقة الجوية فتنفذ منها الى الاثير الذي يعلو تلك الطبقة بدلاً من انعكاسها عنها وحين ذاك تنخفض قوة صوت الاشارة اللاسلكية في الجهاز المستقبل . وتتوقف قوة الصوت والاشارة اللاسلكية على مبلغ طول الموجة المستعملة ولا سيما على الزمن ليلاً كان او نهاراً . وتكون طبقة هيفيسيد في الدجى اكثر مناعة منها في النهار ، ازاء اختراق الاشارات اللاسلكية اياها

وهذا سبب استعمال موجات ذات أطوال مختلفة في التراسل اللاسلكي في أقسام الامبراطورية البريطانية على اختلافها . وكذلك استعمال طرق شتى . فيمكن ارسال البرقيات اللاسلكية الى أوستراليا غرباً عن طريق اميركا او شرقاً بجنوب عن طريق افريقية . وذلك في الساعات التي يرخي فيها الليل سدوله في هاتيك البلدان

وطالما قُدِّرت منفعة الراديو وفقاً لما نستمتع بهِ من اللهو الذي يأتينا بهِ او لامكان المرء محادثة قريب لهُ في استراليا مثلاً بسهولة باللاسلكي ، كما لو كان في الشارع المجاور لهُ او سماع نتائج المسابقات . وأهم من هذا كلهِ استعمالهُ في المنائر اللاسلكية

المنائر اللاسلكية

فقد كشف العلماء عن أعمال اخرى للراديو بطريقة البم اي حشد الموجات اللاسلكية في بقعة واحدة ثم تسديدها الى الجهة المبتغاة بالجهاز العاكس وهو ذو شكل قطع مخروطي . ذلك ان الضباب الكثيف يضرب سرادقه احياناً على سطح البحر فتغدو المصابيح القوية التي في المنائر ، وكأنها بلا جدوى ، وتلجأ البواخر الى اطلاق الصفّارات . ولكن الصوت يأتي أحياناً بعض الغرائب في الضباب فتسمع التحذيرات ولكن ليس على وجه التحقيق الكامل . الاَّ ان الراديو على نقيض ذلك لا يتأثر بالضباب اي تأثير ، فتقوم المنارة اللاسلكية باطلاق موجة من الاشارات اللاسلكية ، اسوة بالمنارة الاعتيادية التي ترسل شعاعة من الضوء فتقوم بتحذير البواخر تحذيراً محققاً ، مأمون العواقب

وقد انشئت المنائر اللاسلكية على سواحل العالم بأسره ، حيث تقوم بارسال اشارات متواصلة من نوع خاص فتتمكن اية باخرة تلتقطها من معرفة مكان وجودها في أكثف الضباب . ويتسنى جعل الشعاعة اللاسلكية تدور مداراً قوسيًّا فتصل الاشارات اولاً خافتة الصوت الى السماعة التي يعلقها العامل المستقبل في اذنيهِ ثم يرتفع الصوت ثم يضمحل تدريجاً

ومما لاريب فيهِ ان المنائر اللاسلكية سيعم استعمالها فتنتفع بها البواخر جميعها التي فيها اجهزة لالتقاطها ، عدا البواخر الصغرى

وللاسلكي في الجو نفع اخطر من ذلك ، اذ قادة الطائرات المحلقة في كبد السحاب ، يتوسلون بهِ الى معرفة مواقعهم بغاية الضبط . وذلك بوساطة محطتين لاسلكيتين على سطح الارض ، اذ تلتقط تانك المحطتان الاشارة الصادرة من الطائرة فتعرفان اتجاهها فترسمان على مقتضاه ، مثلثاً تجعلان الطائرة في رأسهِ ، فتستطيعان حينئذ ابلاغ قائدها موقعهُ بالضبط وان كان لا يتمكن من رؤية الارض

وأحدث المخترعات في هذا الشأن هو استعمال طريقة البيم لارشاد قادة الطائرات الى المطارات في الليل او في الضباب ، اذ تقوم الموجات اللاسلكية بتوليد اشارة مستمرة ممتازة ، فيعرف قائد الطائرة انهُ ما دام يسمع تلك الاشارة قوية ، ايقن انه ينهج السبيل القويم . فاذا ما حاد عنهُ حيدة شديدة يمنة او يسرة ، ضعفت الاشارة او قل مداها ، فلا تصل الى سماعته المعلقة بأذنيه ، الاَّ اذا عاد ادراجه . وقد جهزت اشهر طرق الطيران في أميركا تجهيزاً جيداً بالمنائر اللاسلكية التي تزود قادة الطائرات بهاتيك الاشارات فتمكنهم من قطع المراحل الطويلة ليلاً ، مستغنين عن الارشادات الارضية كل الاستغناء

نقل الطاقة لاسلكياً

اما الممالك الاوربية فقد اخذت تقيم امثال تلك المنائر . وهذا مما يجعلنا نتذكر بأن اللاسلكي ، الذي كانت مهمته في بيوتنا لا تعدو اللهو ، والموسيقى ، اضحى وسيلة من وسائل النجاة لركاب الجو والبحر . والشعاعة اللاسلكية (البيم) على تشبيهها بشعاعة الفانوس الامامي للسيارة تختلف عنها في انها تنفرج انفراجاً عظيماً بعدها عن العاكس فتنتشر انتشاراً واسع النطاق ، قبل انقضاء الزمن الذي تقطع فيه مسافة الف ميل او اكثر . هذه هي المشكلة الخاصة بحصر الموجة اللاسلكية ، التي يسعى المهندسون الى حلّها بغية التمكن من اذاعة الحرارة والنور والقوة . اذ الطاقة الكهربائية التي يستطاع جمها في وقتنا الحالي من محطة الاذاعة تكاد تكون يسيرة جداً . فالمحطة التي تطلق موجات بقوة ٧٥ كيلو وط اي المحطة القوية ذات المائة حصان ، تفقد كثيراً من الطاقة بحيث تصبح القوة الصادرة منها غير كافية لتحريك ريشة ولا لانارة اصغر المصابيح الكهربائية . ثم ان المصابيح التي في الجهاز المستقبل للاذاعة لا تنار بالقوة الواردة في الموصل الجوي اللاسلكي aerial بل بالبطاريات مباشرة . ومتى حلت مشكلة حشد طاقة الراديو كلها في بقعة واحدة ، صار في وسعنا اكتشاف طريقة توجيه الكهربائية للانارة باللاسلكي ، وغدت شعاعة الموت حقيقة ثابتة لا ريب فيها

ومع انهُ من المستحيل الآن تحريك الآلات باللاسلكي، غير ان التحكم فيها بهذه الوسيلة ميسور . وقد أتيح لدوق جلوستر ، حينما كان في اوستراليا منذ زمن غير بعيد ، انزال باخرة باللاسلكي الى البحر في انكلترا . ولعلَّ افضل الامثلة على السيطرة على الآلات باللاسلكي ، هي الدردنوط القديمة سنتوريون Centurion التي ما برحت منذ عدة سنين، مستعملة كهدف لمدافع البوارج الانكليزية الجديدة التي يراد تمرين بحارتها على اطلاق نيران مدافعها

ولما كان ضرورياً جعل الهدف متحركاً كالسفينة المعتادة لـكي يؤدي النفع المنشود ، وكان غير ممكن ابقاء انسان حيّ على مرقب bridge باخرة مزمع ضربها بالمدافع، صار مستطاعاً لسفينة الهدف التي تسيّر باللاسلكي ، اجراء المناورات المألوفة ، من إسراع وإبطاء ونحوهما، دون وضع اي مخلوق على سطحها . وتتم تلك السيطرة بمدمرة تبعد عن السنتوريون ، نحو اربعة اميال إذ تقلع السنتوريون بقوتها الذاتية من ملاحيها الاحتياطين ، فيظلون فيها الى قبيل تسديد نيران المدافع اليها ثم يغادرونها وحينئذ تقوم المدمرة مقامهم. فترسل الاشارات فتتلقاها الموصلات الجوية اللاسلكية الكامنة في سفينة الهدف المشار اليها، وهي كثيرة لانها عرضة لمقذوفات المدافع فاذا ما تحطم احدها ، قام الآخر مقامهُ . والجهاز المستقبل للاشارات اللاسلكية والآلات القاطرة والمسيطرة على حركات سفينة الهدف ، مصونة من القذائف صيانة شديدة . وكان بدء اختراع هذا النظام في سنة ١٩١٦

بيد ان الاشارات اللاسلكية التي ترسل من المدمرة المسيطرة على سفينة الهدف لا تستطيع تحريك صفارة سفينة الهدف ولا سكانها راساً ، لانها غير كافية لذينك الفرضين ولو كانا على بعد ثلاث ياردات من مبعثها . وانما هي تحرك ادوات دقيقة في سفينة الهدف تتحكم في الآلات الاصلية التي تسيطر على الدفة والصفارة

وتلك الآلات تستمد قوتها من قاطرات سفينة الهدف او من بطاريات التخزين الكهربائية وبهذه الذريعة يسهل تحريك سفينة الهدف اما يمنة واما يسرة وتسييرها سيراً حثيثاً او بطيئاً وقيامها بالحركات المرغوبة المختلفة كما لو كانت تقودها الايدي البشرية

وثبت حديثاً التذرع بالهيمنة اللاسلكية على الزوارق الصغيرة ذات المحركات الداخلية (الموطرات) ثبوتاً قاطعاً فجعل ولاة الامور يفكرون في استخدامها ابان الحروب . ولاغرو فان تسيير النسافات باللاسلكي في غضون الحرب العالمية ، جاوز حدّ التجربة، فمن اهون الامور والحالة هذه صنع نسافة لاتخطىء هدفها ، رغم دقة الاجهزة ، على ان يقفو آثارها في مناوراتها ، العامل الذي يتحكم فيها . اما في هذه الآونة فمن اصعب الامور ، جعل الآلات التي من هذا القبيل مستقلة عن التدخل الخارجي آمنة من اعتداء العدو . غيران التحسينات القائمة على ساق وقدم ستمهد لنا السبيل في الوقت الملائم للحصول على طائرات تسيّر باللاسلكي فيقيض لنا حينئذ ارسال حمل من الرسائل البريدية الى البلدان التي تبعد عنا مئات من الاميال بغير قائد للطائرة التي تقل ذلك الوسق

مائة سنة على ميلاد الشاعر

سوينبرن

١٨٣٧ — ١٩٠٩

لكامل محمود حبيب

هو ألجيرنون شارل سوينبيرن Swinburne شاعر الجمال والحب والسياسة ، شاعر الجزالة والموسيقى والقوة ، مثل من الامثلة العليا في الثورة والابداع والدأب والنشاط وسعة الاطلاع وعزة النفس وسموّ الروح

نشأته وثقافته

في الخامسة من مساء ٥ ابريل سنة ١٨٣٧ طلع سوينبيرن الى العالم معروقاً هزيلاً قرة عين أبوين كريمي المحتِد هما الاميرال شارل سوينبيرن والسيدة جان هنريتا أشبيرنهام ؛ وقضى أيامهُ الاولى في لندن ثم انتقل الى جزيرة وَيْط ليجد الصحة والعافية هناك وليتذوق اول لذاذات الحياة في أمواج البحر المضطربة وفي هدوء الجبال ، بين ثُلّة من أترابه ، يستمتع بالتطواف والسباحة ، فنشأ يهفو نحو البحر كما يقول هو « ... وإني لاخال ملح البحر قد اختلط بدمي قبل ان أُولد »

وتلقى علومهُ الاولى عن أمه فهي قد علمته مبادىء اللغتين الفرنسية والايطالية . ثم كان ينطلق أيام الآحاد الى الكنيسة يأخذ بقسط في العلوم الدينية وأمهُ تبث في نفسه حب الدين والانكباب على دراسته ، وما كان هو في حاجة الى نصيحتها فهو يستقبل يوم الاحد في سرور ومرح ويندفع الى الكنيسة في لذة وطرب ثم يجلس الى القس في انتباه وشغف . وحين يقرأ في الكتاب المقدس يقف في نشاط وخشوع ويرسل من بين شفتيه رنات عذبة شجية تجذب اليها السمع والقلب في وقت معاً ، واذا سأله القس أجاب في براعة وجودة . ولقد رافقهُ هذا الولع عمره وبدا أثره بيّناً واضحاً في شعره وحياته

وفي الثانية عشرة من عمره انتظم في كلية ايتون . وهنا يحدثنا اللورد رديسديل حديث شاعرنا فيقول « ...لقد كان شبحاً ضئيلاً يتأبط كتاباً جمع روايات شكسبير في غلاف من الجلد ثمين ،

و ... ورأسه الكبير قد تشعث عليها شعر طويل احمر . وكان وجههُ سمحاً جميلاً ، وبشرتهُ بيضاء لطيفة يشبهُ في ذلك وجه أمه . أما شعره فأنا واثق بأنهُ قد ورثهُ عن أبيه . وفي صوتهِ نغمات صوت أمهِ الجميل الخلاّب وكان لسانه طلقاً يترفع عن حوشيّ اللفظ ودنيء العبارة ... » ثم قال ... « وكان يبذ اقرانه رجاحة عقل وسرعة بديهة ، أغرم بشكسبير ومارلو وبن جنصن وسبنسر و... وغيرهم من شعراء القرنين السادس عشر والسابع عشر ومال الى المأساة بقلبه . . . ولقد قرأ في الشعر الفرنسي والايطالي كما قرأ في الشعر الانجليزي . ولقد حباه الله بمحافظة واعية اكتنز فيها كثيراً من الشعر والروايات ... »

ومكث سوينبيرن في إيتون اربع سنوات ونصف سنة ، دأب فيها على المطالعة والدرس ، ولقد قيل إنهُ اتقن اللغة الاغريقية فاستطاع ان يقرأ كثيراً من الشعر الاغريقي ، وفي الحق أنهُ لم ينل منها قسطاً كبيراً في هذه الفترة ولعله كان قد ابتدأ يشبع رغبة تتأجج في نفسهِ ، تلك هي مكانه الذي كان يتأهب ليتبوأه بين الشعراء . ولقد تحدث هو بذلك الى المستر رابر — بعد ذلك بعشرات السنين — وهما على مائدة استاذه جويت حين سأله المستر رابر : « من ترى أعظم الشعراء الانجليز » قال سوينبيرن : « شكسبير هو رأسهم غير منازع ، ثم ملتون ، ثم شيلي ثم ... ثم لا أدري ولكني لابد ان اضع إسمي بعده ! »

في هذه الرحلة من حياتهِ أخذ نفسه بقرض الشعر ثم أباد كل ما كتب غير ان قطعة واحدة لم ينلها ما نال اخواتها فظلت تكشف عن الناحية العقلية في الشاب الشاعر في ذلك الحين ، تلك هي « انتصار جلوريانا » نظمها — في اغلب الظن — سنة ١٨٥١ وهي تصف زيارة الملكة فكتوريا لايتون ... وغادر هو ايتون سنة ١٨٥٣ متململاً حانقاً على عمله المدرسي يريد ان يكون جندياً ثم عزف عن هذه الرغبة وراح يعد نفسه لامتحان الدخول في كلية باليول في جامعة اكسفورد وفي ٢٤ يناير سنة ١٨٥٦ ادى الامتحان في نجاح ...

وقضى ثلاث سنوات هناك يجذب اليه الانظار ، وتعرّف الى كثير من زملائهِ النابهين الذين طار صيتهم — بعد سنين — في ارجاء العالم مثل ريتشارد واتسن وسبنسر ستانهوب وتوماس جرين وجون نقولا . وارادوا ان يوثقوا هذه العلاقة فألفوا جمعية علمية رياضيّة جمعت افذاذ الطلبة وعباقرتهم

ولقد شهدت سنة ١٨٥٧ نضوجاً كبيراً في ذهن الفتى فألقى بنفسهِ في غمرات السياسة بعد ان اثرت فيهِ كلمات جده من ناحية وعبارات جون نقولا تلميذ مازيني من جهة اخرى فراح يترنم بالمذهب الجمهوري وبدت الروح السياسية على الجمعيه فما من افرادها إلاّ من حقد على نابليون الثالث ونزعاته

وفي سنة ١٨٥٨ طلب اليهِ ابوه ان يرافقهُ الى فرنسا، واخذ عليهِ موثقاً من الله ان لا يفعل مايضر بالامبراطور والاَّ يكتب مايجرحهُ . وحين انطلق الى الشانزلزيه في صحبة ابويهِ التقوا جميعاً بالامبراطور فانحنى الزوج والزوجة يحيون الامبراطور العظيم فرفع نابليون قبعته في عظمة يرد التحية . وحين سئل الابن عما فعل قال في بطء وتهكم « اما انا فلم ارفع قبعتي لانني لا اريد ان اقطع يدي عند المعصم عند عودتي الى الفندق ! »

ثم اتخذ مثله الاعلى كارليل و نقولا يشجعه ، وجويت — رئيس الكلية — يحذره مغبة امره فما استكان وما اقلع

وتأججت الشعلة السياسية في رأس الفتى وزت بهِ نزوات الشغب والهياج ، وأخذته العزة بمذهبهِ الجمهوري وهو يتتبع النهضة الايطالية والنمساوية في لذة وشغف ، فضاقت بهِ الكلية ، وخافت ثورته حين خرج على نظامها . واستطاع جويت — بعد لأي — أن يبعده عن اكسفورد حين ألحَّ على أبيهِ أن يلقنهُ التاريخ الحديث على قس عالم هو وليم ستبيس ، فخمدت الجذوة التي في رأس الشاب حين رأى نفسه وحيداً في نافستون . ولعله يلذ لنا ان نرى ما كان بين التلميذ وأستاذه الجديد في هذه البقعة المنعزلة : لقد ألحَّ القس ان يرى بعض شعر تلميذه فأذعن التلميذ واندفع يقرأقصته شاستيلارد ، وانحط عليها القس ينتقد في غير هوادة ولا رفق فدلف الفتى الى حجرته حزيناً مضطرباً ، وانطلقت على أثره السيدة ستبيس تداعبهُ وتطلب اليهِ ان يرافقها ليتناول طعام العشاء فأبى . . . وجلس الى نفسهِ . . . وفي الصباح غادر مخدعه متأخراً تبدو عليهِ سمات الفتور والشحوب ، فراح القس يعتذر اليهِ على أن تسرع في النقد فأجابه الشاعر « لقد حرقتها جميعاً » فذعر القس واضطرب غير ان الفتى قال « ولكن لا ضير ، لقد قضيت ساعات الليل كلها اكتبها من جديد من الذاكرة » وعجب الاستاذ لما سمع ، وتصرمت الايام وهما صديقان يعجب كل منهما بما في صاحبهِ من عبقرية وذكاء ، ثم اضطر الى ان يعود الى اكسفورد ثانية غير انهُ رأى في نفسهِ الرجل الذي لا يصلح للحياة الجامعية ففزع عن الجامعة ليدرس هو ما يصبو اليهِ ، ولم يحصل على درجة جامعية الى ان منحه إياها اللورد كيرزون وهو عميد الكلية وشكره سوينبيرن بخطاب في ٣ مايو سنة ١٩٠٧

***

عشق وأثره في نفس

أفكان للانسان أن يرى الجمال في الطبيعة ، في الرياض ، في البحر ، على سفح الجبل وعلى قنته ، ثم هو لا يراه في المرأة وهي ترف رفيفاً يملأ الدنيا عطراً شذيًّا يخلب اللب ويسيطر على

القلب ؟ أفكان للشاعر ان ينبض قلبه السامي فيملي عليه نفثات السحر وهو لا يستشعر سحر المرأة في قلبه وعقله معاً ؟ أفكان لشاعرنا سوينبيرن أن يبلغ الأوج دون ان يتقلب قلبه بين ألسنة النار المتسعرة المنبعثة من عين فاترة وطرف ساحر وخد متاهب وقد رشيق معتدل ثم . . . ثم تعيش معهُ الذكرى او يعيش هو بالأمل ؟

لقد أحبَّ شاعرنا كثيراً وتدله كثيراً وأخفق في حبه كثيراً ونحن لا نستطيع ان نجمع كل ما كان منهُ في هذه العجالة القصيرة فنحن نجتزيء بعض ما يشفي الغلة

ان القلب العظيم لا يضيق بشيء وان عظم ، كذلك كان قلب سوينبيرن فهو قد وسع العاطفة السامية لجمع من الفتيات والسيدات نذكر من بينهنَّ السيدة تريفليان والسيدة ريتش ثم الاوانس روسيتي وليسلي وسارتوريس وموريس و . . .

وفي سنة ١٨٦٢ كان يتردد بكثرة على دار صديقه رَضكن وتعرف هناك على احدى قريباته وهي فتاة في مقتبل العمر وفجر الشباب جميلة جذابة ، رقيقة ناعمة ، نشيطة خفيفة الحركة والروح فاستطاعت بما حباها بهِ الله من جمال ورقة أن تغزو قلب الشاب الشاعر ، وراحت تبذر في نفسهِ غراس الشجاعة والجرأة ، فكانت تقدم لهُ الازاهير الجميلة او تداعبهُ في لطف ، وتغني لهُ الأغاني العذبة فأحس هو بسحرها يتدفق في قلبه في شدة وعنف فاندفع يفتح أمامها مغاليق قلبه في سذاجة وجهل ، لم يترفق ولم يستأن . وبدا أستهتار الفتاة بحديثه في قهقهة عاصفة أرسلتها في وجههِ . لشد ما آلمه ان يرى أمله تعبث بهِ هذه الضحكة العالية ! فحمل معهُ حطام قلبه وطار من لندن الى نورثمبرلند وانطوى على حزن في نفسهِ يكتب خير رواياته « انتصار الزمان » . وظلَّ عمره لا ينسى حبه هذا ، ولقد تحدث عن هذا الامر بعد خمسة عشر عاماً : « لقد زال عني أثر الغضب الذي بعثتهُ في نفسي الضحكة العابثة لتزرع فيَّ الأسى واللوعة . . . »

ونحن لا نجد مفراً عن ان نترجم بعض قلبهِ الذي زفهُ هو على القرطاس ، قال يناجي البحر :

سأنام ، ثم أتحرك مع الفلك

أتقلب كما تتقلب الرياح ، وأنحرف مع التيار

وتستمتع شفتاي بزبد شفتيكَ

أعلو وأهبط مع موجك ،

سأنام ، وأنا لا ادري اذا كانت هي ،

وهي تشع حياة وجمالاً ،

تشبه الزهرة الرقاقة على فننها الغض

تحت أشعة شمس الصيف الهادئة ، في رائحتها الزكية وكبريائها

سأندفع في طريقي على غير هدى
أملأ النهار بأنفاسي الحرّى
وأسكن الى المخلوقات الفانية
أفعل ما تفعل الطبيعة ، وأُحدث حديثها ؟
ولكن اذا أحب كل منا صاحبه — يا عزيزتي ،
أتشعرين بقلبي وهو يسجد عند قدميك الصغيرتين
قلبي وهو يدق دقاته العنيفة من أثر السرور
لأنهُ أحسّ بقدميك الجميلتين تطآنه وتسوقانه إلى القبر

***

آه ، أحقًا أنني لم أفز من حياتي بشيء بل عزفت عن
كل ما حبتني الحياة ، وتركت السنين تمر
بخمرها وعسلها ، ريحانها وشوكها ،
والاحلام تشيد الاهام فيهدّمها الأمل ؟
تعالي أيتها الحياة أو تعال ياموت فلن أنبس بكلمة
افأفتقدك في الحياة وآسي لموتك ؟
لن أحدثك على الارض بشيء ، وفي السماء ،
إذا ناديتك هناك ، أفتسمعين أو تعرفين ؟

بهذا الاسلوب ، بهذا الخيال ، بهذه الروعة يخاطب الشاعر الشاب فتاتهُ التي أسرتهُ وملكت عقله ولبهُ واخترقت شغاف قلبه لتستقر فيه ما عاش

***

وفي هذه السنة صفعت الايامُ الشاعر صفعة أخرى قوية حين ماتت رفيقة طفولته ونشأته الأولى ليزي سيدال فتركت في قلبه جرحاً لا يندمل

***

وفي سنة ١٨٦٩ انطلق سوينبيرن إلى فيشي طلباً للاستجمام والصحة فتعرف على صديق هو فردريك ليتون وصديقة هي أديليد كامبل (الآنسة سارتوريس) وبعد خمسة أيام كتب إلى صديق « إن في فيشي الصحة والحياة » وفي الحق لقد وجد في فيشي السعادة . . . سعادة القلب أيضاً وهو إلى جانب صديقته اديليد تغنيه فيطرب ويهتز فرحاً للصوت الذي ظل يرن في مسمعيه ربع قرن من الزمان . وحين جاءه نعي صديقه اللورد ليتون كتب قصيدته « ليلة في فيشي ».ولم

يطل له الاستمتاع برفقة صديقته هذه لانهُ نزح عن فيشي ليلبي دعوة ڤيكتور هيجو

ثم زار فيشي بعد سنوات ثمان فكتب قطعة خالدة جاء فيها :

طلعت علينا السنة التاسعة بعد ان تصرمت سنوات ثمان

منذ أن تصافحنا لأول مرة بجانب الينبوع

وأنا مأخوذ بأغاني صديق حبيب إلى نفسي ،

إنني لأعجب للصديق ينسى صديقهُ

***

إن الحياة كالصخرة الناتئة تتناوحها الرياح ،

والزمان كالريح ونحن الامواج المضطربة ،

والاغاني كالزبد تثيره الرياح ،

إذن فلا بد أن تكون الفكرة التي في القلب عميقة كالبحر

***

هذه هي نظرية الشاعر في الصدقة والحب ، فيا عجباً ، يا عجبا . . . !

أخلاقه

كان سوينبيرن حديداً في رأيه واخلاقه لا يتزعزع وان عصفت بهِ الايام،ولا يلين للحادثات وإن الحت عليهِ ، فظلَّ لا يتأثر بالآراء الاخرى من نشأته الاولى في جزيرة وايط الى آخر نسمة من نسمات الحياة في بوتني ، فكانت حياته صلبة جامدة . ولقد اتخذ له اساتذة أسلس لهم وانقاد وبدأ أثرهم عليه ، هؤلاء مثل جويت وبيرتون وروسيتي وواتس ودانتي وغيرهم . وتأثر في شعره بالاغريق وشكسبير وبودلير وهيجو . غير ان أثرهم في نفسه كان كأثر قضيب المغناطيس على الابرة المغناطيسية يوجهها اليهِ مادام هو الى جانبها فان ابتعد انتهى اثره . وكان هو في دنيا غير دنيا الناس يعيش في خيال نفسه وآمالها غير ان شيئاً من الشذوذ لم يلحظ عليه . وكان انيقاً في لباسه ، بلغ في ذلك مبلغاً جذب اليهِ انظار الخياطين في لندن فاتخذوه مثلاً اعلى لاحدث طراز ، وظلَّ هذا دأبه عمره الا حين استقر في بوتني سنة (١٨٧٩ — ١٩٠٩) واستمرأ الوحدة ، واطمأن الى العزلة ، فما عاد يعنى بانظار الناس لانها لاتقع عليهِ الا لماماً

وكان ابيًّا عفيفاً، إذا سقط الذباب على طعام رفع يده ونفسه تشتهيه ، وكان صريحاً يعتز بنفسهِ في كبرياء وصلف ، فكان حين ينشد شعره يرفع عقيرته ويهتز طرباً كأنما يسمع لحناً سماويًّا او قطعة موسيقية رائعة . وكان صديقاً لطيف المعشر رضيَّ الخلق لايجرّح صديقه ولا يمتهنه ولايحقره

وعجيب ان ترى الرجل الذي امتزج حب المذهب الجمهوري بدمه وجرى في عروقهِ... عجيب ان تراه ارستقراطيًا يمعن في ارستقراطيتهِ ويفخر بها، وهو لم يكن جمهوريًا هادىء الطباع «فهو لم يكن ثائراً فحسب بل كان ينفث روح الثورة في كل من يلقاه». هذا الرجل الثائر هو الذي كتب عنهُ الروائي الهولندي بورتن سوارتز «لقد جذب نظري اليهِ لاول مرة في حلبة سباق، أنا لم اكن اعرف شيئاً عن مقامهِ الاجتماعي من قبل، ولكنهُ كان يبدو اجنبيًا وانجليزيًا أرستقراطيًا»

وكان وطنيًا يعشق وطنه ويرفعه فوق كل مرتبة، فهو في كل ما كتب لم يمس مجالس الشورى الانجليزية بسوء ولا الهيئة الحاكمة. افكان يخشى ان يذهب ضحية غضب الحكومة وهو الجريء المقدام الذي لا يخشى احداً ولا يكتم في نفسه ثورة من ثوراتها، وهو قد انحط على الالمان والفرنسيين يتقدمهم في غير هوادة ولا رفق؟ الجواب على ذلك يتبين في حديثه للسيدة ريتش حين سألته «ماذا اعددت لانجلترا؟» قال «لها حياتي!» هذا الرجل لا يستطيع وهو يقدس وطنه ويعبده، ان يرى فيهِ عيباً يثير من غيظه او يهيج من غضبه

وكان لسناً لبقاً قوي الحجة سريع البديهة، وكان حديثه كنثره وشعره قويًا ضخماً جزلاً ولقد تحدث عنهُ رجل اسكتلندي قال «لقد كان مفوهاً حين يجد، وحين يهزل لم اجد من يحسن الكلام مثله» وكانت الناحية الادبية تسيطر دائماً على حديثه لانهُ اغرم بها منذ نعومة اظفاره. ثم هو علاوة على تفوقهِ في الشعر تفوق في نقد الشعراء الكتاب في حماسة وقدرة ويقارن بين نفسه وبينهم في غير حرج ولا تواضع

اما الناحية الدينية التي شبت معهُ فلعلها قد تأثرت بنظرية المثل الافلاطونية فاتخذ منها إلهاً يعبده، ولقد رأيت هذا الرأي حين وقع نظري على خطاب منهُ الى ستدمان في ٢١ فبراير سنة ١٨٧٥ جاء فيه «أنا لست مؤمناً، لقد علمت بالالهام وادركت بالعقل أن إنساناً لا يستطيع ان يقول بوجود إله ذاتي الا اذا كان يهيم في متاهات الخرافة السخيفة... ولكن نحن الذين لا يعبدون شيئاً ملموساً ولا إنساناً يستطيعون ان يعبدوا الانسانية المقدسة، المثل الاعلى للكمال والسمو، دون ان يعبدوا إلهاً او انساناً او... لهذا استطيع ان اسمي نفسي مسيحيًا، غير اني لست مؤمناً...» ولقد عجبت للرجل ينشأ النشأة الدينية منذ سنيه الاولى ثم هو يتحدث عن نفسه بمثل هذه الجرأة وهذا المنطق السقيم!

ولقد اصيب بالصمم وهو في التاسعة والاربعين من عمره فما كان يرفع صوته. شأن كثير ممن فقدوا السمع.. ولكنهُ ظلَّ يتحدث في هدوء وفي نبراته العذبة الاخاذة

ومات في بوتني في ١٠ ابريل سنة ١٩٠٩ بذات الرئة تاركاً ثروة ادبية ترفعهُ الى اوج العظماء

عقل الانسان

بين الكيمياء والكهرباء

في أثناء النوم والمرض[1]

اثبتت التجارب الحديثة ان دماغ الانسان تبدو عليه ظاهرات كهربائية واضحة في اثناء اليقظة فهل تمتنع هذه الظاهرات اذا خمد نشاط اليقظة وخبت شعلة الوعي ، اي اذا اخذ الكرى بمعاقد الاجفان واستسلم الجسم للنوم ؟

هذا موضوع طريف طرقهُ فريق من علماء اميركا في مختبر لوميس بتكسيدو بارك نيويورك وفي مقدمتهم نيوتن هارفي المشهور بدراسته في « الاحياء المضيئة » . فاعدّوا حجرة نوم مجهزة بجميع الوسائل اللازمة لاخضاع التجربة للسيطرة العلمية الدقيقة . فالحجرة يحيط بها حجاب يمنع كل تيار كهربائي من الخارج ان يتصل بداخلها . وفيها « ميكروفون » دقيق الحسّ يدوّن جميع الاصوات التي تحدث في الحجرة ، وهناك جهاز آخر قائم على مبدأ الكهرباء الضوئية[2] يسجّل حركة السرير الناشئة عن تقلّب النائم على فراشهِ

وقد صنعت سجلات على هـذا الاساس لعشرات من الناس تتفاوت اعمارهم من احد عشر يوماً الى خمس وسبعين سنة . وهذه السجلات نوعان نوع يدوّن حركات النائم ونوع يدوّن الامواج الكهربائية الصادرة من الدماغ . والتدوينان متحاذيان ، وهذا يعني انهُ اذا اخذت الشريط الذي دونت عليه حركة النائم وقلت ترى ماذا يقابل هذه الحركة البدنية العنيفة من احوال الدماغ الكهربائية ؟ كان لك ذلك على اوفى وجهٍ

ولعلك تعلم ان جهازاً يسجّل آثار حركة بدنية او امواج نشاط كهربائي على شريط منساب، يملأ من الشريط ، في اثناء سبع ساعات من النوم في الليل ما طوله نصف ميل ، ولذلك استنبط هؤلاء العلماء اسطوانة دوّارة طولها ثماني اقدام ، ولها ريشة تدوّن عليها من تلقاء نفسها أمواج

---

(١) راجع مقتطف يوليو ١٩٣٧ ص ١٢٩ — ١٣٤ (٢) Photo-electric

الكهرباء الصادرة من الدماغ . بل ادهى من ذلك استنبطوا وسيلة لاستعمال ثلاث ريش في آن واحد كلٌّ منها متصل بناحية من الجمجمة وكلٌّ منها يدوّن التموجات بحبر يختلف لونهُ عن لون الحبر في الآخر

هذا هو الاسلوب الذي جرت عليهِ التجربة . وبعد درس السجلات درساً وافياً ظهر لهؤلاء العلماء ان ثلاثة أنواع من الامواج الكهربائية تصدر من الدماغ في اثناء النوم . النوع الأول أمواج منتظمة السياق كأمواج « الفا » التي تصدر من الدماغ في أثناء اليقظة (راجع مقال يوليو) تصدر من الدماغ في اثناء النوم الخفيف المتقطع . والنوع الثاني طائفة من الامواج تدلُّ آثارها على انها نتيجة نشاط يشتدُّ فجأة ثم يخبو فجأة . ثم هناك النوع الثالث وهو أمواج غير منتظمة في ظهورها وشكلها وقد أطلقوا عليها اسم « الامواج الشاردة »

هذان النوعان الأخيران مرتبطان بالنوم العميق . ومن أغرب ما ظهر عند دراسة هذه السجلات ان الانتقال من ظهور الامواج الشاردة الى الامواج المنتظمة (امواج الفا) يحدث بمجرّد التحدُّث مع النائم . ولكن الاصوات الرتيبة التي تعوّدتها الأذن كصوت مرور قطار أو بوق سيارة لاتسبب هذا الانتقال . فاذا دخل حجرة النوم أمرؤ وسعل سعالاً خفيفاً او همس همساً لطيفاً كان ذلك كافياً لظهور الامواج التي من النوع الأول، ولذلك يعتقد هؤلاء العلماء ان التحوُّل من النوم العميق الى الخفيف ليس نتيجة مباشرة لحافز الصوت بل هو متصل بمستوى النشاط في الدماغ

وقد يختلف النشاط الكهربائي في دماغ النائم في مواقع مختلفة منهُ . فقد سجل على الاسطوانة ما يدلُّ على ان الامواج المتصلة بها من القذال من نوع معين والامواج المتصلة بها في الوقت عينهِ من مقدم الرأس من نوع آخر. فاذا حدث اي صوت يضطرب لهُ النائم كاقفال باب ، تحوَّل النشاط الكهربائي في الموقعين الى نسق واحد واصبحت جميع الامواج المسجلة على الاسطوانة من النوع الاول اي النوع المرتبط بالنوم الخفيف

ولعلّ المصابين بالأرق يستطيعون أن يجنوا فائدة عملية من هذا البحث . فهم يبغون على الغالب ان تكون الحجر التي ينامون فيها بعيدة على كل نأمة او صوت يزعجهم ، ويؤرقهم ان يسمعوا وقع أقدام خفيف ، او حفيف ورق كتاب او همساً لطيفاً . ويزداد تعرّضهم للارق بازدياد هدوء الحجرة التي ينامون فيها . اذ يتجسّم فيها أخفت الاصوات . ولكن اذا كانت الحجرة معرضة لصوت عالٍ رتيب كهدير محرك الباخرة في البحر ، طغى ذلك الهدير على الاصوات الخافتة التي تؤرقهم عادة فلا يتأثرون بها وينامون ملء أجفانهم

ولنفرض أنك نوّمت أحدهم تنويماً مغنطيسياً ، فهل تكون الامواج الصادرة من دماغهِ امواج اليقظة أم أمواج النوم؟

هذا موضوع عني به الدكتور داڤيد صلايت أحد أساتذة جامعة ماكجل الكندية . فانهُ نوّم في مختبر لوميس رجلاً تنويماً مغنطيسياً ثم سجل حركاته والامواج الكهربائية الصادرة من دماغهِ بالاسلوب المتقدم في حالة اليقظة والنوم السوي والتنويم المغنطيسي . فكانت الامواج المسجلة على الاسطوانة من النوع الاول اي أمواج الفا الخاصة باليقظة والنوم الخفيف المتقطع . ولم يظهر في السجلّ الخاص بهِ أثناء نومهِ المغناطيسي أمواج ما من النوعين الثاني والثالث. واذن يمكن ان يقال ان التنويم المغناطيسي ليس نوماً ، اذا كانت هذه الامواج الكهربائية مقياساً يصحُّ الاعتماد عليهِ

هذا وقد عني الدكتور جبس Gibbs وزملاؤه في مدرسة هارفرد الطبية بدراسة الصلة بين هذه الظاهرات الكهربائية في دماغ الانسان ، والاصابة بداء الصرع ، فوجدوا أن نوبة الاصابة بالصرع يصحبها ظهور نوع معين من الامواج ، وانهُ قبل حدوث النوبة ، تظهر أمواج منذرة بقرب حدوثها تسبق أي أعراض جسمانية ظاهرة . ثم أخذ الدكتور جبس اثني عشر رجلاً أصحاء وجعلهم يستنشقون نتروجيناً نقيًّا بدلاً من الهواء حتى قاربوا الإغماء وسجّل في أثناء التجربة الامواج الصادرة من ادمغتهم فوجدها تشبه في بعض خواصها الامواج الصادرة من ادمغة المصروعين او المشرفين على نوبة الصرع. ثم عالج أربعة آخرين بعلاج من شأنه أن يضعف ضغط الدم ، فلا يصل منهُ الى الدماغ المقدار السوي في وقت معيَّن ، فكان التغيُّر الحادث في صورة الامواج الصادرة من دماغهم شبيهاً بالتغيُّر الحادث في أمواج السليم عند اصابتهِ بنوبة الصرع . ثم اكثر فريق آخر من استنشاق الهواء هنيهةً من الزمن وهذا العمل ينقص مقدار ثاني اكسيد الكربون الذي في الدم فكانت النتيجة واحدة. والغريب ان المعرَّضين للصرع الذين اجريت التجارب المتقدمة عليهم ظهرت في أمواج ادمغتهم اعراض الصرع مع أنهم لم يصابوا بنوبتهِ

بقي أن نعلم هل لكل امرىء صورة من الامواج الدماغية خاصة بهِ دون غيرهِ كوجههِ وصوتهِ وبصمة اصبعهِ . ذلك محتمل في رأي الدكتور هلول دايفس وهو يجرب تجارب منوعة الآن لتحقيق هذا . فقد تمكّن هذا الباحث من تقسيم « أشعة الفا » الى أربعة انواع أو فئات ، وهذا يذكرنا بفئات الدم الاربع . وعندهُ أن صورة الامواج التي لزيد تختلف عن صورة الامواج التي لعمرو ، ولكن صورة أمواج زيد في احوال مماثلة هي هي لا تتغير . وقد درس الدكتور دايفس بالاشتراك مع زوجته خمسة وثلاثين رجلاً وامرأة فوجدا ان القاعدة المتقدمة تنطبق عليهم ولا شذوذ فيها . وعلاوة على ذلك درسا ثمانية ازواج من التوائم المماثلة تماماً (identical) فوجدا اشعة الفا في أحدها قوية وفي آخر ضعيفة جدًّا حتى تكاد تكون معدومة ، وبين الاثنين درجات متفاوتة من الانواع الاربعة التي تقدّم ذكرها . ولكنهما وجدا في كل توأم ان صورة الامواج الدماغية واحدة للتئمين لا شبهة في ذلك . أما إذا كانت التوائم غير مماثلة تماماً (identical)

فصورة الامواج الدماغية في التمّ الواحد قد تختلف عنها في الآخرة. وهذا قد يدلُّ على ان هذه الامواج نتيجة تركيب خاص في خلايا الدماغ ينتقل بالوراثة

هذا بعض ما يقال الآن في هذا الموضوع الاخّاذ، الذي لا يزال مكتنفاً بكثير من الغموض

العقل والفرد

فاذا انتقلنا من الكهرباء الى الكيمياء ظهر لنا ان الغدد الصم ومفرزاتها في المقام الاول من حيث تأثيرها في العقل . فالمارد الذي طولهُ ثماني اقدام والقزم والمرأة التي نبت الشعر في عارضيها وذقنها وأختها السمينة المتهدلة، والجاحظ العيون المنتفخ العنق والابله بل والعبقري ايضاً، جميع هؤلاء في رأي ثلة كبيرة من العلماء، نتائج تركيب غير سويّ في غددهم الصم او افراز غير سوي في اتوارها (hormones)

في جسم الانسان سبع غدد صم او سبعة مجاميع من الغدد الصم وهي ١ — الصنوبرية داخل الجمجمة . ٢ — النخمية وهي فصان داخل الجمجمة كذلك . ٣ — الدرقية على جانبي القصبة تحت الحلق . ٤ — الدرقية وهي اربع . ٥ — الكظران فوق الكليتين . ٦ — الحلوة (البنكرياس) في تجويف البطن ٧— الخصيتان . وجميع الدلائل تدل على ان جميع هذه الغدد، ما عدا الاولى والسادسة، لها صلة بأحوال المرء العقلية وسنقتصر على ذكر مثل او مثلين لاننا فصلنا هذا الموضوع في مقال الغدد والحياة المنشور في مقتطف يناير وفبراير ومارس هذه السنة

والمقصود هنا (بأحوال المرء العقلية) طائفة واسعة النطاق من اعماله وسلوكه . ذلك ان العقل الواعي ليس السلطان المطلق على الانسان بل هناك الشعور والانفعال حتى العلماء، المثقفون بأدق اساليب البحث العلمي، معرضون لتيارات قوية من الشعور والانفعال تروح بالفكر الواعي والمجرد وتجيء بهِ وتحرفهُ احياناً عن طريقهِ

فالدماغ ليس منبع الافكار الواعية فقط، بل فيهِ تتولد كذلك انفعالات الغضب والخوف والبغض والحب وغيرها . قد يسيطر الفكر المجرد على هذه الانفعالات، وقد تكتسحهُ هي من طريقها اذ تأخذ بتلابيب المرء فتدبر سكان سفينتهِ . والحالة الثانية اعمُّ وأغلب

يروى عن المخترع ميشيل بيوبن الصربي الاصل والاميركي النشأة انهُ سأل فوستر كندي النورولوجي (العالم بالاعصاب) الاميركي المشهور هل وجد الاطباء مركز الانفعال في الدماغ . فقال كندي انهُ في « الهيبو ثالاموس » — وهو جزء من الدماغ في مؤخرهِ — فقال بيوبن ولكن اتستطيعون ان تضغطوا على الزرّ فتطلقوا الانفعالات التي تريدون ? فردَّ الطبيب اذا استتب السلام مائة سنة استطعنا ان نفعل ذلك . وعندئذ . . . . . !! »

وقد كان الباحث الانكليزي كنن اول من بين مكانة هذا الجزء من الدماغ في افعال الجسم

الانفعالية . ثم تبين ان بينهُ وبين الكظرين صلة وثيقة . فلنفترض ان حيواناً رأى او سمع ما اغضبهُ او اخافهُ ، ولا فرق بين الغضب والخوف لان فعل «الهيوثالاموس» واحد في الحالين . عند ذلك يبعث هذا الجزء من الدماغ سلسلة من الرسائل في الجهاز العصبي . فاذا بلغت هذه الرسائل الكظرين يفرز مخاع هاتين الغدتين توراً hormone يندفع في تيار الدم فاذا بلغ الكبد حمل على ان يطلق بعض السكر المخزون فيه . والسكر يفعل في الجسم فعل الوقود في المحرك . اي انهُ يصبح طاقة جديدة تساعد الحيوان الخائف او الغاضب اما على القتال واما على الفرار . وهو سواء افعل هذا ام ذاك محتاج الى قدر اضافي من الطاقة

الآن انهُ في الامكان الحصول على التأثير نفسه بحقن قدر من الادرينالين — وهو توثر الكظرين في الدم فيطلق الكبد سكرهُ ، وينسحب جانب كبير من الدم من الجلد واعضاء الهضم ويدفع الى العضلات ، والدماغ لانها اشد حاجة اليه والجسم في هذه الحالة . ولعل ابلغ مثال على ذلك ما حدث لمصاب بالبول السكري . فالمعروف ان تناول جرعة من الانسولين اكبر مما يجب تنقص السكر في الدم عن المستوى الطبيعي ، فيصاب المريض بدوار وتبلبل في الفكر وتلعثم في الكلام وبشيء من التشنج ثم يغمى عليه تماماً . ولذلك يحمل معظم المصابين بالبول السكري قطعاً من الحلوى في جيوبهم حتى اذا شعروا بهذه الحالة تناولوها فيضيفون الى الجسم قليلاً من السكر اللازم لهُ فيستعيد الدم توازنهُ والعقل صفاءه

هذا المصاب بالبول السكري احس وهو سائر في الشارع بعد حقنة الانسولين ، بحالة الاغماء المتقدمة الذكر فدخل صيدلية مسرعاً ليبتاع قطعة شوكولاته ليأكلها . ولكنهُ لما دخل الصيدلية . كان قد فقد صوابهُ فلم يعرف ما يقول فظنهُ الصيدلي سكيراً قد أكثر من الشراب فدفعهُ خارج الصيدلية فوقع المصاب على الارض ، فأغضبهُ هذا العمل ، فحرك الغضب كظريه فأفرزا الادرينالين فسار الادرينالين الى الكبد فأفرزت الكبد سكرها ، فعاد التوازن الى دم الرجل فزال الاغماء وعاد اليه صفاء ذهنه فسار الى صيدلية أخرى حيث ابتاع الحلوى التي يريد

وكما ان الكظرين يؤثران في الانفعالات عن طريق المادة التي يفرزانها وتأثيرها في الكبد ، كذلك الغدد التي وراء الدرقية تسيطر على مقدار الكلسيوم في الدم . فكثرة الكلسيوم في الدم تفضي الى حالة يشتد فيها توتر الاعصاب واعتقال العضلات ، وهي اعراض ترتبط عادة بمرض التيتاني . فاذا قل مقدار الكلسيوم في الدم عن المقدار السوي أفضى ذلك الى التراخي والكسل العقلي . وقد وصف الدكتور كوليب — زميل بانتنغ في بحث الانسولين وهو صاحب القصة المتقدمة — مريضاً مصاباً بسبات وتفكك في القول ففحص دمهُ فوجد ان مقدار الكلسيوم فيه نصف المقدار السوي . فحقنهُ بخلاصة الغدد التي وراء الدرقية فاستعاد حالاً صحتهُ العقلية والجسدية

خمسون سنة على وفاة

الشيخ احمد فارس

للفريق الدكتور امين المعلوف

في سفح لبنان وعلى ساحله مما يلي بيروت ثلاث قرى تكاد تكون متصلة هي الحدث وكفر شيما والشويفات جمعت صفوة الادباء والعلماء مما يفاخر به الدهر . وكانت الحدث للامراء الشهابيين كذلك كفرشيما اما الشويفات فكانت للامراء الارسلانيين . ويحق لنا ان نسمي هذه القرى الثلاث ساحل الادب او جورته فالجورة بلغة لبنان معناها الحفرة . فمن الحدث آل الشدياق منهم طنوس المؤرخ واسعد وفارس واسمهُ احمد فارس . ومنها آل صرُّوف منهم الدكتور يعقوب. وفي كفر شيما آل اليازجي منهم ناصيف واولاده حبيب وابرهيم ونصّار وخليل والست وردة . وفيها آل الشميّل منهم رشيد وملحم وامين وشبلي الطبيب العالم المشهور . وفيها آل تقلا منهم سليم وبشارة صاحبا الاهرام . وفيها آل الشدودي منهم اسعد العالم الرياضي المشهور . وفي الشويفات آل ارسلان منهم الامير شكيب امير البيان في عصرنا واخوه الامير عادل وابناء اعمامه . ثم آل شقير منهم شاكر وفارس ونعوم بك والسير سعيد باشا . وفيها آل الجريديني منهم سامي المحامي والاديب اللبق المعروف . فيحق لنا اذاً ان نسمي هذا الساحل بساحل الادب والعلم

ولكاتب هذه السطور قطعة ارض صغيرة في مكان يقال لهُ خان الوروار وهو بين الحدث وكفرشيما فوق جسر الغدير ومطل على صحراء الشويفات اودُّ ان ابني هناك منزلاً أقضي فيهِ آخر ايامي واسمي المكان الفارياقية تيمناً باحمد فارس عله يأتيني شيء من لغة احمد فارس ومن علم الدكتور صروف ومن أدب اليازجي ومن بيان الامير شكيب

احمد فارس علم من أعلام لبنان واليهِ يرجع الفضل في نحت الفاظ لم تكن معروفة قبلاً وهذه الالفاظ بعضها في علم الحيوان وبعضها في أمور أخرى لاتزال شائعة الى يومنا. وأول ما أبدأ به ما وضعهُ في علم الحيوان فانهُ الف كتيباً في الحيوان نقله عن الانكليزية وكان يحسنها. وقد ذكر في كتابهِ هذا الفاظاً لاتزال جارية على الالسنة فمنها ماترجمهُ ومنها ماعربهُ ومنها ماوضعهُ استعارة او لغرض

آخر. فما ترجمهُ كلمة مقدّم وهو اسم لرتبة من رتب الحيوان يسميه الانكليز Primate ولا ارى احسن منها فهي عربية فصيحة وشائعة في مصر والسودان والشام والعراق والكلمة عينها تطلق على رئيس الاساقفة مثل مقدم كنتربري ومقدم يورك ومقدم وستمنستر . والظاهر ان بعض الادباء لم ترقهم الكلمة التي وضعها إمام اللغة فقالوا الحيوانات العليا او الرئيسية . وفي شرح القاموس وغيره مايثبت انها افضل كلمة لهذا المعنى. ولا اعلم كيف يمكن الاستعاضة عنها

ومن الالفاظ التي ترجمها كلمة كسلان Sloth وكلمة شره Glutton وغيرها . ومن الالفاظ التي عربها تعريباً كلمة قَنقَر وهو حيوان استرالي مشهور طويل الرجلين قصير اليدين كاليربوع إلاّ أنهُ اكبر . وقد أخذ هذه الكلمة عنهُ الدكتور صروف وذكرها غير مرة في المقتطف ولا أعلم ماذا يقولون الآن في حديقة الحيوان ولعلهم يقولون « كنجرو » كما هي بالانجليزية ولا أعلم إعتراضاً على القنقر مالم تلفظ القاف كالهمزة كما يفعلون في القاهرة وبيروت فيلفظونها « أنأر » ولكن هذا الحرف اي القاف لا يلفظ كذلك الاّ في بيروت والقاهرة فيقولون سوق « الازاز » اى القزاز ومثله بأى أي بقي . أما في الصعيد والسودان والعراق فيقولون دنقلة Dongola وقوز رجب Goz Radjab والقصر المقيّر Mogayar وهو ذوقار والقيّارة Gayara وهو المكان الذي فيه القار او النفط ففي جميع بلاد الله العربية لم اسمع القاف كما يلفظونها في مصر وبيروت . ولقيت يوماً رجلين من الشويفات علمت من لهجتهما ومن أمور أخرى انهما من الشويفات فقلت لأحد الادباء وكان حاضراً هذا درزي وهذا نصراني فقال كيف عرفت ذلك قلت من لفظ الدرزي للقاف فكان يلفظها كما يجب أن تلفظ ومن لفظ النصراني لها فانهُ كان يلفظها مثل اهل بيروت والقاهرة فيقول « آف » . فقنقر أحسن لفظ لاسم هذا الحيوان ولكن إياك ان تقول « أنأر » بل قنقر. ومن الالفاظ التي عربها الراتل اي اكل العسل والقوطي واعجميتهُ Coati والمرموط وهو جرذ كبير والمفلون وهو أرويّة سردينية . والراكون Racoon وهو نوع من الكلاب الاميركية وقد ظن بعض المتحذلقين ان حقها ان تعرب بالركين والركين تصغير ركن وهو نوع من الفار او الجرذ ولكن احمد فارس على شدة ولعهِ باللغة ومعرفة ماورد فيها لم يكن يحب الحذلقة فلم يقل الركين لان هذه الكلمة تشبه الركين

ومن الألفاظ التي وضعها كلمة فظ وهو حيوان بحري طويل الأنياب كبيرها فظيع المنظر ولا أعلم سبب وضع هذه الكلمة ولعلّ أحد الذين كان يعرفهم احمد فارس كان كبير الانياب فظًا فسمى هذا الحيوان بهذا الاسم فشاعت هذه الكلمة وذكرها الدكتور بوست وذكرتها في معجم الحيوان . ومنها الزُغبة وهي فصيحة واردة في اللغة وفي معجم بادجر ولعلّ احمد فارس هو الذي استعارها لهذا المعنى فانظر كلمة Dormouse في بادجر وقد كان بادجر كثير

الاتصال بأحمد فارس وقد أشار الى ذلك في مقدمتهِ . فراجع هذه الكلمات في معجم الحيوان فانك تجدها مع نسبتها الى احمد فارس كالعادة

وثمة كلمات شائعة على الالسنة لا يعرف من واضعها بالتأكيد على ان للشيخ ابرهيم اليازجي مقالة في التعريب في المجلد الثاني من الضياء في سنة ١٨٩٩ نشر فيهِ جدولاً ذكر فيهِ طائفة من المعربات بعضها لهُ وقد أشار فيهِ بعلامة وبعضها لغيره ولم يعرف يومئذٍ أسماء من وضعها . وهاك الكلمات التي من وضعهِ . الأُربة والاستعهاد والأُسربّ والانبوبيات والبائنة والبيئة والتألق والتبليد والجناح والحاكي والحسّاء والحسّر والخُوذي والدرّاجة والدريئة والذريرات والراجيات والرّثية والرّعّاد والسُّفع والشاري والشبنزى والشيحنة والشيعار والشعرية والضلع والطارئة والطبرخي والطلاء والكفاف والالهاة واللولب والمأساة والمتمعجات والمجلة والمجبّب والمصلد والمقصف والمنضحة والنابض

أما الاسماء الاخرى التي لا يعرف من واضعها فهي ما يأتي مع اسماء واضعها وانما لا اعرفها الاَّ تقريباً . فالاستقطاب والاستمرار والبؤرة والرصيف الكهربائي والرقّاص والطيف والعدسية اظن واضعها اسعد الشدودي . والباخرة والجريدة واضعهما احمد فارس بكل تأكيد ومن لا يعرف معنى الباخرة في ايامنا . اما الاشتراك والبطاقة والبهو والثقاب فهي بين اثنين احمد فارس وابرهيم الحوراني . والمجهر والمرقب واضعها ابرهيم الحوراني بكل تأكيد . والسديم اظن واضعها الدكتور فانديك والنساف اظن واضعه خليل المطران . بقيت الفاظ لم يذكرها اليازجي كالبرق والبريد واظنهما لاحمد فارس . اما البريد فقديمة واما البرق فحديثة بهذا المعنى وفي العراق لا يقولون الاَّ مدير البرق والبريد . ثم ان هناك الفاظاً اخرى وضعها احمد فارس لم اتمكن من تحقيقها . ولعل بعض الباحثين يهدينا اليها ولا بد انهم يعرفون شيئاً كثيراً منها . وقد نشرت هذا الجدول خدمة لمجمع اللغة العربية ومنهم من يعرفها بلا شبهة ويعرف غيرها وانما احببت نشرها تذكرةً . وأظن من المستحسن ان يضع المجمع قراراً يثبت فيهِ ما يراه موافقاً وينبذ غيره ويأتي بغيره فبذلك تكون قرارات المجمع على اساس وطيد فلا يقول احد بعد ذلك ان الكلمة الفلانية مسروقة والعياذ بالله والمجمع لهُ صفة رسمية فلا عذر لترك الامور تجري على غواربها فغداً وبعد عمر طويل يموت بعض اعضاء المجمع وتفقد هذه الكلمات او تفقد اسماء واضعيها فقد انقضى خمسون سنة على وفاة احمد فارس ونحن لا نعرف بالتأكيد انه وضع الجريدة والباخرة ومن لا يقرأ الجرائد ولا يركب البواخر ونحن لا نعرف من وضع المجلة والبيئة ولا نعرف من وضع المجهر والمرقب فاذا كان اعضاء المجمع اللغوي لا يعترفون بالفضل لمن سبقهم فسيأتي يوم لا يعترف فيهِ بفضل لاحد من الناس



رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

— ٤ —

﴿ الظواهر الجوية ﴾ ان فعل الظواهر الجوية في اليمن عظيم وشديد وأكثر ما ترى هذه العظمة والشدة في قمم الجبال . فبخار البحر الاحمر والمحيط الهندي وما يتصاعد من جوّ تهامة اللاهب يميل دائماً للتكاثف فوق ذرى سروات اليمن ولا سيما فوق منحدراتها ومناكبها الغربية المتجهة نحو تهامة الحديدة . وكل الاماكن في تلك المنحدرات والمناكب يغمرها الضباب المتلبد صيفاً وشتاء ، يحدث ذلك كل يوم من بعد الظهر الى غسق الليل وقد يدوم بضعة أيام دون انقشاع ، وقد لا ترى سماء الاماكن المذكورة صفاء الاديم خلال العام كله الا أياماً معدودات . وأروع مسارح النظر في جبال اليمن وأوديته تلك التي كثيراً ما يصادفها السائر في الطريق الصاعدة من الحديدة الى صنعاء وفي غيرها من الطرق أيضاً . فهو يشاهد أمواج الضباب عن كثب وقد تحيط بهِ وتحول دون رؤيته منافذ الطريق فيخال نفسه غواص بحر زاخر ، او يشاهدها عن بعد بضع مئات من الامتار لم تلحق العلو الذي بلغه جامدةً او ممتدة السير تحت أقدامه وهي غاشية التلعات والمنحدرات وحاجزة المعاطف والفجاج فيحسب انهُ راكب طائرة يحلق فوق الغمام وفوق أعلى القنن الشاهقة الآخذ بعضها برقاب بعض

وتهطال الامطار في اليمن عجيب . ففي أيامها بينا تكون السماء صافية الاديم في الصبح والضحى تتلبد بعد الظهر بالسحب المكفهرة القاتمة واذا بالرعود تقصف والبروق تومض قصفاً ووميضاً متواليين وشديدين يبعثان الروع والوجوم واذا بالامطار تنهمر بشدة كأنها من أفواه القرب وكأن فعل خيوطها ضربات السياط ، تظل على هذا المنوال ساعة او ساعتين ثم تنقطع ،

فتهدأ ثورة السماء وتبقى الارض وما فيها من الجبال والاودية والقيعان ريانة فياضة بالسيول الدافقة او الغدران المجتمعة ترى انتشار قطراتها وتسمع خريرها وهديرها الى مدى بعيد مما يبهج السمع والبصر ناهيك بالطيور التي تنطق وتشدو من فجاج الصخور وغصون الاشجار مغردةً زاقية . واذا أمسى المساء تتبدد الغيوم وتسطع النجوم واذا أصبح الصباح تبزغ الشمس وتنعكس اشعتها على قطرات المطر المتبقية فتظهر كالدراري اللامعات وتظهر السماء صاحية ً ضاحكةً كأن لم يكن بالامس شيء . . . فلا يأتي الظهر الا وتعود الغيوم للتلبد والسماء للاكفهرار والرعود والبروق والامطار الى ما فعلته مساء أمس . . . وهكذا في كل يوم . .

وهذه الامطار تهطل في اليمن في مواسم معينة تخالف ما في الشام واشباهه من الاقطار . فهي تبدأ في شهر مارس وتدوم حتى سبتمبر ومن عادتها انها تقل في مايو ويونيو وتشتد في شهري يوليو واغسطس وانها — كما قلنا — تمطر في الغالب من وقت الزوال الى أخريات النهار

بيد ان الامطار قليلة او هي أقل من الحاجة في اليمن . فهو على الرغم من حوطته بالبحر الاحمر والمحيط الهندي في غربيهِ وجنوبيهِ ومن ان الجبال الجذابة للسحب ممتدة في أكثر مساحته ليست أمطاره غزيرة بقدر غزارتها في المناطق المماثلة لهُ في العرض والوضع الجغرافيين في آسية وافريقية . وهذه القلة هي التي دعت سكان اليمن الاقدمين —وهم الذين آثارهم تدل على انهم كانوا أيقظ وأنشط من سكانه الحاضرين — الى ان يخزنوا السيول الفائضة في موسم الامطار ولا يضيعوا قطرةً منها بفضل الاسداد التي شادوها وقد تقدم ذكرها

واذ كانت صخور اليمن البركانية الجرد الصمّ غير صالحة لخزن المياه في أجوافها بالقدر الكافي لاسالة الانهر العظيمة لا تجد في اليمن امثلةً لانهار البلاد الجبلية كما في الشام والاناضول وجل ما هنالك ينابيع وعيون ثرة تتدفق هنا وهناك بمقادير لا تزيد في اكبرها عن خمسين ليتراً في الثانية فتجري في الاودية التي تقدم الكلام عنها ان كانت بين الجبال او تجري في قنوات او مجار مسدودة او مكشوفة يدعونها « غيول » جمع غيل ان كانت قرب القرى والمدن ينهلون منها ويروون بها مساحات يسيرة من الارضين أحياناً

على ان مقادير المطر في العصر الاخير صارت اقل مما كانت عليهِ في العصور الخوالي ، يظهر ذلك للمعن في كثرة الغيول والاودية الجافة او الجارية وعمقها المتناقص. ولم يسجل ميزان المطر في مرصد صنعاء الجوي [1] سنة ١٩٣٥ اكثر من ٣٠٠ مليمتر. وهذا المجموع العائد لسنة واحدة

(١) وضع هذا المرصد العالم الالماني راتجنس الموفد من جامعة هامبورغ سنة ١٩٣٣ وقد مكث ورفيق له في اليمن سنتين يبحثان ويدرسان آثاره الحميرية وشئونه الجغرافية والطبيعية التي امكنهم الوصول اليها ووضعا كتاباً نفيساً عن نتائج ابحاثهما

وان لم يكن كافياً للاعتداد به ، لكن بقية السنين لا تكون فيها الزيادة على ما يظهر اكثر من نصف او ثلثي المجموع المذكور، وهو يعد قليلاً على كل حال اذا قيس بجفاف اقليم اليمن وجفاف صخوره واتربته . ولا يزال شيوخ صنعاء يذكرون بحسرة انواع الغيول بالماء . وقد كانت مثلاً قبل ٤٠ — ٥٠ سنة تروي في شمالها مساحات واسعة في قرى شعوب والروضة والجراف ، فاصبح الآن بعضها جافاً كل الجفاف وبعضها تناقص الى ثلث او نصف مقداره السابق فصارت تلك المساحات غامرة باسرة بعد ان كانت زاهرة ناضرة. ولم يتسع لي الوقت للاهتداء الى اسباب هذا التناقص المريع أكان من اسباب بيولوجية بحكم وفرة الزلازل وتوالي تصدع الارضين وغور الينابيع [١] أم من الفتك بالحراج واستئصال الاشجار خلال الحروب والفتن التي لم تنقطع في اليمن الا منذ عهد قريب أم من عوامل جوية وفلكية ؟

ولما كان القطر اليماني قريباً من خط الاستواء تختلف فصول السنة الاربعة فيه عن نظائرها في الاقطار البعيدة عنه . ففي اليمن يكون الربيع في اشهر يناير وفبراير ومارس والصيف في ابريل ومايو ويونيو والخريف في يوليو واغسطس وسبتمبر والشتاء في اكتوبر ونوفمبر وديسمبر . واليمانيون لا يستعملون في التوقيت الا الاشهر القمرية العربية ، فهم لا يعرفون اسماء الاشهر الشمسية الافرنجية ولا السريانية . واذا ارادوا التوقيت على الحساب الشمسي لمعرفة مواعيد الزراعة استعملوا اسماء البروج التي تتقلب فيها الشمس . فيأتي فصل الربيع عندهم في بروج الدلو والحوت والحمل والصيف في الثور والجوزاء والسرطان والخريف في الاسد والسنبلة والميزان والشتاء في العقرب والقوس والجدي . ويستعملون اسماء منازل القمر وهي مجاميع النجوم التي يتقلب فيها القمر وعدتها ٢٨ منزلة وهي الغَفْر والزبانا والاكليل والقلب والشولة والنايم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية والفرع المقدم والفرع المؤخر والحوت والسرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك . ولهم في تعيين مواسم الزراعة اصطلاحات غريبة كالفارع والعشا والصواب والظلم والصلم والعلب وسهيل وعلان والروابع الاولى والاخرى وامثالها مما يطول عده وشرحه

وإذ كان القطر اليماني في داخل المنطقة الحارة يحصل في جباله وتهائمه ما يحصل في بقية البلاد الداخلة في المنطقه المذكورة من حر وقر قد يكونان شديدين في بعض الاماكن والفصول .

---

(١) ايد الهمداني ظني بتأثير الزلازل في تقليل مياه اليمن . قال في كتابه الاكليل ج٨ ص ٨٨ عند كلامه عن غيل وادي نهر . (وكان هذا الغيل في الجاهلية على ضعف ما هو عليه اليوم حتى وقعت في اليمن زلازل قطعت بعض ماءاته)

والحرارة تتبع العلو عن سطح البحر ،فهي شديدة في تهامة وضعيفة في الجبال . ويضاف في اليمن
إلى اختلاف الحرارة بين الجبال والتهائم بل بين مكان وآخر في الجبال والتهائم نفسها اختلافها
أيضاً في ذات المكان وفي كل يوم بين الصباح والظهر والمساء وبين الهزيع الاول والثاني من الليل.
ثم ان الضباب الذي لا ينقطع انتشاره في الاماكن المتجهة الى الغرب في ظهر السلسلة والمطر
الذي لا ينقطع تهطاله في موسمه بعد الظهر من كل يوم يسببان حين قدومهما هبوطاً في درجة
الحرارة يكون فجائيًّا ومؤثراً . وهذا الهبوط يلجئ اليمانيين ولا سيما أهل المدن منهم الى تغطية
رؤوسهم وظهورهم بالمحفة وهي قطعة نسيج من الصوف مستطيلة واسعة لا بد لكل يماني ان
يحملها صيفاً وشتاء على منكبه ،فهم يلتحفون بهذه اللحفة ويتدثرون بالفرو ويهرعون الى مساكنهم
ويكبون على تخزين القات وشرب منقوع قشر البن الساخن دفعاً للبرد الذي يخشونه كثيراً

وكلما ابتعد السائر من الساحل ومضى نحو جبال الداخل يشعر بالانتعاش من خفة الحرارة
والرطوبة وتناقصها التدريجيين ومن ازدياد الجفاف . وهذا الجفاف البالغ حده الاقصى في اقليم
الجبال يؤثر وينفع في فناء بعض الميكروبات او عدم نموها وتكاملها . والضباب يكاد لا يحدث في
صنعاء ، فجوها شديد الجفاف لا يعرف الرطوبة الا قليلاً في موسم الامطار كما انها لا تعرف الحر
ولا البرد الشديدين .فهواؤها سجسج عليل في أكثر الايام . ودرجة الحرارة في موسم الصيف
وقت الزوال تختلف بين ٢٥ و ٢٧ وفي الصباح بين ١٢ و ١٣ واشد ايام البرد فيها من غرة
اكتوبر الى منتصف يناير .وهو مهما يشتد لا يهبط الى تحت ٣ تحت الصفر ويعود للارتفاع في النهار
الى ١٥ او ٢٠ واكثر مدن النجد اليماني العالي وقراه على هذا المنوال من الاعتدال اللطيف .
وإذا هبطت الحرارة الى الصفر وتحته ينسج البرد على الماء زرداً وقد ينزل الجمد المعروف بالبرد وقد
تكون حباته كبيرة كالبندق او الجوز ، وقد يبقى هذا البرد على وجه الارض بضعة ايام دون ان
يذوب . وزعم بعضهم ان الثلج المعروف في جبال الشام يهطل على قمة جبل النبي شعيب (٣٥٠٠
متر وهو اعلى قمم اليمن طر‍اً) ولم أتحقق ذلك . ولو كانت نجود اليمن وجباله في عرض القطر
الشامي لغمرتها الثلوج واستحال العيش فيها،كما استحال على ما هو اعلى من ١٥٠٠ متر في بلاد الشام

﴿ الاقليم ﴾ يراد بالاقليم مجموع الظواهر الطبيعية والكيماوية الحادثة في جو مكان ما وارضه.
ويهتم الباحثون بهذه الظواهر لانها من اشد العوامل تأثيراً في حياة حيوان ذلك المكان ونباته
وفي درجة نموها وارتقائهما . فاليمن في جملته ذو اقليم عجيب يختلف كل الاختلاف عن بقية
الاقاليم المعروفة . وشكل ارضه وارتفاعها كما تبدلا امام السائر من الساحل الى قسم الجبال تتبدل
معهما رقة الهواء وحره ونقاوة الماء وطعمه . فنشأ بحكم ذلك التبدل اقليمان مختلفان احدهما حار
خاص بتهامة والثاني بارد او معتدل خاص بالجبال . ثم إن كلاً من هذين الاقليمين ايضاً يحوي

اقاليم عديدة لاختلاف الارتفاع والانخفاض والاتجاه والانبساط اختلافاً بارزاً في رقاعه المنفصلة

فشروط الحياة والمعيشة التي تتغير بتغير الظواهر الطبيعية والكيماوية في تلك الاقاليم اوجبت ايضاً تغير اشكال النباتات والحيوانات والوانها في كل مكان . لهذا نجد في اليمن اعشاباً واشجاراً وازهاراً وأثماراً من التي تنشأ وتنمو عادةً في المناطق الحارة والباردة وما بينهما من المناطق المعتدلة. لكنك كلما صعدت من أسفل إلى أعلى وكلما جلت من اليمين إلى اليسار رأيت اجناساً من النباتات وأنواعاً وميزت اشكالاً والواناً وروائح تختلف ولو قليلاً عما رأيته وميزته منها في مكان آخر من اليمن نفسه. ناهيك باختلافها عما في بقية الاقطار كالشام والاناضول مثلاً . وأكثر الفصائل النباتية المعروفة في بقية الاقطار الشرقية والغربية لها افراد وجماعات في اليمن . لكن هذه تختلف نوعاً عن نظائرها في تلك الاقطار باللون والحجم والطعم .فالخرنوب مثلاً ويدعونه في اليمن قرنيط اصغر ورقاً وارفع قروناً وأقل حلاوةً من خرنوب جبال الشام . ومثل ذلك التين ويدعونه البَلَس فهو لا يكاد يؤكل من رداءته . وعلى ذلك قس بقية الأثمار من مشمش وتفاح وسفرجل وليمون وغيرها . فقد اثر فيها الاقليم واخفض جودتها ، حاشا البن فان انواعه في غاية من الطيبة

ويختلف حيوان اليمن ايضاً عن امثاله في بقية الاقطار . فبقره مثلاً ذو سنام ضخم يتدلى فوق اعلى الكاهل ، والعراب من خيله ذات مزاج عصبي شديد، لا تسير الا قفزاً ووثباً ، وجمله رفيع القوائم صغير الجثة لا يحمل الا اثقالاً خفيفة ، وغنمه عديم الصوف او قليله نحيل الخصر ، وبشره اقرب الى قصر القامة وصغر الهامة وهزل الجسم وشحوب اللون ورخاوة المزاج منه في بشر سائر الاقطار العربية

ناهيك بزي اهل اليمن في الاكتساء والاحتذاء وفي المذاهب والمشارب وفي الاطوار والعادات . فان لكل من اقاليم تهامة والجبال فروقاً بارزة في هذه الشئون . فجميع سكان تهامة وبعض سكان الجبال نصف عراة بينما سكان المدن وبعض اهل القرى يكتسون وقد يتدثرون بالفرو . والتهامي يعجز عن توقل عقبات الجبال والقفز بين صخورها ومنحدراتها الكأداء شأن اهل الجبال ، كما ان الجبلي تخور عزائمه اذا اضطر للغوص في رمال التهائم . وابن هذا الوادي يصقع اذا صعد الجبل الذي فوقهُ ، وابن ذاك الجبل يتلظى اذا هبط الوادي الذي تحته ، وكل منهم راض بما قدر له ، لا يمكن لاحدهم ان يقاتل الثاني الا اذا استدرجهُ الى أرضه . وصف الهمداني هذه الحالة في « صفة جزيرة العرب » فقال مثلاً عن جبل تخلى : ومن ولد في رأسه فقبيح غير صحيح وخاصة النساء ومن ولد في صفحه فصبيح غير قبيح ، وطباع سكنه واهله يخالف طباع من في صفوح في العقل والنجدة والطول . اه

﴿عالم النبات﴾ قلنا ان اكثر الفصائل النباتية المعروفة لها افراد وجماعات في اليمن — حاشا الصنوبرية فانني لم ار لها اثراً الا عدداً قليلاً من السرو في صنعاء وذمار جلبهُ الترك في زمنهم فلما وقد أخذت معي الى اليمن في ما اخذتهُ من مختلف الاشجار المثمرة وغير المثمرة مئات من غرس السرو الاهرامي والافقي والصنوبر المثمر والصنوبر البري المعروف بالحلبي والعفص والآ روكاريا والكازواريا ، غرست ذلك في اماكن مختلفة من صنعاء ، فان ابقوا عليه وعنوا به تزدان نجود اليمن وجباله بهذه الاشجار الجميلة . وتضيق هذه العجالة عن تعداد نباتات بلاد اليمن وذكر اسمائها المحلية وقد عني بهذا الامر فيما مضى العالم الطبيعي الشهير فورسكال احد اعضاء البعثة العلمية الدانماركية التي وفدت برئاسة نيبوهر الى اليمن سنة ١٧٦٣م (١١٧٧ هـ) وقد توفي فورسكال وقتئذٍ في بلدة يريم . ودرج العالم النباتي الالماني شوينفورت في كتابه المسمى (الاسماء العربية لنباتات مصر والجزائر واليمن) المطبوع في برلين سنة ١٩١٢ ما ذكره فورسكال من النباتات بحسب اصطلاح اليمانيين. ولم يخل الترك في زمنهم من عالم يعنى بدرس احوال اليمن من النواحي العلمية ولا سيما بدرس نباتاته ، ومنهم الطبيب امير اللواء ابراهيم عبد السلام باشا صاحب كتاب (الرحلة اليمانية والجغرافية النباتية في اليمن) طبع الاستانة سنة ١٣٢٤ هـ والعالم الالماني راتجنس عني ايضاً بنبات اليمن. وفي كتابه جداول توزيع فصائل النباتات اليمانية بحسب ارتفاعات اماكنها عن سطح البحر

والذي يسترعي النظر في اليمن ولا سيما في الجبال هو اشجار العضاة الشائكة وانتشارها بكثرة هائلة يكاد لا يرى غيرها ومثلها الاشجار اللحمية الشائكة ذات العصارة اللبنية. والاولى تنتسب للفصيلة القرنية والعائلة السنطية والثانية للفصيلة الاوفوربية فمن الاولى الانواع الآتية نذكرها مع اسمائها اليمانية :

سلم سلام « السنط »	Acacia arabica	قتات	Acacia senegal
عسق	„ asak	سيال « في مصر طلح »	„ seyal
سيلام	„ flava	حارس	„ tortilis
سمر	„ spirocarpa	طلح	„ abyssinica
ظبه	„ mellifera	الضهى	„ glaucophylla
عرفطه	„ nubica	دفران	„ fluticosa

ومن الفصيلة القرنية ايضاً السدر Ziziphus spina Christi والسنا cassia absus والعشرق cassia obovata وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره

ومن الفصيلة الاوفوربية الانواع الآتية :

عشق	Euphorpia Ammak	خريش	Euphorpia marticulata
كلخ ، غلق	" cactus	سيسب	" monticola
شرور	" fruticosa	قصاص	" polycantha
ام اللبن ، مليبنة	" granulata		
رميد	" schimperi	سبيع	" peplus

وغني عن البيان ان الفائدة الاقتصادية من هذه النباتات معدومة او يسيرة . فلا يفيد بعضها الا للاحتطاب . ومن المؤسف ان يكون القطر اليماني محروماً من الحراج التي لا يخلو منها امثاله من الاقطار الجبلية . ويظهر ان الحروب والفتن التي لم تنقطع من اليمن الا لعهد قريب قضت على حراجه وجردت معظم جباله فلم يبق فيها من الاشجار والاجم البرية الا ما هو قليل النفع قليل الالتفاف منتشر في مناكب الجبال ومنحدراتها وحول الاودية على حالة منفردة او على هيئة ادغال قليلة الكثافة واشجارها من العضاة الشائكة التي عددناها وليس في اليمن من الاشجار الصالحة للتجارة والبناء سوى (الاثل) — Camarix nilotica الذي يغرسونهُ في صنعاء بكثرة حول البساتين او كغابات صناعية ، وشجر آخر يحصل في الجبال يدعونهُ (طنب Cordia abyssinica) لا بأس بصلابته ، لولا صعوبة عمله وقلة وجوده ويليها من ذوات النفع القليل شجر الطالوق Ficus vesta يشبه جميز مصر والشام بضخامته ، لكن ثمره لا يؤكل وخشبه قليل الصلابة والنفع ثم الطلح والسدر وامثالها

وفقدان الحراج والاشجار الصالحة للصناعة يضطر اليمانيين لجلب اخشاب التجارة من البلاد الاجنبية واضاعة قسم من ثروتهم الضئيلة في سبيل شرائها. وهذا ما استوقف نظري حين شروعي بادارة الاعمال الزراعية فاستجلبت لهم من مشاتل ايطاليا مئات من اشجار الحراج التي تنمو في الاماكن الجبلية كالسنديان Quercus pedunculata والقيقب acer platauvides والسويد Ulmus campestris والدلب Platanus orientalis وأنواع الصنوبريات التي تقدم ذكرها، ناهيك الاوكاليبتوس والكاتاليا والآكاسيا وغيرها مما يصلح للزينة ايضاً . غرست بعضها لاجل التجربة في مناكب جبل نقم المشرف على صنعاء وبعضها في صنعاء والقرى المجاورة لها . ولعلهم اذا عنوا بها وفاقاً لما علمتهم وكتبت واستكثروا من التي تنجح تجربتها عندهم يرون منافعها في المستقبل ويحدثون منها حراجاً تغنيهم عن جلب الخشب من الخارج

صدى قبلة

حرارتها لم تزل فائرة　　ونكهتها لم تزل عاطرة

أحس حرارتها في دمي　　كما تصرخ الشعلة الثائرة

وأنشق نكهتها كالشذا　　يفوح من الزهرة الناضرة

وتخطر ريانة في فمي　　كما يخطر الحلم بالذاكرة

وبين يديّ صدى ضمة　　تَرَدَّدُ كالنغمة السائرة !

أجل ! ليس هذا الذي قد ضممـ　　ـت سوى نغمة حلوة عابرة

أذلك جسم ؟ فأين الخيال　　وأين عرائسه النافرة ؟

* * *

تقدستِ من قبلة قدَّست　　مناي وأوهامي الحائرة

وأذكت حياتي وإن الحياة　　هي الفتنة الحية الطاهرة

أجل هي أطهر ما في الوجود　　فما الرجس إلاّ القوى الخائرة

* * *

لجسَّمتِ ما كان في خاطري　　خيالاً وأمنية طائرة

وقرَّبتِ للمس ما لم تكن　　تقرّبه الفكرة الخاطرة

وأسريت بالروح في لثمة　　تحس بها الشفة الشاعرة

أمعجزة أنت تمزج بين الـ　　ـجسم وبين القوى الطافرة ؟

قوًى كل هيكل هذا الوجود　　كذلك قدّرتِ يا قادرة !

* * *

وإني لأغمض في نشوة　　وأمسك أنفاسي الساعرة

وأخطِرها قبلة في فمي　　فأسمع أصداءها الساحرة

وأسترجع اللحظات القصار　　فألقى بها صوراً وافرة

وأعرضها منظراً منظراً　　كما عرضت قبل للباصرة

نوادرِ تركُزَ فيها الزمان　　تبارك دنياي والآخرة

حلوان　　　　　　　　سيد قطب

حيوانات مشهورة

وصحة أسمائها

للفريق الدكتور امين المعلوف

اظن القراء ضجروا من الحيوانات العظام وهم يريدون شيئاً عن الحشرات ففيها وفي غيرها امور مطربة منها حكاية الاصمعي والاعرابي فلتراجع قصة الاعرابي والاصمعي . ولنبدأ الآن بالخنفساء

خنفساء وفيها لغات — Beetle

حشرة من مغمدة الاجنحة ذكرت بعضها في ص ٣٣ وذكرت لغاتها والعامة تسمي بهذا الاسم واحدة منها هي بنت وَردان ذكرتها في جزء مضى من المقتطف

ذُرّاح والواحدة ذُرّاحة وفيها لغات — Beetle, Blister beetle

وهي الحشرة التي يصنع منها المنفّط ويقال لهُ ذبان هندي والاخيضر للونه

قاسية وقاسياء — Beetle, Bombardier beetle

عُريقطة وفيها لغات — Beetle, Rhinoceros beetle

خنفساء عظيمة لها قرنان كبيران في مقدمها ذكرتها في ص ٣٣ و١٧٦

حُنظُب وفيها لغات . والجمع حناظب — Beetle, Stag beetle

قَرَنبى — Longicorn beetle, any of the Cerambycidae

خنفساء عظيمة طويلة القرون ذكرتها في ص ٥٥ واوردت فيها اياتاً للاخطل قبحهُ الله قال

ألا يا عباد الله قلبي متيم ... بأحسن من صلى وأقبحهم بعلا

نيام اذا نامت على عَكَنَاتها ... ويلثم فاهاً كالسلافة او أحلى

يدب الى احشائها كل ليلة دبيب القرنبي بات يعلو النقا سهلا

قلت فقول مثل هذا يجيب الناس بالقرنبي وان كانت من الخنافس

جُعَل كصُرد ورطَب والجمع جُعلان Scarab beetle

والناس يسمونهُ أبا جعران او جعراناً أسود . وللذكر قرنان. والعرب تزعم انهُ يموت بريح الورد ومن الريح الطيب : قال المتنبي « كما تضر رياح الورد بالجعل » . وكان الجعل مقدساً عند قدماء المصريين وهو مشهور. وللدميري فصل كبير في الجعل

عُومه والجمع عُوَم Beetle. Water beetle

خنفساء صغيرة تسبح في الماء الراكد وفي تاج العروس العومه بالضم دويبة تسبح في الماء كانها فص اسود مدملك ج عوم كصرد وانشد للراجز يصف ناقته

قد تَرد الماء تنزّي عُوَمه فتستبيح ماءه فتلهمه

حتى يعود دحضاً تشتمه

عومه دَوّامة Beetle, Whirligig beetle

وهي عومة تدور في الماء ذكرت هاتين العُوَم في ص ٣٤ وص ٩١

زيز . زيز الحصاد Cicada. Seventeen year locust

حشرة متجانسة الأجنحة تعرف بهذا الاسم في الشام

في مفردات ابن البيطار طبعة مصر زيز وفي نسخة لكلير زير بالراء المهملة والصواب كما جاء في النسخة المصرية . وفي دوزي زيز بالزاي وقال ان اللفظة بربرية وتجمع على زيزان قلت وهو الجمع الشائع على ألسنة العامة في الشام . وفي محيط المحيط الزيز دويبة تطير وتقف طويلاً على الشجرة ولها صوت كأنها تقول فيهِ زيز فسمّيت بهِ وأكثر العامة تقول جيز . قلت وهي مشهورة في الشام بالزيز وزيز الحصاد

فصيلة الزيزان او فصيلة زيزان الحصاد Cicadidae. Cicadas

ذكر الزيز على صحتها الياس انطون الياس وخليل بك سعد وقال النجاري بك الصرّار وهي فصيحة ولكن الصرار ليس خاصًا بالزيز ولعلّ النجاري بك اعتمد النسخة الفرنسية لا النسخة العربية والاّ لما فاتهُ ذلك ومثله الاب بلو اليسوعي . ولعلّ البعض سموا الزباب بالزيزي كما ذكرت في معجم الحيوان ص ٧٥ لانهُ يأكل الزيزان . والله أعلم

فصيلة بنات يومها او بنات اليوم Ephemeridae. Mayflies or ephemeral flies

هي فصيلة من رتبة عصبية الأجنحة يقال للواحدة منها ابن يومه او ابنة اليوم وهي دويبة طويلة الجسم لونها الى البياض او الصفرة أجنحتها طويلة مثلثة ومرتفعة الى فوق في وقت الراحة. ينتهي مؤخرها بخيطين في الذكور وبثلاثة خيوط في الاناث وهي تولد عند أفول الشمس وتموت عند شروقها (عن لغة العرب بتصرف ٢ : ٩ وما بعدها)

وللاب انستاس مقالتان في لغة العرب في السنة الثانية ذكر فيهما هذه الدويبة ووصف رحلتين أصحبتين لهُ الى حلب ثم عودتهُ في الطريق عينها بعد سنوات ومن الاسماء التي ذكرها الأب العلامة ابنة اليوم كما تقدّم لانها لا تعيش اكثر من يوم وهو معنى اسمها العلمي اليوناني . والخيتعور لانها سريعة الزوال روى الاب المحترم انهُ سمعها من الاعراب النازلين على الفرات وهو في طريقهِ الى حلب وهذا يوافق اسمها اليوناني والزخرف لانها زينة الماء والغدران سمعها من الاعراب النازلين على نهر الخابور . وذكر من أسمائها الشائعة في بغداد كليلو او جليلو وقال صحتها مكللة او ذات الا كليل وزالو فقال صوابها الزلال وهو دود يبرد الماء الى آخر ما جاء في مقالتهِ الممتعة وقد أرجع فيها الالفاظ العامية التي ذكرها الى الفصيح من الكلام ووفق بين ما سمعهُ من الاعراب وبين ما ورد في كتب اللغة ولو انهُ وجد شيئاً من الصعوبة في هذا التوفيق . ولا يخفى ان الأعراب اصحاب ذوق وظرف فلا يردُّون سائلاً ولا يكذبون قائلاً ولو سألهم الواحد هل تسمون هذه الدويبة جملاً لقالوا أي والله نسميها جملاً وناقة . قلت واني أجد صعوبة في التوفيق بين قول أعراب الفرات والخابور وما جاء عن الخيتعور والزخرف في كتب اللغة وأظنهما يوافقان ما يسميهِ علماء الحيوان Hydrobatidae كما سيذكر في هذه المادة. وقلت في ص ١٣٠

زَخارف Hydrobatidae. Syn. Hydrometridae. Water skippers or water striders

والواحد زُخْرُف . بقّ طويل القوائم يكون فوق الماء الراكد يَستَنُّ فيهِ اي يقمص ويعدو ذهاباً واياباً يقال لهُ خَيتَعُور وقمص

قال في التاج الزخارف دويبات تطير على الماء كما في التهذيب زاد في العباب ذوات اربع كالذباب وفي المحكم ذباب صغار ذات قوائم اربع يطير على وجه الماء قال اوس بن حجر

تذكّر عيناً من غُماز وماؤها له حَدَب تستنُّ فيهِ الزخارف

وفي المخصص واللسان مثل هذا كذلك في حياة الحيوان وانما الدميري اورد بيت اوس وقال عمان في النسخة المطبوعة في مصر وقرأها الكولونل جايا كار عمان وسواء كانت غماز او عمان فالمعنى واحد في ما لهُ علاقة بوصف الزخارف ولا سيما قوله « تستنُّ فيهِ الزخارف » فقد ترجمهُ

الكلونل جايا كار ترجمة حسنة جدًّا بالعبارة الآتية In which az-zakharif go about briskly وفي اللغة استنّ الفرس قمص وعدا اقبالاً وادباراً فوصف التاج للزخارف وما قاله اوس بن حجر في البيت المتقدم لا يترك شبهة في ان الزخارف هي الدويبات المعروفة عند الانكليز بالاسمين اللذين تقدم ذكرها

واحسن من ذلك وصف الخَيْتَعُور فما جاء في هذه المادة عن التاج « الختعرة الاضمحلال .... وكل ما لا يدوم على حالة واحدة ويتلوّن ويضمحل . . . . وشيء كنسج العنكبوت يظهر في الحرّ ... والخيتعور الدنيا على المثل ... الى ان قال في التاج والخيتعور دويبة سوداء تكون في وجه الماء وفي بعض النسخ لا تلبث في موضع الاّ ريثما تطرف وامرأة خيتعور لا يدوم ودها » فهذه الدويبة لا يمكن ان تكون الدويبة المعروفة بابنة يومها على ما روى اعراب الفرات للاب انستاس ما لم يُرَدْ بذلك المعنى المجازي للفظة اليونانية فانها تكاد تكون ترجمة حرفية لها وليس احسن منها وكنا نود ان يكون وصف الدويبة المعروفة بالخيتعور في كتب اللغة موافقاً لوصف ابنة يومها فتكون الخيتعور موافقة للفظ اليوناني الاصل في جميع معانيه . ولعل اعراب الفرات الذين سألهم الاب انستاس يعرفون اليونانية والالفاظ العلمية التي من اصل يوناني

قلت ولعل من اسماء هذه الدويبات القَمَص وهو على ما جاء عنهُ « ذباب صغار تكون فوق الماء او البق الصغار على الماء الراكد » . واظنهُ سمي بذلك لانهُ يقمص اي يثب [See Ephemeridae]

فتجد ان ابنة يومها هي الدويبة الاولى ولا اعرف لها غير هذا الاسم ويكاد يكون ترجمة العامة لاسمها اليوناني الاصل وان الزخرف والخيتعور والقمص هي الدويبة الثانية بلا اقل شبهة ولا يمكن ان تكون ابنة يومها على الاطلاق وان الاسماء الاخرى التي اوردها الاب المحترم وقيل انهُ سمعها من اعراب الفرات والخابور اسماء خيالية تدل على سعة العلم وليس على دقة الرواية . ولو ان البستاني ذكر شيئاً من هذا في محيطهِ او اليازجي في ضيائهِ لكنا نرى عجباً من نقد الاب بعد وفاتهما . فالاب صديق قديم تمكنت صداقتنا في بغداد وكثيراً ما اخذت عنهُ ولا ازال كذلك وانما وقعت وحشة بيننا سببها على ما اظن تحاملهُ في النقد واني واثق انهُ يقبل ذلك مني ويأخذه بصدر رحب على عادته معي . ولطالما حدثتني النفس ان احوم على هذه المسألة حبًّا بالاب انستاس وعلمهِ وفضلهِ فهو عالم كبير ومن زعماء رجال الدين فلا نرضى له بذلك . وكان يمكن النقد بلا ايلام الشعور . هذه كلمة صديق مخلص فأرجو ان لا تذهب سدى كما ذهب غيرها فاني اغار على الصديق الاب انستاس

وفي مقتطف مقبل تتمة الكلام على الحشرات بلا حذلقة او مداعبة ادبية !

— ١٩ —

أَبُو خَلَسَا (١)

ويقال لهُ (لِسَان الثَّوْر)

عشب معمّر دائم الاخضرار ساقه مستديرة ترتفع ٥٠ سنتيمتراً يكسوها زغب اسود خشن اوراقه مستطيلة الواحدة منها حادة القمة ذات زغب خشن. أزهاره زرق وهو غير النبات المعروف في مصر بلسان الثور (٢)

اسمهُ العلمي (Anchusa officinalis, L.) (آنشوزا اوفيسينالِيس)(٣) وفصيلته الشَّنْجَارية (Boraginaceae) (بوراغيناسية) وبالانجليزية (common bugloss) والفرنسية (buglose ou buglosse officinale) (٤)

شائع في اوربا والشام كنبات للزينة وكان يستعمل قديماً في الطب والآن يستعمل كمليّن وأوراقه عصارية وجذوره غروية يستعان بها في الصين على اظهار طفح الجُدَرِيّ

---

(١) وفي تاج العروس (ابو حلسا بالحاء) المهملة

(٢) واسمه العلمي (Borrago officinalis, L.) (بوراغو اوفيسينالِيس) وبالانجليزية (borage) والفرنسية (bourrache)

(٣) اشتق اسم الجنس آنشوزا من آنخوسا اليونانية ومعناها صبغة

(٤) اشتق اسم (bugloss) الانجليزي و (buglose ou buglosse) الفرنسي من كلمتين يونانيتين (فوس) ومعناها ثور و (غلوسا) ومعناها لسان أي لسان الثور ذلك لان الورقة من هذا النبات طويلة وخشنة كلسان الثور

الشَّنْجَار (١)

بالكسر معرب (شنكار) الفارسية ويقال له ايضاً (خَسُّ الحمار) و (ساق الحمام) و (رِجْل الحَمَامة) و (الحُمَيْرَاء) و (حَنَّاء الغُولَة) و (حَنَّا الغول) و (هُوفيلوس) على ما جاء في تاج العروس وغيره

عشب معمَّر يرتفع الى قدم ونصف الورقة منه أهليلجية الشكل مستطيلة منفرجة القمة وأزهاره ارجوانية

اسمه العلمي (Alkanna tinctoria, Tausch.) (آلقانا تنكتوريا) او (Anchusa tinctoria, L.) (آنشوزا تنكتوريا) من فصيلة لسان الثور وبالانجليزية (dyer's bugloss;) والفرنسية (buglose ou buglosse des teinturiers;)

معروف في مصر والشام وشائع في جنوب اوربا في البقاع الرملية والحجرية حول البحر المتوسط الى بلاد المجر وهو من نباتات الزينة كالسابق . ولاشتمال جذره الاحمر الضارب الى السمرة على صبغ احمر كانوا يستعملونهُ قديماً لتجميل الوجه حين لم تكن الاصباغ الخفيفة معروفة والشنجار يزرع في جنوب فرنسا من اجل جذوره المستعملة صبغاً احمر جميلاً للمراهم والزيوت والشمع وسائر المواد الدهنية وفي تلوين الانبذة الكحولية وغش بعض المركبات حتى تشبه نبيذ اوبورتو المشهور. وثمَّ انواع اخرى من جنس أبي خلسا او لسان الثور نذكر منها ما يأتي :—

(١) (لسان الثور الايطالي) المعروف في الشام (بِذَنَب القِطّ)

واسمهُ العلمي (Anchusa Italica, Retz.) (آنشوزا ايتاليقا)

وبالانجليزية (Italian bugloss) والفرنسية (buglose ou buglosse Italique)

(٢) (الكَحْلاء) في مصر والشام واسمهُ العلمي (Anchusa Milleri, W.) (آنشوزا ميلَري) وبالانجليزية (pink bugloss)

(٣) (الحِمْحِم) في الشام واسمهُ العلمي (Anchusa strigosa, Labill.) (آنشوزا ستريغوزا)

(٤) (الشُّبَيْط) او (الدُّبُّون) في مصر والشام

واسمهُ العلمي (Anchusa aegyptiaca, L.) (آنشوزا إجيبتياقا)

(٥) (الجَدْوَيْن) او (التَّمَلِيق) او (لِسان النَّعْجَة) في مصر والشام

واسمهُ العلمي (Anchusa aggregata, Lehm.) (آنشوزا اغريغاتا)

---

(١) وفي تاج العروس (السنجار) بالسين المهملة ايضاً

أبو ذَنَب (١)

من نباتات السودان ويقال لهُ ايضاً (ذَنَب النَّعجَة)

ضرب من النجيل يعمّر وتكون لهُ خُصَلات كثيفة سوقه دقاق كالاسلاك قد ترتفع الى ٢½ قدم أوراقه ضيقة ليست غزيرة ولهُ سنابل فرادى طول الواحدة منها قدم

اسمهُ العلمي (Ctenium elegans, Kunth.) (استينيوم اليغانس) وفصيلته النجيلية

أبو عَيْن صَفرَاء

ويقال لهُ ايضاً (زَغْلِيل) و (رِمِث) و (رَعْرَاع أيُّوب) نبات مزغّب بشعيرات دقاق بيض يرتفع الى قدم او اكثر ورقه اهليلجية الشكل مستطيلة على نوع ما عديمة العنق طولها ٥ سنتيمترات تقريباً وزهراته مجتمعة في نورات صفر كل واحدة منها مستديرة

اسمهُ العلمي (Pulicaria vulgaris, Gaertn.) (پوليقاريا ولغاريس) وفصيلته المركَّبة وبالانجليزية (small fleawort)

شائع في مصر والسودان ويقال انهُ طارد للبراغيث والبعوض

أَبُو رُكَب

عشبٌ معروف بهذا الاسم في السودان ويقال لهُ فيهِ أيضاً (ذَنَب العَبْلاَنِي) و(فاكهة) و (نَعْنَاعَة) و (عِرْق الأَسَدَة) و (عِرْق الدَّم) وفي الشام (نُعَيْم) ساقهُ خشبية . أوراقهُ إهليلجية الشكل متقابلة . يتراوح طول الواحدة منها بين ٥ سنتيمترات و ٧ وزهراته مجتمعة في سنابل بسيطة عادة يتراوح طول الواحدة منها بين ٥ سنتيمترات و ٤٠ وثمرته منحنية شائكة على نوعٍ ما

اسمهُ العلمي (Achyranthes aspera, L.) (أشيرانثيس آسبرا) وفصيلتهُ الأمرنتية أو أو فصيلة عرف الديك (Amarantaceae) (امرانتاسية) وبالانجليزية (rough achyranthes)

شائع في السودان ومصر والشام وأهل السودان يضعون الجذر منهُ بعد مضغه على الجراح لالتئامها

أَبُو جَاوِي

شجيرة شائكة معروفة بهذا الاسم في السودان أوراقها إما متقابلة أو تكون كل ثلاث أو أربع

(١) هذا النبات وغيره مما سنذكره خاصاً بالسودان قد رجعنا فيه الى ما جاء في كتاب (برون وماسي) عن نباتات السودان بتصرف

منها مجتمعة معاً الواحدة بيضية الشكل طولها ١٥ سنتيمتراً وأزهارها فرادى طرفية بيض اللون أو صفر وثمرتها بيضية الشكل أو كرية طولها ١٠ سنتيمترات

اسمها العلمي (Gardenia lutea, Fresen.) (غارديَنيا لوتيا) وفصيلتها الفوّية

وأهل السودان يتعاطون الماء الناشيء عن جذورها بعد الغليان مع دقيق الذرة دواء لحمى البول الاسود المعروف وخشبها صلب صفيق أصفر اللون فاتح تصنع منهُ مقابض للسكاكين وقد تنتج الشجيرة راتينجاً عطراً يستعمله العرب هناك في بعض شؤونهم وثمرتها معروفة هناك في تسمم السمك

أبُو فاس

نبات سوداني معروف بهذا الاسم ساقه مزغبة بشعيرات طوال مختلطة بأخرى منتهية بغدد ورقتهُ بيضية الشكل ضيقة من طرفيها طولها ٧ سنتيمترات تقريباً

اسمهُ العلمي (Hypoestes verticillaris, R. Br.) (هيبوستيس ورتيسيلاريس) وفصيلته الشوكيّة (Acanthaceae) (اكانثاسية) وتستعمل جذوره صبغة للحصر في السودان

أبُو عُلَيْبَة

عشب سوداني كالسابق تلتف ساقه . ورقته ذات خمسة فصوص إهليلجية مستطيلة يتفاوت طولها بين ٥ سنتيمترات و ٧ وأزهاره إما فرادى أو كل ثلاث معاً صفر اللون تقريباً وثمرتهُ حق كريّ الشكل فيهِ اربع بذور برتقالية اللون

اسمهُ العلمي (Ipomoea dasysperma, Jacq.) (ايبوميا داسيسبرما) وفصيلته المحمودية او اللاّفة (Convolvulaceae) (كونولولاسية)

أبُو دَجْلول

شجرة كبيرة معروفة بهذا الاسم في السودان ويقال لها فيهِ ايضاً (أمّ دَجْلُول) و (جُلْجُل) و (زيتون) و (قُرَيْن)

الورقة منها ملساء مركبة من خمس وريقات الواحدة منها بيضية الشكل كالأسفين ذات عنق ظاهر طولها ١٥ سنتيمتراً تقريباً وأزهاره صغار تضرب الى الصفرة في نورات الواحدة منها كثيفة إبطية ذات عنق طويل وثمرتها في حجم الكرزة

اسمها العلمي (Vitex Cienkowskii, Kotschy & Peyr.) (ويتقس سينكوسكاي) وفصيلتها القرينية (Verbenaceae) (فربيناسية)

والخشب من هذه الشجرة أبيض اللون خفيف وثمرتها تؤكل ويقال إنهُ قد يستعاض بها عن الشاي اذا حُمّست

حب المرأة

الى الخيام ، العاقل الالهي
الذي تسكب رباعياته في النفس
النشوة الجذوبة المذهلة التي لا تنتهي
نشوة الله والخمرة والمرأة ...

آه ! يازهرة السدر ، ايتها الزهرة المطبقة ،
أين — يا ترى — تقيم تلك المحبوبة التي يجب عليّ
أن اسعى اليها بدموعي وحبي ؟

أهي شقراء ، ام سمراء ؟
وهي طائفة تحت شعاع القمر السحري
بم عساها تحلم الآن
بعيدة عن حبيبها الذي لايزال في اطواء الغد ؟

أصغي يانفسي !
هذه هي اللحظة التي يتنهد فيها القمر السابح في السماء ،
بأغنية رقيقة كأغنية شبّابة تعول وتبكي !

قبل ان يهتك الموت — ذو السر القلق ،
ستار الاسرار التي عمّاها الله على اهل الارض ،
أحيي يانفس ! ولا تسألي عن مصدر وجودك
ولا تحفلي بما ينتظرك في اعماق المجهول !

لم يؤثر عن الغزالي شعر ولم يعرف عنه انه نظم رباعيات ولكن الشاعر الفرنسي استطاع ان يقدم لنا كأساً معتقة من فيوض صوفية الغزالي ممزوجة من كرمتي الخيام والشيرازي وقد شعت عليها اضواء خاطفة من نشيد الاناشيد

وفي انذهال الليالي الساكنات الساجيات
في حرارتها ، وفي نحولها
وتحت شعاع القمر الذي فضّض النخيل
زهرة صدر تتفتق !

تقبلي قبلتي من فم الازهار !
هذه الازهار ، أزجيها الى شفتيك الورديتين ...
تقص عليك همومي الممتزجة بضئيل من الفرح .
وانهلي نداها وانت تذكرين الدموع .

قربي صدرك ، وخدك الملتهب
من انفاس ليالي الصيف ،
فاني قد سكبت روحي في الليل
لتمتزج بجمالك !

لا لذة تبلغ لذة الحب .
ولا حرارة ملتهبة تشبه هذه الحرارة
ولا ثمرة طيبة تستطيع ان تهدىء ثورة شفتي .
وهي تذوب كشفتك حين تلاقي شفتي .

ان شعاع القمر كتنهدة من تنهدات الليل .
كم من تنهدة في قلبي الذي يضطرب !
وفي قلبك تتذوقين لذة اتحادنا معاً
مع التنهدة التي لا تنتهي تنهدة السماء المضيئة .

لنتحاب ولنحلم !
فانا لانجد دائماً ازاء اعيننا هذه السماء الرقيقة .
والاموات لن يروا ابداً هذه الليلة اللطيفة الزاهية
التي تمسنا بلين وتزيد هوانا رقة وحنانا

لألىء ثغرك ، وزرقة عينيك
تتركني أبارك — حين تنهتك عنك الحجب —
أبارك هذا الصانع الالهي الذي نثر على بساط السماء
هذه الازرار الساطعة الماسية من النجوم

بكأس من الخمر ، وحبات من التمر
وبساط من الزهر ، وبثغر الحبيبة الجميل ،
وعينيها اللتين أنعسهما التحول
أحس — يا الهي — قبلتك في قلبي !

خيام ! في غرفتي الموصدة دون جميع اصوات العالم .
آه ما اعذب — بالقرب من المحبوبة —
لألاء القمر يفيض من اياتك !

تآخي ياروحي مع الكواكب المذهبة
ومع الارواح التي تلتهب في الليل الذي لا ينتهي .
التهبي مثلها واخفقي ، أحبي وتألمي . أحبي ايضاً .
وبالفجر والليالي السامية أحدي !

ترنيمة الليل الهادئة الهائمة
تنحدر على المدينة الساكنة
وكل نأمة، وكل لجية حولنا تسكن، لتسمع هذه الترنيمة بوضوح .
ولكن اغنية عينيك أكثر من ترنيمة الليل رقة وحناناً .

اشرب ياقمر الحب بكأس عقيقية حمراء !
فان قمر السماء سيشرق بعدنا كثيراً على هذه الرياض
التي رأت ألف ربيع وربيع .
يشرق دون ان يجدنا في مثل هذه الليلة .

جسدك الجميل المضمخ بالطيوب الغالية ،
يخنق فؤادي في فضاء من العطور . . . .

ايها النجوم ! ياموسيقى السماء :
إن اغنيتك ترن رنات السكون .
وتتحد مع فكرتي حال استسلامي للأحلام
على هذه الا مواج حيث القمر يبرز متهادياً !

أتحلمين حينما تطأ قدماك التراب ،
بأنك واطئة ماكان من قبل عيناً كحلاء لعاشقة طالما ضحك النور فيها .
أو ثغراً زاهياً رنَّ فيه صوت .

جمجمتك حيث تخطر الآن اهواؤك بكبرياء
ويرح ايمانك وكبر فكرك .
قد تعتريها قدم عاشق ، مبعداً فمه عنك اشمئزازاً ونفوراً .

وإذا كان — لا بد لك غداً — بأن تغدي بين الموتى .
فاتركي نفسك وعنقك يسكران من الجمال .
وتأملي هذا العشب الجديد كيف يهتز للحياة
قبل أن يرى في جسدك الفاسد غذاءه !

ايتها الغواني اللواتي يحطمن كبرياء العتاة !
وينتزعن من الدموع بقوة جمالهن .
أية اسرار فيكن تجعلنا شاحبي الوجوه
وتتركنا في لحظات حبنا نتمنى الموت .

عيونكن تنفتح لي عن فردوس قاتم ،
عن فردوس بعيد يخط فيه حلمي في المساء

سارحاً بين أزهاره ونجومه .
دون أن يستجلي فيها ذلك السر الذي تنطوي عليه .

اضواء القمر الزرق كم ذهل في اسرارها كثيرون من العاشقين !
كم ليالٍ مقبلة ، وعلى عظامنا ، هذه الاشعة ذاتها ستذهل الارض

شعرك الذهبي الكثيف المطيب بالمسك .
المتدلي كالعناقيد على قدميك العاجيتين
جاعلاً بدنك ناعماً لامعاً اكثر اشراقاً من عسجد ،
تظلله في المساء سماء ذهبية تتلألأ فيها خيوط الشفق النادي .

اشعة ، او خطوط ، او الوان . كل ايقاع هو عيد .
انا تلك النفس التي تستطيع ان يغفيها جمال نظرة
وتشعر بموتها اذا لمعت عليها لمعة مجرمة من الجمال الكامل

ان الروض اللازوردي الكبير يريد ان يتفتح في الليل .
ياحبيبي تعال نرى — بعيداً عن الناس — القمر برداء ملكة يتهادى الينا .
وفي هذا الروض الازرق تتفتح النجوم .

ان عيون من احببت :
عيون طافحة بالاحلام للمحب .
هذه العيون التي تبسم له بحنان ستلاقي فسادها .

كل اولئك الموتى مضطجعون على ظهورهم
يأكلهم دود الثرى متمهلاً . . .
وهم يرشفون هول الظلمات
بتلك العيون المتفتحة ، المحدقة كثيراً .

هنالك رجال ما أرق انفسهم ! لانهم صانوا في قلوبهم
رقة تركتها فيهم قبلة امرأة . . .

وعشاق قليلون تبلغ سعادتهم هذه الغاية ،
يحتضنهم الشفق الساطع الملتهب .

ان عندليباً يئن في ظلال نفسي
باكياً لذكرى ليالٍ قديمة في الصيف
وذكرى وردة كان جمالها المتوقد ، يسطع في الروض كالشعلة .

ولو ان الموت حال بيني وبينك فاني اراك بلا انقطاع .
واراك في كل مكان ورائي
وكنجمة ميتة تصفرُّ لها الليالي تمكس عليّ النور عينا امرأة هالكة .

كم من ايام بعدنا تزهر فيها هذه الاعواد البيض من زنبق
الليل وورد الفجر !
ما كنت لابغض الوجود قبل أن ازل فيه
فكيف ابغضهُ بعد ان اتوارى في المجهول ؟

بلى ! كل شيء باطل ، يموت ويبيد .
ان قصر هذا الوجود مشيّد على رمل !
والماضي والآتي هما هوتان قائمتان في كل الجوانب .
وهذا الحلم الذي يعود الناظرين هو الذي يجمل عيونهم شرسة

قد يكون التأمل في بعض الخطرات في غير موضعه
وقد يقودنا الى طريق وعر
ألا فتأمل — في وجه القمر — بعين الحب .
فقد يكون تأملك هذا — على الاقل — عيد عينيك !

هذه الاكاذيب التي تغرينا بالحياة
وتجعلنا نصفح عن هذا العالم المجنون

أحبها — وأحب معها الموسيقى والشعر والحب ،
وهذه السماء الرقيقة التي تذهل فيها النفس

لنفسي ، ولعينيَّ ، قدِّمي ثانيةً ضئيلاً من الطرب !
وافتحي حجبك البيض ، واتركي روحي الشقية التي
ترغب في الهدوء تستريح ، على صدرك الناعم الشاحب .

جسدك الناعم كالجين ، وعيناك هما لازورديتان .
يفوح عبير الياسمين من شفتيك الذابلتين . . . .
واذا شدوت أغنيتكِ في الليل فكأن كوكباً يتوارى في جمالك الساطع .

قامتك كالسرو ، وعينك كالصبح صفاء . وخدك كالورد .
أريد ان أدري : لماذا القدر العابث بالكائنات ،
أبقاني حيًّا ثم أضواني ؟

عيناي ذاهلتان بوجهك المشرق
وكواكب عينك وورد بشرتك .
قد يكون الفناء كامناً تحتها ،
وما همي ؟ اذا كان الجسد صافياً عزيزاً عليّ !

أيها القمر ! انك انت القيثارة الفضية الرقيقة ،
وأشعتك البيضاء أوتارها .
يا السمي : أنت توقع عليها برقة مع قلبي الكئيب الحائل .

عند ما يرخي الليل علينا ذوائبه الطويلة المرصعة بالنجوم والياقوت
أرخي أنتِ علينا غدائرك مثله ، وأزيحي هذه النقب
ودعي جبيني مسنداً على ركبتيك دون ان تتكلمي !

قد يمكن ان نحب دون ايمان بمن نحب !

انني أعبد الجمال الذي أحس فناءه .
وأخيراً علمت بطلانهُ ، بطلان ما كنت أعبده حين أبدعتهُ .

جمالك الخادع هو كالفرسة التي تمشّي السم في اثناء عروقها الرقيقة
ان رغبات قلقة تجول في عينك الصافية
كتلك الزواحف التي تنساب في بطون الغدران الزرقاء .

اجيل ناظري فيها ،
فاذكر البحر الجاني . . .
يتلقف الماردين والموتى جوفهُ
وهو — في الظاهر — ذو ضحكة صافية رنانة!

لكي يذيب جسدك، ويقتل نفسك
يعرف الموت ان يستولي على وجه امرأة
بعينين واسعتين صافيتين كالزهر تلثمين العين الغادرة التي تموتين بها

ايها القمر ! يا رأس ميتة تنير الليالي،
انت جئتنا تعلمنا ان كل شيء كاذب .
ايها القمر الذي تجعل السماء اكثر حناناً حين تنير حيناً ،
وتجعل احلامنا احلاماً آلهية

كل شكل في هذا الوجود هو بغير حقيقة
ومظاهرهُ ليست بثابتة
وانك ، وانت محيط قلبك بهذه الحقيقة
تستطيع ان تستنقذ نفسك من القلق الذي تخلقهُ هذه المظاهر

— يتلوه الحب الصوفي — « خليل هنداوي »



أوشكت بريطانيا وإيطاليا من سنتين ان تخوضا غمار حرب في البحر المتوسط ، ومنذ نشبت الحرب الاهلية الاسبانية زادت المشكلات التي تتصل بهذا البحر تعقداً وغموضاً . ومع انهُ من الحق محاولة التنبؤ بما يقع في المستقبل الا ّ أن درس تاريخ المشكلة وتحليل عناصرها الاساسية يلقي ضوءاً على الحالة الحاضرة ويساعد على فهمها

من الحقائق المسلم بها شدة اهتمام انكلترا باقصر طريق بحري الى امبراطوريتها الاسيوية ، منذ فتح ترعة السويس واحتلال انكلترا لمصر فلا حاجة بنا الى التوسع في هذه الناحية من الموضوع الآن . ولكن لا بدّ من كلمة في الاعتبارات التي أملت على الحكومة البريطانية خطتها في حماية هذه الطريق . فقد كانت انكلترا تخشى روسيا اكثر من خشيتها اية دولة اوربية أخرى في بضع السنوات التي تلت شقّ الترعة . وكان همّ دزرائيلي متجهاً إلى صدّ روسيا عن التقدم في البلقان والقوقاس . فلما انفرجت ازمة سنة ١٨٧٨ كانت انكلترا محتلة قبرص . وكان الظن أن الغرض من هذا الاحتلال استعمال هذه الجزيرة قاعدة يعتمد عليها في مقاومة روسيا اذا حاولت التوسع جنوباً من طريق الاناضول أو عن طريق البحر . ثم أطلق لورد سلسبوري يد فرنسا في تونس وهذا يدلُّ على ان انكلترا لم يخطر لها قيام عداء انكليزي فرنسي . فلما احتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ وشرعت تناوىء بريطانيا كان الباعث على مناوئتها الظهور بمظهر الدولة القوية المهوبة ، ولم يدر حينئذ في بال الفرنسيين أن لتونس مكانة عسكرية تذكر

ولم ينشأ التنافس بين انكلترا وفرنسا في البحر المتوسط الا ّ بعد ما احتلَّت انكلترا مصر . ومع ذلك ظلّ الانكليز ينظرون في العقد التاسع من القرن الماضي الى مناوأة الفرنسيين لهم مستخفين بها . في ذلك العهد كان الايطاليون يخشون فرنسا فتعلقوا بأذيال انكلترا وعلى ذلك عقدت المواثيق الخاصة بالبحر المتوسط في سنة ١٨٨٧ بين انكلترا وايطاليا ثم انضمت

(*) مجلة الشؤون الخارجية عدد يوليو سنة ١٩٣٧

اليها النمسا والمجر وكان ذلك بمساعدة بسمارك وتشجيعهِ . واهم ما في هذه المواثيق مما يخص البحر المتوسط الاتفاق على الاحتفاظ بالحالة الراهنة في ذلك البحر والحيلولة دون اتساع سلطة فرنسا في شمال افريقية. ومن المؤكد أنهُ لو حاولت فرنسا حينئذٍ ان تتجاهل مغزى هذا الاتفاق لواجهت قوات ايطاليا وانكلترا مجتمعةً

فلما عقدت المحالفة الفرنسية الروسية (١٨٩١ — ١٨٩٣) كان عقدها على الغالب ردًّا على اتفاقات البحر المتوسط التي اشتركت فيها بريطانيا وايطاليا وامبراطورية النمسا والمجر . ولما زار اسطول روسي ثغر طولون في شهر اكتوبر من سنة ١٨٩٣ أدرك الانكليز مغزى الزيارة . وكان لهم في البحر المتوسط أسطول قوي مرتكزاً على مالطة . ولكن الاسطول الفرنسي في طولون لم يكن دونهُ عدداً والراجح انهُ كان يفوقهُ قوةً . وكانت فرنسا حينئذٍ على وشك انجاز التحصينات القوية في بزرته . وباستناد قواتها الى بزرته وطولون أصبح غرب البحر المتوسط في قبضتها تقريباً . وعلاوة على ذلك كان لروسيا أسطول لا بأس بهِ في البحر الاسود وكان في استطاعتهِ ان يصل الى شرق البحر المتوسط من دون ان يخشى الاتراك . ففي حالة نشوب حرب ، كان يخشى على الاسطول البريطاني ان يقع بين حجري الرحى في الوسط وليس لهُ عون الآ اسطول ايطاليا . فسرى الذعر في نفوس البريطانيين في سنة ١٨٩٣ — ١٨٩٤ وعني خبراؤهم بدراسة المشكلة من جميع وجوهها . حالة ان جوزف تشمبرلين والد رئيس الوزارة البريطانية الحالية صرح في مجلس النواب انهُ في حالة نشوب حرب لا يبقى أمام الاسطول البريطاني الآ الفرار اذا كان يستطيع الفرار . وكان من رأي سياسيين آخرين مثل دلك Dilke وبراسي Brassy بعد ان رأيا عجز الاسطول البريطاني عن حماية السفن البريطانية ان تسجل السفن البريطانية في سجلات دول أخرى وترفع علماً غير بريطاني وكان جل أملهما معقوداً على ان لا تحسب المواد الغذائية من المواد الممنوعة في الحرب Contraband

وكانت النتيجة أن أقبلت انكلترا على تعزيز أسطولها ببناء سفن حربية جديدة وسعى لورد روزبري الى تعزيز اتفاقات البحر المتوسط المعقودة مع ايطاليا والنمسا والمجر بحمل المانيا على تأييدها . ومن حسن حظ الانكليز ان أنظار الروس اتجهت الى الشرق الاقصى ، فلما اشتدَّ النزاع بين فرنسا وانكلترا على مسألة فاشودة في سنة ١٨٩٨ أحسَّت فرنسا ، وقد تخلت عنها صديقتها روسيا وأقضها النزاع الداخلي الدائر حول قضية دريفوس، أن لا قبل لها بمقاومة بريطانيا فمال ديلكاسه الى الاتفاق وكذلك تعززت هيبة بريطانيا البحرية

كان ديلكاسه في تلك الآونة يسعى الى التفاهم مع انكلترا بصرف النظر عن حادثة فاشودة نفسها . وكان أملهُ ان يعقد اتفاق بين انكلترا وروسيا سعياً منهُ الى اضعاف المحالفة

الثلاثية بين المانيا وايطاليا وامبراطورية النمسا والمجر . فاستمال السفير الفرنسي في روما — كلود باريرــ الحكومة الايطالية باطلاق يدها في طرابلس مقابل اطلاق يد فرنسا في مراكش . وكانت الحكومة الاسبانية قدخرجت ضعيفة من الحرب الاسبانية الاميركية ، وكانت تخشى خسارة جزائر كناري اوجزائر البليار ، اذ كان الزعم ان المانيا تنوي الفوز بها اذا استطاعت . فعرضت باريس على مدريد عقد اتفاق تنال بمقتضاه نصيباً من مراكش . ولكن اسبانيا لم تقدم على عقداي اتفاق من دون موافقة لندن . فوجب على دبلكاسه الاتفاق مع انكلترا فكان ذلك الباعث على عقد الاتفاق المشهور سنة ١٩٠٤ وأساسهُ تخلي فرنسا عن مطالبها في مصر مقابل تخلي انكلترا عن مقاومة السياسة الفرنسية في المغرب الاقصى

وكان من الطبيعي ان تشتمل المفاوضات لعقد هذا الاتفاق على دراسة مشكلة البحر المتوسط بحذافيرها . فالخطة البريطانية في ما يتعلّق بالمغرب الاقصى كانت قائمة على ان كلّ اعتداء على ساحل المغرب الاقصى الذي على البحر المتوسط يجب ان يقاوم بالقوة . وكان دبلكاسه يخشى المانيا ويرغب في الوصول الى الاتفاق المنشود فقطع العهود اللازمة بل تمادى فاقترح اتفاقاً يحبط بمقتضاهُ على كل مسعى تبذلهُ المانيا للفوز بجزائر البليار ؛ فلم تقبل انكلترا هذا الاقتراح ، بل انطوى الاتفاق النهائي على الامتناع عن اقامة اي حصون على ساحل المغرب بين مليلة وطنجة وان تجعل طنجة منطقة محايدة . فلما عقدت اسبانيا اتفاقها مع فرنسا على مراكش قبلت العهود التي قطعتها فرنسا لانكلترا في موضوع التحصينات الساحلية . وكانت انكلترا قد اتفقت مع اسبانيا على الامتناع عن تحصين « الجزيرة » Algeciras المتاوحة لجبل طارق على الساحل الاسباني الجنوبي وكذلك فازت انكلترا بكل ما يلزم لضمان حرية مضيق جبل طارق

ولما كانت قوة فرنسا وانكلترا البحرية في البحر المتوسط على جانب عظيم من المنعة والقوة ، اضطرّت ايطاليا واسبانيا ان توثق صلاتهما بالاتفاق الودّي . نعم ان ايطاليا ظلت على صلة بحليفتيها المانيا والنمسا ، ولكن اسبانيا والبرتوغال كانتا من اتباع فرنسا وانكلترا . فلما وقعت ازمة ١٩٠٥ وبدأ خطر التوسع الالماني ، اصبحت انكلترا تنتزع من كل وزير خارجية برتوغالي وعداً بان لا تمنح البرتوغال لالمانيا مرفأً حربياً او محطة تجارية في جزائر « مديرا » او « الازور » . وفي سنة ١٩٠٧ تبادلت مدريد مع باريس ولندن ما يطمئن تينك الدولتين على الاحتفاظ بجزائر كناري وجزائر البليار لاسبانيا

وقد ظلت الحالة بغير تبديل من تلك السنة الى سنة ١٩١٢ على الرغم من ازمة اغادير . ولكن حرب ايطاليا وتركيا (١٩١١) ادخلت عنصراً اساسياً على مشكلة البحر المتوسط . ذلك ان احتلال ايطاليا لطرابلس اتاح لايطاليا قاعدة بحرية كبيرة الشأن في طبروق . وكان اهم من

ذلك احتلالها جزائر الدوديكانيز في مايو سنة ١٩١٢ لانه جعلها على مقربة من سواحل الاناضول ومكنها من قاعدة متوسطة بين مالطة والاستانة وترعة السويس . فاحدث هذا الاحتلال موجة من الغضب في باريس ولندن . فالفرنسيون خشوا ان يكون الايطاليون يعدّون عدّتهم لتحدّي مقامهم الاقتصادي والثقافي في الشرق الادنى. والانكليز اقلقتهم الناحية الحربية البحرية من الموضوع . فقد رفعت الاميرالية البريطانية مذكرة في سنة ١٩١٢ قالت فيها ان السلطات البحرية الانكليزية جرت على خطة اساسها ان لا يسمح لدولة ما ان تنشىء قاعدة بحرية تبعد اقل من الف ميل عن مدخل ترعة السويس اي الى الشرق من مالطة

وقد زاد هذه الحالة خطراً في نظر انكلترا وفرنسا طروء عوامل اخرى . فزيادة قوة المانيا البحرية اقتضى من انكلترا ان تسحب من البحر المتوسط معظم اسطولها في سنة ١٩١٢ لتعزيز اسطول البحر الشمالي . حالة ان فرنسا اضطرت ان تعبىء معظم اسطولها في مياهها الجنوبية لمواجهة قوات ايطاليا وامبراطورية النمسا والمجر. وقد كانت قوات فرنسا البحرية متفوقة قليلاً على قوات ايطاليا والنمسا مجتمعة مع ان هذه القوات كانت تحتوي على وحدات احدث طرازاً واقوى مدافع من الاسطول الفرنسي . وهذا حدا بديلكاسه في سنة ١٩١٢ الى وضع برنامج انشاء بحري واسع النطاق ووعدت انكلترا بابقاء اربعة طرادات خفيفة في البحر المتوسط وبأن تبعث ببضعة دريدنوطات حالما يتاح لها ذلك . وكان اعظم ما تخشاه لندن وباريس ان يسلم الايطاليون للالمان قاعدة بحرية على ساحل طرابلس او في الدوديكانيز . او ان تنتقي بعض الدول اثر ايطاليا فتتخذ لنفسها قواعد بحرية في شرق البحر . ولذلك قال سفير بريطانيا في مدريد «عندما تملك ايطاليا قاعدة بحرية في شرق البحر المتوسط يصبح الحلف الثلاثي سيد تلك السواحل »

فكيف تواجه هذه الحالة ؟ اقترح بول كامبون سفير فرنسا في لندن اولاً ان يفتح البوسفور والدردنيل للاسطول الروسي في البحر الاسود . فلم يقع هذا الاقتراح موقعاً حسناً عند اولي الامر . ثم شرعت فرنسا وانكلترا تبحثان في امكان عقد اتفاق مع ايطاليا على اساس الاحتفاظ بالحالة الراهنة في البحر المتوسط اجتناباً للمفاجآت ومنعاً لايطاليا من ان تتمادى في الارتماء في احضان المانيا والنمسا . وأيد غراي وزير خارجية انكلترا هذه الخطة . وساعده في ذلك سفيرا فرنسا في لندن وروما . فلما عقد الصلح بين تركيا وايطاليا في اكتوبر سنة ١٩١٢ بدأت المفاوضات ولكنها لم تسفر عن اي اتفاق. لان ايطاليا طلبت ان تستبقي جزيرة او جزيرتين من جزائر الدوديكانيز ، وفرنسا وانكلترا اصرتا على اخلائها جميعاً . وظلت المفاوضات في هذا الموضوع دائرة حتى مستهل الحرب الكبرى . نعم كانت ايطاليا قد تعهدت في صلحها مع تركيا بأن تخلي الجزائر متى اتمت تركيا اخلاء طرابلس . ولكنها لم تفعل على الرغم من

مساعي لندن وباريس ، حتى اضطر غراي ان يقول للسفير الايطالي « ان ايطاليا اعتدت في السنتين الاخيرتين على مصالح بريطانيا اكثر من اية دولتين اوربيتين أخريين »

وكانت نتيجة كل ذلك ان عادت ايطاليا الى حضن صاحبتيها المانيا والنمسا . وفي نوفمبر سنة ١٩١٢ انشأت المانيا لاول مرة في تاريخها البحري اسطولاً صغيراً في البحر المتوسط قوامه طراد القتال «غوبين» وسبعة طرادات صغيرة . فكان ذلك باعثاً على الظن بأن الحلف الثلاثي الذي تجدد في دسمبر سنة ١٩١٢ اخذ يوسع نطاق عمله حتى يشمل شرق البحر المتوسط

فلما رأت دولتا الاتفاق الودّي ان توازن القوى في البحر المتوسط دقيق رجّبتا بعون اسبانيا . وقد دلت الوثائق الفرنسية الرسمية التي نشرت حديثاً على رغبة الملك الفونسو في الانضمام الى الاتفاق الثلاثي فبذل مساعي متواصلة لتحقيق هذا الغرض واكد غير مرّة للفريقين بأنهُ إذا نشبت حرب أوربية فيجب الاّ يساورهم قلق ما من ناحية جبال البرينيه .ثم بيّن المسيو بوانكاره بأنهُ اذا كانت أسبانيا متحالفة مع فرنسا فلفرنسا ان تستعمل ثغور اسبانيا في شبه الجزيرة وفي جزائر البليار بل وسكك الحديد الاسبانية من الجنوب الى الشمال لنقل الجنود .ومع ان بوانكاره لم يتقيد بقيود واسعة النطاق الاّ انهُ استوثق من صداقة اسبانيا ومعاونتها في حالة نشوب حرب

فلما نشبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ أعلنت اسبانيا وايطاليا حيادهما .وقد احتفظت اسبانيا بحيادها الى آخر الحرب على الرغم من أن الشعور الغالب على الامة كان شعور تأييد «للحلفاء». أما ايطاليا فان حيادها مهما يكن سببهُ وسواءٌ أكان لكره الايطاليين للنمسويين أم لعدم استعدادها للحرب ، كان نعمة على فرنسا وانكلترا ، لأنهُ احبط الاتفاق الذي وضعتهُ دول الحلف الثلاثي في نوفمبر سنة ١٩١٣ لمهاجمة سفن النقل الفرنسية السائرة من الجزائر الى جنوب فرنسا .ويكفينا ان نراجع ما احدثتهُ الدراعتان الالمانيتان « غوبين » « وبرسلو» من المتاعب للحلفاء في البحر المتوسط ، في أوائل الحرب ، لكي ندرك مدى تأثير ايطاليا في عرقلة خطوط المواصلات الفرنسية لو أنها انضمت حالاً الى المانيا واستعملت قوتها البحرية في تنفيذ الاتفاق المذكور . إذن لتأخر وصول الجيش الفرنسي التاسع عشر عن الوصول الى اوربا في وقت الحاجة اليه . وقد كانت قوات ايطاليا والنمسا والمانيا البحرية متفوقة قليلاً على قوات فرنسا وانكلترا في بدء الحرب ثم زاد تفوقها قليلاً في مايو ١٩١٥ (اذا صرفنا النظر عن القوات البحرية المحتشدة امام الدردنيل . ومما يدلك على مبلغ رغبة الحلفاء في سنة ١٩١٥ في اقناع ايطاليا بالانضمام اليهم ان جزائر الدوديكانيز منحت لايطاليا في معاهدة لندن السرية مع ان دومرج سمع من شفتي غراي قبيل الحرب قولهُ : « يجب على الايطاليين ان يعيدوا الجزائر .يجب الاّ يحتفظوا بها . وانَّا لن نسلّم بذلك »

فلما انضمَّت ايطاليا للحلفاء انتهى الامر ، وعلى الرغم من اعمال الغواصات في البحر

المتوسط ، كانت السيادة للحلفاء فيه واستطاعت فرنسا ان تبقي مواصلاتها مع شمال افريقية حرّة

وكذلك ظهر من معالجة هذا الموضوع في اثناء الحرب ، انهُ اذا اتفقت انكلترا وفرنسا اغرى اتفاقهما بانضمام الدول الاخرى اليهما وان ايطاليا كانت عاملاً حاسماً في الموضوع، ولكن الثمن الذي اقتضتهُ كان باهظاً

في الفترة التي تلت انتهاء الحرب الكبرى مباشرة ، زالت النمسا والمجر من حساب الدول البحرية في البحر المتوسط . ولكن ذلك جعل البحر الادرياتيك بحيرة ايطالية تقريباً، ومكن ايطاليا من ان توجه عنايتها الى البحر المتوسط نفسه. وقد بذلت مساع متعددة بين (١٩١٩— ١٩٢٢) لحمل ايطاليا على التنازل عن جزائر الدوديكانيز فاخفقت فلما عقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ اعترف لايطاليا بسيادتها على تلك الجزائر. وفي خلال ذلك كان موسوليني قد قبض على ازمة الحكم في ايطاليا فاوضح بما لا يدع مجالاً للبس انهُ ينوي ان يسعى الى تحقيق آمال ايطاليا في البحر المتوسط . وكذلك تحوّلت عبارة « ماري نوستروم » اي « بحرنا » من حلم الى خطة وبرنامج

وما لبث موسوليني حتى بدأ يغازل أسبانيا . فالدكتاتور بريمو ده ريفيرا كان يكره ان يكون جبل طارق لدولة أجنبية . فنقرت ايطاليا على هذا الوتر الحساس . وفي سنة ١٩٢٣ زار الملك الفونسو ايطاليا ثم ردّ الملك فكتور عمانوئيل الزيارة في السنة التالية . وعقدت معاهدة صداقة بين الدولتين في أغسطس سنة ١٩٢٦ وشرعتا تسعيان معاً لاضعاف مقام فرنسا المتفوق في طنجة. ولا يعلم هل عقد اتفاق سري منحت به ايطاليا حق استعمال جزائر البليار في أثناء حرب، ولكن من الثابت ان القول بنية أسبانيا أن تحفر نفقاً تحت مضيق جبل طارق أحدث هزة في فرنسا ومن المرجح ان سقوط الدكتاتور الاسباني لم يكن باعث أسى وحزن في باريس . ومنذ ذلك الحين عنيت فرنسا بحشد معظم قوتها البحرية في البحر المتوسط، وقد كان موضوع المساواة بينها وبين ايطاليا في القوة البحرية ، من أعقد المشكلات التي قامت بعد نهضة ايطاليا الحديثة

فلما وقعت الازمة الحبشية سنة (١٩٣٥ — ١٩٣٦) ظهر للعيان ما طرأ على البحر المتوسط من تحوّل أساسيّ في شؤونه بعد الحرب . فقد اتسع نطاق المصالح الفرنسية والبريطانية في شرقه وفي الشرق الاقصى اتساعاً عظيماً . وأصبح نقل النفط فيه اليهما من أهم المسائل التي تسترعي عنايتهما . فبريطانيا تجيء بثلاثة أرباع حاجتها منهُ من جزائر الهند الشرقية الهولندية وايران والعراق ورومانيا حالة ان فرنسا تجيء بنصف حاجتها منهُ من العراق . وهذه الشحنات تجيء عادة عن طريق البحر المتوسط ، فنفط العراق يدفع في الانابيب الى حيفا وطرابلس قرب بيروت . وهذا علاوة على ما لفرنسا وانكلترا من مهام الدفاع في سوريا وفلسطين وشرق الاردن ومصر والعراق. ويضاف الى ما تقدم ان بريطانيا جعلت شرق البحر المتوسط عقدة رئيسية في

شبكة مواصلاتها الامبراطورية الجوية . وفرنسا اصبحت اشد اعتماداً مما كانت على امبراطوريتها الافريقية ومستعمراتها الافريقية لتجنيد اشدائها حالة ان ثلث جيشها في اثناء السلم مقيم في افريقية ونقله الى فرنسا عند نشوب حرب اوربية مسألة موت وحياة في نظرها

وكذلك يرى القارىء ان مصالح فرنسا وانكلترا السياسية والاقتصادية والتجارية في البحر المتوسط اصبحت أعظم شأناً مما كانت من عشرين سنة . ثم ان الاسلحة الحديثة ولا سيما الطيارات، قد احدثت تغيراً اساسيًّا في الموضوع من وجهته الحربية . فالطيارات الحربية من مقاتلة ومطاردة وقاذفة للقنابل جعلت البحر المتوسط مجازاً ضيقاً لانها تطير بسرعات تتفاوت من ٢٠٠ ميل الى ٢٥٠ ميلاً في الساعة (بل اكثر من ذلك) وهذا جعل للدول القائمة على سواحله كايطاليا واسبانيا امتيازاً حربيًّا عظيماً ، وقلل من شأن جبل طارق ومالطة ، اللذين اختيرا لمكانتهما البحرية

وغني عن البيان كيف روّعت انكلترا في سنة ١٩٣٥ عند ما اشتدت الازمة الحبشية ، فاضطرت أن ترسل على وجه الاستعجال وحدات اسطولها البحري ومئات من طياراتها الى سواحل شرق البحر المتوسط وان تعقد اتفاقات التعاون المتبادل مع فرنسا ويوجوسلافيا واليونان وتركيا للعمل معاً في حالة نشوب حرب يكون سببها قرارات الجامعة . فلما اخفقت الجامعة في ردع موسوليني وانقاذ الحبشة ، شرع كثيرون من الانكليز يقولون انهم عاجزون عن حماية مواصلاتهم في البحر المتوسط في حالة نشوب حربٍ فيه . وأشاروا بتحويل السفن التجارية البريطانية الى طريق رأس الرجاء الصالح . ولكن الاعتراض على هذا الاقتراح كبير . فطريق الرأس اطول من طريق السويس بنحو ٨٠ في المائة . والاسطول التجاري البريطاني اقل مما كان قبل الحرب بنحو ٢٠ في المائة . ويزعم السر ارشيبلد هيرد الثقة الانكليزي الكبير انهُ في حالة نشوب حرب تحتاج انكلترا الى ٧٠٠ سفينة اضافية علاوة على سفنها التجارية لتنقل الى انكلترا كفايتها من الطعام . فاذا حتم على هذه السفن السفر حول رأس الرجاء الصالح نقص مقدار الوارد الى بريطانيا نقصاً كبيراً لطول الطريق . ويضاف الى هذا العهود والمعاهدات المعقودة بين انكلترا وفرنسا وبعض البلدان في الشرقين الادنى والمتوسط . ومع ذلك فمقام طريق الكاب غير مهمل بتاتاً والعمل ماضٍ بسرعة لانجاز تحصين القواعد البحرية اللازمة على سواحل افريقية الغربية والجنوبية

إلا أن انكلترا عازمة حتماً على ابقاء طريق السويس مفتوحاً اذا كان ذلك مستطاعاً على الاطلاق . وهي لذلك ماضية في برنامج تسلّحها العظيم بحيث ينتظر ان يكون لها ٢٥ بارجة حربية سنة ١٩٤٢ والعدد الذي يتكافأ معها من الطرادات والمدمرات والغوّاصات . كذلك ينتظر ان يكون سلاحها الجوّي ٥٠٠٠ طيارة سنة ١٩٤٠ ومع أن ايطاليا ماضية في برنامج

تسلّحها ، الاّ أنها على الغالب لا تستطيع ان تجاري انكلترا . ولا ان تبق ندّة لها في القوة البحرية في البحر المتوسط . ولكن اهم مشكلة يواجهها الانكليز هي مشكلة القواعد البحرية والجوّية . فهم آخذون في تحصين مالطة ولكنها اذا صلحت لان تكون قاعدة جوّية كبيرة الشأن وقاعدة للغوّاصات فهي لا تصلح ان تكون مثابة للاسطول . ان قربها من صقلية يعرض الاسطول لهجمات الاساطيل الجوّية . كذلك لا تصلح الاسكندرية ولا حيفا قاعدة للاسطول علاوة على كونهما في بلاد غير خاضعة للسيادة الانكليزية . ولذلك اتجه النظر الى قبرص ليكون أحد مرافئها قاعدة بحرية ، وليكون نجدها المتوسط قاعدة جوّية ، تعدّل فعل القواعد الايطالية في الدوديكانيز وتحمي انبوب النفط الممتد إلى حيفا ومدخل قناة السويس والسفن الماخرة في شرق البحر المتوسط . اما في البحر الاحمر فالاعتماد على العقبة وعدن وهناك مساعٍ تبذل على ما يقال : للفوز بقواعد في فرسان او في الشيخ سعيد . وقد اخذت شركة بترول العراق ترخيصاً من الملك ابن سعود باستغلال سواحل بلاد العرب على البحر الاحمر في منطقة عرضها ١٠٠ كيلو متر من الساحل

فلما نشبت الحرب الاهلية الاسبانية، ضمّت مشكلات البحر المتوسط في غربهِ الى مشكلاتهِ في شرقهِ واصبحت انكلترا وفرنسا معرّضتين لمخاطر جديدة لان هذه الحرب قد تسفر عن رسوخ اقدام ايطاليا والمانيا في جزائر البليار والمغرب الاقصى الاسباني وجزائر كناري . فانكلترا تعلم ان جبل طارق قد ضيّع معظم مكانتهِ الحربية لان المدافع الحديثة تصلهُ من الشط المقابل ، ولانهُ ليس فيهِ بقعة تصلح ان تكون مطاراً حربيًّا . فهي يهمها لذلك ان تكون جزائر البليار وسبتة وطنجه في ايدي دولة محايدة . وفرنسا على الرغم من قاعدتها البحرية في بيزرته واعمال التحصين في المرسى الكبير على القرب من وهران تحسب حساباً للمستقبل . وقد شرعت تخزن مقادير كبيرة من البترول في فرنسا نفسها خشية أن تقطع صلتها بطرابلس قرب بيروت . ووضعت الخطط لنقل الجنود من المغرب الاقصى الفرنسي من رباط والدار البيضاء (كازابلانكا) الى بوردو بدلاً من نقلها في البحر المتوسط الى مرسيليا وطولون اذا اقتضى الامر كذلك مع ان ذلك يضيّع عليهم بضعة ايام في بدء الحرب قد تكون اهم ايامها . واذا رسخت اقدام الالمان في جزائر كناري او في ريو دورو امكنهم ان يصبحوا خطراً يهدّد خطوط المواصلات الفرنسية والبريطانية مع جنوب افريقية وأميركا الجنوبية . ثم ان الجنرال فرانكو صرّح غير مرة وكذلك موسوليني وهتلر ان ليس في النية تغيير الحالة الراهنة بضم أجزاء من أسبانيا لايطاليا او المانيا او كلتيهما . ولكن الضمّ الجغرافي ليس شرطاً أساسياً لقيام الحالة التي تخشاها انجلترا وفرنسا اذ ثبت في الحرب الكبرى ان ثغور الدول الصديقة قد تستعمل مثابة ومباءة للغواصات وما يصدق على الثغور قد يصدق على المطارات في المستقبل

الحرية المختنقة

استاذ تاريخ في اميركا يصف اعتناقه الشيوعية ثم انسحابه منها

للاستاذ سفيورت برون

كلما رجعت بفكري الى الماضي ارى اني كنت يوم انتظمت في الحزب الشيوعي شهيد مبدإ صالح . كان قد خصم من راتبي يومذاك ٣٥ ٪ ، وزيدت ساعات التدريس الذي ازاوله . وشر من هذا وذاك اننا استهدفنا لحملة منكرة اثارتها بعض الصحف على الاساتذة . وايقنا ان رئيس جامعتنا كان يشجع التسطي على حريتنا . فتألفت لجنة من الاحرار لمجابهة تلك الحال ، والتقيت في احد اجتماعاتها بزعيم شيوعي ، دعيت بواسطته للخطابة في اجتماعات اتحاد العمال . فاتجهت الى الحزب تدريجاً عن طريق الخطابة حتى انتظمت فيه

فلما انضممت الى تلك الجماعة تبينت لزوم القيام باسداء خدمة الى جميع طبقات الاحرار تحت علم الشيوعيين ، ضد الخطر الفاشستي المخيف ، الذي لو عمّ البلاد لوجد الاساتذة انفسهم مصفّدين في اميركا كما هي الحال في بعض اقطار اوربا . فانتظمت في الجماعة واثقاً بأن الشيوعية تحتضن الحرية الثمينة وترعاها ، والحرية مأثورة عندنا نحن الاميركيين . وقد اقنعني رائدي الشيوعي بأني صرت رجلاً ، ولست فيما بعد من الحلميّات السجينة

كان في الجماعة يوم دخلتها عضوان وزوجاهما ، وثمانية من العمال ، فنظمونا كفصل طلبة ، يلتحق بفصل اكبر مؤلف من العمال . وقد قال لنا المدير ان الولايات المتحدة تقسم عندهم الى اثني عشر حقلاً ، يخضع كل حقل لمدير خاص وينقسم الحقل الى فروع يرأسها « مدير الإثارة » . وقد اخبرت ان هذا المدير مختص باهاجة الاعضاء وإثارتهم . وتلفت حولي فاذا شاب صغير طرّ عارضه يقول « انا مدير الاثارة » فتبينت فيه كاتب محل اثاث في نيويورك السفلى . وهو شاب لم اجد في علمه وثقافته ما يحملني على الاعجاب به حين كنت اذهب الى المحل لتوفية اقساطي الشهرية ولكنهُ الآن اصبح المسيطر على تقدمي العقلي

ثم اطلعوني على اسماء الاعضاء الجديدة اذ لا يؤذن لاحد من الاعضاء الذين يحرصون على سلامتهم باستعمال اسمه العادي ولكل عضو رفيق خاص يلوذ به ، وتسلمت دفتر عضويتي. وفيه جداول تبين كم يجب ان يدفع العضو بالقياس الى دخله ، وبحسبها تتدرج المبالغ من ملليمين من افقر عامل ، الى ثلاثة دولارات ونصف — في الاسبوع — على امثالي ، وراتبي السنوي يومذاك ٣٦٠٠ ريال . ويضاف الى المرتب الاسبوعي المرقوم اتاوة للدولي الثالث والمؤتمرات عدا الكتب والمجلات والكراريس والجرائد التي يجب أن يشتريها كل عضو . وعليّ فوق كل هذا

ان أدفع مرتب يوم في السنة لجريدة « العامل اليومي » . فكان مجموع ما دفعتهُ للجمعية في ثلاثين شهراً ٩٠٠ دولار. ولما انقضى العام الاول لعضويتي فُرِض عليّ التنازل عن مساحتي للنزهة كل أسبوع لكي اعمل في سبيل الحزب . فاضطررت أن أفصم علاقاتي بجمعيتين لاتحاد المؤرخين. كما اني أرغمت على قطع اشتراكي في ثلاث مجلات ، مع التوقف عن شراء الكتب اللازمة لعملي

كانت اجتماعات الوحدة (unit) تعقد في بيوت الأعضاء ، الاّ حيث ربة البيت ليست من الرفقاء . وفي كل جمعية كنت اشعر بجوٍّ خانق كأن هناك مؤامرة وكأنَّ « الفاشستيين كامنون لنا في كل زاوية » . فاذا رفع عضو صوته أسكته اخوانه . واذا رنَّ جرس الباب صَمَتَ الجميع صَمْتَ الموت

مرَّ العام ولم تدرِ زوجي بأمري ، وكنت أكذب عليها في تعليل غيابي عنها . ولما أتقنت المسلك كان سروري عظيماً بأنهُ صار في امكاني أن أسهر في البيت مع زوجي مرتين في الاسبوع. ومرّةً عدت من الجمعية الساعة ٣٠ : ٣ صباحاً ، فاذا زوجي مازالت ساهرةً . فقالت : هل لك ان تخبرني حالك ؟ فقد عيل صبري ، حتى تسرّب اليأس الى فؤادي . فقل لي بربك أعالقٌ أنت بهوى سواي ؟ !

لم يدر في خلدي انها سترتاب يوماً في حبي . فأخبرتها أني دخلت الحزب الشيوعي . وواصلنا الحديث الى الفجر . ولا أقدر أن أصف ما شملني من السرور فيما تلا ذلك ، لأني تحررت من الكذب المتواصل على زوجي . وبعد أسبوع قالت لي : اذا كانت الجماعة تلائمك فهي تلائمني أنا ايضاً . واذا كان العمل ضربة لازب فلنشترك فيه كلانا : وقد قبلها الحزب بشيءٍ من الارتياب في نضوجها السياسي . الآن « مدير الاثارة » وعد ان يملي عليها دروساً ثقافية

وفي احدى الاجتماعات مزحَتْ مزاحاً لطيفاً على عارضي ستالين . فعقب ذلك صمتٌ عميق وعلمت حينئذٍ ان المزاح يجوز في هتلر أو روزفلت ، ولكنهُ لا يباح حتماً في ستالين . وقال المدير : انا في جمعية حربية ، فاذا لم ندفع عن كرامة الاتحاد السوفياتي فنحن خائنون حركة العمال . وفي الليل ، وأنا أظن انها نائمة استخرطت في الضحك فجأةً . ولما سألتها عما أضحكها قالت : أضحكني كون عارضي ستالين جزءاً من حركة العمال

بعد شهر من انتظام زوجي في الحزب تلقينا بياناً ، يكل الينا أمر تقديم تقرير سري عن خطة والدها في معمله الصغير في معاكسته العمال . فانهُ غير منضم الى اتحاد العمال : هل كفَّ الموظفون عن النضال ؟ ومن يقصد ان يطرد من معمله ؟ . ذلك ما يلزم ان نتسقطه من حميّ ونحن جلوس الى مائدته نتناول معهُ الطعام

وأتاني المدير يوماً يسألني عشرين دولاراً لصندوق الطوارىء ، لانهُ في أزمة ، ويا لله

ما أكثر أزمات ذلك الصندوق ! . فاعتذرت بأني الآن دفعت خمسين دولاراً لصديق قديم ، عازم على ادخال زوجه في المستشفى ، فانها على وشك الولادة ، ولا يملك نفقاتها . ويالسوء ما ذكرت من بيان ! فقد عبس المدير وتولى وهو يقول : أفتدفع لصديقك خمسين دولاراً ، وتمسك عشرين دولاراً عني ؟ . ليس هذا التصرف شيوعيًّا : وقال : لا نقدر ان نعتمد على الطبقة الوسطى في الولاء للشيوعية . قال : أما أنا فاني أخدع ، حتى ، جدّتي في مصلحة الثورة

إن أحد اغراض الجمعية جمع المال . فكنا ، في كل اجتماع ، نراجع لائحة اسماء المثرين القادرين على امدادنا بالمال لانفاذ المساعي التي لا تزال في رؤوس زعمائنا . وكنّا نُسأل أن نقيم مادب ونزهات ومهرجانات وسياحات لمصلحة العمال . ونحمل القوم على التبرّع لهذي الاغراض . وعلينا أن نحيي حفلات في بيوتنا ، ونضمن قبول اصحابنا الدعوة لحضورها ، ونقدّم مايدفعونهُ لنا للجمعية . وعلينا فوق سلب أصحابنا من رجال الطبقة الوسطى ، ان نمد الجمعية باعضاء جدد . على أن الحظ لم يسعدنا في ذلك . فكان عدد الاعضاء لما دخلت الوحدة ١٣ فصاروا يوم انسحبت ١٦ فقد ربحنا ٦ وخسرنا ٣

وكانت القوانين تسَن بلا انقطاع ، يتخلل املاءها عبارات الاطراء والثناء على ماضي الجمعية . وقد ثقلت على روحي وطأة الجد الظاهري التي بها تعالج الجمعية كل أمر . من ذلك رسالة مملة في المجلد الاول من كتاب (كري) في الشيوعية السوفياتية . وقد تلي على أسماعنا تقارير شتى عن الرفاق ، وأن أحدهم حضر اجتماعاً في نادي سيدات الريبيليكان . وقدّم بياناً ضافياً للجمعية عما تلي في ذلك الاجتماع

وكانت تلاوة التقرير الطويل على مستوى واحد من الصوت . علاوة على أن ذلك التقرير كان قد نشر في الصحف قبل ثلاثة أيام . فكنا في دائرة مفرغة من هذا النحو ، نبدأ حيث انتهينا . ومع ما في السياسي العادي من الحذق فهو ليس بشيء مذكور إذا قيس بحذق الزعيم الشيوعي . فالزعماء الشيوعيون « أصلح المثل العليا » . هم مؤمنون ، يسيرون في جوّ من القداسة لا تساهل فيه

إذا اختلف أحد الاعضاء والزعيم أبانوا له خطأهُ واوضحوا « المسلك القانوني » فاذا أصرّ على رأيه ، أوعزوا اليه ان يراجع قطعة من كتاب كارل ماركس وستالين . لا منبر في الارض اكثر اعجاباً بانجيله من الشيوعيين بكتاب كارل ماركس معدّلاً بقلم لينين يتبعهُ ستالين

قد وجّه الزعماء ، في حملتهم الانتخابية الاخيرة ، كل همهم ضد « لاندون » تطبيقاً لخطة مرسومة . فقال أحد الاعضاء إذا كانت الجمعية تبغي انتخاب روزفلت فلماذا لا تصرح بذلك ؟ أليس ذلك خيراً من المداورة ؟ فأجيب بأنهُ عليه أن يصغي الى حكم القاضي . على أنهُ أصرّ على رأيه بأن ينتخب روزفلت

فساد الجمهور الصمت ، حتى خُيّل اليَّ اننا في موسكو . وإن هذا الرجل جاسوس هدّام يقتبل صدور الحكم بهلاكه

وأخيراً قال لهُ الزعيم : رد دفتر عضويتك فلست عضواً في الجماعة بعد الآن

فسحت العرق عن جبهتي ، وسرت نحو الشباك ، وكانت الشمس تسطع على المدينة الاميركية المحبوبة ، وحينذاك خطر على بالي ، لاول مرة ، ان أطلّق الحزب . ولم تأسف على ذلك انا وزوجي . ولما ابلغت الزعيم عزمي هذا بدت عليهِ ملامح الاضطراب . وسألني ان احضر الاجتماع ، واتلو على مسامع الجمهور ما يدور في خلدي . فأجبتهُ اني اظن انهُ لا يستحسن ان يسمعني جمهور الاعضاء ، فيكفي ان اصرّح بذلك لهُ وحده . واليك ما قلت : —

مسلك مزعج . كبت حرية الفرد . الخداع اللازب ، القاضي عليَّ بأن أكون ذا رأيين . يعدمني راحة الفكر . فصم علاقاتي بأصحابي ، اذ لا وقت عند اعضاء الجمعية للصحبة ، ولا لمطالعة الكتب والمجلات والجرائد غير الحزبية ، مما يبث في النفس الجرأة والاقدام . فخمدت جذوة حياتي العقلية ، وثقلت على روحي وطأة الكتم التي بها تعالج الجمعية كل قضية . فلست أرى ان الثورة على الابواب . ومع ذلك فكل اجتماع كان يوهمنا اننا في « بدرون » بمدريد . وأخيراً لست احتمل التدخل في حريتي الشخصية . كنت اذا دخلت قاعة الانتخاب كنت اشعر اني مستقل برأيي ، الاّ اني كشيوعي ملزم بأن انتخب من قرره الحزب بموسكو . هذه هي بعض اسباب انسحابي

وفي أثناء الصمت العميق الذي تلا بياني كان يدور في خلدي كيف لبثت عضواً في الجماعة هذه المدة . وكان يجب ان انسحب منها قبل الآن . وأظن اني كنت اخجل من اعلان اندحاري لذلك لم أنسحب . ولبثت طويلاً اعتقد ان الجماعة ستنظم اعتراضاً فعالاً على أسوإ المظاهر في استغلال العمال . على اني مع مرور الزمن تبينت ان الزعماء يرغبون في الاضراب للاضراب ، لا لتحسين أحوال العمال . فان الاضراب تلو الاضراب يفضي الى الثورة . وقد خامرت فؤادي فترة ضم العمال كافةً لغرض واحد ، على اني لما رأيت ان سعيي إنما ينتهي بشد ازر الدكتاتورية تحت اسم الدمقراطية ، التي كانت كطعم للمغررين ، حين ذاك ، قضي على الرجاء الوحيد الذي كنت اعلل به الآمال

لبث صاحبي طويلاً يحدق بالشباك صامتاً . ثم قال لي : هل احضرت دفتر عضويتك ؟ قلت : نعم ودفتر زوجي ايضاً ، افلا تريد ان احضر الاجتماع ؟ قال : كلاّ ، بل ارى الافضل انهاء الامر اليوم . فسلمتهُ الدفترين اشعاراً بالانسحاب

اعتنقت البلشفية لاجل الحرية . ولاجل الحرية هجرتها ***

صورة خلقية نادرة

مركب الغاسلات

للكاتب الفرنسي المعروف جان نقولا بولي

« نقلها عن الفرنسية احمد ابو الخضر منسي »

من بين النساء اللاتي يشتغلن في باريس بالاعمال المضنية، تلك الغاسلات المعروفات بغاسلات الجملة. فان يومهن مصروف في غسل الثياب في مراكب قد تراصت على ضفة السين. تراهن دواماً حانيات تحت آصار غسالاتهن، صاعدات هابطات سلالم شديدة الانحدار، مكابدات تقلبات الفصول، متنسمات روائح منتنة تملأ المعاطس عند شواطىء نهر تفضى اليه اقذار مليون من السكان، متعرضات للرطوبة الدائمة المتغلغلة في اثوابهن، المخدرة لاجلادهن وأطرافهن وأجورهن اليومية زهيدة. وجلهن ذوات بعولة وبنين. ومع هذا فقد استطعن اقتطاع دريهمات قلائل منها جعلنها في صندوق توفير يرد عنهن عوادي الدهر وطوارىء الحدثان، ويدرأ عمن يعضهن البؤس ويمسهن الضر الالتجاء الى باب آخر او التماس المعونة ايّا كانت ولهن ايضاً عادة أن ينتخبن كل حول زعيمة يلقبنها بالملكة تتصدر ملاهيهن ومسراتهن وتقضي في خلافاتهن وخصوماتهن. ومن مرقت منهن عن سنة الاخلاق القويمة اعتزلنها ونفوها من مملكتهن نفياً قصيًّا

عند اسفل الرصيف المعروف برصيف البلدة في باريس مركب كبير قد أمهُ عدد عظيم من النساء القاطنات بهذا الحي المزدحم. واشتهرت من بين هذه العاملات البارعات فتاة ناهزت الثالثة والعشرين تدعى بلانش ريمون ذات وجه منطلق، تتبين في قسماته خلوص الطوية وصفاء النية، صناع بادية الحذق، مستتمة الخلق شديدة قوية. وتوفى امها الموت، وأصبحت عضد أبيها الاعمى ونصيرته التي ليس لهُ من دونها ولي ولا نصير. فكانت تضاعف جهدها وتواصل في حرفتها كدها ودأبها لتكفل اباها ونفسها، وكان أبوها السيد ريمون مع فقدانه البصر يشتغل في غياب ابنته بعمل الشباك لصيادي السمك. وبلغ من فرط اجتهاده أن صار يصيب في يومه قراب الفرنك، فرفه ذلك قليلاً من عيشتهما ودفع عنه الم الظن بأنه عالة كله على ابنته. وكانت

بلانش متى اعدت طعام الفطور لابيها المقيم في منزل تجاه السلم المؤدية الى مركب الغاسلات ، هبطت الى مقر عملها وجه النهار ، فاذا اقبل الظهر عادت الى ابيها الضرير تجهز له طعام الغداء ثم ترجع الى عملها حتى يبلغ النهار حده ، فتنقلب الى بيتها الصغير الذي انتشرت في ارجائه النظافة والرفاهة، فتمضي بأبيها الشيخ تجول معهُ على رصيف البلدة ساعة : تفاكهه وتسامره وتملأ قلبه سروراً وطرباً ثم تعود بهِ ليتناول العشاء فاذا طعم ونعم رقد هادئاً قرير العين بعناية ابنته وبرها به

***

وانقضت ثلاث سنين على موت امها وكانت بلانش تشعر بسعادة عظيمة بالعناية بأبيها والاجتهاد في مسرته ومرضاته لتنسيه ما استطاعت فقد رفيقة حياته الوفية . وكانت محبتها لابيها بالغة من الشدة والتمكن بحيث لم تجد اية عاطفة أخرى الى فؤادها مدخلاً او سبيلاً . وكان فتيان الصناع في المصانع القريبة يحاولون بغير طائل التحبب اليها واكتساب رضاها فقد كانت عنهن بأبيها ومؤتنف همومها وأعمالها في شغل

الاَّ انها رأت من بين عمال أحد مصانع الاقمشة فتىً يدعى فيكتور ، وسيماً مديد القامة، شديد الأسر ، تعرف من سيماه رضى النفس وطيب الاعراق . وكان بالفتاة الغاسلة حفيًا لا يخلط حديثه معها بما يُشعر بمجاوزته الاحتشام ولا يلقاها الاَّ بتحية الود الخالص والاحترام وكان يكثر من سؤاله عن أبيها فما كانت تجد الا ّان تكون بسؤاله حفية شاكرة . وإن يلقها صاعدة سلم المركب يؤدها حمل وِجانها الطافح بغسلها ، يقف من خلفها فيخفف بذراع شديدة وِقرها ، ثم يصحبها الى باب دار عملها فاذا بلغته زايلها بتحية الادب البارع

ولم تقدر بلانش ان تمكث متجافية بازاء هذا الود المصفى المتكرر ، فلمح فكتور منها انها من دون خطابها جميعاً قد فاز باعجابها وحظي عندها . وقد جرأه ذلك الاعتراف المضمر فضاعف من توقيره لها والطافها ، والتمس منها الايضاح والجلاء فألفاه أغرى ما يكون وأيأس ما يكون

— فقد قالت لهُ مخلصة ببساطة : يا فكتور ما في استطاعتي اخفاء أمري عنك . فلتعلمن أنهُ لا شيء يستطيع فصلي من أبي الذي طعن في السن وفقد البصر . فما لهُ أحد في الدنيا سواي ليخفف ما بهِ من ضر وسوء حال

— فقال فكتور اذاً اني لعون لك في هذا الذي تبغين . لقد فقدتُ أبي وأنا طفل لعوب وكادت كلمة أب ، وما أحلاها منطقاً ، لا تخرج من فيَّ . وهذه سعادة أخرى أنا مدين لك بها، أجل يا بلانش ، انك اذ تجعليني بعلاً لك ، تصيرينني للشيخ ريمون ولداً باراً بهِ وحفيًا

— قالت ولكني اتخذ بذلك لنفسي رباً ومسيطراً ! ... وما ألبث ان يعقب سعادتي بصيرورتي زوجة لك سعادة أخرى بصيرورتي أمًّا . وهناك لا يجد أبي في قلبي الا ّالمكان

الثالث . ولن يصيب مني الآن جانباً ضئيلاً من هذه المحبة التي هي اليوم كلها له . وسيفطن لذلك وييأس منه ثم لا يشكو ولا ينبس فاذا هو من أشقى العالمين . . . كلا . كلا . ما عاش أبي فاني مصروفة عن الزواج . فلا تحاول اغرائي بصور من السعادة تبهر عيني كما تبهر عينك ! فدع بلانش تنهض بالعبء الذي ألقاه على عاتقها القدر

وكان مما أمعن في قهر نفسها المتسامية ، ومغالبة قلبها الكريم ، وكأنه زحزحها عن عزمها الشديد ما ذاع من أمر حب فكتور لها بين الغاسلات . فقد أكبرن نبأها وتعجبن من عنادها أمام رجاء ذلك الفتى الكريم وتوسلاته . وانه لها لنعم القرين . فكانت كل منهن لسانه وبيانه لدى بلانش . وما كانت تقدر ان تطأ أرض الشاطىء حتى ينحزن الى جانب فكتور ويمالئنه عليها ويحامين عنه . فلما ألفت نفسها مضيقاً عليها محاطاً بها من كل صوب ، ولم تجد فسحة عن سماع صوت فؤادها ، والميل مع هواها ، قالت انه ان ساعفت المقادير باحرازها دار للغسيل ، وحينئذ يتاح لها رعاية أبيها ومتابعة العناية به ، فما يمنعها مانع من الزواج بفكتور . بيد ان هذه الدار انما تقوّم بحسب السعر الحاضر بخمسة الى ستة آلاف فرنك . ولكن كيف الحصول على هذا المبلغ الجسيم ، وكيف الوصول الى ادخاره من أجر كدهما الزهيد ؟ على ان فكتور ظفر منها بوعد وواثقته بموثق ، ولم يداخله يأس من بلوغ مناه . وكان يؤجر خمسة فرنكات في اليوم في مصنعه . وكان قد ادخر بعض مال . وكان التاجر الذي قضى عنده عشر سنين ، يبدي له كثيراً من الرعاية والتقدير . ولعله ان يتطول عليه فيقرضه جانباً من هذا المبلغ . ثم ان جميع غاسلات المركب عرضن بذل المبلغ اللازم لزواج الفتيين من مدخر مالهن السنوي وقدره تسعة آلاف فرنك ، ولكن بلانش ، وان لم تكتم تأثرها الشديد ، لمروءة زميلاتها ، فقد أبت إلا الثبات على صريمتها ، وجددت لفكتور ميثاقها أن تتزوج به حين يستطيعان باجتماع مالهما ابتياع دار للغسيل . ولكنها لم تلبث أن منيت بمحنة جديدة كادت تهد أركان عزمتها

ذلك أن اباها الذي ناجز الستين كان عاملاً قديماً في الميناء المعروفة بميناء القراميد . وكان قد قاسى طويلاً برد الشتاء القارس ورطوبة شاطىء النهر ، فأصابه من ذلك رثية ونقرس اصاراه كسيحاً عاجز اليدين ، عديم الحركة . فكان لا بد من سربلته بملابسه ، من رأسه الى أخمص قدمه ، والقامه طعامه كما يلقم الطفل الضعيف طعامه . وكان يلزم فراشه الى الساعة التاسعة إذ تعود ابنته من المركب لتنهضه وتبوأه مقعده الضيق وتأتي له بفطوره الخفيف . وكانت هي أيضاً تقضم على عجل كسرة من الخبز ثم ترد كل شيء الى موضعه وتعود الى غسيلها . فاذا دقت الساعة الثانية أرقلت الى دارها تجهز طعام الغداء لأبيها حتى إذا طعم وهنىء ، تعود لتتم نهارها في عملها . فاذا قبضت أجرها عادت تجلس الى ابيها تسليه وتخفف اساه واكداره

واغتنمت بلانش يوماً ساعة الراحة الصباحية فأتت مثواها حسب عادتها، فألفت أباها مستوياً على مقعده قد أصلح فراشه ونسق النضد في حجرته ، فاستخبرت عن تلك اليد المؤازرة التي باغتتها هذه المباغتة المستحبة ، فأجابها الشيخ مبتسماً بأن ذلك سر هو به حفيظ . ولم تلبث الفتاة أن استكشفت انما هو فكتور الذي استرضى رئيس المصنع أن يعفيه من العمل في الساعة الثامنة بدل التاسعة ، فأذن له بذلك . فكان يأتي بنفسه الى الشيخ الضرير فينهضهُ ويبذل لهُ كأبرّ الابناء كل ضروب العناية . فأثر صنيعه ذاك في بلانش أبلغ أثر . وما فعل الآن أهاج هواها به الذي كانت تقمعهُ في نفسها منذ حين . ورأت مرة أخرى في عودتها في الساعة نفسها من النهار أن أباها لم يكن خارج فراشه فقط ، بل كان مستوياً في حمام كبريتي معروف بحمام باريج جهزه فكتور بنفسه بحسب ارشاد طبيب نطامي كان قد استصحبهُ لفحص المريض . فلم تملك بلانش عندما رأت ذلك أن تدفع سيل الدموع من مآقيها ، وتناولت يد خطيبها فجعلتها على قلبها وشدت عليها وهتفت تقول :

— إني ليعجزني ان أفي لك فضلك ومنتك عليَّ ما حييت

— قال ان هي الاَّ كلمة تخرج من فيك يا بلانش فتوفى هذا الدين

فتورد خدا الفاسلة من خجل واسبلت جفنها وهي ترجو الافلات بصمتها، من هذه الورطة الجديدة . واذا الشيخ ريمون نفسه يضم رجاءه الى رجاء فكتور مبدياً لابنته رغبته ان يراها زوجة هذا الغلام الكريم . وارحمتاه لها ! كم كابدت وهي هي ذات الشعور المضطرم في هذا النضال المضاعف ! أن تعصي أباها وخطيبها ، وان تغالب كلى سلطاني الابوة والحب المتولد عن شكر المنعم : وهذا لذاك عدل وقرين ! ... ولكن كانت كلمة الحب البنوي هي العليا. فحشدت ما بين يديها من جلد وعزم شديد ، وقالت إن نعمة الزواج بأفضل من عرفت من الرجال لا يخليها البتة من واجبها الذي فرضتهُ عليها الطبيعة ، وأنها كلما ازداد أبوها وهناً ، كانت حاجتهُ إلى ابنته أشد وأقوى

فلم يكن من اقرارها على ما تريد بد، وكانت حالة المريض تتقدم ، ولكن مضاعفة العناية بأبيها اعجزها ان تتم عملها اليومي في المركب ،فاستمنحت صاحبة المشغل حق العمل بالقطعة . وكان هذا يعود عليها بمثل ما كان يعود به العمل المعتاد

***

وجاءت بلانش ذات صباح الى المركب متأخرة على خلاف عادتها ، اذ قضى أبوها ليله متوجعاً ، فاقبلت على عملها بجهد شديد لتستعيض ما فقدتهُ من وقتها . وأزفت الساعة المعلومة

فغادرت من فورها ما فضل من غسيلها وتركته في رعاية جارتيها . ومضت على عجل الى ابيها لتصنع له طعامه المعتاد ، وعادت بعد حين الى المركب ، فأخذ منها العجب كل مأخذ إذ الفت غسلتها التي لم تفرغ منها بالامس الا عند اسدال الليل استاره ، قد انتهت اليوم قبل ذلك بوقت طويل ، على انها كانت قد قضت لدى ابيها وقتاً كثيراً ، وجاوز اجرها في ذلك اليوم ثلاث الفرنكات . فلما كان من الغد تغيبت ساعات كالامس فاصابت نفس اجرها الذي اصابته بالامس، فما شكت ان يداً محسنة تشتغل من اجلها اذ تمضي لخدمة ابيها . فتربصت خلف سور رصيف البلدة ورمت بنظرها شطر المكان الذي غادرته خالياً تستطلع ، فالفته عامراً باحدى اترابها . وكانت التي حلت مكانها قد اتفقت مع سائر الغاسلات ان تأخذ من وقت راحتها المعتادة ما يكفي من الوقت للحلول محل بلانش في غسيلها ، ليعود الوقت الذي تفرّغه لخدمة ابيها بالفائدة عليها . واتفقنَ ان يداولنَ ذلك بينهنّ، لحرصهنّ جميعاً على اظهار دلائل مودتهنّ واكبارهنّ لمن هي ابر البنات بالآباء فوقع ذلك منها موقعاً وتجاهلته . ولم يلبث ان تم برؤه بتحسن حالها وتوفر وسائل العناية به والمعالجة . ولكم طربت بذلك وقرت به عيناً وكم طار فؤادها جذلاً اذ خرجت بابيها وسط زميلاتها فنبأته بعجيب اخلاصهنّ وكيف تطوّلنَ عليها وافضلنَ . وكان الشيخ قد رجع اليه شبابه فجعل يقبل هذه ويشد على كف اخرى ويطرب بما يصل مسامعهُ من عبارات التهانيء التي كانت بلانش تتلقاها من كل من حضر من الغاسلات وكان فكتور قد اندس في زمرتهنّ فدنا منها متخفياً متحيياً وقال لها هامساً :

— أفأكون اذاً وحدي الذي تغادرينه شقياً محيياً ؟

وارادت بلانش ان تجيب ، ولكن كان اضطرابها بالغاً شديداً . فراحت ترتمي في احضان ابيها لتخفي ما يطوي فؤادها من عراك ونضال

***

واقبل يوم انتخاب الغاسلات لملكتهنّ فأجمعنَ على انتخاب بلانش اذ احرزت اعجابهنّ واكبارهنّ ، فتوجنها في هذا العيد الحافل في قلب المركب وقد سامت قلوعه العظام السماء وزانهُ زخرف من زهور من كل لون بهيج . وجاء بها ابوها الى الحفل مستبشراً أرناً فتلقينها بالهتاف وأجمعنَ على ان يكون لابيها شرف وضع اكليل الورد على رأسها . واضطربت يداه من فرط السرور لا من فرط الوهن . وقال ان هذا اليوم لأحب ايامه اليه ، وبعد ان دعا لابنته بالسعادة والرفاهية ، اخذ يساقط على وجهها ارق القبل واحلى الدموع . واقبلت الغاسلات بأسرهنّ

يبدين لملكتهنّ الجديدة آيات الاجلال وتحيات الاكبار ودنا منها فكتور كواحد من رعيتها المخلصين الامناء وقال لها ايضاً :

— أفأكون اذاً وحدي الذي تغادرينهُ شقيّاً محيّاً ؟

***

نخرقت هذه الكلمات التي فاه بها بلهجة مؤثرة مسامع كثير من الغاسلات ، ولاسيما صاحبة دار الغسيل فما كان منها الآن قالت انها تنزل عن مشغلها يوم يتاح لبلانش الحصول على خمسة آلاف فرنك

— فقال فكتور اني الآن املك ربع هذا المبلغ ولأقترضنَّ الباقي من صاحب المصنع الذي اعمل فيه

— فقالت بلانش وهي لا تملك كتمان اضطرابها ان هذا دين يؤدنا حمله ، وانّى لنا وفاؤه ولو بعد حين

— فقال شيخ كان قد اختلط في المشاهدين ذو مهابة ووقار ، بجائزة الفضيلة التي منحك إياها المجمع اللغوي الفرنسي

فاستطلعوه طلع ذلك فذكر لهم ان المجمع يوزع كل عام جائزة للفضيلة مقدارها ستة آلاف فرنك لمؤسسها مونتيون العظيم تمنح لمن يمتاز من اهل باريس بمأثرة او صنيع جميل عجيب . وذكر ان عمدة الدائرة الثامنة تلبية لطلب غاسلات البلدة قد ذكر بلانش كمثل عجيب في بر الابناء والاحسان بالوالدين، فاختارها جماعة العلماء الذين هو واحد منهم وانتدبوه ليبشر الفتاة البارة بما اصابت من مثوبة هي بها حقيقة

***

وقد احدثت هذه البشرى في اهل السفينة ما كان يتوقعهُ ذلك البشير الكريم من اثر بليغ فارتفع في اركان المركب هتاف الاستبشار . وأحاط الغاسلات بأصيلتهنّ بعضو المجمع الجليل محتفيات مكرمات ، يؤيدنَ بسرورهنّ وشكرهنّ ذلك الاختيار الذي اصاب رفيقتهنّ العزيزة التي ملكوها من قبل عليهنّ ، أما بلانش التي زانها تواضع وبساطة فقد خطت ، وهي لا تزال في ريب مما حظيت بهِ من تشريف واكبار ، متوكئة من جانب على ذراع أبيها . ومن الآخر على ذراع فكتور ، تقبض من المندوب الجليل الجائزة التي فيها بلوغ أمانيها وادراك مآربها

معهد ما اعظم فضله

على النهضة الشرقية[1]

المعروف اننا نحتفل اليوم في هذا المعهد الكريم بيوبيله الماسي اي انهُ قد انقضى خمسة وسبعون عاماً على تأسيسه . والحقيقة انهُ قد انقضى على تأسيسه مئة سنة وسنتان وان كنتم في شك مما اقول فها كم التاريخ

لما دعتني لجنة اليوبيل الكريمة لاقول كلمة في تاريخ المدرسة رأيت انهُ لا بدّ لي ان اعود الى دفاتر « امي » القديمة فطلبتها من ادارة المدرسة وشدّ ما كانت دهشتي لما وجدت بعد درس السجلات ان تاريخ هذا المعهد يعود الى سنة الف وثمان مائة وخمس وثلاثين لما فتحت عقيلة المرحوم عالي سمث اول مدرسة للبنات في سوريا بل قل في المملكة العثمانية وكانت المدرسة يومية فقط . وفي السنة التالية اي سنة ١٨٣٦ كانت المدرسة تضمّ اربعين تلميذة بينهنّ راحيل عطا التي اقترنت فيما بعد بالعلامة المرحوم بطرس البستاني

مرّت سنوات على المدرسة وهي تنمو وتكبر وتتقدم حتى جاءت سنة ١٨٦١ لما شعر المرسلون الاميركيون الكرام الذين لهم الفضل الاكبر في نشر العلم الصحيح في بلادنا هذه بحاجة البلاد الماسة الى مدرسة داخلية للبنات فاستأجروا في السنة التالية اي سنة الف وثمانمئة واثنين وستين بيتاً جهزوه بالمعدات الضرورية وجعلوه مدرسة داخلية وبيتاً لسكن مدير المدرسة ومديرتها المرحومين مخايل ولولو عرمان

كان عدد البنات الداخليات في الأشهر الأولى من السنة الاولى ستًّا فقط لكن ما أتى ختام السنة الدراسية حتى كان العدد خمس عشرة بنتاً . وزاد في السنة التالية الى العشرين فأصبح مع هذه الزيادة المطردة من الضروري انشاء بناء أصلح للمدرسة فقرر المرسلون الاميركيون سنة ١٨٦٤ أن يبنوا مدرسة تصلح لان تكون داخلية ويومية في آن, وآخر ويعود الفضل

---

(١) طرف فاخرة من تاريخ هذه المدرسة كما جاءت في خطاب السيدة اديل جريديني حجار في الاحتفال بيوبيل المدرسة الماسي

الاكبر في تحقيق هذه الامنية الى المرحوم الدكتور هنري جسب الذي كان صديق المدرسة الحميم من يوم أن تصوَّرت في مخيلته الى ساعة وفاته ، هو الذي طاف البلاد الاميركية يجمع التبرعات بهمة لا تعرف الملل ، ولما تجمع لديه المبلغ الكافي من المال عاد الى بلادنا فوضع تصميم البناء وأشرف على العمل حتى النهاية فكان دولاب الحركة هنا وهناك

قام مكان هذا المعهد أولاً بيت للمرسل الاميركي المرحوم اسحق بيرد . ولما نقلت المطبعة الاميركية سنة ١٨٣٤ من مالطة الى بيروت حولوا ذلك البيت الى مطبعة فكان الدور الاول منهُ مطبعة وكنيسة وفي الدور الثاني ترجم الكتاب المقدس الى اللغة العربية

ولما قرَّر المرسلون الاميركيون بناء هذا المعهد أخلت المطبعة البناية ، وفي تشرين الاول سنة ١٨٦٥ بوشر بالعمل فرمم البيت القديم وزيد عليه وجهز بكل المعدات الحديثة اللازمة لمعهد كهذا وجيء بكثير من المواد الاولية المستعملة في البناء من أميركا وأوربا رأساً فجيء بالخشب مثلاً من مقاطعة ماين في الولايات المتحدة وصنعت النوافذ والابواب في لولو ما ستشوستس بأشراف الدكتور همان وجيء بالقرميد من مرسيليا والبلاط بعضهُ من ايطاليا وبعضهُ من لبنان وكلف بناؤه نحو عشرة آلاف ريال اميركي

وفي خريف سنة ١٨٦٦ فتحت المدرسة الجديدة — أي هذا المعهد كما هو قائم أمامكم اليوم — أبوابها لقبول الطالبات فمن هذه الناحية فقط اي منذ ابتداء المدرسة الداخلية سنة ١٨٦٢ الى يومنا الحاضر نقول اننا نحتفل اليوم باليوبيل الماسي لمدرسة البنات الاميركية في بيروت والحقيقة يجب ان تكون اننا نحتفل بيوبيلها المئوي فمن سنة ١٨٣٥ الى سنة ١٩٣٧ مائة سنة وسنتان

***

اسندت ادارة المدرسة الداخلية أوَّلاً الى المرحومين مخايل ولولو عرمان وسنة ١٨٦٨ تسلمت ادارة المدرسة المهذبة الكبيرة المرحومة اليزا افرت التي هذبت وعلمت والفت وثابرت هي ورفيقاتها من اجنبيّات ووطنيات طيلة ثمانية وعشرين عاماً الى أن اوصلت مدرسة البنات الاميركية الى مستوى المدارس العالمية العالية . وكان للعلاّمة المرحوم يعقوب صرُّوف الذي عمل جنباً الى جنب مع مس افرت وللسيدة فرحة حدّاد فضل كبير جدًّا على تهذيب فتاة ذلك العصر وسيدة المستقبل

تعاقب مديرات ومهذبات أميركيات ووطنيات بعد ذلك لهنَّ جميعاً فضل كبير على هذا المعهد العزيز لا بل على بلادنا المحبوبة اخصّ منهنّ بالذكر المرحومة اميليا طمسن التي وقفت الشطر الاكبر من حياتها الطويلة لخدمة بنات ونساء سوريا

ونذكر بالتقدير العظيم ايضاً السيدة الس باربر رفيقة مس أفرت ومس طمسن وهي لا تقل عنهما

بشيء من حيث محبتها لبنات بلادنا ونسائها وقد خدمتهن بكل ما اوتيت من حكمة وعلم ودراية

والآنسة راحيل طولز المقيمة الآن في اميركا وما اقعدها عن خدمة بلادنا الآن المرض فهي لا تزال تحن الى لبنان واهله

وأنت يا مس هورن يا من خدمت وطنك الثاني هذا باخلاص ما بعده اخلاص طيلة ست وثلاثين سنة يا عنوان العمل والجدّ والاجتهاد يا من لم تميزي يوماً بين بني قومك وبني قومي يا عنوان المروءة والتضحية والخدمة امامك نحني رؤوسنا خاشعين مقرين بفضلك العظيم علينا وعلى بلادنا — ثقي اننا سنحفظ لك في قلوبنا اجمل ذكرى واعظم تقدير

تخرج الى الآن من هذا المعهد الكريم اربعمائة وسبعون شابة نقول بحق انهن كنّ ممهدات سبل العلم الصحيح والادب القويم ولا نغالي ان قلنا انهن كنّ من اركان نهضة الشرق الفكرية والعلمية وحيث تجدون اليوم في الشرق العربي امة ناهضة حرة تعرف ما لها وما عليها ثقوا ان وراء هذه النهضة المباركة تأثير روح وطنية صادقة مقدامة هي روح نفثتهُ خريجات هذه المدرسة المحبوبة حيثما وجدنَ في ربوع سورية ولبنان وفلسطين والعراق ومصر والسودان تغلغل تأثيرهن الصحيح

فمن مهذبة توحي لعقول تلامذتها آيات حب الوطن الصحيح وتنشئهم على فهم معنى الحرية الحقيقية — اي ان الحرية هي القيام بالواجب لا عمل ما نريد — الى شريكة حياة تشق لزوجها طريق الخدمة الشريفة النزيهة الى مجاهدة غيورة في سبيل كل عمل شريف

اول مدرسة « خرّجت فتيات » وطنيات حاملات شهادة علمية عالية احترفنَ شتى المهن هي المدرسة الاميركية في بيروت

فاول طبيبة « وطنية » في الشرق العربي الدكتور انيسة صيبعة هي خريجة هذا المعهد التي اضطرت الى مغادرة بلادها ووطنها لان الحكومة العثمانية لم تشأ ان تمنحها حق ممارسة مهنتها الشريفة في بلدتها طرابلس وهي الى اليوم تخدم الانسانية بعلمها وعملها في مصر

وأول ممرضة ومولدة قانونية حائزة على شهادة رسمية من انكلترا السيدة هيلانة بارودي هي احدى خريجات هذا المعهد الكريم

وأول مفتشة عينتها وزارة المعارف لمدارس البنات في القطر المصري هي السيدة سعدى سابا خريجي هذا المعهد

وأول من اشتغل في الصحافة استير مويال ولبيبة ماضي هاشم خريجتا هذا المعهد ايضاً

وان ننسى فلا ننسى أول من ساعد في وضع الحجر الاساسي لكلية البنات الاميركية في القاهرة السيدة ميليا بدر خريجة هذا المعهد وهي الى اليوم ركن من أركانها

واول آنسة نالت درجة دكتور في الفلسفة والعلوم في سوريا ولبنان الآنسة نجلا ابو عز الدين هي ايضاً خريجة هذا المعهد

وأول مهذبة ذهبت الى العراق بطلب من حكومته هي الآنسة رضى جريديني حفيدة وخريجة هذا المعهد وقد عينتها وزارة المعارف فيها بعد أول مفتشة لعموم مدارس البنات في العراق

قد يعتقد البعض من سكان بيروت ان مدرسة البنات الاميركية امحت من الوجود يعتقد هذا لا لسبب إلاّ لان هذه المدرسة تعمل وتجاهد بلا اعلان ولا ضوضاء بينها هي تنتمي الى شعب عرف بين شعوب الارض قاطبة باتقانه فن الاعلان الجذاب وهل من برهان على صحة قولي اقطع من الحقيقة التي سأكشفها لكم — ان هذا المعهد الذي انقضى عليه مائة سنة يخدم بلادنا المحبوبة لا بل الشرق الادنى كله — هذا المعهد الشيخ بالقياس الى سني حياته — الشاب بجهوده وعزيمته يثابر على العمل المجيد الذي عرف بهِ من أول تأسيسه، يثابر عليهِ رغم كل الصعوبات ويقوم بنفقات نفسه لا لجنة مالية تسنده على الاطلاق أميركية كانت أم وطنية وقد صار لهُ مستقلاً هذا الاستقلال المادي ما يزيد على العشرين سنة . أفلا يحق لنا تجاه هذه الحقيقة ان ندعوه وطنيًّا او قولوا ان ندعمهُ وتنظر اليهِ كما ينظر الى كل معهد وطني

***

اما غاية هذه المدرسة فقد كانت ولا تزال ان تؤهل تلميذاتها لخدمة أوطانهنَّ ومحيطهنَّ عن طريق العلم والادراك الصحيحين ، غاية وأن تنوعت بتنوع الافراد والازمنة والاقطار لا تتنوع بجوهرها وهي لا تسعى الى صبغ افكار تلميذاتها بالصبغة الاميركية بل الى ان تجعل من كل تلميذة فرداً مستقلاً متعمقاً بتفكيره وتحليله للامور فيصبح في مستطاعها ان تكيف ذاتها بحسب الظروف والاحوال غير ناسية التمسك بالمبدأ القويم في وسط هذا التكييف . ومن غايتها ايضاً اعداد تلميذاتها لدخول كلية البنات الاميركية إذا شاءت التلميذات متابعة الدرس العالي وما هذه الكلية الآ بنت المدرسة نشأت عن رغبة المحيط واحتياجه اليها فكانت جزءًا من هذا المعهد اولاً ثم اصبحت مؤسسة منفصلة

وهي أي مدرسة البنات الاميركية تسعى الى تحقيق غايتها بأحدث الطرق العلمية وتعنى اول كل شيء بان تدرس اللغة العربية لكل تلميذة بحيث تستطيع إتقانها واستعمالها في محيط عربي وكذلك تعنى كثيراً بتدريس اللغة الفرنسية ومثلها اللغة الانكليزية غير ناسية اهمية ما للرياضة البدنية من الشأن وقد اسندت تعليمها لاستاذة اختصت بهذا الفن في جامعة كولومبيا والمدرسة تدرب تلميذاتها على الاعمال المنزلية اليومية وهي ترمي الى ان تجعل اللواتي ينلن شهادة المدرسة يتهيأن لامتحان البريفه اللبنانية في القريب العاجل . حقق الله آمالها

تأثير الغيرة في الاجسام

نشرت صحيفة انكليزية بحثاً مفيداً لسيدة اختصاصية في هذا الموضوع نلخصهُ فيما يلي : —

ما هي الغيرة : انها غريزة في الانسان وجزء من طبيعة نفسه من أقدم الازمنة والعصور . من العهد الذي كان يتحارب فيهِ اجدادنا باسلحة من الحجارة . كانت الغيرة اولاً نزاعاً على التفوق والبطولة والسلطة شعر بها الانسان لأول مرة عندما وجد نفسه مغلوباً على امره وإن الحيوان اشد منهُ قوة وبطشاً ثم اصبحت الغيرة مظهراً من مظاهر الرآسة والتفوق قد تدعو الى كثير من الفضائل كالشجاعة والنخوة وغيرهما . ولكن للغيرة في وقتنا الحاضر معنى آخر ودواعي اخرى وعندما تشعرين بالغيرة تشعرين باضطراب في كل شيء والرجل الغيور قليل الثقة بمن يحب تحجب عنهُ الغيرة محاسن من يحب ويصبح حملها ثقيل الوطأة على عاتقهِ

الغيرة في نظري تقتل الحب وليست مظهراً من مظاهر وجوده ونموه وتقضي على السعادة وهي تقتلها وتقضي عليها ببطء لا يدركه الانسان وفي الوقت نفسه تصيب الجسم بكثير من المتاعب والامراض . فعندما تكونين غيورة يتأثر نظام عيشتك ويختل توازن اعصابك فيستعصي عليك النوم ولا تؤدي اعضاء الهضم وظائفها في حالتها الطبيعية . والهياج والشجار وهما من اول نتائج الغيرة يزيدان في سرعة الدورة الدموية ويرهقان القلب بالعمل ويجهدانه وتظهر آثار ذلك في جلد الفتاة اذ يحتقن الدم ولا يسير في مجراه الطبيعي وتظهر في الجلد بقع خضر اللون باهتة

أعرف زوجين كانا من خير من عرفت من الناس . كانت حياتهما سعيدة حتى بدأت الغيرة تدب في قلب الزوج من اتفه الاشياء وكأنما اراد ان يقيم سوراً حول زوجته يحول بينها وبين عيون الناس بل ان يكون صاحب السلطان على اتجاه افكارها . واشتدت به الغيرة حتى اصبحت حياتهما غير محتملة وكانت نتيجة ذلك ان زال حبها لهُ واصبحت تنقم عليه ثم ساءت صحتها واعتزمت ان تعيش بعيدة عنه لتسترد بعض ما فقدته من عافية وصحة وتم لها ما ارادت واصبح الزوج يعض بنان الندم اذ سمح للغيرة ان تتمكن منه حتى تحطم حياته المنزلية وتسلبهُ حب زوجته

وأعرف إمرأة بلغت بها الغيرة على زوجها مبلغاً كان يحملها على ان تحاسبه على كل ما يفعل فاذا رأت منهُ اعراضاً انفجرت باكية واخذت تكيل له اللوم والعتاب فاصيبت بصداع وكانت تتهمهُ دائماً بانهُ السبب فيهِ حتى تضايق زوجها وهددها بالفراق . هذه المرأة حمقاء فانها تحاول ان تجذب زوجها اليها ولكنها تجهل كيف تجذبهُ فتقصيه وهي تريد ان تتحكم في ارادته فاذا استعصى عليها ذلك لجأت الى البكاء والعويل

إذا احسستِ بالغيرة فاذكري انها تنتهي دائماً بالخيبة وهي كفيلة بان تفقدك ما تملكين من امر زوجك . واعتقد ان التغلب على الغيرة امر صعب ولكنها كبقية الامراض لا يستعصى شفاؤها على اللاتي يملكنَ عزيمة قوية ولا يفقدنَ شعورهنَ وحكمتهنَ بفعل جنون العاطفة



فيتامين C في الليمون

يفيد في علاج البيوريا

البيوريا (تحجيج : شرف) من شر الادواء التي يصاب بها الفم اذ تتقيح اللثة وتتخلخل الاسنان . ولكن البحث الحديث في مدرسة هارفرد لطب الاسنان يشير الى ان هناك صلة بين البيوريا والاسكربوط وان نقص فيتامين C من الغذاء قد يكون سبباً مباشراً او غير مباشر للبيوريا كما ان نقصه سبب للاسكربوط

ان هذه المباحث لم تبلغ بعد تمامها من الناحية العلمية ولكن الرأي على أن طبيب الاسنان يستطيع ان يصف للمصابين بالبيوريا غذاء يتضمن فيتامين C من دون تعريضهم لاي خطر صحي

وقد أجرى علماء هارفرد تجاربهم في هذا الموضوع على الخنازير الهندية اولاً وجرت التجارب على القواعد المألوفة في مثل هذه الاحوال فاخذت طائفة من الخنازير الهندية وغذيت بغذاء يختلف فيه مقدار فيتامين C ثم فحصت فحصاً دقيقاً لمعرفة درجة اصابتها بالتحجيج (البيوريا) وفي تشخيص البيوريا اعتمدوا على اشعة اكس والبحث المجهري (المكرسكوبي) فثبت لهم ان الحالة التي اصيبت بها هذه الخنازير من جراء تغذيتها بغذاء ليس فيه المقدار الكافي من هذا الفيتامين هي تحجيج (بيوريا) لاريب فيه

ثم درست حالات ٤٨ رجلاً وامرأة بقصد معرفة الصلة بين درجة الاصابة بالتحجيج ومقدار فيتامين (C) في دمهم فظهر في ثلاثة وعشرين منهم ان مقدار هذا الفيتامين في دمهم قليل جداً وتقترن قلته باعراض ظاهرة للاصابة بالداء . وظهر في عشرة آخرين ان مقدار هذا الفيتامين أكثر قليلاً واعراض الداء اقل قليلاً . اما الباقون وهم خمسة عشر رجلاً وامرأة فكان مقدار الفيتامين C في دمهم سويًّا ولم تبد عليهم اعراض أية اصابة بالتحجيج

***

وهذه التجارب التي جربت بالناس ليست حاسمة ولكن نتائجها تبعث على الرضا بوجه عام لا سيما من حيث علاقة نقص الفيتامين C بالاصابة الذريعة في اللثة والاسنان

وما يهم القارئ من هذا البحث الآن ان تناول فيتامين C من مصادره لا يضر الصحة ولا يعرضها لخطر ما كما قد يفعل تناول فيتامين D ثم ان هذا الفيتامين اي C يكثر في اثمار الموالح كالليمون ويباع كذلك في اقراص كاقراص الاسبيرين والافضل الاعتماد على مشورة طبيب قبل تناول الاقراص

لغة النحل وحواسها العجيبة

رقص النحلة وسيلة من وسائل المخاطبة

الاستاذ فون فرتش أحد أساتذة جامعة مونيخ عالم عالمي . فقد أثبت أولاً حقائق تتعلق بحواس النحل كان الرأي مختلفاً فيها

كان هناك فريق من العلماء يذهب الى ان النحل لا يعرف الالوان المختلفة فاثبت فون فرتش بالتجربة انهُ يميز البرتقالي والاصفر والاخضر والبنفسجي ولكنهُ لا يميز اللون الاحمر . وعلاوة على ذلك يميز الاشعة التي فوق البنفسجي وهي الاشعة التي يعجز الانسان عن رؤيتها ولا يتبينها الاَّ باللوح الفوتوغرافي

ثم أثبت ان حس الشم فيهِ دقيق جداً وبهِ يميز انواع الزهر بعضها عن بعض

ثم أن حس الذوق فيهِ قوي فيميز الحلو عن المر عن الحامض عن المالح ولكن ما نحسبهُ حلواً قد لا يكون كذلك في نظره فالسكرين والدولسين وهما من انواع السكر المركب لا طعم لهما في ذوقه

وبعد ما اثبت كل ما تقدم بالتجربة عكف على دراسة لغة النحل . والذي حمله على ذلك التجربة الآتية : وضع قليلاً من الحلوى على لوح ووضع اللوح على مائدة في الهواء الطلق . وجعل يراقبهُ حتى وصلت اليهِ نحلة وعرفت ما عليهِ فلم ينقض وقت طويل حتى كثر النحل على اللوح وجميعه آت من القفير الذي جاءت منهُ النحلة الاولى . فقال في نفسهِ : كيف استطاعت النحلة الاولى ان تنبيء سائر النحل في القفير بما اكتشفت

فعمد الاستاذ فون فرتش الى رقم النحل في قفير ما كل نحلة رقماً خاصاً . ثم جعل يراقب ما يقع . فاكتشف ان النحلة التي تجد اللوح الذي عليهِ الغذاء اولاً تأخذ منهُ قدرتها وتعود الى القفير فتفرغ ما في جعبتها ثم تجعل ترقص رقصاً خاصاً والنحل من حواليها مأخوذ برقصها يقترب منها ويلمسها بلوامسهِ . وما تنتهي من رقصها حتى يخرج النحل الى موقع اللوح الذي عليهِ الغذاء . وعند ما يجده يأخذ منهُ ما يستطيع ويعود الى القفير فيفرغ ما في جعبته منهُ ثم يرقص فيكثر اقبال النحل على مورد الغذاء

وقد اثبت الاستاذ فون فرتش بالمراقبة الدقيقة ان بين كثرة النحل حول مورد الغذاء والرقص صلة مؤكدة

بعد ذلك خطر لهُ ان يبحث كيف يعرف النحل موقع الغذاء من مجرد الرقص لانهُ شاهد ان النحل الذي يذهب اليهِ يذهب مستقلاً لا تابعاً للنحلة الاولى التي اكتشفته. فوجد انهُ اذا كان مورد الغذاء جرة أو لوحاً او اي مصدر للغذاء غير مألوف في حياة النحل فقد يطول الوقت قبلما يكتشفهُ النحل . فكان الرقص يدلهُ دلالة عامة على موقع المورد دون ان يستطيع التحديد . وقد كان مورد الغذاء في

احدى هذه التجارب جرة من الشراب السكري على بعد كيلو متر من القفير يحول بينهُ وبين القفير تلال وحدائق

اما اذا كان مصدر الغذاء طبيعياً مألوفاً اي زهرة من الازهار فان النحل بعد ما يشاهد الرقص يسير اليها توًّا صادفاً عن كل ما غيرها من الازهار. وقد نجح في تطبيق تجربته هذه على جميع الازهار الاَّ الازهار التي لا رائحة لها

***

وتفسير ذلك ان النحل يشم رائحة الزهرة العالقة بجسم النحلة الاولى عند ما يلمسها بلوامسه وهي ترقص

* * *

معجون جديد للاسنان

يمنع الالم عند حفرها لحشوها

أذاع الدكتور أوسرمان أحد علماء مدينة نيويورك انهُ توصل الى صنع معجون مخدر لاعصاب الاسنان فيمنع الألم عند حفرها لحشوها وقد جرب هذا المعجون في ٣٦١ حادثة فأصاب نجاحاً باهراً في ٨٣ في المائة منها

لايخفى ان الدنتين — وهو الطبقة الحساسة التي تحت طبقة المينا في تركيب الاسنان — أشد احساساً في بعض الناس منهُ في البعض الآخر. فقد يصاب سن احد هؤلاء بالنخر ويضطر طبيب الاسنان الى حفر السن لتنظيفهِ وإزالة الجزء المصاب قبل حشوهِ ويعاني صاحبهُ أشد الالم عندما يمس المثقب سنه. فاستعمال هذا المعجون عند معالجة هؤلاء بوجه خاص نعمة من نعم العلم على الانسانية

وقد جرب الدكتور اوسرمان ١٣٥ تركيباً كيماويًّا قبلما توصل الى هذا المركب الذي أذاع نبأهُ في اجتماع عام عقدتهُ جمعية طب الاسنان الاميركية في اتلانتك ستي في الصيف الماضي

ولم تقتصر تجربة هذا المعجون والجزء المهم فيه مخدر جديد مركب يدعى (ثيمول امينوبنزويت) على الدكتور اوسرمان وحده بل جرب في عيادة طب الاسنان في مستشفى بيت إسرائيل بمدينة نيويورك فأصاب مجربوه نجاحاً تامًّا في ٨٣ في المائة من الاصابات التي عالجوها (وهي ٣٦١ حادثة) وبعض النجاح في ١٤ في المائة. ولم يكن لهذا المعجون أي تأثير في الثلاثة في المائة الباقية

***

ولكن الدكتور صموئيل غوردن أحد اطباء شيكاغو يشير بالحذر في استعمال هذا المعجون قبل ان يجرب تجارب علمية واسعة النطاق. ذلك ان الحكم على مخدر جديد للاسنان يقوم عادة على ما يقولهُ المصاب او على ما يظنهُ الطبيب وهذا وذاك عرضة للتأثر بعوامل مختلفة فلا يعرف تأثير المخدر في اعصاب الاسنان على وجهٍ من الضبط العلمي. والطريقة العلمية الصحيحة هي أجراء الامتحان على المصابين وهم معصوبو العيون. فيحول ذلك دون ابداء أي قائم على الوهم

شركة مصر للطيران في خمسة أعوام (١)

أسس هذه الشركة بنك مصر في سنة ١٩٣٢ بالاشتراك مع شركة « ايرورك » الانكليزية واحتفظ للمصريين باغلبية الاسهم فيها ولها وحدها حق استغلال الخطوط الجوية بالقطر المصري

وكانت جهود الشركة في بدء تكوينها مقتصرة على إنشاء مدرسة لتعليم الطيران بالماظه وتأجير الطائرات الخصوصية وأعمال التصليح والترميم وايواء الطائرات وظلت مدرسة الطيران مفتوحة منذ إنشائها من خمسة أعوام ويمكن للملتحقين بها الحصول على شهادة علاوة على رخص القيادة حرف «أ» و «ب» . ويتكون اسطول هذه المدرسة من طائرات من طراز « لمبارد موث » و« هورنت موث» و« جيبسي موث» وكلها مجهزة بمعدات القيادة الثنائية . وقد بلغ عدد الملتحقين بهذه المدرسة منذ إنشائها ٦٥٠ طالباً جاز منهم امتحان القيادة ٢٧٨ طالباً وكان الاقبال على الالتحاق كثير التباين من عام لآخر فبينما كان عدد الطلبة ٩٠ في سنة ١٩٣٢ زاد الى ١٢٩ في ١٩٣٣ ثم هبط الى ٣٦ في سنة ١٩٣٤ و ٣٨ في سنة ١٩٣٥ ثم عاد فارتفع ارتفاعاً قياساً في سنة ١٩٣٦ اذ بلغ ٢٦٦ طالباً

وبدأت الشركة استغلال الخطوط الجوية بانتظام في اول أغسطس ١٩٣٣ باسطول مكون من طائرات طراز « دي هافيلاند راجون» ويتكون أسطولها الحالي من طائرات من هذا الطراز مجهزة باربعة محركات سعتها ١٢ الى ١٤ راكباً وأخرى ذات محركين سعتها من ٦ الى ٧ ركاب وجميع طائرات الشركة من احدث طراز ويمكن لها ان تطير بحمولة كاملة وباستعمال نصف قوتها المحركة بسرعة عادية من ١٣٥ — ١٤٥ ميلاً في الساعة

وقد بلغ عدد الركاب في السنة الاولى من أول اغسطس الى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، ٩١٧ راكباً وقطعت الطائرات مسافة قدرها . ٦٧٩٤٠ ميلاً وزاد عدد الركاب في سنة ١٩٣٤ الى ٧٥٢٥ راكباً وقامت الطائرات بنقل ٢٤٠ كيلو جراماً من البريد وبلغت المسافة التي قطعتها ٣٠٣٠٠٩ اميال وفي سنة ١٩٣٥ نقلت طائرات الشركة ٧٠١٦ راكباً و ٢٠٢٦ كيلو جراماً من البريد و ١٩٨٠٥ كيلو جراماً من البضائع وبلغت المسافة التي قطعتها ٤١٩٩٣٥ ميلاً مقابل ١٥٧١٠ ركاب و ٢٧١١١ كيلو جرام من البريد والجرائد و ٨٥٥٨٦٦ ميلاً في سنة ١٩٣٦ أما عدد الركاب في الاشهر الثلاثة الاولى في هذا العام فكان ٣٨٣٨ راكباً وما نقل من البريد ٧٥٨ كيلو جراماً ومن البضائع ٦٤٦٩ كيلو جرام وعدد ما قطعته الطائرات من الاميال ٢٣٩٢٤٣ ميلاً . وتسير طائرات

(١) النشرة الاقتصادية الاسبوعية — وزارة التجارة والصناعة — عدد ١٥ يوليو سنة ١٩٣٧

الشركة بانتظام بين القاهرة والاسكندرية والقاهرة وبور سعيد وتسير في موسم الصيف بين القاهرة — اسكندرية — مرسى مطروح

وفي الشتاء بين القاهرة — اسيوط — الاقصر — اسوان

وفي عام ١٩٣٤ افتتحت الشركة خطوطها الجوية الى الشرق الاوسط مبتدئة بخط القاهرة وفلسطين ثم اعقبته في السنين التالية بخطوط منتظمة الى العراق وسورية واخيراً الى بلاد العرب كما افتتحت الشركة خطاً خاصاً بين جدة والمدينة في موسم الحج من ٧ فبراير الى ٦ مارس سنة ١٩٣٧ وبلغ عدد الركاب على هذا الخط ٢٢٧ راكباً وما قطعته الطائرات ١٤٥٠٠ ميل

وتقوم الشركة بنقل الركاب وامتعتهم من المطارات واليها بالمجان على ان الامتعة الثقيلة التي لا يحتاج اليها المسافرون في اثناء السفر يمكن ارسالها رأساً الى جهة الوصول بغير طريق الجو وبالشركة فرع مختص بالاستئجار الخاص للطيارات لنقل الركاب والبضائع وقد قامت طائراتها بسفريات خاصة الى وسط افريقية وآسيا واوروبا

* * *

فيتامين C لازم لغذاء المصابين

بقرح المعدة

يشير الدكتور رفرز والدكتور كارلسن من اطباء معهد مايو الاميركي بأن المصابين بقرح في المعدة ولاسيما المصابين بميل الى النزيف في المعدة يجب ان يضاف فيتامين C الى طعامهم

وهما يقولان ان غذاء المصابين بقرح المعدة يعوزه هذا الفيتامين على الغالب ولما شاهدا ذلك بالاستقراء في المصابين الذين يعالجانهم اضافا الى غذائهم مقادير معينة من هذا الفيتامين فعاد مقداره في الدم الى حالته السوية وتحسنت حالة المصابين تحسناً بيناً

هذا الفيتامين يكثر في الفواكه النضرة والخضر ومن خصائصه منع النزيف ومن هنا فائدته في اصابات قرح المعدة

وقد اثبت الباحثون اخيراً ان نقص هذا الفيتامين يحدث اضطراباً في انساج الجسم وفي الخلايا فيحول هذا الاضطراب دون امتصاصها بعض المواد المغذية من الطعام الذي يتناوله المصاب به

فاذا كانت الانساج التي تغشي داخل البطن غير سليمة من هذا القبيل لنقص فيتامين C اضطرب غذاء الجسم بوجه عام واصبحت اغشية البطن نفسها عاجزة عن مقاومة التأكل والتقرح. فاضافة هذا الفيتامين الى الغذاء يفيد كثيراً في تحسين الحالة

اعلى تحليق

في اليوم الاخير من شهر يونيو الماضي حلق الطيار الانكليزي ادم أحد ضباط سلاح الطيران البريطاني الى علو ٥٣٩٣٧ قدماً فوق سطح البحر وهذا اكثر من عشرة اميال ويفوق الارتفاع الذي بلغه الطيار الايطالي من عهد قريب بمبلغ ٢٥٧٠ قدماً

وعلى ذكر ما تم للطيار ادم نروي حادثة وقعت للماجور شرويدر الاميركي في سنة ١٩٢٠ فقد حلق هذا الطيار الى ارتفاع ٣٣ الف قدم وعندما بلغه اختل الجهاز الذي يجهزه بالاوكسجين للتنفس فرفع نظارته التي تقي عينيه من البرد القارس لـكي يرى سبب الخلل فلم يستطع لان قلة الاكسجين كانت قد افقدته وعيه فهبطهو وطيارته من حالق كأنهما احد الرجم المنقضة في الفضاء وبقيا هابطين الى الطبقة القريبة من سطح الارض

وكان وجود الاكسجين فيها كان كافياً لانعاشه فاعاد له وعيه فاستيقظ قبل وصوله الى الارض وقبض على زمام طائرته واعاد موازنتها وحط بها سليمة على سطحها

* * *

قهر المحيط الاطلنطي

لقد قهر المحيط الاطلنطي طيارون اميركيون وانكليز وفرنسيون والمان وبولونيون ومجر فطاروا من اميركا الى اوربا او من أوربا الى اميركا ولكن لم تقهره قبل الآن طائرتان صنعتا خاصة لنقل البريد والركاب قامتا في ميعاد مضروب والتزمتا سيراً معيناً بسرعة معينة بقصد التمهيد لانشاء خط للملاحة الجوية المنتظمة بين اوربا واميركا. في اوائل يوليو الماضي طارت الطائرة «كاليدونيا» التابعة لشركة «امبريال اروير» من فوينز القاعدة التي انشئت على نهر الشانون بأرلندة قاصدة الى نيوفوندلند وفي الوقت نفسه طارت الطائرة «كليبر الثالثة» التابعة لشركة «پان اميركان الجوية» من بوتود بنيوفوندلند قاصدة الى ارلندة فقطعت الاولى المسافة في ١٤ ساعة و٢٣ دقيقة والثانية في ١٢ ساعة و٣٤ دقيقة والاختلاف في سرعة الطائرتين سببه ان الطائرة الاميركية سارت من الغرب الى الشرق والريح تدفعها وأما الطائرة البريطانية فسارت من الشرق الى الغرب والريح تواجهها وتخفف من سرعتها

لم يكن الغرض ضرب الرقم القياسي في السرعة ولا في بعد المدى وانما الغرض الامتحان والتجربة — وقد توالت التجارب بعد الامتحان الاول — تمهيداً لانشاء خط جوي منتظم بالاشتراك بين الشركتين الانكليزية والاميركية . وكانت الطائرة البريطانية تزن ثمانية عشر طناً والاميركية كذلك تقريباً

تحويل عنصر الى آخر

«الكلور» الى «ارغون»

في نشرة علمية اذاعها قسم علم الطبيعيات بجامعة برنستن الاميركية ان اربعة من الباحثين فيه تمكنوا من تحويل عنصر الكلور الداخل في تركيب ملح الطعام الى بوتاسيوم اولاً. وهذا البوتاسيوم قصير العمر فلا يزيد عمر ذرته على عشر دقائق واربعة اخماس الدقيقة ثم يتحول الى العنصر الغازي المستعمل في بعض الاعلانات الكهربائية الملونة ونعني الارغون وهو خدن النيون

والطريقة المستعملة تقوم على اعداد مقذوفات سريعة توجه الى عنصر الكلور فتصطدم ببعض ذراته وتحولها

وتصنع هذه المقذوفات من ذرات عنصر الهليوم المستعمل في البلونات وذلك بأن تطلق هذه الذرات في حجرة مفرغة فتصطدم بتيار من الكهارب فتفقد بعض كهاربها وتصبح « ايونات »

وهذه الايونات تعرف ايضاً باسم «دقائق الفا» . فعند ما تتولد هذه الدقائق تدخل جهازاً جديداً يدعى « سيكلوترون » فتدور فيه دوراناً رحوياً فتتزايد سرعتها وزخمها حتى تبلغ سرعتها نحو ١٥ الف ميل في الثانية فتقذف حينئذٍ الى ذرات الكلور فتحولها الى بوتاسيوم قصير العمر فالى غاز الارغون

* * *

الادرينالين في علاج الملاريا

الادرينالين هو الاسم الذي أطلق على مفرزات الكظرين وهما الغدتان اللتان فوق الكليتين. ويستعمل عادة في تنشيط القلب ورفع ضغط الدم

أما الآن فقد ظهر انهُ يفيد في علاج الملاريا وأعلن الدكتور الاستاذ اسكولي رئيس العيادة الطبية بجامعة بالرمو الايطالية انهُ بدلاً من الكينا يحقن المصابين بالملاريا في الاوردة حقناً يومية تحتوي على الادرينالين وقد وجه رسالة بهذا المعنى الى المجلة الطبية الالمانية المعروفة باسم « مونشنر مديزينش وشنشرفت »

ويعتقد ان فائدة الادرينالين في علاج الملاريا ناشئة عن ان الادرينالين ينقص مقدار الدم في الطحال . والطحال هو المكان الذي تتوالد فيهِ جراثيم طفيلي الملاريا . فنقص الدم في الطحال يجعل المكان غير موات لمعيشة هذه الجراثيم وتكاثرها . ويقول الاستاذ اسكولي علاوة على ما تقدم انهُ وجد الادرينالين مفيداً في اصابات الملاريا المزمنة والحديثة وفي علاج تضخم الكبد وفقر الدم والضعف العام الناشىء عن الملاريا

اختراع قد يقلب صناعة الادوات البصرية

عدسات ولكنها ليست من الزجاج

عدسات النظارات والمراقب والمجاهر والمصورات الضوئية تقع على الرخام فلا تكسر وتطرق بالمطارق فتقفز كأنها مطاط ولا تتشظى ولكنها مع ذلك تصنع الفاً وخمسمائة في الساعة ولا تحتاج الى صقل اي انها تخرج جاهزة للاستعمال

يخترع هذه العدسات شاب في الثانية والثلاثين من العمر هولندي الاصل انكليزي النشأة والجنسية تقلب في اعمال مختلفة فكتب بعض الاناشيد اللطيفة المتداولة وصنع نماذج لطائرات كسب بها احدى الجوائز الدولية ثم انصرف الى صنع العدسات المتقدمة من مادة عجيبة القوام

اسم هذا الشاب بيتر كوخ ده غوريند. وقد اطلعنا على صورة عدسة من هذه العدسات ثخانتها تسع بوصات ونصف بوصة ومن خلالها ظهر وجه فتاة فاذا هو نقي النقاء كله واضح في جميع التفصيلات فكأنك ترى شبحها في مرآة صافية لا من خلال تسع بوصات ونصف بوصة من مادة مركبة غير مصقولة

اما المادة التي تصنع منها هذه العدسات فمادة راتينجية مركبة مبنية على أساس مركب كيمياوي يدعى « مثيل متاكرايلايت » وامتياز صنعه لشركة الصناعات الكيمياوية بانكلترا ولشركة دوبون بأميركا

فاذا صح وتحقق كل ما يزعم في هذا الصدد فلا بدّ ان يفضي هذا الاختراع الى قلب صناعة الادوات البصرية على اختلافها رأساً على عقب فيصير في متناول كل انسان ان يحرز مصورة ضوئية (كاميرا) ونظارة مقربة ومرقباً صغيراً اذا كان من المغنين الهواة ومجهراً اذا كان يهوى دراسة الاحياء الدقيقة دراسة لذة ومتعة

ويقدر الباحثون انه اذا صح ما تقدم فالمصورة الضوئية التي ثمنها الآن عشرة جنيهات تصبح وثمنها لا يزيد على ١٦٠ قرشاً ويغدو في امكان من يشاء ان يبتاع نظارات خاصة من نظارات الاوبرا المستعملة في المسارح بستين قرشاً

ويزعم ده غوريند وزميله كنفستون انهما يستطيعان ان يفرغا هذه النظارة في قوالبها المعدة لها فلا يبلغ الخطأ في تحدبها او تقعرها اكثر من جزء من ١٠٠٠٠ر١٥٠٠ جزء من البوصة

وقد امتحن احد علماء الجمعية الملكية بلندن احدى هذه العدسات وهي عدسة محدبة فوجد ان دقة تحدبها تجعلها صالحة للاستعمال في النظارات ولكنها لا تصلح كما هي الآن للادوات العلمية الدقيقة. ومن غرائب ما يروى عنها ان احد المرتابين في هذا النوع من العدسات

اخذ عدسة وضغطها ضغطاً شديداً حتى تشوه شكلها وهي مضغوطة فلما رفع الضغط عنها عادت الى شكلها الاصلي . وعرضها آخر لحرارة خمسين مئوية ربع ساعة ففقدت صفاءها فلما عادت الى حرارتها الطبيعية استعادت ذلك الصفاء المفقود ولعل هذا يجعل استعمالها في البلدان الاستوائية الحارة متعذراً الا اذا تمكن المستنبط من التغلب عليه

ويعترض صانعو النظارات التي يستعملها الناس لتصحيح نظرهم بأن العدسات التي يستعملها كل انسان تختلف عن عدسات غيره فتصقل وفقاً لوصفة الطبيب فكيف يمكن ان تصنع عدسات جاهزة للناس . ويرد ده غوريند بانهُ اذا صنع من ٤٠٠ الى ٥٠٠ قالب مختلف تمكن من ان يصنع بها ٦٠ الى ٧٠ في المائة من العدسات التي يستطيع الناس استعمالها كما هي

* * *

« الوسكي » سم ناقع

لمن يتناول الاستركنين

وجه الدكتور جاك نوريس في الاجتماع الذي عقدته الجمعية الاميركية للباثولوجيين في فيلادلفيا تحذيراً الى جميع الذين يعالجون المرضى بأحد العقاقير المحتوية على الاستركنين بأن تناول الوسكي يفعل فيهم فعل السم الناقع

فقد أثبت الدكتور نوريس أن مقادير يسيرة جداً من الاستركنين والوسكي المستخرج من الذرة سم قتال فكلاهما يقلل من نشاط أعضاء واحدة ولا سيما القلب وأعضاء التنفس

ويقول هذا الطبيب ان الذين يموتون متأثرين بشرب الوسكي يجب ان تفحص جثثهم لمعرفة هل فيها أي أثر لسم الاستركنين لان بعضهم استعمل هاتين المادتين لارتكاب جناية القتل

ففي احدى حوادث القتل اعترف القاتل بأنهُ أغرى القتيل بتناول جرعة من الوسكي فيها مقدار من الاستركنين ثم أخذ يغريهِ بالشرب مبالغة في اكرامه فلما انصرف تبعه القاتل عن كثب حتى رآهُ وقد أخذه تشنج الصرع ووقع في الشارع ميتاً

وفي حادثة أخرى حصل الموت فيها من تناول المادتين معاً اتفاقاً

وقد جرب الدكتور نوريس تجارب بالحيوانات تبين منها ان تناول هاتين المادتين معاً يقتل الحيوان في مدى نصف ساعة الى ساعة بصرف النظر عن أيهما تجرع أولاً



دليل دار الآثار القبطية

للآثار المصرية ثلاث دور رئيسية في القاهرة . اولاها وأشهرها وأقدمها دار الآثار المصرية الفرعونية ، وثانيتها دار الآثار العربية ، وثالثتها دار الآثار القبطية . وكل متتبع لارتقاء الفنون المصرية وتحولها لا غنى له عن زيارة هذه الدور على أن تكون زيارته الثانية لدار الآثار القبطية لان الفن القبطي حلقة اتصال بين فنون الفراعنة قبله والفنون الاسلامية بعده

وتاريخ الفن القبطي قسمان كبيران احدهما يمتد من القرن الرابع الميلادي الى القرن العاشر وتغلب عليه سمات التأثير اليوناني والبيزنطي . والقسم الثاني من القرن العاشر الى عصرنا هذا والسمة الغالبة هي سمة الفن الاسلامي في العصر الاول . ترى العوامل الفنية بارزة في صور اشخاص وحيوانات ومشاهد للصيد واللعب والموسيقى والرقص والصور النباتية . أما في العصر الثاني ، ولاسيما بعد عهد صلاح الدين فتزول صور النبات والحيوان تقريباً ويحل محلها الرسوم الهندسية البديعة والصليب فيها دائماً

ان جمع آثار هذا الفن المصري العريق وترتيبها في دار خاصة بها والدعوة الى العناية بها يعود الفضل الاول فيه الى صاحب السعادة مرقص سميكة باشا مؤسس هذه الدار ومديرها وعضو لجنة حفظ الآثار العربية وعضو مجلس دار الآثار العربية الاعلى

فقد اسست دار الآثار القبطية في سنة ١٩٠٨ باكتتاب عام اشترك فيه اعيان الاقباط واصدقاء الفن من جميع الطوائف والجنسيات وتوج قائمة الاكتتاب المغفور له السلطان حسين كامل وكان اميراً حينئذ وانشئت مباني الدار في ارض موقوفة على الكنيسة القبطية اقتطعها لهذا الغرض المرحوم غبطة البطريرك كيرلس الخامس وعلاوة على ذلك سمح باستعمال الآثار القبطية المختلفة المنتزعة من انقاض الدور القديمة التابعة للطائفة القبطية

على هذا الاساس مضى مرقص سميكة باشا بهمة لا تعرف الكلال ولا الملل فترعرعت الدار بين يديه واتسعت مجموعاتها ورتبت فلما كانت سنة ١٩٢٠ تفضل المغفور له الملك فؤاد الاول فزار الدار وكان هذه الزيارة الملكية كانت باعثاً على توجيه عناية خاصة اليها فأخذ نطاقها يتسع اتساعاً سريعاً . وفي يناير سنة ١٩٣١ الحقت الدار الحاقاً رسمياً بالدولة مع احترام حقوق وقف الكنائس

بعد أن كانت ملكاً للبطريركية فهي بهذا الالحاق تابعة لمجلس ادارة برأسه وكيل وزارة المعارف والدار قائمة في مصر القديمة داخل الحصن الروماني القديم المعروف بحصن بابليون والمرجح ان هذا الحصن شيده طريانوس الامبراطور الروماني في القرن الثاني الميلادي

الا ان سميكة باشا لا يألو جهداً لجعل محتويات الدار في متناول الجمهور المثقف من المصريين والافرنج فأكبَّ بعد إنشائها وتنظيمها على وضع دليل لأهم الآثار المحفوظة فيها وبين يدينا نسخة من هذا الدليل النفيس باللغة الفرنسوية يشتمل على ١٦١ صفحة من الصور المتقنة على الورق الصقيل و ٨٢ صفحة من الوصف العلمي المدقق لها وقد صدره بصورة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول وبصورة جلالته ومعه شقيقتاه الاميرتان فائزة وفوزية عند زيارتهم للمعرض في شهر يونيو من سنة ١٩٣٥ وبصورة المغفور له الملك فؤاد يحف بهِ اقطاب الدولة عند زيارة جلالته للمعرض في دسمبر سنة ١٩٣٠ واهداه الى ذكر العلامة الفريد بطلر وهو اول من عني بدرس علم الآثار القبطية وصاحب المؤلفات المشهورة في «الكنائس القبطية القديمة في مصر» الصادر سنة ١٨٨٤ «وفتح العرب لمصر» وغيرهما

والدليل أقسام كل قسم منها يشير الى مجموعة بعينها من محتويات الدار كالآثار الخزفية والخشبية والمعدنية والمنسوجات ويحتوي على صور أهم هذه الآثار ووصفها . ويتبعهُ وصف لاهم الكنائس القديمة في القاهرة

فالكتاب ليس دليلاً للدار فقط بل هو وصف تاريخي فني للفن القبطي من جميع وجوهه، فنهنىء سعادة سميكة باشا بهِ ونشكر له هذه العناية العظيمة التي لا تقوَّم من ناحية التثقيف التاريخي الفني عال

* * *

أبو شادي الشاعر

رسالة بالانجليزية في ٤٠ صفحة مذيلة بمختارات متنوعة تقع في ٥٠ صفحة بحجم المقتطف

الزهاوي الشاعر

رسالة بالعربية في ٤٥ صفحة من قطع المقتطف ايضاً

الدكتور اسماعيل احمد ادهم حر الفكر الى ابعد حدود هذه الحرية، صريح الى غاية بعيدة من الصراحة، جريء يتصدى لموضوعات يحتاج الباحث فيها الى شيء من التهيب. وهو يلقى من جراء افكاره ومن اجل صراحته وجرأته كثيراً من ضروب العنت والاضطهاد. على ان من بواعث هذه الجرأة حياة الكاتب زمناً وسط بيئات انقلاب فكري واجتماعي

استطاع فيها ان يكوّن لنفسه خطة واتجاهاً يستوقفان النظر ، اضف الى ذلك المحصول العظيم من الثقافة العالية التي استطاع الكاتب ان يلم به في سن مبكرة فهو ما يزال في العقد الثالث من عمره وقد حصل على بكالوريوس العلوم ثم على درجتي Sc. D., Ph. D. في العلوم وفلسفتها من جامعة موسكو سنة ١٩٣٣ كما انعم عليه من هذه الجامعة بدرجة الدكتوراه الفخرية في الآداب ثم اختير عضواً في اكادمية العلوم الروسية فوكيلاً للمعهد الروسي للدراسات الاسلامية . وكان استاذاً للرياضيات العالية بجامعة بطرسبرج وهو الآن استاذ التاريخ الاسلامي بجامعة الاستانة ومنتدب لدراسة الحياة الاجتماعية والادبية في مصر من قبل هذه الجامعة

وقد اكسبته دراسته العلمية اسلوباً خاصاً يظهر في بحوثه الادبية من حيث التحليل والتمحيص . فأما رسالة « ابو شادي الشاعر » فهي دراسة وضعها بالانكليزية أتى فيها بطرف من حياة الشاعر ثم انتقل منها الى ادبه والى العوامل الجديدة التي أثرت في شعره عند انتقاله من وطنه الى انكلترا ثم رد هذا الشعر الى اقسام ثلاثة وتكلم عن كل قسم محللاً ذلك في امانة علمية ودقة نقدية بارعة

***

وأما رسالته عن الزهاوي فهي امتع دراسة ظهرت حتى الآن عن هذا الشاعر تناول فيها الكاتب الكلام عن الادب العربي بين المدرسة القديمة والحديثة والتضارب في الرأي بينهما وخصائص هذا الادب وعدم تجرده عن الذاتية وسكونه وأثر البيئة والطبيعة في ذلك وقصوره عن التصوير وطرق ساحات مختلفة من الحياة راداً ذلك الى الدين واللغة والطبيعة وانتقل من ذلك الى الكلام عما ورثه الادب الحديث من خصائص الادب القديم وعن النهضة الحديثة وعواملها بعد عصور الانحطاط التي انقضت من اواخر العصر العباسي الى القرن التاسع عشر ثم تأثر الادب العربي بعد ذلك عند اتصال الحياة الشرقية بالحياة الغربية ثم انتقال الآراء الحديثة الى العراق عن طريق الادب التركي . ثمّ الى الكلام عن حياة الزهاوي والعوامل التي أثرت فيه واتصال ادبه بحياته وعناصر ادبه الاساسية وخصائصه ثم نفسيته وروحه وتغلب الفلسفة والتأمل في شعره ثم الحب والتصوير والوصف وتعرضه لمبادىء الطبيعيات وفكرة الفضاء عنده ومقارنتها بما يقابلها عند اينشتين الى غير ذلك ثم انتقل الى الكلام عن شعره مع تحليل دقيق ثم بيّن اثر المعري وحامد عبد الحق وهيغو ودانتي في ملحمة الزهاوي « ثورة في الجحيم » . ولعلنا نستطيع في فرصة اخرى تناول هذه الدراسة الحية التي اخرجها المؤلف مقدمة لكتابه الذي يضعه بالالمانية عن هذا الشاعر

الصيرفي

ديوان العواطف

للشاعر النجفي محمد صالح بحر العلوم

ديوان يقارب ما بين دفتيه الاربعين قصيدة عدا — الرباعيات والثلاثيات وبعض المزدوجات. وقد آثر الشاعر نظم قصائده على هذا الغرار الذي جنح اليه دعاة التجديد في تنوع قافية القصيدة . وإذ صح ارتباط القصيدة بغرض تنشد فيه فالديوان إلاَّ أقله يعد قصيدة واحدة مختلفة البحور والقافية، اذ لم يتجاوز إنشاد الشاعر ثورته على المظالم، وإهابته الصارخة بمواطنيه أن يتحرروا من الخنوع للمستبدين ويحطموا الاغلال التي ترسف فيها أوطانهم . وما رباعياتهُ الغرامية في الديوان إلاَّ كموقف فكه مضحك بين فصول الدرامة المحزنة ! وقد عقد الشاعر اللواء في كل مقطوعاته للفكرة والغرض ، فأهمل لغة الشعر بل وأقحمها في معظم قصائده حتى اقترب في الاسلوب من العامية . ومن ذلك قوله يصف الشعب

فأذاق الشعب محلول النفاق   فهوى يرضخ في تخديره
كلما حرر تحرير العراق   شطب الخصم على تحريره

« فأذاق الشعب محلول النفاق » تعبير سرى إلى العامة من لغة الصيدليات ! « وشطب الخصم على تحريره » كذلك لغة عامية إذ الشطب في لغة العرب هو الترميج . وقد كرر الشاعر كلمات محلول وغاز وميكروب وغيرها مما يعطينا فكرة عن وجهته اللفظية ! ففي قصيدة يقول

يخدّر محلول المكايد عزمهم   وآفة عزم الشرق هذي المكايد

وفي مطلع قصيدة العقائد :

بعض العقائد وهي غاز قاتل   من نشرها تتسمم الاجواء

وقد رأيناه يستخدم الالفاظ العربية في غيرما وضعت استخداماً يثير الغرابة من غير شك كقوله

فربضنا فوق أتلال الخمول   نبتغي الخير ليفنى شره

ونسي أن ربضة الاسد فيها تحفز ومهابة ، وأن الخمول هبوط وانحلال . ويعوز هذا الشاعر عمق الخيال والحكمة فشعره قوي الصلة بالعواطف ، ولا شك أن العاطفة سطحية التأثر فيها طفولة بريئة !!

وإذا كان هذا الديوان ثمرة عاجلة للشاعر فنحن في انتظار ثماره اليانعة ولكل حياة مستهل ولكل نصر طليعة

عبد الحميد الديب

واحة الغريب

١٠٩ صفحات من القطع المتوسط — طبع مطبعة حجازي بمصر

عبد السلام رستم شاعر صادق العاطفة يصور بشعره ما ينعكس مع مرآة نفسه في غير بهرج أو تزوير ، ولهذا يشعر القارئ في واحته بظل هادئ هو أثر من نفس هذا الشاعر الهادئة العاكفة في سكونها ، والقانعة بطمأنينتها والعازفة عن ضجيج الاعلان وطنطنة الظهور ولعل أبياته من قصيدة « الأدب فطرة » تؤيد ذلك :

ربّ أُنشودة أبيت أُغنيها بما نالت الحوادث مني
فاذا قلت كان حسبي أن أنطق بالقول صادقاً لا أُمني

وهذا الشاعر من أكثر الشعراء الذين تأثروا بابن الرومي في الغوص على المعاني حرصاً على ان تكون ألفاظه لباساً ناعماً لمعانيه ليس فيه من الخشونة ما ينفر أو يضعف قيمة المعنى ، وهو الى جانب ذلك وصّاف ينقل عن الطبيعة لوحاته بألوان تبعث الهدوء والتفكير ، وهو يتخيل لصوره دائماً ألواناً رقيقة وظلالاً خفيفة وفي قصيدته « في سكون الليل » و« الغروب » وهي قصيدة من الشعر المرسل و « الربيع والحب » و« الشتاء » و « الشمس في مطلع الفجر » وهي من أروع قصائده دليل على صدق هذا . ومن أبدع قصائده التي تصور نفسه تمام التصوير قصيدة « النفس الجانية » وفيها يقول

أراجع نفسي في ذنوب أتيتها فأنفر منها بالكراهة والبغض
ويؤلمني عتب الضمير مؤنباً عليها ، ومالي من سبيل الى الغمض
اذا كان للجاني قصاص بجرمه فان قصاصي لوم بعضي على بعضي
وشتان ما بين القصاصين انما قصاص ضمير المرء أنكى في المضّ
مصيبة نفسي عند نفسي ، فليتني تبدلت نفساً لا تبالي بما تمضي !

* * *

Ancient Egypteian Dances. By. Irena Lexova
Oriental Institute Praha 1935 مطبعة

الرقص المصري القديم — للمؤلفة التشيكوسلوفاكية — ايرينا ليكسوفا وهي الرسالة التي نالت عليها درجة الدكتوراه من جامعة براغ

اهدت اليّ هذا الكتاب النفيس لقراءته اولاً وللاحتفاظ به ثانياً السيدة الفاضلة مدام Haisova من فضليات نساء تشيكوسلوفاكيا في مصر وأوسعهن ثقافة واكثرهن غراماً بمصر وكل ما يتعلق بها

والكتاب رسالة علمية تقدمت به المؤلفة الى جامعة براغ فأحرزت به شهادة الدكتوراه بعد جهد طويل وتعب متصل . ويمتاز بأنه على الرغم من منحاه العلمي فانه لا يسئم القارئ بل يزيده

شغفاً بمطالعته . فكل ما فيه مفيد لذيذ . وقد تناول كل ما يتعلق بالرقص وآلاته وملابسه وحركاته وانواعه بعبارة انجليزية سامية يرجع الفضل فيها الى مترجم الكتاب من اللغة التشيكوسلوفاكية الى الانجليزية الاستاذ K. Haltmar

ومن لطائف هذا الكتاب أن ملوك مصر القدماء أُغرموا بالرقص غراماً شديداً . ولقد ارسل الملك « بيبي نفركار » من ملوك الاسرة السادسة رسالة الى « هركوف » زعيم الحملة التي ارسلت الى « أمام » يقول فيها : — (انشر قلوعك على عجل على مياه النهر الى قصر الملك. أسرع واحضر معك العملاق الذي جلبتهُ من ارض الارواح . متعتهُ الآلهة بالعمر الطويل ! والصحة والصباحة ! حتى يعود الينا ويرقص بيننا الرقصات المقدسة ، ليدخل السرور على قلب الملك « نفركار » ملك مصر العليا والسفلى . متعتهُ الآلهة بالعمر الطويل !)

وكان المصريون القدماء يرقصون على الاموات ترحماً عليهم وحنيناً اليهم . وذلك النوع من الرقص يتكون من المعزين والمعزيات يرقصنَ على ايقاع منتظم من تصفيق يحدثهُ بعض المشتركين في العزاء . وهناك نوع آخر منهُ يقدم الى روح الميت في مناسبات بعيدة لايناسه في قبره. ويؤيد هذا القول رسالة ارسلها الملك « خبركار » من الاسرة الثانية عشرة الى « سنوحيت » من رجال بلاطه يقول فيها (. . . . وبعد الوفاة سيتقدم موكب جنازتك الموسيقيون ، وستنظم الرقصات المقدسة على باب قبرك)

وكان رقص الجماعات او Group Dances معروفاً عند المصريين . ولم يكن هذا النوع من الرقص منسجماً بين المشتركين فيه فلكل راقص او راقصة خطوة وحركة مختلفة عن خطوات زميله وحركاته . وكانت هناك رقصة شائعة مكونة من ثماني راقصات في صفين يرقصنَ رقصاً منتظماً على نغم متساوق من فتاتين ينقران بالدف

ولقد ابدعت مؤلفة الكتاب في وصف ملابس الرقص وصفاً يدل على اهتمامها وعنايتها بالموضوع الذي اخذت على نفسها الكتابة فيه . فوصفت رقص العاريات وانصاف العاريات . ووصفت قمص (جمع قميص) الرقص الشفافة اللاصقة بالجسم او المنفرجة الواسعة (وقد شاهدت صوراً منها على جدران بعض مقابر وادي الملكات بالاقصر)

واكثر من نصف هذا الكتاب مخصص لنماذج من الرقص نقلتها المؤلفة عن نقوش وصور محفوظة في اشهر متاحف العالم . وقد اضافت الى هذا العمل الجليل عملاً اجلَّ بأن تكلمت عن اصل هذه الصور ومكان حفظها وشرح موجز لها مما يجعل لعملها قيمة تاريخية جليلة

وبعد : فانني قرأت ولازلت اقرأ كتاب Literary History of The Arabs لمؤلفه نيكلسون فاستحي ان يقال عنا إنا ندرس آداب العرب على اساتذة من الغرب (بالغين المعجمة) .

والآن فرغت من قراءة كتاب الرقص المصري القديم لكاتبة غربية فيعاودني الاستحياء . ويعلكني الاعجاب بهؤلاء الباحثين الصابرين المنصورة محمد عبد الغني حسن
عضو بعثة سابق

* * *

رواية وثبة العرب — تمثيلية

تأليف خليل ابرهيم النبوت — صفحاتها ٦٥ مزينة بالرسوم —
طبع المطبعة التجارية في بوانس ايرس

لو تقصّى المؤلف النظر في روايته اكثر مما فعل لأوجد فيها حبكة مسرحية تحمل المطالعين أولاً والنظارة ثانياً على النسيان انهم ازاء استعادة قلمية لجانب من تاريخ العرب عامة وسورية خاصة ، فبعض الهنات التي انبثت بين المشاهد — وقد كان من السهل اجتنابها — تفقد التناسق الذي لا غنية عنه في الرواية التمثيلية

استعرض المؤلف — وهو الاديب خليل ابراهيم النبّوت — ما قام به شهداء العرب على زمن جمال باشا في سورية من حوادث جريئة سبقت الثورة التي اشعلها المغفور له الملك حسين واعدّ وقودها نجله الامير فيصل فتقيد — في استعراضه — بالتاريخ تقيّداً يشكر عليه في عصر كادت تصبح فيه الرواية اداة لتشويه التاريخ

يبدو من خلال فصول الرواية الاربعة السبب في موت نخبة من مفكري الضاد عهدئذ على اعواد المشانق ، ويتجلى واضحاً الدور الذي لعبهُ القائد التركي المذكور آنفاً لاتهام فيصل بالاشتراك مع الشهداء ، ثم سفر هذا الى البادية وتحريضه اهلها على الثورة ، ويوفق المؤلف في ختام روايته بانزال الستار على مبايعة المرحوم فيصل في دمشق ، كما يوفق ايضاً في استهلالها بتبيان المصاعب والعقبات التي كان يستهدف لها الأحرار لعقد اجتماعاتهم بعيداً عن أنظار الحكومة

الى جانب هذه الحسنات نجد مآخذ ، منها ان حضرة الاديب النبوت اراد ان يرصع روايته النثرية بابيات شعرية ففاتهُ حسن انتقائها وفاتهُ حسن انتقاء الاشخاص الذين كان يجب ان يتكلموا في بعض المواقف نظماً . ولو انهُ — مثلاً — اعفى فيصلاً من إنشاد قصيدة في المشهد الرابع من الفصل الاول و « رياضاً » ابن الشيخ ع من إنشاد قصيدة أخرى في المشهد الخامس من الفصل الثالث لكان زاد في قوة هذه المشاهد

اما لغة الرواية فمكشوفة المقاتل ، وقد اندست فيها اغلاط جعلت تعابيرها مشوشة في مواضع

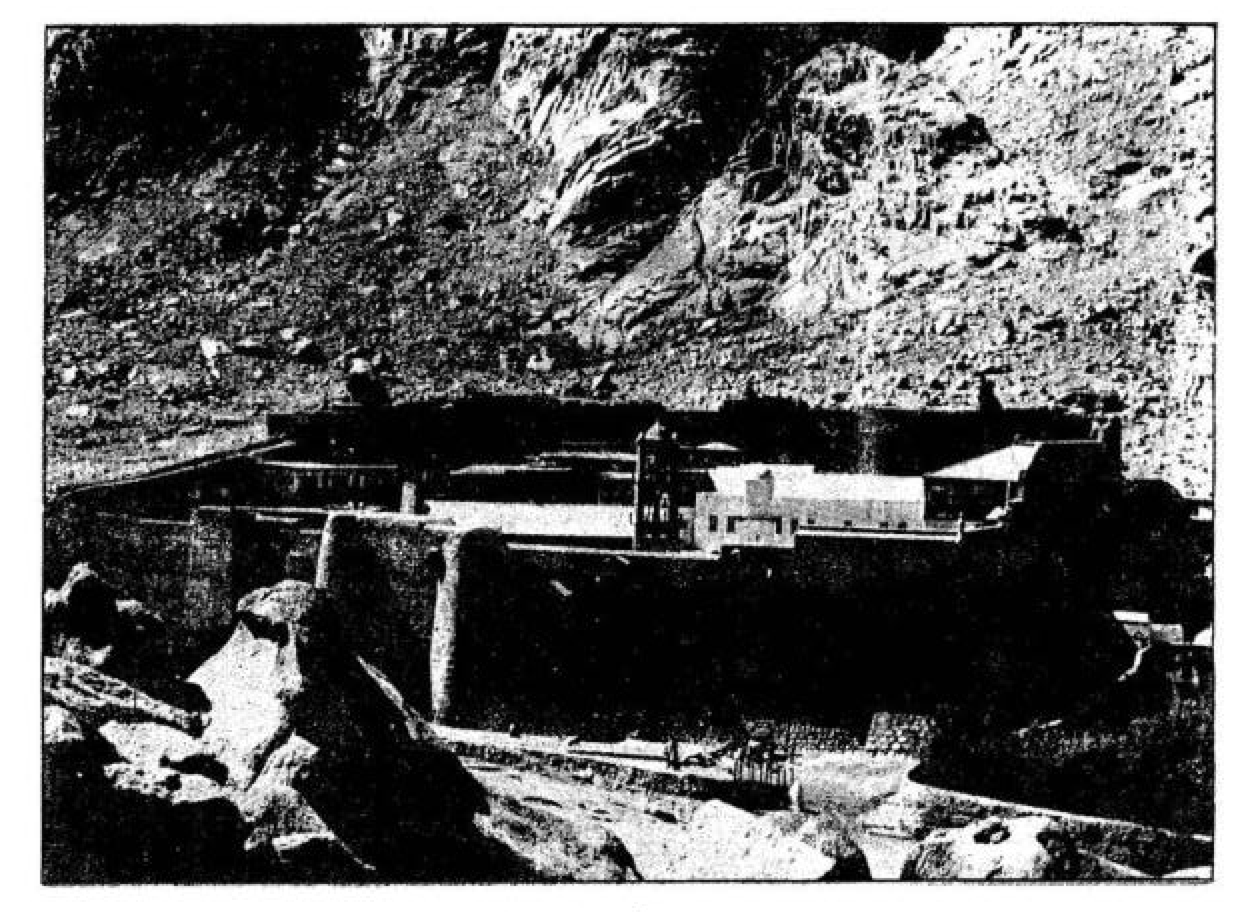
ولا ندحة — مع ذلك — عن الثناء على المؤلف لاختياره « موضوعاً » عربياً فان حاجتنا ماسة الى روايات تذكرنا بماضينا ، هذا الماضي الذي كدنا ننساه وهو طافح بالمآثر الغر والامجاد الخالدة عاصمة الارجنتين الياس قنصل



امير العصر اللاسلكي

جوليلمو مركوني

١٨٧٤—١٩٣٧



دير سانت كاترين بطورسينا



الفيلسوف رينيه ديكارت

René Descartes



مشكلة البحر المتوسط

ملخص مقال

لوليم لانجر

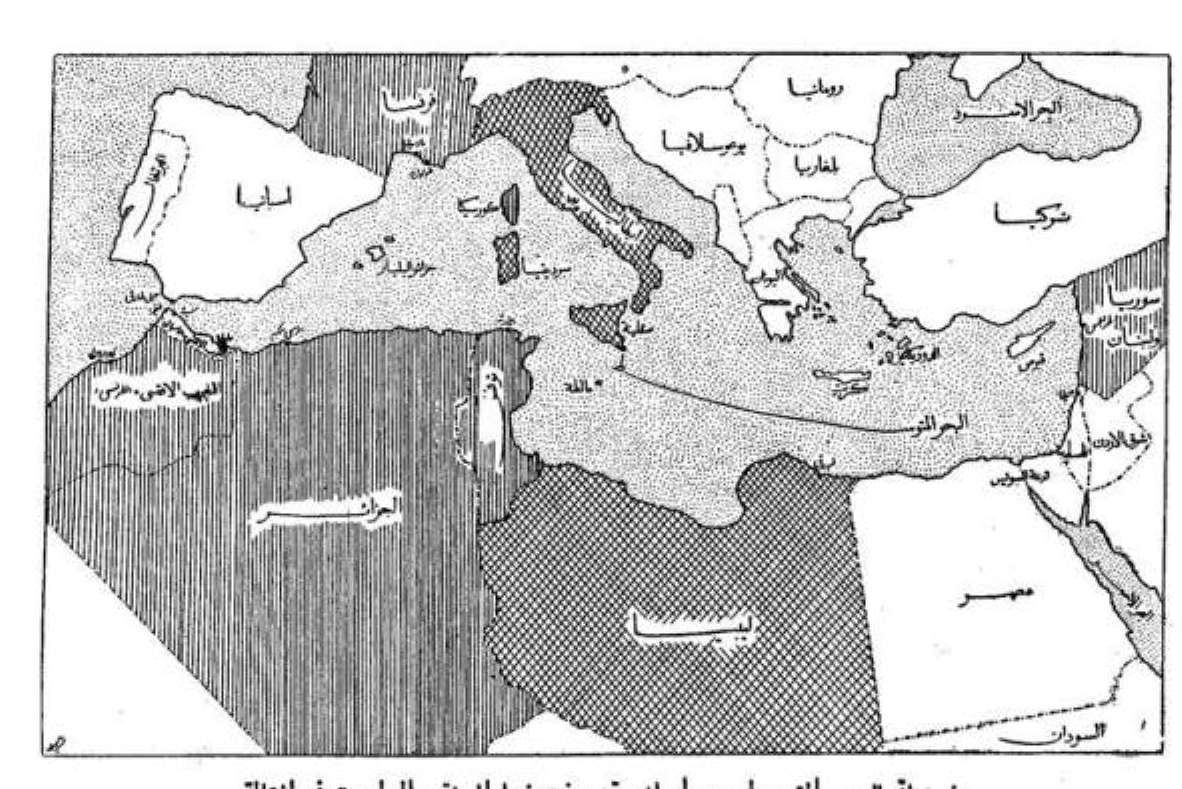
استاذ التاريخ الحديث بجامعة هارفرد الاميركية

الحرية المختنقة

استاذ تاريخ في اميركا يصف اعتناقه الشيوعية

ثم انسحابه منها

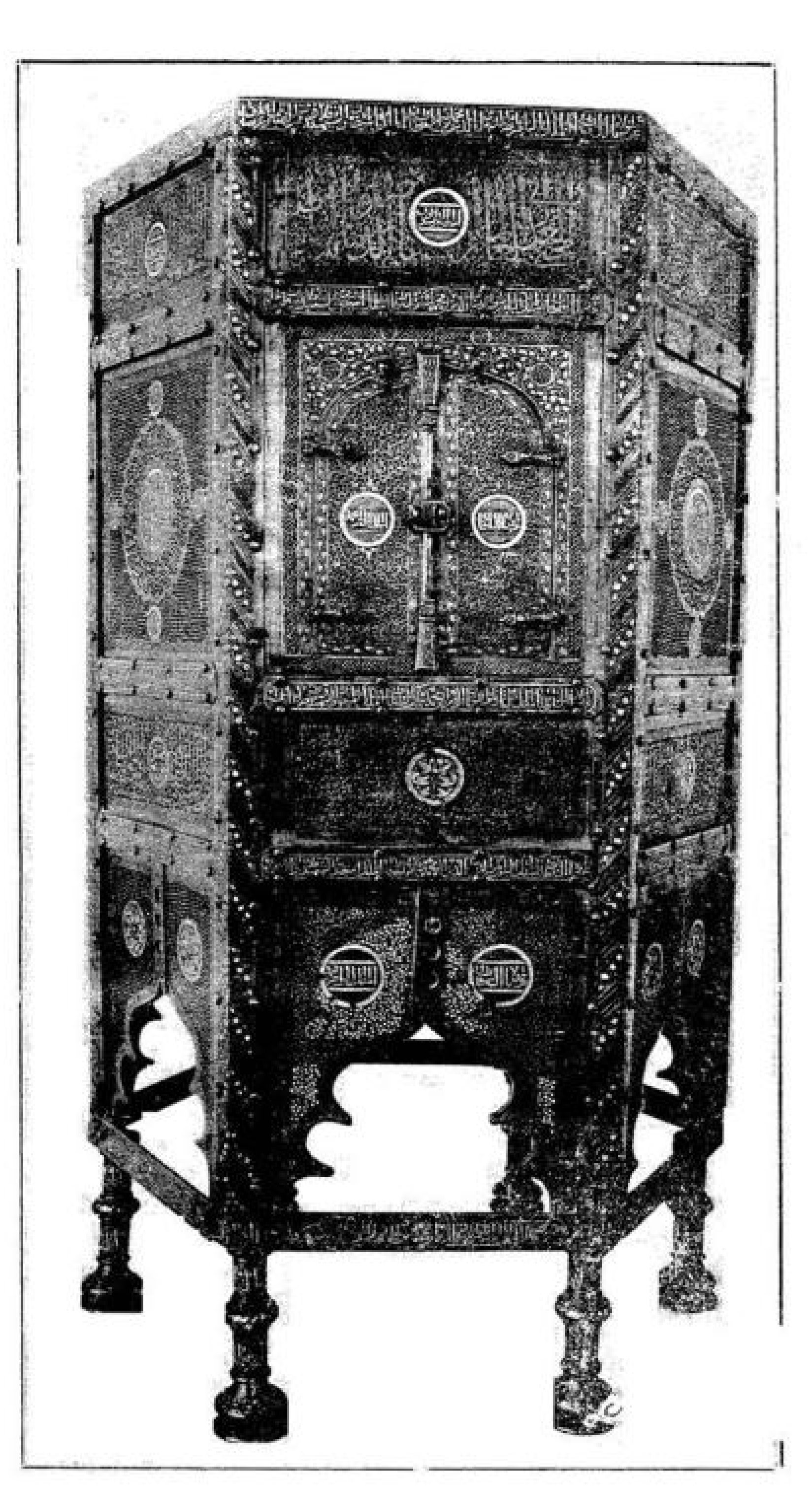
للاستاذ ستيورت براون



خريطة للبحر المتوسط وسواحله وقد بينت فيها المواقع الواردة في المقالة

من آيات الفن الاسلامي

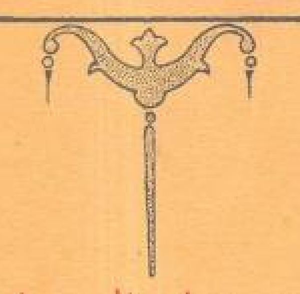
مائدة (كرسي) من النحاس ، مخرم ومنقوش ومكفت بالذهب والفضة. كان في مارستان الملك الناصر قلاوون وهو على شكل منشور ذي ست أضلاع . وسطح هذا الكرسي وجوانبه مزينة بالزخارف الهندسية والنباتية والخطية وفيه صور بط يطير . ومن الكتابات المنقوشة عليه العبارتان الآتيتان : « عز لمولانا السلطان الملك الناصر العالم العامل المجاهد المرابط المثاغر المؤيد المنصور سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيي العدل في العالمين نصير المظلومين من الظالمين ناصر الملة المحمدية ناصر الدنيا والدين ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي » و . . « عمل الفقير الراجي عفو ربه المعروف بابن المعلم الاستاذ محمد بن سنقر البغدادي السناي وذلك في تاريخ سنة ثمانية وعشرين وسبعمائة في أيام مولانا الملك الناصر عز نصره » (زكي محمد حسن)

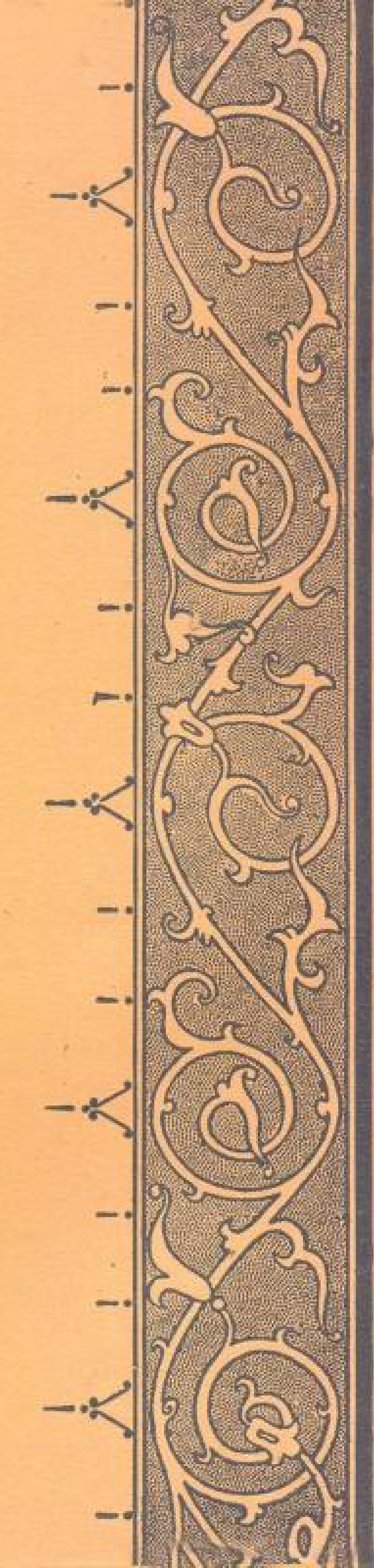


الجزء الثالث من المجلد الحادي والتسعين



المقتطف





مستقبل العمران

الحب : لادلر

العلم : لهكسلي

التعليم : لولز

الاسرة : لرسل

الاقتصاد : لتشايس

رجال الشهر

غازورذي ، غاندي ، سايس ، صديق بك

الازمة الاقتصادية

واشتباك المصالح الدولية

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الحادي والتسعين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٧ — ٢٧ شعبان سنة ١٣٥٦

سر التماسك الكوني

ما القوة التي تربط اجزاء الذرات ؟

قوام الذرات

تحتوي قطرة الماء على مائتي مليون مليون مليون جزيء من الماء . لم يقم أحد بأحصاء هذه الجزيئات ولكن عددها مستخرج من قسمة وزن القطرة على وزن الجزيء. ذلك أن قطرة الماء تزن ٠٠٠٠٠٠ر٠٠٠٠٠٠ر٠٠٠٠٠٠ر٣٦٠٠ وحدة ذرية وجزيء الماء يزن ١٨ وحدة ذرية . ثم ان الجزيء لا تمكن رؤيته بأقوى المجاهر ولكن للعلماء أساليب طبيعية وكيماوية لعزله وقياسه فلندخل هذا العالم الخفي عن الانظار

أطلق تياراً كهربائياً في إناء يحتوي ماء وإذا جزيئات الماء قد أخذت تنحل كل منها ينحل إلى ثلاثة أجزاء جزء أكسجين وجزئين إيدروجين وهذه الاجزاء هي ذرة الاكسجين وذرتا الايدروجين التي يتركب منها جزيء الماء . ثم هناك وسائل أخرى تمكن العلماء من حل هذه الذرات إلى أجزاء أصغر منها هي البروتونات والالكترونات ففي ذرة الايدروجين عدد معين منها (بروتون واحد والكترون واحد) وفي ذرة الاكسجين عدد معين منها هو غير العدد الخاص بذرة الايدروجين

وعنصر الايدروجين يستوقفنا بوجه خاص فهو على ما يظهر أكثر العناصر في الكون وذرته أبسط

الذرات تركيباً . البروتون الثقيل الوزن (بالقياس الى الالكترون) في المركز ، والالكترون خارجه وحوله . البروتون موجب الكهربائية والالكترون سالبها

هذا البروتون في ذرة الايدروجين هو نواتها . ولو أُتيح لنا أن نكبر هذه الذرة حتى تصبح نواتها في حدود النظر الانساني لكان المسلك الذي يسلكه الالكترون حول النواة يبعد عنهُ ست أقدام . فذرة الايدروجين معظمها خواء والمسافة بين دقيقتيها كالمسافة بين الارض والشمس على قياس نسبي

ان بروتون ذرة الايدروجين هو ابسط ما يعرف من نوى الذرات . فهو على ما نعلم دقيقة قائمة برأسها وفي وسع العلماء أن يجردوا نوى ذرات الايدروجين من الكتروناتها ثم يطلقونها بقوة عظيمة تسير بسرعة فائقة . ولكن لم يتمكن احد حتى الآن ان يقول ان البروتون مركب ، ولذلك نسلم بانهُ لا يجزأ . ثم إنهُ ثقيل الوزن فاذا وضعتهُ في كفة ميزان ووضعت في الاخرى الكترونات لوجب ان تضع ١٨٣٥ الكتروناً لكي تتوازن الكفتان . فالبروتونات تمثل قدراً عظيماً جداً من الطاقة مركزاً في حيز صغير جداً

ويبدو للباحثين ان الكهربائية قوام هذه البروتونات ليست الاَّ كهربائية موجبة كما ان الالكترون كهربائيته سالبة . ومن غريب ما يستوقف النظر ان الدقيقتين وإن تباينتا وزناً تبايناً عظيماً فان شحنة الواحدة تعدل شحنة الاخرى. ولذلك نرى ان البروتون في الذرة لا يقابلهُ الاَّ الكترون واحد مع ان وزن الاول يفوق وزن الثاني ١٨٣٥ ضعفاً . تستطيع ان تطلق على البروتون عشرات الالكترونات ولكن واحد منها فقط يبقى ملازماً لهُ

الاَّ ان لعنصر الايدروجين نظيراً وزن ذرته ضعفا وزن ذرة الايدروجين العادي . فاذا درسنا ذرة هذا الايدروجين الثقيل — وهو يدعى في اميركا دوتيريوم وفي انكلترا دبلوجين — وجدنا في الذرة الكتروناً واحداً كما في ذرة الايدروجين المألوف . فالفرق في وزن الذرتين يجب ان يكون في النواة . خذ نواة « الدوتيريوم » وحللها فماذا ترى ؟ هذه كتلة مركبة من بروتون واحد ونوترون واحد . اما البروتون فتعرفهُ . واما النوترون فدقيقة متعادلة الكهربائية أي لا هي موجبة الشحنة ولا هي سالبتها وكتلتها او وزنها اكثر قليلاً من وزن البروتون فهي لتعادل شحنتها الكهربائية لا تجذب الالكترونات ولا تدفعها

ثم ان لعنصر الايدروجين نظيراً آخر وزن ذرته يفوق وزن ذرة الايدروجين العادي ثلاثة اضعاف (وهو يدعى تريتيريوم في أميركا وتربلوجين في انكلترا) ومع ذلك فليس لذرته الاَّ الكترون واحد . ولكن ان حللت نواتها وجدتها مؤلفة من بروتون ونوترونين فشحنة الالكترون الكهربائية تعدل شحنة البروتون وكل من النوترونين تتعادل الكهربائية في نفسه

ولكن اذا كان في نواة ذرة ما اكثر من بروتون واحد وجب ان يكون لتلك الذرة عدد من الالكترونات يوازي عدد البروتونات التي في نواتها . فلنأخذ الاكسجين مثالاً على ذلك وهو قسيم الايدروجين في تكوين الماء . فمعظم ذرات الاوكسجين تحتوي الذرة منها على ثمانية بروتونات وقليل منها يحتوي على تسعة بروتونات أو عشرة بروتونات. ولكن قلّب ذرة الاوكسجين كيف شئت وحلها كيف تريد فانك لا تجد فيها الاّ ثمانية الكترونات

فيظهر كأن هذه القاعدة ، اي قاعدة مقابلة الكترون واحد لكل بروتون حرّ في النواة ، من القواعد الاساسية في تركيب المادة ، لا يطرأ عليها تغيُّر ولا شذوذ ، وهي تصحّ على جميع ذرات العناصر من الايدروجين الى الاورانيوم

التجاذب والتدافع

ثم هناك قاعدة كهربائية اخرى ، لا محيص عنها . ذلك انهُ اذا اخذت جسماً مشحوناً شحنة كهربائية موجبة ، وآخر مشحوناً شحنة كهربائية سالبة ، جذب احدهما الآخر . اما اذا كانت كهربائية الجسمين موجبة فان احدهما يدفع الآخر . ويعود الناموس الذي يجري عليهِ هذا الجذب والدفع الى ما قبل الثورة الفرنسية والى عبقرية عالم فرنسي يدعى كولومب Charles Augustin Coulomb . ومن نتائج مباحثه الدقيقة ، انهُ كلما زاد الاقتراب بين جسمين زادت قوة الجذب او الدفع كمربّع المسافة بينهما . وهذا القانون يعرف في علم الكهربائية بقانون كولومب

أتذكر المثل الذي ضربناهُ للذرة الايدروجين مكبرةً ؟ في مركزها النواة الصغيرة (وهي بروتون واحد) وعلى ست اقدام منها الالكترون ؟ لنفرض اننا قسنا القوة الكهربائية التي تجذب احدهما الى الآخر على تلك المسافة . ثم لنفرض اننا قربنا الالكترون حتى اصبح على بعد ثلاث اقدام من البروتون ، اي نصف المسافة السابقة . فماذا تصبح قوة التجاذب بينهما ؟ اتصبح ضعفي ما كانت ؟ كلاَّ بل اربعة اضعافها . واذا قربت الالكترون حتى يصير على قدمين من البروتون اي ثلث المسافة الاولى ، زادت قوة التجاذب بينهما تسعة اضعاف

وهذا يفسّر لنا لماذا تكون سرعة الالكترونات القريبة من النواة اعظم من سرعة الالكترونات البعيدة عنا

ولكنّ هناك شيئاً غريباً . فالصلة بين البروتون الموجب والالكترون السالب تخضع لقانون كولومب . وهذا يصدق على ذرات العناصر المعقدة صدقهُ على ذرة الايدروجين البسيطة . فالكترونات ذرة الاوكسجين الثمانية ، تتحرك في مسارات حول النواة بسرعة توافق بعدها عن النواة المؤلفة من ثمانية بروتونات

ثمانية بروتونات ! ما اعجب هذا ! كيف يمكن ان تجتمع ثماني وحدات موجبة الشحنة الكهربائية في حيز ضيق صغير كحيز النواة من دون ان تتدافع ؟

هذه هي المشكلة . نعم ان نواة ذرة الاكسجين صغيرة الحجم ، لا تزيد زيادة كبيرة عن حجم نواة الايدروجين . ولكن الاعتراض ليس على وجود ثماني وحدات في حيز صغير ، بل على وجودها متلاصقة او تكاد وهي بحسب قانون كولومب يجب ان تتدافع لتشابه شحنتها الكهربائية . ان جميع الأفعال الكهربائية خاضعة لهذه القاعدة ، وقد حسب العالم الانكليزي الكبير ، فردريك صدي ، انهُ اذا أخذنا غراماً من البروتونات ووضعناه عند احد قطبي الارض ووضعنا غراماً آخر عند القطب الآخر ، كانت قوة الدفع بين الغرامين ، على هذه المسافة (نحو ٨٠٠٠ ميل) تعدل ضغط ٢٦ طنًّا . فاذا كانت هذه قوة الدفع العظيمة ، بين غرامين من البروتونات على بعد ٨٠٠٠ ميل ، وفقاً لقاعدة كولومب ، فانها يجب ان تكون أعظم جدًّا بين بروتونين متحاذيين حتى يكادا يكونان متلاصقين في حيز نواة ذرّية ، حيث المسافات تحسب بأعشار من مليون مليون جزء من البوصة

فبحسب قانون كولومب ، يجب ان يكون في عداد المستحيلات ، اجتماع اكثر من بروتون واحد ، في نواة أية ذرة ، واذا اتفق واصطدم بروتون ببروتون ، فقوة الدفع بينهما كافية ، لدفع أحدهما عن الآخر حالاً وبسرعة عظيمة

ولكننا ماذا نرى ؟ نرى ذرة الهليوم وفي نواتها بروتونين . فكيف لا يتدافعان ؟ وذرة الليثيوم وفي نواتها ثلاثة بروتونات . وذرة البريليوم وفي نواتها أربعة بروتونات . وذرة البورون وفي نواتها خمسة بروتونات . وذرة الكربون وفي نواتها ستة بروتونات . وذرة الاورانيوم وهي أعظم ذرات العناصر تعقيداً وفي نواتها اثنان وتسعون بروتوناً . والعناصر الاخرى بين الكربون والاورانيوم على هذا المنوال . فكيف لا تتدافع البروتونات التي في نوى هذه الذرات ؟

نعم ان في نوى هذه الذرات الدقائق المعروفة بالنوترونات . ولكنها كما قدّمنا متعادلة الكهربائية لا تجذب ولا تدفع . نعم ان ذرة الاورانيوم غير مستقرة التركيب ، وهي تطلق آناً بعد آخر ، مجموعة من بروتوناتها ونوتروناتها ، فتصبح ذرة راديوم . وذرة الراديوم تتحول على هذا المنوال الى ذرة بولونيوم ، وذرة البولونيوم الى رصاص

ولكن ذرة الرصاص ذرة مستقرة . فكيف يمكن ان تكون مستقرة ؟ ففي نواتها اثنان وثمانون بروتوناً ، وهذه البروتونات يجب ان تتدافع بقوة ، لتشابه شحنتها الكهربائية ، فلماذا لا تفعل ذلك ؟

هذه هي المفارقة ، التي ما زالت مستعصية على الحل منذ عشرين سنة . فقانون كولومب

الذي ينطبق على جو الذرة، وعلى علاقة الالكترونات بالبروتونات ، لاينطبق على أجزاء النواة ؟ فأية قوة ، وبأي حكم ، أهملت الطبيعة سيطرتها في ذلك الحيز الصغير ؟

الى الجواب عن هذا السؤال اتجهت سلسلة من التجارب في وشنطن سنة ١٩٣٦ فأسفرت عن وجود قوة ، أعظم قدراً من قوة الدفع التي ينطوي عليها قانون كولومب . وأعظم جذباً ، من قوة الجاذبية التي استخرج نيوتن ناموسها . فكان القوة التي بدت فيها ، لاتقوم لحقيقة طبيعية قائمة من دونها ، لا معدن ولا كربون ولا خلايا حية ولا انسان ولا أرض ولا شمس ولا سديم وبكلمة ، لولاها لما امكن ان نجد في هذا الكون شيئاً أكثر تعقيداً في بنائه من الايدروجين، وذلك لان في ذرة الايدروجين المألوف بروتوناً واحداً

هذه هي الصورة التي يخرج بها العلم من تجارب وشنطن التي اسفرت ، عن رابطة خفية تربط الكون ، وتماسك بين اجزائه من الذرات الى السدم

اكتشاف قوة عظيمة

ان طائفة غير يسيرة من المكتشفات العظيمة تمت اتفاقاً . ولكن اكتشاف هذه « القوة » التي ينطوي فيها سر التماسك الكوني ، جاء نتيجة مباشرة لتجارب دامت عشر سنوات متوالية ، وكان غرضها من البدء حل هذا اللغز العظيم

ففي سنة ١٩٠٤ انشأ معهد كارنيجي بوشنطن دائرة للبحث خاصة بالمغناطيسية الارضية . فأدرك علماء هذه الدائرة ، ان بحثهم لابد ان يفضي بهم عاجلاً او آجلاً الى علم الطبيعة الذرية . ولكن احداً لم يتصور في ذلك العهد ، ان الذرات قوامها نواة صلدة ثقيلة وحولها الكترونات دوّارة . ومع ذلك فانهم لم يشكّوا في ان اسرار مغناطيسية الارض لايجب ان تطلب في الارض نفسها وفي جوها فقط ، بل ايضاً في الجزيئات والذرات . اي ان العلم يجب ان يسبر غور المادة نفسها طلباً لاسرار المغناطيسية

وكان الجانب الاول من البحث مقتصراً على تبين الظاهرات المغناطيسية الكبيرة على سطوح القارات والمحيطات ووضع خرائط تبين الفعل المغناطيسي بها . ودام هذا البحث اثنتين وعشرين سنة . فلما كانت سنة ١٩٢٦ ، وضع برنامج للبحث في اجزاء الذرة والقوى السائدة هناك

عند ما شرع علماء وشنطن في وضع هذا البرنامج لبحثهم ، كان علماء الطبيعة في اوربا وكندا والولايات المتحدة الاميركية ، قد كشفوا عن حقائق كثيرة تتعلق باجزاء الذرات . وكان مما كشفوه ، هذه المفارقة الغريبة التي اطلنا في وصفها ، وهي تجاذب البروتونات وتلاصقها في النواة ، مع ان قاعدة كولومب تقضي بتدافعها وتفرقها . ولما كان علماء وشنطن

متجهين خاصة الى فهم اسرار المغناطيسية، وجدوا هذه المفارقة، في صميم موضوعهم، وكذلك جعلوها جزءاً اساسياً من برنامجهم وأنشأوا بناية خاصة لبحث هذا الموضوع وصنعوا له آلات خاصة

وقد اشترك في هذا البحث فريق من علماء الطبيعة المجرّبين على رأسهم المستر ميرل توف Merle A. Tuve وفريق من علماء الطبيعة الرياضيين وعلى رأسهم المستر غريغوري برايت Breit

بنيت الخطة التي جرت المباحث بمقتضاها على الاعتبارات التالية . لقد ثبت بالمشاهدة أولاً — ان البروتونات تجتمع في حيز ضيق جدًّا هو النواة . ثانياً — ان البروتونات خارج النواة تتدافع . وإذن فيجب ان يكون هناك مسافة محدودة تتحوّل عندها وداخلها القوة التي تدفع البروتونات بعضها عن بعض، الى قوة تجذبها بعضها الى بعض

واذن فالغرض الاول من هذه التجارب هو معرفة هذه المسافة

أما الاسلوب الذي استعمل في تحقيق هذه المسافة فهو الاسلوب المستعمل في معظم المباحث الذرية sub-atomic اي اسلوب اطلاق القذائف الدقيقة على الذرات ومراقبة نتائج الاصطدام بين الذرات والقذائف

لنفرض ان عندنا إناء ملآناً بغاز الايدروجين النقي . وان كثافة الغاز في الاناء قيست وعرفت . ثم يسدّد الى هذا الغاز تيار من البروتونات . فما يحدث ؟ انت تعلم ان نواة ذرة الايدروجين هي بروتون واحد . فكأنك باطلاقك تياراً من البروتونات على غاز الايدروجين تطلق بروتونات على بروتونات . بعض قذائفك يقترب من بروتونات الغاز، فتفعل قوة التدافع فعلها، فترتدّ القذائف او تنحرف وتتفرق على كل حال . ولكنك تجد هذا التفرّق عند التدقيق، منتظماً . فكما انك تستطيع ان تعرف الخط الذي تسير فيه كرة من كرات «البليار» من معرفة الزاوية التي تصيب بها الكرةُ المتحركةَ الكرةَ الساكنة ، كذلك يستطيع العلماء أن يعرفوا خطوط انحراف قذائف البروتونات قبل اصطدامها بالبروتونات الغازية . وقد عني الباحث الانكليزي موط Mott بدراسة تفرق البروتونات دراسة رياضية فحسب عدد البروتونات التي تنحرف من كل زاوية من زوايا الاصطدام وفقاً لقانون كولومب

فأخذ الدكتور توف وزملاؤه هذه الحقائق، وصنعوا مثالاً سويًّا لتصرف قذائف البروتونات وفقاً لقانون كولومب . فكل انحراف عن هذا المثال السويّ دليل على تخلّف القانون

ومن هنا قرر علماء معهد كارنيجي بوشنطن أن يطلقوا قذائف البروتونات على غاز الايدروجين بقوة معينة . ويلاحظوا مثال تفرقها . ثم يطلقونها بقوة اعظم ، فاعظم . وكلما زادت القوة زاد قرب القذائف المطلقة من بروتونات الغاز وزاد زخمها قدرة على مقاومة قوة التدافع التي ينص عليها قانون كولومب

كيف كشفت

فشرعوا أولاً في اطلاق قذائفهم بقوة ٦٠٠ الف فولط اي ان سرعة القذائف بلغت ٦٧٢٠ ميلاً في الثانية . ولاحظوا بأجهزة خاصة مثال تفرقها ، فاذا هو متفق والحساب النظري الذي استخرجهُ موط . وهذا يعني ان قانون كولومب فعّال لم يعتوره نقص او تخلف . ثم زادوا القوة الى ٧٠٠ الف فولط وسرعة المقذوفات الى ٧٢٠٠ ميل في الثانية واذا مثال التفرق لا يزال سويًّا وهو دليل على ان قانون كولومب لم يهو بعد . ثم زادوا القوة الى ٨٠٠ الف فولط والسرعة الى ٧٧٠٠ ميل في الثانية واذا في مثال تفرق البروتونات المقذوفة طلائع تدل على ان تغيراً بدأ يحدث عند اقتراب بروتون من بروتون ، فلما رفعت القوة القاذفة للبروتونات الى ٩٠٠ الف فولط وسرعة المقذوفات الى ٨٢٠٠ ميل في الثانية ، دلتهم أجهزتهم على وقوع شيء جديد

فبدلاً من تفرق البروتونات المقذوفة عند اقترابها من بروتونات الغاز ، بدأ لهم ما يدل على ان القذائف تخطت بقوة انقذافها وزخمها ، المسافة التي يتحول عندها التدافع الى تجاذب فكأنها تغلبت على حصون القلعة ودخلتها

وقد جُربت مئات من التجارب من هذا القبيل ، وكانت النتيجة واحدة فيها جميعها — اي ان هؤلاء الباحثين تغلبوا على قوة التدافع المفرغة في قانون كولومب

هنا انتهى الجانب التجريبي من البحث ، وجمعت الحقائق التي شوهدت ودوّنت ، وارسلت الى الدكتور غريغوري برايت ، وهو عالم طبيعي رياضي ، وكان قبلاً زميلاً للباحثين ثم قبل ان يتقلد منصب استاذ في جامعة وسكنصن . عرضت عليهِ هذه الحقائق لكي يحللها ويستخرج منها نتائجها ، وكان عند ما وصلتهُ يحضر دروساً في معهد الدروس العالية بجامعة برنستن ، فاستعان بباحثين آخرين ، اشتهرا بالناحية الرياضية العالية من البحوث الطبيعية ، فخرجوا من بحثهم وتحليلهم الرياضي الى النتائج الآتية :

١ — ان المسافة التي يبطل عندها فعل قانون كولومب (اي المسافة التي يتحول عندها فعل التدافع بين البروتونات الى تجاذب) هي جزء من ١٢ مليون مليون جزء من البوصة ($\frac{١}{١٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠}$)

٢ — ان التغير الذي يقع في علاقة بروتونين عند ما تبلغ المسافة بينهما هذا الحدّ يمكن تفسيره بفرض قوة جاذبة تسيطر على الدقيقتين عندما تكون المسافة بينهما $\frac{١}{١٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠}$ من البوصة أو أقل

٣ — ان مقدار هذه القوة الجاذبة التي تفعل على هذه المسافة او اقل منها بين بروتونين ، اعظم من قوة الجذب النوتوني بين كتلتي البروتونين بنحو $١٠^{٣٦}$ مرة

٤ — ليست البروتونات وحدها خاضعة لهذه القوة بل والنترونات كذلك فيما بين بروتون ونترون أو بين نترون ونترون آخر . فكأن التجاذب بين النترونين على هذه المسافة او اقل منها ، لاصلة له الا بكتلتها دون شحنتهما الكهربائية وهي متعادلة كما تعلم

وللدلالة على مبلغ هذه القوة نضرب مثلاً . ان البروتون صغير جداً فكتلتهُ لا تزيد على $\frac{١}{٦٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠}$ من الغرام . والغرام جزء من ٤٥٤ جزءاً من الرطل (Pound) ومع ذلك فان بروتونين موجودين على هذه المسافة يجذب احدهما الآخر جذباً يساوي ضغطاً يتباين من عشرة أرطال الى خمسين رطلاً . ولو بلغت قوة الجذب النوتونية هذا المبلغ لكان وزن ريشة على سطح الارض بلايين من الاطنان

الطاقة الذرية

اذا اصطدمت بروتونات أو نترونات حرة بنواة ذرة بقوة كافية تمكنها من تخطي الحد الذي تتحول عنده قوة التدافع الى قوة التجاذب ، اندمج البروتون او النترون الحر في النواة التي يصطدم بها على هذا المنوال . ولكنهُ في خلال فعل الاندماج ، يتحول جانب يسير من كتلته الى طاقة . وكذلك تكون النواة أخف قليلاً من مجموع اوزان اجزائها . لان كل جزء منها يكون اخف قليلاً بعد اندماجه منهُ قبلهُ . فاذا اوزن بروتون على حدة بلغ وزنه ١٫٠٠٨١ ، واذا وزن نترون على حدة بلغ وزنه ١٫٠٠٩١ ومجموع وزنهما ٢٫٠١٧٢ ولكنهما اذا اندمجا فتألفت من اندماجهما نواة ذرة من الايدروجين الثقيل كان وزن النواة ٢٫٠١٤٧ وهو أقل من مجموع وزن الوحدتين بـ ٠٫٠٠٢٥ . وهذا الوزن يمثل قدر الكتلة الذي تحول طاقة في عمل الاندماج . ويؤخذ من الحساب الطبيعي الرياضي أنهُ اذا تحول هذا القدر من الكتلة الى طاقة كان مقدار الطاقة ٢٫٢٠٠٠٠٠ فولط . ويؤيد هذا ان فصل النترون عن البروتون في نواة الايدروجين الثقيل يقتضي قذيفة منطلقة بطاقة ٢٫٢٠٠٫٠٠٠ فولط

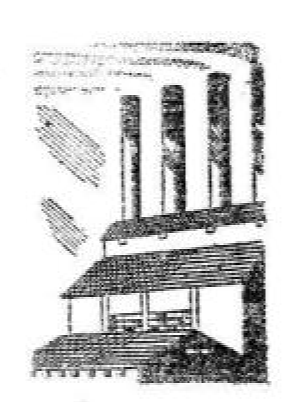
هنا سرُّ ما يعرف بالطاقة الذرية التي يرنو العلماء الى السيطرة عليها ، وهم يزعمون انهم اذا سيطروا عليها، تمكنوا من ان يستخرجوا من ماء يملأ كوبة عادية طاقة تكفي لدفع سفينة كبيرة من سواحل أوربا الى سواحل اميركا

الا ان إطلاق هذه الطاقة من نوى الذرات واستعمالها ، لايزال في رأي العلماء — على ما جاء في مقال نفيس في هاربرز للكاتب العلمي الاميركي جورج غراي وعليه اعتمدنا في كتابة هذا المقال — هدفاً بعيداً جداً

الحديد وصناغته

في مصر

للدكتور حسن صادق بك
مدير المساحة والمناجم والمحاجر(١)



تاريخه القديم في مصر

الحديد كعنصر مستقل غير متحد بعناصر أخرى قليل الوجود في الطبيعة . وما يوجد منهُ خالصاً اما قطع صغيرة منتشرة في بعض الصخور البركانية واما من النيازك او الشهب التي تهبط الى سطح الارض من السماء . وعلى الضد من ذلك مركبات الحديد ولاسيما اكاسيده فهي كثيرة الانتشار في الصخور المكونة للارض

ولما كان الانسان في عصوره الاولى غير عالم بسر استنباط المعادن واستخلاصها من خاماتها فكان عليهِ ان يعتمد في صناعة آلاتهِ للصيد وللدفاع عن نفسهِ على ما يصادفهُ من مواد صلبة تصلح لصنع هذه الآلات . فكان اول ما لجأ اليهِ بطبيعة الحال الاحجار كالصوان وغيره ومكث دهوراً طويلة لا يعرف سوى الآلات الحجرية

على انهُ وقد ارتقى في سلم المدنية وبدأ يترك حياة الصياد الهائم على وجهه ويأتلف في جماعات زراعية تأوي الى اماكن ثابتة حملتهُ الحاجة الى آلات مختلفة الاشكال والاغراض ، على البحث عن مواد تجتمع فيها الصلابة بقابلية التهذيب فاكتشف النحاس وتعلم استخراجه من خاماته ثم سرعان ما وفق الى العثور على سر صناعة البرونز وهو خليط من النحاس والقصدير فكان توفيقه هذا خطوة واسعة نحو تقدم مختلف الصناعات فارتقى درجات عديدة في سلم المدنية

ومدنية المصريين القدماء هي بحق مدنية برونزية او بقول اصح مدنية نحاسية اذ انفرد المصريون دون غيرهم من الامم بالوقوف على سر سقاية النحاس وتقسيتهِ بطريقة تجعله من الصلابة بحيث يصلح لصنع كافة الادوات والآلات التي تتطلب متانة وصلابة خاصة

---

(١) من المحاضرة العلمية الاقتصادية النفيسة التي القاها في المجمع المصري للثقافة العلمية

اما الحديد فلندرة وجوده خالصاً في الطبيعة لم يتجه الانسان القديم الى استعماله ومع انتشار خاماته فان استنباطه منها لم يكن بالسهولة التي للنحاس علاوة على ان تهذيبه بعد ذلك غير مستطاع الا اذا حول الى فولاذ وطرق وهو في حرارة الاحمرار

كل ذلك مما كان يتطلب من الانسان القديم جهوداً لم يكن له قبل بها فتأخر استعمال الحديد عن النحاس آلافاً من السنين

وقد يتعذر علينا أن نقرر على وجه التحقيق الزمن الذي بدأ فيه الانسان استعمال الحديد ولا العصر الذي وقف فيه على سر استنباطه من خاماته . والشواهد من آثار مصر القديمة غامضة غموضاً كبيراً في هذه الناحية

ومن اقدم ما عثر عليه من قطع الحديد بعض حبيبات من (الخرز) في حفائر جرزة بمديرية الجيزة التي ترجع الى ما قبل تاريخ الاسرات المصرية الاولى وقد اثبت تحليلها الكيمائي انها من حديد النيازك لاحتوائها على نسبة مرتفعة من النيكل

يلي ذلك قطع من آلات حديدية وجدت في آثار بعض الاسرات القديمة على أن صحة انتسابها لما وجدت فيها من آثار محل تشكك من اغلب علماء الآثار فنرى ان نضرب صفحاً عنها . وقد وجدت بين الآثار التي كان يحتويها قبر توت عنخ آمون بعض آلات حديدية منها خنجر ومسند مصغر للرأس وعين ضد الحسد مصنوعة في سوار من ذهب واسلحة صغيرة رقيقة ذات ايد خشبية يبدو ان قيمتها كانت دينية اذ لا يعقل انها كانت ذات فائدة عملية تذكر . ولم يحلل حديد هذه الآلات المختلفة فلا يمكن البت في هل صنعت من حديد النيازك او من حديد مستخلص من خامات ارضية والغالب انها كانت مستوردة من الخارج

ومنذ نهاية الاسرة الثامنة عشرة التي كان توت عنخ آمون من اواخر ملوكها زادت الاشياء المصنوعة من الحديد بين آثار المصريين القدماء حتى اذا وصلنا الى الاسرة السادسة والعشرين حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد شاع استعمال الحديد شيوع النحاس والبرونز واستمر الحال حتى اذا جاء عام ٢٥٥ قبل الميلاد وجدنا ان الحديد قد أصبح بالكثرة التي سمحت باستعماله في اعمال المحاجر

واذ تعلم أن ملوك الاسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة كانوا قد قاموا بغزوات موفقة الى الشام وغرب آسيا فلا عجب أن يكونوا قد مهدوا الطريق لتسرب الحديد الى مصر من مواطنه في تلك البلاد . وفي ذلك ما يشير الى ان استعمال الحديد قد بدأ في تلك البلاد قبل أن يستعمله المصريون

أما عملية استخلاص الحديد من خاماته فقد اثبت العالم الاثري الاستاذ فلندرز بيتري ان في نوقراتس بشمال الدلتا الغربي كانت هذه الصناعة قائمة حوالي القرن السادس قبل الميلاد ويغلب على الظن ان الخام الذي كان يستعمل لذلك مما استورد من وراء البحار . على انه بعد ان

دخلت مصر في حكم الرومان وكانوا يميزون خامات الحديد ويعلمون سر استنباط الحديد منها فالدلائل متوفرة على أنهم كانوا قد استغلوا بعض خامات الحديد بالصحراء الشرقية لصناعة ذلك المعدن . على أنها صناعة أهملت بعد ذلك إلى وقتنا هذا

خامات الحديد في مصر

تكثر خامات الحديد في الصحاري المصرية وعلى حالات مختلفة وسنأتي على ملخص لاهم هذه الخامات

(اولاً) — ﴿في شبه جزيرة سينا﴾ يوجد اوكسيد الحديد مختلطاً باكاسيد المنجنيز في مساحة واسعة تبلغ نحو ٣٠٠ كيلو متر مربع واقعة على مسافة ٣٠ كيلو متراً من شاطئ خليج السويس وعلى مسافة ١٢٠ كيلو متراً جنوبي مدينة السويس. والمنطقة التي يوجد بها هذا الخام هي عبارة عن هضبة تعلو عن سطح البحر بنحو ٦٠٠ متر تقطعها اودية عميقة وعرة المرتقى وصخورها من الحجر الرملي تتخللها طبقة من الحجر الجيري وفي أسفل هذه الطبقة الجيرية الخام الحديدي المنجنيزي

والخام في بعض اجزائه مجموعة من اكاسيد المنجنيز الخالصة وفي البعض الآخر أكاسيد الحديد وفي غالبية المنطقة هو خليط من الاثنين معاً

هذه الخامات تستغل الآن على نطاق واسع في الجزء من المنطقة الواقع حول نقطة ام بجمة باعتبار أنها خام المنجنيز . وفي الواقع فان الشركة القائمة بهذا الاستغلال تقصر إستغلالها على الانواع التي تحتوي نسبة مرتفعة من المنجنيز تاركة وراءها على الاقل في الوقت الحاضر خامات الحديد . وقد وصلت الشركة مناجمها بخط من السلك المعلق على أبراج من الحديد عبر هذه المنطقة الوعرة الى سفح الجبال ومنها بخط سكة حديدية الى ميناء ابي زنيمة حيث المرفأ الذي تصدر منهُ الى الخارج . واذا إقتصر النظر حتى الآن على اعتبار هذه الخامات لمعدن المنجنيز فانها كما قدمنا مصدر محتمل لخام الحديد في المستقبل

فيما عدا هذا فقد أشار الدكتور هيوم المستشار الجيولوجي للحكومة المصرية الى وجود عروق من المرو في بعض الجبال القائمة في جنوب شبه جزيرة سينا تحتوي على خام الحديد وقد حللت بعض نماذج منهُ فظهر ان بها نسبة تختلف من ٩٦ في المائة الى ٥٩ في المائة من أوكسيد الحديد . على انهُ لا يمكن إعتبار تلك المنطقة مصدراً لخام الحديد الا بعد ان تبحث بحثاً مستفيضاً للتعرف على مقدار ما تحتويه منهُ ومتوسط ما بها من معدن الحديد نفسه

ثانياً — ﴿الصحراء الغربية﴾ توجد أكاسيد الحديد والمغرة الحمراء والصفراء في أغلب الواحات الواقعة بصحراء لوبيا وقد تكون اغناها جميعاً الواحة البحرية . فهناك رواسب من خام أوكسيد الحديد الاصفر (الليمونيت) والاحمر مختلطة باحجار رملية تدل اوصافها واوضاعها

الجيولوجية على أنها رسبت في قاع بحيرة كانت تمتد فوق تلك المنطقة في أحد العصور الجيولوجية الحديثة . وقد حللت منها بعض النماذج فظهر أن الخام الاصفر يحتوي ٨٤ في المائة من أوكسيد الحديد وهو ما يساوي نحو ٥٨ر٨ ./ من معدن الحديد بينما الاحمر يحتوي ٥٨ر٧ في المائة من أوكسيد الحديد بما يساوي ٤١ر٠٧ في المائة من المعدن نفسه

وقد قدر الدكتور هيوم مجموع ما بالواحة البحرية من هذه الرواسب الحديدية بنحو ٩ ملايين متر مكعب على ان المسألة في حاجة الى بحث أدق للوقوف على حقيقة إمتداد هذه الرواسب ومتوسط نسبة ما بها من حديد . وعلى العموم فان مثل هذه المنطقة لا يمكن اعتبارها — على الاقل في الوقت الحاضر — من المناطق التي لها قيمة اقتصادية كبيرة إذ تعوزها طرق المواصلات الى البلاد المعمورة وإنشاء مثل هذه الطرق مما يكلف نفقات كبيرة قد لا تتناسب مع قيمة هذه الخامات.واذا لم تكن صالحة للاستغلال على اساس صناعة الحديد نفسها فقد يجد القائمون بصناعة الالوان والاصباغ في بعض الاكاسيد الحمراء والصفراء في تلك الواحة مورداً لبعض حاجتهم وقد يكون في مستطاعهم في هذه الحالة تحمُّل تكاليف النقل بالسيارات اذ المقادير قليلة وسعر الاصباغ اعلى كثيراً من سعر الحديد

كذلك توجد في الواحتين الخارجة والداخلة رواسب من أكاسيد الحديد والمغرة ذات الوان ساطعة يقدرها صانعو الاصباغ وقد أقبلوا للحصول عليها اقبالاً كبيراً في السنين الاخيرة

ويفسر وجودها في تلك الواحات على اساس أنها رسبت من المياه الارتوازية التي تتفجر من عيون في مختلف نواحيها . ولما كانت هذه المياه الارتوازية تخترق في صعودها من باطن الارض الى سطحها طبقات من الحجر الرملي الذي يحتوي اكاسيد الحديد فانها تحملها معها وترسبها على السطح نقية نظيفة دقيقة الحبيبات جداً . وقد علمت من بعض المشتغلين بهذه الصناعة ان هذه الاكاسيد هي من الجودة بحيث لا يستعملونها بمفردها الاّ نادراً والاغلب ان تضاف الى اصناف اقل جودة منها لتحسين نوعها

(ثالثاً) — « في الصحراء الشرقية » الواقعة بين شواطىء البحر الاحمر ووادي النيل . هنا توجد خامات الحديد في نقط عديدة وعلى صور مختلفة بقدر اختلاف التكاوين الجيولوجية في تلك الصحراء الواسعة . وسنقتصر على الاشارة الى بعض هذه النقط التي يوجد بها الحديد بشيء من الايجاز

١ — عند السفح الشرقي لجبل الجلالة البحرية حيث يوجد خام الحديد متخللاً الطبقات الحجرية الرملية في نفس الوضع الجيولوجي الذي توجد فيه خامات الحديد والمنجنيز في المنطقة المقابلة لها من شبه جزيرة سينا

على أن هذه الخامات لم تحظ حتى الآن بأي عناية من البحث إذ ما ظهر منها لايغري بهذا البحث علاوة على أن التحليل الكيمائي اظهر انها تحتوي ٣٣ في المائة من اوكسيد الحديد أو ما يساوي نحو ٢٣ في المائة من معدن الحديد

٢ — «وادي العرب» على مسافة ٦٠ كيلو متراً من شاطىء خليج السويس توجد عروق من المرو تحتوي معدن أوكسيد الحديد على صورة قشور رقيقة لامعة غنية بمعدن الحديد وقد أظهر التحليل الكيمائي انها تحتوي حوالي ٧٨ في المائة من الاوكسيد وهي لذلك منطقة خليقة بالبحث للوقوف على مقدار صلاحيتها للاستغلال

٣ — «وادي ابو غصون» على مقربة من بئر رنجة على مقربة من شاطىء البحر الاحمر على مسافة ٢٠٠ كيلو متر جنوب مينا القصير. على جانب هذا الوادي توجد بعض الجبال تحتوي مقداراً كبيراً من الخام المعدني اظهر تحليل نموذج منه ان به ٥٥٫٨ في المائة من اكسيد الحديد. ونظراً الى قرب هذه المنطقة من شاطىء البحر والارتفاع الكبير في اسعار خام الحديد في الوقت الحاضر فقد تنال هذه المنطقة بعض العناية من البحث في وقت قريب

الحديد في اسوان

وقد تكون هذه المنطقة اهمها جميعاً لاسباب ثلاثة: اولاً — لاتساع مساحتها . ثانياً — لانها تستغل الآن بعض الاستغلال لصناعة الاصباغ . ثالثاً — لاشتداد الاهتمام بتوليد القوى الكهربائية من مساقط الماء بخزان اسوان

ومع ان الدكتور هيوم كان قد أشار عام ١٩٠٩ الى وجود أكاسيد الحديد في الاحجار الرملية قرب أسوان إلاّ ان فضل اكتشاف هذه المنطقة الكبرى وإقامة البرهان العملي على امكان الاستفادة من خام الحديد بها من صناعة الاصباغ يرجع الى جهود صديقنا المهندس المصري لبيب افندي نسيم . وقد حفظت له الحكومة حق البحث في المنطقة منذ عام ١٩٢١ حماية لصناعة الاصباغ التي كان قد بدأها والتي بلغت شأناً لا يستهان به وان كانت في حاجة كبيرة الى التشجيع والانماء

هذه المنطقة الواسعة تمتد من حافة الصحراء شرق اسوان الى خمسين كيلومتراً في الصحراء الشرقية بعرض متوسطه ٢٠ كيلو متراً من الشمال للجنوب . وقد قامت مصلحة المناجم والمحاجر عام ١٩٣٢ لما قام لبيب افندي نسيم وبعض الممولين الآخرين بفحص هذه المنطقة للتعرف على مقدار ما بها من خام الحديد وتقرير صلاحيته لمختلف الاغراض الصناعية . وسألخص النتائج التي انتهت اليها هذه الابحاث المختلفة فيما يأتي :

(١) تقدر المساحة التي بها الخامات بما يقرب من ٥٠٠ كيلو متر مربع

(٢) المنطقة عبارة عن هضبة يتراوح منسوبها ما بين ١٥٠ متراً و ٣٥٠ متراً فوق منسوب البحر مع ملاحظة ان منسوب وادي النيل عند اسوان حوالي ١٠٠ متر. وهي على العموم منبسطة السطوح فيما عدا الوديان التي تقطعها والتي يبلغ متوسط عمقها حوالي ٢٠ متراً من سطح الهضبة

(٣) يقطع المنطقة من الشرق الى الغرب واديان كبيران هما وادي ابي صبيره في الشمال ووادي ابو عجاج في الجنوب ولها روافد عديدة تمتد شمالاً وجنوباً مما يجعل من السهل ايجاد طرق للمواصلات بين مختلف اجزائها

(٤) يوجد خام الحديد في عدة طبقات رقيقة يختلف سمكها في مختلف النواحي من بضعة سنتمترات الى متر ومترين تقريباً في بعض الاحيان. وهي طبقات تتخلل طبقات الحجر الرملي الافقية الوضع تقريباً

(٥) وتختلف طبقات الخام من حيث نوعها فبينما بعضها عبارة عن حجر رملي مشبع باوكسيد الحديد فالبعض الآخر وهو الاهم مكون من حبيبات كروية من اوكسيد الحديد الاحمر متماسكة بعضها مع بعض بمسحوق من نفس المعدن. هذه الطبقات المكونة من حبيبات اوكسيد الحديد هي التي تهمنا في هذا البحث لكبر نسبة اوكسيد الحديد بها. أما الطبقات الرملية فان نسبة ما بها من الاوكسيد ضعيفة للحد الذي يخرجها من حسابنا على الاقل في الوقت الحاضر

(٦) أما التحليل الكيماوي لهذه الطبقات الحبية فيختلف اختلافاً كبيراً من مكان لآخر بين ٥٤ في المائة من الاوكسيد وهو ما يوازي ٤٠ في المائة من معدن الحديد نفسه الى ٨٨ في المائة من الاوكسيد وهو ما يوازي ٦٠ في المائة تقريباً من معدن الحديد نفسه. ويمكننا على العموم أن نعتبر الخام في المتوسط على اساس انهُ يحتوي على ٧٥ في المائة من الاوكسيد وهي نسبة تجعله في مستوى الكثير من الخامات الحديدية المستعملة في صناعة الحديد في شمال فرنسا وفي بعض اجزاء الولايات المتحدة. وقد اجريت تحاليل كيمائية كاملة شملت عدداً كبيراً من النماذج

والذي يهمنا في هذه التحاليل (أولاً) ارتفاع نسبة الحديد المعدن نفسه. (ثانياً) انخفاض نسبة السليكون. (ثالثاً) ارتفاع نسبة الفصفور قليلاً. (رابعاً) انعدام الكبريت

وجميعها صفات ملائمة لحد ما ماعدا نسبة الفصفور التي تتعارض مع استعمال الوسائل لاستنباط الحديد نفسه ولو أن هناك وسائل اخرى لايضيرها وجود الفصفور

(٧) أما مقدار الخام فهو من المسائل التي لا يمكن تقريرها نهائياً اذ ان البحوث العملية التي اجريت لا يمكن الاعتماد عليها في اعطاء رقم دقيق. وقد قدرها بعضهم تقديراً تقريبياً كما يأتي

٨٤	مليون طن من الخام الظاهر المؤكد الوجود
٢٦٠	مليون طن من الخام المحتمل الوجود تبعاً لتقديرات علمية صحيحة
٣٤٤	مليون طن

وهذا عدا ما يرجى وجوده بعد تقدم البحث العلمي والاستغلال. ولا أريد ان اقرر قبول هذه الارقام أو رفضها ولكني على كل حال اوافق على أن المقدار كبير جداً وهو بالقدر الذي يحتمل قيام أي عملية استغلالية لمدة طويلة جداً . وإن نجاح أو اخفاق مثل هذه العملية لا يكون سببها جهل مقدار الخام

(٨) ان وجود مقدار كبير من الخام على السطح أو قريباً من السطح يجعل الاستغلال في أول الامر سهلاً وحتى عند الاضطرار الى الحفر في باطن الارض فان انتظام الطبقات ووضعها الافقي ووجود طبقات من الصخور المتماسكة فوق طبقة المعدن كل ذلك مما يجعل عملية التعدين نفسها عملية بسيطة سهلة اذا قيست بما يقابله مهندسو المناجم عادة من الصعوبات من جراء ميول الطبقات او العروق المعدنية . كذلك يساعد جفاف المنطقة وعدم الخشية من وجود ماء داخل المناجم على تسهيل عملية الاستغلال

(٩) أما النقل من المنطقة الى وادي النيل فيقتضي مد خط سكة حديدية او سلك معلق وهي على كل من العمليات العادية في مثل هذه الحالات ومتوسط المسافة من وسط المنطقة الى النيل هو ٢٠ كيلو متراً تقريباً . والآن وقد قدرنا مساحة المنطقة ومقدار ما بها من خام الحديد وأوضحنا نوع هذا الخام وقررنا سهولة استغلاله ونقله فما الذي يمكن ان نستفيده من هذا الخام

وجوه الاستعمال

(اولاً) — ﴿ استعماله في صناعة الاصباغ ﴾ وقد قام البرهان العملي على صلاحه لهذا الغرض وقد ملأ اسواق القطر المصري ولا يبقى الآن ان يمهد له السبيل من الناحية المالية والفنية لغزو الاسواق الخارجية

(ثانياً) — ﴿ تصديره خاماً لطالبي خامات الحديد في الخارج ﴾ وقد بحثنا هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً وكانت اذ ذاك اسعار الحديد في الخارج في اوطأ مستوى وصلت اليه في السنين الاخيرة . فوجدنا انهُ بينما الخام المصري يكلف حوالي ٢٢ شلناً من نفقات تعدين ونقل من المناجم الى اسوان ثم من اسوان بالسكة الحديدية او النيل الى الاسكندرية ومنها الى ميناء اوربي في انكلترا مثلاً ، اذ كانت اسعار الخامات المماثلة لا تزيد عن ١٤ شلناً

ولا شك ان الحال قد تغيرت الآن خصوصاً بعد اندفاع جميع الامم نحو زيادة التسلح مما رفع اسعار الحديد بما يزيد عن ٥٠ في المائة من أثمانها وهو ما يؤدي بطبيعة الحال الى رفع اسعار الخامات والتي يزيد في ارتفاعها اقفال مورد من اهم موارد خامات الحديد ألا وهي اسبانيا بسبب حالة الحرب التي تسودها الآن . على ان هذا الارتفاع غير عادي ولا ينبغي البت في مشروع يتطلب نفقات طائلة مع العلم ان نجاحهُ لا يضمن الا بقاء هذه الحالة غير الطبيعية

(ثالثاً) — ﴿ استغلال الخام في صناعة الحديد والصلب في القطر المصري ﴾ وهذه هي الوسيلة التي اذا تحققت وكان تحقيقها متفقاً مع القواعد الاقتصادية السليمة كان لنا في هذه الخامات مصدراً جديداً من مصادر الثروة الاهلية وكفانا مؤونة استيراد الحديد والفولاذ لصناعاتنا الحالية وأفضى الى قيام صناعات جديدة ودفع عنا غائلة المجاعة في هذه المواد في اوقات الحروب

وربما كان من واجبي ان آتي على موجز عن كيفية تحضير الحديد والفولاذ قبل ان نخوض مسئلة احتمال قيام هذه الصناعة في مصر وتقرير الاسس التي يجب ان تقوم عليها

فاستنباط الحديد من خاماته يقتضي تسخين هذه الخامات لدرجة مرتفعة من الحرارة لاختزال الاوكسيد. وترك المعدن المنصهر فيصب في قوالب تعرف بتماسيح الحديد الظهر (pig-iron) وهو في هذه الحالة يكون مختلطاً بعناصر غريبة كالكربون والسليس والمنجنيز (والفصفور وغيرها مما تجعله قليل المقاومة سهل القصم غير قابل للطرق وهو ما يستعمل للحديد الظهر المعروف في السباكة . وتحويل هذه المادة الى الصلب او الفولاذ يقتضي اعادة وضعه في افران خاصة للتخلص من الكربون وتكوين الصلب

ولهذه العمليات وسائل تختلف بمقدار اختلاف انواع الخامات ولا محل لذكرها الآن

هذه العمليات تحتاج الى وقود اما الفحم الحجري وإما الفحم الكوك وإما الفحم البلدي (فحم الحطب) وإما الى الغازات البترولية او الطبيعية

ولما كانت بلادنا تعوزها هذه المواد جميعاً فلا الفحم الحجري معروف وليست لنا مصانع تنتج الفحم الكربون وليست لدينا غابات تمكننا من صناعة فحم الحطب كما ان مناطق البترول حيث الغازات قد تكون متوافرة ، بعيدة جداً عن مواطن خام الحديد. فقيامنا على صنع الحديد والفولاذ محلياً على اساس استعمال اي نوع من انواع الوقود معناه استيراد هذا الوقود من الخارج ونقل الخام من اسوان الى نقطة متوسطة كالقاهرة مثلاً مما يجعل كلفة الصناعة بحيث تزيد عما يمكننا ان نستورد به الحديد والفولاذ في الاوقات العادية

وقد قام بدرس هذه المسئلة الخبير الكيماني لوزارة التجارة والصناعة ولم يتردد في ان يقرر ان الاقدام على مثل هذه الصناعة على هذا الاساس مصيره الحبوط المحقق. كما ان الدكتور عباس محبوب الكيماوي بمصلحة السكة الحديد قدر تكاليف انتاج الطن من الحديد الظهر الذي يصنع بالقاهرة بنحو ٣٨٣ قرشاً بينما يستورد عادة بأقل من ذلك. على اني رغم ذلك اخشى ان يظهر التمحيص الدقيق ان الفرق على كل حال لا يشجع على الاقدام على صناعة الحديد في مصر على اساس

استيراد الفحم من الخارج ولا سيا اذا لاحظنا ان ليس بمصر نفسها من الفنيين او العمال من يفهم صناعة الحديد مما يتحتم معهُ استقدام المهندسين والفنيين بل وحتى بعض رؤساء العمال وبعض العمال انفسهم وكل ذلك مما يزيد في نفقات الانتاج على الاقل في بدء الصناعة

﴿ صناعة الحديد والصلب بالكهرباء ﴾ على ان هناك بارقة أمل في الافق ذلك ما نراه من زيادة الاهتمام بمشروع هو في نظرنا من اكبر المشروعات الحيوية الصناعية في هذه البلاد ألا وهو توليد الكهرباء من مساقط الماء في خزان اسوان . والكهرباء قد أصبحت من الوسائل التي تستعمل في صناعة الحديد والفولاذ

على الرغم من ان استعمال الكهرباء في استنباط الحديد من خاماته وصناعة الصلب من تماسيح الحديد لم تبدأ الا في السنين الاخيرة الا انه خطا خطوات واسعة وصممت لذلك افران كهربائية مختلفة تعالج مختلف اصناف الخامات وقد أصبح الفولاذ الناتج بالطرق الكهربائية يعادل أجود انواع الصلب التي تصنع بالوسائط الاخرى. وقد قام البرهان على انهُ حيث سعر توليد الكهرباء رخيص فان تكاليف انتاج الفولاذ بالكهرباء تكون اقل كثيراً من تكاليف انتاجه على اساس استعمال الوقود وهذا مع الاحتفاظ بجودة الصنف

فاذا علمنا ان الذين يبحثون موضوع توليد الكهرباء من مساقط الماء باسوان يقدرون تكاليف توليدها بما يقل عن ربع مليم للكيلوات فقد اصبحت هذه الصناعة في حيز المعقول . ولا نقول أن ما تم من البحث كاف لوضع الاسس النهائية التي تقوم عليها الصناعة بل كل ما نريد ان نقرره ان هذه البحوث الابتدائية تشجع على الاستمرار في بحث المسألة بحثاً جديًّا وتحتم على القائمين بأمر تدبير الكهرباء من خزان اسوان ان يولوا هذه الصناعة عنايتهم الجدية فلا يتركونها من حسابهم . هذا ولا يخفى ان مثل هذه الصناعة اذا اريد انشاؤها على أساس الكهرباء المولدة من خزان اسوان تحتاج الى عناية فنية وخبرة عملية خاصة فيجب تحقيقاً لنجاحها ان توضع في الايدي التي يمكن ان تتعهدها بكفاءة تضمن لها النجاح . هذا ومن حسن التوفيق ان يكون في مصر أغلب المعادن التي تلزم لصناعة الاصناف الخاصة من الصلب

فالمنجنيز والكروم والتنجستن والموليبديوم والنيكل وجميعها من المعادن التي تخلط بالحديد في صناعة أنواع من الصلب بعضها يمتاز بصلابته والبعض يمتاز بعدم قابليته للصدإ وهلمَّ جرًّا جميع هذه معادن موجودة بمصر وبعضها في حالة استغلال. فاذا وجد أن صناعة الصلب نفسها صناعة ممكنة في اسوان فان الاستعانة بهذه المعادن قد تكفينا مؤونة استيراد حتى الانواع الخاصة من الصلب . والله نرجو ان يوفق العاملين على احياء الصناعات في مصر احسن التوفيق

رذرفورد

Lord Rutherford

أوّل من حوّل العناصر بعضها الى بعض

من المسلّم به بين اصحاب الرأي العلمي ان اللورد رذرفورد كان عند وفاته في ٢٠ اكتوبر الماضي امير علماء الانكليز العاملين واكبر عالم طبيعي مجرّب experimental scientist في هذا العصر . وقد وصفهُ العلاّمة الدنماركي نيلز بوهر بقوله ان « نشاطهُ فذّ ولا ينضب معينهُ » . فوفاتهُ وهو في منتصف العقد السابع خسارة علمية باعتراف اساتذه واقرانه وتلاميذه

روى الدكتور كارل كمطن مدير معهد ماستشوستس الصناعي ، انهُ عهد اليه في خلال الحرب الكبرى في ان يعرض على خبراء الانكليز والاميركيين جهازاً كان الفرنسيون قد اخترعوهُ لمعرفة مواقع الغواصات . وكان رذرفورد احد خبراء الانكليز . فبعث بكلمة الى الاستاذ يعتذر يقول انهُ يعتذر عن تأخره ، بوجوب البقاء في معمله قليلاً لاتمام تجارب كان قد بدأها ، ويظن انهُ استطاع ان يشطر بها نواة ذرة الايدروجين شطرين . وانهُ اذا صحّ ذلك فهو أهمّ من الحرب . ولكنهُ ، وهو العالم الحذر طلب ان لايذاع نبأ هذه التجارب، لانهُ لم يتثبت بعدُ من تفسير النتائج التي توصل اليها . وقدكان حذرهُ في محله ، لان البحث اثبت ان رذرفورد لم يشطر نواة الايدروجين في تلك التجربة بل قذف البروتونات من ذرات النتروجين والالومنيوم وغيرهما من العناصر الخفيفة ، فكان بذلك اول انسان ادرك الطريقة التي تحوّل العناصر بعضها الى بعض

وُلد رذرفورد في زيلندا الجديدة وتلقى العلوم في معاهدها . فلما اتمّ دراستهُ الجامعية في وطنه ، كانت جامعة كمبردج قد ابتدعت بدعة جديدة . ذلك انها قرّرت ان تقبل في عداد الطلاب الباحثين ، خريجي الجامعات الاخرى ، في انكلترا او خارجها ، فكان اول من انتظم فيها وفقاً لهذا النظام الجديد ، رذرفورد ، وقد اتاها من زيلندا الجديدة ، وتونزند ، وقدجاءها من كلية ترنتي بدبلن عاصمة ارلندا . وصلا الى كمبردج في يوم واحد من أيام اكتوبر ١٨٩٥ ولو ان مجلس الجامعة أرادان يتخيّر انبغ الطلاب ، ليدل باختيارهم على فائدة النظام الجديد ، لما استطاع ان يتخير طالبين أنبغ من رذرفورد وتونزند

وما كاد رذرفورد ينتظم في قسم المباحث الطبيعية بجامعة كمبردج حتى جدّد عنايته ببحث كان قد بدأه وهو في زيلندا الجديدة ، يدور على اتقان طريقة جديدة لاكتشاف الاشعة اللاسلكية . كان قد وجد أن ذبذبة التيارات الكهربائية ، تحدث نقصاً في مغناطيسية سلك فولاذي ممغنط ، وان التيارات الكهربائية التي تحدثها أمواج الراديو ، يمكن اكتشافها أو تبينها بأثرها في الاسلاك الفولاذية الممغنطة . وقد تمكنت جامعة كمبردج بهذه الطريقة من احراز قصب السبق في التقاط الاشارات اللاسلكية على أبعد مدى معروف حينئذٍ وكان ميلين !

كان العلاّمة جوزف طمسن مدير المعمل قد راقبهُ في المعمل ، فرأى بأية لباقة وبراعة يجرب التجارب العلمية ، فدعاهُ لمساعدته في تجاربه بامرار التيارات الكهربائية في الغازات

كانت الاشعة السينية قد اكتشفت على يدي رنتجن في السنة التي انتظم فيها رذرفورد في جامعة كمبردج . فهالهُ ما انطوت عليهِ من العجائب وأدهشهُ فعلها في اظهار عظام الجسم ، وتصويرها صوراً لاجسام تحجبها ألواح من الفولاذ . هذه ظاهرة طبيعية جديدة لا تمتُّ الى طبيعة القرن التاسع عشر بصلة . فأقبل عليها العلماء ، بنشاط عجيب يبحثون خواصها العجيبة

وكان من أشهر ما اتصفت بهِ ، ان اختراقها للهواء يكهرب الهواء ، أي يجعلهُ موصلاً جيداً للكهربائية . وقد لا نغالي ، اذا قلنا ان هذه الخاصة من خواصها ، كانت من أبعد الظاهرات الجديدة المتصلة بها ، اثراً في ارتقاء علم الطبيعة الحديث

كان من المتعذر على العلماء ، او بالحري من أشق الامور عليهم ان يكهربوا الهواء . فلما اكتشفت الاشعة السينية سهل ذلك عليهم . فعمد طمسن حال اكتشافها الى استعمالها في مباحثهِ التي تدور على سير التيارات الكهربائية في الغازات ، وعهد الى رذرفورد في مساعدته . فمهّد بذلك الطريق الى اكتشاف الالكترون سنة ١٨٩٧

في خلال هذه السنوات الثلاث ، عبَّ رذرفورد قواعد العلم التي وضعها أعلام معمل كافندش ، فتحوّل من مجرّد باحث علمي الى باحث خير الرأي

وكان من آثار الاشعة السينية ، عدا ما تقدم ، انها كانت سبيلاً الى اكتشاف ظاهرة الاشعاع . ذلك انهُ بعد ما أعلن رنتجن اكتشافهُ ، أخذ العلماء يبحثون عن أشعة مماثلة لها في نواحٍ مختلفة من الطبيعة . وكان من الطبيعي ان تفحص الاجسام المفصفرة التي تتألق في الظلام . فاكتشف بكرل سنة ١٨٩٦ ان معدن الاورانيوم يطلق أشعة تؤثر في اللوح الفوتغرافي ، ولو كان الحاجز بين المعدن واللوح كثيفاً يحجب النور ويحول دون تأثر اللوح بهِ

وبعدما قضى رذرفورد اربع سنوات في معمل كافندش عين استاذاً للطبيعة في جامعة ماكجل بكندا وكان عمره حينئذٍ ثماني وعشرين سنة . فاختار أن يوجّه بحثه الى ميدان الاشعاع وكان لهُ من قسم الطبيعة في الجامعة ، ما مهد لهُ سبيل البحث

كان مكتشفو الاشعاع من علماء فرنسا يميلون الى تفسير الاشعاع تفسيراً كيماويًّا والى دراسته بالاسلوب الذي كشف به أي بالتصوير الشمسي

فرأى رذرفورد ان ظاهرات الاشعاع المعقدة ، لا يمكن ان يحاط اللثام عن خفاياها بأساليب العلماء الفرنسيين . فعزم على ان يبتدع أساليب كهربائية ، ومقاييس كهربائية لدراستها ، وان يعنى بناحيتها « الكمية » لا بناحيتها « النوعية » فقط . وكان له من خبرته السابقة في استعمال الادوات الكهربائية ما يمكنهُ مما يريد . وقد دلت التجارب التي ابتدعها ، والادوات الكهربائية التي استنبطها لاستعمالها في هذه التجارب ان عبقريتهُ كانت ملائمة كل الملاءمة لهذا النوع من الدراسة ولهذه الطريقة من البحث . فكأن الموضوع ، والرجل الصالح لتحقيقه ، ظهرا معاً

كان الاستاذ كوري وزوجهُ قد اكتشفا البولونيوم والراديوم سنة ١٨٩٨ : وكان شمدت قد كشف فعل الاشعاع في عنصر الثوريوم . فدهش العلماء لهذه المكتشفات العجيبة . ولكن طريقة الاشعاع وفهم مقتضياته ، ظلاَّ موضوعين محاطين بستار من الغموض . ولما كانت هذه الظاهرات الطبيعية الجديدة ، معقدة ، ولا عهد للعلماء بما يماثلها من قبل ، تعدَّد القول فيها ، واختلف الرأي . فالعلماء الفرنسيون اسندوا الاشعاع الى ذرات العناصر المشعة ، ولكنهم عجزوا عن ان يبينوا كيف تظهر هذه الخاصة في الذرات . فقال أحدهم ان ذرات العناصر المشعة تستطيع ان تقلص الطاقة من الاثير ، ثم تطلقها كأشعة . وفي سنة ١٩٠٠ اكتشف رذرفورد ان عنصر الثوريوم ، يطلق غازاً . وإن هذا الغاز مشع كذلك . وكان العلماء قد وجدوا حتى مطلع القرن العشرين ان ما ينطلق من المواد المشعة محصور في الغالب في كهارب ، وأشعة أخرى لم يعلم حينئذ ما هي . فقال رذرفورد ان هذا الغاز المنطلق من الثوريوم ، تابع من الناحية الكيماوية ، للغازات الجديدة التي اكتشفت في الهواء اي الهليوم والارغون وغيرها

فكان كشف هذه الحقيقة — اي ان المواد المشعة تطلق او تقذف اجساماً مادية — الخطوة العظيمة الاولى نحو فهم ظاهرة الاشعاع على حقيقتها . فاذا كانت ذرات العناصر المشعة تطلق اجساماً مادية ، وجب ان تكون هذه الذرات آخذة في الانحلال . لان تقلُّص الطاقة من الاثير في دقائق مادية كالدقائق المنطلقة من المواد المشعة غير محتمل . وبعد ما اثبت رذرفورد هذه الحقيقة ، اخذ في دراسة الغاز وتحليله وابتدع في سبيل ذلك تجارب غاية ما تكون في الدقة والابداع ، والرسائل التي نشرت لهُ في المجلة الفلسفية سنة ١٩٠٢ تدل على ان مواهبهُ العقلية ولاسيما ما يتصل منها بالبحث العلمي ليست من المواهب المألوفة بين الناس

وفي سنة ١٨٩٩ اثبت رذرفورد ان الاشعاعات المنطلقة من اكسيد الاورانيوم تحتوي على ضربين من الاشعاع ، اطلق على احدهما اسم « اشعة الفا » وعلى الثاني اسم « اشعة بيتا » وقال ان اشعة « بيتا » قِوامُها كهارب تستطيع ان تخترق الواحاً كثيفة من المادة وتنحرف

بالجذب المغناطيسي . اما اشعة « الفا » فأقل إختراقاً للاجسام من اشعة « بيتا » وأقل انحرافاً منها بالجذب المغناطيسي . وبعد ذلك اثبت انه يمكن حرف اشعة «الفا» في مجال شديد المغنطة وانها في الواقع تحتوي على ذرات الهليوم (راجع وصف التجربة البديعة التي اثبت بها انها ذرات هليوم في صفحة ١٥٦ من كتاب اساطين العلم الحديث : الطبعة الاولى) . ثم اكتشف ضرب ثالث من الاشعة ينطلق من المواد المشعة ، وهو شديد الاختراق للاجسام ، يشبهُ الاشعة السينية في ذلك فدُعي « اشعة غما » . غير ان الدليل العلمي على ان اشعة « غما » تشبهُ الاشعة السينية لم ينهض ، الاَّ في سنة ١٩١٤ عند ما طبق رذرفورد طريقة فون لاوْ في تفريق الاشعة باستعمال البلورات او الالواح المحززة diffraction gratin ;

في سنة ١٩٠٢ قبل ان يعرف ان اشعة « الفا » مؤلفة من ذرات الهليوم اقترح رذرفورد وصُدي نظرية لتفسير حقائق الاشعاع المعروفة ونشرا رسالتهما في المجلة الفلسفية . وقد ثبتت هذه النظرية بالبحث لان جميع الحقائق الجديدة التي اكتشفت ايدتها وأمكن إدماجها في نطاقها . قالا : — « لما كان الاشعاع ظاهرة ذرية ويصحبها في الوقت نفسه تغيرات كيماوية ، تبرز فيها ضروب جديدة من المادة ، فلا بد ان تكون هذه التغيرات حادثة داخل الذرة ، ولا بد ان تكون العناصر المشعة تتحول تحولاً ذاتيًّا . وقد اثبتت النتائج التي حصلنا عليها حتى الآن ان سرعة هذا التحوُّل لا تتأثر بأية حال من احوال الذرة (كالضغط والحرارة) فمن الواضح ان التغيرات التي تقدَّم ذكرها تختلف عمَّا عالجتهُ الكيمياء حتى الآن من وجوه التغير الطارئة على المادة . فنحن إذن امام ظاهرة خارجة عن النطاق المعروف عن القوة الذرية . وإذن يجب ان نحسب الاشعاع Radio-activit مظهراً من مظاهر التغيُّر والتحوُّل الذريري sub-atomic

بهذه العبارات البسيطة الفخمة وصف رذرفورد وصدي مكتشفاً من اعظم المكتشفات العلمية الحديثة في نشوء المادة وتطورها . ففتح هذا الاكتشاف ميادين واسعة امامهما فتقدما فيها بخطوات راسخة وبصر نافذ ، هما وليدا العظمة العلمية الحقيقية . وقد اتبعا العبارات المتقدمة بالعبارة التالية : — « فالامل المعقود على ان يكون الاشعاع سبيلاً الى معرفة افعال التحول الكيماوي داخل الذرة ليس املاً غير معقول » . وفي سنة ١٩٠٧ عين رذرفورد استاذاً للطبيعة في جامعة منشستر . وفي سنة ١٩٠٨ منح جائزة نوبل الكيماوية وهو لا يزال في السابعة والثلاثين . وقد منح جائزة الكيمياء لا جائزة الطبيعة لان الاشعاع كان لا يزال في نظر القوم ، ظاهرة كيماوية لا ظاهرة طبيعية . وبمنحه هذه الجائزة ، انهت المرحلة الاولى من حياته الحافلة ، وفيها كشف السبيل الى فهم عملية الاشعاع . وذلك وحده كافٍ لتخليد اسمه في تاريخ العلم

اما المرحلة الثانية من حياته فتقع بين سنتي ١٩٠٧ و ١٩١٩ وهي السنوات التي قضاها

استاذاً في جامعة منشستر . في خلال هذه المدة وقف رذرفورد عبقريتهُ على النفوذ من طريق الاشعاع الى معرفة ما يحدث داخل الذرة من التغير الكيمياوي كما امَّل سنة ١٩٠٢ . فكانت آثاره العلمية في هذه المرحلة أفخم وأروع من آثاره في المرحلة السابقة

فبعد ما اخرج رذرفورد وصُدي نظريتهما في التحول الذاتي في الذرة تفسيراً لظاهرة الاشعاع عكف رذرفورد في منشستر على درس اشعة «الفا» و«بيتا» و«غمَّا» دراسة مفصلة . كان قد اكتشف اشعة «الفا» سنة ١٨٩٩ ثم اثبت انها تيارات من ذرَّات الهليوم او بالحري من نوى الهليوم . ثم اثبت ان أشعة «بيتا» هي تيارات من الكهارب، سالبة الشحنة الكهربائية . والفرق بين الضربين من الاشعة كان عظيماً ، لان نواة الهليوم تفوق الكهرب بضعة آلاف ضعف وزناً . وشحنتها الموجبة ، ضعف شحنة الكهرب السالبة . وكان طمسن قد جرى في سنة ١٩٠٤ على طريقة استكشاف داخل الذرة باستعمال أشعة أو تيارات من الدقائق او الامواج . فبيَّن انهُ يمكن تعيين عدد الكهارب في ذرات مختلفة من طريقة تفريق هذه الذرات — في لوح مؤلف منها مثلاً — للدقائق او الامواج الموجَّهة اليها . وقد فاز طمسن علاوة على ذلك بتبيين العلاقة بين عدد الكهارب من ذرة عنصر ما ومقام ذلك العنصر في الجدول الدوري

ولكن العلماء في ذلك الوقت عجزوا عن تصوّر صورة للذرة تفي بجميع الحقائق الجديدة التي اثبتها البحث . فكان لا بدَّ من كشف حقائق أخرى حتى يتم تأليف الصورة المرجوَّة منها . فرأى رذرفورد، ان استعمال دقائق «الفا» على طريقة طمسن ، قد تسفر عن كشف حقائق جديدة لا يمكن الحصول عليها باستعمال امواج الضوء او الكهارب لخفتها وسهولة انحرافها . ولا يخفى ان كتلة دقيقة «الفا» تفوق كتلة الكهرب ثمانية آلاف ضعف. فاخذ يعدُّ العدة لاستطلاع اسرار الذرَّة باطلاق دقائق «الفا» على الذرَّات. فوجد أن بعض هذه الدقائق تخترق لوحاً رقيقاً من المادة في خطوط مستقيمة ، وبعضها يخرج من الناحية الثانية وقد انحرف قليلاً . وقليل منها يرتدُّ . وهذه الدقائق المرتدَّة عجز عن فهم ارتدادها . وقد روى نيلز بوهر انهُ عند قدومه الى منشستر للاشتغال في معمل البحث الطبيعي في جامعتها — وهو المعمل الذي كان يشرف عليه رذرفورد — علم من هفسي ان رذرفورد كان قد قال لموزلي ، انهُ لولا ارتداد هذه الدقائق لاستطاع ان يفهم فهماً جيداً تصرُّف دقائق « الفا » عند اطلاقها على ذلك اللوح الرقيق . ومع ان العدد المرتد من هذه الدقائق كان يسيراً جدًّا، احسَّ رذرفورد انهُ لا يمكن ان يتجاهله

فكتلة الدقائق كبيرة بالقياس الى كتلة الكهارب ، وطاقتها عظيمة . فأيّ شيء يستطيع ان يردَّها على اعقابها بطاقة عظيمة ؟ لا بدَّ ان يكون هذا الشيء ، جسماً راسخاً كبير الكتلة . يضاف الى ذلك انهُ لاحظ ان الدقائق التي تنفذ اللوح منحرفة ، كان انحرافها أقلّ مما ينتظر وهذا دلَّهُ على ان المساحة التي يشغلها ذلك الجسم المفروض الذي يردُّ الدقائق على أعقابها ،

يجب ان تكون اصغر مما ينتظر . فنظر رذرفورد في الدقائق المنحرفة وتوزيعها ومدى انحرافها وحسب حجم ذلك الجسم، فوجده أصغر من حجم الكهرب . واذن فهذا الجسم الذي يردّ الدقائق على اعقابها اصغر حجماً من الكهرب واعظم كتلةً منهُ . وفي سنة ١٩١١ اخرج رذرفورد نظريتهُ القائلة بأن هذا الجسم ، هو نواة الذرّة . فتصوّر الذرة مؤلفةمن نواة دقيقة تحتوي على معظم وزن الذرة ، وحولها تدور الكهارب على ابعاد مختلفة ، وان الشحنة الكهربائية على النواة شحنة موجبة ، وان الكهارب وشحناتها الكهربائية سالبة ، تعدل شحنة النواة الموجبة فتصبح الذرة متعادلة او محايدة neutral . واذن فكتلة النواة العظيمة وشحنتها الموجبة، تمكنانها من ردّ دقائق «الفا» ذلك الرد العنيف

ومما يستوقف النظر في نظرية رذرفورد هذه، انهُ اقترحها وهو يعلم انها مناقضة للنواميس الميكانيكية المسلّم بها ، كما وضعها غليليو ونيوتن . وقد قال ادنغتن ان اقتراح رذرفورد ، صورة للذرة لا تتفق والنواميس الميكانيكية النيوتونية كان اجرأ اقتراح في تاريخ العلم الحديث

هذه الصور الذرية التي اقترحها رذرفورد ، فسرت خواص الذرة الطبيعية واستقرارها ولماذا لا تتأثر بالتفاعل الكيمياوي. فالتفاعل الكيمياوي يقتصر في تأثيره على الكهارب في مناطق الذرة الخارجية ، ولكنهُ لا يؤثر مطلقاً في معقلها الداخلي وهو النواة

وكان بين تلاميذ رذرفورد وأعوانهِ في منشستر شاب دنماركي يدعى نيلز بوهر . فتناول الصورة الذرية التي اقترحها رذرفورد ، معجباً بما تفسره من الحقائق المعروفة ، آسفاً انها لا تتفق والنواميس الميكانيكية المسلّم بها . تناولها وغرضهُ ان يبحث عن طريقة يوفق بينها وبين تلك النواميس . وبعد بحث نظري عويص بيّن بوهر ان الصورة المقترحة تصلح اذا طبقت عليها نواميس «الكونتم» ، لا نواميس نيوتن الميكانيكية . اي ان التغيرات الذرية لا تحدث حدوثاً متصلاً بل تحدث في نبضات صغيرة . فلما وفق بوهر بين ذرة رذرفورد ونواميس «الكونتم»، استطاع الباحثون في الحال ان يفسروا طائفة من الظاهرات الطيفية (السبكتروسكوبية) التي كان تفسيرها متعذراً عليهم . واذ كان زملاء رذرفورد الشبان ماضين في تحقيق صورته الذرية من الناحية النظرية وصلتها بالنواميس المعروفة ، اقدم هو على استعمال دقائق « الفا » ، التي مكنتهُ من اكتشاف نواة الذرة ، استعمالاً طريفاً مكنهُ من تغيير بنائها في بعض العناصر

اطلق هذه الدقائق على ذرات بعض العناصر الخفيفة كالنتروجين والالومنيوم . فلاحظ وجود ذريرات مادية في اماكن خارجة عن نطاق دقائق « الفا » وفعلها . وكان مشغولاً بهذا البحث ، لما دعي الى كمبردج ليشغل كرسي كافندش للطبيعة التجريبية الذي خلا باستقالة استاذه السر جوزف طمسن . فأتم البحث في معمل كافندش بكمبردج اذ أثبت ان هذه

الذريرات ليست الا كسراً من ذرات النتروجين والالومنيوم بعد تحولها بوقع دقائق «الفا» عليها . وفي سنة ١٩١٩ نشر وصفاً لاشهر تجاربه على الاطلاق وهي تجاربه في تحويل العناصر

كان يومها في الثامنة والاربعين من العمر ووراءهُ مرحلتان من البحث العلمي حافلتان بالعجائب فكان يتعذَّر على الباحث ان يصدق حينئذٍ ان هذا العالم مقبل على مرحلة ثالثة حافلة حفول المرحلتين السابقتين . ولكنهُ في سنة ١٩٢٠ التي الخطبة البكرية في الجمعية الملكية ، وبعد ما وصف تجاربهُ في تحويل العناصر تحدَّث عمَّا يعرف عن نواة الذرَّة فتنبأ بوجود دقيقة جديدة غير الالكترون والبروتون ، ووصف الخواص التي يجب أن تتصف بها . وبعد انقضاء احدى عشرة سنة على تلك الخطبة اكتشف مساعدهُ شدِك تلك الذرَّة ودعيت النوترون (المحايد) وثبت ان خواصها هي هي الخواص التي تنبأ بها رذرفورد

وقبل ان يفيق العالم العلمي من دهشة إكتشاف النوترون اذيع نبأ إكتشاف آخر تمَّ في معمل كافندش وذلك ان الباحثين كوكرفت وولطن اتما اول تحويل للعناصر باستعمال الآلات ومن دون الاستعانة بدقائق «الفا» المنطلقة من العناصر المشعَّة. كان رذرفورد قد استعمل دقائق «الفا» في تحويل العناصر سنة ١٩١٩ ولكن كوكرفت وولطن استنبطا بارشادهِ طريقة تمكنهما من اسراع الذرَّات حتى تبلغ طاقة انطلاقها طاقة دقائق «الفا» . وكانت طريقتهما هذه تفضل طريقة رذرفورد الاولى في انهُ كان في وسعها اطلاق عدد كبير من هذه الذرات السريعة حالة ان رذرفورد كان يعتمد على دقائق «الفا» المنطلقة انطلاقاً طبيعيًّا وقد كان عدد المنطلق منها محدوداً بمقدار المواد المشعة وهي ثمينة ولا بدَّ ان يكون المقدار قليلاً ، لندرتها وغلائها

يضاف الى ذلك ، ان نوى الذرات مؤلفة من اجزاء مرتبطة بعضها ببعض بطاقة عظيمة ففصلها بعضها عن بعض او تحطيم النواة — وهذا ملازم لتحويل الذرة — يطلق جانباً من الطاقة الكامنة في الذرة . وقد يظن ان كوكروفت وولطن حققا بعملها هذا الحلم القديم باطلاق الطاقة الكامنة في الذرة لاستعمالها بدلاً من انواع الطاقة المستعملة الآن في الصناعة . ولكن جهازهما لايصلح لذلك . نعم ان البروتون الذي يحل ذرة الليثيوم مثلاً يطلق من الذرة طاقة اعظم من الطاقة التي اندفع بها البروتون . ولكن بروتوناً واحداً من ملايين البروتونات يصيب ذرة الليثيوم ويحلها . والطاقة اللازمة لاطلاق جميع البروتونات المنطلقة اعظم جداً من الطاقة الخارجة من الذرة عند حلها . فالمسألة الآن لاتعدو حدود البحث العلمي

فاطلاق الطاقة الذرية واستعمالها لايزالان في رحم المستقبل . ولكن اذا أتيح للانسانية بعد عقود من السنين او قرون ، ان تمتح من معين الطاقة الذرية ، فلا ريب في ان الاجيال المقبلة تلتفت حينئذٍ الى القرن العشرين، وتقول ان رذرفورد هو الرائد الذي مهد لها الطريق



العلوم العربية

في جامعة برنستون

للدكتور ادورد جبرا جرجي

الرازي

دليل ساطع على ان جامعة برنستون تقدر خدمات العرب الجلّى المدنية كما تقدر افضال بني الشرق على ثروة الانسانية الثقافية انها خصصت ناحية من رواق كاتدرائيتها البديعة البنيان لعلم من اعلام الحضارة الاسلامية الخالدين هو ابو بكر محمد بن زكريا الرازي (٨٥٠ — ٩٢٣ م). وتعدّ هذه الكاتدرائية اكبر معبد في جامعة اميركية وقد بلغت نفقاتها مليوني دولار. فاذا دخل الزائر الدهليز المؤدي الى صحن هذا المعبد الفخم استوقفت انظاره صورة قائمة بالوان وخطوط رسّام الى اليمين من ممرّ العمارة الامامي يبدو فيها اسم صاحب الصورة — الرازي — بحروف عربية صريحة الدلالة فاذا بذلك العالم يكتب احدى صفحات كتابه المشهور — «الحاوي» — ويستهلهُ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم». ونسبة الرازي تشير الى اصله فهو مولود في الريّ بالقرب من طهران عاصمة ايران الحاضرة. كان هذا العلم في الراجح «إعظم اطباء الاسلام واشدّهم ابتكاراً واخصبهم عقلاً[1]». قيل انهُ استشير في الموقع الذي يجب ان يُبنى فيهِ البيمارستان الكبير[2] في بغداد وقد اصبح عميد طبابتهِ من بعد. فأمر أن يعلق في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم. ثم اعتبر الناحية التي لم يفسد فيها اللحم بسرعة فأشار بان يُبنى البيمارستان فيها[3] وهو مستنبط «الفتيلة» في الجراحة. نسب اليهِ الفهرست[4] مئة وثلاثة عشر كتاباً وثماني عشرة

---

(١) ادورد برون (Edward G. Browne) «الطب العربي» (Arabian Medicine) كامبردج سنة ١٩٢١ ص ٤٤.

(٢) أخطأ من ظن ان هذا هو البيمارستان العضدي الذي بناه في نفس البقعة عضد الدولة البويهي

(٣) ابن أبي أصيبعة «عيون الانباء» حرره مولر القاهرة ١٨٨٤ ج ١ ص ٢٠٩ — ١٠

(٤) النديم «كتاب الفهرست» حرره فلوغل ليبزك ١٨٧٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٢

رسالة اثنتا عشرة منها في الكيمياء . ومن مؤلفاته الجديرة بالذكر « كتاب الاسرار » الذي اتصل بعد ان تناقله المحرّرون بالمترجم جرارد الكرموني (Gerard of Cremona) (توفي سنة ١١٨٧) المشهور فنقله الى اللاتينية فأصبح احدى مصادر المعرفة الكيمياوية الى ان سادت عليه مصنفات جابر في القرن الرابع عشر . ولقد اشار روجرباكن (Roger Bacon) الى هذا الكتاب فأطلق عليه اسم « دو سبرتبس آت كُربريس » (De spiritibus et corporibus) وقد أنشأ الرازي في مطلع عمره وهو لا يزال مقيماً في فارس كتاباً في مجلدين للمنصور بن اسحاق الساماني صاحب سجستان يعرف بالكتاب المنصوري نسبة الى وليّ نعمته هذا ثم نقل هذا الاثر الى اللاتينية ايضاً فصدر في ميلان نحو السنة الثمانين من القرن الخامس عشر بعنوان « ليبر المنسورس » (Liber Almansoris) وقد ترجم بعضهُ اخيراً الى الفرنسية والالمانية . اما رسائله فمن اظهرها رسالة « الجدري والحصبة »[1] أقدم ما صنف في هذا الموضوع وقد صدق من قال « انها زينة الادب الطبي عند العرب » ورد فيها اول وصف كلينيكي للجدري. وقد نقلت الى اللاتينية سنة ١٥٦٥ في البندقية والى عدة لغات حديثة فذاع بها صيت الرازي في الخافقين واشتهر في اقطار الغرب اشتهاره في اقطار الاسلام نابغة في الطبّ ومفكراً ومبدعاً . اما احقّ تآليفه بالعناية اي « كتاب الحاوي » فاول من نقله الى اللاتينية الطبيب الصقلي الاسرائيلي الشهير بفرج بن سالم وذلك سنة ١٢٧٩ باسم كارل الاول تحت عنوان « كونتيننس » (Continens) ثم طبع مراراً سنة ١٤٠٦ فما بعد الى ان صدرت طبعتهُ الخامسة سنة ١٥٤٢ في البندقية. والكتاب حسبما يشعر عنوانه موسوعة جامعة للمعارف الطبية بل موجز علوم العرب الطبية وما اخذوه عن اليونان والفرس واهل الهند مع مبتكراتهم الخاصة. وانما طبعت هذه المؤلفات حين كان فن الطباعة في الطفولة فاستحالت وسيلة فعّالة لاعلاء مقام الرازي بين علماء الغرب اللاتيني وها جامعة برنستون اليوم تستمدّ الوحي من رسمه

وينظر زائر المعبد بسرةً فيرى صورة القديس يوحنا الدمشقي احد الكبار الذين توسّطوا بين افكار الشعوب العربية اللسان والنزعات الغربية اليونانية وهو المكنّى بالذهبي اللسان اسوة بسميه الاسبق الانطاكي المعروف بفم الذهب . وليس القديس يوحنا باليوناني . ولو كتب باليونانية بل كان سوريًّا ارامي اللسان وكان يحسن العربية واليونانية معاً : جدهُ منصور ابن سَرجُون صاحب بيت المال بدمشق خلال الفتح العربي . واطأ اسقف دمشق على تسليم المدينة للمسلمين فأبقى له المسلمون منصبهُ وخلفه فيه إبنهُ والد هذا القدّيس. أما صاحبنا فقد كان

[1] نشرها الدكتور كرنيليوس فانديك بيروت ١٨٦٦ ووسمها برسالة في مرض الجدري والحصبة

في شبابه نديم يزيد بن معاوية ثم نسج على منوال أبيه وجدّه فتسلم زمام المال في الدولة العربية الفتية ولم يزل عليها حتى خلافة هشام (٧٢٤ — ٤٣) فاعتزل السياسة وحوّل وجههُ شطر الزهد والتعبد نازلاً دير القدّيس سابا بالقرب من بيت المقدس حيث قبض حوالي ٨٤٨ . وغالب الظنّ أن يوحنا ناقش في مسائل الدين كثيراً وذلك في مجلس الخليفة . وليس الكشف عن تأثيره في تكوين المدرسة القَدَرية من صعاب الامور . والواقع أنهُ آخر لاهوتي عظيم انجبتهُ كنيسة الروم الشرقية . أما في الأدب الكنسي فقد أصبحت الاناشيد التي نظمها (وبعضها لا تزال الانجيليون يترنمون بهِ الى اليوم) أعلى ما ارتقى اليهِ شعراء الكنيسة من ابداع وجمال . اذاً فالقدّيس يوحنا مفخرة من مفاخر الكنيسة التي ازدهرت تحت ظلّ الخلافة لما تحلّى بهِ من النضوج كمرنم ولاهوتيّ وخطيب وكاتب جدليّ

المشرقيات في اميركا

لم يبق ريب في أن النزعة العلمية في اميركا اليوم تنذر بدخول العالم في شوط جديد تكون الولايات المتحدة فيه زعيمة الحريّة الفكريّة ورسول التقدّم والانتاج . ويلاحظ أن الاقبال عظيم في هذه البلاد على التعمق في سالف الحضارات واهتمام العلماء بآيات المجد الشرقي يزداد حولاً فحولاً . ولا نغالي اذا نسبنا قسطاً من هذا النشاط العلمي في المشرقيات الى التعزيز الذي فازت بهِ اللغة العربية بواسطة أولياء الامر في جامعة برنستون التي من حقها المباهاة بتاريخ حافل بعظيم المساعي في سبيل احياء التراث الشرقي . وبالدائرة الشرقية فيها اصبحت مركزاً للعلوم الاسلامية العربية يؤمّهُ الطلاب على اختلاف الاجناس

والحقّ أن علماء اميركا ومن يستعينون بهم من الاجانب أوّل من وضع علم الأثريات على أساس خدمة الحقيقة المجرّدة . وهم منظمو أعمال الحفر وواضعو اصولها العلمية بل هم الذين نهضوا بعلم الأثريات فأخرجوه من مقامه الثانوي جاعلين ما كان واسطة الى فهم التاريخ ليس الا غاية قصوى وفنّاً ذا أصول . ومن أساطينهم اللامعين برستد(Breasted) وجورج ريسنر (Reisner) وهلبرخت(Hilprecht)وبانكس (Banks) وسبيزر (Speiser) وكيارا (Chiera) وفرانكفرت (Frankfort) وليون (Leon) وجاسترو (Jastrow) وبارتن(Barton) ولوكنبل (Luckenbill) والبريت (Albright) . وبين المنصرفين الى هذا العلم طبقة نشطت بعد الحرب فوجّهت همّتها أولاً نحو المرانة العملية في المواقع التاريخية فكان واحدها يقضي السنين في آسية الصغرى أو مصر أو سورية وهلمّ جراً . ثم عكفت بعدئذ على الدراسة النظرية اذ عاد

افرادها لاتمام تحصيل الاسس العلمية المتوفرة في بطون الكتب والاخذ عن العلماء في مراكز العلم [1]

دار العلوم العربية صيف ١٩٣٥

والعلماء الاميركيون المختصون بتاريخ العصور الوسطى هم بحاجة الى تعلم لغة الضاد لأن العرب كانوا أصحاب العلم وحملة العرفان في القرون المظلمة بواسطتهم تسنى لمدنيّة اليونان والرومان سبيل الاتصال بأمم أوربا . اذن فادراك اسرار لغتهم واستطلاع مكنوناتها حتمٌ على دارسي تلك العصور . كذلك قل في من يبتغي الخوض في تاريخ العبرانيين والاشوريين ومن حذا حذوهم . يهون عليه الامر اذا ما رسخت قدمه في ثقافة العرب وحضارتهم . وليس خيراً من اللغة العربية مفتاحاً لمنغلق الحياة القديمة في الشرق الادنى ولادراك النظم الدينية والاجتماعية في العصور الباكرة . الى ذلك ما للبلدان العربية من الخطورة في العصر الحاضر . أو ليس لموقعها الجغرافي شأن في تسيير السياسة العالمية جعل الدول العظمى تطلق على أحوال هذه البلدان اسم « المسألة الشرقية » ؟ هذه وجوه نقتصر عليها في الاشارة الى ما للعرب من اثر بعيد الغور في كل قطر فكم بالاحرى في اميركا بلاد النور وملاذ الحرية والعرفان ؟ وقد اتضح للجنة الجمعيات العلمية الاميركية ما نلوح به من آراء في مكانة العلوم العربية والاسلامية فعقدت النية على فتح دار لهذه العلوم صيفاً ، كيما يتمكن العلماء من الوقوف على معارف الشرق . ورأت بعد طويل الدرس ان خير معهد تعتمد عليه لابراز خطتها هذه انما هو جامعة برنستون . فجاء هذا الاختيار قراراً بتبريز برنستون في هذه الناحية العلمية — هكذا خرجت دار العلوم العربية والاسلامية الى حيز الوجود صيف ١٩٣٥ باشراف لجنة الجمعيات العلمية ، ارقى مؤسسة اميركية لتشجيع الابحاث العالية في ثقافات الانسان ، ماضيةً وحاضرةً . ولكن دار العلوم لم ينفسح المجال فيها الاّ لنخبة من ذوي الكفاءة والجدارة ، والسواد الاعظم من طلابها انما كانوا من حاملي رتبة استاذ في العلوم وعدد منهم يحمل رتبة دكتور في الفلسفة منهم الاختصاصيون ومديرو المتاحف وأصحاب التآليف القيمة والعلماء والبحاثون وممثلو الجامعات الكبرى رجالاً ونساء [2]

وليس الطلاب الذين ينتسبون الى هذه الدائرة الشرقية من الاميركيين وحدهم بل ان

(١) من هؤلاء الناشطين المستر رتشارد ستار (Starr) أحد طلبة الدائرة الشرقية في جامعة برنستون الذي قضى أعواماً يحفر بأنحاء سيناء وتركيا وجزيرة وان والتركستان الصينية والعراق حيث كشف في اطلال «النوزي» بجوار كركوك عن أقدم خريطة معروفة في التاريخ المدون يرجع عهدها الى سنة ٢٥٠٠ ق . م . انظر كتابه « نوزي » (Nuzi) ج ٢ مطبعة جامعة هارفرد في الولايات المتحدة سنة ١٩٣٧

(٢) راجع مقالي في جريدة « الهدى » نيويورك ١٨ آب سنة ١٩٣٥

للمعهد زعامة معترف بها في شتى الاقطار يقصده العلماء من انحاء الشرق والغرب ، من الصين وبلدان اوربا ، ومن مصر والعراق وسورية وايران وتركية . ومن خريجي هذه الدائرة فئة تشغل مناصب هامة . منهم اختصاصي في علم الأثريات يقيم الآن في ايران حيث يتردد على اطلال مدينة الري . وآخر استاذ في كلية اسيوط بمصر وسواهما عضو في عمدة كلية الآداب بجامعة بيروت الاميركية وهو من اساتذة التاريخ الشرقي فيها وله ابحاث سديدة . وقد منحت عمدة هذه الجامعة احد خريجي الدائرة الشرقية لقب مدرس بعد ان انتدبته الجمعية الاميركية للابحاث الفلسفية ليترجم « كتاب احياء علوم الدين » الى اللغة الانكليزية وخريج آخر قدم رسالته فنال الدكتوراه منذ سنة وهي مبنية على دراسة التصوف وامعان النظر في مذهب الاشراق استناداً الى المخطوطات وابحاث المستشرقين وهو يُعيدّ الآن الطبعة العربية لكتاب « تاريخ العرب » الذي سيأتي الكلام فيه

اما مدير هذه الحركة العلمية العربية فهو الاستاذ الدكتور فيليب حتي . لولاه ما عرفت الولايات المتحدة هذا الاتجاه الجديد الذي نعرض له ولا وجد الطلاب العرب القادمون الى هذه البلاد مرشداً يمهد لهم سبل الدراسة في الجامعات الاميركية . وهو احد محرري الطبعة الجديدة لقاموس وبستر سنة ١٩٣٤ ، ومدير دار العلوم العربية الاسلامية التي ذكرناها وعضو الجمعيات الاميركية الجغرافية والتاريخية واللغوية والمجمع العلمي العربي بدمشق والجمعية الاميركية الشرقية . نذكر من مؤلفاته ترجمة « فتوح البلدان » للبلاذري ، للانكليزية سنة ١٩١٦ و « اللغات السامية المحكية في سورية وفلسطين » سنة ١٩٢٢ و « السوريون في اميركا » بالانكليزية سنة ١٩٢٩ و « سورية والسوريون » سنة ١٩٢٦ و « اسامة بن منقذ » ترجمة انكليزية سنة ١٩٢٩ وطبعة محررة سنة ١٩٣٠ و « تاريخ العرب » بالانكليزية سنة ١٩٣٧ . عدا مقالات علمية بالانكليزية في دائرة معارف العلوم الاجتماعية ورسائل اخرى كثيرة في امهات المجلات الشرقية والغربية [١] . ويستحق البحث في كتاب « تاريخ العرب » اضعاف اضعاف المتسع المقرر لهذه الرسالة . وأول عهد الكاتب بهذا المؤلف الفريد كان يوم جاء برنستون طالباً . فعند حضوره فصل « حضارة العرب » رأى الاستاذ يطلع تلاميذه على ما وضعه في العرب من سفر شامل — زبدة ابحاثه في السنين الطوال التي قضاها في كولومبيا وجامعة بيروت الاميركية وفي برنستون — نحو الف وخمسمئة صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة فيها الفكرة العلمية بأطلى عبارة مرفقة بالشروح والمراجع الجامعة عربية وانكليزية والمانية وافرنسية

(١) راجع مادة (Hitti) « حتي » في « هوز هو » (Who's Who) (كتاب مشاهير اميركا) لسنة ١٩٣٦ — ٣٧

وايطالية واسبانية ويونانية ولاتينية وعبرانية وسواها . فاستولى عليّ العجب لما شاهدته في تلك «المخطوطة» من ضروب الدقة والايجاز والتنسيق العلمي ، فالجملة الواحدة تمثل لك تعب الاسبوع والاسبوعين والحاشية يلتقي عندها تصفح المؤلف لمكتبة علوم فيها آلاف المجلدات واشتقاقات لغوية افنى العالم اشهراً في تعقبها تظهر — مثلاً — كيف ان الكلمة الانكليزية (Soda) « صودا » ليست اصلاً الا « صداع » العربية . او كيف ان لفظة (Candy) « كاندي » التي يطلقها متكلمو الانكليزية على السكر الذي يعطى للاولاد هي « قَنْدَة » او « قَنْدي » العربية مأخوذة من « قَند » الفارسية . ونحو ذلك من الكلمات المتعلقة بالحياة في نواحيها العملية والعلمية . وسرد للحوادث بأسلوب رائق رشيق تجد المؤلف فيه ينشد المظاهر الثقافية لا مجرد التدليل بأسماء الابطال وايراد المعارك الحربية وإعطائك الارقام والتواريخ . قال احد نقاد الكتاب في جريدة « هرلد تريبيون » [1] الكبرى: « الاستاذ حتّي سوريّ الاصل لذلك فهو بحكم الطبع غير ميال الى التقلل من ايضاح أثر الاسلام على الغرب . الا ان هذه الرغبة فيه لم تقده (في كتابه) الى المحاباة والانحياز » . فهذا « كتاب فاخر اشبه شيء بنصب تاريخيّ منيف » . وجاء في مقال انتقادي للاستاذ حبيب كاتبة نشرته جريدة « نيويورك تيمس » [2] « ولقد رحّب المستشرقون بكتاب الاستاذ حتّي واعترفوا به مرجعاً بليغاً يفوق جميع ماصنّف قبلاً في هذا الموضوع . . . فهو سفر جليل يستند اليه من مزاياه الصدق وسداد الرأي والابتعاد عن التعصّب والهوى » . وفي مجلة « فورتينتلي رفيو » [3] البريطانية ان الاستاذ حتّي اكفأ من يسطر تاريخ ذلك الشعب الخالد — وريث إمجاد بابل وكلدا والحثيين والفينيقيين — وهو بخلاف هذه الشعوب الاخرى التي ورثها — لايزال له شأن في توجيه مجاري العصر الحاضر . ومما يلذ للقارىء معرفته ان الدائرة الشرقية قررت هذا العام بالاشتراك مع دائرة الآثار في الجامعة ومعهد الدراسات العليا في برنستون ان تمنح الطلبة المتأهلين « الدكتوراة في الآثار الاسلامية » وهي رتبة وحيدة من نوعها في جامعات الولايات المتحدة . ومما سهل ذلك وجود الاستاذ هرتسفلد (Herzfeld) الشهير احد اساتذة برلين سابقاً ومتولي حفريات سامرا أستاذاً مستجداً في معهد الدراسات العليا . وكاتب هذه السطور هو احد المشتغلين في هذا المعهد والمساهمين مع الاستاذ هرتسفلد في دروسه التنقيبية . أما دائرة الآثار في الجامعة فهي في طليعة الدوائر من نوعها في الجامعات وهي اليوم تعنى بحفر الآثار في إنطاكية

---

(١) الصادرة في نيويورك ١٨ تموز (يوليو) سنة ١٩٣٧

(٢) ١١ تموز (يوليو) سنة ١٩٣٨

(٣) لندن حزيران (يونيو) ١٩٣٧

دراسة الغزالي

لا بد للباحث في آثار المفكرين المسلمين من الشعور بما للغزّالي (توفى ١١١١ م) من مكانة، وما لكتبه من قيمة . وقد يمكن حصر تأثير الغزّالي في أبواب أربعة نوردها اظهاراً للسبب الذي جعل الدائرة العربية في هذا المعهد تدرجهُ في عداد العلماء اللامعين الذين تجب دراستهم ونقل مؤلفاتهم الى الانكليزية . أولاً هدى الغزالى ابناء زمانه من الابحاث الكلامية ، وهي تدور حول العقائد والشروح ، الى تماسّ ناجز بكلام الله عزّ وجلّ ، كما هداهم الى العناية بالحديث حتى قيل صواباً ان ما جرى في عالم النصرانية وشاهدتهُ أوربا عندما تكسرت وثائق اللاهوتيين جرى في عالم الفكر الاسلامي على يد « حجة الاسلام » . ثانياً أتيح للغزّالي بما ادخله إلى الاسماع والافهام ان يعيد الخوف والتقوى الى النفوس ففي « المنقذ من الضلال » وغيره من المؤلفات افاض في ابراز الحاجة الى الخوف وسيلة لجذب القلوب الى الله . ثالثاً بواسطته قيض للتصوف ان يتغلغل في صميم النفوس . رابعاً قرّب الغزّالي الفلسفة والفقه الى اذهان العامة فالآراء الشائعة قبل يومه انما كانت وقفاً على طبقة خاصة من الناس لها لغة شاذة يعافها القوم حتى ان المشتغلين بها إنما اضطروا نفوسهم على تعلم الفاظها الوعرة واسرارها العويصة . اما الفرد العامي وأن كان يحسن لغته العربية فلم يستطع الى إدراك تلك الافكار سبيلاً لاسيما وهي مستقاة من اليونانية عن طريق النصوص السريانية . اراد الغزالي ان يبيد هذه العقبة الكؤود ولقد تلاحظ رغبتهُ هذه في كتاب « تهافت الفلاسفة » وهو موضوع ليس للعلماء فحسب بل لطبقات العامة ايضاً ألحّ على القراء فيه بان آراء الفلاسفة وحججهم واخطاءهم يجب ان تدركها الجماهير

ولاشبهة في ان فحوى هذه النواحي التي ينطوي عليها عمل الغزالي وخدمته لجيله وللاجيال اللاحقة انما تضمنه المادة الاولى والثانية مما عددناه . فعظمته الحقيقية مجمعها هدايته الاسلام الى الحقائق الراسخة وازالة القشور عن عيون العامة مع حثهم على الافصاح عن شعورهم العاطفي الروحاني . وهو لم يكن في كل هذا من عداد المبتكرين الرواد ولا عالماً ابتدع نظرية جديدة بل رجلاً ذا شخصية جبارة دخل الجهاد فسلك طريقاً مطروقة فما لبث حتى قلبها سكة سلطانية رحبة [1]

أما مذهَّبة آثاره التي تعتني هذه الدائرة بها فهي بلا خلاف كتابهُ المعروف باحياء علوم الدين . « والاحياء » في نظر حاجي خليفة [2] « أجل كتب المواعظ واعظمها حتى قيل فيه

(١) راجع ماكدونالد (Macdonald) « موسلم تيولوجي جورسبرودنس اند كنستيتوشنل تيوري » (Muslim Theology Jurisprudence and Constitutional Theory.) نيويورك ١٩٠٣ ص ٢٣٩ — ٤٠

(٢) « كشف الظنون » حرره فلوغل (Flügel) سنة ١٨٣٥ ج ١ ص ١٨٠

لو ذهبت كتب الاسلام وبقي الاحياء لاغنى عمّا ذهب » . وهو مرتب على أربعة اقسام ربع العبادات وربع العادات وربع المهلكات وربع المنجيات. وقد شبّه صاحب الاحياء بتوما الاقويني (Thomas Aquinas) وهذا الاخير متأثر بمكتوبات الغزّالي التي أثرت ايضاً في آراء باسكال (توفي ١٦٦٢ م) كما أثرت في اصحاب المدرسة الكلامية النصرانية واليهودية. وقد اكتسب «الاحياء» عناية العلماء من عرب واجانب فحوّلوا اليه الانظار حتى دعي مؤلفه «القدّيس اغسطين في العالم الاسلامي» . وليس للاحياء نص محرّر تحريراً علمياً بل هو في طبعة لا تليق بقدره صدرت بمصر سنة ١٣٣٤ هـ ذات أربعة اجزاء . ويرجى الآن اخراج نص علمي مبنيّ على معارضة مخطوطات متعددة ترجع الى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر وهي من ذخائر جامعة برنستون . ويُرتجى ايضاً نقل هذا الاثر النفيس الى اللغة الانكليزية من بعد إقامة النص العربي العلمي وتصدير ذلك بمقدمة تتناول حياة الغزالي ومؤلفاته وتأثيره في نشأة الفكر الغربي [١]

المخطوطات

لاحد امناء الجامعة المستر روبرت غارت (Garrett) ولع باقتناء المخطوطات العربية . ولما كان مقيماً في مدينة بلطيمور على بعد نحو ثلاث ساعات من برنستون بالقطار السريع فقد اودع مجموعته الثمينة خزائن الجامعة وهي اكبر المجموعات العربية في الولايات المتحدة أعدّ لها فهرس كبير الحجم قبل سنتين وهو الآن تحت الطبع [٢] في بيروت . ولا يسعنا الالمام بما تشمله هذه المجموعة من ذخائر سيكون لها خير اثر في توجيه افكار المستشرقين الى سيادة الفكر العربي خلال العصور الوسطى ومساهمة اصحابه في ترويج بضاعة العلم والفلسفة والادب والتاريخ وجميع ما نفذت اليه قرائحهم . الاّ انهُ يجدر بنا الرمز الى ان هذه المجموعة من المخطوطات هي في الحقيقة مؤلفة من مجموعات مختلفة تخيّرها افراد من ارباب العلم ثم آلت الى ملك هذا المثري الاميركي . فمنها طائفة كبيرة كانت ملك الطبّاع برل (Brill) بهولاندة ابتاعها باقتراح هوتسما (Houtsma) المستشرق الهولندي من فاضل من المدينة المنوّرة اسمهُ امين بن حسن الحلواني ثم بعث لاخي المستر غارت الذي كان سفيراً للولايات المتحدة في هولانده وايطاليا . وطائفة اخرى هي في الاصل ملك الحلواني ايضاً اشتراها صاحبنا الاميركي سنة ١٩٠٤ . واتفقت اقامة العلامة انو ليتمان Enno Littmann في برنستون فوضع لها فهرساً طبع في ليبزك سنة ١٩٠٤ وفي هاتين الطائفتين عدد من المخطوطات التركية والفارسية والسريانية وغيرها . والطائفة الثالثة

---

(١) يقوم بذلك الدكتور نبيه امين فارس خريج الدائرة الشرقية في برنستون واحد اعضاء عمدتها الآن

(٢) وقف على تحريره العلامة حتي والدكتور فارس والدكتور بطرس عبد الملك

ابتاعها المستر غارت سنة ١٩٢٥ بناء على اقتراح الدكتور حتي من خزانة المرحوم مراد بك البارودي الذي كان له دراية في انتقاء المخطوطات المفيدة الثمينة . وفي تلك السنة اشترى هذا النبيل مخطوطات اخرى من العلامة ودجري (Widgery) الانكليزي الاستاذ بجامعة كامبردج في بلاد الانكليز

والطائفة الخامسة والاخيرة هي مخطوطات متفوّقة ابتيعت في متفاوت الامكنة والازمنة تتضمّن بعض النصوص البديعة النادرة من نسخ القرآن والمقطعات الكوفية

ولكن قيمة المجموعة لا تنحصر في وفرة عددها بل في ما تحتوياتها من القدر الجليل . ففيها نماذج تمثل جميع البلدان الاسلامية وأنواع الخط العربي والعلوم التي نبغ العرب فيها في عصور اتناجهم . والمؤلفون مختلفون منهم مسلمون من الاندلس وعلماء من البربر ومصريون وشاميون وأعراب من الجزيرة وغير هؤلاء من الاعاجم والترك وأهل ملقًا تجمع أكثرهم جامعة الاسلام ولغة القرآن . على ان نزراً قليلاً من المخطوطات لكتّاب نصارى ودروز لبنانيين . وحسبك ان بين الآثار النادرة مخطوطات ألفها اولئك الفطاحل الذين تصدروا الفكر الاسلامي ومهروا العلم بآيات تعجز عنها علماء عصرهم كابن سينا وابن رشد والفارابي والرازي والغزالي . أما أزمنة تصنيف المخطوطات فيتباين من القرن الثامن الى القرن التاسع عشر . وأمكنة تأليفها منثورة بين الاندلس ومراكش وبرما وبلغار على شواطىء الفولكا في روسيا . وبعضها بخط المؤلفين أنفسهم والبعض الآخر منقطع النظير لم يُستمع لعالم ان نشره أو وصفهُ . ومنها ماهو نادر جداً عظيم الثمن

***

من المحال التصدي للكتب النفيسة كلها في هذه المجموعة لذلك نقتصر على الكلام في بضعة منها . ففي حلبة العلوم هناك ترجمة كتب جالينوس الواسعة في الطب لحنين بن اسحاق النسطوري المتوفى سنة ٨٧٣ . ورسالة طبية أخرى للرازي المذكور في صدر هذا المقال . ودائرة معارف طبية لعلي المجوسي المتوفى سنة ٩٩٤ كان قد وضعها لعضد الدولة فعرفت بالملكي وهي منسوخة على ما نظنّ في القرن السادس عشر . وكتاب في الفلك للفرغاني (الذي بنى مقياساً لفيضان النيل والمتوفى بعد سنة ٨٦١) وهو أثر جليل نقل الى العبرانية واللاتينية في العصور الوسطى ثم انتشر في الغرب فكان أشهر المؤلفات الاسلامية في الفلك . وفي المجموعة ايضاً نسخة من كتاب الشفاء لابن سيناء المتوفى سنة ١٠٣٧ ترجع نسخها الى القرن السادس عشر أيضاً .

ومخطوطة فريدة للآمدي (توفي ١٢٣٣) في المنطق والطبيعيات وما وراء الطبيعة عول فيها المؤلف على مصنفات ارسطو وأفلاطون وفيثاغورس ولعل النسخة عملت في حياة المؤلف . ومن كتب الفلسفة ذات القدر نسخة غير كاملة من رسائل اخوان الصفا

***

الكتب المنوي نقلها الى الانكليزية

للغة الانكليزية في هذا العصر مقام شامخ فهي واسطة التفاهم في جانب عظيم من المعمورة يفهمها معظم المثقفين من اهل هذا الزمان . وقد ينفع اللغة العربية نفعاً بيناً احتكاكها بهذه اللغة الحديثة كما ان اصدار بدائع القرائح العربية في ترجمات انكليزية لمن احرى الاعمال بالتشجيع لما يدرّه من خير معنوي على العاملين في انهاض العربية واظهار المنتجات الشرقية الاسلامية التي اخنى عليها الدهر . هذا وان ذخائر التاريخ والفلسفة والادب اليونانية واللاتينية قد نقل اكثرها الى اللغة الانكليزية فصارت معروفة عند المتأدبين في بريطانيا وتوابعها وفي الولايات المتحدة . لذا كان حقاً ان ينقل من العربية افضل ما فيها من تحف تراثها القومي تعميماً لفائدته وليكون في متناول العلماء غير القادرين على تعلم لغة الضاد وسواهم ممن يريد الوقوف على اسمى ما حبا به العرب العالم في اوج عزهم . وهذا بعينه ما وجه عناية الدائرة العربية الى تهيئة مشروع واسع النطاق يشترك فيه نخبة من العلماء العرب والمستعربين يرمي الى نشر المؤلفات العربية الخالدة في حلة انكليزية علمية . ومما يساعد على ابراز هذه الفكرة وجود مطبعة عربية « لينوتيب » تابعة لمطبعة الجامعة وهي الوحيدة من نوعها ، على ان المشروع بكامله لا يتم الآ بعد عشرات السنين وادخار المال الكافي له

ونظرة الى بعض هذه الآثار المنوي ترجمتها كافية لتسويغ هذا المشروع العلمي الجسيم . نذكر منها على سبيل المثال « مفاتيح العلوم » للخوارزمي (زها في أواخر القرن العاشر للميلاد) أقدم موسوعة علمية في الاسلام لمؤلف عالي الكعب فارسي الجنس قد صيغ باسلوب سليم منسجم وهو مصنف ضروري لدراسة تاريخ العلم يظهر المؤثرات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية في تقدم الفكر الاسلامي . ومنها « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » المعروف أيضاً باسم الكتاب « الروجاري » نسبة الى روجار الثاني ملك صقلية النورمندي للادريسي (توفي ١١٦٦) وهو اغزر كتب الجغرافية التي فاضت بها العصور الوسطى مادّة فيه خلاصة مؤلّفات بطليموس والمسعودي . ومن هذه التحف أيضاً « كتاب الفخري » لابن الطقطقي (توفي

بعد ١٣٠٢ م) وهو ابدع ماكتب في تاريخ السياسة الاسلامية يطالع القارىء في تضيفاته تفاصيل الحياة الاجتماعية على زمن الخلافة مع أمثلة رواها الكاتب عن أمراء المؤمنين وأهل خاصتهم إيضاحاً لخواطره ونظرياته في أصول سياسة الدول

ومنها « سيرة رسول الله » لابن هشام اقدم من ترجم للنبي العربي واوثق . ومنها مقدمة ابن خلدون اول من تبسط في مباحث علم الاجتماع وفي المقدمة ابكر محاولة لتفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً

وابن خلدون محدث نظرية النشوء التاريخي بناها على مظاهر الحوادث كما هي وتتبع سياقها كما جرت او كانت تجري امام عينه . اما القوانين التي ركزت عليها نظريته فكفاها رجاحة انهُ لم يظهر عليها احد من علماء العصر الحاضر . وبعد فلا عجب ان يكون اتباعه في عالم الفكر قادة مؤرخي اوربا ابان العصور الوسطى . ومنها « العقد الفريد » لابن عبد ربه (توفي ٩٤٠ م) وهو خزانة الشعر والغناء والموسيقى في اللغة العربية ومرآة تصف حياة العرب من سكان شمالي افريقية بما ينطوي عليه من ادب واجتماع . والى ذلك ففيه حقائق تاريخية ولمحات تعين القارىء على استيعاب الاحوال السياسية والعمرانية في الاندلس . ومن الذخائر المقررة للترجمة « طوالع الانوار » للبيضاوي المتوفي سنة ١٢٨٦ م اوسع سفر فقهي شامل في علم الكلام من وضع العالم الكبير صاحب تفسير القرآن . ومنها ايضاً « نفح الطيب » للمقري المتوفي سنة ١٦٣٢ وهو مؤلف يعدّ مرجعاً لتعلم تاريخ الاندلس العربي من الناحية الادبية وفيه أيضاً مباحث تتناول قيام الدول الاسلامية وثقافتها في أوربا منذ باكر عصور الفتح حوالي (٧٧١ م) الى سقوط غرناطة (سنة ١٤٩٣ م)

وان نجاح هذا المشروع العلمي الخطير لما يعود بجزيل الفائدة على جميع العلماء الذين لهم عناية بكنوز العرب لذلك والاوساط العلمية تترقبهُ بين الامل والرجاء وتنيله كل مؤازرة ومناصرة سواء في اميركا وفي سائر ربوع العالم الحديث

***

وخلاصة المقال ان جامعة برنستون بفضل عمدتها ومجموعة مخطوطاتها ومطبعتها والمشاريع العلمية التي تنوي تحقيقها قد أصبحت بلا مبالغة اهم مركز للدراسة العربية في العالم الجديد ومن أهم المراكز في العالم كله

— نيوجرسي : جامعة برنستون : معهد الدراسات العليا

علم النبات

ودليلنا فيه لسان اليونان

للأب انستاس ماري الكرملي
عضو مجمع اللغة العربية الملكي

تصدير

في اثناء معارضتنا الالفاظ العربية بالكلم اليونانية ، عثرنا على تحقيقات غريبة ، ولولا هذه المعارضة ، لما اهتدينا اليها . وكذلك نقول على علم الحيوان ، من طيور وحشرات وسمك . وقد ظفرنا بمثل هذه الضوال في مطاوي مقابلتنا حروفنا بحروف اللغة الرومية (الرومانية او اللاتينية) فوقفنا على شيء كثار من هذا القبيل

ونحن نذكر هنا بعض الامثلة لهذه التحقيقات لعلها تدفع غيرنا الى مجاراتنا في مثل هذه الخدمة للغة ، فتنجلي ظلمات ولا يبقى فيها ما يغشي الابصار ، ويحير الافكار ، فنقول :

١ — الإسفنط — ٢ — الإفسنتين — ٣ العنبذ

الاسفنط ، بكسر الهمزة والفاء ، وتفتح الفاء وفيها لغات عديدة وردت في كتب متون اللغة ، نقلاً عن الشعراء وهي مذكورة في القاموس ولسان العرب منها : الاصفنط بالصاد وباللغتين المذكورتين فويق هذا . والإصفعيد ، بزيادة عين مفتوحة وياء ساكنة . والاصفعند ، بنون في مكان الياء ، والاصفد كالاكبر ، « هو المطيب من عصير العنب ، او ضرب من الاشربة ، او أعلى الخمر . سميت لان الدنان تسفطها اي تشربت اكثرها ، او من السفيط للطيب النفس » اه عن (ق) في (س ف ن ط) . ولم يمر بخاطر اللغويين ان الكلمة معربة من اليونانية اي Apsinthion ومعناها الخمرة المطيبة بما سماه المعربون او النقلة بالافسنتين وجرى عليه المعاصرون وقد نشأ في مطاوي التعريب عدة لغات ذكرنا منها ما اشتهر

ونرى من هذين التعريبين الاسفنط (ولغاتها) والافسنتين ان اهل الجاهلية قربوا اللفظة من الوزن العربي ومن الصيغة المبينة ، اي انهم قدموا السين على الفاء ، بخلاف المولدين فانهم أبقوا

نظام الاحرف على اصله اليوناني ليهتدي اليه من اراد اثبات المعنى الحقيقي للفظ ، لكنهم لم يراعوا الاصل كل المراعاة لان هذا الاصل هو بالثاء المثلثة لا بالمثناة

ولعل السبب ان هناك لغة قديمة تجعل الثاء المثلثة سيناً ، على ما هو جارٍ الآن في سورية وديار مصر فعدلوا عنها الى السبيل الامين القويم [1]

بقي علينا أن نعرف من اين لليونان [2] كلمتهم الافسنتين . فلقد اتفق فقهاء لغتهم على جهلهم اصلها ، لكنا نرى ان الكلمة منحوتة من حرفين ، من Aps وهي من اصل عربي هو « عَبْد» بفتح العين واسكان الباء الموحدة ، وفي الآخر دال . ومعناه النبت الذي يسميه علماء النبات Artemisia Absinthium وهو كثير في ديار نجد المشهورة « بديار الشيح والقيصوم » وما الشيح إلا نوع أو ضرب من هذا « العبد » . — والكلمة الثانية « انثوس » Anthos اي زهرة فيكون معنى كلمتهم المنحوتة « زهرة العبد » اي زهرة هذه النبتة المعروفة بالعبد

ومن الغريب انك لا تجد وصفاً دقيقاً في دواوين اللغة ليفهمك حقيقة هذه الزهرة النجدية، إنما وصفهم وصف خاصية لا غير . فقد جاء في لسان العرب في مادة (ع ب د) : « ابن الاعرابي : العبد : نبات طيب الرائحة . وانشد :

حَرَّقَها العبدُ بِعُنظوانِ فاليوم منها يوم أرْونانِ

قال : والعبد ، تكلف به الابل ، لانه ملبنة مسمنة ، وهو حار المزاج ، إذا رعتهُ الابل عطشت فطلبت الماء » اه

وفي الشارح مثل هذا الكلام . أما القاموس فقد اجتزأ : بقوله : «العبد : نبات طيب الرائحة» اه أما بعد هذا فقد عرفت معنى العبد للنبت . وما ذكره اللسان من أوصافه هو عين الحق ولا جدال فيه

أما ان اليونانيين جعلوا في مكان الدال سيناً فقالوا « عبس » فيحتمل ان يكونوا قد سمعوا اللفظة العربية من قبيلة تقلب الدال سيناً في بعض الاحيان . فقد قالوا مثلاً : الارتعاس في الارتعاد ، والامليس في الامليد وهي الفلاة التي ليس فيها نبات . الى غيرها من الالفاظ .

---

(١) ذكر المزهر ان نقل السين الى الثاء وبالعكس من لثغ العرب (المزهر طبعة بولاق الاولى ١ : ٢٦٥ و ٢٦٦ و ٢٦٩) . وراجع ايضاً كتاب البيان والتبيين للجاحظ (الطبعة الاولى ١ : ٨٦) والجمهرة لابن دريد . مادة (س و خ) فقد قال : ساخت رجله في الارض وثاخت . وفي ديوان الادب للفارابي : مرس التمر ومرثه . وفي فقه اللغة للثعالبي : يقال عثا الشيخ وعسا . وفي الصحاح للجوهري : مرس الصبي أصبعه لغة في مرثها أو لثغة . وراجع معاجم اللغة في حثالة وحسالة

(٢) منع بعضهم ان يقال (اليونان) بمعنى (أهل يونان) أو (اليونانيين) ، مع انها وردت مراراً لا تحصى في كلام الاقدمين . وفي أساس البلاغة للزمخشري في يمن : « ويقولون نحن يمن وهم شام » وفي سورة يوسف : « واسأل القرية التي كنا فيها » فذاك من هذا

وعليهِ يكون الاسفنط وما جاء من لغاتهِ المختلفة خاصًّا بما يسمى اليوم في فرنسة Absinthe وهو ضرب من المسكر معطر « بالعبثد » وقد حرمت شربهُ الحكومة الفرنسية منذ سنة ١٩١٥

ويبقى اسم الافسنتين إسماً عامًّا شاملاً لجميع ضروب هذا النبت وهي كثيرة . وأما « العبد » فيبقى خاصًّا بهذا الضرب الذي ذكرنا اسمهُ عند العلماء أي Artemisia Absinthium

٤ — العمار

ما العمار ؟ — العمار ، بوزان سحاب : « الريحان يزين بهِ مجلس الشراب » (عن القاموس) لكننا نعلم أن الريحان يعني كل نبت له رائحة طيبة . فأي الرياحين هو ؟ — قال في اللسان في عمر : « العمار : الآس . وقيل : كل ريحان عمار ... وقيل في قول الاعشى : « ورفعنا العمارا » أي في قوله :

فلما أتانا بُعيد الكرى سجدنا لهُ ورفعنا العمارا

أي رفعنا لهُ اصواتنا بالدعاء . وقلنا : عمرك الله . وقيل : العمار ههنا الريحان يزين بهِ مجلس الشراب ، ويسميهِ الفرس « ميوران » . فاذا دخل عليهم داخل ، رفعوا شيئاً منهُ بأيديهم وحيوه بهِ . قال ابن بري : وصواب انشاده : ووضعنا العمارا . فالذي يرويه « ورفعنا العمارا » هو الريحان أو الدعاء . أي استقبلناهُ بالريحان او الدعاءِ لهُ . والذي يرويهِ : ووضعنا العمارا ، هو العمامة . وقيل : معناه : عمرك الله وحياك ، وليس بقوي . وقيل : العمار هنا أكاليل الريحان يجعلونها على رؤوسهم كما تفعل العجم . قال ابن سيده : ولا ادري كيف هذا

قلنا : والذي بدا لنا بعد التحقيق : ان العمار ضرب من الريحان وهو باليونانية عمار أيضاً بعد حذف علامة الاعراب عندهم أي Amarakos أو Amarakon وهو ضرب من الريحان يشبه كل الشبه المسمى بالمرزجوش او المردقوش ، وهتان كلمتان فارسيتان . والعمار بلسان العلم Origanum Amaracus . وقد أقر البصراء باللغة الاغريقية انهم يجهلون اصل هذه الكلمة ، فهي لا تتصل بمادة من مواد لسانهم يوجه معناها توجيهاً يسلم بهِ العقل . أما نحن فنظنها عربية النجار من العمار وهو كل شيءٍ يوضع على الرأس من عمامة وقلنسوة وتاج وغيرها . اذ يتخذ منهُ أهل الشرب واهل العرس ما يزينون بهِ رؤوسهم ، ولو بطاقة منهُ بحيث يراها الجميع

وقد شاهدت ذلك بعيني رأسي في سنة ١٨٩٤ في شهر ايلول (سبتمبر) وكنت عائداً الى العراق بعد غيبة ثماني سنوات فرأيت جماعة من الفرس في سفينة تنقلهم الى بوشهر (في خليج فارس) وكانت طاقات العمار تزين رؤوسهم وكلهم يرافقون العروسين الى المدينة المذكورة

٥ — السمسق

في القاموس : « السمسق ، كجعفر وزبرج وقنفذ وجُندَب : الياسمين والمرزنجوش » — وفي اللسان : «السمسق : السمسم . وقيل : المرزنجوش . والسمسق : الياسمين . وقيل : الآس. وقال الليث : سمسق » اه . (كذا . اي بلا ال كأنه علم زهر اجنبي)

فالسمسق اسم واحد ويدل على ازهار عدة ، او على ثلاثة نباتات . فأين الحقيقة ؟ — لننظر ما جاء مثل هذا اللفظ في اليونانية . فاننا نرى فيها Sampsouthon او Sampsuthon ومعناها المرزنجوش والمردقوش لا غير . واللفظ واحد اذا حذفنا من حرفيهم علامة الاعراب . فعلمنا من هذه المعارضة اللغوية إن السمسق لا يعني الآ المردقوش . الآ ان السلف توسعوا في معناه حتى اطلقوه على أنبتة أُخر . وهذا الاطلاق او التوسع يلقي الابهام في معاني الالفاظ. ولهذا يحسن بنا ان يعاد الى المعنى الاصلي لكي لا يضل الباحث في تيه المعاني المتعددة المختلفة

واليونانيون لا يعرفون مأتى هذه الكلمة . فلعلها منحوتة من « شم النشوق » ويراد بالنشوق كل دواء ينشق . والدواء عند السلف كل ما يستنشق بهِ من نبات او سائل او دقيق وذلك لشهرة طيب الرائحة في هذا النبت المعطر

٦ — السنسق

في القاموس : « السنسق (كجعفر) صغار الآس . وكذلك في اللسان . وعندنا انه لغة في السمسق المارة الذكر . وقلب الميم نوناً اكثر من ان يحصى . من ذلك طانهُ الله على الخير وطامهُ بمعنى جبله . والايم والاين : الحية . والمِسع والنِسع (بالكسر) ريح الشمال . وامتقع لونهُ وانتقع . والحجرير والحنجرير : الماء المر الثقيل الى غيرها . (راجع المزهر ١ : ٢٢٢ و٢٢٥ . وهامش خزانة الادب للبغدادي طبعة بولاق الاولى ٤ : ٥٨١) . أما ان اللغويين ذكروا لهُ معنى صغار الآس ، فهو لان ورق السنسق يشبه بعض الشبه ورق صغار الآس . فلا عجب بعد هذا إذا وهم بعضهم في معرفة الحقيقة على ما هي

٧ — السَفسَف

السفسف ، بسينين وفاءين على ما في اللسان وعلى وزن جعفر : « ضرب من النبات » وفي شرح القاموس : « السفسف كجعفر : ضرب من النبت . قال ابن دريد : لغة يمانية ،وهو الذي يسميهِ أهل نجد : العنقر والعنقز والمرزنجوش » . اه

وعندنا ان السفسف تصحيف آخر للسمسق

٨ — العنقر . والعنقز

مرَّ بنا في المادة السابقة ان اهل نجد يسمون السفسف أو السسق اي المرزنجوش العنقر (بالرَّاء) او العنقز (بالزاي) . وهو من اليونانية عنقز وزان هدهد . ومعناه الغدة ويراد بهِ ضرباً من المردقوش اسمهُ بلسان علم النبات Origanum Majoranum وبالفرنسية Marjolaine a Coquilles وبالانكليزية Knotted Majoram

٩ — الليق

في القاموس : « الليق ، بالكسر ، شيء اسود يجعل في الكحل » . — وعبارة اللسان : شيء اسود يجعل في دواء الكحل . واحدتهُ ليقة . وقد يكون الليق والليقة من باب الفوق والفوقة . » اه — وكل هذا لا يعرفنا حقيقة هذا الشيء الاسود . ولولا اليونانية لما كنا نهتدي اليهِ ، فهو المسمى « ليق » ايضاً بعد حذف علامة الاعراب اي Lukion وعند الرومان Lycium وهو شوكة الصباغين عند علماء العرب من عارفي النبات . ومن الغريب أن المولدين من السلف لم يعرفوا ماوضعهُ اجدادهم في ايام الجاهلية . ولاجرم ان الاقدمين منا اقتبسوها من اليونان لان هذا النبت مسمى باسم البلاد التي ينبت فيها اي لوقية Lukia وهي من أعمال بلاد الروم وقد اشار اليهِ النباتي الشهير ذيسقوريدس في كتابه في الباب الاول في القطعة الـ ١٣٢، وذكر خاصيتهُ واستعمالهُ في الكحل والطب جالينوس الحكيم في الباب ١٣ في القطعة ٢٠٤ . ومن العجب أن المعربين في عهد بني العباس لم يهتدوا اليهِ

فالليق اسم الشجرة والثمرة معاً ، كما تقول الزيتون فانهُ اسم الشجرة والثمرة معاً . والخاصية التي يشار اليها في الكحل مودعة في الثمرة واسم الليق عند علماء الفن Rhamnus Tinctoria وبالفرنسية Nerprun des Teinturiers وبالانكليزية Dyer's Buckthorn

واذا بحثت في المعاجم الفرنسية والعربية او الانكليزية والعربية عن هذين اللفظين لما وجدت اثراً للكلمة العربية الصحيحة اي الليق ، بل تجد شوكة الصباغين وهي ترجمة معنوية لا علمية

١٠ — البَلْخ والبُلاخ

في القاموس : « البلخ ، بالفتح : شجر السنديان [1] كالبلاخ كغراب » . وفي اللسان :

---

(١) من غريب أعمال أصحاب المعاجم انهم يشرحون كلة بكلمة وهذه الكلمة الثانية لا أثر لها في موطنها من دواوينهم . هذه الكلمة البلخ او البلاخ جاء شرحهما في القاموس واللسان بقولهما : السنديان وأنت اذا بحثت عن السنديان في معجمهما في (سند) او (سندق) أو (سدن) او اي تركيب شئت ، لا تجد لها شرحاً . فهذه احدى الهفوات التي تؤخذ عليهم . فكان يجب ان ينبه عليها من جاء بعد هؤلاء الاعلام الاقدمين حق لا يأتيها من ينقل عنهم ، لكن من تنادي ؟

« البلخ : شجر السنديان . ابو العباس : البلاخ : شجر السنديان وهو الشجر الذي يقطع منهُ كدينات[1] القصارين . والله اعلم » اه

وكلا اللغويين لم يزد على هذا القدر الضئيل في التحلية والتعريف

والكلمة تنظر الى اليونانية Baphikè (Kokkos)[2] وهذا الشجر سماه بعض العوام جِنْداراً (راجع محيط المحيط للبستاني والمؤلف لم ينبه على عاميتها) واسمهُ العلمي Quercus coccifera وهو الشجر الذي يقع عليهِ القرمز واسمه بالفرنسية Chêne أو Chêne au kermès, chêne cocciné او Garouille وبالانكليزية Scarlet oak او Kermes Oak

***

تلكم عشر كلمات من مئات من الحروف التي استقرينا تحقيقها في انواع الموضوعات . وربما عدنا الى نظائرها من سائر المصطلحات تثبتاً من الحقائق ووضع المعاني في مبانيها . والله الهادي الى سواء السبيل

---

(١) لم يضبط المؤلف هذه الكلمة بالشكل الكامل على خلاف عادته : بل لم يذكرها في ديوانه في أي مادة شئت . وكذلك لم يذكرها سائر اللغويين . انما الكدينات جمع ، ومفردها كُذَينق ، بكاف مضمومة وذال معجمة مفتوحة يليها ياء ساكنة فنون مكسورة وفي الآخر قاف . والكذينق : مدق القصارين الذي يدق عليه الثوب قال الشاعر :

قامة القصعل الضئيل وكف خنصراها كذينقا قصار

والجد أيضاً لم يذكرها في قاموسه . وذكرها صاحب اللسان في (كذنق) وعنه أخذنا هذا التعريف وبيت الشعر

وذكرها صاحب محيط المحيط في (كدنق) بدال مهملة و (كذنق) بذال معجمة ، وضبطهما في الموطنين ضبطاً مخطوءاً فيه . فقد قيدهما بضم الكاف وكسر الدال المهملة او المعجمة ، فياء ساكنة وفتح النون وفي الآخر قاف . وهو ضبط يوافق ما في معجم فريتغ ويخالف ما جاء في معاجم العرب . والعرب لم يعرفوا الكدينق بالدال المهملة وان كان أصلها الفارسي بالدال المهملة

ونقل هذين الغلطين بعينهما صاحب البستان في كدنق وكذنق فليصلح كل ذلك . وقد قلنا ان أصلها الفارسي بدال مهملة . نعم . لكن في الآخر هاء محضة لا قاف

اذن في قول اللسان : « كدينات » غلطا طبع . الاول رسمها بالدال المهملة ، والثاني حذف القاف . والصواب ان يقال : كذينقات

(٢) من مزايا اللغة العربية أن الباء لا تجاور الفاء وبالعكس فان تجاورتا دل ذلك على المعجمة مثال ذلك : البفت وهو ثوب مهلهل من القطن أبيض وهو من الفارسية بافته . وكذلك الفبأة بمعنى المطرة السريعة ساعة ثم تسكن فهي مقلوب pluvia الرومية . والفبأة لم يذكرها الا القاموس وشارحه دون سائر المعاجم

ولما كان هذان الحرفان لا يتجاوران قلبت الفاء لاماً أو ان الفاء نقلت الى الباء . ثم صيرت لاماً للتمكن من النطق بهما مثل يشق المسافر ولشق ، والوغل والوغب . وجاء مهذباً ومهذلاً اي سريعاً . ووقع القوم في دلدال وبلبال : اذا اضطرب أمرهم . والعنديب والعنديل الى غير ذلك

على ان ابدال الفاء لاماً يرى في نفس اللغة العربية فضلاً عن اللغة الاعجمية . من ذلك قولهم . تغلل بالغالية وتغلف . وزحل الرجل كزحف والزحليل كالزحليف وهو المكان الضيق الزلق من الصفا وخيل عن القوم وغيف : اذا كع . وفيه ابدالان من حرفين الى نظائر هذه الامثلة

على القمة

نظرت اليها ، وهي شماء تُرهب ... كما لاح في أفق السموات كوكب

فأعجبني منها السموق ، وهالني ... تطاولها والريح تطغى وتصخب

وطار خيالي فوقها ووراءها ... يصوّر من أطيافها ما تغيّب

عجائب لم تخطر على البال مثلها ... ودنيا من الاحلام تزهو وتعجب

وقلت : « سعيد من تطاول كفه ... ذراها ، وتدري عينه ما تحجّب »

*

دلفت اليها ، والخطا تسبق الخطا ... وفي النفس شوق يستحث ويلهب

هو الشوق للمجهول يهمس طيفه ... ونهفو رؤاه مغريات وتغرب

هو الشوق للرُقيا . وفي الحي حافز ... اليها فيرقى في الحياة ويغلب

دلفت فلم أنظر الى الخلف مرة ... وهل ينظر العجلان ماذا يعقب ؟

وما عاقني جهد ولا وقع عثرة ... وأنستنيَ الاشواق أني متعب

*

هنا القمة الشمّاء يا حسنه هنا ! ... ويا حسن ما يدنو الى النفس مأرب

تأملتها فرحان أخفق نشوة ... وأوشك أغذى من سناها وأشرب

وقلت : « هنا يا نفس أشرف بقعة ... وأرحب أفق في السموات يُرقب

« وإنك من فوق القلال طليقة ... ولم يبق مستور عليك مغيب

فقري هنا يا نفس جد سعيدة ... فليس وراء الافق يا نفس مطلب »

وأغمضت عيني سابحاً في خواطري ... وبي نشوة تطفو بنفسي وترسب

*

فما راعني الا الزمان يلفني ... الى الضفة الاخرى كما لفّ لولب

الى أين ؟لا تعجل .رويدك . هينةً ... فما هكذا تطوى الاماني وتذهب

وما هكذا يُجزى الذي جد جده ... الى القمة الشماء والقلب ملهب

وخلف في ناء من السفح زادَه ... وما عزّه في ذلك الوعر مركب

*

رويدك يا هذا الزمان فانني ... من الهوة الجرداء أخشى وأرهب

وإن لا يكن بدٌّ من السير فانطلق ... الى الخلف إني عاذرٌ لك مُعتب

تألفتهُ يوماً ، فان عدتُ لم أعد ... الى غربة تجفو عليّ وتنكب

*

ولكنهُ لم يصغ لي في ضراعتي ... وما زال يهوي بي ولا يتنكب

الى الهوة الجرداء فالعمر مجدب ... الى الهوة الجرداء فالدهر يلعب !

سيد قطب



١٥٩٦ — ١٦٥٠

ليوسف كرم
أحد مدرسي الفلسفة بالجامعة المصرية

٤ — الله والحقيقة

اذا عثرت على فكرة تفوق حقيقتها الموضوعية كل ما فيّ فلا اكون علة هذه الفكرة فأعلم بذلك اني لست وحيداً في العالم . اني اجد بين افكاري فكرة الله . اعني فكرة موجود كامل لامتناهٍ . هذه الفكرة واضحة جلية ، فانها تحوي كل ما أتصوّر من كمال . من اين جاءتني ؟ هل اقول اني استنبطتها من نفسي ؟ ولكني موجود ناقص اشك واتردد كما رأينا ، والشك علامة النقص ، اذ من البيّن ان العلم خير من الشك . فكيف استطيع استحداث فكرة الكامل ؟ هل اقول انها جاءت من خارج ؟ ولكنها لا تخطر لي ابداً على غرة مثل افكار المحسوسات ، والعالم الخارجي ناقص مؤلف من اشياء كل منها محدود ، ومهما أجمع اشياء ، او افكاراً ناقصة بعضها الى بعض ، فلن ابلغ الى تأليف فكرة الكامل اللامتناهي . هذا الى ان هذه الفكرة بسيطة لا مجال فيها لتأليف وتركيب ، من حيث انها تمثل موجوداً واحداً حاصلاً على جميع الكمالات واني لا استطيع ان انقص منها او ازيد فيها شيئاً . ولا يمكن ان يقال اني لا اتصوّر الكامل اللامتناهي بفكرة حقة بل بادخال السلب على فكرة النقص والتناهي التي أجدها في نفسي، فليست فكرة الكامل اللامتناهي معدولة تمثل عدماً وسلباً ، ولكنها محصلة تمثل موجوداً هو اكمل موجود . . بل الواجب ان يقال على العكس اني انما اتصور النقص والتناهي بالحد من الكمال واللاتناهي ، ولو لم تسبق لي فكرة موجود كامل لا نقص فيه لما استطعت ان اعتبر نفسي ناقصاً . واذن فليست هذه الفكرة حادثة ولا مصطنعة ، ولا يبقى الا انها فطرية بسيطة أولية

إذا تقرّر ذلك أقول : كل ما أتصوّر بوضوح حصوله لماهيته فهو حاصل لها ، أو كل محمول متضمن في فكرة شيء فهو صادق على هذا الشيء . فمثلاً حين أتصور المثلث أتصور ماهية

ثابتة لم أخترعها وليست متعلقة بفكري ، فلا أستطيع أن أعدّل فيها زيادة أو نقصاناً ، وأنا أتصوّر في ماهية المثلث أن زواياه الثلاث تساوي قائمتين وهذا صحيح عن المثلث . وهكذا في كل ماهية . أعود إلى فكرة الكامل فاجدها تتضمن الوجود بالضرورة . لان الوجود كمال ، ولو كان الكامل غير موجود لكان ناقصاً مفتقراً لشيء غيره يوجده ، وهذا خلف . فوجود الله لازم في ذات فكرة الله أي من مجرد تعريفه . وقد يبدو هذا القول مغالطة ، ولكن ذلك وهم ، سببهُ أننا نميز بين الوجود والماهية في سائر الاشياء فتحملنا العادة على اعتقاد انهُ يمكن فصل الوجود عن ماهية الله . أما إذا تدبرنا الأمر وجدنا ماهية الله تقوم في حصول جميع الكمالات وان فكرة الله هي الفكرة الوحيدة التي تتضمن الوجود محمولاً ذاتيًا فلا يمكن فصله عن الماهية كما لا يمكن فصل فكرة الوادي عن فكرة الجبل

أنتقل الآن من مفهوم الفكرة الى البحث عن علتها . وقد سبق القول ان لها من الحقيقة الموضوعية أي من الكمالات ما يفوقني الى غير حد، فلا يمكن إلاَّ ان تكون صدرت اليَّ عن علة كفء لها ، أي عن موجود حاصل بالفعل على الكمال الممثل فيها . ورب قائل يقول : لعلي أعظم مما اظن ولعلي حاصل بالقوة على الكمالات التي أضيفها الى الله . ولعل هذه القوة على إكتساب الكمالات بالتدريج كافية لتوليد تصوّر هذه الكمالات في نفسي . ولكن لا : فمن الجهة الواحدة الله موجود كلهُ بالفعل ، وفكرة موجود كامل بالفعل تفوق قوة إكتساب الكمال بالتدريج . ومن الجهة الثانية ليس يمكن تحقيق اللامتناهي بزيادات متتالية ، إذ أن كل ماهو متناهٍ فهو قابل للزيادة دائماً ، فالظن بان موجوداً متناهياً يستطيع الوصول بالتدريج الى اللامتناهي ظن متناقض . وأخيراً العلة التي بالقوة ليست شيئاً وليست علة ، والحقيقة الموضوعية لفكرة ما تتطلب علة بالفعل . اذن فالله موجود ، وهو نموذج الفكرة وعلتها

واريد ان ابحث عن علة وجودي انا الحاصل على فكرة الله الكامل . لا يمكن ان اكون خالق نفسي . والاَّ لكنت منحت نفسي الكمال الممثل لي في هذه الفكرة ، ذلك بأن الارادة تتجه الى الخير دائماً ، وما الكمال الاَّ صفة للموجود وحال لهُ . فخلقه أيسر من خلق الوجود ذاته . ولو كنت اوجدت نفسي لكنت اردت لها كمال الوجود ، ولكني ناقص فذلك دليل على اني لست خالق نفسي . ولا يمكن القول اني وجدت دائماً على ما انا الآن ، فان اجزاء الزمان منفصل بعضها عن بعض بحيث لا يتعلق الزمان الحاضر بالزمان الذي سبقهُ ، فالموجود لكي يدوم في كل آن ، دوامه مفتقر لنفس الفعل اللازم لخلقه ، فلا استطيع الدوام زمناً ما الاَّ اذا كنت أخلق خلقاً جديداً في كل آن ، وليس لديَّ مثل هذه القوة لحفظ نفسي في الوجود ، ولو كانت لي لعلمت ذلك علماً يقيناً ، فان قوة ما لا يمكن ان تكون فيَّ بما انا موجود مفكر دون ان اعلمها ، واذن فلست خالق نفسي . ولا يمكن ان يقال ان وجودي مستمد من والديَّ او من

علة أخرى دون الله كمالاً ، لانهُ مهما تكن تلك العلة فلا بد ان تكون حاصلة مثلي على فكرة الكمال. وحينئذٍ فاما ان تكون اوجدت نفسها وأوجدت نفسها كاملة فتكون الله ، واما أن تكون صدرت عن علة أخرى فتعود المسألة ، ويمتنع التسلسل الى غير نهاية لان المطلوب هنا ليس العلة التي أوجدتني في الماضي ، بل التي تحفظ وجودي في الحاضر ، فلا بد من الوقوف عند علة هي الله

وهكذا كما ادركتُ النفس دون ان أخرج من الفكر فقد أدركت الله إدراكاً مباشراً في علاقتي بفكري ووجودي ، وبلغت الى موجود محقق مع بقائي مستمسكاً بالفكر . ان فكرة الله محدثة فيّ منذ خلقت وهي طابع الله في خليقته

ونحن نتغاضى هنا عما في هذه الادلة من مسائل فرعية تغنينا غرابتها عن الاسهاب في نقدها ، مثل احتمال احداث الموجود ذاته ، وتصور الدوام خلقاً متكرراً لا ندري كيف يبقى معهُ الموجود هو هو . واعتقاد ديكارت ان المفكر يدرك كل ما في نفسه ، مما يرجع الى انكار القوة واللاشعور — نتغاضى عن هذا وعن غيره ونحصر النظر في فكرة الله التي يبني عليها ديكارت ادلته الثلاثة : هل صحيح انها محصلة جلية واضحة ؟ الواقع انها مكتسبة بالاستدلال ، فالاصل فيها ضرورة تفسير الموجود المتغير باسناده الى علة ، وضرورة الوقوف عند علة اولى في سلسلة العلل ، والاّ بقي الموجود المتغير بغير تفسير ، وضرورة ايجاب الوجود لهذه العلة الاولى والاّ لم تكن اولى . فديكارت يتناول هذه الفكرة كما كوّنها الفلاسفة واللاهوتيون المدرسيون ويعتبرها اولية فيبدأ من حيث انتهوا ، ويعتبرها محصلة ، ولو كانت كذلك لاستوى فيها كل الناس ولاظهرتنا على ماهية الله كما هي ، والواقع يرد هاتين النتيجتين ، وديكارت نفسه يقرّ بهذا الواقع فيقول (في التأمل الثالث) : « اجل اني لا افهم اللامتناهي ، واني اجهل اموراً كثيرة فيه ، ولكني متى علمت انهُ حاصل على جميع الكمالات التي أتصوّرها ، وفهمت حق الفهم ان تمام الاحاطة باللامتناهي ممتنع على موجود متناه مثلي ، فقد حصلت على فكرة عنهُ جلية جدًّا ولو انها ناقصة جدًّا » . نقول ولكن اذا كانت الفكرة ناقصة الى هذا الحد فليست صورة حقة للامتناهي تفيدنا معرفته كما هو ، ولكنها فكرتنا نحن عنهُ ، اي فعل عقل متناهٍ ناقص يتعقل الكامل اللامتناهي كما يستطيع ، فديكارت اذ يقول انها محصلة يخلط بينها وبين موضوعها ، فان هذا الموضوع محصل اما فكرتنا عنهُ فلا ، والاّ لكانت تظهرنا على حقيقة اللامتناهي اظهاراً كليّاً كما قلنا ، وهذا غير صحيح . ولكن ديكارت ، وقد قطع كل صلة بين الفكر والوجود ، اضطر لوضع الافكار موضع الموجودات ، واعتبارها اشياء قائمة بانفسها

وما دامت هذه الفكرة دعامة الادلة الثلاثة فقد انهارت هذه الادلة بانهيارها . ذلك بان الوجود المتضمن في فكرة الله محمول من جنس الفكرة ، اي محمول متصور فقط ، وليست الفكرة صورة حقة لموضوعها ، فقد فقدت امتيازها واصبحت واذا بينها وبينهُ مثل ما بين سائر الافكار

وبين موضوعاتها من مسافة ، وتعيّن البحث في هل كان يقابلها موضوع حقاً ام كانت مجرد تصور ، فاذا ثبت لها موضوع فحينئذٍ يقال ان الوجود محمول ذاتي له كما قدمنا . وبعبارة اخرى : اذا ثبت وجود الله فقد ثبت ان الوجود واجب له ،اما الانتقال من الوجود المتصوّر الى الوجود الواقعي فغلط او مغالطة نبه اليها المناطقة . وهذا الرد على الدليل الاول

اما عن الدليل الثاني ، فما دامت فكرتنا عن الله ناقصة فليست تتطلب علة لامتناهية ، وليس ما يمنع صدورها عن الموجود المتناهي الذي يتصورها . ان تصور الكمال واللاتناهي بعكس ما ظن ديكارت ، نحن نبدأ بالوجود المحدود فننفي الحد ونطلق الوجود من كل قيد

وأما عن الدليل الثالث فلا مسوغ للانتقال من وجودي المتناهي الى الموجود اللامتناهي، اذ مما يجب ملاحظته ان هذا الانتقال لا يتم عند ديكارت بتطبيق مبدأ العلية على وجودي ، بل بواسطة حصول فكرة اللامتناهي في فكر متناه، لو كان خلق نفسه لكان خلقها كاملة لامتناهية. ولما كانت فكرتي عن اللامتناهي ليست لامتناهية فقد بطل الاستدلال ، ولم يبق منه الا اني قد اكون خالق نفسي، قد اكون ، وأنا موجود متناهٍ حاصل على افكار متناهية ، خلقت نفسي متناهياً ! الى مثل هذا التناقض يرجع دليل ديكارت متى ابطلنا الواسطة المبني عليها اي كون فكرة اللامتناهي محصلة بسيطة اولية

وعلى هذا التناقض تقوم نظريته في ماهية الله ، فان الله عنده الموجود الذي اوجد ذاته ، الله حرية صرفة ، هو حر قدير الى حد انه يعتبر « بالاضافة الى ذاته بمثابة العلة الفاعلية بالاضافة الى معلولها » . بل ان قدرته تذهب الى حد تصرفه في وجوده بحيث «لو لم يكن اعدام الذات نقصاً لامكن اضافة تلك القوة اليه » ! وتتناول حرية الله كل شيء ، ليس فقط ما نراه ممكناً ، بل ايضاً « الحقائق الدائمة » رياضية وفلسفية ، وماهيات المخلوقات ، فان الله صانع الاشياء جميعاً ، وهذه الحقائق والماهيات أشياء فهو اذن صانعها . أجل ان هذه الماهيات والحقائق تبدو لنا ضرورية ، ولكن الله هو الذي أراد ان تكون كذلك ، وفرضها على عقلنا : لقد كان الله حراً ألا يجعل الخطوط الممتدة من المركز الى المحيط متساوية وزوايا المثلث الثلاث مساوية لقائمتين مثلما كان حرًّا ألا يخلق العالم ! فلما أختار صار اختياره حقاً ، ولما كان الله ثابتاً فلا خوف ان يتغير الحق

استوقفتنا النصوص الواردة بهذا المعنى فهي كثيرة صريحة تدل على شدة تعلق ديكارت بنظريته . واستوقفنا من جهة اخرى ورودها في رسائله الخاصة وردوده على الاعتراضات دون « المقال والتأملات ومبادىء الفلسفة » اي الكتب التي اعلن فيها مذهبه كاملاً منظماً . والرسائل التي نصادف فيها هذه النظرية للمرة الاولى ترجع الى سنة ١٦٢٩ اي الى ثماني سنين قبل ظهور «المقال» . فتساءلنا ان كان بعقل انها لم تدخل في تركيب المذهب ، فكان الجواب لاول وهلة ان فرض ذلك مستحيل في عقلٍ كعقل ديكارت منظم غاية التنظيم . وديكارت نفسه يدلنا على

احدى صلات النظرية بالمذهب : ففي رسالة مؤرخة ١٥ ابريل ١٦٣٠ يقول انهُ سيعالج مسألة خلق الحقائق الدائمة في العلم الطبيعي ، لماذا ؟ أليست المسألة من مسائل ما بعد الطبيعة ؟ سنعود الى هذه النقطة فيما بعد . وحسبنا الآن هذه الاشارة . اما هنا فنريد ان نبين صلات اخرى لم يدل عليها ديكارت ، ولم يشر اليها احد من المؤلفين فيما نعلم

اذا كانت الحقيقة خلقاً حرًّا فلم يعد لها قيمة بالذات ، وانما قيمتها آتية من امر الله ، وقد كان في مقدور الله ان يقرر نقيضها ، واذن فباستطاعتنا ان نشك فيها مهما تبدو ضرورية ، هي ضرورية بالاضافة الينا وحادثة في نفسها وبالاضافة الى الله . فالشك الكلي المؤيد بفرض الروح الخبيث يتناول ماهية الحقيقة وصدق الفكر ، وديكارت لا يشك في صدق الفكر الآ لانهُ يشك في الحقيقة . فكان محتوماً عليه ان يستبعد كل حقيقة حتى يبلغ الى الفكر الصرف ، ليقف نفس موقف الله وهو يقرر الحقيقة . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى اذا كانت الحقيقة وضعية فليس يعتبر الوضوح علامة حاسمة لتصديقها ، ولكنهُ شعور ذاتي يميل بنا الى التصديق ، فقبل أن نميل معهُ يتعين علينا ان نتيقن انهُ غير خادع ، فكما أن الحقيقة حادثة فان مصاحبة الوضوح لها حادثة كذلك ، والثقة بها تقتضي معرفة واضعها وكونه كاملاً صادقاً ، والاّ امتنع علينا كل سند للحقيقة . فصدق الله ضمان الوضوح ومعنى الاثنين جميعاً ان عقلنا ليس باطلاً في جوهره ، بل ان الهاً صالحاً خلقهُ صالحاً اي كفوًا لان يدرك ما أراد الله ان يدرك وعلى النحو الذي أراد ، وان بين العقل والحقيقة تناسباً وملاءمة لانهما من صنع الله

هذا تأويل لمنهج ديكارت في الشك واليقين . الشك الديكارتي شك كلي حقيقي ، يتناول صميم الحقيقة وصميم العقل ، ولكن وقف في سبيله ثبات العلم فأراد صاحبه أن يصححهُ ، وان يخرج منهُ الى يقين يكفل قيام العلم

٥ — العالم والانسان

بعد أن يطمئن ديكارت الى وجود الله وصدقه ينتقل الى وجود العالم ويسأل نفسه : هل الاشياء المادية موجودة ؟ فيجيب بالايجاب ويقدم الاسباب . فأولاً هذه الاشياء ممكنة والله يستطيع احداث الممكنات . ثم أن فيّ قوة حاسة وهي قوة انفعالية تتطلب قوة فعلية تثير فيها افكار المحسوسات . هذه القوة الفعلية ليست فيّ فأني جوهر مفكر ، وهذه القوة لا تتضمن الفكر وإذن فهي خارجة عني . على أنها قد تكون إما جسماً حاصلاً بالذات على ما أتصوره في المحسوسات واما أن الله حاصل عليه على نحو أسمى : فما هي ؟ أحس في نفسي ميلاً طبيعيًّا الى الاعتقاد باشياء جسمية . وما دام هذا الميل طبيعيًّا فهو صادر عن الله ، والله صادق ، فلا بد أن يكون خلق أشياء مقابلة لافكاري . تعلمني طبيعتي أن لي جسماً ، وان أجساماً اخرى تحيط بي ، وان هذه

الاجسام مختلفة فيما بينها تحدث فيَّ ادراكات مختلفة ولذّات وآلاماً . فلن اكترث بعد الآن لأخطاء الحواس وخيالات الاحلام ، فان مراجعة الحواس بعضها ببعض ، ومراجعتها بالذاكرة والعقل ، تبدّد الخوف من الخطأ في الادراك الحسي . وكذلك اتساق الاحساسات فيما بينها يميز اليقظة ، واضطراب التصورات يميز المنام . هذه قرائن لا يمكن ان أخطىء فيها وقد علمت ان الله ليس خادعاً

الاشياء المادية موجودة إذن . ولكن على أي نحو ؟ هنا يجب ان أراجع أفكاري بكل حذر، حتى يقتصر تصديقي على ما أراه واضحاً جليًّا ، فان افكاري انما تصدر عن الله من حيث ما فيها من وضوح وجلاء ، والله انما يحدث من موضوعات الافكار ما يُتصوّر بوضوح وجلاء ليس غير . وما أتصوره في الاشياء جليًّا واضحاً يرجع الى انها امتداد مجرد مقسم الى أجزاء مختلفة الشكل متحركة ، أما باقي ما يبدو في الاحساس فمصدره فكري : الضوء واللون والصوت والرائحة والطعم والحرارة — كل هذه انفعالات ذاتية ، أفكار غامضة مختلطة اضيفها خطأً لذلك الميل الطبيعي ، واتخذها اساساً لمعرفة ماهية الاجسام وليس في الاجسام شيء يشابهها ، وليس لها من غاية سوى ارشادي الى النافع والضار فأكيف مواقفي في الحياة تبعاً لذلك

هذه المادة الهندسية متحركة حركة متصلة . حركها الله منذ الخلق وشرع للحركة قوانين ، فبقي مقدار الحركة واحداً لا يزيد ولا ينقص وظلت القوانين ثابتة بثبات الله . وكان من فعل الحركة في المادة على مقتضى القوانين أن تكونت السماء والارض والسيارات والمذنبات والشمس والنجوم الثوابت والضوء والماء والهواء والجبال والمعادن والنباتات والحيوانات والاجسام الانسانية .. . تكونت كلها بفاعلية الحركة في الامتداد دون أي شيء من تلك الكيفيات والقوى والصور الجوهرية التي أضافها ارسطو والمدرسيون الى المادة ، ودون علة غائية فليس لهذه العلة محل في العلم الطبيعي وأنّى لنا ان نكشف غايات الله ، والله على كل حال لم يتوخَّ غاية وإنما رتب الاشياء بمحض إرادته الحرة . فالاشياء المادية آلات ليس غير . أجل أنها آلات دقيقة الاجزاء كثيرة التعقيد عجيبة الصنع ، ولكنها آلات على كل حال تعمل بالحركة فحسب . والعالم في مجموعه آلة كبرى أو علم الميكانيكا يتحقق بالفعل ، تلاشى منه بهاء الالوان ونغم الاصوات وشذى الروائح ، ولئن فاته ذلك الجمال الذي تتوهمه فيه الفلسفة الناسجة على منوال ارسطو والذوق العام ، فقد استعاض عنه معقولية طالما نشدتها تلك الفلسفة فأعياها البلوغ اليها ، اذ قد اصبحت اشياءه شبيهة بالاشكال الهندسية معقولة كلها دون غموض ولا خفاء ... ولكنها لم تصبح كذلك الا بارادة الفيلسوف ، افرغها مما فيها من قوة وحياة وردها « الواحاً مسندة » وأشكالاً جوفاء

بقي على ديكارت ، وقد استعاد يقينه بالاجسام بما فيها جسمه هو ، ان يخطو خطوة اخيرة ويفحص عن طبيعته . هو مؤلف من نفس وجسم اي من جوهرين متمايزين بل متضادين :

النفس روح بسيط مفكر ، والجسم امتداد قابل للقسمة . ليس في مفهوم الجسم شيء مما يخص النفس ، وليس في مفهوم النفس شيء مما يخص الجسم ، وقد اشك في وجود جسمي والاجسام جميعاً دون ان يتأثر بذلك الشك وجود فكري ونفسي . بيد ان طبيعتي تعلمني اني لست حالاً في جسمي حلول النوتي في المركب ولكني متحد به اتحاداً جوهرياً يكون كلاً واحداً ، بحيث لو جرح جسمي فلست اقتصر على ادراك الجرح بالعقل ولكني انبه اليه بالالم . والجوع والعطش والالم انفعالات لا تنال النفس حيث هي كذلك ولكنها ناشئة من اتحاد النفس والجسم واختلاطهما

عجباً ! يستعير ديكارت عبارات ارسطو ، ارسطو المنكر على افلاطون ان تكون النفس في الجسم « كالنوتي في المركب » والمؤكد اتحاد النفس والجسم « اتحاداً جوهرياً » فكيف يفسر الاتحاد وهو قد ميز النفس والجسم الى حد التضاد ؟ الواقع انه يذعن هنا مكرهاً لشهادة الوجدان ، وان مذهبه ثنائي لا يطيق الوحدة بحال . في مواضع كثيرة يتكلم عن النفس والجسم كأن النفس حالّة في الجسم مجرد حلول، وهو يعين لها فيه مكاناً ممتازاً هو الغدة الصنوبرية « حيث تقوم النفس بوظائفها بنوع اخص منها في سائر الاجزاء ، وتنشر قوتها في الجسم كله » فكلما ارادت شيئاً « حركت الغدة المتحدة بها الحركة المطلوبة لاحداث الفعل المتعلق بتلك الارادة » اما الجسم فيؤثر في النفس بأن يبلغ اليها الحركات الواقعة عليه والحادثة فيه فتترجمها هي الواناً وأصواتاً وروائح وطعوماً ورغبات ولذات وآلاماً . كذلك رتبت الامور لخير الانسان وحفظ كيانه — اي كذلك رتبها الله — فيعود ديكارت الى الله مرة اخرى للخروج من مأزقه كما كان التراجيديون اليونان يقحمون الآلهة في المواقف الحرجة . وتلك هي الكلمة الاخيرة في المشكلة اذ يستحيل تصور اتحاد حقيقي بين جوهرين تامين وتصور تفاعل حقيقي بين جوهرين متضادين

ولديكارت كلمة ابلغ دلالة على هذه الاستحالة . الحّت عليه الاميرة اليصابات ان ينجدها بالتعليل الشافي ، فأفاض في القول دون ان يأتي بشيء جديد ، بل ان هذه الافاضة تنم على حيرة كبيرة وانتهى بالاعتراف بان المسألة لا تحتمل حلاً عقلياً . قال : « تعلم النفس بالعقل ، ويعلم الجسم بالعقل كذلك ، ولكنه يعلم احسن بكثير بالعقل تعاونه المخيّلة ، اما اتحاد النفس والجسم فلا يعلم الا علماً غامضاً بالعقل والمخيلة ، ويعلم علماً واضحاً بالحواس، وهو امر محسوس لا يشك فيه عامة الناس ويستطيع الفلاسفة ان يدركوه اذا هم كفوا عن التعقل والتحليل وتركوا انفسهم للحياة وللاحاديث الجارية » . وأردف ذلك بقوله : « لا يلوح ان باستطاعة العقل الانساني ان يتصور بجلاء وفي نفس الوقت تمايز النفس والجسم واتحادهما ، اذ ان ذلك يقتضي تصورهما شيئاً واحداً وشيئين ، وهذا تناقض »

وهذا اقرار صريح بالعجز والفشل . لذلك نرى نظرية ديكارت في النفس والجسم خير

نظرياته بياناً لما يميز مذهبه من تركيب صناعي . انها ضعيفة الى حد التناقض باقرار الفيلسوف نفسه وعندها يتحطم المنهج الجديد في يد صاحبه . وان في هذا الاخفاق لعبرة ، فهو يدلنا على عاقبة قلب نظام المعرفة الانسانية ومحاولة اخضاع الوجود لمنهج يفرض عليه فرضاً بدل اخضاع الفكر للوجود . ان الوجود اصلب من أن يلين للنظريات ، وهو لا يلبث ان يثأر لنفسه منها ويبين تهافتها . أليس من الغريب ان نسمع ديكارت « العقلي » المعتد بالعقلي الى غير حد يدعونا الى اطراح العقل والاسترسال مع الحياة واحاديث الناس في مسألة هي من الاهمية الفلسفية بأعظم مكان ؟ وهل هناك ثأر أبلغ ؟ واذا ذكرنا ان كبلر وغليليو ثم نيوتن من بعدهما اكتشفوا بالتجربة قوانين مضبوطة ، فكانت تسمح لهم بتوقع الظواهر والانباء بها وتقودهم الى مكتشفات جديدة ، بينما القوانين (غير الصحيحة) التي فرضها ديكارت على الطبيعة لم تكن تفسر الاشياء الا تفسيراً اجماليًّا ولا تسمح بأي توقع وانباء — اذا ذكرنا ذلك كان لنا منهُ مثال آخر على ثأر الطبيعة من المتجبرين عليها وسخريتها منهم

٦ — تفسير المذهب

كيف امكن ان يتورط ديكارت ، ذلك الفيلسوف الكبير والعالم الخطير ، في تلك الآراء الغريبة والحلول العجيبة ، فيشك في كل شيء ويفصل ما بين الفكر والوجود ثم يعتقد أنهُ يبرهن على وجود الله بمجرد فكرة الله ؛ يشك في كل شيء ويتهم العقل ثم يبرهن على وجود الله بالعقل ويتخذ من صدق الله ضماناً للعقل ؛ يرجع الحقائق الضرورية لمحض حرية الله فيصور الله الكامل قوة عميدة تعمل بدون حكمة ولا نظام ؛ يتمثل الطبيعة آلة كبرى ، والحياة حركة آلية ، والحيوان خلواً من الحس والشعور ، وجسم الانسان آلة كذلك حلت فيها نفسه ، فكان منهما لغز رهيب — وغير ذلك مما صادفناه واثار دهشة القراء من غير ريب ؟ كيف أمكن ذلك ؟ نعتقد ان الرياضيات هي التي جنت عليه وان العلم الطبيعي الرياضي مفتاح مذهبه كله

تقدم لنا الرياضيات المثل الاعلى للعلم ، ذلك العلم « اللمي » (نسبة الى لِمَ) البرهاني الذي ينزل من المبادىء الى النتائج متبعاً الترتيب الطبيعي للاشياء . فيبين علة النتائج في مبادئها ، ويجيب عن سؤال « لِمَ الشيء كذا ؟ » فيرضى به العقل تمام الرضى . كان افلاطون يصبو الى تلك الغاية ويحاول تحقيقها ، وكان ارسطو يعتبرها كذلك الغاية القصوى . ولكنهُ فطن الى أنها لا تتحقق الا في بعض النواحي ، وان العلم الطبيعي نوع آخر من العلم هو العلم « الإني » الاستقرائي يأتي في المرتبة الثانية لانهُ يقتصر على القول « بان الشيء كذا » دون بيان العلة في اكثر الاحيان ، ولكنهُ العلم الملائم لطبيعة معرفتنا التي تبدأ بالمحسوس وتتأدى منهُ الى المعقول فهو لذلك أبين بالاضافة الينا وان يكن المعقول أبين في نفسه

لم يوفق ديكارت الى مثل اتزان ارسطو وتواضعه . غالى في طلب المعقولية وأراد ان يكون علمنا كله لميًّا برهانيًّا أو لا يكون أصلاً ، فاحال العلم الطبيعي علماً رياضيًّا بحتاً وذهب في ذلك الى حد فرض قوانين كان يعلم عدم مطابقتها للواقع ولكن فرضها « لكي يمكن أن تقع الاشياء تحت الفحص الرياضي » . والرياضيات لا تنظر في غير الاعداد والاشكال ، فمتى رددنا العلم الطبيعي الى الرياضي رددنا الاجسام الطبيعية الى اشكال هندسية ، ورددنا افعالها الى حركات آلية تقاس ويعبر عنها باعداد . وانكرنا ما عدا ذلك مما يأتينا عن طريق الحواس واضفناه للنفس ، فيلزم عن ذلك ان الاحساس ذاتي ، وان لا شبه بينهُ وبين علتهِ الخارجية فنشك في الادراك الحسي ولا نجد بدًّا من تحكم العقل فيهِ للتمييز بين ماهو موضوعي — ان كان — وماهو ذاتي في الاحساس ولكن اذا امكن الشك في وضوح الحس فمن يضمن لنا وضوح العقل والعقل يخطىء احياناً ؟ نشك اذن في الادراك العقلي ونقول ان الفكر اذ يدرك انما يدرك ذاتهُ لا موضوعاً خارجاً اوحقيقة مستقلة عنهُ ، فيتعين علينا تسويغ العقل اذا اردنا الاحتفاظ بالعلم — وكيف لا نريد والعلم ناجح ؟

يضاف الى ما تقدم ان تصوُّر الاجسام الخارجية آلاتٍ اي اجساماً صناعية خلواً من كل طبيعة او ماهية يحملنا على استبعاد المنطق القديم القائم على ان الموجودات طبائع وماهيات لها خصائص وعوارض نضيفها اليها في احكام ونؤلف الاحكام في أقيسة ، فتقصر المعرفة على الجزئيات من حيث هي كذلك وعلى ما بينها من علاقات ، فلا يبقى هناك تحليل للاشياء الى اجناس وانواع بل الى اجزاء حقيقية كأجزاء الآلة هي « طبائع بسيطة » لا تحد ولا تتطلب الحد ،فلا نقول « الانسان حيوان ناطق » بل نقول « الانسان نفس وجسم » ، ومن يجهل ما النفس وما الجسم ؟ وان من يمعن النظر في « قواعد تدبير العقل » ير في ديكارت واحداً من الاسميين ، هؤلاء الفلاسفة التجريبيين الذين ظهروا في القرن الرابع عشر وكانوا أول الخارجين على الفلسفة الارسطوطالية ، يعتبر المعاني الكلية « اسماء » جوفاء ويستعيض عنها بتلك الطبائع البسيطة وعن منطق ارسطو بمناهج الرياضيين . ويلزم من ذلك — كما تنبه اليه التجريبيون القدماء منهم والمحدثون — ان ليس هناك حقائق منطقية ضرورية واحكام مطلقة ، فينشأ لدينا سبب آخر للشك في العقل شكًّا حقيقيًّا لا منهجيًّا . وديكارت يستبعد بالفعل الحكم الارسطوطالي (وهو اسناد محمول الى موضوع او وصف شيء بشيء) ويستعيض عنه بمعنى آخر هو ان الحكم اعتقاد الارادة بوجود خارجي لموضوع فكرة ما . فليس في العقل سوى الطبائع البسيطة يضم بعضها الى بعض او يفصل بعضها من بعض ، وليس في العلم سوى « قوانين » . اين نجد اذن الحاكم الاخير على ادراك العقل ، الحاكم الذي لا يخطىء ولا يخدع ؟ وأين نجد الاساس الثابت الذي تقوم عليهِ القوانين ؟ نجدهما جميعاً في الله ، ونجعل مرجع الحقائق والقوانين

محض ارادة الله فنستبقي لها صفة الحدوث والامكان — اي عدم الضرورة بالذات — ثم نستمد لها صفة الضرورة من ثبات الله على ما قرره بحرية . وهذا يبين لنا شدة الحاجة الى الله في هذا المذهب ، فالله يسوغ المعرفة والعلم، ولا نخرج من الشك بغير الالتجاء الى الله ، ولو بالوقوع في الغلط الذي يسميه المناطقة بالدور الملتوي

٧ — خاتمة

بهذا المذهب احدث ديكارت انقلاباً خطيراً في عالم الفكر . فقد غير نظر العقل لطبيعته . كان القدماء يعتقدون ان العقل يدرك الوجود فاصبح العقل محبوساً في نفسه . اخذ الفلاسفة بهذه التصورية ، فانكروا العالم الخارجي — ولم يكن ديكارت قد آمن به الا بمخالفته المبدأ التصوري ولم يؤمن به الا هزيلاً ضئيلاً على ما رأينا — وانكروا العلية فاعلية وغائية ؛ وانكروا الجوهر والنفس والله . وفي الحق اذا كنا لا ندرك سوى تصوراتنا وكانت تصوراتنا حجاباً بين العقل والوجود بدل ان تكون مرآة الوجود فلا سبيل الى تجاوزها

وغيّر ديكارت معنى الوضوح والمعقولية فاصبح العقل المحبوس في ذاته القانون الاكبر والاوحد « لا يسلم شيئاً الا ان يعلم انه حق » أي الا ان يعقله هو وركّبهُ بأفكار واضحة جلية هي في الواقع افكار سهلة ، فان استعصى عليه شيء انكره . وقد رأينا ديكارت يذهب من الفكر الى الوجود ويتصوّر الاشياء على مثال افكاره ويمحو منها الحياة لانهُ لم يفهمها فهماً رياضياً ، وكان القدماء يوردونها أولاً ثم يحاولون تفسيرها

فديكارت أول من حرر العقل من سلطان الوجود واعلن ان الفكر يكفي نفسه بنفسه ولا يخضع لشيء سواه ، ولا يأبه لحرمة السلف في العلم والفلسفة ، فقلب الوضع الطبيعي الذي يجعل العقل الانساني تابعاً للوجود ومحتاجاً الى التعلم ، واقام « الفردية » على أساس فلسفي وكانت من قبل نزعة مجردة هي أقرب الى التمرد منها الى الحق ، تلك الفردية التي تحمل الشخص على ان يظن نفسه اهلاً للحكم على الاشياء بنفسه ، كأن ليس هناك عقول غير عقله فتورث الفوضى العقلية ، وعلى ان يجعل من نفسه مركزاً تدور حولهُ الاسرة والمجتمع ، فتورث الفوضى الخلقية والاجتماعية

وفصل ديكارت بين الفكر والوجود ففصل بين العلم والفلسفة : فعاد العلم لا يعرف لهُ موضوعاً غير الامتداد والحركة . وحصرت الفلسفة دائرتها في الفكر واصبحت تأليفاً ذاتياً ، او نوعاً من الفن ، لاتأخذ عن العلم ولا يأخذ العلم عنها فانقطعت بذلك وحدة المعرفة ، وانقسم الفلاسفة طائفتين : طائفة ترد المادة والحركة الى الفكر ، وطائفة ترد الفكر الى حركة مادية . وما تزال هذه الثنائية قائمة الى اليوم ، وما تزال المشكلات الناجمة عنها قائمة كذلك

التألق يفضح

نواح عملية غريبة من استعمال الاشعة التي فوق البنفسجي

إذا أطلقت ضوء الشمس أو ضوء المصباح الكهربائي على جسم من الاجسام ، انعكست عنهُ أمواج الضوء انعكاساً تاماً او جزئياً فترى الجسم بهذا الضوء المنعكس . فاذا كان الجسم أبيض صقيلاً كان الانعكاس تامًا أو أقرب ما يكون إلى التمام فتراه باهراً . فاذا كان الجسم قاتماً غير صقيل امتص جانباً من أمواج الضوء فلا تراه واضحاً كل الوضوح

ولكن من الامواج التي يتألف منها ضوء الشمس ، طائفة لا ترى بالعين ، ومن اشهرها طائفة الاشعة المعروفة بالاشعة التي فوق البنفسجي . ومن خواص هذه الاشعة أنها عند ما تطلق على مادة ما تجعلها تتألق بلون معين . وتعرف هذه الظاهرة عند علماء الطبيعة بظاهرة « الفلورة » Flourescence

وقد عمد العلماء في العهد الأخير الى تطبيق هذه الظاهرة في الصناعة والتجارة والطب والفن والبحث الجنائي . فتوصلوا الى نتائج تبعث على الدهشة ، وذلك لانها تمكنهم من استشفاف المواد التي يمتحنوها والتي يتداولها الناس ، ومعرفة هل هي نقية أو مشوبة ، بل أنهم تبينوا ما خفي من كتابة سرية في خطابات الاسرى والجواسيس وميزوا الاوراق المالية وطوابع البريد المزيفة من الاصيلة وهكذا

فكل مادة تتألق بلون خاص بها عند ما توجه اليها الاشعة التي فوق البنفسجي. ومع أن هذا اللون ليس مقياساً حاسماً في جميع الحالات إلا ان الاعتماد على هذا التألق «الفلوري» يمكن القائمين بهِ من الوصول إلى رأي صحيح أو قريب من الصحة في اقصر وقت، فلا يستغرق هذا الضرب من البحث الا ثواني معدودة، حالة أن التحليل الكيميائي قد يستغرق ساعات ...

يولد الضوء في مصباح خاص يعرف بمصباح القوس الزئبقي ، وتوجه شعاعته الى مصفاة خاصة من الزجاج فتخترقها ، فتمتص المصفاة جميع امواج الشعاعة إلا أمواج الاشعة التي فوق البنفسجي

ان الحكومات التي سنت قوانين دقيقة لمراقبة ما يبتاعهُ الناس من مواد الغذاء ، وجدت في هذا الاسلوب من البحث خير معوان . فقشر البيض الطازج يتألق عند توجيه هذه الأشعة اليهِ بلون وردي . أما قشر البيض القديم فيتألق بلون أزرق أو بنفسجي . ودقيق القمح والجويدار (٢٦٥) يتألق بلون أزرق خفيف حالة ان دقيق الشعير والبطاطس لا يتألق قط . فاذا خلط مخبز ما الدقيق الاول بالثاني ليصنع الخبز من هذا الخليط أسفر امتحان الخليط بتوجيه هذه الاشعة اليهِ، عن ان تألقهُ المزراق أضعف من تألق دقيق القمح والجويدار النقي ،فيكشف انهُ خليط . واذا اضيف مقدار من دقيق فول الصويا لا يزيد عن واحد الى اربعة في المائة إلى دقيق القمح كان لون الخليط عند التألق غير لون دقيق القمح. وبالطريقة نفسها يمكن تمييز صنف جيد من القمح من صنف لا يبلغ مبلغهُ من الجودة . وتقاس جودة القمح عادة بمقدار ما في الحب من« الجلوتين ». فحبوب القمح الجيد — أي القمح الذي يكثر فيهِ الجلوتين — يتألق مكسرها بلون ازرق خاص ، حالة ان حبوب صنف آخر « جلوتينه » قليل، تتألق بلون اصفر. وكما يميز أصناف الحنطة بعضها من بعض من حيث مقدار « الجلوتين » بهذه الطريقة يميز بعضها من بعض من حيث أعمارها كذلك

وما يصح على القمح والدقيق من هذا القبيل يصح على أصناف الزيت والدهن والزبدة والشحم. واغرب من ذلك ان هذا الاسلوب من البحث والامتحان مكن للباحثين تتبع نضج الجبن باللون الذي يتألق بهِ عند تعريضه لهذه الاشعة وما ينتج عن التعريض من تألق بلون خاص. فالجبن الذي لا يزال في اول مراتب النضج يتألق بلون اصفر ، ثم يتحول رويداً رويداً الى لون ازرق عندما يكتمل النضج

***

هذا مما يتعلق ببعض مواد الطعام. ولكن هناك ناحية اخرى تتجلى فيها فائدة هذا الاسلوب الجديد من اساليب البحث والكشف . نعني ناحية التحقيق الجنائي . فاذا عثر المحقق على شظية زجاج في ثنية من ثنايا ملابس المتهم ، وكان المتهم ينكر التهمة ويستند الى أنهُ كان في مكان آخر عند وقوع الجريمة ، ثم ظهر ان هذه الشظية تتألق بلون كاللون الذي تتألق بهِ شظايا إناءٍ مكسور في بيت القتيل، فالنيابة من هذا البحث دليل قوي تضيفه الى أدلتها الاخرى . بل قد قد يكون هذا الدليل مفتاحاً يفتح بهِ ما أغلق من خفايا الجريمة . أو قد يعثر المحقق في جيب أحد المشبوهين على عود ثقاب يتألق عند توجيه الاشعة اليهِ بلون معين، هو نفس اللون الذي تتألق بهِ عيدان أشعلت وسقطت في حجرة سرق أثاثها وقتل ساكنها ، فيتخذ المحقق من ذلك منفذاً ينفذ بهِ إلى سر الجناية

وقد رويت روايات عن جرائم متعددة لم يمط اللثام عن سرها الا بهذا الاسلوب

***

ثم إن هذه الاشعة تفضح أساليب السجناء والاسرى الذين يحاولون أن يكتبوا بحبرخفي بين سطور خطاب مكتوب بحبر عادي. وقد كانت الطريقة قبل اكتشاف اسلوب البحث «بالفلورة» أن تغمس الخطابات المشتبه بها في محلولات خاصة او تدهن بمواد كيماوية معروفة تجلو الخفي. ولكن توجيه الاشعة التي فوق البنفسجي الى خطاب مشتبه به يبدي حالاً المادة التي كتب بها بين السطور. لان كل مادة من المواد المعروفة التي يستعملها السجناء والاسرى والجواسيس للكتابة الخفية تتألق بألوان خاصة وقد وضع بها بيان في المعامل الخاصة بهذا النوع من البحث

والاوراق المالية المزيفة تفضح عند تعريضها لهذا الضوء لاختلاف يتبينهُ الفاحص بين اللون الذي يتألق به ورق الاوراق المالية الاصلية وحبرها وخطوطها المائية، واللون الذي يتألق به ورق الاوراق المزيفة وحبرها وخطوطها المائية

ومن هذا القبيل امتحان الصور القديمة. فتوقيع المصور في الصور التي ثبتت نسبتها اليهِ، يعرض لهذا الضوء العجيب فيتألق بلون معين. ثم تأخذ الصور المختلف فيها او المشتبه بأنها معزوة اليهِ، ويعرض التوقيع عليها للاشعة فيعرف الصحيح من الفاسد. كذلك الرخام القديم يتألق بلون يختلف عن لون الرخام الحديث، فلون القديم عند تعريضه للاشعة التي فوق البنفسجي ابيض مبقع فيهِ ظلال من اللونين الاصفر والازرق، ولكن الحديث المقطع يتألق بلون ارجواني قانٍ

وما يصدق على الرخام يمكن تطبيقه مع التنويع اللازم على حجر المرمر والحجر الجيري والعاج

ولا يخفى ان بعض طوابع البريد القديمة والنادرة تباع وتشترى بمبالغ فادحة من المال. وهذا يغري المزورين والمزيفين بتزييف طوابع جديدة حتى تشبه القديمة في مرآها، وقد يبلغ التزييف من الدقة مبلغاً يعجز معهُ الهاوي البارع عن تبين الفرق بين هذه وتلك. فالبحث بالاسلوب المتقدم الذكر، يشبهُ البحث في الاوراق المالية، وكشف التزييف مستطاع بسرعة عظيمة ولاسيما لان مادة الورق والحبر والصمغ في طوابع البريد يمكن فحصها اتم فحص بهذا الاسلوب

والخلاصة ان تطبيق ظاهرة « الفلورة » على النسق المتقدم قد مهدت للباحثين طريقاً لتمييز القديم من الحديث. والاصلي من الزائف، والنقي من المشوب، في مئات الاشياء التي نتناولها كل يوم

ساعة في هياكل الشعراء — ٢

رشيد ايوب

لبوسف البعيني

رشيد ايوب صاحب ديوان — أغاني الدرويش — وأحدُ اعضاء الرابطة القلمية في الولايات المتحدة ناثرٌ مبدع وشاعرٌ رقيقٌ حساس تسربلُ سطورهُ عاطفةٌ مزبدة باليأس والمرارة والحنين، وتبلل معانيه دمعة ممزوجةٌ بالالم والشوق والتذكار

ما قرأتهُ مرةً إلاَّ تيقظت في اعماق قلبي أشباح أيامي ولياليَّ ... تلك الايام والليالي التي كفَّنها الدهرُ بوشاحهِ القاتمِ الحزين لتبقى محتفظة بأحلامي الماضية احتفاظ الضريح رفات دفينه

يسمعك نغماً من أنغامهِ الحنونة فيحملُ روحك الى اماكن حبها وغرامها ... ويحدّثك عن قصةٍ من قصص حياتهِ فيعيد اليك كلّ ما حجبتهُ الاقدار، وطمرتهُ الشهور والاعوام

يستأثر بميولك ومشاربك كما يريد فتحسُّ بضباب قلبهِ قد عانقَ ضباب قلبك وبدموع عينيهِ قد مازجتْ دموع عينيك ... ويصف لك ما ينهشُ نفسهُ من يأسٍ وأسىً فتحبهُ جاثياً ضارعاً، وتتمشقهُ باكياً شاكياً !

يسيرُ في الحقل راكضاً وراء فراشة أحلامه فتتبعهُ سائراً راكضاً ... ويجثو على ضفات بحيرة دموعه فتجثو معهُ هامساً متمتماً

بينا هو في الحديقة وقد أبكر نافضاً عن اوراقها غبارَ الليالي ... اذا بهِ يهبُ صاعداً على سلالم من ضوء القمر ليستنشق النجوم بياناً علويّاً، وشعراً معطراً سامياً

هو شاعر ... وللشعراء قوة مجهولة تفعل في الارواح ما لا تفعله قوى البشر وأعمالهم !!

***

انّ الشاعر الذي تتآلف إحساساتهُ مع احساساتك، وتلاصق جراح نفسه جراح نفسك فتبكيان وتفرحان معاً. لهو شاعر يعرف كيف يغوص في عتمة الحياة مستخرجاً منها اسرارها وخفاياها. ورشيد ايوب تقرأه فتخيم عليك غمامة مجهولة كلها تأمل وتساؤل وأحلام

احب الشتاء لأن له ضباباً كهمي ثقيلاً كثيف
وأهوى الربيع فأنفاسه دواء لجسمي العليل الضعيف
وأصبو الى الصيف مستأنساً بوحشة ليلي الطويل المخيف
وتشتاق نفسي الخريف وقد تجنّى عليّ زمان الخريف
فيا دهر هل فيك مثلي فتىً يلاقي الرزايا بوجهٍ لطيف ؟

هذه ابيات من ديوانه الأول وهي ساحرة مؤثرة اوردتها هنا لتقرأها معي وتشاركني في التأمل بضباب الشتاء الذي يشبهه الشاعر بهمه الثقيل . ولعمري ان ريشة ترسم عبقريتها الخفية كل ما في الطبيعة من خشيش ، وهبوب ، وارتعاش ، لهي ريشة خلابة لها اصباغها وألوانها . وما من مرة استعدت فيها هذه الابيات إلا اوحى اليّ رنينها الشجي تشابيه جديدة وصوراً مجهولة تفتح في القلب اكمام الشاعرية

لقد كنت اعتقد أن للشاعر سلطة محدودة على نفسية المطالع ، أما رشيد ايوب فله انامل مختلفة عن انامل الكثيرين من الشعراء ، انامل لطيفة ناعمة تلامس ازاهير الشاعرية فتنعشها وتصبغها باللون الذي يلائمها ويتفق مع حالتها !

أودّع رزقي عند المساء وأجلس في الروض تحت الشجرْ
وأصغي إلى ما يقولُ المشيبُ بذكر الشبابِ الذي قد عَبَرْ
أغني لتأتي بناتُ الخيالِ ويرقصْنَ حولي بضوء القمرْ
فأغنيتي من وداع الخريفِ لأوراقهِ عندَ وقتِ السفرْ
تعاليْ اسمعيها ففيها الفراقُ وفيها اللقاء ، وفيها العبرْ

إن الشاعرَ السامي لا يكتفي باعطائك صورةً عمّا يحسُّ ، بل بأن يجعلك تشعرُ بما يشعر ، وتتساءل عمّا يتساءل ، وتهتمُّ بما يهمّ . فماشيه على ضفةِ خيالاته وترتفع معهُ إلى أفقه الاعلى . أفلستَ تجلسُ مع رشيد أيوب تحتَ ظلال شجرة الليل وتغني معهُ لبناتِ الخيال الراقصات في ضوء القمر اغنية الماضي الملتفع بحجابِ الذكرى والمستتر بأوراقِ خريف الحياة ؟

وإنْ تكن في الحياة مرارة قاسية فهيَ مرارة الذكرى . هناكَ منْ أظلمَ ليله فبات مسهداً يبكي على مافات . وهناك منْ يحيا وحياتهُ دائماً سلسلة تجرّها اقدامُ اشباح الماضي . فيقظتهُ حنين ! وغفلتهُ تذكار !!

***

في بدء الجيل الماضي ترنَّحَ الادب المستجدّ في الغرب للقصيدة الرائعة التي نظمها الشاعرُ المشهور — الاب لامنّه — وسمّاها يومئذ — نشيد المنفي — وحتى الآن والنقادُ الغربيون

وبينهم الكاتبُ الكبير استيفان زفيج ، يتناولونها بالمدح والاطراء . وهم لا يفعلون ذلك الاّ لكون القصيدة تعبرُ عن حنين المهاجر ، وعن شوقهِ إلى حمى الطفولة المحفوفة بذكريات الماضي .
أما قصيدة الشاعر — لاَمِنّه — فهي هذه :

— لقد هامَ على وجههِ في المهاجر . . تخذ اللهمّ بناصره . . إنه منفيٌ مسكين —

لقد مررتُ بين الناسْ ، فحدقوا بي وحدّقتُ بهم . . لكنّنا لم تتلاق بعاطفة — فالمنفي مجهول في كل مكان —

كلَّ يوم عند مغيب الشمس كنتُ أرى أعمدة من الدخان تتصاعدُ من أحد الاكواخ القائمة في قلب الوادي الصغير فاقول في نفسي — يالسعادة من لهُ منزلَ حقير يأوي اليهِ عند المساء ويجلس فيهِ بين اهله وذويهِ — أما المنفيُّ فشقيٌّ في كلّ مكان ! !

إلى اين َ تذهب تلك الغيوم التي تكتسحها العاصفة ، أراني أطردُ مثلها في هذا العالم . . ولكن ماذا ينفعني كلُّ ذلك — فالمنفي وحيدٌ في كلّ مكان

إنَّ هذا الجدول ينساب بهدوء السهول ، غير أنّ خريره يختلف كثيراً عن ذلك الخرير الذي كنت اسمعهُ في حداثتي . انهُ لا يعيدُ الى نفسي ادنى ذكرى !

جميلةٌ هذه الاشجار . . ولطيفةٌ هذه الازاهير . . ولكن ليست الاشجار اشجارَ بلادي ولا الازاهيرُ ازاهيرَ وطني

يسألني الناسُ ما يبكيك ، وعند ما أطلعهم على سبب بكائي لايذرفُ احدٌ منهم دمعةً حرى توجعاً لي ، ذلك لانهم لا يفهمون احلامي واشواقي !

رأيتُ شيوخاً يحيط بهم بنوهم كما تحيطُ بالزيتونة فروخُها ، ولكنّي لم اسمع احداً من بين هؤلاء الشيوخ يناديني بابنهِ ، ولم ارَ بين هؤلاء الفتيان منّ يدعوني اخاه : :

وشاهدتُ عذارى كثيرات يبتسمنَ ابتسامة الحبّ لمن قد اخترنهُ من بين الرجال ولكني لم ارَ ثغرَ واحدة يفترُّ لي عن ابتسامة !

وشاهدتُ شباناً يتعانقون فرحين باجتماع شملهم . . ولكن وددتُ لو قبضَ واحدٌ منهم على يدي مصافحاً

اواهُ ! ان المنفيّ شقيٌّ في كل مكان ! فلا أصدقاء ، ولا زوجات ، ولا إخوة ، إلاّ في الوطن !!

***

خفّف عنك أيها المهاجر المسكين ، وامسكْ عنانَ تأوهاتك . . الكل منفيٌّ مثلك . . والكل يشاهد اهله يمرون ويتلاشون !

ليس الوطن في هذا العالم ، وعبثاً يحاول المرء ان يجده . وما موطن الانسان على الارض إلا كبيت ليلةٍ واحدة !

***

وانا ما اوردت ترجمة هذه القصيدة الا لاقابل بينها وبين هذه الابيات التي ارسلتها روح رشيد ايوب وهي تعبر عن حنين المهاجر الذي يهيم على وجهه في الابعاد القاصية . . . وعندي ان قصيدة الشاعر اللبناني الحساس أرق عاطفة واحسن تصويراً ، وهي في ما يلي

ذكروه بالحمى فارتعشا وهو كالمجنون
مغرمٌ في الحب قدماً قد نشا قلبهُ المحزون

لا تلوموهُ فذا صبٌّ سقيم نازحٌ مسكين
ليس يحييه سوى ذاك النسيم في ربى صنين

يرقبُ الافلاك ان جنّ الظلام في حشاهُ نار
وهو يحسو الخمر مضنى لا ينام يُنشدُ الاشعار

لم تزدْهُ الكأسُ الا عطشا أبداً ظمآن
يتغنى عمرهُ كيف مشى بربى لبنان

***

ولرشيد ايوب صاحب ديوان — أغاني الدرويش — عدا فنه الانيق وريشته الفخمة ، نفسيةٌ ملتفعة بدثار أسود تنشرُ دائماً على اشعاره الرقيقة غبرةَ الحزنِ والكآبة كانها شجرة الصفصاف النابتة على ضفافِ جدولِ الدموع ... أو البلبلُ الشريد الذي أضاع أليفهُ الحبيب !!

وهذه النفسيةُ التي تغمرُ جميع نواحي الشاعر قد أوتيت حظاً وفيراً من الفهم والادراك. فرشيد أيوب ناثرٌ مبدع يحملك نثرهُ الشعريُّ المنسول من جعبِ الآلهة على الاعجاب والتفكير . وإن كنت أجد نظيراً للشاعر العبقري المشهور — سرلي برودوم — في الادب العربي فهو رشيد أيوب . وأنا لو كنت اعتقد بمذهب — السيريتيسم — لقلتُ أنَّ روحَ الشاعر الغربي تحيا اليوم في الشاعر اللبناني النابغة ... فان في نفسية رشيد ايوب حيرة تشابهُ حيرة — سولي برودوم — وترتعش مثلها في سطورها وأبياتها

والمقاطع الآتية ما احببتُ ان اختارها من قصيدته الرائعة — الضوء البعيد — وهي منشورة في ديوان (أغاني الدرويش) إلاّ لاعطي القارىء معنىً كاملاً ، وصورةً شفافة الخطوط والالوان لهذا الشاعر الذي يمثل شعرهُ العذب يقظة في الادب العربي

لبستْ شمسي الوشاحا آهِ ما أحلى المغيبْ
نامَ قلبي واستراحا وقضى ذاك الغريبْ
في الأنامْ

فاحفروا قبري بجانبْ خيمتي عندَ الكرومْ
حيثما كنت اراقبْ في دجى الليل النجومْ
لا أنامْ

دقةُ الناقوس عندي كلُّ انغامِ الطربْ
فاضربوهُ عند لحدي يومَ تفريجِ الكُربْ
بالحمامْ

لك يا نفسي حياةٌ بعدما أُلقي العصَا
فالاماني جاثماتٌ عليها بالحصى
كي تنامْ

***

ان اول ما يتطلبهُ الفنُّ من الشاعر هو أن يكون صادقَ العاطفة . . . وفي شعر رشيد ايوب عاطفة صادقة تنسابُ شادية مترنمة انسيابَ الجدول بين الأودية والمنخفضات . وعندي ان صاحب — أغاني الدرويش — الذي كتب اشعاره بدم فؤاده وقدّمها الى النفوس الموحشة ، المتألمة ، العطشى الى الحبّ والسعادة ، سيبقى معروفاً بطابعهِ الخاصّ في الشعر العربي ، وسوفَ ترتشفُ القلوبُ والارواح رحيقاً مسكراً من اغانيه — تلك (الاغاني) التي عشتُ فيها سانحة من أروع سوانح الحياة فأفعمتني بالرؤى ، وأشبعتني بالاحلام ! !

البرازيل يوسف البعيني

دير سانت كاترين

بطور سينا

للمستر رابينو

قنصل انكلترا الجنرال في مصر

—٢—

الطريق من القاهرة الى دير سانت كاترين (طور سينا)

المسافة ٣٩٢ كيلو متراً تقريباً [1]

﴿ كلمة عامة ﴾ الطريق من القاهرة الى السويس لا صعوبة فيه ولكن الطريق من السويس الى الدير شاق والافضل ان لا يجازف المرء فيه بسيارة واحدة ويستحسن على كل حال ان يستخدم المسافر سيارات خفيفة وعالية وذات عجلات كبيرة . ولا يتحتم الحصول على اي تصريح بالزيارة وانما يلزم ان يكون مع الزائر كتاب توصية طبقاً للائحة زيارة الدير

والبنزين والزيت لا يمكن الحصول عليها في الطريق وعلى ذلك كان من اللازم ان يتزود المسافر منهما في القاهرة او في السويس بما يكفي لقطع المسافة ذهاباً واياباً . والماء لا يتوافر الا بأبي زنيمة وفاران وبالدير نفسه

القاهرة — يبدأ طريق السويس عند نهاية هليوبوليس بشارع الماظة . وقبل الوصول الى مخازن شركة الترام تجد قنطرة على يمينك فتجتازها ثم تتجه صوب اليسار (الشرق) . وعلى مسافة ٤ر٥٠٠ كيلومتر من هليوبوليس قسم البوليس، التابع لمصلحة الحدود والمكلف حراسة طريق القاهرة — السويس . وهناك نقطة للبوليس كل ٢٥ كيلومتراً ثم تصل الدار البيضاء بعد ٥١ كيلو متراً وفيها محل للتموين . وترى قصر الوالي عباس الاول على بعد كيلو مترين من الطريق العمومي ويوصل اليه طريق ضيق مهدته سير الاقدام ، وهناك تجد خرائب اصطبلات الوالي التي كانت بنيت لتربية الجياد العربية الاصيلة

---

(١) قارن Royal Automobile Club of Egypt. Itinéraire de l'Excursion du Caire au Couvent de Sainte Catherine (Sinai) طبعة ١٩٣٠ وما كتبه الاب مايسترمان Père B. Meistermann ص ٤٩ — ١١٢

ويستمر طريق السويس صاعداً صعوداً تدريجيًا الى جبل Iouéibéid ثم يهبط هبوطاً هيناً نحو البحر حتى تصل الى قسم بوليس السويس عند مدخل البلد ويتجه الطريق نحو اليمين للوصول اليها ويستمر حتى يشارف عمارة الاسعاف ثم يتجه الى اليسار ويعبر خطين من خطوط السكك الحديدية ويتخذ المسافر الطريق الذاهب الى « الكوبري » ويعبر ترعة الاسماعيلية على« كبري »متحرك ثم يستمر فيه نحو الغرب حتى يصل الى معدية شركة قنال السويس وهناك تتم الاجراءات الجمركية ثم يعبر القنال بالمعدية مجاناً . أما اذا كان عازماً على العبور بها ليلاً فيلزم اخطار الشركة بذلك قبل الميعاد

وعلى الشاطىء قسم من اقسام بوليس الحدود ومن ثم يتجه المسافر نحو الجنوب في طريق سهل على مقربة من القنال حتى يصل الى مباني مصلحة الكورنتينات وعندئذ يجد طريقاً الى يساره (الشرق) وعلى رأسه لوحة تدل عليه

ويبدأ طريق الصحراء متجهاً صوب الجنوب تاركاً يساره الطريق الكبير الذي يخترق سينا إلى الشرق

وإذا اتخذ المسافر طريق الجنوب وصل عيون موسى بعد ٢٠ كيلومتراً . وهناك حدائق كبيرة مسورة بالصبار او باللبن . وفي كل حديقة من النخيل ما بين خمسين ومائة نخلة . وهنا يبدأ كما يقال الطريق الذي سلكه بنو إسرائيل عندما عبروا البحر الاحمر . والطريق لمسافة خمسين كيلو متراً جيد وإنما تقطعهُ الوديان الجافة التي كانت تجري فيها السيول وهذه الوديان تعطل المسير . وكذلك المسافة التالية وطولها خمسون كيلو متراً اخرى . ثم يأخذ الطريق في الصعود حتى وادي طيبة Ouadi Tayiba فسر حذاء الوادي حتى تصل الى خليج السويس وهنا ينحرف الطريق الى اليسار حتى ابا زنيمة. وها هي أسماء الوديان التي تكون قد قطعتها : إيران Eiran وكوراخية Kourakhiyeh أو (حيزه) والاهاده Ahadéh وصدر Sadr واوردان Ouerdan وعماره Amarah ومريره Mereirah (الماره Le Mara المذكورة في الانجيل) وهاروورا Haroûarah وغرنديل Gharandel . وهذا الوادي عريض تحف به الصخور الطباشيرية التي ترتفع عشرين أو ثلاثين متراً ويسمى Elim أو المرحلة الرابعة لبني اسرائيل. والمحطة الثانية التي اشارت اليها التوراة . ويجري في هذا الوادي جدول من الماء جرياناً مستمراً وهو ماء صاف يشوبهُ قليل من الملح تحف به اشجار النخيل التي تنمو نمواً طبيعيًا كما تحف به اشجار الصنط والاثل . تعبر بعده وديان زينة Zenneh وأوسلت Ouselt وقونوصه Konoûseih واثال Ethal وشبيكة Chébeikeh وطيبة Tayibéh

ويصل المسافر الى ابي زنيمة وهي قرية فيها طائفة من النسّاك المسلمين وفيها مكتبان للبريد والتلغراف وبيوت موظفي شركة طورسينا للتعدين التي تصدر من هذه الميناء الصغيرة محصول مناجمها والماء نادر ويمكن ان تبتاعهُ من شركة التعدين التي تستورده من السويس

وفي الامكان النزول في دار الاستراحة اذا ابرزت تصريح مصلحة الحدود (١) او النزول في مساكن شركة طورسينا للتعدين (٢)

***

ومن ابي زنيمة يسير الطريق وخط السكة الحديد التابع للشركة المذكورة مسافة ثمانية كيلو مترات ويحاذي الشاطىء حتى تصل الى العمود الكيلومتري ١٤٢ فتكون قد وصلت سهل مرخا او صحراء سين المشهورة في التاريخ المقدس فهناك نزل المن من السماء على بني اسرائيل غذاء لهم . ثم ينحرف الطريق الى الشمال مجتازاً وادي سيدرا Sidreh وهو وعر جداً ومحفوف بالصخور الجرانيتية على جانبيه مسافة خمسين كيلو متراً ثم وادي مقطب — او وادي النقوش نسبة الى نقوشه النبطية على جوانب الجبل وعلى الكتل الصخرية المطروحة تحت الاقدام . وهناك فضلاً عن ذلك نقوش عربية ويونانية وقبطية . ثم تمر عند العمود الكيلومتري (١٦٣) بصومعة الشيخ سليمان . وفي نهاية الوادي ممر صعب تدخل منهُ الى وادي فاران الذي تقطعهُ وديان اخرى جانبية كثيرة

وتمر بمنبع الحطاطين الذي يعود الى الظهور جنوبي صخرة رافيدين Raphidin التي ضربها موسى بعصاه فانبثق الماء منها ثم تمر بواحة الحسوة Khessoueh وفيها تنمو اشجار النخيل التي تظلل اكواخاً من الحجر حقيرة متناثرة حول مسجد صغير . والمناظر الطبيعية على طول الطريق جميلة وخلابة . والوادي محفوف بصخور الجرانيت التي تطل عليها جبال سربال ، ثم يأخذ في الضيق حتى تصل فاران

وهناك حديقة وصومعة تابعتان لدير سانت كاترين والماء طيب . وقد جاء ذكر مدينة فاران في التاريخ في القرن الثاني الميلادي وكانت مركز اسقفية حوالي سنة ٤٠٠ . وبعد ان غزا عمرو مصر طرد المسلمون الرهبان المسيحيين المقيمين بفاران فأصابتها عوامل الفناء ثم انتعشت فترة وجيزة اثناء حكم الصليبيين في القرن الثاني عشر . وكانت المدينة واقعة على جبل مهرات Meharrat وهو تل صخرى يبلغ ارتفاعه ثلاثين متراً . وكان يحيط بسفحه سور وكانت المباني

---

(١) يجب ان يقدم الطلب قبل السفر باسبوع ويجب توضيح تاريخ الوصول الى ابي زنيمه وعدد الايام التي يعتزم المرء تمضيتها هناك (٢) يجب ان يقدم الطلب تلغرافيا ودفع اجرة الرد مقدماً الى مكتب التلغراف

ممتدة على سفوحه حتى القمة وهي اليوم خرائب . وكانت الكنيسة في شمالها وكان برج في شرقها والى الشمال من جبل مهرات Meharrat يقع جبل طاحونة الذي يطل على بحيرة ارتفاعها ٢١٥ متراً

ويقال ان موسى وقف هناك يصلي اثناء الحرب ضد العمالقة Les Amalécites وهناك بقايا ثلاث كنائس . وفي فاران وما يجاورها عدة كهوف كان يعيش فيها النساك ومقابر ذات طراز خاص فالدور الارضي منها مكون من اروقة متوازية مغطاة بيلاطات ومفصولة بعضها عن بعض بحيطان ضخمة . والدور الاول مكون من اروقة متعامدة على الاروقة السفلى . ولا تزال الاجساد في بعض هذه المقابر مكانها وهي موضوعة بعضها بجانب بعض في الاروقة

***

وتخرج من حديقة فاران الى حراج نخيل فتجوس خلالها مسافة اربعة كيلو مترات وتمر بمضيق البويب el - Boueib وهو المدخل الشرقي لوادي فاران ثم تدخل وادي الشيخ ، ويجب ان تلزم يسارك مخافة ان تدخل في وادي سولاف Solaf الذي ينحرف الى اليمين وتطرقهُ كثيراً سيارات الصيادين غير انه لا يوصل الى الدير . وتظل في سيرك حتى ترى قبر النبي صالح الواقع على ربوة ناحية الجنوب . فاذا ما اجتزتهُ وصار على يسارك فان الطريق يتجه صوب الشمال ثم يبدو لك الدير بعد مسيرة خمسة كيلومترات

(دير سانت كاترين — ٥٠ كيلو متراً . الحد الكيلو متري ٢٥٢ المجموع ٣٨٨ كيلو متراً . ماء غزير . الزمن بين فاران والدير ثلاث ساعات)

(دير الربوة «دير الرسل الاثني عشر» او قصر الملوك — ٤ كيلو مترات . الحد الكيلومتري ٢٥٦ . المجموع ٣٩٢ كيلو متراً . حديقة ومجرى ماء) والرحلة بين القاهرة ودير سانت كاترين يمكن القيام بها في ١٤ ساعة للذهاب و ١٠ ساعات للاياب . والى القارىء تعليمات زيارة الدير :

المادة الاولى — يجب ان يكون مع كل زائر كتاب توصية من سيادة المطران بطورسينا او ممن يمثلون الدير في القاهرة بالظاهر

المادة الثانية — اجرة المبيت بالدير جنيه مصري كل يوم وتشمل الغذاء او ٥٠ قرشاً بدون غذاء

المادة الثالثة — يحصل رسم دخول قدره ٢٥ قرشاً عن الزيارة من الاشخاص الذين لا يبيتون

المادة الرابعة — من رغب في زيارة جبل موسى او جبل سانت كاترين يجب ان يرافقهُ راهب من الدير يدفع اليه الزائر خمسين قرشاً . وأجرة تأجير جمل لصعود جبل موسى عشرون قرشاً ولصعود جبل سانت كاترين ثلاثون قرشاً

— ٣ —

وصف عام للدير — رسوم ومناظر — الصور وتخطيط البناء

لم ينشر احد على ما اعلم رسماً للدير سوى بوكوك Pococke سنة ١٧٤٣ [١] ولما سألت امين مكتبة الدير هل لديه رسم للدير اجاب بالنفي . ثم تذكر ان بالمكتبة رسماً كان قد طبع على الحجر سنة ١٨١٣ . وقد صوره مسيو تانو [٢] . وان اهمية هذا الرسم عظيمة لانهُ يبين لنا ما كان عليه الدير قبل التعديلات والتحسينات التي ادخلت عليه في غضون القرنين التاسع عشر والعشرين

اما رسوم الدير السابقة للقرن الثامن عشر والمنشورة في بعض كتب الرحلات المتعلقة بطورسينا فليست بذات قيمة علمية لانها في اغلب الاحايين مبنية على خيال النقاشين . وقد تفضل المسيو مينيه فسمح لي بنشر صورة فتوغرافية للوحة مؤرخة ١٦٩٦ وتبين لنا طورسينا [٣]. ولا ادرى ماذا صارت اليه اللوحة الاصلية التي نقلت عنها هذه الصورة

وفي كتاب وصف مصر Description de l'Egypte الذي الفهُ علماء الحملة الفرنسية نشر المسيو كوتيل J. M. J. Coutelle منظراً للدير كان كورنارو Cornaro سنة ١٧٧٨ قد رسمهُ بالزيت على كرسي المطران الذي بالكنيسة [٤] ولكن للاسف لم يرسمه المسيو كوتيل الا رسماً تخطيطياً لان الصورة الزيتية الاصلية غاية في الدقة ولها شأن جوهري في بيان التطورات التي حلت بالدير

وبمتحف اللوفر لوحة للدير رسمها دوزاتز A. Douzats سنة ١٨٣٠ ونشرها مسيو كاريه J. M. Carré في كتابه Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte [٥] وقد رسم دوزاتز فضلاً عن ذلك رسماً تخطيطياً للدير ونشره في كتاب Quinze Jours au Sinai لمؤلفيه دوماس ودوزاتز A. Dumas et A. Dauzats [٦] ونشر ليون دي لابورد Léon de Laborde [٧]

---

(١) قارن ماكتبه بوكوك R. Pococke في Description of the East جـ ١ طبعة لندن ١٧٤٣ ص ١٥٠ بما كتبه رابينو Rabino في Le Monastère de Sainte Catherine طبعه القاهرة سنة ١٩٣٥ لوحة ١٩

(٢) قارن المرجع السابق برابينو Rabino لوحة ١٦

(٣) قارن المرجع السابق تأليف رابينو Rabino لوحة ١٧ و ١٨

(٤) انظر وصف مصر Description de l'Egypte, Etat Moderne جزء ٢ ص ١٠٣ شكل ٣ منظر دير سنت كاترين مصور في كنيسة طورسينا وقارن ماكتبه مايسترمان في المرجع السابق الذكر ص ١٢٩

(٥) طبع بمطبعة المعهد الفرنسوي للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٨٣٩ جـ ١ ص ٢١٢

(٦) وهو في مجلدين وطبع بباريس سنة ١٨٣٩

(٧) كتاب Voyage de l'Arabie Pétrée تأليف Léon de Laborde et Linant وناشره Giard طبعة باريس سنة ١٨٣٠

ثلاثة مناظر لدير سانت كاترين منها منظر عام وآخر مأخوذ من الشمال والمنظر الثالث داخلي. وثمة صورة اخرى في كتاب Pèlerinage à Jerusalem et au Mont Sinai en 1831, 1832 et 1833 de Marie-Joseph de Géramb (١). وقد نشر روسجر Russeger (٢) في اطلسه منظرين للدير أحدها داخلي والآخر خارجي. وفي كتاب Ordnance Survey of the Peninsula of Sinai (٣) صورة للدير كما كان موجوداً قبل بناء الناقوس، ثم اخذت صور الدير تكثر في المؤلفات المختلفة من سنة ١٨٧١ (٤)

وقد نشر مسيو كويا بارتو Couyat-Barthoux في مجلة l'Illustration (٥) منظراً للدير جميلاً بالالوان كما نجد مناظر للدير والكنائس التي بالجبل في كتاب My Camel Ride from Suez to Mont Sinai تأليف آرثر ستون Arthur W. Sutton (٦)

وقد بنيت أسوار الدير (٧) تحت حكم يوستنيانوس وتمّ بناؤها سنة ٥٥٧ وهي السنة الثلاثون

---

(١) وهو في ثلاثة مجلدات طبعت في باريس سنة ١٨٣٦

(٢) Reisen in Europa, Asien und Afrika unternommen von Joseph Russeger in den Jahren von 1835 bis 1841. Atlas منظر ٢٦ و ٢٧

(٣) Ordnance Survey of the Peninsula of Sinai by Captain C. W. Wilson and H. S. Palmer, R. E. Ordnance Survey office, Southampton طبع سنة ١٨٦٩ انظر الجزء الاول — صورة لداخل الدير تبين الكنيسة لوحة ٢٤

(٤) قارن ما كتبه بابا ميخالوبولو Papamikhalopoulo وأحمد شفيق باشا وبنزفيك Benesevic ولوكيانوف Loukianoff وغيرهم

(٥) Le Sinai et ses Richesses inconnues. L'Illustration عدد نوفبر ١٩٣٠ ص ٣٣٧ — ٣٣٨ . منظر الدير ص ٣٣٧

(٦) طبع بلندن سنه ١٩١٣

(٧) قارن ما كتبه بابا ميخالوبولو Const. N. Papamikhalopoulo وصفاً للسور في كتابه باليونانية عن دير طور سينا طبع بأثينا سنة ١٩٣٢ ، الفصل الثامن : سور الدير ص ١١٠ — ١١٧ وقارن ماكتبه مايسترمان Meistermann في المرجع السابق الذكر ص ١٢٢ — ١٢٤ . أما صور السور فقارن مانشره اللواء أحمد شفيق باشا في Notes on a Visit to Sinai Monastery and a motor car tour in Sinai Peninsula, in January 1926 لوحات ٣٤ — ٣٧ وما نشره لوكيانوف في مجلة La Semaine Egyptienne الصادرة في القاهرة في يوم ١٥ ابريل ١٩٣٤ بعنوان Vers le Mont Sinai ص ١٠ والبرنس جان جورج Jean George de Saxe في كتابه Das Katharinen-Kloster am Sinai طبعة ليبزج وبرلين سنة ١٩١٢ لوحة ١٢ شكل ٤٠ وقارن Vue du Monastère تأليف نيقولايدس N. Nicolaidès وما نشره رابينو في المرجع السابق الذكر لوحات ٣ — ٥

من حكمه وأحدثت الزلازل فيها خللاً خصوصاً مساء اليوم الاول من شهر مايو سنة ١٣١٢ فكان دوي مريع اذ تدهورت صخور الجرانيت من قمم الجبال التي تحيط بالدير فحطمت أسواره الشمالية والشرقية كما انهار البرجان وخلوات الرهبان

وكان بناء أسوار يوستيانوس وفق تكوين الارض الطبيعي فالارض صاعدة في الجنوب الغربي نحو قاعدة الهاوية الوعرة المسماة حوريب . وفي الشمال الشرقي يقطعها واد من وديان السيول وهو في العادة جاف غير انهُ شديد الخطر عند امتلائه بمياه الامطار الغزيرة كما يحدث أحياناً . وكان شكل تلك الاسوار مستطيلاً غير منظم فكان طول الضلع الشمالية الشرقية ٨٧ متراً والضلع الشمالية الغربية ٧٤ متراً والضلع الجنوبية الغربية ٨٤ متراً والضلع الجنوبية الشرقية ٧٠ متراً وكلها تهدمت الا الجزء الأسفل من السور الجنوبي الغربي . ويختلف ارتفاع الاسوار باختلاف المواضع بين اثني عشر وخمسة عشر متراً وسمكها ١٫٦٥ متراً وفيها ممرات في داخلها ويتوسط السور الجنوبي الغربي وهو الوحيد الذي ظل معظمهُ سليماً ، برج مربع قليل البروز ويكتنفهُ في طرفيهِ برجان آخران مثله . والسور مبني بأحجار الجرانيت الضخمة وفيهِ مزاغل تكاد تكون على ارتفاع القامة من الخارج ذلك لان الارض قد علا مستواها على أثر انهيار الكتل الحجرية من الجبل . وقد زيد في ارتفاع السور عدة امتار بمخلوط من الطين وشظايا الجرانيت [1] لان الجبل بجانبه العمودي اكثر اشرافاً على هذا السور من بقية الاسوار . وبالبرج الاوسط حليات على شكل صلبان والصليب الاوسط يكتنفهُ من الجانبين حملان وبين الابراج على مسافات واحدة منقوش على كتل من الجرانيت صلبان [2] والسور الجنوبي الشرقي يكاد يكون سليماً جزؤه الادنى لمسافة مائة متر . وفي البرج الاوسط عشر فتحات [3] لصب الماء المغلي على المهاجمين

أما السور الشمالي الشرقي المسمى ديوار دواره Diwar Douawara أو سور الهاوية فهو اشد الاسوار تخرباً ويسهل تمييز ما تجدد منه فقد بني السور اول مرة سنة ١٣١٢ ثم انهار بعضهُ في نهاية القرن الثامن عشر . وارسل الجنرال كليبر من مصر ٤٦ عاملاً سنة ١٨٠١ لتجديده والى عصره يعزى البرج المستدير في الطرف الشرقي الذي يبرز ٣٫٥٠ متراً عن السور وبرج مربع وبرجان مستديران متصلان يكوّنان برجاً واحداً يسمى برج كليبر وعليهِ كتابة يونانية في ستة أسطر بارزة منقوشة على لوحة من الرخام :

---

(١) انظر المرجع السابق تأليف مايسترمان Meistermann ص ١٢٢ — ١٢٤

(٢) قارن ما جاء في كتاب رابينو المذكور آنفاً شكل ٢ ولوحة ٦ شكل ٢

(٣) وليست سقاطات (مشربيات معمارية) machicoulis عادية وانما هي فتحات أفقية منقوبة في السور بميل نحو القاعدة لالقاء السائل الى الخارج

« المسيح — القديسة كاترينه . هو القالب . يقلب . جدد من أساسه في أول مايو ١٨٠١ »
وفي عصر المطران قسطنطيوس Constantios جدد السور لآخر مرة وعلى السور الخارجي الى اليمين من برج كليبر كتابة عربية في خمسة اسطر بالخط النسخي البارز منقوشة على لوحة من الرخام

« قد حضروا الى هذا المكان المقدس المعلمين من طرابلس الشام نقولا وهبه موسى سليمان وهبه وابراهيم جرجس جرجس سنة ١٨٣٩ مسيحية »

وعلى السور من الداخل كتابة عربية في ثلاثة أسطر بالخط النسخي البارز على لوحة من الرخام مقاسها ٣٠ ر . × ٢٣ ر . متراً

« من طرابلس الشام سنة ١٨٤٠ مسيحية الحقير الى الله المعلم يوسف كانون اغفر لهو يارب » وفي هذا الجزء الاخير من السور كتل كثيرة من الجرانيت منقوش عليها صلبان ذات اشكال مختلفة .[1] وقد درس مسيو بابا ميخالوبولو Papamikhalopoulo في كتابه على دير طورسينا ، الحروف الابجدية اليونانية المنقوشة على بعض أحجار السور الخارجي وعلى سور الكنيسة وبعض الابنية التي داخل السور[2]

والجزء الجنوبي من السور الشمالي الغربي يرجع الى عصر يوستنيانوس ولكن الجزء الشمالي حديث وباب الدخول موجود في هذا السور

فاذا ما وصلت الدير فانك واجد على يسارك قبل الباب العمومي بوابة كبيرة مسدودة تمام الانسداد وتسمى باب الرئيس . وكانت لا تفتح رسمياً الا عند تعيين رئيس اساقفة جديد ولكن لما كانت العادة في هذه المناسبة ان يوزع الدير من المال والملابس ما تبلغ قيمته ألف جنيه مصري تقريباً على شيوخ قبيلتي الجبلية والطوارة الذين هم في خدمة الدير منذ قديم الزمان فقد عدل أولو الامر سنة ١٧٢٢ عن فتح هذا الباب بهدم الحائط الذي يسده

وتجد فوق مدخل الفناء الخارجي للدير كتابتين يونانيتين بحروف عادية بارزة الاولى في ستة أسطر والثانية في ثلاثة اسطر

« جدد هذا الدير المقدس كلهُ ، دير سانت كاترين ، المحترم الامجد المطران كيريلوس من القسطنطينية سبتمبر سنة ١٨٦١ »

---

(١) قارن ما جاء في كتاب رابينو Rabino الآنف الذكر وشكل ١
(٢) قارن ما جاء في كتاب بابا ميخالوبولو Papamikhalopuolo ص ١١٥ — ١١٧

بني الباب الحالي في عصر جريجوريوس من زنته Zante أمين المخازن سنة ١٨٦١. ومستوى الفناء الذي يسبق باب الدخول أعلى من مستوى ارض الدير الداخلية . وهذا الفرق ناشىء من النفق الذى بناه الرهبان بالحجر بين الدير والحديقة

***

وهناك باب واطيء يسبقهُ مدخل مسقوف يوصل الى الدير [١]. وفوق هذا الباب كتابة يونانية مونة من ثمانية أسطر بارزة منقوشة على لوح من الرخام طوله ٠٫٢٣ متراً وارتفاعهُ ٠٫٠٤٣ متراً ويرى الخبراء ان هذه الكتابة منقولة عن كتابة قديمة يرجع تاريخها الى إنشاء الدير

والى اليمين قليلاً تجد كتابة عربية في ستة أسطر بالقلم النسخي البارز منقوشة على لوحة من الرخام مقاسها ٠٫٠٤٣ × ٠٫٠٤٣ م وهي ترجمة للكتابة اليونانية السالفة الذكر

أنشأ دير طورسينا وكنيسة جبل المناجاة الفقير لله الراجي عفو مولاه الملك المهذب الروي يوستيانوس تذكاراً له ولزوجته تاوضوره على مرور الزمان حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين . وتم بناؤه بعد ثلاثين سنة من ملكه ونصب له رئيساً إسمهُ ضولاس . جرى ذلك سنة ٦٠٢١ لآدم الموافق لتاريخ السيد المسيح سنة ٥٢٧ » [٢]

ويقول ما يسترمان Meistremann ان هاتين الكتابتين ليستا أقدم من القرن الثاني عشر او الثالث عشر ويبدو لي أنهما أحدث من ذلك بكثير . وإذا فتح الباب إحتجب مدخل النفق الواصل الى الحديقة فباب الدخول القديم مسدود وعلى الجزء الاسفل من السقاطة (المشربيات المعارية) Machicoulis التي تعلو الباب تجد كتابة يونانية ترجمتها : (هذا هو باب الرب فعلى العادلين أن يمروا فيه ، وهو باب الامبراطور يوستنيان المؤسس السامي)

أما المسالك الدائرية في الاسوار فهي إما مهدمة او متخربة وقد فتحت نوافذ صغيرة لانارة خلوات الرهبان أو غرف المسافرين حينما كانت مستندة وملاصقة للأسوار

والدير مكون من عدة مباني بعضها ذو أدوار كثيرة وبعضها مستند الى الاسوار والبعض الآخر موزع في الداخل حول الكنيسة والجامع [٣] توزيعاً لانظام فيه

---

(١) وصورة باب الدخول هذا منشورة في كتاب بابا ميخالوبولو الآنف الذكر ص ١٢٠ وفي كتاب نعوم شقير بك عن تاريخ سينا (طبع في القاهرة سنة ١٩١٦) ص ٢٠٨

(٢) والملاحظ ان التواريخ في هذه الكتابة ليست مضبوطة فان تاريخ انشاء الدير يكتب عادة ٥٢٩ م وهي توافق سنة ٦٠٣٧ من آدم وسنة ٥٢٧ توافق سنة ٦٠٣٥ . وسنة ٦٠٢١ من آدم توافق سنة ٥١٣ م

(٣) وجود هذا الجامع قد فسرناه في المقال الذي نشرناه بمقتطف نوفبر ١٩٣٦ ص ٤٠٥

«هو تيه حقيقي من الحارات والأزقة المموجة التي تعترضها السلمات . وهي إما مكشوفة واما مسقوفة بقبوات مظلمة . وهذه الابنية متصلة باسطح بعضها فوق بعض ومحلاة بالنباتات المعرشة او الزاحفة

«وهنا وهناك أفنية ضيقة رطبة لامجال فيها الا لشجرة وحيدة او صف من الأواني المكسورة أو صناديق البترول فيها بعض الازهار المتفتحة الزكية والسقوف مسطحة ولكن عند كل تجديد تتغلب طريقة التسقيف بالقرميد المتبعة في مرسيليا وهي متنافرة مع الابنية القديمة التي يجلل القدم هامها ويطبعها بطابع من الشاعرية يعجز الانسان عن وصفه» (١)

***

ودخول الدير من باب مصفح بالحديد يوصل الى باب آخر ومنهُ الى ممر الى اليمين محفور في داخل السور ويوصل الى باب ثالث مصفح بالحديد كذلك . ومن هذا الباب يسلك الداخل حارة توصل الى درج صاعد الى الكنيسة والمكتبة على اليمين والجامع والكنيسة على اليسار فاذا سرت حذاء الكنيسة وصلت الى مدخل وممر مسقوف يوصل الى المطبخ وردهة الطعام . وإذا لم تصعد السلم بل ظللت في طريقك فأنك تصل الى بئر ثم الى موضع العليقة المشتعلة Buisson Ardent فاذا سرت محاذياً سور الكنيسة الشمالي فأنك تجد على يمينك حديقة صغيرة والفرن والطاحونة والمعصرة ثم بئر بنات جترو Jethro والمغسل وتكون حينئذ في مستوى الكنيسة فتصعد بدرج الى احد أفنيتها

وإذا سرت وكان الجامع على يسارك فأنك تمر بالخنزيرة (آلة لرفع الاثقال) والمخازن على يمينك وبهو استقبال اعضاء المجمع المقدس على يسارك ثم غرف هؤلاء الاعضاء على يمينك وعندئذٍ يصعد بسلم من الخشب الى شرفة تؤدي الى غرف المطران والمسافرين فاذا مضيت في طريقك وصلت الى المباني الجديدة المشيدة بالاسمنت المسلح وهي تشغل الجزء الجنوبي الغربي كله ولكن اذا دخلت الدير وانحرفت الى اليمين بدلاً من السير رأساً الى الكنيسة فانك تجد مخازن على يمينك وكنيسة سانت اسطفان على يسارك ثم تصل الى المباني الجديدة بالاسمنت المسلح وهي صف من القاعات الكبيرة يتوسطها سلم فاذا حاذيتها وجدت على يمينك مباني قديمة مهدمة والمكتبة القديمة التي يشغلها اليوم احد الرهبان حتى تصل الى خلوات الرهبان

[نقله الى العربيه : محمد وهبي افندي احد خريجي معهد الآثار الاسلامية]

(١) انظر كتاب ما يسترمان Meisterman السابق الذكر ص ١٢٤

العناصر الحيوية

خمسة عشر عنصراً لا يستغني عنها الانسان

الزرنيخ عنصرٌ سامٌّ . يسمّ معظم الاحياء ، ولكن طائفة من المكروبات تستعمله غذاء. بل اغرب من هذا ان طائفة اخرى من المكروبات تحتاج الى عنصر السلينيوم في غذائها . وهو كما يعلم القراء العنصر الذي يتأثر بالضوء فتزيد مقاومته للتيار الكهربائي او تنقص وفقاً لضعف الضوء الواقع عليه او قوته . ثم ان السلينيوم يؤثر تأثيراً ساماً في النبات والحيوان . فقد ثبت ان مناطق معينة في ولايتي وايومنغ وداكوتا ، تحتوي تربتها على عنصر السلينيوم ، فيبدو اثره في الحيوانات والناس الذين يقطنونها . اذ يصابون بضعف النمو . والشيخوخة الباكرة . بل ان اثره يمتد الى ما وراء المناطق نفسها لان الحنطة التي تزرع هناك ، تنقل تأثيره السام الى حيث تباع وتؤكل

فهنا عنصران — الزرنيخ والسلينيوم — هما غذاء لبعض الاحياء ، وسمّ للبعض الآخر . ومن ألغاز الكيمياء الحيوية ، ان بعض الاجسام الحية تكتفي باستعمال بعض العناصر فتجني فائدة من استعمالها ، حالة ان بقية العناصر لا قبل لها بها ولا فائدة لها منها بل قد يكون لوجودها في الجسم الحي فعلٌ ضارٌّ او سامّ . حتى العناصر القريبة بعضها من بعض في الخواص الكيماوية ، لا يمكن أن يحل بعضها محل بعض في الاجسام الحية ، بلا تمييز . فالحديد عنصر حيوي في جسم الانسان . ولكنك لا تستطيع ان تجعل النيكل محله . بل قد تجد عملاً حيوياً واحداً يقوم به عنصر معيَّن في احد الاحياء ، وعنصر آخر في احياء اخرى . فالنحاس في بعض الحيوانات كالكركند او السرطان البحري يفعل فعل الحديد في جسم الانسان . اي انهُ جزءٌ من المادة التي تقوم بعمل التنفس الاساسي ، وهو نقل الاكسجين من عضو التنفس الى خلايا الجسم

ومن غرائب ما يلاحظ ، ان مقادير العناصر في الارض متدرجة وفقاً لحاجة الحياة اليها ؟ فهل هذا مجرد صدفة أو هو تابعٌ لنظام علوي؟ فقوام جسم الانسان يماثل قوام الماء والارض .

وملوحة مياه البحر شبيهة بملوحة دم الجسم ، لذلك تكاد تكون المحلولات التي تحفظ فيها الانساج حيَّة في معامل البحث، قريبة في قوامها من مياه البحار . فيصح بشيء من التجوز ان نقول ان مياه المحيطات القديمة تجري في عروقنا

ومن الاسئلة التي تخطر للباحث في هذا الموضوع : لو كان توزيع العناصر في الارض غير ما هو أكان من المستطاع نشوء الحياة عليها ؟ أكان في استطاعة الاحياء ان تنشأ وترتقي ، لو لم يكن هناك فصفور وكبريت ، وكان محلَّهما زرنيخ وسلينيوم فقط ؟ ان هذا ضرباً من الاسئلة ، يقرُّ علماء الكيمياء الحيوية بعجزهم عن الاجابة عنها . فالغموض لا يزال يكتنف الصلة بين العناصر وأشكال الحياة المتعددة

الاَّ ان البحث بدأ يكشف عن حقائق منوعة كبيرة الشأن تتصل بالعناصر التي تدخل في تركيب الجسم الانساني . ومعظم هذه الحقائق مستخلص من علم التغذية الحديث ، وتطبيق ما يعرف عنهُ في أجسام الحيوانات على جسم الانسان

وبعض نواحي هذه المعارف الجديدة ذو قيمة عملية كبيرة الشأن . فالجحوظ (الغواتر) وهو مرض متوطن في بعض المناطق — كسويسرا مثلاً — تمكن معالجتهُ الآن باضافة مقادير قليلة من عنصر اليود الى ماء الشرب او ملح الطعام . ثم انهُ بفضل هذا العلم الحديث ، علم التغذية ، استطاعت جماعات من الناس في سنوات الازمة الاقتصادية ، ان تتغلَّب على أنواع الامراض المعروفة بأمراض نقص الغذاء . وذلك لعلمهم ما يجب ان يحتوي عليهِ كل غذاء من العناصر الحيوية

فما هي العناصر الأساسية التي لا بدَّ منها في جسم الانسان ؟ هي خمسة عشر عنصراً على الاقل . فاذا أصيبت الارض بحادث كونيّ ، أزال أحد هذه العناصر من الارض وجوّها ، أفضى ذلك الى هلاك الانسان . ان رجال بعض القبائل الافريقية لا يحجمون عن اعطاء مواشيهم وأحياناً زوجاتهم مقابل الصوديوم الذي في ملح الطعام . ونقص اليود في التربة والماء والهواء يحمل الغدد الدرقية عبئاً ثقيلاً فتتضخم ويحصل مرض الجحوظ (الغواتر)

ولما كان الماء نحو ثلثي الجسم الانساني وزناً ، ولما كان معظم ما يتناولهُ من المواد يحتوي على عنصري الماء — اي الايدروجين والاوكسجين — فمقدارهما في الجسم كبير بحكم الطبع . ويليهما عنصرا الكربون والنتروجين ، لان الجزيئات العضوية الكبيرة التي تقوم بأفعال الحياة الاساسية تتركب منهما ، أو هما أصلان لا غنى عنهما من أصولها . ويساعدهما في تركيب هذه الجزيئات العضوية المعقدة عنصرا الفصفور والكبريت — ومن هذه الجزيئات كما تعلم ، جزيئات البروتين — مثل خُضَيْر (هيموغلوبين) الدم وجُبَيْن (كاسيين) اللبن وزلال (البومين) البيض

ثم ان الجسم لا يستغني عن عنصرين معدنيين هما الكلسيوم والمغنيسيوم ، في تكوين العظام

والاسنان ، ثم انهما بالاشتراك مع الصوديوم والبوتاسيوم لازمان للافعال السوية في الاعصاب والدماغ والعضلات ومنها عضل القلب ، وللاحتفاظ بقلوية الدم وملوحته وقلوية سوائل انساج الجسم وملوحتها ، على مستوى مناسب . والواقع ان هذه العناصر الاربعة ، اجزاء نظام معقَّد من التوازن الدقيق . فاذا كثر الصوديوم عما يجب ، وقلَّ الكلسيوم عما يجب ، انبسط عضل القلب ووقف عن الخفقان. أما البوتاسيوم فيفعل فعلاً شبيهاً بفعل الصوديوم والمغنيسيوم يفعل فعلاً شبيهاً بفعل الكلسيوم، ولكن لكل من هذه العناصر عملهُ الخاص به، ولا يمكن ، احلال الصوديوم تماماً محلَّ البوتاسيوم ، ولا المغنيسيوم محلَّ الكلسيوم . فيجب ان تكون جميعها في المقادير اللازمة ، حتى يكون القلب — أو أي عضو او نسيج آخر — سويًّا في قيامه بوظيفته

ثم هناك عنصر الكلور . فهو في ناحية من نواحي فعله ، لا غنى عنهُ لقيام العناصر الاربعة المتقدمة بعملها . ومن أهم وظائفه تعديل شحناتها الكهربائية ، وموازنة تأثيرها . فالكلور يطلق ايونات سالبة الكهربائية . والمعادن الاربعة التي تقدم ذكرها ، اي الصوديوم والمغنيسيوم والبوتاسيوم والكلسيوم ، تطلق ايونات موجبة الكهربائية فتعدّل هذه فعل تلك . ويضاف الى هذا ان الكلور يدخل في تركيب مركبات حيوية ، فهو يتحد بالايدروجين فيتولد الحامض الايدروكلوريك المستعمل في المعدة لهضم المواد البروتينية

أما الحديد ، فعنصر اساسي في تركيب الخير (الهيموغلوبين) وهذه المادة هي ما ينقل الاكسجين في كريات الدم الحمر ، من الرئتين الى خلايا الجسم. ثم انهُ يدخل في تركيب بعض الجزيئات التي تقوم بعمل الاكسدة داخل الخلايا .ويظن انهُ يقوم بدور الوسيط (كتاليست)

هنا اذن اثنا عشر عنصراً هي الايدروجين والاكسجين والنتروجين والكربون والفصفور والكبريت والكلسيوم والمغنيسيوم والبوتاسيوم والصوديوم والكلور والحديد، ومنها يتركب ٩٩ في المائة من جسم الانسان وزناً . ولا تمكن المفاضلة بينها ، لانها جميعاً لازمة للقيام بأعمال الحياة الاساسية في جسم الانسان . فجميعها يجب ان تكون فيه ، وبالمقادير المناسبة كذلك

وهناك ثلاثة عناصر اخرى ، لا يحتاج الجسم الاّ الى مقادير يسيرة جدًّا منها . ولكن وجودها او عدمهُ مع ذلك ، فاصل بين الحياة والموت

فعنصر اليود لا يستغنى عنهُ ،ولا يمكن ان يحلَّ محلَّهُ عنصر آخر، في تركيب مادة الثيروكسين، التي تفرزها الغدة الدرقية . فذراتهُ الداخلة في تركيب جزيء الثيروكسين ، تؤدي نصيبها من العمل في ضبط عمل التمثيل (metabolism) في الجسم، ومدى التفاعلات الكيمياوية الحيوية فيه . فاذا كان ما تفرزهُ الغدة الدرقية من الثيروكسين قليلاً ، ضعف فعل التمثيل في الجسم ، فيميل الى

السمنة المرَضية ، ويبطىء نشاطهُ الذهني الى حدود البلادة . وقد اثبت الطب الحديث ، ان المصابين بمثل هذه الاعراض يصيبون خيراً عظيماً من الحقن بمقادير موافقة من مادة الثيروكسين هذه

اما عنصر المنغنيس ، فكان يظن الى عهد قريب ، ان وجوده في الجسم طارىء ولاشأن لهُ ولكن ثبت اخيراً انهُ لازم لعملية التناسل وانهُ يقوم بعمل الوسيط في بعض التفاعلات الكيماوية داخل الخلايا ، وقد جرّبت تجارب في الجرذان ظهر منها ان معدل الوفاة عالٍ جداً بين صغار الجرذان المولودة من اناث حذف المنغنيس من غذائها او كان مقداره فيه يسيراً جداً

ثم هناك النحاس . وهو عنصر لا تجد منهُ في جسم الانسان الا آثاراً ، ولكنهُ مع ذلك لازم لكي يحسن الجسم استعمال الحديد في تركيب الحُمَيْر (الهيموغلوبين) . ولعل هذا يفسر فائدة جرعات صغيرة من مركبات النحاس في بعض انواع فقر الدم (الانيميا)

ولا يعلم الآن هل يسفر البحث عن عناصر اخرى غير العناصر الخمسة عشر التي تقدم وصفها ويثبت ان الجسم يحتاج اليها ، ولكن من المؤكد انهُ اذا أسفر عن ذلك ، فان المقادير التي يحتاج اليها الجسم منها ، صغيرة جداً

على ان ما تقدم لا يعني ان الجسم لم يكشف فيه اثرٌ للعناصر الاخرى . وانما يعني ان هذه العناصر الخمسة عشر لا غنى عنها اي انها حيوية

فالعمال المعرضون بطبيعة عملهم للتسمم الناشىء عن الصناعات التي يزاولونها ، تجد في اجسامهم مقادير من الكروم او السلينيوم او التلوريوم او الراديوم او غيرها

ومن العناصر التي توجد دائماً في جسم الانسان عنصر الكوبلت ، ولكن الرأي الآن انهُ طارىء وانهُ يلازم شوائب الجسم . الا ان بعض الباحثين ، تقدم في العهد الاخير ، برأي خلاصتهُ ان الكوبلت لا غنى عن تعاونهِ مع النحاس والحديد في تركيب الحُمَيْر ، وانهُ لا بدَّ منهُ لمنع فقر الدم الذي سببهُ قلة الحمير فيه . وقد يكون الكوبلت في الغذاء في شكل لا يسهل تمثيلهُ في الجسم او قد يتعذر ذلك على جسم معين لخواصٍ فسيولوجية ينفرد بها . وثمة فريق من العلماء يرى الآن ان الزنك والزرنيخ لازمان للجسم ، ولكن هذا البحث لا يزال في حاجة الى كثير من التدقيق والتحقيق . ثم هناك عنصر الفلور fluorine فقد كان الرأي قبلاً انهُ حيويٌّ لا يستغنى عنهُ في تركيب ميناء الاسنان . ولكن هذا القول لم يستند الى اساس علمي . ثم ثبت في العهد الاخير ، ان اسنان الناس في مناطق مختلفة في الولايات المتحدة الاميركيةَ ، تصاب ببقع دُكنٍ وثبت كذلك ان سبب هذا الداء وجود مقدارٍ يسير جداً من الفلور في ماء الشرب يبلغ جزءاً في مليون جزء من الماء . وهذا مثال على عنصر كان يظن انهُ حيويٌّ قبلاً فظهر انهُ ضارٌّ

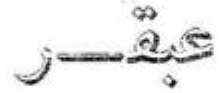
ان هذا المثل الذي ضربناه على تأثير الفلور في تبقّع ميناء الاسنان ، دليل على الصعاب التي يعانيها العلماء في هذا الضرب من البحث ، لصغر المقادير التي يتناولونها في بحوثهم. فالحقائق التي يكتشفونها ، مستخرجة من تجارب ، قاعدتها اعداد طعام مؤلف من مواد معينة بمقادير معروفة ، ومراقبة تأثيرها في الحيوانات ، ولا سيما الجرذان . ولكن تحضير طعام نقي من كل شائبة ، لا يحتوي الاَّ على المواد التي تريدها فيه، ليس بالعمل السهل . ثم ان منع تلوثه بعد تحضيره ، عملٌ شاق ، لان جدران الاوعية قد تكون فيها مواد يتصل أثرها بالطعام . فيشوّش النتائج التي تسفر عنها التجربة . فاذا كان الوعاء من زجاج ، فقد يتصل بالطعام منهُ مقادير يسيرة جدًّا من الصوديوم او البوتاسيوم او الحديد او النحاس او الزنك وفقاً لتركيب الزجاج نفسهِ، بل ان الماء المكرَّر تمتص ذراتهُ أشياء من جدران الاجهزة التي يكرَّر فيها ، ومن الاوعية التي يحفظ فيها . فتلوّث الطعام النقي المعدّ لهذه التجارب ، ليس بالامر الذي يسهل منعهُ مهما تبلغ اساليب البحث من الاتقان ، وانما يستطاع الاقتراب بهِ من النقاء التام . ثم ان الجرذان التي تجرب التجارب عليها يجب ان تحفظ في اقفاص لا تستطيع ان تقضم منها او فيها اشياء تضيف الى اجسامها ما يعطل على الباحث بحثهُ . ويضاف الى هذا ان الحيوانات يجب ان تربّى اجيالاً متوالية ، حتى تكون خاضعة لجميع قواعد الدقة العلمية اللازمة

اما البحث في النباتات فأسهل منهُ في الحيوانات ، وضيق المقام يضطرنا ان نحيل القارىء الى « مباحث جديدة في غذاء النباتات » (مقتطف ابريل ١٩٣٠ ص ٣٩٤) و« عجائب حياة النبات » (مقتطف نوفمبر ١٩٣٣ ص ٢٩٢)

وهذا البحث في العناصر اللازمة للجسم الحي يزداد تعقيداً عندما نذكر ان للعناصر نظائرَ ، اي أشباهاً تحتلُّ مكاناً واحداً من جدول العناصر الدوري والذرّي، ولكنها تختلف من حيث وزن الذرَّة. فالايدروجين العادي وزن ذرتهِ واحد، والدوتيريوم او الايدروجين الثقيل وزن ذرتهِ ٢ والتريتيريوم وزن ذرتهِ ٣ . وكذلك للاكسجين وغيره من العناصر نظائرُ . فهل تأثير النظائر في الجسم شبيه بتأثير العنصر العادي المألوف او هو يختلف ? هل الماء الثقيل ضارٌّ بالانسان ? انهُ ضارٌّ ببعض الحيوانات الدنيا . فما تأثيره في جسم الانسان ? واي نسبة من الايدروجين الثقيل في الماء العادي تتفق ولوازم الجسم الحيّ ، فلا تسمُّهُ ولا تضرُّ بهِ ?

***

هذه بعض المسائل التي تخطر على البال عند البحث في تركيب الجسم من ناحيتهِ الطبيعية الكيمياوية　　(ملخصة عن السينتفك أميركان)



ساعة مع الشاعر شفيق معلوف
عرض وتحليل

لحبيب الزهلاوي

ما أحوج المرء الى ساعة ينزع فيها نفسه من الاعمال ، والى من ينتشله من حماة تتقاتل فيها الجماعات والافراد على الرغيف ، ما أعوزه الى من ينقذ حياته دائمة الاحتراب على المطامع ، دائبة السعي الى إملاء المعدة ، أجل ، ما احوجهُ الى انسان ينبههُ الى عمره المهدور ، وحياته المبذولة الضائعة في أتفه غايات الحياة ، لان النظم التي سنها الملأ للعامة ، والطرائق التي ابتدعها الافراد والجماعات لذواتهم ، انما هي أصفاد وسلاسل حاطوا نفوسهم بها عن جهل وتكالب فاصبحوا كفريق الرمل في حركته قضاء مرتقب والركود في ذاته موت محتوم

لست اعني الموت الطبيعي الذي هو آخر مرحلة في الشقاء ، انما اعني الموت الادبي وهو جهل معاني الجمال وادراك بدائع الفن في مراحل سعادة الحياة

ما أسعدنا اذن بساعة نقضيها بصحبة شاعر يسمعنا همسات الروح الانساني ويرينا صوراً من ملامح الطبيعة ، ويدلنا على ضمائر الجمال ، شاعر ، لا يحقر انتصار القوة المادية على ملايين من المخلوقات تعيش لتأكل وتتناسل . بل يمجد قوته الروحية في ائتلافها الدائم بطائفة لها أرواح وأجساد تنعم بلذاذات الوجود الذي كوّنهُ الله لاناس خلقهم على صورته ومثاله

ان ساعة نقضيها بصحبة شاعر ، بعيد عنا ، قريب من أذهاننا ، تجعلنا متهيئين متنبهين ، يقظة ملكة الذوق ، لادراك المعاني السامية في الشعر ، نتذوقها ونحللها وننقدها على مهل

تختلف ملكة تذوق الشعر ، في ذاتية القارىء ، عن ملكة التحليل المنطقي ، وان كانتا تتساويان — في بعض الاحيان — في ذاتية الناقد ، الذي يجمع في وقت واحد ، بين الاحساس الروحي الذي لا اقيسة له ولا ضوابط ، وبين الوعي العقلي الذي يحدد الاوزان والضوابط الدقيقة

ندر في الشعراء من يدرك المعاني السامية في شعره كما يدركها القارىء الذواقة والناقد الحصيف أما الشاعر الذي يدرك المعاني التي توحيها اليه تصورات عقله الباطن ، يكون تنبه وعيه ، ضارعاً

للقوة الدافعة بهِ الى السبحات في مجالات الروح واجواء الخيال ، فاذا كان قادراً على استلهام بدائع الاشعاعات المتكسرة على اقدام الجمال ، بارعاً في رسم تلك الصور تصويراً يدنيها من الخيالات التي رسخت او علقت في ذهنهِ ، مستطيعاً ان يحوطها بإطار جديد من اوزان مستحدثة واوضاع مبتكرة ، انما يكون واحداً من ثلاثة او خمسة شعراء معاصرين يطيب نصف الحياة معهم ويترك النصف الآخر للمرأة وبقية مطالب الجسد . لذلك اجدني حريصاً على انتزاع قارئي من أوصابه ومتاعبه، كما انتزعت نفسي من مخالب الالم ومطالب الجسد لنفوز معاً بساعة نستمع فيها قصة شاعر

* * *

شفيق معلوف ، شاعر من لبنان ضاقت به بلده زحلة عروس مدن الجبل — ولبنان دائم الضيق بابنائهِ — فارتحل الى اميركا ليعيش في مجال العمل الواسع ، وهو ككل اديب له حياته « الداخلية » التي يحيا بها لذاتهِ ولأدبهِ ، وحياتهُ « الخارجية » التي يحيا بها مع الناس لغرض مادي محدود لا دخل لأدبهِ ونفسهِ بهِ . والأديب الذي تقسرهُ مطالب الرزق الى تنحية حياته الداخلية ، انما هي تضطره الى العيش غريباً مع الناس يمثل ادوار إكتساب رزقه تمثيلاً فاشلاً ، كما تقهره على إخبائها ، فتخبو ، فتكمن لتتفاعل مع ذاتها فتبعث بين الفينة والفينة بعض شرارات كأنها تتناثر من فحمة تحترق ، او تنفجر كانفجار البركان

لبث المعلوف زمناً ينثر شرارات من نفسهِ المحترقة فيها غير البصيص لمان وحرارة ، ولما أعيت نفسهُ البيئة الخرساء ، وتكاثفت عليها اثقال العمل الشاق ، استشعر الغربة تكتنفهُ من كل ناحية ، ولمس الوحشة والنفور من اقرب الناس اليهِ وابعدهم عنهُ ، لما تألبت هذه العوامل وغيرها على نفسهِ ، انفجرت ، وشظايا انفجارات الشعراء أنما هي من دمعة او آهة ، من صرخة او ابتسامة، من طفولة او تمرد . الاّ ان هذا الشاعر الذي تألبت عليهِ الاعمال المادية وكادت تستغرقهُ الارباح وتغرقهُ ، لم ينفجر انفجار البركان بل تفتق ذهنه عن ريادة شيطانية لا تجول في غير ضمير تاجر اميركي مجازف ، يفتش عن معادن الذهب او منابع البترول ! ! ! ولما تمكنت فكرة الريادة في ذهنه ، جمع عدة الشعراء من دموع وآهات وراح يستوحي شيطانه منجماً يستكشفهُ او منبعاً يستنبطهُ او ناحية في مكان مجهول يبيع فيها صرخات او ابتسامات ! ! فهداه الى وادي عبقر ، مباءة الجن ومبعث الخرافات

أليست مباءة الجن كجبل الطور للانبياء او الشعراء ؟ لقد حجَّ الشاعر الى عبقر ، وطوف بكعبته ومناسكه ، ونظم ملحمة سماها « عبقر » والملحمة استخلاص خيال يقظ ، وذهن فطن ونشاط طبع انساني، من تيارات الخرافات وتوجيه موجاتها صوب طبيعة النفس البشرية لتصطدم بالحقيقة او تدنو منها ، وهي تفسير بارع لطبيعة الخرافات التي اكتسبت حقيقتها من الافكار التي تخيلتها وصوَّرتها بصور الواقع

لست في حاجة الى الاشارة الصحيحة الى ميول الشاعر معلوف الشخصية وطوارىء عواطفه ، ولا الى الالهام النفسي وتنبه خياله ، ولا الى جمال الفن وأثره الحسي فيه ، ولا الى الروي والقافية وموسيقى الالفاظ وتموجاتها ، ولا الى التدليل على انهُ شاعر له ذوق وخالجة وفهم وتجربة ، وانهُ موفور الحظ من الطبيعة ، بسيط في تعريف نفسه ومزاجه ، يرينا الطبيعة كما يراها ويعيش فيها وكيف تلوح لعينيهِ وتقع في روعهِ وتتمثل في خياله، لا ، لا افعل ذلك بل اتركه لذوق القارىء ، ولكن لما كان الذوق ذوقين كما يقول الاستاذ عباس محمود العقاد ذوقاً شائعاً يتملى الجمال فتستحسنهُ حين تراهُ معروضاً عليك ، وذوقاً نادراً يبدع الجمال ويضفيهِ على الاشياء ولا يكون قصاراه ان تتملاه حيث تلقاه او تساق اليهِ ، ولما كان ذوق هذا الشاعر خلاقاً ينقل اليك إحساسه بالشيء القديم الموجود بين جميع الناس فاذا بك تحسهُ كأنما تحسهُ لاول مرة لما اودع فيهِ من شعوره وما اضفاه عليهِ من طرافة ، ولما كان ذوقه مستمداً من جمال الجسم وكانت ميوله وثابة اليهِ بشوق ملح ، ولما كان شعره طبيعيًّا لا تكلف فيهِ ولا صقل ولا مهارة في صنعة التعبير لانهُ يؤثر الطبيعة البسيطة التي يفهمها على كدّ الصناعة والزخرفة ، لذلك آثرت استصحاب القارىء نستمع قصة رحلة الشاعر الى عبقر ، نشاهد ونتابع مراحلها مرحلة فرحلة

***

صاح هي اليقظة دبَّت على جفنيَّ فاستلانت الموطئا
وعالجتْ بالنورِ بابيهمـــا حتى استخارت فيهما ملجأ

وانطوى الليل ، وأطلَّ الضحى يرسل دفقات من نور على جفون الشاعر ، دبَّت اليقظة في نفسه فأهابت بهِ الى ترك الكرى ، وانتهاب اللذات ، والاستهزاء من الدهر الهازىء بنا . فيجيبها وقد نفض عن مقلتيه « إغفاءة طارت وحلماً نأى »

ما الفرق في نومي وفي يقظتي وكل ما في يقظاتي رؤى

لان الضحى متى صعَّد انفاسه على سراجه المشتعل فانما يصعّدها ليطفىء نوره فيغدو حاله في النور والظلمة سواء ، اما الآن وقد استيقظت النفس يقظة العين وقد رأت اشعة الضحى مستلقية على صدور الربى ، يعانقها الزهر وتضمها الغمامة — ليست الغمامة البيضاء التي وعد المسيح رسله ان يعود اليهم عليها — انما هي غمامة بدا من تحتها شيطان الشاعر كانهُ « قذفهُ من الثرى ساحر »

في فمه من سقرٍ جذوةٌ منها يطير الشرر الثائر
ووجهه جمجمة راعني أنيابها والمحجرُ الغائر
كأنْ محجرها كوّةٌ يُطل منها الزمن الغابر

يقبل نحو قرينه ، يبدي إطاعته لقضاء اوامره فيسأله « أمن خالق برزت ام من شقوق الثرى »

فقال أني جئت من بقعة خافيـة تدعونهـا عبقـرا
تسوس فيها الجنّ عرافةٌ ترى بزجر الطير ما لا يُرى
ساحرة مطلسم مسحها تطوي بهِ الاجيال والاعصرا

تستطيب نفس الشاعر زيارة عبقر ، وتتوق الى رؤية تلك العرافة التي ولاها الشياطين سياستهم وهؤلاء يوحون الى الشعراء آياتهم فيقوم مع قرينه الى « المجهل الوعر »

وانطلق الشيطان في الجوّ بي كأنهُ النيزك أو أسرعُ

ثم تهاوى الى موضع تبرقعه الغمائم الزرق ، تسطع جدران منازله بالانوار ، وتثور في أبراجه الضجات ، هو ذا البلد المرصود وقد

عزّت على الانس فن حولها أبالسُ الابراج تستطلع
جهاتها الاربع مرصودة تحرسُها الزعازع الاربع
ما أفلت الانسيّ من زعزع الاّ تلقى صدره زعزع

طوّف الشيطان الشاعرَ بالابراج الضخام البناء فرأى العفاريت تدرج كالنمل ، وجيوش أقزام الجن تمتطي للزحف أصناف المطيّات من عظايات وديوك ، وأنم وبرابيع ، مزاريقها نشابات القنفذ وتروسها قحوف السلحفاة ! ثم حلق بهِ وحوّم على عبقر

وحطّ بي فيها فألفيتني أمام شمطاء طواها الكبرْ
ينبعث الدخان من شعرها ويتلظى في مقلتيها الشررْ
كأنما الله لدى بعثها زوّدها بكل ما في سقرْ

« تلف ثعباناً على وسطها » تحفّ بها طوائف الجن متألبين حول مجامر العنبر ، فلما رأت الشاعر انتفضت فأجفل الجن وارفضّوا ، دمدمت العرافة متبرّمة وقد هالها « ان يقلق الارواح مرأى البشر » فقالت

فبالصوت خلتُ لما دوى أن أديم الارض تحتي اقشعرّ
ويكَ يا انسان ألق عصا سحرك
ذعرت فينا الجان فعذ بالشيطـان
من شرّك

تمضي العرافة القرقارة في التهديد والوعيد ، تود لو تطلق على الزائر الغادر ثعبانها ، ولكنني

أخشى على الثعبان من غـدرك
في نابه السمّ كان وصار في صدرك

تتحول الى التقريع والاستهتار

جعلت نفسك أعلى في الارض من ربك

وتمعن في الاتهام والتأنيب ، والسخرية من الفلاسفة والشعراء

تحكون يا شعراء آلهة في السماء
انتم لهنّ ندامى فتنشرون السلاما
ملء الثرى والفضاء
فهات حتى نرى مَ خبأتَ من هولك
يا ابن السلام اذا ما دسنا على ذيلك

استاء الشاعر من ثرثرة العرافة وتقريعها اياه فقال لشيطانه

شيطانَ شعري قم بنا عن هذه الارض وغيلانها
فان خلف الافق لي موطناً ابناؤه تعنى بضيفانها
للنفس في اوطانها حرمةٌ ضائعة في غير اوطانها

يعز على الشيطان غضب قرينه الشاعر فيعمد الى استرضائه ، فيدعوه الى الاصغاء لانشودة اميرة الجن وقد برمت قبائلها بها وحرنَ بأمرها لانها

مُسّت بروح ليس من عبقر غادرها غرقى بيحرانها
لم تُجْدِه رقية عرّافها كلاً ولا حكمة كهانها

والجنية هذه تمعن في وثبها كالمروعة ، حلتها شفافة كبشرتها المشعة ، كأن اضلاعها كوّرت من حلقات النور

إن بسطت ذراعها أحجمت ملتاعة تودُّ إرجاعها
ثم أراها وهي مأخوذة تطوي – على ما لا ارى – باعها
من عالم الاجساد مبلية بنهمة تود اشباعها
لنشوة في نفسها طاردت في ظلمة الادغال أتباعها
تعانق الارواح حتى اذا خابت مضت تحمل أوجاعها

والجنية الفاتنة تغني للشاعر الانسي اغنية الجان

هل انا الاّ ذرة من ضياء هل انا الا زفرة الله قد
صعّدها فوق قباب الجلد فلم تزل لاهبة في الفضاء

وتشكو من عالمها الذي لا يُشبع نهماً فيها ، وهي كلما تخيلت روحاً استلقى على معصمها فتهم تقرب اليه فمها فلا تذوق ولا تضم الاّ العدم بعكس العالم الآخر

متى تلظت شهوة في المهج لم تعدم الاجساد إطفاءها

أما « فنحن بنات الظلال » لسنا « غير خليط من طيوف ضئال كقطيع الغيم اذا بعضنا

تعانق اضمحلَّ في بعضنا » وتمضي المسكينة تنشد شعراً تغصّ الحنجرة في انشاده ، وتتحير الانغام في تصويره ، وتتدفق الحياة من نبراته . وتَلذّع الآلهة بشواظ جمره

مَن لي بحب نوره يبلجْ من شررٍ محتدم في المقلْ
مَن لي بثغر لاهب تفرجْ ثغرتهُ عن شعلات القبلْ
من لي بذي قلب خفوق أجْ في صدره ... وإن يكن يختلجْ
لعاصف الموت اختلاج الشعلْ

تَرِن الجنية المسكينة على نفسها ، ويبلى الأمل في قلبها ، فتهرف كالمحموم فتسأل

ما نفع روحٍ خالد عشت فيهِ ما زلت لم أحضن ولم احتضن

وتنادي كالبائع العيّار في السوق

ياحامل الجسم ألا اعطنيه وخذ إذا شئت خلودي ثمن
روحي لا يبلى فمن يرتضيه أحمل ما في جسمه من شجن
وشاديَ النادي من يشتريه فانني أبيعهُ بالكفن

كفكف الشاعر دمعة غامت على عينيه حزناً على اميرة الجان ، ومضى مع شيطانه فانطلق بهِ الى كهفي رجلي الحكمة شق وسطيح ، ومن اساطير العرب الجاهليين ان سطيحاً كان مخلوقاً لحماً بلا عظام ، يدرج كما يدرج الثوب ، وان شقاً كان شطرٍ انسان اي له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة وانهُ ولد وسطيح في يوم واحد ، وان كلاً منهما كان اشبه بالثاني في الانباء بالغيب ، وان العرب كانوا يعتمدون على هذين العرّافين الحكيمين في تفسير احلامهم ، إلاّ ان الطريق الى الكاهنين وعرة ، مسلكها رهيب وهر ، آهلة بغيلان وجان

بسحنة فاغـــرة شدقها من أنيبٍ محدّدات السنانْ .

ولما انتهيا الى كهفي الكاهنين لقيا الواحد في وسطه « مدية نارٍ غمدها من دخان »

والكاهن الآخر ذو خلقة لم يحبس الخالق فيها أحد
ما الدهـــر إلاّ عبثٌ عنده وليست الاجيال إلاّ بَدَدْ

في باب كاهني عبقر وقف الشاعر يستعطي حكمة يعدّها للغد ليرسلها فوق رؤوس الورى

قد اظلم الشاعر والكاهنين ، وقد اظلم الحكمة نفسها اذا عمدت الى تلخيص هذا الموقف الرائع في قصة الرحلة ، فالحوار ، والحكمة ، واستعراض الحياة ، وجس ادواء المجتمع ، والسخرية من الحكام والاحكام ، والضحك المرّ من حمق الانسان وغبائهِ ، وابتسامة المزؤ من عقله وتصرفاته — اقول اذا حاولت ذلك فكأنما أهدم الدعامة القوية في بناء الملحمة القوية ، وأكون كمن يستشهد على موضوع في كتاب نفيس يكتفي بابراز دفتيه ، وتقليبه في كفيه ، فالخير إذن كل

الخير في تلاوة اناشيد هذا الموقف برمتها في الكتاب . عاج الشاعر عن كهف العرافين ومضى به شيطانه الى غابة الحور حيث طين الاعشاش من فتات المسك

والحور في الاعشاش يملأنها عواري الاجسام شُعث الشعور

فررنَ إذ رأين الشاعر ورحنَ يغمزنه من بعيد، ولكنهنَّ اشباح دفن الهوى فصرنَ ككؤوس وهاجة لاخمر فيها ، إنما الشاعر اللماح ، عاشق الجمال والحب يقف من جمالهنَّ الباهر لا كموقف السكير من زجاجة فارغة ، بل وقفة شاعر يفتنهُ الجمال فيتساءل

هل النهود البيضُ الصقنها من نُتَف الغمام فوق الصدور
والنقط الحمراء في وسطها أهيَ من الفجر بقيات نور
ام بقعٌ منذ عناق الهوى توَّجُ فيها جمرات الثغور

يسأل الشاعر شيطانه أخبار هاته الجنيات الفاتنات فيجيب بان ذاك الذي كان نصب ميزانهُ للعدل كان قد ألقى ببنات الهوى الى النار ، فنزنَ على الابالسة ، أغرى هؤلاء بهنَّ ثعابينهم فأغوينَ الثعابين ، تنكّر الابالسة لهنَّ فرحنَ

يلعنَ في الجمر ويغبينهُ غبًّا ويرشقنَ الشياطينا

ضجَّ سكان جهنم فعجّوا بباب الله يشكون له فتنة بنات الهوى فكان حكمهُ ، ان

زجَّ بهنَّ الله في عبقر يبلو بهنَّ العبقرينا

اجتذب بنات الهوى الشاعرَ العبقري اليهنَّ ، ورحنَ يبثثنهُ شكاياتهنَّ فقلنَ انهنَّ فراشات الصباح متى استفاق الصبح ومدَّ لنا كأسهُ ، يمتطي اليه متون الرياح ، نملأ منهُ كؤوسنا ، نرش بها الازهار العطاش ، وترانا من الضحى الى الاصيل نموج بالخضرة في الاودية نستلقي على صدور الزهر ، بين الشمس تشرق من هودجها علينا نرى اجنحتنا منشورة للهواء ونحن في حضن الزهرة نرتجف ، ويمضين في حديثهنَّ عن الماضي وتقلبه ، واللهو ومجانته في عالم الانسان

ازمنة اللهو انقضى نصفها وصدرنا وسادة للجباه
فان دنت من الشفاه الشفاه نهزها هــزًّا ونشتفها
كشارب الخمرة يدنيها منهُ فكم نزيد من لذته
خضخضة الكاسات في قبضته من قبل ان يمتص ما فيها

الاَّ ان ليل الزمن أطفأ أشعة احداقنا ، وترهلت اجسادنا البضة تحت دوس اقدام عشاقنا ، فمضى جلاسنا عنا ، ونحن

مذ خلع الله علينا المقل زوَّدنا بنظرة ضائعة
وشهوة ملحة جائعــة وبشرة هفافة للقبل

ما ذنبنا نحن ايها الشاعر وقد القي بنا في وسط العاصفة ، وزج بنا في أتون التجارب ، وكون

أجسادنا للاستسلام الواهي فنحن

ثرنا عليهِ حيناً سامنا عسفاً فلم نصبر على عسفه
قد حشد اللذات قدّامنا وجيّش العذاب من خلفه
أفتى بان نقوم في ربقنا بجزية العبد الى ربه
هو الذي اذنب في خلقنا وراح يجزينا على ذنبه

جاز الشاعر غاب الحور واستشرف صحراء منثورة فيها الجماجم والرمم كأنها فضلات موائد الموت ، تهب فيها رياح البلى فتلاشي شعلات الحياة فيسأل شيطانه عما المبعثر في الصحراء التي كأنها مغنية في عباب السبات فيجيب « هذا الذي تلدهُ الامهات »

ذاك رفات الشعراء الذي باتت بهِ عبقر تستأثِر
ينبثُّ في الارض شياطينها لينبشوه حيناً يقبرُ
وكلهم متى يعُدْ حاملاً شاعره تضمه عبقر

يطوف الشاعر حول هيا كلها فتكشر او تضحك ساخرة منهُ ، يعي ارواحاً هوت عليها وتغلغلت فيها لتنهض بها من كبوة الموت ، واذ تعجز عن إنهاضها تأخذ عظامها لتجعل منها قيثارات للموسيقيين ! يعود فيسأل الارواح والرمم عن الوجوه التي كانت صباحاً ، والبسمات زاهيات ، والعيون ساهرات

وعن الحب حين انقضى عيده ظلَّ يدوي في الدجى عوده
ام ماتت الطير فمات على مناقر الطير اغاريده ؟

فتصيح بهِ العظام: عشنا مع الناس دهرا نحلم بالشباب
واليومِ والعمرُ مرَّا وضمّنا التراب
نعيشُ فيهم بذكرى أحلامنا العذاب

فيسأل ماهي احلامكم : أحلامنا نحن فقل للالى شادوا لنا الانصاب إكبارا
احلامنا كنا لطافاً فلا تصيروا الاحلام أحجارا
قل للأُلى يزخرف اللحود إزميل حفارهم
أرواحنا تبني قباب الخلود بغير أحجارهم
وتحدج الوجود بغير أبصارهم

الست ترى ايها القارىء في هذه القصيدة ملحمة بوافر معانيها ؟ اليست مميزات الملحمة انها تبدأ بوضوح يجانبها الوضوح في كل مقاطعها وكامل اجزائها فيربطها بعضها ببعض فيجعلها كتلة واحدة ووحدة منسجمة يتجلى فيها الذوق الفني فتكون كشجرة المشمش في اوائل الربيع ، جمالها في اغصانها العارية ، ثم في الازهار تزيّن بالجمال المكتسي بالفتنة ، جمالاً عارياً فاتناً ، ثم في الاوراق تغطي الثمر الناضج وتكشف البسر لاشعة الشمس ! !

ان الصفات التي جعلت لهذه العلوائية — على حد تعريف الآنسة « مي » شفاها الله للتمييز بين العلوائية والملحمة — ميزة انفردت بها ، هي رغبة النفس في تصور جمال الفن في مكان مهجور توهم الناس خلوه منهُ ، والمهارة في تأدية المعنى ، بتراكيب بسيطة ، والفاظ بعيدة عن الابهام ، والبراعة في التعبير عن التجربة والابانة عن القصد ، والمقدرة على الانتقال برشاقة وتقدير مسافات المراحل والابعاد ، والتصوير بوضوح ، وجمع المشاهد وربطها ، وبالجملة توسله بالفن للصلة بين روحه وروح القارىء ، وللترفيه عن نزعات نفسه الحائرة ، المتضاربة المتشابكة ، المتشعبة القلقة

لقد اصطفى الشاعر شفيق المعلوف موضوع « عبقر » ليكون مادة لفن هذه الملحمة فقد احسن الاختيار ، وتخيل فأجاد التخيل ، وقد انتشل موضوعه إنتشالاً من ذلك الوادي المزعوم واستطاع ان يخلق له جوّاً خاصّاً ، له سماوات فصول السنة في البلاد السورية تشعر المرء بانضباطها وبتقلباتها في الشتاء والربيع والصيف والخريف ، ولقد نجح في تطويع الالفاظ المناسبة لموضوعه — الاَّ بعضها — الجامعة لخاصة الشدة والتأثير ان بالرمز والتوضيح او بالوسائل البيانية او الايحائية تستثير خيال القارىء ليقوى به على مجاراة الخيالات الحادة وسبحاتها البعيدة والالهامات التي حلّت في ذهن الشاعر المبتدع . بهذه المزايا استطاع الشاعر المعلوف ان ينفذ الى احساس القارىء فجعله يشاركهُ في فهم معاني الجمال المستترة والبادية ، الظاهرة والخافية واستيعابها وتذوقها

كنت اود لو يتسع المجال لاثبات بعض ما يعن لي في صدد الفاظ وتشابيه شعرت فيها بما يصدم الحس الشعري واصف بعض حالات نفسية تلابس الشاعر حين النظم ، لأن ملحمة كهذه مفروض أنها نظمت في اوقات متباعدة وفي حالات نفسية خاصية ، لا تخلو من بعض هنات يدركها الناقد الدقيق الحس ولكن في القصيدة ما يلزمهُ على الاعتراف بمقدرته على تكييف نفسه وتهيئة ذهنه للانسجام من جديد في موضوعه والانسياق مع الالهام الروحي الرابط لجميع اجزائها

قلت في معرض الكلام ان لكل اديب حياته « الداخلية » التي يحيا بها لنفسه ولادبه وهو بها غريب عن الناس ، وقد ادنو من الحقيقة فألمسها اذا قررت ان ثلاثة من شعراء العصر هم الغرباء حتى بين ادباء هذا الجيل ، ولعلَّ ناظم علوائية « شيطان » امعن في غربته من ناظم علوائية « الطلاسم » وان ناظم ملحمة « عبقر » ادنى الى الاستئناس ببعض الطبقات ، وان لابد للمتوقل في درج هؤلاء الشعراء ان يرتفع كثيراً حتى يبلغ « عبقر » وينطوي على نفسه كثيراً حتى يعي « الطلاسم » ويتحرر ويتمرد ويتعب كثيراً حتى يدرك طلائع روح « شيطان » واحسب ان شعور المتأدبين باستغرابهم شعور الشاعر المجدد وسليقته المبدعة انما هو دليل على تأصله في حياته الادبية الغريبة عنهم ، وقدرته على خلق ما لا قبل لهم بإلفه والاستئناس به

ما اسعد الشاعر الموهوب ، بل ما أسعدهُ وأشقاهُ ، وما اسعدنا بساعة نقضيها بصحبة عبقري

فالارض ان كانت جحيماً لهُ وكان فيها تهنأ الارضُ



رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

— ٥ —

« عالم الحيوان » وعالم الحيوان يبدي في اليمن كثرةً وروعةً غريبتين . فالجبال تحتوي على افراد قليلة من الضباع والذئاب ، وعلى اسراب كثيرة من القرود . وفيها كثير من الحشرات والهوام المؤذية كالافاعي والعقارب والرتيلاوات السامة والبق . وفي تهامة اسراب كثيرة من الغزلان السارحة . واسم القرد في اليمن (رباح) . على حين ان هذه الكلمة في اللغة تطلق على القرد الضخم [1] . وللقرود في اليمن الوان عديدة . فمنها الاسود والاصفر والاحمر. وهي تسرح وتمرح مجتمعة بحيث لا يقل عدد السرب عن العشرات واحياناً عن المئات. وهي تعيش في المناطق ذات المياه ، فتسطو على الزروع والبقول وتتلفها ، ولكل سرب رئيس كبير الجثة يحكم في سربه حكم القائد في جيشه . ولما كان القرود جبناء وشديدي الاحساس يسيرون بحذر وانتباه كالجند المتخذ وسائل الحيطة في ارض معادية ، فانهم يضعون لكل سرب قرداً او قردين في الطليعة والساقة والجناحين الايمن والايسر . فاذا ظهر امام السرب السائر مانع ما في احدى الجهات المذكورة يصيح القرد الموظف في تلك الجهة ليقف السرب كله ويصغي الى مصدر الصوت . فاذا صاح القرد الموظف صيحة ثانية ينطلق السرب بسرعة منهزماً نحو الجهة المقابلة الامينة . وعند الهزيمة يمتطي الصغار ظهور امهاتهم أو يتعلقوا حول بطونهن . والقرود قلما تتعرض للانسان ، ما لم يستفزها فترشقهُ حينئذ بالحجارة او بما يماثلها

---

(١) في معجم الحيوان لامين المعلوف ص ١٧ « ان هذه اللفظة من أصل سامي بمعنى رب او سيد ، لانهم كانوا يعظمون القرد في اليمن كما كان يفعله قدماء المصريين »

اما الطيور الكواسر كالنسر والعقاب والصقر والحدأة والرخمة وغير الكواسر كالغراب والحمام والقمري والعصفور والشحرور والبلبل والهدهد والحجل والقنبرة والشقراق وغيرها فحدث ولا حرج من كثرة انواعها واجناسها واختلاف اشكالها والوانها واصواتها وغرابة طيرانها حول المساكن وفوق الرؤوس بلا وجل ويعزى ذلك الى كراهة صيد الطير لدى اليمانيين ارباب المذهب الزيدي

﴿ الاديان ﴾ الدين العام في اليمن هو الاسلام ومسلموه اما شيعة من اتباع مذهب زيد بن علي بن الحسين بن علي الذين يقولون بوجوب الامامة وتعينها في احد ابناء بيت النبوة الحائز على الشروط الآتية ، ان يكون ذكراً حراً مجتهداً علوياً فاطمياً عادلاً سخياً ورعاً سليم العقل سليم الاطراف صاحب رأي مدبراً مقداماً فارساً . واما سنية من اتباع مذهب محمد بن ادريس الشافعي الذين لا يقولون بحصر الامامة في آل البيت. وجميع سكان جبال اليمن الاعلى زيدية ، كما ان كل سكان جبال اليمن الاسفل والتهائم شافعية . والزيدية يؤلفون ثلث سكان اليمن بينما الشافعية يؤلفون الثلثين . لكن السيطرة في يومنا بيد الزيدية كما كانت ايضاً في اكثر العصور الماضية . وقد تقدم القول عن الفروق الملحوظة بين اتباع المذهبين من نواحي الاخلاق والعادات والحالات السياسية والادارية. وثمة في جبال قضاء حراز قليل من الاسماعيلية اتباع داعي الدعاة (سلطان البهرة) في الهند ويسمونهم مكرميين وفي الهند بهرة . وهم غير الاسماعيلية الذين يؤلهون آغا خان الزعيم الهندي المعروف والبهود يؤلفون عشر سكان اليمن ، وهم منتشرون في اكثر مدن اليمن وقراه ، يقيمون وحدهم في احياء منعزلة ويؤدون جزية ضئيلة لا تتجاوز الريالين لقاء امن واطمئنان لا يرون نظيرهما في اي قطر آخر وهم مكلفون إرخاء العارضين ولبس ازياء خاصة ذات لون اسود او ما يماثله وعدم ركب الخيل وتقلد السلاح . وذلك لكي يميزوا عن المسلمين ولا يخل احد باطمئنانهم . وعلى الرغم من مظهرهم الدال على الخفض والضعة فانهم اهنأ حالاً من المسلمين المنكوبين بالبؤس والمحول. فمعظم الصناعات في اليمن في ايدي اليهود وكذا معظم التجارة وكل الصيرفة ؛ فهم الحاكمون في الحركة الاقتصادية

﴿ الطبقات ﴾ كيفما جال الغريب في بلاد اليمن يشاهد اساليب الحياة وتقاليد المعيشة والاطوار والافكار ما تزال على ما كانت عليه قبل بضعة قرون منها ان اليمانيين ما زالوا ينقسمون كما كانوا في عهود اجدادهم الغابرين الى طبقات عدة هي السادة والفقهاء والقضاة والنقباء والمشائخ والعقال والقبيليين فهؤلاء علية القوم والمنظورين فيه . ويلي هؤلاء العوام وارباب الحرف كالحداد والنجار والجزار والبناء والمزين والحامي والنشاط والدوشان والمقهوي والرعوي وعيال السوق . . . وأمثالهم المعدودون من الحثارة في المجتمع اليماني

﴿ السادة ﴾ لا تطلق كلمة السيد في اليمن إلا على المنتسبين لآل بيت الرسول (صلعم) ولا

يجوز استعمالها لغيرهم . والسادة في اليمن كثيرون ، تجدهم اينما ذهبت ، اسرهم معروفة وانسابهم محفوظة . وهم اسمى طبقات اليمن واوفرها احتراماً واعزازاً . وهم القابضون على عنان العقائد والميول والمسيرون للآراء والنزعات . وإذا صادف اليماني رفيعاً كان ام وضيعاً واحداً من هؤلاء السادة وإن صغر سنه ورق حاله يهوي على ركبتيه ويديه بالتقبيل . واذا ما القى أحد هؤلاء السادة خطبة في مسجد او حادث جمعاً في منزل أو اذاع نشرة في البلاد يدعو لزعامته او نصرته لا بد ان يشرع بالفخر والتمدح، وانهُ من آل بيت الرسول المخصوصين بالتقديم والتكريم وقرناء الذكر الحكيم الذين ورد في وجوب محبتهم والتعلق باذيالهم كذا وكذا من الآيات والاحاديث، كما يذكر مثلها في فضائل اليمن واهل اليمن، واشهرها حديث (الايمان يماني والحكمة يمانية). وكل الامارات والعمالات الرفيعة والمقامات والوظائف الدارة في اليمن هي للسادة بادىء ذي بدء مهما قلت معرفتهم وكفاءتهم وكل صدقات الفطر والهدايا والنذور الدينية في الاعياد والمواسم وغيرها من الاوقات تجبى لهم مهما كثر مالهم وسعد حالهم . فتأمل بعد هـذه الوجاهة والسيطرة الروحيتين الفائقتين كم يؤثر هؤلاء السادة في انهاض الشعب اليماني البائس الذي ركبوا منكبيه منذ احد عشر قرناً لو تهيئت لهم شروط ذلك الانهاض من علم نافع وشعور قوي او وطني . والقاعدة عند السادة ان يصاهر بعضهم بعضاً . فالسيد لا يرغب في زواج ابنته الا من سيد . ولا يصبو ابن السيد للاقتران الا من « شريفة » وهو لقب بنات السادات وقد يقترن السيد بينت غير شريفة ويكون ولده منها سيداً ، ولـكن الشريفة اذا اقترنت بغير سيد لا يكون ولدها منهُ سيداً

***

(الفقهاء) هم شيوخ الدين المتضلعون والمشتغلون بالفقه وغيره من العلوم الشرعية الاسلامية ويكونون من غير السادة. وللفقهاء ايضاً في نظر الشعب اليماني احترام يقرب لما للسادة وماذكرناه عن اولئك يشمل هؤلاء ايضاً في الجملة. (القضاة) هم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين في دوائر الحكومة اليمانية من غير السادة . (النقباء) هم اعقاب حكام بعض البـلاد فيما مضى الذين دالت دولتهم فانتقلت املاكهم الى بيت المال ، ولهؤلاء ايضاً قدر معروف (المشائخ) هم عمد القرى والاحياء وذوو الحول والطول فيها . والمشيخة تنتقل بالوراثة من الاباء الى الابناء (العقال) طبقة توازي المشائخ بالقدر والنفوذ . وقد يكون السيد والشيخ عاقلاً .(القبيليون). القبيلي هو المعروف بالقروي او الفلاح في عامة الاقطار العربية . وقد دعي بذلك لان قروي اليمن وفلاحيه ما برحوا محتفظين بانسابهم واجتماعهم على هيئة قبائل وبطون وافخاذ. فهناك همدان وسنحان وعنس وحاشد وبكيل وارحب ونهم وبلحرث وغيرها من القبائل العربية القحطانية المعروفة من قبل الاسلام لا تزال هي والفروع العديدة التي تشعبت منها في العصور المتوسطة والاخيرة وتسمت باسماء شتى

كذي محمد وذي حسين وبني جبر وبني بهلول وبني الحارث والحدا وغيرها موجودة في اليمن على الحالة والفطرة اللتين تركها اجدادهم . فالقبيليون هم جمهرة الشعب اليماني ودعماؤه وخدام زرعه وضرعه وجنود سادته وحكامه وحملة دواعي بؤسه وشقائه، يرهب جانبهم ويقام لهم وزن لانهم كانوا وما برحوا اتباع الناعقين واعوان الواثبين والخارجين

وقبيلو اليمن ليسوا من الاعراب الرحل سكان بيوت الشعر المعروفين في بقية الاقطار العربية ، حتى ان اليمن يكاد لا يعرف لهؤلاء اثراً لفقدان البراري والصحاري الصالحة لسرح الابل والنجع والحل والترحال بل هم من المتعلقين بمزارعهم ومحارثهم والقاطنين في قرى ودور حجرية في الجبال او في عرائش واكواخ من الشجر والقش في التهائم . والقبائل في تهامة وفي الجبال كانوا وما برحوا تحت نفوذ زعمائهم والغالبين على أمرهم ينقادون لهم انقياداً أعمى وأول عنصر الزعامة في القرى يبدأ بالعقال والمشائخ . فكل من هؤلاء في قريته صاحب الزعامة الزمنية والقابض على زمام الآراء والحقوق . وينقاد هؤلاء الى زعيم كبير يدعونه « شيخ المشائخ » يسيطر على قرى عديدة تختلف قلتها وكثرتها بحسب قوته . ثم ان كلاً من هؤلاء ينقاد الى الرئيس الاكبر الذي بيده أمر القبيلة كلها . اما الزعامة الروحية والسيطرة العليا الزمنية الادارية والمالية والسياسية فهي بيد الائمة الذين لم ينقطع تعاقبهم منذ أواخر القرن الثالث الهجري رغم الدول التي تداولت الحكم في اليمن . والامامة قد لا تبقى في يد سيد واحد بل ينازعه فيها غيره احياناً من الحائزين على الشروط الاربعة عشر . ونفوذ الائمة وسيطرتهم هائل جداً . فالامام بحسب المذهب الزيدي رئيس ديني واميرالمؤمنين وخليفة المسلمين . وقد غالى الائمة في فرض طاعتهم وتقديسهم ورووا احاديث ووضعوا دساتير قاسية جداً . فالصبي اليماني اول ما يتعلمه في الكتاب ان (طاعة الامام من طاعة الله ومعصية الامام من معصية الله) وان (لا يد فوق يد الامام) وان (ليس للرعية إلاّ ما طابت به نفس الامام)، وغير ذلك من الاقوال الكامة للافواه والقاطعة لنياط القلوب مهما اساء الائمة واخطأوا بصفهم بشر على كل حال

الالقاب — ومن غرائب اليمن ان الالقاب الفخمة التي كانت تستعمل في عصور انحطاط دول الاسلام ما زال لها في اليمن حكم قائم لا يحيدون عنها في تراسلهم ومخاطبهم . فكل سيد او قاضي علاّمة وكل فقيه فهامة وكل من كان ابناً للامام فهو سيف الاسلام ، وهذا لقب لا ينازع ابناء الامام فيه احد . وكل من كان اسمهُ احمد فهو صفي الاسلام وينادونهُ يا الصفي ، ومن كان اسمهُ محمداً فهو عز الاسلام وينادونهُ يا المعزي ومن كان اسمهُ علياً فهو جمال الاسلام وينادونهُ يا الجمالي . . وهكذا يا الفخري ويا الشرفي .... الخ

يوميات دولية

١ — العامل الاقتصادي في الحربين

بين الحرب الاهلية في اسبانيا والقتال الناشب في شرق آسيا بين اليابان والصين وجوه من الشبه على بعد الدار واختلاف اللون وتباين الحضارة . ذلك ان العامل الاقتصادي اعظم شأناً في توجيه الحربين من اي عامل آخر . فارتقاء الصناعة في هذا العصر واعتماد الامم على منتجاتها جعل للمواد الخام اكبر شأن في حياة الامم وفي توجيه مقدراتها . فاليابان المشتبكة مع الصين في قتال عنيف مدفوعة الى ذلك قسراً بهذه الحاجة الملحة التي لا قبل لها بالتعامي عنها . لان اليابان وقد اصبحت في مقدمة الامم الصناعية في هذا العصر لا تستغني ، في سبيل اطراد نموها القومي ورفع مستوى معيشة اهلها او الاحتفاظ بمستواهم الحالي ، عن امرين اثنين اولهما موارد المواد الخام وثانيهما اسواق لبيع منتجات مصانعها

اما وبلادها مزدحمة بالسكان وليس لها من مصادر المواد المطلوبة الا اليسير فلا بد لها من ان تطلبها حيث تجدها . ولكنها والعالم الحديث موسوم بسمة النضال الدائم تفضل ان تكون هذه الموارد حيث لا تقطع الحرب صلتها بها . وفي بر آسيا الشرقية ولاسيما ولايات الصين الشمالية الى الجنوب من منشوكو ، خير حل لهذه المعضلة ، في رأيها

فاليابان الصناعية تحتاج الى الحديد والفحم والبترول والقطن والصوف وغيرها وامامها في مغوليا الداخلية في شاهار وسويان مصادر غنية بالحديد وفي شانسي وشنسي وهوبي مصادر غنية بالفحم والبترول وفي سهول الصين الشمالية متسع لزراعة القطن وفي مغوليا الخارجية مراع تصلح لتربية الغنم في سبيل صوفه

ثم ان في الشمال وما يليه من الصين المتوسطة ، اسواقاً واسعة النطاق لبيع منتجاتها وجميع هذه لا يفصلها عن اليابان الا بحر لا يسع دولة من الدول ان تنازعها السيطرة عليه

فاليابان مدفوعة بدافع الحاجة الاقتصادية القاسرة الى التوسع الاقتصادي على البر الآسيوي اما بالتعاون مع الصين وهو ما تفضل واما باكراه الصين عليه وهو ما لجأت اليه

أما فعل العامل الاقتصادي في الحرب الاهلية الاسبانية فيختلف عن فعله في النزاع الصيني

الياباني . ذلك ان الحرب الاهلية الاسبانية نشأت عن بواعث اجتماعية وسياسية خاصة بالبلاد نفسها ولكنها ما كادت تقوم فيها حتى ثبت ان العامل الاقتصادي سيكون ذا شأن كبير في توجيهها

ذلك ان أسبانيا غنية بالمعادن المختلفة من المعادن التي يستهلك منها كل سنة مقادير كبيرة كالفحم والحديد والكبريت والرصاص والنحاس الى المعادن التي لا يستهلك منها الا مقادير يسيرة ولكنها مع ذلك مما لا يستغنى عنهُ في الصناعة الحديثة ولا سيما في صناعة الاسلحة كالزنك والتنغستن والقصدير والزئبق والمنغنيس والموليدينوم وغيرها

ولما كان بين الدول الاوربية الكبيرة دول صناعية تحتاج الى هذه المواد الخام لتقوّم بها اود صناعتها وفي مقدمة هذه الدول ايطاليا والمانيا كان لا بدَّ من ان يتصل أثر العامل الاقتصادي في توجيه الحرب الاسبانية بأثر العامل السياسي والايديولوجي

ثم ان الصناعة في أسبانيا لم تبلغ درجة عالية من الرقي والاتقان . ولكن امتلاك المصادر التي تنطوي على هذه المعادن الثمينة أصبح عاملاً حاسماً في سير الاعمال الحربية . ومراجعة أهم الحملات التي تمت في أسبانيا تسفر عن ان الاهداف العسكرية كانت في كثير من الاحيان مناطق غنية بالمناجم . ففي قلب أسبانيا الى الجنوب الغربي والى الشمال من قرطبة مناجم أسبانيا المشهورة بما يستخرج منها من الزئبق . وهذه المناجم ملك للحكومة الاسبانية من عهد بعيد . ولذلك كان هم الجنرال فرانكو ان يستولي عليها وهمُّ الحكومة ان تبذل جهدها في الدفاع عنها وهي لا تزال تابعة لحكومة بلنسية . والحملة الاخيرة التي شنها الجنرال فرانكو على ساحل أسبانيا الشمالي الغربي انما كان الغرض الاول منها الاستيلاء على المنطقة التي تكثر فيها مناجم حديد من أعلى طبقة بين مناجم الحديد في الدنيا . وقد كانت مصانع الانكليز تعتمد على ما تستورده منها أعظم الاعتماد . وهذا على سبيل التمثيل فقط

ولماذا هذا التهالك على تلك المصادر ? لا ريب في ان الجنرال فرانكو لا يستطيع ان يستغلّها الآن ولكن امتلاكها يمكنهُ من ان يعزز مقامهُ المالي من ناحية ويسهل لهُ سبيل الحصول على الاسلحة الحديثة التي يحتاج اليها في مواصلة القتال من ناحية أخرى

والعبرة التي يخرج بها الباحث من دراسة العامل الاقتصادي في الحربين وما جرتاه من مشكلات معقدة تقض مضاجع الساسة وتقلق نفوس الامم ، هي ان التعاون الاقتصادي العالمي على أساس من الانصاف — ان كان في النزاع الانساني سواء أكان اقتصاديًا أم عسكريًا انصاف ما — وحسن النية لا بدَّ منهُ لازالة عوامل الخلاف وبث روح الطمأنينة في نفوس الامم

القاهرة ٧ سبتمبر ١٩٣٧

٢ — من الباب المفتوح الى قانون الحياد

في الانباء التي نقلها الينا البرق من وشنطن أن طائفة من الجمعيات الاميركية الساعية في سبيل السلام تبذل ما في وسعها لحث الحكومة الاميركية على تطبيق قانون الحياد. وإن الرئيس روزفلت صرح في أثناء اجتماعه بالصحافيين ان الحكومة ترقب حالة الشرق الاقصى بعناية وتتبع تحولها يوماً فيوماً. وقد جاء من لندن ان سفر المستر بنجهام السفير الاميركي في لندن فجأة بعد ما اعد امتعته لأجازة يقضيها في اسكتلندا، يعزى الى رغبة الرئيس روزفلت ووزير خارجيته المستر هل في المباحثة معه في احوال الشرق الاقصى وموقف انكلترا منها. وورد من طوكيو ان الحكومة اليابانية معنية أشد العناية بسفر المستر بنجهام وما قد يسفر عنهُ من أمر الاتفاق بين وشنطن ولندن على اتباع خطة مشتركة في حوادث الشرق الاقصى

وهذه الانباء جميعها تدل على ان العناية باستشفاف موقف الولايات المتحدة الاميركية في حوادث الشرق الاقصى عظيمة جدًّا في العواصم الكبيرة التي لها مصالح كبيرة الشأن معلقة في ميزان القتال الدائر هناك. فما موقف وشنطن المحتمل وما هي القواعد التي تقيم الحكومة الاميركية عليها سياستها في شرق آسيا ؟

ان قواعد السياسة الاميركية في الشرق الاقصى مطوية في أربع وثائق تاريخية هي أولاً سياسة الباب المفتوح التي اقترحها وزير خارجيتها جون هاي في خريف سنة ١٨٩٩ على اثر ما شاهدهُ من خطر التنازع على الامتيازات الاقتصادية التي تمنحها حكومة الصين لدول مختلفة. وقاعدة هذه السياسة واضحة من معنى الكلمتين اللتين اتخذتا شعاراً لها — الباب المفتوح — أي تساوي الدول في ما يتاح لها من الفرص الاقتصادية والمالية في تلك البلاد فلا تميز إحداها على الاخرى

وقد ظلت هذه السياسة معمولاً بها حتى سنة ١٩٢٢ مع أن اليابان حاولت في اثناء الحرب الكبرى اذ كانت الدول الاوربية واميركا مشغولة بالقتال ان تستأثر بمكانة ممتازة في تلك البقاع. ولكن لما اجتمع مؤتمر وشنطن البحري سنة ١٩٢٢ بدعوة من الرئيس هاردنغ عقدت فيهِ علاوة على المعاهدة البحرية الخاصة بنسبة البوارج في الاساطيل معاهدة الدول التسع فوقعتها اليابان وانكلترا واميركا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وايطاليا والبرتوغال والصين وقطعت الدول الموقعة عهداً باحترام استقلال الصين ووحدتها والامتناع عن السعي للفوز بامتياز خاص في نطاقها وقطعت الولايات المتحدة في هذه المعاهدة عهداً بألاَّ تهاجم اليابان وذلك لقاء عهد اليابان

باحترام استقلال الصين ووحدتها وقبول انكلترا واليابان الغاء محالفتهما المشهورة

أي أن سياسة الباب المفتوح أودعت طي معاهدة دولية رسمية من بعد ان ظلت نحو ربع قرن تصريحاً بمبدإٍ معين وافقت عليه الدول

فمعاهدة الدول التسع هي القاعدة الثانية التي تقوم عليها سياسة الولايات المتحدة في الشرق الاقصى وقد كفت هذه المعاهدة مدى عشر سنوات تقريباً للمحافظة على السلام في تلك الربوع

ولكن في سنة ١٩٣١ هاجمت اليابان الصين وانتزعت منها منشوريا وأنشأت دولة منشوكو فلاذت الصين بجامعة الامم واستنجدت بموقعي معاهدة الدول التسع وبذلت الولايات المتحدة الاميركية سعياً عظيماً عن طريق وزير خارجيتها المستر ستمسن للاعتراض على هذا العدوان المخالف لمعاهدة دولية . فلما عينت جامعة الامم لجنة لتون لاجراء تحقيق في حوادث منشوريا ووضع تقرير بما اسفر عنهُ التحقيق جاءت النتائج غير ما ترضى عنهُ اليابان فخرجت من الجامعة. لكن الوزير ستمسن لم ينِ خلال ذلك عن السعي فأذاع تسعة احتجاجات مبيناً فيها انتهاك اليابان لمعاهدة الدول التسع وميثاق تحريم الحرب . وأخيراً اصدر في ٧ يناير سنة ١٩٣٢ خطة « عدم الاعتراف » فأخذت بها جامعة الامم وقاعدتها عدم الاعتراف باي تغيير سياسي جغرافي يتم بالاعتداء وما تزال دولة منشوكو غير معترف بها الى الآن

فخطة « عدم الاعتراف » هي القاعدة الثالثة التي تقوم عليها خطة أميركا في الشرق الاقصى

ثم في عهد الرئيس روزفلت وضع قانون الحياد وضعاً سريعاً ليعمل بهِ في النزاع الحبشي الايطالي فلما ظهر قصوره في الحرب الاهلية الاسبانية عدل تعديلاً كبيراً وغرضهُ ان يحول تطبيقه دون انجرار اميركا رغماً عنها الى خوض غمار حرب ناشبة وذلك بتحريم تصدير الاسلحة وطائفة معينة من مواد الحرب الى الفريقين المتنازعين تحريماً مطلقاً وبتحريم تصدير الباقي مما يبتاع في السوق الاميركية الاَّ بعدما يدفع ثمنهُ فوراً وينقل على سفن غير اميركية

فالمسألة الآن هي هذه : ان اليابان في عرف الاميركيين قد انتهكت سياسة الباب المفتوح فعلاً مع تصريحها باحترامها وانتهكت معاهدة الدول التسع فالقتال الدائر بينها وبين الصين حرب رسمية لاينقصها الاَّ مجرد اعلانها — فهل يطبق الرئيس قانون الحياد اولا يطبقهُ ؟ من الواضح ان تطبيق قانون الحياد لهُ ما يعترض عليهِ من الناحيتين المادية والادبية . اما من الناحية المادية فاينلى بهِ اصحاب الاموال المثمرة في الصين واصحاب المتاجر التي تتجر مع الصين واليابان من الخسائر . واما من الناحية الادبية فلأن تطبيقه يمنع عن الصين سلاحاً وعتاداً حربيًّا هي في أشد الحاجة اليه حالة ان اليابان مستغنية عنهُ بما تملكهُ من مصانع السلاح والذخيرة فكان هذا المنع موافقة ضمنية على الاعتداء . اما المطالبون بتطبيقهِ فيقولون ان الخسارة المادية كان

محسوباً حسابها عند وضع القانون وإن تحمل هذه الخسارة اهون من الانسياق بسببها الى الاشتراك في الحرب وإن الحصر البحري الياباني يمنع على كل حال كلّ ما يصدَّر الى الصين

ومن هنا وقوف الحكومة الاميركية موقف المراقب اليقظ ان لم نقل موقف المتردد الحائر[1]

القاهرة ٨ سبتمبر

٣ — جامعة الامم وسلطان القانون

تعقد جامعة الامم دورتها الثامنة عشرة في جو دولي ملبد بالغيوم . ولكنك كيف قلبت النظر في هذه المشكلات الخطيرة التي تواجهها الامم اليوم ترى ان انتهاك حرمة القانون اهمها شأناً وأبعدها خطراً . ولا ريب في ان جامعة الامم التي انشئت لتعزيز سلطان القانون — على قول الرئيس ولسن — لا يسعها ان تتجاهل هذا الاتجاه لانه يصيبها في الصميم

خذ مثلاً على ذلك الحالة في الشرق الاقصى . ليس في التاريخ الحديث « حالة » عقد لضمانها من المواثيق والمعاهدات ما عقد لضمان الحالة في الصين . فسياسة الباب المفتوح ومعاهدة الدول التسع وميثاق تحريم الحرب كل اولئك عهود دولية قطعت ودونت في وثائق رسمية وهدفها الاحتفاظ باستقلال الصين ووحدتها والحيلولة دون تميز دولة على اخرى فيها . والنتيجة ان اليابان تجاهلتها جميعاً فاقتطعت منشوريا وجيهول سنة ١٩٣١ و ١٩٣٣ وها هي الآن في غمار حرب غرضها الاول انتزاع شمال الصين ولا يعلم احد الى اين ينتهي

ومع ذلك كله لم تعلن حرب حتى يعرف للقتال قواعد يجري بمقتضاها وذلك لان الصين لم « تفهم مقاصد اليابان فيجب ان تفهمها » او « ان تؤدَّب حتى تجثو على ركبها »

او خذ الاعتداء على سفير انكلترا في الصين . ليس ثمة من يقول بأن اليابان قصدت الى الاعتداء عليه ولكن الاقوال اليابانية الاولى في هذا الصدد كان مؤداها ان الطيارين اليابانيين ظنوا ان المارشال شان كاي شك في السيارة وان العلم البريطاني كان صغيراً لم يرَ وان القيادة اليابانية لم تنبأ بانتقال السفير البريطاني على تلك الطريق

منتهى الاستهتار بالعرف والقانون !

لان حادثة الاعتداء وقعت بعيداً عن منطقة الاعمال الحربية وعلى طريق صيني لا قوات عسكرية عليه ولا في جواره ولممثل دولة محايدة وهذا في حالة لا تزال من الوجهة القانونية حالة سلم

(١) بعد انقضاء شهر على كتابة هذا الفصل ألقى الرئيس روزفلت خطبته المشهورة منددا بانتهاك القوانين الدولية والمعاهدات ووجوب مكافحة « وباء الاستهتار بالقانون » فمهد ذلك لعقد مؤتمر بروكسل في ٣٠ اكتوبر الحالي

لان حرباً لم تشهر . حتى ولو شهرت الحرب لكان لغير المحاربين من الناس حقوق يعترف بها القانون وترعاها الدول المتحاربة وفي مقدمتها صيانة الارواح وحماية الاملاك في حدود معينة

او انتقل من الشرق الاقصى الى البحر المتوسط وقف قليلاً عند حوادث الاعتداء على السفن التجارية والحربية .فهي انتهاك لحقوق الملاحة والقانون الدولي والمعاهدات القائمة . فبعد سعي دام ستة عشر عاماً قبلت الدول البحرية المادة ٢٢ من معاهدة لندن البحرية وغرضها مستمد مما عانتهُ الدول أثناء الحرب الكبرى من أهوال الغواصات وهو انهُ لا يجوز لغواصة ما في أثناء الحرب ان تغرق سفينة تجارية او تعطلها عن السير الا بعد انذارها وتأمين سلامة ركابها وملاحيها ومستنداتها . واذا كان ذلك متفقاً على مراعاته في الحرب فأحرى به ان يراعى أبان السلام ولا سيما مع سفن دول محايدة تقوم بأعمال التجارة المشروعة

هذا الاستهتار بالقوانين الدولية والآداب الدولية ، ظاهرة خطيرة يتصف بها هذا العصر كما اتصفت بها بعض عصور الانحطاط الماضية،وهي منبع طائفة من المشكلات التي تعانيها الامم ومن العبث ان تعالج بعض هذه المشكلات على حدة اذا لم يصد مد هذا التيار. فكيان الدولة الواحدة لاقوام له الا بهيبة القانون واحترامه احتراماً ناشئاً عن الاقتناع بانهُ لازم لمصلحة الفرد والجماعة اكثر من نشوئه عن خوف العقاب

كان الظن ان جامعة الامم أنشئت لتكون اداة لذلك . فاذا نظرت في دستورها وجدتها من الناحية النظرية وافية بالمرام . ولكن تألبت عليها عوامل متباينة نزعت عنها صفتها العالمية فأبت اميركا الانتظام فيها وخرجت منها اليابان والمانيا وجافتها ايطاليا فأصبحت وكأنها حزب من الدول ازاء حزب آخر. حالة ان مهمتها ان تكون فوق الاحزاب. ونزعت عنها صفة الانصاف وسجية النظر الواقعي في الامور فحال ذلك دون تطبيقها المادة التاسعة عشر من دستورها مثلاً وهي القاضية بالتغير السلمي فنشأت هوة بين المعاهدات كما وضعت الحرب الكبرى من ناحية واحوال الدول التي فرضت عليها من ناحية اخرى فاندفعت هذه الدول وغيرها مستهينة بالقانون في سبيل ما تراه حقاً لها او حاجة ملحة لا غنى لها عنها

وهذا سر اخفاق الجامعة في بعض ما تصدت له فضعفت باخفاقها هيبة القانون الدولي لانها كانت رمزاً له وعنواناً عليه . ولكن بدلاً من ان يؤخذ هذا عذراً لاهمالها يجب ان يكون باعثاً على تجديدها واصلاحها وتعزيز مكانتها الادبية لانه اذا انهارت حرمة القانون الدولي ارتد العالم ان الفوضى . وجامعة الامم على ما يلوح هي الاداة الدولية الوحيدة الآن التي قد تصلح لمنع ذلك

القاهرة ١٣ سبتمبر

٤ — اقبال وهمي او خطر الانتعاش بالتسلح

يتحدث العائدون من اوربا بلهجة المعجب المتحمس عن دلائل الاقبال الاقتصادي والنشاط الصناعي في مختلف البلدان حيث قل العمال المتعطلون عن العمل قلة بادية ووسعت المصانع لكي تتمكن من تلبية الطلبات المنهالة عليها علاوة على اشتغالها ليل نهار وانهُ لولا القلق السياسي المستحوذ على النفوس لكانت اوربا على خير ما تتمنى

ولكننا نقرأ ونحن نصغي لهذه الاحاديث ان الحكومة البريطانية رأت تأليف لجنة لكي تراقب التوسع الصناعي بحيث لا يكون توسعاً شاذاً غير اقتصادي اي حتى لا يكون عبثاً اقتصادياً على اصحابه وعلى البلاد عندما تتم الحكومة البريطانية برنامج الدفاع الذي خصصت له ١٥٠٠ مليون جنيه

هنا المحك . ان مظاهر الاقبال التي يتحدث بها العائدون من اوربا ترتد الى عشرات الملايين من الجنيهات التي تنفق على التسلح كل شهر . وانت لا تستطيع ان تصنع مدفعاً رشاشاً ولا طائرة ولا قنبلة يد بمجرد الرغبة فيها او التوق اليها او وضع قرار بوجوبها . بل عليك ان تنشيء مصنعاً وتستأجر عمالاً وتشتري حديداً ونحاساً وفحماً . ولا تلبث حتى تشرع في مكافأة العمال بالاجور. والعمال يذهبون باجورهم الى الجزار فيبتاعون لحماً والى البقال فيبتاعون شاياً وسكراً والى اللبان فيبتاعون لبناً وزبدة والى المخزن العام فيشترون ملابس واحذية لهم ولزوجاتهم واولادهم

فاذا شرعت في صنع السلاح لامة كبيرة وارصدت له من المال مئات الملايين من الجنيهات فلا تلبث ان ترى المصانع وقد اخذت في الاتساع والدخان متصاعداً من مداخنها ولا تلبث حتى ترى المال الذي تنفقهُ في شراء الحديد والفحم والنحاس وغيرها والذي تدفعهُ اجوراً للعمال قد اخذ يسري في شرايين الحياة الاقتصادية . فترى النشاط وترى مظاهر الاقبال والانتعاش ، ويعود صاحبك من انكلترا فيقول « اقبال عجيب » او من ايطاليا فيقول « ان ايطاليا قد نهضت في عهد موسوليني نهضة صناعية عجيبة فليس فيها عمال معطلون عن العمل » او من اليابان فيقول « ان اليابان تتقدم امم العالم في خروجها من وهدة الازمة المالية » او من المانيا فيقول « لقد محا هتلر آية التعطل عن العمل بعد ان بلغ المتعطلون قبيل عهده خمسة ملايين او ستة »

الى هنا وتنتهي المرحلة الاولى

ولكن هذا الاقبال قائم على نشاط من نوع خاص ولغرض خاص غير مثمر في عرف الاقتصاديين وهو التسلح . فتعم آثاره جميع الصناعات لوفرة الربح منهُ فيحفز أصحابها الى توسيع نطاقها ثم لا يلبث هذا الاقبال حتى يطغى على الاعمال الصناعية التي لا بدَّ منها لا كفاء

حاجات الشعب في أثناء السلم فتهمل رويداً رويداً لان همة الامة بأسرها موجهة الى صنع السلاح ومحصورة فيهِ . فاذا كان الحديد لا يكفي لصنع المدافع والمحاريث ولعب الاطفال معاً فلتهمل صناعة المحاريث واللعب الآن لان هناك ما هو أهم منها. واذا كان التنغستن لا يكفي لاستعماله في صنع أسلاك المصابيح الكهربائية والصلب الخاص الصالح للمدافع فلتصنع أسلاك المصابيح من مادة أخرى . ولو كانت أضعف نوراً وأقصر عمراً . واذا كانت الامة لا تملك اعتمادات مالية في الخارج وافية لشراء النحاس والحديد والفحم وكذلك الحنطة والزبدة فلتنفق الاموال على شراء المواد الاولى وليحزم الناس سيورهم على معدهم مكتفين بمقادير منها أقل من المقادير التي ألفوها

ذلك ان الحديد والنحاس والفحم علاوة على الحاجة اليها في صناعة التسلح أصبحت مواد لا يستغنى عنها لان صناعة التسلح أصبحت أساساً طبيعيًّا للحياة الاقتصادية. فاذا فتر نشاطها ونقص انتاجها ووقفت بعض وحداتها عن العمل أصيبت البلاد بقلق اجتماعي لان ذلك يفضي الى تعطل العمال عن العمل والى نقص المال الساري في عروق الحياة التجارية والى أزمة كالازمة التي ما كدنا نخرج منها . وكذلك نرى مفارقة من أغرب مفارقات الحياة وهي ان أمماً متمتعة بالسلام طامحة الى الطمأنينة أصبحت مرغمة على الاعتماد على الاستعداد للحرب في سبيل الاحتفاظ بحياتها الاقتصادية السوية واجتناب شرور الازمة

وغني عن البيان ان هنا مالاً كان يجب ان ينفق في اعمال التوسع الطبيعي والتثمير المنتج ، ولكنهُ ينفق في توسيع مصانع السلاح وهي على الغالب مصانع متخصصة لا يسهل تحويل آلاتها وعمالها الى اعمال أخرى صناعية الأَّ ببطء وبخسارة كبيرة . فاذا حدث ما جعل خفض انتاج السلاح فرضاً واجباً ظهر لاصحاب هذه المصالح والاموال ان تيارات التجارة العالمية قد مرَّت بهم وتحولت الى غيرهم

والنتيجة واحدة أزمة وتعطل عن العمل واضطراب اجتماعي

هذه هي المأساة التي نجد أمم العالم تعانيها . فقد شرعت حكوماتها في التسلح لكي تضمن وسائل الدفاع عن النفس واندفعت فيهِ ولكنها في توجيهها كل جهدها الى هذا الغرض جعلت استمرار الصناعة الحربية لازماً لوقاية شعوبها من الانهيار الاقتصادي . فهي لا تستطيع ان تمضي أبد الدهر تصنع سلاحاً تكدسهُ او تحله محل السلاح القديم المطروح، ولا هي تستطيع الآن ان توقف صنع السلاح بعد ان أسبغ سمات الاقبال والرخاء على الشعب لئلاَّ يفضي الى أزمة ما صدقت انها بدأت نخرج منها . ولعلها في آخر الامر تدفع بفعل هذا المأزق العاصي الى الارتماء في أحضان الحرب ثم في احضان أزمة يرى لها أول ولا يتصور لها آخر

القاهرة الاثنين ٢٠ سبتمبر

٥ — تسلح بريطانيا والسلام

الاستاذ غوليلمو فريرو مؤرخ ايطالي من فريق الاحرار . لذلك لم يطق المقام في ايطاليا الفاشستية أو هي لم تطقهُ فرحل عنها . وقد جرى على انشاء مقالات في الشؤون الدولية ينظر اليها بعين المؤرخ وينشرها في صحف انكلترا وفرنسا وأميركا احياناً . وآخر مقال لهُ صدر في مجلة السبكتاتور الانكليزية عالج فيه موضوع التسلح البريطاني وتأثيره في مشكلات السياسة العالمية ونحن ناقلون في ما يلي خلاصة هذا الرأي

قال ان برنامج الدفاع البريطاني ينظر اليه في دوائر مختلفة على انه ضمان من ضمانات السلام وانه يوم يتم وتصبح بريطانيا عزيزة الجانب وترى الدول التي تساورها رغبة في الحرب مبلغ القوة البريطانية، تقلع تلك الدول عن هذه الرغبة اقلاع اضطرار ان لم يكن اقلاع اختيار. وقد يكون هذا الرأي صواباً وانما يمكن ان يقال في الوقت نفسه أن برنامج التسلح البريطاني لم يؤثر حتى الآن تأثيراً رادعاً عن الحرب بل تأثيراً حافزاً لها . فهو احد اسباب الحرب الاسبانية الدائرة رحاها من اكثر من سنة وأحد البواعث على الحرب اليابانية الصينية الناشئة من عهد قريب

لماذا اندفعت ايطاليا في النزاع الاسباني ؟ لانهُ انقضى عليها سنة وهي يساورها القلق من تسلح بريطانيا . والحكومة الايطالية ترغب من وراء هذا التأييد للجنرال فرانكو في تعزيز موقفها في غرب البحر المتوسط لتكون مستعدة في حالة نشوب حرب مع بريطانيا متأهبة لها . ولا ريب في انها ظنت ان المشكلة الاسبانية اسهل جدًّا مما هي . وان فوز فرانكو لا يقتضي كل هذا البذل ولا يستغرق كل هذا الوقت ولما يحقق . ثم اصبح من المتعذر عليها أن تنسحب بغير أن تعرض هيبتها للسقوط . وهي الآن مترددة يتنازعها الخوف من بريطانيا والامل في ان لا ترى بريطانيا المشكلة الاسبانية باعثاً كافياً على اتخاذ خطوة حاسمة

ومشكلة اليابان شبيهة بما تقدم . فقد اكد لي قطب كبير في آخر سنة ١٩٣٦ وهو ذو صلة وثيقة بالشرق الاقصى ان حرباً جديدة ستنشب بين الصين واليابان قال : ولا بد أن تغتنم اليابان هذه الفرصة لانفاذ خطتها . انها مقتنعة بان بريطانيا وهي غير متأهبة ستمتنع عن التدخل ولكن اذا مرت سنتان او ثلاث سنوات فقد تلقى منها معارضة او مقاومة فعَّالة

وماذا يعني كل هذا ؟ انهُ يعني ان التسلح سيف ذو حدين . قد تستعمل الاسلحة لضمان

السلام . ولكنها قد تثير الحرب كذلك . فلكي تكون ضماناً للسلام يجب ان تحسن الحكومات المسالمة استعمالها وهو فن صعب . والظاهر ان العالم الغربي اخذ يفقد اصوله . اما ان تقوم حكومة كالحكومة البريطانية وتعلن لاربع انحاء المعمورة انها ستلزم الحذر الآن لانها غير متأهبة ولكن متى تم تأهبها بعد سنتين فعندئذٍ ستظهر للعالم ما تستطيعه، فكأنهُ نداء الى الدول التي تساورها نزعات الاعتداء ان اسرعي واغتنمي الفرصة السانحة قبل ان يتم برنامج التسلح البريطاني. وهذا هو عين ما فعلتهُ ايطاليا واليابان . ولا استغرب ان تقتفي أثرهما دول اخرى. ولا ريب في ان «سنتين» مدة طويلة ولا يبعد ان تشعر بريطانيا في آخرها انها لم تستكمل أهبتها بعد . ومما شجع اليابان على مغامرتها قانون الحياد الاميركي القائم على رغبة اميركا في ان لا تتدخل ولا ان تجر الى خوض اي نزاع خارجي فكأنهُ اغراء للدول الكبيرة والقوية بالصغيرة والضعيفة

وعند الاستاذ فريرو ان العالم تمتع بفترة طويلة من السلام في القرن التاسع عشر لان كل دولة حاولت ان تسيء استعمال سلاحها كانت تجد في وجهها كتلة من الدول المتحالفة عليها فكان ذلك « سلامة مشتركة » حقيقية نظمتها الدول من دون ان تدعوها بذلك الاسم الطنان وقد نجح تطبيقها مدة قرن من الزمان . ولكن بعد الحرب الكبرى رأت الدول أن تنظم هذه السلامة المشتركة تنظيماً علنيًّا رسميًّا قانونيًّا فأنشأت جامعة الأمم على ساحل بحيرة جنيف وجهزتها بسكرتارية وألقت على كاهلها ، فرض حكم القانون على العالم . ولكن كلما اعتدت دولة قوية على دولة ضعيفة امتنعت الجامعة عن تطبيق قواعد « السلامة المشتركة » الجديدة فتركت الصين وشأنها في ١٩٣١ — ١٩٣٢ وكذلك الحبشة واسبانيا والصين مرة أخرى. فخوف المحالفات الذي ضمن السلام قرناً من الزمان اصبح شبحاً مرعباً في جنيف وليس ثمة ما يقوم مقامه

***

والواقع ان اسياد العالم الغربي اطلقوا العنف من عقاله في اثناء الحرب الكبرى ثم عجزوا عن تقييده ثانية . فالعالم على وشك ان يجتاز فترة مضطربة كالفترة التي انقضت بين ١٧٩٧ و ١٨١٤ فتتوالى الحروب بينها هدنٌ قصيرة ليس فيها شيء من الاستقرار وجميعها ترتد الى خوف شامل . فلولا الحبشة لما كانت الحرب الاهلية في اسبانيا ولما كانت الحرب الجديدة في الصين. هو ذا السلسلة وحلقاتها آخذ بعضها برقاب بعض

والعلاج الذي يقترحهُ الاستاذ فريرو هو الاقلال من التحدث بالسلامة المشتركة والاقبال على ممارستها وهذا يقتضي حتماً تعرضاً للمخاطر ولكن لما كان السلام أثمن ما يقنى فلا بد في سبيله من المغامرة

القاهرة ٢٨ سبتمبر ١٩٣٧

٦ — حروب المبدأ

ختم السنيور موسوليني الخطبة التي القاها في برلين يوم الثلاثاء ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٧ بقوله ان اوربا ستكون كلها فاشستية في الغد . وهو تصريح على جانب عظيم من الخطورة ولا سيما اذا قرن باقوال سابقة للزعيم الايطالي وبافعال فرق المتطوعين الايطاليين في الحرب الاهلية الاسبانية

نعم أن السنيور موسوليني لم يقل ان الفاشستية ستفرض على أوربا بقوة السلاح بل انهُ احتاط لذلك بقوله ان «منطق الحوادث سيجعل أوربا فاشستية وهو على الغالب يريد ان ما أدركتهُ ايطاليا الفاشستية والمانيا الوطنية الاشتراكية من تجديد وبعث في نواحي حياتهما القومية وانبثاث روح الوحدة والقوة في جميع طبقاتهما بالقياس الى مايشاهد من التفرق والانقسام والتخاذل في بعض البلدان الاخرى، سيجعل المبدأ الفاشستي مبدأً جديراً بالاعتناق

ولكن ماحدث في اسبانيا قد يحدث في غيرها كتشكوسلوفاكيا . وعندئذٍ لا يستبعد ان تتطوع فصائل الفاشستيين في أي بلاد يقع فيها النضال صدًّا للشيوعية ! وهذا كلهُ يثير موضوع «حرب المبادئ» ويجعلهُ موضوعاً حيويًا يجدر بنا ان نقف عنده قليلاً

لا ريب في ان بعض الشعوب ترى ان بعض المبادئ لها مقام سام في نفوسها حتى لتجدها مستعدة ان تحارب في سبيلها مهما يكن الخراب الناشئ عن الحرب . نعم ان كثيراً من الحروب شبت نيرانها طمعاً في أرض او سلطان ولكن بعضها شن في سبل أخرى . فقد يحارب الانسان في سبيل الدين أو الاستقلال أو الشيوعية او الفاشستية أو الديمقراطية. والحروب الاهلية هي على الغالب حروب مبدأ . ففي القرن السادس عشر الى منتصف القرن السابع عشر بليت أوربا بسلسلة من الحروب كان المذهب الديني مدارها. فالخلاف بين المذهبين البروتستانتي والكاثوليكي بلغ درجة من القوة ، واشتدَّ تمسك كل فريق بعقيدته ومذهبه حتى تنكر كل منهما للمقاومة السلبية واستساغ الحرب والقتال

وبعد سقوط نبوليون في مستهل القرن التاسع عشر نشأت حروب تدور حول خلاف على مبدإٍ آخر . بل ان هذه الحروب نفسها كانت نضالاً بين مبدإٍ قديم ومبدإٍ جديد . اما القديم فكان مبدأ شرعية الملك وان ملوك البلدان مُلاَّكها وان جميع الحكومات يجب ان تشترك في مقاومة الثائرين على هذا المبدأ . أما الجديد فكان مبدأ القومية وان الامم يجب ان تختار شكل الحكومات الذي ترتضيه وان حدود الدول يجب ان تتطابق مع حدود الطبيعية وقد اخذ بسمارك في المانيا وكافور في ايطاليا بهذا المبدأ او الجزء الاخير منهُ ثم عممهُ الرئيس ولسن واذاعهُ في عبارته المشهورة عبارة تقرير المصير

وليس الغرض من هذا الفصل البحث في حسنات هذا المبدأ ومساويهِ . ولا في احتمال نجاحهِ أو ما يقوم من العقبات دون ذلك النجاح . ولكن المشاهد ان هذا الخلاف بين المبدأين كان الباعث على حروب كثيرة في القرن التاسع عشر

ثم طلع كارل ماركس على العالم بنوع جديد من حروب المبدأ ونعني حرب الطبقات . فبدلاً من ان يستحرَّ القتال بين طوائف من الناس لكل منها مذهب ديني غير مذهب الاخرى ، او بين دول بعضها يرعى مبدأ الملك الشرعي المنزل وبعضها يأخذ بسيادة الشعب، قال ماركس بالحرب بين العمال وأصحاب الاموال . وبدكتاتورية العمال الى ان تستتبَّ الجمعية الاشتراكية المثلى . وقد ظل مذهبه هذا طي الكتب ، إذا إستثنينا فترة قصيرة استولى فيها الكوميون على باريس بعد الحرب السبعينية ، ولكن عندما وقع الانقلاب الروسي سنة ١٩١٧ خرجت حرب الطبقات من ثنايا الكتب الى ميدان العالم واصبحت الثورة العالمية ودكتاتورية العمال مبادىء تثير من الحماسة في صدور الآخذين بها والمقاوميها، حتى ليعزى كثير من قلق العالم وغير قليل من حروبهِ في العهد الاخير الى الخلاف على هذا المبدأ

***

ثم هناك النظام الفاشستي والفلسفة الاقتصادية الاجتماعية التي يقوم عليها . واصول هذا النظام لاتختلف كثيراً عن أصول النظام الشيوعي الاَّ في مصدر السلطة المسيطرة . وقد قيل في عهد الفاشستية الاول على لسان مبتدعها انها ليست للتصدير . ولكن الحال تغيرت الآن واصبحت في بعض الاحوال تؤيد في البلدان الخارجية بقوة متطوعيها . ومما يزيد الامر تعقيداً ان المصالح القومية في إيطاليا والمانيا اصبحت مرتبطة بالنظام الفاشستي الوطني الاشتراكي، حالة ان المصالح القومية في انكلترا وفرنسا مثلاً مرتبطة بمقاومة المانيا وايطاليا واذن فهي مرتبطة بمبادىء الاحزاب الدمقراطية . ولا سيما ماكان منها يميل الى اليسار . وكذلك أصبح الدفاع عن المصالح القومية أو السعي الى تحقيقها في الفريقين مختلطاً بمقاومة الدمقراطية اومقاومة الفاشستية حتى لتجد الاشتراكيين مثلاً وهم قوم يرغبون عن الحرب عادةً ، وقد أصبحوا غلاة في الوطنية وفي الاستعداد للحرب لانهم يعتقدون ان ذلك يمكنهم من مكافحة مبدإ لا يستسيغونه ، وحتى كتب مؤرخ أميركي يرأس تحرير اعظم مجلة ربعية دولية (الشؤون الخارجية) رسالة جعل عنوانها « إما نحن وإما هم »

وغني عن البيان ان هذه حالة تنطوي على خطر عظيم على الرغم من التغني بالسلام والرغبة فيهِ والتعاون عليهِ

القاهرة ٣٠ سبتمبر ١٩٣٧

٧ — الطيران الحربي يجري الحضارة

تتوالى الانباء من الشرق الاقصى ناقلة في ثناياها اخبار الويلات والاهوال التي تحدثها جحافل اليابان الجوية في ضربها لمدن الصين الكبيرة كنكين وكانتون وغيرهما ، وتتوالى البرقيات من جنيف وعواصم الدول معربة عما يشعر به رجال السياسة من الامتعاض والاستنكار لقتل السكان الآمنين فيها وهو مخالف للقانون علاوة على خلوه من آثار الشعور الانساني

فهل قولهم « ضمير الانسانية » اصبح قولاً أجوف ؟

لقد أجمع خبراء الطيران الحربي على ان الحرب في الجو ستجعل هدفها العقد العصبية في حياة الامة ، حيث تتركز المصانع وحيث تلتقي خطوط المواصلات وحيث يوزع الضوء والماء ، وحيث يزدحم السكان . فتدمير المصانع والمواصلات ومحطات الكهربائية وخزانات الماء وتقتيل الناس يشل مقاومة الامة فيسعى الشعب الى حمل حكومته على طلب الصلح

وقد تصور بعضهم ان الاساطيل الجوية في الحروب المقبلة ، ستكتفي بمقابلة اساطيل العدو في الجو فتدور المعارك الهائلة التي تخيلها الشاعر الانكليزي تنيسون ووصفها من نحو سبعين سنة في قصيدته المشهورة « لوكسلي هول » . وقال غيرهم ان مهمة الطائرات قد تقتصر على البحث عن مطارات العدو وتدميرها قبل قيام طائراتها منها . ولكن اذا كان الغرض من الحرب شل حركة العدو وكسر شوكة مقاومته فهذا الغرض لا يتحقق الاَّ بتدمير حياة الامة الصناعية او بتدمير قواعدها الرئيسية وبث الذعر والقلق في نفوس السكان الآمنين والاَّ فما زالت المصانع سليمة وما زالت شوكة الشعب قوية فالمقاومة مستمرة الى ما شاء الله

ومن الطبيعي ان تكون العقد الصناعية والمدن الكبيرة اهدافاً يسهل الوصول اليها اكثر مما يسهل الوصول الى المطارات ولذلك اجمع الخبراء الحربيون ولاسيما خبراء الطيران الحربي على ان مهمة الاساطيل الجوية في الحرب القادمة لن تكون تدمير بعضها بعضاً بل تدمير المدن المزدحمة بالسكان والمناطق الحافلة بالمصانع اي ان الغرض الاول الذي يتجه اليه المحارب انما هو الضغط على شعب العدو لحمله على اقناع حكومته بوجوب التسليم وعقد الصلح

وقد ادرك رجال السياسة هذه المخاطر فحاولوا ان يحولوا دون وقوعها باتفاقات دولية عقدوها ووقعوها . فقد عينت لجنة من أقطاب القانون في لاهاي بتوصية من مؤتمر وشنطن البحري (١٩٢٢) فنظرت في موضوع الحرب الجوية فقالت ان اطلاق القنابل من الجو لا يكون شرعيًّا الاَّ اذا كان مسدَّداً الى اهداف عسكرية

ومن بضع سنوات ألقى الارل بلدوين وكان رئيس وزراء انكلترا ، خطبة عرض فيها لهذه المخاطر وصوّرها بصورة تقشعر لها الابدان . فوجّه اليها نقد شديد وزعم ناقدوه أن انتهاك الوعود المغلظة بالامتناع عن ضرب المدن المكشوفة يضمن خذلان المنتهك . وقد عرض الهر هتلر في مشروعه الذي أذاعه بعيد احتلال منطقة الرين في سنة ١٩٣٦ اقتراحاً بمنع اطلاق القنابل من الجو على المواقع المكشوفة ومما يؤسف له ان حوادث السياسة حالت دون النظر في هذا المشروع جملة وتفصيلاً حتى الآن

ومع ما في القوانين من حائل دون ضرب المدن المكشوفة من الجو ، ومع تأكيد الحكومة اليابانية للحكومة البريطانية في ردها على المذكرة الخاصة بجرح السفير البريطاني في الصين بأنها سترسل التعليمات لقواتها لتبذل ما في وسعها لاجتناب تعريض السكان غير المحاربين للخطر ، ومع ما في ضمير الانسانية من استنكار لمثل هذه الاعمال ، لا تزال الجحافل الجوية توالي هجماتها وتقذف بالجحيم من الجو

نعم ان مدينة تنكين فيها بعض أهداف حربية وهو ما تعتذر به اليابان . ولكن الواقع انها مزدحمة الآن كذلك بمئات الالوف من السكان غير المحاربين وان ألوفاً من الناس قتلوا من جراء الحملات الجوية . اما كانتون فليس فيها أهداف حربية وليس لها من ذنب الا انها مدينة كبيرة مزدحمة وضربها يلقي الذعر في السكان ويساعد على تحطيم مشيئة المقاومة

ان المخترعات الحديثة سلاح ذو حدين . فاذا أحسنت استعمال المفرقعات شققت بها الترع والانفاق وفتحت المناجم واذا أسأت استعمالها دمرت بها المدن وما فيها من مساكن ومعاهد ومتاحف . والطائرات اذا احسنت استعمالها قربت بها بين البلدان نقلاً للركاب والبريد وبعض البضائع الغالية النفيسة واذا أسأت استعمالها قتلت بقنابلها الابرياء ودمرت صروح العمران

فالحرب الجوية تحدٍّ يوجهه النازعون الى الاعتداء ، الى الحضارة ، الى الانسانية !

ان مصير جرنيكا بأسبانيا وتنكين وكانتون بالصين قد يكون قبل عهد طويل مصير أية مدينة من هذه المدن الزاهرة التي يحج اليها طلبة العلم والفن والراحة والتسلية والعمل . فكيف تواجه الحضارة هذا التحدي وما ينطوي عليه من خطر ؟

الجواب سهل حبراً على ورق وهو صون القوانين العهود الدولية بردع من يعتدي عليها ولكن . . . !

القاهرة ١١ اكتوبر ١٩٣٧

٨ — جامعة الامم ونشوء السلام

انقضت امس ثلاثة أسابيع منذ بدأت جامعة الامم دورتها الحالية ، قرأنا في خلالها خطباً كثيرة تليت فيها ولكننا لم نر عملاً حاسماً في مشكلة من المشكلات الكبيرة التي عرضت عليها فلا هي فصلت في مسألة الحبشة وايطاليا ، ولا تناولت مشكلتي اسبانيا والشرق الاقصى وفقاً للقواعد المنطوية في دستورها

وليس ثمة من يستغرب عجزها. فالعالم على ما يظهر لم يبلغ بعد دوراً من النشوء الاجتماعي تقبل فيه الدول ان تخضع لسلطة عليا خضوع الافراد في دولة ما للحكومة ممثلة في المحاكم والبوليس

والواقع ان نشوء السلام في الجماعة الواحدة اجتاز منذ فجر التاريخ اربع مراحل كانت أولاها في عهد الهمجية البدائية عندما كان المرء يهاجم ويقتل من دون ما يردعه رادع فكانت الحرب مزمنة في ذلك العهد . ثم عند ما تألفت الجماعة في المرحلة الثانية خطت الانسانية خطوة كبيرة نحو السلام . فقد ادركت الجماعة ان سرها منطو في معنى التعاون وانها لم تجتمع الا لكي تتعاون في سبيل تحقيق غرض خاص كالزراعة أو الدفاع . واذن فالنزاع الشخصي يجب ان يحدّ من أمره ، وان يزول اذا امكن ، لكي تتمكن تلك الجماعة من الحياة . ولكن الجماعة ظلت مدة طويلة اضعف من ان تستطيع تغليب السلام على النزاع كل التغليب

وفي المرحلة الثالثة انشأت الجماعة ضرباً من العقاب ليحل محل الانتقام الخاص . وفي كثير من القوانين البدائية كان يحق للمحاكم (بالفتح) ان يختار بين قبول العقاب والانتقام لنفسه فكان الناس في تلك المرحلة سلموا بنظام من التحكيم الاختياري . ثم عقب ذلك المرحلة الرابعة وفيها قضت الحكومة على الحروب الخاصة بين الافراد (حتى المبارزة منعت في أكثر البلدان) واصبحت السيادة العليا للحكومة ممثلة في محاكمها وبوليسها وجيشها . وهذا لا يمنع ان يقوم مجرمون وسفاحون ولكن الحكومة تفوز بهم على الغالب مهما تستفحل شرورهم وتعاقبهم العقاب الواجب

وإذا كانت الامم تتبع هذه المراحل في سيرها نحو السلام العالمي فأينا منها ؟

كنا قبيل الحرب الكبرى قد بلغنا المرحلة الثالثة عندما كان التحكيم ذا شأن غير يسير في النزاعات الدولية فسوّيت عشرات من القضايا الدولية بالتحكيم الخاص او بالتحكيم عن طريق محكمة الهاي الدولية وكان كل منها كافياً لنشوب حرب بين الفريقين المتنازعين

ثم نشبت الحرب فقيل انها حرب للقضاء على الحرب وفي ختامها انشئت جامعة الامم لتكون بمنزلة الحكومة في الدولة تضمن العدل وتصون السلام وقد انقضت ثماني عشرة سنة على

انشائها ، أسدت الجامعة في خلالها خدمات متعددة للعلاقات الدولية ولكنها اخفقت اشد اخفاق في الازمات الكبيرة التي واجهتها والتي تعين عليها ان تعالجها . فقد اخفقت في انقاذ الصين من اعتداء اليابان سنة ١٩٣٢ . والآن في انقاذ الحبشة من الغزو الايطالي سنة ١٩٣٥ وفي ردع المانيا عن احتلال مقاطعة الرين واعادة تسليحها وتحصينها . فأثبتت بذلك انها عاجزة عن تحقيق الغرضين الاساسيين اللذين انشئت لهما وهما ضمان العدل وصون السلام والنتيجة ان دول العالم عادت الى التنافس في التسلح والى الاستعداد للحرب

ولماذا اخفقت الجامعة ؟ اولاً لان اميركا لم تنتظم فيها ولان اليابان والمانيا خرجتا منها، ولان ايطاليا مع بقائها عضواً فيها تحدتها وقاطعتها . فالباقي ليس جامعة بل مجموعة من الدول، كأنها المحالفة الفرنسية الروسية القديمة مؤيدة بالاتفاق الفرنسوي البريطاني وحواليهما بعض الدول الصغيرة . وثانياً لان خطتها كانت تقرر على الغالب بأصوات الدول الصغيرة وهي لا تستطيع ان تنهض بتبعة تنفيذ هذه الخطط . وثالثاً لان دولها الكبيرة لم تكن متأهبة للنهوض بالعهود التي قطعتها عند توقيع دستورها . فانكلترا لم تكن مستعدة لخوض غمار حرب بحرية مع اليابان سنة ١٩٣٢ — ولا هي الآن — وفرنسا عرقلت تطبيق العقوبات على ايطاليا في النزاع الحبشي. والنتيجة ان اصبحت السلامة المشتركة اسماً بلا مسمى فكأن العالم رجع القهقرى من المرحلة الثالثة في نشوء السلام الى ما قبلها . فالحالة تكاد تكون فوضى فلا يقام وزن كبير لعهد دولي ولا لمعاهدة ولا لقانون

والقائمون باصلاح الجامعة فريقان بوجه عام — ففريق يقول بتحويلها الى جمعية استشارية وهذا يترك ماينشأ من المشكلات الدولية حيث هو وليس من سبيل الى ضمان العدل الدولي اوصون السلام . وفريق يقول بتشديد مادة العقوبات بحيث تلزم الاعضاء على الاشتراك في ردع اي معتدٍ وهذه خطة لا يمكن تنفيذها ما دامت اميركا واليابان والمانيا وايطاليا خارجها

ومن رأي الاستاذ هيرنشو في مجلة الكونتمبري الانكليزية ان المخرج الوحيد الآن هو ان تترك الجامعة تلمس السبيل الى تعزيز سلطتها واستعادة هيبتها والقيام بأعمالها العادية وفي الوقت نفسه يبذل السعي لردم الهوة الفاصلة بين الدول الكبرى فتتعاون بما لها من القوة والهيبة على فرض حكم القانون وصون السلام وهذا شبيه بما رمى اليه السنيور موسوليني من سنوات عندما اقترح انشاء عهدة الدول الاربع على ان يكون قوامها انكلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا . وعند الاستاذ هيرنشو ان انكلترا يجب ان تتولى هذا السعي للتوفيق بين محور روما برلين ومحور باريس موسكو

القاهرة ٥ اكتوبر ١٩٣٧

تعليم البنات في مصر

لمحة سريعة عن تطوره في مائة سنة (١)

عند ما بدأ محمد علي الكبير إصلاحاته في التعليم كان الرأي العام بطبيعته يجهل مزايا المدارس الحديثة ويرتاب في أغراضها فكانت الحكومة تأخذ أولاد الأهالي الى المدارس قسراً وكان التعليم بكل درجاته مقصوراً بطبيعة الحال على الذكور . أما البنات فلم يكن لهن أي نصيب من التعليم اللهم الا في بعض الأسر المثرية الراقية اذ كانت بناتهن يتلقين في منازلهن القراءة والكتابة وحفظ القرآن ومبادىء الحساب على بعض الفقهاء

غير انه لما أنشأ محمد علي بمعاونة كلوت بك مدرسة الطب سنة ١٨٢٧ ورأى ان مصلحة العمل في المدرسة والمستشفى تتطلب وجود ممرضات أو قابلات يعنين بالسيدات اقتضى الحال انشاء قسم للقابلات في سنة ١٨٣١ ولشدة نفور الاهالي اذ ذاك من تعليم بناتهم وارسالهن الى المدارس اضطر محمد علي الى ارسال عشر بنات حبشيات لبدء الدراسة بهن في هذا القسم

١ — المدرسة السنية والمدارس الابتدائية للبنات

أما في عهد الخديو اسماعيل فكان الرأي العام المصري قد تطور تطوراً عظيماً من الوجهتين الفكرية والاجتماعية بفضل ما شاهده من مظاهر الرقي والتقدم في جميع مرافق البلاد في أوائل عهد الخديو . لذلك لم يكن غريباً أن يوضع أساس تعليم البنات في ذلك العهد . فقد أوعز الخديو الى احدى زوجاته الكريمات في سنة ١٨٧٣ بفتح مدرسة ابتدائية حديثة للبنات على نفقتها . فبادرت الاميرة بتنفيذ المشروع واختارت سراي السيوفية مقراً للمدرسة فكانت هذه أول مدرسة شرقية أسلامية فتحت للبنات وهي نواة المدرسة السنية الحالية . ولا تزال صورة الاميرة الكريمة تزين مدخل المدرسة السنية إلى الآن . وعلى الرغم من ان المدرسة كانت داخلية وبالمجان فان الاقبال عليها في أول أمرها كان قليلاً ثم أخذ يزداد حتى اضطرت المدرسة الى قبول تلميذات خارجيات . وظلت هذه المدرسة الوحيدة للبنات إلى ان انتهى عهد اسماعيل وابنه توفيق . وفي سنة ١٨٩٥ في أوائل عهد الخديوي عباس الثاني أنشئت مدرسة عباس الابتدائية للبنات وقد بلغ عدد تلميذات هاتين المدرستين في سنة ١٩١٣ ، ٤٩١ تلميذة

وفي سنة ١٩١٧ انشئت مدرسة محرم بك الابتدائية للبنات بالاسكندرية ومنذ حركة النهضة المصرية سنة ١٩١٩ أخذ عدد المدارس الابتدائية للبنات يزداد في جميع انحاء البلاد حتى بلغ عددها في سنة ١٩٣٥ ، ١٩ مدرسة اميرية بها ٢٥٠٨ تلميذات وفي بدء العام الدراسي ١٩٣٦ —

---

(١) من مذكرة أعدتها مراقبة تعليم البنات كما لخصتها مجلة التربية الحديثة

١٩٣٧ أضيف اليها ثماني مدارس كانت تابعة لمجالس المديريات فأصبح عددها ٣١ مدرسة بها ٣٧٧٤ تلميذة . أما عدد المدارس الحرة للبنات فأخذ يزداد تبعاً لحركة النهضة المصرية فبعد أن كان عدد هذه المدارس في سنة ١٩١٣ ، ٣ جيعها بالقاهرة وبها ٤٤٧ تلميذة بلغت ٤٠ مدرسة في سنة ١٩٢١ بها ٤٧١٦ تلميذة وفي سنة ١٩٣٥ بلغت ١١٥ مدرسة بها ١٤٥٤٦ تلميذة

أما مدارس الارساليات الأجنبية للبنات فقد أخذت تنتشر أيضاً في عهد الخديو اسماعيل وتمنحها الحكومة تسهيلات عديدة حتى كانت تمنحها الاراضي التي تقيم عليها مدارسها من غير ثمن . وأول هذه المدارس ظهوراً مدرسة للبنات في الفجالة انشأتها زوجة احد المرسلين الانجليز سنة ١٨٣١ بمعاونة زوجها ثم آلت بعد ذلك للارسالية الاميركية وكان تلميذات هذه المدارس من بنات الاسر المسيحية الأوربية والشرقية ولم تتجه اليها انظار الأسر المصرية إلاَّ بعد الاحتلال البريطاني وقد أدت خدمات تذكر في سبيل ترقية الفتاة المصرية

﴿ خطة الدراسة ﴾ — وكانت خطة الدراسة بمدارس البنات في اول الامر مماثلة لخطة الدراسة بمدارس البنين مضافاً اليها بعض الاشغال اليدوية . وفي سنة ١٩١٣ وضعت الوزارة خطة خاصة لمدارس البنات تختلف عن خطة مدارس البنين فجعلت مدة الدراسة بها ٦ سنوات وكانت الخطة تشمل المواد الآتية : الدين والتهذيب — اللغة العربية والخط العربي — اللغة الانجليزية والخط الانجليزي — اللغة الفرنسية — الترجمة — الاشياء ومشاهد الطبيعة — الجغرافيا والتاريخ — التدبير المنزلي — الرسم الصحة — التربية البدنية

وفي سنة ١٩٢٢ رأت الوزارة ان تزيد مدة الدراسة من ٦ سنوات الى ٨ سنوات حتى ترفع بذلك المستوى العلمي للمتخرجات ولاسيما لمن تقتصر منهنَّ على الدراسة الابتدائية وجعلت الوزارة في السنتين الاولى والثانية من تلك المدارس قسماً خاصًّا أسمتهُ قسم بستان الاطفال

ولما اتسع نطاق تعليم البنات عدّلت خطة الدراسة بالمدارس الابتدائية للبنات سنة ١٩٢٥ وصارت خمس سنوات وفق مدارس البنين واتفقت مناهج الدراسة بكل من مدارس البنات ومدارس البنين الابتدائية إلاَّ في مبادي فلاحة البساتين والاشغال اليدوية فقد استعيض عنها في مدارس البنات بمبادي اشغال الابرة والتدبير المنزلي

وفي سنة ١٩٢٨ عدّلت خطة الدراسة بالمدارس الابتدائية للبنين وصارت ٤ سنوات بدلاً من ٥ ولكن خطة الدراسة بمدارس البنات بقيت خمس سنوات ثم صارت ٤ سنوات من بدء السنة المكتبية ١٩٣٠ — ١٩٣١ وفق مدارس البنين . ووضعت الوزارة منهاجاً خاصًّا لسنة خامسة بمدارس البنات لتستزيد فيها التلميذات من دراسة مواد التدبير المنزلي وتربية الطفل . ولكن التلميذات لم يقبلنَ على هذه السنة فألغيت وبقيت خطة الدراسة ٤ سنوات كمدارس البنين. وفي سنة ١٩٣٥ عند ما عدّلت خطط الدراسة ومناهجها بالتعليم الثانوي أدخل تعديل طفيف في

خطة الدراسة الابتدائية ووضعت مناهج جديدة ونظم جديدة للدراسة والامتحان بهذه المدارس

وتتفق المناهج في هذه المدارس الآن مع مناهج مدارس البنين عدا مادة الاشغال اليدوية فاستبدل بها في مدارس البنات الاشغال الفنية وأشغال الابرة والتدبير المنزلي . وتدرس الموسيقى اجباريًا بهذه المدارس كذلك تدرس اللغة الفرنسية كلغة اصلية في كثير منها

٢ — مدارس البنات الثانوية

لم يكن للوزارة قبل سنة ١٩٢٠ مدارس ثانوية للبنات . ولكن نظراً الى اتساع نطاق التعليم الابتدائي للفتيات واحتمال رغبة بعض خريجات المدارس الابتدائية في التوسع في الدراسة وفي تلقي الدراسات العالية رأت الوزارة لمعالجة هذه الحالة انشاء مدرسة ثانوية للبنات بالقاهرة بالحلمية فخطا تعليم البنات في مصر بذلك خطوة جديدة . وفتحت أمام التلميذات اللائي اتممن الدراسة بالمدارس الابتدائية طريق الاستزادة من العلوم الحديثة وهيأت لهن السبيل الى ترقية مستواهن الخلقي والعلمي فسدت بذلك ثلمة في صرح التعليم وقضت واجباً كانت تقوم به في القطر المصري بعض مدارس الجاليات الاجنبية منفردة حتى ذلك التاريخ

ووضعت للمدرسة الثانوية المذكورة خطة ومناهج خاصة تتفق مع الغرض الذي أنشئت من اجله وكانت تعلم بها المواد الآتية : الدين — اللغة العربية — اللغة الانجليزية — اللغة الفرنسية — الرياضة والعلوم — التاريخ والجغرافيا — الرياضة البدنية — التدبير المنزلي — الرسم والفنون . وكانت جميع المواد تعلم باللغة العربية عدا العلوم . وأدخلت مادة الموسيقى كمادة اختيارية وبلغ عدد الطلبات في السنة التي أنشئت فيها المدرسة ٢٨ طالبة

ولم يقف أمر التعليم الثانوي للبنات عند هذا الحد فان شدة الرغبة في الاستزادة من التعليم بسبب النهضة الحديثة والرغبة في اعداد التلميذات للدراسات العالية دعت الوزارة في سنة ١٩٢٥ الى انشاء مدرسة ثانوية تسير على نسق مدارس البنين الثانوية فحولت مدرسة الحلمية الى شبرا (وهي المدرسة التي صارت فيما بعد مدرسة الاميرة فوزية الحالية ببولاق) وأخذ الاقبال عليها يزداد بسبب ما صادفته من نجاح . ثم تحولت كل من مدرستي المعلمات السنية وحلوان الى مدرسة ثانوية بحتة . وأنشأت الوزارة علاوة على ذلك مدرستين ثانويتين جديدتين احداهما بالقاهرة سنة ١٩٣١ وهي مدرسة الاميرة فوقية والأخرى بالاسكندرية وهي مدرسة الاميرة فائزة الثانوية وكذلك انشأت اجابة لرغبة أهالي الاقاليم قسماً ثانويًا باسيوط سنة ١٩٣٢ وآخر بطنطا سنة ١٩٣٣ وبذلك اصبح عدد المدارس الثانوية الاميرية للبنات ٧ ومجموع طالباتها الآن ١٣٧٣ . وتبلغ عدد المدارس الثانوية الحرة للبنات التي تشرف عليها الوزارة سنة ١٩٣٦ ، ١٠ مدارس بها ٧٣٧ تلميذة سبق ان ذكرنا ان هذه المدارس الثانوية كانت تسير وفق خطة مدارس البنين ومناهجها .

أما مادتا التدبير المنزلي واشغال الابرة فكانتا تعطيان بصفة اختيارية خارج الجدول . ولكن رأت الوزارة في سنة ١٩٣٥ عند تعديل خطط الدراسة ومناهجها بالتعليم الثانوي أن تضع خطة جديدة لهذه المدارس تختلف عن خطة مدارس البنين وقد روعي في الخطة والمناهج الجديدة زيادة العناية بتدريس مواد الثقافة النسوية مثل التدبير المنزلي واشغال الابرة والرسم والتربية البدنية والموسيقى والاناشيد وتربية الطفل الخ

وجعلت مرحلة الثقافة العامة خمس سنوات مقابل ٤ في مدارس البنين وذلك مراعاةً لحالة البنات الصحية ولعدم ارهاقهنَّ من جهة ولامكان إدخال مواد الثقافة النسوية في جدول الدراسة من جهة أخرى كما أن الدراسة في السنتين الاخيرتين من هذه المرحلة قسمت الى قسم للطالبات اللائي يرغبنَ في الاستزادة من مواد الثقافة النسوية كي تصير الطالبة ربة بيت صالحة وقسم للطالبات اللائي يرغبنَ متابعة الدراسة العليا . وقد روعي في هذا القسم الثاني الوصول بالطالبات الى مستوى المدارس الثانوية للبنين . وسمح لطالبات القسم الاول تلقي دروس في المواد النسوية وتربية الطفل الخ بدلاً من دروس الرياضة والطبيعة . وتدرس اللغة الفرنسية كلغة أصلية بجانب اللغة الانجليزية في أربع من المدارس الثانوية . هذا وقد طبق النظام الجديد على تلميذات المدارس الثانوية لغاية الفرقة الثانية وسيطبق على السنة الثالثة في هذا العام وهكذا

٣ — كليتا البنات بالجيزة والاسكندرية

رأت الوزارة في سنة ١٩٢٥ ان الحاجة ماسة الى ان تهيىء لبنات الطبقة الراقية ثقافة نسوية تلائم حاجة البيئة المصرية وتؤهلهنَّ لحياة المنزل بدون حاجة الى التحضير للامتحانات العامة فأنشئت في تلك السنة كلية البنات بالقاهرة . وفي سنة ١٩٢٨ اضيف الى الكلية قسم ابتدائي لتغذية قسم الكلية بالطالبات . وفي سنة ١٩٣٠ انشىء ايضاً قسم لروضة الاطفال اجابةً لرغبة اهالي الطالبات وكان بالكلية عدا هذه الاقسام فصول مخصوصة تتلقى فيها الطالبات اي عدد من مواد الدراسة بحسب اختيارهنَّ بأجور معينة

وفي سنة ١٩٣٤ رؤي انشاء كلية للبنات بالاسكندرية على نسق كلية البنات في القاهرة وبدىء بانشاء القسم الابتدائي والاقسام المخصوصة وأصبحت فرق الدراسة الابتدائية تامة وأنشىء في العام الماضي قسم للروضة ألحق بالكلية

ويسير قسم الروضة بكل من الكليتين وفق نظام رياض الاطفال الاخرى . اما القسم الابتدائي فيسير وفق خطة دراسة خاصة تمتاز بدراسة اللغتين الفرنسية والانجليزية معاً ابتداء من السنة الثانية وتعلم به المواد الآتية : الدين — اللغة العربية — اللغة الانجليزية — اللغة الفرنسية — التاريخ والجغرافيا — الحساب والهندسة — العلوم والصحة — الرسم والاشغال

الفنية — التربية البدنية — الموسيقى والاناشيد وأشغال الابرة والتدبير المنزلي

اما قسم الكلية فمدته ٤ سنوات وله ايضاً خطة ومناهج خاصة وتدرس به المواد التي تعلم بالمدارس الثانوية مع توجيه عناية خاصة للمواد النسوية كالتدبير المنزلي وأشغال الابرة وتربية الطفل والموسيقى والرسم والتصوير وزخرفة المنزل

وفي سنة ١٩٣٦ تبين للوزارة ان عدداً كبيراً من اولياء امور الطالبات الناجحات في امتحان شهادة الدراسة الثانوية قسم ثانٍ لا يرغبون في إلحاق بناتهم بكليات الجامعة لانهم يفضلون اعدادهن للحياة المنزلية . ولما كان مستوى الدراسة بكلية البنات بالجيزة يقرب من مستواها بالمدارس الثانوية لذلك رأت الوزارة انشاء قسم عالٍ مخصوص يلحق بالكلية المذكورة وتقبل فيه الطالبات اللاتي يتممن الدراسة بالكلية او الحاصلات على شهادة الدراسة قسم ثانٍ او ما يعادلها من شهادات الدراسة الاجنبية ويتلقين فيه اربعاً من المواد الآتية على الاقل : — آداب اللغة العربية — آداب اللغة الانجليزية — آداب اللغة الفرنسية — التفصيل وعمل الازياء — التدبير المنزلي — الرسم — الاشغال اليدوية . وجعلت مدة الدراسة سنتين تحصل الطالبة في نهايتها على دبلوم عالٍ فيما تخصصت ونجحت فيه من المواد

هذا ومما هو جدير بالذكر ان جميع القائمين بالتدريس بكليتي الجيزة والاسكندرية من السيدات المختصات . وليس بهما مدرسون من الرجال إلا أستاذ اللغة العربية للقسم المخصوص العالي . وتبلغ جملة عدد الطالبات بجميع الاقسام بالكليتين سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٧ — ٢٦٨ طالبة منهن ٢١١ بكلية الجيزة و ٥٧ بكلية الاسكندرية

٤ — رياض الاطفال

كان تعليم أشغال الرياض قبل سنة ١٩١٨ مقتصراً على الفرق المبتدئة بالمدارس الابتدائية للبنات ولكن الوزارة لمست الحاجة بسبب تطوّر التعليم في مصر الى انشاء رياض خاصة للاطفال لتربيتهم تربية نموذجية في بيئة تحبب اليهم التعليم في أثناء لعبهم فأنشأت في سنة ١٩١٨ روضة للاطفال بالاسكندرية وأخرى بالقاهرة سنة ١٩١٩ وخطت هاتان المدرستان خطوات سريعة في سبيل النجاح فشجع ذلك الوزارة على نشر هذا النوع من التعليم

وكان القبول في الرياض في مبدأ الأمر مقتصراً على البنين ثم قبلت بها الطفلات من سنة ١٩٢٤ ولما زاد الاقبال على هذا النوع من المدارس زيد عدد الرياض المستقلة والتابعة لمدارس البنات الابتدائية حتى بلغ عدد رياض الاطفال المستقلة والملحقة الآن ٣٣ روضة بها ٢٥١٤ طفلاً

وتعتبر الدراسة في هذه المدارس من أنجح انواع التعليم وهي تسير وفق خطة ومناهج مناسبة عدلت أخيراً في سنة ١٩٢٨ وتشمل الخطة المواد الآتية : التهذيب والصحة ، اللغة العربية ، الخط العربي ،

الحساب ، مشاهد الطبيعة ، الرسم اشغال الاطفال ، الاناشيد والالعاب ولا تدرس بها لغات اجنبية

ومدة الدراسة بها ٣ سنوات وتقبل الاطفال من الجنسين بين سن الخامسة والثامنة وتعمل الوزارة بصفة خاصة على توفير اسباب التربية القويمة والراحة واللعب في هذه المدارس والاطفال الذين ينجحون من السنة الثالثة يقبلون بالمدارس الابتدائية بدون امتحان قبول

ويقوم بالتدريس فيها معلمات مختصات من خريجات قسم رياض الاطفال بمدرسة المعلمات الاولية الراقية باشراف ناظرات كثير منهنَّ مختصات في رياض الاطفال من كليات انجلترا

٥ — مدارس الفنون الطرزية

في سنة ١٩٢٥ رأت الوزارة ضرورة انشاء مدرسة لتخريج فتيات قادرات على الاشتغال بالاعمال الحرة في التطريز والتفصيل فأنشأت قسماً للفنون الطرزية وألحقته بمدرسة المعلمات الاولية بشبرا واشترطت في القبول به ان تكون الطالبة حاصلة على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية او ناجحة في الامتحان النهائي للمدارس الاولية الراقية للبنات وجعلت مدة الدراسة به ٣ سنوات ومواد الدراسة هي : اشغال الابرة والتفصيل والتطريز وعمل الازياء المبتكرة — الرسم — الدين — الغسل — الكي — طرق التجارة — امساك الدفاتر — الالعاب الرياضية — اللغة الفرنسية (والغرض من تعليم هذه اللغة تمكين الخريجات من الاطلاع على مجلات الازياء والكتالوجات وفهم ما بها) والتعليم كله بالمجان ويقدم الغذاء للتلميذات ظهراً

وفي سنة ١٩٣١ انشيء بهذا القسم مشغل لتتمرن فيه الطالبات عقب تخرجهنَّ على القيام بالاعمال الحرة على ان يدار المشغل لحسابهن تحت اشراف المدرسة وتقبل به التوصيات من الجمهور وبهذه الطريقة تزداد الطالبات مرانة على هذه الاعمال تحت اشراف معلماتهن كما أنهن يكتسبنَ خبرة في معاملة الجمهور ويقتسمنَ الارباح . وفي سنة ١٩٣٥ ضم الى الوزارة مشغل الصناعات النسائية بالاسكندرية وكان تابعاً لديوان الاوقاف الملكية كما ضمت اليها مدرستا الفنون الطرزية ببنها والزقازيق وقد ادخلت فيهما أنظمة مدرسة الفنون الطرزية بشبرا

ورغبةً من الوزارة في زيادة تمرين الطالبات على العمل رأت اضافة سنة رابعة الى الخطة تقضيها الطالبات الناجحات في التمرين والتدريب على التفصيل الراقي تحت أشراف معلمات مختصات كما أنشأت قسماً راقياً للتفصيل والازياء المبتكرة وعمل القبعات . ويبلغ عدد التلميذات بالمدارس الاربع في سنة ١٩٣٧ ، ٧٦٦ تلميذة . وقد فتحت الوزارة في العام الماضي مدرسة اخرى للفنون الطرزية جعل التعليم بها بمصروفات بسيطة قدرها ستة جنيهات سنويًا والاقبال على هذه المدارس شديد مما يدل على ان الحاجة كانت ماسة الى التوسع في انشاء مثل هذه المدارس التي تهيء الفتاة للتكسب من طريق الاعمال الحرة الشريفة



سفن حربية تسير باللاسلكي

جهاز « البلاتترفون »(١)

سيّرت حكومة جمهورية الولايات المتحدة أربع سفن سرية سنجابية اللون، خالية من الملاّحين، لتجوبَ بحار العالم، مستمدة قوتها من الموجات الكهربائية اللاسلكية التي تُوجه اليها من بواخر اخرى قصية عنها. وتؤلف تلك السفن الاربع من مدرعة واحدة وثلاث مدمرات. وهي فرع جديد في القوة البحرية الاميركية يسمى بالاسطول السري

وهاتيك السفن خالية من الربابنة الذين يصدرون الاوامر، ولا سلالم فيها تؤدي الى قاعاتها «قرأتها»، فاذا دنوت منها لا تسمع غير أزيز القاطرات ودويّ الآلات حينما يتحرك سكان السفينة بغية تغيير مجراها، والاّ فالسكون مخيم عليها. وترى على ظهر كل سفينة منها كرتين سوداوين معلقتين بسارية جؤجؤها، وأعلاماً حمراً وبيضاً وزرقاً منصوبة عليها تحذيراً للسفن الاخرى لتحيد عن مجراها عندما يختل مسيرها. وذلك كلهُ من قبيل الاحتياط ووقاية من الخطر. وتشاهد على بعد شاسع من السفينة المسيرة « أمَّها » المسيطرة على حركاتها وسكناتها بالجهاز اللاسلكي. فتارةً توعز اليها فتطفيء مصابيحها، وطوراً تطلق صفارتها وهي مختفية عن الابصار بحيث لا ترى الاّ مدختنها عن بعد. ويقوم بذلك العمل عامل لاسلكي فنّي فوق ظهر الام المسيطرة عليها.

وقد جربت المدمرة استودرت Stoddert خالية من الملاّحين في المحيط الهادىء منذ بضع سنين، فأسفرت تجربتها عن النجاح. وهي من مدمرات الاسطول الاميركي، فجعلت هدفاً لقنابل الطائرات الحربية ليتدرّب الطيارون على قذفها بالقنابل من فوق، واقتضى ذلك تجهيزها بآلات ضابطة تديرها باخرة اخرى بالموجات اللاسلكية فأتيح تسيير «الاستودرت» خالية من الملاّحين ولم يستهدف احد منهم للخطر من القنابل التي كانت تنهال عليها من كل حدب وصوب

(١) تتمة ثمرات (الراديو وهذا العصر: من نظم عوض جندي) راجع مقتطف اكتوبر الماضي صفحة ٢٩٢

الغرض من هذه السفن

اولاً — تقريب الاهداف المستعملة للرماية الى الحقيقة ما امكن ، بدلاً من الاهداف المألوفة لقذائف المدافع ونعني بها الارماث التي تربط في مجال مرمى المدافع الضخمة . والبوارج التي تختار لتأليف الاسطول السري ، تكون من الانواع المهملة التي لا تتفق والنماذج البحرية العصرية . وذلك عوضاً عن تجريد تلك البوارج القديمة من سلاحها كالعادة التي كانت متبعة سابقاً . وبناء على ذلك ، غدت البواخر السرية تهيم في البحار حيث تسوقها العواصف ، خالية من الملاحين وذلك بمثابة اهداف متينة ، تروغ من قنابل مدافع المدرعات وقذائف الطائرات التي تسدد اليها من كل جانب . لان ضباط البحرية يرون هذه الوسيلة خير ما يمكن عمله لتمثيل ظروف معركة شعواء

ثم انهم يأملون أيضاً اتخاذ الاسطول السري ، وسيلة لمعرفة الحقائق التي ما زالت غامضة عليهم وهي الخاصة بالحركات الحربية التي تقوم بها البوارج بعد تعطيلها وتمزيقها بالقذائف الصائبة

***

ثانياً — وللاسطول السري منفعة أخرى تستهوي البحرية الاميركية ، بيد انها تكتمها أشد الكتمان ، وهي ماذا تكون فائدته في ابان الحرب ؟ وذلك لان هذا الضرب من السفن في وسعه المروق بلا وجل في وسط نيران المدافع مروقاً لا يجرؤ عليه اي ربان من ربابنة البوارج المجهزة بالجنود مهما يكن شجاعاً . ويتنبأ الثقات البحريون الخبيرون بأن الاسطول السري سيحدث انقلاباً في أساليب الخدع الحربية عند نشوب القتال ، لان السفينة الحربية التي تسير بالموجات اللاسلكية يتسنى أرسالها لنطح سفن الاعداء واغراقها

ويمكن ايضاً شحنها بالمفرقعات الشديدة ودفعها امام الريح بالموجات اللاسلكية بازاء سفن الاعداء كأنها طوربيد قوي . ثم نسفها بضغط مفتاح لاسلكي . وقد يستطيع الاسطول السري اطلاق ستار من الدخان فيخفي به حركات الاسطول الاصلي حينما يقوم بالخدع الحربية . وربما يقدم على اطلاق الغاز السام دون تعريض أي مخلوق لخطره . وقد يعهد اليه في تطهير مناطق الالغام البحرية . ويتيسر ارسال سفنه فرادى الى الثغور حيث يتاح اغراقها بالموجات اللاسلكية فتسد مصبات الانهار بأجسامها

وقد ترسل تلك السفن زرافات بمثابة قوة حربية خادعة لتخدع عدواً قصياً . ويتسنى تسيير الاسطول السري من البر أيضاً ومن غيره من البوارج أو من الطائرات التي تحلق فوقه

عناية بريطانيا والمانيا بالموضوع

وليست الولايات المتحدة هي المهتمة بمشروع الاسطول السري المسيَّر فحسب ، بل بريطانيا العظمى والمانيا ايضاً . فقد عنيت بريطانيا بهذا الاختراع من سنة ١٩٢٤ اذ جهزت البارجة « اغا ممنون » على ذلك الطراز ، فأخذ الضباط البحريون يراقبونها من بعد بينما كانت القذائف تسدد اليها كالسيل من قنابل الطائرات التي من عيار ١١٤ وذلك من ارتفاع يتراوح بين ميل واحد وميلين . ثم أبطلتها البحرية الانكليزية ، وحلت محلها المدرعة « ستوربون » الخالية من الملاَّحين . وهي تسير بالموجات اللاسلكية التي تصدر من احدى المدمرات — كما تقدَّم القول في مقالنا بالجزء السابق من المقتطف — واليك وصف التجربة التي جربت في المدمرة القديمة استودرت : — جاء ضابط من ضباط الراديو في البارجة Perry بري من بوارج اسطول الولايات المتحدة ، فدخل غرفة قيادتها وعند ذلك كانت البارجة تسير على بعد ٢٠٠ ياردة خلف استودرت فشرع الضابط يحرك جهازاً على شكل صندوق ذي مفاتيح كمفاتيح الآلة الكاتبة ، فكان كلما حرك أحدها انبعثت منهُ اشارة تحمل في ثناياها موجات لاسلكية تلتقطها الآلات الضابطة في المدمرة استودرت فجعلت تسير أولاً بمعدل ستة اميال بحرية في الساعة ثم بمتوسط ٢٠ ميلاً في الساعة ثم صارت تقطع ٣٦ ميلاً في الساعة وهي أقصى سرعتها . ثم سلط عليها ذلك الضابط الاشارات اللاسلكية الاخرى فأخذت تطفىء مصابيحها الكشافة وتطلق صفاراتها . وقد حذت المانيا حذو الاسطولين الاميركي والانكليزي فاستخدمت لتلك الغاية مدرعة اسمها « زائيرنجر » Zaehringer وكانت تطلق الصواريخ بالموجات اللاسلكية وتخفي نفسها بستار من الدخان فتفلت مما كان ينهال عليها من القذائف

اهتمام اليابان به

واقتدت بحرية اليابان باخواتها السابقات الذكر ، فاستخدمت مدمرتها الصغيرة يوكوزي Ukeezi كمدرعة سرية تستعمل هدفاً للمدافع الكبيرة

غير ان الولايات المتحدة هي المجلية في ذلك المضمار . فقد فاقت الدول جمعاء باختراع اسطولها السريّ الحديث الذي هو ثمرة تجارب اثنتي عشرة سنة كاملة . وذلك انها منذ سنة ١٩٢٠ جهزت بارجتها القديمة المسماة آيووى بالاجهزة اللاسلكية باشراف المستر جون هايز هاموند الصغير وهو المهندس اللاسلكي الخبير ، فكانت أول مدرعة في بحريات العالم تُسيَّر بالموجات اللاسلكية خالية من البحارة ، فاضطلع الخبير المشار اليه بذلك العمل الهندسي الطريف ، دون سابقة يأخذ مأخذها فنجح فيه نجاحاً باهراً

سر الادارة عن بعد

وتسيير اي مركب بالموجات اللاسلكية يقتضي استعمال قوته الذاتية ، وانما يدار سكّانه ويُقاد بالنبضات اللاسلكية . فكانت اول عقدة تعين على المخترع حلها تقليل عدد الملاحين الى أقل عدد يستطيع تشغيل قاطرات ذلك المركب وإدارة سكّانه وضوابطه ادارة صالحة . ثم اختراع اجهزة اناس معدنية Robots لتحل محل أولئك الملاحين القليلي العدد . فجعل واحداً منها لادارة السكان وهو جهاز ذو اذرع معدنية تقوم مقام الاذرع البشرية وغيرها من الآلات الهندسية المتحركة بذاتها لتقوم بادارة أصمة (جمع صمام) البخار — وقوام تلك الاجهزة جميعها التي تؤدي أعمال البشر (البصاصات الكهربائية) وقد وصفناها في مقالاتنا العديدة السابقة

وبما أنهُ من المستحيل ارسال قوة كافية من الموجات اللاسلكية لادارة اي محرك من المحركات ، فان النبضات الكهربائية التي تصدر من المراكب القاصية ، تقوّى فتدير جهازاً مجدداً التيار الكهربائي فيدير محركات المركب نفسهُ . وفي الواقع ان تلك النبضات الكهربائية اللاسلكية منظمة تنظيماً يتفق والغرض المقصود بها سواء أكان ادارة السكّان أم وقف المركب أم اضاءة مصابيحه الكشافة . والذي يقوم بذلك التجديد ، جهاز منتخب على شاكلة الجهاز المستعمل في التليفون الاوتوماتيكي . والوصف المتقدم ينطبق على المركب الذي جهزه المستر هاموند الخبير اللاسلكي السابق الذكر وقد ثبتت صلاحيتهُ ليكون هدفاً للقذائف في التدريب العسكري حينما قامت طائرات الجيش والاسطول بالتجارب على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم فأصابت الهدف مرتين من ثمانين طلقة بينما كان المركب يسير الهوينا نحو الشاطئ بسرعة ستة أميال ونصف ميل وأسفرت التجارب عن اغراق المركب آيووى بقرب بوغاز بناما وذلك من نيران المدرعة مسيسيبي

جهاز البلاتنرفون

ويستعمل لتسجيل الصوت المزمع اذاعته بالراديو ، جهاز يسمى بلاتنرفون Blattnerphone نسبةً الى مخترعه لويس بلاتنر Louis Blattne الذي اخترعهُ سنة ١٩٣١ وهو يختلف عن الجهاز المألوف لتسجيل الصوت في اقراص الجراموفون

وقوامه شريط فولاذي يمدُّ بين مغنطيسين كهربائيين فيتمغنط بحسب ذبذبات التيارات الكهربائية التي تمر في ذينك المغنطيسين ، اي ان التيارات اذا كانت متغيرة ، تمغنط الشريط في مواضع مختلفة منهُ طبقاً لذلك ، فسجّل الذبذبات المتغيرة

فالموجات الصوتية التي تتولد من حنجرة من الحلق ، او من خطيب يخطب ، ايًّا كانت ، تستحيل ذبذبات كهربائية بوساطة الميكروفون بالطريقة المألوفة ، فتنطلق تلك الذبذبات الكهربائية الى المغنطيسات الكهربائية التي في الآلة ، ويمرّر بينها شريط فولاذي طويل ، بسرعة ثابتة ، فيتمغنط تمغنطاً مختلف الدرجات على استقامته . ثم اذا ما اردنا اعادة توليد تلك الذبذبات الكهربائية ، ما علينا الاَّ وضع الشريط مرة اخرى بين مغنطيسين يحملان تياراً ثابتاً ، فيتغير ذلك التيار بحسب مغنطة الشريط . وحينئذٍ يمكن تضخيم ذلك التيار المتغير وتحويله الى موجات صوتية بالطريقة المعتادة

ومن غريب الامر ان بدء استعمال هذه القاعدة كان في اوائل انتشار الراديو ، فكانت تستعمل لالتقاط اشارات مورس التلغرافية

وبدلاً من الخطوط الغائرة المختلفة العرض التي ترسم على اقراص الجرامفونات او الخطوط المتغايرة الكثافة والعرض ، كالتي تظهر في فيلم الصوت ، ترى الشريط الفولاذي الذي لا يتغير شكله الخارجي البتة ، مقيداً عليه الصوت بحسب درجات مغنطته

وقد كان استكمال ذلك الجهاز المسجل من البراعة الخارقة غير انه على سهولة قاعدته قد تمَّ بعد جهد جهيد ، وصبر متواصل ، ونفقات باهظة . والصوت الذي يتولد منه يكون اكثر اتقاناً مما يتولد من اقراص الجرامفون . وهو ذو ميزة اخرى وهي سهولة صنع شرط طويلة جداً منهُ دون انقطاع

***

ومن المرجح انهُ سيأتي يوم تتمكن فيه من احراز جهاز بلاتنرفون في بيوتنا بدلاً من اجهزة الجرامفونات ، ولا يحول دون ذلك في وقتنا الحاضر الاَّ فداحة اثمان الشرُط الفولاذية الخاصة وتعقد الجهاز . وحينئذ يصبح في وسعنا الاصغاء بغير انقطاع الى مقطوعة موسيقية كاملة من الاوركستر ، بدلاً من قلب الاقراص او تغييرها في الجرامفون ولا يحول دون بلوغنا هذه الامنية الاَّ باهظ نفقاتها التي لا تستطيعها غير الشركات الغنية مثل شركة الاذاعة اللاسلكية البريطانية . وربما تصير الاقراص الورقية وأفلام الصوت ذات يوم من الاشياء المألوفة لدينا

بيد ان جهاز البلاتنرفون ما زال محتاجاً الى تحسينات عديدة فهو لا يسجل الذبذبات الشديدة ولا الانغام العالية تسجيلاً صادقاً ولذلك تتخذ الوسائل الفعّالة ليقوم الجهاز المضخم بتوكيد هاتيك الذبذبات الشديدة بدلاً من جهاز البلاتنرفون نفسه . وما برحت التجارب تجرب في تحسين هذا الجهاز الذي يعدُّ من اثمن الاجهزة التي عند شركة الاذاعة البريطانية . وبه يتيسر تسجيل حادث خطير في الحال طبق أصله ثم إعادة اذاعته في المساء نفسه أو في السنة التالية . ولما كانت بكرات الشريط الفولاذي لا يحتاج حفظها الى مكان

رحب ، سهل خزنها في مكان ضيق ، وهي غالية الثمن ومن المعتاد « تنظيف » الشريط الآ اذا اقتضت الحالة ابقاءه لسبب مهم ، لاعادة استعماله بعد اذاعته وذلك بامراره في مغنطيس قوي ذي تيار مستمر لتنمحي منهُ التغيرات المغنطيسية جميعها التي حدثت فيهِ اولاً

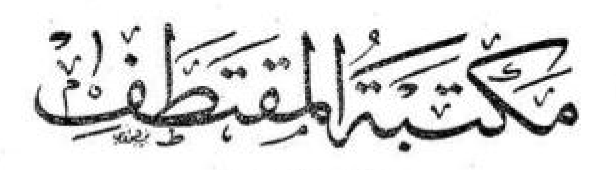
ما يستعمل له الجهاز

وجهاز البلاتنرفون لا يستعمل لتسجيل الخطب البليغة والحوادث الخطيرة فحسب بل لاختبار المغنين والتمرين على الالقاء ، فيستطيع مخرج الرواية الاصغاء الى القائها بأجمعها وملاحظة ما يجب تغييره منها . فيتاح للمغني أن يغني تجاه الميكروفون ، على سبيل التجربة ، على ان يسمعه المدير وقد يكون هذا وقتئذٍ مشغولاً عنهُ بعمل آخر ، ربما يتفرغ لسماعهِ بعد ساعتين أو ثلاث ساعات . ويتوسل بهذا الجهاز ايضاً الى تذليل الصعوبات الزمنية في الاذاعة . فبرامج الحفلات التي يراد اذاعتها في أوستراليا مثلاً وغيرها من انحاء الامبراطورية البريطانية التي لا بدَّ من اذاعتها في الوقت الذي يحتاج فيهِ معظم المغنين والمغنيات الى النوم في اسرَّتهم ، كثيراً ما تُسجل بجهاز البلاتنرفون في الساعات الملائمة لذلك ثم تذاع حينما تمس الحاجة اليها . وفي هذه الحالة يكتفى بالمهندسين المنوبين في اعمال الاذاعة اللاسلكية لتأدية الاعمال المطلوبة . ولفداحة نفقات البلاتنرفون ، يتعذر استخدامه في مكاتب الاعمال وغيرها من الدوائر لتسجيل ما يدور في الجلسات المهمة التي تعقد فيها وتدوين المحادثات التليفونية التي تدور فيها ولذلك اخترع جهاز آخر يسمى « تليكورد Telechord » وهذا يقوم بتقييد المحادثة التليفونية ويتسنى وصله باسلاك التليفون بوساطة (كوبس) حيث تضخم الموجات الصوتية تضخيماً كهربائياً فتحرك ابرة قاطعة على اسطوانة شمعية ، تكاد تشبه ابرة الجراموفون التي اخترعت اولاً . وهذه الاسطوانة يمكن استعمالها مرة اخرى حالاً فتردد كل ما قيل اولاً وتظل سجلاً ثابتاً لهُ لا نزاع فيه . وهذه الطريقة تكاد تضارع بلا ريب جهاز الديكتافون Dictaphone « الآلة التي تعبأ فيها الموسيقى » ، كما يسميها العوام ، اسوة بكبس الاطعمة في علب الصفيح حتى يحتاج اربابها الى اكلها

* * *

مجرة ضخمة تجمع خمسين الف مجرة

اكتشف علماء مرصد هارفرد على مقربة من قطب القبة السموية الجنوبي مجموعة ضخمة من المجرات تتسع لخمسين الف مجرة كالمجرة التي نحن منها ويقدر طول هذه المجرة الكبيرة بخمسين مليون سنة ضوئية وعرضها بعشرين مليون سنة ضوئية وتبعد عنا مائة مليون سنة ضوئية والسنة الضوئية هي المسافة التي يجتازها الضوء في السنة سائراً بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية !



كنوز الفاطميين (١)

تأليف الدكتور زكي محمد حسن — امين دار الآثار العربية والمدرس المنتدب في معهد الآثار الاسلامية وعضو المجمع المصري للثقافة العلمية — صفحاته مع فهارسه ٢٩١ صفحة من القطع الكبير تليها ٦٤ لوحة فنية مطبوعة على ورق صقيل

تصدير

للاستاذ جاستون فييت مدير دار الآثار العربية

كتب بالفرنسية ونقله الى العربية محمد وهبي افندي سكرتير دار الآثار العربية ، ومن خريجي معهد الآثار الاسلامية

انهُ لما يشرفني عظيم الشرف أن يهدي المؤلف اليَّ هذا الكتاب . وان هذه العاطفة النبيلة منهُ لتذكرني بتعاون متين منذ عشر سنين ، بذلت فيها كل ما بوسعي في سبيل ارشاده ، سواء في القاهرة أم في باريس ، ارشاد الاكبر للاصغر سنًّا ، وكنت كلما رأيت مثابرته ، ويقظتهُ العقلية المستطلعة ، ونشاطه الذي لا يخمد ، زدت لهُ مساعدةً وارشاداً

وقد تعمق الدكتور زكي في التاريخ وسبر أغواره ، وملك ناصية لغات أوروبية عديدة ، وطاف بمعظم متاحف اوروبا دارساً ومنقباً ، فهو اذن قد أعدَّ اعداداً متيناً ليكون مؤرخاً ممتازاً للفن الاسلامي، فضلاً عن أنهُ في عنفوان الشباب ويبشر بمستقبل علمي عظيم سيؤتي اطيب الثمرات

وكتابهُ هذا ابلغ دليل على ما اقول : فقد سلس للمؤلف قياد الموضوع ، ولانت لهُ قناتهُ ، مما يشهد بأنهُ اصبح مؤرخاً فذا للفن ، لهُ طريقة علمية بلغت الغاية دقة ، ولهُ في النقد حاسة قوية نافذة

ومعلوم ان تاريخ الفن مثلهُ كمثل بقية العلوم من حيث جمع الحقائق وتمحيصها وشرحها وترتيبها واستنتاج الافكار العامة منها ، غير انهُ يختلف عنها من حيث ان مؤرخ الفن يجب ان

(المقتطف) نشأت فكرة هذا الكتاب النفيس من محاضرة القاها المؤلف في المؤتمر السنوي الثامن الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية . في مارس سنة ١٩٣٧ ، وقد اضطر ان يوجز الكلام لكي لا تطول المحاضرة عن الوقت المقرر لها . ثم توسع فيها وأخرجها كتاباً هذه شهادة عالم من طبقة الاستاذ جاستون فييت فيه . فللمجمع ولدار الآثار العربية وللمؤلف الشكر على اخراج هذا السفر النفيس في موضوع هو اوثق ما يكون صلة بالثقافة القومية العالية . ولنا عود اليه في عدد تال

يكون شغوفاً بمادته ، ولا شكَّ في ان جوانح زكي حسن لتنطوي على هذا الشغف ، الذي يسمو بصاحبه فوق الحقائق المادية وان لم يغفلها ، ويثير عنده شعور الاعجاب بتراث العصر الاسلامي الوسيط من تحف فنية يلتذ بها الحس وينعم بها العقل ، ويولد في نفوس القراء حب هذه التحف التي تدل على مدنية عظيمة

وقد افصح موضوع الكتاب وابان عن نفسه ، غير اننا ، وان لم ننكر ما للفن الاسلامي القديم من بساطة جذابة وما لفن المماليك من هدوء وانسجام ، لا بدَّ لنا من الاعجاب بالتحف النفيسة التي انتجها العصر الفاطمي ، فدلت على ما كان لفن الفاطميين من قوة ابداع ، وشخصية ، واحساس بالحياة شديد ، واثارت في نفوسنا روح الحمية والحماسة .

ولذا فانك إذا قرأت هذا الكتاب ادركت تمام الادراك ان المؤلف لم يكتبهُ الاَّ بدافع من الشغف عظيم فبلغ بهِ اقصى حدود الاتقان

ألف اذن زكي حسن هذا الكتاب مدفوعاً بعامل السرور ، وحده أعني انهُ بذل فيهِ جهده كله . وقد كنت أشاهده منذ شهور وهو يقوم بتأليفه ، وكان يخيل اليَّ ان ما كان يعترضهُ من عقبات ، ما كان إلاَّ ليذكي نار الحماسة في قلبه

***

بل أن العاطفة لتتجلى في اختياره موضوع الكتاب فقد راعى الروح القومية ، اذ يعدُّ هذا الكتاب الخطوة الاولى في سبيل احياء ذكرى مرور الف عام على تأسيس القاهرة . ويحق لدار الآثار العربية أن تزهو ، بل ومن واجبها ان تزهو بهذا السبق : أفليست تحوي كنوزاً فاطمية عظيمة القيمة ؟

قد يقال ان دار الآثار العربية تسبق موعد هذه الذكرى ، ولكننا نرى اننا بحاجة الى بحوث متينة تذكرنا بما كان عليهِ الماضي العظيم من فخامة وروعة ، ، فتمهد لان يكون الاحتفال بهذا العيد احتفالاً لائقاً بذلك الماضي المجيد

***

والكتاب قسمان : الاول مقدمة يلخص فيها المؤلف ما دونهُ كتَّاب العصر الوسيط عن زخرف الحياة في الدولة الفاطمية . فهل تأثر المؤرخون العرب في هذا الموضوع بميلهم الغريزي الى المبالغة في الاشادة والاطناب ؟ كلاَّ بل كانوا في وصفهم تلك الحياة صادقين ، كما أثبت المؤلف هذه الحقيقة اثباتاً قاطعاً في القسم الثاني من كتابه ، وقد عرض فيهِ التحف الفاطمية كلها

ودار الآثار العربية تعدُّ أغنى المتاحف رغم تسرب عدد كبير من التحف الى اوربا منذ زمان طويل ، بل وقبل انشاء متحفنا في القاهرة . والدار وان لم تحتوِ من التحف العاجية

والبلورية والبرنزية والنحاسية الأعلى عدداً يسيراً ، فان ثروتها من الاخشاب والمنسوجات والخزف لا تعادلها ثروة

ولعلَّ هذا الكتاب النفيس المحلى بكثير من اللوحات والرسوم يؤثر في القراء تأثيراً يدفعهم الى تعرُّف دار الآثار فنرى زوارها يزدادون يوماً عن يوم

وما أريد ان أتحدث طويلاً عن المراجع الكثيرة التي تذيل الكتاب فانها قد جعلتهُ جليل النفع عظيم الاثر للمدرسين ، فالكتاب ومراجعه خير مرشد لهم في تدريسهم تاريخ الفن الاسلامي. وليست هذه المراجع مجرد ثبت يملأ العين ، وانما هي نتيجة مجهود وافر ، وقد درسها المؤلف كلها ، كما يتضح للقارىء عند قراءته ما كتبهُ من الحواشي في أسفل الصفحات

وإني اتمنى ان يكون هذا الكتاب شيقاً للقارىء كما كان للمؤلف نفسه ، وان يزيد عند المصريين — وكدت ان اسميهم بني وطني ، اذ صارت مصر لي وطناً ثانياً — شعورهم بماضيهم الباهر وان يقوّي ايمانهم بهِ واعتزازهم ، فالايمان بالماضي اساس وطيد لوطنية قوية متسامحة ، كما اتمنى ان يضاعف الكتاب في نفوس المصريين حب البحث ويرهف فيهم الاحساس بالجمال

جاستون فييت

فتح دارفور

ونبذة من تاريخ سلطانها علي دينار للبكباشي حسن قنديل

يرعى سمو الامير الجليل عمر طوسون كل ما يتصل بتاريخ الجيش المصري وفتوحاته وأعمال أبطاله خلال القرن الماضي . وسموه يريد بعمله العظيم ان يحفظ تاريخ الجيش من العبث والضياع. ولكي يتخذ شبان هذا الجيل من الحديث عنهُ ما يثير حماستهم فيعملوا على استعادة مجد العصور الماضية

واليوم يضيف سموه الى صفحات تاريخ الجيش المصري تلك الرسالة النفيسة « فتح دارفور سنة ١٩١٦ » التي وضعها حضرة البكباشي حسن قنديل أحد رجال الحملة العسكرية الذين اشتركوا فيها . فتناول فيها وصف جميع أدوار الفتح من بداية تحرك القوات التي صدر اليها أمر القيادة بهذه الحملة الى اندحار قوات الامير علي دينار في ٢٣ مايو سنة ١٩١٦

وقد أورد المؤلف في رسالتهِ النفيسة حديثاً شائقاً عن امارة دارفور وملوكها وامرائها وقواتهِ المحاربة والأغاني الوطنية الشائعة على ألسنة القبائل . ونأمل ان تكون هذه الصفحة المجيدة من تاريخ الجيش التي حرص البكباشي حسن قنديل على تدوينها مقدمة طيبة لضباط جيشنا الباسل ليكتبوا تاريخ الجيش المصري منذ دول الفراعنة الى اليوم

مصر في كل العصور

The Nile in Egypt-Emil Ludwig, Allen & Unwin 16/—

من المعروف عن الكاتب الالماني المشهور اميل لدويج انهُ سريع التأليف سرعة لم تعهد كثيراً من قبل . فلم تنقض بضعة شهور على صدور كتابه « حياة النيل » حتى اخرج كتاباً آخر « النيل في مصر »

ونصف هذا الكتاب الاخير يبحث في تاريخ مصر الطويل ومكانة الملوك والفلاحين في كل حقبة من حقبه . ولكن بطل (الدرامة) هو النيل نفسه الذي كان السبب المباشر في الهام الكاتب الذي لا يمل مطلقاً التحدث عن عظمتهِ وتأثيره في الحضارة . ألم يوجد النيل علم الفلك والحساب والقانون ؟ ألم يخلق استعمال النقود والبوليس ؟ اليست مصر والمصريين هبة النيل. هؤلاء المصريون الذين نجحوا في دروسهم الملقنة من اساتذة الحياة والطبيعة نجاحاً منقطع النظير «القنوات اشعارهم ، والخزانات قصصهم ، والاهرامات فلاسفتهم »

« ليس للزمن شأن عظيم في وادي النيل . فمنذ عام ٦٠٠ قبل الميلاد فكر نيخو في قنال السويس ، التي لم يتم حفرها الاَّ في عصرنا هذا »

ومتحف النيل يضم صوراً فنية رائعة لا يحصرها عد، من ضمنها صور اسكندر المقدوني وكليوباترا الخافقتين بآثار الحيوية والابداع . لقد «استقبلت مصر اسكندر المقدوني كالآه» وهو في مقابل ذلك انشأ المدينة التي خلدت اسمه . وكليوباترا كما سمعنا عنها ، قد عاشت عيشة طبيعية لم تتقيد فيها بتقاليد او قوانين كغيرها من الملوك والملكات ، فهي قد توفيت عن تسع وثلاثين عاماً ، حكمت خلال عشرين منها ولم تمنعها من الاستسلام لحوافز الغرام !

«ان الطبيعة لا تجود بمثل هذه الفرص الاَّ مرة كل الف عام . يأتي رجال اعظم امبراطورية الى بلادها (اي بلاد كليوباترا) ليستولوا على القمح فيجدون سحراً وجمالاً » ينسيهم ما هم آتون لاجله

وفي العصر الحديث الذي يبدأ في مصر منذ عهد نابليون، نجد محمد علي باشا مؤسس الاسرة المالكة ، وابنه ابراهيم جندي العائلة ، وحفيده اسماعيل الذي حفر قناة السويس وجدَّد معالم الحضارة فيها . وقد تكلم الكاتب بعطف احترام عن اللورد كرومر وباعجاب عن عرابي وسعد زغلول زعماء النهضة المصرية: «عندما مات سعد زغلول سنة ١٩٢٧ كانت جنازته اعظم جنازة عرفت في تاريخ مصر الحديث »

وفي نهاية الكتاب ، تمنى الكاتب نجاح مصر في كفاحها الحديث وقال ان العالم كله يرقب تقدمها بعطف وتشجيع

ضياء الدين

مختارات لشعراء الترك وكتابهم المعاصرين

مترجمة باللغة الفرنسية — اصدرتها ادارة المطبوعات التركية

كتابٌ قيم جليل القدر ، مونق الشكل ، طبعه بهجة للعين والقلب ، أخرجتهُ باللغة الفرنسية للناس ادارة الصحافة العامة بوزارة الداخلية التركية . وهو أول كتاب نشرته هذه الادارة من نوعهِ جمعت بين دفتيهِ أبدع نفثات أقلام الفحول المتقدمين من شعراء الترك وأدبائهم المعاصرين ، ممن هم في الذروة المنيفة والمكانة السامية والصيت الذائع ، أعلاهم كعباً وأبرعهم ترجمة ونقشاً لعواطف أمتهم واحساساتها ، وما استخفى في حنايا ضلوعها من جائشات نفوسها

طابع خاص وعمل تحلى بميزة ، فانهُ لو كان عمل كاتب من كتّاب الاتراك او مكتبة من مكتباتها ، او ناشر من ناشريها لما تعجبت منهُ ، ولكن هي ادارة الصحافة التركية التي أخرجتهُ كتاباً سويًّا ذا نفع عميم . فالعمل عمل رسمي حكومي أريد بهِ المصلحة العامة والخير المشترك والكرامة القومية . دعوة للثقافة والنهضة الادبية التركية تنهض بهِ حكومة لشعبها ، فمتى تنهض لمصر مصلحة الصحافة المصرية بوزارة الداخلية بأشباه هذه الجلائل ؟ ومتى نبلغ مبلغ هؤلاء الناس ونحن في كفة سواء مثلهم في الكرامة والاستقلال ؟

الأدب التركي اليوم نابت من دوحتين ، وراجع الى نشأتين : نشأة شرقية وأخرى غربية فهو شرقي بماضيهِ وذكرياتهِ وغابر مخلفاته مما لا يقوم أدب أمة بدونهِ ، وغربي بروحه ومعانيهِ ونسقهِ وفنهِ ، لهذا ألفيت كتّاب الترك المتأخرين المعاصرين قد أصبح تفكيرهم ونتاج عقولهم لا يمت بأدنى صلة الى التقاليد الشرقية ، وعلى أيديهم أبرمت القطيعة واستحكمت بين هذه وذاك بل أمسوا يحسون احساساً غربيًّا بحتاً ويتأثرون بالاشياء تأثر الاوربي بها حذوك النعل بالنعل . وفي هذا الكتاب الذي بيدنا جلاء ذلك وفي منتخباته مصداق ما نقول

وكتّاب الترك المتأخرون هم السابقون الاوائل في معالجة فنون من الادب كان الادب التركي من قُراب قرن خلواً منها ، أعني القصة ، والمسرحية ، والرسالة العلمية . ولم تصر القصة فنًّا من الادب التركي الاّ في أواسط القرن التاسع عشر ، وولدت يومئذٍ خديجة هزيلة ، وكان شأنها ضعيفاً ومنزلتها زرية ، ومثلها روايات المسرح . أما الرسائل والبحوث العلمية الوجيزة فلم تقتبس الاّ في العهد الاخير . وعلا بها وسما الكاتب الكبير منيح رفقي

وقد نسقت فنون الادب في هذه المختارات بحسب مولدها وأزمان نشأتها . فكان الشعر في المطلع منها والصدر ، اذ بهِ خصوصاً حدث ذلك الانتقال من أدب الامس الى ادب اليوم . ولا غرابة في ذلك ولا بدع اذ الشعر أروج هذه الانواع وأذيع هذه الفنون

ومن عجب ان الادب التركي حتى الربع الاول من القرن التاسع عشر لم يخرج كاتباً واحداً

بليغاً ولا ناثراً ينثر سحر الفصاحة في نفثاته . لا ، لم يكن في الادب التركي الى هذا العهد ناثرون فحول، بل كان متقدمو كتَّاب الترك الى يوم ذاك يكتبون نظماً وينسجون آراءهم وبحوثهم شعراً وقرضاً . أما كتَّاب النثر ، أعني المؤرخين ومؤلفي المذكرات والوقائع والابحاث العلمية والفلسفية والرحلات ، فما كان النثر في نظرهم فنًّا كدهم الشعر فنًّا . وانما اتخذوه أداة للتعبير خلت من كل قيمة فنية وعريت من حلى الفصاحة وسحر البيان . فكنت ترى الشعر عندهم في أشرف منزلة والنثر في الحضيض الأسفل . فالنثر الحقيقي ، النثر المزدان بقلائد الحسن الذي يذيقك شهد البلاغة والبراعة فما تلألأت شموسه الاَّ من قراب قرن واحد ، ولكنهُ قرن سريّ حافل ، وتاريخ أدب اليوم عند الاتراك يحوي كتَّاباً ناثرين للسحر الحلال من أسلات أقلامهم، هم اقطاب أوحدون من الطبقة الاولى . وتبدأ هذه المختارات من عام ١٩٠٨ ، أي منذ ثلاثين حولاً، غداة ثورة يوليو ، إذ نشأت طائفة من الادباء الترك عرفوا بجماعة فجر المستقبل. وتتألف هذه الجماعة من السلالة الاولى من سلالتي الادباء الذين حوى هذا الكتاب مختار بيانهم ونظم ونثير أقلامهم . بدأوا بالشعر والقصة عملهم ، وصرموا حبل ما بينهم وبين تقاليد بلادهم صرماً لا رفق فيه، ولا معاودة معهُ ، واقتبسوا أساليب الادب الفرنسي، واستجلبوا الى الادب التركي مذاهب الادب الغربي وكان مجليهم في ذلك وفارسهم احمد حاسم ويحيى كمال

اما السلالة الثانية، السلالة الحديثة فقد سلكت سبيلاً أغرى ونهجت غير نهج من سبقوها هم أبناء الثورة وتاجها وصناعة يديها . فهم الى عصرهم ممن سبقوهم أدنى وألصق . تعرفهم بسيماهم ، عليهم طابع هذا العصر وما انماز به من متدارك آثاره ومتتابع أفاعيله وسرعة البرق في احداثه . أمثال فاروق نافذ ونظيم حكمت ونسيب فاضل واحمد قدسي . وفي رأس القصصيين الكاتب الروائي الكبير يعقوب قدري، فقد الف اثنتي عشرة رواية تسامي بها الى الذرى وجعلها في مستوى الرواية عند فحول كتاب الغرب. ومثله القصصي الشعبي الذائع الصيت رشاد نوري ، والقصصي البارع رفيق خالد

اما الرسائل فاشهر من نبغ فيها وأتى بالفلق العجيب فالح رفقي واحمد حاسم وروشن أشرف

أما المسرحيات ، فالفضل للاديب التركي احمد وفيق باشا الذي كان أول من ادخلها على الادب التركي في اواسط القرن التاسع عشر، اذ ترجم روايات موليير. وهؤلاء الادباء المتأخرون ادباء جيلنا هذا هم ايضاً الذين اجادوا تأليف الرواية التمثيلية واحلوها الصدر من فنون الادب التركي . والمشهورون اليوم هم وداد نديم ورشاد نوري وجودت قدرت

والشعراء الجهابذة الذين اقتطف هذا الكتاب ازاهير شعرهم ، احد عشر شاعراً هم احمد حاسم ، ويحيى كمال ، وضيا جو قلب ، وكمال الدين كامي ، وفاروق نافذ ، ونظيم حكمت ، واحمد قدسي ونسيب فاضل ، وبهجت كمال ، ويسار نابي واحمد مهيب احمد ابو الخضر منسي

الاجرام السياسي

تأليف لويس بردال — نقله الى العربية حسن الجداوي — صفحاته ٣٢٦ قطع وسط

علم السياسة أو علم الدولة ، من أوثق العلوم اتصالاً بالحياة ، فهو يتناول الجماعات التي تتألف منها وحدات سياسية مستقلة ، وتنظيم حكوماتها ، وأعمال تلك الحكومة في التشريع ، والحكم ، والسيطرة على الحياة الاقتصادية والثقافية الى حدٍّ كبير ، وتوجيه العلاقات الدولية ، في السبل التي تقتضيها مصلحة الدولة . اي انهُ ينظم علاقة الفرد او الجماعة بالدولة نفسها ، تنظيمهُ لعلاقة الدولة بالدول الاخرى ، ومن أهم القواعد التي يقوم عليها ، الملاءمة بين السلطة والحرية ، فهو لا ينصرف الى العناية بالحكم والحكومة والقانون فقط ، اي بالمنشآت السياسية ، بل من اهم ما يعنى بهِ المذاهب السياسية والآراء الفلسفية التي تقوم المذاهب عليها . فاذا نظرت اليهِ من الناحية التاريخية رأيتهُ يعالج نشوء الدولة وتطوُّر الحكومات ، وتقلُّب المذاهب ، واذا نظرت اليهِ من ناحية العصر الحاضر والمستقبل ، رأيتهُ يقابل وينقد ويرسم خطط الاصلاح ، على ضوء ما في الاحوال والآراء الادبية من تحوُّل

الاَّ ان البشر ولا سيما الحكام ، عرضة لتأثير الشهوات ، فينحرفون احياناً عن الطريق الصالح ، وسبيل الخير العام ، الى تغليب المصلحة الخاصة فيكون الاجرام السياسي . وبذلك يصبح « فن الحكم ذلك الفن النبيل العظيم وقد شوههُ وبدل محاسنهُ الكثير من مبادىء خاطئة جملتهُ فنَّا للكذب والخداع والاضطهاد تحت ستر كاذب من العدالة الموهومة »

والمؤلف وعى تاريخ التطوُّر السياسي في جميع العصور ، فتراهُ يتنقل بينها تنقل عالم راسخ القدم حاضر البديهة واسع العلم ، فاذا مثل على رأي ساقهُ بما حدث في عصر الامبراطورية الرومانية ، تراهُ وقد انتقل الى عصور الملكيات المطلقة يستخرج منها ما يعزز الرأي او يوضحهُ ولا يحط رحالهُ هناك بل يتخطَّى العصور الى العهد الحديث مستخرجاً من الحاضر عبراً وعظات

فانت حين تقرأ هذا الكتاب ، يأخذك سحر التاريخ وقد سيقت اليك نوادرهُ ، واستولى عليك الشعور بحبّ الاصلاح اذ لا بدَّ لك أن تقول مع المؤلف : —

« ولست اجهل ان الشهوات سوف تظل تلعب دورها في شؤون السياسة . ولكن ذلك لا يمنع من ان نأمل أن نرى السياسة يوماً ما أقوم خلقاً وتهذيباً . فلقد نجح العقل الانساني في التخلص من الرق والاستعباد ومن امتيازات الملوك واستبدادهم . فلماذا لا ينجح في أن يجعل السياسة اكثر اعتدالاً وإخلاصاً ، وأقرب إلى العدل والانسانية ؟ »

علم الامراض الباطنة

الجزء الثالث : أمراض جهاز التنفس : للدكتور حسني سبح

استاذ الامراض العصبية والباطنة وسريرياتها في المعهد الطبي العربي بدمشق
طبع في مطبعة الجامعة السورية سنة ١٣٥٦ — ١٩٣٧

سبق لي ان نقدت كتاباً او اكثر غير هذا الكتاب من مؤلفات المعهد الطبي العربي بدمشق وهذا كتاب آخر لا يقل عما سبقهُ في جودة التأليف والطبع . ولا يسعني هنا الآ الاقتصار على نقد المصطلحات الطبية فلا أجاوزها الى غيرها . والكتاب فيهِ الاصطلاح العربي ومعهُ الاصطلاح الفرنسي وجميع الاصطلاحات التي فيهِ حسنة جداً شأن غيرها من مصطلحات المعهد . ويظهر ان المؤلف احد الذين اختارهم الله لتوحيد المصطلحات الطبية في اللغة العربية وانما استميحهُ في مخالفته في بعضها وهي قليلة جداً اي الذي اخالفه فيهِ قليل . ومنها ما يأتي :

قال في ص ٩٤٤ « تثبت المواد الدهنية » واظن الصواب المواد الشحمية كما قال في الجزء الاول ص ٨٧١ ولعله تبع هذه المرة ما جاء في مجلة المجمع اللغوي ولا يخفى ان المجلة قسمان القسم الرسمي وفيهِ القواعد وقرارات المجمع وهذا لا غبار عليهِ وقسم آخر فيهِ مصطلحات علم الاحياء. وان معظم الناس يأخذون كل شيء في المجلة كانهُ صادر من المجمع والامر ليس كذلك . فعلم الاحياء عرضهُ المجمع على الجمهور لنقده كما جاء في المادة ٧ ص ٣٥ وقد نقدته في السنة الماضية في المقتطف ص ٥٤ وص ١٠٤ . وبينت كذلك ان اقوال اللجنة مخالفة لما جاء في القرآن الكريم في الدهن والشحم وان الدهن بهذا المعنى من كلام العامة في مصر والشام وان اهل العراق افصح بهذا المعنى وايضاحاً لذلك اقول : ان الدهن في القرآن الكريم على ما فسره لي السيد معروف الرصافي معناه الزيت او دهن الزيتون وان للشحم انواعاً شحم الالية (الية) وشحم البدن وهو المعروف عند عامة اهل الشام ومصر بالدهن وشحم الامعاء وهو المعروف عند بعض العامة بالشحم . فاللحم الابيض كله شحم بالعربية اينما كان فراجع ما كتبته في المقتطف

ومن الالفاظ القليلة التي اخالفهُ فيها كلمة افرنجي واظن كلمتي حُلاق وحَلَق احسن ولاسيما الثانية وهي عامية سودانية وشائعة كثيراً في السودان فاهل السودان عرب صميم وهم يقولون فلان محلّق اي مصاب بالحلق ويحتمل انها واردة في شعر امرىء القيس ولكنني لا اذكر البيت تماماً . وقد كان امرىء القيس مصاباً بهذا الداء بدليل قوله « يعاودني الداء القديم الذي بيا » وعلى كل فنحن في غنى عن كلمة قد يمتعض منها بعض الاقوام

وفي ما سوى ذلك فالمصطلحات حسنة جداً ولولا الدُهن والشحم لكنت مع المؤلف ومع المعهد الطبي على صلح دائم تام

مصر الجديدة — امين المعلوف

نسمات الربيع

ديوان شعر . لصالح الحامد العلوي الحضرمي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة ١٩٣٦

مؤلف هذا الديوان يستحق منا ومن المقتطف الوقوف طويلاً امام ديوانه . لانهُ يكاد يكون الشاعر الوحيد في جزيرة العرب في عصرنا الحديث الذي استطاع ان يخرج لقراء العربية شعراً يستحق ان يكون موطن قراءة وموضع بحث . وعجيب جدًّا ان يكون هذا شأن شبه جزيرة العرب معنا في هذه الايام وقد عوّدتنا في الزمن القديم ان تخرج لنا من الشعراء الفحول أمثال امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة في الجاهلية . وحسان وابن ابي ربيعة في الاسلام

وشاعر حضرموت شاب كما يلوح من صورته في الكتاب . وكما يبدو من شعره في قوله

غالب همومك ما استطعـ ـت فانما الدنيا غلاب

واغنم شبابك في الحيا ة فما الحياة سوى الشباب

وهو لهذا يحث على اغتنام فرصة الشباب قبل ان يفجأ المشيب . ويدعو الى الفرح ونبذ النواح ومن هذا نستطيع ان نتصوره شاعراً مرحاً فرح النفس مبتسماً للحياة

استفق واغنم الصبا قبل ان يفـ ـجأك الشيب مؤذناً برواحك

قم تملَّ الحياة واملأ غناءً جوّ روض ملآنة من نواحك

هناك ناحية مهمة تعنينا من هذا الديوان وهي الناحية الشرقية . فالشاعر شرقيٌّ قبل ان يكون عربيًّا . تراه دائماً يضرب على هذا الوتر في معظم قصائده . فاذا رثى لا يبكي لان البكاء شأن الضعيف المغلوب على امره . وانما يثير في السامعين الحماسة ويذكرهم — لو نفعت الذكرى — بمجد آبائهم وماضي اجدادهم . ويلومهم ويسرف في لومهم ويقول :

أفاق الشرق بعد النوم دهراً فقام الصين وانتفض الهنود

وثارت للعـلا أممٌ وهبت تجمّع شملها حتى اليهود

ولا يبالي في البيت الثاني ان يغضب اليهود كأنَّ اجتماع الشمل كثير عليهم . . . . وهو شرقيٌّ ايضاً حين يدعو الى الحذر من مدنية الغرب الـكاذبة وزخرفها الباطلة ويتهز لذلك مناسبة في رثائه لابيه فيقول

وحذار لا تغرركمو مدنية للغرب خادعة كلمع الآل

وليس معنى ذلك انهُ جامد قديم وانما هو متوثب الروح جديد النزعة حيث يقول

حتى متى ادعو واندب معشراً ألف الجمود فلا يحول بحال

عبثاً اهيب ولا مجيب كأنني صبٌّ يخاطب ميت الاطلال

ولقد بلغ من توثب روحه وتوقد عزمته انهُ ملَّ ثرثرة الثرثارين واخذ يبحث ويفتش عن الرجل الفعَّال لا القوّال فيقول

يا دولة الاعمال هل لك صولة   انا سئمنا دولة الاقوال
كثر المقال ولا فعال فهل لنا   في قومنا من قائد فعَّال ؟؟

ولا نعدو الحق اذا سمينا شاعر الجزيرة بشاعر الاعياد . فهو لا يترك عيداً يمر من غير أن ينظم فيه قصيدة . وروحه في «العيديات» هي هي روحه الشرقية العربية فهو يدعو الى الجهاد ويستحث قومه الى العلا . ويفيقهم من سباتهم العميق . ويقرعهم على توانيهم بقوله

فما لشعوب الارض هبت الى العلا   خفافاً ولا نزداد الآ توانيا

ولشاعرنا اسلوب يبشر بمستقبل عظيم فهو سهل كما يرى القارىء مما عرضناه سابقاً . وهو واسع الحفظ مما جعل معاني الشعراء السابقين تتوارد على ذهنه فيصوغها في قالبه اسمعهُ يقول :

تعطلت كل اللغى بيننا   واستبدلت عنها لغات العيون

أليس هذا بعينهِ معنى شوقي في بيتهِ المشهور :

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت   عينيَّ في لغة الهوى عيناك

واسمعهُ مرة أخرى يقول :

بذل النفيس لها وجاد بنفسه   هل للعلا فوق النفوس مهور

أليس ذلك مأخوذاً من قول القائل :

يجود بالنفس ان ضنَّ البخيل بها   والجود بالنفس اقصى غاية الجود

وهو يضحك تجلداً منهُ امام الايام حتى لا تشمت بهِ فيقول :

حاربتني ايام دهري فضحكي   حذرٌ من شماتة الايام !

أليس هذا التجلد امام الايام هو بعينه التجلد امام الشامتين الذي يقول فيهِ الشاعر الجاهلي

وتجلدي للشامتين اريهم   اني لريب الدهر لا اتضعضع

ولم يسلم شعره من الضعف احياناً . ولا شك انك تحس معي الضعف في هذا البيت يصف فتاة في فستان اصفر

لصق الفستان بها فغدا   كخضاب في البدن الازهر

وما سمعنا بخضاب في مثل هذا اللون الفاقع ! . واسمعه يقول :

محالٌ ان يشاد خراب شعب   غراب الجهل عشش في ذراه

والخراب لا يشاد وانما الخراب يعمَّر. والبيت يشاد

ويقول مخاطباً القمر

تلوح وتخفى خلال الغصون فهل كنت جاسوس سر البشر

وكلمة « سر » هنا حشو لا فائدة منهُ لان التجسس لا يكون الاَّ على الاسرار . وقد وقع قبل شاعرنا شاعر في مثل هذا الحشو فقال

ذكرت أخي فعاودني صداع الرأس والوصبُ

والرأس هنا حشو لان الصداع لا يكون الاَّ في الرأس ! !

وبعد : فان مصر ترحب بهذا الشعر الذي طال عهدها وعهد العالم العربي على سماع مثله . ونرجو ان تتيح الفرصة لشعراء الجزيرة الساكتين ان يطلقوا الالسن من عقالها . ويفكوا طبيعة الشعر فيهم من أغلالها . حتى نسمع من شعرهم العَجَبْ . (ويعود لنا من كثيرة الطرب)

المنصورة

محمد عبد الغني حسن
مدرس بالمنصورة الثانوية

مجلة جمعية محبي الفن القبطي

المجلد الثالث سنة ١٩٣٧ — مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة

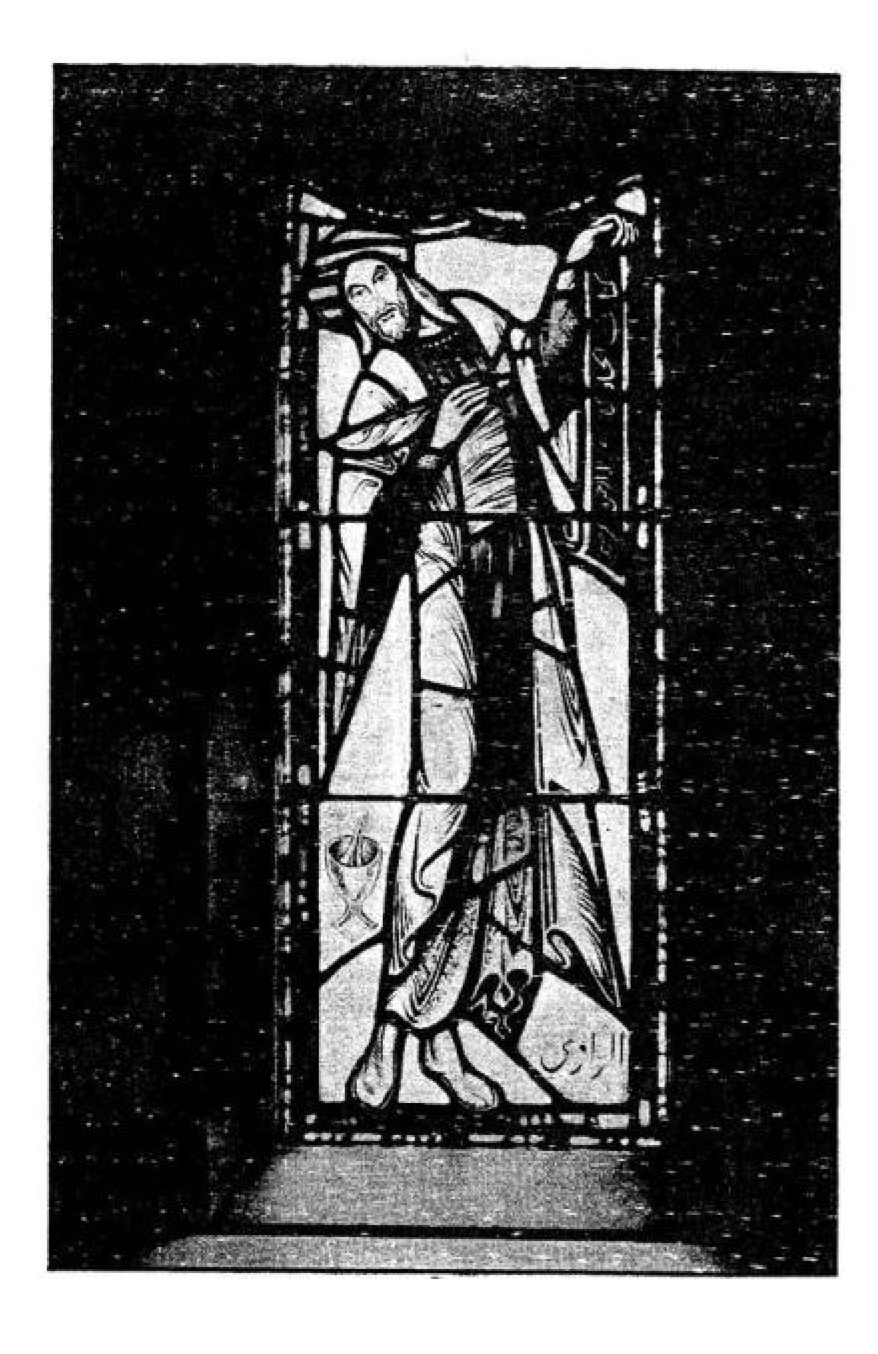
أخرجت جمعية محبي الفن القبطي المجلد الثالث من مجلتها السنوية وهو يحتوي على الابحاث التاريخية والمحاضرات العلمية وغيرها من الدراسات المستفيضة التي القاها اعضاؤها خلال هذا العام ومن المقالات النفيسة لهذا العدد :

دير أبو ليفة السكان بجبل قترانى بشمالي إقليم الفيوم للاستاذ هنري مونييه — نصب قبطي من سمرنة دمشير عثر عليه بالقرب من البويط للمستر انجلباك من امناء المتحف المصري — بعض كؤوس بلورية من العصر المسيحي للاستاذ جاكوب ميوزر — الفن السوري والفن القبطي وهي نص المحاضرة التي ألقاها الدكتور ايتن دريوتون مدير الآثار المصرية — القديس يوليوس الاقفهسي كاتب سير الشهيد واعماله بمناسبة وجود الايقونة المحفوظة له في كنيسة أبي سيفين بمصر العتيقة للدكتور توجوميتا — النحت والتصوير في الفن القبطي للمستر كوستيجان — كنيسة القديس سابان واستشهاد القديس مرقس في اسكندرية للاب يوليوس فيفر

وقد نشرت الابحاث المذكورة باللغتين الانجليزية او الفرنسية . أما المقالة الوحيدة التي نشرت باللغة العربية فهي محاضرة الدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية في « بعض التأثيرات القبطية في الفنون الاسلامية » . وقد حلل فيها جميع العناصر التي اقتبستها الفنون الاسلامية من سابقتها القبطية وزودها بأدلة واضحة من الآثار والنقوش

وبجانب تلك المجموعة الفخمة من الابحاث التاريخية الفنية النادرة عرض الاستاذ مونييه أهم كتب تاريخ الفن والآثار التي ظهرت في عام ١٩٣٧ . وجمعية محبي الفن القبطي واعضاؤها يستحقون تهنئة جميع المشتغلين بالآثار والفنون في العالم

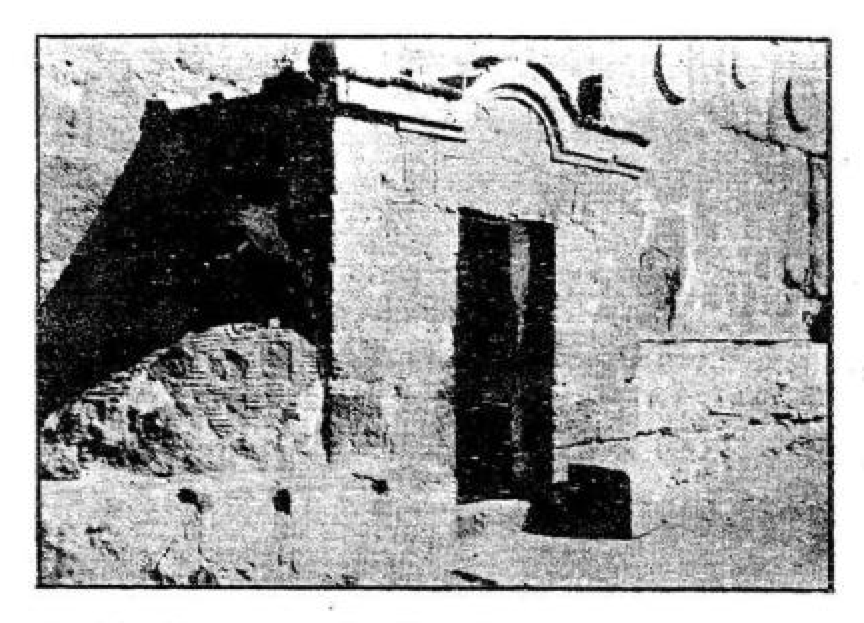
عبد الرحمن


الرازي

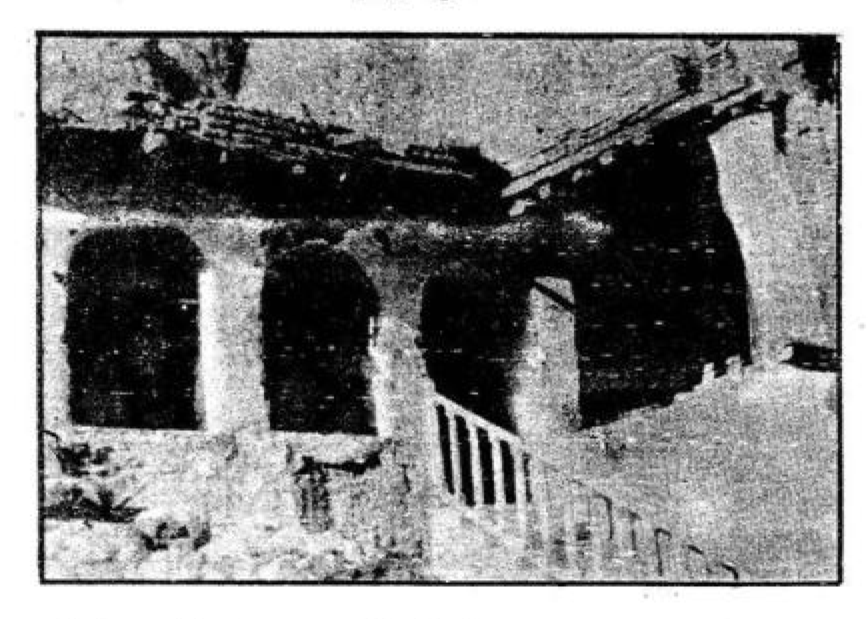


الفيلسوف ديكارت

(جريدة المصري)



مدخل دير طورسينا (تصوير رايتو)



صوامع الرهبان (تصوير رايتو)

سير الزمان

يوميات دولية

١ — العامل الاقتصادى فى الحربين

٢ — من الباب المفتوح الى قانون الحياد

٣ — جامعة الامم وسلطان القانون

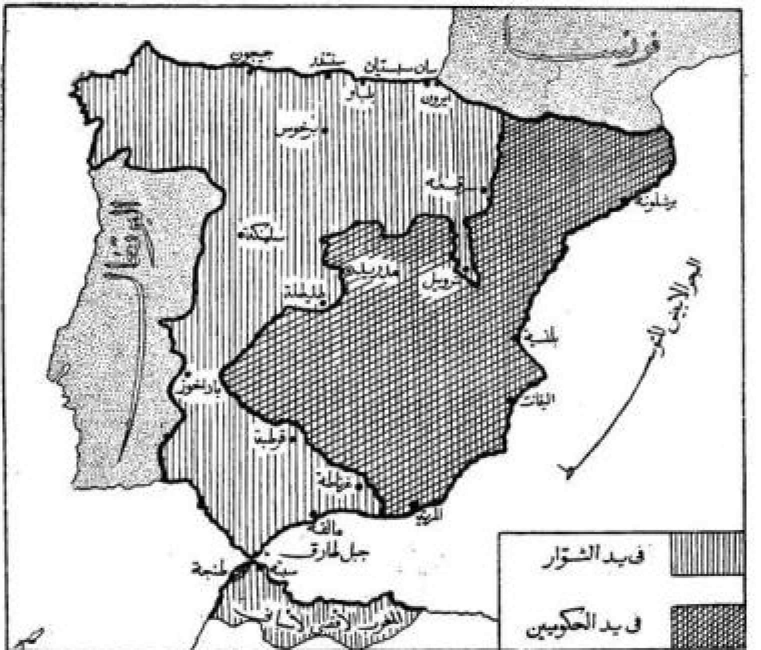
٤ — اقبال وهمى وخطر الانتعاش بالتسلح

٥ — تسلح بريطانيا والسلام

٦ — هروب المبدأ

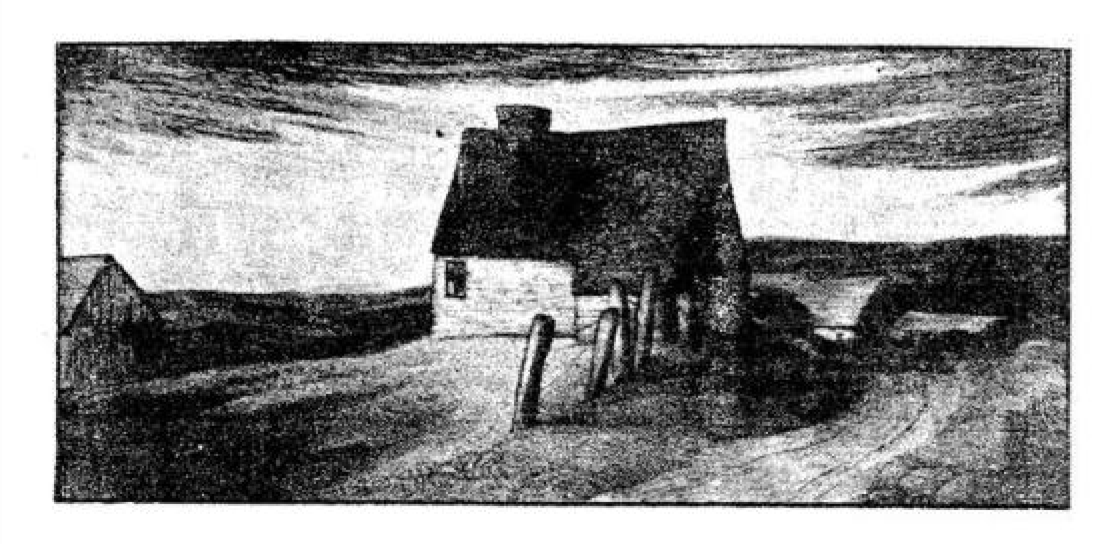
٧ — الطيران الحربى بتحرى الحضارة

٨ — جامعة الامم ونشوء السلام



واقع الحرب في
الشرق الأقصى
وفي أسبانيا

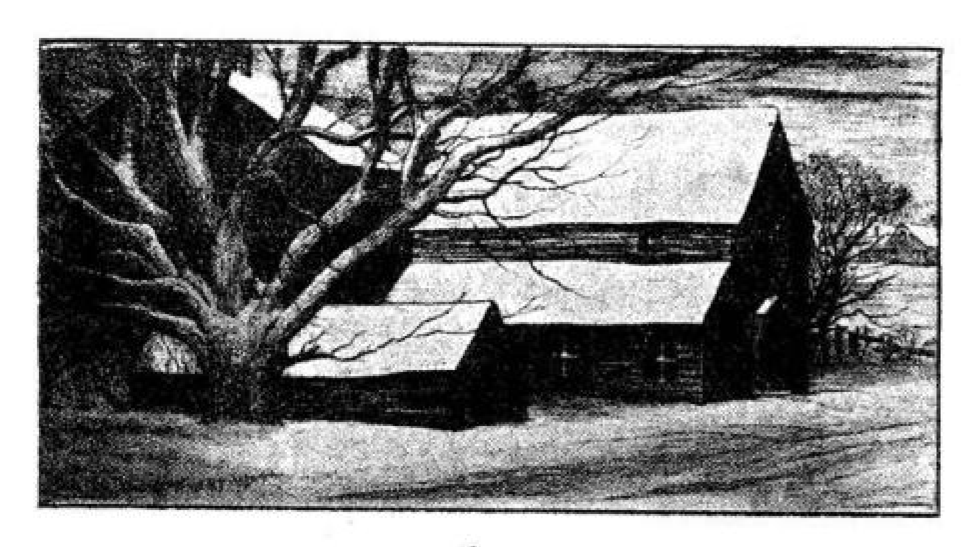
خمس قطع مختارة من آثار
الفنان الاميركي توماس
نايسن Thomas W. Nason



مزرعة
(حفر في الخشب)

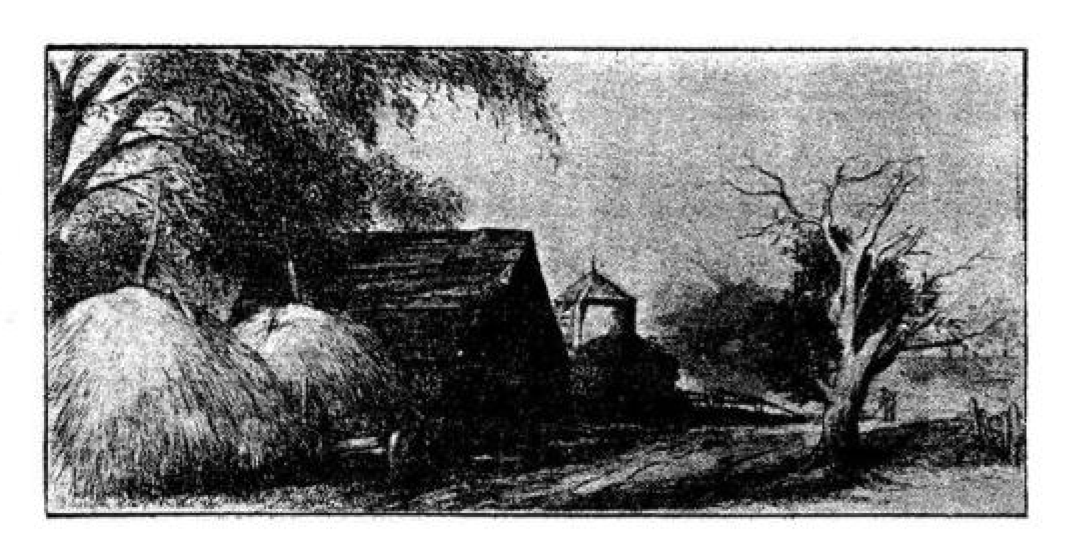


ريح الشرق
(حفر في الخشب)



الثلج المبكر

(حفر في النحاس)



طريق الحقل

(حفر في النحاس)



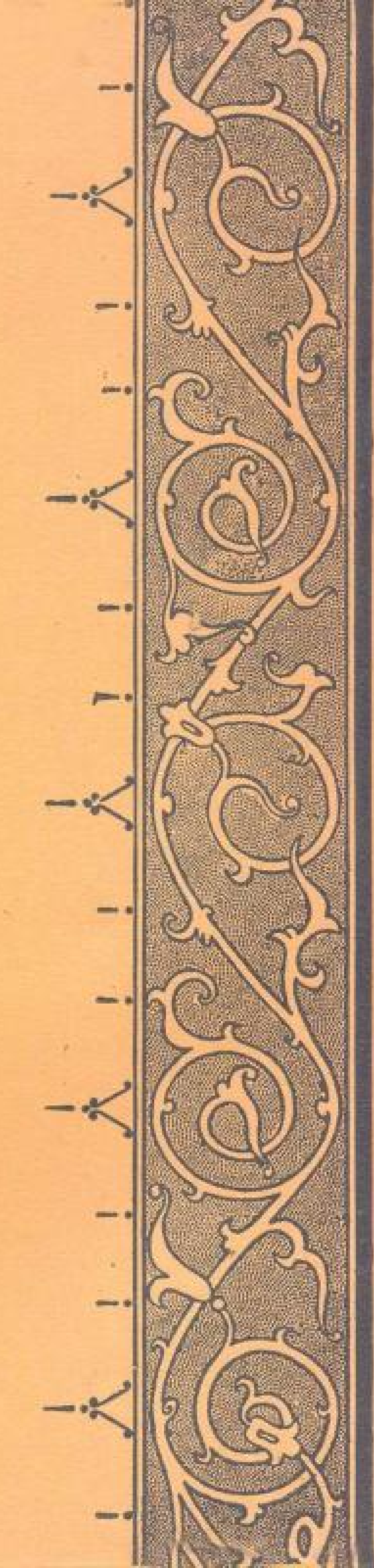
قرية صناعية

(حفر في الخشب)

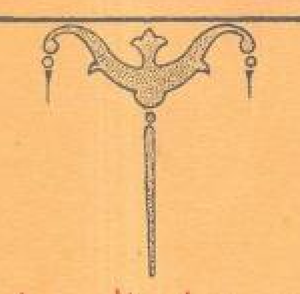
فهرس الجزء الرابع

من المجلد الحادي والتسعين

صفحة







مستقبل العمران

الحب : لادلر

العلم : لهكسلي

التعليم : لولز

الاسرة : لرسل

الاقتصاد : لتشايس

رجال الشهر

غازوورذي ، غاندي ، سايس ، صديق بك

الازمة الاقتصادية

واشتباك المصالح الدولية



الجزء الخامس من المجلد الحادي والتسعين

١ دسمبر سنة ١٩٣٧ — ٢٨ رمضان سنة ١٣٥٦

مدى الحياة

أينفذ العلم الى أسرار التعمير ؟

واذا الشيخ قال أفٍّ فما ملَّ حياة وانما الضعف ملّا
آلة العيش صحة وشباب فاذا ولّيا عن المرء ولّى

ألا ليت الشباب يعود يوماً فاخبره بما فعل المشيب

كذلك يتغنى الشعراء ! اما العلماء فيقولون ، بلسان هولدين J. B. S. Haldane الاحيائي الانكليزي انهُ « اذا استطاع الانسان ان يسيطر على عوامل التطوُّر ويوجّهها الى الجهة المطلوبة نشأ بعد اقل من مليون سنة ، انسان ، يعيش الف سنة او اكثر لا يعاني في خلالها دقيقة من المرض، يفكر كنيوتن (١) ويكتب كراسين (٢) ويصوّر كفرا انجليكو (٣) ويؤلف الالحان كباخ (٤) ويتنزه عن البغض كالقديس فرنسيس الاسيزي (٥) ويقابل الموت كالكابتن اوتس (٦) ويعيش كلّ دقيقة بحماسة العاشق او المكتشف »

(١) نيوتن العالم الانكليزي العظيم مكتشف نواميس الحركة والجاذبية (٢) شاعر فرنسي بليغ (٣) مصور ايطالي عظيم (٤) موسيقي الماني (٥) قديس ايطالي (٦) رائد انكليزي كان في بعثة الكابتن سكوت التي بلغت القطب الجنوبي سنة ١٩١١

صورة عجيبة تتوقعها من شاعر لا من عالم مجرّب. ولكن المباحث التي يقوم بها العلماء الآن متحرين اسباب التعمير واسرارهُ قد تكون نواة ناحية يسيرة، من نواحي السيطرة على التطوّر الانساني الذي يقول بهِ هولدين، ونعني ناحية مدى العمر

الحياة والعوارض

بحث الانسان خلال جميع العصور عن سرّ التعمير. بحث عنهُ في الطعام الذي يأكل، وطوالع النجوم، وخواص الاعشاب، واشعة الشمس والقمر. ثمَّ لما نهضت علوم الأحياء من عقالها ونفذ العلماء الى نواحٍ من خفايا الحياة في الخلية، لقي الانسان في هذه البحوث ما يشجعهُ على الاعتقاد بان مدى الحياة غير محدود بقول صاحب المزامير(١). ثم دخل البحث المختبرات العلمية فحلّ الكيماويون والفسيولوجيون وعلماء الغدد الصم محلّ الفلاسفة والمنجمين وكيماويي العصور القديمة

وإذا شبهت الحياة بالشمعة المضيئة، فكلتاهما معرضة للانطفاء، بنفاد الطاقة الكامنة فيها، أو بفعل عارض يطرأ عليها. والعوارض التي يتعرَّض لها جسم الانسان تتباين من الاصطدام بسيَّارة الى الاصطدام بمكروب. فاذا صدمت سيارة مغذة طفلاً وقتلتهُ قلنا ان سبب الوفاة عارضٌ Accident ولكن اذا نجا الطفل من صدمة السيارة ثم أصيب بالدفتيريا ومات مختنقاً بها قلنا أن سبب الوفاة الاصابة بالدفتيريا. مع إن الاصطدام بالميكروب لا يختلف نوعاً عن الاصطدام بالسيارة. كلاهما من الاسباب الخارجية التي تطرأ على الجسم، وقد تطفىء شعلة الحياة فيه. وعليهِ يصحّ ان نقول ان جميع الامراض المعدية، سواء أمن ميكروب نشأت أم من فيروس(٢)، تحسب في طبقة الحوادث العارضة التي تصيب الانسان

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن الاستاذ ريموند برل — وهو أحد الاحيائيين الاميركيين — قضى سنوات في جامعة جونز هبكنز وهو يدرس التعمير في الانسان من الناحية الاحصائية، وذلك باحصاء الاعضاء المصابة في المتوفين، واسباب اصابتها. وفي أحد احصاءاته

---

(١) المزمور التسعون: والآية — ايام سنينا سبعون سنة وان كانت مع القوة فثمانون سنة

(٢) الفيروس: لفظ يطلق على نوع من السموم التي تحدث الامراض ولم يعرف لها قوام بعد

قسم اعضاء الجسم قسمين عامين احدهما يشمل الاعضاء المعرضة للتأثر تأثراً مباشراً بالبيئة الخارجية وثانيهما يشمل الاعضاء التي لا تتصل بالعالم الخارجي عادة كالقلب واوعية الدم . وعلى هذا الاساس بوّب ما يعرف عن نحوستة ملايين وفاة حدثت في اميركا بين سنتي ١٩٢٣ — ١٩٢٧ فوجد ان أمراض الطائفة الاولى من الاعضاء سببت معظم الوفيات في الذين عمرهم يختلف من ٢٠ إلى ٢٤ سنة ، وسببت معظمها كذلك ولكن بدرجة اقل ، في جميع الوفيات الى سن الخامسة والاربعين

اما اصابات اعضاء الطائفة الثانية فكانت سبب معظم الوفيات في الذين كان عمرهم يربي على الستين ولا سيما في الذين بلغوا التسعين او تخطوها . وقد يقول القارىء ان وفيات الذين تجاوزوا التسعين قليلة لا تصلح اساساً للاحصاء ولكن الواقع ان عدد المتوفين من الذي كانوا في التسعين أو تجاوزوها — في هذا الجدول — بلغ ٨٥٫٠٣١ وهو اساس احصائي لا بأس به

والرأي الذي خرج به من هذه الاحصاءات ، ان الشبان والشابات الذين بين العشرين والثلاثين من العمر الى سن الخامسة والاربعين ماتوا على الاكثر بما اصاب أعضاءهم المعرّضة للخارج من طوارىء كالاصطدام بمكروبات او سيارات او ما اليها . اما المتقدمون في السن ، الذين تغلبوا على هذه الطوارىء ، إما لقوة بنيتهم او مناعتهم واما لحسن حظهم ، فقد قضوا اخيراً بالضعف والخور اللذين أصابا اعضاءهم الداخلية

فالبحث الحديث في اسرار التعمير ، يتجه الى فهم هذا الضعف الذي يصيب الاعضاء الداخلية فتضحي عاجزة عن المضي ، كما تنطفأ الشمعة عند ما ينفد شحمها . هل هذا العجز من مقتضيات الحياة ، لا سبيل الى درئه وفقاً لناموس « الحركة الحرارية » الثاني ؟ او هو عارض ، ناشىء من احوال يمكن اجتنابها وان النسيج الحيّ يستمرُّ حيًّا الى مدى بعيد لولا طروؤ بعض العوامل عليه

من الطبيعي ان تكون التجارب التي تجرّب في معاهد العلم ، مقتصرة على الحيوانات كالارانب والجرذان والسمك وذباب الفاكهة وبراغيث الماء وثمار نبات الصنطاوي وغيرها ، وذلك لان التجربة بالانسان في ما يتعلق بشعلة الحياة، مما يحظره الاجماع الآن، ولان التجربة بالحيوانات والنباتات ، أقرب خضوعاً لقواعد البحث العلمي وحدوده من الانسان

التعمير والوراثة

من المسلَّم به من قديم ان في الجسم نزعة وراثية الى التعمير. والاحصاءات الخاصة بالوفيات تؤيده . فبحث تاريخ المعمرين يسفر عن ان والديهم وأجدادهم كانوا كذلك على الغالب وشركات التأمين تقيم لهذا الاعتبار وزناً كبيراً . والتجارب العلمية تدل على ان القدرة على التعمير ، ينالها الآباء الى الابناء بدقة رياضية تكاد تشبه في قاعدتها وراثة الصفات الوراثية المختلفة

وقد اثبت الدكتور پرل هذه الحقيقة بسلسلة من التجارب اجراها على ذباب الفاكهة . بدأ التجربة بزوج مختار من الذباب ، ثم تتبع ذريتهما وذرية ذريتهما اجيالاً متعاقبة في ادوار حياتها المختلفة من الولادة الى الوفاة . فكان كلما خرج جيل جديد من الذباب من دور الدعموص (وهو يقابل الولادة في الانسان) يدوّن التاريخ وينقل الجيل الجديد الى زجاجة جديدة نظيفة تحتوي على غذاء صالح وافرٍ قوامهُ الموز المهروث . اما أحوال الهواء والرطوبة والحرارة فيها فعلى خير ما يتمنى هذا الذباب. ثم كان بعد ذلك يتركها وشأنها ، ولكنهُ يسهر على مراقبتها حتى يعرف متى تموت . فبعضها كان يموت في شرخ الصبا، وبعضها في متوسط العمر وبعضها يعمر . ووجد كذلك ان اليوم في عمرها يقابل السنة في عمر الانسان بوجهٍ عام. فالذبابة التي في اليوم الاربعين من عمرها تقابل الانسان في السنة الاربعين من عمره ، في نضج التركيب . اما الذبابة التي بلغت اليوم التسعين من عمرها ، فهي ذبابة شيخة ضعيفة . وقلّ منها ما يبلغ هذا العمر

بين ألوف الذباب الذي تناولهُ الاستاذ پرل في بحثه ، بعض ذبابات تتصف بصفات خاصة في تركيبها الجسماني ، تعرف عند علماء الاحياء بالتحوُّلات الفجائية Mutations واحدى هذه الصفات قصر في الاجنحة . ولاحظ علماء الوراثة ان الذبابات المتصفة بهذه الصفة ، أضعف بنية من الذباب السوي ، ومعدَّل الوفاة بينها أعلى منهُ بين الذباب السوي . ثم تلا ذلك درس پرل الاحصائي فأثبت ان هذه الذبابات أقصر حياة من الذباب السوي نحو الثلث او اقلّ قليلاً

وكانت الخطوة التالية في هذه التجربة ، ان يؤخذ من الذباب ذكر سويّ ويزاوج بذبابة متصفة بقصر الاجنحة . فكان من ذريتهما ذباب قصير العمر، وذباب طول عمره سويّ، وكانت النسبة مما يدلّ على ان طول العمر صفة تورث طبقاً لقاعدة الوراثة المندلية (نسبة الى مندل Mendel) . ثم والى هذه التجارب ونوّعها فأثبت ان ترتيب عوامل الوراثة في البيضة ، لا يتحكم في صفاتها المتوارثة فقط بل وفي طول عمرها كذلك

التعمير وبرد الجسم

وكان قد سبق هذه التجارب ضرب آخر من البحث قام به العلاّمة جاك لوب Loeb وجون نورثروب في معهد ركفلر الطبي . ذلك انهما كانا معنيين بمعرفة اثر الحرارة في مدى الحياة . فاخذا كمية بيض حديث من بيض ذباب الفاكهة . وقسماها طوائف وضعا كلّ طائفة في زجاجة سدّاها بقطن . واتخذا كل وسيلة ممكنة لوقاية هذا البيض من العدوى ، بتعقيم البيض والزجاجات والغذاء الذي فيها . ووضعت هذه الزجاجات في احوال متماثلة كل التماثل الاّ في درجة الحرارة التي عرضت لها . فوضعت كل زجاجة منها في مستنبت تختلف حرارتهُ ، عن حرارة الآخر ، ثم جعل الباحثان يراقبانها مدى حياتها . وكانت النتيجة ان الذبابات التي كانت في مستنبت حرارتهُ ٣١ درجة مئوية عاشت ٢١ يوماً والذبابات التي كانت في مستنبت حرارتهُ ٢٠ درجة مئوية عاشت ٥٤ يوماً والذبابات التي كانت في مستنبت حرارتهُ ١٠ درجات مئوية عاشت ١٧٧ يوماً

اي انهُ كلما برد الجو الذي تعيش فيهِ الذبابات طال مدى عمرها . ولا يخفى ان الكيماوي يعتمد على الحرارة في تعجيل التفاعلات الكيمياوية ، فيلوح اذن ، ان ازدياد الحرارة في حياة الذباب يعجّل التفاعلات الكيمياوية في جسمها ويقصر في عمرها

وقد كتب العلامة لوب على أثر هذه التجارب انهُ لو كان في الامكان نقص حرارة الجسم الانساني السوية من ٣٧ر٥ مئوية الى ١٦ درجة مئوية لماثل الانسان متوشالح في مدى حياتهِ . وانهُ لو كان في الامكان حفظ حرارة دم الانسان على درجة ٧ر٥ مئوية لزاد مدى عمرهِ ، على هذا الاساس سبعة وعشرين ضعفاً اي لزاد من ٧٠ سنة في المتوسط الى نحو ١٩٠٠ سنة

من المتعذر ان تصور الانسان مضحياً بالراحة والنشاط ، مقبلاً على الاستكنان — وهو ما يقتضيهِ برد الجسم والدم — في سبيل اطالة العمر . حتى ولو كان ذلك مقبولاً عنهُ بعض الناس ، لتعذر لان الانسان يختلف عن الحيوانات الباردة الدم ، في انهُ يحتفظ بحرارة جسمه مستقلة عن حرارة بيئته ، اي ان حرارة جسمهِ السوية لا تهبط في بيئةٍ باردة ولا ترتفع في بيئةٍ حارّة . وسواء في البلدان الاستوائية عاش ام في المناطق القطبية فحرارة جسمهِ تبقى نحو ٣٧ درجة مئوية

وقد عني الدكتور الكسيس كاريل بهذا الموضوع ، في محاضرة القاها في اكادمية نيويورك الطبية فقال انهُ في الامكان وضع الحيوانات في حجرة باردة فتبطئ افعال الجسم الحيوية ، ثم تُرَدّ

هذه الحيوانات الى حياتها السوية ، وكذلك تتوالى فترات التبريد والحياة السوية بحيث يصبح في الامكان ان يمدّ مدى حياتها . ولكن الدكتور كاريل لم يوضح هل يدخل الانسان في الحيوانات التي اشار اليها أم لا . إلاّ ان الحرارة ليس الاّ عاملاً واحداً من عوامل البيئة المتقلبة

مدى الحياة والازدحام

ولكن ماذا يحدث للذباب اذا عاش جماعات مزدحمة في نطاق ضيق ؟ اتجه الدكتور پرل في الرد على هذا السؤال الى التجربة ايضاً . اخذ عدداً من الزجاجات من حجم معين ، فوضع فيها غذاء مناسباً ، ثم زجّ فيها طوائف من الذباب مختلفة العدد . ففي طائفة من هذه الزجاجات ، وضع في كل زجاجة ذبابتين . وفي طائفة اخرى وضع في كل زجاجة خمس ذبابات . وكذلك مضى في زيادة عدد الذبابات في الزجاجات الواحدة ، متدرجاً من ذبابتين الى خمسمائة ذبابة . وكان كل هذا الذباب من عمر واحد ومن طراز سويّ . فهل كان مدى حياتها جميعاً في جميع الزجاجات واحداً ؟ كلاّ

إن الزجاجات التي كانت تحتوي كل منها على مائتي ذبابة ، فقدت نصف ذبابها موتاً بعد سبعة أيام . وأما الزجاجات التي كانت كل زجاجة منها تحتوي على ٣٥ ذبابة فلم تفقد نصفها موتاً إلاّ بعد خمسة واربعين يوماً . اذن ما هو عامل التمييز هذا ، الذي تؤثر الحرارة والازدحام فيه ؟ هل هو قدر مخزون من الحيوية يولد في الجسم

اخذ الدكتور پرل طائفة من الذباب حديث الولادة ، ووضعها في زجاجات لا غذاء فيها ، اي انهُ علّق مدى حياتها على حيويتها التي فطرت عليها . فكان متوسط حياتها اربع واربعين ساعة . ثم اعاد التجربة نفسها ، منوعاً في عدد الذبابات التي في الزجاجات المختلفة . فلم يؤثر الازدحام او قلتهُ في مدى حياتها ، لان متوسط مدى حياتها كان اربع واربعين ساعة كذلك .

ثم أخذ ذبابات من المتصفة بقصر الاجنحة وضعف البنية وقصر العمر ووضعها في زجاجة لا غذاء فيها ، ثم أخذ ذبابات اخرى من الطراز السويّ اجنحةً وطول عمرٍ ، ووضعها في زجاجة أخرى لا غذاء فيها ، ولكن قوة البنية وطول العمر الموروثين ، في هذه وفي تلك ، لم يؤثرا في مدى الحياة ، لانها ماتت جميعاً في نحو اربع وأربعين ساعة . وهذا الجزء الاخير من التجربة ، يدلُّ ان الحيوية الموروثة ، ليس بالعامل الاساسي الوحيد في مدى العمر ، والاّ لو كانت الحال كذلك ، لكان مدى عمر الذبابات السوية أطول من مدى عمر الذبابات الاخرى

سرعة التفاعلات الحيوية

وقد عولجت هذه المشكلة ذاتها بتجارب اجريت على بذور ثمار الصنطاوي . فقد أخذت طائفة مختارة من بذور هذا الثمر ، من ثمرة واحدة ووزنت واحدة واحدة حتى تتساوى من حيث مقدار الغذاء المطوي في كل بذرة ثم تركت حتى تمتصّ ما تستطيعهُ من الرطوبة مدّة ثلاثة ايام . ثم وضعت كل بذرة على طبقة من هلام « الاجار » في انبوب من الزجاج ، ثم أدخلت الانابيب في مستنبت حرارتهُ ٢٠ درجة مئوية واقفل المستنبت حتى لا يتصل بهذه البذور اي طاقة من الضوء المستطير او الواقع عليهِ . ولا يخفى ان هلام الاجار ليس مغذياً وانما استعمل ليكون بمنزلة فراش لين تنشب فيهِ جذور النبات . ثم تبدأ البذور في الانتاش فيمتد منها جذر الى تحت وتفرخ جذعاً يطلع في الهواء ، وتمضي نامية نموًّا سويًّا بضعة ايام فيرتفع جذعها حاملاً فلقتي البذرة ويتفرع جذرها حتى تبلغ اقصى درجة النمو ، ثم تقف عن النمو وتبقى بضعة ايام لا تتغير حالها . في خلاياها دبيب الحياة وافعالها الحيوية سائرة على ما تتوقع ولكنها لا تزداد حجماً ولا فروعاً فكأنها في حالة استكنان

فحالة النبتة في دور النماء ودور الاستكنان ، مستقلة من الوجهة الغذائية ، عن البيئة . فهي كذباب الفاكهة في تجربة التجويع ، تعيش على ما هو منطوٍ في البذرة من الغذاء . ثم تبدأ فلقتا البذرة في الذواء عند ما يبدأ الغذاء المخزون في النفاد ثم يحلُّ يوم يضحي فيهِ ما بقي من هذا الغذاء غير كافٍ لافعال الحياة في دور الاستكنان ، على قلتها وضعفها ، ثم تذوي الجذوع وتشرع النبتة تموت

بعض هذه النباتات يموت قبل غيره ، ولكن العجيب ان البحث اثبت ، ان مدى الحياة كان مرتبطاً فيها جميعاً بدور النماء . فاذا كان دور النماء طويلاً كانت مدة الاستكنان اطول من المتوسط واذا كان دور النماء قصيراً اسرعت النبتة على طريق الموت . فكأنها مثل بليغ على نتيجة التبذير في ما تغدقهُ الحياة علينا من الهبات

هذه الصلة بين مدى الحياة وطول دور النماء يمكن ان تقاس بطريق آخر ، وهو مقدار ما تطلقه النباتات في الفضاء من ثاني اكسيد الكربون ، لان هذا الغاز دليل على درجة نشاط الحياة . فمن هذه البذور ما عاش ١٤ يوماً وأخرى ١٥ يوماً واخرى ١٦ يوماً . ومن ابدع ما قرأناه

عن هذه التجربة ان القائمين بها استنبطوا اسلوباً دقيقاً كل الدقة لقياس ما تطلقهُ هذه النباتات الصغيرة يوماً يوماً من ثاني اكسيد الكربون . ثم حسب متوسط ما تطلقهُ هذه النباتات كل يوم من هذا الغاز وجعل مقياساً رمز اليهِ بالرقم ١٠٠ ثم قوبل ما تطلقهُ النباتات التي عاشت ١٤ يوماً فاذا هو ١٠٤ وما تطلقهُ النباتات التي عاشت ١٥ يوماً فاذا هو ١٠٢ وما تطلقهُ النباتات التي عاشت ١٦ يوماً فاذا هو ٨١ اي ان النباتات التي لم تكن فيها افعال الحياة نشيطة كل النشاط (بدليل ان ما اطلقتهُ من ثاني اكسيد الكربون كان ٨١ في المائة) كانت اطولها عمراً

تعمير الاناث والذكور

والاناث اطول عمراً في المتوسط من الذكور . والرأي الغالب ان سبب ذلك أن نشاط الذكور اعظم من نشاط الاناث بوجهٍ عام . والتجربة التي افضت الى هذه النتيجة لا تقل براعة ودقة عن التجارب التي تقدم ذكرها . وقد اجراها باحثان من بحّاث جامعة تورنتو بكندا على حشرات تعرف باسم براغيث الماء وهي ليست ببراغيث بل هي نوع من الحيوانات العضلية تدعى « دفنيا » . اخذ هذان الباحثان عدد نبضات القلب مقياساً للنشاط الحيوي في الجسم فوجدا ان الذكور تعيش في المتوسط ٣٧ر٨ اليوم ومتوسط نبضات قلبها ٤ر٣ في الثانية حالة ان الاناث تعيش ٤٣ر٣٣ من اليوم في المتوسط ومتوسط نبضات قلبها يبلغ ٣ر٧ في الثانية . فاذا ضربت عدد الايام في عدد النبضات ثبت لك ان الوفاة تدرك الاناث والذكور بعد ان ينبض قلب كلّ منها عدداً متقارباً من النبضات (الذكور: ٣ر٤ × ٨ر٣٧ = ١٦٢ر٥٤ — الاناث: ٣ر٧ × ٣٣ر٤٣ = ١٦٠ر٣٢١) وحاصل الضرب ليس عدد النبضات التي ينبضها القلب مدى ايام الحياة ، لاننا حذفنا من عملية الضرب عدد الثواني في الدقيقة وعدد الدقائق في الساعة وعدد الساعات في اليوم ، ولما كان هذا العامل واحداً في العمليتين ، فحذفهُ لا يغيّر النتيجة النهائية

الا ان عدد نبضات القلب ليس الدليل الوحيد على نشاط فعل التمثيل (Metabolism) في الجسم . ذلك ان مقدار ما يطلقهُ الجسم من ثاني اوكسيد الكربون مقياس آخر وقد تقدمت الاشارة اليهِ . ومقدار ما يستهلكه من الاوكسجين مقياس ثالث . ومقدار ما يستهلكه من الغذاء مقياس رابع — وهذا المقياس الاخير يهمنا بوجهٍ خاص لان لهُ صلة عملية بحياتنا اليومية . ولكن بحثهُ لا يتسع لهُ نطاق هذا المقال . فوعدنا بهِ في عدد تالٍ (مجلة هاربرز)

ياقوت صروف

لخليل ثابت بك

وكذلك يشاء القضاء أن يفقر الدنيا ليغني الآخرة بانتقال الارواح الكريمة والنفوس النفيسة والدرر الغالية فلا يبقى منها هنا سوى حديث فضلها وذكرى جميل فعلها مقرونين بلوعة الحزن وغصة الاسى

وكذلك يفرق الموت بين الاحباء فاذا استراح به الراحلون اورث الاحياء الآسفين حنيناً اليه عسى ان تجد النفوس الواجدة الراحة التي سلبها وتظفر النفوس الحارّة بالهناء الذي انتزعهُ بقسوة الداء وشره الجائع وعنفوان المستبد الظالم

وكذلك تذبل زهرات الحياة النضرة كما تذبل أزهار الحدائق وتسقط الثمار البشرية الشهية كما تسقط ثمار الشجر اليانعة

وكذلك يتضاءل نور الوجود في عصر الحياة كما يضعف نور الشمس في عصر النهار الى ان تأذن بالمغيب وتتوارى بالحجاب وراء أفق يخيم عليهِ الظلام . أتشرق شمس الحياة فيما بعد كما تعود شمس العالم الى الشروق .

كانت ياقوت صرُّوف كاسمها في حسن منظرها وصفاء ذاتها وبهاء نورها وسموّ خلقها فكانت زينة بيت والديها وتاج دار زوجها وأسرتها حباها الله بذكاء نادر وطبع رقيق وخلق كريم وحنان يسيل رقة وعذوبة في حديثها ويتجلى في فعالها وعطفها على القريب والبعيد ورأفتها بالذين لم يرزقهم الله مثل الذي رزقها . وعزَّز هذه المناقب والخلال فيها أنها نشأت في بيت فضل وطلبت العلم من الصغر على مربيات فاضلات أنسنَ فيها هذه المكارم والمحامد فعكفنَ على تربيتها وتهذيبها فكانت واسطة عقد أترابها وقطب بهجة مدرستها والعزيزة المدللة من معلماتها ومربياتها حتى اقترنت

بقرينها العالم الكبير فانشأت بيتاً ظلّ في حياتهما مطلع نور ومباءة فضل زهاء خمسين عاماً وكان مقصد أهل العلم والحجى ومحجة أنصار الأدب والثقافة من شرقيين وغربيين والجميع معجبون بما يشهدون وما يسمعون وما يلقون من حسن الاستقبال والضيافة وما يأنسون من سلامة الذوق وجمال المعيشة البيتية المتوجة بتاج الكمال والوفاق

وكانت فقيدتنا والدة رؤوماً لاولادها وأمّاً حنوناً للذين أتاح لهم حسن حظهم أن يفوزوا بعنايتها واهتمامها ولطالما لجأنا اليها نستنير برأيها ونهتدي بهديها ونفرّج همومنا بنصحها وعطفها وحنانها ولطالما عوّلنا عليها في حل المشكلات وتفريج الازمات وعلاج المعضلات . واذا كان قرينها الفيلسوف الكبير قد استطاع أن يبلغ ما بلغ من نجاح وما ادرك من مقام في دوائر العلم وعالم السياسة فمعظم الفضل في بلوغ ما بلغ عائد اليها بما كفلت لهُ من المعيشة البيتية الهنيئة والسعادة المنزلية الكاملة حتى توفر على عمله معتمداً على السيدة الحكيمة المدبرة والزوجة الفاضلة التي قال الحكيم قديماً في وصفها ان ثمنها يفوق اللآلىء

وكان اعجاب علماء الغرب وادبائه من الذين كانوا يؤمون دار آل صرُّوف بذكائها وثقافتها وسعة اطلاعها واتقانها للغة الانكليزية اتقاناً جعل كثيرين منهم يعتقد أنها انكليزية الاصل يضارع اعجاب علماء الشرق وادبائه من الذين كانوا يقصدون تلك الدار حيث العلم والنهى والثقافة ومكارم الاخلاق ومظهر الحياة الزوجية الكاملة التي رفرفت عليها السعادة بفعل المرأة الكريمة والعقيلة الفاضلة والأم الحكيمة

قالت لي سيدة شرقية من كرائم العقائل لقد زرت معظم بلدان اوربا والشرق واكلت في اكبر الفنادق وفي بيوت عظماء كثيرين فما جلست الى مائدة طعام اشهى وانظم من مائدة مدام صرُّوف . فاذا أضيف الى حسن التنسيق وجمال الترتيب واتقان كل شيء بشاشة الوجه ورقة الحديث وحسن الاستقبال كان من المجموع صورة لا تنسى

وشبهتها سيدة أخرى كانت شديدة الاعجاب بها بربات القصور في الاقاصيص وعصور التاريخ الماضية بما كان يبدو عليها من سيماء الوقار وسموّ النفس مع رقة تجمل حسنها الذي لم يفارقها الى آخر أيام حياتها

وكتب كاتب انكليزي كتاباً من ثلاثين سنة عن مصر بعد زيارة لها خصّ بيت صرُّوف بفصل أعرب فيه عن حسن تقديره واعجابه وهذا الذي كتبهُ بعد ما غادر وادي النيل يؤيدهُ

كثيرون من الذين أتيح لهم لقاء هذه السيدة الكريمة فتجلت لهم مناقبها ومواهبها فاكبروا نعمة الله وتحدثوا بما لقوا وما شهدوا

وقد ظلت فقيدتنا الى أيامها الاخيرة حافظة لجميع قواها شديدة العناية بمظهرها وحسن بزتها فكانت مثال ما تحب السيدة المثقفة ان تكون وكانت تتبع سير أمور العالم بدقة واهتمام بالمطالعة والسفر ومحادثة الذين يزورون بيتها الكريم فكانت من هذه النواحي مجارية للشابات وظلت حافظة لنشاطها وعنايتها بما حولها الى آخر اسبوع من أسابيع حياتها الغالية فلا غرو اذا عظمت الخسارة بموتها ولا عجب اذا تحسر عليها عارفوها واصدقاء أسرتها الكريمة وسائر الذين عرفوا فضلها وقدرها

لقد ماتت ياقوت صرّوف ولكن ذكراها حية باقية بما أسدت من خير وما صنعت من جميل وما تجمّلت به من مكارم وما بذلت من عون وعطف فصورتها مرسومة في قلوبنا وفضلها منقوش على ألواح صدورنا وسنظل نعم باحصاء مآثرها ومناقبها وخلالها ونردد صدى مكارمها ومحامدها الى ان يجمع الله شملنا بها وبالذين سبقوها بعد عبور نهر الاحزان واجتياز برزخ الاسى والاشجان الى عالم ليس فيه موت ولا فناء

وأنا الذي كان موضع عطفها ورعايتها والذي غمرته بفضلها خمساً وثلاثين سنة والمدين لها بكثير مما أصاب في هذه الحياة وقد قامت على تربية أعز الناس اليه في طفولتها فكانت لها بمثابة الوالدة وعاملتها معاملة كريمة — فقدتها اليوم كما فقدت تلك العزيزة الحبيبة وقد تجاورتا الآن في القبر كما تجاورتا في هذه الحياة وكما ارجو ان تتجاورا في الآخرة . فاليوم اقف على القبرين أنوح وابكي واندب من خسرت واحصي ما اضعت ثم انقلب كاسف البال مقروح الكبد موجع القلب ولا معين لي الاّ البكاء ولا انيس الاّ الرثاء ورجاء اللقاء في عالم تمسح فيه الدموع وتغسل فيه ادران الاحزان

ايتها الفقيدة العزيزة

لقد عصاني القلم فقصر عن توفيتك حقك من رثاء ووصف لفضائلك ومكارمك . وجمد الذهن فلا يلبي داعي القلب فحسبي ان ابذل ضريحك بسيل الدمع فذلك أشفى للنفس من قطرات المداد تسيل على الورق فلا تروي الغليل ولا تفي بالمرام . ورحمة الله عليك باضعاف ما أنا مدين به لك ولقرينتك وما أكنُّه لكما في صدري من محبة وحسن ذكرى وعرفان للجميل

رحمة الله عليكما كليكما والى اللقاء

خليل ثابت

التحليل النفسي

ونظرية فرويد

للدكتور ابراهيم ناجي

عبء ثقيل

ان دراسة التحليل النفسي على جانب عظيم من خطر الشأن لاسباب متعددة . فهي اولاً دراسة مبادىء جديدة تكاد تقلب علوم النفس والاحياء والاجتماع رأساً على عقب . وثانياً انها على صلة وثيقة بحياة فرويد مبدعها ، وهو رجل جريء الرأي ، دقيق الاستنتاج ، سديد القصد في البحث عن الحقيقة . ثم ان الكاتب الالماني الكبير ستيفان زفيج أفرد فصولاً في كتابه « الشفاء بالروح » لدراسة موضوع المسائل الجنسية وهو من اكثر الموضوعات العصرية استرعاء للعناية ، فدافع دفاعاً بليغاً عن التحليل النفسي ثم قابل مقابلة شائقة بين ادب النفس في القرنين التاسع عشر والعشرين

كانت المسائل الجنسية من اقدم الازمان من المسائل التي لا يباح بحثها علناً . فقد كان القرن التاسع عشر قرن مكتشفات ومخترعات عظيمة في العلوم النظرية والتطبيقية . بل كان عصر غرور علمي ، لانهُ اذا كانت الطبيعة على جبروتها قد انحنت امام قوة الذكاء البشري ، فقد كان مما تقتضيه الطبيعة والمنطق ان ينظر الناس باحتقار الى الرغبة الجنسية ، ذلك الوحش الكامن في دم الانسان ! وكذلك حمل الانسان مدفوعاً بالغرور والكبرياء على السؤال : كيف نعالج هذا الوحش الضاري ؟ أنقتله ونبيده ؟ فكان الجواب : كلاَّ : لنهمل يمت غمًّا واحتقاراً . وكانت النتيجة ان مؤامرة واسعة النطاق دبّرت لهذا الغرض اشتركت فيها المدارس والصحف والجرائد والعلماء والقسوس والاطباء . حتى شاركو Charcot عالم الاعصاب العظيم الذي عالج حالات الهستيريا

(١) ترجمة محاضرة باللغة الانكليزية القاها الدكتور ابراهيم ناجي في نادي الاطباء بالقاهرة

الشديدة وكان عالماً بان اساسها الكبت الجنسي ، اكتفى بان يهمس بمكتشفاته همساً في آذان نفر يسير من ملازميه

وكذلك اصبح المراهقون يروحون ويجيئون وعلى عواتقهم عبء سر ثقيل ، واضحى مرضى الاعصاب منهم يذهبون الى مستشفيات الامراض العقلية ، او ينتحرون او يعمدون الى الاجرام. وكان النصح الوحيد الذي يسدى اليهم ، ان يحسنوا السلوك ، وذلك لان احداً لم يفهمهم على حقيقتهم وهي أنهم ضحايا حاجات ملحة ، واعباء جديدة ، كدستها على كواهلهم الحضارة الحديثة والحياة المعقدة التي تلازمها . وقد كانت هذه المؤامرة مدبرة ضد ذلك الوحش الجنسي الضاري. ولكن الوحش لم يمت غمًّا ولا جوعاً ، ولا بدت عليه علامات الضعف . بل على الضد من ذلك كان الجوع والموت من نصيب المصابين في اعصابهم

المعضلة والرجل

الا ان الحياة تنجب ، في كل ازمة او معضلة تواجهها الحضارة ، رجلاً يفهمها اولاً ثم يستجيب لداعيها . وفي اواخر القرن التاسع عشر كان فرويد وصديقه بروير طبيبين ناشئين يتلقيان على شاركو بباريس . وعنه أخذا درسهما الاول . فالنساء المصابات بالهستيريا ، كن اذا نومن تنويماً مغناطيسيًّا يسردن حوادث ماضيهن فظهر ان في ماضي كل منهن ما يتعلق بالحياة الجنسية دائماً . وكن بعد هذا الافشاء ينلن البرء المطلوب . ومضى بروير في هذا الضرب من العلاج ، الى أن علقت احدى النساء اللواتي يعالجهن بحبه في أحد الايام حتى ضايقته ، فتخلى عن عمله وترك ما دونه من مذكرات لصديقه فرويد

وكان فرويد قد تعلم من برنهيم ان عامة الناس ، يمكن حملها بشيء من المداورة والتحايل والاقناع على التحدث عن ماضيها ، كأن أحدها يتحدث وهو منوم تنويماً مغنطيسيًّا . فعمد الى أسلوب ، من العلاج دعاه أولاً « علاج الحديث » ثم غير اسمه ، فجعله « التداعي المطلق او الحر » وذلك لانه كان يعلم ان فريقاً من الناس لا يمكن تنويمه ، وآخر يتجه بعد الشفاء الظاهر الى منومه فيقع في هواه او يبغضه رغماً عنه

ونحن عند ما نراجع نظرية فرويد نجد فيها كثيراً مما لا نسلم به او مما يصدمنا في معتقداتنا وتقاليدنا ، ولكن فيها ايضاً ما هو صحيح لا يسعنا انكاره . وفرويد نفسه لا يزعم انه مصلح ، بل يقول انه عالم يراقب ويدون ما يرى ويعتمد على المنطق الصحيح ، ويطلق على الاشياء أسماءها الحقيقية دون ما مواربة ، ويضع اصبعه على أصل السر . فهو في نظر علم النفس اول من سد الثغرات التي بدت فيه قبل ان رممتها الفلسفة . فقد بنى مذهبه النفسي على أساس علمي .

وكان أول من أقام شأناً كبيراً للعقل الباطن الذي كان يعرف قبل عهده بالعقل القريب من الوعي Co-conscious او الشبيه به sub-conscious وكان يوصف بأنهُ خزانة تجمعت فيها الذكريات وآثار الاختبارات السابقة . الأ ان فرويد أقام الوزن الصحيح لمكانة العقل الباطن، ووضح القوى المتناضلة فيهِ ، وما يتصف بهِ من مقاومة لمعرفة الحقائق الداخلية او الخارجية عنهُ

فالسيكولوجيا التي أنشأها فرويد علم ديناميّ (Dynamic) ، قائم على القوى المتناضلة ، محكومة بالعلة والمعلول . فليس فيهِ ما هو وليد الاتفاق والمصادفة . بل كل امر يتبع خطة معينة ويمكن الارتداد بهِ الى اصله . ومعنى هذه السيكولوجيا الجديدة ، نفي حرية الارادة . فصدم ذلك المصلحين المؤمنين بامكان تغيير السلوك الانساني . الأ ان فرويد يذهب ، الى ان النفس فيها مراقبون ، يشرفون على نزعاتها ، فخفف ذلك من وقع الصدمة الاولى على المؤمنين بالقواعد الادبية . ثم توسع في هذا الرأي فوضع نظرية الذات ego والذات العليا super-ego ، وهو موضوع سنعود اليهِ في فقرة اخرى من هذه المحاضرة

العقل الباطن واقسامه

اما من الناحية المنطقية ، ففي امكاننا ان نثبت وجود العقل الباطن اثباتاً قاطعاً لكل ريب ، فالمصاعب التي نحلُّها ونتخطاها ونحن اقل ما نكون تفكيراً فيها ، والكلمات والالفاظ التي تفد علينا كأنها هابطة من عوالم الاحلام ، وغيرها وغيرها من شؤون الذاكرة ، تبين جميعاً ان في النفس ناحية غير واعية

اما مكانة الناحية غير الواعية في العقل ، فيمكن اثباتها بنتائج التنويم المغنطيسي ، وبضروب العلاج التي تجري وفقاً لقواعد التحليل النفسي ، وبطبيعة ما تحتوي عليه من الاشياء ، كشؤون الجنس ، والغرائز ، والذكريات ، والاختبارات ، والعادات . فالقسم الباطن من العقل هو القمة البارزة المعرضة للنور ، والجانب السابق للوعي منها ، هو الممر الصغير الذي يفضي اليها ، وأما الجانب الاكبر فهو الجانب الباطن ، وهو في ظلام دامس

ان الجانب الباطن من العقل ، يعرف في الطفل باسم « الهوية » مشتقة من « هو » ثم تتميز اجزاؤه فيظهر فيهِ الجانب الجنسي وهو الذي يدعوه فرويد « الشهوة الجنسية : ليبيدو » ثم تنقسم هذه الشهوة الى الذات التي ترتفع من اغوار النفس الى قمة الوعي ، ولا يلبث ان تتميز الذات نفسها فيظهر فيها ما يعرف بالذات العليا super-ego وهي على اتصال دقيق بالشهوة الجنسية . فالذات العليا ، جانبٌ منها في العقل الباطن . ثم ان الغرائز من اجزاء القسم الباطن في العقل ، وقد عرَّفها فرويد تعريفاً غريباً ولكنهُ يثير الاهتمام لانهُ مخالف لتحديد الداروينيين لها . بل أن تحديده

مناقض لفكرة التطور . فالغرائز في نظره نوعان غرائز الحياة وغرائز الموت . أما غرائز الحياة فترتدُّ الى الخلايا المولدة ، وأما غرائز الموت فترتدُّ الى الخلايا البدنية . . . .

وخلاصة ما تقدَّم من البحث ، ان العقل الباطن يشتمل على الشهوة الجنسية والذات والذات العليا والغرائز

وثمة نزاع دائم في النفس بين هذه الاقسام وبينها من ناحية والحقيقة الخارجية من ناحية اخرى . فالذات والذات العليا تحافظان على القواعد الادبية . أما النوازع الغريزية والشهوة الجنسية فبدائية لا تجري على منطق وتتطلب دائماً اشباعاً بدائيًّا

الكبت في نظر فرويد

وكذلك تعرَّض الافكار دائماً للكبت. والكبت ، في نظرية فرويد ، اكثر اجزائها تعرضاً للنقد ، ولا سيما ما كان منهُ متصلاً بالجنس اي الشهوة الجنسية. وقد سعى اصحاب جميع المذاهب التي نشأت من تعاليم فرويد الى حذف العنصر الجنسي من نظريتهِ. فالشهوة الجنسية في نظرهم ليست نشاطاً جنسيًّا فقط بل هي نشاط الحياة او ما يدعوهُ الفيلسوف برجسون « الدافع الحيوي »

والواقع أن اكثر الاجزاء في نظرية فرويد تعرضاً للنقد ، ليس الجزء الخاص بالجنس ، ولكنهُ الجزء الخاص بتقسيم الشهوة الجنسية الى مناطق شهوانية تتطلب اشباع ما فيها من نهم . وهي ثلاث مناطق في الفم والاست واعضاء الجنس . فالطفل يكفى الميل في المنطقة الاولى بمصّ ما يقع لهُ . والثاني بمدّ يدهِ الى الاجزاء السفلى وهذا الدور يمتدُّ الى السنة الخامسة من حياتهِ . أما المنطقة الثالثة فلا شأن لها في حياة الطفل . وقد عني الاستاذ فلوجل احد مؤيدي فرويد ونظريتهِ بوضع كشف طويل اثبت فيهِ المحاسن والمساوي التي تنتج عن اكتفاء النزعة الفطرية الخاصة بالمنطقة الثانية او عدم اكتفائها أي كبتها

والى كبتها يرجع في تفسير ما يعرف « بمركّب اوديب » . وهو اساسي في نظرية فرويد. واسم هذا المركّب منتزع من اساطير اليونان الوارد فيها ان « اوديب » كان يعشق امه . فبعد السنة الخامسة من حياة الطفل ، ثم في دور المراهقة ، تستيقظ النزعة الخاصة باكفاء اعضاء الجنس ، وتقترن بالميل الى ترديد ما كان الطفل يفعله وهو طفل اي قضم اظافره مثلاً . ولكن الشهوة الجنسية متصلة بالذات العليا . فيحاول ان ينشىء شخصية جديدة مستقلة ، اي فصل النفس عن اهواء الطفولة . فالمريض العصبي هو من لا يتم فيهِ هذا الانفصال على اوفى وجه ، فيعجز عن مواجهة الحقيقة ، او تكون الذات فيه او الذات العليا غير ناضجة فتتصف اما بشدة التساهل واما بشدة التصلب والجمود . وعندئذٍ يكون مصير النزعة الجنسية فيه الاتجاه الى شيء

خارج النفس يغمره بحبه . فاما ان يمنع هذا الاتجاه ، واما ان يصدّ ، واما ان يحول الى مثل عليا فيتسامى ، واما ان ينعكس الى الداخل . فاذا منع اصيب صاحبه بالهستيريا ، واذا صدّ فانه يتحول من اختيار الزوج الى حب الام مثلاً وهو مركب اوديب ، او الى حب النفس على نحو ما كان « نارسيس » يفعل في اساطير اليونان . او يفضي الى الخيالات والاهواء . وهذه تفضي بدورها الى النورستينيا . فاذا انعكس الى الداخل وانطوى في العقل الباطن نشأت الحالات العصبية التي سببها الكبت

وهذا يفضي بنا الى القول بأن « الكبت » من اهم الاركان التي تقوم عليها نظرية فرويد

وقد وضع العلاّمة فالنتين كتاباً نفيساً في علم النفس الحديث اي الخاص بالعقل الباطن واستهله بفصل جامع في الكبت قال فيه ان الكبت شيء عادي في حياتنا اليومية . اذ ينصرف كلٌّ منا بطبعه عما لا يرضيه او يسره . بل اننا لنتحول قصداً عما لا نريد . وهذا هو الكبت المقصود وفائدته عظيمة لانه ينقذنا من كثير من الالم والمشقة . ولكن اهم من الكبت المقصود ، الكبت غير المقصود وهو نوع الكبت الذي يكثر في سني الطفولة . فنحن اذا تنازعتنا رغبتان متناقضتان ، فقد نكبت احداها عن قصد او عن غير قصدٍ ، فتختفي الى حين . فنظن ان تلك الرغبة قد قدعت وماتت . فاذا كان الكبت تامًّا ، والنزاع عنيفاً ، والجسم معرضاً للتأثر ، فتلك الرغبة لا تموت ولكنها تكمن فقط وهي تقرع الباب باستمرار تبغي الدخول الى نطاق الوعي ولو لم يعلم المرء ذلك

والقول « بالنضال » على النحو المتقدم أساس جميع المذاهب الجديدة في علم النفس . فالعلاّمة ادلر يقيم وزناً كبيراً لهذا الكبت في عهد الطفولة . ولكنهُ لا يسنده الى المسائل الجنسية ، بل الى « ارادة القوة » او نزعة تأييد الذات . والاستاذ يونغ Jung يقسم النضال قسمين ، احدهما يتجه الى الخارج والآخر الى الداخل . ففي الحالة الاولى يكون المرء « خارجي النزعة » extrovert متصفاً بصفات الفعّالين كالقواد ورجال الاعمال . وفي الحالة الثانية ، يكون « داخلي النزعة » introvert متصفاً بصفات الانطواء على النفس والتأمل . وقد عمد في كتابهِ العظيم الى وضع تقسيم لهذين النوعين من الشخصية وما يتفرع عليهما ووصف كل منها . وقد اشرت الى نوعين فقط هما الخارجيّ النزعة والداخليّ النزعة لان جميع اصحاب المذاهب الجديدة في علم النفس مجمعون عليهما . وهذا لا ينفي ان هناك انواعاً بين بين

الاحلام وفهمها

ثم ان ناحية الاحلام من اهم الاركان التي تقوم عليها نظرية فرويد . ولا يسعنا ان نمر بها مرّ الكرام . أما التعريف الذي وضعهُ فرويد للحلم فهو تعريف غريب . قال : « الحلم عَرَضٌ مرضي يمتاز بظهوره في جميع الاصحاء »

فالحلم في نظره يمثل اشباع رغبةٍ لم يتح لها الاشباع من قبل . وفيهِ معنيان ظاهر وكامن . أما المعنى الظاهر فهو حماية النائم من صدمة الحقيقة . ومهمة المحلل النفسي ان يتوصل الى فهم المعنى الكامن في الحلم . ذلك ان العقل الباطن يتوسل بوسائل متعددة لاخفاء المعنى الصحيح الذي ينطوي عليه الحلم ، ولذلك عني المشتغلون بهذه الناحية من التحليل النفسي بوضع معجم لتفسير الرموز التي تطرأ في الاحلام

ولنضرب على ذلك مثلاً بسيدة تعالج بالتحليل النفسي ، فتروي لمعالجها انها حلمت « ان « مدوزن » البيانو جاء البيت ليضبط أوتارها وانها رأته في الحلم مشغولاً بجمع بزور من داخل البيانو » . فهذا الحلم عند تحليله بطريقة فرويد يبين أولاً ان البيانو ترمز الى الرغبة في التخلص من هم مقلق وثانياً ان البزور تدلّ على « الجنس » . ومعنى الحلم الرغبة في التخلص من هموم جنسية . وعلى هذا النمط يرمز البيت في الحلم الى امرىء والملوك والملكات الى الآباء والامهات والماء الى الولادة والرحلات الى الموت والرقم ٣ الى الاعضاء الجنسية في الذكر وهكذا

ومن شاء المزيد فليراجع مطوّل فرويد في الاحلام

مرضى الاعصاب

اما وقد تكلمنا على الكبت والاحلام فلا بدّ من أن نعرّف المريض العصبي (Neurotic)

من أشهر وجوه النقد الموجهة الى نظرية فرويد قولهم انها تعالج الشاذ فيردّ فرويد على هذا القول بأنهُ من الخطاء وصف المريض العصبي بأنهُ شاذ . بل هو امرؤٌ ساءت ملاءمتهُ للوسط الذي يعيش فيهِ . فالمرؤ السويّ هو من تغلّب على مصاعب الصغار وأهوائهم وخيالاتهم ، ولكن المريض العصبي لا يزال اسيراً لها . ونحن جميعاً معرّضون الى حدٍّ ما ، لطائفة من هذه الرغبات والنوازع التي تساور الاطفال ، ونتيجة النضال رهنٌ بعوامل مختلفة كالبنية والوراثة والخبرة السابقة وتأثير العالم الخارجي . وفرويد يرى ان النضال بين هوية الطفل والذات تحدث ضروباً من الوسواس والقلق . اما النضال بين الذات والذات العليا فيفضي الى مرض الانحطاط الجنوني . وأما الامراض العصبية الحادة الجنون فنتيجة النضال بين الذات والحقيقة

هذه الحالات العصبية ، تشمل من الوجهة الطبية والعلمية اربع طوائف هي اولاً — النورستينيا : وهي نوعان لا يجب ان يخلط احدهما بالآخر . احدهما ناشىء عن الاعياء الجسماني المكتسب من الافراط في العمل وانهاك القوى والتسمم العفن من بؤرة ما . والثاني سببهُ اعياء ناشىء عن تركيب البنية . والمثل عليهِ امرؤ ذو نزعة داخلية ، تعسر عليهِ ملاءمة نفسهِ لما حوله فينطوي عليها ، فيصاب بالنورستينيا من النوع الثاني ، ويزعم انهُ لا قبل لهُ بالحياة ويتعلل بشيء كاذب لاثبات هذا

ثانياً — الهستيريا — والذي يصاب بها امرؤ من اصحاب النزعة الخارجية جم النشاط ولكن تيار نشاطه يصد، فيميل الى الانعزال ويتخذ موقفاً معيناً ، فيهوّل بكل ما يحدث له

ثالثاً — الهموم — وهذا النوع على جانب كبير من خطر الشأن والذيوع . وهو ناشئ عن الحضارة ، لكثرة ما تعترض به سبيلنا من اعمال نريد ان نقوم بها فنعجز، ومن رغبات نبغي ان نشبعها فيتعذر ذلك علينا . والعنصر الاهم في هذه الحالات العصبية هو الخوف . ومن الامثال التي تضرب على هذه الحالة رجل يتزوج من يحب ولكنهُ يساورهُ خوف انهُ عاجز عن القيام بوظيفة الزوج فيقلقهُ ذلك ويهمهُ . وسرّ هذه الحالة من الوجهة الطبية في الكظرين لان المصاب بها مصاب بزيادة السكر في الدم . اما في الهستيريا فالحالة وثيقة الصلة بمفرزات الغدد الصم

رابعاً — الوسواس ، وهو الميل الى ترديد شيء واحد والتفكير به دون غيره . وهو على الاكثر ناشئ عن تركيب البنية

العلاج ومراتبه

فمهمة المعالج بالتحليل النفسي ، هي التنقيب عن هذه المخاوف الكامنة المطوية على الاكثر في العقل الباطن . فاذا اخرجت من مكمنها وعرضت للنور فقدت اثرها السيء . والعلاج النفسي ليس من الاساليب التي تسهل ممارستها . بل هو على جانب كبير من الخطر . وقد انصرف المعالجون عن التنويم المغنطيسي ، وعمدوا الى « التداعي الحرّ » . « والتداعي الحرّ » يقتضي جلسات متعدّدة ، وفي هذا العمل ، لشخصية المعالج وخبرته شأن كبير

والعلاج ثلاث مراحل . فالمرحلة الاولى يسرد المصاب فيها سرداً حرّاً ما يعنّ لهُ ، وهو جالس في غرفة معتمة ، والمعالج بعيد عنهُ ، فيغمض جفنيه ويسترسل في سرد خواطره وكذلك احلامه . وما على المعالج الاّ الاصغاء

وفي المرحلة الثانية تنكشف للمصاب أحلام الطفولة وأدوارها وهي اصعب المراحل الثلاث وأشدها خطراً اذ فيها تتحوّل عناية المصاب الى شخص معالجه . فاذا ترك وشأنهُ وهو في هذه الحالة ، تعرّض لخطر عظيم وقد يعمد الى الانتحار

وفي المرحلة الثالثة يقنع المعالج مريضهُ بان هذه الاوهام والخيالات والوساوس من اشباح الماضي ولا صلة لها بالحاضر ، وعند ذلك يتحوّل الترديد في ذهنه الى مجرّد ذكرى وفي هذا الشفاء

وسواء اسلّمت بكل ما تنطوي عليه نظرية التحليل النفسي ام لم تسلّم ، فلا بد من الاعتراف بان جانباً منها على الاقل ذو قيمة حقيقية



تهشيم الذرة

وصنع مواد مشعة من مواد غير مشعة

منذ اربع سنوات ذهب عالم اميركي ناشئ الى بروكسل لحضور مؤتمر علمي فيها . كان ذلك العالم ارنست اورلندو لورنس E. O. Lawrence وكان العالم الاميركي الوحيد الذي دعي الى حضور ذلك المؤتمر والباعث الاول على دعوته انهُ استنبط جهازاً عجيباً يدعى « السيكلترون » Cyclotron يمكنهُ من اطلاق الدقائق المادية الصغيرة بزخم قوي فيهشم بها نوى الذرات ، وهو عمل كان حتى ذلك الوقت محصوراً تقريباً في القذائف التي تنطلق انطلاقاً ذاتياً من العناصر المشعة

وكان في بروكسل امير علماء الطبيعة المجربين في بريطانيا اللورد ارنست رذرفورد صاحب المباحث العظيمة في قوام الذرة . واستاذ الطبيعة التجريبية في جامعة كمبردج ومدير معمل كافندش فيها . وكان في صحبة رذرفورد احد نوابغ الشبان الذين تلقوا العلم عليه وبرعوا براعة عظيمة في المباحث الحديثة الخاصة بالذرة . وكان اسمهُ جون دوجلاس كوكروفت وكان حينئذٍ معنياً بتهشيم ذرات الليثيوم باطلاق البروتونات عليها ، بزخم كبير مستمد من طاقة كهربائية عالية الضغط

كان كوكروفت قد قرأ عن جهاز لورنس ، فأدرك ما ينطوي عليه من فائدة عظيمة وتوفير كبير في ما ينفق على المباحث الطبيعية الذرية ، وسعى الى اقناع استاذه ورئيسه رذرفورد بشراء جهاز مثلهُ لاستعماله في معمل كافندش . فأخفق في ما سعى اليه . فلما اجتمع كوكروفت ولورنس في بروكسل اتفقا على تجديد السعي قبل العلامة رذرفورد لعلهما يوفقان الى اقناعه ، فكان رأيهُ ان الاجهزة العلمية التي تستعمل في كمبردج يجب ان تكون مما استنبطهُ رجالها . فالتفت اليه لورنس الشاب وقال : ولكنك يا سيدي تستعمل كل يوم المقياس الطيفي Spectrometer ولكنهُ لم يخترع في كمبردج

ومن نحو سنتين اذيع من جامعة كمبردج انها قررت ان تصنع جهازاً لتهشيم الذرة من طراز جهاز لورنس . وكان من المنتظر ان يتم صنع هذا الجهاز في اواخر هذا الشهر ، والراجح ان هذا العدد من المقتطف لا يصدر وتتداولهُ ايدي قرائه حتى يكون الباحثون هناك قد شرعوا في تجاربهم الاولى به

ولكن اللورد رذرفورد لن يراه بعد تمامه . لانهُ توفي من أسابيع على اثر عملية في البطن ، وهو في السادسة والستين من عمره ، فقال في وفاته استاذه شيخ الطبيعيين الانكليز

السر جوزف طمسن : « لقد بلغت مآثره من العظمة العلمية مبلغاً يجعل وصفها في بضع كلمات عملاً متعذراً . ان وفاته من أكبر الخسائر التي مني العلم الانكليزي »

كان أرنست رذرفورد من أقطاب الطبيعة الذرّية المتقدمين اما ارنست لورنس فمن أقطابها المحدثين

وفي أواخر شهر اكتوبر دعي لورنس الى مدينة روتشستر بنيويورك ليحضر اجتماع الاكادمية القومية للعلوم ولينال منها جائزة كومستوك ، وهي أعلى ما تمنحهُ من جوائز للمشتغلين بالعلم ، ولا تمنح الاَّ مرة كل خمس سنوات . بل ليذهب بعضهم ان جائزة كومستوك اكبر شرف يسبغ على باحث علمي في أميركا . وقد منح لورنس هذه الجائزة لا لانهُ استنبط جهاز (السيكلوترون) بل لانهُ في مقدمة علماء أميركا في بحث الاشعاع الصناعي ، اي تحويل العناصر غير المشعة الى عناصر مشعة

يبلغ قطر اكبر الذرات جزءا من مائة مليون جزء من البوصة . وأما معظم الذرات التي يتناولها علماء الطبيعة في مباحثهم فأصغر من ذلك كثيراً . والذرة هي اللفظ الذي اصطلح عليهِ للتعبير عن كلمة « Atom » الاعجمية التي عرفها العرب باسم الجوهر الفرد والتي يريدنا مجمع اللغة العربية الملكي ان نستعمل لها القَوْبَرة ، ناسياً على ما يظهر ان الذرة ذائعة في المدارس وجميع كتب التدريس المصرية وفي الصحف كذلك ، وان في علم الطبيعة ظاهرات توصف بكلمة « sub-atomic » اي تحت الذرة وان خير كلمة لها باللغة العربية هي كلمة « ذريرية »

وكلمة « أتوم » الاعجمية وضعها أولاً الفيلسوف اليوناني ديموقريطس وهي تعني الشيء الذي لا يتجزأ . وقد ظلَّت الذرات (الاتومات) أشياء لا تتجزأ منذ تصوَّرها ديموقريطس الى اواخر القرن التاسع عشر ، عند ما اثبت العلامة طمسن ان الذرات تمكن تجزئتها وان من اجزائها الالكترونات (الكهارب اوبالحري الكهيربات وفقاً لاستعمال مجمع اللغة العربية الملكي)

والرأي الآن ان الذرات قوامها مجموعات من دقائق الكهربائية السالبة (الالكترونات) والكهربائية الموجبة (البروتونات) ودقائق متعادلة الكهربائية تعرف باسم (النترونات) اي الدقائق المحايدة . والذرة الوحيدة في الطبيعة التي لا تحتوي على نترون في تركيبها هي ذرّة الايدروجين لأن قوامها كهرب واحد وبروتون واحد . والجانب الاعظم من كتلة الذرّة في نواتها . فالنسبة بين كهرب ذرة الايدروجين ونواتها (وهي بروتون واحد كما قلنا) كنسبة واحد الى ١٨٣٥ . والنواة موجبة الشحنة الكهربائية . فاذا كانت الذرّة مستقرة التركيب كانت الشحنة الموجبة على النواة معادلة ومبطلة لفعل الشحنات السالبة التي على الكهارب . وأخف الذرّات هي ذرَّة الايدروجين وقوامها كما بينا . أما اثقلها فذرة الاورانيوم وقوامها اثنان وتسعون بروتوناً ومائة وستة واربعون نترونا (ومنها جميعاً تتألف النواة) وحول النواة اثنان وتسعون كهرباً

وماذا يعنى « بتهشيم الذرَّة » ? انهُ يعني تهشيم نواة الذرّة . والعلماء يبغون تهشيمها ليعلموا ما في داخلها ، على نحو ما يشرّح الاطباء الجسم البشري ليعلموا ما في داخلهِ

وتهشيم الذرّة يقتضي اولاً — قذيفة تطلق على النواة صالحة لتهشيمها . وثانياً — وسيلة صالحة لاطلاق تلك القذيفة بزخم كافٍ للتهشيم . وثالثاً — هدفاً يحتوي على الذرّات التي نبغي تهشيمها كلوح رقيق من البلاتين او سلك من التنغستن أو حفنة من الفصفور ، فيوضع في مسار القذيفة حتى تصطدم به . ورابعاً — اسلوباً يمكّن الباحث من معرفة ما حدث نتيجة لهذا التصادم

والبروتونات من أشهر القذائف المستعملة في هذا البحث استعملها رذرفورد أولاً . وطريقة الحصول عليها ، تجريد ذرّات الايدروجين من كهاربها بتأيينها (ionizing) بوساطة تيّار كهربائي . ثم تمرّ في جهاز خاص يقذف هذه البروتونات الى الهدف . ولما كانت هذه القذائف عديدة جدًّا فلا بدّ ان يتفق لاحداها أن تصطدم بذرّة من الذرّات التي في الهدف فتهشمها ، وقد تتحد هي بجزءٍ منها او بأكثر من جزءٍ فينشأ من هذا الاتحاد مادة جديدة . او قد تلصق بالنواة من دون ان تهشمها فينشأ من ذلك جسم اكبر وزناً من الذرّة الاصلية ، ويكون هذا الجسم الجديد غير مستقرّ التركيب فلا يلبث حتى تنطلق منهُ دقائق ذرية واشعة « نما » وهذه الحالة الاخيرة هي ما يعرف بالاشعاع الصناعي . لان الاشعاع في الراديوم وغيره من العناصر المشعة ليس الاّ انطلاق دقائق واشعة من ذرّات العنصر

وخير وسيلة لبحث نتائج التهشيم هي « الغرفة الغائمة » التي استنبطها العلاّمة الانكليزي ولسن C. T. R. Wilson فنح جائزة نوبل الطبيعية جزاء لهُ على استنباطها . فتوضع الغرفة الغائمة وراء الهدف الذي تسدّد اليه القذائف فتدخلها بعض شظايا الذرات المهشمة . والغرفة تحتوي على بخار مائي ، يتقاص في مسار الشظايا الطائرة ، فتتكون قطيرات من الماء تعلق بهباء الهواء فتظهر كأنها خطوط من الغيم او الضباب الدقيق ، ويمكن تصويرها بالمصورة الضوئية . فاذا درست كثافة هذه الخطوط ومبلغ انحنائها وانحرافها في حقل ممغنط ، استطاع الباحث ان يستخرج حقائق كثيرة عن كتلة الشظايا الطائرة وسرعتها وشحنتها الكهربائية

كانت القذائف التي استعملت في العهد الاول من المباحث الطبيعية الحديثة — وهو العهد الذي استهلهُ رذرفورد بعبقريته العلمية النادرة في سنة ١٩١٩ — قذائف تستمد طاقتها وزخمها من الطبيعة ، اي الدقائق المنطلقة بسرعة عظيمة من المواد المشعة كالراديوم والبولونيوم والثوريوم وغيرها . الاّ ان علماء الطبيعة مقتنعون على ما يظهر كاقطاب العسكريين بالفائدة العظيمة التي تجنى من استعمال الاجهزة الميكانيكية . ولذلك عمدوا الى استنباط الوسائل والاجهزة التي تمكنهم من تناول دقائق مادية عديدة واطلاقها بزخم قوي مستمد من جهاز ميكانيكي كهربائي . ومن هنا استنباط ارنست لورنس الاميركي لجهاز « السيكلوترون » . وقد عمل لورنس حساباً لما يستطيعهُ جهازه في هذا السبيل ، فاذا به يقول انهُ اذا استعمل طاقة كهربائية ضغطها خمسة ملايين ونصف مليون فولط ، استطاع ان يطلق به قذائف كالقذائف التي تنطلق من

رطلين من الراديوم ، اي انهُ لو جمع كل الراديوم الموجود متفرقاً في انحاء العالم الآن ، لما اطلق من هذه القذائف كمية كالكمية التي يطلقها جهاز لورنس هذا ، لانهُ اقل من رطلين

وقد استنبط قبل جهاز لورنس اجهزة مختلفة لتهشيم الذرة ولكنها تتصف جميعاً بانها اجهزة كبيرة الحجم عالية الابراج لكي تتمكن من خزن مقادير كبيرة من الطاقة الكهربائية واطلاقها . وقد كانت الاجهزة الاولى التي صنعت في انكلترا واميركا تعتمد على سلسلة من المكثفات والمحولات ، ثم استنبط نوع آخر تخزن فيه الكهربائية «الاستاتيكية» في كل منها في قطبين كهربائيين كبيرين كل منهما في شكل بلون ضخم ، حتى اذا بلغ الضغط الكهربائي درجة عالية معينة انطلقت شرارة ضخمة بين القطبين . ولكن ظهر بعد اجراء التجارب بهذا النوع من الاجهزة انهُ من المتعذر صنع انابيب تصلح لمرور الشرارة فيها بين القطبين . وقد صنع جهاز من هذا القبيل في معهد ماستشوستش التكنولوجي قبل اربع سنوات ، تنطلق فيه الشرارة عند بلوغ الضغط الكهربائي سبعة ملايين فولط ، ولكنهُ لم يستعمل لانهُ تعذر حتى الآن صنع انبوب صالح لذلك

الاَّ ان ارنست لورنس تغلّب على هذه المصاعب في جهازه المعروف باسم «سيكلوترون» اي الجهاز الرحوي . ذلك انهُ يبدأ العمل بقدر من الطاقة الكهربائية واطىء الضغط بالقياس الى الطاقة التي لا بدَّ منها في الاجهزة التي تقدم وصفها . ولكنهُ يجعل هذه الطاقة تفعل في الدقائق التي يريد اطلاقها ، فعلاً متوالياً اي ان الدقائق عند ما تتعرَّض لفعل هذه الطاقة اولاً تكتسب من ضغطها زخماً لنقل ان قدرهُ (س) ثم تدور في الجهاز وتعود بسرعتها (س) فتتعرض ثانية للضغط الكهربائي نفسهِ فتزيد السرعة الى (٢ س) مثلاً ، وهكذا ثالثة ورابعة ، حتى تبلغ سرعتها المبلغ الذي تستمده مباشرة من ضغط قدره خمسة ملايين او ستة ملايين فولط . وقد تمكن في احدث مثال صنعهُ من هذا الجهاز ، ان يطلق الدوتيرونات (وهي نوى ذرات الايدروجين الثقيل) بقوة سبعة ملايين وثمانمائة الف فولط مع ان الطاقة الكهربائية الاصلية التي تمرَّضت لها هذه الدوتيرونات لم تبلغ الاَّ خمسين الف فولط

خطرت لهُ القاعدة التي يقوم عليها هذا الجهاز في سنة ١٩٢٩ عندما طالع رسالة لباحث الماني غير مشهور وصف فيها ما يحدث للايونات في حقل مغنطيسي . فعمد في السنة التالية الى صنع السيكلوترون الاول بالاشتراك مع زملائهِ ادلفسن ولفنغستون وسلون فحقق الغرض الذي صنع له من حيث المبدإ ولكن المغنطيس كان صغيراً . فلما سمع الدكتور لزد فولر رئيس قسم الهندسة الكهربائية في جامعة كاليفورنيا بهذا الجهاز البارع ، وبرغبة لورنس في الحصول على مغنطيس كهربائي كبير ، استدعاه وسألهُ رأيهُ في مغنطيس كهربائي وزنهُ خمسة وثمانون طنًّا . فشُدِهَ لورنس لانهُ لم يكن يتوقع ولا في الحلم عرضاً من هذا القبيل . واتفق ان الدكتور فولر كان

وكيلاً لاحدى شركات التلغراف الاميركية وكانت هذه الشركة قد صنعت اربعة مغنطيسات كهربائية وزن كل منها ٨٥ طناً بقصد استعمالها في الاذاعة اللاسلكية العالمية في اثناء الحرب

وكانت النية ان يرسل احدها الى الصين ولكن الصلح عقد قبل ارساله . وظلَّ مطروحاً لا يستعمل. وللحال قفز الدكتور فولر والباحث لورنس الى سيارة وراحا ينهبان الارض نهباً الى « بالو التو » حيث كان هذا المغنطيس فأعدا المعدّات لنقله الى حرم جامعة كاليفورنيا ببركلي

ومن حسن الطالع ان الاستاذ غلبرت لوس الكيمياوي الطبيعي الاميركي ، كان حينئذٍ معنيًّا باستحضار الماء الثقيل بعيد اكتشافه في جامعة كولومبيا على يدي الاستاذ هارولد يوري. وكان لوس سخيًّا في سبيل العلم فسمح للورنس بأن يأخذ جانباً مما يحضره من الماء الثقيل الثمين ، فاستخرج لورنس من هذا الماء ذرات الايدروجين الثقيل ، ثم جرّدها من كهاربها بتيار كهربائي فكان لهُ « دوتيرونات » — وهي نوى ذرات الايدروجين الثقيل وكتلتها ضعفا كتلة البروتون — أطلقها في جهازه فتسنى لهُ كذلك قذائف اعظم زخماً وأسهل تناولاً في تهشيم الذرة. وهو اول من استعملها لهذا الغرض . ومن ثمَّ عكف لورنس على التجربة والبحث . ونتائج تجاربهِ مدونة في عشرات بل مئات من الدفاتر . لقد وجَّه قذائفهُ الى معظم العناصر المعروفة . هنا في دفاتره تجد وصف كل تجربة جربها ، القذيفة التي استعملها وزخمها ، وظهور الاشعاع الصناعي في العنصر الذي استعمله هدفاً ، ومدى بقاء هذه الظاهرة ، وما قوام الدقائق المنطلقة من العنصر الذي تحول بسحر قذائفهِ عنصراً مشعاً مع انهُ لم يكن قبل اطلاقها عليهِ كذلك

وقد تمكن لورنس في مباحثهِ هذه من تحويل العناصر ، بل انهُ استطاع ان يصنع بضع ذرات من الذهب فعلاً ، محققاً بذلك الحلم القديم ، ولكنهُ لم يصنع الذهب من مواد رخيصة لان ذلك متعذر ، بل صنعهُ من البلاتين وهو أغلى من الذهب وأندر . وعلى كل حال فان ذرات الذهب التي صنعها لا يعدل ثمنها جزءا يسيراً من ثمن الطاقة التي أنفقها على صنعها ، مع ان جهاز السيكلوترون لا ينفق من الطاقة الكهربائية كل ساعة الا ما قيمتهُ ثلاثون قرشاً فقط . الاَّ ان لورنس يقول كما قال رذرفورد ان الحقائق التي توصلنا اليها من هذا البحث أثمن من الذهب

ومما هو أبعث على الدهشة ، ان لورنس وصحبهُ في جامعة كاليفورنيا تمكنوا من صنع قليل من راديوم E من عنصر غير مشع ، وراديوم E ليس عنصراً مشعًّا اشعاعاً وقتيًّا بل هو عنصر مشع اشعاعاً طويل المدى اي انهُ عنصر الراديوم الحقيقي. وقد كان من نتيجة هذه المباحث الباهرة ، ان عمدت الجامعات والمعاهد العلمية الى استعمال جهاز لورنس . فثمة الآن احد عشر جهازاً منها في اميركا واحد عشر جهازاً في أوربا وجهاز واحد في كندا وهي اما في دور الاستعمال وأما في دور البناء . وجميع الباحثين الذين يتولون البحث بها تعلموا اساليبها على ارنست لورنس ، العالم الذي لم يتخطَّ بعد السنة السادسة والثلاثين من عمرهِ

ولا بدّ في استعمال هذا الجهاز من تدبير وسائل الوقاية لمستعمليه من الاشعاعات القوية المنطلقة منهُ اذ قد ثبت ان الجرذان التي تعرّض لها تصاب في كرياتها البيض فاذا طال تعرّضها لها قضي عليها . ولذلك بنى لورنس حاجزاً حول الجهاز حوضاً ارتفاعهُ ست أقدام وعرضهُ ثلاث أقدام وملأهُ ماء ووضع لوحة السيطرة على الجهاز على بعد ٦٠ قدماً منهُ وحظر على كل مشتغل ان يتخطى الحوض صوب الجهاز عندما تكون الاشعاعات صادرة منهُ

الا ان الذي يميت قد يكون مفيداً في العلاج ، وقديماً قال شاعرنا العربي « وداوني بالتي كانت هي الداء » . وهذه الاشعة المنطلقة من السيكلوترون المؤلفة من نوترونات ثقيلة سريعة ، أو الاشعة المنطلقة من مواد اضحت مشعة بفعل هذا الجهاز ، لا يبعد ان تفيد في معالجة بعض الادواء اذا احسن استعمالها . بل ان الفوائد الطبية والبيولوجية التي يمكن جنيها من اشعاعات « السيكلوترون » قد استهوت الناس بما كتب عنها ، ولذلك اضيف الى البحث الطبيعي فيها البحث البيولوجي . فأفردت حجرة خاصة تحتوي الآن على اقفاص من الجرذان البيض وقد وسمت ببقع حمر أو خضر أو صفر على فروها ، بعد ان زرعت فيها نوام سرطانية ثم عرضت لاشعة النترونات فثبت أن هذه الاشعة تفوق الاشعة السينية خمسة اضعاف في فتكها بالخلايا السرطانية ، وانها تؤثر في الخلايا السرطانية اكثر مما تؤثر في الخلايا السليمة

ثم لما تمكن لورنس من صنع صوديوم مشع ، بطريقته المتقدمة ، بدا لبعض الباحثين ان في الامكان صنع ملح الطعام من صوديوم مشع وكلور ، وعندئذٍ يمكن ان يسفّ الملح سفّاً ، أو يحلّ في الماء ويحقن ، فتنطلق منهُ الاشعاعات وهو دائر في الجسم . وقد جرّبت هذه الطريقة ببعض المرضى في مستشفى جامعة كاليفورنيا ، فلم تسفر عن نتيجة يصحّ السكوت عليها ، ولكن لورنس لا يميل الى اهمال هذا اللون من البحث الا بعد استقصاء دقيق . وللورنس شقيق استاذ للطب في جامعة هارفرد وهو الآن يساعده في الناحية الطبية من البحث

ومن ابواب البحث التي فتحها هذا الاستنباط امكان تتبع الدورة التي يسير فيها الحديد والكلسيوم في الجسم من ساعة يؤخذان اكلاً او حقناً الى ان يتركا في الانساج وذلك باستعمال حديد وكلسيوم اضحيا مشعين بطريقة لورنس

وأحدث الانباء من كاليفورنيا ان لورنس معنيٌّ الآن بصنع « سيكلوترون » ضخم يبلغ وزن مغنطيسه الكهربائي ٢٢٠ طناً فيستطيع ان يقذف به الدوتيرونات بزخم ١٢ مليوناً الى ٢٠ مليوناً من الفولطات ، ودقائق الفا بزخم ٢٤ مليوناً الى ٤٠ مليوناً من الفولطات

ولورنس من اصل نرويجي ولكنهُ وُلد ونشأ في اميركا وقد تلقى العلم في جامعة داكوتا الجنوبية ثم في جامعتي مينسوتا وشيكاغو بعد تخرجه من الاولى ثم عين مساعد استاذ في جامعة ييل وفي سنة ١٩٢٨ دعي الى جامعة كاليفورنيا ولا يزال فيها

سيرة الرافعي

لاحمد محمد عبشي

[انما الحياة حياة الابطال . . . أو . . . عبادة الابطال] « كارليل »

« لا أقدم اليك يا صاحبي في هذه الفصول سيرة عظيم من عظماء الشرق العربي فيها ما يتعشقه الفنان من صدق العرض وحبكة القصة وحلاوة التعبير ، أو ما يعوزه المؤرخ من دقة التحليل واحكام التعليل فحسب، بل سيرى فيها الناقد النزيه البناء الهدام، الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ما يتطلبه من استنباط للمقاييس والنظريات والقواعد في حنكة ودراية ثم بصيرة نافذة تقول هذا حلال وهذا حرام، وتبنى على ضوئها المآخذ والاحكام.. وما ينشده من يقظة شاملة وبديهة واعية يستطاع معها الذب عن الحوض وماء الخلود ، وفي جميع هذه الحالات سأبذل جهد الطاقة — ما استطعت — في رسم صورة صادقة لعملاق من عمالقة الادب العربي — بما له وعليه — لا يخالجك الشك اذا ما تبينتها أنها صورة « السيد مصطفى صادق الرافعي » رحمة الله عليه ...

— ١ —

في سنة ١٢٣٠ هجرية توفي عبد القادر الرافعي الكبير بطرابلس الشام الجد الأكبر للعائلة الرافعية في البلاد السورية والديار المصرية الذي يرجع نسبه الى الفاروق عمر بن الخطاب رضوان الله عليه . . . . وهو أول من تلقب بهذا اللقب من شيخهِ الشيخ محمود الكردي الخلوتي — أثناء زيارته لهُ بالقاهرة — دفين قرافة مصر والمعروف مزاره ، وكانت هذه العائلة تلقب قبل ذلك بعائلة اليساري بسوريا ، وخلَّف من ورائه تركة مفعمة بالنبل والفضل والمجد ... وكان آخر كلماته التي فاه بها حينما حضرته الوفاة يخاطب أولاده وحفدته « أوصيكم بالتقوى وحسن الخلق ، ومذهب الامام أبي حنيفة النعمان . . ثم مصر والازهر الشريف » . . .

لا يولد الطفل من هذه العائلة حتى يُصب فوق رأسهِ الزيت الالهي . ويضمخ بالطيب الديني ويغرق الى قمة رأسهِ في الثقافة الدينية — الثقافة التقليدية — وتفرض عليهِ الصلوات ويسعى الى الفضائل بالتقليد والمحاكاة ، — وان كانت هي في الواقع تعرض امام ناظريه كل

يوم ، وبذا فهي التي تسعى اليه — فينشأ الطفل في هذا الجو « الـكهنوتي » من صغره ، يتلفت ذات اليمين وذات الشمال فلا يرى غير مراسم الدين تتلى صباح مساء وآي الله الحكيم يردَّد على لسان الصغير قبل الكبير ، والأردية « الكهنوتية » تضفى عليه وتخاط لهُ وتضفر لهُ الأكاليل الطاهرة يزين بها مفرقيه اذا ما دخل الدار في أي وقت — سواء بالغداة او العشيّ — يملأ خياشيمه دخان البخور الديني وتملأ أذنيه الأدعية والتراتيل ، في النشأة الاولى تنظم لهُ قلائد التقوى فيحلى بها جيده وتقدم لهُ الكأس المباركة طافحة مليئة بالماء المقدس — في الصبوح وفي الغبوق — فيشربها حتى الثمالة ، فلا غرو وهذا قانونهم ومذهبهم في الحياة ، ان تجمع الفضائل فيمن كان على شاكلتهم — في عرفهم — وان ينادوا على رؤوس الأشهاد . . انهم بلغوا ذروة المجد ومنتهى الكمال ولا ضير عليهم — ما دام قانون النسبية قائماً — أن ينشدوا من أعماقهم

« اذا بلغ الفطام لنا رضيع تخر لهُ الجبابر ساجدينا »

أجل ! فقانون النسبية الذي حدَّد المقاييس والابعاد ، وجعل كل جرم من أجرام الكون يقول حقيقة هذا الشيء بالنسبة لي . . . . بدلاً من أن يقول حقيقة هذا الشيء وكفى . . . . قادر على ان يوزع المجد ايضاً ويقول لقوم هذا خير بالنسبة لكم ولآخرين هذا شر بالنسبة لكم ايضاً . . . .

***

ان هذه العائلة هي التي احتكرت « الكهانة الاسلامية » من بعد عميدها — الرافعي الكبير — واحتكرت ايضاً مذهب الحنفية فلهم قضاء الحنفية في الشام ومصر ، ولهم الثقافة التقليدية التي تقوم عليها قائمة العلوم الاسلامية — في رأيهم — ولهم المواقف المشرفة نحو الاسلام والمسلمين وهم كما يقول الاديب سعيد العريان « ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه بعمر ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنهُ ، في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين ، ما منهم الاَّ لهُ تاريخ مشهود وجهاد مشكور ومسجد ومزار وأول وافد الى مصر من هذه الاسرة هو المرحوم الشيخ محمد طاهر الرافعي ، قدمها في سنة ١٢٤٣هـ (قريب من سنة ١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الحنفية في مصر بأمر من السلطان ، وأحسب ان مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الامام أبي حنيفة في القضاء الشرعي بمصر . ولم يعقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة وغلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس في مصر أحد من ولده ، ولكنهُ كان كرائد الطريق لهذه الاسرة فتوافد اخوته وأبناء عمومته الى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبي حنيفة حتى آل الامر من بعد ان اجتمع منهم في وقت ما أربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية ،

وأوشكت وظائف القضاء والفتوى ان تكون مقصورة على آل الرافعي وقد تنبه اللورد كروس الى هذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره الى وزارة الخارجية الانجليزية

«وقد تخرّج في درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبد القادر الرافعي أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب في مصر ، ومن تلاميذهما الأدنين المرحومان الشيخ محمد البحراوي الكبير ، والشيخ محمد بخيت مفتي الدولة السابق »

— ٣ —

أما عبد القادر الرافعي الصغير هذا يا صاحبي فأن لهُ صلة قوية بالرافعي — المترجم — وبينهما وشيجة لا تنفصم عراها ووراثة طبيعية لا نكران فيها ، باتت في خلقهما وفي اطوار حياتهما وفي تحصيلهما العلم وقولهما الشعر ثم في موتهما ايضاً

ولكي اعطيك فكرة عن مصطفى الرافعي — المترجم — اسوق لك من حديث ذلك الرجل ذكراً . . . ففي اصيل يوم من ايام الشتاء المقرورة الباردة ، والرياح الهوج تارة مزمجرة كآساد حبيسة في اقفاص ضيقة واخرى معولة كذئاب طليقة في فضاء غير محدود ، — اوائل القرن التاسع عشر سنة ١٢٦٣ هجرية — ، ذهب شاب في العشرين من عمره مطرور الجبين طلق المحيا صبوح الوجه تلوح على وجهه سمات النبل وأمارات الذكاء ، يفيض عافية وحيوية ، الى أبيه الشيخ وقبّل يده ووقف أمامه في خشوع وابتهال

— يا أبت أريد مصر ، قلب الشرق العربي الخافق ، مصر العلم ، أريد الازهر الشريف

— ألا يكفيك يا عبد القادر طرابلس وعلمها

— العلم لا وطن له

— اذكر صبارة الشتاء وما يصيبك من ألم

— لا لا ان الشباب لا يعرف الألم

— أمك تعارض في ذلك

— لو عرفت امي قيمة العلم لما ثبّطت عزيمتي التي لا يعرف اليأس طريقها

— أتعصى والدتك

— ان لم اعصها اليوم فكيف اطيعها غداً

— وكيف ! ! ألا تعلم ان رضاء الأم من رضاء الله ! !

— في بعض الأحايين لا تقترن طاعة الله بطاعة الأمهات . . . .

— ان امك لا تمنعك من العلم الاّ لتكون بجانبها

— لا لا ! لن اكون بجانبها جاهلاً خاملاً

فضحك الشيخ ملء نواجذه علامة الرضا وقبلهُ في جبينهِ مثنى وثلاث ورباع ولم يرغب غير الاذعان لمشيئة فتاه : وسمعت الام ما دار بينهما فسابقت دموعها المطر المنهمل وجاوب عويلها نواح الرياح

***

برح الفتى قريته حتى بلغ بيروت يحمل زاده وعتاده رنصائح ابيه الذهبية — الذي ودعهُ الى المرفأ ونقد الملاَّح اجره ، الملاَّح الذي حملهما من قريتهما الى بيروت — وبات ليلة بالقرب من مرفأ طرابلس بمنزل صديق له استعداداً للحاقه بسفينة الفجر الراحلة للاسكندرية ، ولما قام من نومه تفقد ما معهُ من نقود فلم يجد شيئاً فتملكه الهم والغم وذهب بهِ الحزن مذاهب شتى لاعداد لها ، وقال في نفسه « ماذا اعمل ؟ . أأرجع ثانية من حيث اتيت ؟ كي تفرح امي واحلامها الصغار ؟ . . انني لست طفلاً فلمَ تخافينَ عليَّ يا أماه ؟ »

« ماذا يهم اذا كنت اضحيت صفر اليدين خالي الوفاض ، لا أملك غير الأمل . . . رحماك يا رباه ! » وظل يومين في نزل المسافرين لا يدري من امره شيئاً ، كان في خلالها قد لوَّح له اليأس بيديه من بعيد فأشاح بوجهه عنهُ ، لكنهُ في اللحظة الاخيرة ، عانق الايمان والامل واستقبل النور نور الفجر الوليد . ذلك انهُ اقبل عليهِ رجل يسمى

— أأنت عبد القادر الرافعي ؟ — أجل !

— ابن حبيبي ، هاك قبلاتي ، تعال معي الى الدار !

فمضى معهُ وبات ليلة أحسن وفادتهُ فيها وفي الصباح احضر له تذكرة سفر من الدرجة الاولى فوق سفينة الاسكندرية ، وقبل ان يودعه ناوله قرطاساً وقفل راجعاً ، ففضَّ الشاب القرطاس فوجده مملوءاً بالذهب الوهاج الذي يخطف بريقه الابصار ، وسارت السفينة باسم الله مجراها ومرساها حتى بلغت شاطىء الاسكندرية ، وكانت قد مرت ببلدة موبوءة بالطاعون فحجز جميع من بها مدة لا تقل عن العشرين يوماً ، كان في خلالها يزوره رجل من اغنياء الاسكندرية — اوصاه بهِ ضيف بيروت وصاحب القرطاس — يقدم اليهِ الطعام والشراب كل يوم حتى فك اسرهم وانطلق عبد القادر يعدو نحو قطار القاهرة . . ثم الى الازهر الشريف . . . . ثم درس ونال العالمية . وولي قضاء الحنفية كما هو المفروض وظل يتقلب في وظائف القضاء ويضرب بنزاهته وعدله وحصافته وورعه المثل ، الى ان أحيل الى المعاش

وكان في شبابه يقول الشعر على طريقته هو وعلى طريقة ايامه ، ثم خلا بعد ذلك منصب الافتاء بعد الامام المصلح الكبير الشيخ محمد عبده ، فلم يجدوا من يصلح لمثله غير هذا الشيخ الوقور ، لكنهُ في اليوم الثاني من توليته هذا المنصب الخطير مات فجأة وهو يزور احد الوزراء وقضى الرجل وترك لابن ابن اختهِ — المترجَم — الشعر والنبل والعلم والموت بالسكتة القلبية !

— ٣ —

في يوم — يوافق اول يناير سنة ١٨٨٠ — تألق ضحاه وحمي وطيس شمس ظهيرته ، وطاب اصيله ، وأظلم ليله — وأرعد وابرق — فجاءة ، ولد المرحوم مصطفى صادق الرافعي من ابوين كريمين ، فالاب هو الشيخ عبد الرازق الرافعي ، سليل الاسرة الرافعية — تلك الاسرة التي يحق لنا ان نطلق على ابنائها « كهنة الاسلام » — واحد شيوخها الاجلاء ، تولى قضاء الحنفية كأخوته وابناء عمومته — اذ ثقافتهم واحدة — وظل يتدرج فيها حتى ولي منصب « قاضي مديرية الغربية » — أي بمنزلة رئيس « محكمة اليوم » ، وعرف بالتقوى والصلاح ، ونزاهة الحكم وسلامة الطوية واخلاصه للامة العربية وغيرته على الدين

كان إذا رأى ما يخالف الدين غضب وثار كما يثور الحر لكرامته أو اذا ما رأى باطلاً تحداه غير عابىء بما قد يصيبه في سبيل ذلك ، ما دامت وجهته نصرة الحق واحقاق الحق والأخذ بيد المظلومين

أما أمهُ فهي « اسماء » ابنة الطوخي التاجر الشهير ، وفي ذلك يقول الأديب سعيد العريان « وأم الرافعي كأبيه سورية الاصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخي تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام وأصله من حلب ، وأحسب أن اسرة الطوخي ما تزال معروفة هناك ، على انه كان اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي . وكانت إقامته في (بهتيم) من قرى مديرية القليوبية وكان لهُ فيها ضيعة وفيها ولد الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في يناير من سنة ١٨٨٠م إذ آثرت أمهُ أن تكون ولادتها في بيت ابيه . وكانت أم الرافعي تحبهُ وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرّها ، وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنهُ فقدها بالامس ، وكان دائماً يحب أن يسند اليها الفضل فيما آل اليه أمره ، وقد توفيت في أسيوط ودُفنت بها ، ثم نقلت الى مدافن الأسرة بطنطا ، وقد شيعها الرافعي على عنقه الى مقرها الاخير »

وبهتيم هذه التي ولد فيها الرافعي كانت يومئذٍ قرية ريفية ساذجة لا تمتد اليها يد الاصلاح ولا يعرف النظام طريقها ، شأن جميع القرى المصرية . كأن النظافة والاصلاح ما خلقا إلاّ للمدن ورفاهيتها ، دون القرى ومن فيها ، وكأنهم غير خليقين بشيء ضئيل مما انعمت به الحضارة على العالمين . . . أما بهتيم اليوم — لحسن الحظ — فهي قرية نموذجية جميلة جعلتها وزارة الزراعة مهداً للتجارب الفنية المختلفة ، وبعثت فيها حياة أخرى البستها الجدّة والرونق والبهاء

وكان الرافعي هو الولد الثاني لأبويه فأحباه حبًّا جمًّا ، وأظهرا له من المودة وضروب البر والرحمة ماطبعهُ على غرارها ، وما طبع في نفسه الحب الجم لأبنائه وحفدته ، ذلك الحب الذي يفوق العبادة ، والذي يؤلف بين قلوب الآباء والابناء ولا يجعل للعدو ولا للشيطان ثغرة ينفذ

من خلالها بينهم ، وهذا هو السر الذي جعل من الرافعي الشيخ ذي العائلة الكبيرة عيناً — تسح دائماً — باكية أمهُ الذي اقتطفها الموت وهو ما يزال في ريعان الشباب ، وهو السر الذي تراه في دموع ابناء الرافعي تلك الدموع التي لا ترقأ ولا ينقطع سيلها اذا ما خلا مجلسه أو ذكرت أعماله الصالحات الطيبات

ولكن الرافعي نشأ لا يسمع غير القرآن . أو ما يقرب من القرآن . فانطبع في نفسه ذلك البيان المشرق وارتسمت على مخيلته صور العربية الاولى — لفخامتها وجلجلة اجراسها — العربية الفصحى ، العربية التي استطاع بها أن يكتب « اعجاز القرآن » « وتحت راية القرآن » ويدافع دفاع المستميت عن العربية وعن لغة القرآن . ولما بلغ السادسة من عمره بعث به أبوه الى الكتّاب فتعلّم مبادىء القراءة والكتابة وأخذ في حفظ القرآن ، وما جاءت سنته العاشرة حتى استظهره عن ظهر قلب حفظاً وتجويداً ، وكان في سني طفولته لا يعرف الكذب اطلاقاً ولا يظهر امام ابيه الاّ بما ينبيء عن طاعته وصدقه فسماه « الصادق » وبذلك سمي مصطفى الصادق

***

ان للبيئة والوراثة أثراً بيناً في تكوين اخلاق الطفل وفي توجيهه ، وفي غرائزه ، فالطفل هو ذلك النهم الذي يطبع — لاول وهلة — على مخيلته الصور التي تلعب ادوارها امامه ، ثم يحيلها الى دعائم تقوم عليها قوائمه من بعد ، شأن العالم أو الاديب النقف اللقف ، الذي يخطف المعارف خطفاً ، ثم يحيلها في معمله إلى صور مختلفة الاشكال متباينة الالوان ، ويجعل من اللمحة الخاطفة ، او الجرعة الصغيرة هيكلاً ضخماً فخماً ، قويَّ البناء متين التركيب ، تجري في عروقه دماء الحياة

فقد كان الرافعي الطفل — يوم أن كان في الكتّاب يدرس القرآن مع لداته — هو ذلك الحاكم العادل -- في عرفه هو يومئذٍ — المسرف في حكمه ، الغاضب للحق الآخذ بناصية الظلم ، الشديد في حكمه الى درجة الاغراق او الاسراف ، الذي يخرج الشيء عن طوره ويجعله يتعدى دائرته التي خلقت له وخلق لها . ذلك انهُ كان لا يعرف بينهم إلاَّ « بابن القاضي » فاذا ما شجر خلاف بين طفلين فلا يحتكمان إلاَّ اليه

— يابن القاضي ! هذا الولد ضربني بكفه مرة واحدة

— بدون سبب ؟

— أجل !

— فليضرب بالعصى الغليظة ، مثنى وثلاث ورباع !

ثم يقبل عليه آخر

— يا مصطفى ! لقد سرق مني هذا الولد ، القلم والمحبرة

— لتُقطَّعنَّ يده !

ثم يجيء ثالث

— يابن القاضي . هذا اللعين سب ديني

— دين الاسلام ؟

— نعم !

— لنحرقنهُ ولننسفنهُ في اليم نسفاً !

وما كان يحول بين تنفيذ هذه العقوبات الصارمة المفرقة المسرفة غير تدخل العريف «يامصطفى خلِّ عنك هذا فأني أولى بتأديب الاولاد منك » ... وهكذا دواليك . . . مما يرسم لك صورة حية من اخلاق الطفل ومن تأثير البيئة في نفسهِ وطبعه بطابعها الخاص ، فقد اخذ ابوه مرة بتلابيب رجل مسلم يدخن لفافته ظهر يوم من ايام رمضان في الشارع العام ليقيم عليهِ الحد الشرعي

وهكذا نشأ الرافعي — على غرار أبيه — يغضب للحق غضبة مضرية ، وينتصر له اينما كان وحيثما كان . .وكان يصيب تارة ويخفق اخرى . . وكان اخفاقه نتيجة اعترافهِ دائماً، الامر الذي اصاب معهُ التوفيق في « اعجاز القرآن » و « تحت راية القرآن » والدفاع عن لغة القرآن والاخذ بيد المستضعفين من ابناء لغة القرآن بأناشيده الحماسية التي كان فيها نسيج وحده ، تلك الاناشيد التي ارسلها من صميم فؤاده في عاطفة متأججة ، وقالب عربي مبين ، فكانت اناشيد القوم — العرب — اذا ما حزبهم امر او وقف العدو لهم بالمرصاد

اما اخفاقه ففي كثير من « على السفود » ثم في كثير من نقداته المرة ولذعاته الحارة التي كان يصيب شواظها الرؤوس والاجسام والتي كان يرسلها حمراء هيجاء يصيب بها من يشاء من خصومهِ مما ستراه في موضعه تفصيلاً وتحليلاً ان شاء الله

***

لم يتجاوز العاشرة الاَّ بقليل حتى بدأ في تأملاته ورحلاته ، تأملاته في عجائب الكون وحسن تنسيقه وروعة جماله ، ورحلاته الى اقصى حقول « دمنهور » حيث كان ابوه ما زال قاضياً بهِ — ليجتلي سحر حقوله السندسية المنبسطة وزرعه الاخضر الجميل . . . . فالجداول ضاحكة رقراقة ، والاشجار حالمة والطيور باسمة والنسمات بليلة والآصال جميلة ، والاثمار اليانعة والرياض الممرعة والحدائق المبدعة والنخل باسقات لها طلع نضيد

يخرج من دار ابيه في صباح يوم الجمعة من كل اسبوع هو واخوته وأخوانه للتنزه في المدينة ، فيفلت منهم وييمم وجهه شطر الحقول البعيدة فيظل هائماً بها — طوال اليوم — كالانبياء القدامى متأملاً خاشعاً مطأطيء الرأس امام ذلك الجمال اللانهائي والذي لا يدري من امره شيئاً

هذه هي السماء الصافية الاديم ، وتلك اشجار التوت الكبيرة الوارفة الظلال ، وهذا الغدير ينساب من تحتها في رفق ولين انسياب نسمات الاصيل في اجوائها الخالصة ، صافياً صفاء النفس الطاهرة ، مشرقاً اشراق ومضات الروح المتحرر من القيود ، وهذه هي العصافير تشقشق فرحة مرحة طائرة هنا وهناك ، كأنها هي الاخرى شاعرة سكرى تبحث عن جمال الله في الآفاق

كل ذلك ملك على الفتى مشاعره ، وجعله يعبد جمال الريف ذلك الجمال الخالص من كل شائبة ، يعبده بعيداً عن زيف المدنية وباطلها بعيداً عن اخوته ورفاقه الذين يصيدون العصافير ويقتلونها بنبالهم في الوقت الذي يكتفي هو فيه بصيد الاسماك من البركة ذات الماء الشبم ، التي تشبه السماء في صفائها وزرقتها او من النهير الصغير او الجدول النمير ، لا يبتغي من وراء ذلك غير اشباع روحه ومتاع نفسه . قائلاً لرفاقه « ايها السفاكون كيف تقتلون العصافير . . ايها الاغبياء . . ان الجمال ليس له ان يقتل على هذه الصورة البشعة المنكرة . حقاً انكم لجاهلون ! » ويكون جوابهم « ايها المجنون اليك عنا ، اليك عنا » !

لم يكن هم الفتى يومئذ ، غير الدرس والحفظ والتجويد ، . . — ولو انه انتظم في السنة الاولى من المدرسة الابتدائية الاميرية — الدرس درس النحو والصرف ومبادىء الفقه . والحفظ ، حفظ كتاب الله وتجويده ، وترديد آياته وتفهم معانيها . . . وكان يعاني في ذلك مشقة كبيرة وألماً ، الامر الذي من أجله ضعف سمعه وصدره كما سيأتي تفصيل ذلك في موضعه ، وهنا ينتهي الشطر الاول من حياته ، وهو في نظرنا أهم شطر منها ، وكان لنا من طفولته وحوادثها الشيء الكثير لو ان المرحوم الرافعي عني بتدوين حوادثها ، او كتب عن طفولته بنفسه ، أو ذكر لنا أهم الحوادث التي اعترضت هذه الطفولة الساهمة الواجمة دائماً والتي ما كانت تعرف الضحك او اللعب ، بل التي عليها الحمل وهي ما زالت تحبو — وكلفت عناء الدرس في مقتبل العمر ، وقبل ان تنعم بمباهج الحياة . . . .

أجل ! كان لنا في طفولته مخرج نخرج منه بتعليل بعض ما أبهم علينا من غامض خلاله وأثر الطفولة وخلالها في نفسه — الى يوم موته — . . ولكن للأسف ليس امامنا ما نعتمد عليه في هذا المقام الا النزر اليسير . . وجل اعتمادي — في بعض الحوادث — يا صاحبي على القياس والمنطق والتعليل والتحليل — اذ الصور تدفع بعضها بعضاً — والمترجم الحق في استخراج صوره التي يريدها — في مثل هذه الحالة — من الحوادث التي أمامه ومثله كمثل الباحث عن قليل من الذهب بين ركام من الرماد

— ٤ —

بعد ذلك نقل الشيخ عبد الرازق الرافعي قاضياً بمحكمة المنصورة الشرعية وانتقلت معه اسرته ومنها الفتى « مصطفى » ، الذي لم يبلغ الثالثة عشر ربيعاً بعد ، فالتحق الفتى بالمدرسة

الابتدائية الاميرية، وكانت اللغة الفرنسية هي اللغة الاجنبية التي تقرر الوزارة تدريسها ، فأكبَّ الفتى على دروسه ولازمهُ النجاح طوال سني الدراسة وحصل على الشهادة الابتدائية بتفوق

ومما هو جدير بالذكر ان « الرافعي » — الفتى — قد بزَّ أقرانه في اللغة العربية وعلوم النحو والصرف الى درجة ادهشت زملاؤه ومدرسيه ، ثم اضعفتهُ في اللغة الفرنسية الى حد كبير ، مما لازمهُ طوال حياته ، ومما جعله ينسى الفرنسية تماماً ويكاد ينساها لعدم انتفاعه بها انتفاع الاديب المثقف الذي يستمد زاده من روافد الادب العربي عامة والادب العالمي خاصة ، ذلك الزاد الدسم الذي لا يمكن الحصول عليه الاَّ باحدى اللغات الغربية التي هي مفتاح هذا الادب الواسع — العريض — الثراء . . . ولو ان عندنا ترجمة شاملة للعلوم والآداب الرفيعة ، لانتفع الادب العربي — والاديب العربي — بذخائر الادب الغربي ، ووقفنا على مناحيه المتباينة ومذاهبه المختلفة وسهل التلاقح بين الادبين وأثمر الادب عندنا ثمره المرجو واستطاع في يوم قريب ان يقف بجانبه موقف الند للند لا موقف القزم الحقير ، امام العملاق الجهير . أما تفوقه في العربية والنحو والصرف فيرجع الى استظهاره القرآن ، ثم الى دروس ابيه الذي ما كان يفتأ يدرسهُ ليل نهار علوم البلاغة والنحو والصرف حتى بلغ مبلغه فيها وقطع شوطه ذلك الشوط البعيد

اما سلوكه في المدرسة الابتدائية مع اساتذته فسلوك الطالب المستقيم الحافظ للحقوق والواجبات ... اما مع زملائه من الطلبة فموقف المتعالي الشامخ بأنفه كبرياء وصلفاً الذي كان كثيراً ما يعيرهم «ما هذه العجمة التي في السنتكم، وما هذا العي الذي يلازمكم وما هذا الهذر الذي به تنطقون » ؟ ! . . . . . وكان هذا ديدنهُ — رحمة الله عليه — الى آخر نسمة من حياته المليئة بمواقف الرجولة والكفاح والجهاد

— ٥ —

لما حصل الفتى على الشهادة الابتدائية اصابهُ مرض التيفود فلازم فراشه شهوراً وما برىء منهُ إلاَّ بعد ان برىء منهُ سمعه — او كاد — فراح يطلب علاجاً عند الاطباء فلم يجد — رغم طول السعي — من دواء يستمع الى آلامه الممضة ويدرأ عنهُ عاهتهُ النازلة بساحته وتريد أن تحتل من اذنيه وطناً ومقاماً . وفي ذلك يقول الاديب العريان « واخذت الاصوات تتضاءل في مسمعيه عاماً بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يعدو . حتى فقدت احدى اذنيه السمع ، ثم تبعتها الاخرى ، فما أتم الثلاثين حتى صار اصم لا يسمع شيئاً مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس وامتد الداء الى صدره فعقد عقدة في حبال الصوت كادت تذهب بقدرته على الكلام ولكن القدر اشفق عليه ان يفقد السمع والكلام في وقت معاً ، فوقف الداء عند ذلك ، ولكن ظلت في حلقه حبسة تحبل في صوته

رنيناً اشبه بصراخ الطفل ، فيهِ عذوبة الضحكة المحبوسة استحيت ان تكون قهقهة . . ، :

غير اني أرى ان اصابته بالصمم لم تأت مرةً واحدة — عقب التيفود مباشرةً — بل تدرجت شيئاً فشيئاً حتى بلغ الثلاثين لانهُ لم ينقطع عن التعرُّض لضربات برد الليل يوماً طوال هذه العقود . . . والداء اذاً سبق هذا التاريخ . ذلك انهُ حدثني الدكتور نبوي الرافعي — شقيق الرافعي — « ان المرحوم مصطفى كان يقوم كل ليلة من نومهِ مذعوراً — وهو في سن العاشرة — كما سمعت من ابوي ، ليحفظ الواجب اليومي عليهِ من القرآن ويستظهر بعض النصوص الادبية » . . .

ولانهُ كان يكره الحر الشديد ، ولا تتحمل اعصابه الثائرة لوافحه كان يذهب الى الدهليز مباشرةً دون غطاء على صدره واذنه ، اتقاء لسمات البرد ، اذ كان من حدب امه عليهِ ان تثقل عليهِ الغطاء حينما ينام خيفة عليهِ من البرد — فكان اذا شعر بالحرارة تدب في جسمهِ قام مذعوراً وخرج يقابل البرد ، وفي ذلك ما يعرضه لضربات البرد القاتلة ، تلك الضربات التي بثت الداء الى اذنيه — في بطء — وساعدت الداء ان لم تكن هي السبب في الداء ، وجعلت التيفود يصيبهما في الموضع القتال ولا يتركهما الاَّ في النزع الاخير

ربَّ سائلٍ يقول « اذا كانت يد البرد قد امتدت الى الاذن فلمَ لم تمتد الى الصدر ايضاً وتوهنهُ وتبعث فيهِ السأم والكلال . ولماذا شفي من صدره دون اذنه ؟ »

فجواب ذلك : لقد تلاشى هذا الضعف ، ضعف صدره ، بمزاولة الالعاب الرياضية وأصبح هذا الجسم الضاوي النحيل ، على ممر الايام . قويًّا مفتول العضد ينبىء عن حيوية دفاقة وعافية متجددة ذات ماء نمير . اما اذنه فمن يداويها ... لقد كان الطب في مصر من ثلاثين عاماً — خاصة طب الاذن والحنجرة — غير موجود بمعناه الحقيقي ، وكان من السهل مداواة هذا المرض بادىء بدء لو ان الله قيض للرافعي المسكين ما يذهب عنه هاته السقام ....

وقد شاءت المقادير ان يكون القرآن واللغة العربية ، وهما اول شيء تمكن منهما الرافعي وأحبهما كل الحب ، هما السبب المباشر في اصابة الرافعي بالصمم ، والصمم بدوره هو الذي مهد للرافعي طريق المجد ، طريق الخلود . فلولا الصمم ما انقطع الفتى المدل التياه — وهو في سن العشرين — عن امله ودنياه كي يقطع — في مرحلة صغيرة — هذه المراحل البعيدة التي من الصعب على حدث ناشىء مثله ان يقطعها ، ولما قنع بوظيفة صغيرة لا يملك من ورائها حولاً ولا طولاً وفي وسع اسرته ان تدفع بهِ الى كبرى الوظائف دون مشقة او عناء

***

ما هذا النقص الذي تلافاه الرافعي في حياته وأنفذ صدره دون اذنه ؟!

اجل ... كان الرافعي يسكن مع اسرته في طنطا ، في اول عهده بالوظيفة ، وذات يوم وهو عائد الى طنطا، بينما كان يتسامر مع بعض زملائه الكتبة امام محطة طلخا اذ ابصر برجل غليظ القلب يوسع غلاماً مسكيناً ضرباً مبرحاً فرقّ له قلبهُ وانقض على الرجل بعصاته ولم يتركه حتى ترك الغلام ، ولولا ان جاء القطار وحيل بينهما لاشتبك الرافعي مع اسرة الرجل ، شيخ البلد ، صاحب السلطة والسلطان والهيل والهيلمان . وركب الرافعي القطار والرجل يتوعده ويتهدده ، والرافعي يلوح له بعصاته حتى غاب القطار عن الانظار ، وغداة غدٍ احتل الرجل محطة طلخا هو واسرته في انتظار ذلك الافندي « المهزول » الذي بلغت بهِ الجرأة ان يضرب عائلهم الوقور ولولا وساطة اهل المروءة وزملاء الرافعي ما كنا نعلم ما يصيبه من نتائج هذه المعركة التي كان فيها الغلبة للخصوم

ومن ذلك اليوم والرافعي يسعى في ملافاة نقصه وضعفه بمزاولة الالعاب الرياضية تلك الالعاب التي حرص عليها من ذلك اليوم حتى يوم موته ، والتي بلا صنوفها كلها من عدوٍ وقفزٍ وملاكمة وحمل ما يزيد عن المائة كيلو جرام من الاثقال ! . وكان في هذا كله السابق المعلى !

***

لما حصل على الشهادة الابتدائية سعى لهُ ابوه حتى عين كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية وكان ذلك في ابريل سنة ١٨٩٩ بمرتب شهري قدرهُ اربعة جنيهات ، لكن هذا الشاب الغريض، وذلك الفتى الغرانق الذي قارب السابعة عشر المزهو بشبابه وعلمه وحياة اسرته رأى ان في هذا التعين استصغاراً لشأنه واذلالاً لكبريائه

— يا ابتِ كيف اعين كاتباً بسيطاً واخي الكامل يعين مأموراً للمركز ، يأمر وينهي ويحكم حسبما يشاء ؟ !

فدنا الشيخ عبد الرازق من اذن ولده المختال في بردته خيلاء وعجباً وصاح :

— اسمع يا مصطفى . . انسيت ان في اذنيك وقراً ؟ وانك انت الذي اخترت هذا لتفرغ لدرس القرآن والشريعة الغراء وتتوسع في علوم البلاغة والعربية ، وتتفقه في الدين والمذهب ، وتسعى بما اوتيت من فصاحة لاستكمال ما نقص منك كي تكون لساناً زلقاً ذرباً يدفع ملمة ويدرأ عادية ويقهر عدوّاً

— ولكن يا . . — ولكن يا مصطفى انت الذي اخترت وتفلسفت، وخلقت يا بنيّ لتجاهد في سبيل الله ، وما الحياة الدنيا الاّ لعبٌ ولهوٌ وما الحياة الدنيا الاّ متاع الغرور »

— فاقتنع الشاب بمقالة ابيهِ وسمع ووعى . . . . ونقش في ذاكرته الامينة « خلقت لتجاهد في سبيل الله » . . وصادف هذا البث ، وهذا الايعاز وهذا الاشعار بالعظمة وهذا

الايحاء بالمجد في نفس الفتى مكاناً خالياً . . . « وصادف هواها قلباً خالياً فتمكنا » ! ! . . .

ومن يومها وهو يريد ان يحقق ظن ابيه فيه ، وقد ظن انهُ اخذ على الدهر ميثاقاً ان يتحدث بعاطفة صادقة ملتهبة ، — ولو كان في ذلك حتفه — اذا ما اراد ان يرد فرية دخيلة على الدين او يفحم عدوًّا للعربية والاسلام ، ذلك ان هذا العدو هو العدو المبين !! . . .

— ٦ —

لماذا اراد الرافعي ان يُعيَّن في طلخا ؟

الجواب ستعرفهُ من تلقاء نفسك ياصاحبي بعد قليل . . . . اذا ما التمست له العذر وتبينت شغف الرافعي بالمنصورة اثناء الدراسة ، ذلك الشغف الجدير بكل نفس شاعرة تعشق الجمال في احسن صوره واروع مناحيه . . .

فجمال نيلها الاخاذ ، وسحر جسرها العجيب ، وروعة الظباء في غدوها ورواحها وفتنة الحسان في خطراتها ولفتاتها ، وجمال عرائس الشط القائمات كعمد من المرمر يسبينَ العقول ويأسرنَ القلوب والالباب ، المرسلات شعورهنَّ كأنهنَّ جنيات البحر وقفنَ يجتلينَ سحره بغية الارتماء بين احضانه ورشفن رحيقه الكوثري السلسبيل ! !

أرأيت الى النيل في الفجر وقد غلفته الانداء المعطرة بغلائل من سحب تزجيها افانين السحر تارةً وأخرى تخضلها امواه الجمال . . وقد استحال البحر الى معبد ــ اشبه بمعبد ابولون ــ عبق دخان مجامره اجواء الافق الغربي والساحل الشرقي وطابت الصلاة عن كثب منهُ على صوت المزامير ، مزامير البلابل الشادية ــ لاخدان الحقيقة وابناء الخيال على السواء ! ! !

أرأيت الى الفجر وقد خضب الشفق الغروب بدمهِ الاحمر القاني صفحته فأضحت كأنها لوّثت بدم الشهداء . . . او خرجت بدمع المحبين ! !

أرأيت البحر في الامسية الرخية وقد انعكست على صفحتهِ اللألاءة انوار المدينة الغرقى في احلامها فاستحالت الى عمد من فضة قامت تحمل مناسك ومحاريب يصلى فيها لآلهة الحب وارباب الجمال الشعراء والملاحون والعشاق المعاميد ! !

أرأيت الى مغاني الحب ؟؟

وحدائقه الغلب ؟؟

وكل آسرة للقلب ؟؟

وكل آخذة باللب ؟ ؟

ما أحيلاك . ..

يا ليالي الصب ! ! !

« لها بقية »

احمد محمد عيش

رباعيات الغزالي — ٢ | للشاعر الفرنسي جان لاهور

الحب الصوفي

نجوى الله والشاعر

يا كئيباً بحزنه !
اترك حبك فلا يزال للحب زمن
هلمّ اليّ فانني ارتقبك
وعد الى الينبوع الذي لا نهاية لفيضه .

آه ان موتي في العالم هو بقائي الى الابد
نفساً يغمرها لمعانك الإلهي
وبفراري اليك — من العدم الذي اهواه —
ارتوي من الحب على صدرك بلا انتهاء .

في حضن البحر قطرة ماء تئن ،
يجيبها البحر : اذا كان هنالك لا يزال تباعد بيننا ،
فذا قلبك الذي فرضهُ » .
موتي وادخلي في مادتي تصبحي الهاً !

انني عندليب رياض الاسرار
أئن وابكي واتلاشى على قدمي الاله
انني العندليب الراحل من الارض
مستهاماً — الى الابد — بورود السماء .

[المقتطف : نشرنا في مقتطف اكتوبر النشيد الاول من هذه القصيدة العامرة وموضوعه « حب المرأة » وهوذا النشيد الثاني وعنوانه « نجوى الله والشاعر » ويليه النشيد الثالث في جزء يناير القادم وعنوانه « الشك » وجميعها نقلها خليل هنداوي]

عش عيشة العبادة والذهول والحب .
أحب وتمنَّ وتألم ، ودع قلبك ينفتح كل يوم اوسع افقاً
لحب اكبر وأعمق غوراً . . .
تناول فرحه من الشمس حتى تستطيع ان تهبهُ للكل !

في اجواز البحار ، وفي اعماق السماء ، وفي كل مكان
أرى نمو حياتك التي لا تنتهي .
خاضعة للوزن والعدد ونظام الايقاع .
واراني — في سبيل تقليدك — اعمل على توقيع صوتي .

الكواكب المشتعلة بذهول ابدي تدور ،
تدور بلا نهاية عابدة ربها
وانت ايها الدرويش ! در كذلك فان نفس الحرارة تستولي عليك
وهي التي تعطي لترنح ما في السماء الملتهبة .

جميع الكواكب مجنونة هائمة في حبك
والبحر ينخفض ويعلن مجدك .
والقمة الشاهقة الصاعدة نحو قبتك تعبدك في الليلة السوداء .
والقمر — من حبه الشاحب — يتنهد معي .

ان السماء هي عصفور لازوردي يصفق جناحاه .
على الطريق الذي تهديه اليه يدك يا الهي !
فلأية غاية يحلق ؟ واين يهوي غداً ؟

روحك هو الشعاع الذي يثقب الظلمة الحالكة
فيعير مجده — لحظة — للذرات الحقيرة
ولكن يا الهي ! استعد لمعانك من العدم
فما عسى يبقى من حقيقته ؟

ان نفسي هي اللانهاية التي تطرب وتتألم
وانا الحياة الملتهبة والموت المظلم .
انا هوة يتيقظ فيها كل شيء ويغفى
وبالدوار يصاب كل من يرى هوتي .

فكرتك — وهي تثير يوماً هذا الوجود
تجعل ذرات الهباء فيها تسطع لحظة .
وهذا الوجود - يا الهي - الذي هو عاصفة الاخيلة والاشباح
ان هو الاَّ حلم او لعبة تصورها اشعاري .

ارى الفضاء لا يتناهى فوق هذه القمة الشاهقة
ولكني اكبر هذا العالم حيناً وحيناً احقره .
هذا العالم الذي لا يراه الاله الاَّ عدماً محضاً . . .
او كتلة من الهواء حقيرة يكتنفها البحر .

انهُ كسحابة ذهبية في حواشي المساء .
وانهُ يتراءى في اعماق فكرتك كالبحر المشتعل في الغروب الرقيق
وان حلمي المنقول عنك هو مرآتك .

انني أنا الموجة التي لا تتناهى ،
وأنا الزمان الذي ليس لهُ حدود .
حلمي هو الذي أزهر الآباد المظلمة . . .
أنا الموت ، وأنا الحب ، وأنا الهوَّة المحبوبة ،
التي يقيس الفناء منها الوجود ويتدفق رويداً رويداً .

هل يدرك السحاب أية قوة تزجيه ؟
تقذف بهِ يوماً ريح عاصف ويوماً ريح رخاء
وتقوده قوَّة تارةً أنت تباركها وتارةً أنت تلعنها .
هل تعرفني حقاً ؟
أنا هذه النسمة التي لا تتناهى . . . .

مرض اليبس

فى شجر الموالح [1]

Mal Secco

للدكتور محمد منير بهجت

نشرت « جريدة ذي اجبشيان جازت » في اول مارس سنة ١٩٣٧ برقية من روما بعنوان « ظهور مرض جديد خطر على ثمار الموالح بايطاليا » جاء فيه « ان تجارة الموالح هناك مهددة بالكساد وان مساحة تربي على ثلاثين ميلاً مربعاً من بساتين الموالح المثمرة اقتلعت اشجارها في منطقة باليرمو من جزيرة صقلية لاصابتها بهذا المرض الجديد الخطر »

ولما كانت مصر لا تزال تستورد مقادير كبيرة من ثمار الموالح التي يستورد منها جانب كبير من ايطاليا والرقابة في الجمارك المصرية على الوارد من تلك الثمار ما زالت مقتصرة على مرض اللفحة البكتريولوجية والتقرح تنفيذاً للقرار الصادر في ٣٠ اغسطس سنة ١٩٣٢ فقد اهتم قسم رقابة المزروعات بهذا المرض الجديد واصدر تعليماته اللازمة لجميع مكاتب الحجر الزراعي في الجمارك موجهاً النظر مشدداً بوجوب مضاعفة الرقابة على جميع الموالح الواردة من ايطاليا وحجز ما يشتبه في اصابته بهذا المرض الجديد ، وطلب الى الوزارة في الوقت نفسه الاتصال بملحقها الزراعي بروما لموافاة القسم بكل ما هو جديد في هذا الموضوع

وفي ١٢ ابريل من السنة نفسها ورد من الملحق الزراعي المصري بروما ما يفيد عدم ظهور مرض جديد في الموالح الايطالية وان المرض المشار اليه يعتبر جديداً في منطقة باليرمو فقط حيث هال زواع الموالح فيها ظهوره على اشجار الليمون وتفشيه في كثير منها . ولذلك اهتمت وزارة الزراعة الايطالية به وعهدت الى البروفيسور بيترى في السفر الى هذه المنطقة وفحص الحالة وقد جاء في تقريره ان هذا المرض ليس بجديد وانما هو مرض اليُبْس Mal del Secco

---

(١) مقال مقتطف من مذكرة فنية وضعها الدكتور محمد منير بهجت وكيل الحجر الزراعي الجمركي بوزارة الزراعة ، بأذن منه

الذي سبق له فضل اكتشافه في سنة ١٩٢٩ على اشجار المواح بجزيرة صقلية واطلق اسم Deuterophoma trachiephila Petri على الفطر الذي يسببهُ ومما اتضح لهُ عند فحص منطقة باليرمو ان المرض لا بد ان يكون قد ابتدأ في الظهور على اشجار الليمون فيها قبل سبع سنوات على الاقل غير ان تفشيه كان بطيئاً فلم يلتفت له الزراع . اما وقد انتشر اخيراً انتشاراً مريعاً في منطقة باليرمو فقد اعتبروه مرضاً جديداً . ولما كان من المهم المام رجال الحجر الزراعي بالجمارك المصرية بكل ما يتعلق بهذا المرض من جهة نشأته واعراضه وتوزيعه الجغرافي وعوّله وطرق مقاومته فقد عهد اليّ محمد بك كامل مدير قسم وقاية المزروعات ان اكتب عن هذا المرض الجديد بدقة لتتهيأ الفرصة لكل من يهمهُ الامر للوقوف على كنهه والاحاطة بأطواره المختلفة لتسهل بذلك مراقبته حتى لا يتسرب الى داخلية القطر

﴿ نبذة تاريخية ﴾ في سنة ١٨٩٤ ظهر هذا المرض لاول مرة في جزيرة كيوس

وفي سنة ١٩٠٠ ظهر في جزيرة فاروس من الجزر اليونانية

وفي سنة ١٩١٦ ظهر في الساحل الشرقي من جزيرة صقلية بالقرب من مسينا

وفي سنة ١٩٢٣ وصفهُ العالم الايطالي ل . سفاستانو L. Savastano اجمالاً وقال انهُ ضرب من اللفحة البكتريولوجية مع كثرة الفوارق بين اعراض المرضين

وفي سنة ١٩٢٥ وصفهُ العالم اليوناني اناكوستوبولس Anaquostopoulos وصفاً موجزاً غير انهُ اخطأ ايضاً في زعمه انهُ ناشيء عن الفطر المسبب لمرض « الانثراكنوز »

وفي سنة ١٩٢٦ قام العالم الايطالي بتري Petri بابحاث مستفيضة عن هذا المرض وقد اخطأ ايضاً ونسبهُ الى الفطر المسبب لمرض الانثراكنوز

وفي سنة ١٩٢٩ وصفهُ العالم اليوناني ايوتانتس Ayoutantis ونسبهُ الى بعض الفطر الذي يسبب تصلب الانسجة الخشبية في اشجار المواح

وفي سنة ١٩٢٩ عاد العالم الايطالي بتري الى البحث فيه بدقة وامكنه عزل الفطر الحقيقي المسبب لهذا المرض واطلق عليه اسم ديتيروفوما تراكيفيلا بتري Deuterophoma tracheiphila Petri وبذلك نسبه الى نفسه اذ كان لهُ فضل السبق الى كشفه في اشجار الليمون في جزيرة صقلية

وفي سنة ١٩٣٠ قام كل من استاذي الدكتور فوست Dr. Fawcett الخبير العالمي في امراض المواح بجامعة كاليفورنيا وزميلي الايطالي الدكتور ج . سفاستانو G. Savastano بتجارب عديدة على هذا المرض في محطة الابحاث الزراعية قرب مدينة اشيريالي Acireale من جزيرة صقلية واطلقا عليه اسم « مال سكو : Mal Secco »

وفي سنة ١٩٣٠ لم اعثر عليه هنا مع الدكتور فوست عند زيارته مصر في رحلة علمية

وفي سنة ١٩٣٠ عثر عليهِ كل من الدكتور فوست والدكتور ريخارت Dr. Reichart في مزارع الليمون بفلسطين

وفي سنة ١٩٣٣ وجده الدكتور ناتراس Dr. Natrass في مزارع الموالح بجزيرة قبرص

وفي سنة ١٩٣٧ وجده العالم بتري مكتشف الفطر المسبب لهُ في منطقة باليرمو من شمال جزيرة صقلية

﴿ أعراض المرض ﴾ تبدأ الشجرة بذبول فجائي ينتهي بجفاف الاوراق فلا تلبث اطراف الاغصان حتى تموت سريعاً — ومما يستوقف النظر ان هذه الاعراض تظهر عادةً في ناحية معينة من الشجرة — وقد تبقى الاوراق الجافة عالقة بالفروع او تسقط تبعاً لسير المرض — وفي اشجار الليمون — وهي هي اكثر عرضة للاصابة بهِ من غيرها قد تصاب السوق الاصلية ذاتها باليبس فتموت الاشجار المصابة في عام او عامين . وتحسن الاشارة هنا إلى أن الاعراض المرضية المذكورة — وان أفادت كثيراً في تشخيص المرض — الاَّ انهُ لا يصح الاقتصار عليها بأية حال . لان التجارب دلت على أن كثيراً ما تصاب جذور أشجار الموالح السليمة بحروق ناجمة عن سوائل كيماوية أو غازات سامة فتظهر عليها أعراض مرضية كالاعراض الآنفة الذكر — واذن لا بدَّ لنا من البحث عن اعراض أخرى حاسمة كظهور اللون القرنفلي الاحمر في الانسجة الخشبية عند قطع غصن قطعاً مائلاً لم يظهر عليهِ الذبول بعد ولم تجف أنسجته اللحاقية

وعلى الرغم من هذه الظاهرة الاخيرة فان العالم بيتانكورت A. Bitancourt يقول ان ظهور اللون القرنفلي الاحمر قد ينشأ ايضاً في الانسجة الخشبية عند اصابة اشجار الموالح السليمة بالصواعق الجوية فتيبس ثم تموت ويرى اللون القرنفلي الاحمر فيها كما هو الحال في مرض اليبس تماماً . اذن لم يبق أمامنا لاتمام التشخيص الحقيقي للمرض الاَّ عزل الفطر المسبب لهُ والتثبُّت من حقيقتهِ قبل البت في الامر . واكثر المواضع سهولة لاجراء مثل هذا العزل هي أوعية الاوراق التي يتكامل ذبولها وكذلك الثمار التي لم يتم نضجها . ومن أهم الاعراض المرضية التي شاهدها كل من فوست وسفستانو سنة ١٩٣٠ بجزيرة صقلية ان الذبول والجفاف واليبس تبدأ من قمة النبات وتسير الى جذره في الاشجار الصغيرة وعلى الضدّ من ذلك في الاشجار الكبيرة المعمرة . والظاهر ان الجذور في الاشجار الكبيرة تضعف فتصير اكثر عرضة للاصابة من الاغصان القوية وأوراقها الصغيرة

﴿ كيف تحدث الاصابة ﴾ يتضح مما تقدَّم ان العالم الايطالي بتري قد وفق بعد جهود متواصلة مدَّة ثلاثة عشر عاماً تقريباً (من سنة ١٩١٦ الى ١٩٢٩) الى العثور على الفطر الحقيقي المسبب لمرض اليبس . ولم يكتفِ بتري بهذا النجاح . بل ما زال مواصلاً أبحاثه الى وقتنا الحاضر لمعرفة ما غمض عن هذا الفطر من جهة معيشتهِ داخل عائلته وخارجها والمنافذ التي يتطرق بواسطتها

اليهِ وما يحدثهُ من تغيرات تنتهي في الغالب الى موت النبات . ويجدر بنا هنا سرد بعض هذه التجارب التي تزيدنا علماً بهذا المرض ونتائجه مع العلم بأن الاستاذ المذكور بعد عثوره على الجرثومة المسببة للمرض اتبع طريقة الدكتور كوخ في تشخيصهِ حتى لم يدع مجالاً للشك في ان الجرثومة التي بين يديهِ هي الجرثومة الحقيقية التي تسبب مرض اليبس

فأولاً — عند زيارة الاستاذ فوست للاستاذ بتري في ايطاليا سنة ١٩٣٠ أجريا معاً بعض التجارب على طوائف من أشجار الليمون . ومن ضمن هذه التجارب حقن الشجرة بميكروب المرض في مواضع مختلفة . ففي طائفة من تلك الاشجار كان الحقن في الاوراق . وفي ثانية كان في الاغصان . وفي ثالثة كان في السوق الاصلية . وفي رابعة كان في الجذور فتبيّن ان الحقن في الاوراق والاغصان العليا للاشجار كاد يكون عديم الاثر بينما كانت أعراض المرض نموذجية وبدت سريعاً في الطائفة التي حقنت جذورها . وبعد مضي أربعة شهور كانت الاعراض الظاهرة قد عمت جميع أجزاء كل شجرة . وأمكن تتبع اللون الاحمر القرنفلي في الانسجة الخشبية للنبات الى ارتفاع عشر اقدام من مواضع الحقن في الجذور . كما أمكن عزل جرثومة الفطر المسبب للمرض بسهولة في أماكن عديدة من أشجار الطائفة الرابعة وهي التي حقنت جذورها

فيتضح مما سبق ان الاعراض المرضية الناتجة عن تلقيح الاشجار بميكروب المرض تخف وطأتها كلما كان الحقن بعيداً عن الجذور وسرعة تصاعده هي اضعاف سرعة هبوطه نحو الجذور اذا ما حقنت الاوراق

وثانياً — لم يعثر في جميع التجارب السابقة على الجراثيم « البكنيدية » في الثمار

وثالثاً — دلت تجارب بتري في سنة ١٩٣١ على ان جراثيم هذا المرض تتخذ عادةً من فوهات ثغور الضلع الوسطى من السطح العلوي للاوراق منفذاً تتطرّق منهُ الى اوعية النبات السليمة ولا تلبث طويلاً حتى تأخذ الاعراض الاولى للمرض في الظهور

ورابعاً — تبدأ العدوى عادةً بتساقط « البكنيديات » على السطح العلوي للاوراق فاذا اتفق وجود غشارة من الماء على هذا السطح . امتصت البكنيديات جزءاً منهُ وانتفخت وانفجرت قاذفة بجراثيم المرض التي لا تلبث حتى تستقر في فوهات ثغور الضلع الوسطى . وفيها تبدأ في الانبات والنمو متطرقة الى داخل الانسجة وهكذا تبدأ العدوى

وخامساً — كان من ضروريات حدوث العدوى بعد وصول جراثيم المرض إلى فوهات الثغور ان يظل الجو مشبعاً بالرطوبة المرتفعة مدةً لا تقل عن اربعين ساعة باطراد في درجة من الحرارة تختلف من ١٥ الى ١٦ درجة مئوية

﴿ الفطر المسبب للمرض ﴾ قرر العالم بتري سنة ١٩٢٩ ان هـذا المرض نتيجة لعدوى

بجرثومة جديدة عثر عليها وأطلق عليها اسم « ديتروفوما ترا كيفيلا بتري : Deuterophoma tracheiphila Petri » اي نسبها الى نفسه

ومن خواص هذا الفطر انهُ يفتك بالحزم الوعائية . وقد شوهد ان الفطر المسمى « كوليتوتريكم جليوسبوريودس » Colletotrichum gloeosporioides المسبب لمرض ذبول الاطراف او الانثراكنوز يعثر عليه دائماً على السطح المصاب بمرض اليبس من الاغصان او الفروع — وكثيراً ما ادى هذا الاصطحاب بين هذين الفطرين الى اللبس باسناد مرض اليبس الجديد الى جرثومة الانثراكنوز — كما حصل ذلك للعالم اليوناني اناكواستوبولوس في سنة ١٩٢٥ وللعالم بتري نفسه في سنة ١٩٢٨ . وقد قام كل من الدكتور فوست والدكتور ج . سفستانو باجراء تجارب عديدة في سنة ١٩٣٠ أثبتا بها صحة نسبة مرض اليبس الى الفطر « ديوتيروفوما تراكفيليا بتري » سواء أُوجد فطر « الكوليتوتريكم جليوسبوريودس » ام لم يوجد

* * *

﴿ عوائل هذا المرض ﴾ لا يتطفل هذا الفطر الأعلى الموالح غير ان اشجار النارنج وهي التي تتخذ عادة في مصر وصقلية وباقي انحاء المعمورة اصولاً للتطعيم — هي في الواقع اكثر اشجار الموالح عرضة للاصابة بمرض اليبس Mal Secco ويليها في ذلك اشجار الليمون فهي عرضة للاصابة الشديدة

اما اشجار الاترج « الترنج » والليمون الحلو والترايفولياتا فتصاب احياناً اصابة خفيفة . ثم ان انواع البرتقان واليوسفي في جزيرة صقلية تعتبر منيعة جدًّا على هذا المرض ولا بدَّ من الاشارة هنا الى ان تجارب سفستانو دلت على ان انواع الليمون المسمى انتردوناتو لا تقل مناعة عن البرتقان واليوسفي . وقد قرر العالم بتري Petri ان درجات الاصابة في مختلف انواع الموالح ليست راجعة الى كبر فوهات ثغور اوراقها وانما يحتمل اسناد ذلك الى محتويات الانسجة نفسها . حيث بين بتري في سنة ١٩٣٠ ان الفطر ينتعش وينمو سريعاً في عصير اغصان الليمون وعلى الضد من ذلك في عصير اغصان البرتقان. وهذه النتيجة تتفق وما هو معروف لدينا عن كثرة اصابة الليمون ومناعة البرتقان على هذا المرض . ومما هو جدير بالمشاهدة في محطة تجارب اشيريالي Acireale اشجار من الليمون سليمة من مرض اليبس مطعمة على اصول من البرتقان في حين انه يشاهد حولها اشجار اخرى من الليمون طعمت على اصول من النارنج اصابتها شديدة ، ولكن اذا عرف ان الاصابة تحدث عادة عن طريق جروح الجذور وان البرتقان منيع على هذا المرض والنارنج شديد الاصابة به ، سهل علينا معرفة سبب سلامة الليمون المطعم على البرتقان واصابة اشجار الليمون المطعمة على اصول من النارنج

« طرق المقاومة » لم تكتشف حتى الآن وسائل ناجعة لمعالجة اشجار الموالح التي تصاب اصابة شديدة بهذا المرض . وجهد العلماء ينحصر الآن في طرق الوقاية فقط اذ مما تقدم يتضح بانهُ في الوقت الذي تظهر فيهِ الاصابة (ذبول الاطراف العليا من الشجرة) يكون الفطر قد تغلغل في الاوعية الخشبية من الاغصان ومن ضمنها التي تبدو سليمة في الظاهر لكونها مخضرة

واكثر الحالات التباساً عندما تحدث الاصابة في الجذور — عندما تكون الاوعية الخشبية من الساق الاصلية مكتظة بالفطر وذلك قبل مشاهدة اي ذبول في الاغصان والاوراق العليا من قمة الشجرة — وهذه الحالة تؤدي حتماً الى موت الشجرة المصابة على هذا النحو خلال عامين او ثلاثة

اذاً لا بدَّ لنا من الالتجاء الى المناعة الطبيعية التي في اشجار البرتقان واليوسفي . وذلك بانهُ عند موت بعض اشجار الليمون بهذا المرض تغرس مكانها اخرى من نوعها سبق تطعيمها على اصول من البرتقان مثلاً وبذلك تنجو من الاصابة . ويجب الامتناع عن غرس الاشجار الجديدة في الحفر القديمة التي ماتت اشجارها وانما تختار اخرى جديدة سبق تهويتها وتسميدها وتعريضها للشمس حتى تكون صالحة لنمو الاشجار الصغيرة الى ان تكبر . ومما هو جديرٌ بالانتفاع بهِ استعمال اشجار الليمون المطعم بطريقة المساندوتش على اصول من النارنج . وهي التي تكون فيها طبقة من خشب اليوسفي او البرتقان حائلة بين ساق شجرة الليمون والجذر الاصلي فتقف حجر عثرة في طريق صعود جراثيم مرض اليبس اذا ما تمكنت من الوصول الى جذور النارنج . ولما كان الليمون المعروف بالانتردوناتو اكثر الانواع مناعة فيحسن الانتفاع بهِ وزراعته في المناطق الموبوءة بمرض اليبس او المعرضة للاصابة بهِ

الخلاصة

١ — وفق العالم الايطالي بتري الى اكتشاف جرثومة هذا المرض في سنة ١٩٢٩

٢ — يتطفل هذا الفطر على اشجار الموالح فقط — واكثرها عرضة لهُ النارنج فالليمون فالترنج فالليمون الحلو . اما البرتقان واليوسفي فيعتبران منيعين عليهِ

٣ — يندر جدًّا حدوث اية عدوى بواسطة الثمار لانها لا تصاب بطبيعتها على خلاف الاشجار

٤ — هذا المرض غير موجود في مصر حتى الآن ولكن نظراً الى فتكه باشجار الموالح في البلدان القريبة من مصر كفلسطين واليونان وايطاليا — لا بدَّ لرجال الحجر الزراعي الجمركي من توجيه كل عنايتهم الى فحص شجيرات الموالح الواردة من تلك البلدان . وليلاحظ ان اهم اعراض المرض المذكور هي ضعف الشجيرات ووجود « بكنيديات » المرض واحمرار الحزم الوعائية من خشب الشجيرات المصابة

الى الذات القدسية الطاهرة التي توحي اليّ أناشيدي

ابتهالات ...!

لمحمد فهمي

أيها الكوكب المكلّل بالطُّهر ألا رحمةً لمن في إسارك ؟
أو تواسي القلب الذي بك اضحى ثائر الخفق مُشعلاً من اوارك ؟
العبادات حول قُدسك تُتلى والتعاويذ من رُقى أبرارك
صاعدات الى عُلاك بهمس وخشوع قد ضُمِّخت بوقارك
حائمات من حول عرشك صبحاً ومساء وفي ضياء نهارك
فأرى بسمة الرضاء تبدّت بالثنايا ، أيا لسحر افترارك !
انهُ الخلد قد بدا لعياني انه البرق سارياً في مسارك ...

* * *

ما ابتسامُ الحياة غير شعاعٍ يَنْهَرُ اللُّبَّ . من سنا انوارك
ما نعيمُ الوجود غير امانٍ ينشد القلبُ لحنها بجوارك
ما شفاء الفؤاد غير حديثٍ نَبْعُهُ العذب فاض من أنهارك
يُنعِشُ القلبَ وِردُهُ – وشذاه يُسكر الروح ، يالسحر اقتدارك !!

* * *

أنت لي أينما أكونُ خيالٌ هامسٌ في خواطري بشعارك
نِعمَ ذاك الشعار طهراً ونُبلاً وجلالاً مقدّساً من منارك
انهُ النُّبل في أرقّ المعاني انهُ الطُّهر ما لهُ من مُشارك
انهُ الحبُّ والعفافُ وعهدٌ يا لقُدسِ العُهودِ من أسرارك !!

* * *

ما أراني أعيشُ الاّ لأحيا أقبسُ الوحي من شذى أزهارك
ما أراني أعيش الاّ كفجرٍ حالم الجفن فوق عفّ إزارك
ما أراني أعيش الاّ لأشدو بالقصيد البديع من أشعارك
أنت شعرٌ من الخلود تجلى يغمر الكون بالسَّنا ويبارك ..!!
أنت شمسٌ تضيء كونَ حياتي وأنا النجم هائماً في مدارك ..

الأرَضَة او النمل الابيض

طبائعها الغريبة

وتنظيم قراها الدقيق

ليس النمل الابيض نملاً ، بل يختلف عن النمل في كثير من اهم وجوه حياته . فالنمل الابيض او الأرَضة حشرة نباتية لا تأكل ولا تهضم الا الخشب (السلولوس) حالة ان النمل حشرة لاحمة وهي أشد اعداء الأرضة . هذه الحشرات التي تعيش في الاقاليم الحارّة ، على جانب عظيم من الذكاء والنظام ، ويرى الفيلسوف والشاعر البلجيكي ماترلنك — وهو الذي قضى سنين في دراسة حياتها — ان اصلها يرتد الى نحو مليون سنة قبل ظهور الانسان على الارض

في خلال هذه الدهور الطويلة نشأت في طوائف الأرَضة ، طبقات متميزة لكل منها عمل خاص تقوم به ، ولكن اذا حدث ما قضى على احدى هذه الطبقات تعذرت الحياة على بقية الطائفة . ذلك ان نظامها وتوزيع الاعمال بينها بلغ مرتبة بعيدة من الدقة ، فلا تقوى الجماعة على الحياة اذا اختلّ توازنهُ . ولعلّ أبعث مظاهر حياتها على الدهشة ، ان جميع افراد الطبقات المختلفة تتولد من بيض واحد تبيضهُ الملكة . وهي لا تكاد تبيض بيضها حتى يقبل العَمَلة عليه ، ينقلونهُ الى مخادع مختلفة في القرية ، حيث يفقس ويتحوّل ، بالغذاء المختلف ، الى افراد الطبقات التي تتألف منها قرية الأرَض . والقول بان الغذاء المختلف يؤثر في البيض المتماثل فيتولد منهُ افراد الطبقات المتباينة ، لا يجب ان يؤخذ على علاّته . وانما ليس عند متتبعي حياة هذه الحشرات قول خيراً منهُ الآن في تعليل تولّد الطبقات المختلفة من بيض واحد تبيضهُ الملكة

في كل قرية من قرى الارَضة ست طبقات مختلفة . الملك والملكة ثم طبقتان من الحوريات المجنّحة ذكوراً واناثاً . وهي متصفة جميعها بقدرتها على التناسل ، لان الحوريات تنطلق في ربيع كلّ سنة من القرية فتنشئ في اماكن اخرى ، قرى جديدة ، وتصبح هي ملكاتها وملوكها

ثم يلي هذه الطبقات الاربع ، طبقة العَمَلة وهي كثيرة العدد وطبقة الجنود وهي قليلة العدد . وافراد هاتين الطبقتين لا قدرة لها على التناسل ، ولا على البصر ، ولكن حواس اللمس والشم والسمع فيها ، مرهفة الارهاف كلّه ، وفي مكنتها ان تعلم في الحال بوقوع اي هجوم على القرية ،

وابن موضعهُ ، وذلك بهزَّات خفيفة تشعر بها بارجلها على الغالب . فاذا حسبنا الحوريات ، وهي ملكات المستقبل وملوكه ، من طبقتي الملك والملكة ، كانت الطبقات التي تتألف منها قرية الارضة ، أربع طبقات هي الملوك والملكات والعملة والجنود

العملة أصغر سكان القرية حجماً وأكثرها عدداً ، وقد لا يقل عددها في كل قرية عن بضعة آلاف ورؤساء العملة أكبر حجماً مما يقابلها في طوائف الحشرات الأُخرى التي من مرتبة الارَضة حجماً ، وهذا في عرف بعض الباحثين دليل على تفوقها ذكاء . ورأسها هو العضو الوحيد فيها الذي تغطيهِ طبقة من المادة القرنية (كيتين) حالة ان بقية الجسم عارية طرية . اما مشافرها فقوية جدًّا ولولا قوَّتها لما استطاعت ان تأكل الخشب اليابس الذي تغتذي بهِ. فاذا أُصيب بيتٌ بالارضة ، استطعت ان تسمع في سكون الليل صوت مشافرها اذ تكون مئات او أُلوف منها تقرض الخشب . وحركة العملة بطيئة متواصلة ، فهي تختلف عن حركة الحشرات الاخرى ، السريعة المتقطعة . ولما كان من شأن الجنود ان تقود العملة الى عملها وتسهر على قيامها بهِ ، فتراها وهي منطلقة اليهِ كأنها تيار عرضهُ ثلاث حشرات او اربع منها

في مقدمة أعمال العملة قرض الخشب اليابس وهضمهُ وتغذية سائر الطبقات بهِ ، وذلك باجترارهِ وزقها بهِ ، لان افراد الطبقات الاخرى عاجزة عن الاغتذاء . ومن المشاهد الغريبة التي يصفها العلماء المتوفرون على دراسة هذه الحشرات ، مشهد الجندي منها يستوقف احد العملة بأحد لوامسهِ ، فيخرج ذلك العامل من الصف السائر فيهِ ، فيقف امام الجندي واضعاً فمهُ على فم الجندي ليزقهُ بالغذاء المطلوب . فالعامل عماد القرية من هذه الناحية ، لانهُ يغذيها

ثم ان العملة تبني القرية فوق سطح الارض ، وتحفر الانفاق والاسراب التي تهويها وتنشيء المخادع مختلفة المقاييس ، وذلك باشراف الجنود وارشادهم

فاذا أُصيبت القرية بعطب ما ذهب بعض الجنود حالاً الى مكانهِ ، فيقفون هنيهة وكأن تحريك لوامسهم يدلُّ على أنهم قدَّروا العطب وما يحتاج اليهِ من العمل لترميمهِ ، ثم يرتدُّ بعضهم لاستقدام العملة ، حالة ان الباقي يقف حارساً الى ان يبدأ العمل . ولا تلبث حتى ترى العملة وقد أقبل تيارها ، كلُّ عاملٍ حاملٌ دقيقة من التراب ، حفرها من الارض بمشفاريهِ ، فيضعها في المكان اللازم ، فوق ما سبقها او حذاءه تماماً . وتمضي العملة في عملها طول الليل وشطراً من الصباح ، الى ان يشتدَّ حرُّ الشمس على اجسادها العارية ، فتقف عن العمل . وكذلك تسد الثغرة . وهي تبدأ العمل جادة قبيل المساء وتمضي فيهِ طوال الليل ثم تقف عنهُ بعيد شروق الشمس واذا كان لا بدَّ لها من العمل عند اشتداد الحر ، وفي مكان مكشوف لهُ صنعت ازجاً وسارت فيهِ . والازج يكون مسلكين احدهما للذاهبين وثانيهما للآيبين وليس بالنادر ان يمتدَّ من

الارض الى فرع شجرة عثر فيها العملة على خشب يابس . ثم ان فريقاً من العملة يصحب الملكة دائماً ، يغذيها وينقل بيضها من حيث تبيضه الى المخادع الخاصة ، ويعنى باليرقات ويغذّيها . وفي كل قرية من قرى الأرَضة لا بدَّ من الماء ، ولاسيما لترطيب الاماكن التي ينمو فيها الفطر ، وهو من اهم مواد الغذاء . وفي سبيل الحصول على الماء لايبعد ان يحفر العملة انفاقاً بعيدة الغور في الارض ، وقلما تخطىء ، ثم تراها وقد اخذت تنزل النفق ثم تؤوب وقد اكتنزت الماء في اجسامها فتفرغهُ حيث يجب

فالعامل في قرية الارضة يغذي الجماعة ، ويبني القرية ، ويرم ما يهدم منها ، وينقل الماء الى مزارع الفطر ، ويحرس الملكة ويعنى بها وببيضها وبيرقاتها . فعمله لا يكاد ينتهي

والجندي من النمل الابيض يفوق العامل ثلاثة اضعاف حجماً ، ورأسهُ مغطى بطبقة قرنية صلبة ، وهو يكاد يكون نصف حجم الجسم كله ، أما بقية جسمه فعارية طرية . وعدد الجنود في القرية ليس كبيراً . ولكنهُ لا قدرة له على التناسل ولا على البصر . وفي مقدمة الاعمال التي تقع على عاتقه السيطرة على العملة وتوجيهها ، ويظن أن كبر رأسه يدلُّ على ذكائه وعلى ان التنظيم في قرية النمل الابيض من شأنه . أما مشفراه فقويان جدًّا واذا اطبقا على شيء لم يفلتاه حتى ينفصل رأس الجندي عن جسمه

أما الملكة فقبيحة الشكل صغيرة الرأس ، يبلغ طول جسمها اربع بوصات ومدارهُ بوصتين وهو مليء بعدد لا يحصى من البيض . فاذا وقع النظر على ملكة بالغة ، في حجرتها الخاصة وهي عاجزة عن الحركة ، يصعب على الباحث ان يصدق انها بدأت حياتها حورية مشيقة خفيفة الحركة ذات اجنحة شفافة تمكنها من الطيران . ولكنها كانت في الواقع كذلك واصبحت الآن آلة للبيض لاغير . ومما وجدهُ الباحثون ان الملكة تستطيع ان تبيض بيضة كلَّ ثانية أو ٨٦ الف بيضة كل يوم (٢٤ ساعة) او ثلاثين مليون بيضة كلَّ سنة . ومدى حياتها العاملة على العموم اربع سنوات ، ولكن عندما تضعف قدرتها على البيض يمتنع حراسها عن تغذيتها فتموت جوعاً فيلتهمونها ويقيمون ملكة مكانها من الحوريات الاناث

وللحوريات ذكوراً واناثاً اجنحة تمكنهما من الطيران مبتعدة عن القرية التي ولدت فيها وبذلك تخفف ضغط السكان في القرية ، وتنشىء قرى جديدة اذا وقعت في مكان مؤات . وقد روى الفريد اميرسن استاذ علم الحيوان في جامعة شيكاغو في مجلة التاريخ الطبيعي الاميركية ، انهُ اذا سقطت الحورية الانثى في مكان مؤاتٍ كقطعة من الخشب اليابس تكسر اجنحتها الاربعة الشفافة عند مفاصل معينة ثم ترفع جسمها فتبعث في الهواء رائحة خاصة فتجذب اليها ذكراً فاذا رأتهُ مقبلاً بحثت عن ثقب واسع تستقر فيه او مكان مخفيٍّ تحت قدّة من الخشب ثم يغطي الملك والملكة

الهجرة التي ينشأ آنها بما يخفيها عن انظار الاعداء . فاذا سار كلُّ شيء على ما يرام ، فلا تمضي بضعة أسابيع حتى يصبحا والدين لطائفة يسيرة من الحوريات البيض ، فيغذيانها بطعام يزقانها به في الفم حتى تكبر وتشتد فيقع على عاتقها جلب الغذاء لها ولوالديها . الاَّ ان الدكتور سبنسر يقول في مجلة السكوتمبرري ، انهُ عند ما تنطلق الحوريات من القرية ، يكسر الذكر اجنحتهُ ويتعلق باهداب انثى فتحمله الى ان يحطّا في مكان ما ، فاذا كان مؤاتياً أسسا فيه قرية جديدة

يبلغ طول الحورية الانثى بوصة ، والذكر دونها طولاً وثخانة . ولكل من الذكر والانثى أربعة أجنحة رقيقة شفافة تمكنها من الطيران مئات من الامتار عن قريتها الاصلية . ولكل منها كذلك عينان ضعيفتان تمكنانها من اجتناب الاصطدام بعضها ببعض وبالاشجار والشجيرات في اثناء طيرانها القصير المدى وكذلك من معرفة القرية التي خرجت منها فلا تعود اليها

هذه الهجرة تبدأ في الربيع بعد ان تكون أمطار الشتاء قد بلّلت الارض ، وقلما تطير الحوريات في النهار ، بل تنتظر حتى يبرد حرُّ الهجير ، ويضعف وهج الشمس ، فتنطلق من قريتها عند المساء الى المستقبل المجهول . وسكان افريقيا المتوسطة ، يحسبون الارَض المجنح غذاء لذيذاً كالجراد وقد ابتدعوا لصيدها وجمها وسائل بارعة

وبيوتهُ اكوام عالية مخروطية كالصخور لا باب لها من الخارج . اذا كانت جديدة لم يكن ترابها شديد التماسك فيسهل حفره بالعصا ولكنها اذا قدمت صارت صلبة كاللبن المجفف في الشمس . وسمك جدارها الظاهر نصف قدم الى قدم وهي مقسومة من الداخل الى مخادع كثيرة جدرانها رقيقة جداً كالورق . والنملة تبنيها من الاتربة وقطع الخشب مما تأكله وتفرزه او تحيله بلعابها وبعضها مما تجمعهُ مما حولها اذ قد يكون فيها قطع صغيرة من الصوان مما لا يحتمل أن يكون النمل قد اكله ومهما كان اصل مواد البناء . فالنمل يلصقها بعضها ببعض ببرزاته ومفرزاته والغالب انه يمضغ ورق النبات وقطع الخشب حتى يصنع منها مادة لزجة تتماسك بها اجزاء التراب

والغالب ان يكون البيت مخروطاً مقبباً علوه ،ضاعف عرضه وقد يكون طويلاً دقيقاً كجذع النخلة وقد رأى العالم يتسي بيوتاً علو البيت منها ستة أمتار ومحيطهُ ثمانية أمتار ولكن البيوت التي تبلغ هذا الحد من الكبر قليلة نادرة والغالب ان يكون علو البيت مترين أو ثلاثة . وقد ثبت لهُ ان كبر البيت دليل على عمره واقدم البيوت التي رآها لا تزيد عمرها على خمسين سنة . ولكل بيت أسراب ومخادع تحت الارض لها جدران من التراب وسن مادة سمراء نباتية مضغها النمل وجبل بها التراب او الصقهُ بها

ويكثر النمل الابيض في الحراج والغابات وهو ينخر الاشجار اليابسة ولكنهُ لا ينخر الاشجار النامية وقد يبني بيتهُ بين اغصان الشجرة والمواد التي يبنيه بها حينئذٍ تكون خشبية كلها لا تراب فيها الاَّ اذا كانت قريبة من الارض فتكون مواد البناء حينئذٍ مزيجاً من الخشب والتراب

آراء حرة

هنري لامانس

للدكتور زكي محمد حسن
أمين دار الآثار العربية

— ١ —

وُلد لامانس Lammens سنة ١٨٦٢ في مدينة غاند من أعمال بلجيكا ، وتركها في الخامسة عشرة من عمره ، واتخذ لبنان وطناً ثانياً له ، ودرس في الكلية اليسوعية ببيروت ، ثم اشتغل بالتدريس فيها منذ سنة ١٨٨٦ ، وتخصص في تاريخ الشرق الأدنى وجغرافيته وحضارة أهله من مسيحيين ومسلمين . وما لبث ان أتقن اللغة العربية وقرأ المؤلفات الكثيرة في شعرها ونثرها وفقهها ، فكان ذلك نواة نبوغه في الدراسات الشرقية ، ذلك النبوغ الذي مهد له طوافه للدرس والتحصيل في البلدان الغربية والشرقية ، ولا سيما في النمسا وايطاليا وانجلترا ومصر . والذي كانت فاتحته تعيين لامانس سنة ١٩٠٧ أستاذاً في معهد الدراسات الشرقية ، وكان قد أنشىء في الكلية اليسوعية ببيروت .

ثم اتصل الاب لامانس بأعلام المستشرقين . وتعاقبت مؤلفاته المستقلة ومقالاته في مختلف المجلات العلمية ولاسيما في نشرات الكلية الفرنسية ببيروت Mélanges de la Faculté orientale de Beyrouth وفي المجلة الاسيوية Journal asiatique وفي مجلة ابحاث علوم الدين Recherches de science religieuse وفي مجلة الدراسات الشرقية Revista degli studi orientali وفي مجلة المجمع المصري Bulletin de l'Institut d'Egypte وفي دائرة المعارف الاسلامية

وظلّ لامانس علماً من أعلام المستشرقين المشتغلين بدراسة التاريخ الاسلامي حتى وافته المنية ببيروت في مايو سنة ١٩٣٧ ، بعد ان أقعده الفالج عن العمل في السنين الاخيرة من حياته

ومع ان هذا الراهب المؤرخ اخذ كثيراً من آرائه عن شيوخ المستشرقين مثل جلد زيهر

ونلدكه وكيتاني وولهوزن ، فانهُ انتحى في البحث ناحية ميزتهُ عنهم ، وبالغ في التعصب على الاسلام حتى أفسد ذلك علمه في بعض النواحي ، وجعل المؤرخين وعلى رأسهم المستشرقون ، يشكون في امانته العلمية ، ويتهمونهُ بركوب متن الشطط

ولا يتسع المقام هنا لان نفي لامانس حقه من التحليل والدراسة فحسبنا ان نلقي نظرة على دائرة ابحاثه لنستطيع ان نتبين قيمتها العلمية

***

ولعلَّ من الانصاف لانفسنا وللاب لامانس وللحقيقة التاريخية ان نميز في آثاره العلمية بين ما دار منها حول اصول الاسلام واركانهِ وشخصية النبي عليهِ السلام ، وبين ما عالج المؤلف فيهِ جغرافية بلاد العرب وتاريخها ونظمها الاجتماعية قبل الاسلام ، وبين ما وقفهُ على دراسة الدولة الاموية وأبطالها من ملوك وأمراء وشعراء وأدباء

ونحن اذا أدركنا كنه العاطفة التي كانت تتجلى في كل نوع من هذه الكتابات ، امكننا في شيء من السهولة ان نكشف النقاب عن المؤرخ الراحل . ولكننا قبل ان نعرض لهذه المؤلفات نحرص على ان نؤكد ان لامانس قرأ كثيراً — بل كثيراً جداً — في التاريخ الاسلامي ولا نقرر الاَّ الحقيقة حين نقول انهُ كان واسع الاطلاع قوي الحجة ، لهُ ذاكرة عجيبة ومثابرة على العمل قلَّ ان اجتمعتا لغيره من العلماء ، فضلاً عن انهُ ملك ناصية اللغة العربية ، ونفذ الى اعماق علومها المختلفة . ومع ذلك كله فلن يصعب علينا ان نثبت ان لامانس كان في ناحيتين من النواحي الثلاث التي انقطع للكتابة فيها محامياً قديراً ، لبني امية تارةً ، ولاعداء الاسلام تارةً أخرى ، وانهُ كان خصماً عنيداً للمسلمين عامة وللعلويين والعباسيين خاصة وانهُ كان يسلب العرب الفضائل والصفات الخلقية الجميلة التي أجمع المستشرقون على نسبتها اليهم ، وانهُ كان في خصومتهِ هذه يعمد في بعض الاحيان الى السفسطة والمغالطة ، مما سنسوق عليهِ بعض الامثلة في السطور التالية

— ٢ —

اما مؤلفات لامانس عن بلاد العرب وجغرافيتها قبل الاسلام ، وعن جغرافية الشام وتاريخها المسيحي ، فمراجع ثمينة في موضوعها ، ودراسات علمية صحيحة ، لا يمكن ان يستغني عنها باحث في هذا الميدان . ولا غرو فقد قرأ لامانس كل ما كتب عن طبيعة بلاد العرب ، وعن عادات سكانها واحوال معيشتهم في الجاهلية ، وقام بالرحلات الطويلة في سورية وفلسطين حتى اصبح حجة في تخطيط هذه الاصقاع واخبار سكانها القدماء . وحسبنا ان نقرأ كتبه عن البادية

والحيرة[١] وعن مهد الاسلام [٢] وعن المعابد في غربي بلاد العرب قبل الهجرة[٣] وعن الطائف[٤] وعن مكة [٥] قبيل الهجرة ، نقول حسبنا ان نقرأ هذه الكتب ، لنتبين قيمتها العلمية الكبيرة ، ولنعرف انها تدل على ان هذا الراهب الجليل كان عالماً قديراً الاّ عند ما كان يكتب عن الاسلام وابطاله

— ٣ —

أجل كان لامانس في مؤلفاته عن الاسلام داعية ، ولم يكن عالماً . وفي الحق انهُ لو انصف نفسه لترك الكتابة في هذا الموضوع الى باحث ليست له صفته الكهنوتية ، التي تكفي لتجريحه والتي كانت تدفعهُ الى تحقير الاسلام والى نسبة كل خير في هذا الدين الى المسيحيين والى اليهود في شبه الجزيرة

ويحضرني في هذه الساعة ما كتبهُ الدكتور طه حسين بك عن منهج البحث في كتابه عن الادب الجاهلي (ص ٦٧) . قال استاذنا العميد :

«اريد ان اصطنع في الادب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثهُ (ديكارت) للبحث عن حقائق الاشياء في اول هذا العصر الحديث . والناس جميعاً يعلمون ان القاعدة الاساسية لهذا المنهج هي ان يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمهُ من قبل وان يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوًّا تامًّا . . . . فلنصطنع هذا المنهج حين نريد ان نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء . ولنستقبل هذا الادب وتاريخه وقد برأنا انفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل وخلصنا من كل هذه الاغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ ايدينا وارجلنا ورؤوسنا ، فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة ايضاً . نعم يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه ان ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها ،

---

(١) — La Badia et la Hira sous les Omayades في المجلد الرابع من نشرة الكلية الشرقية في جامعة سان جوزيف بيروت

(٢) — Le Berceau de l'Islam; l'Arabie occidentale à la veille de l'hégire روما سنة ١٩١٤

(٣) — Les Sanctuaires pré-islamites dans l'Arabie occidentale في المجلد الحادي عشر من نشرة الكلية الشرقية في جامعة سان جوزيف بيروت

(٤) — La Cité arabe de Taif à la veille de l'Hégire في المجلد الثامن من نشرة الكلية الشرقية في جامعة سان جوزيف بيروت

(٥) La Mecque à la veille de l'Hégire في المجلد التاسع من نشرة الكلية الشرقية في جامعة سان جوزيف بيروت

وان ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها ، وان ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية ، يجب الاَّ نتقيد بشيء ، ولا نذعن لشيء ، الاَّ مناهج البحث العلمي الصحيح . ذلك أنا اذا لم ننس هذه العواطف . وما يتصل بها ، فسنضطر الى المحاباة وارضاء العواطف »

وكيف لا تريد أن يحضرني هذا الكلام ، الذي تلقيته في الجامعة منذ نيف وعشر سنين ؟ ومتى تريدني أن اذكره ، إذا لم افعل الآن في الحديث عن لامانس ، الذي لم ينس عواطفه فيما كتب عن النبي والاسلام ؟

كتب لامانس عن الاسلام (٦) وعن اخلاص محمد في اعلانه الدعوة (٧) ، وكتب عن عمر محمد (٨) ، وكتب عن فاطمة وبنات محمد (٩) . وقيل انهُ كتب عن حياة محمد مؤلفاً لم توافق دوائر الفاتيكان على نشره ، خشية ان يؤدي ما فيه من طعن وتهجم الى احتجاج الامم الاسلامية وظهور المؤلفات في الرد على ما فيه

والاب لامانس في جميع هذه المؤلفات يتهم رواة السيرة بانهم مخترعون ، ولكنهُ لا يحجم عن الاعتماد على رواية من رواياتهم اذا استطاع أن يلمح فيها مطعناً على الاسلام

وهو حين يرى رواية أو حديثاً فيه مصلحة الشيعة ، اتهمهم بوضعه ، وحين يرى رواية تعلي من شأن السنيين ، الصقها بكتابهم ، حتى انك لتراه يضرب كل فريق بالآخر ليقنعك باضطراب كل هذه العناصر التي قامت عليها السيرة ، وليخرج عليك هنا وهناك بآرائه المفرضة

وهو بعد هذا ان وجد في الاسلام موضعاً للفضل ذهب ينسبهُ الى مصدر غير اسلامي ، او يفسره تفسيراً ماديًّا ، يذهب بموطن الخير فيه : فلامانس لا يستطيع ان ينكر ان الاسلام حرّم قتل الذرية ووأد البنات ، ولكنهُ يستطيع ان يطلع عليك بقوله ان النبي دُفع الى هذا التحريم بحنينه الى الذرية ، بعد ان صار لطيماً في طفولته . وكذلك يستكثر لامانس ان يكون للنبي ما نسبتهُ اليه السيرة من ابناء وبنات ، فيقول إن كتّاب السيرة فعلوا ذلك رغبة في اعلاء شأن النبي . وهو اذا قرأ ان النبي لم يرغم بناتهُ على ترك ازواجهنَّ الذين تأخروا في اعلان اسلامهم ، فسرهُ بان النبي كان يتشرف بهؤلاء الاصهار ، ويعمل على الانتساب اليهم ، ويحرص على ودهم . وهو ان تكلم عن السيدة عائشة لم يجد في مفردات اللغة الفرنسية الفنية الاَّ كلمة favorite ليصف

---

(٦) انظر L'Islam, croyances et institution بيروت ١٩٢٦

(٧) Mahomet fut-il sincère ? في مجلة Recherches de science religieuse ج ٢ سنة ١٩١١

(٨) — L'âge de Mahomet et la chronologie de la Sira في مجلة Journal Asiatique سنة ١٩١١

(٩) — Fatima et les filles de Mahomet, notes critiques pour l'étude de la Sira باريس ١٩١١

بها زوجة النبي ، واقرب ترجمة لها بالعربية «محظية» . وهو يحرص على استغلال بعض الاضطراب في النصوص العربية التاريخية ليثبت ان الصحابة كانوا لا يقبلون عن طيبة خاطر ان يصاهروا النبي ، ولكنه يذكر في موضع آخر ان رقية ابنة النبي كانت جميلة ، وان عثمان بن عفان انما اعتنق الاسلام ليتزوجها ، وينسى لامانس انه يذكر في موضع ثالث ان النبي كان يحرص على مصاهرة ذوي الحسب والنسب من المشركين ، وهكذا الى آخر الامثلة التي قلّ ان تخلو منها صحيفة من مؤلفاته عن الاسلام أو السيرة .

وقد قرأت مرة في كتاب القضاة للكندي (١٠) : «حدثنا محمد بن يوسف قال : حدثني ابن قديد عن عبيد الله عن ابيه عن خاله القاسم بن الحسن : ان سليم بن عتر كان يصلي بالليل فيختم القرآن ، ثم يأتي اهله ، ثم يعود فيختم ، ثم يأتي اهله ، ثم يعود فيختم القرآن ، ثم يأتي اهله . فلما مات قالت امرأته : رحمك الله ! فقد كنت ترضي ربك وتسر اهلك »

وقرأت في تاريخ ابن عبد الحكم : « وكان سليم بن عتر كما حدثنا سعيد بن عفير احد العباد المجتهدين وكان يقوم في ليله .فيبتدىء القرآن حتى يختمه ، ثم يأتي اهله ، فيقضي منهم حاجته ، وربما فعل ذلك في الليلة مرات فلما مات قالت امرأته : رحمك الله ! والله لقد كنت ترضي ربك وتسر اهلك »

قرأت هذا وضحكت من امر تلك الزوجة التي كانت تنسب لبعلها هذه المعجزات وقدرت انهُ لو ظل يقرأ القرآن الليل كله لما استطاع ان يختمهُ اكثر من مرتين

وقرأ لامانس هذه الرواية كما قرأتها ، واستنبط منها في هدوء واطمئنان ، ان المثل الاعلى للمسلم هو ذلك القاضي الذي كان يغتسل اربع مرات ويختم القرآن اربع مرات في الليلة !!وسجل ذلك في صحيفة ٣٣ من كتابهِ عن فاطمة وبنات محمد

***

ومهما يكن من شيءٍ فقد كانت للاب لامانس طرق غريبة في التهكم على النصوص العربية .وكان يرهق النصوص فيحملها اكثر مما تحمل ، ويستنبط منها اكثر مما تفيد ، بل كان يغض الطرف عنها ان كانت تثبت خطأ آرائه . ونحن نستطيع ان نسرد الامثلة الطويلة على صحة اقوالنا هذه ولكن المجال هنا لا يتسع لمثل ذلك

وليس المسلمون والشرقيون اول من لاحظ على لامانس تعصبهُ هذا فقد سبقنا اليه المنصفون من المستشرقين أمثال بيكر Becker ودسو Dussaud وجودفروا ديمومين Gaudefroy Demombynes وماسيه Massé . وحسبك ما قاله فيت في نعي لامانس بجلسة ١٠ مايو سنة ١٩٣٧

(١٠) القضاء والولاة للكندي (طبعة جست) ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

لاعضاء المجمع العلمي المصري . (انظر عدد هذا العام من مجلة المجمع المذكور) . قال الاستاذ فيت عن « كتاب فاطمة وبنات محمد » من مؤلفات لامانس :

"Mais il est plus délicat d'admettre sans réserves "Fatima et les Filles de Mahomet". On y trouve une tendance assez systematiquement hostile, tendance qui a été relevée en son temps par tous les Orientalistes"

واليك ترجمة هذه العبارة :

« ولكن من الصعب ان نقبل كتاب « فاطمة وبنات محمد » في ثقة وبدون تحفظ . فان التعصب والاتجاه العدائي يبدوان فيه الى حدٍّ كبير ، وقد لاحظ المستشرقون هذا التعصب في حينه »

وقد عرض زميلنا الدكتور بشر فارس لكتاب من مؤلفات لامانس فعلّق عليه في كتابه عن العرض عند العرب قبل الاسلام "L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam PXXI–XXII, بعبارات لا تخرج عن هذا المعنى ، فضلاً عن انهُ ساق بعض الامثلة على أخطاء لامانس في الاستنباط والقياس

— ٤ —

أما الجزء الثالث من مؤلفات لامانس فأبحاثه عن الامويين . وهي كثيرة أهمها عن خلافة معاوية الاول [١١] وعن خلافة ابنه يزيد الاول [١٢] وعن معاوية الثاني آخر بني سفيان [١٣] وعن مروان ابن الحكم [١٤] وعن زياد بن أبيه [١٥] وعن الاخطل شاعر الامويين [١٦]

---

(١١) ذهب لامانس الى ان أبا بكر وعمر وأبا عبيدة استولوا على أزمة الحكم بعد وفاة النبي وذلك تنفيذاً لخطة سابقة بينهم . وقد كتب في ذلك بحثاً عن هذه « الحكومة الثلاثية » عنوانه Le triumvirat Abou Bakr, Omar et Abou Obaid ، ظهر في المجلد الرابع من نشرة الكلية الشرقية في جامعة سان جوزيف ببيروت . اما ابحاثه عن معاوية بن ابي سفيان فقد طبعت في المجلد الاول والثاني والثالث من النشرة المذكورة وظهرت على حدة سنة ١٩٠٨

(١٢) — Le califat de Yazid 1er طبعت في المجلد الرابع والخامس والسادس والسابع من النشرة السالفة الذكر وظهرت على حدة سنة ١٩٢١

(١٣) — Moawia II ou le dernier des Sofianides ظهرت في المجلد السابع من النشرة السالفة الذكر

(١٤) L'avènement des Marwanides et le califat de Marwan 1er نشرت في المجلد الثاني عشر من النشرة السالفة الذكر وظهرت على حدة سنة ١٩٢٧

(١٥) Ziad ibn Abihi, vice-roi de l'Iraq, lieutenant de Moawia I روما سنة ١٩١٢. وكتب لامانس فضلا عن هذه الدراسات المتفرقة كتاباً كبيراً عن الامويين هو Etudes sur le siècle des Omayades وقد ظهر في بيروت سنة ١٩٣٠

(١٦) — Le chantre des Omiades : notes biographique et littéraires sur le poète arabe chretien Akhtal باريس سنة ١٨٩٥

وربما استطعنا ان نلحق بتلك المؤلفات كتاباً في تاريخ سورية (١٧). واذا تذكرنا ان كتب التاريخ العربية وضعت في العصر العباسي ، وان مؤلفيها كانوا يتقربون الى الاسرة الحاكمة بالطعن في بني أمية ، وان الامويين لم ينصفهم المؤرخون العرب ، وان دولتهم كانت عليها مسحة لادينية قربتها الى اكثر المستشرقين ، اقول اذا تذكرنا ذلك كله ولم ننسَ ان السيادة في العصر الاموي كانت للشام على غيرها من المقاطعات العربية ، لم نستغرب تعصب لامانس للامويين ووقفهُ جانباً كبيراً من جهوده العلمية لدرس تاريخهم السياسي ، وبيان فضلهم وازدهار القيصرية الاسلامية في عصرهم. وفي الحق أن عمل لامانس في هذا الميدان ليس الاَّ حفظاً للتوازن. فهو لبني امية محام قدير ، يدافع عنهم ، كما دافع المؤرخون العرب عن العباسيين. وعلى القارىء او الباحث ان يكون قاضياً يسمع حجة الطرفين ، قبل ان يكوّن له في القضية رأياً

على ان لامانس كان له في هذا الميدان غناء وكفاية عظيمان، فقد عرف كيف يتخير الحوادث، ويتصيد النصوص والروايات ، ليظهر مواطن النبل والحزم والسياسة من بني امية ، وليرفع خسيستهم ، ويدفع التهم عنهم . ولقد اجاد لامانس في تصوير معاوية صورة السياسي الداهية ذي المبادىء المكيافلية ، التي استطاع بها ان ينتصر على اعدائه ، وان يؤسس لأسرته دولة وراثية متخطياً في ذلك كبار الصحابة ومخالفاً تقاليد العرب الجاهلية في انتخاب شيوخ القبائل

***

وهكذا نرى ان الاب لامانس غفر الله له كان من اشد المتعصبين على الاسلام . وهو بعد ذلك من المعجبين ببني امية، لأن دولتهم كانت لادينية، ولانهم أقاموا ملكهم في الشام، وتأثروا بالمدنية القديمة التي قامت في ربوعه . وكان المستشرقون انفسهم يعرفون في لامانس هذا العيب الكبير ويأخذونهُ عليه ، ولكنهُ كان وافر الاطلاع . وحسب المرء نفعاً ومرانة في التاريخ الاسلامي ان يقرأ لامانس ، وان يهضم ما يروقهُ من ابحاثه ، وان يبحث ويتعب ليستطيع الرد على الجزء الباقي ، وان يراجع النصوص التي كان لامانس يبني عليها كثيراً من احكامه ، ليرى كيف كان يجحف في تفسير بعضها ، وكيف كان يهمل ما لا يتفق ورأيه، وكيف انهُ كان يغض الطرف أحياناً فيستنبط من الشواذ قواعد ومن الحالات الفردية احكاماً عامة (١٨)

(١٧) انظر La Syrie, précis historique

(١٨) انظر كتاب « في مصر الاسلامية » — هدية المقتطف سنة ١٩٣٧ — ص ١٦٢

مهداة الى « ايلين بايت » الكاتبة الاميركية

لمحمد عبد الغني حسن

ثلاجة الجبل الابيض

بشامونيكس — فرنسا

القمة البيضاء لاحت . . . فاصعدي   لترى الحياة بمائها المتجمد . .
هذا البياض من الثلوج كثيفةً   يوحي الى قلبي بمعنى أسود
البرد يخترق العظام . . . فقربي   يدك المليئة بالحرارة من يدي
علّي أحسّ على الجليد بقبسة   من قلبك المتوهج المتوقد . . .

*

الشمس تبدو في الثلوج كأنها   زَبد على بحر عظيم مُزبد
لاحت من الأفق البعيد كأنها   أملٌ يلوح لراقب مترصد
بعثت الى الوادي الحياة . وأيقظت   زمر النيام بهِ ، وجمعَ المجدّ
يتسابقون الى الصعود كأنهم   كانوا على بلجَ الصباح بموعد . . .

*

الجدول الجاري يعجّ بمائهِ   في هدأة الصبح الجميل الاسعد !
تتكسر الامواج فوق صخوره   وتروح بالزبد الكثيف وتغتدي
متهدر . لجب المواقع . صاخب   متدفق كالسيل فوق الجلمد
الماء في القمم المنيفة جامد   والجدول الصخاب لم يتجمد . . . .

*

وتسابقَ الروادُ يدفع بعضهم   بعضاً الى الجبل الاشم المُصعِد
يتوكأون على العصيّ كأنهم   قصمتهم الاحداث ! يا للمشهد ! !
كلٌ يشق على الثلوج طريقه   ويعيد ما بدأ الزميل ويبتدي . . .
يا ويحهم من عصبة مفتونة   قد حار هاديها وضل المهتدي . . .

*

« ايلين » جاوزنا المصاعب فاصبري   ونكاد نهدأ عن قليل . . فاصعدي
المقصد العالي سنبلغه اذا   رُضنا النفوسَ على بلوغ المقصد
لا تضعفي . فالضعف ليس بنافع   لا تيأسي فاليأس ليس بمُسعد
القمة البيضاء لاحت ! فافرحي !   انا بلغناها بجهد مُجهد
فطريقها الصخريّ غير معبد   وسبيلها الثلجي غير ممهد

*

إنا امتطينا صهوة الجبل الذي   قد هدّ بالأعباء كلّ مُصعّد
السيدُ الجبار (١) ذلّل متنهُ   ايمانُ سيدة وقوةُ سيد . . . .

(١) هو الجبل

البصاصة الكهربائية

بقلم الاستاذ لو

العالم الانكليزي وغيره من الخبراء

نقلها عوض جندي

وصفت البصاصة الكهربائية في عدة اجزاء من المقتطف وكذلك فعل قلم تحريره. وشاهدت في المعرض الزراعي الصناعي الحديث ، الذي أقيم في الجزيرة بظاهر القاهرة في اوائل سنة ١٩٣٦ الماضية نموذجاً من هذا الجهاز ، البديع معروضاً في مدخل حظيرة معروضات شركة موصيري وكوريل وشركائهم ، تجار الآلات الزراعية وغيرها بالقاهرة ، حيث كان الغرض من الجهاز السابق الذكر ، قرع جرس كهربائي تنبيهاً للزائرين والعارضين عند دنو أحدهم من ذلك الجهاز واعتراضه للشعاعة التي كانت تصوّب اليه من مصباح كهربائي مواجه له . فثلجت نفسي باجتلاء البصاصة الكهربائية التي طالما اطنبت في ذكر منافعها

ثم تبين لي اخيراً من محادثة احد الثقات من المهندسين الكهربائيين الانكليز في القاهرة ، حديثاً مستفيضاً شهده رئيس تحرير المقتطف ، ان منافع البصاصة الكهربائية ستتحقق في بلادنا عن قريب متى توافرت اجهزتها في المتاجر وأقبلت الحكومة والشركات الكبيرة على استخدامها والانتفاع بها

ولم يسعني عند رؤية البصاصة الكهربائية في المعرض الزراعي الصناعي الاّ وصفها لمشاهديها وارشادهم الى مزاياها ، فكانوا يدهشون كل الدهش

وقد حداني على استئناف الكتابة في هذا الموضوع ، مقال نفيس عليه ، قرأتهُ في مؤلف حديث نشره في هذه السنة الاستاذ (لو) العالم الانكليزي الخبير بالمخترعات الكهربائية وهو الذي نقلت عنهُ البحث الخاص « بثمرات الراديو في هذا العصر » وذلك في الجزءين السابقين من المقتطف . والبصاصة الكهربائية هي التي يسميها بعض المهندسين المصريين « بالخلية الضوئية » ترجمة للاسم الانكليزي السائر Photo-electric cell واطلق عليها بعضهم « العين الكهربائية او الكهرنورية » تجوّزاً ترجمةً لاسم انكليزي آخر Photo-electric eye . والبصّاصة بطارية

كهربائية حساسة بالضوء ، وهي التي فتحت للصحفيين المصريين عند زيارتهم لانكلترا ، باب متحف فيكتوريا والبرت في سوث كنسنجتون South Kensington في لندن بعد ظهر يوم ٢٣ سبتمبر الماضي . واليك ترجمة مقالة الاستاذ لو مضافاً اليها تفصيلات اخرى من احدث المصادر :—

كل من يزور متحف كنسنجتون يرى عند مدخله ممرًّا صغيراً مغشّى بالزجاج ، منتهياً بباب موصد ومتى يقطع الزائر ذلك الممرّ ويدنو من بابهِ ، يفتح امامه بوسيلة خفية . ولا يلبث المرء أن يمرّ بهِ حتى يغلق بتلك الطريقة الغامضة عينها

وقوام فتح باب ذلك المعرض واغلاقه، شعاعة من الضياء تعترض ممرّهُ موازية لصدر القادم وأيّانَ يقطع المارّ تلك الشعاعة ، ينفتح الباب . وسرُّ ذلك الجهاز النافع جدًّا ، العين الكهربائية او البصاصة الكهربائية . وهي الاداة التي صيّرت الطاقة الكهربائية خادمة امينة جديدة تخدم الانسان خدمات غريبة تعد بالمئات

وعمل البصاصة في حد ذاتهِ هيّن ، مع أن تركيبها معقّد . ومن خصائصها انها تظل ساكنة حتى يصوب الضوء الى سطحها العامل ، فتنطلق من عقالها . وتكون دائرتها الكهربائية في أثناء جمودها مفتوحة ، فاذا ما سلط عليها النور أغلقت ، فتستطيع الكهربائية حينئذٍ أداء ما عهد اليها فيهِ من الاعمال الكثيرة التي سنصفها فيما يلي

والبصاصة الكهربائية صمام لاسلكي ذو شكل خاص . فيهِ قطبان كهربائيان ، موجب وسالب . وطرفاهما بارزان من الصمام . وباطن ذلك الصمام مفرغ من الهواء . وقد يكون محتوياً على بعضٍ من غاز الارغون . وسرُّ الصمام كامنٌ في قطبهِ السالب ، وهو مؤلف من طبقة مفضضة في باطن زجاجة الصمام ، يعلوها بعض البوتاسيوم أو السليثيوم أو نحوهما من المعادن . ومتى سقط الضوء على البصاصة الكهربائية ، تفرقت دقائق البوتاسيوم ، فتنطلق منها كهربات « ذريرات كهربائية » أو الكترونات وذلك على شكل مجرى يسري من القطب السالب إلى القطب الموجب ، وهو حلقة إما من البلاتين وأما من النيكل ، فيتم الاتصال الكهربائي بين ذينك القطبين فتغلق الدائرة الكهربائية. وتؤدي البصاصة الكهربائية عملها حالما يقع عليها الضوء فتضطلع بمهام شتى . مثال ذلك اضاءة المصابيح عند غروب الشمس فتغنينا عن العامل المكلف اشعالها . ومن الميسور أن تقوم البصاصة الكهربائية بهذه الخدمة عند اتصالها بدائرة النور الكهربائي . وذلك بالاجهزة المقوية والمجددة للتيارات الكهربائية فلا يسري التيار في المصابيح إلاَّ اذا قطعت الدائرة الكهربائية التي في البصاصة الكهربائية ، وذلك حينما يأخذ الضوء في التعتيم مساء حتى يصير غير كافٍ ليسيِّر مجرى الكهربات من قطب البصاصة الكهربائية السالب الى قطبها الموجب . وبهذه الوسيلة تقطع الدائرة الكهربائية فيضاء النور بذاتهِ . وكان هذا العمل

من بوادر الاعمال التي استخدمت فيها البطاريات الحساسة بالنور قبل اختراع البصاصة الكهربائية التي نعرفها في هذا العهد

فكانت بطارية السلينيوم « الكبريت الاحمر » وهي بمثابة ميكرفون يقوي الضياء ، مستعملة لاضاءة مصباح كهربائي على ذلك النمط في جنوب لندن حيث كانت تقوم باضاءته ليس في ساعة محددة فحسب ، بل حالما يضعف ضوء النهار الى درجة معينة وكذلك في وقت مبكر من المساء المكفهر ، عنه في المساء النير ، وأيضاً حين يَضعُف النهار في الظهيرة فتشعل بطارية السلينيوم المصباح توًّا . أما شدة احساس البصاصة الكهربائية بضوء النهار فيمكن الانتفاع بهِ في وجوه أخرى كثيرة

ومنها ان المصورين بالضوء (الفوتوغرافيا) ينبغي لهم معرفة مبلغ قوة نور النهار ليتمكنوا من تقدير الوقت اللازم لتعريض اللوح الحساس لذلك النور . ولما كانت العين البشرية بمثابة قاضٍ اضعف من أن يتاح له ذلك الحكم بذاته ، اذ العين تتكيف وفقاً للنور وتتأثر باللون على حين أن البصاصة الكهربائية لا تتكيف بتقلبات النور ولا يبدو عليها التأثر مباشرة بألوان الاشياء المحيطة بها ، فيمكن وصلها بقزحية آلة التصوير (اي الفتحة التي تصوب منها العدسية) فتفتح البصاصة قزحية المصوِّرة وتغلقها من تلقاء نفسها طبقاً للنور الذي يقع عليها . وفي هذه الحالة تظل السرعة التي تضبط بها آلة التصوير ثابتة . وانما يتغير مركزها ليلائم تعريض اللوح للنور ملاءمة تامة .

ولهذا الجهاز نفع عظيم للآلات المستعملة لتصوير السينما التي تشتغل بسرعة محددة . والمصور الفوتوغرافي الذي يلتقط الصور بآلة مجهزة بتلك الوسيلة لا يكابد المتاعب عند تعريض اللوح الفوتوغرافي للضوء اذ يعرف ان البصاصة الكهربائية التي تشتغل بجهاز مغنطيسي ذي سقطة ، تدوِّر القزحية وتضبط فتحة الآلة المصورة في اي وقت

أما وقد وصفنا منافع البصاصة الكهربائية في قياس مقدار النور فجديرٌ بنا ان نبين منافعها ايضاً في استكشاف الظلال . ولا ريب في ان الظلال قد اضحت ذات شأن كبير ولاسيما في القبض على اللصوص ، بل يصح لنا القول إن اللص أصبح يذعر من ظله ، لانهُ اشد خطراً عليهِ من بصمة ابهامهِ . فاذا اعترض ظلُّه شعاعةً مصوبة الى بصاصة كهربائية ، قطع دائرتها الكهربائية فتقرع جرساً منبهاً من اي نوع . وقد تكون شعاعة النور مما لا يسترعي النظر لان النور الخفي يصلح كذلك لتشغيل انواع مختلفة من البصاصات الكهربائية . فيتسنى تسديد شعاعة من أشعة النور التي تحت الحمراء — وهي من الاشعة التي لا تراها العيون البشرية — الى بصاصة كهربائية تثبت في خزانة من الخزائن الحديدية « الخاصة بالنقود والنفائس والوثائق » او في غرفة من

غرف المنزل ، فاذا جاء امرؤٌ وقطع تلك الشعاعة دون ان يراها ، فوقع ظلُّه الخفي عليها ، انطلق جرس التنبيه من عقاله في الحال . وقد استعملت هذه الاجهزة المنذرة بالخطر في كثير من المحال التي تودع فيها الاشياء الثمينة صيانةً لها من عبث العابثين ، فركب احدها لحراسة جوهرة نفيسة جدًّا في احد معارض مدينة لندن حيث اودعت الجوهرة في علبتها بمكان غير مسيَّج بسياج حديدي . فاذا ما سولت لزائرٍ نفسه تقريب يده من تلك العلبة قرعت البصاصة الكهربائية من فورها جرساً عالي الصوت جدا فيرتبك الزائر ويفتضح امره حالاً

وقد توسل المهندسون بالبصاصة الكهربائية ، الى وقاية الناس من الاخطار التي يستهدفون لها عند مرورهم من الانفاق المشهورة وذلك بظل المركبات الذي يقع على النور ، المعترض المدخل ، المصوب الى عين كهربائية موضوعة في الارتفاع المحدد لحمولة المركبات المسموح بها المرور في نفق هولند في نيويورك ، ونفق مرزي في انكلترا . فاذا جاءت مركبة محملة حملاً يفوق الارتفاع المحدد ، وحاولت الدخول ، قطعت الشعاعة ، فقرعت جرساً ينبه سائقها الى الخطر الذي يتهدده . وبهذه الطريقة يمكن الاستغناء بأشعة الضوء التي من هذا القبيل عن اعلانات التحذير التي تعلق عند مداخل الانفاق المنخفضة محتوية على جملة « احترس على رأسك » فيُتقى كثير من الصدمات الاليمة

وتستعمل شعاعة الضوء في أغراض عديدة وقاية للناس من الاخطار . ومنها المصانع التي تكثر فيها الحوادث التي تنجم عن نسيان العمال او اهمالهم رفع أيديهم عاجلاً من تحت المكابس ، او التأي عن المُدى المركبة في الآلات لقطع المصنوعات . فيسهل في تلك الحالة تركيب شعاعة تعترض الآلة لتنذر العمال بالخطر حينما تُقطع الشعاعة بأيديهم الخاطئة . وفي حالة المكابس الثقيلة ، يتيسر تركيب جهاز يوقفها عن العمل حالاً عند ما تقطع شعاعة الضياء كفُّ أحد العمال او ساعدهُ . وفي مصانع الفولاذ مثلاً حيث تتعدد حوادث احتراق عمالها بالسبائك المصهورة التي تقذف من المسابك قذفاً حثيثاً في قنائها حينما تصادف عاملاً غافلاً فتحرقه حروقاً شديدة اذا لم تقتله قتلاً . ولذلك تركب بعض البصاصات الكهربائية في طريق السبائك عند قذفها فتحذر العمال من الوقوف في سبيلها

ولا يقتضي ان يكون الظل المعترض الشعاعة كثيفاً جدًّا اذ يمكن جعل البصاصة الكهربائية حساسة جدًّا بحيث يكفي قليل من الدخان للقيام بالانذار الواجب حينئذٍ . وقد كان ذلك أساس اختراع جهاز حديث بسدّد شعاعة تعترض منافذ التهوية في البواخر بحيث اذا شبت النار بغتة في جوف الباخرة « العنبر الذي تخزن فيه البضائع المزمع نقلها » فسار دخانها في أنابيب التهوية قُرع جرس التنبيه . واذا شبَّ حريق في أي مكان من الباخرة واستمرَّ بضع ساعات دون ان

يفطن له امرؤٌ فاندلعت ألسنته في غير موضع فيها ، قام ذلك الجهاز اليقظ آناء الليل وأطراف النهار بالتنبيه الواجب فتخمد النار قبل ان يستشري ضررها وذلك بالدخان الذي يعترض الشعاعة المسددة الى البصاصة الكهربائية

وتقوم البصاصة الكهربائية ايضاً بفحص البيرة ، وذلك بأن تمزن البصاصة الكهربائية مع قليل من الضوء اذ تسدد شعاعة الى انبوب زجاجي تتحرك فيه البيرة ، وما دامت البيرة رائقة ، يستمر العمل سائراً على ما يرام . فاذا كان فيها عكر قلَّ مقدار الضوء المخترق الانبوب فيقرع جرس التنبيه فيسارع الرقباء من فورهم الى استكشاف علة العكر في تركيب البيرة ليتلافوها .وقد عرضت حديثاً في مستشفى بمدينة نيويورك بصاصة كهربائية من طراز جديد صالح لخدمة المرضى في المشافي . وقوام عملها تحريك المريض لرأسه حركة خفيفة وهو راقد في فراشه فيتاح لهُ استفراد ورق الكتاب ، وتقليب صفحاته التي يبغي مطالعتها . وبتلك الحركة عينها يتمكن المريض من ادارة المذياع في غرفته واضاءة المصباح الكهربائي واطفائه ، وقرع الجرس الكهربائي استدعاء الممرضة . فيستطيع المرضى العاجزون عن تحريك أيديهم ، التمتع بأشياء شتى دون الاستعانة بالممرضة في اية حالة من الاحوال المذكورة آنفاً . فاذا ما حرَّك المريض رأسه ، فوقع ظله على البصاصة الكهربائية ، دارت الاجهزة التي تؤدي له تلك الخدمات . ذلك ان جميع التوصيلات الكهربائية التي تدير الاجهزة المختلفة مركبة على اسطوانة واحدة تشرع في الدوران حينما يقع ظل رأس المريض على البصاصة الكهربائية فتدير الاجهزة ،وفي اثناء دورانها تظهر الكلمات الآتية: — كتاب راديو ، مصباح — جرس. متعاقبة على ميناء مُضاء مثبت في لوحة .ومتى ظهرت تجاهه الكلمة الدالة على الخدمة التي يحتاج اليها ، جذب رأسه فيقوم مجدد اوتوماتيكي للتيار بتحريك الجهاز المرغوب وهو بمثابة أعمدة من الاسلاك تقلب صفحات الكتاب وغيره

وقد استخدمت البصاصة الكهربائية لنقد الجواهر النفيسة من المزيفة . وشرع المهندسون الكهربائيون في تجربتها ايضاً في اتمام اختراع السينما الملونة المجسمة . وتستعمل ايضاً في توقيت المسابقات . ويتنبأ الخبراء بأنها سوف تحل في البيوت محل مفاتيح المصابيح الكهربائية فتقوم مقامها عند دخولنا الغرف فتوقد لنا المصابيح من تلقاء ذاتها . وتستعمل ايضاً في حظائر السيارات فتفتح لنا ابوابها وذلك عند قدومنا راكبين إياها وذلك مسايرة للوميض الذي يصل الى البصاصة الكهربائية من الفوانيس الامامية المركبة في السيارة . وحسبك ان تصوب شعاعة من النور حيث تعترض باباً محتوياً على مغنطيسات كهربائية فيفتح ذلك الباب متى دنوت منهُ . وهذه الخدمة تؤديها الشعاعة في المتاحف والمطاعم وغيرها كما تقدم القول

جوائز نوبل

وتوزيعها بحسب الامم

اسماء البلاد	الطبيعة	الكيمياء	الفسيولوجيا والطب	الادب	السلام	١٩٠١ - ١٩١٨	١٩١٩ - ١٩٣٦
المانيا	١٠	١٤	٦	٥	٢	٢٠	١٧
انكلترا	٧	٤ ½	٣ ½	٣	٣ ½	٩	١٢ ½
فرنسا	٤	٤	٣ ½	٤ ½	٣ ½	١١ ½	٨
الولايات المتحدة	٣	٣	٤	٢	٥ ½	٥	١٢ ½
السويد	٢	٢ ½	١	٣	٢	٥ ½	٥
سويسرا	١	١	١	١	٢ ½	٤ ½	٢
هولندة	٣	١	١ ½	٠٠	½	٤ ½	١ ½
الدنمارك	١	٠٠	٣	١	½	٢ ½	٣
النمسا	½	٠١	٢ ½	٠٠	١ ½	٢ ½	٣
البلجيك	٠٠	٠٠	١	١	٢ ½	٣ ½	١
النرويج	٠٠	٠٠	٠٠	٣	١ ½	١	٣ ½
ايطاليا	٠٠ ½	٠٠	½	٣	½	٢ ½	٢
الهند	٠١	٠٠	٠٠	١	٠٠	١	١
بولنده	٠٠	٠٠	٠٠	٢	٠٠	١	١
روسيا	٠٠	٠٠	١	١	٠٠	١	١
اسبانيا	٠٠	٠٠	½	١ ½	٠٠	١	١
كندا	٠٠	٠٠	١	٠٠	٠٠	٠٠	١
ارلندة	٠٠	٠٠	٠٠	١	٠٠	٠٠	١
الارجنتين	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	١	٠٠	١
معاهدة دولية	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	١	١	٠٠
المجموع	٣٣	٣١	٣٠	٣٣	٢٨	٧٧	٧٨



منشأهم وتاريخهم

لوديع ابي فاضل

من هم الفينيقيون ومن اين جاؤوا ؟ هذا سؤال طالما تخبّط بالاجابة عنهُ الباحثون لما احاط بهِ من الغموض ولما تقلب على البلاد من الحوادث الجسام التي طمست كثيراً من آثارها واضاعت معالمها. ومن نكد الدنيا ان تكون سوريا مطمح الطامعين وطريق الفاتحين وقبلة الدنيا والدين فكان موقعها الذي تحسد عليهِ اكبر نكبة منيت بها فاصبحت موطىء اقدام الغزاة والطريق الموصل بين اكبر مدنيتين قديمتين اعني بهما مدنية ما بين النهرين ومدنية مصر وميدان النزاع بين شعوب آسيا ومصر اولاً ثم بين اوربا والشرق بعد ذلك

وتاريخ سوريا القديم محوط بالغموض لتضارب اقوال الثقات وتباين آرائهم ومبالغة الكتّاب الاقدمين في وصف انتصارات ملوكهم والانتقاص من شأن خصومهم . والقليل الذي لدينا مما سطره المؤرخون الاولون كهيرودتس واسترابون او نقله تيودور الصقلي عن فيلو الجبيلي المعروف عند الافرنج بفيلو بيبلوس لا يروي غليلاً ولا يتخذ حجة لدى الباحثين

وأهم الموارد التي يعتمد عليها المؤرخ الحديث هي الآثار الناطقة التي اكتشفت حديثاً في المدن السورية والفينيقية منها خاصة وما اكتشف في مصر وبابل واشور مما له علاقة بذلك

زعم هيرودتس ان الفينيقيين جاؤوا من البحر الاريتري وهو عند اليونان المتأخرين البحر الاحمر . انما قصد هيرودتس بذلك الاوقيانوس الهندي وخليج فارس ضمنه لانهُ لم يكن يفرق بين هذا وذاك ومما يثبت انهُ لم يقصد البحر الاحمر انهُ استعمل الخليج العربي لهذا البحر حينما تكلم عنهُ

والحقيقة هي ان الفينيقيين ساميون جاؤوا الى سوريا من جزر الخليج الفارسي لان آباءهم الاولين كانوا يعتقدون انهم جاؤوا من الشرق من بلاد بحرية وهذا الذي جعلهم يتخذون لهم جزراً بحرية يقطنون فيها او كما قال هيرودتس ان هذا الشعب حالما استوطن بلاده الجديدة

اخذ يعمل بحمل متاجر مصر واشور عبر البحار والى اقصى البلدان

والغريب في امر الفينيقيين هو انهم حينما قدموا الى سوريا احتلوا ثلاث جزر اصبحت فيما بعد مدناً عامرة وهي صيدا التي كانت فيما مضى جزيرة صخرية قائمة في عرض البحار وعلى محاذاة الشاطىء فاتصلت بالبر مع كرور الايام . وارواد لا تزال جزيرة صغيرة للآن . وصور كانت جزيرة قائمة في عرض البحر حتى ردم الاسكندر المكدوني الماء الفاصل بينها وبين البر وتملكها عنوةً بعد ان استعصت عليه مدة سبعة اشهر

وفعل الفينيقيون بمدنهم الصغيرة ما كان يفعله اخوانهم الساميون فحصنوا هذه المدن واقاموا حولها المتاريس وامتنعوا بالبحر عن العدو القادم اليهم من البر

والفينيقيون اخوان لاهل الجزر العربية وسواحل العربية على الخليج الفارسي كأهل الكويت والبحرين وعمان الذين عرفوا منذ القديم بالغوص على اللؤلؤ وحمل تجارة الشرق الى الغرب وتجارة الغرب إلى الشرق وكانوا حلقة الاتصال بين الهند والشرق الادنى فبقي هذا الفريق الشرقي في الخليج العجمي واستأثر بالتجارة الشرقية ورحل اخوانهم الفينيقيون إلى الغرب واحتلوا شواطىء سوريا واستأثروا بتجارة البحر المتوسط مدة طويلة من الزمن وساعدهم هواء الاقليم الجديد فكانوا أصح بنية وأمضى عزماً من اخوانهم في الشرق

فالفينيقيون إذاً هم اخوان العرب والكلدانيين والاشوريين والاراميين والعموريين والادوميين والموابيين والاسرائيليين والانباط وغيرهم من الامم السامية التي قطنت ما بين النهرين وسوريا وبلاد العرب. وكان المصريون يطلقون كلمة «شاسو» على الاسرائيليين والادوميين سكان القسم الجنوبي الشرقي من سوريا والعموريين على سكان سوريا المجوّفة حتى مدينتهم قادش ويعم هذا الاسم الاراميين أحياناً ويميزون بين الاثنين في بعض الاحيان . ويقولون عن الكنعانيين أو بالاكثر سكان الشواطىء الفلسطينية حتى الكرمل «خارو»

أما الفلسطينيون سكان شواطىء فلسطين بعد القرن الثاني عشر قبل الميلاد فليسوا من الكنعانيين بل هم شعب غريب غزا البلاد في نحو القرن الثاني عشر قبل المسيح ويقال انهم جاؤوا من كريت وانضم اليهم بعض أعداء الفينيقيين من سكان الشواطىء الايجية . فاذاً هم ليسوا بساميين وهذا يتفق مع أنباء التوراة فانك لا تجد ذكر للفلسطينيين قبل ايام القضاة واسمهم في المكاتبات المصرية القديمة «فلاسطي» أو «بلاسطي» ثم تغلب اسمهم على فلسطين كلها

ولقد كان حب الاستقلال أكبر العلل في ضياع استقلال الشعوب السامية وكانوا يلجأون لى نظام المدن فكل جماعة قوية تؤلف قوّة مستقلة وتشيد مدينة منيعة في نقطة معينة يحيطها بسور حصين وكان أهل كل مدينة يقيمون لهم هيكلاً للعبادة وهذه التفرقة أضعفت

وحدتهم حتى وقف احمس في معركة مجدُّو التاريخية وخاطب جنوده قائلاً « انكم ان انتصرتم اليوم على أعدائكم قضيتم على الف مدينة والف ملك » مشيراً الى الحلف الذي تمَّ قبيل تلك المعركة بين ملوك البلاد وزعمائها تحت زعامة ملك قادش لصدِّ زحف المصريين. ولكن أنى لتلك القوات المفككة ان تقف في وجه الفاتح العظيم وجيشه المنظم المتحد تحت قيادة واحدة . فما حمي وطيس القتال حتى أخذت تلك الجموع المتألبة دون نظام تام في التراجع وتفرقت شذر مذر ووقع ملك قادش أسيراً وتمَّ الفوز للمصريين

اما الحثيون الذين اخضعوا شمالي سوريا ودانت لهم البلاد فهم ليسوا من الساميين وان كانوا قد اختلطوا بأهل البلاد وغلبت عليهم مدنيتها ويستدل من أخبارهم انهم انتشروا في شمالي سوريا حتى البحر الايجي ويقال ان الدردناويين الذين جاء ذكرهم في الياذة هوميروس هم منهم

وكانت أرضهم الى الشمال الغربي من النهرين وهناك رسخت مملكتهم وأخذوا يتقدمون شرقاً وغرباً حتى عاد الاشوريون في ابان دولتهم الثانية فقاتلوهم وأجلوهم عن البلاد تباعاً ومزقوا شملهم ولم تقم لهم من بعد ذلك قائمة

ويؤخذ من أنباء مصر القديمة ومما ورد في التوراة ان الفينيقيين كانوا يلقبون أولاً بالصيدونيين لان صيدا هي اول مدينة أقاموها وكانت جزيرة صغيرة منفصلة عن البحر ثم اتصلت بالبر تباعاً . وبقي اسم الصيدونيين متغلباً على الصوريين ايضاً فكانوا يقولون عن اثبعل ملك صور اثبعل ملك الصيدونيين وبقيت هذه الغلبة لصيدا حتى اشتهر اسم صور وامتدت سطوتها الى ما وراء البحار ثم لما اتصل الصيدونيين باليونان أطلق عليهم هؤلاء اسم فينيقيين اي ناقلي التجارة وعرفوا بهذا الاسم عند الاوروبيين الى يومنا هذا

ويزعم الفينيقيون ان مدنهم القديمة قامت قبل المسيح بنحو ٣٠٠٠٠ سنة ولكن هيرودوتس يذهب الى ان صور بنيت قبل عهده بنحو ٢٣٠٠ سنة اي في نحو سنة ٢٧٥٦ قبل المسيح ويقول مناندر الافسوسي ان الصيدونيين أنشأوا صور قبل خراب تروادة بسنة اي نحو سنة ١١٩٨ ق . ب . ولكن ذكر صور ورد في مكاتبات تل العمارنة (الامارة) فيما بين ١٤٠٠ — ١٥٠٠ ق . م . ولفظها ضور وقيل عنها « ان الماء يحمل اليها من البر المحاذي لها وان السمك فيها مثل الرمل » . وجاء في هذه المراسلات ان ربها باد ملك جبيل وابيالك ملك صور انذرا الى المصريين كما ان صيدا وارواد انضمتا الى الحثيين

ومع ان سهل صيدا أوسع عماراً من سهل ارواد وسهل صور الاَّ ان ارواد اشتهرت بمناعتها وشدة مقاومتها للفاتحين الذين هاجموا سوريا في العهد القديم من الشمال ثم جاء دور صور بعدها فكانت تصمد للفاتحين وتثبت أمامهم طويلاً الاَّ ان الفينيقيين لم يكونوا اهل حرب

وبلاء بل كانوا اهل تجارة وعطاء. ولما اتسعت تجارتهم وبلغت أقصى المعمور كانت قوتهم دون حاجتهم فاستعانوا بالمسترزقة من الجنود الغرباء وهذا ما فتّ في عضدهم وقضى على سطوتهم وسلطانهم فأضاعوا المركز الممتاز الذي كان لهم وحلت الامم المتغلبة مكانهم

وكان الجبيليون يعتقدون ان مدينتهم هي اقدم مدن العالم وان آل اله جبيل كان اول من غادر البلاد فغزا مصر وبلاد اليونانيين وصقلية وليبيا ومدّن سكانها ووضع أسس البلاد العظيمة في كل مكان ويفهم من هذا ان جبيل أقدم من دمشق لان المدينتين اراميتان فلا يدعي الجبيليون مثل ذلك عبثاً والجبيليون هم الذين بنوا بيروت ومعناها بالفينيقية السرو كما يجوز ان تكون مأخوذة من كلمة بير ومعناها في الفينيقية بير كالعربية

وبعد آلٍ جاءت عشتاروت الهة صيدا فسارت في انحاء المعمور تشاهد البلدان المختلفة وتلاها ملكارث اله صور فأتمّ عمل الآلهة باكتشاف الامصار التي لم يعرفها أسلافهُ واخضاعها

ويظهر ان حوض البحر المتوسط كان تحت رحمة السفن الفينيقية التي كانت تشق عبابه وتحمل التجارة ، للامم المتوطنة على شواطئه او تنقل حاصلاتهم وتجارتهم الى كل مكان حتى قام اليونان فالرومان فغيرهم لمزاحمتهم في هذا الميدان — وهكذا انتشرت قصة كنيراس ملك بيبلوس (جبيل) والد ادونيس (تموز) في قبرص . اما في كريت فيروون القصة بطريقة تختلف عن هذه فيقولون ان اوربا بنت ملك صيدا حملها زفس رب الآلهة عند اليونان القدماء وهو متخفٍ بزي ثور ثم سار قدموس ملك صيدا يبحث عنها فزار قبرص ورودس وجزر الارخبيل ثم جاء بلاد اليونان وهنالك بنى طيبة المدينة اليونانية القديمة الواقعة الى الشمال من أثينا في وسط غابات البريا

ولم يكتفِ الفينيقيون ابّان عزهم بانشاء العلاقات التجارية بل بنوا لهم مدناً خاصة على شواطئ البحر المتوسط في كل جهة ومكان حتى على الشاطئ الغربي من آسيا الصغرى فكانت لهم مرافئ بنوها لانفسهم وجعلوها مستودعات لبضائعهم وتجارتهم منها : الكبيرة . والماسورة . ومجدلة . وسديمة . وغيرها ومن اسمائها يفهم الانسان أنها فينيقية . واحتل الجبيليون ميلوس في البحر الايجي والصيدونيون الياروس وفيرا وكان الصوريون يشترون أو يجمعون الاصداف الحلزونية المعروفة بالاسم العلمي Murex truculus لاستخراج الاصبغة الارجوانية منها وطريقتهم في ذلك انهم يكسرون الصدفة بمطرقة كبيرة فيخرج الحيوان الحلزوني منها فيسحقون رأسه ويستخرجون منهُ مادة صفراء يعالجونها بماء البحر في اناء خاص وبعد خضخضة وتحريك يستمران مدة ثلاثة أيام حتى يغلى المزيج في أوانٍ رصاصية على نار خفيفة ثم يصفون المزيج بقطعة قماش حتى لا يعلق بهِ شيء من الفضلات وهكذا يعدون ذلك الصباغ الذي اشتهرت بهِ صور قديماً لصبغ الاقمشة باللون الارجواني الجميل

﴿ سفن الفينيقيين ﴾ يذهب الاستاذ برستد الى ان مصر كانت اول بلاد جازت سفنها عبر البحار وهو يرجح ان الفينيقيين اتبعوا الطراز المصري فقلدوا سفن الدولة الرابعة التي بلغت من العز شأواً بعيداً والمؤرخون فريقان فريق متعصب لمصر ينسب اليها الكثير من فضل الامم المحاذية ومفاخرها وفريق متعصب للكلدان يرَ فضل السبق لبابل ام المدنية في عرفهم

ومن يتتبع تاريخ الفينيقيين منذ نشأتهم يجد انهم اخذوا عن المصريين الكثير من عاداتهم وعقائدهم الدينية فألبسوا بعض آلهتهم شيئاً من الزي المصري وزانوا الصولجان الفينيقي برؤوس الحيوانات او شكل الصليب او قرص الشمس او الجعران المجنح حتى انهم في جبيل جللوا رأس بعلة جبيل بقرون البقر ، محاولين تشبيهها بهاتور . وفي ارواد جعلوا بعل تلك المدينة واقفاً على اسد يتجول في العلا ورغماً عن ان صورة ذلك البعل لا تزال ظاهرة بشكلها الذي يتمشى مع الاساطير الكلدانية الاَّ ان ملابسه اعتراها التبديل فألبس البرود المخططة ووضع في عنقه عقد وفي ذراعيه اساور لم يكن يضعها الفينيقيون قبل ذلك ووضعوا على رأسه التاج الابيض يعلوه الجناحان المصريان

وهكذا المذابح فانها اتخذت تدريجيًّا الشكل المصري حتى المدافن طرأ عليها بعض التغيير فترى في ارواد قبراً عظيماً اعلاه هرمي الشكل مع ان ارواد ابعد المدن الفينيقية عن مصر . والذي يشاهد قبر حيرام ملك صور يجد شبهاً كبيراً بينهُ وبين قبور طيبة . اما الصوريون فكانوا اشبه بجرمان اليوم او باليابانيين فكانوا امهر الصناع يقلدون سلع العالم القديم ويصنعون منها الكثير ويبيعونهُ بأرخص الاسعار . ومع ان الفقراء في فينيقيا لم يتأثروا كثيراً بمخالطة المصريين ولا استعملوا المصنوعات المصرية لغلاء ثمنها الاَّ ان الامراء والاعيان كانوا يستعملون الكثير من المصنوعات المصرية الاصلية او المقلدة التي اجاد الفينيقيون صنعها حتى انها كانت تضاهي المصنوعات الاصلية بل تفوقها دقة صنع

﴿الالف باء﴾ من الامور التي اختلف فيها العلماء اختراع الابجدية فان اليونان يذكرون في اساطيرهم انهم اخذوا الالف باء عن الفينيقيين وتابعهم في ذلك جمهرة الباحثين المدققين رغم محاولة فريق المتحمسين لمصر غمط فضل الفينيقيين كما فعل شمبوليون العالم الأثري الشهير الذي اكتشف حجر رشيد وحل بواسطتهِ رموز الخط الهيروغليفي وشايعهُ في ذلك دي روجيه فيما كتبهُ تحت عنوان «مذكرات عن الاصل المصري للابجدية الفينيقية» ورسم اشكال الحروف الفينيقية وما يماثلها من اليونانية ثم قابل ذلك بالحرف المصري الهراطي وذكر ان المصريين لم يكونوا يفرقون بين الجيم والكاف فاستعملوا نفس الحرف للجيم والكاف في بجدو وكركيش

ولتشعب آراء العلماء في هذا الموضوع وتباين مذاهبهم يتعذر على الباحث استخراج نتيجة

صريحة بيد انَّ من يتتبع آراء جمهرة العلماء وأساطير الاولين يخرج بهذه النتيجة البيّنة وهي ان الفينيقيين كانوا اول من وضع الابجدية بشكلها النهائي ومنهم اخذ اليونان حروف الالف باء ثم نقلها الرومان . فأوربا اذاً مديونة للفينيقيين بحروف الهجاء ولغة العلم والعرفان كما هي مديونة لاخوانهم العرب بالارقام العددية

ولغة الفينيقيين هي اخت العبرانية تدخل تحت نطاق اللغة السامية الشمالية ولكن الشعبين افترقا منذ القديم وطرأ على كل من اللغتين تغيير وتبديل كثير . اما السريان (الاراميون) فانهم يتكلمون نفس اللغة الفينيقية وهي لغة بابل وأشور السامية . ولم يبق من يتكلمها في سوريا الاَّ نفر قليل في بعض قرى دمشق ويستعملها السريان والطائفة المارونية في الطقوس الدينية فقط

﴿ تاريخ فينيقيا بالاختصار ﴾ لم ينشىء الفينيقيون دولة متحدة مع الداخلية بل اكتفوا بمدنهم الثلاث صور وصيدا وأرواد وبنوا لهم مدينة طرابلس لتكون منتدى يجتمعون فيه لتقرير الامور العامة وكانت سفنهم تحمي مدنهم في البحر ولبنان يرد عنهم عاديات الخصوم في البر

أنشأ الفينيقيون صيدا أولاً ثم أرواد فصور ثم طرابلس وانشأوا الكثير من المدن الساحلية الصغيرة لمتاجرهم واستمر الفينيقيون في تقدم مستمر على عهد الدول السامية الاولى حتى قام الحثيون فكانت سوريا ميداناً للقتال وانقسم الفينيقيون قسمين قسماً يؤيد مصر وهم أهل صور واخوانهم الاراميون اهل جبيل وقسماً يؤيد الحثيين وهم صيدا وارواد لقرب هذه لارض الحثيين وتعرض صيدا لهجمات الحثيين البرية وكانت الحرب سجالاً بين هاتين القوتين فوقفت حركة الاخذ والعطاء وضعفت قوة البلاد من جراء هذه الحروب . ثم تلا ذلك المحالفة بين رعمسيس الثاني والحثيين فهدأت الحالة وأخذت البلاد في الانتعاش وفي هذا العهد بنى حيرام ملك صور الهيكل لسليمان وقدم لهُ خشب الارز الذي تعود الفينيقيون ان يحملوه لمصر لبناء هيا كلها العظيمة وقصورها الباذخة

ثم توالت على سوريا المحن فجاء الفلسطينيون واجتاحوا البلاد ودمروا معاقلها وخربوا مدنها وأهلكوا السكان واحتلوا جنوبي سوريا من يافا الى غزة

ثم غزا تغلث فلاسر الاول ملك اشور البلاد واحتل ارواد في نحو سنة ١١٠٠ ق.م . وفي سنة ٨٧٦ هاجمها اشور ناصربال الثالث فسلمت مدنها لهُ ودفعت الجزية . وعاد فغزاها تغلث فلاسر الثالث في سنة ٧٤١ . ومما ورد في اخبار فتوحات هذا الملك ان حيروم ملك صور كان من ضمن الملوك الذين دفعوا لهُ الجزية . ومن انباء هذا العهد ان ملك صور اصبح ملك صيدا ايضاً وانهُ أنشأ لهُ مستعمرة في قبرص . وجاء بعد ذلك اسرحدون فأخضع صيدا ونزع من صور جميع المدن الخاضعة لها . وجاء في أنباء هذا الملك ان ملك صيدا ثار عليه فقصد صيدا وفتحها

عنوةً وهدمها وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً حتى امحي اسم مملكة صيدا من الوجود على عهد كورش الفارسي الذي فتح فينيقيا بعد ذلك . وهكذا توالت المحن على فينيقيا فلم تكن تنجو من غزوة حتى تقع بأشر منها . ولما جاء نبوخذ نصر ملك بابل حاصر صور مدة ثلاثة عشر سنة ثم سلمت بشروط موافقة للفريقين

وبعد ذلك قامت مملكة الاسكندر فحارب الفرس وانتصر على داريوس في سهل ايسوس الى الشمال من سوريا . ثم ضرب صور ضربة قاضية بعد حصار سبعة اشهر ولم يستطع الاسكندر فتح صور حتى بنى سدًّا بينها وبين البر المحاذي لها وساعدتهُ سفن صيدا والمدن الفينيقية وسفن الاغريق التي كانت تحاول أخذ الثأر من الفينيقيين لما أنزلوا بالاغريق من الويلات في حرب الفرس واليونان اذ عاونت عمارة الفينيقيين الفرس ونقلت جيوشهم وسلاحهم وميرتهم وذخيرتهم عبر البحر الى بلاد اليونان . ولكن روح صور وفينيقيا لم تقهر فبقي من بقي في البلاد ورحل الكثيرون منهم الى المستعمرات النائية في شمالي افريقيا واسبانيا . وهناك قامت قرطاجنة ونازعت رومية سيادتها ردحاً من الزمن الاّ ان التنافس بين فريقي الفينيقيين المتسلطين على قرطاجنة أضاع من الفينيقيين مجدهم ومملكتهم الغربية . فبينما كان هانيبال بطل قرطاجنة يفوز في معركة تلو معركة في ايطاليا . وقد قهر رومية في كل موقعة نشبت بينهُ وبين الرومان مع تفوق عددهم كان مناظروه في قرطاجنة يتحينون الفرص لاسقاطه فلم يرسلوا له النجدات ولا الذخيرة التي يحتاجها ففشل في هجومه بعد ان اجتاح البلاد واحتل نصف ايطاليا وكسر كل جيش قابلهُ من جيوشها وزحف من اسبانيا منتصراً أين سار وقطع الالب بجيشهِ الظافر كما فعل نابليون بعد ذلك بألفي سنة متبعاً خطوات ذلك الفاتح المظفر

وكان في اخفاق قرطاجنة في حربها مع رومية القضاء المبرم على الفينيقيين في الغرب فانهُ بعد ان هادنت روما قرطاجنة مدة عادت فضربتها الضربة القاضية وتشتت الفينيقيون في شمالي افريقيا وبقيت لغتهم تستعمل في تلك البلاد حتى القرن الخامس بعد المسيح حين لم يبق احد يتكلم بها

وهكذا قضي على الفينيقيين في بلادهم ومستعمراتهم فخضعوا في بلادهم لليونان ثم للرومان فالعرب فالمماليك فالعثمانيين ، الى ان كانت الحرب العظمى فاستقلت البلاد تحت ظل الانتداب الفرنسي وانضمت صيدا وصور وطرابلس الى لبنان الذي ضمَّ فينيقيا القديمة ما عدا عكا الى الكرمل جنوباً وارواد وطرسوس وسمرا شمالاً

ولكننا نرجو ان يقرب الوقت الذي تنضم به الامم السامية تحت حلف عام يوحّد المصالح والغايات وينفي التعصب والمطامع الشخصية التي كانت اكبر عقبة في سبيل الاتحاد منذ فجر التاريخ الى الآن

اساليب علمية

جديدة
في مكافحة الآفات الزراعية

يقول علماء الحشرات في الحكومة الاميركية ان ما تخسره الولايات المتحدة الاميركية من حاصلاتها الزراعية بسبب الآفات المختلفة يبلغ بليوني دولار كل سنة . ولذلك تعنى وزارة الزراعة وعلماء الجامعات والباحثون في المختبرات الفنية الزراعية فيها باستنباط أساليب جديدة لمكافحة هذه الآفات وقد عمدوا في ما عمدوا اليه الى استعمال الضوء والصوت والكهربائية جنباً الى جنب مع المركبات الكيمياوية المستعملة للذر والرش

فقد جرب أحدهم مصباحاً كهربائياً متوهجاً قوي الضوء فعلقه على ارتفاع بضع بوصات فوق اناء وضع فيه ماء وعلى سطح الماء طبقة من الكيروسين وجعل الاناء وسط مزرعة مساحتها ستون فداناً فتهافتت الحشرات على الضوء الباهر وسقطت في الاناء فكان مجموع ما هلك منها بهذه الطريقة بملء اربعة جالونات

ويزعم الرجل الذي جرب هذه الطريقة انها وقت ما زرعه في مزرعته من الفاصوليا والطماطم والذرة واغنته عن رشها بالمركبات الكيمياوية ثم ظهر من فحص الذرة ان حبوب نبات الذرة الذي وقي بهذه الطريقة خالية من الدود وقد بلغت النفقات مبلغ قرشين في الفدان الواحد في الليلة ولكن ما انقذ من الحشرات بلغت قيمته ٦٠ جنيهاً وفي حالة اخرى بلغت قيمة ما أنقذ من المزروعات بهذه الطريقة ٤٠٠ جنيه

ومما يؤخذ على هذه الطريقة ان بعض الحشرات الضارة لا يستهويها الضوء فلا يقي المزروعات من ضررها حالة ان بعض الحشرات المفيدة يجذبها الضوء ويهلكها

ومن الاساليب الغريبة التي استعملت لتحقيق هذا الغرض مروحة كهربائية كبيرة تحدث عند دورانها تياراً من الهواء يجذب نحوها كل ما دخل منطقة هذا التيار وكان خفيفاً يسهل جذبه كالحشرات . ووضع وراء المروحة كيس كبير يسقط فيه كل ما تجتذبه المروحة اليها بفعل تيارها ووضع فوق المروحة مصباح كهربائي تتهافت الحشرات على ضوئه فيجذبها التيار ويودعها الكيس . وقد جمع بهذه الطريقة نحو مليون رطل من الحشرات الدقيقة التي من قبيل « الهاموش »

النغم الرقيق

رواية تمثيلية في فصل واحد

ترفع الستارة على مشهد بسيط. هريت بجانب مائدة الشاي وهي ترتب أدواتها

هيتي : هريت (لا يسمع رد) هريت ! ياشخصيتي الثانية (لا رد) ياشخصيتي المدربة

هريت : (تصغى بامعان) نعم ؟

(هنا تنتصب هيتي ببطء من خلف مقعد هريت)

هيتي : اريد الكلام اليك

هريت : حسن

هيتي : (وهي تنظر الى هريت باعجاب) هريت ما أجملك اليوم !

هريت : اتظنين اني مقبولة يا هيتي

هيتي : اني راضية

هريت : لقد حاولت اظهار احسن ما بي

هيتي : ان انفعالاتي أشد من انفعالاتك ولذا لا يمكنني ان احتفظ بالنقاب الذي تحتفظين به . اني امثل الحقيقة والفطرة أما انت فظهري في العالم

هريت : انني ما تريدين العالم ان يتصورك

هيتي : انك الجزء الذي درب مني

هريت : بل اني نفسك المهذبة

هيتي : اني كنهر جارف أما انت فكالثلج الذي يغطي مياه النهر

هريت : انني نغمك الرقيق

هيتي : ولكن كلتانا امرأة واحدة وهي زوج تشارلس جودريتش

هريت : انني اخالفك في هذه النقطة يا هيتي لأني أنا فقط زوجه

هيتي : (غاضبة) هريت كيف تقولين هذا ؟

هريت : بالتأكيد لأني انا الشخص الذي يتملقهُ . فانا اتولى الحديث معهُ والاَّ لو تركتك تحدثينهُ لاخبرته انك تمقتينهُ

هيتي : (وهي تبتعد) من المؤكد اني لا أحبه

هريت : اركي كل الاكاذيب لي فهو لا يظن ان اساليبي اللطيفة الهادئة تخبيء بغضك . ونظراً لما تكلفني تلك الاساليب من التدابير يحق لي ان اعتبره زوجي انا

هيتي : لو كنت تحبينه . . .

هريت : انا ! اني مجردة من كل الشعور فلا احب احداً

هيتي : اذاً لماذا تمانعين في تسميته زوجي ؟

هريت : اني اعارض ادعاءك ملكية رجل لا سبيل للتسلط عليه الا بمهارتي وحيلتي

هيتي : قد تكونين من المهارة بحيث تتمكنين من خداعه ياهريت ولكني أنا التي اتألم فلا يمكنني ان أنسى انه زوجي كما لا يمكنني ان أنسى انه كان بوسعي أن ازوج من جون كولدول

هريت : أليس من الحماقة ان تذكري جون فقط لمقابلتك زوجه من طريق الصدفة ؟

هيتي : هذا هو الموضوع الذي اريد محادثتك فيه . فقد تصل زوجه في اية لحظة الآن وأريد أن انصحك بما يجب أن تحدثيها

هريت : بالله عليك قولي لي الآن كل ما تريدين ولا تقاطعيني في اثناء وجودها لان لك عادة مزعجة جداً وهي توجيه الكلام الي بينما اكون مع آخرين وحينئذ اعاني جهداً كبيراً للاحتفاظ بهدوئي وتجاهلي الاصغاء اليك

هيتي : أبهريها بأن . . .

هريت : يا عزيزتي هيتي اني لست معتادة ان أبهر احداً

هيتي : اني ابغضها

هريت : ولكن لا يمكنني ان اظهر لها ذلك .

هيتي : اني ابغضها لانها تزوجت جون

هريت : تزوجته فقط بعد رفضك اياه .

هيتي : (تلتفت نحو هريت) ايقع اللوم علي أنا لرفضه ؟

هريت : انك على حق فالذنب ذنبي .

هيتي : نعم . الذنب ذنبك لانك قلت لي انه فقير ولن يتمكن من النجاح في التصوير . ولكن تأمليه الآن وقد ذاع صيته في اوربا ورجع شهيراً بعد ان قضى ثماني سنوات في باريس

هريت : ولكن المجازفة كانت خطرة في حين ان مال تشارلس ومقامه كانا مضمونين

هيتي : ثم تزوج جون من مرجريت في السنة نفسها

هريت : رغماً عنه

هيتي : وقد كانت كلفة غليظة الشكل

هريت : (ببعض الحزن) ولكن اوروبا صقلتها حتى ظهرت بمظهر باهر من يومين

هيتي : ابعثي فيها الغيرة اليوم

هريت : أأكون مترفعة ام مؤدبة ام لاذعة ام . . .

هيتي : قبل كل شيء يجب أن تعرفيها اننا أغنياء

هريت : طبعاً أستطيع القيام بهذا العمل خير قيام الآن

هيتي : ولكن يجب ان تبالغي هذه المرة

هريت : لا تخافي

هيتي : قولي لها اني أحب زوجي

هريت : بل زوجي انا

هيتي : اتنوين العراك معي ؟

هريت : (وهي تبتعد) كلاً . لا اريد العراك معك فان هذا امرٌ متعب جداً لانهُ لا يمكنني الابتعاد عنك اذا حاولت ذلك

هيتي : (وهي تخبط الارض وتتبع هريت) لقد كنت حمقاء في حملك اياي على رفض جون . لن اغفر لك أبداً . . . أبداً . .

هريت : (تقف وترفع يدها) لا تثيريني لئلاً لا اكون في حالة مناسبة لمقابلتها الآن

هيتي : (منفعلة) لاخنقنك لسلبك اياي جون

هريت : (تتراجع) لا ترتبكي

هيتي : انك لا تعلمين مقدار عذابي

هريت : (وقد ابتدأت تشعر ان انفعالات هيتي تموج في داخلها فتحاول قهرها) ليس من شأني ان يتألم قلبي

هيتي : انك عديمة الشعور فكل حياتك خداع في خداع . أما أنا . . .

هريت : (بانفعال) اهدئي لأني لا أريد أن اظهر لها اني كنت في نزاع مع نفسي الباطنة

هيتي : والآن بعد كل هذه الآلام أتقولين ان الزواج من تشارلس كلفك اكثر مما كلفك ؟ كلا . ان الالم يحز قلبي . اني انا التي دفعت الثمن . نعم انا دفعته فتشارلس ليس زوجك

هريت : (وهي تحاول التغلب على انفعالها) انهُ زوجي

هيتي : (تتبع هريت) كلا . ليس زوجك

هريت : (تضعف) بل زوجي .

هيتي : (تهاجم هريت) كلا ليس زوجك وسأقتلك

هريت : (تخور قواها وترتمي على مقعد) لا تقتليني . انك اقوى مني اما انا ...

هيتي : قولي انه زوجي

هريت : انه زوجنا

هيتي : (تسمع جرس التلفون) ها هي — تسرع هيتي نحو التلفون ولكن سرعان ما تستعيد هريت سلطتها وتسرع نحوها

هريت : (متسيطرة) انتظري . فاني لا اسمح بأن تسمع عاملة التلفون شخصيتي الحقيقية لانهُ غير لائق ان تعرفها (ثم تمسك سماعة التلفون) اذهبي واستقبلي المسز كولدول

هيتي ما أشد توتري. ان قلبي على لساني

هريت : (وهي تتطلع في المرآة) يا لاضطراب اعصابي .

هيتي : لا تظهري لها انك عصبية المزاج

هريت : عجلي . ضعي النقاب على وجهك لئلاَّ تراك ساطعة بداخلي . (تأخذ هريت نقاباً من «الشيفون» من ظهر المقعد وتضعه على وجه هيتي. اما لون النقاب فمثل لون فستان هيتي الاَّ انه أفتح قليلاً فبذا يخفف من شدة لون فستانها حتى يتناسب مع فستان هريت . واذ تتحرك هيتي يتحرك النقاب فيكشف عن لون فستانها الغامق)

هيتي : قولي لها ان تشارلس غني وخلاب وباهي بأصدقائنا حتى تشعر بحاجتها الينا

هريت : سأدعها تطلب من جون ان يرسمنا .

هيتي : هذه فكرتي بالضبط لانه اذا رسمنا جون . . .

هريت : ويمكننا ان نلبس ثوباً فاخراً لهذا الغرض ....

هيتي ونوقعه في حبنا مرة اخرى . . .

هريت : (مفكرة) نعم

(هنا تزيح مرجريت الستارة الخلفية الى الجانبين وتدخل مادة يدها للمصافحة. وتتبعها شخصيتها الثانية ماجي)

هريت : مرحباً مرجريت . ما اعظم سروري برؤيتك

هيتي : (لماجي) هذا كذب

مرجريت (بصوت متكلف دائماً) ان مقابلتك تسحر

ماجي : (بصوت منفعل دائماً) لو تجاسرت لعضضتك

هريت : (لمرجريت) الم تكن مقابلتك من مصادفات الحظ السعيد

مرجريت : (متجهة الى الناحية اليسرى للمائدة) لقد فكرت فيك كثيراً يا هريت فن دواعي غبطتي ان ارجع واجدك بنيويورك

هريت : (متجهة الى الناحية اليمنى للمائدة) ان المستر جودريتش له مصالح كثيرة هنا

ماجي : (لمرجريت) تملقيها

مرجريت : اني اعلم ان المستر جودريتش نجح نجاحاً كبيراً

هيتي . (لهريت) اخبريها اننا أغنياء

هريت : (لمرجريت) تفضلي اجلسي

مرجريت : (وهي تمسك بكرسي) ما اجمل غرفتك

هريت : اتعجبك حقاً ؟ ولكني اخشى ان تشارلس دفع فيها ثمناً باهظاً

ماجي : (لهيتي) لا أصدق ذلك

مرجريت : (لهريت وهي تجلس) لا شك في ذلك

هريت : (وهي تجلس) يبدو عليك انك بأتم صحة يا مرجريت

هيتي . انك لا تبدين كذلك لان هناك هالات قاتمة تحت عينيك

ماجي . (لهيتي) لم آكل منذ الافطار فلذا جئت

مرجريت : (لهريت) وانت تبدين بأتم صحة ايضاً

ماجي : (لهيتي) تظهر على شفتيك خطوط بارزة . أأنت سعيدة ؟

هيتي . (لهريت) لا تعرِّفيها بتعسي

هريت : (لمرجريت) ولمَ لا ابدو بصحة وقد اكتملت لي جميع اسباب السعادة والرفاهية

ماجي : اني اشك في ذلك

هيتي : (تهمس في اذن هريت) اخبريها اننا نملك سيارة

مرجريت : (لهريت) وحياتي انا ايضاً مستكملة .

ماجي : ان الحزن يحز قلبي لان زوجي لا يجد وسيلة للمعيشة وسيقتل نفسه اذا لم يوصه احد بعمل صورة

مرجريت : (وهي تضحك) يجب ان تزورينا في «الاستوديو» فجون يباشر عمل بعض الصور الفاخرة حتى ان الوقت يضيق به عن أتمام كل ما عنده من الطلبات

هيتي : (لهريت) اخبريها اننا نملك سيارة

هريت : (لمرجريت) أتحبين ليموناً في الشاي ؟

ماجي : خذي قشدة لانها اكثر تغذية من الليمون

مرجريت : (تنظر الى ادوات الشاي بدون اكتراث) كلاّ بل قشدة من فضلك . ما أعظم راحتي في هذا المكان

ماجي : (وهي تحملق في ادوات الشاي) كعك فقط ! بوسعي ان ألتهمه كله

هريت : (لمرجريت) كم قطعة من السكر تريدين ؟
ماجي : (لمرجريت) لاحظي ان السكر مفقد
مرجريت : (لهريت) ثلاث قطع من فضلك . لقد تعودت شرب قهوة كثيرة السكر في تركيا ومنذ ذلك الحين ....
هيتي : لا أصدق انك ذهبت الى تركيا ابداً
ماجي : لم أذهب اليها ولكن هذا ليس شأنك
هريت : (وهي تصب الشاي) ازرت تركيا ؟ ألا فاخبريني شيئاً عنها
ماجي : (لمرجريت) غيري الموضوع
مرجريت : (لهريت) يجب عليك أن تزوريها بنفسك لانك ستسرين كثيراً بمشاهدة الملابس الشرقية لما لك من ذوق سليم في الملبس
ماجي : أليست عازمة على تقديم الكعك ؟
مرجريت : (لهريت) وقد رسم جون كثيراً من الصور هناك
هيتي : (لهريت ، لم لا تضعي حداً لتفاخرها وتخبريها اننا نملك سيارة
هريت : (تقدم الكعك) تفضلي كعكاً
ماجي : (تقف خلف مرجريت وهي تظللها كما تظلل هيتي هريت ثم تمد ماجي مخالبها الى الطبق وهي تصرخ من الفرح
ماجي . أخيراً (الا ان مخالبها لا تلمس الطبق)
مرجريت . اشكرك (تأخذ كعكة وتضعها في طبقها بكل رقة وادب ثم تكسرها ببطء وخفة)
هيتي : (لهريت) السيارة
ماجي : (لمرجريت) تابعي موضوع الملابس حتى تصلي الى القول بأنها تكون نموذجاً حسناً لجون
مرجريت . (تتجاهل ماجي) ما ألذ هذا الكعك !
هيتي : (تكلم هريت بانفعال) لقد حانت الفرصة لذكر السيارة
هريت . (تكلم مرجريت بدون اكتراث) نعم انهُ صنف جيد من الكعك ولذا يكثر الاقبال عليه في محل هاربر حتى اني اضطررت اليوم ان انتظر بالسيارة ربع ساعة الى ان احضره السائق
ماجي : (لمرجريت) دعيها تطلب عمل صورة لها
مرجريت . (لهريت) ما دمت قد انتظرت عند محل هاربر فلا بد انك لاحظت الفساتين الجديدة بمحل هندرسون . ألا تبدو معروضاته جذابة بهذه الايام ؟

هريت . نعم حتى السائق ابدى هذه الملاحظة

ماجي : اني أعلم انك تملـكين سيارة . ولقد سمعتك أول مرة

مرجريت . اني انظر الى الفساتين هذه الايام نظرة فنية كما يفعل جون فمثلاً فستانك صالح جداً للتصوير

هيتي : لا تجعليها تلاحظ شوقك الى عمل صورة

هريت . (بدون اكتراث) انهُ نموذج بسيط فقط

ماجي : لا تبدي شوقك للحصول على طلب الصورة

مرجريت . (بدون اكتراث ايضاً) قد لا يكون الثوب نفسه بل طريقة لبسك اياه هي التي تجذب النظر . فبعض الناس يمكنهم لبس اي ثوب برشاقة

هيتي : نعم اني رشيقة جداً

هريت . (لمرجريت) انك تطريني كثيراً يا عزيزتي

مرجريت : بل بالعكس يا هريت . انني كثيرة الاعجاب بك ولا ازال اذكر مبلغ جمالك في صغرك . وفي الحق اني كنت اغار منك كلما زاد اهتمام جون بك

هيتي . انها تحاول اغاظتي لانني فقدته

هريت : لقد كانت تلك ايام طفولة مرت في بلدة قروية

ماجي . (لمرجريت) انها تحاول ان تشعرك ان جون قروي

مرجريت : نعم واغلب العظماء قرويون . وقد يؤاتي الحظ السعيد جون فيضاف الى قائمتهم

هيتي . اني أعلم ذلك ولذا احترق غيرة منك

هريت . لا ريب في انهُ مدين بنصيب كبير من فوزه اليك يا مرجريت والى خبرتك في الاقتصاد ومقدرتك على تحمل الصعوبات فلا شك ان السنين الاولى التي قضيتها في باريس كانت سنين جهاد

ماجي . انها تهزأ بفقرك

مرجريت . نعم قابلنا صعوبات كثيرة في الحياة . ان الحياة لم تقابلني بالمباهج التي تقابل بها الفتاة التي تتزوج لاجل الثروة

هيتي . (لهريت) انكري انك تزوجت تشارلس من أجل ثروته

(تتجاهل هريت نصيحة هيتي فلا تجيب)

مرجريت — الاَّ اننا — انا وجون — كنا متفقين في المزاج حتى اننا لم نكترث للمتاعب والمشاق

هيتي : (متأنية) ألا تزالان على حبكما ؟ أهذا حقيق ؟

هريت : (بظرف) اتنعمتما بكل اللذة الناتجة من الجوع في سبيل الفن ؟

ماجي : (لمرجريت) انها تعيرك فردي تعييرها

مرجريت . نعم ولكن خلال مدة قصيرة لان البرنس دير سرعان ما اكتشف عبقرية جون وقدمهُ الى اغنياء باريس الذين غمروه بطلباتهم

هيتي : (لماجي) أتقولين الحق أم تكذبين ؟

هريت : اذا كانت امامه تلك الفرص الباهرة في باريس فلا بد ان فرصاً اعظم جذبتهُ الى الولايات المتحدة

ماجي : (لهيتي) نعم. ولكنها غير ما تظنين

مرجريت: نعم فان جون بهر السائحين الاميركيين بفرنسا ولذا اصروا على طلبهم أن يرجع الى بلاده

هريت : ومن طلب منهُ تصويره هنا ؟

ماجي : (بخوف) اي الاسماء اجسر ان اخترع ؟

مرجريت . (بهدوء) في الوقت الحاضر يقوم بتصوير الآنسة دوروثي انسورث. قد لا تعرفينها الا انها ابنة صاحب منجم غني اكتشف الذهب في اوريغون

هريت : يخيل اليَّ اننا لا نعرف الكثيرين من سكان الولايات الغربية

مرجريت : لابد انك وجدت الحياة الاجتماعية في نيويورك من بواعث الغبطة والبهجة بعد حياتنا الهادئة في بلدتنا

هيتي: (لماجي) لا داعي لان تذكريني بأن حياتنا الاولى كانت متماثلة

هريت : لا شك في ذلك ولاسيما لان إسرة تشارلس جعلت كل شيء بهيجاً ولا سيما لانها متصلة بأنبل الاسر

ماجي : (لمرجريت) تملقيها

مرجريت : لقد سمعت انك اكتسبت حب المجتمع كله حتى وصفك احدهم بانك ماهرة جداً

هريت : (بسرور) من قال لك ذلك ؟

ماجي : لا أحد

مرجريت : (بانشراح) كلام الهامسين يجب ان يشكَّ فيه... كلاَّ أقصد يجب ان يكتم . ولقد سمعت أيضاً انك اكتسبت شهرة كناقدة للفن

هريت : اني لا أدعي هذه المقدرة

مرجريت : أتهمك نفس الاشياء التي تهم المستر جودريتش

هيق : كلا

هريت : نعم في الحقيقة اننا انا وتشارلس لا نختلف

ماجي أشك في ذلك

هريت : تفضلي كعكة اخرى

ماجي : (كن وصلتها نجدة) نعم نعم (ثم تمد مخالبها الا انها لا تلمس الطبق)

مرجريت : (تتناول كعكة بخفة) حقـا لايجب عليَّ ان آخذ كعكة اخرى بعد غذائي الثقيل بمطعم الريتس. هذا الى اننا مدعوان للعشاء عند آل بدفورد بمنزلهم الجديد. ولـكن لا يمكنني ان ارفض كعكك لانه لذيذ جداً

ماجي : الحقيقة اني أموت جوعاً

هريت : (لمرجريت) اتسمحين لي بأن اقدم لك شاياً ؟

ماجي . نعم

مرجريت : اشكرك . لا اريد . كم حبتك الحياة بنعمها من غنى وجاه وزواج سعيد ومنح اخرى كثيرة سارة كالجمال والفن . فيا لسعادتك !

هيق . (متأنية) لا تدعيني سعيدة . لم اجد السعادة من وقت ما قطعت صلتي بجون . فما اشقاني هذه السنين بدونه . وهل يكون المستقبل أيضاً بدونه ؟ كلا . سأسترجعه وأبعده عنك . نعم ابعده عنك

هريت : (لا تلتفت الى ماجي وهي تشير لمرجريت الى القشدة فتحملها على اخذ شيء منها) اني اظن في بعض الاوقات انه ليس من العدل ان تجتمع لشخص واحد مثلي كل اسباب السعادة فحبنا أنا وتشارلس اليوم مثله يوم زواجنا فهو اعز رجل اليَّ في العالم

ماجي . (بانفعال) وجون اعز مخلوق الي فاني احبه حباً يسهل لي الموت فداء له وبرهاني على ذلك اني احتمل آلام الجوع والعوز ولا أمل لي الا ان يصير هو عظيماً كما أنه يحبني بل يعبدني

مرجريت : (لهريت ببطء) يسرني ان اقابل مستر جودريتش فاحضريه الى الاستوديو وجون مستعد ان يريه بعض الصور ولو ان الصور التي عنده قليلة لان اغلب ما عمله قد اشتراه اصحابه . ان سعر صوره قد ارتفع الى اربعة آلاف ريالاً

هيق : (لهريت) لا تدفعي هذا الثمن الباهظ

هريت : (لمرجريت) هذا الثمن الكبير ؟

مرجريت : الحقيقة انه ليس باهظاً متى علمت أن جون تدصار في مقدمة مصوري هذا العصر. ولابد ان ثمن صوره سيضاعف بل سيصل الى ثلاثة امثاله قريباً

ماجي . هذا اختلاق لان اليأس يضعفه الآن

هريت : وهل يقضي طول يومه في التصوير

ماجي : كلا انه يرسم بعض الاعلانات ليضمن عيشه

مرجريت : متى عزمتما على تشريفنا عرّفانا تليفونيًّا

ماجي: نعم لكي نجيء الاعلانات

مرجريت : لئلاَّ نحضرا بينما يكون مشغولاً مع احد زبائنه وهو لا يرضى ان ازعجهُ اثناء عمله

هيتي : احليها على اقتراح عمل صورة لك

هريت : (لمرجريت) لقد اقترح عليَّ لي جراج ان يرسمني مقابل الف ريال

مرجريت : طبعاً لان اسم لي جراج لا يساوي اكثر من ذلك

هريت : الاَّ انني سمعت اطناباً في عمله

ماجي : حقاً ان تصويره فاخر

مرجريت : كلا ان العامة فقط يمتدحون عمله اما رجال الفن فلا

هيتي : (بانزعاج) أحقيقة انه يتحتم علي دفع ثمن باهظ كما تقول ؟

هريت : ولقد قال لي جراج انني اصلح كنموذج لصورة رائعة

ماجي : (لمرجريت) اتركيها هي تتصيد الفرصة

مرجريت : طبعاً لي جراج على حق ولمَ لا تدعيه يرسمك ما دمت تثقين بهِ

هيتي : لا يبدو عليها انها متشوقة الى ان تدع جون يعمل الصورة

هريت . ولكن اذا كان لي جراج لا يحوز اعجاب رجال الفن فمن اضاعة الوقت ان اجلس امامه ليصورني

مرجريت . نعم انك على حق في هذا

ماجي : (تكلم هيتي وراء المائدة بانفعال) اصدري الامر بعمل الصورة لان اليأس قد بلغ بجون حتى انه لا يقوى على احتمال هذه الحالة ، اعينينا ، اعينينا ، أعينينا ، خلصينا

هيتي : (لهريت) لا تبدي كثيرة الشوق لهذا العمل

هريت . ولكن ما دام يطلب الفاً فقط فالامر جدير بالاعتبار

مرجريت . اذا كنت حقيقة ترغبين في عمل صورة لك فلمَ لا تدفعين اكثر من ذلك بقليل لتحصلي على صورة نفيسة . وقد يمكننا اقناع جون بان يرسمك بثمن ارخص نظراً لصداقتكما القديمة

هيتي : (بسرور) بالله

هريت : (تكلم مرجريت بهدوء) انه طبعاً من لطفك انك تعرضين هذا

العرض . ولكن لا اعلم ....

ماجي : (بخوف) بالله أجيبي بالقبول

مرجريت : (بهدوء لهريت)طبعاً لا اعلم اذا كان جون يوافق ام لا لانهُ غريب في معاملته فهو يحدد ثمن عمله ويعتقد ان المساومة في السعر تحط من مقامه

هيتي : (لماجي) لا داعي لمحاولتك ان تشعرينا بحطة مركزنا

مرجريت : ولكني سأنوه له بكياسة انهُ نظراً لكثرة اصدقائك من ذوي النفوذ فيسرك ان . . . . ان . . .

ماجي : (لهيتي) اكملي مالا اريد ان اقوله

هيتي . (لهريت) ساعديها على اتمام عبارتها

هريت : نعم لا بد من تقديمه الى اصحابي بعد عرض صورتي ولاشك اني ...

هيتي : (لهريت) اظهري كانك تريدين مساعدتها

هريت : لا شك انهُ يمكنني تقديم زوجك الى اصحابي وهذا طبعاً يساعده

ماجي : (بارتياح) لقد خلصنا

مرجريت . سيسرني ان اكلم جون عن جمالك . هذا اذا وجدت مزاجه صافياً. جلستك الآن مناسبة جداً لاخذ الصورة

ماجي : (لمرجريت) يمكننا القيام الآن

هيتي : (لهريت) لا تدعيها تفكر أنها تخدمنا بعملها هذا

هريت : سيسرني ان اضيف اسمي الى اسماء معضدي زوجك

ماجي : (لمرجريت بانفعال) اجري الى البيت وبلغي جون هذه الاخبار السارة

مرجريت : (لهريت ببطء) لم يدر بخلدي عندما حضرت لاتمس بزيارتك ان كلامنا سيتطور الى اتفاق تجاري. كما انهُ لم يخطر ببالي ياهريت انك تفكرين في عمل صورة لك بواسطة لي جرانج . اني حقاً اتيت في الوقت المناسب لانقذك

ماجي : (لمرجريت) اجري الى البيت واخبري جون ، اسرعي ، اسرعي

هيتي : (لهريت) لقد احسنت التصرف في امر طلب الصورة حتى انها لا تفكر انك كنت عازمة على طلبك قبلا

هريت : والآن اذا لم تعجبني صورتي فسوف ألومك أنتِ يا عزيزتي مرجريت لاني معتمدة على تقدرك لموهبة جون

ماجي : (لمرجريت) لنها لاتفطن الى سبب حضورك فهيا اجري الى البيت واخبري جون

هريت : لقد امتزت دائماً بعقلك الذكي يا مرجريت

مرجريت : انكِ أنتِ المتملقة الآن

ماجي : (لمرجريت) لا داعي لا نتظارك الآن اسرعي الى البيت

هريت : اني لا أعلقك حين أقول الحق

مرجريت : (تبتسم) يجب عليَّ ان أرحل والاَّ سحرتني تماماً

هيتي : (تنظر الى الساعة) نعم ارحلي لاني اريد ان البس استعداداً للعشاء

هريت : (لمرجريت) لا تستعجلي

ماجي : (لهيتي) اني أمقتك

مرجريت : كلاَّ لا يمكنني التأخير ولكنني أؤمل ان اقابلك بالاستوديو .

فمقابلتك تبعث فيَّ نشاطاً

هيي : (لماجي) اني أبغضك

هريت : (لمرجريت) انهُ لمن دواعي السرور ان يجد المرء شخصاً يوافقه تماماً في المزاج

ماجي : (لهيتي) لقد جئت سعياً وراء ذهبك

مرجريت : (لهريت) ما أعظم سروري أن أجدد معرفتي بك

هيتي : (لماجي) سأعذبك انت وزوجك

هريت : بلغي تحياتي لجون

ماجي : (لهيتي) لقد نسي كل ما يتعلق بك

مرجريت : (تقف) سيسرهُ ان يتقبلها

هيتي : (لماجي) لقد فرغ صبري في انتظار الوقت الذي اكله فيه مرة اخرى

هريت : أأنتظر اذاً الى ان تبلغيني الجواب ؟

مرجريت : (وهي تقدم يدها للسلام) سأكلم جون في الموضوع في أقرب فرصة ثم أخبرك حتى يمكنك الحضور . (تمسك هريت يد مرجريت وهي تظهر لها الود. أما هيتي وماجي فترفعان النقاب وتكيلان احداهما للاخرى قارص الكلام

هيتي : اني احبه ، اني احبه

ماجي : انه يموت جوعاً ، وأنا أموت جوعاً

هيتي : سآخذه منك

ماجي : اني اريد مالك ونقودك

هيتي وماجي معاً : سأسلبك ، سأسلبك

(يسمع صوت كسر أدوات وتطفأ الانوار ثم تنار مرة أخرى ببطء وتظهر مرجريت وهريت فقط

مرجريت : (بهدوء) لقد قضيت وقتاً طيباً في زيارتك

هريت : (مسلمة) لقد سرتني مقابلتك

مرجريت : (برقة) السرور سروري . مع السلامة

هريت : (بلطف وهي تقبل مرجريت مع السلامة ياعزيزتي)

(ينزل الستار)

نجم اليابان الطالع

في الشرق الاقصى [1]

من ثمانين سنة فتحت ابواب اليابان للعالم بواسطة سفن القائد البحري الاميركي بري Perry كانت مملكة اليابان قد قضت قرنين من الزمان قبل ذلك وهي منعزلة عن العالم، بل كان محظوراً في عهد « الشوغن » على اليابانيين السفر الى الخارج او الاتجار مع الاجانب ومن يفعل يجز بالموت . وادهى من ذلك ان بناء السفن اذا استثنينا زوارق الصيد كان عملاً يعاقب عليه

فلما اتصل اليابانيون بالغرب ، وبالافكار الغربية ، اقبلوا عليها واخذوا بها . فلم يكد ينقضي جيلان على وصول الكومودور بري الى سواحل امبراطورية الشمس الطالعة ، حتى كانت اليابان قد انشأت قوة عسكرية وبحرية تحاذر صولتها، وشرعت تتوسع . ولكن الدول الغربية كانت حينئذٍ قد رسخت اقدامها في الصين ، فلما رأت تغلغل روسيا في شرق اسيا وضغطها على شمال الصين ، رحّبت بقيام اليابان وبتعزّز قوتها لتكون لهم بمنزلة الثقل الذي يحفظ الميزان . وكان لبريطانيا وهي خصم روسيا القديم ، اكبر الشأن في تشجيع اليابان وتأييدها فعقدت معها في سنة ١٩٠٢ معاهدة لم تلبث حتى تحوّلت الى محالفة حربية . فلما نشبت الحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٥ تمكنت اليابان بمساعدة فريق من الدول الغربية من قهر امبراطورية القياصرة

وكذلك خطت اليابان خطوتها الاولى على طريق التوسع الامبراطوري . كانت في العقد الثامن من القرن الماضي ، قد ضمّت اليها بعض جزائر في المحيط الهادي ، وفي سنة ١٨٩٥ غزت جزيرة فورموسا المناوحة للساحل الصيني وفي سنة ١٩٠٥ استولت على نصف سخالين الجنوبي من روسيا وفازت بامتيازات كبيرة الشأن في منشوريا وفي سنة ١٩١٠ ضمّت كوريا اليها وهي شبه الجزيرة المتدلية من جنوب منشوريا على الساحل الصيني

وفي خلال ذلك ، اخذ سكان اليابان في الازدياد . فقد ظلّ عددهم ستة وعشرين مليوناً من سنة ١٧٢٠ الى سنة ١٨٤٠ فبلغوا ٣٣ مليوناً سنة ١٨٧٢ واربعين مليوناً سنة ١٨٩٩ وخمسين مليوناً سنة ١٩٠٩ وهم الآن نحو خمسة وستون مليوناً ويزيدون نحو مليون كلّ سنة

كانت اليابان حتى السنة التي فتحت فيها ابوابها للاتجار مع الغرب ، تعيش في عزلة ولا تمارس من ضروب الزراعة والصناعة الاّ ما يكفيها ، ومع ان بعض الصناعات الفنية فيها كانت

---

(١) مقال مبني على الفصل العاشر من كتاب « ساعة الفصل » تأليف رتشرد فرويند

قد بلغت مرتبة عالية من الدقة والاتقان ، كصناعة السيوف والرماح والصيني والمينا ، لم يكن نتاج تلك الصناعات يوزَّع الاَّ في نطاق ضيق . فلما سقطت دكتاتورية « الشوغن » واعيدت امبراطورية الميجي في سنة ١٨٩٨ اتسع المجال لما يتصف بهِ الشعب الياباني من القدرة والبراعة في الصناعة . وما اهلَّ القرن العشرون حتى كانت اليابان قد قطعت شوطاً على طريق الرقي الصناعي الحديث

فلما نشبت الحرب الكبرى وطال امدها ، أتيح للصناعة اليابانية فرص لم يحلم بها اصحابها . فقد كانت الدول الغربية في أشد الحاجة إلى كل ما تصنعهُ اليابان او تستطيع ان تصنعهُ . ثم ان انشغال تلك الدول بالحرب ، ترك السوق الصينية مفتحة الابواب للتجار والصناع اليابانيين . فنشأت في البلاد اليابانية مراكز صناعية ، اجتذبت إلى المدن ملايين من الفلاحين الذين لا يملكون ارضاً . ثم ما لبثت الصناعة نفسها حتى غزت الريف ، فشقَّت الطرق ، ومدَّت الاسلاك تنقل الطاقة الكهربائية الى اصغر القرى ، واتسع نطاق الصناعة اتساعاً عظيماً ، وإذا اليابان في مدة وجيزة قد اصبحت أمة صناعية . تعتمد على التجارة الخارجية في إقامة اود شعبها

وقد جنت اليابان من الحرب الكبرى، علاوة على تقدمها الصناعي، امتلاكها للجزائر الالمانية في جنوب المحيط الهادي وهي جزائر لها مكانة حربية لأنها تعترض سبيل الولايات المتحدة الاميركية الى جزائر الفيلبين وسواحل الصين علاوة على كونها قاعدة للتوسع الجنوبي . ونقول « امتلاكاً » قصداً لان انتداب عصبة الامم لها على تلك الجزائر ليس في عرف اليابانيين الاَّ ستاراً رسميًّا يخفي وراءهُ تلك الحقيقة . ثم أنها انفردت بالسيطرة الاقتصادية تقريباً على منشوريا

فلما عقد مؤتمر وشنطن البحري سنة ١٩٢١ — ١٩٢٢ طالبت اليابان لاول مرّة في تاريخها الحديث بأن يعترف بها دولة بحرية في الطبقة الاولى بين الدول البحرية ، وفازت بما طلبت عند ما اقرَّ المؤتمر النسبة المشهورة ٥ : ٥ : ٣ لقوة البوارج في اساطيل بريطانيا واميركا واليابان ، لأن هذه النسبة ، كانت كافية لتجعل لها السيطرة البحرية في بحار الشرق الاقصى ، بالقياس الى ما تستطيع الدول الغربية تعبئتهُ فيها من السفن الحربية . وعقدت في المؤتمر نفسهِ معاهدة الدول التسع ، التي ضمنت بها الدول التي وقعتها سلامة الصين ووحدتها الجغرافية والسياسية وسياسة الباب المفتوح في الصلات الاقتصادية بها

في السنوات العشر التي تلت توقيع هذه المعاهدة ، كانت العلاقات بين اليابان والدول الاجنبية متسمة بسمة القلق ، لانهُ وضح ان اليابان ترمي الى بسط سيطرتها على الصين . وكانت الصين في خلال هذه السنوات منكوبة بحروب اهلية وثورات متواصلة ، فأتاح ذلك لليابان فرصة التدخل في شؤون جارتها الكبيرة

ورأى اليابانيون سبيل النصر السهل ممهَّداً ، ومشكلاتهم الداخلية تزداد تفاقماً فكان ذلك

باعثاً لهم على الاستسلام لنوازع التبسط الامبراطوري . وكانت السيطرة على الجيش في أيدي فريق من الضباط المتطرفين في الوطنية وعلى رأسهم الجنرال اراكى ، فجعل يتدخل في خطط الحكومة الداخلية والخارجية حتى اصبحت كلمتهُ فيها الكلمة العليا . وكانت المنشآت الدمقراطية حديثة العهد في البلاد ، فلم تقوَ على الثبات في وجه قوّة الجيش . وكذلك كان الجيش الفينة بعد الفينة ، يسير باليابان في طريق المغامرة على الساحل الاسيوي

فلما عقد مؤتمر لندن البحري سنة ١٩٣٠ طالبت اليابان بأن تمنح حق بناء أسطول تكون قوتهُ ٧٠ في المائة من قوّة أسطول انكلترا او أسطول الولايات المتحدة الاميركية . وبعد بحث طويل أقنع وفدها بقبول النسبة التي عينتها معاهدة وشنطن البحرية ، فلقي هذا التسليم مقاومة عنيفة في اليابان . وكان من نتائجها اغتيال رئيسين من رؤساء الوزارة اليابانية ، أحدهما هاموجاشي والثاني اينوكاي ، اغتالها ضباط من متطرفي الوطنيين في الجيش

فكان هذا الاغتيال ايذاناً بانهيار الحياة البرلمانية في معناها الصحيح في اليابان ، وبقيام سيطرة الجيش . وفي سنة ١٩٣١ بدأت القوة التي تعهدتها الدول الغربية بالتشجيع والتأييد تنقلب على صانعيها

ان «حادثة مكدن» التي وقعت سنة ١٩٣١ وكانت مستهلَّ الغزو الياباني للصين ، من الحوادث التي تغير مجرى التاريخ . ففتح منشوريا ، الذي كان نتيجتها المباشرة ، لم يكن الاَّ مرحلة واحدة من خطة يابانية مدبرة غرضها اخضاع الصين واخراج الدول الغربية من المحيط الهادىء او بالحري من نصفهِ الاسيوي . وفي السنوات الخمس التي تلت حادثة مكدن ، أنشأ الجيش — حاملاً الحكومة اليابانية المترددة على مجاراتهِ — دولة منشوكو ثم غزا ولاية جيهول وأجزاء من مغوليا وحمل جانباً من شمال الصين على التسليم بسيطرة اليابان . وكان العمل الحربي يقوم بهِ الجيش ، يقرن بالضغط السياسي على حكومة ننكين ، وهذه لم يسعها ، وقد تخلت عنها عصبة الامم في منشوريا ، الاَّ أن تخفف من وقع الصدمة ، بالمناورات والمداورات الدبلوماسية

ثم في شهر ابريل من سنة ١٩٣٤ طلعت اليابان على العالم بالتصريح الذي وصف بأنه قاعدة مونرو اليابانية . اي ان اليابان تأخذ على عاتقها دون غيرها من الدول المحافظة على السلام في شرق اسيا ، ولا تسلّم بأي تدخل اجنبي في شؤون الصين . وحوالي الوقت نفسه شرعت تطالب بالمساواة البحرية التامة بانكلترا والولايات المتحدة الاميركية ، وهو طلب افضى الى خروجها من مؤتمر لندن البحري (١٩٣٦) فاستردت بعد ذلك حريتها في ان تبني الاسطول الذي تراه لازماً لها بلا قيد ولا حدّ

وبدا لمتتبعي سير اليابان ، في خلال السنوات التي تلت غزو منشوريا ، ان خطة اليابان موجهة في المقام الاول الى الغرب والشمال من منشوريا اي الى اتحاد الجمهوريات السوفيتية .

في الفتح المنشوري كانت روسيا قد سلمت لليابان بما فعلت ، مع ان استيلاء اليابان على منشوريا يجرد روسيا من منفذ الى البحر كبير القيمة ، ويعرض ولاياتها البحرية في شرق سيبيريا للخطر . وكان الظن حينئذ ، ان اليابان وقد رأت هذا اللين من روسيا ستعمد الى خطتها الناجحة ثانيةً . ولكن عند ما انتهت اليابان من ترسيخ قدمها في منشوريا وتنظيمها ، كانت روسيا قد عزّزت قواتها الحربية والبحرية في الشرق الاقصى ، بحيث اصبح من المحتم على اليابان ، ان تعمل حساباً لحرب كبيرة مع روسيا ، اذا اصرت على التوسع في تلك الناحية

عند ذلك اتجهت اليابان الى الجنوب

وعند التدقيق في اقوال اقطاب اليابان ، يتبين الباحث ثلاثة اتجاهات تقوم عليها خطة اليابان في شرق اسيا هي اولاً — الاتجاه الى قلب القارة الاسيوية عن طريق مغوليا . وثانياً — الاتجاه الى البلدان والجزائر في الجنوب . وثالثاً — التغلغل السلمي عن طريق السياسة والاقتصاد

١ — طريق مغوليا

القاعدة الاولى في خطة الجيش الياباني ايصاد ابواب الصين في قلب اسيا ، وذلك بسط سيطرة اليابان على مغوليا الى سنكيانغ او حتى الى بلاد التبت ، فيقيم بذلك حاجزاً بين الصين واتحاد الجمهوريات السوفيتية . وارباب الخطط العسكرية في اليابان مقتنعون كلّ الاقتناع بانهم اذا أحدقوا بالصين ، خضعت لهم

وعلى كل حال فان السيطرة العسكرية على شمال الصين — وهي الولايات التي احتلتها القوات اليابانية في الغزوة الاخيرة — تقتضي من اليابان احتلالها مغوليا او اخضاعها لها . ففي مذكرة تاناكا المشهورة العبارة التالية : لا بدّ من افتتاح منشوريا ومغوليا توطئة لفتح الصين . ومع ان السلطات اليابانية زعمت ان هذه المذكرة مزوّرة ، يقول الجنرال اراكي صراحة في كتابه عن « مشكلات اليابان » ان توطيد السلطة اليابانية في منشوريا ومغوليا شرط لازم لتحقيق خطة اليابان . بل ويتنبأ بان الزحف على مغوليا لا بدّ ان يلقى من العقبات اكثر مما لقيهُ الزحف الياباني في منشوريا . ومع ذلك فعنده « انهُ مهما تكن العقبات التي تعترض سير الفكرة الامبراطورية فلا بدّ من تذليلها » . وكان الظنُّ ان روسيا تسلّم بتغلغل اليابان في مغوليا كما سلّمت بانتزاعها منشوريا ، فلما كشرت روسيا عن انيابها ، عمد اليابانيون الى مغوليا الداخلية

ولا يخفى ان التنافس الروسي الياباني في مغوليا يرتد الى اوائل هذا القرن . وقد كانت مغوليا حينئذ ، كما هي الآن جزءاً من الصين اسماً ، مع ان امراء المغول لم يعترفوا بسيادة الصين . فلما عقدت المعاهدة الروسية الصينية سنة ١٨٨١ اعترف بما لروسيا من المصلحة والنفوذ في مغوليا ، وفي سنة ١٩٠١ عقدت روسيا مع مغوليا الخارجية معاهدة مستقلة ، ذلك ان مغوليا الخارجية كانت قد اصابت نصيباً غير يسير من الاستقلال عن الصين حالة ان مغوليا الداخلية غدت خاضعة خضوعاً

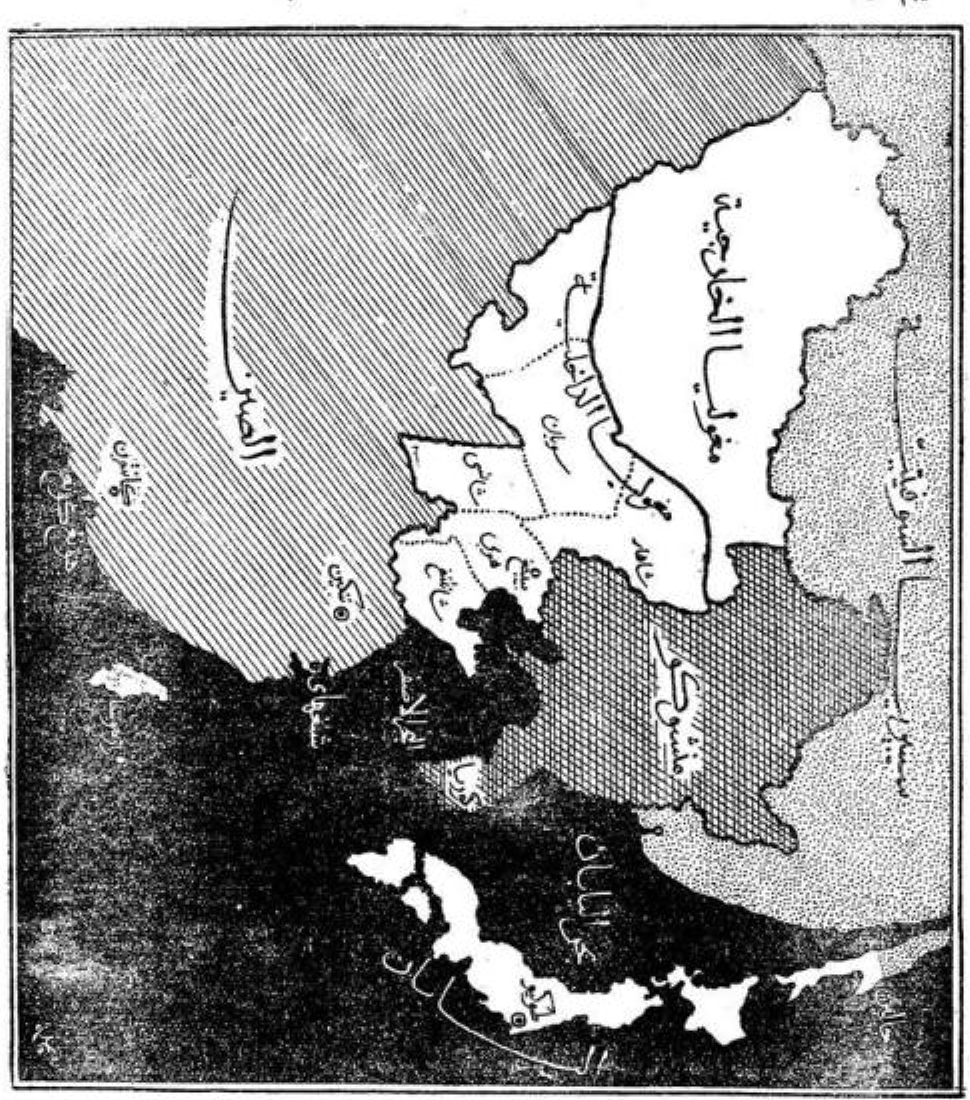
مباشراً للادارة الصينية. فلما انقضت الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤—١٩٠٥) شرعت اليابان تبدي اهتمامها بمغوليا فعقدت معاهدة مع روسيا في سنة ١٩١٠ قطعت فيها كل منهما عهداً باحترام مصالح الاخرى في الارض المغولية . ولم تحدّد « الارض المغولية » قصداً لان منشوريا فيها مغول اسوة بمغوليا الخارجية والداخلية . ثم سعت الدولتان الى تعيين الحدود سنة ١٩١٢ ولكن التحديد الذي اقترح حينئذ لم يقم لهُ وزن صحيح في ما بعد . وبعثت اليابان خطة التغلغل في مغوليا في سنة ١٩١٧ عندما قدمت الى الصين مطالبها المشهورة وعددها واحد وعشرون مطلباً . ولكن الدول ارغمتها حينئذٍ على سحب هذه المطالب . الاّ أنها سارت الى أهدافها بأساليب أخرى منها اثارة امراء مغوليا الداخلية وحثهم على القيام بحركة غرضها انشاء حكومة مغولية مستقلة استقلالاً ذاتيًّا عن الصين تشمل كلَّ مغوليا . ففوّتت روسيا عليها حركتها هذه في مغوليا الخارجية التي تدخلت فيها بالقوة وبعد سلسلة من الحوادث والفتن المحلية انشئت في مغوليا الخارجية جمهورية تعرف باسم جمهورية الشعب بمغوليا وهي خاضعة فعلاً للنفوذ السوفيتي

والحالة الآن من الناحية القانونية ، ان روسيا السوفيتية تعترف بسيادة الصين على مغوليا الخارجية، مع ان حكومة مغوليا الخارجية لا تعترف بها . وبين حكومة مغوليا الخارجية وروسيا السوفيتية محالفة عسكرية ، عقدت سنة ١٩٢١ ولا تزال قائمة الى الآن ، وقد ابلغ ذلك رسميًّا الى السفير الياباني في موسكو في اول ابريل سنة ١٩٣٦ . إلاّ ان هذه المحالفة كانت غير مدوّنة، خلال خمسة عشر عاماً بعد عقدها ، ولكن لما حدثت اخيراً سلسلة من الحوادث على الحدود الروسية في قلب آسيا استدلت بها روسيا على ان اليابان ماضية في اتجاهها الى مغوليا ، وضع بروتوكول حدّدت فيهِ نصوص المحالفة ووقع في « أولان باتور » عاصمة مغوليا الخارجية في ١٢ مارس سنة ١٩٣٦ وقبيل عقدها بأيام أعلن ستالين (في أول مارس ١٩٣٦) انهُ « إذا تجرأت اليابان على مهاجمة جمهورية الشعب بمغوليا والاعتداء على استقلالها فاننا نبذل لها المعونة كما فعلنا سنة ١٩٢١ »

فدلّ هذا القول ، ولا سيما عند اقترانهِ ببروتوكول المعاهدة العسكرية، على ان روسيا لا تحجم عن خوض حرب اذا هاجمت اليابان مغوليا الخارجية . والباعث الاول على وقوف روسيا هذا الموقف، انهُ اذا كانت اليابان مسيطرة على مغوليا الخارجية ، ونشبت حرب بين روسيا واليابان، كان في وسع اليابان حينئذٍ أن تضرب جيوش روسيا في شرق سيبيريا ، من مؤخرتها ، ومهاجمة المراكز الصناعية ومستودعات الطعام التي حول بحيرة بيكال . ذلك ان الاستحكامات الروسية على الحدود القائمة بين سيبيريا ومنشوكو، منيعة جداً وقد يتعذر اختراقها . فاذا نشبت حرب بين روسيا واليابان ، حالت هذه الحصون دون فوز حاسم يحرزه أحد الفريقين

فعند ذلك ترى القيادة اليابانية أن مغوليا الخارجية خير سبيل الى ضربة الجيش الروسي .

فيهم اليابان والحالة هذه أن توطد مقامها في مغوليا الخارجية ويهمّ روسيا ان تقصيها عنها



فلما كشّرت روسيا لليابان عن أنيابها ، وأبلغ السفير الياباني في موسكو نبأ المحالفة العسكرية بعد ما ألقى ستالين تلك الخطبة التي روينا مغزاها ، انثنت اليابان عن حركة الاحداق بالصين عن طريق مغوليا الخارجية ، الى محاولة احتلال مغوليا الداخلية وهي جزء من الصين ، وقد حققت في غزوتها الاخيرة معظم هذا الهدف باحتلالها شمال الصين وجانباً من مغوليا الداخلية وحث امرائها على إنشاء دولة مستقلة استقلالاً ذاتيًا عن الصين

٢ — الاتجاه جنوباً

وتقابل خطة الجيش القائمة على الاحداق بالصين من الغرب، خطة الاسطول القائمة على التوسع جنوباً. وهي متفقة كل الاتفاق مع خطة الاحداق بالصين من الغرب والشرق والجنوب. ولعلّ العبارة التالية تدل على الجانب الاول من هذه الخطة وهي منتزعة من مقال للفتننت كوماندر تاميموتو رئيس قسم الحسابات في الاسطول الياباني، نشر في جريدة « طوكيو كيزاي » اكتوبر سنة ١٩٣٥ قال :

« إن الذين يتبرمون بقلة مصادر اليابان الطبيعية قصار النظر . ويجب عليهم أن يفهموا أن في شرق آسيا وجزائر البحار الجنوبية مصادر غنية جدًّا وجميعها في متناول اليابان الاقتصادي . فاذا نظرنا الى الموضوع من هذه الناحية تبيّنا ان اليابان أغنى في مصادر الثروة الطبيعية من بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية . ولكن تحويل الثروة الكامنة الى ثروة حقيقية يقتضي ان يكون لنا اسطول كافٍ لسيادة البحار »

وكتب ماشيدا وزير التجارة والصناعة اليابانية مقالاً جاء فيه « أن توثيق صلة التعاون الاقتصادي بمنشوكو والصين يتيح لليابان المواد الخام اللازمة لصناعاتها . ولكن علاوة على ذلك يجب ان نسير الى الامام في جنوب المحيط الهادىء . فجزائر هذا المحيط على أكبر جانب من خطر الشأن من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية . ولا يتاح للصناعة اليابانية ان تستغني عن استيراد المواد الخام من الغرب الاَّ بعد ان يمتد هذا التعاون (مع منشوكو والصين) الى جزائر البحار الجنوبية

وعلى ذكر ماشيدا نقول انهُ زعيم حزب « منسيتو » المعروف بحزب الاحرار !

كذلك خطب الاميرال تاكاماشي فقال « كان تقدم اليابان الاقتصادي محصوراً حتى الآن في منشوكو . فيجب ان نقف هناك عند هذا الحدّ ونتجه الى الجنوب متخذين من جزيرة فورموسا او جزائر الانتداب قاعدة لاعمالنا . عندئذٍ يجب توسيع نطاق عمل الاسطول حتى يشمل غينيا الجديدة وبورنيو وارخبيل سليبيس . لقد أنشىء أسطولنا لاجل الدفاع حالة ان أسطول اميركا أنشىء لحماية تجارتها الآخذة في الإتساع . أما وقد اخفقت المفاوضات البحرية في مؤتمر لندن فعلى الاسطول الياباني ان يأخذ الأهبة اللازمة لحماية تجارة اليابان . . »

وقد وطأت الحكومة للتوسع في الجنوب بتعيين حاكم حربي من ضباط الاسطول العظام لجزيرة فورموسا ووضعت خطة واسعة النطاق لتعمير فورموسا وجزائر الانتداب . وقد نظمت الهجرة الى هذه الجزائر على اساس واسع وانشئت المرافىء وشقت الطرق فيها واسست المصانع وحسنت وسائل المواصلات والمخاطبات مع اليابان . وقد ثبت لجميع متتبعي الحالة في الشرق الاقصى ، أن نشاط اليابانيين الاقتصادي في جزائر الفيلبين وسيام وجزائر الهند الشرقية الهولندية

قد زاد زيادة كبيرة في السنتين الاخيرتين ، واشتركت البيوتات التجارية مع الوكالات الرسمية والشبيهة بالرسمية في هذا النشاط ، والقاعدة العامة المتبعة في جميع هذه الاحوال ان تسير التجارة اولاً ثم يسير المهاجرون فالضغط السياسي في الاثر ، وهي القاعدة التي جرى عليها الاستعمار دائماً

ثم ان المشتغلين بهذه الشؤون في اليابان ، يعنون الآن بتدبير حملة من الدعاية لتثير في نفوس اليابانيين شعور التأييد لمساعي اليابان في جنوب المحيط الهادىء وان لها رسالة انسانية هناك لا بدَّ لها من تحقيقها . وليس بالنادر ان ترى في الصحف اليابانية اقوالاً من قبيل القول التالي وهو للمستر يادا رئيس الجمعية اليابانية السيامية . قال : — ان الحالة الدولية في تغيُّر مستمر . ولا يعلم الى متى تتمكن هولندة من الاحتفاظ بممتلكاتها في جزائر الهند الشرقية ومجموع مساحتها يفوق مساحة هولندة نفسها ستين ضعفاً ، وهي تستغلها لمصلحتها الخاصة . ثم لا يعلم احد الى متى تبقى الهند بريطانية . فاذا نظرنا في هذه الاعتبارات ظهر لنا انهُ لا بدَّ لليابان من ان تتجه جنوباً . ولا يسعنا ان نتأخر . وفي اتجاهنا جنوباً نلتقي بسيام . وهي بلاد تعدل مساحتها مساحة المانيا وفرنسا معاً ، وفي استطاعتها ان تنتج مقادير عظيمة من المواد الخام وهي مشبعة بروح الودّ نحو اليابان

وليس بخافٍ ان سيام منذ وقع فيها الانقلاب سنة ١٩٣٢ اخذت تتجهُ الى اليابان في ما تتطلبهُ من مشورة وما تحتاج اليه من مصنوعات اكثر مما كانت قبله . وفي السنتين الاخيرتين ، جرت اليابان وسيام على تبادل ثقافي قوامهُ الطلبة والاساتذة وغيرهم . فالضباط السياميون الذين كانوا يرسلون قبلاً الى المانيا لتلقي العلوم العسكرية فيها ، يذهبون الآن الى اليابان

كذلك تحولت سيام عن دول اوربا الى اليابان في شراء ما تحتاج اليه من سكك الحديد وسفن حربية وغيرها

ولسيام موقع عظيم الشأن من الناحية الحربية في جنوب اسيا الشرقي . فهي الآن ملتقى طرق الخطوط الجوية الشرقية . فاذا رسخت اليابان قدمها فيها ، تمكنت من تجنب قاعدة سنغافورة البحرية ، في نفوذها الى المحيط الهندي . ثم أن مشروع انشاء اليابانيين لترعة (كرا) في ارض سيام تصل بين خليج سيام وبحر بنغال لم يتعدَّ دور البحث ، ولكن ازدياد مصالح اليابان في هذه البلاد يوسع نطاق مصالحها في جنوب المحيط الهادىء . ومن وراء الجزائر الانكليزية والهولندية في هذه المنطقة يلوح شبح استراليا وزيلندة الجديدة

الا أن الاتجاه الياباني الى الجنوب لهُ غرض آخر وهو الاحداق بالصين من ناحية البحر . والى هذا الغرض يتجه نشاط اليابانيين في الولايات الصينية الثلاث التي على ساحل الصين الجنوبي ، وهي فوكين وكوانتونغ ثم كوانغسي الى الغرب من كوانتونغ على حدود الهند الصينية الفرنسية

ويزعم بعض الكتّاب ، أن الثورات المتوالية في هذه الولايات ، على سلطة الحكومة المركزية في تنكين انما يرجع إلى مساعي اليابانيين فيها او على الأقل الى امداد الثوّار بالسلاح الياباني. وإذا كانت هذه الحركة لم تصب حتى الآن نجاحاً يذكر في هذه الولايات ، لان حكومة تنكين أخضعت كلّ ثورة لشبت هناك، فان اليابانيين من أبرع الامم في تحقيق اغراضهم بوسائل واساليب منوّعة

وليس ثمة من ينكر أن السيطرة البحرية على سواحل الصين للاسطول الياباني ، وقد اثبتت الحرب القائمة الآن انها تستطيع ضرب الحصر البحري على هذه السواحل. ثم إن احتلال شنغاي والثغور الى جنوبها يمكنها من التغلغل في الداخل ، الى المدائن الصينية القائمة على ضفات الانهر ، وهي العقد العصبية في حياة البلاد الاقتصادية

***

ان اتجاه اليابان جنوباً لا بدّ ان يفضي بها الى الاصطدام بمصالح الولايات المتحدة الاميركية والامبراطورية البريطانية في المحيط الهادي . فقد كان هناك تفاهم ضمنيّ بين اليابان وانكلترا على اقتسام الصين ، فيكون شمالها منطقة نفوذ يابانية ويكون جنوبها منطقة نفوذ بريطانية. وكان الرأي انهُ لا يحتمل ان تعرّض اليابان نفسها للعزلة الدبلوماسية ، باصطدامها بمصالح روسيا وبريطانيا واميركا في آن واحد . ولكن الرأي تحوّل الآن . فقوة روسيا في سيبريا ومغوليا الخارجية حالت دون تغلغل اليابان في قلب آسيا كما كانت تبغي . ثم ان منشوريا خيبت آمال اليابان من الناحية الاقتصادية . فصار لا بد لها من ان تجد منافذ اخرى لسكانها وبضائعها . وقد قضي على ما بقي من التفاهم الضمني المشار اليه بين اليابان وبريطانيا ، عند ما أبت اليابان التسليم بالمقترحات التي وضعها الخبير المالي البريطاني ، السر فردريك ليث روس سنة ١٩٣٥ للتعاون بين اليابان وبريطانيا في الصين

اما في ما يتعلق بالولايات المتحدة الاميركية ، فعنايتها بالشرق الاقصى قائمة على صلتها بجزائر الفيلبين أولاً وعلى تجارتها في الصين ثانيةً

فالولايات المتحدة الاميركية لم تصبح في عداد الدول التي لها مصالح في الشرق الاقصى الاّ في أواخر القرن الماضي عند ما احتلت جزائر هواي (١٨٩٨) ثم تلا ذلك حلولها في جزائر الفيلبين (١٨٩٩) . وكان الرأي في أميركا اولاً ان الاستيلاء على الفيلبين سيكون توطئة للتوسع الاقتصادي الاميركي في بحار الشرق الاقصى . ثم تبين الاميركيون ان حماية الفيلبين تقتضي منهم تضحيات كبيرة . ثم استولت اليابان، بالانتداب على الجزائر الالمانية في المحيط الهادىء . ونظرة واحدة الى الخريطة تثبت لك انّ هذه الجزائر تعترض خط المواصلات بين ساحل اميركا الغربي والفيلبين. وكان من أثر نشاط اليابان الاقتصادي في هذه الجزائر ان اشتدت نزعة

العداء في العلاقات الاميركية اليابانية . فاذا كانت أميركا عازمة على الاحتفاظ بالفيلبين — ولو اعترفت باستقلالها — فالحرب بينها وبين اليابان لا محيص عنها

ولكن جميع الدلائل تدلّ على ان اميركا آخذة في الانسحاب من الشرق الاقصى . والراجح انها ستقصر جهدها على تحصين سواحلها الغربية ، وهي منيعة كل المنعة . وعندئذٍ تطلق يد اليابان في القسم الجنوبي من المحيط الهادىء . ولعلّ هذا يفسر موقف حكومة وشنطن في مؤتمر بروكسل واقتصار مساعيها على التوسط دون اي عمل آخر

***

بقي ان نقول ان الاتجاه الياباني جنوباً يهم رجال الاسطول الياباني ، لان هؤلاء لا يسعهم ان يتركوا مقام السيطرة على الخطط القومية لرجال الجيش وحدهم . ففي السنوات الخمس التي تلت احتلال منشوريا كانت الكلمة العليا لقوّاد الجيش على الرغم من ان رئيسين من رؤساء الوزارات كانوا من أمراء الاسطول . ونعني الاميرال سايتو والاميرال اوكادا . واذا ظلّ الاتجاه الى توسع اليابان على البر الاسيوي ، فالكلمة العليا في توجيه الخطط القومية ، لا بدّ ان تبقى لاقطاب الجيش . فلما ثبت ان منشوكو خيبت الآمال من الوجهة الاقتصادية ، وان التوسع في ما وراءها قد يفضي الى الاصطدام بروسيا ، شك بعضهم في حكمة الخطط التي اختطها الجيش . فسنحت الفرصة لرجال الاسطول المطالبة بالتوسع جنوباً . فلما عقد المؤتمر البحري سنة ١٩٣٦ في لندن ، حث رجال الاسطول الحكومة اليابانية على المطالبة بالمساواة البحرية التامة ، بأميركا وبريطانيا . وكذلك حوّلت عناية الشعب من مشكلات التوسع على البر الاسيوي الى مجد الاسطول الذي ابى رجالهُ التسليم بمقام ثانوي بين الامم البحرية ، فانسحبوا من المؤتمر . ثم طالبوا بزيادة ميزانية الاسطول ، وجعلوا يدخلون في روع الشعب ان مستقبل اليابان في الجنوب ، او على صفحة الماء

الاَّ ان الحرب الاخيرة اعادت السلطة لرجال الجيش ولا يعلم متى تنتهي هذه المرحلة

٣ — التغلغل السلمي

والقاعدة الثالثة التي تجري عليها اليابان في تحقيق حلم التوسع الامبراطوري هي قاعدة التغلغل السلمي عن طريق الضغط السياسي حيناً والمال والتجارة حيناً آخر

يلوح لقرّاء الصحف والبرقيات في خلال السنتين الماضيتين أن اليابان كانت تتكلم بصوتين . احدهما صوت القوة متجلياً في مطالب اقطاب الجيش والاسطول وتصريحاتهم وأعمالهم ، والآخر صوت الاعتدال بارزاً في خطط الحكومة ولا سيَّما وزارة الخارجية وآراء رجال المال والاعمال . ولا ريب في أن هناك نوعاً من التضارب بين متطرفي الجيش واقطاب السياسة من المدنيين .

ولا ريب في أنهُ لو كان الامر مطلقاً بيد الحكومة المدنية، لما غزا الجيش الياباني منشوريا وجيهول وشمال الصين

ولكن يجب ألاَّ ننسى أن في اليابان حكومتين . احداهما قوامها فريق من الوزراء مسؤول أمام المجلس النيابي والأخرى قوامها فريق آخر مؤلف من وزير الحربية ووزير البحرية ووزير السلاح الجوّي وهؤلاء متصلون مباشرة بالامبراطور ومسؤولون امامهُ دون غيره

وقد كان لهؤلاء الوزراء الكلمة العليا في تدبير الخطط الحربية وتنفيذها ، ولم يكن في وسع أي سياسي أن يؤلف وزارة اذا كان برنامجها لا يرضي اقطاب الجيش والاسطول . لأن العرف جرى بأن يكون وزير الحربية جنرالاً ووزير البحرية اميرالاً ، فاذا قبل جنرال أو اميرال الاشتراك في الوزارة وكان احدهما او كلاهما ممن لا يرضى عنهُ أقطاب الجيش ، تعذّر التعاون بين الحكومة والجيش ، وكذلك يستطيع اقطاب القوات الحربية أن يكونوا العامل الحاسم في تأليف كلّ وزارة ، أو اسقاطها ولو كانت الاكثرية تؤيدها في المجلس

وهذا يفسر القول بأن اليابان تتكلم بصوتين

***

الاَّ انهُ لا يخفى ان القوة حيناً والمداورة الدبلوماسية حيناً آخر لازمتان للتوسع الياباني . ففي ميدان العلاقات الدولية ، تستطيع الدولة ان تتغلب على خصومها اما بقهرهم وأما بالفوز بعطفهم وموافقتهم . وقد جرت اليابان على هذه الخطة مرة بعد اخرى ، وفقاً للاحوال القائمة

فقد حاول المسيو هيروتا — وزير الخارجية الآن — عند ما كان رئيساً للوزارة قبلاً ووزيراً للخارجية قبل ذلك ان يبذل المساعي للفوز بعطف الصينيين وفهمهم والتعاون واياهم

وعلى الرغم من ان مساعيهُ وتصريحاته في هذا الصدد كانت متسمة بسمة التعالي والتشامخ وان الجيش كان يقوم ببعض الاعمال المثيرة في شمال الصين ، تمكن المسيو هيروتا من خضد شوكة المقاطعة الصينية للبضائع اليابانية ، خضداً يذكر . ولما عزمت حكومة الصين على وضع نظام جديد للتعريفة الجمركية ، عمد المسيو هيروتا الى خليط من الضغط الدبلوماسي والسعي الودّي فاقنعها بتأجيله وتعديله حتى يصبح موافقاً لليابان ، وكذلك فاز بالاعتراف ببعض ما لليابان من الديون والتعاون معها في نواحٍ شتى

وليس الغرض مما تقدّم ان اليابان كانت تستطيع ان تفوز بكل ما فازت بهِ لو اعتمدت على الاساليب الدبلوماسية دون غيرها ، بغير ان تلجأ الى القتال ، ولكن الغرض ان نقول انهُ لو اعتمدت اليابان — قبل الغزوة الاخيرة — على القوة وحدها في تحقيق اغراضها لكانت نفقتها اعظم

جداً مما كانت . حتى اذا شاءت بعد الغزوة الاخيرة ، ان تحتفظ بسيطرتها على البقاع الشاسعة التي احتلَّتها بإقامة دولة مستقلة استقلالاً ذاتيًّا ، كان لا بد لها من الاعتماد على الوسائل الدبلوماسية في استمالة فريق من الصينيين انفسهم لتأييدها والتعاون وإياها

***

وأما القاعدة الثانية للتغلغل السلمي الياباني في الصين فهي الاعتماد على المال والتجارة . وقد سبق احتلال منشوريا ربع قرن من العمل في مدّ سكك الحديد وشق الطرق وانشاء المرافىء وتشييد المصانع والسيطرة على العقد العصبية في حياة البلاد التجارية والمالية . ثم عمدوا الى مثل هذا في شمال الصين . ومن المسلم بهِ عند الملمين بشئون الشرق الاقصى ان اليابان تعدُّ عدَّتها لتحول الصين الى منطقة تعتمد عليها في استخراج ما يمكن استخراجه منها من المواد الخام وهي كثيرة ، وفي بيع ما يمكن بيعهُ فيها من المصنوعات اليابانية وهي كما لا يخفى سوق عظيمة

فالزعيم صن يات سن نافخ الروح القومية الجديدة في الصين ، ومنشيء الجمهورية الصينية ، كان يعتقد ان تحويل الصين الى دولة صناعية شرط لازم لتجديد حياة الصين القومية وابلاغها مكانة العزة والقوة التي ينشدها لها . ولكن اليابانيين يرون غير هذا . فهم يرمون الى تعزيز الزراعة وتربية المواشي وانتاج القطن وفتح المناجم في الصين ، لانهم يدركون انهُ اذا تحولت الصين دولة صناعية ، صارت منافسة لهم ، وغدت مصانعهم لا تجد في السوق الصينية العظيمة منفذاً لمنتجاتها . وقد وضعوا خطة لتحقيق هذا الغرض قوامها شق الطرق ومد سكك الحديد وتأسيس محطات التجارب الزراعية ، وذلك على أساس ما رجع بهِ فريق كبير من خبراء اليابان الذين جاسوا خلال الصين مستطلعين منقبين . والراجح انهُ اذا جاء دور التنظيم والتنسيق بين الخطة المتبعة في الصين ، وحياة اليابان الصناعية ، لم تباشره الحكومة اليابانية نفسها بل تعهد فيهِ الى شركة سكة حديد منشوريا الجنوبية ، وشركات كبيرة أخرى ، أحرزت في هذا الصدد اختباراً واسع النطاق في منشوريا

لقد سبق ان قلنا آمال اليابانيين في قيمة منشوكو الاقتصادية قد خابت ، وهذا حمل أقطابها على القول بأنهُ لا بدَّ من السيطرة الاقتصادية على شمال الصين . ولا يعني هذا ان يضم شمال الصين الى منشوكو في دولة واحدة ، مع ان الامر ليس ممتنعاً لذاته ، ولكن الراجح ان تنشأ دولة مستقلة استقلالاً ذاتيًّا في شمال الصين ، ثم يتولى الخبراء ورجال المال والاعمال التنظيم الاقتصادي ، بحيث يكون قوام الوحدة الكبرى اليابان ومنشوكو وشمال الصين وقد اتسقت اجزاؤها وانظمت نواحي الحياة الاقتصادية فيها من المناجم والمزارع الى المصانع الى السوق

الاطفال ضعاف العقول

الناحية المهجورة من نواحي الاصلاح والتهذيب — حاجتنا الى المباحث العلمية العملية
معاهد ضعاف العقول وما ينبغي ان تكون عليه

لفتح الله محمد المرصفي
مفتش التعليم بمصلحة السجون المصرية وعضو رابطة الاصلاح الاجتماعي

عني الاستاذ الدكتور . ا د . كلاباريد الخبير الفني الذي ندبتهُ وزارة المعارف العمومية في الماضي القريب ، ببحث وتقدير حالة التعليم في جميع مراحله في المملكة المصرية كما عنيت الوزارة بنشر تقريره المشتمل على نتيجة ابحاثه واختباراته القيمة مقرراً فيه ما فطر عليه الشاب المصري من الذكاء مع موازنته بذكاء امثاله في الامم الغربية وانهُ يوازي ذكاء نظيره في مختلف البلدان الاوربية بصفة عامة . الاَّ انهُ من ناحية اخرى اشار الى التباين العظيم في الفرقة الواحدة بين جميع التلاميذ مع ما هم عليه من السن ومستوى الذكاء . كما اكد انهُ يستحيل تجانس فرقة واحدة تجانساً مطلقاً . الاَّ ان التباين بين تلاميذ المدارس المصرية تخطى الحدود المألوفة . . وقد عزا ذلك الى عوامل اهمها نقص طرق اختبار التلاميذ حين توزيعهم على فرق الدراسة . وثانيهما عدم وجود فرق خاصة للاطفال المتأخرين والشواذ الذين يتابعون دروسهم مع الاطفال العاديين جنباً الى جنب على انهُ قرر ان المصلحة تقضي بأن تنشأ في الاوساط التابعة للمدن اوالمدارس العامرة بالتلاميذ فرق للضعفاء الذين تقل سنهم العقلية عن مستوى السن العادية المناسبة للفرقة وأشار إلى ان من امثال هؤلاء عدداً غير قليل في شدة الحاجة الى العناية الخاصة . ومن المؤكد ان تقدمهم ومتابعتهم لاخوانهم خير من القضاء عليهم إلى أن قال — « واذا ضوعف الشذوذ بفساد في الاخلاق كنزعته إلى السرقة والاجرام فمن المحتوم حجز المصابين بهذه الآفات في بيوت خاصة باصلاح الاخلاق « معاهد الاصلاح »

وهذا ما رغبنا في بحثه وتوجيه الانظار الى الناحية المهجورة من نواحي الاصلاح والتهذيب في مصر لطول خبرتنا وممارستنا العمل مدة لا تقل عن ثماني عشرة سنة في خدمة الاحداث الهمل وصغار المجرمين في مدارس إصلاح الاحداث التي تجمع أطفالاً شواذ من جميع نواحي الدولة مع اختلاف في القوى العقلية وانحطاط في المستوى الخلقي وتباين في الجريمة وضعف في الصحة

على أن اقصى ما يفعله القائمون منا في بحث حالة الاحداث المهمل وصغار المجرمين أن يقرأوا شيئاً عن نتائج ما قام به الباحثون ووضعوا من اجله المؤلفات القيمة في مختلف البلدان الاجنبية ولاسيما في اميركا « الولايات المتحدة الاميركية » وانجلترا التي تعنى جد العناية بالاصلاح فجعلت في طليعة طرائق اصلاحها انشاء المباحث العلمية العملية وأعدت لها المدة وواصلت ابحاثها على أساس الغرض الذي من اجله انجهت الفكرة

***

وليس من المستطاع ان نقرر شيئاً نرغب في اصلاحه قبل بحثه بحثاً مؤسساً على الاصول الفنية من وجوهه المختلفة من حيث فحص العوامل والبواعث النفسية والعقلية والصحية التي دعت بالحدث الى الاندفاع في الجريمة حتى يمكن والحالة هذه تقرير العلاج فلقد قيل « ان الحكم على الشيء فرع عن تصوره » فلا بدّ من أن يوجد بمصر طبقة من الباحثين المصريين الاخصائيين في مختلف الابحاث النفسية تكون مهمتهم إجراء الابحاث والتجارب وجمع المشاهدات وعمل الاحصائيات وفحص الأطفال فحصاً دقيقاً يمكن به تقرير العلاج . عندئذٍ يمكن أن تسن نظم الاصلاح ومقاومة الجريمة سواء أكانت بوسائل الوقاية أم بمعاهد الاصلاح التي يجب أن تكون على أسس مستمدّة من نتائج هذه الأبحاث

أما ما نعمله الآن فهذا في نظري بل في نظر الذين يتصدون لإصلاح الأمن العام والحالة الخلقية ليس إلاّ تقليداً ومحاكاة

إذا ما تقرر ذلك وجب على الهيئات العاملة والجماعات المفكرة أن تنشط إلى العمل بهمم دائبة على إنشاء أمثال هذه المباحث حتى يمكننا أن نقول اننا نأخذ بأسباب طرائق العلاج من الوجهة الفنية العملية الصحيحة

وهنا يجب أن نشير الى أقرب الحوادث عهداً عن جنايات صبية قد يمر القارىء بها مرّ الكرام « الاّ انها بادرة تطور سيء في نفسية النشء » أو « صورة من الوحشية » أو « ظاهرة إجرامية » عندما اشارت اليها الصحف اليومية في تعليقها على هذه الحوادث الواقعية . فمنها : « أن قد ائتمر غلامان على ثالث وصبا عليه البترول ثم أحرقاه وجعلا يتلذذان بصرخاته المتوالية في النار المتأججة — كما حدث أن غلاماً دس « حمض الفنيك » في الصهريج الذي يشرب منهُ تلاميذ مدرسته . . . وفي مدينة المنصورة تسكن أسرة كريمة في دار يصعد اليها بسلم من الخشب: وقد حدث ثلاث حرائق في هذه العمارة الجميلة في أيام متتالية وقد ادركها السكان والخدم ورجال المطافىء ومنعوا أخطارها واسفر التحقيق عن ادانة خادمة في الرابعة عشرة من عمرها حامت حولها الظنون القوية فاعترفت بفعلتها الشنعاء كما اعترفت بسابق جنايتها وأنها فعلت ذلك إعجاباً

بمشاهدة رجال المطافىء لابسين خوذاتهم اللامعة ونشاطهم واقدامهم اللذين ملكا عقلها فأغرياها باحداث هذه الحرائق لمشاهدتهم أمامها

كما اعتقل البوليس مساء ٩ يوليو سنة ١٩٢٨ ثلاثة صبية لا يزيد عمر أكبرهم على عشر سنوات وقد ضبطوا وهم يضعون خرقة مبللة بالغاز ومشتعلة تحت محل كهربائي في شارع توفيق بالقاهرة ولما قبض عليهم البوليس وأجرى التحقيق معهم بوساطة النيابة اعترفوا بجريمتهم »

وإن المقام ليضيق بنا اذا ما حاولنا أن نأتي على كثير من حوادث امثال هؤلاء الاطفال وفدح جرائمهم . وعندي أن هؤلاء ليسوا إلا في مصاف ضعاف العقول الذين يجمل بنا أن نبادر الى علاجهم عقليًا وإلا كان خطرهم أشد تأثيراً وأسوأ عاقبة : ولعلنا نتخذ من أغاليطنا دروساً للاصلاح القومي المنشود وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

فاذا كنا بالأمس في دور من الشك أدى بنا إلى البحث فانهُ يجدر بنا أن ننتهي اليوم الى معرفة الحقيقة وإذا نحن وفقنا إلى فحص الحالات العقلية والنفسية والجسمية لأمثال احداثنا الطفل وصغار المجرمين فانهُ يتبين لنا صدق قرارنا عن كثيرين من الاحداث في حالات غير طبعية . وانا في قرارنا هذا الجادون فان ما عليه أطفالنا المشار اليهم من المؤثرات والاوصاف لا تخرج عن دائرة ما قرره علماء النفس والباحثون . فمن ذلك ان يكون الطفل بحالة عصبية ولو أنهُ لم يكن بالمعنى المقصود منها أو أن يكون كثير النسيان نزّاعاً إلى العصيان جنوحاً إلى عدم الطاعة فاذا ما كانت حالتهُ شديدة عمد إلى الخداع والتمرد والعربدة فيكون بذلك شقيًا مستمرًا يركن الى السرقات كاذباً مارقاً وتزداد هذه الحالة الشريرة وضوحاً وجلاء كلما تقدم الى سن البلوغ فيجنح الى اقتراف الآثام

والقائمون بهذه الابحاث يعتقدون بوجوب تقرير الاسباب الباعثة للطفل المجرم على الاجرام في هذا الاعتقاد واليقين وَضْع العدل في نصابه من ناحية الحدث وفي ذلك حفظ لكيان الهيئة

فأطفالنا ضعاف العقول ليسوا الاَّ بالاطفال العاديين مع ما هم عليه من الظواهر والمؤثرات على انهم في غير المستوى العقلي العادي بدرجات تختلف باختلاف تقدير ذكاء كل طفل منهم

ولا يفوتني أن أشير الى تلك الظواهر التي لاحظناها ودلتنا عليها الخبرة بين هؤلاء الاحداث وكانت ولا تزال نتائج لازمة لتلك الامراض المزمنة التي أصابتهم قبل انتظامهم في مدارس اصلاح الاحداث والتي عنيت ولا تزال تعنى بعلاجها بكل الوسائل الفنية الممكنة فمن هذه الظواهر : —

١ — عدم الانتباه الى الدرس رغم ما نسلك من أساليب في التعليم

ا — الميل الى النوم

ب — والاشتغال بغير الدرس

٢ — ضعف الذاكرة الى حد ان أمثال هؤلاء لا يعون ما يلقى عليهم في نفس الدرس رغم التكرار

٣ — الركون الى الكذب

٤ — الجبن الى حد الاستسلام حتى الى حدث صغير

٥ — البطء المتناهي في الاجابة

وفي يقيني انهُ اذا ماكانت قيادة هؤلاء الاحداث الى النظام والعمل بقوة عاقلة مشبعة بروح الشفقة والحنان في معهد خاص لاستطعنا ان نعد منهم مواطنين عاملين الى حدٍّ ما ولاستطاع الواحد منهم أن يعمل في الهيئة تحت الاشراف المباشر على ما هو عليهِ من الانحطاط الفكري . والحق يقال ان « الدكتورة ماري منتسوري » لها فضل السبق فيما ذهبت اليهِ من طرائق علاج أمثال هؤلاء الاحداث فلقد نقضت عمليًّا نظرية « الطفل » التي على أساسها تقوم مدارس الاطفال والتي لم تكن الآ نظرية خيالية « كما قررت » على انها أقامت نظريتها على دعائم مراقبة كل طفل وبحثه منفرداً فكان لهذه النظرية المثل الاعلى في علاج الاطفال وتربيتهم لا سيما ضعاف العقول منهم

ولقد اتضح جليًّا كما استقرَّ عليهِ رأي الباحثين ان تعليم هؤلاء الاطفال « ضعاف العقول » ليس من المهم في شيء لمستقبلهم الصحي والخلقي والنفسي خيرٌ من الاهتمام بتثقيفهم وتعليمهم « فان أهمية التربية عقلية كانت او نفسية مقدمة على أهمية غيرها والواجب ان يتبعها التعليم لا أن تتبعهُ » (انظر التقرير العام للاستاذ الدكتور كلاباريد ص ٧)

***

على أننا اذا ما قابلنا نتيجة امتحان ضعاف العقول في المطالعة مثلاً بنتيجة أضعف الاطفال من العاديين في الفرق الاخرى اتضح لنا جليًّا انهُ حتى المتقدمين من الفرق الراقية من بين أحداثنا المشار اليهم لا يكونون متفوقين على من يكونون ضعفاء في « المطالعة » في الفرق الاولى من المدارس العادية

وأن ما علينا من الواجبات نحو أمثال هؤلاء وما يدعونا اليهِ البحث وتقرير ما ينبغي ان يكون عليهِ النظام المدرسي الجيد يجب ان نقدر ما يلزم لكل من هؤلاء ضعاف العقول وما هو في حاجة ماسة اليهِ

ولا وسيلة لهذا أنجع من ان نبادر الى علاجهم علاجاً عقليًّا في معهد أقرب ما يكون شبهاً بمستشفى الامراض العقلية لا في معهد تأديبي

ما ينبغي ان يكون عليه معاهد ضعاف العقول

وانهُ ليخالج صدري وجوبُ العمل على انشاء امثال هذه المعاهد بمصر لما لها من جليل الآثار وعظيم النتائج التي تجلت في مختلف البلدان الراقية التي عنيت بشأن أمثال هؤلاء الاحداث ضعاف العقول

الغرض الرئيسي — الموظفون

ان من أوليات أغراض انشاء مثل هذه المعاهد ان تكون أداة علاج عقلي باعث للحياة العملية الشريفة في نفوس الاطفال عاملاً على تعويدهم ضبط النفس بكل الوسائل المستطاعة

وتحقيقاً لهذه الغاية يتعين ان يكون في مقدمة الاصلاح بهذا المعهد العمل على علاج الاطفال عقليًا بوساطة اخصائي في الامراض العقلية يعاونهُ طبيب خبير في علم النفس يعاضدهما عن كثب مدير المعهد الذي يجب ان يكون حائزاً للمؤهلات الفنية ذا تجارب واسعة وشخصية بارزة يقدر المسؤولية حق قدرها كفيلاً بتنفيذ ما تشير اليه طرق العلاج وان يتصدى للتعليم فيه مدرسون حائزون للمؤهلات الفنية العلمية وعلى جانب عظيم من الخبرة والحزم وسموّ الاخلاق ليكونوا قدوة حسنة ومثلاً عالياً

مناهج التعليم والاشغال اليدوية

١ — نرى ان يكون الاهتمام بالاشغال العملية قسطاً وفيراً من التكوين من حيث : — المحادثة — اللعب — العمل — الخط — الرسم — الصوت «الغناء»

٢ — كما للاعمال العقلية بمقدار ما تتسع لهُ مداركهم وفقاً لرأي الاخصائيين ممن يتولون علاجهم من حيث القراءة والكتابة والحساب

٣ — الاشغال اليدوية — يجب ان تكون منوعة الاغراض الى حد ان تشبع رغبات الاطفال مع ما يتفق وحالتهم العقلية من حيث السهولة والتشويق . على اننا نشير اذا ما صادف هذا قبولاً بان يأخذ بالاعمال الآتية

١ — للذكور : فلاحة البساتين — الزراعة — صنع الاحذية — الحياكة — النجارة — النسيج — صنع السجاد (الطنافس) — صناعة الجلود — عمل الفراجين — عمل السلال — الكراسي القش

٢ — الاعمال الآتية أنسب للبنات وأليق بهنّ — الكي — الغسيل — فلاحة البساتين —

النسيج — صنع السجاد (الطنافس) — اشغال الابرة — صنع الدنتلة — الرفي — الجلود — عمل السلال — عمل الفراجين

الزمن الدراسي ومتوسط عدد التلاميذ بالفرق

من المقرر ان زمن انتباه الطفل قصير محدود ولما كنا نعالج طائفة من الاطفال ضعاف العقول نرى ألاّ يزيد الزمن الدراسي في اليوم على خمس ساعات على ان تكون مدة السنة الدراسية لا تعدو عشرة اشهر حتى يكون هناك متسع من الوقت للرياضة البدنية والعلاج العقلي . والالعاب كالعاب على اختلافها تكسبهم الفائدة العقلية التي تعمل المعاهد على تحقيقها

هذا مع اننا نشير الى ان يكون بكل فرقة عدد من الاطفال يتراوح ما بين عشرة وخمسة عشر

التأديب بالمعهد

ان ماضي خبرتنا بأمثال هؤلاء يشجعنا كثيراً على أن نقرر ان استعمال العقوبات البدنية مما يكون سبباً قويًّا في اضطراب اعصاب امثال هؤلاء الاحداث بل يزيدهم هياجاً وتمرداً ونرى ان خير الوسائل لذلك ان يكون النظام التأديبي مؤسساً على العلاج العقلي والنفسي وتقويم الاخلاق

وحريٌّ بنا ان نعرض الى ما قرره الاستاذ الدكتور « هنري جودار » H. Goddar الذي ظلَّ سنوات عديدة رئيساً للبحث العلمي العملي للاحداث المجرمين في ولاية « اوهيو » Ohio بالولايات المتحدة الاميركية في مؤلفه « الجريمة عند الاحداث » ص ٣ ما ترجمته « وها نحن اولاء كدنا نصل الى ذلك اليوم الذي يثبت فيه ان للامراض على اختلافها جسمية او عقلية أثرها البين في ارتكاب الجرائم ضد الجماهير الهادئة الآمنة ولو وفقنا الى فحص الحالات العقلية والجسمية لجميع الناس لتبين لنا ان الذين في حالات غير طبيعية هم ادنى الى اقتراف الجرائم ممن سواهم وتلك حقيقة لا تحتمل الشك والريبة »

ولقد برهنت المباحث العلمية العملية على ان عقلية هؤلاء الاحداث غير طبيعية في تكوينها وربما كان بهم مسٌّ من الجنون وإن هذا يتجلى لكل من كان ذا خبرة واسعة وملاحظات دقيقة عن حالات امثال هؤلاء الاطفال ضعاف العقول الذين يقترفون أبلغ الجرائم بدون قصد او سابق تفكير

ولعلي اكون قد ألمعت في مقالي هذا الى ما ينبغي نحو احداثنا المهملين وصغار المجرمين ضعاف العقول وما يجب ان نسلكه من طرق الاصلاح والوقاية توصلاً للغاية السامية والمرمى النبيل في خدمة الانسانية وصوناً للهيئة الاجتماعية مما عساه ان يلحقها من الآثام والخسارة الجسيمة مما يكون في الامكان تلافيها

ﷲ

الطفل المتأخر (١)

في « مؤتمر الطفل » الذي عقدته رابطة الاصلاح الاجتماعي في القاهرة في السنة الماضية برئاسة رئيسها حضرة صاحب المعالي احمد نجيب الهلالي بك وزير المعارف الآن القى معاليه خطبة الافتتاح فقال فيها: « وها انتم اولاء ترون حالة الاطفال في بلادنا. فسواد الامة يجهلون تمام الجهل كيفية تدبير الطفل وطرق تمريضه وتغذيته وتنميته وتقويته ووقايته عوامل العلل والضعف والاطفال الذين يسلمون من الموت يحيون حياة ناقصة من حيث الجسم والحيوية ومن حيث العقل والروح. وكل أمة تهمل شأن الاطفال الى هذا الحد تنتحر انتحارا قوميا وتكون عرضة للضعف والاقواء »

وهذا كلام موجز بليغ في مكانة الطفل السليم في المجتمع ومن حسن الحظ ان اتيح لمصر عقد هذا المؤتمر للدلالة على نواحي المشكلة التي يجب ان تعالجها اقلام المختصين بها ومن حسن الطالع ايضا ان معالي الداعي الى هذا المؤتمر ورئيسه اصبح اليوم وفي يده مقاليد التربية جميعا وليس عندنا شك في أن معاليه سيبذل ما في وسعه ووسع الوزارة التي يتولاها لوضع قواعد الاصلاح اللازم والسعي الى تحقيقها. ومن محاسن الاتفاق انه في اليوم الذي تولى معالي الاستاذ احمد نجيب الهلالي بك وزارة المعارف تلقينا من انكلترا كتابا في «الطفل المتأخر»(١) واسباب تأخره واساليب اصلاحه وعلاجه بقلم الدكتور سيريل برت استاذ علم النفس في جامعة لندن فاتجه فكرنا الى مؤتمر الطفل عندنا في السنة الماضية لان جميع الذين خطبوا فيه عالجوا بعض النواحي التي يتوسع فيها هذا الكتاب ويبسطها بسطا وافيا

لمؤلف هذا الكتاب كتاب سابق عالج فيه الطفل الآثم delinquent أي الطفل الذي فيه شذوذ وضعف خلقي. أما كتابه هذا فقد عالج فيه الطفل المتأخر من الناحية العقلية. وهو يحتوي على أهم النتائج التي توصل اليها من حيث طريقة البحث واسباب التأخر واساليب الاصلاح والعلاج واضاف اليها كذلك احصاءات واسعة النطاق جمعها هو والمشتغلون معه خلال تنقيبهم في منطقة لندن عن ظاهرة التأخر العقلي بين اطفالها. وما على القارىء الا مطالعة فهرس الكتاب حتى يعرف مبلغ الجهد الذي بذل في وضعه ثم اذا قلب فصوله وأنعم النظر في اجزائها ثبت له ان الاسلوب الذي جرى عليه المؤلف علمي محض مرتب احسن ترتيب علاوة على كونه يشمل اهم ما وصل اليه الباحثون في هذا الموضوع مضافا اليها نتائج الباحث نفسه. وقد خصص المؤلف الفصل الاول من كتابه للتفريق بين الطفل الذي نشأ تأخره العقلي عن شذوذ في جسمه اوذهنه او انفعاله ثم بين الشذوذ الفطري والمكتسب وان النقص في الذكاء والتأخر في الدراسة يعودان الى اسباب جسمية فالى اخرى عقلية او انفعالية وقد يكون ذلك نتيجة للوراثة او للبيئة او لكليهما. ثم هناك عوامل ثانوية كاحوال المدرسة التي يتلقى الطفل دروسه فيها

---

(١) The Backward Child, by Cyril Burt, University of London Press 20

وقد عقد المؤلف للاسباب الجسمية ستة فصول فيها لباب الكتاب فعالج اولاً ما يصاب به الطفل منها في اثناء نموه كالنقص في نموه نمواً كافياً طولاً اووزناً او تكلساً في العظام ثم عالج الضعف في الصحة العامة كنقص الغذاء والكساح والتقوس في العمود الفقري والشذوذ في تركيب الحلق وما يصاب به من الامراض وما الى ذلك مما يتعلق بالاسنان وبالصداع والغدد

ثم انتقل الى علاج الضعف في احوال او اعضاء خاصة مما قد يعرقل العمل المدرسي كالضعف في العينين والاذنين فما يتعلق بجهاز الحركة في الجسم كقوة العضلات واخضاعها للعقل ودقة الحركة وسرعتها . وفي هذا الباب من البحث افرد فصلا خاصا للطفل الاعسر هو آية من آيات البحث الدقيق نظراً وعملا . وكذلك الفصل الذي يتعلق بالنطق وما يصاب به الطفل من تعسر النطق السليم ونواحي هذا العسر والوانه وأسبابها وطرائق معالجتها

وبعد الاسباب الجسمية التي تؤخر نمو الطفل العقلي بحث النواحي العقلية نفسها فحدد الذكاء وأساليب قياسه والناحية الوراثية فيه وآثاره في التربية وفي الاجتماع وما قد ينطوي عليه الطفل البليد احياناً من عبقرية كامنة بطيئة الظهور . ثم عالج نواحي خاصة لها مكانتها وتأثيرها في ذكاء الطفل كادراكه الحسي وقدرته على الملاحظة وتحليل الاصوات التي تطرق سمعه والانتباه والذاكرة والشعور والتفكير . ويلي ذلك فصل في مكانة الناحية الانفعالية في قدرة الطفل العقلية وما تصاب به من نقص كالقلق الانفعالي وسرعة التأثر والتهيج وشدة الاحساس والنزعة الى الانكبات والاحوال العصبية الشاذة

في كل فصل من هذه الفصول بل في كل فقرة منها يستمد المؤلف الحقائق من بحوث جمهرة العلماء الذين عالجوا هذا الموضوع ومن بحثه الخاص بين الاطفال المتأخرين في منطقة لندن . فالكلام علمي دقيق سواء أمن ناحية التحليل النظري اخذته ام من ناحية التطبيق العملي حتى يصح ان نقول ان هذا الكتاب «دائرة معارف» جامعة لكل ما يتعلق بالطفل المتأخر العقل من ناحية تشخيص الحالة الشاذة ومن ناحية اصلاحها وعلاجها معاً ، فهو مما لا تستغنى عنه الام المهذبة ولا المشتغلون بتربية الاطفال

هذا ولا يسعنا ان نختم هذا الفصل الموجز في هذا المؤلف النفيس قبل ان نشير الى عناية معهد التربية عندنا بهذه الناحية من حياة الطفل المصري في عيادته السيكولوجية ومهمتها البحث في الطفل من جميع وجوهه ومعرفة نواحي شذوذه وهل هي راجعة الى العقل او الحس او الخلق ويبحث القائمون بهذه العيادة في بيئة الطفل اذ قد يكون لحياته المنزلية تأثير فيها فتسعى العيادة الى علاج المنزل نفسه . وهذا عمل عظيم الشأن ولكنه لا يزال ضيق النطاق بحكم الطبع ولا ريب عندنا في ان معالي وزير المعارف الجليل سيوجه جانباً من عنايته الى هذه الناحية من نواحي التربية عندنا فتطبق القواعد المسلم بها في تربية الشواذ من الاطفال لكي يتاح لهم ان يتلقوا نوع التعليم الذي يؤاتيهم . ولا غرو فقد قال معاليه في افتتاح مؤتمر الطفل في السنة الماضية «وتربية الاطفال في حاجة الى تعاون العلم والطب والاخلاق والقانون وهيهات ان يتيسر للسواد الاعظم تدبير الاطفال من غير معونة الحكومة وجماعات الاصلاح من طريق التشريع والبذل والعناية »

باب الأخبار العلمية

صلة فيتامين (D) بمركبات عضوية عجيبة

العلماء يقولون انهُ تسعة انواع

اذا شبهنا علم الكيمياء بوجه عام بحرج كانت التربة التي تعيش فيها اشجاره والجو الذي يحيط به مايعرف بالكيمياء غير العضوية. وكانت الاشجار نفسها ما يعرف بالكيمياء العضوية. ففي هذه الحالة تمثل اغصان كل شجرة مركبات عضوية مختلفة تشترك في تركيبها الاساسي وهذا التركيب الاساسي ممثل في جذع الشجرة نفسها

تدعى احدى هذه الاشجار «ديوليفين» Diolefin وغصونها هي المادة الملونة الحمراء في الطماطم والصفراء في الجزر والبنفسجية في بعض الازهار. ومنها ايضاً المواد العطرية في الليلج (عيسى) والليمون وابرة الراعي وكذلك فيتامين A

وهناك شجرة اخرى في هذا الحرج تدعى «فينانثرين» Phenanthrene ولهذه الشجرة ستة غصون رئيسية منها الراتنج وانوار الشق و«الصابونين» و«الستيرول». فلنقصر نظرنا الآن على الغصن المعروف بغصن «الستيرول»

فقد تقدم البحث في المواد التي يجمعها هذا الاسم تقدماً كبيراً في السنوات الخمس الاخيرة لان احد فروع هذا الغصن هو المادة المشهورة باسم فيتامين D الواقي والشافي من الكساح

اهم المواد التي يجمعها لفظ ستيرول ثلاث هي الارجستيرول الذي في النباتات الدنيا والفيتوستيرول الخاص بالنباتات العليا والكولستيرول الخاص بالحيوانات. وليس ثمة نبات اوحيوان لايحتوي على احد «الستيرولات» بل ليصح القول بان «الستيرول» قد يكون لا مندوحة عنهُ للحياة. فقد لاحظ بعض الباحثين ان مقدار «الستيرول» في الخلايا يقل بتقدم السن. ولذلك يذهب بعضهم الى ان هذه الحقيقة سبيل الى فهم سر الموت وعلى كل حال لاريب في ان هذه المواد ضرورية في تغذية الخلايا. اما الدهن الذي في جلد الانسان فـ ١٩ في المئة منهُ كولستيرول وهو (اي الكولستيرول) كثير في مادة الدماغ والاعصاب. ثم انهُ في دماغ الجنين اقل منهُ في دماغ البالغ

علم الناس بالاختبار ان زيت السمك مقوٍّ للصحة. ولكنهم لم يعلموا حتى عهد قريب ان سره هو وجود فيتامين D فيه. ثم كشف احد الباحثين سنة ١٩٢٤ ان مواد الغذاء الخالية من فيتامين D يمكن توليده فيها بتعريضها للاشعة التي فوق البنفسجي فتصبح فعالة كزيت السمك في منع الكساح والشفاء منهُ. ثم ثبت بالتجربة ان مادة الستيرول في هذه الاغذية هي التي تتحول فيتاميناً بتعريضها للاشعة

وحوالي الوقت الذي عرفت فيه هذه الحقيقة لوحظ انهُ اذا عرضت الخميرة للاشعة التي فوق البنفسجي تولد فيها مقدار كبير من

الفيتامين D . وبعد الحل والامتحان ثبت أن المادة التي تتحول فيتاميناً هي مادة الارجستيرول اي الستيرول الخاص بالنباتات الدنيا

فشرع بعضهم في تربية الخميرة كما يزرع القمح لكي تستعمل في توليد فيتامين D بتعريضها للاشعة ولها الآن في المعامل التي تربى فيها دفاتر تدوَّن فيها فصائلها المؤصلة التي ثبت بالاختبار انها أصلح ما يكون لهذا الغرض

وقد فاز العلماء من عهد قريب ببلورة فيتامين D وهذه البلورات شديدة الفعل شدة لا تكاد تصدق فاذا اخذت ما يملأ خمس ملعقة شاي منها كان فيتامينها (وهي فيتامين تي) كافياً لشفاء اربعة ملايين من الجرذان او بضعة آلاف من الاطفال من الكساح. بل ان اضافة جزء من بليون جزء منها الى غذاء جرذ يؤثر تأثيراً ظاهراً في مقاومته الكساح

ان فيتامين (D) لازم لفراخ الدجاج لزومه للاطفال فاذا خلا غذاء الفراخ منه اصيبت بداء « ضعف الارجل » ولكن بعض الباحثين دهش من بضع سنوات عند ما وجد ان فيتامين D (المولد من ارجوستيرول نباتي معرَّض للاشعة لايفيدها) قدر ما يفيدها فيتامين D من اصل حيواني كفيتامين زيت السمك بل لزم ان يوضع من الاول في غذاء الفراخ مقدار يزيد خمسين ضعفاً على المقدار المستعمل من الثاني للحصول على التأثير نفسه. وكذلك تبين للباحثين ان هناك أنواعاً من فيتامين D تختلف باختلاف مادة الستيرول التي تتولد منها وعندهم ما يبعث على الظن بأن هذه الانواع تسعة

ومن غريب ما روى في هذا الصدد ان الخراطين (ديدان الارض) تكثر فيها مادة يمكن تحويلها الى فيتامين . وكذلك الديدان التي توجد في الدقيق العتيق او الحبوب المدودة

طعم خفي لاسماك الاغوار

تألفت بعثة أميركية برعاية المتحف الاميركي للتاريخ الطبيعي غرضها صيد الاسماك العجيبة التي تعيش في أغوار البحار بجذبها الى شبكة الصياد بطعم خفي هو الاشعة التي فوق البنفسجي

وقد صنعت هذه البعثة كرة خاصة تشبه كرة الاعماق « باتيسفير » التي غار بها الدكتور وليم بيب الى نحو ميلين تحت سطح البحر وهي كرة من الصلب لها منفذان ثبتت فيهما قطعتان من زجاج الكوارتز الكثيف وفي داخلها جهاز لتوليد الاشعة التي فوق البنفسجي قوتها عشرة آلاف فولط وامام المنفذين شبكة خاصة لالتقاط الاسماك التي يجذبها هذا الضوء فتحوم حوله

وقد دلَّ البحث في رحلات علمية سابقة على ان الضوء يجذب أسماك الاغوار البحرية اليه والمنتظر بعد صيد هذه الاسماك حفظها ودراستها من الناحية البيولوجية

والظن الغالب ان هذه الدراسة تسفر عن فهم بعض طبائعها الغريبة . فمن هذه الاسماك مثلاً ما لهُ جهاز مضيء فوق رأسه وضوؤه في البحر يشبه ضوء الاشعة التي فوق البنفسجي. ولعلَّ نشوء هذا المصباح هو وسيلة الطبيعة الى اجتذاب صغار الاسماك الى السمك المضيء لكي يتغذى بها

جائزة نوبل الطبية لمكتشف فيتامين P

نقلت الينا الانباء البرقية ان جائزة نوبل العلمية لسنة ١٩٣٧ منحت للاستاذ البرت سنت جورجي المنغاري جزاء له — فيما نرجح — على اكتشاف فيتامين P المشهور باسم (سترين) نسبة الى ثمار الموالح التي يكثر فيها

وقد سبق لنا ان وصفنا هذا الفيتامين عند اكتشافه فنعيد ما قلناه فيه في جزء يناير من هذه السنة صفحة ١١١ : —

اذا خلا الطعام من فيتامين C أصيب آكل ذلك الطعام بمرض يدعى الاسكربوط. وكانت السفن من قديم الزمان تنقل في مخازنها زجاجات تحتوي على عصير الليمون لان أياماً واسابيع كانت تنقضي قبلما ينزل البحارة الى مرفأ يأخذون منهُ طعاماً يحتوي على هذا الفيتامين فيعوضهم العصير مما يحتاجون اليه وهم لا يدرون تماماً ما هو

والظاهر ان ثمار جميع الموالح تحتوي على هذا الفيتامين . ولكن الفلفل الاحمر المشهور في المجر باسم «باريكا» أغنى النباتات به . ولذلك عمد الاستاذ سنت جورجي احد اساتذة جامعة سفيجد بالمجر الى البحث فاستخرج منهُ فيتاميناً نقيًّا صافياً

من اعراض الاسكربوط نزف الدم في اللثة والبشرة. وفي بعض الاحوال لا يقف النزف ولو استعمل حامض خاص بذلك او لو استعمل فيتامين C نفسهُ. ولكن استعمال عصير الليمون او عصير « الباريكا » لا يخيب في منع النزف . فقرر الاستاذ سنت جورجي انهُ لا بد من وجود شيء آخر في الليمون والباريكا غير فيتامين C وعلى ذلك بدأ بحثهُ بمعاونة اربعة من الباحثين فأفضى الى اكتشاف فيتامين جديد وسمي بحرف P الفرنجي

استخرج الاستاذ سنت جورجي من مقدار من الليمون زنته ٢٠٠ كيلو غرام ماوزنه غرامان من المركب الجديد ولكنهُ خال من أي أثر من فيتامين C ودعاه باسم سترين

وميل البشرة الى النزف مما يمكن قياسه وبالتجربة ثبت ان فيتامين C لا يؤثر في جدران الاوعية الشعرية من حيث ميلها للنزف ولكن الفيتامين الجديد (اي P او سترين) يزيد مقاومتها ولذلك لا ينحصر استعماله في الاسكربوط بل في حالة تصاب فيها البشرة ببقع حمر ناشئة عن ضعف الاوعية الشعرية التي يجري فيها الدم حيث تظهر هذه البقع . فيحقن صاحبها بحقن يختلف مقدارها من ٢٠ مليغراماً الى ٤٠ مليغراماً من السترين فتزول البقع

هذا ما جاء في المقتطف في اول هذه السنة. ومنه يتضح — على مدى ما نعلم — ان الاستاذ سنت جورجي لم يكتشف فيتامين C كما جاء في بعض الصحف لان شرف عزل هذا الفيتامين يعود الى الباحثين « كنغ » وصديقه « وه » بجامعة بتسبرج الاميركية وذلك سنة

١٩٣٢ مع ان باحثين كثيرين كانوا قد اكتشفوا فعل عامل غذائي خفي يمنع الاسكربوط قبلها

وقد ظهر بعد اكتشاف الاستاذ سنت جورجي لفيتامين P (السترين) ان فائدته في النزف الوراثي (الهيموفيليا) كبيرة جدًّا ولا يخفى ان المصاب بهذا المرض ينزف حتى يموت اذا اصيب بجرح داخلي او خارجي

وليس (السترين) العلاج الوحيد الآن للهيموفيليا لان طبيباً انكليزياً اكتشف في السنة الماضية على ما روت التيمس والمورننج بوست نقلاً عن اللانست طريقة لوقف النزف الهيموفيلي بحقن مادة تستخلص من زلال البيض المخلوط ببرومور البوتاسيوم ثم يوضع الخليط في مستنبت خاص على درجة ٣٧ مئوية مدة ثلاثة ايام . وقد جربت هذه المادة تجارب متنوعة أثبتت فائدتها

هل قلب الارض حديد
وحرارته ٣٠٠٠ درجة مئوية ؟

أجمل الدكتور ليسون ادمس القائم بأعمال ادارة المعمل الجيوفيزكي بمعهد كارنيجي الاميركي في وشنطن احدث الآراء في قوام كرة الارض في خطبة علمية حديثة له

قال الدكتور ادمس ان الادلة التي جمعها العلماء من دراسة أمواج الزلازل ومختلف الحقائق التي كشفها علماء طبقات الارض تشير الى ان قوام الارض ثلاث مناطق . في القلب كرة ضخمة قطرها نحو أربعة آلاف ميل وعلى السطح قشرة ثخانتها من ٢٥ ميلاً الى ٣٠ ميلاً وما بين الاثنتين طبقة متوسطة ثخانتها الفاميل

ويؤخذ من دراسة الادلة العلمية القديمة والحديثة ان الكرة المركزية شديدة الكثافة ويعلل ذلك : أولاً بما أصاب مادتها من ضغط المادة التي في القشرة وتقلص كتلة الارض بحيث أصبحت مادة الكرة المركزية محشوكة شديدة الحشك . وثانياً بوجود مادة ثقيلة الوزن فيها يرجح انها فلز الحديد

والباعث على الاعتقاد بأن هذا الفلز هو الحديد ان الحديد رابع العناصر كثرة في صخور القشرة الارضية . وانهُ كثير في الشمس على ما يؤخذ من الدراسات الطيفية وانهُ كثير كذلك في النيازك والرجم

والقول ان قلب الارض يغلب فيه الحديد ليس بالقول الجديد فقد اقترح الجيولوجي الاميركي دانا هذا الرأي سنة ١٨٧٣ وكان الظن قبل دانا ان الارض كرة من الجرانيت ولكن هذا الرأي اهمل الآن

اما درجة الحرارة في الكرة المركزية فقد قال فيها : اننا نعلم انها عالية جدًّا ولكننا لم نتوصل بعد الى تقديرها تقديراً يبعث على الرضا . ولكن اذا بنينا الرأي على اعتبارات خاصة بأصل الارض صح القول ان حرارة مركز الارض من رتبة ثلاثة آلاف درجة مئوية

استطلاع أحوال الجو

بلونات مجهزة بأجهزة عجيبة

صنع العلماء المعنيون بدراسة أحوال الجو وما يطرأ عليه من تقلب في الحرارة والضغط بلونات صغيرة تطلق في الفضاء وحدها وجهزوها بأجهزة علمية دقيقة وأعدوها لكي ترسل من تلقاء نفسها — والبلونات محلقة في الجو — رسائل لاسلكية تنطوي على أنباء الاحوال الجوية في المناطق التي تخترقها البلونات

واستعمال بلونات من هذا القبيل ليس بالامر الجديد ولكن الاجهزة العلمية التي كانت توضع فيها لتدوين احوال الجو كانت تدون ذلك فقط ثم اذا سقط البلون الى الارض ولمت الاجهزة اطلع العلماء على ما دون فيها وبها. ولم يكن من النادر أن تسقط البلونات في البحار او القفار فلا يعثر عليها اصحابها

ولما كانت الحقائق التي يمكن الحصول عليها بهذه الطريقة مما يحتاج اليه علماء الظواهر الجوية لوضع قواعد للتنبؤ بأحوال الجو كان لا بدَّ من استنباط طريقة تمكنهم من الفوز بهذه المعلومات ، والبلونات لا تزال محلقة في الجو . فاستنبطت لذلك الاجهزة الاتوماتيكية ومنها مثلاً مقياس للحرارة يتحرك طرفه على ورق منساب على اسطوانة دائرة . ويتصل بمقياس الحرارة مقياس للارتفاع وكلاهما متصل بطريقة ميكانيكية بجهاز مذيع لاسلكي . ففي اثناء الطيران يتصل انبعاث اشارات لاسلكية من البلون المحلق وهي تدل على الارتفاع والحرارة فيلتقطها الجهاز الخاص على سطح الارض. وهذه البلونات ترتفع احياناً الى علو ١٨ ميلاً او ١٩ ميلاً وبهذا الاسلوب البديع يستطيع اصحابها ان يعرفوا رويداً رويداً اذ يكون البلون محلقاً درجة الحرارة على ارتفاعات تفوق أعلى ما حلق اليه الانسان بالبلون او الطائرة بنحو ثمانية أميال او تسعة

*

من حكم فولتير او من سخرياته

... وأرسل رسول الى ممفيس ليأتي بالطبيب المصري العظيم هرميس فجاء ووراءه حاشية كبيرة وزار زاديج (وهو اسم الرجل الذي اجرى فولتير هذه الحوادث من حوله وظاهر من الكلام انهُ كان مصاباً في عينهِ اليسرى) فقال انهُ لا بدَّ فاقد تلك العين . بل انهُ عيَّن اليوم والساعة التي يقع فيها ذلك الحادث المميت. ثم قال لو ان العين المصابة كانت العين اليمنى لاستطعت ان أشفيها بسهولة ولكن جراح اليسرى لا يمكن شفاؤها

فحزنت بابل قاطبة وندبت سوء مصير زاديج وأعجبت أعظم الاعجاب بعلم هرميس وتبحره

وبعد يومين انفتح الخراج من تلقاء نفسه وشفي زاديج مما ألمَّ بهِ فكتب هرميس كتاباً ليبرهن على ان العين المصابة ما كان يجب ان تشفى ولكن زاديج لم يقرأ الكتاب ..!

القصدير والصناعة الحديثة

القصدير (Tin) من المعادن المحتقرة عند العامة لان الفكر يتجه عادة عند ذكره الى صفائح الحديد المطلية به والقحام وتبييض الآنية النحاسية ولكنهُ عند التدقيق من المعادن الاساسية في صناعات السيارات والطائرات وصناعة الادوات الكهربائية وصناعة حفظ الاطعمة في العلب

ففي كل سيارة ما لا يقل عن سبعة أرطال من القصدير داخلة في تركيب الكريات الصغيرة حول محاور العجلات وفي لحام أجزاء المحرك بعضها ببعض

ثم إن جميع اجهزة التبريد الكهربائية واجهزة التنظيف « بالشفط » الكهربائية وغيرها من الادوات الكهربائية البيتية تحتوي عليه ولا تستغني عنه

ثم انهُ يصلح لطلي انابيب الرصاص والآنية النحاسية والعلب التي يحفظ فيها الطعام. وسر استعماله في هذه الاغراض الصناعية أنهُ لامع لا يكمد ولا يولد مركبات سامة ويسهل صهره وطلي السطوح المعدنية به

ولا يخفى أن قدماء الفينيقيين وصلوا الى سواحل كورنول بجنوب انكلترا في طلب القصدير . فهو معدن قديم عرفت الصناعة الحديثة قيمته العظيمة فاصبح في هذا العصر من المواد التي تتنافس الدول في الحصول عليها

اين يوجد وما مقدار ما يعدن منهُ كل سنة ؟

البلدان التي اشتهرت بالقصدير هي ولايات مالايا وجمهورية بوليفية وجزائر الهند الشرقية الهولندية ومملكة سيام ومستعمرة نيجيريا . فتسعون في المائة من المقدار الذي يستخرج كل سنة من القصدير يستخرج من مناجم هذه البلدان

كان مقدار ما يستخرج منهُ في السنة من خمسين سنة اربعين الف طن فزاد هذا المقدار الى ١٣٠ الف طن قبل الحرب الكبرى حتى في سنة ١٩٢٠ عند ما بلغ سعر الطن منه ٤٢٠ جنيهاً بلغ المستخرج منهُ ١٢٠ الف طن

ثم اضطربت سوقه وتقلبت اسعاره فبلغ ما استخرج منهُ سنة ١٩٢٠ مئتي الف طن ثم في سنة ١٩٣١ بعد مفاوضات دامت اربع سنوات اتفقت البلدان التي يعدن فيها القصدير على تحديد ما يستخرج منهُ

*

مناجم الذهب في آسيا الوسطى

عثر الباحثون الروس على مناجم ذهب في آسيا الوسطى يقال أن الذهب كان يستخرج منها في العصر البرونزي وانهُ لا يزال في الامكان استخراج الذهب منها

أفلام تعليم الكيمياء

يصنع الآن في اميركا عشرة افلام لتعليم الكيمياء

هل يؤثر الحزن في قوة البصر ؟ (١)

في ١٢ ابريل ١٩٣٥ راجعتني امرأة تسمى (خ) حرم الشيخ (ع) ابن الشيخ (ع) من قرية سنكسي التابعة لرشيد آغا من منطقة بشدر بقضاء شار بازار (السليمانية). تبلغ من العمر ٣٠ سنة تقريباً. ففقدت بصرها قبل ستة اشهر من مراجعتها اياي على اثر فقدها ولدها الوحيد وحزنها الشديد عليه واستمرار بكائها

ولدى الفحص وجدتها في حالة تهيج عصبي شديد، مصحوب برعشة دائمة في الاطراف وفي الاجفان، بينما كانت بأتم صحة قبيل وفاة ولدها ومن ثم قد فقدت الشهية وكانت تبكي وتلطم رأسها على الدوام وانقطعت عن الطعام حتى فقدت بصرها فجأة واصبحت في حالة تهيج وحزن شديدين واصابها علاوة على ذلك الارق والصداع. وقد فقدت المصابة في ستة اشهر كثيراً من وزنها. لم اجد في الفحص وتحليل البول تغيرات مرضية مهمة ولم أجد اي تغير تشريحي او حالة غير طبيعية داخل العين سوى ضعف عام وتهيج عصبي مصحوب بالرعشة وزيادة في التنبه وفقدان البصر التام

التشخيص: لم أتردد عند التشخيص في انها قد اضاعت بصرها نتيجة الاضطراب الروحي والتهيج العصبي العام الحاصل من جراء الحزن الشديد

التداوي: اعطيتها مسهلاً شديداً ووصفت لها وصفة مركبة من يود وبرومور مضافاً اليها مقدار كاف من مواد مضادة للتشنجات العصبية ومؤكداً لها بالايحاء انها سوف تشفى قريباً وتعود اليها صحتها وبصرها ولقد أخذت الادوية واستعملتها ثلاثة ايام وعادت اليّ في عيادتي وكانت بحالة هادئة وقد زال عنها الصداع والرعشة والارق. وكل هذه التحسنات لم تكن تهمها ولا تهم زوجها وذويها لان افكارهم كانت متجهة لحل هذا المشكل ألا وهو: هل في الامكان اعادة بصرها ؟! فقلت لها ولذويها اني وفقت الى علاج سيعيد اليها البصر وفي الحقيقة اخذت انبوباً من استريكنين وحقنت نصفه بصدغها الايمن فسرى في ارتعاش شديد في جفنيها وفي جميع جسمها وصرخت قائلة انها احست بلمحة من شعاع النور تشبه البرق قد سطعت امام عينها فهدأتها قليلاً وباشرت حالاً حقن بقية محلول الاستريكنين في الصدغ الايسر وكانت النتيجة عجيبة ومهيجة معاً حيث اصيبت بارتعاش وصراخ شديدين وقد نفضت جسمها من بين ايدينا هاتفة بأنها قد ابصرت النور — وفتحت عينيها فهنأتهم بهذه النتيجة الباهرة. ولقد عالجتها بعدئذ ١٥ يوماً أخرى فعاد اليها النور والصحة من جديد ناسية جميع همومها وآلامها النفسانية شاكرة الباري عز وجل على هذه النعمة العظمى التي ظفرت بها بعد ان كانت يائسة من الحياة ورجعت الى أهلها مع زوجها مسرورة وسعيدة

---

(١) حادثة نادرة رواها الطبيب العراقي الدكتور عيسى نوري الله ويردي

عقار طبي جديد

بين الفائدة والضرر

يذكر قراء المقتطف اننا رددنا في خلال السنة الماضية اسم عقار طبي جديد لهُ فعل عجيب في شفاء بعض الامراض ولا سيما ما كان منها ناشئاً عن طوائف معينة من المكروبات وهذا العقار يعرف بأسماء مختلفة منها « سلفانيلاميد » وهو جزء من اسمه الكيمياوي الطويل . ومنها « البرونتوزيل » اذا أخذ حقناً و « البرونتيلين » اذا أخذ اقراصاً وهما اسمان مسجلان للشركة الالمانية التي تصنعهما وغيرها اسماء كثيرة مسجلة

وقد كان الباعث على اشتهار هذا المركب في أثناء السنة الماضية ان نجل الرئيس روزفلت أصيب في شهر دسمبر الماضي بالتهاب في حلقه كاد يودي بحياته فعولج بهذا العقار الالماني الاصل فشفي منهُ فكثر اهتمام الناس بهِ واشتد طلبهم لهُ وظهرت ادوية مسجلة أساسها هذا المركب الكيمياوي

ولم تقل عناية الاطباء الباحثين بهِ عن الناس عامة وصناع العقاقير الطبية ، فأثبت الطبيبان ديز وكولستون من اطباء مدرسة الطب بجامعة جونز هبكنز الاميركية انهُ ناجع في علاج السيلان وبين الدكتور هلمولتز من اطباء معهد مايو بشيكاغو انهُ يفيد في علاج الحمى القرمزية والتهاب المسالك البولية المعروف باسم « بيليتس » وظهر من بحوث الدكتورين كولبروك وكني بمستشفى الملكة شارلوت بلندن انهُ يصلح لعلاج التهاب الدماغ السحائي والحمرة وحمى النفاس

الاَّ ان بعض صناع العقاقير الطبية اشتغل على ما يظهر باخراج عقاقير مسجلة تحوي هذا المركب لكي يجنوا الربح من شدة اقبال الناس عليهِ من دون ان يمتحنوها الامتحان الوافي فحدثت في مدينة تولسا بولاية اوكلاهوما تسع وفيات نشأت على الغالب في رأي الجمعية الطبية الاميركية من المادة التي تحمل هذا العقار لا من العقار نفسه ومما يؤيد هذا الرأي تجارب جربتها الجمعية الطبية بالحيوانات وان احد المتوفين تناول هذا العقار اقراصاً مدى خمسة عشر يوماً فلم يصب بأذى ثم تحول الى مستحضر مسجل آخر يحتوي عليهِ فمات

ونحن ننقل هذا النبأ الفاجع كما نقلنا انباء « السلفانيلاميد » السارة قبلاً ، لكي يكون القراء على حذر

*

انباء زلزلة تصل قبل موجاتها

في العشرين من شهر اغسطس الماضي حدثت زلزلة في مانيلا عاصمة جزائر الفيلبين فوصلت انباؤها البرقية الى اميركا قبل ان تظهر آثار موجاتها الزلزالية في اجهزة التسجيل الخاصة بالزلزال في المراصد الاميركية



أقطاب الرياضيات

من زينون اليوناني الى بوانكاري الفرنسوي

Men of Mathematics by E. T. Bell—Gollancz of London 12—6

من بضع سنوات أصدر السر جيمز جينز كتابه « الكون الخفي » مبسطاً فيهِ مسائل الفلك الحديث . فلما انتهت السنة التي ظهر فيها وحاول احد النقاد ان يلخص ما تمَّ فيها في عالم المطبوعات قال « ان أهم ما امتازت بهِ السنة الماضية بلوغ الكتب العلمية مرتبة الروايات في اقبال الناس عليها » أو ما هو بهذا المعنى . وكان المقصود بالذات في هذه العبارة كتاب جينز المذكور الذي قال فيهِ « ان خالق الكون أخذ يبدو لنا في وشاح رياضي عظيم »

والواقع ان الاقبال على الكتب العلمية المبسطة كان ميزة بارزة في عالم المطبوعات الاوربية والاميركية في العقد الاخير. ومن حسنات العصر أن جماعة من العلماء من طبقة جينز وادنتن ولودج وملكن وغيرهم اقبلوا على ردم الهوة القائمة بين العلماء المتوفرين وجماعة المثقفين عامة بأقلام رشيقة وقدرة نادرة على تقريب المعاني العلمية العويصة باستعارات وتشبيهات وأمثال تجلو الغامض وتدني البعيد

وليس ثمة شك عند متتبعي العلم الحديث في ان الرياضة أساس العلم وان الارقام لغته ولكن ما يعانيهِ الطالب في المدرسة في سبيل التحصيل الرياضي ينشيء هوة بينهُ وبين هذه اللغة الدولية التي تتخطى الحدود السياسية والحدود التاريخية في آنٍ واحد . فكل ما يساعده على الشغف بها وفهم قواعدها يدنيهِ من فهم أصول العلم الحديث ويخلق فيهِ ذلك الشوق الى تتبع مراحله

ولسنا نعرف سبيلاً أقوم الى ادراك هذا الغرض من معالجة اقطاب العلوم من ناحية ما تتجلى فيهِ عبقريتهم في اثناء بحثهم عن الحقيقة وما يعانونه من شقاء وألم وجحود وكيف يتغلبون على جهل البيئة والميل الى المحافظة على القديم والتنكر للجديد وما يتصف بهِ خلقهم على الغالب، من السجايا الروحية العالية كالصبر والصدق والاخوة. لذلك كانت الكتب التي تشتمل على فصول في سير العلماء وتراجمهم من أمتع ما يطالعه القارىء ومن خير الاساليب التي يعمد اليها المعلم في تمهيد طريق الشغف بالعلم لطلابه

ومع اننا اطلعنا في العشر السنوات الماضية على طائفة من الكتب التي وعت الى تراجم معظم علماء الفلك والطبيعة والكيمياء والاحياء لم يتح لنا قبل الشهر الماضي ان نطالع كتاباً حوى سير

اقطاب الرياضيين في جميع العصور . ذلك الكتاب هو « اقطاب الرياضيين » واسمهُ الانكليزي مدون في عنوان هذا الفصل . ومن حسناته البارزة ان كاتبهُ عالم رياضي من الطبقة الاولى واستاذ للرياضة في معهد كاليفورنيا التكنولوجي وكان قبلاً رئيساً للجمعية الرياضية باميركا ووكيلاً لمجمع تقدم العلوم الاميركي

وفي وسعنا ان نقول بعد مطالعة فصوله كما قال الاستاذ كيزر رئيس قسم الرياضة بجامعة كولومبيا ان معلماً للرياضة لا يستغني عنه. واما قارئهُ فلا يجب ان يكون رياضياً لكي ينعم بما فيهِ . فهو وثيقة للعبقرية الانسانية وليس ثمة ريب في انه وسيلة من وسائل التثقيف العام

الكتاب واسع النطاق تمتد فصوله من زينون اليوناني في القرن الخامس قبل المسيح الى بوانكاري الفرنسوي في القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين وبين هذين العالمين سير اثنين وثلاثين عالماً من اكبر علماء الرياضيات في التاريخ والمجموع اربع وثلاثون سيرة غنية بآيات العبقرية والابداع الفكري . ثلاثة من اليونان واثنا عشر من الفرنسيين وثمانية من الالمان وخمسة من الانكليز وستة من السويسريين والروس وغيرهم

على ان هؤلاء الاقطاب كانوا علاوة على ما اتصفوا بهِ من آيات العبقرية الرياضية ، رجالاً يحسون ، فيحبون ويكرهون وتتنازعهم تيارات عهودهم السياسية والاجتماعية . فآبيل النرويجي مات جوعاً وجالوى الفرنسي قتل في مبارزة وبوانكارى كان يكفيه ان يقرأ كتاباً مرة واحدة قراءة سريعة حتى يغدو ذلك الكتاب جزءاً من ملكه العقلي وكان في استطاعتهِ دائماً أن يشير اليهِ معيناً الصفحة والسطر . وكرونيكر الالماني اشتغل بالاعمال المالية حتى بلغ الثلاثين فأصاب نجاحاً عظيماً ثم وقف حياته على الرياضيات فبلغ فيها شأواً بعيداً

ليس غرض المؤلف ان يكتب تاريخاً للرياضيات وزعم في مقدمتهِ ان ما يتعلمه الطالب في المدارس الثانوية من قواعدها كاف لفهم ما تنطوي عليهِ هذه السير من مآثر اصحابها العلمية ولاسيما لان هذه المآثر مبسوطة بسطاً يقبله العالم ويستسيغه عامة القراء. ثم انهُ مقرون بحياة الرجل وحالة عصره واشهر ما يروى عنه مزجي اليك في اسلوب يستهويك

فتحنا الكتاب اتفاقاً ونحن نكتب هذه السطور فانفتح عند الصفحة ٣٦٧ وهي خاتمة الفصل عن آبيل النرويجي الذي مات جوعاً والذي كتبت اليهِ خطيبتهِ يومين بعد وفاتهُ (وهي لا تعلم بها) إن المساعي المبذولة في سبيله قد نجحت وانهُ سيعين استاذاً للرياضة في جامعة برلين !

ثم فتحناهُ ثانية فانفتح عند الصفحة ٢٥٠ فاذا هي بدء الفصل عن (جوس) الالماني وعنوانه « امير الرياضيين » وفي مستهلّه ان ارخميدس ونيوتن وجوس في طبقة على حدة بين كبار الرياضيين وليس من شأننا نحن ان نفاضل بينهم وقد أثار كل منهم موجة عظيمة في الرياضة النظرية

والتطبيقية . فكان ارخميدس يقدم مباحثهُ الرياضية النظرية على التطبيقية. وبدا لنيوتن انهُ وجد المسوغ لمكتشفاته الرياضية العالية في المنافع التطبيقية التي استعملها . اما جوس فكان يقول ان لافرق عندهُ بين الاشتغال بالناحية النظرية او الناحية العملية ولكنهُ مع ذلك توج الحساب العالي — وقد كان في ايامهِ اقل فروع الرياضة تطبيقاً — ملكاً عليها جميعاً

بهذا الاسلوب البارع الناشيء عن الاطلاع الواسع والتأمل العميق والرشاقة في استعمال القلم يسوق الاستاذ « بل » سير هؤلاء العلماء . ونحن لسنا في حاجة الى تعديد ما ترجم في هذا النطاق الضيق لنبين مكانتهم في ترقية المعارف الانسانية . ولو شئنا ان نبين مكانة الرياضة في تاريخ الفكر لترجمنا عشرات من الاقوال المسندة الى كبار العلماء والفلاسفة افتتح بها الاستاذ « بل » كتابه . ومن محاسن الاتفاق ان لمصر نصيباً في هذا الكتاب وان كان اجنبيًّا عنها . فبين العلماء الفرنسيين الذين افرد لهم المؤلف احد فصوله عالمان هما مونج وفوريه بعنوان « صديقا الامبراطور » وهو يقصد نبوليون بونابرت لانهما كانا في الحملة الفرنسية التي جاءت مصر في أواخر القرن الثامن عشر واعضاء لجنة العلوم والفنون والمعهد المصري الذي انشاه فيها. خلّف أولها الهندسة التحليلية وبدأ ثانيهما تلك الناحية الجديدة في علم الطبيعة المعروفة بالطبيعة الرياضية عند ما قام بمباحثهِ الخالدة في انتقال الحرارة

ومما يؤسف لهُ ان ليس فيه فصل لاحد رياضي الاسلام الذي كان لهم يد عظيمة في نقل التراث القديم الى اوربا بعد الاضافة اليه اضافات جمة

هذه لمحة من كتاب أخاذ مفيد لا نرى عذراً لاحد مدرسي الرياضة في الاستغناء عنهُ لانهُ يمكن المدرس من ان ينفخ في هذا العلم روحاً حية تجعل الطلاب شغوفين بهِ وغني عن البيان ان الشغف سبيل الاجادة والاتقان

محاورات أفلاطون

نقلها عن الانجليزية زكي نجيب محمود ، ونشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر في ٣٠٢ صفحة من القطع الوسط

يوالي الاستاذ زكي نجيب محمود اتحاف العربية بالآثار الطيبة في فروع الفلسفة فقد اخرج للناس بالاشتراك مع الاستاذ احمد امين منذ سنوات « قصة الفلسفة اليونانية » واخرجا اخيراً « قصة الفلسفة الحديثة » كما اخرج بمفرده هذه المحاورات الاربع التي نقلها بنيامين جويت الى الانجليزية لان افلاطون صوّر فيها استاذه سقراط كما كان في حياته سائلاً مجاوباً محاوراً في سخرية لاذعة

ففي « أوطيفرون » — الحوار الاول — نرى سقراط المعلم يثير في تلاميذه حب البحث

في معاني الاحكام التي يرسلونها ارسالاً عن ايمان ساذج غرير في مسائل الاخلاق . وفي « الدفاع » — الحوار الثاني — نرى سقراط يبسط لقضاته طبيعة الرسالة التي كلفتهُ الآلهة أداءها مهما لقي في سبيلها من الاذى من ذوي السلطة والنفوذ . وفي « أقريطون » — الحوار الثالث — يمثل لنا افلاطون حياة استاذه في السجن وقد جلس الى جانبه صديقه اقريطون يستحثه على الهرب قبل أن ينفذ فيهِ الحكم بالموت فيأبى على نفسه ذلك وقد أراد افلاطون بهذا ان ينفي عن استاذه تهمة الخروج على قوانين الدولة وان انتظاره للحكم ورفضه الهروب على ما فيهِ حياته انما هو اذعان لقانون الدولة ورغبةً منهُ في الحرص على ان لا يحنث في عهده حين تعاقد مع الدولة على الاَّ يقترف في حياته ما من شأنه ان يضعف سلطانها . . . وفي « فيدون » — وهو الحوار الاخير — يدور البحث بين سقراط وتلاميذه حول خلود الروح وهو اروع هذه المحاورات وفيها مظاهر لتدرج الفلسفة السقراطية حتى بلوغها مرتبة المثالية الافلاطونية في تمامها وكمالها

اخبار ابي تمام

تأليف ابي بكر محمد بن يحيى الصولي — نشره وحققه وعلق عليه خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الاسلام الهندي — وتولت طبعه لجنة التأليف والترجمة والنشر في ٣٤٠ صفحة من قطع المقتطف

ابو تمام امير من امراء العصر العباسي خرج لاهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليهِ وساعد في ذلك وجود البحتري فناصره الناس وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل ابي تمام وتعمقه وطالت الخصومة وكسب الادب منها ما كسب من كتب النقد ، وكان مما كسبه كتاب الصولي الذي اراد بهِ الانتصار لابي تمام على كتاب الآمدي « الموازنة بين ابي تمام والبحتري » الذي ناصر فيه مؤلفه البحتري . وقد قدم الصولي كتابه برسالة طويلة الى ابي الليث مزاحم بن فاتك يشرح له فيها الدواعي التي دعتهُ الى تأليفه ويقول فيها : « وترى بعد ذلك قوماً يعيبونه ، ويطعنون في كثير من شعره ، ويسندون ذلك الى بعض العلماء ، ويقولونهُ بالتقليد والادعاء ، اذ لم يصح فيهِ دليلٌ ، ولا اجابهم اليهِ حجة ، ورأيت مع ذلك الصنفين جميعاً ، وما يتضمن أحدٌ منهم القيام بشعره ، والتبيين لمراده ، بل لا يجسر على إنشاد قصيدة واحدة لهُ ، إذ كانت تهجم — لا بدَّ — بهِ على خبر لم يَروِه ، ومثلٍ لم يسمعهُ ، ومعنى لم يعرف مثله . فعرَّفتُك أن السبب كما ذكرتُ ، وتضمنت لك شرحَ ما وصفتُ ، حتى لا يعارضك شك فيهِ ، ولا يخامرك ريب منهُ . فرأيتُ من سرورك بذلك ، وارتياحك اليه ، وصبابتك بهِ ، ما حداني على استقصائه لك والتعجيل بهِ عليك ، وإهدائه في رسالة اليك ، تتبعها اخباره كاملة في جميع فنونه : في تفضيله ، وذِكرِ مَنْ عرفه فقدَّمهُ وقرَّظهُ ، والاحتجاج على مَنْ جهله فأخّره وعابهُ ، ومع مَنْ كان يمدحهُ ويراسله وينتجعهُ طارئاً اليهِ ، واذكر جميع ما قيل فيهِ

وان كان قصدي تبيين فضله والرد على من جهل الحق فيه فأضعف لذلك سرورك ، وزاد له نشاطك . . . »

ولقد قدر لهذا الكتاب بعد ان ظل مطويًّا كل هذه الحقب — ان يتولى ناشروه امر اخراجه للناس فأحسنوا الاخراج والنشر على الطريقة التي يخرج بها المستشرقون الكتب من ضبط ومقابلة على مختلف النسخ وذكر ذلك مع رقم الصفحات في كل مرجع مالوا اليه وشرح غريب ما ورد فيه مع الدقة في التصحيح ، وفي الحقيقة انها عناية يجدر بالناشرين مراعاتها فيما يخرجون للناس من تحف الادب العربي

تبسيط اللاسلكي

تأليف محمد عاطف البرقوقي — مفتش العلوم الطبيعية بوزارة المعارف

طبع بمطبعة المعارف بمصر — صفحاته ٢٦٢ قطع المقتطف

لسنا في حاجة الى تعريف الأستاذ محمد عاطف البرقوقي الى قراء المقتطف . فقد سبق ان طالعوا له فصولاً في العلوم الطبيعية تدل على التعمق في العلم وتتبع ارتقائه الحديث وقدرة على تصوير المعاني العويصة في استعارات وتشبيهات تقربها الى الذهن . ولا غرو فقد طلب العلم الطبيعي الحديث على اساطينه في انكلترا وتخرج من جامعة برستل حائزاً درجة الشرف . وبعدما تقلب في تدريس العلوم الرياضية في مدارس الحكومة المصرية عين مفتشاً لها اعترافاً بكفاءته وخبرته

وهذا الكتاب الذي بين ايدينا الآن من بواكير تواليفه العلمية . وقد قرن فيه العلم بالعمل فأخرج بذلك سفراً لا يستغني عنه مثقف او مثقفة ممن يقتنون أجهزة الالتقاط اللاسلكية ولا يكتفون بالاصغاء الى ما يذاع ، بل يحفزهم العقل والتوق الى تفهم اسرار هذا الجهاز الذي يلتقط من الفضاء أغاني واناشيد واحاديث وعظات ، كأن فيه عصا الساحر ، تخلق الاشياء من العدم . وليس الساحر إلاَّ العلم الحديث في مجموعه ، وعلم الامواج وتوليدها وإطلاقها في الفضاء والتقاطها منه بوجه خاص

كيف تولد هذه الامواج ؟ وكيف تطلق في الفضاء مطبوعة بطابع المنشدين والمحدثين والوعّاظ ، وكيف يلتقطها الجهاز اللاقط امواجاً ويحوّلها كلاماً مفهوماً وأغاني مطربة ؟ ومن اصحاب العقول الذين تدرجوا في فهم هذه الاسرار واستنبطوا الوسائل لتطبيقها ؟ وما القواعد التي يجب ان تراعيها عند شرائك جهازاً لاقطاً ، وكيف تصلح بعض ما يصيبه من خلل من دون ان تستدعي الكهربائي المختص ؟

جميع هذه المسائل وعشرات غيرها ، يبسطها الاستاذ البرقوقي اوفى بسط ، شارحاً الحقائق

الطبيعية والكهربائية والارشادات العملية بلغة علمية سهلة معتمداً على عشرات بل مئات من الرسوم في تقريب الصور من ذهن القارىء . ولا نقول ان الكتاب يقرأ كما تقرأ رواية بوليسية ، ولكن تقدم العلوم والفنون اللاسلكية ينطوي على ما يثير في النفس معاني العجب والاعجاب ، على وجهٍ يغري بالفهم ، وقد اصبح لهذا الضرب من السحر الجديد اوثق صلة بالاجتماع البشري وثقافته وسياسته ، بحيث لا يستغني مثقف او مثقفة عن تدبر اصوله وأساليبه

وقد تدرّج المؤلف في تبسيط اللاسلكي تدرّجاً علمياً في أبوابه المتتابعة من طبيعة الكهرباء والصوت والامواج اللاسلكية ، الى تاريخ اكتشافها ، الى وصف محطة الاذاعة وأجهزتها ، الى الاجهزة اللاقطة او اجهزة الاستقبال وتركيبها وأنواعها ووظائفها، جامعاً بين العلمي والعملي في كلٍّ منها . حتى إذا شاء القارىء ان يركب جهازاً بلوريًّا بنفسه أو جهازاً ذا صمّام أو أن يختار جهازاً لشرائه وجد في الصفحة ٩٦ والصفحة ١٥٩ والصفحة ١٥٦ والصفحة ٢١٥ كلَّ ما يهمهُ في هذا الصدد

وغنيٌّ عن البيان ان الكتاب وقد طبع بمطبعة المعارف خرج متقناً كلَّ الاتقان

اناشيد دينية

خطوة موفقة في عالم الادب والفن والشعر والموسيقى والدين يخطوها الشاعر محمود ابو الوفا قدم الى ابناء العروبة والاسلام المجموعة الاولى « من اناشيد دينية » رفعها الى سدة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الاول ، راجياً في تحليتها باسم جلالته ان تنال عند الله ثوابها المأمول من حسن القبول

وتشتمل هذه المجموعة على عشرة اناشيد مفتتحة بالنشيد الديني للملك الصالح «فاروق الاول» ويليه اناشيد الله ، الصلاة ، الصيام ، الزكاة ، ليلة القدر ، الحج ، الهجرة ، مولد النبي ، الاسراء ، العروبة

وعنيت مطبعة مصر بطبع المجموعة على ورق صقيل مغلف بغلاف فني ، محلى بصورة الكعبة الشريفة . والشاعر أبو الوفا معروف بشعره الرشيق . وقد تجلت الرقة والذوق في اناشيده الدينية المبتكرة . ولكل نشيد ضرب خاص من بحر خاص ووزن خاص وقافية خاصة . وقد راعى في الاناشيد كلها تجريدها من الالفاظ التي يعسر على العامة بل والخاصة فهمها . فاذا حفظوها وكرروها ، فانما يرطنونها بدون ان يدركوا معناها ومغزاها . والامثلة لدينا اكثر من ان تعد في الاناشيد الوطنية التي لم يفلح منها شيء . ويحفظها ابناء المدارس بالكرباج . وينشدونها وهم بعيدون عن اغراض ناظميها بعد الارض عن السماء

اسمع ما يقولهُ ابو الوفا في نشيد الملك الصالح :—

تعـيش يا فاروق تحمي حمى الاسلام
تعيد روح السلام في عهد خير الانام
تعيد عهد الكرام من صحبهِ الاعلام
تعيـد مجد الدين في أمة المسلمين .
تعيش تعيش تعيش

وما يقوله في نشيد الصلاة :

حينما يشدو المؤذن قائلاً : الله أكبر
عندها الرحمن يأذن والجلال الحق يظهر
تفتح الجنات تهبط الرحمات تخشع الافلاك
من صدى الله اكبر

أعجب الاستاذ الاكبر شيخ الازهر المعمور بأناشيد ابي الوفا . فابتاع منها الف نسخة من جيبه الخاص لتوزيعها على صغار الطلبة في المعاهد الدينية والاولية

وشجعت شركة الراديو أبا الوفا . فعهدت الى أحد ملحنيها تلحين اربعة اناشيد ، يغنيها الآن فريق من التلاميذ وتذيعها الشركة في بعض الليالي فيسمعها الملايين من العرب المسلمين في مصر والبلاد العربية التي يصل اليها صدى الراديو المصري

وقد لا تمضي أيام حتى يتم تلحين الاناشيد كلها وتطبع ملحنة بالنوتة

ويقيني ان النجاح والاقبال مضمونان لابي الوفا وستكون هذه الضمانة خير مشجع له على النظم . وتقديم الاناشيد للملحنين لتلحينها وعزفها في الراديو والحفلات المدرسية والاجتماعات الادبية والجلسات البيتية

في مدينة باريس احدى وعشرون جمعية للموسيقى الدينية

وفي فرنسا سبع مجلات للتورجيا ، تخصص صفحات لموسيقى الكنيسة مقيدة بالنوتة

ولهذه الموسيقى ملحنوها من اكبر الموسيقيين وبينهم شوبان وموزار وبيتهوفن وعازفوها الاخصائيون المشهورون في العالم

وأبواب الكنائس الشرقية والغربية في القاهرة مفتحة الابواب لكل من أراد تذوق حلاوة الالحان الدينية

اهنيء الاخ أبا الوفا،وارجو ان يكون لعمله الفني نصيبه في خدمة الدين عن طريق الموسيقى

« صحافي عجوز »



المغفور لها السيدة الجليلة ياقوت صرّوف



تلال النمل الابيض من رسم فردريك سمث

عن (فصول في التاريخ الطبيعي)



نجم اليابان الطالع

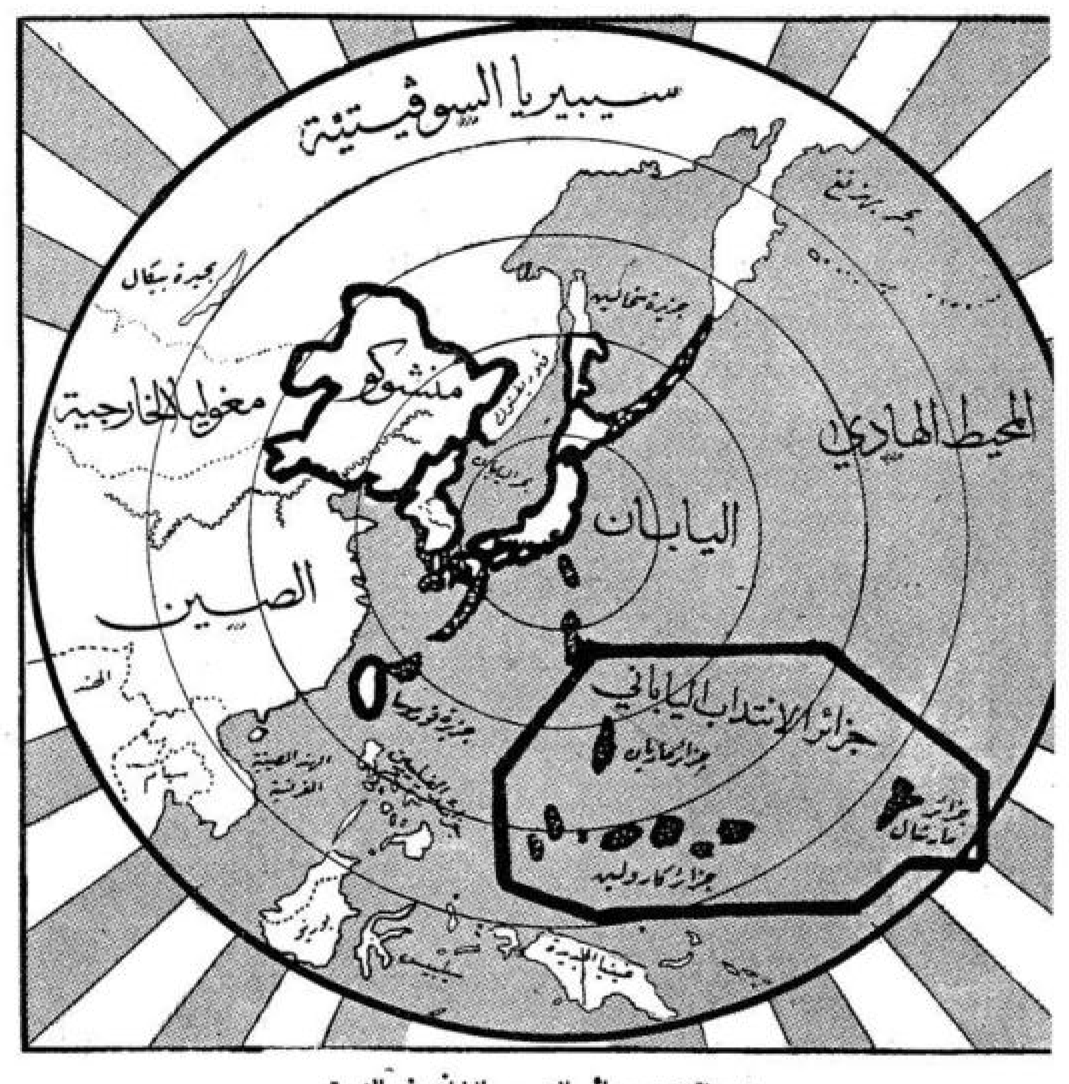
في الشرق الاقصى

١ — طريق منغوليا

٢ — الاتجاه جنوباً

٣ — التغلغل السلمي





خريطة تبين دوائر التوسع الياباني في الشرق الاقصى بحسب مذكرة « تاناكا » المشهورة



عقل الطفل
في تطوره
الاطفال
ضعاف العقول
لفتح الله محمد المرصفي بك
الطفل المتأخر
كتاب نفيس في الصحة والتربية

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الحادي والتسعين